

المؤلفاتُ الكامِلة

المجلد الخامس

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

المؤلفات الكاملة

الحبّ فوق هضبة الهرم
الشيطان يعظ
عصر الحبّ
أفراح القبّة
ليالي ألف ليلة
رأيت فيما يرى النائم
الباقي من الزمن ساعة
أمام العرش (حوار بين الحكام)
رحلة ابن فطومة
التّنظيم السّرّي
العائش في الحقيقة
يوم قتل الزعيم
حديث الصّباح والمساء



مكتبة لبنان ناشرون

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤
رقم الكتاب 01 R 160143
طبع في لبنان

المحتويات

الحُبّ فوق هضبة الهرم

نور القمر

- ١ -

تجربة جنونيّة، انتشر نبضها في زمان الوداع، وانغرست جذورها في طمي النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مهوّمة في الحيّ الرنّان ذي الإيحاءات اللانهائيّة، روض الفرج. اهتدائي إليه مصير حتميّ، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الإسكندريّة أو رأس البرّ. وهناك وجدت مقلّدًا لكشكش بيه، وآخر لبربريّ مصر الوحيد، ثمّ قادتني قدماي - من باب العلم بالشيء - إلى كازينو «الواق الواق» فقضيت سهرة سماع لصوت «نور القمر».

لعلّه أصغر المسارح، يقع في نهاية الخطّ، مرسوم على هيئة سفينة، تطوّق جانبيه أشجار الياسمين والحنّاء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل وسطه صفوف الكراسيّ الخيزران. يقدّم أوّل ما يقدّم تواشيح عريقة، فرقصة شرقيّة، ثمّ يرفع الستار عن «نور القمر» وتختها المكوّن من القانون والعود والكمان والرقّ وأربعة من السنّيدة العجائز.

رفعت إلى المطربة عينين فاترتين، شيء أرعشني كجرس تنبيه، انحصر وعيي كلّه في النظر، لم أسمع من الغناء إلّا أصداء متلاشية، انسحب منّي الماضي وذاب، واتّجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى «الواق الواق» مقصدي كلّ ليلة طوال فصل الصيف، لم أهجره ولكنّه هجرني بانتهاء المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحوّل روض الفرج إلى مرفإ لسفن الغلال.

- ٢ -

من هي «نور القمر»؟ . . .

امرأة ناضجة. تتألّق بأبّهة الأنوثة الكاملة. لعلّها في الثلاثين. تختلف الآراء في تقدير سنّها بحسب الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى مجهولة تعزلها عن الناس في موسم العمل ثمّ سرعان ما تختفي بقيّة العام. جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكنّني - فيما بدا لي - خُصّصت بالهيام بها لحدّ الجنون. ماذا جرى؟ إنّهم منهمكون في الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت منّي - بشراهة - الروح والجسد. ويقول من يدّعون الخبرة:

- صوتها رقيق محبوب . . .

فأقول:

- ولكنّها لا تغنّي إلّا الأغاني القديمة، وفي اعتقادي أنّ أيّ ملحّن معاصر يسرّه أن يلحّن لها . . .

- ولِمَ تدفن نفسها في روض الفرج؟

- من يدري؟

من يدري حقًّا؟ إنّها سرّ مغلق. علمي بها - كالآخرين - محدود جدًّا أمّا هيامي فلا حدود له، على أيّ حال لم أعرف في حياتي الانطواء أو السلبيّة.

- ٣ -

ولكن من أنا؟

من ذوي المعاشات، في الخمسين من العمر، أعزب، ليس بيني وبين المرآة التي تعكس صورتي أيّ

ضيق أو اعتراض. أحبّ الطعام الجيّد، أكول، أُحسن طهي ألوان من الطعام كأمهر الطهاة، ضحوك، صافي السريرة، غير أنّ عزوبتي ركّزت اهتمامي في ذاتي فعلقت بي أنانيّة طفوليّة. كنت ضابطًا بالجيش، أدركني المعاش وأنا صاغ في الخامسة والأربعين من عمري. خدمت في السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمري جامح الأهواء، مغرمًا بالنساء، سيّئ السمعة، في صباي وشبابي خيّبت أمل والديّ، رغم أنّي كنت وحيدهما، بذلا جهدًا طموحًا ليجعلا منّي طبيبًا أو وكيل نيابة ولْكنّني لم أظفر بالابتدائيّة إلّا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربيّة كآخر معقل للأمل كي تجعل منّي شيئًا ما. وكنت بدينًا مفرطًا في البدانة. رمقني ناظر المدرسة الإنجليزيّ بدهشة، كأنّه يتساءل عمّا جاء بي، ولْكنّي أظهرت من البراعة في السباحة والعدو ما سرّه وفتح قلبه لي فقبلني أو أصرّ على قبولي وهو الأصحّ. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربيّة، لا الوطنيّة ولا الروح العسكريّة. غير أنّ الروح تتولّد بطريقة ما، أمّا الوطنيّة فقد تكفّلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت في مظاهرة المدرسة الحربيّة المشهورة وأصابني جنديّ إنجليزيّ بالسونكي في وركي، ولولا العفو العامّ لفُصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء في وظيفة محترمة نوعًا ما. وتخرّجت ملازمًا ثانيًا في نهاية أربعة أعوام دراسيّة، منها عام عقوبة لاشتراكي في المظاهرة. وفي الترام سمعت أحدهم يهمس:

- كلّ هٰذا البدن وملازم ثان فقط؟!...

فهمس آخر:

- إنّه في وزن لواء!

وكان اللواءات في تلك الأيّام ذوي كروش وبدانة، تحسبهم قصّابين لا عسكريّين. ومات والداي، وامتدّت خدمتي خمسة وعشرين عامًا، ثمّ أدركني المعاش فوجدت نفسي ضخمًا وحيدًا ضائعًا يعيش في زنزانة انفراديّة في صورة شقّة. رسمت خطّة لإنقاص وزني فصرت مقبولًا، وفترت بهجة الطعام والنساء، وكان الشّعر يستهويني فقرّرت أن أتّخذ من حافظ إبراهيم مثالًا على نحو ما، وشغلت وقت وحدتي بالقراءة في شتّى المعارف الدنيويّة والدينيّة، وبتّ من روّاد قهوة الماليّة - قهوة أصحاب المعاشات - ألعب النرد والدومينو وأتكلّم في السياسة، وأعلّق على الأحداث، أفلسفها مستعينًا بثقافتي المتنامية، ثمّ أنضمّ لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتي فاقترحوا عليّ أن أتزوّج.

- الخمسون مقبولة، صحّتك جيّدة، لم تشب شعرة واحدة في رأسك بعد، والجنس يعيش في مثل هٰذه الظروف حتّى آخر العمر...

فكّرت في ذٰلك باهتمام فاق تصوّري، ولٰكن ثبط همّتي أنّ ظروفي لن ترشّحني إلّا لامرأة يائسة وقد أبيت ذٰلك. الحقّ أنّي اعتدلت في شهواتي، ربّما كردّ فعل لما سبق، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعي في القهوة، ونادرًا ما وجدت الدافع القويّ لمطاردة إحداهنّ. أصبح لهنّ في قلبي أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيّين، حتّى اقتادني مصيري المحتوم إلى «الواق الواق».

- ٤ -

عرفت الحبّ لأوّل مرّة في حياتي. إنّه كالموت تسمع عنه كلّ حين خبرًا ولٰكنّك لا تعرفه إلّا إذا حضر. وهو قوّة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أيّ قوّة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبّ الجنون في جوفه حتّى يطفح به. إنّه العذاب والسرور اللانهائيّ. تلاشى شخصي القديم تمامًا وحلّ محلّه آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينقضّ على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟».

إنّها تغنّي وصلتين ثمّ تختفي حتّى مساء اليوم التالي. لا تُرى إلّا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قطّ. الراقصة وجوقتها يفعلن ذٰلك، ويسعين إليه، أمّا هي فما إن تفرغ من الغناء حتّى تتلاشى في الكون. وإنّي رجل في الخمسين، محدود الدخل، لا جاه ولا مركز. لا قدرة لي على حيازتها، ولا أدري إن كانت تقبل علاقة عابرة، أمّا ابتغاء الرضى والحبّ فما أبعده عن

تصوّر مَن كان في مثل سنّي وحالي، وأمّا الزواج فماذا يعني لها إن لم يعنِ الأبّهة والرفاهية؟!

أشار عليّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسي المعذّبة، ولكن ليس للعقل صوت يُسمع في ضجّة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كلّه أن يتحوّل خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم في دنيا الحبّ المترعة بالأسرار، يخاطب بأنينه المجهول، ويجدّ في البحث عن لا شيء في كلّ شيء، في ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطّت نور القمر على حياتي وحياة الكون من حولي...

- ٥ -

وفي بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهّر ولو كان في الأصل غليظًا مشبعًا بالإثم. وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لي أن أعرف الشجى، وأترنّم بألحان الأسى.

مضيت أنسحب برفق من جوّ أصحاب المعاش، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت نور القمر وجداني واستأثرت بوعيي. أبيت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجّع نفسي وأضرب لها الأمثال من ماضيّ. استهتاري الفائق، ومغامراتي الجريئة، واقتحاماتي المذهلة. عبدت دائمًا ما أهوى وأريد واستهنت دائمًا بالتقاليد والسمعة والقيل والقال. وموقفي يوم المظاهرة المشهورة هل يُنسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفنا بالإضراب، ولّما وجدنا تردّدًا أطلقت رصاصة في الهواء! وتحدّيت بدانتي فكنت أعدو بسرعة الريح كأنّي برميل بخاريّ. محال أن أتقاعس يا نور القمر...

- ٦ -

وصمّمت ذات ليلة، سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادني الهوى وصبحت عليل

ثمّ غادرت مجلسي ماضيًا إلى الباب الخلفيّ للكازينو. اعترضني البوّاب فقلت بكبرياء:

- أعرف طريقي!

سرعان ما جاءني الجرسون حمّودة مبتسمًا متسائلًا:

- أيّ خدمة يا بيه؟

- حمّودة، أرغب في مقابلة نور القمر لأهديها إعجابي.

- الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق.

- ولكنّي أريد أن أقدّمه بنفسي.

- ممنوع.

فتساءلت بحدّة:

- مَن صاحب هذا الأمر السخيف؟

- أصحاب الشأن في الكازينو، ما أنا إلّا عبد مأمور...

- ولكن لماذا؟

- لا أدري يا سيّدي، جميع الزبائن يعرفون ذلك...

فقلت بعجرفة:

- ولكنّني سأدخل...

فقال بتوسّل يليق بزبون دائم مثلي:

- أرجوك يا بيه...

- على مسئوليّتي!

- هناك سنجة الترام!

أفقت من غضبي. سنجة الترام هو فتوّة المحلّ وحاميه. لا قبل لي به فضلًا عن أنّني في الخمسين من العمر، تراجعت متسائلًا في استنكار:

- لهذا الحدّ؟

- أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب!

تنهّدت لأروّح عن غيظي، وقلت له:

- إذن فعليك أن تبلّغها إعجابي...

فقال بأسف:

- ولا هذا!

- أمر غريب حقًّا!

- ما باليد حيلة...

- لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها؟

فقال وهو يحني رأسه:

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك!

ـ ٧ ـ

إنْ هي إلّا جولة خاسرة ولٰكنّها ليست كلّ شيء. الطريق طويل والزمن طويل. ها هو صوتك الحنون ينسرب إلى أعماقي معطّرًا بالفتنة وليس بيني وبينك إلّا خطوات. لو كان لي أنف كلب لشممت أنفاسك. لو كان لك قلب لركّزت بصرك على عابدك. ولو أعيتني السبل المادّيّة في الوصول إليك فثمّة قوّة الحبّ ستصنع معجزة فائقة للعقل في الوصول إليك هازئة بأعين الحرّاس. في تلك الليلة تعمّدت التأخير حتّى استقللت الترام الأخير، واخترت مجلسي إلى جانب الجرسون حمّودة، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعدّ الرجل للحديث المتوقّع. ولّما غاص الترام في الظلام شاقًّا طريقه بين الحقول تساءلت:

ـ ما معنى هٰذا يا حمّودة؟

ـ تسأل عن نور القمر؟... هٰذا هو الواقع...

ـ أهي سيّدة مصونة حقًّا؟

ـ هي كذٰلك فيما نرى...

ـ وما السرّ؟

ـ لا علم لي به.

ـ يوجد سرّ ولا شكّ.

ـ علمي علمك.

ـ إنّك تعرف السرّ ولٰكنّك تمكر بي.

ـ صدّقني، ليس عندي أكثر ممّا قلت.

ـ هل تؤمن بالخرافات؟

ـ إنّها حقيقة لا خرافة.

ـ هل تصدّقها؟

ـ فلنسلّم بأنّها شاذّة، ما الفائدة؟

ـ عندك تفسير لها؟

ـ لا أشغل نفسي بالتفكير في ذٰلك.

ـ وراءك أشياء ولا شكّ؟

ـ أبدًا، صدّقني...

ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

ـ كما ترى فإنّي أذهب قبل ذٰلك حتّى لا يفوتني الترام الأخير.

ـ بأيّ وسيلة تذهب هي؟

ـ ربّما تاكسي، حنطور المدير موسى القبلي، فورد صاحب الكازينو حفني داود، من يدري؟

ـ الآن فهمت...

ـ ماذا فهمت يا سيّدي؟

ـ إنّها عشيقة أحد الرجلين!

ـ الله وحده يعلم.

ـ ألا يعرف أحد شيئًا عن سيرتها الخاصّة؟!

ـ نحن نتجنّب الفضول حفظًا على رزقنا...

ـ أين تسكن المرأة؟

ـ لا أدري...

فتنهّدت وقلت بنبرة اعتراف:

ـ حمّودة، أنت تدرك ولا شكّ ما وراء أسئلتي الملحّة؟

ـ أجل يا بيه.

ـ والعمل؟

ـ ما باليد حيلة... النساء كثيرات... وكلّهنّ في النهاية طعام واحد...

أهديت إليه سيجارة، غمزته ببريزة، ولٰكنّه قال:

ـ إنّي لا أخدعك، وليس عندي مقابل!

ـ حمّودة!

ـ صدّقني، لقد وقع في هواها عمدة صعيديّ واسع الثراء، ولٰكن ماذا أفاد؟

فهتفت بغيظ:

ـ إنّ ملكة مصر أيسر منالًا من ذٰلك...

ـ هٰذا هو الواقع...

وتفكّرت مليًّا ثمّ سألته:

ـ سنجة الترام رجل قويّ، هل يمكن الاستعانة به؟

ـ لا أدري، جرّب إن شئت...

حقًّا إنّ مجرّد الاتّصال به مهانة ما بعدها مهانة ولٰكن ما الحيلة؟ سألته:

ـ هل تساعدني في ذٰلك؟

ـ إنّه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب...

ازددت امتعاضًا وأنا أسأل:

ـ أين؟

ـ قارب شراعيّ. . .

ـ ممكن تمهّد لي السبيل باعتباري من أصحاب المزاج؟

ـ هٰذا ممكن. . .

ـ ٨ ـ

لم أكن يومًا من أصحاب المزاج. إنّي من أصحاب الأمزجة الفوّارة التي لا تتلاءم مع المخدّرات. وقد دخّنت مرّة البانجو في السودان وسرعان ما غشيني النوم فتوكّد نفوري من المخدّرات. وفي مثل الحال التي أنا مقبل عليها بوسعي أن أمثّل وأن أتجنّب التدخين الحقيقيّ. ما العمل وجنوني يستفحل؟ لقد ضاعت منّي نفسي. جعلت أنظر إليها ـ كغريب ـ بعين الرثاء والأسى. وهان عليّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام. وهو ربعة متين البنيان ضخم الرأس والوجه، في جبينه ثلاث ندبات وفي أنفه اعوجاج، واسع الأشداق كأنّه من أكلة الأحجار. وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها ـ مع الإكرام ـ تستهلك خمسين قرشًا، وهو قدر لا يستهان به مع الاستمرار الذي يقتضيه توثيق العلاقة.

تسلّلت إلى القارب فصافحني على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم:

ـ أهلًا. . .

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول:

ـ مساء الخير يا معلّم سنجة. . .

وانغرست على جانب وسط تكتّل من الأوباش. وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبًا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشعه أضواء النجوم كالهمسات. لعلّهم من تجّار الغلال والبصل، ينكّتون ويقهقهون بفظاظة. ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء، ولاطفتنا نسائم معطّرة برائحة النيل. ورغم حذري ثقل رأسي، وناء قلبي بالحزن. ومن حسن الحظّ أنّ أحدًا لم يهتمّ بأحد فلم أضطرّ إلى الخروج من صمتي وأفكاري. وعند الوراق غادرنا البعض، وانفضّ السامر عند الفجر.

ـ ٩ ـ

وثّقت المساهرة بيني وبين سنجة الترام. مساء الخير يا معلّم سنجة، مساء الخير يا أنور بيه. دعوته للغداء عند الدهّان فدعاني للغداء في المذبح. وجدتني أندمج في أوساط البلطجيّة وتجّار المخدّرات. أرهقني الخزي والحزن، عجبت لتدهوري، وكيف ساقني إليه أنقى وأصدق عاطفة شدّا بها قلبي. أجل طالما تحدّيت التقاليد والحرص على السمعة الطيّبة، ولٰكنّ عربدة العشّاق شيء ومخالطة الأوباش شيء آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلّا في النادر. وخمّن الصحاب أنّ في الأمر امرأة ولٰكنّهم لم يتصوّروا أيّ امرأة تكون، ولا أيّ تدهور دُفعت إليه بيد حبّها الناعمة، وطبعًا كتمت سرّي حتّى لا أكون حديث الجادّ والساخر. كذٰلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أنّ بعض الشِّعر الذي سبقّت لي معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدّى بحسن جديد وتفجّر عن قوى جديدة فأدركت أنّ جمال الشعر لا يكمن في ألفاظه وموسيقاه وصوره ولٰكنّه يكمن قبل كلّ شيء في القلب البشريّ.

وفي تلك الفترة من حياتي زارتني عمّتي نظيمة، أرملة في الستّين، بكريها مهندس مقاول قدّ الدنيا، وشقيقه موظّف دبلوماسيّ في سفارتنا بالحبشة. قالت:

ـ انقطعت عنّي منذ مدّة ولٰكنّي لا أنساك. . .

فلثمت خدّها النحيل ممتنًّا، وجعلت تتفحّصني باهتمام أثار قلقي، ثمّ تساءلت:

ـ حتّى متى ترضى بهٰذه الحياة المقفرة؟

أدركت أنّها تعود إلى موضوعها المفضّل وهو «الزواج» فقلت:

ـ اعتدت يا عمّتي العزوبة. . .

فقالت بحرارة:

ـ عادة سيّئة، ضدّ مشيئة الله.

ـ كلّ شيء بمشيئة الله يا عمّتي. . .

احتست الشاي وهي تفكّر ثمّ قالت بنبرات جديدة تمامًا:

ـ أنور. . . حدّثني حمدي حديثًا لا يصدّق. . .

حمدي مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبي وتساءلت:

- ماذا؟

- قال إنّك تصاحب قومًا ليسوا من أصلك ولا مستواك!

فزعت. هل تتفشّى الأسرار بهٰذه القوّة؟ قلت مدافعًا:

- كلّنا أولاد حوّاء وآدم...

- ولٰكنّهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأتْ في وجهي ولا شكّ تحرّجي وضيقي فقالت برقّة:

- أردت أن أحذّرك فسامحني...

- ١٠ -

تألّمت ولكنّي لم أبالِ. عزمت على مزيد من الخطوات المسدّدة. ها هو سنجة الترام يتردّد على شقّتي في المنيرة رافعًا الكلفة. يتناول الطعام أحيانًا، وأحيانًا يضطجع نائمًا، ومرّات أودَعَ عندي حشيشه بعيدًا عن أيّ مظنّة. أصبح البيت بيته ابن القديمة، وحمت حوله متحيّنًا الفرص. آنس إليّ فروى لي قصّة حياته منذ نشأته في سوق الزلط، معاركه، سجنه، بلاءه في ثورة ١٩١٩، حتّى اختير فتوّة لكازينو «الواق الواق».

- موسى القبلي هو الذي اتّفق معي...

- المدير؟

- نعم.

فقلت بمكر:

- يقال إنّه قريب لنور القمر.

- كلام فارغ...

- بذٰلك يفسّرون عزلتها الغريبة...

- سكارى وأغبياء...

- أصل عزلتها تثير القيل والقال!

- إنّها حرّة تفعل ما تشاء...

- تعني أنّها هي التي ترفض المؤانسة...؟

- علمي علمك، ما يهمّني أنّني مكلّف بإبعاد مَن تحدّثه نفسه، بالاقتراب منها...

- بلا علم بسبب ذٰلك؟

- ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلًا متنكّرًا في صورة امرأة، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو، ماذا يهمّ؟ من حسن الحظّ أنّني لا أرغب فيها...

وضحكنا طويلًا، ثمّ سألته:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنت أقتحم الحارس والمحروس!

فقلت بدهاء:

- ظننت أنّ الأسرار لا تغيب عن رجل مثلك؟

- الأسرار التي تهمّني فقط.

- ألست صديق المدير وصاحب الكازينو؟

- لك أن تعتبرني صديق الجميع، ولك أن تعتبرني بلا أصدقاء!

وكنت عرفت من طبعه أنّه لا يطيق سماع ثناء على أحد فقلت:

- يبدو أنّ المدير رجل محترم!

فقال ساخرًا:

- ما هو إلّا قوّاد.

- قوّاد؟!

- صاحب بيت دعارة!

انبهر رأسي بضوء فوسفوريّ مباغت. هل يستغلّ نور القمر بطريقة محنّكة؟ يا لخيبة الأمل إذا لم تكن المرأة إلّا مومسًا؟! ولٰكن حتّى هٰذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد في قلبي، بل لعلّه أرثها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتّى دار رأس سنجة ورقص الانسجام في مخايله فسألته:

- ما رأيك في سهرة في بيت موسى القبلي؟

فقال بازدراء:

- أعوذ بالله!

- من باب العلم بالشيء؟

- ولٰكنّك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكًا:

- لست إلّا أعزب!

- أعوذ بالله!

ثمّ مستدركًا:

- وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسي بأسى «حقًّا ينقصني النصف الآخر»...

- ١١ -

قلت للجرسون حمّودة وأنا أغمزه ببريزة:

- دلّني على بيت موسى القبلي...

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينيه، قال:

- بريزة أخرى...

فأثنيت في سرّي على صدق فراستي.

- ١٢ -

البيت في أوّل شارع مهران السندي المتفرّع من شارع دوبريه، شقّة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة، كأنّها خالية. قدّمني حمّودة إلى موسى القبلي فتلقّاني بوجه ودود غير الوجه الذي يدير به الكازينو. وقلت لنفسي من بلطجي إلى قوّاد يا قلبي لا تحزن. أمّا هو فقال بلا حياء:

- جنيهان من فضلك...

دفعتهما بلا تردّد فقال:

- آخر حجرة في الدهليز، هل تريد شرابًا؟... زجاجة الأوتار بجنيه واحد...

اللصّ!... إنّها في السوق بثلاثين قرشًا. قلت معتذرًا:

- ربّما في المرّة القادمة.

فقال بشيء من الفتور:

- الهدوء هنا مهمّ جدًّا!

- ١٣ -

كم لعب الأمل بقلبي أن أجدها عقب فتح الباب ولٰكنّ المعجزة لا تقع بمثل هٰذه السهولة. ها هي امرأة أخرى لا رغبة لي فيها. تنضمّ إلى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية في العدم واللامبالاة. وقرّرت أن أحوز ثقة موسى القبلي ورضاه. كما فعلت مع حمّودة وسنجة الترام. وسطاء سوء ولٰكن بيد أحدهم مفتاح الكنز. مثل هٰذا العناء تكابده الشجرة حتّى يتمخّض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.

واقترحت عليه - موسى القبلي - في المرّات التالية أن أشاربه في حجرته الخاصّة قبل الذهاب إلى حجرتي المقسومة. انبسط واعتبر ذٰلك تحيّة فريدة. وذات ليلة قال لي:

- علمت أنّك من زبائن «الواق الواق»؟

- ألم تقع عيناك عليّ؟... طالما رأيتك وأعجبت بإدارتك؟

- الأمر مختلف غير أنّ وجهك بدا لي غير غريب وأنت تطالعني هنا لأوّل مرّة...

شجّعته على الشراب، وقلت:

- إنّي أشرب في اعتدال لأسباب صحّيّة!

- لكنّها مفيدة للصحّة!

فقلت ضاحكًا:

- الأمر مختلف!

- موظّف؟

- على المعاش.

- لكنّك ما زلت في طور الرجولة؟

- الضابط يحال على المعاش في أيّ سنّ...

- كنت ضابط جيش؟

- كنت!

فضحك عاليًا وقال:

- حلمت في صغري بأن أكون ضابط شرطة...

- مصيرنا في الحياة لا تتحكّم فيه رغباتنا...

وهو يضحك مرّة أخرى:

- على أيّ حال فعملي ذو علاقة وثيقة بالشرطة!

- فال الله ولا فالك.

- متزوّج؟

- كلّا.

- يندر أن يجيء أحد في سنّك...

فقلت ساخرًا:

- الحياة دائمة التقدّم.

- وكيف عرفت بيتي؟

- صاحب الحاجة مستكشف...

- حمّودة؟

- نعم.

- رجل غاية في الفطنة...

فرميت سهمي الأخير قائلًا:

- وقف مصادفة على سرّ شغفي بنور القمر...

رفع حاجبيه الخفيفين وقال:

- أنت من عشّاقها؟

فحنيت رأسي لبلوغي آخر الأبواب وانتظرت الفرج غير أنّه قال:

- لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد...

- ولٰكنّ الشغف سبق اكتشاف عزلتها...

- لا تهتمّ بالممتنع، عندي مَن هنّ خير منها!

يا للداهية!... هل خاب المسعى أيضًا؟!...

وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد...؟!

- ١٤ -

وسألني سنجة الترام:

-كيف تطيق هٰذه الوحدة؟

كان قد فرغ من قدح الشاي الرابع فاسترخت جفونه من السطول، أجبته:

- العادة أقوى من الوحدة...

- وهل يليق بمثلك التردّد على بيت دعارة؟

فلم أحر جوابًا أمّا هو فقال:

- اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك...

فضحكت وقلت:

- إنّي الأعزب الأبديّ يا معلّم سنجة...

فقال بصراحة مخيفة:

- عندي بنت مطلّقة...

لطمني قوله كنذير حريق أمّا هو فواصل:

- بنت ممتازة، هديّة، أوقعها سوء الحظّ في رجل لا قيمة له.

ما توقّعت أن أتعرّض لغضبه قطّ. لعنت في سرّي الزمان والمكان. قلت:

- يلزمني تفكير طويل فالتخلّي عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهيّن...!

- ١٥ -

بات الخطر تحتي تمامًا مثل ظلّ منتصف النهار، انسحِبْ من التجربة كلّها قبل أن يدهمك القضاء، هٰكذا حاورني عقلي. ولٰكنّي كنت أحلم بالنجاة وأنا أتدحرج نحو الهاوية، لم تعد قوّة بقادرة على صدّي. الحبّ المستبدّ الذي لا قاهر له. ذٰلك الغول الذي تغنيه فريسته عن المطاردة. الحلم الذي يزري بكافّة الأحلام ويحوّلها إلى نفاية. لم أنقطع عن موسى القبلي جريًا وراء المزيد من الأمل والعرفان. ولّما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال:

- بيتي محترم، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع.

ابتسمت موافقًا فتساءل:

- ما رأيك في فتياتنا؟

فقلت بإصرار:

- اعترفت لك بأنّي مشغوف بالغناء!

- نور القمر؟

- هو الحقّ.

- أنت رجل غريب...

- ألم تحبّها أنت؟

- كلّا... والحمد لله...

- الحمد لله؟!

- لو بدرت منّي حركة واحدة تنمّ عن ميل لفقدت عملي في الحال...

- إذن فهو حفني داود صاحب الكازينو!

- ماذا تعني؟

- هو العاشق الغيور...

- إنّه عجوز ذو وجه قرد...

- ذٰلك أدعى للغيرة...

- صدّقني إنّني أتجاهل الأمر كلّه...

- ولٰكن عندك أفكار ولا شكّ...

- ليكن عاشقها أو أباها... من يدري؟!

- هل...

- هل؟!

- هل يعجز مثلك عن مساعدتي؟

- ولِمَ أكدّر صفوي ومستقبلي بسببك؟

- كصديق...

ولٰكنّه قاطعني بجفاء:

- ما أنت إلّا مغرض!

- لا تسئ بي الظنّ...

- لا تحاول إقحامي في هٰذا الأمر، لا تكن انانيًا،

غامر بنفسك إذا شئت وإلّا فاصرف النظر...

فقلت بحرارة:

- أقدّم لك الأسف والاعتذار!

مضيت أشاربه دافنًا همّي في الصمت، ومضى يذوب في النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثمّ سألني:

- هل أغضبتك؟

- الحقّ لا يُغضب، ولٰكن كيف عرفت حفني داود؟

- كان ناظر مدرسة أهليّة وكنت كاتب حسابات عنده، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها اضطرّ إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدّم مشروع «الواق الواق» وضمّني إليه مديرًا...

- ومتى عملت نور القمر عنده؟

- من أوّل ليلة، لعلّه لم يقم بالمشروع إلّا من أجلها...

- وهو الذي فرض عليها العزلة؟

- على الأقلّ هو الذي أصدر الأوامر إلينا...

- أتصوّر أنّها تجيء معه وتذهب معه...؟

- في الفورد...

- لا شكّ أنّه أصبح ذا مال؟

- أعتقد ذٰلك...

لم أهدر الوقت سدى كما توهّمت، لقد أثريت بمعلومات مفيدة، وتحدّد سبيلي كما لم يتحدّد من قبل. ولن أقطع صلتي بموسى القبلي مداراة لنواياي الحقيقيّة...

- ١٦ -

واقتحمني سنجة الترام بزيارة توقّعتها وخشيتها. وكنت قد تجنّبت الانفراد به لعلّه يدرك موقفي من اقتراحه ولٰكنّه كان مدمن بلطجة، معتادًا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء، وبتخلّي البشاشة عن قسماته أسفرت عن دمامتها وندرها. تساءل:

- ماذا جرى؟

إنّه يتساءل عن سرّ تباعدي رغم وضوحه فيضطرّني إلى اختلاق المعاذير. قلت:

- ليس المزاج على ما يرام!

فقال بقحة:

- هٰذه عاقبة التردّد على بيت قوّاد!

فقلت باستياء:

- ليس الأمر كذٰلك...

فسأل ببرود:

- متى تفي بوعدك؟

- أيّ وعد يا معلّم؟

- ألم نقرأ الفاتحة؟

حملقت فيه بذهول فقال:

- قُرئت بالقلب، أم وجدتنا دون المقام؟!

- أستغفر الله، المسألة بالنسبة لي قفزة خطيرة...

فقال وهو ينهض:

- أم وجدتنا دون المقام!

غادرني مضطربًا. كلّا. لم أعرف الجبن في حياتي، ولا كنت ممّن تعرقلهم الخشية على حسن السمعة. لٰكنّي شعرت بأنّني مقبل على عاصفة أو أنّ عاصفة مقبلة عليّ، وحتّى هٰذه اللحظة فالنجاة ممكنة. ممكن أن أسدل بيدي ستارًا على روض الفرج وبيت موسى القبلي وقارب سنجة، ثمّ أرجع إلى روتين حياتي السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة الماليّة. هٰذا ممكن نظريًّا ولٰكنّه مستحيل في الواقع. الواقع أنّني فريسة جنون طاغٍ يلفظ كافّة قيم الحياة، ويتركّز في هدف واحد. ذاك يدفع بي في شبكة من العلاقات المذهلة، والأخطار المحدقة، ويفتح لي طريقًا واحدًا إلى مصير محتوم.

- ١٧ -

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلي. قال وهو يتفحّصني:

- لعلّك شفيت من حبّك؟

فهززت رأسي نفيًا قال:

- إنّه أمر مضحك وعجيب...

- هل عندك نصيحة؟

- ألأنت غنيّ؟

- كلّا...

ـ هٰذا يعني ضياع ٩٠٪ من الأمل. . .

ـ لا مؤهّلات من مال أو شباب!

فقال بدهاء:

ـ ثمّة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

ـ يخيّل إليّ أنّك لم تعرف الحبّ يا موسى؟

ـ هٰذا حقّ.

ثمّ مواصلًا بقحة:

ـ الحقّ أنّني لا أحبّ النساء، لذٰلك أتعامل معهنّ بمهارة فائقة!

تفكّرت مليًّا في معنى قوله، ثمّ سألته:

ـ أترى حالي ميئوسًا منها؟

ـ حدّثني أوّلًا عن حبّك؟

ـ ماذا أقول؟ إنّها تفرض ذاتها على وجداني وخيالي، أقوى وأعزّ من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما إنّه لا غنى للحياة عن أشعّة الشمس. . .

فضحك على رغمه وقال:

ـ ما أعجب هٰذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة. . . !

ـ نحن نعرف معنى الأسْر أكثر من غيرنا.

فضحك مرّة أخرى وقال وقد ثمل:

ـ منظرك ضخم لا يثير الرثاء أبدًا!

فغضبت وقلت له موبّخًا:

ـ سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دقّ جرس الباب الخارجيّ. . .

خفّ مسرعًا مغادرًا الحجرة. ترامت إليّ ضجّة مريبة، قمت إلى باب الحجرة وأخرجت رأسي إلى الدهليز. رأيت مجموعة تتدفّق من رجال الشرطة والمخبرين!

ـ ١٨ ـ

لم أشعر ـ من قبل ـ بمثل الذعر الذي اجتاحني، تجسّد لي وجه سنجة الترام وراء الكبسة. انقضّ عليّ مخبر فقبض على أعلى الجاكتة، صكّني بكوعه في صدري، وهو يقذفني بوابل من الشتائم. اجتيحت الحجرات، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا. من حسن الحظّ أنّني لم أضبط متلبّسًا ولٰكن أيّ حسن حظّ. حاولت أن أهمس بهويّتي في أذن الضابط ولٰكنّ المخبر أرجعني بلكمة في عنقي. انغمست في العار حتّى القمّة. دُفعنا إلى السيّارة كخراف تُشدّ إلى الذبح.

وصلنا إلى القسم وقد استلّ منّي الإحساس والفكر. وكان تحقيق مهين. حُجزت النساء، وموسى القبلي، وحُرّرت المحاضر للرجال ثمّ أُفرج عنهم. غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويّتي. غادرت القسم شخصًا جديدًا عاريًا تمامًا!

ـ ١٩ ـ

ذُكرت الحادثة في صفحة الحوادث الصباحيّة. لم تعلن أسماء ـ عدا موسى القبلي ـ وقيل عنّي «وضابط جيش متقاعد في الخمسين من عمره!». خيّل إليّ أنّه إعلان كافٍ لفضحي في محيط الأسرة وفي قهوة الماليّة. انزويت في شقّتي بالمنيرة غارقًا في القرف. طالت لحيتي وأهملت نفسي تمامًا. على تلك الحال زارتني عمّتي، وأكّد لي قلبي بأنّ صهرها أخبرها بكلّ شيء. أقنعتني ـ ما وسعها ذٰلك ـ بأنّ زيارتها عاديّة. سأصبح حديث الأسرة المحترمة. أبناء عمّتي وعمّي وخالي أناس محترمون حقًّا، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت. لا يحبّني في أسرتي أحد إلّا عمّتي. ها هي تعود إلى حديثها المفضّل «الزواج».

ـ لا تكن عنيدًا. . .

حدجتها بارتياب فقالت:

ـ أهملت نفسك أكثر ممّا يتصوّر العقل. . .

فضحكت ضحكة متكلّفة وتساءلت:

ـ ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبيّة وتمتمت:

ـ تصوّرا

ثمّ اغرورقت عيناها، وقالت:

ـ إنّك صورة طبق الأصل من أبيك، لك منزلة في قلبي لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتي!

ـ ٢٠ ـ

لم أفد من الدرس ما يتوقّعه العقلاء. قلت إنّ الجنون حقًّا هو الرجوع بعد ما كان. تخفّفت من البقيّة

الباقية من الحياء فمزّقت أثوابي. من الآن وإلى الأبد سأنتمي إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعيّ للجنون والسفه وخمر النزق المعتّقة. الحياة لا تتكرّر والحبّ أغلى جوهرة في تاجها. وفي سبيل الجنون المقدّس تستحلّ كلّ حماقة. اقتلعت نفسي من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خفّ وزني تمامًا وبتّ قادرًا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامي نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى.

وهداني الصوت الخفيّ إلى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمّودة الجرسون:

- سيسجن موسى القبلي فهل يمضي الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقني بانتباه:

- هٰذا ما يشغل حفني بيه في هٰذا الوقت...

فقلت بهدوء:

- إنّي أرحّب بهٰذا العمل!

- أنت؟!

- نعم أنا، أم لا؟

فتردّد متفكّرًا فقلت:

- قدّم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئنّ!

فقال حمّودة بارتياب:

- إنّي أخمّن الدافع وراء ذٰلك...

- إنّي أعرف الأصول!

- لدى أيّ خطأ تتورّط فيه فسأُعتبر بالتبعيّة متورّطًا فيه ومسئولًا عنه وأخسر رزقي!

- لا تخشَ شيئًا من هٰذه الناحية.

- ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

- كلّا...

- إذن لماذا ترغب في هٰذا العمل؟

فقلت باسمًا في ثقة وإخلاص:

- ربّما لأعمل في رحابها...

- ٢١ -

دعاني حمّودة ذات ليلة لمقابلة حفني داود صاحب كازينو «الواق الواق». وجدته وراء مكتب صغير وأنيق في حجرة تطلّ بنافذة على النيل، استقبلني بوجه محايد، وراح يتفحّص هيكلي الضخم بلا انفعال. كان عجوزًا في السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه. شعره الفضّيّ مفروق وممشّط بعناية، كذٰلك شاربه. أشار إليّ فجلست على أحد مقعدين جلديّين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر في صمت مليًّا ثمّ سألني:

- اسمك؟

- أنور عزمي.

- أأنت ضابط جيش متقاعد حقًّا؟

- أجل...

- وترغب في العمل مديرًا للكازينو؟

- نعم...

- ما الذي دفعك إلى ذٰلك؟

قلت ضابطًا مشاعري تمامًا:

- الفراغ فتّاك، ثمّ إنّني محدود المعاش!

- أتراه عملًا مناسبًا؟

- لِمَ لا؟... وهناك سبب آخر أن أحتفظ به لموسى القبلي لحين خروجه من السجن!

- صديقه؟

- نعم...

- ولٰكنّ العمل يحتاج إلى خبرة خاصّة؟

- أكثر مدّة خدمتي في الجيش انقضت في الفروع الإداريّة فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات...

- العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكريّة؟

- لا تنقصني اللباقة!

وساد الصمت مرّة أخرى ثمّ قال:

- لا بأس من تجربتك، ولٰكن اعلم أنّ أهمّ واجباتك أن تمنع المتطفّلين عن نور القمر...

- عليّ الإقناع وعلى سنجة القوّة عند اللزوم!

- عظيم...

ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمرآي، فقال له حفني داود مشيرًا إليّ:

- أنور عزمي المدير الجديد، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلي.

- ٢٢ -

لي مجلس خاصّ بمحاذاة المسرح. وإلى جانب النسبة المئويّة التي تشكّل مكافأتي عليّ امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء. عملي الأساسيّ المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدّي لأيّ خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمّة المقدّمة على غيرها وهي صدّ المتطفّلين عن نور القمر.

ولكن ماذا فعلت بنفسي؟

أظنّ يحسن بي أن أدفن هٰذا السؤال وأمثاله. عملي أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردّد على بيت موسى القبلي، أو موقفي في القسم. فلتدر أسئلتي حول الحبّ نفسه فهو السرّ الجدير بالبحث والفهم حقًّا. على أيّ حال فأنا لم أقع في هوى امرأة عاديّة. جمالها الفائق معترف به من الجميع. وهي تتبدّى في هالة من الغموض المثير للفضول. تحدق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال. ولكن هل اقتربت منها حقًّا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب المادّيّ. فها أنا أعمل لحساب حارسها الأخير، أقابله يوميًّا، أتلقّى تعليماته. أقدّم له الحساب. إنّي أتحرّك على بعد خطوات من استراحتها الخاصّة. سألتقي بها ذات مرّة، في حجرة حفني داود أو في الممشى وراء الكواليس. ولكنّ شيئًا من ذٰلك لم يحدث بعد. لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس. كأنّي بذلت ما بذلت وضحّيت بما ضحّيت لأصل في النهاية إلى القرد العجوز. وإلى هٰذا كلّه جعلت أرقب سنجة الترام بحذر، وأخاف جانبه. وقد أعطاني حقّي وزيادة. بل سألني مرّة:

- ألم تحنّ من جديد إلى قاربنا الشراعيّ؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت:

- ستجمعنا الأيّام بإذن الله...

لا شكّ أنّه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدني - نتيجة لها - مديرًا عليه! ولا خطر ببالي أنّ عملي الجديد سيبعدني عن نور القمر خطوة بدلًا من أن يقرّبني منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقدّمة الصفوف وفي مواجهتها، أتملّى طلعتها البهيّة طيلة الوصلتين، وأسبح في تيّار أنغامها المنسرب، أمّا الآن فلا أراها إلّا من زاوية جانبيّة، ويشغلني العمل كثيرًا عن التركيز في عذوبة الصوت، وأسير أحيانًا في الممشى الفاصل بين جانبي الصالة كأنّما لأتفقّد النظام، وفي الحقيقة لأملأ عينيّ منها، وبأمل أن ألفت عينيها إلى عابدها المعذّب ولٰكنّها كانت تهيم في النعمة ولا ترى السامعين. وبات عزائي الوحيد أنّني أنتمي إلى العالم الغامض المنوّر بنور القمر...

- ٢٣ -

ثمّة علاقة عجيبة بين حفني داود ونور القمر، ما هي؟ هو الذي يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التي لا يجوز تخطّيها، وهي تجيء وتذهب، تغنّي وتسكت، تنزوي وتصمت، بإملائه وتوجيهه، فأيّ قوّة خفيّة يملكها هٰذا العجوز القرد؟! وإلى هٰذا كلّه فهي تتبدّى هادئة وسعيدة، لِمَ لا؟ ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرّد، وهو ليس أباها فالقرد لا ينجب ملاكًا، وليس زوجها وإلّا لعُرف ذٰلك على أوسع نطاق، ولا يتصوّر أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه، فما سرّ هٰذه العلاقة العجيبة؟! وهبه ثريًّا فما قناعته بهٰذا المسرح الصيفيّ، لِمَ لَمْ يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكّل هٰذا الوجه الآخر لسيطرتها هي عليه؟! هٰذا مؤكّد فيما أرى، لا شكّ أنّها القوّة الحقيقيّة في هٰذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتّى الآن من مغامرتي إلّا زيادة في اضطرام عواطفي وهياج أحلامي وحوماني بجنون حول الخطوة التالية. إنّي أقبع في مجلسي، رفيقي قدح من البيرة مكلّل بالزبد، أناجي طيلة الوقت أحلامًا طائشة. أتصوّر أنّها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويّته، لمحته مرّة أو أكثر، راقها منظره، لِمَ لا؟ حدست السرّ وراء سعيه، وحتمًا سيصاب حفني داود مرّة بوعكة تمنعه من المجيء، أو سيقضي أجله، أو أجد حيلة للتخلّص منه، عند ذاك تنسرب أضواء الأمل في هٰذا الليل البهيم، وينفسح المجال أمام الحبّ ليصنع معجزاته، إنّي أتمزّز البيرة، وأحلم، وأتذوّق النشوة، أعاني العذاب المقدّس، ومن

ناحية تلاطفني نسمة مفعمة بأريج الياسمين...

- ٢٤ -

الظاهر أنّني شغلت بال حفني داود كما شغل بالي، فعقب المحاسبة والتشطيب في ذات ليلة قال لي:

- لا تذهب.

فلبثت في مقعدي الجلديّ لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة، ونهض قائلًا:

- تعال.

خرج من الباب الخلفيّ وأنا ظلّه. رأيت الفورد قابعة في الظلام المتفشّي عقب التشطيب وإطفاء الأنوار. فتح الباب الخلفيّ قائلًا:

- تفضّل...

واتّخذ مجلسه في المقعد الأماميّ أمام عجلة القيادة. سرعان ما تبيّنت وجودها إلى جانبه فكاد قلبي يثب من صدري. هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعي منّي أو تدبّر، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماويّة. واندفعت تلقائيًّا إلى تحيّتها فقلت:

- مساء الخير يا هانم.

فغمغمت بردّ غامض، وخفت عواقب خرقي للتقاليد، ركّزت بصري عليها لائذًا بالظلمة. تملّيت رسم خلفيّة رأسها وأعلى منكبيها، ميّزت قبّعتها العريضة وشملتها المطرّزة بالترتر، وثملت بعطرها الفوّاح. شبران هما ما يفصلان بيني وبينها. انسابت السيّارة في الظلام ممزّقة هدوء الحقول بأزيز محرّكها. انسبت معها في بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجيّ. وددت أن أسمع صوتها وهي تحادثه أو أن تمتدّ الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيّارة تدخل حيّ المنيرة. الحيّ الذي ولدت وما زلت أقيم فيه. ودارت إلى شارع أصلان فوقفت أمام فيلّا صغيرة مكوّنة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التي أسكن فيها مباشرة، لم أتمالك أن قلت بدهشة:

- إنّي أسكن العمارة خلف الفيلّا مباشرة!

فأجاب حفني بصوت محايد أطفأ حماسي:

- عظيم...

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤثّثة على الطراز العربيّ. جلست على ديوان رانيًا إلى القنديل بإعجاب، مناديًا إرادتي لجمع شتات فكري والسيطرة على هوج انفعالاتي. لبثت وحدي عشر دقائق، استقرّ بقلبي خلالها إحساس مطمئن بالانتماء.

وجاء حفني داود في روب صيفيّ مزركش مثل جدران الحجرة يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة. رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتقع المعجزة وتهلّ نور القمر بطلعتها السنيّة؟!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثمّ اتّخذ مجلسه بادئًا النشاط المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما الذي دعاه إلى استصحابي معه؟ رغم طعونه في السنّ فهو مدخّن شره. جاريته رغم نفوري الطبيعيّ من المخدّر. مهما يكن من عبثيّة الرحلة فقد اهتديت إلى المقام وأمسيت جليسًا لصاحبه. وإذا به يقول:

- لا شكّ أنّك تتساءل عن سرّ الدعوة ولك حقّ، اعلم أنّي رجل صريح وواضح، وأنت بدورك رجل عسكريّ لا يناسبه اللفّ والدوران.

فرنوت إليه متسائلًا فقال:

- المسألة تتلخّص في الآتي، سفر إلى السويس، نزول في فندق الفردوس، يدخل عليك صباحًا خادم بالفطور، يترك في الحجرة لفّة معيّنة، يذهب، تضع اللفّة في حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت الحدّوتة!

إزاء كلّ عبارة تقهقرت ميلًا منغمسًا في مستنقع الخيبة. تمتمت:

- تهريب!

- سَمِّه ما تشاء من الأسماء، أربع مرّات في الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كلّ مرّة!

- لكنّه تهريب!

- الشكّ لا يمكن أن يرتقي إلى شخص محترم مثلك...

- عندك ولا شكّ من يقوم بذلك خيرًا منّي...

- أنت خير من يقوم به حتّى يخرج صديقك من السجن.

فقلت باستياء:

- لن أكون مهرّبًا!
- ألا يغريك الثراء؟
- بلى ولٰكنّ الوسيلة يجب أن تكون شريفة...
- أنت حرّ طبعًا، ولٰكنّ العمل لا مساس فيه للشرف!
- هو كذٰلك في نظري...
- لعلّه الخوف؟!

فقلت بحدّة:

- لست جبانًا...
- أنت حرّ يا أنور بيه.

وخطرت لي فكرة ماكرة فسألته:

- أنت رجل محترم فلِمَ لا تقوم بالمهمّة بنفسك؟
- وقتي لا يسمح بذٰلك!

فقلت بإصرار:

- لا أحبّ الأعمال المخالفة للقانون!
- أنا لا أعترف إلّا بالقانون الإلٰهيّ...
- آسف جدًّا يا حفني بيه...

صمت. رجعنا إلى التدخين المتواصل. تنهّد أخيرًا وقال:

- على أيّ حال لنفترق أصدقاء...

ظننته يطالبني بالانصراف فهممت بالقيام ولٰكنّه قال بسرعة:

- لا أعني هٰذا، أعني أنّه عليّ أن أختار مديرًا جديدًا!

وقفت مادًّا يدي، صافحني وهو يقول:

- فكّر، إنّي منتظر جوابك النهائيّ غدًا!

- ٢٥ -

نجح في أن يبقيني صاحبًا حتّى صباح اليوم التالي. إنّي مفقود بحسب التعبير العسكريّ. وقلت بصوت مرتفع في حجرة الجلوس بشقّتي:

- لا... لا... لا...

إن يكن القرب نارًا فالبعد موت. ومهما يكن الثمن فلن أرتضي هجر «الواق الواق». فيم التردّد وقد انتهى أنور عزمي من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء، تخطّى العرف والتقاليد، تمرّغ في السمعة السيّئة، حُمل في سيّارة الشرطة بين المومسات، يعمل في وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة. فيم التردّد؟ لِمَ اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون؟! حقًّا إنّي أتدهور إلى غير ما حدّ ولٰكن ما أحوجني إلى رحمتك يا إلٰه المعذّبين؟!

ومضيت إلى حجرة حفني داود فرمقني ببرود وتساءل:

- يبدو أنّك اتّخذت قرارًا؟

فحنيت رأسي في تسليم فسألني:

- ترى كيف تغيّر رأيك؟

فقلت غاضًّا بصري:

- الثراء، أليس هو بالإغراء الكافي؟!

ورجعت إلى مجلسي بخاطرة جديدة من الشكّ. هل فطن الرجل إلى غرامي بنور القمر؟. العاشق تفضحه أحواله. وهناك أيضًا حمّودة المطّلع على سرّي، وكان موسى القبلي كذٰلك قبله. ولعلّ العجوز لم يقبلني مديرًا إلّا لعلمه بحالي واعتزامه استغلالي إلى أقصى حدّ. لو صحّت ظنوني فعليّ أن أتوقّع البطش بي لدى أوّل بادرة تهديد من ناحيتي. ولٰكن لعلّها مجرّد ظنون ووساوس لا أساس لها...

- ٢٦ -

ذهبت وجئت وقبضت. لأوّل مرّة يمتلئ جيبي ويصير لي حساب في البنك، من أعماق الظلمات التي أتردّى فيها صعد إليّ شعور مليء بالثقة والنشوة، ينتشر مثل الشذا الطيّب، أملى عليّ بأنّني أسير في الطريق الصحيح وأنّني بالغ شجرة طوبى. شعور داخليّ كنشوة الخمر. ذو قوّة تتفتّت حيالها صخور الواقع المتحدّية. ولم يكن مجرّد شعور باطنيّ فحسب فالمنطق آزره بطريقته الخاصّة معتبرًا ما تردّيت فيه من درجات السقوط ممّا لا يمكن أن يضيع عبثًا ولٰكنّه الثمن الفادح يؤدّى مقدّمًا، وإنّ حسن الختام آتٍ لا ريب فيه. هٰكذا علّلت نفسي بالأماني لأتزوّد بالصبر والّطف من نذالة الجوّ. وحسبي الآن أنّني أمكث في هالتها كلّ ليلة في الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد الوصلتين بالواق الواق. وحسبي أيضًا أنّي صرت عضوًا خارجيًّا في الأسرة وجليسًا دائمًا في الحجرة العربيّة ومغامرًا يحمل إليها كلّ أسبوع كنز نعيمها

الوفير، ولديّ بعد ذلك عزاء الإنسان ـ أحلامه المتهوّرة ـ التي تحلّق به في الفضاء بلا أجنحة.

وفي إحدى سهرات الليالي الزرقاء بالحجرة العربيّة سألته:

ـ لِمَ تقنع بفصل نشاط محدود في ملهى ثانويّ بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب:

ـ فيه ما يكفي...

ـ ولكنّ ثمّة ملحّنين معاصرين متفوّقين وألحانًا جديدة جميلة وملاهي عامرة بعماد الدين؟

فثقبني بنظرة كريهة وسألني:

ـ ماذا يهمّك من ذلك؟

فرجف قلبي غير أنّني ضحكت قائلًا:

ـ يبدو أنّني أصبحت من رجال الأعمال!

فقال ببرود:

ـ كلّا أنت موظّف يا جنرال!

تضاعف حنقي عليه، تمنّيت تحطيم جمجمته، تساءلت:

ـ ألا تحبّ الذيوع والتوسّع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأوّل:

ـ كلّا...

المسألة أنّك أنانيّ وجبان، حريص على حبس العصفور المغرّد في القفص. تخاف عليها من الملحّنين ومن الجمهور الحقيقيّ، ولكن لماذا لا تُحكم قبضتك المعروقة المدبوغة فتبقيها في الفيلّا مثل جواري الحريم؟!

ـ ٢٧ ـ

الحياة تمضي في طريقها لا أجني منها إلّا أمرّ الثمرات. أحترق مثل الشمعة فيترسّب ذوبي في ماء آسن. وأسرّي عن نفسي فأقول لها إنّي خليفته، لا خليفة له غيري. ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز؟ ألا يجدر بي أنا المُغامِر بالتهريب أن أغامر بالاقتحام؟! ولكن كيف وهو متصدّ لي مثل كلب الحراسة؟! حقًّا إنّي لمجنون. أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتّى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد في مركز الأرض. ويؤكّد جنوني وأسري الحفيف والنسمة والخوار والضجّة والتغريد والألوان والضوء وكلّ شيء.

وتتوقّف الحياة فجأة عندما تدقّ الساعة الثامنة مساء فلا يجيء الفورد كعادته كلّ ليلة... انتظرت متابعًا عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فاتّصلت بالفيلّا بالتليفون. ردّ عليّ صوتها:

ـ آلو.

ـ أنور عزمي... ماذا أخّركم؟

ـ لن نأتي الليلة...

ـ ولكنّ الجمهور منتظر...

ـ تصرّف... مع السلامة...

قطعت الخطّ. وجدتني في دوّامة من الابتهاج والانفعال والحيرة. إنّه أوّل حوار يدور بيني وبينها وإن لم تمازجه نبرة طيّبة أو كلمة مجاملة. أين حفني داود؟ لِمَ لَمْ يبلّغني بالأمر؟ لِمَ لَمْ يردّ بنفسه؟

وكان عليّ أن أواجه الجمهور معتذرًا عن غياب نور القمر.

ـ ٢٨ ـ

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيلّا بشارع أصلان. نائمة مغلّفة بالظلام ولا بصيص نور في الداخل. إنّها تطرد الزائر بصرامة موحشة. مضيت إلى شقّتي فلم يطرق عينيّ نوم حتّى الصباح. ترى هل جاءت المعجزة؟ عمّ ينكشف الستار الأسود؟!

ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحًا. سألت البوّاب:

ـ حفني بيه موجود؟

أجاب الرجل:

ـ البيه مريض...

تصرّفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت في المدخل ممرّضة فقلت لها:

ـ إنّي مدير أعمال حفني بيه... كيف حاله؟

ـ لعلّه أحسن.

ـ ماذا به؟

ـ تعب في القلب...

- هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثمّ رجعت وهي تشير إليّ بالدخول. رأيته راقدًا لا يبدو من الغطاء إلّا وجهه. لمحت مخايل الموت في نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقّعت!

- لا بأس عليك، شدّ حيلك...

أجاب بصوت خافت:

- شكرًا.

- لن أرهقك بالحديث...

- لا أهمّيّة لذلك... إنّها النهاية!

أشار إليّ بالجلوس على مقعد قريب من الفراش وقال:

- لم أتوقّع حضورك!

فتساءلت في دهشة:

- كيف؟... لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنّي وجدت البيت نائمًا تمامًا...

قال باقتضاب:

- ذهبَتْ!

جفل قلبي، تساءلت:

- مَن؟

- لم تضيّع لحظة... هربت!

- نور القمر؟

- المتوحّشة...

فترت انفعالاتي كلّها كشعلة ضئيلة رُدمت بكوم تراب! فلم أدرِ ماذا أقول، أمّا هو فقد تحطّمت مغالبته وتدفّق الاعتراف بلا ضابط...

- إنّها عذراء، إنّه الحبّ، إنّه الجنون، أنت تفهم معنى ما أقول!

حدجته بنظرة محرجة وبائسة فقال:

- توهّمت وقتًا أنّه أنت...

- أنا؟!

- إنّك بريء، وأحمق مثلي، إنّها ابنة المرحومة زوجتي، شبّت تناديني بالأبوّة، ماتت أمّها وهي عروس في السادسة عشرة، حاولت محاولة يائسة ثمّ قرّرت الاحتفاظ بها مهما كلّفني جنوني، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهليّة كانت تدرّ عليّ رزقًا لا بأس به...

وعيت كلّ كلمة ولكن ما الفائدة؟... سألته:

- أين تظنّها ذهبت؟

تجاهل سؤالي وواصل اعترافه:

- حصلت على المال بأيّ ثمن كما تعلم لأوفّر لها أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها في الغناء والفنّ، تجرّعت العذاب ليلة بعد أخرى، فعلت المستحيل...

تساءلت بحيرة:

- ألم يكن بوسعها أن تتمرّد عليك؟

- كلّا...

- لِمَ؟...

وهو يتنهّد:

- موهبة إذا شئت!

- أيّ موهبة؟

- في عينيّ، لا تفسير لذلك...

أيخرّف الرجل؟... أيؤمن بالسحر؟... هل يتمتّع بقوّة تسلّطيّة خاصّة؟...

- بمجرّد أن اقتحمني المرض طارت...

- متى؟... لقد ردّت على مكالمة تليفونيّة في منتصف التاسعة من أمس...

- لم تنتظر النهار... ربّما عند منتصف الليل أو عقب ذلك!

كان من الممكن أن أصادفها في موقف أمام الفيلّا... يا للحسرة المعذّبة... وعدت أتساءل:

- أين تظنّها ذهبت؟

فتمتم:

- يا له من سؤال أحمق!

- ٢٩ -

مات حفني داود في نهاية الأسبوع. أغلق «الواق الواق» أبوابه ولمّا ينتهِ الموسم. توارت عن عينيّ الحياة الجديدة بأضوائها وأناسها فوجدتني منبوذًا خارج الأسوار. أنا وحبّي الشهيد. هل خدعني الشعور الباطنيّ الملهم كما خدعني المنطق؟! هل أرضى من الغنيمة بالإياب سالمًا من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء

لدرجة الرعب. لا شيء ولا معنى ولا طعم، وهذا الإحساس المتغلغل في الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذّب؟ وإنّي لأتحرّى كلّما وجدت إلى التحرّي سبيلًا. أستجوب بوّاب الفيلّا وحمّودة وسنجة الترام. أغشى الملاهي ملهى بعد ملهى. أمشي في الأسواق والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذٰلك. قصدت قسم المنيرة. ادّعيت أنّ لي دينًا في عنق الفتاة المختفية. أعطيت أوصافها وما لديّ من معلومات قليلة عنها، طالبت بمعاونتي في العثور عليها. اندفعت في كلّ سبيل بقوّة جنوني وألمي.

ولمّا بلغ بي الألم حدّه الأعلى قرّرت أن أقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. تجنّبت زنزانتي ما وسعني ذٰلك ولٰكنّ قهوة الماليّة لم تشغل إلّا بعض وقتي ولم تجدْ كثيرًا في تسليتي. خطر لي أن أقامر، فالقمار يُنسي الإنسان النوم والطعام فلعلّه يبرئه من الحبّ. وجدت فيه مهربًا محمومًا ولٰكنّه لم يستطع أن يستغرقني وأساء إلى أعصابي إساءة حملتني على إعادة التفكير. والتمست الشفاء في الكتب الروحيّة، ولا أنكر أنّها فتحت لي باب أمل ولٰكنّه لا يؤتي ثمرته بلقاء المحبوبة إلّا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت خطوة جديدة تمامًا فاستشرت طبيبًا نفسيًّا. قصصت عليه قصّتي، رأيته يصغي بعناية وحدب. ولمّا وجدته يرمق هيكلي الضخم قلت له مردّدًا قولًا قديمًا:

ـ منظري لا يثير الرثاء!

فقال بجدّيّة:

ـ إنّك إنسان معذّب...

ثمّ واصل بعد هنيهة:

ـ لا أعتقد أنّك مريض إلّا إذا اعتبرنا الحبّ مرضًا!

فسألته بتوسّل:

ـ ألا يوجد علاج لحالي؟... أعني عقاقير مفيدة مثلًا...؟

ـ العقاقير مفيدة ولٰكنّي لا أنصح بها إلّا عند اليأس...

ـ أظنّ أنّ حالي ميئوس منها تمامًا...

ـ ليس الأمر كما تصوّر... إنّك سجين ذاتك وعلاجك في أن تخرج منها...

ارتبكت أمام أقواله فصمتُّ مبتهلًا فقال بوضوح:

ـ أنصحك أوّلًا بالزواج، أنصحك ثانيًا بالاندماج في نشاط اجتماعيّ أو سياسيّ، إذا لم يُجْدِ معك فلدينا آخر وسيلة وهي العقاقير...

بقدر ما أعاني من ألم بقدر ما أصمّم على المقاومة، أزمتي تكشف لي عن جوانب ظلّت خافية في نفسي بلا استغلال. زرت عمّتي نظيمة وعالنتها برغبتي في الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة. السنّ مثلًا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتي الماضية. ولٰكنّ ثمّة نساء فضليات يعانين ظروفًا سيّئة ويرحّبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتّح. وجدت بينهنّ أرملة في الحلقة الرابعة، أمّا لفتاة متزوّجة، متوسّطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة. جدّدت شقّتي بالترميم والتجديد والطلاء ثمّ استقبلت بها عروسي. الأمر بالنسبة لي علاج، في نظر عمّتي رغبة في الاستقرار والإنجاب، ليس زواج حبّ ولٰكنّه زواج للشفاء من الحبّ أو تخفيف حدّة جنونه، عناصره الأساسيّة الطيبة والمودّة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنّة. سرعان ما لمحت مخايل الأبوّة، تلقّيتها بقلق وحبّ استطلاع ونوع من السرور، ولٰكنّ أسير الحبّ ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثمّة شعور بالذنب كدّرني أنّي في الحياة الأخرى سأطلّق زوجتي المخلصة لأتزوّج من الأخرى! من يدري فلعلّ زوجتي ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفّى أو إلى مَن يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثمّ خضت تجربة الانتماء السياسيّ. تجربة مثيرة للّعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتماء حقيقيّ. غير أنّني لم أكن بلا انتماء. ألم يتقرّر لي ميل محدّد مذ اشتركت في المظاهرة وأطلقت الرصاصة في فناء مدرسة الشرطة؟ ولٰكنّ الوطن يموج بتيّارات جديدة أيضًا. تيّار دينيّ عنيف، تيّار يساريّ متطرّف، تيّار فاشستيّ حادّ. تحيّرت طويلًا بين المبادئ. في كلّ واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض. وبدافع من ميولي القديمة اتّجهت نحو

الوفد، وبخاصّة نحو جناحه اليساريّ. فيه يطمئنّ إيماني الراسخ بالله وحماسي العقليّ الجديد للعدالة الاجتماعيّة. وهو محطّة تأمُّل حتّى أكتسب مزيدًا من الخبرة والضوء وأفيد في الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبيّ. سرعان ما انضممت إلى لجنة الوفد بالمنيرة. انغمست في الزوجيّة والسياسة. رغم ذٰلك ظلّ الأسير الكامن فيّ يناضل سلاسله، طالبت بترشيحي في الانتخابات ولٰكنّ مطالبتي رُفضت لحداثة عهدي الرسميّ بالوفديّة. رشّحت نفسي على مبادئ الوفد. وجدتني أنافس مرشّح الوفد الرسميّ ومرشّحًا آخر من الإخوان. وعند احتدام المعركة وُزّعت منشورات غريبة استهدفت نسفي تمامًا. فيها كلام عن محضر الشرطة إثر القبض عليّ في بيت موسى القبلي، وكلام عن وظيفتي كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة وجارحة. وخسرت التأمين، ولٰكنّي كعادتي توثّبت بكلّ قوّتي لمواصلة المعركة السياسيّة، خطبت، حرّرت في الصحف، وثّقت علاقتي بالزعماء، تبرّعت من مدّخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضيّ الأعوام يتخفّف من آلامه ويتحوّل ألمه إلى أسى مقدّس وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعربدة.

* * *

وفي صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانيّ إلى مؤتمر البرلمانات العربيّة ببيروت. وفي ذات ليلة، في رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتني أمام نور القمر! كنت وبعض أعضاء الوفد في جلسة سمر تضمّ صحفيًّا لبنانيًّا عائدًا لتوّه من باريس. تحدّث بحماس عن مغنّية من أصل مصريّ، تشدو بأغاني «فرانكو أراب» وتحقّق نجاحًا متواصلًا تنبّأ له بالعالميّة، تدعى نور القمر!

زلزل قلبي لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة. اندفعت في مجال التذكّر والاستجواب متحرّرًا من الجاذبيّة. انقلبت طفلًا يلهو باللعب العقيمة والأحلام المتهوّرة ويناجي مرّة أخرى المستحيل. وعلمت من الصحفيّ أيضًا أنّ مدير أعمالها يرسم خطّة لرحلة فنّيّة لها، لزيارة القارّة الأوروبيّة كخطوة أولى، فبادرت - في الفندق - إلى تحرير رسالة لها، قلت:

عزيزتي الفنّانة الكبيرة نور القمر:

هل تذكرين أنور عزمي مدير «الواق الواق؟»...

لقد جاءتني أنباء نجاحك في مكانٍ لم تخطر لي من قبل زيارته، وعند رجل لم أتصوّر أن أعرفه يومًا أو أن يمدّني عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من الإعجاب والحبّ لك في قلبي. أملي أيّتها الفنّانة الكبيرة أن تضعي مصر في أعزّ مكان من رحلتك الفنّيّة المقبلة، فهي الأصل، وفيها أوّل قلب نبض بحبّك.

* * *

وفي مصر تلقّيت الردّ على عنواني باللجنة. الحقّ أنّه لم يكن ردًّا بالمعنى المفهوم. كان كارت بوستال تتألّق فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دُوّن بخطّ اليد:

تحيّة شكر وتقدير

«نور القمر»

جعلت أقرأ المدوّن بعناية. كلّا لم أسعد به السعادة المتوقّعة. ليست رسالة شخصيّة من أيّ نوع كان. إنّه أكلشيه للردّ على المعجبين. لعلّها أمرت بإرساله دون الاطّلاع عليه ولا حتّى إمضائه، إنّه يدفعني إلى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفي وآلامي المقدّسة. ولٰكن هل هي صورة لنور القمر بين يديّ، بكلّ بهائها وعذوبتها، بين يديّ رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسي إزاء المعجبين.

سأحتفظ بالصورة ما حييت. ومن يدري؟...

فربّما رجعت صاحبتها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو الإقامة. ماذا يعني هٰذا بالنسبة لي؟ لا أدري أيضًا، ولا أحبّ أن أحسم الموضوع بفكرة محدّدة لن أجني من ورائها إلّا العذاب. وإذا داخلني شكّ ذات يوم في حقيقة مغامرتي العجيبة فما عليّ إلّا أن أستخرج الصورة من حافظتي، وعند ذاك تنطرح أمامي الحياة بكلّ ألوانها المتضاربة، وما يندّ عن مفاتنها من جنون مقدّس.

أهـل القمّة

- ١ -

قبيلة من النساء. خاطرة تراوده كثيرًا وهو ينظر نحوهنّ. سفرة الغداء معدّة. مغرية للجائع. الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة، الدورق والأكواب... هرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضّر الطعام. من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذي يتوسّطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة... نزع قبّعته وألبسها فازة فوق البوفيه واتّخذ مجلسه فعلت هامته بصورة ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع. جاءت زهرة بأواني الطعام، بالكوسة والشواء والأرزّ والمخلّل. تحلّقت النساء السفرة، سناء زوجته (٣٠ سنة)... وكريماته الثلاث، أمل (١٠ سنوات)... سهير (٨ سنوات)... لمياء (٦ سنوات)... زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات)... كريمتها سهام (١٧ سنة)...

تناول خيارة مخلّلة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة. طاهية ماهرة: تضفي على الطعام لذّة تعوّض ما ينقصه من ترف. يتجنّب الثناء عليها إشفاقًا من إثارة سناء، يتحاشى قوّتها أو بالأحرى عصبيّتها. إنّه قويّ في القسم، أمام الخارجين على القانون، ولكنّه يتحلّى بالحكمة في شقّته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرّت زهيرة وابنتها للإقامة معه. ورغم أنّها تقوم بأعباء البيت كلّها. رغم أنّها تعمل كطاهية وخادمة، فإنّها لم تستطع أن تفوز برضى سناء. لسهام كريمة أخته جمال بديع «إنّه يحبّ جمالها». لم تحظَ بمثله كريمة من كريماته. رغم أنّ سناء لا بأس بها وهو أيضًا لا بأس به. رغم ندبة في صدغه الأيسر من مسّ رصاصة نجا منها في أثناء مطاردة عصابة في الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة في جوّ يسوده الصمت حتّى خرقته سناء بصوتها الرفيع:

- عندنا أخبار.

فتساءل في توجّس:

- ماذا عندكم؟

- بعد الانتهاء من الطعام...

حدثت مشاحنة من المشاحنات التي لا تنتهي. زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب. لِمَ لا يعترف بأنّه هو نفسه لا يرحّب بالزحام وأنّه يعاني منه من الناحية الاقتصاديّة. ولكنّ الواجب هو الواجب. انقلبت الشقّة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم... ألغى كارهًا حجرة الاستقبال وأحلّ مكانها السفرة... وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس. يومها قالت سناء:

- بيتي تهدّم!

فتساءل بامتعاض:

- هل أرمي بهما في الطريق؟

- لِمَ لَمْ تذهب إلى أحد من أخواتك؟

- لا متّسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل غريب وأنا موجود؟!

- أنت ضابط... ابحث لها عن شقّة... ولها

معاش الأرملة! فضحك ساخرًا وقال:

ـ شقّة في هٰذا الزمان!... أمّا المعاش فهو بضعة جنيهات... لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!

ـ وما ذنبي أنا؟!

ـ لا حيلة لي أو لك...

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر ممّا شعرت بالترمّل، وممّا يزيد الأسى أنّها كانت في زواجها موفّقة... ولٰكنّ الموت عاجله. إنّه يدرك تمامًا. يعرف أنّها على يقين من أنّها غير مرغوب فيها... لا هي ولا ابنتها الجميلة. وسناء عصبيّة. لا تحسن إخفاء مشاعرها أو لا يهمّها ذٰلك. ولم يخفّف من حدّتها إقبال زهيرة على العمل اليوميّ الشاقّ. وطالبتها بالمعاش ولٰكنّ زهيرة قالت بذلّ:

ـ إنّه تافه، ولا بدّ من أن تظهر سهام بمظهر لائق في المدرسة... وأنا أيضًا... وهو لا يكاد يفي بهٰذا أو ذاك.

ولاحظ أنّ شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام... تسمع وتتجاهل... تتلقّى الأحجار صامتة واجمة... تحذّر كريمتها من الانفعال وأدرك أنّ سهام متمرّدة نوعًا ما. وقد نما إلى أذنيه يومًا صوت سهام وهي تقول لأمّها:

ـ متى أنقذك وأنقذ نفسي؟

فتقول الأمّ:

ـ زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفة قبل أن نضطرّ للإقامة معها؟

ـ لٰكنّ خالي... إنّه ممتاز ولٰكنّه ضعيف!

ـ ليس المفروض أن يكون ضابطًا في بيته أيضًا... الغلاء نار يا سهام كان الله في عونه...

وأشدّ ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها. قالت يومًا لزهيرة على مسمع منه:

ـ متى ما حصلت سهام على الثانويّة العامّة فعليها أن تعمل...

ولم تحر زهيرة جوابًا أمّا سهام فقالت:

ـ هٰذا يعني ضياع مستقبلي...

فقالت سناء بحدّة:

ـ إنّك لا تدركين حقيقة الوضع...

فقالت زهيرة:

ـ لِمَ نتعجّل الأمور؟

فقالت سناء بغضب:

ـ نحن نربّي ثلاث بنات، نحن نعاني، عليك أن تفهمي ذٰلك.

فقالت زهيرة باستسلام:

ـ لتكن مشيئة الله.

وكان محمّد فوزي ـ الضابط ـ يقول لنفسه إنّ القبيلة ممزّقة... ما منهنّ واحدة إلّا وهي ظالمة ومظلومة... الحياة تبدو أحيانًا لعنة طويلة. ويتذكّر كم أحبّ إخواته فيما مضى وخاصّة هٰذه الأخت. وهي ليست أسوأ حظًّا منهنّ... كلّهنّ متعبات... ووراء كلّ سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء متحدّية:

ـ عليك منذ الآن أن تستعدّ لزواج بناتك...

فيتساءل ضاحكًا:

ـ من الآن يا سناء؟

ـ عليك أن تشتري شقّة لكلّ منهنّ.

فيضحك ضحكة عالية ويهتف:

ـ أتحدّى وزير الداخليّة أن يفعل ذٰلك!

ـ ألا تسمع عن الذين يحتفلون بالزواج في هيلتون وشيراتون؟

ـ كما سمعت عن أغا خان رحمه الله...

ويداعب أمل كبرى بناته ثمّ يتساءل:

ـ ماذا ندري عن الغد؟!

ـ ٢ ـ

عقب الغداء جلسوا في الصالة، وسأل محمّد زوجته:

ـ ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأنّ كلّ واحدة تدعو الأخرى للكلام. وقالت زهيرة:

ـ أحدهم يطلب خطبة سهام!

ارتسم الاهتمام في صفحة وجهه الأسمر. هٰذا الخبر قد يعني نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقّع:

ـ من هو؟

ـ من نفس الحيّ، طالب بكلّيّة العلوم، يدعى رفعت حمدي. . .

نكتة سخيفة لا فرج قريب كما يوحي به الجوّ. تساءل:

ـ ماذا تعرفون عنه أيضًا؟

فقالت زهيرة:

ـ أسرة طيّبة. . .

فقالت سناء:

ـ ولٰكنّها فقيرة.

فقالت زهيرة:

ـ سيكون موظّفًا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد وجدت عملًا أيضًا.

فقالت سناء:

ـ الجملة ثلاثون جنيهًا على أكثر تقدير.

فتساءلت زهيرة:

ـ هل نتجاهل سعادتها؟

فقال محمّد فوزي متهرّبًا:

ـ أعطوني فرصة للتحرّي والإحاطة!

فقالت سناء:

ـ المسألة واضحة، لن يملك مهرًا، لا بدّ من جهاز ولو حجرة واحدة، ثمّ لا بدّ من شقّة، لسنا في زمن العواطف، وهٰذا ما يجب التفكير فيه من الآن. . .

فقال محمّد متحرّجًا:

ـ أعطوني فرصة. . .

وعند ذاك قالت سهام بجفاء:

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيًا. . .

فرمقها خالها بحنان وسألها:

ـ لا شكّ أنّك تعرفين أكثر ممّا نعرف؟

ـ أبدًا. . .

ـ أودّ أن أسمع رأيك يا سهام؟

ـ لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة.

فقالت سناء:

ـ ربّنا يرزقك برجل قادر، لا فائدة من الشباب، هٰذا رأيي. . .

فقال محمّد مجاملًا:

ـ المهمّ رأيك أنت يا سهام!

فقالت سهام بضيق واضح:

ـ لا رأي عندي يا خالي.

ـ العواطف وحدها لا تكفي. . .

ـ نعم. . .

ـ إنّي على استعداد لفعل ما تشيرين به!

فقالت سناء:

ـ سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب!

وسألته زهيرة:

ـ ما رأيك أنت يا أخي؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ رأيي أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه. . .

فقالت سناء:

ـ معقول هٰذا الرأي.

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها أمّا زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها.

سألتها سناء:

ـ هل أخطأنا؟

وبادرها محمّد:

ـ سأفعل ما تشيرين به.

فقالت زهيرة:

ـ لا خطأ هناك البتّة، ولٰكنّي حزينة، البنت راغبة في التعليم ولن يتاح لها ذٰلك، وراغبة في الشباب ولن يكون نصيبها، لا خطأ هناك ولٰكنّي حزينة. . .

ـ ٣ ـ

قرّب مقعده من نافذة تطلّ على ميدان السكاكيني ليستردّ أنفاسه. أيّ حظّ هٰذا؟. إنّه غير راض عن نفسه ولا عن أيّ شيء. وحسن ألّا يكون شابًّا. إنّه زمن المودّعين. ولٰكن. . . وانقطعت أفكاره فجأة. استقرّت عيناه فوق البستان. هٰذا الوجه يعرفه تمامًا. كان صاحب الوجه يتربّع على الحشائش مسند الظهر إلى جذع نخلة. هو هو دون غيره. زعتر النوري. ماذا جاء به إلى هنا؟ هل يتربّص به الأحمق؟. . . لا. . . لا. . . ثمّة سبب آخر. شعره حليق. ما زال حليقًا. مفهوم. لن أمهله.

تناول قبّعته وغادر الشقّة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربّع. وثب الرجل واقفًا متهلّل الوجه. طويل القامة ولٰكنّه دون محمّد بقبضة. وجهه نحيل طويل... حادّ البصر... نابت شعر اللحية... يرتدي بلوفر بنّيًا قديمًا وبنطلونًا رماديًا رثًا وصندلًا. ابتسم عن أنياب قويّة ملوّنة وهتف:

- أهلًا بحضرة الضابط العظيم...

فسأله محمّد فوزي:

- متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذي دخلته بفضلك منذ شهر واحد.

- وماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأشمّ الهواء النقيّ...

- اسمع يا ابن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال باسمًا:

- لماذا تكرهني يا محمّد بك؟... لولاك ما كان الجنّ الأحمر نفسه يستطيع ضبطي متلبّسًا ويدخلني السجن، إنّك ضابط شريف ولٰكنّ ربّنا أمر بالرحمة، ولا تنس العلاقة الحميمة التي تجمع بين الضابط والنشّال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحيّة، وفي بعض حوادث النشل الحرجة تطالبني بردّ الشيء الثمين فأستردّه من صاحبه خدمة لك، عظيم، أين الرحمة إذن؟...

فسأله بصرامة متجاهلًا مرافعته:

- لماذا تجلس أمام مسكني؟

- صدّقني فإنّي أحبّ هٰذه الحديقة...

- زعتر، حذار من المزاح...

- عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقة أخرى.

وتفحّصه بدقّة مليًّا ثمّ سأله:

- كيف تحصل على رزقك؟

- حتّى الساعة لا رزق لي.

- هٰذا يعني أنّك متشرّد؟

- كلّا...

ثمّ وهو يضحك:

- لا مؤهّل لي والحكومة لا تستخدم إلّا ذوي المؤهّلات...

فهتف به:

- حذار من المزاح يا زعتر...

فقال زعتر بجدّيّة:

- يلزمني رأسمال يا حضرة الضابط.

- هٰذا ليس من شأني، وإذا عثرت عليك مرّة أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرّد!

- الله معنا...

- ادع الشيطان فهو إلٰهك...

- أستغفر الله ربّ العالمين...

- أجبني ماذا أنت فاعل؟

فتنهّد قائلًا:

- سأبحث عن عمل.

فقال بهدوء مخيف:

- ابعد عن وجهي قبل أن أقرّر القبض عليك...

رفع زعتر يده تحيّة ومضى في خطوات سريعة كأنّه مشترك في سباق المشي. وقف محمّد فوزي يتبعه بعينيه حتّى واراه شارع ابن خلدون.

- ٤ -

حظّه من النجاح في قسم الشرطة أضعاف حظّه منه في بيته، إنّه ينتصر عادة على اللصوص والنشّالين ولٰكنّه ينهزم في غشاء الهموم العائليّة. وقد أبلغته زهيرة أنّ الشابّ رفعت حمدي يرجو لقاءه فرحّب بذٰلك. واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع، ولأنّه لا يوجد في الشقّة مكان استقبال مناسب فقد تمّ اللقاء في حديقة الشاي بحديقة الحيوان. وجده شابًّا معتدل القامة بشوش الوجه واضح الرجولة. قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة إنّه يوحي بالثقة ويمكن التفاهم معه، قال الشابّ:

- إنّي معجب بشخصيّة آنسة سهام، جادّة ومحترمة، وحضرتك رجل ذو سمعة طيّبة جدًّا...

فشكره محمّد فواصل حديثه:

- ما يهمّ العلاقة المقدّسة متوفّر لدينا...

فابتسم محمّد قائلًا:

ـ للأسف الشديد فإنّه تغطّي ظروف جانبيّة على الشروط الجوهريّة. . .

فقال الشابّ بحماس العاشق:

ـ علينا أن نتغلّب عليها. . .

ـ هات ما عندك. . .

ـ أمامي ثلاثة أعوام، عملي مضمون في التدريس أو المعامل.

ـ لعلّ التدريس أفضل فيما يقال.

ـ وأمامي فرصة للعمل في الخارج أيضًا. . .

ـ جميل ذٰلك ولكن يجب أن تعلم أنّنا لا نملك تكاليف الزواج. . .

ـ أعرف ذٰلك، المهمّ أن تكمل سهام تعليمها. . .

ـ زدني إيضاحًا. . .

ـ إنّها أيضًا ترغب في دراسة العلوم، وستجد فرصة للعمل في الخارج.

دخلت سناء زوجته في إطار الجلسة فقال بحزم:

ـ ظروف حتميّة توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانويّة العامّة في نهاية العام. . .

ـ ألا يمكن. . .

فقاطعه:

ـ غير ممكن. إنّي آسف. . .

فتفكّر رفعت مليًّا مغمومًا ثمّ قال:

ـ فلنعلن خطبتنا الآن، ولنؤجّل الهموم للمستقبل. . .

وكان محمّد يلحظ سهام من آنٍ لآنٍ ويقرأ موافقتها الصامتة ولكنّه لم يرَ بدًّا من أن يقول:

ـ تصرّف غير مقبول.

ـ لماذا؟

ـ إنّه يعني انتظارًا طويلًا وغير مضمون العواقب. . .

ـ أرى أنّه ما دامت النيّة الطيّبة متوفّرة، فالعقبات تذوب عادة. . .

ـ لا أشاركك الرأي، سهام كريمة شقيقتي، ولا أريد أن أعلّق مستقبلها على المجهول.

ـ إنّه ليس مجهولًا.

ـ ولكن عندي رأي أفضل. . .

ـ ما هو يا سيّدي؟

ـ أن يسير كلّ منكما في سبيله دون التزام بعلاقة ما، أنا شخصيًّا لا أحبّ الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وجدت ظروف ملائمة في المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذٰلك!

فقال رفعت حمدي بقلق:

ـ قد يتقدّم لها في أثناء ذٰلك رجل ما.

ـ أصارحك بأنّني سأعمل ما أراه في صالحها و. . .

وتوقّف متمهّلًا ثمّ قال عادلًا عمّا كان في نيّته قوله:

ـ ما أراه في صالحها. . .

فقال رفعت بهدوء:

ـ أظنّ من الإنصاف احترام رأيها. . .

ـ طبعًا. . . طبعًا. . .

وساد صمت مثقل بالخيبة. . . وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أنّ البرودة كانت وانية محتملة. . . وابتسم محمّد فوزي وقال:

ـ هناك رجاء لا مفرّ منه. . .

فنظر إليه الشابّ مستفهمًا فقال بحزم لا يجد مشقّة في دعوته في أيّ وقت:

ـ ألّا يقع بينكما في الهدنة المقترحة لقاء من أيّ نوع كان!

لحظ الرجل سهام في طريق العودة مرّات. . . قال لنفسه إنّها ستجهش في البكاء حالما تنفرد بنفسها. . . لعن نفسه. . . ولعن أشياء كثيرة. . .

ـ ٥ ـ

كان منفردًا بنفسه في مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت في مقابلته. . . نهض باهتمام فاستقبله عند الباب، شدّ على يده باحترام، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول:

ـ شرّفت يا أفندم!

الرجل في الأربعين، ولكنّه يتمتّع بحيويّة شابّ في العشرين. . . بدين مع ميل إلى القِصَر، كبير القسمات، داكن السمرة. . . معروف أنّه رجل أعمال.

وأنّه ذو صلات، ويتردّد اسمه أحيانًا عند التبرّع لمشروعات خيريّة في الحيّ.

قال الرجل بصوت مبحوح قليلًا:

- كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة...

- كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجيه من محبّي الخير...

- شكرًا، ها هي الفرصة ولكنّها ليست سعيدة...

وضحك فابتسم محمّد فوزي وقال:

- حادث سخيف...

- ثمنه عشرة آلاف...

وقدّم سيجارة فلمّا اعتذر لعدم التدخين أشعلها وقال:

- نشلت حافظة النقود، بمائة جنيه غير الفكّة، ولكن توجد بها علّاقة مفاتيح ذهبيّة وذات فصّ من الماس...

فتساءل محمّد:

- كيف يُنشل رجل مثلك؟... لا بدّ أنّك كنت في حفل..؟

- هو ذلك... في جامع القبّة الفداويّة...

- آه...

- أعتقد أنّه ليس من الميسور بيعه إذا وزّعنا نشرة بأوصافه...

- سنفعل ذلك على سبيل الحيطة. ولكنّ النشّال يبيعه بثمن بخس لمن يصادفه...

فقال الرجل مبتسمًا:

- إنّه عزيز لأسباب شخصيّة، ما نسبة الأمل في استرداده؟

فقال محمّد فوزي باسمًا ابتسامة أسيفة:

- لا سبيل إلى نشّال إلّا إن ضُبط متلبّسًا، نحن نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل، وثمّة تنبيهات متلاحقة بوجوب احترام القانون...

- إذن أقول عليه العوض؟

- توجد وسيلة مجرّبة في الأحوال النادرة. أعطني فرصة أربع وعشرين ساعة...

- وإذا لم تنفع؟

- سنسير في الإجراءات العقيمة.

- لكم ولا شكّ وسائل سحريّة أقرأ عن أخبارها أحيانًا في الصحف.

- ٦ -

أمر الضابط باستدعاء زعتر النوري... جميع المخبرين يعرفون مقهى النشّالين المعروف بمقهى حنش في خلاء الحدائق فيما تتّصل بالحقول، وهو الذي أطلق عليه المعلّم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد الثورة... ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه الحادّتان بنظرة قلقة متوجّسة وهو يقول:

- ستجعلني لعبتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده في دوّامة التوقّعات المزعجة. قال زعتر:

- أعطني فرصة...

نظر إليه ببرود وسأله:

- أعتقد أنّك مصمّم على تغيير حياتك، قد أصبحت من المصلّين!

- نعم؟!

- رآك البعض وأنت تؤدّي فريضة الصلاة.

- أنا ما دخلت جامعًا قطّ طيلة حياتي!

- جامع القبّة الفداويّة.

- سيّدي الضابط أنا لا أفهم شيئًا...

- ولا أنا!

- أنا تحت أمرك...

قال بهدوء:

- أريد علّاقة المفاتيح!

تراجع رأسه قليلًا. اختفت نظرة القلق. أدرك أنّه مطلوب لمفاوضة. تشجّع قائلًا:

- أيّ علّاقة مفاتيح؟

- نحن نفهم بعضنا يا زعتر...

- مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على المعلّم حنش...

- نَشْل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم

عليه سواك...

فابتسم زعتر وقال:

- إنّك تطلب مساعدتي...

- حذار من الغرور.

- لقد قدّمت أكثر من خدمة ولٰكنّ صدري ينقبض في جوّ القسم...

- لا تخش شيئًا. إنّك تعرف ما تعنيه كلمتي!

- كلام رجال.

- نعم يا ابن الثعلب...

- عظيم... لنبدأ من الأوّل، ماذا تريد؟

- علّاقة رأفت زغلول...

- لم أنشلها.

- لا أصدّقك.

- أقسم لك بشرفي.

فضحك محمّد فوزي قائلًا:

- يا ابن الثعلب.

- أقسم لك بشرفك أنت!

قال الضابط بحدّة:

- عليك اللعنة، أتعرف ما يعنيه هٰذا القَسَم؟

- أعرف...

- فمَن نشلها؟

فهزّ رأسه قائلًا:

- سؤال غير جدير بذكائك...

- عندك علم بالموضوع؟

- غير جدير بذكائك أيضًا؟

فنظر إليه مقطّبًا وقد اكفهرّ وجهه.

قال زعتر:

- يلزمني وقت للعمل.

- متى تحضرها لي؟

- لا أدري، وربّما ضاعت إلى الأبد...

- اسمع يا ابن الثعلب...

- أعدك بأنّي سأبذل جهدي.

- في ظرف يوم!

- على الله الجبر.

تمهّل الضابط قليلًا ثمّ قال:

- ربّما نالك خير، الرجل ثريّ لدرجة الخيال...

قال زعتر بحماس:

- لا يهمّني المال، ما يهمّني حقًّا هو خدمتك!

تمتم محمّد فوزي باسمًا:

- يا ابن الثعلب...

- ٧ -

المفاجأة أنّ زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالي. كانت سهام هي التي فتحت الباب وهي التي أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر. انفعل محمّد انفعالًا شديدًا ولعنه ألف لعنة، غير أنّه اضطرّ لاستقباله ومجالسته في الصالة، بل وقدّم له القهوة. بدا زعتر مفعمًا بالحيويّة والسعادة. قال:

- لا تؤاخذني على حضوري إلى بيتك إذ إنّني أكره القسم.

- ماذا فعلت...؟

دسّ يده في جيبه فاستخرج منه العلّاقة والمحفظة. تمتم محمّد:

- والنقود أيضًا؟

- عن آخر مليم، إذا لم تكن في الاتّفاق فدعها لي...

فقال محمّد مداعبًا لأوّل مرّة:

- الغنى غنى النفس!

فقال الآخر بتسليم:

- أمرك.

- مَن الذي نشلها يا زعتر؟

- لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟

- العلم بالشيء ولا الجهل به.

فابتسم الآخر قائلًا:

- لم أخن زميلًا في حياتي...

- حقًّا؟!... يا لك من رجل عظيم في الشرّ.

فضحك زعتر واشتدّ لمعان عينيه وقال:

- وشرف ربّنا لولا الحظّ السيّئ...

- هه... لكنت من رجال الأمن؟

- كلّا... لا يعجبني عملك...

- حقًّا؟... ولمه؟

- أقول لك، إنّك تطارد اللصوص لحساب

الحكومة بينما الحكومة أكبر لصّ في الدولة!

- يا ابن الثعلب...

- إنّكم تكرهون قول الحقّ يا محمّد بك...

- هه... إذن ماذا تفضّل من المهن؟

فتفكّر قليلًا وقال:

- أقرب عمل لعملي الراهن أن أكون مدير بنك!

فلم يتمالك محمّد فوزي نفسه من الضحك، فقال زعتر:

- أريد رغيفًا محشوًّا باللحم المحمّر...

- طلب غير هيّن ولكن سيكون لك ما تريد...

فقال زعتر وهو يتنهّد:

- ورغم العيش والملح سترجعني إلى السجن غدًا إذا وقعت في قبضتك!

- طبعًا... لا مفرّ من ذٰلك.

- الأمر لله... من صاحب العلّاقة؟

- زغلول رأفت من رجال الأعمال والبرّ...

- رجل أعمال؟... طبعًا لصّ ولكن ما تخصّصه؟

- كلّ الناس عندك لصوص!

- اسمع يا محمّد بك... ستندم ذات يوم على تمسّكك بالشرف.

- على فكرة يجب أن أزفّ إليه البشرى...

وأدار قرص التليفون...

- زغلول بك رأفت؟

- ......

- مبارك... العلّاقة والحافظة معي...

- ......

- وهو أيضًا موجود.

- ......

- ولكن... فكّر قليلًا... إنّه قادر على أن يخطف الكحل من العين...

- ......

- إلى اللقاء يا إكسلانس...

والتفت نحو زعتر قائلًا:

- إنّه مصمّم على رؤيتك...

فقال زعتر باهتمام:

- تحت أمره.

- كن عاقلًا... وكن حكيمًا أيضًا في الإفادة ممّا يجود به عليك...

- طبعًا... ولن أنسى المالك الشرعيّ للمحفظة...

- المالك الشرعيّ؟

- الذي نشلها يا محمّد بك...

فابتسم الضابط وقال:

- احذر أن تجعلني أندم على الموافقة. الحظّ يفتح لك بابًا شريفًا يا زعتر... والآن دعني أعدّ لك الرغيف...

ولكنّ زعتر نهض في لهفة وقال:

- لا تضيّع الوقت، شكرًا، بنا إلى الرجل، وسوف أشتري اللحم بنقودي الحلال لأوّل مرّة...

- ٨ -

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصيّة وتوفيقها العامّ. البيت يسوده غالبًا التوتّر وقد استغرقت سهام في دراستها ولكن في تعاسة ملحوظة. من يدري فقد ينتصر الحبّ في النهاية، سيجد لسهام عملًا في نهاية العام وسينضمّ مرتّبها إلى معاش أمّها. وربّما حقّق رفعت حمدي حلمه، وهاجرت الأسرة الجديدة - سهام، رفعت، زهيرة - إلى الخارج مجبورة الخاطر. عند ذاك يطمئنّ على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكنّ أعصاب سناء زوجته. ما أجمل الأحلام الملطّفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانويّة العامّة وراح يسعى لإلحاقها بعمل ولكنّ التوفيق في ذٰلك بدا بعيد المنال. وفي ذٰلك الوقت جاءه المخبرون بنبإ مثير وهو أنّ مقهى «الأمراء» أو مقهى النشّالين قد خلا منهم. وكان قد لاحظ قلّة ملموسة في حوادث النشل، حتّى مضت أشهر لم يتلقّ فيها بلاغًا واحدًا. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند المعلّم حنش صاحب المقهى تفسيرًا، وفسّره هو على هواه فقال إنّهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحيّ. وسُرّ المأمور بتلك

النتيجة غير المتوقّعة وهنّأ محمّد فوزي عليها.

* * *

وكان يغادر نادي الشرطة ذات يوم عندما رأى شابًّا وشابّة في غاية الفخامة، يغادران سيّارة، ويتّجهان نحو برج القاهرة. نال من الشابّ نظرة عابرة وهو يمضي في طريقه، ولٰكنّها لم تتلاش كما توقّع. التفت وراءه فرأى الشخصين يصعدان سلّم البرج، جعل يتأمّلهما حتّى غابا في المدخل.

ما معنى هٰذا؟ هل سبق له أن رأى هٰذا الشابّ؟ لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة؟ لم تكن عينا الآخر محايدتين. أم هٰكذا خيّل إليه؟ لمح فيهما معنًى ما، حياة من نوع ما تشي بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه. مستحيل. توقّف عن المشي. استدار متّجهًا نحو البرج. تفحّص الكافتيريا، ثمّ صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلّان على القاهرة ونسمة عليلة من نسمات الصيف تداعبهما. اقترب حتّى وقف وراءهما. سمع الشابّ يقول للشابّة بصوت يسمعه هو كأنّما هو المقصود به:

- ألم أقل لك إنّ له عينين لا تُخدعان؟

فهتف محمّد فوزي:

- زعتر النوري...

فاستدار نحوه باسمًا عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجًا:

- محمّد زغلول من فضلك؟

وأشار إلى الفتاة قائلًا:

- صديقتي بهيّة...

فتمتم الضابط:

- جلجلة!

- قلت بهيّة من فضلك...

جعل ينظر إليهما بريبة فضحك زعتر وقال:

- بهيّة اسم اختارته بنفسها أمّا أنا فكوّنت اسمي الجديد من اسمك «محمّد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبَي الفضل الأوّل...

فقطّب محمّد فوزي متسائلًا:

- ما معنى هٰذا؟

- عن أيّ شيء تسأل؟

- أنت تفهم، ما أعنيه تمامًا يا زعتر...

وضح له عن قرب أنّ فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغطّ تمامًا عن الابتذال في الحركة والهيئة، وتقدّمت بهيّة (جلجلة) خطوة بجمالها الشعبيّ الصارخ وتساءلت محتجّة:

- ماذا فعلنا لتحقّق معنا؟

وسأله زعتر النوري بشيء من العظمة:

- بأيّ حقّ تتعرّض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط:

- أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هٰذا التغيير.

- إنّك تخاطب رجلًا من رجال الأعمال. وهٰذه امرأة من نساء الأعمال...

- نحن نعمل في ضوء النهار...

- لن يخفى سرّ.

فضحك زعتر وقال:

- يؤسفني أن يكون أوّل لقاء لنا على هٰذا النحو، لنا ماضٍ مشترك، وفضلك عليّ عميم، أنت الذي سلّمتني مفتاح السعادة، فماذا يثيرك عليّ الآن؟ دعني أدعوك لفنجان شاي... وليطمئنّ قلبك... وهاك بطاقتي الشخصيّة إذا شئت...

فقال محمّد بذهول:

- إنّه عام واحد.

- ما قيمة الزمن؟... صفقة واحدة تحوّلك من دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضًا، ما زلت أعدّ من رجاله. ولي أيضًا رجالي...

- تهريب؟!

- رجعنا نردّد ألفاظًا لا معنى لها، اسمها الوحيد «تجارة»... حتّى لو أصررت على الألفاظ الميري فربّما كانت تهريبًا قبل أشهر لٰكنّنا اليوم في عصر الانفتاح، لا تهريب ولا دياولو... تفضّل بزيارتنا... وانظر إلى تلميذك بنفسك...

فقال الضابط ببطء:

- زعتر...

فقاطعه بسرعة:

- محمّد زغلول من فضلك...

ـ أنت تعرف من هو محمّد فوزي.

ـ طبعًا... أعرف أنّك ستتحرّك... أعرف أنّك تحلم بإرجاعي إلى السجن... ولكنّ الحقيقة ستتكشّف لك... ستعرف أنّني رجل شريف... آمل أن نكون أصدقاء... لست دون زغلول رأفت استحقاقًا لذلك...

وقالت بهيّة بدلال:

ـ وأنا أيضًا أريدك أن تكون صديقًا لي!

وتساءل زعتر:

ـ البضائع المهرّبة كانت تملأ الطرقات فلِمَ لَمْ تصادروها؟... لِمَ لَمْ تقبضوا على مروّجيها؟... كنّا نجول في الميدان يحرسنا رجال الأمن... ووراء كلّ واحد منّا شخص ذو مقام... انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم إلّا تجّار شرفاء... ثمّ إنّك صاحب الفضل.

ـ أضجرتني بقولك هذا...

ـ لِمَ يغضبك قول الحقّ؟... أنا أيضًا نُشلت ذات يوم ولكنّي استرددت مالي بقوّتي الذاتيّة، لم ألجأ إليك لتستردّ بقوّتك مال لصّ كبير من نشّال مسكين.

وهتفت بهيّة:

ـ صديقك زغلول رأفت لصّ عظيم...

فانتهرها زعتر قائلًا:

ـ اقطعي لسانك؟ إنّه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم!

فقالت مخاطبة محمّد فوزي:

ـ نحن ندعوك إلى فنجان شاي.

فقطّب الضابط متحوّلًا عنها فقال له زعتر:

ـ يؤسفني ألّا تلبّي دعوتنا، ولكن لا تبدّد قوّتك في لا شيء...

ـ ٩ ـ

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدّى له مقهى «الأمراء» في عزلته ورثاثته. حجرة حجريّة يتقدّمها فناء ترابيّ مسوّر بالصبّار. بدا كالخالي بعد أن تخلّى زبائنه الأصليّون عنه. وقف في الفناء المهجور فلمحه الحنش ـ العجوز الأحدب ـ وسرعان ما هرع إليه مرحّبًا وقلقًا في آن. جلس محمّد وهو يشير للكرسيّ المقابل داعيًا العجوز للجلوس وهو يقول:

ـ لا تقدّم شيئًا، لي معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

ـ لم أرك منذ زمن، آخر مرّة كنّا في عاشوراء.

ـ أذكر ذلك... ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئنّ نوعًا ما فقال:

ـ ذهبوا ولم يرجعوا... اختفوا تمامًا...

رماه بنظرة طويلة وقال:

ـ عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

ـ الله وحده يعلم.

ـ ولكنّك تدري أشياء ولا شكّ...

ـ هل وقعت حوادث نشل؟

ـ كلّا.

ـ ماذا يهمّك من أمرهم بعد ذلك؟

ـ هذا شأني يا حنش.

ـ والله...

فقاطعه بنبرة آمرة:

ـ هاتِ ما عندك...

اطمأنّ العجوز تمامًا وشعر بأهمّيّته، قال:

ـ لقد أقلعوا عن النشل، غدًا سيختفي اللصوص جميعًا...

ـ هات ما عندك...

فضحك العجوز عن فم خالٍ وقال:

ـ أنت السبب يا حضرة الضابط...

ـ ذلك بالنسبة لزعتر النوري. إنّي أسأل عن الآخرين...

ـ قيل إنّ زعتر ذهب للقاء الرجل الذي نشله.

ـ أعرف ذلك طبعًا.

ـ وإذا بالحال يتغيّر تمامًا، لم يعد عتريس النوري إلينا. انتظروا، انتظروا طويلًا ولكنّه لم يعد وكادت جلجلة تجنّ...

ـ ثمّ؟

ـ ظنّوا أنّه قُبض عليه... أخذوا يتناسونه... حتّى جلجلة بدأت تستجيب لعشّاق آخرين... حتّى كان يوم...

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق. فقال هٰذا باستياء:

- استمرّ يا عجوز.

- كانوا في الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطربًا بفرحة طاغية، لوّح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل: «لمن هٰذه؟». فأجابه أحدهم متفكّهًا: للسفير الأمريكيّ، ولٰكنّه قال بهدوء: إنّه عتريس النوري. ملكهم ذهول شامل. أقبلوا نحوه وفي مقدّمتهم جلجلة، أقسم لهم على صدقه. أين هو، لماذا لم يعد، وكيف نشلته، وراح الرجل يقول: «رأيته في ميدان رمسيس. كان يغادر سيّارة. ليس عتريس الزمان الأوّل، شخص آخر تمامًا، أيّ وجاهة وأبّهة، شككت فيه طويلًا حتّى عرفت مشيته وسمعت صوته. إنّه عتريس النوري. ماذا حصل له؟ كلّ شيء تغيّر حتّى جلده. تغيّر لونه أيضًا كأنّه نُقع في الماء عامًا. هل استولى على ثروة الرجل الذي دعاه ليكافئه؟ هل نشل البنك الأهليّ، وهو يقصد دكّان غيار، إنّه محترم ابن الدائخة. في الحال رسمت خطّة لنشله، نشلته في الدكّان. هٰذه هي الحكاية. وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولٰكنّ سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لا بدّ من العثور عليه... وأكثر من صوت صاح: لن يفلت ولو اختبأ في جبال الواق الواق. وفيما هم يتبادلون الرأي إذ بدا عتريس النوري في مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية.

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال فصبر محمّد فوزي حتّى استطرد:

- دخل منفوخًا بالأبّهة. تبادلوا النظرات في صمت هادئ. حتّى خرقته جلجلة متسائلة: «مَن سعادة الباشا القادم؟». فقال بهدوء: الحافظة أوّلًا ثمّ نتكلّم. فسأله سمسون العفش: عن أيّ حافظة تتكلّم؟ فثقبه بنظرة من عينيه الحادّتين وقال: هو أنت يا ابن الخائنة! قلبي قال لي... فقالت جلجلة: «قلب المؤمن». فقال زعتر لسمسون: «الحافظة واعتذر لعمّك».

- أنت خائن!

- زعتر خائن!

- أين كنت؟... تقطعنا للنقود... من أين لك هٰذا؟

- العمل الشريف!

هزّت جلجلة وسطها وهتفت:

- ادعوا له... ادعوا له...

- العمل الشريف... عمل الناس الأجلّاء... هات الحافظة...

- أقسم لك بشرفي...

قاطعه مقهقهًا:

- احتفظ بشرفك وهات المحفظة.

فقال سمسون بتسليم:

- لي مكافأة!

- دع ذٰلك للنساء، هات الحافظة لنتكلّم في المفيد!

فرمى بها إليه سمسون وهو يقول:

- نار في جثّة الخائن...

- الله يسامحك... كان في خطّتي أن أزوركم في الوقت المناسب...

فتساءلت جلجلة:

- وما الوقت المناسب؟

- هو وقت الخير، لا يتقدّم ولا يتأخّر.

- ومتى يجيء؟

- عمّا قريب جدًّا.

- ما هو العمل؟

- تجارة... بضائع تجيء من أوروبا...

- تهريب؟!

- الصبر... موعدنا بعد شهر واحد...

وفي الميعاد يا حضرة الضابط ذهبوا جميعًا ولم يرجع منهم أحد.

ترامقا صامتين، ثمّ تساءل الضابط:

- أين هم الآن؟

فقال العجوز بقلق:

- إنّهم خارج منطقتك...

- نعم... هل تعلّمني واجبي؟ أين هم الآن؟

- إنّهم يعملون في ضوء النهار وتحت حماية الشرطة...

ـ ألم أقل لك إنّك تعرف أشياء كثيرة؟
فضحك العجوز وتساءل:
ـ ألم تسمع عن سوق ليبيا؟
ـ كلّا.
ـ إنّه في القلعة يا حضرة الضابط.

ـ ١٠ ـ

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات. يغمره ضوء الكلوبات الأحمر المدلّاة من رءوس أعمدة مغروسة في الأركان. أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المركّزة. قال الضابط إنّهم اختاروا مكانًا مناسبًا بين القلعة والمساقي القديمة. وتابع بعينيه الأكشاك القائمة في محيط السوق مكتظّة بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائيّة والإلكترونات. وراء كلّ كشك صفّت الفريجيديرات والسخّانات ومكيّفات الهواء والنجف في سرادقات. بهر الضابط بألوان البضائع، بجنون البيع والشراء، بالمهد الذي يلد أناسًا جددًا. ها هي وجوه العصابة التي اختصّ دهرًا بمراقبتها. خلقوا من جديد. إنّهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثمّ ينسونه تمامًا. الشرطة تحفظ الأمن. والنشّالون أصواتهم مرتفعة. سيختفي اللصوص ويُستغنى بالتالي عن رجال الأمن! ما علاقة زغلول رأفت بهٰذا كلّه؟ أصبح هٰؤلاء من الأغنياء أمّا هو وأضرابه فيغوصون في غمار الفقراء. ها هو زعتر، محمّد زغلول أستغفر الله. معه جلجلة في كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. ها هو يقبل نحوه مرحًا مرحّبًا.

ـ أهلًا محمّد بك... خطوة عزيزة!
ـ أهلًا بك...
ـ انتقلت إلى منطقتنا؟
ـ كلّا.
ـ جئت للشراء؟
ـ للفرجة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدّمتها مبتسمة، قال:

ـ شكرًا، لا أحبّها...
تناولها زعتر وراح يشرب قائلًا:
ـ إنّي أعرف ما يحرجك!... لعلّك سررت بما ترى، تاب الله علينا!
ـ حقًّا؟... من النشل إلى التهريب؟
فضحك زعتر قائلًا:
ـ عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجّار، أناس يحتجّون إذا الفقراء اغتنوا...
ـ الحال معدن...
ـ سمسون دفع أمس خلوّ رجل لا يستهان به وأصبح من سكّان المنيل!
وقالت جلجلة:
ـ عندنا بضائع تجنّن... شاهد بنفسك...
فقال في هدوء:
ـ لست في حاجة إلى شيء...
فسأله زعتر بقلق:
ـ لِمَ شرّفتنا؟
ـ العلم بالشيء ولا الجهل به...
ـ اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبًا أصبح بفضل الانفتاح تجارة مشروعة...
فضحك محمّد فوزي ولم ينبس فواصل زعتر:
ـ سيكون أبناؤنا ضبّاطًا ووكلاء نيابة...
ـ ولم ترجعهم إلى الفقر؟
فتمادى الآخر في حماسه قائلًا:
ـ ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء وباشوات؟... كانوا لصوصًا، فنحن أصل الوجود يا محمّد بك... ولٰكنّ أناسًا يكرهون أن يفعل أبناء الشعب مثل الأمراء والباشوات...
ـ يا لها من آراء!
ـ دعنا من هٰذا كلّه... ألا يلزمك فريجيدير؟... معصرة؟... ريكوردر؟... مقوّيات، كلّ شيء تحت أمرك، ومن غير فلوس...
ـ إنّك لكريم ولٰكنّي لا أريد شيئًا...
فمدّت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت:
ـ ألا يعجبك شيء؟
فتساءل الضابط:

ـ هل تزوّجتها؟

فقال زعتر:

ـ كلّا... إنّها تهدّدني بالقتل...

ـ لِمَ؟

ـ رأيي أنّه يجب أن أتزوّج من أسرة!... وعليها هي أن تبحث هي أيضًا عن عريس لقطة...

قال محمّد فوزي لنفسه إنّها جميلة، حتّى ابتذالها جذّاب، ليس في بيته من يضارعها في جمالها إلّا سهام.

وقالت بهيّة «جلجلة»:

ـ إنّه وغد يستحقّ الإعدام.

فقال الضابط:

ـ إنّها لمشكلة...

فقالت جلجلة:

ـ لا أهمّيّة لذلك، المهمّ أن نقدّم لك هديّة.

ـ شكرًا، لا عودة إلى هذا الحديث.

فقال زعتر:

ـ صدّقني لا يقضي بالفقر على الإنسان إلّا عقله.

وقالت له جلجلة:

ـ لو عثرت على رجل قويّ مثلك لزهدت فورًا في هذا الوغد...

فتجاهل قولها ضاغطًا تأثّره الباطنيّ.

فعادت تقول:

ـ إذا لم تقبل هديّة مستوردة فخذني أنا هديّة محلّيّة... ما رأيك؟

فقال زعتر:

ـ وتهديني حلًّا لمشكلتي معها...

فسأله محمّد فوزي:

ـ هل صادفتك متاعب أيّام التهريب؟

ـ لا تكاد تذكر، كلّ كشك يكمن وراءه رجل هامّ يحميه من بعيد...

ـ لا تبالغ.

ـ هي الحقيقة، أنت نفسك رجعت إلى زغلول رأفت ماله الضائع...

ـ رجل لا غبار عليه!

ـ صدّقني ليس في ثروته ملّيم حلال واحد...

ـ ماذا فعل معك؟

ـ وظّفني عنده في أعمال تهريب تحتاج إلى جرأة خاصّة، تعلّمت أشياء وأشياء، استعملت بدوري العصابة، اليوم العمل كلّه مشروع...

وسألته جلجلة:

ـ هل لو كنت في منطقتنا أيّام التهريب كنت قبضت علينا؟

ـ طبعًا.

ـ رغم الحماية؟

ـ بلا تردّد.

فقال زعتر ضاحكًا:

ـ يعملها ولو تعرّض للنفي، أنا عارفه.

فقالت جلجلة:

ـ يا لك من حبيب قاسٍ، وهل كنت تقبض على زغلول رأفت؟

ـ ربّما قبلكم...

فثنت رقبتها في مرح وقالت:

ـ ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ أو ستصبح كلّها لصوصًا...

ـ النتيجة واحدة.

وقال زعتر بحرارة:

ـ بودّي أن أغرقك في السعادة!

فتمتم في فتور:

ـ شكرًا...

تصافحا، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر:

ـ قل له إنّي مستعدّة أن أوصله بسيّارتي إلى أيّ مكان...

لوّح لهما مودّعًا ومضى...

ـ ١١ ـ

ما معنى ذلك؟ ها هو العبث يتأبّط ذراعه متدثّرًا بالبسمات الحمراء. لاحظ الضابط أنّ صوت مرافقه مبحوح مثل صوت حنش. سأله عن السبب فأجاب بأنّ صوته بُحّ من كثرة الخطب، ولأنّه يؤذّن كثيرًا داعيًا المصلّين إلى سوق ليبيا. وأشار إلى الشجرة الضخمة تتوسّط الميدان الصغير في شارع البرج وقال للضابط:

ـ أيّ ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلًا، إنّها لا تعرف القيود، تحيا حياة مطلقة.

وأشار أيضًا إلى كلبين يتلاعبان وتمتم:

ـ يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت...

فقال الضابط:

ـ ولٰكنّه الإنسان، وحده.

ـ حماقة مقنّعة بالجلال!

ـ الجلال!

ـ هو السجن.

ـ لٰكنّه الإنسان، لا يعرف ذٰلك إلّا الإنسان. ألا يعني ذٰلك شيئًا؟

ـ لا يعني شيئًا.

ـ هو وحده.

ـ الإنسان الحقيقيّ مثل الشجرة، مثل الكلبين...

ـ إنّه وحده، هنا يكمن سرّه.

ـ هبك مشرفًا على الغرق ولا نجاة لك إلّا بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟

ـ ساعة الغرق يسيطر الحيوان.

ـ هٰذه هي الحياة...

ـ كلّا، إنّها جريمة يجب التكفير عنها...

ـ هل تعرف الجريمة بالفطرة؟

ـ كفى، على أحدنا أن يتلاشى...

* * *

تهبط النقود بلا حساب في ميدان ليبيا، السماء تمطر هدايا. بالوقاحة تُصان الهيبة. طيّب، ها قد تغيّر كلّ شيء. ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هي عليك. تتحسّن علاقات الكائنات. تستقلّ سناء ببيتها ثمّ تنتقل إلى بيت أفضل، يتورّد مستقبل أمل وسهير ولمياء. تغدق البركة على سهام وزهيرة. تنطلق سيّارة بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالرذيلة، الأرذال يحلمون بالفضيلة.

* * *

كان بالنادي عندما رأى زغلول رأفت قادمًا نحوه. انتحى به جانبًا فجلسا في جانب من الحديقة.

ـ فقدت شيئًا ثمينًا؟

فقال زغلول باهتمام:

ـ كلّا، الأمر أجلّ...

ـ ماذا فعلت بزعتر؟

ـ كافأته بعمل شريف مربح... ولٰكنّه طمّاع...

فضحك محمّد فوزي وسأله:

ـ ما عدد الأعمال الشريفة في نظرك...

فقال باهتمام متزايد:

ـ محمّد بك... إنّي هنا لغرض هامّ... إنّك رجل شريف... صاحب جميل... حسن... عليّ أن أردّ الجميل...

ـ خير؟

ـ الأمر يتعلّق بزعتر.

ـ سرقك؟

ـ كلّا... لٰكنّه شرع في سرقتك أنت.

ـ ماذا تعني؟

ـ الأمر يتعلّق بكريمة أختك...

قطّب محمّد في حيرة شديدة:

ـ كريمة أختي؟

ـ إنّه يحوم حولها... يحوم حولها باعتباره الوجيه محمّد زغلول...

تغيّر وجهه تمامًا. ارتفق الخوان بساعديه متسائلًا:

ـ ماذا؟

ـ إنّي على يقين ممّا أقول...

ـ كريمة شقيقتي آية في العقل والأخلاق...

ـ لم أقل خلاف ذٰلك...

ـ لو تعرّض لها بإساءة لشكته إليّ...

ـ لا يتعرّض لها بما يسوء... إنّه يحوم حولها كرجل شريف!

ـ الوغد.

ـ خفت أن تُخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا.

ـ شكرًا لك تحذيري.

ـ ١٢ ـ

بدا محمّد فوزي كئيبًا متجهّمًا. من أوّل نظرة لاحظت ذٰلك سناء وزهيرة وسهام أمّا الصغيرات

فيئسن من ملاعبته. ونطق بنبرة مفعمة بالغضب:
ـ سهام.
نظرت إليه الفتاة بذهول فقال:
ـ ما هٰذا الذي يقال عنك؟
وسكت من شدّة الانفعال ثمّ قال بازدراء:
ـ عن رجل له مظهر الوجهاء يدّعي أنّ اسمه محمّد زغلول...
فقالت زهيرة:
ـ لا شيء يستحقّ الغضب يا أخي.
وتمتمت سناء زوجته:
ـ فعلًا.
فتساءل بحدّة:
ـ آخر مَن يعلم؟
فقالت سناء:
ـ إنّه رجل غنيّ. غرضه شريف، لم تُخْفِ سهام عنّا شيئًا.
قالت زهيرة:
ـ لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقّق بنفسي، وافقتني سناء على رأيي، قالت لي سهام إنّه رجاها أن يحدّثها، ذهبت إليه بنفسي لأقول له إنّ الطريق الوحيد أن يحدّثك أنت.
ـ ماذا قال؟
ـ قال إنّ ثمّة سوء تفاهم بينكما قد يخيّب رجاءه.
ـ أكان في نيّتك أن تزوّجيها من وراء ظهري؟
فقالت سناء:
ـ اتّفقنا أن أحدّثك ولٰكنّك سبقت!
فنظر إلى سهام متسائلًا:
ـ هل أعجبك؟...
فقالت زهيرة:
ـ إنّي أبحث عن حلّ يُرضي الجميع.
أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضًا دور زوجته التي تحلم بالتخلّص من زهيرة وسهام. ضحك بمرارة وقال:
ـ ما هو إلّا نشّال قضى في السجن عامين!
فَوَجَمْنَ في ذهول. تذكّر هو يوم رآه رابضًا في البستان تحت البيت. قال بأسى:
ـ لقد رويت لكنّ حكاية سوق ليبيا، وحكاية زعتر النوري، محمّد زغلول هو زعتر النوري!
قرأ وجوههنّ بنظره الثاقب. سهام يغمرها شعور بالنجاة. زهيرة مطبوعة بالخيبة. سناء مغيظة محنقة ولٰكن قضي عليها بالهزيمة. تمتمت زهيرة:
ـ ما تصوّرت ذٰلك قطّ!
فقال بسخرية:
ـ هو هو لم يتغيّر إلّا مظهره، كان لصًّا غير قانونيّ فأصبح لصًّا قانونيًّا..

ـ ١٣ ـ

التقت عيناه بعينيه رغم الضجيج والزحام. رسالة خفيّة سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك نحوه. بدا أنّه استشعر الجوّ كلّه. قال بتسليم:
ـ قلب المؤمن دليله.
سار محمّد فوزي خارجًا من نطاق السوق والآخر يتبعه حتّى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذاك هتف به الضابط:
ـ إنّك وغد كالعهد بك...
فتمتم وهو يواجهه بثبات:
ـ الحلم سيّد الأخلاق.
ـ كيف تسوّل لك نفسك التعرّض لبنت أختي؟
ـ بالشرف تعرّضت لها...
ـ لا تنطق بهٰذه الكلمة يا زعتر...
ـ محمّد زغلول.
ـ كذّاب.
ـ هٰذا كلّ شيء.
ـ سأعتبر الموضوع منتهيًا وحذار...
ـ محمّد بك... ربّنا قَبِلَ التوبة.
ـ أنت لصّ لا أكثر ولا أقلّ.
ـ إنّي رجل شريف وغنيّ ومن حقّي أن أفتح بيتًا شريفًا.
ـ اللعنة على شرفك المزعوم.
ـ لا داعي للغضب.
ـ فليتنه كلّ شيء، إنّي أكره الاستمرار في هٰذا الحديث...

وتركه دون تحيّة.

- ١٤ -

أوّل ما صنعه أن كلّف مخبرًا بمراقبة زعتر. وانهمك في العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة. وقال لنفسه: سأبقى شريفًا ولو لم يبقَ في الحومة سواي. ولم يترك طويلًا للنسيان فقد زاره في النادي من جديد زغلول رأفت. في ذٰلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكيني متفكّرًا ولٰكن يصاحبه أمل جديد. وبدا وسط قبيلة النساء مرحًا. وقال:

- عريس له وزنه يطلب يد سهام.

فتطلّعت إليه الأبصار وقالت سناء بنغمة أمل واضح:

- ما أكثر العرسان!

فقال بهدوء:

- هٰذه المرّة زغلول رأفت...

فبادرته سهام:

- قلت إنّه لصّ أيضًا يا خالي...

- لا أنكر، ردّدت ما سمعته من لصّ محترف، ولٰكن لا دليل على ذٰلك...

- لن يغيّر ذٰلك من الواقع.

فقالت سناء:

- فرق بين النهار والليل، إنّه رجل شريف برأي الجميع...

وقال محمّد فوزي:

- عرفته ثريًّا ومن رجال البرّ...

فقالت سناء:

- رجل له وزنه حقًّا، وهو الحلم المطلوب...

فقال محمّد:

- إنّه في الأربعين، أرمل، ولا أولاد له.

- عزّ الطلب! لا خير في الشبّان.

ونظر محمّد فوزي إلى سهام وسألها:

- ما رأيك؟

ونظرت إليها أيضًا زهيرة كأنّما تستوهبها الموافقة ولٰكنّها لاذت بالصمت حتّى ضاقت سناء بصمتها فقالت:

- من واجبك أن تكوني سعيدة!

فقالت سهام بنبرة متوتّرة:

- صبركم حتّى أجد عملًا، عند ذاك سأذهب أنا وماما!

فقال محمّد مقطّبًا:

- قول غير لائق...

واجتاح الغضب سناء فهتفت:

- جئناك بالسعادة حتّى موطئ قدميك ولٰكنّك ما زلت تحلمين بالمستحيل، إنّها فرصة لا تتكرّر، وأنا بصراحة لم يعد بي صبر!

وقال لها محمّد معاتبًا:

- سناء!

فصاحت بصوت يهدر بالغضب:

- دعني أنفّس عمّا في صدري.

فقالت زهيرة:

- أعطونا فرصة، سهام ذكيّة وتفهم كلّ شيء، ستسير الأمور كما نودّ...

- ١٥ -

أبلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة. كان التفاهم بين الرجلين كاملًا. لم يترك صغيرة ولا كبيرة. اطمأنّت سناء تمامًا إلى أنّ زوجها لن يغرّم مليّمًا واحدًا وأنّ حلمها يتحقّق بكلّ أبعاده. وتصدّى محمّد فوزي لموجة امتعاض زاحفة في أعماقه بأن جعل يؤكّد لنفسه شرف العريس، ويقول لضميره القلق إنّ أحدًا لم يتّهمه في شرفه إلّا الوغد زعتر. أجل لقد تصرّف مع سهام بطريقة قاسية. فما من شكّ أنّ الموافقة انتُزعت منها على رغمها. غير أنّها ستحظى بالسعادة والجاه. إنّه قرار حكيم وستثبت الأيّام صدقه وإخلاصه. وسارت الأمور في سبيلها المرسوم حتّى خرجت سهام ذات يوم إلى زيارة قريبة ولٰكنّها لم تعد! طال الوقت وغرق الانتظار في مستنقع الشكّ القاتل. تحرّى عنها في جميع مظانّها ولٰكن لم يسمع لها عن خبر... تجسّد واقع لم يخطر على بال. تقوّض البنيان كلّه وتلاشت الآمال مخلّفة الرعب والأسى. جنّت سناء كما جنّت زهيرة أمّا محمّد فقد ثار ثورة هائلة. قصد من توّه

رفعت حمدي ولكنّه وجده على حال يرثى لها، وصاح به غاضبًا:

ـ إنّك مسئول عمّا حدث، أنت... أنت المسئول الأوّل!

وفي الحال استغلّ الضابط خبرته في الخدمة وإمكاناته الغزيرة في البحث عن المختفية ولكن مرّت الأيّام تباعًا دون نتيجة.

ورنّ التليفون في بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمّد السمّاعة:

ـ آلو.

ـ أنا سهام يا خالي...

ـ سهام... أين أنت؟

ـ أكلّمك من الإسكندريّة.

ـ ماذا تفعلين هناك؟

ـ إنّي أعمل... وبخير... اطمئنّوا... أريد ماما أن تلحق بي...

ـ أعطني عنوانك أريد أن أقابلك...

ـ ممكن أحضر بنفسي.

ـ وماذا يؤخّرك؟

ـ عدني أن تلقاني بهدوء واحترام.

ـ لك هٰذا يا سهام.

ـ سأحضر غدًا.

ـ احضري الليلة أرجوك.

ـ ليكن... إلى اللقاء.

* * *

أقبلت عليهم في ثبات كأنّما قد نضجت في أيّام غيابها أعوامًا. تلقّتها أمّها باكية. تساءلت سناء:

ـ ماذا فعلت بنا يا سهام؟

وقال محمّد بهدوء:

ـ آخر ما كان يُتوقّع منك...

فقالت باسمة:

ـ الدفاع عن النفس حقّ مشروع.

ـ ليس بهٰذه الوسيلة.

ـ الأفضل أن تسمعوا حكايتي...

صمتت مليًّا لتجمع شتات أفكارها ثمّ راحت تقول:

ـ بلغ منّي اليأس مداه، صمّمت على التحدّي والانتقام، قلت إنّهم يريدون أن يزوّجوني من لصّ مغطًّى آخر. سأتزوّج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمّد زغلول أو زعتر النوري.

صاح محمّد في جنون:

ـ كلّا.

ـ هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت في كشكه امرأة جميلة فلوّحت له من بعيد فجاءني وهو لا يصدّق عينيه، فقلت له أريد أن أحدّثك حديثًا هامًّا. أخذني في سيّارته إلى مدينة المقطّم. في مكان شبه خال يطلّ على القاهرة، كان من العسير جدًّا أن أبدأ ولٰكن كان لا بدّ أن أبدأ، سألته ألا زلت تريدني؟ أجاب ذاهلًا بالإيجاب. فقلت له إنّي موافقة. سألني هل أفضيت برغبتك إلى محمّد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفي. سألني ماذا دفعك إلى المجيء إليّ؟ فقلت له إنّي لا أريد استجوابًا وإنّي مستعدّة وكفى، قال إنّي رجل لا يهمّني شيء، لا يهمّني خالك نفسه... أستطيع أن أفعل ما يحلو لي... ولٰكن لا بدّ أن أعرف ما حملك على المجيء... قلت لا جواب عندي... واتركني إذا شئت. قال إنّي أعرف أنّ الوغد زغلول خطبك... هٰذه هي المسألة... ما قولك؟ قلت إنّي أرفض الاستجواب. قال يبدو أنّك لا توافقين عليه... ربّما لسنّه وسوء سمعته... إنّ ما جاء بك إليّ هو الرغبة في الانتقام أو الرغبة في الانتحار، فلم أحر جوابًا ولمعت عيناي، قال إنّك عنيدة مثل جلجلة... إنّي أحبّ هٰذا... ولٰكنّي لا أعرف العبوديّة في الحبّ. قلت فلنرجع. قال: أرفض أن أجعل من نفسي أداة انتقام في يدك، قلت إذن فلنرجع، قال هٰذا يعني أن أسلّمك للوغد زغلول رأفت... كلّا... لقد وقعت في شبكة من المنافقين واللصوص ومن الشهامة إبقاؤك. قلت ولٰكن كيف، قال خالك يحسبني شيئًا قذرًا... كلّا... أنا لم أخن زميلًا في حياتي... حتّى جلجلة فإنّي مرتبط بها رغم شبعي منها... وقد جعلت عصابة من النشّالين عصبة من الأعيان... معجزة تحتاج لثورة كاملة... وإنّي أرفض أن يستعملني أحد أداة انتقام... ولٰكنّني

سأنقذك... خالك رجل فقير لأنّه شريف... لذلك يهمّه أن يتخلّص منك على خير... لذلك وافق على تسليمك للصّ قانونيّ... اسمعيني جيّدًا... أنت متعلّمة... سألحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص...

ساد صمت تجلّى فيه صوت الأنفاس المتردّدة... ثمّ تساءلت أمّها:

- أيّ عمل؟

- موظّفة في كشك يملكه في الإسكندريّة بأجر بسيط ونسبة في الأرباح...

- أهو يكفيك يا بنتي؟

- فوق الكفاية يا ماما... لا بدّ أن تأتي معي... ستجدين حياة معقولة جدًّا...

وقالت سناء:

- إنّه رجل مذهل.

استمرّ الحديث بعد ذلك ولكنّه - محمّد - لم يتابعه. غرق في أفكاره بعمق وحزن وذهول. أيّ هزيمة مني بها؟ إنّه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن الأعين. وغادر الشقّة صامتًا. ولّما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات في صدره شجنًا ثقيلًا. ولمحه زعتر فهرع إليه متهلّلًا. تصافحا. وقفا يترامقان في صمت طال حتّى ضاق به محمّد فتمتم:

- شكرًا لك يا زعتر.

فقال الرجل ضاحكًا:

- محمّد زغلول من فضلك.

فقال محمّد فوزي بهدوء ويقين:

- زعتر النوري، اسم طيّب لرجل طيّب! ماذا يخجلك منه؟!

السماء السابعة

- ١ -

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس في الفضاء. كلّ شيء يموج بحضور كونيّ غريب، لا شبيه له من قبل، يحلّل الكائنات إلى عناصرها الأولى، ينذر بالعدم أو بخلق جديد. رغم ذٰلك ما زال يملك وعيًا بما يحدث أو أنّه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعي. سيطر عليه شعور فائق الإلهام أنّه يشهد ما لم يشهد من قبل ولٰكنّه ما زال رءوف عبد ربّه. رءوف عبد ربّه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة. يقف خارج أسوار البوّابة التاريخيّة، في الخلاء، في الظلام، بلا وزن ألبتّة. هو والصديق عانوس قدري راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟ لا يسمع صوتًا، لا يحسّ بمسّ الأرض، وثمّة شعور عجيب بانعدام الوزن، والغوص في السحابة المعتمة المقتحمة. وعندما ينادي صديقه لا يندّ عنه صوت، إنّه موجود وغير موجود. وهو حائر ولٰكنّه غير خائف. وقلبه يتوقّع إجابة قريبة وصريحة. وترقّ السحابة وتمضي في التلاشي. ويقف التموّج ويختفي. عند ذاك تتّضح ظلمة الليل المشعشعة بإشعاعات النجوم. أخيرًا تتراءى يا عانوس. ولٰكن ماذا تفعل؟ ثمّة أناس يحفرون في الأرض حفرة بهمّة ونشاط. وثمّة شابّ مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنّه يرى ذٰلك بشيء من الوضوح أكثر بما تسمح أضواء النجوم. يا للعجب! ما الشابّ المطروح إلّاه، رءوف عبد ربّه نفسه. إنّه أنا دون غيري. وهو منفصل عنه تمامًا، يراه من بعد قريب. ليس شبيهًا به ولا توأم له، إنّه جسمه، وهٰذه بدلته، وهٰذا حذاؤه. عانوس يحثّهم على العمل، لا يراه ألبتّة فيما يبدو، يظنّ أنّ الجسم المطروح يحوي بالكامل صديقه رءوف، لا يفطن إلى الكائن الذي يراقبه بلا انفعال. أدرك أنّه غير مرئيّ مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادر الحياة؟ هل قُتل وعانى الموت؟ قتلتني يا عانوس؟ ألم نقضِ معًا سهرة ممتعة؟ متى شرعت في قتلي؟ كيف نفّذته؟ وأين كان رجال أبيك الذين يحفرون قبري؟ هانت صداقتي عليك لتستأثر برشيدة؟ ألم تقل لي بأنّك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعدًا؟! ها هم الرجال يحملون جثّتي ويرمون بها في الحفرة. ها هم يهيلون عليها التراب ويسوّون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربّه كأن لم يكن. ولٰكنّني موجود يا عانوس. أحسنت صنعًا بدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كلّ أثر. لماذا أنت متجهّم هٰكذا؟ أين نظرة عينيك الساخرة؟ أعترف لك - ولو أنّك لا تسمعني - إنّني طالما أحببتها. أتظنّ أنّ علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى ممّا تظنّ. حتّى الموت يعجز عن محقها. كذٰلك الحبّ. رشيدة لي أنا وليست لك ولٰكنّك متهوّر وسيّئ التربية. نشأت في محيط أبيك المعلّم قدري الجزّار. محتكر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشي الرجال وشاري الذمم، فلقّنك أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوّة الجريمة. ماذا أنت فاعل الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس في المقهى بدوني، ولا المذاكرة، ولا الذهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقين في الحارة رغم الفارق اللانهائيّ

في المال والجاه والسطوة. فإن نسيتني أنت فما أنا بناسيك. واعلم بأنّني لا أحمل نحوك رغبة في الانتقام أو حتّى الإيذاء، لقد دفنت جميع هٰذه العواطف والانفعالات في الحفرة مع جثّتي، حتّى العذاب الذي تعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن في صدري غضبًا وحنقًا وحقدًا وثورة، ولٰكنّه صورة شائهة مرفوضة بقوّة الحبّ، ويشكّل رغبة سامية مبرّأة من الأوشاب لتغييرها تغييرًا كلّيًّا. إنّي أرثي لك يا عانوس. لم أرك في هٰذه الصورة القبيحة من قبل. إنّك هيكل عظميّ تسكنه الخفافيش. الدم المسفوك يلطّخ وجهك وجبينك. عيناك تقدحان شررًا وتتدلّى من أذنيك حيّتان. رجال أبيك يسيرون خلفك على حوافر حميروبرءوس غربان يرسفون في أغلال مغروسة بالشوك. إنّه ليحزنني أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لـذاك يغشاني الأسى وتفتر فيّ أشواق البهجه. . . !

- ٢ -

من خلال تنهّدة وجد نفسه في مدينة جديدة. تضيء بلا شمس مشرقة. مسقوفة بالسحب البيضاء. أرضها تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه، تتخلّلها على مدًى لانهائيّ أكواخ بيضاء كالورود، وثمّة جموع تتلاقى وتفترق في خفّة الطير. وجد نفسه في بقعة خالية. عانى غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة تجلّى أمامه رجل يتدثّر بسحابة بيضاء. ابتسم إليه وقال:

- أهلًا بك يا رءوف في السماء الأولى!

فهتف رءوف بفرحة متألّقة:

- هي الفردوس؟

- قلت السماء الأولى لا الفردوس. . .

- إذن فأين الفردوس؟

- بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظّ في مئات الألوف من السنين الضوئيّة!

فندّ عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل:

- دعني أقدّم لك نفسي أوّلًا، محدّثك آبو الذي كان يومًا كاهن طيبة ذات المائة باب. . .

- تشرّفنا يا سيّدي، من حسن الحظّ أنّي مصريّ مثلك. . .

- لا أهمّيّة لذلك، لقد فقدت هٰذه الجنسيّة منذ آلاف السنين، وإنّي الآن موفد كمحامٍ للدفاع عن القادمين الجدد. . .

- ليس ورائي تهمة ولٰكنّني شهيد. . .

- صبرًا، دعني أحدّثك عن موطنك الجديد، هٰذه السماء تستقبل الوافدين الجدد، فيها يحاكمون وأتولّى أنا الدفاع عنهم، الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام، في حال البراءة يقضي البريء عامًا واحدًا هنا يتأهّل فيه روحيًّا للصعود إلى السماء الثانية. . . .

فقاطعه رءوف متسائلًا:

- لكن ما معنى الإعدام؟

- معناه أن يُقضى عليه بأن يولد من جديد في الأرض ليمارس الحياة مرّة أخرى لعلّه يلقى قدرًا أكثر من النجاح، أمّا ما بين البراءة والإعدام فيُقضى على المتّهم عادة بأن يعمل مرشدًا روحيًّا لشخص أو أكثر في الأرض، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهنًا بتوفيقه أو تُمَدّ مدّة تجربته وهٰكذا. . .

فقال رءوف باطمئنان:

- على أيّ حال فإنّي واثق من البراءة فقد عشت طيّبًا ومتّ شهيدًا. . .

فابتسم آبو وقال:

- لا تتعجّل، ولنبدأ الحديث في قضيّتك. . . أخبرني بهويّتك؟

- رءوف عبد ربّه، السنّ ثمانية عشر عامًا، طالب تاريخ بالجامعة، يتيم الأب، أمّي أرملة تعيش على منحة خيريّة من الأوقاف. . . .

- لماذا أنت راضٍ عن نفسك هٰكذا يا رءوف؟

- رغم فقري الشديد فإنّي طالب مجتهد يحبّ العلم ولا يكفّ عن النهل منه. . .

- جميل هٰذا من ناحية المبدإ، ولٰكنّك كنت تتلقّى كثيرًا وتفكّر قليلًا. . .

- التفكير يُكتسب بالعمر والمران، وعلى أيّ حال لا يُعَدّ ذٰلك تهمة؟

- هنا يُحاسَب الإنسان على كلّ شيء، ألاحظ مثلًا

أنّك كنت تبهر بالأفكار الجديدة...

ـ للجديد سحره يا سيّد آبو...

ـ أوّلًا لا تقل سيّدي، ثانيًا نحن لا نحاسب على التفكير ولو كان خاطئًا، ولكنّنا ندين التسليم بأيّ فكرة ولو كانت صحيحة...

ـ إنّها محاكمة قاسية، العدل في الأرض أرحم!

ـ ننتقل إلى العدل، كيف وجدت حارتك؟

ـ بشعة... أكثرها فقراء متسوّلون... يسيطر عليها فتوّة يحتكر الغذاء... اشترى شيخ الحارة... يسرق ويقتل ويعيش مطمئنًا فوق القانون...

ـ إنّه وصف دقيق، ماذا كان موقفك؟

ـ الرفض والتمرّد والرغبة الصادقة في تغيير كلّ شيء...

ـ تُشكر. ماذا فعلت لتحقيق ذٰلك؟

ـ لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا!

ـ وتريد أن تصعد إلى السماء الثانية؟

ـ لِمَ لا؟ كان عقلي وقلبي رافضينِ لما يجري...

ـ ولسانك؟

ـ لو نطق بحرف متمرّد لكان جزاؤه القطع...

ـ ولٰكن حتّى الكلام وحده لا يُرضي محكمتنا المقدّسة!

ـ يا لها من محكمة! وهل كنت إلّا فردًا وحيدًا؟!

ـ حارتك مكتظّة بالتعساء...

ـ واجبي الأوّل كان تحصيل العلم...

ـ الأمانة لا تتجزّأ ولا عذر عن التخلّي عنها...

ـ لم يكن من المحتمل أن يؤدّي ذٰلك إلى العنف؟

ـ لا تهمّنا الصفات، ما يهمّنا هو الحقّ!

ـ ألا يشفع لي أنّي قُتلت في سبيل الحبّ؟

ـ حتّى هٰذا لا يخلو من عنصر في غير صالحك.

فتساءل رءوف بدهشة:

ـ أيّ عنصر هٰذا؟

ـ إنّك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية!

ـ لم أتصوّر أنّني مذنب لهٰذا الحدّ؟

ـ ثمّة ظروف مخفّفة ولٰكنّ مهمّتي في الدفاع عنك ليست يسيرة.

ـ هيهات أن يظفر أحد بالبراءة في ساحة هٰذه المحكمة...

ـ صدقت، قلّة نادرة أدّت واجبها الكامل نحو الأرض...

ـ أعطني مثالًا أو مثالين...

ـ خالد بن الوليد وغاندي...

ـ إنّهما نقيضان!

ـ للمحكمة تصوّر آخر، والعبرة بالواجب نفسه...

ـ الآن لم يعد لي أمل...

ـ لا تيأس، ولا تستهن بخبرتي الطويلة، سأفعل المستحيل لإنقاذك من الإعدام!

ـ ماذا يمكن أن يقال؟

ـ أقول إنّك بدأت بداية لا بأس بها في ظروف بالغة المشقّة، وإنّه كان يرجى منك خير لو امتدّ بك العمر، وإنّك كنت محبًّا صادقًا وبارًّا بوالدتك...

ـ إذن فغاية ما أطمع إليه أن يُقضى عليّ بأن أكون مرشدًا روحيًّا؟

ـ وهي فرصة لاستدراك ما فاتك، في عالمنا هٰذا لا يصعد الإنسان إلّا بفضل توفيقه في الأرض...

ـ أيّها المحامي الجليل لِمَ لا ترسلون مرشدًا للمعلّم قدري الجزّار؟

ـ ما من أحد إلّا وله مرشده...

فهتف رءوف بذهول:

ـ وكيف يستمرّ الشرّ إذن؟

ـ لا تنسَ أنّ الإنسان حرّ، كلّ شيء يتوقّف في النهاية على قوّة تأثير المرشد وحرّيّة الفرد...

ـ لم يكن من الخير أن تُلغى هٰذه الحرّيّة؟

ـ قضت المشيئة بألّا يُقبل في السمٰوات إلّا الأحرار.

ـ كيف لا يُقبل في السماء وليّ حارتنا الطاهر الشيخ عاشور؟ إنّه لا يمارس الحرّيّة فكلّ ما يقول أو يفعل من إملاء إلهامه الصادق؟

فابتسم آبو وقال:

ـ ما هو إلّا صنيعة لقدري الجزّار، يؤوّل الأحلام لمصلحته وينقل إليه همسات الضمائر من البيوت التي

ترحّب ببركته!

فصمت رءوف مغلوبًا على أمره. غاب قليلًا في الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورود، استسلم للملاحة وعذوبة الجوّ، ثمّ تنهّد قائلًا:

- ما أتعس أن يُجبر الإنسان على هجر هٰذه الجنّة!

فهتف به آبو:

- حذار من الرغبة الآثمة في الهروب من الواجب. . .

فتساءل رءوف:

- متى أمثل في ساحة المحاكمة؟

فأجاب آبو:

- لقد تمّت المحاكمة!

فرنا إليه رءوف بدهشة فقال:

- تمّ الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بيني وبينك، وصدر الحكم وهو يقضي بندبك مرشدًا روحيًّا، تهانيّ!

- ٣ -

تقرّر استبقاء رءوف عبد ربّه في السماء الأولى فترة قصيرة ليتطهّر من أيّ شائبة، وليؤهّل لمهمّته. وبغية تدريبه وتثقيفه أبقاه آبو إلى جانبه في الوقت الذي يستقبل فيه المرشدين عادة. وقال له رءوف:

- أودّ أن أرى أدولف هتلر، هل يجيء الآن؟

- لقد قضي عليه بالإعدام فولد في حارتكم من جديد وطالما رأيته!

- هتلر؟

- هو المعلّم قدري الجزّار.

فصمت رءوف مليًّا من الدهشة ثمّ تساءل:

- إذن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزي؟

- لورد بلفور!

- والشيخ عاشور الوليّ الكذّاب؟

- إنّه خنفس خائن الثورة العرابيّة. . .

- أراهم لا يتغيّرون ولم يستفيدوا من إعادة التجربة. . .

- ليس الحال كذٰلك دائمًا، أتدري من تكون أمّك؟

- إنّها ملاك يا آبو!

- ما هي إلّا ريّا السفّاحة المشهورة فانظر كم تقدّمت!

فذهل رءوف وصمت على حين استقبل آبو أوّل الوافدين. قال الوافد:

- إنّي أبذل أقصى ما أستطيع.

فقال آبو:

- أعلم ذٰلك ولٰكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن لك أن تصعد!

ولّما اختفى الوافد قال رءوف:

- إنّي أعرفه جيّدًا. أليس هو أخناتون؟

- هو عينه، إنّه سيّئ الحظّ فطال مقامه هنا آلاف السنين. . .

- ولٰكنّه أوّل من بشّر بالله الأحد!

- هٰذا حقّ ولٰكنّه فرض إلٰهه على الناس بالقوّة لا بالهداية والإقناع فتيسّر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوّة، ولولا صفاء سريرته لقُضي عليه بالإعدام. . .

- ولِمَ طال به المقام هٰذا الدهر؟

- لم يوفّق مع أحد ممّن نُدب لإرشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعبّاس الأوّل. . .

- ومَن رَجُله اليوم؟

- كميل شمعون!

وجاء الوافد الثاني، قدّم تقريره، تلقّى كلمات مشجّعة ثمّ اختفى. عند ذاك قال رءوف:

- إنّه الرئيس ويلسون!

- أجل.

- حسبته من القلّة السعيدة التي صعدت إلى السماء الثانية. . .

- أنت تشير بلا شكّ إلى مبادئه السامية ولٰكنّك نسيت أنّه لم يستغلّ قوّة أمريكا في تنفيذها، بل إنّه اعترف بالحماية على مصر.

- ومَن رَجُله؟

- الأستاذ توفيق الحكيم!

ولّما اختفى الوافد الثالث قال رءوف:

- إنّه لينين بلا شكّ. . .

- نعم.

ـ حسبت أنّ الإعدام كان نصيبه لإلحاده، ماذا قلت دفاعًا عنه؟

ـ قلت إنّه من خلال ثرثرة فكريّة غيّر الأسماء ولم يغيّر الجوهر، سمّى إلٰهه المادّة الأزليّة وأضفى عليها من صفات الله القِدَم والخلق والسيطرة على مصير الكون، وسمّى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمّال والشياطين بالبرجوازيّين، ووعد أيضًا بالجنّة في تحديد أكثر لزمانها ومكانها، ونوّهت بقوّة إيمانه وبلائه في خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشّفه، وقلت أيضًا إنّ ما يهمّ الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شرّ. أمّا هو ـ جلّ جلاله ـ فمستغنٍ عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به... هٰكذا خُفّف الحكم وعُيّن مرشدًا روحيًّا!

فتساءل رءوف مبهورًا:

ـ ومَن رَجُله؟

ـ الأستاذ مصطفى محمود!

ـ وهل نُدب ستالين مرشدًا أيضًا؟

ـ كلّا، ستالين أُعدم لقتله الملايين من الكادحين بدلًا من أن يعلّمهم ويدرّبهم!

ـ لعلّه يعيش اليوم في حارتنا؟

ـ كلّا، إنّه يعمل في أحد مناجم الهند...

بانتهاء استقبال لينين فرغ آبو من مقابلات الساعة، استصحب رءوف لنزهة في السماء الأولى. لدى تفكيرهما في النزهة انطلقا مباشرة، استجابة للرغبة الداخليّة، بلا حاجة إلى استعمال القدمين، كطائرين، ثملين بنشوة باطنيّة انعكاسًا لمفاتن الحركة المنسابة في يسر وعذوبة. غاصا في جوّ فضّيّ ذي أرضيّة خضراء مزركشة وسماء مضيئة بألق السحائب البيضاء. مرّا بوجوه كثيرة تمثّل شتّى الأجناس والألوان، منهمكين في الظهور والاختفاء ما بين السماء الأولى والأرض. كلٌّ مستغرق في مهمّته الرفيعة. يستهدفون للأرض وأهلها رقيًّا ونصرًا، يأملون من ورائها تكفيرًا وتطهيرًا لأنفسهم ليواصلوا صعودهم في مراقي الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى. يعملون بإصرار، تدفعهم الأشواق الحارّة اللانهائيّة إلى الكمال والحقّ والخلود. قال رءوف:

ـ يخيّل إليّ أنّ العناء هنا لا يقلّ عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب آبو باسمًا:

ـ هما عناء واحد متّصل، غير أنّ الإنسان يمارسه ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح...

ـ زدني وضوحًا يا آبو.

ـ أنتم تحلمون في الأرض باليوم الذي تتحقّق فيه المدينة الفاضلة المؤسّسة على حرّيّة الفرد وعدالة المجتمع والتقدّم العلميّ والسيطرة الظافرة على قوى الطبيعة، وفي سبيل ذٰلك تحاربون وتسالمون وتتحدّون القوى المضادّة المسمّاة في اصطلاحاتكم بالرجعيّة، هٰذا جميل وطيّب ولٰكنّها ليست الهدف كما تتصوّرون، إنْ هو إلّا الخطوة الأولى السديدة في طريق طويل من الرقيّ الروحيّ يبدو حتّى للذين يقيمون في سمائنا الأولى بلا نهاية...

فاستغرق رءوف في التأمّل حتّى سأله آبو:

ـ فيم تفكّر يا رءوف؟

فقال بأسى:

ـ أفكّر في مدى بشاعة الجريمة اليوميّة التي تواصل اقترافها القوّة المضادّة!

ـ وهي جريمة يشارك فيها الطيّبون بالسلبيّة والقعود عن الجهاد خوفًا من الموت وما الموت إلّا ما ترى.

ـ أيّ حياة؟!

ـ إنّها معركة بلا زيادة ولا نقصان!

وتفكّر رءوف طويلًا حتّى أرهقه التفكير فعاد إلى تشوّفه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتمّ بهم فسأل آبو:

ـ أودّ أن أعرف مصائر زعماء وطني؟

ـ انتظرْ حتّى تراهم أو سَلْ ما بدا لك.

ـ ماذا عن السيّد عمر مكرم؟

ـ إنّه اليوم مرشد أنيس منصور.

ـ وأحمد عرّابي؟

ـ إنّه مرشد لويس عوض.

ـ ومصطفى كامل؟

ـ مرشد فتحي رضوان.

ـ ومحمّد فريد؟

ـ مرشد عثمان أحمد عثمان.

ـ وسعد زغلول؟

ـ هو وحده الذي صعد إلى السماء الثانية!

ـ بسبب تضحياته؟

فابتسم آبو قائلًا:

ـ بسبب انتصاره على ضعفه البشريّ!

ـ زدني إيضاحًا يا آبو.

ـ لعلّك تعلم بأنّه عانى هفوات الطموح قبل الثورة ثمّ سما عقب الثورة إلى رؤية رفيعة من الشجاعة والفداء فاستحقّ البراءة...

ـ ومصطفى النحّاس؟

ـ كان مرشد أنور السادات وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرّيّة صعد إلى السماء الثانية...

ـ وجمال عبد الناصر؟

ـ إنّه اليوم مرشد القذّافي...

* * *

في نهاية التدريب القصيرة قال آبو لرءوف:

ـ كُنْ مرشدًا روحيًا لقاتلك عانوس قدري الجزّار...

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة فقال آبو:

ـ اعتمد في الإيحاء على فكرك وإنّه لقوّة عظيمة إذا أحسنت استخدامها، واستعِنْ عند الضرورة بالأحلام، والله معك.

ـ ٤ ـ

هبط رءوف عبد ربّه إلى الحارة. يرى ويسمع على السرائر على حين لا يُرى له طيف ولا يُسمع له صوت. ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المنسابة، في حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة، وأناسها المنهمكين في شئون الحياة، إنّه يملك كافّة ذكرياته، وضمنها آماله وآلامه السابقة، ويتمتّع بصفاء ذهن مثل الضياء الساطع. عشرات وعشرات من الكادحين والكادحات يعملون بأعين خابية وسواعد مفتولة. الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألّق الممزوج بالحموضة. ها هو المعلّم قدري الجزّار في وكالته، لا شبه بينه وبين هتلر في ملامحه، لكنّ جسمه ترهّل من مَصّ دماء البشر. ها هو لورد بلفور، أو شاكر الدرزي شيخ الحارة، الذي أهدر القانون تحت قدَمي الجزّار، وها هو الوليّ الماكر عاشور الذي يستلهم الغيب لتأييد سيّده ومولاه. لك الله يا حارتنا. كيف ومتى تمرقين من هٰذه الأغلال المحكمة؟ ويبدو أنّ اختفاءه ـ رءوف ـ قد حرّك ألسنة الحارة وقلوبها. النسوة يحطن بأمّه الباكية:

ـ هٰذا ثالث يوم يمرّ على اختفائه...

ـ بلّغي القسم يا أمّ رءوف...

ـ بلّغت عمّ شاكر الدرزي شيخ الحارة...

ويجيء صوت شيخ الحارة متهكّمًا:

ـ ألاعيب شباب هٰذه الأيّام!

فهتفت الأمّ الباكية:

ـ ابني لم يغب ليلة واحدة بعيدًا عن بيته...

وها هي رشيدة راجعة من معهدها. جمال وجهها الأسمر مكتسٍ بالكآبة. أمّها تقول لها:

ـ اعتني بنفسك فالصحّة لا تعوَّض!

فتقول وهي تختنق بالبكاء:

ـ إنّي أعرف، قلبي لا يكذّبني...

رنا إليها رءوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب المحبّ جهاز استقبال دقيق. ولٰكنّنا سنلتقي ذات يوم. الحبّ خالد يا رشيدة وليس كما يتوهّم البعض. وها هو القاتل يخطر راجعًا من الجامعة. تمسك بيد كتابًا وتقتل بالأخرى. إنّي لا أغيب عن ذهنك ولٰكنّك لا تدري بأنّني انتُدبت مرشدًا لك. هل تطيعني اليوم أو تمضي في غيّك؟ كلّ شيء يدعو للطمأنينة يا عانوس. أبوك يلقي ظلّه على الجميع. الحكومة والولاية ملك يمينه. تحت أمرك أيّ شهادة زور تحتاج إليها، ولٰكنّ صورتي لا تبرح مخيّلتك. لِمَ لا، ألسنا صديقين ضُرب بمودّتها المثل؟! ثمّ إنّك ما زلت شاديًا في الإجرام. لم تتمرّس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلّمت أو على الأقلّ سمعت عن أشياء جميلة. أتحلم بأنّك ستظفر بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة؟ ما هٰذا الذي قتلته ودفنته في الخلاء؟ لا يعنيني أمره بأكثر ممّا يعنيك. إنّي رفيقك الأبديّ كما سترى. اعترف يا عانوس، اعترف

بجريمتك، اعترف والحقْ بي فسيكون لك دور أفضل.
ها هي أمّي التعيسة تعترض سبيلك:
ـ يا سي عانوس... أليس عندك خبر عن صديقك؟
ـ أبدًا والله...
ـ قال وهو يودّعني إنّه ذاهب إليك...
ـ تقابلنا دقائق ثمّ أخبرني أنّه ذاهب إلى مشوار هامّ وأنّنا سنلتقي مساء اليوم في القهوة...
ـ ولكنّه لم يرجع...
ـ ألم أزرك سائلًا عنه؟
ـ حصل يا ابني ولكنّني أكاد أجنّ...
ـ وإنّي مثلك في القلق...

صدقت يا عانوس. إنّي أرى القلق في روحك مثل النمش في الوجه. ولكنّك قاسٍ وخبيث، إنّك من القوى المضادّة يا عانوس ألا تدرك خطورة ذلك؟ إنّنا نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك وأنت تنحدر في الطريق الأسود؟! إنّي ملازمك. إذا لم تتذوّق هٰذه الدجاجة المحمّرة فالذنب ذنبك، إذا لم تستطع أن تركّز ذهنك في كتابك فالذنب أيضًا ذنبك. لن أتخلّى عنك فلا تبدّد تعبي هباء، واسهد طويلًا فلن يدركك النوم قبل الفجر.

ولّما صعد رءوف إلى السماء الأولى وجد آبو منهمكًا في حديث مع أخناتون، وكان أخناتون يقول:
ـ كلّما قلت له يمينك أخذ يساره!
فقال له آبو:
ـ استعمل قواك كما يجب.
ـ ينقصنا استغلال القوّة المادّيّة...
فهتف آبو:
ـ ألا ترغب في الصعود؟ المسألة أنّك لم تعتد المناقشة والإقناع ولكنّك ألفت إصدار الأوامر...
والتفت آبو إلى رءوف وتساءل:
ـ كيف الحال عندك؟
ـ بداية حسنة.
ـ عظيم!
ـ ولكنّي أتساءل أليس لكلّ فرد من العامّة مرشده؟
ـ طبعًا.
ـ إذن لماذا هم مستسلمون؟!
ـ يا لك من مخطئ، إنّك أحد أبناء عصر الثورات!

في تلك اللحظة هبط عصفور أخضر في حجم تفّاحة حتّى حطّ على منكب آبو. قرّب منقاره الورديّ من أذن آبو فبدا هٰذا منصتًا، ثمّ طار مدوّمًا في الفضاء حتّى توارى خلف السحائب البيض. ورأى آبو نظرة التشوّف في عيني رءوف فقال:
ـ إنّه رسول السماء الثانية جاءني ببراءة الصعود للمدعوّ شعبان المنوفي.
ـ ومَن شعبان المنوفي؟
ـ جنديّ مصريّ استشهد في المورة على عهد محمّد عليّ، وهو مرشد لمهرّب نقود يدعى مروان الأحمدي فنجح أخيرًا في حمله على الانتحار...

وجاء شعبان المنوفي مشمولًا بثوبه السحابيّ، فقال له آبو:
ـ ستصعد مجلّلًا بالبركات إلى السماء الثانية!

وهرع إلينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتّى ازدحم بهم المكان الأخضر، وقف شعبان بينهم متهلّل الوجه. وعزفت موسيقى بلحن سماويّ، وقال آبو:
ـ اصعد يا وردة المدينة الخضراء وواصل جهادك القدسيّ...
فقال شعبان المنوفي بصوت عذب:
ـ طوبى لمن يقدّم خدمة لأرض العناء...

ومضى يصعد بخفّة الشذا الرشيق والموسيقى تعزف لحن الوداع البهيج.

ـ ٥ ـ

ها هو عانوس قدري الجزّار يقف أمام ضابط المباحث. الضابط يسأله:
ـ متى رأيت رءوف عبد ربّه آخر مرّة؟
ـ عصر اليوم الذي اختفى فيه، زارني في البيت، سرعان ما غادرني لمشوار هامّ واعدًا بمقابلتي مساءً في القهوة...
ـ هل أخبر شيئًا عن مشواره؟
ـ كلّا...

- ألم تسأله عنه؟
- كلّا... حسبته أمر يتعلّق بالأسرة...
- رآكما البعض وأنتما تسيران معًا في الحارة عقب الزيارة؟

* * *

لا تضطرب. الأفضل أن تعترف. فرصتك الذهبيّة لو تعلم!

* * *

- أوصلته حتّى خارج البوّابة...
- إذن ذهب إلى الخلاء؟

* * *

هٰذه فلتة لسان يا عانوس. ما أكثر الفلتات! لن ينجّيك إلّا الصدق.

* * *

- نعم.
- ماذا فعلت بعد ذٰلك؟
- قصدت القهوة لأنتظره...
- حتّى متى بقيت فيها؟
- حتّى قبيل منتصف الليل ثمّ رجعت إلى بيتي.
- تستطيع أن تثبت ذٰلك؟
- كان يجلس بالقرب منّي طوال الوقت عمّ شاكر الدرزي شيخ الحارة... وفي الصباح الباكر ذهبت إلى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتني بأنّه لم يعد!
- ماذا فعلت؟
- سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف في الحارة...
- ألك تصوّر خاصّ عن اختفائه الطويل؟
- كلّا، إنّه شيء محيّر حقًّا...

* * *

ها أنت تنصرف من القسم يا عانوس. إنّك تستعيد كلّ كلمة قيلت. تندم على ذكر البوّابة. تتساءل عمّن شهد مسيركما معًا. كأنّك تفكّر في مزيد من الشرّ. وتعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار. إنّه مطمئنّ جدًّا. في جيبه تستقرّ النقود والقانون والشهود. جرم محترف. أنصحك للمرّة الثانية أن تواجه جريمتك بشجاعة وتصفّي حسابك. ثمّ ما هٰذا؟ ألا تزال صورة رشيدة ترتسم في مخيّلتك؟ هٰذا هو الجنون عينه. ثمّ إنّك تدرك أنّ التحرّيات ستجري عنك مثل الطوفان. شيخ الحارة يقرّر ذٰلك أيضًا. الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة. إنّك تفكّر في ذٰلك كلّه وتفكّر أيضًا في رشيدة يا أحمق! لذٰلك قال رءوف لأبو:

- الخوف من الموت أكبر لعنة سُلّطت على البشر.

فتساءل آبو باسمًا:

- ألم يكن ذٰلك خليقًا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته؟

ولزم رءوف الصمت فقال آبو:

- لقد انتُدبت مرشدًا لا فيلسوفًا فتذكّر ذٰلك...

- ٦ -

إنّك تتساءل يا عانوس لِمَ يستدعيك الضابط ثانية، حسن، الأمور لا تنتهي بالبساطة التي يتصوّرها أبوك. ها هو الضابط يسأل:

- ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصيّة؟
- لا شيء فيها يستحقّ الذكر.
- حقًّا؟... وماذا عن حبّه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزيّة؟
- كلّ شابّ لا يخلو من علاقة كهٰذه!
- ألك أنت مثلًا علاقة مثلها؟
- هٰذه شئون خاصّة ولا شأن لها بالتحقيق!
- أتظنّ ذٰلك؟... حتّى إذا كنت تحبّ الفتاة نفسها؟
- المسألة تحتاج لإيضاح...
- طيّب!... ما هو؟
- كاشفته مرّة بأنّي أرغب في خطبة رشيدة فصارحني بأنّهما متحابّان وفي الحال اعتذرت واعتبرت الأمر منتهيًا!
- ولٰكنّ الحبّ لا ينتهي بكلمة...
- كانت مجرّد عاطفة عابرة... لا أدري ماذا تقصد؟
- إنّي أجمع معلومات، وأتساءل ترى ألم تتغيّر عواطفك نحو صديقك ولو قليلًا؟

- كلّا... عاطفتي لرشيدة كانت عابرة أمّا صداقتنا فكانت صداقة العمر!

- تقول كانت؟... هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق:

- أقصد أنّها صداقة العمر.

***

تتساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيدة؟... وبِمَ اعترفت؟ حسن إنّي أقول لك إنّ التحقيق جرى، وإنّها اعترفت بمحاولاتك في انتزاعها من قلب صديقك، كما اعترفت بسطوة أبيك وخوفها على نفسها وعلى أمّها. أؤكّد لك أنّ الأمور تمضي في غير صالحك.

* * *

فضحك الضابط وقال:

- تتكلّم كما لو كنت يئست من رجوع صديقك!

- إنّي واثق من رجوعه، بهٰذا يحدّثني قلبي...

- قلب المؤمن دليله، وإنّي لأرجو ذٰلك أيضًا!

* * *

تخرج هٰذه المرّة من القسم وأنت أشدّ اضطرابًا من المرّة الأولى. أظنّك شعرت تمامًا بأنّ الضابط الماكر يشكّ فيك يا عانوس. لا تتصوّر أنّ أباك قادر على كلّ شيء. هتلر نفسه ألم ينهزم وينتحر؟!

- ٧ -

الضابط يستدعيك للمرّة الثالثة يا عانوس. أعصابك بدأت تتمزّق. أبوك يرمق شاكر الدرزي بغضب ولٰكن ماذا بوسعه أن يفعل؟! قف أمام معذّبك الضابط واسمع:

- يا عانوس، تلقّينا رسالة من مجهول يتّهمك بقتل صديقك رءوف!

وهتف بغضب مفتعل:

- تهمة حقيرة... ليكشف عن وجهه...

- صبرك، نحن نقدّر الأمور بميزان دقيق، أنت وصاحبك ألم تكونا تذهبا كثيرًا خارج البوّابة للسهر؟

- بلى...

- أين كنتما تقضيان الوقت في ذٰلك الخلاء؟

- في مقهى الشرفا فوق الهضبة...

- هٰذا ما قدّرته، وقد قرّرت أن أجري مواجهة بينك وبين رجال المقهى!

* * *

انتظر ولا تضطرب. إنّك عنيد، هٰذه هي الحقيقة. لا تريد أن تستجيب لمناجاتي. ثق في أنّني أعمل لصالحك يا تعيس...

* * *

وتمّت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصبيّه أنّهما لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجلّ الاقتناع الكامل على وجه الضابط. ورمق عانوس بنظرة صارمة وتمتم:

- تفضّل بالانصراف!

* * *

تغادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحقّ في ذٰلك. أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولٰكن هل ينتهي الأمر عند هٰذا الحدّ؟ قلبك ينقبض وأنت تمرّ أمام مسكن ضحيّتك. تساورك الهواجس مرّة أخرى. مَن المجهول الذي أرسل الخطاب؟ وهل يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنّك قاتل يا عانوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ. لأزورنّك الليلة في المنام. ما دمت لا تستجيب إلى ندائي الخفيّ فستجد جثّتي مطروحة إلى جانبك فوق الفراش. ها هو شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس. وتستيقظ فزعًا بقلب ثقيل. وتنزلق من الفراش لتبلّ ريقك بجرعة ماء. ولٰكنّك ستجد الجثّة حال استغراقك في النوم، ويتكرّر الحلم ليلة بعد أخرى. تدعو أمّك الشيخ عاشور لفحص حالك فيهبك حجابًا لتضعه فوق قلبك ولٰكنّ الجثّة لا تبرح منامك. وتسوء حالك فتذهب سرًّا إلى الطبيب النفسيّ. تتردّد عليه أسبوعًا بعد أسبوع. يقول لك قولًا عجبًا. إنّك تتصوّر أنّ صديقك قد قُتل، وإنّ جثّته هي جثّتك أنت للارتباط العاطفيّ بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثّته هي البديل عن جثّتك، ولٰكن لماذا تتصوّر أنّك أنت القتيل؟ جثّتك بدورها بديل عن جثّة أخرى أو بديل عن شخص آخر تودّ أن تقتله في أعماقك وهو أبوك، وعليه فالحلم كلّه انعكاس لعقدة أوديب! ما معنى

هٰذا؟ أنا ما زرتك في الحلم إلّا تذكرة لجريمتك بغية إيقاظ ضميرك ليكفّر عن فعلك فما دخل عقدة أوديب؟ إنّك لا تعشق أمّك ولا تودّ قتل أبيك ولٰكنّك تعشق رشيدة وقتلتني أنا لتزيحني من طريقك!

وشكا رءوف أمره إلى آبو فقال آبو:

- الشكوى من التشخيص العلميّ الناقص كثيرة، حساسية من الإحباط تشخّص كمرض ناشئ عن تناول الشيكولاطة، كآبة من فقدان الإيمان يعالَج بسببها العصب السمبتاويّ، إمساك شديد بسبب الوضع السياسيّ توصف له المليّنات وهلمّ جرًّا!

- والعمل يا آبو؟

- هل أدركك اليأس؟

فبادره رءوف:

- كلّا...

- استثمر ما لديك من قوّة!

- ٨ -

حُفظت قضيّة رءوف عبد ربّه لعدم الاهتداء إلى أسباب اختفائه. تلاشى الحادث رويدًا رويدًا من الأذهان، لم تعد تذكره إلّا أمّه ورشيدة. ومضى عانوس يمارس حياته اليوميّة مستغرقًا العمل واللهو. كان الماضي يطارده من حين إلى حين سواء في اليقظة أو في المنام ولٰكنّه ألف مناوشاته وغالبها بالإرادة والمخدّر والمنوّم. وأمن جانب القانون تمامًا فراح يفكّر من جديد في رشيدة وإلّا فما معنى إقدامه على أفظع فعل في حياته؟! كان يتعمّد رؤيتها وأن يُريها نفسه كلّ صباح وهما ذاهبان إلى معهديهما. ما زال وجهها مكتسيًا بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وألا تفكّر يومًا في مستقبلها كفتاة تنشد الحياة والسعادة والإنجاب؟! وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه في الحارة كلّها؟! لقد ضاعفت مغامرته الجنونيّة من تعلّقه بها ورغبته الثابتة في الاستحواذ عليها. ومرّة تصادف مجلسه لصقها في الترام فحيّاها ولٰكنّها تجاهلته فقال:

- كان يجب أن نتبادل المساعدة...

فقطّبت نافرة ولٰكنّه واصل حديثه:

- فكلانا يعاني فقد عزيز مشترك!

عند ذاك خرجت عن صمتها قائلة:

- لم يُفقد ولٰكنّه قُتل!

- ماذا؟!

- كثيرون يؤمنون بذٰلك؟!

- ولٰكنّه لم يكن له عدوّ واحد؟!

فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت.

* * *

إنّها تتّهمك يا عانوس بقتله. أكنت في شكّ من ذٰلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك ببعث نفسك والوقوف في وجه أبيك. لقد فات أوان الحبّ.

* * *

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد والرغبة. ودهمت مخيّلته أحلام طائشة مفعمة بالعنف والشهوة...

- ٩ -

وقالت أمّ رشيدة لأمّ رءوف:

- الجميع يتكلّمون عن ذٰلك الرجل العجيب الذي يحضّر الأرواح فلم لا تجرّبينه علمًا بأنّه لن يكلّفك مليّمًا واحدًا؟

فرنت إليها الثكلى حائرة ثمّ تمتمت:

- وتذهبين معي!

- لِمَ لا؟... سأتّصل بالمرحوم أبي رشيدة!

وقالت رشيدة وهي تتابع الحديث باهتمام:

- أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح...

وتواعدن على يوم في تكتّم شديد، وقال رءوف لآبو متهلّلًا:

- هي فرصتي لكشف الستار عن المجرم...

فقال آبو:

- أنت منتدَب مرشدًا له لا عليه!

- أنترك هٰذه الفرصة تفلت من أيدينا؟

- لست مرشد شرطة يا رءوف، إنّك مرشد روحيّ وهدفك أن تنقذ عانوس لا أن تسلّمه للجلّاد...

- ولٰكنّه مثل الصخر لا تؤثّر فيه نسائم الحكمة...

ـ إنّه اعتراف بالعجز. . .

فهتف رءوف:

ـ كلّا. . . لم أقنط بعد. . . ولٰكن ماذا عليّ أن أفعل إذا استُدعيت روحي؟

ـ أنت حرّ فلا تقيّد حرّيّتك بالإلحاح في الاسترشاد. . .

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أمّ رءوف وأمّ رشيدة ورشيدة. واستدعت روح رءوف فحلّ في ظلمة الحجرة وقال لأمّه بصوت سمعه جميع الحاضرين:

ـ رءوف يحيّيك يا أمّي. . .

فشهقت المرأة لتوكّدها من موت ابنها وتساءلت:

ـ ماذا حدث لك يا رءوف؟. . .

فقال رءوف بلا تردّد:

ـ لا تحزني، أنا سعيد، لا يزعجني إلّا حزنك، تحيّاتي إلى رشيدة. . .

وسرعان ما غادر الحجرة. . .

ـ ١٠ ـ

ورجعت أمّ رءوف وأمّ رشيدة ورشيدة وهنّ يتساءلن:

ـ لِمَ لَمْ يبح بسرّ مقتله؟

فقالت أمّ رءوف وهي تجفّف دمعها:

ـ ولٰكنّه انعدم في عزّ شبابه. . .

فقالت رشيدة:

ـ لا تزعجيه بالحزن. . .

وقالت أمّ رشيدة:

ـ من يدري لعلّه مات في حادث. . .

ـ ولِمَ لَمْ يخبرنا بحقيقة موته؟

ـ إنّه سرّه على أيّ حال!

وأصبح شهود الجلسات هواية أمّ رءوف، وسلواها الوحيدة في الدنيا. وكانت تصحب أمّ رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الأيّام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلّفت عن الذهاب معهما. . .

وفي ليلة من تلك الليالي وكانت بمفردها بالشقّة وهي تذاكر إذ اقتحم الحجرة عليها عانوس قدري الجزّار. تسلّل من المنور ثمّ اقتحم الحجرة. وهتف به رءوف أن ارجع ولا تتقدّم خطوة واحدة، ولٰكنّه هجم على رشيدة وكتم الصوت في فيها براحته وهو يقول:

ـ ستجرين بعد ذٰلك ورائي يا عنيدة. . .

وشرع بوحشيّة في اغتصابها وهي تقاوم بعنف يائس. وصرخ:

ـ سأغتصبك حيّة أو ميتة. . .

وتسلّلت يدها إلى المقصّ فوق الخوان وبقوّة جنونيّة وهي مهتصرة تحت ثقله رشقته في جانب رقبته. شدّ عليها بقسوة ووحشيّة ثمّ تراخت قوّته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدفّق الدم الحارّ على وجهها وصدرها الممزّق. . .

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرّئ وجرت مترنّحة نحو النافذة وهي تصرخ بأعلى صوت. . .

ـ ١١ ـ

هرع الناس إلى الشقّة فوجدوها كالمجنونة مخضّبة بالدماء. رأوا جثّة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهي تتكوّر على نفسها:

ـ أراد أن يغتصبني. . .

ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر إلى المعلّم قدري الجزّار لفتك بها. وكان يزأر:

ـ ابني. . . وحيدي. . . سأحرق الدنيا. . .

وأحاطت القوّة برشيدة وصاح الضابط:

ـ الجميع يخرجون في الحال. . .

وصاح قدري موجّهًا عاصفته إلى رشيدة:

ـ سأشرب من دمك. . .

وانتشرت نيران الخبر الدامي في الحارة. . .

ـ ١٢ ـ

وقف عانوس يرنو إلى جثّته وهو في حيرة غاشية. تقدّم رءوف منه باسمًا فنظر إليه الآخر وتمتم:

ـ رءوف!. . . ماذا جاء بك؟

فأجابه برقّة:

ـ جاء بي الذي جاء بك، هلمّ معي بعيدًا عن هٰذه الحجرة. . .

فأشار إلى جثّته وقال:

- وأترك هٰذه؟
- هي ثوبك القديم ولم يعد يصلح للاستعمال!
- هل... هل...؟
- أجل... لقد غادرت الدنيا يا عانوس...
وصمت مليًّا ثمّ قال مشيرًا إلى رشيدة:
- ولٰكنّها بريئة...
- أعرف ذٰلك، ولٰكنّك لن تستطيع إسعافها... هلمّ معي... فقال عانوس بعد تردّد:
- آسف على ما اقترفته فيك!
- لا أهمّيّة للأسف...
- إنّي سعيد بلقائك...
- وإنّي سعيد بلقائك...

- ١٣ -

وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة. ولّما جاء آبو قال رءوف:
- آبو، محاميك يا عانوس...
فقال آبو مخاطبًا عانوس:
- أهلًا بك يا عانوس في السماء الأولى...
فتساءل عانوس بذهول:
- كُتبت لي الجنّة؟!
فابتسم آبو وقال:
- صبرك، الطريق أطول ممّا تتصوّر...
ومضى آبو يزوّده بالمعلومات الضروريّة عن عالمه الجديد، والمحاكمة، ونوعيّة الأحكام المتوقّعة. وتمثّلت لعانوس أفعاله أشباحًا قبيحة مفزعة فتجهّم وجهه وتجرّع القنوط حتّى الثمالة، غير أنّ آبو قال:
- على أيّ حال فإنّ مهمّتي هي الدفاع عنك...
- وهل لديك فرصة لذٰلك؟... هل يخفّف من آثامي حرماني من الحياة وأنا في عزّ الشباب؟
- لقد خسرتها بيد فتاة وهي تدفع عن شرفها اغتصابك، ثمّ تركتها متّهمة بقتلك...
- هٰذا صحيح، كم أتمنّى أن أندب مرشدًا روحيًّا لها!
- كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحًا فليست هي في حاجة إليك...
- أيعني هٰذا أنّني هلكت؟
- أبوك ولا شكّ يربض وراء فسادك، هو الذي دلّلك، هو الذي ملأك بالأنانيّة، هو الذي جرّأك على كرامات العباد، هو الذي يَسَّرَ لك ارتكاب الجرائم كأنّك تملك الدنيا بلا شريك...
فقال عانوس منتعشًا:
- نطقت بالحقّ!
- ولٰكنّك تحاكم باعتبارك ذا عقل وقلب وإرادة حرّة!
- قوّة أبي خدّرت قواي جميعًا!
- السماء تعدّك مسئولًا عن نفسك وعن العالم أجمع...
- أليست مسئوليّة فوق طاقة البشر؟
- ولٰكنّك تحمّلتها مقابل ظفرك بالحياة.
- لقد وُلدت بغير إرادة منّي.
- بل أخذ عليك العهد وأنت في الرحم...
- بالصدق والصراحة لا أذكر ذٰلك...
- كان عليك أن تتذكّره...
- إنّها محاكمة لا دفاع...
- علينا أن نكشف عن الحقيقة!
- لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أنّني أحببت حبًّا صادقًا.
- سعيت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان حبّك مجرّد رغبة متعجرفة في امتلاك فتاة صديقك الفقير...
- لم تكن تفارق خيالي لحظة واحدة...
- لم تكن إلّا كبرياء وشهوة...
فقال عانوس متعلّقًا بأيّ خيط وهو يشير نحو رءوف:
- مارست الصداقة الصافية...
- ألم تقتلها بعد ذٰلك بوحشيّة؟
- كان حزني قاسيًا...
- لا غبار على ذٰلك...
- وحبّي للقطط وحنوّي عليها؟
- هٰذا جميل أيضًا.
وبعد صمت قليل عاد آبو يتساءل:

ـ وماذا عن موقفك من جبروت أبيك. . .؟

ـ كنت ابنًا بارًّا!

ـ البرّ لم يكن مطلوبًا في حالك. . .

ـ طالما استفظعت بعض فعاله. . .

ـ وطالما أُعجبت بأفعال أخرى لا تقلّ عن الأولى في بشاعتها. . .

ـ لو مُدّ في عمري لتغيّر الأمر. . .

ـ إنّك تحاكم على ما كان. . .

ـ أو أن أعطى فرصة أخرى.

فقال آبو بغموض:

ـ ربّما تهيّأ لك ذٰلك. . .

ـ متى أمثل أمام المحكمة؟

ـ لقد تمّت المحاكمة يا عانوس ويؤسفني أن أبلّغك بأنّه قُضي عليك بالإعدام. . .

في الحال تلاشى عانوس كنفحة الشابورة. تحت ضوء الشمس. ونظر رءوف إلى آبو متسائلًا:

ـ هل أستمرّ مرشدًا له؟

ـ إنّه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقلّ وقد ينتظر أكثر من ذٰلك. . .

ـ وما عسى أن يكون عملي الجديد؟

فقال آبو بأسًى:

ـ ستتقدّم إلى المحكمة من جديد.

فهتف رءوف:

ـ ألم أبذل أقصى ما لديّ من جهد؟

ـ بلى ولكنّك فشلت وقد أُعدم رجلك كما رأيت. . .

ـ العبرة بالعمل لا بالنتيجة.

ـ العبرة بالعمل والنتيجة معًا، ثمّ إنّك أخطأت خطأً فاحشًا. . .

ـ ما هو يا آبو؟

ـ لم يكن لك إلّا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنّها الجريمة الوحيدة في الحارة أو كأنّها أكبر الجرائم!

ـ ألم تكن مشكلته الأولى؟

ـ كلّا.

ـ فماذا كانت مشكلته؟

ـ أبوه كان المشكلة، لو حرّضته على أبيه لأصبت أكبر الأهداف!

فلاذ رءوف بالصمت محزونًا فواصل الآخر حديثه:

ـ لم تحسن اختيار الهدف، غلبتك الأنانيّة وأنت لا تدري، ولم يكن يسيرًا أن يعترف شابّ أحمق مدلّل ليضحّي بحياته، كان الأيسر أن يتمرّد على وحشيّة أبيه، ولو نجح في مهمّته لانفضح أمر جرائم أبيه متضمّنة جريمة قتلك. . .

فقال رءوف مسلّمًا:

ـ أعلنّي بالحكم. . .

فقال آبو:

ـ يؤسفني يا رءوف أن أبلغك بأنّه قُضي عليك بالإعدام. . .

وسرعان ما تلاشى رءوف عبد ربّه. . .

ـ ١٤ ـ

جرى تحقيق طويل مع رشيدة سليمان، قُدّمت للمحاكمة، اقتنعت المحكمة بأنّها ارتكبت جريمتها دفاعًا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة. وجدت أمّها أنّ من الخطر غير المأمون العواقب البقاء في الحارة تحت رحمة المعلّم قدري الجزّار فهربت مع ابنتها بليل ولم يستدلّ لهما على مكان.

ولّما كان تيّار الحياة المتدفّق أبدًا يجرف زبد الأحزان فقد تزوّجت أمّ رءوف الوحيدة الفقيرة من شاكر الدرزي شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام، وأنجبت له طفلًا ذكرًا أسمته رءوف تخليدًا لذكرى فقيدها. ولم يكن رءوف الجديد إلّا روح عانوس بن قدري الجزّار قد لبست جسمًا جديدًا. كذٰلك أنجبت إحدى زوجات قدري الجزّار طفلًا ذكرًا أسماه الرجل عانوس تحيّة لذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رءوف تقمّصت جسدًا جديدًا.

ـ ١٥ ـ

نشأ رءوف (عانوس) في بيت شاكر الدرزي الحافل بالإخوة والأخوات، في حياة ميسورة بفضل النقود التي يرشوه بها قدري الجزّار. ولكنّ شيخ الحارة لم يكن

يعنى بتربية أولاده، زوّج البنات، أمّا الصبيان فلم يجاوز أحدهم مرحلة الكتّاب في تعليمه، فعملوا في شتّى الحرف سواء في الحارة أو خارجها، ولم يكن حظّ رءوف أسعد من إخوته. في البدء أصرّت أمّه على أن ينجح في التعليم، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد، وبسبب من إصرارها تعرّضت لزجر شديد من زوجها. وسرعان ما ألحق ابنه عاملًا صغيرًا في الطابونة، وفرح رءوف بذلك إذ لم يجد من نفسه الميل الصادق أو العزيمة المتوثّبة لطلب العلم. وبتقدّمه في العمر مضى يدرك الوضع في حارته، سطوة المعلّم قدري الجزّار، والدور الخسيس الذي يلعبه أبوه، والحياة الفقيرة التي قضي عليه بها في خدمة المعلّم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامل عانوس رءوف في الكتّاب، ومال كلّ منهما إلى صاحبه، فاشتركا في اللعب دهرًا، وتوطّدت بينهما ألفة قويّة، غير أنّ الحياة فرّقت بينهما رغم تجاورهما في حارة واحدة. ألحق عانوس بالابتدائيّة، ثمّ الثانويّة، ثمّ دخل كلّيّة الشرطة. ربّما تلاقيا في الطريق، أو تقابلا في بيت قدري الجزّار ورءوف يتلقّى العجين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة، أو تحيّة ـ من ناحية عانوس ـ فاترة. أدرك رءوف أنّ صداقة الطفولة ذابت وتبخّرت، وأنّ عالميهما متباعدان. وازداد شعوره حدّة بتناقضات الحياة وتعاستها، فحنق على عانوس ولكنّه كره قدري الجزّار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحقّ لفحته نار الحياة، ولكن ضرّمها ما يترامى إلى أذنيه في القهوة من مناقشات الشباب. حتّى عانوس يجالس أولٰئك الشبّان ويدلي برأيه في حماس. وعند ذٰلك يبدو شابًّا غريبًا، متنافرًا مع جوّ البيت الذي يعيش فيه، ومتمرّدًا على أبيه الجبّار.

وجعل المعلّم قدري الجزّار يراقب نموّ ابنه بقلق. إنّه نبت جديد شرس، غريب مثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرّة «ابن حرام».

ومرّة سأله:

ـ ماذا تقول في القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب:

ـ نتبادل الهموم يا أبي. . .

ـ إنّهم أعداؤك. . .

فقال باسمًا:

ـ إنّهم أصدقائي. . .

فهتف الأب بغضب:

ـ إذا جاوزت حدّك فستجدني شخصًا آخر لا يعرف الرحمة. . .

وقال قدري الجزّار لنفسه إنّ ابنه سيصير عمّا قليل ضابطًا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثمّ يتزوّج وتنتهي مشكلاته.

وتخرّج عانوس ضابطًا، وعُيّن في قسم الحيّ بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

ـ ١٦ ـ

إنّه الزمن الذي جعل من رءوف وعانوس شخصين غير متوقّعين. اكتسح الحارة تيّار، بل تيّارات جديدة، متمرّدة وأحيانًا ثائرة. لذلك مرقا من جوّ البيت الخانق واستعار كلّ منهما لنفسه شخصيّة جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطًا. أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين أبيه ولكنّ الأب توقّع أن يتغيّر كلّ شيء لصالحه حال اندماج ابنه في حياته الرسميّة، أمّا رءوف فسرعان ما غضب عليه معلّمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به:

ـ احرص على رزقك ولا تحرّض أقرانك على الفساد. . .

ولولا منزلة أبيه ـ شاكر الدرزي ـ كشيخ حارة لفصله من عمله ولكنّه شكاه إليه فدهش الرجل لهٰذا العصيان الجديد في نوعه وأدّبه بعلقة ساخنة. ولّما آنس منه عنادًا استعان بحضرة الضابط عليه، قال له:

ـ يا فندم هدّده بالقانون فهٰذا خير من أن نضطرّ إلى القبض عليه غدًا. . .

هٰكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادلا النظر طويلًا. ثمّة ذكريات مشتركة أفعمت «جوّهما» بالدفء. ابتسم عانوس وسأله:

ـ كيف حالك يا رءوف؟

فأجاب رءوف:

ـ قطران، بعيد عنك. . .

- كان عليك أن تستمرّ في تعليمك...

- إنّه أبي وما مضى قد مضى...!

فشحن صوته بجدّيّة وهو يقول:

- احرص على رزقك فالقانون لا يرحم...

فقال رءوف بنبرة ذات معنى:

- معلّمي شره ولا رحمة في قلبه...

فقال عانوس بصوت منخفض:

- احرص على رزقك...

وعقب ذٰلك سعى عانوس لاتّخاذ إجراء هزّ وجدان الحارة وزلزل أباه فقد نقل شاكر الدرزي إلى حارة أخرى وأحلّ محلّه شيخ حارة جديدًا أهلًا للثقة يدعى بدران خليفة. ثار الأب قدري الجزّار ثورة عنيفة فقد خسر اليد التي تحميه من القانون، وسأل ابنه:

- كيف يحصل هٰذا وأنت ضابط القسم؟

فقال له عانوس:

- في ذٰلك حماية لك وللناس!

- إنّك ابني وعدوّي يا عانوس...

- اعلمْ يا أبي بأنّي ابنك البارّ...

كان لكلّ لغته الخاصّة به، واستحال التفاهم بينهما، واغبرّ وجه البيت بالتراب الأسود...

- ١٧ -

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس في القسم. عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة جديدة وعذبة. بديعة هٰذه السمرة الرائقة وهاتان العينان اللوزيّتان السوداوان. كأنّ الصورة قد رُسمت على هواه من أجل هواه. لعلّها في الخامسة والثلاثين أو تزيد، فهي أكبر منه بحوالي عشرين عامًا. في عينيها رصانة تقارب الكآبة. قالت:

- إنّي أطلب حمايتك!

سألها عن هويّتها فقالت:

- اسمي رشيدة سليمان، مدرّسة، نُقلت حديثًا إلى مدرسة العهد الجديد بالحيّ...

هٰذا الاسم، هل مرّ ذات يوم بشبكة ذاكرته...

سألها وعيناه تحدّقان في وجهها بشغف:

- ممّ تخافين؟

- إنّه تاريخ قديم، قد أتعرّض بسببه لاعتداء على حياتي...

- حقًّا؟ ما التاريخ؟ ومن المعتدي؟

فقالت بعد تردّد:

- قضيّة قديمة بُرِّئت منها، كنت في حال دفاع عن النفس، ولٰكنّ والد القتيل رجل مخيف وله أعوان مجرمون...

اقتحمته الذكرى القديمة التي سمعها تتردّد في صباه كعاصفة، شدّ على أعصابه ليملك نفسه المشتّتة. إنّه أمام قاتلة أخيه عانوس الأوّل. ها هي تفتنه كما فتنت أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها:

- هربنا إلى أمبابة، عملت مدرّسة في الأقاليم، وإذا بي أُنقل فجأة إلى الحيّ القديم...

صمت مطحونًا بدوّامة انفعالاته، لم يسألها عن اسم الرجل المخيف، ولٰكنّها قالت:

- أمّا الرجل فمعروف عندكم، إنّه المعلّم قدري الجزّار...

استردّ نفسه بجهد شديد متسائلًا:

- حضرتك متزوّجة؟

- لم أتزوّج قطّ...

- لِمَ لَمْ تشرحي ظروفك للمنطقة التعليميّة...؟

- لم يهتمّ بي أحد...

- أين تسكنين؟

- ١٥ شارع الدرّيّ، أمبابة...

فقال بهدوء:

- اطمئنّي، سأخاطب المنطقة بنفسي، وإذا تباطأت فسأعمل على حمايتك...

تمتمت بحرارة:

- شكرًا... لا تنسني من فضلك!

كلّا. ليس من المستطاع نسيانها!

- ١٨ -

لم يجد عانوس صعوبة في إلغاء النقل. وبنفسه ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدرّيّ بأمبابة. الوقت أصيل، والنيل شبه ساكن، ومن فوق سطحه تتهادى لفحات باردة. استقبلته رشيدة بدهشة ممزوجة بسرور

وأمل ثمّ قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومهندمة. قال:

- معذرة عن الزيارة، ولكنّي أردت أن أسارع بطمأنينتك بإلغاء النقل!

- ألف شكر يا فندم...

أمرت له بقهوة فتهيّأ له البقاء فترة كما أمل.

- تعيشين مع والدتك...؟

- أمّي ماتت منذ عشرة أعوام، معي شغّالة عجوز وطيّبة...

يا للخسارة إنّها عانس ولكنّها محتفظة بروائها...

- هل يزعجك أن تعرفي أنّني عانوس قدري الجزّار ابن الرجل المخيف؟!

ذهلت. تلوّن وجهها الأسمر فاكتسى بعمق. لم تنبس بكلمة...

- إنّي ألمس انزعاجك...

فقالت بنبرة متهدّجة:

- مجرّد دهشة...

- أرجو ألّا تكرهيني...

فقالت بحياء:

- إنّك إنسان...

ومضى يحتسي القهوة وهو يختلس منها النظرات، ثمّ قال ضاحكًا:

- لست مخيفًا كوالدي!

- إنّي واثقة من ذلك...

- حقًّا؟!

- الأمر واضح جدًّا، والحقّ أنّي بريئة!

فقال بهدوء:

- إنّي واثق من ذلك...

ومواصلًا بعد صمت:

- ولكنّه ثمّة شيء يحيّرني؟

فرمقته بنظرة متسائلة فقال:

- لِمَ لَمْ تتزوّجي؟!

فنظرت بعيدًا مليًّا ثمّ قالت:

- رفضته أكثر من مرّة...

- ولكن لماذا؟

- لا أدري...

- بسبب حبّ الآخر؟!

- ولكنّه نُسي ككلّ شيء!

- لا بدّ من سبب!

- ليس الدم بالتجربة الهيّنة، لعلّي يئست من القدرة على إسعاد أحد...

- أمر مؤسف...

- لعلّ الخير فيما كان...

فقال متعمّدًا:

- ما زلت شابّة وجميلة!

في طريق عودته سبح في أجواء خياليّة، كره الضرورة التي تبعده عن البيت ١٥ وعن أمبابة، وقال لنفسه: «إنّي أحبّ رشيدة».

- ١٩ -

وقف الجفاء سدًّا منيعًا بينه وبين أبيه. حزنت لذلك أمّه حتّى الموت. أصبح البيت كئيبًا مثل جحر فئران. هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وأمبابة؟! ماذا يحدث لو عرف أبوه العاطفة المتأجّجة في صدره؟ تراءت له فكرة طارئة وهي أنّه خُلق عقابًا لأبيه. وإلّا فما معنى أن يعلن عليه حربًا سرّيّة مذ وعى ما حوله؟! يا له من أب خليق بالرفض المطلق. إنّه لموقف مؤسف ومحزن. خاصّة وأنّ الرجل أحبّه كلّ الحبّ. بقدر ما هو وحش فظّ في الخارج فهو أليف مستأنس بين جدران بيته. وهو لا يتصوّر شذوذ نفسه. يؤمن بأنّه يمارس حقوقه الطبيعيّة، حقوق الذكيّ القويّ. نهمه للمال والسطوة غير محدود. اعتاد الإجرام كأنّه تحيّة الصباح. حدوب على أعوانه وكريم حتّى السفه. أمّا الكادحون ممّن يبتزّ نقودهم ويحتكر أقواتهم فيحتقرهم وهو لا يرحم من يحتقر. وسيمقته يومًا فيمحق أبوّته. الأدهى من ذلك أنّه دمغ أمّه بطابعه فهي تعبد قوّته. وكلّما ارتكب إثمًا استغرقتها العبادات ولكنّها تعبده. إنّه - عانوس - يقيم في عرين، في معبد للقوّة والخطايا.

وتعقّدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف متحدّية، فقد ضُبط أعوان لأبيه وهم يبتزّون نقودًا من عمّال الطابونة. سرعان ما أُلقي القبض عليهم لأوّل مرّة في تاريخ الحارة. انفجر ينبوع فرحة ضاحكة في

الحارة وثار بركان في بيت قدري الجزّار. لم يعد البقاء - لعانوس - محتملًا. قرّر الذهاب. اهتزّ جذع أمّه وهي تبكي وتقول:

- إنّه الشيطان...

فلثم جبينها وذهب. واستأجر شقّة صغيرة في أمبابة! وقال لنفسه إنّ القضاء على أعوان أبيه هو قضاء على طاقته الشرّيرة. سيعجز عن الإيذاء وتفلت الحارة من قبضته الجهنّميّة. وكان يدعو الله ألّا يضبطه - أباه - متلبّسًا بجريمة مباشرة. والظاهر أنّ الرجل صمّم على مقابلة التحدّي بتحدٍّ مثله قبل أن ينهار جداره. ففي نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان، وبين عمّال الطابونة، وأصيب رءوف إصابة بالغة غير أنّه اغتال المعلّم قدري الجزّار قبل أن يلفظ أنفاسه.

أحداث متتابعة متفجّرة، زُلزلت بها الحارة زلزالًا، فانغمست في الدم، ولكن تبدّدت الظلمات...

- ٢٠ -

وجد قدري الجزّار نفسه أمام آبو، وسمعه وهو يقول له:

- أهلًا بك يا قدري في السماء الأولى...

ومضى يعرّفه بنفسه وبالمكان. لاحظ أنّ قدري شارد اللبّ يثقل النظرة فقال له:

- كأنّك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟

- شيء يثقل على صدري...

- انتبه... إنّك تعرف الآن مصيرك...

- أجل، ولكنّي ما تصوّرت أن يقتلني ولد مثل رءوف!

- ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد...

تبدّت الحيرة في أسارير قدري الجزّار، ومضى يفيق رويدًا رويدًا حتّى ندّت عنه آهة عميقة وابتسم آبو وتساءل:

- أعرفت من هو الولد رءوف...؟

فقال قدري بأسى:

- قتلني ابني عانوس!

- أجل، وماذا كنت قبل ذٰلك؟

- أدولف هتلر!

- وقبل ذٰلك؟

- بردوني قطّاع الطرق بأفغانستان!

- سجلّ أسود طويل، لماذا تستعصي على الترقّي وتهدر الفرص المتاحة؟... ابنك أفضل منك، كثيرون أفضل منك...

فقال بانكسار:

- لن يذهب هٰذا الدرس سدًى!

- ولكنّك حتّى مثولك بين يديّ لم تكن قطعت أسبابك بغرائز الأرض...!

- لم أكن قد أفقت بعد.

- عذر أقبح من الذنب، فيم تأمل؟

- آمل أن أندب مرشدًا!

- هل لديك دفاع عن سلوكك في الأرض؟

- نعم، لقد بدأت تاجرًا صالحًا، وما أطمعني في الناس إلّا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم، فاستعذبت القوّة والطغيان ولم أجد رادعًا...

- إنّهم سيعاقَبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما ستعاقب على استغلالك الحالم...

- وقتلي بيد ابني الحقيقيّ ألا يكفّر عنّي سيّئاتي؟

- لا قيمة لهٰذه العلاقات هنا، وكم قتلت من أبناء وإخوة وأنت لا تدري!

- على أيّ حال فأنا لم أخلق طبعي ولا غرائزي...

- إنّك مالكها الحرّ ولم تحدّ حرّيّتك فيها حدود...

فقال بتوسّل:

- أحسن دفاعك عنّي ولك ما تشاء!

فضحك آبو وقال:

- ما زلت لاصقًا بالأرض، وهو الإثم الذي لا يُغتفر!

- ماذا تقول عن المحاكمة؟

- لقد انتهت المحاكمة يا قدري، وقضي عليك بالإعدام...

وسرعان ما تلاشى قدري الجزّار!

- ٢١ -

وتلقّى آبو رءوف وهو متلفّع بسحابته البيضاء،

وجرى تعارف قصير فتجلّى التساؤل في عيني رءوف.
وقال له آبو:
ـ أهلًا بك في السماء الأولى. . .
ومضى يزوّده بالمعلومات الضروريّة، ثمّ سأله:
ـ كيف جئت إلى هنا؟
ـ قُتلت في معركة.
ـ ولٰكنّك قَتلت قاتلك أيضًا. . .
ـ هاجمته وأنا مطعون، لا أدري شيئًا بعد ذٰلك.
ـ للمرّة الثانية تجيء قاتلًا ومقتولًا. . .
ـ حقًّا؟
ـ إنّي أعلم ما أقول.
ـ ماذا كان جزائي في المرّة السابقة؟
ـ الإعدام. . .
ـ فتساءل رءوف بقلق:
ـ هل يتكرّر ذٰلك؟
ـ ماذا تريد أنت؟
ـ كنت أخوض معركة عادلة وقَتلت شيطان حارتنا. . .
ـ هٰذا حقّ. . .
فتهلّل وجه رءوف وتساءل:
ـ هل آمل في البراءة؟
ـ ممّا يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم!
ـ ما أقسى الظروف التي عانيتها. . .
ـ هٰذا حقّ ولٰكنّنا نقيّم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه. . .
فتجلّى الأسى في وجه رءوف فقال آبو:
ـ إنّك ولد طيّب ولٰكنّ الصعود إلى السماء الثانية مطلب عزيز. . .
ـ ألا يشفع لي ما فعلت؟
ـ لقد سمع كلّ شيء، وصدر الحكم بندبك مرشدًا. . .
فسلّم رءوف بالحكم راضيًا فقال آبو:
ـ بشرى أخرى، ستُندب لإرشاد عانوس. . .
ـ ضابط الشرطة؟
ـ أجل، وسلوكه يبشّر بالخير ممّا يضمن لك عاقبة سعيدة. . .
ـ هي السماء الثانية فيما أعتقد؟
ـ أجل. . .
ـ أهي الجنّة الموعودة؟
فابتسم آبو وقال:
ـ توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الأرض فلم يئن الأوان للتفكير في الجنّة!
ـ وكيف يتمّ الصعود من سماء إلى سماء؟
ـ من خلال المحاكمات المتتابعة. . .
فتساءل رءوف في ذهول:
ـ وهل نعفى من الكفاح بعد السماء السابعة؟
فابتسم آبو وقال:
ـ هٰذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء ولٰكن لا يوجد عليه دليل واحد!
ومضى به في انسياب عذب غنائيّ، يغوصان في أمواج مقطّرة بيضاء، فوق خضرة متألّقة لا حدود لها. . .

الحبّ فوق هضبة الهرم

- ١ -

أريد امرأة. أيّة امرأة.

إنّها صرخة مدوّية، انبعثت أوّل ما انبعثت من جوانحي على هيئة همسات من الذهول. همسات من الأنين. همسات من الغضب. ثمّ انفجرت صرخة مدوّية. ما هي بالأنانيّة. ما هي بالبهيميّة. ما هي باللامبالاة. إنّي أزعم بأنّي مواطن بدرجة مقبولة، بل إنّي أيضًا إنسان بدرجة لا بأس بها. رأسي شهد حوارًا طويلًا عن الفقر والتخلّف والسلام والديمقراطيّة والتموين والمواصلات والطرق. به موضع أيضًا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوّث البيئة، نضوب الموادّ الأوّليّة، العلاقة بين العالم المتطوّر والعالم الثالث، احتمالات الحرب النوويّة، إذن فالوعي آخى بيني وبين المواطن والإنسان. غير أنّني لم أعد أفكّر بشيء من ذلك. أو إنّ تفكيري به فنـ وتقهقر وذاب في اللامبالاة. أنجم ذلك عن خمود في العاطفة أو الفكر أو التعلّق بالحياة؟ كلّا وأقسم على ذلك. المسألة أنّني ما إن ختمت حياتي المدرسيّة حتّى التحقت بالوظيفة ومن ثمّ خبرت الفراغ والبطالة. عند ذاك تضخّمت همومي الشخصيّة، استأثرت بوعيي كلّه، ركبتني، اجتاحتني، استعبدتني، أصابتني بالهوس. باتت أيّ مشكلة سواها ترفًا، لهوًا، سخفًا. الجنس أصبح محور حياتي وهدفها. انقلب وحشًا ذا مخالب وأنياب. قوّة مطاردة مهدّدة. يطالب بالممكن ويطمح إلى المستحيل. خلق منّي كائنًا جنسيًّا خالصًا، ذا حواسّ جنسيّة، وأخيلة جنسيّة، وآمال جنسيّة، وأحلام جنسيّة. على ذلك فإنّني أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحيّة وفلسفاتها. أروم الحياة الشرعيّة المستقرّة. ألتمس إليها الوسيلة بلا شروط متهوّرة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقًّا حيويًّا أوّليًّا لا أدري كيف أهتدي إليه.

ولكن من أنا؟

- ٢ -

عليّ عبد السّتّار، في السادسة والعشرين من عمري، ليسانس حقوق، موظّف بالشركة ا. د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشئوم، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، أُلحقت بالشركة عام ١٩٧٥، كنت من حملة الثانويّة علميّ، وكان أملي أن أتخصّص في الصيدلة أو الكيمياء. خانني المجموع، حملني تيّار التنسيق إلى كلّيّة الحقوق بشهادتي العلميّة. ما خطر لي أبدًا أن أدرس القانون، ولكنّني نجحت بقوّة الإرادة، إكرامًا لعناء أسرتي المكافحة، خوفًا من التشرّد والجوع. ولمّا أُلحقت بشركة ا. د. س. عُيّنت بإدارة العلاقات العامّة. غنيّ عن البيان أنّني كنت زائدًا عن الحاجة. خيّل إليّ أنّ الزائدين أكثر من العاملين. وقال لي وكيل الإدارة:

- احجز كرسيًّا.

ثمّ قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعذّر ذلك غدًا. منظرك مقبول، تصلح للعلاقات العامّة، ولكنّك ستبقى بلا عمل حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

فقلت بهدوء:

- عندي فكرة عن كلّ شيء.

- عظيم. ستبقى أيضًا بلا مكتب حتّى نراجع المخازن، أصبحنا في حاجة إلى حجرة إضافيّة، لماذا لا يسمحون للموظّفين الجدد بالبقاء في بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم في العلاوات والترقيات؟

فقلت بغيظ مكتوم:

- اقتراح وجيه جدًّا!

- ولٰكن لا بدّ من التوقيع في دفتر الحضور والانصراف.

هٰكذا التحقت بالخدمة وهٰكذا استقبلت عهدًا من الفراغ المطلق لا خبرة لي به من قبل، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويّتي، ولم تخلُ العطلات من الاطّلاع وأنشطة الشباب. إلى ذاك فقد انتفعت بنشأة أسريّة دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. ولّما انبثق الجنس استطعت أن أروّضه بالخلق والعمل والأمل. أمّا في عصر الفراغ فقد انفرد بي، كما انفرد بي الزمن في جريانه، وتساءلت متى... وكيف. جلست على الكرسيّ كمن ينتظر دوره في تحقيق. أراقب أقراني العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجيئون، وامرأتين كهلتين متزوّجتين، بين نوافذ مغلقة لتصدّ تيّار الخريف البارد، في جوّ فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أتطلّع إلى شرفات العمارة المقابلة مترقّبًا ظهور أنثى. وطيلة الوقت أتخيّل مناظر جنسيّة ومواقف، وأخوض مغامرات غاية في البراعة والعذاب. وسمعت حوارًا بين الوكيل وزميل له من معارفه:

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يُطاق.

- على أيّامنا كانت الوظيفة حلمًا عزيز المنال فاذكروا نعمة الله عليكم.

- وما قيمة النقود؟

- هي خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرة شاحبة مثل جوّ الحجرة وقلت له:

- هنيئًا لنا فنحن محسودون...

وتعلّمت أن أتسلّل إلى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلّمت الصعلكة. إنّها مسلّية ومفيدة ومنشّطة في الجوّ الآخذ في البرودة. وهي مضحكة أيضًا وهي تخوض في بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيّارات والأصوات المزعجة. طابعه - الشارع - الضيق والعصبيّة والكبت. كلّ شيء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوي في ذٰلك الإنسان والسيّارة. الكبت والقهر والتذمّر. الطريق يعاني من أزمة جنسيّة مثل أزمتي. إنّه يفتقد الشرعيّة والحرّيّة والإشباع. ومع ذٰلك فهو مغطّى بالتراب كأنّه يتهادى في مدينة خياليّة. ولٰكنّي لم أُعْنَ إلّا برصد النساء. هنّ همّي وشغلي وحياتي ومماتي. وجعلت أبلّ ريقي الجافّ بمضغ اللبان. وتنتقل نظراتي المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى الأعين. وكدت أفقد حياتي ذات مرّة. كنت أهمّ بعبور الطريق حين اقتحمني صدر ناهد فسحرني واستولى عليّ. قذف بي في أعماق الهو. اندفعت إلى العبور دون أن ألتفت يمنة كما ينبغي لي. وإذا بسيّارة تنقضّ عليّ كالقذيفة. نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية. لا وقت للرجوع ولا للتقدّم. استسلمت استسلامًا نهائيًّا وتقوّس ظهري لتلقّي الضربة القاضية. تجلّت لي حقيقة الموت لا كفكرة مجرّدة مسلّم بها ولٰكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوّته وإقناعه. صرخ بي أن هٰكذا أجيء عندما يتقرّر ذٰلك وهٰكذا تنتهي الحياة في غمضة عين. خيّل إليّ أنّي رأيت وجهه مجسّدًا في اللحظة الخاطفة التي لا يكشف عن وجهه إلّا فيها. وحيال نظرته الواثقة مرّ بسرعة البرق شريط حياتي من المهد إلى اللحد. لا وجهه أدري كيف أصفه ولا حياتي أدري كيف رأيتها مجتمعة في أقلّ من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التي يفقد فيها الشعور بذاته. لٰكنّه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيّارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهدّدًا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران. ماذا حدث لي وماذا حدث للآخرين؟ سبحت في ذهول أعفاني من متاعب جسيمة. مرّت دقيقة على الأقلّ قبل أن أدرك أنّ الطريق كلّه يلهبني بنظرات السخط والغضب. ثمّة صياح وتعليقات شتّى... السائق لصق السيّارة

ويقذف بالسباب كالمطر. مضيت مترنّحًا أفرّ بنفسي فرارًا. كنت أعاني آلام الخروج إلى الحياة من جديد. وأعاني من مروري الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هي شهوة الجنس ومقابلة الموت ومفاجأة النجاة. وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفزع أثرًا عنيفًا تعانق فيه السرور المتألّق والحزن العميق. مضيت أسير حتّى وقفت لأستردّ أنفاسي بعيدًا عن موقع الحادثة. حتّى في ذٰلك المكان لم أفلت من عيني عامل من عمّال الطرق فقال لي بسخط واضح:

ـ مسطول!... بسبب أمثالك يتعرّض السوّاقون المساكين إلى متاعب المحقّقين، لا تنس أنّك مدين بحياتك للسائق...

تضاعف ضيقي وقلت كالمعتذر اتّقاء لسخطه:

ـ إنّها الهموم.

فصاح محتجًّا:

ـ الهموم!... ماذا تعرفون عن الهموم؟!

ذهبت مبتعدًا وقد نسيت أزمتي الجنسيّة وقتًا غير قصير. ولٰكنّه غير طويل أيضًا. حذّرت نفسي من سحر المناظر. وقلت لنفسي إنّها التعاسة حقًّا أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهٰذا. إنّها محنة. ولٰكن ما العمل؟ لا يغيب عنّي ما يقال عن الزواج وتكاليفه. المهر والشقّة وخلوّ الرِّجْل. يلزمني قرن من الزمان لأقتصد نفقات زيجة عاديّة. إنّه طريق مسدود تمامًا. أجل إنّ الأيّام تمضي والصبر يفقد ولذٰلك هان عليّ ـ رغم تقاليد تربيتي الراسخة ـ أن أفكّر في «الحرام» كضرورة لا مفرّ منها دفاعًا عن صحّتي الجسديّة والنفسيّة. شاورت في ذٰلك صديقًا قديمًا من أهل الخبرة فقال لي:

ـ الفرص أكثر من أن تحصى.

ولّما أنس منّي إقبالًا شديدًا سألني:

ـ هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتّى قلت في ذهول:

ـ غير معقول!

فقال باسمًا:

ـ العرب والتضخّم والانفتاح!... هل أدلّك على أرخص سبيل؟

فسألته عنه بلهفة فقال:

ـ لعلّه الزواج!

وقلت لنفسي إنّه الحزن ولا شيء إلّا الجنون...

ـ ٣ ـ

أسرتي أيضًا مصدر همّ لي لا ينقضي. في متاعبها الظاهرة ما يكفي فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفيّة. أبي يقترب من سنّ المعاش فنحن في سباق مع الزمن. أمّي كيميائيّة، لا لأنّها درست الكيمياء فحظّها من التعليم وقف بها عند الابتدائيّة، ولٰكن للأعاجيب التي تصنعها لتوفّر لنا الطعام اليوميّ. وهي تقلّب الملابس وتصبغها وترفوها وتجدّدها وتجعل بعضها ملكيّة مشاعة والبعض الآخر ملكيّة متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابًا للأيّام الباردة. والمساعدة التي جاءت نتيجة لالتحاقي بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد. وإنّي أنظر إلى شقيقتي مها (الآداب) ونهى (الثانويّة العامّة) برثاء، ويحزنني منظرهما البسيط المتقشّف. إنّهما محرومتان من أشياء تعتبر في سنّهما ضروريّة لا كماليّة، وممنوعتان أيضًا من الشكوى، التي تضيق بها أمّي فيرتفع صوتها الحادّ:

ـ حالنا أفضل من غيرنا ألف مرّة.

على ذٰلك فإيجار شقّتنا قديم دون الأربعة جنيهات بقروش، ومهما قيل في شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعًا. لذٰلك لا يكاد أبي ينعم بضحكة صافية. ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول:

ـ لم يبقَ إلّا عامان ثمّ المعاش!

وينظر إلى شقيقتي ويقول:

ـ النجاح... النجاح...

لقد نحل الرجل كأنّما يجفّ رويدًا رويدًا، وزاد من ضآلته قصر قامته، ولم يكد يبقى أثر من وسامته الأصليّة. الوسامة خاصّيّة لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدخّن، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها في تبادل الزيارة مع جار قديم ـ مدرّس قديم ـ مدرّس لغة

عربيّة على المعاش - يسامره ويستفتيه أحيانًا في بعض الشئون الدينيّة. وكان يقول:

- منذ أعوام كان رجل مثلي ذو مرتّب يجاوز الستّين جنيهًا شهريًّا يُعَدّ من الموظّفين المنعّمين ولْكنّ الدنيا جنّت...

وكان ممّا يحزّ في نفسه أنّه ضيّع فرصة زواج لا بأس بها على مها. يومها قال بأسًى:

- ما باليد حيلة، لْكنّ المهمّ هو العلم والعمل، بعد ذٰلك تتحسّن الظروف والأحوال، نحن لا نملك بالكاد إلّا قوت يومنا.

فقلت له:

- الأسعار ترتفع ونحن ننخفض.

فقال باسمًا ابتسامة لا معنى لها:

- كنّا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا...

فقلت بحدّة:

- نحن الفقراء الجدد في مقابل الأغنياء الجدد.

فحدجني بنظرة تصدّني عن الاسترسال وقال:

- لا تستسلم للسخط فهٰذا ممّا يزيد الحياة تعاسة، وحذار أن تردّد ذٰلك أمام مها ونهى!

فقلت مصرًّا:

- الزواج حقّ مشروع، ترى كيف تفكّران يا أبي؟

فتجهّم وجهه وقال:

- لقد أحسنت تربيتهما، أمّك صاحبة فضل أيضًا، نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغدًا تتوظّفان ويبتسم الحظّ!

- لقد شهدت برنامجًا في تلفزيون المقهى يقطع بأنّ المتسوّلين خير حالًا منّا...

- ولْكنّهم يتسوّلون ونحن نخدم الدولة!

لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقيّة العزّة من نفسه، كما إنّ أمّي تعْبر أحيانًا عناد الحاضر متطلّعة إلى آمال غامضة وراء الأفق. وقلت مواصلًا حديثي:

- إنّي أتابع أنباء الأفراح في الفنادق بذهول.

فتساءل بحدّة:

- وأيّ فائدة تجنيها من وراء ذٰلك؟ يوجد أغنياء منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شيء يدوم في هٰذه الدنيا.

ثمّ بنبرة أرقّ:

- أتدري ما هو حلمي؟

ثمّ أجاب قبل أن أنبس:

- أن تعملوا ذات يوم في الخارج، إنّه حلم وما هو بالحلم...

- ٤ -

الهجرة! إنّهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هٰؤلاء ولا من أولٰئك. وما فرصة الحقوقيّ؟ إنّها نادرة جدًّا. فضلًا عن ذٰلك فإنّي أمقت القانون، وها أنا أنساه في بطالتي الرسميّة دون أسف. وكنت أتسكّع في وسط البلد لا أدري أين بلغت في تسكّعي عندما لمحت - في مقهى الحرّيّة - الصحفيّ القديم عاطف هلال. كان منفردًا بنفسه للراحة أو التفكير فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزني. وقفت أمامه حتّى انتبه إليّ فراح ينظر نحوي بعينين مستطلعتين وقد تجلّى الكبر في صفحة وجهه أكثر ممّا يبدو في الصور التي تنشرها الصحف له. قلت:

- معذرة عن تطفّلي، أنا أحد قرّائك...

فتمتم بصوت محايد:

- أهلًا.

- تسمح لي بدقيقتين من وقتك الغالي؟

- تفضّل.

جلست ثمّ قلت:

- حرصًا على وقتك سأدخل في الموضوع رأسًا، المسألة أنّي واقع في أزمة شديدة...

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أنّ الذي تبادر إلى ذهنه أنّها أزمة ماليّة وأنّني سأطالبه بمعونة فقلت بصراحة:

- إنّها أزمة جنسيّة!

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل:

- جنسيّة؟!

- جنسيّة بكلّ معنى الكلمة.

فما تمالك أن ابتسم قائلًا:

- لعلّك أخطأت الرجل المناسب!

فقلت جادًّا:

ـ الرجل المناسب لم يعد مناسبًا لأمثالي لذلك قصدت الرجل المفكّر!

فثبّت نظّارته ليداري انفعاله وقال:

ـ يبدو لي أنّك فريسة تجربة عاطفيّة مريرة. . .

ـ إنّي أتسوّل تجربة فلا أجدها.

ـ شيء جديد تمامًا.

ـ المسألة بكلّ بساطة أنّ الزواج مستحيل وسيادتك سيّد العارفين، والانحراف أصبح خياليّ التكاليف بفضل إخواننا العرب.

فتجلّى الاهتمام في عينيه فتساءلت:

ـ هل تصدّق أنّني بلغت السادسة والعشرين من عمري ولّما أمارس الجنس ولو مرّة واحدة؟!

ـ أصدّقك ولو أنّ شكلك مقبول جدًّا.

ـ ولكنّي مرفوض موضوعًا.

قبض على ذقنه في حيرة وصمت فسألته:

ـ ما الحلّ يا أستاذ؟

فتمتم جادًّا:

ـ إنّها مأساة ولست ضحيّتها الوحيد. . .

ـ وما العمل؟

ـ يا له من سؤال! . . .

ثمّ مواصلًا حديثه:

ـ لا يوجد جواب جاهز، يمكن أن ننتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو إلى الهجوم عليها، يمكن أن نتحدّث عن واجب وزارة الإسكان، يمكن أن نتحدّث عن مشكلة الإناث. . .

ـ وهل أنتظر أنا حتّى يتمّ هذا الإصلاح؟

ـ ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت في تاريخ البشريّة! . . . وكما إنّ ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أخر في خضمّ الحروب الطاحنة!

ـ يعني أنّه ليس أمامي إلّا تجرّع التعاسة في صبر طويل؟

ـ قد يتغيّر الحظّ بإرادة الإنسان، إنّك مطالب بالتفكير والعمل، إنّك واقع في شبكة من الظروف المعقّدة، وعليك أن تسأل نفسك «ما أفضل سبيل للتصرّف في مثل هذه الظروف؟» وعليك أن تجيب بنفسك. . . .

فسألته بحنق خفيّ:

ـ ألا يوجد رأي عند جيل الأساتذة؟

فابتسم قائلًا:

ـ دعك من هذا. إنّكم لا تؤمنون بأيّ جيل سابق. ألم تجد ولو مثلًا واحدًا صالحًا لأن تقتدي به؟

ـ تعني. . .

فقاطعته مواصلًا حديثي:

ـ أعرف أسرة حلّت مشكلتها بالدعارة!

ـ ويقتنون الشقق والسيّارات ولكنّه حلّ مرفوض كما قلت.

ـ عرفت زميلًا احترف السطو على الشقق في أثناء الصيف. . .

ـ وهو مرفوض أيضًا وعاقبته معروفة.

ـ سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثمّ قتلها إخفاء لجريمته. . .

ـ لعلّك تقصد الشابّ الذي طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية؟

ـ لا أدري، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر أن يقترح حلًّا إسلاميًّا للعاجزين عن الزواج؟!

ـ التشدّد في العقوبة أسهل من إيجاد الحلول. . .

ـ فما الحلّ إذن؟

ـ ألم تفكّر في الهجرة؟

ـ لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحِرَف.

صمت الأستاذ قليلًا ثمّ قال:

ـ ثمّة رأي أفضّله إذ إنّني ما زلت أحتقر الحلول الفرديّة. . .

في فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأي، وكان وقتها يكتب بقلم يساريّ صريح، وها هو يعود إليه فيما يشبه الهمس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفي انفعالي:

ـ جئتك عارضًا أزمة ملحّة تتطلّب حلًّا عاجلًا وها أنت تنصحني بالانخراط في عمل سياسيّ من أجل تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعليّ أن أنتظر حلًّا لمشكلتي يجيء مع القرن القادم. . .

وغادرت مقهى الحرّيّة بلا ذرّة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟! لقد انتُزعت الثقة ثمّ ماتت ثمّ دُفنت. إنّهم كذّابون... كذّابون... كذّابون. ويعلمون أنّهم كذّابون. ويعلمون أنّنا نعلم أنّهم كذّابون... ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدّرون القافلة...

- ٥ -

ما هذه البهجة المنعشة؟

نظرت وحلمت وثملت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواسّ، لبثت فوق مقعدي مؤجّلًا الانطلاق إلى رحلة التسكّع اليوميّة.

- ضيفة؟

- موظّفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمّد.

سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية، لا بالنحيلة ولا بالسمينة، في العينين العسليّتين جاذبيّة محسوسة، عند الابتسام ترتسم غمّازتان في وجنتيها، بيني وبين أن أرفعها بين يديّ وأمضي مشكلات تعيي العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأيّ أنثى يستوي في ذلك المراهقات والكهلات، البلديّات والمتفرنجات، المحتشمات والمبتذلات، انغمس خيالي في مصادر الإثارة. حتّى تذكّري شقيقتيّ لم يهذّب من طغيان الرغبة. غبت عن الإدارة ساعة واحدة فصاحبتني نشوتها الزكيّة في الذهاب والإياب. وفي آخر النهار تمّ تعارفنا في رزانة رسميّة. ورجعت إلى مسكني بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم وهما ما يترسّبان عادة في صدري عقب الرؤية المؤثّرة. في ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنّه جمال ملقى في سلّة مهملات. بدتا لي متقشّفتين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفتيهما المتلثّتين. وسألت مها:

- هل تعرفين فتاة من كلّيّتك اسمها رجاء محمّد؟

فتساءلت ساخرة:

- كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عددًا؟!

- التحقت بإدارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر:

- لِمَ تسأل؟

فقلت بتحدٍّ ساخر:

- كيف لا وقد توفّر لديّ المهر وخلوّ الرِّجْل؟

فقالت مها:

- ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربي فلا يطالبك بمليم!

فقلت ضاحكًا:

- الشواربيّات للشواربيّين!

قرأت في دعابتها أحلامًا خفيّة، ونحن عادة نتحادث بحذر متأثّرين بجوّ بيتنا المتشدّد. أبي، وأمّي أشدّ منه. وأمّي متفائلة جدًّا رغم عنائها الدائم. وهي سعيدة بأنّها حصّنتنا ضدّ استهتار الزمن. وفي تقديري أنّه سيسعى إليهما ذات يوم - خاصّة بعد التحاقهما بالعمل - زوجان محترمان متقدّمان في السنّ والقدرة الماليّة فيهيّئان لهما الحلّ الممكن. إنّه زمن الكهول والأوغاد.

- ٦ -

ما هذه البهجة المنعشة؟

لقد وهبتني ابتسامة. مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كلّ مناسبة ثمّ جادت بالابتسامة. خلقت الابتسامة حياة جديدة. غلّفت الانفعال البهيميّ بعذوبة صادقة. نمت الشجرة وتفرّعت وتعذّر أن تُنعت بصفة واحدة. وتساءلت أهكذا تتحوّل الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث. قلت لها:

- حذار من البطالة!

فقالت بحيرة:

- إنّهم لا يعهدون إلينا بعمل.

- ستنسين ما تعلّمته.

- العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلّمته.

- ماذا كان تخصّصك؟

- التاريخ.

- لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة.

- لا أحبّ القراءة إلّا نادرًا.

- جيل التلفزيون؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت:

- ليس تمامًا.

- وحذار من الملل.

- اليوم طويل حقًّا، ماذا تفعل أنت؟

- أتسكّع وسط المدينة...

- لا يناسبني ذٰلك.

- لا مفرّ من أن تجديه مناسبًا ذات يوم.

- المهمّ ألّا نعتاد الكسل!

فقلت بأسف صادق:

- كنت طالبًا مجتهدًا، حتّى العطلة السنويّة لم تخلُ من نشاط واطّلاع أمّا اليوم فقد أصبح التسكّع مذهبي... كيف تمضين وقتك؟

- لي أخوات وصديقات، هناك التلفزيون دائمًا، وأحيانًا السينما أو المسرح.

لم يعد في الدنيا ما يستأثر بوعيي أكثر منها. لها الغريزة والعقل أيضًا. ومن عجب أنّ مظهرها انتبهت إليه مؤخّرًا نسبيًّا. تعاملت مع المضمون قبل الشكل. وعندما حدّثتني عن السينما والمسرح أدركت أنّها تطلّ عليّ من مستوى أرفع، عند ذاك ركّزت على البنطلون الرماديّ والحذاء ذي الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكتة الجلديّة. أنيقة وثمينة. ترى ما وراء ذٰلك؟ الزمن يطرح احتمالات شتّى. وإنّي أحلم بالزواج ولٰكنّي أرحّب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يحتقر الحلول الفرديّة! وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلّا بحلّ فرديّ انتهازيّ. ووجدتني أتذكّر عهد الدراسة. أتذكّر التيّارات التي انتظمت الطلبة. أبناء الأغنياء الذين ينعمون بالاستقرار ولا يهتمّون كثيرًا بالدراسة. فقراء يحلمون بالشهادة من أجل الوظيفة. متمرّدون يضطربون في عوالم الأحلام ويرفضون كلّ شيء. كنت في مكان وسط بين الصنف الثاني والثالث. أحلم بالوظيفة إكرامًا لعناد أسرتي وأكنّ للمتمرّدين الإعجاب والتأييد. كثيرًا ما يتعرّضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم من انتهى إلى السجن. ترى إلى أيّ فريق تنتمي رجاء؟ على أنّ الاحتمالات أوسع من ذٰلك. وإنّي أريدها من أيّ سبيل ممكن وإن ظلّ الزواج حلمي المنشود. لذٰلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودّتنا حتّى نطق لسان حالي بما أحلم به. وتشجّعت ذات مرّة فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكّع...

- ٧ -

ما هٰذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسي بهٰذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفي أمام الأمريكين. في تلك اللحظة شعرت بأنّني بتّ من كبار العاشقين فعاهدت الله ألّا أسيء إليها ما حييت قطّ. غصنا فوق أريكتين جلديّتين يفصل بيننا خوان معدنيّ. وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر في هدوء وحبّ استطلاع. طلبنا الشاي ليدفئنا في الجوّ البارد وشملنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا ظلّ من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبي والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد. وإن تكن صداقة فهي واضحة الهدف. قد تعني من جانبي ميلًا وربّما حبًّا وبحسبها أن تعني من جانبها أنّني موضوع صالح للتجربة. ألا يعني ذٰلك القبول من ناحية المبدإ؟! سألتني:

- هٰذا مكان تسكّعك؟

فقلت وأنا أقدّم لها وعاء السكّر:

- التسكّع في الشوارع ولٰكنّه لا يصلح للقاء.

- وكيف تطيق الزحام؟

- إنّها القيامة ولٰكنّها خير من القعود ستّ ساعات فوق مقعد خشبيّ...

فابتسمت قائلة:

- إنّه نوع من العقاب ولٰكنّ الزحام لمثلي غير مأمون!

- ماذا تركبين في الذهاب والإياب؟

- نحن نقيم في شارع الشهيد عبدالملك فيما وراء دار القضاء العالي فلا حاجة بي إلى الباص...

ثمّ مواصلة حديثها بسرعة:

- لولا ذٰلك ما قبلت الوظيفة!

فقلت بقلق:

- إذًا فأنت غنيّة!

ـ أبدًا، أبي موظّف، موظّف كبير إذا شئت ولْكنّ ذْلك لم يعد يعني شيئًا.

وجدت في قولها متنفّسًا للراحة وقلت:

ـ الحال من بعضه حتّى وإن لم يكن متطابقًا.

وانتهزت الفرصة فقدّمت لها صورة أمينة لأسرتي متوخّيًا الصدق في الأمور الجوهريّة ودون تطرّق إلى التفاصيل الحرجة ثمّ سألتها:

ـ لك إخوة؟

ـ ثلاث بنات كبراهنّ بكلّيّة الطبّ.

ـ الحقّ أنّ الحياة عبء ثقيل.

فأحنت رأسها الرشيق مؤمّنة على قولي فقلت:

ـ خاصّة للشرفاء.

ـ كان أبي (محمّد جاد) محاميًا مرموقًا، ثمّ تغيّر الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الإدارة القانونيّة بشركة ا.م.د.

قلت لنفسي إنّ مثله جدير بأن يملك مدّخرات لا بأس بها فهو خير من الموظّف العاديّ. ليس بالغنيّ ولْكنّه ليس بالفقير أيضًا. ثمّة أمل ولْكنّه ضعيف. وقلت ملقيًا مزيدًا من الضوء على موقفي:

ـ أسرتي لن تعرف الراحة قبل أن تتوظّف أختاي، وأمل أبي متعلّق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب.

ـ على أختيك أن تختارا مهنة مطلوبة كالتعليم.

ـ أنت لا تفكّرين في ذْلك؟

ـ إنّي أمقت هْذه الفكرة وأرجو ألّا أحتاج إليها أبدًا...

انقبض صدري بعض الشيء ولْكنّ ذْلك دفعني إلى مزيد من الجرأة فسألتها:

ـ كيف تتصوّرين المستقبل؟

فتساءلت متغابية:

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا يمكن أن تعيشي بلا حلم ما؟

فضحكت قائلة:

ـ أنا لا أحلم.

ـ كلّ إنسان له حلمه.

ـ حقًّا؟... فما حلمك أنت؟

فقلت متماديًا في جرأتي:

ـ الحقّ أنّي أحلم بشريكة لحياتي...

فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت فقلت:

ـ هْذا هو حلمي.

فتساءلت شاردة:

ـ ماذا يمنعك من تحقيقه؟

فلم أدرِ ماذا أقول اعتقادًا منّي بأنّني قلت كلّ شيء فسألتني:

ـ لِمَ لا تتكلّم؟

ـ قلت ما فيه الكفاية، آن لك أن تتكلّمي أنت...

وإذا بها تقول بجدّيّة تامّة:

ـ لقد تعرّضت لتجربة غير سارّة...

فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت:

ـ تقدّم لي موظّف من مرءوسي والدي وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلّب عليها...

فتساءلت بأسى لم أستطع إخفاءه:

ـ ما هي؟

ـ المهر... والمسكن...

فقلت متعلّقًا بآخر خيط:

ـ ليس التغلّب عليها بالمستحيل.

ـ حقًّا؟

ـ إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر، أو يكون من الممكن إخلاء حجرة في البيت للعروسين!

فهزّت رأسها بأسف ممّا يعني النفي. في الصمت الذي تلا اعترفت بالإخفاق. جاءت مدفوعة بحبّ الاستطلاع والأمل فتلاشى كلٌّ في هيكل الحقيقة العارية. لعلّها تتأسّف الآن على ضياع الوقت سدًى. ولعلّها تفكّر في انتحال سبب لإنهاء اللقاء. وقلت بلا روح:

ـ حسبنا صداقتنا الحميمة.

غمغمت شاكرة. ولم يبقَ إلّا أن نغادر المكان ليرجع كلّ منّا إلى الشركة من طريق.

ـ ٨ ـ

قلت لنفسي إنّه لا مفرّ من النسيان. لا مفرّ من الوأد. الأمل والغريزة متعلّقان بها، يتسلّطان عليّ بكلّ

قوّة، يستأثران بأحلام اليقظة، يعذّبانني ليل نهار ولكن لا مفرّ. ما زلت في أوّل الطريق. وهي لا تبادلني إحساسًا أو عاطفة. ما هي إلّا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب. إنّه حقّ مشروع ورغبة نبيلة. ويبدو أنّه لا يحرّكها طمع ولا آمال جامحة، إنّها عاقلة تمامًا. لم تجرّب الحبّ أيضًا أو هٰذا ما أظنّ. داخلني شعور قويّ مؤثّر بأنّني لن أجد فرصتي في «العقل» أبدًا. ما فائدة العقل في عالم لا معقول. لا مفرّ. وعليه فلأتجنّب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذٰلك. ولأهجر الإدارة مبكّرًا عن العادة. رجعت إلى الفراغ. الفراغ المحتدم بالعذاب والملل. إنّه يتجسّد لعينيّ كما تجسّد الموت في مقدّمة السيّارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة ورفضًا للحياة. قبضته الخانقة تفشي لي سرّ المدمنين. مدمني الخمر والمخدّرات والقمار. لكنّني محصّن بمثاليّة باهتة وبالفقر. لعلّ الأوفق لي أن أملأ الفراغ بالسياسة. ما زلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى. يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. إنّه يدعو كثيرين من ذوي الإرادة ويصلح أيضًا لليائسين. إنّها مجرّد خواطر تعبر رأسي سادرة ولٰكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة. يتسلّل إلى النفس كالمزاح ثمّ ينقلب جدًّا كلّ الجدّ. لكنّني أقنع بمداعبة الأفكار. ومداراة الغريزة الطاغية. سيحدث شيء ما في وقت ما. شيء قريب. أو بعيد. لن تمضي الحياة في فراغ إلى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيّام تمضي. الحركة بطيئة في الشارع ولٰكنّ الأيّام تسرع. رجاء تحرّك أحلام اليقظة. ملكتها في الخيال بقدر ما فقدتها في الواقع.

- ٩ -

تعرّض بيتنا بشارع الشمردل لغزوة قويّة. تقدّم سبّاك في الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى. قال أبي ونحن مجتمعون في الصالة.

ـ ما على الرسول إلّا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادة صناعيّة متوسّطة، عمل في السعوديّة أعوامًا خمسة، يملك شقّة في المعادي وسيّارة نصر...

شملتنا حيرة. وقالت أمّي مقطّبة:

ـ ليس من مقامنا!

فقال أبي بمرارة:

ـ عمّ تتحدّثين؟... انتهى مقامنا من زمان...

فقالت أمّي:

ـ إنّها لم تتمّ تعليمها بعد ولا بدّ أن تتمّه...

فقال أبي:

ـ إنّه يريدها ستّ بيت.

فقالت أمّي:

ـ لم نُعِدّها لذٰلك...

فقال أبي:

ـ إنّه أسهل مِن تعلُّم الطبيعة والكيمياء.

فقلت:

ـ العمل ضروريّ لها حتّى لا نتركها تحت رحمة المجهول.

وتحوّلت نحو مها متسائلًا:

ـ ما رأيك يا مها؟

فقالت بوضوح:

ـ لم نسمع صوت صاحبة الشأن...

فقال أبي:

ـ الكلمة الفاصلة لها طبعًا.

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتّى عطفت مها عليها فقالت:

ـ أمهلوها لتفكّر...

وقلت أنا:

ـ ثمّ إنّها لم تره.

فتساءل أبي:

ـ يهمّني أن أعرف هل تقبله من حيث المبدإ؟

فقلت بإصرار:

ـ بل هو مقبول من ناحية المبدإ، إنّه ينتمي اليوم إلى طبقة أعلى...

فهتفت أمّي:

ـ إنّك تخلط الجدّ بالهزل!

وحدثت الزيارة التقليديّة فوجدته مقبول الصورة ولا عيب في مظهره إلّا مبالغة في التأنّق وحساسية

بالذات ملفتة للنظر. ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمّي وحياء شمل ثلاثتنا أبي ومها وأنا. وما أدري إلّا ومها تقول لي ونحن ننتظر الباص صباحًا:

- نهى موافقة!

- من ناحية شكله لا بأس به.

- ومن ناحية الموضوع أيضًا.

فسألتها بقلق:

- أهو قرار أملاه اليأس؟

فقالت بضيق:

- فسِّرْه كما تشاء...

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعًا غير أنّ أمّي قالت بغضب مخاطبة أبي:

- المسألة أنّك وجدت زوجًا لن يكلّفك مليمًا واحدًا.

فسألها بمرارة:

- هل لديك مال تخفينه عنّا؟

ودعوت لها من قلبي بالتوفيق...

- ١٠ -

- ما هذه البهجة المنعشة؟!

وأنا أغادر الشركة مبكّرًا للتسكّع وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب. أقبلت نحوي هامسة في عتاب حادّ:

- أين أنت؟ كأنّك هاجرت من البلد!

غزتني فرحة راقصة سمت بي إلى أرفع سماوات السعادة. طالما ظننت أنّها نسيتني تمامًا، وأنّ عقلها الحكَم قد حذفني من جدول الاحتمالات. عتابها اقتحمني كنغمة عذبة مفعمة بالنداء. فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف. فيه ما يغيّر مذاق الدنيا في ثوانٍ مثلما تغيّرها الفصول في أشهر. فهل يفرّق بين اليأس والأمل إلّا خيط الفجر؟

حوالى العاشرة كنّا نجلس بمجلسنا في الأمريكين. قلت معبّرًا عن امتناني:

- جزاك الله كلّ خير فقد أعدت خلقي من جديد...

تخفّفت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر أحمر على هيئة لوزة مصغّرة. قلت:

- توهّمت أنّ لقاءنا الأوّل هو الأخير، وعزمت على النسيان بأيّ ثمن، ولكنّ الحبّ أقوى من كلّ شيء.

فهمست باسمة:

- ولكنّك لا تكاد تعرفني...

- عرفت ما يكفي لخلق الحبّ في أقوى أحواله...

- خيّل إليّ أنّك نسيتني تمامًا...

- تمنّيت ذلك، وتبدّد هباءً ما تمنّيت...

فقالت باسمة:

- وها نحن نلتقي لنتقاسم العذاب!

فقلت بحماس خلقته نشوة الظفر:

- مع الحبّ الحقيقيّ لا توجد مشكلات...

- حماسك جميل ولكنّه عاطفة وليس معجزة.

- بل هو في الأصل معجزة، علينا أن نعتبره كذلك، في أيّ شرع يجوز أن يفرّق بين قلبين أشياء مثل شقّة وأثاث ومهر؟!

فابتسمت في أسى وتمتمت:

- إنّك تحلم بحياة كالطيور.

فقلت بإصرار:

- لدينا الحبّ والإرادة والحياة التي لا ترحم الأغبياء فلنتعاهد على ألّا يفرّقنا شيء في الوجود...

فتورّد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بي في مدارج السكر:

- فلنتعاهد!

فهمست:

- كما تشاء... ولكن أما آن لنا أن نفكّر؟

فخفت أن أفيق من نشوتي فقلت:

- علينا أن نعلن خطبتنا في الحال!

- ماذا؟

- أن نعلن خطبتنا في الحال...

- لو اقتصر الأمر علينا لهان.

- علينا أن نقنع الأهل...

- مهلًا... ماذا نقول لهم؟

- إنّنا سنعلن خطبتنا ونحلّ مشاكلنا بنفسنا!

- ولكنّ...

فقاطعتها:

ـ لكلّ منّا عمله واستقلاله.

ـ ألا نفكّر قبل أن نقدم؟

ـ بل نقدم أوّلًا...

ـ أخاف أن نجعل من أنفسنا...

قاطعتها:

ـ فلنعلن خطبتنا، يجب أن نحقّق نصرًا ما. ولك عليّ بعد ذٰلك أن أسطو على البنك الأهليّ عند الضرورة!

غادرنا المكان وأنا أردّد في باطني «ما هٰذه البهجة المنعشة!».

ـ ١١ ـ

يبدو أنّ رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائيّة فأصرّت على لقاء ثالث لنناقش قرارنا بهدوء. قلت لها:

ـ رجاء، إذا استرشدنا بالعقل فعلينا أن نسلّم بالفراق الأبديّ.

كانت تقدّم رِجْلًا وتؤخّر رِجْلًا. كانت تشاركني الرغبة ولٰكنّها تخاف العواقب. قلت:

ـ إنّي مخلص، يلزمني عمر طويل لكي أقتصد المهر، وثلاثة أعمار لأجمع خلوّ الرِّجْل، فإذا لم يكن من التعقّل بدّ فلنفترق...

فقالت بقلق:

ـ سيرون في سلوكنا ما يقطع بجنوننا!

ـ يلزمنا قدر من الجنون نَلْقى به عالمنا المجنون...

ـ يحزنني أنّني سأُغضب أعزّ الناس عليّ...

ـ إمّا أن نُغْضبهم وإمّا أن ننتحر...

فتفكّرت مليًّا ثمّ تساءلت:

ـ هبنا فرضنا إرادتنا فماذا بعد ذٰلك؟

ـ لو أنّ لديّ خطّة جاهزة ما كتمتها عنك، ولٰكنّ تحمّلنا للمسئوليّة سيدفعنا إلى التفكير، إلى قهر المستحيل... ولو وجدنا الطريق مسدودًا؟

ـ الطريق المسدود شعار العاجزين، ثمّ ألا يستحقّ حبّنا المغامرة والتجربة؟

وكانت في صميمها عازمة على المغامرة...

ـ ١٢ ـ

خاض كلانا معركة عائليّة على تفاوت في العنف والحرج. دهش أبي وتساءل:

ـ تخطب؟!!

لٰكنّ مرارة الحياة روّضته على الاستهانة بما يعدّه من الأمور الثانويّة. وتساءل مرّة أخرى:

ـ أأنت على استعداد؟

فقلت ببساطة:

ـ لا استعداد ولا خلافه.

فقالت أمّي:

ـ أنت تعلم أنّه ليس لدينا...

فقاطعتها:

ـ إنّي أعرف كلّ شيء...

فتساءلت برجاء:

ـ لعلّ أهلها أغنياء؟

ـ كلّا...

فتمتم أبي:

ـ قرار خاطئ ولا شكّ.

فقلت بإصرار:

ـ لن أعدل عنه.

فرفع الرجل منكبيه قائلًا:

ـ أنت حرّ، وأتمنّى لك التوفيق.

أمّا رجاء فقد خاضت معركة حقيقيّة. انهالت عليها الأسئلة وجاءت الإجابات كلّها بالنفي. ثار الغضب كما ثار الكبرياء. رُميت بالجنون. تدخّل أقرباء وقريبات. أصرّت رجاء على طلبها، بل هدّدت بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة.

* * *

كانت تجربة عسيرة أن أمضي إلى عمارة الشهيد عبدالملك وأنا على عِلْم كامل بمشاعرهم نحوي، وبأنّهم يعتبرونني وباء أفلت من المراقبة الصحّيّة. الحقّ أنّ مها صدقت عندما قالت:

ـ إنّ جرأتك تستحقّ الإعجاب...

وقد أرهقني ابتياع الدبلتين، أمّا الشبكة فقد اشترتها رجاء ودسّتها إليّ لأهديها إليها في الحفل الكئيب. ولم تعلّق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات

الأفراح، وندّت الوجوه عن بصمات متكلّفة أخفّ منها العبوس.

وقال لي الأستاذ محمّد جاد:

ـ طبيعيّ أن أتمنّى لكما التوفيق، لا تسيء الظنّ بنا، ستكون يومًا ما أبًا وتعرف. . .

أمّا حرمه ـ أمّ رجاء ـ فقالت لي:

ـ نحن دائمًا متّهمون، لماذا؟ أيوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا مأوى؟ أيوجد أب أو أمّ بلا قلب؟!

إنّه صوت العقل. هو ما يعترضني دائمًا بجدار صخريّ. لم يبقَ إلّا أن نجرّب الجنون. إذا صدّك العقل عن السعادة فجرّب الجنون أليس ذٰلك من العقل أيضًا؟! ما يستحقّ اللعنة حقًّا هو الاستسلام. ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تتغنّى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحدّيت الظلام.

ـ ١٣ ـ

حقّقنا الرغبة واستقرّت الدبلة في البنصر. وأثملنا إحساس حميم بأنّنا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أنّني لم أقطع إلّا الخطوة الأولى. أجّلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولٰكنّها استوت على الأفق مثل نذير النشرة الجوّيّة. ولم يحرجني أحد من أسرتي فيسألني مثلًا: «وماذا بعد ذٰلك؟». مها وهي أقربهم إليّ همست لي يومًا:

ـ لعلّه عليك الآن أن تخصّص لي جنيهًا شهريًّا من مرتّبك شهريًّا؟

فضحكت ضحكة عصبيّة وقلت:

ـ أتظنّين أنّ توفير نقطة ماء يجدي لملء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

ـ أظنّ أنّه في وسع والدها أن يحلّ المشكلة.

فقلت بامتعاض:

ـ إنّه حقًّا موظّف كبير ولٰكنّهم أصبحوا جميعًا يتبعون كادر الشحّاذين، ومدّخراته تفي بالكاد بأعبائه، ولعلّه يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدّم الطرف الآخر الشقّة والمهر. . .

ـ إذن فما هي خطّتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكًا:

ـ لا أملك إلّا إرادتي!

وغامت نظرتها بالتفكير، ربّما في حالها أيضًا، حتّى سألتها:

ـ فيمَ تفكّرين؟

فقالت وهي تتنهّد:

ـ تمتّعوا بشبابهم في أيّام يسر ورخاء ولم يخلّفوا لنا إلّا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبدالملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسئولين، ولٰكنّ أمّ حبيبتي تصدّت لي هناك كالصخرة، وضنّت عليّ حتّى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلّا وذكّرتني بالواجبات المقدّسة، الشقّة والمهر، وفي مجلس الأمريكين قلت لرجاء:

ـ الهجرة. . . الأمل في الهجرة. . .

فسألتني والحقّ أنّها لم تطرق الموضوع حتّى فتحته لها:

ـ ما هي فرصتك؟

ـ عمل قانونيّ في شركة ما، إنّي أتابع الإعلانات في الصحف، إنّها فرصة نادرة. . .

ـ لٰكنّها محترمة.

ـ الحقّ أنّي ما أحببت القانون أبدًا، لقد اقتحمني مثل حوادث الطريق. . .

***

إنّي أنتظر معجزة. أنتظر عونًا من الخارج. خارج ذواتنا، لم أتعلّم شيئًا ينفعني. أحمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر منّي ألف مرّة. إنّي أتحدّى وأحلم ولٰكنّي لا أفعل شيئًا. وضاعف من حدّة مسئوليّتي أن عرف الزملاء في الإدارة بخطبتنا. انهالت علينا التهاني والأسئلة. هٰذا السؤال اللعين:

ـ وجدتم الشقّة؟

ـ دفعت الخلوّ؟

ما هو إلّا مزيج من الإحراج. تضخّمت المسئوليّة التي أحملها. الأيّام تمرّ. الأسابيع والأشهر. ينظرون إليّ كطفيليّ يقف عثرة في سبيل شابّة ممتازة. ولم تسكت عنّي الأسئلة حتّى فقدت أعصابي واختنقت بمشكلتي

المستعصية.

* * *

وسألتني أمّ رجاء ذات مرّة:

ـ حتّى متى ننتظر؟

وأفصحت عن مشروع لأوّل مرّة ـ بعد موافقة رجاء سرًا ـ فقلت:

ـ هنالك حلّ ممكن، جهّزونا، واعتبروا نصيبي دينًا يُرَدّ عند الميسرة.

فهتفت الأمّ محتدّة:

ـ يا له من اقتراح لا أحبّ أن أصفه، حسبي أن أخبرك أنّه مستحيل التنفيذ.

ـ لماذا؟

فصاحت:

ـ إنّه غير لائق!

همست رجاء برجاء:

ـ ماما!

وقلت أنا منفعلًا أشدّ الانفعال:

ـ لا حيلة لي ولْكن لا داعي للإهانة...

فقالت الأمّ بحدّة:

ـ افسخ الخطبة...

فقلت بالحدّة نفسها:

ـ لا أقبل أمرًا إلّا من رجاء.

فصاحت الأمّ:

ـ إن كنت تحبّها فابعد عن طريقها!

ولم تكفّ إلّا حين أفحمت رجاء في البكاء.

ـ ١٤ ـ

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المشبع بالتراب. زادها الصيف احتدامًا ففتر نشاطي الروحيّ وغطّاه الرماد. رغم جرأتي عانيت حساسية شديدة. تمخّض الموقف الباهر لعينيّ عن أنانيّة تتجسّد كالبلطجة. وقلت لبقايا الحلم الورديّ «لا». لعلّها لاحظت كآبتي في اليوم التالي في الأمريكين فقالت لي:

ـ إنّي معك حتّى النهاية.

ومع أنّني تلقّيت قولها مثل شربة مثلجة في يوم قائظ إلّا أنّني قلت:

ـ ليبعد الله عنك شرّ هٰذه النهاية.

فتساءلت بقلق:

ـ ماذا حلّ بروحك؟

فقلت بوضوح:

ـ ليس الحبّ أن أضحّي بك على مذبح جنوني.

ـ ما زلنا في أوّل الطريق وسوف نجد حلًّا ما.

ـ أين الحلّ؟... المسألة أفظع ممّا تصوّرنا وأنت الخاسرة!

فقالت بعتاب:

ـ أحسبتني قاصرة؟... لا تعتبرني ضحيّة من فضلك.

ـ هٰذا هو سرّ جنوني الباهر ولْكنّه هو أيضًا ما يملي عليّ ما ينبغي عمله...

ـ ما ينبغي عمله؟

ـ لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذٰلك بلا حلّ واضح...

فقالت بانفعال:

ـ شخص آخر يتحدّث، أنسيت...

فقاطعتها:

ـ لم أنسَ، كنت مجنونًا، لقد أسأت إليك إساءة بالغة، الجميع يدركون ذٰلك لا والدتك فقط، الجميع حتّى الزملاء، لا شكّ أنّك تسمعين وتفهمين.

ـ لا أهمّيّة لذٰلك...

ـ نبل وشجاعة ولْكنّك تسيئين إلى نفسك بلا أمل، رجولتي تأبى عليّ ذٰلك، حبّي يؤنّبني ويتّهمني، لا... لا...

فقالت بحدّة:

ـ إنّي صاحبة الحقّ في القول الأخير.

ـ لي حقّ أيضًا، بل هو واجب، على المجنون ألّا يجرّ الآخرين إلى جنونه...

ـ كنت في جنونك أفضل منك الآن ألف مرّة...

فقلت بتصميم:

ـ إنّي آسف، ولست في حاجة إلى أن أؤكّد لك حبّي...

فهزّني اليأس، وكنت مصرًّا بقدر ما كنت يائسًا...

- ١٥ -

ما فعلته بنفسي لا يصدّق. استيقظت عقب ليلة مسهّدة لأرى حقيقة بشعة ترصدني لتقول لي بصوت فظ: «اختفت رجاء من حياتك». ترامت إليّ أصوات الطريق كأنّما هي نعي للوجود، نعي لأيّ معنى. لِمَ أحيا؟! كيف أعاشر هزيمتي إلى الأبد؟! بودّي أن أبصق على كلّ فكرة خطرت وكلّ فعل نُفّذ.

قال أبي لي بأسًى:

- إنّي حزين يا عليّ، وددت لو كان بوسعي مساعدتك...

واغتمّت أمّي حتّى دمعت عيناها.

الحزن يتغلغل في أعماقي كلّها ولكنّي لم أجد بدًّا من حمل حياتي والمضيّ بها. واستسلمت لردّ فعل غضبي فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أنقل إلى إدارة أخرى مقدّمًا أسباب ذلك. ونقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلًا كما كنت. وصارعت أشواقي والأيّام تمرّ مثقلة بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحبّ مع الزمن، رجوت أن تحرّر هي من كافّة القيود لتستردّ رونقها البهيج. في تلك الأيّام تابعت بإعجاب مغامرات الإرهابيّين في الصحف. إنّهم ينفجرون في أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينمو في رحم الغيب. انبعثت من قلبي المحطّم أخيلة مطلقة مرقت في الفضاء وغاصت في أعماق المحيطات. وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرّات الجمادات. ولم يخمد الحبّ ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالًا.

* * *

وقادتني قدماي إلى مقهى الحرّيّة فلمحت الأستاذ عاطف هلال في مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائيّة وتوتّر مشحونًا بالاحتقار. حيّيته قائلًا:

- لعلّك تذكرني...

فرمقني بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكّري فقلت:

- أنا صاحب المشكلة الجنسيّة...

فالتمعت عيناه وقال ضاحكًا:

- آه... لا مؤاخذة... السنّ والشواغل... اجلس... جلست فراح يقول متسائلًا:

- لعلّك وجدت الحلّ؟

فدفعني العبث لأن أقول:

- الحلّ الكامل...

ثمّ مستسلمًا أكثر للعبث:

- سأنضمّ قريبًا إلى أصحاب الملايين!

فارتفع حاجباه الأشيبان الهائشان وتساءل:

- حقًّا؟

فقلت بثقة لا حدّ لها:

- بكلّ تأكيد.

- كيف؟

- الأسرار لا تباح!

فهزّ رأسه هزّة الخبرة وقال:

- إنّها مسجّلة في جدول محفوظ...

فابتسمت فيما يشبه الطمأنينة فسألني:

- أأنت سعيد؟

- طبعًا.

- لأنّك ما زلت في أوّل الطريق.

- هٰذا حقّ.

- أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟

فقلت كاتمًا سخريتي:

- كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرة مأساويّة:

- خسارة النفس لا تعوّض.

فقلت منفعلًا:

- كذب.

استاء ولا شكّ من لهجتي فصمت مقطّبًا فقلت بسخرية:

- تحرّر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها.

فقال متضايقًا:

- إنّي أعرفها خيرًا منك.

فاندفعت أقول محتدًّا:

- ماذا كنت؟... وماذا أصبحت؟... وثبت في الوقت المناسب من السفينة وهي تغرق...

تساءل في انزعاج:

ـ ما هٰذا؟

فقلت مستزيدًا في التمادي:

ـ أنت أيضًا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفسهم...

فهتف غاضبًا:

ـ لقد جئت بقصد إهانتي ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذٰلك...

قمت. غادرته دون سلام، وتحت الشمس المحرقة في الخارج شعرت بانشراح فضحكت. ماذا قلت؟ كيف تأتّى لي قوله؟ الحوار من جانبي مرتجَل من أَلِفِه إلى يائه. المقابلة تمّت بغير خطّة سابقة. انتشيت بمرح عارض وأنا أمضي فوق قاعدة راسخة من الألم. وفي صباح اليوم التالي بدأت بعاموده اليوميّ في الصحيفة فوجدته يتحدّث عن الطوفان الجديد، وأنّه لن ينجو من الغرق إلّا من يلوذ بسفينة المبادئ. الحقّ أنّه ليس أسوأ من غيره، ومقالته تُفهم على وجهها الصحيح إذا اعتُبرت نوعًا من النقد الذاتيّ الخفيّ، وإعرابًا عن الاغتراب الذي تطوّعوا لاعتناقه.

وفي مرحلة متأخّرة من رحلة الآلام ـ وأنا أتسكّع على غير هدًى ـ اقتحمني إلهام منعش. مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من الأمريكين تألّق الإلهام وتوهّج، دفعني إلى دخول المكان بقوّة واعدة بالمعجزة...

ـ ١٦ ـ

رأيت رجاء في مجلسنا كأنّها تنتظر. تسمّرت أمامها. تلاطمتني أمواج انفعالات متضاربة. مضيت أخرج من ليلي الحالك إلى نهار مشرق. انهمرت فوقي أعذب ألحان الوجود ونشواته مؤيّدة بقوّة تستطيع أن تفعل ما تشاء. ارتميت إلى جانبها صامتًا. تنفّست بعمق لأستردّ شيئًا من الهدوء. تساءلتْ بصوت هامس:

ـ ماذا جاء بكَ؟

فسألتها بدوري:

ـ ماذا جاء بكِ؟

فقالت بعتاب:

ـ إنّك ماهر في الاختفاء فلم أرَ بدًّا من الجري وراءك...

تذكّرت آلامي بندم وأسف فواصلت حديثها:

ـ كأنّك كنت تهرب من هٰذا المكان أيضًا...

ـ هل تردّدتِ عليه قبل هٰذه المرّة؟

فحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

ـ آسف جدًّا.

ـ ما فائدة الأسف؟

ـ سعادتك هي ما كانت تهمّني...

ـ وفّرت لي من الشقاء ما يشفق منه العدوّ.

ـ أمّا آلامي فلن أحدّثك عنها...

فقالت بحرارة:

ـ أرجو ألّا تتصرّف بغباء بعد الآن...

فقلت بقوّة وإيمان:

ـ لن نفترق أبدًا.

فابتسمت بعذوبة فقلت:

ـ لن نتراجع حيال عقبة.

ـ لم أكفّ عن التفكير لحظة واحدة.

فهتفت:

ـ هٰذا هو الخطأ!

ـ ماذا؟

ـ التفكير في مثل حالنا هو خصمنا...

فابتسمت قائلة:

ـ لقد جرّبنا الارتجال؟!

ـ ونجحنا، ولم نفشل إلّا بالإذعان للتفكير...

فقالت بقلق:

ـ أخشى أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للدنيا...

فقلت بتصميم وهدوء:

ـ لنتزوّج في الحال!

فرمقتني بذهول فكرّرت:

ـ في الحال.

ـ أتعني ما تقول؟

ـ بكلّ جدّيّة، ودون الرجوع إلى أحد.

فتساءلت بحيرة:

ـ ثمّ ماذا؟

ـ أجّلي هٰذا السؤال إلى ما بعد الزواج وسوف يتبدّى لنا في صورة جديدة تمامًا...

ـ ربّما وجدت في الزواج ما وجدت في الخطبة من قبل؟

ـ إنّي أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة الجنون...

فتفكّرت في قلق واضح ثمّ تمتمت:

ـ الناس... الناس... التعليقات... أف...

فقلت مترفّقًا بها:

ـ لنبدأ في سرّيّة مؤقّتة... أيريحك هٰذا؟

فتساءلت في حيرة:

ـ لِمَ تكره التفكير؟

فقلت بسخرية:

ـ أيّ تفكير؟... ما هو إلّا ترديد لأصداء ماضٍ علينا أن نحطّمه...

ـ ١٧ ـ

سرنا معًا متلاصقين بعد أن تقرّر مصيرنا بأجرأ خطوة أقدمنا عليها في حياتنا. كنّا نشعر بدفء داخليّ رغم برودة الخريف المودِّع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا. بيد كلّ منّا وثيقة ملكيّة تشمل الروح والجسد. وبقلبي شعلة استأثرت بجوارحي فتناسيت الأمور المعلّقة. سألتني في مرح:

ـ كيف تشعر؟

فقلت دون تردّد:

ـ بأنّني انتزعت المسئوليّة من أيدي المغتصِبين...

ـ أظنّ أنّ التفكير الآن لا يُعتبر جريمة...

ـ يوجد الآن ما هو أهمّ...

التفتت نحوي متسائلة:

ـ ما هو؟

ـ أن نجد مكانًا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان...

فقالت وهي تداري ابتسامة:

ـ المسألة أكبر من ذٰلك.

ـ أجل ولٰكنّي أسير هٰذه اللحظة، الأخيلة المرحة تطاردني.

فقالت بعتاب:

ـ إنّي أسيرة أفكاري أيضًا...

رَبَتُّ على يدها وقلت بعجلة:

ـ لا مستحيل بعد اليوم، ممكن أن تُقنعي نفسك بالتعليم وأُقنع نفسي بالقانون ثمّ نهاجر...

ـ طالما كرهت ذٰلك...

ـ أنا مثلك، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحبّ... لٰكن يلزمنا مكان!

ـ مكان... مكان... أنت تضحكني...

فقلت وأنا أتصفّح وجوه العمارات:

ـ فندق... بنسيون...

فهتفت:

ـ ماذا؟... لا حقيبة معنا!

فقلت بجدّيّة محمومة:

ـ معنا تحقيق الشخصيّة والوثيقة الشرعيّة...

ـ سلوك غريب...

ـ لا تتعلّقي بالأوهام الفارغة، سترجعين إلى بيتك في الوقت المناسب!

فقالت وهي تداري ابتسامة:

ـ إنّك تفكّر مثل مراهق!

فقلت مدافعًا عن نفسي ومتذكّرًا في الوقت نفسه لتاريخي الأليم:

ـ ولٰكنّي أتصرّف كرجل...

ـ ١٨ ـ

لقاءات نهاريّة، قصيرة العمر، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانيّة. لأوّل مرّة أشعر بأنّني أنضج كإنسان وكعاشق. لم تشاركني رجاء أفراحي بنفس القوّة. حثّني ذٰلك على مواجهة الحقائق. قلت لها:

ـ الهجرة هي طريقنا الواضح.

فقالت بعصبيّة:

ـ لا أدري كيف سأتحمّل العمل الجديد.

فقلت رغم مشاركتي إيّاها في موقفها:

ـ هو خير من البطالة ثمّ إنّه سيهيّئ لنا عشّ الزوجيّة.

ـ العمل بلا حبّ نوع من السخرة.

فقلت برجاء:

ـ ثمّ يجيء الحبّ مع النجاح وهناء القلب...

فتساءلت بقلق:

ـ ثمّ من أدرانا أنّ ذٰلك الهدف الثقيل ميسور في النهاية؟

فقلت بقوّة أغطّي بها قلقي:

ـ أعتقد أنّه غير مستحيل ثمّ إنّه توجد تجارب أخرى. . .

أدركت عند ذٰلك أنّي أسير بها نحو الفندق فشدّتني إلى شارع ماسبيرو وهي تقول:

ـ كرهت التردّد على الفندق. . .

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة:

ـ الجميع يدركون لماذا نجيء، ما أفظع نظرات الموظّفين والخدم!

ـ ألا تستطيعين أن تقلّديني في عدم المبالاة بالآخرين؟

ـ فعلت الكثير ولٰكنّني أعجز عن مجاراتك!

انزعجت حقًّا وقلت وكأنّما أحادث نفسي:

ـ لا أطيق العودة إلى العذاب!

ـ وحتّامَ تسدل على شرعيّتنا ستار السرّيّة؟!

ـ ما اخترتها إلّا تشجيعًا لك وإنّي مستعدّ لإعلانها اليوم قبل الغد، أعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع إليّ. . .

وخشيت ألّا تمضي الأمور بالعذوبة التي مضت بها. . .

ـ ١٩ ـ

دُعيت إلى مقابلة مدير عامّ العلاقات العامّة. أوّل دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعوني وأنا رجل عاطل؟ طالعني بوجه متجهّم أثار أعصابي وبخاصّة وأنّه من الجيل الذي أناصبه العداء.

ـ حضرتك عليّ عبد الستّار؟

ـ نعم.

ـ ما عملك؟

ـ لا عمل لي. . .

ـ ألا يكفي أن تستبقيك الشركة رغم أنّك زائد عن الحاجة حتّى تكافئها بارتكاب الجرائم في رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معًا:

ـ إنّي معيَّن بحكم قانون عامّ فلا فضل لأحد عليّ، ثمّ إنّني لست مجرمًا فلعلّك أخطأت الشخص المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته:

ـ مَن إذن الذي يصحب الزميلة رجاء محمّد إلى فندق «العشّ الجميل»؟

انشقّ قلبي تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخرًا:

ـ أرأيت؟

تمالكت نفسي بسرعة وقلت بتحدّ:

ـ سيادتك مخطئ، ومُبْلِغُك مخطئ أيضًا، رجاء زوجتي الشرعيّة!

ـ ماذا؟

ـ إليك الدليل. . .

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثمّ تفحّصني باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم:

ـ مدهش، ألم يعلم زملاؤك بذٰلك؟

ـ كلّا، ثمّة ظروف جعلتنا نفرض سرّيّة مؤقّتة على علاقتنا!

ـ ولماذا تتردّدان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

ـ المسألة بكلّ بساطة أنّنا لا نجد مكانًا!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال:

ـ أنا مضطرّ إلى إعلان زواجكما كتفسير ضروريّ لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخرية خفيّة:

ـ هل يمكن أن تدلّني مشكورًا على شقّة؟

فأجابني ببرود:

ـ لست سمسارًا يا حضرة!

ـ ٢٠ ـ

أعلن الزواج، لا مفرّ. في بيتنا أحدث دهشة ولا شيء سواها. هتفت أمّي:

ـ غير معقول أن تفعل ذٰلك من وراء ظهورنا. . .

أغرقت مها ونهى في الضحك أمّا أبي فقال:

ـ أنتم جيل مجنون، قدّم لي سببًا واحدًا يبرّر تصرّفك المضحك. . .

فقلت معتذرًا:

ـ كانت السرّيّة إكرامًا لها!

ـ أنت أحمق، وهي أيضًا حمقاء، لولا ضيق شقّتنا لدعوتك للإقامة معنا.

ـ إنّي مدرك لذٰلك كلّه.

فتساءل ساخرًا:

ـ ماذا يغريكم بالزواج؟ ألا تتّعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثًا:

ـ سعادة بيتنا هي التي أغرتني بما فعلت. . .

أمّا بيت زوجتي فقد اجتاحته حريق. استنتجت ذٰلك من كلمات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم. تخيّلت الطعنة وأثرها الدامي في قلبّي الوالدين. قالت لي:

ـ إنّي أعيش في بيت يرفضني تمامًا.

فدفعني قولها إلى الارتطام بمسئوليّتي فقلت:

ـ تعالي إلى بيتنا مؤقّتًا!

ولٰكنّها لم تنبس فقلت:

ـ سأجد الإعلان الذي أبحث عنه في الصحف، لا بدّ أن أعثر عليه ذات يوم. . .

فقالت بضيق:

ـ ومن ناحيتي فالتعليم أحبّ إليّ من هٰذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

ـ لو اقتضى الأمر أن أتعلّم حرفة فسأتعلّم حرفة. . .

* * *

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعني إلى حيرة العذاب. ورغم أنّ الأمل في الرسوّ على برّ ـ بعد تقبّلنا للهجرة ـ بات ممكنًا إلّا أنّ عذابي لم يبرد. ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء إلى هضبة الهرم. لم يبقَ الهلال الوليد في السماء إلّا قليلًا ثمّ انتشر ظلام مريح. عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الخلاء وذابت في الظلمة. طوّقتها بذراعيّ بحنان وشوق ونحن نتعثّر على مهل حتّى توقّفنا تمامًا. ملت نحو أذنها لأهمس لها بخواطري المضطرمة ولٰكنّها لكزتني بكوعها قائلة في تحذير:

ـ انظر.

رأيت شبحًا قادمًا تبيّنته شرطيًّا عندما وقف أمامنا. اضطربت واتّجه وعيي نحو الوثيقة في جيبي. قال الشرطيّ:

ـ سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه:

ـ وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولٰكنّه لم ينبس ولم يتحرّك فقلت:

ـ نحن نشمّ الهواء، أنا وزوجتي. . .

فقال بنبرة واضحة:

ـ متزوّج أو غير متزوّج، لا يهمّ. . .

فقلت بتحدّ:

ـ لسنا وحدنا، الخلاء مليء بأمثالنا.

فقال ضاحكًا:

ـ افعل مثلهم. . .

زايلني الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدي في جيبي مستخرجًا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشًا ومددتها إليه. تناولها ثمّ قرأها على ضوء بطّاريّة ثمّ ردّها قائلًا:

ـ مقامك جنيه على الأقلّ!

ولّما ذهب قلت ضاحكًا:

ـ أرخص من الفندق بما لا يقاس. . .

فهتفتْ:

ـ يا للعار!

فضممتها إليّ بحرارة وأنا أقول معتذرًا:

ـ إنّها ظروف استثنائيّة لعينة، ولسوف نضحك عليها في القريب. . .

وأطلّت علينا القرون من فوق الهرم وهي تضرب كفًّا بكفّ. . .

سمارة الأمير

- ١ -

تبدو ضئيلة جدًّا، لا لضآلة في تكوينها، فهي بشهادة الجميع أنضج من سنّها، ولكنّها لا تكاد تُرى في الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية، أمّا في الحديقة الفوّاحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة في وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء. في أوقات الفراغ، العصارى المزخرفة بالظلال، تقف مستندة إلى ضلفة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلخ المُظِلّة لشارع سبينالي، وتلحظ بعينٍ الأريكة يجلس عليها البوّاب وسوّاق السيّارة عليّ جلال. يعجبها منظر عليّ جلال ببدلته الرسميّة، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرته الحادّة. إنّه يلي في التأثير الباشا الذي لا يضارعه شيء، وهي يروعها كلّ شيء في السراي وما حولها، قلبها الغضّ يجود بالإعجاب لكلّ شيء، وهي تحبّ كلّ شيء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذي آواها في طفولتها برشيد إلّا طيفًا ذائبًا في ماضٍ مضى وانقضى. حتّى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبقَ من صورتيهما إلّا النمط الشائع. جاء أبوها بها إلى سراي عصمت باشا خورشيد وهي ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام، وعقب عامين جاءت أمّها حاملة نبأ وفاته، ثمّ أبلغت بعد عامين آخرين نبأ وفاة أمّها، فلم يبقَ من الشجرة إلّا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كلّ نبأ أسود كانت تجهش في البكاء، وتُحاط بعطف ما، ثمّ يطيّب الخادمات الثلاث اللاتي يشاركنها حجرة البدروم خاطرها، ويحذّرنها من الاسترسال في الحزن. التصقت بالسرايا باعتبارها دنياها الوحيدة. إنّها قلعة شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة مترامية، تتوسّط شارع سبينالي بلوران بالإسكندريّة، وربّة الدار الهانم تأنس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصّها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدميها وساقيها. تعطف عليها لطيبة قلبها وسذاجتها. ونقائها من المكر. فكانت الوحيدة في السراي التي يتهيّأ لها فرصة الوجود أحيانًا في اجتماع الباشا بحرمه. وتسمع أحيانًا ما يدور بينهما من حديث، بل وما يتبادلان أحيانًا من نقار أو شجار. ويسألنها - الخادمات الثلاث - عمّا تسمع فتشعر بأهمّيّتها وتمضي في حكي الحكايات. وكان الباشا وحرمه عجوزين وحيدين. فكريمتهما متزوّجة من قنصل يعمل في الخارج، وابنهما يعمل كذلك في سفارة، ولكنّ الرجل كان رائعًا وقورًا، يمضي في شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس في روبه آية في الجاذبيّة، وكانت حرمه جميلة رغم طعونها في السنّ، وكم أعجبت شلبيّة بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها، ويقول الباشا لحرمه في غضبه «أنت ظالمة . . . أنت عمياء» فتقول له «ما أنت إلّا ثور»، «ألا تقرأ ما يُكتب عنك؟!». عندما تثور عاصفة تنكمش في ذاتها، تودّ أن تختفي، تنكّس رأسها، وقد تدمع عيناها. ومرّة سألته الهانم بحدّة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرّة؟» فيقول لها «حتّى السراي لا تخلو من عدوّ لي» فتقول له «بل أفعالك الشائنة هي عدوّك الأوّل» فيتساءل: «أفعالي الشائنة؟!» فتصرخ «نعم... ما زلت تحلم بمباذل الشباب يا عجوز؟». «متى منعت الأفعال الشائنة من

الوزارة»، «إنّي أفكّر في الإقامة مع ابني في الخارج».

ولا يحول ذلك دون خروجهما في المساء نفسه لقضاء سهرة معًا كزوجين سعيدين.

ألفت شلبيّة هذه الحياة الأنيقة، كادت تُخصّ بخدمة الهانم، ولكنّها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتي يشاركنها في البدروم، تنظّف الحجرة، تغسل الملابس، تبتاع لهنّ الدخان وأوراق البفرة، وتتطوّع بدافع خاصّ للفّ السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنّها أنضج من سنّها، وأنّها «شيخة» لطيبتها وسذاجتها، أمّا في الطريق وعند البدّال فمضت تدرك أنّها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل في تحفّظ وبدلال مع المعجبين. وكانت أخلاقها فطريّة لا تكاد تتجاوز الحياء. حدّثتها أمّها عن الجنّة والنار، وحذّرتها الخادمات من الهفوات اللاتي تقضي على مستقبل البنت. مستقبل البنت؟ إذن فحياة السراي غير دائمة، ما هي إلّا دار انتقال. المستقبل الحقيقيّ يقع في الخارج. ربّما في كوخ كالذي جاءت منه. لكن ما كان يكفي هذا لتوفير تربية أخلاقيّة حقيقيّة. كانت طيّبة، سمحة القلب والعاطفة، وهّابة للإعجاب والحبّ. ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. ألفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجيّة حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما ألفت جوّ الإسكندريّة المتقلّب بإشراقه وعذوبته ونواته الضارية. وتجمّعت أنفاس المراهقة في برعم قلبها فامتلأ برحيق الحياة الساخن. . .

- ٢ -

من عالم الرجال، العذب المخيف الغامض، يطلّ وجه عليّ جلال مثل المنارة. ليست بدلته الكحليّة هي المثيرة وحدها، ولكن قامته أيضًا، وبصفة خاصّة نظرة عينيه الوهّاجة، في العواصف التي تسجد لها الأشجار الشامخة يقف مستهترًا، مقطّبًا وباسمًا في آن، ولا يتراجع إلى حجرة البوّاب حتّى ينهمر المطر ويشرق أديم الأرض السنجابيّ. له نظرة يودعها أحيانًا النسمة الباردة المضمّخة بشذا البحر، مثل قرصة ملاطفة لخدّ مورّد، حادّة وناعمة، لغتها غامضة متحرّشة، تهيّج الشعور بالأهمّيّة، تداعب السرور الخفيّ. تغطّي القلق بغلالة من إيحاء ورديّ.

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعًا في جدول محفوف بالشوك. كان الوقت خريفًا والرذاذ يجيء قليلًا ويغيب قليلًا. شعرت بنداء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت عليّ جلال يقف تحت شجرة ليمون رانيًا إليها بنظرة ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. في الجوّ سرّ خفيّ وكأنّ أوراق الأكاسيا تتهامس به. عكست عيناها السوداوان بهجة وحذرًا. ترنّحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تُذكر. دنا منها صامتًا مربدّ الوجه. تناول يدها ومضى بها إلى الجراج في نهاية ممشى مسفلت. لم تقاوم ولكنّها تساءلت:

- ماذا تريد؟

ضمّها إلى صدره وغمرها بقبلات شرهة. وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم. تمنّت ألّا يجاوز ذلك الحدّ ولكنّه لم يجترح خطوة إلّا كتمهيد لأخرى جديدة. وسألته:

- ألا تخاف النار؟

ثمّ تساءلت ووجهها يتقلّص بالألم:

- ما هذا؟!

- ٣ -

الواقع دون الحلم ولكنّ شخصه أهمّ من فعله، باتا شريكين في حدث خطير، وكاتمين لسرّ هامّ. استولى على قلبها وخيالها، أحبّته أكثر ممّا تصوّر، تصوّرت العلاقة أقوى من صلب البوّابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها وقلبها مطيّته الأمينة. ليست السراي بالمكان المأمون لهذه الأفعال ولكن حتّام يبقى السرّ سرًّا؟ ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمحت إلى معاملة أرقّ وأطيب صراحة. وقال لها مرّة:

- تجنّبي النظر نحوي، أنت مجنونة؟

فسألته بحنق:

- لماذا تخاف؟

- أنت مجنونة؟

- أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

ـ من الخير أن تتركي السراي...
ـ حقًّا؟... إلى أين...؟
ـ أنت مستعدّة؟
ـ نعم.
فتفكّر قليلًا ثمّ قال:
ـ انتظري مساء عند نافورة الميدان واحذري أن ينتبه إليك أحد...

ـ ٤ ـ

انتهى عهد السراي كما انتهى عهد الكوخ من قبل. في حجرة عليّ جلال الوحيدة بفراشها السفريّ وصوانها القديم المقشّر وحصيرتها المتهرّئة شعرت بأنّها في بيتها. لأوّل مرّة تشعر بأنّها تنتمي إلى وطن، وأنّها ستّ بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت تعرف نفسها وتخبر الحياة والرجل والحبّ. وكان للعلاقة شهر عسل أيضًا ولٰكنّه في الواقع أقلّ من شهر. تجلّى عليّ جلال عاشقًا نحو أسبوع ثمّ خرج من جلده رجل جديد. اختفى المجامل الباسم العطوف وحلّ محلّه رجل فظّ ضيّق الصدر متوثّب دائمًا للزجر والردع، عجبت لتغيّره، فزعت من معاملته، وكانت تزداد به تعلّقًا وارتباطًا. إنّها لا تطالبه بشيء، تخدمه بولاء. تهبه ما تملك بلا مقابل. لم تكن تذوق اللحم إلّا مرّة واحدة في الأسبوع بلا تذمّر. آيست من فكرة الزواج فتجنّبتها وقنعت بحالها. ورغم حزنها شعرت بأنّه ملكها وبأنّه لا غنى له عنها. ومرّة سألته:
ـ لماذا تعاملني بخشونة؟... هل بدر منّي ما يسيئك؟
فقال:
ـ إنّك تتوهّمين ذٰلك لأنّك دلّوعة!
فقالت برجاء:
ـ أحسن معاملتي، ألا ترى أنّي يتيمة وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لي في هٰذه الدنيا سواك؟
فقال بسخرية:
ـ إنّي مثلك تمامًا، وكنت مثلك دائمًا، لم أعرف لي شجرة. وعلى حين نشأت أنت في سراي باشا نشأت أنا في إصلاحيّة، ورغم ذٰلك اعتبرت الشكوى خنوثة!
ـ ولٰكنّي أتألّم...
ـ الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة...
ـ ألا تزال تحبّني؟
ـ أظنّ هٰذا واضح...
فقالت بعذوبة وبراءة:
ـ إنّي لا أشكو إلّا معاملتك!
ـ هٰكذا خُلقت! ماذا ينقصك؟!
أحقًّا لا يدرك كم تتحمّل من شظف العيش حرصًا عليه؟! وتنهّدت قائلة:
ـ ربّنا موجود...
فسألها بحدّة:
ـ ماذا تعرفين عنه؟
فقالت باستسلام:
ـ إنّه موجود، ألا يكفي هٰذا؟!
ولٰكنّها كانت تغوص في صميم الحياة، وتزدهر رغم حرمانها من طيّبات الحياة التي ألفتها في السراي، ويتألّق جمالها وشبابها في الجلباب الشعبيّ، وتنعم بالحبّ...

ـ ٥ ـ

وكان يقول لها أحيانًا وهو يدخّن ويحلم:
ـ لا دوام لحال...
فترمقه بسؤال حائر في عينيها الجميلتين فيقول:
ـ ولـمّا كنت في الحضيض فسيصير الحال إلى الأحسن!
ـ حقًّا؟!... ولٰكنّي لا أصلح لشيء...
ويبتسم، ويبرم طرفي شاربه، ويصمت فتقول:
ـ بوسعي أن أخدم في أيّ بيت ولٰكنّي سأنقطع عن بيتي!
فيضحك ويقول:
ـ هروبك أثار في السراي زوبعة...
فقطّبت ولم تجد ما تقوله... فيواصل:
ـ ظنّوا في بادئ الأمر أنّك سرقت شيئًا ثمينًا، ولـمّا وجدوا كلّ شيء في محلّه أدركوا الحقيقة!
ـ الحقيقة!
ـ قالوا إنّها هربت مع رجل غواها، أليست هٰذه

هي الحقيقة؟

ـ ولٰكنّهم لم يعرفوا الرجل؟

ـ طبعًا...

ثمّ يقول بثقة:

ـ لا دوام لحال.

ـ ٦ ـ

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحيّ اللون صامت الملامح. جلس إلى جانب عليّ على الكنبة على حين وقفت هي مستندة إلى السرير غائصة في ارتباكها. ولمّا طال الصمت والنظر قالت متهرّبة:

ـ أصنع لكما الشاي...

فقال الغريب بصوت غليظ:

ـ شكرًا... لا أريد شيئًا...

وقال عليّ جلال:

ـ إنّها لائقة وإلّا فإنّني لا أعرف شيئًا...

فابتسم الرجل ولم يعلّق وواصل النظر فقال عليّ:

ـ إنّها لائقة...

فسأله الرجل ببرود:

ـ ماذا تعني؟

ـ من ناحية الشكل...

فتساءلت بحدّة:

ـ عمّا تتكلّمان؟

فأشار لها عليّ إشارة آمرة بالصمت على حين قال الرجل:

ـ وما أهمّيّة الشكل؟

ـ إنّه الأساس...

ـ أعندك فكرة عمّا تحتاجه من تعليم؟

ـ إنّه اليسير إذا توفّر الشكل...

ـ ما اسمها؟

فقال عليّ مستقبلًا وثبة من الأمل:

ـ شلبيّة الأمير...

فابتسم الرجل متمتمًا:

ـ الأمير دفعة واحدة!... ولٰكن أعوذ بالله من شلبيّة!

فهتف عليّ بتحدّ:

ـ إنّك موافق ولا داعي للمناورة...

قام الرجل، حنى رأسه تحيّة لشلبيّة، ذهب وعليّ في أثره يودّعه.

ـ ٧ ـ

رجع عليّ بعد دقائق ممتلئًا حيويّة واستبشارًا. سألته:

ـ مَن الرجل؟

ـ مأمون الفرماني صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبي.

ـ لماذا جئت به؟... وما معنى حديثكما؟

ـ الصبر مفتاح الفرج...

وقف ينظر إليها باهتمام ثمّ قال:

ـ غنّي... غنّي أيّ أغنية...

فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل:

ـ ألم تغنّي من قبل؟... في الحقل؟... في الحمّام؟

ـ أبدًا لم يشجّعني صوتي قطّ...

ـ يا للأسف... ولٰكنّ جسمك صالح للرقص...

فهتفت:

ـ الرقص!

ـ ليس عندك إلّا الشكوى والصراخ، إنّي أعرض عليك خاتم سليمان...

ـ أنا أرقص؟!

ـ بعد تهذيب وتعليم ثمّ تتفتّح لك أبواب الرزق...

ـ أمام الناس؟!

ـ طبعًا...

ـ اخّص... يا للعيب...

فابتسم برقّة مصطنعة وقال:

ـ إنّه مهنة شريفة، شرفك من شرفي، افهميني جيّدًا، لست أنا الذي أدفع بك إلى السقوط!

ـ أنا مستعدّة أعمل أيّ شيء آخر...

ـ ألا تريدين غذاء أوفر وكساء أجمل وحياة أفضل؟... سنغيّر حياتنا بالعمل والشرف... جرّبي

ولا تخافي، سيربط الرقص بيننا برباط متين أمّا الحياة كما هي الآن فلن تحسّن أكثر من ذٰلك!

انقبض قلبها، رمقته بتوسّل، اغرورقت عيناها. . .

- ٨ -

كان صباح داكن، تجيش سماؤه بسحب ملبّدة، والريح تزأر مطلقة الأمواج المزبدة إلى أديم الكورنيش. جلست إلى جانبه في شيفروليه عصمت باشا خورشيد واندفع بها نحو الشاطبي وهو يقول:

- من يدري؟ قد تمتلكين يومًا سيّارة كهذه.

استقبلهما مأمون الفرماني في شقّته فوق الملهى مباشرة بعمارة مكوّنة من عشرة أدوار مطلّة على البحر الثائر، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال:

- أهلًا بالتلميذة. . . ستضحكين غدًا. . .

وقدّم لها الشاي والكعك ومضى يقول:

- انسي شلبيّة، اخترت لك اسم «سمارة»، سمارة الأمير، تركت لك الأمير فهو مناسب جدًّا، هل نتوقّع إزعاجًا من أهلك؟

فأجاب عليّ عنها قائلًا:

- كلّا.

- عظيم، نحن في أوائل الشتاء، الشتاء فصل ميّت، ولٰكن يجب أن تعدّي كما يجب قبل الصيف، ممّ تخافين؟

- إنّها بنت شريفة كما تعلم. . .

- ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرّك أحد إلى شيء تأبينه، ولا تصدّقي غير ذٰلك. . .

ثمّ بعد فترة صمت وتأمّل:

- ولٰكنّ التعليم لا مزاح فيه، ستتعهّدك امرأة خبيرة، ولٰكنّ كلّ شيء يتوقّف على إرادتك. . .

- ٩ -

وسرعان ما بدأ التدريب، ووفّر لها الرجل أيضًا كساء مناسبًا وغذاء صحّيًّا. وكان التدريب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة. وكلّما وجد مأمون الفرماني إهمالًا أو تكاسلًا استعان بعليّ جلال حتّى اضطرّ الرجل مرّة إلى توجيه لطمة إليها. يومها رجعا إلى حجرتها وهي صامتة غارقة في حزن أبديّ. وغيّر هناك من لهجته المألوفة فقال لها بنبرة المعتذر:

- ما من رجل إلّا وضرب محبوبته عند الضرورة.

أصرّت على الصمت والعبوس فداعب بإبهامه خدّها وقال:

- العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك. . .

فقالت بحنق:

- بل لمصلحتك أنت!

- لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلّا شخص واحد. . .

فصاحت به:

- لقد سلّمتني إلى رجل غريب!

- إنّه رجل أعمال، وليس له في النسوان. . .

- لو كنت تحبّني حقًّا ما فعلت ذٰلك.

- ما فعلت لك إلّا لأنّي أحبّك. . .

فقالت بتحدّ:

- أنت! لم أسمع منك كلمة حبّ واحدة!

- ولٰكنّي أفعل ذٰلك!

- أريد حياة معقولة، هل في ذٰلك من بأس؟!

وساد صمت ثقيل حتّى قطعه قائلًا:

- كنت ذات يوم تلميذًا، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم، تركت شبه أمّيّ وانطحنت في الإصلاحيّة. . . ها أنا أهيّئ لك سبيلًا أجمل. ماذا في ذٰلك من عيب؟!. . . انظري إلى الراقصات وحظّهنّ في الحياة. . .

لقد احتملت الحياة حرصًا عليه، ولأنّها شعرت في أعماقها الحيّة الملهمة أنّه يحبّها.

- ١٠ -

الفلير دامور ملهى صغير وأنيق. لا تفتح نوافذه الأماميّة شتاء، تسفعه العواصف وهو صامد بجدرانه الأرجوانيّة، مربّع الشكل، مسرحه صغير يعلو على الأرض بمتر واحد، في جوانبه مقاصير من خشب الزان، وصفوفه موائد، يغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف، قلّة تختلف إليه كحانة نظيفة تمتاز بمزّتها

الغنيّة، وفرقة موسيقيّة تعزف ألحانًا شرقيّة وغربيّة، ومغنّي درجة ثالثة يترنّم بأغانٍ كلاسيكيّة، به أيضًا مهرّج يقدّم نمرًا فرديّة هزليّة وساحر، وبطانة المطرب مكوّنة من فتيات أربع يُدعون أحيانًا لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يناسب روّاده الممتازين من المصريّين والأجانب.

دُفعت سهارة للرقص فوق مسرحه في أوّل الربيع، كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العمليّ أمام روّاد معدودين غير مبالين. كانت كمن يلقي بنفسه في الماء وهو جاهز لفنّ السباحة، رقصت على أيّ حال ونالت تصفيقًا من أيد محدودة، عطفًا من ناحية وانجذابًا إلى جمالها من ناحية أخرى. الرقص يقدّم لأوّل مرّة في الفلير دامور، وسهارة وجه ممتاز وجسد ممتاز أيضًا.

في الحجرة الخلفيّة وجدت مأمون الفرماني وعليّ جلال في انتظارها. قال الفرماني:

ـ التصفيق للمرأة لا للراقصة...

فقال عليّ جلال:

ـ في المرّة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معًا...

فقالت بحرارة:

ـ إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام...

فتساءل الفرماني ببرود:

ـ عندك فكرة عمّا كلّفني تدريبك وكساؤك وتغذيتك؟

فعبست وصمتت. وكان المتّفق عليه أن تعمل حتّى نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف، على أن تكافأ في الصيف بعد ذٰلك بجنيه في الليلة، وثلاثين قرشًا بقيّة العام. وتساءل عليّ جلال بمكر:

ـ ألا تعطي شيئًا على الحساب؟

فقال الرجل بحزم:

ـ لم أعتد أن أغيّر حرفًا في اتّفاق...

ثمّ مستدركًا:

ـ لا تنسَ تحيّات الزبائن!

ـ ١١ ـ

سألت عليّ جلال وهما عائدان مشيًا على الأقدام إلى الإبراهيميّة:

ـ ماذا يعني بتحيّات الزبائن؟

ـ سيدعوك بعض الأكابر حتمًا للمجالسة والمشاربة، في تلك الحال يُحسب الكأس بضعف ثمنه وتأخذين نسبة محترمة...

فهالها الأمر وقالت بحدّة:

ـ ليس هٰذا ما تمّ الاتّفاق عليه بيننا...

ـ لا خوف من ذٰلك وهو رزق شريف...

ـ لٰكنّني لا أشرب...

ـ يملأ كأسك عادة بالشاي، هٰذا تقليد معترف به...

فقالت بأسًى محدّثة نفسها:

ـ أجالس رجالًا؟!

ـ قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضي...

ـ يا له من موقف...!

ـ بسيط، لا تعقّدي الأمور...

ـ ربّما تدخّل مأمون الفرماني؟!

ـ إنّه يعرف سلفًا أنّي أدقّ عنقه لو فعل...

شدّت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم فقال:

ـ لا أريد لك الابتذال الرخيص...

ـ ١٢ ـ

اعتادت الرقص ومضت خطوات في طريق إتقانه، اعتادت كذٰلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم. اكتسبت مكانة سامية بفضل أنوثتها، وانقضى الربيع والصيف وهي تتألّق كنجمة في الملهى الصغير. لم تأنس إلى أحد كما أنست إلى سعداوي بيّاع الفستق، فهو فلّاح مثلها صبوح الوجه، يرمقها باحترام وعطف. يرمقها بأكثر من ذٰلك حتّى قالت لنفسها إنّها لو كانت حرّة بلا رجل لما تردّد في طلب يدها. وقد مالت إليه ميلًا صافيًا، لأنّها كانت سليبة القلب، مكبّلة بحبّ عليّ جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم، وحلول الخريف، جاءها سعداوي وقال لها:

ـ المقصورة رقم واحد...

مضت إلى المقصورة فوجدت في استقبالها شابًا أنيقًا وجيهًا ذا جاذبيّة واضحة، صافحته بَسِمَة كالعادة فقال بصوت أضخم كثيرًا من عوده النحيل:

ـ أهـلًا... مـروان أمـين المعجب بفنّـك وجمالك...

فتمتمت وهي تجلس قبالته تحت أغصان الياسمين المعشق في أعواد الزان:

ـ تشرّفنا.

وجـاء الجرسـون كظلّهـا فقال مـروان أمين بنـبرة مترفّعة:

ـ اثنين ويسكي...

عيناه نجلاوان، وسيم القسمات، مبروم الشارب، عذب الابتسامة. تأمّلها بإعجاب وقال:

ـ يخيّل إليّ أنّك ولدت لتكوني راقصة، ومجيئك إلى الفلير دامـور أضفى عليـه حيـويّـة لم ينعم بهـا من قبل...

ـ أشكرك جدًا...

وشرب نخبها ثمّ قال:

ـ اطلبي ما تشائين، لا تتقيّدي بي فإنّي لا أشرب عادة أكثر من كأسين...

فحنت رأسها ممتنّة وسألته:

ـ حضرتك من الإسكندريّة؟

ـ نعم، أنـا وأجدادي، إنّها مـدينـة عـالميّـة كـما ترين...

ـ نصف زبائننا من الخواجات...

لزم أدبه طيلة الوقت. لم تبدر منه كلمة نابية، ولا ملاحظة ماكرة، ولا حركة مستهجنة. واتّسم بوقار لا ينـاسب سنّه حتّى تسـاءلت في نفسها عـمّا جاء بـه، وجعل يحثّها على الشرب حتّى شربت ستّ كاسات من الشاي المثلّج.

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول:

ـ ليلة سعيدة أرجو أن تتكرّر كثيرًا...

ـ ١٣ ـ

رجعت تلك الليلة بصحبة عليّ جـلال وفي جيبها مائة وخمسون قرشًا، ولّما دسّتهـا في يده تهلّل وجهـه النديّ بنسائم الخريف المشعشعة بأضواء النجوم وقال:

ـ الحظّ يبتسم، ما رأيك في مروان أمين؟

فقالت بحماس بريء:

ـ مهذّب للغاية، فوق ما تتصوّر...

ـ الفلير دامور مكان محترم!

ـ هل سمعت عنه؟ ... مروان أمين؟

ـ يقول عنه مأمون الفرماني إنّه صاحب جـريدة «الصـوت»، أذكـر أنّـه جـالس مـرّة عصمت بـاشـا خورشيد في بدرو...

ولٰكنّه أقلقها بحماسه الزائد وهو يتساءل:

ـ متى يتاح لنا أن نؤجّر شقّة صغيرة وجميلة؟!

ـ ١٤ ـ

واظب مروان أمين على الذهـاب إلى الفلير دامور مسـاء كلّ أحـد. وجعل يـطلبها إلى مجلسـه في كلّ زيارة. نشأت بينهما مودّة حميمة وألفته بأريحيّة وعذوبة. ومرّة قال لها:

ـ جمالك فريد، وهو مصريّ صميم...

فقالت ضاحكة:

ـ ولٰكنّك لست مصريًا صميمًا!

فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف:

ـ كيف؟!

ـ عيناك!

ـ هٰذه الزرقة؟... أوه... كانت جدّتي جركسيّة ولٰكنّني مصريّ مائة في المائة...، المصريّ من يحبّ مصر...

ـ ولٰكنّ مستر فاولز يؤكّد حبّه لمصر!

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ رجـل البـورصـة الإنجليـزيّ؟!... ذاك حبّ مُغْرِض، الحبّ أنواع كما ترين...

فتساءلت باهتمام:

ـ حبّ مغرض؟

ـ كما نحبّ البقرة لنستغلّها...

فوجمت وكان وجهها مرآة صافية صادقة فسألها:

ـ ما لك؟

ـ لا شيء.

ـ لا يجوز أن تتكدّري هٰذه الليلة بالذات...

ـ لماذا هٰذه الليلة بالذات؟

ـ نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي!

وبلا تردّد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هٰذا النوع من الدعوات:

ـ معذرة... أنا لا أفعل ذٰلك...

فدهش، صمت قليلًا، ثمّ قال مرتبكًا لأوّل مرّة:

ـ إنّه لأمر مؤسف لي جدًّا، ولٰكنّك رائعة!

وجاء مأمون الفرماني عند انتهاء السهرة ليودّعه فقال الشابّ:

ـ كلّ شيء طيّب ولٰكن...

وضحك ضحكة عالية يداري بها ارتباكه ثمّ واصل:

ـ ولٰكن من المؤسف أنّ سمارة الحلوة لا تلبّي طلبات المنازل!

ـ ١٥ ـ

سار عليّ جلال طوال الطريق صامتًا فتوقّعت شرًّا! وفي الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال:

ـ غير معقول أن ترفضي النعمة...

فهتفت بحدّة:

ـ نعمة!...

ـ طبعًا...

ـ إنّه الابتذال الرخيص كما سمّيته...

ـ بل هو ثمين وغالٍ!

ـ أنت تدفعني إلى ذٰلك يا عليّ؟

ـ لصالحك، لصالحنا...

ـ أأنت تحبّني حقًّا؟

ـ طبعًا.

ـ إنّه حبّ مغرض!

فدهش عليّ وقال:

ـ يا لها من كلمة...!

ـ كما نحبّ البقرة لنستغلّها.

فما تمالك أن ضحك، ثمّ قال:

ـ حديث السكارى! عليك أن تفهمي الحياة خيرًا من ذٰلك، الحبّ في القلب، لا أهمّيّة للجسد، الأغنياء يرون في الحبّ أنواعًا أمّا الفقراء فلا وقت لديهم لذٰلك، إنّهم يحاربون العناء بكلّ وسيلة.

فقالت وعيناها تغرورقان:

ـ إنّي أرفض.

فقال بإصرار:

ـ كلّا يا سمارة. شلبيّة ترفض نعم. وتحفظ قلبها لي، أمّا سمارة فتخوض إلى جانبي معركة واحدة.

ـ ١٦ ـ

انسابت بهما الفورد في الطريق المحفوف بالمزارع، في السماء غيم كثير والريح تنقضّ بعنف ولٰكنّ الطقس معتدل لطيف. دخلا بيتًا خلويًّا صغيرًا في «أبو قير». بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطًا سعيدًا. مضى بها إلى فراندا وهو يقول:

ـ لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معًا...

ـ الحمد لله على أنّها غير مقمرة.

ـ تخافين البحر؟... ألست إسكندريّة.

ـ كلّا، من رشيد...

ـ بلدة ذات تاريخ مجيد، إنّي سعيد بوجودك.

ـ وأنا سعيدة...

فرمقها بشيء من الريبة ثمّ تساءل:

ـ لٰكنّ الظاهر أنّني لم أحظ بإعجابك؟

ـ أبدًا، المسألة أنّني أفعل ذٰلك لأوّل مرّة...

فقال بصدق:

ـ إنّي أصدّقك، البراءة لا تكذب، ولٰكن هل ساءك ذٰلك؟

فقالت وهي تغضّ بصرها:

ـ إنّي سعيدة...

ـ ١٧ ـ

في رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة. إنّه أفضل من عليّ جلال بما لا يقاس فلماذا يتعلّق قلبها بعليّ وحده؟ لا سَبَبَ معقولًا واحدًا يدعوها إلى حبّه ولٰكنّها أسيرة هواه، وفي سبيله تضحّي بكلّ غالٍ. وهو أيضًا يحبّها ما في ذٰلك من شكّ، على طريقته أي نعم، ويشاركها الوحدة

والعناء. ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أوّل مرّة «أنا لا أستغلّك ولكنّ كلينا يسلّم للاستغلال». وهو أيضًا الوحيد الذي يناديها باسمها «شلبيّة» فتشعر بين يديه بأنّها هي هي وليست شخصًا آخر. أمّا مروان أمين فقد احتلّ من نفسها مكانة سامية واحترامًا ومودّة، وهو بلا شكّ يعشق جمالها ويهيم بمفاتنها، ويغدق عليها بسخاء، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيّتها لأوّل مرّة. وقال لها مرّة:

- إنّك طيّبة أكثر من اللازم يا سمارة...

فقالت ببساطة:

- الله مع الطيّبين...

فجفل قليلًا وتمتم:

- الدنيا متوحّشة وقد خُلقنا لنقاتل!

فقالت بدهشة:

- كيف أقاتل وأنا امرأة ولا أهل لي؟

فتجهّم وجهه، وفتر حماسه، ثمّ سألها:

- ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فأعادت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب:

- سِرْتُ مِن يُتمٍ إلى زواج فاشل إلى طلاق، ثمّ دعاني الفرماني...

فقال لها وهو يتنهّد:

- ادّخري كلّ مليم، فلا سبيل إلى النجاة في هٰذه الغابة إلّا بالنقود! أمّا الإيمان فلا ينقصك...

- ١٨ -

وتوثّب عليّ جلال للتجديد بلا توانٍ، اكترى شقّة صغيرة في كامب شيزار بعمارة جديدة، وتبدّى في مظهر أنيق فلم يبقَ من ابتذاله القديم إلّا نظرة عينيه البرّاقة المتحدّية. وقال لها:

- تركت خدمة الباشا!

فسألته باهتمام:

- ألم تتسرّع؟

- كلّا، إنّي أفكّر في مشاركة الفرماني...

- دفعة واحدة؟

- كلّ شيء يتوقّف على اجتهادك!

فسألته بأسى:

- وتستمرّ الحياة هٰكذا؟

- سنبدأ يومًا حياة جديدة...

- متى؟

- عندما نطمئنّ على مستقبلنا...

وابتسم إليها واستطرد:

- ثمّ نتزوّج!

وثبت متهلّلة فتعلّقت بعنقه وهتفت:

- آه... متى يحدث ذٰلك؟!

- ١٩ -

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يواصل الشابّ ممارسة غرامه معها. قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة، ولٰكنّه لم يضنّ عليها بجوده وهداياه. ورغم كلّ شيء لاحظت عليه تغيّرًا غير يسير وفتورًا حتّى قالت له:

- لست كسابق عهدك.

فقال وهو يبتسم:

- إنّي مريض...

- كفى الله الشرّ...

- أحتاج إلى جراحة، سأجريها في الخارج...

- يا لسوء الحظّ.

- إنّني لم أعرف الراحة في حياتي...

- ولٰكنّك غنيّ والحمد الله...

- ليست مشكلة المال...

- عملك شاقّ؟

- جدًّا...

- سأدعو لك دائمًا بالسلامة...

- دعاء مبارك من قلب طاهر.

ثمّ أخرج من علبة سوارًا ذهبيًّا مطعّمًا بفصوص ماسيّة، أهداه إليها قائلًا:

- هديّة لك لمناسبة السفر.

فقالت بتأثّر شديد:

- أنت شابّ نبيل، لو كان الناس مثلك ما عرف أحد الشقاء أبدًا!...

- ٢٠ -

وقال لها عليّ جلال وهو يتفحّص السوار باهتمام:

ـ لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر!

فقالت معترضة:

ـ لا تسئ به الظنّ فإنّه لا يكذب...

فقال عليّ بازدراء:

ـ الصدق محرج ومهلك.

أمّا سمارة فقد حزنت لفراقه، وتمنّت لـو دام لها ليجنّبها على الأقلّ التورّط في علاقة جديدة مجهولة. أدركت أنّ عليّ ـ وقد جنى من العلاقة القديمة ما جنى ـ سيلقي بها بلا رحمة بين يـدي ذراعين واعـدتين. ومضت تكوّن لها شخصيّة فنّيّة مؤثّرة وتتوكّد شهرتها وسحرها. وهلّ الصيف برطوبته وروّاده وضجيجه. وازدحم الفلير دامـور بـالـزبـائن الجـدد. وتكـرّرت المجالسات كـلّ ليلة. والاعتذارات عمّا عدا ذلك. وطبعًا كان عليّ يوافق على ذلك مترفّعًا عن العشّاق «المفلسين» عشّاق الليلة الواحدة! واقـترح عـليّ أن يدخل شريكًا في الملهى ولكنّ الفرماني رفض. وفي الوقت نفسه استرضاه فعيّنه مديرًا للملهى بجنيه يوميّة في الصيف، ونصف جنيه في سائر العام. وفي أواخر الصيف الثريّ جاءت أنباء حزينة من وراء البحار تنعى الصحفيّ الشـابّ مـروان أمـين. واهـتزّ قلب سمارة، وغشيها حـزن صادق، فتـوارت في حجرتها وبكت طويلًا. وفي أوائل الخريف رجع مستر فاولز إلى الفلير دامور، وإذا به يدعو سمارة للعشاء في بيته! وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوي بيّاع الفستق وهمس في أذنها:

ـ إنّهم أنجاس!

غير أنّ مأمون الفرماني احتدّ بشدّة وقال:

ـ كيف ترفضين إنجليزيًّا؟!

وسأله عليّ:

ـ أظنّه مقتصدًا كسائر تجّار البورصة!

ـ إنّه يقدّم هدايا أثمن من النقود...

فقال عليّ مخاطبًا سمارة:

ـ إنّه على أيّ حال عجوز ولن يضايقك!

ـ ٢١ ـ

مستر فاولز يقترب من الستّين، ربعة ضخم الرأس والوجه غليظ اليدين متين البنيان. يشرب كثيرًا ونادرًا ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربيّة يستعين بها على توضيح إشاراته وقت السمر أو يمضي الوقت صامتًا. كانت تؤانسه ليالي كثيرة في الفلير دامور ولكنّه لا يدعوها إلى بيته إلّا مرّة أو مرّتين في الشهر. وكان يقيم في الدور الأوّل من بيت أنيق يقوم عـلى هضبة فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده في أستراليا، يخدمه نوبيّ ومساعده، وقد ولع بسمارة، ولانقطاع التفـاهم بينهما ظلّ حيالها رمزًا مجهولًا. وجدت معاملة لطيفة وأهداها قرطًا ثمينًا ولكنّها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف ولم تأنس من وجهه الضخم الحادّ شعاع جاذبيّة واحدًا. أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه، وتـذكّـرت بلونهما مروان أمين وأيّـامه الحلوة. في الصباح ترى البقعة خالية ومترامية، رقعة منها صحراويّة، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتغطّيها الحشائش، ويقوم البيت الأنيق وحيدًا فوق الهضبة يُصعد إليه بدرجات منحوتة في الصخر. وهـو مكـوّن من دورين، يقيم فـاولـز في الأرضيّ المغروس وسط حديقة أمّا الثاني فلا يجيء منه صوت، ومرّة رأت في شرفته عجوزًا مهيبًا فأسرعت في مشيتها كأنّما تفرّ. البيت جميل تحت هـامات السحب ولكن كأنّه ملجأ للعجائز أمّا النخيـل الفارع المثقل بالبلح الأحمر فذكّرها برشيد فنسمت على قلبها ذكرى مبهمة مبتلّة بالدمع.

ـ ٢٢ ـ

وذات ليلة وجـدت في مقصورة مسـتر فاولـز آخر يجالسه، قدّمه لها بنبرته الإنجليزيّة قائلًا:

ـ جاري مهدي باشا جلال!

آه، إنّه العجوز الـذي لمحته في الشرفـة، حيّاهـا بابتسامة جذّابة. إنّه طـويل ضخم الهيكـل رغم رقّة لحمه، فضّيّ الشعر والشارب، مشعّ العينين ذو أنف غليظ، ولـه وقار نفّـاذ. من أوّل نـظرة أنست إليـه وشغفت بأبوّته الكامنة. يبدو أكبر من فاولز ولكنّه ممتلئ حيويّة وابتسـامًا. شرب بكـثرة مثل فـاولز وتـتابعت ضحكاته، حادثَ فاولز بلسانـه، وحادثها ـ طبعًا ـ بلسانها. صوته عذب أيضًا. قال لها:

- رقصك جميل مثل وجهك...

وفي آخر السهرة تقدّمها بسيّارته حتّى البيت
حيد، ثمّ مضى إلى شقّته العليا، فتمنّت أن يجيء
ليلة.

- ٢٣ -

قالت لعليّ جلال وهي تحدّثه عن الباشا:

- لقبه جلال مثلك!

فقال باسمًا:

- إنّه أكبر محامٍ في الإسكندريّة، محترم بين أولاد عرب والخواجات، على علاقة وثيقة بعصمت باشا ورشيد، كما كان صديقًا للمرحوم مروان أمين رغم ارق السنّ، غنيّ لدرجة كبيرة، أرمل وبلا ذرّيّة...

- إنّه جار مستر فاولز ويعيش وحيدًا مثله...

وصمتت قليلًا ثمّ قالت بدعابة:

- لقد وقعت في هواه!

فقال لها باهتمام:

- المهمّ أن يقع هو في هواك!

- ٢٤ -

في الليلة التالية مباشرة شرّف مهدي باشا جلال ولم تكن من الليالي التي يسهر فيها فاولز. ودعا سهارة إلى مقصورته فجاءت ممتنّة وسعيدة. رشف من كأسه ولمّا رفعت كأسها أوقف يدها برقّة وهو يقول مازحًا:

- الشاي منهك للأعصاب!

فضحكت، وأدركت من توّها أنّه دائر وابن سوق، فقال:

- اطلبي ما تشائين ولكن لا تشربي إلّا القدر المناسب...

فقالت بصراحة وبراءة:

- إنّي سعيدة بالجلوس معك...

- مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك في فاولز؟

- شخص غريب...

- شيطان...

- حسبته صديقك؟

- صديق عمل ليس إلّا... ماذا لو علم بأنّك سعيدة بالجلوس معي؟

- لا أدري.

- على أيّ حال فأنت حرّة، أليس كذلك؟

فقالت ضاحكة:

- لم يشترني بعد.

- عظيم، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتي؟

- إنّه نفس البيت...

- لِمَ لا؟...

وبسرور، وقبل مشاورة عليّ هذه المرّة، قالت بجرأة جديدة:

- إنّي أقبل...

- ٢٥ -

أحبّت المسكن، وأدهشتها فخامته، قهقه الباشا وهو يقول مشيرًا إلى أسفل:

- لا يتصوّر الحيوان أنّك هنا...

وشرب كعادته، ونشطت شهيّتها فأكلت بلذّة. ولمّا ثمل سألها:

- هل تغنّين؟

- كلّا للأسف...

فوضع في الحاكي أسطوانة وهو يقول:

- إذن نسمع «يوم الهنا»...

وراح يفرقع بأصابعه مزيحًا وقاره جانبًا ويقول:

- كلّ ما يخفق القلب له عبادة!

- هل تغنّي أنت؟

- أحيانًا.

- إذن فأسمعني صوتك.

- كلّا... أودّ أن أعطيك خير ما عندي...

فضحكت وقالت:

- أنت رجل ظريف.

- أنت ساحرة يا سهارة.

فتساءلت وقلبها يمتلئ بحبّ بريء صافٍ:

- متى ماتت زوجتك؟

- إنّك تتحرّين عنّي، حسن، حسن، منذ عشرين عامًا...

- ولِمَ لَمْ تتزوّج؟

ـ حزنًا عليهـا، وعلى نفسي لأنّ الله لم يكتب لي الإنجاب!

ـ كنت تودّ أن يكون لك ولد؟

ـ إنّي أسلّم بمشيئة الله . . .

فبعد تردّد قالت:

ـ تتحدّث عن الله وأنت . . .

فضحك عاليًا، وسلّط عليها شعاع عينيه مليًّا، ثمّ قال:

ـ أرجو أن تجيء هدايتي على يديك . . .

فوضعت راحتها على يده وقالت:

ـ أنا أغضبتك!

ـ محال يا سمارة، ألا ترين أنّي أحبّك؟!

ـ ٢٦ ـ

كـان سخيًّا فـوق الوصف. وأعلن حبّـه بطريقـة صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها في سيّارته إلى بدرو وأثنيوس وحديقة أنطونيادس. وإذا بمستر فاولز يقتحم عليها الشقّة ذات ليلة. أمّا هي فركبها الخوف، وأمّا مهدي باشا فقد ضحك وهتف به:

ـ هاللو فاولز!

ولكنّ الآخر وقف متجهّم الوجه غيورًا حانقًا. رطنا بما لا تفهمه ولكنّها توقّعت شرًّا. بدأ الحوار بـدرجة منخفضـة ومضى يعلو ويشتدّ. تصلّبـا متواجهـين في تحدٍّ. عجوزان يتطاحنان على امرأة. وإذا بفاولز يوجّه لـطمة إلى صـدغ الباشـا، وإذا بالبـاشا ينهـال عليـه باللطمات. وصرخت سمارة. وتراجع فاولز فثبت الباشا في موضعه. ذهب الرجل وجعل مهدي جلال يلهث فـأخذتـه سـمارة من ذراعـه إلى ديـوان وأجهشت في البكاء . . .

ـ ٢٧ ـ

صارت له وحده في حياتها الأخرى. تمنّت أن يبقى إلى جانبها حتّى آخر العمر. ذلك الأب الذي جادت به عليها السماء. وسألها مرّة ـ كما فعل مروان أمين من قبل:

ـ ماذا جاء بك إلى الفلير دامور؟

فقصّت عليه القصّة المحفوظة فقال بحنان:

ـ لا داعي للخيال!

ـ ألا تصدّقني؟

ـ لعن الله من لقّنك الكذب.

فغلبها الحياء وسكتت فقال:

ـ عرفت حكاية سراي عصمت خورشيـد، وعليّ جلال!

ازدادت صمتًا وحياء فاستطرد:

ـ إنّه يستغلّك بدناءة!

ـ كلّا . . . إنّه يحبّني . . .

ـ وأنت، أتحبّينه؟

فلاذت بالصمت فقال:

ـ إنّه لا يستحقّ حبّك.

ـ الحبّ وحده لا يكفي.

ـ أنت مشكلة يا شلبيّة.

ـ إنّك تعرف كلّ شيء . . .

ـ إنّي محامٍ عجوز . . .

ـ إني أحبّك أيضًا!

ـ وكانت أمّي اسمها شلبيّة!

ـ أنت فلّاح؟

ـ طبعًا، ليس كلّ باشا بعصمت خورشيد . . .

ـ إنّي وحيدة.

ـ أنت!؟ كلّا، إنّك أقوى منّي، وأقوى من فاولز، أقوى من أيّ عاشق، العاشق ضعيف أمّا المعشـوق فقويّ، ولكن ما جدوى الحبّ إذا لم أردّ إليك كرامتك يا زينة النساء؟!

ـ ٢٨ ـ

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل:

ـ هل توافقين على الزواج منّي؟

ذهلت. سحرتها الكلمة المقدّسة. طرب قلبها حتّى السحر. ثمّ سرعان ما ورث الأسى كافّة مشاعرها.

راقبها صامتًا، ثمّ تساءل:

ـ عليّ جلال؟!

فلم تنبس، فرنا إليها واجمًا، حتّى تمتمت:

ـ إنّك أجمل ما في حياتي . . .

ـ إنّي شيخ فانٍ وهو رجل شابّ، ولٰكن لا تسلّمي ستغلاله لك كأنّه قضاء وقدر...

ـ إنّي أتمنّى السعادة ولا يهمّني المال!

ـ لا أدري كيف أكافئك على ما وهبتني من عادة، والحقّ أنّني ما أردت الزواج منك إلّا لترثي كتي التي لا وريث لها...

فقالت بإخلاص:

ـ حياتك عندي أغلى من التركة...

فقال بأسى:

ـ إنّي أحترم الحبّ وأقدّس الإخلاص فلا بأس مليك ولعلّي أجد طريقة أخرى لمكافأتك يا شلبيّة...

ـ ٢٩ ـ

أسعد أيّام حياتها. تمتّعت بالاحترام والحبّ ما شاء لها التمتّع، وضاعفت العلاقة ـ مقرونة بما نشب حولها من عراك بين الباشا وفاولز ـ من شهرتها الفنّيّة وأضفت عليها احترامًا لم تعرفه من قبل. وكان عليّ جلال يستحثّها دومًا على انتهاز الفرصة والإفادة من العلاقة ما وسعتها الحيلة ولٰكنّها كانت تأبى ذٰلك، وفي الوقت نفسه لم يقصّر الرجل في إغداقه. وكثيرًا ما قال لها عليّ:

ـ ألا تدركين أنّه يترنّح على حافة القبر؟

فكانت تغضب وتحتدّ وتدعو له بطول العمر، وتقول:

ـ ما عرفت أبًا قبله!

ولٰكنّ الحبّ مهما بلغ من قوّته وصفائه لا يستطيع أن يدفع الحتم. فقد مضت صحّة الباشا في التدهور حتّى اضطرّ إلى اتّخاذ قرار نهائيّ بتصفية عمله والإقامة في الريف. وكان وداع مؤثّر، أهداها هديّة ثمينة عقدًا من الذهب ذا فصوص ماسيّة، وقال بتسليم:

ـ اليوم أو غدًا، لا مفرّ من النهاية، وسيكون لك في وصيّتي ما أستطيع أن أوصي به، وعليك أن تحتفظي بها لنفسك حتّى تملكي استقلالك، وتضمني حياة حرّة كريمة...

ودّعته وهي لا تراه من فيض الدمع الصادق...

ـ ٣٠ ـ

وأصرّ عليّ جلال على مشاركة مأمون الفرماني، وخشي الرجل أن ينفّذ عليّ تهديده بفسخ عقد سمارة فقبله شريكًا بثمن العقد، وفي الحال تجدّد الملهى، فدُعم بمطبخ شرقيّ وغربيّ وكافيتيريا، وطُلي من جديد، كما تجدّد أثاثه. سُجّل عقد المشاركة باسم عليّ جلال، وظلّت هي لا تملك شيئًا إلّا الحبّ، أو لا تملك إلّا ما أتقنته من هزّ البطن والصدر والرقبة.

وسألت عليّ جلال:

ـ أما آن لنا أن نتزوّج؟

فداعب خدّها برشاقة وقال:

ـ ما زلنا في أوّل الطريق، الملهى لا يعمل بكامل قوّته إلّا ثلاثة أشهر، أمّا بقيّة العام فهو مثل سفينة في مهبّ العواصف والأمطار لا يأوي إليها إلّا طلّاب الدفء والستر...

ـ وما ضرر الزواج؟

ـ إنّك ساذجة، لو حازك وجيه وأنت على ذمّتي لأمكن أن أتعرّض لتهمة خطيرة تزجّ بي إلى السجن...

ـ لم نعد في حاجة إلى هٰذه العلاقة...

ـ ما زلنا في أوّل الطريق، هل شيّدت عمارة مثل أمينة الفنجري؟!

ـ يا خبر!... إنّه طريق بلا نهاية...

ـ بل له نهاية، وهي قريبة، ولٰكنّها تطالبنا بالصبر والعمل...

ـ ٣١ ـ

وتجلّت في سماء الفلير دامور سحابة سوداء. فذات يوم غزا الملهى عمرو عبد القويّ مفتّش الضرائب. شابّ في الثلاثين جادّ المظهر قويّ الجسم، يهزّ منظره المتهرّبين من أعماقهم. راح يفحص المستندات ويقيّد ملاحظاته ثمّ ذهب. غاص قلب عليّ جلال في صدره ولٰكنّ مأمون الفرماني قال له:

ـ لا تخف، كلّ إنسان وله ثمن!

وتحرّى عن المفتّش الجديد عند بعض رجال الأعمال في الحيّ، رجع عصرًا وهو يقول:

ـ الولد نزيه، سنلقى متاعب لا شكّ فيها...

فقال عليّ جلال:

ـ لاحظت أنّه نظر إلى سمارة بإعجاب!

فقال الفرماني:

ـ هٰذا هو الأمل الأخير!

ـ ٣٢ ـ

وجاء عمرو عبد القويّ ليتلقّى الإقرار. جلس في مقصورة ليطالعه، وبإشارة من عليّ جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المفتّش. ولّما كرّر النظر نحوها ابتسمت في حياء، ثمّ مضت إليه وهي تقول:

ـ أتريد شيئًا في أثناء عملك؟

فابتسم عن فم عريض متمتمًا:

ـ خطوة عزيزة...

فجلست قائلة:

ـ نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف...

ـ مفتّش الضرائب ليس بضيف!

ـ نحن نحبّ الناس كما ترى...

ـ ولو كانوا من رجال الضرائب؟!

ـ ولو كانوا!...

فواصل مطالعته وهو يتمتم:

ـ عذرت الآن فقط مهدي باشا جلال!

فقالت محتجّة ولٰكن بعذوبة:

ـ عفا الله عن الناس، كان لي أبًا ولٰكنّ الناس لا يرحمون...

فارتسمت في عينيه اللوزيّتين ابتسامة ماكرة وتساءل:

ـ أب؟

ـ صدّقني!

ـ لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة!

فقالت بتواضع:

ـ لست إلّا فلّاحة من رشيد!

فتجلّى الاهتمام في عينيه، وهتف:

ـ رشيد؟! أنا أيضًا من رشيد! أسرة من؟

ـ لا... لا... على باب الله...

فقال مقهقهًا:

ـ أنا من نفس الأسرة...

ثمّ انهمك في عمله، واستدعى مأمون الفرماني وقال:

ـ المغالطات كثيرة ولٰكن لا مفرّ...

عند ذاك قالت سمارة:

ـ أيّ معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فحدجها بنظرة قويّة وقال:

ـ العمل مقدّس مثل الصلاة!

ـ ٣٣ ـ

تمّت المحاسبة في جوّ شديد التوتّر، عمل الفرماني المستحيل ليتملّص من قبضته ولٰكنّه لم يفلح. قال له عمرو بحزم:

ـ عندك محكمة الضرائب إذا شئت...

ومني الملهى بخسارة فادحة على حدّ قول عليّ جلال. وبكلّ جرأة جاء عمرو ليسهر سهرة شتويّة هادئة. كانت ليلة معتدلة صافية جاءت في أعقاب نوّة عاصفة أغرقت المدينة وأغلقت البوغاز. وكلّما آنس من الوجوه تجهّمًا مرح ودندن واندمج في المشاهدة. ثمّ بلغ القمّة عندما طلب سمارة للمجالسة. وقال لها سعداوي المحبّ الأبديّ:

ـ اذهبي، إنّه واجبك...

وذهبت متحدّية، جلست وهي تقول:

ـ تقتل القتيل وتمشي في جنازته...

فقال بسرور:

ـ إنّي معجب بك يا رشيديّة!

ـ إنّك مرعب...

ـ على المتهرّبين...

ـ تأخذون أموال الناس!... بأيّ حقّ؟!

فتجاهل نقاشها وقال بحرارة:

ـ لا أحبّ الطرق الملتوية، فلنقصد الهدف رأسًا، إنّي أدعوك للعشاء في شقّتي المتواضعة بكامب شيزار...

ـ أنت في كامب شيزار أيضًا؟!

ـ مسكنك هناك؟! عظيم، من رشيد إلى كامب

بيزار. أصبحت الموافقة حتميّة!

ـ ولكنّي لا أقبل الدعوات الخاصّة، ألم تسمع عنّي؟

ـ سمعت عن مروان أمين وفاولز ومهدي جلال..!

ـ أنت مخبر؟!

ـ إنّك ترفضين الموظّفين الصغار وبخاصّة إن كانوا زيجين...

فقالت برجاء:

ـ لك جانب دمث وآخر خشن، وقد جئت لمجالسة الدمث!

- ٣٤ -

وتفكّر عليّ جلال وقال:

ـ إنّه لا يساوي شيئًا، إنّي أعرف مدّعي الشرف أكثر ممّا يعرفون أنفسهم!

وجاء عمرو في نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنّها شديدة البرودة. ارتاحت لمجيئه ارتياحًا أدفأ أعماقها. أدركت أنّها تهبه شعورًا جديدًا. لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفّع، ولا نحو مهدي جلال لطعونه في السنّ، إنّه شعور جديد، وهو أوّل منافس حقيقيّ لعليّ جلال. عجبت لذلك فهاج قلبها خوفًا مبطّنًا بسرور خفيّ. عمرو قريب جدًّا وأليف جدًّا، ينبض في جذورها الرشيديّة. وهو يصرّ على المجيء، متحدّيًا الجفاء المحيط، من أجلها هي، وهو مثير للإعجاب بقوّته وتحدّيه. وهمس عليّ جلال في أذنها:

ـ لا تلبّي إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفًا؟! ماذا عليها أن تفعل هي التي لم تخالف له أمرًا؟ إنّها تضمر العصيان لأوّل مرّة في حياتها. وتذكّرت كلمات مهدي باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد عليّ منها أكثر ممّا أخذ؟ ها هي لأوّل مرّة أيضًا تحاسبه. وحلّت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة، لاحظت أنّ سعداوي يراقبها بقلق، ذلك المحبّ القديم الصامت. دنا منها وهمس:

ـ لا تذهبي!

فتساءلت:

ـ لماذا؟... ألم تقل إنّه واجبي؟

ـ ولكن سيقع شرّ لا مفرّ منه...

وذهبت بلا تردّد. وجلست وهي تشعر بأنّها تستقبل حياة جديدة. وإذا بعليّ جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلًا بفظاظة:

ـ اذهبي!

حدجه عمرو بنظرة قاسية وقال:

ـ عليك أنت أن تذهب...

فلم يباله وكرّر أمره لسمارة:

ـ اذهبي.

ولمّا لم تتحرّك هوى بكفّه على وجهها.

وثب عمرو فوجّه إليه لكمة صادقة، سرعان ما اشتبكا في صراع مخيف كنمرين. وجاء مأمون الفرماني وسعداوي والجرسونات. لم يفلح أحد في الفصل بين المتعاركين. حتّى تهاوى عليّ جلال على الأرض فعند ذاك رفع سعداوي كرسيًّا ليضرب به الشابّ غير أنّ سمارة صاحت به:

ـ ارمِ الكرسيّ من يدك يا سعداوي...

وقف سعداوي ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئًا وقد اصفرّ وجهه من شدّة الغضب.

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثمّ قال:

ـ لا يجوز أن تبقي هنا بعد الآن...

- ٣٥ -

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه. كأنّها في حلم... تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغيّر الحياة في غمضة عين؟ لم تحبّ حياتها الماضية ولكنّها لم تبغضها أيضًا لما أمّلتها في تحقيق الحياة المستقرّة التي تهيم بها. خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليّمًا. استقرّت في شقّة صغيرة متواضعة على مبعدة دقائق من شقّتها الأولى. ولأوّل مرّة تحكي قصّتها بلا أكاذيب. وقال عمرو أوّل ما قال:

ـ لم تخسري بمجيئك شيئًا فقد كنت طيلة الوقت منهوبة...

فقالت بصدق:

ـ ما اهتممت أبدًا بالنقود، وما تطلّعت إلّا للحبّ والاحترام. . .

فقال ضاحكًا:

ـ عندي منهما الكثير ولٰكن لا مال لي إلّا مرتّبي المحدود. . .

ـ لا أهمّيّة لذٰلك عندي. . .

فقال بحرارة:

ـ وبالصدق والأمانة أصارحك بأنّي أحبّك. . .

ومضت الحياة عذبة غير أنّ عليّ جلال قابل رئيس المصلحة وادّعى أنّ عمرو طالب برشوة، ولّما رفض سعيه افتعل مشاجرة ثمّ خطف راقصة الملهى. . .

ـ ٣٦ ـ

لم يسفر التحقيق عن شيء ولٰكنّه أساء إلى سمعة عمرو عبد القويّ حتّى اضطرّ إلى أن يعلن رئيسه بأنّه أخذ الراقصة حقًّا ولٰكن ليتزوّج منها. وبالفعل عرض الاقتراح على سمارة وتمّ عقد القران. ورغم ذٰلك صدر قرار بنقله إلى الصعيد فثار عناده وقدّم استقالته. إنّها لخطوة جنونيّة ولٰكنّه وجد عملًا في مكتب محاسبة حتّى يمكنه الاستقلال بالعمل. سمارة كانت السعيدة الفائزة. لقد تحقّق حلمها الأبديّ في الزواج. وسعدت سعادة لا مثيل لها، غير أنّها سألته:

ـ هل تورّطت يا عمرو في الزواج منّي؟

فقال بقوّة:

ـ أبدًا. . . الظروف سبقت، هٰذا كلّ ما هنالك، ولٰكنّ نيّتي كانت صادقة. . .

وازدهرت سمارة كالوردة المتفتّحة. . .

ـ ٣٧ ـ

وتتابعت الأيّام متألّقة بالبهجة، ومع أنّه كان شتاءً قاسيًا كثير العواصف والمطر إلّا أنّها سعدت به وهي تشاهده لأوّل مرّة من وراء الزجاج دون اضطرار إلى الخروج اليوميّ والسهر. أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها. واستوت العاصفة والأمطار في وعيها رمزًا للجود والبهاء. وفي ذٰلك الشتاء انتقل مهدي باشا جلال إلى جوار ربّه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات. هبطت الثروة من السماء وقد بكت الراحل طويلًا ولٰكنّها تمالكت نفسها لدى عودة عمرو، وقالت له:

ـ صرنا أغنياء يا عمرو!

ولٰكنّه عبس وقال:

ـ كيف فعل ذٰلك لامرأة متزوّجة؟!

ـ من أين له أن يعلم بزواجي؟

فقال بازدراء:

ـ ولو!

قالت بصدق وحرارة:

ـ كان أبي يا عمرو، صدّقني. . .

ـ كانت سمعته الخاصّة سيّئة!

ـ رعاني وهو في السبعين. . .

ـ ولو. . . كان رجلًا سيّئ السمعة!

فاغرورقت عيناها وقالت:

ـ لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأي آخر. . .

فقال بحدّة:

ـ إنّي أكره هٰذه الدموع. . .

ـ أتريد أن أرفض النعمة؟!. . . إنّك فقير، وفي بطني جنين!

فغادر الحجرة وهو يدمدم. لٰكنّه لم يدل برأي حاسم. لو أراد الرفض لجهر بذٰلك وهو لا ينقصه الصراحة. هٰكذا احتفظت بالمال الموهوب. . .

ـ ٣٨ ـ

سعدت سمارة بزوج يحبّها حقًّا. زوج مفعم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف. ولم يكدّر صفوها شيء من العادات البالية إذ كان بلا أهل مثلها. ولا شكّ أنّه كان نشيطًا في عمله، فما لبث أن فاق دخله مرتّبه السابق. غير أنّ الأيّام كشفت لها عن عيب أو عيبين جوهريّين فيه. إنّه شديد الغضب، وغير متسامح، وإذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة والفعل. في مرّة، عند خروجهما من سينما رويال لمح شابًّا يغازل فتاة بقحة، فما كان منه إلّا أن لطمه، ثمّ فعل به ما سبق أن فعل بعليّ جلال. ارتعبت وقتها وقالت له:

ـ بالغت في العنف وكان القليل يكفي. . .

فقال لها بانفعال:

ـ إنّها اللغة الوحيدة المجدية!

ـ لقد كنت على حقّ ورغم ذٰلك فقدت عطف الناس.

ـ لا يهمّني الناس!

ولٰكن ثمّة عيب آخر بدا خطيرًا فتّاكًا، ذٰلك ولعه بالقمار. ما إن انقضى شهر العسل حتّى كشف سرّه. كان يقامر في شقّة بالإبراهيميّة، يسهر حتّى منتصف الليل، ويمتدّ السهر أحيانًا للفجر. قالت له برجاء:

ـ صحّتك ومالك!

فقال بأسًى:

ـ لكلّ إنسان عيبه. . .

ـ ولٰكنّ هٰذا العيب قد يخرب بيتنا. . .

فقبّلها وهو يقول:

ـ لا تبالغي، ثمّ إنّي محظوظ. . .

ولٰكنّه كان يخسر أيضًا، ومرّة رجع مدينًا بمبلغ جسيم أخلّ بميزانه، فقالت له:

ـ عليك أن تسدّد الدين مهما كلّفنا ذٰلك. . .

وأعطته من هبة مهدي باشا جلال فتقبّلها بوجه واجم ونفس منكسرة حتّى أثار عطفها.

وواصل اللعب، وانقلب عليه الحظّ حتّى أتى على التركة كلّها، واسودّ وجه الحياة.

ووُلد أحمد في ذٰلك الجوّ المتجهّم. . .

ـ ٣٩ ـ

وقال لها ليلة عقب عودته من الإبراهيميّة:

ـ مصادفة سيّئة جدًّا. . .

ـ ليحفظنا الله. . .

ـ انضمّ إلى مائدتنا عليّ جلال!

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق:

ـ مصادفة؟!

ـ طبعًا. . .

ـ وهل ذهب إلى هناك كلّ ليلة؟

ـ يبدو ذٰلك.

ـ قلبي غير مطمئنّ. . .

ـ المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم. . .

ـ إنّه سبب كافٍ لكي تُقلع عن هٰذا الداء الوبيل. . .

فلاذت بالصمت. وتوكّد لديها أنّ ما تتمنّاه حلم بعيد المنال، فتنهّدت قائلة:

ـ طالما حسبت نفسي أسعد امرأة في الوجود.

فقهقه قائلًا:

ـ وإنّك لكذٰلك يا جاحدة!

فقالت بنبرة باكية:

ـ إنّي تعيسة يا عمرو!

ـ ٤٠ ـ

ومضت الأيّام في قلق وتوتّر حتّى صدقت مخاوف قلبها. بل جاءت الأحداث أسرع ممّا قدّرت. ففي ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعليّ فانتهى إلى غايته المحتومة وهي الشجار. وتراجع عليّ جلال أمام ضربات لا قبل له بها فاستلّ مطواة طعن بها قلب خصمه فتهاوى فاقد الحياة!

هٰكذا اختفى الرجلان اللذان أحبّتهما في ليلة واحدة، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليمان.

وجنّت المرأة من الحزن. وجدت نفسها وابنها في دنيا خالية. فقدت الحبّ والأمان. ناءت تحت عبء مسئوليّتها الكاملة عن وليدها ونفسها. وخاصّة وليدها، ابن الرجل الذي أحبّته، الذي قرصته حشرة فقوّضت بنيانه.

ـ ٤١ ـ

وانشقّت الظلمات ـ ذات يوم ـ عن وجه سعداوي بيّاع الفستق. أثار في قلبها مكامن ذكريات جميلة وأخرى محزنة، ولٰكنّها وجدت نحوه امتنانًا لا شكّ فيه. وتلقّت مواساته الصادقة بمودّة وأسًى. ثمّ وضح أنّه جاء من أجل هدف أدلّ على صدق عواطفه من المواساة وحدها. قال:

ـ مأمون الفرماني على أتمّ استعداد لاستقبالك. . .

ولٰكنّها قالت بوضوح:

ـ لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوي.

فقال الرجل بحماس:

- وَعْدٌ عليه حقّ، ألّا يطالبك بما لا ترتضينه!

فقالت بإصرار:

- أصبحت اليوم أمًّا، وعليّ أن أصون سمعة ابني من الآن فصاعدًا، ومن حسن الحظّ أنّني أخفيت هديّة ثمينة أهدانيها المرحوم مهدي باشا جلال، وبها يمكن أن أبدأ بداية جديدة تمكّنني من تربية ابني كما أريد...

ارتسم الترحيب في وجه سعداوي وتمتم:

- ليكن. إنّه أفضل على أيّ حال، وستجدينني في خدمتك على الدوام.

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد، ولكنّ نظرة عينيه باحت بأكثر ممّا قال. كأنّما تبتهل إليها أن تؤمن بأنّها ستجد دائمًا من يتذكّرها عند الشدّة، ومَن يحبّها حبًّا صادقًا...

صَاحِبُ الصّورَة

اختفى شيخون محرّم.

كان اختفاؤه حدثًا هزّ المجتمع هزّة عنيفة. كان رجلًا مرموقًا، ذا نشاط ماليّ عريض، وله في السياسة وجود راسخ وأثر، وفي دنيا الإحسان والخير أيادٍ بيضاء، إلى سمعة طيّبة ذات رائحة زكيّة.

غادر سراياه في أصيل يوم قاصدًا النادي، ثمّ اكتشفت أسرته ـ المكوّنة من حرمه سريرة هانم ووحيده عيسى ـ أنّه لم يعد. انزعجت الأسرة أيّما انزعاج، إذ لم يسبق أن شذّ الرجل عن جدول مواعيده بلا إخطار. اتّصلت الهانم برفقائه في النادي فأجمعوا على أنّه لبث بينهم ساعة واحدة، ثمّ انصرف ليزور ـ على حدّ قوله ـ شقيقه محمود محرّم في سراياه بالزمالك، وفي الحال اتّصلت الهانم بمحمود محرّم، ولكنّ زوجته أجابتها بأنّ زوجها في رحلة في البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأنّ شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع. وشهد سائق السيّارة بأنّ الرجل غادر النادي، أمره بالانتظار في موقفه، ثمّ مضى مشيًا على الأقدام، وأنّه لزم موقفه حتّى شقشق الصبح...

وبدأ بحث شاقّ ملهوف على شيخون في جميع مظانّه. عند جميع الأصدقاء والزملاء، في الإسكندريّة وفي العزبة، فارتطم دائمًا بخيبة مرّة، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجل، وتجمّعت سحب الظنون.

ووفد على سراياه الأهل وفي مقدّمتهم شقيقه محمود محرّم، والأصدقاء والمعارف، وتداولوا الأفكار والحلول، وقالت سريرة هانم:

ـ لو كان بخير لاتّصل بنا!

واستقرّ الرأي على إبلاغ الجهات الرسميّة. عند ذاك اتّخذ البحث مجرًى جديدًا فشمل الأقسام والمستشفيات، وازداد اللغز انبهامًا، والتشاؤم استفحالًا، وكأنّ الرجل رائحة وتلاشت في الكون...

وتلاحقت الأيّام... فتجسّد الاختفاء صخرة سوداء لا تتزحزح، يتحطّم عليها الأمل. لقد اختفى شيخون محرّم كأنّه لم يكن.

وجاء دور التحقيق والتحرّيات، ولكنّه لم يسفر عن جديد أيضًا، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب ممّا قد يفضي إلى جريمة.

وخلت سريرة هانم إلى ابنها عيسى وهي في غاية من اليأس، وقالت له:

ـ لم أُدلِ بكلّ ما عندي في التحقيق!

فرنا إليها الشابّ ذاهلًا وتساءل:

ـ أعندك مزيد؟

ـ قلت إنّي لا أعرف لأبيك عدوًّا...

ـ هٰذا حقيقيّ...

ـ كلّا...

ثمّ مواصلة حديثها بعناد:

ـ عمّك...

ـ لا... لا... المسألة أنّك دائمًا تسيئين به الظنّ... ليس لديك دليل واحد.

ـ لديّ قلبي!

ـ لا يكفي. إنّك تكرهينه...

ـ لا لشيء إلّا لأنّه كره أباك.

ـ لا أوافقك على ذلك، كانت العلاقة بينهما دائمًا مثاليّة.

ـ في الظاهر فقط، وعمّك مجرم، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه في الريف؟

ـ ذاك أمر آخر...

ـ إنّه مطبوع على الإجرام...

ـ كان يحبّ أبي وأبي يحبّه...

ـ قلبي لا يكذّبني. كنت أقرأ في عينيه أحيانًا ما يخيفني، إنّه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه...

ـ عمّي ليس بالفقير...

ـ هنالك سرّ لا تعرفه، لقد واجهت عمّك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك. أسعفه بلا عقد، أنت تعرف شهامة أبيك، ولٰكنّ الدين ثقيل ولا حجّة عليه...

فتأفّف الشابّ وقال:

ـ المسألة أنّك سيّئة الظنّ بعمّي...

ـ المسألة أنّك مصرّ على حسن الظنّ به...

ـ هٰذا هو الأصل...

ـ آخر ما سمعنا عن أبيك أنّه ذهب للقاء عمّك!

ـ ثمّ ثبت أنّ عمّي كان في رحلة مع صحبه...

ـ طالما قتل عمّك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة...

ـ أساطير لا دليل عليها... لماذا تكرهينه؟

ـ قلبي، ألا تؤمن بحديث القلب؟

ـ كلّا، لا أومن إلّا بالمحسوس...

ـ هٰذا يعني أنّك لا تؤمن بشيء!

ـ هل فاتحت أبي بظنونك؟

ـ لم يصدّق لصفاء سريرته.

ـ أرأيت؟

ـ ولٰكنّه اعترف لي بخلاف نشب بينهما قديمًا!

ـ هٰذا حال الناس جميعًا.

وكانت الأمّ أصلب ممّا تصوّر ابنها، فأفضت بظنونها إلى المحقّق. وكان خطب وفضيحة. وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرّم، ولٰكنّه لم يسفر عن شيء. تزعزع الأساس الذي يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة. وطالبت سريرة بالقرض الذي اقترضه من زوجها، فكان جواب العمّ أنّه سدّده، وأنّه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسميّ! وزاد ذٰلك من سوء ظنّ المرأة. ولٰكنّ العجيب أنّ محمود محرّم بقي على ولائه لذكرى شقيقه، بل إنّه استدعى عيسى إلى مقابلة خاصّة في النادي وقال له:

ـ أسباب الغضب متوافرة لديّ، ولٰكنّي مصرّ على الإبقاء على أواصر القربى، فتذكّر دائمًا أنّني عمّك، كما أتذكّر دائمًا أنّك ابن أخي...

وتواصلت الأيّام، ولحقت بها الأشهر، ثمّ الأعوام، انتهى شيخون محرّم! غير أنّه عاش ذكرى حيّة في ضمير سريرة هانم، ذكرى حيّة لا تموت. لم تتعزّ أبدًا، لم يفتر حبّها له. لم تيأس من أن يستقيم عود العدالة المعوجّ ذات يوم. وكثيرًا ما كانت تقول لابنها:

ـ أبوك يطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون...

وكان عيسى قد حلّ محلّ أبيه في الإدارة، فشغله العمل عن كلّ شيء، وشغلته الحياة أيضًا بمسرّاتها اليوميّة، فكان يتجنّب مناقشاتها ما وسعه ذٰلك. ويثيرها بروده فتهتف:

ـ ألا ترى أنّي لم أذرف حتّى الآن دمعة واحدة؟!

فيقول برقّة ما أمكنه ذٰلك:

ـ ما هٰكذا يلقى العقلاء النوائب...

ـ أتراني مجنونة؟

ـ أمّي!

فتقول بأسًى:

ـ لم ترث إلّا أملاكه!

وحلّت الكارثة الكبرى عندما قال لها يومًا:

ـ أمّي افتحي لي صدرك...

فرمقته متوجّسة، فقال:

ـ قرّرت أن أتزوّج من سميحة!

بهتت المرأة. اصفرّ وجهها. ارتعشت أطرافها. قال بضيق شديد:

ـ الأمر بسيط جدًّا لولا ظنون لا أساس لها...

فقالت بفزع:

ـ طالما توقّعت ذٰلك، طالما توقّعته كأنّه الموت المحتوم...

فابتسم في امتعاض شديد دون أن ينبس، فتمتمت

بمرارة:

- ابنة قاتل أبيك؟!

فقال برقّة:

- ابنة عمّي...

تقوّست المرأة في جلستها من شدّة الألم، ثمّ قالت بحدّة صارمة:

- إنّه الفراق الأبديّ بيني وبينك!

وهاجرت من المدينة إلى القرية، عاشت في السراي الصغيرة في وحدة عميقة. وتركّزت طيلة الوقت في هواجسها. وكان صوتها يسمع وهي تحاور نفسها بلا انقطاع. غرقت في الضياع الذي ذاب فيه زوجها المحبوب.

وتزوّج عيسى من سميحة. أصرّ عمّه على أن يذهبوا جميعًا إلى القرية ليقدّموا فروض الودّ، ويستوهبوا الرضا، ولٰكنّها أبت أن تلقى أحدًا منهم، ومضت تردّد:

- ها هو ذا القاتل يحقّق هدفه ويصبّ ثروة ضحيّته في ذرّيّته!

واستفحل العذاب بالأمّ حتّى مزّق وحدتها. وفي محنتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألّق في باطنها إلهام متوثّب بأنّ الأشياء تخلق من جديد. وطرق أذنيها همس مضيء دعاها إلى تلبية نداء خفيّ. تلاشى إيمانها بالجريمة فتبخّر اليأس وزال. وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس. تمضي في وقار ظاهريّ وبيدها صورة شيخون. وكلّما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهي تنتظر أن يجيئها الجواب الشافي في يوم من الأيّام. لم تسأم من تكرار السؤال، ولم يثبط همّتها النفي، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكّر في اتّخاذ إجراء حاسم، ولٰكنّه اكتفى بعد تدبّر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه في القرية بحراستها من بعيد. وتتابعت خطوات الزمان وهي مصرّة على بحثها العقيم، وتقدّم بها العمر فلم تهمد ولم تخمد.

* * *

وبعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس في السلاملك ذات أصيل عندما رأى عجوزًا يتسلّل إلى السراي متوكّئًا على عصاه، رنا إليه مقطّبًا بادئ الأمر، ثمّ اجتاحه الارتياع والذهول فوثب نحوه وهو يهتف:

- أبي!

حمل ما بقي منه بين يديه ومضى به إلى فراش، وسرعان ما استدعى الطبيب. لم يكن به مرض ولٰكن نهكته الشيخوخة والضعف. وما إن استلقى فوق الفراش حتّى تخلّت عنه قوى المقاومة فتبدّل شخصًا آخر، ولّما استيقظ من نوم عميق ظنّ عيسى أنّه استردّ عافيته فسأله بشغف:

- أين كنت يا أبي؟... ماذا غيّبك ذٰلك الدهر الطويل؟

ولٰكنّه لم يجب. بل كأنّه لم يسمع، وهوّم في آفاق بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولٰكنّ الأب لم يباله، وتمتم كأنّما يخاطب نفسه:

- الجبال الخضراء...

فسأله باهتمام:

- أكنت في الخارج؟

فمضى العجوز في حديثه الباطنيّ:

- والبحيرات الزرقاء...

- أين يا أبي؟

فهمس متنهّدًا:

- وعشّ الحبّ والعناء؟

فهتف عيسى في أسّى:

- لقد فقدت أمّي عقلها.

فعاود الهمس متمتمًا:

- عشّ الحبّ والعناء!

* * *

ويئس عيسى من الاتّصال به، ولٰكنّه قرّر أن يجمع بين أبيه وأمّه، وأمل من وراء ذٰلك في الشفاء.

وجيء بالأمّ رغم إرادتها حتّى بكت، ولّما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفّت عن البكاء. خفق قلب عيسى بالترقّب... ولٰكن لم يحدث شيء ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن. ترامقا كأنّهما ينظران في فراغ. غاص كلّ منهما في دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر. كأنّه لم يعرفها وكأنّها لم تعرفه.

تفشّى في الجوّ توجّس وأسى عميق. شعر عيسى بأنّه مجهول الأبوين.

وقامت الأمّ كأنّما ضاقت بـالجلوس. اقتربت من الفراش حتّى لامسته، ثمّ بسطت الصورة أمام عيني العجوز، وطرحت سؤالها الخالد:

ـ هـل تستطيـع أن تـدلّني عـلى صـاحب هـذه الصورة؟!

الرَّجُلُ وَالآخَر

من دكّان الفاكهة خرج الرجل حاملًا قرطاسًا مثل قمع السكّر. ابتلعه تيّار بطيء متلاطم في سوق الخضار. ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المتورّد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه «أخيرًا. . . لن يفلت منّي». وجعل يتابعه بانتباه حتّى تملّص من الزحام فمرق إلى الميدان. من المهمّ جدًّا ألّا يثير ريبته حتّى تحين الفرصة المواتية. الرجل يجيل بصره في الميدان حتّى يستقرّ على محلّ الحلوى في الجهة المقابلة ويمضي إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضي الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر. دخل الرجل المحلّ فوقف الآخر تحت عمود النور العالي. جوّ الخريف عذب. ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية. الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له. عيناه تثبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقيّة والغربيّة. والآخر يراقبه بصبر. ثمّة امرأة تنتظر أيضًا. مليحة ومتبرّجة ومرحّبة بالمجهول. الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة. تعرض عنه ولكن شبه باسمة. يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيويّ. ها هو يهمس بجرأة. ها هما يتهامسان، قال الآخر إنّ ذلك ينذر بتعقيد الأمور. إضافة جديدة لمتاعبه وتحدٍّ غير متوقّع لخطّته. ويجيء دورها لابتياع ما تريد ثمّ يجيء دوره. يخرجان ووجهه يتهلّل ويطفح بالرغبة والظفر، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقّاعات الشهد. ثمّ تمضي هي إلى شارع الملاهي، يتابعها بعينيه لحظة ثمّ يسير على مهل حاملًا القرطاس واللفّة. لا شكّ أنّهما تواعدا على لقاء، والآخر يأمل ألّا يؤجّل ذلك تنفيذ خطّته. يرجو ألّا يهدر تعبه الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريبًا فتتعقّد الأمور وقد يكون لغد لن يجيء أبدًا. الرجل يسير. لا يرهقه المشي. ولا يدري أحد متى يفتر نهمه وأشواقه. تجذبه معارض المحالّ التجاريّة كأنّه ربّة بيت. الساعات والنظّارات والأدوات المنزليّة والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإلكترونيّة، حتّى اللوازم الطبّيّة وواجهات الصيدليّات تجذبه. يتشمّم رائحة الكباب والطعميّة، يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلّما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيويّ، ولكن لم يحصل تلاحم جديد. ولون المغيب يتشرّب بالسمرة وتنفث النسائم برودة منعشة. دخل محلّ أقمشة، وخرج بكيس نايلون مشحون ودسّ لفّة الحلوى في الكيس مع القماش المشترى، ابتاع أيضًا كتابًا. . . ترى أيّ كتاب؟ متى يعتقد أنّه سيقرؤه؟ ودّ لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنّه لا يكاد يعرف عنه شيئًا ذا بال سوى الاسم والهويّة والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكّان مسح أحذية. اتّخذ مجلسه فوق الكرسيّ الدوّار واضعًا حمله فوق كرسيّ خيزران قديم. ينظر إلى المرآة أمامه مغازلًا وجهه بإعجاب وارتياح. يواجه الصورة تارة ويثني رقبته يمنى ويسرى تارة أخرى. والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرآة. تضايق وتحرّك خطوة نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلّا الإسكافيّ العجوز وصاحبة المحلّ البدينة، خشي الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل

خاصّة أنّ وجهه سهل الانطباع. وجهه غامق وعيناه حادّتان وشعره أسود كثيف. ولٰكنّ الرجل مستغرق في ذاته ولم يره من قبل. أضاءت مصابيح الشارع وتخايل ظلّ المساء. ها هو يغادر الدكّان وقد ازداد ـ بتلميع الحذاء ـ رضاء عن نفسه، وارتطم به مارٌّ مسرع فارتدّ بخطوة ملهوجة وهو يشدّد قبضته على حمله ويصيح غاضبًا:

ـ هوه!

توقّف المسرع مبهوتًا وصمت فصاح به مرّة أخرى:

ـ على الأقلّ اعتذر!

فسأله بضيق:

ـ أليست لديك لهجة أفضل؟

ـ كلّا!

ـ إذن فليس لديّ اعتذار!

ـ حيوان!...

فبصق المسرع على الأرض محتجًّا. عند ذٰلك وضع الرجل حمولته فوق الرصيف ثمّ انقضّ عليه فتبادلا ضربات شديدة. أدرك المسرع أنّه ليس ندًّا لخصمه فتراجع قائلًا:

ـ غاوي خناق... اشهدوا على المعتدي...

وتجمّع خلق، وجاء الشرطيّ. والآخر يراقب بانفعال وضيق، وعندما قال الشرطيّ القسم موجود والصلح خير... بدا أنّ المتخاصمين تجنّبا الذهاب إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفّس الآخر بارتياح وتبعه. نسي الرجل انفعالاته تمامًا أمام محلّ للعب الأطفال. له أبناء في سنّ الطفولة؟! ودخل. ما أعظم إلحاحه وصبره. وخرج بلا إضافة. لعلّه لم يشترِ شيئًا، أو لعلّه اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحلّ إلى مسكنه، في تلك اللحظة قابله كهل يتأبّط حقيبة تصافحا بحرارة. تبادلا كلمات سريعة، ثمّ مضى الكهل وهو يقول:

ـ لا تنسَ المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضًا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع الحكم؟ ترى أين تذهب بعد ذٰلك؟ عصير فواكه... ليكن، أتعبتني الله يتعبك. للمرّة الثانية تتلاقى عيناهما فوق سطح المرآة. انقبض صدره. هل يتذكّره؟ كلّا... إنّه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان. ينظر ولا يرى ويتملّى صورته بإعجاب وبراءة.

ها هو يغادر الدكّان، يعبر الطريق، يغيب في محلّ ترزي يعدّ كسوة الشتاء، غاب ربع ساعة ثمّ عاد إلى الظهور، عرّج إلى مقهى الحرّيّة ثمّ دخل. المقهى على ناصية، وله أكثر من مدخل فلم يرَ الآخر بدًّا من الدخول. جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل يحتسي فنجانًا من القهوة ويكتب خطابًا. أعطى الخطاب الجرسون وقام إلى التليفون. ها هو يقف قريبًا جدًّا منه:

ـ آلو... حسن؟... الدكتور موجود؟

ـ .....

ـ احجز لي في أقرب موعد.

ـ .....

ـ عظيم... الساعة السادسة مساء... شكرًا...

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتّى لحق به صديق، جالسه وهو يتساءل:

ـ حضرت المأتم؟

ـ نعم... علمت مصادفة...

ـ كلّنا لها. هل أطلب النرد؟

ـ لا وقت!

ـ عشرة واحدة بجنيه، لي أو لك...

نظر في الساعة، قَبِلَ التحدّي، لعبا من فورهما. يعلّق بسخرية على كلّ رمية زهر، ماهر في الحرب النفسيّة، واثق من انتصاره، في أقلّ من عشر دقائق قام وهو يدسّ الجنيه في جيبه، فمضى ضاحكًا والآخر يقول له:

ـ يا لصّ، ربّنا يرزقك بنشّال!

قال الآخر لنفسه إنّها دعوة مستجابة غالبًا، يمضي الآن نحو عمارته وسط المدينة. هٰذه هٰذه الفرصة. ليست مضمونة تمامًا، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطّة أخرى. كلّما فشلت خطّة تعرّضت التالية لمصاعب جديدة. ها هو يغيب في مدخل العمارة. لحق به ثمّ دخل المصعد وراءه. إنّهما منفردان. الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت إليه:

ـ الدور؟
ـ الأخير.
ـ وأنا كذلك.

ولكنّ امرأة أدركت المصعد قبل أن يتحرّك. جنّ جنون الآخر. غير أنّ المرأة غادرت المصعد في الدور الثاني فاستعاد الآخر حيويّته ونشاطه. هذه هي الفرصة. الاحتمالات كثيرة، ولكنّ العواقب لا تهمّه ألبتّة. ليس في خطّته للسلامة إلّا واحد في المائة. وبحذر شديد قبض على المطواة المستكنّة في جيبه...

غادر المصعد. لم يصادف أحدًا. الظروف تخدمه فوق ما قدّر. ترك باب المصعد مفتوحًا عن زيق. ثمّ هبط مسرعًا. مضى إلى حانة إيديال. شرب كثيرًا ولم يتناول من الطعام إلّا الخسّ. ونعس وحلم حلمًا طويلًا في وقت قصير جدًّا. وغادر الحانة فعبر أمام العمارة فوق الطوار الآخر، فرأى الشرطة وجمعًا لا حصر له. واصل سيره إلى فندقه بالعتبة دخل حجرته وهو يتنهّد وقد نسي الحلم تمامًا... أغلق الباب، أضاء المصباح. التفت إلى الوراء، رأى الرجل جالسًا فوق الفوتيل يرمقه بهدوء ثقيل كالموت!... ندّت عنه آهة دامية، تراجع حتّى التصق ظهره بالحائط، تعلّق بالفرار ولكنّه لم يتحرّك، وتسمّر في مكانه وبال على نفسه، إنّه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى... الموت يطلّ من صورة حيّة... يحدّق فيه بعينين جامدتين عالمتين بكلّ شيء. شعر بغثيان ويأس وقال إنّه الشّعر أو الجنون. وأمره بالاستسلام دون أن يتفوّه بكلمة، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة. وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة؟ كم عامًا مضت منذ ارتكاب جريمته؟ كم عامًا لبث بالحانة؟ وكلّما مرّ وقت تأكّد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشيء حثّه على أن يدسّ يده في جيبه، فعثر على المطواة التي تركها منغرزة في قلب الرجل فأدرك أنّ هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقّى أوامر سرّيّة فتهيّأ في خنوع لتنفيذها بدقّة وطاعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلال نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتًا مذعنًا. أراد أن يصرخ، ولكنّ الصوت تلاشى في حنجرته. هبط السلّم والرجل يتبعه التقى في طريقه بفرّاش، بمدير الفندق، بموظّف الاستقبال، ولكنّ أحدًا لم يعره التفاتًا، لم تسترعِ المعجزة انتباه أحد، لم تثر دهشة ولا اهتمامًا!

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان. اتّجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أمّا هو فاحتلّ مكان الحصان وتأبّط العريشين، لم ينظر أحد من المارّة لما يحدث، لم يتجمهر أحد. كلّ فرد منشغل بشيء محسوس أو بشيء لا يُرى. أكثر من ذلك ترنّم أحد السابلة شاديًا: أهل الهوى يا ليل.

وفرقع السوط فراح يجرّ الحنطور. مضى في رشاقة وهدوء واستسلام. رأى جانبَي الطريق، ولكنّه لم يرَ ما يمتدّ أمامه، فغاص في مجهول. في خطّ مستقيم يتقدّم أو ينعطف متلقّيًا توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يضمره له؟ لا يدري. ولا يبالي. يمضي بلا توقّف. يبول ويتغوّط بلا توقّف. يصهل أحيانًا ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجافّ، تتتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لها.

الحوادث المثيرة

- ١ -

سأذكر ما حييت حوادث حيّ الخليفة المثيرة المفزعة، الحقّ أنها لم تكن كلّها مفزعة، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلّل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكن منها أيضًا حالات التسمّم بالجملة، والحرائق، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة ممّا أشار إلى فاعل واحد. وبثثنا العيون والحرّاس، وقمنا بدوريّات ليليّة منتظمة. وقلت لرئيسي:

- المجرم مجنون ولا شكّ.

فقال لي بحدّة:

- المهمّ أن نقبض عليه.

وتقضّت أيّام البحث وأنا في غاية من التعاسة، فلا نتيجة ولا أثر ولا توقّف للحوادث، حتّى جاءنا خطاب غفل من الإمضاء، به سطر واحد:

«مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبد القيوم المقيم بالشقّة ٣ بعمارة الفردوس».

فقرّرنا بلا تردّد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنّه أخلى شقّته منذ يومين، وبادرت إلى التحرّي عنه في العمارة، فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضًا، وقلت له:

- أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذي كان يسكن الشقّة رقم ٣.

فأجاب الرجل:

- لقد أخلاها منذ يومين.

- أعرف ذلك ولكن إلى أين انتقل؟

- لا علم لي بذلك.

- لعلّك تعرف محلّ نقل الأثاث الذي حمل أثاثه؟

- إنّها شقّة مفروشة وقد حمل حقائبه في تاكسي ومضى...

- أتعرف التاكسي أو سائقه؟

- كلّا.

- ما عمره؟

- يصعب تحديده لقوّته وصحّته، محتمل أن يكون في الثلاثين أو في الأربعين...

- وما عمله؟

- من الأعيان، ولكنّه كان موفور النشاط. يغادر العمارة في الصباح الباكر، ويرجع في أوّل الليل، ولكنّي لم أتابع خطّ سيره إلّا كلّما اتّفق لي ذلك...

- وأسرته؟

- إنّه وحيد، لم يزره أحد فيما أعلم...

- معاملته؟

- من وجهة نظري في غاية الكمال، يؤدّي الأجرة - مائتي جنيه - في أوّل يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق.

- وسلوكه الشخصيّ؟

- لا غبار عليه فيما أعلم، إنّه يحترم نفسه بكلّ معاني الكلمة...

- ألم تعرفه عن قرب؟

- كلّا، مرّة عند تحرير العقد، ومرّة عند فسخه.

- عندك فكرة عن حالته الماليّة؟

- كلّا، ولكنّه وجيه المنظر، ثمّ إنّه يدفع إيجارًا

لسكنه فقط مائتي جنيه...

ـ ألم يترك في نفسك انطباعًا بالشذوذ أو الإجرام؟

ـ إنّه أبعد ما يكون عن ذٰلك...

ـ أعطني فكرة عن منظره؟

ـ طوله فارع، ضخم، قويّ، قمحيّ اللون، ذو قسمات واضحة وقويّة وبارزة، أنيق جدًّا...

ـ له علامة مميّزة؟

ـ رغم سمرته فهو ذهبيّ الشعر والشارب.

ـ كيف أجّر الشقّة؟

ـ بوساطة السمسار عزّوز بأوّل شارعنا.

ـ ٢ ـ

لم أجد في أقوال صاحب العمارة أيّة إشارة ضوئيّة، فقرّرت أن أثنّي بالبوّاب. وكان كالمألوف نوبيًّا ولٰكنّه كان طاعنًا في السنّ. قلت:

ـ أودّ أن أتحدّث عن مكرم عبد القيوم...

فقال بحرارة:

ـ ربّنا يحفظه!

ـ إنّك تحبّه فيما يبدو؟

ـ كيف لا، إنّه أطيب خلق الله.

وسألته أوّل ما سألته عن التاكسي الذي حمل حقائبه فأجاب:

ـ وجه السائق غير غريب عنّي.

فدوّنت ذٰلك في مذكّرة خاصّة، ثمّ تساءلت:

ـ قلت إنّه أطيب خلق الله؟

ـ أجل ما كلّفني مرّة بعمل إلّا نفحني مكافأة، غير المواسم والأعياد، دائمًا بسّام، يحيّيني في الذهاب وفي الإياب، يسأل عن حالي، لا أنسى مساعدته لي عندما كنت أقوم بتجهيز ابنتي، إنّه حلم المحروم، ودواء الجريح...

ـ أعتقد أنّه أخبرك عن المكان الذي انتقل إليه؟

ـ كلّا... ولٰكنّه وكّد لي أنّه سيمرّ بي كثيرًا...

ـ يعني زيارة خاصّة لك؟

ـ ربّما عند زيارته للحيّ لدى سبب من الأسباب...

ـ ترى لماذا غيّر مسكنه؟

ـ عندما سألته عن ذٰلك أجاب بأنّه يحبّ التنقّل...

ـ ماذا تعرف عن صفاته؟

ـ إنّه قويّ ومهيب وجميل، وهو أيضًا رقيق العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوّة مظهره، سمع مرّة صراخًا على ميت في عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع، وكان يهبني نقودًا لأبتاع خبزًا للقطط الضالّة التي تحوم حول العمارة، وبلغت به الرقّة أنّه كان يرمي بحبّات من الفول السودانيّ عند بئر السلّم غذاء لفأر كان يلمحه كثيرًا...

ـ جميل هٰذا كلّه، ولٰكنّك لا شكّ تعرف أشياء لا يعرفها أحد عن سلوكه الشخصيّ، فرجل وحيد لا يستأجر شقّة مفروشة لوجه الله...

ـ لم يدخل شقّته أحد قطّ، هٰذا الجانب لا يمكن أن يفوتني...

ـ ولا أصحاب ولا أقارب؟

ـ ولا أصحاب ولا أقارب...

ـ وكان يغيب طيلة النهار في الخارج؟

ـ في بعض الأحيان كان يتغدّى في شقّته، فيطلب غداءه من أحد المطاعم...

ـ ألم يلفت نظرك شيء داخل شقّته؟

ـ لم أدخلها قطّ.

ـ ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلًا؟

ـ كان يرجع عادة حوالي العاشرة، وقد يتأخّر به السهر إلى منتصف الليل أو حتّى إلى مطلع الفجر...

ـ كيف ترى لو ثبت لك يومًا أنّ ذٰلك الرجل سمّم أبرياء وأشعل حرائق؟

فأخذ الرجل وقال:

ـ يكون نذيرًا بقيام القيامة!

ـ ٣ ـ

جمعنا سائقي التاكسي العاملين في الحيّ، عرضناهم على البوّاب، فتعرّف على أحدهم ويدعى يونس باعتباره صاحب التاكسي الذي حمل حقائب مكرم عبد القيوم، ولم يجد السائق صعوبة في تذكّر الرجل، وقال إنّه أوصله إلى سميراميس. وانطلقت إلى الفندق

مصحوبًا ببعض المعاونين. وهناك توكّد لي أنّ الرجل بـات في الفنـدق ليلة واحـدة ثمّ غـادره في الصبـاح الباكر، رجعت أسأل عن هويّة التاكسي الذي حمله، لكنّ الشيّال وكّد لي أنّه نقل الحقائب إلى سيّارة ملّاكي مرسيدس بيضاء، وأنّ البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبيّ ساقها بنفسه، أمّـا رقم السيّارة فلم يلحـظه أحد.

أهو صاحب السيّارة؟ لِمَ لَمْ يستعملها طوال إقامته في العـمارة؟... هل امتلكهـا أمس فقط؟ كلّما أحـدق الغموض بتصرّفاته رسخت تهمة الاتّهام في نفسي... فتوثّبت غرائز البحث والتحدّي في أعماقي.

- ٤ -

قصدت بعد ذٰلك جيرانـه المقيمين معـه في نفس الطابق. أوّلهم مهندس معـماريّ يدعى رءوف، ومـا سمعني أردّد اسمـه «مكرم عبـد القيوم» حتّى تقبّض وجهه تقزّزًا، فقلت:

- يبدو أنّك لا تستلطفه؟

- عليه اللعنة! رجل غريب، منطوٍ على نفسه لحدّ الشذوذ، ولا أشكّ في أنّه يمقت البشر...

- للبوّاب رأي آخر فيه؟

- لا تأخذ بأقوال البوّاب فإنّ شلنًا يدير رأسه، لا أنسى مرّة تلاقينا فيها في مدخل العمارة، بدأته بتحيّة فردّ عليّ بإيماءة متكبّرة هبط لها قلبي وغلى دمي، إنّه وقح وقليل الأدب.

- جديد عليّ ما تقول...

- أتحدّى أن تعثر عـلى ساكن واحـد من سكّـان العمارة قد تبادل معه تحيّة، إنّه متعجرف بغيض، أمّا قسوته...

- تقول قسوته؟

- حكت لي زوجتي أنّها رأته يركل قطّة بحذائه، صادفته أمام باب شقّته، فارتطمت بعنف في الجدار ثمّ سقطت بين الحياة والموت!

- عجيب هٰذا...

- في مآتم العمارة يتجاهل الـواجب الإنسانيّ بـلا مبالاة، يمرّ أمام السرادق بلا اكتراث ولا حياء.

- وسلوكه الشخصيّ؟... أعني الشقّة المفروشة؟

- لا... لا... لم يزره أحد فيما نعلم، أمثالـه يعانون نقصًا خفيًّا يدارونه بالعجرفة وأبّهة المظهر...

- ولٰكنّه ثريّ فيما يبدو؟

- لِمَ لا؟... ما أكثر الأثرياء الأوغاد!

- ٥ -

ليست شبهة ولٰكنّها تهمة حقيقيّة. والبوّاب صادق كما إنّ المهندس رءوف صادق. وتوكّد ظنوني معرفتي الوثيقة لتاريخ الجريمة. مَن غير مكرم عبد القيوم يرمي بـالنقـود إلى شرفـات الفقـراء ويـدسّ السـمّ في الشيكولاطة للأبرياء؟... أليس هو الذي يهب النقود لتغذية القطط الضالّة ثمّ يركل واحدة منها حتّى الموت!

وذهبت إلى الجار الثاني، مدرّس لغة عربيّة، يدعى عبد الرحمٰن. قال:

- الرجل وحيد حقًّا ولٰكنّه ليس متعجرفًا، والمسألة أنّ المهندس رءوف كرهه من ردّ تحيّته بجفاء، ولعلّه كان وقتها مكدّر البال...

- فماذا تراه أنت؟

- أشهد له بالتقوى، طالما تقابلنا في الجامع عنـد صلاة الجمعة...

- حقًّا؟

- وماشَيْته مرّة عقب الصلاة فوجدته لطيفًا، دعاني إلى الغداء في مطعم الكورسال، وألحّ عليّ فلم أجد بـدًّا من الاستجابـة، وأعلن لي عن حبّـه الـتراث، ورغب في الاستعانة بي للاستزادة منه...

- لعلّه لم يتعلّم؟

- كلّا... لم يكن متبحّرًا في التراث... ولٰكنّه تخرّج في الجامعة بكلّيّة الحقوق، ودرس في السربون القانون والتاريخ...

- لعلّك الوحيد الذي خالطه؟

- لعلّي، كنّا نتقابل في مشرب مينا هاوس، وهناك وضح لي أنّه كثير الأصحاب، مصريّين وأجانب، وكان يدعى إلى التليفون مرّات عديدة حتّى خيّل إليّ أنّه من رجال الأعمال...

- ألم يخطر لك أن تسأله عن عمله؟

ـ مرّة سألته بلباقة عمّا يفعل بوقته، فأجاب بأنّه يحبّ أشياء لا حصر لها ولكنّه غير ملتزم بعمل محدّد، بمعنى آخر هو من الأعيان...

ـ ما مصدر ثروته؟

ـ أرض، أسهم وسندات وهلمّ جرًّا... ولكنّ ميزته الأولى في نظري أنّه واسع الاطّلاع... وقد طالبته مرّة بأن يؤلّف في التاريخ، فابتسم وسألني: «أتصدّق حقًّا أنّه يوجد شيء اسمه تاريخ؟» فاعتبرت تساؤله دعابة، ولكنّه استدرك قائلًا: «يمكن الاستغناء عن التاريخ ببابَي المديح والهجاء في الشعر»...

ـ طبعًا لم تعرف لماذا تجنّب الزواج؟

ـ مرّة شكوت إليه تمرّد أحد أبنائي، فقال لي بأسًى لم ألمسه فيه من قبل: «إنّ تمرّد ابن خليق بأن يشكّل مأساة بلا نهاية»... ولرنين الأسى في نبرته شيء قال لي إنّه ذلك الابن أو إنّه الأب المبتلي، وبشيء من الدهاء قلت له: «لقد أرحت نفسك من ذلك كلّه» فنظر إليّ وابتسم... ولكنّه لم يشفِ غليلي...

ـ لِمَ لَمْ تستوضح تلك النقطة؟

ـ كنت أعاشره وأهابه، وأخشى أن أثقل عليه فأخسره...

ـ طبعًا أخبرك بنيّة ذهابه؟

ـ أبدًا... فوجئت برحيله... ولكنّني حتمًا سألقاه يوم الخميس في مينا هاوس...

ـ لا أظنّ، ومع ذلك سنرى...

ـ لماذا قلت لا أظنّ؟

ـ ألا تدري أنّ ثمّة شبهة في أنّه مرتكب حوادث حيّنا المثيرة؟!

فاتّسعت عينا الرجل في ذهول وقال غير مصدّق بل محتجًّا:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

ـ ٦ ـ

تجهّم الغموض فانقلب ظلامًا، ولكنّ شعوري ـ شعور الخبرة والسنين ـ صار يقينًا أو كاد. وأوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع في المطاردة، ولكنّي لم أجد بأسًا من لقاء الجار الثالث ـ الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم ـ وهو مفتّش الضرائب بكر الهمذاني. ما إن سمع اسمه حتّى هتف:

ـ المجنون!

ـ مجنون؟!

ـ طبعًا، طالما بلغني صوته وهو يدوّي كالطبل في صمت الليل، ترى أيتحدّث في التليفون؟... يحدّث نفسه؟... يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح وجعجعة الرعد، وكان هنالك ما هو أدعى إلى الدهشة...

ـ حقًّا؟

ـ كان يغنّي ويلعب بأوتار العود!

ـ شيء جديد تمامًا...؟

ـ الحقّ أنّ صوته قويّ وجميل، ولكنّه يغنّي أحيانًا أغنيات في غاية الوقار مثل «يا ما إنت واحشني» أو يغنّي أغنيات في غاية الابتذال مثل: «أنا أبله كنت هبله» أو تصوّر ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغنّي: «يوم ما عضّتني العضّة»... ولكنّه رجل عربيد.

ـ عربيد؟

ـ كنت مرّة راجعًا من سهرة مسرحيّة، فرأيته خارجًا من حانة فلاديمير وهو يترنّح من شدّة السكر... ويقول بلسان ملعثم: «أنا جدع»...

ـ ما أعجب هذا...!

ـ بل يوجد ما هو أعجب، رجعت مرّة من سهرة فرأيته يسبقني بخطوات، دخل شقّته وملت نحو شقّتي، ولسبب ما وجدنا شرّاعة بابه مفتوحة، لاحت منّي نظرة فرأيت في نهاية الدهليز حجرة مضيئة، ولعلّها حجرة جلوس، فتسمّرت في مكاني لغرابة ما رأيت... رأيت خليطًا من عجائب متنافرة، على الجدار المواجه لي ثُبّتت أقنعة غريبة، جميلة وبشعة ورءوس حيوانات محنّطة، وأسلحة من مختلف العصور، وأدوات موسيقيّة، وفي وسط الحجرة ما يشبه المعمل الكيماويّ... بل معمل كيماويّ بالفعل...

ـ معمل كيماويّ؟!

ـ أجل... مائدة طويلة صفّت فوقها أوعية زجاجيّة مليئة بسوائل مختلفة الألوان، وأنابيب طويلة

مركّبة على قوائم معدنيّة، وبوتقات، ومولّدات الطاقة...

- مدهش... مدهش...

- ذهبت إلى شقّتي ذاهلًا... أيقظت زوجتي... أخبرتها بما رأيت... اتّهمتني بالسكر... تحدّيتها أن تخرج معي لترى بنفسها... كان منظرًا مذهلًا...

- ألم تتبادل معه تحيّة أو كلامًا؟

- أبدًا... أصارحك بأنّني كنت أخافه، وقد تشهّدت حين سمعت برحيله...

- ٧ -

في نفس اليوم ذهبت إلى السمسار، لم أكن في حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصيّة «المتّهم» ولكنّي أملت أن أجد عنده خيطًا يوصلني إليه. ووجدته متذكّرًا تمامًا للمعاملة التي جرت بينهما رغم انقضاء ما يقارب العام عليها. بل إنّه قال:

- ذلك يوم لا يمكن أن يُنسى!

- لماذا؟

- تمّت المساومة في دقيقة، بل لم تكن ثمّة مساومة على الإطلاق، وكان أكرم ممّا يتصوّر العقل، ولكنّي اكتشفت فَقْد حافظة نقودي في ذلك اليوم أيضًا، ولذلك فهو لا يمكن أن يُنسى...

- كيف حدث ذلك؟

- سلّمني النقود فوضعتها على المكتب ثمّ انصرف، شغلت دقائق بمكالمة تليفونيّة، ثمّ تناولت النقود لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرًا...

- ماذا دار بخلدك؟

- كانت الحافظة معي، لم يدخل دكّاني إلّا مكرم عبد القيوم ومسّاح الأحذية، وفي الحال شككت في مسّاح الأحذية، استدعيته، استجوبته، عنّفت به حتّى صرخ، ولكنّه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى...

- طبعًا لم تشكّ في الآخر؟

- كلّا، الحقّ كانت تساورني شكوك أحيانًا ولكنّها كانت تعزّ على التصديق، وقد حرقني فقد أكثر من مائتي جنيه، ولكن كيف أوجّه تهمة إلى رجل مثله بدا لي أنّه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شكّ؟... وما جدوى الاتّهام إلّا أن يعرّضني لبطشه؟!

- وسلّمت أمرك لله؟

- كما يحصل في أغلب حوادث النشل، وكنت أراه أحيانًا وهو ماضٍ في الصباح فأُتبعه عينيّ بحيرة وأتمتم «ربّنا عزيز ذو انتقام».

- ٨ -

واجتمعت برئيسي في مساء اليوم نفسه، وعرضت عليه التقارير التي سجّلتها بعناية تامّة. راح يقرأ وهو يسند رأسه إلى راحته حتّى فرغ منها، ثمّ طالعني بوجه متجهّم وقال:

- علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مثيرة، بعض الفقراء يجدون في شرفات منازلهم صررًا مليئة بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون علب حلوى سليمة، أناس يجدون علب حلوى مسمومة مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشبّ في الحوانيت. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجيء جواب من مجهول يوجّه الاتّهام إلى المدعوّ مكرم عبد القيوم، وتتحرّى أنت عن الرجل فتجيئني بمجموعة من التناقضات تماثل في غرابتها تناقضات الحوادث، ما رأيك؟

قلت:

- أصبحت على يقين من أنّه المجرم...

- يقين؟!

- إنّه شعور داخليّ...

- ما يهمّني هو الدليل القاطع أو الاعتراف...

- لا تنسَ يا صاحب السعادة أنّ الحوادث توقّفت منذ رحيله.

- الفترة قصيرة جدًّا ولا تعني شيئًا...

- لا تنس أنّنا أصبحنا مضغة للأفواه...

- سيخونه حرصه عاجلًا أو آجلًا... فهو بلا شكّ مجنون!

- مجنون؟! محتمل. ومحتمل أيضًا أن يكون عاقلًا وداهية وذا أغراض خفيّة...

- ٩ -

انـدفعت في المطاردة بقـوّة متحدّيـة، ضاعفت الـدوريّات والعيـون، أبلغت الأوصاف إلى جميـع الأقسام، ورسمت خطّة شاملة للمرشـدين ولأهـل الخبرة بأوساط المجرمين. لم يخفَ عنّي أنّه تحدٍّ لشخصي ومستقبلي وواجبي، وسيطر الموضوع على يقظتي ومنامي، وفكّرت وفكّرت ثمّ قرّرت تأجيل الاستعانة بالصحف والإذاعة.

- ١٠ -

وفيما نحن منهمكـون في المطاردة انقضّت علينـا صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مماثلة لما وقع في حيّنا ولكن في طنطا هذه المرّة، انطلقت إلى طنـطا بلا استئـذان، وضعت معلوماتي تحت تصرّف المسئولين هناك.

وفيما نحن نرسم خطّة جديدة معتمدين أوّلًا عـلى الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء حوادث تقع في أسيوط، وفي الحال سافرت إلى أسيوط وأنا أشعر بأنّ الجريمة استحالت فضيحة قوميّة. وهناك تلفنت إلى رئيسي أخبره بمقرّي فإذا به يصيح:

- أين أنت؟!... ما هذا التصرّف المشين؟!

هممت بشرح الأمر ولكنّه صاح بي:

- احضر حالًا... لقد عادت الحوادث إلى حيّنا!

- ١١ -

وخطر لي أن أستدعي رسّامًا مشهورًا، جمعت بينه وبـين الشهود. وطـالبته بـرسم صورة دقيقـة للرجل المجهول من واقع شهادتهم. وقلت له:

- لا تتركها حتّى يقرّوا بأنّها طبق الأصل.

ونشرت الصـورة في الصحف مطالبًـا من يعـرف صاحبها بأن يدلّنا عليه، ودلّنا مواطنون على أكثر من شخص، عمـدة، تاجـر أسماك، تـاجر شنطة، بـل انـطبقت الصورة عـلى مسئول في الـدولة لـه شأن، فاستفحلت الفضيحة حتّى انقلبنا سخرية الساخـرين ونادرة المعلّقين.

وصاح بي رئيسي:

- لقد أشعلت النار في الإدارة!

فقلت بإصرار:

- لا غبار على الخطّة.

- ها قد جاءنا مَن لا نبحث عنه، وغاب عنّا من نبحث عنه!

- لعلّه تعمّد الاختفاء أو التنكّر.

- واضح أنّ الحوادث المتفشّية في جميع الأنحـاء ليست من صنع رجل واحد...

- لعلّه رئيس عصابة!

فهتف بيأس:

- لقد أشعلت النار في الإدارة!

رجعت إلى حجرتي أعمى تمامًا من الغضب. عند الباب سمعت حوارًا حادًّا بين الحـاجب وآخر يـريد الدخول لمقابلتي. قلت بحزم:

- لا وقت عندي الآن لأحد.

فقال الآخر بصوت جهوريّ متّزن:

- أنا مكرم عبد القيوم!

- ١٢ -

تأبّطت ذراعه، دخلنا الحجرة، وقفنا متواجهين وأنا ألهث، تساءل بهدوء غاضب:

- ما معنى المنشور في الجرائد؟

فسألته وأنا أمتحنه بعينيّ:

- لِمَ لَمْ تحضر مباشرة عقب النشر؟

- كنت في البحر الأحمر بعيدًا عن الجرائد وغيرها.

وفصل بيننا صمت متّقد حتّى عاد يتساءل:

- ما معنى هذه التهمة السخيفة؟

فقلت بحنق:

- سنرى...

وقـرّرت إجـراء التحقيق في حجـرة رئيسي وتحت إشرافه.

- ١٣ -

- ماذا أقول؟...

أجاب الرجل عن كلّ سؤال فورًا وفي بساطة وثقة، لم نجد دليلًا واحدًا يدينه، عرضناه على أهل الضحايا

والمخبرين المبثوثين في أنحاء الحيّ فلم يشهد أحد بأنّه رآه في ليل أو نهار. أذعنا رسالة موجّهة للمجهول صاحب الرسالة أن ينوّرنا بمعلومات إن كانت لديه فلم يردّ علينا أحد. وهٰكذا غادرنا مكرم عبد القيوم مرفوع الرأس وقد أصابني بضربة قاضية. والعجيب بعد ذٰلك أنّ شعوري الباطنيّ باتّهامه لم يتزعزع.

- ١٤ -

كان لا بدّ من كبش فداء فقرّرت الداخليّة نقلي إلى الديوان. وأحلّت محلّي مَن رأته أعظم أهليّة للعمل. وتلقّيت الأمر بغضب وتحدّ، فقدّمت استقالتي معتزمًا الاشتغال بالمحاماة، وظللت أتابع أنباء الحوادث والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح مَن حلّ محلّي في القبض على المجرم، إنّه شعور مخجل ولٰكنّه متوافق مع الطبيعة البشريّة، وما أدري ذات يوم إلّا ومكرم عبد القيوم يقتحم عليّ مكتبي، رمقته بدهشة، فجلس أمام مكتبي وهو يقول:

- جئتك لأعرض عليك أن تتولّى إدارة أعمالي وقضاياي!

وكان العرض مغريًا لدرجة يتعذّر معها رفضه، ولٰكنّني سألته:

- لِمَ أنا بالذات ولم أعمل في المحاماة إلّا عامين؟

- ولٰكنّك ذو خبرة كبيرة، ثمّ إنّني أعدّ نفسي مسئولًا بعض الشيء عن استقالتك...

فسألته بحذر:

- نوع من الشماتة؟

فهتف بصدق:

- معاذ الله، ما ورائي إلّا شعور طيّب...

لِمَ لا؟

هٰكذا أصبحت مستخدمًا في دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم!

- ١٥ -

وأشهد لقد وجدته وجيهًا بكلّ معنى الكلمة، وقورًا، عالـمًا، عذب الحديث، طيّب المعاشرة، كريمًا ودودًا. وربّما فتر حماسي أحيانًا فأتساءل «ألا يفاجئني مرّة بتناقض من تناقضاته؟... ألا يحسن بي أن ألتزم جانب الحذر؟». ولٰكنّه خيّب وساوسي. وقرص ضميري بإصراره على كلّ ما هو طيّب.

وذات صباح - وعقب مراجعته لما عرضته عليه - رجع بمقعده الهزّاز إلى الوراء وقال:

- أخيرًا قيّدوا القضيّة ضدّ مجهول!

فقلت بشماتة:

- لتكن هٰذه اللطمة ردًّا على اللطمة التي تلقّيتها.

فقال بهدوء عذب:

- كلّا... لقد أخطأت...

- ولٰكن...

وسرعان ما قاطعني قائلًا:

- كان من الخطأ أن تركّز الاتّهام فيّ بسبب رسالة سخيفة غفل من الإمضاء.

فقلت مدافعًا:

- ليس بسبب الرسالة ولٰكن بإغراء التحرّيات غير العاديّة!

- وبتركيزك الاتّهام فيّ تركت المجرم الحقيقيّ يفلت من يديك!

- لم يكن معقولًا أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة الحوادث؟!

- يا أستاذ! هل يخلو مخلوق من تناقضات؟... ثمّ ما الغرابة في أن أطعم القطط وأن أركل قطّة مريضة هاجتني؟... ما العجب في أن أتوادّ مع رجل... وأجافي آخر لسوء خلقه؟... وما الجديد في أن أمضي وقورًا حينًا وأترنّح من السكر حينًا آخر؟ أيعني هٰذا أن أسمّم الأطفال وأشعل الحرائق؟!

لذت بالصمت متفكّرًا وحذرًا في نفس الوقت، أمّا هو فواصل:

- بنفس المنطق يا عزيزي يمكن أن توجّه التهمة إليك أنت!

فندّت منّي ضحكة وتمتمت:

- أنا؟

- لِمَ لا... لقد استمرّت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبثّ المخبرين، كيف اخترق المجرم سبيله في حيّ ملغّم؟... لا شكّ أنّه كان مطمئنًّا إلى أنّ أحدًا

من رجال الأمن لن يشكّ فيه، عظيم... فمن يكون هٰذا إن لم يكن الرئيس المكلّف بالمراقبة؟... أو بمعنى آخر إن لم يكن أنت؟!

فضحكت عاليًا وقلت:

ـ وجرائم طنطا؟

ـ لقد وقعت حوادث طنطا. وثبت أنّك سافرت إلى طنطا، أمّا أنّ سفرك لحق بالحوادث أو سبقها فلا نعرف عنه شيئًا!

فقلت وما زلت أضحك:

ـ عظيم، ولٰكن ما الدافع وراء الجرائم؟

ـ هو الدافع الكامن في أعماق المجرم الذي أعياك البحث عنه!

ـ في اعتقادي أنّه مجنون...

ـ وغير مستحيل أن تكون مجنونًا!!

ـ هل تجد في عملي معك شبهة جنون؟

ـ الجنون أنواع، والمجنون آخر من يعلم...

وضحكت متظاهرًا بالاستهانة ولٰكنّ حديثه ساءني، وساءني أكثر الجدّ الذي تناول به حديثه حتّى خيّل إليّ لحظة أنّه يوجّه إليّ اتّهامًا حقيقيًّا، بل إنّه يصبّ اتّهامه على الناس جميعًا. ثمّ تبسّم فعاد الإشراق إلى وجهه الكبير، وقال بنبرة جديدة:

ـ حسنًا، ولنواصل العمل.

وقلت لنفسي يا له من رجل محيّر!... لا شكّ أنّ العمل في دائرته فوز مرموق، وأنّ شخصيّته تتعالى عن الاتّهام، ولٰكن ما بال شعوري الباطنيّ باتّهامه لا يفارقني؟!

الشَيْطان يَعِظ

الرَّجُل الثاني

١

جذبني مقهى النجف في سنّ المراهقة. كانت سنًّا يُستهجن فيها غشيان المقاهي. الحقّ لم يجذبني المقهى نفسه ولكن شدّني بقوّة سحريّة صاحبه موجود الديناري الأسطورة الباقية. إنّه آخر الفتوّات غير أنّه بالقياس إليّ أوّل الفتوّات وآخرهم. ذهبت لأحظى بمشاهدته فوق أريكة الإدارة في شيخوخته المجلّلة بالمهابة والقوّة والجمال. اخترت مجلسًا بعيدًا عن مجلسه، منعني الإكبار، وجاء بي دومًا ما استقرّ في قلبي من حكايات فتونته، سحرتني أكثر نوادره الغامضة التي تضاربت حولها التفاسير. طالما شعرت وأنا أحتسي قرفته المخلوطة بالمكسّرات بأنّني أعيش أبهج ما في الماضي والحاضر والمستقبل.

***

يحكى أنّ . . .

يحكى أنّه ألقى على أتباعه ذات يوم تحدّيًا. عند الفجر من سهرة في غرزة المنارة المسقوفة بالسماء. قلّب عينيه في وجوه الرجال فلم يبرح أحد مكانه. تبدّت وجوههم غامضة على ضوء النجوم. تبدّت وجوههم ذابلة من شدّة السطول. تبدّت وجوههم مخضلّة بالندى. في فصل صيف شهد له الآباء بالغلظ قال لهم:

ـ لن ترجعوا إلى بيوتكم قبل أن تسمعوا.

تطلّعوا إليه باهتمام. جاهدوا نعاس الخدر. توقّعوا نبأ عن معركة. موجود الديناري قهقه حتّى سعل. قال بتؤدة أضفت على بنيانه القويّ وملامحه الواضحة جدّيّة مثيرة:

ـ إنّكم تتساءلون . . .

اشتعلت اللهفة ونفد الصبر فواصل الرجل:

ـ ما من جماعة مثلنا إلّا وفيها رجل ثانٍ، على ذلك جرى عُرْف مَن غَبَر. . .

ندّت عن «طباع الديك» حركة عفويّة داراها بسعلة مصطنعة. لم تغب عن عين الرجال ولا عين الرجل. كان أقوى الأتباع وأشجعهم وإن لم يجهر بذلك أحد. وطالما اعتقد أنّ المنزلة الثانية بمثابة حقّه المعتبر. تساءل المعلّم:

ـ ما رأيكم؟

أكثر من صوت أجاب:

ـ الرأي ما ترى يا معلّم.

ـ كلّكم أقوياء، كلّكم شجعان، ولكنّ الفتونة الحقّة لا تستند إلى القوّة والشجاعة وحدهما!

عند ذاك قال طباع الديك:

ـ منك تعلّمنا أيضًا مكارم الأخلاق . . .

فابتسم المعلّم ابتسامة غامضة وقال:

ـ دعونا من الكلام، عندي مهمّة، فمن منكم يقبل القيام بها؟

فبادروا قائلين:

ـ نحن رهن الإشارة!

وتساءل طباع الديك:

ـ ما هي المهمّة يا معلّمي؟

فقال الديناري باسمًا:

ـ إنّها سرّ من الأسرار.

همدت ألسنتهم. تذاكروا ما عُرف عنه من غرابة الأطوار. تذكّروا الغموض الذي يخالط وضوحه. حذروا بغريزتهم أن يقعوا في شرك لا قِبَل لأحدهم به. وسرّ الديناري بصمتهم فقال:

- إنّها تتطلّب أوّل ما تتطلّب الطاعة العمياء!

وضح القلق في حركات طباع الديك المتوتّرة ولٰكنّه تجاهله قائلًا:

- قد يحيق الهلاك بمن يتصدّى لها، لا يجوز إخفاء ذٰلك عنكم، فإذا وُفّق فاز بالمكانة اللائقة، وإن هلك تعهّدتُ أهله بالعناية.

وخرج طباع الديك من صمته فقال:

- يا معلّمي، لقد خدمتك منذ . . .

ولٰكنّ المعلّم قاطعه متسائلًا:

- من منكم يقبل المهمّة؟

من غشاء الصمت الثقيل انطلق صوت يقول:

- خدّامك يا معلّم!

تحوّلت الأبصار بذهول نحو شطا الحجري. فتًى جاوز العشرين بعام أو عامين. أحدث مَن انضمّ إلى العصابة. لم يشترك بعد في معركة. قُبل بناء على تزكية من طباع الديك نفسه. وجزع طباع الديك. إنّه في الحلقة الرابعة من عمره ويصغر معلّمه بعام واحد. ورغم سوء ظنّه بالمهمّة وحذره من مقالب معلّمه فقد خاف أن تفلت منه فرصة العمر. لذٰلك هتف:

- لا أحد لها سواي.

فقال المعلّم بهدوء:

- إنّه شطا الحجري.

- ولٰكنّه . . .

فقاطعه المعلّم:

- لقد سبق ولا حيلة لك.

غشيت الصمت كآبة. أيصير شطا الحجري الرجل الثاني إذا لم يهلك؟ ترى ما هي المهمّة؟ هل أنقذهم الخوف أو ضيّعهم؟ أيهلك شطا أم يفوز؟ وماذا لو تكشّفت المهمّة عن تكليف يسير لا يشقّ على أحد؟ لقد تمنّوا في أعماقهم أن يتقرّر الهلاك مصيرًا لشطا. وتلهّفوا على معرفة المهمّة فتساءلوا:

- لم يعد محظورًا أن تكشف لنا عن سرّ المهمّة يا معلّم.

فقال المعلّم بمرح:

- كلّ شيء مرهون بوقته.

وقام الرجل نافضًا عن عباءته ذرّات الرماد ومضى نحو الحارة وهو يقول:

- تناسوا ما دار بيننا في هٰذه الليلة الحارّة فلا شأن لكم به!

٢

توارى المعلّم عن الأعين. لزم الرجال أماكنهم من شدّة الذهول. وجد شطا الحجري نفسه في بؤرة منصهرة بحرارة الأبصار والصيف. أراد أن يخرج من الحرج بكلمة اعتذار فقال:

- أعترف بأنّني ما زلت أحبو في الذيل ولٰكنّها إرادة الله.

فقال رجل مغلّفًا قوله بنبرة نذير:

- بل اخترت بإرادتك يا شطا!

فقال في استسلام:

- إنّما يجري كلّ شيء بمشيئة الله.

فقال آخر بخشونة:

- للشيطان أيضًا دور في رحاب الفتونة.

فتغيّر مزاج شطا وقال بعناد:

- لقد أعددت كفني يوم انضممت إليكم.

فتلاطمت أصوات في سخرية:

- عفارم . . . عفارم! الطموح مهلكة ولٰكنّه حلم الفتوّات!

ضاق شطا بصمت طباع الديك أكثر ممّا ضاق بسخريات الرجال. استأذن ناهضًا ثمّ غاص في الظلمة.

استقبلته أمّه في بدروم عمارة الجبلي. ستهم الشهيرة بالغجريّة تستيقظ عادة مع الفجر لتتهيّأ ليوم عمل كادح، قال:

- حدث الليلة أمر عجيب . . .

وقصّ عليها ما جرى. عكس وجهها المتجعّد الكالح انفعالات متضاربة، تفكّرت حتّى وجمت ثمّ قالت:

ـ يا لك من متعجّل!

فتحامى الجدل فقالت:

ـ إنّك لمجنون يتحدّى الجميع بلا تدبّر.

فاتّجه نحو منامة فوق الكنبة صامتًا فقالت:

ـ لم يبق لي من ذكر سواك، أخواتك في بيوت أزواجهنّ، لعنة الله على شيطانك.

فتمتم بامتعاض:

ـ لا تتوقّعين إلّا الشرّ!

ـ أتحسب أنّ الفتونة لهو؟!

رغم قلقه واضطرام أفكاره فقد أسلمه الإرهاق إلى نوم عميق...

٣

استيقظ شطا الحجري عند الضحا. اجتاحته ضوضاء الحياة. ما زال الصيف يزفر نارًا. استيقظت معه ذكريات الليل. لم يلقِ إليه المعلّم بأيّة إرشادات. هل ينتظر حتّى تجيئه إشارة؟ كلّا، عليه أن يتحرّك. ليتحرّك حتّى لا تنفرد به الأفكار. قرّر أن يذهب إلى دار الديناري. أوّل مرّة يعبر البوّابة العملاقة. اخترق فناء واسعًا. إلى اليمين مُجمّع نخلات مثقلة بالبلح الأحمر وإلى اليسار إصطبل. سمح له بالانتظار في منظرة. طالعته في الجدار الأوسط بسملة مذهّبة تشرف على الأرائك والبساط السنجابيّ. حتّى أذان الظهر انتظر ثمّ جاء الرجل. خيّل إليه أنّه يرى رجلًا آخر. لأوّل مرّة يرى شعر رأسه الأسود، ولأوّل مرّة يخطر أمامه في جلباب فضفاض أبيض، أمّا رائحة المسك فهي دائمًا تنتشر منه. تربّع فوق الكنبة الوسطى ثمّ أشار إلى الأرض قائلًا:

ـ اجلس.

فتربّع على مبعدة قصيرة من موطئ قدميه، ثمّ قال كالمعتذر:

ـ جئت بلا دعوة.

قال ووجهه لا ينمّ عن شيء:

ـ لو لم تفعل لاعتبرت الأمر كأن لم يكن.

فحمد الله في سرّه على أوّل توفيق يصيبه. وسأله الرجل:

ـ ماذا قال الرجال أمس عقب ذهابي؟

ـ اتّهموني بتجاوز الحدّ.

ـ هي الحقيقة بالقياس إليهم هم.

فحمد الله في سرّه مرّة أخرى على حين رجع المعلّم يسأل:

ـ ماذا عن أمّك الغجريّة؟

ـ قلقة وخائفة.

ـ لو لم تقدم لاتّهمتك بالجبن!

انقطع الكلام قليلًا حتّى قال شطا:

ـ إنّي رهن إشارتك.

فمدّ ساقيْه قائلًا:

ـ دلّك ساقيّ.

فشمّر شطا عن ساعديْه وراح يدلّك الساقين المدمجتين بارتياح وفخار. تواصل الصمت حتّى تساءل المعلّم:

ـ ما الذي دفعك إلى القبول؟

فبادره شطا بحماس:

ـ أن أحظى برضاك.

ـ كاذب، أو نصف كاذب، إنّه الطموح، ولكن لا فتونة بلا جنون.

لم يدرِ ماذا يقول. ترامت من بعد صيحات الغلمان ونداءات الباعة وحوار النساء. ثمّ تساءل المعلّم:

ـ مستعدّ؟

ـ رهن الإشارة.

فقال الرجل بوضوح:

ـ اغتسل، ارتدِ ملابس جميلة، اعثر على أجمل بنت في الحارة، ثمّ اذكرها لي!

ثقلت يداه وأوشكتا أن تتوقّفا عن التدليك. ما سمعه لم يتوقّعه قطّ. ظنّ المهمّة مغامرة لا يطيقها إلّا الأفذاذ. ما تصوّر أن تكون مهمّة خاطبة. بل الخاطبة أشرف. لا يمكن أن تقتصر المهمّة على ذلك. ما هي إلّا مقدّمة لاختبار الطاعة. الحذر. الحذر من التردّد. الطاعة أو الضياع. ما يعرف من قسوته مثلما يعرف من مكارمه. إنّه ولا شكّ لم يقل كلّ شيء فلينتظر. لكنّ وجهه لا يَعِدُ بمزيد! أخيرًا تساءل:

ـ أهذه هي المهمّة بلا زيادة؟

قال المعلّم ببرود:

ـ لا أسمح بأيّ سؤال.

تركه يدلّك ساقيه في صمت، ثمّ سحبهما قائلاً:

ـ مع السلامة.

٤

وهو يغادر الدار شعر بالندم. بل بالغضب. ربّما ضرب يومًا مثلًا للحماقة والسخرية. الفتى الذي طمح إلى السيادة فعمل خاطبة. أو قوّادًا ذا قرنين. وسيكون نادرة أخرى إذا هرب. ولكنّه وعده بالمكانة الثانية إذا نجح. وهو الوفاء إذا وعد. فكيف يشكّ في جدارة العمل؟ إنّه لأحمق إذا تهاون مع سوء الظنّ. إنّها محنة حقًّا ولكن وراءها ما وراءها. فليصمد وليصمد وليمحق الريب.

وسألته أمّه ستهم الغجريّة بلهفة:

ـ خبّرني ما هي المهمّة؟

أجل إنّ المعلّم لم يكلّفه بالكتمان ولكنّه شعر بأنّ الأمان في الكتمان. والكرامة أيضًا تلزمه به. فليُذِعْه المعلّم إن شاء أن يبلوه. لذلك قال:

ـ الأسف والمعذرة.

فصرخت المرأة:

ـ من يُخْفِ عن أمّه سرًّا فهو ابن حرام.

وهتفت أيضًا:

ـ أنت وشأنك ولتتجرّعنّ الندم.

وقال لنفسه «تقدَّم بلا تردُّد». ذهب إلى حمّام الأمير وأسلم جسده إلى المغطس. ارتدى جلبابًا جديدًا ولاثة منمنمة ومركوبًا أخضر ومضى منوّر الشباب كالبدر. استحال عينين حذرتين، تسعيان وراء الجمال حيث يكون. في النوافذ، عند صنبور المياه، في سوق الخردوات والحليّ. كلّما لمح حسنًا سجّله في ذاكرته وواصل السعي. وصادف في سعيه رجالًا من العصابة يراقبون ويتساءلون. ضاعف من حذره مطمئنًّا إلى أنّهم لم يقفوا على سرّه بعد. تمنّى أن يحافظ المعلّم على السرّ كما يحافظ عليه هو. تمنّى أن يعثر على ضالّته حتّى تنجلي الحقيقة عارية. أجل ستنكشف مهمّة الخاطبة عن المجد لا الندم.

وكان يستريح في مقهى النجف عندما جلس إلى جانبه طباع الديك. انقبض صدره ولكنّه ابتسم. هو الذي زكّاه عند المعلّم يوم قُبِل. صديق أسرته الذي يعتبر ستهم الغجريّة أمًّا له. قدّم له الشاي حبًّا وكرامة. ابتسم الرجل وقال:

ـ أصبح لك مظهر الوجيه لا الفتوّة!

إنّه يستدرجه ولكن هيهات. وتمتم الرجل:

ـ لا تستقرّ في مكان!

بادله الابتسام دون أن ينبس فقال طباع الديك:

ـ لا أريد إحراجك، هذا أوّل ما تطالبني به علاقتنا الطيّبة . . .

فتمتم شطا بأسف:

ـ معذرة يا صاحب الفضل.

ـ إنّي عاذرك، ومقدّر لحالك، ولكنّ واجبي كصديق للأسرة يطالبني بأن أحذّرك . . .

ـ تحذّرني؟

ـ معاذ الله أن أحرّضك على إفشاء سرّ ولكنّك حديث عهد بنا فلا تعرف فتوّتنا كما أعرفه . .

فقال شطا بصدق:

ـ الحارة كلّها تعرفه . . .

ـ لعلّها لا تعرف مثلي حبّه الدعابة والعبث . . .

ارتعد قلبه ولكنّه قال بقوّة يغطّي بها على ارتعاده:

ـ الدعابة لا العبث، إنّه جادّ كلّ الجدّ . . .

ـ لِمَ صفح عن زميلنا الأعجر ولِمَ أصرّ على عقاب شعراوي القفا؟

ارتعد قلبه مرّة أخرى ولكنّه قال:

ـ ثمّة سبب يعلمه ونجهله، إنّه أبعد ما يكون عن العبث . . .

ـ إذا أردت الاستشهاد بالأدلّة ستجد ما يؤيّد جدّيّته وستجد ما يؤيّد عبثه.

ـ لا، لا تَقِسْ ما يقع في حارتنا بما يحدث أحيانًا في الغرزة . . .

ـ ولكنّ المغامرة التي تقدّمت لها حدثت في الغرزة!

فقال مجاهدًا غيوم القلق:

ـ لكنّ نتيجتها ستُطبّق على الحارة!

ـ صدّقني يا شطا، لِمَ لَمْ أُقْدِم على المهمّة رغم أنّني

أجدر الرجال بها؟! حدّثني قلبي بأنّه يهيّئ للعبث مقلبًا!

هزّ شطا رأسه نفيًا واحتجاجًا فقال طباع الديك:

- ثمّ إنّه لا يتأثّر بالعواطف، وهو قويّ كما نعلم جميعًا فمَنْذا يضمن وفاءه؟ بل هَبْكَ هلكت لا سمح الله فلم يُعِنْ أمّك فمنذا يحاسبه؟!

لزم شطا الصمت بنظرة رافضة فنهض طباع الديك قائلًا:

- الله معك!

فقال شطا:

- هيهات أن تتزعزع ثقتي به.

وأتبعه ناظريه وهو يلعنه . . .

٥

الوساوس والهواجس تخامره. طباع الديك لا يذكر العبث بلا دليل. أجل إنّه مغرض وحاقد وخائف ولكنّه لا يهذي. على ذٰلك فهو يصرّ على جدّيّة معلّمه. رغم غرابة ما كلّف به. رغم الغموض المتعمّد من الآخر. ربّاه. . ما العمل لو كان يعبث به حقًّا؟! ما العمل لو تبدّد الجهد نظير لا شيء؟ ما العمل لو تناثرت قوائم حياته فيما يشبه المزاح؟!

وهو يحاور نفسه طالعه فجأة وجه يمرق من الملاءة السوداء كالضوء. وجه نفّاذ الحلاوة بهيج الأثر. ما تمالك أن قال لنفسه وهو ينتفض بانتعاش غامر «لعلّها هي». في الحال تناسى وساوسه وهواجسه وحلّ بقلبه الظفر. لعلّه رآها قبل ذٰلك ولكنّها عبرت في غفلته بلا أثر. سرعان ما تبعها عن بعد على إيقاع تموّجاتها الراقصة. حتّى عطفة البرادة وحتّى غيابها في عمارة ريحان المتهالكة. هي هي ضالّته المنشودة فمن تكون؟ عليه أن يجمع المعلومات الكافية. الناجح مَن يحافظ على السرّ ويجمع المعلومات الوافية. أُفعم قلبه بالإلهام والثقة. وحلم بالمكانة الرفيعة الثانية. ودعا الله أن يُتمّ المهمّة دون مساس بكرامته. ومن حظّه السعيد لاحت في النافذة، لمحها ولمحته أيضًا بنظرة خاطفة. في العطفة كوّاء بلديّ وبيّاع طعميّة ولكنّه تجنّب سؤال الأنفس المتطفّلة. استدرج غلامًا يلعب فسأله:

- يا شاطر مَن يسكن في الدور الثاني؟

فأجاب الولد:

- عمّ طناحي بيّاع الطعميّة . . .

آه. . ثمّة شبه بين الكهل والبنت الفاتنة. رجع إلى بيته مستوصيًا بالحذر. ورغم ما بينه وبين أمّه من جفاء سألها:

- هل تعرفين أسرة عمّ طناحي بيّاع الطعميّة؟

فتجاهلته حتّى كرّر السؤال فسألته بدورها:

- لماذا تسأل؟

- حديث دار في المقهى حول بنت جميلة له.

- زوّجت له بنتين وبقيت الصغرى وداد، صغيرة ولكنّها أجمل البنات . . .

فقال مخفيًا انفعاله:

- ذاك ما قيل عنها.

- قل لمن يتحدّث إنّ الطائر قد حلّق في السماء.

- السماء؟!

- ما زال الأمر سرًّا ولكنّي الوحيدة من غير الأسرة التي تعرف أنّ معلّمك الديناري خطبها منذ أسبوع!

- حقًّا؟!

- حظّها السعيد، لا أهمّيّة للسنّ ولا لكثرة الزوجات! ابعد إن كنت فكّرت في القرب . . .

إذن قد خطبها الرجل قبل أن يكلّفه بالبحث عنها. ولٰكن هل يغيّر ذٰلك من مُوقعه من المهمّة؟ عليه ألّا يضيّع وقته وأن ينسى ما سمع. .

٦

قبع في مجلسه عند قدمي المعلّم وراح يدلّك ساقيه. الرجل يرتاح لذٰلك وهو يجيده. مهما يكن من أمر العاقبة فهو اليوم ألصق الجميع به. غير أنّه لا يستطيع أن يقرأ وجهه. ألا ما أكبر الفارق بينه وبين البنت، في العمر والحجم وكلّ شيء. والرجل صامت يضنّ بالسؤال فعليه هو أن يتكلّم. قال:

- عثرت على البنت المنشودة يا معلّم.

بعد هنيهة صمت قال الرجل:

- انطق.

- الاسم وداد، كريمة عمّ طناحي، بالدور الثاني

من عمارة ريحان القديمة . . .

ـ ألم تفتك فرصة؟

ـ كلّا.

ـ هل فطن أحد إلى مسعاك؟

ـ كلّا.

ـ الكتمان في صالحك أنت.

ـ حرصت عليه بحسن تقديري.

ـ إنّك معجب بنفسك . . .

فتورّد وجهه الأسمر حياء، تفاءل بالصمت، ثمّ تساءل:

ـ انتهت المهمّة يا معلّمي؟

فقال الرجل بلا مبالاة:

ـ الآن عليك بمغازلتها!

كأنّما تلقّى ضربة على يافوخه. هتف:

ـ مغازلتها؟!

قال الرجل ببرود:

ـ مع السلامة.

في الخارج لم يسمع صوتًا رغم الضوضاء، لم يرَ أحدًا رغم الزحام، لم يُلقِ بالًا إلى متربّص. المهمّة تتعقّد والمخاوف تتجسّد والأشباح تتخايل. ها هو يحمل أمرًا من معلّمه بمغازلة خطيبة معلّمه. وهو مطالَب بإبلاغه بالنتيجة. هيهات أن تؤاتيه الشجاعة على الكذب. أهي طريقة لاختيار الرجل الثاني حقًّا أم الأمر عبث في عبث؟ الليل تتكاثف ظلمته وتتوارى نجومه وراء السحب . . .

٧

وجد نفسه بعد ذٰلك بين اثنتين، الهرب أو الصمود. قرّر أن يصمد. ليس وراء الهرب إلّا السخرية والضياع، أمّا الصمود فإنّه يمارس فيه رجولته وليكن بعد ذٰلك ما يكون. ربّما انتهى به الصمود إلى شماتة الحاسدين ولكنّ الهرب ينذر بما هو أفظع. وكلّما تعقّدت الأمور وانبهم المغزى على إدراكه قال لنفسه مستهينًا:

ـ ليست السلامة بالغاية المفضّلة في هٰذه الدنيا.

وانطلق في أثرها يخطّ بالقدم مصيره ومصيرها. تعرّض لها في نافذتها، تبعها إلى دكّان الخردوات وهي بصحبة أمّها، وهبها عينين حادّتين وهي تمرّ أمام مقهى النجف. تطايرت نظراته الموشّاة بالبسمات الخفيّة معلنة عن عاطفة لا وجود لها. وفي فرح شهده وكانت وداد بين المدعوّات قاربت بينهما نظرة طويلة فغمز لها بعينه ملقيًا بنفسه في فم القدر. إنّها الآن تعرفه تمامًا وتخمّن مقصده فليتها تغضب، ليتها تشي به عند والديها فتنقذه من المجهول، وتنقذ نفسها. لٰكنّها لم تغضب. بل مرحت في دلال معلنة محاسنها كاشفة عن استجابة واضحة. قال لنفسه بحزن إنّها لا تهمّها الفتونة، إنّها تؤثر الحبّ على الجاه، إنّها حلم الشباب المثاليّ وأسفاه.

ومضى في الطريق مستسلمًا لاغيًا عقله. حتّى ضمّهما يومًا زحام يحدق بالحاوي. تزحزح خفية حتّى استقرّ جنبها. ولّما التفتت نحوه همس:

ـ يا جميلة.

فالتفتت عنه في دلال مشجّعة على المزيد فهمس:

ـ أقول إنّ جمالك . . .

ولٰكنّها قاطعته هامسة ومعلنة استجابتها في الوقت نفسه:

ـ الناس . . . الناس.

ـ صدق من قال إنّ العاشق مجنون.

ـ أنت لا تعرف كلّ شيء.

فهمس متخطّيًا أشباحه:

ـ أعرف أنّك مخطوبة للديناري.

فرمقته بدهشة وإكبار وهمست:

ـ إنّه سرّ.

ـ لٰكنّي أعرفه . . .

ـ لن تحظى بأحد يقبلك.

ـ المهمّ رضاك أنت.

فتساءلت متظاهرة بالتركيز على يد الحاوي وهو يلاعب الحيّة:

ـ أيّ فائدة ترجى؟

ـ لنتقابل على انفراد.

ـ أمر عسير.

ـ الشمس تقترب من المغيب، زاوية الدرملّلي مكان آمن . . .

- ولكن . . .

- سأسبقك . . . لا تضيّعي فرصتنا الوحيدة.

ومضى نحو الميدان ثمّ انعطف إلى الزاوية. اضطرب خافق القلب. ثمّة أمل ضعيف في أن يستردّها العقل في آخر لحظة. أن تثوب إلى رشدها وتندم.

لكنّه رآها مقبلة في شجاعة تثير الدهشة . . .

٨

استغرق اللقاء الخفيّ دقائق معدودة في الركن المتواري المعتبر مأوى للمجاذيب. سألها:

- لديك فكرة عن الخطر الذي يتهدّدنا؟

فأجابت بثبات أكبر من سنّها بكثير:

- نعم.

- لا سبيل أمامنا إلّا الهرب إلى الأبد.

فتمتمت:

- ليكن.

وبانتهاء اللقاء الأوّل انعقدت سحب التعاسة فوق رأسه. وقع في حفرة لم يقدّر مدى عمقها من قبل. غزاه صدقها وشجاعتها وبراءتها. صدّقته تمامًا، وهبته قلبها النابض، وضعت مصيرها بين يديه. دهمته أيضًا استجابتها غير المتوقّعة. هاله الدور القذر الذي يمثّله بمهارة فائقة. ألم يخش لحظات من جانب معلّمه العبث؟ ها هو يعبث بالطهارة والبراءة! لماذا؟ من أجل أن يعتلي الموقع الرفيع الثاني في جماعته. أيهون عليه حقًّا أن يتمّ مهمّته فيدفع بالبنت إلى الهاوية؟ كلّا . . لن يكون يومًا من أهل ذاك المنحدر. وما أغراه بالانضمام إلى جماعة المعلّم إلّا استزادة من الشرف. وهيهات أن ينسى نظراتها المحبّة الواثقة. ولا صوتها العذب وهي تتمتم:

- ليكن.

هل يبيع ذلك كلّه من أجل مهمّة غامضة كلّفه بها رجل عظيم حقًّا ولكنّه معروف بأطواره المحيّرة؟! كلّا فليقدم على ذلك وغد من الأوغاد لا رجل يهيم بالحياة السامية.

هكذا جلس عند قدمَي معلّمه وقد قرّر أنّ شرفه أعلى من المهمّة الغامضة . . .

٩

قال واعيًا بإقدامه على ما هو أخطر من قبول المهمّة نفسها:

- البنت عاقلة لا سبيل إليها!

فقال موجود الديناري بهدوء:

- أنت كذّاب.

تطلّع إليه بذهول مؤمنًا بأنّه قد انتهى. السرّ افتضح وفاته أن يفترض ذلك. إنّه لم يخنه فقط ولكنّه أساء الظنّ أيضًا بقدرته. وانقلب أتفه مِن لا شيء. وراحت يداه تدلّكان ساقي الرجل بآليّة في صمت ثقيل. حتّى قال الرجل بجفاء:

- انطق.

فقال باستسلام:

- الصدق ما قلت يا معلّمي . . .

- كيف غفلت عن أنّني أمتحنك أنت لا هي!

فقال بأسًى:

- إنّي غبيّ ولكنّني لم أستطع أن أكون وغدًا.

- فلتهنأ بالشهامة والعصيان!

فقال بيأس:

- أعترف بأنّني أخفقت في القيام بالمهمّة . . .

فتساءل المعلّم بسخرية:

- ما هي المهمّة؟

- ما كلّفتني به يا معلّمي . . .

فصمت الرجل قليلًا ثمّ قال:

- أقول لك يا أعمى استمرّ!

فتمتم شطا بذهول:

- أستمرّ؟!

- وأبلغني عن كلّ خطوة في حينها.

فاشتدّ الذهول بشطا وتساءل:

- أيعني ذلك أنّني ما زلت مكلّفًا بالمهمّة؟

فندّت عن يد المعلّم حركة تدلّ على ضيقه وقال بحزم:

- اذهب . . .

١٠

إنّه يغوص في الظلمات بلا مرشد. خلا إلى نفسه في

البدروم الذي تهجره أمّه طيلة النهار سعيًا وراء الرزق. تجرّد من ثيابه دفعًا لحرّ ذاك الصيف. فليفكّر وليفهم. لقد أخفق في المهمّة واستحقّ غضب الرجل. كان عليه أن يدرك أنّ للمعلّم عيونه أيضًا. لماذا إذن يأمره بالاستمرار عوضًا عن أن يعلن فشله أو يُنزل به عقابه؟ أيمنحه فرصة جديدة؟ كلّا . . . لا تُمَنِّ نفسك بالأوهام. هل المهمّة شيء آخر غير ما وضح له؟ أيريد أن يخفّف من عقوبته بعد أن خسر الثمرة؟ هل يسوقه إلى العقوبة من حيث لا يدري؟! ثمّة أمر يقينيّ وهو أنّه يتعمّد إلقاءه في الحيرة. ما أعجزه عن الإدراك المطمئنّ ولكن لا مفرّ من الاستمرار. إنّه يفهم الآن مغزى تردّد طباع الديك رغم قوّته وشجاعته. أمّا هو فما أشبهه بلاعب السيرك الذي يترصّده الهلاك عند الخطأ، فليذهب إلى الموعد المرتقب. لن يخفي شيء عن الرجل. عليه أن يهتدي إلى ما ينبغي له فعله قبل أن تتبدّد حياته هباء.

***

وعندما أقبلت نحوه قبيل المغيب، عندما منحته ابتسامة اللقاء، نسي مخاوفه، استهان بالعواقب، محق شكوكه، غمره رضًا وسلام، خفق قلبه بعمق، اكتشف أنّه يحبّها. أجل إنّه يحبّها كما تحبّه وأكثر. لعلّه أحبّها من بادئ اللعبة وهو لا يدري. وفي ظلّ الحبّ حظي باليقين. ومهما يكن من غموض معلّمه أو عبثه فقد هداه إلى الحبّ. عليه أن يدمجه في مصيره ويحملهما معًا. لقد محاها مرضاة لضميره وها هو الحبّ يلحق بالضمير ويجاوزه. لا أهمّيّة الآن للمهمّة ولا للدفاع عن النفس ولا للبقاء في الحارة. الهرب . . . الهرب . . . إنّه الحقيقة الباقية. تلقّاها بحرارة وسط ضوضاء المجاذيب. يوجد حتمًا من يراقبهما ولكنّه سيلوذ بالمفاجأة.

- أهلًا بك يا وداد.

ثمّ بجدّيّة بالغة:

- ليس لدينا وقت نضيّعه.

تساءلت بنظرة من عينيها السوداوين فقال:

- الآن وجب الهرب.

فاضطربت متمتمة:

- الآن؟!

- قبل أن تفلت الفرصة إلى الأبد.

فتفكّرت وهي تعبث بأناملها بقلق ثمّ تساءلت:

- أأنت مستعدّ؟

- معي من النقود ما يكفي في البداية.

- إلى أين؟

- أقرب وآمن مكان، الدرب الأحمر . . .

- لا صديق لنا فيه.

- جميع الدروب معادية ولكنّ فتوّته الشبلي خير من غيره.

- وإذا أبى حمايتنا؟

- لا أظنّ، سأجعل نفسي في خدمته، وإلّا ولّينا وجهة أخرى.

فوجمت كالمتردّدة فقال:

- لا اختيار منّا وثمّة أعين ترقبنا!

فقلقلت عيناها من الخوف فقال:

- سنمضي من توّنا وسوف تكون مفاجأة لم يتوقّعها أحد، هٰذه هي فرصتنا.

- إنّي معك ولكن فلنؤجّل التنفيذ حتّى أستعدّ.

- إنّها فرصتنا الوحيدة.

هٰكذا مضيا في الطريق الجديد مضطربينِ مصمّمينِ سعيدينِ، يموتان ويولدان من جديد . . .

١١

مضى شطا الحجري من فوره إلى مقابلة المعلّم الشبلي في داره القديمة. صدمه الفارق الشاسع بين دار الديناري الباهرة وهٰذه الدار الهرمة، بين هيكل معلّمه المترامي رجسم هٰذا الرجل النحيل الذي تأهّل للفتونة بخفّة النمر ودهاء الثعلب. قال شطا:

- جئتك مقدّمًا الولاء وطالبًا الحماية . . .

سرّ الفتوّة للجوء أحد أتباع الديناري إليه ولكنّه قال:

- حدّثني عمّا ألجاك إليّ . . .

ولم يجد شطا بدًّا من الاعتراف الكامل بحكايته ليسوّغ ما أقدم عليه من سلوك غريب . . . وضحك الشبلي طويلًا وقال:

ـ معلّمك يحيط نفسه بالغموض، في الظاهر استجلابًا للاهتمام وفي الحقيقة ليداري جنونه المؤكّد. . .

فأحنى شطا رأسه ليخفي ضيقه ولاذ بالصمت، فقال الشبلي:

ـ لك الحماية والإقامة، ماذا تريد أيضًا؟

ـ أن تقبلني في جماعتك . . .

فقال الفتوّة بصراحة جارحة:

ـ أمّا هٰذا فلا، لا أمان لرجل خان معلّمه!

أصابت الطعنة مقتلًا فقال بحرارة:

ـ أردت ألّا أكون وغدًا . . .

ـ نحن نفضّل الوغد المطيع على الشهم المتمرّد.

ـ لك ما تشاء وعليّ الرضا بالمقدور.

ـ ألك حرفة؟

ـ كنت نجّارًا قبل أن ألتحق بالجماعة.

ـ مارس حرفتك واحذر أن تلعب بذيلك . . .

فقال بانكسار:

ـ إنّي أنشد السلامة يا معلّم . . .

رجع شطا إلى وداد وقد خسر أشياء لا تعوّض. ومن نقود الديناري المدّخرة لديه تزوّج واكترى حجرة وأثاثًا بسيطًا. استقرّ في مسكن وعمل كما استقرّ الحزن في أعماق نفسه. لقد اعتبر في الدرب آية على تفوّق فتوّة الدرب ولٰكنّه عومل كغريب. وأراد أن يهتك ستار الغربة فقال في المقهى:

ـ كان أحد أجدادي من الدرب الأحمر . . .

فسأله شيخ الحارة متحدّيًا:

ـ أجئت من أجل ذٰلك؟

فبادره وقد فطن إلى ما وراء السؤال:

ـ بل جئت طلبًا لحماية فتوّة معروف بشهامته!

وتساءل في نفسه ترى كم من زمن سيجري قبل أن ينهضم مقامه ويألف ويؤلف ثمّ يتناسى أحزان الماضي كلّه.

وقال لوداد:

ـ دفعنا إلى المرّ ما هو أمرّ منه . . .

فقبّلته قائلة:

ـ إنّي غير نادمة . . .

ـ لقد اعترفت للشبلي بحكايتي والآن آن لي أن أعترف لك . . .

وقصّ عليها قصّة علاقته بها منذ خرج للبحث عنها حتّى وقع في حبّها. وصغت وداد واجمة، وصمتت مليًّا، ثمّ قالت:

ـ قصّة جميلة ولٰكنّها لا تخلو من رعب.

فقال بحرارة:

ـ لم يبقَ لنا إلّا أن نسعد . . .

ولٰكن حتّى الليلة الأولى لم تخلُ من تنغيص ومن حزن. لقد حظي بالحماية ولٰكنّه باء بسوء الظنّ والاتّهام كما ثبت أنّه غير أهل للثقة. وتساءل أناس هل يرجع الديناري إلى المعارك غضبًا لكرامته خارقًا ما التزم به من تعهّدات سلميّة ـ هو والشبلي ـ أمام الشرطة؟! هل يثبت شطا الحجري أنّه شؤم على المكان الذي وفّر له الحماية كما كان عارًا على المهد الذي ولد ونشأ فيه؟!

وانعكس ذٰلك كلّه على شطا وتسرّب إلى حنايا وداد فلم تخلُ الليلة الأولى من شهر العسل من تنغيص ومن حزن.

١٢

في صباح اليوم التالي ترامت إليها أنباء عمّا لحق بأهلها من تحرّش وتضييق في الرزق وتعرُّض لشتّى ألوان الإهانات والقهر. في السوق أيضًا سمعت وداد اللعنات تصبّ على جمالها الذي يهدّد الحارة والدرب. رجعت إلى مسكنها شاحبة الوجه منهزمة وهتفت بعين دامعة:

ـ أبي وأمّي وأخواتي!

فتمتم شطا بنبرة حزينة:

ـ أمّي وأخواتي أيضًا!

تبادلا نظرة طويلة حائرة. أفصحت النظرة عن أشياء انحبست وراء معانيها. قالت النظرة إنّهما اندفعا مع عاطفة طاغية دون تفكير في العواقب. الحقّ أنّهما لم يشعرا بصفاء السعادة إلّا في رحاب الاندفاعة المذهلة. الآن يعترضهما جدار سميك من الحقائق المرّة بأنيابها الحادّة. وكالغريق الذي يتعلّق بقشّة قال شطا:

ـ وراءنا طريق مسدود، وعلينا أن نستخلص من

القيامة جوهرة السعادة المفقودة . . .

فتأوّهت قائلة:

- اللعنات تطاردني في الطريق . . .

- علينا أن نجعل من الحاضر ماضيًا . . .

فنكّست وجهها صامتة فرجع يقول:

- فعلنا ما هو صواب ومشرّف . . .

- ولٰكنّنا نسينا العواقب . . . دعنا نبحث عن رزقنا في مكان آخر . . .

- لن يخفّف ذٰلك البلاء عن أهلنا.

- والعمل؟

- لا مفرّ من مواصلة الحياة.

- لٰكنّها مليئة بالمرارة . . .

فقال بضيق:

- لا مفرّ ولا حيلة . . .

١٣

في مساء اليوم الثالث استبقاه الشيخ ضرغام أمام الزاوية عقب صلاة العشاء وقال له:

- عندي رسالة إليك من الشيخ عقلة إمام حارتكم . . .

أصغى شطا بفتور وتشاؤم فقال الشيخ:

- إنّه يخبرك بأنّ ما يعانيه أهلك وأهل زوجك فوق ما يحتمل البشر . . .

فتقبّض وجه شطا وهو يقول:

- الحزن يمزّق قلبي . . .

- أيكفي ذٰلك؟ الناس هنا يتساءلون كيف تنعمان بالحبّ على حين يؤدّي أهلكما عنكما ضريبة العذاب؟

- أهل الدرب هنا يكرهوننا يا مولاي . . .

- إنّهم معذورون . . .

فقال شطا متنهّدًا:

- من الأوفق أن نذهب . . .

- إلى أين؟

- إلى أيّ مكان.

- والمعذّبون وراءكما؟

فقال شطا باستياء:

- كأنّما تدعونا إلى الموت!

- إنّي أخاطب ضميرك.

- ضميري هو ما ساقنا إلى هنا والمسألة أنّنا ضحيّة عبث . . .

- عبث؟!

- أجل . . عبث لا معنى له . . .

- ولٰكن . . . انظر . . . ما مِن فعل إلّا وله سببه وله هدفه أيضًا.

- لقد خُدعت فكُلّفت بمهمّة عابثة . . .

- ألم تكن تطمح إلى أن تكون فتوّة حارتكم ذات يوم؟

- أيعني ذٰلك أن أكون ألعوبة في يد الغير؟

- مَن أجبرك؟

- عظيم، لقد اخترت بعد ذٰلك أن أفعل ما رأيته صوابًا . . .

- وها هو يتكشّف عن أخطاء فمنذا يُصلحها؟

- وإذا سرتُ إلى الهلاك بقدميّ فهل تدافع عنّي أنت؟

فقال الشيخ ببرود:

- الهلاك نهاية كلّ حيّ ولٰكن يوجد الخطأ كما يوجد الصواب أيضًا.

شكره بجفاء وقام ماضيًا نحو مسكنه. شعر بأنّه يمضي إليه كارهًا فتعجّب من ذٰلك غاية العجب . . .

١٤

وجد في الحجرة غشاوة صفراء - مشبعة بحرارة الصيف - لا تستطاب فيها لقمة ولا يخفق قلب بالحبّ.

تبادلا النظرات في صمت مشحون بالكآبة. أعاد على مسمعها حديث الشيخ. وتبادلا النظر أيضًا. كأنّما تقول له «أنت السبب». إنّهما تعيسان وما بينهما يتدهور كلبنات البنيان الآيل للسقوط. تنهّد قائلًا:

- الحياة لا تطاق.

فآمنت قائلة:

- هي كذٰلك.

اعتراف ينذر بالمأساة. تساءل كمن يتحسّس ضرسًا مريضًا:

- هل نهجر الدرب ونعيش بلا مبالاة؟
- تقول ذٰلك بلسانك لا بقلبك.

فتساءل متحدّيًا:

- ما عسى أن نفعل؟
- أرشدني فإنّك أنت الرجل.

استشفّ في قولها سخرية أثارت غضبه فقال غاضبًا:

- ما من شقاء إلّا وراءه امرأة.
- فليسامحك الله، ولا تنس أنّك بدأت بخداعي.
- ستصبّين الأخطاء فوق رأسي . . .
- كنت القائد وكنت التابعة.
- هٰذا هو الظاهر . . . اللعنة!

فهتفت محتجّة:

- ما دمت قد أحببت فإنّي أستحقّ أكثر من ذٰلك.
- ما أعجب أن نذكر الحبّ في مثل حالنا.
- لك عليّ ألّا أذكره.

وندم على ما فرط منه. ما جدوى الغضب؟ وكبح نفسه قائلًا وهو يجفّف عرقه:

- نحن نهرب في الغضب من مواجهة أنفسنا.
- طيّب أن تذكّر نفسك بذٰلك.

فقال كالمعتذر:

- وداد، إنّك امرأة ناضجة رغم صغر سنّك، لك مزايا عظيمة، الفتونة لم تخلب لبّك فأخلصت لنداء قلبك، تحدّيت الحارة وهربت معي، ناضجة ومحترمة، عظيم، اقترحي عليّ . . .

فقالت متأثّرة بندمه:

- اقترح أنت.

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- الشكّ يمزّق قلبي، أأنا ضحيّة عبث؟ أم العبث مَن خلق تعاستي؟ في مثل حالي هٰذه لا يحسن بي أن أتّخذ قرارًا!
- تستطيع أن تتّخذ قرارًا في جميع الأحوال.

فتنهّد قائلًا:

- سأحمّل الشيخ ضرغام رسالة إلى معلّمي القديم موجود الديناري أسأله عن شروطه لكي يعفو عنّا . . .

فصمتت غير قليل ثمّ تمتمت:

- افعل، لا حيلة لنا، لا أتوقّع خيرًا . . .

١٥

جاءها بالردّ في مساء اليوم التالي أو اليوم الرابع في مقامها الجديد. قال لها بوجه ناطق بحيرته:

- كما توقّعت . . .

فقالت بأسى:

- لم أتوقّع خيرًا.
- إنّه أفظع من ذٰلك، لقد قال للرسول «قل للأعمى أن يستمرّ» . . .

فانتقلت الحيرة إلى وجه وداد وغمغمت:

- أن تستمرّ؟!
- هٰذا ما ردّده في آخر لقاء لي معه . . .
- تستمرّ في ماذا؟
- لم يزد عمّا قلت ولم ينقص . . .
- أهٰذا هو شرطه ليعفو عنّا؟
- لم يجرِ للعفو ذكر في جوابه.
- لا شكّ أنّك تفهمه خيرًا منّي . . .
- إنّه يتعمّد إبقائي في الحيرة حتّى أجنّ!
- ليته يقنع بذٰلك ويعفو عن أهلنا . . .

فضحك ضحكة جنونيّة وقال:

- لن يكفّ يده عنهم قبل أن أصدع بأمره وأستمرّ.
- إذن فعليك أن تستمرّ.
- في ماذا؟
- لم لا تستوضحه؟
- فعل الرسول ولٰكنّه لم يردّ، الشيخ ضرغام نفسه قال عنه إنّه يتعذّر التفاهم معه بيد أنّه نصحني بأن أفعل ما يمليه عليّ ضميري . . .
- رجعنا إلى ما قبل السؤال.
- توهّمت مرّة أنّه يعني أن أستمرّ في المهمّة!
- ولٰكنّك أخفقت من أوّل خطوة.
- لا أستطيع أن أحكم لأنّني لم أطّلع على كلّ ما يدور في رأسه.

فتساءلت نافدة الصبر:

- أهلنا هل ينتظرون حتّى نحلّ هٰذه الألغاز؟

فقال متجاهلًا مقاطعتها العصبيّة:

ـ توهّمت مرّة أخرى أنّه يدعوني إلى إصلاح الخطأ . . .

ـ هل يقبل الحلّ الذي ترتئيه؟

ـ لا أدري ألبتّة!

فهتفت:

ـ ثمّة مهمّة عاجلة وهي أن نرفع العذاب عن أهلنا وأن نبعد عن هٰذا الجوّ المعادي لنا.

ـ هٰذا يعني أن نذهب.

ـ بل يعني أن نرجع إلى الحارة.

ـ لا يمكن أن نرجع ونحن زوجان وإلّا عُدَّ ذٰلك تحدّيًا له.

ـ يجب أن نرجع.

قال بأسًى:

ـ وداد، إنّك تفكّرين في التخلّي عنّي.

فشهقت بالبكاء ولم تدرِ ما تقول فقال:

ـ هبنا انفصلنا فهل يعفو عنّا؟

ـ ثمّة أمر مؤكّد وهو أنّه سيكفّ عن أهلنا وسننجو من هٰذا الدرب البغيض.

فتمتم كالمتردّد:

ـ من يدري؟

فقالت بوضوح:

ـ إنّي راجعة . . .

ـ يلزمنا مزيد من التفكير.

ـ نحن نزيدهم عذابًا، ونتعذّب أيضًا، فلنُقْدِم ولنَتّكِلْ أمرنا إلى الله . . .

١٦

عليه أن يستأذن المعلّم الشبلي صاحب الفضل والحماية. إنّه حريص على النزاهة بقدر ما هو متّهم بالخيانة. شعر مرّة أخرى بالفارق الكبير بين الدارين، دار الشبلي ودار الديناري. هنا فناء واسع ولٰكنّه موحش ولا زرع فيه والإصطبل تفوح منه روائح أليمة. وتجري الأبراص بين عمد الأسقف البارزة. الشبلي نفسه لا ينعم جسده بالنظافة إلّا حين انطلاقه إلى المقهى. أجل إنّه ـ بخلاف الديناري ـ واضح، ولٰكنّه وضوح الابتذال والتفاهة. والحقّ أنّه رغم كلّ ما كان لم يحبّ الشبلي ولم يبغض الديناري. وقد مهّد لمطلبه قائلًا:

ـ لن أنسى فضلك ولا ما وجدته في دربك من أمن.

فقال المعلّم ببرود:

ـ لعلّه يثمر معك.

فقال متصبّرًا على اللطمة:

ـ لن أنسى فضلك أبدًا.

ـ ماذا تريد؟ . . . أراهن على أنّك لم تحضر للسؤال عن صحّتي!

ـ صحّتك دائمًا عين المراد، المسألة أنّنا لم نعد نطيق البقاء مع ما بلغنا عن انتقام الديناري من أهلنا. . .

فتساءل الرجل في سخرية:

ـ أجئت تطالبني بحماية أهلكم؟!

ـ ما إلى هٰذا قصدت ولٰكنّنا قرّرنا الرجوع إلى حارتنا وليفعل الله ما يشاء.

ـ هل ترجع بخطيبة معلّمك وهي على ذمّتك؟

ـ سيكون الطلاق ضمن ما نقدّم من تضحية . . .

فتهلّل وجه الرجل وقال:

ـ هو الصواب ولا لوم عليك.

ـ لذٰلك جئتك مستأذنًا في العودة.

ـ لك ما تشاء، ولٰكن يجب أن يتمّ الطلاق هنا!

ـ لٰكنّ حدوثه في الحارة خير لنا.

فقال بإصرار:

ـ أرى أن يتمّ هنا.

فتساءل شطا في ارتباك:

ـ وما وجه الحكمة في ذٰلك؟

ـ لترجع زوجتك إذا رجعت بمشيئتها لا بحكم كونها زوجتك.

ـ ولٰكنّها صاحبة الاقتراح.

ـ ولو، قد تغيّر رأيها وتؤثر البقاء وحدها!

قالها بوضوح غليظ فأدرك شطا من فوره أنّ الرجل يريدها لنفسه، فقال بقلق:

ـ هيهات أن أنال العفو عن الأهل إذا رجعت وحدي.

فقال بقحة ونبرة منذرة:
- لا يهمّني ذٰلك!
فقال متوسّلًا:
- معلّمي . . .
ولٰكنّه قاطعه قائلًا بخشونة:
- لقد قدّمت لك خدمة لا توزن بثمن وجاءت نوبتك لتردّ إليّ بعض الجميل . . .
تردّد شطا فواصل الرجل غاضبًا:
- اذهب وطلّق!

١٧

اهتزّ عودها الرشيق من الغضب وهتفت:
- لن يكون هٰذا أبدًا.
فرمقها شطا بحزن ويأس مدركًا عمق المأزق الذي وقع فيه فهتفت:
- فلنهرب!
فقال بذهول:
- هيهات أن يتيسّر لنا ذٰلك.
فحدجته بنظرة غاضبة وقالت:
- لقد أخطأت بذهابك إليه.
- فعلت ما يقتضيه الواجب.
- دائمًا يقودك تصرّفك إلى مشكلات لا حلّ لها . . .
- إنّي أفعل ما يمليه عليّ ضميري!
فقالت بحنق:
- لا شكّ أنّه يطالبك بأن تحمي أيضًا زوجتك.
فهتف بغضب:
- أجل، ولٰكن ما حيلتي؟
- هل يمكن أن تتركني له ثمّ تذهب؟
فتمتم شاردًا:
- غير ممكن.
- ماذا تنوي أن تفعل؟
- لا أدري.
- إنّه يتوقّع أن تصدع بأمره.
- أجل.
- هل تصدع بأمره؟
- كلّا!
- ماذا تنوي أن تفعل؟
- لا أدري.
- أكاد أن أجنّ.
- ما أنا إلّا رجل مفرد أمام عصابة في درب لا صديق لنا فيه.
- إنّك تفكّر في التسليم.
- إنّك لا تفكّرين إلّا في ذاتك.
فقالت محذّرة:
- شرّ ما نفعله في موقفنا الحرج أن نتشاجر معًا.
- من الخير أن نذكّر أنفسنا بذٰلك . . .
عند ذاك دقّ الباب فنهض شطا إليه يفتحه فدخل الشبلي يتبعه مأذون الحيّ ونفر من رجال العصابة . . .

١٨

ابتسم الشبلي عن ثنيتين ذهبيّتين وقال:
- جئنا لتنفيذ ما تمّ الاتّفاق عليه!
تراجعت وداد إلى ركن الحجرة وهي تحبك جلبابها حول جسدها متسائلة:
- أيّ اتّفاق؟
ردّد الشبلي عينيه بينهما ثمّ قال بهدوء منذر:
- ها هو المأذون، واختر من الرجال شاهدين.
فغلى دم شطا في عروقه وملكته نشوة كالتي دفعته إلى قبول المهمّة في غرزة المنارة فقال:
- لا اتّفاق بيننا يا معلّم.
فاربدّ وجه الشبلي وتساءل:
- ألا تريد أن تطلّق؟
فقال شطا وهو يفتح صدره على مصراعيه للمجهول:
- كلّا.
فرنا إليه مليًّا بين رجال متوثّبين في صمت يشلّ الخواطر، ثمّ التفت نحو المأذون قائلًا:
- اذهب فلا حاجة بنا إليك . . .
ولمّا أغلق الباب وراءه قال:
- لي طريقتي ولكلّ شيخ طريقة، ولديّ دائمًا ما هو أفتك من القتل!

وتنحّى جانبًا وشطا يتابعه بعينيه أمّا الرجال فاتّجهوا نحوه متحفّزين فصرخ به شطا:

ـ تقدّم أنت يا جبان.

انقضّوا عليه فدارت معركة حامية. كالَ لهم ضربات صادقة وتلقّى ضربات مجنونة. صارع بقوّة وشجاعة ولكن اختلّ توازنه فهوى. ارتمى عليه الرجال فأشبعوه حتّى نزف الدم من بين أسنانه وأنفه. وأوثقوا يديه وقدميه وجلس أثقلهم فوقه. مضى الشبلي نحو وداد وهو يقول مخاطبًا شطا:

ـ فلتر بعينيك عاقبة عنادك!

ـ ستسبقنا إلى الحارة أيضًا.

ثمّ رفعت منكبَيْها استهانة وتساءلت:

ـ أين يتمّ الطلاق؟

فصرخ:

ـ لن أطلّق أبدًا...

فاتّسعت عيناها في ذهول فقال بإصرار:

ـ أبدًا... أبدًا...

ـ وعذاب الآخرين؟!

ـ إنّي ماضٍ إلى مقابلة الديناري ومواجهة المستحيل.

١٩

أخيرًا خلت الحجرة لهما. تحطّمت قوائم الكنبة الوحيدة وتفزّر حشوها وتغطّت الحصيرة بالطين والتراب، وفاحت رائحة العرق. ذهب الرجال مخلّفين روائحهم والجريمة. تكوّمت وداد ممزّقة الملابس وطرح شطا على الأرض ملوّثًا بالدم معذّبًا بالوعي. حجز بينهما صمت وشعور عميق بالحرج. أمّا الحزن والغضب فقد استقرّ في أعماق الروح. وتملّص من الصمت فقال:

ـ لا تحزني، أنت بريئة وطاهرة.

تحجّرت نظرتها أكثر فقال متأسّفًا:

ـ بذلت المستحيل!

تحرّكت من مرقدها. سوّت ثوبها، مضت مترنّحة إلى الدهليز، عادت قابضة على سكّين. تمنّى لو تغمدها في قلبه. راحت تقطع وثاقه. تحرّك متأوّهًا وراح يجفّف دمه بطرف جلبابه. أخذ راحتها بين يديه مغمغمًا:

ـ يا للتعاسة!

فقالت بصوت غريب:

ـ لنذهب.

فقال متوعّدًا:

ـ لأقتلنّه ذات يوم!

ـ قد تُقتل قبل ذلك، فلنذهب...

ـ لا شكّ أنّ الحكاية تتردّد الآن في سوق الدرب.

فقالت بكآبة:

٢٠

غادر شطا الحجري ووداد مسكنهما فيما يشبه الزفّة. أحدق بهما الرجال فتبعوهما حتّى عبرا بوّابة المتولّي مخلّفين وراءهما الدرب الأحمر وذكرياته الدامية. قال شطا:

ـ لم يبق لنا إلّا أن نواجه مصيرنا بشجاعة.

فتمتمت وداد:

ـ من يصدّق أنّنا لم نلبث في الجحيم إلّا خمسة أيّام!

ـ ساعة واحدة كافية إذا حمّ القدر.

ونفخ غاضبًا ثمّ استدرك:

ـ ليت في الوقت متّسعًا للصبر حتّى يزول الورم عن أنفي وشفتي لأرجع إلى الحارة على الحال التي تركتها عليها.

ـ هيهات أن ترجع تلك الحال!

فقال متوعّدًا:

ـ لي رجعة إلى الدرب الأحمر!

ـ فلنفكّر فيما نحن مقبلون عليه...

ـ لن أعرف الجبن والتردّد بعد اليوم...

وقبيل مدخل الحارة بخطوات وشمس الظهيرة تصبّ على الميدان نارًا، رأى طباع الديك يدخّن نارجيلة أمام دكّان النجّار. انقبض صدره، وانقبض أكثر عندما نهض الرجل طارحًا خرطوم النارجيلة على المقعد مقبلًا نحوه في ترحاب ظاهر:

ـ أهلًا، لم تخلق الغربة لنا.

صافحهما ثمّ وقف يردّد عينيه بينهما ثمّ قال:

ـ قلبي معكما، إنّها لمأساة حقًّا!

فتساءل شطا نافد الصبر:

ـ أتنوي الشماتة بنا؟

فقال مستفظعًا:

ـ الشماتة! أنسيت أنّي أعتبر أمّك أمًّا لي؟ أنسيت تزكيتي لك عند المعلّم؟ أنسيت تحذيري لك في الوقت المناسب؟ أنسيت أيضًا أنّني أعتبر الاعتداء على عرضك اعتداء على عرضي أنا؟!

آه... إذن وصلت الحكاية مع أشعّة الشمس!

وهتفت وداد محتدّة:

ـ إنّي شريفة رغم أنف الجاحدين...

فقال طباع الديك:

ـ وجه زوجك يشهد بشجاعته في الدفاع عنك.

فهتف شطا:

ـ لن ينجو المجرم من العقاب.

ـ شهم ابن شهم، ما عليك الآن إلّا أن تنال عفو المعلّم.

ـ هٰذا ما جئت من أجله.

ـ الأمور معقّدة ولٰكن متى كانت الدنيا يسيرة؟ وكلّما ازداد الرجل همّة ازدادت الدنيا له تعقيدًا، ولٰكن لن ينسى أبدًا أنّك كنت السابق إلى قبول المهمّة!

فقال شطا بعصبيّة:

ـ لن يخدعني كلامك المعسول، لقد علّمتني المصائب في أيّام ما لم أتعلّمه في عشرين عامًا، وهيّأتني لمواجهة المصير أيًّا يكون...

ـ عفارم، لا يعيبك إلّا سوء ظنّك بالناس، وشرّ سوء الظنّ ما حاق بالأصدقاء، وكان يجب أن تعلم أنّ الشماتة ليست من شِيَم الفتوّات!

٢١

قال شطا لوداد وهما يمضيان نحو الحارة:

ـ إنّي لا أصدّقه ولا أثق به.

فقالت وداد بعدم اكتراث:

ـ ولا أنا.

وهما يدخلان الحارة همست وداد بخوف لأوّل مرّة:

ـ ما أفظع لقاء الناس.

فقال شطا بتحدٍّ:

ـ ليكن ما يكون.

انتبه لهما قليلون راوحت نظراتهم بين الشماتة والازدراء. همس شطا:

ـ فلنسرع نحو دار المعلّم.

ترامت إلى أذنيهما تعليقات:

ـ الهاربان.

ـ الخائنان.

ـ المهتوكان.

أخيرًا طالعتهما البوّابة العملاقة.

٢٢

ها هو موجود الديناري. ها هو وجهه الذي لا يفصح عن شيء. مثلا أمامه في ذلّ واستسلام. ولّما لم يتكلّم أو يوحِ برغبة في الكلام قال شطا:

ـ ليس في نيّتي الاعتذار، ذنبي أكبر من ذٰلك، ولٰكنّي جئت مسلّمًا نفسي لتقضي بما تشاء...

لزم المعلّم الصمت. ترى أيخفي وراء الصمت غضبًا؟ أم سخرية أم عبثًا؟ ونفد صبر وداد فقالت:

ـ لن نسألك شيئًا لأنفسنا ولٰكنّنا نطلب الرحمة لأهلنا الأبرياء.

لم يتغيّر مظهره ولٰكنّه تساءل بهدوء:

ـ ماذا يشكو أهلكما؟

ـ إنّهم يعانون العقاب الذي استحققناه نحن...

ـ هل تحرّيتم ذٰلك عند أهلكما؟

ـ كانت دارك مقصدنا الأوّل ولٰكنّ ذٰلك ما بلغنا في مهجرنا.

ـ كذب ما بلغكما!

فذهل شطا كما ذهلت وداد أمّا المعلّم فقال:

ـ إنّي فتوّة الحارة وحاميها وليس من مذهبي أن آخذ البريء بالمذنب...

فقال شطا بحماس:

ـ هٰذا هو المأثور عن شهامتك.

ـ ولٰكنّكما صدّقتما ما بلغكما ممّا يقطع بسوء ظنّكما بي...

فتمتم شطا استحياءً:

ـ الغربة أفسدت عقلنا.

ـ ما دام هٰذا التصوّر الخاطئ هو ما دفعكما إلى المجيء فلكما أن ترجعا ولن يتعرّض لكما أحد . . .

فهتف شطا الحجري:

ـ لا حياة لنا إلّا أن تقضي في أمرنا بما أنت قاضٍ.

ـ لا أصدّقك فقد عهدتك تقول قولًا وتفعل نقيضه.

ـ كان الحرص على الشرف وراء كلّ فعل فعلته.

ـ إذن أنت تتّهمني بأنّني أكلّفك بما يناقض الشرف!

فقال شطا بحماس:

ـ معاذ الله يا معلّمي ولكنّك تضنّ عليّ بإدراك مطالبك.

ـ إمّا أنّني عاجز عن التعبير وإمّا أنّك عاجز عن الإدراك.

فقال شطا وهو يعاني مرارة القهر:

ـ أعترف بعجزي ولكن ما حيلتي؟. . .لقد أرسلت إليك من يسألك عن شروطك للعفو عنّي فكان الجواب «قل للأعمى أن يستمرّ»، أستمرّ في ماذا، فكّرت في إصلاح الخطأ فماذا كانت النتيجة؟! . . .

عند ذاك قالت وداد وكأنّما تجيبه عمّا يسأل:

ـ كانت المأساة الدامية والفضيحة التي سبقتنا إلى الحارة.

ـ لعلّكما تتصوّران أنّني المتّهم!

فهتف شطا:

ـ معاذ الله، حسبنا الآن أن نتلقّى حكمك.

فأشار المعلّم إلى وداد وهو يسأل شطا:

ـ ما زالت على ذمّتك؟

ـ اتّخذنا قرارًا بالطلاق والرجوع، ثمّ كان اعتداء الأثيم فأقلعت عن فكرة الطلاق إلى الأبد . . .

ـ وإذا أُمرت بتطليقها؟

فأحنى شطا رأسه صامتًا ويائسًا فقال المعلّم:

ـ في الصمت جواب.

فقال شطا:

ـ إنّي أنحدر من خطإ إلى خطإ، ولن ينتشلني من العذاب إلّا أن تقضي فيّ بما ترى . . .

فقال المعلّم مخاطبًا وداد:

ـ إنّي أقرأ في عينيك فكرة أخرى، ما هي؟

فقالت وداد بجرأة غير متوقّعة:

ـ أن تعفو عنه وأن تعيده إلى جماعتك!

ـ حقًّا إنّك أنسب شريكة لمن كان مثله.

فقالت ثملة بجرأتها:

ـ حسبنا ما ذقنا من عذاب وحسبه ما أبدى من شجاعة.

فالتفت المعلّم نحو شطا متسائلًا:

ـ أهٰذا رأيك أيضًا؟

فقال شطا بانكسار:

ـ إنّي منتظر قضاءك!

ـ يا لك من ماكر.

ـ مثولي بين يديك يقطع بصدقي.

ـ بل أنت تريد أن تتوسّل بالحكم إلى إدراك ما غمض عليك.

فقال مغلوبًا على أمره:

ـ أروم حياة مطمئنّة . . .

أمسك الرجل عن الكلام حتّى تشبّع الصمت باللهفة والأشواق ثمّ قال:

ـ استمرّ!

فتطلّع إليه شطا في حيرة بل في فزع فقال الرجل:

ـ هٰذا هو الحكم، استمرّ . . .

فقال شطا بحرارة:

ـ أريد كلمة واضحة محدّدة.

فقال المعلّم:

ـ لقد أضجرتني فاذهب.

٢٣

مضى بزوجه إلى بدروم عمارة الجبلي. كانت أمّه ـ ستهم الغجريّة ـ في الخارج فجلسا وحيدين. اجتاحته الحيرة والتشاؤم بخلاف وداد التي راحت تقول:

ـ كان بوسعه أن يضربك أو يطردك من الحارة أو يصرّ على طلاقنا، الحقّ أنّه عفا عنّا . . . فتساءل:

ـ ماذا منعه من النطق بالعفو؟

ـ لعلّه عزّ عليه أن ينطق به بعد ما كان منك، ولكن ألا ترى أنّك حرّ، لم ينلك أذى، وأنّك ستواصل الحياة مثل بقيّة الناس؟

ـ لم يتركني حرًّا، أمرني أن أستمرّ، ثبّتني في أعماق الحيرة، لم يطردني من العصابة ولم يُرجعني إليها، لم يعاقبني ولم يعفُ عنّي، لم تندّ عنه كلمة واحدة تدلّ على الرضا ولا على الرفض . . .

فقالت بحرارة:

ـ عش حياتك ولا تشغل بالك بألغاز لا حلّ لها . . .

ـ ولكن كيف؟ ألا يجوز أن أحاسَب فجأة على أنّني «لم أستمرّ»، ما زلت أشعر بأنّني مكلّف بأمر ما، غير أنّني أجهله هٰذه المرّة جهلًا تامًّا . . .

ـ يخيّل إليّ أنّ محور همّك يدور حول إيمانك بجدّيّته المطلقة، أليس هو في النهاية رجلًا يجدّ حينًا ويلهو حينًا آخر؟ أليس من المحتمل أنّه يميل إلى العبث وأنّه وجد فيك مادّة صالحة لعبثه؟ أبعده عن ذهنك وعش حياتك ولن تلقى مكروهًا أبدًا.

ـ لو افترضت به العبث لانقشعت الحيرة من أساسها ولكنّه رجل أقوى من الطاحونة وأدقّ من الساعة.

ثمّ رماها بنظرة مقطّبة وتساءل:

ـ أيرضيك أن ترجعي ما حلّ بنا من شقاء وتضحية إلى اللهو والعبث؟!

***

ولّما رجعت ستهم فرحت بعودته ولكنّها رحّبت بفتور بوداد. وقبل مضيّ يوم راحت تعاتبه على ما جرّ على نفسه من سوء السمعة. والحقّ أنّ أقرانه لم يداروا عنه احتقارهم، وكاد أهل الحارة يقاطعونه مقاطعة كاملة. اضطرّ إلى أن يبحث عن رزقه بعيدًا عن الحارة وتجرّع الغربة وهو بين الأهل والجيران. وتساءلت وداد بمرارة:

ـ متى تُنسى حكايتنا؟

فقال لها:

ـ إنّه عقابه الذي لم يعلنه.

فصرخت:

ـ بل إنّهم أوغاد ولا رحمة في قلوبهم.

فغمغم شطا وكأنّه يهامس نفسه:

ـ استمرّ . . . استمرّ . . . ما معنى هٰذا؟!

٢٤

مضت الحياة بمرّها الكثير وحلوها القليل. ظلّ شطا يسعى خارج الحارة ويعيش فيها بلا صاحب. وقبل أن ينقضي الصيف الثقيل وقع الشبلي فتوّة الدرب الأحمر في خطأ لا يغتفر. راح يتباهى بأنّه اغتصب وداد خطيبة الديناري على مرأى من شطا الحجري «رجله الثاني». ترامت الأنباء إلى الحارة مصحوبة بأغانٍ داعرة صاغت الحادثة في قالب مزاح ساخر. وإذا بالحارة تشهد تعبئة لم تشهدها من قبل. تسلّح الرجال بالنبابيت والخناجر، وشحنت عربات بالزلط والقوارير وخردة الحديد. وانضمّ شطا الحجري إلى الرجال دون أن يُدعى إلى ذٰلك وهو يقول لنفسه «جاء اليوم الذي أحلم به». وكانت غزوة مفاجئة وفي رابعة النهار. نشبت معركة حامية ما زالت ذكرياتها حيّة في رءوس الكهول ودوائر الأمن. وحقّق شطا حلمه فطعن الشبلي طعنة قاتلة متلقّيًا في الوقت ذاته عشرات الضربات القاتلة. وكان من جرّاء ذٰلك أن ثار غضب المحافظة فاتّخذت قرارها الحاسم . . .

٢٥

عندما درجت في مدارج الوعي كانت حكاية الديناري قد انطوت في أعطاف التاريخ ولكنّها كانت ما تزال حيّة في القلوب. لقد قضي على المعلّم بالسجن عشرة أعوام، ولّما أفرج عنه فرضت عليه رقابة دائمة فابتاع مقهى النجف ومارس حياة مواطن كسائر المواطنين. جلس على كرسي الإدارة مجلّلًا بالشيخوخة والمهابة والذكريات الباقية. وقد قُتل شطا الحجري في مواجهة بطوليّة محت العار عن سمعته وكفّرت عن زلّته فنشأ ابنه الوحيد رضوان محوطًا بالاحترام. وقيل إنّ الديناري تكفّل بدفنه فأوّل ذٰلك بأنّه تقدير أخير له وبولغ في التأويل حتّى قيل إنّه اعتُبر رجله الثاني. وقد رأيت بعينيّ وداد وهي امرأة تجاوز الأربعين وكانت

تبيع الخوص والريحان في مواسم زيارة المقابر. وأدركت موجود الديناري وهو يدير النجف وقد مضى عهد الفتوّات والفتونة. اختفى الرجال وبطلت الشعائر فأصبح الرجل في نظر القانون صاحب مقهى وتحت المراقبة الدائمة، ولكنّه ظلّ في نظر العباد فتوّة الحارة وحاميها، حتّى الشرطيّ وشيخ الحارة لم ينجوا من دفقة الشعور العامّ فكانا يختصّانه بالاحترام وحسن المعاملة. أجل زالت عنه تقاليد الفتونة ولكن بقي له السحر الخفيّ الذي لا يبالي بالقوانين والأوامر الإداريّة، بقي له التاريخ والمهابة والأثر الحيّ.

هكذا جذبني مقهى النجف قبل أن أبلغ سنّ الشباب. وكنت أجلس في ركني المنعزل أسترق إليه النظر بشغف المعجبينَ وخيال العاشقينَ.

وكان يتجلّى بهاؤه في الأعياد فكأنّها لم تخلق إلّا له. كان يجلس على الأريكة متلفّعًا بعباءة جديدة، ممشّطًا اللحية والشارب، وتمرّ أمامه عربات الكارو محمّلة بالنساء والرجال والأطفال في أثوابهم الجديدة الملوّنة في هالة رائعة من الطبل والزمر والرقص:

يا فتوّتنا يا ديناري
يا حبيبنا يا ديناري
يا حامينا يا ديناري

ثمّ تدوّي الهتافات والزغاريد، ويثمل العاشقون بكئوس المجد والعشق والحنين العارم إلى النصر.

أُمْشِير

١

المارّون بشارع رأس الحكمة بزيزينيا يجذب أنظارهم القصر الأبيض. عمّ عمارة الجعفري البوّاب يجلس عادة على أريكته أمام الباب الكبير، هادئ النظرة تتحرّك شفتاه الغليظتان بتلاوة غير مسموعة، لا يكاد يرى ما يجري أمامه، ولا يبالي بما يقوم خلفه. والقصر الأبيض قابع بطابقيه بين أشجار دائمة الخضرة تتخلّلها نخلات طويلة رشيقة مغطّاة الجذع بأردية بيضاء. وعندما يدور السَّمَر بين البوّاب والسوّاق والطاهي حول القصر الجميل يثني عمّ عمارة على صاحبه جندي بك الأعور قائلًا إنّ الله يزيده ثراء جزاء ما طُبع عليه من إحسان وخلق كريم، إنّه يردّ تحيّات الفقراء بأحسن منها ويوزّع الزكاة في الأعياد والمواسم. ولٰكن أيّ غمامة تلك التي تنداح في الأفق؟ ماذا يحدث بين الناس الطيّبين؟ أم يخيّل إليه أنّ وراء الستائر المسدلة قلوبًا تردّد أصداء الأمواج الهادرة؟ ويدعو الله مخلصًا «اللّٰهمّ احفظ القصر وأهله، اللّٰهمّ احفظنا».

٢

في ذٰلك الوقت انتقلت جميلة هانم من حجرتها إلى الفراندا الخلفيّة لمقابلة يحيى. جاءت جادّة، حتّى الابتسامة المغتصبة لم تحاول أن ترسمها فوق شفتيها الممتلئتين. واعتبرها يحيى زيارة غير عاديّة إذ إنّ أمّه تجد ما يشغلها من شئون القصر طيلة النهار. جلست على كرسيّ إلى جانبه في الفراندا المشرفة على حديقة الأزهار وحمّام السباحة. وكانت الشمس تفترش الأرض الخضراء المترامية بين الأسوار العالية، ولا نأمة تجيء من شارع رأس الحكمة المزيّن على ضفّتيه بالنخلات العشرين. وكان يحيى يستجمّ قليلًا من المذاكرة، مستسلمًا لدفقات من نسيم الربيع تتلاقى في وجدانه بأنغام موسيقى خفيفة تنبعث من ترانزستر. فأسكت الجهاز مرحّبًا بمقدم أمّه. بدا في البيجاما رشيقًا طويلًا، جامعًا في صفحة وجهه بين عيني أمّه الجميلتين وبناء شعبيّ لأطراف وجهه الغليظ. ورغم رونق الأمّ الذي يُعَدّ فوق ما تتمنّى امرأة في الخمسين فقد تجلّت بها سمات شعبيّة في دسامة يَدَيْها وخشونة نبرتها. وإعرابًا عن حبّه تناول يدها ولثمها وهو يلحظها باهتمام. قالت جميلة هانم:

ـ لم يعد بينك وبين الامتحان النهائيّ إلّا ثلاثة أشهر كان يجب أن تمرّ في هدوء شامل لتتفرّغ لعملك ولٰكنّ الظروف تحتّم عليّ أن أحيطك بما يقع حولنا...

فرنا إليها بعينيه العسليّتين باهتمام متزايد وهو يتمتم:

ـ ليكن خيرًا إن شاء الله.

فقالت بأسف واضح:

ـ إنّه أبعد ما يكون عن ذٰلك...

طالما شعر بأنّ القصر يمضي بلا تاريخ فماذا حدث؟ أمّا الأمّ فقالت:

ـ لا أريد أن تباغتك الحوادث، تقرّر أن يغادر محروس ابن البك القصر هو وأسرته!

تردّد الكلام في مسمعيه أوّل الأمر بلا معنى.

وسرعان ما لاح الانزعاج في عينيه. وتبيّن له أنّ منظر أمّه ينذر بشرّ غير محدود. تمتم واجمًا:

ـ إنّه لغز ولٰكن له تفسير ولا شكّ.

ـ كأنّه نوّة من نوّات البحر، إنّي آسفة . . .

ـ ما معنى تقرّر؟ . . . مَن صاحب القرار؟

ـ صاحبه واحد، مَن غيره؟ تقرّر طرد محروس وأسرته . . .

تجهّم وجه يحيى. تذكّر النفور الدائم بين أمّه وحرم محروس، هل لعب النفور دورًا في تخطيط هٰذه النهاية الأليمة غير المتوقّعة؟ وقال بحذر:

ـ محروس بك هو الابن الوحيد لجندي بك فكيف هان عليه أن يطرده هو وأسرته من قصره؟

أجابت جميلة هانم بحزن شديد:

ـ ثمّة جريمة شنعاء!

ـ جريمة؟!

قالت وصوتها يتهدّج:

ـ تصوّر يا يحيى، لقد دبّر الابن جريمة خفيّة لقتل أبيه!

تصلّب عود يحيى من الانزعاج والذهول، تفكّر في معنى ما يلقى إلى سمعه، تأمّله مليًّا برعب، ثمّ تجلّت لمخيّلته صورة وداد الجميلة المستقرّة في أعماق قلبه. ما أكذب الربيع الساطع! إنّه يسخر من أحلامه العذبة ويعصف بطمأنينته الراسخة. وتمتمت المرأة وكأنّما تقرأ أفكاره الدفينة:

ـ الأمر محزن جدًّا، وهناك حزن آخر من أجلك أنت.

وراح يقول وكأنّما يحادث نفسه:

ـ جريمة خفيّة، من يصدّق هٰذا؟ ولٰكن كيف؟

ـ إنّه الشيطان، أجل لم ينعم الجوّ بالصفاء بين الأب وابنه، ولٰكنّ الأب رجل عاقل وكريم، لم يضنّ أبدًا على ابنه بخير، وكان محروس يعيش في القصر وكأنّه صاحبه، هو وزوجته وابنته، ثمّ يحاول شراء الطاهي ليدسّ السمّ لأبيه؟!

ـ أيّ غباء وأيّ جنون!

ـ طوى الطاهي السرّ في صدره، أجل إنّه صنيعة محروس. ومحروس الذي جاء به منذ سنوات ولٰكنّه إنسان أمين فجاءني وأفضى إليّ بسرّه!

ـ أنتِ؟!

ـ نعم، إنّه يتعامل معي يوميًّا . . .

ـ وأنتِ التي أبلغت عمّي؟

ـ ذهبت به إلى البك . . .

ـ الأمر يتطلّب تحقيقًا عادلًا!

ـ عمّك ثار وأوشك أن يبلغ الأمر للنيابة لولا توسّلاتي إليه أن يفكّر في هدوء وأن يتجنّب الفضيحة . . .

ـ ربّما أسفر التحقيق عن لا شيء؟

فقالت بأسًى:

ـ عندما ووجه محروس بالتهمة لم يدرِ كيف يدافع عن نفسه . . . كأنّما كان يعترف . . .

تنهّد يحيى وتمتم:

ـ محروس في الأربعين، زوج وأب، لا ينقصه شيء، كيف اشترى جريمة بالنعيم والأمل؟

ـ إنّه الشيطان، ومَن يدري؟ العمل يبدو جنونًا لا معنى له، والحمد لله أنّ عمّك اكتفى بطرده وحرمانه . . .

بعيدٌ أن يكون الرجل بريئًا. لقد خسر بجنونه كلّ شيء. ضاع تمامًا. وتذكّر مرّة أخرى وداد كريمة المتّهم. لقد طرد معهم بمعنى من المعاني. أمّه ولا شكّ تدرك ذٰلك تمامًا. أيضًا زوج أمّه جندي بك الأعور. كم من متاعب ترصده في هٰذه الأيّام الصفراء! ها هي أمّه تقول:

ـ إنّي آسفة جدًّا يا يحيى.

ـ لٰكن كيف تواجه الأسرة المطرودة الحياة؟

فقالت بعتاب:

ـ يجب أن ترثي أوّلًا لعمّك!

ـ بلا شكّ، ولٰكنّ سؤالي له وجاهته أيضًا!

فقالت وهي لا تخفي امتعاضها:

ـ لا بدّ من فترة انتظار حتّى تنحسر عواصف الانفعال، في نيّتي بعد ذٰلك أن أرجو عمّك أن يهب الرجل وأسرته عمارة من عماراته حتّى لا يدفعه اليأس إلى الجنون!

فقال يحيى مستردًّا بعض أنفاسه:

ـ فكرة طيّبة . . .

وطوال الوقت فكّر في وداد، وبدا أنّ أمّه تشاركه خواطره، وقد قالت بصراحة:

ـ إنّي حزينة من أجلك يا يحيى.

فقال بوضوح:

ـ إنّي أحبّ وداد، وهي تحبّني، لن يفرّق بيننا شيء!

فقالت بإشفاق:

ـ عليك أن تتذكّر عمّك، إنّه في الواقع أبوك . . .

فقال بمرارة:

ـ أعلم أنّني بفضله أنعم بالحياة في هٰذا القصر على حين أنّ أبي الحقيقيّ لا يدري عنّي شيئًا كما أنّني لا أدري عنه شيئًا، وأعلم أيضًا أنّه كان من الممكن أن يعاملني كغريب، كابن زوجته من رجل آخر، ولٰكنّه عاملني كابنه . . .

فقاطعته بحماس:

ـ بل عاملك خيرًا من ابنه، وأحبّك أكثر منه، حتّى قَبْل الجريمة . . .

ـ أسلّم بهٰذا، ولٰكنّني أحبّ وداد أيضًا، وهي بريئة من ناحية وحفيدته من ناحية أخرى . . .

وَسّدت راحتها منكبه وقالت:

ـ إنّي أطالبك بالحكمة، وأتمنّى لك السعادة . . .

ـ أنت لم تحبّي محروس ولا زوجته ولكنّ وداد فتاة ممتازة . . .

ـ رأيك هو المهمّ، ولٰكن عليك أن تنتظر فترة ثمّ لك بعد ذٰلك أن تفضي بنواياك إلى عمّك . . .

يبدو أنّ المهمّة لن تكون سهلة، وأنّه ربّما اضطرّ إلى المقامرة بمنزلته عند الرجل. وهو لا يتعذّر عليه النفاذ إلى أفكار أمّه الخلفيّة، ولٰكنّه قال متظاهرًا بالبراءة:

ـ سوف أتحيّن فرصة مناسبة . . .

ـ ورجائي ألّا تثير غضبه . . .

فقال بضيق:

ـ إنّي حريص على رضاه ولٰكنّي لن أفرّط في وداد . . .

فقالت بصوت منخفض:

ـ تخيّل ما يعدك به المستقبل!

لم يرتح لقولها. ورغم ثقته فيها تساءل عن الدور الذي لعبته في هٰذه القضيّة. شدّ ما تفزعه الوساوس. وقد كان دائمًا يؤاخذ هٰذا القصر على تقديسه للمال. إنّه لا ينكر أهمّيّة المال ولٰكنّه يكره أن يُنصّب هدفًا أعلى للإنسان. لا حديث لأهل القصر سوى النقود والسلع. وقد دفعته تلك التقاليد إلى الالتحاق بكلّيّة التجارة، كما دفعت وداد بعده. ومن أجل ذٰلك المعبود حرص الابن على قتل أبيه، وها هي أمّه تتوثّب لاستغلال الموقف الجديد لصالحه. قال برجاء:

ـ لا تحدّثيني بما يثير اشمئزازي . . .

فقالت باسمة:

ـ لا أحد يحبّ الفقر.

هزّ منكبيه صامتًا. أدرك بوضوح أنّ المتاعب الجديدة لن تعفي أحدًا من آثارها . . .

٣

الشاطئ ما زال خاليًا. الرياح معتدلة مشبعة ببرودة ودودة آمنة. وفي أحضان العذوبة المنتشرة تراقصت الأمواج في رشاقة. لم يكن في كازينو جليم سوى العشّاق. جلس يحيى ووداد في طرف الكازينو المطلّ على الخليج قبل الغروب بساعة. أوّل مرّة ذٰلك العام غيّرت وداد ملابس الشتاء فتجلّى عودها الرشيق تحت البلوزة البيضاء الثريّة والبنطلون الرماديّ. جميلة ببشرتها القمحيّة وعينيها السوداوين وشفتيها المضمومتين، ولٰكنّها جادّة واجمة. لم تجمع بينهما جلسة كئيبة كهٰذه الجلسة من قبل. اختفى من عينيها المرح والدلال كما اختفت من عينيه الأشواق. جلسا جنبًا لجنب وراء الترابيزة ينظران إلى البحر المنفسح بعينين لا تريان شيئًا. وكانت تقول:

ـ أقمنا في شقّة مفروشة، حياة لا يمكن أن تستمرّ طويلًا، لا ندري شيئًا عمّا يخبّئه لنا الغد . . .

فانغمس في الشجن وهو يقول:

ـ لٰكنّ والدك اكتسب خبرة في الأعمال عندما كان يعمل في مكتب والده.

ـ لا أعتقد أنّه يتوفّر له اليوم رأس مال كافٍ، ثمّ إنّ التهمة الظالمة ستطارده طويلًا . . .

تنهّد قائلًا:

ـ حتّى الآن لا أصدّق ما وقع...

فقالت بإصرار:

ـ أبي ينكره وأنا أصدّقه...

ـ فما الحقيقة إذن؟

ـ لعلّه سوء تفاهم استُغِلَّ أسوأ استغلال...

شعر بأنّ ثمّة اتّهامًا يحوم حول أمّه مثل ذبابة فضاق صدره ولكنّه قال:

ـ أيكفي ذلك لاختلاق جريمة تفرّق بين الأب وابنه الوحيد!

فقالت بامتعاض:

ـ المصائب تفوق الخيال...

وصمتا قليلاً في حزن بالغ حتّى قال يحيى:

ـ إذا كان للموضوع حقيقة خفيّة فلن تغيب طويلًا، وسوف يوجد للموقف العسير حلّ، أمّا نحن فعلينا أن نركّز في الواقع الذي يتحدّانا...

فلم تدرِ ما تقول فواصل حديثه:

ـ ما بين يوم وليلة أصبح تلاقينا لا يتمّ إلّا سرًّا، كأنّنا غريبان، هذا هو الواقع الذي علينا أن نتعاون على تحطيمه...

ـ ولكنّني لا أستطيع أن أنزع نفسي من مشكلتنا القائمة...

ـ المأساة مأساتنا معًا، سنفكّر طويلًا، لن نتركها ولن تتركنا، ولكن علينا قبل ذلك أن نتّفق على الدفاع عن حبّنا حتّى الموت!

فقالت بصدق:

ـ حبّنا في حرز حصين، لسنا أطفالًا، ثمّ إنّك ستختتم دراستك بعد ثلاثة أشهر وسوف ألحق بك بعد عامين، ولكن كيف نعيش في هذا الجوّ الخانق؟!

ـ إنّه يُظِلُّ القصرَ أيضًا، لا أحد يبتسم، وهو يهدّد حبّنا...

ـ لسنا أطفالًا... ولنَدَعْ للزمن فرصته...

ـ أودّ أن نسبق الزمن، أجل يجب أن أنتظر مهلة ولكن لا مفرّ من مواجهة جدّك، وعليك أنت أن تتصدّي بشجاعة لأيّ عدوان يجيء من ناحية محروس بك أو شريفة هانم، ثمّ إنّني في النهاية شخص غريب ليس إلّا ابن زوجة جدّك...

فقالت بإشفاق:

ـ إنّك معدود ابنًا له!

ـ لا أنكر ذلك ولكنّي لن أتخلّى عنكِ أبدًا.

قرّر أن يخفّف عن أعصابها بشرب الكوكاكولا. مضى يراجع ما انتهى إليه فوجده طيّبًا لا بأس به، ثمّ قال متماديًا في نشدان الأمان:

ـ وداد، اعتدنا المصارحة دائمًا، هل ساءك ضياع الثروة المتوقّع؟

فتفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

ـ يشغلني الآن همّ أسرتي...

ـ لم تجيبي على سؤالي.

ـ الثروة نعمة، وحياتها عادة، لا أدري كيف أتخلّص منها... ماذا عندك أنت؟!

ـ أنا أيضًا اعتدت مستوى لا تؤهّلني له حقيقة أصلي، ومذ أدركت أنّي شخص فقير هيّأت نفسي للحياة البسيطة...

ـ زدني إيضاحًا.

ـ وداد، لم أرتح أبدًا لولع أمّي وعمّي بالمال.

ـ ممكن أن نحبّه دون أن نعبده...

فهزّ رأسه في حزن ولاذ بالصمت فقالت بنبرة دعابة لم تخلُ من فتور:

ـ أعلم أنّك تحبّ سماع الموسيقى أكثر من اقتناء ثروة.

ـ أتسخرين منّي؟

ـ كلّا، ولكن تردّد في بيتنا الحزين أنّ الخطوة التالية المتوقّعة من جدّي هي أن يملّكك ثروته بطريقة قانونيّة!

شعر للمرّة الثانية بالاتّهام الحائم حول أمّه فقال بشيء من الحدّة:

ـ لو خُيِّرت بين ثروته وبينك فلن أتردّد في الاختيار...

فقالت بأسف:

ـ ستكون حياتنا متواضعة جدًّا...

فقال بعتاب:

ـ سيعوّضنا الحبّ عن كلّ شيء!

فابتسمت ابتسامة خفيفة، وكان قرص الشمس يهبط وديعًا أليفًا في الشفق وقد استلّت منه روح الشباب الفاتر...

٤

تلقّى من أمّه خبرًا بأنّ عمّه يدعوه إلى مقابلته في الحديقة. قالت له بحرارة:

ـ تذكّر أنّه أبوك، وتذكّر أنّه لم يبقَ على امتحانك النهائيّ إلّا ثلاثة أشهر، وأنّك يجب أن تحافظ على صفاء ذهنك...

مضى إلى الرجل الذي عاش طفولته وصباه وهو يؤمن بأنّه أبوه، ويحبّه ـ وما زال ـ مثل أمّه. لم يعرف الحقيقة إلّا عندما اطّلع على شهادة ميلاده لأوّل مرّة، عندما نودِيَ في المدرسة باسم يحيى عويس الدغل لا يحيى جندي الأعور. عند ذاك عرف أنّه ابن رجل آخر لم يره، يدعى عويس الدغل، طلّق أمّه وهو طفل ثمّ هجرهما إلى حيث لا يدري. ولولا مجيء جندي الأعور وزواجه من أمّه واحتضانه له لتعرّض لمصير مجهول لا خير فيه. كانت لطمة أليمة ولا شكّ ولكنّ رعاية الرجل له أنسته ألمه وانكساره. وقد شبّ وعاش في النعيم كأنّه ابن الرجل الطيّب. فعليه أن يتذكّر ذلك التاريخ الذي لا يُنسى، كما يتذكّر حبّه.

وجد البك جالسًا في الدائرة الخضراء كما يحلو له أن يدعوها. هي ربوة مستديرة خضراء السفح، مسقوفة بمظلّة من الخشب الأبيض على هيئة قبّعة تتدلّى منها المصابيح وضفائر اللبلاب. جلس على أريكة وثيرة في جلباب أبيض، وضيء الصلعة، بين يديه فوق الخوان قارورة ويسكي وجردل أحمر مليء بمربّعات الثلج، وطبق فستق مقشّر. ربعة بدين ذو كرش جسيمة، بيضاويّ الوجه لحيمه، قويّ الفكّ غائر العينين، في أنفه فطس، ذو شارب غليظ لم تشب فيه شعرة واحدة رغم بلوغه الستّين. حيّاه الفتى وجلس ـ كما أشار إليه ـ في قبالته. النسمة رائقة، وحفيف الغصون يبعث هسيسًا هامسًا، والأرض تضحك بألوان الأزهار، وشذا الربيع يفوح مسكرًا. قال يحيى لنفسه إنّ الجوّ يسخر منهم ويعلن لامبالاته بأحزانهم. قال الرجل وكان لا يعرف اللفّ والدوران:

ـ ثمّة حديث ما عاد يجوز تأجيله يا يحيى...

فاعتدل يحيى في جلسته استعدادًا فقال جندي الأعور:

ـ ما حصل قد حصل لا حيلة لنا فيه.

فتمتم يحيى:

ـ ربّنا معك...

ـ ما زلت آسفًا على أنّني لم أسلّمه ليد العدالة.

ـ تصرّفت معه بما يتوافق مع خلقك الكريم.

فصبّ في الكأس جديدًا من الويسكي وقال:

ـ لم تكن الجريمة مفاجأة بالمعنى الحقيقيّ لهذه الكلمة، فهو لم يضمر لي حبًّا ولا خيرًا، وعلى العكس كنت دائمًا حذرًا من ناحيته، دائمًا أتوقّع ما لا يُسِرّ، ولا جدوى من حسن المعاملة مع أمثاله بل لعلّها زادته شرًّا، إنّه الشرّير الحقود، وكم من مرّة أضبطه متلبّسًا بسرقة المكتب وأعفو، ماذا ينقصه؟ إنّه عاش في بيتي عيشة الملوك، ولعب بالقرش لعبًا، لكنّه فاسق قذر ومقامر مجنون...

غشيته كآبة من مدخل الحديث فتنبّأ له بنهاية غاية في السوء أمّا الرجل فقال بقوّة ووضوح:

ـ وشدّ ما حقد عليك كأنّما تقاسمه لقمته، وشدّ ما طالب بطردك من القصر!

كان يشعر دائمًا بفتور عواطف الرجل نحوه، وزوجته أيضًا كرهًا في أمّه، ولكنّ حبّه لوداد جرف النفايات من مجرى حياته، أيضًا لم يتصوّر أنّ النفور يتمادى لحدّ المطالبة بطرده. غير أنّ ما كان يهمّه حقًّا فهو الحبّ وحمايته من إعصار الموقف الهائج. وصمت جندي الأعور حتّى تستقرّ كلماته في أعماقه ثمّ واصل حديثه:

ـ له بطانة من السَّفَلة والعاهرات، وقد بلغ الخامسة والأربعين دون أن ينال ذرّة من الرشد.

لاحت الدهشة في وجه يحيى... تكشّفت له أسرار بشعة لم تجرِ له في خاطر. واستحضر صورة زوجته الجميلة فازداد دهشة. ما وداد إلّا صورة جديدة من أمّها فكيف هان على محروس بك أن يخونها؟! وقال جندي الأعور بتقزّز:

- زوجته لا تجهل مغامراته.

فتمتم الشابّ في انزعاج:

- هٰكذا؟

- ولم تسكت المرأة الجريئة فردّت الصفعة بأقذر منها!

لاح التساؤل في عينَي يحيى فقال جندي الأعور:

- انحرفت دون مبالاة متشجّعة على ذٰلك بأصل قذر!

- لٰكن... لٰكن...

فقاطعه:

- لا تكن ساذجًا يا يحيى، لقد انحرفت، وقد كانت في الأصل عاهرة محترفة!

اصفرّ وجهه وهتف بصوت متهدّج:

- لا...

فضحك جندي الأعور وقال:

- براءتك مذهلة، مثل أزهار هٰذه الحديقة، ولٰكن آن لك أن تفيق، المرأة كانت محترفة، وقد تزوّج منها على رغمي مدّعيًا أنّه يفعل خيرًا يستحقّ عليه الثواب، لم تكن إلّا شهوة عمياء ينزّ بها ثور، وقد رجع إلى فسقه وأرجعها إليه...

أحنى يحيى رأسه في غاية من الغمّ فقال الرجل:

- حاولت الإصلاح فلم أوفّق، هدّدته وهدّدتها، انتهى الحال بإنذاره بالطرد والحرمان فكان ردّه السعي لاغتيالي...

تنهّد يحيى أو تنفّس بصعوبة فمضى الرجل قائلًا:

- لا شكّ عندي في أنّها شريكته، إنّها داهية بقدر ما هو غبيّ.

امتلأ الجوّ بالغبار فلم تبق ثغرة لكلمة طيّبة غير أنّ جندي الأعور قال:

- أمّك تلحّ عليّ في أن أهبه عمارة دفعًا للمزيد من شرّه ولٰكنّي ما زلت متردّدًا...

عند ذاك قال يحيى بشجاعة:

- أعتقد أنّه اقتراح حكيم، فهناك أيضًا حفيدتك وهي بريئة.

فقال بازدراء:

- لا أصدّق أن تخرج نبتة طاهرة من مستنقع قذر...

فقال يحيى مستميتًا في الدفاع:

- لٰكنّي أعرفها حقّ المعرفة...

فقال ساخرًا:

- أنت لا تعرف شيئًا، لذٰلك رأيت أنّ الواجب يطالبني بإزاحة الستار عمّا لم تعلم خاصّة وأنّه لم يبق لي سواك!

فتمتم وهو غائب تمامًا:

- شكرًا لك يا أبي...

أدرك أنّه مقبل على أيّام محنة وبلاء. أدرك أيضًا أنّ الوقت غير مناسب للمواجهة. لا بأس من الانتظار ولو أنّه لا توجد بارقة أمل في السماء المكفهرّة.

٥

بقي على الامتحان شهران ونصف. من أين له العقل الذي يستوعب به دروسه؟ حتّى الموسيقى لم يعد يتذوّقها، وهو كمحبّ ثابت ولٰكنّ موقفه حرج. وعندما سألته أمّه عمّا دار بينه وبين عمّه أجاب إجابة عامّة موجزة دون إشارة إلى ما قيل عن وداد وأمّها. فعل ذٰلك وهو لا يشكّ في إحاطتها بما قيل كلمة كلمة. وإيمانه بنقاء وداد لا يمكن أن يتزعزع، والأهمّ من ذٰلك فهو يحبّها حبًّا لا تنال منه الاتّهامات فضلًا عن الشكوك. في عالم النساء الساحر لا يخفق قلبه بحبّ سوى حبّها، فهي مصدر الإشعاع والعذوبة في دنياه. ومن أجلها سيوجّه الضربة الأخيرة لذٰلك القصر المزهوّ برشاقته.

وذات يوم قالت له وداد:

- لديّ رسالة إليك، أبي يرغب في مقابلتك...

وسمّت له اليوم والساعة في المسكن الجديد بشارع أبي قير. وافق بلا تردّد. لو تردّد دقيقة لخسر وداد إلى الأبد. إذا علم عمّه بالزيارة فستحدث أمور ولا شكّ. إنّ القدر يقتلع جذوره المغروسة في جنّة رأس الحكمة جذرًا بعد جذر، وهو يمضي نحو المأساة بكامل إرادته ووعيه. مَن هو حتّى يحاكم جندي بك الأعور أو زوجته شريفة هانم الدهل؟ إنّه رغم البراءة لا يخلو من أخطاء وعبث. ولا ينسى آراء أقرانه فيه، فهم

يرونه من أولاد الذوات المدلّلين، لا همّ له إلّا أناقته وسماع الموسيقى. منطوٍ أنانيّ لا لون له، غير مبالٍ بالتيّارات التي يسبحون فيها ويعانون من أجلها ما يعانون. فمن هو حتّى يحاكم جندي بك أو شريفة هانم؟! ووجد الرجل في انتظاره. رجل قصير قويّ صغير الرأس غزير الشعر والشارب كبير الأنف جاحظ العينين. رحّب به، ابتسم له كما لم يفعل من قبل، ولكنّه لم يشكّ في أنّ مقته قد تضاعف. ترى ماذا يريد منه؟ أيّ شرك يحفره تحت قدميه؟ ليكن ما يكون ما دامت وداد له. كان الوقت صباح الجمعة. مضى أوّله في احتساء القهوة وتلقّى نظرات محروس المتفرّسة. أخيرًا قال الرجل:

- ستسمع في القصر حكايات مثل حكايات ألف ليلة فلا تصدّق ما يقال، الرجل مجنون.

فقال يحيى بنبرة متوتّرة:

- لقد اختلط ما يصدّق بما لا يصدّق ودار رأسي...

- إنّه الحقد والجنون...

- لكنّه أبوك...

- ما خفي عنك أنّه مجنون!

- سيّدي، إنّه رجل استثمار وربّ أسرة ومحسن كبير...

- لا تغرّك المظاهر، إنّه الإدمان والشذوذ والجنون، يوجد آخرون يعلمون بالحقائق ولكنّهم يتجاهلونها لاستغلاله أسوأ استغلال...

لعلّه يشير إلى أمّه. حقًّا قد طفحت القلوب بالحقد. وقال رغم امتعاضه:

- ليس مستحيلًا أن تنتهي الأمور إلى خير.

- هيهات، لقد حيكت مؤامرة بمهارة خبيثة فتهوّلت في خيال رجل مجنون ملئت أذناه بالأكاذيب المتواصلة مثل دقّات الساعة!

إشارة أخرى إلى أمّه. حتّى متى يتحمّل ويتصبّر؟! وتساءل:

- ألا تستطيع أن تُظهر الحقّ؟

- فات الوقت، كيف تطالبني بالتفاهم مع مجنون؟!

وفرقع بأصابعه ثمّ تساءل:

- من هو جندي الأعور؟!

وبرقت عيناه بوحشيّة ثمّ تطوّع بالإجابة:

- ستقول إنّه صاحب المكتب التجاريّ المعروف، ورجل الخير والإحسان، أمّا المدمن الشاذّ المجنون فلا يعرفه إلّا خاصّته المنافقون، ولا أهمّيّة لذلك بالقياس إلى الحقيقة وهي أنّه لصّ رسميّ من أرباب السوابق والسجون.

وتضاحك هازئًا ثمّ سأله:

- ماذا قال لك عنّا؟

أجاب يحيى بلا تردّد:

- لا شيء...

- هل تُصدِقني القول؟

- أجل.

- سيفتري الأكاذيب عاجلًا أو آجلًا ولكنّي سأروي لك قصّته...

تساءل يحيى متضايقًا:

- ما جدوى ذلك؟

فابتسم إليه ابتسامة صفراء وقال:

- إنّها قصّتك أيضًا وقصّة والدتك!

خفق قلبه ناشرًا توقّعات مبهمة ومقلقة فواصل الآخر حديثه:

- إنّه تاريخ لا بدّ أن يعرف، لوجه الحقيقة والاعتبار، ولكي يتعرّى جندي الأعور كما ينبغي له، وعند ذاك تعرف مَن أنت، الحقيقة أنّ جندي الأعور سرق أباك الحقيقيّ، لم يسرق ماله فقط ولكنّه سرق أيضًا زوجته...

هتف مستنكرًا:

- أمّي...

- نعم، صبرك، بدأت الحكاية بتزامل أبي وأبيك في السجن!

- لا!

بدرت منه في حدّة فقال بهدوء:

- صدّقني، ما أقول إلّا الحقيقة، إن يكن ثمّة عار فهو لاحق كلينا، لقد تزامل أبي جندي الأعور وأبوك عويس الدغل في السجن، تزاملا عامينِ فقد دخل أبوك السجن حينما لم يبق من مدّة أبي فيه إلّا عامان،

وقد دخلاه بتهمة واحدة على وجه التقريب. كانت تهمة سرقة بالإكراه وتهمة أبيك السرقة للمرّة الثالثة. . .

ارتعشت يدا يحيى من شدّة الانفعال فصمت الآخر قليلًا ثمّ قال:

ـ إنّي آسف، أرجو أن تتمالك نفسك، لا مفرّ من الكشف عن الحقيقة مهما تكن بشعة مرّة، أقول لقد تزاملا في العامين واطّلع كلّ منهما على كثير من أسرار الآخر، وصارا بذلك صديقين، عرف أبوك أبي أرمل وأنّه ترك وراءه في الحارة شابًّا ضائعًا هو أنا، وعرف أبي أنّ أباك ترك زوجة ورضيعًا هو أنت. . .

رغم غضبه واحتجاجه شعر بأنّ الحكاية لا يمكن أن تكون محض خيال، فما من واقعة ذكرت إلّا ويمكن التثبّت من صدقها، ترى ماذا هناك أيضًا؟

ـ عرف أبي أنّ أباك سرق امرأة تدعى دليلة الفقي جعلت من مسكنها بنك رهونات، سرق الذهب كلّه، وادّعى في التحقيق أنّه فقده، ولم توفّق الشرطة في العثور عليه، ولّما غادر جندي الأعور السجن رجع إلى حارة التكيّة وهي أصلنا جميعًا، رجع في رأسه خطّة. . .

بلغ يحيى نهاية في اليأس والقهر ولٰكنّه أصغى إلى محدّثه ومعذّبه بكلّ جوارحه فاستمرّ الرجل وهو يبتسم ابتسامة ظفر:

ـ أمّك جميلة وكانت وقتذاك أجمل بالشباب، وكانت تكدح لتطعمك في ظروف سيّئة، فزارها أبي باعتباره صديقًا لزوجها، ورهن نفسه لخدمتها، وكنت أراقبه على كره منه إذ كنّا دائمًا نتبادل سوء الظنّ والنفور وكان أيضًا يخشى جانبي، وما تدري الحارة إلّا وأمّك تطالب في حقّها من الطلاق من أبيك، ثمّ تتزوّج من أبي، ويقرّران هجر الحارة غير أنّه اضطرّ إلى اصطحابي معه خوفًا منّي!

سكت ليشرب قليلًا من الماء على حين انتظر الآخر في كآبة وحزن، وقد شعر نحوه بمقت لم يشعر بمثله لإنسان من قبل. واستطرد محروس:

ـ سافرنا إلى الإسكندريّة، ومضى أبي يبيع الذهب ويستثمر المال، وفي الحال أدركت أنّه استولى على الكنز المسروق بإرشاد زوجته، ومضى يعمل ويثري، وشيّد القصر وابتنى العمارات، وتنكّر في صورة جديدة تناسب حياته الجديدة، بل عرف بالخير والإحسان، بفضل السرقة والغدر والخيانة، بفضل ثروة أبيك، وهي ثروتك إذا شئت، التي أدّى أبوك ثمنها أعوامًا طويلة في السجن من عمره. . .

نفخ يحيى غيظًا وقهرًا. آمن بأنّ حياته كانت سرابًا وأنّه لم يبق منها ولا قبضة من تراب.

وضرب محروس الخوان براحته وقال:

ـ الحكاية قديمة أفلتت من قبضة القانون، ولٰكنّها الحقيقة. إنّه لا يحبّك كما تتوهّم، إنّه لا يحبّ أحدًا، لقد كره ابنه الحقيقيّ فماذا تنتظر؟ وأنت صاحب الثروة والمذكّر الدائم له بماضيه. . .

وسكت دقيقة طويلة ثقيلة ثمّ تساءل:

ـ ما رأيك في الحكاية؟

فقال يحيى بجفاء:

ـ فظيعة لا تصدّق. . .

ـ ألم تصدّقني؟

ـ لا أدري ماذا أقول.

ـ لٰكنّ اليقين عند والدتك.

صمت قهرًا ويأسًا. أدرك مرماه الجهنّميّ. إنّه ما استدعاه إلّا ليعطيه الفتيل الذي يفجّر به حياته وأهله. ولكن هل ثمّة مهرب؟!

٦

خلا إلى نفسه في حجرة مكتبه بحجّة الاستعداد للامتحان ولٰكنّه غرق في همومه حتّى قمّة رأسه. إنّه يتساءل دائمًا ماذا عليه أن يفعل. ويرى أنّه يجب أن يبدأ من الصفر ولو تهاوى الحلم القديم فوق رأسه. كلّ شيء يدعو إلى التقزّز وقد تحوّل إلى دودة ترتع في الزبالة. وبدا أنّه لم يحسن إخفاء ما يعتلج في نفسه كما وضح له ذٰلك من نظرات عمّه وأمّه عندما تجمعهم المائدة. وإذا بأمّه تسعى إليه في خلوته. إنّه يراها بعين جديدة. يرمق جمالها بأسًى، يستشفّ وراء ربّة القصر المرأة الكادحة المدعوّة جميلة الأسطى. المرأة الخائنة. أجل إنّها تزهو بالطول والعرض ولٰكنّها محشوّة بالقشّ.

قالت بحنان:

- لا شكّ أنّك حزين، ولذلك فإنّني يائسة...

ولم ينبس. سحقًا لكافّة أكاذيب الحياة. قالت بإشفاق:

- لا شكّ على أنّ عمّك أطلعك على حقائق مرّة...

هانت بالقياس إلى حقائق أخرى. قطّب مصرًّا على الصمت فقالت:

- كلّما أدركت مدى ألمك حزّ في نفسي الألم، ولا شكّ أنّ احتمال فَقْد وداد احتمال أليم ولكنّه لا يقاس بالكارثة التي عصفت بعمّك...

فقال بجفاء:

- لا أوافقك على ذلك...

- يحيى... تصوّر الأمر بعين عادلة...

فقال متخطّيًا حاجز التحفّظ:

- ليس هذا بكلّ شيء...

فلاحت في عينيها نظرة تساؤل فقال متراجعًا:

- سوف يضيع العام الدراسيّ هدرًا!

فهتفت في جزع:

- كان يجب أن تظلّ بمنأى عن همومنا...

- ما كان كان.

فتنهّدت وقالت:

- لقد سمعت كلامًا، وربّما سمعت أكثر، تعلّم كيف لا تكترث...

- كيف؟

- يحيى، تذكّر ما تحوزه من فرص، إنّك نجم هذا القصر، سيؤول إليك كلّ شيء فيه، أمامك حياة طويلة عريضة ثريّة، كلّ أولئك أشياء حقيقيّة، أمّا ما يقال فما هو إلّا كلام لا يجوز أن يؤثّر في الأشياء الحقيقيّة، ووداد نفسها بنت جميلة ولكن كم من جميلة تفوقها في الإسكندريّة...

فتساءل في سخرية:

- والحبّ أليس له اعتبار عندك؟

- ما قيمته إذا ضيّع فرص الحياة السعيدة؟

فرغمًا عنه قال:

- لكنّه قوّة، بسببها ينتحر أناس ويقتل آخرون ويغدرون...

فوجمت قليلًا ثمّ تمتمت:

- العاقل لا يحرص عليه إلّا إذا آمن بأنّه طريقه إلى السعادة...

إنّه يحوم حولها ولكنّه يشفق من الانقضاض عليها. أجل إنّها تستوي أمام ناظرَيْه امرأة ولكنّ وجدانه ما زال ممتلئًا بها كأمّ. يهمّ بتوجيه ضربة ولكنّه يتوقّع أن ترتدّ إلى صميم قلبه. ما كان يتصوّر أن يصدّق كلمة ممّا قال محروس ولكنّه تلقّى كلامه في وقت تزعزع فيه كلّ قائم. تلقّاه بعد أن شهد الابن ساعيًا لقتل أبيه، والأب طاردًا ابنه وملوّثًا حرماته، فأيّ شيء لا يصدّق؟ وإذا بها تقول وهي تتفرّس في وجهه:

- إنّك لا تفتح قلبك لي...

فلم يحر جوابًا فقالت:

- لقد حدّثك عن محروس؟

- أنت تعرفين ذلك...

- وحدّثك عن شريفة أيضًا؟

- هل افترى عليها كذبًا؟

فقالت بصوت متهدّج:

- ما أبشع الصدق أحيانًا!

فقال بتحدٍّ:

- كثيرًا ما يكون كذلك.

- ولكنّنا يجب أن نقدّس الحياة الموهوبة لنا!

- ولكنّها تتمخّض كثيرًا عن أوهام وأشباح!

- ما أتعسني بسماع ذلك!

فقال بتسليم:

- إنّي تعيس حقًّا...

فقالت برجاء حارّ:

- ولكنّني مصمّمة على بعث الابتسامة فوق شفتيك!

٧

عندما ترامقا غاصا في خيبة جديدة. كازينو جليم شبه خال، الكوكاكولا والمغيب المقترب. قال لنفسه لو وجدتها مرحة سعيدة كالأيّام الخالية لخاب أملي أكثر.

قال لها بحنان:

- وداد... لست على ما يرام.

- أنت أسوأ حالًا منّي...

- لقد توقّفت تمامًا عن المذاكرة.

- سنة ضائعة لكلينا...

جعل ينظر إليها وهي تهرب إلى الأفق الغارق في البحر، حتّى سألته بنبرة محقّق:

- ماذا قال لك أبي؟

لم يدر ماذا يقول. العار مطوّق لكليهما ولكن ما عسى أن يقول؟ أخيرًا تمتم:

- يخيّل إليّ أنّك تعرفين كلّ شيء!

فلاذت بالصمت، فإذا به يندفع قائلًا وهو ما لم يغفره لنفسه:

- قُضِي عليّ بأن أسمع ما أكره، تارة من أبيك وتارة من جدّك!

أمالت وجهها نحوه في ارتياب فغضّ بصره آسفًا، وعند ذاك سألته:

- ماذا قال جدّي؟

قال وكأنّه يدافع عن زلّته:

- علينا أن نعرف الحقيقة لنقرّر مصيرنا ونحن على هدًى، ماذا سمعت؟

فقالت بحزن:

- عيّن ما قيل لك، ولا داعي لإعادته.

- القصّة القديمة عن السجن والغدر؟

- القصّة القديمة عن السجن والغدر فماذا قال جدّي؟

عاوده الاندفاع ليؤكّد لها أنّهما ينهلان من مستنقع واحد، قال:

- تكلّم بدوره عن والديك.

فعاودها القلق والتوتّر وقالت:

- أبي متّهم، طيّب، ماذا عن أمّي؟

- لعلّه الغضب يا وداد.

- أريد أن أعرف ما عرفته.

- إنّه سخف لا أكثر ولا أقلّ.

- كلّا، إنّك تصدّق ما قيل فما هو؟

- إنّني في حيرة.

فتساءلت بإصرار:

- ما هو؟

- ماذا تتوقّعين من رجل إذا أراد أن يعيب امرأة؟

اصفرّ وجهها، ازدردت ريقها، ثمّ قالت بحدّة:

- أريد كلامًا واضحًا!

فقال ضارعًا:

- لا تعذّبيني فإنّني كما ترين على أسوأ حال.

لاذت بصمت ثقيل أليم ثمّ تساءلت:

- ماذا بقي لنا؟

فقال بقوّة لأوّل مرّة:

- كلّ شيء، الحبّ...

- ما معنى الحبّ في مثل حالنا؟

فردّد معنًى ردّدته أمّه من قبل، ربّما دون إيمان حقيقيّ:

- ما يهمّ هو الحياة الموهوبة لنا...

فقالت ساخرة:

- إذًا فما علينا إلّا أن نذاكر، ثمّ نمضي معًا أرادوا ذلك أم لم يريدوه...

- هو ذلك!

فقالت بيأس:

- نحن نهذي يا يحيى.

- ولكن...

غير أنّها قاطعته متسائلة:

- صارحني بما تنوي عمله!

فقال مستسلمًا:

- جئت راجيًا من تلاقينا أن يبعث فينا روحًا جديدة.

فقالت بحدّة:

- لكنّنا تبادلنا أنباء الفضائح والتعاسة.

- كان لا بدّ من التعرّض لذلك...

فتساءلت بأسًى:

- أين المحبّان القديمان؟

- ها هما، أنا وأنت!

- يحيى، إنّك عاجز عن تجاهل ما سمعت!

- وأنت كذلك. ولكنّنا سنقهر ما يعترضنا.

وساد الصمت والحزن. وعند ذاك استدعى شجاعته وقال بنبرة اعتراف:

ـ وداد، قرّرت أن أسافر. . . هٰذه هي الحقيقة!

فحدجته بنظرة متسائلة منزعجة فقال بالنبرة نفسها:

ـ قرّرت أن أسافر إلى القاهرة، إلى الحارة. . .

ـ أتعني حقًّا ما تقول؟

ـ بيقين. . .

ـ خطوة غريبة تقطع بأنّك أعجز ما تكون عن تجاهل ما سمعت؟!

ـ إنّها لا تقاوم. . .

ـ هل تطمع من ورائها إلى خير؟

ـ يجب أن أقطع الشكّ باليقين.

فتساءلت بعد تردّد:

ـ هبها أكّدت ما سمعت؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ ليكن، بوسعي بعد ذٰلك أن أقرّر تجاهلها، بل لا معنى لتجاهلها إن لم أعرفها معرفة يقينيّة في منبعها، ولا بديل عن ذٰلك سوى العذاب.

فرفعت منكبيها في استسلام وهي تغيب في مهوى الشمس المخضّب بالاحمرار، وقالت:

ـ نصحتني أمّي بقطع علاقتي بك زاعمة أنّها لن تجرّ وراءها إلّا العذاب. . .

فقطّب قلقًا وهو يرمقها بعنف فقالت بهدوء:

ـ ولٰكنّني رفضت النصيحة هازئة بما سمعت فانظر إلى موقفك أنت!

ـ أشكرك يا وداد، لا أتوقّع منك قرارًا آخر، ولٰكن لا تدّعي الاستهانة، وإلّا فما تفسير هٰذا الحزن القاتم الثقيل؟!

ـ إنّها الصدمة المباغتة، والانهيار المنقضّ، وانتثار الأسرة الواحدة. . .

فقال متنهّدًا:

ـ لذٰلك قرّرت السفر!

ـ سافر إذا شئت أمّا قلبي فإنّه يتوجّس أوخم العواقب. . .

فتوسّد راحتها براحته وقال:

ـ حبّنا ثابت راسخ، إنّه مثل الضوء لا يعني اختفاؤه حينًا إلّا أنّه يدور دورته ليريق ضحكته الإلٰهيّة في الصباح التالي. . .

٨

ثمّة جوّ جديد في قصر رأس الحكمة ينفث رائحته الكئيبة. جندي بك لم يعد نفس الرجل، ولا جميلة هانم. . . إنّهما يبذلان جهدًا لا يستهان به ليمارسا حياتهما اليوميّة في هدوء وطمأنينة، كما كان الحال قبل الجريمة. الأسى يتجلّى وراء الأقنعة كما يتجلّى العمر وراء التصابر. أمّا هو فلم يلبس قناعًا، ولم يبال بمشاعر الآخرين. وكانوا يحتسون القهوة بعد الغداء في حجرة الجلوس الزرقاء عندما فاجأهما بقوله:

ـ إنّي أستأذن في السفر.

وقالت أمّه بقلق:

ـ لم أتوقّع ذٰلك، ولم يبق على الامتحان إلّا أقلّ من شهرين.

ـ إنّي لا أكاد أعمل، وبي اضطراب لا يمكن تجاهله، فلا بدّ من رحلة قصيرة للنقاهة. . .

ـ كان يجب أن تكون قد تغلّبت على الكدر.

ـ لم أوفّق إلى ذٰلك.

ـ ولٰكن أين تسافر؟

فأجاب بثبات:

ـ إلى مرسي مطروح.

فسأله جندي بك:

ـ أهٰذا قرار ضروريّ؟

ـ أعتقد ذٰلك، بضعة أيّام أستردّ بها صفائي. . .

وهمّت أمّه بالاعتراض ولٰكنّ جندي بك قال:

ـ فليذهب، وسوف يرجع على أحسن حال.

٩

إنّه يقوم بأخطر رحلة في حياته. رحلة المغامرة والتضحية والحقيقة. هي أيضًا رحلة الهروب من العذاب. ربّما إلى عذاب أعمق وأكثف. كأنّه لم ير القاهرة قطّ، كأنّه من مواليد الإسكندريّة. هجرها وهو ابن ثلاث ورجع إليها وهو ابن عشرين. دهمته القاهرة كأخطبوط خرافيّ. لم يجد شوقًا للتقلّب في جنباتها فاخترق قطاعها الأوسط إلى الحيّ العتيق. أودع حقيبته في حجرة بالكلوب المصريّ وراح يدور من شارع إلى حارة. إلّا حارة التكيّة أجّل اقتحامه لها حتّى

يتشبّع بالاستعداد. وقال له صوت من الداخل «ماذا تفعل؟ لا تكن سخيفًا، ارجع من حيث أتيت، انجح في الامتحان، انتظر وداد عامين، تزوّج منها ملقيًا بالهموم جانبًا، مستهينًا بجندي وعويس، بجميلة وشريفة، ليس في الأمر مشكلة حقيقيّة». ولكن انتصب أمامه إغراء الحقيقة القاسي. رغم شعوره بالعبث. وهل كانت إلّا معركة بين لصّين؟ ونادى عزيمته واقتحم الحارة. اقتحم الألوان الفاقعة والأصوات المتفجّرة، الحاضر الصاخب والماضي المتحفّز، النظرات المحملقة والقهقهات المتحشرجة، نداءات الحِرَف المختلفة بالأصوات والدقّات والروائح النافذة، ومهرجان الأزياء من البدل والقفاطين والجلابيب فضلًا عن الأجساد شبه العارية، والعطفات والأزقّة، والبيوت المتداعية والعمارات الجديدة الشاهقة. ها هي امرأة تنادي مثلما كانت تفعل أمّه، وها هو رجل يتصعلك كما فعل أبوه وعمّه، وها هو طفل يلعب بفأر ميت ربّما كما فعل هو. هنا تقرّرت مصائر عويس الدغل وجندي الأعور وجميلة الأسطى وشريفة الدهل. ذهب وجاء وهو يتساءل عن الراوي الذي سيهتك له حجب الظلام، من يكون، وأين يجده؟ ووقعت عيناه على عجوز قابع وراء صندوق الماركات في المقهى الوحيد فحدس أن يجد فيه بغيته. وقد صدق الحدس...

١٠

صدق حدسه فالرجل عجوز مقيم ومقهاه من معالم الحارة الأثريّة. اختار أقرب مجلس إليه وراح يفكّر في وسيلة للنفاذ إليه واستدراجه للحديث. لفت نظر الرجل ببقائه المتواصل وكرمه مع صبيّ القهوة. ونفد صبر صاحب المقهى العجوز فسأله باسمًا:

ـ أنت منهم؟

فتساءل ـ مرحّبًا بالحديث ـ عمّن يقصدهم فقال العجوز:

ـ رجال الجرائد؟

فانتهز الفرصة وزعم أنّه منهم فقال العجوز:

ـ كثيرًا ما يجيئون ويصوّرون ويأخذون ما يشاءون...

فقال يحيى بدهاء:

ـ إنّي أبحث عن حكايات، ولكلّ حكاية ثمنها!

فاختلج جفنا العجوز فوق عينيه الكليلتين وقال بإغراء:

ـ حارتنا حارة الحكايات... ولكن لا بدّ من جلسة كيف!

فوافق على شروطه ولكنّه قال:

ـ تحت شرط أن نكون منفردين...

***

هكذا جمعهما سطح مسكن العجوز. جلسا على وسادتين فوق كليم تحت ضوء النجوم تسعى حولهما دجاجات ناقّة مقوقئة. تظاهر يحيى بأنّه يدخّن فجعل يملأ شدقيه بدخان الجوزة وينفثه في قرف لم تتح للرجل رؤيته. ولم يضنّ عليه بما طلب من نقود. وصبر على ثرثرته عن أسعار البنّ والسكّر والشاي وحكيه لبعض النوادر الدارجة ثمّ عجز عن كبت لهفته فقال:

ـ اسمع يا معلّم سليمان، لقد سمعت من آخرين نتفًا عن حكايات فلم يحظَ بانتباهي إلّا حكاية رجل يدعى عويس الدغل ولكنّها جاءت ناقصة لا تشبع فهل تعرف أصل هذه الحكاية؟

فسعل العجوز سعلة محترف وقال:

ـ عويس الدغل عليه اللعنة، إنّها عظة كلّ مغفّل في حارتنا، ماذا سمعت؟

ـ لا أهمّيّة لذلك، أريد أن أسمعها من راوية محنّك مثلك، إنّها حكاية مدهشة...

ـ لا تدهش، عندما تبلغ من العمر ما بلغته فلن تدهش لشيء أبدًا...

ـ حقًّا؟! ولكن هل ما زال الرجل حيًّا؟

ـ وهل يبقى على ظهرها إلّا الأشقياء؟

وضحك فجاراه في ضحكه وهو يجد غمزًا أليمًا في قلبه، ثمّ سأله:

ـ ماذا يعمل؟

ـ إنّه في السبعين، تربية شوارع وسجون، وهو اليوم أحد ثلاثة في حارتنا يرتزقون من توزيع الكيف...

- إذن فهو في عيشة راضية؟

- لا، موزّع القطّاعيّ محدود الرزق، تكون حاله أحسن إذا قام به، بالإضافة إلى عمل آخر، ولٰكنّ عويس لم يحترف عملًا شريفًا في حياته، وعجز أخيرًا عن السرقة!

اجتاحته رغبة في البكاء فقاومها بعنف ساءت به حاله. وقال العجوز:

- إنّه يعيش في بدروم في آخر ربع قبل البهو وإن شئت أن تراه أرسلت في طلبه؟

فقال بسرعة:

- فلنؤجّل ذٰلك...

- لعلّه نسي.

- نسي؟

- غدر جندي الأعور وخيانة زوجته، ألم يحكوا لك ذٰلك؟

- بلى، زمالة السجن، الطلاق، والهرب بالذهب والزوجة والابن...

- عندما خرج من السجن أقسم ليقتلنّها، وجدّ في البحث عنهـا ما وسعه ذٰلك، وعاش دهرًا كالمجنون...

فقال يحيى بصوت منخفض كيلا يفضح تأثّره:

- حكاية غريبة.

فقال العجوز بلهجة منتقدة:

- الحقّ عليه، لقد كانت المرأة عاهرة محترفة فتزوّج منها، ماذا يتوقّع من مثيلاتها؟

آه... حمدًا للظلام، إنّه يتحلّل مثل جثّة الميت. لم يذكر محروس شيئًا عن ذٰلك اتّقاء لغضبه غالبًا. وها هو يتلقّى الحقيقة كلسان من لهب. ها هو... آه ما أفظع الألم!

وواصل الرجل العجوز حديثه منتشيًا بأهمّيّته:

- أين ذهب جندي الأعور والمرأة والطفل؟ لم يعلم أحد، وحتّى اليوم لا يدري عنهم شيئًا، ونسي عويس الدغل الحكاية كما نسيتها الحارة، ولا شكّ عندي أنّه اليوم في السجن وربّما الطفل أيضًا أمّا المرأة فلا محيد لها من الرجوع إلى مهنتها الأصليّة...

إنّه يهبط درجات من الألم أردته إلى أعماق الجحيم في معزل عن الدنيا جميعًا، إنّه سقيم في كون موبوء لم يبقَ له من الغذاء إلّا السخرية. وقال العجوز:

- عندما قُبض على عويس هرعت دليلة الفقي صاحبة الرهونات إلى المرأة، توسّلت إليها أن تردّ الذهب اتّقاءً لغضب الراهنات والراهنين فأقسمت بأغلظ الأيمان أنّها لا تدري عنه شيئًا، وقصدها الفقراء أصحاب الذهب المرهون يتوسّلون ويبكون، أكثرهنّ نسوة كادحات يشترين الذهب لوقت الحاجة ويرهنّه عند الضرورة...

فتمتم يحيى بذهول:

- أولٰئك هنّ صاحبات الثروة المسروقة!

- دون غيرهنّ، وهنّ اليوم في هٰذا الغلاء لا يجدن اللقمة إلّا بالعذاب، ولعلّهنّ صدّقنها في وقتها حتّى ظهر جندي الأعور وهرب بها فتأكّدن بأنّه ما لعب لعبته إلّا من أجل الذهب المسروق...

فقال يحيى بأسًى:

- هنّ وحدهنّ صاحبات المال الحلال...

- أمّا عويس وجندي فلم يكونا إلّا لصّين وبرمجيّين، وقد نال عويس جزاءه في السجن وخارجه، ولا يدري أحد إلّا الظنّ بما حلّ بجندي...

وضحك العجوز ضحكة ساخرة واستطرد:

- وقد كان لجندي ابنُ قوّاد!

- ابن جندي الأعور؟!

- نعم، وقيل إنّه ابن حرام، وإنّ جندي كان يؤمن بذٰلك ولٰكنّه كان يخشاه، ولذٰلك أخذه معه اتّقاء لشرّه، ولعلّ الولد كان يراقب أباه وزوجة عويس حتّى لا يفلتا من قبضته بالغنيمة، وقد تزوّج الابن من امرأة محترفة جميلة وكان يقدّمها للأعيان!

فتساءل يحيى:

- ترى ماذا يفعل عويس لو عثر على جندي الأعور فوجده خلافًا لظنّك ينعم بالجاه والثروة؟!

فقهقه العجوز وقال:

- ماذا بقي من عويس القديم؟ هل يقتل؟ هل يبسط يديه في ذلّ سائلًا ما يجود به الآخر؟ كلّهم لصوص برجميّة أوغاد، وليرحم الله ضحاياهم المساكين!

١١

رآه واقفًا كالنائم مركونًا إلى جدار الربع. هيكل خلا من مقوّمات القوّة، كليل البصر لا يرى أبعد من متر، غائر العينين بارز الجبهة أصلع نابت شعر الذقن يمرق عنقه من جلباب لا لون له من تلبّد الغبار والأوساخ عليه حافي القدمين. مرّ أمامه ذهابًا وإيابًا فلم ينتبه الرجل إليه ولم يشعر هو نحوه بأيّ عاطفة ولْكن اجتاحه إحساس شامل بالتقزّز والاحتجاج والتمرّد. لا يستطيع أن يقدّم له شيئًا ولا أن يأخذ منه شيئًا، إنّه غريب تمامًا ولْكنّه رغم غربته قلَب حياته رأسًا على عقب. مضى ورأسه يشتعل بالأفكار المحمومة. هٰذا هو أبوه عويس الدغل وهٰذه هي أمّه جميلة الأسطى. وهناك أيضًا والدا وداد محروس جندي وشريفة الدهل. إنّه ليس الفقر ما يخجل ولْكنّه الانحطاط. في هذه القضيّة يستحقّ السارق والمسروق لعنة واحدة. وقد أراد أن يتثبّت فجاءه اليقين نافثًا رائحته النتنة. ما عسى أن يفعل؟ ماذا يقبل وماذا يرفض؟ الحيرة تمزّقه وعليه أن يتّخذ موقفًا قبل أن يتبعثر بددًا. إنّه يحترق، لا يمكن أن يحتمل النار إلى ما شاء الله، ولا يمكن أن تمضي الحياة كما مضت على عهد الغيبوبة السعيدة. وله أن يفكّر ولْكن فليحذر الدوران مع الدوّامة بلا عمل حاسم. إنّه بحاجة ماسّة إلى وداد، ليتبادلا الرأي، وليتّفقا على خطّة موحّدة. هل يطلق الكلاب المسعورة بعضها على بعض لتقول العدالة كلمتها القاسية في عويس وجندي ومحروس والجميع؟! قواه الغاضبة تودّ أن تفعل ذٰلك وإلّا فلا معنى لأيّ شيء. وإلّا فكيف يخرج من الجحيم؟ ولْكن لا بدّ من مشاورة وداد. يجب أن تتكلّم جميع جوانب نفسه. إنّه يرفض أباه وأمّه وعمّه، ويودّ أن يوجّه ضربات مذهلة.

١٢

وافته وداد إلى كازينو جليم. من أوّل نظرة من وجهه ارتسم القلق في وجهها. قال لها محذّرًا:

ـ لا أحد يعلم بوجودي في الإسكندريّة. . .

فسألته بدهشة:

ـ ولِمَ تخفيه؟

ـ ربّما رجعت إلى القاهرة مرّة أخرى. . .

فقالت متوجّسة:

ـ هل دعوتني لتحمّلني مزيدًا من الهمّ؟ إنّي أعيش أتعس أيّام حياتي. . .

فقال بهدوء مخيف:

ـ يسعدني أن أسمع ذٰلك، شعور التعاسة في مثل حالنا هو ما يهبنا الجدارة بالحياة الكريمة، فلنترك السّفلَة ينعمون بالحياة في غمرة سفالتهم. . .

ازدادت قلقًا، أمّا هو فإنّ وحشيّة التجربة دفعته بقوّة مستهترة إلى المكاشفة. قال:

ـ قطعت رحلتي ولْكنّني سأرجع، شعرت بالحاجة الماسّة إلى مشاورتك، علينا أن ننتهي إلى موقف موحّد.

ـ إنّك منفعل إلى درجة تخيفني. . .

ـ لا أنكر ذٰلك، تلزمنا إرادة حديديّة لنستحقّ حياة نظيفة، ليس الأمر هزلًا، ولن أباهي بظاهر برّاق إذا كان الباطن عفنًا، أريد أن أرفض الحياة القذرة. . .

قطّبت متفكّرة فقال:

ـ سأصارحك بالكثير، المصارحة بكلّ شيء فوق طاقتي ولْكنّك ذكيّة وتكفيك الإشارة، الحياة التي نعمنا بها طويلًا حياة زائفة قذرة مهينة، هناك في الحارة عرفت أصول الأشياء، مَن أبي ومَن أمّي، مَن جدّك ومَن أبوك ومَن أمّك، إنّها العار والقذارة، المرارة تنسيني اللياقة، تنسيني الترفّق بك ولْكنّي لا أترفّق بنفسي أيضًا، الماضي كلّه قذر، لا يجوز أن يمتدّ في الحاضر، علينا أن نقرّر. . .

ازداد وجهها الجميل شحوبًا وتجلّت في عينيها نظرة كئيبة. قرأها بعمق فخطر له احتمال مخيف وهو أنّه قد يفقدها إلى الأبد، وأن يتوه بلا قطرة عزاء في جحيم المحنة. لْكنّه كان مشحونًا أيضًا بثورة طاغية. كان يعاني مقتًا لمقدّساته القديمة. تساءلت:

ـ هل لديك أدلّة قاطعة؟

فتفكّر قليلًا وقال:

ـ التاريخ نفسه لا يملك أدلّة أقوى!

فلاذت بالصمت. ولاحظ هو أنّها تتجنّب المزيد من

الإيضاحات. لم تسأله مثلًا عمّا عرف عن والديها. ربّما بدافع من الإشفاق وربّما لأنّها في غير حاجة إلى سؤال. قال:

ـ فلنطرح الحلول الممكنة أوّلًا، فثمّة حلّ هو أن نتجاهل الماضي بشرّه ونواصل حياة تحسدنا عليها الملايين!

فبرقت عيناها وقالت وكأنّها تستغيث:

ـ في بيتنا يتوقّعون أن ينزل جدّي لنا عن عمارة ولو دفعًا للشرّ، يتوقّعون أيضًا أنّه سيملّكك ثروته بعد وفاته . . .

فساءه أنّها تعلّقت باقتراح لم يطرحه إلّا بدافع الإحصاء وقال:

ـ الحلّ الثاني أن نرفض القوم وثروتهم وننجو بأنفسنا مهما تكن العواقب لنحيا حياة نقيّة جديرة بالكرامة . . .

فلاحت متفكّرة بعمق وصامتة فقال:

ـ لا أخفي عنك أنّ بي ثورة لا تقنع بذلك، لذلك أفكّر في حلّ ثالث وهو أن أحرّش الشياطين على بعضها البعض حتّى لا يفلتوا من العقوبة الرادعة، ولكي تعود إلى الأشياء معانيها . . .

فرمقته بارتياع وتمتمت:

ـ إنّك تتحدّث بجدّيّة تنذر بأوخم العواقب . . .

فتساءل متجاهلًا قولها:

ـ أيّ حلّ نختار يا وداد؟

فقالت بانفعال:

ـ مهما تكن الأخطاء فإنّني أرفض أن أقيم من نفسي قاضيًا للحكم على والديّ، ولا أسمح بأن يصيبهما مكروه على يديّ، بل لا أسمح أن يصيبهما مكروه إن استطعت دفعه، ذنبهما على جنبهما كما يقال . . .

إنّها واضحة وضوحًا حفر هوّة بينهما. تساءل في وجوم:

ـ حقًّا ترفضين؟

ـ وأيضًا الحلّ الثاني أراه خياليًّا، هبنا تبرّأنا منهم فكيف نلقى الحياة بعد ذلك؟ سنضطرّ عند ذاك إلى الانقطاع عن التعليم، ولن نجد عملًا، فهل نموت جوعًا أو ننحرف مثلهم؟ إنّه حلّ جميل تهفو النفس إليه ولكنّه ليس عمليًّا يا يحيى . . .

أيّ خيبة تجيء في أثر خيبة! إنّه في وادٍ وهي في وادٍ. هل تكشف له الأحداث عن شخصيّة أخرى تحت الشخصيّة المحبوبة؟! أمّا هي فواصلت وقلقها يزداد لشعورها بالفارق الكبير بين فتورها وحماسه:

ـ إنّني متألّمة مثلك، متقزّزة مثلك، غير أنّني أرى أنّنا ـ أنا وأنت ـ لا نستحقّ أن نتحمّل وزر ما ارتكبه الآخرون، فلنتجاهل الماضي الأليم، لنمضِ في حياتنا لا يفرّق بيننا شيء، ذلك إذا آلت الثروة يومًا إليك أن تفعل بها ما يرضي ضميرك ويكفّر عن أخطاء وجرائم الآخرين . . .

فقال بازدراء:

ـ معنى ذلك أن نرضى بنعيم اللصوصيّة والعهر . . .

ـ نحن نرضى بواقع علاقتنا بآبائنا . . .

فتساءل بغضب:

ـ وبعد أن رأيت بعينيّ البؤساء الذين هم أصحاب الثروة المسروقة؟!

فقالت بإصرار:

ـ نحن أبرياء، لم نرتكب إثمًا، بل نحن ضحايا لما نعاني من عذاب، ومن الحماقة أن نرمي بأنفسنا للضياع ونحن نمدّ يدنا لقطف ثمرة كدّ السنين، فلنصبر ولو على الأقلّ حتّى نقف على قدمينا!

فتساءل بحزن:

ـ أهذا رأيك؟

ـ يحيى، كن حريصًا على حبّنا حرصي عليه، لسنا قضاة ولا شرطة، وإذا أردت هجرهم لفورنا ففكّر قليلًا في العواقب، هبني قلت لك إنّي معك فما هي الخطوة التالية؟ ماذا نعمل؟ أين نعيش؟ أعطني إجابات محدّدة وأنا معك، لا أريد أن أقوم بمغامرة ثمّ أسقط في الضياع . . .

فقال بصوت خامل مشرج بالخيبة:

ـ ليس عندي جواب محدّد، لسانك يجري بمنطق العقل، والعقل أسمج محدّث في موقفنا هذا، الجنون ما ننشد، أعني الجنون المقدّس . . .

ـ أرجو أن أكون واضحة تمامًا، أنا لا أتعامل مع

الجنون المقدّس، ولعلّي لا أعرف جنونًا مقدّسًا، وأنت فريسة للغضب. فعليك أن تعيد التفكير وأنت هادئ متمالك لانفعالاتك. . .

فقال بعد تردّد:

ـ أرى أنّنا مختلفان!

ـ كلّا، من ناحية الشعور فنحن شخص واحد، لا أفرّط فيك رغم الحملات المتتابعة، وفي الوقت المناسب سأقرّر مصيري بنفسي، ولكنّي أرفض المغامرات الجنونيّة!

بقدر ما حاصره منطقها ثار عليه، وكلّما اشتدّ الحصار اشتدّت به الثورة. ولكنّه انهزم. على الأقلّ لم يمضِ في اندفاعه إلى نهايته. أجّل اتّخاذ القرار. أجّله وهو من القلق والحيرة في نهاية. وهما يغادران الكازينو ضغطت على ذراعه التي تتأبّطها إعرابًا عن تمسّكها به. . .

١٣

عندما ودّعته قال في نفسه إنّها تطالبني بالصبر ولو حتّى الامتحان ولكن ألا يستوي أن أصبر شهرًا أو عمرًا؟! إنّها مسألة مبدأ لا وقت. وقد انكشف عالمه عن حقيقته البشعة القذرة فكيف يقبله دقيقة واحدة؟ ما زالت نقود عمّه في جيبه، يذهب ويجيء بها، وينعم بقوّتها الفريدة. رغم ذلك كلّه ما زال متردّدًا ولّما يتّخذ قراره. ترى لو رفع صوت العقل في كلّ حين أكان يستشهد شهيد؟! العقل يحكم في الفلك لا في السلوك. إمّا براءة وإمّا قذارة. هل يظلّ ابن لصّ وعاهرة؟ ولو كانت المعركة صراعًا بين لصوص لهانَ الأمر بعض الشيء ولكنّها جناية وحشيّة ضحاياها أتعس تعساء البشريّة!

وتفكّر أيضًا وهو ماضٍ على الكورنيش أنّه لم يبلغ ما بلغ من التربية والتهذيب والمستوى إلّا بفضل النهب والدعارة فتضاعف امتعاضه وأساهُ. وهو على تلك الحال وجد نفسه يتّجه نحو قصر الحكمة. ليس لديه قرار نهائيّ ولكنّه سيلقى الموقف بتلقائيّة ولينظر كيف تتطوّر الأحداث. مرّ بعمّه وهو يشارب رجلًا غريبًا في الدائرة الخضراء، رحّب به الرجل وقال بنبرة المنتصر:

ـ قلتُ إنّك ستضيق بالوحدة فترجع سريعًا.

أمّا أمّه فهرعت إلى حجرته متألّقة بالسرور وقالت:

ـ خير ما فعلت، لا وقت لديك تضيّعه وقد استجاب الله لدعائي. . .

جلست قبالته وهو يجذب نفسه من بحر الانفعالات الذي يشدّه إلى أعماقه. بين أمواج متلاطمة من النفور والازدراء والولاء. ها هي تقول إنّها تعرف الله وتدعوه وإنّه يستجيب لها. وهي تجلس مطمئنّة ملقية القدمينِ على وسادة مزركشة، جميلة وفخيمة وربّة قصر وأيّ قصر. رياح الثورة ما زالت تعصف بأركانه ولكن يقاومها إشفاق لا يخلو من قداسة. ما زال يذكر بشدّة منظر أبيه ومناظر الضحايا فيغصّ بالمرارة. غير أنّ الرحلة اقتلعت من صميمه التردّد والحياء فلذلك اندفع يقول بلا رويّة:

ـ الحقّ أنّني لم أسافر إلى مرسى مطروح!

ـ حقًّا؟ إذن أين كنت يا حبيبي؟

فأجاب ببرود منذر بالويلات:

ـ كنت في حارة التكيّة بالقاهرة!

تلاشت البهجة فجأة من صفحة وجهها كأنّها مصباح كهربائيّ انقطع عنه التيّار. شحب لونها وهي ترنو إليه بوجوم واستسلام. لأوّل مرّة يراها وهي مسحوقة بلا حيويّة ولا كبرياء. وجاءه صوتها وانيًا متسائلًا:

ـ ماذا أذهبك إلى هناك؟ بل من دلّك عليها؟

فلوّح بيده ولم ينبس فقالت:

ـ محروس؟!

ـ ما أهمّيّة ذلك؟

وساد الصمت حتّى أوشك أن يرثي لها، أوشك أن يندم على ما بدر منه. طال الصمت، وفيه قيل كلّ شيء بلا كلام. لم يتكلّم ولم تسأل. كفى اسم الحارة لبعث تاريخ طويل بكلّ تفاصيله. ثمّ نكست رأسها ففقد القدرة على النطق. وقال لنفسه إنّه لن يتيسّر له البقاء بعد ذلك. لا قتال ولا سلام. ها هي تقوم متثاقلة وكأنّها طعنت في الشيخوخة. مضت نحو الباب فتابعها بعين مودّعة. غير أنّها وقفت فجأة فوق العتبة. لبثت واقفة دقيقة كاملة. واستدارت بحركة لا تخلو من

شدّة. تجلّى له وجهها جامدًا ومتحدّيًا ثمّ أقبلت نحو مجلسها بتصميم جديد. نظرت إليه مضيّقة عينيها وقالت برزانة أضفت عليها ثقة:

- يحيى، ماذا أقول؟ ولكن عليك أن تسمعني، وقبل ذلك أسألك ماذا عرفت؟

فأجاب وهو ينفخ:

- كلّ شيء...

- الأمر لله، عليك أن تسمعني، لقد وجدت نفسي ذات يوم وحيدة منبوذة مكروهة مع وليد رضيع...

ثمّ وهي تزدرد ريقها:

- كان الطفل أمومتي الأولى والأخيرة فغيّر نظرتي للأشياء...

وتريّثت حتّى تعالج أنفاسها وواصلت:

- ثمّ ظهر في حياتي رجل يدعى جندي الأعور...

تفرّست في وجهه الواجم ثمّ قالت:

- لم يكن جندي الأعور خيرًا من عويس الدغل ولا عويس الدغل خيرًا من جندي الأعور، ولكن كان قَدَري أن أجد نفسي دائمًا بين يدي أحد من أمثالهما، ولم يكن يشغلني وقتذاك إلّا أن أجد مأوى لي ولابني ففعلت ما فعلت، أيّ دناءة في هجر لصّ من أجل لصّ آخر، وأيّ حظّ كنت تتوقّعه لو انتظرت أباك حتّى يُفرَج عنه؟ وهل تدري أيّ وحش كان؟!

تنهّدت بصوت مسموع، وبدت كمَن نجا من الغرق بمعجزة ولكنّه لم يبلغ الشاطئ بعد، وقالت بصوت استمدّ من الشجاعة بعض القوّة:

- وما كنته قبل أبيك كان محنة لا خطيئة، لقد وجدت نفسي وحيدة ضائعة منذ صباي، وما احترفت شيئًا به إغراء لأيّ آدميّ. ولكن أين لمثلك ممّن تربّوا في أحضان النعيم أن يدركوا ذلك؟!

ها هي تسخر منه أيضًا، وها هو يخنّس أكثر وأكثر وقد تداعت أركان مملكته. وقد زادت الأمور تعقيدًا واكتنف اتّخاذ القرار صعوبات جديدة. أمّا الأمّ فمضت تقول:

- ولأوّل مرّة يغيّر جندي الأعور مسلكه في الحياة فيقرّر استثمار ماله عادلًا عن الصعلكة والبرجة، مصمّمًا على تمثيل دور جديد، دور رجل الأعمال المحسن الكريم، ما مدى إخلاصه؟ لا أدري عن ذلك شيئًا ولكن حسبنا أنّه صار رجلًا آخر وأنّه أنشأك نشأة نبيلة، وبوسعي أن أؤكّد لك أنّه يحبّك، أنّه ما أحبّ محروس قطّ، كان دائمًا يخافه ويتوهّم أنّه ابن رجل آخر، ويئس تمامًا من تغيير سلوكه، فلم يبق له من عزاء سواك، ولا أستطيع أن أحكم على ماضيه بغير العين التي أحكم بها على نفسي، كان ضائعًا مثلي ومثل أبيك، نحن لا يديننا إلّا مَن لم يذق مرارة العيش مثلنا، حتّى شريفة الدهل كانت مثلنا، أقول ذلك رغم الكره المتبادل بيننا...

لم يرفع عينيه من الأرض ولم ينبس فواصلت بحرارة جديدة:

- إنّي أتصوّر الضربة التي زلزلتك، ألمسها في وجهك، في رحلتك المخيفة، ولكن لا أحد يستحقّ أن يكون هدفًا لمقتك وغضبك، إذا علّمتك المأساة أن تحزن وتثور فتعلّم منها أيضًا أن تفهم...

فتمتم بعد صمت طويل:

- ما لا عزاء فيه هو أنّكم سرقتم أتعس التعساء...

- ما الحيلة؟ ولكن لا تنسَ أنّنا كنّا أتعس منهم...

فتفكّر مليًّا ثمّ قال:

- قد لا يكون لي حقّ المحاكمة ولكنّ واجبي أن أرفض.

- ترفض ماذا؟

- هذه الحياة التي لا يمكن الدفاع عن قذارتها!

فقالت بجزع:

- يا له من قرار خاطئ، لماذا؟ ما مضى مضى وانقضى، عمّك اليوم يرغب في أن يورثك ثروته، وقد شاور محاميه في الأمر، ثمّ إنّك بريء ولا شأن لك بأخطاء الآخرين!

فأشار إلى صدره وقال:

- الرفض من هنا ولا حيلة لي.

فتوسّلت إليه قائلة:

- هلّا أجّلت التفكير في ذلك حتّى تنتهي من

امتحانك؟

ـ آه... بأيّ عقل أتقدّم للامتحان؟

فقالت بقوّة:

ـ احبس نفسك في مكتبك كما تعوّدت أن تفعل، واحذر أن يعلم عمّك بما عرفت أو بما يدور في عقلك، أعترف بأنّه غبيّ وسيّئ الظنّ بالبشر، أجّل كلّ شيء ولا تشغل نفسك الآن إلّا بالامتحان...

١٤

قرّر يحيى أن يتأهّب للامتحان فخاض معركة ليجمع فكره المشتّت المبعثر. أراح قراره أمّه ووداد وبعث في نفسها آمالًا جديدة. لم يكن راضيًا عن نفسه، كان أبعد ما يكون عن ذلك، عدّ نفسه متردّيًا في السقوط مثل آلة ودون أن يملك من الأعذار ما يملكون. وواساه في عذابه أنّه مصمّم على الرفض عقب انتهاء المرحلة التعليميّة، وأنّ هذا الرفض لا يعني نبذ الحياة في القصر فحسب ولكنّه يعني أيضًا رفض ثروة جندي بك الهائلة. غير أنّ أحداثًا غير متوقّعة انفجرت تحت قدميه، فما يدري ذات يوم إلّا وجندي بك الأعور يقتحم عليه غرفة مكتبه. جاء مكفهرّ الوجه عدوانيّ النظرات ثمّ وقف في وسط الغرفة وخاطبه بلهجة لم يعهدها من قبل قائلًا:

ـ لديّ سؤال عليك أن تجيبني عنه.

واشتدّت نظرته صلابة وهو يسأل:

ـ هل زرت حقًّا حارة التكيّة بالقاهرة؟

ذهل يحيى. تساءل في نفسه عمّن أبلغه. ليست أمّه على وجه اليقين. غير أنّه لم يفكّر لحظة في الإنكار فقال بتحدٍّ:

ـ نعم...

فصرخ الرجل:

ـ إذن فكلّ ما بلغني صحيح، والآن دعني أسألك عمّا يُبقيك في بيتي؟

اصفرّ وجهه. هل أجّل الرفض ليُطرد؟ غلى دمه. قال متحدّيًا:

ـ إنّه بيتي قبل أن يكون بيتك!

قهقه جندي بوحشيّة وصاح:

ـ عليك اللعنة، لقد اعتدت أن أوجّه عشر ضربات قبل أن أتلقّى الضربة الغادرة، إنّي لا أخشاك، لا أخشى أباك، ولا أخشى أمّك، لقد أرادت هي أيضًا أن تدافع عنك، وتمادت في الغباء فهدّدتني، اسمع، إنّي أطردك، إنّي أطردها أيضًا، فلا تُرني وجهك بعد اليوم...

وغادر الحجرة وهو يرتعش من شدّة الغضب.

١٥

هكذا وجد يحيى نفسه وأمّه وحيدين في حجرة ببنسيون الدلتا هو لا يملك مليمًا وهي لا تملك إلّا مؤخّر صداقها. ورغم الانفعالات التي تعصف بهما قالت له:

ـ أيّ نهاية! أنا صاحبة كلّ شيء، ولكن لننسَ همومنا، عليك أن تنجح، هي فرصتك الأخيرة، بل هي فرصتنا الأخيرة!

هو أيضًا مقتنع بذلك ومصمّم عليه وليس دونها إحساسًا بالخطر، غير أنّه قال بحنق:

ـ لن يفلت المجرمون بلا عقاب.

فقالت بحرارة:

ـ لا تفكّر إلّا في الامتحان...

ـ ولكن... كيف عرف الرجل؟

ـ إنّي أتصوّر ما حدث كما لو كنت شاهدة له، لقد أفضيت أنت بسرّ الرحلة إلى وداد، ما تعرفه وداد تعرفه أمّها، أمّها وجدت فيما سمعت ما يستحقّ أن تبلغه محروس، محروس وجد فيه ما يجب أن يوصله ـ بطريقة ما ـ إلى جندي الأعور ليقضي عليك أو علينا معًا وبذلك يمنعه من التصرّف في الثروة، جندي الغبيّ اعتقد أنّك تبيّت له أمرًا فساء ظنّه بك وبي وربّما بأبيك أيضًا، قرّر أن يتخلّص منّا قبل أن نتخلّص منه، لا أحد يدري ماذا ستكون الخطوة التالية، ولكن كلّ ذلك لا يهمّ، ما يهمّنا شيء واحد هو نجاحك.

إنّه مقتنع بذلك ومصمّم عليه وليس دونها إحساسًا بالخطر، حتّى الحنق عليه أن يحبسه إلى حين.

وعندما التقى بوداد في ركنهما بجليم دمعت عيناها وقالت بتأثّر شديد:

- إنّي آسفة يا يحيى، إنّ الحوادث جعلت من أبي رجلًا شرّيرًا!

فرفع منكبيه استهانة ولم يجدْ ما يقوله فقالت:

- أيّ ظلم وقع على والدتك!

أراد أن يقول إنّه جزاء عادل وإنّه يجب أن يشمل الجميع. وتجنّب هٰذه المرّة أن يبوح لها بأسرار غضبه ولٰكنّه شعر بأنّ علاقتها صامدة أمام العواصف.

١٦

وجد أنّه لن يستطيع التفرّغ لدراسته إن لم ينفّس عن غضبه بضربة عاجلة. فكّر مليًّا ثمّ قرّر السفر إلى أبيه ليدلّه على مكان جندي الأعور وحقيقته. إنّها مغامرة قد يستطيع أن يتكهّن بعواقبها ولٰكن يحتمل أن يأكل الشرّ بعضه البعض. واعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه قرار مخيف لا يبرّره إلّا الغضب والرغبة الجنونيّة في ردّ الضربة بمثلها. وسافر دون أن يُخطر أمّه بنواياه. واقتحم الحارة منقّبًا عن عويس الدغل. ولمّا أعياه التنقيب قصد إلى صديقه العجوز عمّ سليمان صاحب المقهى. وقال له العجوز:

- جئت متأخّرًا، قُبض على عويس الدغل أوّل أمس!

فذهل يحيى وتساءل:

- هل رجع إلى السرقة؟

- بتهمة توزيع المخدّرات، ولٰكنّ الحارة تردّد حكاية غريبة!

وأعاد الرجل على مسمعه الحكاية وهي أنّ جندي الأعور علم أنّ سرّه بلغ عويس وأنّه يدبّر له أمرًا فاستأجر شخصًا للإيقاع به وتمّ له ما أراد!

وختم العجوز حكايته قائلًا:

- من السجن إلى القبر هٰذه المرّة!

هٰكذا رجع خائب الرجاء ولٰكنّ غضبه جاوز النهاية. لم يعد يفكّر إلّا في الانتقام من جندي الأعور ولو كلّفه ذلك حياته.

١٧

في الإسكندريّة وجد أنّ الحوادث سبقته مرّة أخرى. في اليوم نفسه حدث ما حدث، وكانت أمّه هي الراوية. فقد عرف أنّ جندي الأعور شارع في الزواج من فتاة دون العشرين وأنّه يماطل في النزول عن إحدى عماراته لابنه محروس. تربّص له محروس عند مغادرته مكتبه التجاريّ وقتله. هٰكذا ضاع الرجلان. استمع يحيى إلى الحكاية بذهول ولٰكنّه لم يشعر بأسف. على العكس فقد زال توتّر أعصابه لأوّل مرّة منذ زمن طويل. ولٰكن سرعان ما اتّجه تفكيره نحو وداد فتساءل:

- ما مصير الأسرة التي خلّفها محروس؟

فأجابت أمّه:

- لا يختلف عن مصيرنا.

فقال بقلق:

- ولٰكنّ وداد لن تنتهي من دراستها قبل عامين.

فقالت الأمّ:

- لدى أمّها من الحليّ ما يسترهما هٰذه المدّة.

١٨

وقف عمّ عمارة الجعفري البوّاب يلقي نظرة الوداع على القصر الأبيض. فاقت الأحداث تصوّره وخياله ولٰكنّ طول العمر يهدهد الأحزان. وراح الرجل يقول:

- لم يعد له صاحب هٰذا القصر الهائل، ستجفّ الأشجار وتذوي الأزهار، وسيجيء الربيع القادم فيجد الأبواب والنوافذ مغلقة والحديقة خرابة، وصاحب القصر وورثيه بين يدَي علّام الغيوب، من نحن حتّى نفهم ما يدور حولنا؟ ولٰكنّا نقول مع القائلين «ولا يبقى إلّا وجه ربّك ذي الجلال».

الرَّبيع القادم

١

إنّه يوم عاديّ ولٰكنّه سرعان ما انقلب فاجتاحته عاصفة هوجاء. وتذكر ربّة البيت أنّ تاريخه يخلو من الهزّات العنيفة. مسرّاته عاديّة ومتاعبه عاديّة، وغوصه في عسر المعيشة مضى وئيدًا، خطوة بعد خطوة، بلا طفرات، وهوّن منه بعض الشيء أنّ الجميع يشاركونه في العناء ويتبادلون الشكوى. إلى ذٰلك فهي ربّة أسرة تحظى بمزايا لا يستهان بها، فالأب ناظر مدرسة ثانويّة، وهي كانت مدرّسة أولى بالثانويّة حتّى وقت قريب. واستمرارها في العمل كان مسلّمًا به لولا إصابتها بارتفاع في ضغط الدم، واقتران بخروج خادمتها عنايات فضل الله من خدمتها منذ أشهر للزواج من ابن عمّها. وعنايات لبثت في بيتها عشرة أعوام مذ بلغت السابعة عقب وفاة والدها وحتّى استردّتها أمّها، وهٰكذا حملت جمالات ـ ربّة البيت ـ الأعباء وحدها وقد تعذّر الحصول على خادم إمّا لندرته أو لارتفاع أجره ارتفاعًا غير محتمل. لم يخلُ بيتها فيما مضى من خادم، أمّا اليوم فعليها أن تنهض وحدها وأن تلاطف أيضًا ما استطاعت ضغط الدم. تستيقظ مبكّرة على رنين المنبّه لتعدّ الإفطار لزوجها محمّد فتحي ولأبنائها الثلاثة، زغلول (طالب طبّ) ورمضان (ثانويّة عامّة) ومحمود (الثانية الثانويّة). وعندما يغادرون البيت تعكف على تنظيفه وترتيبه ثمّ تذهب للتسويق من سوق المنيل غير بعيد من شارع العاصي حيث تقوم عمارتهم، ثمّ ترجع لتعدّ الغداء. ويضايقها بصفة خاصّة تنظيف الأواني والأوعية وغسل الحمّام والمطبخ، ولم تجدْ ما تستعين به في ذٰلك سوى قفّاز من البلاستيك. ولم يبق من اليوم ما تهبه للقراءة إلّا وقت قصير تتصفّح فيه الجريدة أو كتابًا من المكتبة التي كوّنتها ـ هي وزوجها ـ منذ أيّام اليسر. أجل كانت الحياة يسيرة واعدة، وكان ثمّة مرتّبان ينفقان عليها، ثمّ أخذ الغلاء يدبّ ويزحف ويتمطّى وينجلي عن وحش لا يرحم، وسرعان ما عجز مرتّب الزوج ومعاشها عن ترويضه، فاضطرّ محمّد فتحي إلى إعطاء دروس خصوصيّة رغم مخالفة ذٰلك للتقاليد، وودّت هي أن تفعل مثله لولا ضيق وقتها بعد ذهاب عنايات. وتوجّست خيفة من المستقبل وتساءلت متى يكبح الغلاء وهل يفلت من يدها الزمام؟ وهل يمكن أن تطالب زغلول ورمضان ومحمود بمزيد من التقشّف؟! وليس من النادر أن يعرب محمّد فتحي عن عذره فيقول:

ـ إنّي رجل بيت مثاليّ، من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، كلّ ما يجيئني من نقود اسلّمه لك عدا ثمن السجائر والمواصلات. . .

ويردف ذٰلك عادة بتحيّة يزجيها إليها فيقول:

ـ والحمد لله أنّك يا جمالات امرأة حكيمة مدبّرة، البلد في حاجة إلى وزير ماليّة في مثل حزمك ودقّتك، لا ملّيم يتبدّد هباء في بيتنا.

وإنّها لكذٰلك حقًّا. وكثيرًا ما تُرمى بالبخل ولٰكنّها ترفض الصفة قائلة إنّه الحرص والحكمة في مواجهة زمان عبوس. ألا يكفي أنّها تبدو أكبر من سنّها (خمسين عامًا)، بل أكبر من زوجها الذي يكبرها في

الواقع بخمسة أعوام. لقد ازداد وزنها، فقدت رشاقة عُرفت بها أيّام الشباب، وخدّدت التجاعيد جانبي فيها، وحالت نضرة بشرتها، وإنّها لتغبط الرجل على صحّته وتتّهمه ـ في نفسها ـ بمداهنة الهموم ومدافعتها ما استطاع عن باله. من ذلك أنّها تتابع أبناءها بالملاحظات والنقد أمّا هو فيقول:

ـ أبناؤنا يسرّون الخاطر يا جمالات، لنحمد الله العليّ القدير، حياتهم مستقيمة، تفوّقهم في الدراسة ملحوظ، متجنّبون للانحرافات التي نسمع عنها هذه الأيّام...

ثلاثتهم من أبناء الثورة، ولكنّهم ثمرة تربيتها قبل ذلك، ثمرة تربية أخلاقيّة حازمة، ودور الأب في ذلك لا يقلّ عن دورها. لم تستحوذ عليهم عاطفة سياسيّة بمثل ما استحوذت عليهم رغبتهم الصادقة في التفوّق. وهم يعتبرون أنفسهم منتمين إلى الثورة على مدى أطوارها، ولكنّهم لو سئلوا عمّا يعنيه ذلك فلعلّهم لا يجدون جوابًا خيرًا من أن يقولوا إنّهم ليسوا من اليسار أو التيّار الدينيّ المتطرّف. ولم يفتْ جمالات أن تقيّم هذا الموقف. إنّها ـ كمربّية أصيلة ـ تهتمّ بتقييم المبادئ كما تهتمّ بميزانيّة البيت. وهي تناقش زوجها في كلّ شيء. والرجل يقول:

ـ موقفهم باهت، لعلّنا لا نختلف عنهم كثيرًا يا جمالات، ولكن تذكّري المحاكمات كي تحمدي الله على ذلك...

ويقول أيضًا:

ـ المهتمّون بالسياسة اليوم قلّة، أمّا الأكثريّة فمنهمكة في طلب اللقمة... سوف يكونون أطبّاء ممتازين ومواطنين صالحين، وهذا خير من أيّ سياسة...

وتغري جمالات نفسها فتقول إنّ السفينة يجب أن تبلغ مرفأ السلام قبل أن تعصف بها الرياح.

وكان يوم من أيّام فبراير ضاعفت قوّة الريح فيه من البرد، وغشيت العمارات المتلاصقة في الخارج غلالة هابطة من الغيم.

٢

دقّ جرس الباب. فتحت فرأت أمامها أمّ عنايات. لا يبدو من السواد الذي يكتنفها إلّا وجه مدبوغ وعينان ذابلتان. أدخلتها مرحّبة، متسائلة في سرّها ترى هل فشل مشروع الزواج، وهل جاءت تسعى لإرجاع البنت إلى خدمتها؟

ـ أهلًا يا أمّ عنايات، ما أخبار العروس؟

تربّعت المرأة فوق الكليم القديم في المدخل ـ الأثاث كلّه قديم ـ وتمتمت:

ـ أخبار لا تسرّ يا هانم.

ـ لِمَ كفى الله الشرّ؟

تجهّم وجه المرأة وأغمضت جفنيها منذرة بالبكاء فسألتها جمالات:

ـ ماذا دهاك؟

ـ قام ابن عمّها بالواجب، أصبح الفرح قريبًا، لكن حسدونا يا هانم.

تساءلت بقلق:

ـ ماذا حصل للبنت؟

ـ اختفت، هربت، دفنت رأسي في الطين، هذه هي الحكاية...

ـ هربت؟!

ـ نعم، لا تفسير لذلك في قريتنا، إلّا أنّها هربت بعارها...

فقالت جمالات بقلق:

ـ عنايات!

ـ ابن عمّها زين الرجال، لا تفسير آخر، وأكثر من شخص يطالب بغسل العار!

اضطرب رأس جمالات بالخواطر المتلاطمة السريعة وتمتمت:

ـ يا له من خبر!

والمرأة دافنة عينيها طيلة الوقت في الكليم. تمطّى قلق جمالات. ماذا جاء بالمرأة؟ قالت:

ـ لعلّك توهّمت أنّك ستجدينها هنا؟

ـ إنّها لم تعرف مكانًا آخر.

ـ ولكنّ بيتنا معروف لديك ولا يصلح للهرب.

ـ رأسي حائر، لا أدري كيف أتصرّف...

ـ إنّي مقدّرة لذلك، ومندهشة، فعنايات مستقيمة لا شكّ في ذلك...

ـ تربّت عندك، عند أحسن الناس.

أثار القول أعصابها ولٰكنّها قالت بهدوء:

ـ كانت دائمًا موضع رعايتي، وعُرفت في الخارج بالاستقامة. . .

فترددت الأمّ ثمّ قالت:

ـ ربّما كان أحد في الخارج. . .

ولٰكنّها قاطعتها:

ـ لا أظنّ ولا أتصوّر.

ـ أمري لله.

ـ هل نُجري تحقيقًا في السوق؟ الحقّ أنّها لم تتأخّر مرّة دقيقة أكثر من المتوقّع.

ـ الأمر لله وهو المطّلع. . .

بلغ الضيق بجـلالات حدّ الغضب. تـرامى إلى مشمّها رائحة طعام يحترق. هبّت مسرعة إلى المطبخ فوجدت البامية قد جفّ ماؤها وشاطت. نسيت همومها وراحت تعالج الموقف بسخط إضافيّ. ولمّا رجعت إلى المدخل ـ وإلى الهموم ـ وجدت المرأة واقفة مـرتبكة، فقالت لها:

ـ ابقي للغداء.

وقـرّرت أيضًا ـ بـلا أدنى ارتياح ـ أن تهبهـا أجرة الرجوع إلى بيتهـا. وطيلة الوقت لم يخـلُ رأسها من الفكر.

٣

مـا هٰـذا الـذي حـدث؟ متى وكيف ومَن؟ أمّ عنايات امرأة حائرة معذّبة مكسورة الجناح ولٰكنّها تشير بأصبع الاتّهام. ما حدث قد حدث وعنايات أمانة في عنقهـا. جاءتهـا وهي بنت سبع. ثمّـة مسئوليّـة ولا شكّ. لا توجد قضيّة ولا توجد محكمة ولٰكن يوجـد ضمير. وهي تستطيع أن تعصف بأيّ اتّهام يوجّه إليها ولٰكن كيف السبيل إلى إسكات بلابل العذاب الخفيّ؟ لا تفسير للهرب إلّا شيء واحد. القريـة صادقـة في ظنونها. الجريمة وقعت والبنت في خدمتها. تتابعت في مخيّلتهـا صـور زغلول ورمضـان ومحمـود. تنهّدت مغمغمة:

ـ لٰكنّهم أبنائي!

طنّت الجملة في باطنها مثل شعار بالٍ. عنايـات جميلة. نضجت في بيتها قبل الأوان. فطنت في وقتها إلى تحذيرات جمالها الناضج. آمنت أنّـه من الأفضل إرجاعها إلى أمّها. لم تنفّذ فكرتها لشدّة حاجتها إليها. وصادف ذٰلك ورود طلائع المرض. وأيّدت سلبيّتهـا بأنّ أمّ البنت أرملة وحيدة وفي حاجة إلى النقود. وأنّها لن تستطيع على أيّ حال الاحتفاظ بها في بيتها. بنت رائعـة فحتّى الطهي أحسنتـه. في القـريـة يـركّـزون المسئوليّة في الضحيّة. إنّها هي أيضًا ضحيّة.

***

اجتمعت الأسرة حول السفرة في منتصف الثالثة. لا يشغل بالهم إلّا القضاء على الجوع عقب نهار برد وعمـل مرهق. وجـوههم مستبشرة. يبدو أنّ وجهًـا يقول شيئًا ما فها هو محمّد فتحي زوجها يتساءل:

ـ مالك؟

قالت وهي تبتسم:

ـ يوم بارد كئيب.

فقال محمود ضاحكًا:

ـ ولٰكنّ طعامك لذيذ.

ها هم حولها. زغلول رصين، لدرجة البرودة حتّى ليوصف بأنّه إنجليزيّ. ذقنه مدبّب وعيناه جاحظتان قليلًا ورأسه كبير بشكل ملحوظ. عاقل جدًّا، شغّال جدًّا، محترَم جدًّا، مترفّع عن المهاترات، ربّما أخـطأ أحـد أخويـه في حقّه ولٰكنّـه لا يخطئ، حتّى المـزاح البريء لا يميل إليه. رمضان كبير القسمات واضحها، عملاق في حجمه، مارس الملاكمة والمصارعـة ولٰكنّه والحقّ يقال مهذّب، غاوي مناقشة ولٰكنّ المناقشة تهمّه أكثر من الرأي نفسه، مغرم بالقراءة، يودّ أن يتفوّق على زغلول نفسه. محمود أجمل الثلاثة وجهًا، ممشوق القـوام، محبّ للأنـاقة والغنـاء، طيّب القلب وحييّ وذكيّ وصديق لزغلول. الأوّل طالب طبّ والآخران يحلمان باللحاق به وتَعِدُ قدرتهما بـذٰلك. مَن منهم؟ سلوكهم آيـة في الاستقـامـة، لا تتخيّلهم في صـورة أخرى حتّى لو كانت ظروفهم المادّيّة أحسن. ثلاثتهم يصلّون ويصومون بـلا إثارة من تعصّب أو هَـوَس. متوّجون بـالتهذيب والاعتـدال والنشاط. لا تتصـوّر

بحال أنّ الجاني أحدهم ولٰكنّ وساوسها لا تنام. الأب لا يدري بما يمزّقها. إنّه يتناول طعامه في صمت وتركيز، عملاق أيضًا، شاربه الغليظ يتحرّك فوق شفته تحيّة لأجيال خلت. عمّا قليل يشاركها همومها. إنّه مثلها ذو ضمير، ومثلها أسهم في تربية الثلاثة. ما جدوى ذٰلك كلّه؟ متى يجود القدر بالبراءة والراحة؟!

***

لم تسنح الفرصة لإثارة الموضوع إلّا عندما جمعتهما حجرة النوم للقيلولة. تبيّن لها أنّه كان يراقبها أكثر ممّا قدّرت فسرعان ما قال بجدّيّة:

ـ جمالات، لست كعادتك.

فقالت بنبرة اعتراف:

ـ ملاحظتك في محلّها تمامًا.

رنا إليها متسائلًا في اهتمام وهو يشعل كليوباطرة فقالت:

ـ زارتني اليوم أمّ عنايات وأخبرتني أنّ عنايات هربت قبل الزفاف!

ردّد قولها ببطء وهو يغوص فيه بحذر وإشفاق. تبادلا نظرة طويلة مثقلة بالشكّ ولٰكنّه لم ينبس فقالت جمالات:

ـ أنت تدري كيف يفسّرون ذٰلك في القرية، ولعلّه التفسير الوحيد المقبول، وهو يعني أنّها ستظلّ عرضة للقتل في أيّ وقت. وأنّها في جميع الأحوال قد ضاعت...

فتساءل كالمتهرّب:

ـ لعلّها أملت أن تجدها عندنا؟

ـ قالت ذٰلك...

ـ تفكير غير سليم.

ـ إنّها تتصرّف بوحي من اليأس ولٰكن يوجد اعتبار آخر!

ـ اعتبار آخر؟

ـ محمّد، يضايقني تغابيك في المآزق، ثمّة اتّهام موجّه لبيتنا...

فتمتم بقلق:

ـ ساء ظنّها.

واضح من نبرته أنّ الهمّ قد ركبه، أنّها لم تعد وحدها، قالت:

ـ هٰذه المآسي محتملة الحدوث كما تعلم.

فقال بصوت ضعيف:

ـ الأولاد عقلاء.

ـ وهم أيضًا مراهقون.

ـ إنّهم نماذج طيّبة جدًّا لجيلهم.

ـ ولو.

فتساءل بقلق:

ـ ماذا عندك؟

ـ لا شيء على وجه اليقين.

ـ أحيانًا ألمح وقوفهم في النوافذ ولٰكن ماذا نتوقّع؟

ـ طبعًا توجد بنات الجيران، إنّي أقنع عادة بإرشادات عامّة أضمّنها حديثي وكأنّها غير مقصودة لذاتها.

ـ عين الصواب، هل علموا بالمأساة؟

ـ كلّا بعد.

ـ هل يجدي النبش والتحقيق؟

ـ لا أدري.

أطفأ الرجل سيجارته وتساءل بضيق:

ـ ألا يمكن أن ننسى الموضوع؟

رغم أنّها تمنّت ذٰلك إلّا أنّها قالت:

ـ المسكينة أهدرت حياتها.

ـ ليس في وسعنا أن نفعل شيئًا، هل في وسعك ذٰلك؟

ـ ليته كان ممكنًا، المساعدة غير ممكنة ولٰكنّ الراحة أيضًا مستحيلة...

ـ افترضي أنّك عرفت الجاني فهل يهبنا ذٰلك أملًا جديدًا؟

ـ من العدل أن يعرف ما جنته يداه...

صمت متفكّرًا ثم قال:

ـ يا له من كابوس!

ـ هو ذٰلك تمامًا.

فنفخ قائلًا:

ـ لا داعي لأن نسبق الحوادث...

فقالت بإصرار:

ـ بل يجب أن يعرف الأمر، أن يعرف الخبر على

الأقلّ...

- إنّك تنبّشين عن المتاعب.

- لقد وُجدتُ رغمًا عن إرادتي...

فقال مقطّبًا:

- اعتمدي في ذلك على نفسك!

- أنت تحاول الهرب.

- هربت أم لم أهرب ستدركني الحوادث حيث أكون.

فقال بوضوح:

- فلنؤجّل الحديث إلى عطلة الجمعة.

٤

وجاء يوم الجمعة. تبدّى محمّد قلقًا كئيبًا أمّا جمالات فكانت أقدر على حبس انفعالاتها. وعقب الإفطار تهيّأ الإخوة إلى حفلة الساعة العاشرة بالسينما. وبصوت مرتفع قالت جمالات مخاطبة زوجها:

- زارتني أمّ عنايات التي تركتنا لتتزوّج من ابن عمّها، وأخبرتني أنّ البنت هربت قبل الزفاف.

انتبه زغلول ورمضان ومحمود باهتمام، اتّجهت أبصارهم نحو أبيهم وهو يتساءل متجنّبًا نظراتهم:

- هربت؟... ما معنى ذلك؟

فقالت جمالات:

- لا معنى لذلك في القرية إلّا أنّها هربت لتخفي عارها!

وحلّ صمت ثقيل حتّى قال زغلول:

- ربّما وُجد وراء ذلك سبب آخر.

فسألته أمّه:

- أيّ سبب؟

- لعلّ العريس لم يعجبها.

- هذا يحدث في السينما.

فقال رمضان:

- أو هربت مع آخر.

- لو صحّ ذلك لعرف في الحال، وعلى أيّ حال فستظلّ مهدّدة بالقتل.

فتساءل محمود:

- ما زالت تلك التقاليد مرعيّة؟

- وستظلّ مرعيّة طويلًا.

فقال زغلول:

- يا له من سوء حظّ، كانت بنتًا طيّبة...

فقالت جمالات:

- الطيّب عرضة للخداع.

أدركت جمالات أنّهم يشعرون تمامًا بالتهمة المعلّقة فوق رءوسهم. قال رمضان:

- نحن لا ندري شيئًا عمّا يحدث في الخارج.

فقالت جمالات بقوّة:

- ما يحدث في الخارج يتردّد صداه في الداخل!

فتساءل محمود:

- ماذا تعنين؟

فهدأت نوعًا وهي تقول:

- أعني أنّ... أعتقد أنّ البنت بريئة...

- إذن فلماذا هربت؟

إنه هو الذي يحقّق! على ذلك تمنّت من الأعماق براءتهم. وتمتمت:

- الله أعلم!

وضاق صدر زغلول بالمناقشة فنهض وهو يقول:

- صدقت، إنّه أمر مؤسف ولكن ما الحيلة؟ وقد آن لنا أن نذهب...

ولّما خلا لهما المكان نظرت إلى زوجها قائلة في عتاب:

- لم تتفوّه بكلمة.

- إنّي حزين، هل أفادك ما فعلت؟

- هو الواجب.

- هل خرجت بانطباع ما؟

- يلوح لي أنّهم أبرياء.

- أرجو ذلك.

مضت ترفع أواني الطعام وهي تقول:

- عيبنا أنّ لنا ضمائر.

فقال بسخرية:

- أفنينا العمر في تربية الضمائر.

فرجعت من المطبخ وهي تقول:

- يقال إنّ زماننا بلا ضمير.

- في كلّ عصر مضى قال عنه أهله ذلك.

ـ أتعني أنّ الضمير خرافة؟

ـ كلّا، ولٰكنّه درجات، وأرفعه شأنًا الضمير الذي يردف القول بالعمل فهو نادر جدًّا في كلّ عصر، هبي أنّك عرفت أنّ ابنًا من أبنائك هو الجاني فماذا كنت تفعلين؟

فتساءلت متحدّية:

ـ هل تتوقّع أن أبلغ الأمر للشرطة؟

ـ دعينا من الأساطير.

ـ توجد سبل كثيرة للتكفير عن الأخطاء أو إصلاحها.

ـ إنّها تتطلّب قدرًا كبيرًا من الشجاعة.

ـ أعلم ذٰلك...

ـ عظيم.

ـ لٰكنّ شعوري يحدّثني بأنّهم أبرياء.

فتمتم بسخرية:

ـ إنّك تنشدين الراحة...

فقالت بحدّة:

ـ كلّا...

فقال متنهّدًا:

ـ ثمّة أناس يولدون للضياع.

ـ لعلّك تشير إلى دور المجتمع؟

فهزّ رأسه بالإيجاب فقالت:

ـ نحن ننشد الراحة بأيّ سبيل.

فقال في ضجر:

ـ إنّي مغتمّ من أجلهم قبل كلّ شيء.

ـ وأنا مثلك ولٰكنّني مغتمّة من أجل البنت أيضًا...

ـ لست وحشًا كما تعلمين، أأنت واثقة من براءتهم؟

ـ أين منّي ليت!

ـ هل نمضي إلى الأبد على هٰذه الحال الجنونيّة؟!

فصمتت جمالات في غاية من التعاسة ثمّ تمتمت:

ـ ليتنا نعثر عليها لنفعل ما نستطيع من خير.

٥

المتاعب الطارئة ـ رغم حدّتها ـ تهون إذا انتظمتها سلسلة المتاعب القائمة. إنّها تصارع كلّ يوم متاعب اللحوم والمواصلات والتليفون والمجاري فأوشكت أن تألف مأساة عنايات. غير أنّ أمّ عنايات رجعت ذات ضحا. ولم تكن وحدها فها هي تسوق أمامها عنايات نفسها! يا لها من مفاجأة فجّرت الأزمة كأعنف ما يكون الانفجار. اجتاحتها انفعالات متضاربة. تجهّم المستقبل ـ مثل السماء ـ بالسحب. ها هي عنايات أمامها كما تمنّت ولٰكن أيّ إزعاج أثارته! رغم كلّ شيء رحّبت بها قائلة:

ـ الحمد لله!

قالت الأمّ:

ـ أولاد الحلال دلّوني عليها، فررت بها لأنقذها من الموت، ولم أجد لها مأوًى آمَن من بيتك!

حاولت أن تقرأ شيئًا وراء الوجه المدبوغ ولٰكنّه بدا جامدًا لا يبين. إنّها محاصرة. لا تستطيع أن ترفضها ولا تودّ أن تقبلها. قالت:

ـ سيهتدون إليها هنا...

ـ آخر مكان يتصوّرون وجودها به، فضلًا عن ذٰلك فهم يجهلونه، لا ترسليها إلى الخارج، قلبك كلّه رحمة يا ستّ...

نظرت إلى عنايات فأجهشت في البكاء. ذبل جمالها واتّسخ. وهي خجلى تعيسة لا تستطيع أن ترفع عينيها. وسحبت جمالات الأمّ من يدها إلى المطبخ ثمّ قالت لها بحزم:

ـ أريد أن أعرف ما تعرفين.

فقالت الأمّ بحرارة:

ـ لا أعرف شيئًا.

ـ تمكرين بي؟

ـ لم يكن لديّ وقت، تسلّمتها وطرت بها قبل أن يتنبه إلينا أحد.

ـ ولٰكنّك قرّرتها؟

ـ أبدًا وحياتك.

فقالت بإصرار:

ـ لا أقبلها حتّى أعرف.

فتساءلت الأمّ بانكسار:

ـ هل ترسلينها للموت؟

فلعنتها في سرّها وقالت:

ـ ستحمّلني من الهمّ ما لا يطاق.

ـ ربّنا ستّار وقلبك كلّه رحمة.

فقالت بوضوح:

ـ إذا أزعجنا أحد من القرية فلن أسمح بأن أجعل من بيتي مسرحًا لمعارك.

فقالت الأمّ بيقين:

ـ لن يكون ذٰلك.

وسرعان ما غادرت الأمّ البيت وكأنّها تفرّ.

٦

جلست جمالات في المدخل وعنايات قاعدة على الأرض بين يديها. قالت لها:

ـ لا شكّ تذكرين رعايتي لك لذٰلك لم أصدّق.

فأحنت رأسها ولم تنبس فقالت:

ـ طبعًا هربت لسبب، ما هو؟

ثابرت على صمتها فقالت جمالات:

ـ ليكن الأمر كما ظنّوا، صارحيني مَن هو؟

غاصت في الصمت أكثر.

ـ يجب أن أعرف، هٰذا ضروريّ جدًّا لإنقاذك.

راحت تنشج فقالت جمالات:

ـ لا... تكلّمي... لا بدّ أن أعرف.

بإزاء إصرارها همست عنايات:

ـ لا أحد.

ـ إذن لماذا هربت؟

ـ لا أريد أن أتزوّج.

فقالت بريبة:

ـ لكنّه زوج مناسب.

ـ لا أريده.

ـ تحلفين على ذٰلك؟

هزّت رأسها بالإيجاب:

ـ توجد أكثر من وسيلة لمعرفة الحقيقة.

فلم تنبس فقالت بحدّة:

ـ كذبك واضح، أريد الحقيقة يا عنايات...

فرجعت تهمس:

ـ لا أحد.

ـ لعلّك تحبّين رجلًا آخر؟

هزّت رأسها نفيًا فهتفت جمالات:

ـ إنّك تعبثين بي يا بنت.

فنشجت مرّة أخرى.

ـ كفّي عن ذٰلك، أريد الحقيقة، لماذا تخفينها، لقد ربّيتك مذ كنت بنت سبع، أنسيت ذٰلك؟

فغمغمت بانكسار:

ـ لا أحد.

ـ ما عيب عريسك؟

فلاذت بالصمت.

ـ أهو عجوز؟

هزّت رأسها نفيًا.

ـ أليس ابن عمّك؟

فهزّت رأسها بالإيجاب.

ـ هل به عيب؟

فلم تنبس فصاحت:

ـ أقلعي عن هٰذا الخرس، أنا لا أصدّقك ولا بدّ من الحقيقة.

ولكنّها لاذت بالصمت ونشجت للمرّة الثالثة فحنقت عليها متمنّية في الوقت نفسه أن تكون صادقة. تساءلت:

ـ إذن لم يعتدِ عليك أحد؟

فهزّت رأسها بالإيجاب. تتمنّى أن تصدّقها ولكن من أين لها اليقين؟ ورأت الاكتفاء بهٰذا القدر من الاستجواب مؤقّتًا. قامت وهي تقول:

ـ خذي راحتك ونظّفي نفسك والله يتولّانا برعايته.

٧

رجع الرجال إلى البيت فتناولوا غداءهم. الشقّة باردة مثل الخارج أو أكثر ولكنّ إحكام إغلاق نوافذها حماها من عواصف أمشير فلم يقتحم الداخل إلّا زفيف رياحه. هٰذا البيت لا يحبّ الشتاء وخاصّة أمشير. توارت في أثناء ذٰلك عنايات في المطبخ فلم ينتبه لوجودها أحد. وطيلة الوقت جعلت جمالات

تتأهّب لإلقاء الخبر. ردّدت في أعماقها بإصرار «لا أحد». حلّ سعيد لم يجر لها في بال. لِمَ لا؟ البنت بريئة ولأمر ما كرهت الزواج فهربت. إنّه لا يصدّق ولكنّه غير مستحيل. لعلّها تحبّ شخصًا آخر. إن صحّ تخمينها فهي تحبّ صبيّ الكوّاء فهو شابّ وسيم ويخطر عادة في البلوفر والبنطلون. وبعد الفراغ من الطعام مضت إلى حجرة الجلوس وهي تشير إليهم أن يتبعوها. جلسوا على الكنب العتيق. توقّعوا أمرًا وقال محمّد فتحي الأب:

ـ لو تمطر السماء يصفو الجوّ وتهدأ العاصفة...

نظرت صوب التلفزيون والراديو الصامتين فوق حاملهما الخشبيّ وقالت ببساطة:

ـ عنايات هنا...

شخصت الأبصار. شخصت إليها باهتمام واضح. باتت عنايات بؤرة الإثارة وهدفها. ولم ينبس أحدهم بكلمة. انتظروا المزيد بوجوه مفصحة عن الاهتمام وحده. قصّت عليهم قصّة رجوعها وخطّة أمّها ثمّ قالت بارتياح:

ـ حقّقت معها فأسفر التحقيق عن لا شيء، زوبعة في فنجان كما يقولون...

تساءل محمّد فتحي:

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا جناية ولا جانٍ...

تمطّى الصمت حتّى شمل الكون حتّى تساءل الأب:

ـ لِمَ كان الهرب إذن؟

فأجابت بسخرية:

ـ العريس لا يعجبها!

ـ هل يصدّقونها هناك؟

ـ ما زالت حياتها معرّضة للخطر، ولعلّها معلّقة بشخص ما، لعلّه صبيّ الكوّاء، سأعرف كلّ شيء في حينه...

تمتم الأب:

ـ عادت المشاكل إلى بيتنا!

ـ قد تتزوّجه وينتهي الأمر.

فقال الأب بامتعاض:

ـ كان من الخير ألّا نقبلها.

ـ لم يكن بوسعي أن أطردها إلى الموت.

ـ قد يسعى إليها الموت هنا...

ـ إذا تزوّجت انتهى كلّ شيء بسلام.

وقلّبت عينيها في الوجوه ثمّ قالت:

ـ لقد تصرّفت في نطاق ما نؤمن به من مبادئ فلا تلمني.

٨

عاشت جمالات في قوقعة الطمأنينة قانعة بمصارعة المعيشة. رغم كلّ شيء تابعت عنايات بعين يقظة. نبت في أعماق قلبها شكّ مثل دودة خفيّة. كلّما حاولت استدراجها سمعت عبارة عنيدة «لا أحد». اضطرّت مرّة إلى أن تسألها:

ـ لعلّه صبيّ الكوّاء؟

فهزّت البنت رأسها نفيًا.

ـ هل ترفضين الزواج إلى الأبد؟

فلم تحر جوابًا ومضت في عملها. وكانت عنايات تنام في الطرقة المؤدّية إلى المطبخ فوق شلتتين متلاصقتين تحت بطّانيّة خشنة. ومرّة في جوف الليل وجمالات راجعة من الحمّام تلقّت من إحساسها رسالة خفيّة بأنّ الطرقة تموج بحياة حذرة مكتومة. توقّفت وأطفأت النور وذابت في الظلام بقلب خافق. أشفقت من الإقدام وعجزت عن الذهاب. امتلأ رأسها بأفكار مثل الظلام. هل يمكن أن يتسلّل أحد من الخارج وهم نيام؟ أيّ شيطانة! وأيّ تعاسة تقتحمها من جديد! وقبل أن تتّخذ قرارًا رأت في الظلمة التي ألفتها عيناها شبحًا يتسلّل من مدخل الطرقة ماضيًا نحو حجرة الأولاد. تلاشت أحلامها تحت صاعقة الحقيقة. صاعقة محقت أيّ أمل. جسّدت الاتّهام وقذفت به في وجهها. تركته يذهب وهي مشلولة تمامًا. لم يهن عليها تفجير الفضيحة ولا إرعابه ولا حتّى مواجهته. ثمّة طرق أخرى توصل للحقيقة. وسوف توصل الحقيقة إلى الجنون. وبلا تردّد اتّجهت نحو الطرقة. أسدلت ستارة مدخلها وأضاءت المصباح. فتحت عنايات عينيها فزعة ولم تكن نامت بعد.

نهضت مرتعدة ووقفت مستسلمة للأقدار. حدجتها جمالات بنظرة صارمة وسألتها:

- مَن؟

ولّما تردّدت لطمتها على وجهها قائلة بانفعال شديد:

- انطقي...

فاندفعت تهمس في فزع:

- زغلول!

يا للداهية!... يأبى الداء إلّا أن يصيب مقتلًا. اضطربت أنفاسها.

- زغلول!...

لاذت بالصمت منهارة تمامًا:

- هو الجاني؟

هزّت رأسها نفيًا. ما معنى هٰذا؟

- ليس هو؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

- مَن الآخر؟... انطقي...

وهزّتها بعنف مكرّرة:

- انطقي...

فهمست:

- سيّدي محمود...

- عرفت الاثنين في وقت واحد؟

فصمتت ولٰكنّه الصمت المغني عن الجواب... فتساءلت الأمّ:

- وهل يعلم أحدهما بما يفعل الآخر؟

هزّت رأسها نفيًا، ثمّ قالت بنبرة باكية:

- على رغمي... لم أستطع صدّهم... جاءوا كلّهم...

- رمضان أيضًا؟

- نعم... على رغمي...

- أنت فاجرة!

بسطت راحتيها في يأس وأجهشت في البكاء.

٩

لّما رجعت إلى الحجرة وجدت محمّد فتحي يغطّ في نومه. على ضوء المصباح السهاري رأت الساعة تدور في الواحدة صباحًا. لن يغمض لها جفن ولٰكنّها أشفقت من إيقاظه. انتظرت في عذابها حتّى الفجر ثمّ نادته:

- معذرة، عليك أن تشاركني سهادي...

فتح عينيه ثمّ تساءل:

- ماذا أيقظك؟

- إنّي في حاجة إليك...

طار النوم وحلّ محلّه قلق ثمّ تساءل:

- الموضوع نفسه أم شيء جديد؟

- نفسه!

تزحزح جالسًا وهو يتمتم:

- لم يطمئنّ قلبي أبدًا.

وصبّت عليه الحقيقة صبًّا لتتخلّص من قبضتها الخانقة حتّى أسند رأسه إلى راحتيه وهو يقول:

- كارثة!

وتبادلا النظر في حيرة فتركها حتّى تساءلت:

- كيف نتصرّف؟

- ليتك ما سمحت لها بالبقاء.

- ما كان ذٰلك ليخفّف من الجريمة.

وإذا به يقول في خشونة:

- جمالات، الكلام عن الأخلاق شيء والسلوك الأخلاقيّ شيء آخر تمامًا، وقد حرصنا طيلة عمرنا على الاستقامة فلم يرسب في تاريخنا ما نخجل منه، وأنشأنا أبناءنا على مثالنا.

فتساءلت في أسى:

- وما النتيجة؟

- لم تصادفنا تجربة بهٰذه القسوة، كيف نتصرّف؟ لنكن واقعيّين، لقد وقعت جريمة ولٰكن لن نعدم لها الأعذار الطبيعيّة المناسبة.

- ليكن، ولٰكنّ المهمّ في تصرّفنا بعد ذٰلك.

فقال بنبرة لم تخلُ من غيظ:

- هٰذا صحيح، فما التصرّف الصحيح؟ إنّه واضح وهو أن يتزوّج محمود من البنت التي شاركه فيها أخواه وهم لا يعلمون، بذٰلك نسترها ونكفّر عن خطيئتنا وننقذها من الموت، فهل أنت قادرة على الحلّ الصحيح؟

أرخت جفنيها في ذلّ وانكسار فقال:

- هٰذا هو الواجب، الكلام سهل أمّا الواجب فهذا هـو، وهو كفيـل بهزّ مستقبله ويجعلنـا مضغـة أفـواه المحبّين قبل الكارهين، إنّي أعرف تشدّدك وتقـواك، عظيم، افعلي ما ترينه صوابًا. . .

ها هو يلقي عليها الحمل. كأنّما يتحدّاها. يخيّرها بين الذلّ والجريمة. وهي تمقت الجريمة ولٰكنّهـا تجزع أمام الحلّ الصحيح. هٰذه هي الحقيقة التي تصفعها. وعوضًا عن الإجابة دمعت عينـاها. ولم يـتراجع عن خطّه فقال:

- ما جدوى الدموع؟ القرار عسير، خـذي مهلة كافية للتفكّر. . .

فقالت بصوت ضعيف:

- الأمر لا يخصّني وحدي.

فقال بلا تردّد:

- إن أردت رأيي فاعلمي أنّي رجل واقعيّ كما أنّي أخلاقيّ.

فانتظرت في امتثال فقال:

- ممكن أن نـزوّجها من ابن الحـلال بعـد اتّخـاذ الاحتياطات الطبّيّة الواجبة.

صمتت مغلوبة على أمرها ولم تخلُ من سخط عليه وعلى نفسها معًا. وشعرت بخجل كإنسـان جُرِّد من ملابسه فجأة. أمّا محمّد فواصل قائلًا:

- لا مفرّ في هٰذه الحال من إبقائها حتّى نبلغ بها برّ السلامة، ولٰكن عليك أن تخترقي الحاجز بينك وبين الأثيمينَ.

- ألا تقوم أنت بهٰذه المهمّة؟

فقال بحسم:

- بل أنت، والأفضل أن تزعمي لهم أنّني لم أعرف شيئًا.

- لماذا؟

- هو الأفضل. . .

فتفكّرت وقتًا ثمّ قالت:

- إنّه الحلّ الممكن ولٰكنّه ليس الأمثل، أمرنا لله، وهـو سيعرّينـا جميعًا نحن وأبنـاءنا ويفضح ضعفنـا الحقيقيّ. . .

- سيدركون أنّنا نضحّي بالسلوك النقيّ من أجل مصلحتهم.

- وسيدركون أيضًا أنّنا كاذبون، صناعتنا الكلام لا أكثر ولا أقلّ. . .

فتساءل في عصبيّة:

- أليسوا المسئولين عن الجريمة؟

- ونحن المسئولون عن الحكم.

فقال بضيق:

- تصرّفي إن استطعت على مستوى مبادئك.

فهتفت:

- كأنّما تسعى لإذلالي. . .

فخفّف من نبرته قائلًا:

- معاذ الله، كلانا غارق في مصرف واحد!

وتبـادلا نـظرة خلت من الـروح والثقـة وأتـرعت بالأسى.

١٠

الصباح يفتتح يومًا مفعـمًا بالمعـاناة. مـا زال البرد قارصًا والرياح عاصفة. وتنظر من وراء زجاج النافذة المغلقة فترى الطريق ممتدًّا حتّى المنعـطف، لا شجرة به، الريح تنشر الزبالة فوق أديمه، وجه الطوار متشقّق متعدّد الفجوات، والناس يترنّحون هنا وهناك. لقد انصرفوا جميعًا، وعنايات تعمل في المطبخ، وهي تفكّر في المواجهة التي ستتمّ بينها وبين أبنائها منفردينَ. إنّها الكآبة والحرج. وكانت بدأت بالبنت فقالت لها بحزم حادّ:

- حـذارِ أن تـذعني لأحـدهم، كفى مـا كـان، وسنجد لمشكلتك الحلّ المناسب. . .

مِن آنٍ لآخر جعلت تـراقبهـا وهي منهمكـة في عملها. ترى ماذا يدور في رأسها؟ تبدو خالية البال كأنّ الموت لا يتهدّدها. بل أخذت النضارة تلوح في وجهها الأسمر ووجنتيها البضّتين. كما رثت لها حنقت عليها. مأساتها مأساة مَن يواجهنَ الحياة بلا مال ولا عِلم. وتذكّرت ضيقهـا إزاء الغلاء المتصـاعد وكيف تهبط أسرتها درجة بعد درجة. إنّها تلبّي طلبات الأبناء بنسبة لا تزيد عن خمسين في المـائة، ولـولا جدّيّتهم وتسلّط روح العمل عليهم لانفجرت أزمات وأزمات.

وهي تمرّ بالبنت قالت هٰذه:

ـ ستي.

فتوقّفت متسائلة فتساءلت البنت:

ـ هل تريدين أن أذهب؟

فقالت بعصبيّة:

ـ لم أقل ذٰلك قطّ.

فتمتمت:

ـ أشعر بأنّي غير مرغوب فيّ . . .

ـ انتبهي لعملك ونفّذي ما أوصيتك به.

اتّجهت إليها بكلّ جسمها وقالت بصوت منخفض:

ـ عرضوا على أمّي أن أعمل في شقّة مفروشة!

يا لها من مفاجأة. تساءلت في استنكار:

ـ ألا تفهمين ما يعنيه ذٰلك؟

فقالت بصراحة لم تتوقّعها:

ـ لن يكون أسوأ ممّا أنا فيه، ويمكنني أن أقتصر على السهر في الشقّة!

وقالت جمالات بامتعاض شديد:

ـ سنجد لك مصيرًا أحسن!

فقالت بصوت حزين دلّ على أنّها ليست خالية البال كما بدت لعينيها:

ـ لا يوجد لي مصير حسن.

عند ذاك دقّ جرس الباب فذهبت جمالات لترى من القادم.

وكان القادم هو محمود.

١١

ماذا أرجعك؟

مضى بها إلى حجرة الجلوس وهو يشير:

ـ تخلّفت عن المدرسة لأحدّثك على انفراد.

أجلسها إلى جانبه فجلست متوقّعة أن تسمع اعترافًا و ـ ربّما ـ حلًّا من نوع ما. قال:

ـ لا أستطيع أن أحتمل أكثر ممّا احتملت.

فنظرت إلى الأرض بوجوم رافضة أن تتظاهر بما ليس فيها، فقال:

ـ الموضوع يتعلّق بعنايات!

فلم يتغيّر من حالها شيء فاعترف قائلًا:

ـ لقد كذبتُ عليك، هناك اعتداء وأنا المعتدي. . .

وتفرّس في وجهها ليرى أثر كلامه ثمّ قال:

ـ أدرك الآن أنّك عرفت الحقيقة.

ـ أجل.

ـ شدّ ما تعذّبت عند سفرها مع أمّها، لن أغفر لنفسي تقاعدي عن مساعدتها، كان الموقف أكبر من شجاعتي، وتضاعف العذاب عندما علمت بهربها. . .

فقالت بهدوء:

ـ لا يداخلني شكّ في ذلك.

ـ أعتقد أنّ والدي يعرف أيضًا.

ـ نعم.

ـ إنّها تنتظر أحد مصيرين، الموت أو السقوط.

ـ ربّما يوجد طريق ثالث.

فتساءل بلهفة:

ـ ما هو؟

ـ أريد أن أستمع إليك أوّلًا.

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

ـ نحن قوم ذوو ضمائر حيّة.

ـ هٰذه هي المشكلة.

فتشجّع قائلًا:

ـ الواجب يقضي عليّ بأن أحميها حتّى أتزوّج منها . . .

خفق قلبها منذعرة وسألته:

ـ هل تدري ما يعنيه ذٰلك؟

ـ طبعًا بكلّ أبعاده، وأدري أيضًا ما يعنيه الغدر، وقد لقّنت على يديك ـ ويدي أبي أيضًا ـ مبادئ لا يجوز أن تنسى.

انحبست الاعتراضات في حلقها وتورّد وجهها حياء أمّا هو فتساءل:

ـ أليس كذٰلك؟

فلم تجد بدًّا من أن تقول:

ـ بلى.

وجفلت من أن تشير له إلى ما تمّ الاتّفاق عليه بينها وبين محمّد فتحي فردّدت في نفسها «إذا بليتم فاستتروا». سيقع ما كانت تحذره إلّا إذا انبرى أبوه لإنقاذ الموقف. تخيّلت عنايات زوجة لمحمود وأمّها حماة

له فغاص قلبها في صدرها. غاص قلبها رغم أنّها تتذكّر تمامًا أنّ جدّتها لأمّها لم تكن ترتفع درجة واحدة عن أمّ عنايات وأنّ جدّ زوجها كان فرّاشًا في مدرسة! وإذا بمحمود يقول:

- ولْكن توجد مشكلة أخرى.

حدجته بنظرة مستطلعة فقال بحياء وتلعثم:

- إنّي في حُكْم الخاطب.

- خاطب؟!

- يوجد اتّفاق لم يعلن بعد بيني وبين فردوس سمير جارتنا...

ذهلت جمالات حقًّا. إنّها تعرف فردوس، كريمة المرحوم سمير المعلّم، وهي صديقة حميمة لأمّها جارتها منذ ربع قرن. أسرة طيّبة ومحترمة، بكريّها طبيب في الأرياف، وفردوس فتاة تكبر محمود بخمسة أعوام، لم تتمّ تعليمها، ذات ثروة محترمة، ولْكنّها سيّئة الحظّ لأنّها عاطلة من الجمال، لا حظّ لها منه رغم أناقتها المبالغ فيها، كما أنّها تترك في نفس محدّثها ما يثير السخرية لتصوّرها أنّها محدّثة لبقة واسعة الاطّلاع. سألته بدهشة:

- هل تحبّ فردوس؟

فقال بمزيد من الحياء:

- المسألة أنّني استجبت لتودّدها، لم أدرِ كيف أرفضها...

- يا لها من خطوبة غريبة.

- والأدهى من ذْلك...

وتوقّف مرتبكًا فتساءلت:

- هل يوجد ما هو أدهى من ذْلك؟

- تورّطت معها...

فقاطعته:

- يا خبر أسود...

- لا أعني ذْلك، أعني أنّني اقترضت منها بعض النقود.

فكرّرت في عصبيّة:

- لا أصدّق أذنيّ...

- قروض اضطررت إليها...

- ما مقدارها؟

- الحقّ أنّها مستمرّة!

- مستمرّة؟!... أأنت في حاجة إلى ذْلك؟

- ماما، كيف غاب عنك ذْلك؟

- نحن نشقى لنوفّر لكم حياة كريمة.

- أعرف ذْلك، ولْكن لولا نقود فردوس لأرهقتنا المعيشة إلى درجة عدم الاحتمال أنا وزغلول ورمضان.

- يا للمصيبة، أهما شريكاك في ذْلك؟

- نعم...

- ألم يعترض أحدهما؟

- لقد شجّعاني على ذْلك.

- شجّعاك على خداع بنت سيّئة الحظّ لسلب نقودها؟

فبادرها بحرارة:

- ليس في الأمر خداع، صدقت نيّتي على الزواج منها في الوقت المناسب، وقال لي أخواي إنّ المال ميزة مثل الجمال، وإنّ فردوس على خلق ومن أسرة طيّبة!

- يا للعار يا محمود، تخطب فتاة سرًّا لتنفق عليك!

- إنّها قروض سأردّها في المستقبل، ولولاها لحدثت لك أنت وأبي متاعب كثيرة...

ألصقت راحتها بجبينها وهتفت:

- إنّي في حاجة إلى طبيب...

فصمت مستسلمًا لوجوم كئيب حتّى سألته:

- وكيف أخطأت مع الأخرى؟

- بلا إرادة... ولْكنّني أعترف لك بأنّني أحبّ عنايات!

- ما شاء الله، وهل علم أخواك بجنايتك؟

- كلّا.

- لعلّ لديهما حلًّا فريدًا!

- ماما، إنّي معذّب، لا أستطيع أن أتخلّى عن عنايات كما إنّه يعزّ عليّ جدًّا أن أهجر فردوس...

ونظر إليها في تعاسة مستوهبًا النصيحة، حتّى ندّت عنها ضحكة عصبيّة وقالت ساخرة:

- ما عليك إلّا أن تتزوّج من الاثنتين...

فقال بلهفة:

- يهمّني جدًّا رأيك.

فقالت بحيرة:

ـ أمّك احتارت واحتار دليلها! ماذا يقول لك ضميرك؟

ـ يملي عليّ أن أكون إلى جانب أشدّ الاثنتين حاجة إليّ...

ـ ومَن عسى أن تكون؟

ـ عنايات فيما أعتقد.

ـ ثمّ يقال إنّك سرقت فتاة طيّبة وخدعتها!

ـ أهون من أن أترك أخرى للموت أو السقوط...

ـ ستوجد على أيّ حال تضحية بفتاة بريئة...

وساد صمت ثقيل مرهق للروح حتّى تساءل محمود:

ـ أليس هو الصواب يا ماما؟

فقالت بنفاد صبر:

ـ حسبي أنّني ربّيت ضميرك وعليك أن ترجع إليه وحده!

١٢

هكذا انضاف إليها واجب ثقيل آخر هو مواجهة زوجها قبل مواجهة زغلول ورمضان. تذكّرت أيّامًا خالية حرصت فيها على الاستشار بحلّ المشكلات. كانت مشكلات هيّنة حقًّا، أمّا اليوم فكم تتمنّى لو أنّ زوجها كان أكثر إيجابيّة! وقد عاد زغلول ورمضان متعبينِ ولكن مرحينِ أيضًا لا يدريان شيئًا عمّا يتجمّع وراءهما من سحب، أمّا محمّد فتحي فبدا وكأنّه يتقدّم في العمر. وتساءل رمضان عن تخلّف محمود عن الذهاب إلى المدرسة فأجابت أمّه بأنّه متوعّك. وتناولوا الغداء في جوّ لم يفلح جهد في تبديد كآبته. وفي حجرة النوم قالت جمالات لزوجها:

ـ لديّ مزيد من الأخبار المزعجة...

ورمته بالجديد منها بغير مبالاة. وراح الرجل يفكّر ويضرب على كفّ بكفّ، ويقول:

ـ لن أدهش لو تكشّف بيتي عن عصابة إرهابيّة للاغتيالات الدوليّة...

فسألته بوضوح:

ـ أتستطيع أن تقنعه باقتراحك الأوّل؟

فهزّ رأسه قائلًا باقتضاب:

ـ كلّا.

إنّه لا يريد أن يتلقّى درسًا في الأخلاق على ابنه وتلميذه.

قالت:

ـ الحقّ أنّنا أصغر من الأخلاق التي نعلّمها.

ـ أيّ حلّ الآن لن يعفينا من سوء السمعة...

ـ ما أكثر الخاطئين ولكن ذوي المبادئ وحدهم هم الذين يدفعون الثمن...

فابتسم ابتسامة ساخرة ولم ينبس فثارت ثائرتها وقالت:

ـ إنّك تخجل من مواجهة ابنك باقتراحك...

ـ بل اقتراحنا فقد وافقت عليه أنت أيضًا...

وكالعادة سارع إلى ملاطفتها فقال بهدوء:

ـ لا ترهقي ذاتك بالندم، فلنطارد التعاسة معًا، المسألة أنّه كان لنا حلم وتبدّد...

لكنّ سخطها تمطّى حتّى شمل كلّ شيء. نالت عنايات أرقى نصيب منه فهي التي ـ بضعفها لا قوّتها ـ زلزلت الأسرة وعرّتها. ونال زوجها نصيبًا لا يستهان به لضعفه وسلبيّته. ولكنّها لم تتجاهل أنّها المسئولة عن ذلك. بقوّة شخصيّتها وذكائها حوّلته من شريك إلى أسير. وطالما سعدت بذلك واستمتعت بقوّتها بلا حدود. اليوم تشعر بوحدتها فتنحي عليه باللائمة وتكيل له التهم.

١٣

رغم أنّ الغداء لم يهضم، والجوّ لم يهدأ ولم يلطف، فإنّها لم تشعر بالبرد، بل شعرت بأنّ رأسها يشتعل. تمنّت أن يهطل المطر. شارع العاصي يتحوّل في أعقاب الأمطار إلى برك ومستنقعات ومع ذلك تمنّت أن يهطل المطر، وتلبية لإشارتها لحق بها زغلول ورمضان بحجرة الجلوس. رتّبت في ذهنها ما يقال وما لا يقال وسرعان ما لاحظت أنّهما لا يخلوان من قلق. لا مفرّ من أن يعلما بقرار محمود وبدواعيه. فيما يتعلّق بعنايات وفيما يتعلّق بفردوس. لن تشير من قريب أو بعيد إلى خطئها أو خطيئتها ولكنّها لن يتورّطا فيها مرّة أخرى

دون حاجة إلى تنبيه. وفي تقديرها أنّ عنايات تحبّ محمود، وأنّ ضعفها وحده هو المسئول عن استسلامها لزغلول ورمضان. هٰكذا قصّت عليهما قصّة محمود وقراره. لمست اضطرابهما وضيقهما. تطايرا في الهواء رغم المحاولة المستميتة للتظاهر بالحياد والثبات والبراءة. وهي محيطة بأزمتهما بكافّة أبعادها، بمشاعرهما نحو أخيهما الذي اعتديا على من ستصير زوجة له، ونحو النقود التي سيفقدونها لقطع العلاقات مع فردوس. لم تشعر نحوهما بعطف إذ رأتهما مستحقّين للعقاب. ختمت قصّتها بقولها:

ـ اعتدنا أن نناقش مشكلاتنا معًا...

وسأل زغلول:

ـ هل علم أبي بالقصّة؟

ـ كان لا بدّ أن يعلم.

تبادلوا نظرات حائرة. قال زغلول:

ـ إنّه قرار خطير جدًّا.

ـ أجل، ولٰكن هل عندك حلّ أفضل؟

لم يحيرا جوابًا، فقالت:

ـ علاقته بفردوس خطأ لا مبرّر له وإنّكما تتحمّلان تبعة ذٰلك مثله أو أكثر.

فقال زغلول مدافعًا عن نفسه:

ـ كان صادق العهد في الزواج منها.

ـ ومسألة النقود؟

فقال رمضان بجرأة:

ـ لم نجد من الإنصاف أن نطالبكما بما تعجزان عنه.

فقالت بحدّة:

ـ لم نقصّر أبدًا.

ـ أجل، ولٰكنّ الممكن كان دون المطلوب.

ـ اعتقدت أنّكما قادران على مواجهة الموقف بما يتطلّبه من تضحية.

فقال زغلول:

ـ بذلنا ما نستطيع، أكرّر أنّ القرار خطير جدًّا.

وإذا برمضان يقول:

ـ ماما، نحن لم نعدّ ندري بيقين ما الصواب وما الخطأ...

فتساءلت بانزعاج:

ـ ما معنى ذٰلك؟

ـ أصارحك يا ماما أنّه بإزاء ما صادفنا من مشكلات تناقشنا ـ أنا وزغلول ـ في ماهيّة الأخلاق التي نشأنا عليها...

فسألته وهي تتفرّس في وجهه:

ـ هل رابك منها شيء؟

ـ تساءلنا إلى أيّ درجة تصلح لهٰذا العصر!

فقالت بحدّة:

ـ مدى علمي أنّها تصلح لكلّ زمان ومكان...

فقال رمضان بأسى:

ـ ما أكثر الذين يستهينون بها وينجحون...

فتساءلت بذعر:

ـ هل أقنعتم أنفسكم بأنّ النجاح هو كلّ شيء؟

فقال زغلول بسرعة:

ـ كانت مجرّد مناقشة استطلاعيّة...

فواصلت بحدّة:

ـ تصوّرا أن نقنع بطرد عنايات، والاستمرار في ابتزاز أموال فردوس حتّى يتخرّج ثمّ يفسخ الخطوبة، تصوّرا ذٰلك!

ـ كانت مجرّد مناقشات مثل لعب الشطرنج...

ـ لا أريد أن أختم حياتي باليأس.

ـ هٰذا مسلّم به.

وقال رمضان في حيرة:

ـ لنا زملاء يخطئون بفكر متكامل، وهم يُرمَوْن كثيرًا بالانحراف، وطالما غُبِطْنا لأنّنا لم ننحرف، ولٰكن من نحن؟

فقالت بإصرار:

ـ مبادئنا فوق الجميع.

ـ معذرة، أريد أن أقول إنّ طمأنينتنا لا تقوم على أساس، يوجد خطأ ما، لِمَ تلوح الحياة بهٰذه القسوة؟

ـ لذٰلك أسبابه، أحد هٰذه الأسباب الانحلال الأخلاقيّ...

فتمادى رمضان قائلًا:

ـ قد يقتل الإنسان دفاعًا عن نفسه!

فارتفع صوتها وهي تقول:

ـ المهمّ أن يكون على صواب، إنّكم لا تقدّرون تعبنا حقّ قدره، لقد عملت حتّى اضطرّني المرض إلى طلب المعاش، أبوكم يعمل عملًا مضاعفًا رغم انحداره إلى الشيخوخة، وتفوّقكم ميزة لا يستهان بها فلِمَ الشكّ والانتهازيّة؟

فضحك زغلول تلطيفًا للجوّ وقال:

ـ ما زلنا عند حسن ظنّك.

سخرت من قوله في نفسها ولٰكنّها قالت:

ـ أشكرك، سيكون لنا عودة إلى الحديث، أمّا الآن فإنّي أفضيت إليكما بأخطر قرار اتُّخذ في أسرتنا حتّى لا تفجآن به غدًا، فما رأيكما؟

وساد الصمت، وتبودلت النظرات، فقالت:

ـ حسبت الأمر لا يحتاج لتردّد طويل؟

فقال زغلول:

ـ ليس التردّد نتيجة للشكّ في صوابه ولٰكن إشفاقًا من عواقبه!

فقالت ببرود:

ـ قدّرنا ذٰلك قبل اتّخاذ القرار. . .

ـ عظيم!

ـ ماذا تعني؟

ـ إنّه قرار صائب تمامًا. . .

لقد غادرتها وهي مليئة بالشكّ والغمّ.

١٤

وجدت ربّ البيت نائمًا. لمحت فوق الكومودينو قارورة البريكتين فأدركت أنّه استعان بالمهدّئ ليهرب. ما أحوجها هي إلى حبّة بريكتين! لا شكّ أنّ الضغط الآن يتصاعد مثل الجوّ العاصف حولها. استلقت على ظهرها تحت الغطاء. تحت سطح الماء الساكن تيّارات تتلاطم في الأعماق. أسرتها أسرة مثاليّة ولٰكن على الورق فقط، وها هي تتمخّض عن مفاجآت غريبة وقبيحة. زغلول ورمضان يتملّصان من قبضتها. الجوّ الفاسد يتسلّل إلى الداخل رغم النوافذ المغلقة. لا جديد في أن يختلف الناس في الصواب، المهمّ أن ينشدوه لا أن يطرحوه أرضًا. وآمنت بأنّها لو خرجت من هٰذه الأزمة دون مضاعفات صحّيّة فسوف تكتب في المعمّرات. ولبثت تعاني يقظة حادّة، وترفض في الوقت ذاته أن تمدّ يدها إلى قارورة البريكتين، فلم تدرِ أنّها غفت قليلًا إلّا بفضل حلم رأته عن أمّها. ولدى استيقاظها شدّ انتباهها شيء في الخارج. خارج الحجرة حركة وأصوات. ماذا يجري؟ زوجها ما زال يغطّ في نوم عميق. انسحبت من تحت الغطاء فارتدت الروب وغادرت الحجرة بسرعة. وجدت محمود في الصالة واقفًا شاحب اللون مرتجف الأطراف. حدست في الحال أنّ وجه الحقيقة الآخر كشف له عن بشاعته كلّها أو بعضها.

ـ ماذا جرى؟

ضرب جبهته براحته حتّى خيّل إليها أنّه سيحطّمها. مضت به إلى حجرة الجلوس. أضاءت المصباح وحبكت الروب وقاية من برودة شديدة. جلست ولٰكنّه لم يجلس. كرّرت السؤال فجعل يذهب ويجيء، ثمّ قال:

ـ عرفت أشياء غاية في القبح. . .

ـ ما هي؟

ـ عنايات لم تكن ضحيّة كما توهّمت ولٰكنّها كانت داعرة!

ـ ماذا تعني؟

ـ كانت تعبث بثلاثتنا، أنا وزغلول ورمضان. . .

ـ اعترفت لك بذٰلك؟

ـ اعترف لي زغلول ورمضان ليحذّراني. . .

آه. . . إنّهما يقصدان إجهاض القرار. وهي تعرف بواعثهما. بعضها أنانيّ وبعضها لا غبار عليه. ورغم إيمانها بأنّ عنايات مظلومة فإنّ باطنها لم يخلُ من دبيب راحة. وسألته:

ـ ماذا فعلت؟

ـ قرّرت الداعرة حتّى أقرّت. . .

ـ خفّض من صوتك أو يصل إلى الشارع، هل دافعت عن نفسها؟

ـ تدّعي أنّها استسلمت على رغمها الفاجرة!

ـ اهدأ.

ـ فوق طاقتي!

ـ أرجو أن تنتظرني حيث أنت. . .

مضت إلى المطبخ.
لكنّها لم تجد لعنايات من أثر.
ورجعت إلى محمود متسائلة:
- هل طردتها؟
فهزّ رأسه نفيًا، فقالت:
- لقد ذهبت.

١٥

انسرب الجوّ العاصف إلى القلوب. الإخوة - رغم الاعتراف المريح للضمائر - فقدوا شعورهم الطبيعيّ بالبراءة وعزّة النفس. جمالات تدرك ذٰلك وتلاحظه بنفس مكلومة. الأمور الآن تناقش جهرًا، وها هو الأب وزغلول ورمضان يلحّون على اعتبار الموضوع منتهيًا، أمّا محمود فقد تبعثرت ذاته. وضاعف من عذابها أنّها في صميمها قد ارتاحت إلى اختفاء البنت وهي بريئة من دمها. ولاحظت أنّ زوجها لا يأبه لأحزان محمود ولكنّه يتابعها هي بقلق. وقال لها وهو منفرد بها:

- لقد رضينا بالحلّ الصحيح الذي دلّ على شرف الولد ثمّ حصل ما حصل بلا تدخّل منّا مسوّغ للحزن يا جمالات.

فقالت بوجوم:

- محمود ضائع تمامًا وسيخسر عامه الدراسيّ!
- خرج الأمر من يدنا ولم يعد في وسعنا شيء.
- لن يغسل ذٰلك ملابسنا القذرة...

فقال بضجر:

- فلنتركها للشمس والهواء.

وحدجته بعصبيّة قائلة:

- إنّي أحسدك...

فتغيّظ وقال:

- إنّي أصرّح بما في ذاتك أكثر منك.

فاصفرّ وجهها من شدّة الغضب وهتفت بكبرياء:

- إنّي ضمير حيّ لا يموت.

فهزّ منكبيه ولم ينبس. إنّها واثقة من أنّه يتجنّب دائمًا مواجهتها في معركة حقيقيّة. في الوقت ذاته قد تعرّت أمامه، بل تعرّت أمام نفسها. وقال هو متراجعًا:

- جمالات، إنّي أواصل العمل بطريقة تهدّد صحّتي، اعذريني وكوني لطيفة معي ما أمكن...

وتساءلت في نفسها كيف تمضي الحياة إذا أصرّت طوال الوقت على احتقار أسرتها ونفسها؟!

١٦

ولاحقت محمود في انعزاله لشعورها بأنّه أحوج الجميع إلى الدواء. حذّرته قائلة:

- مستقبلك، لم يبقَ لك إلّا مستقبلك وهو في خطر.

بدا وكأنّه لا يشعر بالخطر. أين حساسيّته الشديدة وأين مرحه؟ قالت:

- يوم أمثالنا لا يقدّر بثمن.

فقال لها بحزن:

- رضيت بالتضحية ولٰكنّي حُرمت منها.
- أثبتّ حسن نيّتك بلا أدنى شكّ.
- ما الفائدة؟... سأظلّ المجرم الأوّل في حياتها...
- لنتركها لرحمة الله.
- الموت أو السقوط، هٰذا ما تبقّى لها.
- لا شائبة تشوب ضميرك.

وتفكّرت قليلًا ثمّ واصلت:

- ولا تنس أنّك ملتزم بفردوس!

فتنهّد قائلًا:

- كلّا...
- كلّا؟!
- لقد بادرت إلى إرسال خطاب لها قبل أن يكاشفني زغلول ورمضان بما خفي عليّ...
- فسخت الخطوبة غير المعلنة؟
- اعتذرت بظروف قاسية، وسجّلت المبالغ التي اقترضتها، واعدًا بتسديدها عند الميسرة.
- وصل الخطاب إليها؟
- يصل اليوم أو غدًا.
- يا له من تصرّف مرعب.
- ولٰكنّه كان خيرًا من الاستمرار فيه.

ـ لم يعد كذٰلك الآن.

ـ لقد فات الأوان.

ترى هل تمضي الأمور نحو الأحسن أو الأسوأ؟ قالت:

ـ على أيّ حال عليك أن تستردّ صفاء ذهنك وقوّة إرادتك لتواصل تقدّمك الدراسيّ...

وتساءلت مرّة أخرى ترى هل تمضي الأمور نحو الأحسن أو الأسوأ؟!

١٧

وجاءت أمّ فردوس لزيارتها. ما أكثر الزيارات بينهما ولٰكنّها شعرت بأنّ هٰذه الزيارة غير عاديّة. وجاءت كالعادة أيضًا عصرًا وقد سفعت الرياح الباردة وجهها فاحمرّت أرنبة أنفها. وهي تماثلها في السنّ، لا تخلو من وسامة، إذ كان من سوء حظّ فردوس أن ورثت خلقة أبيها لا أمّها. وغشي جوّ الزيارة ارتباك خفيّ وشى بأسرارها وما لبثت أمّ فردوس أن قالت:

ـ أريد أن أحدّثك كأخت.

فقرّرت أن تواجهها بالصراحة اللائقة فقالت:

ـ ما علمت بالأمر إلّا منذ أيّام قلائل!

ـ وأنا كذٰلك وإلّا ما أخفيت عنك شيئًا.

ـ كنت سأسرّ، فردوس ابنتي كما أنّها ابنتك، وهي شابّة ممتازة، ولعلّهما أخفيا الموضوع لشعورهما بأنّه سابق لأوانه بعض الشيء.

فقالت أمّ فردوس بصوت شاكٍ:

ـ ولٰكنّه انتهى نهاية غاية في السوء.

تنهّدت قائلة:

ـ أعلم ذٰلك.

وبعد فترة صمت مشحونة بالانفعالات تساءلت أمّ فردوس:

ـ ما هي الظروف الخطيرة التي أوجبت القطيعة؟

ـ لقد صدق فيما قال.

ـ ألا ترين أنّه من الضروريّ أن أعرفها؟

ـ بلى، ولٰكن فيما بعد.

ـ أهو قرار نهائيّ؟

فتفكّرت جمالات مليًّا ثمّ قالت:

ـ أعدك بأنّني سأبذل أقصى ما أستطيع.

فقرّبت منها رأسها وقالت بصوت خافت:

ـ اعتبرتها مهمّة بالغة الأهمّيّة، البنت حالها في غاية من السوء...

ـ أسفي فوق ما تتصوّرين.

ـ إنّي واثقة من محبّتك، وإليك اقتراحًا مستعدّة أنا لتنفيذه حال موافقتك، وهو أن نزوجّها الآن، فردوس غنيّة، وسيجد محمود في بيتنا مكانًا هادئًا ليتمّ تعليمه...

فوضحت الدهشة في وجه جمالات فقالت الأخرى:

ـ فكرة وجيهة وحكيمة...

فقالت جمالات بعد تردّد:

ـ محمود حسّاس جدًّا!

ـ لٰكنّه اقتراح لا غبار عليه...

فقالت جمالات بصدق:

ـ أعدك بأنّني سأبذل أقصى ما في وسعي.

وهما يفترقان همست أمّ فردوس في أذنها:

ـ البنت حالها سيّئة جدًّا...

١٨

داخلتها رقّة في غمار القلق والأحزان. اعتادت أن تحبّ فردوس منذ طفولتها. وهي تعطف عليها دائمًا لخلوّها من الجمال ولقعودها في البيت دون أن تتمّ تعليمها. وهٰذا الزواج المقترح إذا تمّ فسيفسّر أسوأ تفسير، سيقال إنّه زواج اليأس من ناحية العروس والطمع من ناحية العريس. ثمّ إنّ خطيئة محمود مع عنايات يمكن الدفاع عنها أمّا ما ارتكبه مع فردوس فلا يمكن الدفاع عنه. وقد نبذ محمود عنايات باعتبارها منحلّة فلن تقف عنايات عثرة في سبيل الزواج. محمّد فتحي قال أوّل الأمر:

ـ إنّه قراره هو...

ـ ولّما ألحّت عليه جمالات قال:

ـ فليتزوّج منها، سيضمن مستقبله ويصلح خطأه...

فقالت جمالات متهكّمة:

ـ ويخفّف عنك بعض الأعباء.

فقال بتحدٍّ:

- عنّي وعنك.

زغلول قال:

- إنّه موقف مناهض للرومانسيّة ولكنّه ليس مناقضًا للأخلاق...

وقال رمضان ساخرًا:

- مع السلامة، حلّ غاية في التوفيق.

إنّ ثقتها بزغلول ورمضان لم تتدهور ولكنّها لم تعد تفهمهما تمام الفهم، وعمّا قليل ربّما تلاشى التفاهم بين الجميع. ومن حسن الحظّ أنّ محمود لم يعارض فكرة الزواج. لعلّه يرى فيه إصلاحًا لخطئه أو تكفيرًا عنه. إنّ مثله لا تطيب له الحياة بلا تكفير. على ذلك قال لها:

- سيبقى في النفس جرح لا يلتئم بسبب عنايات...

سيبقى في نفسها أيضًا. لعلّ سرّ عطفها عليه أنّه يشاركها العذاب، وأنّه جادّ في تحويل القول إلى عمل، ولكنّه كان أيضًا الجاني الأوّل! فلتنته هذه المحنة التي عرّتهم جميعًا بلا رحمة. فلتنته ليرجع إلى وسادتها النوم الهادئ وليخفّ عنها الضغط. وإذا كانت لم تحظَ براحة ضمير كاملة فقد لُقّنت درسًا في التواضع والأسى. وسرعان ما زفّت البشرى إلى صديقتها الحميمة أمّ فردوس، وسرعان ما تمّ الزواج بلا تكاليف من ناحيتهم غير مؤخّر صداق مقداره خمسمائة جنيه.

١٩

واشتدّت الزوابع في أواخر الشهر غير أنّ جمالات قالت لنفسها إنّ أمشير يلقي تحيّات الوداع وعمّا قليل يهلّ الربيع بالنضارة والبهجة. وإذا بالبوّاب يقول لها وهي راجعة من السوق:

- عنايات تعمل في شقّة مفروشة بالعمارة الجديدة عند الناصية...

ارتعد قلبها وغشيتها سحب الأكدار. إنّها إحدى النهايتين، وهي تؤجّل النهاية الأخرى - الموت - ولكنّها تؤكّدها. وقد ضاق محمّد بالخبر ضيقًا شديدًا وقال:

- بوسعها أن تصون نفسها، فلن يرغمها أحد على الفساد.

أشفقت من التمادي في مناقشته غير أنّها تمتمت:

- سيعلم محمود بذلك عاجلًا أو آجلًا...

فلوّح بيده قائلًا:

- فليعلم، لن يغيّر ذلك من الأمر شيئًا...

***

وذات يوم رجع الرجل من عمله في ميعاده ولكنّه كان شاحب الوجه زائغ البصر. خفق قلب جمالات فشخصت إليه ببصرها دون أن تنبس. عند ذاك قال دون أن يشرع في خلع ملابسه:

- خبر سيّئ جدًّا يا جمالات...

فغمغمت فزعة:

- اللّهمّ احفظنا!

- محمود تزوّج من عنايات وذهبا معًا!

فهتفت بصوت مبحوح:

- غير معقول.

- لكنّه حصل...

- لقد انصرفت نفسه عنها بعد ما توكّد له أنّها...

قاطعها بنفاد صبر:

- لكنّه حصل...

فتساءلت بذهول:

- وفردوس؟... ومؤخّر الصداق؟

- واضح أنّه لم يصدر في عمله عن عقل أو منطق...

- ومستقبله ودراسته؟

فقال بأسًى:

- لم تتح لي مناقشته!

- وكيف يعيش؟... كيف يواجه الحياة؟... هل وجد عملًا؟!

رفع الرجل منكبيه في يأس وقال:

- لا معنى لهذه الأسئلة، التصرّف جنونيّ لا سبيل إلى فهمه في نطاق العقل والمألوف...

وفرّق بينهما صمت ثقيل فراح ينظر إلى صورة زفافهما المعلّقة بالجدار نظرة خالية من الرؤية، على حين امتدّ بصرها من الزجاج المغلق إلى السحب الراكضة...

الحبّ والقناع

١

أوّل ليلة في الفيلّا الجديدة عقب العودة من شهر العسل. شهر العسل ـ أغسطس ـ مضى في رأس البرّ ثريّ البهجة والرياضة والحساسيّة. بدأ حبًّا من جانب واحد ـ جانبه ـ ثمّ تسلّل إليها الرضى والإقبال مقتلعًا ذكريات بالية. استقبلا المساء بالجلوس في الشرفة على كرسيّين هزّازين متجاورين في ضوء خافت مطلّين على الحديقة الصغيرة المفعمة بأنفاس الليل الناعمة. كم يطيب له أن يلحظ عارضها الجميل ورأسها النبيل بشغف ورغبة في الاستطلاع. وكانت ترسل الطرف إلى شارع الهمذاني الغائص في قلب المعادي بأشجار الكافور المغروسة على جانبيه. استرخت في قميص أبيض طويل طارحة شالها على ذراع الكرسيّ على حين تمدّد في بيجامته الزرقاء الراسمة لطوله الرشيق. في شهر العسل تمّ تعارف حميم، تولّدت ألفة حارّة فاطمأنّ إلى نجاح مغامرته. قال:

ـ ضعي الشال على كتفك.

فقالت بصوت رخيم:

ـ الجوّ دافئ.

ـ سبتمبر لا أمان له.

فقالت بعذوبة:

ـ أشعر بالأمان الكامل.

وجد في قلب الجملة معنًى خاصًّا فامتلأ صدره بالامتنان. مالت بالكرسيّ إلى الأمام فملأ قدحين بعصير الموز له ولها. وردته ذكرى من ذكريات رأس البرّ حين قدّم كأسين من الويسكي قالت وقتذاك بجدّيّة لم يتوقّعها:

ـ مستحيل.

فقال معتذرًا:

ـ إنّه شهر العسل.

ـ ولو.

ثمّ مستدركة برجاء وحزم معًا:

ـ ولا أنت!

لم تنثنِ أمام الحرج أو المجاملة. حتّى في أيّام التلاقي الأولى وفي غمرة طوفان العواطف رفضت ما تأباه بقوّة وشجاعة. وقد تراجع متلقّيًا نذيرًا من المتاعب. أجل لم يكن الأمر مفاجأة له فهو يعرفها من قديم. خَبِرَ صلابتها التي أرهقت قلبه، وطالما رآها وهي طالبة بكلّيّة العلوم ترفل في زيّ المسلمات المحتشمات مطوّقة الرأس والوجه بالخمار الأبيض. وألم يقل له صديقه عبد الباري خليل المحامي «إنّك مُقْدِم على الزواج من كائن له مظهر أنثى ومخبر إمام مسجد». لكنّه الحبّ أو لعلّه الحبّ والعناد.

وسألها:

ـ أعجبتك الفيلّا يا فتحيّة؟

ـ إنّها تفوق الخيال ولكنّي لم أقدّم لها إلّا القليل...

ـ قلامة ظفرك أثمن منها وممّا فيها.

فقالت ضاحكة:

ـ أنت رجل غنيّ تجود بالكلام كما تجود بالأشياء الثمينة...

ـ أنا رجل عاشق بلا زيادة...

ـ وأنا سعيدة.

ـ لكن لم يجرِ الحبّ على لسانك بعد...

فضحكت قائلة:

- أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه...

تجلّى لعينيه يسري أحمد. لا يمكن أن يجيء وحده ولكن في إطار جامع لعبد الباري خليل ووهدان المتجلّي وعدلي جواد وفتحيّة سليمان وشارع ابن خلدون بالسكاكيني. جيران وأصدقاء من الطفولة. أعمار متقاربة حتّى فتحيّة لا تصغرهم إلّا بعام واحد فهي في التاسعة والعشرين بينا هو في الثلاثين. لكنّ يسري أحمد تجلّى لعينيه وحده في تلك اللحظة. تجلّى له في موقف لا يُنسى حين خلا إليه في حديقة الظاهر بيبرس. كان أحبّ الجميع إلى قلبه وكان يسعفه في العلوم والرياضة المستعصية عليه. تطلّع إليه بوجهه الشاحب الجذّاب وارتبك فسأله:

- مالك يا يسري؟

- لا أدري كيف أبدأ.

- أمر هامّ ولا شكّ؟

- فعلًا، لبيب، نحن إخوان.

- طبعًا.

- وأنا باسم الأخوّة أحدّثك، المسألة تتعلّق بفتحيّة بنت الشيخ سليمان.

خفق قلبه خفقة رسبت في حفريات صدره إلى الأبد.

- مالها؟

- إنّك يا عزيزي تطاردها في الشوارع.

تساءل بوجوم:

- شكتني إليك؟

- معذرة، إنّنا متّفقان على الزواج...

تمتم وهو يتجرّع المرارة:

- لم أكن أدري...

- طبعًا فأنت أخ كريم.

ها هي تقول له «أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه» بعد أن تلاشى الماضي تمامًا. ولكنّه تلقّى الخبر وقتها بحزن مجنون بها. ودفعته انفعالاته إلى جحيم الكراهية. انقسمت عاطفته نحو يسري أحمد فجرى الحبّ في نصفها والمقت في النصف الآخر. يسري قصير رقيق وهو طويل رشيق، صاحبه رقيق ضعيف وهو رياضيّ قويّ نسخة طبق الأصل من أبيه داود الناظورجي. وتساءل بحقد هل أصابها العمى؟. وتساءل أيضًا هل يسلّم بالهزيمة أو ينتظر نجدة من المجهول، من الموت نفسه؟. ها هي تقول له «أنت تعرف تمامًا ما تسأل عنه». وقال لنفسه «إنّ خير ما اهتديت إليه هو أنّه لا معنى لشيء».

- أعددت في الفيلّا حجرة خاصّة لوالدتك ولكنّها عنيدة.

- وأنا أيضًا ألححت عليها ولكنّها كما قلت لك لا تفرّط في بيتنا القديم.

هزّ رأسه متظاهرًا بالأسف. عادا يتبادلان شعورًا خفيًّا بوجودهما معًا ويلوذان بصمت هنيء حتّى خطرت له خاطرة فضحك فسألته:

- ماذا يضحكك؟

- عرفتك دائمًا جادّة فلم أكن أتصوّر أنّك أنثى كاملة...

فضحكت بسرور وقالت:

- ولكنّك أقدمت رغم ذلك على طلب يدي!

- إنّه الحبّ...

- أنت أيضًا لا تخلو من تناقض فمظهرك القويّ غير متناسب مع رقّتك الحقيقيّة...

فتملّى قولها قليلًا ثمّ تساءل:

- لعلّك لا تتصوّرين أنّي قاتل مثلًا؟

فقالت ضاحكة:

- إنّي كيميائيّة لا سيكلوجيّة وهذا من حسن حظّك.

- بهذه المناسبة أقول لك إنّني شرعت أغازل كتبك العلميّة فعليك أن تغازلي كتبي الثقافيّة، كلانا يكمّل صاحبه...

فقالت باهتمام:

- ولكنّي أسيء الظنّ بكتبك، ولن تجد يقينًا حقيقيًّا إلّا في الدين والعِلم...

إنّها تتحدّث عن اليقين. لعلّها تظنّ أنّها تعرفه كما يعرفها. وهي صارحته بكلّ شيء، صادقة صريحة ومنذرة بالمخاوف، أمّا هو فلا يُعرف عنه إلّا السطح فهل تزوّجت من رجل آخر؟ إنّه الحبّ ولكنّه الخوف

أيضًا فهل تتّسع هٰذه الفيلّا لثلاثة؟. وثمّة الشعور الحقير بالذنب يطارد العذابات الخفيّة. هيهات أن ينسى منظر يسري أحمد قبيل وفاته، والانقضاضة الوحشيّة الدنسة في ظلام الليل.

٢

وقفت في الشرفة عند الضحا في مهبط الشعاع الذهبيّ. عقب جولة من المشي السعيد في شوارع المعادي. يا لها من قامة رشيقة ووجه جذّاب. إنّه يملك ذٰلك كلّه بعد حسرة التهمت الصبا والشباب الأوّل. تمتمت:

ـ غدًا أرجع إلى العمل، لكلّ شيء نهاية.

كما انتهى شهر العسل. وكما يدبّ الفناء في الوليد منذ اللحظة الأولى. قال بأسف:

ـ غاب ذٰلك عن بالي تمامًا.

فقالت متهكّمة:

ـ هٰكذا ذاكرة الأعيان.

ـ ترجعين راضية إلى معامل وزارة الصحّة؟!

ـ كلّ الرضا.

ـ ذكرياتي عن الكيمياء تتلخّص في أنابيب يتصاعد منها دخان كريه الرائحة...

ـ ولٰكنّي أراها بعين أخرى.

ـ وكيف يستقبلونك بعد شهر العسل؟

ـ طبعًا لن يخلو الاستقبال من غمز.

فتنهّد قائلًا:

ـ كم أحلم باستقرارك في بيتك.

أقبلت نحوه حتّى وقفت أمامه في ردائها المكوّن من قميص أزرق وبنطلون رماديّ وسألته:

ـ خبّرني متى تشرع أنت في العمل؟

الصوت الذي يخشاه يتكلّم. الوعد لديها ميثاق دوليّ. تذكّر لقاء الخطوبة الثالث عندما بدا أنّها تميل للموافقة عقب إصرار طويل على الرفض. وقتها سألته:

ـ متى تخرّجت؟

فأجاب ببساطة:

ـ منذ ستّة أعوام.

ـ ولماذا بقيت بلا عمل؟

ـ لست في حاجة إلى العمل كما تعلمين.

ـ لٰكنّه العمل الذي يخلق الإنسان لا دخل خمسمائة جنيه.

ـ لا ينقصني شيء، وإنّي لخبير في التعامل مع الوقت، لي مكتبة ضخمة، لي أصدقاء، ثمّ إنّني لم أقتنع بعمل أبدًا...

ـ إن كنت تضيق بالوظيفة فافتح مكتبًا للمحاماة، صديقاك عبد الباري خليل وعدلي جواد محاميان، صديقك وهدان المتجلّي قاضٍ...

ـ إنّهم في حاجة إلى العمل...

ـ الإنسان بلا عمل عرضة للرعب.

ـ الرعب؟!

ـ الضجر، العادات السيّئة، العزلة...

ـ قد توجد جميعًا مع العمل...

ـ الاستثناء يؤيّد القاعدة ولا يهدمها.

ـ هناك الزواج والأبناء.

ـ العمل أيضًا مهمّ، إنّه لأمر مهين أن يخطر الإنسان في الحياة بلا عمل...

ولّما كان متلهّفًا على الظفر بها فقد قال:

ـ سأجرّب ذٰلك...

ـ في أقرب فرصة.

فحنى رأسه بالإيجاب. تجاوز عن مزاجه الراسخ من أجل الحبّ. وتأثّر بنظرة عينيها وثبات نبرتها تأثّرًا أشاع في نفسه الحذر والتوجّس. وتذكّر موقفها الرافض للزواج حتّى شارفت الثلاثين فازداد حذرًا وتوجّسًا. وتساءل هل يعثر تحت ذٰلك السطح الصخريّ على ينبوع من ماء الأنوثة العذب، تساءل مرّتين ولٰكنّه كان يحبّ حبًّا عنيدًا أيضًا. وآلمه شعوره القديم بضعف شخصيّته. كان وما زال ناقدًا قاسيًا للذات فلم تخف عليه علله. إنّه الآن يضع أمله في حياة زوجيّة متوازنة في الحبّ، حبّها المتصاعد له. ستحبّه كما أحبّها وأكثر بل لعلّها أحبّته بالفعل فهمسات الفؤاد الخفيّة لا تغيب عن الوجدان اليقظ.

قالت بفخار:

ـ ملفّ خدمتي يحوي أجمل الشهادات بكفاءتي في العمل.

- طبعًا.
- طبعًا؟... لماذا؟
- إنّك تتحرّين الكمال في كلّ شيء.
- أيرضيك ذلك؟
- بلا أدنى ريب ولكنّي أحبّ أيضًا الاعتدال!
- يا لك من رجل طيّب.
ماذا تعني يا ترى؟ أمّا هي فتساءلت:
- كيف كنت تمضي يومك؟
فقال مستبشرًا:
- كنت أبدأ يومي بالسباحة طيلة أيّام السنة عدا الشتاء فألعب التنس، فأوي إلى مكتبي حتّى الغداء، أذهب إلى لقاء عبد الباري ووهدان وعدلي بركننا المختار في الفردوس، وقد أذهب إلى سينما أو أمضي السهرة أمام التلفزيون.
- إنّهم يستريحون من العمل أمّا أنت فتواصل حياة الفراغ...
فابتسم بلا تعليق فقالت:
- قراءاتك متنوّعة، يسرّني أنّك تضمّ إليها العلم أخيرًا، لكن لأيّ هدف تقرأ؟... هل حلمت يومًا بالتأليف؟
- أبدًا.
- وفي المقهى كنت تشرب الويسكي؟
- بضع كئوس.
هزّت رأسها بأسف فقال:
- علينا أن نأخذ الأمور بهوادة ورفق...
- أعتقد أنّ الإيمان يتطلّب جدّيّة أكثر.
تذكّر قول عبد الباري عن إمام المسجد. إنّها طراز نسائيّ غريب حقًّا. قالت:
- إنّك بذرة طيّبة تَعِدُ بشجرة طيّبة وسوف تشكرني ذات يوم من صميم قلبك.
يا للداهية! ها هو صوت داود الناطورجي - أبيه - يتردّد من جديد. ماذا تظنّ وماذا تدبّر؟ تذكّر اجتماعًا ذا مغزى بركن الفردوس في الشهر السابق لزواجه. قال وهدان المتجلّي القاضي المعروف بميوله الدينيّة:
- فتحيّة ممتازة ولكن عليك أن تتغيّر.
فقال عبد الباري خليل:
- أو أضمن حبّها لك فيجيء التغيير من ناحيتها.
فتساءل هو بقلق:
- ألا يمكن أن يستقلّ كلانا بحياته؟
فقال عدلي جواد:
- كان عليك أن تختار فتاة من نوع آخر.
وهدان أسعد الثلاثة إذ ظفر بزوجة تملك شقّة أمّا عبد الباري خليل وعدلي جواد فيحلمان بالزواج منذ خمسة أعوام دون جدوى يأسًا من العثور على شقّة. ها هي تهدّده قائلة «سوف تشكرني ذات يوم من صميم قلبك». قال مدافعًا:
- إنّي شجرة بالفعل، لست بذرة...
فقالت باسمة:
- سأعتمد على الحبّ والعقل...
قال لنفسه إنّه سعيد حقًّا ولكن ماذا يخبّئ المستقبل؟

٣

هذا أوّل صباح ينفرد فيه بنفسه منذ زواجه. بعد أن أوصلها بالمارسيدس السوداء إلى وزارة الصحّة واعدًا إيّاها بانتظارها الساعة الثانية بعد الظهر في نفس المكان. إنّه يشعر بوحشة لغيابها ولكنّه يجد أيضًا نوعًا من الراحة. كما ألف منذ قديم معايشة المتناقضات جنبًا إلى جنب. كثيرًا ما يبدو نصفين يناقض أحدهما الآخر في العواطف والآراء جميعًا. ما يكربه حقًّا فهو الوجه الآخر من حياته الذي أخفاه عن فتحيّة. منه جانب تافه مثل عشّ الهرم الذي كان يمارس فيه نزواته. لن تحاسبه على الماضي، ولن تنسى موقفه من ماضيها أيضًا الذي أغدقت عليه بسببه صفة النبل والشهامة. من السخرية بعد ذلك أنّه قد ارتكب ما ارتكب من آثام من أجلها هي. ها هو يخلو إلى نفسه في مكتبته كالأيّام الخالية، وها هي كتب الفلك والطبيعة والأحياء الجديدة، ولكنّ نفسه مشتّتة. حتّى في شهر العسل كشفت عن جوانب نفسها دون مجاملة. إنّها تذكّره بأبيها الشيخ سليمان مدرّس اللغة العربيّة بخلاف شقيقها المنتدب مهندسًا بالكويت الذي شابَهَ في الدماثة أمّه فلِمَ لم يحدث العكس؟!.

إنّها لا تدري شيئًا عن مقته ليسري أحمد عندما علم بأنّه حبيبها. في تلك الأيّام المتوحّشة تمنّى لصديقه الموت. أطلق على صورته خيالاته المدمّرة المشحونة بالفناء. وشدّ ما سرّ عندما ألقي القبض على الشابّ في جنازة مصطفى النحّاس. لم يعرف يسري أحمد مصطفى النحّاس ولكنّه اشترك في جنازته إكرامًا لذكرى أبيه الشيخ سليمان. وكان ـ لبيب ـ يسمع عمّا يجري في المعتقلات فناط أمله بأيدي الطغاة تقتلع يسري من سبيله. رغم أنّ حبّه له لم يتبخّر تمامًا، ورغم أنّه لم ينسَ أنّه كان أستاذه في العلوم والرياضة ومرشده في أخطر مرحلة من مراحل حياته، مرحلة الإلحاد والثورة على أبيه داود الناطورجي. صرخت الرغبة السوداء في قبله «القتل في المعتقل أو السرطان».

في غضون أسابيع أطلق سراح يسري أحمد لمرضه. وإذا بالأشعّة تكشف فيه عن سرطان في المثانة. تلقّى الخبر بفزع واضطراب وحزن. شعر أيضًا براحة عميقة. وكان في إلحاده يتقزّز من الإنسان باعتباره كائنًا قذرًا ذا إفرازات كريهة لا حصر لها فاقتنع بأنّ في الإنسان من النوايا والسلوك ما يفوق الإفرازات الكريهة في قذارته. وقد زاره في رقاده الأخير. رأى الغطاء يشي بانتفاخ غريب في منطقة البطن، على حين لم يبق في الوجه الجميل سوى الجلد والعظم. ولمّا رآه يسري ابتسم ابتسامة خفيفة كأنّما يلقى عناء حتّى من التبسّم وقال بصوت ضعيف:

ـ لبيب، اقترب، إنّي في حاجة إلى قلب محبّ. . .

تفجّرت دموعه بإخلاص في تلك اللحظة. تذكّر الماضي الحيّ والعواطف الجيّاشة والذكريات المشتركة فآمن بأنّ يسري كان أصدق الأصدقاء جميعًا. كيف هان عليه أن يقتله؟ لقد انطلق الغدر من صميم القلب الأسود إلى المثانة. كم ازدرى نفسه، كم ازدرى البشريّة جميعًا! وساعده ذلك الاحتقار، بالإضافة إلى الخيبة في الحبّ، إلى التمادي في الاستسلام للوحش. وتبدّت فتحيّة في تلك الأيّام تمثالًا للجمال والحزن. رثى لها وشمت بها. ألم تكن شريكته في جريمة القتل؟ وتأمّل بقسوة وحنق استقامتها الفريدة فقال إنّه لها أيضًا إفرازاتها الكريهة. وبكى في جنازة يسري طويلًا حتّى اقتنع بأنّه لا خلاص إلّا بتحطيم الكون.

ها هو يصمّم على القراءة فيقلّب صفحات «الكون. . . ذلك المجهول». ويتساءل هل في وسع الحبّ والزواج أن ينتشلاه من الجفاف؟. ربّما. ولكنّ فتحيّة تتبدّى كثيرًا كأنّها نذير جديد بالمتاعب. وواضح ـ وهو الأدهى ـ أنّها تروم خلقه من جديد.

برجوعهما إلى الفيلّا حوالى الثالثة مساء دبّت في الفيلّا حياة جديدة. ولّما دخلت الحمّام عاودته خواطره الساخرة، ثمّ جلسا يتناولان الغداء. له طاهٍ خبير بصنع الطعام الجيّد. وهما ـ فتحيّة ولبيب ـ يتّصفان بشهيّة جيّدة، ولكنّ تناوُل الطعام كان من الخواصّ التي يتقزّز منها ويطالب بسببها بتحطيم الكون. جعل يختلس إليها النظر وهو يرفع الشوكة إلى فيه ويقارن بينها وبين القطط والكلاب. حقًّا إنّ الطعام أسّ التعاسة البشريّة. قالت:

ـ يوم مرهق بالقياس إلى العطلة.

فابتسم وقال بدوره:

ـ بدأ البحث عن شقّة للمكتب.

فهتفت بسرور:

ـ جميل أن أسمع ذلك.

فحنق عليها في باطنه ولكنّه أفرخ حنقه في صدر الدجاجة الرقيق. قال:

ـ قراءة العلم متعة فريدة حقًّا. . .

فقالت بثقة:

ـ بالدين والعلم تكمل صورة الوجود ويطمئنّ القلب.

ولّما همّ بتقشير تفّاحة سألته:

ـ أليست مغسولة جيّدًا؟

ـ بالصابون أيضًا.

فقالت بلهجة آمرة:

ـ كُلْها بقشرتها. . .

الظاهر أنّ الوصايا ستمتدّ إلى التفّاح أيضًا!. صدع بالأمر صامتًا فسألته:

ـ ما رأيك في زيارة ماما بعد العصر؟

فقال بسرور خفيّ:

ـ ليكن ذٰلك غدًا إذ إنّي دعوت عبد الباري ووهدان وعدلي إلى فنجان شاي مساء اليوم.

٤

سُرّ بوجودهم حوله في الشرفة سرورًا لا مزيد عليه. جالستهم فتحيّة وحثّتهم على تناول الشاي والحلوى. إنّهم أبناء شارع واحد وذكريات كثيرة مشتركة، ومطّلعون أيضًا على دخائل أسرهم لدرجة لا يستهان بها. حتّى المرحوم يسري أحمد فرضت ذكراه نفسها في سهو الحديث فمرّ على لسان فتحيّة مرورًا عاديًّا فارتاح لبيب وأيقن أنّ الماضي قد مات تمامًا. في أثناء الحديث قام وهدان المتجلّي ليصلّي العشاء في ميعادها كعادته فتوجّس لبيب خيفة مجهولة. لقد امتنع عن التردّد اليوميّ على الفردوس كيلا يهجرها وحدها عقب نهار مرهق ولٰكنّه بيّت أن يسألها السماح بسهرة أسبوعيّة. وكالعادة شاع في المجلس الشكوى من الحياة اليوميّة، غلوّ الأسعار، المواصلات، التليفونات، المجاري، حتّى تساءلت فتحيّة:

ـ ماذا تتوقّعون من دولة كافرة؟

فتساءل عبد الباري خليل:

ـ هل الإيمان يجفّف المياه الطافحة؟

فقالت بابتسامة متحدّية:

ـ اسخر كما ينبغي لماركسيّ أن يسخر.

كره لبيب انعطاف الحديث إلى منعطف متفجّر ولٰكنّه لم يدر كيف يُسكت عبد الباري الذي قال:

ـ أسعد شعوب الأرض تعيش في كنف دول ملحدة...

فقالت فتحيّة بقوّة لم تبلغ الحدّة إكرامًا لآداب الضيافة:

ـ الإنسان بغير الله أتفه من ذرّة غبار، ماذا نعرف عن هٰذه الشعوب؟ لا شيء في الواقع ما دامت محرومة من التعبير الصادق عن قلوبها الخاوية...

فقال عبد الباري:

ـ للبطولة والنبل ثمن.

ـ أيّ بطولة وأيّ نبل؟ حتّى المؤمنون يهبطون أحيانًا إلى النفاق فيفقدون الأمل في البطولة والنبل فما بالك بالضائعين...؟

وتساءل وهدان:

ـ لماذا لا تشترك في الحديث يا لبيب؟

فبادره على الفور:

ـ زوجتي تتكلّم بلسان الأسرة...

ثمّة غيوم كثيرة لم تظهر بعد في الأفق. لقد بُعث أبوه من قبره على غرّة منه. ليتها كانت امرأة مستغرقة بالأنوثة والبيت. إنّها رجل أيضًا، تعاليم لا هوادة فيها، ولا بديل عن الكذب إلّا بخوض معركة. وألحّ عليه شعوره بضعف الشخصيّة. ذٰلك الشعور القديم الذي فطن إليه بفضل نقده القاسي للذات وتضعضُع ثقته بنفسه تحت ضغط إرادة أبيه الصارمة. ها هو لا يطيق الحياة بلا فتحيّة واستقرار الأسرة الزوجيّة. ولا شكّ أنّها تحبّه وستحبّه أكثر ولٰكن يبدو أنّها لا تفرّط فيما تؤمن به. ولقد وجد في معاشرتها معنًى على حين أنّه لا يجد معنًى وراء ذٰلك. وراء ذٰلك خواء وعدم ورعب. فبين يديه صخرة نجاة تنتشل من الغرق وإن لم يَلُحْ شاطئ آمن للنجاة قريبًا كان أو بعيدًا.

عندما ذهب الأصدقاء الثلاثة قالت له:

ـ عبد الباري شيطان فكيف تتعامل معه؟

فقال بحذر:

ـ الصداقة فوق تناقضات الآراء.

ـ الصداقة يجب أن تقوم على أساس أقوى من ذٰلك.

ـ بغير تسامح تصبح الحياة غير محتملة.

فقالت بامتعاض:

ـ إنّه التهاون لا التسامح.

ـ إذا بالغنا في التدقيق فقدنا الناس أجمعين!

فتمتمت بأسف:

ـ يا له من مجتمع يكتظّ بالقذارة!

أخيرًا سمع رأيًا يتّفق معها فيه بلا حدود فرحّب به قائلًا:

ـ إنّي أتّفق معك تمامًا، فما الإنسان إلّا كائن ذو إفرازات كريهة ودوافع فظيعة مرعبة!

فرنت إليه بعينين دهشتين وقالت:

ـ ماذا قلت؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان، ولكنّك تتحدّث عن إفرازات ودوافع كأنّك عدوّ البشر أنفسهم؟!

ـ أعتقد أنّني لم أتجاوز الحقّ.

ـ لا... لا... معذرة إن قلت إنّها نظرة غير عميقة. فما تشير إليه يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء.

تساءل في نفسه ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا إفرازات كريهة ودوافع وحشيّة وسلوك دنيء؟! لكنّه جفل من التفوّه بكلمة زائدة بل هزّ رأسه كالمقتنع طاويًا صدره على أسراره...

٥

يميل الجوّ إلى شيء من البرودة ليلًا فيطيب الجلوس في حجرة المعيشة الموصولة بالشرفة. وهي مأهولة بطاقم من الإسفنج المدثّر بالقطيفة الزرقاء، يتوسّط جوارها الأيسر دولاب من خشب الأرو يقتعد التلفزيون الملوّن أعلاه ويستقرّ الراديو أسفله. رجعا منذ قليل من زيارة الأمّ نظيرة هانم مفعمين بذكريات ابن خلدون فتبدّت فتحيّة منتشية على حين كتم هو انفعالاته المتناقضة المراوحة بين الجميل والمرعب. وفي أثناء تناولهما العشاء مع نظيرة هانم أبدت المرأة جزعها من تأخّر حمل كريمتها. تذاكرا ذلك باسمين وقالت فتحيّة:

ـ ماما دقّة قديمة.

لكنّه في الحقيقة متلهّف على الإنجاب تلهّف مَن يروم تحصين ذاته المزعزعة ضدّ المجهول والخواء فقال:

ـ لها حقّ أيضًا يا عزيزتي...

فحدجته بنظرة متفحّصة فقال:

ـ يوجد الأطبّاء، لِمَ لا؟

لم تعترض ممّا قطع بتلهّفها أيضًا. آنس من ذلك آية على حبّها له وزوال الماضي تمامًا. كما وجد فيها آية على أنوثتها التي يتمنّى أن تغمر «الإمام المتصلّب» الكامن في أعماقها. لعلّها كانت قلقة طوال الوقت ولكنّها أحسنت إخفاء قلقها. هي أيضًا لها أسرارها الباطنة كما إنّ له أسراره المرعبة. تمثّلت له الظلماء وحركات الشبح اليائس والصرخة المكتومة فارتعد للذكرى.

وسألته وهي تلقي نظرة على الصور العائليّة المعلّقة:

ـ على فكرة أين صورة والدك؟

توجد صورة أمّه الشابّة، صورة نظيرة هانم، صورة الشيخ سليمان، ولكن أين صورة داود الناطورجي؟ عادت تسأل:

ـ سهو أم أنّه لا توجد صور له؟

رحّب بحديث لن يضطرّ فيه إلى الكذب فضلًا عن فوائده الأخرى التي فطن إليها من اللحظة الأولى، لذلك أجاب:

ـ الحقّ أنّي لا أحبّ ذكراه!

فحدجته باهتمام ودهشة قائلة:

ـ إنّه أبوك...

ـ ولو.

ـ يا للغرابة.

ـ لا غرابة في الدنيا.

ـ إنّي أتذكّره جيّدًا، كان أشهر شخصيّة في حيّ السكاكيني، ظلّ محترمًا حتّى بعد إحالته إلى المعاش بعد الثورة، اللواء داود الناطورجي، بيت اللواء، سيّارة اللواء، أنت ورثت عنه طوله وروعته، وكنت وحيده، ما زلت أتذكّر منظرك وراء نعشه وأنت تجهش في البكاء...

فقال ببرود:

ـ كنت أحبّه، حتّى موته لم أجد نحوه إلّا حبًّا خالصًا.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لقد ماتت أمّي وأنا دون العاشرة فلم أعرف بعد ذلك أمًّا أو أبًا سواه، وانقضّ عليّ موته كالصاعقة، ولّما انفضّ المأتم وآويت إلى الدار الخالية وجدتني لأوّل مرّة وحيدًا، لا أمّ ولا أب، فلم أصدّق أنّه ذهب حقًّا إلّا في تلك اللحظة، وعند ذاك اجتاحني شعور غريب بالراحة والأمان والحرّيّة، شعور يتناقض تمامًا مع حزني، ذهلت لذلك ولكنّي استشعرت بتمهّل السرور الخفيّ المثلج للصدر.

فقالت بوجوم:

- إنّه ردّ فعل لشدّة الحزن؟

- إنّه أفظع من ذلك، شعرت لأوّل مرّة بتحرّري من قبضة غليظة قاسية، تخيّلت هول الكارثة لو أنّني استيقظت في اليوم التالي فرأيته واقفًا في الصالة يمارس رياضته الصباحيّة ويحاسبني على تأخيري في الاستيقاظ!

جعلت تتابعه باهتمام وقلق فقال وكأنّما يعنيها هي بمغزى حديثه:

- مع الأيّام جعلت أحاسبه على معاملته الصارمة لي فيحتدم الغيظ في قلبي ويشتعل الحنق، ويتولّد النفور وينتشر حتّى انقلب كراهية سافرة...

- لا أصدّق.

- فتحيّة، لقد بلغ بي النفور درجة حملتني على أن أبني لنفسي مدفنًا خاصًّا حتّى لا أرقد ذات يوم إلى جانبه!

هتفت:

- إنّه ما لا يتصوّره العقل...

- وفاة والدتي في عزّ شبابها كانت مصيبة لم أعرف أبعادها إلّا فيما بعد.

- قيل إنّه لم يتزوّج بعدها إكرامًا لك...

- وهذه كارثة أخرى، فقد كرّس حياته لينشئني على مثال مرسوم بدقّة وصرامة، وراح يصبّني في قالبه كأنّني طينة لا هويّة لها مستعينًا بعنف لا مثيل له، هكذا تلقّيت الدين وشعائره كما تلقّيت كلّ شيء، العجيب أنّه لم يقرأ كتابًا في حياته، حتّى دينه أخذه عن إمام جاهل اكتراه ليعلّمه الإسلام ثمّ نقله إليّ نقلًا ميكانيكيًّا فحفظته ومارسته في جوّ من الفزع...

تمتمت بحيرة:

- أبي هو أيضًا مَن علّمني ديني...

- كان أبوك من علماء الدين أمّا أبي فكان جاهلًا وإرهابيًّا!

- كنت أراك وأنت تتبعه إلى صلاة الجمعة...

- وحملني أيضًا على صلاة الفجر فكان يغلبني النعاس في الفصل، وحملني على ممارسة الرياضة البدنيّة كالسباحة والعدو وحمل الأثقال بالعنف نفسه، أمّا ولعي بالقراءة فلم يخفِ احتقاره له ولكنّ جهله بالكتب منحني فرصة فريدة للسياحة الثقافيّة بعيدًا عن رقابته الصارمة...

وضحك ضحكة جافّة ثمّ واصل:

- لم يكن يفوق عنفه إلّا تعصّبه الأعمى لأفكاره، من هذه الأفكار إيمانه بالمقاومة الطبيعيّة واحتقاره للدواء، ولمّا أصابتني نزلة معويّة قرّر أن يتركني لمقاومتي الذاتيّة، طالبته المربّية بإحضار طبيب فرفض، ومضيت أهزل من الإسهال يومًا بعد يوم حتّى صرت كالخيال وهو لا يبالي، كان يمكن أن أفقد حياتي وأشفيت على ذلك ولكنّه لم يكترث، ولمّا نجوت بأعجوبة قال لي بفخار «إنّك ابني حقًّا ولن يهزمك المرض بعد اليوم، لماذا رحلت المرحومة أمّك في عزّ شبابها؟... لأنّها كانت ضعيفة فلم ينفعها طبّ ولا دواء».

انساقت فتحيّة إلى ضحك بلا صوت فابتسم هو أيضًا ثمّ قال:

- رغم أنفي أجبرني على الالتحاق بالكلّيّة الحربيّة، لم تجدِ توسّلاتي ولا دموعي، محتجًّا بأنّها كلّيّة الرجال والحكّام أيضًا، وأنّها ستنقذني من داء القراءة الوبيل، ولولا وفاته الفجائيّة...

قاطعته قائلة:

- لقد تساءلنا وقتها عمّا جعلك تترك الكلّيّة، ولكنّك لم تفد شيئًا من التحاقك بكلّيّة الحقوق!

- كانت أفكاري مختلفة في ذلك الوقت، المهمّ أنّك أنت نفسك تحدّيت أوامره وأنت لا تدرين!

فتساءلت بدهشة:

- كيف؟

- رشّح لي ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء على المعاش من أقرانه تاركًا لي حرّيّة اختيار إحداهما ومعتبرًا ذلك من ناحيته تنازلًا ديموقراطيًّا شاذًّا، وكنت أحبّك كما تعلمين فصارحته بذلك معتمدًا على صداقته القديمة بالمرحوم والدك ولكنّه انفجر غاضبًا.

فقطّبت لأوّل مرّة متسائلة:

- لماذا؟

- بحجّة أنّه لا ثقة له في بنات الأرامل.

فقالت باستياء:

- كان سيّئ الظنّ بالنساء!

- وبالرجال والحيوان والنبات والجماد، شدّ ما انتقد

أصدقائي بلا سبب وكأنّما كان يرغب في أن ينشئني بلا صديق سواه، وفضلًا عن ذٰلك كلّه كان شديد الحرص فعاش في حدود معاشه ولم يمسّ ملّيمًا من دخله الوفير من عماراته، ولعلّ ذٰلك ما جعله يتمسّك بالبقاء في البيت القديم بابن خلدون متعلّلًا بأنّه راسم أن يعوّدني على الحياة البسيطة، وأعترف بأنّ ذٰلك لم يضايقني إذ إنّني لم أكن أطيق الحياة بعيدًا عنك...

ساد صمت كئيب تبادلا فيه نظرات باسمة وحزينة حتّى قطعت الصمت قائلة:

- كان شخصًا غريبًا ولٰكنّه عُرف في الحيّ بالقوّة والبهاء والتديّن وحبّ العزلة وبالتضحية بمسرّاته في سبيل وحيده، الله يرحمه على أيّ حال، أليس عجيبًا أن ينحدر من صلبه رجل مثلك آية في الكرم والاتّزان وحسن الخلق؟!

ارتجف باطنه برعدة قاسية. غشي خياله الظلام الذي أخفى الوحش والفريسة، وتجسّدت لعينيه نواياه القديمة بأنيابها ومخالبها. وتساءل بفتور:

- ألا يحقّ لي بعد ذٰلك أن أكره ذكراه؟

فقالت ضاحكة:

- كلّا، لا تنس أنّه وهبك الحياة والمال، ولٰكن ألم يخالط قلبك في حياته إثارة من عاطفتك الرافضة؟

- كان برمي به شديدًا متواصلًا ولٰكنّي أحببته دائمًا، ولم يكن من الممكن أن تتسلّل إلى باطني عاطفة أخرى لأنّه كان يعيش في باطني أيضًا، في تلافيف مخّي ونبضات قلبي وأحلامي، كان الخوف يكمن هناك كالديدبان...

قالت متنهّدة:

- كان أبي شيخًا ولٰكنّه كان ذا عقليّة متفتّحة، ربّما كان يفضّل أن يعدّني للبيت ولٰكنّه حين آنس منّي تعلّقًا بالتعلّم سمح لي بالاستمرار فيه، دخلت الجامعة أيضًا دون معارضة تذكر، وعلّمني ديني أحسن تعليم فكرّست حياتي للعلم باعتباره قراءة جديدة لدنيا الله...

فقال بحذر:

- كثيرون ألحدوا بسبب العلم...

- لا دخل للعلم في ذٰلك، الإلحاد عجز في النظر.

- على أيّ حال كان أبي رجلًا من صنف آخر، كان جاهلًا ومتعجرفًا وقد وجد في الشكل مبتغاه، وكان يمقت المناقشة ويقاتل التساؤل البريء، كان يلاحقني من الصباح الباكر حتّى النوم بالأوامر والتعليمات والمراقبة...

- ألا يشفع له عندك حسن نيّته؟

فقال بامتعاض:

- كلّا.

- أكان كذٰلك في حياة المرحومة والدتك؟

- ذكرياتي عن أمّي قليلة، أجل كانا يختلفان كثيرًا، وكانت هي عصبيّة مستعدّة دائمًا للتمرّد والتهديد بهجر البيت، وكان ينبغي أن أتعلّم منها ولٰكنّه نجح في استعبادي، تارة بالعنف، وتارة بإقناعي بأنّ أيّ استهانة بأوامره هي خروج عن إرادة الله المتعالي، ولو أنّني تمرّدت عليه حقًّا لضمنت لنفسي حياة أفضل...

- حياتك مقبولة جدًّا...

فقال مضمّنًا كلامه تنبيهًا لها:

- كانت حياتي لعنة ولٰكنّها لم تخلُ من عبرة، فقد علّمتني أن أتجنّب الاستبداد بالغير، واحترام الآخرين فكرًا وعقيدة، علّمتني ألّا أعتبر نفسي مقياس الخير والشرّ في الوجود!

وتساءل في باطنه ترى هل أحسن الدفاع عن نفسه؟!

٦

مضى من الخريف ثلثاه وتشبّع هواء الليل ببرودة مستقرّة. من مجلسهما وراء الزجاج المغلق يرى البستانيّ نهارًا وهو يكنس الأوراق المتساقطة، وتلوح في السماء سحائب بيضاء وهي تهدهد الشعاع الذهبيّ. فتحيّة تملأ الفيلّا بحركاتها الرشيقة. ما أشدّ الفارق بين الكيميائيّة المتديّنة من الأنثى الدافئة! إنّه لتناقض يذكّره بالتناقضات التي تمزّقه. بوسعه دائمًا أن يهاجم أو أن يدافع عن أيّ رأي أو مذهب أو عقيدة، الحجج السالبة تعادل عنده الحجج الموجبة، ولٰكن لا أحد من أصدقائه يأخذ حديثه مأخذ الجدّ فهم يعرفون تمامًا أنّ قلبه ينبض في خواء. وهو يرى في زوجته نساء

كثيرات، ثمّة فتحيّة ذات الرداء الأبيض العاملة في المعمل، وفتحيّة المؤمنة المتطرّفة، وفتحيّة الفراش الباهرة. أيّهنّ أصدق؟ فتحيّة الغريزة أم فتحيّة المؤسّسات؟!

قالت له ذات مساء وكانت متجهّمة:

- اختاروا زميلًا دوني كفاءة لبعثة صيفيّة!

تساءل وهو يلحظ حنقها بسرور خفيّ:

- لماذا؟

- أسباب سخيفة طبعًا أهمّها قرابته لأحد أعضاء مجلس الشعب.

- صحّتك النفسيّة أهمّ عندي من البعثة.

- السكوت عن الخطأ أفحش من الخطأ، أثرت الموضوع عند المدير، وطلبت تحديد ميعاد لمقابلة وكيل الوزارة.

وعقب صمت قصير قالت مستعملة لغة الشعارات التي ينفر منها:

- على الحياة أن تكون جهادًا متّصلًا.

ها هو صوت مؤسّسة يعلو. الغضب الذي احتقن به وجهها هو صوت الغريزة. لعلّها تمتلئ الآن بالرغبات المدمّرة. باسم الدين أو العلم يمكن أن ترتكب فظائع. أسعده أن تشاركه ولو بصفة عابرة صدق الغريزة الوحشيّ. شرّها يقرّبها إليه بقدر ما يبعدها تَطَهُّرها. اقتحمته ذكرى وفاة يسري أحمد. عرف وقتها أنّها عاهدت نفسها على البقاء عذراء احترامًا لذكراه. رفضت أيدي كثيرين. عنيدة وقادرة على الرهبنة. تربّص منتظرًا من بعيد. تتابعت الأعوام حتّى قاربت الثلاثين من عمرها. وهي مصمّمة وهو صابر متصبّر. إنّها اليوم قلقة لتأخّر الحمل كلّما جاءها الطمث تجهّمت. لعلّ حبّها ليسري لا يمكن أن يتكرّر ولْكنّه قتل غريمه وفاز أخيرًا بامرأته. فِعْل الإنسان الأوّل. لدى ظهور الإنسان انعقدت عليه آمال كبار. ألم يئن الأوان لإعادة النظر؟ رائحته تفسد جوّ الأرض وفعاله يندى لها جبين الحيوان. ثمّ قرّر أن يجرّب حظّه فمضى إلى مقابلة نظيرة هانم أمّها. لم يتراجع أمام الرفض ولْكنّه طالب بالانفراد بها في حجرة الاستقبال التقليديّة المذهّبة الطاقم. إنّه ليذكر تمامًا ما دار من حديث في أوّل لقاء:

- أتوسّل إليك أن تصغي إليّ.

- إنّي مصغية.

- موقفك طال وهو غير معقول.

- لا أراه كذْلك.

- يُنتظر مِن أساتذة الكيمياء حكمة تماثلها.

- لا علاقة لذْلك بالكيمياء.

- كلّنا سنموت.

- إنّي متيقّنة من ذْلك.

- لست الأولى.

- ولا الأخيرة.

- إنّي أحبّك من قديم.

- أشكرك.

- إنّي أحبّ فتاة لا ذكرى.

- هل يوجد فرق كبير؟

- أظنّ ذْلك.

- لا أظنّ.

- لا يمكن أن تضيع حياتك في رهبنة.

- لا ينقصني شيء.

- لن أطالبك بالحبّ فلنَكِلْ أمرنا للمعاشرة.

- إنّك كريم ولْكنّني آسفة.

- لا تسدّي الطريق في وجهي، دعيني أحاول وأحاول...

في تلك الأيّام لم ينتحر بفضل مكر الحياة. لم تكن الخيبة خيبة الحبّ وحده ولْكنّها خيبة الحياة نفسها. هام بالحبّ كصخرة للنجاة في خواء فَقَدَ أيّ معنى. تعلّق بأيّ شيء من صداقة أو دعارة أو شراب، شبع كثيرًا وغاص في الكآبة أكثر. بالإصرار نال أخيرًا مبتغاه. وكان فاتحة التحوّل عندها أن راحت تحاسبه على بقائه الطويل بلا عمل. تزوّج فطار بها من ابن خلدون إلى المعادي. رضي بها بلا قلب. سرعان ما تفتّح القلب وتغيّرت الحياة. لْكنّ مجلسه السعيد معها لا يخلو من توجّس. إنّه يخشى الإمام وصوت المؤسّسة...

٧

أصبحت عادة جميلة مثل سحائب الخريف. تدثّرت

بالروب، كذلك هو، فالجمال عند اقتراب الشتاء يتوارى كالأزهار. كلّا إنّها مثل الأشجار دائمة الخضرة ما زالت تعبق بأنوثة ريّانة. وجاء وعد الطبيب أخيرًا منعشًا للآمال. ولٰكن في غمرة النعومة ينبثق سؤال مثل:

- ما أخبار الشقّة؟

ينقبض صدره ويجيب:

- إنّي أتّصل بالسمسار كلّ يوم.

- هل تنظر في مراجعك القانونيّة؟

- طبعًا.

الكذب عادة يوميّة أيضًا. كما تطبّع به في عهد أبيه. يقول وهدان المتجلّي «العمل قيمة عظيمة لمن كان مثلك وزوجتك على حقّ». لمن كان مثلك يعني لمن لا يربطه معنى بالحياة. لعلّه صدق. ولٰكن أيّ جدوى في الاشتغال بقضايا المتطاحنين؟. وهي لا تصدّقه تمامًا فرجعت تقول:

- أحيانًا يخيّل إليّ أنّك غير مهتمّ...

فيؤكّد اتّصاله بالسمسار. صوت أبيه يتردّد من وراء القبر. إنّها متوثّبة دائمًا لصبّه في القالب المنشود كأنّها لم تسمع بمأساته مع أبيه. سيظلّ دائمًا وأبدًا فريسة للمؤسّسات. كم سعى إلى الانخراط في مؤسّسة وكم فشل. طَبَعه أبوه بطابع الانقياد فقتل قواه الخالقة.

- على فكرة لِمَ لا تصلّي؟

آه. ابتسم ولم يجب.

- كنت قديمًا تصلّي الجمعة والفجر.

هزّ رأسه صامتًا.

قالت برقّة تخفي انفعالها:

- ما أكثر المسلمين وما أقلّهم!

أشار إلى قلبه وقال:

- هنا كلّ شيء.

- كلّا، كيف أقلعت عن الصلاة؟

قال ضاحكًا:

- تمرّدت على أبي عقب وفاته.

فتساءلت بجزع:

- إلى أيّ مدى؟

فقال بوضوح:

- إنّي مؤمن، حسبي ذٰلك.

حتّى متى يكذب؟. أمّا هي فشرعت تقول:

- ليتني...

ولٰكنّه قاطعها قائلًا:

- كلّا، أرجوك، الزمن كفيل بكلّ شيء.

فقالت بحرارة:

- ليت العمر يمتدّ بي حتّى أشهد الله يحكم الدنيا مرّة أخرى!

- آمين.

هيهات أن يخطر لها أنّ يسري أحمد هو مِن قادة الإلحاد. لم يجد صعوبة في زعزعة إيمانه فقد صادف فيه متوثّبًا للتمرّد على أبيه، كما وجده سريع الانقياد كما طبعه أبوه. أجل خاض تجربة مرعبة معذّبة ثمّ سرعان ما وجد نفسه في كون بلا إلٰه ولا حدود. وكان يسري رغم إلحاده ذا خلق متين، وطالما قال له «النبل أن نعيش كما ينبغي لنا دون أمل». وقد حفظ ذٰلك القول وردّده كثيرًا. حتّى حيال أقرب الناس إليه - عبد الباري، وهدان، عدلي - أسدل على وجهه القناع. أمّا الحقيقة فهي أنّه لم يستطع أن يلتزم بالنبل فقتل ثمّ ارتكب ما هو أفظع من القتل. ولم يتركه ضميره بلا عقاب. وعجب لتطفّل ضميره الذي رسب في باطنه منذ العهد القديم. آية على ضعفه وجبنه. عندما يتحرّر منه تمامًا يبلغ الصدق المنشود. سأله عبد الباري «لماذا تركّز على السلبيّات؟... هٰذا ما يقتل أيّ معنى للوجود». الحقّ أنّ إفرازات الإنسان وغرائزه هي عقدته لذٰلك هان عليه أن يكفر بمؤسّساته فيراها هياكل خاوية وهميّة. إنّه يطوي أسراره في صدره أمّا فتحيّة فتتحدّث عن الصحابة قائلة:

- كانت أغلبيّتهم من الشباب، ما أكثر مَن استشهد منهم، كانوا يعشقون الموت!

ويقول لها بعقل شارد:

- هٰكذا المؤمنون...

الإنسان يفوق الحيوان في شهوة القتل فيقتل نفسه أيضًا. وهٰذه الزوجة المحبوبة لا تخلو من شعرة جنون. كم تبدو مطمئنّة متألّقة كما يجدر بخليفة الله في أرضه! بقدر ما يسخر منها فإنّه يوشك أن يحسدها. التناقض

دائمًا وأبدًا. كما مزّقه أمام كلّ شيء. حتّى الانعدام الكلّيّ للمعنى لم يمحق متناقضاته. أمّا فتحيّة فإنّها لا تردّد الشعارات فحسب ولٰكنّها تصدّقها وتؤمن بها. كيف يستمرّ التعامل معها؟. إنّه حريص جدًّا على ألّا تتبدّد سعادته وهمًا من الأوهام.

٨

هلّت بشائر الأمومة. والأبوّة أيضًا. صادف ذٰلك أوائل الشتاء وأيّامًا ممطرة. راحت فتحيّة تحسب الزمن وقالت:

- سألد في سبتمبر، شهر مناسب للولادة.

فقال بحبور:

- بالسلامة.

لاح في وجهها ذبول طارئ. أعقب ذٰلك فتور في العواطف. وهدان المتجلّي أخبره أنّ ذٰلك يحدث كثيرًا ولا يخلو من فائدة. قال له ساخرًا «إنّه تغيُّر له معنى ككلّ شيء». اقتنع هو بأنّ متاعب الذرّيّة تقع حال تخلقها في الأرحام. رمق الأمومة بأمل أن تشغل بها عن تربيته هو وتربية المجتمع الحديث. إنّها جديرة بهٰذا الختام السعيد. هنيئًا له انتزاعها من الرهبنة والجفاف. لقد فسّر رهبنتها القديمة على أساس خاطئ. تذكّر موقفًا لا يمكن أن ينسى. ثمّة تصرّفات تهزّ النفس بنبلها حتّى النفس الخاوية. احتسيا القرفة في حجرة المعيشة وهما يشاهدان مسلسلة تلفزيونيّة. بات البار خاويًا من قوارير الويسكي. عيناها السوداوان هادئتان متعبتان. إنّها سعيدة ولا شكّ وتؤمن بأنّه نبيل أمين. ما يزعجه حقًّا هو أنّها تحبّ «الممثّل» لا الشخص الحقيقيّ. الممثّل رجل نبيل أمين مثقّف لا عيب فيه إلّا أنّه مؤمن سلبيّ كغالبيّة المؤمنين في هٰذه الأيّام. لكنّه ممثّل، شخص آخر، ولو عرفت الشخص الحقيقيّ لولّت تقزّزًا. هي ليست من النوع الذي يحبّ الجسد وحده. ليست من النساء اللاتي يحببن اللصوص والبرجيّة والقتلة. إنّها تحبّ بروحها وجسدها معًا. سلّت حبّ يسري أحمد لتقع في حبّ رجل وهميّ. أمّا هو فلم يبرح موقعه القديم. موقع العاشق الخائب. موقع المحبّ من جانب واحد. ما زال يغتصبها ساعة بعد أخرى ويخدعها يومًا بعد يوم. لقد فقد معاني الأشياء ولٰكنّه طمح إلى الحبّ باعتباره معنًى مستغنٍ بذاته وهو حريص على ألّا يلحق بالأوهام. ممكن أن نجد في الحبّ والزواج والذرّيّة معنًى محلّيًّا يستغاث به. غاب عن التلفزيون فتذكّر الموقف المثير. حين دعته إلى لقاء مفاجئ بحديقة الأمازون. عقب عدولها عن الرهبنة وقبل إعلان الخطوبة. كان سعيدًا باللقاء فوق البساط الأخضر. راح يعلن خططه عن الخطوبة والزواج حتّى لاحظ أنّها ليست موجودة معه. فسألها:

- مالك يا فتحيّة؟

فقالت بوجوم:

- كان يمكن أن تمضي الأمور في طريقها المرسوم بلا كدر.

- وهي ماضية كذٰلك فأيّ كدر تقصدين؟

- إنّي أرفض الخداع وأمقت الكذب ولست نهّازة للفرص بأيّ ثمن.

فقال بضراعة:

- لا تتركيني للحيرة.

فتريّثت قليلًا مكفهرّة الوجه ثمّ قالت:

- يوجد في حياتي سرّ لا يجوز أن تجهله.

خفق قلبه وتخايل لعينيه شبح واحد. تساءل:

- أيّ سرّ؟

فقالت بحرارة متصاعدة:

- إنّه مأساة...

ثمّ في شيء من الاندفاع:

- وقعت المأساة وأنا طالبة، كنت راجعة ليلًا من بيت زميلة عقب ساعات من المذاكرة، رحت أقطع حارة حمزة في طريقي إلى ابن خلدون، وإذا بأنوار الحيّ تنقطع فجأة فيغرق كلّ شيء في ظلام مخيف...

رجع الظلام بوحشيّته فتجنّب ملاقاة عينيها بحذر ولم ينبس فقالت:

- لن أطيل فالذكرى معذّبة، هاجمني شخص في الظلام، كتم فمي، تصارعنا حتّى فقدت الوعي...

تهدّج صوتها حتّى سكتت ولٰكنّها تغلّبت على ضعفها قائلة:

ـ لعلّك أدركت بقيّة ما حدث!

ـ يا للفظاعة!

فاه بها وهو يرتعد فهتفت غاضبة:

ـ وحش... حيوان... قذر... جبان...

فردّد غائصًا في ظلمة باردة:

ـ وحش... حيوان... قذر... جبان!

صمتا ليستردّا أنفاسهما... ترامقا في تعاسة، كلاهما أتعس من صاحبه. تمتم:

ـ أنت؟! يا للفظاعة!

ثمّ هزّ رأسه متسائلًا:

ـ أكان لذلك علاقة برفضك الزواج؟

فقالت على الفور:

ـ أبدًا، لقد اعترفت لأمّي فلم يهدأ بالها حتّى أصلحت كلّ شيء، فلم يكن ثمّة ما يخيفني من الزواج.

حنى رأسه مصدّقًا ولكنّها تجلّت أمامه في هالة وضيئة. قالت مؤكّدة:

ـ كان يمكن أن يمضي كلّ شيء بلا إثارة من شكّ!

ـ أدرك ذلك.

فقالت بصوت واضح:

ـ ولكنّي أرفض الكذب والخداع فضلًا عن أنّك شخص جدير بالصدق!

فقال وبنيانه ينهار:

ـ فعلت ما هو جدير بك.

ـ شكرًا.

فقال مزدردًا ريقه:

ـ لا يمكن الشكّ أن يرتقي إليك وقد ازداد احترامي لك.

فتساءلت:

ـ ألا تخلو إلى نفسك بعض الوقت؟

ـ لا داعي من ناحيتي لتبديد الوقت.

فهمست باسمة لأوّل مرّة:

ـ لبيب. إنّك نبيل كما اعتقدت دائمًا.

هكذا وُهب وسام النبل والأمانة. أما كان يجدر به أن يعترف لها بدوره؟. بدا ذلك مستحيلًا، كان على القاتل المغتصب أن يتوارى. الممثّل يتهادى اليوم على المسرح وحده. لولا الحبّ والعناد ما أقدم على طلب يدها. كان حانقًا عليها بقدر حبّه لها. وكان يعتبرها الحقيقة الوحيدة المتاحة له. ها هو الممثّل يمعن في التمثيل ويتهادى. على حين يختفي الشخص الحقيقيّ ويذوب في الظلام. هو الظلام القديم الذي مكّن له من الحبّ والانتقام. كان مرفوضًا معذّبًا، رفضته فتحيّة كما رفضته الحقائق. كان لقيطًا ملقى في الوجود بلا أمل. وكان ينتظر خروجها من بيت صديقتها ليتبعها عن بعد. وانطفأت الأنوار فجأة وتمطّى الظلام العميق. اعتقد أنّ الظلمة معجزة يجود بها الدهر. استيقظت شياطينه التي لم يعد يزجرها شيء. انقضّ على الحلم الجميل مدفوعًا بالهوس والرغبة والتحرّق على الانتقام. كاد يهلكها لولا أن أنقذها الإغماء. حملها إلى دهليز بيت قديم. انحصر في ذاته الهائجة ففقد الوعي بالوجود. نسي أنّه مهدّد بقادم من فوق أو من الخارج أو بعودة النور. ثمّ مضى لاهثًا ذاهلًا لا يصدّق بالنجاة. مضى متشفّيًا من ذاته، من أبيه، من فريسته، من الوجود نفسه.

كانت تتابع المسلسلة مسترخية باسمة...

٩

جلسا في مجال المدفأة الكهربائيّة. الجوّ في الخارج يصرخ ويزمجر وإيقاع المطر يتتابع فوق الأشجار والنوافذ المغلقة. منظرها يستحقّ الرثاء. شحب لونها وغارت عيناها وانطفأ سحرها. وكان رمضان يطرق الأبواب فقال مداعبًا:

ـ سأصوم وحدي يا عزيزتي.

قرّر إعلان الصيام على أن ينتهكه سرًّا كلّما ألحّ عليه الجوع إيثارًا للسلامة. تمتمت:

ـ الله رحمن رحيم.

اعتقد أنّه نال حظوة جديرة بالتقدير ولكنّها سرعان ما سألته:

ـ ما أخبار الشقّة؟

اشتعل غضبه ولكنّه انكتم في أعماقه فقال:

ـ لم أوفّق إلى شيء مناسب بعد.

ابتسمت ابتسامة أحنقته فقال:

- سيجيء كلّ شيء في وقته...

لازمت الصمت ولكن وشى منظرها بقلّة الثقة فواصل:

- وعدت وسوف أفي...

- يبدو أنّك تفعل ذلك من أجلي.

فنفّس عن صدره بالصدق ولو مرّة فقال:

- هي الحقيقة...

- ما زلت ترفض العمل؟

فقال ضاحكًا:

- الفراغ هو أمل الأحياء المنشود...

- إنّك تعيش في الواقع لا في الحلم.

- دخلي يمكّنني من أن أعيش الحلم...

فتساءلت بعتاب:

- تأخذ دون أن تعطي؟

فهتف محتجًّا:

- إنّي أملك عشر عمارات تخدم المئات من الأسر، وجريرة العمل أنّه يشغل الإنسان عن التأمّل...

- اليوم طويل وفيه متّسع لأشياء كثيرة.

- على أيّ حال لقد وعدت وأنا ملتزم بوعدي.

سكتت عنه. لا مفرّ من فتح المكتب. سيتظاهر بالعمل كما يتظاهر بالصوم. ربّما تورّط في العمل أيضًا. إنّها أقوى منه وهٰذا يثيره. غيّرت ظاهره ولا يبعد أن تغيّر باطنه ذات يوم. ربّما أدّى الصلوات في أوقاتها أيضًا. ربّما ساقته يومًا إلى الحجّ. الممثّل يتضخّم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقيّ يموت. متاعب متلاحقة يعانيها من أجل الحبّ والحياة الزوجيّة. إنّه أدرى الناس بضعفه وانقياده. إنّه أدرى الناس بما تطبّع به على عهد داود الناطورجي. هل يتاح له يومًا أن يقتل الممثّل؟!.

***

وسألته ذات ليلة:

- هل يوجد شيء لا تعرفه عنّي.

فأجاب متوجّسًا:

- إنّي أعرفك تمامًا.

- وأعتقد عادة أنّي أعرفك كذٰلك ولٰكنّك تبدو لي أحيانًا كاللغز...

رأى شبح تحقيق يقترب فقال:

- إنّي شخص في غاية البساطة.

- أقول أحيانًا لنفسي إنّه يكره العمل، إنّه ينهمك في القراءة، إنّه لا يهتمّ بشيء ممّا يهتمّ به الآخرون!

فرمقها بحيرة فقالت:

- مَن أنتَ؟ ما أنت؟... في البلد هموم وتيّارات ما موقفك منها؟

فتساءل وهو يفكّر بسرعة وحذر:

- ألا يعيش الإنسان حياة كاملة بغير ما تسألين عنه؟

- إنسان مثلك لا بدّ أن يكون صاحب رأي ولو كان مفاده الكفر بجميع الآراء!

- لا حديث لنا مع الأصدقاء إلّا ذٰلك...

- ألا تعدّني صديقة أيضًا؟

- بلى ولٰكنّي أصون حياتنا ممّا يزعجها...

- أكنت دائمًا تعيش في نطاق ذاتك؟

فضحك عاليًا. بوسعه أن يبوح بأسرار صادقة كثيرة دون خطر. قال:

- لي تجارب حافلة.

فقالت بلهفة:

- هات ما عندك، حدّثتني مرّة عن ردّ فعل عنيف عقب وفاة أبيك!

- أجل، ردّ فعل اجتاح أبي وتراثه، ولعلّك تدهشين إذا عرفت أنّ المرحوم يسري أحمد هو أوّل من ساعدني على التمرّد، كان وقتها يتمرّد على الإيمان فنفخ فيّ مِن روحه المتمرّدة وأشركني في قراءة كتبه فتعرّضت لأزمة غير يسيرة وتبنّيت إلحادًا شاملًا...

تمتمت بامتعاض:

- فقدت إيمانك كلّه؟

- كلّه... وخيّل إليّ أنّي أكتشف العالم من جديد...

- أدام ذٰلك طويلًا؟

- على فكرة، لا شيء يدوم معي طويلًا في عالم الفكر، ما هو إلّا طور يعقبه طور جديد، وفي أقصر وقت يتصوّره العقل...

فقالت بقلق:

ـ وهناك العواقب العمليّة لذلك!

ـ هو ذلك، إنّي لا أحبّ الكذب!

ـ وانتهيت إلى إهمال الدنيا!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ لا أظنّ، العكس تمامًا ما حصل، اندفعت لاكتشاف الدنيا، وملء الفراغ، عند ذاك تسلّمني عدلي جواد ففتح لي باب الديموقراطيّة في وقت كانت تُذكر عادة مصحوبة باللعنات، فعرفت تاريخ مصر المجهول قبل الثورة، واستفزّني الحماس فطال لساني حتّى استدعاني رجل الأمن بالكلّيّة وأنذرني. . .

ـ لذاك الحدّ؟

ـ أجل لم أكن سلبيًّا كما تتصوّرين، غير أنّ المرحلة الديموقراطيّة لم تطل ولم ترسخ فسرعان ما تقدّم الصفوف عبد الباري خليل!

ـ أعوذ بالله!

ـ تبوّأ مركز الأستاذ منّي وراح يعيرني كتبًا عن المادّيّة الجدليّة والتفسير المادّيّ للتاريخ وصراع الطبقات والجنّة الموعودة.

فتمتمت ساخرة:

ـ رغم أنّك وريث دخل يربو على الخمسمائة الجنيه شهريًّا؟!

ـ اقتنعت تمامًا، ووجدت في تجاوزه طبقتي ما يشرّفني أكثر. . .

تزايد الاهتمام في نظرة عينيها الذابلتين فواصل:

ـ اجتاحني الحماس للماركسيّة كما اجتاحني من قبل للإلحاد والديموقراطيّة، وإذن فأنا مريض بالاهتمام لا بعدم الاهتمام. . .

فقالت ببراءة:

ـ ولكنّك تتغيّر بسرعة مذهلة!

يا له من حكم صادق! فطن إليه بنقده المرهف للذات. سرعان ما يقع تحت سيطرة الصديق أو الكتاب. إنّه ضعف ملموس محسوس طالما حمّل أباه تبعته. هو الذي طبعه بسرعة الانقياد. هو الذي جعل من ذكائه أداة سلبيّة في خدمة التلقّي وبلا طاقة على التمحيص والنقد. وقال بامتعاض:

ـ إنّه الشباب والحماس وردّ الفعل لخضوع طويل للأب. . .

فتساءلت بقلق:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لقد اعتُقلت، وتلقّيت إهانات لا تُمحى ولكن ثبت عدم تورّطي في أيّ عمل غير مشروع فأُفرج عنّي بخلاف عبد الباري الذي اعتُقل طويلًا كما تذكرين حتّى اشتُهر أمره في الحيّ. . .

ـ ثمّ؟

ـ زلزلني الاعتقال والإهانة، أكان ذلك ما كفّرني بالماركسيّة؟ الذكرى غائمة، أمّا ما أذكره بوضوح فهو أنّني عثرت على كتب الوجوديّة بلا مرشد، ولكنّ الكتاب كان وحده كافيًا للإلقاء بي في عبث الوجود واللامعنى!

فقالت بحزن:

ـ ما أجدر رحلة تبدأ بالإلحاد أن تنتهي بالعبث. . .

ـ صدقت!

ـ إنّك قطعت في أعوام ما قطعته البشريّة الضالّة في عمرها كلّه!

ـ صدقت أيضًا. . .

ـ ثمّ؟

حَسْبه ما نفث به عن صدره وعليه الآن أن يرجع إلى التمثيل، قال:

ـ رجعت إلى الإيمان والحمد لله. . .

ـ أكان وهدان المتجلّي وراء ذلك؟

ـ القراءة أكثر، والعناية الإلهيّة قبل كلّ شيء. . .

فقالت بجدّيّة ملفتة للنظر:

ـ من حسن الحظّ أنّك تزوّجتني وأنت مؤمن وإلّا لورّطتني في علاقة غير شرعيّة!

يا للداهية! إنّها تعني ما تقول، وتتصوّر العلاقات على ضوء واضح صارم حادّ النصل. وأزعجه جدًّا أن تكون علاقته بها في الحقيقة ـ من وجهة نظرها على الأقلّ ـ غير شرعيّة. وما تمالك أن قال:

ـ يوجد ملحدون معروفون وهم في الوقت نفسه أرباب أُسَر!

فقالت بقوّة:

ـ ما هي إلّا زيجات باطلة لا يبقي عليها إلّا داء التهاون المنتشر...

فحنى رأسه موافقًا أو متظاهرًا بالموافقة وهو يُلحق هٰذا السرّ بآثامه الخفيّة. حقًّا إنّ زواجه تجربة مثيرة اعترضت حياته لتهزّها من الأعماق. واستطاع أن يقول بنبرة المنتصر:

ـ ها أنت ترين أنّني لست عديم الاهتمام كما تصوّرت...

ـ ولٰكنّ رحلتك تركت فيك آثارًا باقية...

فتساءل بقلق:

ـ حقًّا؟

ـ مثل تهاونك في شئون دينك وكراهيّتك للعمل!

فضحك ليخفّف من توتّر أعصابه وقال:

ـ أخطاء محتملة ويمكن علاجها، ولعلّك أنت في حاجة إلى قدر من التسامح...

فقالت بحرارة:

ـ المسألة إيمان أوّلًا...

ـ التسامح جميل أيضًا.

ـ أجمل منه أن تطابق بين إيمانك وسلوكك...

فتمادى في كذبه وخوفه قائلًا:

ـ إنّي ماضٍ بعزم في هٰذا السبيل...

وتساءل في باطنه هل تتمخّض سعادته عن وهم زائل؟!

١٠

القلق يلازمه. رغم استهتاره بكافّة القيم فالقلق لا يبرحه. مجلسهما الليليّ يهبه شعورين متناقضين، السعادة والقلق. الشتاء يسحب أذياله وعمّا قليل تُفتح النوافذ وتشيع البسمات في الحديقة. صحّتها تبدو الآن أفضل ممّا كانت أوّل عهدها بالحبل. وهي تفضّل الراديو على التلفزيون فيجاريها مرحّبًا بأنّه لا يفصل بينهما فصلًا كلّيًّا. إنّه صادق في حبّها ولٰكن لا يجمعهما إلّا الكذب. من حسن الحظّ أنّها تصدّق «الممثّل» ولا تدري شيئًا عن الأصل. وسوف تجيء النهاية عندما تطّلع على الشخص الرابض وراء الممثّل. ما زالا يتمشّيان عند الأصيل خاصّة بعد أن أصبح المشي ضرورة صحّيّة لها، وهي ترتدي اليوم فساتين مرسلة، وتُعِدّ عدّتها لاستقبال الوليد. وشوقه إليها يزداد ومخاوفه تزداد أيضًا. شخصه الحقيقيّ لا يكفّ عن تعذيبه. إنّه يعيش وحده في عزلة تامّة، لا يمارس الحبّ ولا الزواج ولا حقّ له في التعبير عن ذاته. إنّه كامن في أعماقه في ذلّ، يغلي بالحنق، ويحلم بالثورة. غارق في العبث الذي وجد فيه الحلّ لمتناقضاته الماضية. هو الذي أخرجه من تردّده المعذّب بين الإيمان والإلحاد، بين الديموقراطيّة والحكم المطلق، بين الماركسيّة والرأسماليّة. هو الذي أنقذه من الهياكل الخاوية ولٰكنّه أصابه بمرض جديد، مرض الفراغ والرعب. وفتحيّة لم تفصل بين الممثّل والأصل فحسب ولٰكنّها تهدّد الاثنين أيضًا. ألا ينقاد لها ذات يوم كما انقاد من قبل ليسري أحمد وعدلي جواد وعبد الباري خليل؟ وأيّ عواقب تتربّص به إذا تحقّق ذٰلك الانقياد المتوقّع؟!

***

سألته باهتمام:

ـ أيّ مراحل حياتك تراها الأفظع؟

بعد تأمّل أجاب:

ـ لعلّه العبث.

ـ لماذا؟

ـ لأنّه فراغ، والفراغ مرعب.

ـ أوافقك تمامًا، أيّ مذهب وضعيّ فهو انحراف أمّا العبث فشلل للعقل، وإذا شُلَّ العقل فماذا يبقى من الإنسان العاقل؟!

أجاب بلا وعي:

ـ لا شيء...

ـ أيّ سخرية أن تتصوّر الإنسان لقيطًا في الكون، تجيء به المصادفة العمياء ثمّ يندثر بالمصادفة أو العجز!

إنّها تذكّره بيأسه وهي لا تدري ولٰكنّه يوافقها بحماس قائلًا:

ـ أحسنت التصوير.

ـ يسرّني أنّك تطالع كتب العلم بشغف، إنّها تؤكّد المعنى في كلّ شيء!

ـ تمامًا!

ـ حتّى المتشكّك يسلّم بوجود معنًى وإن عزّ عليّ إدراكه.

ـ أجل، يسلّم على الأقلّ باحتماله...

وتأمّل قوله بقلق. وازدادت مخاوفه. وغاب عنها وقتًا فلم يدرِ كيف تطرّقت إلى موضوع الصلاة، كانت تقول:

ـ يستحسن أن تصلّي وأنت صائم، ولو شهر رمضان فقط!

أليس لديها اهتمامات أخرى؟. ألا تحبّ أحاديث النساء؟. لِمَ لا يقاوِم؟. هل زاده شعوره بالإثم ضعفًا على ضعف؟!. تمتم:

ـ فكرة مقبولة...

إنّها تُحكم الحصار حوله. إذا ولّى رمضان ستطالبه بالاستمرار في الصلاة. وستذكّره حتمًا بأنّ الصلاة لا تتّفق وشرب الويسكي في ركن الفردوس. وسيجيء الحجّ في يوم من الأيّام. سوف يتضخّم الممثّل ضاغطًا بثقله المتصاعد فوق الشخص الحقيقيّ السجين. جعل يلحظها في فترات الصمت فيراها وهي تغمض عينيها إعياءً أو تنظر من خلال الزجاج إلى رءوس الأشجار المتوهّجة بأنوار المصابيح. حنق عليها. وحنق على داود الناطورجي أيضًا. حنق على ضعفه وجبنه. عزّ عليه أن يتوارى في بيته تاركًا الممثّل الغريب يعاشر زوجته أمام عينيه ويتلقّى حبّها ويهبها بكلّ وقاحة بذرة حياة جديدة. كلّ ذلك يحدث أمام عينيه وهو متوارٍ صامت مستسلم.

١١

لأوّل مرّة من أكثر من عام تخلو الفيلّا من فتحيّة. انتقلت إلى مستشفى الولادة قبل ميعاد الوضع بأسبوع ـ لتوعّكها المفاجئ ـ لتكون تحت الملاحظة الدقيقة والرعاية المتاحة. وجد نفسه وحيدًا. لم يعد كما كان، ففي الربيع والصيف تكاملت شخصيّة الممثّل وترامت أبعادها. إنّه يجيد الآن تمثيل دور المؤمن والمحامي، بل إنّه يسعى إلى تولّي القضايا حتّى لا يرمى بالخيبة. وشغل التمثيل جلّ حياته فلم يترك للرجل الحقيقيّ إلّا وقتًا قصيرًا يمضي عادة في السخرية والمرارة والغضب. على سبيل المزاح قال له عبد الباري خليل:

ـ وراء كلّ عظيم امرأة!

فأحنقه ذلك جدًّا. إنّه يشير إلى تغيّر أسلوب حياته ولكنّه يعلم في الوقت نفسه أنّه تغيُّر أُلقي عليه من الخارج قهرًا بلا اقتناع ولا إرادة ولكن تحاميًا للعواصف وإيثارًا للسلامة وإبقاءً على راحته الشخصيّة. ولم يخفِ عواطفه فقال لأصحابه:

ـ إنّي غاضب.

فقال له عبد الباري خليل:

ـ إن تكن صادقًا في عبثك فلتعتبر الأمر كلّه فكاهة لا بأس بها.

فقال بإصرار:

ـ ولكنّني صادق بلا ريب.

ـ ماذا يغضبك إذن؟ الضمير لا يوجد إلّا في رحاب إيمان ما...

فقال بحدّة:

ـ رواسب اللاوعي لم تُجتثّ بعد.

ـ الرواسب هي مشكلتك.

فقال وهدان المتجلّي:

ـ إنّي أضع الأمل في الممثّل لا في الشخص، فلعلّه يندمج في دوره فينقلب تمثيله صدقًا مع الزمن!

عند ذاك قال عدلي جواد:

ـ لا بأس مطلقًا من أن تعيش الشخصين حفاظًا على أسرتك وحبّك!

كرّر جملته مرّتين ثمّ واصل حديثه:

ـ مَن مِن الناس حولنا يحظى بشخصيّة واحدة؟ نحن في مسرح كبير، الجميع ممثّلون، يقولون كلامًا جذّابًا فوق الخشبة، ويتهامسون بكلام آخر وراء الكواليس، هكذا الجميع من القاعدة حتّى العلالي، فليس في حياتك شذوذ، احذر أيّ تصرّف جنونيّ، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون، عليك بالسلوك الجدير بعبثيّ، ملايين يمثّلون بلا فلسفة ولكن بوحي من غريزة البقاء، ويواصلون الحياة في ارتياح واستبشار وسرور!

ها هو ينفرد بنفسه ويزن تلك الأقوال بدقّة. إنّه

الآن متحرّر من ظلّها. وهي طريحة الفراش بين أيدي الممرّضات مشغولة بوعكتها عن المبادئ، تتأهّب لاستقبال الوليد الذي ستنشئه على مثالها. أجل لقد تلقّى النصيحة العمليّة السديدة التي تصون له حياته وسعادته. سيعيش فوق المسرح زوجًا وأبًا ومؤمنًا ومحاميًا، ويبقى وراء الكواليس ضائعًا بلا معنى، قاتلًا، مغتصبًا، عزبًا، وحيدًا، ينتظر موتًا سخيفًا في أعقاب حياة سمجة. وكلّما ترامق الشخصان ـ الممثّل والأصل ـ فعليه أن يبتسم، وإن شاء فليضحك، بلا همّ ولا غمّ، وليتذكّر أنّه لا يمارس شذوذًا ما، وأنّه يقلّد الملايين في حياتهم اليوميّة.

١٢

بدا في وقتٍ ما أنّ الصراع يمضي نحو مستقرّ. لاح الأمان أيضًا في الأفق مع سحائب الخريف. وقال لنفسه إنّ آثامه ليست شيئًا إذا قيست إلى آثام الآخرين من السادة القتلة وقطّاع الطريق المتهادين فوق المسرح بين التهليل والتصفيق.

ولكن عادت فتحيّة فأشرقت الفيلّا بنورها. عادت إلى مقعدها وانتفض الوليد بحياته الجديدة فوق حجرها. لقد سمّته سليمان باسم أبيها وسوف ينشأ نشأة جديدة تقيه من وباء الانقسام وتحقّق له وحدته. وتبدّت سعيدة بوليدها، سعيدة أيضًا بالرجل الذي أعادت خلقه من جديد. الحقّ أنّ استقراره تزعزع بحضورها. إنّها نقيّة صادقة. رغم تزمّتها، بل رغم صرامتها وعنفها، فهي نقيّة صادقة. إلى جانب نصاعة بياضها لاح لونه أغبر قاتمًا. حقًّا إنّها ينبوع الحبّ والعذاب. من القلّة النادرة التي لم تحترف التمثيل فرجع مضطرًّا إلى المقارنة بين ذاتيهما. في غيبتها ساد العقل والمنطق وسيطرت ذكرى الحبّ ولكن في حضورها انكشف الحبّ عن خدعة وفريّة. هذه السيّدة الجميلة الصادقة لا يمكن أن تبقى على حبّ قاتل مغتصب ضائع. ستقضي على العلاقة بعدم الشرعيّة. لا حبّ ثمّة ولا زواج ولا أبوّة في محضرها. المطاردة تعنف، واليأس يستفحل. وعجب لشأنه ولحدّة انقلابه. التزعزع لا يغزوه نتيجة لضعفه وحده ولكن بوحي الحبّ أيضًا. الحبّ ذو التزام ويجفل من الخداع. هل يدمّر الحبّ باسم الحبّ؟. وكأنّه أزمع الدفاع عن نفسه فقال لها:

ـ مَن يقرأ الصحف يقتنع تمامًا بأنّ الصفوة نفسها تعيش وجهين، وأنّها لا تَصْدق مع ذاتها إلّا وهي تمارس الشرّ في الخفاء!

فقالت على الفور:

ـ المؤمن وحده مَن يعيش بوجه واحد.

سرعان ما صمّم على ألّا يُقْدم مختارًا على طعن سعادته طعنة الموت. سوف يألف هذه الحياة رغم قربها، وسوف يتحرّر مع الزمن من آلامها. ونسمت من الباب المفتوح نفحة خريف عذبة مختلطة بالأصوات الغامضة الصادرة عن سليمان.

ولكن حدث شيء.

انطلق فجأة وبلا مقدّمات من أعماقه المترعة بالقهر والقلق.

انطلق عملاقًا ثملًا حرًّا مزهوًّا بحقيقته الراسخة وتأثيره المطلق. كأنّ صدره انشقّ عن ثغرة متفجّرة بانفعالات طاغية غامضة لتغزو الفضاء كلّه. استطار خياله في نشوة من السكر الأصيل مستمدًّا من المجهول قدرة شاملة. رأى بنظرة خاطفة الكون ماثلًا في صورة واحدة ملتحمة الأجزاء متعانقة الأبعاد تنبعث من بهائها نغمة ساحرة. في غمرة السكرة الصافية مرق بكلّ قواه من قفص الزمن وعلا فوق المخاوف والحذر. انغمس حتّى قمّة رأسه في انتصارات اللحظة الراهنة.

وبصوت غريب متهدّج قال لها:

ـ فتحيّة، أصغي إليّ، سأفضي إليك بأسرار مذهلة...

١٣

الخريف مستمرّ في نفث أنفاسه ولكنّ العذاب انتهى. الحزن يغشى الوجود ولكنّ العذاب انتهى. إنّه غارق في هدوء عميق سُبق بإعصار مدمّر. تقوّض المسرح وتلاشى التمثيل، استردّ ذاته، لا حبّ ثمّة ولا زواج ولا سليمان ولا شعائر ولا قضايا. الجدب

والوحدة ولٰكنّ العذاب انتهى. من خلال جوّ جنائزيّ قاتم أطلّت عليه وجوه الأصدقاء. لتوّهم رجعوا من زيارة واجبة للحيّ القديم. مسعى تقليديّ ولٰكن بلا ثمرة.

قال عدلي جواد:

- لا يمكن فهم تصرّفك.

- ما أهمّيّة ذٰلك؟. لكنّه كان حتمًا من الحتم وعاصفة لا سبيل لمقاومتها.

وقال وهدان:

- حزنها لا يوصف.

فقال عبد الباري:

- وغضبها كذٰلك.

وقال وهدان:

- لم تغفر لي سكوتي من أوّل يوم...

رجع عدلي جواد يردّد:

- لا يمكن فهم تصرّفك؟

فقال:

- صعقني بلا مقدّمات. لعلّه نوع من الجنون...

ثمّ تمتم بعد قليل:

- ولٰكن لا ندم ولا أسف...

فقال وهدان:

- قياسًا على ما حدث يمكن أن يجدّ جديد لا يخطر الآن ببال أحد...

فقال عبد الباري:

- قول حسن.

من ناحيته فلا ندم ولا أسف، ولا عذاب أيضًا. ثمّة حزن عميق ولٰكنّه يتنفّس في الزمن.

السلطان

١

من فوق قمّة المقطّم لاحت قمّة القاهرة مثل خلايا النحل، بيوتًا وعمائر متلاصقة متلاحمة، تمرق من بينها المآذن والقباب، يغطّيها الأصيل بستار رماديّ نعسان.

توقّف السلطان نوح عن متابعة السير، التفت نحو تابعه منصور وقال:

ـ اذهب، ثمّ عد قبيل الفجر.

ولكنّ منصور لم يبرح. وقف واجمًا حائرًا، فقال السلطان:

ـ اذهب فقد أزف ميعاد العبادة.

وأخرج منصور من عباءته بلطة يلمع الموت في نصلها. رمى بها تحت قدمي السلطان، وقال بحزن:

ـ كُلّفت بقتلك يا مولاي!

فرمقه السلطان بذهول فواصل الرجل:

ـ كان المتّفق عليه أن أتوارى حتّى يجثم الليل ثمّ أزحف نحوك لأطيح برأسك!

فاصفرّ وجه السلطان غضبًا مثل الشعاع الغارب، وتساءل:

ـ مَن؟

ـ الملكة!

ـ يا للشيطان! لها شركاء يا منصور؟

ـ القائد كرداش... والوزير عقبة...

ـ يا للفظاعة، قَصْر من الرمال، عاصفة من الظلم تبغي اجتياح رجل كرّس حياته للعدل!

ـ إنّه الطمع في أرزاق العباد يا مولاي!

استدار السلطان وهو يتمتم:

ـ لأنكّلنّ بالمجرمين!

فقال منصور بانكسار:

ـ لن تستطيع الرجوع يا مولاي...

ـ ماذا قلت؟

ـ عيونهم منتشرة، وخناجرهم مشهرة.

ـ ما أحبّ العباد سلطانًا كما يحبّونني...

ـ لذلك دبّروا مؤامرتهم ليزعموا بعد ذلك أنّك اختفيت، فإذا رجعنا اكتشفوا خيانتي لهم فانقضّوا علينا كالشياطين...

ـ أنهزم تاركًا رعيّتي تحت رحمتهم؟

ـ اهرب... اختفِ تمامًا عن الأعين، لقد تظاهرت بخيانتك لأنقذك، دعني أرجع لأبشّرهم بقتلك ودفنك!

فاشتدّ امتقاع وجه السلطان وراح يقول:

ـ الملكة، الأفعى، الجباه التي تنحني وهي مثقلة بالنفاق والغدر، الألسنة التي تلهج بالثناء وهي تنقع بالسمّ، الجسد الذي يذعن للحبّ وهو يتراقص فوق موجة من الفسق المضمر، كيف جرى ذلك كلّه من وراء ظهري؟!

فقال منصور بأسًى:

ـ ما أشدّ حزني يا مولاي!

ـ دع الحزن فما أملك الآن سواه، وسوف تفجّر الطبيعة في غشاوته شواظًا من نار الغضب والانتقام.

ـ اختفِ يا مولاي، اذهب إلى أقاصي الصعيد أو إلى برّ الشام، إليك هذه الصرّة من الذهب...

لبث السلطان جامدًا وهو يتحوّل إلى شبح تحت أهداب الليل فقال منصور جزعًا:

ـ لا وقت لديك، اهرب قبل أن يسعى إليك القدر.

فتأوّه قائلًا:

ـ أودّع الحياة بلا دفاع، أتطوّع للموت، أهيم مطاردًا بلا رعيّة، تاركًا ورائي رعيّة بلا سلطان، مفسحًا المكان للمجاعة والأوبئة. . .

أكبّ منصور على يد مولاه فبلّلها بدمعه، ثمّ غاص في الظلام.

٢

أقام السلطان نوح في أطراف المدينة فيما يلي المقابر. لم يكن يعرف وجهه إلّا المقرّبون وقلّة من الرعيّة الذين شاهدوه في مواكب المواسم، فتنكّر ما وسعه التنكّر واستثمر الذهب في تجارة الغلال، فكان يتاجر نهارًا، ويعتكف ليلًا ليتفكّر في الانتقام من أعدائه أو ليواصل عبادته التي شغف بها أيّام ملكه.

وتسرّبت أنباء اختفائه مثل رائحة يتعذّر كتمانها. عمل المتآمرون على نشرها فمضت من لسان إلى لسان ومن حيّ إلى حيّ. وأنهاها إليه بعض عملائه من التجّار. أما سمعت عمّا يقال من اختفاء السلطان نوح؟ الناس حيارى محزونون يتساءلون، يقال إنّه كان يمضي الليل متعبّدًا فوق جبل المقطّم، هل باغته وحش؟ هل اغتاله قاطع طريق؟ هل اعتزل في كهف مثل الرهبان؟ أمّا عن أحزان الملكة وحيرة الوزير والقائد فحدّث ولا حرج، ليتك ترى الناس وهم يتجمهرون في الطرقات؟. ما أشدّ الأسى على المحبوب الغائب!.

ثمّ أعلن النبأ بصفة رسميّة فنادى به المنادون. ونُصّب وليّ العهد ـ ابن السادسة ـ سلطانًا، وعيّن الوزير عتبة وصيًّا، كما عُيّن القائد كرداش وزيرًا وقائدًا.

تلقّى نوح الأنباء كالمطارق فوق رأسه. سمع نعيّه على كلّ لسان. تبخّرت شخصيّته في الهواء. عاشر الموت وهو حيّ. عجز عن دفع زحفه تمامًا. مَن مات في وعي الخلق فقد مات. هذا هو الموت الذي بدا له غامضًا فيما مضى. ليست الحياة قلبًا يخفق أو دمًا يجري ولكنّها معنى يتردّد في وعي الناس. وقد مات نوح. ولم يعد التفكير في الانتقام مجديًا. لقد حلّ آخر محلّه فوق العرش، واغتصب غريب فراشه، وأدّت رعيّته ضريبة الحزن والدموع عليه. لم يعد لرجوعه معنى. سيهدم عالمًا أعيد بناؤه وتكوينه. وها هي الأعوام تمضي مؤكّدة موته، مقوّضة لدنياه، ومن الخير له أن يبذل ليله كلّه للعبادة، وأن يسلّم للمقادير، وأن يمهّد طريقه إلى أعتاب الله ورحابه.

وجاءته أنباء جديدة ذات لون داكن ضارب للصفرة. لم يكن السلطان وحده الذي اختفى ولكن ها هو طعم الحياة يتغيّر، ووجهها يتجهّم، يعسر ما كان يسيرًا، ويمرّ ما كان حلوًا، ويضنّ ما كان مبذولًا، ويغلو ما كان رخيصًا، والمعاملة تسوء، والشدّة تضرب، والجبروت يستفحل، والظلم يغشى. ورجع الناس يتذكّرون سلطانهم الفقيد، ويترحّمون على عهده، ورجع نوح يشعر بالحياة تدبّ في أوصاله ولو في صورة ذكرى، ولكنّ فيضًا من شائعات مدبّرة اجتاح العباد بغية تشويه سمعته. قيل إنّه كان مهملًا، وإنّه كان يتعبّد على طريقة الرهبان، وإنّه كان شاذًّا مدنّسًا، وإنّه جنّ جنونًا كاملًا حتّى دعا أهل بيته إلى عبادته. وارتاب أناس في حقيقة ما يذاع، وصدّقه آخرون، وحدثت بلبلة ضاعفت من محنة الشدّة والبلاء. وجزع نوح واكتأب، لقد رضي بالموت، ولكنّه عانى ما هو أفتك من الموت.

٣

وفي السنة الخامسة عشرة من اختفائه زاره صديق يدعى طالب. كان يلهث من الانفعال والبهجة، وسرعان ما ارتمى على أريكة وهو يقول:

ـ قلب المدينة ينبض ببعث جديد.

فسأله نوح بهدوء صار طبعه من طول التعبّد:

ـ ماذا حصل لقلب المدينة؟

ـ ألم تعلم؟. . . السلطان نوح لم يمت. . .

فاقتلع هدوءه اضطراب طارئ وتمتم:

ـ نوح لم يمت؟

ـ إنّه حيّ ويسعى بين الناس. . .

ـ مستحيل يا طالب.

ـ هي الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان!
ـ أرأيته بنفسك؟
ـ أجل.
ـ أكنت تعرف صورته من قبل؟
ـ طالما رأيته في الأعياد...
ـ ووجدته أنّه هو هو؟
ـ بنصّه وفصله!، وقد تعرّف عليه كثيرون...
ـ يا للعجب!
ـ وسرعان ما التفّ حوله المظلومون...
ـ وماذا فعل السلطان الشابّ «المتوكّل»؟
ـ القتال محتدم بين الفريقين، بين المتوكّل ونوح، وما زال رجال نوح يقاتلون في جماعات متفرّقة ولٰكنّهم ينهكون جيش السلطان...

فتمتم نوح في حيرة:

ـ قتال بين الأب وابنه!
ـ الابن يزعم أنّ الآخر دجّال دعيّ!
ـ ولٰكنّ نوح يعرف أنّ غريمه هو ابنه...

فقال طالب بحماس:

ـ في سبيل العدل يهون كلّ شيء!

٤

زلزلت نفس نوح فسلّته من عزلة العبادة إلى خضمّ الدنيا. سمع اسمه يتردّد على ألسنة العباد، سمع الحناجر وهي تهتف به، وتستنجد به على ما تعاني من جور وظلم. خيّل إليه برهة أنّه بُعث، أنّه حيّ، أن قد مات الموت، ولٰكنّه سرعان ما باخ وانهزم، فأدرك أنّ الحيّ رجل آخر، لعلّه دجّال أو مجنون أو داهية، وأنّه جاء ليؤكّد موته هو إلى أبد الآبدين.

وقال له طالب:

ـ قم بنا إلى معسكره خارج باب الفتوح لمبايعته...

تاقت نفسه إلى رؤيته فمضيا معًا في غلس الظلام حتّى انضمّا إلى جموع لا حصر لها، ووقفا في طابور طويل، مقدّمته أمام خيمة السلطان وذيله عند مشارف الصحراء. ومثل بين يديه فوجده يماثله في الطول ولٰكنّه أدقّ في البناء، تضيء عيناه بنور قويّ، وتتّسم قسماته بالنبل. تطامن لتقبيل يده ثمّ قال:

ـ نبايعك من جديد كما بايعناك أوّل مرّة.

فقال السلطان المبعوث:

ـ فليؤيّد الله المؤمنين.
ـ ليكن النصر على يديك.
ـ أسبق لك أن مارست القتال؟
ـ كنت جنديًّا قبل أن أصير تاجرًا...
ـ إذن تنضمّ إلى قوّاتنا...

٥

قال نوح لنفسه إنّ الرجل سلطان حقيقيّ لا شكّ في ذٰلك. وبقدر ما هو سلطان بقدر ما أنا ميت. أعدمت نفسي اتّقاء الموت، واتّخذ هو هويّة غير هويّته متحدّيًا الموت. ولم يعد لي من أمل في الوجود إلّا تحت جناحه. هٰذه هي لعبة الحياة والموت التي خسرت فيها حياتي. وإنّه لرجل مخلص ينطلق بكلّ قواه وراء العدل المفقود. ينطق وجهه بالنبل والصراحة والعزم. وإن تصدق فراستي فيه فما أهمّيّة أن يكون السلطان الحقيقيّ أو لا يكون؟.

ونازعته نفسه إلى الرجوع إلى عزلته ولٰكنّه سرعان ما خجل من ضعفه فقرّر أن يصير جنديًّا في جيش السلطان وأن يجعل من الجهاد عبادته.

٦

وتوثّب الجيشان للقتال. وكالعادة المتّبعة في تلك الأزمان تقدّم القائد كرداش متحدّيًا السلطان لنزاله. وكلّما تطوّع لمقاتلته فارس صرعه. وكان السلطان الجديد زعيمًا أكثر منه مقاتلًا، فخرج للقتال السلطان الحقيقيّ. ولم يعرفه كرداش. تبادلا ضربات عنيفة، وتمكّن نوح من خصمه فجندله. ووقف فوق رأسه وهو ينزف، وقال:

ـ متّ أيّها الخائن، ألم تعرفني بعد؟

ورنا إليه كرداش ببصر معتم فعجز وجهه عن التعبير عن ارتياعه فغمغم:

ـ أنت! ... لا... لا...

وفاضت روحه.

والتحم الجيشان، وكان السلطان الشابّ يقود جيشه بمهارة أثارت إعجاب نوح. وتواصل القتال حتّى غابت الشمس وراء الأسوار فتراجع كلّ فريق إلى معسكره.

٧

في اليوم التالي برز السلطان الصغير من بين الصفوف مطالبًا بالنزال. وخرج لنزاله فارس فدارت معركة شديدة تابعها نوح بقلب خافق. وجد نفسه يتمنّى السلامة لابنه. وشعر بالإثم لتمنّياته... غشيته كآبة ثقيلة. ولّما انتصر الصغير أغمض نوح عينيه كأنّما يفرّ من عذابات هٰذا العالم.

واستمرّ السلطان الشابّ في تحدّيه للأبطال. وتكرّر انتصاره حتّى قال السلطان الجديد لنوح:

- اخرج له فإنّك فارس مدرّب!

فتردّد نوح غارقًا في جيشانه فقال له السلطان بنبرة آمرة:

- اخرج والله ناصرك.

فلم يجد نوح مفرًّا من الخروج.

ولم يعرف السلطان الشابّ أباه، ولم يفطن إلى ما يتصارع في صدره من الانفعالات المتضاربة، وقال له بحقد:

- أنت قاتل كرداش، وسوف تدفع ثمن جنايتك...

والتحم الأب وابنه، الابن يندفع لقتل أبيه، والأب يتلقّى ضرباته بمهارة ويفسدها بحذق متجنّبًا في الوقت نفسه إصابته. ولٰكنّ مهارة الابن أوقعته في مركز حرج فقد صمّم ضربة قاتلة عرفت طريقها إلى مقتل أكيد فلم يجد الأب بدًّا من مبادرته بضربة اطارت سيفه وتركته أعزل.

توقّف السلطان الشابّ متوقّعًا الضربة القاضية، وتردّد نوح، على حين هدرت الأصوات من جيش السلطان الجديد:

- طيّر رقبته...

ولٰكنّ نوح شلّ تمامًا فهجم جنود ابنه ليحموا سلطانهم والتحم الجيشان في قتال مرير حتّى غروب الشمس.

٨

واستُدعي نوح إلى لقاء السلطان فسأله بجفاء:

- لِمَ لم تقضِ على عدوّنا وعدوّك؟

فقال نوح معتذرًا:

- لا أقتل الأعزل يا مولاي!

فقال بغضب:

- بل أهدرت حقّك، وأبحت دماء المئات من رجالنا!

لم يشكّ نوح في صدق قوله، وغاص في الحزن والكآبة...

٩

وعاد الجيشان إلى الاشتباك في اليوم الثالث. وعند الظهيرة رجحت كفّة السلطان الجديد، ووقع السلطان الشابّ ورجاله في الأسر. ودخل الجيش المنتصر المدينة دخول الظافرين فاستقبله الخلق بحماس وسعادة.

وأمر السلطان فزجّ في السجن بالسلطان الشابّ والملكة وكبار رجال الدولة.

واستدعى السلطان الجديد نوح وقال له:

- أنت أيضًا ستوضع في السجن حتّى يبتّ القاضي في أمرك...

فتساءل نوح ذاهلًا:

- ألا يشفع لي ما أبليت في القتال؟

- لا تشفع لك إلّا براءتك!

١٠

هٰكذا جمع السجن بين الجميع وهم مكبّلون بالسلاسل. وكان أوّل من عرف نوح تابعه القديم منصور، الذي انقذه من الغدر، والذي صار بعد ذٰلك حاجبًا مكافأة له على جريمته الوهميّة. نظر نحو سيّده بذهول ثمّ هتف بفرح:

- مولاي...

فحدّق الجميع به حتّى عرفوه وسرعان ما ارتعدت فرائصهم. وصاح منصور بسلطانه الشابّ:

ـ هٰـذا أبوك يـا مـولاي، هٰـذا سلطان مصر الحقيقيّ...

وراح نوح يقلّب عينيه ما بين الملكة والوصيّ القديم وابنه، ثمّ قال:

ـ أجل إنّي أبوك، غدر بي رجالي وأمّك وأنت لا تدري...

فتمتم السلطان الشابّ:

ـ أبي!

ـ أجل، إنّي أبوك نوح، ضحيّة الخيانة والغدر..

ـ ولِمَ كبّلوك بالسلاسل مثلنا؟

ـ جزاء امتناعي عن قتلك...!

فقال الابن بتأثّر:

ـ طالما حيّرني ذٰلك...

ـ ولٰكن لا مفرّ من الجزاء.

وراح نوح يردّد عينيه بين الملكة وسائر الرجال الذين خانوه ثمّ قال متهكّمًا:

ـ انعموا بعاقبة الخيانة...

وأومأ بلحيته إلى شخصه وقال:

ـ ولأنعم بعاقبة الغفلة!

أيُّوب

١

إنّه سجن بلا قضبان. وبلا ذنْب أيضًا. عليّ من الآن فصاعدًا أن أحمل جسمي بعد أن حملني خمسين عامًا. حيثيّات الحكم تبلورت في مرثيّة طبيب الأسرة صبري حسّونة إذ يقول:

ـ لا مجـال للخـداع، سيـطول بـك الـرقـاد، الكورتيزون فعّال ولْكنّه لا يخلق المعجزات، المسكّنات والمهدّئات فعّالة أيضًا في مقاومة النوبات، ولٰكن عليك أن تتزوّج من الصبر، لا تتصـوّر أنّ حجرة نـومك زنـزانة، كـلّا، لديـك الراديـو والتلفزيـون والجرائـد والمجلّات، معك الهانم وآنسة نبيلة، ووفيق مشهود له بالكفاءة، أصدقاؤك كثيرون ولن يتخلّوا عنك، المهمّ أن تسلّم بالقضاء وأن تنحّي عنـك العناد والحسرة، والله معك...

لست أسـير حجـرة فحسب. الحقيقـة أنّني أسـير الفراش. حتّى الحمّام أُحمل إليه كطفل. أعاني الألم على فترات ولْكنّي أتجرّع العبوديّة طيلة الـوقت. إنّي محتجّ لحدّ التمرّد. أضرب كفًّا بكفّ. لا أدري متى أذعن للقضاء. الصدمة شديدة تدهم النفس بعنفها وقسوتها ولامبـالاتها. لمـاذا؟... لماذا؟. أين الحيـاة الثـريّـة الحـافلة؟! أين تلال الأمـوال الطائلة؟. أين المكـانة المرموقـة؟. في الخزائن والـذكريـات ولا شيء معي. ويجيء الأطبّـاء من الداخـل والخارج. يُجمعـون على حكم لا استئناف له. يناقشون الأسباب وما تراءت لي إلّا ضربة عابثة. ويبقى اليأس والمفاصل المتـورّمة. ويتفشّى اليأس والأسى. ويل لعابر العواصم الكبرى من أغلال مستحكمة.

حول الفراش الوثير ذي المرآتين المتقـابلتين تجلس أفكار ونبيلة ووفيق. في الأعين نظرة حزينة مواسية. بؤرة تستورد العطف بعد أن كانت تصدّره. لا يفارق أحد منهم الحجرة ولْكن حتّى متى؟. إنّه رقاد يبدو ألّا نهاية له. والحياة هي الحياة لا أكـثر ولا أقلّ. قلت متجاهلًا انفعالاتي الجيّاشة:

ـ أمر ربّنا، فلنواجه الأمر بشجاعة وبساطة.

فقالت أفكار:

ـ رأيي أن نسافر إلى الخارج.

فقلت بشجاعة لا أشعر بها:

ـ لم ينصح أحد بذْلك، جئنا بأكبر أخصّائيّ عالميّ وأخذ الشيء الفلانيّ...

ـ لا شكّ توجد في الخارج استعدادات لا تتوفّـر هنا.

فقلت باسمًا:

ـ المسألة أنّك تؤمنين بالخارج.

وقالت نبيلة بصوت متهدّج:

ـ قلبي معك يا بابا.

الكلمة اللطيفة ممّن نحبّ مثل الكورتيزون وأنجع. قلت:

ـ أسأل الله أن يكفيكم شرّ المرض.

وفيق متجهّم الوجه ولْكنّه متمالـك لأعصابـه. كما ينبغي لرجال الأعمال. والولد سرّ أبيه. قال:

ـ ستنهض معافًى، إنّها محنة صبر وتصبّر.

فابتسمت له فقال مستطردًا:

ـ لك أن تطمئنّ تمامًا إلى سير العمل في المكتب.

ـ طمأنينتي من هٰذه الناحية كاملة.

ـ وسوف أرجع إليك عند كلّ خطوة.

ـ لا يهمّني من ذٰلك إلّا أن أراك كثيرًا.

فقالت أفكار:

ـ أقترح أن نتناول طعامنا هنا معًا...

فقلت:

ـ الإفطار فحسب أمّا الطبيخ فله رائحة يعافها الإنسان إذا شبع!

وضحكت بلا سبب لأقنعهم باستعلائي على المفاصل ثمّ قلت:

ـ لا يمكن أن تبقوا حولي إلى الأبد، إنّي أكره أن أكون عبئًا عليكم، فلتسِر الحياة سيرتها المألوفة.

إنّي أستبق المتوقّع والمألوف والطبيعيّ كما يجدر برجل مجرّب في الخمسين من عمره. لن أطالب الدنيا بما ليس في دستورها. ثمّ إنّني أحبّهم.

٢

هرع الزوّار إلى قصري من كلّ ناحية. اكتظّت مواقف السيّارات بشارع المعتصم بجاردن سيتي. المقاولون وتجّار الجملة والموزّعون وأصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وبعض المسئولين. كنت محورًا دائرًا لكون هائل فأمسيت مركزه الجامد ولو إلى حين. يقبّلون الجبين ويجودون بنظرات المودّة والرثاء. ثمّ تتضارب الأقوال:

ـ لم يعد شيء على الطبّ بمستعصٍ...

ـ أقرب مثل ابن أختي، اعتقدنا أنّ حال مفاصله مزمنة، وهو يمشي اليوم مثل جواد السباق!

ـ كيف تكون لنا ليالٍ قمريّة والقمر غائب!

ـ اعتبرها هدنة سترجع بعدها فارس النضال المرموق.

ـ ولٰكن لا تنس أنّك أهملت نصح طبيبك باستهتار غير محمود.

تمتمت:

ـ العمل والحياة...

ـ والصحّة؟... أليس لها حقّ أيضًا؟

فقلت متأفّفًا:

ـ الحقّ أنّه عقاب لا أستحقّه...

ـ لا تعترض على قضاء الله...

فقلت مستدركًا:

ـ أحمده على أيّ حال.

ـ ليكن ذٰلك من قلبك.

ـ كيف لنا بإدراك حكمته!

ـ عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

تتابعت الشعارات الدينيّة من قوم لا يحفلون من الدين إلّا بقشوره. أنا مثلهم أيضًا. طالما ندّدت بإلحاد أعدائنا وأنا سكران. ما أعجب أن يتبادل أناس الأكاذيب وهم يعلمون أنّهم يكذبون! الأدهى من ذٰلك أنّ بعضهم لا يفطن إلى كذبه. ولم تخدعني حرارة مودّتهم. زميلنا إبراهيم جنديّة المشلول منذ عام مَنْذا يذكره اليوم؟. وقتنا ـ نحن رجال الأعمال ـ لا يتّسع للوفاء. ولن أطالب الدنيا بما ليس في دستورها. إنّنا نقدّس الوقت والنظام. وندرك تمامًا أبعاد حياة العمل ومقتضيات العصر. سوف يطول الرقاد. غالبًا حتّى النهاية. إنّها الوحدة بلا صديق...

٣

من جنون الحركة إلى جنون السكون، هٰذه هي الرحلة. اليوم بسنة كما تقول الأغنية. الآن أسمع الأغاني لأوّل مرّة. لا استيعاب لها بعد فما زال الشعور مكتظًّا بالاحتجاج والضجر. لٰكنّه سماع لا يخلو من اكتشاف على أيّ حال. في الماضي كنت أعطي الأغنية من انتباهي ما أعطيه الشحّاذ وهو يردّد شعاراته. رغم اهتمامي بالغناء في صدر الشباب. ثمّة عادات جديدة مقبلة. وتدخل زكيّة بجسمها القصير البدين المتحدّي لتنظيف الحجرة. أقول لها:

ـ افتحي النوافذ ليدخل الهواء والشمس.

نحن في أواخر الربيع، سيقبل الصيف ولٰكن لا مصيف ولا انتفاع بجهاز التبريد. تقول زكيّة:

ـ ليتني بدلك يا سيّدي.

كذبة حلوة وما أكثر الأكاذيب. أشرئبّ بعنقي ناظرًا من النافذة فأرى النيل وشاطئه الآخر. النيل يجري بسمرته الشاحبة والشمس تغطّي مساحة منه ببراءتها الفضّيّة. أراه أيضًا لأوّل مرّة. الباص النهريّ

يتحرّك حاملًا القادرين على الحركة. أناس يسيرون على الشاطئ والحمام يطير أسرابًا. السيّارات تتتابع في حركة متّصلة. كلّ شيء يسير إلّا الشجر. طابور الجازورينا ثابت رغم شموخه ولكن دون مبالاة ولا ملل. لمّا أقبلت أفكار في روبها الفضّيّ قلت لها:

ـ انقلي الساعة إلى خارج الحجرة...

رفعت من فوق حاملها الرخامي بصندوقها المذهّب وبندولها المتحرّك. وُضع تلفزيون ناشيونال مكانها، كما جيء براديو فوق التابل دي نوي. حُملت إليّ الجرائد والمجلّات، عربيّة وإنجليزيّة وفرنسيّة. إنّي أقرأ أيضًا لأوّل مرّة. كنت قبل ذلك متصفّحًا للعناوين لا تجذبني إلّا أنباء السوق والأسعار والأوراق الماليّة. بالمقارنة النسبيّة فإنّي أسمع وأرى وأقرأ والبقيّة تأتي. وأحاول أن أتذكّر أحيانًا. رؤى قديمة لم يبق منها إلّا ذكريات شاحبة. لعلّ أفكار نسيتها تمامًا. متى أقترن حقًّا بالحياة الجديدة؟!.

العادة تحتوي «المصيبة» فتمتصّ حرارتها. أجل أبت الأسرة أن تصطاف هذا العام وأصمّت آذانها عن سماع الحاحي. عدا ذلك قد شُغل وفيق بالمكتب ولكنّه يلقاني يوميًّا أكثر من مرّة. أفكار ونبيلة تترددان على النادي من آن لآن وتستقبلان الصديقات ولكنّهما تُمضيان جانبي وقتًا لا يستهان به. زيارات الأصدقاء تقلّ يومًا عن يوم. التليفون يحلّ محلّ الزيارة كثيرًا. اختفى أناس تمامًا كأنّما لم ألقهم إلّا في إحدى محطّات السفر. وحدي أكثر ساعات النهار والليل. أسمع، أشاهد، أقرأ، أتصبّر. متى تشملني العادة بسحرها العطوف؟!. متى يخلّصني أنس التلفزيون والراديو والفكر من الوحشة؟. متى تعوّضني عن السوق والرحلات والسهرات؟. متى أنسى عالم السحَرة الحائزين لخاتم سليمان؟. متى أنسى إلهام المال المفعم بالسيادة؟. ألا يكفي أن يحظى وفيق بالحيويّة والانتشار؟. ألا يكفي أن تضيء أفكار ونبيلة غشاء المجتمع الحريريّ وتقتنيان كلّ ثمين وجميل؟.

عجيبة الحياة، مخيفة الحياة، محيّرة الحياة...

٤

مضت الحياة الجديدة تفرض عليّ ذاتها كواقع يجب التسليم به. لم يفارقني الشعور بالعبوديّة ولكن استجابت نفسي للرؤية والسماع والقراءة، بل اكتسبت عادات التفكير والتأمّل والحلم وإن ناوشتها كثيرًا أحلام اليقظة. أَلِفْتُ الرجيم والدواء وداويت نوبات الألم بالمسكّنات والمهدّئات. بات وفيق همزة الوصل بيني وبين العمل. فما زال يصدر عنّي الاعتماد والتوجيه. واشتدّ حرصي على متابعة العمل باعتباره باب الأمل الأخير.

وجاءني مرّة بحساب البنك عن أموالي السائلة البالغة خمسة ملايين من الجنيهات فخطر لي أن أسأله:

ـ متى يشبع الناس من اكتناز المال؟

فأجاب وهو يرفع حاجبيه الكثيفين:

ـ لا حدّ للنجاح، وما قيمة الحياة بلا عمل؟

هكذا ربّيته منذ الصغر. تخرّج في التجارة مثلي. نجحت في تنشئته كابن رجل يعبد العمل لا كابن مليونير. وهو يسهر في كلّ ليلة في الهرم ولكنّه لا ينفق كالمجانين. يملك سيّارة مرسيدس طراز ٧٨، ويتكلّف في الليلة عشرين جنيهًا ولكنّه يغضب لإنفاق ملّيم في غير موضعه الضروريّ. إنّه صديق ولا يخفي عنّي شيئًا، وطالما سهرنا وشربنا معًا. وقد داخلني قلق لدى أوّل عهده بالسهر فإنّي أكره التبذير وحسبنا ما تبدّده أفكار ونبيلة ذات اليمين وذات اليسار. يومها قلت له:

ـ تمتّع بحياتك ولكنّي أكره أن يبدّد السفه ما يجمعه العرق والمغامرة.

فقال لي بوضوح مريح:

ـ أوافق على رأيك تمامًا.

وسرعان ما تبيّن لي «عقله». ترامى إليّ أنّ أصدقاءه يطلقون عليه على سبيل الدعابة «النتن». لم يسرّني ذلك بطبيعة الحال ولكن كان أحَبّ إليّ مِن أن يُعرف بالمسرف أو المجنون. وحذّرته مرّة قائلًا:

ـ النساء... النساء...

فقال لي مطمئنًا:

ـ إنّي أتجنّب العلاقات الدائمة أمّا العابرة فلا ترهق عادةً.

ـ وإذا دهمك الحبّ؟

فقال بسخرية:

ـ إنّي لا أعترف بالحبّ.

لم آخذ قوله مأخذ الجدّ رغم أنّي لم أعرف له حبًّا واحدًا. تزوّجت أنا عن حبّ. أجل لم تلعب المرأة دورًا في حياتي ولكنّي عرفت الحبّ. هٰذا الفتى جررته معي إلى ساحة العمل منذ سنّ المراهقة. نشأ عاشقًا للعمل والمال. وأغراني قوله بأن سألته:

ـ متى تفكّر في الزواج؟

فأجاب ببساطة وحسم:

ـ لن أتزوّج.

فسألته مستنكرًا:

ـ ألا ترغب في الذرّيّة؟

فأجاب ببساطة:

ـ كلّا.

ـ إنّه لأمر غريب يا وفيق.

ـ لِمَ؟ ماذا ينقصني؟ اللذّة في العمل، وأختم يومي بشيء من الشراب والرقص واللهو...

لا اهتمام له بشيء بعد ذٰلك. لا السياسة ولا الدين ولا... ولا. إنّي على الأقلّ ذو إلمام بشكليّات الدين أمّا هو فقد نسي كلّ شيء. لعلّ أفكار هي الوحيدة بيننا التي ما زالت تملك نظامًا من العقائد الموشّاة بالخرافات. أخيرًا سألته:

ـ أأنت راضٍ عن نفسك؟

فأجاب بارتياح:

ـ نعم، العمل تاج الحياة.

٥

جاءتني أفكار ساحبة نبيلة من يدها، جلستا وهي تقول:

ـ أشكو إليك ابنتك!

تساءلت باسمًا:

ـ جنحة أم جريمة؟

ردّدت عينيّ بينهما. صورتان متماثلتان لكنّ الأمّ أجمل. جمالها متوسّط فهي سمراء صغيرة القسمات معتدلة القامة ملفوفة الجسم. نبيلة تماثلها لولا الذقن العريض الذي استعارته منّي. قالت أفكار:

ـ إنّي أعتبرها جريمة.

ـ ما هي؟

ـ للمرّة الثالثة ترفض عريسًا دون حجّة مقنعة.

فقالت نبيلة:

ـ هٰذا شأني وحدي.

فقلت برقّة:

ـ أوافقك تمامًا، ولٰكن مَن العريس؟

فأجابت أفكار:

ـ شابّ، مهندس، أبوه مستشار.

ـ من النادي؟

ـ نعم.

ـ مواصفات مقبولة ولٰكنّنا لم نسمع رأي المتّهمة؟

فقالت نبيلة:

ـ لا يعجبني وكفى.

فتساءلت أفكار:

ـ ترى مَن يحوز إعجابك؟

فقلت بهدوء:

ـ سنعرفه في حينه.

ـ إنّها لم تعد صغيرة.

فقلت:

ـ بنت عشرين صغيرة في هٰذا الزمن، وهل يُخشى على ابنة مليونير من البوار؟!

أفكار رغم تطبّعها بالحياة العصريّة ما زالت أسيرة الرواسب الماضية. تزوّجتها وهي في المرحلة الثانويّة فعشنا ما لا يقلّ عن عشرة أعوام حياة كاتب حسابات بالأشغال بين الثامنة والسابعة. ستّ بيت ممتازة كانت. مخلصة مدبّرة ممّن خُلقن ليسندن الرجال. المرأة الجديدة من صنع يديّ. العصريّة المولعة بالأضواء والاقتناء والقمار. أردت أن أجعل منها امرأة ثانية فأفلتت من يدي وخلقت من نفسها امرأة ثالثة. ثمّ تولّت بنفسها صنع نبيلة. القصر يضيق بمشترياتها على سعته. يعيشان في النادي وقد ترجع نبيلة بسيّارتها بعد منتصف الليل. إنّي واثق فيها ثمّ إنّ يد الزمان تغمض عينيّ. تبدّى جنون نبيلة في مساعدتها لصديقاتها الفقيرات على عهد دراستها الجامعيّة التي لم تتمّها. لم

أرفض الفكرة ولْكنّ حرصي الطبيعيّ راقبها بقلق. يومًا قالت لي:

- بابا، صديقة في حاجة ماسّة إلى خمسمائة جنيه.

فزعت وقلت:

- الناس تحتاج إلى جنيه أو اثنين لا إلى خمسمائة، إنّك بسذاجتك تجعلين من نفسك هدفًا للجشع، يوجد فارق بين الشعور الإنسانيّ وبين الكفر بقيمة المال.

فقالت بإصرار:

- أسرتها في حاجة ملحّة إذ إنّها مضطرّة إلى إخلاء شقّة في عمارة قديمة آيلة للسقوط، وقد وعدتها بالمساعدة...

هٰكذا دفعت بالمشكلة في منطقة الكرامة فغلى دمي وقلت:

- لا تعدي بشيء ليس في يدك الوفاء به، أو ارجعي إليّ أوّلًا، وتذكّري أنّ أباك رجل لا دولة...

أفكار أيضًا ضعيفة من هٰذه الناحية غير أنّ مساعداتها تختصّ غالبًا بأهلها الفقراء. ولم يسؤني ذٰلك لما فيه من حفظ كرامتنا في النهاية، ولم تخلُ حياتي أنا من مساعدات من هٰذا النوع أيضًا. ولٰكنّ لزوجتي نزوات مظهريّة سخيفة كما إنّها تؤمن بالنذر وتتبرّع لصندوق السيّد البدوي أحيانًا بحماقة...

***

في حياتي الجديدة أُتيحَ لي - رغم همّي الثقيل الرابض - أن أسمع وأن أرى وأن أقرأ وأن أكتشف مسرّات جديدة. أتيح لي أيضًا أن أفكّر وأن أتذكّر. لكن وجدتني أبعد ما يكون عن الرؤية الواضحة. بل وقعت في حيرة معتمة كئيبة ممّا جعلني أتلهّف أكثر على الشفاء البعيد، أو المستحيل. وقلت لنفسي:

- ليس أفظع من أن يُخَلّى بين الإنسان ونفسه...

٦

ربّاه... مَن هٰذا الزائر الجديد؟

نظرت نحوه بذهول وهو يقترب في خطاه الوئيدة، تسبقه نظرة مفعمة بالمودّة والأسى. تغيّر كثيرًا ولٰكنّي عرفته من أوّل نظرة رغم أنّه تعمّد أن يحجب عنّي اسمه. كهل يماثلني في العمر، خفّ وزنه ولٰكنّه بادي الصحّة، وجدّ عليه الصلع والنظّارة الطبّيّة. هتفت:

- غير معقول!... دكتور جلال أبو السعود!

فتحت ذراعيّ وأنا أقول:

- كيف ظهرت من جديد على سطح الأرض؟... بالحضن والقبل...

تعانقنا وتبادلنا القبل. كان اليوم جمعة والوقت أصيلًا والزمن أواخر الصيف. قدّمت إليه زوجتي وابنتي وابني ثمّ قلت لهم:

- دكتور جلال أبو السعود، رفيق المولد والدراسة، كنّا زميلين في الأوّليّة والإعداديّة والثانويّة، دخل الطبّ ودخلت التجارة، كنّا نذاكر معًا رغم اختلاف دراستنا، جمعتنا صداقة وأفكار...

أخذت شهيقًا لأهدّئ انفعالي وهم يتصافحون ثمّ يجلسون. وواصلت حديثي:

- عقب تخرّجه انتقل إلى الأقاليم، تراسلنا عامًا أو عامين...

فقاطعني:

- خمسة أعوام...

فتمتمت في حياء:

- ثمّ شغل كلانا بحياته...

فقال باسمًا:

- من حسن الحظّ أنّ الإنسان يحظى بقلب وذاكرة...

- صدقت، ولٰكن كيف أسعدتني بهٰذه الزيارة؟

- نقلت منذ قليل مديرًا لمستشفى الحمّيات بالعبّاسيّة، ثمّ علمت بمرضك أوّل أمس من الدكتور صبري حسّونة، فجئت أزورك وأصلُ ما انقطع...

- أهلًا... أهلًا... لا تتصوّر كم أنّي سعيد...

- وددت أن ألقاك في صحّة جيّدة مثلي...

فقلت ضاحكًا:

- أدامها الله عليك، أمّا عنّي فإنّي في سجن كما ترى وكأنّما رُددت إلى الحال النباتيّة.

فقال جادًّا:

- قد يطول ولٰكنّه لم يعد مؤبّدًا، الطبّ يصارعه ويصرعه...

فقلت ضاحكًا:

ـ رجعت قهرًا إلى عصر الثقافة...

ـ ربَّ ضارّة نافعة.

وقالت أفكار:

ـ لتكن هدنة من إرهاق مستمرّ.

فقال جلال:

ـ أحيانًا يمرّ الإنسان بتجربة مُرّة ولٰكنّه يذكرها فيما بعد بالخير...

فقلت باسمًا:

ـ كلام جميل، ما علينا، كم أنجبت من الأبناء؟

ـ ثلاث بنات، كبراهنّ متزوّجة ولم تتمّ تعليمها، والأخريان بكلّيّة الطبّ...

وأعلنت زوجتي عن رغبتها في التعرّف على أسرته فالتحما في حديث جانبيّ سرعان ما غاب عنّي في انفعال طارئ. فجأة توقّف كلّ شيء عن الحركة فيخيّل إليّ أنّني أسمع دبيب الزمن وهو يجدّ في سيره. أجل الزمن يسير وهٰذا صوته. بل المؤكّد أنّه لم يتوقّف لحظة عن السير فأين كان يختبئ؟. متى وكيف بلغت الخمسين، ومتى وكيف أقتُلع شعر رأس جلال؟. كنّا أطفالًا وغلمانًا وشبّانًا بلا شكّ وهٰذا جلال شاهد على ذٰلك. يا لها من انتباهة مرهقة حقًّا. وإذا به يسألني وقد لاحظني فيما بدا:

ـ أين أنت؟

فقلت ضاحكًا:

ـ معك...

ـ حذار من الأفكار المثبطة...

ـ ثق من أنّني في دور النقاهة منها.

ـ يسعدني أن أسمع ذٰلك...

وتبادلنا نظرة طويلة، ثمّ خطر لي خاطر وجدت فيه مهربًا من انتباهتي المزعجة فقلت:

ـ أطبّاء كثيرون يرفضون الترقية من أجل العيادة...

فقال بهدوء:

ـ كنت دائمًا طبيبًا طول الوقت.

فسألته بدهشة:

ـ تعني أنّك لم تفتح عيادة؟

فحنى رأسه بالإيجاب فقلت:

ـ أعجب ما سمعت...

ـ كيف تعجب وأنت تعرفني حقّ المعرفة؟

ـ كنت مثلك أيضًا ولٰكنّها الحياة...

فابتسم صامتًا فقلت مخاطبًا أسرتي المستمعة:

ـ دكتور جلال من عشّاق الثقافة منذ نشأته، آمنّا معًا في ماضينا بأنّه أيًّا كان عمل الإنسان فالثقافة يجب أن تستمرّ كمعين دائم لإنسانيّته الحقّة... وقد طبّق ذٰلك عمليًّا...

عند ذاك سأله وفيق:

ـ هل العيادة تتعارض مع الثقافة؟

ـ أعرف أطبّاء لا يجدون وقتًا لتصفّح الصحف...

ـ ولٰكنّهم يؤدّون خدمة إنسانيّة لا تقدّر بثمن.

ـ إنّي أؤدّيها في المستشفيات على خير وجه.

ـ ولٰكنّك لن تكوّن ثروة مثل زملائك؟

ـ المعيشة معتدلة ولٰكن لا ينقصها شيء هامّ... ثمّ إنّ لي ثروة من نوع آخر.

فقلت له:

ـ إنّي أفهمك ولٰكنّ تضحيتك جسيمة.

فقال بهدوء:

ـ كانت لحظة الحسم عسيرة، ولٰكنّي اخترت ولم أندم...

فسأله وفيق بارتياب:

ـ ألم تندم حقًّا؟

ـ لماذا أندم؟ إنّي أقوم بواجبي الإنسانيّ، لا ينقصني شيء، حياتي ثريّة جدًّا، إن يكن ثمّة من يرثون لي فإنّي أرثي لهم أكثر، ولٰكن معذرة أنا لم أجئ لأتحدّث عن نفسي...

ـ ولٰكنّ وفيق قال بإصرار أدركت بواعثه:

ـ ألا توافقني على أنّ العمل هو هدف الإنسان الأعلى؟

فابتسم. صمت مليًّا. ثمّ قال مخاطبًا ابني:

ـ إنّك تستدرجني إلى حديث طويل لا يتّفق مع أغراض الزيارة فدعني إلى مناجاة والدك بعد غياب ربع قرن.

فقال وفيق:

ـ أبي يهمّه ولا شكّ أن يعرف رأيك.

فحرّكت رأسي موافقًا وأنا ألاطم أمواج الانتباهة المزعجة. عند ذاك قال الدكتور جلال:

ـ العمل ضرورة ولٰكنّه ليس الهدف...

ـ إذن فما الهدف؟

ـ لعلّه التحرّر من ضرورة العمل.

وحلّ صمت ولٰكن بدا من تألّق عينيه أنّه يمنحنا فرصة لاستيعاب قوله قبل أن يستمرّ فيه، وقال:

ـ مثلًا، مهنة الطبّ ضرورة ما بقي المرض، فإذا قهرنا الأمراض امّحت ضرورة الطبّ... هدف الإنسان الفراغ الثريّ!

فقلت ضاحكًا:

ـ إذن فقد حقّق لي المرض الهدف المنشود!

فقال جادًّا:

ـ لقد أوصلك إلى الطريق الذي يجب أن تلتزمه في حالتَي المرض والشفاء...

ثمّ التفت إلى وفيق قائلًا:

ـ دعني أشرح لك رأيي، بماذا يتميّز الإنسان عن الحيوان؟ بالعقل والروح، فعمله الإنسانيّ الجدير به حقًّا يجب أن يكون عقليًّا أو روحيًّا، ولٰكنّ حضارته بدأت بالسعي نحو الطعام، بدأت بالصيد مثل الحيوان، تاريخ الحضارة هو تاريخ العمل، ولٰكنّه أيضًا تاريخ التحرّر من العمل درجة بعد درجة، حرّر يديه باختراع الآلة ومضى في ذٰلك السبيل الطويل حتّى بلغ مرحلة المصنع الأوتوماتيكيّ الذي يَعِدُه بأقلّ عمل وأكبر فراغ، فلا تتصوّر أبدًا أنّ الزراعة أو الصناعة أو تكديس المال يمكن أن تكون أهدافًا في ذاتها، إنّها مراحل من الضرورة يمارسها الإنسان ليبلغ حرّيّته ويمارس إنسانيّته...

إنّي على أيّ حال أكثر استعدادًا لتلقّي هٰذه الأفكار من أسرتي التي تجلّى الذهول في أعينها. وتجسّد الانفعال في وجه وفيق فقال:

ـ يا له من خيال! أحدّثك يا دكتور عن حياتنا الواقعة فتحدّثني عن حياة لن تتحقّق أبدًا، إنّي أتحدّث باسم أربعة آلاف ملايين من البشر ربعهم مهدّد بالمجاعة!

فقال جلال بهدوء:

ـ لا يغيب عنّي ذٰلك، إنّي أعرف أنّ العمل ضرورة حيويّة، ولٰكنّي أريد أن أنبّهك إلى أنّه ليس الهدف، هٰذه الحقيقة تغيب عن كثيرين، بل تغيب عن الرسالات التي خُلقت من أجل تحقيقها كالليبراليّة والاشتراكيّة، ولٰكنّ هدف آلاف الملايين يجب أن يكون واحدًا...

أردت أن أخفّف من توتّر الجوّ، وألطّف من انفعال وفيق قبل أن ينسى نفسه، فضحكت عاليًا وقلت:

ـ توهّمت أنّي مريض وإذا بي سوبرمان العصر...

فقال جلال:

ـ أرجو ذٰلك...

فسألته:

ـ ألمت بنشاطي رغم البُعْد؟

ـ بفضل الصحف، شذرات من الأنباء عن رحلات ومعارك مع اليساريّين، وتخيّلت الباقي.

ـ دعني أقرأ لك أفكارك، قلت لقد غرق في جمع المال وعبادته، نسي ولا شكّ أيّامنا الماضية، وانحدر إلى الأمّيّة وهو لا يدري!

فضحك وقد تورّد وجهه حياءً ثمّ قال مجاملًا في الغالب:

ـ أثرت إعجابي ولٰكنّه إعجاب لم يخلُ من أسف...

فتساءل وفيق:

ـ ألا يستحقّ الإعجاب الخالص مَن يصبح مليونيرًا في أقلّ من خمس سنوات؟

هزّ رأسه هزّة غامضة فقلت من فوري:

ـ لست غبيًّا كما تعلم، دعني أقرأ أفكارك مرّة أخرى على ضوء فلسفتك، قلت عنّي لذاتك إنّني ضيّعت حياتي في سبيل استيراد سلع كماليّة عاقبتها الحتميّة تخريب الاقتصاد الوطنيّ وخدمة الطبقة الجديدة وتعذيب عامّة الشعب، ولا يمثّل هٰذا الاستيراد إلّا مزيدًا من الاستعباد بخلاف العمل الإنتاجيّ الذي يمثّل الضرورة والتحرير معًا، أليس كذٰلك يا جلال؟

فضحك وجهه بلا صوت وركبه حرج الموافقة

الصامت. عند ذاك هتف وفيق متناسيًا أصول المجاملة:

ـ هٰذا ما يردّده المخرّبون!

فقلت ملطّفًا من وقع كلامه:

ـ ليسوا وحدهم، صبرًا، لٰكنّ اللوم لا يقع علينا بقدر ما يقع على من أذِنوا بذٰلك...

فقال جلال وكأنّما يستثقل نفسه:

ـ دعنا من التفصيلات، اعتبرْ ـ إذا شئت ـ رأيي حلمًا خياليًّا، مِن الناس مَن يأنس إلى الأحلام ليتزوّد بقوّة يواجه بها قسوة الواقع، إنّما أردت أن أهوّن لك من شأن الحياة التي انقطعت عنها وأزيّن لك الحياة التي حبست فيها، فهي ليست شرًّا خالصًا كما قد تتوهّم، ما هي إلّا مرحلة عابرة إن شاء الله، ويمكن أن تجد فيها من المسرّات الشيء الكثير...

فشكرت له مودّته، ثمّ خضنا معًا ـ باتّفاق شعوريّ خفيّ لنتفادى من حدّة وفيق ـ ذكريات مشتركة قديمة، فشرّقنا وغرّبنا في متعة صافية ساعة نادرة من الزمان.

٧

خلّفت الزيارة وراءها رجّة. قالت أفكار:

ـ لم أفهم كلمة واحدة ممّا قال هٰذا الرجل.

على هٰذا بدت منفعلة كالآخرين. وتظاهرت بالمرح وهي تتساءل:

ـ أهٰذا شأن أصدقائك القدامى جميعًا؟!

فقالت نبيلة:

ـ إنّه شخص جديد ومثير.

فسألها وفيق بحدّة:

ـ ماذا تعنين؟

فقالت ساخرة:

ـ ليس جريمة أن يقول إنّ الحياة ليست المال فحسب!

فقال لها وفيق:

ـ دلّيني على فِعْل واحد في حياتك لا تعتمدين فيه على المال، كلامك يدلّ على أنّك تعبدين المال ولٰكنّك تتنكّرين لقيمته...

فقالت بعناد:

ـ إنّي معجبة به!

وتدخّلت في الحديث قائلًا:

ـ دعها وشأنها، ساءتني حدّتك يا وفيق...

فقطّب قائلًا:

ـ إنّه شيوعيّ حاقد.

ـ إنّي أعرف صديقي خيرًا منك.

ـ من أين لك أن تعرفه بعد انقطاع ربع قرن؟

ـ لقد أراد أن يعزّيني عن السجن...

ـ لم تكن في حاجة إلى تعزيته.

ـ شعر ولا شكّ بضيقي وكربتي...

ـ إنّي أفهمه تمامًا يا بابا ولا تخدعني فلسفته، لقد جرّب أن يثرى من المهنة ففشل، وما أكثر العقّد المتولّدة عن العجز!

فهتفت أفكار:

ـ صدقت، سأبخّر القصر غرفة غرفة، لا يحتمل أحد أن يصير قرينه في الفقر مليونيرًا من غير أن يحرقه الحسد...

فضحكت قائلًا:

ـ الأفضل أن تعقلي فلسفته وتقلعي عن التبذير...

فقالت لي:

ـ أتريد أن تدعم حرصك بفلسفته؟... هيهات أن يجوز ذٰلك علينا...

ولّما خلت الحجرة استبدّ بي الانفعال دون شريك. استعدت أقواله وأدمت التفكير فيها حتّى قلت:

ـ لن أذوق النوم حتّى أتناول المُهدِّئ.

عاودتني الانتباهة فرجعت أنصت إلى صوت الزمن الجاري. رجعت أتساءل أين كان يختبئ. متى أنسى الكدر لأكتشف المتعة المتاحة؟... متى أسمع الأغنية فلا أسهو عن شيء من إيقاعاتها؟

٨

خفت ألّا يجيء جلال أبو السعود مساء الجمعة التالية فتلفنت إليه. وقلت لأسرتي منبّهًا:

ـ سأستدرجه إلى الحديث إيّاه فمن كره منكم ذٰلك فلا يحضر.

وجاء في الميعاد فاستُقبل بحرارة صادقة وكاذبة. ورحنا نتناول الشاي والحلوى. وفي أثناء ذٰلك نقّل عينيه بين أفراد أسرتي وتساءل:

- ماذ قلتم عنّي بعد ذهابي في الجمعة الماضية؟

فقالت أفكار:

- كلّ خير يا دكتور.

فشكرها مبتسمًا. إنّه ذكيّ وحسّاس ولذٰلك قلت له:

- إنّي أسعد بحديثك وهو يهمّني جدًّا، وهم متّفقون معي!

فقال ببساطة صادقة:

- المهمّ أن تنعم بمزايا حياتك المتاحة.

- لديّ الكثير كما تعلم ولٰكن يحزّ في نفسي الشعور بالسجن وانصراف الزملاء عن زيارتي...

فقال وفيق بحدّة:

- إنّهم أوغاد.

فقلت بعجلة:

- كلّا يا بنيّ، إنّهم رجال أعمال.

ثمّ مخاطبًا جلال:

- أنت نفسك لو كنت صاحب عيادة لما وسعك أن تزورني مرّتين متتاليتين...

فقال جلال:

- يسرّني أن تعالج أمورك بروح واقعيّة!

- كلّ شيء طيّب لولا إحساسي الأليم بفقد الحرّيّة.

خيّل إليّ أنّه همّ بالكلام ثمّ عدل عنه فقلت له:

- لا تكبت الكلام فقد دعوتك لتتحدّث ولأسمع...

فتساءل وهو ينظر نحو أسرتي:

- ونكدّر صفو أعزّة؟!

فقالت أفكار:

- تكلّم يا دكتور، نريد أن نسمع مثله وأكثر...

فابتسم وقال:

- الأمر لله يا عبد الحميد، ماذا قلت عن الحرّيّة؟

- تكلّمت عن إحساسي الأليم بفقدها.

- لٰكنّك لم تفقد حرّيّتك بسبب المرض!

- ؟

فقال بهدوء:

- لكي تفقد شيئًا يجب أن تملكه أوّلًا وأنت لم تملك حرّيّتك قطّ!

فضحكت قائلًا:

- حذارِ من المبالغة فإنّك لا تعرف ما يعنيه أن يكون الإنسان مليونيرًا.

- حقًّا؟!

- كان بوسعي أن أفعل ما أشاء، أن أتغدّى في روما وأتعشّى في باريس إذا أردت...

- أين الإرادة الحرّة في ذٰلك؟... وراء كلّ فعل منها نزوة متحكّمة!

تخيّلت فتور أفكار وحماس نبيلة السطحيّ واستفزاز وفيق فلم أنظر ناحيتهم. قلت أستدرجه:

- بهٰذا المنطق نهدم فكرة الحرّيّة من جذورها...

فقال بثقة:

- الحرّيّة وَهْم يتراءى لخيال الإنسان العاديّ، وهو إنسان ميكانيكيّ في أغلب الأحوال...

- قد يصدق كلامك على غمار الناس ولٰكن يوجد أناس يمثّلون القوّة الفعّالة المؤثّرة في المجتمع...

فابتسم قائلًا:

- اسمح لي أن أذكّرك بالأشياء التي تقيّد حرّيّة الإنسان، لا لأنّها مجهولة لمثلك ولٰكن لأنّنا نتناساها عادة في زحمة الحياة والغرور...

تنحنح ثمّ واصل:

- إنّها تبدأ عملها في بطن الأمّ، بلا استئذان أو مشاورة لنا فتقرّر طولًا ولونًا وملامح، وأجهزة تنفّس وهضم وأعصاب ذوات خواصّ محدّدة، وغرائز، وبعض الأمراض أحيانًا، يتمّ ذٰلك كلّه قبل أن نرى نور الدنيا...

تذكّرت تلك الحقائق وكأنّها اكتشاف جديد أمّا وفيق فقال باستهانة:

- نحن نسلّم بذٰلك ولٰكن لا أهمّيّة له!

فقال جلال:

- عندما يخرج الوليد إلى الدنيا تتسلّمه أسرته، ثمّ تتكاتف على صبّه في قالب جاهز من القِيَم والأذواق

والتقاليد والعقائد وهو يتشكّل بلا قدرة على الإدراك أو النقد أو الاختيار، أنت نفسك يا وفيق بك هل كان لك رأي في الصورة التي صُوِّرْتَ بها؟

فتساءل بعناد:

- أيّ خطأ في ذلك؟

وقلت أنا:

- الوليد يتحوّل بذلك من حيوان إلى كائن حضاريّ!

- نحن نناقش فكرة الحرّيّة، تذكّروا ذلك من فضلكم...

- تفضّل...

- ثم تتلقّاه المدرسة لتُحكم حوله قالبًا جديدًا يهبه في النهاية عملًا ورؤية للدنيا والأشياء، وينضمّ إلى المدرسة في عملها المجتمع كلّه ممثّلاً في أحزابه وجمعيّاته ونماذجه البارزة، الجميع طامعون في حرّيّته ولو فعلوا ذلك باسم الحرّيّة نفسها...

فقال وفيق بإصرار:

- ولكن سرعان ما يجيء حين فيعرف الشابّ الاختيار والرفض بل والتمرّد والثورة...

- لست أنكر ذلك، ولكنّي أقصر حديثي الآن على القوى المتربّصة بحرّيّتنا... ثمّ يجيء دور قوى جديدة خارج المجتمع، منها البيئة، وأثرها معروف في النشاط والكسل، في القوّة والضعف، في الإيجابيّة والسلبيّة...

وتريّث لحظات وهو يبتسم ثمّ استطرد:

- هناك الأرض نفسها، الكرة الأرضيّة، فهي بجاذبيّتها وحركتها تحدّد له وزنًا وأسلوبًا في الحركة وحدودًا لا يمكن تجاوزها، هناك أيضًا الشمس وأشعّتها وانفجاراتها الموسميّة، بل هناك النظام الشمسيّ كلّه فيما نعرف من آثاره وما نجهل، ولك أن توسع تصوّرك حتّى يشمل الكون كلّه ما ظهر منه وما غاب، الكون كلّه يؤثّر في حرّيّتنا ويكون لذلك نتائجه في سلوكنا وتصوّراتنا، أمّا الإنسان الغافل فقد يعتقد أنّه حرّ حرّيّة مطلقة، أو أنّه لا يؤثّر فيه إلّا عقدة أوديب، أو عوامل اقتصاديّة، ثمّ تجيء بعد ذلك قوًى غريبة خارجة عن التصنيف المنطقيّ، تبدو عارضة لا معقولة، نسمّيها مصادفات أو ما شئت من أسماء، ولكنّها مع ذلك قد تقلب الحساب رأسًا على عقب في لحظة خاطفة، وهي لا حصر لها، مقابلة غير متوقّعة، ضياع رسالة في البريد، حادث قطار أو سيّارة، وسقوط جسم فجأة الخ الخ، فهل تستطيع أن تتجاهل القوى المؤثّرة في حرّيّة الإنسان وبالتالي في مصيره؟!

صمتنا صمتًا ثقيلًا. ثمّ ندّت عن نبيلة ضحكة رقيقة. ضحك وفيق أيضًا ضحكة باردة. تجلّى حياء ناعس في وجه أفكار. قلت باهتمام حقيقيّ:

- إذن فأنت ترى يا دكتور أنّ الإنسان حجر أو حيوان على أحسن الفروض؟

فبادرني جادًّا:

- أبدًا، إنّي أبعد ما يكون عن ذلك.

- ولكنّ منطقك يسوقنا إلى ذلك؟

- إنّي أحصي القوى المؤثّرة لكن نعدّ لها ما يتطلّبه الدفاع من صبر ومثابرة وعلم...

- كأنّ الحضارة أنشأها الكون لا الإنسان...

- بل أنشأها الإنسان بفضل ظمئه الخالد للحرّيّة، كما قلت، إنّه لم يتحرّك بإغراء اللقمة ولكن ليتحرّر من الجوع، الحضارة معركة مستمرّة بين الحرّيّة والقوى المؤثّرة، الآلة تحرير من عبوديّة السخرة، الدواء تحرير من المرض، العلم تحرير من الجهل، الطيّارة تحرير من الجاذبيّة، السرعة تحرير من الزمن، كذلك المذاهب، فالدين تحرير للروح، الإقطاع كان تحريرًا من الفوضى، الليبراليّة كانت تحريرًا من الإقطاع، الاشتراكيّة تحرير من الليبراليّة، معركة مستمرّة بلا نهاية...

وتفكّر قليلًا ونحن نتابعه بعواطفنا المتناقضة ثمّ قال:

- المأساة، ولعلّها ليست بمأساة، أنّه ما من جديد يجدّ إلّا ويجيء معه بقدر من الحرّيّة وقدر من الاستعباد الجديد، فالآلة تحرّر اليد وقد تأسر الروح، السلع الجديدة تُشبع وتمتّع وقد تحجب عن الإنسان مصيره، الإقطاع حرّر من قطّاع الطرق وفَرَض الرقّ، الليبراليّة حرّرت المواطن من الحكم المطلق وجاءت بالاستغلال

الاقتصاديّ، الاشتراكيّة حرّرت الإنسان من الاستغلال وسيطرت عليه بالبيروقراطيّة أو الدكتاتوريّة، ولذلك فلا نهاية للمعركة ولا للابتكارات ولا للمذاهب حتّى يظفر الإنسان بحرّيّته الكاملة ويصبح قولًا وفعلًا سيّد مصيره، لذلك علينا دائمًا وأبدًا أن نكون مع كل جديد بقدر ما يَعِدُ من حرّيّة وأن نكون على استعداد للتخلّي عنه كلّما جدّ جديد أفضل أو رجحت كفّته السالبة...

ونقّل ضوء عينيه بين وجوهنا ثم ابتسم بارتياح ومضى يتساءل:

ـ ولكن ما دور الفرد ـ كفرد ـ في هذه المعركة لكي يحرّر إرادته ويحسن الاختيار؟

وبعد لحظات من الصمت أجاب:

ـ عليه أن يقتنع بأنّ «الذاتيّة» هي سبيل العبوديّة، وأنّ الموضوعيّة هي سبيل الحرّيّة، الاختيار الحرّ يقوم على الموضوعيّة، وإلّا أذعنّا إلى غريزة ونحن نتوهّم أنّنا نمارس عاطفة، أو سايرنا عاطفة ونحن نعتقد أنّنا نلبّي العقل، ولكي يحدث الانسجام والتوازن بين الغرائز والعواطف والعقل فلا بدّ من تربية الإرادة تربية تبلغ بها ذروة القوّة، وبكلّ إنسان سليم من الصبر ما يستطيع به أن يربّي إرادته ويتغلّب على ضعفها وتراخيها، في الإنسان قوّة كامنة تضارع قوّة الذرّة...

وأغمض عينيه قليلًا ثمّ فتحهما قائلًا:

ـ أتذكر النظرة الذاتيّة للكون التي جعلتنا نتصوّر أنّنا مركزه؟ أتذكر النظرة الذاتيّة للمجتمع التي تغريك بالدفاع عن طبقتك وأنت تتخيّل أنّك تدافع عن الإنسانيّة؟ أتذكر النظرة الذاتيّة إلى المرأة التي تدفعك إلى الإيمان بسيادة الرجل وأنت تعتقد أنّك تبشّر بطبيعة الأشياء؟... اتّجهْ نحو الموضوعيّة متحرّرًا من أيّ عبوديّة، عند ذاك تمارس الاختيار الحرّ، وتمضي في سبيل السيادة الحقيقة، وتقترب خطوة خطوة من طريق الأشواق الأبديّة المضنون به على غير الأحرار...

٩

قالت أفكار وهي تتثاءب:

ـ أكون مجنونة لو حضرت مجلسه بعد الليلة...

وقالت نبيلة:

ـ إنّه مثير ولكنّه سينقلب مضجرًا.

وقال لي وفيق:

ـ إنّه مجنون فيما أرى، ما رأيك بصراحة؟

فقلت متظاهرًا بالمرح:

ـ لم يَعُدْ لي من تسلية سواه.

فقال بحنق:

ـ لقد أجنّه الفشل، كان الله في عونك...

أثارني حديثه لدرجة لم أقدّرها. لم تكن لتحدث في ظروف أخرى. عدت أسمع صوت الزمن. فيما مضى كنت شريكه في الاطّلاع والفكر. اليوم أصبحت مجرّد مستمع ذاهل. ماذا أكون وماذا تكون أسرتي؟. أحرار أم عبيد؟. بدا السؤال مضحكًا. السوق، المكتب، النقود، الثرثرة، التحف، القمار. هل أمضي من المرض إلى احتقار الذات والأهل؟. ترى هل يمكن تربية الإرادة؟. هل يمكن تربية الإرادة بالإرادة؟. التغيير أهمّ من القراءة والرؤية والسماع. إنّي أسمع وأرى وأقرأ ولكن ما جدوى ذلك؟. هل يجاوز التسلية العابرة وقتل الوقت؟.

وامتعضت امتعاضًا شديدًا. عزّ عليّ قلقي واضطرابي. بوسعي أن أنسى ما سمعت، أن أقطع الصلة الجديدة، أن أهزأ منه. ولكنّ وراء السطح المحتدم قبعتْ لهفة تتشوّق إلى عودته. لقد جلا الصدأ عن نفسي وبُعث الشخص القديم.

ـ ألا يُعَدّ صوته إغاثة للمريض من وحدته؟

١٠

انفعلت انفعالًا سعيدًا متجدّدًا بزيارات جلال أبو السعود الدوريّة. وسعدت بصفة خاصّة لانفرادي به بعد أن أضربت الأسرة عن شهود مجالسنا. وعاصرنا الخريف بجوّه المنعش، وشمائله العذبة، وألوانه البيضاء، ونفثاته الموحية، فهو ربيع وطننا بلا شريك. ولدى أوّل زيارة انفراديّة قلت له دون حذر من رقباء:

ـ والله زمان!

فألقى نظرة على الحجرة الخالية وتمتم ضاحكًا:

- هرب المستمعون!

- هٰذا أفضل.

فقال بأسًى:

- يندر أن يطيب حديثي لأحد ولٰكنّي لا أكفّ عن الكلام.

ذٰلك ما أعِدُّه من حسن حظّي. إنّه يتحدّث عن تجربة شخصيّة حميمة، عن معركة يخوضها بكلّ قوّته، وبتصميم رائع على تحدّي اليأس.

وذات مرّة قلت له:

- أتذكر الحكمة التي قرأناها معًا في ماضينا «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»؟

فحنى رأسه الأصلع بالإيجاب فقلت:

- أحاديثك المثيرة أعادتها إلى وعيي...

فقال باهتمام:

- أعتقد أنّنا فهمناها على غير حقيقتها...

- لٰكنّها واضحة تمامًا...

- لا أوافقك، يجب أن تكون دعوة للموت في هٰذه الحياة التي نحياها...!

فقلت ضاحكًا:

- فال الله ولا فالك.

فقال جادًّا:

- لن يعزّينا انتباه ما بعد الموت عن الغفلة الطويلة في حياتنا...

ففكّرت في قوله تمشّيًا مع رغبتي في المشاركة ونبذ دور المستمِع السلبيّ، أمّا هو فمضى يقول:

- علينا أن نموت في هٰذه الحياة.

- لا أتصوّرك قاتلًا أبدًا...

- في عنق كلّ منّا جريمة قتل عليه أن يرتكبها.

فقلت لأقنعه بأنّني بتّ أفهمه:

- تعني أن يقتل نفسه!

- إذا وُفّق إلى قتل نفسه المستعبدة تحرّر ووهب الانتباه!

* * *

وفي زيارة أخرى بادرني بسؤال عجيب:

- أتذكر نفسك التي آخَتْني في عهدنا القديم؟

فقلت من فوري:

- طبعًا.

- أشكّ في ذٰلك، كان شخصًا آخر تمامًا، في خلاياه وشكله ووزنه وفكره ورؤيته...

- إنّي أتذكّره على أيّ حال كلّما أردت ذٰلك...

- أشكّ في أنّك تتذكّره تمامًا، ولقد تتابع عليك مئات الأشخاص المختلفين لا يكاد يجمعهم إلّا اسم «عبد الحميد حسني»...

فقلت وأنا لا أدري مقصده:

- هٰذا طبيعيّ جدًّا...

- الطبيعيّ أن يكون الإنسان «أنا» واحدًا...

- وهو كذٰلك بمعنًى من المعاني.

فابتسم لحيرتي ثمّ قال:

- انتبهت ذات يوم - وكنت في أوّل الطريق - إلى تعدّد شخصيّاتي، فسجّلت بعضها في مذكّرة اليوميّات...

قاطعته متسائلًا:

- لك يوميّات؟

- نعم هٰذا ضروريّ جدًّا لمن يروم النجاح، المهمّ، إليك ما سجّلته على قدر ما أذكره، وهو يوم واحد:

(١) في الصباح الباكر، نزاع حادّ مع زوجتي بسبب المصروف، اتّهام منّي لها بالإسراف واتّهام منها لي بالجهل. رميتها بالتمرّد فرمتني بالرجعيّة، الحالة النفسيّة انفعال غضب... ذاتيّة... كذب... ميْل إلى الاستبداد... خوف من المستقبل بلا أساس... إرادة مشلولة... عقل أسير... عاطفة عمياء... عاطفة في قبضة غريزة...

(٢) قبيل الغداء بمستشفى ميت غمر، حديث مع زميلة طبيبة مولّدة شكت إليّ زوجها وعقده، ظهر في «أنا» جديد، حديث منّي عن الرجل والمرأة في ضوء حقوق الإنسان، شعارات عصريّة مبهرة، الحال النفسيّة هادئ مرتّب الأفكار... كذّاب لإرضاء الزميلة... خائف من تهمة التخلّف... خيالات جنسيّة عارية...

(٣) العصر، في حجرة الأطبّاء، بروز «أنا وطنيّ» مائة في المائة، حملة على الاعتداء الثلاثيّ، تأييد للثورة

في محنتها، دفاع عن حكمها الدكتاتوريّ، تبريد الدفاع بأنّ لقمة العيش أهمّ من الحرّيّة لدى تسعين في المائة من الشعب، الحال النفسيّة خوف من الغارات الجوّيّة، كذب فيما يتعلّق بالحرّيّة، العقل مكبوت، الإرادة مفقودة، تمزّق بين حبّ الوطن ورفض أسلوب الحكم.

(٤) المساء في النادي مع زميل منحدر من أسرة إقطاعيّة، تبلور «أنا» رابع، تصريح منّي بأنّ الغزو وإن يكن شرًّا في ذاته فلن يخلو من خير إذا حرّرنا من عصابة الضبّاط، موافقة على رأي الزميل بأنّ الحكم البريطانيّ كان أفضل من حكم الثورة، الحال النفسيّة كذب ونفاق وخوف وتمزّق وحزن عميق...

وهٰكذا يا عزيزي، كلّ أنا شخص جديد في عواطفه وأقواله وأفكاره ورؤيته للحقيقة، فالإنسان مفقود الوحدة، فريسة للكذب والخوف، لذلك يعيش إنسانًا بلا إنسانيّة...

فقلت منفعلًا غاية الإنفعال:

ـ على هٰذا الأساس فإنّ الفرد في الواقع شعب كامل!

ـ نطقت بالصواب... ولٰكن لا بدّ من التسجيل لتجسّد الحقائق، لا تعتمد على التذكّر فهو وهم كالحرّيّة المزعومة وكالصديق المزعوم، وعندما تتجسّد الحقائق يعبّىء الإنسان إرادته لتغيير ذاته، ولخلق الانسجام والتوافق بين الغريزة والعاطفة والعقل، ليؤدّي كلّ وظيفته الطبيعيّة بلا كبت ولا طغيان على الآخرين...

فسألت باهتمام شديد:

ـ هل تكفي الإرادة لإحداث هٰذه المعجزة؟

فقال بهدوء:

ـ ثمّة شرط أساسيّ، أن يحدّد الإنسان لنفسه غاية عليا!

ـ لا يخلو إنسان من غاية.

ـ وهم جديد يا عزيزي عبد الحميد، الغالبيّة العظمى من البشر لا تعرف لها غاية عليا، أجل لكلّ أنا غاية قريبة، وهي غايات متضاربة تخضع لميكانيكيّة الحياة اليوميّة، ولا بأس بها ولا ضرر منها إذا هيمنت عليها غاية عليا، ولا وحدة للإنسان إلّا بهٰذه الغاية المنشودة!

فسألته بشغف:

ـ وما هٰذه الغاية يا ترى؟

ـ عليك أن تجيب على السؤال بنفسك، لقد اجتهدت من جانبي واخترت الحرّيّة كما قلت لك...

فكّرت فلم أقتنع وقلت:

ـ الإنسان يتميّز بالعقل فيجب أن تكون الحقيقة هي غايته العليا...

فقال باسمًا:

ـ لا اختلاف بيننا في الواقع، ألم أقل إنّ الحرّيّة والحقيقة الموضوعيّة شيء واحد؟ ألم أقل إنّ الذاتيّة هي العقبة الكئود في سبيل الحرّيّة؟ فالعقل الحرّ وحده هو القادر على معرفة الحقائق...

فقلت وكأنّما أخاطب نفسي هٰذه المرّة:

ـ يلزمني اطّلاع كثير وتفكير أكثر...

ـ الأهمّ أن تبدأ فورًا بتربية الإرادة، فلا اطّلاع ولا تفكير بلا إرادة، إنّ ضعيف الإرادة يطّلع ويفكّر أيضًا ولٰكنّه يتشتّت في أحلام اليقظة، انتهز فرصة السجن فهي نادرة خاصّة لرجل مثلك، والطريق ليس باليسير، هو قضاء كامل على حياة زائفة ممتدّة طولًا وعرضًا وعمقًا، هو اختيار كلمة أو سلوك أو اختيار على ضوء غاية عليا محدّدة، وستواجه به أهوالًا لا تخطر بالبال، وتطالَب بتضحيات لا حصر لها ولا حدّ، بدءًا من تعاملك مع أسرتك وزملائك وانتهاءً إلى مواقفك من النظم والدولة والطبيعة وما وراء الطبيعة...

وشملنا صمت غير قصير، ثمّ ابتسمت في حيرتي وسألته:

ـ وهل وصلت؟

فأجاب بنبرة محايدة:

ـ كلّا، ولٰكنّي أحرز نجاحًا يومًا بعد يوم.

ثمّ متسائلًا في أسّى:

ـ وما قيمة وصول فرد واحد أو عدّة أفراد بين آلاف الملايين من البشر؟

ـ دعنا من الخيال.

ـ ولٰكن لا قيمة لخلاص تحظى به قلّة.

فقلت له على سبيل التعزية:

ـ قد يحدث التطوّر المعجزة.

فقال بازدراء:

ـ التطوّر الحقيقيّ لا يجيء إلّا من الداخل.

فقلت ضاحكًا:

ـ ستُمحى المجموعة الشمسيّة قبل أن يحقّق آلاف الملايين التطوّر الذي تحلم به.

فقال محتجًّا:

ـ لم يوجد شيء عبثًا.

فسألته استجابة لخاطرة طارئة:

ـ هل تفكّر في نشر يوميّاتك؟

فحنى رأسه موافقًا فسألته:

ـ متى؟

ـ لم أحدّد الوقت بعد، سأنشرها عندما يسعني أن أحدّد الوقت بحرّيّة...

ـ ماذا تعني؟

فقال باسمًا:

ـ عليك أن تفهم ما أعني بنفسك، ولا أهمّيّة لذلك...

فلم أشأ مضايقته. وخطر لي خاطر فقلت:

ـ يذكّرني طريقك بالتصوّف؟

فقال بسرعة:

ـ كلّا، التصوّف أرستقراطيّ وطريقي شعبيّ، التصوّف مقاماته التوبة والفقر والتقوى والتواكل ألخ، أمّا طريقي فمقاماته في الحرّيّة والثقافة والعلم والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والحزبيّة والعقيدة، التصوّف يجعل من الشيطان العدوّ الحقيقيّ للإنسان أمّا الطريق فعدوّه يشمل الفقر والجهل والمرض والاستغلال والطغيان والكذب والخوف...

فضحكت وقلت:

ـ لعلّك تعدّني ضمن الأعداء؟

فضحك مثلي ولاذ بالصمت.

١١

أوّل عهدي بالمرض نشدت التوافق مع الواقع، وقهر الضجر بالرؤية والسمع والقراءة، أي بالتسلية والمتعة والفكر. أجل فكّرت كثيرًا ولكنّه كان تفكيرًا يستهدف جلاء الحقائق وتذكّر الوقائع ولا غاية وراء ذلك. وباقتحام جلال أبو السعود لحياتي انبثق منها تفاعل كيماويّ ولع بالتغيير وحلم به قبل كلّ شيء. لم آخذه مأخذ الجدّ من بادئ الأمر فلم أخش عواقبه، وتصوّرت أنّني سأتخلّى عنه عند لوح الخطر. ولكنّ فكرة التغيير مضت تلاعبني لعب القطّ بالفأر بهرتني مثل نجمة الصباح. وعقدت مقارنات خياليّة بين أسرتي وبين حلم جلال فشعرت بما يشبه الغثيان. إنّهم ثمرة حياتي وتربيتي لعنت الشجرة والثمرة. وساءلت نفسي في قلق محموم:

ـ أأنا جادّ حقًّا؟!

أولئك المولعون بالتحف والثرثرة والمال ولع الأطفال بالحلوى كيف أحادثهم عن غاية عليا؟!.

وهتفت بضيق شديد:

ـ أيّتها الحياة المحيّرة، لا أدري أيّنا ضحيّة لصاحبه...

وكلّما ألحّ عليّ الأرق تساءلت:

ـ أأنا جادّ حقًّا؟!

* * *

وفي زيارة لجلال أقدمت على خطوة جديدة وهامّة، بعد تردّد معذّب طويل. كنّا نطرق باب الشتاء، وقد أمطرت السماء مطرة خفيفة واحدة قلت لجلال:

ـ فليسامحك الله على ما فعلت بي...

فضحك قائلًا:

ـ لا تُخجل تواضعي...

فرمقته بتحدّ وقلت:

ـ أريد أن أطّلع على يوميّاتك.

فرفع منكبيه استهانة وقال:

ـ أكثرها لا يختلف عن يوميّاتك التي لم تدوّن، الأفضل أن تسجّل ذكرياتك!

ـ ألم تقل أنّ التذكّر وهم؟

ـ ولكنّ الوهم ينقشع بتربية الإرادة.

ـ ولِمَ تضنّ بها؟

ـ لديّ أسباب، وقد أطلعك عليها في ظروف أخرى...

لم ألحّ عليه أكثر. وركّزت على النيّة التي أنتويها. قلت:

- يخيّل إليّ أنّني راغب في دخول تجربتك!

فثقبني بنظرة جامعة بين الحذر واللهفة ثمّ تمتم:

- حقًّا؟

فقلت مبادرًا:

- أنا لا أكذب أبدًا...

وسرعان ما تذكّرت حديثه عن الكذب والخوف فقهقهت على رغمي وقلت كالمعتذر:

- في الأقلّ فيما يتعلّق بهٰذه الرغبة!

لم تغضّ نظرة الحذر من عينيه فتساءلت:

- لِمَ تشكّ فيّ؟

فقال بهدوء:

- هٰذه الرغبة تُسبق عادة برغبة أخرى.

- ما هي؟

- أن تعترف بخبايا حياتك التي تؤرّقك.

فهتفت من فوري:

- هٰذا ما يلحّ عليّ، هٰذا ما صارعته حتّى صرعني.

فقال بارتياح:

- انتظرت طويلًا أن أسمع منك ذٰلك حتّى كدت أيأس منك، أشهر مرّت وأنا أنتظر!

- لم أتصوّر أن يكون للاعتراف كلّ هٰذه الأهمّيّة.

- بل إنّه يقطع بأنّك دخلت التجربة وأنت لا تدري وأنّ إرادتك بدأت تعمل...

فشملني سرور صبيانيّ أمّا هو فواصل:

- كنّا شابّين مجتهدين فقيرين، هدفهما عمل يوفّر الرزق، وثقافة تثري الحياة، ماذا حدث بعد ذٰلك؟

قلت بلا تردّد:

- توظّفت، تزوّجت، أنجبت، واصلت حياتي الثقافيّة، حقّقت الحلم كما ترى...

لم يعلّق بكلمة فقلت:

- ثمّ قدّمت استقالتي من الوظيفة.

لزم صمته دون دهشة أو تساؤل فأدركت أنّه يأبى مساعدتي ليتوكّد من صدق رغبتي. قلت:

- الحقيقة أنّني اضطررت إلى الاستقالة.

لم يتأثّر حياد وجهه فقلت:

- كنت مراجعًا بحسابات الأشغال، وكان مقاولًا ممّن يتعاملون مع الوزارة، ندّت عنه كلمة فوجدتني أمام إغراء لم يُعرض لي من قبل، اقتلعني من مستقرّ حياتي، اكتشفت أنّني أنطوي على رغبات أخرى غير الثقافة والسعادة البريئة، ثمّة حياة أفضل، ترددت طويلًا ثمّ مددت يدي، وكان لي منطقي أيضًا المستمدّ من مناخ فاسد، وتوهّمت أنّني أطبّقه بحرّيّة كاملة.

حوّلت عينيّ إلى الأمام وقلت:

- الانحدار لا يعرف التوقّف، فاحت الرائحة، لا أطيل عليك، اضطرّوني إلى تقديم استقالتي على سبيل العطف...

عطفت إليه عينيّ فكأنّما لا يسمع ما يقال. قلت:

- وجدتني مهدّدًا بالجوع فكدت أجنّ لولا أن ألحقني المقاول بمكتبه...

هل أكتفي بهٰذا القدر؟. ماذا يعني عن التراجع؟. وساد الصمت حتّى قال بلا اكتراث:

- عرفت قبلك مشقّة الصدق...

كأنّما يقرأ أفكاري. وقلت مستهترًا:

- اعترضتني أزمة لعينة!... (ثمّ بعد صمت)... عشق المقاول راقصة أجنبيّة، لم يكن من الميسور في ذٰلك الوقت أن تمدّ إقامتها في مصر ما لم تتزوّج من مصريّ... (ثمّ بعد صمت)... قبلت أن أتزوّج منها سرًّا نظير هبة ماليّة محترمة...

شعرت بإعياء فطال صمتي حتّى تساءل:

- بتلك الهبة فتحت مكتب الاستيراد؟

فقلت بنبرة مرهقة:

- بدأت بالتهريب نظرًا لتشدّد القوانين في تلك الأيّام، ثمّ فتحت المكتب بعد ذٰلك، ثمّ انفجر النجاح بعد الانفتاح حتّى بلغت ثروتي السائلة خمسة ملايين من الجنيهات...

شملنا صمت ثقيل فوجدت تعزية في صفحة وجهه الذي لم يخرج عن حياده التامّ. وقال بهدوء:

- أشياء تحدث كثيرًا ما تحدث، أمّا الاعتراف بها فلا يحدث أبدًا.

فتمتمت:

- إنّها نسّافة مثل الديناميت...

ـ الديناميت لا يهمّ من يرغب في دخول التجربة، وسوف تجد في يوميّاتي خطايا كثيرة.

ـ هل تأذن الآن في اطّلاعي عليها؟

ـ لا علاقة بين هٰذا وذاك. ستجدها بين يديك في الوقت المناسب لا قبل ذٰلك...

فشبكت يديّ في بعضهما وقلت:

ـ أخاف على أسرتي من قرارات قد أتّخذها يومًا فيرونها جنونيّة...

فقال باسمًا:

ـ عندما تصبح قادرًا على اتّخاذها فلن تزعجك المخاوف.

ـ يجب أن أصمد حتّى النهاية.

ـ في الإنسان قوى لا حدود لها، ثق من ذٰلك.

فقلت متأسّفًا:

ـ مرضي يشكّكني أحيانًا في قيمة رغبتي، أريد أن أختبر نفسي وأنا صحيح معافًى...

ـ تفكير تستحقّ من أجله الثقة ولٰكنّ المرض وحده لم يكن ليغيّرك...

فداخلني ارتياح وسألته:

ـ أمِنَ الصواب أن أسألك الإرشاد عند الضرورة؟

ـ كان لي مرشد أيضًا، المعاونة هامّة وضروريّة...

فازددت ارتياحًا ثمّ خطر لي خاطر فسألته:

ـ هل نجحت مع أسرتك؟

ـ لدرجة كبيرة، لا تنس أنّ النساء تستغرقهنّ الغايات اليوميّة ولٰكنّهنّ في النهاية يشاركن الرجال في أعماقهنّ الإنسانيّة.

ـ أظنّ أنّه يجب أن أربّي نفسي أوّلًا قبل أن أكرّ عليهم؟

فهزّ رأسه نفيًا وقال:

ـ من الضروريّ أن تسبقهم بالرغبة والخطوات الأولى، ثمّ عليك أن تشركهم في التجربة، فالمقاومة الأولى مهمّة جدًّا باعتبارها مقوّيًا لا غنى لك عنه، ثمّ يجيء التعاون المثمر، تذكّر دائمًا أنّ عملنا تعاونيّ وليس فرديًّا...

فتمتمت في حيرة:

ـ إنّهم في وادٍ بعيد... بعيد...

ـ انتشلْهم من الفراغ وادفعْهم إلى العمل، هٰذه هي الخطوة الأولى...

فتساءلت في دهشة:

ـ أنسيت ما قلت مرارًا عن التحرّر من العمل؟

فقال بوضوح:

ـ نحن في مرحلة العمل، ولن نتحرّر من العمل إلّا بالعمل، والفراغ المنشود هو الفراغ المثمر الحافل بالعمل الإنسانيّ، وقد أقنعت زوجتي ـ وهي تماثل زوجتك في تعليمها ـ بالعمل عضوًا في جمعيّة رعاية الأيتام، ابنتي الكبرى ستّ ومربّية وهو عمل، أمّا الأخريان فستكونان طبيبتين...

ـ المشكلة العسيرة هي وفيق فهو يعتقد أنّ عمله غاية الغايات...

فقال بأسًى:

ـ إذا اعتبرنا العمل نشاطًا منتجًا لخدمة الفرد والجماعة فوفيق عاطل بلا عمل، الأدهى من ذٰلك أنّه يقوم بنشاط مخرّب، وهو أشبه بتجّار الحبوب المخدّرة القاتلة!

بذٰلك كشف عن رأيه في عملي أنا أيضًا فليس وفيق إلّا امتدادًا لي. أخذت لحدّ الفزع ولٰكنّي قلت:

ـ أمره هيّن رغم ذٰلك...

ـ كيف؟

ـ إنّي صاحب المال، وأستطيع إرغامه على التحوّل إلى النشاط الإنتاجيّ!

فهتف:

ـ احذف «الإرغام» من قاموسك، لا تتبع طريق الحكّام الذين يمهّدون للديموقراطيّة بمناهج دكتاتوريّة، أو يحقّقون العدل بالظلم، إنّه طريق سهل لأنّه يقوم على القوّة لا التربية...

وصمتنا ولٰكنّنا واصلنا تبادُل الأفكار بالنظرات حتّى اقتحمني خاطر كما يقتحم القذى فقلت:

ـ سوف ألقى من المجتمع حرجًا أشدّ!

فوافقني بهزّة خفيفة من رأسه فقلت:

ـ طالما عُددت من العمد المرضيّ عنها...

فقال بوضوح:

ـ لن يتيسّر لك السير إلّا بقهر الكذب والخوف.

١٢

مضى الشتاء وأنا أحاول لأوّل مرّة الكتابة، كتابة المذكّرات. لم أكن أتذكّر إلّا المعالم التي لا تُنسى وهي قليلة، ولكنّ التداعي استنقذ من العدم كهوفًا مطمورة. وعن سياستي مع أسرتي فقد دأبت على عرض آراء صديقي وكأنّما أقصد تسليتهم ليس إلّا. وأجاريهم في اتّهامه بالخبل ولكنّي أقول أحيانًا:

ـ حقًّا إنّه مخبول ولكنّ خبله لا خطر منه، ثمّ إنّه لا يخلو من حكمة، أليس من المهمّ أن يقوّي الإنسان إرادته ليحظى بحرّيّته الحقيقيّة؟ وأليس العمل المنتج خيرًا من النشاط الانتهازيّ؟!

وأثنى جلال على منهجي، ووصفه بأنّه منهج «تَسَلُّلِيّ» ذو أثر فعّال مع التكرار والصبر، والإصرار حيال ضجر الآخرين...

وقلت له يومًا بشأن مذكّراتي:

ـ لم أستطع حتّى الآن تسجيل واقعة زواجي من الراقصة الأجنبيّة!

فقال بامتعاض:

ـ يسوءني أن أسمع ذٰلك، إنّ كذبة واحدة تقوّض البنيان من أساسه...

ـ لا يعلم به إلّا ثلاثة، المرأة وقد طُلّقت من زمن وغادرت البلاد، أمّا أنا والمقاول فلنا مصلحة واحدة في إخفائها، وهي كفيلة إذا عُرفت بالقضاء عليّ في الأسرة والمجتمع...

ـ التسجيل مهمّ لتربيتك أنت أمّا النشر فلا أهمّيّة عاجلة له...

ـ قد تطّلع عليه الأسرة بعد وفاتي؟

ـ إذا نجحت في تغيير الأسرة قرأتْها بعين جديدة لا خوف عليك منها...

بدأت ـ رغم اهتمامي الظاهر ـ كمن يمارس تسلية ممتازة في سجنه ولكنّها مضت تنشب فيّ أناملها الناعمة بلا توقّف.

١٣

في ليلة من ليالي الشتاء الملتحمة بالربيع استمعت إلى ألحان شرقيّة قديمة بعمق وتركيز اكتسبتها أخيرًا ثمّ أطفأت النور مستقبلًا نومًا مريحًا. كانت أفكار ونبيلة ووفيق في الخارج كالعادة وسرعان ما استغرقت في النوم. ولكنّني انتبهت من نومي مكلّلًا بشعور بأنّني لم أنم إلّا قليلًا وأنّ الصباح ما زال بعيدًا. طالعتني ظلمة مكثّفة بالستائر المسدلة فأغمضت عينيّ غير أنّني سرعان ما فتحتهما استجابة لصوت غريب يشبه الحفيف. تخايل لعينيّ شبح إلى يمين الباب فتساءلت:

ـ أفكار؟

لكنّه لم يردّ ولم يتحرّك. عجبت لرؤيته رغم الظلمة الكثيفة، حملقت فيه متلقّيًا دفقة من القلق والخوف. مددت يدي نحو ظهر الفراش حتّى عثرت على زرّ الجرس ثمّ ضغطت عليه طويلًا وقد ضاعف عجزي من خوفي. سيسمع الخدم، وعسى أن يكون وفيق قد رجع. ولمّا طال الانتظار تسلّلت يدي الأخرى نحو زرّ الأباجورة وضغطت مجازفًا بالمواجهة ولكنّ المصباح لم يضئ. هل احتاط الشبح وقطع التيّار الكهربائيّ؟ أخرجني الخوف من صمتي فتساءلت:

ـ مَن أنت؟

ثمّ مستمرًّا بصمته.

ـ ماذا تريد؟... ليس في الحجرة نقود!

وإذا بشبح ثانٍ يتراءى لي إلى يمينه أطول منه بقبضة يد. اندفعت صارخًا مناديًا وفيق ولكنّ صوتي لم يخرج. لعلّه الخوف أو الشلل. وسيطر اليأس. وإذا بثالث يقف إلى يمين الثاني على مبعدة مترين من مقدّم السرير، وإذا برابع يتجلّى رغم الظلمة وهو أضخم الأربعة وأطولهم. امتلأت بوحدتي وعجزي ويأسي المطلق. تساءلت باستسلام:

ـ ماذا تريدون؟

فجاءني صوت خيّل إليّ أنّني لا أسمعه لأوّل مرّة يقول:

ـ مَن حفر حفرة لأخيه...

فقلت بحرارة:

ـ أيّ حفرة؟... إنّي طريح الفراش منذ حوالى العام...

فقال الصوت بغضب:

- كففت عن الحركة لا التآمر!
- والله لا أدري لقولك معنى. . .
فقال بحدّة:
- لا تدّعِ البراءة وأنت عريق في الإجرام.
ووثبوا وثبة واحدة. اثنان إلى يميني ويساري، والآخران فوق الفراش. أيقنت بالهلاك فتوتّرت أعصابي لأقصى حدّ. قبض الأوّلان على ذراعيّ فاندفعت أقاومها بعنف لأخلّص ذراعيّ، متوقّعًا في الوقت نفسه هجمة من الأمام. ووقع الهجوم فاستمددت من اليأس قوّة. خلّصت ذراعيّ ورحت أضرب كيفما اتّفق في جميع الجهات وأتلقّى من اللكمات ما لا يُعَدّ. ازددت عنفًا، ثمّ بلغت الرغبة في الحياة ذروتها فطرحت عن صدري الرجلين وتبادلت مع الآخرين ضربًا لا يعرف الهوادة. وسقط رَجُلا الفراش على الأرض ولٰكن كيف سقطا؟
تبيّن لي أنّني دفعتهما بقدميّ!
ذهلت من الفرح رغم كربتي واجتاحني الشعور بالشفاء من العجز.
ازددت قوّة وثقة حتّى استطعت الوثوب إلى الأرض. وقفت أقاتل بقدرة كالإلهام بعد حدوث المعجزة، ووضح أنّهم أضعف ممّا تصوّرت وأنّهم عزّل من السلاح. تقهقروا نحو الباب وأنا أتعقّبهم باللكمات الصادقات حتّى بلغنا الصالة الخارجيّة. ودوّت صرخاتي الغاضبة وهم يولّون الفرار. . .

١٤

شعّ الضوء فبهر عينيّ.
وقفت مذهولًا بين أفراد الأسرة والخدم. هتفت نبيلة:
- شفيت يا بابا. . .
وتمتم وفيق:
- كابوس!. . . ولٰكن شكرًا له!
وقالت أفكار:
- علينا باستدعاء الطبيب في الحال. . .
رجعت إلى الفراش ماشيًا في حذر، وشملتني مع الذهول فرحة طاغية، وجعلت أقول:
- لا أصدّق ولا أتصوّر. . .
وقهقهت أفكار متسائلة:
- ماذا رأيت في نومك؟!

١٥

جمعنا لأوّل مرّة بهو الاستقبال. قلت:
- أكّد لي الدكتور صبري حسّونة أنّه كان يتوقّع لي الشفاء.
فقال جلال أبو السعود:
- أنا لا أصدّقه تمامًا.
- ثمّ حدّثته بالتفصيل عن الحلم فأوّله بأنّه ترجمة حرفيّة لآلام الشفاء.
- تأويل معقول فيما أرى. . .
فقلت بإصرار:
- أعتقد أنّ الحلم هو كلّ شيء.
فتفكّر قليلًا ثمّ قال:
- بين الحقيقة والخرافة خيط رفيع فاحذر أن تقصفه. . .
فتساءلت:
- ألا تؤمن؟
فقاطعني:
- أودّ أن تركّز على إرادتك الحرّة.
فقلت له بإصرار:
- الأمر يتعلّق بآمال الإنسان في الحياة وما وراء الحياة.
فقال بهدوء:
- طريقنا منهج ينتفع به المنتمي واللامنتمي على السواء.
- طالما قنع إيماني بالقشور وأريد أن أعيد النظر في موقفي.
فقال باسمًا:
- وهي وحدة حتميّة إلى إعادة النظر بعد تنقيته من العبوديّة والذاتيّة. . .
فقلت برجاء:
- أرجو ألّا تضجر منّي.
- سأنتفع بك بقدر ما تنتفع بي.

وخطر لي خاطر فقهقهت قائلًا:

ـ أسرتي سعيدة بشفائي ولكنّها لا تدري شيئًا عمّا ينتظرها من متاعب. . .

فضحك قائلًا:

ـ العبرة بالخواتيم!

وكنت فريسة للقلق ممّا بدا أثره في حركات يدي ونبرات صوتي. ولحظت أنّه يرنو إلى يدي بعمق فقلت كالمعتذر:

ـ إنّه ما يسبق الميلاد. . .

قرار في ضوء البرق

١

مصرع عصمت البطراوي أشدّ الجرائم إثارة في زمن مضى. بادرتُ إلى فيلّته بعمارة النيل في صحبة كبار رجال الأمن، استجابة لبلاغ ورد لنا من ابنه الشابّ الجامعيّ أمين البطراوي. وجدنا السياسيّ العجوز منطرحًا فوق مقعد كبير بحجرة الاستقبال والدم ما زال ينزف من رأسه وقد تحوّل إلى جثّة هامدة.

هٰكذا انتهى الجبّار الذي أدمن الكاريكاتور المصريّ تقديم شخصه ـ إبّان عهده ـ في صورة سفّاح ذي صلعة على هيئة بحيرة من الدم. لم يكن ثمّة أثر لمقاومة، ولم يسمع الخدم حركة ولا صوتًا، فقد قُتل غدرًا وهو سابح في هدوء الشيخوخة، وهٰذه أداة القتل ملقاة على حجره ملوّثة بدمه، تمثال برنزيّ لرياضيّ إغريقيّ، وبالتدقيق في التنقيب عثرت على زرار فوق السجّادة وراء المقعد مباشرة. زرار لبنيّ ذي مركز ضارب للسواد. ولّما كانت زراير بدلة الفقيد كاملة العدد فقد احتفظت بالزرار بعناية.

يبدو أنّ الجريمة ارتكبت في الساعة الحادية عشرة أو بعدها بقليل، وبالفيلّا وقتذاك الطاهي والسفرجي ومدبّرة البيت إذا إنّ الرجل أرمل منذ سنوات. وقد تلفنوا بالخبر إلى أمين في النادي الذي أبلغنا من فوره. وكان من عادة الرجل أن يغادر مسكنه في التاسعة صباحًا فيمضي ماشيًا إلى كازينو الشاطىء حيث يلبث ساعة ثمّ يرجع ماشيًا أيضًا. وهو يدخل المسكن بمفتاح خاصّ فلا يشعر به أحد غالبًا، وهو ما حدث صباح اليوم. غير أنّه قابل المدبّرة في حجرة الجلوس وقال لها: «يبدو أنّ أمين ذهب إلى النادي»؟

فأجابت بالإيجاب فأمرها بإعداد فنجانين من القهوة وذهب. استنتجت المدبّرة أنّه رجع بصحبة ضيف، ودهشت لذٰلك إذ إنّه لم يحدث من قبل، وهو يمضي أمسياته في النادي مع القلّة الباقية من أصدقائه القدامى المعروفين. وجميعهم قد جاوزوا السبعين أو شارفوا الثمانين. ولّما ذهب السفرجي بالقهوة إلى حجرة الاستقبال رأى سيّده قتيلًا فصرخ معلنًا الجريمة لأوّل مرّة.

إذن قد ارتكبت الجريمة بسرعة نادرة وجرأة متهوّرة ثمّ تسلّل القاتل خارجًا. وبالبحث أيضًا تبيّن أنّه لم يسرق شيئًا، لا من الرجل ولا من المسكن. وقال لي رئيسي همسًا:

ـ القاتل من معارف الفقيد.

فوافقت من فوري فقال:

ـ طريقة القتل تقتضي قوّة فلنستبعد الأصدقاء القدامى فضلًا عن سخف التصوّر لأكثر من سبب.

فوافقت من فوري أيضًا. . .

فاتّجه نحو أمين البطراوي وسأله:

ـ مَن في تصوُّرك يمكن أن يصطحب المرحوم إلى هنا؟

ـ لا أحد فيما أعتقد.

ـ ألا يزور البيت أحد من خارجه؟

ـ أصدقاؤه القدامى في ظروف نادرة مثل المرض أو الولائم. عدا ذٰلك فهم يتلاقون في النادي مساء كلّ يوم تقريبًا. . .

ـ وغير أولٰئك، أليس لك أنت أصدقاء أيضًا؟

ـ بلى، لي صديقان حميمان وزميلان في كلّيّة الحقوق لكنّهما لا يدخلان البيت إلّا بصحبتي وفضلًا عن ذٰلك فنحن نتلاقى عادة في النادي...

تكلم بلهجة رافضة كلّ الرفض للشكّ فيهما، فسألته:

ـ هل يعرفهما المرحوم؟

ـ قدّمتهما له بطبيعة الحال ورآهما أكثر من مرّة معي هنا.

ـ هلّا حدّثتني عن ميولهما السياسيّة؟

ـ جلال حمزة وطنّي لا لون حزبيًّا له ولكنّه رافض...

ـ رافض؟

ـ أعني ينتقد كلّ شيء!

ـ الآخر؟

ـ علي فؤاد...

وتردّد قليلًا ثمّ قال:

ـ ديموقراطيّ...

ـ البلد كلّه ديموقراطيّ...

لكنّه لم يزد على ذٰلك شيئًا فحدجني الرئيس بنظرة خاصّة فحواها الاهتمام بهٰذا الجانب. وعندما خلوت إليه، عقب التحقيق مع الخدم الذي لم يسفر عن شيء، قلت:

ـ السياسيّ المعتزل لا يُقتل بسبب السياسة...

فقال بغموض:

ـ احذر القواعد، والآن حدّثني عن برنامج تحرّيّاتك.

فأجبت من فوري:

ـ ثمّة أماكن هامّة مثل كازينو الشاطئ، النادي، بوّاب العمارة، حتّى الأصدقاء القدامى لا أحذفهم من برنامجي...

٢

أمّا البوّاب فلم يشهد عودة عصمت البطراوي وبالتالي فإنّه لم ير مَن كان بصحبته. وذهبت إلى كازينو الشاطئ حوالى الثانية بعد الظهر ومعي صورتان لجلال حمزة وعلي فؤاد حصلت عليهما من أمين البطراوي مع عنوان سكنهما. في الكازينو ساءلت المدير والجرسون بشير وماسح الأحذية حسّونة. كان الخبر قد طار إلى الكازينو، ولاحظت أنّ بشيرًا كان أشدّ الجميع تأثّرًا به، ثمّ علمت منه أنّ الفقيد هو الذي ألحقه بالعمل. ووافتني معلومات لا بأس بها. فعلي فؤاد وجلال حمزة معروفان لدى بشير وحسّونة.

ـ علي فؤاد من زبائن الكازينو، يمرّ بنا كلّ صباح تقريبًا في هٰذا الوقت من العطلة...

وقال بشير:

ـ وأحيانًا كان يتبادل التحيّة مع عصمت البطراوي، وفي هٰذا الصباح بالذات تصادف قيامهما في وقت واحد فغادرا الكازينو متصاحبين...

تحرّكت غريزة المطاردة وطالبته بإعادة الشهادة غير أنّ حسّونة قال:

ـ كنت في ذٰلك الوقت راجعًا من مشوار فرأيت الأستاذ علي فؤاد وهو يودّع المرحوم ويمضي إلى كشك السجائر.

ـ لعلّه لحق به بعد ذٰلك؟

ـ لم أرَ شيئًا فقد دخلت من فوري الكازينو...

ولٰكنّ شهادة بيّاع السجائر كانت قاطعة فقد شهد بأنّ علي فؤاد سار في اتّجاه مضادّ لطريق البطراوي المتّجه نحو الجسر، وفضلًا عن ذٰلك فقد قال عن عصمت البطراوي:

ـ وقد لمحته من موقفي وهو يلتقي عن بعد بشخص ما سارَ بصحبته...

وعرضت عليه صورة جلال حمزة ولٰكنّه قال:

ـ لم أتبيّنه ولم أعْنَ بالنظر إليه...

أمّا عن جلال حمزة فهو لا يغشى الكازينو إلّا في النادر، ولٰكنّه جاء الكازينو منذ قليل...

كان مضطربًا، وهو الذي أبلغنا بخبر الجريمة، وسألنا إن كان الفقيد قد صحب أحدًا معه، فأفضينا إليه بما قلناه الآن...

وساءلت نفسي أكان جلال يحقّق إسهامًا منه في الكشف عن قاتل والد صديقه؟. أم كان وراء ذٰلك باعث آخر؟.

وانتقلت إلى النادي، وبسؤال أصدقاء أمين

البطراوي من الأعضاء عرفت كيف تلقّى الشابّ الخبر. ومتى جاء علي فؤاد للقاء أمين في الساعة الثانية عشرة فعرف بالخبر، وكيف جاء جلال حمزة في منتصف الواحدة تقريبًا فدهمه الخبر. وسألت:

ـ هل من عادتهما المجيء إلى النادي في موعد محدّد؟

فكان الجواب ألّا ميعاد محدّدًا لهما في ذٰلك وأنّهما قد يتخلّفان بعض الأيّام. وبرجوعي إلى مكتبي تلقّيت من مساعدي تحرّياته عن الميول السياسيّة للشابّين ولٰكنّي لم أقتنع بالباعث السياسيّ أصلًا كما قلت لرئيسي.

٣

كان علي فؤاد يقيم في شقّة متوسّطة بالجيزة مع أسرته. وقد فتّشنا الشقّة ولم نعثر على شيء ذي بال. حتّى الكتب لا مغزى لها فقد كان طالبًا بكلّيّة الحقوق وكان طبيعيًّا أن تحوي مكتبته كتب الاقتصاد على اختلاف مذاهبها. عن علاقته بأمين سألته، وعن معرفته بأبيه. عن عقيدته السياسيّة فلم ينكرها وقال باسمًا:

ـ إنّها معروفة كالاسم والسنّ!

ـ شوهدتَ وأنت تغادر الكازينو بصحبة الفقيد هٰذا الصباح؟

ـ هٰذا حقّ... ولٰكنّي ودّعته على بُعْد خطوات من الباب...

ـ أين ذهبت بعد ذٰلك؟

ـ إلى كشك السجائر. ثمّ قابلت صديقًا ثمّ ذهبت إلى النادي...

ـ قيل إنّ البطراوي قابل شخصًا آخر في طريقه هل اتّفق لك أن رأيته؟

ـ كلّا. سرت في الطريق المضادّ...

ـ قيل إنّك أحد اثنين يزوران مسكن الفقيد في أيّ وقت؟

ـ غير صحيح. ولٰكنّي أزور المسكن بصحبة صديقي أمين.

ـ أكنت تحبّ عصمت البطراوي؟

ـ لم أكرهه على أيّ حال.

ـ أليس المتوقّع أن تكرهه بسبب ميولك السياسيّة؟!

ـ لم يعد الرجل إلّا ذكرى فضلًا عن أنّني كنت أنظر إليه بعين مودّة لعلاقتي الوثيقة بأمين...

ـ متى قابلت صديقك جلال حمزة هٰذا الصباح؟

ـ لحق بي في النادي في الواحدة أو قبل ذٰلك...

كان واضحًا هادئًا ولم أجد ما يحملني على الشكّ فيه.

٤

وكان جلال حمزة يقيم في شقّة صغيرة بعابدين، وحده إذ إنّ أهله مقيمون في بني سويف. وعندما علم بأمر التفتيش استاء وتساءل محتجًّا:

ـ لماذا؟

من أوّل نظرة أدركت أنّه مهزوز الشخصيّة ولٰكنّي توفّرت بكلّ همّة للتفتيش. وبوجه خاصّ الملابس. وفي الحمّام رأيت بدلة بيضاء منقوعة في طشت غسيل. وبفحص الزراير وجدت زرارًا ناقصًا. وبمضاهاته بالزرار الذي عثرت عليه في حجرة استقبال البطراوي وجدته مطابقًا. اقتحمني شعور بالفوز.

ـ متى نقعت هٰذه البدلة؟

ـ أمس...

ترى هل خامره شكّ؟!

ـ تنقص زرارًا.

ـ ربّما.

ـ مثل هٰذا الزرار.

وأريته الزرار. قطّب في عصبيّة وقال:

ـ توجد آلاف منها في السوق، وهي نفس زراير بدلتي الأخرى...

ـ هٰذا حقّ، وقد وجدت هٰذا الزرار وراء مقعد عصمت البطراوي...

فتساءل بحدّة:

ـ هل تتّهمني؟

ـ معاذ الله، متى بدأت صداقتك مع ابن القتيل؟

ـ منذ عشرة أعوام.

- عرفت القتيل؟
- قدّمني إليه.
- ولْكنّك كنت تعرفه من قبل؟
- ماذا تعني؟
- كلّ الناس كانت تعرفه.
- طبعًا.
- لعلّك كنت من المعجبين به؟
- كلّا.
- صديقك يعرف ذْلك؟
- نعم.
- إذن كنت من أعدائه؟
- أجل!
- قلت عنه مرّة إنّه المدرسة التي تخرَّجَ فيها كلّ مَن استبدّ بهٰذا الشعب أو نكّل به. . .
- مَن قال ذْلك؟
- لنا تحرّياتنا.
- على أيّ حال فهٰذا رأيي حقًّا.
وتساءلت مصطنعًا الثقة في نبرتي:
- هل رأيت الرجل صباح اليوم؟
تردّد لحظات ثمّ قال:
- نعم، على مبعدة غير قصيرة من كازينو الشاطئ . . . صافحته، سايرته أمتارًا ثمّ استأذنت منصرفًا إلى طريقي. . .
- رآك أناس من رجال الكازينو.
- ربّما. . .
وقلت مغامرًا:
- ورآك بوّاب العمارة. . .
فقال بحدّة:
- غير ممكن، لقد تركته قبل ذْلك بمسافة طويلة. . .
تمنّيت أن يسهو فيقع فيقول مثلًا إنّ البوّاب لم يكن موجودًا ولْكنّه، فيما بدا لي، حاذق أو صادق. والحقّ - ورغم كلّ شيء - قوي الشكّ فيه عندي. سألته:
- مضت ساعتان أو أكثر بين مقابلتك للرجل وذهابك إلى النادي، كيف مضّيتها؟
- عادة أتسكّع، وأحبّ مشاهدة صيد السمك. . .

- في ذْلك الوقت قتل البطراوي. . .
فقال بحنق:
- ليرحمه الله.
- كيف فسّرت الجريمة لدى علمك بها؟
- لم أجد سببًا واحدًا يبرّرها. . .
- ألم يخطر ببالك أن يكون وراءها سرقة؟
قطّب قليلًا ثمّ قال:
- السرقة لا تحدث عادة في النهار. . .
- القتل نفسه حدث. . .
فلم يحر جوابًا، فقلت:
- إذن اتّجه تفكيرك نحو السياسة!
- لم أقل ذْلك، ولا هو بمعقول. . .
- لماذا؟
- لا يفكّر أحد في اغتيال سياسيّ معتزل. . .
- حتّى لدى من عاش دهرًا وهو يحلم بقتله؟
- من هٰذا؟
- كثيرون جدًّا تمنّوا ذْلك.
فصمت وقد بدا عليه انهاك فقلت:
- أستأذنك الآن في استعارة البدلة المنقوعة بعض الوقت. . .
فحدجني بذهول ثمّ تمالك نفسه فقال منفعلًا:
- خذني إذا شئت داخلها!

٥

وبينا كنت أحاور شكوكي في جلال حمزة دهمني خبر من شأنه أنّه يقلب الموقف رأسًا على عقب. عرفنا أنّه اكتشفت وصيّة للمرحوم، يوصي فيها بثلث ثروته للجرسون بشير. ومن فوري أبلغت رئيسي. ومن عجب أنّه لم يسرّ. قال بفتور:
- جرسون!. . . أله نشاط سياسيّ؟!
مِن تغيُّر نبرات الصوت أدركت أنّ «شيئًا ما» يدبّر وراء الكواليس، ولْكنّي قلت:
- إنّي ماضٍ للتحقيق.
فقال بامتعاض:
- أخشى أن نخوض علاقات شخصيّة وأخلاقيّة. . .

إنّي لم أفهم لغة رئيسي. لقد أدركت أنّ ثمّة رغبة لاستغلال الجريمة استغلالًا سياسيًّا، لأسباب سياسيّة لا تخفى. تجاهلت ذلك. وسرعان ما استدعيت بشيرًا واستجوبته بكلّ دقّة. علمًا بأنّ تواجُده في الكازينو ساعة ارتكاب الجريمة أمر مؤكّد. ومنه علمت أنّ أمّه هي التي استشفعت بعصمت البطراوي ليُلحقه بعمله في الكازينو، عمل ممتاز ووفير الربح. وزرت الأمّ في حجرتها الوحيدة بعزبة العجوزة. عجوز جاوزت الستّين ولكنّ وجهها يشي بأصل جميل. ونجحت في استدراجها للاعتراف بحقيقة مذهلة، وهي أنّ بشيرًا ابن غير شرعيّ للبطراوي، وأنّ الفقيد علم بالحقيقة في حينها. ولم نعثر على شبهة أو قرينة تدين الأمّ أو ابنها. ولّما عرضت نتيجة التحقيق على رئيسي تهلّل وجهه، وسرعان ما أمرني بالانصراف. تخيّلت ما يدور في الحجرة المغلقة من اتّصالات تليفونيّة وتدبيرات جهنّميّة. وتسلّمت الموضوع إدارة أخرى. وإذا ببيان يعلن في الصحف مصوّرًا مقتل البطراوي كجريمة سياسيّة متّهمًا جماعة متطرّفة، وذلك من خلال حملة إعلاميّة موجّهة بضراوة نحو تلك الجماعة، وسبق ذلك حادث غريب وهو القبض على علي فؤاد ضمن عشرات من الأفراد الأبرياء. تابعت ذلك كلّه بكآبة شديدة وفي تأزّم عنيف رغم بعدي عنه كلّيّة، وقلت لرئيسي:

ـ ما زال اتّهام جلال حمزة هو الراجح عندي...

فصاح بي وبغضب متسائلًا:

ـ أبينك وبينه ثأر قديم؟

فقلت بوضوح:

ـ إنّه مجنون أو نصف مجنون، إنّي أعرف هذا النوع جيّدًا.

فصاح بي:

ـ لم يعد الموضوع من اختصاصك.

٦

قرّرت أن أرجع البدلة إلى جلال حمزة بنفسي. الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ. نمى إلى علمي ما يلقاه المقبوض عليهم من ألوان التنكيل والتعذيب حتّى حدث ما يُعَدّ كارثة. كارثة بكلّ معنى الكلمة. طويت نفسي على آلامها وذهبت إلى مسكن جلال حمزة... استقبلني بوجه أنهكه الإرهاق فبدا مثل شبح. تظاهرت أمامه بالمرح وقلت:

ـ دعني أردّ إليك بدلتك مصحوبة بالاعتذار!

وترامقنا في جوّ مشحون بالتوتّر. ثمّ تساءلت:

ـ ألا تدري أنّني شككت فيك من أوّل نظرة؟

فتساءل ببلاهة:

ـ أوّل نظرة؟

ـ كما يوجد حبّ من أوّل نظرة يوجد شكّ من أوّل نظرة.

فقال بسخرية:

ـ إنّك رجل ملهَم!

ـ وها هي الحوادث تؤكّد خطأ ظنّي...

فصمت، فقلت:

ـ حسبنا أنّ المجرم الحقيقيّ قد اعترف، طبعًا علمت بذلك؟

ـ مثل جميع قرّاء الصحف.

ـ إنّه صديقك.

ـ شخص لا يمكن أن يقتل.

ـ القتل أبسط ممّا تتصوّر.

فتردّد قليلًا ثمّ تساءل:

ـ ثمّة إشاعة متطايرة تقول إنّه وبعض زملائه قد قُتلوا وهم يحاولون الهرب...

كنت قد عرفت ذلك ولكنّي قلت:

ـ لا أستبعد أن تقع حوادث من هذا النوع.

وساد الصمت وعدنا للترامق في توتّر حتّى قلت بهدوء وبدافع من مجازفة لا تقاوم:

ـ أصارحك بأنّني ما زلت أومن بأنّك القاتل...

تضاعف توتّره وثار غضبه، فقلت متماديًا في الانتقام منه ومن نفسي ومن الدولة:

أتخيّل ما حصل على الوجه الآتي: قابلت عصمت البطراوي بعد أن تركه الشهيد علي فؤاد، تصافحتما، سايرته منجذبًا إلى قطعة من التاريخ المثير، لعلّك صحبته إلى البيت بزعم إدراك أمين قبل ذهابه إلى النادي. دخلتما الشقّة دون أن ينتبه لكما أحد، مضى

الرجل ليسأل عن ابنه ثمّ رجع، قتلته ثمّ تسلّلت خارجًا، رجعت إلى مسكنك، خلعت ملابسك، نقعت البدلة من الفطنة، ثمّ ذهبت إلى النادي لتتشمّم الأخبار، ثمّ إلى الكازينو لترى إن كان أحد رآك في صحبة الرجل، ما رأيك؟

صاح جلال بسخرية وهو ينتفض رغم ذلك:

ـ برافو!

ـ تتظاهر بغير ما في باطنك، إنّك ضعيف هزيل، وها أنت تشهد مصرع عشرات الأبرياء بسببك، إلى متى تحتمل ذلك؟

فصاح بسخرية:

ـ افترضني بلا ضمير مثل حكومتك العريقة...

فرمقته بازدراء وقلت:

ـ إنّك مطمئنّ الآن في حماية الحكومة، تعلم أنّها لا تستطيع أن تتّهمك وإلّا اعترفت بقتل العشرات بلا جريرة.

ـ فكرة جميلة، مجرم يجد حمايته في ظلّ حكومة أوغل منه في الإجرام...

وبغتة تلاشت سخريته وكأنّما جفّت حيويّته وخمد. انتقلنا إلى جوّ مشحون بيأس الاعتراف.

سألته بهدوء:

ـ أليس تصوّري صحيحًا؟

فصمت صمت الموافقة والتسليم، إنّه يلتمس قطرة من العزاء. سألته:

ـ أكنت تضمر الرغبة في قتله؟

هزّ رأسه نفيًا فسألته:

ـ متى انبثقت في وعيك فكرة القتل؟

لم يتكلّم ولكنّه ضرب يده بالأخرى ضربة سريعة واحدة فترجمتها متسائلًا:

ـ فجأة!

تكلّم بصوت ضعيف:

ـ وأنا أنصرف من الحجرة... قمت وليس في ذهني إلّا الذهاب، مضيت من وراء مقعده، تركّز بصري في صلعته، انتفض جسمي بغتة، اجتاحتني فكرة القتل...

عدنا للترامق. مرق فجأة من حال الاستسلام. برقت عيناه بجنون، صاح:

ـ أتحدّاك أن تعلن اعترافي!... ما أنت إلّا وغد مثلهم!

غضبت بدوري. كوّرت قبضتي في وجهه مقاومًا رغبة مرعبة في تحطيمه، صمتُّ.

ـ جبان كذّاب... تعال إلى مكتبي واعترف رسميًّا ولترينّ ما أفعل...

اندفع يضحك بجنون حتّى تصوّرت أنّه فقد ذاته فغادرت مسكنه مشتّت الخاطر ممزّق القلب.

٧

بلغ بي التهوّر في التفكير حدّ مناقشة فكرة قتل جلال حمزة متحدّيًا كافّة العواقب. ولكنّي سرعان ما اقتنعت بسخف الفكرة فالمهمّ حقًّا هو كشف النقاب عن جريمة الحكومة. ولم يطل بي التفكير إذ اقتحم جلال حمزة حجرتي ذات صباح مجلّلًا بالانهيار الكامل. أدركت في الحال أنّه ـ حتّى رغم جنونه إن صحّ أنّه مجنون ـ يشاركني في امتلاك ضمير متعذّب. وسرعان ما أملى عليّ اعترافه ثمّ وقّع عليه بإمضائه. ألقيت القبض عليه ورحت أفكّر في الأمر. إنّي أعرف تمامًا خطورة ما أنا مقدم عليه. إنّه لا يهدّد مستقبلي فقط ولكنّه يهدّد حياتي أيضًا. وإذا بقوّة عنيفة تتفشّى في وعيي خليقة بأن أتحدّى بها الجبال. من خلال لحظة مقدّسة رحّبت بالاستشهاد وغرست بذرته في نفسي لينمو شجرة خضراء وهلاكًا أصفر. إنّها لحظة لا تُنسى تحتوي الإرادة مثل إلهام خالد. وفي الحال قصدت رئيسي وقدّمت له الاعتراف. مضى يقرأ بهدوء أوّل الأمر. ثمّ أخذ وجهه يصفرّ وشفتاه تتشنّجان. ثقبني بنظرة مقت ثمّ هتف:

ـ إنّه مجنون بلا أدنى شكّ!

فقلت بهدوء:

ـ فلترَ النيابة فيه رأيها!

فصرخ:

ـ إنّك مجنون مثله!

ثمّ بنبرة وعيد:

ـ إذا تسرّب النبأ فستكون أنت المسئول عن ذلك!

وأمرني بالانصراف بعد أن أعطاني مفتاحًا للخروج من الأزمـة. وفي الحال اتّصلت بصحفيّ أعـرفه من صحفيّي المعارضة، وذهبت إلى بيتي مرتاح البال لأوّل مرّة منذ مصرع عصمت البطراوي.

* * *

لم يكن مفرّ، عقب انفجار الخبر في الرأي العامّ، من التحقيق مع جلال حمزة، وقد حُوّل إلى الطبيب الشرعيّ الذي قرّر جنونه فأودع في مصحّة الأمراض العقليّة. وشكّكت صحف المعارضة في القرار الطبّيّ، وحملت على الحكومة حملة صادقة. ونمى إليّ أن أمرًا يدبَّر لي في الخفاء فلم أجد بـدًّا من الأخذ بنصيحـة الأصـدقاء، فقـدّمت استقالتي، وسـافـرت للعمل في خارج القطر...

أُسْرةٌ أنَاخَ عَليهَا الدَّهْرُ

وجدتني في فناء ترب مكتظّ بالآدميّين والضوضاء. مربّع الأضلاع مسقوف بسماء متلبّدة بالسحب الداكنة. تتلاصق على أضلاعه الحجرات وتفوح في جوّه البارد روائح البصل والثوم والفول النابت والطعميّة. أمام كلّ حجرة تقرفصت امرأة أمام كانون أو وابور غاز وانتشر فوق أديمه الملىء بالحفر والنفايات أطفال يلعبون. اتّجهت الأعين نحوي وكأنّما تتساءل عمّا جاء بهٰذا الأفندي إلى ربعهم العتيق. ملت نحو أقرب امرأة وقلت:

ـ صباح الخير أين أجد ستّ وجديّة جلال؟

فأشارت بيدها المغطّاة بقفّاز من الخضرة نحو امرأة في الركن الأيسر من الضلع المتوسّط وهي تسأل بتطفُّل:

ـ مَن حضرتك؟... وماذا تريد منها؟

فشكرتها متجاهلًا تطفّلها وشققت طريقي متجنّبًا الحفر حتّى وقفت أمام المرأة متسائلًا:

ـ ستّ وجديّة جلال؟

فرفعت إليّ وجهًا بارز العظام مدبوغًا بالتعاسة والكبر محدّقة فيّ بعينين كليلتين وهي تهمس:

ـ أنا وجديّة.

فقلت برقّة:

ـ مندوب وزارة الأوقاف.

نهضت بنشاط طارىء لا يناسب هزالها، ثمّ دخلت الحجرة وهي تقول بصوت بالغ المودّة:

ـ تفضّل.

أوّل ما طالعني وجه شابّ مفرط البدانة، واضح العته، يرسل نظرات بلهاء ويبتسم للاشيء. تربّع فوق كنبة قديمة لا أثاث في الحجرة سواها باستثناء سحّارة سوداء وحصيرة متهرّئة. قالت:

ـ لا مؤاخذة، لا يوجد كرسيّ، تفضّل بالجلوس على الكنبة...

قال الشابّ بعجلة:

ـ لا... ارجع إلى أمّك خديجة العرة!

نهرته الستّ وقالت لي آسفة:

ـ أنت سيّد مَن يفهم ويعذر.

فقلت بهدوء:

ـ لقد تلقّت الوزارة طلبك فأرسلتني للتحرّي كالمتّبع.

فتساءلت بلهفة:

ـ متى تقرّرون لي إعانة؟

ـ كلّ شيء بمشيئة الله، أتعيشان وحدكما؟

ـ معنا الله، وهٰذا الابن الذي بقي لي كما ترى...

ـ أله عمل؟

قال الشابّ:

ـ يا مغفّل، ألم تعرف أنّ أولاد الملوك لا يعملون!

فصاحت به المرأة:

ـ لا تفضحنا (ثمّ ملتفتة إليّ)... أكرّر العذر وربّنا يكرمك، لا عمل له، يمضي على باب الله فيطعمه المحسنون، وأنا لا مورد لي إلّا الملاليم التي تجيئني من بيع النابت...

ـ في الطلب أنّكم أسرة كريمة أناخ عليها الدهر؟

ـ كنّا كذٰلك، وضاع كلّ شيء...

ونشجت باكية فقال الشابّ الأبله:

ـ تريد أن تعتدي على أمّي يا حمار!

لم ألتفت إليه، ولم أتأثّر بالدموع من طول ما خالطت الأسَر التي أناخ عليها الدهر، قلت:

ـ أعطني فكرة عن حياتك السابقة.

قالت وهي تجفّف دموعها بطرف شالها الرثّ:

ـ كان أبي بيّاع حلاوة طحينيّة وكان زوجي موظّفًا.

ـ اسمه ووظيفته؟

تردّدتْ تردّدًا لم يغب عنّي بحكم خبرتي ثمّ قالت:

ـ مضى زمن طويل.

ـ لا بأس، أخبريني...

ـ كان موظّفًا بدار الكتب...

ـ اسمه من فضلك؟

تردّدت مرّة أخرى ثمّ قالت:

ـ غريب عدنان.

ـ أين كان مسكنك؟

ـ في باب الخلق، لا أذكر رقمه، ولكن كانت بأسفله صيدليّة.

ثمّ بصوت مليء بالأسى:

ـ صحّتي تسوء يومًا بعد يوم، ارحموني يرحمكم الله...

فصاح ابنها وهو يشير نحوي:

ـ هذا الرجل لصّ، رأيت بدلته على رجل ديّوث.

غادرت المكان مسرعًا فبلغت شارع السدّ بباب الشعريّة ونظرات النساء ما زالت راسبة في أعماقي. دلّتني الزيارة على مراجعي. هناك شيخ حارة السدّ، دار الكتب، وبيت باب الخلق. وملت إلى دكّان شيخ الحارة فوجدته لحسن الحظّ جالسًا إلى مكتبه القديم تحت صورة الملك. سلّمت عليه ثمّ قدّمت إليه بطاقة العمل فرحّب بي فقلت:

ـ تفضّل عليّ بما تعلم عن ستّ وجديّة جلال المقيمة بالربع ٢١ بحارة السدّ.

فقال بعدم اكتراث:

ـ علمي عنها قليل، لكنّها على حياء بخلاف بقيّة السكّان...

ـ أهي أصلًا من سكّان الربع؟

ـ لا... أقامت فيه منذ سنوات، وهي لولا ابنها المعتوه...

فقاطعته باسمًا:

ـ عرفته، من أين له هذا القدر المخيف من الدهن؟

ـ يأكل في كلّ مكان، ولكن فيه شيء لله!

ـ تؤمن بذلك؟

ـ واسمع، منذ شهر رأيته يبوّل في وسط الطريق فزجرته فدعا عليّ، أتعرف ماذا أصابني؟

ـ خير إن شاء الله؟

ـ أبدًا، أصبت في نفس الأسبوع بفتق... ولكن هل تنوي الوزارة مدّها بإعانة؟

ـ ربّما.

ـ جميع جاراتها على مثل حالها من الفقر.

ـ للأسف الوزارة تقصر المعونة على الأسَر التي أناخ عليها الدهر أمّا الفقراء فهيهات أن يشبعهم إلّا وزارة أوقاف أمريكا...

* * *

قصدت دار الكتب لأسأل عن غريب عدنان في إدارة المستخدمين فأحالني المدير على أقدم موظّف في الدار بأرشيف الكتب يدعى الشيخ فرغل بهنس. قدّمت نفسي وشرحت له مهمّتي ثمّ قلت:

ـ قيل لي إنّك خير مَن يحدّثني عن المرحوم غريب عدنان.

رفع الرجل حاجبيه وقال:

ـ يا لله... سبحان مَن يبعث الماضي بعد موت... كان ـ غفر الله له ـ مأساة وعبرة...

وطلب القهوة لي ثمّ واصل حديثه:

ـ كان مترجمًا بالدار، شهادته الأصليّة البكالوريا ولكنّه سافر إلى فرنسا على حساب أبيه فرجع بشهادة ما أو بلا شهادة ولكن شُهد له بإتقان العربيّة والفرنسيّة...

وصمت لحظات ليجمع أشتات ذكريات ثمّ قال:

ـ كان أيضًا ميسور الحال، ذا مرتّب حسن وبيت مكوّن من عدّة أدوار، وعُرف بسعة اطّلاعه، وكان بوسعه أن يفيد مِن عِلْمه ترجمة أو تعريبًا ولكنّ الشيطان دفع به إلى أحضان موضة انتشرت في تلك

الأيّام، أتعرف ماذا كانت تلك الموضة؟

فهززت رأسي نفيًا فقال:

ـ موضة الإلحاد والعياذ بالله، قرّر أن يكون حرّ التفكير مثل فلان وعلّان ممّن أحدثوا بإلحادهم ضجّة ونالوا عنها شهرة فكانت الكارثة...

ـ كيف؟

ـ نشر كتابًا عن الدين المقارن ردّد فيه عن الإسلام ما يتقوّله المستشرقون المتعصّبون!

ـ أعطني مثالًا.

ـ لم أقرأه، ولا أتذكّره، ولكنّي أعرف تمامًا أنّ كتابه لم يُحدث ضجّة ولا أنشأ شهرة، ولكن أدخله السجن وأفقده الوظيفة...

ـ لِمَ لَمْ يَنْجُ كما نجا آخرون؟

ـ كان وراء الآخرين أحزابهم ولم يكن وراءه إلّا الشيطان.

ـ ومات في السجن؟

ـ أبدًا خرج بعد انقضاء المدّة، عاش على ريع بيته عيشة ليست يسيرة، ثمّ مات بالكبد، وقيل إنّ الخمر كانت وراء وفاته...

ـ وماذا تعرف عن أسرته.

ـ لا شيء يذكر سوى أنّه كان صاحب زوجة وأولاد، لم تتجدّد علاقتي به بعد الإفراج عنه لقد قطعته بلا أسف منذ لحقت به لعنة الكفر...

ـ أدركت لِمَ تردّدت ستّ وجديّة قبل اضطرارها إلى ذكر اسمه. على أيّ حال لقد ورثت أسرته البيت فكيف تدهور بها الحال إلى الربع ٢١، وأين بقيّة الأولاد؟.

* * *

ها هو البيت وها هي الصيدليّة. بيت مكوّن من أربعة أدوار كلّ دور شقّة واحدة. بيت متوسّط الدرجة ولكنّه محترم فضلًا عن أنّه يُعَدّ قصرًا بالقياس إلى ربع السدّ. جلتُ جولة استكشافيّة بالكوّاء والبدّال والفرّان والصيدليّ فاهتديت إلى بغيتي في ساكن الدور الثاني أمّا الباقون فسكّان جدد. كان موظّفًا على المعاش يدعى محمّد الصيّاد. استضافني بحذر، ولّما علم بمهمّتي أدلى إليّ بما عنده من ذكريات. قال:

ـ غفر الله لغريب عدنان ولكن ما ذنب زوجته وأولاده؟

ثمّ أجاب على تساؤله:

ـ هي حكمة ربّنا على أيّ حال.

سألته باهتمام:

ـ ماذا حصل للأسرة بعد وفاته؟

ـ الأم كانت ستّ عاقلة ومدبّرة، وجدت نفسها مسئولة عن تربية أربعة ذكور وأنثى فقرّرت أن تبيع بيتًا ورثوه لتنفقه على تعليمهم، وهو صفقة رابحة على أيّ حال، وحال يقف أحدهم على قدميه تزول المتاعب...

ـ تفكير سليم ولكن أين ذهب الأولاد؟

ـ صبرك، الابن الأكبر وهو في نهاية مرحلته العليا قُتل في مظاهرة على عهد إسماعيل صدقي.

انتظرت وأنا أفكّر في صحيفة التحرّيات التي ستُعرض على لجنة الخيرات المنتمية في النهاية إلى حكم راهن يستند إلى انقلاب ملكيّ!. قال الرجل:

ـ الابن الثاني قامر بمصروفات المدرسة فخسرها ثمّ انتحر!

هززت رأسي في أسًى:

ـ ثمّ وجدت البنت عريسًا لقطة، غاية في نضج العمر والمال فلم يكلّف الأمّ شيئًا يذكر ولكنّها بعد أعوام من الزواج هربت مع خمّار يونانيّ ويقال إنّه هرّبها معه إلى بلاد اليونان، أرأيت؟

وبعد صمت قال:

ـ لم يحتمل الابن الثالث الصدمة فاختفى ولم يُعثر له على أثر.

ـ هٰكذا لم يبق لها إلّا المعتوه.

ـ ثمّ تدهور الحال إلى الحضيض!

* * *

اجتمعت لجنة الخيرات برئاسة مديرها وعضويّة نخبة من كبار الموظّفين على حين تولّيت أنا سكرتيريّتها. عرضت ما لديّ من تحرّيات وتقرّرت ـ كالعادة ـ إعانات ما بين الجنيه والثلاثة جنيهات. ولّما جاء دور طلب ستّ وجديّة رحت أقرأ التحرّيات في صمت ثقيل حتّى فرغت. وضح لي الأثر العميق الذي

تركه التقرير. كان مفتي الوزارة أوّل المتكلّمين، تمتم:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال مدير الإدارة العامّة:

ـ أيّ أسرة هٰذه الأسرة!

فقال مدير الإدارة القانونيّة:

ـ أسرة جمعت ما بين الإلحاد والانحراف والتمرّد والفسق والانحلال.

فقال المفتي:

ـ أسرة لم يبرأ من العيب فيها إلّا معتوه.

فقال مدير الإدارة القانونيّة:

ـ والعته عيب أيضًا غير أنّه لا مسئوليّة عليه.

ونظرت إلى رئيس اللجنة متسائلًا:

ـ هل أوقّع بالرفض؟

فقال الرئيس يخاطب الأعضاء:

ـ دعونا من الأسرة وانظروا في مقدّمة الطلب فهي سيّدة تعيسة الحظّ قد أناخ عليها الدهر.

فتساءل المفتي بغضب:

ـ كيف نبرّئها وهي البؤرة التي ترعرعت فيها كافّة الموبقات؟

فقال الرئيس برقّة:

ـ ألا تُعتبر أيضًا ضحيّة؟

فهتف المفتي:

ـ لا... لا... لا... أبعدوا عنّا هٰذا الطلب، عشرات الأسر أحقّ منها بالإعانة...

وساد صمت اعتُبر موافقة فمضيت أوقّع بالرفض. عند ذاك دقّ جرس التليفون فتناول الرئيس السمّاعة:

ـ أهلًا سعادة الوكيل.

ـ ...

ـ حقًّا؟... الطلب خالٍ من أيّ توصية.

ـ ...

ـ تسمح لي سعادتك بمقابلة دقيقة واحدة؟...

ـ شكرًا يا فندم.

قام الرئيس وهو يقول لنا:

ـ الجلسة لم تفضّ، عن إذنكم...

* * *

غاب دقائق معدودة ثمّ رجع إلى مكانه وهو يقول:

ـ علينا أن نعيد النظر في طلب ستّ وجديّة جلال.

فقال المفتي بحدّة:

ـ لقد انتهينا منه يا سعادة الرئيس.

وتساءل مدير الإدارة القانونيّة:

ـ أهي رغبة سعادة الباشا الوكيل؟

فأجاب الرئيس بوضوح:

ـ أجل.

وكان للمفتي مكانة في الحزب الحاكم لا تقلّ عن مكانة الوكيل إن لم تزد فقال بصوت جهير:

ـ لن أتراجع عن الرفض!

ـ فقال رئيس اللجنة:

ـ ثمّة توصية من شيخ مشايخ الطرق الصوفيّة!

فصاح المفتي:

ـ ولو!

فقال الرئيس متسائلًا:

ـ أترى مَن تكون وجديّة جلال يا فضيلة المفتي؟

فتساءل المفتي ساخرًا:

ـ شجرة الدرّ؟! أم كليوباطرة؟!

فقال الرئيس:

ـ إنّها حفيدة إسماعيل الماوردي، العارف بالله، شملنا الله ببركاته!

وهتف مدير الإدارة القانونيّة:

ـ سبحانك ربّي، لك في كلّ شيء حكمة وعبرة!

لم ينبس المفتي بكلمة وساد صمت الاستسلام والرضا. أجل والرضا...

الظّلام القـَديم

ليلة لا تنسى.

تأخّر بهم الوقت في صحراء العبّاسيّة في ليلة من ليالي الخريف. لعبوا الكرة، ربحوا جولة وخسروا الأخرى. تشاجروا، انصرف الفريقان إلّا ثلاثة، عليّ وممتاز وإسماعيل. لبثوا حتّى يصفّى الحساب ويتمّ الصلح وتصفو النفوس، من شدّة التأثّر أُغمي على إسماعيل، ارتبكا لذلك غاية الارتباك، قاما له بتنفّس صناعيّ، وعندما عاد إلى وعيه كان الليل قد هبط بجلاله ولامبالاته فأحدق بهم الظلام.

كانت ليلة من ليالي الخريف، استقرّت في سقفها السحب، فلا نجم واحد في السماء، ولا شعاع يتسرّب إلى المكان. ساحة مترامية ولكنّها محاطة بمرتفعات شتّى على رأسها المقطّم بشموخه، تتعاون جميعًا على حَجْب أضواء المدينة. غرقوا في ظلمة عميقة وشاملة لم يجرّبوها من قبل، ظلمة أصيلة نقيّة مسيطرة طمست على الحواسّ ونفذت إلى أعماق الوعي. اختفى الوجود. تلاشت أشباحهم، استوى أن تحملق الأعين أو تغمض، استولى العدم على الكون.

قال ممتاز:

- سرقنا الوقت.

فقال إسماعيل:

- أنا المسئول.

فقال عليّ:

- إنّي أرى الظلام لأوّل مرّة.

- فلنمض نحو المدينة قبل أن يدركنا الهوس... ولكن أين طريق المدينة؟. شعروا باختناق... رغم جريان الهواء ورطوبته شعروا باختناق، وشعور آخر طوّقهم هو أنّهم مكبّلون في زنزانة.

- أين طريق المدينة؟

- لقد فقدنا الإحساس بالاتّجاه.

- اختفى المكان.

قال ممتاز ساخرًا:

- نسينا أن نحضر معنا بوصلة...

- ومعها عود ثقاب.

- ولا صوت لإنسان!

صمتوا في حيرة ولكنّ الصوت كان أنسهم الوحيد وآخر ما بقي لديهم من علاقات الحياة فعاد إسماعيل يقول:

- المدينة على مسيرة نصف ساعة...

- أجل ولكن أين اتّجاه المدينة؟

- قد نوغل صوب الجبل الأحمر فتنقطع منّا الأنفاس بلا جدوى...

- نسير مقدار نصف ساعة بلا زيادة.

- لكنّنا فقدنا الزمان كما فقدنا المكان!

- والسير نحو هضبة وابور المياه شديد الخطورة لوعورة الأرض وانتشار مساقط القمامة.

ونفخ إسماعيل. وضيّعهم الصمت مرّة أخرى. وسرعان ما قال ممتاز:

- رغم القلق والقرف فإنّي أشعر بالجوع.

فقال إسماعيل:

- وأنا عطشان، لم تبق معنا برتقالة واحدة...

- ما زلنا نرتدي ملابس اللعب والجوّ رطيب، هل

نتجمّد هٰكذا إلى الأبد؟!

- عسى أن تنجلي السماء عن فرجة يطلّ منها نجم...

- أو يمرّ إنسان معه بطّاريّة.

- فلنتماسك بالأيدي خشية أن يضلّ أحدنا...

وتماسكوا بالأيدي وهم يضحكون بفتور، وهتف إسماعيل:

- هٰذه هي نتيجة الشجار!

- الشجار كان نتيجة اللعب الرديء...

- أنت مغرور!

- يا للحماقة، هل نرجع مرّة أخرى؟!

وضحكوا. عاد الصمت المخيف. قال عليّ:

- فلنفكّر. لم يبق معنا إلّا التفكير...

- عظيم فلنفكّر...

- السؤال الأساسيّ هو كيف نهتدي إلى طريقنا في مثل هٰذا الظلام؟

ولّما لم يجدوا جوابًا جاهزًا هربوا من التفكير فقال إسماعيل:

- ما تصوّرت أبدًا أنّ الظلام له هٰذه القوّة...

- كيف عاش أجدادنا الأوّلون قبل اكتشاف النار؟!

- كانت لهم غرائز خاصّة بهم...

- نحن عميان بلا عصًا ولا مرشد!

- ألم نتّفق على أن نفكّر خيرًا من هٰذا الهذيان؟

رجعوا مكرهين إلى الصمت حتّى هتف إسماعيل:

- نصرخ بأعلى أصواتنا لعلّ أحدًا من أهل النجدة يسمعنا...

- وإذا سمعنا أحد من قطّاع الطرق؟!

- أو ذئب...؟

- أو أيقظ صراخنا حيّة رقطاء؟

فقال إسماعيل بنفاد صبر:

- سحبت الاقتراح...

وعادوا إلى الصمت والتفكير فغرقوا في العدم مليًّا حتّى قال ممتاز:

- أرى أنّ الصراخ ضرورة لتحقيق هدف آخر...

- ما الهدف الآخر؟

- نرسل صَيحة ثمّ نرصد الصوت فنحدّد موقع الجبل، بذٰلك تتّضح الجهات الأربع!

- فكرة غير مجدية، فليس الجبل وحده هو ما يُرجع الصدى، هناك الهضبة، وسور الغابة، وجدار مقابر الشهداء.

- اللعنة...

ورجع ممتاز يقول بإصرار:

- ليذهب كلّ منّا في ناحية ومَن يظفر بالمدينة فعليه أن يرسل بعثة للإنقاذ...

- ثمّة احتمال أن نسير جميعًا في النواحي الخاطئة...

- وهب أحدنا وصل ألا يلزمه بعد ذٰلك تجميع نفر من الأصدقاء والحصول على بطّاريّات؟...

- أننتظر حتّى مطلع الفجر؟

- أو أن تنحسر السحب عن بزوغ النجوم أو القمر!

- أيّ يوم هٰذا من أيّام الشهر العربيّ؟

- أعتقد أنّنا في الربع الأوّل منه...

- أضغاث أحلام، علينا أن نفعل شيئًا.

ومضى الضيق يضيق أكثر وأكثر، والاختناق يطبق عليهم بقبضة حديديّة حتّى هتف ممتاز:

- ما ألعن الصمت!

- نحن نفكّر.

- لم لا نعتبرها تجربة مسلّية؟

- والإرهاق والجوع والعطش؟!

- انتظروا الفرج. إنّه يجيء بغتة...

- بل ليس لنا إلّا الاعتماد على أنفسنا...

ونفخ ممتاز بغضب وقال:

- فليَسِرْ كلّ منّا في اتّجاه وليكن ما يكون...

- أليس الأفضل أن نبقى معًا؟

وقال إسماعيل:

- أنا لا أطيق الظلام وحدي.

فقال ممتاز بإصرار:

- ابقيا إذا شئتما أمّا أنا فإنّي ماضٍ...

- أيّة ناحية؟

فضحك على رغمه وقال:

ـ إنّه السير أمّا الناحية فقد ابتلعها الظلام.

ـ جهد ضائع...

ـ هو خير من الانتظار.

وسحب يديه من أيديها وهو يقول:

ـ أستودعكما الله...

مضى بلا صوت، لم يدريا في أيّة ناحية ذهب، شدّت يد إسماعيل على يد صاحبه، وتمتم:

ـ إنّه عنيد...

ـ ولٰكنّ الانتظار غير محتمل...

ـ عليه اللعنة، هو المسئول الأوّل، وها هو يتركنا مثل شيطان...

ـ لنسأل الله أن يسدّد خطاه إلى الطريق الصحيح...

ـ وما أهمّيّة ذٰلك؟... سنبقى هنا حتّى مطلع الصبح...

ـ أليس من الأوفق أن نفعل مثله؟

فصاح بعصبيّة:

ـ كلّا...

ـ تمالك أعصابك...

ـ فلتذهب أعصابي إلى الجحيم...

واسترسل في هياجه فصاح:

ـ ما أنتم إلّا لعنة من اللعنات، هٰذه هي الحقيقة...

ـ لا تُثِرْني أكثر من ذٰلك...

ـ ألا تريد أن تعترف؟... من المسئول عن الهزيمة؟

ـ أنرجع إلى ذٰلك!... أليس حسبنا ما نحن فيه؟

ـ ذٰلك ما أدّى بنا إلى هٰذا الموقف...

ـ اسمع، فَلْنَسِرْ أو فلنصمت...

ـ لا هٰذا ولا ذاك...

ـ بل هٰذا أو ذاك!

ـ تريد أن تستغلّ ضعفي فتفرض عليّ إرادتك؟

ـ بتّ أحسد الذي ذهب...

ـ ماذا تعني؟

ـ لن نجني من الانتظار إلّا الشجار.

فشدّ على يده كالمستغيث فقال عليّ:

ـ تعال-معي، فرصة النجاة ستهبط درجة ولٰكنّها لن تنعدم...

وتأبّط ذراعه، وحمله على المشي معه وهو يقول:

ـ أيّ شيء خير من الانتظار...

وتحدّيا الظلام القديم الذي فقد سلطانه منذ اكتشاف النار.

الرِّسَالة

في البدء كان الخوف.

حلقَ الشارب واللحية. استبدل بالجلباب والجبّة بدلة. سمّى شخصه الجديد «سالم عبد التوّاب» بدلًا من عليش الباجوري الذي عُرف به دهرًا. ابتاع أرضًا وبنى بيتًا فأقام في شقّة وأجّر تسعًا. تجنّب الاختلاط بالناس ما وسعه التجنّب. عاوده الخوف من الزوايا والأركان، من الظلمة والضوء، من الهواء المشحون بأنفاس الخلق. يحذّر نفسه من القضاء والمصادفة وسوء الحظّ، فعند ذاك يستقرّ سهم الموت في قلبه... وتتلاشى الحياة في غيبوبة المجهول. قوّة القانون الصلدة قضت عليه بالإعدام، وكلّفت الجلّادين بالتنفيذ، فلم تبق إلّا الضربة القاضية. في سبيل النجاة اقتلع شخصه من جذوره، من الماء والحيوان والشجر. وتعزّ عليه الطمأنينة إلّا في غيبة الأحلام والكوابيس. هٰكذا تتواصل المطاردة جيلًا بعد جيل، تدفعها قوّة عمياء مقدّسة.

* * *

- اذهب والله معك.

- والغربة في بلاد الغربة؟!

- في كلّ مكان ثمّة حياة تتدفّق وهي مقدّسة مثل الموت!

* * *

في البدء كان الخوف.

ولٰكن لا دوام لحال. الشروق والغروب، تلاحم المعاملات وتبادل التحيّات، والتنفّس والخفقان، أحلام اليقظة وأحلام المنام، كلّ أولٰئك من شأنه أن يلطّف التوتّر، ويستأنس الشوارد، ويُحِلّ عادة في محلّ عادة، يوهم بأنّ الأمور ستمضي غدًا كما مضت أمس. ثمّ أليس لكلّ أجل كتاب؟ وأن تستسلم للمقادر أخفّ من أن تشقى دومًا بعذاب الخوف، وأن تعيش يومك خير من أن تعاني هولًا لم يجئ بعد؟ . لذٰلك مضى يختلف إلى المقهى ويجالس الجيران ويلاطف السكّان. مَن يخطر له أن ينعطف إلى هٰذه الحارة المنزوية؟ من ينقّب في صحراء عن حبّة رمل مضرّجة بالدماء؟ ويفكّر جادًّا في المشاركة في المقهى، أن يحظى بنعمة الحبّ والزواج والإنجاب. أن يمارس الحياة بما يليق بالحياة، وأن يطالبها بما هو حقّ للإنسان.

وتتمّ المشاركة. وتقوى أسس المعيشة، ثمّ يتقدّم إلى الشيخ الحلبي طالبًا يد كريمته.

- مَن هو سالم عبد التوّاب؟... مَن هو عبد التوّاب؟!

- لا غبار عليه كرجل عرفناه أعوامًا.

- إنّه مقطوع من شجرة!

- أيّ مخلوق يتسلسل في النهاية إلى آدم وحوّاء.

- ألا تخشى أن يظهر لأحفادك ذات يوم أعمام من الليمان؟

- في كلّ سلالة مجرمون وما يهمّني إلّا الرجل نفسه!

* * *

اقترن سالم عبد التوّاب من عظيمة كريمة الشيخ الحلبي، وراح ينجب البنين والبنات. استقرّ قلبه في أمان شامل أو شبه أمان، فهو يمارس الحياة، والأعمار بيد الله وحده.

أجل تناوشه أحيانًا أفكار معتمة، يخاف ما تفرضه

حياته الزوجيّة من اتّساع، سيلزم مرّات بمغادرة الحارة، سيمضي إلى السوق أو المدرسة، ولْكن ألا يجيء الموت مع السلامة كما يجيء معي الخطر؟!

* * *

وتلقّى ذات يوم رسالة.

«جاء الأجَل!»

غفل من الإمضاء وليس بها إلّا هٰذه الجملة. واردة من حيّ السيّدة كما يقرّ بذٰلك خاتم البريد. اقشعرّ بدنه برعدة خوف شاملة. وتفجّر الرعب من مكامنه. جاء الأجَل، هل عُرف في النهاية مخبأه بين البيت والمقهى والأولاد؟ ولْكن مهلًا، لِمَ أراد المجهول أن ينذره؟. لِمَ لَمْ ينقضّ عليه وهو غافل في نعمة العسل؟. لماذا يعرّض انتقامه للفشل؟. لماذ يعرّض نفسه وهدفه إلى يقظة قاتلة؟. لماذ يهبه فرصة للنجاة؟. أم يريد وقد تمكّن منه أن يعذّبه؟.

جاء الأجَل.

ما العمل؟ ما الطريق؟. هل يفشي السرّ القديم إلى أهله فينفخ فيهم حياة جديدة مليئة بالفوضى والشغب؟ هل يلجأ إلى الشرطة وإن جرّه ذٰلك إلى الاعتراف بجريمة أكبر؟. أم يكتفي بالحذر وبالمسدّس الذي لا يفارقه؟ وأيًّا ما كان الأمر فقد تعكّر صفو الحياة، واربدّ ماء البحيرة الرائق بقنبلة أعماق متفجّرة.

رجع الخوف كما كان في البدء. إنّه لا يغادر البيت إلّا لضرورة ملحّة. يتفحّص الوجوه بريبة دائمًا، يراقب الرائح والغادي، يتحسّس بكوعه مسدّسه، يختلس نظرات الحنان والأسى من زوجته وأبنائه.

* * *

مرّة قال له شريكه في المقهى وهو يشير بذقنه إلى رجل جالس غير بعيد:

- كلّفني أن أسألك إن كان عندك شقّة خالية...

رأى رجلًا بدينًا غليظ الأشداق ذا جبهة متحدّية يستقرّ في عباءة فضفاضة، فقال بقلق:

- ليس من حارتنا!

- بيّاع فراريج ومستعدّ لدفع الخلوّ.

- واضح أنّ البيت مسكون.

- ترامى إليه أنّ شقّة ستخلو قريبًا...

- كيف عرف ذٰلك؟

- مَن أدراني أنا؟!

- لقد اتّفقت مع ساكن جديد، أتعرف الرجل؟

- عرفته في سهرة عند السمرائي ثمّ جرّ الكلام بعضه بعضًا...

وذهب الشريك يخبر الرجل بنتيجة مسعاه، ومضى هو يقيسه طولًا وعرضًا. توقّع أن يصرف النظر عن موضوعه ولْكنّه قام بخفّة لا تناسب بدانته وقَدِمَ نحوه فجلس وهو يقول:

- الطيّبون للطيّبات...

فجعل ينظر إليه ببلاهة فقال الرجل:

- محسوبك كريم البرجواني، تحت الأمر فاطلب ما تشاء...

فقال بحسم:

- العفو، سبق منّي وعد شرف.

- جميل أن يحافظ الإنسان على عهده.

تجنّب سالم تشجيعه ولو بابتسامة ولْكنّ الرجل قال:

- ما قيمة النقود؟... ما هي إلّا عصافير!

ونهض الرجل وهو يقول:

- لْكنّنا على أيّ حال أصبحنا صديقين...

وأتبعه عينيه وهو يمضي عن الحارة، وراح يتساءل ترى هل يعرف الكتابة؟

أهو كاتب الجملة أم إنّه وحش مجهول رابض وراءه؟!

ودُعي يومًا إلى شهود ذكر ببيت جار. فراعه أن يرى كريم البرجواني جالسًا بين المدعوّين. ماذا أقحمه على الحارة بهٰذه القوّة. ورآه وهو ينضمّ إلى حلقة الذكر فيغوص في موجاتها المتلاطمة الراقصة ويسبح حتّى بُحّ صوته، ثمّ تهاوى في الختام فوق الحصيرة فاقد الوعي مثل ثور ذبيح. قال لنفسه إنّ خوفه من هٰذا الرجل غباء مطلق، فما هو من قريته، ولا هو من الصعاليك الذين يؤجّرون للقتل. ولْكنّ الرسالة نذير جادّ وخطير، ليست دعابة مازح!

* * *

وعندما كان مدعوًّا للعشاء على مائدة حميّه قال له الشيخ:

ـ رجل يريد الشقّة التي ستخلو أوّل الشهر. . .

ـ مَن يا مولاي؟

ـ يدعى كريم البرجواني. . .

فارتعد سالم وسأل حماه:

ـ تعرفه؟

ـ كلّا. . . استشفع بي دون معرفة سابقة.

ـ سبق أن رفضت طلبه.

ـ لِمَ؟

ـ منظره لا يوحي بالثقة!

ـ أنت وشأنك ولٰكنّي وجدته شهمًا وطيّبًا!

الرجل يتعقّبه. إنّه يريده هو لا الشقّة. ولٰكن لِمَ حذّره بالرسالة؟. أيوجد وراءه مطارده القديم؟! كلّا. ما الأمر إلّا دعابة. له منافسون وكارهون فالحياة لا تخلو من ذٰلك أبدًا. أحدهم يبغي إزعاجه أو السخرية من أحمق. أراد أن يلقي نظرة جديدة على الرسالة ولٰكنّه لم يجدها في جيبه الداخليّ. فتّش عنها في مظانّها جميعًا ولٰكنّه لم يعثر لها على أثر. ذهب إلى الكوّاء وفتّش جيوب البدلة بظنّ أنّه نسيها فيها ولٰكنّه لم يعثر لها على أثر. أين اختفت؟. هل امتدّت لها يد خفيّة؟. وتحرّى الأمر مع عظيمة زوجته ولٰكنّها قالت:

ـ لم يطرق ساعي البريد بابنا قطّ.

ولٰكنّه تسلّم الرسالة منه في الخارج. ولا بأس من أن يتوكّد منه بنفسه. ولٰكنّ الرجل لا يتذكّر شيئًا على الإطلاق. إنّه يقرأ ويوزّع ولا يتذكّر. هل كان حلمًا ممّا يرى النائم؟. أم هل جاء دور عقله ليشكّ فيه!!. مرّة وحيدة توهّم أنّه ابتاع صفيحة سمن، ثمّ سرعان ما كشف توهّمه! وأرجعه إلى حلم رآه ونسيه في جملة مشاغله. ذاك وهم سرعان ما كشفه أمّا الرسالة فكأنّما يشعر بمسّها ويقرأ حروفها، كانت حقيقة لا شكّ فيها. وما اختفاؤها الغريب إلّا نذير جديد.

* * *

وكان يغادر بيته ليؤدّي صلاة العيد، فتح الباب فرأى شبحًا. عرف وجه كريم البرجواني على الضوء الخافت المتسرّب من ألق النجوم في ظلمة الفجر. تراجع خطوة... أخرج مسدّسه. شعر بألم حادّ. أطلق الرصاص وهو يغوص في الغيبوبة.

ما عرف ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ إنّما جاء على لسان كريم البرجواني في التحقيق، قال ذهبت لأداء صلاة العيد في الزاوية، ولّما مررت ببيت المرحوم سالم عبد التوّاب فتح الباب وظهر الرجل، أردت أن أحيّيه فإذا به يصوّب نحوي مسدّسه. خفت على حياتي، وبدفعة غير إرادية ركلته بسرعة فأصبت منه مقتلًا على حين انطلقت رصاصة قتلت صبيّ الفرّان. . .

الشَّفَق

كانت تعتريني في صباي فترات كآبة ثقيلة. أعزف عن الأهل، أعتزل في حجرة، أكره الطعام، وأحيانًا أبكي، بلا سبب واضح على الإطلاق. عرضت على أكثر من طبيب، جرّبت عقاقير كثيرة، بلا نتيجة.

وقال أحد الأصدقاء لوالدي:

ـ اعرضه على خالد جلال الطبيب النفسيّ.

وكنّا نسمع عن الطبّ النفسيّ لأوّل مرّة، فأعلن أبي عن ريبته فقال الصديق:

ـ إنّه طبّ معترَف به في جميع أنحاء العالم، ولكنّ مدّة العلاج طويلة، ربّما امتدّت إلى عام أو أكثر، كما إنّ تكاليفه بالتالي باهظة!

وتفكّر أبي طويلًا ولكنّه بإزاء مرض غامض عنيد قرّر استشارة خالد جلال. ولّما كان عمله كتاجر أصواف في أسيوط يمنعه من إقامة طويلة بالقاهرة... فقد قال لي:

ـ ستقيم عند عمّتك ليسهل عليك التردّد على الطبيب، وعلى أيّ حال كان في نيّتي أن أرسلك إليها لتواصل تعليمك...

وزرنا الطبيب. كان في ذلك الوقت شابًا بهيّ الطلعة، دمث الأخلاق، جليّ الاعتداد بنفسه وعلمه. وقد أصغى باهتمام بحضور أبي، ثمّ حدّد لي يومين في الأسبوع لزيارته، وقال:

ـ المهمّ المثابرة والصبر، لست طفلًا، والسعادة قيمة لا يجوز الاستهانة بها...

انضممت إلى أسرة عمّتي عضوًا جديدًا بها. عضو لاقى ترحيبًا حارًا لثراء أبي وكرمه. ومضيت أتردّد على الطبيب، وأحضر جلساته العجيبة. بدا لي العلاج في أوّل الأمر فضولًا لا جدّيّة فيه، ثمّ أخذت أضيق به وأتذمّر في مرارة متواصلة، حتّى قلت يومًا لعمّتي:

ـ لا أريد أن أذهب...

فقالت عمّتي بقلق:

ـ والدك؟!

فقال زوج عمّتي وكان موظّفًا بشركة الكهرباء:

ـ لا ذنب للعلاج ولكنّ حياتك مملّة، لماذا لا تشارك في «الشعلة» نادي حيّنا الرياضيّ؟

واشتركت في النادي، ورحت أتدرّب على الكرة والسباحة، ولم أنقطع عن العلاج.

وبرعت في الكرة كما برعت في السباحة. تحسّنت صحّتي البدنيّة، واشتدّت عضلاتي، وارتفعت روحي المعنويّة في المباريات المحلّيّة، وثمل رأسي بالهتاف والإعجاب. وانقطعت عن زيارة خالد جلال، وزايلتني نوبات الكآبة، وصرت ولدًا سعيدًا بكلّ معنى الكلمة. واستقبلت المرحلة الجديدة من التعليم بفؤاد جديد. ولّما كنت قد أدمنت الثناء من خلال تفوّقي الرياضيّ فقد أصررت على التفوّق في الدراسة لأنعم بالإعجاب على المدى. وانتقلت من نصر إلى نصر، ومن بهجة إلى بهجة، وتناسيت مرضي، فلم يخطر لي ببال إلّا في لحظات نادرة من لحظات الوحدة والفراغ، عند ذاك كان يخيّل إليّ أنّه رابض في مكان ما، وأنّه يتحيّن فرصة للانقضاض، ولكنّها كانت لحظات نادرة جدًّا ومتباعدة جدًّا، وسحابة أو سحابتان لا يمكن أن تعكّر صفو سماء صافية.

وفي أثناء دراستي بمدرسة التجارة اكتشفت زهيدة ابنة عمّي. أجل كنّا نعيش في مسكن واحد ولكنّني نظرت إليها ذات يوم ونحن منفردان فخيّل إليّ أنّني أكتشفها من جديد. لم أر من قبل ذلك تلك النظرة الساجية العذبة، ولا ذلك الجسد الناضج المتناسق. وتبادلنا نظرات جديدة تمامًا فتورّد وجهها وارتبكت، وانبعث من أعماقي شعور متوثّب حارّ وبهيج وطموح إلى غير حدّ. ولد الحبّ في تلك اللحظة في مهده الذهبيّ فباركه الحياء والمكر الحسن والحلم المبدع، وسرعان ما أعلنت خطبتنا.

تخرّجت في مدرسة التجارة، اشتغلت مساعدًا لأبي في أسيوط، ثمّ حللت محلّه عقب وفاته في نهاية العام، ثمّ خضت تجربتي مع السوق والزواج في عام واحد، والحقّ لقد أحببت العمل كما أحببت الزواج، وأصررت كعادتي على النجاح، وحذّرت نفسي دائمًا من الفراغ ومن تذكّر الماضي، وأنجبت ذرّيّة كثيرة فكنت كلّ عام أستقبل وليدًا جديدًا، وزخرت حياتي بالتجارة والحبّ والأبوّة.

واندلعت نيران الحرب العظمى فانفتحت أمامي أبواب جديدة للأرباح الأسطوريّة. انهمكت في عملي لدرجة فاقت كلّ تقدير. وما لبثت أن أنشأت متجرًا ضخمًا للصوف في القاهرة، وانتقلت أنا وأسرتي إلى العاصمة، ثمّ شيّدت قصرًا، ورسّخت قدماي في دنيا الثراء والجاه، حتّى انتخبت رئيسًا للغرفة التجاريّة.

وجاءني ذات يوم خالد جلال للشراء. صار كهلًا وقورًا وما زال محافظًا على بهاء طلعته. عرفته ولكنّه لم يعرفني. صافحته وأنا أقول:

- سعادتك لا تذكرني!

وحكيت له تجربتي معه وهو يتابعني مبتسمًا، ثمّ سألني:

- وكيف حال الصحّة؟

فقلت له بثقة:

- عال والحمد لله. . .

فقال لي بهدوء:

- الشفاء بيد المريض في أغلب الأحوال. . .

وجعلت نفسي في خدمته حتّى غادر المحلّ راضيًا شاكرًا. ورغمًا عنّي تسلّلت إليّ ذكريات قديمة استقبلتها بنفور، حتّى خيّل إليّ لحظة عابرة أنّ عدوّي القديم رابض غير بعيد. لم تكن إلّا لحظة عابرة بالغة السخف، أمّا ما كان يضايقني كثيرًا فحملة كاريكاتور الصحافة على أغنياء الحرب وتصويرهم لهم في صورة قطّاع الطرق، يا لهم من أوغاد حسودين، وهل ينجح الإنسان إلّا بالجهد والعرق؟!.

وكان كلّما أتمّ ابن من أبنائي تعليمه أشركته في العمل، ولكنّي استأثرت بعقد الصفقات الكبيرة، والقيام بالرحلات التجاريّة الهامّة، وكان أبنائي مُثُلًا طيّبة للبرّ والحذق، وقدوة تجاريّة في المثابرة وتقديس العمل والمال.

وبتقدّم الأيّام والعمر أرخيت قبضتي رويدًا عن بعض التبعات، وحمّلتها الأبناء المجدّين. لماذا فعلت ذلك رغم هيامي بالعمل والنشاط؟. ربّما لأنّي أردت ألّا يفاجأ الأبناء يومًا بمسئوليّات لم يتدرّبوا على ممارستها، وربّما لأنّني طرقت أبواب الشيخوخة ولم تعد الطاقة تسعف كما أسعفت في الماضي، وربّما لتسرّب قطرات من الضجر إلى زوايا نفسي. وظفرت بشيء من الفراغ سمح لي بالانطلاق بالسيّارة ساعتين كلّ يوم في الخلوات أو الطريق الصحراويّ منفردًا بنفسي أو بصحبة زوجتي. وفي تلك الأوقات المريحة عاودني شعوري القديم بالعدوّ الرابض فطاردني التوجّس من جديد.

وذهبت إلى خالد جلال. بات شيخًا مجلّل الشعر بالشيب يواري عينيه وراء نظّارة طبّيّة كحليّة اللون. وذكّرته بنفسي للمرّة الثانية في حياتي فرفع حاجبيه وهو يبتسم، فبادرته دفعًا لأيّ شماتة:

- المسألة من قبيل الاحتياط. . .

فقال بهدوء:

- الوقاية خير من العلاج. . .

- لعلّه توجد الآن عقاقير للوقاية بدلًا من الجلسات الطويلة. . .

- لا بدّ من الجلسات، لا بدّ من الصبر. . .

فقلت ضاحكًا:

- لم يعد في العمر بقيّة كافية!

- اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا...

- ولْكنّ عملي لا يسمح لي بأن أهرش ظهري!

- آسف، إنّي على استعداد لأعطيك ما عندي...

فشكرته وقلت وأنا أقوم للانصراف:

- سأفكّر في الأمر...

رجعت وأنا أفكّر، لا صبر لي على الجلسات ولا وقت. وقد يسيء تردّدي على عيادته إلى سمعتي وأنا رجل سمعته في السوق تساوي مليونًا من الجنيهات. وسرعان ما قرّرت حذف الموضوع من رأسي. ولّما اشتدّ بي الضجر خطرت لي فكرة غاية في الإبداع. قلت لزوجتي:

- لقد انقضى العمر بين ثلاثة أماكن محدّدة تفوح منها رائحة الصوف، وقد أتممت رسالتي، وأكرمني الله بأبناء هم زينة السوق، فما رأيك في أن تتأبّطي ذراعي ونمضي لرحلة طويلة حول العالم؟

أخذت زوجتي التي أمضت عمرها بين السراي وبيوت الجيران، القانعة السعيدة بكلّ ما حولها، وقالت بخوف:

- حول العالم؟

فقلت بحماس:

- أجل، أوروبا... أمريكا... الجبال... البحيرات... الناس...

فقالت بفتور:

- أريد أن أحقّق حلمي الصيف القادم بالحجّ إلى بيت الله...

- ليكن ذٰلك في العام المقبل!

كلّا. إنّها لا تريد ولا تحبّ. ولا داعي لإزعاجها. ولأقم بالرحلة منفردًا. وقمت بالرحلة في أبّهة لا تتاح إلّا لأصحاب الملايين. وفي مدينة نابلي شعرت بعدوّي القديم يتحرّك. تمطّى حتّى صار شبحًا ثمّ تجسّد وحشًا. ترى هل أعتزل في حجرة وأتشنّج في البكاء؟!. وفي شدّة اليأس تعلّقت بفتاة صغيرة في السابعة عشرة، وكانت شهرتي كمليونير تنتشر من حولي. فتصيّدني أبوها البستانيّ وأسرته فوقعت كذبابة في خيط العنكبوت. وتزوّجت منها، وواصلت الرحلة، ونجوت من المخاوف. غمرتها بالهدايا، أغدقت على أسرتها، سبقتني أنباء مغامرتي إلى مصر، وانقلبت بين يوم وليلة حديث الناس والصحافة عريس في الخامسة والستّين وعروس في السادسة عشرة. ملكة جمال... مصّاصة دماء... ثروة مهدّدة بالفناء. انكسر قلب زوجتي، وتجمّع أبنائي في اتّحاد مضادّ، للدفاع عنّي في الظاهر، ودفاعًا عن الثروة المهدّدة في الواقع. وجنّ جنوني فقرّرت أن أعصف بهم. وإذا بهم يقيمون دعوى بطلب الحجر عليّ! وفي المحكمة شُرّحت تشريحًا بلا رحمة، فارق السنّ، الأموال التي نثرتها يمينًا وشمالًا، ثمّ فضحوا مرضي القديم باعتباره نوعًا من المرض النفسيّ والجنون أهمل حتّى استفحل. بتّ ويا للأسف مسألة عامّة تناقش، المجالس والمقاهي والغرز والصحافة، تجلّى الحقد المكبوت من قديم على نجاحي. اتُّهمت بالسفه. تدهوُر الشيخوخة، الجنون، اتهمني المتديّنون بأنّني ألقى جزاء استغلالي للعباد في أيّام الحرب، وقال الشيوعيّون إنّني رجل طبيعيّ جدًّا ولكنّني رأسماليّ بلا زيادة ولا نقصان. ودُعي خالد للإدلاء بشهادته فكانت شهادته حاسمة في إدانتي. اعترف بأنّني مصاب بمرض نفسيّ منذ صباي، وأنّ حياتي لم تكن إلّا سلسلة من المحاولات اليائسة للهروب من المرض ومن العلاج. وقد سألته المحكمة:

- هل يتيسّر نجاحه التجاريّ لمريض نفسيّ؟

فأجاب خالد جلال:

- يتيسّر له النجاح في التجارة، بل في العلم، بل في الحكم، إنّما العبرة بالنتائج!

وبلغت المأساة ذروتها فصدر حكم بالحجر عليّ. هٰكذا انتهت حياة النضال والكفاح والمجد. وسرعان ما ساءت العلاقات بيني وبين زوجتي الصغيرة حتّى اضطررت إلى تطليقها، واعتزلت في حجرتي، مقطّع الأواصر بأسرتي، أمضغ الكآبة وأبكي كالأطفال. ورغم موجدتي على خالد جلال لم أجد بدًّا من اللجوء إليه. وقد بادرني:

- معذرة، ما كان يمكن أن أشهد بغير ما شهدت به.

فتجاهلت ملاحظته وقلت:

ـ الحال سيّئة جدًّا. . .

ـ أعلم ذلك ولكنّ الشفاء مأمول. . .

فغمغمت:

ـ الأمر لله. . .

فابتسم مشجّعًا وقال:

ـ لو أذعنت من الأوّل ما صادفك شيء سيّئ، ولعلّك لا تتصوّر أنّني كنت سأضحك بفعل ما فعلت، أنصحك بالرياضة والعمل والزواج. . .

فقلت بفتور:

ـ ولٰكنّي فعلت ذلك كلّه. . .

ـ هٰذا حقّ، ولٰكنّك تفعله بروح أخرى. هٰذا هو كلّ شيء. . .

اللقــاء

تجلّت القـاهرة لعينيـه آيـة في الأضـواء والبهجـة والصخب. إنّه يفد إليها لأوّل مرّة وعمّا قليل ـ بعـد أربعة أيّام على وجه التحديد ـ يلحق به أبوه، ليقوما بأهمّ زيارة في حياته، زيارة السيّد عبد الرحمٰن فاضل لطلب يد كريمته. أبوه يراه كفئًا للبنت الجميلة، فهو زراعيّ ومربٍّ للعجول، وذو مال، وفضلًا عن ذٰلك فأبوه مزارع أصيل، وصديق للسيّد عبد الرحمٰن فاضل وجار قديم له في القرية قبل أن يهجرها الـرجل إلى المـدينة، وقـد أعجبته البنت ليلة لمحهـا في الاحتفال بالمولد النبويّ بالقرية، وبارك أبـوه إعجابـه وتمنّى له الخير في رحاب آل فاضل، بادر بالانتقال إلى الهرم، دار حول فيلّا آل فاضل، تملّى طرازها العربيّ العريق، تمـلّاها بـإعجـاب ووَجْـد، وتلقّى دفقـة من أحـلام الورد... سار في المدينة ساعات مستكشفًا ثمّ آوى إلى مقهى الأمراء أسفل الفندق، إنّه فتى يحسن تربية العجـول، ويحبّ الغناء، ويستحقّ أحيـانًا المـلامـة. جلس في المقهى تائهًا في أحلام متشابكة حتّى انتبه إلى جذبة نظرة مجهولة تناجيه بلطفها الخفيّ.

التفت فرأى رجلًا يتطلّع نحوه باهتمام، في الأربعين لعلّه، ربعة واضح القسمات، يتيمّن بسيما السجود في جبينه وشامة في ثغرة ذقنـه. ولّما تـلاقت عيناهمـا دنا بكرسيّه من مجلسه وقال:

ـ لا مؤاخذة، كلانا وحيد، تلعب عشرة؟

كان ضاق بوحدته فابتسم مـرحّبًا، صفّق الـرجل طالبًا النرد وهو يقول:

ـ محسوبك جبريل الصغير من رجال الأعمال.

ـ تشرّفنا، فؤاد صاوي مُزارع...

لعبا بمهارة وسماحة. في أثناء ذٰلك عرف الرجل على وجه التقريب أسباب وفود الفتى إلى القاهرة. ولّما أزف مـوعد الغـداء دعاه الفتى مجـاملة ولٰكنّ الرجـل قَبِلَ الدعوة، ثمّ دعـا الفتى إلى العشاء فلم يجـد بدًّا من القبول. ذهب به الرجل إلى تافرنا. هٰكذا انزلق إلى صداقة جديدة بلا أسف. اعترف بأنّ ثمّة تجاذبًا قويًّا يـدنيه من الـرجل ويـدني الرجـل منه، هٰـذه الأمور تحدث، لِمَ لا؟ تناولا شاورمة وسلطة خضراء ونبيـذًا أحمر. بعث النبيذ الدفء والإلهام، في جوّ بارد ورذاذ متقطّع تعلن عنه حبّاته اللؤلؤيّة المنسابـة فوق زجـاج النافذة... وثرثرا طويلًا فيما يشبه الطرب. ثمّ زقزقت عصافير النشوة في القلب فانسابت الأهواء من طرف اللسان كسلسبيل السماء. قال جبريل:

ـ إنّي رجل غنيّ والحمد لله وكثير الذرّيّة...

ـ حالي رضا، أسوأ ما فيها أنّي أعشق العجل وأنا أربّيه فيبقى منه في القلب أسّى بعد بيعه.

فقال جبريل ضاحكًا:

ـ إنّك من أهل الخطوة خطوة، أمّا البهجة الحقيقيّة ففي المغامرة والطفرة!

ـ ما عملك على وجه التحديد؟

ـ المغامرة.

ـ زدني إيضاحًا.

ـ صبرًا، حتّى متى تبقى في القاهرة؟

ـ لمدّة ثلاثة أيام أخر.

ـ ألم تسمع عن يوم بألف سنة؟

وتكلّم عن رحلة تستغرق يومين يجني من ورائها ثروة صغيرة، فسأله فؤاد:

ـ ألا يعرّضني ذلك لقبضة القانون؟

ـ لا خوف على صاحب السمعة الطيّبة والصحيفة البيضاء من السوابق!

وحدّثه عن سيّدنا موسى وهجرته الأولى من مصر ثمّ قال:

ـ لولا ذلك ما صار نبيًّا!

فضحك فؤاد وقال بتوتّر وشى باهتمامه وقال:

ـ ولكنّي سأصير مهرّبًا!

ـ لا تنخدع بالأسماء.

شجّعه بمثال سيّدنا يونس وجوف الحوت فقال فؤاد بلسان متعثّر من الشراب:

ـ إنّه السجن وليس الحوت!

فعاد يذكّره بسيّدنا يوسف وكيف أفضى به السجن إلى الوزارة، ثمّ قال مداعبًا:

ـ الدولة تستورد فتسمّي ذلك تجارة خارجيّة فإذا حاكاها فرد سمّت ذلك تهريبًا...

ومضى به إلى ملهى لوك الليليّ... شربا مزيدًا من الخمر. شاهد رقصة شرقيّة من أفراح.

أعجب الفتى بالراقصة، طالبه جبريل بتأجيل ذلك إلى ما بعد الرحلة.

قام فؤاد بالرحلة. رجع عند ظهر اليوم التالي. ربح من ورائها ما يربحه عادة في عام من بيع العجول. احتفلا بالنجاح في لوك. قال فؤاد:

ـ بوسعي الآن أن أبتاع شبكة فاخرة ونادرة.

فقال جبريل ملاطفًا:

ـ والبقيّة تأتي...

فتمتم فؤاد بحرارة:

ـ أفراح...

ـ عظيم، أهي من طراز عروسك؟

ـ كلّا.

ـ هٰذا أفضل فعليك أن تشبع من أشياء كثيرة قبل أن تهب حياتك للعروس...

وبنفوذه جاءه جبريل بالراقصة ثمّ غادرهما إلى مكتب مدير الملهى. استحضر فؤاد لها الشراب وهام في السمر. وهيّأ له السكر أنّ أفراح بحيرة زمرّديّة في مركزها نافورة تنفث السعادة. ولٰكن اقتحم المجلس ظلّ ثقيل. رجل متهوّر سكران يزعم أنّه صاحب حقّ أقدم. سرعان ما تطايرت الكئوس فوق المنضدة محطّمة... وتأرجحت الشموع المتلألئة في الأركان بفعل اللكمات المتبادلة. انسحبت أفراح وَجِلَة مثل حيّة عقب معركة خاسرة، وجاء جبريل مهرولًا وهو يصيح:

ـ ولا حركة ولا كلمة!

ثبت أنّه مسموع الكلمة. تأبّط ذراعه ومضى به وهو يجفّف له دمًا يسيل من ثنيتيه... أسعفه في صيدليّة.

اقترح عليه أن يوصله إلى الفندق ولٰكنّ فؤاد قال:

ـ ما زلت مصمّمًا.

ـ هه؟

ـ أفراح.

ـ ليكن ذٰلك في ليلة أخرى...

ـ ليلتي هٰذه فرصتي الأخيرة.

مضى جبريل الصغير نحو تليفون الصيدليّة وهو يتمتم:

ـ لك ما تشاء!

استقبل والده في محطّة مصر. استقلّا تاكسي مضى بهما إلى الفندق. لحظ الرجل ابنه ثمّ تساءل:

ـ شفتك متورّمة؟

فأجاب وهو مستعدّ لذٰلك:

ـ وقف التاكسي فجأة أوّل يوم لي هنا فارتطمت بحافّة المقعد الأماميّ!

ـ أظنّها بسيطة؟

ـ وممكن نؤجّل اللقاء.

ـ كلّا، وقت عبد الرحمٰن فاضل مشغول دائمًا... زرت مصلحة المساحة كما كلّفتك؟

أجاب بحرج:

ـ شغلني الحادث، كان وجهي كلّه متورّمًا.

فصمت الرجل في ضيق.

جلس بجانب أبيه في حجرة الاستقبال بفيلّا الهرم. بدا متوتّر الأعصاب فهمس له أبوه:

ـ تكلّم بطلاقة لتحوز الثقة.

وأزيحت الستار. برز من ورائها الرجل في عباءة بنّيّة. برأس كبير مغطّى بطاقيّة من الصوف الأبيض. نهضا لاستقباله وسرعان ما أصيب فؤاد بدهشة غير متوقّعة. دهشة بلغت حدّ الذهول وجاوزته. خيّل إليه أنّه يرى جبريل الصغير نفسه... حتّى صوته تردّد وهو يقول:

ـ أهلًا... أهلًا، كيف حالك يا شيخ صاوي!

ـ بخير ما دمت بخير يا بيه، هٰذا ابني فؤاد...

وتمّت المصافحة دون أن تبدر من عبد الرحمٰن فاضل بادرة واحدة تنمّ عن رؤيته للشابّ قبل ذٰلك. حدّق فيه بذهول. ساوره الشكّ. لعلّها صورة أخرى!... لعلّه مجرّد شبه وليس تماثلًا. ولٰكنّه هو هو. كلّا طبعًا. إنّه توهُّم وأثر من الليلة الماضية. مَن يقطع في ذٰلك برأي قاطع؟!

ونظر السيّد إلى فؤاد وقال ببساطة:

ـ أذكر طفولته.

فقال الشابّ بحنان:

ـ تلك الأيّام الطيّبة لا تُنسى!

هو جبريل الصغير، كلّا، هٰذا رجل آخر جادّ ووقور ولا أثر للافتعال في حركاته. ما أحوجه إلى صفاء الذهن! ما زالت بقيّة من الخمر في معدته لم تُهضم بعد. وقال الأب مخاطبًا السيّد:

ـ لعلّك بخير وعافية...

ـ الأمور تسير بعون الله، ولٰكن يندر أن نعثر على مخلوق جدير بالثقة.

ـ هٰذه هي المشكلة!

ـ وكما عرفتني فأنا لا أقرّر البطش إلّا عند الضرورة القصوى!

ـ نبل عُرف عنك منذ القدم!

ـ والوسطاء ألعن، ولٰكن هل يسعني أن أقوم بكلّ شيء بنفسي؟

ـ غير معقول ولو كان ممكنًا!

ـ حتّى خطر لي مرّة أن أصفّي عملي وأرجع إلى القرية...

ـ يسعدنا رجوعك ولٰكن بلا قهر!

فقال متأسّفًا:

ـ الأولاد متعلّقون بالمدينة...

وفجأة التفت نحو فؤاد متسائلًا:

ـ ما لك يا بنيّ؟

فتراجع فؤاد إلى أعماقه وقال:

ـ لا شيء يا سيّدي.

ـ ولٰكنّك تنظر إليّ نظرات غريبة!

فتشجّع فؤاد لعلّه ينجو من عذاب حيرته.

ـ الحقّ... الحقّ... ألك توأم يا سعادة البيه؟

ضحك الرجل وهتف الشيخ صاوي:

ـ يا لجهلك يا فؤاد... الدنيا كلّها تعلم أنّ البيه وحيد أبويه...

وسأله عبد الرحمٰن فاضل:

ـ أعرفت شخصًا يماثلني لهٰذه الدرجة؟

ـ أجل... ولٰكن لعلّي واهم...

وقال الأب مجاملًا:

ـ عبد الرحمٰن بك لا مثيل له!

ولٰكنّ السيّد سأل فؤاد:

ـ من هو ذٰلك الشخص؟

ـ يدعى جبريل الصغير وهو من رجال الأعمال...

فهتف عبد الرحمٰن فاضل:

ـ عليه اللعنة!... لم يقل أحد قبلك إنّ بيننا أيّ شبه...

فتساءل الأب بقلق:

ـ ما لعينيك يا فؤاد!

وتمتم فؤاد حائرًا:

ـ أعترف بأنّي مخطئ!

فالتفت عبد الرحمٰن فاضل نحو الشيخ صاوي وقال:

ـ كيف نسيته تمامًا يا شيخ صاوي؟... (ثمّ ضاحكًا) كانت لك به علاقة لا تُذكر بخير أنسيت؟ الرجل الذي كان يعمل عندي ثمّ طردته بعد ضبطه متلبّسًا باختلاس؟

تورّد وجه الشيخ صاوي وقال:

ـ اللعنة... الآن أتذكّره...

فرجع عبد الرحمٰن فاضل إلى فؤاد متسائلًا:

ـ أيدّعي أنّه صاحب أعمال؟... فماذا أكون أنا؟ ما هو إلّا نصّاب. مهرّب. قوّاد، كيف عرفته يا بنيّ؟!

تلاشى فؤاد في حمأة الهجوم، اضطرب لدرجة أن اختفى التماثل بين الرجلين. وبادر الشيخ صاوي يقول مدافعًا عن ابنه:

ـ لم يعش في القاهرة أكثر من أربعة أيّام...

لبث عبد الرحمٰن ينظر إلى فؤاد منتظرًا الجواب على سؤاله فقال فؤاد:

ـ عرفته معرفة سطحيّة في مقهى الأمراء. تبادلنا حديثًا عابرًا ثمّ افترقنا...

تنهّد الشيخ صاوي في ارتياح. فكّر فؤاد بأنّ أباه مذنب مثله وإلّا فما معنى علاقته القديمة بجبريل الصغير؟. أمّا السيّد عبد الرحمٰن فاضل فقال للشابّ بهدوء مريب:

ـ الصدق أولى بالشرفاء!

ـ أقسم...

ولٰكنّه قاطعه:

ـ ولا تقسم بالله باطلًا!

اصفرّ وجه فؤاد: لاح شبح الفشل لعيني الشيخ صاوي. استمسك الشيخ بآخر خيط للأمل وقال:

ـ اللعنة على جبريل وسيرته. ما من أجل ذٰلك جئنا، ألم يحدّثك الشيخ مندور عن دوافع زيارتنا يا عبد الرحمٰن بيه؟... فؤاد ولد طيّب!

فقال عبد الرحمٰن فاضل بالهدوء نفسه:

ـ كلّا...

تلاقت عينا فؤاد بعيني السيّد فومضت الحقيقة حتّى أعمته. وقال السيّد ببرود:

ـ ليس بالولد الطيّب ولٰكنّه مهرّب، فاسق، معربد...

هتف الشيخ صاوي:

ـ يا ألطاف الله!

خيّم صمت معذِّب. تجسّدت الإهانة كما تجسّد اليأس من الخطوبة... كيف يتكلّم الرجل بهٰذه الثقة؟!

من وحي استنتاج أم من وحي الوقائع؟. أله عين دائمة ترصد حركات جبريل فرصدته هو ضمنًا؟!

وهل هو تماثل أم تشابه أم لا هٰذا ولا ذاك؟!

وتساءل الأب في أسًى:

ـ أليس لديك ما تُدافع به عن نفسك؟

فتمرّد فؤاد على وضعه وقال لأبيه:

ـ أُهنت يا أبي بما فيه الكفاية ويستحسن الآن أن نذهب...

فقال عبد الرحمٰن فاضل بصلابة:

ـ أنت المهان وأنت المهين!

ثمّ التفت إلى الأب قائلًا بنبرة ليّنة:

ـ آسف يا شيخ صاوي.

غادرا الفيلّا صامتين يتجنّبان الكلام، يتجنّب أحدهما الآخر، يغوصان في حيرة بلا قرار ويشعر كلاهما بالذنب.

الجبـــل

كهف فوق سطح المقطّم. إلى اليسار ممرّ يبدأ من نقطة عند حافّة الكهف اليسرى ويمتدّ فوق السطح إلى الخارج. إلى اليمين ممرّ يبدأ من نقطة عند حافّة الكهف اليمنى وينحدر نحو الخارج موحيًا بالامتداد حتّى سفح الجبل.

الكهف مظلم. ثمّة أشباح. يد شبح تشعل المصباح المدلّى من سقف الكهف. يتّضح المنظر. يوجد رجل بالملابس البلديّة مقيّد اليدين والقدمين جالسًا على الجهة اليسرى من الأرض وأمامه من الناحية المواجهة خمسة من الشبّان جالسين على الأرض أيضًا يرتدون القمصان والبنطلونات.

يتوسّطهم عسّاف بمركز الرياسة. إلى يمينه إسماعيل وحلمي. إلى يساره رمزي وحسني.

الرجل المقيّد: (في حال فزع) انقضضتم عليّ في الظلام وأنا راجع فتوهّمتكم لصوصًا، وها أنا أرى أنّكم أبناء من حارتي، أنت عسّاف، أنت إسماعيل، أنت حلمي، أنت رمزي، وأنت حسني، جيران وأبناء جيران، ما معنى ذلك؟ لماذا فعلتم بي ما فعلتم؟!

عسّاف: جئنا بك لنحاكمك.

الرجل: (وقد امتزج الفزع بالدهشة) قلت تحاكمونني؟

عسّاف: نعم.

الرجل: ما أنا بالمجرم.

عسّاف: إنّك مجرم.

الرجل: وما أنتم بالقضاة.

عسّاف: نحن قضاة كما ترى.

الرجل: إن كنتم تريدون نقودًا...

عسّاف: (مقاطعًا) لسنا لصوصًا...

الرجل: ولستُ مجرمًا.

عسّاف: إنّك مجرم وتعلم أنّك مجرم.

الرجل: حَذارِ يا أبنائي من الخطأ، القانون لا يغفل، ولا يفلت أحد من العقاب...

عسّاف: نشكر لك نصيحتك التي لا حاجة بنا لها...

الرجل: إنّكم شبّان، الحياة أمامكم طويلة وعريضة، ولستم قضاة.

عسّاف: نحن قضاة ما دام العدل لا يجد مَن يقيمه.

الرجل: إن كنتم قضاة فأين الدفاع؟

عسّاف: ما جدوى الدفاع وجريمتك جارية على كلّ لسان.

الرجل: إنّني أقرأ الحكم في أعينكم متجسّدًا.

عسّاف: وسبق أن حكم عليك كلّ متعامل معك.

الرجل: أمثالي يملئون الأسواق.

عسّاف: سيجيئون تباعًا...

الرجل: ليس ذنبي ولكنّه الزمن.

عسّاف: بل هو الجشع...

الرجل: وما عقوبتي في تقديركم؟

عسّاف: القتل!

الرجل: (صارخًا) القتل!

عسّاف: رجوعك يعني هلاكنا.

الرجل: (متوسّلًا) أقسم لكم...

عسّاف: (مقاطعًا) طالما حلفت كذبًا بالطلاق!

الرجل: الرحمة!

عسّاف: قتلك رحمة بالعباد.

يقفون وهو يرتعد. يحمله أربعة. الخامس يحمل خمس عصيّ غليظة ويتبعهم نحو اليسار. الرجل طيلة الوقت يستغيث.

إظلام
٢
إضاءة

يرجعون متجهّمي الوجوه. تمرّ فترة صمت في وجوم ثمّ يبدأ حسني الكلام وهو أسواهم حالًا:

حسني: أن تقتل إنسانًا عمل فظيع حقًّا، لن أنسى نظرة عينيه ولا جمود الموت الناطق بالفناء، لا تُعرف الحياة على حقيقتها إلّا لحظة الموت، الحقّ لقد متّ معه...

(صمت. حسني يجفّف عرقه)

حسني: معذرة فإنّها المرّة الأولى...

رمزي: نحن مثلك...

عسّاف: (متغلّبًا على وجومه) هل انهرتم وانتهيتم؟

رمزي وإسماعيل وحلمي: كلّا... كلّا... كلّا...

عسّاف: (مخاطبًا حسني) إنّي مثلك تمامًا يا حسني ولٰكن علينا أن نحترف ضبط النفس...

حسني: تلزمنا أعصاب من فولاذ وقلوب لا تخفق!

عسّاف: علينا أن نتذكّر دائمًا الظلم وأن نثق تمامًا بقوّة العادة، وقد تناقشنا طويلًا، واقتنعنا بكلّ قلوبنا، وتعاهدنا على عمل لا رجوع فيه، إنّها رسالة، والرسالة وقودها العذاب...

حلمي: هٰذا ما ارتضيناه بوعي كامل...

عسّاف: واعتياد الظلم أفظع من اعتياد القتل...

حسني: الظلم والقتل، كلاهما فظيع...

إسماعيل: لتغفر لنا نوايانا الطيّبة...

عسّاف: تذكّروا أنّنا شرفاء ورحماء...

حسني: ولٰكنّنا لن نعرف الابتسام.

عسّاف: لنكن شهداء...

رمزي: لنكن شهداء...

عسّاف: (بنبرة جديدة) علينا أن ننسى الجبل إذا رجعنا إلى الحارة.

حلمي: نمارس حياتنا مثل بقيّة الناس.

إسماعيل: ونتساءل عن سرّ اختفاء عمّ فرجل مع الآخرين.

عسّاف: ونلعن اللصوص ونعطف على أولاده.

حسني: أولاده! إنّهم مظلومون مثلنا...

عسّاف: (بخشونة) نحن قضاة لا محامون، والتاريخ نهر طويل يتدفّق بالدم المسفوك تسعة أعشاره من دماء الأبرياء.

عسّاف: (يتحرّك نحو اليمين وهو يقول) لا تنسوا أنّ دماءنا ستلتحم بدمائه البريئة ذات يوم.

(يذهبون واحدًا في إثر واحد).

إظلام
٣

الكهف. عسّاف، إسماعيل، رمزي، حسني.

عسّاف: لندعْ لحلمي أن يوفّق في مهمّته.

إسماعيل: فكرة طيّبة، المجرم زير نساء، سرعان ما يقتنع بأنّه قادم على سهرة طيّبة...

رمزي: ستهتزّ الحارة هٰذه المرّة حتّى الأعماق.

عسّاف: سيؤمنون بأنّه سفّاح خطير.

رمزي: لن يعطفوا على جلّاديهم.

إسماعيل: من أسف أنّ الخوف سيجتاح الجميع.

حسني: وربّما فطنوا عاجلًا إلى نوعيّة المختفين...

عسّاف: لعلّه أنفع لرسالتنا.

حسني: في تلك الحال يخشى على الأبرياء من سوء الظنّ.

عسّاف: الأبرياء لا خوف عليهم.

حسني: قد يتعرّضون للأذى.

عسّاف: أشعر أنّك لم تبرأ بعد من ضعفك.

حسني: ألا ترى أنّي أعمل مثلكم؟

عسّاف: أعني القلب، فقد يستقلّ عن اليد واللسان!

رمزي: اطمئنّ إليه كما تطمئنّ إلى نفسك.

تترامى نحنحة آتية من الخارج. يدخل حلمي يتبعه رجل في ملابس بلديّة فاخرة. الرجل يدهش لرؤيته الآخرين ويتوقّف عن التقدّم.

الرجل: (مخاطبًا حلمي) ما معنى هٰذا؟

ينقضّون عليه بسرعة وإحكام. يطرحونه أرضًا. يقيّدون قدميه وذراعيه وهو يقاوم عبثًا. يُجلسونه مكان الضحيّة السابقة وهو ينظر إليهم في فزع.

الرجل: ما معنى هٰذا يا أبنائي؟... محال أن تكونوا لصوصًا...

حلمي: صدقت، ستعرف كلّ شيء...

عسّاف: لسنا لصوصًا كما قلت، نحن قضاة نحاكم مجرمي حارتنا.

الرجل: (برعب) قضاة... محاكمة... مجرمون...!

عسّاف: كما ترى... وقد سبقك إلى هنا عمّ فرجل.

الرجل: ماذا فعلتم به؟

عسّاف: (مشيرًا إلى اليسار) إنّه مدفون في الجبل...

الرجل: ألا تخافون القانون؟

عسّاف: نحن رجال القانون الأسمى، دافِعْ عن نفسك.

الرجل: (بفزع) أنا في عرضكم... خذوا ما تشاءون.

عسّاف: دافع عن نفسك.

الرجل: (بضراعة) صبركم. فكّروا قليلًا، فيمَ أختلف عن أيّ مالك في مصر؟ ماذا يجديكم قتلي؟

عسّاف: ينقص الظالمين واحدًا...

الرجل: الأمر أكبر من ذٰلك، فكّروا قليلًا، لنتفاهم، تجعلون من أنفسكم قتلة بلا ثمرة حقيقيّة...

عسّاف: لديك أقوال أخرى؟

الرجل: ماذ أقول؟ ماذا يمكن أن يقال، ستبقى المشكلة، إنّها أكبر منّي ومنكم، قد يوجد حلّ ولٰكنّه ليس في القتل...

يقفون. أربعة يحملونه إلى سطح الجبل، يتبعهم الخامس بالعصيّ.

إظلام

٤

إضاءة

يرجعون بوجوه متجهّمة. نلاحظ أيضًا أنّهم أملك لأنفسهم من المرّة الأولى. أمّا حسني فقد انتحى جانبًا على حال واضحة من السوء. أربعتهم يلاحظونه بقلق، خاصّة عسّاف.

صمت

عسّاف: لا يمكن أن تمضي الأمور على هٰذا النحو...

صمت

عسّاف: إنّي أتساءل متى تبرأ من ضعفك!

حسني: يستحوذ عليّ إحساس غريب، لعلّه المرض...

عسّاف: كلّا، إنّه أدهى وأمرّ.

حسني: (بنبرة اعترافيّة) أخي عسّاف، ينبغي أن أصارحك بأنّ دفاع الرجل أقنعني!

فترة صمت

عسّاف: ما شاء الله، وإذن فالرجل هو المظلوم لا أهل حارتنا!

حسني: لا أعني ذٰلك، إنّما أعني أنّ قتله لن يحلّ المشكلة...

عسّاف: اتّفق رأينا فيما سبق على نقيض ذٰلك!

حسني: (منفعلًا) سنمضي من جريمة إلى جريمة، سنحترف الإجرام ونحن لا ندري، بتّ أشعر بالمرض...

عسّاف: إنّك مريض حقًّا، مريض الإرادة والروح...

حسني: (بعصبيّة) العكس هو الصحيح!

عسّاف: حقًّا؟ كلامك يعني أنّك سليم وأنّنا المرضى؟

صمت

حلمي: (لحسني) أهٰذا ما تعنيه؟

رمزي: (لحسني) ماذا تقترح؟

عسّاف: بكلّ بساطة إنّه يمهّد للانسحاب...

حسني: كلّا... أقترح أن نعدل جميعًا عن خطّتنا...

عسّاف: عن احتراف الإجرام؟

صمت

عسّاف: لا فائدة ترجى من مواصلة المناقشة، امكث

قليلاً في هواء الليل النقيّ، استرخِ في هدوء، ثمّ نستأنف الحوار.

حسني: (يتردّد قليلًا ثمّ يذهب ناحية اليمين ويخرج. يتبادلون النظرات)

عسّاف: ما رأيكم؟

حلمي: سوف يثوب إلى رشده.

إسماعيل: إنّي لا أشكّ في إخلاصه.

عسّاف: وإنّي لا أشكّ في إخلاصه، ولكنّ الضعف غزاه، ويجب أن نخشى عواقب ضعفه...

رمزي: لعلّه من الخير له ولنا أن ينسحب.

عسّاف: إنّه حلّ قد يسفر عن عواقب وخيمة...

إسماعيل: لن يصلح رفيقًا لنا.

عسّاف: أوافقك تمامًا، ولكن ما الخطوة التالية؟

رمزي: نعفيه من العمل.

عسّاف: من يضمن لنا سكوته؟

إسماعيل: لا شكّ في إخلاصه.

حلمي: وكشْف الأمر يودي به كما يودي بنا.

عسّاف: الضعف قد يؤدّي إلى التهوّر أكثر ممّا تؤدّي إليه القوّة!

صمت

إسماعيل: احتمال بعيد جدًّا.

عسّاف: وهل نضع أرواحنا ورسالتنا تحت رحمة الظروف؟

رمزي: لديّ اقتراح آخر، أن يقتصر عمله على استدراج المجرمين.

عسّاف: لن يغيّر ذلك من واقع الأمر شيئًا...

إسماعيل: فلنجرّب، لست متشائمًا...

عسّاف: دعوني أختبره...

عسّاف يخرج ناحية حسني. إسماعيل وحلمي ورمزي يتبادلون النظرات في حيرة واضحة.

إسماعيل: الصبر، سينتهي الصراع إلى خير.

رمزي: لعلّه.

حلمي: صدري منقبض.

يرجع عسّاف متثاقل الخطوات. يجلس القرفصاء دافنًا وجهه بين ركبتيه. ينظرون نحوه بقلق واستطلاع.

إسماعيل: ماذا وراءك؟

صمت

رمزي: يبدو أنّك لم تقنعه؟

صمت

حلمي: تكلّم يا عسّاف، لا تُسلّط علينا الهواجس.

يذهب إسماعيل إلى الخارج. تترامى منه آهة فزع. يرجع منفعلًا نحو عساف.

إسماعيل: لقد خنقته!

يضطرب رمزي وحلمي. يهرعان إلى الخارج. يرجعان أشدّ اضطرابًا.

إسماعيل: مَن يصدّق؟

رمزي: إنّه قرار انفراديّ ما كان ينبغي أن يُتّخذ دون الرجوع إلينا.

حلمي: نحن نتدهور وننتحر.

عسّاف: (رافعًا وجهًا متقلّصًا من الحزن) الألم يمزّقني...

إسماعيل: (بحدّة) هيهات أن يردّه ذلك إلى الحياة.

عسّاف: لم يدع لي فرصة الاختيار.

إسماعيل: نحن نعمل كوحدة لا تتجزّأ فلِمَ انفردت بالقرار؟

عسّاف: لقد تحمّلت عنكم الألم وحدي...

إسماعيل: لقد قضيت علينا بألم لا يُمحى...

عسّاف: أقدمت على الجريمة دفاعًا عنكم وعنّي وعن الرسالة، إنّي صريع الحزن والألم...

إسماعيل: إنّك قاسٍ فوق ما تصوّرت.

عسّاف: الرحمة وحدها هي التي تحرّكنا.

إسماعيل: يا للعجب!... كيف طاوعتك يداك؟!

عسّاف يدفن وجهه بين يديه. صمت.

إظلام

٥

إضاءة

عسّاف، إسماعيل، حلمي. وجوههم جادّة ولكن يبدو أنّ ذكرى حسني قد جرفتها الأحداث.

حلمي: لم يعد للحارة من حديث إلّا حديث السفّاح الخفيّ...

عسّاف: عظيم.

إسماعيل: أهلي يتساءلون أين أمضي بعض الليالي حتّى الفجر!

عسّاف: إنّه سؤال يتردّد في بيتي أيضًا ويثير متاعب...

إسماعيل: لذلك يتولّاني شعور أحيانًا بأنّني مطارَد...

حلمي: وقد يربط قوم بين غيابنا واختفاء الضحايا!

عسّاف: لقد اخترنا وسلّمنا بالمصير المحتمل...

***

يدخل رمزي متأبّطًا ذراع كهل. يدهش الرجل ويدهش كذلك عسّاف وإسماعيل وحلمي.

الكهل: أين نحن؟

رمزي يدفعه فيوقعه. يتعاونون على تكبيله رغمَ مقاومته وصراخه. يتبادلون النظرات في صمت.

الكهل: خدعتني يا رمزي، ماذا أرى، أنتم لصوص؟!

عسّاف: لنحمله إلى الخارج حتّى نتشاور.

يمضون به إلى اليسار ثمّ يرجعون.

عسّاف: (لرمزي) إنّه ليس مَن كنّا ننتظر ولا هو مِن المُدانينَ.

رمزي: لكنّه لا يختلف عنهم في شيء.

عسّاف: ما جريمته؟

صمت

حلمي: المسألة بصراحة أنّه نجح في أن يكون خطيب البنت التي يحبّها رمزي.

عسّاف: كيف تقحمنا في شئونك الخاصّة؟

رمزي: إنّه كهل وهي فتاة في السادسة عشرة، استغلّ فقرها، وفضلًا عن ذلك فهو فاسق بدليل مجيئه معي جريًا وراء سهرة محرّمة...

عسّاف: مسألة شخصيّة.

رمزي: بل إنّه استغلال دنيء للضعفاء.

عسّاف: قد تكون البنت آثرته باختيارها.

حلمي: لا نملك دليلًا ضدّه، ثمّ إنّها مسألة خاصّة...

رمزي: لها صفة عامّة في رأيي.

عسّاف: لا يمكن أن نقتل لمثل هذه الأسباب.

حلمي: أتّفق معك.

إسماعيل: وأنا كذلك...

رمزي: هل نطلق سراحه ليفشي سرّنا؟

عسّاف: للأسف لا مفرّ من قتله ولكنّنا لن نقتله فلسنا مجرمين...

رمزي: إنّك تلقي ألغازًا؟

عسّاف: إنّي واضح تمامًا، عليك وحدك أن تقتله، وعليك وحدك أن تدفنه...

رمزي ينظر نحو إسماعيل وحلمي ولكنّهما يوافقان صامتين. أخيرًا يتناول عصاه ويندفع نحو اليسار.

عسّاف: سيصبح منذ الآن مجرمًا.

حلمي: أجل.

إسماعيل: الحقّ أنّنا شركاء له في جريمته...

عسّاف: ماذا؟

إسماعيل: ها هو بريء يُقتل بموافقتنا واقتراحنا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

عسّاف: هل عندك حلّ أوفق؟

إسماعيل يصمت.

عسّاف: (لحلمي) هل عندك أنت؟

حلمي: كلّا.

عسّاف: هل من سبيل لإنقاذ شرفنا؟

إسماعيل: لن تنقذه قوّة في الأرض.

عسّاف: بل توجد وسيلة لإنقاذه!

إسماعيل: حقًّا؟

عسّاف: أن نعاقب المجرم بما يستحقّ.

إسماعيل: (فزعًا) تقتله كما قتلت حسني؟

عسّاف: (ساخرًا) إنّما أشير إلى الطريق الصواب ولكما الاختيار.

إسماعيل: إنّه فوق ما نستطيع.

عسّاف: كونا مجرمين إذن.

حلمي: لننسَ الأمر كلّه.

عسّاف: هيهات.

حلمي: لا مفرّ من ذلك.

عسّاف: إنّه الضعف يغزونا مرّة أخرى.

إسماعيل: أصبحت الحياة كريهة.

حلمي: لننسَ الأمر ولنواصل السير، أصبحت الحياة كريهة حقًّا.

عسّاف: لقد جرّدتنا هٰذه الجريمة من شرفنا...

يرجع رمزي غاضّ البصر. يقف مستندًا إلى الجدار. يسود صمت.

إظلام

٦

إضاءة

عسّاف، إسماعيل، حلمي، رمزي أمام ضحيّة جديدة مكبّلة بالحبال. عند رأس الممرّ الأيمن خارج الكهف تقف فتاة متنصّتة.

عسّاف: انتهى التحقيق فلنحمله.

يحملونه ناحية اليمين مثل كلّ مرّة سابقة.

الفتاة تدخل الكهف بحذر، متوارية وراء الجدار تصرخ فزعة وتقع مَغميًّا عليها.

يرجع الشبّان الأربعة فزعين وبأيديهم العصيّ. عسّاف يركع إلى جانب الفتاة على حين يجري الآخرون نحو المخرج الأيمن.

عسّاف: (بحنان) هبة... حبيبتي... ماذا جاء بك...؟!

يربّت على خدّها. يرجع الشبّان.

إسماعيل: لا يوجد أحد، كيف جاءت؟!

عسّاف: (للفتاة) هبة... هبة... أفيقي...

رمزي: ماذا جاء بها؟

تأخذ الفتاة في الإفاقة. تنقّل عينيها بين الوجوه. تتذكّر. تقف فزعة.

هبة: (لعسّاف) ابعد عنّي، إنّك قاتل، كلّكم قتلة...

عسّاف: مهلًا، لسنا قتلة، اهدئي حتّى أطمئنّ عليك...

هبة: لا تمسّني... ابعد...

عسّاف: مهلًا... كيف جئت إلى هنا؟

هبة: إنّه حظّي، لأعرفك على حقيقتك، أنت قاتل؟!

عسّاف: سأشرح لك كلّ شيء.

هبة: لقد رأيت بعينيّ... رأيت القتل والدم.

عسّاف: ماذا جاء بك يا هبة؟

هبة: كنت عمياء، لاحظت تغيّبك ليلة بعد أخرى، ظننت... المهمّ أنّني تبعتك.

عسّاف: يا لسوء الحظّ!

هبة: يا للقتل والدم والوحشيّة...

تتحوّل لتذهب. يقف رمزي في طريقها.

هبة: دعني أذهب...

يتبادلون النظرات.

حلمي: غير ممكن.

إسماعيل: هٰذا مفهوم تمامًا.

هبة: فيم تفكّرون؟

رمزي: لا يمكن أن تذهبي، هٰذه هي الحقيقة الأليمة...

هبة: ماذا تعني؟

إسماعيل: حقيقة أليمة حقًّا.

حلمي: أيّ لعبة قذرة دامية!

رمزي: (لعسّاف) تكلّم يا عسّاف.

عسّاف يئنّ صامتًا.

رمزي: لا حيلة لنا.

هبة: ماذا تريد؟

رمزي: لن ترجعي أبدًا.

هبة: (وهي في رعب متزايد) ماذا تقصد؟

تنظر نحو عسّاف فيزداد منها قربًا.

عسّاف: دعوا المسألة لي.

رمزي: أوضح!

عسّاف: يلزمني وقت للتفكير.

رمزي: الأمر واضح جدًّا ولعلّك لم تنس مصرع حسني!

عسّاف ينظر إلى رمزي بقهر.

رمزي: تكلّم يا عسّاف.

عسّاف: (بانفعال) لا.

رمزي: لا؟!. ماذا تعني؟!.

عسّاف: قلت لا...

رمزي: أتريد أن تضحّي بنا من أجل حبيبتك؟

هبة تقترب أيضًا من عسّاف.

رمزي: إنّها بريئة، سيّئة الحظّ، ولٰكن لا مفرّ من قتلها...

هبة تصرخ فزعة.

رمزي: عليك أن تقتلها وعليك أن تدفنها.

إسماعيل: يجب أن ينتهي هٰذا العذاب.

حلمي: لقد حلّت بنا اللعنة...

رمزي: إنّها مهمّتك يا عسّاف.

هبة: (لعسّاف) أنت تقتلني؟

عسّاف: كلّا... لن يمسّك سوء.

رمزي: هل تعني ما تقول؟

عسّاف: (بتحدّ) كما تسمع وترى.

رمزي: ها أنت تنكشف على حقيقتك.

عسّاف: لن يمسّها سوء وأنا حيّ.

رمزي: (للآخرين) لنتّخذ قرارًا.

إسماعيل: صبرك.

رمزي: حتّى متى؟

عسّاف: اعتمدوا عليّ، إنّها مشكلتي وسأجد لها الحلّ المناسب...

رمزي: إنّه قرار غير قابل للتأجيل.

عسّاف: نهرب معًا، أنا وهي...

رمزي: وتتخلّى عن الرسالة وعنّا؟

عسّاف: إنّه الحلّ الوحيد.

رمزي: بل يوجد حلّ آخر، أن تقتلها وتدفنها بنفسك.

ثمّ ينظر رمزي إلى إسماعيل وحلمي محتدًّا ويقول:

رمزي: تكلّما... ما معنى الخرس في موقف البيان؟

حلمي: الحقيقة واضحة.

إسماعيل: هٰذا حقّ.

رمزي: إنّه قرار إجماعيّ...

عسّاف: إنّه المستحيل...

رمزي: نعفيك من التنفيذ ونقوم به نحن.

هبة تصرخ متعلّقة بعسّاف.

عسّاف: لن يتمّ هٰذا وأنا حيّ...

رمزي: (منقضًّا عليه بعصاه) إذن يتمّ وأنت ميت.

يتبادلان الضرب. يسقط رمزي. هبة تندفع نحو اليمين هاربة. حلمي يتبعها بعصاه. يندفع عسّاف في أثر حلمي فيعترضه إسماعيل ولٰكنّه يقتله وينطلق خارجًا.

إظلام

٧

إضاءة

يرجع عسّاف حاملًا هبة بين يديه. يضعها على الأرض. ينظر إليها حزينًا.

عسّاف: عندما يتجاوز الشعور بالألم حدّه يفقد الإحساس بذاته. لذٰلك فإنّي هادئ وسعيد. لولا أنّ الوقت غير مناسب لغنّيت ورقصت. الوداع لكلّ شيء طيّب أو قبيح. ولتسعفني سعادتي على دفن الحبيبة والزملاء والأمل. وأقول لأيّ هاتف بأنّني لن أعترف ولن أنتحر. في سطح الجبل الغائص في الظلام متّسع للتخبّط الجنونيّ الشمل. امضِ أيّها الشبح متلقّيًا الخلاء بخلاء أشدّ، مستعذبًا التحدّي بلا عون ولا هدف، مستشرفًا ضربات المجهول ومفاجآت الغيب، مستعذبًا الألم والسخرية وذكريات الأحلام الجميلة...

الشيطَان يَعظ

مسرحيّة في فصل واحد
مستوحاة
من
«مدينة النحاس»
ألف ليلة وليلة

١

حجرة ذات أسلوب مغربيّ يتصدّرها ديوان يجلس عليه موسى بن نصير.

يدخل حاجب، ينحني تحيّة.

الحاجب: مولاي الأمير، قد وصل الأمير طالب بن سهل مندوب أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان...

موسى يقف ثمّ يتّجه نحو الباب. يدخل الأمير طالب بن سهل على حين ينسحب الحاجب. يلتقيان بالأحضان وسط الحجرة.

موسى بن نصير: أهلًا وسهلًا ومرحبًا برسول أمير المؤمنين.

طالب بن سهل: أهلًا بكم أيّها الأمير موسى بن نصير، وإليك أحمل سلام مولانا الخليفة.

يجلسان على الديوان جنبًا لجنب.

موسى بن نصير: أطال الله بقاء مولانا للإسلام والمسلمين.

طالب بن سهل: تبلّغنا أنباء طيّبة عن المغرب.

موسى بن نصير: إنّه يقبس أنواره من المشرق بفضل الله العظيم وحكمة خليفتنا.

طالب بن سهل: إنّك أمير حائز الرضا فليُتمّ الله نعمته عليك.

طالب بن سهل يصمت قليلًا ثمّ يواصل.

طالب بن سهل: معي إليك رغبة لأمير المؤمنين.

موسى بن نصير: إنّي رهن إشارة مولانا الخليفة.

طالب بن سهل: إنّه يريد قمقمًا من قماقم العفاريت!

موسى بن نصير يؤخذ بما سمع فيتطلّع إلى محدّثه صامتًا.

طالب بن سهل: في مجلس سَمَرٍ جرى الحديث إلى ذكر العفاريت العصاة حبيسي القماقم فتاقت نفس مولانا إلى امتلاك أحدها ليرى بعينه ويسمع بأذنه ويقتنع بعقله.

موسى بن نصير: رغبة مولانا واجبة عليّ ولكن ماذا أملك لتحقيقها؟

طالب بن سهل: قيل من ضمن ما قيل إنّه توجد قماقم من قديم الزمان في صحرائكم.

موسى بن نصير: أشهد الله على أنّني لا أعلم عنها إلّا السماع والظنّ. ولكنّ ثمّة رجلًا طاعنًا في السنّ يُعَدّ أخبر الناس بصحرائنا، حاضرها وماضيها، فضلًا عمّا حباه الله به من حكمة، فلنرسل في طلبه.

موسى بن نصير يصفّق يدًا على يد، يدخل الحاجب. على حين يهبط الظلام.

٢

إضاءة

موسى بن نصير وطالب بن سهل. يدخل الحاجب.

الحاجب: الشيخ عبد الصمد بن عبد القدّوس الصمّودي.

ينسحب الحاجب. يدخل الشيخ. عجوز وقور. يرفع يديه تحيّة. يشير له ابن نصير بالجلوس فيجلس على وسادة بين أيديهما.

موسى بن نصير: مرحبًا بالشيخ المبارك.

عبد الصمد: (حانيًا رأسه) عظّم الله المرسل ورسوله.

موسى بن نصير: إنّك يا شيخ عبد الصمد رجل الصحراء دون منازع.

عبد الصمد: هي حياتي ومماتي أيّها الأمير.

موسى بن نصير: لك عِلم ولا شكّ بما يقال عن قماقم العفاريت بها!

عبد الصمد: (باهتمام) هٰذا ما تؤكّده لنا الكتب القديمة.

طالب بن سهل: في أيّ موقع من مواقعها؟

عبد الصمد: يقال إنّها مستقرّة في قعر بحيرة بمدينة النحاس.

طالب بن سهل: وما مدينة النحاس؟

عبد الصمد: مدينة قديمة، يقال إنّها ازدهرت قبل التاريخ المعروف بعشرين ألف سنة، لا يُعلم عنها أكثر من ذٰلك، لم يذهب إليها أحد ولم يجئ منها أحد، قد تكون حقيقة وقد تكون خرافة. . .

طالب بن سهل: ألم يسعَ ساعٍ إلى اكتشافها؟

عبد الصمد: ذاك ما يفوق طاقات الفرد والجماعة.

موسى بن نصير: مولانا الخليفة يرغب في الحصول على قمقم من قماقمها!

عبد الصمد: (يصمت متفكّرًا ثمّ يقول) رغبة مولانا على الرأس والعين، ولٰكنّ الله أمرنا بالشورى، ومَن يمدّ سلطانه بقوّة القرآن فليس به حاجة إلى قوّة العفاريت!

طالب بن سهل: اقتضت حكمته أن يسخّرها في خدمة الإسلام والمسلمين.

عبد الصمد: إنّها مهمّة شاقّة حقًّا أيّها الأمير، فعلينا أوّلًا أن نكتشف موقع فارس من نحاس إذا فركت يده أشارت إلى مكان المدينة.

موسى بن نصير: ستجد منّي كلّ عون.

عبد الصمد: نحتاج إلى قافلة كاملة ومؤن، وقوّة وسلاح، وحذر ودهاء، فلعلّ المدينة ما زالت على قيد الحياة، ولعلّها تستطيع التصدّي للغرباء، بل لعلّ حاكمها قد سخّر عفريتًا لخدمته. . .

موسى بن نصير وطالب بن سهل يتبادلان النظر برهة.

طالب بن سهل: لو كان لديهم عفريت مسخّر لتسلّطوا به على العالم.

موسى بن نصير: سأشرع من فوري لإعداد الحملة وسأكون على رأسها.

طالب بن سهل: ولن أتخلّف عنها.

عبد الصمد: فليسدّد الله خطانا وليجنّبنا الضلال. . .

يهبط الظلام

٣

إضاءة

مدخل مدينة النحاس. موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد بن عبد القدّوس الصمّودي. ينظرون إلى الداخل وقد لفّه ظلام الفجر.

موسى بن نصير: يا لها من رحلة خياليّة في مشقّتها، لقد أرهقت الجند والجمال.

طالب بن سهل: لم يصادفنا حولها حيّ.

موسى بن نصير: اصبر، سوف ينقشع الظلام وتشرق الشمس.

طالب بن سهل: أليس غريبًا أنّه لا يوجد حارس واحد في مدخل المدينة؟

عبد الصمد: لعلّ عزلتها الكاملة أغنتها عن الحرّاس.

طالب بن سهل: لم أعرف صمتًا كهٰذا الصمت. . .

عبد الصمد: أهو صمت النوم؟

طالب بن سهل: ألا ينبح فيها كلب أو يصيح ديك؟

موسى بن نصير: ترى أين موقع البحيرة؟

عبد الصمد: ناحية المشرق غير بعيد من المدخل.

يأخذ الظلام في الانقشاع ويتجلّى رويدًا داخل المدينة. ميدان مكتظّ بالناس، في عمقه قصر، تقوم على دائرة محيطة الحوانيت وتتفرّع عنه الطرقات. الرجال الثلاثة يتراجعون في حذر.

موسى بن نصير: متى جاءوا؟. . . هل نستدعي الجنود؟

طالب بن سهل: انظر جيّدًا، إنّهم لا يتحرّكون.

عبد الصمد: أجل.

طالب بن سهل: لا حركة، لا صوت، إنّهم أصنام. . .

موسى بن نصير: هٰذه وجوه آدميّة لا تماثيل . . .

طالب بن سهل: صدقت، هل يتحرّكون فجأة؟

موسى بن نصير: انظر إلى هيآتهم، كأنّهم تجمّدوا بغتة، توجد امرأة على عرش، حولها حرّاس وحجّاب، الجمهور منه مَن تجمّد وهو يرقص أو وهو يهتف، هٰذه المرأة تجمّدت وهي تزغرد، هٰذا الرجل تجمّد وهو يصفّق.

عبد الصمد: ليس في وسع حيّ أن يتجمّد بهٰذا الكمال، ألا تطرف له عين؟

موسى بن نصير: أترى أنّه الموت؟

عبد الصمد: إنّي أشمّ رائحته.

موسى بن نصير: وكيف لميت ألّا يتهاوى ويتغيّر؟

طالب بن سهل: وأين بقيّة السكّان؟ ألا يجيء شرطيّ أو عابر سبيل؟

عبد الصمد: سأُقدم على مغامرة، بسم الله الرحمٰن الرحيم (ثمّ رافعًا صوته) . . . يا هوه . . . يا عباد الله . . .

صمت

موسى بن نصير: لا استجابة على الإطلاق.

طالب بن سهل: نحن حيال لغز . . .

عبد الصمد: لله ملك السموات والأرض.

طالب بن سهل: لا بدّ من اكتشاف الحقيقة . . . اتبعاني . . .

يتقدّم، يتقدّمون في حذر، يلمسون المتجمّدين، يشقّون طريقهم بينهم حتّى عرش المرأة.

موسى بن نصير: هٰؤلاء بشر وليسوا بتماثيل.

عبد الصمد: أموات، ولٰكن أيّ موت؟

طالب بن سهل: (مركّزًا بصره على المرأة) يا لها من امرأة جميلة.

موسى بن نصير: قصر جميل وحوانيت ثريّة، متى وكيف تخلّت عنها الحياة؟

طالب بن سهل: كيف حافظت على أشكالها وتوازنها، ما أجمل هٰذه المرأة!

عبد الصمد: قد يطول بنا الموقف، وهيهات أن نجد لهٰذا اللغز حلًّا، وقد نعود فيها بعد إلى هنا، أمّا الآن فلا يجوز أن ننسى مهمّتنا.

موسى بن نصير: (متحرّكًا وراء عبد الصمد) صدقت.

ثمّ ينظر خلفه إلى طالب بن سهل.

موسى بن نصير: هلمّ أيّها الأمير، هلمّ إلى البحيرة، احذر أن تقع في شراك وَهْم . . .

يهبط الظلام

٤

إضاءة

موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يرمون بالشباك في بحيرة ويسحبونها في دأب وصبر. تخرج شبكة عبد الصمد وفيها قمقم.

موسى: الله أكبر.

طالب بن سهل: قادر على كلّ شيء.

عبد الصمد: يسبح له الأنس والجنّ وكلّ حيّ وجماد.

موسى: قمقم صغير لا يتصوّر الإنسان أنّه يحبس في بطنه هٰذه القوّة اللانهائيّة.

عبد الصمد: انظر إلى هٰذا المفتاح الصغير الملصق بعنقه، إذا دُعِك خرج العفريت وأصبح طوع أمرنا.

موسى بن نصير: هل نُقْدم على التجربة؟

عبد الصمد: لا أنصح بذٰلك ولٰكنّنا نحاول الاتّصال به.

موسى بن نصير: على الأقلّ ليتوكّد لنا وجوده.

عبد الصمد: (يقرّب إلى فمه عنق القمقم) أيّها السجين، تكلّم بحقّ الله المتعال.

صوت الجنّ: أخيرًا وبعد عشرين ألف سنة من عذاب السجن.

عبد الصمد: مَن قضى عليك به؟

صمت

صوت الجنّ: ارتكبت معصية رآها ماسّة بشرفه.

طالب بن سهل: ستُحمل إلى أحكم الناس طرًّا مولانا الخليفة.

صوت الجنّ: كفاني عذابًا، أخرجني من القمقم أحقّق لك ما تشاء نظير وعد بإطلاق سراحي . . .

طالب بن سهل: سيقضي الخليفة في أمرك بما هو قاضٍ.

صوت الجنّ: أصغوا إليّ، إذا أخرجتموني وجدتم في

خدمتكم قوّة لا يقف أمامها بشر، بوسعي أن أجعل الخليفة نفسه عبدًا لكم، لا تضيّعوا فرصة لا تعوّض لإنسان مرّتين.

موسى بن نصير: عليك اللعنة، ما زلت عاكفًا على الشرّ.

صوت الجنّ: ألا تحبّون أن تسودوا الدنيا ومَن فيها؟

موسى بن نصير: ملكك اللعين أخرج أبانا من الجنّة فهيهات أن تُخرجنا من الدين.

عبد الصمد: ألك علم سابق بمدينة النحاس؟

صوت الجنّ: كيف لا وأنا الذي قضيت عليها بالموت المسحور.

موسى بن نصير: إذن هي مدينة ميتة؟

صوت الجنّ: تلقّت ميتتها المسحورة منذ حوالي عشرين ألف سنة...

طالب بن سهل: عشرون ألف سنة؟!... كأنّما ماتت لساعتها، ولٰكن لِمَ قضيت عليها بما قضيت؟

صوت الجنّ: وقع قمقمي بين يدي الملكة ضمن صَيْد لها أصابه صيّاد القصر، ولمست يدها مفتاح القمقم وهي تقلّبه فخرجت لها، وسرعان ما أدركت مدى القوّة التي أذعنت لها، ثمّ وعدتني بإطلاق سراحي إذا حقّقت لها ما تشاء، وإذا بها تتمادى في غيّها حتّى الكفر، ولّما كنت عفريتًا مؤمنًا بالله رغم معصيتي فقد غضبت وأنزلت بها الميتة المسحورة التي تبقيها على حالها لا تتغيّر عبرة للمعتبرين، نابذًا وعدها لي بالتحرّر، هٰكذا ماتت المدينة ورجعت رغم إرادتي إلى البحيرة...

عبد الصمد: سوف نخبر مولانا الخليفة بتضحيتك في سبيل الله وستكون خير تمهيد للإفراج عنك...

صوت الجنّ: طال انتظاري للعفو والرحمة...

طالب بن سهل: لٰكن من يثبت لنا صدقك؟

صوت الجنّ: بوسعي أن أجعل المدينة شاهدًا على صدقي.

طالب بن سهل: كيف؟

صوت الجنّ: بوسعي أن ألغي سحر الموت عنها نهارًا فتشهد بعينيك ساعاتها الأخيرة.

موسى بن نصير: ألا يصيبنا سوء إذا عثروا علينا؟

صوت الجنّ: كانت مدينة عظيمة تموج بألوان البشر من الوافدين.

موسى بن نصير: وكيف نفهم لغتها أو تفهم لغتنا؟

صوت الجنّ: هٰذا عليّ هيّن.

طالب بن سهل: (بحماس) لا بدّ من خوض هٰذه التجربة المثيرة، افعل أيّها العفريت.

صوت الجنّ: إليكم آخر نهار من حياة المدينة، من طلوع الشمس حتّى مغيبها.

يهبط الظلام

٥

إضاءة

موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد، يقفون ناحية من الميدان غير بعيد من مدخل المدينة. يتابعون ما يحدث هنا وهناك وقد يعلّقون عليه. ومنظر النهار يبدأ والميدان خالٍ إلّا من شرطيّ يتقلّد سيفه ويتفقّد الحوانيت. يمرّ عابر ثمّ آخر. يقبل التجّار فيفتحون حوانيتهم ثمّ يقبل الزبائن نساء ورجالًا وشبّانًا وتدبّ الحياة وتتصاعد.

موسى بن نصير: (ذاهلًا) أيّها الأموات.

طالب بن سهل: (متأمّلًا) كما كنتم وكما نحن تكونون.

عبد الصمد: أموات لا يخطر لهم الموت ببال.

من حانوت قريب تترامى أصوات. فتاة تقلّب بين يديها أقمشة، وشابّ أيضًا يفعل مثلها.

التاجر: (للفتاة) إنّه فاخر ومناسب وسيكون عليك فتنة للناظرين.

الفتاة: سأشهد به حفل زفاف في الشهر القادم، أرني أجمل ما عندك.

التاجر: إليك هٰذا الثوب وهو بخمسمائة.

الفتاة: الأسعار ترتفع بجنون.

الشابّ: لكي تغطّي أرباح الجشعين من التجّار والحاشية!

التاجر: (للشابّ) من أجل طول ألسنتكم ضاقت عنكم السجون!

الشابّ: لن يبقى خارج الأسوار إلّا العبيد.

صوت الجنّ: (للرجال الثلاثة) لم يحظ بالسيادة في المدينة سوى الملكة والحاشية ورجال الأمن والتجّار، وقد استعبدوا الشعب واستغلّوه، ولّما سقط القمقم بين يدي الملكة قرّرت أن تستعبد جميع قبائل الأرض.

موسى بن نصير: الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام فأنقذ كرامة البشر.

***

يقبل شابّ فتعترض سبيله فتاة جميلة ثمّ تتبعه مغازلة إيّاه وهو يمتنع ويتدلّل.

الفتاة: كيف تسير وحدك يا جميل؟

الشابّ: هٰذا وقت عمل أليس لديك ما يشغلك؟

الفتاة: ما يشغلني شيء عنك، تعال إلى نزهة وكأس عند البحيرة.

الشابّ: (مسرعًا) إن لم تنصرفي ناديت الشرطة!

عبد الصمد: (للقمقم الذي أخفاه في عباءته) ما معنى هٰذا؟

صوت الجنّ: كان للنساء المقام الأوّل في المدينة وبخاصّة في عهد الملكة ترمزين وكانت الفتاة هي التي تخطب عريسها وهي التي تغازل الفتى وهي التي تتمتّع بحرّيّتها الجنسيّة بخلاف الشابّ.

طالب بن سهل: (ضاحكًا) إذن لم تخلُ المدينة من طرائف مفيدة!

موسى بن نصير: (باسمًا) انتظر خيرًا أيّها الأمير فأنت الذي تمثّل الشباب بيننا!

***

تقترب متسوّلة من الرجال الثلاثة في جلبابها الرثّ.

المتسوّلة: (للرجال الثلاثة) أعطوني ممّا أعطاكم الإله، أريد مأوًى ورجلًا وعبدًا ومورد رزق ثابت. . .

طالب بن سهل: فليرزقك الذي خلقك.

المتسوّلة: (غاضبة) عليكم اللعنة.

***

يُقبل رجل مريض يتوكّأ على ذراع زوجته.

المريض: (للرجال الثلاثة) أين الطريق إلى المستشفى؟

موسى بن نصير: نحن غرباء لم نعرف مدينتكم بعد، شفاك الإله.

المريض: غرباء! إنّكم أصل المصائب، تجيئون إلينا من أطراف الأرض حاملين أمراضكم معكم، فتسرقون نقودنا وتعطوننا أمراضكم. . .

يبصق ثمّ يذهب. . .

***

يقدم موكب رجل غنيّ. عبيد يحملون هودجه، وعبيد يتقدّمون موكبه وهم يوسعون له طريقًا بين الناس بالعنف.

شابّة: (لزميل يتأبّط ذراعها) هٰذا سلوكهم، ماذا يفعلون غدًا وقد سخّروا العفريت لخدمتهم؟

صوت الجنّ: (للرجال الثلاثة) أعترف لكم بأنّ هٰذا القول وأشباهه أثّرت فيّ إذ إنّني كنت أنتمي إلى شعب العفاريت المضطهَدين. . .

***

رجل عجوز يقف ناحية من الميدان.

العجوز الضرير: من يسمع كلمة تنفعه؟. . . من يسمع كلمة تنفعه؟

يُقبل عليه نساء ورجال ذوو مظهر حسن وهم يتغامزون.

امرأة: (للعجوز) ماذا عندك ممّا ينفع الناس؟

العجوز الضرير: إنّي أعمى. . .

امرأة: (مقاطعة) هٰذا واضح.

العجوز الضرير: ولٰكنّي أرى خيرًا منكم.

ضحك.

العجوز الضرير: أرى أشياء جميلة غير الشراء والربح والفستق والسكر وامتلاك العبيد.

كهل وجيه: يا لك من أعمى.

العجوز الضرير: وأرى الموت أقرب إليكم من أجسادكم.

أصوات: عليك اللعنة.

يقترب الشرطيّ فيضع يده على منكب الضرير.

العجوز الضرير: مَن أنت؟

الشرطيّ: شرطيّ، ماذا تقول؟

العجوز الضرير: (في خوف) أقول لهم إنّ خدمة الملكة ترمزين أهمّ من الربح وامتلاك العبيد.

الشرطيّ: (بخشونة) اذهب لحال سبيلك، مولاتنا

الملكة ليست في حاجة إلى أحد...

***

يخرج حاجب من باب مكتوب أعلاه «العدل أساس الملك».

الحاجب: محكمة!

يتوجّه كثيرون نحو المحكمة ويقفون على مبعدة.

يخرج شرطيّ سائقًا أمامه رجلًا معصوب العينين يئنّ بصوت مسموع فيدفعه بعيدًا عنه ثمّ يخاطب الجمهور.

الشرطيّ: ادّعى هٰذا الرجل أنّه توجد نجوم لا تُرى بالعين فحُكم عليه بفقأ عينيه.

يدخل الشرطيّ ثمّ يجيء بشابّ يسير مفرّجًا الجمهور.

الشرطيّ: هٰذا الشابّ طالب بمساواة الرجال بالنساء فقُضي عليه بالإخصاء...

ضَحِك.

يدخل الشرطيّ ثمّ يرجع بنعش محمول. ثمّ يخاطب الجمهور.

الشرطيّ: هٰذه جثّة مجرم، احتجّ جهرًا على تسخير جلالة الملكة للعفريت...

ثمّ يرجع وهو يقول:

الشرطيّ: وفي الغد البقيّة فإلى الغد...

عبد الصمد: (للقمقم) أهلكت المدينة كلّها؟

صوت الجنّ: نعم.

عبد الصمد: وما ذنب هٰذا الشعب التعيس؟

صوت الجنّ: قرّرت إهلاك الظالمين بظلمهم والآخرين بنفاقهم وجبنهم.

عبد الصمد: ألم توجد بينهم مقاومة؟

صوت الجنّ: بلى، منهم مَن قُتل، ومنهم مَن هاجر فنجا...

***

صوت طبل يجيء من ناحية القصر الملكيّ. الأنظار تتّجه نحو القصر. يخرج الحاجب الأكبر محوطًا بحرس ثمّ يمضي حتّى يقف في وسط الميدان. يلتفّ الجمهور حوله. حتّى التجّار يغادرون حوانيتهم. يقترب من الجمع موسى بن نصير وطالب بن سهل وعبد الصمد.

صمت

الحاجب الأكبر: إعلان هامّ من حضرة صاحبة الجلالة الملكة ترمزين إلى شعبها الوفيّ الأمين.

صمت

بناء على ما تيسّر لنا من قوّة لانهائيّة بفضل تسخيرنا لقوّة الجنّ في خدمة شعبنا وتحقيق السيادة له على الأرض.

وبناء على نيّتنا الصادقة في ممارسة هٰذه القوّة بالحكمة والعدل ومراعاة سعادة شعبنا بصفة خاصّة وشعوب الأرض بصفة عامّة، فقد تفضّل الإله المعبود فأضفى رضاه عنّا، وأصدر قراره بالنزول لنا عن عرشه فوق الأرض.

وإطاعة لقراره المقدّس يتعيّن علينا أن نصبح المعبود الأوحد في الأرض، وحقّ على شعبنا أن يعبدنا وأن يقدّم لنا القرابين في الأعياد الدينيّة.

وبهٰذه المناسبة المقدّسة فإنّي أدعو شعبي لشهود حفل التتويج الإلٰهيّ في هٰذا الميدان عند غروب الشمس.

صمت

الحاجب الأكبر: (يهتف) لتحيَ الإلٰهة ترمزين.

أصوات الحرّاس وبعض المتجمهرين: لتحيَ الإلٰهة ترمزين.

الحاجب الأكبر والحرّاس يرجعون إلى القصر.

موسى بن نصير: أعوذ بالله الواحد الأحد.

عبد الصمد: قتل الإنسان ما أكفره!

طالب بن سهل: كيف اختبأ الفجر البشع وراء ذٰلك الوجه الجميل!

***

وجيه: (لزميل له) كان الإلٰه يتّخذ من الأصنام رموزًا له وها هو أخيرًا يتّخذ رمزًا حيًّا جميلًا...

الزميل: فلتحلّ بنا البركات...

***

تاجر: (لزميل له) مَن يصدّق أنّني حلمت بهٰذه المعجزة ليلة أمس؟

الزميل: إنّك رجل ذو قلب نقيّ...

***

يتجمّع نفر من الشباب نساء ورجالًا على مبعدة يسيرة

من الرجال الثلاثة.

شابّ: متى وكيف قرّر الإله ألّا يُعبد في الأرض؟

شابّ ثانٍ: ماذا يحدث لنا بعد موت المعبودة الجديدة؟

شابّة: في الحقّ نحن مدعوّون لعبادة العفريت المسخّر.

موسى بن نصير: (غير متمالك نفسه من الدخول في حوارهم) أيّها الناس إنّه كفر وإنّه لا إله إلّا الله...

الشابّ الأوّل: (لموسى) ماذا قلت أيها الغريب؟

موسى بن نصير: (محتدًّا) قلت إنّه كفر ولا يجوز أن يضلّكم عن إيمانكم...

الشابّ الثاني: (لموسى) صه... لا يخلو المكان من آذان وعيون... هلمّ إلى الحقول لنستمع إليك في أمان...

طالب بن سهل: (يمسك بذراع موسى بن نصير ويقول) إيّاك أن تذهب معهم أيّها الأمير.

موسى بن نصير: السكوت على الكفر كفر.

طالب بن سهل: لقد مضى على الحوار عشرون ألف سنة.

موسى بن نصير: (يذهب قائلًا) سأغيّر الماضي كما أغيّر المستقبل.

يذهبون.

طالب بن سهل: لقد زجّ بنفسه في متاعب ماضٍ انقضى منذ عشرين ألف سنة.

عبد الصمد: نحن ملتحمون به الآن ولا ندري كيف يتعامل معنا.

طالب بن سهل: كأنّني في حلم...

عبد الصمد: إنّه حلم في باطن حلم!

***

صوت موسيقى من ناحية القصر.

يخرج موسيقيّ ومُنشِد يتبعهما عبيد يحملون دنان الخمر.

يملئون الكئوس... يقدّمونها للناس.

خادم: نخب المعبودة.

خادم ثانٍ: اشرب واطرب وتمتّع بحياتك.

خادم ثالث: الدنيا قبلة وكأس.

أناس يقبلون على الشراب ويشيع الطرب.

يذهب السقاة وهم يوزّعون الخمر. تترامى أصوات موسيقى شعبيّة، يظهر فريق جديد من طريق جانبيّ يدلّ مظهره على أنّه يمثّل «سيرك» ويعلن عنه. يتقدّمه منادٍ يتبعه بلياتشو ورجال أقوياء مصارعون وحاملو أثقال.

المنادي: بشرى... بشرى...

الناس يلتفتون نحو المنادي.

المنادي: السيرك الكبير يشارك في أفراح الشعب لمناسبة تتويج معبوده الجديد بعرض خاصّ هٰذه الليلة، برنامج حافل لم يسبق له مثيل، إليكم بعض النُّمَر المختارة.

مصارعة حرّة بين أسد جائع وبين رجل من أهل مدينتنا ثبتت خيانته في مطالبته بتحرير العبيد. عرض نماذج من مجانين ممتازين نساء ورجالًا سبق أن تولّوا مناصب هامّة في الدولة.

حَرْق رجل وهو حيّ لاعتراضه على عبادة الملكة ترمزين.

رجل وامرأة يعرضان قواهما الجنسيّة العجيبة.

ساحر السيرك يتنبّأ لأيّ زبون عن مستقبله.

نشيد جديد عن الأبطال الذين بنوا مدينتنا سيّدة الدنيا.

الناس تتابع الإعلان، وعند نهاية كلّ مقطع يتصاعد الهتاف.

طالب بن سهل: (ساخرًا) واأسفاه... لن يسعدنا الحظّ بمشاهدة هٰذا العرض الحافل.

عبد الصمد: (باسمًا) من يدري؟ قد ينجح الأمير موسى في تغيير الماضي!

***

ضجّة تجيء من طريق جانبيّ. تتقدّم الجماعة المتمرّدة على رأسها موسى بن نصير وقد أحاط بهم جنود شاكو السلاح يسوقونهم نحو القصر.

طالب بن سهل: (بجزع) اكتشفت السلطة أمرهم، ما العمل؟ أخاف أن يصيب أميرنا سوء؟

عبد الصمد: (محاولًا تهدئته) هل تستطيع يد هالكة منذ عشرين ألف سنة أن تؤذي إنسانًا من زماننا؟

طالب بن سهل: محتمل أن يؤثّر سحر قديم في

أحدنا، أليس كذٰلك؟

عبد الصمد: (للقمقم) أثمّة خوف حقًّا على صاحبنا؟

صوت الجنّ: إنّي لا أعلم الغيب...

عبد الصمد: لكنّهم أموات يعيدون تمثيل أحداث وقعت وبلا زيادة.

صوت الجنّ: أضاف صاحبكم بتدخّله حدثًا جديدًا.

طالب بن سهل: أرجعهم إلى ما كانوا عليه قبل أن تمتدّ يد بسوء إلى الأمير.

صوت الجنّ: هٰذا ما أعجز عنه وهيهات أن يتكرّر قراري قبل اللحظة التي وقع فيها.

طالب بن سهل: يا للفظاعة، لن أتردّد عن التدخّل لدى أوّل فرصة...

صوت الجنّ: إنّها حياتك فافعل ما تشاء.

طالب بن سهل: (لعبد الصمد) لعلّك تعرف قراءة الطالع؟

تسمع السؤال امرأة مارّة فتقف ثمّ تقترب من عبد الصمد.

المرأة: أودّ أن تقرأ لي طالعي...

سرعان ما يتجمهر أناس حوله مستطلعين.

عبد الصمد: لست عرّافًا...

المرأة: سمعتك تقرأ لصاحبك طالعه.

عبد الصمد: ما سمعت من ذٰلك شيئًا.

رجل: بل سمعتك... لماذا تضنّ علينا بقدرتك؟

المتجمّعون يلحّون في غضب.

طالب بن سهل: اقبل، قل ما يحلو لك، وأنقذنا من غضبهم.

عبد الصمد: عظيم... عمّ تسألون؟

المرأة: الذي في بطني أنثى أم ذكر؟

عبد الصمد: ذكر... أبشري...

المرأة: (بفزع) أتسخر منّي أيّها الدجّال!

عبد الصمد: (هامسًا لطالب بن سهل) نسيت وربّ الكعبة.

شابّ: (لعبد الصمد) ألا سبيل إلى مقاومة العفريت؟

عبد الصمد: لا تنسَ أنّه يعمل في خدمة إنسان!

الشابّ: (بحماس) بلى، سيظلّ الإنسان هو الأقوى.

كهل: ما علاج الخوف من الموت؟

عبد الصمد: الموت نفسه.

غضَب من الكهل وضَحِك من الجمهور.

فتاة: متى يزول الظلم؟

عبد الصمد: بعد ساعات.

الفتاة: ماذا تعني؟

عبد الصمد: ليس عندي زيادة.

رجل: قضيّتي هل أكسبها؟

عبد الصمد: لن يكسبها خصمك!

الرجل: إنّي أسأل عمّا يخصّني.

عبد الصمد: ليس عندي زيادة.

امرأة هزيلة: متى أشفى من مرضي؟

عبد الصمد: قبل حلول المساء.

المرأة: ما أحلى كلامك لو يتحقّق.

يمرّ الشرطيّ فيفترق الناس.

طالب بن سهل: كاد يغلبني الضحك.

عبد الصمد: ما أعجب أن تحاور أمواتًا!

طالب بن سهل: من موقعنا هٰذا ينكشف لنا الغيب طيلة هٰذه التجربة الفريدة.

عبد الصمد: حتّى ذٰلك لا نستطيع أن نجزم به.

طالب بن سهل: نحن أحياء وهم أموات.

عبد الصمد: حسن أن تقول ذٰلك لنطمئنّ على أميرنا لٰكن لا تنس أنّهم الآن أحياء وأنّنا لم نولد بعد.

طالب بن سهل: أودّ أن أفعل شيئًا لإنقاذ موسى...

***

من القصر يخرج رئيس الشرطة يتبعه حرّاس. تُنصب منصّة في الميدان.

حاجب: الشرطة تحاكم المتمرّدين تمهيدًا لإحالتهم على المحكمة.

الجمهور يهرع للمشاهدة.

رئيس الشرطة يجلس على المنصّة. يقدّم أمامه مجموعة المتمرّدين وعلى رأسهم موسى بن نصير.

طالب بن سهل: ها هو الأمير، لن يمسّه أحد بسوء وأنا حيّ...

عبد الصمد: تمهّل... ولنتابع الماضي وهو يحاكم المستقبل.

رئيس الشرطة: (للمتمرّدين) إنّكم شباب أرعن، لا

إلٰــه لكم، وجهـركم بــالشرّ يغني عن مساءلتكم، ستمثلون غدًا صباحًا أمام القاضي في المحكمة.

رئيس الشرطة يلتفت نحو موسى بن نصير ويقول:

رئيس الشرطة: ماذا أوجدك بين هٰؤلاء الشبّان وأنت كهل، ما كنت أتصـوّر أنّ الكهول قـابلون للعدوى بأمراض الشباب، ما اسمك؟

موسى بن نصير: موسى بن نصير.

رئيس الشرطة: أيّ اسم هٰذا؟

مـوسى بن نصير: هٰـذا اسمي وأدعى به في الشرق والغرب.

رئيس الشرطة: إنّك تستحقّ بسببـه السجن، أأنت غريب؟

موسى بن نصير: نعم.

رئيس الشرطة: من أيّ البلاد؟

موسى بن نصير: من بلاد المغرب.

رئيس الشرطـة: لا علم لي بهـا، أنـت كـاذب، جاسوس وكاذب، ما عملك؟

موسى بن نصير: أمير المغرب.

رئيس الشرطة: لن ينفعك ادّعاء الجنون.

موسى بن نصير: إنّي أعرف أكثر منك بعشرين ألف سنة.

رئيس الشرطة: لن ينفعك ادّعاء الجنون، إنّك متّهَم بترويج أفكار مستوردة لإفساد شبابنا.

موسى بن نصير: ما قلت لهم إلّا الحقّ وهو أنّه لا إلٰه إلّا الله.

رئيس الشرطة: ها أنت تعترف بكفرك على الملأ فما أنت إلّا جاسوس يروّج للكفر.

مـوسى بن نصـير: سـوف يحـلّ بكم العقـاب بعـد ساعات ولا خلاص لكم إلّا باتّباع قولي.

رئيس الشرطة: سنرى من الذي سيحلّ به العقاب، سأفصل رأسك عن جسدك بيدي هٰذه صباح الغد.

رئيس الشرطة: (للجنود) أعيدوهم إلى السجن.

الجنود يسوقون المتّهمين إلى القصر.

***

يجيء رجلان وقوران، يقفان على مقربة من طالب بن سهل وعبد الصمد دون أن يفطنا إلى وجودهما.

الأوّل: سيّدي الأستاذ نحن في ورطة.

الثاني: لكلّ مشكلة مفتاح.

الأوّل: قضينا العمر ونحن ندرّس لأجيال من طلّاب العلم فلسفة تبجّل الإلٰـه وقدرتـه، وتحلّل الإنسـان وفناءه، فكيف يكون موقفنا اليوم أيّها الزميل؟

الثاني: نقول في ترمزين ما قلناه في الإلٰه.

الأوّل: وكيف تفسّر تناقضنا بين اليوم والأمس؟

الثاني: رأى الإلٰه بقدرته اللانهائيّة أن يرفع الملكة إلى مرتبة الألوهيّة...

الأوّل: ولماذا ينزل الإلٰه عن سلطانه لبشر فانٍ؟

الثاني: لم تعد فانية.

الأوّل: وإن أدركها الموت؟

الثاني: أعتقد أنّنا سنسبقها إليه.

الأوّل: ومحتمل أن تسبقنا هي.

الثاني: نقول إنّ حكمة الإلٰه لا تناقَش.

الأوّل: وإذا تمادوا في المناقشة؟

الثاني: نستعين بالشرطة فهي البرهان الأخير لمن لا يقتنع.

الأوّل: (ضـاحكًـا) الآن شرحت صـدري، والآن نستطيع أن نعدّ الخطبة التي سنلقيها عند الغروب...

يذهبان....

طالب بن سهل: (متعجّبًا) حتّى أهل العلم!

عبد الصمد: يؤسفني أيّها الأمير أن أذكّـرك بأنّ دار الإسلام لا تخلو من أمثالهم...

طالب بن سهل: (دهشًا) أأنت من شيعة عليّ بن أبي طالب؟

عبد الصمد: إنّي من شيعة الحقّ ورزقي على الواحد الأحد.

***

يقترب نفر من الشرطـة من موقف طـالب بن سهل وعبد الصمد.

الشرطيّ: (لعبد الصمد) أنت العرّاف؟

عبد الصمد: ما أنا بعرّاف.

الشرطيّ: ترامى خبرك إلى جلالة الملكة فقرّرت أن تسمعك. أبشر بحظّك السعيد واتبعني.

يتردّد عبد الصمد ولٰكنّ الجنود تدفعه صوب القصر.

طالب بن سهل: لم يبقَ سواي، أصبحت وحيدًا في هٰذه المدينة الميتة، ترى بأيّ حال تنتهي هٰذه المغامرة؟

***

ما يكاد يتمّ قوله حتّى تقترب منه امرأة كهلة حسنة المنظر.

المرأة: أبشر أيّها الشابّ السعيد.

طالب بن سهل: ماذا وراءك يا سيّدة؟

المرأة: اتبعني إلى حظّك السعيد.

طالب بن سهل: أيّ حظّ سعيد؟

المرأة: لقد رأتك الملكة ترمزين من نافذة قصرها!

طالب بن سهل: (بذهول) الملكة ترمزين.

المرأة: وهي تدعوك إلى حظّك السعيد، اتبعني.

تسير المرأة فيتبعها طالب بن سهل منفعلًا بصورة واضحة.

يهبط الظلام
٦
إضاءة

بهو العرش. الملكة ترمزين جالسة فوق العرش. حجّاب. حرّاس.

تدخل المرأة.

المرأة: (تنحني) مولاتي، إنّه ينتظر.

الملكة: أذنت له.

الملكة تشير إلى الحجّاب والحرّاس فينسحبون. يدخل طالب بن سهل. ينحني تحيّة.

الملكة تبتسم. تشير إلى مقعد قريب فيجلس عليه. تمعن فيه النظر بإعجاب لا تحاول إخفاءه. طالب يبادلها النظر بتأثّر.

ترمزين: العين أصدق رسول وأخلص دليل.

طالب بن سهل: هي كذٰلك يا مولاتي.

ترمزين: حدّثني عن نفسك.

طالب بن سهل: اسمي طالب بن سهل.

ترمزين: غريب مثل صاحبيك؟

طالب بن سهل: ومن بلاد بعيدة.

ترمزين: ما كنت أتصوّر أنّه يوجد غريب بصورتك وقوامك.

طالب بن سهل: الغرباء مثل رعاياك يسعون ويحبّون ويموتون.

ترمزين: لا تجدّف إنّك استثناء، ما عملك؟

طالب بن سهل: تاجر.

ترمزين: تاجر وعرّاف وجاسوس... ماذا جمعكم؟

طالب بن سهل: لقد تورّط صاحبنا دون قصد سيّئ.

ترمزين: لا تدافع عن مجرم، ولٰكن لندعْ هٰذا الحديث جانبًا، قلت إنّك تاجر، التاجر شخص ممتاز ومفيد، ولٰكنّ موضعك الحقيقيّ بين الحجّاب أو الحرّاس...

طالب بن سهل: ما أنبل نواياك يا مولاتي!

ترمزين: نحن النساء ننتظر قدرنا منذ البلوغ، وصدّقني فإنّك أوّل رجل في حياتي...

طالب بن سهل: من السعادة يا مولاتي ما يعزّ على الأحلام.

ترمزين: (باسمة) فيك جرأة محبّبة، ما من شابّ في موقفك إلّا ويُبدي الخجل والتمنّع، أمّا أنت فتجاهر بسعادتك بلا تردّد، أصارحك بأنّه يعجبني الشابّ المتحلّي بأحوال النساء!

طالب بن سهل: (مداريًا ابتسامة) أخرجني الانبهار من الحياء.

ترمزين: بالصدق والصراحة هل تبادلني عواطفي؟

طالب بن سهل: أجل... أجل يا مولاتي، ومنذ قديم.

ترمزين: حقًّا؟... لعلّك رأيتني في احتفال البحيرة؟

طالب بن سهل: رأيت جمالك في خلوده.

ترمزين: رأيتك من نافذتي، من نظرة عابرة، دلّتني على أغنيتي المفضّلة...

طالب بن سهل: ليهنأ كلّ محبّ بحبّه إكرامًا لحبّنا.

ترمزين: ولٰكن تجيء المتاعب في أعقاب الحبّ!

طالب بن سهل: المتاعب؟

ترمزين: اختيار غريب لرئاسة الحرس قرار مثير للاستياء.

صمت

ترمزين: وزواجي من بشر عقب جلوسي على عرش الآلهة مستحيل، ولٰكنّك ستكون أقرب إليّ من أنفاسي المتردّدة.

طالب بن سهل: (بنبرة غلبها الحزن) ستصفو لنا الأيّام.

ترمزين: وجهك ينطق بالأسى على حين يلهج لسانك بالسعادة.

طالب بن سهل: إنّي أتساءل هل يسعد إنسان حقًّا بحبّ إلٰهة؟

ترمزين: بين يديك سأظلّ امرأة!

طالب بن سهل: قلبي يتوجّس خيفة.

ترمزين: يا له من قلب ساذج.

طالب بن سهل: لم يحدث ذٰلك لبشر من قبل.

ترمزين: كأنّما يداخلك شكّ في قدرتي؟

طالب بن سهل: إنّي بشر وأتمنّى ألّا تتخلّى حبيبتي عن بشريّتها...

ترمزين: لديّ من القوّة ما أستطيع أن أطيّر به مدينة في الفضاء.

طالب بن سهل: قوّة عفريت مذنب.

ترمزين: القوّة هي القوّة بصرف النظر عن مصدرها، ماذا يملك الإلٰه أكثر من ذٰلك؟

طالب بن سهل: يملك القوّة ومصدرها والمسيطر عليها.

ترمزين: إنّك تذكّرني بأقوال الخونة!

طالب بن سهل: ما أنا إلّا محبّ يحبّ حبّه ويحرص عليه.

ترمزين: ستجد ألّا أصل لمخاوفك وأوهامك.

طالب بن سهل: أتوسّل إليك أن ترجعي عن قرارك قبل فوات الفرصة.

ترمزين: أرجع؟

طالب بن سهل: أتوسّل إليك، من أجل حبّنا، من أجل سعادتنا.

ترمزين: سنكون أقدر على الاستمتاع بها من جميع البشر.

طالب بن سهل: إنّها تجربة تنذر بالهلاك...

ترمزين: الهلاك؟!... ماذا قلت؟

طالب بن سهل: ارحمي قلبي وحبّي.

ترمزين: ما أعجب الحبّ، لو نطق غيرك بما نطقت به لفصلت رأسه عن جسده...

طالب بن سهل: ابقي امرأة لا إلٰهة.

ترمزين: ستجدني المرأة وقتما تشاء.

طالب بن سهل: (بحرارة) أصغي إليّ باسم الحبّ، صدّقي قلبًا يهيم بحبّك فالحبّ يلهمه الصواب، أقول إنّ الهلاك معلّق فوق رأسك فتجنّبيه، خذي الحبّ ودعي الموت، استجيبي لي لعلّ معجزة تقع...

ترمزين: (ضاحكة) أيّها الرعديد المحبوب، ستشهد التتويج بنفسك، ثمّ نرجع لنصنع من حبّنا الأعاجيب.

طالب بن سهل: (بأسى) لن نذوق من الحبّ قطرة واحدة.

ترمزين: (بحدّة) إنّك تحدّث عن الموت كأنّه حقيقة واقعة.

طالب بن سهل: لقد رأيته بعينيّ!

ترمزين: (ساخرة) أأنت عرّاف أم تاجر؟

طالب بن سهل: أنا محبّ والمحبّ يرى ما لا يراه الآخرون.

ترمزين: كفى، لن ننتهي إلى اتّفاق، تعلّق بمخاوفك حتّى تنقشع في ليلتنا السعيدة، حسبنا ما ضاع في نقاش عقيم، إنّي أنتظر صاحبك العرّاف الذي أجّلتُ لقاءه لهفتي عليك، لنسمع صوت الغيب الصادق.

تصفّق. يدخل حاجب.

ترمزين: إليّ بالعرّاف.

الحاجب يذهب. عبد الصمد يدخل. يرفع يديه تحيّة. يلمح طالب بن سهل ولٰكنّه يتجاهله. يجلس عندما تشير إليه الملكة بالجلوس.

ترمزين: (لعبد الصمد) أبلغتني عيوني المنتشرة في كلّ مكان عن قدرتك.

عبد الصمد: ما أنا إلّا عبد.

ترمزين: لديّ أسئلة عن الغيب قبل أن يسفر لي عن وجهه عند المغيب.

عبد الصمد: ما أنا إلّا عبد.

ترمزين: تواضُع محمود، أجبني يا رجل هل يوجد متمرّدون آخرون غير الذين قبض عليهم اليوم؟

عبد الصمد: التمرّد كامن في القلوب، جهر به البعض فقُبض عليهم، وأخفاه الآخرون وراء أقنعتهم الكاذبة...

ترمزين: (بحدّة) ماذا قلت؟
عبد الصمد: أقول ما يخطر لي وإن شئتِ سكتّ.
ترمزين: ألا يؤمن بي أحد؟
عبد الصمد: حتّى الشيطان في قمقمه يعبد الإله.
ترمزين: خيّبت ظنّي بك.
عبد الصمد: حَذارِ من قرارك، سينفجر لعنة مدمّرة على الأرض.
ترمزين: وما مصير ترمزين؟
عبد الصمد: مصيرك بيدك.
ترمزين: إنّي أحبّ الحياة.
عبد الصمد: ما عليك إلّا أن تحبّيها بصدق.
ترمزين: أحبّها وأحبّ الحبّ.
عبد الصمد: إذن تراجعي عن الموت.
ترمزين: إنّي أدرك ما ترمي إليه.
عبد الصمد: ستهلكين عند مغيب الشمس.
ترمزين: أعلم يقينًا أنّك كاذب، أتدري ماذا يصيبك إذا نجوت؟
عبد الصمد: إذا نجوت من الموت فأرسليني إليه.
طالب بن سهل يرفع يده مستأذنًا في الكلام.
ترمزين: تكلّم يا طالب.
طالب بن سهل: مولاتي، هٰذا الرجل يتكلّم بثقة، وقد راهن على صدقه بحياته.
ترمزين: إنّي أملك قوّة لا تقاوَم.
عبد الصمد: عفريتك عبد للإلٰه، سيغضب لإلٰهه فيتخلّى عنك ولو فقد آخر أمل في تحرّره.
طالب بن سهل: سوف يدمّرك فوق عرش الألوهيّة.
ترمزين: (غاضبة) الآن وضح الحقّ، ما أنت يا طالب إلّا نسيج في مؤامرة، مثل هٰذا العرّاف الكاذب، ومثل صاحبكم الذي قُبض عليه وهو يؤلّب شعبي عليّ.
ترمزين تصفّق. يدخل حاجب.
ترمزين: أحضروا الجاسوس.
ترمزين: (للرجلين) إنّكم تخافون القوّة المسخّرة أن تُذلّ شعوبكم، ولكنّي سأعتلي بها عرش الألوهيّة وأسود الأرض، الحبّ نفسه يا طالب لن يغريني بخيانة مدينتي المقدّسة...

يحضر موسى بن نصير ويسمع آخرة خطابها ثمّ يقف.
ترمزين: (تلتفت إلى موسى بن نصير غاضبة) ها هو الجاسوس الذي سيفصل رأسه عن جسده غدًا (ثمّ ملتفتة إلى طالب بن سهل) أمّا أنت فإنّك شرّ الثلاثة لقد اتّخذ أحدهما من الجاسوسيّة وسيلة إلى هدفه، ومارس الثاني الدجل، أمّا أنت فأهنت الحبّ المقدّس، أنزلته من علياء سمائه وجعلته خدعة دنيئة...
طالب بن سهل: (بحرارة وأسًى) أقسم بربّي أنّي أحبّك من كلّ قلبي، وأنّني أتحدّى الماضي والواقع لأنقذك من العدم...
ترمزين: هيهات أن أصدّقك.
موسى بن نصير: (منفعلًا) الوقت يقترب بسرعة مخيفة، وإذا أردنا أن نخوض التجربة المتاحة النادرة وهي تغيير الماضي فما علينا إلّا أن نكاشفها بالحقيقة.

صمت

موسى بن نصير: (للملكة) أيّتها الملكة... إنّك في الحقيقة ميتة قد شبع منك العدم.
ترمزين: (تضحك ساخرة) أيّها الضالّ المضلّل، بلغني أنّك تدّعي الجنون، ولٰكنّك ستنال جزاءك غداة الغد، أنت أنت الميت لا ترمزين.
موسى بن نصير: إنّك ميتة منذ عشرين ألف سنة!
ترمزين: (مغرقة في الضحك) خوفكم من قوّتي أذهبَ عقولكم، فلتذهب إلى الجحيم ولتبق ترمزين ومدينتها إلى الأبد...
عبد الصمد: ما أشقّ أن تُقنع حيًّا بأنّه ميت.
طالب بن سهل: مولاتي، أعيرينا أذنك لتسمعي قصّة مدينتك.
ترمزين: أيّها المخادع الكذّاب هل تشاركهما جنونهما؟ هل تراني ميتة أيضًا؟
طالب بن سهل: لقد اكتشفنا المدينة وما بها إلّا جثث أهلها. ولّما استخرجنا العفريت من البحيرة اعترف لنا بأنّه هو الذي أنزل بها الموت المسحور جزاء كفرها، ولكي يثبت لنا صدقه أوقف سحره نهارًا واحدًا هو هٰذا النهار الذي يقترب من نهايته، هٰكذا دبّت فيكم حياة كالحلم لا تلبث أن تنقشع، وسوف يدرككم الفناء كما أدرككم أوّل مرّة...

ترمزين: يا للدجل والكذب والخداع!

عبد الصمد: اعدلي عن قرارك توهب لك الحياة من جديد.

طالب بن سهل: هي الحقيقة يا مولاتي، صدّقينا قبل فوات الفرصة النادرة.

ترمزين: أيّها الجواسيس الحقراء الحاقدون على عظمة مدينتي الموعودة!

موسى بن نصير: عن أيّ عظمة تتحدّثين؟ ما هي إلّا عظمة ذاتك ورجالك، إنّك تذلّين شعبك كما تذلّين الغرباء، حتّى أصحاب العقول والإلهام جعلت منهم عبيدًا ودُمًى، انظري، ها هو المستقبل يتجسّد أمام عينيك ويعدك بمعجزة فاستجيبي له، فمَن لم يفقه لغة المستقبل دمّره الحاضر.

ترمزين: (تخرج القمقم من تحت وسادة) أيّها العفريت. اقذف بالحقيقة في وجوه هٰؤلاء الجواسيس.

صمت

ترمزين: (مقطّبة) أيّها العفريت!

صمت

ترمزين: (ثائرة) فهمت... ما أنتم إلّا سحرة، تسلّطتم على لسان العفريت، ولٰكنّي ما زلت مالكته، وسوف يتحرّر من سحركم حال قتلكم...

طالب بن سهل: حبيبتي لا تهدري فرصة لا يجود بها الزمان أبدًا، أمامنا فرصة للحبّ والخلق معجزة يفيد منها عالمنا الحيّ، اقنعي بإنسانيّتك وفيها الكفاية من المجد، أطلقي سراح العفريت فما يجوز أن يملكه فرد به ضعف، حرّري شعبك، احترمي عقل الإنسان وقلبه، المجد لمن يخدم لا لمن يستخدم، ولنحظ بعد بأغنية الحبّ الخالدة فلا خالد في الدنيا إلّا أنغامها...

ترمزين: لا يوجد في الأحياء من يستطيع خداعي.

عبد الصمد: (للقمقم) كاشفها أنت بالحقيقة، دعنا نشهد المعجزة!

صمت

صوت العفريت: مولاتي ترمزين.

ترمزين: (بدهشة وسرور) أخيرًا تكلّمت.

صوت العفريت: إنّي رهن إشارة منك.

ترمزين: أيّها العفريت ما رأيك فيما قال هٰؤلاء؟

طالب بن سهل: نحن راضون بحكمه ولٰكن عليك أن تفقهي قوله.

ترمزين: (للقمقم) ما رأيك فيما قال هؤلاء؟

صمت

صوت العفريت: إنّك حيّة بل سيّدة الأحياء.

ترمزين تضحك في سرور وشماتة.

عبد الصمد: أيّها العفريت، ألم تُهلك المدينة وصاحبتها منذ عشرين ألف سنة؟

صوت العفريت: كذبت أيّها الجاسوس!

ترمزين: يا للنصر!

تصفّق. يدخل حاجب. تأمره بإحضار الجنود.

صوت العفريت: لا يجوز أن تعدمي أحدًا منهم قبل التتويج.

يدخل الجنود.

ترمزين: خذوا الجواسيس إلى السجن وآتوني برءوسهم لدى عودتي من التتويج.

تقف. تقترب من طالب وهو ضمن المقبوض عليهم.

ترمزين: (لطالب بن سهل) سوء الحظّ لم يدركك وحدك يا طالب...

طالب بن سهل: إنّي سيّئ الحظّ ما في ذٰلك من شكّ.

ترمزين: لا مجد بلا ثمن.

تشير إلى الجنود فيمضون بهم.

ترمزين: (محدّثة نفسها في أسًى) ولٰكن ما أفدح الثمن!

يهبط الظلام

٧

إضاءة

الميدان

حرّاس... الجمهور يتطلّع نحو العرش. موسيقى يتخلّلها هتاف كالهدير.

طبول يعقبها صمت شامل.

يظهر موكب الملكة ترمزين خارجًا من القصر في هالة بالغة من الكمال والجمال.

هتاف يستمرّ حتّى تجلس على العرش.

تشير الملكة إلى كبير الحجّاب.

يتقدّم كبير الحجّاب ويلقي خطبته:

«أيّتها الملكة المجيدة ترمزين، سيّدة عالمي الأحياء والأموات.

ودّعي آخر لحظة من حياة البشر الفانية، وتبوّئي عرش الألوهيّة الخالد، دمت لنا وللأرض إلهة خالدة».

فجأة يرعد انفجار مروّع يعقبه ظلام.

٨

إضاءة

المنظر الأوّل. منظر الميدان والجثث المتجمّدة. موسى بن نصير، طالب بن سهل، عبد الصمد.

موسى وعبد الصمد ينظران فيما حولهما. طالب مستغرق في النظر إلى ترمزين.

عبد الصمد: مدينة الموت.

موسى بن نصير: مدينة الحلم.

طالب بن سهل: مدينة الحبّ المستحيل.

عبد الصمد: (منفعلًا للقمقم) خدعتنا أيّها العفريت، ما زال قلبك ينبض بالشرّ!

صوت العفريت: أبَيْتُ أن أضيف إلى ذنوبي ذنبًا جديدًا.

عبد الصمد: أيّ ذنب في هداية امرأة ضالّة إلى الصواب.

صوت العفريت: لو فعلت لتعذّر عليّ إهلاكها، ولبعثت إلى الوجود مدينة ملعونة هلكت بظلمها لتواصل حياة غريبة متأخّرة عن دنياها عشرين ألف سنة، ولعمري إنّ ذٰلك شرّ من الموت نفسه.

موسى بن نصير: حجّة مقبولة فيما أرى، فما يهلك لظلم لا يحقّ بعثه.

صوت العفريت: حسبنا أنّ الثائرين قد هاجروا فنجوا ثمّ جاء عالمكم من ذراريهم...

عبد الصمد: (باسمًا) يبدو أنّه قد اندسّ بينهم نفر من المنافقين والجبناء... فما أبعد دنيانا عن الكمال...

موسى بن نصير: (ملتفتًا نحو طالب بن سهل) أَفِقْ أيّها الأمير فلا جدوى من التعلّق بحبّ زمان مضى...

صوت العفريت: لقد كفّرت عن ذنبي، أطلقوا سراحي أيّها الرجال الصالحون...

موسى بن نصير: عليك أن تقنع بذٰلك مولانا عبد الملك بن مروان.

صوت العفريت: صدّقوني لا يجوز أن يملك قوّتي إلّا حكيم.

موسى بن نصير: خليفتنا أحكم الحكماء.

صوت العفريت: لا يخلو من أهواء البشر وضعفهم، ألا ترون كيف يردّ على حجج معارضيه بالسيف المسلول؟

يتبادلون النظر في صمت.

موسى بن نصير: (للقمقم) إنّك قوّة لو استُغلّت للخير لجعلت من دنيانا جنّة.

صوت العفريت: ما تسلّط عليّ فرد إلّا جعل منّي نعمة له ولمن يحبّ ونقمة على الملايين، صدّقوني ما أَحْدَثَ عفريت منّا شرًّا إلّا تنفيذًا لمشيئة إنسان...

يتبادلون النظر مرّة أخرى.

عبد الصمد: لنطلق سراحه.

طالب بن سهل: هل أخيب في مهمّتي كما خبت في حبّي؟!

عبد الصمد: لا تتحمّل مسئوليّة ستُسأل عنها أمام ربّ العالمين.

صوت العفريت: قل لمولاك مَن يحكم بالإيمان فلا حاجة به إلى الشيطان.

عبد الصمد: انطلق أيّها العفريت فلقد نطقت بالحقّ.

عصر الحب

١

يقول الراوي:

ولكن من الراوي؟ ألا يحسن أن نقدّمه بكلمة؟

إنّه ليس شخصًا معيّنًا يمكن أن يشار إليه إشارة تاريخيّة، فلا هو رجل ولا امرأة، ولا هويّة ولا اسم له، لعلّه خلاصة أصوات مهموسة أو مرتفعة، تحرّكها رغبة جامحة في تخليد بعض الذكريات، يحدوها وَلَع بالحكمة والموعظة وتستأسرها عواطف الأفراح والأحزان، ووجدان مأساويّ دفين، وعذوبة أحلام يُعتقد أنّها تحقّقت ذات يوم. إنّه في الواقع تراث منسوج من تاريخ ملائكيّ ينبع صدقه من درجة حرارته وعمق أشواقه، ويتجسّد بفضل خيال أمين يهفو إلى غزو الفضاء رغم تعثّر قدميه فوق الأرض الأليفة المتشقّقة التربة وثغراتها المفعمة بالماء الأسن. وإنّي إذ أسجّله كما تناهى إليّ، إذ أسجّله باسم الراوي وبنصّ كلماته فإنّما أصدع بما يأمر به الولاء، وأنفّذ ما يقضي به الحبّ، مذعنًا في الوقت نفسه لقوّة لا يجوز المجازفة بتجاهلها.

* * *

يقول الراوي:

إنّه كانت تعيش في حارتنا أرملة تدعى ستّ عين: امرأة قويّة عجيبة الأطوار مثيرة الأوصاف، كائن فريد لا يتكرّر، يدعو إلى الحذر بين يدي الحياة الغامضة التي لا حدود لإمكانيّاتها. وتبدأ حكايتها عادة وهي أرملة في الخمسين ذات ابن وحيد يدعى عزّت في السادسة من عمره. لِمَ لَمْ تبدأ الحكاية قبل ذلك؟ لِمَ لَمْ تبدأ وهي صبيّة أو وهي عروس؟ لماذا لا يحدّثوننا عن عمّ عبد الباقي زوجها؟ لِمَ لَمْ تنجب إلّا عزّت؟ ولِمَ أنجبته على كبر؟ أجاء النقص منها أم من الزوج؟ ولكن ماذا يهمّ ذلك كلّه؟ الراوي ملتزم برؤيته ولو تحرّر منها لوجب أن يسترسل في التقصّي حتّى يبلغ رحاب أبينا آدم وأمّنا حوّاء. وإذن فلتكن البداية وستّ عين في الخمسين ووحيدها عزّت في السادسة وهي امرأة مرموقة، ذات شأن ينمو ويتضخّم مع الزمن كمدينة صاعدة، تملك جميع العمارات الكبيرة في الحارة فهي ثريّة، واسعة الثراء، بل لا مثيل لثرائها، ولا أدري إن كانت هي موجِدة الثروة أم زوجها ولكن ممّا يُذكر أنّ شقيقتها أمّونة لا تملك شيئًا. أجل لا يقطع ذلك بأنّ ثروتها موروثة عن زوجها، فقد نتصوّر أنّ الشقيقتين تساوتا ذات يوم في إرث محدود، بدّدته أمّونة على حين استثمرته عين، على أيّ حال كانت أغنى شخص في الحارة بلا استثناء للمعلّمين والتجّار.

وإلى الثراء الواسع خصّت بصحّة رائعة. يقولون إنّها حافظت على رونق الشباب وهي في الخمسين من عمرها، لم يبهت سواد شعرة من شعرها، ولا اشتكى لها عضو، متينة البناء متوسّطة القامة، لا بدانة تثقلها ولا نحافة تعيبها، يتكوّر نهداها شامخين وسالمين من أثر الرضاعة ويكوّنان في مقدّمة الجسد مركز ملاحة مستترًا كأنّه ـ بلغة اليوم ـ محطّة إرسال ولكنه مغلّف بالجلال الزاجر، وأجمل قسماتها العينان السوداوان يشعّ منهما نور هادئ ذائب في الحنان، أمّا الأنف فدقيق ولكنّه طويل يرشّحه طوله لوجه رجل، كذلك فوها الواسع الممتلئ ويحدّثونك كثيرًا عن لون بشرتها القمحيّ النقيّ الذي لم تمسّه الأصباغ، وخمارها الأبيض وجلبابها السابغ وتلفيعتها السمراء فلم تُرَ في الطريق مندسّة في ملاءة لفّ أو تزييرة أو متحجّبة ببرقع أسود أو أبيض

متحدّية الألسن بوقار العمر وهيبة الخلق وسحر السلوك وحصانة المنزلة، معتزّة بسمعة مثل شذا الورد، وفي حارتنا لا يغضّ البصر عن نقيصة، ولا تعفى نقيصة من القيل والقال، والحفظ والتسجيل، لذلك فليس أبقى في الذاكرة من سِيَر الفتوّات والقوّادين والعاهرات، ونغالي فنؤرّخ بهم الأحداث فتُقرن الذكرى بحياة الضبش أو الدنف أو عليّة كفتة. فأن يمضي تاريخ ستّ عين بلا كلمة واحدة تسيء إليها دليل قاطع على نقائها وطهارتها وفضائلها الجمّة. وهي تمشي إذا خرجت في الطريق في صحبة مظلّة لا تتخلّى عنها صيفًا أو شتاءً، تتّقي بها الشمس أو المطر أو تنذر بها ـ في الأحوال النادرة ـ مَن يتعرّض لها من السكارى أو المسطولين ويا ويل مَن يتعرّض لها في ذهوله من أهل الطريق. الحقّ أنّها لم تكن مصونة بسبب عفّتها فحسب ولكن لقوّة شخصيّتها أوّلًا وأخيرًا. كانت بحكم وظيفتها الماليّة تستقبل الكثيرين من السكّان والمتعاملين، وكانوا سرعان ما يفيقون من سحر جمالها تحت تأثير صوتها القويّ ومنطقها الجدّيّ ونظراتها النافذة. حتّى الفتوّات لم تسوّل لهم أنفسهم الاستهتار في محضرها، وربّما رجعوا من لقائها وهم يتمتمون: «يا لها من رجل!». غير أنّ ذلك لم يعنِ أكثر من خيبة ثعلب مكّار أو هزيمة محتال. لم تكن رجولتها إلّا أسلوبًا وجدته مناسبًا للتعامل في حارة هي أعلم الناس بأحوالها. لم تكن نقصًا في أنوثة أو خشونة في طبع أو قناعًا لستر عورة. كلّا . . . بل كانت الرحمة عينها. لم تصر أسطورة إلّا بفضل رحمتها. لو أنّها التزمت المكث في دارها لسعى إليها المحتاجون. وما دارها إلّا أجمل دار في الحارة. من الخارج لا يتجلّى منها إلّا جدار حجريّ معتم لا يَعِدُ بخير، تتوسّطه بوّابة غليظة متجهّمة تحمل فوق هامتها تمساحًا محنّطًا وفي نقطة الوسط منها مطرقة نحاسيّة غبراء على هيئة قبضة بشريّة. إذا فُتحت البوّابة تبدّت الدار جليلة وافية التقطيع تشي بالعزّ والنعيم، وترامت وراءها حديقة تنفث أخلاطًا من روائح الياسمين والحنّاء والفواكه، تدور حول فسقيّة ارتفع فوق سورها الرخاميّ سور من الخشب منذ تعلّم عزّت المشي والجري والمغامرة. ومذ ترمّلت لم تعد تنتظر المحتاجين في دارها. انطلقت في الحارة بمظلّتها، تهبط على المحتاج في داره، ألفت التجوال الرحيم، أصبحت الزائرة المتردّدة أبدًا على ربوع الفقراء، تنغمس في أُسَر الكادحات والأرامل والعجزة. يقول الراوي: إنّ الحارة نسيت في أيّامها البؤس والجوع والعري، وهانت عليها واجبات الزفاف والمرض والدفن. تلاشت الهموم جميعًا تحت مظلّة عين، عين الحنون، القلب الخفّاق بالحبّ، الجود الوهّاب بلا حساب، التي تدير العمارات لحساب الفقراء والمساكين. إنّها الطلّ يهطل على القفر فيتركه أخضر يانعًا يرقص بماء الحياة. أمّ الحارة. . . المودَّعة بالدعوات الصالحات، والبسمات المشرقات والامتنان الوفير، باسمها يحلفون، بنوادرها في الإحسان يتذاكرون الحقيقة والمعجزة والأسطورة. وكانت تصادق وتناجي وتألف وتؤلف قبل أن تقدّم الدواء، كانت تتسلّل إلى أعماق القلوب الجريحة فتعايش الآلام وتخالط الأحزان وتوادد التعساء كأنّما تتعامل مع أبناء أو تؤدّي رسالة طرحتها عليها قوى الغيب، ويقال إنّها مارست الإحسان في حياة زوجها عمّ عبد الباقي في نطاق الدار وبقدر محدود ثمّ انطلقت انطلاقتها الورديّة عقب ترمّلها. كان المظنون أن تقتصد عقب الترمّل، وأن تقتصد أكثر حبًّا في عزّت الصغير، ولكنّها تجاوزت منطق الأشياء بجناحين مستعارين من الفردوس، رغم أمومة قويّة وعميقة، فلم تسعد امرأة كما سعدت بالأمومة التي وُهِبَتْها في فترة حرجة غير متوقّعة، اعتبرت عزّت هبة السماء لقلبها الوحيد. أسرها الامتنان للرحمٰن وأحيت ليالي البرّ للحسين والسيّدة وأبو السعود طبيب الجراح. وكم أمضت من دهور وهي ترنو بمقلة مسحورة إلى الوجه الصغير ثمّ تمضي في طريق الخير ناشرة شراع الرحمة. في وجهه يتراءى أنفها الطويل وبشرتها النقيّة وعينا الأب الجاحظتان. وقالت إنّه ولد لا بنت. والعبرة بالقلب، فليكن قلبه عذبًا حنونًا. وهو نشيط وأنانيّ ولا يتخلّى عنها إلّا بالهزيمة، وهو أيضًا مدمّر يبعثر الأزهار ويطارد النمل ويقتل الضفادع، ولا ينام إلّا وهي تقصّ فوق رأسه القصص. أيظنّ نفسه سلطانًا؟ هٰكذا تتساءل

ضاحكة، تتساءل بقلب شكور ونفس زاخرة بالرضى وبهجة الزهور المتفتّحة، ويخطر لها على سبيل الدعابة أن تفصّل له جبّة وقفطانًا وعمامة، وترامقه وهو يتزيّى بها طروبًا، ثمّ تقول: «ما أجمل أن نهديها بعد زهدك فيها إلى الشيخ العزيزي» ثمّ تعرضه على صديقاتها من طلّاب الرحمة متسائلة: «ما رأيكنّ في هٰذا الشيخ؟» فيجبنها «قمر وربّ الحسين فليمدّ الله في عمره إلى الأبد» وتتفكّر قليلًا في «إلى الأبد» وهي ذكيّة بقدر ما هي مؤمنة. وتغشى سحابة ربيع صفاءها فتغمغم: «فليكن يومي يا ربّ قبل يومه ولتدفنني عند القضاء يداه» وسرعان ما تتذكّر جيلًا راحلًا من أحبّائها فتقتحم مخيّلتها القبور والشواهد، والصبّار والرياحين، وصور مسربلة بالحياة من البشر فتغمغم مرّة أخرى: «إنّهم أحياء معنا ولٰكن لا يعلم الغيب إلّا الله».

وتسألها أمّ سيّدة ذات يوم:

ـ كيف صرت أشرف خلق الله؟

فتستغفر الله تواضعًا وتتمتم وهي تداري سرورها الذي تجلّى في ابتسامة خفيفة كلمعة ضياء في سحابة يمرّ وراءها القمر:

ـ ما هي إلّا رحمة الله بعابدة مخلصة.

ثمّ تسائل نفسها:

ـ كيف لي أن أدري بما يجعل سعادتي في الحبّ العطاء؟

وعُرف وذاع أنّه عندما مرض عزّت بالحصبة قد مكثت مسهّدة لا تذوق النوم ثلاثة أيّام.

* * *

وقد مضى زمن وجاء زمن. تغيّرت حارتنا بدرجة ملموسة وتمخّضت عن أجيال جديدة ذات مزايا باهرة ولا تخلو أيضًا من غرابة، وكانوا يتّخذون موقفًا خاصًّا ممّا يروى عن ستّ عين، موقفًا يتّسم باللامبالاة ولا يخلو أحيانًا من قسوة:

ـ لِمَ نطالَب بتصديق ما يروى دون مناقشة؟

ـ إنّها حكاية جميلة ولٰكن هل تصمد أمام التمحيص؟

ـ ألا ترون أنّ التاريخ العلميّ نفسه تحوم حوله الشكوك؟

ـ الإحسان ظاهرة حقيقيّة ولٰكن ليس على تلك الصورة.

ـ ولا تنسوا أنّ الإحسان نفسه لعبة من ألاعيب الأنانيّة.

ـ إليكم حقيقة ستّ عين التي طمس الحبّ عليها، كانت مجنونة بالرحمة والإحسان... ولٰكنّها لم تجد العين التي تنفذ في أعماق الظواهر، ولو وجدتها لتكشّفت عن امرأة أخرى لها سيرة بشريّة حقيقيّة، وربّما حافلة بالفضائح.

* * *

ـ ما عسى أن أقول ردًّا على ذٰلك؟ أقول ما سبق أن قلت من أنّ حارتنا تتطوّع دائمًا بتكبير العيب ونشره ولٰكنّها لا تعترف بالخير إلّا عندما لا تجد مفرًّا من ذٰلك. فضلًا عن ذٰلك فإنّ حكاية عين لا تخلو من ضعف بشريّ ممّا يؤكّد صدقها وواقعيّتها، ولٰكنّنا نأبى التسليم بالْمُثل العليا من طول انغماسنا في الماء الآسن. المحاكم مكتظّة بالأخوة، ومَن يسقط في الطريق يموت وحيدًا. وما زلت متشبّثًا بتصديق حكاية عين فما من حكاية إلّا وتعبّر عن حقيقة ما كما أنّه ما من ألم إلّا ويشير إلى جرح ما. فحقّ لا شكّ فيه أنّ ستّ عين تمشي متلفّعة بشملتها السمراء ومظلّتها العتيقة وجلبابها السابغ. الابتسامة تشرق في صفحة وجهها الوقور، تسعد بالدعاء والتحيّات والنظرات المعجبة. تمضي نحو الربوع البالية، تجلس بين التعساء، وتهتف:

ـ كيف حالكم يا أحبّاء؟

تسأل عن زينب، وعمّ حسين، وأمّ بخاطرها، ثمّ تغادر المكان بعد أن فرشته بورود الرحمة، وما أكثر الذين يطالبون بدراستها على ضوء الغريزة والأنا والأنا الأعلى، ما أكثر الذين يحومون حول حياتك الجنسيّة يا عين! ما أكثر الذين ينقّبون لك عن فضيحة في حفائر الذكريات!

* * *

ويقول الراوي: إنّ عين كانت تعشق الفصول الأربعة. ألفنا أغنيّة الناس تؤثر بالحبّ فصلًا بعينه أو فصلين أمّا هي فكانت تعشق الفصول الأربعة. تحبّ الشتاء والسحب والمطر، لا تحول رياحه بينها وبين

الجولات الثملة بالعطف، ولا يفزعها مطره إذا انهلّ فوق مظلّتها المنشورة وجرى تحت قدميها ماء عكرًا. وتحبّ الصيف وتتوافق سريعًا مع حرارته وتنوّه بلياليه العذبة، وتعشق الخريف وتقول عنه إنّه فصل الجمال المغسول، والليالي المفتونة بالنجوى وتحيّات الوداع المتبادلة. أمّا الربيع فهو فصل الحديقة والأصوات، وتجيء الخماسين محمّلة بالرسائل من أراض بعيدة مجهولة تشتعل أفئدتها بنار مقدّسة، وهي تستجيب ولا شكّ للفصول المتغيّرة بطبيعتها السمحة وإيمانها الراسخ.

وتموج حارتنا بالعواطف والانفعالات والأصوات المتلاطمة، وتجتاحها العواصف والخصومات ووجهات النظر المتضاربة فتتابع ذلك بهدوء وإشفاق، وتدعو للخير أن ينتصر، ولا يَرِدُ على قلبها خاطر سوء أبدًا. ولم يكن عن لامبالاة صفاؤها، فهي تدري غالبًا ـ هي التي لا تنقطع عن الناس ـ أين يتأرجح الخير وأين يكمن الشرّ، وهي كما قلنا تدعو للخير أن ينتصر، ولكنّها لا تنسى أنّ جميع المتنازعين أو كثرة منهم في حاجة إلى عونها!

* * *

ومّما يذكر أنّ عامّة المستهينين بها لم يعاصروا نشاطها، ولم يدركوا الفترة الأخيرة من حياتها، ولا شهدوا ختامها. ومّما يذكر أيضًا أنّ أكثرهم نشأ وتربّى وشقّ طريقه بفضل إحسانها ورحمتها، ولكنّهم يجهلون ذلك، أو يتناسونه أو يسيئون تأويله كما رأينا، وتتلاحق الأعوام فتتضخّم السيرة في ضمير الراوي حتّى تصير جبلًا شاهقًا، ولكنّه مثل سائر الجبال يتعرّض لعوامل التعرية.

٢

وذات يوم ـ كما يقول الراوي ـ تجلس ستّ عين تحت نخيلة الياسمين في الحديقة ترمي بلباب الخبز المغموس في المرق إلى مجموعة من القطط لا تقلّ عن الخمس عدًّا، وعزّت واقف بجلبابه المقلّم وصندله فيما بين الخميلة والفسقيّة، يقبض بيده الصغيرة على شعاع الشمس الغاربة الذي يتقلّص على جذع شجرة الليمون، الصيف يودّع الأيّام الأخيرة من رحلته ولم يبق على مدفع الإفطار إلّا قليل. وعين تطعم القطط بيدها، وتؤلّف بينها وبينها ساعات الطعام وساعات المؤانسة: الأمّ بركة طحينيّة اللون ذات نجمة بيضاء في وسط الرأس، والأب أبو الليل أسود فاحم، إنعام وصباح من سلالتها، ونرجس مهداة من أسرة غريبة وكلّهنّ روميّات منفوشات الشعر، عن العلاقة الحميمة بينها وبين القطط، عن التفاهم والتخاطر، عن المودّة والتناغم، عن الطاعة والدلال، عن الولاية والأسرار، عن كلّ أولئك تحكي القصص والنوادر.

وفي الهدوء يعلو صوت مستأذنًا:

ـ يا أهل الله!

ترامى من ناحية الممرّ المفضي إلى مدخل الدار، تبتسم عين مستأنسة وتهتف:

ـ تعالي يا أمّ سيّدة.

تقبل المرأة في ملاءتها اللفّ سافرة الوجه شأن الكادحات من نساء الحارة، تتبعها صغيرتها سيّدة بشعرها الممشّط وقبقابها الأخضر، تتصافح المرأتان على حين تمضي سيّدة بتلقائيّة نحو عزّت لتشهد صراعه مع شعاع الشمس الغاربة. ورغم أنّها تماثله في السنّ ـ السادسة ـ إلّا أنّها تكبره تجربة ووعيًا بأربعة أعوام. التفت نحوها التفاتة مقتضبة ثمّ رجع إلى الشعاع، ووقفت هي تراقبه باسمة وصامتة. وقالت عين لأمّ سيّدة:

ـ لم أركِ منذ ثلاثة أيّام يا وليّة يا خائنة.

تضحك أمّ سيّدة من حنجرة غليظة وتقول:

ـ للرزق أحكام يا ستّ الكلّ.

ثمّ وهي تجلس فوق الأعشاب عند قدمَي عين:

ـ ربّنا يعلم أنّ يومًا يمرّ من غير أن أراك لا يُحسب من العمر.

القطط في حركة متوتّرة بين انكباب على اللباب والتحديق في عين بأعين شفّافة مذعورة، وقالت عين:

ـ دائمًا تعثرين على الكلمة المناسبة، مشغولة بعروس جديدة؟

ـ الخاطبة تشوف العجب. مَن يصدّق أنّ عريسًا يُرفض من أجل حلّة نحاس؟

ـ ماذا تقصدين؟

أدركت أمّ سيّدة أنّها فهمت قصدها فقالت باسمة:

ـ إنّه شابّ يستحقّ الإحسان!

تقوّست بركة فارتفع ذيلها مثل نافورة، شبعت فيما يبدو، وثبت فاستقرّت فوق الأريكة جنب عين فهدهدتها براحتها وبركة تستجيب مثل موجة راقصة. تساءلت أمّ سيّدة متردّدة وموجّهة خطابها إلى القطّة:

ـ كيف أنت يا نرجس؟

فهتفت عين:

ـ إنّها بركة، أرأيت كيف نسيت أهل الدار؟!

فضحكت أمّ سيّدة، ولمحت عزّت فهتفت:

ـ كيف حالك يا سي عزّت؟

فلم يهتمّ بها وقالت عين معتذرة عنه:

ـ إنّه مشغول بشعاع الشمس!

فضحكت أمّ سيّدة كرّة أخرى وقالت بحماس:

ـ رائحة الملوخيّة تملأ الحارة!

ـ أهٰذا ما جاء بك يا نَهِمة!

فراحت المرأة تناجي شذا الياسمين والحنّاء في نبرة غزل مطوطة منغّمة.

* * *

عقب الأذان غيّرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر ثمّ نهضت لتصلّي المغرب على حين جلست أمّ سيّدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهي تتمتم «لا حياء في الجوع» وراحت خادمة تشعل المصباح الغازيّ الكبير المدلّى من السقف فوق السفرة، ثمّ أشعلت قنديل القراندة المطلّة على الحديقة، ومضى الإفطار في المضغ تتخلّله كلمات عابرة. وانتقلتا بعد ذٰلك إلى الشرفة فجلست عين على الكنبة وآثرت أمّ سيّدة أن تقتعد شلتة لتمدّ ساقيها ترويحًا لمعدتها المتخمة. ولفّت سيجارة، تخدّرت من أوّل نفس، نعست عيناها العسليّتان وانتفخ أنفها الغليظ الممسوح الأرنبة كرأس قطّة. وسيطر الصمت قليلًا تحت تأثير رغبة ملحّة في الراحة، وجاءت خادمة بفانوس عزّت الملوّن فهفت نفس عين إلى الانطلاق وقالت:

ـ ما أحلى المشي عند الحسين!

فتمتمت أمّ سيّدة ضاحكة:

ـ عندما ترجع إليّ القدرة على المشي.

ولفّت سيجارة ثانية فتمتمت عين:

ـ الشكر لله فالليل جميل.

فرمقتها أمّ سيّدة بنظرة طويلة ثمّ قالت:

ـ عندي ما هو أجمل.

ـ ما عندك إلّا حديث الزواج أو اغتياب عبد من عباد الله.

ـ إنّه حديث زواج!

ـ حقًّا؟ . . . عندك عروس لعزّت؟

فقالت المرأة بابتهال:

ـ بل عندي عريس أو أكثر إن شئت.

فنظرت إليها بارتياب على ضوء القنديل الأزرق فقالت أمّ سيّدة:

ـ وأنتِ العروس المنشودة!

لوّحت عين بيديها محتجّة وهتفت:

ـ عليك اللعنة.

فقالت بحماس متصاعد:

ـ ما من رجل أصيل في حارتنا . . .

ولٰكنّ عين قاطعتها:

ـ احتشمي يا وليّة!

ـ يا ستّ الستّات ما زلت شابّة جميلة . . .

فقالت بحدّة:

ـ لو أردت الزواج ما لبثت حتّى اليوم أرملة.

ـ ولِمَ تبقين أرملة؟

ـ هس.

زجرتها وهي تتطلّع نحو السور القديم وقد علاه البدر عظيم الثراء عميق الحمرة وأنّى الضياء يبدأ رحلته. تركتها تنعم بالنظر ولٰكنّها أصرّت على الرجوع إلى الموضوع فقالت:

ـ وربّ القمر . . .

غير أنّها قاطعتها بلهجة حاسمة:

ـ كفى يا أمّ سيّدة، إنّه عزّت، إنّه عزّت وكفى . . .

ثمّ تنبّهت من غفلة فتساءلت:

ـ أين الولد؟

فاستاءت أمّ سيّدة من قطع الحديث وقالت:

ـ في الداخل طبعًا.

ـ وأين سيّدة بنتك؟

ـ لا شكّ تلعب معه، لم يخرج، ها هو فانوسه ينتظر.

قامت عين. هبطت درجتي القرانـدة، غاصت في ظلمة الحديقة حتّى اختفت تمامًا، ظهرت بعد قليل وهي تجرّ وراءها عزّت بيد وسيّدة بيد، وصوتها يتساءل في غضب:

ـ ألا تخافان النار؟

جرت سيّدة نحو أمّها، وقف عزّت منكّس الرأس. قالت عين مخاطبة أمّ سيّدة:

ـ هي اللعنة، أرأيت؟

دارت أمّ سيّدة ابتسامة ولٰكنّها هتفت وهي تزغد ابنتها:

ـ أعوذ بالله.

ـ الولد بريء ولٰكن بنتك...

فتمتمت أمّ سيّدة:

ـ الله أعلم...

ـ فتّحي عينك يا أمّ سيّدة...

ـ عيني مفتوحة دائمًا...

* * *

ولم تنسَ عند الوداع أن تقول لعين:

ـ لنا عودة إلى موضوعنا.

ولٰكنّ عين قالت بحزم:

ـ سدّي هٰذا الباب بالضبّة والمفتاح!

٣

هـامت في الصفاء المعهـود خواطـر قلقـة. ليست بالخطيرة ولٰكنّها تُكدّر بعض الشيء مَن أَلِفَ الصفاء، ما وجه الانزعاج الحقيقيّ وراء عبث طفل؟ قد آن له أن يـذهب إلى الكتّاب. ورجـال ثمّة يـطمحون إلى مالها. وتنظر إلى المرآة المثبتة في الإطار العاجيّ الموشّى بالآيات وتهزّ رأسها، وتتذكّر وعدها لعزّت يوم وفـاة أبيه بألّا تتيح مكان الأب لغريب. مضت خمسة أعوام فلم يهنِ العزم. الفصول وحدها تتغيّر وتمرّ الأعوام. وما يشغل بالها حقًّا فهي شقيقتها أمّونة. إنّها تكبرها بعشرة أعوام فهي شقيقة أمّونة وأمّها، وتتذكّر أمّها، تتـذكّر بـالأخصّ وفاتهـا. حزنها عنـد الفراق رائـع، كذٰلك حزنها على أبيها. كما أشعل فراق الزوج قلبها. حزنها عميق كأفراحها ولٰكنّ الحزن يعمّر أكثر، ما إن تزور القبر حتّى تخشع وتسترسل في المناجاة. إنّهم مثلنا أحياء ولٰكن لا يعلم الغيب إلّا الله. ما يؤلمها حقًّا هو حدسها أنّ أمّونة تضمر لها الحسد. وهي من ناحيتها لا تضنّ عليها بخير ولٰكنّ ذٰلك لا يستأصل الحسد. ما زالت أمّونة تقول لها:

ـ إنّك تبعثرين مالك بغير حساب.

فتقول عين متضايقة:

ـ إنّه مال الله.

فتقول أمّونة بامتعاض يشوّه حسن وجهها:

ـ مدى علمي أنّه مالك أنت يا أختي!

فتقول ساخرة:

ـ لا نملك في الواقع إلّا قبضتين من تراب.

ـ لِمَ تحبّين سيرة الموت؟

ـ ربّمـا لأنّه يـرافقنا في كـلّ خطوة، هـل ينقصك شيء؟

ـ أنت الخـير والـبركـة ولٰكنّني أتحسّر عـلى المـال الضائع...

فتنـظر إلى سجّادة صغـيرة معلّقة بـالجدار تعكس نقوشها قبّة المسجد الأقصى وتهتف:

ـ اللّٰهمّ فاشهد...

ثمّ ترنو إلى أمّونة قائلة:

ـ أهو ضائع المال الذي يجبر الخاطر ويُطعم الجائع ويسند العاجز ويُبهج الطفل؟!

ـ دلّيني على ثريّ أو ثريّة...

فتقاطعها:

ـ حسبك، حديثك ينغّص عليّ الصفاء..

لٰكنّها دائمًا ترجع إلى ذٰلك الحديث كما يرجع الحمار إلى حظيرته بلا مرشد. لذلـك فهي لا تشكّ في أنّ مولد عزّت كان صخرة تحطّمت عليها أمواج الجشع، غـيّر مولـده الموازين والحسـابات. وجـاءته أمّ سيّـدة بالبخور السودانيّ الموصوف لتلك الأحوال وهي تقول:

ـ الأقارب عقارب!

وترضى عين عمّا تفعل صديقة العمر وتسألها:

ـ أتدرين ما هو سرّ السعادة في هٰذه الدنيا؟

ـ ربّنا يسعدك دائمًا وأبدًا. . .

ـ عندما لا نأخذ من المال إلّا ما يحفظ الحياة!

* * *

ويقول الراوي: إنّه في ليلة القدر من رمضان زارتها أمّونة ساحبة بيدها صغيرتها إحسان ذات الأربعة الأعوام، وعندما جلستا في الفراندة عقب الإفطار قالت لها عين برجاء:

ـ تجنّبي ما يسبّب لي الكدر.

واحتستا القهوة في سلام ثمّ قالت أمّونة بعذوبة:

ـ أريد أن أجرّب حظّي في ليلة القدر!

فدعت لها قائلة:

ـ فليهبك الله حظًّا سعيدًا. . .

وراحت أمّونة تنظر إلى القطط وهي تستكنّ في أركان الفراندة وتمتمت ضاحكة:

ـ إنّه بيت القطط. . .

ـ إذا شبعت استرسلت في التسبيح. . .

ـ أنت أدرى بلغتها. . .

ثمّ متسائلة في شيء من الارتباك:

ـ هل أجرّب حظّي؟

قالت عين ببراءة:

ـ عليك أن تنظري إلى السماء طيلة الوقت.

ـ لكنّ حظّي بين يديك أنت يا أختي. . .

ـ حقًّا!!

من خلال ما يشبه المجازفة:

ـ أختي. . . ما رأيك في عزّت وإحسان؟

تشاءمت عين لسبب خفيّ ولٰكنّها قالت:

ـ عزّت ابني الصغير وإحسان بنتك الصغيرة.

ـ ألا تفهمين قصدي؟

ـ من الأفضل أن تُفصحي عنه.

ـ إنّه واضح كليلة القدر.

فقالت عين بجدّيّة منذرة:

ـ هل عندك عِلْم بما يحدث غدًا؟

ـ لذٰلك يهمّني جدًّا ما نستطيعه اليوم.

ـ اليوم حقًّا؟

ـ نعم. . . نكتب كتابهما!

ـ يا للعجب!

ـ نحن أحرار فيما نفعل!

كرهتْ عين الفكرة واستبشعتها. رأت فيها شراهة يجب أن تُنبذ. اعتقدت أنّ أختها في حاجة ملحّة إلى حمّام بمطهِّر مركّز، هتفت:

ـ لا يذكّرني ذٰلك بخير أبدًا.

ـ إحسان بنت أختك.

ـ أمّونة. . . يسعدني أن يختارها بنفسه ذات يوم. . .

ـ إنّها جميلة كما ترين. . .

ـ لا أزوّج طفلًا لم يدخل الكتّاب بعد.

ـ يفعلون ذٰلك في الريف وهو مهد الحكماء.

ـ لا يفعل ذٰلك إلّا المجانين!

اندفعت بركة بغتة نحو الحديقة كأنّما شمّت صيدًا، وساد الصمت منذرًا بالشجن، وانبعث صوت أمّونة متغيّرًا:

ـ أهي كلمتك الأخيرة لي؟

فقالت عين بجفاء:

ـ بكلّ تأكيد.

ـ أنت. . . أنت قاسية!

ـ أسأل الله لك الشفاء.

فقالت بحدّة:

ـ لست مريضة يا عين!

ـ الله وحده يعلم.

فتساءلت أمّونة بمرارة:

ـ ترى أيّنا المريض؟

ـ لسانك حصانك يا أمّونة.

قامت بشدّة وهي تقول:

ـ طول عمرك تكرهينني. . .

ـ حقًّا؟

ـ وتحسدينني!

ـ أحسدك؟!

ـ رغم مالك الوفير تحسدينني!

فقالت وهي تنحّي وجهها عنها:

ـ لا تستدعي الشيطان إلى قلبي. . .

فصاحت أمّونة:

ـ إنّه مقيم فيه!

حملت إحسان على كتفها وهي تجهش في البكاء، مضت تغادر المكان بلا سلام، تحوّل غضب عين إلى حزن، قالت بجزع:

ـ سأجدك في المرّة القادمة في حال أفضل. . .

فجاءها صوتها قائلًا:

ـ لن تريني ما حييت. . .

٤

فتح كتّاب الشيخ العزيزي بابه ورياح الخريف تحبو من مهدها الرطيب. عزمت عين على إرسال وحيدها إلى الشيخ.

ـ ستجد في الكتّاب التكريم ونور الله.

التكريم لأنّ الشيخ من روّاد إحسانها الدائمين، ونور الله لأنّه ينبثق أوّل ما ينبثق من الكتّاب.

غير أنّ عزّت تساءل في توجّس:

ـ أليست الحديقة أفضل؟

فمسحت على رأسه براحتها وقالت:

ـ للرجولة أحكام.

وتذكّر عزّت جماعات الصبيان والبنات وهم يغادرون الكتّاب في العصارى. لا تفصح وجوههم عن سعادة بما جاءوا منه، ولا رضى عن شيخه القزم المشوّه. ورمقها بنظرة حائرة فقالت:

ـ يحبّ الكتّابَ الأولاد الصالحون، في الكتّاب نتعلّم، ولا احترام لإنسان بغير العِلْم، واحترام الشيخ واجب كاحترام الأمّ. إيّاك وأن تسوّل لك نفسك الضحك منه فذلك حرام والله لا يغفره لعبد!

إنّه يتذكّر الشيخ العزيزي فصورته الغريبة ماثلة في كلّ ذاكرة، قزم مقوّس الساقين أقعس الصدر، صغير القسمات كطفل، يتمايل في مشيته من جنب إلى جنب متوكّئًا على عصا قصيرة طولها ذراع أو دون ذلك، كأنّه لعبة ممّا تعرض في الموالد، وهيهات أن ينسى أنّه رآه في يوم ممطر وقد حمله فاعل خير على كتفه ليعبر به الطريق.

ـ أوصيك بصفة خاصّة باحترام الشيخ. . .

وكرّرت ذلك بصوت واضح فشعر بنذير الفراق، وبالتوجّس من تجربة مجهولة. واستطردت وهي تحدّ من نظرة عينيها الجميلتين:

ـ واسلك مع البنات السلوك الذي يرضي الله!

فتخايلت لعينيه الخميلة تحت ستار الليل فتورّد وجهه وتحرّك رأسه ارتباكًا فتمتمت بلطف:

ـ عن الماضي قد قَبِلَ الله توبتك. . .

* * *

وحينما تلقّى الشيخ العزيزي الخبر في حجرة الاستقبال ـ وهو يجلس على حافة مقعد مدلّي الساقين فوق سطح الأرض بشبرين ـ تهلّل وجهه وقال:

ـ طالما انتظرت هذا اليوم لعلّي أردّ جزءًا من ألف جزء من جميلك. . .

لكنّ عزّت حين تربّع في الصفّ الأوّل ـ فوق الحصيرة ـ أمام سدّة الشيخ بدا هذا شخصًا آخر، لا رحّب به ولا شجّعه بابتسامة وكأنّه لم يره ولم يسمع به. عجب أيضًا للنظرة الثلجيّة التي تستقرّ في محجريه، والصرامة التي تكسو وجهه الصغير، على حين جلس الصغار والصغيرات في صمت تلفّهم رهبة وتتحكّم فيهم قوّة مجهولة. أين اللعبة التي تتابعها الأعين في الطريق بعطف وسخرية؟ إنّه الآن يتسلطن في مملكته، يمارس قوّة غير محدودة، الجريدة منطرحة جنبه تهدّد أيادي وأقدام المتمرّدين. أيقن عزّت أنّه أسير، بلا دفاع ولا امتياز، يسري عليه ما يسري على الآخرين، وأضمر ألّا يتكرّر حضوره مرّة أخرى. ولمح سيّدة في نهاية الصفّ، تلاقت عيناهما لحظة فيما يشبه ابتسامة ثمّ سرعان ما تجاهلته. ضايقه جوّ المساواة المخيّم على المجلس، الجميع سواسية فوق حصيرة واحدة، تخلّت عنه الامتيازات التي ينعم بها في أيّ مكان باعتباره ابن الستّ عين وربيب الدار الفاخرة. إنّه وضع جديد لا يُحتمل ولعلّ أمّه لا تدري عنه شيئًا. ولمح لصق سيّدة بنتًا تماثلها في العمر لم يرها من قبل. شدّت عينيه بقوّة. لها وجه ثريّ مستدير وعينان سوداوان منعشتان. تركت في نفسه أثرًا قويًّا وبهيجًا لطّف ألمه وأنساه حزنه. ترى في أيّ موقع من الحارة تعيش؟ هذه العصفورة التي أُقصيت قسرًا عن غصنها. إنّها البنت التي خطفتها الغولة فغامر ابن

السلطان بإنقاذها. ما أعذب صوتها وهي تردّد وراء صوت الشيخ الرفيع «الحمد لله ربّ العالمين»! على أيّ حال فالكتّاب ليس شرًّا كلّه. ولن يمسّه الشيخ العزيزي بسوء.

* * *

وعندما جاء وقت الغداء جلس كالآخرين موجّهًا وجهه للجدار. حلّ عقدة المنديل وبسطه وراح يقطع الرغيف، عند ذاك جاءه صوت عن يمينه مباشرة:

ـ ماذا عندك؟

رأى صبيًّا في مثل سنّه، في عينيه ضيق ولكنّهما مقبولتان، في فكّيه قوّة، وفي أنفه فطس، بدا بسيطًا ومرحًا. ساءه تطفّله ولكنّه لم يجد بدًّا من إجابته:

ـ جبن أبيض وحلاوة طحينيّة...

ـ عال، معي طعميّة وسلطة طحينة. فلنأكل معًا...

ولم ينتظر موافقته فبسط منديله حتّى تماسّت الحافتان، أشار إلى الطعميّة بإغراء ويده تمتدّ إلى الجبن، ثمّ قدّم نفسه قائلًا:

ـ حمدون عجرمة...

فاضطرّ الآخر أن يقول:

ـ عزّت عبد الباقي.

ـ أنا عارف... ابن الستّ عين!

استاء من أن يتردّد اسم أمّه مختلطًا بالجبن والطعميّة وسلطة الطحينة، لكنّه لم يستثقل حمدون وأعجبته نظافة جلبابه وطاقيّته، وقال له حمدون:

ـ أنت غير جائع...

ـ أشبع بسرعة.

فلم يرتح حمدون للإجابة ولكنّه التهم الطعام بصراحة.

* * *

وغادرا الكتّاب معًا. لم يفارقه حمدون وسرعان ما أنس إليه. وقال له حمدون:

ـ نلعب معًا ونحفظ معًا ونأكل معًا... هه؟

فحنى رأسه بالإيجاب فقال الآخر:

ـ وقد يطلع لنا عفريت من القبو فمن الأفضل أن نكون معًا...

ـ لا أقترب من القبو ليلًا وأمّي تحفظ القرآن.

وإذا به يهتف فجأة «بدريّة» فتابع عينيه حتّى وقعتا على «العصفورة». نظرت البنت نحوهما باسمة ثمّ اندفعت تجري فسأله:

ـ تعرفها؟

ـ جارتنا... بدريّة المناويشي...

فأحبّ صداقته أكثر.

* * *

وتلقّته عين بنظرة متفحّصة ومشفقة تمتمت:

ـ مباركة عليك رحلة الرجولة.

فقال بفتور:

ـ يا له من مكان ثقيل...

ـ عليك أن تحبّه، هو الذي يجعل منك رجلًا محترمًا...

فقال بتأفّف:

ـ جلست على الحصيرة كالآخرين...

ـ كلّنا أبناء آدم وحوّاء، والمجتهد هو الأفضل، لذلك وضعت في منديلك طعامًا كأطعمة الآخرين، وطعامك الآن ينتظرك، لا تنفر من أحد...

فقال مجاراةً لها:

ـ عرفت كثيرين...

ـ حقًّا... اذكر لي بعضهم.

ـ حمدون عجرمة...

ـ آه... ولد يتيم يعيش مع خالته، وهي ستّ مستورة وطيّبة، مَن أيضًا؟

فصمت في حيرة، ثمّ قال:

ـ هو فقط!

ـ كثيرون ولكنّهم تمخّضوا عن واحد فقط! وكم عدد البنات؟

ـ أربع.

ـ جديدات عليك؟

ـ إلّا واحدة...

ـ سيّدة؟

ـ نعم... وعرفت اسم أخرى عند مناداتها، بدريّة المناويشي...

ـ آه... بنت أمّ رمضان، لعلّها آخر العنقود من

آخر زوج، لقد تزوّجت أمّها خمس مرّات أو أكثر.

فتساءل باهتمام:

ـ لها خمسة أزواج في وقت واحد؟

فضحكت عين وقالت:

ـ سوف تتعلّم أنّ المرأة لا يكون لها إلّا زوج واحد، ولكنّها قد تتزوّج من آخر إذا طلّقت.

فسألها باهتمام متزايد:

ـ هل تتزوّجين أنت أيضًا من آخر؟

ـ كلّا.

ـ لماذا؟

ـ لأنّي لا أريد... والآن هلمّ كُلْ لقمة تسند قلبك.

وقبيل المساء جاءت خادمة تعلن قدوم صبيّ يدعى حمدون عجرمة.

٥

لم تكن حياته في الكتّاب يسيرة فتلقّى كثيرًا من الزجر ولكنّه لم يُجلد قطّ. عرف الشيخ العزيزي أنّه لا يستطيع أن يتجاوز معه حدودًا معيّنة. وتقدّم عزّت فوق جسر من العثرات، وربّما أعانه وحمّسه أحيانًا نشاط حمدون الموفور، أصبحت صداقتهما حقيقة وقد عرف مع الأيّام جميع الصبيان ولكن بقي حمدون الصديق الأوحد. ورحّبت عين بحمدون، أعجبها منظره النظيف ورغبته المبكّرة في الحفظ ورجت أن يجد فيه عزّت مشجّعًا على العمل. قالت: إنّ الولد ذكيّ ومحبّ للمذاكرة دون أن يدفعه أحد إلى ذٰلك. وتمنّت له مستقبلًا حسنًا يعوّضه عن يتمه، وأكثر من مرّة قالت له: ربّنا يفتح عليك، إذا واظبت على اجتهادك فلن تترك التعليم لتتعلّم حرفة يدويّة.

وجعلت تدعوه للغداء يوم الجمعة. وبسبب ذٰلك دعت خالته ستّ رمّانة لزيارتها فتوطّدت بينهما علاقة طيّبة. وكان زوجها تاجر أجهزة سرادقات يؤجّرها في الأفراح والمآتم، ربحه لا بأس به ولكن كان له من الأبناء عشرة، رغم ذٰلك عطفت ستّ رمّانة على حمدون وعاملته كأيّ ابن من أبنائها، وكان قد ورث عن أبيه قطعة أرض صغيرة تنفع عند الضرورة للبيع والانتفاع بثمنها. واعترفت ستّ رمّانة أكثر من مرّة قائلة:

ـ إنّي أحبّه لاجتهاده... يندر أن تجدي مجتهدًا في سنّه.

هٰكذا بشّرت الصداقة بخير للطرفين ووهبتهما سعادة بريئة سابغة، وكصداقة الصبية لم تخلُ من نزاعات فارغة مثل هزيمة تلحق بأحدهما في الحجلة أو السيجة، ولم يكن ابن الستّ عين ممّن يقبلون الهزيمة بروح طيّبة، ولٰكن لم تتعدّ الخلافات قطيعة ساعة، وسرعان ما يجيء التنازل من ناحية حمدون!

واللعب في الحارة كان تسلية لا مفرّ منها، ثمّ بات هدفًا سعيدًا عندما انضمّت إليهما سيّدة وبدريّة، ولم يستهجن أحد ذٰلك طالما دار اللعب تحت الأعين وفي ضوء النهار، واستأثرت بدريّة بإقبال الصبيّين حتّى شعرت سيّدة بأنها تكملة عدد ليس إلّا، لم ينفعها مرحها، وتوارى حظّها مع دكنة بشرتها وأنفها المتكوّر الذي يعيد سيرة أنف الأمّ. انبهر عزّت بوجه بدريّة رغم حداثة سنّه، وسبق قلبه سنّه في الانفعال بعاطفة مبهمة تستقطر الأشواق من أرض خرافيّة لا وجود لها إلّا في الخيال. ولكي يستأثر باهتمامها حكى لها عن داره، أثاثها ورياشها، عن الحديقة والفواكه والأزهار، وقالت سيّدة:

ـ أنا أعرف ذٰلك كلّه.

فقال عزّت:

ـ ولكنّها لا تعرف.

وقالت بدريّة:

ـ نحن نلعب في الحارة فقط.

وقال حمدون:

ـ وسيّدة تدخل الدار مع أمّها.

فقال عزّت لبدريّة:

ـ فلتزرنا أمّك وأنت معها.

فقالت بدريّة:

ـ أبي لا يسمح لأمّي بالخروج.

وكانت سيّدة تتودّد إليه، ما وسعها ذٰلك ولكنّه لم يكترث لها، وربّما وردت على ذهنه ذكرى الخميلة ولكنّها ترد مقرونة بالألم والخوف والخجل، أمّا بدريّة

فإنّه يتطلّع إليها بخيال عجيب سعيد مرح يَعِدُ بأفراح الدنيا والآخرة.

وقضى عامين في الكتّاب حظي فيهما بسعادة لا تتحقّق إلّا في دنيا مِن نَسْج الخيال والبراءة.

* * *

وعندما هبّت رياح الخريف من مهدها الرطيب كعادتها في الأعوام السابقة أذنت هٰذه المرّة بفراق جديد، حادّ وأليم، أنذر بإخراج الولد الثمل من جنّته. اعترضه قرار جديد بالتوجّه إلى المدرسة الابتدائيّة لأداء امتحان القبول، ولم يغرِه هٰذه المرّة أن يجد حمدون في رفقته. أمّا بدريّة وسيّدة فقد غادرتا الكتّاب، ومُنعتا من اللعب في الحارة. فتر حماس عزّت وخمدت روحه، نجح حمدون في امتحان القبول وسقط هو في الحساب غير أنّ زيارة مباركة من أمّه للمدرسة غيّرت النتيجة وألحقته بالمدرسة بلا ترحاب من ناحيته ولا سرور. ولم تنقطع سيّدة عن مجاله فهي تزور الدار عادة بصحبة أمّها، واعتاد منظرها أكثر وأكثر، فباتت دكنتها مألوفة وتكويرة أنفها عاديّة ومرحها محبوبًا وحديثها لا يخلو من تسلية، أمّا بدريّة فلم يكن يراها إلّا في النادر جدًّا من الأوقات، غالبًا بصحبة أبيها، يسرق منها نظرة خاطفة، وتمضي هي جادّة أكثر ممّا يحتمل عمرها وكأنّها لم تقاسمه عامين أفراح الحياة. وكان لديه من فرص العمل واللعب ما يشغله عنها، ولٰكنّه لم يستطع أن يتحرّر من ذكراها، ولا أن يمحو من ذاكرته تعلّقه الفريد بوجهها الثريّ.

* * *

وبدا متعثّرًا في دراسته، تمضي الأيّام ولا يحظى باستحسان واحد، لا يأنس إلى المدرسة، ويحنّ دائمًا إلى الحرّيّة والحديقة. وذات يوم سمع تلميذًا يقول وهو يومئ إليه:

ـ ما حاجته إلى التعليم وهو أغنى شخص في الحارة!!

فعجب من إصرار أمّه على تعذيبه، ولم يؤثّر فيه تفوّق حمدون إلّا قليلًا، وكان حمدون يشجّعه على العمل، ولولا مواظبته على المذاكرة معه ما أصاب أيّ قدر من التقدّم. وكان يقول له:

ـ عقلك ممتاز ولٰكنّك كسول.

فتساءل عزّت باستهانة:

ـ أمِنَ المهمّ أن أكون مجتهدًا. . . !

فقالت عين وهي تتابع الحديث باهتمام:

ـ طبعًا، ما أجمل الناجحين، العلم من الإيمان وأنت من المؤمنين الصادقين. . .

أجل كان محبًّا للعبادات ومغرمًا بالحكايات ولٰكنّه حزن قبل الأوان.

واستطردت أمّه باسمة:

ـ عليك أن تزيد من المذاكرة وأن تزيد من الطعام. . .

فقال حمدون مؤكّدًا:

ـ إنّه نحيف جدًّا، في المدرسة يقولون إنّ والدته تنفق مالها على الفقراء وإنّ الابن لا يجد ما يأكله!

فضحكت عين وقالت بلهجة متوعّدة:

ـ العِلم والطعام. . .

فقال حمدون:

ـ يشغل نفسه بالجنّة والنار!

فقال عزّت لنفسه: بالجنّة والنار وبدريّة. وهناك أمّه التي تُكوِّن نسيج حياته وأحلامه وأفراحه ومخاوفه! إنّها الصلة بينه وبين الله، والصلة بينه وبين الحياة، هي كلّ شيء، وهٰكذا ينظرون إليها في الحارة. وقد ألف منذ يقظته الأولى ذهابها وإيابها، مسيرتها المكلّلة بالجلال والحبّ تحت مظلّتها، اجتماعها بالفقيرات في الحديقة، وتعلّم أن يعتدّ ذٰلك عبادة من العبادات الرائعة، وعلى ضوء ما ترامى لأذنيه من تعليقات على نشاطها الكريم الموفور سواء في المدرسة أم في غيرها مضى ينظر إليها بعين جديدة، ويقارن وهو لا يدري بينها وبين الأخريات. لم تكن الثريّة الوحيدة التي تفعل ذٰلك، حتّى صدّق حمدون وهو يقول له مرّة:

ـ إنّها أمّ الحارة وليست أمّك وحدك. . .

ولٰكن من العجيب أنّ هٰذه القوّة النادرة لا تنفعه في أشيائه الحميمة، فلا عون يُنتظر منها على دروسه المعقّدة، ولا فرج يأتي على يديها ليعيده إلى جنّة بدريّة المفقودة، إنّها تداوي القلوب الجريحة وتتركه يعاني وحده، تتركه والأعوام تمرّ والكآبة لا تنقشع.

وذات يوم جاءه حمدون متألّق البصر خفيف الحركة، ولسبب مجهول انقبض قلبه وتذكّر بقوّة وحزن بدريّة المناويشي. جلسا في القراندة والسماء تمجّ رذاذًا يغسل الأوراق ويطارد العصافير، وراح حمدون يقول بحماس عجيب:

ـ دنيا... دنيا لا مثيل لها...

فحدّق إليه متسائلًا فقال الآخر:

ـ أمس اصطحبني زوج خالتي مع بعض أبنائه إلى الكلوب المصريّ.

ـ المقهى!

ـ بل المسرح، شاهدت مسرحيّة من البداية إلى النهاية.

ووصف له تفاصيل الرحلة بكلّ دقّة، الدخول، الجلوس، الصالة، الستار، المسرح، الممثّلين والممثّلات، الحكاية، الغناء، كلّ شيء.

ـ هناك تضحك وتطرب وتبكي أحيانًا...

لم يستطع عزّت أن يتخيّل شيئًا ذا بال، صورة الجنّة أوضح في مخيّلته وكذلك صورة النار وقال حمدون:

ـ سوف تراها يومًا ما... لكنّنا نستطيع أن نحاكيها ها هنا، في هذه القراندة!

ـ كيف!

ـ سأحفّظك ما يقال...

ودون تردّد راح يقتبس المسرحيّة، ويخلق الديكور بالوهم، ثمّ قال:

ـ أنت الآن فتاة تدعى جولييت وأنا فتى اسمه روميو!

فقطّب عزّت متسائلًا:

ـ ولِمَ لا يكون العكس؟

فقال مطاوعًا ومتجنّبًا إثارة غضبه أو عناده:

ـ ليكن...

ودار الحوار القصير كما تخيّله حمدون، وكان يمثّل ما وسعه ذلك ولكنّه لم يفلح في حمل عزّت على التمثيل، تخيّل عزّت بدريّة في دور جولييت. هذه هي الحكاية. ولكن أين صاحبة الدور الحقيقيّ؟!

وتابعت عين المنظر من شبّاك حجرتها فلم تفهم شيئًا وقالت لنفسها إنّ الأطفال يجيئون إلى الدنيا بالأعاجيب، وتلت آية الكرسيّ وقلبها ينضح بالعطف على اليتيم.

* * *

وتغيّر حمدون تغيّرًا ملموسًا... فِتْنته بالمسرح لم تخمد أبدًا... ملأ بعض وقت فراغه بهواية جديدة هي القراءة... بشيء من الصعوبة كان يقرأ ما تصل إليه يداه من إعلانات، مجلّات، قصص بوليسيّة، واهتدى أخيرًا إلى ألف ليلة وليلة. ومنه تعلّق عزّت بالقصص البوليسيّة، فلم يقرأ بدافع الحبّ وحده إلّا القرآن والقصص البوليسيّة، وقال حمدون:

ـ ستكون العطلة الصيفيّة رائعة، سنمثّل كلّ حكاية نقرؤها...

فقال عزّت:

ـ لننقل المسرح إلى الحارة...

ـ فكرة... هل تضايقت أمّك من اللعبة؟

ـ أبدًا... ولكن لعلّنا نضمّ إلينا ممثّلات!

فضحك حمدون وراح يمسح على حاجبيه البارزين ويقول:

ـ فكرة مستحيلة...

ـ أليست بدريّة جارتك!

ـ ولكنّ بيني وبينها جدارًا أقوى من جدار القبو العتيق...

ولكنّه يراها، ربّما كلّ يوم، ويستحقّ لذلك الحسد.

* * *

في ختام العام الرابع نجح كلاهما في الابتدائيّة. كان النجاح بالقياس إلى عزّت معجزة. قُدّمت لهما الحلوى في الحديقة. في الثانية عشرة من العمر أعلن حمدون عن رغبته في أن يصير ممثّلًا ومؤلّفًا. ابتسم عزّت ولم يصدّق. وقالت عين:

ـ اختر عملًا لا لعبة...

كان حماسه أقوى ممّا يتصوّران. وسألت عين وحيدها:

ـ وأنت؟

مَطَّ بوزه في غير مبالاة. إنّه يحبّ شيئين متنافرين، العبادة والسيادة. يعتزّ بأمّه وبداره، ويهوى فؤاده

الوجاهة. لم يكن متكبّرًا ولٰكنّه يضمر أن يكون خليفة أمّه. ربّما في الدار والحارة، أو في الدار وحدها! وتمتمت عين:

ـ أودّ أن أراك عظيمًا...

ولم يدرِ ما العظمة على وجه الدقّة ولٰكنّ فؤاده هفا إليها...

٦

عهد المدرسة الثانويّة كان عهدًا جديدًا. فُتحت نوافذ لتيّار من المعلومات الجديدة، ثمّ تدفّق منها هواء دافئ يفتح الأكمام وينضج الحنايا، ونبت شخص جديد في حنايا عزّت... وحمدون أيضًا... فانقسمت أرنبة أنفه، وغلظ صوته، وتقلقل بالأشواق المبهمة. وترحّمت عين على عمّ عبد الباقي وقالت إنّه يحاكيه رغم أنّه لم يعرفه. وقالت إنّه من الآن فصاعدًا ستهبّ النسائم محمّلة بالعبير والمخاوف. في ذٰلك العهد صار حمدون قارئًا لا ريب فيه، متنوّع القراءات منقّبًا عن أيّ كلمة ذات علاقة بالمسرح، وانغمس عزت ـ في أوقات فراغه ـ في قراءة القرآن والقصص البوليسيّة.

وكاد يعتاد السلوان عن بدريّة لولا لقاء عابر غزاه بقوّة من جديد. كان يمضي لدى الغروب في العطفة نحو بيت حمدون وكانت بدريّة تعبر العطفة نحو بيت مقابل. تشجّعت بقرب المسافة وغياب الأب فخرجت في الفستان سافرة، شبه أنثى ناضجة بوجه أكثر ثراء ونقاء، وقامة ممشوقة، وضفيرتين مرسلتين حتّى نهاية الظهر. كادا يتلاقيان في نقطة واحدة تحت مظلّة الغروب، تبادلا نظرة باسمة بالذكريات المشتركة عامرة بالمودّة وسرعان ما همس:

ـ أهلًا...

فهمست في حياء:

ـ أهلًا...

وأسرعت في مشيتها متعثّرة بالخطا، فوّاحة بالشباب المبكّر. وتوقّف تحت بيت ستّ رمّانة والمغيب يقتحمه بعمق فيتحوّل رويدًا إلى شبح... أراد الوقوف ليثوب إلى رشده ويستردّ توازنه وتنعقد أواصره بما حوله من جديد... أدرك بوجدان جديد أنّه قضي عليه بأن يحبّ بدريّة إلى الأبد. وتبدّى له الحبّ كالحياة نفسها في جاذبيّته واستبداده. وتخلّى عنه إحساسه العميق بالسيادة فشعر بأنّه وحيد. ولم يكن يحبّ المكث طويلًا في بيت حمدون لاكتظاظه بأهله فسرعان ما غادراه معًا. مضيا نحو الكلوب المصريّ، وفي الطريق قال عزّت ليروّح عن نفسه:

ـ رأيت بدريّة وأنا ذاهب إليك.

فتمتم حمدون:

ـ كثيرًا ما أراها...

فاستسلم لدفعة داخليّة قائلًا:

ـ إنّي أحبّها...

فقال حمدون ضاحكًا:

ـ مثلك تمامًا!

فتساءل عزّت بانزعاج:

ـ تحبّها أيضًا؟

ـ أكنت تتوقّع أن أكرهها؟

ـ كلّا طبعًا... ولٰكنّي أعني بالحبّ شيئًا آخر.

فقال الآخر بهدوء:

ـ ليس بهٰذا المعنى.

ـ أصدقني القول!

ـ متى عرفتني كاذبًا؟

ارتاح نوعًا ما ولٰكنّ قلبه لم يعرف اليقين، وهو لم يرغب في شيء ويمتنع عليه باستثناء عالم البنات. لٰكنّ اليوم غير الأمس. إنّه يحلق ذقنه صباحًا بعد صباح. ربّما ليعجّل طلوع شعره. بَيْد أنّه لا يدري كيف يبلغ رسالة حبّه في حارته ذات القضبان العتيقة. إذا رفع رأسه ارتفعت معه مائة رأس متسائلة مستريبة، وما زال يرفل في غشاء الحياء والتقوى الذي نسجته يد أمّه بأصابعها الطويلة الناصعة. والسهو عذر ولٰكنّه لا يخلو من الحساب العسير وأين المفرّ من عين الله الساهرة؟!

وقد صار من المتردّدين على المسرح بإغراء حمدون المتواصل. وبات حمدون يحلم بالتأليف ويحاوله سرًّا فلا يُطلع عليه أحدًا إلّا عزّت. وكم ودّ لو يغيّر مجرى حياته ولٰكنّه استمرّ في التعليم بهدف الاستقرار في وظيفة. عزّت يواصل التعليم بدافع الكبرياء وإرضاءً لأمّه.

ولم تغفل الأمّ عمّا يغلي في داخله... أشفقت من أن يزلّ، من أن يعصي الله جلّ جلاله، ورفضت أن تهرب مِن تحمّل مسئوليّتها، أو أن تتركه وحده في مواجهة الشيطان، وتتشجّع بالظلمة في الحديقة وهي تجالسه في أمسيّة من أماسيّ الربيع فتقول له:

ـ آن لي أن أعاملك كرجل...

فضحك ضحكة مقتضبة. أمّا هي ففكّرت بشقيقتها أمّونة... أرادت أن تصالحها كثيرًا... أرسلت إليها أمّ سيّدة... زارتها بنفسها. أرجعتها إلى زياراتها السابقة ولكنّ أمّونة ظلّت متحفّظة... عزمت عين على أن تصالحها بطريقة عمليّة... قالت:

ـ عزّت... من أصول التقوى أن نصون أنفسنا بالزواج...

أضاءت لفظة الزواج الخميلة فتبدّت بدريّة منوّرة، وتمتم عزّت بدهشة:

ـ الزواج!

ـ نعم... إنّك رجل!

ـ لم أحصل بعد على البكالوريا...

ـ إنّهم يتزوّجون بلا شهادة.

فتساءل عزّت ضاحكًا:

ـ هل تستعينين بأمّ سيّدة؟

ـ بل عندنا العروس، إحسان بنت خالتك...

إحسان جميلة، تميل إلى الامتلاء أكثر ممّا ينبغي ممّا ينذر بأنّها ستكون في حكم خالته أمّونة، وهو لم يشعر نحوها بأيّ ميل حقيقيّ. قال بوضوح:

ـ لا...

فتساءلت باستياء:

ـ لماذا يا حضرة؟... البنت كاملة...

ـ ربّما، ولكن لا حيلة لنا في ذلك.

فسألته بأسف:

ـ ألا تعينني على استرضاء أختي؟

ـ ليس عن هذا السبيل.

ـ هل تكره فكرة الزواج الآن؟

فقال بصراحة:

ـ الحقّ أنّي لا أكرهها...

فتساءلت باهتمام:

ـ هل عينك على عروس أخرى؟

ـ نعم.

فقالت بقلق:

ـ تحدث أمور من وراء ظهري، لِمَ لَمْ تصارحني من أوّل يوم؟ مَن؟

ـ بدريّة المناويشي...

أخذت لحظات فانداح الصمت ثمّ قالت بنبرة آسفة...

ـ لا...

ـ لا؟!... ألا تعجبك؟

ـ أمّها مزواجة...

ـ إنّي أتحدّث عن البنت لا عن أمّها.

ـ البنت لأمّها!

ـ حُكْم غير معقول...

ـ لا خلاف عليه.

ـ لا أصدّق ذلك!

ـ أمّك لا تخطئ أبدًا...

فقال بشيء من الحدّة:

ـ دعيني أجرّب حظّي...

فقالت بتوسّل:

ـ لا تستهن برأي أمّك.

فقال بضيق:

ـ لا أستطيع أن أستهين كذلك برغبتي...

ـ إنّي شديدة الرغبة في تزويجك ولكنّي حريصة على سعادتك.

فقال بقوّة:

ـ لن أتزوّج إلّا بمحض رغبتي الخاصّة...

فتأوّهت قائلة:

ـ هذا صوت جديد يا عزّت، أنت طبعًا حرّ، ولكنّي غير راضية...

انقبض قلبه، لم يهن عليه إغضابها، وهل يستطيع أن يخطو خطوة بغير رضاها؟ قال:

ـ لولاك ما فكّرت في الزواج الآن قطّ...

لم تنبس. ثقل عليه صمتها. أخذ يتعذّب من الداخل. قال بحسم:

ـ لننسَ ما دار بيننا من حديث...

لبث وحده في الحديقة بعد ذهابها، شعر بأنّها ما زالت قائمة في مكانها. أحسّ غضبًا قاسيًا يجتاحه نحوها. كان أشبه بالكراهية. غير أنّها كراهية عابرة. سرعان ما أخلت موقعها لأسر الحبّ وذلّه. لكنّه استطاع أن يراها بعين ناقدة كأنّما استعارها من زفرات الصراصير. إنّها تتحوّل إذا شاءت إلى صخرة صلدة. وينضب معين الرحمة من قلبها. هٰذه المرأة العجيبة التي تؤاخي الفقراء وتصادق القطط وتناصب ابنها العداء. وكم خوّفته من الشياطين وها هو أسمج شيطان يتجسّد في عنادها!

* * *

وقالت عين وهي تتنهّد في حزن بالغ إنّ الولد عنيد. عنيد مثل أبيه ومثل أمّه أيضًا. وصمّمت ألّا تبيعه وهو جوهرة حياتها. هو أيضًا أحمق مثل أبيه. ولولا أنّ عمّ عبد الباقي أذعن في النهاية إلى مشيئتها لضاع مثل ذرّة غبار، أجل إنّه يحبّ البنت، والبنت جميلة حقًّا، ولٰكن ما قيمة الحبّ المترع بالضلال؟ والحبّ يحرّره الزواج وعند ذٰلك لا يجد بين يديه إلّا امرأة تحلم برجل آخر. هٰكذا عاشت أمّها متنقّلة من رجل إلى آخر. إنّي مسئولة عنه اليوم، غدًا يستقلّ عنّي ويرتكب حماقاته.

واستدعت أمّ سيّدة وسألتها بجفاء:

ـ ماذا تعرفين عن عزّت وبدريّة؟

فذهلت المرأة وتساءلت بدورها:

ـ ماذا عن عزّت وبدريّة؟

فهتفت بتحذير:

ـ إيّاك والمكر.

ـ معاذ الله.

ـ ماذا تعرفين إذن؟ . . .

ـ أستغفر الله العظيم.

ـ لا يتحرّك قلب في حارتنا إلّا وأنت معه في نبضه!

فقالت بحرارة:

ـ لا تهمّني الإشاعات. . .

ـ تهمّني أنا. . .

فنفخت أمّ سيّدة وقالت بصوت منخفض:

ـ يتحدّثون عن حبّ، إنّهم كما تعلمين يصنعون من الحبّة قبّة. . .

ـ يتحدّثون عن حبّه لها؟

ـ أجل. . .

ـ وماذا يقولون عنها؟

ـ لا شيء، أنت تعرفين أباها. . .

ـ وكيف يثبتون صدق رأيهم؟

ـ كلام فارغ، لا يقوم على أساس، نظرة عابرة مثلًا. . .

فقالت بأسى:

ـ قد يقود ذٰلك إلى فضائح، أصدقيني يا أمّ سيّدة، هل تقابلا ولو مرّة واحدة؟

ـ أستغفر الله. . . البنت تعيش في ظلّ أب صارم.

ـ هل عرفت أمّها؟

ـ طبعًا.

ـ ما رأيك فيها؟

ـ ليس بالرأي الحسن. . .

ـ هل علمت بما يشاع عن ابني؟

ـ لا أستبعد ذٰلك. . .

ـ والأب؟

ـ مستحيل.

ـ هل حدّثتك أمّ بدريّة بهٰذا الشأن؟

ـ كلّا، ولٰكنّها طلبت منّي البحث عن عريس مناسب، وألمحت إلى سي عزّت وعلاقتي الوثيقة بوالدته، ولّما كنت على علم برأيك فيها فقد اعتذرت بحجّة أنّ سي عزّت ما زال دون سنّ الزواج. واقترحت حمادة الأفندي . . .

ـ وماذا كان رأيها؟

ـ لم يملأ عينيها. . .

فقالت عين ساخرة:

ـ طبعًا، ما دامت تحلم بالعلالي. . .

ورمتها بنظرة قاسية أخجلت عينيها وقالت:

ـ وأخفيت عنّي ذٰلك كلّه. . .

فقالت بحرارة:

ـ لم أشأ أن أغضبك بكلام يجيء من ناحية أمّ بدريّة. . .

فمالت نحوها متجهّمة وقالت:

ـ ولٰكنّك لن تخفي عنّي كبيرة أو صغيرة تخصّ هٰذا الموضوع؟

فقالت وهي تتنفّس بارتياح لأوّل مرّة:

ـ أعاهدك مع ذٰلك والله شهيد . . .

ولّما غادرتها أمّ سيّدة أفرغت قلقها في بركة فراحت تهدهدها وتهمس لها:

ـ إنّي أتعذّب يا بركة فادعي لي بالسلام . . .

٧

مضى الحبّ ينمو ويتضخّم مثل شجرة بلح. وكان يسلّي همّه بالمسرح ولٰكنّه يغرق وقت فراغه في القصص البوليسيّة، وكلّما طالعه حمدون بوجهه القويّ المشرق توجّس خيفة غامضة، وغبطه على تقدّمه وعبادته لهدفه. وردّد عزّت حكاية حبّه كثيرًا فكان حمدون يشاركه همّه بحرارة الصديق المحبّ، قال له مرّة:

ـ يخيّل إليّ أنّ والدتك تسيء الظنّ بالحبّ.

فقال عزّت:

ـ إنّها تسيء الظنّ بأمّ البنت وهٰذا ظلم . . .

ـ الحبّ أيضًا متّهم في حارتنا . . .

ـ قصص الجريمة أجمل من الواقع!

ـ أجل أجمل من واقع بلادنا.

وراح يتحدّث عن الاستعباد. وكان يهتمّ بذٰلك، ويتزايد اهتمامه بتقدّمه في العمر. ولم يخلُ حديثه من عبارات دمويّة. ولم تحرّك هٰذه الشئون قلب عزّت بجدّيّة مثل صاحبه ولٰكنّه قال:

ـ بوسعنا أن نقاوم الاستعباد ولٰكن كيف نتصرّف مع أمّ مثل أمّي؟

فقال حمدون:

ـ ومع ذٰلك فلا ينكر أحد جمال ابنة خالتك!

فحنق عليه وثارت مخاوفه الغامضة من جديد.

* * *

وحصلا على البكالوريا في عام واحد. وهنّأته عين ووجهها يطفح بالبشر ولٰكنّه قال لها:

ـ لا . . . انتهى الحبّ بيننا!

فلم تأخذ قوله مأخذ الجدّ وقالت مازحة:

ـ أتدري ما عدد البنات اللاتي يحلمن بالزواج منك؟

ـ ولٰكنّي أريد واحدة فقط.

ـ ما تريدها إلّا لأنّني لا أريدها.

ـ بل كأنّك ما ترفضينها إلّا لأنّني أريدها . . .

ـ أتحبّ أن أروي لك نوادر أمّها؟

ـ أمّها لا تهمّني ألبتّة . . .

ـ إنّها كامنة في أعماقها . . .

ـ هبي أنّه زواج خائب فهل أعجز عن الطلاق؟

ـ والخيبة؟ . . . أتظنّها تمرّ بلا عواقب؟

* * *

في أثناء الصيف اختار عزّت أن يلتحق بمدرسة الحقوق. أمّا حمدون فعزم على أن يتوظّف ليخفّف عن خالته من ناحية ويهب بقيّة يومه للمسرح. وفي ذٰلك الوقت عرف أنّ عبد الحميد الكومي خطب بدريّة وأنّ الفاتحة قد قُرئت. اقتلع الخبر قلبًا ـ وربّما أكثر ـ من جذوره، وتبدّت الحديقة لعيني عزّت صفراء تنفث ريحًا سامّة. أكان يعتمد على سحر الحبّ الكامن وحده؟ هل تصوّر أنّه ـ سحر الحبّ ـ قادر على حفظ حبيبته لحين قدرته على الخروج من سلبيّته؟ وهتف بأمّه ثقةً منه في قوّتها غير المحدودة:

ـ اصنعي شيئًا . . .

فتساءلت بجزع:

ـ أتريد أن تخطف بنتًا من رجلها؟

ـ أنتِ الذي مكّنتِه من خطفها!

فتمتمت بحنان:

ـ الخيرة فيما اختار الله.

ورماها بنظرة حزنت لها ومضى. ووجد حمدون جيّاشًا بالانفعال. وقال عزّت:

ـ إنّي أحترق وكان ينبغي أن أحرق . . .

فتساءل حمدون:

ـ هل انتهى الأمر؟

واصطحبه إلى والد بدريّة، ورجاه أن يبقيها على ذمّته حتّى يستقلّ بنفسه، فقال الأب:

ـ لقد قرأنا الفاتحة، وكان بوسع والدتك أن تتكلّم لو توفّرت لها الرغبة . . .

فقال حمدون:

ـ هو الذي يرغب. . .

فقال الرجل:

ـ إنّي رجل مستقيم لا أتعامل بالحيل!

* * *

عرف عزّت الوحدة وهو منغمس في خضمّ الناس. حزن حزن القويّ عندما يُغلب على أمره. . . أدرك أنّ جاهه زائف وأنّه يستمدّ نوره من أمّه. إنّه في الواقع حقير فقير عاجز. أعماه الغضب حتّى فقد الرشد. تفجّرت منه قوّة حطّمت رأس أمّه، إنّها قوّة شرّيرة تتهادى في رداء ملاك، قتلها سبع مرّات كلّ مرّة بأداة خاصّة. وماتت حتف أنفها مرّات أخر، لو كان في قوّة حمدون لغامر مغامرة فريدة مرحّبًا بالصعلكة. لكنّه أسير الحديقة والوسائد الناعمة وتلك القوّة الغامضة المجهولة. ولشدّة ارتباطه بالحياة فقد الحياة الباهرة. إنّه وفيّ للأسر ليشدو أغاني العذاب، وستجلو بدريّة عن مجال أمله بعد أن أرست فيه طابعًا لا يبيد. وكُتب عليه أن ينتظر أملًا لا يعود وأن يبحث عن كائن ليس له وجود. واللعنة على الكبرياء التي يلقّنها غرّ في مهد عبوديّة.

* * *

وفي حومة النضال العقيم تلقّى من حمدون رسالة. ألم يجتمع به أمس وكلّ يوم!!

عزيزي عزّت. . .

عليك أن تفهمني باسم صداقة العمر. إنّها صداقة حقيقيّة متينة ونقيّة. إيّاك أن تسيء بي الظنّ. لقد وطّنت النفس على التضحية تحت شرط أن تفعل أنت شيئًا. لكنّك أعلنت عجزك وسلّمت بالواقع. عند ذاك قرّرت أنّه من حقّي أن أعمل. إنّي مثلك في الحبّ ولكنّي لا أتركها تذهب مع الكومي. سنهرب معًا لنتزوّج بعيدًا عن الأهل والحارة. معي مال قليل من ثمن الأرض سأعتمد عليه حتّى ألحق بالوظيفة. لن أتخلّى عنها كما لن أتخلّى عن المسرح. وستبقى صداقتك معي وذكرياتها الجميلة. لا تسئ بي الظنّ وتقبّل تحيّاتي.

حمدون عجرمة

قرأها مرّات قبل أن يسيطر على معانيها. وقتل حمدون مرّات ـ أكثر من أمّه ـ قبل أن يفهم موقفه. شدّ ما أخفى عنه حبّه. حقًّا إنّه لممثّل ماكر. لم يغفر له رغم أنّه لم يتّهمه. ربّما كان يسخر منه. وربّما كان من الأفضل أن يأخذها الكومي. اعتاد أن تنفّذ رغباته قبل أن يجهر بها فماذا جرى من وراء ظهره. غصّت الدنيا بالمجرمين أمثال عين وحمدون وبدريّة. أصبح القتل لا يجدي. أفظع من ذلك أن تغرورق العينان بالدموع. أن تعمق صفرة الحديقة وتموت العصافير. أن يمسي بلا حبيبة وبلا صديق وبلا أمّ.

وانتشرت حكاية الهرب في الحارة كالغبار في يوم عاصف. لفحته العاصفة باعتباره بطلها المهزوم. احترق والد بدريّة وأمّها وستّ ومّانة خالة حمدون. اشتعلت خصومات. سجّلت الشائعات للحادث حكاية فاضحة متكاملة. طُلّقت أمّ بدريّة في أثر شجار عنيف.

* * *

وكان يجلس في الخميلة في أصيل قائظ عندما رأى ظلّ أمّه يفرش الأرض أمامه بين الشوح والجدول. اقتربت وهي تقول:

ـ لم نتبادل كلمة منذ أيّام، إنّه الجحيم. . .

رأى وجهًا متهدّلًا وخامدًا، وقد حلّت نظرة خابية في مكان الألق البهيج. لم يعطف عليها وحوّل عينيه عنها. همست وهي تجلس:

ـ يجب أن تعرفني أكثر. . .

فانتقم منها بالتمادي في الصمت فقالت:

ـ آن لي أن أعترف لك بأشياء. .

في الصمت ارتفع نقيق الضفادع وزقزقة العصافير. واصلت الحديث:

ـ اهتممت بمعرفة كلّ شيء، فكّرت في الإذعان لمشيئتك، فجاءتني معلومات غير متوقّعة. . .

أنصت باهتمام ولكنّه لم ينبس.

ـ كان ثمّة حبّ متبادل بينها وبين حمدون، ذاك أمر الله ولا لوم على أحد. . .

فهتف وهو لا يدري:

ـ كان يخدعني!

ـ أبدًا، إنّه فتًى أمين، لم يكن في موقف سعيد، لا أدري ماذا كان يدور في ذهنه، ولكنّه على أيّ حال لم يخطئ في حقّك. . .

وتنهّدت بعمق واستطردت:

ـ اضطررت إلى الإصرار على الرفض ولم أرَ خيرًا في كشف الحقيقة. . .

قرّبت وجهها المحزون منه حتّى لثمت جبينه، وقالت:

ـ لا تستسلم للحزن، الحياة أقوى من كلّ شيء، سيجيئك السلوان بأسرع ممّا تقدّر، وستجد مَن هي خير منها. . .

عند ذاك جاءت أمّ سيّدة تتقدّمها نحنحة فظّة. غادر المكان والمغيب يستفحل. وفي الممرّ التقى بسيّدة قادمة لتلحق بأمّها. تصافحا. وفجأة اشتعل بلا تمهيد ولا مقدّمات، وبلا سبب في الظاهر. أخذ بما اجتاحه. لم يترك يدها. مضى إلى الداخل جاذبًا يدها معه. أذعنت بلا مقاومة تذكر متشجّعة بالظلمة. لم ينبس بكلمة، ضمّها إليه، شملها ذهول أخرس. أطاع قدرًا جامحًا وغامضًا وبلا أدنى تفكير في العواقب وكأنّه يعبث في الظلام وحده بلا شريك. وتفشّى في الوحدة المطلقة إذعان ذليل ورغبة دفينة وذكرى آسرة. وحفرت في لوحة الليل السوداء نقوش لا تُمحى. .

٨

لم يعد الحبّ هو المحتلّ الوحيد للمكان. زاحمه قدر جديد هو الخوف. وتناسى الحبّ أحيانًا ليرامق الشبح الجديد. وهو شبح ثابت لا يتزحزح ولا يهن بمرور الزمن. ومن الأخطاء خطأ لا يني يطارد ويطالب بحلّ. وسيّدة في ذاتها لا شيء ولكنّها بسبب الخطأ صارت كلّ شيء. إنّها الآن تستكنّ في ركن من الوجود، ضئيلة لا ترى غائصة في ضعفها ولكنّ صوتها يدوّي مثل صرّار الليل. لقد مات أبوها من دهر، أخوها الأكبر في السجن والأصغر مهاجر. أمّها ربيبة نعمة أمّه ولكنّ الخطأ قوّض بناءً وأقام محلّه بناءً جديدًا. ما العمل؟ ما اعتادت أعماقه أن تقترح حلولًا ولكنّها دأبت على القتل. ونظرة سيّدة التي ترمقه بها عند اللقاء العابر راسخة في خياله. مفعمة بالدلالات المشتركة، ذليلة وجلة يائسة تؤكّد له أنّ ما كان لا يمكن أن يمضي كأن لم يكن. إنّها حزنه الخفيّ حين يتجسّد. وأحيانًا تندّ عنها إشارة خفيّة تحكي مأساة متكاملة، استغاثة حارّة صامتة، تستوهب إحسانًا أو رحمة كآخر انتفاضة للضفدع قبل أن تسلم الروح. ما العمل؟ وتذكّر وهو كاره حمدون. لماذا؟ ربّما لثرثرته الملحّة عن الأقوياء والضعفاء، لآرائه التي يريد أن يصلح بها الكون.

وكان يقرأ فصلًا في رواية بوليسيّة عندما خيّل إليه أنّ صوت أمّه يحتدم في الحديقة. نظر من نافذته فرأى المرأتين ـ أمّه وأمّ سيّدة ـ تسترسلان في حديث ما. داخلته كآبة مثل جوّ المغيب المخيّم. سيحدث ذات يوم أمر ما. إنّه يتوقّعه كما يتوقّع مريض الفم ضربان ضرسه.

* * *

وسمع خطوات أمّه قادمة فلعن مخاوفه ومرق من الخوف إلى التحدّي. جلست على ديوان يتوسّط الحجرة بوجه شاحب. أرعشت بيدها مروحة عاجيّة بحركة عصبيّة فوردت ذهنه فكرة غريبة بأنّ معجزة أمّه ستتحطّم على يديه. وقالت عين بصوت متهدّج:

ـ ماذا ينقص هٰذا البيت؟

وتريّثت قليلًا ثمّ أجابت نفسها:

ـ يُتلى فيه القرآن، يعبقه البخور، ترعاه الحسنات والنوايا الطيّبة، فكيف يندسّ الشيطان في أركانه؟!

آه. . . لقد وقعت الواقعة. . . وعليه أن يتظاهر بمواصلة القراءة.

وتساءلت عين بأسًى:

ـ ألم تشعر بوجودي بعد؟

فتساءل ببلاهة:

ـ ماذا؟

ـ ألا تخمّن ما ورائي من حزن؟

أغلق الكتاب ونظر إلى تهاويل السجّادة الفارسيّة في استسلام.

ـ ما هٰذا الذي كاشفتني به أمّ سيّدة؟

فشحب وجهه ولم ينبس. تأوّهت قائلة:

ـ لِمَ أعـذّبك؟ . . . لا معنى للتـأنيب بعـد فـوات الوقت. . .

رأى بوضوح ـ ربّما لأوّل مرّة ـ مبخرة فضّيّة محمولة بساقين من النحاس تستقرّ أسفل ستارة أرجوانيّة.

ـ اسمـع يـا بنيّ، لست أوّل شخص يعبث بـه الشيطان، وما يهمّ حقًّا هو تصرّفنا بإزاء ما نرتكب من أخطاء. . .

وتنهّدت بصوت مسموع وقالت:

ـ نحن أغنياء ولٰكن لا قيمة لـذٰلك، وإنّما قيمة الإنسان تتحدّد في علاقته بربّه، غير أنّنا نحاسَب على قدر قوّتنا. . .

وجد نفسه ينزلق في طريق وحيد مسدود.

واستطردت عين:

ـ قد نخطئ ولٰكن لا يجوز أن نَظلم، علينـا أن نصلح خطأنا، وكلّما جـاء الإصلاح عـلى غير هـوانا اقتربنا أكثر من عفو ربّنا. . .

ورفعت رأسها كأنّما ترنو إلى القنديل وقالت بحزم:

ـ ستتزوّج من سيّدة في أقرب فرصة. . .

ثمّ نهضت وهي تقول:

ـ إنّه قرار لا يقبل المناقشة، وما يشهد لك بالطيبة أن ترحّب به. . .

* * *

وتلاحقت الأحداث كأنّما تقـع لشخص آخر. . . وذاع الخبر في الحارة فأحدث دهشة عامّة، كما صعق بيوت العرائس المرشّحات لجمالهنّ وأصلهنّ لمثل هٰـذا العريس الفريـد. وكيف ترفض السـتّ عـين بدريّـة المناويشي لتقبل سيّدة بنت أمّ سيّدة الخاطبة؟ أيرجع السرّ إلى مهارة أمّ سيّدة؟ أيجد تفسيره في شذوذ طرأ على ذوق عزّت؟ وكالعادة تمطّى التأويل السيّئ لينفث ظنونه فأصاب الحقيقـة هٰذه المـرّة بمحض الصدفـة. هٰكذا تزوّج عـزّت وهو في الثـامنة عشرة من عمـره زواجًا مناقضًا لذوقه وميوله. وهٰكذا انتقلت سيّدة إلى أجمل دار في الحارة لتحتلّ أرفع مكـان فيها. هٰكـذا صارت أمّ سيّدة حماة الوجيه الأوّل. وثارت أمّونة ثورة حاقدة فقطعت علاقتها بشقيقتها إلى الأبد. واستسلم عزّت في الواقع كما يستسلم إلى قدر لا مفرّ منه. أجل لم يعتدّه قضاءً نهائيًا، ولٰكن حلًّا ضروريًـا مؤقّتًا حتّى يتخلّص منه في الوقت المناسب. وتضاعفت أشجـانه عـلى حبّه الضـائع فـاعتبر المحنـة كلّها جـزاءً عـادلًا يستحقّه لضعفه وتردّده. ومن أوّل لحظة أدركت سيّدة أنّها لا تحظى بحبّ زوجها ولا حتّى بـرضـاه. وأنّها تتجرّع حياة باردة، حيوانيّة مجرّدة، لا عطف فيها ولا احترام. وبدافع من غريزة الدفاع عن النفس انطوت تحت جناح عين، فوهبتها من قلب محروم جريح كامل الولاء والوفاء. وأوصتها أمّها بالصبر والتزام الأدب. قالت لها:

ـ لك ربّ فليكن اعتمادك عليه وحده . . .

فقالت لها الفتاة:

ـ أفضّل أن أرجع إلى بيتي. . .

فقالت المرأة بإصرار:

ـ لا تفرّطي في النعمة، واعلمي أنّ الـرجال لا يثبتون على حال، وما الحياة الزوجيّة إلّا معركة. . .

وفي ذٰلك الجوّ الشحيح بأيّ عذوبة حملت سيّدة، ثمّ أنجبت «سمير». أصبحت أمًّا، أصبح عزّت أبًا، أصبحت عين جدّة، فحتّى في أسوأ الظروف استطاعت أن تغيّر أبعاد كونها الصغير، وأن تفجّر فيه من ينابيع العواطف الجديدة ما لا عهد له به. تحرّك قلب عزّت. جاءه حبّ جديد ليزاحم حبّه القديم الذي اعتاد ألمه حتّى ألفه. أمّا عين فجنّت بالوليد وعشقتـه، وطمح قلب سيّدة الكسير إلى حياة أفضل.

وخاب عزّت في دراسته القانونيّة، لا الهمّـة وجد ولا الحـماس، فانقـطع عن المدرسـة بعد عـامين من التحاقه بها. وضاق بحياة بلا حبّ ولا صداقة فعزم على التوظّف. أراد أن يظفر بقدر من الاستقلال، وأن يمـلأ فراغـه، وأن يجرّب الحيـاة الرسميّـة التي تفتن الكثيرين.

والتحق بوظيفة بوزارة المعارف. وسرعان ما نشب التنافر بينه وبين الوظيفة ومناخها العدوانيّ. ونصحته أمّه بأن يدعو موظّفي إدارته إلى وليمة في الدار تعزيزًا لمـركزه ودفعًـا لمكر المـاكرين. ومضى عليـه شهـر في العمل. ولدى عودته سألته أمّه:

ـ ألم تحدّد يومًا للوليمة؟

فأجابها بهدوء:

ـ قامت معركة بيني وبين رئيسي . . .

فحدجته باهتمام فقال:

ـ قدّمت استقالتي. . .

وأغرق في الضحك.

٩

يقول الراوي:

ويمرّ عام في أعقاب عام. يغوص حبّه القديم في غلاف من السكينة والفتور. وتظلّ علاقته بسيّدة باردة في مشاعرها، خشنة في معاملاتها، لا تندّ عنه كلمة طيّبة، ولا يتردّد عن الإساءة إليها لأقلّ هفوة، وأحيانًا بلا سبب، وكان يمضي بسمير بعيدًا عنها ليمارس حرّيّته في ملاعبته وتقبيله. وضاق بحياته بعد غياب بدريّة وحمدون، ولم تكفِ القصص البوليسيّة لملء الفراغ، فانزلق إلى غرزة يسلّي بها همّه. ومن ثمّ عَرف أين يقضي ليلته حتّى مطلع الفجر، وأن يهرب بالنوم حتّى الظهيرة. وتابعت عين نظام حياته الجديد بقلق، وكانت تقول له:

ـ نحن الذين نصنع سعادتنا بأيدينا.

وحنق عليها لسعادتها الدائمة. إنّها تمضي كالنحلة تمجّ رحيق الإحسان والحبّ. تتوغّل في الحلقة السابعة بحصانة تامّة ضدّ أعراض الشيخوخة، تتجوّل بلا انقطاع، تحظى بالنشاط والرشاقة والفرحة المتألّقة. وكأنّما تقصد تعذيبه وهي تقول:

ـ يا بنيّ تعامل مع زوجك بالرحمة، إنّها امرأة نادرة المثال في صبرها وأدبها. . .

لقد ساءه أن تثبت له براءتها في موقفها من بدريّة، إنّه نَهِم إلى إدانتها. ويذكر لها موقفها المتعنّت من حبّه قبل أن تعرف ما بين بدريّة وحمدون من حبّ. إنّها مدانة على أيّ حال. وهو ممزّق بين حبّها وكراهيّتها، يحلم أحيانًا بموتها. ولكن كيف يمكن أن تموت هذه المرأة البارعة؟ سوف يسبقها إلى القبر. سيعيش في أسرها عمره كلّه. إنّها تستمدّ من المجهول قوّة خارقة. ولكن هل يتحمّل الحياة بغير شعوره الباطنيّ بوجودها في مكان ما في الدار أو الحارة؟!

وتكرّر حثّه على معاملة سيّدة بالحسنى فيتساءل ما الذي جعله يبقي عليها طيلة الأعوام الماضية؟

الحقّ أنّه لا يحبّها ولا يريدها. من أجل سمير؟ أم أنّه الضعف الأبديّ الذي يمنعه من العمل؟ وقال لعين ردًّا على توسّلاتها:

ـ آن لي أن أطلّقها. . .

فبسطت يديها نحو السماء متمتمة:

ـ اللّهمّ جنّبه قسوة الحيوان. . .

ـ إنّني لا أحبّها. . .

ـ الرحمة أولى بمن لا تحبّ.

ـ المسألة أنّك سعيدة أمّا أنا فرجل تعيس. . .

فقبضت على يده بشدّة وتوسّلت قائلة:

ـ لا تفكّر في الطلاق، حتّى لو رأيت أن تتزوّج من أخرى. . .

ما معنى أن يجيء بامرأة أخرى بلا حبّ؟

عين امرأة سعيدة، والسعداء لا يرون الحقيقة.

إنّها تبعثر الثروة والعمر يمضي. . . قال لها:

ـ إنّك تنفقين بلا حساب.

ـ الحمد لله.

ـ ولكنّه مالي أيضًا!

ـ حدّ علمي أنّه مال الله سبحانه وتعالى.

فتساءل ضاحكًا:

ـ ألم تسمعي عن أبناء يقتلون أمّهاتهم؟

فأجابته ضاحكة أيضًا:

ـ ولكنّي أعلم أنّك تحبّني، وأنّك ستملأ قبري بدموعك فيسبح فوقها جثماني. . .

* * *

وانتهزت سيّدة فرصة هدوء يمرّ بلا نقار فقالت له:

ـ إنّ ما ينقصك حقًّا هو العمل. . .

فتساءل بسخرية:

ـ أعمل خاطبة؟

فتجاهلت غمزته وقالت:

ـ أنشئ عملًا مناسبًا، لن تضنّ عليك والدتك برأس المال.

غزته الفكرة، كره أن تجيئه من سيّدة ولكنّها غزته. تمتم بسخرية:

ـ عجيب أن تخرج منك فكرة طيّبة . . .

قالت وهي تتنهّد:

ـ جرّب وربّنا معك.

إنّه في حاجة إلى العمل والاستقلال، ولكن من أين يجيء بالخبرة؟ أين اللعين حمدون؟ لم يحسن في حياته سوى قراءة قصص الجريمة وتدخين الكيف في لغرزة. ها هو حلم جديد يبزغ في حياته القاحلة . .

١٠

لم يعقب اقتراح سيّدة فعل. حلم بالمشروع وبرم أكثر بالحياة. لم يجد في الحياة جديدًا سوى أنّه اعتاد عادة جديدة هي الإكثار من الطعام بتأثير من الكيف ومعالجة للضجر. ولأوّل مرّة يفقد رشاقته ويميل قليلًا إلى البدانة. في ذلك الوقت نسي حبّه القديم أو كاد، وانطبع بطابع بلادة غاشية، حتّى العبادات مارسها بلا شعور وبلا حماس. ولم يجد أمامه إلّا سيّدة فحمّلها مسئوليّة تدهوره. وتمرّدت الفتاة فجأة على وضعها فهرعت إلى عين وهي متدثّرة بعباءة وراء النافذة تشاهد من وراء الزجاج مطرًا ينهلّ فوق الحديقة فيغسل الأوراق ويملأ القنوات، بثّتها شكاتها وقالت وهي تجهش في البكاء:

ـ يجب أن أرجع إلى أمّي . . .

فلم تستردّ عينيها من الماء والشجر ممتصّة ثورتها بهدوء شامل، ثمّ تساءلت:

ـ ألك أمّ غيري؟

فهمست بأسًى:

ـ أنت أمّ الجميع ولكنّني معذّبة . . .

وتساءلت عين وهي تلتفت نحوها بحنان:

ـ أما زلت على جهلك بالرجال؟

ثمّ وهي تقرصها بعطف في خدّها:

ـ إنّهم يحتاجون إلى تربية متواصلة تمتدّ من المهد إلى اللحد، وهذه هي مهمّتنا . . .

وهمّت الأخرى بالكلام فأسكتتها بإشارة وواصلت:

ـ المرأة التي تهجر بيتها جاهلة لا تستحقّ نعمة الأمومة، ماذا غيّرك بعد أن آمنتُ بأنّك أعقل الستّات طرًّا؟

ـ حتّى متى أتحمّل الإهانة؟!

ـ إنّه يهينني بأفعاله أكثر ممّا يهينك بأقواله فهل أهجره بدوري؟

ـ ولكن . . .

فقاطعتها:

ـ حذارِ أن تعرّضي الأمير الصغير للمتاعب.

* * *

وكان يسترق النظر إلى الفتيات اللاتي حلمن ذات يوم بالزواج منه. إنّهنّ يرحن ويغدين في الحارة محصّنات بالزواج والاستقامة. أيّ واحدة منهنّ تفضل سيّدة جمالًا. وأيّ واحدة كانت خليقة بأن تخلق الحبّ خلقًا إذا لم يتوفّر في البداية. وكان يعاشرهنّ في الخيال وقد وهنت روادعه بوهن عباداته. ومن بينهنّ «اعتدال» عُرفت بشيء من المرح فتشجّع ذات مرّة إلى توجيه تحيّة هامسة إليها، لكنّه قوبل بتجهّم خشن. وكان للخطأ عواقبه ففاجأه الشيخ سلام الدروي ناظر المدرسة الأوّليّة بالانقضاض عليه في الغرزة، وعلى مرأى من الجالسين بصق على وجهه وهو يصيح به:

ـ يا نذل . . . يا جبان . . .

وتفشّت الفضيحة وعُرفت تفاصيلها. اعتذر قوم بأنّها لم تكن إلّا تحيّة بريئة ندّت عنه ببراءة وفي حال من السهو، واستنكرتها الأغلبيّة ولكنّها لم تنفِ عنه حسن النيّة. وتشابك الشيخ والفتى حتّى خلّص الآخرون بينهما. ورجع عزّت إلى داره بشفة متورّمة.

* * *

لأوّل مرّة ينصبّ لوم على شيء ينتمي إلى الستّ عين. وتوارت سيّدة عن الأعين لتبكي وحدها. أمّا عين فوقفت أمام عزّت وقفة عسكريّة وقالت:

ـ أصدقني هل عبث بك الشيطان؟

فقال بحرارة كاذبة:

ـ كلّا . . . وأقسم لك على ذلك . . .

فقالت وهي تتنهّد بارتياح:

ـ إنّي أصدّقك . . . ولكنّك أخطأت . . .

واستدعت الشيخ الدروي فأكرمته غاية الإكرام وأكّدت له براءة ابنها. واستبقته للغداء فصالحت بينه وبين عزّت، ولم يسكن خاطرها حتّى اطمأنّت إلى أنّ

سحابة الكدر قد تلاشت تمامًا.

* * *

لٰكنّها لم تتلاشَ من سماء عزّت، هو وحده يعلم بكذبه ونفاقه وجبنه. ويشعر بأنّ عباداته خسرت روحها الصافية فلم يبق منها إلّا وخز خفيّ ينفث الأسى، وأذعن أكثر لمغريات الطعام الدسم وراح يحلم بالمشروع المقترح، ويحلم أيضًا بالهجرة من الحارة التي لم تعُدْ تَعِدُ بخير.

ومنه علمت عين برغبته في إنشاء مشروع تجاريّ فرحّبت بالفكرة وقالت:

ـ طالما فكّرتُ في ذٰلك ولكنّي انتظرت حتّى يجيء التفكير من ناحيتك!

فلم يُسَرّ بترحيبها وتوجّس خيفة غامضة أمّا عين فواصلت تقول:

ـ لا خبرة لك ولٰكن لا شيء يدعو لليأس، الناس حولنا يعملون في الخشب والدقيق والبنّ والخيش، دعني أدخلك شريكًا لأحدهم حتّى تعرف سرّ المهنة، ولك بعد ذٰلك أن تستمرّ معه أو أن تستقلّ بعمل مماثل في مكان آخر...

وجد نفسه على باب تغيير حاسم سيقلب نظام حياته رأسًا على عقب فأجفل، هل يتحرّر من النظام الراهن بسهولة؟ إنّه يسهر الليل في الغرزة، وينام حتّى الظهيرة، ويتسلّى بقصص الجريمة، فهل يتخلّى عن ذٰلك كلّه دفعة واحدة؟!

قال:

ـ عظيم... سيحدث ذٰلك دون ريب... ولٰكن فلنؤجّل تنفيذه إلى حين...

وألحّت عليه الرغبة في هجر الحارة، وجعل يردّد رغبته على مسمع من سيّدة. وانقبض قلب الفتاة، إنّها تعلم يقينًا أنّ حياتها الزوجيّة تدين ببقائها حتّى الآن لعين، وأنّه لا يتجاوز الحدّ في الإساءة إليها حذرًا من إغضاب أمّه، ولٰكن أيّ مصير تلقى إذا انفرد بها في مكان بعيد؟!

لذٰلك وشت بأفكاره إلى عين ورجتها أن تخفي وشايتها. وتساءلت عين آسفة:

ـ أين يجد مثل دارنا؟ ولٰكنّه كره الحارة!

وفكّرت لأوّل مرّة في إدخال تجديدات حديثة على هندسة دارها العريقة، وأنفقت بسخاء لتوصل إليها الماء والمجاري والكهرباء حتّى عجب عزّت من قرارها المفاجئ... وتساءلت ضاحكة:

ـ لِمَ لا؟... الدنيا تتغيّر، وثمّة تجديدات تنفع ولا تضرّ...

ثمّ سألته بعد حين قليل:

ـ هل يروقك الأثاث الحديث؟

فتساءل بفتور:

ـ ما أهمّيّة ذٰلك؟

ـ أنت شابّ، وللشباب ميوله، ممكن أن تجيء بقطع حديثة لتحتلّ مكانها بين الأثاث القديم، وممكن أن نجعل التجديد في حجرتك شاملًا، لِمَ لا؟ ماذا يعجبك؟!

فرفع منكبيه ولم ينبس، وداخله شكّ في أنّ سيّدة وشت به، وسألها حال انفراده بها:

ـ هل أطلعتها على رغبتي في الذهاب؟

فأنكرت بشدّة ولٰكنّه قال بازدراء:

ـ نمّامة واشية مثل أمّك...

وعلمت عين بالشجار فواجهته بالصراحة التي تحبّها. قالت له:

ـ لا تعذّب أمّ سمير أكثر من ذٰلك، هٰذه دارك وقد جدّدتها إكرامًا لك، إذا كانت لك رغبة في حياة مستقلّة بعيدًا عن حارتك فلن أعترض رغبتك، لك الحرّيّة الكاملة فافعل ما تشاء...

هٰكذا وجد نفسه مع حرّيّته ـ مرّة أخرى ـ بلا عائق. وسرعان ما فترت همّته وتحرّك تردّده.

كالعادة توقّف فوق العتبة. ترى من أين يزحف عليه هٰذا الشلل؟! أهي حياته الخاصّة التي تحوّلت إلى بَلادة ناعسة؟ هل يوجد في عين سرّ خفيّ ما زال يجهله؟

١١

وطالعته عين ذات صباح بعينين محمرّتين من أثر البكاء فانزعج جدًّا. لا يذكر أنّه رآها تبكي من قبل. سألها عمّا بها بقلب منقبض يتوقّع شرًّا فهمست بصوت

حزين:

ـ بركة... تعيش أنت!

فما تمالك أن ابتسم وهو يشعر بالنجاة وتمتم:

ـ القطط تملأ الدار، البقيّة في حياتك...

ـ لكنّ بركة هي الأصل، كان قلبها عامرًا بالحبّ وحسن الإدراك، ولم يكن ثمّة مفرّ فقد انتهى الأجَل...

كان قد ألف هٰذه الدروشة، وسلّم بحقيقة المناجاة المتبادلة بين أمّه والقطط، وربط بين ذٰلك وبين حيويّتها التي لم تنقص منها سبعون عامًا شيئًا. كذٰلك ألف معاشرة سيّدة الراكدة، بل لقد تألّم لإجهاضها مرّتين بلا سبب ظاهر، وقد خفق قلبه عندما قالت له أمّه ذات يوم:

ـ آن لنا أن نرسل سمير إلى الشيخ العزيزي!

حقًّا بلغ سمير السادسة، وضحت الآن ملامح عين في وجهه. الزمن يتقدّم وقد بلغ هو الخامسة والعشرين من عمره، لم يحدث شيء هامّ في أثناء ذٰلك... بل حدث تغيّر خفيّ لم يهمس به لأحد.

تغيّرٌ عجبَ له وانزعج. إنّه الفتور الذي يسري في شعوره الدينيّ. لا علاقة بذٰلك بأحد من جلساء الغرزة فهم مؤمنون. ولا شأن لقصص الجريمة في ذٰلك. ولا دخل للتفكير في الموضوع كلّه فهو لا يفكّر، ما هو إلّا فتور في الشعور أخمد الحماس واليقين فتهاوت أركان المعبد. كفّ عن الصلاة والصيام ولٰكنّه احتفظ بسرّ ذٰلك لنفسه فلم يفطن إليه أحد. وخوت الدنيا ولم يكن في وسعه أن ينعشها، دنيا الفراغ والأكاذيب.

ولاحظ رمضان الزيني ـ عميد الغرزة ـ كآبته ذات ليلة فقال له:

ـ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها...

فابتسم متسائلًا فقال الرجل:

ـ جاه ومال وشباب، ماذا تريد أكثر من ذٰلك؟!

صدق الرجل، حتّى لو تهادى إليه ميراثه فأيّ شيء يفعل أكثر ممّا يفعل الآن؟

* * *

والغرزة تقع في مكان فريد على الحدّ الفاصل بين التاريخ والعصر. في حجرة مراقبة بالحصن العتيق القائم فوق القبو. في زمن مضى كان القبو هو الباب الشماليّ للقاهرة وكان الحصن فوقه هو مركز الأمن والدفاع. اليوم الحصن أثر من الآثار، والقبو ممرّ عبور ومنامة للمتسوّلين، ورمضان الزيني هو الذي اختار حجرة المراقبة مكانًا لغرزته. ليست هي بالواسعة ولا بالضيّقة، وتتوفّر لها التهوية من نافذة كان يطلق منها الرماة نبالهم. وجعل من خفير الآثار خادمًا للجلسة، يهيّئ الجوزة ويدور بها، ويشارك في التدخين والعشاء.

واحتفل عزّت بدخول سمير الكتّاب فأهدى الجلسة خروفًا مشويًّا وصينيّة بسبوسة. وكانت ليلة لا تُنسى، لا للمناسبة السعيدة وحدها، ولٰكن لخبر جديد جاء به رمضان الزيني. قال:

ـ رأيت أمس ما لا عين رأت...

فتطلّعت إليه الأعين الناعسة فقال:

ـ مرّ بالدرب الأحمر سيرك اللاوندي فذهبت إليه، بدأ العرض بالتمثيل، رأيت الممثّلة والممثّل. مَن هما فيما تظنّون؟

قال له صوت مازحًا:

ـ أمّك وأبوك...

ولٰكنّه استمرّ دون مبالاة:

ـ بدريّة المناويشي وحمدون عجرمة!

وتصايح القوم:

ـ غير معقول...

أمّا عزّت فقد اندلق فوق رأسه جردل ماء مثلّج. فتح عينيه نصف المغمضتين فرأى الماضي متجسّدًا متسربلًا بالانفعالات العنيفة.

وقال رمضان مسرورًا بما أثار من اهتمام:

ـ بلحمها ودمها.

ـ يا للفضيحة!...

وقال رمضان:

ـ ما يبدأ بالهرب ينتهي في السيرك...

وتعاقبت التعليقات كالسموم، ورجع الماضي إلى عزّت كأنّما لم يغادره دقيقة واحدة لا سبع سنوات كاملة أو تزيد، ورغمًا عنه تمتم:

ـ يا لها من نهاية!

قال رمضان:

- صمّمت على إحراجه فقابلته . . .
- لا شكّ أنّه انزوى؟
- أبدًا . . . ضحك . . . رحّب بي . إنّه الاستهتار نفسه . . .

وسأله عزّت :

- ألا زال السيرك يعمل بالدرب الأحمر؟
- كلّا . . . ولكنّ حمدون وعد بزيارتنا هنا . . .
- مستحيل . . .
- سترون بأنفسكم بعد قليل . . .
- حقيقة إنّه لقارح . . .

واضطرب عزّت ، أيرى حقًّا حمدون بعد قليل؟ ماذا يهمّ؟ لقد اندثر الماضي ومات الحبّ كما ماتت الصداقة ، ولكنّ وثوب الماضي على الحاضر فجأة لا يمرّ دون قلقلة . وتخيّل للّقاء صورًا عديدة ولكن ما حدث فعلًا كان مختلفًا عمّا تخيّل ، فما إن رآه ينظر إليه من تحت حاجبيه البارزين بابتسامة مشرقة فاتحًا ذراعيه حتّى لبّى دعوته فتعانقا بحرارة ، وهمس حمدون في أذنه :

- ما جئت إلّا من أجلك عندما عرفت أنّك من أركان الجلسة . . .

وسرعان ما شارك في التدخين بتلقائيّة وبلا حرج . لم يجد أحد الشجاعة للحملة عليه غير أنّ رمضان قال :

- ما تصوّرت أن أجدك في سيرك . . .

فقال ضاحكًا :

- عملُنا مقصور على المسرحيّة وهي من تأليفي . . .
- ولكنّك كنت موظّفًا . . .
- وما زلت ، المسرح هواية ليس إلّا . . .
- ولكن . . .

ولم يكمل رمضان فضحك حمدون وقال :

- ولكنّ زوجتي ، أليس كذلك؟ . . . إنّها فنّانة مثلي ، لا جدوى من محاولة إقناع حارتنا بذلك . ولكنّنا أسرة شريفة كسائر الأسر الشريفة!

لم تتكلّم إلّا قرقرة الجوزة . . . ثمّ التفت نحو عزّت وقال :

- يسعدني أن أشارك في الاحتفال بدخول ابنك الكتّاب .
- وأنت كم ولدًا لك؟
- أنجبت واحدًا لم يعمّر أكثر من عام ولا شيء بعد ذلك والحمد لله . . .

فسأله رمضان :

- ألا تودّ أن تعقب ذرّيّة؟
- إنّها معطّلة لنشاطنا الفنّيّ!

وقرقرت الجوزة وحدها مرّة أخرى .

* * *

غادرا الغرزة معًا . دعاه إلى داره وهي تغطّ في النوم . جلسا في الحديقة رغم ميل الخريف إلى البرودة في وقت الفجر . تبادلا عواطف صادقة دون أن يشير أحدهما إلى الماضي بكلمة . شعر عزّت بانتعاش روحيّ جديد . قبض على الصداقة صافية بعد أن تلاشت الذكريات الأليمة ، عادا كما كانا بلا حبّ خائب يفرّق بينهما . إنّها لمعجزة تروى . وراح حمدون يحدّثه عن تجربته :

- ما زلت موظّفًا ولكنّ كفاحي في سبيل الفنّ لم يضعف لحظة ، واكتشفت أيضًا موهبة بدريّة ، ولكن كيف نشقّ طريقنا في الصخر؟ لقد رفضتني المسارح كمؤلّف كما رفضت زوجتي كممثّلة ، لم أيأس ، عرفت صاحب سيرك اللاوندي ، اقترحت عليه أن نعرض مسرحيّة من فصل واحد بدلًا من التهريج الممجوج ، لم نطالب بأجر فقبل التجربة ، وقد نجحنا وانبسط الجمهور أضعافًا مضاعفة .

فقال عزّت :

- ولكنّه سيرك!
- أجل ، خير من لا شيء حتّى تلين إرادة المستقبل . . .

وبدافع من الكبرياء أخبره عن مشروعه التجاريّ الذي يفكّر فيه فقال حمدون :

- لا مفرّ من ذلك وإلّا فما معنى الحياة؟!
- إذن فحياتك الآن لها معنى؟
- إنّها مفعمة بالنشاط . . . ومن يدري فقد أكوّن فرقة ذات يوم . . .
- وهل تستطيع أن تصمد أمام المسارح الكبيرة؟

ـ أعني فرقة صغيرة تعمل في روض الفرج صيفًا، وإن وجدنا تشجيعًا عملنا في الكلوب المصريّ شتاءً، هٰذا ما أطمح إليه. . .

دار رأس عزّت، دهمته خواطر غريبة مباغتة. غزاه إلهام بعث النشاط في قلبه وإرادته. لم يشعر من قبل بمثل ما شعر به وقتذاك من قدرة على الخلق والعمل والاقتحام. ولكي يثبت لنفسه أنّه موجود لا حالم قال:

ـ حدّثني يا حمدون عن التكاليف المطلوبة.

فقال الشابّ باهتمام:

ـ أجرة المسرح والممثّلين والملابس والديكورات. ليس بالمبلغ الخياليّ ولٰكن يحسن ألّا يقلّ عن خمسمائة جنيه؟

فتفكّر عزّت قليلًا ثمّ تساءل:

ـ هل يضمن النجاح؟

ـ أعتقد ذٰلك خاصّة إذا أدرنا البوفيه لحسابنا.

وساد صمت مليء بالانفعالات والأمل والدوافع العميقة. أخيرًا تمتم عزّت:

ـ دعني أفكّر يا حمدون قليلًا. . .

١٢

لم يكن في حاجة حقًّا للتفكير (كما يقول الراوي) إذ اجتاحته دفعة حيويّة شديدة الانطلاق والقوّة خلقت منه إنسانًا جديدًا مجنونًا بالحركة، دعاه داعٍ عميق للنشاط والثورة على البلادة حتّى أنكر نفسه، واعتبر الأمر لهوًا مقدّسًا ولعبًا سارًّا تتحقّق به الذات على نحو بهيج. ولم يغب عن تقديره أنّ المشروع الجديد يجب ان يطوى في طيّ الكتمان. فلا هو ممّا يمكن التفاهم عليه صراحة مع عين، ولا هو من الأعمال التي تعترف بها حارته أو تحترمها، وسوف تلوكه الألسنة إذا انكشف السرّ وتجود عليه بأشنع الصفات. ولم يثبط ذٰلك من همّته، بل لعلّه ضاعف من حماسه وتمرّده. صاحب مسرح ومديره ترى ما معنى ذٰلك؟ أعجب من ذٰلك أنّه لم يكتشف في نفسه اهتمامًا حقيقيًّا بالمسرح ولٰكنّه يجري وراء المجهول وتحدّياته الغامضة، وينجذب إلى فترة ماضية عامرة بالثراء. ولا مراء في أنّ الإدارة تناسبه، وصحبة حمدون تعابثه، وتغيير الجوّ من النقيض إلى النقيض يسحره، وحسَن أن يخوض التجربة متحرّرًا من ضعف الحبّ وآلام الوهم وبقلب متوفّز جسور.

ولٰكن هل تصادفه عقبة غير متوقّعة عند أمّه؟ لقد قالت له:

ـ إنّه مبلغ لا يستهان به ولٰكنّه لك حبًّا وكرامة. أريد فقط أن أعرف مشروعك.

ـ شركة مقاولات.

ـ دعني أجلس ساعة مع شركائك.

فانتفض غاضبًا وهتف:

ـ لست قاصرًا، وهٰذه أعمال رجال!

فضحكت قائلة:

ـ ليكن التوفيق حليفك.

* * *

اصطحبه حمدون إلى شقّته القديمة بشارع محمّد عليّ لتناول الغداء. عندما لاح له المسكن شعر برغبة جازمة في الهرب، غير أنّ الرغبة اندفعت في اتّجاه ومضى هو يتأبّط ذراع حمدون في الاتّجاه المضادّ. بعد دقيقة أو نحوها سيرى بدريّة المناويشي، ممثّلة سيرك اللاوندي، ويلمس راحة يدها لأوّل مرّة في حياته، لو حدث ذٰلك قبل سبعة أعوام لتكهرب أو اشتعل ولٰكنّه يمضي اليوم متحرّرًا وقد ذاب العاشق القديم في تيّار الزمن وحلّ محلّه آخر يحلم بالإدارة والسيادة واللهو البريء.

فتح الباب عن محيّاها الثريّ وابتسامتها العذبة وهي مرتدية فستانًا منقّطًا بالبياض، ورجع الصوت القديم وهو يقول بمرح وترحيب:

ـ أهلًا. . . أهلًا. . .

دخل عالمًا جديدًا لا رجعة منه، كان عليه أن ينقّب عنه بين الأطلال، وها هو يغزوه متمتّعًا بالصحّة والصداقة. وتذكّر آلام الحبّ فتعجّب. وجلس في حجرة استقبال متواضعة وغرقوا في المجاملات والذكريات المحايدة ثمّ دُعي إلى المائدة، أثاث البيت ينطق بالتقشّف. صديقه يعاني وها هو يجيئه في الوقت المناسب، وراح يتناول طعامه بحماس قائلًا:

ـ تعلّمت أن آكل كما ينبغي.

فقالت بدريّة:

ـ ازداد وزنك، ربّما أكثر ممّا يلزم.

فقال حمدون معترضًا:

ـ إنّه مناسب جدًّا لصاحب مسرح ومديره.

فقالت بدريّة:

ـ إليك المسقّعة وورق العنب اللذين تحبّهما كما أخبرني حمدون...

* * *

وفي حجرة الاستقبال مرّة أخرى قال عزّت لحمدون:

ـ أرجو أن تكون أحسنت التصرّف مع الوقت.

فقال حمدون بثقة:

ـ سنبدأ مع أوّل يوم من الموسم الصيفيّ، اخترت الممثّلين والممثّلات وسائر العاملين، وعند العصر سيحضر الأستاذ يوسف راضي المحامي. كلّ شيء جاهز...

وتذكّر وفاة أبيها منذ سنوات فقدّم لها العزاء وسألها:

ـ هل ترين والدتك؟

فقالت باقتضاب:

ـ تزوّجت من زمان وانتقلت بصفة نهائيّة إلى البلينا...

فقال حمدون ضاحكًا:

ـ حسن أن يعيش الرجل بلا حماة...

فقالت له بدريّة:

ـ أنت مؤلّف ووغد...

ـ المهمّ أن أنجح كمؤلّف... أتودّ أن ترى مكتبتي؟

فأجاب عزّت بفتور:

ـ طبعًا ولْكن فيما بعد!

وسألته بدريّة:

ـ كيف حال الستّ عين؟ أما زالت تغدق الرحمة على أهل حارتنا؟

فقال ببرود:

ـ في غاية من النشاط والحركة.

ـ أظنّ أنّه آن لها أن تستريح.

ـ ما زالت شابّة!

فقال حمدون بإخلاص:

ـ إنّها تستحقّ الإجلال على مدى الدهر.

فقال عزّت ضاحكًا:

ـ يخيّل إليّ أحيانًا أنّنا أسرة من المجانين!

ـ إذن فالجنون خير ما يوصف للعالم لإنقاذه.

ـ أما زلت تعتقد أنّ العالم في حاجة إلى إنقاذ؟

فرفع حمدون يديه إلى السماء وهتف:

ـ اللّٰهمّ فاشهد!

لاحظ عزّت أنّ بشاشة بدريّة تلاشت فجأة وأنّها غيّرت مجرى الحديث قائلة:

ـ لولا ثقتي في أنّ مالك لن يتبدّد ما رضيت أن نجرّك إلى مشروعنا.

ـ شيء مدهش حقًّا أن تنجحي كممثّلة.

فأشارت نحو حمدون وقالت:

ـ إنّه صاحب الفضل، هو المكتشف وهو المعلّم، يحفظني دوري، وأصرّ على تقويتي في القراءة لأحفظ بنفسي.

فقال حمدون:

ـ لا أهمّيّة لذلك طالما نقدّم فصولًا فكاهيّة، ولْكنّي أحلم بتقديم مسرحيّات شكسبير المترجمة فعليكِ أن تحسني النطق بالفصحى...

ـ الضحك مضمون النجاح، وسوف يؤيّد المدير رأيي...

فابتسم عزّت وامتنع عن الاشتراك في الحديث، فقال حمدون:

ـ الدموع تنجح كالضحك، وقد قرأتْ حضرتها مناظر من يوليوس قيصر فأبدعت.

نسي الحارة تمامًا بادئ الأمر، كأنّها ذكرى أسطوريّة، ثمّ جاءت سيّدة لتجلس لصق بدريّة ولتدعو إلى مقارنة قاسية. نشأة واحدة في الحارة والكتّاب. هٰذه تتألّق بالذكاء والجمال والاقتحام والأخرى تتوارى وراء مسكنة ماكرة ببشرتها الداكنة وأنفها المتكوّر واستسلامها المنيع، لْكن ماذا صنع حمدون من بدريّة وماذا صنع هو من سيّدة؟ وقال أيضًا إنّ سيّدة أنجبت سمير أمّا هٰذه الحسناء فلم تنجب شيئًا، ولو قُدّر لها أن تتزوّج منه لتغيّرت المصائر إلى

أفضل أو أسوأ.

خير ما يفعله ألّا يفكّر إلّا في مركزه الجديد كمدير على هٰذين النجمين، وهو به سعيد جدًّا، وفي غمرة حماس تتزايد قال:

ـ لعلّنا نستطيع أن نستأجر مسرحًا كبيرًا في المستقبل...

ففرّج حمدون بين ساقيه واضطجع إلى مسند الكنبة ليطلق لأحلامه العنان، أمّا بدريّة فقالت:

ـ المهمّ أن ننجح أوّلًا...

فتمتم عزّت:

ـ لو أنّها تهبني ما تبعثره على الناس، لو أنّني أبيع عمارة واحدة!

فاستوى حمدون في جلسته وقال محتجًّا:

ـ إنّي أعترض على الأحلام غير البريئة!

فقال عزّت دون مناسبة ظاهرة:

ـ أودّ أن يكون لي مسكن خاصّ بعيدًا عن الحارة...

* * *

قبيل العصر بقليل دقّ جرس الشقّة فقام حمدون وهو يقول:

ـ جاء الأستاذ يوسف راضي وبدأ العمل.

١٣

تمخّض الشتاء وأوائل الربيع عن إعداد واستعداد وإنفاق مال، كما تمخّض عن صداقة حميمة بين عزّت وحمدون وبدريّة... ويعدّ الراوي تلك الفترة من أسعد الفترات في حياة عزّت عبد الباقي، وكان يمضي شطرًا كبيرًا منها في شقّة حمدون وهناك تحرّرت العقود مع مالك المسرح والممثّلين والممثّلات والفنّيّين والعمّال، وقد جدّد أجزاء من مبنى المسرح وزوّده بكراسيّ جديدة، وركّب له مدخلًا جديدًا، فصار تحفة روض الفرج كما قال عمّ فرج يا مسهّل عامل النظافة والمنادي الذي يرجع أصله إلى الحارة. وفي أبريل نقلوا مكان العمل إلى المسرح نفسه، وقد أعجبته حجرة المدير بمكتبها الكبير والخزانة والمقاعد الجلديّة الوثيرة، ومارس عزّت عمله كمدير وصاحب للمسرح، لم تكن السيادة بالحال الغريبة عنه ولٰكنّها لم تمتدّ من قبل إلى آخرين بهٰذه النوعيّة، وتبدّت الممثّلات لعينيه في صورة مبتذلة جدًّا أقرب إلى دنيا الدعارة منها إلى دنيا الفنّ، وخيّل إليه أنّهنّ يتسابقن في عرض أنفسهنّ عليه فمضى في إعداد شقّة خاصّة في بيت متوسّط الحجم بحدائق شبرا، نوى أن يدعو إليه أسرته الخاصّة بعد أن يستغلّه لنفسه قبل ذٰلك. ولاحظ حمدون تطلّعاته الجنسيّة فقال له:

ـ استمع إلى الصديق، جميعهنّ رخيصات كما ترى، الممثّلات الحقيقيّات لا يفرّطن في مسارحهنّ من أجل مسرح كمسرحنا، وأيّ علاقة مع امرأة من هٰؤلاء ستضع من مكانتك كمدير، افعل ما تشاء بعيدًا عن هنا...

فامتثل للنصيحة، لم يلق صعوبة تذكر ولم تكن به رغبة حقيقيّة. توفّر لعمله بحماس وأشواق، أو توفّر له الرجل الجديد الذي خُلق ليلة الاحتفال بدخول سمير الكتّاب. وكان يلحق عند منتصف الليل بغرزة رمضان الزيني في حجرة المراقبة بالحصن الأثريّ العتيق ثمّ يمضي إلى دار عين عند مطلع الفجر.

وكمدير قرأ النصّ، مسرحيّة نديم السلطان المقتبسة من ألف ليلة وليلة، وهي التي قدّمها حمدون من خزانة مؤلّفاته المتراكمة. شهد أيضًا البروفات، وراقب حمدون وهو يقوم بواجباته المتعدّدة من الإخراج والتمثيل، ورنا بدهشة إلى بدريّة وهي ترفل في طيلسان الجارية الروميّة. من المؤسف أنّه لا دور له في هٰذا العمل المعقّد السحريّ الفاتن، وقال له حمدون:

ـ ستكون المنافسة شديدة، توجد ثلاثة مسارح غير مسرحنا.

فقالت بدريّة:

ـ ميزتنا أنّ روايتنا جديدة، جميع رواياتهم معادة من التراث الهزليّ...

فقال الأستاذ يوسف راضي:

ـ لا تنسي أنّهم يغيّرون العرض كلّ أسبوع، والمكان لا يحتمل عرض رواية واحدة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ولو كانت جديدة!

فقال حمدون:

ـ عندي مخزون غزير، وعندنا التراث أيضًا.

فقال المحامي:

ـ أنا عندي أيضًا رواية جديدة!

فسألته بدريّة:

ـ فكاهيّة؟

ـ دراما جادّة تعالج مشكلة تعدّد الزوجات.

فقال حمدون:

ـ موضوع صالح أيضًا للمعالجة الفكاهيّة.

ـ لٰكنّي تناولته من نواحيه المأساويّة...

فقالت بدريّة:

ـ لا يصلح لروض الفرج على أيّ حال...

فرمق يوسف راضي عزّت برجاء فقال هٰذا بثقة جديدة:

ـ دعني أقرأها أوّلًا...

وارتاح للقرار واعتبره من صميم عمله.

* * *

وكانت ليلة الافتتاح في أوّل مايو، وقف عمّ فرج يا مسهّل أمام المدخل يصيح بصوت مجلجل:

ـ هنا... ستّ بدريّة الفنّانة... مسرحيّة جديدة لم تمثّل من قبل... نديم السلطان... ضحك حتّى منتصف الليل... أغاني ورقص... مشروبات من جميع الأنواع...

كان عزّت متوتّر الأعصاب، لم يعرف هٰذه الحال من قبل إلّا في محنة الحبّ، وعند استهتاره بالعبادات لأوّل مرّة. وقد شهد في فترة الاستعداد نجوم الفرق المنافسة فاطمأنّ إلى تفوّق بدريّة ولٰكنّه لم يضحك ـ كما توقّع ـ وهو يتابع بروفات نديم السلطان. ومال نحو الأستاذ يوسف راضي... كانا الوحيدين فوق مقاعد المشاهدين وتساءل هامسًا:

ـ لا شيء يدعو للضحك!

فقال المحامي منتهزًا الفرصة:

ـ نحن في زمن الدراما والدموع!

انقبض عند ذاك صدره وتساءل هل يرجع إلى أمّه مفلسًا؟! لذٰلك توتّرت أعصابه مع مشرق يوم الافتتاح... غير أنّ الجمهور كان أكبر من المسارح جميعًا، غصّت المسارح بالروّاد، وعمل البوفيه بنشاط فاق طاقته فاستهلكت بالعشرات قوارير الغازوزة والجنجرايل وسندويتشات الفول والطعميّة والبسطرمة. أكثر من هٰذا ضجّ الجمهور بالضحك، واستبق إلى إبداء الإعجاب ببدريّة بألفاظ خرقت الاحتشام في كثير من الأحايين. وضح له نجاح العرض فاستردّ الثقة والكبرياء وتضاعف تقديره لحمدون، وشارك الجمهور في سروره بالرغم من أنّه كان يرى المسرحيّة للمرّة العاشرة.

١٤

عقب الانتهاء عند منتصف الليل جاءت بدريّة وحمدون إلى حجرته بوجهين سعيدين فهنّأهما بالنجاح فقال حمدون بحماس:

ـ نجاح فاق كلّ تصوّر.

وتمتمت بدريّة:

ـ وبعد أن تاب الله علينا من السيرك...

وقام عزّت وهو يقول:

ـ سنحتفل بالنجاح في حدائق شبرا!

اجتمع في الشقّة الجديدة بدريّة وحمدون ويوسف راضي، كذٰلك فرج يا مسهّل للخدمة. وجيء بالكباب والفستق والويسكي على حين عكف فرج يا مسهّل على تجهيز الجوزة. وذاق عزّت الويسكي لأوّل مرّة في حياته فغزاه انفعال جديد بالطرب فلم يعد يبالي بوضعه الغريب ولا بتدهور قيمه. ورأى الكأس بيد بدريّة فملكه شعور بأنّهم ـ جميعًا ـ أجانب، وأنّ الحارة القديمة كانت حلمًا ليس إلّا. ولّما أخذت النشوة بحمدون قال بنبرة خطابيّة:

ـ عرفت عزّت في كتّاب الشيخ العزيزي فخلقت فوق الحصيرة صداقة أبديّة ولٰكنّي لم أعرف إلّا الساعة أنّه قدّر علينا مصير واحد...

فقال عزّت:

ـ لكلّ إنسان أسرة حقيقيّة خلق لها، وباهتدائه إليها يبدأ حياته الأصيلة...

فهتفت بدريّة:

ـ كان علينا أن نضلّ طويلًا قبل أن نهتدي إلى أنفسنا!

وانغمس عزّت في إلهام عجيب فتح قلبه لإشراق باهر. وأحبّ بقوّة خياليّة كلّ شيء. غير أنّه كان أيسر عليه أن ينفصل عن قلبه أو كبده من أن ينفصل عن حمدون وبدريّة أو المسرح الذي هيّأ لهم الالتحام الأبديّ. وقال إنّ بالدنيا كنوزًا من الأفراح لا تخطر على بال. ولٰكن على من يروم السعادة أن يكون حاسمًا مع المعوقات المتلفّعة بظلمة الأركان العتيقة. وقال:

ـ أرغب في الغناء لولا قبح صوتي!

فقال حمدون ضاحكًا:

ـ لنترك هٰذه المسألة لضميرك.

وقالت بدريّة مشيرة إلى حمدون:

ـ كثيرًا ما كان يصحو من نومه فيقول: «حلمت بعزّت!».

فسأله عزّت:

ـ بِمَ كنت تحلم؟

ـ آه... ما أسرع أن تُنسى الأحلام!

فقالت بدريّة:

ـ لٰكنّي ما زلت أذكر حلمًا رواه لي، رأى أنّكما ترقصان معًا في قارب...

ـ ترى ما تفسيره؟

ـ إنّه لا يهتمّ بذٰلك...

فقال فرج يا مسهّل:

ـ لقد تحقّق في مسرحنا «الفردوس» فهو قارب على شاطئ النيل...

وسرعان ما رحّبوا بالتفسير غير أنّ عزّت تساءل في نفسه ترى ماذا كنت أحلم في ذٰلك الزمن؟!

* * *

في طريقه إلى الحارة امتعض كثيرًا فلعن الحركة القسريّة التي تختم بها الدائرة. حتّى الغرزة آوى أصحابها إلى مضاجعهم. وهو يخوض الظلمة ارتطم به معتوه معروف يطيب له الهيمان في الظلمة، وقع رأسه عليه وهو يتمتم بكلمات ممطوطة لا معنى لها فسال لعابه على خدّ عزّت وعنقه. تقزّز الفتى ودفعه بقوّة فارتمى على ظهره عاويًا. وجاءت نحنحة الخفير من بعيد محذّرة متسائلة فبلغ به القهر منتهاه. وانطلق منه قرار متكامل الأبعاد غير مسبوق بتدبير. كما ينقضّ قاطع طريق متربّص. أن يرجع إلى الأبد. أن يقفز من شرفة الحصن العتيق ليقتنص حظًّا جديدًا.

دار على عقبيه ومضى مترنّحًا ثملًا بفرحة طاغية.

* * *

يقول الراوي:

إنّه عند عصر اليوم التالي جاء رسول إلى دار عين حاملًا وثيقة طلاق عزّت من سيّدة. أجهشت سيّدة بالبكاء وراحت تجمع ثيابها في غمرة انفعالها. أسندت عين رأسها إلى ظهر الديوان المحلّى بالحكم والأمثال وأغمضت عينيها. وجعلت تهمس:

ـ ما أصدقك يا قلبي...

ولّما فتحت عينيها رأت سيّدة تنتهي من جمع ملابسها، وسمير يتابعها بوجوم.

صاحت عين:

ـ ما هٰذا؟!

واعتدلت في جلستها وقالت بلهجة آمرة:

ـ أرجعي ملابسك إلى مكانها...

فقالت سيّدة بصوت ممزّق:

ـ كيف أبقى معه تحت سقف واحد؟

فقالت عين بأسًى:

ـ لن يرجع إلينا مرّة أخرى...

وقامت تتمشّى في الحجرة ثمّ تمتمت:

ـ لن أدهش إذا تحوّل السقف إلى سحاب وانهلّ منه المطر...

تمتمت سيّدة:

ـ أذهب إلى أمّي...

فقالت بضيق:

ـ قلت لك إنّ أمّك هي أنا، هٰذا بيتك، هٰذا ابنك سمير، امكثي بسلام حتّى يرزقك الله بخير منه...

وأرجعت الملابس بيديها وهي تواصل:

ـ حدّثني قلبي بأنّ أحداثًا ستقع، السحب لا تتجمّع لغير ما هدف...

وأخذت سمير من يده إلى الديوان وقالت مغيّرة لهجتها:

ـ الشيخ العزيزي يثني عليك طيّب الثناء. اجتهدْ وعَزِّ قلوبنا الجريحة...

همس الولد بقلق:

- بابا . . .

- لقد باعنا بالتراب، هٰذا هو أبوك!

وتساءلت في تأثّر:

- لِمَ لا يكون الجزاء من جنس العمل؟!

وتنهّدت ثمّ قالت مخاطبة المجهول:

- لقد ربّيته على خير ما أستطيع، وباركته بالهدى والحبّ، ماذا به؟ كان دائمًا وكأنّه يتوثّب للسفر، إلى أين؟ لماذا تخاصم الهواء؟ لماذا تتحدّى راحة البال؟ لماذا تبحث عن المتاعب؟

* * *

واصلت الحياة سيرها الوئيد في الدار والحارة. مكثت سيّدة بالدار في حياة جديدة خالية من الصراعات. استأنفت عين جولاتها المجلّلة بالحبّ والرحمة مبدية تماسكًا وصبرًا جليلًا حيال المكدّرات. وسعدت باجتهاد سمير وتقدّمه. وانتشرت أنباء عزّت في الحارة - الطلاق والهجر - فلعن الرجال والنساء الولد المارق.

١٥

الموسم يمضي في نجاح. عرضت فرقة «الفردوس» أربع مسرحيّات من تأليف حمدون. ومنذ أواخر أغسطس بدأ نشاط جديد لإعداد مسرح الكلوب المصريّ للموسم الشتويّ. عزّت يتمرّس بعمل المدير، يحنّ لرؤية سمير، ولكنّه لا يفكّر قطّ في زيارة الحارة. ودارت مناقشة حول الموسم الجديد في مكتب عزّت فقال حمدون عجرمة:

- إنّي أحذّرك من مسرحيّة يوسف راضي. . .

فقال عزّت:

- سأجد وسيلة لإقناعه . . .

عند ذاك تساءلت بدريّة:

- هل نعرض رواياتنا الهزليّة في الكلوب المصريّ؟

فقال حمدون:

- إنّها ليست هزليّة بالمعنى المتعارف عليه، فمن خلال الهزل أقول أشياء لها قيمتها. . .

فقال عزّت:

- عظيم، ولكنّك حدّثتني مرارًا عن خطّة أخرى. . .

- إذا كان لا بدّ من الجدّ فعندنا مسرحيّات شيكسبير المترجمة. . .

تحرّك رأس بدريّة في رشاقة وقالت بعذوبة:

- إنّي أحبّ يوليوس قيصر!

رأى عزّت حركة الرأس وسمع الصوت فحدث شيء. ذهل عن بقيّة الحديث. ودّعاه وذهبا وهو لا يدري. تمتم وحده:

- ربّاه. . . إنّي أحبّها!

إنّها ملء القلب والنفس والحياة. هل بُعث الحبّ القديم في هٰذه اللحظة؟ أو أنّه لم يذهب قطّ؟ أكان يلاعبه طيلة الوقت؟ إنّه لشيء رائع مخيف. يقتحم الحياة ليشحن المستقبل بشتّى الاحتمالات. وعلى أيّ حال يعصف بالسلام إلى الأبد. تراجعت مشكلة يوسف راضي إلى الوراء. أجل لقد توثّقت علاقته به، هو صاحب الفضل في تعريفه بأكثر من امرأة من صديقاته. أشعل في شقّته ليالي حمراء، لٰكنّه لم يهنأ بها كما تخيّل. بدا له الحبّ التجاريّ مقزّزًا للغاية. وشيء خفيّ في طبيعته ينغّص عليه صفوه ويملؤه بالقلق والنفور. شيء خفيّ مغرم بالنكد، حتّى قبل أن يكتشف حبّه. أو قبل أن يعترف به، نفسه تتّضح له بقوّة كما تتّضح الأسماك تحت سطح الماء الشفّاف. مَن يدري، لعلّه لم يغامر باقتحام الحياة الجديدة، ولم يهجر عين وسمير وسيّدة والحارة، إلّا من أجلها، من أجل بدريّة وسعيًا وراء ندائها المجهول. إنّه الآن أسير تمامًا، حياته محاصرة بأعداء مجهولين. متى يحدث الانفجار؟ ولكن مهلًا. يجب أن تعالج الأمور بأسلوب آخر. ليبقَ الحبّ سرًّا دفينًا تحت الصداقة والعمل. فلتستمرّ الحياة في عذوبة ولتستكنّ عذاباتها الخفيّة. وعاوده التناقض القديم الذي عاناه في رحاب أمّه. يحبّ بدريّة ويحنق عليها. يحبّ حمدون ويمقته. يحظى بالنجاح ويقع في قبضة القلق الحديديّة. وعليه إلى ذٰلك كلّه أن يتعامل معها - بدريّة - ببراءة وتلقائيّة. لٰكنّه لا يطمئنّ إلى ثقته بنفسه، ويتعرّض لهبوب رياح المخاوف. وهي - وهٰذا يقين - تحبّ زوجها لحدّ

العبادة. وهي فيما بدا مطبوعة على الوفاء والاستقامة. ومواقفها من جمهور المعجبين مضرب المثل. ما أغبى حارته في اتّهامها لها ولزوجها. الأغبياء يتّهمونه بالاتّجار في عرض زوجته. ليته كان من هٰؤلاء الصنف من الناس. إذن لاتّخذت الحياة مجرًى فريدًا في انسجامها وسعادتها. وأشدّ ما يثيره ساعة الأرق أحيانًا في أواخر الليل. يستيقظ فيسبح في عالم أثيريّ ويجيش صدره بأعمق عواطف الشجن والأسى. ما أفظع ساعات الأرق. وسُحب الذكريات تهطل صورًا برّاقة تنداح في دموع ودماء وظلام وأنين. عند ذاك يرجع إلى البدائيّة الأولى المجلّلة بالبراءة والوحشيّة والألغاز. وجعل يختلس من الرقباء ساعة تحت ستار الظلام فيقف في ركن ليشاهد دورها فوق المسرح في مناجاة وابتهال، ويتساءل في ذعر ترى عن أيّ مصير سيسفر هٰذا الجنون؟

* * *

يقول الراوي:

إنّه قبيل انتهاء الموسم بأيّام قلائل اندفعت الأحداث في مجرًى جديد غير متوقّع، أخلّ بتوازنها وأسرع بإيقاعها، فانطلقت مثل قذيفة.

كان عزّت في حجرة الإدارة عندما جاءت بدريّة وحدها قبل رفع الستارة بساعة أو نحوها. ورغم أنّها تبدّت قلقة مشتّتة البال إلّا أنّ قلبه خفق بابتهاج عميق إذ كانت أوّل مرّة يخلو إليها مذ عمل في رحابها. جلست وهي تقول بنبرة المعتذرة:

ـ إنّي مضطرّة إلى إشراكك في همومي الشخصيّة...

تضاعف ابتهاجه للثقة الموهوبة من أحبّ الناس وقال:

ـ همومك هي همومي أيضًا...

قرّبت رأسها من المكتب حتّى مسّت خصلات شعرها الأسود حافة الغطاء البلّوريّ وهمست:

ـ هناك شيء واحد يجمع بيننا في هٰذه الهموم.

تمتم وهو يبذل طاقة كبيرة للسيطرة على انفعالاته:

ـ إنّي مصغٍ إليك بكلّ جوارحي...

ـ هٰذا الشيء هو حبّنا لحمدون!

تراجع حتّى ارتطم مؤخّر رأسه بجدار الحقيقة الباردة وقال:

ـ طبعًا...

ـ تحدث أشياء غريبة في بيتنا من شأنها أن تهدّد حياتنا وعملنا ومستقبلنا...

ـ ترى ما هي هٰذه الأشياء الغريبة؟!

ـ هل سمعت عن «أبناء الغد»؟

ـ أجل.

ـ بعضهم يتسلّلون إلى شقّتي من تحت البواكي كلّ ليلة.

ـ كيف؟

ـ عقب عودتنا من المسرح والشرطة نائمة أو هٰكذا يتوهّمون!

ـ لا أكاد أفهم شيئًا.

ـ إنّهم متمرّدون على كلّ شيء، ومطارَدون.

ـ ومتّهمون باغتيالات معروفة!

ـ هٰذه هي المسألة.

ـ أتعنين أنّ حمدون...؟

ولاذ بالصمت فقالت وهي تتنهّد:

ـ نعم، حسبت الأمر مجرّد تعاطف قلبيّ، حتّى اختاروا شقّتنا مكانًا لاجتماعهم، وعبثًا حاولت منع ذٰلك فضلًا عن إقناعه بالتخلّي عنهم.

فتمتم عزّت متفكّرًا:

ـ إنّه شيء خطير حقًّا...

ـ لذٰلك ألجأ إليك...

فتساءل في حيرة:

ـ تعنين أن أفاتحه في الموضوع؟

ـ أعندك رأي آخر؟

ـ ألا يغضب لإفشائك سرّه؟

فقالت بسرعة:

ـ لا يجوز أن يعرف ذٰلك!

ـ فكيف أفسّر له معرفتي بالأمر؟

ـ لا أدري... ولٰكن أبعدْ ظنّه عنّي!

نظرت في ساعة يدها. نهضت وهي تقول:

ـ اعتمادي بعد الله عليك...

وسرعان ما غادرت الحجرة.

١٦

تركته في دوّامة، دوّامة لا تبقي عضوًا واحدًا في موضعه الطبيعيّ. الدنيا ألوان وأصوات وأفكار وملائكة وشياطين متلاطمة. ثمل بالثقة، تحفّز للمساعدة. تحيّر طويلًا. عبره طرب مجهول. وكان عليه أن يهتدي إلى فكرة. وتعترض أفكاره صورة حمدون في لباس السجن، أو فوق المشنقة. يقول لنفسه بصوت مسموع لا بدّ من خطوة لإنقاذ الموقف. لا يجوز أن تهجر بدريّة أو تترمّل، لا يجوز؟

عليه أن يكون عند حسن الظنّ به. عليه ألّا يهمل واجبه. القدر أيضًا لا يهمل واجبه.

عند انتهاء الليلة قبل الختاميّة قال عزّت لحمدون:

ـ أودّ أن أحتفل بالنجاح في شقّتك ولا أريد رابعًا معنا!

بهت حمدون عجرمة وقال:

ـ لست الليلة على ما يرام!

ـ سوف ينعشك الويسكي...

فتساءل متردّدًا:

ـ أليست شقّتك أوفى بالغرض؟

ـ ولٰكنّها غير خالية!

ـ دعنا نرى عشيقتك الجميلة!

فتساءل عزّت باستياء:

ـ كأنّك لا ترحّب بي؟!

* * *

ما كاد يستقرّ بهم المقام في الشقّة حتّى دقّ الجرس. هرع حمدون إلى الباب. عاد بعد دقائق وقد زايله التوتّر. رفع عزّت كأسه قائلًا:

ـ صحّتكما.. أزائر في هٰذه الساعة من الليل؟

فأجاب حمدون ضاحكًا:

ـ طارق أضلّه الظلام!

شرب جرعة وهو يردّد بصره بينهما ثمّ تمتم:

ـ لا تحاولا خداعي.

ـ خداعك؟!

ـ لا تحاولا خداعي.

تساءلت بدريّة:

ـ ماذا؟

فقال عزّت بهدوء مخيف:

ـ إنّكما متّهمان!

هتف حمدون شاحب الوجه:

ـ صارحنا بما في نفسك.

فقال باقتضاب وثقة:

ـ أبناء الغد!

اشتدّ اصفرار وجه حمدون، غضّت بدريّة عينيها، قال حمدون:

ـ لا أفهم.

ـ بل تفهم كلّ شيء.

هبط صمت كالموت ولٰكنّه لم يستقرّ طويلًا، فتساءل عزّت:

ـ أيّ خطر تعرّضان نفسكما له؟

سأله حمدون باهتمام:

ـ مَن أخبرك؟

ـ شخص أثق به.

ـ الوغد!

ـ مَن تقصد؟... إنّك لا تعرفه!... لولا ثقتي في أمانته لحثثتك على الهرب...

ـ يوسف راضي!

ـ كلّا.

ـ هو دون غيره.

ـ قلت كلّا وأقسم على ذٰلك! ومن أين له أن يعلم؟

ـ إنّه معنا ضمن مجموعة أخرى ولٰكنّه يعتقد أنّني أصادر عبقريّته!

ـ أقسم لك أنّه شخص آخر.

ـ مَن هو؟

ـ لست في حلّ من ذكر اسمه، سأخبرك به ذات يوم عندما يحلّني من قسمي، لا أهمّيّة لذٰلك، كيف تورّطتما في ذٰلك؟

فقال حمدون بضيق:

ـ لا علاقة لها بالأمر.

وقالت بدريّة:

ـ لا أهتمّ إلّا بالمسرح...

فقال عزّت مخاطبًا حمدون:

- ليتك كنت كذلك...
- لا حيلة لي في ذلك...
- طول عمرك تشغل نفسك بأمور لا تهمّ أحدًا.
- لا تهمّ أحدًا؟!
- لن أجادلك في ذلك، أريد فقط أن أعلم هل تستمرّ هذه الاجتماعات المريبة؟

فلاذ حمدون بالصمت فقال عزّت:

- نحن صديقان وأكثر من شقيقين، لنا حياة مشتركة، لم تكد نبدأ بعد، أمامك مستقبل باهر، لا زواج بين الفنّ والجريمة، عليك أن تنقذ نفسك قبل ألّا ينفع الندم...

* * *

ورجع إلى حدائق شبرا وهو يقول لنفسه ما كنت أتصوّر أنّ الملائكة والشياطين يتجاورون في وطن واحد!

١٧

في غمار الدوّامة، في الليلة التالية - وهي الليلة الختاميّة - رأى خالته أمّونة وكريمتها إحسان وشابًّا مجهولًا يدخلون مسرحه. تلاقت الأعين فتقدّم للمصافحة، مقابلة فاترة، ولكنّه تعرّف بعريس بنت خالته الذي دعا حماته للمشاركة في نزهة احتفاء بشهر العسل. لم يغب عنه أنّ مهنته الجديدة ستُعرف على حقيقتها في الدار والحارة وستلوكها الألسن كنادرة من النوادر. وكانت فكرة زيارة الأسرة تعابثه من آن لآن فعدل عنها بقرار نهائيّ رغم حنينه المتقطّع لرؤية سمير. انتهى عزّت عبد الباقي القديم وحلّ محلّه رجل يميل إلى البدانة، ويمارس عمله في بيئة تكتنفها الشبهات، وقنع بأن يكلّف عمّ فرج يا مسهّل - وهو أصلًا من أبناء الحارة - باستطلاع الأخبار وموافاته بالأحوال.

* * *

وتحدّد يوم ١٥ أكتوبر موعدًا لافتتاح الموسم الشتويّ بالكلوب المصريّ. نفحه نجاح الموسم الصيفيّ بالثقة، ولكنّ المستقبل تبدّى له رغم ذلك غامضًا وأمدّته أعماقه المنصهرة بالحبّ والأخيلة المفزعة بالريبة والقلق، ولم يخلُ ببدريّة في تلك الفترة إلّا دقيقة فسألها:

- كيف الحال؟
- انتهت الاجتماعات ولكن...
- ولكن؟
- ولكنّ حمدون يمرّ بحال سيّئة...

وقال لنفسه حسن أن تنتهي الاجتماعات غير أنّه ابتسم ساخرًا. وثمّة صورة كانت تلحّ على خياله، صورة حمدون في لباس السجن يصاحبها إحساس بالألم يمجّه الصوت الخفيّ الذي ينغّص عليه صفوه.

وقال له يوسف راضي:

- من المناسب أن تفتتح الموسم بروايتي.

فقال عزّت مجاملًا:

- سنفعل ذلك ذات يوم.

فقال الشابّ:

- إنّي أفكّر في دعوة حمدون ذات يوم لأسمع رأيه وأُدخل ما يراه ضروريًّا من التعديلات.
- خير ما تفعل.

وجرت مفاضلة في شقّة حمدون بين يوليوس قيصر ونديم السلطان. بأيّهما يُستحسن أن يكون الافتتاح. قالت بدريّة:

- يوليوس قيصر هائلة ولكنّ دوري تافه.

فقال حمدون:

- لقد حفظت أقوال أنطونيو حبًّا واستحسانًا ولعلّه من الطريف أن تمثّلي دوره.

فهتف عزّت:

- دور رجل؟!
- لِمَ لا؟... ستكون مفاجأة مثيرة...

* * *

ولم يتقرّر شيء في الاجتماع إذ جرت الأحداث بسرعة مذهلة. في اليوم التالي عُثر على يوسف راضي جثّة هامدة في شقّة صغيرة بالقبيسي يقيم فيها بمفرده. نشرت الصحف الصورة والخبر ووصفت الجريمة بأنّها وحشيّة وغامضة.

ارتعد عزّت وانقلبت ساحة نفسه إلى مسرح للأشباح المفزعة. إنّه والشيطان الوحيدان اللذان

يعرفان السرّ. وجد الشيطان يقبع في أعماقه ويشير ضاحكًا إلى حمدون. حمدون الذي قتل رجلًا بريئًا جزاء جريمة وهميّة لم يرتكبها. مَن الذي قتل يوسف راضي؟ ليس حمدون وحده، لكنّه - عزّت - وراء ذٰلك وبدريّة أيضًا. يا لك من رجل خطير حقًّا يا حمدون ولكنّك انتهيت... انتهيت... انتهيت... انتهيت. اليوم أو غدًا أو بعد غد. حضرة. أنت الذي بادأتني بالصداقة في الكتّاب. أنت القضاء والقدر. أنت الرجل المعجزة. حضرة صاحب. أين المفرّ من ذٰلك الصوت الذي يطاردني ويكدّر صفوي؟ ما ذنب البريء الذي قُتل غدرًا وجهلًا؟ وحتّى متى يلازمني الشيطان وهو يضحك؟ حضرة صاحب. فرصة. للتكفير فرصة. للجنون فرصة. للعذاب فرصة. للحبّ فرصة. لنقف أمام الميزان. حضرة صاحب السعادة. من أنت حتّى تخاصِم وتحاكِم وتحكم. من أنت حتّى تنفّذ أيضًا. دائمًا تُصدر الإعدام على الآخرين. فعلت ذٰلك مرّتين. في كلّ مرّة يهتف هاتف الغيب العين بالعين. أن أتحمّل وقر إثمي فهو العدل. أن أتحمّل إثم الآخر هو الجنون. حتّى لو لم يخرج من العدم وجود فهي التجربة اليائسة. لا بدّ لضحكة الشيطان أن تسكت. أو فليقهقه حتّى يرجّ الجدران. ترى فيمَ تفكّر عين في هٰذه اللحظة من الزمان. حذارِ أن يسبقك الزمن. حضرة صاحب السعادة النائب العامّ.

١٨

في الظاهر تستمرّ الاستعدادات للموسم الجديد لكنّ مصرع يوسف راضي هزّ الأفئدة هزّة عنيفة. جميع أفراد الفرقة يعرفونه معرفة شخصيّة. كاتب العقود والمؤلّف المنتظَر. قُتل أمس والتحقيق ينقّب في كلّ زاوية. سُئلوا جميعًا ولم يُعثر لديهم على شيء. ذهب حمدون معهم. لم يبح عزّت بهاجس واحد من هواجسه. رجع بصحبة حمدون وبدريّة. لاذ حمدون بالصمت طيلة الوقت.

قال عزّت برثاء:

- يا للخسارة!

فعقّب حمدون:

- أجل، كان شابًّا...

وكعادة النساء نشجت بدريّة بالبكاء. وبدت الدنيا غريبة كأنّما تخلق من جديد ولكن في لون منفّر. مرّوا في طريقهم بصندوق البريد الذي تعامل معه أمس لأوّل مرّة. ترى أغادره الخطاب أم لا زال ينتظر. عزّت... حمدون... بدريّة. صندوق البريد... يا للوحشيّة يا بدريّة. عندما لا نجد إلّا الشيطان كرسول للضمير الحيّ! أرى عين ناشرة المظلّة لتتّقي أشعّة الشمس. أتشرّف بإبلاغ سعادتكم.

* * *

في عصر اليوم نفسه، اقتحمت بدريّة شقّته بحدائق شبرا، زيارة غير متوقّعة، متجلّية التعاسة والاضطراب، تنذر بالمخاوف، الخطاب لم يصل بعد فماذا دهاها؟ ارتمت على مقعد بحجرة الاستقبال وأغمضت عينيها من الإعياء. وقف قبالتها مذهولًا، يهمس:

- خيرًا؟!... ماذا حلّ بك؟

تمتمت بيأس واضح:

- إنّه الخراب...

- بدريّة... ارميني بما عندك مرّة واحدة.

فقالت وهي تتنهّد كمن يزفر آخر نَفَس:

- جنّ حمدون، طلّقني، ضربني، ذهب ليعترف بجريمة قتل يوسف راضي...

هتف متظاهرًا بالانزعاج والعالم من حوله يتناثر ويتطاير:

- أيّ جنون...

- هي الحقيقة!

رأى في وجهها دمامة لم يدرِ من أين أتت، رأى امرأة أخرى. قال:

- أريد أن أفهم قبل أن أجنّ بدوري!

نحّت عينيها عنه وقالت كأنّما تعترف للمجهول:

- انقلب حالي مذ علمت بمصرع يوسف، اتّجه ظنّي نحو حمدون، أدركت أنّ الرجل راح ضحيّة جريمة لم يرتكبها، اجتاحني رعب وشعور مفزع بأنّني القاتلة الحقيقيّة.

ـ ذلك يعني أنّني شريك ولٰكنّها محض أوهام.

ـ ليست أوهامًا على الإطلاق، يخيّل إليّ أنّك شاركتني العذاب أيضًا، وعقب عودتنا إلى البيت لاحظ حمدون تغيّري المطلق، انهارت قوّة احتمالي فصارحته بخوفي من أن يكون يوسف راضي قد راح ضحيّة جريمة لم يرتكبها. . .

قال عزّت بأسف:

ـ اندفعت دون تروٍّ.

ـ انفلت منّي الاعتراف وأنا في حال بائسة من الانهيار.

ـ كيف كان وقع ذٰلك في نفسه؟

ـ اكفهرّ وجهه، استوضحني ما أعنيه، اعترفت له بأنّ يوسف راضي لم يفشِ سرّ الاجتماعات إليك وأنّني أنا التي فعلت!

فقطّب عزّت واختفى وجهه تحت قناع غليظ من الكآبة. وتبدّت هي مشدودة إلى ذكرى مفزعة وطاغية ثمّ قالت:

ـ لا يمكن أن تتصوّر ما حدث، لقد وثب من مجلسه كالملدوغ، صرخ، تجلّى الافتراس في ملامحه، لطمني لطمة كادت تفقدني الوعي، اتّهمني بالجريمة، ومن شدّة ألمي رددت إليه التهمة، صحت به: بل أنت القاتل!

تأوّه عزّت متسائلًا:

ـ أهٰذا جزاء مَن يدفعه حسن النيّة إلى إنقاذ مَن يحبّ؟!

ـ وراح يضرب الجدار بقبضته، ويهدّد بالويل، رماني بالطلاق، استمرّ يعوي مثل وحش جريح. . . ثمّ ركّز عينيه عليّ مليًّا وقال بمقت شديد «أنتِ الجحيم أمّا أنا فقد انتهيت». وارتدى ملابسه في عجلة ولهوجة وغادر الشقّة وهو يقول: سأطلّقك أوّلًا، ثمّ أسلّم نفسي. . .

هتف عزّت:

ـ يا للتعاسة!

فانخرطت بدريّة في البكاء وقالت:

ـ تركني في وحدة مرعبة!

إنّه يتردّى في نفس الوحدة المرعبة. لِمَ تسرّع بتحرير الخطاب الغفل من الإمضاء؟ كأنّما لم يكن له من هدف سوى تسجيل الخسّة على نفسه، سيعترف حمدون قبل وصول خطابه بيوم أو يومين. من العبث أن يمضي في إقناع ذاته بأنّه فعل ما يمليه عليه الواجب الإنسانيّ. وها هي بدريّة حرّة وحمدون يرسف في الأغلال، ألم يكن ذٰلك حلمه الملحّ؟! لٰكنّه مريض وبدريّة دميمة. والدنيا تعاني أنيميا حادّة لا تصلح معها للحبّ، قال بأسًى:

ـ اغسلي وجهك، اشربي قدحًا من الشاي، علينا أن نفكّر بهدوء في الكارثة. . .

فنهضت وهي تقول متأوّهة:

ـ إنّه لا يدري كم أحبّه!

١٩

عُرف الآن أنّ حمدون عجرمة المؤلّف والممثّل هو قاتل يوسف راضي المحامي، وأنّ الباعث على الجريمة هو ما لاحظه القاتل من غرام القتيل بزوجته. ذاع أيضًا خبر الخطاب الغفل من الإمضاء الذي اتّهم حمدون بقتل يوسف. أعيد التحقيق مع بدريّة فأكّدت أقوال حمدون ولم تُثِرْ من قريب أو بعيد إلى جماعة أبناء الغد. ولم تجد بدريّة في وحدتها المرعبة من أنيس أو معين إلّا عزّت. زالت دمامتها الطارئة ولٰكن ثقلت ملامحها بأسًى ثابت وعميق، ورغم مرارة نفسه لم يفقد الأمل في مستقبل قريب أو بعيد. واستمرّت الفرقة في أداء البروفات دون اشتراك بدريّة، معيدة المسرحيّات التي مثّلتها في روض الفرج. وتعمّد عزّت أن يُشعر بدريّة من آن لآن بأنّه ما زال يمارس عمله كمدير. وكانت تعلم من ناحية أخرى بأنّه لا مورد له إلّا العمل. لذٰلك تشجّع ذات يوم وقال لها:

ـ علينا أن نبدأ العمل في ميعاده وإلّا عرّضنا أنفسنا للإفلاس. . .

فتمتمت بضيق شديد:

ـ ما أبغض ذٰلك!

ـ أشاركك الإحساس ولٰكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ. . .

فقالت بحزن:

ـ نحن الآن بلا مؤلّف. . .

ـ ولكنّنا نملك رصيدًا لا بأس به من المسرحيّات فضلًا عن التراث والروايات المترجمة. . .

ـ إنّه خسارة لا تعوّض!

ـ ذلك حقّ ولكن علينا ان نفكّر في كلّ شيء وفي المستقبل. . .

وهنا قالت برجاء:

ـ أودّ أن أنجز عملًا هامًّا قبل بدء الموسم.

ـ ستجدين منّي ما تتوقّعين وفوق ما تتوقّعين.

ـ لقد قابلت محامي حمدون فأمّلني كثيرًا في إنقاذه من حبل المشنقة.

ـ أرجو هٰذا فقد سلّم نفسه وانتحل للجريمة عذرًا مخفّفًا.

ـ طلبت منه أن يبلغه رجائي في أن يتزوّج منّي مرّة أخرى!

فلم يدرِ ماذا يقول وهو يتلقّى لطمة جديدة بلا رحمة، أمّا بدريّة فاستطردت:

ـ سيعينني ذٰلك على مواصلة الحياة. . .

فقال بفتور:

ـ شيء عظيم حقًّا.

* * *

استعدّ عزّت لافتتاح الموسم وهو يشعر بأنّه أحقر شيء في الوجود. لم يخفّف من شعوره ما علمه بعد ذٰلك من أنّ حمدون رفض طلب بدريّة، بل ورفض حتّى مقابلتها. وبدأ الموسم بنجاح متوسّط، ولم يخفَ عنه أنّ بدريّة فقدت الكثير من سحرها المسرحيّ، وتعاقبت الأيّام لا تبشّر بخير جديد، وفي أثناء ذٰلك تمّت محاكمة حمدون وقضي عليه بالأشغال الشاقّة المؤبّدة.

وجاءه فرج يا مسهّل ـ كالعادة ـ بأخبار الحارة فقال له لمناسبة الحكم على حمدون:

ـ لم يعطف عليه أحد في الحارة!

فقال عزّت بأسًى:

ـ لعلّهم يتمنّون لي مصيرًا مشابهًا!

ـ ستّ عين تدفع عنك بخيرها العميم نيّات السوء. . .

ـ وما أخبار الدار؟

ـ الستّ الكبيرة كعهدها، هي هي لم تتغيّر، أمّ سمير رفضت أن تتزوّج من عليش النجّار مفضّلة البقاء مع ابنها، سمير يتقدّم في الدرس بنجاح وذكاء.

وتذكّر الحديقة وغرزة الحصن العتيق وسمير الذي سيشبّ جاهلًا أباه، ولٰكن فيمَ يفكّر في ماضٍ انقطعت عنه أسبابه إلى الأبد؟

* * *

وقال لبدريّة:

ـ ما رأيك في أن أجرّب حظّي مع مسرحيّة المرحوم يوسف راضي؟

فقالت بلا حماس:

ـ جرّب، الموسم حتّى الآن غير ناجح تمامًا.

ـ وربّما وفّر لها اسم مؤلّفها ـ الذي لم ينسَ الناس مأساته بعد ـ نجاحًا إضافيًّا.

فقالت بدهشة وهي تبتسم:

ـ صرت حقًّا صاحب مسرح يا عزّت!

فضايقته ملحوظتها وقال بشيء من الحدّة:

ـ لقد صرت صاحب مسرح من أجلك.

ـ أجلي أنا؟!

ـ أعني من أجلك وأجله!

فحدجته بنظرة معتذرة ولم تنبس.

وقد حقّقت المسرحيّة نجاحًا ملحوظًا أقال الموسم من تعثّره. ومضى موسم الشتاء بلا سرور، ولٰكنّه نجح نجاحًا فذًّا في موسم روض الفرج الجديد. وكان يسرف في العمل كما يسرف في كلّ شيء ولٰكن بلا سعادة حقيقيّة. وظلّ الحبّ يطارده بلا أدنى أمل. وسنحت فرصة ـ والفضل فيها لفرج يا مسهّل ـ لتأجير مسرح الإليزيه بشارع دوبريه فاستأجره مدفوعًا بروح المغامرة والآمال الغامضة، وقال لبدريّة:

ـ ها هي فرصة للعمل في قلب المدينة، آن لك أن تلمعي كنجمة حقيقيّة.

٢٠

أنفق في الاستعداد للموسم الجديد مالًا كثيرًا، والإليزيه مسرح حسن بناءً وموقعًا وقد كان مغلقًا من

أعوام بسبب اختلافات بين الورثة حتّى استحقّه بحكم قضائيّ الخواجا بنيامين فكان عزّت أوّل مستأجر له في حياته الجديدة. شعر بأنّه أصبح صاحب مسرح بالمعنى الدقيق للكلمة وأنّه سيعمل بكلّ فخار في مجال رمسيس والأزبكيّة وبرنتانيا. أجل لم يوفّق إلى ضمّ ممثّل أو ممثّلة ذات شأن إلى فرقته ولكنّه كان شديد الثقة ببدريّة، ومضى يحلم بنجاح مرموق حتّى ليلة الافتتاح. وإذا به يتلقّى صدمة باردة فيرفع الستار عن صالة ثلاثة أرباعها خالية. اعتقد بادئ الأمر أنّ فرقته غير مؤهّلة للنجاح في وسط المدينة ولكنّ أنباء ترامت إليه عمّا تعانيه المسارح جملة من فتور وانكماش. وما كان بوسعه إلّا أن يستمرّ ولعلّ النجاح الوحيد الذي قسم للفرقة كان من نصيب بدريّة إذ تقدّم لخطبتها تاجر ثريّ! عرف ذلك عن طريق فرج يا مسهّل وليس عن طريق بدريّة فضاعف ذلك من آلامه المزمنة.

وانفرد بها في حجرة الإدارة في جوّ ثقيل من الخيبة وفي نيّته عزم على التحدّي. قال:

ـ الحال كما ترين. ترى ماذا يحسن بنا أن نفعل؟

فقالت بحزن:

ـ يحسن بك ألّا تستمرّ.

ـ الجميع يخسرون.

ـ هذا أدعى للأخذ برأيي...

ـ هل نرجع إلى الكلوب المصريّ وروض الفرج؟

ـ إذا شئت...

فقال بارتياب:

ـ لستِ متحمّسة...

ـ لا شيء يدعو إلى الحماس.

فتساءل بارتياب أشدّ:

ـ وماذا عن مستقبلك؟

فغضّت بصرها ولم تنبس فسألها بصراحة:

ـ أحقيقيّ ما سمعت عن رجل يطلب يدك؟

فأجابت بهدوء دون أن ترفع عينيها:

ـ نعم.

ـ عجيب أن يجيئني الخبر من آخرين!

فندّت عنها حركة تنمّ عن ضيق ولكنّها لم تتكلّم.

قال:

ـ وهو خبر غير معقول.

ـ لماذا؟

ـ ألم تبدي استعدادًا لانتظار الآخر ربع قرن من الزمان؟

ـ لم يدر بخلدي الفشل...

ـ وهل حقًّا ما يقال من أنّ الرجل يكبرك بثلاثين عامًا؟

ـ يحدث ذلك...

ـ لعلّك خفت عواقب الكساد، ولكن ما تزال أمامنا فرص.

فحدجته بنظرة واضحة وقالت:

ـ المستقبل غامض، أريد أن أحافظ دائمًا على كرامتي، ثمّ إنّي وحيدة...

فقال محتجًّا:

ـ لا... لا... لست وحيدة...

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ مضى يقول:

ـ لست وحيدة، ذلك قول أعتبره جارحًا لي.

ـ أشكرك ولكنّي أبحث عن حلّ دائم ومعقول.

ـ هنالك حلّ أجمل...

ـ حقًّا؟

ـ أن نتزوّج!

فتفكّرت قليلًا ثمّ تساءلت بنبرة لم تخلُ من سخرية:

ـ بدافع العطف؟

فقال بحدّة وإصرار:

ـ بدافع الحبّ.

ـ الحبّ؟!

ـ الحبّ القديم والجديد.

فقالت وهي ترمقه بنظرة ممتعضة:

ـ إنّه لخبر جديد!

ـ لولا غبار الأحداث لرأيته من زمن.

ـ أكان موجودًا وحمدون معنا؟!

فانكمش انفعاله وسقط في الرماد ولم يدرِ ماذا يقول. وبعد فترة من الصمت الخانق وجد منفذًا للخلاص فقال:

ـ عاد الحبّ في أثناء وحدتك!

ورجع الصمت كرّة أخرى مشحونًا بالريبة وعدم التصديق، نفخ متحدّيًا وقال:

ـ من الغباء أن نعتذر عن الحبّ!

فسألته بمرارة:

ـ مَن الذي أرسل الخطاب إلى النيابة؟

انخلع قلبه فزعًا. لم يتوقّع أن يجرِّد من ثيابه بجذبة واحدة. أدرك ما تعنيه ولم يكن نسي شيئًا. ولْكنّه تساءل متجاهلًا:

ـ أيّ خطاب؟

ـ أنت تعرف قصدي، وجهك يشهد بذلك. . .

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أنت الذي أرسل الخطاب. . .

ـ إنّك لمجنونة . . .

ـ ولْكنّه الحقّ.

ـ إنّه الوهم، ثمّ أنسيت أنّه اعترف قبل وصول الخطاب؟

فقالت ببرود:

ـ ولكنّ الخطاب كُتب وأُرسل. . .

ـ تحقيق سخيف لا يقوم على أساس.

فقالت بهدوء:

ـ الزواج الذي تقترحه يعني التمادي في الإجرام، منك ومنّي أيضًا. . .

فقال بعنف:

ـ المسألة أنّك لا تحبّينني!

ـ هٰذا صدق أيضًا، أنا لم أحبّ في حياتي سوى حمدون. . .

ـ ولْكنّك لن تتزوّجي من ذٰلك الرجل.

ـ هٰذا شأني، ولا خيار لي.

فقال بغضب:

ـ سأمنعك. . .

فقامت وهي ترفع منكبيها، ثمّ مضت وهي تقول:

ـ أستودعك الله.

٢١

ذهبت بدريّة. توقّف العمل. أُطفئت الأنوار. لم يعد صوت يجلجل بخير أو بشرّ. تقوّض عالم الخيال. تبخّر سحره. ران الأسى على كلّ قلب. لن يراها وهي تمرح في طيلسان الجارية. لن يسعد بابتسامة الثغر. ولا بعذوبة الصوت. نظرة متحجّرة رافضة آخر ما أهدته. وداع الأثم الضنين بالدموع. إذا هلّت طلعتها فهي خيال المحروم. كُتب على جوانحه أن تتعذّب بالحنين العقيم. أن يتذوّق الألم كتمزّز المخمور. أن ينادي الغيب ليصدّ عنه سخريات الغيب. ملعون يوم رأيتكِ، ملعون يوم رجعت إليك. ويوم ماكر شرّير يوم لمحتك في الكتّاب. حين قدّر البؤس على الوجيه المدلّل. حين تواثبت العصافير فوق الغصون محذّرة. ومضت عين بحماقتها تكفّر عن حماقات البشر. وتلقّى من الحصن العتيق ثورة ولْكن بقلب طفل غرير. وشهد المجاذيب والمساطيل بجمالك يا بدريّة. وها هو ضغط الحياة لا يسمح للمحزون بأن ينعم بالحزن. مضى يصفّي عمله ويتخلّى عن رجاله بألم بالغ. لم يبق معه من ماضيه القريب إلّا فرج يا مسهّل. وحتّى هٰذا قال له:

ـ آن لك أن ترجع إلى دارك العامرة.

كيف يرجع بالخيبة والجريمة والحبّ الضائع!! قال:

ـ فات الأوان . . .

ـ مكانك هناك، ستجدني في خدمتك، لقد خُلقتَ للوجاهة والعزّ.

ـ تريد أن تُرجعني إلى البطالة والغمّ. . .

ـ بل إلى الوجاهة والزواج ثمّ الحجّ إلى بيت الله!

فقال باسمًا:

ـ إنّي الآن في زمن العذاب، في عمر قادم سأعمل بما يناسبه، أليس عندك رأي آخر؟

سرعان ما تحوّل الرجل من أقصى طرف إلى أقصى طرف، سأله:

ـ هل عندك مال موفور؟

ـ نعم.

ـ عظيم، حوّل المسرح إلى ملهًى ليليّ، فهٰذا زمن الملاهي!

ـ ألك خبرة بذٰلك يا مسهّل؟

ـ الحمد لله، سيبقى المسرح كما هو، تتغيّر الصالة، البوفيه يكبر، أمّا البنات وخلافه فدع أمرها لي. . .

أدرك أنّه يغوص في أعماق مظلمة. لم يفزع ولم يتردّد. ألقى بنفسه في تيّار الاستهتار وكأنّما ينتقم من عدوّ مجهول. وراح يا مسهّل في تفكير عميق وهو يقول:

ـ ربحه مضمون.

* * *

انهمك في تحويل المسرح إلى ملهًى ليليّ. جاء البنّاءون والنجّارون. جرى الاتّفاق مع الفتيات والجرسونات والعازفين. مثّل الإدارة خير تمثيل ببدانته المتزايدة وحزمه المكتسب. وانتقل من شقّة حدائق شبرا إلى شقّة بشارع دوبريه نفسه. وزوّد نفسه بما تشتهيه من طعام وشراب ومخدّر ونساء. صمّم على نسيان بدريّة كما نسي عين من قبل، وأن ينسى كذلك جريمته. وجعل يقول لنفسه إنّه ما فعل إلّا أن أرشد العدالة إلى قاتل. ورغم ذلك لم يستطع أن يبدّد سحب الكآبة ولا أن يُسكت صوت النكد الخفيّ.

* * *

وعلى فترات متباعدة من الزمن تجيئه أخبار الحارة فتثيره وتنعشه. يجد فيها جديدًا وسط لياليه المفعمة باللهو والطرب والرقص والعجائب. أمّه تطعن في السنّ ولكنّها لا تفقد حيويّتها ونشاطها الدءوب على الخير. تمضي متوكّئة على المظلّة أو ناشرة إيّاها من درب إلى درب، ومن بيت إلى بيت، وقد أضفى الخيال عليها بركة وقداسة، وسلّم أخيرًا بالإعجاب بها بلا حدود، فالعمر الطويل الذي يتحدّى الزمن بنشاطه وقدراته ممّا يستحقّ الإعجاب والتقدير. إنّها مصمّمة على الخلود والشباب. وسيّدة أصبحت وكأنّها صاحبة الدار وبخاصّة بعد وفاة أمّها. أمّا سمير فإنّه يشقّ طريقه بنجاح خليق بأن يكفّر عن سقوط أبيه، وها هو يتأهّب لدخول مدرسة الهندسة، وكما يخلق من ظهر العالم فاسد يخلق من ظهر الفاسد عالم.

وربّما تساءل أحيانًا عمّا جرى لبدريّة. وقد تكفّل الزمن بإعدام حبّه هذه المرّة حتّى الموت وليس كالمرّة الأولى. إنّه يدرك الآن أنّ كلّ شيء يموت وأنّ ما يلزمنا حقًّا هو شيء من الصبر عند الملمّات. لعلّها اليوم أمّ محجوبة وراء الأستار أو لعلّها أرملة، أو لعلّها مطلّقة وشريدة. ماذا يهمّ؟ ما هي إلّا مجرمة. هي قاتلة يوسف راضي. هي دافعته إلى الخيانة، هي مرسلة حمدون إلى التأبيدة. ماذا بقي من جمالها؟ أيّ شيء هذا الجمال الذي يعيش بضع سنين؟ ولكن كُتب على الإنسان أن يتعذّب بلا سبب، ولولا الطعام والشراب والمخدّر لفسدت الأرض.

* * *

وتمرّ أعوام أيضًا. تتراكم أرباحه، تزداد بدانته، ترمقه الأعين بالحسد، يجدّ في الهروب من الألم والكآبة. آمن بأنّ السعادة هي التخفيف من الألم المحتوم، وأنّ الإنسان يتألّم لسبب فإذا لم يجد السبب تألّم أوتوماتيكيًّا. وذلك الملل الخفيّ الذي يتبعه كما يتبع الصوت عجلة العربة بلا تحديد لمصدره. أمّا أسعد الأوقات حقًّا فهي وقت النوم العميق. وإنّه ليرنو إلى الضاحكين بارتياب حتّى خيّل إليه أنّ ملهاه الليليّ ما هو إلّا بؤرة للمجانين والتعساء. ترى هل تنتهي هذه الحياة بخراب فناء شامل؟! وعجب كيف أنّه لا يعرف في دنياه مَن يأنس إليه إلّا فرج يا مسهّل.

وأيقظه أرق في الهزيع الأخير من الليل. جاش صدره بالعواطف الحزينة الغامضة. قرّر فجأة أن يستدعي ابنه ليراه.

٢٢

انتظر في شقّته الأنيقة ضحى يوم الجمعة. لم يتصوّر أن يتخلّف عن الحضور. وحتّى لو وقع المحذور فليتحمّل ما جنت يداه.

«عزيزي سمير...

لا تدهش. كاتب الخطاب هو أبوك. سوف تتساءل أبَعْدَ ذلك العمر؟ لكنّك لم تعرف أعماق حياتي حتّى يحقّ لك الحكم عليّ. أبوك يدعوك إلى مسكنه (عمارة ٣، شارع دوبريه، شقّة ١٤) صباح الجمعة القادم (١٤ مارس). ما كان يجوز أن نفترق ذلك الزمن الطويل ونحن في مدينة واحدة. الأسباب كثيرة ولعلّك سمعت الكثير ولكنّك لا تعرف كلّ شيء. إنّي والدك على أيّ حال. من الواجب أن نتعارف. سيسعدني جدًّا أن أقابلك.

«عزّت عبد الباقي»

لن تمنعه من الزيارة أمّه ولا جدّته. ارتدى البيجاما والروب، حلق ذقنه بعناية، سوّى شاربه، مشط شعره، تطيّب، انتظر. وفي الساعة العاشرة دقّ جرس الباب. انتقل الرنين إلى قلبه، هرع بجسمه البدين إلى الباب، فتح، رأى شابًا لم يشكّ لحظة في هويّته. خفق قلبه كما لم يخفق من قبل. فتح ذراعيه. أخيرًا تلاقى الأب والابن وتعانقا... مضى به إلى حجرة الجلوس. جلسا على فوتيلَيْن متقابلين وراء باب الشرفة المغلق. بينهما خوان عليه طبق سمح متعدّد الثغرات مليء بالفواكه والنقل والشيكولاتة ودورق ماء، وقارورة اسباتس وقدح ذو حامل فضّيّ. راحا يتبادلان النظر في اهتمام وانفعال وعلى شفتي كلّ منهما ابتسامة متألّقة ترتعش في شيء من الارتباك. سَرَّهُ أن يراه رشيق القامة مع ميل إلى الطول، وأن يرث عيني «عين» الجميلتين وأنفها الطويل السامق وجبينها المرتفع. يا له من شابّ مليح عامر بالحيويّة والذكاء.

وقرّر إنهاء الصمت فقال:

- إنّي سعيد جدًا برؤياك.

فأجاب بصوت ذكّره بصوت سيّدة:

- وإنّي لأسعد يا أبي...

وهو يضحك:

- لا شكّ أنّك تعرف عنّي أشياء، لعلّها غير سارّة، أنا أيضًا أعرف عنك الكثير، عندي مَن يوافيني بالأخبار، ومن ذلك تدرك أنّني لم أتناسَ الأهل والمكان. ولكن لندع جانبًا ما يعكّر الصفو، ولندافع عن سعادتنا المشتركة ما أمكن.

- خير ما نفعل.

- أنت طالب في الهندسة؟

- أجل.

- وناجح في دراستك فيما بلغني؟

- أملي كبير في بعثة إلى الخارج.

فأشار إلى الخوان يدعوه إلى تناول شيء وقال:

- هائل! أبوك لم يحبّ الدراسة ولم يوفّق فيها، وتسليتي في قراءة قصص الجريمة، لكنّ الزمن يجيء دائمًا بالأحسن، كُلْ واشرب، ثمّ حدّثني عن حياتك.

فقال وهو يصبّ الاسباتس في القدح:

- دراستي هي شغلي الشاغل، في العطلة أمارس الرياضة والمطالعة...

- لا تلمني إذا لم أسألك عن أمّي أو أمّك فإنّي أعرف عنها كلّ شيء، ماذا تطالع؟

- موضوعات شتّى... سياسة... أدب... دين... وأحبّ السينما كذلك...

وهو يضحك مرّة أخرى:

- والمسرح؟

فعصر عينيه من الدموع التي بعثتها الغازوزة متجاهلًا السؤال فقال عزّت:

- لذلك أفلستِ المسارح، وهل تهتمّ بالسياسة؟

- الجيل كلّه يهتمّ بها.

فغشيت عينيه نظرة جادّة وتمتم:

- للسياسة مآسيها!

- أحيانًا.

فقال عزّت معاودًا المرح:

- لن أنصحك بشيء، أتدري لماذا؟، لأنّني ما عملت بنصيحة أحد!

فقال سمير بحبور غمره من خلال ألفة متزايدة:

- طالما تشوّقت لرؤياك...

- ولِمَ لَمْ تُشبع أشواقك؟

- خيّل إليّ أنّك لا تهتمّ برؤيتي!

- تخيُّل خاطئ مائة في المائة ولكنّك لا تعرف كلّ شيء...

وقدّم له برتقالة ثمّ سأله:

- لم يكن لي أصدقاء كثيرون. وأنت؟

- لي كثيرون منهم، في الحارة والمدرسة...

- ولا شكّ أنّ علاقتك بأمّك وجدّتك جميلة؟

- على خير ما يرام.

- أيّهما أحَبّ إليك؟

فابتسم وقال:

- الأمّ هي الأمّ ولكنّ سحر جدّتي لا يقاوَم!

- إنّها العجيبة الثامنة في الدنيا...

- كيف هانَ عليك أن تهجرها ذاك العمر كلّه؟

وقال لنفسه إنّ ابنه لم يعرف الضجر ولا الألم بعد، وإذا به يقتحمه متسائلًا:

ـ هلّا حدّثتني عن حياتك العاطفيّة؟

فارتبك سمير وبدا عليه أنّه لم يفهم فرحمه أبوه وسأله:

ـ يهمّني أن أعرف أأنت سعيد؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ في ذلك الكفاية، أرجو أن تكون سعيدًا حقًّا.

ـ أعتقد ذلك.

ـ عظيم، استمتع بوقتك فالحياة لا تبقى على حال.

فتفكّر الشابّ مليًّا ثمّ سأله:

ـ وكيف حالك أنت يا أبي؟

ـ ناجح والحمد لله.

ـ أعني أأنت سعيد؟

فضحك عزّت عاليًا وقال:

ـ أعتقد ذلك!

ـ لديّ سؤال ولكنّي أهاب طرحه...

ـ صارحني بما تشاء...

ـ أأنت متزوّج؟

ـ ماذا يقولون هناك؟

ـ يقولون إنّك متزوّج...

ـ ومَن الزوجة التي زعموا؟

ـ بدريّة المناويشي!

فضحك عزّت مداراةً لانفعاله وقال:

ـ أتزوّج من امرأة الصديق السجين؟!... هل تصوّرت أنّ أباك يرتكب فعلًا خسيسًا كهذا؟

فقال سمير مرتبكًا:

ـ ربّما كانت الشهامة لا الخسّة هي...

فقاطعه قائلًا:

ـ أبوك لم يتزوّج ولم يفكّر في الزواج.

ثمّ وهو يعاود الابتسام:

ـ وماذا تعرف عن عمل أبيك؟

ـ صاحب ملهًى ليليّ.

ـ ترى ما رأيهم في ذلك؟

فقال سمير ضاحكًا:

ـ إنّك أدرى بأهل حارتنا!

ـ وأدرى بجدّتك أيضًا.

ـ ولكنّها تحبّك دائمًا، لا يمكن أن تتصوّر كيف كانت فرحتها بخطابك!

ـ وأنت يا سمير صارحني برأيك في عملي...

ـ إنّه عمل شريف يا أبي.

ـ لعلّها إجابة مدرسيّة!

ـ ولكنّها صادقة...

ـ ألا يسيئك أن يعلم بها زملاؤك؟

ـ إنّهم يعرفون!

ـ أنت ولد شجاع.

ـ بل أنت الشجاع يا أبي...

ـ حقًّا؟!

ـ تفعل ما تشاء دون اكتراث لآراء الناس!

وتبادلا نظرة باسمة وغامضة، وتساءل عزّت ترى ألم يكن يفضّل أن يجد أباه أقلّ بدانة وأنظف عملًا؟! وشعر بأنّه ما زال عند أوّل درجة من درجات التعارف. وأنّ الكلفة لم تُرفع بعد بينهما، قال:

ـ لا يجوز بعد اليوم أن تغيب عنّي طويلًا، سأنتظرك كلّ جمعة...

فقال سمير معتذرًا:

ـ أعدك بذلك ولكن بدءًا من العطلة الصيفيّة.

تلقّى أوّل خيبة ولكنّه قال:

ـ أجل، الامتحان يقترب، فليكن، وعلى فكرة لقد أعددت لك غداءً طيّبًا!

٢٣

بدخول سمير في حياته تغيّر تركيبها بعض الشيء. على أيّ حال لم تعد كما كانت. وتوثّقت العلاقة بينهما في الصيف فتحوّلت إلى معاشرة على مستوًى رفيع. فاز بسعادة صافية يوم الجمعة، وأغدقت عليه ذكريات عذبة بقيّة الأسبوع. ومنه عرف أنّه يحبّ طالبة بكلّيّة العلوم تدعى رجاء وأنّه سيعلن خطبته فور انتهائه من الدراسة فسعد عزّت بالخبر. رحّب بالحبّ الموفّق واعتبر نفسه مشاركًا فيه على نحو ما. هنّأ ابنه على التوفيق الذي حُرم منه طيلة عمره. ترى كيف كانت تكون حياته لو تزوّج من بدريّة يوم رغب في ذلك؟ أيّ حياة نظيفة ومستقرّة أفلتت من كليهما؟! ترى ألا

تخطر لها مثل هٰذه الخواطر أحيانًا؟ أمّا الذي أزعجه حقًّا فهو اهتمام ابنه الواضح بالسياسة. أصبحت السياسة مقرونة في ذهنه بالخيانة والجريمة والضياع. قال له مرّة:

ـ السياسة شديدة الخطورة يا سمير.

ـ ألم تشغل بالك أبدًا؟

ـ كلّا.

ـ وتظنّ أنّه لذٰلك توفّرت لك السعادة؟

خطف منه نظرة فقد حسبه يسخر منه ولٰكنّه وجده جادًّا بريئًا. قال متهرّبًا:

ـ لقد قضت السياسة على صديقي الوحيد في هٰذه الدنيا.

ـ حمدون عجرمة؟

ـ أجل، أسمعت عن جماعة أبناء الغد؟

ـ طبعًا.

ـ إنّها لمأساة حقًّا.

فقال سمير باسمًا:

ـ ومأساة أيضًا ألّا نهتمّ بالسياسة.

ـ كان يردّد ذٰلك، ألا يكفيك أن تكون مهندسًا وربّ أسرة؟

ـ لا هندسة ولا أسرة بلا سياسة!

ـ مرحى... مرحى... يوجد ما هو أهمّ.

ـ حقًّا؟

ـ يطيب لي في أوقات فراغي النادرة أن أتساءل عن معنى حياتنا!

ـ ولٰكنّ السياسة تعطيك الجواب!

فضحك عزّت عاليًا وقال:

ـ لا فائدة، ولٰكن معذرة فقد أصبحت من رجال الماضي؟

ـ ما زلت شابًّا!

ابتسم عزّت بمرارة. ابنه لا يدري ماذا يقول. لا يرى هٰذا الكرش. ولا هٰذه التجاعيد المبكّرة تحت عينين أضناهما السهر والشراب والمخدّر. ولم يعرف شيئًا عن الخطاب الغفل من الإمضاء، ولا عن احتقار المطلّقة المهجورة له وإيثارها لحيوان طاعن في السنّ. وعاد يسأله:

ـ وما الهدف من السياسة؟

فأجاب بعد تفكّر:

ـ هو هدف كلّ إنسان، السعادة!

ـ ولٰكنّ للسعادة سبلًا أسهل وأقلّ خطورة.

ـ لا أظنّ، نادرًا ما يحقّق إنسان ذاته وسعادته مثلك!

فقال بحدّة غير متوقّعة:

ـ لا تضرب بي المثل من فضلك!

وتذكّر أمّه في إصرارها الأبديّ وجولاتها الخالدة فقال إنّ الولد سرّ جدّته، كلاهما مصاب بجنون واحد ولٰكنّه فريد في نوعه. أمّا حياته هو فهي السعي الدائب نحو سعادة لا تريد أن تتحقّق. وقد وُهب الصحّة والمال والنجاح والمرأة ويعيش مطارَدًا بقوّة ماكرة خفيّة. وقال بنبرة جديدة مستسلمًا:

ـ أتدري يا بنيّ، يبدو أنّ أكبر خطأ نرتكبه في حياتنا هو الاعتقاد بأنّ الهدف هو السعادة.

فسأله سمير ببراءة:

ـ فما البديل؟

فقال في حيرة وهو يضحك:

ـ لا أدري.

ـ ولٰكنّك خبرت الناس والحياة...

ـ لا أرى في الملهى إلّا السفهاء والمجانين.

فضحك سمير في حبور فاستطرد عزّت:

ـ لعلّ النقص يكمن في أنّنا نمرّ بفترة انتقال.

ـ أجل إنّ وطننا...

ولٰكنّه قاطعه قائلًا:

ـ أعني الإنسان، إنّه قادر على إدراك تعاسته...

ـ الأمر سهل، ما علينا إلّا أن نزيل أسباب الشقاء!

فارتفع صوته وهو يقول:

ـ صديقي حمدون فَقَدَ حياته وهو يفعل ذٰلك.

ـ إنّ التضحية... حسن، لا بدّ أنّك تسلّم بقيمة التضحية؟

فأجاب ضاحكًا:

ـ كلّا، إنّها حماقة لا يبرّرها إلّا الجنون.

ولمّا انفرد بنفسه عقب ذهاب سمير قال: «آه لو أجد الشجاعة للاعتراف بخطيئتي!».

٢٤

تخرّج سمير مهندسًا. أعلنت خطبته على رجاء. اختير لبعثة مدّتها عامان في إنجلترا. دعا عزّت ابنه وخطيبته للاحتفال بهما في شقّته. أعجبته الفتاة. غزاه جوّ الخطبة حتّى الأعماق. حنّ فجأة إلى حياة زوجيّة مستقرّة. وجد في حنينه المباغت فكرة جديدة، ماكرة، ولكنّها قويّة آسرة. لكن أيّ عروس تناسب رجلًا في سنّه؟ إنّ نفسه تعاف النساء اللاتي يزرن شقّته من آن لآن. يريد أن يرفع النقاب الأبيض عن وجه بريء في ميعة الشباب. لعلّ ذٰلك آخر ما ينتظره من سلسلة المغامرات الجنونيّة. وهبط عليه الإلهام الذي يسبق الإقدام. إنّه يتذكّره وهو به خبير. غير أنّ ينابيعه جفّت وهو يودّع سمير. قبّله وهو يقول:

- ليس من اليسير أن أصبر عامين.

وخلت دنياه من الكائنات والحياة. كما خلت يوم اختفاء بدريّة، ومن عجب أنّه توثّب رغم ذٰلك لتحقيق حلم الزواج الطارئ.

* * *

يقول الراوي:

إنّ الحوادث لم تمهله، كعادتها معه دائمًا. تجيء إذا جاءت منقضّة كأنّما لتفرغ من مهمّتها في أقصر وقت. فذات صباح جذب بصره هٰذا العنوان في الجريدة «القبض على فرع لجماعة أبناء الغد». ولأسباب تاريخيّة ليس إلّا... سرت في بدنه رعدة شديدة واجتاحه شعور بالتشاؤم عميق. وقرأ التفصيلات باهتمام مركّز لا يتّفق وما عرف عنه من لامبالاة إزاء ذٰلك النوع من الأخبار. إنّه يتابع الأخبار هٰذه المرّة وكأنّما هو عضو في هٰذه الجماعة المخيفة، وكأنّ مَن قُبض عليهم من الشبّان أقرانه، وما ضُبط من منشورات هو شريك في تحريرها وطبعها وتوزيعها. ونشر خبر القبض على الفرع باعتباره أوّل نصر يحقّقه جهاز الأمن في ذٰلك المجال، وأنّه الخيط الذي سيؤدّي حتمًا إلى أوكار الجماعة حيثما وجدت. ومضى يهشّ الذكريات المعتمة عن خياله المريض، ويلعن الضعف الذي اعتور أعصابه. ولٰكنّه تابع الأخبار يومًا بعد يوم حتّى صدر البيان الرسميّ عن الموضوع. لقد قُبض على الكثيرين، والمطاردة جادّة في إدراك الهاربين. وإذا بالبيان يشير إلى حقيقة جديدة ما إن اطّلع عليها حتّى تردّى قلبه في هاوية... بل ندّت عنه صرخة مدوّية في شقّته الخالية. ثمّة كلام عن سمير عزّت عبد الباقي. عضو البعثة الهندسيّة بإنجلترا. الذي هرب من إنجلترا في اللحظة المناسبة إلى مكان مجهول. وراح يتمشّى مهرولًا بجسمه البدين ويتساءل في ذهول «سمير عضو في جمعيّة أبناء الغد؟! سمير هرب إلى مكان مجهول؟! هل يختفي سمير إلى الأبد؟! هل يلتهمه الضياع والتشرّد في الغربة؟». ها أنت تنتقم منّي يا حمدون عجرمة. إنّي خبير بهٰذه الألاعيب القاتلة التي تصادفنا ونحن نجدّ في سبيل السعادة! عزّت وسيّدة وعين ينصهرون في بوتقة تعاسة واحدة. يا لها من ألاعيب قاسية مجنونة يحرّكها شيطان ساخر...

وشرق بالدمع فجفّف عينيه بالمنديل الحريريّ المطرّز ركنه بالحرفين الأوّلين من اسمه. وقال له فرج يا مسهّل معزّيًا:

- حظّه على أيّ حال أسعد من الذين قُبض عليهم...

- لا أدري... إنّي واثق من شيء واحد فقط وهو أنّني لن أراه مرّة أخرى في هٰذه الحياة...

فقال الرجل بتسليم:

- لا يعلم الغيب إلّا الله... هلّا زرت الستّ الكبيرة؟

خطر له هٰذا وهو غارق في حزنه... أن يزور عين وسيّدة... ولٰكنّه سرعان ما نبذ الفكرة في غضب ونفور. ليس الوقت بالمناسب للتمثيل والحركات البهلوانيّة. إنّه يعلم الآن بما قُدّر عليه. أن يقلع عن أحلام السعادة السخيفة، أن يتسوّل رؤية لن تتحقّق، أن ينفّذ حكمًا بالأشغال الشاقّة المؤبّدة وهو قائم بين السكارى وطلّاب اللذّة.

* * *

وزحف عليه تعب من نوع جديد شمل الرأس والأعضاء. وعانى من صداع لم يعرفه من قبل ربّما كانت الفائدة الوحيدة لذاك الألم الوحشيّ أنّه أجبره - ولو إلى حين - على تناسي أزمته الأبويّة، وألّا يفكّر في

شيء سواه. ولأوّل مرّة يقصد عيادة طبيب. واكتشف أنّه يعاني من ارتفاع كبير جدًّا في ضغط الدم. وعملًا بمشورة الطبيب وافق على دخول مستشفى الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة ليظفر برعاية متّصلة حتّى يزول الخطر. وهدف العلاج إلى تخفيض الضغط وإنقاص وزنه عشرين كيلو على الأقلّ. وأشرف فرج يا مسهّل على الملهى، وكان يزوره باستمرار، وكان يقول له:

ـ دعني أخبر الستّ عين.

جعله هٰذا الاقتراح يستشعر الخطورة ويفكّر في الموت. تخيّل عين جالسة مكان فرج يا مسهّل. كلّا إنّها لن تفارق الفراش. سينهال عليه سيل فيّاض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة. ستقول له آنَ لك أن تغيّر حياتك، ستقول له أيضًا إنّي أعرف سرّ هٰذا الشقاء كلّه. ورغم حنينه الطارئ المستفحل بالرقاد والتفكير في الموت فإنّه لم يستسلم.

قال:

ـ لا تخبر أحدًا، لا عين ولا أحدًا في الملهى. . .

ـ ترى ذٰلك؟

ـ نعم. . . نفّذ بكلّ دقّة. . . لا عين ولا أيّ راقصة ولا أيّ قوّاد!

وأخذ يتلقّى التحذيرات عن البدانة والطعام والشراب، تهاوت الحصون التي يحتمي بها من الحياة وأطوارها الغريبة. يجرّدونه من أسلحته، ويتحالف المرض مع العقوبات المفروضة، ومن عجب أن رأى في نومه قطط الستّ عين في الحديقة، ورأى بينها بركة بهدوئها الشامخ، وتهلّل لذٰلك سرورًا وظنّ أنّه سيفاجئ عين بالخبر السعيد وهو أنّ بركة حيّة لم تمت كما توهّمت وأنّه ما كان يجدر بها أن تبكي. واستيقظ ليلتها عند الفجر بقلب ثقيل بخلاف المتوقّع، كمن يرجع من رحلة طويلة عقيمة، فخطر له أنّ الدنيا قطّة وأنّها تأكل صغارها وقال بصوت مسموع في سكون الليل:

ـ إذا كان شارع دوبريه والإليزيه سجنًا فالحارة ليست إلّا زنزانة!

* * *

وغادر المستشفى نحيلًا هزيلًا ولٰكن سليمًا. تهدّلت ملابسه الداخليّة والخارجيّة، وتبدّى العالَم متغيّر اللون، باردًا، لا يحيّي ولا يردّ تحيّة. ورجع للتفكير في سمير ولٰكن من خلال استسلام شامل. وحرص على الحياة رغم كلّ شيء فاحترم الرجيم والدواء ومواعيد التردّد على العيادة. وهجر الكأس ولٰكنّه لم يهجر الجوزة.

وأعاد تفصيل ملابسه. رجع رشيقًا كما بدأ. انتشر المشيب في رأسه وحاجبيه وشاربه. بدا كهلًا وقورًا يتنافر وقاره مع بيئته وعمله. وكلّما تذكّر أنّه جاوز الخمسين يدهش، لا يصدّق، يستحضر مناظر خالدة في خميلة الياسمين أو كتّاب الشيخ العزيزي أو تمثيل مسرحيّة روميو وجولييت في الحارة. كان يظنّ أنّ ذٰلك يحدث للغير فقط. فالظاهر أنّ التاريخ صادق فيما يؤكّد من مرور أقوام في القديم وذهابهم. وحتّى متى نسلّم بذٰلك ونذعن له؟ ولٰكن شكرًا للعادة فقد قتلت كلّ حزن وكلّ فرح. ولعلّه من الخير أن نترك الدنيا بعد أن نضيق بها مللًا.

* * *

وماذا عن الحارة؟

إنّ المخبر مستمرّ في رواية الحكايات. ما زالت سيّدة منطوية في الدار، منطوية على أحزانها. ما زالت عين مصرّة على نشاطها. لٰكن هيهات. لم تعد تخرج إلّا مرّة واحدة في الأسبوع. كتمثال للشيخوخة الخالدة. وتسير إذا سارت بصحبة خادمة. ترى ماذا بقي من الذاكرة والإرادة والذكاء؟ وأيّ الحزنين أشدّ عليها حزنها على عزّت أم حزنها على سمير؟ وما رأي إيمانها الراسخ في هٰذه الأحوال الغريبة؟! هل لقي الموت مقاومة أشدّ ممّا لقي على يدي عين؟!

٢٥

يقول الراوي:

إنّ عزّت عبد الباقي لم يتوقّع جديدًا إلّا أن يكون إنزال الستار وإطفاء الأنوار. ولٰكنّ فرج يا مسهّل زاره في شقّته ذات صباح من أيّام الخريف وقال له:

ـ عرفت خبرًا غريبًا لعلّه يهمّك أنت أكثر من جميع الناس.

فقال عزّت ساخرًا:

ـ لك الملهى وما فيه إن استطعت أن تشعل اهتمامي!

ـ لكنّه خبر يُحكى على أيّ حال.

ـ ما هو؟

ـ بدريّة المناويشي نجمة مسرحك القديم...

من أيّ صمت يخرج هٰذا الاسم! نجمة مسرحك القديم. لم يحدث أيّ ردّ فعل. نجمة يتهادى ضوؤها إليه من خلال أعوام طويلة طويلة، وكالنجوم تشكّل ذكرى متألّقة وحاضرًا مجهولًا. أيّ معنى للخبر؟ لا معنى على الإطلاق ولا أهمّيّة. تساءل بفتور:

ـ ماتت؟

فضحك يا مسهّل وقال:

ـ كلّا، يقال إنّها ترمّلت منذ عامين أو نحو ذٰلك، وإنّها ورثت مالًا سائلًا لا بأس به، ولٰكن أتدري كيف استثمرته؟

ـ كيف؟

ـ أسمعت عن ملهى زهرة النيل الليليّ؟!

ـ هو ملهى في عوّامة فيما أعلم.

ـ بدريّة صاحبته ومديرته!

ابتسم ابتسامة بلهاء، تمتم:

ـ مدهش!

ـ ربّما تكون قد حنّت إلى أصلها أو قريب منه.

ـ أو أنّها خافت الوحدة والكهولة...

ـ الأرجح أنّها اختارته لضمان الربح...

وضحك عزّت. عزّت صاحب ملهى الإليزيه وبدريّة صاحبة ملهى زهرة النيل!

* * *

بدافع الفضول، بدافع الضجر. قرّر أن يسهر ليلة في زهرة النيل. قال لنفسه عرفت الآن لِمَ يرغب الناس في زيارة الآثار. استعدّ بحمّام فاتر، بدلة أنيقة، حلق ذقنه وسوّى شاربه وشعره، مضى إلى زهرة النيل. أعمارنا متماثلة... حمدون وأنا وبدريّة وسيّدة وكلّ أخذ نصيبه بالعدل. من المسئول عن تعاسة الجميع؟ أنا؟... حمدون؟... بدريّة؟... سيّدة؟... أما كان يجب أن نحاكَم؟!

والعوّامة معدّة على هيئة صالة، بالغة الأناقة مرتفعة الأسعار. تشهد لمن أسّسها بالذوق الجميل والبراعة في الخيال. اتّخذ مجلسه وراحت عيناه تجوسان في الأركان والصفوف والمسرح، إن صحّ ظنّه فحجرة الإدارة تقع فوق السطح ويصل إليها بهٰذا السلّم الحلزونيّ المفروش بالبساط الأحمر. طلب زجاجة شمبانيا. كان الوحيد المنفرد بنفسه. لماذا جاء؟ ولماذا لا يجيء؟ وغنّى شابّ بطريقة الإفرنجوآراب. تلاه مونولوجست، ثمّ راقصة. هل تمضي الليلة دون ظهور بدريّة؟! كان ينظر من آن لآن إلى السلّم الحلزونيّ. انتبه على طقّة حذاء. أخذ الجسم يظهر رويدًا فوق السلّم الحلزونيّ من أسفل إلى أعلى حتّى استوى عند رأس الصالة، بدريّة المناويشي، وقفت تراقب وتلاحظ. مديرة بكلّ معنى الكلمة، فراح يتفحّصها. كان يتوقّع تغيّرًا ولٰكن غير هٰذا التغيّر الماثل. بدينة مثل امرأة عمدة. ريّانة الوجه بدرجة تدعو للنفور. جفّ الماء العذب وانطفأ التألّق. في مثل عمرها يحتفظ نساء بآثار جمال ولٰكنّها لم تحتفظ بشيء. ثمّ ما معنى هٰذه النظرة في العينين المكحولتين؟ ليست طبيعيّة، مريضة؟ مهزوزة الأعصاب؟ فاقدة الذاكرة؟! حكاية تاريخ طويل تعيس! مرّت به عيناها فلم تقف عنده. من الأفضل أن يتجاهلها وأن يتحاشاها. ولٰكن ها هي تتهادى في الممشى الجانبيّ. ورغمًا عنه لم يهرب منها بعينيه. لقد جاء وعليه أن يتحمّل المسئوليّة. لم يعد يفصلها عنه إلّا متر. تلاقت العينان. ابتسم اضطرارًا. وقفت مبهوتة لا تصدّق عينيها. وقع المقدور. زحزح كرسيّه ووقف. همست:

ـ يا ألطاف الله...

مدّ يده فتصافحا. أشار إلى الكرسيّ الخالي هامسًا بدوره:

ـ تفضّلي...

فجلست وهي تتمتم:

ـ يا حسين مَدَد!

فضحك عزّت متسائلًا:

ـ أطلب لك كأسًا؟

ـ كلّا... نسيتُ عادتها... وأنت لَمْ تشرب بعد؟

ـ ولن أشرب، ولكن بسبب المرض...

ـ سلامتك... ليست صحّتي على ما يرام أيضًا... ولكنّي لم أتوقّع أن أراك أبدًا. الظاهر أنّه مكتوب على الأحياء أن يتلاقوا.

انقبض قلبه، تذكّر المطارد الغائب، تمتم:

ـ ليس دائمًا...

ـ ماذا جاء بك إلى ملاهي الشباب؟

فقال دون مبالاة:

ـ جئت لأراك!

ـ كيف عرفت؟

ـ أهل الخير كثيرون.

ـ دهشت طبعًا، ولكن يوجد أكثر من سبب، وأنت ماذا تعمل؟

فقال وهو يضحك:

ـ صاحب ملهى الإليزيه...

فضحكت ضحكة عالية غير مبالية بالروّاد!

فقال:

ـ تحويل مسرح إلى ملهى ليس بالمسافة الطويلة، ولكن أنت؟!

ـ أسباب كثيرة منها حلم سخيف بأن أقدّم مسرحيّات قصيرة وأمثّلها.

ـ جميل أن يعاودك الحنين إلى التمثيل بعد ذلك العمر الطويل!

ـ مجرّد حلم سخيف.

ـ وكيف كانت حياتك الماضية، أعني منذ فارقتنا؟

فقالت مقطّبة:

ـ غاية في التعاسة، بين زوج لا رجاء فيه وكراهية أبنائه وأهله لي! وأنت متزوّج طبعًا؟!

ـ كلّا، كما تركتني...

ـ أخطأت يا عجوز.

ـ حياتنا مليئة بالأخطاء!

ـ صدقت، تسليتي أن أراقب المجانين من عشّاق الملهى.

ـ إنّهم مضجرون في النهاية...

ـ ولكن لا حياة لنا بدونهم، كيف حال ابنك؟

أجاب وهو يخفي انفعاله:

ـ عال... مهندس قدّ الدنيا...

ـ برافو... هذا أهمّ شيء في الدنيا...

ـ ليس في الدنيا شيء مهمّ!

وهي تتنهّد:

ـ أتتذكّر أيّام الحارة؟

ـ تجدينها الآن سعيدة؟

ـ أجل... وأيّام المسرح الناجحة... وحبّي القديم... وأمّي وهي تخلّل الليمون، ترى أما زالت المرأة على قيد الحياة؟!... على فكرة ما أخبار ستّ عين؟

ـ بخير.

ـ برافو!... ليتني أزورها ذات يوم... وأنت مقيم في دارها؟

ـ لم أرها منذ فارقت الحارة...

ـ يا خبر! يا ويلنا من أمّنا في يوم القيامة!

فقال ببرود:

ـ اختلفت الطرق.

ـ طبعًا، من الفنّ الخائب إلى الملاهي الليليّة، نحن نمتّ إلى طبيعة واحدة، وقد تخلّصنا في الوقت المناسب من العضو الصالح!

فقال بامتعاض:

ـ هو الذي تخلّص منّا.

ـ سيخرج قريبًا إذا لم يكن قد خرج، ترى متى يخرج؟

ـ لم أعد أذكر شيئًا.

ـ ألا تتوقّع أن تراه؟

ـ لا أظنّ، وأنت؟

ـ لا أهمّيّة لذلك، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ قلت كي أراك.

ـ أجل، أما زلت تذكر حبّك القديم؟

فابتسم ولم يجب. فقالت بحدّة:

ـ الحبّ كذبة وضيعة، لئيم مخادع، يخيّل إليّ أنّني لم أحبّ إلّا المسرح.

ـ حقًّا؟!... رغم أنّه جاءك عرضًا؟

ـ لكنّني أحببته، لم أتخلّ عن حبّه، في أيّامي الزوجيّة التعيسة كنت أتعزّى بالانفراد بنفسي وترديد

بعض الأدوار.

ـ تعزية مبتكرة.

وهي تضحك بقحة:

ـ لقد كنت وغدًا، وكان حمدون بطلًا، ثمّ ماذا كانت النتيجة؟!

فقال بحدّة لم يستطع تهذيبها:

ـ وكنتِ الشيطان وراءنا!

ـ لو تزوّجني الشيطان لكان التوفيق نصيبنا فهو خير من أمثالكم من الرجال...

فما تمالك أن ضحك وزايله التوتّر. تساءلت:

ـ لِمَ لَمْ تنشأ على مثال أمّك الكريمة؟

ـ أمّي مثال لا يتكرّر.

فضحكت ضحكة غجريّة دون مناسبة وقالت:

ـ ليست أمّك وحدها بالمثال النادر، اسمعني جيّدًا واحكم بنفسك.

هزّت رأسها المصبوغ برشاقة ثمّ راحت تقول في أناة وتجويد وبصوت منخفض:

ـ أيّها الأصدقاء، أيّها الرومانيّون، أيّها المواطنون، أعيروني أسماعكم: «إنّي جئت لكي أدفن قيصر لا لكي أشيد بذكره».

فابتسم كالحالم وتمتم:

ـ جميل!

فانتفخت بتشجيعه وواصلت بصوت ارتفع درجة عن سابقه:

ـ «إنّ ما يفعل الناس من شرّ يعيش بعدهم. أمّا الخير فغالبًا ما يُطمر مع عظامهم».

التفت الجالسون حول المائدة القريبة نحو الصوت وعلت الابتسامة وجوههم، شعر عزّت بشيء من الحرج، غير أنّه همس وكأنّما ليغريها بالرجوع إلى الهمس:

ـ كلّ شيء سيطمر مع العظام.

لم تنتبه لقوله، سكرت بنشوة الفنّ والذكرى. اجتاحتها موجة تمرّد واستهتار، جلجل صوتها في جناح الملهى وهي تنشد:

ـ «جئت أتكلّم في مأتم قيصر، كان صديقي، وكان وفيًّا لي، منصفًا معي؛ لكنّ بروتس يقول إنّه كان طمّاعًا وبروتس رجل شريف».

أحدقت بمائدته الأعين، واشرأبّت الأعناق من الجناح الآخر، انتقل المسرح الحقيقيّ إلى ركنه، التهب جبينه ارتباكًا وحياءً، قال برجاء:

ـ فلنذهب إلى حجرة الإدارة!

لكنّها كانت قد جاوزت الزمان والمكان، وقفت بهيئتها الداعية للرثاء وقفة شموخ وتحدٍّ، وهتفت بصوت هزّ القلوب والأركان:

ـ «حتّى الأمس كانت كلمة قيصر قادرة على أن تصدّ العالم. والآن ينطرح هناك لا تبلغ المسكنة بأحد أن يخصّه بتكرمة».

دوّى المكان بالتصفيق، تصفيق الإعجاب والمجاملة والرثاء والسكر. وقال لها عزّت بتوسّل:

ـ حسبك..

فقالت بظفر أبله:

ـ ما علينا إلّا أن نعود للمسرح.

فقال اتّقاءً لغضبها:

ـ سأفكّر في ذلك.

ـ معنا المال، سيرجع حمدون، ماذا ينقصنا؟!

ـ عظيم... عظيم... عظيم...

ـ تعاملني كطفلة؟!

ـ أبدًا.

بحدّة وحنق:

ـ لماذا جئت؟

ـ يجب أن نكون أصدقاء.

ـ إنّك أسوأ ذكرى في حياتي.

ـ الله يسامحك...

ـ وغد جبان.

ـ الله يسامحك يا بدريّة.

ـ اذهب ولا تعد!

وصدع بالأمر فقام ومضى يتسلّل بوجدان يشتعل. أمّا هي فعادت تخطب بقوّة:

ـ «أيّها الأصدقاء، أيّها الرومانيّون، أيّها المواطنون، أعيروني أسماعكم، إنّي جئت لكي أدفن قيصر لا لكي أشيد بذكره».

٢٦

فرّ وهو يجفّف عرق وجهه بمنديله. أيّ حماقة ساقته إلى زهرة النيل؟ لِمَ لَمْ يعمل بالحكمة التي تجعلنا نواري الجثث في المقابر؟ ما كان أغناه عن تلك التجربة الأليمة التي انغرزت في عظامه، ألم تكفه تجربة سمير الضائع المشرّد؟ وانفرد بنفسه في حجرة الإدارة وراح يفكّر في حياته.

لم تكن أوّل مرّة ولكنّه كان مثارًا لحدّ الإلهام. ضاق أوّل أمره بالفراغ ولكنّه استبدل به عملًا لا يؤمن به. أليس كذلك؟ لم يكن من رجال المسرح، ولا هو من رجال الملاهي الليليّة. العمل يمثّل في حياتي مهربًا من شيء أو طمعًا في شيء أو انتقامًا من شيء. أمّي أوّل من دفعني إلى الانحراف وهي الخير الصافي. لست قادرًا على فهم هٰذه الأمور أو هضمها. وما ينقصني حقًّا فهو راحة البال. ما ينقصني حقًّا هو الرضا عن النفس. هل يوجد حقًّا ما يسمّونه بالرضا عن النفس؟! كيف يبلغه الإنسان؟ وأين أجد الجواب على هٰذا السؤال؟! وما جدوى الأسئلة وأنا مستسلم لتيّار الحياة اليوميّة؟! وخطر له أن يسأل فرج يا مسهّل وهما يدخّنان معًا في شقّته عقب التشطيب، سأله:

- أأنت سعيد يا عمّ فرج؟

فأجاب الرجل صادقًا:

- بفضل الله وفضلك.

أدرك أنّه لم يفهم قصده فعاد يسأله:

- ما أهمّ شيء لتوفير السعادة؟

- الصحّة!

- ولٰكنّها وحدها لا تكفي.

- والرزق!

- ولا شيء آخر؟

- الزوجة والأولاد.

لقد ضاق بها جميعًا وفرّ منها إلى المجهول. ولو شاء أن يبقى ويتزوّج من أخرى لفعل. كلّا، الأمر أشدّ تعقيدًا ممّا يتصوّر فرج يا مسهّل.

* * *

ودقّ جرس التليفون ضحى يوم في شقّته:

- ألو؟

- عزّت عبد الباقي؟

- أنا هو... من حضرتك؟

- أما زلت تذكر حمدون عجرمة؟

خفق قلبه مستدعيًا خليطًا من الانفعالات المضطربة، لٰكنّه هتف:

- حمدون!

- نعم...

- لا أصدّق... أيّ فرحة... مبارك... مبارك... مبارك... أين أنت الآن؟... تعال بلا تردّد... إنّي في انتظارك...

* * *

كان قد مضى على تجربة زهرة النيل شهر أو شهر وأيّام. وجلس ينتظر بقلب كئيب ونفس رافضة حانقًا على الماضي الذي لا يريد أن يموت. وخيّل إليه أنّه يستمدّ من عذابه قوّة ستغيّر كلّ شيء وأنّه سيرفض ذلّ الأسر المقيم.

وأقبل حمدون عجرمة:

أقبل رجلًا آخر كما توقّع ولٰكنّه فاق توقّعه، لم يكد يعرفه. رآه لأوّل مرّة أصلع، وعينه اليسرى أضيق من اليمنى. على حين وشت مشيته الواهنة ورجله اليمنى المتصلّبة بشلل أصابه ذات يوم... تجسّد له إثمه القديم مكشّرًا بغيضًا فاستلّ من نفسه أيّ حنان كان جديرًا أن يمسّ أوتار وجدانه. اجتاحته عاصفة في الخفاء وهما يتعانقان. استفزّه ذٰلك إلى مزيد من التفكير في البحث عن حياة جديدة. يريد أن يذهب كما يتعطّش إلى رؤية سمير، وجلس في فوتيل مقابل، في موضع ابنه المختار، وتبادلا النظر هو مبتسمًا، والآخر جامدًا أو عاجزًا بفيه المعوجّ قليلًا من الابتسام. قال عزّت بابتهاج:

- الله وحده يعلم بمدى فرحتي بلقائك.

فقال حمدون بصوت منخفض:

- توقّعت ذٰلك، لست على ما يرام، ولٰكن يسعدني أن أراك في صحّة جيّدة...

فقال عزّت كالمحتجّ:

- بل أصبحت بدوري أخا مرض، ليس هٰذا هو المهمّ، كلانا وراءه حكاية وسيتيح لنا الوقت تبادل

الحكايات. . .

فقال حمدون بهدوء وثبات:

ـ ولٰكنّك أنجبت ابنًا رائعًا!

فتأثّر عزّت تأثّرًا عميقًا غطّى على دهشته وتساءل:

ـ مَن أدراك به؟

ـ لا شيء يمتنع عمّن وراء الأسوار.

ـ ماذا تعلم عنه؟

فلم يزد عن قوله:

ـ إنّه فتًى رائع. . .

ـ سرعان ما فقدته.

هزّ رأسه نفيًا ولم يعقّب. . . ترى هل يعرف عن سمير أكثر منه؟ واندفع ربّما دون تدبّر ليُخرجه من تزمّته فقال:

ـ آخر أخبار بدريّة أنّها تعمل مديرة للملهى ليليّ. . . «زهرة النيل». . . !

ولٰكنّه لم يتأثّر. تساءل بلا مبالاة:

ـ كيف حالها؟

ـ شاخت وخرفت!

ـ نهاية طبيعيّة وإن جاءت قبل الأوان بقليل. . .

ـ لنرجع إليك. . . ما مشروعاتك عن المستقبل!

ـ لا شيء!

رغم توقّعه لذلك فقد حنق غير أنّه قال بنبرة ودّيّة:

ـ لا تحمل همًّا. . . ولٰكنّك لست على ما يرام.

ـ أصبت من أعوام بشلل نصفيّ، ولست آمل في تحسّن أكثر ممّا بلغت.

ـ يا للأسف. . . ولٰكنّ الأمل موجود. . . لا شكّ أنّك متشوّق للتأليف؟!

ـ لا قدرة لي على تأليف جملة واحدة.

ـ على أيّ حال لا تحمل للرزق همًّا. . .

فقال ممتنًّا:

ـ نِعْمَ الصديق أنت!

سرعان ما حدث تغيّر في صورة انفجار، بلا تمهيد ولا مناسبة ظاهرة. خرج به عن الزمان والمكان. ألقى به في جحيم فتوثّب بإرادة من حديد وحطّم حاجز الكذب. وقف كصاروخ، وقال بصلابة ورفض كالمجنون:

ـ إنّي صاحب الرسالة. . .

ارتسمت الدهشة على وجه حمدون وتساءل:

ـ أيّ رسالة؟

ـ رسالة الاتّهام التي أرسلت إلى المحقّق عقب القبض عليك!

ساد صمت كثيب ثقيل. رماه بنظرة بليدة، تساءل:

ـ أنت؟!

ـ نعم. . . وأعرف أنّك اعترفت قبل وصولها ولٰكنّني أنا الذي أرسلتها. . .

ازدرد ريقه وسأله:

ـ لِمَ؟

ـ خدمة للعدالة في الظاهر ولٰكن لأستولي على زوجتك في الحقيقة!

فتساءل حمدون بغموض:

ـ وتزوّجتَ بدريّة؟

ـ كلّا. ليس بوسعنا أن نسيطر على خطّة كاملة، إذ إنّ غيرنا يشاركنا ونحن لا ندري في تأليفها.

وساد الصمت كغلاف لانفعالات شتّى ولٰكنّ عزّت رجع من مغامرته الجنونيّة بشيء من الهدوء. . . وكثير من الاستسلام، حتّى إنّه سأله في النهاية:

ـ ما رأيك فيما سمعت؟

فأجاب بازدراء:

ـ إنّك قذر ولٰكنّك لست أقذر من كثيرين. . .

ولم يغضب، تلقّى الذمّ ضمن سيال مرتعش من نشوة مبهمة. ووقف على حافة التحدّي بقلب لا يخلو من جذل وإلهام. . . وإعرابًا عن حاله الجديدة قال بصوت لا أثر للاستياء فيه:

ـ أمامنا فرصة لنسيان الماضي.

فتساءل حمدون بوجوم:

ـ ألم يكفِ ربع قرن للنسيان؟

ـ كلّا.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أن نعالج أمورنا بروح جديدة.

ـ أتريد أن توحّد مصائرنا مرّة أخرى؟

ـ بعزيمة صادقة.

فقال بازدراء:

ـ إنّك تبحث عن كفّارة وإنّي أحتقر ذٰلك.

ـ لِمَ جئتني؟

ـ لَمْ يساورني فيك شكّ.

ـ لقد حطّمنا أنفسنا فيما مضى وعلينا أن نحاول البناء.

فقال بازدراء أشدّ:

ـ عليّ أن أبصق على وجهك. . .

فابتسم عزّت وهو نشوان بقدرته على الاحتمال:

ـ إنّي مسئول عنك.

ـ إنّك لا تستطيع أن تحمل مسئوليّة حشرة.

ـ بل يجب أن تعيد التفكير.

ـ لن أراك بعد اليوم.

ـ كيف تواجه الحياة؟

ـ هل طرحت هٰذا السؤال على ابنك؟

تغلغل الألم حتّى جذور قلبه فأمسك عن الكلام على حين واصل حمدون قائلًا:

ـ أيّ تسامح من ناحيتي يعني أنّ عمري ضاع هباء.

فقال عزّت بأسًى:

ـ إنّي أفكر في بناء جديد يتّسع لحياة صحّيّة تضمّ حمدون وعزّت وبدريّة وسيّدة.

ـ تحاول أن تجعل منّا أدوات لخلق السلام لنفسك كما سبق أن جعلت منّا أدوات تخريب لتشيد فوق أطلالنا السعادة التي رفضتك.

فقال عزّت بحرارة:

ـ لقد نلت الجزاء وأكثر. . .

ـ لو صحّ ذٰلك ما فكّرت فينا قطّ.

وأخذ حمدون يقوم معتمدًا على عصاه الغليظة ذات الكعب المطّاط فقال عزّت برجاء:

ـ تخلَّ عن عنادك.

استقام ظهره على مهل. . . تحرّك للذهاب. . .

تساءل عزّت:

ـ كيف تواجه الحياة؟

فقال وهو لا يتوقّف:

ـ كما يواجهها ابنك.

وخفق قلبه فسأله بلهفة:

ـ أنت تعرف عنه أشياء، ماذا تعرف عن ابني؟

فقال وهو يعبر العتبة:

ـ لا تسأل عمّا لا يعنيك!

٢٧

يقول الراوي:

إنّ عزّت صار شخصًا آخر. منذ ذهاب حمدون تواجد عزّت الأوّل وعزّت الآخر متجاورين في مكان واحد. صورتان متطابقتان تمامًا غير أنّ الأوّل رمق الآخر بدهشة وحيرة، توجّس منه خيفة واعتقد أنّ الآخر يتوجّس منه خيفة أيضًا. وتساءل كيف يمضي التيّار بهما وهما في قارب واحد؟ لقد اعتاد أن ينفرد برأيه ربع قرن من الزمان وذاك الآخر يتصرّف تصرّف الشركاء ويعتدّ بنفسه لحدّ التحدّي. وسمعه يقول:

ـ لن أستمرّ. . .

فسأله بحذر:

ـ ماذا تعني؟

لٰكنّه لم يجبه. لم يبدُ عليه أنّه يهتمّ بوجوده أو يشعر به. فقال وكأنّه يخاطب نفسه:

ـ لن أستمرّ، أصبح ذٰلك مستحيلًا . . .

وإذا به يندفع في إجراءات لم تجرِ على بال الأوّل، قال لفرج يا مسهّل:

ـ إنّي ذاهب، لك أن تدير الملهى إذا شئت.

وحدجه فرج يا مسهّل ببصر ذاهل فقال الآخر:

ـ سأبيع أثاث شقّتي والتحف وخلافه.

فقال له عزّت الأوّل:

ـ لا حقّ لك في شيء من ذٰلك.

ولٰكنّ الآخر تصرّف تصرُّف المالِك الأوحد. وأدرك الأوّل أنّه لا قِبَل له بمعارضته فأوعز إلى فرج يا مسهّل بإطاعته وأن يوهمه بأنّه يصدع بأمره وأن يبقي كلّ شيء على حاله. وأخيرًا عانق الآخر فرج يا مسهّل وهو يودّعه فقال عمّ فرج:

ـ رجوعك إلى الحارة هو ما اقترحته عليك من بادئ الأمر.

فدهش الأوّل وسأله:

ـ أنرجع حقًّا إلى الحارة؟

وتجاهله الآخر كعادته ومضى إلى التاكسي، وقبل أن يتحرّك التاكسي قال الآخر لفرج:

ـ قلبي يحدّثني بأنّني سأحظى ذات يوم برؤية ابني سمير.

فقال العجوز:

ـ وستجده على خير ما تتمنّى له.

* * *

مضى التاكسي في طريقه إلى الحارة. الآخر متّخذًا مجلسه داخله والأوّل يتبعه عن كثب. وقف التاكسي عند المدخل فدخل الاثنان الحارة مشيًا على الأقدام. دهش الأوّل وقال لنفسه ليس مَن سمع كمَن رأى. شدّ ما تغيّرت الحارة. جدّدت أرضها فحلّ الأسفلت محلّ الحجارة. رشقت المصابيح بالجدران. اختفت الخرائب وشيّدت مكانها مساكن ومدرسة. حقًّا إنّها تبدو جديدة. فتياتها يخطرن في الفساتين سافِرات. لم يبق على حاله إلّا القبو والحصن القديم فوقه. عمارات ستّ عين طُليت من جديد. أمّا باب دارها فلاذ بمكره تحت التمساح المحنّط لا ينمّ أديمه الخشن عن الفردوس المترامي وراءه. لم ينتبه لهما أحد. لم يعرفهما أحد. غريبان في حارة غريبة، سأله:

ـ ألم يكن الأوفق أن نسافر إلى الخارج؟

لكنّ الآخر طرق الباب. دخل بثقة كمن يدخل بيته. عرفته خادمة عجوز فهلّلت فقال الأوّل:

ـ عمّا قريب سترى عين. ماذا عندك من قول لها؟

وانجذب ـ متناسيًا الآخر ـ لروائح الياسمين والحنّاء. ورأى قطّة من جيل جديد لا بركة ولا نرجس ولا إنعام ولا أمّ الليل ولا صباح.

ـ ها هي سيّدة!

ظهرت في الممشى الذي شُدّت منه قديمًا إلى المذبح. ما أشبهها اليوم بأمّها في كهولتها ولكنّها نحيلة شاحبة. حزينة إلى الأبد. أنا المعتدي لا أنت. ولكنّها ترنو إليك أنت وكأنّها لا تراني. ولكنّكما تترامقان صامتينِ تحت ضغط الذكريات. ثمّ يقول الآخر:

ـ كيف حالك يا سيّدة؟

لم تردّ من شدّة الانفعال. اغرورقت عيناها الذابلتان. لعلّ التاريخ اقتحمها في دقيقة واحدة، ولكنّها غمغمت أخيرًا:

ـ تفضّل في الشرفة فالجوّ هناك ألطف.

إنّه الأصيل وآخر الخريف ولكنّ اليوم دافئ وجلس على الأريكة القديمة، كلّ شيء تغيّر إلّا الدار. وهناك الخميلة التي شهدت عبث الطفولة. وتساءل الآخر:

ـ أين أمّي؟

ـ في حجرتها.

ـ ألم تدرِ برجوعي؟

سمع أنفاسها بدلًا من الجواب فكرّر السؤال. قالت:

ـ إنّها لا تغادر الفراش.

ـ مريضة؟!

ـ كلّا... إنّه العمر...

ـ كان يجب أن تقوديني إليها.

ـ يجب أن تعرف أشياء قبل ذلك.

فرمقها متسائلًا فقالت:

ـ لقد فقدت البصر.

قطّب الآخر منزعجًا، وأدرك الأوّل ما غاب عن فرج يا مسهّل. واستطردت سيّدة:

ـ وفقدت أيضًا السمع!

وقف الآخر مضطربًا متسائلًا:

ـ ألم يعالجها طبيب في الوقت المناسب؟

ـ بلى، أقلّ ما يجب، ولكنّها إرادة الله.

وقال الأوّل بحزن:

ـ لا عودة بلا ثمن.

* * *

اندفع الآخر إلى حجرة عين. رأى وجهها فوق الغطاء الأخضر على الفراش العتيق ذي الأعمدة الأربعة. انحسر المنديل الأبيض عن خصلات فضّيّة. انطرح الوجه نحيلًا طويلًا محنّطًا بالشيخوخة. هتف:

ـ أمّي!

وانكبّا على جبينها فلثماه في وقت واحد. ندّت عنها حركة رقيقة وهمست:

ـ سيّدة؟!

فقال الأوّل مخاطبًا الآخر:

ـ رحلة خاسرة.

قال الآخر بحزن:

ـ أنا عزّت يا أمّي.

فقال الأوّل:

ـ لن تخاطب إلّا نفسك.

وقالت سيّدة:

ـ لا تكفّ عن الدعاء لك ولسمير.

فقال الأوّل:

ـ فلنسافر إلى الخارج.

* * *

رجع الآخر بصحبة سيّدة إلى الشرفة والمغيب يهبط متمهّلًا. قال:

ـ ستعرفني بطريقة أو بأخرى.

فقالت سيّدة:

ـ بالتأنّي واللطف حتّى لا تنفعل.

وابتعدت قليلًا حتّى كانت تلتصق بالأوّل وهي لا تدري وقالت:

ـ يجب أن أذهب.

فسألها الآخر:

ـ إلى أين؟

ـ أيّ مكان.

فقال بحزم:

ـ هنا بيتك.

ـ ولٰكن. . .

فقاطعها:

ـ إنّه بيتك وسيكون بيتك أكثر.

فسأله الأوّل:

ـ ماذا تعني بالضبط؟!

أمّا سيّدة فقد رمت الآخر بنظرة متسائلة، فسألها مبتسمًا:

ـ أيداخلك شكّ في أنّني تغيّرت؟

فهمست:

ـ كلّ شيء تغيّر!

فقال له الأوّل:

ـ من الآن فصاعدًا عليك أن تنظم قصيدة طويلة في الرثاء.

وتساءلت سيّدة:

ـ أما من جديد عن سمير؟

فقال الآخر:

ـ لا جديد، إنّه بعيد، أمّي بعيدة أيضًا.

ـ لو أعرف فقط أنّه حيّ يرزق!

فقال الآخر متأثّرًا بإلهام منبعث من الأعماق:

ـ هو كذٰلك وسوف نتلاقى ذات يوم.

فقال الأوّل:

ـ لا بدّ من السفر إلى الخارج.

وجلست سيّدة لأوّل مرّة غير بعيد من الآخر. وراحا ينظران إلى الحديقة معًا.

وشعر الأوّل بأنّه آن له أن يذهب. غير أنّه سمع سيّدة وهي تقول:

ـ أوقفت ستّ عين أملاكها للخير على أن ينفّذ ذٰلك بعد انقضاء الأجل.

فتفكّر الآخر قليلًا ثمّ قال في غير مبالاة:

ـ خير ما فعلت!

ـ وعيّنتك ناظرًا للوقف ومن بعدك سمير.

فتمتم:

ـ عظيم.

ـ قالت وهي تفعل ذٰلك عنك «سيهارس الخير رضي بذٰلك أو أبى!».

فابتسم الآخر وقال:

ـ سأفعله راضيًا.

وقال له الأوّل:

ـ أستودعك الله.

غادر الدار. غادر الحارة. مضى إلى شارع دوبريه. استراح قليلًا في شقّته. ذهب إلى الملهى والمطربة تفتتح السهرة منشدة:

يا ورد على فلّ وياسمين الله عليك يا تمر حنّة.

ألقى نظرة على الصالة المكتظّة ثمّ اتّجه إلى حجرة الإدارة. وما إن انفرد بنفسه حتّى قال:

ـ عندما يرجع سمير سيجد ثلاثة آباء في انتظاره، أنا والآخر وحمدون، سيختار أباه بنفسه كما اختار حياته.

وتفكّر مليًّا ثمّ قال:

ـ سأسافر إلى الخارج حال انتهاء الشتاء.

٢٨

يقول الراوي:

إنّه في ليلة القدر انبعث في الستّ عين نشاط غير متوقّع. رفضت أن تمسّ عشاءها من الزبادي وسألت سيّدة أن تُجلسها. كسرت سيّدة وراء ظهرها وسادة طريّة وأجلستها نصف جلسة.

وقالت عين وهي تبتسم:

ـ سيطيب الجوّ وتشرق الأرض بنور ربّها فارعوا العصافير بالرحمة...

وتمادت في الابتسام وهي تقول:

ـ سأغنّي أغنية عشقتها في صغري.

وراحت تغنّي بصوت ضعيف مثير:

يمامة حلوة ومنين أجيبها

ثمّ هتفت:

ـ إنّي أرى... أرى بكلّ وضوح...

اقترب منها الآخر وسألها بلهفة:

ـ هل ترينني يا أمّي...؟

ولكنّها استطردت دون أن تشعر به:

ـ إنّي أرى السطّيّين الذين ذهبوا... إنّهم ينادونني... سمعًا وطاعة... عين قادمة...

* * *

يقول الراوي:

إنّ الستّ عين لم تمت... رغم أنّ الذين عاصروا وفاتها لم يعرفوها أو كذلك كانت أغلبيّتهم. ما عرفوا إلّا ما يتناقله الرواة ولكنّ ستّ عين لم تمت... وحتّى اليوم يطلق الناس على المستشفى الذي قام مكان دارها... «مستشفى الستّ عين».

«تمّت»

أفراح القبة

طارق رمضان

سبتمبر، مطلع الخريف، شهر التأهّب والتدريب. صوت سالم العجرودي المخرج يتدفّق. يتدفّق في حجرة المدير المغلقة النوافذ المسدلة الستائر. لا صوت يتطفّل عليه إلّا أزيز خفيف يندّ عن جهاز التكييف. صوته يمرق في إطار صمتنا اليقظ قاذفًا بالصور والكلمات. نبراته ترقّ وتخشوشن، تتلوّن بشتّى الأصباغ، محاكية أصوات الرجال والنساء. قبل ترديد أيّ حوار يرمق صاحب الدور أو صاحبته بنظرة تنبيه ثمّ يسترسل. وتنبثق الصور من واقع ثقيل صلب يجتاحنا بصراحة مرعبة. يجتاحنا بتحدٍّ مخيف. سرحان الهلالي المدير يجلس على رأس المائدة المستطيلة المكلّلة بالقطيفة الخضراء. يجلس كحارس صارم. يتابع التلاوة بوجه جامد هادئ قابضًا على سيجار الدينو بشفتين ممتلئتين. يحدّق بوجهه الصقريّ في وجوهنا المشرئبّة نحو المخرج. يصادر بجدّيّته البالغة أيّ مقاطعة أو تعليق. يتجاهل انفعالاتنا المتوقّعة ويدعونا بصمته البارد إلى تجاهلها أيضًا. ألم يدرك الرجل معنى ما يلقي علينا؟ الصور تتماوج أمام مخيّلتي مخضّبة بالدماء والوحشيّة. أريد أن أتنفّس بكلمة أتبادلها مع أحد. سحابة الدخان المنعقدة في الحجرة تزيد من غربتي. أغوص في الرعب. وأحيانًا ألتصق بنظرة بلهاء بالمكتب الفخم وراءنا أو بصورة من الصور المعلّقة. صورة درّيّة وهي تنتحر بالأفعى. صورة إسماعيل وهو يخطب فوق جثّة قيصر. ها هي المشنقة تتخايل لعينيّ. ها هي الشياطين تتبادل الأنخاب.

وعندما نطق سالم العجرودي بجملة «يسدل الستار» اتّجهت الرءوس نحو سرحان الهلالي مترعة بالذهول.

يقول المدير:

ـ يسرّني أن أستمع إلى الآراء.

وتقول درّيّة نجمة المسرح باسمة:

ـ فهمت الآن لِمَ لَمْ يحضر المؤلّف جلسة القراءة...

وأقول أنا، وأنا أحلم بتدمير العالم:

ـ المؤلّف؟!... ما هو إلّا مجرم علينا تسليمه إلى النيابة...

يردّ عليّ الهلالي بنبرة آمرة:

ـ الزم حدّك يا طارق، انس كلّ شيء إلّا أنّك ممثّل...

ـ ولكن...

يقاطعني بغضبه الجاهز دائمًا:

ـ ولا كلمة!

ووجّه عينيه نحو المخرج فقال المخرج:

ـ المسرحيّة مرعبة...

ـ ماذا تعني؟

ـ ترى كيف يكون وقعها في الجمهور؟

ـ لقد وافقت عليها وأنا مطمئنّ.

ـ لكنّ جرعة الرعب جاوزت الحدّ.

وقال إسماعيل نجم الفرقة:

ـ دوري بشع!

فقال الهلالي:

ـ لا يوجد من هو أقسى من المثاليّين، هم المسئولون عن المذابح العالميّة، دورك تراجيديّ من الطبقة الأولى...

فقال سالم العجرودي:

ـ قَتْل الطفلِ سيُفقده أيّ عطف...

ـ دعنا الآن من التفاصيل، ممكن حذف دور

الطفل، لقد نجح عبّاس يونس في إقناعي أخيرًا بقبول مسرحيّة له، وشعوري يلهمني بأنّها ستكون من أقوى المسرحيّات التي قدّمناها في عمر مسرحنا الطويل. . .

فقال فؤاد شلبي الناقد:

- إنّي أشاركك شعورك ولٰكن يجب حذف دور الطفل.

فقال الهلالي:

- يسرّني أن أسمع منك ذٰلك يا فؤاد، إنّها مسرحيّة متقنة وصادقة ومثيرة. . .

فقلت بحدّة:

- ما هي بمسرحيّة. إنّها اعتراف، هي الحقيقة، نحن أشخاصها الحقيقيّون. . .

فقال الهلالي بازدراء:

- ليكن، أتحسب أنّ ذٰلك فاتني؟. . . لقد رأيتك كما رأيت نفسي، ولٰكن من أين للجمهور أن يعرف ذٰلك؟

- ستتسرّب الأخبار بطريقة أو بأخرى. . .

- ليكن، الضرر الأكبر سيحيق بالمؤلّف نفسه، بالنسبة لنا سنضمن مزيدًا من النجاح، أليس كذٰلك يا فؤاد؟

- أعتقد ذٰلك!

فابتسم الهلالي لأوّل مرّة وقال له:

- يجب أن يتمّ كلّ شيء في لباقة وكياسة.

- طبعًا. . . طبعًا. . .

فرجع سالم العجرودي يتمتم:

- الجمهور! . . . ترى كيف يستقبلها؟

فقال الهلالي:

- هٰذه مسئوليّتي أنا.

- عظيم. . . سنبدأ العمل فورًا. . .

الجلسة تنفضّ. ألبث أنا وحدي مع المدير. لي دالّة عليه بحكم الزمالة والصداقة والجيرة القديمة. قلت له وأنا في غاية الانفعال:

- علينا أن نعرض الموضوع على النيابة.

فقال متجاهلًا انفعالي:

- ها هي فرصة لتمثّل في المسرحيّة ما سبق أن عشته في الحياة.

- إنّه مجرم لا مؤلّف.

- وهي فرصة ستخلق منك ممثّلًا مهمًّا بعد عمر طويل مضى وأنت ممثّل ثانويّ.

- إنّها اعترافات، كيف نترك المجرم يفلت من يد العدالة؟

- إنّها مسرحيّة مثيرة واعدة بالنجاح وذاك أقصى ما يهمّني يا طارق.

فاض قلبي بالغضب والمرارة. انتشرت أحزان الماضي كالدخان بكافّة هزائمه وآلامه. . .

إنّها فرصتي للتنكيل بعدوى القديم.

* * *

- مَن أدراك بهٰذه الأسرار!

- عفوًا. . . سنتزوّج!

* * *

ويتساءل سرحان الهلالي:

- ماذا أنت فاعل؟

- يهمّني في الاعتبار الأوّل أن ينال المجرم جزاءه.

فقال بضيق:

- اجعل الاعتبار الأوّل لإتقان الدور.

فقلت بتسليم:

- لن يفوتني ذٰلك.

* * *

يقتحمني انفعال قهّار عند رؤية النعش فأجهش في البكاء مغلوبًا على أمري. كأنّه أوّل نعش أراه. الدموع في عينيّ مثلي مثيرة للدهشة. ألمح السخريات من خلال الدمع مثل ثعابين الماء. ليس هو الحزن أو العظة ولٰكنّه جنون عابر. أتجنّب النظر إلى المشيّعين خشية أن ينقلب البكاء إلى هستيريا من الضحك.

* * *

أيّ كآبة تغشاني وأنا أخترق باب الشعريّة. منذ سنوات لم تقترب منه قدماي. حيّ التقوى والخلاعة. أغوص في زحام وضوضاء وغبار النساء والرجال والصبية. تحت سقف الخريف الأبيض. كلّ شيء يلوح لعينيّ في ثوب الازدراء والكآبة. حتّى الذكريات منفّرة جارحة بما فيها مجيئي بتحيّة لأوّل مرّة وهي تتأبّط ذراعي في مرح. مثل الهوان في الظلّ ومعاشرة

الصعاليك والقبوع الحقير تحت جناح أمّ هاني. اللعنة على الماضي والحاضر. اللعنة على المسرح والأدوار الثانويّة. اللعنة على أوّل نجاح تأمله من لعب في مسرحيّة عدوّ مجرم وأنت تعلو الخمسين من العمر. ها هو سوق الزلط النحيل الطويل مثل ثعبان. ها هي بوّاباته المتجهّمة العتيقة وها هما عمارتاه الجديدتان الوحيدتان. والبيت القديم رابض مكانه بما يطويه في صدره من تاريخ أسود وأحمر. لقد استجدّ جديد لم يكن فتحوّلت المنظرة الخارجيّة إلى مقلى يجلس فيها للبيع كرم يونس وإلى جانبه حليمة زوجته. شدّ ما غيّرهما السجن. وجهان هما صورتان مجسّدتان للامتعاض. ينغمسان في الكدر على حين يأخذ نجم ابنهما في اللمعان. لمحني الرجل. نظرت المرأة نحوي أيضًا. لا حبّ ولا ترحيب هٰذا ما أسلّم به. رفعت يدي بالتحيّة فتجاهلها الرجل وقال بجفاء:

ـ طارق رمضان!... ماذا جاء بك؟

لم أتوقّع استقبالًا أفضل. اعتدت ألّا أبالي. وقفت المرأة منفعلة ثمّ سرعان ما جلست على كرسيّها المجدول من القشّ وهي تقول بمرارة ساخرة:

ـ أوّل زيارة مذ رجعنا إلى سطح الأرض.

ما زالت قسمات وجهها تتشبّث بذكريات جمالها. الرجل يقظ مفيق رغم أنفه. من هٰذين وُلد المؤلّف المجرم.

قلت كالمعتذر:

ـ الدنيا شبكة من الهموم وما أنا إلّا غريق من الغرقى...

فقال كرم يونس:

ـ جئتَ من الماضي كذكرى من أسوإ ذكرياته...

ـ لست أسوأ من غيري...

لم يَدْعُني أحد للجلوس في المقلى فلبثت واقفًا في موقف الزبائن. وشجّعني ذٰلك على التمادي فيما جئت من أجله. وتساءل كرم في جفاء:

ـ هه؟

فقلت بتحدٍّ:

ـ معي أخبار سيّئة...

فقالت حليمة:

ـ لم نعد نحزن للأخبار السيّئة...

ـ حتّى لو تكون عن الأستاذ عبّاس يونس؟

فقلقت نظرتها في حدّة وهتفت:

ـ لن تزال عدوّه حتّى الموت!

وقال كرم:

ـ إنّه ابنٌ بارّ، هو الذي أنشأ لنا هٰذه المقلى بعد أن رفضت العودة إلى عملي القديم بالمسرح...

وقالت حليمة بفخار:

ـ وقد قُبلت مسرحيّته!

ـ قُرئت علينا أمس...

ـ رائعة ولا شكّ!

ـ مرعبة... ماذا تعرفان عنها؟

ـ لا شيء.

ـ ما كان بوسعه أن يخبركما...

ـ لماذا؟

ـ إنّها باختصار تدور في بيتكم هٰذا، مكرّرة ما وقع فيه بالحرف الواحد، كاشفة في الوقت نفسه عن جرائم خفيّة تفسّر الوقائع تفسيرًا جديدًا...

تساءل كرم بجدّيّة لأوّل مرّة:

ـ ماذا تعني؟

ـ سترى نفسك كما سنرى أنفسنا، كلّ شيء... كلّ شيء، ألا تريد أن تفهم؟

ـ حتّى السجن؟

ـ حتّى السجن، وموت تحيّة، ولٰكنّها تدلّنا على من وشى بنا إلى الشرطة، كما تثبت لنا أنّ تحيّة قُتلت ولم تمت!

ـ ما هٰذا السخف؟!

ـ إنّه عبّاس أو مَن حلّ محلّه في المسرحيّة مَن يفعل ذٰلك...

تساءلت حليمة بحدّة:

ـ ماذا تعني يا عدوّ عبّاس؟

ـ إنّي أحد ضحاياه، أنتما ضحيّتان أيضًا...

فتساءل كرم:

ـ أليست مسرحيّة؟

ـ إنّها لا تدع مجالًا للشكّ فيمن وشى بكما ولا فيمن قتل...

ـ كلام فارغ...

وقالت حليمة:

ـ عنده تفسير ولا شكّ...

ـ اسألاه... شاهِدا المسرحيّة عند عرضها...

ـ مجنون... لقد أعماك الحقد...

ـ بل الجريمة...

ـ ما أنت إلّا مجرم، وما هي إلّا مسرحيّة...

ـ إنّها الحقيقة...

ـ حاقد مجنون... ابني عبيط ولٰكنّه ليس خائنًا ولا قاتلًا...

ـ هو خائن وقاتل وليس عبيطًا...

ـ هٰذا ما تتمنّاه.

ـ يجب تسليم قاتل تحيّة إلى العدالة...

ـ إنّه الحقد القديم... هل أكرمت تحيّة حينما كانت بيدك؟

ـ كنت أحبّها وكفى.

ـ حبّ البرمجيّة...

صحت بغضب:

ـ إنّي خير من زوجك وخير من ابنك...

فسألني كرم بجفاء ومقت:

ـ ماذا تريد؟

فقلت ساخرًا:

ـ أريد لبًّا بقرش.

فهتف بي:

ـ رُحْ في داهية...

* * *

رجعت أخوض في أمواج الأطفال والنساء. توكّد لديّ أنّ عبّاس لم يشر إلى موضوع مسرحيّته لوالديه ممّا يشهد على تجريمه. لٰكن لِمَ يفشي سرًّا خطيرًا لم يشكّ فيه أحد؟ أهي اللهفة على النجاح بأيّ ثمن؟ أيلقى جزاءه شهرة بدلًا من المشنقة؟

* * *

ـ طارق... ماذا أقول؟... القسمة والنصيب!

* * *

عند ناصية شارع الجيش التفتُّ صوب العمارة ثمّ ملتُ نحو العتبة. بمرور الأعوام الشارع يضيق ويجنّ ويصاب بالجدريّ. نلتِ جزاءكِ يا تحيّة. من الإنصاف أن يقتلك من هجرتني من أجله. سيستفحل الزحام حتّى يأكل الناس بعضهم بعضًا. لولا أمّ هاني لتشرّدت في الطرقات. المشنقة. هي قمّة المجد يا عبّاس. لا ميزة لك إلّا الفحولة. هزيمتها لا تنسى. ما معنى أن تعيش ممثّلًا من الدرجة الثالثة؟ في الأيّام الحلوة نما الحبّ وراء الكواليس. فقهت الغريزة الحيّة لغة الفحولة الخفيّة. نلت أوّل قبلة والموت يزحف على راسبوتين.

ـ تحيّة... إنّك تستحقّين أن تكوني نجمة لا ممثّلة ثانويّة كحالي...

ـ حقًّا؟!... إنّك تبالغ يا أستاذ طارق...

ـ بل شهادة خبير...

ـ أم عين الرضا؟

ـ حتّى الحبّ لا يؤثّر في حكمي!

ـ الحبّ؟!

كنّا نسير في شارع جلال في النصف الثاني من الليل. سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم.

قلت:

ـ طبعًا... أتريدين هٰذا التاكسي؟

ـ آن لي أن أرجع إلى بيتي...

ـ وحدك؟

ـ لا أحد معي في شقّتي الصغيرة.

ـ أين تقيمين؟

ـ شارع الجيش.

ـ نحن جيران تقريبًا، إنّي أقيم في حجرة ببيت كرم يونس في باب الشعريّة...

ـ ملقّن الفرقة؟

ـ نعم... هل تدعينني إلى شقّتك أو أدعوك إلى حجرتي؟

ـ وكرم وحليمة؟

ضحكتُ فابتسمتْ. تساءلتْ:

ـ لا أحد في البيت سواكم؟

ـ ابنها الوحيد، تلميذ.

جميلة وصاحبة شقّة ومرتّب مثل مرتّبي.

* * *

لِمَ يستدعيني سرحان الهلالي ونحن منهمكون في التدريب؟

يقف مستندًا إلى مائدة الاجتماعات في تيّار الشمس الدافئ. يبتدرني:

ـ اعتذرت مرّتين عن التدريب يا طارق...؟

لم أجد ما أقوله فواصل بضيق:

ـ لا تخلط بين الصداقة والعمل... ألم يكفك أنّك حملت عبّاس على الاختفاء؟

ـ لعلّه هرب بعد افتضاح أمره.

ـ ما زلت مصرًّا على أفكارك الغريبة؟

ـ إنّه مجرم ما من شكّ في ذلك...

ـ إنّها مسرحيّة، وإنّك ممثّل لا وكيل نيابة...

ـ ولكنّه مجرم وأنت تؤمن بذلك...

ـ الحقد يعمي بصيرتك.

ـ لست حقودًا.

ـ لم تشفَ من خيبة الحبّ بعد...

ـ إنّنا نتدرّب لنهيّئ النجاح للمجرم.

ـ إنّه نجاحنا نحن، وهي فرصتك للضوء بعد عمر طويل في الظلّ...

ـ أستاذ سرحان... الحياة...

ـ لا تحدّثني عن الحياة... لا تتفلسف... إنّي أسمع ذلك كلّ ليلة في المسرح حتّى مللته... إنّك تهمل صحّتك... الجنس والمخدّرات وسوء التغذية... ولا تتورّع عن تمثيل دور الإمام في مسرحيّة الشهيدة وأنت سكران!

ـ أنت الوحيد الذي عرف ذلك...

ـ أكثر من ممثّل شمّ رائحة فمك... هل تضطرّني إلى...

قاطعته بجزع:

ـ لا تعرّض صداقة العمر للهوان...

ـ ولحنت في آية وهو شيء لا يُغتفر.

ـ مرّ كلّ شيء بسلام.

ـ أرجوك... أرجوك... انسَ هوس التحقيق الخرافيّ واحفظ دورك جيّدًا... إنّه فرصة العمر...

وأنا أغادر الحجرة قال لي:

ـ عامِلْ أمّ هاني معاملة أفضل... ستعاني كثيرًا إذا هجرتك...

اللعنة... تماثلني في السنّ ولا تعرف الشكر. شهدت موت تحيّة دون أن تدري أنّها قُتلت. سأمثّل كلّ ليلة دور العاشق المهجور... سأبكي مرارًا وتكرارًا أمام النعش... ماتت دون أن تندم... لم تذكّرني... لم تعرف أنّها قُتلت... قتلها المثاليّ... إنّه ينتحر في المسرحيّة ولكن يجب أن يُشنق في الحياة... ها هي جريمة تخلق مؤلّفًا وممثّلًا في آنٍ...

* * *

ـ ألم تحضر تحيّة؟

ـ كلّا.

ـ لم أقابلها في المسرح.

ـ لن تذهب إلى المسرح.

ـ ماذا تعني يا عبّاس؟

ـ أستاذ طارق... أرجوك... لن تحضر تحيّة إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح...

ـ مَن أدراك بهذه الأسرار كلّها؟

ـ عفوًا... سنتزوّج...

ـ هه؟!

ـ اتّفقنا على الزواج.

ـ يا بن... أنت مجنون؟... ماذا تقول؟

ـ حلمك... نريد أن نكون شرفاء معك... دعني...

لطمته. تنمّر بغتة بوجه يموج بالعدوان ولكمني. شابّ قويّ رغم السحابة على عينه اليسرى. دار رأسي. جاء كرم يونس وجاءت حليمة. تساءلا:

ـ ماذا حدث؟

صرخت:

ـ شيء مضحك... رواية هزليّة... المحروس سيتزوّج من تحيّة...

تساءل كرم ببرود مدمن ذاهل دائمًا:

ـ حقًّا؟!

وهتفت حليمة مخاطبة ابنها:

ـ تحيّة؟!... أيّ جنون... إنّها أكبر منك بعشرة أعوام...

لم ينبس، صحت أنا:

ـ لعب أطفال... سأمنع هٰذا بالقوّة...

فصاحت حليمة:

ـ لا تزد الأمور سوءًا...

فصرخت بجنون:

ـ سأهدم البيت على مَن فيه...

فقالت لي ببرود:

ـ خذ ملابسك ومع السلامة...

فغادرت المكان وأنا أقول بتحدٍّ:

ـ باقٍ على أنفاسكم حتّى النهاية...

* * *

ذبيح الكرامة، مهين الفحولة، مضغوط القلب، مهجور الأمل، يشتعل قلبه من جديد بعد أن ظنّ أنّ الروتين قد أخمده. كنت أتوهّم أنّ تحيّة ملكي مثل الحذاء المطيع، كنت أنهرها وأهينها وأضربها، كنت أتصوّر ألّا حياة لها بدوني وأنّها تفرّط في حياتها قبل أن تفرّط فيّ، فلمّا تلاشت بحركة مباغتة ماكرة قاسية تلاشى معها الأمن والثقة والسيادة وحلّ الجنون. وبزغ الحبّ من ركن مظلم غائص في الأعماق ينفض عن ذاته سبات البيات الشتويّ ليبحث عن غذائه المفتقد. لاحت خلف شرّاعة الباب تلبية لنداء الجرس. عكست عيناها نظرة ارتباك مثل نطق ملعثم ولٰكنّها لم تتراجع متحدّية أزمة مصيرها. تفرّستُ في الصورة الجديدة المتحرّرة من الإذعان الأبديّ، المتطلّعة إلى الجديد وهي تنزلق فوق الحدّ الفاصل الذي يستشير كوامن الجريمة.

ـ افتحي الباب يا تحيّة.

ـ أنت تعرف الآن كلّ شيء.

ـ هل تتركينني في الخارج كالغريب؟

ـ طارق، ماذا أقول؟ لعلّه لكلينا، وهو النصيب والقسمة...

ـ إنّه عبث وجنون.

ـ كان عليّ أن أخبرك بنفسي...

ـ ولٰكنّي لا أصدّق... افتحي...

ـ كلّا... إنّي أعاملك بشرف...

ـ ما أنت إلّا عاهرة!

ـ حسن... دعني في سلام...

ـ لن يحدث ذٰلك أبدًا...

ـ سوف نتزوّج في الحال...

ـ تلميذ... مجنون... نصف أعمى...

ـ سأجرّب حظّي...

ـ افتحي الباب يا مجنونة.

ـ كلّا... لقد انتهى كلّ شيء...

ـ مستحيل...

ـ ذاك ما حدث.

ـ لن تعرفي الحبّ إلّا بين يديّ...

ـ لا يمكن أن تمضي الحياة على ذاك النحو.

ـ لم تبلغي بعد سنّ اليأس فلم ترتكبين الحماقات؟

ـ لنفترق بسلام... أرجوك...

ـ إنّها نوبة يأس خادعة...

ـ كلّا...

ـ إنّي خبير بالأطوار الشاذّة التي يتعرّض لها أمثالك.

ـ سامحك الله...

ـ يا مجنونة... متى تغيّرت؟

ـ لم أرتكب في حقّك أيّ خطأ...

ـ عشت الكذب فترة ما...

ـ لا تتمادَ فيما لا فائدة منه.

ـ إنّك أوّل عاهرة...

ولٰكنّها أغلقت الشرّاعة.

* * *

بقيتُ في بيت كرم يونس. عبّاس يونس ذهب. حلّ محلّ أبيه في وظيفة الملقّن بعد أن استغنى الأب عنها اكتفاءً بما يدرّه عليه بيته من أرباح وفيرة. توتّر الجوّ في بادئ الأمر فتدخّل سرحان الهلالي وهمس في أذني:

ـ لا تفسد علينا سهرتنا... اعقل... بإشارة تستردّ أمّ هاني... دَخْلها ضعف دخل تحيّة...

الهلالي مجنون نساء ولٰكنّه لا يعرف الحبّ. عاشر تحيّة مرّة أو مرّتين. لا يعترف بما يسمع عن الحبّ وآلامه. وهو يأمر وينهى في الحبّ كأنّه أحد الشئون الإداريّة ويطالب بالتنفيذ في الحال. لا أشكّ في نواياه الطيّبة نحوي، وكم هيّأ لي من فرص فوق خشبة

المسرح ضاعت كلّها بسبب قصور موهبتي، ولٰكنّه يؤمن بنجاحي في مسرحيّة عبّاس. وقد بشّر أمّ هاني ـ خيّاطة الفرقة ـ برجوعي إليها فرجعت إليها فرارًا من الوحدة وتدعيمًا لحالي الماليّة المتوعّكة، وقبل أن أبرأ من التجربة المريرة. لم أتوقّع لزواج تحيّة أيّ استمرار أو نجاح. كانت دائمًا كثيرة العلاقات تستكمل أجرها الصغير. لم تحبّ أحدًا سواي رغم فقري. وقد كذّبت توقّعاتي فحافظتْ على الزوجيّة حتّى وفاتها. غير أنّ المسرحيّة هتكت ما خفي من سرّها. في المسرحيّة تعترف ـ وهي على فراش المرض ـ بأنّها باعت نفسها لضيف أجنبيّ، وعند ذاك يقرّر زوجها ـ في المسرحيّة ـ قتلها وذٰلك بأن استبدل بالدواء حبوب أسبرين لا جدوى منها. إذن قد صدقت توقّعاتي وأنا لا أدري، وقتلها الذي أزعجنا بمثاليّته، الذي أرجو ألّا يفلت من العقاب.

* * *

أيّ مغامرة!

أجد نفسي وجهًا لوجه مع عبّاس في شقّته التي كانت ذات يوم شقّة لتحيّة. أندفع إليها في ذات اليوم الذي قابلت فيه والديه بالمقلى. إنّه الآن مؤلّف، ووحيد في الشقّة. أخيرًا أصبح مؤلّفًا بعد رفض العشرات من المسرحيّات. مؤلّف زائف يسرق الحقيقة بلا حياء. دهش لحضوري. لا تدهش. ما مضى قد انقضى ولٰكنّ آثاره تطرح نفسها من جديد. وقد صالح بيننا الهلالي ذات يوم فتصافحنا وما في القلب في القلب. جلسنا في مكتبه ـ الشقّة مكوّنة من حجرتين ومدخل ـ نتبادل النظر في وجوم حتّى قلت:

ـ أنت ولا شكّ تتساءل عمّا جاء بي. . .

ـ لعلّه خير.

ـ جئت لأهنّئك على المسرحيّة.

فقال بفتور:

ـ شكرًا.

ـ سيبدأ التدريب غدًا. . .

ـ المدير متحمّس لها. . .

ـ بخلاف المخرج.

ـ ماذا قال؟

ـ إنّ البطل قذر جدًّا وبغيض جدًّا ولن يتعاطف الجمهور معه.

فهزّ منكبيه استهانة وإن تجهّم وجهه. سألته:

ـ تشهد جلسة القراءة؟

فقال ببرود:

ـ هٰذا شأني. . .

ـ ألم تقدّر أنّ حوادث المسرحيّة ستصبّ عليك مطرًا من الظنون؟

ـ لا يهمّني ذٰلك.

ـ سيتصوّرون، ولهم الحقّ، أنّك قاتل وخائن لوالديك. . .

ـ سخف لا يهمّني. . .

فانفرط زمامي وقلت بانفعال:

ـ يا لك من قاتل محترف!

فرمقني بازدراء وتمتم:

ـ ستظلّ حقيرًا دائمًا وأبدًا.

ـ أتستطيع أن تدافع عن نفسك؟

ـ لست متّهمًا كي أطالَب بذٰلك. . .

ـ سيوجّه لك الاتّهام أقرب ممّا تظنّ.

ـ إنّك أحمق. . .

قمت وأنا أقول:

ـ إنّها على أيّ حال تستحقّ القتل. . .

وذهبت متمتمًا:

ـ ولٰكنّك تستحقّ الشنق أيضًا!

* * *

وجدتني في رحاب غضبة هلاليّة. عندما يغضب سرحان الهلالي ينقلب زوبعة. لمعت أنيابه. لمحت الوهج في عينيه اللوزيّتين الجاحظتين. صاح:

ـ أنت أنت، كما كنت وأنت ابن عشرة، أحمق، لولا حماقتك لاستويت ممثّلًا مرموقًا، تأبى إلّا أن تتقمّص وكيل نيابة، لِمَ زرت عبّاس يونس أمس؟

هل شكاني إليه الوغد؟ آثرت الصمت حتّى تخفّ العاصفة. صاح:

ـ لن تتقن دورك حتّى تتفرّغ له. . .

تمتمت بهدوء:

ـ بدأنا اليوم. . .

ثمّ بهدوء أعمق:

ـ مهمّ أيضًا أن ينال المذنب جزاءه.

فصاح متهكّمًا:

ـ ما من أحد منّا إلّا وفي عنقه دَين من الذنوب يستحقّ عليها السجن...

ـ لكنّنا لم نقتل بعد.

ـ مَن يدري؟... تحيّة ـ إن صحّ أنّها قُتلت ـ فقد اشترك في قتلها أكثر من رجل على رأسهم أنت...

ـ إنّه لا يستحقّ دفاعك عنه.

ـ إنّي لا أعتبره متّهمًا، هل لديك دليل واحد ضدّه؟

ـ المسرحيّة.

فضحك ساخرًا وقال:

ـ ما من مسرحيّة تخلو من اتّهام ولكنّ النيابة تطالِب بأدلّة من نوع آخر...

ـ لقد انتحر في المسرحيّة...

ـ هٰذا يعني أنّه لن ينتحر في الحياة، وأنّه لمن حسن الحظّ لنا أن يبقى ويكتب...

ـ إنّه لم يؤلّف سطرًا ولن يؤلّف سطرًا وأنت أدرى بما قدّم لك من مسرحيّات سابقة...

ـ يا طارق رمضان، لا تكن مملًّا، انتبه لعملك، وانتهز فرصتك فإنّها لن تتكرّر...

* * *

أتدرّب على دوري في مسرحيّة القاتل. أستعيد حياتي مع تحيّة بدءًا من وراء الكواليس.

أنضمّ إلى البيت القديم بسوق الزلط. الحبّ في الحجرة. اكتشاف الخيانة. البكاء في الجنازة.

ويقول لي سالم العجرودي:

ـ إنّك تمثّل كما لم تمثّل من قبل ولكن احفظ النصّ جيّدًا...

ـ إنّي أكرّر ما قيل بالفعل.

فضحك قائلًا:

ـ انسَ الحياة وعِشْ في المسرحيّة...

عند ذٰلك قلت له:

ـ من حسن الحظّ أنّ من حقّك التغيير...

ـ لقد غيّرت ما اقتضت الضرورة تغييره فحذفت مشهد الطفل.

ـ عندي فكرة.

فرمقني بضجر ولٰكنّي قلت:

ـ البطلة وهي تحتضر تطلب رؤية عشيقها القديم...

ـ أيّ عشيق؟... ما من ممثّل في المسرح إلّا عشقها حينًا...

ـ أعني العشيق الذي أمثّل دوره... ويذهب إليها فتعتذر إليه عن خيانتها وتموت بين يديه...

ـ إنّه يقتضي إدخال تعبيرات جوهريّة على الشخصيّة وعلى العلاقة بين الزوجين.

ـ ليكن.

ـ إنّك تقترح مسرحيّة جديدة... البطلة نسيت تمامًا عشيقها القديم...

ـ غير ممكن وغير طبيعيّ...

ـ قلت لك عِشْ في المسرحيّة وانسَ الحياة، أو تفضَّلْ بتأليف مسرحيّة جديدة فنحن في زمن مؤلّفي النزوة والصدفة...

ـ ولٰكنّك حذفت الطفل ودوره؟

ـ ذاك شيء آخر، إنّه غير ملتحم بالأحداث، وقتْل وليدٍ بريء خليق بأن يُفقد البطل أيّ عطف.

ـ وقتْل زوجة تعيسة؟

ـ اسمع، مئات من المتفرّجين يودّون في أعماقهم قتل زوجاتهم...

* * *

أليس هٰذا هو كرم يونس؟ بلى. إنّه يغادر حجرة المدير. لم يكن بقي على عرض المسرحيّة إلّا أسبوعان. وكنت واقفًا أمام مدخل البوفيه أحاور درّيّة نجمة الفرقة وبِيَدِ كلّ منّا فنجان قهوة. قلت له وهو يقترب منّا في بدلة قديمة ورقبة البلوفر الأسود تطوّق عنقه حتّى أسفل الصدغين:

ـ شرّفت المسرح...

فرمقني شزرًا وقال بجفاء:

ـ ابعد عن وجهي...

وحيّا درّيّة تحيّة عابرة ومضى. قطعت درّيّة حديثها عن الغلاء وقالت:

ـ جاء ولا شكّ يسأل عن سرّ اختفاء عبّاس. . .

فقلت بحنق:

ـ ما هو إلّا اختفاء مجرم. . .

فقالت درّيّة باسمة:

ـ لم يَقتل ولم يَنتحر.

ـ لن ينتحر ولكنّه سيُشنق. . .

رجعت تقول:

ـ كان يجب أن يقودنا النصر إلى حياة أيسر.

فقلت بسخرية:

ـ لا يحيا حياة يسيرة إلّا المنحرفون، لقد بات البلد ماخورًا كبيرًا، لِمَ كبست الشرطة بيت كرم يونس وهو يمارس الحياة كما تمارسها الدولة؟!

فقالت درّيّة ضاحكة:

ـ نحن في زمن القوميّة الجنسيّة!

ـ إنّي رجل منبوذ من أسرتي العريقة لانحرافي فلِمَ تحدق بي الخيبة؟

ـ أيّها الخائب الأبديّ الذي لم يجد إلّا أمّ هاني حقلًا لاستغلاله!

* * *

ليلة الافتتاح ١٠ أكتوبر. الليل في الخارج يزفر نسمة لطيفة أمّا في الداخل فثمّة نذير بجوّ حارّ. بين المشاهدين كرم وحليمة، الهلالي، فؤاد شلبي، أنا الوحيد الذي يكرّر دوره الذي لعبه في الحياة فوق الخشبة. إسماعيل يلعب دور عبّاس. حياة البيت القديم تُعرض من جديد بكلّ قحتها وتلحق بها جرائم جديدة أكثر وحشيّة. المدير يقامر ويتسلّل إلى حجرة نوم حليمة. الفضائح تتعانق وتُتَوّج بالخيانة والقتل. لأوّل مرّة في حياتي تُختم مواقفي بالتصفيق. النجاح خمر. هل تشاهدنا تحيّة من وراء القبر؟ النجاح خمر. الجمهور غارق في الصمت أو منفجر في التصفيق. المؤلّف المجرم الجبان غائب. أيّ ردّ فعل انداح في جوارح كرم وحليمة؟ ستغطّيها التجاعيد قبل الهبوط الأخير للستار.

يجمعنا البوفيه للاحتفال التقليديّ. لأوّل مرّة في حياتي تحسّ الأبصار بوجودي. إنّي شخص جديد تمامًا. تحيّة تخلق من العدم أكثر من رجل. ارتسمت على فم أمّ هاني ابتسامة واسعة تتّسع لتسلّل بولدج. وراء كلّ عظيم امرأة. قال لي سرحان الهلالي:

ـ ألم أقل لك؟

وقال فؤاد شلبي:

ـ مولد ممثّل كبير. . .

إسماعيل نفسه تجلّت في ابتسامته المتكلّفة الغيرة. مثّلثُ العشق والبربجة والجنون. . . ملأت بطني بالشويرمة والكونياك. تحالف الكونياك مع خمر النجاح. حتّى نخب المؤلّف شربته. رأيت حليمة في التايير الذي استأجرته من أمّ هاني.

غادرت المسرح حوالى الثالثة صباحًا. أمّ هاني تتأبّط ذراعي وأنا أتأبّط ذراع فؤاد شلبي. قال:

ـ هلمّ نتمشّ في القاهرة في الوقت الوحيد الذي يتاح لها فيه الوقار.

قالت أمّ هاني:

ـ بيتنا بعيد.

ـ معي سيّارتي. . . تلزمني بعض المعلومات. . .

سألته:

ـ ستكتب عنّي؟

ـ طبعًا. . .

ضحكتُ عاليًا. رحت استجابة له أتحدّث عن الماضي.

ـ ولدت بمنشيّة البكري. . . فِلّتان متجاورتان. . . آل رمضان وآل الهلالي. . . رمضان أبي كان لواء بالسواري من باشوات الجيش القديم. . . الهلالي من ملّاك الأرض. . . أنا البكري وسرحان الوحيد. . . لي أخ قنصل وأخ مستشار وأخ مهندس. . . باختصار طُردنا ـ أنا وسرحان ـ من المدرسة الثانويّة بلا ثمرة ولكن بخبرة واسعة ببيوت الدعارة والحانات والمخدّرات. . . لم يترك أبي شيئًا. . . ورث سرحان سبعين فدّانًا. . . أنشأ فرقة حبًّا في الإدارة والنساء. . . عملت معه ممثّلًا. . . انقطع ما بيني وبين إخوتي. . . أجر بسيط. . . ديون نثريّة كثيرة. . . لولا النسوان. . .

ندّت عن أمّ هاني آهة. تساءل فؤاد:

ـ طبعًا كان لك نشاط سياسيّ. . .؟

ضحكت مرّة أخرى.

- لا أنتمي إلّا للحياة... أنا وكرم يونس توأمان روحيّان... يقال إنّه مدين في نشأته إلى أمّ عاهرة... حسن، لقد نشأت أنا في أسرة فكيف تفسّر تماثلنا؟... هٰذا يعني أنّ الموهبة لا تتأثّر بالبيئة! كلانا يحتقر الحياة المحترمة... الحقّ أنّ ما يفرّق بيننا وبين الآخرين هو أنّنا صادقون أمّا الآخرون فمنافقون...

تساءلت أمّ هاني:

- هل ستكتب هٰذا الهذيان؟

فقلت متحدّيًا:

- فؤاد نفسه من حزبنا!

فتمتم في مرح:

- يا لك من وغد... ولٰكن ألا تؤمن بوجود أخيار بكلّ معنى الكلمة؟

- طبعًا، مثل الأستاذ عبّاس مؤلّف «أفراح القبّة»... إنّه مثاليّ كما تعلم، لذلك زجّ بوالديه في السجن وقتل زوجه وابنه!

سألته أمّ هاني:

- ماذا ستكتب؟

فقال وهو يتّجه بنا نحو سيّارته الفيات:

- لست مجنونًا مثله...

غادرنا السيّارة أمام الحارة بالقلعة. منعه من الدخول طفح المجاري. سرنا على طوار متآكل ونشوتنا تخمد تحت وطأة الرائحة الكريهة. هل يتواصل النجاح ويتغيّر الحال؟ هل أتحرّر من هٰذه الحارة الكئيبة وهٰذه المرأة الخمسينيّة التي تزن مائة كيلو؟!

أنا وتحيّة نغادر البيت القديم بسوق الزلط في طريقنا إلى المسرح. حبكت معطفها الأسود حول جسمها الناضج واخترقنا موجة من البرد في عتمة المساء. يخطر لي أنّ جسمها مُعَدّ للفراش لا للمسرح، وأنّنا في خيبة الموهبة سواء. قلت لها:

- ونحن نحتسي الشاي ضبطت الولد يختلس إليك نظرة جائعة.

- عبّاس؟... إنّه مراهق...

- سيعمل ذات يوم قوّادًا ماهرًا...

- إنّه مؤدّب، متبرّئ من بيته!

- ابن كرم وحليمة، وفي هٰذا العصر العجيب، ماذا تنتظرين؟

الآن أدرك أنّني لم أفطن إلى ما كان يدور في نفسها...

* * *

يقول لي سرحان الهلالي ضاحكًا:

- ما تصوّرتك قطّ في صورة عاشق حزين...

- وهل تصوّرت ذات يوم أنّنا نعبر القنال وننتصر؟

- إنّها مثلك في الفقر...

- حدّثها... أرجوك...

- يا مجنون... لقد قرّرتُ هجر المسرح... إنّه سحر الزواج...

- يا للشيطان... إنّي أكاد أجنّ...

- إنّه الغضب ليس إلّا.

- صدّقني.

- البرجميّ لا يحتمل الهزيمة!

- ليس الأمر كذٰلك.

- بل هٰذا هو كلّ شيء... ارجع من فورك إلى أمّ هاني لأنّك لن تجد من يقرضك...

بعد تردّد قلت:

- أحيانًا يخيّل إليّ أنّ الله موجود!

فقهقه قائلًا:

- طارق يا بن رمضان... حتّى للجنون حدود!

* * *

نجاح «أفراح القبّة» مستمرّ. نجاحي يتوكّد ليلة بعد أخرى. أخيرًا صادف الهلالي المسرحيّة التي تثري مسرحه. قرّر لي مكافأة يوميّة أنعشت روحي وجسدي. وسألني فؤاد شلبي:

- أعجبك ما كتبت عنك؟

فشددت على يده بامتنان وقلت:

- بعد أكثر من ربع قرن تظهر لي صورة في المجلّة...

- لن تتراجع بعد اليوم... أما علمت لقد ظهر المؤلّف المختفي...

- حقًّا؟!

ـ زار أمس الهلالي في مسكنه، أتعرف لماذا؟

ـ هه؟

ـ طالب بحصّة من الأرباح...

قهقهت عاليًا حتّى أزعجت عمّ أحمد برجل وراء البوفيه وقلت:

ـ ابن حليمة!... وماذا كان ردّ الهلالي؟

ـ أعطاه مائة جنيه...

ـ خسارة في عينه...

ـ لقد أصبح بلا عمل وهو منكبّ على كتابة مسرحيّة جديدة.

ـ ابتزاز... وهيهات أن يكتب جديدًا ذا قيمة...

ـ فال الله ولا فالك!

ـ وأين كان مختفيًا؟

ـ لم يبح بسرّه لأحد...

ـ أستاذ فؤاد ألم تقتنع بتجريمه؟

ـ لِمَ يقتل تحيّة؟

ـ لاعترافها بخيانته...

فهزّ منكبيه ولم ينبس.

* * *

عندما رأيت النعش يتهادى من مدخل العمارة اجتاح جوفي فراغ مخيف تمادى حتّى لفظني في العدم. هجم عليّ البكاء هجمة غادرة فأجهشت. الصوت الوحيد الذي أثار المشيّعين. حتّى عبّاس كان جافّ العينين. رجعت في سيّارة سرحان الهلالي. قال لي:

ـ عندما سمعت بكاءك... عندما رأيت منظرك... كدت أنفجر ضاحكًا لولا ستر الله...

قلت باقتضاب:

ـ كان مفاجأة لي أيضًا.

ـ لا أذكر أنّي رأيتك باكيًا من قبل.

فقلت باسمًا:

ـ لكلّ جواد كبوة.

أرجع الموت ذكريات الحبّ والهزيمة...

* * *

سمعت بالخبر في مقهى الفنّ قبل الذهاب إلى المسرح. هرعت إلى حجرة سرحان الهلالي، سألته:

ـ الخبر صحيح؟

فأجابني بوجوم:

ـ نعم، كان عبّاس يقيم في بنسيون في حلوان... غاب طويلًا... عُثر على خطاب في حجرته يعترف فيه بعزمه على الانتحار.

ـ هل عثر على جثّته؟

ـ كلّا... لم يُعثر له على أثر...

ـ هل ذكر أسبابًا لانتحاره؟

ـ لا...

ـ هل اقتنعت بانتحاره؟

ـ لِمَ يختفي والنجاح يدعوه للظهور والعمل؟

وفصل بيننا صمت كئيب حتّى سمعته يتساءل:

ـ لِمَ ينتحر؟

فقلت:

ـ لنفس الأسباب التي انتحر من أجلها بطل مسرحيّته.

ـ إنّك مصرّ على اتّهامه.

ـ أتحدّى أن تجد سببًا آخر...

انفجر الخبر في الوسط الفنّيّ وبين جمهور المسرح. لم يسفر البحث عنه عن شيء. اتُّخذت الإجراءات المألوفة في هذه الأحوال. داخلني شعور عميق بالارتياح. قلت لنفسي:

ـ لن يعرف نجاح المسرحيّة حدودًا يقف عندها...

كَرَم يُونس

الخريف نذير فهل نتحمّل برودة الشتاء؟ عمر ينقضي في بيع الفول السودانيّ واللبّ والفشار. وهٰذه المرأة التي قُضي عليّ بها مثل السجن. لِمَ نسجن في بلد تستحقّ غالبيّته السجن؟ قانون مجنون لا يدري كيف يحترم نفسه. ماذا سيفعل كلّ هٰؤلاء الصبية؟ انتظر حتّى تشهد هٰذه البيوت القديمة وهي تنفجر. التاريخ يحزن لتحوّله إلى قمامة. المرأة لا تكفّ عن الأحلام. ولٰكن ما هٰذا؟ من هٰذا؟ شبح من الماضي. إليّ بخنجر مسموم. ماذا تريد يا مستنقع الحشرات؟ قلت لحليمة بامتعاض:

ـ انظري...

دُهشتْ. تساءلنا:

ـ أيجيئ للتهنئة أم للشماتة؟

ـ ها هو يقف ملقيًا بابتسامته الكريهة. بعينيه الضيّقتين وأنفه الغليظ وفكّه القويّ العريض. كن جافًا معه مثل الزمن.

ـ طارق رمضان!... ماذا جاء بك؟

وقالت حليمة منفعلة:

ـ أوّل زيارة من أهل الوفاء مذ رجعنا إلى سطح الأرض...

فقال طارق:

ـ ما أنا إلّا غريق من الغرقى...

فقلت بحنق:

ـ جئت من الماضي كذكرى من أسوإ ذكرياته...

وشغلت عنه بزبون ثمّ رمقته بازدراء فقال:

ـ معي أخبار سيّئة!

فقالت حليمة:

ـ لا تهمّنا الأخبار السيّئة...

ـ حتّى لو تكون عن الأستاذ عبّاس يونس؟

فقلت:

ـ إنّه ابن بارّ... عرض عليّ أن أعود إلى المسرح فلمّا رفضت أنشأ لنا هٰذه المقلى...

وقالت المرأة:

ـ وقد قُبلت مسرحيّته...

لٰكنّه ما جاء إلّا من أجل المسرحيّة. هل أعمته الغيرة؟ يطيق الموت ولا يطيق أن ينجح عبّاس. فليمت بغيظه. إنّك أصل البلاء. لا يفهمك مثلي فنحن من خرابة واحدة. قال:

ـ المسرحيّة تدور في هٰذا البيت، عنكم، وتهدي إلينا جرائم جديدة لم تخطر ببال أحد. أيمكن ذٰلك؟ عبّاس لم يقل لنا كلمة عن موضوعه. لٰكنّه شابّ مثاليّ. تساءلت:

ـ ماذا تعني؟

ـ كلّ شيء... كلّ شيء... ألا تريد أن تفهم؟

ماذا يعني؟ لماذا يفضح عبّاس نفسه؟ سألته:

ـ حتّى السجن؟

ـ وإنّه هو الذي وشى بكما إلى الشرطة وهو الذي قتل تحيّة...

ـ إنّه لسخف...

وتساءلت المرأة:

ـ ماذا تعني يا عدوّ عبّاس؟

وتساءلت رغم انقباض قلبي:

ـ أليست مسرحيّة؟

وقالت حليمة:

ـ لديه التفسير الصحيح...

ـ شاهدا المسرحيّة بنفسكما.

ـ أعماك الحقد.

ـ بل الجريمة...

ـ ما مجرم إلّا أنت!

وقلت له وانقباض لا يزايل قلبي:

ـ حاقد مجنون... ابني عبيط ولٰكنّه ليس خائنًا ولا قاتلًا...

فصاح:

ـ يجب القبض على قاتل تحيّة...

اشتبك مع المرأة في خصام جارح وأنا شارد في أفكاري حتّى سألته بخشونة:

ـ ماذا تريد؟

وطردته شرّ طردة!

* * *

غصت في بئر. لا يمكن أن يجيئ من آخر الدنيا ليلقي بأكاذيب يسيرٌ كَشْفها. إنّه وغد ولٰكنّه ليس أحمق. لا قدرة لي على الانفراد بوساوسي. نظرت نحو المرأة فالتقيت بعينيها تنظران نحوي. إنّنا غريبان يجمعهما بيت قديم. لولا إشفاقي من إغضاب عبّاس لطلّقتها. عبّاس وحده الذي يجعل للحياة الْمُرّة طعمًا مقبولًا. إنّه الأمل الوحيد الباقي. تمتمت المرأة:

ـ إنّه يكذب.

فسألتها وأنا أشدّ منها التماسًا لنقطة رحمة:

ـ ولِمَ يكذب؟

ـ ما زال يحقد على عبّاس.

ـ ولٰكن هناك مسرحيّة أيضًا.

ـ لا نعرف عنها شيئًا، اذهب إلى عبّاس...

ـ سأقابله حتمًا...

ـ ولٰكنّك لا تتحرّك.

إنّي خائف. إنّها غبيّة وعنيدة. قلت:

ـ لا داعي للعجلة.

ـ يجب أن يعرف ما يدبّر من وراء ظهره.

ـ وإذا اعترف؟

ـ ماذا تعني؟

ـ إذا اعترف بأنّ مسرحيّته تحوي ما قال الوغد؟

ـ ستجد التفسير المريح.

ـ لا أدري.

ـ لِمَ يفضح نفسه إذا كان قاتلًا حقًّا؟

ـ لا أدري...

ـ تحرّك... هٰذا هو المهمّ.

ـ سأذهب طبعًا.

ـ أو أذهب أنا.

ـ ليس عندك ملابس صالحة... صادروا نقودنا... ضربني المخبر الكلب.

ـ ذاك تاريخ مضى... فكّر الآن فيما نحن فيه.

ـ الوغد كاذب.

ـ يجب أن تسمع بأذنك.

ـ لم يكن يوافق على حياتنا... كان مثاليًّا كأنّه ابن حرام... ولٰكنّه لا يغدر بنا، ثمّ لماذا يقتل تحيّة؟

ـ إنّك تستجوبني أنا...

ـ إنّي أفكّر.

ـ لقد صدّقت ما قال الوغد.

ـ وأنت أيضًا تصدّقينه.

ـ يجب أن نسمعه.

ـ الحقّ أنّني لا أصدّق...

ـ إنّك تهذي...

ـ اللعنة...

ـ اللعنة حلّت يوم ارتبطت بك...

ـ ويوم ارتبطت بك...

ـ كنت جميلة...

ـ هل رغب فيك أحد غيري؟

ـ كنت دائمًا مرغوبة... إنّه سوء الحظّ.

ـ كان أبوك ساعي بريد أمّا أبي فكان موظّفًا في دائرة الشمشرجي...

ـ ذٰلك يعني أنّه كان خادمًا.

ـ أنا من أسرة...

ـ وأمّك؟

ـ مثلك تمامًا...

ـ تخرّف... ولٰكنّك لا تريد أن تذهب...

ـ سأذهب عندما يروق لي...

تشتّت فكري. ليكن ما يكون. لن يصيبنا أسوأ ممّا أصابنا. ألم نبدأ ـ أنا وهٰذه المرأة ـ من ملتقى مفعم بالحرارة والرغبة والأحلام الجميلة؟... أين نحن من

ذلك الآن؟ ولكن يجب أن أذهب على أيّ حال. لعلّ العصر هو أنسب الأوقات.

* * *

لم أعرف مسكن ابني من قبل. منذ زواجه انفصلنا. لم يكن بيننا خير. كان يرفض حياتنا ويحتقرها فنبذته واحتقرته. وبانتقاله إلى بيت تحيّة تحرّرت من نظراته المتعصّبة. أسعى إليه الآن بعد أن لم يبق أمل غيره. تلقّانا بعد السجن ببرّ ورحمة فكيف يكون هو الذي زجّ بنا فيه؟ سألت البوّاب عنه فقال:

ـ ذهب منذ ساعتين حاملًا حقيبة...

ـ سافر؟

ـ قال إنّه سيغيب بعض الوقت...

ـ ألم يترك عنوانه الجديد؟

ـ كلّا.

ذهلت. حدث ما لم أتوقّعه. لِمَ لَمْ يخبرنا؟ هل بلغته اتّهامات طارق له؟ وبازدياد قلقي قرّرت أن أقابل سرحان الهلالي. ذهبت إلى مسرح الغد بعماد الدين وطلبت المقابلة. فسرعان ما أذن لي. وقف مرحّبًا بي وهو يقول:

ـ أهلًا، حمدًا لله على السلامة... لولا ظروفي لزرتك مهنّئًا.

ـ سرحان بك، عذر غير مقبول...

فضحك ولم يكن شيء يحرجه أو يربكه وقال:

ـ لك حقّ.

ـ إنّها عشرة طويلة، لقد قضيت عمرًا ملقّنًا لفرقتك، وفتحت لك بيتي حتّى قُبض عليّ...

ـ إنّني مخطئ في حقّك... تشرب قهوة؟

ـ لا قهوة ولا شاي، إنّي قادم بخصوص عبّاس ابني...

ـ تقصد المؤلّف المثير... ستنجح مسرحيّته يا كرم نجاحًا غير عاديّ وأنت أدرى الناس بإحساسي...

ـ عظيم... ولكنّي لم أجده في مسكنه، وقال البوّاب إنّه حمل حقيبته وذهب...

ـ وماذا يقلقك من ذلك؟... إنّه شارع في تأليف مسرحيّة جديدة... ولعلّه وجد مكانًا هادئًا...

ـ بلغتني أشياء عن موضوع المسرحيّة فخفت أن يكون لذلك علاقة بذهابه...

ـ تفكير خاطئ يا كرم.

ـ طارق حاقد وهو...

فقاطعني:

ـ لا تحدّثني عنه فإنّي أعلم به، ولكن لا داعي للقلق على ابنك على الإطلاق...

ـ أخشى أن يكون قد...

وسكت فقال ضاحكًا:

ـ المسرحيّة خيال ولو كانت...

ـ خبّرني عن رأيك بصراحة...

ـ لم أشغل عقلي دقيقة إلّا بالمسرحيّة نفسها... ما ارتكبه البطل في المسرحيّة في صالح المسرحيّة، هٰذا ما يهمّني...

ـ ولكنّه وشى بوالديه وقتل زوجته؟

ـ خير ما فعل؟

ـ ماذا تعني؟

ـ ذلك ما خلق المأساة...

ـ ألم تشعر بأنّ ذلك قد حدث فعلًا في الحياة؟

ـ لا يهمّني ذلك البتّة.

ـ أريد أن أعرف الحقيقة...

ـ الحقيقة المسرحيّة عظيمة، وأنا كما تعلم مدير مسرح لا وكيل نيابة...

ـ وأنا معذّب!

فضحك الهلالي وقال:

ـ لا أدري شيئًا عمّا تتحدّث عنه، ثمّ إنّك لم تكن تحبّه قطّ؟

ـ الحاضر غير الماضي وأنت سيّد مَن يفهم...

ـ المسرحيّة مسرحيّة لا أكثر من ذلك، وإلّا جاز للقانون أن يُدخل ٩٠٪ من المؤلّفين قفص الاتّهام...

ـ إنّك لا تريد أن تريحني...

ـ ليتني أملك ذلك يا كرم، لا تشغل نفسك بأوهام سخيفة، ولن يشاركك فيها إلّا قلّة من الأصدقاء المعروفين أمّا الجمهور فلن يخرج عن حدود المسرحيّة، لماذا رفضت أن ترجع إلى وظيفتك القديمة كملقّن للفرقة؟

ـ شكرًا، اقترح عبّاس ذلك مؤيّدًا اقتراحه

بموافقتك ولكنّي لا أحبّ الرجوع إلى الماضي. . .

فضحك الهلالي وقال:

ـ إنّي أفهم ذلك، أنت الآن سيّد نفسك، ولعلّ المقلى أربح، ليكن يا عزيزي، ولكن لا تقلق على عبّاس، إنّه يبني نفسه وسيظهر في الوقت المناسب. . .

انتهت المقابلة. غادرته وأنا أنوء باحتقاري للجنس البشريّ. لا أحد يحبّني ولا أحبّ أحدًا. حتّى عبّاس لا أحبّه وإن تعلّق به أملي. الغادر القاتل. ولكن فيم الوهم وأنا مثله؟ لقد تقشّر الطلاء عنه فتجلّى على حقيقته الموروثة عن أبيه. الحقيقة المعبودة في هذا الزمان التي توشك أن تعلن ذاتها بلا نفاق. ما الفضيلة إلّا شعار كاذب يتردّد في المسرح والجامع. كيف زجّ بي في السجن في زمن الشقق المفروشة وملاهي الهرم؟ مَن هٰذا؟ صادفت طارق رمضان أمام باب البوفيه. مدّ إليّ يد ثعبان فرفضته. قلت له أن ابعد عن وجهي.

* * *

لم أخطئ. أليس هو زمن المخدّرات؟ وأنا رجل بلا قيود. لا أخلص إلّا للغريزة. مثلي تمامًا أولئك الرجال ولكنّه الحظّ وحده. تقول حليمة:

ـ أتظنّ أنّ أجري وحده يكفي للإنفاق على بيتك وابنك؟

ـ إنّي على أتمّ استعداد للشجار!

ـ الأفيون يهدم كلّ شيء. . .

ـ فليهدم كيف شاء. . .

ـ وابنك؟. . . إنّه ولد رائع جدير بالرعاية. . .

لم أخطئ. لقّنتني أمّي مبادئ الصواب الأبديّ. حليمة ترغب في تمثيل دور السيّدة المحترمة وتتناسى ماضيها الداعر. لن أسمح للنفاق بالمعيشة في بيتي.

وقلت للهلالي:

ـ إنّكم تتعبون أحيانًا للعثور على بيت مناسب، إليكم بيتي.

حدجني باهتمام فقلت:

ـ في أعماق باب الشعريّة، الجنّ نفسه لن يرتاب فيه.

لم أخطئ. البيت القديم يتجدّد على مبادئ جديدة. ينفض عنه الغبار. تتأهّب أوسع حجرة فيه لاستقبال القادمين من الجحيم. أحترم هؤلاء العظام الذين يمارسون الحرّيّة بلا نفاق. الهلالي والعجرودي وشلبي وإسماعيل وطارق وتحيّة. أعدّ أيضًا مخزن من الأطعمة الجافّة والشراب والمخدّرات. حليمة تتوثّب للنفاق. إنّي لا أرحم المنافقين. تثوب إلى حقيقتها الكامنة. تمسي ربّة البيت الجديد بكلّ كفاءة. جميلة وذكيّة وحرّة مثلي وأكثر. جديرة بقيادة ماخور. أمطرت السماء ذهبًا. ولكن لِمَ ينظر الولد إلينا بامتعاض؟ ابن مَن أنت؟ مَن أبوك؟ مَن أمّك؟ مَن جدّتك؟ ابن حرام أنت، ابن الكتاب والمسرح، وتصدّق النفاق يا غبيّ.

وتقول حليمة:

ـ الولد يقتله الحزن. . .

ـ ليقتله الحزن كما يجدر بأيّ غبيّ.

ـ إنّه يرفض.

ـ لا أحبّ هٰذه الكلمة. . .

ـ إنّه يستحقّ الرحمة.

ـ إنّه يستحقّ القتل.

أصبح يمقتني ويقتلع الحبّ القديم من قلبي.

ـ انتبه لحياتك. . . عش الواقع. . . قلّة نادرة تظفر بمثل طعامك. . . انظر إلى الجيران. . . ألا تسمع عمّا يجري في البلد؟ ألا تفهم؟ مَن أنت؟. . .

عيناه تعكسان نظرة غريبة. إنّه يعيش خارج أسوار الزمن. ماذا يريد؟ اسمعْ موعظة. هٰذا البيت بناه جدّك. لا أدري عنه شيئًا. جدّتك جعلت منه مهدًا لغرامها. أرملة وشابّة ولا تختلف عن أمّك. أبوك نشأ في أحضان الحقيقة. أودّ أن أحكي لك كلّ شيء. هل أخشاك؟! لولا أن عاجلت الوفاة جدّتك لتزوّج منها الباشجاويش ولضاع البيت. أراد أن يستولي عليّ بعد وفاتها ولكنّي ضربته. لذلك سعى حتّى جُنِّدت في الجيش القديم ولكنّ البيت بقي. أمّ هاني قريبة أمّي وقوّادة الهلالي كانت الوساطة لأتعيّن ملقّنًا بالفرقة. أودّ أن ألقي عليك هٰذه السيرة ذات يوم لتعرف أصلك وتنتمي بلا مقاومة كاذبة إلى مبادئك الحقيقيّة. كن مثل أبيك ليجمعنا الحبّ كما كان وأنت صغير. ولا تنخدع بنفاق أمّك. ستعرف كلّ شيء ذات يوم. هل أخشاك يا ولد؟!

رجعت إلى المقلى فسألتني حليمة بلهفة:

- ماذا قال لك؟

- لم أقابله، غادر الشقّة إلى مكان مجهول حاملًا حقيبته...

ضربت فخذيها بقبضتيها وقالت:

- مكان مجهول!... لِمَ لَمْ يخبرنا؟

- مَن أدراك أنّه يفكّر فينا؟

- إنّه هو الذي فتح لنا هذه المقلى.

- وانتهى منّا، إنّنا بالنسبة له اليوم ماضٍ يحسن نسيانه...

- إنّك لا تفهم ابني، ليتك ذهبت إلى الهلالي...

صمتُّ متأثّرًا بدفقة غيظ مجهولة البواعث فراحت تقول:

- إنّك لا تحسن التصرّف!

فقلت بازدراء:

- أودّ أن أفلق رأسك...

- هل رجعت إلى الأفيون؟

فقلت ساخرًا:

- لا يطمع إليه اليوم إلّا الوزراء!

ثمّ استطردت:

- الهلالي لا يدري شيئًا عن مكانه...

فتساءلت بقلق:

- زرته؟

- لا يدري شيئًا عن مكانه...

- أين ذهب ابني؟ هل أخلى شقّته؟

- لا.

- سيرجع... لعلّ في الأمر امرأة...

- تفكير ينسجم مع امرأة مثلك!

فهتفت:

- لا يهمّك أمره، لا يهمّك إلّا نفسك...

- قُضي عليّ بأن أخرج من سجن إلى سجن...

فقالت بحنق:

- أمّا أنا فإنّي أعيش في زنزانة!

ومن شدّة القهر نشجت باكية فتضاعف حنقي عليها. وتساءلت في غرابة كيف أحببتها ذات يوم؟

* * *

البوفيه الأحمر. جدرانه وسقفه مطليّة بحمرة قاتمة، كذلك أغطية مناضده وبساطه السميك. اتّخذت مجلسي أمام طاولة الساقي عمّ أحمد برجل على كرسيّ جلديّ طويل إلى جانب أنثى لم أتبيّنها. قدّم لي كالعادة سندوتش فول وفنجان شاي. وبالتفاتة لا بدّ منها بهرني شباب ذو جمال رائق. أدركت أنّها ـ مثلي ـ موظّفة في المسرح. ففي الساعة الثامنة لا يتواجد أحد من الخارج، سمعت عمّ أحمد يسألها:

- هل من جديد عن الشقّة يا آنسة حليمة؟

فأجابت بصوت دسم:

- البحث عن الذهب أسهل.

واندفعت متأثّرًا بانبهاري:

- هل تبحثين عن شقّة؟

فأحنت رأسها بالإيجاب وهي تزدرد رشفة شاي فقال عمّ أحمد يعارف بيننا:

- السيّد كرم يونس ملقّن الفرقة... آنسة حليمة الكبش قاطعة التذاكر الجديدة.

فسألت بجرأة لا تنقصني:

- من أجل زواج؟

فأجاب عمّ أحمد عنها:

- إنّها تقيم مع خالتها في شقّة صغيرة مكتظّة وتحلم بشقّة صغيرة خاصّة ولكن هناك عقبة الإيجار وعقبة خلوّ الرِّجْل.

وقلت بلا تريّث:

- عندي بيت...

فالتفتت نحوي باهتمام لأوّل مرّة متسائلة:

- حقًّا؟

- بيت كبير، إنّه قديم ولكنّه مكوّن من طابقين...

- الطابق شقّة؟

- كلّا... إنّه ليس مقسّمًا إلى شقق...

فسألني عمّ أحمد:

- ممكن تستقلّ بطابق؟

- ممكن جدًّا...

فسألت هي:

- ألا يضايق ذلك الأسرة؟

ـ إنّي أقيم فيه وحدي...

فرفعت حاجبيها معرضة عنّي فقلت مدافعًا عن حسن نيّتي:

ـ ستجدين الطابق آمنًا أنت وأسرتك...

فلم تنبس معتبرة الموضوع منتهيًا أمّا عمّ أحمد فسألني:

ـ وكم الإيجار؟

ـ لم يستأجره أحد من قبل ولست طمّاعًا بحال!

فسألني جادًّا:

ـ هل آتيك بساكن؟

فقلت بنبرة إعلاميّة:

ـ لا أودّ ذٰلك، إنّه بيت الأسرة وله ذكرياته، وإنّما أردت أن أقدّم خدمة للآنسة بصفتها زميلة لي في المسرح...

فضحك عمّ أحمد برجل وقال:

ـ أعطنا فرصة للتفكير وربّنا يسهّل...

وذهبت الآنسة مخلّفة في نفسي انتعاشًا وحيويّة ورغبة حرّيفة.

* * *

ها هي مقوّسة فوق كرسيّها متشابكة الذراعين، تعكس عيناها نظرة قرف ممتعضة وتنعقد فوق جبينها تكشيرة كاللعنة. أليست الوحدة خيرًا من عشير النكد؟ أين الانبهار القديم؟ أين سكرته المشعشعة؟ في أيّ مستقرّ من الكون تحنّطت؟

* * *

كلّما رأيتها في البوفيه الأحمر قلت لنفسي «هٰذه الفتاة تستحوذ عليّ كالجوع». إنّي أتخيّلها تمرح في البيت القديم، تجدّد شبابه، تدفئ دماءه. أتخيّلها وهي تشفيني من عللي المزمنة.

ودأب عمّ أحمد برجل على تشجيعي كلّما انفرد بي. قال لي مرّة:

ـ حليمة قريبة لي من ناحية أمّي... متعلّمة وذكيّة... أنا مَن سعيت عند الهلالي بك لإلحاقها بعملها...

فشجّعته بدوري قائلًا:

ـ بنت ممتازة حقًّا!

ـ خالتها طيّبة، والبنت ذات خلق...

ـ لا شكّ في ذٰلك.

ورمقني بابتسامة سكرت بها رغبتي المتحفّزة. استسلمت لأنامل ناعمة، لنعاس مهدهد بأحلام اليقظة. وانفسحت أمامي عذوبة الحواسّ الطاغية. قلت له ذات يوم:

ـ يا عمّ أحمد، إنّي أرغب بصدق...

أدرك البقيّة المضمرة من كلامي وتمتم بانشراح:

ـ جميل وحكيم...

ـ لا دخل لي سوى أجري ولٰكنّي أملك المسكن وهو امتياز لا يستهان به في هٰذه الأيّام.

ـ الرغبة في الستر أهمّ من الظواهر.

وفي نفس الأسبوع استقبلني قائلًا:

ـ مبارك يا كرم.

دخلت منطقة الظلّ الحنون، منطقة الخطوبة الصافية. منطقة شفّافة يمتزج في نسيجها الحريريّ وشي الحلم وعذوبة الواقع. أهدتني كيسًا جلديًّا تصطفّ في ثغراته وعلّاقاته أدوات حلاقة الذقن فسعدت به في طفولة. وإذا بسرحان الهلالي يرفع أجري جنيهين مهنّئًا إيّاي بحياتي الجديدة. واحتفل بنا رجال المسرح في البوفيه وشيّعونا بالأزهار والحلوى.

* * *

فيم تفكّر المرأة؟... يدها المعروقة تعبث بالقشار ولا ينطوي رأسها على فكرة مريحة واحدة. قُضي علينا أن نتبادل الضجر في هٰذه الزنزانة. القاذورات منتثرة فوق أديم الشارع العتيق محدّدة له معالم جديدة تحت دفقات الضوء. هبّات الهواء تطيّر ما خفّ منها فيزحم أقدام صبية لا حصر لهم. فيم تفكّر المرأة؟...

* * *

ليلة الدخلة؟ أجل عند صياح الديكة. وقد جذبتنا الحقيقة نحو بؤرة خانقة. وغابت الأعين فلم يبق إلّا التاريخ. انقبض قلبي حيال الحيرة المقتحمة. كدت أتصوّر أنّ الوجود قد مات لولا تصاعد النحيب المكتوم. وقال النحيب كلّ شيء. وتمتمتْ:

ـ لن أسامح نفسي...

حقًّا؟... وتمتمت أيضًا:

- كان يجب أن. . .

ماذا؟. . . لا داعي لمزيد. وأيضًا تمتمتُ:

- لكنّي أحببتك. . .

عرفت سرّها ولكنّها لم تعرف سرّي بعد. من أين لها أن تعلم أنّ رَجُلها ينحدر إليها من عهد سابق على التاريخ؟ من أين لها أن تتصوّر مدى حرّيّته؟ لم أكترث للّعبة. كانت مجرّد دهشة فقط. وحتّى الدهشة استسخفتها. وقلت بسخرية عميقة:

- لا يهمّني الماضي.

فأحنت رأسها، ربّما لتخفي ارتياحها، وقالت:

- إنّي أحتقر الماضي وأولد من جديد. . .

فقلت بنبرة عاديّة:

- هٰذا حسن.

نبذتُ أيّ رغبة في مزيد من المعرفة. لست غاضبًا ولا مبتهجًا ولٰكنّي أحبّها. وانغمست في حياتي الجديدة بحرارة صادقة.

* * *

تمرّ الساعات فلا نتبادل كلمة واحدة. مثل حبّات الفول السودانيّ. ما من زبون يجيء إلّا ويشكو الغلاء والمجاري الطافحة والطابور المهلك أمام الجمعيّة الاستهلاكيّة. أبادله العزاء. ربّما نظر إلى المرأة متسائلًا:

- مالك ساكتة يا أمّ عبّاس؟!

أيّ أمل أرتقبه أنا؟ هي على الأقلّ تنتظر عودة عبّاس.

* * *

انغمست في الزوجيّة بحرارة صادقة. انزعجت عندما وافتني ببشائر الأمومة ولٰكنّه كان انزعاجًا عابرًا. وقد عشقت عبّاس في طفولته. وبدأ كلّ شيء يتغيّر منذ قال لي طارق رمضان:

- جوار همّلت صعب. . . ذوّب هٰذه في فنجان شاي. . .

بدأت رحلة جديدة جنونيّة. صادف الإغراء رجلًا لا يهمّه شيء. وكانت ينابيع الحياة تجفّ، ومسرّاتها تختنق في قبضة أزمة قاسية. وتقول حليمة:

- أتريد أن تنفق أجرك على السمّ وتتركني أواجه الحياة وحدي؟

أيّ صوت قبيح كأنّما يصدر عن المجاري الطافحة. صرنا مثل شجرتين متعرّيتين. الجوع يطرق باب البيت القديم.

وذات يوم قلت لها بارتياح:

- نهاية حميدة.

- عمّ تتحدّث؟

- فلنُعِدّ الحجرة الشرقيّة للّعب. . .

- هه. . .؟!

- سيجيئون كلّ ليلة ولن نشكو الفقر. . .

رمقتني بنظرة غير متوقّعة لخير فقلت:

- الهلالي، العجرودي، شلبي، إسماعيل، أنت فاهمة، ولٰكن علينا أن نعدّ لهم ما يلزمهم. . .

- إنّه قرار خطير. . .

- لكنّه حكيم. . . أرباحه خياليّة. . .

- لم يكفنا أن يقيم عندنا طارق وتحيّة. . . نحن نتدهور. . .

- نحن نرتفع. . . ليسكت صراخك وصراخ ابنك. . .

- ابني ملاك. . . إنّه الرعب له. . .

- عليه اللعنة إن تحدّى أباه. . . إنّك تفسدينه بأفكارك السخيفة. . .

إنّها تستسلم بامتعاض. أنسيت ليلة الدخلة؟ عجيب أن يطمح أناس للتحرّر من الحكومة على حين يرسفون بكلّ ارتياح في القيود الكامنة في أنفسهم. . .

* * *

ها هي راجعة من مشوارها. لولا خدمتها في البيت لتمنّيت ألّا ترجع. ينمّ وجهها عن الخيبة. لم أسألها عن شيء. أهملتها حتّى قالت متنهّدة:

- ما زالت شقّته مغلقة. . .

رحّبت بزبون لأتجنّبها فلمّا ذهب قالت بحدّة كريهة:

- افعل شيئًا. . .

غبت عنها راجعًا إلى فكرة طالما أثارتني وهي كيف تزجّ الحكومة بنا في السجن من أجل أفعال ترتكبها هي جهارًا؟ ألا تدير هي بيوتًا للقمار؟ ألا تشجّع المواخير المُعَدّة للضيوف؟ إنّي معجب بسلوكها ولٰكنّي ثائر على نفاقها الظالم. وارتفع صوت المرأة وهي تقول:

ـ اذهب مرّة أخرى إلى المدير.

فقلت ساخرًا:

ـ اذهبي إليه بنفسك فهو أقرب إليك منّي!

فهتفت بحنق:

ـ الله يرحم أمّك!

ـ على أيّ حال لم تكن منافقة مثلك...

فتأوّهت قائلة:

ـ إنّك لا تحبّ ابنك، ولم تحبّه قطّ...

ـ لا أحبّ المنافقين ولكنّي لا أنكر مساعدته لنا.

فولّتني ظهرها متمتمة:

ـ ترى أين أنت يا عبّاس؟!

* * *

أين سرحان الهلالي؟ غادر مجلسه ولكنّه لم يرجع. لا يمكن أن ينام في دورة المياه. اللعب مستمرّ وأنا أجمع نصيبي عقب كلّ دورة. أين حليمة؟ أما آن لها أن تقدّم شيئًا من الشراب؟ أتساءل:

ـ أين المدير؟

لم يُجب أحد. كلٌّ مشغول بورقاته. ترى هل حدجني طارق بنظرة ساخرة؟! يجب أن تقدّم حليمة شيئًا من الشراب.

ـ يا حليمة!

لا جواب. لن أتخلّى عن موقعي وإلّا سُرقت.

ـ يا حليمة...

دوّى صوتي عنيفًا. جاءت بعد قليل.

ـ أين كنت؟

ـ غلبني النوم...

ـ أعدّي شرابًا... وحلّي محلّي حتّى أرجع...

غادرت حجرة اللعب. صادفت عبّاس في صالة الدور الأوّل. سألته:

ـ ماذا أيقظك في هذه الساعة؟

ـ أرق طارئ...

ـ أرأيت سرحان الهلالي؟

ـ غادر البيت.

ـ متى؟

ـ منذ قليل... لا أدري بالضبط...

ـ هل رأته أمّك؟

ـ لا أدري!

لِمَ ذهب؟... لماذا ينظر إلى الولد واجمًا؟... إنّي أشمّ رائحة غريبة. إنّي أيّ شيء ولكنّي لست مغفّلًا. وعندما لم يبق في البيت إلّا أعقاب السجائر والكئوس الفارغة رمقت المرأة بنظرة طويلة ثمّ سألتها:

ـ ماذا حدث من وراء ظهورنا؟

فرمقتني بازدراء وتجاهلتني تمامًا فعدت أسأل:

ـ عبّاس رأى؟

فلم تجب وازددت غضبًا... فقلت:

ـ إنّه هو الذي ألحقك بالعمل...

فضربتِ الأرض بقدمها فقلت بسخرية:

ـ لا شيء بلا ثمن، هذا ما يهمّني، أمّا أنت فلا تستحقّين الغيرة!

اندفعت نحو حجرتها وهي تقول:

ـ إنّك أحقر من حشرة!

فقلت مقهقهًا:

ـ إلّا حشرة واحدة...

* * *

ها هي راجعة من مشوار جديد. فلتزدادي عذابًا وجنونًا. لبثت واقفة في المقلى وراحت تقول:

ـ فؤاد شلبي مطمئنّ تمامًا...

ـ قابلته؟

ـ في مقهى الفنّ...

ـ من أين له أن يعلم؟

ـ قال إنّها نزوة مؤلّف وإنّه سيظهر في الوقت المناسب وبيده مسرحيّة جديدة...

ـ لا بدّ من كلمة لتهدئة امرأة مجنونة مخرّفة...

جرّت كرسيّها إلى أقصى المقلى وجلست ومضت تحدّث نفسها:

ـ لو أراد الله لوهبني حظًّا أسعد، ولكنّه رمى بي إلى رجل سافل مدمن...

فقلت بسخرية:

ـ هذا جزاء مَن يتزوّج من عاهرة.

ـ الله يرحم أمّك. عندما يرجع عبّاس سأذهب معه...

ـ إذن فليرجع عبّاس رحمة بي...

- مَن يتصوّر أنّك أبوه؟

- ما دام قد قتل زوجته وزجّ بوالديه في السجن فهو ابني وإنّي لفخور به!

- إنّه ملاك، وهو مِن صنع يديّ أنا...

تمنّيت أن تكلّم نفسها حتّى تجنّ. وتذكّرت صفعة المخبر على قفاي واللكمة التي أسالت الدم من أنفي. الكبسة مثل زلزال مدمّر. حتّى سرحان الهلالي شدّ جفناه من الذعر. ومصادرة المال المخزون الذي بعنا أنفسنا حبًّا فيه. يا لها من قشعريرة.

* * *

أيّ شيطان يرقص في الصالة؟!

غادرت الحجرة فرأيت طارق وعبّاس وهما يتضاربان. حليمة تصرخ. اجتاحني الغيظ. صرخت:

- ما هٰذا العبث؟

صاح طارق:

- مسرحيّة هزليّة... المحروس سيتزوّج من تحيّة...

بدا لي الأمر سخيفًا، ومهدّدًا بإطفاء نشوة المخدّر المتصاعدة. صاحت حليمة:

- أيّ جنون!... إنّها أكبر منك بعشرة أعوام...

وتدفّقت الإنذارات من فم طارق مع نثار لعابه فقالت له حليمة بشدّة:

- لا تزد الأمور سوءًا...

فصرخ طارق:

- سأهدم البيت على مَن فيه.

سكت غيظي وتسلّلت إليّ السخرية واللامبالاة. وقبل أن أتفوّه بكلمة قالت حليمة لطارق:

- خذ ملابسك ومع السلامة.

فهتف:

- من وراء ظهري في هٰذا البيت القذر.

فقلت له بهدوء تبدّى غريبًا في ذٰلك الجوّ العاصف:

- إنّه قذر بسبب وجودكم فيه...

فلم يعنَ بالالتفات إليّ أمّا حليمة فسألت عبّاس:

- أحقيقيّ ما يقول؟

فأجاب المحروس:

- اتّفقنا على ذٰلك.

فسألته دون مبالاة:

- لِمَ لَمْ تتفضّل باستشارتنا؟

فلم يردّ فرجعت أسأله:

- هل يكفي أجرها للإنفاق على بيت زوجيّة؟

فقال عبّاس:

- سأحلّ محلّك ملقّنًا للفرقة...

- من مؤلّف إلى ملقّن؟

- لا تناقض بين الاثنين.

فصاحت حليمة بصوت متشنّج:

- ابني مجنون.

وقالت لطارق:

- لا تكن أنت أيضًا مجنونًا.

فعاد يهدّد فصاحت به:

- غادر بيتنا.

فمضى وهو يقول:

- باقٍ على أنفاسكم ليوم القيامة...

خلا المكان للأسرة الكريمة. جعلت أردّد عينيّ بينهما في شماتة وسخرية. قالت له بضراعة:

- ما عرفتها إلّا خليلة لهٰذا أو ذاك...

فقلت مقهقهًا:

- أمّك خبيرة... اسمع وافهم...

واصلت ضراعتها:

- أبوك كما ترى وتعلم أصبح لا شيء، أنت أملنا...

فقال عبّاس:

- سنبدأ حياة جديدة.

فسألته ضاحكًا:

- لماذا خدعتنا طويلًا بمثاليّتك؟!

غادر عبّاس البيت فأجهشت هي في البكاء. رحّبت في أعماقي بذهابه النهائيّ الوشيك. هلّلت لتحطّم التحالف الكريه القائم بينه وبين أمّه ضدّي. إنّه صوت معارضة دائم. ضقت به وكرهته وها هو يختفي فيكتسب البيت هدوءًا وانسجامًا. كنت أخافه أحيانًا. تتجسّد فيه أقوال أزدريها وأفعال أحتقرها. وجعلت حليمة تندب حظّها مولولة:

ـ وحدي... وحدي...

فقلت لها بهدوء:

ـ وحدك؟... لا تدّعي ما ليس فيك، فيم نختلف؟... نبع واحد وحياة واحدة وهدف واحد...!

فحدجتني بنظرة تنزّ مقتًا واحتقارًا ومضت إلى حجرتها مشيَّعة بقهقهتي العالية.

* * *

نظرت إلى ظهرها عابرًا تلال الفول السودانيّ واللبّ والفشار والحمّص المعبّأة في جيوب الطاولة الممتدّة. أيّ حياة تمضي بلا سرور وفي جوّ مشحون بالكراهية والدخان! عودة الولد ونجاحه خليقان بأن يضيفا إليها جدّة وإثارة!

* * *

أنا مرح، حليمة تداري وجومها. سرحان الهلالي يتساءل:

ـ أين طارق وتحيّة؟

ويقول سالم العجرودي:

ـ انكماش خطير في اللعب...

وقلت ضاحكًا:

ـ أخبار مثيرة يا سرحان بك، ابني المجنون تزوّج من تحيّة!

ضجّت المائدة بالضحك وقال إسماعيل:

ـ الظاهر أنّ ابنك فنّان حقيقيّ...

وقال الهلالي:

ـ الولد الصغير؟!

فقال شلبي:

ـ زواج الموسم!

وقال إسماعيل:

ـ تجدون طارق الآن في الصحراء مثل مجنون ليلى!

وضجّت المائدة بالضحك مرّة أخرى ولٰكنّ سرحان قال بنبرة ذات معنى:

ـ ولٰكنّ حليمة لا تشارك في الأفراح...

فقالت حليمة وهي تواصل إعداد الشراب:

ـ حليمة في مأتم!

ـ مَن يدري؟... ربّما تصادفه السعادة التي لا ندري أين تقيم...

فقال سالم العجرودي:

ـ تحيّة امرأة طيّبة رغم كلّ شيء...

فقلت وأنا أضحك عاليًا:

ـ رغم كلّ شيء!

فقالت حليمة بحنق:

ـ السعادة في هٰذه الأيّام من نصيب البغال.

وتساءل سرحان:

ـ وهل يواصل محاولاته في تأليف المسرحيّات؟

فقالت حليمة:

ـ طبعًا...

فقال باسمًا:

ـ عظيم... ستهبه تحيّة تجارب مفيدة!

ثمّ انهمكت في جمع النقود وأنا أتذوّق أوّل ليلة تمرّ بلا رقيب.

* * *

المرأة تبحث عن ابنها وأنا في المقلى وحدي. ترى أيّ نهاية رسمها لها في المسرحيّة؟ فاتني أن أسأل عن ذٰلك! هل يسدل الستار ونحن في السجن؟... في المقلى؟ ويجيء زبون في أعقاب زبون. هٰؤلاء الناس لا يدرون كم أحتقرهم وأمقتهم. منافقون. يفعلون مثلنا ويؤدّون الصلاة في أوقاتها. أنا خير منهم. أنا حرّ أنتمي إلى عصر سابق للدين وقواعد السلوك. لٰكنّي محاصَر في هٰذه المقلى بجيوش المنافقين. كلّ رجل وكلّ امرأة. مثل الدولة. لذٰلك تترككم للمجاري والطوابير وتجود عليكم بالخطب الرنّانة. ويحطّم ابني رأسي بمواعظه الصامتة ثمّ يرتكب الخيانة والقتل. ولو تيسّر الأفيون وحده لهان كلّ شيء. لماذا تغرّر بنا أيّام الخطوبة؟ لماذا تهمس لنا بعذوبة غير موجودة؟

ـ إنّي مدين لعمّ أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر.

ـ لا تبالغ.

ـ حليمة... ما أسعد مَن لا يضيع خفقان قلبه في العدم!

وتألّقت ابتسامة مثل فلّة يانعة. أين تختفي هٰذه العذوبة؟ آه لو أنّ الرجوع في الزمان ممكن مثل

الرجوع في المكان. في كائني البدائيّ ركن ساذج يطيب له أحيانًا أن يبكي الأطلال. كرم الذي لم يعد موجودًا يبكي حليمة التي لم تعد موجودة.

ها هي المرأة راجعة. دخلت وجلست دون تحيّة. تجاهلتها تمامًا ولم تنبس. في عينيها طمأنينة فماذا عرفت؟! لا شكّ أنّ ثمّة خبرًا طيّبًا تضنّ به عليّ. الخنزيرة. لو كان شرًّا لصبّته على رأسي قبل أن تدخل. هل رجع عبّاس؟ أبيت أن أسأل. ومضى وقت حتّى قالت:

- نحن مدعوّان لمشاهدة المسرحيّة...

وقدّمت إليّ إعلانًا مطبوعًا. استقرّ بصري على اسم المؤلّف «عبّاس يونس». جرفني زهو. تساءلت:

- هل نذهب؟

- أيّ سؤال!

- قد لا يسرّنا أن نرى أنفسنا...

- المهمّ أن نرى مسرحيّة عبّاس...

صمتُّ فقالت:

- قلبي يحدّثني بأنّ المؤلّف سيظهر حتمًا...

- مَن يدري؟

- قلبي يدري.

* * *

ذهبنا في أحسن صورة ممكنة. ارتديت بدلة لا بأس بها واستأجرت حليمة ثوبًا ومعطفًا من أمّ هاني. استقبلونا استقبالًا حسنًا. وقالت حليمة:

- ولْكنّي لا أرى المؤلّف.

فقال سرحان الهلالي:

- لم يحضر ولْكنّي أخبرتك بما فيه الكفاية...

إذن قد قابلته وتلقّت أخبارًا لا بأس بها. ولّما كان الوقت مبكّرًا فقد ذهبنا لزيارة عمّ أحمد برجل. قدّم لنا - هديّة منه - سندوتشين وقدحين من الشاي وهو يقول ضاحكًا:

- مثل الأيّام الماضية!

لم نعلّق لا بكلمة ولا بابتسامة. وفي الوقت المناسب انتقلنا إلى مقاعدنا في الصفّ الأوّل. كان المسرح كامل العدد فقالت حليمة:

- هو النجاح.

فتمتمت:

- لا حكم إلّا بعد مرور أسبوع...

رغم استهتاري توتّرت أعصابي. فيم تهمّني مسرحيّة وأنا لا تهمّني الحياة! آه ها هو الستار يرفع عن بيتنا. بيتنا دون غيره. هل أراده العجرودي كذٰلك أو أنّه عبّاس؟ الأب والأمّ والابن. إنّه ببساطة ماخور ونادي قمار. يوجد أكثر من الجريمة والخيانة. الأمّ تبدو عاهرة بلا ضابط. علاقاتها تتتابع مع المدير والمخرج والناقد وطارق رمضان! ذُهلتُ. لحظتها. أنفاسها تتردّد في ثقل وخشونة. إنّه الجحيم. استمتعي برأي ابنك فيك. رؤيته تنجلي بوحشيّة عن أبيه وأمّه. مَن يتصوّر أنّ رأسه المتزمّت يحوي هٰذه الخرائب كلّها؟ إنّي سعيد برأيه في أمّه. سعيد باطّلاعها على رأيه فيها. المسرحيّة تنكّل بي وتنتقم لي. في لحظة الفضيحة هٰذه أنْعَمُ بالانتصار على الأمّ والابن معًا. على عدوّيّ اللدودين. ثمّ إنّه لم يفهمني. إنّه يقدّمني كرجل منحلّ. كرجل واجه تحدّيات الواقع بالانحراف. لست كذٰلك يا غبيّ. لم أستوِ مركّبًا لكي أنحلّ. نشأت بسيطًا بدائيًّا حرًّا. نشأت شاهدًا ومدينًا للنفاق. ذاك ما لا يمكن أن تفهمه. وسرّ نجاحك أنّك تتملّق النفاق والاستعلاء الكاذب. تلقَّ منّي بصقة في مهجرك الأبديّ.

بعد تلاشي عاصفة التصفيق الهستيريّ دُعينا - اتّباعًا لتقليد قديم - للاحتفال بالنجاح في البوفيه.

سألتها همسًا:

- نشترك أم نذهب؟

فقالت بتحدٍّ:

- كيف لا نشترك؟!

تتظاهرين عبثًا بالاستهانة. ليس لك جناحان مثلي.

تمتمت:

- ما كان ينبغي أن ينتحر...

فقلت أغيظها:

- أيّ نهاية تتوقّعين لقاتل؟

- لقد فاز بالعطف...

دارت الأنخاب. قال سرحان الهلالي:

- لي فراسة لا تخيب...

فقال سالم العجرودي:

ـ وحشيّة بلا شكّ ولٰكنّها مؤثّرة...

فقال فؤاد شلبي:

ـ إنّها تذكّر الجمهور بمعاناته اليوميّة... ولٰكنّها متشائمة...

فتساءل الهلالي ساخرًا:

ـ متشائمة؟!

ـ ما كان ينبغي أن ينتحر بعد ما تعلّق به أمل الجمهور.

فقال الهلالي:

ـ ليس انتحارًا ولٰكنّه مصير الجيل الجديد في نضال الإنقاذ!

ـ سلّم الأوغاد.

فقهقه الهلالي قائلًا:

ـ ليحفظ الله الأوغاد.

والتفت المدير نحو طارق رمضان ورفع كأسه قائلًا:

ـ نخب اكتشاف ممثّل عظيم في الخمسين من عمره!

فقال فؤاد شلبي بحماس:

ـ أهمّ من اكتشاف بئر بترول.

ونظر الهلالي نحونا ولٰكنّي سبقته رافعًا كأسي:

ـ نخب المؤلّف الغائب!

سرعان ما ارتفعت موجة استحسان. فاضت النشوات على حساب المسرح. اختلط الجدّ بالهزل. تلذّذت بتذكّر فضائح كلّ رجل وكلّ امرأة. لماذا كان السجن من نصيبنا وحدنا؟... أيّها الزملاء الأحرار اشربوا نخبي أنا. فإنّي رمزكم الصادق.

وصلنا إلى بيتنا القديم عند الفجر. لم نجد أيّ رغبة في النوم. أشعلت فحم المدفأة وجلسنا في الصالة. البلاط المعصرانيّ مغطّى بكليم أسيوطيّ قديم. رغم النفور المتبادل شعرنا بالرغبة في التواجد معًا ولو لحين قصير. منذا يبدأ بفتح الحديث؟... ما أشدّ ما نتبادل من مشاعر الحذر والتوجّس.

سألتها:

ـ أعجبتك المسرحيّة؟

ـ جدًّا... جدًّا...

ـ والموضوع؟

ـ يا له من سؤال سخيف لمن قضى عمرًا في المسرح...

ـ لِمَ نتظاهر بغير ما في نفوسنا؟... لا مجال للشكّ...

ـ أرفض هٰذا التفكير السخيف...

ـ كلّ شيء حقيقيّ أكثر من الحقيقة...

ـ كلام فارغ، لقد رأيت نفسي في صورة لا علاقة لها بالواقع.

فضحكت تاركًا للضحكة وحدها الإفصاح عن رأيي فقالت باستياء:

ـ إنّه الوهم...

ـ ألم نَرَ الجميع على المسرح كما عرفناهم في الحياة؟

ـ المؤلّف حرّ، يحافظ على من يشاء ويغيّر من يشاء، وهناك أشياء جديدة تمامًا...

ـ لِمَ صوّرك في تلك الصورة؟

ـ ذاك شأنه.

ـ اعتقدت طويلًا أنّه يحبّك ويحترمك...

فقالت بحدّة:

ـ ذاك ما لا شكّ فيه.

ـ الحقيقة تتجلّى في نظرتك الكلبيّة!

ـ إنّي واثقة من نفسي...

قلت باستهانة:

ـ حتّى طارق!... ما تصوّرت أنّك حرّة لذٰلك الحدّ...

ـ أرحني من أفكارك القذرة.

ـ لولا الكذب لربحنا أضعاف ما ربحنا!

ـ الحقّ أنّه صوّرك في صورة أجمل من حقيقتك وهٰذا يقطع بأنّه استلهم الخيال قبل كلّ شيء...

ضحكت عاليًا فهتفت:

ـ سيسمعك العائدون من صلاة الفجر.

ـ لِمَ لا؟... ذلك الولد الغريب الذي زجّ بنا في السجن...

ـ كيف تطالب أحدًا بالتزام فضيلة أنت الذي لا

تؤمن إلّا بنزواتك؟

- ولٰكنّه ادّعى المثاليّة حتّى أوجع راسي...

فقالت بحماس ظاهر على الأقلّ:

- إنّه ولد رائع... مؤلّف مرموق... ابني...

فقلت ساخرًا:

- إنّي معجب بوحشيّته!

- عندما يعود سأذهب معه هاجرة هٰذا البيت اللعين!

فقلت ساخرًا:

- كلّ حجرة فيه تشهد لنا بالمجد...

غادرتني عند ذاك فلبثت وحدي باسط الذراعين فوق المدفأة. كان يسعدني بلا شكّ أن أعرف المزيد عن أبي. أكان من هٰؤلاء المنافقين؟ لقد عاجله الموت فسقطت أمّي. ونشأت أنا تلك النشأة المتوّجة بقرون الشيطان. أمّا أنت يا عبّاس فلغز غامض! ما أشدّ الملل! إنّي مثل شيطان حبيس قمقم لا يجد مجالًا للعبث...

* * *

تابعت نجاح المسرحيّة باهتمام وشغف. توقّعت أن يعود المؤلّف ولو مع المسرحيّة الجديدة. توقّعت أيضًا أن يغيّر نجاحه مجرى حياتي المملّة. وكنت أتردّد على المسرح بين الحين والحين لأتنسّم الأخبار عنه. وفيما أنا أقطع المدخل ذات ضحى إذ هرع نحوي عمّ أحمد برجل، فمضى بي إلى داخل البوفيه الخالي. أقلقني وجهه المكفهرّ المتقبّض فاستشففت وراءه خبرًا كئيبًا. قال:

- كرم... كنت على وشك الذهاب إليك...

فسألته:

- ماذا؟... ماذا عندك؟

- عبّاس...

- ماذا عنه؟... هات ما عندك يا عمّ أحمد...

- اختفى من بنسيون كان يقيم فيه في حلوان تاركًا رسالة غريبة...

- أيّ رسالة... الا تريد أن تتكلّم؟

- كتب يقول إنّه سينتحر!

غاص قلبي. وخفق مثل بقيّة قلوب البشر. تبادلنا النظر صامتين. سألته:

- هل عُثر على...؟

فأجاب بحزن:

- كلّا... البحث جارٍ...

تمتمت وأنا شارد الوعي:

- آه... ربّما... مَن يدري... ولٰكنّه ما كان يكتب الرسالة لولا...

فقال عمّ أحمد بنبرة مَن يعتبر المسألة منتهية:

- ربّنا يلطف بكم...

- يجب أن أذهب إلى حلوان...

- لقد سبقك سرحان بك الهلالي...

رحلة عقيمة وأليمة. لا توجد إلّا الرسالة أمّا عبّاس فقد اختفى. مضى من الاختفاء الأوّل إلى الاختفاء الجديد. لن يُعترف بانتحاره إلّا إذا عُثر على الجثّة، ولٰكن لِمَ يكتب ما كتب إن لم يكن قد عقد العزم حقًّا على الانتحار؟

وتساءل الهلالي:

- إذا كان يريد الانتحار حقًّا فلِمَ لم ينتحر في حجرته؟

- أيداخلك شكّ في صدقه؟

فأجاب ببساطة:

- أجل...

رجعت إلى البيت القديم مساء فلم أجد حليمة. أدركت أنّها ذهبت إلى المسرح مستطلعة أسباب تأخّري. أغلقت المقلى الخالية وجلست في الصالة أنتظر. وبعد مضيّ ساعة ثقيلة رجعت بعينين مترعتين بالجنون. تبادلنا النظر ثواني ثمّ هتفت:

- كلّا... لو أراد أن ينتحر لانتحر بالفعل... لا يمكن أن ينتحر...

وانحطّت على الكنبة وأجهشت في البكاء وهي تلطم خدّيها...

حليمة الكبش

أولد من جديد. من جوف السجن إلى سطح الأرض. ويهلّ عليّ وجه عبّاس فأحتويه بين ذراعيّ، أدفن وجهي في صدره مثقلة بالعار والخجل. همست:

ـ شدّ ما أسأنا إليك، ليت الموت أراحك منّا. . .

قال برقّة:

ـ ما يسيئني إلّا كلامك. . .

ونشجت باكية فقال:

ـ الآن يطيب لنا الشكر. . . دعينا نفكّر في المستقبل. . .

فقلت بصوت مختنق:

ـ وحيد يا بنيّ. . . ابتلاك الله باسترداد زوجتك وابنك. . . ونحن لم نرحمك. . .

ـ ما مضى قد مضى. . .

لم يكد يتبادل مع أبيه كلمة. جمعتنا صالة البيت القديم كبعض الأوقات الماضية. وراح يقول:

ـ أرجو ألّا نعود إلى ذكر الماضي. . .

وصمت قليلًا ثمّ قال:

ـ فكّرت في أشياء. . . ولكن هل يودّ أبي أن يرجع إلى عمله القديم في المسرح؟

فقال كرم:

ـ كلّا. . . عليهم اللعنة. . .

ـ سأحوّل المنظرة إلى دكّان، ممكن أن نبيع بعض الأثاث، ونجعل من المنظرة مقلى، تجارة يسيرة ومربحة. . . ما رأيكما؟

فقلت بامتنان:

ـ الرأي ما ترى يا بنيّ. . . أسأل الله أن أسمع عنك خبرًا قريبًا. . .

ـ بإذن الله. . . أشعر بأنّني قريب من النجاح. . .

فدعوت الله له كثيرًا حتّى قال وهو ينقّل عينيه بيننا:

ـ المهمّ أن يحلّ بينكما التعاون وألّا أسمع ما يسيئني. . .

فقلت بلهفة:

ـ طالما حلمت بأن أعيش معك. . .

ـ إذا أراد الله لي النجاح فسوف يتغيّر كلّ شيء. . .

وتساءل كرم بجفاء:

ـ ألا تتفضّل بأخذها معك؟

فقال عبّاس بحرارة:

ـ أطالبكما بالتعاون. . . سأبذل ما أستطيع لأوفّر لكما حياة كريمة ولكنّي أطالبكما بالتعاون. . .

أيّ تعاون؟! إنّه لا يدري شيئًا. إنّه أبرأ من أن يحيط بأسرار القلوب إذا نفثت دخانها. من أين له أن يعلم بما فعل أبوه وهو لم يشهد إلّا سطحه الكئيب؟ إنّه يبذل ما يجود به قلبه البارّ ولكن هل غاب عنه أنّه يجمع بين خصمين في زنزانة واحدة؟ من السجن إلى سجن، ومن المقت إلى ما هو أشدّ مقتًا. لا أمل لي يا بنيّ إلّا أن تنجح وأن تنتشلني من زنزانتي البغيضة.

* * *

أسترق إليه النظر وهو يعمل. يبيع الفول السودانيّ واللبّ والفشار والحمّص ويرمي بالقروش في درج نصف مفتوح. بعد إدمان طويل للرزق الحرام الغزير. لا شكّ أنّه يحلم بالمخدّر القاتل الذي شفاه السجن منه على رغمه. لولا أنّ عبّاس اشترط عليه أن نتقاسم الربح لبادرنا الخراب من جديد. دائمًا مكفهرّ الوجه لا يزيح قناع الأسى عن وجهه إلّا في حضرة الزبائن. تمادى في العمر أكثر من الواقع بعشر سنوات وهذا

يعني أنّني تماديت أيضًا. أيّام السجن الحزينة. وليلة الكبسة التي استبقت فيها أيـدي المخبرين بلطم وجهي... آه... الأوغاد... لم يزرنا منهم أحد. الهلالي وغد مثل طارق رمضان. حُجزوا في القسم ليلة ثمّ أطلق سراحهم وحملنا الوزر وحدنا. حتّى جيراننا يقولون إنّ القانون لا يصول ويجول إلّا مع المساكين. يعزّوننا ويشمتون بنا ولٰكنّهم يتعاملون معنا. لا أمل لي يا بنيّ إلّا أن تنجح. يمرّ الوقت دون أن نتبادل كلمة. حرارة المقت أقوى من موقد الفرن. وكم أشعر بالتعاسة وأنا أنظّف البيت القديم الكريه أو وأنا أعدّ الطعام. كيف قضي عليّ بهٰذه الحياة؟ كنت جميلة ومثالًا في التقوى والأدب. الحظّ... الحظّ... منذا يدلّني على معنى الحظّ؟ ولٰكنّ الله مع الصابرين. وسوف يقول الحظّ كلمته الأخيرة على يدك يا عبّاس. ولن أنسى زيارتك لنا ليلة مولد سيّدي الشعراني وقولك المفرح للكرب المفتّح لأبواب السماء:

ـ أخيرًا قُبلت مسرحيّتي...

لقد انطلقت من صدري ضحكة كاللؤلؤة، لم تترنّم فيه منذ الشباب الأوّل. حتّى أبوه تهلّل وجهه. ما دخله في الأمر... لا أدري. لقد كرهته كما كرهني. حسن... ها هو يستوي مؤلّفًا لا خرافة كما توهّمت. طالما عددت مثاليّته سفاهة ولٰكنّ الخير ينتصر، ويجرف تيّاره المتدفّق زبد السَّفَلة من أمثالك.

* * *

لا أحبّ الخريف لولا أنّه يقرّبنا من ليلة الافتتاح. من أين تجيء هٰذه السحب التي تحجب النور؟ ألا تكفيني السحب التي سبح فيها قلبي؟ وجاءني صوت الرجل قائلًا:

ـ انظري...

رأيت طارق رمضان مقبلًا كحادثة سيّئة من حوادث الطريق. تساءلت:

ـ للتهنئة أم للشماتة؟

وقف قبالتنا يلقي بسلامه في فراغ. قلت:

ـ أوّل زيارة من أهل الوفاء.

ولم ألقِ بالًا إلى اعتذاراته حتّى سمعته يقول:

ـ معي أخبار سيّئة!

فقلت بتحدّ:

ـ لا تهمّنا الأخبار السيّئة...

ـ حتّى لو تكون عن الأستاذ عبّاس يونس؟!

هرب دمي. تماسكت ما وسعني التماسك. قلت بزهو:

ـ قد قُبلت مسرحيّته...

ـ ما هي إلّا نكتة مبكية، ماذا تدرين عن المسرحيّة؟

وراح يسوق العجائب من خلال تلخيصه ويختم قائلًا:

ـ كلّ شيء... كلّ شيء...

دار رأسي. تساءلت وأنا أداري رعبي:

ـ ماذا تعني يا عدوّ عبّاس؟

ـ شاهدا المسرحيّة بنفسكما.

ـ أعماك الحقد.

ـ بل الجريمة.

ـ ما مجرم إلّا أنت...

ـ يجب القبض على قاتل تحيّة...

ـ إنّك مجرم خسيس وعليك أن تذهب...

فضحك ساخرًا وتساءل:

ـ كيف يقولون إنّ السجن تأديب وإصلاح؟

كبشت كبشة حمّص ورميته بها فتراجع هازئًا، ثمّ ذهب.

ماذا كتب عبّاس؟ ماذا فعل؟ ابني لا يقتل ولا يخون. لا يخون أمّه على الأقلّ. إنّه ملاك.

تبادلت مع الرجل نظرة. يجب أن أخرج من وحدتي الأبديّة. قلت:

ـ إنّه يكذب.

ـ ولِمَ يكذب؟

ـ ما زال يحقد على ابني.

ـ ولٰكن توجد مسرحيّة.

ـ اذهب إلى عبّاس...

ـ سأقابله حتمًا.

ـ ولٰكنّك لا تتحرّك.

ـ لا داعي للعجلة.

فحنقت عليه... إنّه مثل طارق لا يحبّ عبّاس. هتفت:

ـ يجب أن يعرف ما يدبَّر من وراء ظهره.

ـ وإذا اعترف؟

ـ ستجد التفسير لكلّ شيء.

ـ لا أدري.

ـ القاتل الحقيقيّ لا يفضح نفسه...

ـ لا أدري.

ـ تحرّك.

ـ سأذهب طبعًا.

ـ أو أذهب أنا.

ـ ليس عندك ملابس لائقة.

ـ إذن فعليك أن تذهب أنت.

ـ الوغد يكذب.

ـ يجب أن تسمع بأذنك.

ولكنّه تراجع قائلًا:

ـ كره حياتنا... كان مثاليًا كأنّه ابن حرام...

ولكنّه لا يغدر بنا... ثمّ لماذا يقتل تحيّة؟

ـ إنّك تستجوبني أنا.

ـ إنّي أفكّر.

ـ لقد صدّقت ما قال الوغد.

ـ وأنت أيضًا تصدّقينه.

كدت أبكي ولكنّني أطبقت على شفتيّ وقلت:

ـ يجب أن نسمعه.

ـ الحقّ أنّني لا أصدّق.

ـ إنّك تهذي...

ـ اللعنة...

ـ اللعنة حلّت يوم ارتبطت بك.

ـ ويوم ارتبطت بك.

فقلت بتحدٍّ:

ـ كنت جميلة... إنّه سوء الحظّ...

ـ كان أبوك ساعي بريد أمّا أبي فكان موظّفًا في دائرة الشمشرجي.

ـ ذلك يعني أنّه كان خادمًا.

ـ أنا من أسرة...

ـ وأمّك؟

ـ مثلك تمامًا.

ـ تحرّك... ولكنّك لا تريد أن تذهب...

ـ سأذهب عندما يروق لي...

ثم غيّر نبرته قائلًا:

ـ العصر أنسب وقت لوجوده في بيته...

سكتُّ منادية الصبر المُرّ. الشكّ يقتلني من جذوري. ماذا يقال عن أشرف الناس؟ الوردة النابتة في خرابة. في بلد اللصوص والضحايا. ابتاع لي قماشًا لثوب يصلح للخروج ولكنّي تقاعدت عن تفصيله. سأشرع من فوري في تفصيله وحياكته. يعيّرني بأصلي ابن العاهرة. أمّا عبّاس فلا يمكن أن يخون أمّه. احتقر كلّ شيء إلّا حبّي. الحبّ أقوى من الشرّ نفسه...

* * *

بيت الهنا بالطمبكشيّة. الشمس لا تغيب حتّى في الشتاء والليل. حليمة الجميلة بنت الجميلة. أبي يرجع حاملًا شيئًا طيّبًا تحبّه الأنفس. وتقول أمّي لأبي:

ـ دعها تستمرّ... التعليم فرصة العمر... ليتني وجدت فرصتي...

ويقول قريبنا الطيّب عمّ أحمد برجل:

ـ أصبحت البنت يتيمة... الاستمرار في التعليم مشقّة...

فتسأله أمّي:

ـ وما العمل يا عمّ أحمد؟

ـ معها شهادة... وهي ذكيّة... يلزمها عمل... ستخلو عندنا وظيفة قاطعة التذاكر.

وتسألني أمّي:

ـ هل تحسنين عملًا كهٰذا؟

فأقول بلهفة:

ـ التمرين يكمل ما ينقصني.

ويقول عمّ أحمد:

ـ الشمشرجي صديق الهلالي بك... تشفّعي به عنده وسأكلّمه من ناحيتي.

ها هي الدنيا تتفتّح عن تجربة جديدة. هٰكذا أدخل المسرح لأوّل مرّة. مكان فخم ذو رائحة خاصّة مؤثّرة. عمّ أحمد يتضاءل ويلعب فيه دورًا صغيرًا. أدعى إلى مقابلة المدير. أدلف إليه في معبده الضخم بثوبي الأبيض البسيط وحذائي القديم. بهيكله العالي

وعينيه الحادّتين ونظرته المجتاحة يبدو كائنًا رائعًا شديد التأثير. تفحّصني حتّى ذبتُ. يقدّم لي فرخ ورق ليمتحن سرعة كتابتي للأرقام.

يقول بصوته الجهير:

- يلزمك تدريب قبل تسلّم العمل يا...

أقول بحياء:

- حليمة الكبش...

يبتسم معلّقًا:

- الكبش؟!... ما علينا... وجهك مقبول أكثر من وجوه ممثّلات فرقتنا... أريد أن أمتحنك عند انتهاء التدريب...

أجتهد بحماس وافق. لا غيرة على مستقبلي. ولكن إرضاء لذلك الساحر الرائع. وأقول لأمّي فتقول هكذا يكونون أولاد الأصول. أتخيّل رضاه مثل نعمة مباركة. وأمثل بين يديه مضطربة الأنفاس. أنت تعويذة الفرقة يا حليمة. الله جميل يحبّ الجمال. متى بدأ مداعباته اللمسيّة؟ كان شعاع الشمس النافذ من الزجاج يغمر وجهي وثمّة مزمار بلديّ في الطريق يعزف راقصًا. وأدفع يده المترامية لاهثة. لا يا سعادة البيك أنا بنت شريفة. تجلجل ضحكته في أذنيّ. يتلاشى احتجاجي في صمت الحجرة المغلقة الواسعة. عاصفة من الأنفاس الحارّة والتسلّل الماكر تشوّش إرادتي الصادقة. إنّه الكابوس الذي ينقشع عن دموع لا تستدرّ عطفًا. خارج الحجرة أحياء يذهبون ويجيئون. وتموت أمّي قبل أن تعلم...

* * *

تحرّك أخيرًا عند العصر. خفّ توتّر أعصابي. إنّي أتعلّق بقشّة ولكن ماذا أنتظر؟ عليّ أن أعدّ الثوب لأستطيع الحركة. إنّه يبوح بسرّه لي لا للرجل الكريه. ماذا يبقى لي الآن سوى عبّاس؟!

* * *

الخيبة تجيء مع الأفيون. لا... إنّها أقدم من الأفيون. ما أعذب ما دفنت من آمال! يرشف آخر رشفة في الكأس، يبتسم ابتسامة مخمورة، يشير إلى الحجرة الملاصقة للمنظرة ويقول:

- في هذه الحجرة كانت أمّي تخلو إلى الباشجاويش!

أذهل من هول المكاشفة. عبّاس نائم في لفافة المهد. أقول غير مصدّقة أذنيّ:

- سكرت يا كرم...

يهزّ رأسه قائلًا:

- كانت تحذّرني من مغادرة حجرتي...

- ما كان يجوز...

ويقاطعني:

- لا أحبّ النفاق... أنت منافقة يا حليمة...

- الله يغفر لها... ألا زلت تحقد عليها؟

- ولِمَ أحقد عليها؟

- إنّي لا أفهمك.

- زوجك رجل لا مثيل له بين الرجال... لا يؤمن بأيّ أكذوبة بشريّة...

ماذا يعني؟ إنّه زوج لا بأس به لكنّه يسخر من كلّ شيء. من إيماني يسخر... من مقدّساتي وتقاليدي... ماذا يحترم ذلك الرجل؟ ها هو يهتك أمّه دون مبالاة. أقول له:

- أنت مرعب يا كرم...

فيقول باستهانة:

- ذلك من حسن حظّنا وإلّا لطلّقتك ليلة الدخلة...

انغرز دبّوس محميّ في قلبي. دمعت عيناي. تلقّيت ثاني ضربة قاسية في حياتي. يقول:

- معذرة يا حليمة، متى تصيرين حرّة؟

- أنت قاسٍ وشرّير...

- لا تهتمّي بهذه الكلمات التي لا معنى لها.

ويحدّثني عن عشق أمّه الجنونيّ للشرطيّ، عن إهمالها له، كيف نشأ حرًّا بفضل ذلك الإهمال الداعر.

ويقول بنبرة مخمورة:

- إنّي مدين لها بكلّ شيء...

إنّه يطوّقني كشيء مرعب. إنّي أعاشر قوّة غير منتمية لأيّ قاعدة. على أيّ أساس أتعامل معه؟ الخيبة أقدم من الأفيون. الأفيون لم يجد روحًا ليقضي عليها...

* * *

لمحته راجعًا فوثب قلبي رغم النفور. بدا في

الطريق أطعن في السنّ ممّا يكون في المقلى. اتّخذ مجلسه دون أن ينظر نحوي. سألته:

- ماذا قال لك؟

فقال ببرود:

- غادر شقّته حاملًا حقيبته إلى مكان مجهول...

يا للعذاب والرعب! متى يكفّ الحظّ عن التنكيل بي؟

- لِمَ لَمْ يخبرنا؟

- إنّه لا يفكّر فينا...

أشرت إلى أنحاء المقلى قائلة:

- أحسَنَ إلينا بوفاء لا نستحقّه.

- يريد بعد ذلك أن ينسانا.

- كان عليك أن تذهب إلى الهلالي...

رمقني بازدراء وكراهية فقلت بتحدٍّ:

- إنّك لم تحسن التصرّف.

- أودّ أن أكسر رأسك.

- كأنّك رجعت إلى الأفيون.

- لا يقدر عليه اليوم إلّا الوزراء.

وإذا به يقول مخفضًا درجة صوته:

- الهلالي لا يدري شيئًا عن مكانه.

فسألته بلهفة:

- زرته؟

- لا يدري شيئًا عن مكانه.

- ربّاه... هل أخلى شقّته؟

- لا.

- لعلّ في الأمر امرأة.

- تفكير سليم من وجهة نظر امرأة مثلك...

- ماذا يمكن أن أقول لمثلك؟... ثمّ إنّ أمره لا يهمّك ألبتّة.

وغلبني البؤس فبكيت من أعماقي...

* * *

ذهبت مرتدية ثوبي الجديد متلفّعة بشال قديم. لم أحمل معي أملًا وتوكّد هناك يأسي. قلت للبوّاب:

- عندك معلومات ولا شكّ؟

- أبدًا.

لم أجد شجاعة للذهاب إلى المسرح. رجعت كارهة. زرت سيّدي الشعراني واستغثت بكراماته. مضيت إلى الزنزانة لأجد الرجل يضاحك زبونًا وهو ناعم البال. جلست منهزمة حانقة. ونفد صبري فقلت:

- افعل شيئًا، أليس عندك حيلة؟

- أودّ أن أقتلك، سأقتلك ذات يوم...

- زيارة جديدة للمدير...

فقاطعني:

- اذهبي إليه أنت فهو يخصّ جواريه بعنايته...

- الحقّ أنّني ضحيّة أمّك، مارست تعذيبي من وراء قبرها، هي التي خلقت منك هذا الوحش!

- إنّها تُعتبر بالقياس إليك سيّدة عفيفة!

* * *

هذا المسرح يشهد عذابي وحبّي. شهد أيضًا اغتصابي ولم يمدّ لي يدًا. تحت قبّته العالية تدوّي شعارات الخير في أعذب بيان وتُسفح على مقعده الوثير الدماء. وأنا ضائعة... ضائعة... مختنقة بسرّي. وهو لا يدري بحبّي ولا يهمّه شيء. لعلّه نسي اسمي أيضًا:

- إنّك تتجنّبني... شقيت حتّى قابلتك...

- هل ينقصك شيء؟

- ماذا؟... أنسيت؟... لقد فقدت كلّ شيء...

- لا أحبّ المغالاة... لم يحدث شيء ذو بال...

طفرت الدموع من عينيّ.

- لا... لا... لا يجوز أن يلاحظ شيء في المسرح...

- ولكنّني... ألا تدرك حالي؟... لا تتركني...

- الأمر أبسط ممّا تتخيّلين... لم يحدث شيء ضارّ ألبتّة... احتفظي بصفاء ذهنك من أجل عملك ومستقبلك، وانسي ما كان فلا فائدة ترجى من تذكّره...

إنّه الصوان. أمقته بقدر ما أحبّه. مهجورة وحيدة معذّبة. ستخمّن خالتي سرّ عذابي ذات يوم. ماذا أرجو من دنيا لا يُعبد فيها الله؟!

* * *

عند الأصيل ذهبت إلى مقهى الفنّ، رأيت فؤاد شلبي يدخّن الشيشة فقصدته. لم يتوقّع حضوري بحال فقال مرحّبًا وأجلسني وهو يقول:

- كان يجب أن أزوركم، اللعنة على الشواغل!

فقلت دون مبالاة:

- لم يزرنا أحد، لا أهمّيّة لذلك، إنّما جئتك مدفوعة بالقلق لاختفاء عبّاس...

فابتسم وقال:

- لا داعي للقلق، الأمر واضح، لقد هرب من المتطفّلين وخيرًا فعل، ولا شكّ أنّه يعدّ مسرحيّته التالية...

- أما كان يجب أن يخبرني؟

- اغفري له خطأه، لا تقلقي، ما زلت جميلة كما كنت يا حليمة، كيف حال كرم؟

- حيّ يمارس هوايته في إتعاس البشر...

فضحك، وظلّت ضحكته تثير أعصابي حتّى غادرت المقهى. وجدت الشجاعة والتصميم هذه المرّة للذهاب إلى المسرح. طلبت مقابلة المدير. دخلت الحجرة. الحجرة نفسها. الكنبة الجلديّة نفسها. الرجل نفسه. لا... إنّه رجل آخر. لم يبق من الآخر إلّا نذالته. إدمان الشهوات كبّره أكثر ممّا كبّرنا السجن. أيّهما المسئول أكثر عن تعاستي؟ وقف مرحّبًا... هتف:

- أهلًا... أهلًا... يسعدني أن أراك بخير...

فتساءلت بسخرية وأنا أجلس:

- بخير؟!

- كما يجدر بأمّ مؤلّف ناجح!

- إنّه سرّ عذابي الراهن!

- يا له من عذاب لا أساس له، عندي خبر سارّ، لقد اتّصل بي تليفونيًّا...

قاطعته بفرحة مشتعلة:

- أين هو؟

- لا أدري... إنّه سرّه فليحتفظ به كيف شاء، المهمّ أنّه مكبّ على تأليف مسرحيّة جديدة...

- هل ترك عمله؟

- نعم... إنّها مجازفة. ولكنّه واثق من نفسه وأنا واثق؟...

- لم يكلّف خاطره بالاتّصال بي؟

- يتجنّب أن يستجوبه أحد عن مسرحيّته... هذا ما أتصوّره...

- لقد قالوا وعادوا... ما رأيك أنت؟

- المسرحيّة فنّ، والفنّ خيال مهما استمدّ من الحقائق!

- ولكنّ ظنون الناس...؟

- الجمهور لن يرى شيئًا من ذلك كلّه... إنّه سخف، ولولا حماقة طارق...

فقاطعته:

- إنّه عدوّه عليه اللعنة...

- أطالبك الآن بأن تقرّي عينًا...

* * *

- بلغني أنّ كرم يونس يطلب يدك؟

- أجل.

- ممكن إصلاح الأمر...

- لا... أرفض هذا النوع من الكذب.

- ستصارحينه؟

- أعتقد ذلك...

- يا لك من فتاة استثنائيّة في هذا الزمن المغمور بالسّفلة، هل تكاشفينه بالفاعل؟

- لا أهمّيّة لذلك...

- الأفضل ألّا تفعلي...

* * *

مضيت إلى البوفيه. صاح أحمد برجل عند رؤيتي:

- خطوة عزيزة...

جلست أمامه صامتة. راح يعدّ لي السندوتش والشاي. هنأنا من أهل الأرض شخصان، أحمد برجل وأمّ هاني. غمرتني ذكريات المكان. الشاي والسندوتش والغزل. والمزمار الراقص في الجحيم. مثل قطرات مطر صافية أصابت مزبلة. وقال عمّ أحمد:

- نجاح عبّاس حظّ طيّب وبشير بالعزاء عمّا سلف.

فقلت بأسى:

- لكنّه هجرنا بلا كلمة طيّبة...

ـ لا تقلقي، لا يقلق أحد ممّن حولنا لذلك...

ـ وطارق رمضان؟!

ـ إنّه نصف مجنون!

* * *

التجربة عنيفة وجديدة. ثمّة تصميم على الاعتراف وخوف يخرسني في آخر لحظة. إنّي شريفة وطاهرة وأكره الخداع ولكنّ الخوف يخرسني. يبدو لي كرم مثالًا للجدّيّة والحبّ فهل أفقده؟ وخرست حتّى أغلق علينا بابنا. هالني ضعفي فبكيت. انتصبت الحقيقة عارية متوتّرة مستخذية بيني وبينه. همست:

ـ إنّي مجرمة... عجزت عن أن أخبرك من قبل...

تحيّرتْ في مقلتيه نظرة ساهمة. ما أخشاه يقع. قلت:

ـ خفت أن أفقدك، وصدّقني لقد اغتُصبت اغتصابًا...

وأخفيت عينيّ في الأرض وانفعالاته تلفحني. وقلت كلامًا وقال كلامًا وضاع الكلام في وقدة الألم. لكنّ صوته حُفر في وعيي وهو يقول:

ـ لا يهمّني الماضي...

ازددت بكاء ولكن بهرني شروق غير متوقّع. قلت إنّه شهم وإنّني سأكرّس نفسي لإسعاده. وهمست وأنا أجفّف عينيّ:

ـ ما أسهل أن يضيع الأبرياء...

* * *

ما أضيق صدري وأنا راجعة إليك. دخلت الزنزانة وجلست. سأقول كلمة عن لقاء فؤاد شلبي ولن أزيد. لن أريحه. إنّه لا يحبّ عبّاس. يتظاهر بعدم الاهتمام. ليته يتعذّب كما أتعذّب. نحن نبيع التسلية أمّا تسليتنا الوحيدة فهي تبادل السباب.

* * *

في الخيبة أمضي درجة بعد درجة. لكنّ الشرّ الجديد يهدّد أساس البيت.

ـ الأفيون مخيف جدًّا، إنّه يلتهمك!

ـ شكرًا له على أيّ حال.

ـ إنّك تنسحب من دنيانا بسرعة مزعجة.

ـ أكرّر له الشكر!

ـ إنّي أبذل أقصى ما في جهدي، وهناك عبّاس وهو حبيبك.

مضى يرشف من قدح الشاي الأسود غائبًا عنّي.

ـ مرتّبي لا يكفي وحده للإنفاق على البيت...

ـ عندك إيجار حجرة رمضان...

ـ ولا هذا يكفي، الدنيا نار...

إنّي الآن أعرفك ولذلك أخشاك. لست كما تصوّرتك في أيّامنا الأولى. ها أنت تفقد كلّ شيء حتّى قدرتك التي تباهيت بها. استقلّ كلٌّ منّا بحجرة خاصّة. لا حبّ وأيضًا لا طعام؟! أنت أنت الباقي يا عبّاس. لا تحفظ كلام بابا... لا تصدّقه فإنّه مريض. من حسن الحظّ أنّك غالبًا وحدك. الله معك. فيه الكفاية. كن ملاكًا. ليكن صديقك المدرّس والكتاب والمسرح. كن ابني وابن الآخرين الطيّبين. إنّك النور الوحيد في هذا البيت القديم الغارق في الظلام. كن وحيدًا في كلّ شيء...

* * *

يسترق إليّ النظر أحيانًا لعلّي أبوح له بما لديّ. هيهات. أتحدّاك أن تكرهني أكثر. تساءل:

ـ عندما يجيء الشتاء فكيف نحتمل البقاء في هذه المقلى المفتوحة؟

فقلت بثقة:

ـ عندما ينجح عبّاس يتغيّر المصير كلّه...

فردّ بمرارة:

ـ عندما ينجح عبّاس!

فقلت بتحدٍّ:

ـ سأذهب معه ولن يضنّ عليك بمعطف أو عباءة...

* * *

البوفيه الأحمر باقٍ كما كان، يضحك من تغيّر روّاده. سمع الكثير ممّا يقال ولا يصدّق أحدًا. يقول لي عمّ أحمد برجل:

ـ هاك السندوتش وسأعدّ لك الشاي...

ويجيء فيجلس على المقعد إلى جانبي شابّ فيطلب أيضًا الفول والسندوتش. إنّه من أهل المسرح فيما يبدو

ولكنّه ليس من الممثّلين. شابّ مقبول المنظر كبير الرأس والأنف. ويسألني عمّ أحمد:

ـ هل من جديد عن الشقّة يا آنسة حليمة؟

فأجيبه بشيء من التكلّف أمام الغريب:

ـ البحث عن الذهب أسهل...

وإذا بالشابّ يسألني:

ـ هل تبحثين عن شقّة؟

فأجبت بالإيجاب وعارف عمّ أحمد بيننا فراح يسأل بجرأة:

ـ من أجل زواج؟

آه... بدأ الغزل. إنّه يبدأ بسرعة في هذا المسرح. ولا يتردّد عن استعمال العنف. وتقتل الفريسة على أنغام المزمار البلديّ.

ـ عندي بيت قديم مكوّن من طابقين.

ـ الطابق شقّة؟

ـ كلّا... إنّه ليس مقسّمًا إلى شقق.

عمّ أحمد يسأله إن كان ممكنًا أن استقلّ بطابق فيجيب بالإيجاب. سألته:

ـ ألا يضايق ذٰلك الأسرة؟

فأجاب بجرأته المعهودة:

ـ إنّي أقيم فيه وحدي...

أعرضت عنه في استياء فقال بلباقة:

ـ ستجدين الطابق آمنًا أنت وأسرتك...

شكرته وصمتُّ. لم يترك أثرًا سيّئًا في نفسي. ماذا يريد؟ لا علم له بمأساتي. ولا بحبّي. ولا بسوء ظنّي.

* * *

قلت أذهب إلى أمّ هاني بشقّتها الصغيرة بالإمام حيث يقيم معها طارق رمضان. استقبلتني بحرارة. وكان عليّ أن أنتظر حتّى يستيقظ طارق من نومه. خرج من حجرته منفوش الشعر مثل شيطان وهو يقول بسخرية لا تناسب المقام:

ـ خطوة عزيزة.

فقلت له دون لفّ أو دوران:

ـ أعتقد أنّك زرت عبّاس قبل رحيله؟

ـ حصل...

ـ لا أستبعد أنّك أسمعته ما حمله على الرحيل...

فقال بقحة:

ـ لقد شعر بالحصار فهرب.

فغضبت حتّى طفرت الدموع من عينيّ فصاحت أمّ هاني:

ـ ألا يعرف قلبك الرحمة؟! ما هٰذا الذي يقال؟ لقد شهدت وفاة تحيّة، وشهدت حزن عبّاس الجنونيّ!

دهشت وأنا أتلقّى هٰذه الحقيقة وسألتها:

ـ هل يتّفق ما شاهدته مع ما يقال؟

ـ كلام فارغ...

فقال طارق:

ـ ما كان له أن يقتلها أمامك يا حمقاء.

ـ الحماقة أن تتصوّر عبّاس قاتلًا...

ـ اعترافه يتجسّد على المسرح ليلة بعد أخرى...

فقالت أمّ هاني:

ـ بفضله صرت ممثّلًا يصفّق له الجمهور أكثر من إسماعيل نفسه.

ـ بفضل جريمته... جريمته التي حملته على الهرب...

فقلت بإصرار:

ـ إنّه يقيم في مكان هادئ ليتمّ مسرحيّته الجديدة.

فقهقه ساخرًا وهو يقول:

ـ مسرحيّته الجديدة!... لا تحلمي يا أمّ عبّاس!

* * *

آه... في تلك الأيّام كان معقولًا ومقبولًا رغم كلّ شيء.

ـ ما رأيك يا حليمة... طارق رمضان يرغب في استئجار حجرة عندنا...؟

فقلت محتجّة:

ـ لا... لا... فليبق في مسكنه...

ـ تشاجر مع أمّ هاني فاضطرّ إلى مغادرة البيت... إنّه يهيم بلا مأوى والغلاء يرتفع يومًا بعد يوم...

ـ إنّه لأمر كريه أن يقيم غريب بيننا...

ـ إنّه في حاجة إلينا ونحن أيضًا في حاجة إلى نقود.

ـ إنّه أشبه بالمتشرّدين...

ـ إنّه طامع في كَرَمنا، في كرمك أنت خاصّة...

عندنا من الحجرات الخالية ما يكفي جيشًا!

وأذعنت كارهة. لم أحترمه قطّ. ممثّل فاشل ويعيش بعرق النساء. ولكنّي لم أتصوّر أن يفعل بنا ما فعل.

* * *

ما ندري إلّا وأمّ هاني تزورنا في المقلى. زارتنا في اليوم التالي لزيارتي لها. واضح أنّها تـريد أن تعتـذر بالزيارة عن سوء معاملة رَجُلها لي. إنّها في الخمسين مثل طارق ولكنّها بدينة ولا تخلو من حسن وحالتهـا الماليّة طيّبة. قالت:

- إنّهم يتحدّثون عن نجاح المسرحيّة... لم تنجح بهٰذا القدر مسرحيّة من قبل...

فقلت بأسى:

- ولكنّ المؤلّف لا يريد أن يظهر...

- سيجيء عندما يفرغ من مسرحيّته الجديدة...

وصمتت المرأة قليلًا ثمّ استطردت:

- مـا أسـخف مـا يـقـال... ولـكـنّ طـارق مجنون...!

فتساءل كرم ساخرًا:

- ألم يكن من الأفضل أن يقتل أمّه؟!

كنت أميل إلى أمّ هاني، ولم ينتقص من ميلي لها أنّها قريبة زوجي...

* * *

بيت الطمبكشيّة المكتظّ بسكّانه. مثل الباص تفوح منه رائحة المطّاط. خالتي تخلي ركنًا لتستقبل فيه عمّ أحمد برجل. تقول له:

- لا تنس التموين فاعتمادنا بعد الله عليك.

فيقول الرجل باهتمام غير عاديّ:

- جئت لما هو أهمّ!

- افتح الجراب يا حاوي.

- الأمر يتعلّق بحليمة...

ردّدت خالتي عينيها بينه وبيني فتصاعـد الدم إلى خدّيّ. تساءلت:

- هه... عريس؟!

- صدق التخمين!

تطلّعت إليه متسائلة فقال:

- كرم يونس.

فتساءلت خالتي:

- ومَن كرم يونس؟

- ملقّن الفرقة.

- ما معنى هٰذا؟

- موظّف محترم بالمسرح.

- تراه لائقًا يا عمّ أحمد؟

- أعتقد ذٰلك، ولٰكنّ المهمّ هو رأي العروس...

- العـروس قمر كـما ترى، ولٰكنّنـا فقراء يـا عمّ أحمد.

وجاء دوري للكلام. كنت كسيرة الفؤاد، أنطوي على سرّ دامٍ. لا أحبّ العريس ولٰكنّي لا أنفر منه. شابّ مقبول ولعلّه يهبني راحة البال وربّمـا السعادة. قلت محاصرة بنظرات خالتي: لا أعرف عنه شيئًا ذا بال...

- موظّف، يملك مسكنًا، ويشهدون له بالطيبة.

قالت خالتي:

- على خيرة الله...

إنّها تحبّني ولكنّها ترحّب بالتخلّص منّي. أنا كذٰلك أودّ النجاة من البيت المكتظّ. وسرحان الهلالي وغد لا أمل فيه...

* * *

- الحياة لا تطاق والجوع يتهدّدنا...

رمقني بسخرية وقال:

- وجدت الحلّ الذي يخرسك...

- هل تحرّرت أخيرًا من المخدّر الجهنّميّ؟

- وافق الهلالي على أن يسهر هو وشلّتـه في بيتنا القديم!

لم أدرك مراده فقال:

- سنعدّ لهم حجرة للعب الورق وسوف يدرّ ذٰلك علينا رزقًا سخيًّا...

فتساءلت في ذهول:

- نادي قمار؟

- عندك دائمًا أبشع الأوصاف... ما هو إلّا ملتقى للأصدقاء.

- ولٰكن...

فقاطعني:

ـ ألا تريدين حياة طيّبة؟...

ـ ونظيفة أيضًا!

ـ ما دامت طيّبة فهي نظيفة... لا قذر إلّا النفاق...

فتمتمت بقلق:

ـ وهنالك عبّاس أيضًا؟

فصاح بغضب:

ـ أنا صاحب البيت لا عبّاس... ابنك مجنون... ولكن يهمّك ولا شكّ أن يجد الغذاء والكساء...

* * *

كثيرًا ما تختفي الشمس في هذا الخريف وتغشى قلبي كآبة ثقيلة. ويستقبل الطريق الضيّق كلّ يوم جنازة أو أكثر فيمضي بها إلى سيّدي الشعراني. والرجل كلّما خلا من الزبائن راح يحدّث نفسه. إنّي أحلم بأمل يعدني به عبّاس ولكنّه لا يجد ما يحلم به.

* * *

لِمَ لا نسجّل اللحظات السعيدة لنصدّقها فيما بعد؟ أكان هو الرجل نفسه؟ أكان صادقًا حقًّا؟ أهو الذي قال:

ـ إنّي مدين لعمّ أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر.

حرّكت رأسي بدلال وقلت:

ـ لا تبالغ!

فقال بصوت اضمحلّت صفاته إلى الأبد:

ـ حليمة... ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه في العدم!

ورغم أنّي لا أحبّه فقد أحببت كلماته ودفئت بحرارته...

* * *

جاء اليوم الموعود. قلبي يموج بالفرح والخوف. ذهبت إلى الحمّام الهنديّ. أمدّتني أمّ هاني بفستان ومعطف وحذاء. رجعت من الكوافير بهالة جديدة من شعر طال إهماله. رمقني الرجل بسخرية وقال:

ـ ما زال لديك بقيّة من استعداد للدعارة فلِمَ لا تستثمرينها في هذه الأيّام الداعرة المجيدة؟

صمّمت على ألّا أكدّر صفو الليلة بأيّ ثمن. ذهبنا إلى المسرح استُقبلنا كما ينبغي لنا. رمقني سرحان الهلالي بإعجاب. قلت:

ـ ولكنّي لا أرى المؤلّف.

فقال باسمًا:

ـ لم يحضر ولكنّي أخبرتك بما فيه الكفاية.

تبدّد الأمل الأوّل. انطفأ الشعاع الباطنيّ المجدّد لشبابي. ذهبنا لزيارة عمّ أحمد. كالعادة القديمة قدّم لنا الشاي والسندوتش. تمتم ضاحكًا:

ـ مثل الأيّام الماضية...

عمَّ تتحدّث يا عمّ أحمد؟ ليت ما كان لم يكن. حتّى الثمرة الوحيدة المعزّية غائبة. بوجودي في المكان توتّرت أعصابي وازددت حزنًا. وفي الوقت المناسب دخلنا المسرح. انشرح صدري فجأة بامتلاء المسرح وقلت:

ـ هو النجاح...

لم أسمع تعليقه. سرعان ما رأيت البيت القديم تُرفع عنه الستارة. تتابعت الأحداث. تجسّدت أمام عينيّ عذابات حياتي. تجسّدت بعد أن لم يبق منها إلّا رواسب الأنين. وجدتني مرّة أخرى في الجحيم. وأدنت نفسي كما لم أدنها من قبل. قلت هنا كان عليّ أن أهجره. هنا كان يجب أن أرفض. لم أعد كما كنت في ظنّي الضحيّة. ولكن ما هذا الطوفان من الجرائم التي لم يدرِ بها أحد؟ وما هذه الصورة الغريبة التي يصوّرني فيها؟ أهذا حقًّا هو رأيه فيّ؟ ما هذا يا بنيّ؟ إنّك تجهل أمّك أكثر ممّا يجهلها أبوك وتظلمها أكثر منه. وهل اعترضت على زواجك من تحيّة بدافع الأنانيّة والغيرة؟ أيّ غيرة وأيّ أنانيّة؟ لا... لا... إنّه الجحيم نفسه. إنّك تكاد تجعل من أبيك ضحيّة لي. أبوك لم يكن ضحيّة لشيء سوى أمّه. هذه صورة جدّتك لا أمّك. تراني عاهرة محترفة وقوّادة؟ تراني القوّادة التي ساقت زوجتك إلى السائح طمعًا في نقوده؟ أهو خيال أم هو الجحيم؟ إنّك تقتلني يا عبّاس. لقد جعلت منّي شيطان مسرحيّتك. والناس يصفّقون... الناس يصفّقون!

كنت ميتة تمامًا وأنا أدعى لحفل البوفيه. سألني الرجل:

- نشترك أم نذهب؟

يتحدّاني ويسخر منّي، ولكنّي قلت له بتحدٍّ:

- كيف لا نشترك؟!

لكنّني في الواقع لم أشترك. انغمست في غيبوبة محترقة. دوّى رأسي بأصوات متلاطمة. تماوجت أمام عينيّ وجوه غريبة تصرخ وتضحك بلا سبب. سينفجر رأسي وتقوم القيامة. لتقم القيامة. لتقم القيامة. لن يدركني حكم عادل إلّا بين يدي الله. قتلت وخنت وانتحرت فمتى أراك؟... هل يتأتّى لي أن أراك؟

وصلنا البيت القديم عند الفجر. تهالكت فوق الكنبة في الصالة على حين راح يشعل المدفأة. جاءني صوته متسائلًا:

- أعجبتك المسرحيّة؟

فقلت بفتور:

- أعجبت الجميع!

- والموضوع؟

- موضوع قويّ!

- لِمَ نتظاهر بغير ما في نفوسنا؟

- لا تفكّر كطارق رمضان الحاقد.

- كلّ شيء حقيقيّ أكثر من الحقيقة...

فقلت بغضب:

- لا علاقة بين دوري في المسرحيّة وبين الحقيقة...

فضحك ضحكة كريهة، فقلت متخطّية عذابي:

- إنّه الوهم!

- الجميع كما عرفناهم في الحياة...

- الجديد المتخيَّل أكثر من الواقع بكثير.

- لِمَ صوّرك في تلك الصورة؟

- المؤلّف شخص آخر غير ابني.

- توهّمت كثيرًا أنّه يحبّك ويحترمك!

- لا شكّ في ذلك.

- وجهك يشهد بنقيض لسانك.

- إنّي واثقة من نفسي...

- حتّى طارق!... يا لك من امرأة فذّة!...

صرخت:

- أرحني من أفكارك القذرة.

- ذلك الولد الذي زجّ بنا في السجن!

- لم يكن يصوّر نفسه، كان يصوّرك أنت.

- كم ادّعى المثاليّة!...

فقلت مغالبة اليأس في قلبي:

- عندما يعود سأذهب معه...

وغادرته إلى حجرتي. أغلقت الباب وأفحمت في البكاء. كيف لا تعرف أمّك يا عبّاس؟!

* * *

يهبط السلّم مترنّحًا يكاد يقع من الإعياء. يراني فيقول:

- كولونيا... أنا في غاية الإرهاق...

أدخل حجرتي لأجيئه بالكولونيا فيتبعني. أقول:

- إليك الكولونيا...

- شكرًا... شربت أكثر ممّا يجوز.

- وكان حظّك سيّئًا من أوّل السهرة...

ينتعش قليلًا. ينظر إليّ. يقوم إلى الباب فيغلقه. أتحفّز للردّ. يقول:

- حليمة... إنّك رائعة!...

- هلمّ إلى فوق...

اقترب منّي فتراجعت مقطّبة.

- أتخلصين لهذا الحيوان؟

أقول بجدّيّة:

- إنّي امرأة شريفة وأمّ...

وثبت إلى الباب ففتحته. تردّد ثانية واحدة ثمّ غادر الحجرة إلى خارج البيت.

* * *

ما من أحد منهم إلّا راودني عن نفسي فرفضته. عاهرة؟! لقد اغتُصبت مرّة، عاشرت أباك زمنًا قصيرًا ثمّ ترهبنت، إنّي راهبة لا عاهرة يا بنيّ. هل زوّر أبوك لك تلك الصورة الكاذبة؟ إنّي امرأة محرومة تعيسة الحظّ. ليس لي أمل سواك فكيف تتصوّرني في تلك الصورة؟! سأحدّثك عن كلّ شيء، ولكن متى ترجع؟!

* * *

المعربدة يتسلّلون إلى بيتنا العتيق بليل. بقلوبهم الآثمة المستهترة يدنّسون الطريق المفضي إلى سيّدي

الشعراني. قلبي يهبط وأنا أطالع نظراتهم الفاجرة ويطوف في إشفاق حول حجرة عبّاس. لكنّك جوهرة يا بنيّ ولا يجوز أن تختنق في وحل الفقر. ها أنا أرحّب بهم في مرح مصطنع وأتقدّمهم إلى الحجرة في الدور الأعلى التي أعدّت بقرض لاستقبالهم. وسأعمل لهم ساقية تقدّم الطعام والشراب ولا أدري أين أقف في المنحدر الوعر.

ـ يا حبيبي لا تنزعج، إنّهم أصدقاء أبيك، كلّ الرجال يفعلون ذلك...

ـ وأنت يا أمّي ما شأنك وذلك؟

ـ إنّهم زملائي في المسرح ولا يليق بي إهمالهم...

ويقول سرحان الهلالي وهو يتّخذ مجلسه إلى المائدة:

ـ مكان طيّب وآمن...

إسماعيل يفنط الورق. فؤاد شلبي يقول ضاحكًا:

ـ ممنوع جلوس تحيّة جنب طارق...

كرم يقف وراء الصندوق في طرف المائدة. طارق يعلّق ضاحكًا:

ـ صندوق نذور سيّدي كرم يونس!

سرحان يقول محذّرًا:

ـ لا صوت يعلو على صوت المعركة!

كرم يذيب الأفيون بالشاي الأسود، يا لها من بداية لا تعرف لها نهاية...!

* * *

رجعت إلى الزنزانة كما رجعت الملابس إلى صاحبتها. ها هو يجلس بوجهه الكئيب الشارد. يبيع الفول واللبّ ويشارك مع الزبائن في التشكّي من الزمان. قلت وكأنّما أحادث نفسي:

ـ نجحت المسرحيّة وحسبنا ذلك عزاء.

فقال:

ـ لا يمكن الحكم قبل مرور أسبوع.

ـ انفعال الجمهور، الانفعال هو كلّ شيء...

ـ ترى كم أعطاه الهلالي ثمنًا لها؟

ـ أوّل عمل يباع بأبخس الأثمان، وعبّاس لا يهتمّ بالمادّة...

قهقه ساخرًا، فلعنته في سرّي.

* * *

في الحجرة المترامية يرمقنا إله الشرّ باسمًا ويتمتم:

ـ أهلًا حليمة... أخمّن أنّ ابنك يقدّم مسرحيّة جديدة؟

ـ هو ذلك.

يقول مخاطبًا عبّاس:

ـ المسرحيّات السابقة لا قيمة لها.

فيقول عبّاس:

ـ إنّي أنتفع دائمًا بإرشاداتك.

ـ بودّي أن أشجّعك إكرامًا لوالدتك على الأقلّ.

* * *

الأسابيع تتلاحق والنجاح يستفحل. لم يعرف المسرح نجاحًا كهذا من قبل. الأسابيع تتلاحق والأشهر. متى يظهر المؤلّف؟ ليكن رأيك ما يكون، فلأتألّم ما شاء لي الألم ولكن أين أنت؟ وقلت لأسمع الرجل:

ـ لا شكّ أنّهم في المسرح يعرفون جديدًا عن الغائب...

ـ ذهبت إلى هناك آخر مرّة منذ عشرة أيّام...

لم أطالبه بشيء تحاميًا للسانه. كان يتردّد على المسرح من آن لآن أمّا أنا فلم أجرؤ على الذهاب منذ ليلة الافتتاح. لكنّه ذهب في ضحى اليوم التالي. إنّه يوم دافئ، مشرق الشمس، وقد خفق قلبي بأمل ملهم.

* * *

أتصوّر عجائب وغرائب ولكنّني لا أتصوّر أن يتزوّج عبّاس من تحيّة. سيذهب عبّاس ويبقى وطارق رمضان فأين عدالة السماء؟

ـ عبّاس، إنّها تكبرك بعشرة أعوام على الأقلّ...

إنّه يبتسم في استهانة فأقول:

ـ لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك؟

ـ المسألة أنّك لم تعرفي الحبّ...

تقلّص باطني بمرارة وتذكّرت أحزاني الدفينة فعاد يقول:

ـ سنبدأ حياة جديدة...

ـ لا يمكن أن يتحرّر إنسان من تاريخه...

ـ تحيّة رغم كلّ شيء طاهرة...

لم أكن منصفة ونسيت نفسي. كنت أتمنّى له مصيرًا افضل هٰذا كلّ ما هنالك. وقد زارتني تحيّة. بدت حزينة ومصمّمة. قالت لي بتوسّل:

ـ لا تقفي في سبيل سعادتي.

فقلت لها بحدّة:

ـ إنّك تسرقين البراءة.

ـ سأكون خير زوجة له. . .

ـ أنت!

تضايقتْ من لهجتي فامتقع لونها وقالت:

ـ كلّ امرأة في المسرح بدأت من سرحان الهلالي!

تقبّض قلبي. أجل كلّ واحد هناك يعرف ما يعرفه. ويستنتج ما لا يعرف. كأنّها تهدّدني. إنّني أمقتها، ولٰكنّه سيبقى ابني رغم كلّ شيء.

* * *

ألم يتأخّر الرجل عن ميعاد عودته؟

بلى. ها هي الشمس تسحب أطراف ذيلها من جدران الشارع الضيّق فماذا أخّره؟ هل عرف أخيرًا مكانه فقصده؟ هل يجيئان معًا؟ إنّي أتخيّل وجهه المهذّب الباسم وهو يعتذر. وأومن بأنّ هٰذا العذاب لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. أجل أطلعتني المسرحيّة على كوامن ضعفي ولٰكنّني حافظت دائمًا على نقاء قلبي. ثمّ ألم أكفّر عن ضعفي بما فيه الكفاية؟ من كان يتخيّل تلك الحياة مصيرًا لحليمة الجميلة الطاهرة؟ لا يخفق قلبي الآن إلّا بالسماحة والحبّ فاقض يا ربّ بما أنت قاضٍ. حتّى كرم سأغفر له وحشيّته تقديرًا لتعاسته. سأغفر له كلّ شيء عندما يعود متأبّطًا ذراع حبيبي الغائب. قلبي يخفق بإلهام عجيب ولٰكنّ مرور الوقت يكدّره. وقال لي زبون وهو يمضي بلفافته:

ـ أنت يا أمّ عبّاس في دنيا أخرى. . .

ترامى إليّ أذان العصر والعتمة تزحف فوق نهار الشتاء القصير. ليس تأخّره بلا سبب. إنّه لا يقيم وزنًا لانتظاري الملهوف ولٰكن ماذا أخّره؟ الشمعة تحترق وريح الشتاء تعصف بذبالتها. وقفت وليس في نيّتي أن أجلس ثانية. لقد تغيّر قلبي. خانني بلا ترفّق. ونفد صبري لا بدّ أن أذهب. أوّل من صادفني عند باب المسرح كان فؤاد شلبي. أقبل بحنان غير معهود وبسط لي يديه وهو يقول:

ـ أرجو أن يكون خبرًا كاذبًا. . .

فتساءلت وأنا أفقد البقيّة الباقية من الأمل:

ـ أيّ خبر؟

فارتبك الرجل ولم ينبس فتساءلت:

ـ عن عبّاس؟

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم يزد. وغبت عن الوجود.

أفقت فوجدتني مستلقية على كنبة في البوفيه وعمّ أحمد يعنى بي، وفي المكان فؤاد شلبي وطارق رمضان. حكى لي عمّ أحمد الخبر بصوت جنائزيّ ثمّ ختم بقوله:

ـ لا أحد يصدّق. . .

أوصلني فؤاد شلبي بسيّارته. تساءل في الطريق:

ـ إذا كان انتحر فأين جثّته؟

فسألته:

ـ ولِمَ كتب الرسالة؟

فأجاب:

ـ ذاك سرّه. . . وسنعرفه في حينه. . .

ولٰكنّي أعرف سرّه. أعرف قلبي. أعرف حظّي. عبّاس انتحر. الشرّ يعرفه المزمار.

عبّاس كرم يونس

البيت القديم والوحدة هما رفيقا عمري الأوّل. أحفظه عن ظهر قلب. بوّابته مقوّسة الهامة. شبّاك المنظرة ذو القضبان الحديديّة، حجراته في الطابقين ذوات الأسقف العالية والعروق الخشبيّة الملوّنة وبلاط أرضيّاتها المعصرانيّ. أثاثه القديم الشاحب من الكنبة والشّلت والحصر والأكلمة، وزجاج شرّاعات أبوابه بقطعه الملوّنة بالأحمر والأخضر والبنيّ. وأحياؤه من الفئران والصراصير والأبراص. وسطحه المغطّى بحبال الغسيل مثل أسلاك الترام والترولي باص، المطلّ على أسطح تكتظّ بالنساء والأطفال في عصارى الصيف. أجول فيه وحدي، وصوتي يتردّد بين أركانه مستذكرًا درسًا أو مسمّعًا شعرًا أو مقلّدًا مقطوعة مسرحيّة أو منشدًا أغنية. أطلّ على الطريق الضيّق متابعًا تيّار الخلق، توّاقًا إلى رفيق ألاعبه. يناديني غلام قائلًا:

ـ انزل.

فأجيبه:

ـ الباب مغلق والمفتاح مع أبي...

اعتدت الوحدة بالنهار والليل فلا أخافها، ولا أخاف الشياطين.

يقول أبي ضاحكًا:

ـ لا شيطان إلّا ابن آدم...

فتبادرني أمّي:

ـ كُنْ ملاكًا.

وأتسلّى عند الفراغ بمطاردة الفئران والأبراص والصراصير. قالت لي أمّي ذات يوم:

ـ كنت أحملك معي وأنت وليد في مهد من الجلد وأضعك على أريكة إلى جانبي في حجرة قطع التذاكر وطالما أرضعتك في المسرح.

ذلك عهد لا أتذكّره ولكنّي أتذكّر عهدًا أحدث نسبيًّا وأنا في الرابعة أو حوالى ذلك فكنت أتجوّل في صالة المسرح أو وراء الكواليس وأستمع فيما بين هذا وذاك إلى ممثّلين وهم يحفظون أدوارهم فتمتلئ أذناي بأناشيد الخير والمواعظ ونذر الشرّ والجحيم فأتلقّى تربية لم تتح لي على يدي والديّ الغائبينِ عنّي دوامًا بالنوم والعمل. وعند العرض الأوّل لكلّ مسرحيّة جديدة كنت أشهدها مع والديّ وأمضي الوقت بين الانبهار والنعاس. وأيضًا تلقّيت أوّل كتاب مصوّر عن ابن السلطان والساحرة أهدانيه فؤاد شلبي. هكذا عرفت بطل الخير وشيطان الشرّ في المسرح، ولم يكن لدى أحد من والديّ وقت لتوجيهي، فضلًا عن أنّ والدي لا يكترث بالتربية بتاتًا على حين قنعت أمّي بوصيّة فريدة تردّدها لي:

ـ كن ملاكًا.

وتشرح لي معنى الملاك بأنّه المحبّ للخير المانع للأذى النظيف الجسد والملبس. فوليّ أمري الحقيقيّ هو المسرح ثمّ الكتاب عندما يجيء وقته وآخرون لا يمتّون بصلة إلى أبويّ.

لذلك سرعان ما أحببت المدرسة لدى إلحاقي بها. انتشلتني من الوحدة وجادت عليّ بالرفاق. وكان عليّ أن أعتمد على نفسي في كلّ خطوة. أستيقظ مبكّرًا، أتناول إفطاري البارد من الجبن والبيض المسلوق في الطبق المغطّى بالفوطة. أرتدي ملابسي وأغادر البيت في هدوء حتّى لا أوقظ أبويّ النائمين. أرجع عصرًا فأجدهما يستعدّان لمغادرة البيت إلى المسرح. أبقى وحدي، أؤدّي واجباتي المدرسيّة، ثمّ أتسلّى باللعب المنفرد والقراءة ـ المصوّرة ثمّ المكتوبة ـ ولا أنسى هنا

فضل عمّ عبده بيّاع الكتب المستعمَلة الرابض بمجلسه عند مسجد سيّدي الشعراني. وأتناول عشائي المكوّن من الجبن والحلاوة الطحينيّة ثمّ أنام. لا أحظى برؤية والديّ إلّا فيما بين العصر والأصيل، وحتّى تلك الفترة القصيرة يضيع جانب منها في الاستعداد للخروج، ولا يبقى للمؤانسة والرعاية إلّا القليل. وتعلّق بهما قلبي وأشواقي، سحرني جمال أمّي وعذوبتها وحنانها، والملائكيّة التي تدعوني إليها. وبدا لي أبي كائنًا رائعًا بمداعباته الرقيقة، وضحكاته السخيّة، ولم يفسد جوّ اللقاء المحدود بتحذير أو إرشاد أو تهديد، وآثر دائمًا أن ينفقه في دعابة ومرح. ولم يزد عن أن يقول لي أحيانًا:

ـ تمتّع بوحدتك، أنت ملك البيت، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ الولد الوحيد الذي لا يعتمد على أحد، كذلك كان أبوك، وستكون أروع منه...

فتسارع أمّي قائلة:

ـ إنّه ملاك، كن ملاكًا يا حبيبي...

وأسأل أبي:

ـ هل كان جدّي وجدّتي يتركانك وحدك أيضًا؟

فيجيب ضاحكًا:

ـ أمّا جدّك فقد تركني إلى الآخرة قبل أن أعرفه وأمّا جدّتك فكانت موظّفة بالداخليّة...

وتقطّب أمّي فأشعر أنّ وراء الكلام سرًّا ما وتقول:

ـ مات جدّك مبكّرًا ولحقت به جدّتك فوجد أبوك نفسه وحيدًا...

ـ في هذا البيت نفسه؟

ـ أجل...

ويقول أبي:

ـ لو نطقت الجدران لحدّثتك بأعجب الحكايات...

كان بيت الوحدة ولكنّه كان بيت الوئام أيضًا. وقتذاك كان أبي وأمّي زوجين متوافقين، أو هكذا بدوا لعينيّ فيما بين الأصيل والعتمة. يتبادلان الحديث والدعابة، ويشتركان في عاطفة صادقة نحوي. وكان أبي يميل إلى الانطلاق في التعبير فتوقفه أمّي بنظرة تحذير ألحظها أحيانًا فأتساءل. ولحظة ذهابهما كانت لحظة أليمة، لذلك كنت أنتظر يوم الخميس بنفاد صبر لأذهب معهما وأشاهد المسرحيّة. وكلّما تقدّمت في التعليم والقراءة طالبت بمزيد من القروش لشراء الكتب حتّى كوّنت مكتبة من قصص الأطفال المستعملة... وقال لي أبي:

ـ ألا يشبعك أنّك تشاهد المسرح كلّ أسبوع؟

ولكنّي لم أكن أشبع. ووثبت بي الأحلام إلى آفاق جديدة حتّى قلت له ذات يوم:

ـ أريد أن أكتب مسرحيّة!

فقهقه عاليًا وقال:

ـ احلم بأن تكون ممثّلًا فهو أفضل وأربح...

ـ وعندي فكرة أيضًا...

ـ حقًّا؟

ورحت أحكي له فكرة فاوست وكانت آخر ما شاهدت بلا جديد أضيفه إلّا أنّني جعلت بطلها غلامًا في مثل سنّي، فتساءلت أمّي:

ـ وكيف ينتصر الغلام على الشيطان؟

فأجاب أبي:

ـ ينتصر الإنسان على الشيطان بوسائل الشيطان نفسه.

فهتفت أمّي:

ـ احتفظ بأفكارك لنفسك، ألا ترى أنّك تحدّث ملاكًا؟

منذ سنّ مبكّرة تشبّعتُ بحبّ الفنّ والخير. ناجيتهما طويلًا في وحدتي. وعُرفت بهما بين أقراني في المدرسة. تميّزت بينهم لما غلب على أكثرهم من العفرتة. وكلّما ضاق المدرّس بهم صاح:

ـ يا أبناء حيّ الغواني!

وملت إلى نخبة قليلة عُرفت بالمثاليّة البريئة حتّى كوّنّا من أنفسنا جمعيّة أخلاقيّة لمقاومة الألفاظ البذيئة. وكنّا نردّد الأناشيد ونصدّقها ونؤمن بعصر الثورة الجديدة. وعلى حين نذر البعض أنفسهم لبطولات خارقة، عسكريّة أو سياسيّة، فقد نذرت نفسي للمسرح وتصوّرته منبرًا للبطولة أيضًا، ويناسب من ناحية أخرى ضعف بصري الذي جعلني أستعمل النظّارة الطبّيّة قبل إنهاء دراستي الابتدائيّة. ومهما يكن

من اختلافنا فقد حلمنا بعالم مثاليّ جعلْنا أنفسنا على رأس مواطنيه المثاليّين. وحتّى الهزيمة لم تزعزع أركاننا، وما دامت الأناشيد لم تتغيّر، ولا تغيّر الزعيم، فماذا تعني الهزيمة؟ لقد شحب وجه أمّي وغمغمت بكلمات غير مفهومة، أمّا أبي فهزّ منكبيه كأنّ الأمر لا يعنيه وراح يردّد بصوت أجشّ ساخر:

بلادي بلادي فداك دمي

وقد توقّف المسرح عن العمل أيّامًا فنعمت ببقاء والديّ في البيت طيلة الوقت مرّة. واصطحبني أبي معه إلى مقهى بشارع الجيش فتذوّقت تجربة جديدة. وإذن فإنّ الهزيمة لم تخل من نتائج طيّبة غير متوقّعة وإن تكن قصيرة الأجل.

* * *

تقول أمّي وهي تملأ أقداحنا بالشاي:

ـ عبّاس... سيسكن عندنا غريب!

رنوت إليها غير مصدّق فقالت:

ـ إنّه صديق أبيك، وأنت أيضًا تعرفه، فهو طارق رمضان.

ـ الممثّل؟

ـ نعم، اضطرّ إلى ترك مسكنه ولم يجد في أزمة المساكن حلًّا آخر.

تمتمتُ في غير ارتياح:

ـ إنّه ممثّل تافه... ومنظره لا يسرّ...

ـ الناس للناس وأنت ملاك يا حبيبي...

وقال أبي:

ـ سيجيء مع الفجر وينام حتّى العصر ويظلّ البيت مملكتك الخاصّة عدا حجرة واحدة!

لم أشعر بمجيئه قطّ ولكنّه كان يذهب عادة مع والديّ أو في أعقابها. كان وقح النظرة فظّ التعبير. وجعل يهتمّ بي اهتمامًا متكلّفًا مجاملة لأبويّ ولكنّي لم أحترمه. وشاهد مكتبتي يومًا من مجلسه في الصالة فسألني:

ـ كتب المدرسة؟

فقالت أمّي بزهو:

ـ كتب أدب ومسرحيّات، إنّك تحدّث مؤلّفًا مسرحيًّا!

ـ اللعنة على المسرح، ليتني كنت بيّاع خردة أو لحمة راس.

عند ذاك سألته:

ـ لم لا تمثّل إلّا أدوارًا صغيرة؟

فسعل سعلة غليظة وقال:

ـ قسمتي!... حظّ أعرج يطاردني، ولولا شهامة أبيك لاضطررت للبيات في المراحيض العموميّة...

فقالت له أمّي:

ـ لا ترعب الأستاذ بكلامك يا طارق...

فقال ضاحكًا:

ـ على المؤلّف أن يعرف كلّ شيء، والشرّ خاصّة، فمن الشرّ ينبع المسرح...

فقلت بحماس بريء:

ـ ولكنّ الخير ينتصر دائمًا...

فقال ساخرًا:

ـ هو كذلك في المسرح...

* * *

ثمّة تغيّر مبهم يزحف بهدوء وحذر كالليل. ليس الصمت هو الصمت، ولا الكلام هو الكلام، ولا أبي هو أبي، ولا أمّي هي أمّي. أجل لم تكن الحياة تخلو من اختلاف أو نقار ولكنّها كانت تمضي في إطار معاشرة طيّبة. ما هذا الغامض الخفيّ الذي تسلّل بينهما؟ كانت لها إشراقة دائمة فتلاشت. وكان يعيش خارج ذاته في قهقهات وسخريات وملاطفات فانطوى على ذاته. علاقة أمّي بي ـ إلى الحنان القديم ـ اتّسمت بأسى لم تفلح في مداراته أمّا أبي فأهملني تمامًا. تسرّب إلى جنبات نفسي قلق وتوقّعات مجهولة غير سارّة. وفي مجلس الشاي قبيل الذهاب سمعت طارق يقول لهما مرّة:

ـ لا تستسلما للشيطان...

فقالت له أمّي بمرارة:

ـ ما الشيطان إلّا أنت.

فقال أبي محتجًّا:

ـ لست قاصرًا...

ولم تسترسل أمّي إكرامًا لحضوري فيما توهّمت. ولمّا غادروا البيت انتابني شعور بالحزن والضياع. لقد

حدث شيء ما في ذلك من شكّ. إنّي أسأل أمّي فتتهرّب منّي متظاهرة بالاستهانة. وأسمع حوارًا محتدمًا بينها وبين أبي وهما منفردان في الصالة فأنكمش وراء الباب الموارب متصنّتًا. تقول له بتوسّل:

- ما تزال توجد فرصة للنجاة.

فيقول لها بغلظة:

- لا تتدخّلي في شئوني الخاصّة.

- لكنّ فعلك ينعكس علينا، ألا تدرك ذلك؟

- إنّي أكره المواعظ.

- الأفيون قتل زوج خالتي!

- هذا يثبت أنّه لا يخلو من فائدة.

- لقد تغيّرت أخلاقك ولم تعد تُحتمل...

اقتحمني الخوف. إنّي أعرف الأفيون. عرفته في مسرحيّة «الضحايا». مناظر الهالكين لم تبرح ذاكرتي. هل يصير أبي واحدًا منهم؟ هل يُترك أبي المحبوب للفناء؟! وانفردت بأمّي في الصالة قبل مجيء أبي وطارق رمضان. رمقتها بحزن فسألتني:

- مالك يا عبّاس؟

فقلت بصوت متهدّج:

- إنّي أعرف، إنّه شيء خطير، لم أنس مسرحيّة الضحايا...

- كيف عرفت؟... لا، ليس الأمر كما تتصوّر...

وجاء أبي منفعلاً ممّا قطع بأنّه سمعني وصاح بي:

- يا ولد الزم حدودك...

فقلت له:

- إنّي أخاف عليك...

فصاح بصوت أفظع من الأوّل:

- اخرس وإلّا كسرت رأسك...

وأخذت وأنا أراه في صورة جديدة متوحّشة. تبدّد حلم سعيد طويل. انسحبت إلى حجرتي. تخيّلت منظرًا مسرحيًّا متكاملاً يبدأ بطرد طارق وينتهي بتوبة أبي على يديّ. وقلت إنّ الخير ينتصر إذا وجد من ينصره. ولكنّ الحال مضى من سيّئ إلى أسوأ. أبي يزداد انطواء. تلاشى الأب القديم. يغيب عنّا وإذا دعاه داعٍ إلى اليقظة فلكي يصبّ اللعنات والإهانات. بتّ أخافه وأتحاشاه. أمّي شقيّة ولا تدري ماذا تفعل. وتسأله مرّة:

- أجري وحده لا يكفي بيتك...

فيقول لها:

- انطحي الجدار.

أجل لم تعد المعيشة كما كانت. تقشّف في الطعام وتراجُع في المصروف. أنا لا يهمّني الطعام ولا النقود كيف أقتني الكتب؟ حياة الروح لا تستغني عن النقود للأسف الشديد. وأتعس ما رُميت به أنّني فقدت أبي. أين ذلك الرجل القديم؟ يثور على نظرة عينيّ ويقول لي:

- إنّك أنموذج سيّئ لا يصلح للحياة...

وتدهور الحال حتّى انفصلا تمامًا فاستقلّ كلّ منهما بحجرة. تفتّت البيت. بتنا سكّانًا غرباء في طابق واحد. عزّ عليّ مصير أمّي. ومن ذلك المنطلق تخيّلت موقفًا مسرحيًّا يدور حول معركة بين أبي وطارق، يَقتل أبي طارق رمضان ثمّ يُقبض عليه ويمضي وهو يقول لي «ليتني سمعت كلامك». يعود الظهر إلى البيت القديم ولكنّي أشعر بالندم. الندم على قسوة خيالي. وأسأل أمّي:

- كيف تواجهين تكاليف الحياة وحدك؟

- إنّي أبيع أشياء صغيرة، انتبه لعملك فأنت الأمل الوحيد الباقي...

- قلبي معك.

- أعرف ذلك ولكن لم يحن الوقت بعد لتحمل همومنا، يجب أن تعمل من أجل مهنة مفيدة...

- حلمي أن أكون مؤلّفًا للمسرح...

- مهنة لا تضمن لك ثروة.

- إنّي أحتقر المادّة، أنت تعرفين كلّ شيء عنّي...

- احتقر المادّة ولكن لا تتجاهلها...

فقلت لها بحماس:

- سينصر الخير يا أمّي...

إنّي أدمن الحلم كما يدمن أبي الأفيون. بالحلم أغيّر كلّ شيء وأخلقه. أكنس سوق الزلط وأرشّه، أجفّف طفح المجاري، أهدم البيوت القديمة وأقيم مكانها عمارات شاهقة، أهذّب الشرطيّ، أسمو بسلوك

الطلّاب والمدرّسين، أوفّر الطعام من الهواء، أمحق المخدّرات والخمر.

ويجلس أبي في الصالة ذات عصر وهو يشذّب شاربه بملقاط وقبالته طارق يرفأ جوربه. ويقول طارق:

ـ لا يخدعك فقر الفقراء فالبلد ملأى بأغنياء لا يدري بهم أحد.

فقال أبي:

ـ الهلالي يربح ذهبًا...

فيضحك طارق قائلًا:

ـ طظ في الهلالي وذهبه، حدّثني عن النساء وفائض البترول!

ـ يعجبني الجنون ولٰكنّنا عاجزون...

وتدخّلت قائلًا:

ـ كان أبو العلاء يعيش على العدس وحده...

فصاح بي أبي:

ـ انقل هٰذه الحكمة لأمّك!

وألوذ بالصمت وأنا أقول لنفسي «يا لهما من حيوانين».

* * *

تحيّة أمامي وجهًا لوجه. ناضجة الأنوثة جذّابة العينين. نظرت إليها في ذهول وأنا لا أصدّق عينيّ. في الأيّام السابقة للامتحان كنت أسهر الليل وأنام في النهار. فتح الباب وأنا أتمشّى في الصالة ودخلت تحيّة أمّا أبي وأمّي فقد سبقا للنوم. دخلت تحيّة وفي أثرها طارق رمضان. إنّي أعرفها وطالما رأيتها فوق خشبة المسرح تقوم بأدوارها الثانويّة مثل طارق. نظرت إليها بذهول فقالت باسمة:

ـ ماذا يوقظك في هٰذه الساعة المتأخّرة؟

فقال طارق:

ـ إنّه مجاهد يسهر الليل في طلب العلم وبعد أسبوع سيدخل امتحان الإعداديّة...

ـ برافو...

ومضيا يصعدان السلّم إلى حجرة طارق. دار رأسي. فار دمي. أيجيء بها إلى حجرته من وراء أبي وأمّي؟! أليس لها بيت يذهبان إليه؟ أيّ تدهور يهبط ببيتنا إلى الحضيض؟ عجزت عن تركيز ذهني واحترق رأسي بالفكر. هاجني الشرّ وأنا أعاني المراهقة والرغبات الجامحة وأكافحها بالإرادة والطموح إلى النقاء. واشتعلت بالغضب حتّى صرعني النوم. وأقبلت على والديّ وهما يجلسان في الصالة عصرًا. ما إن رآني أبي حتّى تساءل في توجّس:

ـ ماذا وراءك؟

فقلت بتدفّق حارّ:

ـ حدث غريب لا يتصوّره عقل، جاء طارق بتحيّة إلى حجرته أمس!

فمدّ إليّ بصره الثقيل وثبّته عليّ دون أن ينبس فتوهّمت أنّه لا يصدّقني فقلت:

ـ لقد رأيت بعينيّ...

فسألني ببرود مثير:

ـ ماذا تريد؟

ـ أردت أن أخبرك لتؤدّبه وتفهمه أنّ بيتنا بيت محترم، يجب أن تطرده...

فقال بحدّة:

ـ انتبه لعملك ودع شئون البيت لصاحبه...

وقالت أمّي بصوت منخفض ذليل:

ـ إنّها خطيبته...

ـ ولٰكنّه لم يتزوّجها بعد!

فخاطب أبي أمّي قائلًا بسخرية وهو يومئ ناحيتي:

ـ يريد أن يموت جوعًا...

فقلت محتجًّا بدفقة غضب:

ـ نحن الذين أفقرنا أنفسنا...

فرفع قدح الشاي ليرميني به ولٰكنّ أمّي وثبت بيننا، ومضت بي إلى حجرتي. رأيت عينيها منذرتين بالدمع وقالت لي:

ـ لا فائدة ترجى منه فلا تحتكّ به، بودّي لو نهجر البيت معًا، ولٰكن أين نذهب؟ أين نجد مسكنًا؟ ومن أين لنا بالنقود؟!

لم أجد جوابًا. تبدّت لي الحقيقة ببشاعتها وبلا رتوش. لقد أذعنت أمّي مغلوبة على أمرها. وغُلب أبي على أمره مهزومًا بإدمانه. إنّه مسئول ما في ذٰلك شكّ ولٰكنّه مغلوب على أمره. إنّه أكثر من ذٰلك فإنّه

يبدو أحيانًا بلا مبادئ على الإطلاق. إنّي أحتقره بقدر ما أرفضه. لقد جعل من مأوانا العتيق بيت دعارة. أنا أيضًا ضعيف ما دمت لا أجد ما أفعله إلّا أن أذرف الدمع الغزير...

* * *

نجحت غير أنّي لم أسعد بالنجاح كما ينبغي. لازمني الشعور بالعار. استقرّ بأعماقي حزن مقيم. هاجرت في العطلة الطويلة إلى دار الكتب. كتبت مسرحيّة. رجوت أبي أن يعرضها على سرحان الهلالي ولٰكنّه قال لي:

- إنّه ليس مسرح أطفال...

تطوّعت أمّي بتقديمها إليه. رجعت بها بعد أسبوعين وقالت لي:

- لا تتوقّع أن تُقبل أولى مسرحيّاتك وما عليك إلّا أن تعيد التجربة...

حزنت ولٰكنّي لم أيأس. وكيف أيأس بعد أن لم يعد لي من أمل إلّا المسرح؟ وصادفت ذات يوم الأستاذ فؤاد شلبي في قاعة المطالعة فصافحني وذكّرته بنفسي فرحّب بي. وتشجّعت بلطفه وسألته:

- كيف أكتب مسرحيّة مقبولة؟

فسألني بدهشة:

- ما عمرك؟

- ماشي في السادسة عشرة.

- في أيّ مرحلة تعليميّة؟

- الثانويّة بدءًا من العام القادم.

- ألا تنتظر حتّى تكمل تعليمك؟

- أشعر بقدرة على الكتابة.

- لٰكنّك لم تفهم الحياة بعد.

- عندي فكرة عنها لا بأس بها.

فسألني باسمًا:

- ما هي الحياة في نظرك؟

- هي معركة الروح ضدّ المادّة.

فازدادت ابتسامته اتّساعًا وهو يتساءل:

- والموت ما موقعه من هٰذه المعركة؟

فقلت بثقة:

- هو الانتصار النهائيّ للروح!

فربّت على منكبي وقال:

- ليت الأمور بهٰذه البساطة، تلزمك تجارب كثيرة، ابحث أيضًا عمّا يهمّ الناس ويثيرهم، إنّي أطالبك بخوض خضمّ الحياة والانتظار عشرة أعوام على الأقلّ...

دفعني حديثه في جوف الوحدة أكثر ممّا كنت. إنّه يتصوّر أنّني بمنجاة من التجارب. لعلّه غاب عنه ما يحدث في بيتنا. وغاب عنه أيضًا جهاد النفس في معركة المراهقة. النزاع الذي لا يهدأ بين السموّ والشهوات. بين أشعار المجانين والخيام. بين تحيّة العابثة في الحجرة العليا وطيفها الزائر للخيال. بين الطين وقطرات السحب البيضاء.

* * *

إنّ ما يفعل بالحجرة المجاورة لحجرة طارق عجيب. بيعَ أثاثها القديم، اشتري لها أثاث جيل من مزاد علنيّ. توسّطتها مائدة خضراء، غطّى بلاطها المعصراني بساط كبير، قام في جدارها الأوسط بوفيه، إنّه استعداد غامض. وأسأل أمّي فتقول:

- أبوك يعدّها للسمر مع أصدقائه كما يفعل الرجال...

رمقتها بارتياب فما عاد اسم أبي يوحي إلّا بالارتياب فقالت:

- سيسهرون سهرتهم عقب إغلاق المسرح...

تعوّدت أن أقبع في الظلام في حجرتي لأرى الأشياء. لا تُرى الحوادث على حقيقتها في بيتنا إلّا من الظلام. وقد جاء الصحاب في هزيع موغل من الليل. رأيتهم يتقاطرون، في المقدّمة والدي، الهلالي، إسماعيل، سالم العجرودي، فؤاد شلبي، طارق، تحيّة. تسلّلت إلى الدور الأعلى في الظلام. قد تحلّقوا المائدة ودار الورق. إنّه القمار كما رأيته في المسرح. مآسي المسرح تنتقل إلى بيتنا بأبطالها أو ضحاياها. هٰؤلاء الناس يتصارعون فوق الخشبة أمّا هنا فيقفون صفًّا واحدًا في جانب الشرّ. إنّهم ممثّلون. حتّى الناقد ممثّل أيضًا. لا شيء حقيقيّ إلّا الكذب. إذا جاء الطوفان فلن يستحقّ السفينة إلّا أمّي وأنا. إن يكن للنيّة قيمة إذ لا عمل لنا. حتّى أمّي تعدّ الطعام

والشراب. وأقول لها:

ـ ما كان ينبغي أن تقومي بخدمة السفلة...

فتقول كالمعتذرة:

ـ إنّهم زملاء وأنا ربّة البيت...

ـ أيّ بيت؟ ما هو إلّا ماخور ونادٍ للقمار...

فتقول بأسى:

ـ أتمنّى لو أهرب، لو نهرب معًا، ولٰكن ما الحيلة؟

فأقول بحنق:

ـ لذٰلك أكره النقود!

ـ لٰكنّها ضروريّة، هٰذه هي المأساة، على أيّ حال فلا أمل لي سواك...

* * *

ما الخير؟ ما الخير بلا عمل؟ لا ينشط إلّا الخيال. الخيال ميدانه المسرح. البيت غنيمة في يد السفلة. حداثة سنّي ليست بالعذر المقبول. إنّه العجز. لذٰلك مرّ النصر كخبر. في الأقران من الطلبة حياة لا أشارك فيها إلّا بالحماس والخيال. تتحوّل الكلمات الجميلة إلى صور لا أفعال. إنّهم يرقصون رقصة الموت على حين أصفّق أنا خارج الحلبة. ويجيء فؤاد شلبي بدرّيّة ليتناجيا في الحجرة الثالثة تحت إطار البسملة المهداة من جدّي. وقلت لأمّي:

ـ شلبي ودرّيّة أيضًا، علينا أن نذهب.

فقالت محمرّة العينين:

ـ ليس قبل أن تستطيع ذٰلك أنت.

ـ إنّي أختنق.

ـ وأنا مثلك وأكثر.

ـ هل الأفيون هو المسئول عن ذٰلك كلّه؟

فلم تنبس فقلت:

ـ ربّما كان نتيجة وليس السبب.

ـ أبوك مجنون.

ثمّ بصوت منخفض:

ـ ولٰكنّي مسئولة عن انخداعي به...

ـ أودّ أن أقتله...

فمسّت ذراعي بحنان وهمست:

ـ انغمس في العمل فأنت الأمل الباقي...

* * *

ليلة النار التي أهلكت آخر نبتة خضراء. من الظلام رأيت سرحان الهلالي يهبط السلّم مترنّحًا. شعره منفوش، عيناه مظلمتان يسوقه جنون أعمى. لماذا هجر الحجرة والمعركة محتدمة؟ خرجت أمّي من حجرتها مستطلعة وكنت أظنّها فوق. لاقته أسفل السلّم، تهامسا بما لم تبلغه أذناي. دخلت حجرتها فاندفع وراءها. توثّبت للاندفاع ولٰكنّني لم أتحرّك. أهمّني أن أعرف الحقيقة أكثر من أن أمنعها. أمّي أيضًا؟! لعلّه أغمي عليّ دقائق. هي النهاية التي ليس وراءها نهاية. تفتّت الكون وضجّ بسخرية الشياطين. اندفعت إلى الصالة ومنها إلى الحجرة وقد غرقت في الظلام. أضأت النور فوجدتها خالية. أطفأت النور وخرجت إلى الصالة وأضأتها. لبثت واقفًا بوعي مشتّت. وإذا بوالدي يهبط السلّم حتّى يقف أمامي ويسألني بخشونة:

ـ ماذا أيقظك؟

فقلت وأنا لا أدري ماذا أقول:

ـ أرق طارئ.

ـ هل رأيت سرحان الهلالي؟

ـ إذا لم يكن فوق فقد غادر البيت.

ـ متى؟

ـ لا أدري.

ـ هل رأته أمّك؟

ـ لا أدري.

رجعت إلى حجرتي. لبثت واقفًا في الظلام يشتعل رأسي بأفكار جنونيّة. لم أشعر بمرور الوقت حتّى انتبهت إلى وقع أقدام الراحلين. لم يبق في الصالة إلّا أبي وأمّي. ألصقت أذني بثقب الباب لأسمع ما يدور. سمعته يسألها:

ـ ماذا حدث من وراء ظهورنا؟

لم تجب فعاد يسأل:

ـ عبّاس رأى؟

لم تجب أيضًا فقال:

ـ هو الذي ألحقك بالعمل... معروف أنّه لم يعتق امرأة واحدة حتّى أمّ هاني...

لم أسمع لها صوتًا فعاد يقول:

ـ لا شيء بلا ثمن، هٰذا ما يهمّني، أمّا أنت فلا تستحقّين الغيرة...

أخيرًا جاء صوتها قائلًا:

ـ إنّك أحقر من حشرة!

فقال مقهقهًا:

ـ إلّا حشرة واحدة.

هٰذه هي الحقيقة. هٰذا أبي وهٰذه أمّي. النار تتهادى في الاشتعال. أغمد خنجرك فحتّى قيصر قد قُتل. سيرانو دي برجراك صاول الأشباح. إنّي أرفض أبويّ. القوّاد والداعرة. لا أنسى أنّني رأيتها وفؤاد شلبي يتهامسان مرّة فلم يداخلني سوء ظنّ. ومرّة اخرى مع طارق رمضان نفسه فلم يداخلني شكّ. الجميع... الجميع... بلا استثناء... لِمَ لا؟ هي عدوّي الأوّل. أبي مجنون مدمن أمّا أمّي فهي المدبّرة لما يجري في الكون من الشرّ.

* * *

جاءني في حجرتي صوت أمّي مناديًا فلم أستجب. من عجب أنّ مقتي لأبي متجسّد واضح أمّا شعوري نحوها فيتجسّد في سخط عارم لا كراهية واضحة. سرعان ما جاءت فأخذتني من يدي وهي تقول:

ـ أجّل القراءة وكرّس لنا هٰذا الوقت القصير النادر...

أجلستني إلى جانبها في الصالة، قدّمت لي الشاي، قالت:

ـ أنت لا تعجبني هٰذه الأيّام...

تجنّبتُ النظر إلى وجهها فقالت:

ـ إنّي أعلم بما يحزنك ولٰكن لا تضاعف آلامي، ساعة الخلاص تقترب وسنذهب معًا...

يا لها من مخادِعة. تمتمت:

ـ لا يطهّر هٰذا البيت إلّا حرقه!

ـ حسبك قلبي الذي يعبدك!

هل أصبّ عليها الحمم الذي يمور به قلبي؟ لٰكنّ خيالي كان يدمّر كلّ شيء ثمّ يقف حائرًا أمام عينيها. وسألتني:

ـ هل تكتب مسرحيّة جديدة؟

فقلت:

ـ ستذكّرك بمسرحيّة «المرأة السكّيرة».

إنّها مسرحيّة تقدّم عالمًا أسود من النساء الساقطات فقالت:

ـ لا... فلتشرق مسرحيّاتك بنور قلبك...

عند ذاك خرج أبي من حجرته ونزل طارق وتحيّة. وقفت لأرجع إلى حجرتي ولٰكنّ تحيّة اعترضت سبيلي قائلة بمرح:

ـ اجلس معنا أيّها المؤلّف...

لعلّها أوّل مرّة تعيرني اهتمامًا فجلست على حين قال طارق ضاحكًا:

ـ سيكون هٰذا المؤلّف تراجيديًّا...

فتمتم أبي ساخرًا:

ـ إنّه مريض بداء الفضيلة!

فقالت تحيّة وهي ترشف من قدحها رشفة:

ـ جميل أن يوجد في زماننا هٰذا فاضل...

فقال أبي:

ـ بصره ضعيف كما ترين فهو لا يرى ما حوله.

فقالت تحيّة:

ـ دعوه في جنّته، إنّي أحبّ الفضيلة أيضًا!

فقال طارق ضاحكًا:

ـ فضيلتك من النوع الضاحك المقبول.

فقالت تحيّة:

ـ إنّه وسيم مثل أمّه... قويّ كأبيه... يجب أن يكون دون جوان.

فقال أبي ساخرًا:

ـ انظري إلى نظّارته، عيبه أنّه لا يرى...

ولمّا ذهبوا فاض قلبي بالغضب والافتتان. نشط خيالي ليهدم ويعيد البناء. ما تحيّة إلّا صورة من أمّي بل هي أفضل. عندما اعترضت سبيلي مسّتني فحرّكت حلمًا جديدًا. عندما تذكّرت مسّها لي وأنا وحيد انبثقت من سعير نفسي فكرة. هٰذه الدار العتيقة التي بناها جدّي بعرق جبينه وكيف تحوّلت إلى ماخور! هٰذه هي الفكرة. لا دليل لديّ على نجاحها إلّا ارتعاشة الفرح التي خامرتني. هل تصلح أساسًا لمسرحيّة؟ وهل تقوم مسرحيّة بلا حبّ؟

* * *

سمعت على الباب نقرًا خفيفًا. فتحته فرأيت تحيّة. ماذا جاء بها قبل ميعاد مجلس الشاي؟ دخلت وهي تقول:

ـ الجميع نيام إلّا أنت...

وقفت في وسط الحجرة بملابس الخروج تجيل النظر في أنحائها وتقول:

ـ إنّها بيت لا حجرة، مكوَّن من غرفة نوم ومكتبة، هل أجد عندك حلوى؟...

فقلت معتذرًا:

ـ آسف...

استوى جسمها الناضج في وسط الحجرة في هالة من الإثارة والجاذبيّة. ورأيت لون عينيها لأوّل مرّة كالشهد الرائق. قالت:

ـ يجب أن أذهب ما دام لا يوجد عندك إلّا الكتب...

ولٰكنّها لم تتحرّك بل راحت تقول:

ـ لعلّك تتساءل عمّا دفعني للخروج مبكّرة، إنّي ذاهبة إلى شقّتي في شارع الجيش، ألا تعرفها؟ إنّها تبعد عن باب الشعريّة بمحطّة ترام... العمارة ١١٧.

سألتها وقد ثملت تمامًا بحضور الأنوثة الفوّاح:

ـ انتظري حتّى أجيئك بحلوى من الخارج...

ـ سأجد في الطريق ما يلزمني، إنّك لطيف جدًّا...

فقلت متناسيًا في تلك اللحظة ما يرمز إليه وجودها من معاناة لضميري.

ـ أنت اللطيفة حقًّا...

فرنت إليّ بنظرة موحية بالأحلام وتحرّكت ببطء ورشاقة نحو الباب فهمست على رغمي:

ـ لا تذهبي... أعني... خذي راحتك...

لٰكنّها ابتسمت في ارتياح ظافر ومضت وهي تقول:

ـ إلى اللقاء...

تركت وراءها في الحجرة الهادئة عاصفة من الانفعالات البهيجة. لم تجئ لغير ما سبب ولم تذكر رقم العمارة اعتباطًا. خفق قلبي المحروم المتشبّث بالبراءة. لأوّل مرّة يجد قلبي امرأة حقيقيّة ليهيم بها. إنّه لم يَهِمْ قبل ذٰلك إلّا بليلى ولبنى وميّة وأوفيليا وديدمونة. وفيما تلا ذٰلك من أيّام أصبح لكلّ نظرة نتبادلها خلسة معنى جديد يوكّد سحر الحياة. في غفلة من الحضور نتبادل حوارًا ساخنًا. وتساءلت وأنا من الحيرة في عناء ترى أأرتفع أنا أم أهوي إلى الحضيض؟!

* * *

ورغم رياح أمشير المزمجرة في الخارج ترامى إلى أذنيّ من الطابق الأعلى صخب وعنف. رقيت في السلّم مستكشفًا فرأيت ـ في الصالة ـ طارق وهو ينهال لطمًا على وجه تحيّة. تسمّرت ذاهلًا. توارت هي في الحجرة على حين قال لي هو في برود:

ـ أزعجناك!

فتمتمت وأنا أكتم انفعالاتي:

ـ معذرة.

ـ لا تنزعج واستمتع بمشاهدة بعض عاداتنا اليوميّة...

وجاء صوتها المتهدّج من الداخل صائحًا:

ـ لن أرجع هٰذه المرّة...

وسرعان ما تبعها طارق وأغلق الباب.

ورجعت بحزن جديد غاص بي أكثر في قلب الظلام. لِمَ ترضى امرأة جميلة مثل تحيّة بحياة مهينة مع رجل كطارق؟ هل يتكشّف الحبّ أيضًا عن مأساة؟ وقد غابت بالفعل يومين ولٰكنّها رجعت في الثالث مشرقة الوجه! تقلّص قلبي وتضاعف حزني. احتقرت سلوكها ولٰكنّ حبّي لها تجسّد لي حقيقة لا مفرّ منها. ولعلّه ولد ونشأ ونما من قبل أن أعيه بزمن غير قصير. وفي ذٰلك اليوم عندما مضوا يغادرون المكان تأخّرتْ لإصلاح جوربها ثمّ أسقطت من يدها لفافة ورق صغيرة قبل اللحاق بهم. بسطتُ الورقة بقلب مرتعش بالبهجة فقرأت العنوان والساعة.

* * *

الشقّة صغيرة مكوّنة من حجرتين ومدخل ولٰكنّها جميلة ونظيفة وتعبق بشذا بخور عذب. على منضدة في المدخل استقرّ أصيص برتقاليّ كرويّ تنطلق منه باقة ورد وزهور كنافورة. استقبلتني باسمة في روب كحليّ وهي تقول مشيرة إلى الورد:

- احتفالاً بيوم اللقاء.

دفعتني أشواق متراكمة إليها فتعانقنا طويلاً وتذوّقت فرحة القبلة الأولى. ولو تُرك الخيار لي لانتهى اللقاء قبل أن ننفصل ولكنّها تخلّصت بلطف وقادتني إلى حجرة جلوس زرقاء بسيطة وأنيقة فجلسنا جنبًا إلى جنب على الكنبة الرئيسيّة. قالت بصوت منخفض:

- تصرُّفنا جريء ولكنّه عين الصواب.

فردّدت بتوكيد:

- عين الصواب.

- ليس ممكنًا أن نخفي ما بنا أكثر...

فقلت مصمّمًا على إزاحة الطفولة:

- عين الصواب، أنا أحبّك من زمن طويل.

- حقًّا؟... أنا أيضًا... هل تصدّق أنّي أحبّ لأوّل مرّة!

لم أنبس ولم أصدّق فقالت بحرارة:

- لقد رأيت بنفسك وسمعت ربّما ما هو أكثر، ولكنّه التخبّط لا الحبّ...

فقلت بأسف:

- حياة لا تليق بواحدة مثلك...

فاستأنست بكلامي وقالت:

- لا يَسأل متسوّل عمّا يليق وعمّا لا يليق...

- يجب أن يتغيّر كلّ شيء...

- ماذا تعني؟

- يجب أن نبدأ حياة لائقة.

فتمتمت بتأثّر:

- لم أصادف أحدًا مثلك؛ كانوا كلّهم حيوانات...

فتساءلت بامتعاض:

- كلّهم؟

- لا أريد أن أخفي عنك شيئًا، سرحان الهلالي، سالم العجرودي، وأخيرًا طارق...

صمتُّ... تذكّرت أمّي. أمّا هي فقالت:

- إن كنت ممّن لا ينسون الماضي فالفرصة ما زالت متاحة للتراجع.

أخذت راحتها بين راحتيّ، شعرت بقوّة ذاتيّة تدفعني للقوّة والتحدّي، فقلت:

- لا أبالي إلّا بالقيمة الحقيقيّة...

- حدّثني قلبي دائمًا بأنّك أكبر من مخاوفي الصغيرة.

- لست طفلاً...

فقالت باسمة:

- لكنّك ما زلت تلميذًا.

- ذٰلك حقّ، ما زالت أمامي مرحلة طويلة...

فقالت ببساطة مخلصة:

- أصبح لديّ مدّخر قليل وبوسعي أن أنتظر...

لكنّني وقعت في أسر الحبّ، وفاضت بي رغبة كامنة في هجر البيت الملوّث الكئيب، فعقدت العزم على اتّخاذ قرار يحول بيني وبين التراجع ويفتح لي في الوقت ذاته طريقًا جديدًا. قلت:

- بل يجب أن نعقد زواجنا في الحال...

فتورّد وجهها وازداد حسنًا وأرتج عليها القول. فقلت:

- هٰذا ما يجب علينا.

قالت بانفعال:

- الحقّ أنّي أريد أن أغيّر هٰذه الحياة، أريد أن أهجر المسرح أيضًا، لكن هل تضمن أن يمدّك أبوك ببعض المال؟

فقلت باسمًا في أسى:

- هيهات أن يفعل، وهيهات أن أقبل مالاً ملوّثًا...

- وكيف إذن نتزوّج؟

- بعد قليل سأفرغ من دراستي الثانويّة، لن أجنّد لضعف بصري، فمن الأفضل أن أعمل، خاصّة وأنّ موهبتي تعتمد على الدراسة الخاصّة أكثر من الدراسة النظاميّة...

- هل يكفي في هٰذه الحال مرتّبك؟

- لقد طلب أبي إعفاءه من عمله في المسرح اكتفاء بما يربحه من القهار وغيره، وهم الآن بصدد البحث عن ملقّن، سأتقدّم لأحلّ محلّ أبي فأجد عملاً في جوّ المسرح الذي أعقد به أملي في الحياة... يضاف إلى ذٰلك أنّك تستأجرين شقّة فلن تصادفنا عقبة السكن...

- هل أستمرّ في عملي بالمسرح حتّى تتحسّن الأحوال؟

فقلت بحدّة:

- كلّا... يجب الابتعاد عن أولٰئك الرجال...

- قلت إنّه لديّ مدّخر قليل ولٰكنّه لن يبقى حتّى تقف على قدميك...

فقلت بحماس:

- علينا أن نتحمّل حتّى نبلغ النجاح المنشود...

عند بلوغ ذٰلك المرفأ استسلمنا لعواطفنا ونسينا إلى حين كلّ شيء. وربّما لولاها ما واصلنا الحديث، ولٰكنّها تخلّصت من ذراعيّ بحنان وهي تهمس:

- يجب أن أتخلّص من طارق... لن أراه مرّة أخرى.

فسألتها بضيق:

- سيجيء إلى هنا.

- لن أفتح له الباب.

فقلت بتحدٍّ:

- سأخبره بكلّ شيء...

فقالت بقلق:

- أرجو ألّا تتطوّر الأمور إلى ما يسوء...

فقلت بكبرياء:

- إنّي على استعداد لمواجهته...

* * *

رجعت إلى باب الشعريّة مخلوقًا جديدًا. لأوّل مرّة أراها من خلال نظرة المودّع فتلوح في غلالة أجمل وأجذب للحنان. عمّا قليل سأنتقل من مقاعد المتفرّجين لألعب دورًا في مسرح الحياة. سأستنشق هواء نقيًّا غير هواء هٰذا البيت القديم العطن. جلست في الصالة الخالية في الدور الأرضيّ حتّى رأيت طارق هابطًا. حيّاني ثمّ سألني:

- ألم تحضر تحيّة؟

فقلت وأنا أتوثّب للنزول:

- كلّا.

- لم أقابلها في المسرح.

- لن تذهب إلى المسرح.

- ماذا تعني؟

- لن تحضر إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح.

- من أدراك بهٰذه الأسرار كلّها؟

- سنتزوّج.

- هه؟!

- اتّفقنا على الزواج...

- يا بن... أنت مجنون؟!... ماذا تقول؟

- قرّرنا أن نكون شرفاء معك.

ما أدري إلّا ويده تلطمني. ثار غضبي فوجّهت إليه لكمة كادت تلقيه على الأرض. وإذا بوالديّ يندفعان نحونا. صاح طارق:

- شيء مضحك... المحروس سيتزوّج من تحيّة...

هتفت أمّي:

- تحيّة!... إنّها أكبر منك بعشرة أعوام...

راح طارق يهدّد حتّى قالت له أمّي:

- خذ ملابسك ومع السلامة...

صاح وهو يمضي إلى الخارج:

- باقٍ على أنفاسكم حتّى النهاية...

وسادنا الصمت قليلًا. تمتم أبي ساخرًا:

- في العشق يا ما كنت أنوح...

وقالت لي أمّي:

- عبّاس... ما هي إلّا نزوة إغراء.

- لا... إنّها حياة جديدة...

- وأحلامك ومستقبلك؟

- ستتحقّق على خير مثال.

- ماذا تعرف عنها؟

- لقد صارحتني بكلّ شيء...

فقهقه أبي قائلًا:

- بنت مسارح وتعرف الأصول... وأنت شابّ غريب... كان يجب أن تزهدك معرفتك لأمّك في جنس النساء...

عند ذاك مضت بي أمّي إلى حجرتي، وقالت لي:

- لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذٰلك؟

تجنّبت النظر إليها. طحنتني من جديد الآلام الماضية. قلت:

- من سوء الحظّ أنّك لم تعرفي الحبّ... سنبدأ حياة جديدة.

- لا يمكن أن يتحرّر إنسان من تاريخه...

أوّاه... إنّها لا تدري أنّني أدري... وقلت:

ـ تحيّة رغم كلّ شيء طاهرة...

ليتني أستطيع أن أقول عنك ذلك أيضًا يا أمّي...

* * *

ما إن أتممت المرحلة الثانويّة حتّى قابلت سرحان الهلالي راجيًا أن أحلّ مكان أبي. وفي الحال عقدت زواجي بتحيّة. ودّعت البيت القديم وأهله بلا احتفال وكأنّما أمضي إلى المدرسة أو دار الكتب. لم يتفوّه أبي بتهنئة أو دعاء ولكنّه قال:

ـ لماذا كان اجتهادك في المدرسة ما دام المصير هو عمل ملقّن في الفرقة؟

أمّا أمّي فقد عانقتني وهي تنشج بالبكاء وقالت لي:

ـ ربّنا يسعدك ويكفيك شرّ النّاس، اذهب مصحوبًا بالسلامة ولا تنسَ زيارتنا...

ولكنّ العودة إلى الجحيم لم تخطر لي ببال. تطلّعت إلى حياة جديدة وإلى هواء نقيّ. وتمنّيت أن أنسى البؤرة التي انصهرت فيها معانيًا آلام العذاب والغمّ. ووجدت تحيّة في انتظاري، كما وجدت الحبّ ينتظر أيضًا. وعرفت السعادة عندما تترجَم إلى امتزاج بين اثنين متوافقين، فتضفي سحرها على الحديث والصمت، الجدّ واللهو، الطعام والعمل. وكانت تكمل بمدّخرها ما يقصّر عنه مرتّبي. وحظيت باستقرار نفسيّ عوّضني عمّا بدّده القلق والتشتّت والحزن والغضب الكظيم. وكنت أرجع إلى البيت حوالى الثانية صباحًا، أستيقظ حوالى العاشرة، ويتّسع الوقت بعد ذلك للحبّ والقراءة والكتابة أيضًا. وكان كلانا يعقد أمله بالنجاح المأمول في تأليفي المسرحيّ. وفي سبيل ذلك رضينا بالبساطة في العيش، بل بالتقشّف أيضًا، وضاعف الاجتهاد والصبر والأمل من سعادتنا المشتركة. وأثبتت تحيّة بجدارة قوّة إرادتها فلم تذق قطرة من خمر على تعلّقها القديم بها، بل امتنعت أيضًا عن عادة التدخين توفيرًا لثمنه. واعترفت لي بأنّ قدمها كادت تنزلق إلى إدمان الأفيون لولا أنّ تعاطيها له صُحب بأعراض صحّيّة سيّئة كالقيء الشديد فكرهته من أوّل الأمر. ولاحظتُ مهارتها كستّ بيت حتّى قلت لها مرّة:

ـ بيتك نظيف دائمًا ومنظّم، طعامك ممتاز، معاملتك مهذّبة، ما كان يجوز...

وانقطعت عن تكملة الجملة فقالت:

ـ مات أبي فتزوّجت أمّي من محضَر، لقيت منهما الإهمال ومنه سوء المعاملة حتّى اضطررت إلى الهرب...!

لم تزد ولم أسأل عن مزيد. تخيّلت على رغمي ما حدث حتّى عملت ممثّلة ثانويّة عند سرحان الهلالي.

على رغمي أيضًا تذكّرت أمّي وعملها في المسرح نفسه وتحت رحمة سرحان الهلالي. أضمرت حربًا لا هوادة فيها على كافّة ألوان العبوديّة التي يتعرّض لها النّاس. لكن هل يكفي المسرح ميدانًا لهذه الحرب؟... وهل تُغني فكرة البيت القديم الذي تدهور فصار ماخورًا؟!

* * *

حافظت تحيّة على رقّتها وعذوبتها بصورة مباركة. لم تعرف علاقة أمّي وأبي ذلك حتّى في أيّام طفولتي السعيدة. إنّها ـ تحيّة ـ ملاك حقًّا. وآي ذلك تصميمها الناجح على محق عاداتها السيّئة التي شابتها في عهد الأحزان. وهي تحبّني بصدق، وقد تجلّى ذلك في حرصها على الإنجاب. ولم أكن أرحّب به، وكنت أخافه على مواردنا المحدودة، وعلى حياتي الفنّيّة المفضّلة عندي على كلّ شيء في الحياة، حتّى الحبّ نفسه. غير أنّني كرهت أن أحول بينها وبين أمنيتها الأثيرة، وأبت أخلاقيّتي الإذعان للأنانية. وكان الغلاء يتصاعد غير مكترث بتقشّفنا وآمالنا فحملنا على التفكير في وسيلة جيّدة لمجابهته. وفي تلك الأثناء تحقّقت أمنيتها في الحمل فركبني همّ جديد. وكان عليّ أن أستعدّ للمستقبل القريب والبعيد معًا، ثمّ أقنعني الحال بأنّه لا مفرّ من الاستعانة بعمل إضافي إن أمكن.

وكنت قد تعلّمت الكتابة على الآلة الكاتبة محاكاة لما سمعته عن استعمال الكتّاب الأمريكيّين والأوروبّيّين لها بدلًا من القلم. وكنت أمرّ أمام مكتب «فيصل» للآلة الكاتبة في طريقي إلى المسرح فعرضت نفسي على صاحبه، وسرعان ما قبلني بعد اختبار أجراه بنفسه. قبلت العمل من الثامنة صباحًا حتّى الثانية بعد

الظهر، وقدّر أجري بالقطعة. وقد استقبلت تحيّة الخبر بعواطف متضاربة. قالت:

- تنام في الثانية صباحًا لتستيقظ في السابعة على الأكثر بدلًا من العاشرة، تعمل من الثامنة إلى الثانية، ترجع في الثالثة، ستنام ساعتين على الأكثر ما بين الرابعة والسادسة، لا راحة، ولا وقت للقراءة أو الكتابة. . .

فقلت:

- ما الحيلة؟

- أبوك غنيّ. . .

فقلت باستياء:

- لا أقبل ملّيمًا ملوّثًا. . .

ورفضت الاستمرار في المناقشة. حقًّا إنّها امرأة ممتازة ولكنّها عمليّة فيما يتعلّق بالحياة. وكانت في قرارة نفسها تفضّل الاستعانة بأبي على الانغماس الكلّيّ في العمل الذي سلبني الوقت والفنّ والراحة. وقد اعتذرت من عدم الذهاب إلى مكتب فيصل يومين لأتمّ مسرحيّة. قدّمتها لسرحان الهلالي. نظر إليّ باسمًا وتساءل:

- ما زلت مصرًّا؟

وفي فترة الانتظار نعمت بأحلام جميلة. أجل أصبح الفنّ هو الأمل الباقي للرغبة الملتهبة وللحياة الواقعيّة معًا. وكنت شرعت في كتابة المسرحيّة قبل أن تنبثق في نفسي فكرة البيت والماخور التي لم تتبلور بعد فأتممتها وأنا فرح بأخلاقيّتها المثاليّة غير أنّ سرحان الهلالي ردّها إليّ وهو يقول:

- أمامك مشوار طويل. . .

فسألته بلهفة:

- ماذا ينقصها؟

فقال بعجلة لا تشجّع على الاسترسال:

- إنّها حكاية ولكن لا يوجد مسرح!

يا له من عذاب يهون إلى جانبه أيّ عذاب! حتّى عذاب البيت القديم. الفشل في الفنّ موت للحياة نفسها. هكذا خلقنا. والفنّ بالنسبة لي ليس فنًّا فحسب ولكنّه البديل عن العمل الذي يطمح إليه المثاليّ العاجز. ماذا فعلت لمقاومة الشرّ من حولي؟ وما العمل إذا عجزت أيضًا عن الجهاد في الميدان الوحيد المتاح وهو المسرح؟! وتمرّ الأيّام وأنا غارق في العمل كالآلة، أتعامل مع الحبّ خطفًا، وقد انقطع ما بيني وبين حياتي الروحيّة جميعًا فلا قراءة ولا كتابة، وغاضت من الحياة بهجتها فلم يبق منها إلّا البثور في أديم الأرض، ومياه المجاري الراكدة، والمواصلات البهيميّة.

في أويقات الراحة على كثب من تحيّة تتمثّل لي الحياة جدولًا غائضًا من السخرة والجفاف. نتبادل كلمات رقيقة في مناخ كئيب تلطّفه أحلام اليقظة. الدبيب النابض في بطنها يعزف على أوتار النجاح المرتقب. أحلم أيضًا بالنجاح ولكن تشتعل أحلامي أحيانًا بغضب متوحّش. أحلم بنار تلتهم البيت القديم ومَن يفسقون فيه. هكذا يتجسّد غضبي على العار والشرّ. لكنّه لا يمرّ دون خجل ومحاسبة للنفس. حقًّا لا توجد في قلبي ذرّة حبّ لأبي ولكنّي أقف مع أمّي موقف المشفق المتردّد. وأعرب عن آلامي من تلك الناحية فتقول لي تحيّة:

- نادي قمار سرّيّ جريمة في نظر القانون ولكنّ الغلاء جريمة أيضًا. . .

فأسألها:

- هل تقبلين أن يقع ذلك في بيتك؟

- لا سمح الله، ولكنّي أودّ أن أقول إنّ من الناس من يجدون أنفسهم في محنة فيتصرّفون كالغريق الذي لا يتورّع عن فعل في سبيل النجاة. . .

وقلت لنفسي إنّني أتصرّف كذلك الغريق وإن لم أرتكب جريمة في حقّ القانون، لقد ملأت وقتي بالعمل التافه في سبيل اللقمة حتّى جفّ عود الحياة الأخضر، أليس ذلك جريمة أيضًا؟

وتمرّ الأيّام ويشتدّ العذاب فتتحرّر الأحلام السرّيّة بقوّة شيطانيّة. وأنا جالس إلى الآلة الكاتبة أشعر بحنين جارف إلى الحرّيّة. . . إلى الإنسانيّة المفقودة. . . إلى الفنّ الضائع. كيف يحطّم الأسير أغلاله؟ أتخيّل دنيا مباركة، بلا إثم، بلا أسر، بلا التزامات اجتماعيّة، دنيا تنبض بالخلق والإبداع والفكر وحدها. دنيا تحظى بالوحدة المقدّسة فلا أب ولا أمّ

ولا زوجة ولا ذرّيّة. دنيا يمضي فيها الإنسان خفيفًا، غائصًا في الفنّ وحده. آه... أيّ أحلام؟ أيّ شيطان يكمن في القلب الذي نذر نفسه للخير؟ فليتجلّ الندم في صورة ملاك باكٍ. ولأنزوِ خجلًا أمام المرأة النقّاثة للحبّ والصبر. ليحفظ الله زوجتي وليتب على والديّ. وتسألني:

- فيم تفكّر؟... إنّك لا تكاد تسمعني...

فألمس راحتها بلطف وأجيب:

- أفكّر في القادم الجديد وما نعدّه له.

* * *

وأنا أهمّ بالجلوس أمام طاولة عمّ أحمد برجل ذات يوم قرأت في وجهه عبوسًا ينذر بالسوء:

- خير يا عمّ أحمد؟

- يبدو أنّك لم تعلم بعد؟

- إنّي قادم لتوّي، ماذا هناك؟

فقال بحزن بالغ:

- أمس، عند الفجر، كبست الشرطة البيت...

- أبي؟

أحنى رأسه.

- وماذا حدث؟

- ما يحدث في هٰذه الأحوال، أفرج عن اللاعبين وألقي القبض على والديك...

انهرت تمامًا وغصت في همّ خانق. نسيت عواطفي القديمة، نسيت غضبي الثابت، وعزّ عليّ جدًّا ذٰلك المصير المؤسف لأمّي وأبي. عزّ عليّ لدرجة البكاء. وسرعان ما استدعاني سرحان الهلالي وقال لي:

- سأوكل عنهما محاميًا ممتازًا... لقد صودرت النقود... عُثر على كمّيّة غير صغيرة من المخدّرات... يوجد أمل...

قلت بصوت ذليل:

- أريد أن أقابلهما فورًا...

- سيحصل دون شكّ ولكن لا مفرّ من أداء واجبك الليلة... هٰذه هي طبيعة المسرح... الموت نفسه... أعني موت أيّ شخص عزيز لا يمنع الممثّل من أداء دوره ولو كان هزليًّا...

غادرت حجرته مغلوبًا على أمري. وتذكّرت أحلامي المرعبة فتضاعف ألمي...

* * *

قبيل المحاكمة وُلِدَ طاهر. وُلد في جوّ كئيب مكلّل بالحزن والعار. حتّى تحيّة كانت تداري فرحتها أمامي. ودخل جدّاه السجن وهو في شهره الأوّل. وكان عليلًا يثير القلق ولٰكنّي هربت إلى العمل المتواصل أغرق فيه همّي وشعوري بالذنب. وقُدّر لي أن يعترض سبيلي ما ينسيني أحزاني الراهنة دفعة واحدة إذ توعّكت صحّة تحيّة. وشخّصنا المرض باجتهادنا الشخصيّ باعتباره أنفلونزا وكان طاهر في شهره السادس. ولّما مرّ أسبوع دون تحسّن أحضرت طبيب الحيّ. وقد قال لي ونحن على انفراد:

- يلزمنا تحليل فإنّي أشكّ في تيفود...

وعلى سبيل الاحتياط وصف لنا الدواء، وسألني:

- أليس الأفضل أن تُنقل إلى مستشفى الحمّيات؟

فرفضت الفكرة عاقدًا العزم على السهر عليها بنفسي. اضطررت لذٰلك الانقطاع عن مكتب فيصل. وتعويضًا عمّا فقدت ولمواجهة المصروفات الجديدة بعت الفريجدير. جعلت من نفسي ممرّضًا لتحيّة ومرضعًا لطاهر باللبن المحفوظ. تفرّغت للخدمة بكلّ إخلاص. عزلت طاهر في الحجرة الأخرى. مضت صحّتها تتحسّن بخلاف الطفل. بذلت جهدي مدفوعًا بالحبّ والامتنان نحو المرأة التي لم ألق منها إلّا ما هو عذب وخير. وفي نهاية ثلاثة أسابيع وجدت تحيّة القوّة فغادرت الفراش لتجلس على مقعد مريح في مجرى الشمس. وكانت قد فقدت رواءها وحيويّتها ولٰكنّها دأبت على السؤال عن الطفل. وجدت نسمة من راحة، رغم تعاسة طاهر. لا يلقى أيّ عناية طيلة مدّة عملي في المسرح ما بين الثامنة مساء حتّى الثانية صباحًا. أملت أن تنهض تحيّة لحمل العبء عنّي ولٰكنّ حالتها ساءت فجأة حتّى استدعيت الطبيب. وقال الرجل:

- ما كان يجب أن تغادر الفراش... إنّها نكسة... تحدث كثيرًا بلا عواقب سيّئة...

رجعت إلى التمريض بحزن مضاعف وتصميم مضاعف. وعلمت أمّ هاني بحالي فتطوّعت للبقاء مع

تحيّة مدّة غيابي. وتردّد الطبيب علينا أكثر من مرّة غير أنّ قلبي انقبض واستشعر همًّا قادمًا.

تساءلت هل تخلو دنياي من تحيّة؟... هل تُحتمل دنياي بلا تحيّة؟ تمزّقتُ بينها وبين الطفل المتدهور. قلقت جدًّا من تسرُّب النقود من يديّ فماذا هناك لأبيعه أيضًا؟ وجعلت أطيل النظر إلى وجهها الشاحب الذابل وكأنّما أودّعه. وأتذكّر عشرتها الجميلة فتظلم الدنيا في عينيّ.

وتلقّيت النذير الأخير وأنا واقف خارج المسكن. كنت عائدًا من المسرح. ضغطت على الجرس. سبق إليّ صوت أمّ هاني وهي تجهش في البكاء. لقد أغمضت عينيّ متلقّيًا القضاء، فاتحًا صدري بأريحيّة الكرماء للحزن البهيم.

* * *

عقب أسبوع من وفاة تحيّة لحق بها طاهر. كان ذلك متوقّعًا والطبيب تنبّأ به ولم يُخفه عليّ. لم تجد الأبوّة فرصة طيّبة لترسخ في قلبي. وكان بقاؤه المعذّب مصدر ألم دائم لي. لم أذكر من تلك الأيّام إلّا بكاء طارق رمضان. لقد تماسكت أمام الناس بعد أن نفدت دموعي في وحدتي وإذا بصوت طارق ينفجر في ضجّة لفتت إليه أنظار زملائنا في المسرح. تساءلت عن معنى ذلك؟ أكان يحبّها ذلك الحيوان الذي نقل تقاليد عشقه المحفوظة إلى بيت أمّ هاني؟... تساءلت عن معنى بكائه لا كأرمل فحسب ولكن كمؤلّف درامي أيضًا، إذ إنّ غيبوبة الحزن لم تنسني تطلّعاتي الكامنة...!

***

ها هي الوحدة. بيت خالٍ ولكنّه مكتظّ بالذكريات والأشباح. قلب مترع بالحزن والإثم. طالعني الواقع بوجه صخريّ يناجيني بصوت خفيّ أن قد تحقّق كلّ ما حلمت به. أريد أن أنسى الحلم ولو بمضاعفة الحزن. غير أنّ الحزن عندما يغوص حتّى يرتطم بالقاع ترتدّ منه إشعاعات غريبة ثملة براحة خفيفة. آه... لعلّ طارق ضحك ضحكة عميقة خفيّة واجهت المعزّين بإجهاشة الدمع. ها هي الوحدة. ومعها الحزن والصبر والتحدّي. أمامي تجربة للتقشّف والكبرياء. والانغماس في الفنّ حتّى الموت. شرعت في التخطيط لمسرحيّة «البيت القديم - الماخور» حضرتني فجأة ذكرى تحيّة قويّة يانعة بثقل الكائنات الحيّة. عند ذاك انبثقت فكرة جديدة. ليكن البيت القديم هو المكان، ليكن الماخور هو المصير، ليكن الناس هم الناس، ولكنّ الجوهر سيكون الحلم لا الواقع. أيّهما الأقوى؟ هو الحلم بلا شكّ. الواقع أنّ الشرطة كبست البيت، والمرض قتل تحيّة وابنها، ولكنّ ثمّة قاتلًا آخر هو الحلم. الحلم الذي أبلغ الشرطة، هو الذي قتل تحيّة، هو الذي قتل الطفل. البطل الحقيقيّ للمسرحيّة هو الحلم. هو الذي توفّرت له الشروط الدراميّة. بذلك أعترف وبذلك أكفر. بذلك أكتب مسرحيّة حقيقة لأوّل مرّة، أتحدّى سرحان الهلالي أن يرفضها. سيعتقد هو وغيره أنّني أعترف بالواقع السطحيّ لا الحلم الجوهريّ ولكنّ كلّ شيء يهون في سبيل الفنّ، في سبيل التطهير، في سبيل الصراع الواجب على شخص ولد ونشأ في الإثم وصمّم بقوّة على الثورة.

وانفعلت بحمّى الخلق.

* * *

ها أنا أذهب إلى سرحان الهلالي في الميعاد المضروب. مضى الشهر الذي حدّده لقراءة المسرحيّة. قلبي يخفق بشدّة. الرفض هذه المرّة خطير وقد يجرف الصبر. لكنّني تلقّيت من عينيه بسمة غامضة هزّت فؤادي المثقل بالحزن. جلست تلبية لإشارته مستزيدًا من التفاؤل. جاءني صوته الجهوريّ قائلًا:

- أخيرًا خلقت مسرحيّة حقيقيّة...

وحدجني بنظرة متسائلة كأنّما يقول «من أين لك هذا؟» فتبخّرت في تلك اللحظة - ولو إلى حين - همومي جميعًا وشعرت بحرارة التورّد في وجهي. قال:

- رائعة، مرعبة، ناجحة، لماذا سمّيتها «أفراح القبّة»؟

فأجبته بحيرة:

- لا أدري!

فقال ضاحكًا في تعالٍ:

- مكر المؤلّفين لا يجوز عليّ، لعلّك تشير إلى

الأفراح التي تبارك الصراع الأخلاقيّ رغم انتشار الحشرات، أو لعلّه من أسماء الأضواء كما نسمّي الجارية السوداء صباح أو نور!

ابتسمتُ قانعًا بسكرة الرضى، فقال:

ـ سأعطيك ثلاثمائة جنيه، ربّما كان الكرم فضيلتي الوحيدة، وهو أكبر مكافأة لأوّل مسرحيّة...

ليت العمر امتدّ بك حتّى تشاركيني فرحتي. وتفكّر قليلًا ثمّ تساءل:

ـ لعلّك تتوقّع أسئلة محرجة؟

ـ إنّها مسرحيّة ولا يجوز إلقاء نظرة خارج نطاقها...

ـ جواب حسن، أنا لا يهمّني إلّا المسرحيّة... ولكنّها ستثير عاصفة من سوء الظنّ بين معارفنا...

فقلت بهدوء:

ـ لا يهمّني ذلك.

ـ براڤو... ماذا عندك أيضًا؟

ـ أرجو أن أشرع في كتابة مسرحيّة جديدة.

ـ براڤو... حلّ موسم الأمطار... وإنّي في انتظارك... سأفاجئ بها الفرقة في الخريف القادم...

* * *

في سكني الصغير تغشاني الكآبة كثيرًا. تمنّيت أن أجد سكنًا آخر ولكن أين؟ بدّلت الحجرتين كلًّا مكان الأخرى، بعت الفراش واشتريت آخر جديدًا. تغلغلت تحيّة في حياتي أكثر ممّا تصوّرت. لم يبدأ حزني شديدًا ثمّ يخفّ ولكنّه بدأ خفيفًا نسبيًّا ـ ربّما بسبب الذهول ـ ومضى يشتدّ حتّى وضعت أملي في النسيان بيد الزمن. سيتصوّر كثيرون أنّني قتلتها ولكنّها تعرف الآن الحقيقة كلّها. وقبيل الخريف غادر والديّ السجن. واحترامًا للواجب الذي أرفعه فوق العواطف استقبلتهما بالبرّ والرحمة. رأيتهما شبه محطّمين فازددت حزنًا. اقترحت على سرحان الهلالي قبول عودتهما إلى عملهما السابق في المسرح فأوفّر لهما العمل وأعفي نفسي منه لأتفرّغ للفنّ فوافق الرجل ولكنّهما رفضا ذلك بشدّة دلّت على نفورهما من المسرح وأهله. باستثناء عمّ أحمد برجل وأمّ هاني لم يكلّف أحد نفسه بزيارتها. ارتحت أنا لذلك لأنّه جاء مطابقًا لما سجّلته في المسرحيّة. ظلّ أبي غريبًا رغم توبته الإجباريّة عن الأفيون، لا رابطة في الواقع بيننا، والحقّ أنّني لم أفهمه، ولا أدّعي فهمًا له أطمئنّ إليه، وقد شاءت المسرحيّة أن أصوّره كضحيّة للفقر والمخدّر، ترى ماذا يقول عن دوره؟ هل أستطيع أن أواجهه بعد العرض؟! أمّا أمّي فما زالت متعلّقة بي، وتودّ أن تشاركني حياتي ولكنّني أودّ أن أظلّ خفيفًا وأحلم بأن أعثر على مسكن جديد ولو حجرة واحدة. إن لم أشعر نحوها بحبّ فإنّني لا أضمر لها كرهًا. وسوف تذهل حين ترى دورها على المسرح فتعرف أنّني عرفت جميع ما حاولت إخفاءه عنّي، هل أستطيع بعد ذلك أن ألاقيها في نظرة؟ كلّا. سأتركها ولكن في أمان. فكرة المقلى فكرة طيّبة وصاحب الفضل فيها هو أحمد برجل. أملي أن يجدوا حياتها وأن تدركها توبة صادقة.

* * *

وجدتني وجهًا لوجه مع طارق رمضان. في المسرح كنّا نتبادل التحيّات الضروريّة العابرة ولكنّه هذه المرّة يقتحم عليّ خلوتي بوقاحته المعهودة. إنّه من القلّة التي لا تعرف الارتباك ولا الحرج. طالما عاتبت أمّ هاني على معاشرتها له. قال كاذبًا بغير ما شكّ:

ـ جئت لأهنّئك على المسرحيّة...

بل جئت للاستجواب الحقير ولكنّني جاريته فشكرته. وبمكر أطلعني على رأي المخرج قائلًا:

ـ إنّ البطل قذر جدًّا وبغيض جدًّا ولن يتعاطف الجمهور معه...

تجاهلت الحكم تمامًا. ليس البطل كذلك لا في الواقع ولا في المسرحيّة ولكنّه يهاجمني بلا زيادة ولا نقصان. جعلت أنظر إليه باستهانة حتّى تساءل:

ـ ألم تقدّر أنّ حوادث المسرحيّة ستلاحقك بأسوأ الظنون؟

فأجبته ببرود:

ـ لا يهمّني ذلك.

فإذا به يقول بانفعال واضح:

ـ يا لك من قاتل محترف!

فقلت باستهانة:

ـ ها أنت تعود إلى الماضي، وهو بالنسبة إليّ تجربة حبّ أمّا بالنسبة لك فما هو إلّا محنة حقد.

ـ أتستطيع أن تدافع عن نفسك؟

ـ لست متّهمًا. . .

ـ ستجد نفسك في النيابة قريبًا.

ـ إنّك أحمق وحقير. . .

فقام وهو يقول ساخرًا:

ـ إنّها على أيّ حال تستحقّ القتل.

ثمّ مضى قائلًا:

ـ ولكنّك تستحقّ الشنق أيضًا. . .

رمتني الزيارة البغيضة في دوّامة. أقنعتني بوجوب الاختفاء عن أعين الأغبياء. ولكن هل أستحقّ الشنق حقًّا؟ كلّا. . . حتّى لو حوسبت على النوايا الخفيّة. ما كانت أحلامي إلّا رمزًا للتخلّص من متاعب راهنة لا من الحبّ أو المحبوب. وهي تثار بانفعال اللحظة العابرة لا بالعاطفة المستقرّة. وعلى أيّ حال لم يعد لي بقاء في مجال الشياطين.

* * *

دلّني سمسار على حجرة في بنسيون الكوت دازور بحلوان. وجدتني في وحدة جديدة أنا والكتب والخيال. لزمت الحجرة أكثر الوقت وخصّصت الليل وقتًا لرياضة المشي. استقلت من عملي ولم يبق لي إلّا الفنّ وحده. قلت لنفسي إنّ عليّ أن أركّز على فكرة من بين عشرات الفكر السابحة في خيالي. عند الاختبار تبيّن لي أنّني لا أملك فكرة واحدة. ما هذا؟ إنّي لا أعيش في وحدة ولكن في فراغ. وعاودتني أحزاني على تحيّة بصورة قاهرة ونافذة وعميقة، حتّى صورة طاهر تجسّدت لي في هزالها وبراءتها وهي تصارع المجهول. وكنت أهرب من كآبتي إلى الفنّ فلا ألقى إلّا الفراغ، والخمود أيضًا. أجل لقد انطفأت الشعلة تمامًا وانسحقت الرغبة في الخلق، وحلّ محلّها فتور أبديّ وتقزّز من الوجود.

في تلك الأثناء قرأت الكثير عن نجاح المسرحيّة المذهل، واطّلعت على عشرات التحيّات الموجّهة لموهبة المؤلّف، وتنبّؤات عمّا سيجود به للمسرح. سخريات تتتابع معذّبة لي وأنا أتقلّب في جحيم القحط. أتقلّب في جحيم القحط والأحزان ونقودي تتناقص يومًا بعد يوم. قلت أخاطب الكآبة المحدقة بي:

ـ ما توقّعت ذلك قطّ.

أين موسم المطر الذي تغنّى به سرحان الهلالي؟ لا توجد أفكار، إذا وُجدت فكرة تمخّضت عن لا شيء، إذا تطلّبت فكرة تأمّلًا كتم أنفاسها الجفاف والخمود. إنّه الموت. الموت كما يتبدّى لحيّ. إنّي أرى الموت وألمسه وأشمّه وأعاشره.

وعندما نفدت النقود ذهبت للقاء سرحان الهلالي في بيته. لم يضنّ عليّ بمائة جنيه خارج العقد. انخرطت في سباق مميت ولكنّ الجفاف استفحل حتّى صرت جسدًا بلا روح. وتسلّل إليّ صوت الفناء الساخر ينذرني بأنّني قد انتهيت. لقد عبث بي ما شاء له العبث ثمّ غادرني مكشّرًا عن أنياب القسوة والإعدام. ونفدت النقود مرّة أخرى فهرعت إلى سرحان الهلالي ولكنّه لاقاني بحزم مؤدّب معربًا عن استعداده لمنحي هبة جديدة تحت شرط أن أطلعه على أيّ جزء من المسرحيّة الجديدة. عدت هذه المرّة إلى الوحدة والحزن والجفاف بالإضافة إلى الإفلاس أيضًا. خطر لي أن ألجأ إلى باب الشعريّة ولكنّ سدًّا اعترض الخاطر موكّدًا لي أنّني يتيم وبلا بيت أو حيّ. عند ذاك قلت لنفسي:

ـ لم تبق إلّا النهاية التي رسمتها للبطل!

اهتديت أخيرًا إلى مخرج. رمقت الأعباء والهموم بشماتة وازدراء. حرّرت رسالة المنتحر محتفظًا بالسرّ لنفسي. مضيت إلى الحديقة اليابانيّة قبيل العصر. لم أنتبه إلى ما حولي، لم أرَ إلّا خواطري المتلاطمة في حرتها القانية. جلست على أريكة. بأيّ وسيلة وفي أيّ وقت؟ ثقل رأسي في مهبّ الهواء الجافّ ولم أكن نمت الليلة الماضية إلّا ساعة واحدة. ثقل رأسي وغلبني الإرهاق وخفتَ النور بسرعة مذهلة. لّما فتحت عينيّ تبدّت العتمة في هبوطها الوئيد. لعلّي نمت ساعة أو أكثر. قمت في خفّة غير متوقّعة. وجدتني في حال جديدة من النشاط. تخلّص رأسي من الحرارة وقلبي من الثقل. ما أعجب ذلك! انقشعت الكآبة وتلاشى التشاؤم. إنّي الآن إنسان آخر. متى وُلد؟ كيف وُلد؟ لماذا وُلد؟ تساءلت أيضًا عمّا حدث في إغفاءة ساعة. لم

تكن ساعة فقط على وجه اليقين. لقد نمت عصرًا كاملًا واستيقظت في عصر جديد. لا شكّ قد حدثت في أثناء النوم أمور ذات شأن. ولولا فرحة الشفاء الباغت لاحتفظ الوعي منها بقبس. ألهتني الفرحة عن التشبّث بالذكريات فتلاشت أشياء لا تقدّر بثمن. لكنّني قمت برحلة طويلة وناجحة، وإلّا فمن أين وكيف جاء البعث؟ وهو بعث غير معقول ولا مبرَّر ولكنّه حقيقة محسوسة ماثلة يمكن أن تُرى ويمكن أن تُلمس. بالرغم من الفراغ والإفلاس. بالرغم من عناد الأشياء وتحدّياتها. بالرغم من الخسران والأحزان. وإذن فلأستمسك بالنشوة كتعويذة سحر. ولتكن قوّتها في سرّها الغامض. ها هي الحيويّة تدبّ ناشرة شذاها الظافر. وفي الحال مضيت نحو المحطّة وهي هدف غير قريب. ومع تتابع الخطوات تدفّقت الحيويّة خلّابة واعدة. كما تبشّر السحابة الثريّة بالمطر. ما هو إلّا وعد وشعور وطرب. عدا ذلك فإنّني مفلس ومطارَد وذو حزن. وعندما تراميت بعيدًا تذكّرت الرسالة ولكن أدركت أيضًا أن قد فات أوان استردادها. قلت لنفسي لا يهمّ، وما يهمّ في هذه اللحظة إلّا الإمعان في السير. ليكن من شأنها ما يكون. ولتكن العاقبة ما تكون. ذروة النشوة تتألّق على جسد عراه الإفلاس والجفاف ولكن تنطلق إرادته بالبهجة المتحدّية...

لَيالي ألفِ لَيْلة

شهريار

عقب صلاة الفجر، وسحب الظلام صامدة أمام دفقة الضياء المتوثّبة، دُعي الوزير دندان إلى مقابلة السلطان شهريار... تلاشت رزانة دندان، خفق قلب الأبوّة بين جوانحه، غمغم وهو يرتدي ملابسه: «الآن تقرّر المصير... مصيرك يا شهرزاد!»...

مضى في الطريق الصاعد إلى الجبل على برذون يتبعه نفر من الحرّاس ويتقدّمه حامل مشعل في جوّ مشعشع بالندى وبرودة مستأنسة... ثلاثة أعوام مضت بين الخوف والرجاء، بين الموت والأمل... مضت في رواية الحكايات، وبفضل الحكايات امتدّ الأجل بشهرزاد ثلاثة أعوام... غير أنّ للحكايات نهاية ككلّ شيء، وقد انتهت أمس فأيّ قَدَر يرصدك يا ابنتي الحبيبة؟!...

دخل القصر الرابض فوق الجبل... اقتاده الحاجب إلى شرفة خلفيّة تطلّ على الحديقة المترامية... بدا شهريار في مجلسه على ضوء قنديل واحد، سافِر الرأس، غزير الشعر أسوده، تلتمع عيناه في وجهه الطويل، وتفترش أعلى صدره لحية عريضة... قبّل دندان الأرض بين يديه... داخلته رهبة ـ رغم طول المعاشرة ـ لرجل حفل تاريخه بالصرامة والقسوة ودماء الأبرياء... وأشار السلطان إليه بالجلوس فجلس مسلّمًا أمره للمقادير... أمر السلطان بإطفاء القنديل الوحيد فساد الظلام، ولاحت بوضوح نسبيّ أشباح الأشجار الفوّاحة... تمتم شهريار:

ـ ليكن الظلام كي أرصد انبثاق الضياء...

تفاءل دندان شيئًا ما وقال:

ـ متّعك الله يا مولاي بأطيب ما في الليل والنهار...

صمت... لم يستطع دندان أن يستشفّ ما وراء وجهه من رضى أو سخط حتّى قال بهدوء:

ـ اقتضت مشيئتنا أن تبقى شهرزاد زوجة لنا...

وثب دندان واقفًا ثمّ انحنى على يد السلطان فلثمها بامتنان ودمع الشكر يتحرّك في أعماقه...

ـ فليؤيّد الله سلطانك إلى أبد الآبدين...

قال السلطان وكأنّما تذكّر ضحاياه:

ـ العدل له وسائل متباينة، منها السيف ومنها العفو، ولله حكمته...

ـ سدّد الله خطاك إلى حكمته يا مولاي...

فقال بارتياح:

ـ حكاياتها السحر الحلال، تفتّحت عن عوالم تدعو للتأمّل...

ثمل الوزير بفرحته صامتًا فقال السلطان:

ـ وأنجبت لي وليدًا فسكنت عواصف النفس المائجة...

ـ لتهنأ يا مولاي بالسعادة في الدارين...

تمتم السلطان باقتضاب:

ـ السعادة!...

قلق دندان لسبب غامض... ارتفع صياح الديكة... قال السلطان وكأنّما يخاطب نفسه:

ـ الوجود أغمض ما في الوجود!

غير أنّ نبرته تخففت من الحيرة وهو يقول:

- انظر!...

نظر دندان نحو الأفق فرآه يتورّد بالسرور المقدّس...

شهرزاد

استأذن دندان في مقابلة ابنته شهرزاد... قادته قهرمانة إلى حجرة الورد ذات السجّادة والستائر المورّدة... ذات الدواوين والوسائد المشرّبة بالحمرة... هناك استقبلته شهرزاد وأختها دنيا زاد... قال الرجل:

- ينوء ظهري بالسعادة فالحمد لله ربّ العالمين...

أجلسته شهرزاد إلى جانبها على حين انسحبت دنيا زاد إلى مقصورتها... قالت شهرزاد:

- نجوت من المصير الدامي برحمة من ربّنا...

فغمغم الرجل شاكرًا فقالت بمرارة:

- ليرحم الله العذارى البريئات...

- ما أحكمك وما أشجعك!...

فقالت هامسة:

- ولكنك تعلم يا أبي أنّي تعيسة!

- حذار يا ابنتي فإنّ الخواطر تتجسّد في القصور وتنطق!...

فقالت بأسى:

- ضحّيت بنفسي لأوقف شلّال الدم...

فتمتم:

- لله حكمته...

فقالت بحنق:

- وللشيطان أولياؤه...

قال بتوسّل:

- إنّه يحبّك يا شهرزاد...

- الكبر والحبّ لا يجتمعان في قلب، إنّه يحبّ ذاته أوّلًا وأخيرًا...

- للحبّ معجزاته أيضًا...

- كلّما اقترب منّي تنشّقت رائحة الدم...

- السلطان ليس كبقيّة البشر...

- لكنّ الجريمة هي الجريمة... كم من عذراء قتل، كم من تقيّ ورع أهلك، لم يبق في المملكة إلّا المنافقون...

فقال بحزن:

- ثقتي بالله لم تتزعزع قطّ...

- أمّا أنا فأعرف أنّ مقامي في الصبر كما علّمني الشيخ الأكبر.

فقال دندان باسمًا:

- نِعْم الأستاذ ونِعْم التلميذة...

الشيخ

يُقيم الشيخ عبد الله البلخي في دار بسيطة بالحيّ القديم... تنطبع نظرته الحالمة في قلوب الكثيرين من تلاميذه القدامى والمُحْدثين وتنطبع بعمق أبديّ في قلوب المريدين... العبادة الكاملة عنده مقدّمة ليس إلّا، فهو شيخ الطريق، وقد بلغ منه مقام الحبّ والرضى... عندما غادر خلوته إلى حجرة الاستقبال أقبلت عليه زبيدة ابنته المراهقة والوحيدة وقالت بسرور:

- المدينة فرحانة يا أبي...

فتساءل دون مبالاة:

- ألم يصل بعد الطبيب عبد القادر المهيني؟

- لعلّه في الطريق يا أبي، لكنّ المدينة فرحانة لأنّ السلطان رضي بشهرزاد زوجة له وعدل عن سفك الدماء...

لا شيء يخرجه من هدوئه... الرضى في قلبه لا ينقص ولا يزيد... وزبيدة ابنة وتلميذة ولكنّها ما زالت في أوّل الطريق... وسمعت على الباب طرقًا فمضت قائلة:

- جاء صديقك لزيارته المعتادة...

دخل الطبيب عبد القادر المهيني فتعانقا ثمّ اقتعد شلتة إلى جانب صديقه... ودارت المناجاة كالعادة على ضوء مصباح في كوّة... قال عبد القادر:

- عرفت لا شكّ الخبر السعيد...

فقال باسمًا:

- عرفت ما يهمّني معرفته...

فقال الطبيب:

- الخناجر تدعو لشهرزاد بينا أنّك أنت صاحب الفضل الأوّل...

فقال بعتاب:

- الفضل للمحبوب وحده...

- إنّي مؤمن أيضًا ولكنّي أتابع المقدّمات والنتائج، لولا أنّها تتلمذت على يديك صبيّة ما كانت شهرزاد... لولا كلماتك ما وجدت من الحكايات ما تصرف به السلطان عن سفك الدماء...

قال الشيخ:

- يا صديقي لا عيب فيك إلّا أنّك تغالي في تسليمك للعقل...

- إنّه زينة الإنسان...

- مِن العقل أن نعرف حدود العقل...

فقال عبد القادر:

- مِن المؤمنين مَن يرون أنّه بلا حدود...

- لقد فشلت في جذب كثيرين إلى الطريق، أنت على رأسهم...

- الناس مساكين يا مولاي، في حاجة إلى مَن يتعامل معهم ويبصرهم بحياتهم...

فقال الشيخ بثقة:

- ربّ روح طاهرة تنقذ أمّة كاملة...

فتساءل الطبيب بامتعاض:

- عليّ السلولي حاكِم حيّنا، كيف تنقذ الحيّ من فساده؟!

فقال بأسى:

- لكنّ المجتهدين مَراتب...

فقال بإصرار:

- إنّي طبيب، وما يُصلح الدنيا هو ما يهمّني...

فربّت على يده برقّة صامتًا فابتسم الطبيب وقال:

- ولكنّك الخير والبركة...

فقال الشيخ:

- أحمد الله فلا السرور يستخفّني، ولا الحزن يلمسني...

- أمّا أنا فحزين يا صديقي العزيز... كلّما تذكّرت الأتقياء الذين استشهدوا لقول الحقّ، واحتجاجًا على سفك الدماء ونهب الأموال ازددت حزنًا!

قال الشيخ:

- شدّ ما تأسرنا الأشياء...

فقال عبد القادر في رثاء:

- استشهد الشرفاء الأتقياء، أسفي عليكِ يا مدينتي التي لا يتسلّط عليك اليوم إلّا المنافقون، لِمَ يا مولاي لا يبقى في المزاود إلّا شرّ البقر؟!

- ما أكثر عشّاق الأشياء الخسيسة!...

وترامت إليهما من أطراف الحيّ أصوات زمر وطبل فأدركا أنّ الأهالي يحتفلون بالخبر السعيد... عند ذاك قرّر الطبيب أن يذهب إلى مقهى الأمراء...

مَقْهَى الأُمَرَاء

يتوسّط المقهى الجانب الأيمن من الشارع التجاريّ الكبير... وهو مربّع الأركان واسع الساحة، يفتح مدخله على الطريق العامّ وتطلّ نوافذه على حوارٍ جانبيّة... تقوم في جوانبه الأرائك للسادة وتستقرّ في دائرة من وسطه الشلت للعامّة... يقدّم مشروبات شتّى ساخنة وباردة تبعًا للفصول، وبه أيضًا أجود صنوف المنزول والحشيش... تشهد لياليه كثيرين من السادة أمثال صنعان الجمالي وابنه فاضل، وحمدان طنيشة وكرم الأصيل وسحلول وإبراهيم العطّار وابنه حسن، وجليل البزّاز ونور الدين وشملول الأحدب... كما تشهد كثيرين من العامّة أمثال رجب الحمّال وزميله السندباد وعجر الحلّاق وابنه علاء الدين وإبراهيم السقّاء ومعروف الإسكافيّ... غلب المرح على الجميع في تلك الليلة السعيدة، وسرعان ما انضمّ الطبيب عبد القادر المهيني إلى مجلس يضمّ إبراهيم العطّار وكرم الأصيل صاحب الملايين وسحلول تاجر المزادات والتحف... أفاقوا ليلتهم من خوف متسلّط واطمأنّ كلّ أب لعذراء جميلة فوعده النوم بأحلام تخلو من الأشباح المخيفة... وتردّدت أصوات:

- الفاتحة على أرواح الضحايا...

ـ من العذارى والرجال الأتقياء...
ـ وداعًا للدموع...
ـ الحمد والشكر لله ربّ العالمين...
ـ وطول العمر لدرّة النساء شهرزاد...
ـ شكرًا للحكايات الجميلة...
ـ ما هي إلّا رحمة الله حلّت...

تواصل المرح والحديث حتّى علا صوت رجب الحمّال متسائلًا:

ـ أمجنون أنت يا سندباد؟

فسأل عجر الحلّاق الشغوف بدسّ أنفه في كلّ شيء:

ـ ماذا جنّنه في هٰذه الليلة السعيدة؟
ـ يبدو أنّه كره عمله وضاق بالمدينة، لا يريد أن يكون حمّالًا بعد اليوم...
ـ أيطمع في أن يتولّى إمارة الحيّ؟
ـ ذهب إلى ربّان سفينة وما زال به حتّى قبله خادمًا بها!...

فقال إبراهيم السقّاء:

ـ مجنون حقًّا مَن يعرض عن رزق مضمون على البرّ ليجري وراء رزق مجهول فوق الماء...

فقال معروف الإسكافيّ:

ـ الماء الذي يستمدّ غذاءه من الجثث منذ قديم الزمان...

فقال السندباد بتحدّ:

ـ ضجرت من الأزقّة والحواري، ضجرت من حمل الأثاث والنقل، لا أمل في مشهد جديد، هناك حياة أخرى، يتّصل النهر بالبحر، يتوغّل البحر في المجهول، يتمخّض المجهول عن جزر وجبال وأحياء وملائكة وشياطين، ثمّة نداء عجيب لا يقاوم، قلت لنفسي جرّب حظّك يا سندباد وألقِ بذاتك في أحضان الغيب...

فقال نور الدين بيّاع العطور:

ـ الحركة بركة...

فقال السندباد:

ـ تحيّة جميلة من زميل الصبا...

فسأل عجر الحلّاق ساخرًا:

ـ هل تتمسّح في السادة يا حمّال؟

فقال نور الدين:

ـ جلسنا جنبًا لجنب في الزاوية نتلقّى الدرس على يد مولانا عبد الله البلخي...

فقال السندباد:

ـ وقنعت بمبادئ القراءة والدين شأن الكثيرين...

فقال عجر مواصلًا سخريته:

ـ لن ينقص بذهابك البرّ ولن يزيد البحر...

عند ذٰلك قال له الطبيب عبد القادر المهيني:

ـ اذهب مصحوبًا برعاية الله ولٰكن اشحذ حواسّك، ليتك تسجّل ما يصادفك من بديع المشاهدات فقد أمرنا الله بذٰلك. متى تسافر؟

فقال ممتنًّا:

ـ صباح الغد، أستودعكم الله الحيّ الباقي...

فقال رجب الحمّال زميله:

ـ ما أحزنني لفراقك يا سندباد!...

صَنعَاء الجَمَالي

ـ ١ ـ

الزمن يدقّ دقّة خاصّة في باطنه فيوقظه... مدّ بصره نحو نافذة قريبة من الفراش فرأى من خلال خصاصها المدينة مسربلة في الظلام... النوم سلبها الحركة والصوت فاستكنّت في صمت مفعم بهدوء كونيّ... انفصل من جسد أمّ السعد الدافئ هابطًا إلى الأرض... انغرزت قدماه في زغب سجّادة فارسيّة... مدّ ذراعه ملتمسًا موقع الشمعدان فارتطمت بكثافة صلبة فجفل متسائلًا:

ـ ما هٰذا؟

جاء صوت غريب، لم يطرق أذنيه مثله من قبل... لا صوت إنسان هو ولا صوت حيوان... اجتاح حواسّه وكأنّما انتشر في المدينة كلّها... ونطق الصوت في غضب:

ـ دسْتَ رأسي يا أعمى!

صرعه الخوف... ما به من الفروسيّة ذرّة... ما يجيد إلّا البيع والشراء والمساومة... أكّد الصوت

قائلًا:

- دسْتَ رأسي يا جاهل...

قال بنبرات مرتجفة:

- مَن أنت؟

- أنا قمقام...

- قمقام؟!

- عفريت من أهل المدينة...

أوشك أن يتلاشى من الرعب فانعقد لسانه...

- آلمتني فحقّ عليك العقاب...

عجز لسانه عن أيّ دفاع فواصل قمقام حديثه:

- سمعتك أمس يا منافق وأنت تقول إنّ الموت علينا حقّ فما بالك تبول من الخوف؟!

نطق أخيرًا بضراعة:

- ارحمني أنا ربّ عائلة...

- لن يحيق عقابي إلّا بك أنت...

- ما فكّرت لحظة واحدة في التعرّض لك...

- يا لكم من مخلوقات مزعجة، لا تكفّون عن الطمع في استعبادنا لتحقيق أغراضكم الدنيئة... ألم يشبع نهمكم باستعباد الضعفاء منكم؟

- أقسم لك...

فقاطعه:

- لا ثقة لي في قَسَم تاجر...

فقال:

- أسألك الرحمة والعفو...

- أيّ سبب يدعوني لذلك؟

فقال بلهفة:

- قلبك الكبير...

- لا تحاول خداعي كما تخدع زبائنك...

- افعلها لوجه الله...

- لا رحمة بلا ثمن، ولا عفو بلا ثمن...

فشرق بالأمل المباغت فقال بحرارة:

- إنّي أفعل ما تشاء...

- حقًّا؟

فقال بلهفة:

- بكلّ ما أملك من قوّة...

فقال بهدوء مخيف:

- اقتل عليّ السلولي...

غرقت الفرحة في خيبة غير متوقّعة كسلعة وردت بعد أهوال من وراء البحار ثمّ تبيّن عند الفحص فسادها... تساءل بذهول:

- عليّ السلولي حاكم حيّنا؟

- دون غيره...

- لكنّه حاكم ويُقيم في دار السعادة المحروسة وما أنا إلّا تاجر.

فهتف:

- إذن فلا رحمة ولا عفو...

- سيّدي... لِمَ لا تقتله بنفسك؟

قال بحنق:

- استأنسني بسحر أسود، وهو يستعين بي في قضاء مآرب لا يرضى عنها ضميري...

- لكنّك قوّة تفوق السحر الأسود!

- نحن بعد نخضع لقوانين معيّنة، دع المناقشة، لك أن تقبل أو أن ترفض...

قال صنعان بحرارة:

- أليس لك رغبات أخرى؟ لديّ مال موفور وسلع من الهند والصين...

- لا تبدّد الوقت سدًى أيّها الأحمق...

اشتدّ به الإغراء من جديد فنطق به اليأس قائلًا:

- إنّي طوع أمرك...

- حذارِ أن تحاول خداعي...

- سلّمت الأمر لقدري...

- ستكون في قبضتي ولو آويت إلى جبال قاف...

عند ذاك شعر صنعان بألم حادّ في ساعده فصرخ صرخة جرفت أعماقه...

- ٢ -

فتح صنعان عينيه على صوت أمّ السعد وهي تقول «ماذا أخّرك في النوم»... أشعلت الشمعدان فجعل ينظر فيما حوله بذهول... إن يكن حلمًا فما له يمتلئ به أكثر من اليقظة نفسها!... إنّه حيّ لدرجة تجلب الذعر... رغم ذلك ابتلّ ريقه برحيق النجاة فهيمن

عليه هدوء وامتنان. . . ردّ العالم إلى نظامه بعد خراب شامل ونَعِم بعذوبة الحياة بعد عذاب الجحيم. . . تنهّد قائلًا:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. . .

نظرت أمّ السعد نحوه وهي تدسّ خصلات مبعثرة من شعرها داخل منديل رأسها وقد طمس النوم على رونق وجهها بطبقة زيتيّة فقال ثملًا بالنجاة:

ـ الحمد لله الذي أنقذني من كرب عظيم. . .

ـ الله يحفظنا يا أبا فاضل. . .

ـ حلم فظيع يا أمّ السعد. . .

ـ خيرًا إن شاء الله. . .

وقادته إلى الحمّام فأشعلت مصباحًا في كوّة وتبعها وهو يقول:

ـ قضيت شطرًا من الليل مع عفريت.

ـ كيف وأنت الرجل التقيّ؟

ـ سأقصّه على الشيخ عبد الله البلخي، اذهبي الآن بسلام لأتوضّأ. . .

راح يتوضّأ. . . عندما همّ بغسل ساعده اليسرى توقّف مرتعدًا.

ـ ربّاه!. . .

جعل ينظر بذهول إلى جرح كالعضّة. . . ليس وهمًا ما يرى فمن مغارز الأنياب يبضّ الدم. . .

دار رأسه وغمغم:

ـ هٰذا هو المستحيل. . .

فزع قائمًا وهرول نحو المطبخ، تساءلت أمّ السعد وهي توقد الكانون:

ـ توضّأت؟

مدّ إليها ساعده قائلًا:

ـ انظري!

شهقت المرأة متسائلة:

ـ ماذا عضّك؟

ـ لا أدري. . .

فاستحوذ عليها القلق وقالت:

ـ نمت على خير حال!. . .

ـ لا أدري ماذا حصل. . .

ـ لو حَدَثَتْ في النهار. . .

قاطعها:

ـ لم تحدث في النهار. . .

تبادلا نظرة قلقة مضطرمة بالخواطر المكتومة. . .

قالت بفزع:

ـ حدّثني عن الحلم. . .

فقال بضيق:

ـ قلت إنّه عفريت. . . ولٰكنّه حلم. . .

تبادلا النظرة مرّة أخرى. . . وتبادلا معاناة القلق. . . قالت أمّ السعد بحذر:

ـ ليكن الأمر سرًّا. . .

أدرك سرّ مخاوفها المتجاوبة مع مخاوفه. . . إذا جرى ذكر العفريت فلا يدري ماذا يحيق بسمعته كتاجر غدًا، ولا ماذا تتعرّض له سمعة كريمته حسنيّة وابنه فاضل قد يلد الحلم خرابًا شاملًا. . . ثمّ إنّه ليس على يقين من شيء. . . قالت أمّ السعد:

ـ الحلم حلم. . . وسرّ الجرح يعلمه الله وحده. . .

فقال بيأس:

ـ هٰذا ما يجب التسليم به. . .

ـ المهمّ الآن أن تبادر إلى العلاج فاذهب إلى صديقك إبراهيم العطّار. . .

كيف يهتدي إلى الحقيقة. . . أرهقه القلق حتّى أحنقه فجاش بالغضب. . . شعر بأنّه يمضي من سيّئ إلى أسوأ. . . وجدانه جميعه يشحن بالغضب والحنق وطبعه يسوء فكأنّه يُخلق من جديد على حالٍ تُناقض دمائته القديمة الراسخة، ولم يعد يطيق نظرات المرأة، فكَرِهَ نظراتها ومقت خواطرها ووجد رغبة في تحطيم كلّ قائم. . . وفي غفلة من ذاته الضائعة طعنها بنظرة غاضبة حانقة مستفزّة كأنّما هي المسئولة عن محنته ثمّ تحوّل عنها ذاهبًا وهي تغمغم:

ـ ليس هٰذا بصنعان الذي كان!. . .

وجد في الصالة فاضل وحسنيّة على ضوء كتاب نضحت به ثقوب المشربيّة. . . ارتسم في وجهيهما انزعاج دلّ على ارتفاع صوته الهائج فازداد غضبًا وصاح بهما بلا سبب وعلى غير عادة:

ـ اغربا عن وجهي. . .

ردّ باب حجرته وراءه وراح يتفحّص ساعده...

لحق به فاضل بشجاعة... قال بقلق:

- لعلّك بخير يا أبي...

فقال له بفظاظة:

- دعني وحدي...

- كلب عضّك؟

- مَن قال لك ذٰلك؟

- أمّي...

أدرك حكمتها في إعلان ذٰلك فرضي ولٰكنّ حاله لم تتحسّن... قال:

- أمر تافه، إنّي بخير، ولٰكن دعني وحدي...

- لا بدّ من الذهاب إلى العطّار...

فقال بضيق:

- لا حاجة بي إلى مَن يذكّرني بذٰلك...

في الخارج قال فاضل لحسنيّة:

- شدّ ما تغيّر أبي!

- ٣ -

غادر صنعان الجمالي داره دون صلاة لأوّل مرّة في حياته منذ صار صبيًّا... ذهب من توّه إلى دكّان إبراهيم العطّار... صديق قديم وجارٌ في الشارع التجاريّ... ولمّا رأى العطّار ساعده قال متعجّبًا:

- أيّ كلب هٰذا! ولٰكن ما أكثر الكلاب الضالّة!.

وعكف على انتخاب جملة من الأعشاب وهو يقول:

- عندي وصفة لا تخيب...

غلى الأعشاب حتّى ترسّبت مادّة لزجة... غسل الجرح بماء الورد... غطّاه بالمادّة وبسطها عليه بملعقة خشبيّة ثمّ عصب الساعد بشاش دمشقيّ وهو يتمتم:

- بالشفاء إن شاء الله...

وإذا بصنعان يقول رغمًا عنه:

- أو فليفعل الشيطان ما يريد...

تفرّس إبراهيم العطّار في وجه صاحبه المحتقن فعجب من تغيّره وقال:

- لا تدعْ جرحًا تافهًا ينال من طبعك الحلو...

فمضى مكفهرّ الوجه وهو يقول:

- لا تأمن لهٰذه الدنيا يا إبراهيم...

ما أشدّ جزعه!. كأنّما اغتسل بماء شطّة حامية... الشمس حارّة غليظة... وجوه العباد كئيبة... وكان فاضل قد سبقه إلى الدكّان فاستقبله بابتسامة مشرقة ضاعفت من غيظه... لعن الجوّ رغم ارتياحه المعروف لجميع الأجواء... لا يكاد يردّ تحيّة... ولا يرحّب بأحد... لا يستبشر بكلمة أو وجه... لا يضحك لدعابة... لا يتّعظ بعبور جنازة... لا يسرّه وجه مليح... ماذا جرى؟. ضاعف فاضل من نشاطه ليحول ما أمكن بين أبيه والزبائن... وأكثر من زبون سأل فاضل همسًا:

- ما بال أبيك اليوم؟

فيقول الفتى بامتعاض:

- به وعكة، لا أراك الله من سوء...

- ٤ -

وسرعان ما تكشّف حاله لروّاد مقهى الأمراء... يقصدهم متجهّمًا، يجلس صامتًا، أو يحاور محاورة الشارد... كفّ عن تعليقاته الضاحكة... يضجر سريعًا فيغادر المقهى... يقول إبراهيم العطّار:

- عضّه كلب متوحّش...

فيقول جليل البزّاز:

- لقد فقدناه تمامًا...

ويقول كرم الأصيل صاحب الملايين وذو وجه القرد:

- حاله التجاريّة مزدهرة جدًّا...

فيقول الطبيب عبد القادر المهيني:

- قيمة المال تتبخّر عند المرض...

فيقول عجر الحلّاق، الوحيد بين الجالسين على الأرض الذي يدسّ نفسه أحيانًا في أحاديث السادة، يقول متفلسفًا:

- ما الإنسان؟... عضّة كلب أو قرصة ذبابة...

ولٰكنّ فاضل صنعان صاح به:

- أبي بخير، ما هي إلّا وعكة تزول قبل شروق الصبح!

* * *

لكنّه توغّل في حال يتعذّر الهيمنة عليها... وفي ليلة ألْتَهَمَ من المنزول قدرًا مجنونًا وغادر المقهى متوثّبًا لاقتحام المجهول... كره الذهاب إلى داره فراح يخبط في الظلام مشعّث العقل والإرادة تسوقه أخيلة معربدة... تمنّى فعلًا أن يمتصّ توتّره الثائر ويريحه من العذاب... وتذكّر نساء من أهله شبعن موتًا فتمثّلن له عاريات في أوضاع جنسيّة تطفح بالإغراء فأسف على أنّه لم ينل من إحداهنّ وطرًا... ومرّ بعطفة الشيخ عبد الله البلخي ففكّر لحظة في زيارته والاعتراف بين يديه بما وقع له ولكنّه أسرع مبتعدًا... وعلى ضوء مصباح مدلّى من هامة أحد أبواب الدور رأى بنتًا في العاشرة ماضية في طريقها تحمل بين يديها سلطانيّة... اندفع نحوها معترضًا سبيلها متسائلًا:

ـ أين تذهبين يا عروس؟

فقالت ببراءة:

ـ راجعة لأمّي...

فغاص في الظلام حتّى فقد البصر وقال:

ـ تعالي أريك شيئًا طريفًا...

حملها بين ذراعيه حتّى اندلق ماء المخلّل على جبّته الحريريّة ومضى بها إلى ما تحت سلّم الكتّاب... حارت البنت في أمر حنانه الغامض، لم ترتح إليه، وقالت متشكّية:

ـ أمّي تنتظر...

لكنّه أثار حبّ استطلاعها بقدر ما أثار مخاوفها... أغراها عمره ـ الذي ذكّرها بأبيها ـ بنوع من الاطمئنان... خالط ذلك قلق مجهول وتوقّع لحلم عجيب... وندّت عنها صرخة باكية تمزّق لها وجدانه وبعثت في مخيّلته المظلمة أطيافًا مرعبة فسرعان ما كتم فاها براحته المرتعشة... لطمته إفاقة مباغتة فعاد إلى سطح الأرض وهمس متوسّلًا:

ـ لا تبكي... لا تخافي...

وزحف اليأس حتّى قوّض أركان العالم... ومن الخراب الشامل تناهى إليه وقع أقدام تقترب... وبسرعة قبض على عنقها الرقيق بيدين غريبتين عنه وتردّى في الهاوية كوحش كاسر زلّت قدمه... أدرك أنّه انتهى... انتبه إلى صوت ينادي:

ـ بسيمة... بنت يا بسيمة...

قال لنفسه في يأس كامل:

ـ لا مفرّ...

وضح الآن أنّ الأقدام تقترب من مكمنه... وضوء فانوس يتخايل... دفعته رغبة للخروج حاملًا الجثّة... وإذا بوجود ثقيل يقتحم وجوده المتهافت فاقتحمته ذكرى الحلم... وسمع الصوت الذي سمعه منذ يومين يتساءل:

ـ أهذا ما تعاهدنا عليه؟

قال مستسلمًا:

ـ أنت حقيقة إذن ولست حلمًا!

ـ أنت مجنون ولا ريب...

ـ أوافق على ذلك ولكنّك أنت السبب!

فقال الصوت بغيظ:

ـ ما طالبتك بشرّ قطّ...

فقال بحرارة:

ـ لا وقت للمناقشة، أنقذني لأفي لك بما تعاهدنا عليه...

ـ هذا ما جئت من أجله ولكنّك لا تفهم...

شعر بأنّه يتحرّك في فراغ في عالم شديد الصمت حتّى سمع الصوت مرّة أخرى:

ـ لن يعثر لك أحد على أثر، فتّح عينيك ترَ أنّك واقف أمام باب دارك... ادخل آمنًا، إنّي منتظر...

ـ ٥ ـ

سيطر صنعان على ذاته بقوّة خارقة، لم تشعر أمّ السعد بأنّ حاله قد ساءت أكثر... اختفى وراء جفنيه في الظلام وراح يتذكّر ما فعل... إنّه شخص آخر... القاتل المغتصب شخص آخر... نفسه تتمخّض عن كائنات وحشيّة لا عهد له بها... الآن يتجرّد من ماضيه ويطوي آماله ويقدّم نفسه للمجهول... لم ينم ولم تندّ عنه حركة تنمّ عن أرقه... في الصباح الباكر ترامى إليه صوت نعيّ... غابت أمّ السعد ساعة ثمّ رجعت وهي تقول:

ـ لك الله يا أمّ بسيمة...

غضّ بصره متسائلًا:

ـ ماذا جرى؟

ـ ماذا حدث للناس يا أبا فاضل؟ البنت اغتُصبت وقُتلت تحت سلّم الكتّاب، طفلة يا ربّي ولٰكنّ تحت جلد بعض الآدميّين وحوشًا مفترسة...

حنى رأسه حتّى تشعّثت لحيته فوق صدره وتمتم:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

ـ هٰؤلاء الوحوش لا يعرفون ربًّا ولا رسولًا...

وأجهشت المرأة بالبكاء...

جعل يسائل نفسه أهو العفريت؟... أهو المزول؟... أهو صنعان الجمالي؟!

ـ ٦ ـ

خواطر الحيّ كلّه هائجة... الجريمة حديث الحيّ التجاريّ كلّه... قال له إبراهيم العطّار وهو يجدّد له الدواء:

ـ الجرح لم يندمل ولٰكن زال خطره...

ثمّ وهو يلفّ ساعده بالشاش:

ـ سمعت بالجريمة؟

فقال بامتعاض:

ـ أعوذ بالله...

ـ المجرم ليس آدميًّا، أبناؤنا يتزوّجون في حال بلوغهم!

ـ إنّه مجنون ولا شكّ...

ـ أو إنّه أحد الصعاليك العاجزين عن الزواج، إنّهم يزحمون الطرقات كالكلاب الضالّة...

ـ كثيرون يردّدون ذٰلك...

فتساءل العطّار متهكّمًا:

ـ ماذا يفعل عليّ السلولي في دار الإمارة؟

ارتجف لدى ذكر الاسم وتذكّر العهد المعلّق كالسيف فوق رأسه ولٰكنّه جاراه قائلًا:

ـ مشغول بمصالحه الخاصّة وإحصاء الهدايا والرشاوى...

فقال العطّار:

ـ فضله علينا نحن التجّار غير منكور ولكن عليه أن يتذكّر واجبه الأصليّ ليبقى لنا...

فذهب وهو يقول:

ـ لا تأمن لهٰذه الدنيا يا إبراهيم...

ـ ٧ ـ

علم حاكم الحيّ عليّ السلولي بما يقال عن الأمن من كاتم سرّه بطيشة مرجان... خشي أن تترامى الأقوال إلى الوزير دندان فيرفعها إلى السلطان فاستدعى كبير الشرطة جمصة البلطي وقال له:

ـ هل أتاك ما يقال على الأمن في عهدي؟

لم يتغيّر هدوء كبير الشرطة الباطنيّ لاطّلاعه على أسرار رئيسه وانحرافاته وقال:

ـ عفوًا يا سيّدي الحاكم، ما أهملت ولا قصّرت في بثّ العيون ولٰكنّ الجاني لم يترك أثرًا، لم نعثر على شاهد واحد، وقد حقّقت بنفسي مع عشرات وعشرات من الصعاليك والمتسوّلين، ولٰكنّها جريمة غامضة لم أعرف لها مثيلًا من قبل...

فصاح به:

ـ يا لك من جاهل، اقبض على جميع الصعاليك والمتسوّلين، وإنّك خبير بوسائل التحقيق الفعّالة...

فقال جمصة بحذر:

ـ ليس لدينا من السجون ما يتّسع لهم...

فقال الحاكم محنقًا:

ـ أيّ سجون يا هٰذا؟! أتريد أن تلزم بيت المال بإطعامهم؟ سقهم إلى الخلاء، استعن بالجند، وائتني بالمجرم قبل جثوم الليل...

ـ ٨ ـ

انقضّ رجال الشرطة على الخرابات يقبضون على المتسوّلين والصعاليك ثمّ يسوقونهم جماعات إلى الخلاء... لم تجدِ شكوى ولا قَسَم ولم يُستثنَ الشيوخ... واستُعمل معهم العنف حتّى جأروا بالاستغاثة بالله ورسوله وآل البيت... وراح صنعان الجمالي يتابع الأنباء بذهول وقلق... إنّه الجاني ما في

ذلـك من شـكّ ولكنّـه يمضي مطلق السراح مجلّلًا بالوقار... مئات من الأبرياء يتعذّبون بفعلته النكراء فكيف صار محور هٰذا الشقاء كلّه؟!... وثمّة مجهول يتربّص به يهون بالقياس إليه جميع ما سلف... وهو ضائع تمامًا ومستسلم بلا شروط... أمّا صنعان القديم فقد مات واندثر... لم يبقَ منه إلّا ذاكرة حائرة تجترّ ذكريات كالأوهام... وانتبه على ضجّة تجتاح الشارع التجاريّ... ها هو عليّ السلولي حاكم الحيّ يخترق الطريق على رأس كوكبة من الفرسان... إنّه يذكّر الناس بقوّة الحاكم ويقظته ويتحدّى البلبلة... مضى يردّ تحيّات التجّار عن يمين وشمال... هٰذا هو الرجل الذي تعهّد بقتله... فاض قلبه بالخوف والمقت... إنّه سرّ عذابه... ووقع الاختيار عليه هو ليحرّر العفريت من سحره الأسود!... هو العفريت دون سواه... نجاته رهن بالقضاء عليه... تسمّرت عيناه في وجهه الغامق الريّان ولحيته المدبّبة وجسمه المائل إلى القِصَر... وعندما مرّ أمام دكّان إبراهيم العطّار هرع إليه المعلّم إبراهيم فتصافحا بحرارة... وعندما مرّ أمام دكّانه حانت منه التفاتة نحوه فابتسم فلم يجد صنعان بدًّا من العبور إليه والمصافحة!. وإذا بالسلولي يقول له:

- سنراك قريبًا بمشيئة الله!

رجع صنعان الجمالي إلى دكّانه وهو يتساءل عمّا يعنيه... هل يدعوه إلى مقابلة؟... لماذا؟... هل يجد السبيل ميسّرًا من حيث لم ينتظر؟... ربطت قشعريرة بين أعلاه وأسفله... ردّد قوله بذهول:

- سنراك قريبًا بمشيئة الله!...

- ٩ -

ولـمّا أخلد إلى النوم ليلًا هيمن عليه الوجود الآخر وسمع الصوت يقول متهكّمًا:

- تأكل وتشرب وتنام وعليّ أنا الصبر!

فقال بتعاسة:

- إنّها مهمّة شاقّة لا يدرك مشقّتها مَن له مثل قوّتك...

- ولٰكنّها أسهل مِن قتل البنت الصغيرة!

فتأوّه قائلًا:

- يا للخسارة!... طالما عُدِدْتُ من الصفوة الطيّبة...

- لا تخدعني المظاهر...

- لم تكن مجرّد مظاهر...

- نسيت أشياء كثيرة يندى لها الجبين...

فقال بارتباك:

- الكمال لله وحده!

- لا أنكر أيضًا مزاياك ولذٰلك رشّحتك للخلاص!

فقال بجزع:

- لولا اقتحامك حياتي ما تورّطت في الجريمة...

فقال بوضوح:

- لا تكذب، أنت وحدك مسئول عن جريمتك!

- الحقّ أنّي لا أفهمك...

- الحقّ أنّي أحسنت بك الظنّ أكثر ممّا ينبغي...

- ليتك تركتني وشأني!

- إنّي عفريت مؤمن، قلت: هٰذا رجل خيره أكثر من شرّه، أجل له علاقات مريبة مع كبير الشرطة ولم يتورّع عن الاستغلال أيّام الغلاء، ولٰكنّه أشرف التجّار، وذو صدقات وعبادة وذو رحمة بالفقراء، لذٰلك آثرتك بالخلاص، خلاص الحيّ من رأس الفساد وخلاص نفسك الآثمة، وبدلًا من أن تدرك الهدف الواضح انهار بنيانك وارتكبت جريمتك البشعة...

تأوّه صنعان واقعًا في الصمت فواصل الصوت:

- الفرصة متاحة ما زالت...

فتساءل في حيرة:

- والجريمة؟

- الحياة تتّسع للتكفير والتوبة...

فتساءل بنبرة دبّ فيها ماء الأمل:

- ولٰكنّ الرجل في حصن منيع؟

- سوف يستدعيك إلى مقابلته...

- إنّي أعجب لذٰلك!

- سوف يستدعيك، اطمئنّ واستعدّ...

فتفكّر صنعان مليًّا ثمّ تساءل:

- هل تعدني بالنجاة؟

ـ ما اخترتك إلّا من أجل النجاة...

ومن شدّة الإرهاق استغرق صنعان في نوم عميق...

ـ ١٠ ـ

كان يتأهّب للذهاب إلى المقهى عندما قالت له أمّ السعد:

ـ رسول من قبل الحاكم ينتظرك في المنظرة...

وجد كاتم السرّ بطيشة مرجان في الانتظار بعينيه البرّاقتين ولحيته القصيرة... قال له:

ـ الحاكم يرغب في لقائك...

خفق قلبه... أدرك أنّه ذاهب لارتكاب أخطر جريمة في تاريخ الحيّ... لعلّه ضايقه أن يكون بطيشة مرجان مطّلعًا على ملابسات الزيارة ولكنّه اطمأنّ إلى وعد قمقام... قال للرجل:

ـ انتظرني حتّى أرتدي ملابسي...

فقام الرجل قائلًا:

ـ بل أسبقك تلافيًا من لفت الأنظار...

إذن فالرجل يحرص على سرّيّة المقابلة ميسّرًا بذلك مهمّته... وراح يتدهّن بالمسك وأمّ السعد تراقبه، منطوية على قلق لم يفارقها منذ ليلة الحلم... هيمن عليها شعور بأنّها تعاشر رجلًا آخر وأنّ صنعان القديم تلاشى في الظلام... وفي غفلة منها دسّ في جيبه خنجرًا ذا مقبض من الفضّة الخالصة تلقّاه هديّة من الهند...

ـ ١١ ـ

استقبله عليّ السلولي في جوسقه الصيفيّ بحديقة الإمارة... طالعه في جلباب فضفاض أبيض ورأس عارٍ فخفّف عنه رهبة السلطة... وقامت بين يديه مائدة حفلت بالقوارير والكئوس والنقل فبسط له المؤانسة والقرب... أجلسه على وسادة إلى جانبه مستبقيًا مرجان بطيشة، وقال:

ـ أهلًا بك يا معلّم صنعان، تاجر أصيل وإنسان كريم...

فتمتم صنعان مداريًا ارتباكه بابتسامة:

ـ الشكر لك يا نائب السلطان...

ملأ مرجان ثلاث كئوس، ساءل صنعان نفسه هل يبقى مرجان إلى آخر الجلسة؟... لعلّها فرصة لا تتكرّر فيا العمل؟ وقال السلولي:

ـ ليلة صيف لطيفة، أتحبّ الصيف؟

ـ أحبّ الفصول جميعًا...

ـ إنّك ممّن رضي الله عنهم، ومن تمام رضاه أن نبدأ حياة جديدة مثمرة...

فقال صنعان مدفوعًا بحبّ الاستطلاع:

ـ أسأل الله أن يتمّ نعمته علينا...

شربوا فتلقّوا من الراح نشوة وانتعاشًا... وجعل السلولي يقول:

ـ طهّرنا لكم الحيّ من الأوباش...

فقال بحزن دفين:

ـ نعم الحزم والعزم...

فقال بطيشة مرجان:

ـ لا نكاد نسمع الآن عن سرقة أو جريمة...

فسأل صنعان بحذر:

ـ هل اهتديتم إلى الجاني؟

فضحك السلولي قائلًا:

ـ المعترفون بالجريمة فاقوا الخمسين عدًّا!

ضحك مرجان أيضًا ولكنّه قال:

ـ الجاني الحقيقيّ ضمنهم ولا شكّ...

فقال السلولي:

ـ إنّها مشكلة جمصة البلطي!

فقال بطيشة:

ـ علينا أيضًا أن نضاعف المواعظ في المساجد والموالد...

أوشك صنعان أن ييأس ولكنّ السلولي أشار إلى مرجان إشارة خاصّة فغادر المكان... ومع ذلك كان الحرس منتشرًا في الحديقة، ولا يوجد مهرب، ولكنّه لم يغفل لحظة عن وعد قمقام...

قال السلولي مغيّرًا لهجته:

ـ فلنطوِ حديث الجريمة والمجرمين...

فقال صنعان باسمًا:

ـ طابت لياليك يا مولاي...

ـ الحقّ أنّي دعوتك لأكثر من داعٍ...

ـ إنّي رهن الإشارة...

فقال بثقة:

ـ إنّي أرغب في الزواج من كريمتك...

دهش صنعان... أسف لفرصة قُدّر لها الإحباط قبل أن تولد، ولٰكنّه قال:

ـ هٰذا شرف كبير وسعادة عظمى...

فقال الرجل ورأسه يتمايل من النشوة:

ـ وعندي أيضًا بنت هديّة لابنك فاضل!

فقال صنعان طاردًا ذهوله:

ـ إنّه شابّ سعيد الحظّ...

وصمت قليلًا ثمّ واصل:

ـ أمّا المطلب الأخير فهو يتعلّق بالمصلحة العامّة!

فتجلّت في عيني صنعان نظرة مستطلعة فقال الحاكم:

ـ المقاول حمدان طنيشة قريبك... أليس كذلك؟

ـ أجل يا مولاي...

ـ المسألة أنّني اعتزمت شقّ طريق بحذاء الصحراء بطول الحيّ كلّه...

ـ مشروع رائع حقًّا...

فسأله بنبرة ذات مغزى:

ـ متى تجيئني به إلى هٰذا المكان؟

اجتاحته موجة من السخرية وهو يقول:

ـ موعدنا مساء الغد يا مولاي!

فحدقه بنظرة ثاقبة وتساءل باسمًا:

ـ ترى على أيّ حال سيجيئني؟

فقال صنعان بلباقة ودهاء:

ـ على الحال التي تتوقّعها تمامًا...

فضحك السلولي وقال بمرح:

ـ أنت لبيب يا صنعان، ولا تنس أنّنا أهل!

خاف صنعان أن يباغته باستدعاء بطيشة مرجان... قال لنفسه «الآن... أو تلاشت الفرصة إلى الأبد»... ويسّر الرجل له الأمر وهو لا يدري فمدّ ساقيه وانطوى على ظهره طلبًا للراحة ثمّ أغمض عينيه... كان صنعان يغوص في خيال الجريمة ويقذف بنفسه فيها تبقّى له من مصير... استلّ خنجره... سدّده نحو القلب... طعن بقوّة مستمدّة من التصميم واليأس والرغبة الأخيرة في النجاة... انتفض الحاكم انتفاضة عنيفة كأنّما يصارع قوّة مجهولة... تقلّص وجهه وحملق بجنون... همّ بضمّ ساعديه كأنّما ليقبض على الخنجر ولٰكنّه لم يستطع... نطقت عيناه المذعورتان بكلام لم يُسمع، ثمّ همد إلى الأبد...

ـ ١٢ ـ

حملق في الخنجر غائب النصل والدم المتدفّق وهو يرتجف... انتزع عينيه بمشقّة ونظر نحو الباب المغلق بخوف شديد... تمزّق الصمت بنبض صدغيه... ولأوّل مرّة يلمح القناديل المعلّقة في الأركان... ولمح أيضًا قائمًا خشبيًّا مزخرفًا بالأصداف عليه مصحف كبير... توسّل بكلّ عذاباته إلى قمقام عفريته وقدره... وغشيه الوجود الخفيّ وسمع الصوت يقول بارتياح:

ـ أحسنت...

ثمّ بمرح:

ـ الآن تحرّر قمقام من السحر الأسود...

قال صنعان:

ـ أنقذني فقد كرهت المكان والمنظر...

فقال بهدوء وعطف:

ـ إيماني يمنعني من التدخّل بعد أن ملكت حرّيّة إرادتي...

فقال بجزع:

ـ لا أفقه معنًى لما تقول!

ـ عيبك يا صنعان أنّك لا تفكّر كإنسان...

ـ ربّاه، لا وقت للجدل، أتزمع تركي لشأني؟

ـ هٰذا تمامًا ما يقتضيه واجبي...

فصاح:

ـ يا للفظاعة، لقد خدعتني...

ـ بل منحتك فرصة للخلاص قلّما تُتاح لحيّ...

ـ ألم تتدخّل في حياتي وتحملني على قتل هذا الرجل؟

ـ كنت راغبًا بحرارة في التحرّر من شرّ السحر الأسود فاخترتك لإيمانك رغم تأرجحك بين الخير والشرّ، قدّرت أنّك أولى من غيرك بإنقاذ حيّك ونفسك...

فقال بيأس:

ـ لكنّك لم توضح لي أفكارك...

ـ وضّحتها بالقدر الكافي لمن يفكّر...

ـ مكر غير محمود... مَن قال إنّي مسئول عن الحيّ؟!.

ـ إنّها أمانة عامّة لا يجوز أن يتبرّأ منها إنسان أمين ولكنّها منوطة أوّلًا بأمثالك ممّن لا يخلون من نوايا طيّبة!

ـ ألم تنقذني من ورطتي تحت سلّم الكتّاب؟

ـ بلى، عزّ عليّ أن تنتهي بسبب من تدخّلي أسوأ نهاية لا أمل فيها لتكفير أو توبة فارتأيت أن أمنحك فرصة جديدة...

ـ وها قد قمتُ بما عاهدتك عليه فوجب عليك إنقاذي...

ـ إذن تكون مؤامرة، دورك فيها دور الآلة، وتقف الجدارة والتكفير والتوبة والخلاص...

فركع على ركبتيه قائلًا بتوسّل:

ـ ارحمني، وأنقذني...

ـ لا تبدّد تضحيتك في الهواء...

ـ إنّه مصير أسود!

ـ فاعل الخير لا تكربه العواقب...

هتف بذعر:

ـ لا أريد أن أكون بطلًا!

فقال قمقام بأسًى:

ـ كن بطلًا يا صنعان، هذا قدرك!

ومضى الصوت يتلاشى وهو يقول:

ـ أستودعك الله وأستغفره لي ولك...

ندّت عن صنعان صرخة ترامت إلى بطيشة مرجان ورجال الحرس في الخارج...

جمعة البلطي

ـ ١ ـ

سبحت روح صنعان الجمالي في سماء مقهى الأمراء فغشي روّادها الكدر، شهدوا محاكمته، سمعوا اعترافه الكامل، رأوا سيف شبيب رامة السيّاف وهو يطيح برأسه... كانت له منزلة طيّبة بين التجّار والأعيان، وكان من القلّة النادرة التي يحبّها الفقراء، وأمام أولئك وهؤلاء ضربت عنقه وشرّدت أسرته... ذاعت قصّته على كلّ لسان، هزّت أفئدة الحيّ والمدينة، استعادها السلطان شهريار مرّات ومرّات... وفي جوّ المقهى الملطّف بطلائع الخريف قال حمدان طنيشة المقاول:

ـ الله خالق الملك وصاحبه، المتصرّف في شئونه بما يشاء، يقول للشيء كن فيكون، مَن منكم كان يتصوّر هذا المصير لصنعان الجمالي؟ صنعان يغتصب بنتًا في العاشرة ويخنقها؟ صنعان يقتل حاكم الحيّ في أوّل لقاء معه؟!

فقال إبراهيم العطّار:

ـ باستبعاد العفريت تصبح الحكاية لغزًا من الألغاز!

فقال الطبيب عبد القادر المهيني:

ـ لعلّها عضّة الكلب، هي الأصل ثمّ تفرّع عنها خيالات مرض خبيث لم يعالَج كما يجب!...

فقال إبراهيم العطّار محتدًّا:

ـ لا يوجد مَن هو أخبر منّي بمداواة عضّة الكلب، آخرهم كان معروف الإسكافيّ... أليس كذلك يا معروف؟

فأجاب معروف من مجلسه في الوسط بين العامّة:

ـ الحمد لله الذي أتمّ عليّ نعمة الشفاء...

فتساءل عجر الحلّاق:

ـ ولِمَ لا نصدّق حكاية العفريت؟

فقال إبراهيم السقّاء:

ـ إنّهم يفوقون الآدميّين عددًا...

فقال سحلول تاجر المزادات والتحف:

ـ الموت في غنًى عن الأسباب...

فقال معروف الإسكافيّ:

- لي مع العفاريت حكايات وحكايات...

عند ذٰلك قال له شملول الأحدب، مهرّج السلطان:

- علمنا أنّ العفاريت تتجنّب دارك خوفًا من زوجتك...

فابتسم معروف مسلّمًا بقضائه... ولم تلقَ الدعابة نجاحًا في الجوّ الكئيب... وقال جليل البزّاز:

- ضاع صنعان وضاعت أسرته...

فقال كرم الأصيل صاحب الملايين والوجه الشبيه بالقرد:

- ومَدُّ يدِ المعونة لأسرته يُعتبر تحدّيًا للإمارة، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله...

فقال إبراهيم العطّار:

- أخوف ما أخاف أن ينفر الناس من أسرته اتّقاء لشرّ العفاريت...

فقال حسن العطّار الابن:

- هيهات أن يغيّر شيء ما بيني وبين فاضل صنعان...

وعاد حمدان طنيشة المقاول يقول:

- يقول للشيء كن فيكون...

- ٢ -

انطلق جمصة البلطي كبير الشرطة نحو النهر ليمارس هوايته المفضّلة في الصيد - كفّ نفسه أربعين يومًا عن هوايته حدادًا على رئيسه عليّ السلولي... وقد حزن على القاتل أيضًا في باطنه بحكم الجيرة والصداقة القديمة التي جعلت من الأسرتين أسرة واحدة... ربّاه، هو الذي قبض عليه، هو الذي رماه في السجن، هو الذي قدّمه للمحاكمة، ثمّ ساقه أخيرًا للسيّاف شبيب رامة... هو أيضًا مَن علّق رأسه بأعلى داره وصادر أمواله وطرد أسرته من الدار إلى النار... وعلى ما عُرف به من شدّة وصلابة فقد تكدّر صفوه وحزن قلبه - له قلب رغم أنّ كثيرين لا يتصوّرون ذلك... بل أحبّ هٰذا القلب حسنيّة كريمة صنعان وأوشك أن يطلب يدها لولا أن دهمته الحوادث... اليوم طاب الجوّ وهامت في السماء سحائب خريف صافية ولٰكنّ حبّه دُهس تحت عجلة الأحداث... ترك بغلته مع عبد ثمّ دفع القارب إلى وسط النهر ورمى بالشبكة... قطرات من الراحة في خضمّ العمل الشاقّ الوحشيّ... ابتسم... سرعان ما تمّ التفاهم بينه وبين الحاكم الجديد خليل الهمذاني... من أين يجيء شهريار بهٰؤلاء الحكّام؟!. أسفر الرجل عن وجهه عند أوّل تجربة... التجربة كانت أموال صنعان المصادرة... استولى على نصيب منها لا يُستهان به، وألقم بطيشة مرجان كما ألقمه نصيبه... وأضاف المتبقّي إلى بيت المال... استولى على نصيبه بالرغم من حزنه لمصير صديقه معتذرًا أمام نفسه بأنّ الرفض يعني تحدّيًا للحاكم الجديد... في قلبه موضع للعواطف وموضع للقسوة والجشع... قال لنفسه «مَن تعفّفَ جاع في هٰذه المدينة»... وتساءل ساخرًا «ماذا يجري علينا لو تولّى أمورنا حاكم عادل؟!»... أليس السلطان نفسه هو من قتل المئات من العذارى والعشرات من أهل الورع والتقى؟!. ما أخفّ موازينه إذا قيس بغيره من أكابر السلطنة... تنفّس بعمق... حقًّا إنّه يوم جميل... السماء منقوشة بالسحب... الهواء معتدل مضمّخ برائحة العشب والماء، الشبكة تمتلئ بالسمك، ولٰكن أين حسنيّة؟ أسرة صنعان تقيم اليوم بحجرة بربع... بعد الجاه والجواهر والإصطبل... أمّ السعد تصنع الحلوى، التي كانت تسحر بها ألباب الضيوف وفاضل يسرح بها كبائع جوّال، أمّا حسنيّة فتنتظر عريسًا لن يأتي... هل حقًّا سخّرك عفريت يا صنعان أو أتلفتك عضّة كلب؟! لن أنسى نظرتك الزائغة واستغاثتك بي «أسرتي يا جمصة»... هيهات أن يجرؤ إنسان على مدّ يده إلى أسرتك... ابنك فاضل أيضًا ولد ذو كبرياء... ضعْتَ يا صنعان وما كان كان... إن يكن عفريتك مؤمنًا حقًّا فليفعل شيئًا... عجيبة هٰذه السلطنة بناسها وعفاريتها... ترفع شعار الله وتغوص في الدنس... وبغتة تحوّل وعيه إلى يده... ثقلت الشبكة مبشّرة بالخير... جذبها بسرور حتّى استوت

فوق سطح القارب... لم ير بها سمكة واحدة!...

- ٣ -

ذهل جمصة البلطي... ثمّة كرة معدنيّة ولا شيء سواها... تناولها حانقًا، قلّبها بين يديه، ثمّ رمى بها في باطن القارب... أحدثت صوتًا عميقًا مؤثّرًا... حدث بها شيء غير ملحوظ فتمخّض عن انفجار... انطلق منها ما يشبه الغبار مدوّمًا في الجوّ حتّى عانق سحب الخريف... وتلاشى الغبار تاركًا وجودًا خفيفًا جثم عليه فملأ شعوره بحضوره الطاغي... ارتعب جمصة على إيلافه مواقف الخطر... أدرك بسابق علمه أنّه حيال عفريت منطلق من قمقم... ما ملك أن هتف:

- الأمان بحقّ مولانا سليمان!

فقال صوت لم يسمع له مثيلًا من قَبْل:

- ما أعذب الحرّيّة بعد جحيم السجن!

فقال البلطي متودّدًا بحلق جافّ:

- خلاصك تمّ على يدي...

- أخبرني أوّلًا عمّا فعل الله بسليمان؟

- مات سيّدنا سليمان منذ أكثر من ألف عام...

- مباركة مشيئة الله، هي التي سلّطت علينا إرادة آدميّ لا يرقى ترابه إلى نارنا، وذلك الآدميّ هو الذي عاقبني على هفوة من هفوات القلب يغفر الله أكبر منها برحمته...

فقال جمصة بأمل متصاعد:

- هنيئًا لك الحرّيّة فانطلق واستمتع بها...

قال بسخرية:

- أراك تطمع في النجاة!

- بما كنت الوسيلة إلى خلاصك!

- ما حرّرني إلّا القدر...

فقال جمصة بلهفة:

- وكنت أداة القدر...

فقال بحنق:

- في سجني الطويل امتلأت بالحنق والرغبة في الانتقام...

فقال بضراعة:

- العفو عند المقدرة من شِيَم الكرام...

- بارعون أنتم في الحفظ والاستشهاد والنفاق، وعلى قدر علمكم يجب أن يكون حسابكم، فالويل لكم...

فقال جمصة البلطي باستعطاف:

- نحن نخوض صراعًا متواصلًا مع أنفسنا والناس والحياة، وللصراع ضحايا لا يحيط بهم حصر، والأمل لا ينعدم أبدًا في رحمة الرحمٰن...

فقال العفريت في صرامة:

- الرحمة لمن يستحقّ الرحمة، ورحاب الله مفروشة بأزاهير الفرص المتاحة لمن استمسك بالحكمة، لذلك لا تحقّ الرحمة إلّا للمجتهدين وإلّا أفسدت الروائح الكريهة نقاء الجوّ المضيء بالنور الإلٰهيّ، فلا تعتذر عن الفساد بالفساد...

- نحن نؤمن بالرحمة حتّى ونحن نضرب الأعناق ونجتزّ الرءوس...

- يا لك من منافق... ما عملك؟

- كبير الشرطة...

- يا لها من ألقاب، هل تؤدّي واجبك بما يُرضي الله؟

فقال جمصة بقلق:

- واجبي أن أنفّذ الأوامر...

- شعار يصلح لتغطية الخبائث...

- لا حيلة لي في ذٰلك...

- إذا دُعيتم لخير ادّعيتم العجز، وإذا دُعيتم لشرّ بادرتم إليه باسم الواجب!

وقع جمصة في حصار محكم وهفّت عليه نذر الوعيد فتراجع إلى حافة القارب وهو يرتعد... في ذات الوقت شعر بنفاذ وجود جديد هيمن على المكان فآمن بمَقْدم عفريت آخر وأيقن بالضياع... قال القادم الجديد مخاطبًا الأوّل:

- هنيئًا لك الحرّيّة يا سنجام...

- الشكر لله يا قمقام...

- لم أرك منذ أكثر من ألف عام...

- ما أقصرها بالقياس إلى العمر وما أطولها إذا انقضت في قمقم!

ـ وقعت أنا أيضًا في شباك السحر وهو يضاهي السجن في عذابه. . .

ـ ما تصيبنا آفة إلّا من بني آدم. . .

ـ في فترة غيابك وقعت أحداث وأحداث فلعلّك يهمّك أن تلمّ بما فاتك. . .

ـ بلى، ولٰكنّي أريد أن أتّخذ قرارًا نحو هٰذا الآدميّ. . .

ـ دعنا منه الآن، هيهات أن يفلت من يديك إذا أردته، ولٰكن لا تتّخذ قرارًا وأنت حانق، فما هلك منّا عفريت إلّا فريسة لغضبه، هلمّ بنا إلى جبل قاف نحتفل بتحرّرك. . .

قال سنجام مخاطبًا البلطي:

ـ إلى اللقاء يا كبير الشرطة. . .

مضى الوجود المهيمن يخفّ حتّى تلاشى تمامًا. . . استردّ جمصة حرّيّة أعضائه ولٰكنّه تهاوى فوق سطح القارب خائر القوى وثملًا بالأمان في آنٍ. . .

ـ ٤ ـ

وثب جمصة البلطي إلى الشاطئ فاستقبله العبد منحنيًا ثمّ مضى يطوي الشبكة وهو يقول:

ـ ما في الشبكة سمكة واحدة. . .

فقال جمصة بريق جافّ:

ـ أكنت تنظر نحوي وأنا في القارب؟

ـ طيلة الوقت يا مولاي. . .

ـ ماذا رأيت؟

ـ رأيتك وأنت ترمي الشبكة، وأنت تنتظر، ثمّ وأنت تجذبها، لذٰلك أدهشني أن أجدها فارغة. . .

ـ ألم ترَ دخانًا ينتشر؟

ـ كلّا يا مولاي. . .

ـ ألم تسمع صوتًا غريبًا؟

ـ كلّا.

ـ لعلّك غفوت!

ـ أبدًا يا مولاي. . .

ما كان بوسعه أن يشكّ فيما وقع له. . . إنّه حقيقيّ أكثر من الحقيقة نفسها. . . وقد حُفر في ذاكرته اسم قمقام بمثل القوّة التي حُفر بها اسم سنجام. . . فذكر اعترافات صنعان في صورة جديدة فخيّل إليه أنّ صديقه القديم راح ضحيّة تعيسة. . . وتساءل بقلق عمّا يخبّئه له الغيب!

ـ ٥ ـ

طوى سرّه في صدره. . . حتّى رسميّة زوجته لم تعلم به. . . وهو سرّ يثقل على الصدر والقلب ولكن ما الحيلة؟. . . إذا فشا به يومًا أضرّ بمركزه وأفقده وظيفته. . . وأرق الليل متفكّرًا في العواقب مصمّمًا على الحذر. سنجام مؤمن فيما بدا وسيحفظ له جميل تحريره ولو صدفة. . . نام عقب صلاة الفجر ساعة ثمّ استيقظ على حال أفضل. . . كان بطبيعته قويًّا يتحدّى الصعاب والوساوس. . . لقد استأنس السلولي والهمذاني وليس سنجام بأشدّ مراسًا منهما. . . وقالت له رسميّة وهما يشربان لبن الصباح:

ـ أمس زارتني جارتنا القديمة أمّ السعد. . .

توتّرت أعصابه فجأة. . . قدّر خطورة الزيارة تقدير شرطيّ عالم ببواطن الأمور وقال بجفاء:

ـ أرملة مسكينة ولٰكن. . .

وتردّد لحظة ثمّ واصل حديثه:

ـ ولٰكنّ زيارتها لنا تضرّ بمركزي. . .

ـ حالها تقطّع القلب. . .

ـ هٰكذا حال الدنيا يا رسميّة ولٰكن لندع ما لله لله!

ـ جاءت بأمل أن تعينها على تقديم التماس للحاكم بردّ أملاك الأسرة. . .

فهتف:

ـ يا لها من جاهلة!. . .

ـ قالت إنّ الله لا يأخذ الأبناء بذنوب الآباء. . .

ـ شهريار نفسه هو الذي أصدر الحكم!

ثمّ قال بوضوح:

ـ صنعان كان صديقي ولٰكن ما قُدّر كان، ولعلّ قتل البنت بعد اغتصابها لا يعدّ شيئًا بالقياس إلى قتل حاكم الحيّ، فالسلطان يعتبر الضربة الموجّهة إلى نائبه

موجّهة إلى شخصه، وما زال السلطان سفّاكًا رغم تغيّره الطارئ، فلا تشجّعيها على التردّد عليك وإلّا حلّت بنا لعنة لا قِبل لنا بها...

فوجمت المرأة منكسرة الفؤاد فقال:

ـ إنّي في الحزن مثلك ولكن لا حيلة لنا...

ـ ٦ ـ

إنّه صادق في ما قال... حزنه على آل صنعان لم ينقشع، ومرجع ذلك ليس إلى العشق وحده... أحبّ الرجلَ من قبل أن يحبّ كريمته... وهو لا يخلو دائمًا من عواطف طيّبة، ومن ذكريات دينيّة، ولكنّه لا يجد بأسًا من ممارسة الانحراف في عالم منحرف... الحقّ أنّه لا يوجد قلب في الحيّ كقلبه في جمعه بين الأسود والأبيض... لذلك دعا فاضل صنعان إلى داره في زيارة أحاطها بالكتمان... جاء الفتى في زيّه الجديد المكوّن من الجلباب والصندل، زيّ البيّاع الجوّال... أجلسه إلى جانبه في المنظرة وقال:

ـ يسرّني يا فاضل أنّك تواجه مصيرك بشجاعة فائقة...

فقال فاضل:

ـ أحمد الله الذي أبقى على ديني بعد ضياع الجاه والمال...

أُعجب به حقًّا وقال:

ـ استدعيتك احترامًا لعهدنا القديم...

ـ بارك الله فيك يا سيّدي...

فنظر إليه مليًّا ثمّ قال:

ـ لولا ذلك لأبحت لنفسي القبض عليك...

فدهش فاضل متسائلًا:

ـ تقبض عليّ؟... لماذا يا سيّدي؟

ـ لا تتظاهر بالجهل... ألم يكفكم ما حاق بكم من شرّ؟!، اسْعَ لرزقك بعيدًا عن مصاحبة المخرّبين من أعداء السلطان!

فقال فاضل بوجه شاحب:

ـ ما أنا إلّا بائع جوّال...

ـ دَعِ المناورة يا فاضل، لا شيء يغيب عن جمصة البلطي، ومهمّتي الأولى كما تعلم هي مطاردة الشيعة والخوارج...

فقال فاضل بصوت منخفض:

ـ لست منهم، وقد كنت تلميذًا في مطلع حياتي للشيخ عبد الله البلخي...

ـ وكنت أنا أيضًا تلميذه، من مدرسة البلخي يخرج كثيرون، أهل الطريق، أهل السنّة، كما يخرج شياطين منحرفون عن الخطّ الأوّل...

ـ ثِقْ يا سيّدي من أنّني أبعد ما يكون عن الشياطين...

ـ لك رفقاء ورفقاء منهم!

ـ لا شأن لي بعقائدهم!...

فقال محذّرًا:

ـ في البداية رفقة بريئة ثمّ تجيء النكسة، وهم مجانين، يكفّرون الحكّام، ويغرّرون بالفقراء والعبيد، لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، كأنّ الله اصطفاهم دون عباده، احذر مصير أبيك فللشيطان طرق شتّى، أمّا أنا فلا أعرف إلّا واجبي، وقد بايعت السلطان كما بايعت حاكم الحيّ، على إبادة المارقين...

فقال فاضل بنبرة فاترة:

ـ توكّد يا سيّدي من أنّني أبعد ما يكون عن المارقين...

فقال جمصة:

ـ منحتك نصيحة أبويّة فقدّرها...

ـ شكرًا لمروءتك يا سيّدي...

وجعل يتفرّس في وجهه بحثًا عن مواقع الشبه بينه وبين حسنيّة أخته، وانتشى لحظات بالوجد، ثمّ قال:

ـ وثمّة مسألة أخرى، أرجو أن تبلّغ والدتك أنّ تقديم التماس بردّ أملاك الأسرة يُعتبر تحدّيًا للسلطان، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله!

فقال فاضل بتسليم:

ـ هٰذا هو رأيي أيضًا يا سيّدي...

وانتهت المقابلة في سرّيّة كما بدأت، وتساءل جمصة ترى هل يتاح له يومًا أن يستدعيه ليطلب منه يد حسنيّة؟!

- ٧ -

لعلّ جريمة صنعان الجمالي هي الحدث الخطير الوحيد الذي وقع في خدمة جمصة البلطي... ولم يحمّله أحد مسئوليّته خاصّة بعد ما عرف من تدخّل العفريت فيه... وليس كذلك ما يقع اليوم في الحيّ... فقد تتابعت حوادث قطع طريق داخل سور الحيّ وخارجه بكثرة مزعجة، فنُهبت أموال وسلع واعتُدي على رجال... وغضب جمصة البلطي غضب شرطيّ قدير حائز للثقة... بثّ المخبرين في الأماكن النائية، ونشر الدوريّات نهارًا وليلًا، وتفقّد الأماكن المشبوهة بنفسه ولكنّ الحوادث مضت في جريانها هازئة بنشاطه ولم يقبض على مجرم واحد...

وقال كرم الأصيل صاحب الملايين في مقهى الأمراء:

- كان حال الأمن أفضل على عهد المرحوم السلولي...

فقال الطبيب عبد القادر المهيني ضاحكًا:

- لم يوجد قاطع طريق في عهده سواه!

فقال عجر الحلّاق:

- جمصة البلطي في أسوإ أحواله...

وهو يطّلع على أحوال السادة وهو يقدّم لهم خدماته - كحلّاق - في دورهم، فقال إبراهيم العطّار:

- الأمن حياة التجارة، والتجارة حياة الأمّة، أقترح أن يذهب منّا وفد إلى حاكم حيّنا الهمذاني...

- ٨ -

ودعا خليل الهمذاني جمصة البلطي إلى دار الإمارة وقال له بعنف:

- المدينة تخرب وأنت تغطّ في النوم...

فقال كبير الشرطة بصوت منهزم:

- ما نمت وما قصّرت...

- العبرة بالخواتيم...

- إنّ يديّ مغلولتان...

- ماذا تريد؟

- الصعاليك الذين سبق القبض عليهم ينطلقون الآن للانتقام...

- ثبت من اعتراف صنعان الجمالي أنّهم كانوا أبرياء...

- لذلك فهم ينتقمون ولا مفرّ من اعتقالهم مرّة أخرى...

فقال الحاكم بحدّة:

- لقد سخط الوزير دندان على اعتقالهم في المرّة الأولى فلن أسمح به مرّة أخرى...

فقال جمصة البلطي بأسى:

- على أيّ حال إنّي أخوض معركة بقوّة لا تعرف الهوادة...

فقال الحاكم:

- لا بدّ من ضبط الأمن وإلّا عزلتك!...

هكذا غادر جمصة البلطي دار الإمارة يجرّ أذيال الإهانة لأوّل مرّة في حياته...

- ٩ -

غضب حيال الإهانة فهيمنت عليه طبيعته القويّة المتحدّية... غاضت نوازع الخير فتوارت في أعماق بعيدة... تصدّى للهزيمة بوحشيّة رجل يستبيح أيّ شيء في سبيل الدفاع عن سلطته... لقد استوعبته السلطة وخلقته خلقًا جديدًا فتناسى الكلمات الطيّبة التي تلقّاها على يد الشيخ في الزاوية على عهد البراءة... سرعان ما جمع أعوانه فصبّ عليهم السيل الذي انصبّ عليه في بهو الإمارة وفتح نوافذ الجحيم على مصراعيها... وكلّما وقع حادث جديد قبض على عشرات بلا دليل أو قرينة وعذّبهم بلا رحمة... وخفّت تبعًا لذلك متابعته للشيعة والخوارج فضاعفوا من نشاطهم، وحرّروا الصحائف السرّيّة التي تطفح بتجريم السلطان والولاة وتطالب بالاحتكام إلى القرآن والسنّة... وجنّ جنونه فاعتقل الكثيرين حتّى خيّم الخوف على الحيّ جميعًا ومادت به الأرض... واستفظع الهمذاني عنف الإجراءات ولكنّه أغمض

عينيه طمعًا في الفرج... على ذاك كلّه ازدادت الحوادث عددًا وعنفًا...

- ١٠ -

انهزم جمصة البلطي ولكنّه أبى الاعتراف بالهزيمة... وجعل يبيت ليالي عديدة في دار الشرطة حتّى تسلّط الإرهاق على قوّته الخارقة... وغلبه النوم مرّة في حجرة عمله فاستسلم له كأسد جريح... لم يفز بالراحة المنشودة ولكنّه طُرح تحت ثقل وجود غليظ احتلّ جوارحه... همس في حيرة:

- سنجام!

فجاء الصوت مقتحمًا وجدانه:

- أجل يا كبير الشرطة!

فسأله مستنكرًا:

- ماذا دعاك إلى الحضور؟

- غباء مَن يدّعون الذكاء!

تنوّر عقله فجأة بحقيقة لم تجر له في خاطر فقال:

- الآن عرفنا سرّ قطّاع الطريق الذين لا يعثرون لهم على أثر!

- الآن فقط؟

- من أين لي أن أخمّن أنّك صاحبهم!

- اعترفْ رغم غرورك بأنّك غبيّ...

فسأله بتحدٍّ:

- كيف هان عليك نهب الأموال وذكر الله يتردّد على لسانك؟!

- لم يُصِبْ غضبي إلّا الطغمة المستغلّة للعباد...

فتأوّه قائلًا وكأنّما يحادث نفسه:

- سأفقد عملي من أجل ذلك...

- إنّك أيضًا من الطغمة الفاسدة...

فقال بفخار:

- إنّي مَثَل أعلى في أداء الواجب...

- والمال الحرام؟

- ما هو إلّا فتات تتساقط من موائد الكبراء...

- عذر قبيح...

- إنّي أعيش في دنيا البشر...

- ماذا تعرف عن الكبراء؟

- كلّ كبيرة وصغيرة، ما هم إلّا لصوص أوغاد!

فقال الصوت متهكّمًا:

- لكنّك تحميهم بسيفك البتّار وتطارد أعداءهم الشرفاء من أهل الرأي والاجتهاد...

- إنّي منفّذ الأوامر وطريقي واضحة...

- بل تطاردك لعنة حماية المجرمين واضطهاد الشرفاء...

- ما فكّر رجل وهو يؤدّي واجبي هذا إلّا هلك...

- إذن أنت أداة بلا عقل...

- عقلي في خدمة واجبي فحسب...

- عذر من شأنه أن يهدر إنسانيّة الإنسان...

ولمح في وجدانه خاطر فتفتّحت له أبواب ونوافذ، فقال بدهاء:

- الحقّ أنّي لست راضيًا عن نفسي...

- محض كذب...

فقال بحرارة:

- لم أفلح أبدًا في اقتلاع الهواتف الشريفة، إنّها دائمًا تحاورني في سكون الليل...

- لا أجد لها أثرًا في حياتك...

فقال بلباقة:

- تعوزني قوّة تسندني عند الحاجة!

- بل إنّك تطارد الهواتف الشريفة كما تطارد الشرفاء...

فقال بتحدٍّ:

- إنّي أضع نفسي تحت الاختبار...

- أفصح عمّا تريد...

- اجعل قوّتك في مساندتي لا في معاندتي...

- ماذا تريد؟

- أهلك المجرمين وأحكم الأمّة حكمًا عادلًا نقيًّا!

جلجلت ضحكة ملأت الكون وقال:

- تودّ أن تمكر بي لتحقّق أحلامك الدفينة في القوّة والسلطان!

- كوسيلة لا كغاية!

- ما زال قلبك غارقًا في العبوديّة!

ـ جرّبني إذا شئت...

ـ إنّي عفريت مؤمن ولا أتجاوز حدودي أبدًا...

فقال جمصة يائسًا:

ـ إذن فابعد عن طريقي بسلام...

ـ الحقّ أنّي فكّرت بهدوء فوق جبل قاف فاقتنعت بأنّك أدّيت لي خدمة غير منكورة وإن تكن غير مقصودة فقرّرت أن أردّ الصنيع بمثله ودون تجاوز للحدود...

فقال بحيرة:

ـ ولْكنّك تفعل نقيض ما تقصد؟

ـ يا لك من غبيّ!

فقال بتوسّل:

ـ أوضح لي هدفك...

ـ لك عقل وإرادة وروح!

ـ ألقِ عليّ بصيصًا من نور...

ـ لك عقل وإرادة وروح...

همّ بالتوسّل إليه ولْكنّ الآخر أطلق ضحكة ساخرة، ثمّ سحب وجوده بسرعة وتلاشى...

استيقظ جمصة البلطي على نقر على الباب... دخل وكيله ليخبره بأنّه مدعوّ إلى لقاء الحاكم الهمذاني...

ـ ١١ ـ

تمنّى لو تُرك لنفسه ليتأمّل ولْكنّه لم يجد من الذهاب بدًّا... ما توقّع خيرًا من المقابلة... لم يعد ينتظر خيرًا على الإطلاق... اختفت بروق الآمال في سماء الخريف وصمتت طبول النصر... سيتأرجح طويلًا بين وعيد الحاكم وعبث سنجام... غاص في دوّامة لا قرار لها فوق متن بغلته في الطريق إلى دار الإمارة... الطريق مفعم بالحركة والصوت، تحاصره مطالب الحياة، الأعين تتابعه بازدراء... لا سرور ولا غرور... انقضت أيّام الاختيال... حقير يقتات على الحقارة، هٰذا ما أقنعه به سنجام... عزاؤه الوحيد كان أنّه سيف الدولة... فلّ السيف وتقوّض الأمن فأيّ وزن له؟!... لصّ قاتل حامي المجرمين ومعذّب الشرفاء... نسي الله حتّى ذكّره به عفريت من الجنّ...

ـ ١٢ ـ

وجد خليل الهمذاني واقفًا وسط البهو كرمح مستعدّ للقتال... قال جمصة بهدوء:

ـ سلام الله عليك أيّها الأمير...

فصاح الحاكم بصوت متهدّج من شدّة الغضب:

ـ انعدم السلام بوجودك...

فقال بحزن:

ـ إنّي أعمل حتّى الموت...

ـ لذٰلك سُرقت جواهر حريمي من أعماق داري!

فاق ذٰلك توقّعه... تساءل عمّا يريد سنجام...

وجم صامتًا... صاح خليل الهمذاني:

ـ ما أنت إلّا حشّاش أو شريك اللصوص...

قال بصوت غليظ:

ـ إنّي كبير الشرطة...

فصرخ:

ـ موعدنا المساء وإلّا عزلتك وضربت عنقك...

ـ ١٣ ـ

أيّ جدوى تُرجى من البحث؟ ماذا يفعل رجاله حيال قوّة سنجام؟. سوف يُعزل ويفقد شرفه وتُضرَب عنقه... إنّه مصير طالما ساق الناسَ إليه فكيف يتّهمه!... لٰكنّ جمصة لن يقبل مصيره دون دفاع، ودون دفاع شرس... أمامه نهار واحد ولا وقت للتردّد... ها هي حياته صفحة مبسوطة أمام عينيه... شهادة مجسّدة ومرعبة... بدأت بعهد الله وانتهت بعهد الشيطان... عليه أن يزلزلها قبل الموت... وخطر الشيخ على قلبه كما تخطر نسمة شاردة في جحيم القيظ... هفّت محمولة بين طيّات مقطّرة من حنين... قال لنفسه «هٰذا وقته»... جذبه على أيّ حال من أعمق أعماقه، عندما هتكت الأحزان القشرة الصلبة الملطّخة بالدماء...

وجده في حجرة الاستقبال البسيطة كأنّه ينتظر... انحنى فوق يده صامتًا وتربّع على شلتة بين يديه... تنشّق الذكريات كعطر وردة محنّطة، وتجسّدت له في الفراغ آيات وأحاديث، ومخلّفات من النوايا الطيّبة كالدماء... ارتوى من السكينة حتّى غلبه الحياء فقال بحزن:

ـ إنّي أقرأ شعورك نحوي يا مولاي...

فقال عبد الله البلخي بهدوئه الخالد:

ـ عِلْم ذلك عند الله وحده فلا تدَّعِ ما ليس لك به علم...

فقال بحزن:

ـ أنا في رأي الناس شرطيّ سفّاح...

ـ ترى لِمَ يزورني السفّاحون؟

فقال متشجّعًا:

ـ ما أعذبك يا مولاي! الحقيقة أنّ لديّ حكاية أودّ ان تسمعها...

فقال بزهد:

ـ لا رغبة لي في ذلك...

ـ يجب أن أتّخذ قرارًا وهيهات أن يُدرَك مغزاه دون سرد الحكاية...

ـ القرار كافٍ لإدراك مغزى الحكاية...

فقال بقلق:

ـ الأمر يحتاج إلى مشاورة...

ـ كلّا إنّه قرارك وحدك...

فقال بتوسّل:

ـ اسمع حكايتي العجيبة...

فقال بهدوئه:

ـ كلّا، يهمّني أمر واحد...

فسأله بلهفة:

ـ ما هو يا مولاي؟

ـ أن تتّخذ قرارك من أجل الله وحده...

فقال بحيرة:

ـ لذلك أحتاج إلى الرأي...

فقال الشيخ بهدوء حازم:

ـ الحكاية حكايتك وحدك والقرار قرارك وحدك...

ـ ١٤ ـ

غادر دار الشيخ موزّعًا بين الشكّ واليقين... كأنّ الشيخ يعرف حكايته وقراره، وكأنّه يبارك قراره تحت شرط أن يكون من أجل الله وحده؟!... ألم يلعب اليأس دورًا؟ ألم يلعب الدفاع عن النفس دورًا آخر؟ ألم تلعب الرغبة في الانتقام دورًا ثالثًا؟ ترى هل يهوّن من شأن التوبة أن تسبق بمعصية؟!... العبرة بالنيّة الأخيرة وبالإصرار عليها حتّى النهاية... إنّه على أيّ حال يدفن جمصة القديم ويبعث آخر جديدًا... ولّما قرّ قراره تنهّد بارتياح عميق... وتضاعف نشاطه طيلة الوقت فزار داره وجالس رسميّة زوجته وأكرمان ابنته، فجاش صدره بعواطف حارّة خفيّة أشعرته بوحدته أكثر وأكثر... حتّى سنجام تركه لوحدته... غير أنّ تصميمه كان نهائيًا ولم يعرف التردّد... وواجه أخطر موقف في حياته بشجاعة نادرة وإقدام لا يلوي على شيء... ورجع إلى مركز عمله فأفرج بقوّته الذاتيّة عن الشيعة والخوارج في ذهول كامل شمل الجنود والضحايا... وعند مطلع المساء مضى من توّه إلى دار الإمارة... أعرض عن النظر إلى الوجوه والأماكن في طريقه كأنّها لم تعد تعنيه... ورأى أخيرًا خليل الهمذاني ينتظر في هدوء وتصميم فلم يشكّ في أنّه اتّخذ قراره أيضًا... ضمّهما البهو في وحدة إلّا من عذابات البشر المتجمّعة وراء الوسائد والطنافس... وشهود من جميع الأجيال الغابرة... لم يتبادلا تحيّة وسأله الحاكم ببرود:

ـ ماذا وراءك؟

فأجاب جمصة البلطي بثقة:

ـ كلّ خير!

فتساءل الرجل بتفاؤل طارئ:

ـ قبضت على اللص؟

ـ من أجل ذلك جئت...

فقطّب الحاكم متسائلًا:

ـ أتظنّه في داري؟

فأشار جمصة إليه قائلًا:

ـ ها هو يتكلّم بلا حياء...

ذهل خليل الهمذاني وهتف:

- جننت وربّ الكعبة!

- إنّه الصدق يقال لأوّل مرّة...

تحفّز الحاكم للعمل فامتشق جمصة سيفه وهو يقول:

- ستنال جزاءك الحقّ...

- جننت، إنّك لا تدري ما تفعل...

فقال بهدوء:

- إنّي أقوم بواجبي!

فقال باضطراب وذعر شامل:

- عُدْ إلى رشدك، إنّك تلقي بنفسك إلى النطع...

فوجّه إلى عنقه ضربة قاضية فاختلطت صرخته المذعورة بخواره واندفع الدم مثل نافورة...

- ١٥ -

أُلقي القبض على جمصة البلطي وانتُزع السيف من يده... لم يحاول الهرب... ولم يقاوم، آمن بأنّ مهمّته قد انتهت... لذلك حلّ به هدوء وصفاء ذهن وعلت في وجدانه موجة الشجاعة الخارقة، فشعر بأنّه يخطو فوق جلّاديه، وبأنّه لا يبالي الموت بأيّ قدر جاء... وقال لنفسه إنّ الإنسان أعظم ممّا تصوّر، وإنّ الدنايا التي اقترفها لم تكن جديرة به على الإطلاق، وإنّ الإذعان لسطوتها كان هوانًا دفعه إليه السقوط والتنكّر لطبيعته الإنسانيّة... وقال أيضًا إنّه يمارس الآن عبادة صافية يغسل بطهرها قذر أعوام النفاق الطويلة...

وانتشر الخبر مع هواء الخريف فصار حديث العامّة والخاصّة، وفجّر الذهول وتساؤلات لا حصر لها ولا عدّ... وتضاربت النبوءات واحتدم هذيان المجاذيب فانطلق الاضطراب يجتاح الحيّ والمدينة ويصعد بهرجه إلى القصر السلطانيّ... وما لبث أن انتقل الوزير دندان إلى دار الإمارة بالحيّ على رأس كوكبة من الفرسان...

- ١٦ -

استُدعِيَ جمصة البلطي مكبّلًا بالحديد للمثول أمام العرش في بهو الأحكام... وتبدّى شهريار في عباءته الحمراء التي يرتديها إذا جلس للقضاء، على رأسه عمامة عالية تتراسل في جنباتها فصوص الجواهر النادرة... إلى يمينه وقف دندان، وإلى يساره رجال السلطنة، على حين اصطفّ الحرس على الجانبين أمّا وراء العرش فقد مثل شبيب رامة السيّاف...

تجلّت في عيني السلطان نظرة ثقيلة محمّلة بالفكر، ومضى يتفرّس في وجه كبير الشرطة مليًّا، ثمّ سأله:

- ألا تقرّ بفضلي عليك يا جمصة؟

فأجاب الرجل بصوت قويّ مثير للأعصاب:

- بلى، أيّها السلطان...

فآنس السلطان منه تحدّيًا لموقفه المكبّل بالحديد فقطّب وسأل:

- أتعترف بأنّك قتلت خليل الهمذاني نائبي في حيّكم؟

- أجل أيّها السلطان...

- ماذا دفعك إلى ارتكاب جريمتك الشنعاء؟

فقال بوضوح ودون مبالاة بالعواقب:

- أن أحقّق إرادة الله العادلة!

- ومَن أدراك بما يريد الله سبحانه؟

- هذا ما أُلهمته خلال حكاية عجيبة غيّرت مجرى حياتي!

انجذب وجدان السلطان نحو لفظة «حكاية» فتساءل:

- وما الحكاية؟

روى جمصة البلطي حكايته... مولده من أبوين من عامّة الشعب، تلمذته في الزاوية على الشيخ عبد الله البلخي، انفصاله عن الشيخ بعد تعلّم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، قوّة بدنه التي أهّلته للخدمة في الشرطة، اختياره كبيرًا للشرطة لكفاءته النادرة، انحرافه خطوة فخطوة حتّى انقلب مع الزمن حاميًا للمنحرفين وجلّادًا لأصحاب الرأي والاجتهاد، ظهور سنجام في حياته، أزماته المتتابعة، وأخيرًا توبته الدامية...

تابعه شهريار باهتمام... وضح أنّه انفعل بأقواله انفعالات متضاربة... قال ببرود:

ـ سنجام جمصة، عقب قمقام صنعان الجمالي، أصبحنا في زمن العفاريت الذين لا هَمَّ لهم إلّا قتل الحكّام!

فقال جمصة:

ـ ما زدت على الحقيقة حرفًا والله شهيد...

ـ لعلّك تحلم بأن ينقذك ذٰلك من العقاب؟

فقال باستهانة:

ـ إقدامي يقطع بأنّني لا أبالي...

فقال شهريار بحدّة:

ـ سنجعل منك مَثَلًا للمتمرّدين، فليضربنّ عنقك، وليعلّقنّ رأسك فوق باب دارك، ولتصادر أموالك...

ـ ١٧ ـ

في سجن تحت الأرض، وفي ظلام... كافح آلامه واستمسك بشجاعته... أثار حنق السلطان فانتصر عليه... تركه فوق عرشه يتعثّر في هزيمته... وتذكّر بأسّى رسميّة وأكرمان... وطافت بخياله حسنيّة... ستلقى أسرته من الهوان ما لقيته أسرة صنعان ولٰكنّ رحمة الله أقوى من الكون... وظنّ أنّ السهاد لن يفارقه ولٰكنّه نام نومًا عميقًا لم يستيقظ منه إلّا على جلبة وضوء مشاعل... لعلّه الصباح، وها هم الجنود قد حضروا ليسوقوه إلى النطع... سيكتظّ الميدان بأهل الفضول وسيموج بالعواطف المتضاربة... ليكن... ولٰكن ماذا يرى؟... يرى الجنود تنهال بالركلات على جمصة البلطي، وهٰذا يستيقظ فَزِعًا متأوّهًا... ما معنى هٰذا؟... أيحلم؟... إذا كان هٰذا هو جمصة البلطي فمن يكون هو؟!. كيف لا ينتبه إليه أحد وكأنّما هو غير موجود؟!. ذهل وخاف أن يفقد عقله... بل لعلّه فقد عقله... إنّه يرى جمصة البلطي أمامه... الجنود تسوقه إلى الخارج... وإنّه ـ بخلافه ـ شديد الفزع والانهيار... وجد نفسه أيضًا محرّرًا من القيد، فعزم على مغادرة السجن، وتبع الآخرين لا يلتفت إليه أحد... ربّاه... المدينة منحشرة في ميدان العقاب... نساء ورجال وأطفال... في الصدر السلطان ورجال الدولة... النطع في الوسط وشبيب رامة ونفر من المساعدين... لم تحضر رسميّة ولا أكرمان فهٰذا حسن... ما أكثر الوجوه التي عرفها وتعامل مع أصحابها... إنّه ينتقل من مكان إلى مكان فلا ينتبه إليه أحد... أمّا جمصة البلطي فيقترب من النطع بين حرّاسه... وجه واحد تراءى له كثيرًا حتّى عجب لشأنه هو وجه سحلول تاجر المزادات والجواهر... وعندما هيمنت لحظة الصمت المؤثّر، وخطف النطع الأبصار من جميع الجهات، خفق قلبه، وخيّل إليه أنّه سيلفظ روحه عقب سقوط رأس الآخر. وفي اللحظة المفعمة بالصمت ارتفع سيف شبيب رامة، ثمّ هوى كصاعقة، فسقط الرأس، وختمت حكاية جمصة البلطي.

توقّع جمصة البلطي الموت ولٰكنّه مرّ به وذهب... وتضاعف ذهوله وسط تيّار المنصرفين حتّى خلا الميدان تمامًا... تساءل «أأنا جمصة البلطي؟» وإذا بصوت سنجام يقول:

ـ كيف تشكّ في ذٰلك؟

فهتف الرجل في غاية من التأثّر:

ـ سنجام!... أنت صاحب المعجزة!

ـ إنّك حيّ، وما قتلوا إلّا صورة من صنع يديّ!

ـ إنّي مدين لك بحياتي فلا تتخلّ عنّي...

فقال بوضوح:

ـ لا، الآن لا عليّ ولا لي، أستودعك الله...

فهتف مذعورًا:

ـ كيف لي بالظهور أمام الناس؟!

فقال الصوت:

ـ هيهات أن يعرفك أحد، انظر في أوّل مرآة تصادفك...

الحمّال

- ١ -

من أعلى باب الدار تدلّى رأس جمصة البلطي... الرائحون والغادون ينظرون إليه، يتوقّفون قليلًا ثمّ يذهبون، وجمصة البلطي ينظر مع الناظرين... ينظرون بفضول أو رثاء أو شماتة... أمّا هو فينظر بذهول... ولم يكن أفاق من كربه حينما شهد طَرْد زوجته وابنته من الدار... وقد مرّا به دون اكتراث وهو متصوّر في صورة حبشيّ مفلفل الشعر خفيف اللحية ممشوق القامة... عَجَبُه من منظر رأسه لا ينقضي، أمّا حزنه على أسرته فلا نهاية له... ويحوم حول الدار فتترامى إلى أذنيه التعليقات المتضاربة تحت الرأس المعلّق... السادة - مثل كرم الأصيل والعطّار والبزّاز - يلعنونه بلا رحمة، والعامّة يرثون له... وقد أشرف على مصادرة داره الحاكم الجديد يوسف الطاهر وكاتم سرّ بطيشة مرجان وكبير الشرطة الجديد عدنان شومة... فتساءل عمّا ذهب إلى بيت المال وعمّا دُسّ في الجيوب... وظلّ قريبًا من الرأس المعلّق ينظر ويتأمّل ويسمع... ورأى عجر الحلّاق وهو يقول لإبراهيم السقّاء مشيرًا إلى الرأس:

- قتلوه جزاء الفعل الخير الوحيد في حياته...

فتساءل السقّاء:

- لِمَ لَمْ ينقذه عفريته المؤمن؟

فقال الحلّاق محذّرًا:

- لا تخض في ما لا تعلم...

فصدّق معروف الإسكافيّ على قوله... ورأى سحلول تاجر المزادات والتحف وهو ينظر نحو الرأس بلا مبالاة فتذكّر نشاطه العجيب يوم الإعدام... ولمّا كان التاجر وحده فقد اقترب منه وسأله:

- هلّا نوّرت غريبًا بحكاية صاحب هذا الرأس؟

فحدجه سحلول بنظرة ارتجف لوقعها جسمه... خيّل إليه أنّها نفذت إلى أعماقه فازداد الرجل في نظره غموضًا على غموض... وقال له سحلول وهو يمضي عنه:

- لا أعرف عنه أكثر من الآخرين...

أتبعه ناظريه حتّى اختفى ثمّ قال لنفسه «لعلّه ترفّع عن محادثة حبشيّ غريب!»... وتذكّر تاريخه - كشرطيّ سابق عالم بأحوال الناس - فشهد له بأنّه التاجر الكبير الوحيد الذي لم ينشئ علاقة مريبة معه أو مع الحاكم!... ثمّ سرعان ما نسيه في زحمة التأمّلات... ورأى رجب الحمّال ينضمّ إلى موقف عجر وإبراهيم ومعروف فقصده مدفوعًا بخطّة رسمها من قبل... حيّاه وقال:

- إنّي حبشيّ مهاجر وأريد أن أعمل حمّالًا!

فتذكّر رجب صديقه الأوّل السندباد ولكنّه قال:

- هلمّ معي والله رزّاق كريم...

- ٢ -

حام بروحه وجسده حول أسرته... ما قيمة الحياة إذا ما انفصل عن أسرته ورأسه؟!. وظلّ يتبع رسميّة وأكرمان حتّى استقرّتا في حجرة بالربع الذي يقيم فيه آل صنعان... ولم يتردّد فاكترى لنفسه حجرة في نفس الربع وعُرف بعبد الله الحمّال... وسرّه في غيوم القلق أنّ أمّ السعد هي التي قادت أسرته إلى مأواها الجديد... سرّه أنّ أمّ السعد لم تنسَ الجيرة القديمة... ولم تنسَ سَعْي رسميّة إلى مساعدتها في محنتها... وسوف تشارك رسميّة زوجته في صنع الحلوى فيسرح بها فاضل صنعان لحساب الأسرتين... سرّ بذلك أيّما سرور وسرّ أيضًا بجيرته لهم فيهنأ برؤيتهم ويطمئنّ على أحوالهم ويمارس ما يتاح له من زوجيّة وأبوّة وعشق من بعيد، من موقع معزول لا يدري به أحد... وتوقّع أن يتزوّج فاضل من ابنته أكرمان كما اتّفق قديمًا مع صنعان، وكما حلم هو يومًا من الزواج من حسنيّة أخت فاضل...

واصل تلك الحياة الغريبة... يشعر أحيانًا أنّه حيٌّ، وأحيانًا أنّه ميت...

- ٣ -

أجل إنّه عبد الله الحيّ وجمصة الميت معًا... تجربة

غريبة لم يمارسها إنسان من قبل... يسعى إلى رزقه في رحاب زمالة رجب فيتذكّر أنّه حيّ... يعبر الطريق تحت رأسه المعلّق أو يرى رسميّة وأكرمان فيتذكّر أنّه ميت... ولم يغفل أبدًا عن معجزة إنقاذه من الموت فعزم على السير حتّى النهاية في طريق التقوى... يجد سروره في العبادة وينعم في وحدته بذكر الله... ويناجي رأسه المعلّق فيقول «لتبقَ رمزًا على موت الشرّير الذي عبث بروحي طويلًا»... على أنّ صدره فاض بحنين دائم نحو شخصيّته الزائلة... تلك الشخصيّة التي توّجت حياتها بتوبة صادقة... مثير جدًّا أن يموت الإنسان وهو حيّ أو يحيا وهو ميت... فمنذا يمكن أن يصدّق أنّه جمصة البلطي بجوهره الدفين؟! وهل يحتمل أن ينفرد بهذا السرّ وحده إلى الأبد؟! حتّى رسميّة وأكرمان تنظران إليه كغريب وافد من بلاد غريبة... لذلك يشعر حيال نظرتهما غير المبالية بغربة قاسية وظلم معذّب... لم تفطنا ولو مرّة واحدة إلى الحبّ الراسخ وراء نظرته المسترقة... لم تعكسا لأشواقه صدًى... تطلّ من عينيهما نظرة تجدّد تنفيذ الإعدام فيه كلّ صباح وكلّ مساء... حتّى حزنهما لذكراه لم يكن يمسّه بأنامل العزاء... ويحزّ في نفسه ابتعادهما الوئيد عن ذكراه في ما تغوصان فيه من هموم الحياة اليوميّة... لن تصدّقا الحياة الموهوبة له بمعجزة ولن تتقبّلاها... لقد تجرّعتا غصص موته، وعانتا كرباتها، وعرفتا الحياة بدونه، والخروج من الوضع الجديد مزعج مثل الدخول فيه... وهو لن يُقدم على تقويض البناء الجديد ولا يستطيعه... مَن مات يجب أن يستمرّ في الموت رحمة بمن يحبّ... وعليه أن يألف موته في حياته الجديدة... ليكن عبد الله الحمّال لا جمصة البلطي... ولتكن مسرّته في العمل والعبادة... غير أنّ عمله يسوقه كثيرًا إلى بيوت معارفه السابقين، وإلى دور السادة والحكّام... عالم التقوى الظاهرة والفساد الكامن... وأرجعه ذلك إلى التفكير في ذاته وفي أحوال الناس... كدّر صفو سلامه الروحيّ. طارده الاعوجاج كأنّما اقتحم أعضاءه وأخلّ بوظائفها... وقال إنّه كما تنطلق الكواكب في نظام بديع فهكذا يجب أن تجري أحوال العباد... وتساءل في قلق:

ـ هل بقيت في الحياة بمعجزة لأعمل حمّالًا؟!

ـ ٤ ـ

جعل شهريار ينظر إلى أشباح الأشجار المتهامسة في الليل... ربض السلطان في مجلسه بالشرفة الخلفيّة رغم أنّ الخريف كان ينسحب أمام طلائع الشتاء... إنّه أقدر على تحمّل البرد منه على محاورة طوفان أفكاره... والتفت نحو وزيره دندان متسائلًا:

ـ أتكره الظلام؟

فقال الوزير بولاء:

ـ إنّي أحبّ ما يحبّ مولاي...

إنّه يتساءل دائمًا: ترى هل تغيّر السلطان حقًّا أو إنّها وقفة عابرة؟!. ولكن مهلًا... كان في ماضيه حاسمًا واضحًا قاسيًا بليد الإحساس، الآن سرعان ما تومض في عينيه نظرة حائرة... قال دندان:

ـ الأمّة سعيدة وتلهج بالشكر...

فتمتم السلطان بخشونة:

ـ قُتل عليّ السلولي وسرعان ما لحق به خليل الهمذاني!

فقال دندان بإشفاق:

ـ الشرّ والخير كالليل والنهار...

ـ والعفاريت؟!

ـ أمام النطع يختلق المجرم ما يستطيع...

فقال بهدوء:

ـ ولكنّي أتذكّر حكايات شهرزاد!

فخفق قلب دندان وقال:

ـ لا بدّ أن يلقى القاتل جزاءه...

ـ الحقّ أنّي أوشكت أن أكتفي بسجن جمصة البلطي!

ثمّ بحنق:

ـ ولكنّي أعدمته جزاء وقاحته في مخاطبتي...

قال دندان لنفسه إنّ مولاه لم يتغيّر منه إلّا سطحه ولكنّه قال:

ـ على أيّ حال نال الشقيّ جزاءه...

فقال بحدّة:

- ونلت نصيبي من الكآبة...

- مولاي، لعلّها وعكة طارئة...

- بل حال من الأحوال، وهل حدّثتني حكايات شهرزاد إلّا حديث الموت؟!

فقال الوزير بجزع:

- الموت!

- أمم تلتها أمم، يطرق بابها في النهاية طارق مصمّم واحد هو هازم اللذّات!

- إنّها مشيئة الله أطال بقاءك...

فقال بصوت محايد:

- القلوب أسرار، والكآبة ماكرة، وقد تداوى الملوك السابقون في الليل بالتجوال وتفقّد الأحوال...

فقال دندان مستمسكًا بطوق النجاة:

- التجوال وتفقّد الأحوال، يا له من إلهام!...

وقال لنفسه: «كائن لا حدود لقوّته، قد يتكشّف عن زهرة أو يتمخّض عن زلزال...»...

- ٥ -

عبد الله الحمّال ماضٍ في دورانه بلا توقّف... في الأزقّة المسدودة والحواري الحلزونيّة وأحياء التجارة والحِرَف وطرق المراكب وميادين الرماية والصيد والإعدام والبوّابات الضخمة تقوم مقام الحدود والروائح تنتشر كالعناوين، رائحة العطّارة النافذة والعطور المخدّرة والأقمشة المدغدغة والأطعمة الفوّاحة والجلود العطنة... يمرّ برسميّة وأكرمان، وأمّ السعد وحسنيّة، يلقي التحيّة بلسان يتردّد في هذا العالم ويقلب سكن في العالم الآخر... وفي تجواله عرف فاضل صنعان ووثّق علاقته به... من الناس مَن حفظ عهده مثل حسن العطّار ونور الدين ومنهم من تجنّبه تجنّبًا للشيطان... وأشفق عبد الله من أن تتفشّى حكاية العفريت فتقضي على مستقبل أكرمان وحسنيّة اللتين يؤهّلهما إعدادهما لخيرة الزيجات... وأحبّ فاضل صنعان لجدّه وتقواه وشجاعته فجعل من سُلّم السبيل محطّ راحته في نهار العمل يلتقيان فيه ويتبادلان الحديث... وذات مرّة قال له:

- إنّك شابّ تقيّ لا تفوتك فريضة فلِمَ لا تصون عفّتك بالزواج؟

فقال فاضل بأسى:

- لا قِبل لي بنفقات الزواج...

- القليل يكفي!

- لي حياء وكرامة...

فقال عبد الله بإغراء:

- بين يديك أكرمان...

التقت عيناهما في ابتسامة كاشفة عن أسرار كثيرة وقال فاضل:

- وأنت يا عمّ عبد الله، ناهزت الأربعين أو فُتّها دون زواج...؟

فقال الحمّال بوضوح:

- إنّي أرمل، وأودّ أيضًا أن أصون عفّتي!

- يخيّل إليّ أنّك في غير حاجة إلى خاطبة!

فقال بهدوء:

- ستّ رسميّة أمّ أكرمان!

فضحك فاضل وقال:

- فلننتظر قليلًا ثمّ نتقدّم معًا...

- ولِمَ الانتظار؟

- حتّى تمحى ذكرى جمصة البلطي!

فانقبض صدره... إنّه أراد رسميّة بدافع من وفائه وتقواه... لو أطاع هواه ما اختار إلّا حسنيّة... ويوم تقبله رسميّة سيسعد من قلبه نصف ويبكيه نصفه الآخر...

- ٦ -

كلّما خلا إلى نفسه تساءل: «هل بقيتُ في الحياة بمعجزة لأعمل حمّالًا؟!»... وتساءل أيضًا: «لِمَ لَمْ يهجرني سنجام في اللحظة الحرجة كما هجر قمقام صنعان الجمالي؟»... وامتلأ بالحيرة كوعاء مكشوف تحت المطر فقادته قدماه إلى دار الشيخ عبد الله البلخي. قبّل يده وتربّع أمامه وهو يقول:

- إنّي غريب...

فقاطعه الشيخ:

ـ كلّنا غرباء...

ـ اسمك كالزهرة يجذب إليه شوارد النحلات...

فقال الشيخ:

ـ الفعل الجميل خير من القول الجميل...

ـ ولكن ما الفعل الجميل؟... هذه هي مشكلتي!

ـ ألم يصادفك عند مجيئك رجل حائر؟...

ـ أين يا مولاي؟

فأجاب بهدوء:

ـ بين مقامَي العبادة والدم؟

فارتعد خوفًا وقال لنفسه إنّه يرى ما وراء الحجاب... وقال متنهّدًا:

ـ في الليلة الظلماء يُفتقد البدر...

فقال الشيخ:

ـ عرفت من التلاميذ ثلاثة أنواع...

ـ هم السعداء في جميع الأحوال...

ـ قوم يتلقّون المبادئ ويسعون في الأرض، وقوم يتوغّلون في العلم ويتولّون الشئون، وقوم يواصلون السير حتّى مقام الحبّ ولكن ما أقلّهم!

فتفكّر عبد الله مليًّا ثمّ قال:

ـ ولكنّ العباد في حاجة إلى الرعاية...

فقال دون أن يتخلّى عنه هدوءه:

ـ كلٌّ على قدر همّته...

فتحدّى تردّده قائلًا:

ـ إنّما قصدتك يا مولاي...

وعثر في الصمت كأنّما ليجمع أفكاره فقال الشيخ:

ـ لا تحدّثني عن مقصدك...

ـ لماذا؟

ـ كلٌّ على قدر همّته!

أسبل جفنيه غائبًا عن اللقاء...

انتظر عبد الله أن يرفعهما مرّة أخرى ولكنّه لم يفعل فانحنى لاثمًا يده وانصرف...

ـ ٧ ـ

قال لنفسه إنّ الشيخ اطّلع على هواجسه فأحاله إلى ذاته... عليه أن يسلّم بذلك ما دام الإنسان قد قبل الأمانة... سيلقى الأشرار غدًا الويل بفضل عزيمة تائب ومكر شرطيّ خبير... ومضى يمارس عمله وهو يتلقّى صفاء وتركيزًا... ومن رحمة تنداح في قلبه استمدّ عقله أفكارًا لا تعرف الرحمة... حادّة كنصل السيف... سرعان ما دهمته الحياة بتناقضاتها الساخرة ومصائرها الدامية وهنائها الموعود... وأبى التراجع لأنّه أبى أن يستأثر بهديّة الحياة دون ثمن... عند ذاك تراءت له حسنيّة كأمل يبرق في سماء عالم آخر... وعند الأصيل آوى إلى سلّم السبيل فوافاه فاضل صنعان إليه... تبيّن له أنّ الشابّ وثب فوق الزمن بأسرع ممّا قدر... قال فاضل:

ـ سأطلب يد أكرمان!

فقال بدهشة:

ـ كنت تفضّل الانتظار وقتًا؟

ـ كلّا، عدلت عن ذلك، وسأطلب يد ستّ رسميّة نيابة عنك!

صمت عبد الله متفكّرًا... لا شكّ أنّها بحاجة إلى رجل في محنتها، وهيهات أن تطمع فيمن هو أفضل منه!...

وقال فاضل بمرح:

ـ ما أجمل أن تتزوّج الأمّ وابنتها في ليلة واحدة!

ولّما كان قد آنس إليه فقد أنشأ يقصّ عليه حكايتي صنعان الجمالي وجمصة البلطي...

ـ ٨ ـ

ولّما انتهى من حديثه المثير قال عبد الله معلّقًا:

ـ يُعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء...

فتمتم فاضل صنعان:

ـ كلٌّ على قدر همّته!

فاقتحمته الجملة مثل رائحة الفلفل وتساءل ترى هل تلقّاها من المصدر نفسه؟!. وقال له ممهّدًا لمجرى جديد من الحديث:

ـ ومن كمال الهمّة الحذر...

ناجى كلّ منهما أفكاره الخاصّة مليًّا ثمّ قال عبد الله:

ـ نحن نوشك أن نصير أسرة واحدة، لذلك أقول لك إنّ الجمّال يدخل الدور التى لا يتاح دخولها إلّا للصفوة. . .

حدس فاضل أنّ صاحبه مقبل على الإدلاء باعتراف ما فحدجه بنظرة متسائلة فقال عبد الله:

ـ في داريْ يوسف الطاهر الحاكم وعدنان شومة كبير الشرطة يدور الهمس أحيانًا عن أعداء الدولة. . .

فقال فاضل متظاهرًا باللامبالاة:

ـ إنّه أقلّ ما يُنتظر. . .

ـ لا يتصوّر أحد أنّي أفقه معنًى لما يدور أو أنّني أمدّ إليه أذنًا. . .

ـ ولْكنّك رجل غير عاديّ يا عمّ عبد الله وهٰذا ما أعجب له!

ـ لا تعجب لفطنة رجل طالما تقلّب بين البلدان والأحوال!

فقال فاضل بأريحيّة:

ـ الحقّ أنّي سعيد بك. . .

فمضى عبد الله في اعترافه قائلًا:

ـ وهم قوم موسوسون، كلّما تمادوا في الإجرام تخايلت لأعينهم أشباح الشيعة والخوارج. . .

ـ أعرف ذٰلك تمامًا. . .

ـ لذٰلك قلت إنّه من كمال الهمّة الحذر. . .

فرمقه فاضل بارتياب وسأله:

ـ ماذا تعني؟

ـ إنّك لبيب!

ـ كأنّك تحذّرني!

ـ لا بأس من ذٰلك. . .

ـ ما أنا إلّا بائع حلوى، هل رابك منّي شيء؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ إنّي أحبّ الحذر كما أحبّ الشيعة والخوارج!

فسأله فاضل بلهفة:

ـ مِن أيّهما أنت؟

ـ لا مِن هٰؤلاء ولا مِن أولٰئك ولٰكنّي عدوّ الأشرار!

وجد عبد الله بين يديه دعوة مفتوحة ولٰكنّه كشرطيّ سابق آثر العمل بطريقته الخاصّة!

ـ ٩ ـ

انطلق عبد الله الحمّال كالسهم في سماء الجهاد كما تصوّره، نادى قوّته القديمة وأخضعها هٰذه المرّة لإرادته الصلبة النقيّة. . . وفي الحال سقط بطيشة مرجان كاتم السرّ قتيلًا. . . وهو يمضي من دار الإمارة إلى داره عقب منتصف الليل، وبين حرسه، انقضّ من الظلام سهم فاستقرّ في قلبه، فهوى فوق بغلته بين الرماح والمشاعل. . . اجتاح الحرس المكان وما يتشعّب منه وألقوا القبض على مَن صادفهم من المارّة والمتسكّعين والمكوّمين في الأركان. . . احترقت داره حزنًا، وزلزلت دار الإمارة فغادرها يوسف الطاهر كالمجنون على رأس قوّاته، وصعد الخبر إلى الوزير دندان فأرّقه الفزع حتّى الصباح. . . ومنذ الصباح انتشر النبأ في الحيّ ثمّ في المدينة فهاجت الأنفس وفاضت بالظنون. . . حلقة جديدة في سلسلة مصرعَي السلولي والهمذاني. . . التحام جديد بدنيا العفاريت الغامضة. . . بل إنّهم الخوارج أو الشيعة. . . أو لعلّها حادثة فرديّة تكمن وراءها غيرة امرأة أو حسد رجل. . . وأمطرت السماء مطرًا غزيرًا لم ينقطع طيلة النهار فتراكم الوحل وجرى الماء مغطًى بالزبد في الحواري والأزقّة فأفسد نظام الجنازة والدفن منذرًا بشتاء قاسٍ. . . واندسّ عبد الله الحمّال بين العامّة في مقهى الأمراء مرهف الحواسّ باهتمام خفيّ. . . استقطب الحادث الحديث كلّه، وتناقضت الآراء بين إنكار السادة المعلَنة وهمسات العامّة المتبادلة في الآذان. . . ولمح عبد الله المعلّم سحلول تاجر المزادات والتحف وهو ينهمك في حديث طويل مع كرم الأصيل صاحب الملايين فانقبض صدره. . . إنّه لم ينسَ نظرته النافذة تحت رأسه المعلّق. . . وتذكّر أنّه رآه يحوم حول موكب كاتم السرّ وهو ـ عبد الله ـ يتأهّب لإطلاق السهم، فكيف لم يُقبض عليه فيمن قبض عليهم؟. . . كيف غاب عن أعين الحرس؟. . . انقبض صدره وتوجّس خيفة. . . وعجب كيف أنّه الرجل الوحيد في الحيّ الذي لم يطّلع له على سرّ طيلة عهده برئاسة الشرطة. . . إنّه مطّلع على أحوال جميع السادة ما ظهر منها وما بطن إلّا هٰذا الرجل، فهو لغز مغلق!

- ١٠ -

لم تخفّ حمّى المسئولين ولا إجراءاتهم القاسية أمّا بقيّة الناس فمضوا يألفون الحادث ويعلّون الخوض فيه ثمّ يتناسونه... وسرعان ما غلبت مطالب الحياة على أحداث التاريخ، فقالت أمّ السعد أرملة صنعان لستّ رسميّة أرملة جمصة البلطي:

- ببركة الله وحكمته يرغب فاضل ابني في الزواج من أكرمان.

وتمّت الموافقة في فرحة شاملة... إنّهنّ جميعًا يعشن في واقع ولا يسمحن لحلم غابر بأن يفسده... وقالت أيضًا أمّ السعد:

- أنت أيضًا يا ستّ رسميّة!

وأعلنت لها عن رغبة عبد الله الحمّال في الزواج منها... ضحكت رسميّة ضحكة فاترة لوقع المفاجأة... ولم تسرّ بها ولم ترحّب... وقالت بحياء:

- الزواج لأكرمان وحسنيّة لا لنا!

ثمّ عقب الصمت واصلت:

- جمصة لم يمت، ما زالت ذكراه حيّة في نفسي!

وسرّ فاضل وعبد الله، كلٌّ بما تلقّاه... أجل استاء عبد الله لوأد عواطفه ولكنّ جمصة الكامن فيه سُرَّ سرورًا لا مزيد عليه...

- ١١ -

احتُفل بالزفاف في حجرة أمّ السعد... شهدته الأسرتان، ودُعي إليه عبد الله الحمّال فسوّغ حضوره بهديّة من العنبر والبخور قدّمها للعروسين، وبما بذله في النهار من كنس الفناء... جاد بالهمّة التي جاد بها ساعة تصدّى لقتل بطيشة مرجان... ثمل بعبق الأسرة الحارّ الذي نفثت في جوارحه سكرة باقية... جاش صدره بالأبوّة والزوجيّة والحبّ خاشعًا في الوقت نفسه تحت هيمنة التقوى وحبّ الله الرحيم... استردّ ثراء وجدان قديم ونَعِم بالقرب، دافنًا سرّه في بشر مترع بالأسى...

وتطوّعت حسنيّة لإحياء زفاف شقيقها معتمدة على إجادتها في الشعر والغناء والصوت الحسن، وعلى إيقاع الأكفّ أنشدت بصوت عذب:

يترجم طرفي عن لساني لتعلموا
ويبدي لكم ما كان صدري يكتم
ولّما التقينا والدموع سواجم
خرست وطرفي بالهموم يتكلّم

فطربوا جميعًا، وطرب عبد الله حتّى فاض قلبه بالدمع... وقام ليلقي في المدفأة حطبًا فسمع على باب الحجرة طرقًا... مضى ليفتح فطالعه في الظلام البارد ثلاثة أشباح... قال أحدهم:

- نحن تجّار أغراب، سمعنا غناء جميلًا فقلنا إنّ الكرام لا يصدّون الغريب...

أشار فاضل إلى النساء فتوارَيْنَ وراء ستارة تشطر الحجرة ومضى نحو الأغراب قائلًا:

- ادخلوا بسلام... ما هو إلّا زفاف قاصر على أهله البسطاء.

فقال الرجل الغريب:

- ما نريد إلّا الأنس بالناس الطيّبين...

وقال أحد الآخرين:

- عندكم دفء جميل...

وجاءهم فاضل بطبق من البسيمة والمشبّك وهو يقول:

- ما لدينا سوى هٰذا وهو ما نتعيّش منه...

- نحمد الله الذي حلّ ريقنا وأحلى ليلتنا...

ومال كبيرهم على أذن أحد الآخرين فغادر المكان مسرعًا... وخطف عبد الله من الكبير نظرات فخيّل إليه أنّه لا يراه لأوّل مرّة، وحاول أن يتذكّر أين ومتى ولٰكن خانته الذاكرة... ثمّ رجع الرجل محمّلًا بالسمك المقليّ والمشويّ فدبّ في الأنفس نشاط، وسعدت بلذيذ المآكل، وقال فاضل ممتنًّا:

- ما يليق مسكننا بمقامكم...

فقال الرجل مجاملًا:

- العبرة بأهل المسكن...

ثمّ برجاء:

- أسمعونا طربًا فالطرب ما أسعدنا بمعرفتكم...

فذهب فاضل إلى ما وراء الستار... وقبل أن يستقرّ في مجلسه مرّة أخرى تهادى صوت حسنيّة منشدًا:

لو علمنا مجيئكم لفرشنا
مهجة القلب أو سواد العيون
وفرشنا خدودنا والتقينا
ليكون المسير فوق الجفون

فطرب الجميع وهتف أحد الغرباء:

ـ تبارك الخلّاق العظيم...

وسأل الكبير فاضل:

ـ كيف ملكتَ هذه الجارية وأنت على ما تزعم من فقر؟

فقال فاضل:

ـ ما هي إلّا شقيقتي...

ـ لها صوت مهذّب ينمّ عن أصل كريم...

فوجم فاضل فما كان من عبد الله الحمّال إلّا أن قال:

ـ وإنّه لمن أصل كريم اعترضته غدرة من غدرات الزمان...

فتساءل التاجر:

ـ ما حكاية تلك الغدرة؟

فأجاب عبد الله الحمّال:

ـ ما من أحد في مدينتنا إلّا ويعرف حكاية التاجر صنعان الجمالي...!

فصمت التاجر لحظة ثمّ قال:

ـ سمعنا بها في ما سمعنا من أنباء مدينتكم العجيبة...

وتساءل زميله:

ـ ولكن هل تصدّقون ما رُوي عن العفريت؟

فتساءل فاضل بدوره:

ـ كيف لا وقد جرّ علينا من كوارث!

ـ ولكنّ الوالي لا يستطيع أن يستدعي العفريت للشهادة أو التحقيق فكيف يقيم العدل؟

فقال عبد الله الحمّال:

ـ على الوالي أن يُقيم العدل من البداية فلا تقتحم العفاريت علينا حياتنا!

فسأله كبير الغرباء:

ـ ترى هل تكابدون في حياتكم ظلمًا؟!

فأسعفه الحذر المكتسب من خبرته القديمة في الشرطة وقال:

ـ لنا سلطان عادل والحمد لله ولكنّ الحياة لا تخلو من غصص...

وتواصل الحديث ساعة حتّى نهض الغرباء للانصراف...

ـ ١٢ ـ

خاض ثلاثتهم الظلام صامتين... التفت التاجر الثاني نحو الأوّل وقال:

ـ لعلّ مولاي قد وجد التسلية المنشودة؟

فتمتم الآخر:

ـ فرجة في غموم القلب...

ثمّ بعد قليل:

ـ لم تعد جلسة الشعراء تطربني ولا تهريج شملول الأحدب يضحكني...

ـ تولّاك الله بالرعاية يا مولاي...

فقال مخاطبًا نفسه:

ـ حلم قصير مذهل، لا تتخايل فيه حقيقة حتّى تتلاشى...

انتظر الآخر أن يلقي السلطان ضوءًا على قوله ولكنّه لزم الصمت حتّى النهاية...

ـ ١٣ ـ

استقلّ فاضل وأكرمان بحجرة فجمعت الحجرة الأخرى رسميّة وأمّ السعد وحسنيّة... على بساطة الحياة نَعِم الزوجان بسعادة صافية، وتمنّى فاضل لحسنيّة خاتمة سعيدة كخاتمته... وكان أحسن توفيقًا في تناسي الماضي من النساء فهو يجد ما يشغله وهنّ لا تمحى من ذاكرتهنّ الأيّام الخوالي بعزّها وأضوائها... وتوحّد مع عبد الله الحمّال حتّى تبادلا قراءة الأفكار وخواطر القلوب... الرجل من معدنه، وروحه أكبر منه، واهتمامه منجذب إلى هموم البشر كأنّه فقيه لا

حمّال... لو استمع أحد المارّة إلى ما يدور بينهما من حديث فوق سلّم السبيل لذهل ولظنّهما رجلين خطيرين يتنكّران في ثوبي بيّاع وحمّال... وقال له يومًا:

ـ فتحت لك قلبي ولٰكنّك توصد قلبك حيالي...

فنفى ذٰلك بهزّة من رأسه فقال:

ـ في حياتك سرّ ولستَ حمّالًا بسيطًا...

فقال يطمئنه:

ـ كان لي مرشد في وطني، لا سرّ وراء ذٰلك...

ـ في ذٰلك ما يكفي...

ـ على أيّ حال نحن نرتوي من منبع واحد...

فقال فاضل بجرأة:

ـ لذٰلك سأسألك خدمة...

فحدجه بنظرة متسائلة فقال بنبرة ذات مغزى:

ـ إنّك بحكم عملك تتردّد على الدور جميعًا!

فابتسم عبد الله بذكاء وصمت منتظرًا فقال:

ـ أتقبل أن تحمل الرسائل أحيانًا؟

فقال باسمًا وهو يتذكّر أكرمان بحنان:

ـ ثمّة أقوام يجدون معنى حياتهم في السعي إلى المتاعب...

فتجاهل قوله متسائلًا:

ـ هل تقبل؟

فقال بهدوء:

ـ ما تشاء وأكثر...

ـ ١٤ ـ

أدّى هٰذه المهمّة الجانبيّة في يسر وأمان تامّين فلم يعتدّها إضافة ذات شأن إلى مهمّته الأصليّة، وهمومه الشخصيّة ـ رسميّة، حسنيّة، تردّده بين الحياة والموت ـ لم تُمحَ من صفحته، ولٰكنّها لم تعد تزعجه، وتلاشت في همومه العامّة كما تتلاشى أمواج النهر في المحيط... وكان الرجل الثاني في برنامجه يوسف الطاهر أو عدنان شومة أيّهما أيسر ولٰكنّه قدّم عليهما إبراهيم العطّار لسبب عارض لم يخطر في باله من قبل... ذٰلك أنّه حمل إليه لوازم فاختلفا على الأجر فلعنه التاجر الكبير وأهانه... واستقرّ السهم القاتل في قلب إبراهيم العطّار وهو راجع إلى داره عقب سهرة المقهى... وانفجر الفزع في المدينة وانهمرت ذكريات مَصارع السلولي وبطيشة مرجان والهمذاني...

وجَمَعَ سلّم السبيل بين عبد الله وفاضل في عنفوان الاضطراب المتفجّر... تبادلا نظرات قلقة، وعبثًا حاولا كتمان ارتياحهما... تمتم عبد الله:

ـ يا لها من أحداث مرعبة...!

فحدس الآخر ظنونه فقال ببراءة:

ـ ليس الاغتيال ضمن خطّتنا!

فقال عبد الله متظاهرًا بالحيرة:

ـ لعلّها حادثة انتقام شخصيّ...

ـ لا أظنّ...

ـ لٰكنّه لم يكن أفسد من غيره...

ـ يعرف الخاصّة أنّه كان يدسّ السمّ في أدوية أعداء الحاكم!

قال عبد الله لنفسه إنّ صاحبه يعرف من أسرار الناس ما يعرفه وربّما أكثر... تساءل:

ـ إذا لم يكن الاغتيال ضمن خطّتكم فمن فاعله؟

فقال فاضل بضيق:

ـ الله يعلم، إنّه يقتل ونحن ندفع الثمن...

ـ ١٥ ـ

عندما أطفأ الشمعة وآوى إلى فراشه شعر بالوجود الغريب يدهمه فارتجف قلبه وتمتم:

ـ سنجام!

فسأله الصوت ببرود:

ـ ماذا فعلت؟

ـ أفعل بطريقتي ما أعتقد أنّه الخير...

ـ بل كان ردّ فعل لما ألحقه بك من إهانة...

فقال بحرارة:

ـ ما فعلت إلّا أن قدّمته وكان دوره سيأتي عاجلًا أو آجلًا...

فقال سنجام:

ـ حسابك عند المُطّلع على ما في الصدور، فحذارِ

يا رجل...

وتلاشى سنجام فلم يغمض له جفن...

- ١٦ -

فوق قبّة جامع الإمام العاشر، في جلسة مفعمة بالهدوء، مترعة ببرد الشتاء، متلفّعة برداء الليل، جلس قمقام وسنجام... تحتهما تدفّقت قوّات الشرطة مكشّرة عن أنيابها، يتطاير الشرر من أعينها الشملة بالحمرة القانية... همس قمقام في أسًى:

- يا لعذاب البشر!

فقال سنجام كالمعتذر:

- ما فعلت إلّا أن أنقذت روح جمصة البلطي من الجحيم...

- ما تدخّلنا مرّة في حياتهم وانتهى الأمر بما نودّ...

- والإغضاء عنهم فوق ما نحتمل...

ومرّ تحتهم في تلك اللحظة المعلّم سحلول تاجر المزادات والتحف فأشار إليه قمقام قائلًا:

- إنّي أغبطه على معاشرته لهم كأنّه آدميّ مثلهم!

فقال سنجام مشاركًا:

- ولكنّه ملاك، نائب عزرائيل في الحيّ، واجبه يقتضي الاختلاط بهم ليل نهار، ويحلّ له ما لا يحلّ لنا...

فقال قمقام:

- لندع الله أن يلهمنا الصواب...

فردّد سنجام:

- آمين...

- ١٧ -

اعترضت مسيرة عبد الله الحمّال عثرة ضاق بها صدره... كان يمضي بحمل كبير من النقل والفاكهة المجفّفة إلى دار عدنان شومة كبير الشرطة... ولم يكن كفّ عن تقييم مصرع إبراهيم العطّار، ما وراءه من جهاد صادق، وما تسلّل إليه من غضب ورغبة في الانتقام... سبيل الله واضح ولا يجوز أن يخالطه غضب أو كبرياء، وإلّا انهار البناء من أساسه...

وكانت دار عدنان شومة تقوم في شارع المواكب والأعياد على مبعدة يسيرة من دار الإمارة... شارع وقور تقوم على جانبيه دور السادة والفنادق الكبرى، وبه بستان وساحة بيع الجواري... قال لنفسه وهو يدخل الدار «سيجيء دورك يا عدنان قريبًا»... وعندما همّ بالذهاب أوقفه عبد، ودعاه إلى مقابلة صاحب الدار... ذهب إلى بهو الاستقبال بقلب يخفق بالقلق... نظر إليه الرجل بوجهه المستدير الصغير وعينيه الضيّقتين القاسيتين وهو يداعب لحيته، ثمّ سأله:

- من أيّ البلاد؟

فأجاب عبد الله بخشوع:

- الحبشة...

- قيل لي إنّ سمعتك طيّبة وإنّه لا تفوتك فريضة!

فتلقّى أوّل نسمة راحة وقال:

- بفضل الله ورحمته...

فقال بهدوء:

- لذلك وقع اختياري عليك...

تفشّى المعنى المقصود في رأسه كما تتفشّى رائحة قويّة في مكان مغلق... فكم من مرّة - وهو كبير الشرطة - وجّه مثل هذا القول إلى رجل إيذانًا بنظمه في سلك عيونه السرّيّة... وهو يعلم أنّ التملّص من التكليف خليق بالقضاء عليه وأنّه لا مفرّ من الطاعة... وقال الرجل:

- بذلك تحوز الشرف في خدمة السلطان والدين...

تظاهر بالارتياح والسعادة والزهو... أعطاه الأمارات التي يطمئنّ بها... على ذاك قال له محذّرًا:

- احذر ما يُرْدي الخائن في الهلاك...

فتمتم بغموض:

- تسرّني الخدمة في رحاب الله...

فقال عدنان شومة:

- الدور مفتوحة لك بحكم عملك ولا ينقصك إلّا بعض الإرشادات...

هي الإرشادات المدوّنة في دفاتر سرّيّة منذ عهد جمصة البلطي...

- ١٨ -

غادر دار عدنان شومة بحمل جديد أثقل من الحمل الذي جاء به... ولدى اجتماعه بفاضل صنعان أفضى إليه بسرّه الجديد... ففكّر فاضل في الأمر طويلًا ثمّ قال:

- أصبحت ذا عينين، عين لنا وعين علينا...

لكنّ عبد الله غرق في همّه فسأله:

- ألا تعتبر ذلك كسبًا لنا؟

فقال عبد الله بوجوم:

- إنّي مطالَب بما يدلّ على إخلاصي في العمل!

فلاذ فاضل بالصمت متفكّرًا فمضى عبد الله:

- أتساءل أحيانًا هل دعاني الرجل لشكّه في أمري؟

فبادره فاضل:

- إنّهم أصحاب عنف فلا حاجة بهم إلى الحيلة...

- أوافقك، ولكن كيف أثبت إخلاصي؟

فرجع فاضل للتفكير في الأمر ثمّ قال:

- تقتضي المصلحة أحيانًا إرسال أناس منّا إلى بلاد بعيدة، سأدلّك على أحدهم لتبلّغ عنه بحيث يفلت في الوقت المناسب «مصادفة»!

فقال عبد الله وعيناه تبرقان بالفكر:

- حلّ موفّق ولكن لا يجوز تكراره!

فقال فاضل مخاطبًا نفسه:

- حقًّا إنّها ورطة!

- ها أنت تشاركني الرأي أخيرًا...

وساءل نفسه هل يستطيع الاستمرار في تنفيذ مشروعه السرّيّ؟! وتشعّث تفكيره فجأة عندما رأى المعلّم سحلول يعبر الطريق أمامهم مسرعًا لا يلوي على شيء... انقبض صدره كالعادة ولكز فاضل بكوعه متسائلًا:

- ماذا تعرف عن هذا الرجل؟

فقال فاضل بنبرة طبيعيّة:

- سحلول تاجر المزادات والتحف، كان من أصدقاء أبي، ولعلّه التاجر الوحيد الذي يملك صحيفة بيضاء...

- ماذا تعرف عنه أيضًا؟

- لا شيء...

- ألا يثير فضولك غموضه؟

- غموضه؟!، ما هي إلّا البساطة الصريحة، رجل نشيط خبير، ولا شأن له بالآخرين، ما الذي يدعوك للتساؤل؟

فتردّد قليلًا ثمّ قال:

- له نظرة نافذة لم أرتح إليها...

- لا أساس لظنونك تقوم عليه، إنّه استثناء طاهر لقاعدة فاسدة...

تمنّى أن يصدق رأيه وأن تكذب ظنونه...

- ١٩ -

أيقن من خبرته السابقة بأنّه سيوضع تحت المراقبة أسوة بالمخبرين الجدد... هيهات أن يجد فرصة ليقوم بمغامرة جديدة إلّا إذا أزاح عدنان شومة نفسه من طريقه بضربة موفّقة... وتسلّل إلى داره في لقاء سرّيّ وقال له:

- عمّا قليل ستسقط ثمار كثيرة، الحيّ مليء بالكفرة ولكنّي أرى أن أتجنّب التردّد عليكم...

فقال عدنان شومة بسرور:

- سأعيّن لك وسيطًا...

- هذا يكفي في الشئون العاديّة أمّا الشئون الخطيرة فأفضّل أن يقتصر الاتّصال عليك...

- نتّفق على ذلك فيما بعد...

فقال عبد الله بحماس:

- خير البرّ عاجله...

فقال عدنان شومة بعد تفكير:

- إنّي أتواجد أحيانًا ليلًا خارج سور الحيّ، أظنّه مكانًا مناسبًا...

ووافق تدبيره ما كان يأمل...

- ٢٠ -

وبمعاونة فاضل صنعان قدّم تقريرًا عن شابّ أعزب يقيم منفردًا بحجرة في ربع بعطفة الدبّاغين... ولّما

انقضّت القوّة على مسكنه تبيّن لها أنّه غادره لسفر منذ دقائق!... وغضب عدنان شومة وقال لعبد الله:

- أثرت ريبته دون أن تدري!

فوكّد له أنّه أدهى ممّا يتصوّر ولكنّ الآخر صرفه غير راضٍ عنه...

- ٢١ -

وزلزلت دار الإمارة، والحيّ والمدينة، للعثور على جثّة عدنان شومة خارج سور الحيّ... ماج شهريار نفسه بالغضب، وتخايلت لأعين الكبراء مخاوف مجهولة تزحف من مكامنها في الظلام... وغدا إلى عبد الله من وسطه السرّيّ الرسميّ أنّ البحث يتركّز في كشف الأسباب التي دعت كبير الشرطة للخروج سرًّا من سور الحيّ... وكان هو أوّل مَن أتيح له الاطّلاع على سرّ ضحيّته الذي كان يقصد دارًا خاصّة يلتقي فيها بجلّنار وزهريار شقيقتي يوسف الطاهر حاكم الحيّ... الحقّ أنّه عرف سيرة المرأتين منذ عهد خدمته، ومن قبل أن يتولّى يوسف الطاهر الإمارة... لذلك دعاه كبير الشرطة إلى مقابلته في جوسق بحديقة الدار ثمّ صرفه ولكنّه لم يرجع إلى الحيّ بل لبد له في الظلام حتّى غادر الدار قبيل الفجر فتلقّاه بالسهم القاتل... الآن يتلاشى شعوره بالأمان ولا يستبعد أن يكون بعض خاصّة عدنان شومة من النساء أو الرجال قد عرف سرّ المقابلة بينه وبين الرجل... قرّر الهرب ولو إلى حين... غادر الحيّ كلّه إلى ما وراء الخلاء عند النهر على كثب من اللسان الأخضر حيث اعتاد ممارسة هواية الصيد، نفس البقعة التي التحم فيها بسنجام... وجد نخلة فارعة فارتمى تحتها وأغرق في التفكير... وأقبل الليل وتجلّت النجوم متواضعة واشتدّ البرد... ترى هل أحسن التدبير والتفكير أو إنّ لهفته على تنفيذ مشروعه قد أفسدت عليه هدفه؟!. ومتى وكيف يتاح له العمل مرّة أخرى؟. كيف يتجنّب أعداءه وكيف يتّصل بصاحبه فاضل صنعان؟. وفي سكون الليل ترامى إليه صوت يقول:

- يا عبد الله!

نظر صوب مصدر الصوت، صوب النهر، وتساءل:

- مَن ينادي؟

فقال الصوت بنبرة تبثّ الأمان والطمأنينة والسلام:

- اقترب...

دنا من النهر يسير في حذر حتّى رأى صفحته معتمة تحت ضوء النجوم، ورأى شبحًا نصفه في الماء ونصفه مستند بساعديه فوق الشاطئ... سأله:

- أأنت في حاجة إلى مساعدة؟

- أنت المحتاج إلى المساعدة يا عبد الله...

فسأله بقلق:

- مَن أنت وماذا تعرف عنّي؟

- أنا عبد الله البحريّ كما أنّك عبد الله البرّيّ، وقبضة الشرّ تتوتّر للقبض على عنقك...

- سيّدي ماذا يبقيك في الماء؟... من أيّ الأحياء أنت؟.

- ما أنا إلّا عابد في مملكة الماء اللانهائيّة...

- تعني أنّها مملكة تحيا تحت الماء؟

- نعم، تحقّق بها الكمال وتلاشت المتناقضات، ولا ينغّص صفوها إلّا تعاسة أهل البرّ...

فقال عبد الله منبهرًا:

- عجيب ما أسمع ولكنّ قدرة الله لا حدّ لها...

- كذلك رحمته فاخلع ثيابك واغطس في الماء...

- لماذا يا سيّدي؟... لماذا تطالبني بذلك في الليل البارد؟

- افعل كما أقول قبل أن تطوّق عنقك القبضة القاتلة...

وسرعان ما غاص عبد الله البحريّ في الماء تاركه لاختياره... وبدافع من إلهام ثمل خلع ملابسه وغاص في ماء النهر حتّى اختفى تمامًا... وإذا بالصوت يقول له:

- عد إلى البرّ آمنًا...

وما كاد يشعر بالأرض تحت قدميه حتّى استقرّ قلبه بين ضلوعه وشعر بأنّه جارحة من جوارح السماء والأرض والليل، وشعر أيضًا بالدفء... عند ذاك غلبه النوم فنام نومًا عميقًا هادئًا وكأنّما النجوم لا تومض إلّا لترعاه... وصحا قبل انبلاج الصبح...

ونظر في مرآته على ضوء أوّل شعاع يهبط فرأى وجهًا جديدًا لم يعرفه من قبل فهتف:

- مباركة العجائب إن تكن من صنع الله...

لا هو وجه البلطي ولا وجه عبد الله... وجه قمحيّ صافي البشرة... ولحية مسترسلة سوداء، وشعر غزير مفروق ينسدل حتّى المنكبين، ونظرة عينين تومض بلغة النجوم... أدرك الموت عبد الله كما أدرك جمصة البلطي من قبل... وغاب فاضل وأكرمان، ورسميّة وحسنيّة، وأمّ السعد... ولكنّ ثمّة أصواتًا جديدة تتجسّد، ومغامرات جديدة تقبل مع الشروق، ودنيا جديدة تنكشف عن عجائب مباركة...

- ٢٢ -

طابت له الحياة في الخلاء على مقربة من اللسان الأخضر الممتدّ في النهر... النخلة جليسه، وصيد النهر غذاؤه، والهواء النقيّ أليفه، وروّاد اللسان الأخضر من أهل الصبوات والطرب مثار نقمته ومرتاد عفوه، أمّا راحة قلبه ففي مناجاة عبد الله البحريّ... ويجيء عابرو النهر بأنباء المدينة... علم في ما علم أنّ الحاكم يوسف الطاهر اختار حسام الفقي كاتمًا لسرّه وبيومي الأرمل كبيرًا لشرطته... علم أيضًا أنّ قوّات الأمن تجتاح الحيّ كإعصار وأنّهم يبحثون عن عبد الله الحمّال وأنّهم ألقوا القبض على معارفه فسيق إلى السجن رجب الحمّال وفاضل صنعان وزوجته أكرمان... هكذا سرعان ما فني أمنه وجزع قلبه فتوثّب من جديد للنضال...

- ٢٣ -

لم يذهب ليقتل ولكن ليقدّم نفسه فدية عمّن يحبّ... لم يستشعر رهبة ولا خوفًا، وسما به الإلهام فوق الوساوس... قصد من توّه بيومي الأرمل في دار الشرطة، وقال له بهدوء ورزانة:

- جئت لأعترف بين يديك بأنّني قاتل عدنان شومة!

فانتبه إليه كبير الشرطة متفحّصًا وسأله:

- مَن أنت؟

- عبد الله البرّيّ صيّاد سمك...

من منظره شكّ كبير الشرطة في جنونه فأمر بتكبيله بالحديد اتّقاء لخطره ثمّ سأله:

- ولِمَ قتلت عدنان شومة؟

فأجاب ببساطة:

- إنّني مكلّف بقتل الأشرار...

- مَن الذي كلّفك بذلك؟

- سنجام، ذلك العفريت المؤمن، وبوحيه قتلت خليل الهمذاني وبطيشة مرجان وإبراهيم العطّار...

فجاراه الرجل قائلًا:

- سبق أن اعترف بقتل الهمذاني كبير الشرطة الأسبق جمصة البلطي...

فهتف الرجل:

- في الأصل كنت جمصة البلطي!

- رأسه معلّق بباب داره!

- وقد رأيته بعيني رأسي!

- وتصرّ على أنّك صاحب الرأس...؟

- لا ريب في ذلك وسوف تصدّقني عندما تسمع حكايتي...

- لكن كيف ومتى ركّبت هذا الرأس الجديد؟

- دعني أطلب سنجام شاهدًا...

فصاح الرجل:

- إنّك معجزة جديرة بالإقامة الدائمة في دار المجانين...

وأمر بإرساله من توّه إلى دار المجانين فمضوا به وهو يصرخ:

- إليّ يا سنجام... إليّ يا عبد الله البحريّ...

* * *

وقد عُذّب فاضل في السجن طويلًا، ثمّ لم يجد الحاكم بدًّا من الإفراج عنه ومَن معه، آمرًا في الوقت نفسه بمضاعفة الجهد للعثور على عبد الله الحمّال...

نُورُ الدِّين وَدُنيا زَاد

- ١ -

غمر نور الدين أشجار البلخ بميدان الرماية

فالتمعت أزهارها البنزهيريّة الناعمة... وغمر نور القمر أيضًا قمقام وسنجام المستلقيين فوق غصن من أغصان الشجرة الكبرى في ليلة مازجت فيها أنفاس الشتاء المودّع أنفاس الربيع المتحفّزة... قال قمقام:

- ما أطيب الزمن إذا جرى تحت رضا العناية!...

فقال سنجام:

- إذا استقرّت السكينة سمعت همسات الأزهار وهي تسبّح بحمد الله...

- ماذا ينقص الإنسان ليحظى بنعمة الزمان والمكان؟

- هذا ما يحيّرني يا أخي، ألم يوهب العقل والروح؟

وأرهف قمقام أذنيه في حذر ثمّ تساءل:

- ثمّة نذير في الجوّ؟

عند ذلك حطّ فوق غصن قريب عفريت وعفريتة ثملين بالمجون فهمس سنجام:

- سخربوط وزرمباحة!

فهمس قمقام:

- الكفر والشرّ...

وضحك سخربوط ساخرًا وقال معلّقًا:

- نحن نستمتع بالكون بلا خوف...

فصاح به قمقام:

- لا سرور لمن خلا من الله قلبه...

فتساءلت زرمباحة ساخرة:

- حقًّا؟

وتبادلت مع رفيقها الغرام فتطاير من عناقها الشرر... اختفى قمقام وسنجام فندّ عن حنجرتي سخربوط وزرمباحة هتاف انتصار وقال لها:

- غبت عنّي دهرًا...

فقالت ضاحكة:

- لعبت لعبة في معبد بالهند، وأين كنت أنت؟

- قمت برحلة فوق الجبال...

فقالت زرمباحة بإغراء:

- رأيت لدى عودتي فتاة جميلة بهرني جمالها والحقّ يقال...

- أنا أيضًا رأيت شابًا جميلًا في حيّ العطور لا نظير لجماله بين البشر...

- إنّ نظرة على فتاتي ستمحو من ذاكرتك صورة فتاك...

- هٰذه مغالاة لا مسوّغ لها...

- تعال وانظر بعينيك...

- أين توجد فتاتك؟

- في قصر السلطان نفسه...

وفي غمضة عين كانا في جناح البهاء بقصر السلطان... تراءت فتاة آية في الجمال وكانت تنزع عباءتها المطرّزة بأسلاك من ذهب لترتدي حلّة نومها المصنوعة من الحرير الدمشقيّ... قالت زرمباحة:

- دنيا زاد أخت شهرزاد زوجة السلطان...

- جمالها يفوق الحياة حقًّا، لِمَ يحظى بهٰذا الجمال كائن سريع العطب؟

- صدقت فهو ما يتألّق إلّا أيّامًا معدودات ثمّ يعبث به الزمن...

- لذٰلك تلذّ الشماتة بهم...

- لهم عقل ولٰكنّهم يحيون حياة الأغبياء...

- لشدّ ما تبدو خالدة!

- لعلّك الآن تسلّم أنّها أجمل من فتاك؟

فقال سخربوط بعد تردّد:

- لا أدري... تعالي لتنظري بنفسك...

في أقلّ من لحظة كانا في دكّان شابّ آية في الحسن... كان يغلق الدكّان ويطفئ السراج ويهمّ بالذهاب... قال سخربوط:

- هٰذا نور الدين بيّاع العطور...

- جماله فائق أيضًا، مَن هو صاحبك؟

- بيّاع كما ترين، وما يهمّنا أصله...

- هو أليق الذكور بفتاتي وهي أليق الإناث به...

- يعيشان في مدينة واحدة ويفصل بينهما ما يفصل بين السماء والأرض...

- هٰذا هو العبث فكيف نُتّهم نحن بأنّنا العابثون!

- كيف لا يتنافس الخطّاب في فتاتك؟

- مهلًا، يتمنّاها الكثيرون، منهم يوسف الطاهر حاكم الحيّ، ومنهم كرم الأصيل صاحب الملايين، ولٰكن مَن الكفء لأخت السلطانة؟!

ـ زرمباحة، هٰذا الكون مثقل بالحماقة...

وهتفت زرمباحة بسرور:

ـ جاءتني فكرة...

ـ ما هي؟

ـ فكرة جديرة بإبليس نفسه...

ـ أشعلت أشواقي!

ـ نجمع بينهما في دعابة ماكرة...

ـ ٢ ـ

انبهرت عينا دنيا زاد السوداوان... إنّه حفل زفاف سلطانيّ سيكون أحد أعاجيب الترف والأبّهة... القصر يموج بأضواء الشموع والقناديل، يتلألأ بجواهر المدعوّين والمدعوّات، يهزج بأغاني المطربين والمطربات... حتّى السلطان شهريار باركها، أهداها جوهرة الدخلة، قال لها:

ـ مباركة ليلتك يا دنيا زاد...

وانتظرت في المخدع آخر الليل في ثوب محلّى بالذهب والمرجان والزمرّد... ودّعتها أمّها وأختها شهرزاد، فانتظرت وحيدة في المخدع، وشرد ذهنها لا يشغلها إلّا ترقّبها القلق وقلبها الخفّاق... انفتح الباب... دخل نور الدين في أبهى حلّة دمشقيّة وعمامة عراقيّة ومركوب مغربيّ... تقدّم منها كالبدر في تمامه وجلا القناع عن وجهها... ركع على ركبتيه... ضمّ ساقيها إلى صدره... تنهّد قائلًا:

ـ ليلة العمر يا حبيبتي...

ومضى ينزع ملابسها قطعة قطعة في صمت المخدع المليء بالألحان الباطنيّة...

ـ ٣ ـ

فتحت دنيا زاد عينيها وقد نضحت الستارة بالضياء... وجدت نفسها مغموسة في ذكريات النبع المبارك... شفتاها نديّتان بالقُبل، أذناها ثملتان بأعذب الكلمات، خيالها مفعم بحرارة التنهّدات... العناق لم يبرح جسدها ولا الحنان... هٰذه هي الصباحيّة... ولكن...؟ سرعان ما هبّت عليها رياح الوعي الصارمة... أين العريس؟... ما اسمه؟... متى تمّت مقدّمات الزفاف؟... ربّاه... لم تُخطب ولم تُزفّ ولم يجرِ في القصر حفل... إنّها تُنتزع من الحلم كمَن يُساق إلى النطع... أكان حلمًا حقًّا؟... ولكنّ العهد بالأحلام أن تتلاشى لا أن ترسخ وتتجسّد حتّى لتُلمس وتُشمّ... ما زالت ترى العريس رؤية العين وتستشعر مسّه وحنانه... ما زالت الحجرة معبقة بأنفاسه... وثبت إلى الأرض فاكتشفت عريها، اكتشفت حبّها المسفوح... انقضّت عليها رعدة نافذة مرعبة... هتفت في يأس:

ـ إنّه الجنون...

ونظرت في ما حولها بذهول وهتفت مرّة أخرى:

ـ إنّه الهلاك...

ولاح لها الجنون كوحش يطاردها...

ـ ٤ ـ

أمّا صحوة نور الدين فكانت غاضبة ثائرة عندما رأى حجرة نومه البسيطة بمسكنه القائم فوق دكّانه بحيّ العطور... أكان حلمًا؟... لكنّه حلم عجيب له قوّة الحقيقة وثقلها... ها هي العروس بجمالها حقيقة لا يمكن أن تُنسى أو تمحى من القلب... ومتى وكيف تجرّد من ملابسه؟... ما زال يشمّ الشذا الطيّب الذي لا نظير له بين عطوره... ما زال يرى المخدع الفاخر بستائره ودواوينه وسريره العجيب...

ـ ما معنى العبث مع مؤمن صادق مثلي؟

ولم تعذّبه الحقيقة وحدها ولٰكن أيضًا عذّبه الحبّ...

ـ ٥ ـ

قهقهت زرمباحة وسألت سخربوط:

ـ ما رأيك في هٰذا العشق المستحيل؟

ـ مداعبة فريدة حقًّا...

ـ لا عهد للبشر بمثلها...

فقال سخربوط متردّدًا:

ـ ليس دائمًا، إنّهم مولعون بخلق الأوهام...

ـ ولكن كيف؟

ـ ما أكثر الذين يتوهّمون في أنفسهم الذكاء، أو الشّعر، أو الشجاعة...

فقالت مسترسلة في الضحك:

ـ يا لهم من حمقى!

فقال بحقد:

ـ إنّي أعجب لماذا فُضّلوا علينا؟

ـ ٦ ـ

سلّمت دنيا زاد بأنّ سرّها أثقل من أن تحمله وحدها... هرعت إلى جناح شهرزاد عقب ذهاب شهريار إلى مجلس الحكم... وما إن رأتها شهرزاد حتّى قالت بقلق:

ـ ماذا بك يا أختي؟

فجلست على وسادة عند قدمي السلطانة ورفعت إليها عينين مستغيثتين وقالت وهي تنشج في البكاء:

ـ ليته كان مرضًا أو موتًا...

ـ أعوذ بالله، افترقنا أمس وأنت على خير حال...

ـ ثمّ وقع ما لا يقع في دنيا العقلاء...

ـ حدّثيني فقد بدّدتِ طمأنينة نفسي...

فأسدلت عينيها ثمّ قصّت عليها قصّتها التي بدأت بزفاف وهميّ وانتهت بدم حقيقيّ... تابعتها شهرزاد بقلق وريبة ثمّ قالت برجاء:

ـ لا تخفي شيئًا عن أختك...

ـ أحلف لك بربّ الكون أنّي ما أضفت إلى قصّتي حرفًا ولا نقّصت منها...

فتساءلت شهرزاد:

ـ أيكون وغدًا من رجال القصر؟

ـ كلّا... كلّا... ما وقعت عليه عيناي من قبل...

ـ أيّ عقل يقبل قصّتك؟

ـ هذا ما أحدّث به نفسي، إنّها قصّة شبيهة بقصصك العجيبة...

ـ قصصي مستوحاة من عالم آخر يا دنيا زاد...

فقالت متنهّدة:

ـ لقد وقعت أسيرة صدق عالمك الخفيّ ولكنّي لا أريد أن أكون ضحيّته...

فقالت شهرزاد بأسًى:

ـ سأعرف الحقيقة عاجلًا أو آجلًا ولكنّي أخشى أن تدهمنا الفضيحة قبل ذلك!

ـ هو ما يقتلني خوفًا وغمًّا...

ـ إن عرف السلطان حكايتك استيقظت من جديد شكوكه وارتدّ إلى سوء ظنّه بجنسنا، وربّما أرسل بي إلى الجلّاد ورجع إلى سيرته الأولى...

فهتفت دنيا زاد:

ـ معاذ الله أن يصيبك سوء من ورائي...

وتفكّرت شهرزاد مليًّا ثمّ قالت:

ـ فلنحفظ قصّتك سرًّا، ولن يدري به السلطان ولا أبي، سأدبّر ما ينبغي فعله مع أمّي، ولكن يجب أن تعودي إلى دارنا بحجّة الحنين إلى أهلك...

فتمتمت دنيا زاد:

ـ ما أتعس حظّي...

ـ ٧ ـ

دعا نور الدين أمّه كليلة الدمر فجاءت عجوز متحرّكة الشفتين بتلاوة غير مسموعة، يحمل وجهها النحيل آثار جمال قديم... أجلسها إلى جانبه على كنبة خراسانيّة وسألها:

ـ هل زارنا غريب وأنا نائم؟

فقالت بدهشة:

ـ ما طرقنا طارق...

ـ ألم يصدر عن حجرتي صوت؟

ـ أبدًا، إنّي أنام ولا تنام حواسّي، وأخفتُ الأصوات يوقظني، لماذا تطرح أسئلة غريبة؟

فقال بعد تردّد وحياء:

ـ لعلّه حلم، ولكنّه ليس كالأحلام...

ـ ماذا رأيت يا بنيّ؟

ـ رأيتُني في حضرة فتاة جميلة!

فابتسمت كليلة وقالت:

ـ إنّها دعوة من الغيب للزواج!

فقال بحدّة:

ـ كانت حقيقة ملموسة ومشمومة لا أدري كيف أشكّ فيها ولكنّي لا أستطيع تصديقها أيضًا...

فقالت العجوز ببساطة:

ـ لا تشغل بالك وتزوّج...

ـ هل سمعت من قبل عن حقيقة تتلاشى في

حلم؟

ـ ربّنا قادر على كلّ شيء، ستنسى كلّ شيء قبل مرور ساعة...

فتنهّد قائلًا:

ـ نعم...

وكان يعلم أنّه يكذب، وأنّه لن ينسى، وأنّ قلبه يخفق بحبّ حقيقيّ، وأنّ محبوبه كائن متجسّد لا يُنسى ولا يُمحى أثره من الوجدان...

ـ ٨ ـ

فتح نور الدين دكّانه وطالع الناس بوجه جديد... عُرف طيلة عمره اليافع بجماله الصافي وبحضور البديهة في المعاملة ولكنّه بدا ذلك الصباح الربيعيّ شارد اللبّ حائر الطرف... يتساءل الذين يستبشرون بطلعته عمّا غيّره واستأثر بخياله... ويتساءل هو طيلة الوقت عن حلمه العجيب الذي فاق الحقيقة في الوجود والدسامة والأثر... وقد بلغ العشرين دون أن يتزوّج لرغبة قديمة في الزواج من حسنيّة أخت صديقه فاضل صنعان... تردّد قديمًا بين رزقه المحدود وثراء أبيها الواسع، وتردّد بعد ذلك لمعارضة أمّه في الزواج من ابنة رجل خالط العفريت حياتهم... قالت العجوز:

ـ ابعد عن الشرّ فلا ندري عن هذه الأسرار شيئًا...

وأبقى على مودّته لفاضل، تاركًا حسنيّة للزمن، ولكن أين حسنيّة الآن؟. بل أين الدنيا وما فيها؟ لا وجود إلّا لتلك الصورة الباهرة والمخدع الوثير والسرير الذي يفوق في حجمه غرفة نومه كلّها... لقد رأى رؤيا حقيقيّة، ومارس حبًّا حقيقيًّا، وها هو يحبّ حبًّا يتضاءل بالقياس إليه أيّ حبّ حقيقيّ... ها هو يعاني فتور الحياة ووحشتها وكآبتها وحزنها الأبديّ في البعد عنها... أمّا شذاها فيعبق به أنفه وأمّا مناجاتها فتردّد مع أنفاسه... وتذكّر صباه الذي أنفقه في كنف الشيخ البلخي يتعلّم القراءة والكتابة ومبادئ الدين... عندما أخذ من ذلك كفايته وهَمّ بتوديع الشيخ قال له الرجل:

ـ ما أجدرك بالعشق!

فهم أنّه يدعوه إلى الاستمرار معه فقال له:

ـ والدي مريض وعليّ أن أحلّ محلّه في الدكّان...

فقال الشيخ:

ـ ما أقبل في صحبتي عاطلًا...

فقال كالمعتذر:

ـ حسبي العبادة والتقوى...

وما أخلف الظنّ في ذلك وما حاد عن الصراط، وها هو يتذكّر بتلقائيّة قول الشيخ «ما أجدرك بالعشق» ترى هل يجدر به أن يزور الشيخ مستنصحًا؟... ولكنّه خاف، وسلّم بأنّ سرّه جدير بأن يطوى في الصدور... راح يتابع تيّار النساء المحجّبات... هل يمكن أن تكون حبيبته إحداهنّ؟... إنّها موجودة على أيّ حال ما يداخله شكّ في ذلك... موجودة في مكان ما وفي هذا الزمان دون غيره... لعلّ أشواقنا تهيم في جنون مُجِدّة وراء التلاقي... لعلّ الذي صنع معجزة الحلم يُعِدّ بمعجزة أخرى تأويله وتحقيقه... لا يمكن أن يتلاشى حلم كهذا كأن لم يكن... لا يمكن أن تشتعل أشواق بهذه القوّة دون ما سبب أو غاية... لا بدّ أن يصل العاشق... بالعقل أو الجنون لا بدّ أن يصل... ولكن ما أضيع الباحث بلا دليل...

ـ ٩ ـ

سعد الوزير دندان برجوع دنيا زاد إلى داره الرحيبة، أمّا الأمّ فعانت وحدها ـ بعد دنيا زاد ـ معاشرة السرّ الأليم... قالت لابنتها بحزن وغضب:

ـ زلّت قدمك يا دنيا زاد...

فقالت دنيا زاد باكية:

ـ إنّي مسلّمة أمري لربّ العالمين...

ـ لن تكون العاقبة خيرًا...

فكرّرت باستسلام:

ـ إنّي مسلّمة أمري لربّ العالمين...

وعندما لاحت الأمارات كالنذير أقدمت المرأة على إجهاض بنتها مستغفرة ربّها... وقالت بأسًى:

ـ نحن نؤجّل البلاء ولكن ما العمل إذا جاء عريس؟

فهتفت دنيا زاد:

ـ لا رغبة لي في الزواج...

ـ وماذا تقول لأبيك إذا وجده كفئًا؟

فردّدت دنيا زاد:

ـ إنّي مسلّمة أمري لربّ العالمين...

وإذا خلت إلى نفسها تناست الأخطار المحدقة بها فلم تذكر إلّا حبيبها الغائب... عند ذاك تستهين بالموت، ولا تأبه للعار، وتتساءل بوجد وعذاب: أين أنت يا حبيبي؟، كيف وصلت إليّ؟، ما سِرّك؟، ماذا يبعدك عنّي؟، ألم يأسرك جمالي كما أسرني جمالك؟، ألم تلفحك النار المشتعلة في روحي؟، ألا ترقّ لعذابي؟ ألا تفتقد حبّي وأشواقي؟

ـ ١٠ ـ

وعرض من الأحداث عارض، اهتزّت له القلوب... فقد مضى المنادي على بغلة ينادي رعيّة السلطان، مذيعًا نبأ هجوم ملك الروم على أحد الثغور، ونهوض الجيش للجهاد ودفع الغزاة... جاشت الصدور بالقلق، واكتظّت المساجد بالمصلّين، وارتفع الدعاء للسلطان شهريار بالنصر... وفي المساء هرع الناس إلى مقهى الأمراء فامتلأ بروّاده من السادة والعامّة... وجمعت أريكة واحدة بين حسن العطّار بن إبراهيم العطّار وفاضل صنعان ونور الدين... لم يكن للقوم من حديث إلّا الحرب... وسمع الطبيب عبد القادر المهيني وهو يقول:

ـ إنّكم لم تشهدوا غزوًا للعدوّ، ما هو إلّا عاصفة من الهلاك تجتاح المدن وأهلها...

فقال جليل البزّاز:

ـ جيش الله لا يُغلب...

فقال معروف الإسكافيّ:

ـ لله حكمته أيضًا...

فقال رجب الحمّال:

ـ قد تقع سفينة السندباد في الأسْر!

فقال له علاء الدين بن عجر الحلاّق:

ـ لا تفكّر إلّا في ذاتك وصاحبك!

عند ذاك قال عجر الحلاّق:

ـ رأيت حلمًا عجيبًا!

ولكنّ أحدًا لم يسأله عن حلمه لسوء ظنّهم بصدقه ولعلمهم بلهفته على إقحام نفسه في شئون الآخرين...

وارتعد نور الدين لذكر الحلم وقال لصاحبيه حسن وفاضل:

ـ ليس أعجب من الحلم في حياة البشر...

فسمع صوتًا يقول معلّقًا على قوله:

ـ صدق ما قلت يا بنيّ...

فالتفت إلى الأريكة المجاورة فرأى سحلول تاجر المزادات والتحف يرمقه باسمًا فقال له:

ـ إنّك حكيم ومجرّب يا سيّدي...

فقال سحلول:

ـ مَن ملكَ الحلمَ ملكَ الغد!

مال إلى مناقشته بكلّ قلبه ولكنّ فاضل ـ مستذكرًا ما سبق أن ردّده صديقه الغائب عبد الله الحمّال ـ لكزه بكوعه خفية وهمس في أذنه:

ـ دعك منه...

فتساءل نور الدين:

ـ ولكنّه ذو تجربة؟

فهمس فاضل صنعان:

ـ إنّه غامض أيضًا كالحلم...

وسمع الطبيب عبد القادر المهيني وهو يقول:

ـ في تقديري أنّ جيش السلطان سينتصر ولكنّ البومة ستنعق في بيت المال...

ـ ١١ ـ

وجعل نور الدين يتنهّد في أسًى متسائلًا أما لهذا الشوق من نهاية؟... كلّت عيناه من النظر وأرهق القلب... وراح يتجوّل في الطرقات، حينًا في النهار، وحينًا في الليل، منجذبًا بصفة خاصّة إلى مواقع النساء في أسواقهنّ الأثيرة... وأكثر من مرّة يمرّ أمام دار الوزير دندان في الوقت الذي تقف فيه دنيا زاد وراء المشربيّة مستطلعة ولكنّه لا يراها ولا تراه... وتتجلّى له التجربة الفريدة خارقة من الخوارق مستقرّة في عزلة بعيدًا عن مجال الأمل أو تهامسه مرّات كحقيقة مذهلة

ستكشف له النقاب عن وجهها، وقتها تشاء رحمة الله. ومرّة أخرى رأى في آخر الليل شبحًا مقبلًا... تكشّف له عندما ألقى عليه ضوء فانوس معلّق بأعلى باب دار عن وجه قزم... إنّه كرم الأصيل صاحب الملايين فماذا أخرجه من داره الرائعة في مثل هٰذه الساعة من الليل؟، ماذا يؤرّقه وعَمَّ يبحث؟... ترى لو وقع أسير حلم مثله فهل كان يغني عنه ماله في العثور على آسره؟!. وانقبض قلبه لمرآه لغير سبب واضح...

- ١٢ -

كرم الأصيل يحبّ المشي في الليل في الطرقات الخالية... إنّه صديق الأماكن فما يخلو مكان منها من عمارة أو بيت أو وكالة يملكها... وله في داره الرحيبة زوجة وعشرات من الجواري ولكنّه لا يملك القلوب كما يملك البشر والأشياء... بقدرته أن يغيّر المصائر ولكنّه عاجز عن تغيير صورته أو حجمه... لذٰلك كثيرًا ما تبدو له الدنيا كئيبة مثل وجهه... تدفعه المعاملة لغشيان الناس ولكنّه يحبّ الوحدة والليل... لا يحبّ الغناء ويضيق بالسمر ويعشق المال ويعبد القوّة... لم يهنأ بقبوله نديمًا للسلطان، يؤدّي الزكاة ولا يمارس الصدقة، يُعنى بلحيته ويُعجب بها، فهي أجمل ما فيه بثرائها وتماديها، أنجب من البنات عشرين ولم يُنعم عليه بذكر واحد، هو صاحب الملايين، وأغنى رجال الحيّ بل أغنى رجال المدينة...

وهو أيضًا عاشق... ولعلّ ذٰلك ما جعل نور الدين يتابع شبحه بقلب مبهم وتأثّر عميق...

- ١٣ -

ألقي عليه العشق عندما سقط النقاب عن وجه دنيا زاد فوق الهودج في حفل عاشوراء... خفق قلبه الغارق في هموم الأعمال كما يبرق برق في سحاب مكفهرّ... ومال نحو بيومي الأرمل كبير الشرطة، وهو من عبيد جوده:

- مَن الجارية؟

فأجابه باسمًا:

- دنيا زاد أخت السلطانة!

انقبض صدره وأيقن أنّها لا تُشترى بالمال...

هٰكذا يمضي في الليل في رفقة من ذكريات غير سارّة... ولّما لمح نور الدين تجاهله... إنّه يحسده لجماله ويحتجّ غاضبًا على حسده لشخص من البشر... ومرّ بدار سحلول تاجر المزادات والتحف... قال لنفسه «سيمسي ذٰلك الرجل منافسًا لي في الثراء» وكان يعتبره من القلّة النادرة التي تُلزم الآخرين باحترامها فكرهه أكثر ممّا يكره الآخرين... واتّجه نحو داره وهو يقول:

- كرم الاصيل، عبد الله البلخي، منذ يقرأ لنا الغيب؟، كان يجب أن تكون ثروتي من السرور أضعاف أضعاف ما أحرزه!.

- ١٤ -

قال له البوّاب:

- مولاي، حسام الفقي كاتم السرّ ينتظر عودتكم في البهو...

ماذا جاء به في هٰذه الساعة المتأخّرة؟... مضى إليه من فوره... تعانقا... قال كاتم السرّ:

- سيّدي يوسف الطاهر حاكم الحيّ ينتظرك الآن في داره...

- أيّ أمر عاجل وراءك؟

- لا أدري إلاّ أنّه أمر هامّ...

ذهبا مسرعين... وانفرد به يوسف الطاهر وهو يقول مداعبًا:

- على قدر أهل العزم...

فتفحّصه كرم الأصيل باهتمام فواصل الرجل:

- انتصر جيشنا، أنت أوّل رجل تُزَفّ إليه البشرى...

فتمتم في حيرة:

- منّة من ربّ العالمين...

فحدجه الحاكم بنظرة طويلة ثمّ قال:

- بيت المال تكلّف فوق طاقته...

انقبض صدره وأدرك كلّ شيء، فقال يوسف الطاهر:

ـ السلطان في حاجة إلى قرض يسدِّد عقب جمع الخراج...

فتساءل في ما يشبه الدعابة:

ـ وما شأني أنا وذاك؟

فضحك يوسف الطاهر وقال:

ـ اختصَّك السلطان بذلك الشرف...

فتساءل دون ابتهاج:

ـ كم؟

ـ خمسة ملايين من الدنانير!

لا مفرّ ولا اختيار، ولكن التمعت فكرة في رأسه الخبير في المساومة... قال:

ـ فرصة للقرب من السلطان والطموح إلى ثواب الرحمن...

ـ أحسنت...

فقال بهدوء:

ـ ولكنّ ثمّة رجاء لم أكن أدري كيف أفصح عنه...

فصمت يوسف الطاهر باسمًا فقال كرم الأصيل:

ـ يد دنيا زاد، أملي الأخير في شرف القرب...

دهش يوسف الطاهر ولكنّه لم يُبْدِ دهشة... تذكّر كم تمنّى دنيا زاد لنفسه... حتى على محدّثه فوق ما تصوّر... لكنّه قال بهدوء:

ـ سيُرفع الرجاء كما تشاء!

ـ ١٥ ـ

ـ وقع المحذور!

هكذا ردّدت الأمّ وهي في غاية الاضطراب، ودنيا زاد كانت تتوقّعه على أيّ حال... قالت الأمّ:

ـ جاء العريس، حظي برضى السلطان وموافقة أبيك!

ترى من يكون؟!. هل ادّخر القدر معجزة جديدة فيها الشفاء؟. تساءلت عيناها دون أن تتفوّه بكلمة فقالت الأمّ:

ـ إنّه كرم الأصيل صاحب الملايين!

قطّبت دنيا زاد وخطف اليأس دم وجنتيها فقالت الأمّ:

ـ الفضيحة تدقّ الباب كالرعد...

فبكت دنيا زاد قائلة:

ـ إنّي بريئة والله شهيد...

ـ هيهات أن تجدي مصدّقًا لحكايتك!

ـ الله حسبي...

ـ عنده العفو والمغفرة...

ـ أليس لي حقّ القبول أو الرفض؟

فقالت الأمّ مستنكرة:

ـ إنّها رغبة السلطان...

فتأوّهت قائلة:

ـ ليتني أهرب من هذه الدنيا...

ـ تكون فضيحة أكبر وقد لا تسلم أختك من العواقب...

فأفحمت في البكاء حتّى قالت أمّها:

ـ ليت المشكلات تُحلّ بالدموع...

فهتفت دنيا زاد:

ـ لكنّي لا أملك إلّا دموعي!

ـ ١٦ ـ

قال سخربوط لزرمباحة وهو يضحك بسرور:

ـ اللعبة تتمادى في التعقيد وسوف تتمخّض عن عواقب مثيرة...

فقالت زرمباحة مشاركة في سروره:

ـ تسلية نادرة...

ـ ترى هل تنتحر الجميلة أم تُقتل؟

ـ الأجمل أن تُقتل وينتحر أبوها...

ـ هل ثمّة مجال للمزيد من العبث؟

ـ بل ندع الأمور تجري في مجراها ما دامت في غير حاجة لتدخّلنا...

ـ الحقّ أنّي أخاف...

فقاطعته متسائلة:

ـ ممَّ تخاف يا حبيبي؟

ـ أن يتسلّل الخير من حيث لا ندري...

فقالت بازدراء:

ـ لا تكن متشائمًا...

فضحك سخربوط ولم ينبس...

- ١٧ -

انتشر نبأ خطبة كرم الأصيل لدنيا زاد في الحيّ ساحبًا وراءه ذيلًا عريضًا من البهجة والتطلّعات والسخريات... حلم الفقراء بمطرة منهمرة من الصدقات من رجل لم يعرف حتّى حبّ الصدقة... وفرح الأعيان بهذه المصاهرة بين السلطان وحيّهم... وجرت الهمسات منذرة باقتران القرد بالملاك... وناحت دنيا زاد في وحدتها مناجية المجهول «أين أنت يا حبيبي؟»، «متى تجيء لإنقاذي من الدمار؟» وراح نور الدين يتخبّط بين الطرقات وقد أثار نبأ القران أحزانه مناجيًا المجهول أيضًا «أين أنتِ يا حبيبتي؟»... وتابع قمقام وسنجام المناجاة المتبادلة في أسًى عميق حتّى قال سنجام لزميله:

- انظر ماذا يفعل الزمان والمكان!

فقال له قمقام:

- إنّ أنّات البشر من قديم تتدفّق في نهر الحسرات بين الكواكب...

ومرّ تحت الشجرة المعلّم سحلول مهرولًا فقال قمقام بصوت مسموع:

- إنّه ماضٍ إلى مهمّة...

فقال سحلول بحيرة:

- أحيانًا أتلقّى أوامر غير مفهومة!

ومضى في سبيله...

- ١٨ -

انتهى سحلول إلى سور دار المجانين ووقف في الظلماء... همس لنفسه:

- لولا الإيمان لتساءلت عن معنى ذلك...

وسلّط إرادته على الأرض فيما بينه وبين زنزانة جمصة البلطي فانشقّ نفق لا يستطيع البشر شقّه في أقلّ من عام... وفي ثوان كان واقفًا في الظلام فوق رأس جمصة البلطي يسمع شخيره المنتظم... هزّه برفق فاستيقظ متسائلًا:

- مَن؟

فقال له:

- لا أهمّيّة لذلك، جاءك الفرج، هاتِ يدك لأنطلق بك إلى الحرّيّة...

استسلم جمصة له غير مصدّق حتّى غمره هواء الربيع الرطيب... تمتم جمصة:

- يا رحمة الله! مَن أنت أيّها الغريب؟ مَن أرسلك؟.

دفعه سحلول وهو يقول:

- إلى مقامك المنعزل القديم على شاطئ النهر!

- ١٩ -

عندما ذهب الغريب قال جمصة البلطي لنفسه:

- ليس هذا من عمل الإنس، تذكّر ذلك يا جمصة، تذكّر وتفكّر...

عاش بين المجانين حتّى ألف الجنون... أدرك أنّه سرّ مغلق وكَشْف مثير... تمنّى أن يغوص في أعماقه ويجابه تحدّياته... وكلّما أنعشه الهواء جرى قلبه إلى أكرمان ورسميّة وحسنيّة، تمنّى لو يزور الربع ويخالط أنفاس الأحبّة... لكن مَن يكون؟... لقد حلقوا شعر رأسه ولحيته وجلدوه مرّتين... لا وجود اليوم لجمصة ولا لعبد الله... إنّه اليوم بلا هوّيّة ولا اسم، مليء بالأشجان والنزوع إلى التقوى... أوى إلى النخلة عند اللسان من النهر... تذكّر صديق الأحلام عبد الله البحريّ... وجع يقول:

- كائن بلا هوّيّة، غايته فوق الأكوان، ولكن تذكّر وتفكّر، فلم يجئك الفرج بغير ما سبب...!

- ٢٠ -

حُملت دنيا زاد إلى السراي ليُحتفل بزفافها في رحاب السلطان تنفيذًا لرغبته السامية... اجتاحت رياح الرعب المثقلة بالغبار قلب العروس وشقيقتها صاحبة الحكايات... نصحت شهرزاد أختها بادّعاء المرض ورجت السلطان تأجيل الزفاف حتّى تبرأ من مرضها... واستُدعي الطبيب عبد القادر المهيني فتولّى العلاج، وسرعان ما ساورته شكوك... كان فطنًا أريبًا ذا خبرة بالنفوس لا تقلّ عن خبرته بالأجساد

فرجح لديه أنّ العروس راغبة عن القرد، ولكنّه تغابى بلباقة، متعاطفًا مع رغبتها، دافنًا سرّها في بئر مهنته المصون، فقرّر أنّ العلاج سيطول... غير أنّ كرم الأصيل ضاق بالقرار، وساورته شكوك أيضًا فتضرّع إلى مولاه أن يأذن له في عقد الزواج على أنّ يؤجّل الزفاف لحين الشفاء... وافق السلطان وجيء بكبير القضاة فعقد الزواج، وبذلك باتت دنيا زاد زوجة شرعيّة لكرم الأصيل صاحب الملايين... وانتظر قوم بهجة الأفراح على لهفة وتوقّع آخرون سقوط الكارثة...

- ٢١ -

وقادت أقدام نور الدين الحائرة صاحبها ذات مساء إلى النهر فخلا إلى نفسه عند اللسان... في خلوة ناعمة بأنفاس الربيع، مشتعلة بألسنة الأشواق... ترامى إليه صوت مناجاة فأيقن أنّه صوت عابد، فانجذب نحوه ناشدًا راحة وسلوى... عثر على الشيخ تحت النخلة فأشفق من مقاطعته وجلس يستمع... ولمّا انتهى الرجل سأله:

- مَن أنت؟... وماذا جاء بك؟

فأجاب نور الدين:

- إنّي معذّب، وأنت؟ من هذه الناحية يا عمّ؟

- لا تهمّ النواحي مَن جعل قرّة عينه في العبادة، ولكن ما سرّ عذابك؟

- لي حكاية غريبة!

دفعته رغبة قويّة للاعتراف فحكى له حلمه بتفاصيله وما أعقبه من جنون، ثمّ سأله:

- هل تصدّقني؟

فأجاب الرجل:

- المجانين لا يكذبون...

- هل عندك تفسير للسرّ؟

- وراءك ملاك أو شيطان ولكنّه حقيقة!

- وكيف أبرأ من أشواقي؟

فقال بهدوء:

- نحن نكابد أشواقًا لا حصر لها لتقودنا في النهاية إلى الشوق الذي لا شوق بعده، فاعشق الله يُغْنِك عن كلّ شيء...

فقال نور الدين بعد صمت:

- إنّي مؤمن صادق العبادة ولكنّني ما زلت عاشقًا لمخلوقات الله...

- إذن فلا تكفّ عن البحث...

- نال منّي التعب والأرق...

- العاشق لا يتعب...

فقال باهتمام:

- يخيّل إليّ أنّك ذو خبرة...

- عرفت رجلًا لم يُحرم ممّن يحبّ فحسب ولكنّه حُرم من الوجود ذاته!

- بالموت؟

- بل في الحياة!

- إنّه الجنون نفسه...

- والعقل أيضًا...

فقال بعد تردّد:

- إنّك تغمض وتزداد غموضًا...

فتساءل بنبرة باسمة:

- إذن ماذا تقول عن حلمك؟!

- ٢٢ -

ورجع نور الدين إلى المدينة يخوض بحار الظلمات... لم يبلّ العابد غلّته أو بالكاد فعل... حثّه على البحث ولم يَعِدْه بالظفر ولا أنذره باليأس ثمّ وضح أنّه من المبتّلين... لم يخلق نور الدين للزهد في الدنيا ولكنّه خلق لعشق الله في الدنيا... على ذلك فارق الشيخ عبد الله البلخي يوم فارقه... لم يملك في تلك اللحظة إلّا اليقين بأنّ محبوبته كائنة في مكان ما، وأنّها منطبعة بأثر حبّه... بذلك حدّثته نسائم الربيع الهائمة في الليل كما حدّثته ومضات النجوم الهابطة بين القباب والمآذن... وهتف بصوت مرتفع في وحدته:

- خفّف عذابي يا لطيفًا بالعباد...

وإذا بصوت عميق يسأل:

- مَن الشاكي في هذه الساعة من الليل؟

انتبه إلى شبح رجلين يعترضان سبيله فتساءل:

- أمِن رجال الشرطة أنتما؟

فأجاب صاحب الصوت:

ـ نحن تاجران غريبان نتسلّى عن طول ليلنا بالمشي في حيّكم العريق...

ـ أهلا بكما ومرحبًا...

ـ ماذا تشكو أيّها الشابّ؟

وقال زميله:

ـ الناس للناس، ولا تضيع الشكوى بين أهل المروءة...

فقال نور الدين مدفوعًا بكرمه:

ـ أدعوكما إلى داري المتواضعة وهي قريبة...

وضمّتهم حجرة أنيقة، وقدّم لهما زلابية وقدحين من الكركديه... حاما حول شكواه، سألهما عن موطنهما، قالا إنّهما من سمرقند... حاما حول شكواه مرّة أخرى... قال:

ـ يبوح الحائر بسرّه للغريب...

فقال ذو الصوت العميق:

ـ وقد يجد عنده ما لا يخطر على بال...

فقال نور الدين متنهّدًا:

ـ فلتمطرنا السماء مطرة غير متوقّعة...

واندفع يحكي لهما حكاية حلمه العجيب حتّى تلاشى صوته في صمت شامل وهو يرنو إليهما في حياء... ثمّ قال ذو الصوت العميق:

ـ تعارفنا بالقلوب كما يجدر بأهل الكرم ولكن أن لنا أن نتعارف بالأسماء، أمّا أنا فعزّ الدين السمرقندي، وهذا شريكي خير الدين الأنسي...

فقال نور الدين:

ـ نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...

ـ تجارة جميلة مثل وجهك...

ـ هل داخلكما شكّ في عقلي؟

ـ معاذ الله، الله لا يضع جماله إلّا حيث يريد أن يضع رضاه...

ـ هل صدّقتماني؟

فقال عزّ الدين:

ـ أجل أيّها الشابّ، إنّي جوّاب بلدان، وقد سمعت من حكايات الأوّلين ما لا يخطر على قلب بشر، لذلك لا أشكّ في حقيقة حلمك...

فانتعش قلب نور الدين بالآمال وتساءل:

ـ هل يمكن أن أبلغ المراد بالوصول إلى محبوبتي؟

ـ ما أشكّ في ذلك...

فتأوّه متسائلًا:

ـ ولكن كيف ومتى؟

فقال الرجل:

ـ بالصبر والإصرار يتحقّق الوصول...

وسأله خير الدين الأنسي:

ـ أأنت في حاجة إلى مال؟

فقال متنهّدًا:

ـ لا أسأل الله إلّا الوصول...

فقال عزّ الدين:

ـ أبْشِر بفرج الله القريب...

ـ ٢٣ ـ

رأت شهرزاد السلطان منفعلًا كما لم تره من قبل... كانا في الشرفة المطلّة على الحديقة وقد فرغ من صلاة الصبح وراح يتناول إفطارًا من الحليب والتفّاح... عمّا قليل سيرتدي زيّه الرسميّ ويذهب إلى مجلس الحكم ولكنّه يبدو في ساعته كطفل سعد باكتشاف جديد... قال:

ـ ليلة أمس صادفت في تجوالي حكاية كأنّها إحدى حكاياتك يا شهرزاد...

فقالت باسمة رغم كربها الدفين:

ـ تكرار الحكايات آية صدقها يا مولاي...

ـ أجل، أجل... أسرار الوجود شائقة وألذّ من الخمر...

ـ متّعك الله بالوجود وأسراره يا مولاي...

فقال بعد تمهّل:

ـ الحقّ أنّي في حركة دائبة لا تتوقّف ولا يهدأ القلب، يتنازعني بياض النهار وظلام الليل...

فقالت بمرح تغطّي به على فتور روحها:

ـ هكذا الرجل الحيّ...

ـ مهلًا، جاء دوري لأحكي لك حكاية غريبة...

وقدّم لها حلم نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...

وانتبه إلى وجهها قائلًا بدهشة:

ـ ما أشدّ تأثّرك يا شهرزاد!...

فقالت كالمعتذرة:

ـ استيقظت اليوم متوعّكة...

ـ لسعة رطوبة لا تلبث أن تزول وسوف يراك الطبيب، أمّا أنا فأريد أن أكلّف المنادين بالسير بالحكاية لأجمع بين العاشقين...

فقالت بحرارة:

ـ بل التمهّل أولى بنا أن يتعرّض بريئان لألسنة السوء!

ففكّر مليًّا ثمّ تساءل:

ـ ألست قادرًا على حمايتهما؟!

وقالت شهرزاد لنفسها إنّ هٰذا الرجل لم يكن يشغله إلّا ضرب الأعناق، وما زال شيطانه ذا سطوة لا يستهان بها، ولٰكنّه لم يعد يستأثر به...

ـ ٢٤ ـ

وقالت شهرزاد لأمّها المقيمة في السراي بعلّة رعاية دنيا زاد في مرضها:

ـ ثمّة خارقة من الخوارق تطالبنا بمزيد من الحكمة...

فتنهّدت الأمّ قائلة:

ـ لا يصلح قلبي لتلقّي الحوادث الجديدة...

ـ أمّي، لقد تجلّت حقيقة صاحب الحلم!

ففغرت المرأة فاها ثمّ تمتمت:

ـ لا تحدّثيني عن الأحلام...

ـ ما هو إلّا نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...

وقصّت عليها مغامرة السلطان بحروفها... عند ذاك قالت الأمّ بذهول:

ـ ما في وسع مثله أن يتسلّل بليل إلى سراي السلطان...

ـ لو صحّ ارتيابك يا أمّي لهان عليها أن تهرب معه...

ـ ولٰكن ما الفائدة؟ أختك زوجة شرعيّة لكرم الأصيل والكارثة تقترب ساعة بعد أخرى...

ـ وسوف ينادي المنادون بالحكاية ولا يبعد أن تنكشف حقيقتها...

فزفرت الأمّ قائلة:

ـ الخطر يدهمنا...

ـ هي الحقيقة المرعبة...

ـ هل ننتظر كالمطروح فوق النطع؟

فقالت شهرزاد باضطراب:

ـ إنّي خائفة، على دنيا زاد وعلى نفسي أيضًا، لا أمان للسفّاك، إنّ شرّ ما يبتلي به الإنسان أن يتوهّم أنّه إله...

ـ إنّه كالموت، لا مفرّ منه...

ـ يتراءى لي أحيانًا أنّه يتغيّر...

ـ أبوك يقول ذٰلك أيضًا...

ـ لٰكن ماذا يدور بداخله؟... ما زال في نظري لغزًا غامضًا لا أمان له...

فقالت الأمّ بقلق:

ـ قد تعجبه الحكاية وهي بعيدة، أمّا أن تقتحم داره وتتعامل معه فشيء آخر، قد تعاوده وساوسه...

ـ وينقلب شيطانًا كما كان أو أفظع...

ـ وما ذنبك أنت؟

ـ أرى أن نشرك دنيا زاد في همومنا...

ـ إنّي أشفق من ذٰلك كلّ الإشفاق...

ـ إلامَ نهرب من الحقيقة وهي تطوّقنا؟

واستأذنت القهرمانة مرجان في الدخول... قدّمت لشهرزاد رسالة وهي تقول بخوف:

ـ اختفت سيّدتي دنيا زاد تاركة هٰذه الرسالة...

وقرأت شهرزاد الكلمات الآتية:

ـ عفوًا يا مولاي السلطان...

لا قِبل لي بعصيان أمرك بالزواج من كرم الأصيل، ولا طاقة بي للزواج منه، فاخترت أن أقضي على نفسي والله غفور رحيم...

شهقت الأمّ وأغمي عليها...

ـ ٢٥ ـ

راح المنادون يذيعون الحلم العجيب ويدعون العاشقين للتلاقي في رحاب السلطان... في ذات الوقت تلقّى السلطان نبأ انتحار دنيا زاد بالحزن والسخط وأصدر أمره بالعثور على جثّتها في أيّ موضع

من الأرض... وغضب كرم الأصيل غضبًا شديداً دعاه إلى الاعتكاف بعيدًا عن شماتة الشامتين وسخرية الساخرين فلم يكن يغادر داره إلّا عند انتصاف الليل... أمّا يوسف الطاهر - حاكم الحيّ - فقد تلقّى الخبر في دفقة امتزج فيها السرور بالحزن العميق... سُرّ بتحرّر دنيا زاد من قبضة الرجل القرد ولكنّه حزن بعمق على موت الفتاة التي تمنّاها لنفسه والتي من أجلها فكّر جادًّا في تدبير مؤامرة لاغتيال كرم الأصيل...

- ٢٦ -

كان المجنون يتأمّل في ظلمة الليل تحت النخلة عندما انتبه إلى شبح يقترب على ضوء النجوم... سمع صوت أنثى يحيّيه وتقول:

- باسم الله أسألك أن ترشدني إلى سفينة تبعدني عن المدينة...

فسألها برقّة:

- أتهربين من فعْلٍ يُغضب الله؟

فقالت بحرارة:

- ما أغضبت الله في حياتي قطّ...

صوتها ذكّره بأكرمان وحسنيّة فمازج حنان الأرض أشواق السماء في قلبه فقال برقّة مشعشعة بالندى:

- عليك بالانتظار حتّى مطلع الفجر والله يتولّاك برحمته...

- هل أستطيع الانتظار هنا؟

فابتسم ابتسامة لم ترها وقال:

- خلق العراء للهاربينَ! أين تذهبين؟

- أريد أن أبعد عن المدينة...

- ولكنّك وحيدة ولعلّك جميلة!

فلاذت بالصمت فقال:

- لعلّ الله يعينك بيدي إن شئت؟

فقالت بامتنان:

- ما أريد إلّا أن تيسّر لي السفر...

فتساءل بقلق:

- عهد الله أنّك لم تخلّفي وراءك أذًى لإنسان؟

فقالت بصوت متهدّج وقد اطمأنّت إليه:

- إنّي مظلومة، غادرت داري لأقتل نفسي ثمّ خفت أن يلقاني الله غاضبًا...

- لماذا يا ابنتي؟

فنشجت باكية فهتف مخاطبًا السماء:

- إنّكَ أعلم أين تضع رحمتك...

- بريئة ومظلومة...

- ما أحبّ أن أتطفّل على سرّ قلبك...

فاستسلمت قائلة:

- إنّك من العباد الطيّبين وإليك أبوح بسرّي...

وراحت تحكي حكايتها فقاطعها متسائلًا:

- أأنت صاحبة الحلم؟

فهتفت متسائلة:

- كيف عرفت ذلك؟

- عرفته من شريكك في نفس المكان، وسمعته بعد ذلك من المنادين...

- عقلي عاجز عن متابعتك، هل تعرف شريكي في الحلم؟

- المنادون يردّدون اسمه في كلّ مكان، إنّه نور الدين بيّاع الروائح العطريّة...

فقالت وكأنّما تخاطب نفسها:

- المنادون؟! وراءهم السلطان! يا للعجب، نور الدين... نور الدين... لكنّي متزوّجة، بل إنّي ميتة...

وأكملت قصّتها فقال الرجل:

- اذهبي إلى زوجك!

فهتفت بإصرار:

- الموت أهون...

- اذهبي إلى زوجك نور الدين!

فتساءلت بذهول:

- ولكنّني زوجة شرعيّة لكرم الأصيل!

فقال بحزم:

- اذهبي إلى نور الدين ودعي الفجر يطلع!

- ٢٧ -

قال سخربوط محتدًّا:

- ماذا أرى؟!... الأمور تسير نحو حلّ سعيد!

فقالت زرمباحة مدارية مرارة:

ـ انتظر، ما زال الطريق مليئًا بالأشواك...

ولمحا تحت الشجرة سحلول يمضي مهرولًا في الظلام فتساءل سخربوط:

ـ مهمّة طارئة أيّها الملاك؟

وقالت زرمباحة:

ـ لعلّها لنا لا علينا...

مضى سحلول دون أن يعيرهما التفاتة...

ـ ٢٨ ـ

في الصباح الباكر غادر نور الدين داره ليفتح دكّانه... وجد عند الدكّان فتاة محجّبة كأنّما تنتظر... عليها رداء من القزّ الدمشقيّ يفصح عن هويّة سامية... تطلّعت إليه باهتمام ثمّ ندّت عنها آهة عميقة... عجب لشأنها وتلقّى من قلبه نبضات موحية بإلهامات غامضة... ما لبث أن أسفرت عن وجه مضيء ورنت إليه بثبات واستسلام وشغف... مرّ دهر وهما غائبان عن الوجود وغائصان في حلم ينفث السحر والوجد... رقّت نسائم الربيع، خفّ وزنهما، أفعما بشذا الزرقة السماويّة... أنستهما السعادة الهابطة ذكريات العذاب والحيرة فحلّ السلام بالأرض وتلاحمت الأيدي بحركة عفويّة مثل غناء الطير... هتف:

ـ كائن وحيّ، حقيقة لا حلم، هنا في هٰذه الساعة من الزمان...

فهمست بصوت متهدّج:

ـ نعم... أنت نور الدين وأنا دنيا زاد!

ـ أيّ رحمة هدتك إلى مقامي؟

فتدافعت الكلمات من ثغرها تروي المأساة والفرج فقال بنشوة:

ـ كان علينا أن نطمئنّ إلى أنّ المعجزة لا تقع عبثًا...

ـ ولٰكنّ الرعد أقوى من هديل الحمام...

فقال بإصرار:

ـ معًا وإلى الأبد...

ـ كان ذٰلك قدرًا مقدورًا...

ـ لنذهب إلى السلطان...

فانطفأت شعلة وهي تقول:

ـ ولٰكنّني متزوّجة من كرم الأصيل...

فقال بحدّة:

ـ وَعْد السلطان أقوى...

فقالت بأسًى:

ـ والعثرات لها قوّتها أيضًا...

ولٰكنّه كان من السكر في غاية....

ـ ٢٩ ـ

انعقد المجلس السلطانيّ في الضحى وشهده كبار رجال الدولة... مثل أمام العرش نور الدين بيّاع الروائح العطريّة ودنيا زاد أخت السلطانة... قال السلطان متجهّمًا:

ـ دهمتنا العجائب الغامضة وقد علّمتنا الأيّام والليالي بأن نخصّ العجائب باهتمامنا وأن ندقّ باب الغموض حتّى تنفتح مصاريعه عن الضياء، غير أنّ هٰذه العجيبة المتنكّرة في حلم اقتحمت عليّ داري...

صمت السلطان فخفق قلب الوزير دندان، وشحب وجها دنيا زاد ونور الدين... قوى متضاربة تتنازع قلب السلطان ولا شكّ... ما زال المارد القاسي، سحرته الحكايات ولٰكنّها لم تغيّر من جوهره، وإذا به يقول ووجهه يزداد تجهّمًا:

ـ ولٰكنّ وَعْد السلطان حقّ!

فزال الكرب عن قلوب كثيرة وأشرقت وجوه بنور الأمل... وعند ذاك قال المفتي:

ـ ولٰكنّ السيّدة دنيا زاد متزوّجة بحكم الشرع...

فأصدر السلطان أمره إلى دندان قائلًا:

ـ أحضر كرم الأصيل...

فقام يوسف الطاهر حاكم الحيّ العتيق وقال:

ـ مولاي، وُجد كرم الأصيل ميتًا ليلة أمس غير بعيد من داره!

اجتاح الخبر القلوب فزلزلها وسرعان ما تذكّرت مصارع الحكّام والأعيان... وقام بيومي الأرمل كبير شرطة الحيّ فقال:

ـ عثر رجالنا على المجنون الهارب يهيم على وجهه

ليلًا في الحيّ بعد بحث طويل خائب عنه فألقوا القبض عليه...

فسأله السلطان:

ـ هل تتّهمونه بقتل الأصيل؟

ـ إنّه ينسب إلى نفسه كافّة الجرائم في مباهاة وعزّة...

ـ أليس هو الرجل المصرّ على الزعم بأنّه جمصة البلطي؟

ـ هو نفسه وما زال مصرًّا على ذلك...

وهنا قال يوسف الطاهر:

ـ نستأذن مولانا في ضرب عنقه فهو آمن من إرجاعه إلى دار المجانين...

فقال السلطان:

ـ حدّثني وزيري دندان بأنّ النفق الذي هرب منه لا يمكن أن يصنعه بشر!

فقال بيومي الأرمل بتسليم:

ـ هو كذلك يا مولاي...

تردّد السلطان طويلًا حتّى شعر المقرّبون بأنّ الخوف يساوره لأوّل مرّة في حياته، ولّما أدرك دندان ذلك قال بلباقة:

ـ ما هو إلّا مجنون يا مولاي، ولكن به سرّ لا يستهان به فليُترك وشأنه، وما من مملكة إلّا وبها نفر من أمثاله لهم دورهم في العناية الإلهيّة، أرى يا مولاي أن يُترك وشأنه وأن يُبحث عن القاتل بين الشيعة والخوارج...

فقال السلطان شاكرًا في باطنه لوزيره لباقته:

ـ أحسنت النصيحة يا دندان...

ثمّ نظر إلى دنيا زاد ونور الدين وقال:

ـ لكما الوعد فتزوّجا، وسيكون لدنيا زاد جميع مخصّصاتها من بيت المال...

وتجلّل المجلس بالسلامة والسعادة...

مُغامَرات عجر الحلّاق

- ١ -

تبلبلت الخواطر لموت كرم الأصيل ولكنّ عجر الحلّاق شُغل بنفسه عن الدنيا وما فيها، في الظروف العاديّة لا يشغله شيء عن الأحداث، فهو طفوليّ عريق، ينسج من الحبّة قبّة، ويُعتبر في دكّانه راوية قبل أن يكون حلّاقًا، ويستجلب بالأخبار والمبالغات الاهتمام والرضى... غير أنّ ابتسامة أعادت خلقه من جديد، وفجّرت الأماني المكتومة من قديم... وهو قصير نحيل برّاق العينين غامق السمرة لا يخلو في الأصل من وسامة ينطوي على نهم لا يدري به سواه... صاحبة الابتسامة متوسّطة العمر... تكبره بعام أو عامين... لِمَ تبسم إلى حلّاق مثله؟. لعلّها تحبّ الرجال، لعلّها تغري بالأنوثة وبالجود، فما يشكّ أحد في فقر عجر الحلّاق... يا إلهي، إنّه يحبّ النساء، ولولا الفقر ما بقيت فتّوحة زوجته الوحيدة طيلة ذلك العمر... لعلّه يحلم بالنساء كابنه اليافع علاء الدين ويحلم أيضًا بالجاه والطعام والشراب... وقد واظبت على المرور أمام دكّانه أيّامًا متتابعات حتّى تصدّى لها فضربت له موعدًا عند مدرسة السلطان عقب مغيب الشمس... انتظر وهو يقول لنفسه «جاء دورك في الحظّ يا عجر»... لأوّل مرّة يثني على الحظّ ويسجد، لأوّل مرّة يرحّب بهبوط المغيب، لأوّل مرّة يأنس إلى الطريق وهو يقفز... الدكاكين تغلق أبوابها، وهو يمتلئ بالانفعال والانتظار... ولّما خلا الطريق أو كاد ظهر «المجنون» بجلبابه الفضفاض ولحيته المرسلة... على غير انتظار ظهر ليخترق الليل بأسراره... هو المتطوّع دائمًا بأنّه مرتكب الجرائم الكبرى، والزاعم بأنّه جمصة البلطي قاهر الموت، الذي غزا قلب السلطان الحجريّ فأطلق سراحه... وعجر يحبّه كدعابة غامضة ولكنّه لم يرحّب بظهوره في تلك الساعة الفاصلة... وحدث ما أشفق منه فاقترب منه المجنون حتّى وقف بإزائه وقال له بصوته المليء:

ـ اذهب إلى بيتك فلا يخرج في الليل إلّا ذو هدف...

فضحك عجر مغالبًا توتّره وقال له:

ـ شعر رأسك ينمو مثل شجرة بلح ولحيتك تمتدّ طولًا وعرضًا كالستارة، هلّا زرتني في دكّاني لأهذّبك؟

فنهره قائلًا:

ـ عقلك فاسد فلا تطاوعه...

ـ يا لك من مجنون ظريف...

فمضى عنه وهو يقول:

ـ جاهل من ذرّيّة جهلاء!

لم يبقَ وحده أكثر من دقيقة ثمّ أقبلت المرأة...

ـ ٢ ـ

تجربة مشتعلة، يُستهان فيها بالمجهول، بعد عشرين عامًا من حياة زوجيّة يوميّة... قادته في الظلام المخفّف بفوانيس الأبواب إلى دار شبه معزولة ببستان خارج السور... آمنَ بأنّ التي تقوده من أهل الجاه والثراء والفجور فسعد بذلك درجة بعد درجة... غاصا في مكان مظلم وشَتْ به روائحه الزكيّة فأدرك أنّه حديقة، ثمّ وجد نفسه في بهو مُضاء بقناديل في الأركان، يتصدّره سرير وثير يتوسّطه مجلس من الوسائد حوله مائدة حفلت بالطعام والشراب... غابت المرأة ثمّ رجعت سافرة في جلباب حرير... مكتنزة، حسنة القسمات، أكبر ممّا حسب، ولكنّها تسيل دلالًا وخلاعة... جرى بصره على المرأة والطعام والشراب وقال لنفسه «انظر كيف تتحقّق الأحلام»... قال وهو يتحفّز:

ـ ليلتنا ليس في الليالي مثلها...

ملأت كأسين وهي تقول ضاحكة:

ـ لا ينكر النعمة إلّا جاحد...

وصفّقت فجاءت جارية في العشرين، حاملة عودًا، تشبه المرأة فكأنّها أختها وتتفوّق بالشباب، وقالت المرأة:

ـ أسمعينا، لا يتمّ السرور إلّا بالكمال...

لعب الشراب بالعقول كما لعب الوتر بالقلوب... وبقحّة عجر المعهودة أقبل على الشراب والطعام والمرأة... وتساءل مرّات متى يتمّ التعارف؟. ولكن ما أهمّيّة ذلك؟. ليحذر التسرّع وليلعب دوره كما يجدر به... إنّه لا يشكّ في أنّه بحضرة فاجرة... لكنّها فاجرة تجود وتهب ولا تستغلّ... إنّه حلم لا يضيره إلّا أنّه لا يصدَّق...

ـ ٣ ـ

وخصّته بيوم الاثنين من كلّ أسبوع... طمع في المزيد ولكنّها تجاهلته... نصح نفسه بالقناعة... تحامت أن تشير إلى هوّيّتها فأيقن أنّها من علية القوم... لماذا لم تستقرّ في سراي مع كبير من الأكابر؟ لعلّه الفجور أو البطر فأنعِمْ بأيّهما... والجارية الشابّة شقيقتها بلا جدال... غائصة ولا شكّ في الفساد... وهي مذعنة ومطيعة للمرأة كأنّها تابعة... وهي فتنة، وهما يتبادلان استراق النظر... سيقع حتمًا في شِباك الصغرى كما وقع في الكبرى وكلّ آت قريب... إنّه مجلس معبق بالشهوة والخيانة ولكنّه يعمل للمرأة ألف حساب... وأحبّ الطعام والشراب مثلما أحبّ المرأة... وبمرور الأيّام أحبّ الطعام والشراب أكثر... يهجم على المائدة بوحشيّة وبلا حياء حتّى بات فرجة مسلّية للمرأتين... حرص على ألّا يفضحه هواه بالجارية الشابّة، وشجّعته هي مستخفية وراء المزيد من الحذر... شعر في مقهى الأمراء بأنّه أعلى مرتبة من الوجهاء وأنّه أسعد من يوسف الطاهر وأنّه شهريار آخر...

ـ ٤ ـ

وذهب ليلة فلم يجد إلّا الجارية الشابّة... البهو هو البهو ولكنّ المائدة خالية... وتساءلت عيناه في حيرة دون أن ينبس فقالت الجارية:

ـ إنّها مريضة وقد كلّفتني بالاعتذار...

خفق قلبه وبرقت عيناه وابتسم فقالت:

ـ ينبغي أن أرجع مسرعة...

فقال بلهفة:

ـ إنّها شديدة الثقة!

وتقدّم خطوتين فاحتواها بين ذراعيه فقالت دون أن تبدي مقاومة تُذكر:

- مَن يدري؟

- ولٰكنّ الفرصة لن تفلت من يدنا...

- يا لها من مغامرة...

- إنّك حرّة مثلها... لا شكّ أنّك شقيقتها...

تخلّصت منه بعذوبة وجاءت بالطعام والشراب... أقبلا على الشراب بإفراط ليبدّدا مناخ التوتّر والفكر... وتذاوبا في رغبة متأجّجة... واعتليا قمّة التحدّي فغابا عن الوجود... واستيقظ مبكّرًا... قام يترنّح برأس ثقيل... أزاح الستار فتدفّق ضوء المصباح... حانت منه التفاتة إلى ذكريات الليلة الماضية ففرّت من فيه آهة وجحظت عيناه... رأى الجارية الجميلة مذبوحة!... صفّى دمها تمامًا، واستقرّ بها الموت... متى... مَن... كيف... هل يهرب؟. ما أثقل رأسه!. كأنّما شرب في الخمر بنْجًا... التهمة معلّقة فوق رأسه... فكّر سريعًا... وبلا منطق... الحديقة... دفْن الجثّة... إزالة آثار الدماء... هل في الدار مَن يراقبه؟. عليه أن يعمل وأن يسلّم نفسه للمقادر... لا وقت للتفكير... تقوّض البناء كلّه... ما كان كان... لازمه شبح المرأة الأخرى طيلة الوقت...

وعندما ألقى على المكان نظرة أخيرة رأى عقدًا ذا فصّ من الماس ملقًى أسفل السرير فتناوله وهو لا يدري ماذا يفعل، ودسّه في جيبه... تسلّل إلى الخارج وهو يقول:

- ستكون معجزة إذا نجوت...

- ٥ -

مضى عجر يتخبّط في زنزانة كربه المقيم... الجريمة تحاصره وتبسط قبضتها المتشنّجة لتخنق عنقه... أعاهدك يا ربّي على التوبة إذا أنقذتني... رآه ابنه علاء الدين فسرّ بعودته على حين كشّرت فتّوحة زوجته عن أنيابها، قال دون مبالاة:

- غلبني النعاس في غرزة...

لعنته... الحياة بينهما تجري مكتظّة بالنقار والمودّة... فتح دكّانه متأخّرًا عن ميعاده... استقبل الرءوس واللحى بعقل شارد يهيم في وديان الرعب... كان ثمّة شخص ثالث هو القاتل بلا ريب... لكن لماذا قتل الشابّة الجميلة؟. الغيرة؟. غيرة رجل مجهول أم غيرة امرأة؟. دائمًا تطارده صورة الأخت الكبرى... قويّة وفاجرة وقادرة على الكبائر... هل تُكتشف الجثّة؟. هل علم أحد بتسلّله الليليّ؟. هل يُساق ذات يوم إلى السيّاف ليضرب عنقه؟. أعاهدك يا ربّي على التوبة إذا أنقذتني... وفكّر لحظات في الهرب... العقد المستقرّ فوق بطنه يعدّ ثروة ولٰكنّ عَرْضه للبيع قد يوقعه في شرّ أعماله... كلّا... إنّه لم يقتل ولن يهرب والعناية الإلٰهيّة لا تنام... أجل إنّ العناية الإلٰهيّة لا تنام ولٰكن مَن هذا؟. نظر بصدر منقبض إلى «المجنون» وهو يدخل الدكّان فيقتعد الأرض في بساطة وهو يأكل مشمشة... وكان يشذّب لحية الطبيب عبد القادر المهيني فقال للمجنون:

- ماذا جاء بك في النهار على غير عادة؟

فقال المجنون ببساطة:

- نهارك ليل يا عجر...

- أعوذ بالله من شرّ الكلام...

وضحك الطبيب قائلًا:

- لا تخدعني يا رجل فالجنون منتهى العقل...

فقال المجنون:

- إنّي شرطيّ قديم...

- ما زلت مصرًّا على أنّك جمصة البلطي؟

- والشرطيّ إذا توجّه لله لم يتخلّ عن مهنته القديمة!

فقال عجر بضيق:

- ارحمني من جنونك فلست رائق البال...

فقال المجنون بهدوء:

- لا يدعوني إلّا أمثالك يا جاهل...

فضحك الطبيب عاليًا وقال:

- إنّه يُدعى عادة إذا عجز عِلْمنا عن الخدمة...

ونهض المجنون فمضى وهو يقول:

- الله ملجأ الحيّ والميت، والميت الحيّ...

ولّما غيّبه الباب قال عجر للطبيب:

- قلبي يحدّثني الآن بأنّ هذا المجنون قاتل خطير...

فتمتم عبد القادر المهيني:

- ما أكثر القتلة يا عجر...

شعر عجر بأنّ المجنون مطّلع على سرّه... ترى أهو الذي ذبح الجميلة؟!. متى تنكشف الغمّة يا ربّ السماوات والأرض؟!

- ٦ -

وليلة الإثنين جاءت... موعد جلّنار المنذر بالاحتمالات المبهمة... إذا ذهب فإلى الجحيم يذهب... وإذا لم يذهب قدّم الدليل على جريمة لم يرتكبها... مضى إلى دار الجريمة والفزع... سلّم نفسه إلى المقادر مقشعرّ البدن... أخفى الحديقة من الوجود بغضّ البصر... أمّا العنق المنزوع من الجسد الجميل فقد لازمه خطوة خطوة... رأى جلّنار والمائدة فتلقّى أوّل نسمة في جوّ الصيف المشبع بالرطوبة... عليه أن يكبح اضطرابه أن يفضحه... عليه أن يمارس الحبّ فوق فراش الدم... الجثّة تملأ المكان وتغطّي على المرأة النهمة... ما أعذب الهرب!. أقبل على الشراب بيأس... المرأة هادئة باسمة... أيسأل عن زهريار أم ينتظر؟. أيّهما يشي بالريبة أكثر؟. لكنّ جلّنار بادرته متسائلة:

- أين زهريار؟

فتساءل بدوره:

- ألم تحضر معك؟

فحدجته بحيرة وهي تشاربه ثمّ قالت:

- أرسلتها إليك حاملة اعتذاري...

فقال بقلق خافق جافّ:

- تبادلنا كلمتين ثمّ افترقنا...

- اختفت كأنّما تبخّرت، يئس المجدّون في البحث عنها، البيت مشتعل نارًا.

فضرب كفًّا بكفّ وتمتم:

- حدث عجيب حقًّا، هل ثمّة ما يدعوها إلى الاختفاء؟

- لا أدري عن ذلك شيئًا ولا أتصوّره!... البيت مشتعل نارًا...

- أيّ بيت يا جلّنار؟

- بيتنا يا عجر، أحسبتنا بلا أهل؟

- وهذه الدار ما شأنها؟

- ما هي إلّا استراحة لنا أوقفناها على الطرب!

فتردّد قليلًا ثمّ تساءل ورأسه مثقل بلا نشوة:

- مَن أهلك يا جلّنار؟

فقالت باسمة:

- ناس من الخلق، ماذا يهمّك منهم؟

فغاص في الهمّ أكثر وتساءل بحزن:

- ترى أين أنت يا زهريار؟!

- أحزنك الخبر ولا شكّ؟

فانقبض صدره وقال بحذر:

- ما أنا إلّا إنسان يا جلّنار...

فداعبت لحيته قائلة:

- وإنسان طيّب يا عجر...

وانتشت بالخمر فاقتربت منه... أطبقت الكآبة متجسّدة... ران الإحباط على الطعام والشراب وجفّت ينابيع الرغبة... جفل من المرأة بقدر ما توجّس منها خيفة... إنّه كابوس ثقيل طويل ويجب أن يتلاشى...

- ٧ -

في الموعد التالي ذهب وكأنّما يذهب إلى النطع ولكن لم يستجب لطرقاته على الباب أحد، ولم يُفتح له بعد ذلك فتلقّى أوّل شعور بالراحة منذ اكتشاف الجريمة... لعلّ أهلها فطنوا أخيرًا إلى سلوكها السرّيّ، لعلّها نفرت منه، لعلّها لحقت بأختها، ليكن من أمرها ما يكون فقد انتهى قدر لا يستهان به من عذابه... لن يقترب مرّة أخرى من مقام الجريمة، وسوف يقاوم لون الدم الذي يطارده، ولن يألو أن يذكّر نفسه بأنّه لم يرتكب طيلة حياته جريمة قتل... هيهات... ولا قتل دجاجة ممّا يستطيعه... وابتعدت ذكريات الطعام والشراب والغرام فقال لنفسه المنهزمة لعلّها لم تكن حقيقة قطّ... وكلّ يوم يمرّ يجود بهبة من

الطمأنينة... الخوف حقّ على المجرمين لا الأبرياء... وهو بريء ما في ذلك شكّ... وكلّما رسخت الطمأنينة دبّت الحياة في الرغبة المكبوتة... رجع يتذكّر ليالي الغرام والطعام ويتنهّد... ويتذكّر العقد الثمين فوق بطنه المحروم من عرضه للبيع ويتأسّف... إنّه يحمل ثروة معطّلة، وله تجربة مع السعادة لا تُنسى، ويتفجّر في أعماقه النهم وأشواق اللذّة... وتساءل في حيرة:

- أليست التوبة أجدر بي؟

ولكنّ ليالي جلّنار أشعلت في وجدانه جنون النساء... جالت عيناه متلصّصة بين الحِسان، تنطلق من نار وترتدّ بنار أشدّ... في إحدى جولاتها وقعت على حسنيّة بنت صنعان شقيقة فاضل فشجّعه فقرها وسمعة أبيها المتوفّى على الطمع فيها... وانتهز فرصة مجيء فاضل إلى دكّانه ليشذّب لحيته وشاربه فغالى في الترحيب به وسأله ببساطة عجيبة:

- يا سيد فاضل صنعان، هناك مَن يطلب شرف القرب منك...

فتساءل فاضل بعقل خالٍ:

- مَن يا عجر؟

فقال بالبساطة نفسها:

- العبد لله!

صُدم فاضل وكتم انفعاله... قال لنفسه لعلّ عجر أيسر في الرزق منّي، ولكنّه عجر وأنا فاضل، وحسنيّة لا تقلّ في التهذيب عن شهرزاد نفسها... تساءل ليكسب مهلة للتفكير:

- أختي؟

- نعم...

فقال كالمعتذر:

- يبدو أنّ أحدهم سبقك يا عجر!

لاذ عجر بالصمت دون أن يصدّقه... لو سبقه سابق لعلم به وهل يخفى عليه شيء ممّا يجري في الحيّ كلّه؟. وغضب عجر... كيف لا يعتبر فاضل طلبه منّة وهو يطلب القرب من بيت حلّت به لعنة الشيطان؟!

- ٨ -

ازداد رغبة في الحبّ، ولم يكفّ عن التلهّف على الجاه... خاض في أجساد العذارى كالمراهقين رغم أنّ ابنه علاء الدين لم يتزوّج بعد... وتقلّب بين الوسائد في دور سحريّة على مثال الدور التي يدخلها أحيانًا لخدمة أصحابها... وكما وقع في حبّ حسنيّة تعلّق قلبه بقمر أخت حسن العطّار... حبّ أقوى من الأوّل... وزاده قوّة أنّه حبّ ميئوس منه... حبّ مقضيّ عليه بالكتمان والأسى والعذاب... ذهب يومًا إلى دار العطّار ليشذّب لحية المعلّم حسن فلمح البنت الجميلة ففقد راحة البال إلى الأبد... لكنّه لم يفقد الحلم... إنّه يهيم بالدور العظيمة كدور العطّار وجليل البزّاز ونور الدين... ونور الدين ما أسعده من شابّ!... من بيّاع عطور بسيط لا يرتفع درجة عن عجر، ولعلّه دون ابنه علاء الدين في الجمال والكمال، إلى عين من الأعيان، قريب وعديل للسلطان، وزوج لدنيا زاد أخت شهرزاد أليس الله بقادر على كلّ شيء؟...

- ٩ -

في قهوة الأمراء جلس كعادته كلّ ليلة... عقب نهار صيف حارّ جاد الليل بنسمة طيّبة... وجد نفسه أقرب ما يكون من أريكة المعلّم سحلول تاجر المزادات، وأنهى الراوي فصلًا من سيرة عنترة فسكتت الرباب ونطق السمر... قال عجر للمعلّم سحلول وهو من زبائنه:

- لم تشرّفنا من زمن!

فقال الرجل باسمًا:

- سأزورك على غير انتظار ذات يوم!.

وجاء حسن العطّار وجليل البزّاز وبصحبتهما فاضل صنعان فاطمأنّوا إلى مجلسهم... حيّاهم عجر مغاليًا في التودّد والتقرّب فردّوا تحيّتهم بتحفّظ... إنّه يلقي نفسه إلقاء على السادة ولكنّه يُردّ دون تشجيع حذرًا من تطفّله... إنّه اليوم أعلى من فاضل ولكنّهم يحفظون العهد القديم... حلمه الدائم أن يُقبل

ليقدّم خدماته نظير الاستمتاع بموائدهم... يفلح مرّة ويخفق عشرات المرّات فيتأجّج نهمه... اليوم فاضل غريمه بعد أن رفض يده أمّا حسن فيحوز النعمة التي لا أمل فيها... سدّد نحو مجلسهم أذنه على حين تظاهر بالاسترخاء والنعاس... إنّهم يتحدّثون عن سهرة جميلة احتفالًا بقدوم سفينة البزّاز محمّلة من الهند... سيكون طعام ولا طعام جلّنار وسيجري الشراب... سيملأ بيّاع الحلوى بطنه كالأيّام الخالية...

- الجوّ حارّ، نريد مكانًا خارج الدور!

الصعلوك يعلن رغباته كأنّه من السادة... ويجيبه جليل:

- اللسان الأخضر، إنّه جزيرة خضراء!

فقال حسن العطّار:

- ودعوت شملول الأحدب!

فقال جليل:

- ما أجمل أن يهرّج لنا مهرّج السلطان!...

حتّى المهرّج!... أمّا أنت يا عجر فما إن يبتسم الحظّ لك حتّى يجتاحه الدم البشريّ... ونظر نحو المعلّم سحلول وقال بأسف:

- إنّك طراز وحدك في زهدك في اللهو يا معلّم سحلول...

فقال المعلّم بهدوء:

- هٰذا حقّ...

- إنّك رجل كريم متواضع وما كنت تأبى أن أكون نديمك...

فابتسم ولم يجب... وتفكّر قليلًا كيف يحرّضه على اللهو... ونظر نحوه مرّة أخرى فوجد مكانه خاليًا... أجال بصره في المقهى فلم يعثر له على أثر... هٰكذا يختفي فجأة في غمضة عين فيا أغربه!. ولٰكنّ عجر صمّم على أن يشترك في سهرة اللسان الأخضر مهما كلّفه الأمر... ولو تُوّجت المغامرة بطرده!

- ١٠ -

اللسان الأخضر الممتدّ في عرض النهر مثل جزيرة نحيلة ولا ضوء إلّا ضوء النجوم الخافت... وغير بعيد ينطلق شبح النخلة يقوم أسفلها مثوى المجنون... كان عليهم أن يمدّوا بساطًا، ويهيّئوا سماطًا، ويُشعلوا نارًا للشواء... غير أنّ شبحًا أقحم نفسه بينهم متطوّعًا للخدمة وهو يقول:

- خدّام السيادة!

لم يحظ الصوت بارتياح أو تشجيع وصاح جليل البزّاز:

- عجر!... يا لك من طفيليّ ثقيل!.

فقال بثبات ويداه لا تكفّان عن العمل:

- طفيليّ أي نعم ولٰكن لست ثقيلًا، وكيف يطيب مجلس كهٰذا بلا خادم...

فقال حسن محذّرًا:

- على شرط أن تلزق فاك بالغراء!

- لن أفتحه إلّا بعد إلحاح...

وارتفع صوت شملول الأحدب رفيعًا كصوت طفل وهو يقول له:

- كيف تدسّ نفسك يا صعلوك بين الأكابر؟

فحنق عليه ولٰكنّه انهمك في عمله مجهّزًا القوارير والكئوس وراح يشعل النار... اندفعوا في الشراب... تناول شملول عودًا يماثله في الحجم ومضى يدندن بصوته المثير للضحك، وكان رغم ضآلته يجيش صدره بعظمة كونيّة... وعقب أوّل كأس تستقرّ في جوف عجر نسي عهده فتساءل:

- هل سمعتم بآخر نادرة من نوادر حسام الفقي كاتم سرّ الحاكم يوسف الطاهر؟

فصاح به حسن العطّار:

- لا نحبّ أن نسمع فأغلق فاك!...

وتمادوا في الشراب على حين ترامى صوت غير مرئيّ المصدر يناجي «الواحد» فاتّجهت الرءوس نحو شبح النخلة... وقال فاضل:

- إنّه المجنون...

فتساءل جليل:

- ألم يجد مثوًى غير ذٰلك ليفسد على اللسان الأخضر روّاده؟

فقال حسن العطّار مخاطبًا فاضل:

- إنّه يزعم أنّه حوك جمصة البلطي...

- هكذا زعم ولكنّ رأس جمصة المعلّق يقول غير ذلك...

فقال شملول الأحدب:

- كلّ شيء جائز في هذه المدينة المجنونة!

عند ذاك قال عجر الحلّاق:

- إن أردتم الحقّ...

ولكنّ جليل قاطعه:

- لا نريد الحقّ ولا نحبّه...

فصاح شملول:

- لا تذكّرونا بالموت، بذلك أمر السلطان...

فسأل جليل:

- كيف تسامر السلطان يا شملول؟

فقال شملول بعجرفة:

- لست ممّن يفشون الأسرار يا أحقر الخلق!

ضحك الجميع إلّا حسن العطّار فقد انفجرت نشوته غضبًا فصاح به:

- أيّتها الحشرة...

وغضب الأحدب فرمى بالعود ووثب قائمًا... وما يدرون إلّا وهو يبول على السماط بطعامه وشرابه!. وجموا موقنين بأنّ سهرتهم هدمت وتقوّضت... اشتعل السكر بالغضب ورموا الأحدب بجمرات الحقد... انقضّ عليه فاضل دافعًا إيّاه على ظهره ثمّ رفعه من قدميه الصغيرتين ومشى به إلى حافة اللسان الأخضر ثمّ غطّسه في مياه النهر ثواني طويلة... رفعه مرّة أخرى من الماء تاركًا إيّاه يسقط على الأرض المعشوشبة وهو يرقد من الرعب... وقام مترنّحًا فتناول المجمرة ورماهم بها فتطايرت الجمرات المتّقدة تلسع هذا وذاك... بلغ منهم الحنق مداه فاجتاحوه سكارى غاضبين وانهالوا عليه لكمًا وركلًا حتّى تهاوى فاقد الوعي... تابعهم عجر جامدًا ذاهلًا... تمتم:

- كفاكم يا سادة، إنّه مهرّج السلطان...

وانحنى فوقه في الظلام في صمت... رفع رأسه وهمس:

- يا سادة، لقد قتلتم الأحدب!

تساءل جليل:

- واثق ممّا تقول؟

- انظر بنفسك يا معلّم...

شُحن الصمت بالرعب... شمت بهم عجر...

قال متمادیًا:

- جريمة من لا شيء تطرق باب السلطان!

صاح حسن العطّار:

- إنّه الجنون...

- أيّ حظّ أسود...

- أنضيع بلا سبب ولا ثمن!

وكان رأس عجر يطلق خيالات خارقة في جميع الجهات ويثب من حلم إلى حلم... أخيرًا قال بهدوء وهو يشعر بالسيادة لأوّل مرّة:

- خذوا حوائجكم واذهبوا...

فقال جليل:

- كيف نذهب تاركين وراءنا هذه الجريمة؟!

فقال عجر بنبرة آمرة:

- اذهبوا... سوف تختفي الجثّة ولن يعثر عليها الجنّ نفسه.

- أواثق أنت من نفسك؟

- كلّ الثقة وما توفيقي إلّا بالله!

قال جليل بصوت متهدّج:

- انتظر مكافأة لم يسمع بمثلها أحد...

فقال ببرود:

- إنّه أقلّ ما أنتظر!

- ولكن لعلّ كثيرين في المقهى قد سمعوا بدعوتنا له إلى سهرتنا؟

- أجل حصل، ولكنّني لحقت بكم بلا دعوة، وأستطيع أن أشهد بأنّه لم يلبث معنا إلّا ساعة ثمّ مضى وحده معتذرًا بتوعّكه، افهموا وتذكّروا...

- ١١ -

مع جثّة الأحدب وحده... تذكّر زهريار والدم فارتعدت مفاصله... لكن لا وقت للأفكار المثبطة... ليبعد عن الأرض المزروعة... ليبحث عن حفرة في الصحراء... عن مكان أمين لحفظ الجثّة حتّى يحقّق رغائبه... لقد أهدرت جثّة حظّه السعيد

وهاك جثّة تَعِدُه باسترداد ما فقد... السرعة والستر مطلبه... وترامى إليه صوت هتك الصمت:

- أيّها السائر في الظلام تَخَفَّف...

ارتعد كما لم يرتعد من قبل... المجنون... دائمًا يخترق وحدته... ما عليه إلّا أن يلفّ الجثّة الصغيرة بطرف عباءته... مدّ يده ثمّ سحبها بعنف كالملدوغ... ثمّة حركة أم لعلّها نبضة... ثمّة نَفَس كالأنين... ربّاه الأحدب لم يمت... وترامى الصوت كرّة أخرى:

- ... تخفّف...!

اللعنة... ما زال يطارده... قاتل زهريار الجميلة... لِمَ قتلها؟. لِمَ لَمْ يقتل جلّنار؟ حمل شملول على كتفه اليسرى وغطّاه بجناح عباءته الأيمن... همس له:

- اطمئنّ يا شملول... صديقك عجر... سأمضي بك إلى الأمان...

هل تضيع المكافأة؟. هل تتلاشى الرغائب؟. آه لو به قدرة على القتل!. ولكن...! أجل خطرت له فكرة... أن يخفيه في داره حتّى ينال ما يشتهي... استولت عليه الفكرة ولم يكن ممّن يقلّبون الأفكار على شتّى وجوهها...

- ١٢ -

نظرت فتّوحة إلى الأحدب الضئيل بلا حراك بذهول فقال لها عجر:

- اسمعي وأطيعي...

فقالت ساخرة:

- إنّه لا يصلح للطعام...

فقال بحرارة:

- سنعدّ له مكانًا مريحًا في العلّيّة، ليبقَ أيّامًا معدودة حتّى يستردّ صحّته...

- ولماذا لا تذهب به إلى أهله؟

- إنّه نجمة الحظّ التي ستجلب لنا السعادة وتنقلنا من حال إلى حال، قدّمي له ما يحتاجه وأحكمي إغلاق باب العلّيّة، لن يطول ذلك، وسأخبرك بجميع ما ينبغي لك معرفته...

- ١٣ -

لم يكد ينم من ليلته ساعة... وتوثّب للعمل منذ الصباح الباكر... إنّه يوم فاصل في الحياة كلّها ويجب أن تحدث فيه جميع المعجزات بلا تأجيل... ليكن جريئًا مقتحمًا وبلا حياء وهو لم يكن ذا حياء قطّ... ما هي إلّا فرصة واحدة وهيهات أن تتكرّر وكلّ شيء بمشيئة الله... وقرّر أن يبدأ بأغلى صيد فقصد دار حسن العطّار قبل موعد ذهابه إلى دكّانه... جاءه الشابّ في المنظرة الوثيرة وهو يتساءل بلهفة:

- ماذا وراءك يا عجر؟

فأجاب بنبرة مليئة بالثقة:

- كلّ خير يا معلّم، لك الأمان حتّى آخر العمر...

فشدّ على ذراعه وقال:

- موفّق بإذن الله، هل قابلت المعلّم جليل؟

- كلّا بعد... أردت أن أبدأ بالرأس...

- إليك ألف دينار حلالًا لك...

فقال بهدوء:

- بل عشرة آلاف يا معلّم...

قطّب حسن مذهولًا وتساءل:

- ماذا قلت؟

- عشرة آلاف دينار!

- لكنّها ثروة ينوء بها أكرم الأغنياء...

فقال بالهدوء نفسه:

- هي قطرة من بحرك، وحياتك لا تقدّر بمال قارون نفسه...

- اقتنع بخمسة آلاف وسوف يُتِمّها جليل البزّاز عشرًا!

- لن أفرّط في درهم منها...

لاذ حسن بالصمت مليًّا ثمّ قام متثاقلًا فغاب قليلًا ثمّ رجع بالآلاف المطلوبة وهو يتمتم:

- لا رحمة لك...

فاقبل يدسّها في جيبه وهو يقول محتجًّا:

- سامحك الله، ألم أنقذ أعناقكم من سيف شبيب رامة؟!

- لكنّ طمعك أفتك من سيفه...

فتجاهل تعليقه قائلًا:

- بفضل الله سيصير عجر من الأعيان ويستثمر أمواله مع الأفذاذ من أمثال المعلّم سحلول... بذلك يصير أهلًا لتحقيق أحلامه الحقيقيّة...

فتساءل بسخرية خفيّة ينفّس بها عن حقده:

- وما أحلامك الحقيقيّة؟

فقال بهدوء وجرأة مذهلة:

- أن أطلب شرف القرب منكم في يد أختكم المصونة...

انتتر قائمًا وهو يهتف:

- ماذا؟!

فقال ببرود:

- لا تُشعرني باحتقارك، لا حقّ لك في ذلك، كلّنا من صلب آدم، ولم يفرّق بيننا فيما مضى إلّا المال، ولا فرق اليوم بيننا...

فكظم حسن غيظه دفعًا لسوء العاقبة، وقال متملّصًا من حرجه:

- ولكن لا بدّ من موافقتها كما تعلم...

فقال وهو يرمقه بنظرة ذات معنى:

- ستوافق من أجل إنقاذ رأس أخيها المحبوب...

فقال وهو يتنهّد بعمق:

- طلبك يخلو من الشهامة...

فقال بيقين:

- الحبّ لا يؤمن إلّا بالحبّ...

ساد صمت فغاصا معًا في حرّ اليوم المتصاعد حتّى قال حسن:

- فلنؤجّل ذلك إلى حين...

فقال بقوّة:

- موعدنا العصر...

- العصر!

- عصر اليوم للعقد ولنؤجّل الزفاف...

قام منحنيًا له تحيّة وذهب وهو يشعر بجمرات الحقد المتطايرة من نظراته تحرق ظهره...

- ١٤ -

قبل أن يستدير الصباح كان قد حصل من جليل البزّاز على عشرة آلاف دينار، ومضى عنه مشيّعًا بحقده المكتوم... قال إنّ عليه أن يوثّق علاقته بكبير الشرطة بيومي الأرمل اتّقاء لأيّ غدر في المستقبل... عليه أيضًا أن يلتحم بحاكم الحيّ وكاتم سرّه كما يفعل الأثرياء وفي ذلك ما فيه من العزّة والأمان... أمّا فاضل صنعان فقد خلا به في دكّانه وهو يمرّ أمامه... تفحّصه بزراية وسأله:

- ماذا عندك لي جزاء إنقاذ رأسك يا فاضل؟

فضحك فاضل مرتبكًا وقال:

- عندي رأسي فهي أثمن ما أملك...

فقال عجر بمرارة:

- سبق أن رفضت يدي بإباء...

فقال فاضل معتذرًا:

- لك عليّ أن أكفّر عن خطئي...

فصمت لحظات وقال:

- وهبني الله مَن هي خير منها، ولكن تذكّر أنّني أنقذت رأسك بلا مقابل مراعاة لفقرك!

- ١٥ -

وفي عصر اليوم تمّت المراسيم الشرعيّة لزواج عجر من قمر العطّار في جوّ أشبه ما يكون بجوّ المآتم... تركّز همّ عجر في الاحتفاظ بشملول الأحدب في داره حتّى تزفّ إليه العروس... من ناحية أخرى اكترى دارًا جميلة وشرع يعدّها لاستقبال العروس... ولم يكن مطمئنًّا للمستقبل كلّ الاطمئنان، فخدعته ستنكشف عاجلًا أو آجلًا، أكثر من ذلك ستعلم فتّوحة بزواجه من قمر وتتجمّع سُحب المتاعب والأكدار... غير أنّه قد ينجو من السقوط إذا ضمّ إليه عروسه فانضمّ بطريقة ما إلى آل العطّار، وإذا استثمر ماله فواتاه الربح الوفير والثراء المقيم... وذهب إلى السوق فقابل المعلّم سحلول وقال له:

- لديّ مال أريد أن أستثمره عندك فأنت خير المستثمرين...

فسأله سحلول ولم يكن يعلن عن دهشته أبدًا:

ـ من أين لك المال يا عجر؟

ـ الله يرزق مَن يشاء...

فقال باقتضاب:

ـ لا أشرك أحدًا في مالي...

فقال برجاء:

ـ علّمني فالتعليم ثواب...

فابتسم سحلول قائلًا:

ـ مهنتي لا تُعلَّم يا عجر، انتظر حتّى يرجع السندباد...

وتوجّه من فوره إلى نور الدين عديل السلطان فسأله الشابّ في شيء من الارتياب:

ـ أتقسم لي على أنّ المال جاءك من الحلال؟

فاضطرب قلبه ولكنّه أقسم فقال له نور الدين:

ـ ستبحر سفينة في هذا الشهر، ارجع إليّ في نهاية الأسبوع.

مضى خائفًا من مغبّة القسم الكاذب ولكنّه تعهّد أمام ضميره بأن يكفّر عن ذنوبه بالحجّ والصدقة والتوبة...

ـ ١٦ ـ

أدرك عجر أنّ أقدام الزمن تنذر بتحطيم آماله، وأنّه لا يستطيع أن يوقفها... ليس في وسعه أن يحتفظ بالأحدب في سجنه إلى الأبد، ولن يوجد في المدينة مستقرّ آمن له... لم يبق له إلّا أن يستولي على عروسه ثمّ يهرب بها في أوّل سفينة... في بلاد بعيدة يبدأ حياة جديدة، حياة الثراء والحبّ والتوبة... ودافَعَ عن نفسه أمام نفسه فقال إنّه لم يكن شرّيرًا ولكنّه فعل ما فعل بدافع الحرمان والعجز... أعطاه الله حظّ الفقراء وشهوات الأغنياء فما ذنبه؟ وذهب عند المساء إلى مقهى الأمراء فمضى من توّه ـ بأقدام ثابتة ـ إلى مجلس حسن العطّار وجليل البزّاز وفاضل صنعان... أوسعوا له مرغمين... قال لنفسه كنت أمس محتقرًا وأنا اليوم بغيض حتّى الموت... لكنّه سيحسم أمره مع العطّار في نهاية السهرة وينطلق من الغد إلى دنيا الأحلام الجميلة... ورأى فاضل يحملق في مدخل المقهى بذهول داعيًا صاحبيه للنظر... اتّجه نظره نحو المدخل فرأى شملول الأحدب يرميهم بنظرة حمراء ملتهبة وهو ينتفض من شدّة الانفعال...

ـ ١٧ ـ

تخطّف اليأس والرعب روحه... اقترب منهم بخطى سريعة متقاربة حتّى وقف أمامهم متحدّيًا... صرخ بصوته الرفيع كالصفير:

ـ الويل لكم يا غجر!

ركّز أوّلًا على عجر وقال:

ـ تحبسني في دارك مدّعيًا ضيافة لم أطلبها؟!

لم ينبس عجر فواصل الأحدب:

ـ أطلقتني امرأتك عقب ما نما إليها من نبأ زواجك فانتظر الرعد في بيتك...

ثمّ راجعًا إلى الثلاثة:

ـ تضربون رجل السلطان يا أوغاد! لكلّ قويّ مَن هو أقوى منه وأفتك، وسوف تنالون الجزاء الحقّ...

وغادر المقهى مصفرّ الوجه من الغضب، في خطى متقاربة سريعة، مخلّفًا وراءه عاصفة من الضحك... ولكن تجمّدت أوجه الرجال الثلاثة ثمّ اجتاحهم الخوف والغضب... ألهبوا عجر بنظرات حاقدة وهمس حسن العطّار:

ـ وغد محتال، أرجع النقود وافسخ العقد...

وقال جليل البزّاز:

ـ أرجع النقود وإلّا هشّمنا عظامك...

قال عجر:

ـ حسبته أوّل الأمر ميتًا والله شهيد...

قال حسن:

ـ ثمّ انقلبت مجرمًا محتالًا، النقود والفسخ...

قال باستقتال:

ـ احذروا الفضيحة، سيذاع سرّ السكر والعربدة والعدوان، خير من ذلك أن تسترضوا الأحدب قبل أن يرفع شكواه إلى مولاه، أمّا ما أعطيتم من مال فاعتبروه تكفيرًا عن آثام حياتكم...

ـ الويل لك، لن تفلت بدرهم يا محتال.

نهض الرجل بغتة وغادر المكان وكأنّما يفرّ فرارًا...

- ١٨ -

تلاشى الأمان من دنياه، وانطفأ سراج الأمل... إنّه زوج قمر ولكنّها أبعد عنه من النجوم، وهو غنيّ ولكنّ الموت يتهدّده وهو أدرى الناس بالتعاون الخفيّ بين العطّار والبزّاز من ناحية ويوسف الطاهر الحاكم وحسام الفقي كاتم السرّ من ناحية أخرى... وفتّوحة رابضة في الدار متلهّفة على عودته لتغرز أنيابها في عنقه... ما أضيق الدنيا!. وهامَ على وجهه... غفا ساعات فوق سلّم السبيل... انزوى في أقصى الحيّ النهار كلّه... لا شكّ أنّ أعداءه استرضوا الأحدب وهم عاكفون الآن على تدبير الانتقام منه... وفي المساء وجد نفسه الهائمة في ميدان الرماية، وفجأة جذب بصره ضوء مشاعل وضوضاء غير مألوفة...

- ١٩ -

ماذا يجري في الميدان؟ قوّة من رجال الشرطة تحيط بعدد عديد من الصعاليك وتسوقهم بعنف نحو مكان مجهول... وصادف رجلًا قريبًا يقول بصوت مسموع:

- يا له من قرار عجيب!

لم يكن الرجل في حقيقته إلّا العفريت سخربوط متنكّرًا في صورة إنسانيّة، رافلًا في جلباب ينطق بحسن المكانة... سأله عجر:

- أيّ قرار يا سيّدي؟

ففرح سخربوط لاستدراج عجر وقال:

- فليكرم الله مولانا السلطان، فقد تنبّأ له فلكيّ القصر بأنّ حال المملكة لن يصلح إلّا إذا تولّى شئونها الصعاليك فأمر مولانا بالقبض على الصعاليك ليختار منهم شتّى القيادات...

فذهل عجر وتساءل:

- أموقن أنت ممّا تقول؟

فقال سخربوط بدهشة:

- ألم تسمع المنادين؟

وثب قلبه من الجذل... أيّ موجة من البشر تكتسح الأحزان كلّها بانطلاقة واحدة؟ إنّها المنفذ من العذاب واليأس، والمبشّر بالنجاة والسيادة... ماذا في وسع أعدائه أن يفعلوا إذا أطلّ عليهم غدًا من شرفة الحكّام؟. ولم يتردّد دقيقة واحدة فاندسّ في زمرة المقبوض عليهم مستسلمًا لتيّارهم.

- ٢٠ -

مضى التيّار نحو دار الحاكم يوسف الطاهر... حُشد المقبوض عليهم في الفناء تحت حراسة قويّة وعلى ضوء المشاعل... جاء يوسف الطاهر يتبعه حسام الفقي فحيّاهما كبير الشرطة بيومي الأرمل ثمّ قال:

- هؤلاء مَن أمكن القبض عليهم هذا المساء وسيجيء الآخرون تباعًا...

فتساءل يوسف الطاهر:

- أتضمن بذلك حقًّا أن تنمحي الجرائم والسرقات وقطع الطرق؟

فقال بيومي الأرمل:

- هو المأمول يا مولاي...

وبإشارة من الحاكم راح الجنود يجرّدون المقبوض عليهم من ملابسهم الرثّة... وذهل عجر طيلة الوقت وأيقن بن أنّه ساق نفسه إلى مصيبة تخفّ بالقياس إليها مصائبه... وانهالت السياط عليهم فمزّق صراخه الجوّ من قبل أن يأتي دوره... ولكنّه نال نصيبه... ولمّا أخذوا يمضون بهم إلى السجن صاح عجر مخاطبًا الحاكم:

- يا نائب السلطان، انظر بحقّ الله المتعالي فإنّي لست منهم، أنا عجر الحلّاق، كبير الشرطة يعرفني، ويعرفني كاتم السرّ، إنّي صديق نور الدين عديل السلطان!

انتبه إليه بيومي الأرمل فدهش وسأله:

- لكنّي لم أقبض عليك يا عجر...

فصاح عجر:

- اختلاط الأمر وفعْل الشيطان...

وأمر يوسف الطاهر بإطلاق سراحه وردّ ملابسه إليه غير أنّه انتبه إليه باهتمام فجأة، نحو اللفّة حول وسطه فارتعد عجر وأخفاها بذراعيه... وداخل الحاكم شيء

من الريبة فأمر بنزعها وفحص ما بذراعيه... ولما رأى العقد ذا الجوهر صاح:

- عقد زهريار!... ما أنت إلّا لصّ قاتل، اقبضوا عليه...

- ٢١ -

بدأ اليوم التالي بالتحقيق مع عجر... حكى الرجل حكاية وأقسم بأغلظ الأيمان على صدقها... تطوّع حسن العطّار وجليل البزّاز فشهدا عليه بالكذب والاحتيال... قضى يوسف الطاهر بضرب عنقه... واحتشد الحيّ ليشهد ضرب عنقه في الميدان، وقبيل الشروع في التنفيذ جاء الوزير دندان في موكب مهيب...

- ٢٢ -

سرعان ما جمعت حجرة القضاء بدار الحاكم بين دندان ويوسف الطاهر وحسام الفقي وبيومي الأرمل وعجر الحلّاق... قال دندان:

- أمرني مولاي بإعادة المحاكمة....

فقال يوسف الطاهر:

- سمعًا وطاعة أيّها الوزير...

فقال دندان:

- وافاه «المجنون» بأخبار أراد أن يتحقّق منها...

فدهش يوسف الطاهر وقال:

- ذلك المجنون المصرّ على أنّه جمصة البلطي؟

- هو بعينه...

- وهل صدّقه مولانا السلطان؟

فقال دندان بخشونة:

- إنّي هنا لأحقّق معكم لا لتحقّقوا معي...

وساد صمت مجلّل بالرهبة فسأل دندان يوسف الطاهر:

- ألك شقيقتان، إحداهما حيّة والأخرى مختفية؟

فقال يوسف الطاهر:

- أجل يا سيّدي الوزير...

- وهل مارستا حياة داعرة فاجرة؟

قال يوسف الطاهر بصوت متهدّج:

- لو عرفت ذلك ما سكتُّ عنه...

فقال دندان:

- بل إنّها أسكتتاك مِن قبل أن تتولّى الإمارة بالإغداق عليك من المال الحرام!

فقال الحاكم:

- ما هي إلّا خيالات رجل مجنون...

فالتفت دندان نحو حسام الفقي كاتم السرّ وقال:

- يقال إنّك تعرف كلّ شيء عن هذه القضيّة فبأمر السلطان أدْلِ بما عندك واحذر الكذب فقد يتسبّب في ضرب عنقك...

انهار حسام الفقي تمامًا فقال لائذًا بالنجاة ما وسعه ذلك؟

- جميع ما قيل حقّ لا ريب فيه...

فسأله دندان متجهّمًا:

- ماذا تعرف عن اختفاء زهريار؟

- حقّقت في ذلك بنفسي فتبيّن لي أنّ أختها جلّنار هي التي قتلتها بدافع الغيرة...

ودُعي عجر للكلام فحكى حكايته من ساعة عشقه لجلّنار حتّى دسّ نفسه بين الصعاليك المقبوض عليهم...

- ٢٣ -

رُفعت القضيّة بحذافيرها إلى السلطان شهريار فأمر بعزل يوسف الطاهر لفقدان الأهليّة وعزل حسام الفقي لتستّره على رئيسه... وجَلْد حسن العطّار وجليل البزّاز وفاضل صنعان للسكر والعربدة، ومصادرة أموال عجر الحلّاق وإطلاق سراحه...

وخلا دندان إلى ابنته شهرزاد فقال لها:

- لقد تغيّر السلطان وتخلّق منه شخص جديد مليء بالتقوى والعدل...

ولكنّ شهرزاد قالت:

- ما زال جانب منه غير مأمون، وما زالت يداه ملوّثتين بدماء الأبرياء...

* * *

أمّا عجر فقد تناسى خسارته في فرحة النجاة... وسرعان ما فسخ العقد بينه وبين قمر ومضى إلى

النخلة غير بعيد من اللسان الأخضر فانحنى أمام المجنون المتربّع تحتها وقال بامتنان:

ـ إنّي مَدين لك بحياتي أيّها الوليّ الطيّب...

أُنيسُ الجَليس

ـ ١ ـ

شهريار ودندان يغوصان في الليل، يتبعهما شبيب رامة، وقد تلاشت حركة الإنسان... على ضوء المصابيح المتباعدة لاحت الدور والحوانيت والجوامع نائمة، وخفّت حرارة الصيف، وومضت النجوم في الأعالي... تساءل شهريار:

ـ ما رأيك في ما كان؟

فقال دندان:

ـ سليمان الزيني رجل مأمول كحاكم... كذلك كاتم سرّه الفضل بن خاقان...

ـ إذا نامت الرعيّة نام الخير والشرّ، الجميع شغوفون بالسعادة ولكنّها كالقمر المحجوب وراء سُحب الشتاء، فإذا وُفّق حاكم الحيّ الجديد سليمان الزيني تساقطت قطرات من السماء مطهّرة الجوّ من بعض ما ينتشر فيه من الغبار...

ـ سيكون ذلك بفضل الله المتعالي وبيد مولانا السلطان وحكمته...

فقال شهريار بعد تفكّر:

ـ ولكنّ القسوة يجب أن تبقى ضمن وسائل السلطان!

فتفكّر دندان بدوره ثمّ قال بحذر:

ـ الحكمة ـ لا القسوة ـ هي ما يقصد مولاي...

فضحك السلطان ضحكة مزّقت صمت الليل وقال:

ـ ما أنت إلّا منافق يا دندان، ماذا قال المجنون؟ قال إنّ الرأس إذا صلح صلح الجسم كلّه... فالصلاح والفساد يهبطان من أعلى، غمزني بجرأة لا تكون إلّا للمجانين، ولكنّه عرف سرّ القضيّة... كيف تهيّأ له ذلك؟

ـ مَن أدراني يا مولاي بما يدور في رءوس المجانين؟

ـ زعم أنّه أحاط بالأسرار منذ كان كبيرًا للشرطة...

ـ ما زال يصرّ على أنّه جمصة البلطي، وهو ادّعاء يكذّبه رأس جمصة البلطي المعلّق على باب داره... لعلّه حقًّا من رجال الغيب...

فقال شهريار وكأنّما يناجي نفسه:

ـ علّمتني شهرزاد أن أصدق ما يكذّبه منطق الإنسان، وأن أخوض بحرًا من المتناقضات، وكلّما جاء الليل تبيّن لي أنّي رجل فقير!

ـ ٢ ـ

قالت زرمباحة لسخربوط:

ـ أخشى أن يركبنا الضجر...

فقال سخربوط مشجّعًا:

ـ بل ستُتاح فرص وتُخلق فرص يا تاج الذكاء...

وترامى صوت قمقام من أعلى الشجرة وهو يقول:

ـ إذا تردّد التذمّر بينكما فهو البشرى بالرضى...

فقالت له زرمباحة ساخرة:

ـ ما أنت إلّا عجوز عاجز...

فقال سنجام من مجلسه لصق قمقام:

ـ الأرض تشرق بنور ربّها، ونحو النور يتطلّع ليل نهار جمصة البلطي ونور الدين العاشق، حتّى عجر استقرّ في دكّانه وتاب عن تطلّعاته... أمّا شهريار السفّاح فثمّة نبضة هدى تقتحم عليه هيكله المليء بالدم المسفوك...

فقال سخربوط هازئًا:

ـ ما ترى من الأشياء إلّا ظلّها الأخرس، وما تحت الرماد إلّا جمرات نار وسيوقظك الغد من غفوة العمى...

ـ ٣ ـ

بدأت الحركة بصوت ناعم كالحرير ثمّ انفجرت بهزيم الرعد... في ذات ليلة بمقهى الأمراء خرج عمّ إبراهيم السقّاء عن أدبه المعهود وقال بصوت مرتفع دلّ على شدّة تأثّره وانفعاله:

ـ حملت في صدر النهار الماء إلى الدار الحمراء...

فسأله شملول الأحدب بصوته الرفيع:

ـ وأيّ جديد في هذا يا أحمق؟

فقال السقّاء وهو سكران بالانفعال:

ـ لمحت صاحبة الدار، تبارَكَ الخلّاق العظيم...

ضحك الجالسون على الأرض والمتربّعون على الأرائك وقال معروف الإسكافيّ:

ـ انظروا إلى جنون الشيخوخة...

فقال عمّ إبراهيم بأسى:

ـ نظرة منها تملأ الجوف بعشرة دنان من خمر الجنون...

فقال له الطبيب عبد القادر المهيني:

ـ صفها لنا يا عمّ إبراهيم...

فهتف الرجل:

ـ إنّها لا توصف يا سيّدي ولكنّي أسأل الله الرحمة والغفران...

وبعد ليلتين قال عمّ رجب الحمّال:

ـ دُعيت اليوم لحمل نقل إلى الدار الحمراء...

شدّ الانتباه من فوره وبدا فريسة لعاطفة قهّارة فقال:

ـ لمحت ستّ الدار، أعوذ بالله من عنف الجمال إذا طغى...

لنا الله... ليس الأمر بالهزل... انطلق أصحاب الأشواق يستطلعون... انطلقوا إلى سوق السلاح حيث تقوم الدار الحمراء... دار كبيرة هُجرت زمنًا لهلاك أصحابها في وباء... تركت عارية وماتت حديقتها... حتّى اكترتها امرأة غريبة من بلد مجهول مصحوبة بعبد واحد... وفي الليل العميق يترامى من وراء أسوارها غناء عذب ونغم ساحر... قالوا لعلّها غانية!...

وإذا بعجر الحلّاق يتحدّث عنها بجنون لكلّ زبون يقصده... يقول:

ـ عصفتْ بتوبتي وأصابتني بسهم العذاب الأبديّ...

ويقول:

ـ دعتني لتهذيب خصلات شعرها وتقليم أظافرها، لو كانت سيّدة محتشمة لدعت بلّانة، ولكنّها نار الله الموقدة!

وعرف أنّ اسمها «أنيس الجليس»، وتضاربت الأقوال في وصفها حتّى أثارت الشكّ في عقول الواصفين، فمن قائل إنّها بيضاء شقراء، ومن قائل إنّها سمراء خمريّة صافية، ومن مُنَوِّه ببدانتها إلى متغزّل في رشاقتها... هيّج ذلك مكامن الأشواق فتوثّب الأعيان والموسرون لاقتحام المجهول...

ـ ٤ ـ

يوسف الطاهر أوّل من قام بالمبادرة... منذ عزله وهو ثريّ يعاني البطالة والضجر فجاءه الفرج... مع الليل ذهب إلى الدار الحمراء وطرق الباب... فتح له العبد وسأله:

ـ ماذا تريد؟

فأجابه بجرأة رجل حَكَمَ الحيّ زمنًا:

ـ غريب ينشد مأوى عند أهل الكرم...

غاب العبد وقتًا ثمّ رجع موسعًا للقادم وهو يقول:

ـ أهلًا بالغريب في دار الغرباء...

أدخل إلى بهو مزيّن الجدران بالأرابيسك، مفروش بالأبسطة الفارسيّة، والدواوين الأنطاكيّة، محلًّى بتحف الهند والصين والأندلس، أبّهة لا تُرى إلّا في دور الأمراء...

وهلّت امرأة محجّبة، تشي قامتها المتوارية في طيلسانها الدمشقيّ بالجلال، فجلست متسائلة:

ـ من أيّ البلاد يا غريب؟

فقال وهو يتلقّى من الحيويّة زادًا كالخمر:

ـ الحقّ أنّي من عُشّاق الحياة...

ـ خدعتنا وحقّ السلطان...

فقال بحماس:

ـ عذري أنّ قارئ الكفّ تنبّأ لي بأنّي أعيش للجمال وأموت في سبيله...

فقالت بنبرة جادّة:

ـ إنّي امرأة متزوّجة...

فتساءل بقلق:

ـ حقًّا؟

فاستدركت:

ـ ولكنّي لا أدري متى يلحق بي زوجي؟

ـ يا له من قول غريب!...

فتمتمت متهكّمة:

ـ ليس دون قولك غرابة.

وبدلال أزاحت النقاب عن وجهها فسطع جمال قد خلق على هواه وحقّق شوارد أحلامه... تلاشى العقل فركع على ركبتيه... أخرج من جيبه حُقًّا عاجيًا ففتحه ووضعه بين قدميها كاشفًا عن جوهرة ناطقة بمثل ضوء الشمس... همس بصوت متهدّج:

ـ حتّى جوهرة التاج لا تليق بقدميك...

انتظر الحُكم المقرَّر للمصير فقالت بنعومة:

ـ مقبولة تحيّتك!...

فانتفض بفرحة الأمل، أحاط ساقيها بذراعيه، وهوى رأسه فلثم قدميها...

ـ ٥ ـ

كانت مبادرة يوسف الطاهر بمثابة فتح الباب لأمواج الجنون الهادرة الصاخبة التي تدفّقت لتغمر الحيّ كالطوفان وتصيبه في أغنى أبنائه، أمّا الفقراء فكانت لهم الحسرة... باتت الدار الحمراء بسوق السلاح قبلة لحسام الفقي وحسن العطّار وجليل البزّاز وغيرهم... حملت الهدايا في إثر الهدايا، وسلبت القلوب والجوانح، وتاهت العقول وشردت، وسيطر الإسراف والسفه، ونحّيت العواقب، وتلاشى الزمن فلم تبق إلّا الساعة الراهنة، ومضت الدنيا تضيع في إثر الدين... وأنيس الجليس ساحرة فاتنة، تحبّ الحبّ، تحبّ المال، تحبّ الرجال... لا يرتوي لها طمع ولا تكفّ عن طلب... الرجال يستبقون بجنون بحكم الحبّ والغيرة، لا يستأثر بها أحد، ولا يزهد فيها أحد، منحدرينَ بقوّة واحدة نحو الضياع...

ـ ٦ ـ

لم يعرف المعلّم سحلول النشاط كما عرفه في تلك الأيام... إنّه رجل المزادات وأوّل مَن يحضر عند حلول الإفلاس... سقط أوّل مَن سقط حسام الفقي... لم يهمّه ضياع المال بقدر ما أهمّه ضياع أنيس الجليس... لم يكربه مصير النساء والأولاد كما أكربه الحرمان... قال للمعلّم سحلول:

ـ لا يستطيع أن يدمّر الإنسان مثل نفسه...

فقال له الرجل بغموض:

ـ ولا يستطيع أن يتجّيه مثل نفسه...

فقال الفقي ساخرًا:

ـ أفلست المواعظ من قديم.

ولحق به في السقوط جليل البزّاز، ثمّ حسن العطّار أمّا يوسف الطاهر فترنّح على حافة الهاوية... وقال عجر الحلّاق لسحلول معلّقًا على نشاطه المتصاعد:

ـ مصائب قوم!

فقال سحلول دون مبالاة:

ـ هم الجناة وهم الضحايا...

فتنهّد عجر قائلًا بأسًى:

ـ لو رأيتها يا معلّم لهفّت نفسك إلى الجنون...

ـ ما هي إلّا بسمة شيطان...

ـ إنّي أعجب كيف لم تقع في هواها!

فقال سحلول باسمًا:

ـ جرت المقادير بأن يوجد عاقل واحد في كلّ مدينة مجنونة...

وذات ليلة وسحلول يخوض الظلام متمهّلًا اعترضه قمقام وسنجام فتبادلوا تحيّة مقدّسة، وقال قمقام:

ـ انظر إلى العبث يعصف بالمدينة...

فقال سحلول:

ـ لقد عشت ملايين من السنين فما يدهشني شيء...

فقال سنجام:

ـ ستقبض أرواحهم ذات يوم وهي تنزّ إثمًا...

ـ وقد تسبق التوبة حلول الأجل...

ـ لماذا لا يُسمح لنا بمساندة الضعفاء؟

فقال سحلول بوضوح:

ـ وهبهم الله ما هو خير منكم، العقل، والروح!

ـ ٧ ـ

مضى حسام الفقي ثملًا مترنّحًا إلى الدار الحمراء

وطرق الباب الكبير. . . فاضت كأس جنونه فساقته إلى باب النجاة ولكن لم يفتح له أحد فصاح في الليل غاضبًا:

- افتح يا مفتّح الأبواب. . .

ولكن لم يكترث بندائه أحد فانزوى تحت السور في قهر وعناد. . . وما لبث أن رأى شبحًا قادمًا حتّى رأى وجهه تحت ضوء المصباح المعلّق فعرف فيه رئيسه القديم يوسف الطاهر فاشتعل بيقظة غاضبة. . . طرق الرجل الباب فسرعان ما فتح له. . . اندفع حسام الفقي في أثره ولكنّ العبد اعترض سبيله قائلًا:

- معذرة يا معلّم حسام. . .

فلطمه على وجهه بحنق فقال له يوسف الطاهر برقّة:

- أفِقْ واسلك كما يليق بك. . .

فتساءل بغلظة:

- ضاع المال والدين فماذا يبقى لي؟. . .

تحوّل عنه ليمضي في سبيله ولكنّ الآخر وثب عليه كنمر وطعنه في قلبه بخنجر مسموم. . . عند ذاك صرخ العبد صرخة أفزعت النيام. . .

- ٨ -

قُبض على حسام الفقي الذي لم يحاول الهرب. . . نظر إليه بيومي الأرمل برثاء وقال:

- أسفي عليك أيّها الصديق القديم. . .

فقال حسام بهدوء:

- لا تأسف يا بيومي، ما هي إلّا قصّة قديمة يستدفئ بها العجائز، قصّة الحبّ والجنون والدم. . .

- ٩ -

وقال العبد لأنيس الجليس:

- حبيبتي زرمباحة عمّا قليل سيشرّف دارنا بيومي الأرمل كبير الشرطة. . .

فقالت المرأة:

- كما رسمنا يا سخربوط. . . ونحن في الانتظار. . .

- دعيني أقبّل الرأس الحاوي للعبقريّة. . .

- ١٠ -

لم تستغرق محاكمة حسام الفقي إلّا ساعات ثمّ ضُربت عنقه. . . واجتمع الحاكم سليمان الزيني بكبير الشرطة وحضور كاتم السرّ الفضل بن خاقان والحاجب المعين بن ساوي. . . قال الزيني مخاطبًا بيومي الأرمل:

- ما هذا الذي قال الشهود؟ عشرات الرجال يفلسون. . . رجلان يفقدان حياتهما بسبب امرأة غريبة داعرة. . . أين كنت يا كبير الشرطة؟

فقال بيومي الأرمل:

- الدعارة إثم سرّيّ ونحن منهمكون في مطاردة الشيعة والخوارج!

- لا. . . لا. . . إنّك عين الشريعة. . . حَقِّق مع المرأة. . . صادِرْ مالها الحرام، استدرك ما فاتك قبل أن تُسأل أمام السلطان. . .

- ١١ -

وقف بيومي الأرمل بين نخبة من رجاله في بهو الاستقبال بالدار الحمراء ينظر في ما حوله ويتعجّب. . . ترى هل تفوق سراي السلطان هذه الدار في شيء؟!. وجاءت المرأة مقنّعة الوجه محتشمة الجسد. . . دعتهم إلى الجلوس فلمّا أبوا ظلّت واقفة وهي تقول:

- أهلًا بكبير الشرطة في دارنا المتواضعة. . .

فقال بخشونة:

- لا شكّ علمت بالجريمة التي ارتكبت عند مدخل دارك؟

فقالت بتأثّر:

- لا تذكّرني بها فلم يغمض لي جفن منذ ارتكابها. . .

فقال بحدّة:

- لا أصدّق كلمة ممّا تزوّرين، أجيبي على أسئلتي بالصدق، ما اسمك؟

- أنيس الجليس. . .

- اسم مريب، من أيّ البلاد جئت؟

- أمّي من الهند وأبي من فارس وزوجي من

الأندلس!

ـ متزوّجة؟

ـ نعم، وقد تلقّيت من زوجي رسالة ينبئني فيها بقرب قدومه...

ـ أتمارسين الدعارة بعلمه؟

ـ أعوذ بالله، إنّي امرأة شريفة...

فهزّ رأسه ساخرًا:

ـ وما شأن الرجال الذين يتردّدون عليك؟

ـ أصدقاء من سادة البلد ممّن يطيب لهم الحديث في الشريعة والأدب...

ـ عليك اللعنة، ألذلك أفلسوا وتقاتلوا؟

ـ إنّهم كرماء ولا ذنب لي وما كان يصحّ في آدابنا أن أرفض هداياهم، ولا أدري كيف اندسّ الشيطان بينهم...

فقال بنفاد صبر:

ـ لديّ أمر بمصادرة مالك الحرام...

أشار إلى رجاله فانتشروا في الدار ينقّبون عن الحليّ والجواهر والنقود... في أثناء ذلك لبثا وحيدين صامتين... خطف من نقابها نظرات مستطلعة بلا ثمرة أمّا هي فلم تجزع... استسلمت للقدر أو هكذا بدت، ثمّ تساءلت في عتاب:

ـ هل أعيش بعد اليوم من بيع أثاث داري؟

رفع منكبيه استهانة فأزاحت النقاب عن وجهها قائلة:

ـ معذرة، حرّ الصيف لا يُطاق...

نظر بيومي فصُعق... لم يصدّق عينيه ولكنّه صعق... التصق بصره بوجهها فلم يستطع أن يستردّه... سبح في بحر الجنون المتلاطم... فَقَدَ القوّة والوظيفة والأمل... دفن كبير الشرطة بيديه فانبعث من قبره مائة عفريت وعفريت... دفعته آلاف الأيدي فكاد يتهاوى لولا سماعه عربدة أعوانه في الحجرات... الرقباء والعيون قادمون، أمّا بيومي الأرمل فقد ضاع إلى الأبد... وعادت تقول متوسّلة:

ـ أسألك المروءة يا كبير الشرطة...

أراد أن يجيب إجابة خشنة تناسب المقام... أراد أن يجيب إجابة ناعمة تناسب المقام... لكنّه غرق في الصمت...

ـ ١٢ ـ

عند منتصف الليل فقد صبره فطار مستخفيًا إلى الدار الحمراء... مثل بين يديها مستسلمًا وهو يقول لنفسه إنّها القدر الذي لا ينفع معه حذر ولا ينتفع لديه بمثال... تجاهلت حاله وقالت بأسّى:

ـ لم يبق لديّ ما تصادره يا كبير الشرطة...

فقال بذلّ:

ـ لقد قمت بواجبي ولكنّ ثمّة جانب للرحمة...

ورمى عند قدميها بدرّة مكتنزة... ابتسمت بعذوبة، وغمغمت:

ـ يا لك من رجل شهم...

ركع على ركبتيه في خشوع، أحاط ساقيها بذراعيه، ثمّ سجد لاثمًا قدميها...

ـ ١٣ ـ

تصاعدت أنّات شكوى من مستحقّي بيت المال، وتهامس كتّاب البيت بأنّ المال لا يُصرف في وجوهه الشرعيّة كما أمر الزيني... وبلغت الأنباء الحاكم فبثّ العيون وشدّد المراقبة... وكلّف كاتم سرّه الفضل بن خاقان وحاجبه المعين بن ساوي بالتحقيق السرّيّ... وقرّر أخيرًا استدعاء كبير الشرطة بيومي الأرمل وقذف في وجهه بالبيّنات الصادقة... بدا الرجل مستسلمًا وغير مبالٍ فعجب لشأنه وسأله:

ـ أرى فيك شخصًا آخر لم أعهده من قبل؟

فقال الرجل بأسًى:

ـ تقوّض البنيان القديم يا مولاي...

ـ ما تصوّرت أن تغتال أموال المسلمين...

فقال بالنبرة نفسها:

ـ اغتاله المجنون الذي حلّ فيّ...

وحوكم بيومي الأرمل فضُربت عنقه... حلّ محلّه المعين بن ساوي... صودرت أموال أنيس الجليس مرّة أخرى... ولزم حارسٌ بابَها ليمنع أيّ رجل من الدخول...

- ١٤ -

ورُفع أمرها إلى المفتي ولكنّه أفتى بأنّه لم تقم بيّنة شرعيّة على فسقها، وكان المعين بن ساوي يمارس عمله في مقرّ الشرطة عندما استأذنت امرأة في مقابلته... نظر إلى نقابها الكثيف بلا مبالاة وسألها:

- مَن أنت وماذا تريدين؟

فأجابت بعصبيّة:

- أنا أنيس الجليس المظلومة...

فانتبه الرجل إليها باهتمام وسألها بخشونة:

- ماذا تريدين؟

فأزاحت النقاب عن وجهها وقالت:

- صادرتم مالي، أصبحت مستحقّة للصدقة والزكاة فاكتبني عندك ضمن المستحقّات...

لم يفقه معنى كلمة ممّا قالت... نسي أشياء لا تُحصى كما نسي نفسه... عبثًا حاول أن يستمدّ من ضميره قوّة... زلّت قدمه فتردّى في الهاوية... سمع صوتها يتردّد مرّة أخرى دون أن يفقه له معنى... أخيرًا سألها وهو يلهث:

- ماذا قلت؟

فقالت متجاهلة حاله:

- اكتبني عندك في المستحقّات للزكاة والصدقة...

تساءل وهو يلقي بتاريخه من النافذة:

- متى أبعث لك بحاجتك؟

فقالت بدلال:

- سأنتظرك عقب صلاة العصر...

- ١٥ -

اشتعلت نشاطًا ومقدرة... قالت إنّه يوم الفصل والنصر... ضحكت طويلًا كما ضحك سخربوط... وفي الحال قصدت كاتم السرّ الفضل بن خاقان... تكرّرت اللعبة والمأساة... ضربت له موعدًا عقب صلاة المغرب... أمّا سليمان الزيني فكان موعده عقب صلاة العشاء... نور الدين عاشق الروح وعديل السلطان وافق على الذهاب بعد العشاء بساعتين وقد حرّر لها رقعة لمقابلة الوزير دندان وأخرى للقاء السلطان شهريار بحجّة أن تظفر بالعدل والإنصاف عند أيّ منهم... هوى الرجال جميعًا وتطلّع كلّ إلى موعده وقد فقد رشده... حتّى دندان وشهريار!

- ١٦ -

في موعده جاء المعين بن ساوي بدقّة فلكيّة تعكس عيناه معاناة عاشق قديم... رمى بالبدرة في خفّة طفل سعيد، لم ير من الوجود الفخم إلّا كوكبه الساطع، وثمل بالنشوة حتّى استقرّ عند قدميها... ليس في الجلسة إلّا بروق الوعود السعيدة المحتدمة ولا مكان بها للعواقب... شرب من يد العبد تارة ومن يدها أخرى وتمادى في أفانين الهوى حتّى تجرّد من ثيابه فارتدّ للعصر البدائيّ... وهو يندفع بها نحو الفراش اندفع العبد داخلًا مهرولًا وانكبّ على أذنها فأسرّ إليها بسرّ خطير كما بدا... وثبت واقفة، أسدلت على جسدها البضّ طيلسانها وهمست محمومة:

- زوجي وصل...

أفاق الرجل من سكرته بضربة قاضية فشدّته من يده إلى حجرة جانبيّة، ثمّ أدخلته في صوان، أغلقته بإحكام، وهي تقول من خلال رجفة الاضطراب والذعر:

- ستذهب بأمان في الوقت المناسب...

فهتف الرجل:

- إليّ بثيابي...

فقالت وهي تبتعد:

- إنّها في الحفظ والصون، اصمت، لا صوت ولا حركة وإلّا هلكنا!...

- ١٧ -

تتابعت الرجال... الفضل بن خاقان... سليمان الزيني... نور الدين... دندان، شهريار... استسلموا للنداء الآسر، ثملوا بالنشوات المعربدة، ثمّ سيقوا عرايا إلى الأصونة، وترامى إليهم صوت أنيس الجليس وهي تضحك ساخرة فأدركوا أنّهم وقعوا في شرك محكم... قالت:

- غدًا في السوق سأعرض الأصونة للمزاد بما فيها...

وضحكت مرّة أخرى وواصلت:

- سوف يشاهد شعب السوق سلطانه ورجال دولته وهم يباعون عرايا...!

- ١٨ -

ولّما رجعت إلى البهو رأت أمامها «المجنون» واقفًا في هدوء... انزعجت مرتجفة... ماذا جاء به؟ كيف اقتحم دارها؟ هل سمع حديثها للرجال؟. سألته:

- كيف دخلت داري بلا دعوة ولا استئذان؟

فقال بهدوئه:

- رأيت الرجال يتتابعون فثار شوقي للمعرفة...

صفّقت بيديها منادية العبد فأدرك ما تريد فقال:

- لقد ذهب!

فسألته غاضبة:

- إلى أين؟

- دعينا منه وأكرمي ضيفك...

بدا مفروق الشعر مسترسله... غزير اللحية، حافي القدمين، في جلباب أبيض فضفاض ينبعث من طوقه شعر صدره... أتوقعه في شراكها؟. أقبلت ولكن في فتور... لأوّل مرّة لا يُحدث وجهها أثره... إنّه فتنة ولكن للعقلاء لا المجانين... اقتربت من المائدة متثنّية وقالت:

- إن كنت تريد طعامًا فكُلْ...

فقال بازدراء:

- لست متسوّلًا!

فتساءلت مدافعة اليأس:

- إليك الشراب...

- رأسي مليء بالدنان!

- لا يبدو عليك سكر...

- ما أنتِ إلّا عمياء

فقطّبت مستوحشة، وسألته:

- ماذا تريد؟

فسألها بدوره:

- كيف تعيشين في قصر مهجور خالٍ من كافّة وسائل الحياة؟

فنظرت فيما حولها بقلب منقبض وتساءلت:

- ألا يعجبك هذا الجمال كلّه؟

- لا أرى إلّا جدرانًا تتردّد بينها أنفاس الوباء القديم...

جاء دورها لتتعرّى كالآخرين... استسلمت ضعيفة أمام جنونه المقتحم... انهزم الإغراء كما انهزم التمويه... ولّته ظهرها لتفكّر... تحرّكت شفتاه بتلاوة خفيّة... لم تسعفها المقاومة اليائسة... وزحف عليها ما يشبه النوم الثقيل... تراخت أعصابها... تركت تيّار التغيّر يتدفّق... مضت قسمات وجهها تذوب وتنداح فصارت عجينة متورّمة... تقوّضت القامة الفارهة وطارت منها الملاحة والرشاقة... بسرعة عجيبة لم يبق منها إلّا نقاط منفصلة... استحالت دخانًا ثمّ تلاشت غير تاركة أيّ أثر... في أعقابها اندثرت الأرائك والوسائد والأبسطة والتحف... انطفأت القناديل... فنيت فساد الظلام... حمل ركام ثياب الرجال فقذف بها من نافذة ومضى نحو حجرة الأصونة...

- ١٩ -

قال المجنون يخاطب مَن في الأصونة:

- لن أعفيكم من العقاب، ولكنّي اخترت لكم عقابًا ينفعكم ولا يضرّ العباد...

فتح الأقفال بسرعة ثمّ غادر المكان...

- ٢٠ -

تسلّل الرجال من الأصونة في حذر وإعياء يترنّحون من الإرهاق... لم يفتح أحد منهم فاه من القهر والخجل... عراة الأجساد عراة الكرامة يتخبّطون في الظلام... يفتّشون عن ملابسهم، عن أيّ ملابس، عن أيّ شيء يستر العورة... الوقت يمضي لا يرحم والنور يقترب والفضيحة تومض في الظلام... جالوا في الظلام يستكشفون المكان بأذرعهم الممدودة... لا أثر لشيء... لا أثر لحياة... وَهْم أو كابوس أمّا الفضيحة فحقيقة... إنّه الذلّ واليأس...

واسترشدوا بالجدران نحو الباب الخارجيّ ودبيب الزمن يتلاحق خلفهم... وما إن تنفّسوا هواء الطريق حتّى تشهّدوا وبعضهم بكى... المدينة خالية... فرصة وأيّ فرصة... انطلقوا حفاة عرايا في ظلمة الليل... بصقهم المجد، وعلاهم الخزي، وكسا الإثم وجوههم بطبقة من القصدير المذاب...

قوت القلوب

- ١ -

كان المجنون يترنّم بأوراد الفجر في مطلع الخريف عندما تناهى إليه تحت النخلة صوتُ ساكن الماء مناديًا... هرع إلى حافة النهر وهو يقول:

- أهلًا بأخي عبد الله البحريّ...

فقال الصوت:

- إنّي أعجب لشأنك...

- لماذا؟

- طالما قتلت المنحرف لانحرافه فما بالك تجنّب الآثمين الفضيحة؟

فقال المجنون بأسى:

- أشفقت أن يصبح الصباح فلا تجد الرعيّة سلطانا ولا وزيرًا ولا حاكمًا ولا كاتم سرّ ولا رجل الأمن فيأخذها أقوى الأشرار...

- وهل أجدتْ حكمتك؟

- أراهم يعملون وقد ملأ الحياء قلوبهم وقد خبروا ضعف الإنسان...

فهمس عبد الله البحريّ:

- في مملكتنا المائيّة نجعل الحياء شرطًا ضمن شروط عشرة يجب أن تتوفّر في حكّامنا...

فقال المجنون متنهّدًا:

- ويل للناس من حاكم لا حياء له...

- ٢ -

تأخّر الوقت برجب الحمّال خارج البوّابة... ولدى عودته في الظلام رأى أشباحًا تفتح مدفنًا وتدخله... وعجب لما يدعوهم لذلك قبيل الفجر فأغراه قلبه باقتحام لغز غير يسير... وما لبث أن تسلّق السور فانبطح على بطنه وراح ينظر نحو الفناء على ضوء شمعة خافت أمسك بها شبح... رأى نفرًا من العبيد تفتح قبرًا منعزلًا كأنّما أُعدّ للخدم، ثمّ رآهم يحملون صندوقًا فيودعونه القبر ويهيلون عليه التراب... انتظر حتّى فارقوا المكان... فكّر أيضًا في الذهاب ولكنّ الصندوق ألحّ عليه... ماذا يحوي؟ ولماذا دفنوه في هذه الساعة المتأخّرة... ولم تُعْفِه نفسه من المتاعب فوثب إلى الفناء... وبهمّة وإصرار فتح القبر واستخرج الصندوق... ولولا قوّته وتمرّسه بحمل الأحمال ما استطاع أن يفعل... وعالج الصندوق حتّى فتحه وأشعل شمعة يحتفظ بها في رحلاته، وألقى نظرة فارتعد إشفاقًا ورعبا... ثمّة جارية كالبدر في تمامه مكشوفة الوجه، في ثوب لا كفن، ميتة ولا شكّ ولكنّها تبدو كنائمة... أدرك أنّ ملابسات الدفن تومئ إلى جريمة ما... كما أدرك أنّه ورّط نفسه في مأزق ما كان أغناه عنه... وفي الحال توثّب للفرار دون أن يفكّر في إعادة الصندوق إلى قبره أو إغلاقه...

- ٣ -

وعندما وثب إلى الخلاء وجد أمامه شبحًا فتقلّص قلبه، ولكنّه سمع صوت المعلّم سحلول تاجر المزادات يتساءل:

- من هنا؟

فأجاب مخفيًا ارتباكه ما استطاع:

- رجب الحمّال يا معلّم سحلول...

فسأله ضاحكًا:

- ماذا كنت تفعل في الداخل؟

فأجابه على البداهة:

- ربّنا أمر بالستر يا معلّم...

أراد أن يوحي إليه بأنّ وراء السور امرأة فضحك سحلول وتساءل متهكّمًا:

- ألا يوجد في هذه المدينة رجل فاضل؟

- ٤ -

استعبده الخوف... لم يعرف من قبل المآزق الخطرة... لاح له النطع كمصير مظلم... صلّى الفجر بجسده أمّا عقله فاستأثرت به الوساوس... سوف تُكتشف الجثّة... يشهد سحلول برؤيته وهو يثب من فوق سور المدفن... وهو الحمّال المرشّح لحمل الصندوق... فإمّا الهروب وإمّا الاعتراف بالحقيقة قبل أن تُكتشف... وهو مرتبط بالأهل والأرض... ليس كقرينه السندباد الغائب في البحر... وهو أيضًا ممّن يعطف عليهم المعين بن ساوي كبير الشرطة... فليقصده وليعترف بين يديه بكلّ شيء...

- ٥ -

عقب الصلاة عزم على لقاء المعين بن ساوي ولكنّه رآه مسرعًا فوق بغلته وبين حرسه... تبعه على الأثر فوجده ماضيًا نحو دار الزيني ينتظر مُنْصَرَفه. وكان سليمان كبير الشرطة ثائرًا، وكانت داره تعاني اضطرابًا شاملًا... لقي الحاكم كبير الشرطة ساخطًا وقال له بغضب:

- ما هٰذا الذي جرى في دار الإمارة؟... هل رجعنا إلى أيّام الفوضى؟

فوجم المعين وسأل عمّا جرى فقال الحاكم:

- جاريتي قوت القلوب لا أثر لها كأنّ الأرض ابتلعتها...

فذهل المعين وتساءل:

- متى حدث ذٰلك؟

- رأيتها أمس والآن لا وجود لها...

- ماذا قال أهل الدار؟

- يتساءلون مثلي وقد ركبهم الخوف...

تفكّر المعين قليلًا ثمّ قال:

- لعلّها هربت!

فاحتقن وجه سليمان الزيني بدم أسود وصاح:

- كانت أسعد الجواري، عليك بالعثور عليها... نطق بها بثورة وعيد واضحة...

- ٦ -

أمام باب الدار وجد رجب الحمّال في انتظاره... تقدّم منه حاني الرأس وقال:

- مولاي... لديّ ما أقوله...

فقاطعه بحدّة:

- اغرب عن وجهي... هٰذا وقت كلام يا غبيّ؟

فقال الحمّال بإلحاح:

- حلمك يا سيّدي... إنّها جريمة قتل... الجثّة خارج البوّابة، والتأجيل حرام.

انتبه الرجل إلى قوله متسائلًا:

- أيّ جريمة... وما دخلك فيها؟

فقصّ عليه القصّة بسرعة ولهوجة والآخر يتابعه باهتمام متزايد...

- ٧ -

مع أوّل شعاع للنور حُمل الصندوق إلى بهو دار الإمارة... أحدق به سليمان الزيني والمعين بن ساوي ورجب الحمّال... قال كبير الشرطة بحزن:

- اهتديت إلى مكان قوت القلوب وجئت بها ولٰكنّها للأسف جثّة هامدة!

ارتجف سليمان الزيني رغم رزانته تحت ضغط عواطفه... فتح المعين بن ساوي الصندوق... انحنى فوقه الزيني بوجه يطفح بالحزن مغمغمًا «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»... أغلق المعين الصندوق وهو يتمتم:

- أطال الله بقاءك وهوّن من أحزانك...

صاح سليمان:

- الويل للمجرم... اكشِفْ لي الأسرار التي أطاحت بسعادتي...

- مولاي... ما زال اللغز لغزًا... كيف غادرت الدار؟ أين قُتلت؟ مَن قتلها؟ إليك يا مولاي شهادة تطوّع بها هٰذا الحمّال...

وروى له الشهادة، فرمى الزيني رجب بنظرات من نار وقال له:

- أيّها القذر، أنت القاتل أو عندك خبره...

فهتف الحمّال مرتعدًا:

ـ وربّ السماوات والأرض ما أخفيت عنكم كلمة واحدة...

ـ اخترعت أسطورة تتستّر بها على فعلتك...

ـ لولا صدقي ما ذهبت بنفسي إلى كبير الشرطة معترفًا بما شاهدت...

غير أنّ المعين بن ساوي فاجأه بما لا يتوقّع قائلًا:

ـ في هذا كذبت يا رجل... (ثمّ متلفّتًا إلى الحاكم)... لقد قُبض عليه في مكان الجريمة...

فذهل رجب... لم يصدّق أذنيه... سأله:

ـ ماذا قلت؟

فكرّر الرجل:

ـ لقد قُبض عليك ولم تجئ بنفسك...

ـ أنت تقول ذلك؟

فقال بازدراء مصطنع:

ـ الواجب فوق الرحمة...

فصرخ في وجهه:

ـ لن تفلت من الله يا مفتري...

فقال له الزيني:

ـ اعترف وجنّب نفسك أهوال التعذيب...

فقال رجب بيأس:

ـ كبير الشرطة كذّاب... لا علم لي بشيء سوى ما قلت...

وتذكّر الواقعة الوحيدة التي أخفاها فواصل:

ـ أحضروا المعلّم سحلول تاجر المزادات فقد رأيته قريبًا من المدفن...

ـ ٨ ـ

جيء بالمعلّم سحلول... لم يغيّر شيء من هدوئه المألوف... سُئل عمّا دعاه للتواجد قرب المدفن في تلك الساعة من الليل فقال:

ـ تستوي جميع الأمكنة والأزمنة عندي بحكم عملي...

وقصّ عليهم حكاية ضبطه مصادفة لرجب وهو يثب من فوق السور... فسأله المعين:

ـ أتعتقد أنّه القاتل؟

فقال بهدوء:

ـ لا بيّنة لديّ، ثمّ إنّه لا يوجد قاتل بلا قتيل فأين القتيل؟

ـ في هذا الصندوق...

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

ـ دعوني أره...

ففتح المعين الصندوق ونظر سحلول إلى الجثّة مليًّا ثمّ قال:

ـ الجارية ما زالت تنبض بالحياة...

ترقرق الأمل في عينَي الزيني ورجب على حين صاح به المعين:

ـ أتسخر منّا يا مجرم!...

فقال مخاطبًا الزيني:

ـ أسرع بإحضار طبيب وإلّا ضاعت الفرصة...

ـ ٩ ـ

جاء الطبيب عبد القادر المهيني وفي الحال عكف على فحص «الجثّة»... رفع رأسه وقال:

ـ ما زالت حيّة!

ندّت عن الزيني آهة سرور على حين اصفرّ وجه المعين بن ساوي حتّى حاكى وجوه الموتى... وواصل عبد القادر:

ـ دُسّ لها قدر من البنج يكفي لقتل فيل!

وراح يعالجها حتّى لفظت ما في بطنها وحرّكت رأسها... صاح الحمّال:

ـ الحمد لله ربّ المظلومين...

وقال سحلول وهو يختلس من كبير الشرطة نظرة خفيّة:

ـ سوف تكشف لنا عن سرّ الحكاية...

ـ ١٠ ـ

مضت مدّة مشحونة بالصمت والانفعالات حتّى عادت قوت القلوب إلى وعيها... رأت وجه الزيني أوّل ما رأت فمدّت له يدها مستغيثة فقال برقّة:

ـ لا تخشَيْ شيئًا يا قوت...

فهمست:

- إنّي خائفة...

- إنّك بين أحضان الأمان فابتسمي...

لمحت المعين بن ساوي فاضطربت هاتفة:

- هذا الوحش...

ساد صمت ثقيل مذهل... قالت:

- لا أدري كيف أخذني إلى دار خالية، هدّدني بالقتل إذا لم أذعن لرغباته الدنيئة، ثمّ لم أعد أدري شيئًا حتّى الساعة...

تركّزت الأعين فوق كبير الشرطة... صاح الزيني:

- أيّها الكلب الخائن...

جرّده من سيفه وخنجره وهو يقول:

- ما أسرع أن يدبّ الفساد من جديد...

وأمر بسجنه حتّى يحقّق معه بنفسه، على حين أعلن براءة الحمّال وتاجر المزادات، واستبقى المعلّم سحلول قليلًا فقال له:

- إنّي مدين لك بالكثير يا معلّم سحلول، ولكن خبّرني ألك خبرة بالطبّ؟

فأجاب باسمًا:

- كلّا يا مولاي، ولكن لي خبرة بالموت!

- ١١ -

قال سليمان الزيني للمعين بن ساوي:

- ما تصوّرتك خائنًا أبدًا، وظننت أنّ المحنة التي وقعنا فيها جميعًا قد طهّرتنا وأنّ حياتنا ستقوم على العدل والنقاء، وإذا بك تخون الأمانة وتستهين بالكرامة وتتمادى في الفسق والجريمة...

فقال المعين:

- لا أنكر شيئًا ممّا تقول، لقد أعلنّا توبة ولكنّ الشيطان لم يتب بعد...

- لا عذر لك ولأجعلنّ منك عبرة لكلّ معتبر...

- مهلًا... لست صيدًا سهلًا، والشرّ انبثق من دارك...

- عليك اللعنة...

فقال بهدوء:

- لي شريك في الجريمة هي الستّ جميلة زوجتك...

ارتجف الرجل غاضبًا وصاح:

- ماذا قلت؟

- دعتني بدافع الغيرة وأغرتني بالتخلّص من جاريتك المفضّلة قوت القلوب...

- خائن ومفترٍ...

- يجدر بك أن تحقّق مع زوجتك أوّلًا...

- زعْم باطل لن ينجّيك من النطع...

فقال الرجل بتحدٍّ:

- سأطالب بتحقيق عادل، وسيجري عليّ ما يجري عليها... فالشريعة فوق الجميع...

- ١٢ -

ما بين يوم وليلة شاخ سليمان الزيني وتهدّم... ولم يتوانَ فقرّر ستّ جميلة حتّى أقرّت بتدبيرها... تصدّى للحقيقة بحيرة بالغة... إعلان الحقيقة يعني القضاء على أمّ أولاده كما يعني القضاء على مركزه... والحقّ واضح ولكن تبيّن له أنّه أضعف من أن يتّخذ القرار الحقّ... وجد نفسه منحدرًا إلى العفو على الاثنين، كي تبقى جميلة في داره كما يبقى المعين في وظيفته... واتّخذ القرار المتهالك وفقد شرفه...

غير أنّ قوت القلوب صارحته بأنّه لا بقاء لها في داره بعد اليوم، ولا أمان لها فيها... فاضطرّ إلى عتقها وتزويدها بالمال، وتركها تذهب آخذة معها قلبه...

- ١٣ -

خفقت قلوب بالأسى... تناجى قمقام وسنجام، المجنون وعبد الله البحريّ... حزنوا لسقوط التائبين... أمّا قوت القلوب فعاشت وحيدة في دار جميلة... عاشت في أمان من الحاجة ولكن في غشاء من الوحشة... ومع أنّ سيّدها استجاب لطلبها وأكرمها ولكنّها لم تعفه من الملامة لتفريطه فيها، ومرارة الوحدة تشتعل جحيمًا بالحبّ الخائب... وسعى إليها طلّاب الزواج حبًّا وطمعًا فرفضتهم جميعًا... رفضت حسن العطّار كما رفضت جليل البزّاز... ورغب فيها

آخرون عن بُعْد كالمعين بن ساوي، وتساءل رجب الحمّال: أليس من حقّ مَن أحيا ميتًا أن يملكه؟

- ١٤ -

ووقعت أحداث بسيطة لم ترمش لها أعين المدينة ولكنّها هزّت أفئدة أصحابها... تزوّج إبراهيم السقّاء من ستّ رسميّة أرملة جمصة البلطي... وعرض بيت المال دار جمصة البلطي للبيع فأمر سليمان الزيني بدفن رأس جمصة في مقابر الصدقة... ولم يفت المجنون أن يشهد دفن رأسه، وقال لنفسه إنّه أوّل إنسان يشيّع نفسه إلى دار البقاء، وسعد بزواج أرملته من إبراهيم السقّاء لأنّ وحدتها أمست تنغّص عليه صفوه... وثقل على المعين بن ساوي الشعور بالنبذ فبدأ صفحة جديدة في التعاون المريب مع التجّار والأغنياء... وأمطرت السماء في ذلك الخريف على غير عادة...

- ١٥ -

وكان ثلاثة أشباح يخترقون الظلمة صامتين... وتحت دار قوت القلوب نادتهم أوتار عود وصوت شجيّ تهادى إليهم يناجي رطوبة الخريف:

من عادة الدهر إدبار وإقبال
فما يدوم له بين الورى حال
كم أحمل الضيم والأهوال يا أسفي
من عيشة كلّها ضيم وأهوال

ثقلت خطاهم حتّى توقّفت، وهمس أحدهم:

- هذا مطلبنا يا دندان!

طرق شبيب رامة السيّاف الباب ففتحت جارية تسأل عن الطارق فقال شهريار:

- دراويش من رجال الله ينشدون مؤانسة شريفة...

غابت الجارية قليلًا ثمّ رجعت فقادتهم إلى حجرة استقبال ناعمة الوسائد والمفارش قد أسدل على ديوانها الرئيسيّ ستار يحجب صاحبة الدار... تساءلت قوت القلوب:

- تريدون طعامًا؟

فقال شهريار:

- بل نريد مزيدًا من غناء...

فكرّرت الصوت على مقام جديد حتّى سبح الرجال في طرب رائق... وقال شهريار:

- أأنت مغنّية يا هذه؟

فهمست:

- كلّا يا رجال الله...

فقال السلطان:

- صوتك ينطق بحزن دفين...

- وأيّ حيّ يخلو من حزن؟

فتساءل برقّة:

- ماذا يحزنك ودارك ناطقة بالنعيم؟

فلاذت بالصمت فعاد شهريار يقول:

- احكي لنا حكايتك فصناعتنا في الحياة مداواة القلوب الكليمة...

فشكرته ثمّ قالت:

- سرّي لا يُباح يا رجال الله...

وأصرّت على الصمت فاستأذنوا في الانصراف والسلطان ضيّق الصدر بصمتها... ومال على أذن دندان قائلًا:

- آتني بسرّ هذه المرأة الصامتة...

- ١٦ -

مطالب السلطان جبال ثقال لا تنزاح عن كاهله حتّى يحقّقها، وهو أعلم بغضبه إذا خاب له مطلب، وما زال السلطان متأرجحًا بين الهدى والضلال فلا تؤمّن غضبته... لذلك استدعى حاكمَ الحيّ سليمان الزيني... وصف له موقع دار قوت القلوب وقال:

- في الدار امرأة غامضة ذات صوت عذب وهمّ خفيّ، يريد مولانا السلطان فؤادها صفحة مبسوطة لا خفاء فيها...

زلزلت نفس الزيني وأدرك أنّه مسوق إلى الاعتراف... سيتحرّى دندان عن الحقيقة لدى كلّ مَن يأنس عنده قدرة على كشف الأسرار من الرجال وعلى رأسهم الفضل بن خاقان... ستهدى إليه الحقيقة عاجلًا أو آجلًا فليكن على الأقلّ صاحب الفضل في الاعتراف تقرّبًا من السلطان... وهو ذو

خلق فلم يطمئنّ قلبه لحظة بتصرّفه ويفضّل التكفير عنه بأيّ سبيل. . .

وأفضى إلى الوزير دندان بمكنون سرّه. . .

- ١٧ -

ولّما تلقّى شهريار الحقيقة من وزيره غضب وهتف:

- لا بدّ من ضرب عنقي المعين وجميلة زوجة الزيني. . .

غير أنّ غضبه فتر فجأة. . . لعلّه تذكّر هروبه ليلًا عاريًا والإثم يطارده، ولعلّه تذكّر أنّ الزيني والمعين كانا من خيرة الرجال، على أنّه فصل الرجلين من عملهما، وصادر أموالهما، كما أمر بجلد جميلة والمعين. . . ووهب قوت القلوب عشرة آلاف دينار، وسألها بعطف:

- ماذا تطلبين أيضًا يا جارية؟

فقالت قوت القلوب:

- أسألك يا مولاي العفو عن سليمان الزيني. . .

فتبسّم السلطان وسألها:

- يبدو أنّك ما زلت تحبّينه. . .

فغضّت بصرها حياء ولكنّه قال بحزم:

- لقد صدر أمرنا بتولية الرجال الجدد ولا رجوع فيه، بذلك يصبح الفضل بن خاقان حاكمًا، وهيكل الزعفراني كاتم سرّ، ودرويش عمران كبيرًا للشرطة. . .

فشفّت عيناها عن دمع يودّ أن ينطلق فقال شهريار:

- بيدك أنت أن تعفي عنه ولعلّك خير له من الإمارة!

فلثمت موطئ قدميه وهمّت بالانصراف فسألها:

- ماذا نويت يا جارية؟

فأجابت ببساطة وبعينين مغرورقتين:

- العفو يا مولاي. . .

علاء الدّين أبو الشّامات

- ١ -

هتف جمصة البلطي في هدأة الليل تحت النخلة «اللّهمّ حرّرني من أمس. . . اللّهمّ حرّرني من غد». . .

وإذا بصوت سنجام يقول له:

- نحن نحبّ ما تحبّ ولكن بيننا وبين الناس حاجز من المقادير.

ولعلعت ضحكة زرمباحة ثمّ قالت:

- لماذا خلق الشهد والخمر؟

وكان شهريار ماضيًا في جولاته الليليّة مع رَجُليه فقال لدندان:

- تمرّ بي هواتف متلاحقة ولكنّي دائر الرأس في مقام الحيرة.

- ٢ -

نحيل القوام، مشرق الوجه، ناعس الطرف، فوق كلّ خدّ شامة، يهمّ بولوج المراهقة في حياء. . . رمقه عجر الحلّاق وقال:

- تعلّمت ما أنت في حاجة إليه فخذ العدّة واسرح والله يرزقك. . .

وتمتمت فتّوحة:

- ربّما يكفيك شرّ أولاد الحرام. . .

وذهب الفتى نشيطًا مستبشرًا فقال عجر وكأنّما يخاطب نفسه:

- له جمال نور الدين فاللّهمّ أسبغ عليه حظّه. . .

فقالت فتّوحة:

- حجابي فوق صدره يصدّه عن طريق أبيه. . .

فرماه عجر بنظرة سامّة ولكنّه لم ينبس. . .

- ٣ -

مضى يعمل في الطريق والدكاكين وكلّ مَن تقع عليه عيناه يقول:

- تبارَكَ الخلّاق العظيم. . .

واختار سلّم السبيل ساعة الراحة فنشأت مودّة سريعة بينه وبين فاضل صنعان بيّاع الحلاوة... ومرّة دعاه إلى مسكنه بالربع فرأى زوجته أكرمان وأمّه أمّ السعد وأخته حسنيّة... تحرّكت مراهقته خفيةً فارتطمت بورعه وتربيته الدينيّة التي تلقّاها في الكتّاب فجعل يعتلّ بالعلل كلّما دعاه فاضل إلى مسكنه... ولمس فاضل ورعه فقال له:

ـ إنّك فتى طيّب جدير بكلمات الله المستكنّة في قلبك...

فغمغم علاء الدين:

ـ إنّه من فضل ربّي...

فسأله بحذر:

ـ ما شعورك عندما ترى المعاصي تجتاح الناس؟

فتمتم:

ـ الحزن والأسف...

ـ وما جدوى ذٰلك؟

فتبدّت الحيرة في عينيه وتساءل:

ـ ماذا تريد أيضًا؟

ـ الغضب!

وكرّرها ثم قال:

ـ المرعى الطيّب جدير بالأسد...

ـ ٤ ـ

أشرق الحيّ بمولد سيدي الورّاق... زحفت المواكب وتلاطمت الأعلام وتجاوبت الدفوف والمزامير... اجتمع أهل الخير وأهل النفاق حول جفان الثريد... ولاح في مجالس الخاصّة سحلول وحسن العطّار وجليل البزّاز وسليمان الزيني والمعين بن ساوي وشملول الأحدب، وتواجد أيضًا فاضل صنعان وعجر الحلّاق ومعروف الإسكافيّ وإبراهيم السقّاء ورجب الحمّال... جاء أيضًا ـ بمفرده لأوّل مرّة ـ علاء الدين أبو الشامات... أجلسه فاضل إلى جانبه وهو يقول:

ـ لو بُعث الورّاق لامتشق السيف!

ابتسم علاء الدين ابتسامة مَن يزداد خبرة بمعرفة صاحبه... فقال فاضل بنبرة ذات مغزى:

ـ ما دام الطيّبون لا يمتشقون السيوف!

قال علاء الدين ببراءة:

ـ يتحدّثون كثيرًا عن توبة مولانا السلطان...

فقال فاضل بسخرية:

ـ أحيانًا يتوب عن توبته، ويقينًا أنّه ليس أحقّ المسلمين بالولاية!

انجذبت عينا علاء الدين نحو الركن الأيمن فهجر حديث صاحبه ولو إلى حين... ثمّة شيخ نحيل بهيج الوجه ذو نظرة آسرة... خيّل إليه أنّه لم ينظر نحوه مصادفة... وجد عيني الشيخ في انتظاره... ثمّة دعوة خفيّة من هناك واستجابة من هنا... ارتاح إليه كما يرتاح السليم إلى بهجة الوردة المتفتّحة... ولاحظ فاضل انصرافه عن حديثه إلى الشيخ فقال له:

ـ الشيخ عبد الله البلخي رأس الولاية...

فتساءل علاء الدين بأريحيّة:

ـ لماذا ينظر إليّ؟

فقال فاضل بغموض:

ـ ولماذا تنظر إليه؟

فهمس:

ـ الحقّ أنّي أحببته...

فقطّب فاضل ولم يجد ما يقوله.

ـ ٥ ـ

غادر علاء الدين المولد وحده مترع الصدر بأصداء الأناشيد... سبح في الظلام تحت ضوء النجوم الخافت ونسمة الخريف تلاطفه... إذا بصوت عميق مؤثّر يدركه مناديًا:

ـ يا علاء الدين...

فتوقّف وقلبه يناجيه أنّ هٰذا الصوت من ذاك الشيخ يصدر، لحق به الشيخ وقال له:

ـ أنت مدعوّ لصداقتي...

فقال بحياء:

ـ نِعْم الدعوة يا مولاي، ولٰكن كيف عرفت اسمي؟

فلم يجبه وواصل:

ـ داري معروفة لمن يريد...

فقال كالمعتذر:

- عملي يستغرق نهاري كلّه...

- إنّك لا تدري ما عملك...

- لكنّي حلّاق يا سيّدي...

فلم يحفل بإجابته وسأله:

- لماذا حضرت مولد الورّاق؟

- أحبّ الموالد من صغري...

- ماذا تعرف عن الورّاق؟

- إنّه وليّ من الصالحين...

- إليك قصّة رُويت عن لسانه، قال: «أعطاني شيخي بعض وُريقات بقصد أن أرميها في النهر فلم يطاوعني قلبي على هذا العمل ووضعتها في بيتي وذهبت إليه وقلت له قد أدّيت أمرك فسألني وماذا رأيت فقلت لم أرَ شيئًا فقال لم تعمل بأمري... ارجع فارمها في النهر فرجعت متشكّكًا في العلامة التي وعدني بها، ورميتها في النهر فانشقّ الماء وظهر صندوق وفُتح غطاؤه حتّى سقطت الوريقات فيه فقفل الصندوق والتقت المياه فرجعت إليه وأخبرته بما حصل فقال لي الآن رميتها فسألته أن يبيّن لي سرّ ذلك فقال قد كتبت كتابًا في التصوّف لا يمكن أن يناله إلّا الكُمّل فطلبه منّي أخي الخضر وقد أمر الله المياه أن تأتيه به»...

فذهل علاء الدين ولاذ بالصمت، فمضيا معًا على مهل والشيخ يقول:

- ومن أقواله المأثورة «فساد العلماء من الغفلة، وفساد الأمراء من الظلم، وفساد الفقراء من النفاق»...

فتمتم علاء الدين منتشيًا:

- ما أعذب حديثه!...

فقال بصوت ارتفع درجة في هدأة الليل:

- فلا تكن من قرناء الشياطين...

فتساءل مدفوعًا بشوق ساخن:

- مَن هم قرناء الشياطين؟

فأجابه الشيخ:

- أمير بلا عِلْم، وعالم بلا عفّة، وفقير بلا تَوَكُّل، وفساد العالم في فسادهم...

فقال علاء الدين بحماس:

- أريد أن أفهم...

- الصبر يا علاء الدين، ما هي إلّا بداية تعارُف على مشهد من النجوم، وداري معروفة لمن يريد...

- ٦ -

حلم علاء الدين تلك الليلة بأنّ «المجنون» جاءه بجلبابه المسدول على اللحم وقال له:

- أرسل لحيتك...

فعجب لطلبه فقال المجنون:

- ما هي إلّا شبكة للصيد...

فقال علاء الدين:

- ولكنّي حلّاق لا صيّاد...

فصاح المجنون:

- خلق الإنسان ليكون صيّادًا...

- ٧ -

على طبليّة الفطور حكى لوالديه حكاية الشيخ عبد الله البلخي ففرحت فتّوحة وقالت:

- بركة من ربّنا...

أمّا عجر فاستمع إليه بفتور وقال:

- ما أنت إلّا حلّاق، وإنّك لمتديّن بما فيه الكفاية فاحذر المغالاة.

وبسبب هذا الاختلاف تشاجر الزوجان وتقاذفا بكلمات قارصة...

- ٨ -

وفوق سلّم السبيل راح يصغي لحديث فاضل بدهشة، ثمّ سأله:

- إنّك حانق على رجالنا الأجلّاء...

فسأله فاضل:

- هل عرفتهم عن قرب؟

- أحيانًا يصحبني أبي معه إلى دورهم كمُساعد له، فرأيت عن قرب الفضل بن خاقان حاكم حيّنا وهيكل الزعفراني كاتم السرّ ودرويش عمران كبير الشرطة...

- لا يعني هذا أنّك عرفتهم...

- رجال عظام، واحد فقط انقبض قلبي لمرآه هو حبظلم بظاظة ابن درويش عمران، خيّل إليّ أنّ به شبهًا بالشيطان!

- هل رأيت الشيطان؟

- لا تسخر منّي، ما هو إلّا شعور...

تنهّد فاضل صنعان قائلًا محادثًا نفسه:

- الأوغاد!

- كيف أسأت الظنّ بهم؟

- لا دخان بلا نار!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- الله موجود...

فهتف فاضل:

- لكنّنا ضمن أدواته التي يصنع بها الخير أو يمحق الشرّ!

فنظر إليه في عينيه متسائلًا:

- ماذا تريد يا فاضل؟

فقال بغموض:

- أطمع أن أجعلك صديقًا وزميلًا!

- ٩ -

جلس في حجرة الاستقبال البسيطة بدار البلخي ينتظر دخوله... إنّها أوّل زيارة يقوم بها في أوّل الليل... وكان سمع أباه عجر يروي حكاية عن الشيخ أكربته وأحزنته... قال إنّ درويش عمران كبير الشرطة خطب الابنة الوحيدة للشيخ لابنه حبظلم بظاظة... إنّها ابنة تقيّة نقيّة أخذت العهد عن أبيها، وفائقة الجمال... وتذكّر صورة حبظلم بظاظة الشيطانيّة وما يقال عن سيرته فاستاء وتضاعف حزنه... ومضى أبوه في روايته فقال إنّ الشيخ شكر واعتذر، ولكن لا شكّ أنّ كبير الشرطة قد غضب، وإذا غضب كبير الشرطة فلا أمان للمغضوب عليه... وقد سأل أباه:

- ألا يدرك الشيخ البلخي هذه الحقيقة؟

فأجاب عجر:

- معروف عن الشيخ أنّه لا يخشى إلّا الله، ولكن هل يخشى كبير الشرطة الله؟!

وجاء لزيارته بقلب ثقيل بالحزن له... ولكنّه ما كاد يراه مقبلًا مشرقًا حتّى نسي حزنه وأدرك أنّه حقًّا لا يخشى إلّا الله... تربّع الرجل على شلتة في الصدر وسأله:

- ما شعورك وأنت تزورني لأوّل مرّة؟

فقال علاء الدين صادقًا:

- أشعر كما لو كنت أعرفك منذ ولدت...

فقال باسمًا:

- لكلّ منّا أب آخر والسعيد منّا مَن يكتشفه...

- وحديثك في ليلة المولد أَسَرَ قلبي...

- نحن نشدّ إلى الطريق الأكفّاء الضالّين، ماذا قال أبوك؟

اضطرب علاء الدين وقال:

- إنّه يريدني على أن أكرّس قلبي لعملي...

فقال جادًّا:

- إنّه نائم ويأبى أن يصحو، ولكن كيف تقيّم نفسك يا علاء الدين؟

لم يدر بماذا يجيب فسأله متبسّطًا:

- أيّ مُسْلِم أنت؟

- إنّي مسلم صادق...

فتساءل:

- هل تصلّي؟

- الحمد لله....

- أرى أنّك لم تُصَلِّ قطّ...

فنظر إليه بدهشة فقال الشيخ:

- الصلاة عندنا تؤدّى بعمق فلا يشعر صاحبها بمسّ النار إذا أحرقته!

فصمت علاء الدين مغلوبًا على أمره فقال الشيخ:

- فعليك أن تقبل الإسلام من جديد لتصير مؤمنًا حقًّا، وعندما يتمّ لك الإيمان تبدأ الطريق من أوّله إذا شئت...

ظلّ علاء الدين صامتًا فقال الشيخ:

- لا أهوّن من مشقّة الطريق بمعسول الكلام فنور الخلاص ثمرة مضنون بها على غير أهلها، والله يتقبّل منك ما دون ذلك، ولكلّ على قدر همّته...

وخيّم الصمت حتّى شقّه علاء الدين متسائلًا:

ـ أيقتضي ذلك أن أتخلّى عن عملي؟

فأجاب بقوّة:

ـ لكلّ شيخ طريقة، أمّا أنا فلا أقبل إلّا العاملين...

فقال علاء الدين:

ـ سوف أجيء بقلبي وقدميّ...

فقال:

ـ لا تجئ إلّا إذا دفعتك رغبة لا تقاوَم!

ـ ١٠ ـ

أقبل على فاضل صنعان في ملتقى السبيل شخصًا جديدًا... توجّس فاضل ريبة فهمس بنفاد صبر:

ـ حتّى متى تتركني في مقام الأمل؟

فقال علاء الدين:

ـ إنّي في مقام الحيرة...

ـ اهتديت إلى دار الشيخ؟

ـ أجل، كيف عرفت ذلك؟

ـ أعرف أثره...

ثمّ مستدركًا:

ـ وقد طفت به طويلًا!

ـ أنت!

ـ نعم...

ـ إنّه شيخ طاهر...

فحنى رأسه مسلّمًا وهو يقول:

ـ هو ذلك وأكثر...

ـ لعلّ الصبر خانك فانقطعت؟

ـ تلقّيت على يديه تربية لا تزول آثارها ولكنّي آثرت البقاء على الفناء...

ـ لا أفهم يا صديقي...

ـ اصبر، الفهم لا يتيسّر إلّا مع الزمن، أودّ أن أراك من جنود الله لا من دراويشه!

ـ حقًّا إنّي لفي حيرة...

فقال فاضل:

ـ المنطلق من الإيمان دائمًا وأبدًا، الطريق واحد في الأوّل ثمّ ينقسم بلا مفرّ إلى اتّجاهين... أحدهما يؤدّي إلى الحبّ والفناء، والآخر إلى الجهاد، أمّا أهل الفناء فيخلّصون أنفسهم وأمّا أهل الجهاد فيخلّصون العباد...

وغرق علاء الدين في تفكير عميق نسي به الوقت...

ـ ١١ ـ

كان درويش عمران كبير الشرطة وابنه حبظلم بظاظا يمضيان على بغلتين من مقرّ الشرطة إلى دارهما والشمس تؤذن بالمغيب... وعند منعطف ميدان الرماية طالعهما فجأة المجنون فاعترض سبيلهما صائحًا في وجه درويش عمران:

ـ زُرْ صاحبك المعين بن ساوي وبلّغه السلام!

وذهب الرجل إلى حال سبيله فتساءل حبظلم:

ـ ماذا يريد المجنون؟

فقال كبير الشرطة:

ـ لا يحاسَب مجنون على قول أو فعل...

لكنّه أدرك أنّه يذكّره بمصير كبير الشرطة وأنّه يشير إلى انحرافاته... ابنه أيضًا أدرك ذلك رغم تساؤله خاصّة وأنّه يقوم بالوساطة عادة بين التجّار وأبيه... وقال حانقًا:

ـ للمجانين مكان لا يبرحونه...

فقال درويش عمران:

ـ إنّه يحظى بعطف مولانا السلطان...

فقال حبظلم بازدراء:

ـ إنّه يخافه في ما أرى...

ـ احذر لسانك يا حبظلم!

فهتف الشابّ:

ـ أيّ هوانٍ يا أبي، ألم يَكْفِنا أنّ الشيخ المنحرف رفض يدي!

فقطّب درويش عمران دون أن ينبس...

ـ ١٢ ـ

«مَن كان سروره بغير الحقّ فسروره يورث الهموم، ومَن لم يَكن أنسه في خدمة ربّه فأنسه يورث الوحشة»...

بين دروس الدين يلقيها الشيخ على علاء الدين

تفيض كأسه بنثار الكلم المضيئة كأنّما يناجي بها ذاته ولٰكنّ الفتى يتلقّاها مبهورًا...

- كلّ مَن عليها فانٍ إلّا وجهه، ومَن يفرح بالفاني فسوف ينتابه الحزن عندما يزول عنه ما يُفرحه، كلّ شيء عبث سوى عبادته، الحزن والوحشة في العالم كلّه ناجم عن النظر إلى كلّ ما سوّى الله...

وتذكّر علاء الدين أحلامه وأحاديثه وأفعاله فتبدّت له الدنيا غشاءً من الألغاز، وتذكّر أباه وأمّه فهيمن عليه الأسى...

- مَن رُزق ثلاثة أشياء مع ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات، بَطْنٌ خالٍ على قلب قانع، وفقر دائم مع زهد حاضر، وصبر كامل مع ذِكْر دائم...

وقال علاء الدين لنفسه إنّنا نصلّي للرحمٰن الرحيم باسم الرحمٰن الرحيم... وإذا بالشيخ يسأله:

- فيمَ تفكّر يا بنيّ؟

فخرج من غفوته مورّد الخدّين وقال:

- لن يخرجني من حيرتي إلّا لطف الرحمٰن...

- عليك قبل أن تتلقّى الخمر أن تطهّر الوعاء وتنقّيه من الشوائب...

فقال برجاء:

- نِعْم المرشد أنت...

- ولٰكنّ «الآخر» يُقحم نفسه علينا وهو غائب!

فأدرك أنّه يشير إلى فاضل صنعان فتساءل:

- كيف تراه يا مولاي؟

- شابّ نبيل عرف ما يناسبه وقنع به...

- أهو على ضلال؟

- إنّه يجاهد الضلال على قدر همّته!

فقال علاء الدين بسرور:

- الآن اطمأنّ قلبي...

- ولٰكن عليك أن تعرف نفسك...

- إنّه فقير ولٰكنّه غنيّ بحمل هموم البشر...

- مَذْهب للسيف ومذهب للحبّ...

فصمت علاء الدين فقال الشيخ:

- طوبى لمن تمّ له تحويل القلب من الأشياء إلى ربّ الأشياء، ليس يخطر الكون ببالي، وكيف يخطر الكون ببالِ مَن عرف الكون؟

واصل الشيخ بعد ذٰلك درسه...

- ١٣ -

وذات ليلة استقبله الشيخ في الحجرة نفسها ولٰكنّه رأى ستارة مسدولة في ركنها الأيمن فغزته خواطر الشباب... وقال الشيخ:

- اسمع يا علاء الدين...

تحرّكت أوتار عود من وراء الستار وأنشد صوت عذب:

ليلي بوجهك مشرق
وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا
م ونحن في ضوء النهار

سكن الصوت ولٰكنّ صداه واصل نفاذه إلى الأعماق... قال الشيخ:

- هٰذه زبيدة ابنتي وإنّها لمريدة صادقة...

غمغم علاء الدين منتشيًا:

- أنعم وأكرم...

- لقد رفضتُ أن أعطيها لابن كبير الشرطة...

ثمّ مواصلًا بعد صمت:

- ولٰكنّي وهبتها لك يا علاء الدين...

فقال بنبرة مرتعشة من التأثّر:

- ما أنا إلّا حلّاق متجوّل...

فأنشد الشيخ:

زائر نمّ عليه حسنه
كيف يخفي الليل بدرًا طلعا

ثمّ قال:

- مَن ذلّ في نفسه رفع الله قدره، ومَن عزّ في نفسه أذلّه الله في أعين عباده...

- ١٤ -

عُقد لعلاء الدين على زبيدة... انتقل الفتى إلى دار الشيخ الكبير... شهد الوليمة البسيطة عجر وفتّوحة وفاضل صنعان والمعلّم سحلول وعبد القادر المهيني... ووفد المجنون بلا دعوة فجلس إلى يمين العريس... وعقب الوليمة مضى عجر إلى داره

بصحبة نفر من خاصّته فدارت أرطال النبيذ، وراح يرقص ويغنّي حتّى مطلع الفجر...

- ١٥ -

ولم تمضِ على ليلة الزفاف أيّام حتّى تكدّر صفو الحيّ بأحداث أليمة، فزحف عليه وباء الشرّ بوجهه الكالح... فُقدت جوهرة نادرة من دار الإمارة، جزعت لفقدها حَرَم الحاكم الفضل بن خاقان، وتذكّر بها الحاكم أحداث الفوضى التي تنتاب الحيّ بين الحين والحين من اغتيالات وسرقات تنكشف عن أبشع المؤامرات وتنتهي بقتل الحاكم أو عزله... وصبّ الرجل غضبه على درويش عمران كبير الشرطة ولكنّ الرجل نفى عن جهازه الغفلة ووعد بالقبض على الفاعل والعثور على الجوهرة...

وأطلق كبير الشرطة مخبريه في كلّ مكان من الحيّ... وبناء على ما تلقّى من معلومات اقتحم دار الشيخ عبد الله البلخي غير مبالٍ بتذمّر الأهالي، وفتّشها تفتيشًا دقيقًا، وإذا به يعثر على الجوهرة في صوان علاء الدين، كما عثر به على رسائل تقطع بتعاونه مع الخوارج، هكذا قُبض على علاء الدين وأُلقي به في السجن فتقرّرت محاكمته بصفة عاجلة...

- ١٦ -

في تلك الأثناء شاع الحزن في قلوب الناس... لم يحرق الحزن زبيدة وحدها، ولا فتّوحة وعجر وحدهما، ولكنّ القلوب تألّمت لمصير الفتى الجميل، وأصرّت على تبرئته ممّا رُمي به، وأشارت إلى كبير الشرطة وابنه حبظلم بظاظة باعتبارهما المدبّرين للجريمة... وزاد من شكّ الناس ظهور نعمة مفاجئة على المعين بن ساوي فآمنوا بأنّ المدبّرين استعانا بخبرته السابقة كرئيس للشرطة في تنفيذ ما بيّتا... والتمس عجر الرأفة عند الفضل بن خاقان وهيكل الزعفراني ولكنّه وجد منهما الزجر والرفض... وحثّ الشيخ عبد الله البلخي على السعي مستعينًا بمهابته ولكن لم تندّ عن الشيخ كلمة أو حركة... وتلاحقت الإجراءات بسرعة مذهلة فحوكم علاء الدين وقُضي عليه بالنطع...

- ١٧ -

وفي صباح يوم بارد من أيّام الخريف سيق علاء الدين إلى النطع في حراسة مشدّدة، وسط جمهور غفير من أهل الحيّ جمع بين الرسميّين والكادحين... لم يصدّق علاء الدين ما يحدث... وكان يصيح:

- إنّي بريء والله شهيد...

زاغ بصره بين الوجوه المحملقة، المشفقة والشامتة، ورفع وجهه إلى السماء المتوارية وراء السحب مسلّمًا أمره إلى خالقه... تناهى إليه صراخ أمّه وزوجته فارتجف قلبه... تذكّر رغم ذهوله أنّه كان يأمل أن يخرج من حيرته إلى سيف الجهاد أو الحبّ الإلهيّ، ولم يخطر بباله أبدًا سيف الجلّاد... وتطلّع كثيرون إلى معجزة تقع في اللحظة الأخيرة كما حدث لعجر وغيره ولكنّ السيف ارتفع أمام أعينهم في جوّ قاتم ثمّ هوى مبدّدًا الآمال فانفصل الرأس النبيل الجميل عن الجسد...

- ١٨ -

في دار الشيخ تأوّه عجر هاتفًا:

- ابني بريء...

وولولت زبيدة:

- بريء طاهر وحسبي الله...

وتربّع الشيخ صامتًا وهادئًا... لم يفعل شيئًا وحتّى الحزن لم يعلنه... وقالت له ابنته:

- إنّي معذّبة يا أبي...

وقال له عجر بعنف:

- لم تحرّك ساكنًا كأنّ الأمر لا يعنيك...

نظر إلى ابنته دون مبالاة بعجر وقال:

- الصبر يا زبيدة...

ثمّ استطرد بعد صمت:

- إليك حكاية شيخ جليل قال: «سقطت في حفرة وبعد مضيّ ثلاثة أيّام مرّت عليّ قافلة من المسافرين فقلت أناديهم، ثمّ انثنيت عن عزمتي قائلًا لا، إنّه

ليس من الصالح أن أطلب المساعدة إلّا من الله تعالى، ولّما اقتربوا من الحفرة وجدوها في وسط الطريق فقالوا لنسدّ هٰذه الحفرة حتّى لا يقع فيها أحد، فقلقت قلقًا شديدًا حتّى فقدت كلّ رجاء، فبعد أن سدّوها وسافروا دعوت الله تعالى وسلّمت نفسي للموت وتركت كلّ رجاء في بني الإنسان فلمّا جنّ الليل سمعت حركة على ظاهر الحفرة فأنصتّ لها فانفتح فم الحفرة ورأيت حيوانًا كبيرًا كالتنّين أرسل إليّ ذيله فعلمت أنّ الله قد أرسله لنجاتي فأمسكت بذيله وسحبني فناداني صوت من السماء: إنّا قد نجّيناك من الموت بالموت»...

السّلطان

- ١ -

مضى الرجال الثلاثة يخوضون الظلماء في ثياب تجّار غرباء، شهريار ودندان وشبيب رامة... اقتربت منهم أشباح ثلاثة ولّما حاذتهم سألهم أحدهم:

- ماذا تفعلون في هٰذه الساعة من الليل؟

فأجاب شهريار:

- تجّار غرباء يتداوون من الضجر بأنسام الربيع...

فقال صاحب الصوت:

- أنتم ضيوفي يا غرباء...

فدعوا له بالبركات ومضوا جماعة واحدة وشهريار يتساءل:

- ترى مَن يكون مضيفنا الكريم؟

فقال صاحب الصوت:

- صبرًا يا سادة يا كرام!

- ٢ -

ساروا حتّى شاطئ النهر... اتّجهوا نحو سفينة تنتظر تشعّ منها أضواء المصابيح كالكواكب... تساءل شهريار:

- نحن مرتبطون بالسوق فهل ترومون سفرًا؟

فأجاب صوت آخر:

- أيّها الغرباء إنّكم بحضرة مولانا السلطان شهريار فأدّوا له تحيّة الملك واحمدوا الله على حظّكم السعيد...

عقدت الدهشة ألسنة الرجال الثلاثة... أيّ سلطان؟، وأيّ شهريار؟، وتجمّدوا في ذهولهم فلم تندّ عنهم حركة... عند ذاك صاح صاحب الصوت الثاني:

- التحيّة يا غرباء...

أفاق شهريار من ذهوله... صمّم على خوض التجربة حتّى نهايتها... سرعان ما انحنى أمام السلطان المزعوم فتبعه في الحال دندان وشبيب رامة... قال:

- نضّر الله وجه أمير المؤمنين وأطال عمره وأدام عهده...

تبعوه ضمن الحاشية حتّى جلس على عرش تحت مظلّة في أعلى السفينة فاتّخذوا مجالسهم فوق وسائد مطروحة على فسحة منبسطة فيما أمام العرش... وأقلعت السفينة في جوّ ربيعيّ تحت بسمات النجوم الساهرة...

- ٣ -

رست السفينة إلى شاطئ جزيرة... استقبلها الحرس بالمشاعل... همس شهريار الحقيقيّ في أذن دندان:

- إنّها لمملكة جديدة ونحن نيام!

- لعلّه الحشيش يا مولاي؟

- ولكن ممَّ ينفقون على هٰذه المظاهر الباذخة؟

فقال الوزير بقلق:

- عمّا قليل تنطق الحقيقة بلسانها الخفيّ...

دخلوا سرادقًا مثيرًا فوجدوا سماطًا حافلًا بالأطعمة والأشربة في انتظارهم... تحلّقه جمع غفير من رجال المملكة فأصابوا من الطعام حتّى شبعوا، ومن الشراب حتّى توهّجت أرواحهم بالنشوة والبهجة... وأنشدت جارية من وراء ستار:

لسان الهوى في مهجتي لك ناطق
يخبر عنّي أنّني لك عاشق

فهمس شهريار في أذن دندان:

ـ يا لها من مأدبة ملكيّة وما نحن إلّا رعيّة...

وعند لحظة معيّنة صاح السلطان الآخر:

ـ آنَ لنا أن تعقد المحكمة الإلهيّة...

فسأل دندان مولاه:

ـ ألا نستأذن في الانصراف حتّى نرسل الجند لمحاصرتهم قبل أن يتفرّقوا؟

فقال شهريار:

ـ بل نبقى لأشهد بعينيّ ما يجري ممّا لم يجرِ لي في خاطر...

وسرعان ما رفع قوم السماط... وجيء بمنصّة محكمة فنُصبت في صدر السرادق... جلس عليها السلطان الآخر، وقف إلى يمينه وزيره، وإلى يساره السيّاف... وانبعث في الأركان الحرّاس شاهري السيوف... وجلس شهريار الحقيقيّ وتابعاه ضمن قلّة من الصفوة أذن لها بمتابعة محكمة العدل الإلهيّ...

ـ ٤ ـ

قال السلطان الآخر من فوق المنصّة مخاطبًا الصفوة الحاضرة:

ـ أحمد الله الذي يسّر لي التوبة بعد انغماسي في سفك الدماء البريئة ونهب أموال المسلمين، إنّه سبحانه واسع الرحمة والمغفرة.

فامتقع وجه شهريار الحقيقيّ ولكن لم تندّ عنه حركة واحدة... وواصل السلطان الآخر حديثه قائلًا:

ـ هذه المحكمة تنعقد للتحقيق في شكوى مرفوعة من رجل بسيط، لو صحّ ما جاء بها لكشف عن جريمة بشعة، اغتيلت فيها البراءة لحساب الخسّة والدناءة والظلم، والله المستعان أوّلًا وأخيرًا، فليدخل صاحب الشكوى عجر الحلّاق.

ودخل الرجل فوقف أمام المنصّة في حذر وخشوع فقال له السلطان:

ـ ما شكواك يا عجر؟

فقال الرجل بصوت متهدّج:

ـ ابني الوحيد علاء الدين راح ضحيّة مؤامرة وحشيّة غادرة...

ـ ما التهمة التي ضُربت عنقه من أجلها؟

ـ التآمر ضدّ السلطان وسرقة جوهرة الستّ قمر الزمان زوجة الحاكم الفضل بن خاقان...

ـ مَن المدبّر للمؤامرة في رأيك؟

ـ حبظلم بظاظة وأبوه كبير الشرطة درويش عمران وقد استعانا بالمعين بن ساوي المنبوذ لانحرافاته فنجح في سرقة الجوهرة كما نجح في دسّها في صوان علاء الدين مع رسائل مزوّرة تنطق بخيانته لمولانا السلطان...

ـ وما الدافع وراء المؤامرة؟

ـ الانتقام من علاء الدين لأنّه تزوّج زبيدة كريمة وليّ الله البلخي الذي رفض أن يزوّجها من حبظلم بظاظة لسوء خلقه وخلقه...

ـ هل لديك دليل على ما تقول؟

ـ براءة علاء الدين فوق أيّ دليل، سَلْ عنه أهل الحيّ جميعًا، والمؤامرة حقيقيّة يؤمن بها الجميع، ولو كان عندي دليل واضح لأنقذت عنق البريء الطاهر، ولكنّي أضع أملي في عدل السلطان وتأثيره الذي لا يقاوَم...

وفي الحال نحّى السلطان عجر الحلّاق واستدعى حاكم الحيّ الفضل بن خاقان فمثل الرجل بين يديه تنطق قسمات وجهه بالرهبة والانكسار... قال له السلطان:

ـ أيّها الحاكم، لا شكّ عندي أنّك من الصالحين، لقد اخترتك بعد تربية وتجربة، أستحلفك بالله العظيم أن تفضي إليّ بسرّ هذه القضيّة فلا شكّ عندي أنّك عليها مطّلع...

بسط الحاكم راحتيه مغمغمًا:

ـ اللّهمّ فاشهد...

ثمّ قال مخاطبًا مولاه:

ـ عقب مصرع علاء الدين نما إليّ ما يتهامس به الناس من براءته وإجرام الآخرينَ فانزعجت انزعاج رجل نشأ متشبّعًا بمبادئ الدين الحنيف، وبثثت عيوني بين الرجال والأحياء فظفروا بالحقيقة من فم المعين بن ساوي وهو سكران، فما كان منّي إلّا أن هممت

بالإيقاع بالمجرمين، غير أنّي...

صمت الحاكم مليًا ثمّ قال بذلّ:

- غير أنّي ضعفت يا مولاي، فأنا الذي حاكم علاء الدين وقضى بضرب عنقه، خفت عواقب الكشف عن الحقيقة وإعلانها فمَن قَتل نفسًا فقد قَتل الناس جميعًا...

فقال السلطان:

- وخفت العواقب على سمعتك ومركزك كحاكم...!

فنكّس الرجل رأسه ولاذ بالصمت... فسأله السلطان:

- هل علم كاتم سِرّك بالحقيقة؟

فقال الرجل بأسًى:

- نعم يا مولاي...

قال السلطان مخاطبًا الجميع:

- لله حكمته في خلقه أمّا نحن فلنا الشريعة... لذلك قضينا بضرب أعناق المعين بن ساوي ودرويش عمران وحبظلم بظاظة، كما قضينا بعزل الفضل بن خاقان وهيكل الزعفراني مع مصادرة أملاكهما...!

- ٥ -

وجيء بالنطع والمجرمين فتحرّك السيّاف... عند ذاك لم يتمالك شهريار الحقيقيّ من أن يقف قائلًا بصوت جهوريّ:

- كفّوا عن هذه المهزلة!

توثّب الحرّاس، وهتف السلطان من فوق المنصّة:

- مَن أذن لك بالكلام أيّها الغريب المجنون؟

فنهره السلطان قائلًا بحزم:

- أفِقْ من جنونك أنت، إنّك تخاطب السلطان شهريار...

ألجمت المفاجأة الألسنة، وقف إلى جانبَي السلطان دندان وشبيب رامة شاهري سيفيهما... أمّا السلطان فأخرج من جيبه خاتم الملك ولوّح به في وجه الآخر... أفاق السلطان الزائف من ذهوله فوثب من فوق المنصّة، ثمّ سجد بين يَدي السلطان، وقال بنبرة مرتعشة:

- عبدك إبراهيم السقّاء...

- ما معنى هذه المهزلة؟

فقال الرجل وهو ينتفض من الرعب:

- عفوًا يا مولاي... ايذن لي برواية حكايتي واغفر لي حماقتي...

- ٦ -

قصّ إبراهيم السقّاء قصّته على السلطان بمجلسه الصيفيّ بالقصر... قال:

- منذ صباي يا مولاي وأنا من المتوكّلين على الله، أكدح من الفجر حتّى المغيب، رزقي محدود وقلبي قنوع وسلوتي في الجوزة... ويسّر الله لي نعمة كبيرة فتزوّجت من أرملة جمصة البلطي ولم أكن أحلم بأكل اللحمة إلّا في عيد الأضحى... ولمّا قُتل ابن صديقي عجر الحلّاق انقلبت موازيني، وسمعت ما يتهامس به الناس فهيمن عليّ حزن لم أعرفه من قبل وقلت إنّنا نحن الفقراء ليس لنا إلّا الله... وكان القدَر يخبّئ لي مفاجأة لا تخطر بالبال فعثرت على كنز خارج البوّابة وصرت من أغنى الأغنياء... فكّرت - وهو المألوف - أن أستأثر بالمال وحدي، ولكنّ حبّي للفقراء دفعني إلى سبيل آخر فصمّمت على إنشاء مملكة وهميّة نهيم فيها جميعًا يدًا واحدة...

تبسّم شهريار وقال مقاطعًا:

- الحشيش استهلك عقلك...

- لا أنكر ذلك، فالفكرة لا تخطر إلّا ببال حشّاش، وتحمّس الصعاليك لها أيّما تحمّس... وقع اختيارنا على تلك الجزيرة المهجورة، توّجت نفسي سلطانًا واخترت من الحفاة الجياع الوزراء والقادة ورجال المملكة، ولم نكن نتلاقى لتمثيل لعبتنا إلّا في الليل فننقلب من صعاليك متشرّدين إلى رجال مملكة عظام، نأكل ما نشتهي ونشرب ما نحبّ، ونتبادل الأحاديث في شئون المملكة كلّ بحسب موقعه ودرجته... ولمّا كانت المؤامرة التي أهلكت علاء الدين تلحّ علينا فنعقد كلّ ليلة محكمة يأخذ فيها العدل مجراه بعد أن عزّ عليه ذلك في الدنيا...

فتساءل السلطان ساخرًا:

ـ وأضعت الكنز يا حشّاش؟

ـ لم يبق منه إلّا القليل ولكنّا اشترينا به سعادة لا تقدّر بمال!

ـ ٧ ـ

سرّ شهريار بحكاية إبراهيم السقّاء سرورًا لا مزيد عليه ولكنّه قال لدندان:

ـ وافني بما يُشاع عن مصرع علاء الدين بن عجر الحلّاق...

فقال الوزير:

ـ ستجد المفتاح يا مولاي عند الفضل بن خاقان فاستدعه ولك عليه التأثير الأكبر...

فتساءل السلطان:

ـ أترى أن نسترشد بما فعل السلطان إبراهيم السقّاء؟

فقال دندان:

ـ الحقّ يا مولاي أنّها كانت محاكمة عجيبة تقطع بأنّ الحشيش لم يستهلك كلّ عقله...

فقال شهريار:

ـ لا أخفي عنك أنّي أعجبت بالحُكم أيضًا!

هكذا جرت الأمور فوقع الظالمون فضُربت أعناق المعين بن ساوي ودرويش عمران وحبظلم بظاظة وعُزل الفضل بن خاقان وهيكل الزعفراني وصودرت أملاكهما...

طاقيّة الإخفاء

ـ ١ ـ

قال سخربوط بفتور:

ـ عبّاس الخليجي حاكم الحيّ، سامي شكري كاتم السرّ، خليل فارس كبير الشرطة، لا يُتوقّع منهم انحراف قريب...

فتساءلت زرمباحة بسخرية:

ـ لماذا؟...

ـ جاءوا في إثر تجربة مريرة أطاحت بالمنحرفين...

ـ دعنا من الحكّام حتّى يفسدهم الحكم، وانظر إلى ذلك الفتى الهمّام فاضل صنعان!

فقال سخربوط ساخطًا:

ـ إنّه مثال حيّ للعمل المفيد لنوايانا وخططنا...

ـ يا له من هدف جدير حقًّا بمهارتنا وحيَلنا...

فتسرّب المرح إلى صوته وهو يقول:

ـ إنّك كنز لا يفنى يا زرمباحة...

ـ فلنفكّر معًا في لعبة طريفة جديرة بنا...

ـ ٢ ـ

وكان فاضل صنعان يخلد إلى الراحة فوق سلّم السبيل في أعقاب نهار حارّ من فصل الصيف... إنّه يفتقد دائمًا علاء الدين ويترحّم عليه من قلب مكلوم... ويتساءل في غضب متى يجيء الفرج؟... وانتبه إلى رجل مشرق الصورة بسّام الثغر يُقبل نحوه فيجلس إلى جانبه... تبادلا تحيّة ولكنّ الرجل أولاه اهتمامًا كأنّما جاء من أجله... انتظر فاضل أن يفصح الرجل المشرق عن خواطره ولّما لم يفعل قال:

ـ لست من حيّنا فيما أعتقد؟

فقال الرجل بمودّة:

ـ صدقت فراستك ولكنّني اخترتك...

فحدجه بحذر تلقّنه من مطاردة المخبرين وسأله:

ـ مَن أنت؟

ـ لا أهمّيّة لذلك، المهمّ حقًّا أنّني من رجال الأقدار، ومعي لك هديّة...

فقطّب فاضل في حذر أشدّ وهو يتساءل:

ـ مَن مرسلك؟... افصِح فإنّني لا أحبّ الألغاز!

فقال باسمًا:

ـ وإنّي مثلك تمامًا، إليك الهديّة ففيها الغناء عمّا عداها...

أخرج من جيب جلبابه طاقيّة مزخرفة بتهاويل ملوّنة لم ير مثلها من قبل، وأحكم لبسها على رأسه فسرعان ما اختفى عن الأنظار في غمضة عين... ذهل فاضل وقلقت عيناه فيما حوله بخوف... وتساءل:

ـ أحلمًا أرى؟

فسمع صوت الرجل يتساءل ضاحكًا:

- ألم تسمع عن طاقيّة الإخفاء؟... هٰذه هي بين يديك...

ونزع الرجل الطاقيّة فعاد متجسّدًا كما كان في مجلسه... تتابعت ضربات قلب فاضل في عنف وانفعال، وسأله بلهفة:

- مَن أنت؟

- الهديّة حقيقة ملموسة ولا أهمّيّة لسؤال بعد ذلك...

- هل تنوي إهداءها لي حقًّا؟

- من أجل هٰذا قصدتك دون العالمين...

- ولماذا أنا بالذات؟

- ولماذا يعثر إبراهيم السقّاء على الكنز؟... ولٰكن لا تبدّد كنزك كما بدّد كنزه!

قال لنفسه أنّ الدنيا تخلق من جديد، وإنّ العناية تخصّه بهذه الهديّة لإنقاذ البشر... وسرعان ما أفعم قلبه بإلهام نبيل... وإذا بالرجل يسأله:

- فيمَ تفكّر؟...

- في أشياء جميلة تسرّك...

فتساءل بحذر:

- خبّرني عمّا ستفعل بها؟

فقال بتألّق:

- سأفعل ما يمليه عليّ ضميري...

فقال الرجل:

- افعل أيّ شيء إلّا ما يمليه عليك ضميرك!

فبردت نظرة عينيه وغشيتها الخيبة والانزعاج وسأله:

- ماذا قلت؟

- افعلْ أيّ شيء إلّا ما يمليه عليك ضميرك، هٰذا هو الشرط، وأنت حرّ فيما تقبل أو ترفض، ولٰكن احذر الخداع فعنده تفقد الطاقيّة وقد تفقد حياتك أيضًا...

- إذن فأنت تدفعني للشرّ يا هٰذا!

- شرطي واضح، لا تفعل ما يمليه عليك ضميرك، ولك ألّا ترتكب شرًّا أيضًا...

- فماذا أصنع بها؟

- بين هٰذا وذاك أشياء كثيرة لا تنفع ولا تضرّ وأنت حرّ...

- لقد عشت حياة كريمة...

- واصلْها كما تشاء ولٰكن بعمامتك لا بالطاقيّة، ثمّ ماذا جنيت منها؟... الفقر والسجن بين الحين والحين...

- هٰذا شأني...

قام الرجل قائلًا:

- آن لي أن أذهب فماذا تقول؟...

وجب قلبه بلهفة... إنّها فرصة لا تلوح مرّتين... لم يستطع رفضها... قال بثقة:

- هديّة مقبولة ولا خوف عليّ منها...

- ٣ -

بدءًا من صباح اليوم التالي انطلق فاضل صنعان مثل الهواء يحلّ في أيّ مكان ولا يُرى... هيمنت عليه التجربة السحريّة الجديدة... جرّب أن يكون روحًا خفيّة متنقّلة فأنساه السرور كلّ شيء حتّى سعيه اليوميّ في سبيل رزقه... شعر بالاختفاء أنّه يعلو ويسود، ويتساوى مع القوى الخفيّة، وأنّه يملك زمام الأمور، وأنّ مجال الفعل يترامى أمامه بلا حدود... إنّها عطلة فريدة يستريح بها من جسمه وأعين الناس وقوانين البشر... وتصوّر ما كان يمكن أن تيسّره لوغد من الأوغاد فشكر الحظّ الذي خصّه بالرعاية... ومن فرط سروره لم ينتبه لنفسه إلّا حين حلول المساء... هناك تذكّر أنّ أكرمان وأمّ السعد ينتظران دراهمه المعدودة لإعداد العشاء وشراء الموادّ اللازمة لصنع الحلوى... جزع وأدرك أنّه لا يستطيع أن يرجع إلى مسكنه بالربع فارغ اليدين... ومرّ بدكّان قصّاب وكان يحصي ربح يومه على حين تنحّى صبيّه جانبًا... قرّر أن يستولي على ثلاثة دراهم هي مقدار ربحه اليوميّ متعهّدًا بردّها عند الميسرة... ولم يجد بدًّا من دخول الدكّان وأخذ الدراهم... وخرج إلى الطريق منقبض الصدر لتورّطه لأوّل مرّة في حياته في السرقة... ونظر نحو الدكّان فرأى القصّاب ينهال بالضرب على الصبيّ ثمّ يطرده متّهمًا إيّاه بالسرقة!

- ٤ -

بعد العشاء فكّر في التخفيف عن نفسه بزيارة مقهى الأمراء تحت الطاقيّة... ثمّة فرص للمداعبات البريئة مع أخذ الحيطة في ألّا يتورّط في فعل شائن كما تورّط في دكّان القصّاب... رأى الوجوه المألوفة لأوّل مرّة دون أن تستطيع رؤيته... جرى بصره بسخرية على حسن العطّار وجليل البزّاز وعجر الحلّاق وشملول الأحدب والمعلّم سحلول وإبراهيم السقّاء وسليمان الزيني وعبد القادر المهيني ورجب الحمّال ومعروف الإسكافيّ... سمع عجر الحلّاق يتساءل:

- ماذا أخّر فاضل صنعان؟

فأجاب شملول الأحدب بصوته الرفيع ضاحكًا:

- لعلّ مصيبة دهمته!

قرّر أن يعاقب المهرّج... جاء النادل يحمل أقداح الكركديه، وإذا بالصينيّة تندلق فوق رأس الأحدب وتغمره بسوائلها... وثب الأحدب صارخًا على حين وقف النادل مبهوتًا... أخفى الرجال ضحكات ساخرة... لطم المعلّم صبيّه وراح يعتذر لمهرّج السلطان... ومبالغة في الاسترضاء جاء المعلّم بنفسه بالكركديه وإذا به ينصبّ فوق رأس سليمان الزيني!... انتشر الذهول والسرور الخفيّ، وأكثر من صوت صاح:

- إنّه الحشيش والمنزول...

وأفلت الزمام من عجر فتناسى أحزانه وضحك ولكنّه لم يهنأ بضحكه فتلقّى على قفاه صفعة مدوّية... التفت مغضبًا فرأى وراءه معروف الإسكافيّ فضربه بقبضته في وجهه وسرعان ما اشتبكا في معركة... وساد الظلام إثر حَجَر أصاب الفانوس... وفي الظلام انهالت الصفعات، فثار الغضب والتحموا في صراع في الظلام، وعلا الصراخ حتّى تناثروا في الطريق على حال قبيحة من الجنون والخوف...

- ٥ -

مارس حياته المألوفة مخفيًا الطاقيّة في جيبه لحين الحاجة إليها... قال إنّه لم يجنِ منها حتّى الآن إلّا أن سرق، وارتكب سخافات لا معنى لها... ساوره قلق وضيق... قال إنّه ما كان بوسعه أن يتجاهل فرصة نادرة مثلها... ولم يكن لديه مجال للتأمّل ولكن ما جدوى ذلك كلّه؟... وإذا تعذّر عليه صنع خير بالطاقيّة فما عسى أن يفعل بها؟... وكان يستريح على سلّم السبيل بعد الغروب على مبعدة يسيرة من بيّاع بطّيخ متجوّل فرأى شاور مقبلًا نحو الرجل لابتياع بطّيخة... ارتعدت مفاصله لرؤيته فهو سجّان اشتهر بتعذيب إخوانه... رآه يمضي بالبطّيخة نحو زقاق قريب حيث يقيم فيها بدا له فتبعه... ولّما أمن المارّة لبس الطاقيّة فتلاشى... وكأنّما نسي تعهّده فاستلّ السكّين التي يقطع بها الحلوى... فليجرّب على الأقلّ كيف يحول «الآخر» بينه وبين ما يودّ أن يفعل... لحق بالسجّان وهو عنه لاهٍ... وجّه إلى عنقه طعنة قاتلة فسقط غارقًا في دمه...

أثمله شعور بالنصر... يستطيع أن يفعل ما يشاء... ولم يبرح المكان ليتابع الحدث... شاهد التجمهر على ضوء المشاعل... جاءت الشرطة... سمع أنّ السجّان لفظ اسم بيّاع البطّيخ قبل أن يلفظ أنفاسه... رأى الشرطة وهي تقبض على البيّاع البريء... تعجّب فاضل من ذلك وانزعج له... ماذا كان بين السجّان والبيّاع ممّا جعله يوقع به؟... استفحل انزعاجه وقال لنفسه:

- لا مفرّ من إنقاذ الرجل البريء...

عند ذاك رأى صاحب الطاقيّة أمامه وهو يقول له:

- حذار أن تخون العهد...

فذعر فاضل متسائلًا:

- ألم تتركني أقتل المجرم؟

فقال الآخر:

- كلّا... لم تقتل المجرم ولكنّك قتلت توأمه وهو رجل طيّب لا غبار عليه!

- ٦ -

من السرقة للسخف ثمّ الجريمة... سقط في الهاوية... ولّما ضُربت عنق بيّاع البطّيخ في اليوم التالي هيمن عليه يأس مطلق... هام في الطرقات

على وجهه كالمجنون. . . كرة نفسه لدرجة كرة معا الدنيا وأحلامه الخالدة. . . همس لنفسه:

- الاعتراف والجزاء الحقّ، هٰذا ما بقي لي. . .

فرأى أمامه الآخر وهو يقول:

- حذار!

فصاح به غاضبًا:

- عليك اللعنة. . .

فتلاشى وهو يقول:

- أهٰذا جزاء مَن سلّمك مفتاح القوّة واللذّة!

وتمطّى السخط في ذاته مشعشعًا بالجنون الأحمر فراح يسكر مناديًا الشياطين من مكامنها. . . وتذكّر خواطر مثقلة بالشهوة كانت تداعبه فيطردها بالإعراض والتقوى. . . تجسّدت في إشعاعات جنونه الأحمر في صورتين، قمر أخت حسن العطّار، وقوت القلوب زوجة سليمان الزيني. . . قال لنفسه ما دامت الخمر قد ألقيت في جوفي فما خوفي من السكر؟. . . لم يبق لي إلّا حسن الامتثال للعنة. . . فلأرفع نفسي إلى السماء ولتنطلق الشياطين من قماقمها. . . وليقدم العذاب مكلّلًا بالضحايا. . .

- ٧ -

وتساءلت قمر العطّار:

- لماذا فاضل صنعان؟. . . يا له من حلم!. . .

ولٰكنّها لمست للحلم آثارًا لا تنكر فذهلت وقالت كأنّه الشيطان. استحوذ عليها الرعب وتخايل لعينيها الموت. . .

وقالت قوت القلوب:

- إنّه كابوس. . . ولٰكن لماذا فاضل صنعان وما خطر لي في وجدان قطّ؟. . .

ولٰكن عن الكابوس تولّدت آثار حقيقيّة فانفجر فيها الفزع. . . واكتشف سليمان الزيني سرقة نقوده. . . وجاء خليل فارس كبير الشرطة. . . وكتمت قوت القلوب خبر الكابوس. . . وأطبقت عليها فكرة الموت. . .

- ٨ -

حافظ على حياته اليوميّة نهارًا ولم يتخلّف عن مقهى الأمراء. . . وردّد كثيرًا في نفسه:

- رحمك الله يا فاضل صنعان. . . كنت فتًى طيّبًا مثل علاء الدين وأفضل. . .

وصادفه المجنون في تجواله فقدّم له بعض الحلوى كعادته معه ولٰكنّ المجنون لم يمدّ يده هٰذه المرّة ومضى لسبيله وكأنّه لم يره. . . ارتعب وحامت حوله المخاوف كالذباب. . . المجنون لم يتغيّر لغير ما سبب. . . لعلّه شعر بالشيطان وراء جلده. . . غمغم:

- عليّ أن أخشى المجنون. . .

فرأى الآخر صاحب الطاقيّة يبتسم إليه مشجّعًا ويقول:

- صدقت، وليس هو الوحيد الجدير بالخشية. . .

فقطّب صنعان وشعر بذلّ ثمّ قال بحدّة:

- دعني وشأني. . .

فقال بهدوء:

- اقتل المجنون، لن يشقّ عليك ذٰلك. . .

- لا تقترح عليّ فلا يدخل ذٰلك في الاتّفاق. . .

- يجب أن نصير أصدقاء، لذٰلك أنصحك أيضًا بأن تقتل البلخي ذٰلك الشيخ المخرّف. . .

- لسنا أصدقاء ولن أفعل شيئًا إلّا بمحض حرّيّتي. . .

- أسلِمْ بهٰذا تمامًا، ولن تندم، إنّك تتعذب بحكم تغيير العادة ولٰكنّك ستبلغ الحكمة الباهرة وتفهم الحياة كما ينبغي لك. . .

فصاح فاضل:

- إنّك تسخر منّي. . .

- أبدًا. . . إنّي أحرّضك على قتل أعدائك قبل أن يقتلوك. . .

فقال بقرف:

- دعني وشأني. . .

- ٩ -

وقعت أحداث مثيرة للشجن. . . فقد افترس

مرض غامض في وقت واحد تقريبًا امرأتين جميلتين فاضلتين، قمر العطّار، وقوت القلوب امرأة سليمان الزيني... ولم ينفع في إنقاذهما إخلاص عبد القادر المهيني وخبرته... وبموتهما حمل الطبيب همًّا خفيًّا احتار كيف يتعامى معه... هل يصمت صونًا لسمعة أصدقائه؟... هل يخشى أن يغطّي صمته على مجرم وجريمة؟. تفكّر الرجل طويلًا ثمّ مضى إلى مقابلة خليل فارس كبير الشرطة... قال له:

- سأطرح عليك همّي لعلّ الله يهدينا إلى سواء السبيل...

وتنفّس الرجل بعمق ثمّ استطرد:

- ليس مرضًا ما أصاب قمر شقيقة حسن العطار وقوت القلوب امرأة سليمان الزيني، فقد تبيّن لي أنّهما تناولتا سمًّا قتلهما ببطء...

تمتم كبير الشرطة باهتمام:

- انتحار!... لماذا؟... جريمة قتل كيف؟...

- قبيل احتضار كلّ منهما لفظت باسم فاضل صنعان بتقزّز ورعب...

فهزّ الرجل رأسه باهتمام متصاعد فقال الطبيب:

- خلاصة ما فهمته أنّهما حلمتا ذات ليلة بأنّه اعتدى عليهما، ثمّ وضح لهما أنّ ثمّة آثارًا تقطع بأنّ الحلم كان حقيقة واقعة...

- هذا مذهل... هل خدّرهما؟

- لا أدري...

- أين وقع الحلم؟

- في فراشَيْهما بدارَيْهما...

- هذا مذهل حقًّا... وكيف تسلّل إلى الدار؟... وكيف خدّرهما حتّى يقضي وطره؟... أله شركاء في الدارَيْن؟

- لا أدري...

- هل فاتحت حسن والزيني في الموضوع؟

- لم أجد الشجاعة الكافية...

- ماذا تعرف عن فاضل صنعان؟

- شابّ لا غبار عليه وهو من خيرة الشبّان...

- ثمّة شبهة لم يقم دليل عليها بعد أنّه من الخوارج...

- لا علم لي بذلك!

فقال كبير الشرطة بحزم:

- سألقي القبض عليه في الحال وأجري معه تحقيقًا دقيقًا...

فقام عبد القادر قائلًا:

- لعلّك تُجري تحقيقك في كتمانٍ رحمةً بسمعة المرأتين...

فقال خليل فارس دون مبالاة:

- كشف الحقيقة هو ما يهمّني في المقام الأوّل!

- ١٠ -

أُلقي القبض على فاضل صنعان وسيق من فوره إلى السجن. اهتمّ حاكم الحيّ عبّاس الخليجي بالقضيّة واستدعى للقائه حسن العطّار وسليمان الزيني وباغتهما بالسرّ الذي أشفق الطبيب من قذفهما به... كأنّ ضربة عنيفة أطاحت برأسيهما وهانَ بالقياس إليهما الموت نفسه... أمر الرجل باستدعاء فاضل صنعان من السجن ليحقّق معه بنفسه فجاءه خليل فارس وحده وهو يقول بخزي عظيم:

- هرب المجرم ولا أثر له في السجن!!

فثار الحاكم ثورة جائحة وانهال على كبير الشرطة بالتقريع والاتّهام فقال الرجل بحيرة ممزّقة:

- هروبه لغز لا حلّ له كأنّه عمل من أعمال السحر الأسود...

فصرخ الحاكم:

- بل إنّه فضيحة ستزعزع أركان الثقة...

وانطلق المخبرون في كلّ مكان كالجراد... وجيء بأكرمان زوجة فاضل وحسنيّة أخته وأمّ السعد والدته ولكنّ التحقيق معهنّ لم يسفر عن شيء وقالت أكرمان وهي تبكي:

- زوجي أشرف الرجال ولا أصدّق عنه كلمة سوء واحدة!

- ١١ -

أدرك فاضل صنعان أنّه أصبح في عداد الأموات... لا حياة له بعد اليوم إلّا تحت الطاقيّة

كروح ملعونة هائمة في الظلام... روح ملعونة، لا حركة لها إلّا في مجال العبث أو الشرّ، محرومة من التوبة أو فعل الخير، صار شيطانًا رجيمًا، تأوّه من الحزن فتجسّد أمامه صاحب الطاقيّة متسائلًا:

ـ لعلّك في حاجة إليّ؟

فحدجه بنظرة مغيظة محنقة فقال له ملاطفًا:

ـ لا حدّ لسلطانك ولن يعوزك شيء...

فهتف:

ـ إنّه العدم...

فقال ساخرًا:

ـ اسْحَقِ الأفكار القديمة وانتبه إلى حظّك الكبير!

ـ الوحدة... الوحدة... والظلام... ضاعت الزوجة والأخت والأمّ وضاع الأصحاب...

فقال بهدوء:

ـ أصغِ إلى نصيحة مجرّب، بوسعك أن تتسلّ كلّ يوم بحدث يزلزل البشر...

ـ ١٢ ـ

واجتاحت الحيّ حوادث غامضة فأنستهم القضيّة والمجرم الهارب... يُدفع وجيه من فوق بغلته فيقع على الأرض... يصيب حجر رأس سامي شكري كاتم السرّ فيشجّه وهو بين حرّاسه... تختفي جواهر ثمينة من دار الحاكم... تشتعل النار في وكالة الأخشاب... ينتشر العبث بالنساء في الأسواق... يركب الرعب الخاصّة والعامّة... يندفع فاضل صنعان في طريقه الوعر مخمورًا باليأس والجنون...

واجتمع الحاكم عبّاس الخليجي بالشيخ عبد الله البلخي والطبيب عبد القادر المهيني والمفتي وقال لهم:

ـ إنّكم صفوة حيّنا، وأريد أن أسترشد بآرائكم في ما يقع لنا، فما تشخيصكم له وما العلاج الذي تقترحونه؟

وقال الطبيب:

ـ ما هي إلّا عصابة من الأشرار تعمل بجرص ودهاء فنحن في حاجة إلى مزيد من السهر على الأمن...

وتفكّر قليلًا ثمّ واصل:

ـ ونحن في حاجة أيضًا إلى إعادة النظر في توزيع الزكاة والصدقات...

فقال الحاكم:

ـ أعتقد أنّ المسألة أخطر ممّا تفترض، وما رأيك يا شيخ عبد الله؟

فأجاب الرجل باقتضاب:

ـ ينقصنا الإيمان الصادق!

ـ ولٰكنّ الناس مؤمنون...

فقال بأسى:

ـ كلّا... الإيمان الصادق أندر من العنقاء...

عند ذاك قال المفتي بصوت خشن:

ـ ثمّة مَن يمارس علينا السحر الأسود، ولا أتّهم إلّا الشيعة والخوارج!

ـ ١٣ ـ

وسيق إلى السجون جميع مَن حامت حولهم الشبهات... ضجّت دور كثيرة بالشكوى... ولأوّل مرّة يفيق فاضل صنعان من يأسه... عَجِب لنفسه وتساءل أما زال في قلبه متّسع للتأمّل والندم؟!. عاودته ذكريات قديمة كما تهفو نسائم على نار متأجّجة... ومضى يفكّر في توجيه عبثه إلى متّجه جديد... غير أنّ صاحب الطاقيّة تمثّل له بنظرته المحذّرة وهو يتساءل:

ـ ألم تشفَ بعد من دائك القديم؟

فاجتاحه الغيظ ولٰكنّه كظم نفسه بذلّ وقال:

ـ إنّ تهريب هٰؤلاء سيكون قمّة العبث!

ـ تذكّر اتّفاقنا...

فتساءل بحدّة:

ـ أيّ خير ثمّة وراء تهريب أعداء الدين؟

ـ إنّهم في رأيك الهداة، وما أنت إلّا أحدهم، فلا تحاول العبث بي...

فقال بتصميم ورجاء:

ـ دعني أفعل ما أشاء ثمّ افعل بعد ذٰلك ما بدا لك!

وإذا بالطاقيّة تُنزع من فوق رأسه فيتجسّد في زحمة السابلة بميدان الرماية... فزع من وقع المفاجأة...

وقبل أن يفيق من فزعه أعاد الآخر الطاقيّة إلى رأسه وهو يقول:

- التزمْ بما تعاهَدْنا عليه لأعاملك بالمثل...

- ١٤ -

لكنّه لم يسعد بالنجاة... شاعت في مذاقه مرارة راسخة... تساءل كيف يمكنه أن ينقذ أقرانه وإخوانه... اختنق بالقبضة الحديديّة التي تطوّقه... إنّه عبد الطاقيّة وصاحبها كما إنّه أسير الظلام والعدم... كلّا إنّه لا يسعد بالنجاة ويخجل منها... وحتّى اليأس مهما ارتكب من حماقات لم تستطع أن تقتلع من قلبه أنغامه القديمة... وحنّ إلى بعث فاضل القديم بأيّ ثمن... أجل إنّ فاضل القديم مضى وانقضى ولكن ما زال في الطريق متّسع لعمل... ومن أعماق الظلمات وَمَضَ شعاع... انتعشت روحه لأوّل مرّة منذ دهر... وبثّ حياة في إرادته... تفجّرت شجاعته في صورة إلهام صاعد... ورفعته موجة استهانة وتحدٍّ فوق الحياة والموت فتطلّع من فوق ذروتها إلى أفق واعد... واعد بالموت النبيل... بذلك يستردّ فاضل صنعان ولو جثّة هامدة... ولم يتردّد فمضى بعزم جديد نحو دار الحاكم... ومرّ به المجنون وهو يردّد «لا إله إلّا الله، يُحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، وهو على كلّ شيء قدير»... فتمادى في النشوة والاقتحام... وما ارتعب عندما تراءى له «الآخر» فقال له:

- إليك عنّي...

ونزع الطاقيّة من فوق رأسه ورمى بها في وجهه قائلًا:

- افعل ما بدا لك...

قال له:

- سوف يمزّقونك ويمثلون بك...

فهتف:

- إنّي أعرف مصيري خيرًا منك...

- سوف تندم حيث لا ينفع ندم...

فصاح:

- إنّي أقوى منك...

توقّع مشفقًا أن يبطش به ولكنّه تلاشى وكأنّما غُلب على أمره...

- ١٥ -

أثارت محاكمة فاضل صنعان الخواطر كما لم تثرها محاكمة من قبل... وانفجرت اعترافاته في المدينة مثل إعصار... ولأنّ الصفوة ما زالت تعتبره أحد أبنائها، ولأنّ العامّة اعتبروه أحدهم، فقد تبلبلت الأفكار أيّما تبلبل، وتضاربت العواطف كالدوّامات الصاخبة... واستقبل ميدان «العقاب» سيلًا لا ينقطع من النساء والرجال من كافّة الطبقات... واختلطت همسات الإشفاق بصرخات الشماتة كما يختلط أنين الرباب بعربدة السكارى... ولمّا تراءى الشابّ من بعيد استبقت إليه الأبصار... تقدّم بين حرّاسه بخطوات ثابتة ووجه هادئ وامتثال خاشع. أمام النطع انهمرت عليه الذكريات في موجة واحدة متفجّرة بالشهب... تماوجت وجوه أكرمان والبلخي وجمصة البلطي وعبد الله الحمّال والمجنون... التَحَمَ الحبّ والمغامرة ودفاتر الدعوة وآلاف اللقاءات المدّثرة بالظلام في الأقبية والخلوات... وتبدّت الطاقيّة وصاحبها كعثرة بلا قرار يفوح من أعماقها الإغراء محطّمًا قمقمه عن شهواته المكبوتة... وتجلّى أخيرًا نصره المأساويّ جاذبًا معه شبيب رامة السيّاف... تلقّى ذلك في ثوانٍ بقوّة خارقة وسرعة مذهلة فرفض الأسى بإباء وواجَهَ مصيره ببرود واستعلاء فرأى فيها وراء الموت إشراقة تبهر الأعين... ولكنّه رأى أيضًا مَعْلَمًا من معالم الآخرة متمثّلًا في صورة المعلّم سحلول تاجر المزادات والتحف... دهش لمرآه فأفاق من رؤيته وسأله:

- ماذا جاء بك يا معلّم؟

فأجاب وهو يتغيّر من النقيض إلى النقيض:

- جاء بي ما جاء بك...

فهتف بدهشة أكبر:

- أنت ملاك الموت!

ولكنّه لم يردّ فقال بشجاعة:

- أريد العدل!

فقال الآخر بهدوء:

ـ الله يفعل ما يشاء...

مَعروف الإسكافي

ـ ١ ـ

لا يفوق مرحه الظاهر إلّا أشجانه الباطنة... رزقه محدود وامرأته فردوس العرة نهمة جشعة شرسة مليئة بالقوّة والعنف... حياته جحيم بين الكدح والزوجيّة... لا يمرّ يوم دون أن تنهال عليه ضربًا وسبًّا وهو يرتعد بين يديها خوفًا وذلًّا... يتمنّى شجاعة يطلّقها بها، يحلم بموتها، يودّ الهرب ولكن كيف وإلى أين... قال إنّه أسير كما كان فاضل صنعان أسيرًا لشيطان... ولعلّه لا خلاص له ـ مثله ـ إلّا بالموت...

وذات ليلة التهم من المنزول فوق طاقته ومضى إلى قهوة الأمراء والدنيا لا تسعه من السلطنة... ونظر في وجوه أصحابه وقال بصوت سمعه جميع الروّاد:

ـ أقول لكم سرًّا لا يصحّ أن يخفى عنكم...

همّ عجر الحلّاق أن يهزأ به ولكنّه تذكّر حزنه فعدل عنه أمّا معروف فقال:

ـ أقول لكم الحقّ أنّي عثرت على خاتم سليمان!

فهتف به شملول الأحدب:

ـ تأدّب أمام أسيادك يا تيس...

وسأله إبراهيم السقّاء:

ـ ويبدو أنّك انتفعت به، أين القصور، أين الخدم، أين الجاه والسيادة؟!

فقال:

ـ لولا تقوى الله لفعلت ما لا يخطر ببال بشر...

فقال له رجب الحمّال:

ـ أعطنا آية واحدة لنصدّقك...

ـ ما أيسر ذلك عليّ!

ـ عظيم... ارتفع نحو السماء ثمّ اهبط سالمًا...

فقال معروف في مناجاة:

ـ يا خاتم سليمان ارفعني إلى السماء...

عند ذلك صاح به سليمان الزيني:

ـ كُفّ عن هذرك، عليك...

ولكنّه انقطع فجأة عن الكلام... معروف نفسه اجتاحه رعب غريب... شعر بقوّة تقتلعه من مجلسه، ومضى يعلو ببطء وثبات حتّى وقف جميع الروّاد فزعينَ ذاهلينَ... واتّجه نحو باب المقهى وخرج منه وهو يصرخ «أغيثوني» ثمّ ارتفع حتّى اختفى في ظلمة ليل الشتاء... تجمهر الروّاد في الطريق أمام المقهى، تصايح الناس بالواقعة، انتشر الخبر كأنّه أشعّة الشمس في نهار الصيف... وإذا به يهبط رويدًا حتّى يتجلّى شبحه في الظلمة ويرجع إلى مجلسه الأوّل ولكن على حال لا توصف من الإعياء والفزع... وأحدق به الجميع من الخاصّة والعامّة وانهالت عليه الأسئلة:

ـ أين وجدت الخاتم؟

ـ متى وجدته؟

ـ ماذا أنت فاعل به؟

ـ صف لنا العفريت.

ـ متى تحقّق أمانيك؟

وقال له عجر:

ـ لا تنسَ أصدقاءك...

وصاح به إبراهيم السقّاء:

ـ إخوانك الفقراء...

وقال له رجب الحمّال:

ـ اجعلها كما ينبغي لها أن تكون...

وقال سليمان الزيني:

ـ لا تنسَ الله فهو صاحب الملك...

لم يفقه ممّا قيل شيئًا... ولم يدرِ كيف وقع ما وقع... أيّ سرّ امتلكه؟. أيّ معجزة تحقّقت على يديه؟. هل يعترف لهم بالحقيقة؟ حذّر فطريّ أسكته... إنّه يريد أن يخلو إلى نفسه... أن يستردّ أنفاسه، أن يتأمّل ويتأمّل... ونهض من مجلسه دون أن ينبس فأكثر من صوت هتف به:

ـ لا تتركنا حيارى، بلّ ريقنا بكلمة طيّبة...

ولكنّه غادر المقهى دون أن يلقي نظرة على أحد...

ـ ٢ ـ

مضى نحو داره في مظاهرة من الرجال والنساء اكتظّ

بهم الطريق... تنافسوا في الاقتراب منه فسقط منهم قوم وداس بعضهم البعض... وصاح بهم:

ـ اذهبوا وإلّا أرسلتكم إلى الآخرة...

وفي أقلّ من دقيقة تفرّقوا في فزع واضطراب حتّى تلاشت أصواتهم فلم يجد أمامه إلّا فردوس العرة زوجته تنتظره أمام الدار وبيدها مصباح وهي تقول:

ـ يعطي الملك لمن يشاء...

لأوّل مرّة منذ دهر تبتسم في وجهه فحدجها بنظرة غليظة ولطمها لطمة فرقعت في سكون الليل وصاح بها:

ـ أنت طالِق فاذهبي إلى الجحيم...

صرخت فردوس:

ـ تستعبدني بفقرك وتطردني حال إقبال الحظّ!

ـ إن لم تذهبي في الحال حملك العفريت إلى وادي الجنّ...

فصرخت المرأة من الفزع وهرولت لا تلوي على شيء... ابتسم أيضًا أوّل ابتسامة صافية منذ دهر طويل ودخل مأواه المكوّن من حجرة ودهليز...

ـ ٣ ـ

ما معنى ذلك يا معروف؟. أهو حلم أم حقيقة؟. هل حلّ بك سرّ حقًّا؟. ونظر فيما حوله، في الحجرة شبه العارية وتمتم بحذر:

ـ يا خاتم سليمان ارفعني ذراعًا واحدة فوق الأرض!!

انتظر في لهفة وإشفاق، ولكن لم يحدث شيء... انقبض قلبه وغاص في صدره غريقًا في خيبة مرّة... ألم أحلّق في الجوّ؟... ألا يشهد على ذلك أهل الحيّ؟... ألم تنهزم العرة لأوّل مرّة؟... وقال من قلب جريح:

ـ يا خاتم سليمان ليتني بصينيّة فريك بالحمام!

لم ير إلّا خنفساء تزحف فوق طرف الحصيرة المتهرّئة... نظر إلى الخنفساء طويلًا ثمّ أجهش في البكاء...

ـ ٤ ـ

طمر خيبته المرّة في أعماقه... جعلها سرّه الدفين وأقام سدًّا بينه وبين لسانه... قال ليكن من الأمر ما تجري به مشيئة الله... ولكن أليس عليه أن يذهب إلى دكّانه ليصلح الأحذية والمراكيب والصنادل؟. وهل يهضم الناس سلوكه هو المالك لخاتم سليمان؟. وإن لم يفعل فهل يهب ذاته التعيسة للموت جوعًا؟. غير أنّه صادف خليل فارس كبير الشرطة عند باب عطفته وكأنّما كان في انتظاره... تلقّاه بابتسامة متودّدة غير معهودة فأدرك بذكائه أنّ القوم ينظرون إليه باعتباره مالك خاتم سليمان... خفق قلبه بأمل جديد وصمّم على تمثيل دوره بمهارة تناسبه حتّى يقضي الله أمره...

قال له الرجل برقّة:

ـ صبّحك الله بالسعادة يا معروف...

فقال بتحفّظ دهش له هو نفسه:

ـ وصبّحك بمثلها يا كبير الشرطة...

تكلّم بثقة مَن يملك القوّة التي لا يطمح إليها بشر...

قال الرجل:

ـ حاكم الحيّ يودّ مقابلتك...

فقال دون مبالاة:

ـ على الرحب والسعة، أين؟

ـ في المكان الذي يروقك!

يا أولاد الخنفساء يا جبناء... قال:

ـ في داره كما يقضي بذلك الأدب...

فقال بيقين:

ـ ستلقى العناية والأمان...

فقال ضاحكًا في استهانة:

ـ لا خوف عليّ من أيّ قوّة في الأرض!

فقال خليل فارس وهو يداري امتعاضًا، وربّما خوفه:

ـ سنكون في انتظارك في الضحى...

ـ ٥ ـ

رأى من اهتمام الناس ما ينذر بتجمهر جديد فرجع

إلى مسكنه الحقير... ورأى عجر الحلّاق فأخبره بأنّه أصبح أحدوثة المدينة لا الحيّ وحده... وأنّ معجزته هزّت أركان القصر السلطانيّ... ولّما علم بالمقابلة الوشيكة بينه وبين الحاكم قال عجر:

- لا تبالِ بأحد فإنّك أقوى رجل في الدنيا، والناس الآن بين اثنين، مَن يخشى قوّتك حرصًا على جبروته ومَن يرجوها رحمة بضعفه...

فقال مداريًا حزنه الخفيّ بابتسامة:

- تذكّر يا عجر أنّني من عباد الله المطيعين...

فدعا له بالفوز والنجاح...

- ٦ -

وجد في انتظاره في بهو الاستقبال عبّاس الخليجي الحاكم وسامي شكري كاتم السرّ وخليل فارس كبير الشرطة والمفتي ونفرًا من الأعيان... تأمّلوا رثاثة ملابسه بدهشة ولكنّ الحاكم دعاه إلى الجلوس إلى جانبه على سريره مرحّبًا به غاية الترحيب فجلس بثقة، هدفًا للنظرات المستطلعة المحترقة المذعورة... قال الحاكم:

- علمت أنّك ملكت خاتم سليمان؟

فقال بثقة ونبرة لم تخلُ من نذير:

- إنّي على استعداد لإقناع مَن في قلبه شكّ...

فقال الحاكم:

- بل أردت أن أعرف - في نطاق مسئوليّتي - كيف ملكته؟

- لم يُسمح لي بعد بإفشاء السرّ...

- كما ترى، إنّ تشريفك داري يقطع بثقتك فيّ وهو ما أحمد الله عليه...

فقال بدهاء:

- الحقّ أنّه لا شأن لذلك بثقتي فيك فلا أنت ولا غيرك بمستطيع أن يمسّني بسوء...

فأحنى الحاكم رأسه موافقًا ومداريًا تأثّره في آن وقال:

- رأيت وإخواني أنّ من واجبنا أن نتبادل الرأي معك، الله يرفع مَن يشاء ويخفض مَن يشاء ولكنّنا مطالبون بعبادته في جميع الأحوال...

فقال بجرأة:

- ما أجدر أن توجّه خطابك لنفسك ولإخوانك...

فامتقع وجه الحاكم وهو يقول:

- حقًّا لقد تولّينا السلطة في أعقاب تجارب مرّة ولكنّنا ملتزمون بالشريعة منذ وُلّينا...

فقال بنفس الجرأة:

- العبرة بالخواتيم...

- لن يُري منّا أحد إلّا ما يُيسّر ولتكن لنا قدوة في مولانا السلطان شهريار...

- غير منكور أنّه فتح صفحة جديدة وإن لم يبلغ الكمال المنشود بعد...

- الكمال لله وحده...

ونظر الحاكم نحو المفتي فقال المفتي:

- لي كلمة يا معروف، تقبّلها من رجل لا يخشى إلّا الله وحده، الله يمتحن عباده في السرّاء والضرّاء وهو الأقوى دائمًا وأبدًا، وهو سبحانه يحاكم القويّ من خلال قوّته كما يحاكم الضعيف من خلال ضعفه، وقد ملك قبلك آحاد خاتم سليمان فكان وبالًا عليهم فلتكن في امتلاكك له آية للمؤمنين وموعظة للمشركين...

ابتسم معروف منتفخًا بقوّة مَن سادَ الموقف وقال:

- اسمعوا أيّها الرجال الكبار، إنّه لمِنْ يُمْنِ الطالع أنّ خاتم سليمان قُدّر أن يكون من نصيب رجل مؤمن يذكر الله بكرة وعشيًّا، إنّه قوّة لا قِبل لقوّتكم بها ولكنّي أدّخرها للضرورة، كان بوسعي أن آمر الخاتم بتشييد القصور وتجييش الجيوش والاستيلاء على السلطة ولكنّني قرّرت أن أتبع طريقًا آخر...

تنفّس الحاضرون بارتياح لأوّل مرّة فانهال عليه الثناء من كلّ جانب... عند ذاك قال وقلبه يخفق:

- ولكن لا يجوز أن أهمل نعمةً أتاحها الله لي...

فتطلّعوا إليه باهتمام فقال:

- يلزمني في الحال ألف ألف دينار لأصلح به شأني...

فقال الحاكم بارتياح:

- سأراجع حساب ما تحت يديّ من مالٍ، فإن لم

يكف طلبت معونة من مولاي السلطان...

- ٧ -

ونال معروف ما تمنّى من مال وأغدق عليه الأعيان الهدايا بغير حساب... ابتاع قصرًا وكلّف المعلّم سحلول بتأثيثه فخلق له منه متحفًا... وتزوّج من حسنيّة صنعان أخت فاضل... وقرّب إليه صحبه، عجر الحلّاق وإبراهيم السقّاء ورجب الحمّال، وأمطر الفقراء بجوده، وحمل الحاكم على توفير أرزاقهم ورعايتهم واحترامهم فحلّت بشاشة الأنس في وجوههم محلّ تجاعيد الشقاء، وأحبّوا الحياة كما يحبّون الجنّة...

- ٨ -

وذات يوم دُعي إلى مقابلة السلطان شهريار فمضى إليه وهو يبسمل ويحوقل ويتمنّى السلامة... استقبله السلطان في مثواه الشتويّ المعروف ببهو المرجان، تفرّس فيه بهدوء وقال:

- أهلًا بك يا معروف، لقد سمعت بأذنيّ في جولاتي الليليّة ثناء العباد عليك فشاقني ذلك إلى رؤيتك...

فقال معروف وهو يغالب خفقان قلبه:

- نعمة هذا اللقاء عندي أغلى من خاتم سليمان نفسه يا مولاي.

- شعور كريم لرجل كريم...

فحنى معروف رأسه وهو طيلة الوقت يتساءل عمّا يفعل لو طالبه السلطان بمعجزة... أتنصرف يا معروف من القصر إلى النطع؟... قال السلطان متسائلًا:

- كيف عثرت على الخاتم يا معروف؟

فأجاب وقلبه ينقبض:

- تعهّدت بحفظ السرّ يا مولاي...

- لك العذر يا معروف ولكن ألا أستطيع أن أراه من بعيد دون أن أمسّه؟

- ولا هذا أيضًا يا مولاي، ما أتعسني لعجزي عن تحقيق رغبتك!

- لا عليك من ذلك...

- شكرًا لرحمتك يا مولاي...

فقال بعد تفكّر:

- إنّي أعجب لشأنك، فلو شئت الجلوس على عرشي ما منعتك قوّة في الأرض!

فهتف معروف مستنكرًا:

- معاذ الله يا مولاي، ما أنا إلّا عبد مؤمن، لا تغريه قوّة بالتعرّض لمشيئة الله...

- إنّك مؤمن حقًّا، والخاتم في يد المؤمن عبادة!

- الحمد لله ربّ العالمين...

فسأل السلطان باهتمام:

- هل حظيت بالسعادة يا معروف؟

- سعادة بلا حدود يا مولاي...

- ألا يفسد الماضي عليك سعادتك أحيانًا؟

- ما مضى سلسلة من تعاسات تلقّيتها من الآخرين ولكنّي لم أرتكب ما أندم عليه!

- هل تنعم بالحبّ يا معروف؟

- الحمد لله، لي زوجة تهب السعادة مع أنفاسها...

- جميع ذلك بفضل الخاتم؟

- بفضل الله يا مولاي!

فصمت السلطان مليًّا ثمّ سأله:

- أتستطيع أن تهب السعادة للآخرين؟

- لا حدود لقوّة الخاتم ولكنّه لا يستطيع اقتحام القلوب...

تجلّى في أعماق عينَي شهريار فتور يوحي بخيبة الرجاء، ولكنّه ابتسم قائلًا:

- دعني أراك وأنت ترتفع في الفراغ حتّى تمسّ عمامتك نقوش قبّة البهو!

انقضّ الطلب عليه كقمّة جبل قذف بها زلزال، تطايرت آماله هباء وأيقن بالهلاك... قال بحرارة:

- لا يليق في حضرة السلطان إلّا الأدب...

- إنّما تطير بناءً على طلبي...

- مولاي، إنّي عبدك معروف الإسكافيّ...

- أتدين لي بالطاعة يا معروف؟

أجاب من حلْق جافّ:

- الله شهيد على ذلك...

- إنّي آمرك يا معروف!

نهض من مجلسه فتربّع في وسط البهو... ناجى ربّه في سرّه: «ربّي لتكن مشيئتك... لا تدعْ كلّ شيء يتلاشى كحلم»... ومن قلب مكلوم يائس همس:

- ارتفعْ يا جسدي حتّى تمسّ عمامتي السقف...

وأغمض عينيه مستسلمًا لمصيره الأسود، ولّما لم يحدث شيء هتف من قلب معذّب: «الرحمة يا مولاي!»... وقبل أن ينبس بكلمة أخرى دبّت في قلبه حيويّة ملهمة فخفّ وزنه وتلاشى خوفه... وإذا بالقوّة المجهولة ترتفع به في هدوء ووقار وهو متربّع على لا شيء، والسلطان يتابعه مذهولاً متخلّيًا عن رصانته، مغلوبًا على أمره... حتّى مسّت عمامته القبّة المرجانيّة، ثمّ مضى يهبط رويدًا حتّى استقرّ في مجلسه... هتف السلطان:

- ما أتفه السلطنة!... ما أتفه الغرور!

ولم يستطع أن يعقّب بكلمة فقد فاق ذهوله ذهول السلطان نفسه!

- ٩ -

عجز عجزًا تامًّا عن إدراك ما يقع له... وقد حاول أن يستغلّ قوّته الخفيّة في داره فلم تستجب له ولكنّه حمد الله على النجاة... ليكن من أمر قوّته ما يكون... ولتختف ما شاءت ما دامت تبادره بالنجاة في المواقف الحاسمة... وطرد وساوسه وتوكّل على الله... وكان جالسًا في حديقة داره يتشمّس عندما طلب مقابلته رجل غريب... حسبه ذا حاجة فأمر بإحضاره... قدم عليه يرفل في عباءة فارسيّة فاخرة... طويل العمامة مهذّب اللحية مترفّع النظر فلم يداخله شكّ في علوّ منزلته... أجلسه بترحاب متسائلاً:

- مَن الضيف الكريم؟

فأجاب باقتضاب وبنبرة مثل طَرْقة المطرقة فوق معدن صلب:

- أنا صاحب هٰذا القصر!

فأُخذ معروف وقال بحدّة:

- أيّ هذيان!

فأعاد الرجل قوله بقوّة أشدّ:

- إنّي صاحب هٰذا القصر...

فصاح به:

- إنّي صاحبه دون شريك...

تحدّاه بنظرة وقحة وقال:

- ما أنت إلّا دجّال محتال!

فصاح معروف غاضبًا:

- مجنون وقح!

- لقد خدعت الجميع، حتّى السلطان الأحمق، ولٰكنّني أعرفك أكثر ممّا تعرف نفسك...

فقال منذرًا:

- في وسعي أن أحوّلك إلى هشيم تذروه الرياح!

فقال ساخرًا:

- إنّك لا تحسن إلّا رتق النعال أو إصلاحها، أتحدّاك أن تصنع بي ما يضرّ!

غاص قلبه متراجعًا ساحبًا معه ثقته بنفسه ولٰكنّه تساءل بصوت خانته نبرته رغم تماسكه:

- لعلّك لم تسمع عن المعجزة في مقهى الأمراء؟

- لم أسمع عنها لأنّني أنا الذي صنعتها فلا تحاول خداعي، وأنا الذي أنقذتك من العجز في حضرة السلطان!

توسّل في سرّه إلى خاتم سليمان أن يمحق الرجل محقًا... ولّما لم يحدث شيء انثنى جذعه تحت ثقل اليأس فتساءل في خوف:

- مَن أنت؟

- إنّي سيّدك ووليّ نعمتك...

تأوّه ولاذ بالصمت فقال الآخر:

- بيدك أن تحفظ النعمة إذا شئت!

فسأله بصوت لا يكاد يسمع:

- ماذا تريد؟

فقال بهدوء:

- اقتل عبد الله البلخي والمجنون!

فاجتاحه الرعب وقال بانكسار:

- إنّي أعجز من أن أقتل نملة!

- أدبّر لك الوسيلة!

ـ لِمَ تستعين بي وأنت القويّ؟

ـ لا شأن لك بذلك...

تذكّر الشرك الذي سقط فيه فاضل صنعان... تذكّر مآسي صنعان الجمالي وجمصة البلطي... قال بضراعة:

ـ أستحلفك بالله أن تعفيني من مطالبك...

فقال الآخر ساخرًا:

ـ ليس أسهل عليّ من أن أقنع الحاكم باحتيالك، إنّهم لا يأمنون جانبك، ويتمنّون هلاكك ليتحرّروا من استعبادك المهذّب لهم، ستُدعى سريعًا لصنع معجزة أمامهم، وإذا أخفقت ولا بدّ أن تخفق انقضّوا عليك كالنمور...

تجلّت في عينيه نظرة يائسة حزينة عمياء ولكنّ الآخر لم يرحمه فقال:

ـ إنّي منتظر رأيك...

فهتف بحدّة:

ـ اغرب عن وجهي، لا أستطيع تركيز فكري في حضورك...

فقام قائلًا:

ـ سأغيب عنك ساعة، وإذا لم تَدْعُني جاءك كبير الشرطة بديلًا عنّي!

قال ذلك وذهب...

ـ ١٠ ـ

تركه في جحيم مستعرٍ... هو يقتل عبد الله البلخي والمجنون؟!. أجل إنّه حريص على النعمة ولكنّه طيّب وضعيف ومؤمن... وتجاذبته التخيّلات ولكنّه كان يتشبّث دائمًا بالأرض عند حافة الهاوية... وفي ظلمات العذاب أشرق عليه خاطر سعيد... لِمَ لا يهرب بحسنيّة والمال؟ واندفع نحو الدار فأمر زوجته بارتداء عباءتها، وعبّأ نقوده في بقجة... سألته زوجته عمّا يعنيه ذلك فأخبرها بأنّها ستعرف السرّ عندما يصلان إلى برّ الأمان... وامتطيا بغلتين وانطلقا وفي نيّته أن يذهب إلى مرفأ النهر... لكنّه رأى وهو يقترب من نهاية الشارع خليل فارس كبير الشرطة قادمًا على رأس قوّة من الجند...

ـ ١١ ـ

انفجرت الفضيحة فدوّت طبولها في أركان المدينة... ومشى الرواة باعترافات معروف الإسكافيّ في كلّ مكان... اطمأنّت قلوب وتدحرجت قلوب إلى الهاوية... عرف أنّ النطع سيستقبل معروف عمّا قليل وأنّه سيلحق بفاضل صنعان وعلاء الدين... خرج الفقراء والمساكين من أكواخهم إلى الميادين بلا تدبير... اندفعوا وراء مشاعرهم القلقة الدفينة... وفي تجمّع لا مثيل له وجدوا أنفسهم جسمًا عملاقًا لا حدود له يجأر بالاحتجاج والخوف من المستقبل... سيتلاشى معروف فيتلاشى معه الرزق وتكفهرّ لهم الوجوه من جديد، تبودلت أنّات الشكوى في هيئة همسات مبحوحة، ثمّ غلظت واحتدمت بالمرارة، ثمّ تلاطمت كالصخور، وبسبب من القوّة المتجسّدة المخلوقة من عدم تأجّج الغضب... شعروا بأنّهم سدّ منيع بتكتّلهم، وأنّهم طوفان إذا اندفع:

ـ معروف بريء...

ـ معروف رحيم...

ـ معروف لن يموت...

ـ الويل لمن يمسّه بسوء...

وما إن نادى صوت بالذهاب إلى دار الحاكم حتّى اندفعت الجموع كأنّها سَيْل ينصبّ من فوق قمّة جبل تبعث في الجوّ هديرًا... وعند أوّل شارع دار الإمارة اعترض الجنود المدجّجون بالسلاح... سرعان ما نشبت معركة بين السهام والزلط، تواصلت في عنف تحت غيم ينذر بالمطر... وقبيل الغروب دوّت طبول وصاح منادٍ:

ـ كفّوا عن الشغب... مولانا السلطان قادم بنفسه...

تحاجز الفريقان وساد الصمت... جاء الموكب السلطانيّ في قوّة كبيرة من الفرسان، ودخل شهريار دار الإمارة محوطًا برجال دولته... استغرق التحقيق طيلة الليل...، وخرج المنادي قبيل الفجر ورذاذ يتساقط في نعومة يغسل الوجوه المشتعلة بالقلق... توقّع العباد توقّعات كثيرة ولكن لم يبلغ بهم الخيال ما حصل... صاح المنادي:

ـ جرت مشيئة السلطان بنقل الحاكم إلى رياسة حيّ آخر على أن يقلّد ولاية الحيّ معروف الإسكافيّ...!

تعالت الهتافات مدوّية، وثمل العباد بالفوز المبين...

السِّنْدِبَاد

ـ ١ ـ

رفع معروف حاكم الحيّ ـ بكلّ خشوع ـ اقتراحًا للسلطان بنقل سامي شكري كاتم السرّ وخليل فارس كبير الشرطة إلى حيّ آخر على أن يتفضّل السلطان بتعيين نور الدين كاتمًا للسرّ والمجنون كبيرًا للشرطة باسم جديد هو «عبد الله العاقل»... ومن عجب أنّ السلطان استجاب له، ولو أنّه سأله:

ـ أتطمئنّ حقًّا إلى المجنون كبيرًا لشرطتك؟

فقال معروف بثقة:

ـ كلّ الاطمئنان يا مولاي...

فدعا له بالتوفيق، ثمّ سأله:

ـ ماذا عن سياستك يا معروف؟

فقال الرجل بتواضع:

ـ عشت عمري يا مولاي أصلح النعال حتّى استقرّ الإصلاح في دمي...

وقد قلق الوزير دندان فقال للسلطان عقب انصراف معروف:

ـ ألا ترى يا مولاي أنّ حكم الحيّ أصبح بيد نفر لا خبرة لهم؟

فقال السلطان بهدوء:

ـ دعنا نُقدم على تجربة جديدة...

ـ ٢ ـ

وكان روّاد مقهى الأمراء يتسامرون في مرح يوافق ما طرأ على حيّهم عندما ظهر في مدخل المقهى رجل غريب ـ نحيل القامة مع مَيل للطول أسود اللحية رشيقها، يستقرّ في عباءة بغداديّة وعمامة دمشقيّة ومركوب مغربيّ، وبيده مسبحة فارسيّة حبّاتها من اللؤلؤ النفيس... انعقدت الألسنة وانجذبت نحوه الأبصار... وبالرغم من أنّه غريب إلّا أنّه أجال بينهم عينين باسمتين مشبعتين بألفة أهل الدار... وعلى حين فجأة وثب رجب الحمّال قائمًا وهو يصيح:

ـ سبحانك ربّي، ما أنت إلّا السندباد!

قهقه القادم بحبور، تلقّى بين ذراعيه رفيقه القديم فتعانقا بحرارة... وسرعان ما تلاقت الأيدي في مصافحة صادقة، ثمّ مضى إلى موضع خالٍ جنب المعلّم سحلول ساحبًا معه صديقه وهٰذا يقاوم في حياء هامسًا:

ـ هٰذا مكان السادة!

فقال السندباد:

ـ أنت وكيل أعمالي منذ الساعة!

وسأله شملول الأحدب:

ـ كم عامًا مضت في غيابك يا سندباد؟

فقال بحيرة:

ـ الحقّ أنّني نسيت الزمن!

فقال عجر الحلّاق:

ـ لا أقلّ من عشر سنوات...

ـ كأنّها عشرة قرون!

فقال الطبيب عبد القادر المهيني:

ـ رأيت عوالم وعوالم، ماذا رأيت يا سندباد؟

فنعم الرجل بالاهتمام كثيرًا، ثمّ قال:

ـ لديّ ما يسرّ ويفيد وكلّ شيء بأوانه... صبركم حتّى أستقرّ...

فقال عجر:

ـ نحدّثك نحن عمّا وقع لنا!

ـ ماذا فعل الله بكم؟

فأجابه حسن العطّار:

ـ مات كثيرون فشبعوا موتًا، وولد كثيرون لا يشبعون من الحياة، هبط من الأعالي قوم وارتفع من القعر قوم، أثرى أناس بعد جوع وتسوّل آخرون بعد عزّ، وفد على مدينتنا عدد من أخيار الجنّ وأشرارهم، وآخر أخبارنا أن وَلِيَ حكم حيّنا معروف الإسكافيّ...

فهتف السندباد:

ـ حسبت الأعاجيب قاصرة على رحلاتي، الآن يحقّ لي العجب...

وقال إبراهيم السقّاء:

ـ لا شكّ أنّك أصبحت من الأغنياء يا سندباد!

فقال بامتنان:

ـ الله يهب الرزق لمن يشاء بغير حساب...

فسأله جليل البزّاز:

ـ هلّا حدّثتنا عن أعجب ما صادفك؟

فلوّح بالمسبحة الفارسيّة قائلاً:

ـ كلّ شيء مرهون بوقته، عليّ أن أبتاع قصرًا، وأفتح وكالة لعرض النوادر من نفائس الجبال وأعماق البحار ومجهول الجزر، وسأدعوكم قريبًا لعشاء أقدّم فيه غرائب الأطعمة والأشربة ثمّ أروي لكم رحلاتي العجيبة...

ـ ٣ ـ

في الحال وقع اختياره على قصر بميدان الفرسان فعهد إلى سحلول مهمّة تأثيثه وتزيينه، وفتح وكالة جديدة في السوق أشرف عليها من اليوم الأوّل رجب الحمّال، وفي أثناء ذلك زار الحاكم وما إن خلا إليه حتّى تعانقا عناق الرفاق القدامى... وحكى له معروف حكايته بنفسه فحكى له ما شاهد وما وقع له في رحلاته السبع، وقال له السندباد بعذوبة:

ـ إنّك أهل لمنصبك...

فقال بإيمان:

ـ إنّي خادم الفقراء برعاية الله...

وزار معلّم صباه الشيخ عبد الله البلخي فقبّل يديه وقال له:

ـ لم أمكث في رحابك إلّا ما اقتضته التربية الأوّليّة ولكنّي ربحت منه كلمات أضاءت لي الظلام في الملمّات...

فقال الشيخ ملاطفًا:

ـ لا جدوى من بذرة صالحة إلّا في أرض طيّبة...

فقال بحماس:

ـ لعلّك راغب في سماع مغامراتي يا مولاي؟

فقال الشيخ باسمًا:

ـ ليس العلم بكثرة الرواية، إنّما العلم من اتّبع العلم واستعمله...

ـ ستجد فيها يا مولاي ما يسرّك...

فقال بفتور:

ـ طوبى لمن كان همّه همًّا واحدًا، ولم يشغل قلبه بما رأيت عيناه وسمعت أذناه، ومن عرف الله فإنّه يزهد في كلّ شيء يشغله عنه....

وتمّ له الاستقرار، ودعا أصحابه إلى الوليمة، وهناك روى لهم ما حدث له في رحلاته السبع، ومنهم انتشرت في الحيّ ثمّ في المدينة فهزّت الأفئدة وأشعلت الأخيلة...

ـ ٤ ـ

وذات يوم استدعاه حاكم الحيّ معروف وقال له:

ـ أبشر يا سندباد مولانا السلطان شهريار يرغب في رؤيتك...

فسُرَّ بذلك أيّما سرور ومضى من فوره إلى القصر بصحبة كبير الشرطة عبد الله العاقل... غير أنّه لم يتشرّف بالمثول بين يدي السلطان إلّا أوّل الليل فذهبوا به إلى الحديقة... جلس حيث أُجلس في ظلمة شاملة، وأنفاس الربيع تنفذ في أعماقه أخلاطًا من روائح الزهور تحت سقف يومض بالنجوم... كان السلطان يتحدّث بهدوء ولطف فاطمأنّ قلبه وزايلته الرهبة وحلّ الأنس والحبّ... سأله عن عمله الأوّل وعن حظّه من العلوم وعمّا جعله يعزم على الرحلة... فأجاب بإيجاز يناسب المقام، وبصراحة وصدق... قال شهريار:

ـ حدّثني قوم عن رحلاتك فرغبت أن أسمع منك ما تعلّمته منها إن كنت حظيت منها بعلم نافع فلا تكرّر إلّا ما تقتضيه الضرورة...

فتفكّر سندباد مليًّا ثمّ قال:

ـ الله المستعان يا مولاي...

ـ إنّي مصغٍ إليك يا سندباد...

ملأ الرجل صدره بالأريج الطيّب ثمّ قال:

ـ تعلّمت يا مولاي أوّل ما تعلّمت أنّ الإنسان قد ينخدع بالوهم فيظنّه حقيقة وأنّه لا نجاة لنا إلّا إذا أقمنا فوق أرض صلبة، فإنّه لّما غرقت سفينتنا في رحلتنا الأولى سبحت متعلّقًا بلوح من ألواحها حتّى اهتديت إلى جزيرة سوداء، شكرنا الله أنا ومن معي وجُلْنا في أنحائها نفتّش عن ثمرة ولّما لم نجد تجمّعنا على الشاطئ متعلّقة آمالنا بأيّ سفينة تعبر... وما ندري إلّا وأحدنا يصيح:

ـ الأرض تتحرّك!

نظرنا فوجدناها تميد بنا فركبَنا الفزع، وإذا بآخر يصيح:

ـ الأرض تغرق...

أجل كانت تغوص في الماء!. ورميت بنفسي في الماء... وضح لنا أنّ ما ظنناه أرضًا لم يكن إلّا ظهر حوت كبير أزعجته حركاتنا فوقه فمضى إلى عالمه يحفّ به الجلال... وسبحت مسلّمًا أمري للمقادر حتّى ارتطمت يداي بصخور، ومنها زحفت إلى جزيرة حقيقيّة يجري فيها الماء وتكثر الفاكهة، عشت بها زمنًا حتّى مرّت بي سفينة فنجوت بها...

فتساءل السلطان:

ـ وكيف تفرّق بين الوهم والحقيقة؟

فقال بعد تردّد:

ـ علينا أن نستعمل ما وهبنا الله من حواسّ وعقل...

فهزّ السلطان رأسه وقال:

ـ استمرّ يا سندباد...

فقال السندباد:

ـ تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ النوم لا يجوز إذا وجبت اليقظة وأنّه لا يأس مع الحياة، فقد ارتطمت السفينة بصخور ناتئة فتحطّمت وانتقل مَن عليها إلى جزيرة، جزيرة جرداء لا ماء فيها ولا شجر ولكنّنا حملنا معنا أغذية وقُرَب مياه، ورأيت صخرة كبيرة على مبعدة يسيرة فقلت أنام في ظلّها ساعة... ونمت، وصحوت فلم أجد لإخواني أثرًا، ناديت فلم أسمع مجيبًا، عدوت نحو الشاطئ فرأيت سفينة تنحدر وراء الأفق، ورأيت الأمواج تهدر منشدة نشيد اليأس والموت، أدركت أنّها انتشلت أصحابي وأنّهم في نشوة النجاة نسوا صاحبهم النائم وراء الصخرة، لا نأمة تصدر عن حيّ، ولا شيء يعلو عن سطح الأرض الجرداء إلّا الصخرة، ولكن أيّ صخرة؟! نظرت بعينيّ اللتين أحدّهما الفزع فتبيّن لي أنّها بيضة لا صخرة كما بدت في حينها لعينيّ المرهقتين، بيضة في حجم بيت كبير، بيضة أيّ طائر؟! ودهمني الفزع من ذاك العدوّ المجهول وأنا أغوص في خلاء الموت البطيء... وإذا بنور الشمس ينطفئ وينتشر جوّ أسمر كالمغيب فرفعت بصري فرأيت كائنًا كالنسر ولكنّه يفوقه في الحجم مئات المرّات، رأيته يهبط وئيدًا حتّى يرقد فوقها، أدركت أنّه يحتويها ليطير بها فخطرت لي فكرة جنونيّة فربطت نفسي في طرف ساقه الشبيهة بالصاري، وحلّق بي طائرًا فوق الأرض فبدا لعينيّ كلّ شيء صغيرًا تافهًا كأنّما لا ينبض به أمل أو ألم، حتّى حطّ فوق قمّة جبل، ففككت رباطي وزحفت إلى ما وراء شجرة فارعة لم أرَ مثلها من قبل، واستراح الطائر ساعة ثمّ واصل رحلته نحو المجهول فقهرني النوم، ولّما استيقظت كانت الشمس تشتعل في الضحى، التهمت من حشائش الأرض ما أسكت جوعي ورويت عطشي من نقرة مترعة بماء صافٍ، عند ذاك انتبهت إلى أنّ الأرض تعكس إشعاعًا يبهر البصر فتفحّصته فتكشّف لي سطح الأرض عن ماس حرّ، وتحرّك طموحي رغم تعاستي فقلعت منه ما استطعت وصررته في سروالي، وانحدرت فوق السطح حتّى انتهيت إلى شاطئ حيث أنقذتني سفينة عابرة...

قال شهريار بهدوء:

ـ إنّه الرخّ الذي نسمع عنه ولا نراه، إنّك أوّل إنسان يسخّره لأغراضه يا سندباد فاعلم ذلك أيضًا...

فقال سندباد بحياء:

ـ إنّها مشيئة الله المتعالي...

ثمّ واصل حديثه قائلًا:

ـ تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ الطعام غذاء عند الاعتدال ومهلكة عند النهم، ويصدق على الشهوات ما يصدق عليه، فقد تحطّمت السفينة كسابقتها فوجدنا

أنفسنا في جزيرة يحكمها ملك عملاق لكنّه كريم مضياف، رحّب بنا ترحيبًا فاقَ جميع آمالنا، ولم يكن لنا في كنفه إلّا الاسترخاء والسمر، وقدّم لنا من صنوف الطعام وألوانه ما لا يخطر ببال فأقبلنا على الطعام كالمجانين، غير أنّ كلمات قديمة تلقّيتها في صباي عن مولانا الشيخ عبد الله البلخي صدّتني عن الإفراط ويسّرت لي وقتًا طويلًا للعبادة على حين أنفق أصحابي وقتهم في التهام الطعام والنوم الثقيل في أعقاب الامتلاء، فازداد وزنهم زيادة فظيعة واكتظّوا باللحم والدهن فانقلبوا كالبراميل... وجاء الملك ذات يوم فتأمّلنا رجلًا رجلًا ثمّ دعا أصحابي إلى قصره والتفت إليّ قائلًا في ازدراء:

- إنّك كالأرض الصخريّة لا تثمر...

فحزنت لذلك... وخطر لي أن أتسلّل بلَيْل لأرى ما يفعل أصحابي فرأيت رجال الملك وهم يذبحون الربّان ويقدّمونه للملك فالتهمه بوحشيّة وتلذّذ، فطنت في الحال إلى سرّ كرمه، وهربت إلى الشاطئ حتّى أنقذتني سفينة...

تمتم السلطان:

- أبقاك تورُّعك يا سندباد...

ثمّ قال وكأنّما يحادث نفسه:

- ولكنّ الملك أيضًا في حاجة إلى الورع!

استبقى السندباد صدى تعليق السلطان دقيقة ثمّ واصل حديثه قائلًا:

- تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ الإبقاء على التقاليد البالية سخف ومهلكة، فقد غرقت السفينة وهي في طريقها إلى الصين فلُذْتُ ومعي نفر من المسافرين إلى جزيرة غنيّة معتدلة الجوّ يسودها السلام ويحكمها ملك طيّب، وقال لنا:

- سأعتبركم ضمن رعاياي، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم...

فسررنا بذلك ودعونا له... ومبالغة في إكرامنا وهبَنا من جواريه زوجات جميلات... فطابت لنا الحياة وتيسّرت المعيشة... وحدث أن توفّيت إحدى الزوجات فجهّزها الملك للدفن وقال لصاحبنا الأرمل:

- يؤسفني فراقك فإنّ تقاليدنا تقضي بدفن الزوج حيًّا مع زوجته الميتة، وهو ما يجري على الزوجة إذا سبقها الزوج إلى النهاية...

فارتعب صاحبنا وقال للملك:

- ولكنّ ديننا لا يكلّفنا بذلك...

ولكنّ الملك قال له:

- لا شأن لنا بدينكم، وتقاليدنا مقدّسة...

ودُفن الرجل حيًّا مع جثمان زوجته فتكدّر صفونا وتجهّم لنا المستقبل... وجعلت أراقب زوجتي مشفقًا، وكلّما اشتكت توعّكًا خفيفًا زلزل كياني كلّه... وعندما جاءها المخاض ساءت حالتها فما كان منّي إلّا أن هربت إلى الغابة حتّى عبرتْ سفينة ذات يوم قريبًا من الشاطئ فألقيت بنفسي في الماء وسبحت نحوها وأنا أستغيث حتّى انتشلتني وأنا على وشك الغرق...

فغمغم السلطان وكأنّما يخاطب نفسه:

- التقاليد هي الماضي ومن الماضي ما يجب أن يصبح في خبر كان!

خيّل إليه أنّ لحديث السلطان بقيّة فآوى إلى الصمت غير أنّ شهريار قال:

- استمرّ يا سندباد...

قال السندباد:

- تعلّمت أيضًا يا مولاي أنّ الحرّيّة حياة الروح وأنّ الجنّة نفسها لا تغني عن الإنسان شيئًا إذا خسر حرّيّته، فقد لقيت سفينتنا عاصفة أودت بها فلم ينجُ من رجالها أحد سواي... قذف بي الموج إلى جزيرة فيحاء، معتدلة الجوّ، غنيّة بالثمار والجداول، فشبعت وارتويت واغتسلت ومضيت في جنباتها مستطلعًا فصادفني عجوز ملقًى تحت شجرة لا حول له ولا قوّة فتوسّل إليّ قائلًا:

- إنّي عاجز كما ترى فهلّا حملتني إلى كوخي؟

وأشار بذقنه ناحية فما تردّدت عن حمله... ورفعته فوق منكبيّ وسرت به إلى حيث أشار... لم أعثر لكوخه على أثر فسألته:

- أين مأواك يا عمّ؟

فقال بصوت قويّ غير الذي خاطبني به أوّل مرّة:

- الجزيرة مأواي، وهي جزيرتي، ولكنّي في حاجة

إلى من يحملني!

فأردت إنزاله عن كاهلي ولٰكنّي عجزت عن زحزحة رجليه عن عنقي وضلوعي كأنّما هو بناء مثبت بالحديد فتوسّلت إليه بدوري:

ـ اتركني وستجدني عند الحاجة في خدمتك...

ولٰكنّه ضحك ساخرًا منّي متجاهلًا لتوسّلاتي... هٰكذا قضي عليّ أن أعيش عبدًا له فلم يطبْ لي صحو ولا نوم، ولم أهنأ بلذيذ المآكل والمشرب، حتّى خطرت لي فكرة فجعلت أعصر عنبًا في نقرة، وتركته حتّى تخمّر، ثمّ أسقيته منه حتّى سكر وتراخت عضلاته الفولاذيّة فرميته عن كاهلي، وتناولت حجرًا فحطّمت به رأسه وأنقذت العالم من شرّه... وسكنت في الجزيرة زمنًا سعيدًا لم أدره حتّى أنقذتني سفينة...

فتنهّد شهريار قائلًا:

ـ ما أكثر ما يستعبدنا في هٰذه الدنيا! ماذا تعلّمت أيضًا يا سندباد؟

فقال سندباد:

ـ أيضًا تعلّمت يا مولاي أنّ الإنسان قد تتاح له معجزة من المعجزات ولٰكن لا يكفي أن يمارسها ويستعلي بها، وإنّما عليه أن يُقبل عليها مستهديًا بنور من الله يضيء قلبه، فقد غرقت السفينة كسابقاتها ولذتُ أنا بجزيرة تستحقّ أن أدعوها بجزيرة الأحلام... جزيرة غنيّة بالحِسان من كلّ لون وشكل... مال قلبي إلى إحداهنّ فتزوّجت منها وسعدت بها... ولمّا اطمأنّ القوم إليّ ركّبوا تحت إبطي ريشًا وأخبروني بأنّني استطيع أن أطير وقتما أشاء... سررت بذٰلك جدًّا وتوثّبت لاقتحام التجربة التي لم يجرّبها إنسان قبلي... غير أنّ زوجتي قالت لي سرًّا:

ـ احذر أن تذكر اسم الله وأنت في الجوّ وإلّا احترقت!

وفي الحال أدركت أنّ دم الشيطان يجري في دمائهم فنفرت منهم وطرت مصمّمًا على الهرب، وسبحت في الجوّ طويلًا ولا هدف لي إلّا مدينتي حتّى بلغتها بعد أن آيست من ذٰلك، فالحمد لله ربّ العالمين...

صمت الملك مليًّا ثمّ قال:

ـ لقد رأيت من عجائب الدنيا ما لم تره عين بشر، وتعلّمت دروسًا عن معاناة وخبرة فاهنأ بما رزقك الله من مال وحكمة...

ـ ٥ ـ

قام شهريار وصدره يجيش بانفعالات طاغية... غاص في الحديقة فوق الممشى الملكيّ شبحًا ضئيلًا وسط أشباح عمالقة تحت نجوم لا حصر لها ولا حدّ... أطبقت على أذنيه أصوات الماضي فمَحَتْ ألحان الحديقة، هتاف النصر، زمجرة الغضب، أنّات العذارى، هدير المؤمنين، غناء المنافقين... نداءات اسمه من فوق المنابر... تجلّى له زيف المجد الكاذب كقناع من ورق متهرّئ لا يخفي ما وراءه من ثعابين القسوة والظلم والنهب والدماء... لعن أباه وأمّه وأصحاب الفتاوى المهلكة والشعر والشعراء وفرسان الباطل ولصوص بيت المال وعاهرات الأُسَر الكريمة والذهب المنهوب المهدر في الأقداح والعمائم والجدران والمقاعد والقلوب الخاوية والنفس المنتحرة وضحكات الكون الساخرة...

ورجع من رحلته عند منتصف الليل فاستدعى شهرزاد فأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

ـ ما أشبه حكايات سندباد بحكاياتك يا شهرزاد!

فقالت شهرزاد:

ـ جميعها تصدر عن منبع واحد يا مولاي...

صمت كأنّما لينصت إلى همس الغصون وزقزقة العصافير فتساءلت شهرزاد:

ـ هل ينوي مولاي الخروج إلى إحدى جولاته الليليّة؟

فقال بفتور:

ـ كلّا...

ثمّ بصوت منخفض:

ـ أوشكت أن أضجر من كلّ شيء...

فقالت بإشفاق:

ـ الحكيم لا يضجر يا مولاي...

فتساءل بامتعاض:

ـ أنا؟!... الحكمة مطلب عسير، إنّها لا تورّث

كما يورّث العرش...

- المدينة اليوم تنعم بحكمك الصالح...

- والماضي يا شهرزاد؟

- التوبة الصادقة تمحق الماضي...

- وإن حفل بقتل الفتيات البريئات والأفذاذ من أهل الرأي؟

فقالت بصوت متهدّج:

- التوبة الصادقة...

ولكنّه قاطعها:

- لا تحاولي خداعي يا شهرزاد...

- ولكنّي يا مولاي أقول الحقّ...

فقال بخشونة وحزم:

- الحقّ أنّ جسمك مُقبل وقلبك نافر...

فزعت... كأنّما تعرّت في الظلام، هتفت محتجّة:

- مولاي...

- لست حكيمًا ولكنّني لست أحمق أيضًا، طالما لمست احتقارك ونفورك...

تمزّقت نبراتها وهي تقول:

- علم الله...

لكنّه قاطعها:

- لا تكذبي، ولا تخافي، لقد عاشرتِ رجلًا غارقًا في دماء الشهداء...

- كلّنا نلهج بحسناتك...

فقال دون مبالاة بقولها:

- أتدرين لِمَ أبقيت عليك قريبًا منّي؟ لأنّي وجدت في نفورك عذابًا متواصلًا أستحقّه، أمّا ما يحزنني فهو أنّني أومن بأنّني أستحقّ جزاء أشدّ...

فلم تتمالك أن بكت فقال برقّة:

- ابكي يا شهرزاد فالبكاء أفضل من الكذب...

هتفت:

- لا أستطيع أن أتقلّب في نعمتك بعد الليلة...

فقال محتجًا:

- القصر قصرك، وقصر ابنك الذي سيحكم المدينة غدًا، أنا الذي يجب أن أذهب حاملًا ماضيّ الدامي...

- مولاي!

- على مدى عشر سنوات عشت ممزّقًا بين الإغراء والواجب، أتذكّر وأتناسى، أتأدّب وأفجر، أمضي وأندم، أتقدّم وأتأخّر، أتعذّب في جميع الأحوال، آنَ لي أن أصغي إلى نداء الخلاص، نداء الحكمة...

قالت بنبرة اعترافيّة:

- إنّك تنبذني وقلبي يتفتّح لك...

فقال بصرامة:

- لم أعد أبحث عن قلوب البشر...

- إنّه قضاء معاكس يعبث بنا...

- علينا أن نرضى بما قُدّر لنا...

فقالت بمرارة:

- مكاني الطبيعيّ هو ظلّك...

فقال بهدوء لا يتأثّر بالانفعالات:

- السلطان يجب أن يذهب بما فقد من أهليّة، أمّا الإنسان فعليه أن يجد خلاصه...

- إنّك تعرّض المدينة لأهوال...

- بل إنّي أفتح لها باب النقاء وأهيم على وجهي باحثًا عن خلاصي...

مدّت راحتها إلى راحته في الظلام لكنّه سحب يده قائلًا:

- انهضي لمهمّتك، لقد أدّبتِ الأب، وعليك أن تُعدّي الابن لمصير أفضل...

- ٦ -

ظنّ السندباد أنّه سينعم بمسرّات العمل والسمر حتّى نهاية العمر ولكنّه رأى حلمًا... ولمّا استيقظ لم ينس الحلم ولم يتلاش أثره... ما هذا الحنين؟. هل قُدّر له أن يمضي العمر تتقاذفه أمواج البحار؟ منذا الذي يناديه من وراء الأفق؟. أيريد من الدنيا أكثر ممّا أعطته؟. أغلق وكالته مساءً ومضى إلى دار عبد الله البلخي وهو يقول عنده الرأي... ولمح في طريقه إلى حجرة الشيخ زبيدة ابنته فمادت به الأرض واجتاحه هدف جديد للزيارة لم يخطر بباله من قبل... وجد الشيخ ووجد معه الطبيب عبد القادر المهيني... جلس حائرًا متردّدًا، ثمّ قال:

- جئت يا مولاي طالبًا يد كريمتكم...

فتقبه الشيخ بنظرة باسمة وقال:

ـ كلّا، دفعك للمجيء دافع آخر!

فبُهت السندباد ولم ينبس... فقال الشيخ:

ـ ابنتي مذ قُتل زوجها علاء الدين قد كرّست نفسها للطريق...

فتمتم السندباد:

ـ الزواج لا يصدّ عن الطريق...

ـ قالت كلمتها النهائيّة في ذلك!

تنهّد السندباد آسفًا فسأله الشيخ:

ـ ماذا دفعك إليّ يا سندباد؟

فأطال الصمت كفاصل بين الادّعاء والحقيقة ثمّ همس:

ـ القلق يا مولاي...

فتساءل عبد القادر المهيني:

ـ هل أصاب تجارتك الكساد؟

فقال السندباد:

ـ إنّه قلق مَن لا يجد سببًا ملموسًا للقلق...

فقال الشيخ:

ـ أفصح يا سندباد...

ـ كأنّما تلقّيت دعوة من وراء البحار!

فقال عبد القادر المهيني ببساطة:

ـ سافر ففي الأسفار سبع فوائد...

فقال السندباد:

ـ رأيت في الحلم الرخّ يرفرف بجناحيه...

فقال الشيخ:

ـ لعلّها دعوة إلى السماء...

فقال في تسليم:

ـ إنّي من رجال البحر والجزر...

فقال الشيخ:

ـ اعلم أنّك لا تنال درجة الصالحين حتّى تجوز ستّ عقبات، أولاها أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدّة، والثانية أن تغلق باب العزّ وتفتح باب الذلّ، والثالثة أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت...

فقال بأدب:

ـ لست من هؤلاء الصفوة ولٰكنّ باب الصلاح يتّسع لآخرين...

فقال الطبيب عبد القادر المهيني:

ـ نطقت بالصدق...

فقال الشيخ للسندباد:

ـ إذا أردت أن تكون في راحة فكُلْ ما أصبْتَ والبسْ ما وجدت وارضَ بما قضى الله عليك...

فقال السندباد:

ـ حسبي أنّي أعبد الله يا مولاي...

فقال الشيخ:

ـ اطّلع الله على قلوب أوليائه فمنهم مَن لم يكن يصلح لحمل المعرفة حرفًا فشغلهم بالعبادة...

فقال الطبيب مخاطبًا الشيخ:

ـ لقد رأى وسمع، إنّي أغبطه...

فقال الشيخ:

ـ طوبى لمن كان همّه همًّا واحدًا ولم يشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه...

فقال السندباد:

ـ انهمرت النداءات من ألف عجيبة وعجيبة...

فردّد الشيخ:

أنا في الغربة أبكي
ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي
من بلادي بمصيب
عجبًا لي ولتركي
وطنًا فيه حبيبي

فنظر المهيني إلى الشيخ مليًّا ثمّ قال:

ـ إنّه راحل يا مولاي فودّعه بكلمة طيّبة!

فابتسم الشيخ برقّة وقال للسندباد:

ـ إذا سلمت منك نفسك فقد أدّيت حقّها، وإذا سلم منك الخلق فقد أدّيت حقوقهم...

فهوى السندباد على يده فقبّلها ثمّ نظر إلى الطبيب ممتنًّا وهمّ بالقيام غير أنّ الطبيب وضع يده على منكبه وقال:

ـ اذهب مصحوبًا بالسلامة ثمّ عد محمّلًا بالماس والحِكَم ولكن لا تكرّر الخطأ...

فتجلّت في عيني السندباد نظرة حيرى فقال المهيني:

ـ لم يطر الرخّ بإنسان قبلك فماذا فعلت؟ تركته عند أوّل فرصة منجذبًا ببريق الماس...

ـ بل لم أكد أصدّق بالنجاة...

فقال المهيني بحماس:

ـ الرخّ يطير من عالم مجهول إلى عالم مجهول، ويثب من قمّة الواق إلى قمّة قاف فلا تقنع بشيء فهي مشيئة ذي الجلال!

وكأنّ السندباد قد شرب عشرة أرطال من الخمر...

البكّاءون

ـ ١ ـ

هجر العرش والجاه والمرأة والولد... عزل نفسه مقهورًا أمام ثورة قلبه في وقت تناسى فيه شعبه آثامه القديمة الماضية... اقتضت تربيته زمنًا غير قصير... لم يقدم على الخطوة الحاسمة حتّى استفحل في باطنه الخوف وهيمنت رغبته في الخلاص... غادر قصره بلَيْلٍ، عليه عباءة خفيفة وبيده عصًا مستسلمًا للمقادير... أمامه سبيل للسياحة كما فعل السندباد، وسبيل إلى دار البلخي، وثمّة مهلة للتدبّر... قادته قدماه إلى الخلاء قريبًا من اللسان الأخضر فترامى إلى أذنيه صوت غريب... أنصت تحت هلال في السماء الصافية فأيقن من أنّه يسمع نحيبًا جماعيًا!... قوم يبكون في هٰذا الخلاء؟. مضى نحو مصدر الصوت في حذر حتّى استقرّ وراء نخلة... رأى صخرة كالقبّة ورجالًا يتربّعون حيالها في خطّ مستقيم... لا يكفّون عن البكاء... ثار فضوله وتناوبته الأفكار... وإذا برجل منهم ينهض فيمضي إلى الصخرة وينهال عليها ضربًا بقبضته، ثمّ يرجع إلى مجلسه ويواصل البكاء مع الباكين... أحدّ شهريار بصره فعرف في الرجال جملة من رعاياه السابقين، سليمان الزيني والفضل بن خاقان وسامي شكري وخليل فارس وحسن العطّار وجليل البزّاز... فكّر أن يقتحم مجلسهم ليكشف سرّهم ولكنّ الحذر شدّه إلى موقفه... وقبيل الفجر قام أحدهم وقال:

ـ آن لنا أن نرجع إلى دار العذاب!

فكفّوا عن البكاء وقاموا وهم يتواعدون على اللقاء غدًا ثمّ مضوا نحو المدينة كالأشباح...

ـ ٢ ـ

ما معنى هٰذا؟...

اقترب من الصخرة... دار حولها دورة كاملة... ما هي إلّا صخرة في صورة قبّة غير مستوية يمرّ بها العابر فلا تثير اهتمامه... دنا منها فتحسّس سطحها فوجده خشنًا... هوى عليه بقبضته مرّات ثمّ همّ بالتحوّل عنها عندما صدر منها إليه صوت قويّ متحرّك... تكشّفَ أسفلها عن مدخل مقوّس الهامة فتراجع مرتعدًا من الخوف، لٰكنّه رأى نورًا هادئًا عذبًا ونسمت رائحة زكيّة مخدّرة... زايله الخوف بتلقائيّة وقال له صوت خفيّ إنّ هٰذا الباب هو ما تاق الرجال إلى فتحه وما أحرقوا الدموع من أجله... اقترب منه... أدخل رأسه متطلّعًا فجذبته فتنة طاغية... ما كاد يدخل حتّى أُغلق الباب وراءه ولٰكنّ فتنة المكان استحوذت عليه كلّه... منير بلا ضوء... عذب المناخ بلا نافذة، متضوّع بشذًا طيّب بلا حديقة... أرضه بيضاء ناصعة قُدّت من معدن مجهول، جدرانه زمرّديّة، سقفه مزركش بمهرجان من الألوان المتناغمة، في نهايته بوّابة متلألئة كأنّما طُعّمت بالماس، مضى بلا تردّد متناسيًا ما وراءه، ظنّ أنّه سيبلغ البوّابة في دقيقة أو دقيقتين، ولٰكنّه مشى طويلًا والممرّ باقٍ على حاله لا يقصر والفتنة من الجوانب تتدفّق... أشفق من أن يكون طريقًا بلا نهاية، لٰكنّه لم يفكّر في الرجوع ولا في التوقّف وطاب له المشي العقيم إلى الأبد... ولمّا أوشك أن ينسى أنّ لمشيه غاية وجد نفسه يقترب من بركة صافية تقوم فيما وراءها مرآة مصقولة، وسمع صوتًا يقول:

ـ افعل ما بدا لك...

سرعان ما لبّى رغائبه الطارئة فخلع ملابسه وغاص

في الماء... دلكته نبضات الماء بأنامل ملائكيّة وتسلّلت إلى باطنه أيضًا... خرج من الماء فوقف أمام المرآة فرأى نفسه جديدًا في إهاب فتًى أمرد، قويّ الجسم متناسقه، بوجه مليح ينضح فتوّة وشبابًا، وشعر أسود مفروق، وقد طرّ بالكاد شاربه... همس:

- سبحان القادر على كلّ شيء...

والتفت إلى ملابسه فوجد بديلها سروالًا من الحرير الدمشقيّ وعباءة بغداديّة وعمامة خراسانيّة ونعلًا مصريًّا، فارتداها فصار آية تسرّ الناظرين...

وواصل السير فوجد نفسه أمام البوّابة، ووجد أمامها صبيّة ملائكيّة لم يرها من قبل، سألته باسمة:

- مَن أنت؟

فأجاب بحيرة:

- شهريار...

- ما صناعتك؟

- هارب من ماضيه...

- متى تركت بلدتك؟

- منذ ساعة على الأكثر...

فما تمالكت أن ضحكت قائلة:

- ما أضعفك في الحساب!

وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قالت الصبيّة:

- انتظرناك طويلًا، المدينة كلّها تنتظرك...

فتساءل في دهشة:

- أنا؟

- تنتظر العريس الموعود لملكتها المعظّمة...

وأشارت بيدها ففُتحت البوّابة مرسلة صوتًا كأنين الرباب...

- ٣ -

وجد شهريار نفسه في مدينة ليست من صنع بشر، كأنّها الفردوس جمالًا وبهاء وأناقة ونظافة ورائحة ومناخًا، تترامى بها في جميع الجهات العمائر والحدائق، والشوارع والميادين المكلّلة بشتّى الأزهار، وتنتشر فوق أديمها الزعفرانيّ البرك والجداول، سكّانها نساء، لا رجل بينهنّ، ونساؤها شباب، وشبابها جمال ملائكيّ... وانتبهن إلى القادم فهرعن إلى الطريق الملكيّ المؤدّي إلى القصر، وسجدن بين يديه وهنّ ينشدن نشيد الشكر... ومضى هو مع الصبيّة إلى القصر...

- ٤ -

انبهر للقصر كأنّه أحد صعاليك شعبه... آمن بأنّ قصره القديم لم يكن سوى كوخ قذر... قادته الصبيّة إلى قاعة العرش... الملكة تفيء على عرشها بين جناحين من صبايا كاللآلئ...

سجدت الصبيّة بين يدي الملكة الآية وقالت:

- عريسك الموعود يا صاحبة الجلالة...

ابتسمت الملكة ابتسامة أفقدته لبّه... سجد بدوره وهو يقول:

- ما أنا إلّا عبد مولاتي...

فقالت الملكة بصوت عذب كأجمل الألحان:

- بل أنت شريكي في الحبّ والعرش...

فقال بصدق وأمانة:

- يقتضيني الواجب أن أصارحك بأنّني عشت في الماضي حياة طويلة حتّى شارفت الشيخوخة...

فقالت الملكة بعذوبة:

- لا أدري عمّا تتحدّث...

- إنّي أتحدّث عن قبضة الزمن يا مولاتي...

فقالت بسرور:

- ما عهدنا الزمن إلّا صديقًا وفيًّا لا يطغى ولا يغدر...

فغمغم شهريار:

- سبحان الله القادر على كلّ شيء...

واحتفلت المدينة بالزواج أربعين يومًا...

- ٥ -

ومضى الوقت في حبّ وتأمّل، وللعبادة أيضًا وقتها وهي تمارس في الشراب والغناء والرقص...

وتبيّن لشهريار أنّه بحاجة إلى ألف عام لاكتشاف خبايا الحديقة، وإلى ألف عام أو أكثر لمعرفة أبهاء القصر وأجنحته... ويومًا - وكان بصحبته الملكة - مرّ بباب صغير من الذهب الخالص في قفلة مفتاح من

الذهب المحلّى بالماس، التصقت به بطاقة كُتب عليها بخطّ أسود «لا تقرب هٰذا الباب»، فسأل الملكة:

ـ لم هٰذا التحذير يا حبيبتي؟

قالت بعذوبتها المألوفة:

ـ نحن نعيش هـا هنا في حرّيّة مطلقة فمجرّد النصيحة يعتبر في عرفنا إهانة لا تغتفر...

ـ ألم يصدر منك كأمر ملكيّ؟

فقالت بهدوء:

ـ صيغة الأمر غير مستعملة عندنا إلّا في الحبّ وقد وُجد كما تراه منذ ملايين السنين!

ـ ٦ ـ

وسأل زوجته مرّة وهو يداعبها:

ـ متى يكون لنا وليد؟

فتساءلت في ذهول:

ـ أتفكّر في ذٰلك ولّما يمض على زواجنا إلّا مائة عام؟!

ـ مائة عام فقط؟

ـ بلا زيادة يا حبيبي...

فتمتم:

ـ حسبتها أيّامًا معدودة...

قالت بأسف:

ـ لم يُمحَ الماضي من رأسك بعد...

قال كالمعتذر:

ـ إنّي سعيد على أيّ حال سعادة لم يعرفها آدميّ من قبل...

فقبّلته قائلة:

ـ ستعرف السعادة الحقيقيّة عندما تنسى الماضي تمامًا...

ـ ٧ ـ

وكلّما مرّ بالباب المحرّم نظر نحوه باهتمام وكلّما غاب عن الجناح القائم به رجع إليه... ألحّ على فكره ووجدانه وجعل يقول لنفسه:

ـ كلّ شيء واضح إلّا هٰذا الباب!

ـ ٨ ـ

وضعفت مقاومته ذات يوم فاستسلم لنداء خفيّ... انتهز غفلة من الخادمات فأدار المفتاح... انفتح الباب بيسر عن نغم ساحر وشذًا طيّب ودخل مضطرب القلب كبير الأمل. انغلق الباب فتجلّى له مارد لم يرَ أقبح منه... انقضّ عليه فرفعه بين يديه كعصفور... هتف شهريار نادمًا:

ـ دعني بربّك!

وكأنّما قد استجاب له فأرجعه إلى الأرض...

ـ ٩ ـ

نظر فيما حوله بجنون وتساءل:

ـ أين أنا؟

الصحراء والليل والهلال والصخرة والرجال والنحيب المتواصل شهريار وعصاه وهواء المدينة الفاسد... صرخ من قلب مكلوم:

ـ كلّا... كلّا...

هوى بقبضته على الصخرة مرّات حتّى بضّ الدم منها ثمّ هتف:

ـ الرحمة... الرحمة...

ولٰكن دهمته الحقيقة واجتاحه اليأس... تقوّس ظهره وطعن في السنّ... ودون اختيار مضى نحو الرجال بخطًى متعثّرة وارتمى في آخر الصفّ... وسرعان ما انخرط في البكاء مثلهم تحت الهلال...

ـ ١٠ ـ

قبيل الفجر ذهب الرجال كالعادة ولٰكنّه لم يذهب ولم يكفّ أيضًا عن البكاء... وإذا برجل يمضي في الليل وحيدًا فاقترب منه وسأله:

ـ ماذا يبكيك يا رجل؟

فقال شهريار بضيق:

ـ لا شأن لك بذٰلك...

فقال الآخر وهو يتفرّس في وجهه بإمعان:

ـ إنّي كبير الشرطة وما جاوزت حدودي...

فقال شهريار:

- لن تعكّر دموعي صفو الأمن!

فقال عبد الله العاقل وهو يتمادى في تفرُّس وجهه:

- دَعْ هٰذا لتقديري وأجبني. . .

صمت شهريار مليًّا ثمّ قال وكأنّما غفل عن الموقف كلّه:

- جميع الكائنات تبكي من ألم الفراق!

فسأله وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

- أليس لك مأوى؟

- كلّا. . .

- هل يطيب لك أن تقيم تحت النخلة قريبًا من اللسان الأخضر؟

فقال دون مبالاة:

- ربّما. . .

قال الرجل برقّة:

- إليك قول رجل مجرّب قال: «من غيرة الحقّ أن لم يجعل لأحد إليه طريقًا، ولم يؤيّس أحدًا من الوصول إليه، وترك الخلق في مفاوز التحيّر يركضون، وفي بحار الظنّ يغرقون، فمن ظنّ أنّه واصل فاصله، ومَن ظنّ أنّه فاصل مناه، فلا وصول إليه ولا مهرب عنه، ولا بدّ منه». . .

قال عبد الله العاقل ذٰلك ثمّ ذهب صوب المدينة. . .

رأيت فيما يرى النائم

أهل الهوى

من فوهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع. زحف في بطء وتخاذل المريض المتهالك. مدّ ذراعه إلى جدار بيت، يتّكئ عليه، ليقف في عناء مترنّحًا، تاركًا تأوّهاته المتقطّعة تتلاحق في وَهَن. وفي صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافي والحياة تدبّ متدفّقة في الحوانيت على الجانبين وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كلّ شيء سقفًا من الزرقة الرائقة، بدا عاريًا تمامًا. فلفتَ الأنظار، خاصّة أنظار الأقربين، نعمة الله الفنجري تاجرة الخردة، رياض الدبش الكوّاء البلديّ، وحلّومة الجحش بيّاع الفول. تفرّست نعمة الله في منظره من مجلسها فوق الكرسيّ الخشبيّ أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن في جلبابها الرجاليّ الأزرق وتمتمت:

- يا فتّاح يا عليم!

فقال رياض الدبش الكوّاء وهو يتابعه بوجهه المغوليّ:

- ووراءه حادثة من حوادث القبو...

فقال حلّومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريّان:

- يفعلها الذئاب ونتعب نحن بين س و ج...

واصلت نعمة الله تفرّسها حتّى وضح في وجهها ذلك المزيج الغريب المكوّن من قوّة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثمّ قالت بنبرة خبير:

- ابن ناس!

تجلّى الاهتمام في عيني الرجلين فتبادلا نظرة معبّرة ربطت ما بين الدكّانين الواقعين في مواجهة الوكالة في الجانب المقابل ثمّ حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة. إنّه شابّ في الحلقة الثالثة، ناعم البشرة، مهذّب الملامح، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة، ثمّ قال رياض الدبش مُداريًا انفعاله:

- اعتداء وسرقة!

ومضى يتجمّع حوله جمهرة من المشاهدين ولكنّ نعمة الله نهرتهم فتفرّقوا سراعًا. وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة في الوسط فتلقّى الشابّ بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزًا عن التماسك. ونادى عبدون فرجلة الشابّ العامل في الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاونا - مخلوف الممرّض وعبدون - على حمله إلى العيادة.

هناك أنامه مخلوف فوق كنبة وغطّاه بملاءة منتظرًا قدوم الطبيب محسن زيّان في ميعاده من الضحى. إنّه رجل كهل فقد في الحرب ابنًا في مثل سنّه ولا ينقصه العطف على أيّ شابّ رغم إيلافه مناظر العناء والمرض. ولمّا فحصه محسن زيّان الطبيب البدين ذو النظرة الخاملة الطيّبة تمتم:

- كدمات في الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة، علينا أن نبلّغ الشرطة...

فقال مخلوف زينهم بامتعاض:

- إنّهم ذئاب القبو، وستغضب نعمة الله!

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج، ثمّ تمتم الممرّض:

- إنّهم تحت حماية المرأة، وهم جنودها السرّيّون عند الحاجة، ولا قِبَل لأحد بتحدّيها...

فشرع الطبيب في العلاج وهو يقول:

- ما قيمة حياة تجري تحت رحمة امرأة كهذه!

ولم ينقطع ذكر الشابّ الضحيّة في موقع وكالة الخردة. شُغل حلّومة الجحش بزبائن الفول وراح غلام في دكّان رياض الدبش يسخّن المكواة فوق الجمر المتّقد على حين انهمك عبدون فرجلة في ترتيب ما تبعثر من إطارات السيّارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة والمحرّكات والمراوح البائدة. وسألت نعمة الله عبدون عن حال الشابّ الذي شارك في حمله الى العيادة فلاحَ في وجهه الطويل الشاحب الضيقُ لاهتمامها به وقال:

- سنسمع قريبًا عن موته!

فحوّلت رأسها المكلّل بشعر أسود مفروق مسترسل في ضفيرة غليظة ملتفّة حول صفحة العنق ونافذة في طوق الجلباب إلى رياض الدبش قائلة:

- سمعت ما يقول ابن التربى عن الأفندي؟!

فتساءل رياض الدبش مستنكرًا:

- الأفندي؟!

- أفندي وحياتك، أفندي وابن ناس!

فداري رياض غيظه بابتسامة ميتة وإن جارى عبدون فرجلة في حنقه أمّا نعمة الله فتساءلت:

- ولكن ماذا جاء به إلى القبو؟

فقال رياض منفّسًا عن صدره:

- وراء بنت من حريم الذئاب!

فقالت بحدّة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة:

- مثله لا يجري وراء خنفساء!

- المؤكّد أنّ الذئاب هجموا عليه فضربوه ثمّ جرّدوه من كلّ شيء...

ولّما رجع إلى الظهور في الحارة تبدّى في صورة أخرى. رفل حافيًا في جلباب قديم أهداه إليه مخلوف زينهم. لم يَبْقَ من آثار الحادث إلّا ضِمادة التفّت حول رأسه كالعمامة. وبدلًا من أن يذهب إلى حال سبيله هام على وجهه في الحارة مثل كلب ضالّ بنظرة خائفة مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعْرف لنفسها هدفًا. ووقف أخيرًا في مجال الرائحة الحِرّيفة الدسمة البدائيّة المنتشرة من الطعميّة في ابتهال ذليل. حامت حوله أعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ما هجرته في لا مبالاة إلّا عينين سوداوين ثبتتا عليه في إصرار وتمادٍ. ولمست عذابه فأمرت حلّومة الجحش بأن يهدي إليه رغيفًا وطعميّة على حسابها. ورغم إشرافها على شحن ثلاث عربات بالخردة ومراقبة عبدون فرجلة والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشيّ. يكاد الشعر النابت في عارضيه ولغده أن يلتهم وسامة وجهه كما يلتهم هو الطعام. تُرى لِمَ لم يذهب إلى حال سبيله؟. وماذا يبقيه في هذه الحال الزريّة البائسة؟. وبدافع من شعور فطريّ بالامتنان تربّع على الأرض غير بعيد من موقفها مسندًا ظهره إلى جدار الوكالة الذي لاح لأوفها كمخزن لنفايات الحديد. وسألته باهتمام:

- اسمك يا جَدَع؟

فرفع اليها عينيه العسليّتين في حيرة واضحة ولم ينبس فتساءلت كالمحتجّة:

- أهو سرّ لا يُذاع؟!

فتحوّلت الحيرة إلى صورة ناطقة للعجز فقال لها رياض الدبش الكوّاء:

- الصبر، ألا ترين أنّه لم يُشْفَ بعد ممّا به؟

- لحدّ نسيان اسمه؟

- ما زال غير موجود!

فرجعت إلى الشابّ قائلة:

- اسمك؟... تذكّر وأجب، من أنت، من أين جئت؟

فانقلب العجز عذابًا وتوجّس خيفة فقالت بحدّة:

- قل أيّ شيء...

فغمغم مقهورًا:

- لا أدري...

فردّدت عينيها بين رياض وحلّومة قائلة:

- إنّه يهزأ بنا...

فقال عبدون فرجلة وهو لا يكفّ عن العمل:

- دعيني أطرده بعيدًا...

فصاحت به:

- طردت العافية من بدنك!

ونادت مخلوف زينهم فلمّا حضر الكهل سألته عن الشابّ فقال:

ـ إنّه بلا ذاكرة!

فقالت بضيق:

ـ لم أسمع عن هٰذا المرض من قبل، هل يطول غيابه؟

فقال الكهل بعطف:

ـ لا أحد يدري، من ناحيتي فانّي أسعى لدى الطيّبين للتبرّع بما يكفي لنشر صورة له في الجرائد كي يهتدي أهله إليه...

فقالت المرأة بغلظة:

ـ كفّ عن ذٰلك ودع الأمر لي!

فرمقها الكهل بيأس ثمّ قال:

ـ لك الجزاء الحسن عند الله...

ومضى نحو العيادة.

وأفسحت المرأة للشابّ مجالًا للعمل في الوكالة معلنة بذٰلك اهتمامها به فأقلع الجميع عن التفكير فيه إيثارًا للسلامة. وراح يؤدّي ما يطلب منه نظير طعامه وكسائه، وتجاهله عبدون فرجلة طاويًا حقده في قلبه خوفًا من المعلّمة، ولٰكنّ الحقد عليه تفشّى في قلوب كثيرة، في مقدّمتها قلبا رياض الدبش وحلّومة الجحش. توقّع كلاهما دهرًا أنّ عبدون فرجلة هو المرشّح للنعيم حتّى زحف الفتى المجهول من القبو كالقدر. وتجلّى رونق وجهه بعد الحلاقة، وشعر رأسه الممشّط بعد إزالة الضمادة كما ارتسمت رشاقة قامته في البنطلون القصير الكاكيّ والقميص الرماديّ نصف الكمّ والحذاء الأسود الموكاسان. أمّا هويّته المفقودة فلم تستردّ، ومضت هويّة جديدة بدائيّة تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتة، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق، لائذة بغرائزها المتحفّزة. وتمنّى له الحاقدون الشفاء لعلّه يختفي فجأة كما ظهر فجأة. أمّا نعمة الله الفنجري، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة أخرى. سرّتها نظراته النهمة البهيميّة، ولغته الصامتة المكشوفة معًا، وحوَمانه الحارّ الجنونيّ حولها بلا حياء، حتّى قالت لنفسها «لا بدّ من تهذيبه». قوّتها الراسخة نفسها اهتزّت حيال هوَج انفعالاته الجامحة، فخافت أن يصيبها سوء مجهول بين يديه المندفعتين بعنف البراءة العمياء. وقالت لنفسها أيضًا «إنّي أخيف الرجال ولٰكن لا أدري كيف أتعامل مع الزوابع». بدا غريزة مجسّدة تهيم في غابة من نفايات الحديد. وسمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون فنهرته قائلة بنبرة آمرة:

ـ إنّه يدعى عبدالله!

فتساءل عبدون:

ـ ألا ترين أنّه لا يعرف دينًا ولا ربًّا؟!

فشكمته بضربة في صدره أوشكت أن تطرحه أرضًا، وسرعان ما عُرف بعبد الله، ولٰكنّها قلقت من حرّيّته المطلقة المنذرة دائمًا بعواقب مجهولة. إنّه لا يتورّع عن مدّ يده إلى أيّ موضع خصب من جسمها فترجعه جادّة حذرة، رغم ظهورها بمظهر الرجال في الوكالة طيلة النهار، فكيف لو لمحها في منظرها الأنثويّ الطاغي في مسكنها الناعم الخياليّ فوق الوكالة؟!. وخطر لها خاطر حكيم ادّخرته لزيارة الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية الذي يتلقّى منها المعونة له وللزاوية في أيّام محدّدة. إنّها تغطّي طغيانها المخيف بنفحات كرم تُسكت بها ذوي الألسنة القادرة، وتمارس في الدين طقوسًا وثنيّة فلا تأبى ـ رغم جبروتها ـ أن تؤنس وحدتها الداخليّة بالأحجبة والتعاويذ. جالست الشيخ على أريكة قائمة في الجانب الأيمن من الوكالة بين تلّين من قطع الحديد. وتراءى عبدالله وهو يعاون عبدون فرجلة في شحن عربة بالإطارات الملساء، ولمحت المرأة الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت:

ـ أعطيته عملًا ورزقًا...

فقال الشيخ وهو في أعماقه يخافها ولا يحبّها:

ـ الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا...

ـ ولٰكنّه نسي الدين فيما نسي...

ـ أعوذ بالله...

فقالت بإغراء:

ـ هٰذه هي مهمّتك يا شيخ جابر...

ـ يا لها من مهمّة شاقّة!...

ـ لا تكن طمّاعًا، وحظّك محفوظ، المهمّ أن تعلّمه كيف يخاف، يكفي هٰذا...

أدرك لتوّه أنّها تريده على أن «يعدّه» لها. لعنها في سرّه واستغفر ربّه، وقال لنفسه إنّه ليس من حقّه أن يسيء بها الظنّ استنباطًا من نيّة لا يعلمها إلّا الله،

وإنّ مهمّته في ذاتها خير يستحقّ عليه المثوبة. ودُهش كثيرون عندما رأوا الفتى يُساق كلّ عصر إلى الزاوية لتلقّي دروس في الدين. وقال السذّج إنّها امرأة شرّيرة طاغية ما في ذلك شكّ ولكنّها لا تخلو من جانب خير. أمّا أمثال رياض الدبش وحلّومة الجحش فقد فطنوا إلى اللعبة. وتساءل حلّومة بحرقة:

ـ متى أراها فريسة للزمن؟!

كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها في قلوبهم أظافر المرأة. حظي مَن حظي منهم بالعشق حين جادت به وتجرّعوا الهجر حين هجرت. وعند ظهور فتًى جديد يختال في أبّهة النصر يتعزّون عن الأسى يفترض النهاية المحتومة. إنّها دائمًا تتربّص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها. ولكن متى تخمد نيران تلك الشهوة المتأجّجة؟!. وراحت تكافئ الشيخ جابر على دروسه بكرم ثمّ تراقب الفتى وتنتظر. ودخل في مقام من مقامات الحيرة، وتجلّى التساؤل في عينيه. ولم تشأ أن تسأله حتّى يبادرها بالسؤال، وقد سألها:

ـ أهو صادق فيما يقول؟... أعني الشيخ جابر عبد المعين؟

فقالت بحرارة:

ـ الصدق أعزّ ما يملك في هذه الحياة...

فاشتدّت حيرته ومضى يعرف الحياء، ويداري انفعالاته، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ. وحثّت هي الشيخ على أن يعفي الفتى من التعمّق أو يكلّفه بما لا يطيق. إنّها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كلّ موقف بما يناسبه من الآيات. إنّها ترغب في امتلاك الشابّ وتخاف تمرّده، وعلّمتها حياتها أنّ القليل من الدين مفيد أمّا الكثير منه فيُنذر بالخطورة والغمّ. وهي مرتاحة إلى نموّ رغبته فيها وعذابه الدفين بالتردّد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة في آن. وتمتم أمام شيخه:

ـ الله والجنّة والنار.

فقال له الشيخ جابر:

ـ تدبّر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة والصبا... فتساءل في حيرة:

ـ والرغبات الجامحة من خلقها؟

فقال الرجل بضيق خفيّ:

ـ هذا هو امتحان الإنسان...

وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه. أيّ فرد يجهل مستقبله أمّا أنا فأجهل ماضيَّ ومستقبلي معًا. ماضٍ ليس بالقصير وحفل ولا شكّ بأشياء وأشياء. ولم يفطن إلى جوّ الحقد الذي يلفحه إلاّ قليلاً، فعدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجسّدة، ولم يفطن كذلك إلى أنّ نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانتزاعه نهائيًا من يدي الشيخ عبد المعين. ولكنّ قلبًا واحدًا ظلّ يخفق بالعطف عليه هو قلب الممرّض مخلوف زينهم. تسلّل مساءً إلى الزاوية فصلّى المغرب ثمّ انتهى بالشابّ ناحية عقب انتهاء الدرس. لمس التجهّم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له:

ـ اخْشَ ربّك وحده!

فتساءل الشيخ بحدّة:

ـ وأنت ألا تخشى المرأة أيضًا؟

ـ يمكن أن تستمدّ من العمامة قوّة وليس لي ذلك.

فقال الشيخ:

ـ لولا المرأة ما كانت الزاوية!

فقال له بأسىً:

ـ إنّك تعلم أنّها ترعاها من أجل الشيطان...

وأقبل على الفتى معرضًا عن الشيخ وقال:

ـ سوف تستردّ ماضيك يومًا ما، مظهرك يدلّ على أنّك منحدر من أصل طيّب، ولعلّك كنت ماضيًا في مهمّة نافعة، لست من حيّنا فماذا جاء بك إليه؟، والعمل المتاح لك اليوم لا يناسبك فماذا كان عملك؟...

فتمتم عبدالله:

ـ لا حيلة لي الآن...

ـ هذا واضح، المهمّ ألّا تتورّط في مأزق يتعذّر الخروج منه إذا انقشعت الظلمات...

ـ نعمة الله هيّأت لي عملًا ومأوًى...

ـ هي في الحقيقة نقمة لا نعمة!

ـ لولاها...

فقاطعه:

ـ إنّها صاحبة خطّة قديمة متجدّدة، سوف تهبك

نفسها فتظنّ نفسك سيّد العالمين. . .

فتورّد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن:

- لست الأوّل ولن تكون الأخير، وسوف تلفظك حتمًا وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة في حمأة الهجر الدائم وتنضمّ إلى ركب التعساء الكثيرين. . .

قلقت في عينيه العسليّتين نظرة حائرة ولكنّ موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة:

- إنّها قويّة بلا حدود، حتّى ذئاب القبو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها، وعند الضرورة تزهق روح من يعاندها، هي السحر وكفى. . .

فتساءل الشابّ احترامًا لعطف الرجل:

- ماذا تريد منّي؟

- أن تهجر الحارة في الحال. . .

- إلى أين؟

- ستجد لك رزقًا في مكان ما حتّى تستعيد ذاتك. . .

صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق:

- أوَقعت في قبضة قدرك؟

فأجابه بصمت ناطق واستخفّته الفتنة، وشعر مخلوف زينهم أنّه يجري بعيدًا عنه، وأنّه ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق. تنهّد الرجل. قام وهو يتبادل مع الشيخ نظرة حنق ثمّ مضى وهو يقول للشابّ:

- الله معك!

وهلّ الصيف بشخصيّته الواضحة المتحدّية، وتحت شمسه المحرقة سرى العنف في الخناجر واحتدم الخصام لأتفه الأسباب. واتّهم عبدون فرجلة الفتى بسرقة قروش افتقدها فانقضّ عليه يصارعه لولا ظهور نعمة الله في اللحظة المناسبة وإنذارها عبدون بالطرد إذا عاود العدوان. وقرّرت المرأة كفّ الفتى عن دروسه الدينيّة اكتفاء بما حصّل من قشور فكثر الفراغ في حياته كما كثرت الهموم. بات يخاف الله، ويخاف عبدون، ويخاف تحذيرات عمّ مخلوف زينهم، ويتساءل عن ماضيه الطيّب والمهمّة التي جاءت به إلى هذه الحارة العصبيّة، ويتساءل متى يبدأ العشق قصّته، وماذا يمكن أن يقال عن المصير المحتوم، وألّا يكون خسرانه أكبر إن تجنّب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزن؟!. خاض فترة قلق، وتطلّع الى معلّمته بنفاذ صبر، وجزع لانهماكها في العمل وما يبدو من تجاهلها لحاله. غير أنّها كانت قريبة منه أكثر ممّا يتصوّر، ومتغلغلة في تلافيف ذاته بقوّة امرأة آسرة وأسيرة في آن. إنّها رغم قوّتها المعترف بها، وقدوتها الإداريّة، وسطوتها الأسطوريّة، فريسة لخيالها المنطلق وعواطفها الجامحة. إنّها تعشق حتّى الموت، وعشقها داء لا دواء له، وعندما يرشّح لها قلبها فتًى من الفتيان فتهيم به وتجنّ، ولكنّ الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القوّة واللامبالاة. تؤكّد لديها أنّها تعاني حال عشق جنونيّ لا نزوة طارئة فتأهّبت للتجربة. لاذت بخلوتها الصغيرة بمسكتها الوثير المفروشة أركانه بالشلت الدسمة المكسوّة بالأغطية الخضراء، يتوسّطها وعاء نحاسيّ مجوّف مُلئ نصفه بالبخور ونصفه الآخر بقصاصات منقوشة بالتعاويذ والأدعية والنداءات الخفيّة. ذرّت قبضة من البخور في مجمرة ثمّ لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذي غادر الدنيا على عهد شبابها الأوّل. وشملت الظلمة المكان إلّا لألئ تتألّق في الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهال والنداء. وحلّ بالظلمة وجود جديد، ثمرة للرغبة الحارّة المستميتة، كحضور ذي وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئيّ، وسرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الألم. تشجّعت وهمست دون أن تجفّف عرقها:

- أهلًا بك يا برجوان. . .

فنفذ إلى أعماقها صوته المغلّف بالموت:

- القبو يطيعك، الرجال يخافونك، شبابك حيّ. . .

فهمست بإشفاق.

- حلّ بي الجنون من جديد.

- صاحبك أيضًا مجنون.

- قد يرجع إلى ذاته قبل أن أبرأ من عشقه!

- إذا رجع نسي الماضي ولا حيلة في ذلك.

فقالت بتوسّل:

- سحرك قادر على كلّ شيء.

فقال بضجر:

- أولى بك أن تحذري مخاوف زينهم.

فهمست بقلق:

- أعلم نواياه ولكنّي أخاف أو أؤدّبه بنفسي فأرعب الفتى...

- فتنهّد الظلام في استجابة، وتلاشى الحضور في الحال فعادت إلى وحدتها ولكن بقلب مترع بالثقة. وأقعد المرض الممرّض مخلوف زينهم عن عمله في عيادة الطبيب محسن زيّان. وعُرف في الحارة أنّه أصيب بروماتزم مفصليّ شديد غير أنّ الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته:

- إنّه من عمل نعمة الله!

فقالت المرأة مذعورة:

- ليتك لم تَشِ به.

غضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة.

وأراد عبدالله أن يعود الرجل الذي كان أوّل من كساه بعد عري ولكنّ نعمة الله قالت له:

- لا أحبّ هذا...

ثمّ خفّفت من وقع أمرها فقالت له:

- مسكني في حاجة إلى الخدمة، وقد اخترتك لذلك.

ونسي صاحبه وتساءل في سرور طاغٍ «تُرى هل انتهى العذاب؟!». وثمّة باب في الوكالة يفتح على سلّم للمسكن تسلّل منه ليلًا. استقبلته رائحة البخور وضوء مصباح كهربائيّ مثبّت في أعلى الجدار. صعد في الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بحُميّاه معالم المكان. في نهاية دهليز رأى بابًا مُواربًا يشعّ منه نور، مضى إليه وتنحنح. جاءه صوتها الليليّ الرخيم داعيًا فدخل. لم يَرَ من الحجرة سواها وهي مستوية على كنبة مسندها مطعّم بالصدف في جلباب حريريّ أبيض يخفي قسمات الجسد ولكنّه ينبئ عن عملقته بطريقة انسيابيّة تثير الخيال. وليس في الوجه المتسلطن أثر من زواق ولكنّه ينضح بأنوثة فوّارة بعد أن خلعت قناع الذكورة الصارم الذي تتعامل به في الوكالة والحارة. والشعر الأسود ذو لون طبيعيّ لا يشي بأيّ تكلّف كيماويّ، دافئ بشباب راسخ. تركته واقفًا في جلبابه الفضفاض، لم تخفّف من ارتباكه بكلمة، كأنّما لتمتحن أثرها فيه، ولترى لأيّ تكون الغلبة: الخوف أم الرغبة؟. ومن شدّة حرجه انتزع عينيه منها ليلقي نظرة عمّا حوله ولكنّه لم يرَ سوى النظافة وكأنّها تقوم بذاتها. وتنفّس رائحة طيّبة. قال:

- لعلّه وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنّه ليس في حاجة إلى تنظيف...

فصبّت من إبريق مفضّض في قدحين فوق خوان مطعّم بالأصداف سائلًا فاحت منه رائحة القرفة الممزوجة بالزنجبيل، وعادت تنظر نحوه. وبِسَرَيان الخمر غير المنظورة في دمه التصق بصره بها في جرأة السكران. وتمادى في انفعاله حتّى اكتسح العواقب واستسلم لتيّار قويّ دفع به نحوها كالقذيفة. وكالقذيفة راح يتنقّل بين أبعادها وهي تتلقّفه بحنان حارّ، ورضًى آسر، واستجابة مستكينة وحماسيّة معًا. وما لبث أن توّج فوق عرش النشوة والسيادة، وامتلأ واقعه بعذوبة الأحلام. وتمنّى لو استمرّ ذٰلك دون توقّف، لو كان الحبّ ذا سياسة أخرى، لو أنّ السعادة لا يجرفها تيّار الذكريات. لكنّه وجد نفسه راقدًا في حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأوّل مرّة. إنّها حجرة أنيقة حقًّا. متوسّطة الحجم، مزيّنة الجدران بسجّاد صغير وبسملة مذهّبة، تتوسّط أضلعها كنبات وثيرة ذوات أغطية مختلفة الألوان ومساند مطعّمة بالأصداف مموّهة بالأمثال، مغطّاة أرضها بسجّادة حمراء في وسطها مجمرة كبيرة تحت مصباح كهربائيّ في قنديل. وسرعان ما انتقل من الفتور إلى القلق حتّى قالت له:

- نظرة عينيك لا تعترف بجميل.

فلثم خدّها وهو يقول ببراءة:

- أخاف النار!

فابتسمت قائلة بحنان:

- عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعيّة مباركة!

فمال إلى تصديقها بكلّ قواه ورآها جديرة بالانقياد، أمّا هي فواصلت:

ـ منذ الساعة فأنت شريكي في البيت ووكيلي في الوكالة!

وتبدىّ في صورة جديدة، صورة المعلّم الشابّ بجلبابه الأبيض ولاثته المزركشة، وزهوه المتورّد. وعمل عبدون فرجلة في ظلّه، مكرهًا على طاعة مرّة كالسمّ، منطويًا عن مقت وحسد كالنار. وشاركه في عواطفه الدفينة رياض الدبش الكوّاء وحلّومة الجحش الفوّال وآخرون. ولكنّ عبدالله تجاهل في نشواته العواطف الدفينة. وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر أشعّتها في جميع الأرجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة وأغاني الراديو وتصامّ عمّا عدا ذلك حتّى آمن بأنّ مهجره الجديد ما هو إلّا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظّ الذي ساقه من المجهول إلى القبو واستخلصه من ماضٍ لا يجوز أن يأسف عليه. وانغمس في الحبّ في الليالي المذابة في أقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات السحر، الداعية لعوالم الخيال والذهول. وتكشّفت نعمة الله عن معجزة لا نهاية لإبداعها وفنونها وأنغامها، ولا نهاية لقدرتها الخارقة في إشعال الحيويّة وتفجير الطاقة، وخلق المسرّات، وإشباع الكرامة، وإرضاء الغرور. انغمس في الحبّ حتّى قمّة رأسه، وتعلّق بها حتّى الجنون، وألهمته سعادته الإحساس بالدوام والخلوّ، فاقتنع بكلّ قواه بصدقها وإخلاصها ووفائها، وتطايرت أصداء ما قيل له عنها فأنسيه وكأنّه لم يكن. ونسي تمامًا القلق والتساؤل والحيرة والإساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهميّة التي تفنى في ضوء الشمس الساطع. وقالت له ليلة في دعابة:

ـ أراك لا تتكلّم إلّا نادرًا...

فتحيّر قليلًا ثمّ قال:

ـ السعيد لا يجد ما يقوله إلّا نادرًا...

فابتسمت قائلة:

ـ كُتب علينا ألّا نسمع إلّا ما يسوء!

فقال ضاحكًا:

ـ إنّي أثرثر ولكن بغير لسان!

ـ ألا توجد في قلبك رغبة؟

فقال بحماس:

ـ أن يدوم الحال...

فقالت بنبرة صدق:

ـ هو ما أودّه أيضًا...

ـ إذن فلن يهدّد دوامه شيء...

وصمتت قليلًا وهي تتفحّصه ثمّ سألته:

ـ ألم يعد يهمّك أن تعرف المجهول من حياتك؟

فهتف ضاحكًا:

ـ أبدًا، الحقّ أنّي أخشاه على حاضري...

ـ وأنا أيضًا مثلك.

وبعفويّة تبادلا قبلة ثمّ قال:

ـ ألا توجد وسيلة لحماية حبّنا إذا انكشف المجهول؟

ـ هذا ما لا أدريه...

فتساءل بحرارة:

ـ ألا ترينه أقوى من أن يؤثّر فيه شيء؟

فقالت بحماس:

ـ هو كذلك...

فاستوى حصنًا منيعًا من اليقين والطمأنينة خليقًا بأن يصمد لأجنّ العواصف والنزّهات. وثمل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن. في تلك الغفلة العذبة تلاحقت أيّام الصيف لاهثة وتسلّل الخريف بخطاه الخفيفة، ينفث في الجوّ أنفاسه الرقيقة ويخضّب السماء بفرشاته البيضاء ويغزو القلوب بأنغامه الشجيّة. ومضت نيران العواطف المتأجّجة تخبو قليلًا قليلًا، ويحلّ محلّها حبّ هادئ، موسوم بالاعتدال، متحرّر من جنون الإفراط، مالك لوقت ينفقه في التعامل مع سائر أركان الحياة. وزحف ذلك التطوّر على الطرفين معًا، الفتى والمرأة، فخلطا أحاديث الهيام بهموم الوكالة والحارة، واستأثر الجدّ بالحوار حينًا فخلا من أيّة مداعبة، فانبثق التلاقي الحميم ثمرة للرغبة مرّة، وثمرة للعادة أو دفعًا للشكوك مرّات، حتّى تساءل عبدالله ما هذا الذي يحدث؟!. بدا كلّ شيء بالقياس إليه ـ بخلاف المرأة ـ كأنّما يحدث هكذا لأوّل مرّة في تاريخ البشر. واسترق النظرات إلى المرأة الهادئة فساورته الشكوك وازدحم أفقه بالفكر. ولمح يومًا عمّ

مخلوف زينهم وهو ماضٍ نحو العيادة فاستعاد تاريخه معه في لحظة. أدرك بكلّ سرور أنّ الرجل برئ من مرضه فاندفع نحوه بتلقائيّة. ولٰكنّ الكهل صدمه بنظرة باردة رافضة وابتعد عنه في تجاهل تامّ. توقّف متعثّرًا في ارتباكه، متذكّرًا ذنبه في إهماله حين مرضه، وتراجع إلى موقفه وهو يتلقّى من أعين كثيرة نظرات لاذعة. شعر بأنّه خسر صديقه الوحيد في الحارة. وانتبهت حواسّه لما حوله من جديد فقرأ الحسد والشماتة في أعين عبدون ورياض وحلّومة!. الجوّ مشحون بالكراهية والحسد. وتذكّر تحذيرات زينهم فأوشك أن يفقد الثقة، وبدافع من تحدٍّ راح يقطع الحارة ذهابًا وإيابًا ويختلف إلى المقهى بعض الوقت. وتتلقّى أذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا. لم يتصوّر أن تكون امرأته الشغل الشاغل للناس بهذه القوّة. هل عشقتهم ونبذتهم جميعًا؟!. إنّهم يخافونها بقدر ما يمقتونها وكأنّها لا حيلة لهم قبالتها. وهي في نظرهم قويّة، بل أقوى من جملة رجال أشدّاء، ولٰكن لا أهمّيّة لقوّتها إذا قيست بتمرّسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت، أو بتسلّطها على ذئاب القبو الذين لا يتورّعون عن القتل خدمة لها. ولا يكاد ينخدع أحد برعايتها للزاوية وشيخها أو برّها ببعض الفقراء، ويرون في ذٰلك ستارًا كاذبًا تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة في التحكّم في الناس والأرزاق. واذن فجميع مظاهر السرور في الحارة ما هي إلّا قشور أمّا الحقيقة فهي أنّها تعيش في جوّ يموج بالخوف والحقد، تهدّده في كلّ حين الذئاب والعفاريت، وتنحسر في الوقت ذاته عن ساعات لذّة عابرة جادت بها المرأة المحترفة في غفلة من الزمن. أهٰذه هي نعمة الله حقًّا أم أنّه خيال يشعله الحسد والحقد؟!. ألم يجد حبّها صادقًا وعطفها شاملًا وإخلاصها راسخًا؟!. وحتّى الهدوء الذي آل اليه ألم يقع له نفس الشيء؟!. هل يمكن أن يتّهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحبّ أو انقلاب العاطفة؟!. ولٰكن من ناحية أخرى لم يتقرّر له مصير غير مصير الآخرين؟!، لم يَنْجُ من الكاس التي تجرّعها الجميع حتّى الثمالة؟!. وتلتقي عيناه بعينيها وهي منهمكة في العمل فتبتسم إليه ابتسامة حلوة تمحق وساوسه فيشرق الأمل بنفسه من جديد. وتشجّع في ليل ذٰلك اليوم الخريفيّ وقال لها وهما يرشفان من قدحي القرفة بالزنجبيل ويهيمان في ملكوت الأوهام الحانية:

- أتدرين ما يُقال عنك في الحارة يا نعمة الله؟

فداعبت وجنته بأناملها وقالت:

- لست غافلة عن شيء يهمّني أبدًا.

فقال بامتعاض:

- ما أظلمهم يا نعمة الله... !

فتساءلت في دعابة:

- أتراني ملاكًا؟

- إنّك عظيمة وطيّبة...

فقالت بهدوء:

- ولكي أكون عظيمة وطيّبة يجب أن أكون أحيانًا حازمة وقاسية...

فتساءل وهو يكتم وساوسه:

- لك تاريخ عجيب ولا شكّ؟

- طبعًا، إنّي سليلة فتوّات، كما كان أوّل زوج لي فتوّة فنشأت قويّة ولٰكنّي كنت يومًا وما زلت ذكيّة فسلّمت بانتهاء عصر الفتّونة، غير أنّه لا غنى عن القوّة والذكاء.

- أحقًّا تسيطرين على الذئاب؟

- نعم، إن لم أسيطر عليهم سيطر عليهم الآخرون وحلّت الفوضى...

فسأل بعد تردّد:

- وهل تجيدين السحر أيضًا؟

ففكّرت قليلًا ثمّ قالت:

- هٰذا هو الاسم الذي يطلقه العجزة على الذكاء..

فقال بقلق:

- التعامل مع العفاريت أمر مخيف...

فتساءلت ساخرة:

- هل عثرت على عفريت في هٰذا البيت الجميل؟!

فتنفّس بارتياح وتساءل:

- لِمَ لا تعيشين مثل الناس العاديّين؟

فقالت بكبرياء:

- لأنّني لست عاديّة!

وساد الصمت حتّى تجلّت للسمع أصوات رقيقة للخريف في الخارج، وجعلت تلحظه باهتمام فلمّا لاذ بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة في الأعماق:

- قُلْ ما عندك، ما زال عندك ما يُقال...

فضحك ضحكة قصيرة وتساءل:

- أحقًّا تزوّجت من كثيرين؟

فقالت باستهانة:

- نعم.

- وهجرتهم أو أجبرتهم على الهجران؟!

- نعم.

فتساءل وقلبه يخفق:

- ولٰكن لماذا؟

فقالت ببرود:

- لم أجد بينهم صالحًا...

وراقبت وجومه قليلًا ثمّ همست في أذنه:

- أنت أوّل من أجد!

فرنا إليها غير مصدّق فقرأ الصدق في عينيها الجميلتين المتسلّطتين وهمس في أذنها:

- لا حياة لي بدونك يا نعمة الله...

- ولا حياة لي بدونك...

فقال بحماس وحرارة:

- أخاف عليك حقدهم المنتشر...

فقالت ساخرة:

- لا خوف من حقد مصدره العجز...

- كراهيتهم لي أيضًا تلفحني في كلّ خطوة.

فقالت بوضوح:

- احذر أن تظهر خوفًا أو قلقًا.

مضى يستردّ الثقة والسكينة بين يديها، ولٰكن تبدّد أمنه في الوكالة والحارة. استعاد حديثها كثيرًا فلم يعرف الاستقرار قلبه. امرأة تثير عواطف شتّى ومتناقضة. تُلهم الحبّ والطمأنينة والخوف والشكّ. يراها في الوكالة شخصًا آخر. يرى رجلًا قويًّا ومثالًا للحزم والعنف أيضًا. لا تقارُب بينه وبين الأنثى التي تبهر الليالي في المسكن الناعم. وخطر له أن يسأل نفسه «تُرى هل وجد مثل هٰذه الحيرة في حياته المجهولة؟!». وكان يتذكّر حياته الأخرى لأوّل مرّة منذ أمد غير قصير. أكان أسعد حالًا أم أتعس؟!. أكان أرفع منزلة أم أدنى؟. أكان يحترق بغضب الآخرين أم نعم بسلام دائم؟!. من أيّ جهة جاء وأيّ جهة قصد؟!. لٰكنّه عبر ذٰلك بسرعة وكاد ينسى كلّ شيء لولا أن سألته في مجلس الليل:

- فيمَ تفكّر يا عبدالله؟!

فأجاب بسرعة:

- لا شيء...

- كنت في النهار كالمسافر.

وذابت إرادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها بتساؤلاته. فنظرت إلى السقف المنقوش بزخارف متداخلة لا يعرف لها أوّل ولا آخر، وقالت:

- إنّها أوّل إهانة أتلقّاها منك...

فهتف بجزع:

- خواطر فارغة ولٰكن لي عذر.

- لا عذر لك...

- تقبّلي أسفي...

فتساءلت في عتاب:

- ماذا تريد أكثر ممّا أعطيتك؟

- لا شيء.

- ولٰكنّك تحوم حول تساؤلات عقيمة، وهٰذا هو الحُمْق...

- نطقت بالحقّ.

- لا تكن منافقًا كالآخرين.

- بل نطقت بالحقّ وما أطمح إلّا إلى دوام ما أنا فيه...

فقال بحدّة:

- ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف تندم...

شعر بأنّها امرأة محبّة وغيور، ونعم ليلتها بسعادة صافية، وعندما ساد الظلام خطر بباله سؤال «تُرى هل الندم هو الجزاء الأوحد لمعرفة المجهول من حياته؟!». ولٰكنّه رغم الظلام، وهبوط النوم، خاف أن تفضحه نظرتها النافذة. وانغمس في حياته بإصرار، وركّز على سماع الأغاني والنكات، وتجنّب ما استطاع

ثار شُواظ الغضب الهادر وتمنّى أن تمضي حياته هٰكذا أبدًا. على أنّ الحياة مضت في طريقها على أيّ حال، وانتهى الخريف كما انتهى الصيف من قبل وإن لم ينتهِ في غفلة كاملة. ولا بنفس السرعة. ولٰكنّ الليل طال وتلفّعت بواكير الصباح بالظلمة وزفرت الأبدان قشعريرة. وتأخّر شروق الشمس حتّى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة. وغيّر ملابسه الداخليّة والخارجيّة وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة. تسلّل التغيير في خطوات غير مسموعة ولولا حسّاسيّته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تمامًا. وزاد من قلقه أنّ التغيير ينبثق منه، من أعماقه، ففتر حماسه لمجلس الليل الذي لا يعد بجديد وغدا الاستسلام للنوم ألذّ من السهر، وتمنّى لو كان له أصحاب يسامرهم في المقهى حتّى منتصف الليل. وانطفأت بروق كثيرة تحت عباءة العادة الثقيلة، فاستيقظ الفكر وخَبَتْ شعلة العواطف والغرائز، وخاف أن يقف كالمتّهم بين يديها، أن يتلقّى من عينيها السوداوين نظرة ساخرة ولٰكنّه وجدها تسايره بارتياح وعفويّة. وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير في العمل أو باستقبال بعض العملاء ثمّ يأويان الى النوم آخر الليل مثقلين بالتعب. توقّع منها مطاردة محرجة فوجدها تغوص في العقل والهدوء واللامُبالاة. وفجّر ذٰلك قلقه ولم يطمئنه، ورأى فيه نذير شرّ. وصمّم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلّفه ذٰلك من جهد جنونيّ. ولم يحْظَ ذٰلك من الطرف الآخر بعطف فأعرضت عنه مرّات في استياء لم تحاول إخفاءه، حتّى قالت له مرّة:

ـ دع الأمور تجري على سجيّتها...

ـ عند ذٰلك أضناه الحياء والألم. وندم على ما فرط منه من اندفاع جنونيّ أحمق. كأنّما كانت كلّ ليلة هي ليلة الوداع. وبات ذٰلك الفتور شغله الشاغل فنسي كلّ مأساة إلّا مأساة الحب. هل يفقد هٰذه القوّة العجيبة كما فقد الذاكرة؟. وهل يجري عليه ما جرى على أزواج نعمة الله السابقين؟!. وجعل يقوم بعمله في الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه مَعين السرور والمرح. ولحظ أنّ عبدون فرجلة يتابعه بشماتة، وأنّ نظرات رياض الدبش وحلّومة الجحش تبرق بأضواء فرح شرّير. ما أكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته. ولٰكنّه سيخيّب الظنون ويبدع في مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد ممّن سبقه. سيظلّ الفتى المرموق في هٰذه الحارة التي يحترف أهلها الشكوى والعويل وتردّد أغانيها أنّات الهجر والحرمان. وشعر بحاجته إلى صديق يشاوره. ولٰكن لا صديق له فمن يشاور؟! وخطر له الطبيب محسن زيّان فذهب إلى العيادة فكان أوّل زائر في الصباح. قابله مخلوف زينهم كغريب فقال له عبدالله:

ـ السماح من شيم الكرام يا عمّ مخلوف.

فقال له الكهل باستياء:

ـ إنّي أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون.

وغادره الى حجرة الطبيب ثمّ عاد ليدعوه للدخول في جفاء. نظر اليه الطبيب متفحّصًا ملابسه البلديّة الصوفيّة الفاخرة وابتسم، ثمّ سأله:

ـ جئت من أجل ذاكرتك؟

فأجابه بصوت مهموس عمّا جاء من أجله. وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذي اتّبعه في حياته «الزوجيّة». ثمّ قال له:

ـ إنّه الإفراط البعيد عن العقل... والقلق النفسيّ... تلزمك راحة جسديّة ونفسيّة...

فهمس عبدالله:

ـ والدواء؟

هزّ رأسه نفيًا وقال:

ـ سيضرّك أكثر ممّا يفيدك...

رجع إلى الوكالة مغتمًّا وهو يلعن الطبيب. وازدادت حاله سوءًا فحصر في ركن مظلم وغمغم لنفسه «كأنّه مصير لا مفرّ منه». وإذا بعبدون فرجلة يسأله:

ـ سلامتك. لماذا ذهبت إلى العيادة؟

فقال له بحنق:

ـ انتبه لعملك، متى كانت صحّتي تهمّك؟!

فقال الشابّ متظاهرًا بالجدّيّة:

ـ سمعت الشيخ كافور يقول يومًا «لا يملك إنسان ما يستحقّ أن يُحسد عليه حقًّا»...

فصاح به:

ـ أنت كاذب ولم يَخْلُ قلبك من الحسد ساعة

واحدة...

وخيّل إليه أنّ حكاية الاستشارة الطبّيّة تلوكها ألسنة لا حصر لها فازداد انحصارًا في الغمّ واليأس وغمغم لنفسه مرّة أخرى «كأنّه مصير لا مفرّ منه» وفي هذه الدوّامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوّة إلى التفكير في المجهول من حياته. فقد يجد فيه المأوى إذا افتقد مأواه، وقد يجد فيه العزاء إذا عزّ العزاء. هذه الحياة المتاحة تتسرب من يديه كالماء، لم تعد حقيقة ثابتة ولكنّها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب، وسوف يجد نفسه وحيدًا منبوذًا ضائعًا إن لم يهتدِ إلى حقيقته الغائبة. إنّه صاحب حياة ماضية، تمثّلت في أهل وعلاقات وأناس، تجسّدت في حيّ من الأحياء القريبة أو البعيدة، وثمّة عمل ارتزق منه، وربّما زوجة وأبناء، وثمّة هدف دعاه إلى المجيء إلى هذا الحيّ، وحدث ما دفع به الى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد كلّ شيء. تُرى ما السبيل إلى الكشف عن تلك الحقائق الغارقة في الظلام؟!. وقد سمع ما يقال عن نشر صور المفقودين في الصحف فلِمَ لم يجدّ أحد في البحث عنه؟. وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد الذاكرة؟!. تردّد طويلًا أمام هذه الفكرة لخطورة عواقبها. أجل قد دار الحديث يومًا في المقهى عن هارب تبحث عنه الدولة لتشنقه، كما سمع آخر يقرأ إعلانًا لأسرة موجّهًا لابن هارب تقول له: «يا فلان... عد إلى أهلك، جميع طلباتك مجابة!»، فإلى أيّ الفرعين ينتمي؟، وهل إذا نشر صورته انقضّت عليه الشرطة أو تحقّقت أمنياته جميعًا؟، ماذا يكمن وراء الباب المغلق؟!. تراجع عن الفكرة وهو يزداد مرارة، وشعر - كما لم يشعر من قبل - بحاجته إلى الصديق أو في الأقلّ المشير. لم يفكّر في نعمة الله التي مضت توغل في الغربة والبعد حتّى كاد ينكر المسكن تواجدهما معًا تحت سقفه. ومضى إلى العيادة، ولّما رآه الطبيب محسن زيّان تساءل باسمًا:

- من أجل الحبّ أيضًا؟

فأجاب بضيق وهو يشير إلى رأسه:

- من أجل الذاكرة...

ففكّر الرجل طويلًا ثمّ قال:

- لو كنت تعيش في بيتك القديمة بين أهلك لساعدك ذلك على الشفاء، ولوجدت في مَعلم ما أو شخص ما يوقظك من نومتك الطويلة، ولكنّك مارست حياة تشجّع على النسيان وتخاف اليقظة...

فسأله يائسًا:

- والعمل؟

- لعلّ إصابتك عضويّة، ولعلّها أكثر ممّا قدّرت، وفي هذه الحال يستحسن أن تستشير إخصائيًّا، وربّما أحالك إلى طبيب نفسيّ...

فقال بضيق:

- إنّه مشوار طويل.

- ويحتاج إلى إرادتك في جميع الأحوال، وواضح أنّ صحّتك ليست على ما يرام، وسأكتب لك بعض المقوّيات كخطوة أولى...

ولبث في العيادة حتّى غادرها الطبيب للغداء فوقف قبالة مخلوف زينهم قائلًا:

- إنّي مصمّم على نيل عفوك...

فقال الرجل ممتعضًا:

- لا ثقة لي فيك ولا في غيرك...

- لا أحد يستحقّ الثقة كما قلت ولكنّ كثيرين يستحقّون العطف...

- أنكرتني والشمس تشرق ورجعت إليّ وهي تؤذن بالغروب...

- اغفر لي ذنبي ومدّ إليّ يدك...

فهبطت حدّته درجات وهو يسأله:

- ماذا تريد؟

ذهبا معًا إلى المقهى، فأرسلا الصبيّ لإحضار غداء من شوربة العدس ولحمة الرأس، وجعل يحكي له ما استجدّ في حياته من شقاء، وختم حكايته بنصيحة الطبيب محسن زيّان. وكان يحدجه طيلة الوقت بنظرة كأنّما تقول له «أرأيت عاقبة إهمالك لنصيحتي». ثمّ قال:

- نهاية ابني الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك ولكن لا فائدة من الرأي أو المشورة، الجميع مصمّمون على تكرار الأخطاء حتّى ولو لم يداخلهم أدنى شكّ. في النهاية يستوي في ذلك من فقد ذاكراته

ومن لم يفقدها، والآن خبّرني علامَ عوّلت؟!

فقال عبدالله بضيق:

ـ طريق الطبّ طويل وباهظ التكاليف...

ـ وغير مُجْدٍ في هذه الحال بالذات...

ـ والعمل يا عمّ مخلوف؟... هل أزور الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية؟!

فقال بغضب:

ـ لا هو إمام ولا الزاوية زاوية، إنّه رجل جاهل عيّنته نعمة الله لخداع السذّج، وهي التي شيّدت الزاوية من مال حرام للخداع أيضًا، إنّها لعبة مكشوفة ولن تجد عنده رأيًا ولا شفاء عدا بعض السور الصغيرة التي كان يرتّلها في المقابر كلّما جاء موسم دون أن يفقه لها معنًى...

فقال عبدالله بقلق:

ـ ولكنّي أخشى عاقبة الإعلان عن نفسي في الصحف...

ـ معك حقّ، فقد تكون أخطر ممّا تصوّرنا، ولكن عندنا الشيخ كافور فهو من رجال الله...

ـ أهو يستعين بالسحر والعفاريت؟

فقال مخلوف زينهم بازدراء:

ـ إنّي أتحدّث عن كافور لا عن نعمة الله الفنجري.

وكان كافور يقيم في بدروم البيت الذي يقيم فيه رياض الدبش الكوّاء البلديّ، فبدا جوّ حجرته في لون الغروب أو الفجر، وعبق بشذا بخور طيّب. وجلس الرجل في الصدر على أريكة قصيرة الأرجل على حين غطّى سطح الحجرة بحصيرة مطموسة اللون. تربّع مخلوف وعبدالله على الحصيرة أمام الأريكة بلا استئذان ولا تحيّة، وتفرّس عبدالله في وجه الرجل فلم يميّز ملمحًا من ملامحه ولا حتّى لون وجهه. وقال مخلوف:

ـ هذا ابن ضالّ من أبنائنا يدعى عبدالله...

فسأل صوت عميق هادئ رغم خفوته:

ـ ما اسم أمّه؟

ـ لا يعرف أمًّا ولا أبًا...

فمدّ الشيخ يده فهمس مخلوف في أذن عبدالله:

ـ ضع يدك في يده.

فصدع بالأمر وهو يتلقّى قشعريرة هيبة أو خوف. وسرعان ما سرت من راحة الشيخ إليه برودة لطيفة أنعشته فتركز في أذنيه، ومضت دقائق نسي فيها كلّ شيء حتّى ما جاء من أجله كأنّما امتصّ الرجل وعيه كلّه ثمّ تردّد الصوت العميق الخافت قائلًا:

ـ ستعرف ما تسأل عنه في حينه بالتمام والكمال.

وسحب يده قائلًا:

ـ اذهبا بسلام.

وغادرا المكان وعبدالله يراوح بين الأمل والخيبة. قال لصاحبه في الخارج:

ـ ظننت أنّني سأسمع أكثر ممّا سمعت...

فقال مخلوف زينهم:

ـ كلامه بالقطّارة، ثمّ إنّك غير مؤهّل لفهمه...

ولّما رجع إلى الوكالة وجد نعمة الله تجالس شابًّا لم يره من قبل. شابّ في عزّ أبّهة الشباب جميل الوجه رشيق القامة. فهم من مجرى الحديث أنّ الشابّ يقترح فتح فرع للخردة في الطرف الآخر من الحارة وأنّها تقترح عليه أن يكونا شريكين. ولفت انتباهه الحيويّة التي تألّقت في نظرات المرأة وهي ترنو إلى الشابّ ممّا ذكّره بالماضي السعيد الذي ذهب. وحانت منه التفاتة إلى عبدون فرجلة فقرأ في عينيه الحادّتين فرحة شماتة صارخة فاشتعل قلبه بنار الغيرة. ومن موقفه الذليل مدّ بصره إلى رياض الدبش وحلّومة الجحش فطالع السخرية مجسّدة فلم يشكّ في وساوسه. واقترحت عليه شياطينه حلًّا داميًا ولكنّ ضعفه المتصاعد أخجله. ولم يتبادلا في نهار العمل كلمة، ولّما أويا إلى مسكنهما دعاها إلى المجلس وأعدّ بنفسه القرفة والزنجبيل والمخدّر. توقّع أن تتعلّل بعذر ما ولكنّها استجابت له في برود وفيما يشبه التحدّي. اضطرب لذلك أكثر ممّا سرّ. وزحف عليه خوف مجهول. غاب عن الحاضر المتاح تمامًا. واكتشف أنّ ضعفه بات عجزًا كاملًا. سحب نفسه إلى طرف كنبة واسترق إليها نظرة منكسرة وتمتم:

ـ إنّه الحزن وأنت السبب...

فقالت ببرود:

- إنّي بريئة والحزن بريء!

فقال بصوت متهدّج:

- حديثك مع الشابّ قتلني...

- ما مرّ يوم إلّا استقبلت فيه أشكالًا وألوانًا من الشباب!

أدهشه صدق قولها وقال معتذرًا:

- لعلّي مريض.

فقالت بثقة:

- الحقّ أنّك انتهيت!

سرت الحقيقة في ذاته كالسمّ فلم يشكّ في أنّه انتهى، وأنّ حياته في جوارها توشك أن تنتهي أيضًا. ولكن كيف يمكن أن تتنكّر له بعد ذاك العهد الطويل من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأجّجة والحبّ العميق المتبادل؟!. ماذا تقول وماذا تفعل، وألا يخوتها القول أو الفعل!. أيّ كلمات لم تسمع من قبل سيشيّعه بها هذا الفم المليء بالرغبات والحزم!. وتسلّل إليها بنظرة خجلى مشفقة فبوغت بالتغيّر كأنّه زلزال منقضّ بلا نذير. ها هو وجه جديد يطالعه. بلا تردّد ولا حرج ولا مبالاة. يتجسّد فيه الرفض والإنكار والقسوة. كأنّما لا ماضي له ولا ذكريات. ولا وجدان ولا ضمير. ولا ذوق ولا حياء. ذهل وفزع فتمتم:

- شدّ ما تغيّرتِ يا نعمة الله!.

فقالت ببرود:

- لقد تغيّرت أكثر يا عبدالله...

فتساءل بأسًى:

- أينتهي كلّ شيء كأن لم يكن؟

فقالت بضجر:

- أنت الذي نهيته!

- لعلّي مريض...

- ولا أمل في الشفاء.

فهتف حانقًا:

- إنّك أقسى مما يظنّ أعدى أعدائك.

فقالت ساخرة:

- بل إنّكم لا تفكّرون إلّا في أنفسكم...

- أليس للحُبّ حقّ؟

فقالت بنبرة ختاميّة:

- إذا مات فلا حقّ له...

ونهضت متبرّمة فمضت إلى الخلوة وأغلقت الباب بقوّة. لبث وحيدًا مع برودة آخر الليل واليأس. احتدمت الخواطر برأسه كفقاعات الماء المغليّ فازداد يأسًا وتسليمًا بالواقع. وبدت له أحلام سعادته كذبة فاجرة قاسية. ومن شدّة العناء والإرهاق هرب في النوم ساعة واحدة. وفي الصباح الباكر هجر البيت متلفّعًا في عباءته السوداء، حاملاً بيسراه حقيبة متوسّطة الحجم. كانت الشمس ترسل أوّل طلقة من أشعّتها الدافئة، والحركة تدبّ في الجنبات. فتحت نوافذ وأبواب وتتابعت أفواج الخلق. سار بخطوات وئيدة ثقيلة تغشاه مخايل الرحيل. رآه أوّل من رآه عبدون فرجلة فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لأوّل مرّة وسأله:

- أأنت راحل؟

فأجاب باقتضاب:

- أستودعك الله...

وترامت عبارته إلى أقرب الجيران فقال رياض الدبش دون مبالاة:

- مع السلامة!

وتمتم حلّومة الجحش:

- يا خسارة!.

وأثار رحيله اهتمامًا مؤقّتًا شاملًا. ورغم إرهاقه كان يرى ما تقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنّه يراه لأوّل مرّة فمازج نفوره حنين غامض. واعترضه عمّ مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقّف دون أن يبتسم. سأله الكهل برقّة:

- أأنت ذاهب حقًّا؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسأله:

- إلى أين؟

فأجاب دون مبالاة:

- لا علم لي بشيء...

- بوسعك أن تبقى حتّى تستردّ ذاكرتك.

فقال بمرارة:

- لا أستطيع، وقلبي يحدّثني بأنّني لن أعرف شيئًا ما دمت هنا.

فربّت الرجل منكبه بحنان وقال مسلّمًا:

- في رعاية الله...

وواصل المسير تتابعه الأعين من النوافذ والدكاكين والطريق. شيّعته نظرات متضاربة من الحياد والشماتة، العطف والكراهية، السرور والحزن. واصل المسير حتّى غيّبه المنعطف الأخير عن الحارة إلى الأبد.

مِن فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ

اكتشف الحبّ، أو اكتشفه الحبّ، أوّل عهده بالمرحلة الثانويّة. في الخامسة عشرة كان، وفي الرابعة عشرة كانت. اتّفقا على خطوبة غير رسميّة يحتفظان بها سرًّا بينهما حتّى يبلغ المرحلة الجامعيّة، ثمّ تُعلن وتمضي الأمور في طريقها المعهود. وهو وسيم رشيق ذو سمرة صافية، وهي في نفس المستوى في أعين الناس ولكنّ جمالها في قلبه يتلألأ بأضواء مسحورة. ومع أنّ الأسرتين تقيمان في عمارة واحدة بشارع مريوط بمنشيّة البكري إلّا أنّهما لم يتعارفا قطّ ولا تبادلا تحيّة عابرة، فاستمدّ معلوماته القليلة عن أسرة حبيبته «جميلة» من حديثها. عرف أنّ أباها يدعى عبد الرحيم يسري، من ذوي المعاشات، مترجم سابق بالخارجيّة، تركّز اهتمامه أخيرًا في العبادة ولعب الطاولة. أمّا أمّها شامة لطف الله فهي مفتّشة بالتربية والتعليم، معروفة بالحزم بقدر ما هي مغرمة بالتلفزيون. ولها أيضًا أخوة ثلاثة، أكبرهم ضابط جيش استشهد في حرب ١٩٤٨، ومهندس واقتصاديّ موظّفان في شركتين. ولم تكن جميلة متفوّقة في دراستها ولكنّه كان هو أيضًا يماثلها في ذلك وكان مغرمًا بكرة القدم ويلعبها بمهارة لا بأس بها، ولا يبدي أيّ اهتمام بالحياة العامّة، مثله في ذلك مثل أبيه وأمّه، بل مثل شقيقتيه المهاجرتين مع زوجيهما بليبيا والبحرين. لم يرتفع في ذلك المسكن صوت لتأييد رأي أو معارضة رأي أو إعلان موقف ولا حتّى كمتفرّجين، فلا مشاركة وجدانيّة وكأنّما ينتمون الى كوكب آخر. تدور الأحاديث عادة عن المدرسة، المسلسلات التلفزيونيّة، الكرة، الطعام، أو شركة الأجهزة المنزليّة حيث يعمل الأب إبراهيم الدارجي مراجعًا للحسابات، والأمّ بيسة فضل الله في قسم الإعلانات. رأى عبد الفتّاح جميلة أوّل ما رآها في شارع مريوط الذي يعترض طرفه الشرقيّ الشارع العموميّ المتّجه إلى مصر الجديدة. رآها بعد ذلك في مدخل العمارة. شملهما من بادئ الأمر مناخ طيّب يجود بالأنس والاستلطاف. وتبادلا الابتسام والتحيّة.

وأعقب ذلك اللقاء في الشارع العموميّ بعيدًا عن الأنظار. انفجرت في قلبه حياة جديدة بقوّة ملهمة. فاعترف، وتمّ الاتّفاق على المستقبل القريب والبعيد، وحمّلها أمانة كبيرة وهو يقول لها:

- لا حياة لي بدونك.

ولأوّل مرّة يجاوز اهتماماته الصغيرة إلى حياة جديدة واعدة بثراء جديد، ويحطّم حاجز الانحصار الذاتيّ واثبًا للغير. عاش عامين سعيدًا، عاش في سعادة حقيقيّة، ولكنّها انسابت بخفّة بلا تركيز أو وعي منه فلم يعرفها - مثل كثيرين - إلّا كذكرى. ذلك أنّ الحبّ تعرّض للاغتيال. وهو نفسه قال «ليس لي قصّة حبّ، ولكنّ قصّتي تبدأ بعد وفاة الحبّ». تلقّى منها رسالة بيد زميلة عالمة بسرّهما تنبئه فيها بأنّها خطبت، وأنّها عجزت عن إنقاذ حبّها، وأنّها حزينة أسيفة ولكن لا مناص من قطع العلاقة. قرأ وأعاد القراءة. هل يمكن؟. بلا تمهيد؟. وهذا الأسلوب؟ قال للرسولة وتدعى بثينة أو قال على مسمع منها:

- أيّ جفاء... إنّها برقيّة لا رسالة...

فقالت الفتاة معتذرة عن صديقتها:

- عواطفها أكبر من ذلك لكنّها لا تحسن الكتابة!

وأخبرته أنّها تألّمت، وأنّها توسّلت إلى أمّها أن تتركها وشأنها، أن تتركها لتنتظره، وأنّها راضية بحظّها، ولكنّها لاقت موقفًا مصمّمًا، مسلّحًا بالحجج الواقعيّة الصارمة، من تكاليف الزواج الباهظة، وأزمة المساكن، وعجز المرتّبات، وأنّه لا أمل لشابّ في الحياة الزوجيّة إن لم يكن غنيًّا أو مهاجرًا، وأنّ الخطيب الجديد حامد بك مظهر هو مناسب جدًّا في الظروف الراهنة. أجل إنّه في الأربعين من عمره ولكنّه خبير ذو مرتّب ضخم إلى جانب نشاط خاصّ يدرّ عليه دخلًا محترمًا، فهو قادر وأهل للحياة الزوجيّة، وفي كنفه ستحظى بالحياة الكريمة والسعادة الحقيقيّة، لا السعادة

الوهميّة التي سرعان ما تتلاشى في خلاء التقشّف والضنك، وحذّرتها من أن تظنّ بها الطمع، أو تخلط بينها وبين النموذج التلفزيونيّ للمرأة المادّيّة التي ترفع المادّة فوق العاطفة، المسألة بكل بساطة أنّ الزواج ضروريّ لها ـ لجميلة ـ وهو غير ميسّر إلّا مع رجل مثل حامد مظهر، ومن حسن الحظّ أنّه لا تشوبه شبهة من شبهات الانفتاح، فهو قادر وشريف، فلا مفرّ من التسامح في عمره وهو على أيّ حال لم يجاوز السنّ المناسبة للزواج. ومضت بثينة تقول أنّ جميلة لم تستطع أن تقارع الحجّة بالحجّة، ولعلّها لم تتصوّر أنّ الأمور معقّدة إلى ذلك الحدّ فانطلقت تخاطب قلب أمّها، وقلب أبيها أيضًا ولكنّ الأب قال لها «مسايرتك تعني التضحية بك، أقسم لك بصلاتي أنّي صادق، ليس ما تشعرين به هو الحبّ، في مثل سنّك لا تعرف القلوب الحبّ الحقيقيّ، ستعرفين ذلك بنفسك». وعند ذاك قالت له بثينة:

ـ لعلّه ممّا ساعدها على الإذعان أنّها ستنقطع عن الدراسة فهو يريدها ستّ بيت، وأنت تعلم أنّها لا تحبّ المدرسة!

تابعها عبد الفتّاح بذهول ثمّ ماج قلبه بالغضب والعذاب، وأصرّ على مقابلتها فكلّف بثينة بإتمام ذلك وجاءته في أصيل اليوم التالي والخريف يقطر مناخًا معتدلًا. جاءت منكسرة الطرف تتعثّر في الخجل قابضة بأصابع متشنّجة على منديلها الأبيض الصغير. حيّته بغير ابتسام هامسة:

ـ إنّي آسفة...

حثّه منظرها على التمسّك بها باستماتة غير أنّ نبرة صوته نمّت عن الغيظ وهو يقول محتجًّا:

ـ تقتلينني ثمّ تأسفين!، ماذا أصنع بأسفك؟

فقالت له بحرارة:

ـ حزني أشدّ ممّا تتصوّر...

فقال ساخرًا:

ـ صدقت فيما يتعلّق بتصوّري...

ـ لا تظلمني...

ـ أعلني الرفض وأصرّي عليه.

صمتت في حيرة جليّة فطفر الغيظ إلى قسمات وجهه وتساءل:

ـ ماذا قلت؟

فقالت وهي تتنهّد:

ـ لن نستطيع الزواج كما نتمنّى...

فقال مستسلمًا لغيظه:

ـ أعرف ما قيل وما يقال ولكنّ الحبّ أقوى من ذلك...

فقالت وعيناها تدمعان:

ـ الواقع أقوى من أمانينا.

ـ المسألة أنّ حبّك ليس بالقوّة التي ظننتها.

ـ لا تظلمني.

شعر بأنّها لا تريد أن تعدل عن قرارها. أنّها لم تعد تحبّه. أنّها لم تحبّه قطّ. هتف غاضبًا:

ـ أكذوبة!

تمتمت بانزعاج:

ـ ماذا؟

ـ خاب ظنّي فيك.

قالت بتوسّل:

ـ لا تزد في عذابي.

لوّح بيده غاضبًا فأصابت أنامله جبينها فتراجعت مذعورة. أفاق من غضبه. وثب نحوها قائلًا:

ـ معذرة... لم أقصد...

ـ كفى...

ـ أكرّر الأسف...

فقالت بصوت هادئ:

ـ يجب أن أذهب...

فتحوّل عنها دون تحيّة. توغّل في الطريق صوب الشمال والظلام يهبط ودفقات من الهواء الرطب تهبّ. عجب من فراغ الوجود من كلّ شيء إلّا نبض الألم في أعماقه. ألم وفراغ. فراغ وألم. إن لم يكن الحبّ مرضًا فلا بدّ له أن يوجد له دواء. ولكن أين وكيف ومتى؟. وفكّر في أنّه أخطأ في تركها تفلت من يده فاستدار وراح يعدو ليلحق بها ولكنّه لم يعثر لها على أثر. ورجع الفراغ ورجع الألم. وحلم أنّه يستطيع أن يقتل أمّها فقرّر أن يقطع رأسها تحت المقصلة. استحضر بخياله صورة المقصلة كما رآها في فصل الثورة الفرنسيّة. يا

للداهية! . . . ما هٰذا الفراغ وما هٰذا الألم. ولأوّل مرّة يعاني الوحدة وهو وسط أصحابه وهم يقضون الفترة الأخيرة من العطلة الصيفيّة. رغم أنّهم جميعًا على شاكلته ممّن لا يكترثون للحياة العامّة وتستغرقهم الشئون الخاصّة. وبدافع من كبرياء لم يبح لأحد منهم بسرّه. أمّا أكثر اليوم فخلا فيه إلى نفسه في حجرته الخاصّة ـ للنوم والدراسة معًا ـ غارقًا في التأمّل. ولم يخرج من عزلته في سهرة التلفزيون حيث تجتمع الأسرة وكأنّها غير مجتمعة. غرق في التأمّل حتّى وجد نفسه ولأوّل مرّة يسأل عن معنى حياته أو عن معنى الحياة. ومضت المعاني تتلاشى وتتبخّر في الهواء. وقلب عينيه بين جدران الحجرة وسقفها وكأنّما يجول في الكون ثمّ سأل:

ـ هل يوجد في قلب هٰذا الكون هدف أو معنًى؟!

لو عرف هٰذا الهدف الكونيّ عرف بالتالي معنى حياتنا. ولٰكن ما السبيل إلى معرفة هدف الكون؟ كيف نحمله على البوح بسرّه؟ كيف ننقذ حياتنا من العدم؟! . لم يجد نفسه في هٰذا المقام الحائر نتيجة لثورة أو فكر، ولٰكنّه وجد نفسه في خضمّه بتلقائيّة من لا يملك ذخيرة أو تراثًا. ذلك أنّه نشأ في جوّ خاصّ غير عاديّ. جوّ خلقه والداه من نوع خاصّ أيضًا. إبراهيم الدارجي الأب مشغول بالحياة لدرجة لم تترك له فراغًا لتساؤل أو تأمّل. إنّه أبعد ما يكون عن الطراز المتديّن ولٰكنّه في الوقت نفسه أبعد ما يكون عن النموذج الملحد أو الشاكّ. لم يتفوّه طيلة حياته بكلمة مع الدين ولا كلمة ضدّه. الدين بالنسبة إليه غير موجود أو مختفٍ في ظلّ كثيف، ولا يخطر له ببال، ولا يتذكّره إلّا في المناسبات النادرة، وقد ترد في كلامه مصطلحات دينيّة يردّدها دون أدنى انتباه إلى مغزاها فيقول أحيانًا «الله أعلم» ولا تعني عنده أكثر من «لا أدري». وعيد الفطر عنده كعك وعيد الأضحى عنده «لحمة». والأمّ بيسة لا تختلف كثيرًا عن زوجها في لا مبالاته الفطريّة وإن لم تخْلُ من إيمان بالشعوذة والسحر. فلم يعبق البيت بنفحة دينيّة ولو عابرة. هٰذا هو الجوّ الذي نشأ فيه عبد الفتّاح. ولم تضف إليه المدرسة سوى حكايات تحفظ وتنسى، وألفاظ تشرح وتعرب، وامتحانات يودعها محفوظاته قبل أن تتلاشى. وفي المدرسة عبرت أمامه ومن حوله تيّارات متضاربة دينيّة ومادّيّة، فلم يهتمّ بها، وسخر منها. ولذٰلك لم تتوثّق الصلة بينه وبين أحد من المنتمين إليها وأختار أصدقاءه ممّن هم على شاكلته من اللامبالين. ومع ذٰلك هزّته الهزيمة فوجم وتألّم ولٰكنّها لم تعدل به عن طريقه بل لعلّه أوغل فيه أكثر وأكثر. من أجل ذٰلك كلّه وثب في أزمته إلى الكون يسائله عن معناه وهدفه بتلقائيّة ويسر دون أن تعيقه عن ذٰلك عقيدة سابقة. تعلّق بالكون باعتباره الأمل الأخير الذي يمكن أن ينتشله من الفناء الزاحف على قلبه وروحه. تُرى هل يوجد سرّ ذٰلك عند أحد من البشر؟ هل تتضمّنه حكمة أو علم أو فلسفة؟، وأليس ممّا يفزع أن ترتفع فجأة من كرة القدم إلى قلب الكون دفعة واحدة؟! . وتوهّم أنّ عالمه الداخليّ يتوارى عن الأعين القريبة بما يفور فيه من تساؤلات حارّة مستميتة ولٰكنّه لاحظ في أعين والديه محاولات أبويّة قلقة تروم النفاذ إلى أعماقه. وضح ذٰلك يوم الأحد ـ يوم العطلة الأسبوعيّة ـ عندما دعواه للجلوس معهما في حجرة المعيشة عند الضحى. توقّع في الحال استجوابًا حميًا فضاق به قبل أن يعلن. وصدق حدسه عندما تساءل أبوه وهو يغوص بروبه الخفيف في الفوتي الأرجوانيّ:

ـ ما لك يا عبد الفتّاح؟!

فتظاهر بالدهشة لغرابة السؤال فقالت أمه:

ـ لست كعادتك، لا خفاء في ذٰلك. . .

وقال أبوه:

ـ بعد أيّام معدودة سيبدأ عام الثانويّة العامّة، وهو عام يتقرّر فيه المصير!

وقالت بيسة:

ـ ونحن أصدقاء ولا يجوز أن يحجز بيننا سرّ. . .

قال محاولًا الاحتفاظ بسرّه الغريب لنفسه:

ـ أنتما واهمان. . .

فقال الأب وأنامله تناجي حبّات سبحته القهرمانيّة التي تلقّاها هديّة واستغلّها لامتصاص القلق:

ـ بل إنّ صحّتك ليست على ما يرام.

ـ أشعر بتمام الصحّة والعافية. . .

ـ إنّك تمرّ بفترة من العمر شديدة الحرج. . .

ضحك ضحكة جافّة. تغيّر موقفه بغتة. جرفته موجة استهانة كردّ فعل للسهاد والألم. قال:

ـ الحقّ أنّه يشغلني سؤال محيّر!

ـ أيّ سؤال يا بنيّ؟

قال ممهّدًا بضحكة كالاعتذار:

ـ سؤال عن الهدف الكونيّ!

تفشّى صمت ثقيل حتّى صار له دويّ في الآذان. نظر والداه إليه طويلًا، ثمّ تبادلا النظر طويلًا. وتمتم الأب متسائلًا:

ـ الهدف الكونيّ؟!

فتساءل عبد الفتّاح:

ـ هل أندم على مصارحتكما بالحقيقة؟

فقالت بيسة بسرعة:

ـ أبدًا. . . . ولكنّنا لم نفهم. . .

فقال بتحدٍّ:

ـ إنّي أسأل هل في الكون هدف!

فتساءل أبوه:

ـ الكون دفعة واحدة؟

ـ الكون دفعة واحدة.

ـ الكون شيء فوق التصوّر. . . ماذا يهمّك من ذلك؟

ـ لن أعرف هدف حياتي، إن لم أعرف الجواب. . .

قال الأب برقّة وبجهد:

ـ إنّك كمن يريد أن ينتقل إلى مصر الجديدة عن طريق مدينة الكاب بجنوب أفريقيا. لِمَ لا تستعمل هٰذا الطريق الممهّد الذي نراه من نافذتنا؟

فقال بيأس:

ـ لا معنى لحياتي إن لم أعرف ذٰلك الهدف البعيد!

فرمقه إبراهيم الدارجي بحنان وقال:

ـ عليك أن تنجح في الثانويّة العامّة، وأن تحرز المجموع الذي يفتح لك أبواب الكلّيّة التي تريدها، وأن تعمل، ثمّ تتزوّج وتنجب ذرّيّة، وتستمرّ في التقدّم حتّى تنعم بمعاش مستقرّ سعيد، هل يوجد هدف وراء ذٰلك؟!

فتساءل بامتعاض:

ـ وماذا بعد المعاش المستقرّ السعيد؟!

فقال الرجل وهو يكظم غيظه:

ـ يجري علينا ما جرى على الناس منذ آدم!

فقال عبد الفتّاح بعصبيّة:

ـ معنى ذلك أنّه لا يوجد معنًى يستحقّ أن نعيش من أجله!

فتساءل الأب ضاحكًا:

ـ لا بدّ من معرفة هدف الكون؟!

ـ وإلّا فلا معنى لشيء على الإطلاق. . .

ونمّت نبرة الرجل عن غيظ مكتوم وهو يقول:

ـ وكيف تعرف هٰذا الهدف؟! كيف تتابعت الأجيال دون أن تعرفه؟، وهل تؤجّل امتحان الثانويّة العامّة حتّى تعرفه؟!

فقال الشابّ في حزن:

ـ أعرف أنّه سؤال مثير للسخرية ولٰكنّي وقعت في قبضته. . .

فقالت بيسة بجزع:

ـ لا تقل ذٰلك، عليك أن تنقذ نفسك. . .

وقال أبوه بحرارة مدافعًا اليأس:

ـ حتّى لو وُجد جواب فهو لن يجيء بين يوم وليلة.

قصمت عبد الفتّاح فواصل الرجل برجاء:

ـ لا خلاف في ذٰلك، فلنبدأ بالممكن. . .

قالت الأمّ وهي في غاية من القلق:

ـ لنبدأ بالممكن. . .

فواصل الأب:

ـ بوسعنا أن نخلق هدفًا لحياتنا وأن نحقّقه، ولك ألّا تكفّ عن التفكير في الآخر، ومن يدري فربّما عرفته بعد عمر طويل!

وتنهّدت الأمّ في ارتياح قائلة:

ـ حلّ موفّق، أليس كذٰلك يا عبد الفتّاح؟!

وقال الأب برجاء حارّ:

ـ أعلن موافقتك أرجوك. . .

ـ ابتسم ابتسامة شاحبة في استسلام. اقتنعت الأمّ بأنّه اقتنع. قالت بفرحة طفوليّة:

ـ سنسهر الليلة في الميري لاند، لم نسهر معًا منذ مدّة، أمامنا عشاء ساهر وشراب منعش...

وعند العشاء شرب قدحين من النبيذ فتلقّى نشوة فرّجت كربه وأشعلت ضوء الابتسام في ثغره وعينيه حتّى قال الأب لنفسه مستوهبًا العزاء:

ـ سحابة وانقشعت...

ووجد الشابّ نفسه ترحّب بالحلّ الموفّق. ربّما هربًا من المأزق الخانق الذي يهدّد بالشلل. وحمّل والديه مسئوليّة تراجعه السريع تفاديًا من الاعتراف بالهزيمة. رأى أن يطوي اليأس في ركن من نفسه وأن يرسم لحياته خطّة كالآخرين، ومن يدري فقد يدهمه الجواب من أعماق الحياة نفسها. وما الهدف الذي يختاره؟. كلّيّة الطبّ. حياة ثريّة من الناحيتين العلميّة والمادّيّة، زواج وإنجاب، وإن يكن الناس يتساوون في الموت فإنّهم لا يتساوون في الحياة ولا في الذكاء. المهمّ الآن أن يمحق من قلبه جيلة وخيانتها، وأن يقتلع الحبّ من جذوره ليستعيد توازنه. وتمنّى أن تُزفّ إلى حامد مظهر سريعًا لعلّه يداوي الألم باليأس. وحدث ذلك في الأسبوع الأوّل من العام الدراسيّ. وقف عند ملتقى شارع مريوط بالشارع العموميّ ليلقي نظرة على موكبها الصغير وهو يميل نحو مصر الجديدة. وبالرغم من توقّعه لذلك وتعجّله له فقد أصابته هزّة عنيفة فاقت تقديره وتخيّله. سهر ليلتها في حجرته حتّى الصباح على ضوء بطّاريّة صغيرة. قضى أكثر الوقت واقفًا أو ذارعًا الحجرة أو مرسلًا طرفه من النافذة إلى الليل الشامل. ومن خلال تجربة طارئة التحم بأثاث حجرته التحامًا غريبًا جنونيًّا. ومضى في التجربة على رغمه كأنّما يؤدّي طقوسًا لأوثان وقع تحت سيطرتها بقوّة سحريّة. جذب الفراش عينيه بدعوة نابعة من الصميم. وكأنّه يكتشف لأوّل مرّة الفراش الخشبيّ ذا اللون البنّيّ الغامق، والملاءة البيضاء والغطاء البنفسجيّ المطويّ للنصف. وبإدامة النظر إلى الفراش ومحتوياته دبّت فيه ـ الفراش ـ حياة من نوع ما، فتبدّت الوسادتان لعينيه ترنوان إليه، وشملت الملاءة والغطاء ألفة قديمة لا تكون إلّا بين الأصحاب. ونفذ بصره إلى الأعماق فرأى القطن المكدّس في الحشيّة وراح يعدّ خيوطه الملتفّة المضغوطة وهو يشعر بأنّه سيختتم الإحصاء بوثبة في المجهول قد لا يرجع منها. وتفرّس في مكتبه في الجانب المقابل من الحجرة وهو يحمل صفّين من الكتب يفصل بينهما السومان فرآه يبادله النظر داعيًا إيّاه إلى سماع حوار حارّ دائر بين الكتب لم يكد يلاحقه من سرعته وحيويّته وما ينذر من خطورة متعدّدة العواقب. ومدّ بصره إلى مرآة الدولاب القائم بين المكتب والفراش فعكست له صورته على ضوء البطّاريّة الخافت جسمًا بلا رأس، ومن عجب أنّه لم يدهش لذلك ولم ينزعج ولكنّه فتح الدولاب كأنّما ليبحث عن رأسه في داخله فرأى بدلة مشتبكة في معركة بالأيدي والأرجل فتراجع إلى فوتي يتوسّط الجدار المواجه للدولاب وانحطّ عليه وأغمض عينيه فانفجرت في رأسه خواطر مضطربة متلاطمة لم يستطع أن يمسك بواحدة منها متكاملة إذ سرعان ما تتلاشى في أخرى مؤجّجة رغبة متصاعدة في الإمساك بأيّ شيء ذي شكل سليم واضح، وظلّ فريسة الأطياف حتّى نضحت النوافذ بضوء الصباح المترع بالخريف. انطوت الليلة ولم تتكرّر وعزم على أن ينفّذ خطّته المرسومة. غير أنّ الكون لم يغب عنه تمامًا فكان يزوره من حين لآخر مذكّرًا إيّاه بحزنه المخزون المؤجّل. وبالمثل كانت تهبّ عليه نفحات من صحراء الحبّ المهجور. ولكنّه مارس حياة ناجحة فيما عدا ذلك وبشّرت حاله ببلوغ المرام. ولما أعلنت نتيجة الثانويّة العامّة جاءت مخيّبة للآمال، آمال آل الدارجي، ومن خلال التنسيق ضاعت الطبّ والهندسة والعلوم فلم يجد إلّا الحقوق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وكانت تقبل عددًا محدودًا من الثانويّة علميّ. جاءت النتيجة صدمة لإبراهيم الدارجي وقال وكأنّه يدافع عن كرامته الشخصيّة:

ـ هذه النتيجة تقطع بأنّك لم تكن في أحسن أحوالك.

وقالت الأمّ:

ـ رأيي أن تعيد السنة...

ولّما كان أدرى بذاته فقد قال بتسليم نهائيّ:

ـ لتكن الحقوق!

ولم يشأ أحد أن يضغط عليه فقال الأب:

ـ على أيّ حال أمامك فرصة للعمل في النيابة.

أمّا هو فقال لنفسه بمرارة «فشلت الخطّة». واعتمد في عمله على إرادته وحدها، وبلا دافع حقيقيّ. أجل شُفي من الحبّ وتحرّر من قبضة الكون، ولكنّه لم يقهر الفتور المستقرّ في همّته. ومضى في طريق النجاح الذي لا يبشّر بأيّ تفوّق أو امتياز حتّى حصل على ليسانس بلا تهاني وعن طريق توزيع القوى العاملة أُلحق كاتبًا بالنيابة العموميّة. حزن الأب إبراهيم والأمّ بيسة لذلك حزنًا شديدًا. إنّه الابن الوحيد، والحلم الكبير، وها هي النهاية تتجسّد أمام عينيهما كتمثال للخيبة. وفاق حزنه حزن والديه ولكنّه لم يَدْرِ بأيّ لسان يحتجّ على مصير صنعه بيديه. بل ذكر بكآبة أنّه لم يمارس التفوّق في حياته أبدًا. وأنّ الأرجح أنّه لا يستطيع أن يخلق لحياته هدفًا خيرًا من هذا. وقال لأبيه:

ـ أكثرنا الحديث يومًا عن الحياة والهدف ولكنّنا نسينا أمرًا هامًّا، خبّرني الآن هل تعرف أحدًا من الكبراء القادرين على تجديد الأهداف؟!

ـ فقال إبراهيم الدارجي بامتعاض:

ـ نشاطي يجري في مجال آخر، ولكن صبرًا، ستهاجر ذات يوم لعمل مثمر في الخارج...

تمثّل له «الخارج» في صورة منارة تشعّ نورًا من بعيد. وراح يوازن بين مرتّبه الجديد وبين مصروفاته التي تعوّد عليها في كنف والديه ثمّ تساءل كيف يواجه الحياة لو غاب والداه!. ولأوّل مرّة يشعر شعورًا ذاتيًّا كم أنّه فقير وكم أنّ الغلاء وحش مفترس. وتذكّر في الوقت نفسه الفارق الهائل بينه وبين رئيسه المباشر رغم أنّهما متخرّجان في كلّيّة واحدة. ما هو إلّا ذرّة رمل في صحراء التفاهة. وسيمضي من سيّئ إلى أسوأ. وما الراحة التي ينعم بها إلّا هديّة مهداة من والديه العاملين. عليه ألّا يركن إلى الطمأنينة العابرة الخادعة، وأن يفكّر في المستقبل بجدّيّة. تلزمه وثبة قويّة غير معقولة. طفرة غير متوقّعة وغير منطقيّة. بأيّ ثمن يجب ألّا تضيع الحياة هباء. ونحن في زمن الخوارق. ولكنّه لا يحبّ أيضًا المغامرة ولا يحبّ السجن. ولا يجوز انتظار المعجزة من «الخارج» وحده فقد يطول الانتظار، وخبرته لا يحتاج إليها «الخارج» مثل الخبرات الأخرى. الطريق شبه مسدود ولكنّ اليأس يعني الموت. وحام خياله المحموم حول حياة النجوم من الممثّلين الذين يرقون إلى الهدف بسرعة الضوء، وربّما من خلال فيلم واحد. لا وقت للطريق الطويل ولا قلب للمغامرة المحفوفة بالخطر. وغطّى عمله الجديد على أحلامه المؤرّقة فكشف له عن عالم من التجارب الطاحنة. إنّه جلس إلى يسار المحقّق باسطًا أوراقه على المكتب، متطلّعًا إلى المتّهمين الواقفين أمام المكتب. يرى ويسمع ويسجّل. وتنهمر فوقه عوالم الأسرار. تراخى التحامه بأحلامه أمام المهرّبين والمختلسين والمرتشين واللصوص. إنّهم أناس لا يختلفون عن الآخرين في أشكالهم وأصواتهم، لا سمات تقليديّة لهم مثل أشرار السينما، ووراء كلّ واحد منهم حلم يذكّره بأحلامه، كلّهم ينجذبون إلى أضواء الحياة كما تهيم الفراشات حول المصباح. وهم يذكّرونه بنفسه، ويذكّرونه بأبيه وأمّه أيضًا. وعجب لذلك بقدر ما انزعج له. لِمَ يذكّرونه بوالديه؟!، ربّما لتشابه في الوظيفة، أو الاهتمامات، أو المحرّكات العارضة. ووجد نفسه يتساءل لأوّل مرّة هل يتناسب دخل والديه مع مصروفاتهما؟!. إنّهما في الواقع لا يكترثان للغلاء، ولا يخلو أسبوع من وليمة تقام للأصدقاء، وفي العامين الأخيرين جدّدا أثاث الشقّة واقتنيا عددًا من التحف والسجاجيد والنجف لا يستهان به. حقًّا أنّهما لم يشتريا شيئًا ذا قيمة ثابتة كعقار أو سندات ولكنّهما ينفقان عن سعة باتت تثير في نفسه الخوف والكآبة. شكّ في والديه وغزاه همّ جديد انضاف إلى همومه الشخصيّة. وتعملقت همومه عندما أدلى إليه زميله عبد اللطيف محمود ـ كاتب يسبقه بأقدميّة خمس سنوات ـ برأيه في طبقات المجرمين. وكان عبد الفتّاح قد تلقّى تدريبه في العمل على يديه، ولما آنس إليه همس له برأيه وهو أنّ القانون لا يُطبّق إلّا على العاديّين من الناس أمّا الأقوياء فيسبحون فوق القانون، إلّا فيما ندر ولا يُقاس عليه. لم يصدّق ولم يكذّب ولكنّه مال إلى سوء الظنّ. كما مال إلى اتّهام والديه. وتساءل كيف يجنّبهما المصير الأسود؟!. وطرح السؤال يعني فيما يعنيه أنّ شكّه فيهما

انقلب حقيقة من حقائق حياته المرّة، ولذلك دارى رعبه بضحكة لا معنى لها. واهتدى إلى خير وسيلة لتحذيرهما وهي أن يقصّ عليهما لدى كلّ مناسبة طرفًا من أخبار المنحرفين الذين يسجّل اعترافاتهم يومًا بعد يوم، ويشهد عن كثب دموع البعض وهي تنعي آمالهم الخائبة. تصوّر بدن مقشعرّ والديه وهما يزحمان مع الآخرين طرقات المجمع القضائيّ مثل حبّات البنّ المتدافعة في وعاء الطاحونة. وجعل يرقب الاثنين بإمعان ويتفحّص ضيوفهما من الرجال والنساء. جميعهم أناس أذكياء وبلا مبادئ، المال معبودهم، والنجاح دينهم، والمغامرون هداتهم. يشوّهون الأسماء الرنّانة دفاعًا عن أنفسهم وتبريرًا لسلوكهم الخفيّ. ويقول لنفسه:

- برح الخفاء!.

وازداد صدره انقباضًا. تُرى كيف يتحمّل المصيبة إذا وقعت؟!. إنّها خليقة بتدمير أيّ شخص حتّى ولو لم يكن من التافهين. وتنهّد وهمس لنفسه «إلّا شخصًا واحدًا»، ورجع يحوم حول النجم ونجاحه وكيف يتألّق ويواصل التألّق ولو تسربل بالفضائح!، شدّ ما تداعبه هٰذه الفكرة. وتحفر سراديبها في وجدانه برشاقة وإغراء. غير أنّه نحّاها إلى حين ليُجري مع ذاته تحقيقًا فريدًا. هل يُقدم على الانحراف إن وعده بتحقيق الآمال؟!. وراح يتفحّص أعماقه بصدق وصراحة. وتبيّن له أنّه لا يملك مناعة ضدّ الانحراف في ذاته، ولٰكنّه جبان يؤثر السلامة!. على ذٰلك ترك الموضوع دون حسم. وإذا بمكتب التحقيقات يسوق إليه تجارب جديدة ومثيرة، فيكشف له التاريخ عن وجهه ويريه من آياته ما جهل. حقًّا عرف الكثير من خلال قضيّة اتّهم فيها بعض رجال العهد الماضي بالتآمر على قلب نظام الحكم. رأى وسمع وسجّل ورجع إلى شارع مربوط بمعلومات جديدة عن ماضي بلده القريب. واستسلم لأحلام اليقظة فتخيّل نفسه بطلًا من أبطال العهد البائد، فخاض المعارك المنقضية، وأحرز انتصارات لم يعد أحد يذكرها بالخير. وتساءل وهو منفرد بنفسه في حجرته:

- لماذا أتعاطف دائمًا مع المتّهمين؟!

وزوّدته أحلام اليقظة بوقود جديد بظهور متّهمين معاصرين على المسرح، من ذوي العقائد الدينيّة، وذوي العقائد المادّيّة. أذهلته جرأتهم، واستهانتهم بالعواقب، وتحدّيهم التحقيق والمحقّق. لأوّل مرّة يتلقّى تلك المبادئ كتجارب حيّة ممثّلة في أحياء، كحجج تفوح برائحة اللحم والدم، كتضحيات تستهين بكلّ غالٍ. فيمَ يختلف عن هٰؤلاء الشبّان؟! كيف افترقت الهويّات والمصائر؟!. وركب الخيال فجرّد سيفه حينًا، وقبض على المطرقة حينًا آخر، وهام في وديان المجد المغمور. هام طويلًا حتّى أدركه الإرهاق والملل. وعاد يتساءل:

- كيف أستخلص نفسي من مستنقع التفاهة؟!

الهجرة؟، النجوميّة؟، الانحراف؟، الماضي؟، الله؟، الثورة؟. المهمّ أن ينجو من الواقع الكئيب. واتّفق في ذٰلك الوقت أن أهداه الأب إبراهيم حجرة جديدة عصريّة بطاقمها المكوّن من الفراش والدولاب والشيفونيرة والتواليت وسجّادة فرنسيّة. قال له:

- تغيير الجوّ يجب أن يساير تغيير الشخصيّة.

فغمغم:

- أيّ شخصيّة؟!

وفكّر في ثمن الحجرة فاستعاد شكوكه بمرارة جديدة. وقرأ الأب صفحة وجهه فاستشفّ معاني أخرى فقال:

- الهجرة آتية فاصبر قليلًا...

الصبر جميل لٰكنّه مرّ. ولم ينقطع عن التفكير في البدائل المتاحة. وسمع زميله عبد اللطيف محمود ينصح ضيفًا بالانضمام إلى حزب الأغلبيّة. ولم يكن يفرّق بين جدّه ومزاحه ولٰكنّه أنصت إليه وهو يقول للرجل:

- الانضمام يضمن لك التمتّع بحقوق الإنسان!

فكّر أنّه بوسعه أن ينضمّ ولو إلى لجنة الحيّ ولٰكنّه حزب ضخم يحوي الملايين وهيهات أن ينتشله من ضياعه، أو يخرجه من شرنقة التفاهة. فرق كبير بين أن تركب سيّارة ولو صغيرة وبين أن تنحشر في أتوبيس. في الوقت ذاته فإنّه من الجنون أن يسعى إلى أهل الدين أو أهل المادّة فيعرّض نفسه للهلاك!.

كلّا. إنّه لم يخلق لذلك. ولم يَبْقَ أمامه إلّا الهجرة أو الفنّ!. وانبعثت في نفسه وثبة متحدّية ذات مساء وهو يحتسي قليلًا من النبيذ في تافرنا. رقصت النشوة في رأسه فانساب طموحه الحائر فقرّر أن ينفلت من قبضة الأحلام وأن يفعل شيئًا. سعى إلى مقابلة بعض المخرجين وعرض عليهم نفسه كقانونيّ يهوى التمثيل، مستمدًّا من شكله وحجمه ثقة وأملًا. قال له المخرج:

ـ لا يمكن تشغيلك إلّا إذا كنت متخرّجًا في المعهد...

فقال بثبات:

ـ يمكن كوجه جديد مرشّح للبطولة!

ودُعي إلى الاختبار. ولولا اليأس ما تغلّب على ارتباكه. وكان يترك عنوانه ويذهب. وينتظر ثملًا بأحلام اليقظة بعد أن حلّ البلاتوه محلّ الجهاد والفردوس الأرضيّ. ولكنّه لم يرده خطاب. وطال انتظاره حتّى شطب فرق الفنّ في سجلّ آماله المتهاوية أسوة بالنشاط السياسيّ كلّه فلم يَبْقَ إلّا «الخارج» كأمل أخير. وسأل أباه ذات مساء:

ـ لا أخبار عن الهجرة؟

فأجابه بوجوم:

ـ انتظر الوقت المناسب!

التقط إحساسه المشحوذ بسوء الظنّ نبرة جديدة في صوت أبيه. نبرة توحي بالهزيمة. انظر جيّدًا. ليس الرجل كعادته، ولا أمّه. إنّهما يعانيان قهرًا مجهولًا تبدّى في نظرة العين، وشهيّة الطعام، والحديث. وقال لنفسه «هل يتلاشى الأمل الأخير؟. سيقع شيء غير سارّ». وصدق حدسه فأعلن أبوه أنّه طلب إحالته على المعاش لسوء حالته الصحّيّة، ولحقت به أمّه في نفس الأسبوع معتلّة بنفس العلّة!. ذهل عبد الفتاح وهمس له سوء ظنّه بالحقيقة الخفيّة، لا شكّ أنّهما اضطرّا إلى ذلك اضطرارًا وتفاديًا من عاقبة أسوأ. الصحّة بريئة تمامًا، كانا من أحسن الناس عافية ومرحًا. وجاراهما فتظاهر بالقلق على صحّتهما واستمع إلى حديث طويل عن الضغط والطبيب، وقال بحرارة مصطنعة:

ـ الصحّة أهمّ من العمل والمال...

وتوقّفت حياة الترف المعهودة. انطفأت الشعلة وبدَوا كئيبين واجمين، وانتهت ليالي الولائم، وخيّم على البيت جوّ غريب من الإثم والعقوبة، واختفى أصحاب المنفعة والانتهازيّة فخلا المسكن إلّا من المنبوذين. وأمسى للنقود قيمة جديدة فلم تعد تنفق إلّا بحساب، وتردّد ذكر الغلاء مصحوبًا بلعن الانفتاح وذمّ المتاجرين بأرزاق الشعب!. ولم يخدع عبد الفتّاح بهذا الصوت الوطنيّ الطارئ وعرف سرّه. إنّه يكتسب كلّ يوم خبرة في مكتب التحقيقات أثرت رؤيته وأفعمته بسوء الظنّ. لن يخدعه نقد المنحرفين إذا حيل بينه وبين الانحراف. وامتنعت المعونات التي كان يحظى بها من والديه، وتضاعف قلقه عندما سمع أباه وهو يقول:

ـ لا مفرّ من بيع بعض التحف لمواجهة الغلاء!

فمضت الدائرة تضيق حول عنقه ويديه وتخلّقت في حياته أزمة جديدة هي الأزمة الجنسيّة التي لم يشعر بوطأتها من قبل. وقال لوالده:

ـ إنّي أعجب للذين لم ينحرفوا في هذه الظروف الطاحنة...

فقال أبوه بيقين ساخر:

ـ هم الذين لا حاجة بهم إلى الانحراف...

فوافقه الشابّ قائلًا:

ـ صدقت، فلكي يعيش فرد بلا نقود كافية يجب أن يكون صاحب معجزة...

فقال إبراهيم الدارجي ساخرًا:

ـ وقد انتهى عصر المعجزات:

فتنهّد الشابّ قائلًا:

ـ الهجرة إلى الخارج هي الأمل الأخير...

فقال الرجل بلا حماس:

ـ انتظر واصبر ولا تيأس!

ولكن إلى متى؟. وإن وسعه أن يصبر مع التفاهة فكيف يروّض وحش الجنس؟. حقًّا كانت أمّ حبيبته الغادرة بعيدة النظر، ولو أنّ الفتاة انتظرته لخيّب أملها وفضح نفسه. وسأل زميله عبد اللطيف محمود:

ـ ألم تفكّر في الزواج؟

فأجاب ساخرًا:

ـ أفكّر فيه عدد شعر رأسي...

- هل استعددت له؟

فأجاب بعظمة:

- سأكون مستعدًّا عام ٢٠٠٠!

فابتسم فسأله عبد اللطيف:

- وأنت؟

فأجاب باقتضاب:

- حالي حالك؟

فقال ضاحكًا:

- احلم بأنّ امرأة غنيّة وقعت في هواك...

ولكنّ الأحلام أرهقته حتّى الملل. وإنّه على أتمّ الاستعداد للتخلّي عن طموحه كلّه على شرط أن يتزوّج وينجب قانعًا كلّ القناعة بتفاهته. وقال لنفسه «رضينا بالحدّ الأدنى ولٰكنّه لا يرضى بنا». وهبط عليه إلهام غريب في تافرنا وهو يحتسي النبيذ. أن يعلن حربًا على الدولة!. أن يكتب منشورات سرّيّة، دينيّة تارة ومادّيّة تارة أخرى، ويرسلها إلى شتّى الجهات ذات الخطورة فينشر بذٰلك القلق والرعب ويستمتع بالنصر والعبث. ما عليه إلّا أن ينقل الآلة الكاتبة الخاصّة بوالدته إلى حجرته بحجّة أنّه سيكتب عليها المتأخّر من أعماله الحكوميّة. استجاب للإلهام وعزم على تنفيذه، وبذٰلك ينقذ نفسه من عذاب الانتظار والملل والتفاهة!. وراح ينفّذ مشروعه بحماس وسرور وشيطنة. ويودع المنشورات في مظاريف ويرسلها لشخصيّات رسميّة وغير رسميّة. ورغم أنّه استلهم مضامينها من منشورات اطّلع عليها خلال التحقيقات إلّا أنّه زاد نقدها حدّة وتهديداتها عنفًا. ولم يركّز على صندوق بريد أكثر ممّا يجب فنوّع الشوارع والأحياء، وانهمك في العمل بقوّة كأنّما هو هدف حياته. وانتظر أن يتلقّى أصداء عمله الخفيّ طويلًا حتّى أوشك أن ييأس. وإذا بعبد اللطيف محمود يهمس في أذنه ذات صباح:

- يتحدّثون عن نشاط دبّ في القوى الهدّامة!

فخفق قلب عبد الفتاح واندفع متسائلًا:

- المنشورات؟!

وأدرك للتوّ تسرّعه ففزع، وسأله الآخر:

- متى عرفت؟

فأنقذ نفسه قائلًا:

- في المقهى يتحدّثون!

ووصّى نفسه بالحرص والحذر. فقال عبد اللطيف:

- أجهزة الأمن في غاية من النشاط...

فتراوح بين السرور والخوف وتساءل:

- كيف؟

- المراقبة والتفتيش!

غضّ بصره إخفاء لانفعالاته. لم يكن هذا مقصده. تصوّر ما يتعرّض له الأبرياء بسبب عبثه فغاص قلبه في صدره. وأمضى اليوم قلقًا منزعجًا كئيبًا. لم يجلس إلى الآلة الكاتبة مرّة أخرى. وتساءل هل يجيئون بهم ليسجّل أقوالهم؟. وفي اليوم التالي دسّ إليه زميله عبد اللطيف ورقة قائلًا:

- إليك منشورًا!

تلقّى المنشور بقلب خافق، ولٰكنّ قلبه توقّف عن الخفقان عندما تبيّن له أنّه منشور آخر حقيقيّ لا علاقة له بعبثه!. الجدّ والعبث يسيران جنبًا إلى جنب، ولٰكنّ ذٰلك لن يبرّئه من الذنب فلا شكّ أنّ منشوراته تعتبر أيضًا مسئولة عمّا يجري من تفتيش وتحقيق. ودار رأسه فشعر بأنّ إصبعًا ستشير إليه بالاتّهام. وفي صباح اليوم التالي لم يجد عبد اللطيف محمود على مكتبه. وسرعان ما علم بأنّه أُلقي القبض عليه فيمن أُلقي القبض عليهم. قال له رئيس المكتب:

- كان منهم ونحن لا ندري!

أغمض عبد الفتاح مغالبًا انفعالاته التي تموج بإعصار همجيّ. ولم يترك طويلًا للتأمّل إذ دُعي لمكالمة تليفونيّة لأوّل مرّة مذ التحق بالعمل. وجد أنّ المتكلّم هو والده قال له:

- فُرجت، استعدّ للسفر، والتفاصيل وقت الغداء!

فرجت حقًّا!. الثروة في الطريق ولن تستعصي مشكلة عن حلّ طيّب. وقال لنفسه ساخرًا إنّها نهاية سعيدة جديرة بمنحرف من صلب منحرفين!. واستحضر صورة الكون ممثّلة في السماء والأرض قال:

- خبّرني عن الهدف من فضلك وإحسانك!

قِسْمَتي ونَصِيبي

عمّ محسن خليل العطّار أجزل الله له العطاء فيما يحبّ ويتمنّى عدا الذرّيّة. دهر طويل مضى دون أن ينجب مع مجاهدة للنفس لترضى بما وهب الله وبما منع. كان متوسّط القامة ممّن يؤمنون بأنّ الخير في الوسط. وكان بدينًا وعنده أنّ البدانة للرجل كما للمرأة زينة وأبّهة. وكان يزهو بأنفه الضخم وشدقيه القويّين وبالحبّ المتبادل بينه وبين الناس. وحباه الحظّ بستّ عناية ذات الحسن والنضارة والطيّبات المتراكمة من اللحم الورديّ الناعم، إلى كونها ستّ بيت ممتازة، يَغْنَى سطح بيتها المكوّن من دور واحد بالدجاج والإوزّ والأرانب، ويلهج عشّاق مائدتها بطواجنها المعمّرة وفطائرها السابحة في السمن البلديّ. دنيا مقبلة في كلّ شيء ولٰكنّها ضنّت بنعمة الإنجاب في عناد تطايرت دونه الحيَل. نشدت شورى الأحبّة، ولجأت إلى أهل الله من العارفين والواصلين، وطافت بالأضرحة المباركة، حتّى الأطبّاء زارتهم ولٰكنّهم أصدروا فتوى غير مبشّرة شملت الزوجين معًا عمّ محسن وستّ عناية وقالوا إنّ الأمل الباقي أضعف من أن يُذكر. ووقفت في سماء النعيم الصافية غمامة حزن مترعة بالحسرة لا تريد أن تتزحزح. ولمّا شارف عمّ محسن الخامسة والأربعين وستّ عناية الأربعين تلقّيا من الله رحمة. هتفت ستّ عناية بعد تدقيق وعناية «يا ألطاف الله!... إنّي حامل وحقّ سيّدي الكردي!». كان عمّ محسن أوّل من طرب وشكر. وتردّد الخبر في الوايليّة على حدود العبّاسيّة حيث يوجد بيت الأسرة ومحلّ العطارة. وانقضت الأشهر التسعة في انتظار بهيج، وجاء المخاض يهزج بالأنين السعيد. ولمّا تلقّت الحكيمة الوليد حملقت فيه مذهولة مبهوتة. وراحت تبسمل وتحوقل. وهرعت إلى الصالة الشرقيّة الوثيرة فوقفت أمام عمّ محسن مضطربة حتّى تمتم الرجل خافق القلب:

- ربّنا يلطف بنا، ماذا وراءك؟

همست بعد تردّد:

- مخلوق عجيب يا عمّ محسن...

- كيف؟

- أسفله موحّد وأعلاه يتفرّع إلى اثنين!

- لا!.

- تعال انظر بنفسك.

- وكيف حال الستّ؟

- بخير ولٰكنّها غائبة عمّا حولها!

وذهب في أثرها مضطربًا خائب الرجاء. وحملق في المخلوق العجيب. رأى أسفله موحّدًا ذا رجلين وبطن واحد، ثمّ يتفرّع بعد ذٰلك إلى اثنين لكلّ منهما صدره وعنقه ورأسه ووجهه. وكانا يصرخان معًا وكأنّ كلّا منهما يحتجّ على وضعه أو يطالب باستقلاله الكامل وحرّيّته الشرعيّة. هيمن على الرجل شعور بالارتباك والحيرة والخجل وحدس المتاعب تتجمّع فوقه كالسحب المليئة بالغبار. وتردّدت في داخله العبارة التجاريّة التقليديّة التي يحسم بها الموقف عند فشل صفقة من صفقات العطارة وهي «يفتح الله». أجل ودّ لو في الإمكان التخلّص من هٰذه العاهة التي لن يذوق معها راحة البال. وقالت الحكيمة وهي مستغرقة في عملها الروتينيّ:

- صحّة جيّدة، كأنّ كلّ شيء طبيعيّ تمامًا...

فتساءل عمّ محسن خليل:

- الاثنان؟

فقالت الحكيمة بحيرة:

- ليسا توأمين... هٰذا وليد واحد!

فجفّف الرجل عرق وجهه وجبينه المتصبّب من داخله ومن جوّ الصيف وتساءل:

- ولِمَ لا نعتبرهما اثنين؟

- كيف يكونان اثنين على حين أنّ انفصال جزء عن الجزء الآخر مستحيل!

- إنّها مشكلة، ليتها لم تكن أصلًا!

فقالت الحكيمة بلهجة وعظيّة:

- إنّه منحة من الله على أيّ حال ولا يجوز الاعتراض على حكمته...

فاستغفر الرجل ربّه فواصلت الحكيمة:

- سأسجّله باعتباره واحدًا.

فتنهّد عمّ محسن قائلًا:

- سنصبح أحدوثة ونادرة!

- الصبر جميل!

- ولٰكن ألا يُستحسن اعتباره اثنين ذَوي بطن واحد؟

- لا يمكن أن يتعامل مع الحياة إلّا كشخص واحد.

وتبادلا النظر صامتين حتّى سألته:

- ماذا تسمّيه؟

ولّما لازم الصمت تساءلت:

- محمّدين!... ما رأيك في هٰذا الاسم المناسب؟

فهزّ رأسه مستسلمًا دون أن ينبس. ولّما انتبهت ستّ عنباية لما حولها صعقت. وبكت طويلًا حتّى احمّرت عيناها الجميلتان. وشاركت زوجها عواطفه. غير أنّ ذٰلك لم يستمرّ طويلًا فاستجابت ستّ عنباية في النهاية إلى عاطفة الأمومة وعمّ محسن للأبوّة. وراحت ترضع الأيمن فما سكت البكاء حتّى أرضعت الأيسر. وبعفويّة جعلت تنادي الأيمن بقسمتي والأيسر بنصيبي فمنذ الأسبوع الأوّل عرف الوليد باسمين. وتميّز كلّ بفرديّة فربّما نام قسمتي وظلّ نصيبي صاحيًا يتناغى أو يبكي أو يرضع. ومع الزمن خفّت الدهشة وإن لم تخفّ أصداؤها في الخارج، وألفت الغرابة، وزالت الوحشة. ونال قسمتي ونصيبي حظّهما الكامل من الرعاية والحبّ والحنان. ومضت الأمّ تقول للزائرات من أهلها:

- ليكن من أمره ما يكون فهو ابني، أو هما ابناي.

واعتاد الحاجّ محسن - فقد أدّى الفريضة بعد التجربة - أن يقول:

- لله حكمته!

وعلم بفطرته أنّ الطفولة ستمرّ كدعابة ولٰكنّه فكّر في المستقبل بقلق واختناق. أمّا ستّ عنباية فاستغرقتها متاعبها المضاعفة. كان عليها أن ترضع اثنين، وأن تنظّف اثنين. وأن تربّي اثنين. وأن تملك أعصابها إذا نام أحدهما واحتاج للهدوء وصحا الآخر ورغب في الملاعبة. واختلفت بقدرة قادر صورتاهما، فبدا قسمتي عميق السمرة رقيق الملامح عسليّ العينين، أمّا نصيبي فكان ذا بشرة قمحيّة وعينين سوداوين وأنف ينذر بالضخامة. وأخذ الوليد يحبو على قدمين وأربع أيدٍ، وينطق كلمة بعد أخرى، ويحاول المشي. ولوحظ أنّ قسمتي كان أسرع في تعلّم النطق ولٰكنّه كان يذعن لمشيئة نصيبي في الحبو والمشي، وفي العبث بالأشياء وتحطيمها. لبثت القيادة طيلة تلك الفترة المبكّرة بيدي نصيبي واتّسمت بالعفرتة والتدمير ومطاردة الدجاج وإيذاء القطط، غير أنّ خضوع قسمتي لنصيبي أعفاهما من الشجار عدا الأويقات النادرة التي كان يميل فيها قسمتي للراحة فلا يتورّع نصيبي عن لكزه بكوعه حتّى يسترسل في البكاء. ولّما بلغا الرابعة من العمر وجاوزاها، أخذا ينظران إلى الطريق من النافذة ويشاهدان الأطفال، ويرفعان أعينهما نحو السماء من فوق السطح فانهمرت الأسئلة مع اللعاب:

- كلّ ولد ذو رأس واحد، لماذا؟

فتجيب ستّ عنباية مرتبكة:

- ربّنا يخلق الناس كما يشاء...

- دائمًا ربّنا... ربّنا... أين هو؟

فيجيب عمّ محسن:

- هو يرانا ونحن لا نراه وهو قادر على كلّ شيء، والويل لمن يعصاه!

ويحدّثهما الرجل عمّا يجب ليحوزا رضاه فيخاف قسمتي ويقول نصيبي لقسمتي:

- اسمع كلامي أنا وإلّا ضربتك...

ويريان القمر في ليالي الصيف فيمدّان نحوه أيديهما. يتنهّد قسمتي مغلوبًا على أمره ويثور نصيبي غاضبًا. ويتساءل الحاجّ:

- هل نحبسهما في البيت إلى ما شاء الله؟

فتقول ستّ عنباية:

- أخاف عليهما عبث الأطفال...

وقرّر الحاجّ أن يقوم بتجربة فجلس أمام البيت على كرسيّ خيزران وأجلسهما إلى جانبه على كرسيّ آخر. سرعان ما تجمّع الصغار من مختلف الأعمار ليتفرّجوا على المخلوق العجيب ولم ينفع معهم زجر أو نهر حتّى اضطرّ الرجل أن ينسحب من مجلسه وهو يحملهما على ذراعه، وتمتم في أسًى:

ـ بدأت المتاعب.

ولكنّ الله فتح على ستّ عنباية بفكرة فاقترحت أن تقنع جارتها بإرسال ابنها طارق وبنتها سميحة للعب مع محمّدين. ووافقت الجارة مشكورة فجاء طارق وسميحة، وكان طارق أكبر من محمّدين بعام أمّا سميحة فكانت تماثله في عمره.

وقد فزعا أوّل الأمر ونفرا من الصحبة غير أنّ ستّ عنباية استرضتهما بالهدايا حتّى زايلتهما الوحشة وجرفهما حبّ الاستطلاع والمغامرة، وسعد قسمتي ونصيبي بالرفيقين الجديدين، وأحبّا حضورهما حبًّا فاق كلّ تقدير، رغم أنّه لم يفز بحبّ في مثل قوّته. وتنوّع الحديث واللعب وابتكرت الحكايات. وجدت الكرة الصغيرة من يتبادل رميها، ووجد الحبل من يتصارع على شدّه، وباتت سميحة هدفًا ورديًّا كلّ يرغب في الاستحواذ عليه، وكلّ يدعوها إلى الجلوس إلى جانبه إذا جمعهم التلفزيون. وبسبب سميحة نشبت بينهما أوّل معركة حقيقيّة على ملإ من الأسرة، فدميت شفة نصيبي وورمت عين قسمتي. وبها تحرّر قسمتي من الذوبان في نصيبي وأخذ يشعر بأنه فرد بإزاء آخر فتبادلا من الآن فصاعدًا التوافق كما تبادلا التنافر. وقال الحاجّ ذات يوم:

ـ جاءت السنّ المناسبة للمدرسة...

فتجهّم وجه عنباية وارتسم في أساريره الشعور بالذنب فقال الحاجّ:

ـ إنّه باب مغلق!

وتفكّر مليًّا ثمّ قال:

ـ سأجيء لهما بالمعلّمين، يجب أن يعدّا على الأقلّ ليحلّا محلّي في الدكّان...

وجاء المعلّمون، ولقّنوهما مبادئ الدين واللّغة والحساب. واستجاب قسمتي للتعلّم بدرجة مشجّعة أمّا نصيبي فبدا راغبًا عن العلم متعثّرًا في الفهم والاستيعاب، ومن أجل ذلك حنق على الآخر، وكدّر ساعات مذاكرته بالعبث والغناء والمعاكسات الصبيانيّة. وبدا الخلاف مزعجًا في تقبّل التربية الدينيّة التي أقبل عليها قسمتي بقلب مفتوح على حين وقف فيها نصيبي موقف اللامبالاة. وضاعف زجر المدرّس من عناده، ونهره أبوه كثيرًا ولكنّه أشفق من ضربه. وعند بلوغ الثامنة أراد قسمتي أن يصلّي ويصوم. ومع أنّ نصيبي لم يَمِل إلى ذلك إلّا أنّه وجد نفسه يشارك بقدر لا يستهان به في الوضوء، وأنّه يرغم تقريبًا على الركوع والسجود. ولشعوره بضعف مركزه أذعن للواقع وهو يمتلئ حنقًا وغيظًا. وأمره أبوه بالصيام، وحاول أن يشبع جوعه في الخفاء ولكنّ قسمتي احتجّ قائلًا:

ـ لا تنسَ أنّ بطننا واحد، وإذا تناولت لقمة واحدة أخبرت أبي...

وصبر يومه حتّى نفذ صبره فبكى فرقّت له أمّه وقالت للحاجّ:

ـ الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها، دعه حتّى يكبر عامًا أو عامين...

فقال الأب في حيرة:

ـ ولكنّه إذا أفطر أفطر الآخر!

وهي مشكلة لم يحلّها إلّا إمام سيّدي الكردي فقال إنّ العبرة بالنيّة وإنّ صيام قسمتي صحيح حتّى لو أفطر نصيبي. وصام قسمتي رغم إفطار نصيبي مستندًا إلى نيّته أوّلًا وأخيرًا. وتوكّد لكلّ شخصيّته، وحال بينهما نفور دائم آخذ في الاستفحال، وندرت بينهما أوقات الصفاء. وقالت الأمّ بعين دامعة:

ـ يا ويلي، لا يطيق أحدهما الآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر، فكيف تمضي بهما الحياة؟!

مضت على الشوك، وشمل الخلاف أشياء وأشياء. قسمتي يحبّ النظافة ونصيبي يكره فكرة الاستحمام إلّا أن يُضطرّ إليه اضطرارًا، وتوسّط الوالدان على أن ينزل قسمتي عن شيء من النظافة نظير أن ينزل نصيبي عن كثير من القذارة. ونصيبي نهم لا يشبع فكثيرًا ما كان يُصاب قسمتي بالتخمة. ولقسمتي ولع بالأغاني العاطفيّة على حين يعشق نصيبي الأناشيد الصاخبة. أمّا ذروة الخصام فقد احتدمت لحبّ قسمتي النامي للقراءة والاطّلاع، يحبّ أن يقرأ كثيرًا والآخر يفضّل اللعب فوق السطح ومعاكسة السابلة والجيران. ونصيبي يمكن أن يصبر ساعة على انهماك الآخر في القراءة ولكنّه عند الضرورة يعرف كيف يفسد عليه

تركيزه واستغراقه حتّى يشتبكا في معركة تسفر عادة عن انتصار نصيبي. وقال له قسمتي مجرّبًا المناقشة بدلًا من العنف غير المجدي:

- لي هواياتي ولك هواياتك ولٰكنّ هواياتي أنسب لظروفنا غير الطبيعيّة...

فقال نصيبي بحدّة:

- معنى ذٰلك أن تتحوّل الحياة إلى سجن دائم.

- لكن لا نصيب لنا في الدنيا الخارجيّة.

- السعادة في الدنيا والكآبة في الحجرة.

فقال قسمتي:

- إنّك تعاكس الناس فينهالون علينا بالسخرية.

- أموت لو فعلت غير ذٰلك... بل إنّي أفكّر في اقتحام الطريق...

- ستجعل منّا أضحوكة وفرجة...

فصاح نصيبي:

- إنّي أكره السجن وأحسد النجوم...

فقال قسمتي برجاء:

- يلزمك الكثير من العقل...

فقال نصيبي بازدراء:

- لا سبيل إلى الاتّفاق.

- لكنّنا واحد كما ترى رغم أنّنا اثنان!

- هٰذه هي المصيبة ولٰكن عليك أن تذعن لي دون مقاومة...

- إنّك عنيد وتحبّ الخصام...

ودعاهما الوالدان إلى الاجتماع في حجرة المعيشة. حقًّا إنّهما فقدا الشعور براحة البال وتنغّص عليهما صفوهما. وآمنا بأنّ كارثة ستحلّ بالبيت إن لم يسارعا إلى حسم الداء. قبّلتهما عنباية وقالت:

- فليحبّ أحدكما الآخر، إن وجد الحبّ تلاشت المشاكل!

فقال نصيبي:

- هو الذي يكرهني!

ولٰكنّ قسمتي بادره قائلًا:

- بل أنت الذي تكرهني!

فقالت ستّ عنباية متأوّهة:

- إنّكما اثنان في واحد لا يتجزّأ ولا بدّ من الحبّ...

وقال الحاجّ محسن خليل:

- الحكمة تطالبكما بالوفاق وإلّا انقلبت الحياة جحيمًا لا يطاق، ذوبان أحدكما في الآخر مرفوض، والوفاق ممكن، فليصبر نصيبي عندما يرغب قسمتي في القراءة، وفي مقابل ذٰلك على قسمتي أن يرحّب بالحركة واللعب مع نصيبي، وليكن كلّ غناء مقبولًا ليستمتع كلّ بأغانيه المفضّلة، أمّا الدين فلا مناقشة فيه...

- فقال قسمتي:

- إنّي على استعداد طيّب للوفاق رغم ما يكلّفني من ضيق...

ولاذ نصيبي بالصمت فرجع قسمتي يقول:

- إنّه لا يحبّ الوفاق، ولا يعدّ نفسه ليوم تدعونا فيه إلى العمل في الدكّان!

فقال الأب بحزم:

- لا بدّ ممّا ليس منه بدّ!

وعادت ستّ عنباية تقول بحرارة وضراعة:

- عليكما بالحبّ ففي رحمته النجاة...

ولٰكنّ الوالدين لم يَصْفُ لهما بال. وتابعا ما يحدث بقلق وأسى. وبذل نصيبي في سبيل الوفاق جهدًا متردّدًا لغلبة الأهواء الجامحة عليه على حين مضى قسمتي في الطريق الجديد بإرادة أقوى ورغبة أنقى مستأنسًا بعواطفه الصادقة وميله المخلص لوضع حدّ لعذاباته، ومستعينًا عند الضرورة بوالديه. ولّما ناهزا الحلم وشارفا المراهقة تصاعدت أزمتهما إلى الذروة. احتدمت الأحلام المكبوتة منذرة بالانفجار. وتبلورت لكلّ منهما ذاتيّة مستقلّة فبدا الآخر غريبًا مهدّدًا للأمن، وعدوًّا يجب أن يقهر. ضاق كلّ منهما بالرابطة القدريّة التي فرضت عليهما وحدة كريهة لا فكاك منها. وتلاطما في دوّامة من الانفعالات المحرقة الجنونيّة. وفارت من الأعماق موجة عمياء جرفت ستر الحياء، فارتطم الاندفاع بالندم، واشتعل الغضب فانخرط الاثنان في معركة وتبادلا الضربات القاسية. وهمدت الحركة غائصة في الصمت والشجن. استمرّت فترة غير قصيرة إلى أن قال قسمتي:

ـ إنّها لعنــة لا يمكن أن تمضي معهــا الحيــاة في سلام. . .

فقال نصيبي بهدوء عنيد:

ـ لكنّها ستمضي في طريقها على أيّ حال!

فأظلمت عينا قسمتي العسليّتان وقال:

ـ قُضي علينا بالحرمان من الانسجام الذي تحظّى به جميع المخلوقات. . .

ـ إنّك مريض ذو أفكار مريضة. . .

فقال قسمتي بسخرية:

ـ أحدنا مريض ولا شكّ!

فقال نصيبي بتحدٍّ:

ـ لن أنزل عن حقّ من حقوقي. . . فلا مهادنـة بعد الآن. . .

ـ لي أيضًا حقوقي. . .

وتبادلا نظرة متحدّية وبائسة، فانقطعـا عن الحوار على أسوإ حال. وفي ذٰلك الوقت رأيا سميحة ـ زميلة الطفولة ـ بعين جديدة. كانا يريانها من النافذة وهي تذهب وتجيء منفردة أو بصحبـة أمّها فتـوقظ ذكرى عابرة ثمّ تختفي. أمّا ذٰلك اليوم فرأياها بعين جديدة. رأياها وقد أنضجتها شعلة الصبا فأضفت عليها بهاء وأثرتها بشهد الرغبة. أُترع قلب قسمتي برحيق الفتنة فثمل على حين جنّ نصيبي بالأخيلة الجـامحة. تلقّى قلب قسمتي شعـاع الحسن كما يتلقّى الـبرعم شعاع الشمس فيتفتّح. تمنّى لو تحلّ محلّ نصيبي من وجوده التعيس، ولأوّل مـرّة يشعـر بـأنّ نصيبي ليس قيـدًا فحسب ولٰكنّه سدّ منيع في طريق السعادة الحقيقيّة. أمّا نصيبي فظلّ رأسه يتحرّك في اضطراب، ولّما وجد الفتاة واقفة قريبة من مدخل بيتها تنتظر انـدفع إلى الطريق جارًّا معه قسمتي. مرق من الباب إلى الطريق فرأته سميحة فتراجعت مبتعدة باسمة. ولٰكنّه اندفع نحوها مسدّدًا يديه إلى صدرها ففزعت ووثبت داخلة إلى بيتها. ولفتت الهجمة الحيوانيّة أنظار بعض المارّة في شارع الوايليّة ولٰكنّ قسمتي رجع إلى بيتهم بسرعة وهو يسبّ ويلعن والآخر مستسلم له بعد إفاقة مباغتـة. وغضب قسمتي وصاح به:

ـ إنّها فضيحة وما أنت إلّا مجنون. . .

فلم يجبه نصيبي مغلوبًا على أمره. وعلمت الأمّ بما حدث فجزعت، ولّما عرفت الحقيقة من قسمتي قالت للآخر:

ـ ستُهلك نفسك ذات يوم. . .

فهتف قسمتي:

ـ وسوف يهلكني معه دون ذنب. . .

فقال نصيبي بجرأة:

ـ نحن في حاجة إلى زوجة!

فبهتت الأمّ ولم تدْرِ ماذا تقول فواصل نصيبي:

ـ كما ولدتنا. فانّك مسئولـة عن تزويجنـا من بنت الحلال. . .

فقال قسمتي:

ـ لن توافق بنت على الزواج من اثنين!

فقال نصيبي بتحدٍّ:

ـ ابحثي لنا عن زوجتين.

فقال قسمتي بحزن:

ـ قضي علينا أن نعيش وحيدين!

فقال نصيبي:

ـ فلنعتبر شخصًا واحدًا كما نحن مسجّلون في دفتر المواليد.

فقال قسمتي بأسىً:

ـ شخص للفرجة لا للزواج. . .

واضطرّت الأمّ أن تغادر الحجرة وهي تقول:

ـ قد يكون عند الحاجّ حلّ!

وثار غضب نصيبي، وقال للآخر:

ـ لا حلّ إذا لم نعثر عليه بأنفسنـا، فلننتظر حتّى ينتصف الليل ويندر المارّة ثمّ ننطلق في الظلام وراء أيّ صيد يقع.

فهتف قسمتي:

ـ خيال جنونيّ. . .

ـ لا تكن جبانًا.

ـ لا تكن مجنونًا.

وقال الحاجّ محسن لزوجته:

ـ لم يغب عنّي هٰذا الموضوع، ولٰكن لا توجد أسرة ترضى بمصاهرتنا. . .

ـ والحلّ!

فقال الرجل وصوته يخفض:

- ستجيء امرأة مسكينة في الحلقة الخامسة لتقوم على خدمتها!

وجاءت امرأة تعيسة الحال والمنظر، نشطوا إلى تغذيتها وتنظيفها لترضى بما يُراد بها. وأعقب ذلك سكون ظاهريّ على الأقلّ، أمّا في الواقع فإنّ نصيبي كان يسيء معاملة المرأة نهارًا كتعويض عن اندفاعه الليليّ، وأمّا قسمتي فبدا كئيبًا مشمئزًّا، ويسأل الآخر:

- ما ذنبي أنا؟

فنهره نصيبي متسائلًا:

- وهل الذنب ذنبي؟!

لم يحِرْ جوابًا لكنّه تذكّر سميحة بقلبه المسلوب، وعواطفه المتأجّجة المحرومة فتضاعف أساه. والحقّ أنّ كليهما شعر بالضياع والهوان، ولكن لم يشعر أحدهما بتعاسة الآخر، وعلى العكس اتّهمه بأنّه المسئول عن مأساته، وودّ لو يتخلّص منه بأيّ ثمن. ودعاهما الأب للعمل في الدكّان ولو كتجربة لا مفرّ من ممارستها. كان يوم حضورهما في الدكّان يومًا معتدل المناخ من أيّام الربيع. تجلّيا للأعين في بنطلون رماديّ، وقميصين أبيضين نصف كمّ أمّا شعر رأسيهما فاستوى مشذّبًا متوسّط الطول. وقفا وراء الطاولة مرتبكين. وسرعان ما تجمّع كثيرون ما بين زبون ومتفرّج حتّى ازدحم الطريق إلى نصفه. وقال الحاجّ موجّهًا خطابه لابنيه:

- استغرقا في العمل ولا تباليا بالناس...

ولكنّ الغضب تملّك نصيبي على حين دمعت عينا قسمتي. وإذا بمصوّر صحفيّ يشقّ طريقه بين الجموع ويلتقط العديد من الصور لمحمّدين أو قسمتي ونصيبي. وفي النصف الثاني من النهار جاء مندوب من التلفزيون يستأذن في إجراء حوار مع الشابّين، ولكنّ الحاجّ رفض بحزم وبنبرة شديدة الغضب. وبنشر الصور في الصحيفة الصباحيّة اشتدّ إقبال الناس وهبط البيع للدرجة الدنيا، فاضطرّ الحاجّ محسن خليل لمنعهما من الذهاب إلى الدكّان، وقال لامرأته بقلب محزون:

- سوف تصفّى التجارة عقب انتهاء الأجل...

وعند ذاك تساءل نصيبي غاضبًا:

- لِمَ لم تتخلّص منّا عقب ولادتنا؟. لِمَ لم ترحمنا وترحم نفسك؟

فقال الحاجّ في تأثّر شديد:

- لن تعرفا الضيم أبدًا. وسترثان ما يحقّق لكما الستر والكرامة.

فهتف نصيبي:

- لا قيمة للمال وحده، الواقع أنّنا ميتان، كم تمنّيت أن أمارس التجارة وأبتاع سيّارة وأتزوّج من أربع!

وقال قسمتي في حسرة:

- وعندي الاستعداد لأكون أستاذًا... وأمارس السياسة أيضًا...

ونظر نصيبي إلى قسمتي وقال بحنق:

- إنّك العقبة التي تسدّ طريقي...

فقال قسمتي بإصرار:

- أنت أنت العقبة...

فتساءل الحاجّ:

- ألا تسلّمان بالواقع وتسعيان إلى السعادة معًا؟

فقال قسمتي:

- لو خلقنا برأس واحد وأسفلين منفصلين لهان الأمر!

فقال الحاجّ برجاء:

- لن تعزّ السعادة على من ينشدها بصدق...

فقال قسمتي بحنق:

- هذه السعادة هي سبب تعاستنا!

ثمّ التفت نحو نصيبي قائلًا:

- تخلَّ عن عنجهيّتك واتبعني تبلغ أقصى درجات الرفعة والسعادة، أمّا لو تبعتك أنا فيكون مصيرنا السجن...

فقال نصيبي ساخرًا:

- محاولة خائبة لن تنجح، نحن مختلفان تمامًا، أنا لا أحبّ المعرفة، أمّا السياسة فإنّك إن اخترت الحكومة اخترت من فوري المعارضة والعكس بالعكس، لن أتبعك ولن تتبعني. ولن تهدأ المعركة...

فقال الأب بنفاد صبر:

ـ ارجعا إلى الوفاق، لا مفرّ منه، إنّه قدر، كما أنّ اتّحادكما قدر...

وعادا كارهين إلى المحاولة. تجنّبا الخلاف ما استطاعا، وجارى كلّ الآخر رغم تقزّز قسمتي الخفيّ وسخرية نصيبي بعيدًا عن عيني صاحبه. بدوا صديقين بلا صداقة، متحالفين بلا إخلاص، فعاش كلّ منهما نصف حياة، وتعلّق بنصف أمل. غير أنّ آثار العمر طبعت في وجه نصيبي قبل الأوان، وتوكّد أنّه يسرع نحو شيخوخة مبكّرة. لعلّه نتيجة لإفراطه في كلّ شيء. وراح يشكو من فتور في الجنس وحسّاسيّة من الشراب، وسوء الهضم. ولم تنفعه العطارة ولا الطبّ. وفي معاناته أعلن ما يختبئ من حنق على صاحبه فاتّهمه قائلًا:

ـ حسدتني عليك اللعنة...

فتسامح معه قسمتي متمتمًا:

ـ سامحك الله!

فصاح به:

ـ لن تشمت بي، إذا متّ فستحمل جثّتي إلى نهاية العمر وتتحوّل من بشر إلى قبر!

واشتدّ به الضعف حتّى ركبه الخوف من الموت. ورقّ له قسمتي في تدهوره فشجّعه قائلًا:

ـ سترجع إلى خير ممّا كنت!

فلم يحفل بقوله ولم يصدّقه. وذات صباح صحا مبكّرًا وهتف:

ـ إنّي ذاهب إلى موطن الحقيقة الباكية!

وهرولت إليه ستّ عنباية فأدركت أنّه يحتضر فأخذته في حضنها وراحت تتلو الصمديّة وانتفض صدره، وبكى قسمتي أيضًا ولكن سرعان ما غشاه الفزع من الموت المزروع في جذعه، وتبادل الوالدان نظرة حائرة. ماذا يفعلان بهذه الجثّة التي لا يمكن دفنها؟. واستدعي طبيب على عجل فتفحّص الحال وقال:

ـ إنّها مشكلة تتضمّن مشكلات، ولكن لا حلّ إلّا تحنيطه إذ لا يمكن فصله...

هكذا عاش قسمتي حاملًا جثّة صاحبه المحنّطة. أدرك من اللحظة الأولى أنّه سيعيش نصف حيّ ونصف ميت. وأنّ الحرّيّة التي حظي بها، والتي طالما تمنّاها، ليست إلّا وهمًا، وأنّها نصف موت أو موت كامل. أجل قرّر أن يهب نفسه للعمل طيلة الوقت بعد أن زال العائق ولكنّه اكتشف أنّه شخص جديد آخر. ولد الشخص الجديد فجأة وبلا تدرّج. شخص فتر حماسه، وجفّت ينابيعه، وتلاشت همّته، وخمد ذوقه. شخص جفا الحياة والعبادة والمسرّات اليوميّة البريئة. شخص يعيش تحت سماء ماجت بالغبار فلا زرقة ولا سحب ولا نجوم ولا أفق. وقال بأسى عميق:

ـ الموت في الكون...

ورُئي طوال الوقت صامتًا واجمًا شبه نائم فسألته أمّه:

ـ ألا تسلّي نفسك بفعل شيء؟

فأجابها:

ـ إنّي أفعل ما في وسعي، إنّي أنتظر الموت...

وبدا لعينيه أنّ الظلام يهرول نحوه واعدًا بالسلام.

العين والساعة

حدث ذلك في آخر ليلة لي في البيت القديم. أو الليلة التي تمّ الاتّفاق على أنّها ستكون الأخيرة. والبيت ذو شخصيّة منفردة رغم قدمه، وغربته الواضحة في محيط العصر. بات وكأنّه أثر من الآثار، وأكّد ذلك موقعه المطلّ على ميدان ولد مع القاهرة في عام واحد. نشأنا فيه بحكم الميراث، ثمّ حال الجفاء بيننا وبينه بحكم تنافر الأجيال، فتطلّعنا إلى الأجواء الحديثة الباهرة بعيدًا عن الجدران الحجريّة المغروسة في الأزقّة الضيّقة. كنت جالسًا في الصالة المعصرانيّة الواسعة على أريكة طاعنة في السنّ تقرّر الاستغناء عنها تحت مَنْوَر محكم الإغلاق اتّقاء لنزوات الخريف. وكنت أحتسي قدحًا من القرفة رانيًا إلى إبريق نحاسيّ صغير قائم على خوان بين يديّ، يبرز ما فيه عود بخور جاوي يحترق على مهل نافثًا خيطًا من الدخان الطيّب وهو يتماوج ويتأوّد تحت ضوء المصباح في صمت الوداع، واعترى ارتياحي فتور لغير ما سبب ثمّ غمرني

شجن خفيّ. شحنت عزيمتي للمقاومة ولكنّ الحياة كلّها تجمّعت أمام عينيّ في التماعة خاطفة مثل كرة من نور منطلقة بسرعة كونيّة، سرعان ما انطفأت واهبة ذاتها للمجهول غائصة في جوفه الأبديّ.

قلت لنفسي إنّي على دراية بهٰذه الألاعيب، وإنّ الرحيل العارض المقرّر غدًا يذكّرني بالرحيل الأخير عندما يرفع الحادي عقيرته مردّدًا النشيد الأخير. وجعلت أتسلّى عن أحزان الوداع بتخيّل المقام الجديد في الشارع العريض تحت أغصان البلح الملتحمة والحياة الجديدة الواعدة بمسرّات أنيقة لا حصر لها، وما كادت القرفة تستقرّ في جوفي حتّى وثبت وثبة عملاقة مباغتة انتقلت بها من حال إلى حال، فمن أعماقي تصاعد نداء يدعو بثقة لا حدّ لها إلى فتح الأبواب وكشف الحجاب وغزو الفضاء واقتناص السرضى والسماح من جنبات الجوّ المعبّق بالبخور. انجابت الهموم والأشجان وخواطر الفناء. وانهمرت سيول مترعة بالنشاط والهيام والطرب. وانتفض القلب في رقصة رائعة موحية بالإيهام والجذل. وشعّ نور في الباطن فتجسّد في مثال. وقدّم كأسًا طافحة وقال بصوت عذب «تَلَقَّ هديّة معجزة» توقّعت أنْ سيحدث حدث. وقد حدث. ذابت الصالة في العدم وحلّ محلّها فناء واسع يترامى حتّى يفصل بينه وبين الميدان جدار غليظ أبيض، غطّته دوائر وأهلّة معشوشبة، وتوسّطته بئر، وعلى مبعدة يسيرة منها نخلة فارعة، وتحيّرت بين إحساسين، إحساس يقول لي إنّني أرى مشهدًا لم تسبق لي رؤيته، وآخر يقول لي إنّه ليس بالغريب وإنّني أراه وأتذكّره معًا. حرّكت رأسي بعنف لأحضر إن كنت غائبًا، ولكنّ المشهد ازداد وضوحًا وسيطرة وتمثّل لي بين البئر والنخلة بشر! إنّه شخصي أنا رغم استخفائي في جبّة سوداء وعمامة عالية خضراء، وهٰذا وجهي رغم لحيته المسترسلة. حرّكت رأسي مرّة أخرى ولكنّ المشهد ازداد وضوحًا ويقينًا، حتّى لون الوقت الأسمر أشار إلى المغيب المغترب، وتمثّل أمامي ـ بين البئر والنخلة ـ كهل يماثلني في الزيّ، رأيته يناولني صندوقًا صغيرًا ويقول:

ـ إنّها أيّام غير مأمونة، يجب إخفاؤه تحت الأرض حتّى تعود إليه في حينه.

فسألته:

ـ ألا يحسن أن أطّلع عليه قبل إخفائه؟

فقال بحزم:

ـ لا... لا... قد يحملك ذٰلك على التسرّع في التنفيذ قبل مضيّ عام فتهلك!

ـ أعليّ أن أنتظر عامًا؟

ـ دون نقصان، ثمّ أطِعْ ما يمليه عليك...

وصمت لحظة ثمّ واصل محذّرًا:

ـ إنّها أيّام غير مأمونة، وقد يتعرّض بيتك للتفتيش، فيجب إخفاؤه في الأعماق...

وقام الاثنان بالحفر على كثب من النخلة، ودفنا الصندوق، ثمّ أهالا عليه التراب، وسوّيا السطح بعناية، ثمّ قال الكهل:

ـ أتركك للعناية الإلٰهيّة... كن حذرًا، إنّها أيّام غير مأمونة...

وعند ذاك تلاشى المشهد فكأنّه لم يكن، رجعت صالة البيت القديم وما زال في عود البخور بقيّة، ورحت أفيق من نشوتي بسرعة وأرتدّ إلى الواقع بكلّ كثافته، وغلبني الانفعال والتأثّر طويلًا. تُرى أكان وهمًا ما رأيت؟ هٰذا هو التفسير الجاهز ولٰكن كيف آخذ به وأنسى المشهد المجسّد الذي نفث اليقين بكلّ أبعاده؟ لقد عشت واقعًا ماضيًا لا يقلّ في صلابته عن الواقع الراهن، رأيت نفسي أو أحد جدودي وجانبًا من عصر انقضى، لا يجوز أن أشكّ في ذٰلك وإلّا شككت في عقلي وحواسّي، لا أدري بطبيعة الحال كيف حدث ذٰلك ولٰكنّي أدري أنّه حدث. وثمّة سؤال غزاني بعنف: لماذا حدث ما حدث؟. ولماذا حدث في هٰذه الليلة الأخيرة لي في البيت القديم؟. وفي الحال شعرت بأنّني مُطالَب بعمل شيء ما. شيء لا مفرّ منه. وتُرى هل استخرج «الآخر» الصندوق بعد مضيّ العام وصنع ما يشير عليه به، هل نفد صبره فتسرّع فهلك؟ هل انقلبت عليه خطّته بسبب تلك الأيّام غير المأمونة؟! يا لها من رغبة آسرة في المعرفة لا يمكن مقاومتها!. وخطر لي خاطر غريب وهو أنّ الماضي لم يتمثّل لي إلّا لأنّ «الآخر» حيل بينه وبين الصندوق وأنّي مدعوّ

لاستخراجه وتنفيذ ما يشير به بعد إهمال طال واستطال أمدًا غير معروف. إنّه يأمرني بألّا أهجر البيت القديم لكي أعمل بكلمة قديمة مجهولة آن لها أن تتحقّق. ومع أنّ الموقف كلّه تسربل بغشاء منسوج من الأحلام، متنافر تمامًا مع العقل، غير أنّه هيمن عليّ بقوّة طاغية فامتلأ القلب بأشواق التطلّع والانتظار وآلامها الجامعة بين الترقّب والعذوبة. ولم أنم من الليل ساعة واحدة، وظلّ خيالي يجوب أرجاء الزمان الشامل للماضي والحاضر والمستقبل معًا ثملًا بخمر الحرّيّة المطلقة، أمست فكرة الرحيل في خبر كان. واستحوذت عليّ نيّة التنقيب في الماضي المجهول لعلّي أعثر على الكلمة التي طال رقادها، ثمّ أتأمّل ما ينبغي صنعه بعد ذلك، وبالمقارنة بين المشهد البائد والمشهد الماثل لعينيّ، قدّرت أنّ موقع النخلة القديم يقوم في موضع السلّم الصغير الصاعد إلى المنظرة. وعليه فالحفر يجب أن يبدأ على مبعدة يسيرة منه فيما يلي شبّاك المنظرة، اعترضتني بعد ذلك مشكلة إخبار أخي وأختي بعدولي عن الرحيل بعد أن تمّ الاتّفاق بيننا عليه. وكنّا لا نزال في مرحلة التعليم الجامعيّ فأنا في السنة النهائيّة بكلّيّة الحقوق، وأخي الذي يصغرني بعام يدرس الهندسة، وأختي التي تصغرني بعامين تدرس الطبّ. احتجّ كلاهما على عدولي المفاجئ ولم يجدا له تفسيرًا مقنعًا وأصرّا في الوقت نفسه على الانتقال وحدهما غير يائسين من التحاقي بهما في وقت قريب. وقبل أن يغادراني ذكّراني بما اتّفقنا عليه من عرض البيت للبيع للاستفادة من ارتفاع سعر الأراضي فلم أعارض بكلمة. هكذا افترقنا لأوّل مرّة في حياتنا وكنّا نؤمن بأنّه لن يفرّق بيننا إلّا الزواج أو الموت. ولم يبّق إلّا أن أشرع في العمل. والحقّ أنّي تهيّبته أن يتمخّض عن لا شيء ولكنّي كنت مدفوعًا بقوّة لا تقبل التراجع. وعزمت على الحفر بنفسي ليلًا في حذر وكتمان، استعنت بفأس ومجرفة ومقطف واستغرقني العمل بهمّة لا تعرف الكلل. صبغني التراب وملأ صدري واستقرّ في أنفي رائحة مترعة بالأسى والزمان الأوّل. وتواصل العمل حتّى غصت في الأعماق مقدار طولي كلّه ولا معين لي إلّا شعوري الباطنيّ بأنّي أقترب من الحقيقة.

وضربت الفأس مرّة فرجّع صوتًا جديدًا واشيًا بجسم جديد فخفق فؤادي حتّى زلزلت جذوره. رأيت الصندوق على ضوء شمعة يطالعني بوجه أغبر لكنّه حيّ. وكأنّما يعاتبني على طول تأخّري، ويؤنّبني على ضياع العديد من السنين، ويعلن امتياءه على حبسه كلمة من حقّها أن تعرف، من ناحية أخرى تجسّد لي حقيقة صلبة لا يدانيها شكّ. معجزة مجسّدة، صوتًا يملأ الأسماع، وانتصارًا محقّقًا على الزمن، صعدت به إلى سطح الأرض ثمّ هرولت إلى الصالة، حملت بين يديّ الدليل الذي عبر بي من الحلم إلى الحقيقة هازئًا بكافّة المسلّمات. نفضت عنه الغبار، وفتحته، فوجدت رسالة مطويّة في لفافة من كتّان متهرّئ، بسطتها برفق وأنشأت أقرأ:

- يا بُنيّ ليحفظك الله تعالى...

مضى العام وعرف كلّ سبيله.

لا تهجر دارك فهي أجمل دار في القاهرة فضلًا عن أنّ المؤمنين لا يعرفون دارًا سواها، ومأوًى آمنًا غيرها.

وقد آن الأوان لكي تلقى حامي الحمى مولانا عارف الباقلاني، فاذهب إلى داره، وهي الثالثة إلى يمين الداخل في عطفة إرم جور واذكر له كلمة السرّ وهي: إذا تغيّبت بدا وإن بدا غيّبني.

بذلك تؤدّي واجبك وتقبل عليك الدنيا وتنال ما يحبّ لك المؤمنون وفوق ما تحبّ لنفسك.

قرأت الرسالة مرّات حتّى حالت القراءة آليّة لا معنى لها. أمّا قريني القديم فلا علم لي بما آل اليه مصيره. لكنّ المؤكّد أنّ الدار لم تعد أجمل دار في القاهرة ولا المأوى الآمن للمؤمنين، ولم يعد لحامي الحمى عارف الباقلاني وجود، فعلامَ كانت الرؤيا وعلامَ كان التعب؟!. ولكن هل يمكن أن تقع معجزة بهذه القوّة لغير ما سبب؟!. أليس من الجائز أنّها تطالبني بالذهاب إلى الدار الثالثة بعطفة ارم جور لتجود عليّ بما لم يقع لي في تقدير؟!. وهل أملك أن أصرف نفسي عن الذهاب إلى هناك مجذوبًا بحبّ استطلاع نهم ورغبة تأبى أن تؤول معجزتي الفريدة إلى عبث عقيم، ذهبت مستظلًّا بجناح الليل متأخّرًا عن ميعادي عدّة مئات من السنين. وجدت الحارة خاشعة

تحت ظلمة يلوح في عمقها بصيص نور يشعّ من مصباح، ولم أرَ من البشر إلّا آحادًا عبروا بسرعة نحو الطريق. جاوزت البيت الأوّل إلى الثاني وعند الثالث توقّفت عن المشي. وملت نحوه كمن يسير في حلم حتّى تبيّن لي أنّه ذو فناء صغير يقع وراء سور قصير وأنّه لا يخلو من أشباح البشر، وقبل أن أتراجع فتح الباب وخرج رجلان طويلان في ملابس عصريّة، حصراني بينهما في حركة التفاف رشيقة ثمّ جاءني صوت أحدهما قائلًا:

- ادخل لمقابلة من جئت لمقابلته...

فقلت مأخوذًا:

- ما جئت لمقابلة أحد ولكنّي أودّ أن أعرف اسم من يقيم في البيت...

- حقًّا. لماذا؟

فقلت وأنا أزيح عن صدري انقباضه:

- أودّ أن أعرف إن كان المقيم هنا من آل الباقلاني.

فقال الرجل متهكّمًا:

- دعك من الباقلاني وواصل رحلتك إلى نهايتها.

أفضى إلى قلبي بأنّهما من رجال الأمن فخامرني قلق وحيرة وقلت:

- لا توجد رحلة ولا مقابلة...

- سوف تغيّر رأيك...

وقبض كلّ منهما على ذراع، وساقاني رغم مقاومتي إلى الداخل. انتزعت من الحلم ودفعت إلى كابوس، وأدخلت الى حجرة استقبال مضاءة يقف في وسطها شخص في جلباب أبيض والقيد الحديديّ في يديه، ورأيت في أنحاء الحجرة رجالًا من نوع الرجلين اللذين ساقاني على رغمي، وقال أحد الرجلين:

- كان قادمًا للاجتماع بصاحبه.

التفت رجل - حدست أنّه رئيس القوّة - إلى المقبوض عليه وسأله:

- أحد زملائك؟

فأجاب الشابّ بوجه متجهّم:

- لم أره من قبل.

فنظر الرجل نحوي وسألني:

- هل تردّد الكلام نفسه أو توفّر على نفسك وعلينا العناء، وتعترف؟

فهتفت بحرارة:

- أحلف بالله العظيم على أنّه لا علاقة لي بشيء ممّا تظنّون.

فمدّ يده نحوي قائلًا:

- بطاقتك.

أعطيته البطاقة فقرأها ثمّ سألني:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأومأت إلى الرجلين وقلت متشكّيًا:

- جاءا بي قسرًا.

- اقتنصاك من عرض الطريق؟

- جئت الحارة للسؤال عن الباقلاني.

- ماذا يدفعك للسؤال عنهم؟

فارتبكت وتحيّرت وشعرت بالحذر الواجب أن يشعر به من يُجرى تحقيق معه، قلت:

- قرأت عنهم في التاريخ وأنّهم كانوا يقيمون في ثالث بيت إلى يمين الداخل إلى هذه الحارة.

- دلّني على المرجع الذي قرأت فيه ذلك.

فغصت في الحيرة أكثر ولم أحِرْ جوابًا، فقال:

- الكذب لا يفيد، بل إنّه يضرّ!

فتساءلت في شبه يأس:

- ماذا تريدون منّي؟

فقال بهدوء:

- إنّك ملقًى القبض عليك للتحقيق.

فصحت:

- لن تصدّقوني إذا صارحتكم بالحقيقة.

- تُرى ما هي هذه الحقيقة؟

تنهّدت وفي ريقي تراب، ثمّ أنشأت أقول:

- كنت جالسًا وحدي في صالة بيتي...

وأفشيت سرّي تحت نظراتهم الصارمة الساخرة، ولمّا انتهيت قال الرجل ببرود:

- ادّعاء الجنون لا يفيد أيضًا.

فهتفت بشماتة وأنا أخرج الرسالة من جيبي:

- إليكم الدليل...

تفحّصها مليًّا وهو يهمس لنفسه:

- ورقة غريبة سنجلو سرّها بعد قليل...

وراح يقرأ السطور بعناية وشفته تنفرج عن بسمة هازئة ثمّ تمتم:

- شفرة مكشوفة!

ثمّ نظر صاحب الدار المقبوض عليه وسأله:

- سيادتك عارف الباقلاني؟، أهذا هو اسمك الحركيّ؟

فقال الشابّ باستهانة:

- ليس لي اسم حركيّ، وما هٰذا الغريب إلّا أحد مرشديكم جئتم به لتلفقوا لي تهمة ولكنّي خبير بهٰذه الألاعيب!

وتساءل أحد المعاونين:

- ألا يُستحسن أن نبقى لعلّ آخرين يأتون فيقعون في الشرك؟

فقال الرجل:

- سننتظر حتّى الفجر.

وأشار إلى الرجلين الممسكين بي إشارة خاصّة فشرعا يضعان القيد الحديديّ في يديّ غير مبالين باحتجاجي، ولم أصدّق المصير الذي انزلقت إليه. كيف يبدأ بمعجزة باهرة وينتهي بمثل هٰذه الوكسة؟! لم أصدّق ولم أستسلم لليأس. أجل إنّي أنغمس في محنة حتّى قمّة رأسي ولٰكنّ الرؤيا لم تتجلّ لمحض العبث. عليّ أن أعترف بخطئي الصبيانيّ وعليّ أن أعيد النظر، وعليّ أن أناجي الوقت...

وشملنا صمت ثقيل. تذكّرت أخي وأختي في الدار الجديدة، والحفرة الفاغرة في الدار القديمة، وتراءى لي الموقف من خارجه ففرّت منّي ضحكة، ولٰكن لم يلتفت لي أحد، ولا خرج من الصمت.

اللّيلةُ المُباركة

ما هي إلّا حجرة وحيدة يتوسّطها البار والرفّ المزيّن بالقوارير في عطفة نوري المتواضعة والمتفرّعة عن كلوت بك، اسمها الزهرة، ولٰكن يعشقها لحدّ الوله الشيوخ المدمنون، وخمّارها طاعن في السنّ، متمادٍ في الهدوء، مؤثر للصمت، غير أنّه يشعّ مودّة وأنسًا، وبخلاف الحانات تهيم في سكينة رائعة، وكان روّادها يتناجون في الباطن ويتحاورون بالنظرات، وفي الليلة المباركة خرج الخمّار عن صمته التقليديّ وقال:

- حلمت أمس بأنّ هديّة ستُهدى إلى صاحب الحظّ السعيد...

فشدا قلب «صفوان» بنغمة مصحوبة بعزف عود خفيّ فتدفّقت موجات الخمر في أرجائه كالكهرباء فهنّأ نفسه قائلًا «مباركة الليلة المباركة». وغادر الخمّارة ثملًا يترنّح، غائصًا في الليل الجليل تحت سماء خريف لم تخلُ من وميض نجوم. مضى نحو شارع النزهة مخترقًا الميدان متألّقًا نشوة لم يعتورها أدنى خمول. بدا الشارع خاشعًا تحت ستار الظلام عدا أضواء المصابيح الرسميّة المتباعدة، بعد أن أغلقت الحوانيت أبوابها وركنت المساكن للنوم. ووقف أمام بيته، وهو الرابع إلى اليمين ذو الرقم ٤٢، من دور واحد يتقدّمه فناء قديم لم تبق من حديقته إلّا نخلة فارعة. وعجب للظلام الكثيف الذي يحتويه. وتساءل لمَ لم تضئ زوجته مصباح الباب الخارجيّ كالعادة؟!. وخيّل إليه أنّ شبح البيت يتبدّى في صورة جديدة، جهمة غليظة موحشة وأنّ رائحة تفوح منه كالشيخوخة، ورفع صوته هاتفًا:

- يا هوه!...

فاستوى أمام عينيه وراء السور شبح رجل يسعل ثمّ يتساءل:

- من أنت؟... وماذا تريد؟...

فذُهل صفوان لوجود الغريب وسأله بحدّة:

- من أنت؟... وماذا أدخلك بيتي؟!

فقال الرجل بخشونة وغضب:

- بيتك؟

- من أنت؟

- أنا خفير الأوقاف.

- لٰكن هٰذا بيتي...

فصاح الرجل ساخرًا:

- هٰذا بيت مهجور من قديم تجنّبه الناس لما يشاع عنه من أنّه مسكون بالعفاريت...

سلّم بأنّه ضلّ طريقه، وهرول نحو الميدان،

وشمله بنظرة شاملة، ثمّ رفع رأسه إلى لافتة الشارع، وقرأ بصوت مرتفع «النزهة»، ودخل هٰذه المرّة وهو يعدّ البيوت عدًّا حتّى بلغ الرابع. وقف مذهولًا يكاد يُجنّ. لم يجد بيته، ولا البيت المسكون، ولٰكنّه رأى أرضًا فضاء، خرابة، مبسوطة بين البيوت، وتساءل:

ـ أفقدت بيتي أم فقدت عقلي؟!

ورأى الشرطيّ قادمًا وهو يتفقّد أقفال الحوانيت فاعترض سبيله وسأله وهو يشير نحو الخرابة:

ـ ماذا ترى هنا؟

فحدجه الشرطيّ بنظرة مستريبة وتمتم:

ـ هٰذه خرابة كما ترى، وتُقام فيها سرادقات الموتى أحيانًا...

فقال صفوان:

ـ كان يجب أن أجد مكانها بيتي، تركته وفيه زوجتي وهي في تمام الصحّة والعافية عصر اليوم فقط، فمتى هُدم وأزيلت أنقاضه؟!

فدفن الشرطيّ ابتسامة طارئة في عبوسة رسميّة وقال له بخشونة:

ـ اسأل السمّ الزعاف في بطنك!

فقال صفوان بكبرياء:

ـ إنّك تخاطب مديرًا عامًّا سابقًا!

فقبض الشرطيّ على ذراعه ومضى به قائلًا:

ـ سكر وعربدة في الطريق العامّ!

وسار به إلى قسم الظاهر على مبعدة يسيرة وأوقفه أمام الضابط في حال تلبّس، ورثى الضابط لوقاره وسنّه، فقال:

ـ البطاقة؟

وأخرج له بطاقته وهو يقول:

ـ إنّي في تمام وعيي ولٰكن بيتي لم يعد له أثر...

فقال الضابط ضاحكًا:

ـ سرقة من نوع جديد لا أدري كيف أصدّقها...

فقال صفوان بقلق:

ـ ولٰكنّي أقول الحقيقة...

ـ الحقيقة مظلومة ولٰكنّي سأعاملك برفق إكرامًا لسنّك...

ثمّ قال للشرطيّ:

ـ اذهب به إلى البيت رقم ٤٢ بشارع النزهة...

وذهب به الشرطيّ، وأخيرًا وجد نفسه أمام بيته كما يعرفه، ورغم سكره دهمه الحياء. وفتح الباب الخارجيّ، وعبر الفناء، وفتح الباب الداخليّ، وأضاء مصباح المدخل، وعند ذٰلك بُهت. وجد نفسه في مدخل لم تقع عليه عيناه من قبل. لا صلة ألبتّة بينه وبين مدخل بيته الذي عاش فيه حوالي نصف قرن حتّى أبلى أثاثه وجدرانه. وقرّر التراجع قبل انكشاف أمره فمرق إلى الطريق، وقف يتفحّص البيت من الخارج، إنّه بيته، من ناحية الشخصيّة والموقع، وقد فتح أبوابه بمفتاحه فلا منفذ إلى الشكّ في ذٰلك، فماذا غيّره من الداخل؟!. ثمّة نجفة صغيرة بهيئة الشمعدان، والجدران مورّقة، وسجّادة جديدة! من ناحية هو بيته، ومن ناحية أخرى هو بيت غريب. وماذا عن زوجته صدريّة؟!.

وقال بصوت مسموع:

ـ إنّي أشرب منذ نصف قرن فماذا حدث في هٰذه الليلة المباركة؟!

وخيّل إليه أنّ بناته السبع المتزوّجات ينظرن إليه بأعين دامعة، ولٰكنّه عزم على أن يحلّ مشكلته بنفسه دون لجوء إلى السلطات وإلّا عرّض نفسه لسيف القانون، واقترب من سور الفناء وراح يصفّق بيديه، وفُتح الباب الداخليّ عن شخص لم تتّضح معالمه وجاءه صوت امرأة متسائلًا:

ـ ماذا يوقفك في الخارج؟!

خيّل إليه أنّه صوت غريب، أو شكّ في ذٰلك، وتساءل:

ـ بيت مَن من فضلك؟!

فهتفت المرأة:

ـ لهٰذا الحدّ؟! ... لا... لا...

فقال بحذر:

ـ أنا صفوان...

ـ ادخل وإلّا أيقظت النائمين...

ـ أأنت صدريّة؟!

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله، يوجد من ينتظرك في الداخل...

ـ في هذه الساعة؟!

ـ إنّه ينتظر منذ العاشرة...

ـ ينتظرني أنا؟!

فتأفّفت بصوت مسموع. فتساءل:

ـ أنت صدريّة؟!

فهتفت بنفاد صبر:

ـ لا حول ولا قوة إلّا بالله!

وتقدّم، في حذر أوّلًا ثمّ باستهانة. وجد نفسه في المدخل الجديد. ورأى باب حجرة الاستقبال مفتوحًا والأضواء تنير الداخل بقوّة أمّا المرأة فقد اختفت. ودخل حجرة الاستقبال فطالعته بمنظر جديد مثل المدخل. أين ذهبت الحجرة القديمة بأثاثها العتيق؟! جدران حديثة الطلاء، ونجفة كبيرة تتدلّى منها فوانيس من طراز إسبانيّ، وسجّادة زرقاء، وكنبة وثيرة وفوتيات مريحة، فهي حجرة فاخرة، وفي الصدر جلس رجل غريب لم يره من قبل، نحيل غامق السمرة ذو أنف يذكّر بمنقار الببّغاء وفي بصره حدّة، ويرتدي بدلة سوداء رغم أنّ الخريف كان يسحب خطاه الأولى.

بادره الرجل بضيق:

ـ شدّ ما تأخّرت عن ميعادنا!

فذهل صفوان وغضب في آن وتساءل:

ـ أيّ ميعاد؟... من أنت؟!

فهتف الرجل:

ـ هذا ما أتوقّعه، النسيان!، صادق أو كاذب، الشكوى نفسها، تتكرّر كلّ يوم، لا فائدة، ولكن هيهات...

فصاح صفوان بحدّة:

ـ ما هذا الهذيان؟

فقال الرجل وهو يضبط أعصابه:

ـ أعرف أنّك صاحب «مزاج» وأنّك تُفرط أحيانًا.

فقاطعه:

ـ إنّك تخاطبني وكأنّك وليّ أمري على حين أنّني لا أعرفك ويدهشني أنّك تفرض نفسك على بيت في غياب صاحبه...

وهو يضحك ضحكة باردة:

ـ صاحبه؟!

فتساءل في عنف:

ـ كأنّك تشكّ في ذلك... أرى ضرورة استدعاء الشرطة!

فاندفع الرجل في غضب:

ـ كي تقبض عليك بتهمة السكر والعربدة والاحتيال!

ـ اخرسْ إنّك محتال وقليل الأدب...

فضرب الرجل كفًّا بكفّ وقال:

ـ تتجاهلني لتهرب من تعهّداتك ولكن هيهات...

ـ أنا لا أعرفك ولا أفهمك...

ـ حقًّا! أتدّعي النسيان والبراءة؟... ألم توافق على بيع البيت والزوجة وتحديد هذه الليلة لإنهاء الإجراءات النهائيّة؟!

فذُهل صفوان وصاح:

ـ يا لك من شيطان كذّاب...

فقال بهدوء وهو يرفع منكبيه:

ـ كالعادة كالعادة أفّ لكم!

ـ أنت مجنون بلا شكّ...

ـ لديّ الدليل والشهود!

ـ لم أسمع عن إنسان فعل ذلك من قبل...

ـ بل يحدث كلّ ساعة ولكنّك ممثّل بارع وسكران.

فقال صفوان وهو ممزّق بين انفعالاته المتضاربة:

ـ أطالبك بالخروج في الحال...

فقال بصوت مليء بالثقة:

ـ بل نُنهي الإجراءات الناقصة.

ونهض نحو الباب المغلق المفضي إلى الداخل ونقره ثمّ رجع إلى مجلسه وفي الحال دخل رجل قصير مربّع الأنف بارز الجبهة يتأبّط دوسيهًا متخمًا بالأوراق فانحنى تحيّة وجلس. ثقبه صفوان بنظرة قاسية وصاح:

ـ متى أصبح بيتي مأوًى للأغراب؟!

فقال الرجل الأوّل مقدّمًا الداخل:

ـ الأستاذ المحامي.

فسأله صفوان بشدّة:

ـ من أذن لك بالدخول في بيتي؟

فقال الأستاذ مبتسماً:

- أنت مرهق ولكن الله يسامحك، ماذا يغضبك؟

- يا لك من صفيق!

فقال الأستاذ دون مبالاة بقوله:

- الصفقة في صالحك دون ريب.

فسأله بذهول:

- أيّ صفقة؟!

- أنت تعرف تمامًا ما أعنيه... وأودّ أن أقول لك إنّ التفكير الآن في التراجع غير مُجْدٍ. القانون معنا والعقل أيضًا. دعني أسألك أترى أنّ هذا البيت وهو بيتك حقًّا؟

لأوّل مرة يشعر بالحرج ويقول:

- نعم ولا...

- أكان على هذه الحال عندما غادرته؟!

- كلّا.

- إذن فهو بيت آخر.

- لكنّه نفس الموقع والرقم والشارع.

- جميع ذلك أعراض لا تمسّ الجوهر، وإليك أمرًا آخر...

- وقام فنقر الباب ثمّ رجع إلى مجلسه. وسرعان ما دخلت امرأة متوسّطة العمر والجمال مهذّبة المظهر مع ميل إلى الحزن فجلست إلى جانب الرجل الأوّل وعاد المحامي يسأله:

- هل ترى في هذه السيّدة زوجتك؟

خيّل إليه أنّها تمتّ بشبه إليها ولكنّه لم يملك أن قال:

- كلّا.

- عظيم لا البيت بيتك ولا السيّدة زوجتك فما عليك إلّا أن توقّع على الاتّفاق الأخير ثمّ ترحل...

- أرحل!... إلى أين؟!

- يا سيّدي لا تكن عنيدًا. الصفقة في صالحك تمامًا وأنت تعلم ذلك.

ودقّ جرس التليفون في هذه الساعة المتأخّرة من الليل وكان المتحدّث الخمّار.

وعجب صفوان لأنّه كان يتلفن له لأوّل مرّة في حياته قال له:

- صفوان بك... وقّع دون تأخير...

- لكن هل تعلم...

- وقّع... إنّها فرصة لا تعوّض في العمر إلّا مرّة واحدة...

- وأغلق السكّة. تذكّر صفوان الحوار القصير وإذا بأعصابه تهدأ وتستقرّ وتستسلم من أقصى طرف إلى أقصى طرف. في ثانية تغيّر حاله تمامًا فانبسطت أساريره وزايله التوتّر فوقّع، وعند ذاك سلّمه المحامي حقيبة صغيرة وثقيلة نوعًا ما وهو يقول:

- فليبارك الله خطاك، في هذه الحقيبة كلّ ما يلزم الإنسان السعيد في هذه الدنيا.

- وصفّق الرجل الأوّل فدخل رجل بدين جدًّا باسم الثغر جذّاب الروح فقال المحامي يقدّمه إلى صفوان:

- هذا رجل أمين وخبير في عمله وسيوصلك إلى مأواك الجديد. حقًّا إنّها صفقة رابحة!

ومضى الرجل البدين إلى الخارج فتبعه صفوان ساكنًا مطمئنًّا ويده تشدّ على مقبض الحقيبة. تقدّمه الرجل في الليل فتبعه، ولمّا لفحه الهواء ترنّح فادرك أنّه لم يفق بعد من سكرة الليلة المباركة. وأوسع الرّجل خطاه فطالت المسافة بينهما فأسرع بدوره رغم سكره مسدّدًا بصره نحو شبح الآخر وهو يعجب لجمعه بين الخفّة والبدانة وهتف به:

- تمهّل في سيرك يا حضرة.

فكأنّه حثّه على مزيد من السرعة فتدفّق في خطًى متلاحقة، فاضطرّ صفوان إلى الهرولة خشية أن يفقده فيفقد أمله الأخير ولكنّه خاف أن يعجز عن الصمود فهتف به مرّة أخرى:

- تمهّل وإلّا ضللت طريقي.

فإذا بالآخر يعدو غير عابئ به ففزع صفوان واندفع يجري غير مبالٍ بالعواقب وناله من ذلك عناء شديد وغير مُجْدٍ أيضًا لأنّ الرجل غاص في الظلام وتوارى عن عينيه. وخاف أن يسبقه إلى ميدان الينابيع حيث تتفرّق طرق شتّى فلا يدري في أيّ طريق ذهب فراح يجري بأقصى سرعة مصمّمًا على اللحاق به. وأثمر جهاده فلاح له شبحه مرّة أخرى عند مفترق الطرق. رآه ينطلق صوب الأمام نحو الحقول متجاهلًا الفروع المائلة نحو المدينة شرقيّها وغربيّها فانطلق وراءه

وتواصل العدو بغير انقطاع ودون أدنى شعور بالعجز من ناحيته وفغمت خياشيمه روائح طيّبة مستثيرة ذكريات شتّى لم يجد وقتًا لتملّيها ومعايشتها وعندما انفرد بهما فضاء السماء والأرض أخذ الرجل يهدّئ من سرعته على مهل حتّى رجع إلى الهرولة فالمشي ثم توقّف ولحق به وتوقّف وهو يلهث. نظر إلى الظلمة الشاملة المشعشعة بأضواء النجوم الخافتة ثمّ تساءل:

- أين المأوى الجديد؟

فلزم الرجل الصمت على حين راح هو يشعر بغزو ثقل جديد ينقضّ على منكبيه وسائر جسمه ونما الثقل وتصاعد حتّى خيّل إليه أنّ قدميه ستغوصان في الأرض واشتدّت وطأته حتّى لم تعد تحتمل الصبر وباندفاعة عفويّة خلع حذاءه ومضت الوطأة في صعود فنزع جاكتته وبنطلونه وطرحهما أرضًا ولم يُحدث ذلك أثرًا يذكر فتخلّص من ملابسه الداخليّة غير مُبالٍ برطوبة الخريف غير أنّ الألم الهبه فلم يجد بدًّا من ترك الحقيبة تهوي إلى الأرض وهو يتأوّه. عند ذاك خيّل إليه أنّه استعاد توازنه وأنّه يستطيع أن يتابع الخطوات المتبقّية وانتظر أن يفعل صاحبه شيئًا ولكنّه غرق في الصمت وأراد أن يحاوره فامتنع عليه الحوار وتسلّل الصمت الشامل من مسامه إلى صميم قلبه. وخُيّل إليه أنّه سيسمع بعد قليل الحوار الدائر بين النجوم.

رأيت فيما يرى النائم

الحلم رقم ١

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني راقد. أنّني نائم أيضًا ولكنّ وعيي يرامق الظلام المحيط. وثمّة أنثى أقبلت ينِدّ عنها حفيف ثوب. والحجرة ما الحجرة؟، أهي حجرتي الراهنة أم أخرى آوتني فيما سلف من الزمان؟. ويتهادى الوجه إلى حسّي رغم الظلام. باستدارته الناعمة وسمرته الصافية ورنوته الناعسة. نسق تسريحتها عصريّ أما ثوبها فقديم يجرّ ذيلًا مثل سحابة رشيقة. وهمس صوت لم أر قائله:

- للزمن نصل حادّ وحاشية رقيقة.

وركعت في استسلام وانهمكت في عمل. ثبّتّ عليها عيناي ولكنّي لم أنبس بكلمة. وحدست وراء انهماكها غاية دانية. وقال الصوت:

- الأنفاس العطرة تصدر عن قلب طيّب.

وانتظرت حتّى جمعت أدواتها ونهضت في رشاقة. ومضت نحو الخارج. شدّتني بخيوط خفيّة لا تتقصف فانزلقت من الفراش وتبعتها. وهيمن عليّ شعور بأنّني مدعوّ لأمر ما، وأنّني لن أحيد عن التطلّع إلى الأمام. تمضي متأوّدة كأنّها ترقص باعثة وراءها بنسائم من الذكريات. تعرف طريقها في الليل وأهتدي أنا بشبحها. ومررت بأشياء وأشياء ولكنّي أنسيتها فتوارت مثل شرر متطاير. وعند موضع عبق بشذا الحنّاء فصل بيننا قطار سريع طويل رجّ الأرض ومن عليها. وبذهاب ضجيجه استوى الليل أمامي وحده فضاعفت من سرعتي. وأطبق الليل وحده واختلجت فيه الوعود المضمّخة بشذا الحنّاء. لم يعد في وسعي التراجع وليس معي من الحوافز إلّا الظمأ والشوق.

الحلم رقم ٢

رأيت فيما يرى النائم...

حيّة رمل ملقاة بين جذور أشجار في مكان لعلّه غابة. جذبت انتباهي واستحوذت عليه ببريقها، وبما أوحته إليّ من أنّها تراني كما أراها. وقلقت في موضعها فلم أشكّ في أنّها مقبلة على مغامرة وأثارت حبّ استطلاعي إلى أقصى حدّ. ومضت تنتفخ رويدًا حتّى آلت إلى كرة مغطّاة بزوائد مثل أوراق الورد، مرقوم على صفحاتها كلمات لم أتبيّنها. ووثبت كأنّما قذفتها قوّة في الفضاء مقدار أشبار وتهاوت مرتطمة بالأرض محدثة صوتًا قويًّا استرسل صداه فيما يشبه النغم. وتمادت في الانتفاخ حتّى صارت في حجم قبّة ضخمة ثمّ انطلق منها عمود عملاق بسرعة مخيفة زلزلت لها الأشجار الفارعة حتّى تلاطمت ذراها مع حشائش الأرض، وانبثقت من العمود فروع لا حصر لها غاصت في الفضاء، وانبسطت أوراقها كالزواحف مثقلة بآلاف

الكلمات المبهمة. وركبني الارتياع فعدوت بأقصى ما لديّ من سرعة مبتعدًا عن مركزها المتفجّر. عدوت منها ولٰكنّي عدوت في مجالها وحضنها وقبضتها، فلا منفذ للهرب ولا صبر على التوقّف أو الاستسلام. والفورة محدودة وسطح الأرض معاند والرياح على غير ما أشتهي واستوى في شعوري البعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتمادية في التعملق بلا نهاية. إنّ صوت نموّها الهائل يدوّي وظلّها يغشى الأشياء كالليل. وردّة فعلها تعبث بالكائنات وأطراف قبضتها تنحدر فيما وراء الأفق. وتبيّن لي أنّني لست الوحيد في المأزق، وأنّ ملايين يلهثون من العدو، وأنّ السحب تركض أيضًا والرياح وأضواء النجوم. وارتفع صوت قائلًا:

ـ رفّهوا عن أنفسكم بالغناء...

فتساءل صوت آخر:

ـ هل يطيب الغناء والمطرب يتخبّط في القبضة؟

فقال الصوت الأوّل:

ـ رفّهوا عن أنفسكم بالغناء!

وتحرّكت الحناجر نغنّي كلّ على ليلاه. وتضاربت الأصوات فانقلبت عربدة تنضح بالوحشيّة والجهال.

الحلم رقم ٣

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ ثمّة عينًا ترنو إليّ... عين كبيرة كأنّها فَسْقيّة، جميلة الرسم، عميقة السواد، ناصعة البياض، مستوية في مكان غير معروف ولٰكنّ سحائب بيضاء تظلّلها. وفي نظرتها ما يوحي بأنّها تراني، وربّما تعرفني، ولٰكن يكتنفها حياد يقصيني إلى ما وراء الغيب، وقلت لنفسي إنّها عين امرأة فأين بقيّتها؟ وقلت أيضًا بصوت مسموع:

ـ آفة الحبّ الحياء!

عند ذاك رأيت خيالي رفيق صباي الراحل فتعانقنا بحرارة، وفي غمرة الفرحة باللقاء نسيت حزني الكبير عليه. وسرعان ما اختفى من مجال البصر لتحلّ محلّه ساحة المولد النبويّ في أيّامها البعيدة الزاهرة. ووجدتُني في صفّ طويل أمام شبّاك التذاكر الخاصّ بخيال الظلّ. ودخلت مسرحه الصغير ولٰكنّي وجدت نفسي في سرادق امتحان. واتّخذت مجلسي كتلميذ وشرعت في الإجابة. ولّما لم يبق من الزمن إلّا دقائق وضح لي أنّني أجبت على سؤال غير السؤال المطلوب الإجابة عليه. وضاق صدري فتساءلت:

ـ سهوة عابرة تُضيع حياة؟!

فسألني المراقب متهكّمًا:

ـ أنسيت قول المتنبّي؟!

فحرت أيّ بيت يقصد وتحاشيت السؤال. ووجدتُني بعيدًا أتأبّط ذراع رفيق صباي الراحل متطلّعين معًا إلى العين. تبدّت العين هٰذه المرّة أوغل في العمر وأحوز للحكمة وأعمق في الحياد. قلت لصديقي:

ـ أخشى أن يغلبني الحزن.

فأضاء وجهه بضحكة صافية وسألني هامسًا:

ـ من القائل «آه لو تعلمون ما أعلم...»؟

فعصرت ذاكرتي لأتذكّر ولٰكنّ الديك صاح مؤذنًا بطلوع الفجر.

الحلم رقم ٤

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في العوّامة كالأيّام الماضية. وغنّى صوت في أعماقي «عادت ليالي الهنا». وشعرت بالدفء وسط الأصدقاء والأحباب. ولما تفرّست في الوجوه انتقلت من حال إلى حال. المكان هو المكان، والمنظر هو المنظر، ولٰكن أين الوجوه أين؟!. أمسك الزمن بقلمه ونقش على صفحاتها تجاعيده. وبثّ في مجاريها ذبوله. وامتصّ بنهمه النضارة والرونق. وفي مواضع المصابيح الكهربائيّة حلّت شموع تحترق فلم يَبْقَ من قاماتها الرشيقة إلّا أنصاف وأرباع. ورقصت ظلال الأشباح فوق الجدران، ومن الأفواه المثرمة تساقطت ضحكات فاترة كأنّها أنّات وتنهّدات. وفي مركز الجلسة بسطت سجّادة مربّعة صفّت عليها جنبًا إلى جنب جثث محنّطة للأعزّاء الراحلين. قال صوت:

ـ هٰكذا كان يفعل قدماء المصريّين في حفلاتهم.

فتساءلت:

ـ ولكن أين ذهبت الحضارة؟

فقال صوت:

ـ المنبع والمصبّ يقعان خارج أسوار الحضارة.

وافتقدت بشدّة الحوار والثرثرة فتساءلت:

ـ ماذا أسكتنا؟!

فأجاب صديق ضاحكًا وعيناه تدمعان:

ـ اللعنة في التكرار.

فتساءلت:

ـ أليس ثمّة شكوى جديدة تقتضي ضحكة جديدة؟

فأجاب مستزيدًا من الضحك والدموع:

ـ ثبت أنّ جميع الشكاوى مسجّلة على حجر رشيد...

واقتحم عمّ عبده علينا مجلسنا وهو يقول:

ـ آن أوان قراءة الطالع...

ونظر في بطون نعالنا مليًّا ثمّ قال:

ـ ستسيرون فوق الماء إلى جزيرة الذهب...

وهيمن علينا الحلم والابتسام...

الحلم رقم ٥

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في استديو. مضيت كمن يعرف طريقه إلى البلاتوه رقم «١» في صمت كامل يوحي بأنّ ثمّة تصويرًا للقطة ما. اقترب منّي رجل بدين ذو مظهر سياديّ وهمس في أذني:

ـ أهلًا بك يا أستاذ.

ووجدتُني أعرف أنّه المنتج وأنّني مندوب فنّيّ لمجلّة الفنّ. وتابعت المشهد الذي تدور الكاميرا لتصويره وسط جمع من الفنّانين والفنّيّين يتابعونه أيضًا في صمت تقليديّ وباهتمام غزير. وكان المشهد يمثّل صحراء مترامية ليس بها قائم سوى نخلة فارعة رقد تحتها عربيّ متلفّعًا بعباءته. ويدخل المشهد رجلان، عربيّ وأعجميّ، يقتربان من النائم، ثمّ ينحني العربيّ فوقه قائلًا بإجلال:

ـ يا أمير المؤمنين!

يستيقظ النائم ثمّ يجلس مرسلًا بصره نحو القادمين فيقول العربيّ مشيرًا إلى الأعجميّ:

ـ رسول قادم من بلاد فارس.

ينهض أمير المؤمنين، يتبادل التحيّة مع القادم، ثمّ يسأله:

ـ ماذا وراءك؟

القادم يتأمّله بدَهَش ثمّ يسأله:

ـ أأنت حقًّا أمير المؤمنين؟

فيجيب بتواضع:

ـ إنّي عبدالله وإمام المؤمنين من عباده.

فيقول الرجل في انبهار:

ـ عدلت فأمنت فنمت...

وعند ذاك ينتهي تصوير اللقطة. ينظر المنتج إليّ قائلًا:

ـ أخيرًا سمحت الرقابة بإنتاج فلم عن سيّدنا. عمر...

فقلت مهنّئًا:

ـ خطوة عظيمة...

فقال الرجل في مباهاة:

ـ لقد اقتضى السعي أن نطلب وساطة الرئيس الأمريكيّ ريجان!

وقمت بجولة سريعة في بعض ملاهي الهرم ثمّ رجعت إلى البلاتوه رقم «١» لمشاهدة تصوير لقطة جديدة. كان المشهد الذي يجري تصويره هو نفس المشهد السابق، الصحراء المترامية والنخلة الفارعة. غير أنّه كان ثمّة رجلًا عربيًّا في عباءة رثّة لابسًا في رأسه طرطورًا وهو مكبّ على حفر موضع غير بعيد من النخلة. إنّه نفس الممثّل ونفس المنظر ولكنّه لا يمكن أن يكون الفاروق عمرا. يمرّ به عربيّ آخر في عباءة من الخزّ ثمّ يدور بينهما الحوار الآتي:

العربيّ القادم: ما لَكَ يا جحا؟

جحا: إنّي قد دفنت في هذه الصحراء دراهم ولست أهتدي إلى مكانها.

العربيّ: كان يجب أن تجعل عليها علامة!

جحا: قد فعلت.

العربيّ: ماذا؟

جحا: سحابة في السماء كانت تظلّلها، ولست أرى العلامة!

وانتهى تصوير اللقطة فأعقبه همهمة من الاستحسان. وسألت المنتج عن معنى وجود جحا في فلم عن عمر وكيف يقوم بالدورين ممثّل واحد، فضحك طويلًا وقال:

- إنّي أنتج فلمين في وقت واحد، أحدهما عن عمر والآخر عن «جحا في بلاد العرب»، ورأيت أن أستفيد من كلّ منظر مشترك توفيرًا للجهد والمال، وهذا منظر مشترك فصوّرنا عمر للفلم الأوّل، وجحا للفلم الثاني.

- والممثّل واحد في الحالين؟!

فقال بثقة:

- إنّه نجم شبّاك، ومن القلّة النادرة التي تحسن تمثيل الدراما والكوميديا...

رأيتني عقب ذلك وأنا أركض بسرعة فائقة، ولكنّي لم أدرِ أأركض وراء هدف أريد أن أدركه أم أركض من مطارد يروم القبض عليّ...

الحلم رقم ٦

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في حجرة بلا نوافذ مغلقة الباب، بها مقعد واحد وشمعة تحترق مثبّتة فوق الأرض. ودقّ الباب دقًّا متتابعًا ففتحته فخيّل إليّ أنّني أنظر في مرآة. إنّه صورة طبق الأصل منّي إلّا أنّه عارٍ تمامًا إلّا ممّا يستر العورة. سألته:

- مَن أنت؟

فأجاب وهو يلهث ممّا دلّ على أنّه شقّ طريقه ركضًا:

- إنّك تعرف تمامًا من أكون.

- ولكنّي لا أصدّق عيني.

فقال وهو يتنفّس بعمق ليستردّ توازنه:

- أمّا أنا فأصدّق كلّ شيء، ورائي عمر وأجيال لا تحصى...

فقلت برثاء:

- كان ينبغي أن تكون راقدًا في سلام...

فقال بعتاب:

- لكنّك لم تتركني للسلام، ما زلت تلاحقني بخواطرك حتّى أخرجتني من الزمن!

فقلت بأسف:

- كأنّك مطارد!

- كيف أفلت من القبضة دون مطاردة؟!... أسرع لنهرب معًا...

فقلت محتجًّا:

- مجيئك إليّ ورّطني في جريمة لا شأن لي بها...

فجال ببصره في الحجرة وقال:

- لا يبدو أنّ حظّك أسعد من حظّي، أسرع...

فقلت بقلق:

- ليس الأمر كما تتصوّر...

فقال بضيق:

- ولا هو كما تتصوّر أنت، أسرع فإنّهم لن يفرّقوا بيننا...

- لولا مجيئك ما لحقتني الشبهة...

- إنّها مسئوليّتك، لا تبدّد الوقت...

فسألته بغيظ:

- ولكن إلى أين؟

فقال بعجلة:

- سنفكّر في ذلك ونحن نعدو...

وتماسكنا باليد وأطلقنا ساقينا في الليل كمجنونين. وتساءلت:

- كيف نحسن التفكير ونحن نركض بهذه السرعة؟

فهتف بحدّة:

- اجْرِ... اجْرِ... ألم تشعر بفساد جوّ الغرفة؟!

فقلت كالمعتذر:

- إنّي لا آوي إليها إلّا في الليل...

فهتف:

- لا يوجد ليل ولا نهار ولكن يوجد الهواء والركض...

وتساءلت:

- لماذا لا أسمع أصوات من يطاردوننا؟!

ولكنّه لم يجب. وشعرت بأنّ يدي لم تعد تقبض على شيء، وأنّه لم يعد له أثر، ولم تساورني أيّ رغبة في التوقّف...

الحلم رقم ٧

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في حديقة من أشجار الليمون. وأنّ الناس يزدحمون حول أشجارها ويتبارون في ملء مقاطفهم من ثمارها. وأنّ ثمّة بيعًا وشراء ومساومات، وتنافسًا حاميًا يشتعل. وأنّ رجال الشرطة يتدخّلون أحيانًا لفضّ نزاع بهراواتهم فتسيل دماء. وكنت أتجوّل بين الجماعات بلا مقطف حتى قال السمسار ساخرًا:

ـ رجل مجنون جاء السوق بلا مقطف!

والحقّ أنّ الشذا هو الذي دعاني لا السوق، فهمت على وجهي أتغزّل برشاقة الأشجار وخضرتها الباسمة وأغصانها الثريّة. وتخلّق حبّ خالص في رعاية القبّة الزرقاء. وفي لحظة مشرقة استحلت غصنًا فأفلتّ من مطاردة السمسار. ومضى الزمن وأنا أتأوّد على دفقات النسيم، وأنهل من حرّيّة عبقة بشذا الليمون.

الحلم رقم ٨

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني عيسى بن هشام بطل مقامات الهمذاني ومُريد أبي الفتح الاسكندراني. وأنّني كنت أعبر ميدانًا في مكان وزمان غامضين. وترامى إليّ هتاف مدوّ بحياة الاستقلال وسقوط الحماية. ثمّ وجدتُني على حافّة مظاهرة ضخمة تحدق بخطيب مفوّه جهير الصوت. عرفته رغم بعده عنّي بزيّه الأزهريّ وهو يهدر داعيًا إلى الثورة والفداء. وهجم الفرسان الإنجليز فنشبت معركة ثمّ وجدتني وجهًا لوجه مع الخطيب قريبًا من مدخل جامع. قلت:

ـ أنت أبو الفتح الاسكندريّ، خطيب الثورة الحرّ...

فقال بحزن ملتهب:

ـ نفوا الزعيم الجليل نفاهم الله من الوجود...

ثمّ أنشد يقول:

لن ينال المجد من ضا
ق بما يغشاه صدرًا

وتغيّر المكان والزمان كما أوحى إليّ وجداني. ورأيتُني أمتطي سلحفاة معمّرة في حجم عنزة. وشهدت اجتماعًا في قاعة عظيمة الاتّساع تحرسها رماح الجنود. وظهر فوق المسرح خطيب اندفع يقول بحماس:

ـ لوذوا بالمليك، صاحب العرش، هو العامل الأوّل والعالم الأوّل والوطنيّ الأوّل وقد دالت دولة المهرّجين...

سرعان ما عرفته رغم زيّه الجديد المكوّن من البدلة الإفرنجيّة. وتبعته إلى الطريق وهو ينادي تاكسي فاقتربت منه قائلًا:

ـ أهلًا بأستاذنا أبي الفتح الاسكندريّ...

فعرفني بدوره وصافحني ثمّ سألني:

ـ ماذا فعلت بك الأيّام؟

ـ كعادتها خيرًا وشرًّا، ولكن ماذا غيّرك أنت فنقلك من النقيض إلى نقيض؟!

فقال بجفاء:

ـ العزّة في التنقّل.

ثمّ أنشد يقول:

الذنب للأيّام لا لي
فاعتب على صرف الليالي
بالحمق أدركت المنى
ورفلت في حلل الجمال

* * *

ومضى الزمن بي وأنا ممتطٍ هذه المرّة حمارًا. ووجدتُني في ميدان لو ذررت الملح فيه لم ينفذ إلى الأرض من هول الزحام. وفوق حافّة نافذة في الدور الأسفل من بناء ضخم وقف خطيب يرتدي بنطلونًا وقميصًا نصف كمّ يعلوه وقار الكهولة ويقول:

ـ ثورة مباركة تنسخ حياة فاسدة، وزعيم مبارك يشهر سيفه في وجه ملك فاسد، وحلم يتحقّق تنبّأت به كلماتي الحارّة المسطورة في الصحف!

ثمّ وجدتُني مع الخطيب عقب انفضاض الجمع

الحاشد، قلت:

- يا أبا الفتح يبلى الزمان وتبقى لك جدّتك لا تبلى.

فقال باسمًا:

- حمدًا لله الذي أبقاني حتّى أشهد هٰذا الزعيم.

فقلت بعد تردّد:

- ولٰكنّي لا أذكر أنّك تنبّأت بما حدث أو ضقت بما كان!

فأنشد قائلًا وهو يضحك:

أنا ينبوع العجائب
في احتيالي ذو مراتب
أغتدي في الدير قسّيسًا
وفي المسجد راهب

* * *

وجرى الزمان وقد أركبني بغلًا. وإذا بأمواج من البشر تتلاطم وتقذف بالهتافات إلى أركان المعمورة، وثمّة سيّارة تمضي على مهل يقف في مقدّمتها رجل يخطب من خلال مكبّر صوت:

- محق الله الزيف والضلال، اختفى مدّعي الزعامة، واستوى على العرش الزعيم، الشابّ المكافح، والمناضل، والمعلّم، والرائد، ومتبنّي ثورات العالم...

وخلوت إليه في مكان ذكّرني بزاوية العميان بالباب الأخضر، وقلت:

- ما أنت إلّا شيخنا أبو الفتح الاسكندريّ...

فقال وهو يشدّ على يدي:

- لا يحتاج الأمر إلى فراسة!

فقلت:

- يا لك من وثّاب لا يثبت على حال!

فقهقه طويلًا ثمّ أنشد:

بؤسًا لهٰذا الزمان من زمن
كلّ تصاريف أمره عجب
أصبح حربًا لكلّ ذي أدب
كأنّما ساء أمّه الأدب

* * *

ووجدتُني أزحف مع الزمان فوق السلحفاة كرّة أخرى. ورأيت جموعًا لم أرَ لكثافتها مثيلًا من قبل، تسفح الدمع وتمزّق ثيابها من لوعة الحزن. هٰذا والمدفع يمضي بالنعش دائسًا على إرادات البشر. ثمّ وجدتُني في بهو مكتظّ المستمعين، ورجل وقور أبيض الشعر يقول بحكمة وأسًى:

- دعوا البكاء للنساء، مصر باقية لا تموت، وآن لنا أن ننطق بالحقّ، ما كان عهده إلّا عهد التعذيب والإفلاس والهزائم. أفيقوا من الحزن والسحر معًا، وابدءوا الحياة من جديد...

فخرقت الصفوف حتّى واجهته وهتفت به:

- إنّك لمعجزة يا أبا الفتح.

فهزّ رأسه ساخرًا وأنشد:

هٰذا الزمان مشوم
ما تراه غشوم
الحمق فيه مليح
والعقل عيب ولوم
والمال طيف ولٰكن
حول اللئام يحوم

فسألته:

- ألك نظير في العباد؟!

فقهقه عاليًا وأنشد:

اسكندرية داري
لو قرّ فيها قراري
لٰكن بالشام ليلي
وبالعراق نهاري

الحلم رقم ٩

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في مدينة أنيقة أرضها أعشاب عميقة الخضرة، تنتثر في جنباتها عيون ماء، وتُظلّلها أشجار بلح وليمون وبرتقال. تجوّلت فيها طويلًا فلم أصادف إنسانًا ولا جانًا ولا حيوانًا ثمّ لمحت تحت صفصافة أسدًا يقرأ في كتاب فقصدته متشجّعًا بطمأنينة باطنيّة. رفعت يدي تحيّة وسألته:

- ماذا تقرأ يا ملك الملوك؟

فرمقني بهدوء وتمتم:

ـ كليلة ودمنة...

فسألته باهتمام:

ـ لماذا يا ملك الملوك؟

ـ منه تعلّمنا كيف نعيش في سعادة

ـ ولكنّ المدينة خالية!

فقال بسخرية:

ـ يلزمك أن تتعلّم كيف تنظر، ما صناعتك؟

فقلت بإيحاء داخليّ:

ـ أنا مغنٍّ!

فتهلّل وجهه وقال:

ـ نحن لا نستقبل إلّا المغنّين، أسمعني بعض ما عندك...

فغنّيت:

ما في النهار ولا في الليل لي فرج

فما أبالي أطال الليل أم قصرا

فهزّ رأسه طربًا حتّى تشعّثت لبدته وقال:

أرحّب بك في مدينتنا لتذكّر أهلها بتعاساتهم القديمة فيزدادوا امتنانًا لما حلّت بهم من نعمة.

ونادى نسرًا فهبط وئيدًا في جلال وطاعة فأمره قائلًا:

ـ اذهب بهذا الضيف الجديد إلى فندق الرضى...

الحلم رقم ١٠

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني في صحراء لا يحدّها إلّا الأفق. أقيم خيمة لأمضي بها عطلة نهاية الأسبوع. لا صحبة إلّا الرمال في الأرض والزرقة العميقة في السماء وحدأة تدور عاليًا فوق رأسي كأنّما تنتظر. وظهر أمامي فجأة رجل في عباءة حمراء ينطق وجهه بالشباب والأسى. تبادلنا النظر ثمّ تبادلنا التحيّة. قلت له:

ـ لعلّك في عطلة مثلي؟

سألني وكأنه لم يسمعني:

ـ من أنت؟

فأجبته بإيجاز:

ـ اسمي نديم.

ـ نديم من؟

ـ إنّه اسم لا صفة، كأنّك تبحث عن شيء؟!

فقال بحيرة:

ـ ملابسك غريبة، أأنت من أهل المكان؟

ـ إنّي أزوره أحيانًا التماسًا للنزهة.

ـ متى زرته آخر مرّة؟

ـ منذ شهر.

فأشار إلى موضع من الرمال المترامية وقال:

ـ كان هنا يقوم قصر الملكة.

فتساءلت بذهول:

ـ أيّ ملكة؟

فأشار إلى موضع آخر وقال:

ـ وذاك موضع دار القضاء...

فداخلني شكّ في عقله وسألته:

ـ متى زرت المكان آخر مرّة؟

فقال دون مبالاة:

ـ منذ خمسة آلاف سنة!

فلم أتمالك من الضحك فقال ببرود:

ـ ماذا يضحكك يا هذا؟!

وجعلت أنظر إليه في حذر متحاشيًا إثارته فقال وهو يشير إلى موضع جديد:

ـ وهناك كانت تصدح أرجاء البهو بالغناء.

فقلت أجاريه متظاهرًا بتصديقه:

ـ مائة عام كافية لتغيير أيّ مكان فما بالك بخمسة آلاف سنة، مَن حضرتك؟

فقال بهدوء:

ـ أنا الخضر...

ـ سيّدنا الخضر؟!

ـ سيّدنا؟!

ـ لقد حظيت بالخلود فأنت سيّد البشر!

فقال بأسى:

ـ أنا أسير الوحدة، فأنا الخلاء وأيّ أغراب لا يعرفونني...

واندفعت بإلهام قويّ أقول:

ـ هلّا سمحت لي بمرافقتك بعض الوقت؟

فهزّ منكبيه وقال:

ـ لن تستطيع معي صبرًا.

ومضى مبتعدًا وهو يسير بسرعة البرق. . .

الحلم رقم ١١

رأيت فيما يرى النائم. . .

أنّني حزين وقلبي ثقيل ولْكنّني لا أعرف سببًا معيّنًا لحالي. وسرت في طريق مجهول حتّى أرهقني السير. وشعرت طوال الوقت بأنّني أسعى وراء غاية لْكنّها غابت عن وعيي أو غاب عنها وعيي. وتبرق لحظة خاطفة في غياهب نفسي مغرّرة بي فأتوهّم أنّني مستكشفها ولْكنّها سرعان ما تغوص في الظلام مخلّفة يأسًا. ودومًا لا أكفّ عن التطلّع والانخداع واليأس ولا أكفّ عن السير. وصحبني الحزن مع خطاي، وانثالت عليّ صور متلاحقة سريعة هامسة بذكريات الهناء الراحل والأحبّة الذاهبين. وأذهلتني كثرتها كما أذهلني عدمها. وقعقع الرعد حتّى ارتعشت أطرافي، ولْكنّه قال بصوت واضح:

ـ سوف تتقشع الأحزان وينهمر المطر.

الحلم رقم ١٢

رأيت فيما يرى النائم. . .

أنّ الأرض تتقشّر، وتتشقّق. وتتقلّص وتموج، ومن الأعماق تبرز على مهل عمد وأسطح وقباب، ثمّ مضى يتجلّى وجه مدينة غامرة. شوارعها محجوبة بالأتربة، مساكنها متهدّمة، وما بها من قائم سوى المعابد وبعض التماثيل. وتحلّقها قوم لا حصر لهم ينظرون ويتحاورون:

ـ مدينة أثريّة جديدة. . .

ـ وثائق لتاريخ جديد.

ـ ألا يوجد أثر لإنسان؟

ـ المقابر لم تكتشف بعد.

ولبثت ما لبثت حتّى انتبهت فوجدت نفسي وحيدًا. ورحت أخترق شارعها الرئيسيّ حتّى أدركني الليل وأظلّتني النجوم. ومزّقت السكون صرخة. صرخة أنثى فيما بدا لي. وثمّة طيف هرع نحوي حتّى جثا بين يديّ، وثمّة صوت هتف:

ـ أنقذني. . .

سألتها:

ـ ماذا يتهدّدك؟

ـ سيف الجلّاد.

ـ من أنت؟

ـ أنا بريئة.

فسألتها بشدّة:

ـ ما تهمتك؟

ـ التهمة التي لا يبرأ منها أحد، حتّى أنت!

فقبضت على يدها وأنهضتها، ثمّ انطلقنا معًا كشهابين في ظلمة الليل. . .

الحلم رقم ١٣

رأيت فيما يرى النائم. . .

امرأة في الخمسين تذهب وتجيء بوجه جفّفته الوحدة. قلت إنّي أعرف هٰذا الوجه ولكن من، ومتى، وأين؟. وحيّرتني سحب النسيان. غير أنّ المرأة لم تهجع ولْكنّها ذهبت محمومة وهي ترمقني بعين مفكّرة ثمّ رجعت بشابّ رثّ الهيئة وهي تربّت خدّه بحنان. وانقضّ عليها الشابّ فاعتصرها بين ذراعيه مليًّا حتّى تأفّفت. ورماها بنظرة نكراء ثمّ دفعها فتهاوت على الأرض فانهال عليها ضربًا ثمّ ذهب. جعلت تتأوّه وتبكي، ثمّ قامت في إعياء شديد وقد فقدت ذراعها اليسرى. قلت لها:

ـ ذراعك!

فأعرضت عنّي ومضت، ثمّ رجعت وهي تربّت خدّ شابّ شبه عارٍ. وجذبها إليه مثل ذئب جائع واعتصرها بين ذراعيه. وانفصل عنها متقزّزًا وصبّ عليها قبضتيه وقدميه حتّى سقطت على وجهها. وغادرها فاستسلمت للنحيب ثمّ نهضت طاعنة في السنّ وقد فقدت ذراعها اليمنى. وقلت لها:

- ذراعك!

فأعرضت عنّي وولّت. وتكرّر الفعل وردّة الفعل حتّى لم يبْق منها إلّا اللسان. وغزاني الحزن والعجب فتساءلت:

- ماذا فعلت بنفسك؟!

فأجابني لسانها:

- الوحدة والحنان...

وتساءلت في حيرة «متى سمعت هذه العبارة من قبل...؟».

الحلم رقم ١٤

رأيت فيما يرى النائم...

شابًّا وسيمًا، يسير بسرعة، يشعّ من عينيه الصافيتين نور يضيء له الطريق. يوحي مظهره بالفتوّة والحماس ومعرفة الهدف، فانجذبت إلى اتّباعه لأحظى برؤية ما هو فاعل. منّيت نفسي بمشاهدة حدث أو نجاح مأثور، فكلّما تحفّز تحفّزت، وكلّما ضاعف من سرعته ضاعفت، وكلّما أشرق وجهه أشرقت. وقطعنا أماكن كثيرة، ورأينا مناظر عجيبة، وتعاملنا مع أناس لا ينتمي لهم خير ولا شرّ، وسلّيت نفسي المتوتّرة بأنّ المشهد المرموق سيهلّ عليّ بطلعته الشافية المترقّبة. ولم أكترث للزمن المنطوي ولا للجهد الضائع. ولكنّ الشابّ الوسيم راح يتغيّر منظره، وتتقلّص عضلات ساقيه وتنخفض درجات سرعته رويدًا. وجعلت أسمع تردّد أنفاسه وهي تغلظ وتثقل، وأنّات شكواه المتصاعدة، وبرمه بكلّ شيء. وأخذ يسبّ ويلعن ويشتعل غضبًا. وأخيرًا توقّف عاجزًا عن الاستمرار، ثمّ تهاوى على الأرض وهو يلهث. وجزعت جزعًا شديدًا، وهتفت:

- تشدّد واستمرّ...

وخُيّل إليّ أنّ النوم يغالبه فصحت:

- عليك تقع مسئوليّة شرودي وانخداعي...

فرفع إليّ عينين مظلمتين وهمس:

- هَبْني رحمة الوداع...

حوّلت عنه عينيّ الحانقتين ورفعتهما إلى السماء فرأيت السحب تتراكم كأنّها الليل ثمّ استجابت لرياح الشرق فانقشعت فبشّرني هاتف الغيب بالعزاء.

الحلم رقم ١٥

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني أسير في شارع ضيّق طويل. شُغلت بهدفي فلم أنتبه للمارّة. وفي نهاية الشارع طالعني مبنًى يجمع في هيئته بين المعبد والجامع والمسكن. دخلته مطمئنًّا إلى دعوة لا أدري متى ولا كيف تلقّيتها. وقطعت دهليزًا بلغ بي بابًا مقبّب الهامة فدفعته ودخلت. لم أرَ من المكان إلّا الرجل الجالس في صدره. رجل بالغ الكبر ولكنّه على كبره واضح الصحّة والعافية. بارز الملامح، ذو وجه عريق مجلّل بالوقار واللحية البيضاء، ينفث عطرًا يذكّر بالعصور الخالية. لثمت يده وقلت معتذرًا:

- جئت تلبية للدعوة.

فقال بصوت عميق التأثير في النفس:

- تأخّرت قليلًا ولكن لا بأس...

وأشار إليّ فتربّعت على شلتة بين يديه وأنا أسائل نفسي عمّا وراء دعوته. ولكنّه لم ينبس بكلمة. وسرعان ما وجدت عينيّ تنجذبان إلى عينيه حتّى خُيّل إليّ أنّني أنظر إلى بلّورتين متوهّجتين. اختفى العالم والوجود. ثمّ عدت إلى وعيي على لمسة من يده وسمعته يقول:

- يا له من حديث ويا لها من مناجاة!

فهممت أن أقول إنّني لا أذكر شيئًا ولكنّه بادرني بنبرة توديع حاسمة:

- اذهب مصحوبًا بالسلامة.

رجعت من الشارع الضيّق الطويل وأنا أشعر بأنّني مشدود إليه بأسلاك غير مرئيّة، وأنّني أسيره الأبديّ. وأردت أن أمارس حياتي المألوفة فقصدت لونابارك نزهتي المفضّلة ولكنّ الأسلاك الخفيّة صدّتني عنها فتحوّلت عنها وأنا أقول لنفسي:

- إنّي مسيّر بإرادته!

اقتنعت تمامًا بأنّني أفعل ما يريد لا ما أريد أنا، وأنّه يسوقني إلى أشياء وأشياء وأنّني لم أعد انتفع بعقلي أو ذوقي. وسمعت الناس يتحدّثون عمّا يقع

ويتساءلون عن الفاعل المجهول. وها هم يجدّون في أثري والحلقة تضيق ولٰكنّهم لا يتّفقون على رأي، فمنهم من يطالب بعنقي ومنهم من يدعو لي بالسلامة!، والحقّ أنّ الرجل لم يُثِرْ في نفسي الكراهية، ولٰكنّني تقت للتحرّر من سطوته الشاملة المخيفة. ولا أدري كيف ساقني الحظّ إلى مكتب التحقيق فرأيتني أمام المحقّق وهو يقول لي:

- اعترف فهو خير لك.

فقلت:

- إنّي بريء وما كان بوسعي أن أفعل إلّا ما يمليه عليّ...

فقال متهكّمًا:

- الرجل ينكر قصّتك المختلقة معه فأنت أمام القانون عاقل حرّ...

فهتفت وكأنّما أخاطب الرجل:

- إنّك تعرف الحقيقة فأنقذني!

ومكثت في السجن أنتظر يوم الإعدام. وبلغ بي الضيق منتهاه. وإذا بشعور يهمس لي بأنّ ما أعاني ما هو إلّا كابوس. عند ذاك قرّرت أن أستيقظ مهما كلّفني الأمر. ورحت أضرب مقدّم رأسي بقوّة ودون توقّف ناشدًا بإصرار اليقظة المأمولة...

الحلم رقم ١٦

رأيت فيما يرى النائم...

أنّ طيفًا زارني بليل فقدّم لي كأسًا وقال بصوت عذب:

- اشرب.

فشربتها حتّى الثمالة. ذاب الطيف في الظلمة. وانتشر السائل في جسدي وروحي كالشذا الطيّب. ونهضت وأنا أشعر شعورًا راسخًا بأنّني أملك قوّة لا حدّ لها. وأردت أن أجرّب صدق شعوري فأمرت النوافذ أن تفتح. وفي الحال انفتحت النوافذ على مصراعيها وتدفّق النور. وخرجت أتجوّل في شوارع المدينة معتزًّا بالقوّة الخارقة. وفطنت غرائز القوم الملهمة لسرّ القوّة الكامنة في أعماقي فخاطبتني نظراتهم الكسيرة بأمانيهم المكبوتة. تلقّيت عشرات الرسائل الخفيّة الضارعة بمحو هٰذا الشرّ أو ذاك، وتحقيق هٰذه الرغبة أو تلك، وتأديب هٰذا الرجل أو قتل ذاك. ووجدتني مثقلًا بالآمال والأماني والتبعات فاستحالت القوّة إلى عبء تنوء به الجبال. وتسلّل إليّ خاطر لا أدري من أين جاء بأنّ هٰذه القوّة الخارقة لن تدوم إلّا ما دام السائل في جوفي. وعلى ذٰلك تركّز تفكيري في استغلالها لدعم سعادتي الشخصيّة. وألقيت العبء عن كاهلي وانحصرت في هدف محدّد واضح. ولٰكن ما كاد يزايلني القلق حتّى ترامى إليّ وقع أقدام ثقيلة تطاردني. وهزئت بالمطاردة والمطاردين وقلت لنفسي سيرونني في اللحظة الحرجة وأنا أحلّق كالنسر أو أختفي كالوهم. واقتربت منّي الأقدام والأصوات الغاضبة فأمرت جسدي بالاختفاء عن الأعين. وحدثت معجزة ولٰكن مضادّة. لم يصدع جسدي بأمري وتطايرت قوّتي في الجوّ فوقعت بين يدي المطاردين بلا حول. ولم يعد لي من أمل إلّا في صحوة رحيمة تعقب كابوسًا مخيفًا...

الحلم رقم ١٧

رأيت فيما يرى النائم...

أنّني جالس تحت مظلّة سوداء، أتسلّى بمشاهدة صندوق الدنيا. وتتابعت المشاهد أمام عينيّ المبهورتين بدءًا بالإنسان البدائيّ، مرورًا بالحضارات القديمة والمتوسّطة والحديثة حتّى صعود الإنسان إلى القمر، ثمّ وجدتُني في مسكني فريسة لرغبة جامحة هي أن أصعد إلى القمر، وكنت أجلس وسط متاع غزير، تراكم بعضه فوق بعض حتى غطّى الجدران وسدّ النوافذ، وكان جسمي نفسه مثقلًا بالأوسمة والهدايا الثمينة حتّى تعذّرت عليّ الحركة وأخذت أغوص في الأرض. وعلمت بطريقة ما أنّني أنتظر زائرًا هامًّا فحرت كيف أستقبله، وأين أجلسه، وخفت سوء العاقبة. وضاق صدري بفساد الجوّ والزمن فتمرّدت على حرصي وأقبلت أنزع الأوسمة والهدايا من أركان جسدي، وأركل المتاع يمنة ويسرة حتّى شققت لنفسي طريقًا إلى

الخارج. وتنفّست بعمق فأذهلتني خفّة وزني. ولاح الزائر قادمًا عند الأفق ولكنّني لم أستطع انتظاره إذ مضيت أترجّح وأرتفع عن الأرض على مهل وثبات. أدركت أنّي أحلّق في الفضاء وأنّي كلّما ارتفعت مترًا ازددت سرعة. وغمرني الشعور بالانعتاق ووعدني بمسرّات تعجز عن وصفها الكلمات.

الباقي من الزمن ساعة

للصورة التذكاريّة تعود كلّما نبض قلبها بالحنين. حجرة المعيشة تزدان جدرانها الخضراء بثلاث لوحات في أطر مموّهة بالذهب. البسملة في الصدر، الشهادة الابتدائيّة القديمة بالجناح الأيمن، صورة الرحلة التذكاريّة بالجناح الأيسر. نسيت أشياء وأشياء ولٰكنّها لم تنسَ عام ١٩٣٦ تاريخ الصورة، ففي ذٰلك التاريخ كُتب الخلود للحظة زمانيّة من تاريخ أسرتها وهي تمرح فوق كليم مفروش فوق الأعشاب بحديقة القناطر الخيريّة. في الوسط جلس حامد برهان ربّ الأسرة ممدود الساقين ممتلئًا بالعافية بدينًا وسيم الوجه ذا سمرة عميقة، وإلى يمينه جلست هي - سنيّة المهدي - متربّعة مغطّية حجرها وساقيها بشال عريض متألّقة الوجه بملامحها الدقيقة، الصغيرة، أمّا إلى يساره فجلست كوثر البكريّة بجمالها المتواضع ونظرتها الوديعة، يليها محمّد في الجلسة كما يليها في العمر مثل أبيه في التكوين والشكل، تليه منيرة بجمالها الفائق ونظرتها المتوهّجة. كان الأب في الخمسين والأمّ في الأربعين والإخوة يناهزون البلوغ، وكان الجميع يبتسمون، تحبو فوق وجوههم فرحة الرحلة والسلام، وبين أيديهم تقوم قوارير المياه الغازيّة وأطباق ورقيّة ملئت بالسندوتشات والموز والبرتقال، على حين نهضت في الخلفيّة هضبة متدرّجة معشوشبة وأشجار منثورة، تنطلق فيما وراءها منارات القناطر وجماعات من المتنزّهين. تجلّلتها - الصورة - عذوبة شاملة ولم يظهر فيها أثر للزمن. غير أنّ الزمن لم يتوقّف لحظة واحدة خارج الصورة. ومن ضمن ما قضى به ألّا يبقى في بيت الأسرة اليوم إلّا مالكته سنيّة المهدي وكبرى ذرّيّتها كوثر. وهو بيت فسيح، مكوّن من دور واحد يعلو فوق الأرض بدرجات خمس، وحديقته تمتدّ من جانبه الجنوبيّ، مساحتها نصف فدّان، تغنّت عهدًا بالازدهار، وكابدت عهودًا من الاضمحلال والوحشة. وضخامة البيت والحديقة أثر من آثار حلوان القديمة، الرخيصة النائية، المغموسة في السكينة والتأمّل، التيّاهة بمياهها المعدنيّة وحمّاماتها الكبريتيّة وحديقتها اليابانيّة، مصحّة الأعصاب المتوتّرة والمفاصل المتوعّكة والصدور المتهرّئة والعزلة الغافية. وجميع الدور بشارع ابن حوقل متشابهة - ما عدا البيت المواجه لبيت الأسرة الذي بيع في أثناء الحرب العظمى الثانية لتُشيَّد مكانه عمارة جديدة - ولٰكنّ بيت المهديّة يتميّز بطلائه الأخضر، وهو طلاء أغلب حجراته ذوات الأسقف العالية، وهو لون أغطية المقاعد بحجرة المعيشة، والإصرار عليه يعكس ولع المرأة به، ويشير أيضًا إلى ولعها بالبيت نفسه الذي وثّقت بينهما محبّة خلقت للأبناء والأحفاد مشكلة تعذّر حلّها في حينها. ومشيّد البيت أبوها عبد الله المهدي، وكان في آخر أطوار حياته فلّاحًا من الملّاك المتوسّطين، ولـمّا اجتاحه الروماتزم نُصح بالإقامة في حلوان مدينة الصحّة والجفاف فابتاع أرضًا وأقام البيت تاركًا أرضه لابنه البكريّ، مهاجرًا بزوجته ووليدته سنيّة. ووزّع الرجل أملاكه بالتراضي بين ابنه وابنته جاعلًا البيت في حصّتها فلعب دورًا ذا شأن في حياتها، إذ نوّهت به الخاطبة وهي تزكّي سنيّة عند أمّ حامد برهان فكان ضمن مغريات اختيارها. لٰكنّ سنيّة كانت على درجة من الوسامة المقبولة، ونالت أيضًا الابتدائيّة، واعترف لها بالذكاء وبأنّها كانت خليقة بإتمام تعليمها لولا إصرار الأب على حجبها. وكم حزنت لقراره، وكم سفحت من دموع احتجاجًا

عليه، ولذلك فرغم مهمّتها كربّة بيت وأمّ واظبت على قراءة الصحف والمجلّات ووسّعت مداركها حتّى بلغت درجة من النضج غير معهودة سندت بها حدسها الروحيّ وأحلامها العجيبة. ولعلّها كانت المرأة الوحيدة في شارع ابن حوقل التي تمسك دفتر حسابات لميزانيّة الأسرة كما كانت تراسل أخاها بالخطابات المطوّلة، ربّما رغبة في التعبير وإثباتًا لقدرتها عليه. وعلى حبّها القديم العميق لزوجها حامد برهان شعرت في أعماقها بتفوّقها عليه، ذكاءً وعقلًا، فضلًا عن أنّه لم يحصل إلّا على الابتدائيّة وإن التحق بعد ذلك بمدرسة التلغراف وتخرّج فيها. يضاف إلى ذلك أنّه لا يعرف عن سلسلته العائليّة إلّا جدًّا واحدًا ولا يكاد يعرف عنه أكثر من اسمه، أمّا هي فتعرف كثرة من الجدود وإن لم تُشِرْ إليهم إلّا إشارات عابرة وفي مناسبات نادرة، وكبر حظّ جدّها لأبيها من الذكر بسبب نقطة التحوّل التي أحدثها في حياته عندما دخل الإسلام بعدما كان قبطيًّا من صلب أقباط. وفي ذلك قالت سنيّة ذات يوم لحامد برهان ضاحكة:

- تاريخي غير راكد.

وكان حامد برهان - مثل زوجه - محبًّا للفخر فجرى وراء المتاح من أسبابه في حياته البسيطة المتواضعة، ملحًّا على إثبات رجولته، ودون إغفال للحقيقة الساطعة وهي أنّها مالكة البيت الكبير، وأنّها مدبّرته الحكيمة، وأنّها مربّية الأبناء الرشيدة الواعية، فضلًا عن أنّها خالقة الجوّ السعيد الذي نعم به طويلًا. ومن آي حبّه للفخر أيضًا حومانه المصرّ حول الإنجاز السياسيّ الوحيد في حياته، وهو تحريضه على إضراب الموظّفين في مطلع ثورة ١٩١٩، فهو يرويه بتفاصيله كلّما سنحت فرصة، علمًا بأنّه الفعل الوحيد في حياته السياسيّة التي لم يبقَ له منها سوى حبّ قلبيّ عميق للوفد لا يتجلّى بصورة عمليّة إلّا في الظروف النادرة التي يسمح فيها بإجراء انتخابات حرّة بين الأحزاب. وكان زوجًا مثاليًّا في أكثر من ناحية، فهو مولع بزوجه وأبنائه، وهو فحل في الرجال، وهو بريء من الأدواء التي تتطفّل على ميزانيّة موظّف صغير مثله فلا يسكر ولا يدخّن ولا يفسق بعينيه، حتّى سهرته يمضيها مع إخوانه في حجرة الاستقبال شتاء أو الفراندا بقيّة العام، وهم من أهل حلوان مثله، جعفر إبراهيم ناظر على المعاش، خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدي، حسن علما مهندس مبانٍ، راضي أبو العزم مدرّس علوم، تنطوي لياليهم في السمر ولعب الطاولة وحديث السياسة مردّدين نغمة واحدة صادرة عن لحن وفديّ أصيل فلا نزاع ولا خصام - وعُرف حامد برهان بالنظافة والأناقة والتديّن السمح اليسير الذي يعبق به جوّ الأسرة. وجبر الله خاطر الوالدين بمحمّد ومنيرة فشقّا طريقهما في التعليم بنجاح واعد، خاصّة منيرة التي اختصّت بالذكاء والجمال معًا، إلّا أنّ كوثر تمخّضت عن مشكلة مثيرة للقلق، فهي لم تُظهِر ميلًا للتعليم ولا توفيقًا فيه. وانجذبت بطبعها نحو التديّن وشئون البيت، فاضطرّت إلى ملازمة البيت بعد سقوط عامين متتالين في المرحلة الثانويّة. يومها قالت سنيّة لحامد:

- ستّ البيت غير مطلوبة في الزمان.

وتذكّر الرجل حظّها المتواضع من الجمال فغلبه الأسى ولكنّه قال:

- يوجد أيضًا الحظّ وهو لا قانون له!

وكان للأسرة حياتها الاجتماعيّة المشتركة، تجد في الرحلة سرورها، فيوم للحديقة اليابانيّة، ويوم للقناطر الخيريّة، ويوم لدار الآثار، رغم أنّها كانت أيّام أزمة عالميّة طاحنة، غير أنّ الموظّفين ذوي المرتّبات الثابتة وجدوا يسرًا في ظلّ الكساد وهبوط الأسعار، فاقتلعت العاصفة الهوجاء كلّ قائم ولاذت الأعشاب بالأمان فمرحت وهزجت بالأغاني. وكان حامد برهان يمضي بأسرته دون حجاب، غير مبالٍ بالقيل والقال، فلم يملْ إلى التزمّت أبدًا، وكانت وراءه امرأة تحسن التربية، وتعطي مثالًا في أداء الفرائض والسلوك الطيّب. وتمضي الأيّام فلا يتقدّم أحد لطلب يد كوثر وهي الوحيدة التي لا غاية لها إلّا الزواج. وتبسط سنيّة راحتيها بالدعاء عقب كلّ صلاة، أو يتهلّل وجهها بالبشر أحيانًا وهي تقول لحامد:

- رأيت حلمًا سيكون له شأن!

أو تكلّف أمّ سيّد بقراءة الفنجان وتصغي إلى

تأويلاتها الورديّة فينتعش حامد بالأمل يهدهد به همّه المطارد. وما يلبث أن ينسى همّه إلى حين وهو يتابع أنباء المظاهرات، والصراع حول دستور ١٩٢٣، والسعي نحو إيجاد وحدة قوميّة لمواجهة الموقف. ويتمخّض الجهد والدم عن حَدَث غير عاديّ فتُعقد معاهدة ١٩٣٦. ليلتها ثمل حامد برهان بالنصر وقال للسمّار:

ـ كُلّل جهاد الوفد أخيرًا بالفوز المبين.

* * *

أجل كان ثمّة آراء معارضة ردّدها الأستاذ راضي أبو العزم مدرّس العلوم معتذرًا بقوله «ناقل الكفر ليس بكافر»، وكانت وَرَدت قبل ذلك على لسان محمّد ومنيرة نقلًا عمّا يسمعان في المدرسة. غير أنّه لم يكن لها أثر يُذكر في الأسرة فسنيّة وفديّة مثل زوجها ومحمّد وفديّ أيضًا، حتّى منيرة تُعَدّ وفديّة بلا حماس، أمّا كوثر فلا تهتمّ إلّا بما يدور في باطنها. أمّا في جلسة السمر فكان الوفد متسلّطًا دون شريك فتساءل جعفر إبراهيم:

ـ كيف يتوقّعون نتيجة أفضل من هٰذه؟

فقال حسن عليا:

ـ المعاهدة ثمرة صراع مرير بين إمبراطوريّة طاغية من ناحية وبلد أعزل من ناحية أخرى، فهي مشرّفة لا ريب في ذٰلك...

فقال حامد برهان:

ـ على مَن لا يقتنع أن يزحف على العدوّ بجيشه!

فقال خليل الدرس وكيل أعمال الوجيه نعمان الرشيدي:

ـ انتهت أيّام اللعنات وسوف يحكم الوفد إلى الأبد...

ولٰكن بدا أنّ أيّام اللعنات لا تريد أن تنتهي فقد انفجر صراع جديد بين الوفد والملك الجديد، حوّل المعركة من معركة موجّهة نحو الفقر والجهل والمرض إلى المعركة التقليديّة حول الدستور والحكم الديموقراطيّ، وإذا بالوفد يطرد والأقلّيّات تلعب دورًا ديموقراطيًّا زائفًا كغطاء متهتّك للاستبداد الملكيّ. تبادل الأصدقاء نظرات أسى مشتعل بالغضب. أملوا أن يغضب الشعب غضبة من غضباته الماضية ولكنّه آثر أن ينتقل من مكانه العريق فوق خشبة المسرح إلى مقاعد المتفرّجين حتّى تساءل حامد برهان:

ـ من أين جاءنا هٰذا الحظّ الأسود؟!

واسترقت سنيّة نظرة إلى كوثر وقالت لنفسها:

ـ مثل حظّك تمامًا يا ابنتي!

واكفهرّ جوّ العالم كلّه وتطاير منه الشرر ثمّ انحسر قناعه الأصفر عن حرب عالميّة جديدة. وأكثر من صوت قال:

ـ إيطاليا في ليبيا على بعد شبر منّا!

وكان محمّد قد التحق بكلّيّة الحقوق، ومنيرة على وشك الالتحاق بالآداب، أمّا كوثر فما زالت تنتظر. ومحمّد ـ مثل أبيه ـ انصهر بهزيمة الوفد وأنباء المعارك، وجذبت نظره ذات يوم لافتة مثبتة على قضبان شرفة شقّة بشارع سعفان مسجّل عليها بالخطّ الفارسيّ «الإخوان المسلمون» فدعاه حبّ الاستطلاع والتوتّر إلى اقتحام الشقّة. ومضى يختلف إليها من حين إلى حين وينوّه بما يُلقى عليه فيها بين أسرته، حتّى قال له حامد برهان:

ـ حسبك، إنّي غير مرتاح لذٰلك...

فدافع الشابّ عن وجهة نظره دفاعًا بريئًا ولٰكنّ أباه قال:

ـ أنت وفديّ، وأيّ تجمّع آخر ما هو إلّا منافس للوفد.

فقال محمّد بإصرار:

ـ إنّها مفتوحة للجميع!

ولم يطرأ عليه في تلك الفترة من تغيير إلّا أن أضاف إلى مجال اطّلاعه بعض الكتب الدينيّة، على أنّ كوثر استغرقتها العبادة أكثر منه وإن عكست عيناها الوديعتان نظرة أسى دائم. وضاعف من حرج الأسرة أنّ منيرة ـ وهي تشرئبّ للجامعة ـ تقدّم لطلب يدها مدير عامّ بالسكّة الحديد في الخامسة والأربعين من عمره. لا شكّ أنّ «درجته» فتنت حامد برهان، ولٰكنّه ـ مثل سنيّة ـ توجّع لحال كوثر. غير أنّه لم يكن بدّ من عرض الموضوع على منيرة التي أدهشتهم بقولها الحاسم:

ـ لا أوافق. . .

فقال لها محمّد:

ـ يستحسن أن يُسبق أيّ قرار بالتفكير المناسب.

فقالت بصراحة:

ـ لا داعي لذلك على الإطلاق.

وارتاح الوالدان في أعماقهما وإن تظاهرا بغير ذلك. ولم يكن القهر يلعب دورًا في الأسرة، وكان الأبناء يحظون بنعمة غير معهودة من الحرّيّة والصراحة. على أنّ منيرة لم ترفض الرجل لفارق السنّ فقط، فالحقيقة أنّها كانت واقعة في حبّ. لم يفطن أحد إلى حبّها، ولا أمّها التي ترى بروحها أحيانًا بالإضافة إلى عينيها. وكان حبّها مشكلة. أحبّت شابًا من حلوان تبيّن لها أنّها تكبره بسبعة أعوام! . كان طالبًا بالمرحلة الثانويّة، كثير السقوط ولكنّه ذو مظهر خادع. رأته أوّل ما رأته في الحديقة اليابانيّة فاتّسعت عيناه مرسلة دهشة ذاهلة باسمة تحيّة للحسن الرائق، وجلس قبالتها في القطار أو لعلّه تعمّد الجلوس قبالتها وراح يسترق النظر طيلة الطريق إلى القاهرة. كان ذا مظهر يكبر سنّه بكثير، مترامي الأبعاد مبادرًا للرجولة قبل أوانها فظنّته موظّفًا أو طالبًا في القمّة، وكان إلى ذلك فحل الملامح والصوت. وراح يتابعها بإصرار وشغف حتّى غزاها بلطف وثبات. وجد قلبًا يخفق بنظرة متوثّبة، متعطّشة لأوّل قطرة ماء كي تتفتّح أكمامها وتنبثق ألوانها الضاحكة. هكذا تسلّط على فؤادها فاستسلمت للنداء المطرب حالمة بسعادة مشرقة. وعند لحظة فريدة يتصارع فيها الحياء والمغامرة ردّت آخر تحيّاته أمام تمثال بوذا الغافي في سلام بالحديقة اليابانيّة، فقال متنهّدًا:

ـ أخيرًا! . . . سامحك الله. . .

وفي ارتباكها سألته متلعثمة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بهدوء مغتصب:

ـ ليس عندي أكثر ممّا يدلّ عليه حالي.

فعضّت على شفتيها لتئد ابتسامة خائنة فقال برقّة:

ـ ليس وراء الحبّ شيء. . .

قالت لنفسها ما أصدقه. وتلاقيا مرّات في الجنفواز على مبعدة يسيرة من الجامعة ليزدادا ببعضهما تعارفًا.

كان ثمّة تشابه بين أسرتيهما فأبوه ناظر مدرسة ابتدائيّ، له أخت متزوّجة وأخ ضابط بالجيش، اسمه سليمان بهجت. ولّما عالنها بسنّه وصفّه المدرسيّ تلقّت لطمة مباغتة لم تتوقّعها. كانت تشارف مرحلتها الجامعيّة بقسم اللغة الإنجليزيّة، وربّما توظّفت وهو يلتحق بالجامعة فأيّ مهزلة وأيّ خدعة. اضطرب ميزان عقلها ولكنّ قلبها صمد صمود العاشقين، طرحا العواقب جانبًا. ولاحظ سليمان وجومها ولم تغب عنه أسبابه فقال:

ـ في الحبّ لا أهمّيّة للمشكلات السطحيّة.

فتساءلت بحيرة:

ـ أهي سطحيّة حقًّا؟

ـ بلا شكّ، علينا أن نصرّ على حبّنا حتّى نتزوّج.

فقالت بسرور خفيّ:

ـ إنّك جادّ ولي فيك كلّ الثقة، ولكنّي أسألك مهلة للتفكير لصالح كلينا. . .

فقال بيقين:

ـ إنّي أعرف صالحي تمامًا (ثمّ ضاحكًا) ولن أسمح لك بالتراجع. . .

ولم تجد في أسرتها من تفضي إليه بسرّها سوى أمّها. اقتحمت غرفتها الخضراء عقب صلاة العصر رادّة الباب وراءها وجلست قائلة:

ـ إليك حكايتي يا ماما. . .

لّما أدركت أنّها حكاية خطوبة نوّر قلبها بالسرور، ولكنّه سرعان ما انطفأ لدى طرح المشكلة. وتفرّست في وجهها فاستشفّت ميلها الدفين وراء قناع الحيرة فأدركها الجزع. قالت لنفسها إنّ حظّ كوثر سيّئ أمّا جوهرة الأسرة فلا يجوز أن يسوء لها حظّ. قالت بثبات:

ـ مشروع فاشل ولا خير فيه.

فرمقتها منيرة بنظرة كئيبة فواصلت:

ـ الرجل الأكبر في السنّ مقبول ألف مرّة أكثر من المرأة الأكبر، حذارِ يا منيرة، ما هو إلّا عبث صبيّ لا يوثق به وأنت رشيدة مثقّفة. . .

فلاذت بالصمت الذي أدركت الأمّ معناه فقالت بقلق:

ـ الناس يحبّون ليسعدوا لا ليجعلوا من حياتهم

نادرة يُتندّر بها، لن يمنعك أحد ممّا تريدين، أنت حرّة تمامًا في اتّخاذ قرارك ولكنّي أحذّرك، فالمرأة تمضي إلى الشيخوخة أسرع من الرجل. . .

فتمتمت بغموض:

ـ أشكرك يا ماما. . .

فقالت برجاء:

ـ لا داعي للعجلة، فكّري على مهل، دعي الأمر معلّقًا حتّى يئين أوان الزواج ثمّ انظري ماذا يبقى منه.

فقالت منيرة وهي مستغرقة بالحيرة:

ـ حلّ موفّق يا ماما. . .

ـ عظيم، وليكن الأمر سرًّا حرصًا على الكرامة. . .

ولكنّها لم تعتد أن تخفي عن حامد برهان أمرًا ذا بال فأشركته في همّها قبل انتقاله إلى مجلس السمّار. وفاق تأثّره بالسرّ تأثّرها إذ كان عاطفيًّا أكثر منها أو كان دونها في ضبط النفس، قال بنبرة المتشكّي:

ـ أيّ حظّ يا ابنتي!. . . إنّك درّة التاج فلِمَ تبتلين بهٰذه التجربة؟

وتفكّر مليًّا ثمّ قال:

ـ إنّه مشروع فاشل ولكنّه خليق بأن يقوم عثرة في سبيل مَن يطلب يدها. . .

ولم ترَ سنيّة حلًّا ذا معنى، وضربت تأويلات أمّ سيّد للفنجان في آفاق بعيدة عن الموضوع. أمّا سليمان بهجت فقد عدل عن رغبته الملحّة في إعلان الخطوبة، قانعًا بعلاقة أقرب إلى الصداقة مورست في مودّة وتحفّظ وصينت بالصبر الطويل. على أنّ سرًّا بهٰذه الخطورة لا يمكن أن يبقى سرًّا طويلًا فما دام توجد رائحة نفّاذة وجوّ ذو قابليّة لسريان الرائحة فلا بدّ للرائحة من أن تنتشر. انكشف في بيت سليمان بهجت وقال له أخوه الضابط:

ـ أحسنت الاختيار.

وكثرة من زميلات كوثر بالكلّيّة عرفنه، وزحف أخيرًا على شارع ابن حوقل فنوقش في مجلس السمّار، وبذٰلك عرف القاصي والداني أنّ كريمة حامد برهان الجميلة «محجوزة» فلم يتقدّم أحد ليخطبها، مثلها مثل أختها كوثر التي طال بها الانتظار وتقدّم بها العمر. وكانت أيّام حرب وبلاء، واحتلّت الوفيّات الصفحات الأولى من الصحف ولكن على نطاق العالم والْتَهَمَ الخراب العواصم الزاهرة ودنا الخطر من مصر حتّى تردّدت أنفاسه في القاهرة والإسكندريّة فقال حامد برهان:

ـ مَن راقب بلوى العالم هانت عليه بلواه. . .

واختلّ ميزان المعيشة فتوارت الأسعار القديمة إلى الأبد وانهمرت الثروات على أناس فلم يبقَ في القعر إلّا الموظّفون فتساءلت سنيّة:

ـ ما جدوى إمساك دفتر لميزانيّة وهميّة؟!

ولولا عودة الوفد للحكم عقب أزمة خطيرة وتقريره علاوة الغلاء لهلك الموظّفون. ولم يزعزع الحدث إيمان حامد برهان بوفديّته، بل رقص السمّار فرحًا وشماتة بالملك. وقالت منيرة:

ـ إنّه شيء بشع لا يصدّق.

وقال محمّد لأبيه:

ـ ما أفظع ما يقال!

فقال حامد برهان بثقة:

ـ كلّ قول جدير أن يتحطّم على صخرة صلدة هي وطنيّة مصطفى النحّاس.

فهزّت سنيّة رأسها باسمة وتمتمت:

ـ نطقت بالحقّ.

وتمضي الأحداث، ويميل مؤشّر النصر إلى الناحية الأخرى، ويقال الوفد كالعادة من الحكم، وبعد عامين يحال حامد برهان إلى المعاش لبلوغه السنّ القانونيّة. شدّ ما انقبض صدره حتّى ساوره شعور بأنّه يموت قبل الموت. لدى رجوعه إلى حلوان نازعًا معطف الوظيفة لأوّل مرّة اجتاحته كآبة ثقيلة، وداخله إحساس بالخجل كأنّما ارتكب إثمًا. قال لنفسه:

ـ ما زلت في تمام الصحّة والعافية.

ورسم لنفسه ـ وهو قابع في قطار حلوان ـ خطّة يتحدّى بها قرار الحكومة. أن يستيقظ في ميعاده المبكّر، أن يتمشّى ما بين الصحراء والحديقة اليابانيّة كلّ صباح مغترفًا من هواء حلوان الجافّ، أن يواظب على الارتواء من المياه المعدنيّة، أن يعنى بحديقة البيت ما وسعته طاقته الماليّة المحدودة. وتلقّته سنيّة باسمة، دعت له بطول العمر، مطاردة أفكارًا كئيبة تطنّ في

باطنها كالذباب. عطفت عليه، رأت وجومه وراء ضحكته المفتعلة، قاسمته الانفعال بالزمن والخوف من المجهول، بالإضافة إلى همومها كربّة بيت تفعل المستحيل للاحتفاظ بالحدّ الأدنى في مواجهة حياة يشتدّ عسرها في بطء وثبات. وحمدت الله على الفرج المنتظر بتخرّج محمّد ثمّ منيرة. قالت في لحظة تأمّل:

ـ أشعلوا الحرب وذهبوا وعلينا أن ندفع الثمن...

واستوعب الغذاء والكساء كلّ شيء ولكن ألا يحتاج هٰذا البيت الكبير إلى ترميم وطلاء؟... وهٰذه الحديقة التي عقمت أشجارها الباقية، وذبلت شجيرات أزهارها، وشغلت الأرض الرمليّة أكثر سطحها ألا تحتاج إلى بعث؟... أين هي من ذٰلك كلّه؟!. وهي حتّى متى تحمل أعباء البيت ولا معين لها إلّا فتاة منكسرة القلب وخادم تماثلها في السنّ ضئيلة المهارة لا تحسن إلّا قراءة الفنجان ونادرًا ما تصدق لها قراءة؟. ولٰكنّ الهموم تتداوى بالهموم أحيانًا، فقد اقتحم البيت همّ في صورة فرح باسم. أجل أخيرًا جاء رجل يطلب يد كوثر!. كان خليل الدرس ـ أحد السمّار ـ هو الخاطب!، وكان العريس الوجيه نعمان الرشيدي الذي يعمل الرجل وكيلًا لدائرته. قال خليل الدرس لحامد برهان:

ـ رجل ولا كلّ الرجال.

ثمّ مبادرًا قبل أن تلعب الآمال بقلب حامد:

ـ حقًّا لم يتعلّم ولٰكن ما حاجته إلى التعليم؟، وهو في الستّين ولٰكنّه يحظى بصحّة ابن الثلاثين، له أبناء ثلاثة ولٰكنّهم موظّفون ومتزوّجون، يملك أرضًا وعمارات وأموالًا سائلة، يقيم في فيلا أنيقة بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ولّما ماتت زوجه منذ عام غشيته وحدة لم يألفها فضاق بها وغمرته كآبة ثقيلة حتّى اقترحتُ عليه فكرة الزواج فرحّب بها بحماس فاق تقديري بكثير فطلبت إلى زوجتي أن تدعو ستّ سنيّة وكوثر لزيارة، ودعوته من ناحيتي، ويسّرت له رؤيتها في الحضور والانصراف فسُرّ جدًّا وأمرني أن أُتمّ السعي، وها أنا أفي بما تعهّدت به...

هٰكذا ذابت هموم الحياة اليوميّة واستأثر المشروع الجديد بالأفئدة. أسكتوا الراديو في حجرة المعيشة، وأفضى حامد برهان بما لديه، ثمّ قال:

ـ هٰذا هو العريس فما الرأي؟

همّت كوثر بالانسحاب ولٰكنّ حامد برهان أمسك بساعدها وجذبها إلى جانبه بحنان قائلًا:

ـ هنا مكانك.

فقال محمّد ضاحكًا:

ـ من حسن الحظّ أنّ الحكومة لا تتدخّل في هٰذه الشئون.

وساءلت سنيّة نفسها لِمَ يتعثّر حظّ ابنتيها فلا يعرف الطريق المألوف؟. وقالت:

ـ لنترك الأمر لصاحبة الشأن...

فقال حامد برهان:

ـ طبعًا... طبعًا... ولٰكن لا بأس من إبداء الرأي مساعدةً لها، الرجل ثريّ، والمال زينة الحياة الدنيا!

وهمّ محمّد بتكملة الآية ولٰكنّه عدل عن ذٰلك. كان ينظر إلى بقاء أخته في البيت الكبير بلا زواج ولا علم ولا عمل بقلق شديد. قال:

ـ فرصة لا يصحّ الاستهانة بها.

فقالت منيرة:

ـ أوافق على رأي كوثر دون قيد أو شرط...

فقال لها أبوها:

ـ لم تقولي شيئًا...

فقالت بإصرار:

ـ قلت كلّ شيء.

ونظر حامد برهان نحو سنيّة وهي متربّعة فوق الكنبة فتمتمت:

ـ رجل مقبول من بعض النواحي ولٰكنّي تمنّيت لها حظًّا أفضل...

وهربت بوجهها من نظرتهم فاستقرّت عيناها على الصّورة التذكاريّة. وقالت كوثر لنفسها إنّهم يميلون للموافقة. وهي أيضًا مالت إليها منذ اللحظة الأولى. فهٰذا الرجل هو أوّل رجل يتقدّم. وهي تغوص في السادسة والعشرين تكتنفها أحوال تدعو إلى اليأس. وهي تثير العطف حتّى كرهته. وباتت تخجل من لقاء الزائرات. ولّما مسّها أبوها برقّة متسائلًا:

ـ وأنت يا كوثر؟

أحنت رأسها وغمغمت بصوت لم يسمع:

ـ موافقة.

وانتهت الجلسة بسلام ولكن ثمّة شعور بالذنب طاردهم قاوموه بالشعارات الطيّبة. وعندما خلا حامد برهان بسنيّة عقب انصراف السمّار قال:

ـ بارك الجميع قرارنا. . . .

نظرت إليه فهالها أن ترى عينيه دامعتين. لم تدهش لما تعلمه من سخاء عينيه إذا مُسّ وتر حميم في قلبه، أمّا هي فتبكي في الداخل. وسألته بأسى:

ـ لِمَ تبكي يا رجل؟

فتنهّد قائلًا:

ـ من العجز وسوء الحظّ.

عنى عجزه الماليّ وسوء حظّ ابنته. وهو كان يرى أكثر ممّا يتصوّر من حوله. لاحظ بقلب متغضّن انزواء كوثر، أسى نظرتها، معاناتها للمراهقة، إغراقها اليائس في العبادة، تطوّعها لخدمة إخوتها في استسلام كامل، فدفعه ذٰلك كلّه إلى مواجهة عجزه. ماذا فعل من أجلها؟. ماذا يملك من المغريات؟. وكم قسا عليها أيّام الدراسة مصرًّا على تحميلها ما يفوق طاقتها رغم أنّه كان مثلها في معاناة التعليم، وإلّا لشقّ لنفسه طريقًا آخر أبعث للآمال له ولذرّيّته. وسأل زوجته ومرشدته:

ـ ما العمل الآن؟

استخرجت من الجملة القصيرة مضمونها الخفيّ فقالت:

ـ عندي مجوهرات لا بأس بها. . .

فقال بذلّ:

ـ أحاول أن أقترض أيضًا؟

فقالت بضيق:

ـ لن تجد ضامنًا، ولا ضرورة لذٰلك.

على أنّ السيّد الوجيه نعمان الرشيدي جعل من العسر يسرًا. نشط نشاطًا كبيرًا فأهدى أثاث فيلّته إلى أبنائه، وأعاد تأثيثها على أحدث طراز، وفي مقابل ذٰلك اتّفق على صداق ومؤخّر صداق رمزيّين. وارتاحت الأسرة في الأعماق لذٰلك ولكن تجلّى طفحه في الوجوه في صورة كبرياء جريح. لذٰلك غالت الأمّ في تزويد كريمتها بالثياب أشكالًا وألوانًا وأغدقت عليها هدايا ثمينة أساور ذهبيّة وقرطًا ماسيًّا وساعة أثريّة. وبدا الوجيه حريصًا على الوقت فتحدّد يوم لكتب الكتاب في البيت الكبير شهده الأصدقاء ولم يحضره أحد من أبناء الوجيه معلنين بذٰلك مقاطعتهم التي تواصلت إلى الأبد. ومضى الوجيه بعروسه في سيّارته المرسيدس البيضاء مودّعًا ببسمات متلألئة بالدموع كرمز للفرح والأسى معًا. وعقب الزيارة الأولى التي قامت بها الأسرة لفيلّا شارع الزقازيق قال حامد برهان:

ـ كوثر سعيدة والحمد لله.

كانت سعيدة حقًّا، وسرعان ما بادلت زوجها حبًّا بحبّ. كان حبًّا حيّيًا هادئًا ولكن بالقياس إليها كان الحبّ كلّه. وما لبثت أن بشّرتهم بمقدم مخلوق مجهول من الغيب فانغرست البشاشة في قلب سنيّة المهدي طارحة ورودًا وأزهارًا. وأضفت التسريحة الجديدة على وجه كوثر أنوثة. وأكسبها الزواج ملاحة، وأسبغت عليها الثياب الفاخرة جلالًا وسؤددًا وإن لم تهمل يومًا سجّادة الصلاة. وأخفت عن أمّها همومًا صغيرة تسلّلت إلى وجدانها من جرّاء محاولات مستميتة بذلها نعمان الرشيدي ليقنعها باحتساء القليل من الويسكي، لاجئًا إلى إصدار فتاوى شخصيّة لا أساس لها بأنّ الشرب الشرعيّ حلال، حتّى يئس فقنع بالمتاح. وما إن رفع حامد برهان رأسه عن همّ كوثر حتّى ركّز عينيه على العمارة الجديدة التي استوت قائمة في مواجهة بيته. بدأ الهدم ورمي الأساس من سنوات، وتوقّف العمل وقتًا غير قصير لأسباب مجهولة، ثمّ استؤنف حتّى اكتملت بقاعدتها الواسعة وقامتها المديدة. أسف حامد لذٰلك غاية الأسف، وتحسّر على زوال حديقة البيت الأصليّ وأن يقوم مقامها بناء فيحجب ما يحجب من منظر مأنوس ويمنع ما يمنع من هواء طلق. وانقضّ على العمارة سكّان جدد فاق عددهم سكّان «ابن حوقل» جميعًا، لا يعرف بعضهم بعضًا ولا يتحمّسون لمعرفة أحد. قال جعفر إبراهيم:

ـ هٰذا مصير بيوتنا الكبيرة القديمة. . .

فتساءل حامد برهان:

ـ ولكن ما حلوان إذا اغتُصب هدوءها الأبديّ؟!

وخيّل إليه أنّ بوذا سينتبه من تأمّلاته العميقة محتجًا ثمّ يرحل وراء الهدوء إلى أعماق الصحراء.

ولم تكن العمارة بالهمّ الوحيد الذي طرأ فقد تدفّق طوفان في ميدان السياسة دافعًا بين يديه مظاهرات من الطلبة والعمّال مطالبين باستقلال حقيقيّ يكافئ ما بذلته مصر من تضحيات وخدمات في أثناء الحرب. وكالعادة غلبت السياسة على السمر وانهمك حامد برهان الوفديّ العريق في همومها، وقال:

ـ لو بقي مصطفى النحّاس في الحكم لطالب الإنجليز بجزاء تأييده لهم في وقت المزيمة.

غير أنّ همومه لم تحل بينه وبين رؤية ساكنة جديدة في الدور الرابع من العمارة الجديدة. كان يتمشّى في حديقته الموحشة مصارعًا الفراغ الجديد المهيمن على حياته فحانت منه التفاتة فرآها تتمشّى في مطلع خريف. لعلّها تماثل سنيّة في العمر ـ في الخمسين ـ ولكنّها رشيقة مزخرفة ذات شعر ذهبيّ وعِرْق أجنبيّ. استقبل من ناحيتها تيّارًا مثيرًا هو الذي لم يهتمّ بالنظر إلى امرأة منذ تزوّج من سنيّة المهدي. عاش حياته زوجًا مثاليًّا لا يزهد ولا يتغيّر ولا يحلم حتّى لفت الأنظار بطبعه العجيب. ولا يذكر أحد من معارفه أنّه سمعه يحدّث عن عالم المرأة حتّى قال صاحبه راضي أبو العزم مدرّس العلوم:

ـ حامد متخصّص في زوجته.

ويبدا أنّ المرأة هيّجت اهتمامات الجيران بفَرْنَجَتِها وعصريّتها وملابسها فانتشر من نافورتها الشادية رذاذ المعلومات. قيل إنّ أمّها إفرنجيّة ـ وإن لم يحدّد الجنس ـ وإنّها أرملة للمدعوّ حسن كمال الذي كان مدرّسًا بمدرسة الفنون وعضو بعثة في الخارج. وقيل إنّ لها ابنة وحيدة مترجمة بوزارة الخارجيّة، ثمّ صُحّح الخبر فيما بعد فقيل إنّها ابنة زوجها من زوجة سابقة متوفّية وإنّ المرأة تبنّتها لعقمها فعُدّ ذلك حسنة تُحسب لها. ثمّ عرف أنّ اسم المرأة ـ بعد إسلامها ـ مِرْفَت وأنّ البنت اسمها ألفت. وكانت المرأة تسلّي وحدتها بالمشي في شوارع حلوان وزيارة الحديقة اليابانيّة، تمضي رشيقة برّاقة مثيرة داعية ـ دون مبالاة ـ لشتّى الظنون، باسمة متحدّية، بخلاف ألفت المواظبة على عملها والمتّسمة بالجدّيّة والحياد أيضًا. وبالقياس إلى حامد برهان لم تكن مرفت مجرّد امرأة مثيرة تسعى ولكنّها كانت غزوة اقتحمت حصنه المنيع، ونارًا أشعلت هشيم خياله، وسيلًا جرف سدّه العالي. وعجب الرجل لحاله مغمغمًا:

ـ أعوذ بالله.

وذكّره ذلك بما جرى في الحرم الجامعيّ وفوق كوبري عبّاس من مظاهرات وسفك دماء فقال:

ـ هذا يثبت أنّ الأرض تدور على قرن ثور!

وعمّ البلاء عندما وهبته المرأة انتباهها ولم يعد ثمّة شكّ في أنّها تشجّعه!. وذات يوم تلاقت أعينهما في نظرة آسرة فابتسمت إليه. تناثرت إرادته وانفجرت غرائزه، وتمخّض جسده البدين عن جنون أحمر. تناسى واقعه وسنيّة وكوثر ومحمّد ومنيرة فمضى وراءها إلى الحديقة اليابانيّة. لم يكن يدري شيئًا عن الغزل ولا حتّى عمّا يجب أن يقال فسلّم نفسه في براءة طفل، وتواعدا على اللقاء في القاهرة مختارًا اليوم الذي يتسلّم فيه معاشه على سبيل الحذر. وبهذه العلاقة استوى في مقام الحيرة. أدرك من أوّل وهلة أنّ «مصروفه» لا يسمح له بعلاقة غير مشروعة، فضلًا عن أنّهما لا يجدان عشًّا مناسبًا. وقالت له:

ـ إنّي سيّدة محترمة!

فقال ـ وكانا يجلسان في محلّ باليرمو بالهرم ـ بصراحة مؤثّرة:

ـ وأنا كما ترين فقير. . .

فقالت بجرأة غريبة:

لديّ إيراد خاصّ لا بأس به.

فقال بسذاجة:

ـ ممكن أحتفظ بنصف معاشي إذا توظّف ابني وابنتي في القريب العاجل.

هكذا انحرف الحديث إلى «الشرع» وقُذف بحامد برهان إلى حياة جديدة لم تجْرِ له في خاطر ورجع إلى حلوان وهو يقول لنفسه:

ـ أدرك الآن معنى أن يُغلب إنسان على أمره! أيّ

قنبلة انفجرت في صدر سنيّة المهدي والزوج المستأنس المحبّ البكّاء يقف بين يديها حاني الظهر مغروز العينين في البساط القديم المنجرد وهو يقول:

ـ إنّه أمر الله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. . .

استيقظت من كهفها على صدمة كهربائيّة مزلزلة. ماذا يقول الرجل الممسوس؟.

ـ تزوّجت، إنّها محنة، ولكنّك ستظلّين الزوجة والأمّ!

إذن فأيّ شيء يمكن أن يحدث.

ـ إنّك مجنون ولا شكّ!

وكعادته عند غلبة الانفعال دمعت عيناه. استمسكت هي بمظهرها الرزين المجلّل بذهول غامض. كرهت دموعه واحتقرتها وتردّت بيقين في هاوية. وثبت بها دفعة مباغتة لصفعه ولكنّها لم تفعل. كظمت دوّامتها بسلك صلب. أمرت قلبها بأن ينكسر وحده وفي صمت جليل وبأن يتشرّب أشنع الآلام كما لو كانت ماء عذبًا. قال بصوت رجل آخر:

ـ لن يفصل بيننا شيء.

عند ذاك هتفت به:

ـ لا تُرني وجهك أبدًا.

وتلقّى محمّد ومنيرة الخبر فصاح محمّد:

ـ يا خبر أسود!

أمّا منيرة فلم تنبس ثمّ أفحمت في البكاء. وقف قلباهما وراء أمّهما وأدانا أباهما دون قيد أو شرط.

وقالت منيرة لمحمّد وهما في الفراندا وحيدين:

ـ أنا لا أفهم شيئًا. . .

فقال بامتعاض شديد:

ـ إنّها مأساة ألقيت على بابا لتُلقى بعد ذلك على ماما ثمّ تطوّقنا جميعًا.

ودفع الزواج الجديد الزوجين إلى ضربين من الجنون. جنون صمت وكبرياء غزا الأمّ. صمّمت على ممارسة حياتها اليوميّة وكأنّها لا تبالي بَيْدَ أنّها كانت مشتعلة القلب والعقل طيلة الوقت فراحت ترى وراء الأحداث اليوميّة ـ المسموعة والمقروءة ـ شبح مأساة كونيّة غامضة، وأنّ حماقة الإنسان داء متأصّل لن يشفى منه إلّا بمتناقضات شتّى كالعنف والحكمة والرحمة!. وبذهاب والعجوز المنصابي، أُتيح لها فراغ لم تعهده من قبل فتعلّق اهتمامها بالبيت، وشعرت أكثر من أيّ وقت مضى بأنّه ليس على ما يرام. إنّه يطعن في القدم دون رعاية ولا عناية. ها هي تتجوّل بين الحجرات والحديقة، تنظر وتتفحّص، بهتت الألوان، تقشّرت الأركان، تشقّق خشب الأرضيّة وفقد مرونته، ذبلت الحديقة وملأتها الوحشة وتراكمت في أجزاء منها الأوراق الجافّة. قالت:

ـ العين بصيرة واليد قصيرة.

وتابعها محمّد مرّة بعينيه ثمّ همس في أذن منيرة:

ـ إنّي قلق.

فهمست له بدورها:

ـ ليتها تروّح عن نفسها ولو بالدموع!

أمّا حامد برهان فلم يبق له إلّا أن يغمض عينيه ويصمّ أذنيه حيال الماضي وأن يرمي بنفسه في بحر العسل. انقلب إلى مراهق ذي رأس أبيض وجسم مليء بعنفوان لا يدري من أين جاء. ووجد في مرفت امرأة فائقة المقدرة متقنة لفنون من العشق لم يعرفها من قبل. وبادلته هيامًا بهيام، ولولا دعمها المالّي لحياتهما المشتركة ما أمكن لها دوام. وبمضيّ الأيّام انتقل مجلس السمّار إلى الشقّة الجديدة، وأضافوا إلى أحاديثهم المألوفة موضوعات جديدة عن وصفات ناجعة لتجديد الشباب. وفي أثناء ذلك وُلد رشاد ابن كوثر، وتخرّج محمّد، ثمّ لحقت به منيرة، وهي أحداث خليقة ببعث السرور الشامل ولكنّها لم تحظ إلّا بفرحات سريعة الزوال كانفراج السحب عن شروق الشمس دقائق في يوم مطير عاصف. وزاد من تجهُّم الجوّ اشتعال حرب فلسطين فعلا صوت المعركة المبهم المشحون بالقلق على معارك حامد برهان الجنسيّة الظافرة وشدّ سنيّة المهدي من حال سيّئة إلى حال سيّئة أخرى كمن يفلت من قبضة صداع ليقع فريسة لروماتيزم، على حين تابعت منيرة الأنباء من موقع وظيفتها الجديدة كمدرّسة للغة الإنجليزيّة بمدرسة البنات بالعبّاسيّة، أمّا محمّد فوجد عملًا في مكتب الأستاذ عبد القادر قدري المحامي الوفديّ المعروف، وكان موصولًا بصداقته من عهد وفديّته الخالصة فلم ينقطع عنه بعد أن مازجت

وفديّته «إخوانيّة» متصاعدة. وبذل محمّد جهدًا صادقًا في عمله حاز به ثقة أستاذه غير أنّ الحرب انتهت بهزيمة العرب، ومقتل النقراشي، وإعلان حرب داخليّة لا هوادة فيها ضدّ الإخوان، فقُبض على محمّد فيمن قُبض عليهم ضمن شعبة حلوان. وهزّ النبأ الأسرة هزّة فاقت أحزانها الخاصّة والعامّة. واستقبل البيت القديم بحلوان الوجيه نعمان الرشيدي وكوثر، بل جاء حامد برهان نفسه. وتجاهلت سنيّة زوجها تمامًا فتجنّب إزعاجها ومضى يوجّه حديثه إلى نعمان أو منيرة. ولم يكن دون سنيّة قلقًا حتّى قال الوجيه نعمان:

ـ مؤكّد أنّه لم يتورّط في جريمة فلا خوف عليه. .

فقالت منيرة:

ـ أخشى ألّا يفرّقوا بين البريء وغيره في حومة الانتقام.

فقال حامد برهان:

ـ لم يرتح قلبي قطّ لانضمامه إلى الإخوان، وكلّنا مسلمون والحمد لله. . .

وشعر نعمان الرشيدي بأنّه مطالب بأكثر من الكلام لعلاقته الوثيقة بالمسئولين من جميع الأحزاب فقال:

ـ سأبذل ما في وسعي رغم أنّ الدفاع عن إخواني في هٰذه الظروف تصرُّف مرعب!

كان حريصًا على علاقاته الوديّة بجميع الأحزاب، لذٰلك ساءه أن يكون أخو زوجته إخوانيًّا، فكيف يسعى بنفسه إلى الكشف عن هٰذه الحقيقة الفاضحة؟!. وجعلوا يواسون سنيّة باعتبارها المحور الأوّل للحزن فقالت بأسى:

ـ ثقتي بالله لا تتزعزع.

غير أنّ الحزن قطّع قلبها فساء نومها، وكانت تنام إذا نامت وقلبها مسهّد، وتحلم بالعذاب. وجاءها خطاب من أخيها ينعي إليها بكريّه الذي استُشهد في الحرب بعد أن ظُنّ أنّه مفقود، فسرعان ما سافرت إلى بني سويف للعزاء. على أنّه أُفرج عن محمّد بعد فترة غير قصيرة فرجع ذات يوم وألقى بنفسه في حضن أمّه. وتظاهر ـ رغم شحوبه وذبوله ـ بالسرور مخفيًا عن أمّه الأخبار المحزنة. ورجع إلى عمله بمكتب الأستاذ عبد القادر قدري مصمّمًا على الاجتهاد، ولمّا سأله الأستاذ:

ـ هل شبعت من الإخوانيّة.

أجابه ضاحكًا:

ـ العكس هو ما حصل!

فقال الأستاذ عبد القادر:

ـ افهمْ معنى الوفد قبل فوات الأوان، إنّه ليس حزبًا ولٰكنّه قاعدة الأساس المتماسك، هو بكلّ إيجاز مصر.

فتساءل محمّد:

ـ هل ندور على مدى العمر حول الاستقلال والدستور؟!

ـ جَدِّدْ ما تشاء ولٰكن فوق القاعدة المتماسكة وإلّا وجدت نفسك في عهد ما قبل الأسْر!

ولمّا انفرد محمّد بأخته منيرة قالت له برثاء:

ـ شدّ ما هزلت!

فقال متجهّمًا:

ـ لن تنزع من روحي آلام الضرب الذي انهمر على جسدي كالمطر!

وأدركت سنيّة ذٰلك بحدسها، وبتأويل أحلامها، ولٰكنّها صمّمت على الصبر مع الحياة الجديدة. لفظت حامد برهان من ضميرها كما يبصق الإنسان حلوى فضح الريق فسادها ولٰكنّه بقي جرحًا مفتوحًا ينعي الحبّ والوفاء. وقالت إنّها ستنسى تمامًا وتسلو، بل وتسعد، لو أمكنها ذات يوم أن تعيد إلى البيت شبابه الغضّ. لديها نصف معاش «الخائن» ومرتّب منيرة ومحمّد ولٰكنّ الغلاء يمضي في سبيله في بطء وثبات، ثمّ إنّ لمحمّد ومنيرة آمالها الخاصّة!. لم يبقَ لها إلّا الحلم. هو الذي يرمّم ويطلي ويبيع الأثاث القديم ويشتري أثاثًا جديدًا، هو الذي يشذّب الأعشاب، ويغذّي الجذور، ويسمّد الأرض، ويغرس أشجار الورد. إنّها تحلم وتناجي أرواح الأولياء والجدود. وتقاوم في مجرى ذٰلك ذاكرتها التي تخون الإرادة فتقذف بشهاب خاطف لذكرى جميلة ما كان ينبغي أن تبرق في الأفق وتقول لنفسها:

ـ لا تطمئنّي لشيء طيّب.

وتغدق على منيرة تساؤلاتها القلقة فتعلم أنّ بهجت سليمان توظّف بشهادة زراعيّة متوسّطة في وزارة

الـزراعة وأنّها مـا زالا مقيمينِ عـلى العهـد فتغمغم لذاتها:

ـ الأمر لله!

أمّا محمّد فهو آخذ في استرداد صحّته وشقّ طريقه. لم تعد توجد شعب إخوانيّة ولكنّ الدين أصبح على رأس مطالعاته، واكتسب عنه رؤية جديدة مختلفة عن دين أسرته المتّسم بالسماحة والبساطة. وقد استأذن أمّه في زيارة أبيه عقب الإفراج عنه فأمضى ساعة طويلة معـه شهدتهـا مرفت هـانم وآنسة ألفت. رأى ألفت لأوّل مـرّة بتمعُّن وعن قرب فتحـرّك قلبه البـريء، واصطحبها معه في عباءة خياله عند انصرافه. ورآها في القطار، بل وجالسها فيه أحيانًا وتبادلا الحديث. وتسلّطت بعد ذٰلك عـلى ذاكرتـه وخيالـه. فلزمته في البيت والمكتب والمحكمة على حـين وهبته ـ في واقـع الحياة ـ استجابة طيّبة. وخفق قلبه بسعادة الحبّ حتّى تساءل بقلق:

ـ ولٰكن ماما؟!

وإذا بالحياة العامّة تباغته بفرحة غير متوقّعة فتستقيل الوزارة ويبشّر الأفق بانتخابات حرّة. صرخ محمّد:

ـ اللّٰهمّ لا شماتة!

أمّا حامد برهان فرقص طربًا. والتقى مع محمّد في دائرة انتخابيّة واحدة فهمس في أذن ابنه:

ـ الشكر لله على أنّك ما زلت في الأعماق وفديًّا.

فقال له محمّد باسمًا:

ـ الإخوان معكم في هٰذه الانتخابات.

ورجع الوفد إلى الحكم فصعد حـامد بـرهان إلى العرش من جديد وهو يقول:

ـ الخلود ممكن في هٰذه الحياة.

وأقبلت أيّام ورديّة فآمن الناس بأنّ أيّام المحن قد ولّت. وراحت منيرة تفكّر في مستقبلها من موقع حبّها العنيد، كما ربط الحبّ بين محمّد وألفت فتعاهدا على الزواج والانتظار مع تأجيل إعلان الخـطوبة لفـرصة طيّبة. ثمّ تعثّرت مفاوضات تعـديل المعـاهدة وتفشّى القلق حتّى جلجـل صوت مصـطفى النحّاس بـإلغاء المعاهدة. وبلغ الحـماس مداه في مجلس السمّار بشقّة مرفت هانم. وتذكّر حامد برهان حماسه يـوم عُقدت المعاهدة على ضوء حماسه الجديد لإلغائها فقال:

ـ مَن تكـون عروسًـا في ١٩٣٦ فكيف تصـير في ١٩٥١؟!

فقال خليل الدرس:

ـ إنّه زمن سريع وقُلّب!

فقال حامد برهان:

ـ لا يقدر على إلغائها إلّا مَن قدر على عقدها، هو الوفد دائمًا وأبدًا...

وتتـابع الفـداء والعنف حتّى اشتعلت النـيران في جنبات القاهرة. قال حامد برهان لمرفت:

ـ الويل للخونة!

فقالت وهي بعيدة عن مشاركته:

ـ حلوان بمأمن من ذٰلك.

ووقفت سنيّة فوق السطح تنظر صوب القاهرة من خلال منظار مكبّر ربحه محمّد في صباه في نصيب سينما أوليمبيا وهي تردّد بقلق بالغ:

ـ ارفع يا ربّ غضبك ومقتك عنّا...

ولـمّا اربدّ وجـه القاهـرة بـالغضب وأنـذر بـأوخم العواقب مضى محمّد إلى وزارة الخـارجيّة فـاصطحب ألفت إلى محطّة باب اللوق قائلًا:

ـ أخاف أن تنقطع المواصلات...

رجعا قبل أن يقدّرا مدى الخطر الحقيقيّ الزاحف لالتهام صفحة كاملة من تاريخ دامٍ. وهوى ردّ فعل عنيف كالصاعقة. وقال حامد برهان لسمّاره:

ـ المجرمون يقهقهون!

غير أنّ القهقهة انقطعت حال ارتفاع صوت جديد في الصباح الباكر من ٢٣ يوليو ١٩٥٢. تبادلت الأسرة النظرات حول مائدة الإفطار وتكلّم محمّد قائلًا:

ـ فلنستبشر خيرًا فأيّ شيء خير ممّا كان.

وتساءلت منيرة:

ـ والإنجليز؟!

فقالت سنيّة:

ـ أمل مجهول خير من يأس راهن!

وتابع حامد برهان سيل الأخبار المتدفّق بذهـول. كان ـ كوفـديّ ـ يشارك في الأحـداث إيجابًا أو سلبًا عندما كانت الحلبة خالية للوفد وأعدائه، أمّا هٰذه المرّة

فالقوّة الفعّالة غريبة وطارئة ومبهمة. ورأى العدوّ التقليديّ - الملك - يرحل إلى الأبد فلم يدرِ أيعتبر ذٰلك نصرًا أم هزيمة، وهيمن عليه فتور فتوجّس خيفة غامضة. ولّما رأى مرفت دامعة العين لذهاب الملك تمتم بميكانيكيّة:

- هٰذا جزاء العبث!

فتساءلت مرفت:

- ألا ترى أنّ السلطة آلت إلى رجل وضع نفسه فوق القانون؟!

فقال وهو لا يصدّق حرفًا ممّا يقول:

- إنّهم يَعِدون بتقديس الدستور.

ومثل مرفت بكت كوثر وهي تستمع إلى نبإ طرد الملك، واستشهد الوجيه نعمان الرشيدي بالقرآن لأوّل مرّة في حياته فقال:

- إذا زلزلت الأرض زلزالها... وقال الإنسان مالها.

وتحمّست منيرة للحركة بلا تحفّظ وبتلقائيّة، وأيضًا متأثّرة بحماس حبيبها سليمان بهجت الذي وضح أنّ أخاه ضمن الضبّاط الأحرار. ولحق بها محمّد عندما آمن بأنّ الحركة «إخوانيّة» بل قد دعي إلى بعث النشاط من جديد في شعبة حلوان. ودعا حامد برهان ابنه محمّد إلى مقابلة عاجلة وكان على عِلْم بما بينه وبين ألفت وقال له:

- ابعدْ عن الإخوان، حسبك ما أصابك نتيجة لانضمامك البريء إليهم...

فقال محمّد بدهشة:

- كيف أهجرهم بعد أن تُوّج كفاحهم بالفوز المبين؟

فقال الأب كاظمًا غيظه:

- ما هي إلّا حركة بلا جذور شعبيّة فلا تعرّض نفسك لغضب الشعب كما تعرّضت سابقًا لغضب الحكومة...

فابتسم محمّد ثقة وقال:

- الماضي مات قبل أن تمتدّ يد لقتله...

واعتبرت الأسرة أنّ لها في الحركة الجديدة عضوًا، وأنّها تتحوّل به من أسرة مغمورة إلى أسرة حاكمة أو مشاركة في الحكم، واعتبرت منيرة أنّ لها عضوين، أخاها وحبيبها، وانشرح صدر سنيّة وخيّل إليها أنّ حلم تجديد البيت سيتحقّق في وقت قريب وأنّ متاعب المعيشة ستخفّ يومًا بعد يوم، حتّى أحزانها الخاصّة ستذوب في النشوة الشاملة. وتطوّر محمّد في أحاديثه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلّم، فبات يقول سنفعل كذا وكذا، وتمنّت ألفت أن يلمع كالآخرين وأن يذلّل ذٰلك العقبات المعترضة لزواجها. ودون أن تدري مضت تهتمّ بالسياسة وبالدين متّخذة من محمّد مرجعًا ومرشدًا حتّى قال محمّد لنفسه:

- إنّها مختلفة تمامًا عن أمّها التافهة.

وذات يوم سأل منيرة:

- كيف تتصوّرين موقف ماما منّي اذا كاشفتها بعلاقتي بألفت؟

ففاجأته منيرة قائلة:

- أخبرتها رحمة بها!

فهتف:

- لٰكنّني لم أشعر بأيّ تغيّر من ناحيتها!

- ألا تعرف ماما؟!

وكانت سنيّة قد رأت ألفت مرارًا من نافذة حجرة نومها الخضراء. وكالعادة تنبّأت بما سيحدث فوطّنت النفْس على التسليم به. وقالت إنّ حظّها على أيّ حال أحسن من حظّ ملكة مصر الضائعة، وإنّه من الحماقة أن تتحدّى أحداثًا تحمل فوق جبينها طابع القدر. ولٰكن كيف يستعيد البيت شبابه؟ سيمسي ذٰلك حلمًا لا يتحقّق إلّا بحلم ولا يبقى لها إلّا أن تعبد الله. وذات مساء راح حامد برهان يشرح خبايا الموقف السياسيّ لسمّاره قائلًا:

- ما الحركة إلّا مؤامرة أمريكيّة للقضاء على الوفد!

وأراد أن يحلّل رؤيته ولٰكنّ حماسه فتر فجأة. وصمت. وشحب لونه وتفصّد جبينه عرقًا رغم برودة الجوّ. وطرح جسمه البدين على ظهر الفوتيل الكمّونيّ فسأله حسن عليما المهندس بقلق:

- ما لك؟

حاول أن يبتسم فعجز، خانته قواه، لاح له وجه بوذا، ثمّ أسبل جفنيه. وحملوه إلى فراشه، استدعت

مرفت طبيب الضاحية فشخّص الحال بأنّه هبوط في القلب وأمره بالراحة التامّة. انزعج الأهل والسمّار، وذهبوا في تفسير الحال مذاهب شتّى، قالوا إنّها الانفعال السياسيّ المستمرّ، وقالوا إنّه الزواج دون غيره، حتّى قال جعفر إبراهيم:

ـ إنّها مشيئة الله.

ولّما عُرف الخبر خارج شقّة مرفت عاده محمّد ومنيرة وكوثر ونعمان الرشيدي، وعادته أيضًا سنيّة المهدي خاصّة وأنّه لم ينتزع من نفسها تمامًا رغم كلّ شيء. أجل ضاق صدرها لدى اقتحامها لحصن ضرّتها ولكنّها صافحت لأوّل مرّة مرفت وألفت، وانحنت فوقه متمتمة:

ـ شدّ حيلك!

ابتسم معلنًا امتنانه، وتأزّم الجوّ بتوتّر خفيّ، وتضاربت شعارات المجاملة مع الانفعالات العدوانيّة الباطنة. وعلمت مرفت بأنّه لن يخلو يوم من أيّامها من التنغيص لرؤية الوجوه التي لا تطيقها. وطال الرقاد، وعُرف أنّه سيطول أكثر، بل عُرف أنّ حامد برهان لن يرجع إلى سابق عهده أبدًا. وأصبح تمريضه عبئًا على امرأة صاحبة مزاج كمرفت. ولم يُفقد المرض حامد برهان حساسيّته فسرعان ما شعر بأنّه غريب في مرقده، وضاق بموقعه. ووجد في قهر المرض ما شجّعه يومًا على أن يهمس لمحمّد ابنه:

ـ أريد أن أرقد عندكم...

وفي الحال قال محمّد على مسمع من مرفت مخاطبًا أباه:

ـ لو رقدت عندنا لأعفيتنا من زيارات لا نهاية لها!

وأدركت مرفت مغزى قوله فقالت مدارية ارتياحها:

ـ إنّي في خدمته مهما طال الزمن!

فقال محمّد بشجاعة رجل شارع في الزواج من ابنتها:

ـ هٰذا لا شكّ فيه... ولٰكن يوجد عندنا كثيرون وأنت وحيدة...

فقالت بلباقة وهي في الواقع تختم علاقتها بالرجل:

ـ إنّي راضية بما يريحه!

ولم تعارض سنيّة، وخالط حزنها على حامد ارتياح لاعترافه بأنّها رفيقة المرض وأنّ بيتها هو المأوى. هٰكذا رجع حامد برهان إلى فراشه القديم بالحجرة الخضراء فاستقرّ السلام في عينيه الجميلتين. ولم يكن بقي من جسمه الهائل شيء يُذكر، وتجسّدت الشيخوخة في وجهه كأنّما أُلقيت عليه في لحظة خاطفة. ونظر فيما حوله بسرور طارئ وقال بصوت متهدّج:

ـ أوحشتموني يا أولاد...

ولم يوجّه كلمة إلى سنيّة قانعًا بأنّ رجوعه يغني عن أيّ قول. والحقّ أنّه عندما جفّت ينابيع شهوته لم يجد في قلبه سوى حبّها القديم كالكنز المدفون عندما تُزاح عنه طبقة الأرض. وأنّ روحه ـ إذا حانَ الأجَل ـ يجب أن تصعد من هٰذا المكان العتيق المبارك المعبق بأطيب الذكريات. وجعلت كوثر تنظر إليه طويلًا ثمّ خانها صبرها فدمعت عيناها وقالت:

ـ تغيّرت كثيرًا يا بابا!

فوجم الحاضرون ولٰكنّ حامد برهان ابتسم وقال بلسان مضى يثقل:

ـ وأنت يا بنت ألم تصيري أمًّا؟!

ولٰكنّه سرّ الجميع بطمأنينته وأنسه بالمكان وأصحابه. وجاء يوم في مطلع الربيع شديد الحرارة فقال:

ـ لم أستحمّ منذ عهد طويل!

فقالت منيرة بإشفاق:

ـ نرجع إلى الطبيب.

فقال بمرح:

ـ الإنسان طبيب نفسه!

وذهب إلى الحمّام معتمدًا على سنيّة ومحمّد، وجرى الماء على جسده فاجتاحته فرحة شخص اعتاد طيلة حياته النظافة والأناقة، وعاد إلى فراشه سعيدًا وهو يقول:

ـ الإنسان بلا صحّة أقلّ من حشرة.

ولّما جاء الليل لم ينم. تدهور بسرعة مذهلة حتّى صار شحوبًا مركّبًا على هزال. وأرق الليل كلّه يتأوّه وجسمه يكاد يتقصّف. وجيء بالطبيب فاحتجّ على الحمّام بلا تحفّظ ولٰكنّه حرّر روشتة على أيّ حال،

وعند منتصف الليل، وأهله محدقون به، أسلم الروح دون جهد كأنّما غلبه نعاس مفاجئ. . . ودلّ الحزن الشديد عليه على تعلّق الجميع به. سنيّة فاق حزنها كلّ تقدير. ولّما لم يكن يملك مدفنًا فقد دُفن في مدفن آل المهدي بالإمام. وأنكرت سنيّة حال المدفن التي آل إليها، ورأت أنّه أصبح في حاجة إلى تجديد كالبيت القديم، فانضاف ذٰلك إلى الهموم التي استأثرت بها في الزمن الأخير. ولعلّ كوثر كانت أحزن الإخوة عليه لطبعها الذي يستجيب للحزن بقوّة غير عاديّة، ولأنّها أحبّت الرجل لدرجة العبادة حتّى إنّها غفرت له زواجه من مرفت قبل محمّد ومنيرة بزمن غير قصير. وعند مطلع الصيف رجع الموت لزيارة الأسرة فأخذ نعمان الرشيدي زوج كوثر متسمّمًا بالباولينا عقب تدهور الكلى. ولعلّ الموت أراحه من رعبه الذي لم يكفّ عن مطاردته مذ جاءت الثورة. أجل لم تكد تمسّه قوانين الإصلاح الزراعيّ إذ إنّ مَصادر ثروته ترجع إلى العمارات والأموال السائلة ولٰكنّه اعتقد بأنّ دوره حتم مؤجّل وأنّه آتٍ لا ريب فيه. وبكته كوثر بحرارة وصدق ولٰكن سرعان ما أفاقت على تحرّش أبنائه، فخفّ محمّد إلى جانبها بأخوّته وخبرته كمحامٍ ولٰكنّها قالت له من أوّل يوم:

ـ أبعدني عن التحدّيات فلا شيء في الدنيا يساوي الشقاء.

فقال بتصميم:

ـ حقّك تأخذينه لآخر ملّيم.

فقالت بضراعة:

ـ حقّي مكفول بالقانون ولٰكنّهم ينظرون بطمع إلى الفيلّا، وهي كبيرة ولا أطمئنّ فيها وحدي وأريد أن أعود إلى ماما في حلوان. . .

ورجعت كوثر إلى حلوان حاضنة رشاد، وانهمك محمّد في فرز إرثها هي وابنها من الأرض والعمارات والأموال السائلة ثمّ انقطعت الصلة بآل الرشيدي إلى الأبد. ورحّبت الأسرة في باطنها الخفيّ بثروة كوثر. وانبعثت في صدورهم آمال لما هو معروف عنها من طيبة واستكانة فاعتبروها هديّة مرسلة من السماء حاملة الفرج لأزماتهم المستعصية. منيرة توغّلت في العمر حتّى قاربت الثلاثين وهي ملهوفة على الزواج، ومحمّد يشعر بأنّ عهد خطوبته طال أكثر ممّا ينبغي، حتّى سنيّة تتوق بكلّ قواها لتجديد البيت والمدفن. تربّصوا جميعًا بأيّام الحداد، ولّما خفّت الغيوم وواصل الراديو أغانيه تشجّعت سنيّة فقالت في حياء مخاطبة كوثر:

ـ حبيبتي ألا ترين معي أنّ البيت في حاجة إلى تجديد؟!

سرعان ما شعر محمّد بالخطر يهدّد مشاريعه فتبادل مع منيرة نظرة سريعة جمعتهما في وجدان مشترك فقال:

ـ البيت لا يعيبه شيء وهو يستطيع أن ينتظر.

فقالت سنيّة محتجّة:

ـ إنّه مأوانا على مدى العمر. . .

فقال بلهجة اكتسبها في المحكمة:

ـ نحن في حاجة إلى المعونة لا البيت. . .

وأشار إلى منيرة وإلى ذاته ثمّ واصل ليخفّف وقع كلامه:

ـ ولو على سبيل القرض!

فسرعان ما انهزمت سنيّة أمام رغبة محمّد ومنيرة مؤجّلة أحلامها إلى مستقبل مجهول، على حين تمتمت منيرة ضاحكة:

ـ ولو على سبيل الاقتراض.

ولٰكنّ كوثر على طيبتها كانت متمرّسة بواجبات ستّ البيت مذ عملت مُساعِدة لأمّها، وتعلّمت منها مسك الدفاتر والحرص الحكيم وكراهة الإسراف، فكانت طيّبة وحكيمة. وقد شاركت في ميزانيّة البيت منذ أوّل يوم لها فيه ممّا يسّر العسر وأضفى على البيت سلامًا. ولم تغب عنها أزمة محمّد ومنيرة، فمالت إلى إسداء المعونة ووعدت بها. وحدث أن جاءتها خاطبة عقب وفاة زوجها بثلاثة شهور بعريس محترم يماثلها في السنّ فانقبض صدر محمّد ومنيرة، وقال محمّد بنبرة الناصح:

ـ علينا أن نتأكّد من إخلاصه.

ولٰكن من حسن حظّهما أنّ كوثر أعلنت زهدها في الزواج مرّة أخرى، واهبة نفسها لرشاد الذي يملأ دنياها، ومتشجّعة بطبع هادئ يوشك أن يكون برودًا. وعلى أيّ حال فبفضلها أمكن أن تتزوّج منيرة

من بهجت سليمان، وأن يتزوّج محمّد من ألفت. تزوّجت منيرة بعد أن صار حبّها حكاية واختارت عشّها شقّة جديدة بالعبّاسيّة على مقربة من مدرستها، أمّا محمّد فزُفّ في شقّة بعمارة نصف جديدة بباب اللوق ليكون على مقربة من المكتب من ناحية وليمارس نشاطه السياسيّ في مجاله المركزيّ. وخلا البيت القديم لسنيّة وكوثر ورشاد وأمّ سيّد. وورثت كوثر لنظرة أمّها المتطلّعة وأشواقها الدفينة فأمرت بطلاء الحجرات بالزيت وتنظيف الحديقة وشراء بعض أصص القرنفل، ورغم أنّ ذلك لم يحقّق من الحلم عشره إلّا أنّ سنيّة سعدت به ولم تيأس من هطول الرحمة ذات يوم، خاصّة عندما يكبر رشاد الوسيم ويدعو الأصدقاء للزيارة كما كان يفعل جدّه حامد برهان. وفي سكرة الفوز الطارئة أشارت بحياء شديد إلى المدفن ولكنّ كوثر قالت:

ـ ماما... إنّي أتشاءم من هذه السيرة!

فلم تلحّ، وأسفت، وقالت لنفسها «ما هو إلّا البيت الباقي». غير أنّ قلبها فاض بالشكر. فلو أنّها لقيت الحياة وحيدة بعد زواج منيرة ومحمّد لاضطرّت إلى استجداء أبنائها، ولتجهّمتها الحياة كما تتجهّمها الأحلام فالحمد لله على أيّ حال. وسعدت سنيّة أيضًا لتوفيق منيرة ومحمّد في زواجهما كما استشعر ذلك قلبها في زياراتها لباب اللوق والعبّاسيّة. قالت يومًا لكوثر:

ـ بهجت أثبت إخلاصه بصبره الطويل ولكنّي غير مطمئنّة لربيبة مرفت...

فقالت كوثر بهدوء:

ـ محمّد يعرف كيف يتصرّف...

وبرزت منيرة في عملها التربويّ أكثر بعد أن شملتها سكينة الحبّ، ودعا الأستاذ عبد القادر قدري محمّد إلى مشاركته في مكتبه بعدما اعتُقل أكثر من مرّة لوفديّته. قال يومًا لمحمّد:

ـ الوفديّة أصبحت تهمة فانظر وتأمّل!

وكاد محمّد أن يجزع وهو ينتظر أن تسفر الثورة عن وجهها فتعلن حكم الإسلام ليحتلّ هو مكانته المشروعة. ولم يكن طموحه شخصيًّا فقط فقد ملكته التجربة الدينيّة التي انساق إليها قديمًا هاويًا وبمحض المصادفة، فبات يحلم بحكم الإسلام كأنّه غاية من الغايات. وأنجب محمّد شفيق وسهام كما أنجبت منيرة أمين وعليّ وتورّد الأفق. وإذا بأزمة تعترض سبيل الثورة، وصراع عنيف يقوم بين رئيسها الأوّل ورئيسها الثاني، وبين شدّ كادت تصفّى به الثورة وجذب رجعت به إلى قواعدها انقضّ طوفان لتصفية الإخوان!. وبدلًا من أن يجد محمّد نفسه على رأس مؤسّسة أو وزارة أُلقي به في أعماق سجن رهيب. وبالرغم من أنّه لم تثبت عليه تهمة إلّا أنّه قضى في الاعتقال عامين، وخرج منه بعين واحدة وساق عرجاء. وهرع الجميع إلى شقّة باب اللوق، واجتمعت للمرّة الرابعة سنيّة ومرفت حتّى قالت سنيّة لنفسها «قُضي عليّ ألّا أراها إلّا عند حلول المصائب». وضمّت محمّد إلى صدرها وهي تبكي وهتفت:

ـ عند الله الحساب يا ابني...

وتقنّع محمّد بوجه جديد خبرَ الموت والعذاب، ولكنّه تجلّد أمام الأعين، وقال:

ـ إنّي أحسن حظًّا ممّن أهلكتهم المشانق أو غيّبتهم السجون إلى الأبد.

وحاول أن يبتسم ثمّ قال بإصرار حقيقيّ:

ـ بقي لي إيمان لا يتزعزع.

وكان إصراره أقوى من صوته. الآن عرف الحياة والناس كما عرف الوحشيّة والعذاب. واستمدّ من أهله قوّة أشعل بها شمعة في عالم يموج بالظلام. وحانت منه التفاتة إلى ألفت فقبض على يدها ورفعها كأنّما يقدّمها إلى الجمهور في حفل عامّ وقال:

ـ إليكم أفضل زوجة على وجه الأرض!

أجل، لقد صمدت في المحنة. قامت بواجبها كمترجمة وربّة بيت وحضنت شفيق وسهام بالرعاية متحدّية النبذ والتحقيق والرزق المحدود. أثبتت أنّها أقوى ممّا توقّع محمّد أو تصوّرت مرفت، وأقامت على حبّ الزوج الغائب بتفانٍ، وتحمّست أكثر لمبدئه، ولمّا رجع شبحًا محطّمًا غمرته بالحبّ والحنان راشقة في سمائه السوداء نجمة ماسيّة. وكانت كوثر تزورها كثيرًا طيلة العامين، وعرضت عليها معونة ولكنّ ألفت اعتذرت شاكرة وإن قبلت الهدايا لشفيق وسهام. في تلك الأيّام

الحزينة قالت كوثر لأمّها:

ـ ألفت هديّة نادرة المثال.

فأحبّتها سنيّة ـ ربّما لأوّل مرّة ـ وقالت:

ـ الشكر لله على أنّها لم تُعجن بطينة أمّها.

ولم يكن تعريضها لمرفت من أجل مأساة الماضي وحدها ولكن لرعونتها ـ عقب وفاة حامد برهان ـ التي صارت حديث حلوان. برزت كامرأة متصابية في الخامسة والخمسين، متبهرجة، تنطلق بمفردها إلى الحديقة اليابانيّة أو السينما كأنّما تعرض نفسها على الرائح والجائي. وجرى الهمس عن علاقة جديدة تتخلّق بينها وبين حسن عليا مهندس المباني ـ أحد سمّار مجلس المرحوم حامد برهان ـ ولّما شاع ما يقال وملأ الأسماع تحوّلت العلاقة إلى خطوبة، وطلّق المهندس امرأته، ولكنّ الزواج تأجّل إكرامًا لزوج ألفت السجين، وإن مورس بالفعل بصفة غير رسميّة، وكانت كوثر تعلم بما يعلمه الناس جميعًا ولكنّها قالت:

ـ ألفت معدن آخر والحمد لله!

وأُخفي الخبر عن محمّد فأمضى فترة نقاهة قصيرة ثمّ رجع إلى مكتبه بعين واحدة وأخرى زجاجيّة وقلب متوثّب للعمل. وغشي المحاكم وهو يعرج متأبّطًا حقيبته بذراع متوكّئًا بالأخرى على عصا غليظة. وانهمك في عمله انهماك مؤمن معذّب يحلم بطوفان نوح من جديد. ومضت سنيّة في معاشرة آلامها التي لا شفاء منها، وأحلامها المعاندة المستعصية، مستوصية بالهدوء والصبر والرنوّ من حين إلى حين إلى الصورة التذكاريّة. ولكي تعفيها كوثر من بعض متاعبها استخدمت امرأة جديدة «أمّ جابر» كطاهية بعد أن اقتربت أمّ سيّد ـ مثل أمّها ـ من الستّين، ولكي تستثمر جلّ وقتها في رعاية رشاد الذي ألحقته بروضة الأطفال سابقًا ابنَيْ خاله شفيق وسهام وابنَيْ خالته أمين وعليّ. هكذا بدأ جيل الأحفاد، أبناء العشق والآلام، والوطن تتجاذبه عوامل الصراع الخفيّة من ناحية وأحداث البطولات من ناحية أخرى. وعرفت منيرة زوجها أكثر وأكثر، زوجًا عاشقًا وفحلًا عملاقًا، وساذجًا فيما يتعلّق بالثقافة أو الحياة العامّة، ولم يخدعها اهتمامه المباغت بالسياسة عقب اكتشافه أخاه ضمن الضبّاط الأحرار، وابتسمت في باطنها لأحاديثه عن الثورة ورجالها، وحملته على الماضي ومخازيه. ومرّة قال لمنيرة مفاخرًا:

ـ نحن نُعتبر من الأسرة المالكة الجديدة.

فضحكت قائلة:

ـ على مهلك يا أمير!

رغم حماسها للثورة منذ ساعتها الأولى، والتي لم تتغيّر تغيّرًا يُذكر بمأساة أخيها التي هزّتها من الأعماق. على أنّ قلقًا ساورها مذ طعنت فيها بعد الثلاثين. إنّها تمضي وحدها مخلّفة وراءها زوجها يزداد تألّقًا وفحولة، وجعلت تطارد كلمات أمّها القديمة كلّما نبضت في خواطرها. واحتلّ سليمان بهجت مركزًا ممتازًا بقسم الخبرة بالزراعة بدفعة قويّة من أخيه، وبدلًا من أن يزيد من إسهامه في ميزانيّة البيت ابتاع سيّارة بالتقسيط رغم التحاق أمين وعليّ بالروضة وارتفاع الأسعار ببطء ماكر. وذات مساء انفجرت قنبلة تأميم قناة السويس مبشّرة بميلاد زعيم جديد. ليلتها قال بهجت لمنيرة:

ـ سمعت من مخضرم أنّ استقبال جمال في عودته إلى القاهرة فاق استقبال سعد زغلول حين رجوعه من المنفى. . .

فوافقته منيرة رغم أنّها لا تكاد تعرف عن سعد شيئًا يذكر. ولم يستطع محمّد أن يتذوّق المغامرة بفمه المليء بالمرارة. واتّفقت ألفت معه قائلة:

ـ معاملة إنسانيّة شريفة خير من بناء هرم.

فقال محمّد:

ـ النبيّ عليه الصلاة والسلام أنشأ دولة إنسانيّة ولم يشيّد هرمًا.

واستمع البيت القديم في حلوان إلى النبأ العظيم. لم تفهم أمّ سيّد ولا أمّ جابر شيئًا، وتوقّفت كوثر عن تعليم رشاد دقيقة ثمّ واصلت عملها بحماس، أمّا سنيّة التي لم تشغلها آلامها وأحلامها عن قراءة الجريدة والاستماع إلى الراديو فقد خفق قلبها، واقتنعت ـ رغم مأساة محمّد ـ بأنّ زعيمًا جديدًا يتّخذ موضعه في لوحة الزعماء الذين أحبّتهم كما أحبّهم زوجها الراحل. وسكر البلد بالنصر والعظمة، وانطلقت من صوت العرب زعامة عربيّة جديدة، وتضاربت الأنباء، واستفحلت الشائعات، حتّى تجسّدت الحقيقة في صورة

عدوان ثلاثيّ، ومرحت طائرات العدوّ في سماء القاهرة ليلًا ونهارًا، تمطر قنابلها على المطارات والمواقع العسكريّة. ومع أنّ الدبّابات لاذت بأفنية العمائر إلّا أنّ انتصارات وطنيّة ملأت الجوّ كالعاصفة وتمزّقَ الناس بين الحماس والترقّب. وتابع محمّد وألفت الإذاعات الأجنبيّة حتّى قال الرجل:

ـ انتهت حركة المجرمين، ولكن ما أفدح الثمن!

وقالت سنيّة لكوثر:

ـ أذني سعيدة وقلبي كئيب!

فقالت كوثر مدفوعة بالخوف الذي ركبها:

ـ البلد خرب يا ماما.

فأشارت سنيّة إلى فوق متمتمة:

ـ لكنّه موجود.

وآنست منيرة من سليمان بهجت ذعرًا كأنّه فأر مطارَد. ودعا ربّه قائلًا بحرارة:

ـ اللّهمّ لا تشمت بنا الأعداء...

وكانا يستمعان إلى صوت أمريكا بوجوم ويغوصان في هوّة خطوة فخطوة. ولكن هبّت رياح شرقيّة وغربيّة فتناغمتا معًا لأوّل مرّة. احتجّت أمريكا بجدّيّة وصرامة، وتتابعت الإنذارات الروسيّة كالصواريخ حتّى أُجبر الغزاة على تصفية نصرهم بأنفسهم في إذلال لا نظير له في التاريخ. وتجلّى نصر عجيب كما تتجلّى فتاة الساحر من الصندوق ـ بعد غرْز سيوفه فيه من جميع النواحي أمام المشاهدين ـ وهي تبسم في مرح وأمان وثقة!. وسرعان ما آمن الحيّ والجماد بأنّ الزعيم حقّق ظفرًا كالمعجزة وبأنّه عملاق بين أقزام. وصادر أموال الإنجليز والفرنسيّين، ضاربًا للمضطهدين مثلًا أعلى، واهبًا للعرب زعامة جبّارة، وانتفخ بالتالي كلّ مواطن نافضًا عن كاهله ذلّ العصور، وآوى الخصوم إلى الجحور ولا مطمع لهم أكثر من النسيان. ودخل الأحفاد المرحلة الابتدائيّة وهم يتغنّون بالزعامة والنصر. سبحوا في بحيرة ناصريّة صافية متطلّعين إلى صورته الشامخة بانبهار وحبّ. ذلك البطل الذي بدأ به تاريخ مصر في أعقاب جاهليّة ترامى ظلامها آلاف السنين. أجل حفلت المدارس الجديدة بمنغّصات ـ كالكثرة العدديّة وندرة المدرّسين المؤهّلين وقصور البرامج ـ ولكنّ التلاميذ الجدد لم يشعروا بها، فعاناها أولياء الأمور وحدهم. أمّا كوثر فحلّت المشكلة بمالها فكلّفت الأستاذ جعفر إبراهيم ـ ناظر مدرسة على المعاش ومن سمّار المرحوم حامد برهان ـ بإعطاء رشاد دروسًا خصوصيّة في العربيّة والجغرافيا والتاريخ، كما كلّفت الأستاذ راضي أبو العزم ـ من السمّار أيضًا ـ بإعطائه دروسًا في العلوم والرياضة. وانتزع محمّد وألفت من وقتهما المشحون بالعمل ساعات لمساعدة شفيق وسهام، على حين نهضت منيرة بعبء التدريس لأمين وعليّ وحدها. وامتعضت مدام مرفت من الحال من ناحية أخرى فقالت لألفت:

ـ كيف ترضين لشفيق وسهام بالجلوس جنبًا إلى جنب مع أبناء البوّابين والخدم؟!

فقالت ألفت:

ـ مدارس اللغات والمدارس الخاصّة باهظة التكاليف.

واستاء محمّد لأسباب أخرى وهو يراجع كتب التاريخ والتربية الوطنيّة فضرب كفًّا بكفّ وقال لألفت:

ـ إنّهم يحشون عقول الأولاد بالأكاذيب...

وتضاعف استياؤه وهو يشاهد حماس شفيق وسهام وتغنّيهما بالزعيم على مسمع منه، وهو لا يملك إزاءهما أيّة مراجعة، حرصًا على سلامتهما، وسلامته أيضًا أن يردّدا أقواله في المدرسة فيحدث ما لا تُحمد عقباه. من أجل ذلك أخفى عنهما سرّ عوره وعرجه، وراح يغمغم:

ـ نحن في زمن القهر والصمت!

ونشأ رشاد وسيمًا، ذا طول ورشاقة، أنيقًا، مغرمًا بأمّه وجدّته، مغرمًا بالسباحة، مع اعتدال في تحصيل العلم حتّى ساواه أبناء خاله وخالته. وأحبّته جدّته أكثر من شفيق وسهام وأمين وعليّ، لقربه من القلب والعين، ولأفضال أمّه المحبوبة، ولأنّها عقدت به تحقيق آمالها في تجديد البيت والمدفن. أجل بدا لعينَي جدّته ـ مثل شفيق وسهام وأمين وعليّ ـ كأنّه مخلوق بلا جذور، وكأنّه لا يتنفّس في جوّ بيتها القديم. من ذلك أنّه سمع مرّة اسم سعد زغلول يتردّد في حديث فسأل

أمّه ببراءة:

- سعد زغلول حيّ يا ماما؟

وانـزعجت سنيّـة رغم أنّها بـرّرت جهله بشتّى الأعذار. ومن ذٰلك أيضًا بروده إزاء أغاني أمّ كلثوم وعبـد الوهّـاب وولعه بعبـد الحليم حـافظ والأغـاني الإفرنجيّة، وتساءلت كيف دهمه هٰذا التمرّد على تقاليد أسرته وذوقها؟! . وأخيرًا قالت بتسليم:

- إنّهم مزعجون ولٰكن لكلّ جيل شأنه!

ومن شدّة حبّها لرشاد قالت أيضًا:

- التنوّع له جماله أيضًا...

أمّا شفيق فكان أشبه الأحفاد بحامد برهان، فاق والده محمّد في ذٰلك، وكان ذا صوت مقبول يحاكي به الأغاني الخفيفة، وبشّر اجتهاده بحياة مدرسيّة ناجحة، وكان يغالي في عـواطفه حتّى يضيق بـه أبوه أحيـانًا، ويحـول بينه وبـين محاولـة التسلّط على أختـه سهام. وكانت سهام صورة من عمّتها منيرة في جمالها البرّاق وذكائها اللامع فسُرَّ محمّد بذٰلك سرورًا لا مزيد عليه. وأمّا ابنا منيرة فقد عُرف أمين بالاجتهاد كما عُرف عليّ بالعناد، واتّفقا معًا في طول غير عاديّ حتّى قال سليمان بهجت:

- هٰكذا كان والدي...

واعتاد محمّد ومنيرة - وأفراد أسرتيهما - أن يتناولـوا الغداء كلّ جمعـة في البيت القديم مـع سنيّة وكـوثر ورشاد. توثّقت الصّلات بين الصغار، ووضح الخلاف بجـلاء بينهم وبين آبـائهم. وسعدت سنيّـة بالـزيارة الـدوريّـة سعـادة خفّفت من وطـأة آلامهـا الـدفينـة وأحلامها الملحّة. وبإزاء تعنّت أحلامها تحوّل اهتمامها مؤقّتًا إلى ذاتها. ندّ ذٰلك عنها دون شعور أو تخـطيط ولٰكنّها انساقت إليه خطوة بعد خطوة، كأنّما قرّرت أن تصـون نفسها من شـوائب الزمن. مـرّة لا تعجبهـا أسنانها فتمضي إلى طبيب الأسنان للتنظيف أو الحشو أو الوقاية. ومرّة تتوعّك عينـاها وهي تقـرأ فتذهب إلى طبيب العيون فيعدّ لها نظّارة طبّيّة. وعلى حين أنّ كوثر تتوارى في زهد وتكبر قبل الأوان وتتعبّد في حماس فإنّ سنيّة - على تديّنها وتقواها - ضاقت بأوّل شعرة بيضاء تحبـو وسط شعرهـا الفـاحم. كـرهت منـظر الشيب ووجدته متنافرًا مع ما تحظى به من صحّة جيّدة. وفي الحال أحيت تقليدًا كانت أمّها تتبعه في حياتهـا وهو صبغ شعر رأسها بالحنّاء فتحلّ الحمرة الداكنة المتفرّدة محلّ السواد التليد والبياض الوليد. وترى كوثر وهي ترمقها باسمة فتقول بوقار متغلّبة على حيائها:

- إنّها وصيّة جدّتك يا بنت!

وهي فخور بنفسها، بذكائها واطّلاعهـا الدائب، وتضع نفسها في موضع أعلى من محمّد ومنيرة المتعلّمين في إدراك أبعاد الحياة المعاصرة، بالإضافة إلى مـوهبة الحلم والحـدس التي لم ينعم الله عليها بشيء منهـا، ولٰكنّها كانت تكره الشيخوخـة ومظاهـرها وتـرنو إلى شباب دائم مازجة ذٰلك بحبّ صافٍ للحياة ولله خالق كـلّ شيء. وفي لقاءات الجمعـة لمست تـطلّع محمّـد ومنيرة لإعداد أبنائهما للطبّ أو الهندسة فخامرها قلق من ناحية حبيبها رشاد وما يستطيع أن يحقّقه لمستقبله. وتملّت جمال سهام بنت محمّد فرأت أنّه سيكون هدفًا يدور حولـه رشاد وأمـين وعليّ، وأنّـه سيثير متـاعب عاطفيّة في أسرتها الممتحنة بعواطفها دائمًا وأبدًا فسألت الله السلامة، وعزّت نفسها متنبّئة بأنّ صاحب القسمة والنصيب سيفـوز بها قبـل أن يقع أحـد أقربـائها في حبّها. وفي حماية العلاقـة الأسريّـة نشبت مناقشـات صريحة بين محمّد وسليمان بهجت، تبـدأ عادة عنـدما يذهب الأحفاد للعب في الحديقة أو للمشي في شوارع حلوان الهادئة المترعة بـالنقاء والجفـاف. يقول محمّـد متأسّفًا:

- حتّى أمام الابن لا يأمن الأب أن يفضي بذات نفسه!

فيقول سليمان ومنيرة تضحك منه في سرّها:

- مـلايين الفقـراء لا يعرفـون الخوف، إنّـه عهد الفقراء!

فيقول محمّد:

- خير من ذٰلك أن يكون عهد الفقراء والأغنياء على السواء فالله خالق الجميع ومدبّر لكـلٍّ عملًا صـالحًا يرضاه!

ومضت الزعامة الجديدة تتوطّد وتعلو من سماء إلى سماء حتّى وَحّدَ سحرها المتطاير ما بين مصر وسوريا في

وحدة باهرة. تجسّدت القوميّة العربيّة كحقيقة زاحفة مثلما تتجسّد في الخيال كحقيقة تاريخيّة. وعبده الأحباب، وسلّم به الأعداء مقرّين بأنّه ليس ابنًا للمصادفات أو المؤامرات الأجنبيّة ولكنّه ابن القدر المنذور لتغيير مجرى التاريخ. وانقلبت الرعيّة إلى نسور ودناصير، وتعملقت الدولة الجديدة، وألقت السماء بلسمًا ليداوي جرح أمّة تمرّغت في التراب قرونًا تحت أقدام القهر والعدوان. وما مضى وقت يذكر في تاريخ الأمم حتّى انتبه السعداء على جعجعة نيزك داهم على الوحدة فيفتّتها في لحظة مهداة للأحزان. أيّ ردّ فعل عنيف هزّ الناس المتزاحمين حول الراديو في شتّى المواقع! قال كلّ إنسان ما يشتهي. وانتفضت من جديد أصوات الشماتة والسخرية. وتلقّى الزعيم الضربة بغضب، ثمّ ردّها بعنف نحو مرمى جديد فانفجرت القرارات الاشتراكيّة، وحقّق الفقراء نصرًا تاريخيًّا من خلال معركة لم يقتربوا خطوة من ميدانها. وقال الأستاذ عبد القادر قدري لمحمّد:

- لم يعد للمحاماة وزن!

كان الرجل في الأربعينيّات عضوًا بمجلس النوّاب، وعُيّن في الخمسينيّات عضوًا بمجلس الشيوخ، وكان خطيبًا ذا شأن وبرلمانيًّا ممتازًا، وهو اليوم يبدو شاحبًا هرمًا دائم الامتعاض، معدًّا حقيبته لأيّ اعتقال محتمل. وأدرك محمّد أبعاد الموقف فأفضى به لألفت، ثمّ قال:

- ستزداد الحياة عسرًا.

واهتمّت كوثر لأوّل مرّة بما يجري حولها. لم تمسّها الإقرارات في شيء ولكنّها شعرت بأنّ فوهة المدفع مسدّدة نحو القلعة التي تنتمي إليها، وسألت أمّها:

- ماذا يخبّئ لنا الغد؟

فقالت سنيّة:

- المخبّأ في الغد مكتوب قبل أن تخلق السماوات والأرض!

فقالت كوثر بإشفاق:

- إنّي أفكّر في رشاد، وفيك أيضًا يا ماما!

فقالت بهدوء:

- إنّه رحمٰن رحيم!

وكانت تسائل نفسها هل يدركهم المدّ؟. قالت لنفسها إنّ قراراته - الزعيم - تجيء في صالح الفقراء الذين لا يملكون فلا خوف على محمّد ولا منيرة. أمّا كوثر فالأمر مختلف، وكذٰلك رشاد، فهما يملكان أرضًا وأنصبة في عمارات، وأموالًا سائلة. وقالت كوثر بقلق:

- العهد الذي فعل بأخي محمّد ما فعل لا يعفّ عن كبيرة!

وراحت سنيّة تفكّر وتفكّر أمّا أحلامها عن البيت والمدفن فقد تراجعت خطوات. وفي أحد لقاءات الجمعة قال محمّد لكوثر:

- اسحبي نقودك من البنك واحفظيها تحت يدك قبل أن يشمّها الوحش.

فقالت كوثر بتلقائيّة:

- قد يسرقها لصّ عاديّ!

فقال لها:

- ابتاعي بها ذهبًا وسجاجيد!

عند ذاك نظرت كوثر نحو زوج أختها سليمان بهجت كأنّما تستطلع رأي الجهات الرسميّة فقال:

- خير الأمور الوسط.

ومالت لرأيه داعية الله أن يحفظ مال رشاد. وفي طريق عودتهم بسيّارة سليمان بهجت الفيات قال محمّد:

- لا أمان لأحد!

قالت منيرة لنفسها تجنّبًا لإغضابه «٩٠٪ من الشعب ثملون بالأمل». وعاد محمّد يقول:

- ما هي إلّا قرصنة وإلّا فلماذا يعيشون عيشة الملوك؟!

فقال سليمان بهجت:

- حتّى في روسيا يعيشون كذٰلك!

فقال محمّد:

- رحم الله ابن الخطّاب!

وتجلّت رؤيا سنيّة فرأت البيت القديم يضيء بحلّة زاهية. رمّمت أركانه، وتجدّدت أبوابه وسلاليمه، ووافاه أثاث جديد، أمّا غرف النوم فحافظت على شرقيّتها، ولكنّ العصريّة شملت حجرات الاستقبال والسفرة، وبُعثت الحديقة من جديد فاخضرّت أرضها

وانتشرت فوقها أشجار البرتقال والليمون والمانجو ودوائر الأزهار والورود، أمّا سورها الطويل فغُطّي تمامًا بالياسمين، ولمحت حامد برهان يقوم بعمل البستانيّ مستردًا صحّته وبدانته. سعدت جدًّا، ولٰكنّها سألت البستانيّ بعتاب:

ـ لِمَ لَمْ تزرع شجرة حنّاء؟!

ولم تبح بحلمها لكوثر أن تتوهّم أنّها تذكّرها بأحلامها في وقت غير مناسب. وسرعان ما نسيت الحلم تمامًا عندما أذاع الراديو نبأ ثورة اليمن وموقف مصر منها. وفي أوّل لقاء عقب الحدث دار النقاش حوله بعد الغداء. قال محمّد ساخرًا:

ـ أصبحنا أوصياء على ثورات العالم!

فقال سليمان بهجت:

ـ ما هي إلّا نزهة تحلّ بعدها اليمن مكان سوريا.

فقال محمّد بعناد:

ـ ما زالت أغلبيّة الشعب حفاة!

ـ لا تنكر أنّكم كنتم أوّل مَن شارك في الثورة على الإمام!

ـ اشتراك الفدائيّين بطولة أمّا الدولة فمسألة مختلفة تمامًا.

فسأل سليمان سنيّة مداعبًا:

ـ ورأي أمّنا الحكيم؟

ولٰكنّ سنيّة قالت باقتضاب:

ـ صدري لا ينشرح للحرب...

فقال محمّد متهكّمًا ومعلّقًا على اشتراك الجيش المصريّ في الحرب:

ـ كأنّه قرار إسرائيليّ!

وسرعان ما شُغلت سنيّة بأمر آخر. جعلت تقارن بين منيرة وسليمان بقلق. لِمَ يتجلّى الكبر في وجه منيرة بسرعة؟... لِمَ يزداد زوجها فتوّة وشبابًا؟. ما زال بينها وبين الأربعين بضع سنوات ولٰكنّ سحر جمالها ينطفئ بمعدّل غير طبيعيّ. ولعلّها ليست على ما يرام. إنّ قلبها لا يخطئ. حياتها تدعو للسرور بعكس ما يبدو. أمين وعليّ يطويان المرحلة الابتدائيّة بنجاح، زوجها نال في عمله أضعاف أضعاف ما يستحقّ، هي نفسها ستعيّن ناظرة دون نقل إلى الأقاليم بفضل أخي زوجها، ولٰكنّ فارق السنّ بينها وبين زوجها يتّسع بسرعة غير معقولة ولا مقبولة. محمّد نفسه ألف عوره وعرجه وتراجُع رزقه، وها هو يمضي في حماية إيمان لا يتزعزع، وزوجته سعيدة. والتقت عينا منيرة بعيني أمّها فقرأت صفحة طويلة وخيّل إليها أنّ سرّها انكشف. هل تفضح عيناها مخاوفها الباطنة؟!. الحقّ أنّها استشعرت تغيّرًا غير حميد في قلب سليمان وسلوكه معها. قالت مرّة لنفسها وهي وحيدة:

ـ لم أتزوّج رجلًا واحدًا ولٰكن جملة رجال في رجل.

واستعاذت بثقافتها فقالت أيضًا:

ـ لعلّ هٰذا ما يئول إليه الحبّ!

وتذكّرت كلمات ومواقف تهادت إليها على مدى العمر من عِلْم النفْس والروايات والمسرحيّات والأفلام، على أنّها كرهت أن تفتح أمّها ذٰلك الباب. وإذا بسليمان يقول مغيّرًا مجرى الحديث:

ـ أخيرًا قرّرنا إدخال التلفزيون في بيتنا!

كانت منيرة من رأيها التريّث حتّى يعرف أثره على الأولاد، وتبعتها في ذٰلك كوثر ومحمّد، غير أنّ سليمان قال لها:

ـ لا يمكن أن نعيش خارج زماننا...

وكانت أيضًا في قرارة نفسها مقتنعة بقوله فسرعان ما سلّمت. وما إن ذهب الزوّار حتّى قال رشاد لأمّه:

ـ تلفزيون يا ماما...

ولحق بهما كذٰلك محمّد. وفاقت فرحة الأحفاد بالتلفزيون كلّ تصوّر. فقد جاءهم إلى مجلسهم بنجومهم المحبوبين، والعالم كلّه، فضلًا عن زعيمهم المقدّس الذي عاشرهم ليلة بعد أخرى. ولمّا رأت سنيّة التلفزيون تذكّرت يوم دخل الراديو لأوّل مرّة في بيتها. كانت أمّها ما تزال على قيد الحياة فقالت:

ـ اقتربت القيامة يا أولاد!

وكان هدوء حلوان في تلك الأيّام البعيدة شاملًا وعميقًا حتّى ليستمع فيه الإنسان إلى خواطره، لا كهٰذه الأيّام التي مضى يتكدّر فيها صفوه بإقامة العمائر بل والمصانع. وكانت هي في غاية من السعادة وصفاء البال رغم أنّ الوطن لم يعرف الراحة أبدًا. ويجيء الزمن كلّ يوم بجديد، وتكثر مسرّاته وأحزانه،

ويتمزّق القلب في معاناة الحنين بين الماضي والحاضر. وأخشى ما تخشاه أن يجيء الأجل قبل أن يتحقّق الأمل. ولّما انتهى إرسال التلفزيون لأوّل مرّة قالت لكوثر:

ـ سيزورنا العالم كلّ ليلة بكلّ ما فيه. . .

فابتسمت كوثر ثمّ نظرت إلى رشاد قائلة:

ـ لا يلهينّك شيء عن المذاكرة يا حبيبي.

ولٰكنّ عصر التلفزيون كان قد بدأ. وثار في صدور الأحفاد صراع حادّ بين الواجب والتلفزيون.

كان لمحمّد مكتبة، وكذٰلك منيرة، وأقبل شفيق وسهام، وأمين وعليّ، على كُتب الأطفال وغيرها إقبالًا يبشّر بالخير، وسوف يزداد ولا شكّ بدخولهم المرحلة الثانويّة في العام القادم، غير أنّ التلفزيون أثبت أنّه منافس خطير فالتهم نصف وقت القراءة في أوّل جولة، ومضى يهدّد النصف الآخر. وفي ذٰلك الوقت ناهزوا البلوغ فلفّتهم حيرة مشرقة متحدّية، وانطلقوا في العطلة الصيفيّة مع الصحاب إلى الميادين والحدائق ودور السينما، واحتدمت المناقشات، وطالب كلّ فرد منهم باستقلاله الذاتيّ، فلم يتّفقوا على شيء قدر اتّفاقهم على القبوع ليلًا أمام صندوق الدنيا الجديد بمتنوّعاته التي لا نهاية لها، وضيافته الكريمة التي تمتدّ من الأصيل إلى ما بعد منتصف الليل. في ذٰلك المعترك الجديد اعتقد رشاد أنّه رجل البيت القديم، وأخذ يعرف أشياء عن ثروته المحفوظة ويستفحل أمره إزاء ضعف أمّه وحبّ جدّته له. ورأته كوثر اتّفاقًا ذات جمعة وهو يغتصب قبلة من سهام في ناحية من الحديقة. ورجعت سهام منسحبة من ملعب الأحفاد إلى مجلس الجدّة والآباء شاردة اللبّ. وخافت كوثر أن تشكو سهام إلى والديها ما ندّ عن رشاد ولٰكنّ الأزمة مرّت بسلام. ولّما خلت كوثر إلى أمّها بعد ذهاب الزوّار أفضت إليها بالسرّ فابتسمت سنيّة متمتمة:

ـ لعب بريء!

فقالت كوثر:

ـ سهام أنضج من سنّها وعلى منيرة أن تفتح عينيها!

وتفكّرت قليلًا ثمّ سألت أمّها:

ـ أينبغي أن أحذّره؟

فكان جواب سنيّة أن نادت رشاد. أجلسته لصقها في حنان وقالت مقتحمة الموضوع مباشرة كعادتها:

ـ قالت لي العصفورة إنّك معجب ببنت خالك سهام؟

فتورّد وجهه ولٰكنّه قال بجرأة ناظرًا صوب أمّه:

ـ إنّي أعرف هٰذه العصفورة!

ـ ماذا تريد منها؟

فقال بجرأة أكثر:

ـ أن أتزوّج منها يومًا ما.

فابتسمت سنيّة ولٰكنّ كوثر قالت:

ـ الاختيار الصحيح ما يقع في الوقت المناسب.

ولٰكنّه تجاهل أمّه وقال لجدّته:

ـ افعلي شيئًا يا ستّي!

وفي الجمعة التالية غابت عن المناقشة المحتدمة متحيّنة فرصة لإعلان طلبها. كانت المناقشة تدور حول «نزهة» اليمن التي انقلبت إلى متاهة دمويّة متعطّشة لدماء الأبطال وأموال الفقراء. قال محمّد:

ـ أسمعت ما يقال عن أغنية أمّ كلثوم «أسيبك للزمن»؟. . . يقال إنّ الأصل هو «أسيبك لليمن»!

فقال سليمان بازدراء:

ـ اشمتوا كيف شئتم بدماء الأبطال. . .

فتساءل محمّد جادًّا:

ـ أيرضى عاقل بذٰلك وعلى حدوده عدوّ كإسرائيل؟

فقال سليمان وقد بات يحلم بوكالة وزارة الزراعة:

ـ إنّنا أقوى قوّة ضاربة في الشرق الأوسط.

ـ بفضل الملحدين!

ـ نحن نأخذ منهم السلاح والعدالة ولا شأن لنا بإلحادهم.

ونفد صبر سنيّة فقالت بصوت جهير مخاطبة محمّد:

ـ هدّئ روعك وأعطني سهام لرشاد!

لم يفهم محمّد مضمون الطلب لأوّل وهلة ولّما أدركه تناسى انفعاله وقال بسرور خفيّ:

ـ الله . . . الله . . . ما زالوا أطفالًا . . .

فقالت سنيّة:

ـ ولٰكنّي جادّة تمامًا، ورشاد هديّة. . .

ـ وسهام هديّة أيضًا ولٰكنّ إعلان خطوبة الآن أمر

يدعو للضحك...

ـ هل ترفض؟

ـ أبدًا... اقرأ الفاتحة... ليكن حجز حتّى يجيء الوقت المناسب... وعليّ أن أشاور البنت أيضًا!

وتمّت الموافقة وتمّ الحجز. واستمدّ رشاد من حبّه الناشئ همّة أكبر في العمل ولٰكنّ السباحة ظلّت حائزة لاهتمامه الأوّل. وكان جلّ أصحابه من الرياضيّين فكان في السياسة والدين معتدلًا، ورغم شعوره بالثراء والأصل إلّا أنّه كان لطيفًا سمحًا محبًّا للناس تيّاهًا في الوقت نفسه بقوّته الجسديّة وحسن منظره. وأمل أن ييسّر له «الحجز» إشباع حبّه في حدود البراءة ولٰكنّ سهام ـ مع ميلها إليه ـ لم تشجّعه، وكفّت ـ مرحّبة بنصيحة أمّها ـ عن مشاركة الأحفاد في ملعب الحديقة، منضمّة إلى مجلس جدّتها، تتابع أحاديث السياسة بفتور، وتستاء لأقلّ إشارة تسيء إلى الزعيم. ولم تكن صفحة بيضاء فقد انسربت إلى أذنيها معلومات محرّمة من زميلات في المدرسة أو في البيت سرعان ما ربطت بينها وبين ما تسمع من تلميحات في التلفزيون. ولمّا كانت علاقتها بأمّها علاقة صداقة فقد تجرّأت على أن تروي لها بعض النوادر، التي لا تخلو من مغزى جنسيّ حتّى نصحتها ألفت في التدقيق أكثر في اختيار صاحباتها. وبسبب من ذٰلك قالت ألفت لمنيرة ذات يوم:

ـ هٰذا التلفزيون يهيّئ للبنت الصغيرة معلومات لا تُتاح عادة إلّا لشابّة ناضجة!

فأدركت منيرة ما تعنيه ولٰكنّها تساءلت:

ـ أليس هٰذا أفضل؟

ـ في الخير نعم، ولٰكن ليس في الشرّ!

فتفكّرت منيرة قليلًا ثمّ قالت:

ـ لعلّه أفضل أيضًا!

فقالت ألفت باسمة:

ـ إنّك ناظرة ومربّية ولٰكن محمّد له رأي آخر!

ـ لا خير في بناءٍ يقوم على الجهل!

ثمّ وهي تتنهّد:

ـ مشكلة أمين وعليّ أنّهما يفقدان متعة القراءة يومًا بعد يوم...

فتساءلت ألفت:

ـ أكان الأفضل ألّا نُدخل التلفزيون في حياتنا؟

ـ لا جدوى من قرار يُتّخذ ضدّ تيّار الحياة، المسألة هي كيف يمضي التطوّر بأكبر فائدة وأقلّ خسارة...، الواقع أنّنا نسيء إليهم بالمدرسة أكثر من التلفزيون ألف مرّة...

ـ هٰذا حقّ، وحتّى في السياسة لا وزن لوعيهم السياسيّ، إنّهم يؤمنون بالزعيم وبأيّ كلمة ينطق بها ولا شيء قبل ذٰلك أو بعده...

فقالت منيرة بارتياح خفيّ:

ـ بداية لا بأس بها في مثل سنّهم...

كانت مثل ابنيها ناصريّة لحمًا ودمًا وكانت سعيدة بذٰلك. ليتها تسعد في حياتها الحميمة كما تسعد في حياتها العامّة. وإن يكن الفتور آفة حتميّة تقرض جذور الحبّ، وإن يكن أثره قد تجلّى في حبّ سليمان لها فلِمَ لا يحدث المثل في حبّها له؟!. لِمَ تصرّ على مكابدة حبّ ذٰلك الرجل الذي لا تُعَدّ مثالبه؟. ولم يقف عذابها عند هٰذا الحدّ وإنّما بات يطاردها إحساس وحشيّ بأنّها موشكة على فقده. وكانت سنيّة المهدي مستسلمة لخواطرها الحزينة عن منيرة عندما فاجأها محمّد بزيارة عند أصيل يوم أحد فتوجّس قلبها خيفة. سبقها إلى حجرة نومها الخضراء وجلس أمامها يرنو إليها كمن يتهيّأ لإلقاء ما عنده ثمّ قال:

ـ ماما، بلغني من مصدر فوق الشكّ أنّ سليمان بهجت متزوّج من الراقصة زاهية!.

اختلجت عيناها وراء نظّارتها وساد صمت ثقيل. كانت مرتدية روبًا بنّيًّا ثقيلًا، متلفّعة بشال قطيفة أزرق، اتّقاء لبرد قارص. ولمّا طال الصمت قال:

ـ تأكّدتُ من الخبر تمامًا...

ساءلت نفسها هل تتوارث المآسي؟. وكيف يقع هٰذا لدرّة الأسرة؟!. وتملّصت من صمتها قائلة:

ـ الأخبار السيّئة لا تكذب.

وساءلت نفسها ألا يخلو أحد في أسرتي من عاهة؟!.

قالت:

ـ الأمر لله، استمرّ...

ـ يجب أن تعرف!

ـ إنّي خير من يُبلغ الأخبار السيّئة. . .، وبعد؟!

ـ ستطالب بالطلاق، ولٰكنّي ضدّ ذٰلك إلى الأبد. . .

ـ أوافقك، ما هي إلّا نزوة طارئة، ولٰكن يلزمنا طاقة خياليّة لإقناعها. . .

ـ فليكن!

وسرعان ما استدعت منيرة، وعلى طريقتها في مواجهة المصائب قالت:

ـ عندي خبر سيّئ يا منيرة. . .

كان كالموت يفجّر الإحساس بالمفاجأة رغم التسليم بمجيئه الحتميّ. لم يجدّ جديد إلّا الجهر بالوساوس المعذّبة الخفيّة. ألكنّها اصفرّت غضبًا وارتسمت في قسماتها صورة صارمة. قالت:

ـ أمر يثير التقزّز. . .

ثمّ بحسم:

ـ الطلاق. . .

غطّت سنيّة وجهها براحتيها متفكّرة ثمّ تمتمت برجاء:

ـ على مهلك!

ـ لا مجال للتمهّل أو التفكير. . .

ـ التسرّع في قرار مصيريّ غير مقبول.

ـ لٰكنّه الحلّ الوحيد يا ماما. . .

فقالت متنهّدة:

ـ لا أراه كذٰلك. . .

ـ لا مفرّ منه.

ـ حدث لي ما يحدث لك ولٰكنّني لم أفكّر فيه. . .

ـ ذاك زمان مضى، والملابسات جدّ مختلفة فأنا ناظرة مدرسة فكيف ألقى الرجال والنساء وهم يعلمون أنّني زوجة لها ضرّة راقصة!

ـ ما هي إلّا نزوة، فكّري بالبيت والأولاد والمستقبل.

وائتمروا جميعًا على معارضتها وإقناعها بالصبر. والعجيب أنّ سليمان بهجت صمد للعاصفة ببلادة وثقة، معتزًّا بحقّه المطلق في الزواج، متناسيًا عهد حبّه القديم. وقال:

ـ علينا أن نتسامح مع أمور يتكرّر وقوعها كلّ طلعة شمس. . .

فقالت له بحدّة:

ـ افعل ما تشاء ولٰكن خلّصني. . .

فقال متظاهرًا بالانزعاج:

ـ معاذ الله. . . إنّك الأصل والأمّ والأبناء. . .

فهتفت بحنق:

ـ هل عملت حسابًا للأولاد قبل أن تفعل فعلتك؟

فقال بمسكنة:

ـ إنّي أمرّ بمحنة وأنت عقل كبير ولٰكنّي لن أفرّط في بيتي!

وجدت نفسها وحيدة مع فكرتها، وفضلًا عن ذٰلك فلم يكن الطلاق بيدها، وأخيرًا قال لها محمّد:

ـ رجائي أن تؤجّلي البتّ في الموضوع شهرًا!

فمنحها حلًّا تداري به هزيمتها. وسافر سليمان بهجت إلى المغرب لحضور مؤتمر زراعيّ على مستوى البلاد العربيّة. ولّما رجع إلى العبّاسيّة وجد منيرة قد جعلت من حجرة مكتبها مكتبة وحجرة نوم فأضافت إلى ركن منها كنبة تتحوّل إلى فراش عند اللزوم فاطمأنّ إلى أنّها عدلت عن التشبّث بالطلاق وإن قرّرت أن تنفّذه في الواقع. وشعر في أعماقه بارتياح خفيّ فانطلق من أريحيّة مباغتة يقول:

ـ أنت أنت، وكما كنت مذ ربط بيننا الحبّ.

كرهت محادثته كما كرهت النظر إليه. كانت تعاني أتعس لحظات حياتها. اندفن حبّها تحت ركام من الحنق والغيرة والإحساس الأليم بالغدر. وغرقت في حوار طويل مع نفسها المحمومة. إنّها تستحقّ أضعاف ما حاق بها جزاء حبّها لرجل تافه. قد تُعْذَر على حبّها في سنّ باكرة ولٰكنّها نضجت فلم تتلاشَ الغشاوة عن عينيها، بل نضج الحبّ أيضًا وتفاقم خطره. واغتفر الحبّ عيوبه، فقبله رغم أنّه ما هو إلّا حيوان جميل، بلا عقل ولا روح، يحرّكه الطمع والمنفعة الرخيصة. وما حبّها إلّا شهادة ضدّها. ملأ القلب دون أن تزحمه قطرة واحدة من الاحترام. هل يصحّ أن تهيمن على حياتنا قوّة عمياء لا معقولة تزري بما حصّلناه من ثقافة وحضارة؟!. إنّه مخجل بقدر ما هو حقيقة واقعة. على

ذاك فعقابي دون ما أستحقّ. وغمغمت بعذاب:

ـ غجريّة، لا ناظرة ولا مربّية!

فلتقتلع من الآن فصاعدًا جـذور الحبّ من قلبها الضالّ. ولتكن مثل أمّها في الكبرياء فلا ترضى بمنافسة امرأة دونها. وقد قرأت لها أمّ سيّـد الفنجان وقـالـت وهي تقرّب عينيها الضعيفتين من جوفه:

ـ بعد الشدّة يجيء الفرج.

واقترحت جيّلًا من السحر والرقي وزيـارة بعض الأضرحة المشهود لهـا بالفـاعليّة فـابتسمت بمرارة ولم تنبس. وقالت لنفسها:

ـ لا دواء للغدر إلّا الرفض.

على أيّ حال برئت من مطاردة القلق الـوحشيّة، وتحرّرت من إلزام نفسها ما لا يلزم ـ تشبّثًا بذيـول جمالها ـ من رجيم قاسٍ وزينة مبالغ فيها. الآن تستطيع أن تهب نفسها خالصة لعملها الجادّ وابنيها الواعدين، متأسّية بأخيها محمّد في صبره وعزيمته وإيمانه. أمّا أمين وعليّ فعلى دهشتهـما لم يدركـا أبعاد المـأساة. كـانت علاقتهما بأبيهما ودّيّة وسطحيّـة بخلاف أمّهـما المربّيـة والمرشدة والصديقة. قال أمين لعليّ:

ـ بابا أخطأ.

فقال عليّ:

ـ وأساء لماما. . .

وكلّما ظهرت زاهية في التلفزيون تفرّسا فيها باهتمام وفضول وحنق. وقال أمين لنفسه:

ـ بابا يتزوّج للمرّة الثانية أمّا أنا ففقدت سهام إلى الأبد!

لماذا؟. إنّه ليس دون رشـاد رواء، وأطول منـه، وأذكى، ولكنّ الآخر غنيّ. ولعلّه لم يحبّ سهام كـما أحبّها رشاد ولكنّه لعن رشاد وسهام والجميع. وقـال لأمّه:

ـ الثورة معتدلة أكثر ممّا ينبغي يا ماما!

فدهشت منيرة وسألته:

ـ أتريدها شيوعيّة؟!

فتساءل:

ـ وما الشيوعيّة؟

فتردّدت قليلًا ثمّ قالت:

ـ هي الإلحاد!

فوجم. واعترف فيـها بينه وبـين نفسه بـأنّ سهام أهون من أن يخسر بسببها دينه. وكانت منيرة تعرف عنه أكثر ممّا يظنّ فأحزنها أن تكابد ـ هي وابنها ـ مرضًا واحدًا، فأوشكت أن تنهزم أمام دمعة محتدمة. وقالت له بغموض:

ـ ما نتصوّره ونحن صغار يتغيّر ونحن كبار!

أمّا عليّ فكان يهيم ببلوغه في وادٍ غـريب. عشق بطريقة عشوائيّة مرفت هانم حماة خاله محمّد. رآهـا عن قرب في بيت خالـه وهي تزور ألفت مصحـوبة بزوجها الأخير الأستاذ حسن علما. لم يكـترث لسنّها الـزاحف نحو الستّـين ولكن بهرتـه أناقتهـا وصوتهـا العذب وشعرها الذهبيّ وبشرتهـا المنيرة. سرعـان ما عشقها عشقًا انفراديًّا، وكانت أوّل امرأة من لحم ودم تحلّ في قلبه المشغوف بكواكب التلفزيون. وقد نفختته بالغرور عندما قالت له وهي تصافحه:

ـ إنّك في طول رجلين معًا.

واستوعبت المرحلة الثانويّة جميع الأحفـاد، التحق شفيق ابن محمّد وأمين وعليّ بالقسم العلميّ على حين التحقت سهـام ورشاد بـالقسم الأدبيّ. وبـدأ رشـاد يتكلّم عن المستقبـل متأثّرًا بما يقـال في مجلسـه مـع أصدقائه الرياضيّين. حلم بحياة الأعيان ولكن صدّه عن حلمه قول الزعيم «مَن لا يعمل لا يأكل»، وهو زعيم قادر، وفي وسعه أن يحرم الأعيان الكسالى من لقمة العيش فقال لأمّه يومًا:

ـ أزرع أرضي وأربّي العجول!

فقالت كوثر:

ـ إذن اتّجه إلى كلّيّة الزراعة.

وفكّر وفكّر ثمّ قال:

ـ الكلّيّة الحربيّة أفضل. . .

فتذكّرت كوثر ويلات الحروب وقالت:

ـ لا، لا تُلْقِ بنفسك إلى التهلكة!

فقال وهو يرنو إلى جدّته:

ـ الأعمار بيد الله وحده.

لو تيسّرت له حياة الأعيان لتزوّج من سهام عنـد الانتهـاء من الثانويّـة العـامّـة ليُسكت هـذا الجـوع

الضاري الذي يغرز في جوانحه خناجر مبلّلة بالشهد. وفي تلك الأيّام خسر الاجتماع الأسبوعيّ للأسرة حرارة الشباب. ولم يعد يشهده إلّا محمّد ومنيرة وألفت، ومع أنّ اختفاء سليمان بهجت لم يدهش أحدًا إلّا أنّه لم ينقطع تمامًا، كذلك سهام كانت تجيء في أغلب المرّات، ولكن أين شفيق، أين أمين، أين عليّ؟!. وتسأل سنيّة المهدي فيكون الجواب إنّهم في رحلة، سينما، مع أصحاب...

- ألا يبادلونني الأشواق؟

فتقول منيرة:

- إنّهم يحبّونك يا ماما ولكن سرقتهم الدنيا!

غزت صداقة جديدة صدر شفيق ممثّلة في عزيز صفوت، زميل المدرسة، لأب بسيط موظّف في محلّ تجاريّ، متقشّف الحياة والمظهر، لكنّه متنوّع الحديث، ويعكس حديثه دأبه على غشيان دار الكتب فأثار حماس شفيق، بل وسهام أيضًا. وكانت ألفت تتابع حديثه أحيانًا فقالت لشفيق:

- صديقك لا يعجبه شيء!

وقال له أبوه محمّد:

- إنّي لا أحبّ هذا النوع من البشر، ولا أحبّ الاختلاط، ولكنّي أنصح ولا أفرض وصايتي، والعاقل مَن لا يسلّم برأي حتّى يمتحنه.

وكان موقف محمّد من العهد قد عُرف مع الزمن لشفيق وسهام، كما عُرف لأمين وعليّ، فاستطاع الرجل أن يقول لشفيق أخيرًا:

- الإسلام هو الدعامة والهدف.

فقال شفيق:

- وإنّي لمسلم يا بابا ولكنّي ناصريّ أيضًا!

ولم يكن عزيز صفوت ضدّ الناصريّة ولكنّه لم يكن ناصريًّا بالدرجة التي يرضى عنها شفيق أو سهام. أمّا إذا انفرد أحدهما بالآخر في مقهى فكان حديث المرأة يستقطب جلّ الاهتمام. كانا يطاردان النساء بأعين جاحظة، ويقول عزيز:

- حيّنا بولاق حيّ شعبيّ وبه فرص لا بأس بها!

فيقول شفيق:

- إنّها أزمة لا حلّ لها.

فيقول عزيز متهكّمًا ببنطلونه القديم وقميصه الرماديّ الرخيص:

- تلزمنا سيّارة أو شقّة خصوصيّة!

ويطير خيال شفيق مستحضرًا وجوه النساء بعمارة باب اللوق ويظلّ فريسة للسياط والجمرات. وقد لمح مرّة أمين ابن عمّته في ميدان التحرير وهو ماضٍ مع بنت تقاربه في السنّ نحو محلّ دندورمة فأتبعه ناظريه في حسد. وكان أمين سعيدًا جدًّا بصاحبته التي بدت إلى جانب طوله قصيرة. وكانت سمراء مسمسمة رشيقة. انتبه إليها كجارة، وحامَ حولها في محطّة الترام يومًا بعد يوم حتّى شجّعته بابتسامة فتعارفا، وتقابلا، وتبادلا القبل كلّما تيسّر ذلك، فصارا حبيبين. وعرف أنّها هند رشوان، ابنة ميكانيكيّ في ورشة لإصلاح السيّارات، في المرحلة الثانويّة مثله، وكبرى بنات أربع ثلاثتهنّ في المرحلة الابتدائيّة. ولم يغتبط بالمعلومات ولكنّه تجاوزها فلم تفتر همّته، وكان يتنفّس في جوّ يستبق فيه «الخاصّة» في اكتشاف جذور شعبيّة لهم وقاية من العواصف. أمّا عليّ فنعمَ وحده - وفي سرّيّة تامّة - بحبّ مرفت هانم. وعلم بأنّها كانت زوجة أيضًا لجدّه حامد برهان فلم يثنه ذلك عن حبّه، فاختزنه ضمن هواياته كالتلفزيون والولع بالخلوات. وشجّعتها علاقتها الحميمة بمنيرة على مواجهة الحياة فهي تشاركها في روح العصر بخلاف خالتها كوثر وخالها محمّد اللذين أطلّا عليها من نافذة زمن ماضٍ مجهول. إنّهم أبناء اليوم والغد ولا ماضي لهم، وهم رعايا دولة عظمى مهيمنة على العرب وأفريقيا، حليفة لدولة عظمى، ومتحدّية لدولة عظمى أخرى!. انحصرت مشكلتهم الملحّة في الجنس وهي ستُحلّ بطريقة ما في حينها. وارتفع صوت في الراديو ينعي أثرًا من آثار الماضي، جهله الجيل الجديد، وعرفته قلّة كرمز للخيانة، نعى الراديو مصطفى النحّاس. لم يترك الخبر أيّ أثر في الأحفاد. اتّسعت عينا كوثر ومنيرة لحظات ثمّ شغلت كلّ بما بين يديها. وكانت سنيّة تتمشّى ما بين حجرة المعيشة والفراندا في جوّ أغسطس الحارّ فسرعان ما أسلمت نفسها إلى أقرب مقعد وشخصت بعينيها إلى الحديقة المهمَلة في تأثّر شديد، ثمّ غمغمت:

ـ آه. . . لكلّ أجَل كتاب. . . إلى رحمة الله ورضوانه.

وتلقّت من ذكرياتها الحميمة حزنًا هادئًا عميقًا. أمّا محمّد فقد نبض عرق قديم في هيكله المتجدّد فرأى الماضي والحاضر والمستقبل في لوحة رماديّة تقطر أسًى ورحمة. وكان ساعتها بمجالس الأستاذ عبد القادر قدري في حجرته فرآه يطرح جسمه على مسند كرسيّه ويطوّق رأسه براحتيه ويصمت طويلًا، ثمّ يردّد بخشوع:

ألا يا نفس أجملي جزعا إنّ الذي تحذرين قد وقعا

ثمّ نظر إلى محمّد بعينين مربدّتين وقال:

ـ مات آخر الزعماء.

فلاذ بالصمت مشاركًا مني تأثّره فقال عبد القادر:

ـ سيشيَّع غدًا في جنازة لا تليق بمقام راقصة درجة رابعة. . .

ولكنّ الجنازة كانت انفجارًا بركانيًّا غير مسبوق بإنذار. شاهدها محمّد من شرفة المكتب بشارع صبري أبو علم فذهل ولم يصدّق عينيه. تساءل:

ـ كيف حصلت هٰذه الأسطورة؟!

أيّ طوفان من جموع بلا نهاية، أيّ هتافات تتطاير بشواظ القلوب، أيّ دموع تترقرق في الأعين، أيّ حزن يغشى الشيوخ والشباب، أجل والشباب أيضًا. وتساءل محمّد:

ـ من أين جاء هٰؤلاء الشبّان؟

كيف فرضت هٰذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطّتها أيدي الرقباء برداء النسيان. أما زال للوفد مريدون بهٰذا العدد؟. هل انضمّ إليهم كلّ محبّ للحرّيّة ومحروم منها؟!. اضطربت الجموع في أسى حميم عميق شامل وكأنّما تنعى الدنيا والأمل الوحيد. ولمح محمّد الأستاذ عبد القادر قدري تلاطمه الأمواج وراء النعش وهو يلوّح بيديه بحماس يفوق سنّه، ولم يكن يتصوّر أنّه يراه لآخر مرّة، فقد اعتُقل مساء اليوم نفسه فيمن اعتُقل من المشيّعين المتحمّسين، وقضى في الاعتقال عامين ثمّ توفّي عقب الإفراج عنه بيومين. واختصّت الجنازة بحديث طويل في الجمعة التالية في اجتماع الأسرة غير أنّ محمّدًا كان يدّخر خبرًا لا يقلّ عنها إثارة مخاطبًا منيرة:

ـ زوجك يبني فيلّا في المعادي!

فتجلّت في عيني منيرة نظرة إنكار على حين تساءلت سنيّة:

ـ من أين له المال؟

فقال محمّد وهو يغمز بعينه الباقية:

ـ إنّه يؤجّر شققًا مفروشة استأجرها وهي خالية ـ بفضل أخيه ـ من عمارات الحراسة. . .

ونقّل وجهه بين الوجوه ثمّ واصل:

ـ إنّه يستأجر الشقّة خالية وتتعهّد الراقصة بفرشها فهما شريكان!

فقالت منيرة بازدراء:

ـ ما نتال منه مليّمًا فوق نصف مرتّبه. . .

فقال محمّد:

ـ ويقال إنّ زوجته على علاقة مع المخابرات!

وانتبهوا ذات يوم والجيش يجلجل في شوارع القاهرة. تابعت منيرة وأمين وعليّ منظره المهيب من شرفة شقّتهم بالعبّاسيّة. ورآه شفيق وعزيز صفوت بميدان التحرير. وسرعان ما ذاع وملأ الأسماع أنّ الجيش ذاهب إلى سيناء ليمنع تهديد إسرائيل لسوريا. وفي الحال تجسّدت الحرب كحقيقة وشيكة الوقوع في أخيلة الناس. وفي البيت القديم بحلوان نظرت كوثر نحو رشاد كأنّما تطالبه بالعدول عن نيّته في الالتحاق بالكلّيّة الحربيّة وتساءلت:

ـ ما هٰذه الحروب؟. . . كأنّها أعياد موسميّة!

ووجمت سنيّة. تذكّرت حلمًا رأته ولم تحدّث به أحدًا. رأت القبر مفتوحًا والأحداث داخله متراصّة، وأنّها كانت تنادي شخصًا ما ليسدّه ولكنّ صوتها لم يُسمع. همّت بالإشارة إلى الحلم ولو إشارة غامضة ولكنّها عدلت وآوت إلى الصمت. أمّا كوثر فرجعت تقول:

ـ حلوان اليوم بها مصانع حربيّة!

ففكّرت سنيّة ببيتها القديم وتساءلت:

ـ هل يتحمّل بيتنا الانفجارات القريبة؟

ثمّ واصلت بشيء من الثقة:

ـ ولكنّ الرئيس يعرف ما يصنع.

وفي شقّة باب اللوق دار حديث الحرب بحضور

محمّد وألفت وشفيق وسهام وعزيز صفوت. تساءلت ألفت:

ـ ماذا يعني إغلاق المضايق وانسحاب الجيش الدوليّ؟

فقال محمّد بسخرية:

ـ يعني أنّ سفن إسرائيل كانت تمرّ في أمان منذ عشر سنوات أو منذ النصر المزعوم...

ولٰكنّ عزيز صفوت أجابها متجاهلًا سخرية محمّد:

ـ إنّها الحرب يا سيّدتي!

فتساءل محمّد:

ـ وجيشنا موحول في اليمن؟!

فقال عزيز صفوت:

ـ نحن أقوى قوّة في الشرق الأوسط، والرئيس لا شكّ يعرف لقدَمِه قبل الخطو موضعها...

فكظم الرجل غيظه على حين قالت سهام:

ـ كلماته مليئة بالثقة والقوّة!

ظنّ محمّد لحظة أنّها تصف حديث عزيز صفوت ولٰكنّه سرعان ما أدرك أنّها تعني زعيمها، ثمّ لعن الثلاثة في سرّه. وفي العبّاسيّة لاحظ أمين قلق أمّه فقال لها:

ـ نحن أقوياء يا ماما.

فقالت منيرة:

ـ إنّي مؤمنة بذٰلك وهو ما يُقلقني، ليست إسرائيل بمشكلة، ولٰكنّنا إذا اخترقنا حدودها فسنجد أنفسنا وجهًا لوجه مع الولايات المتّحدة...

فقال عليّ:

ـ معنا الاتّحاد السوفيتيّ!

فتساءلت:

ـ أتظنّه يقدم على دمار العالم من أجلنا؟!

فقال عليّ بإصرار:

ـ ولا الولايات المتّحدة تقدم على دماره من أجل إسرائيل!

فاعترفت منيرة قائلة:

ـ الحقّ أنّي في غاية القلق...

وجاء سليمان بهجت في زيارة طوارئ. كان يزورهم من حين لآخر وظلّت علاقته بابنيه وديّة وسلبيّة معًا، أمّا منيرة فكانت تعامله معاملة رسميّة. استمع لخواطرهم عن الحرب ثمّ قال بنبرة العالِم ببواطن الأمور:

ـ لا داعي للقلق ألبتّة، وفي اعتقادي أنّه لن تقوم حرب...

ثمّ بعد هنيهة صمت:

ـ ولٰكن مبالغة في الحيطة أودّ أن تقيموا معنا هٰذه الأيّام في الزمالك فهي آمَن من العبّاسيّة...

فقالت منيرة بهدوء وبرود:

ـ لك الشكر، لكنّنا لا ننوي هجر مسكننا ولا نجد ضرورة لذٰلك.

فلم يضايقها بإلحاحه، ولعلّه لم يتوقّع قبولًا من الأصل، وقال:

ـ روح البلد عالية جدًّا...

فسأله أمين:

ـ ألسنا أقوى قوّة ضاربة في الشرق الأوسط؟

فأجاب بيقين:

ـ هٰذا مفروغ منه ولٰكنّي لا أتوقّع حربًا على الإطلاق!

وقُضي الأمر. في الساعة التاسعة من صباح الإثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ دوّت صفّارة الإنذار وقُضي الأمر. بدا كلّ شيء هادئًا في القاهرة عدا جموع تجمهرت حول الراديو تتلقّى أنباء عن انتصارات وطنيّة خارقة. وتابعت منيرة الأنباء فازدادت قلقًا وساءلت نفسها:

ـ ما لنا لا نسمع عن هجوم؟!

ومرق محمّد وألفت إلى محطّة لندن وصوت أمريكا فدهمتها أخبار أخرى وتساءلت ألفت:

ـ ماذا يجري؟... أتصدّق هٰذا؟!

فقال محمّد وعواطف متضاربة تتنازع قلبه:

ـ أصدّقه تمامًا، ما هو إلّا بناء من الورق يقوم على الكفر والفساد...

وأخيرًا أعلن عن بيان سيذيعه الرئيس على الشعب. استقرّ الكبار في البيوت وانتشر الشباب في الشوارع والمقاهي. انتظر الجميع ـ ملهوفين ـ البيان متوتّرين بانفعالات محتدمة. منقّبة أعينهم في الظلمات عن بارقة أمل. أليس ثمّة رابطة وثيقة بين لسان

الرئيس والأمل؟. أجل إنّه لا ينطق إلّا مرسِلًا باقات من الآمال المنعشة. لكنّه ـ ذٰلك المساء ـ طالعهم بوجه جديد، وصوت جديد، وروح جديدة. اندثر رجل وحلّ محلّه رجل آخر. رجل آخر يحدّث عن نكسة، يشهر إفلاسًا، يندب حظًّا، يحني قامته العملاقة لواقع صارم عارٍ عن الأحلام والأمجاد، ويلتمس مخرجًا بائسًا في التنحّي، مخلّيًا مكانه الشامخ المتهدّم لخليفة أراد له أن يرث تركته المثقلة باللامعقول والعار. خرقت الحقيقة الوحشيّة القلوب الملتاعة وتردّت بأصحابها إلى قاع الهاوية، فاندفعت دموع من الأعماق الجريحة إلى الأبصار الزائغة. بكت سنيّة وكوثر أيضًا بكت. بكت ألفت وسهام على حين تحجّرت عين محمّد، أمّا منيرة فغشيها بكاء طويل. واندفع شفيق وأمين وعليّ وعزيز في طوفان الجموع الصاخبة الغاضبة المحتجّة يخوضون ظلامًا دامسًا، يتحدّى صراخهم أزيز الطيّارات وطلقات المدافع المضادّة، وتطالب بالتنحّي عن التنحّي. وتتابعت أيّام محمومة جنونيّة مليئة بالانفعالات والتحرّشات والاعتقالات والانتحار. وبقي الرئيس وانتحر القائد، وفرغ الناس من متابعة الأحداث السياسيّة ليفتحوا قلوبهم لهلوسة تاريخيّة فريدة وليشاركوا بلذّة جنونيّة معذّبة في حفلة زار عصريّة شاملة. ماذا حصل؟، كيف حصل؟، لماذا حصل؟ وأمطرت السماء شائعات، وسخريات، ونكات، ونوادر، ودموعًا. وتفشّت أعراض مرض مجهول فبدا وكأنّه لا شفاء منه. وشهد اجتماع الأسرة جميع الأجيال كالماضي البعيد. بدا الكبار محزونين والصغار حيارى مبهوتين. وحزنت سنيّة لنفسها كما حزنت لأولادها وأحفادها. تذكّرت حلمها الكئيب، تذكّرت حامد برهان وجهاده الصغير الذي عاش تيّاهًا به، استرقت إلى محمّد نظرة إشفاق، رنت إلى الأحفاد بشوق وعطف، وأصغت إلى صوت خفيّ تردّد في أعماقها يطالبها بأن تيأس تمامًا من تجديد بيتها وحديقته. من يفكّر في هٰذا الترف وهو في جوف النيران المؤجّجة؟ وتمتمت:

ـ يا لها من أحزان!

فقال محمّد ممتعضًا:

ـ المسألة أنّنا نسينا اللّٰه فنسينا اللّٰه.

فقال سليمان بهجت وهو قاعد جسدًا بلا روح:

ـ ما هي إلّا مكيدة أمريكيّة!

فهتف محمّد:

ـ لا عذر عن الغفلة والحماقة. . .

ثمّ تنهّد في غيظ:

ـ وتخرج الجموع للتمسّك به بدلًا من المطالبة بمحاكمته؟

ونظر صوب ابنه شفيق متسائلًا:

ـ ماذا دفعك للاشتراك مع الجموع؟

فأجاب شفيق بوجوم:

ـ لا أدري بالضبط، ربّما خيّل إليّ أنّ الحياة لا يمكن أن تمضي بدونه!

وقال أمين:

ـ قلنا إنّ هدف العدوّ إقصاؤه فتمسّكنا به تحدّيًا لقرار العدوّ.

فضحك محمّد بجفاء ساخرًا:

ـ وهل يطمع العدوّ فيمن هو خير منه؟!

وصمت لحظات ثمّ واصل:

ـ أعترف لكم بأنّني سررت أيضًا لبقائه، أجل، يجب أن يبقى على رأس الخراب الذي تسبّب فيه، ليعاني معنا، وليتحمّل مسئوليّة إصلاحه، هٰذا خير من الهرب إلى الخارج والتمتّع بحياة أصحاب الملايين!

صمت شفيق وسهام وأمين وعليّ ورشاد كأنّ الأمر لم يعد يعنيهم، أو أنّ «ناصريّتهم» غرقت في مستنقع من الحيرة. تخبّطوا في الظلام صامتين. أمّا سليمان بهجت فتردّد طويلًا قبل أن يقول:

ـ ثمّة كلام عن تكوين جديد للجيش على أسس جديدة!

فأطلق محمّد ضحكاته الجافّة ثانية وقال:

ـ ما نحن اليوم إلّا إقليم تابع للاتّحاد السوفيتيّ، لم تنتصر إسرائيل والولايات المتّحدة فقط ولٰكنّ الاتّحاد السوفيتيّ انتصر أيضًا، أذنابه يقولون اليوم بكلّ قحة إنّ الاشتراكيّة أهمّ من سيناء. . .

وغمغمت سنيّة في أسى:

ـ لنا اللّٰه.

وتساءلت سهام:

ـ أينتهي الوضع على هٰذه الحال؟

فخُيِّل إلى سليمان بهجت أنّه مطالَب بإجابة فقال:

ـ كلّا طبعًا! ، سنجد أيضًا فرصة لإعادة النظر في شئوننا، ثمّة عوامل فساد كانت تنخر في عظامنا، يقال إنّ الرئيس نفسه كان ضحيّة من ضحاياها!

فقال محمّد حانقًا:

ـ قال إنّه مسئول عن كلّ شيء، لعلّه أوّل صدق ينطق به في حياته!

ففقد سليمان بهجت بعض أعصابه وقال:

ـ أعداء النظام شامتون كأنّ المصيبة حلّت بوطن آخر. . .

فلوّح محمّد بيده محتجًّا وقال:

ـ إنّهم محزونون لا شامتون، لقد بذل الجيل الماضي ما استطاع حتّى وَقَّتَ للاحتلال البريطانيّ وقتًا ثمّ جاء الأبطال يحلمون بإنشاء إمبراطوريّة فانتهى سعيهم باستيراد احتلال جديد مارسته أصغر وأحدث دولة في العالم، هي النتيجة الحتميّة للجهل والغرور والفساد والاستبداد، واليوم تفصح الوجوه فلن ترى توازنًا واستقرارًا إلّا عند الشيوعيّين!

ـ لسنا شيوعيّين على أيّ حال.

ـ ولكنّكم ذيول لهم، لو صدقتم في قتال إسرائيل عشر صدقكم في قتال المسلمين لكُتب لكم النصر. . .

فقال سليمان بضيق:

ـ الشعب الكادح يعرف بغريزته كيف يهتدي إلى رَجُله. . .

فجاوز محمّد حلمه قائلًا:

ـ لا تحدّثني عن الشعب الكادح، وحدّثني عن الشقق المفروشة!

اصفرّ وجه سليمان وأفصحت عيناه عمّا ينذر بإفساد اللقاء كلّه غير أنّ سنيّة قالت بصوت مسموع:

ـ لا . . . ، لا أسمح بهٰذا، نحن هنا أسرة ولا مكان بيننا لمعركة. . .

وعلت الكآبة المجلس والمأدبة، ولم يُرَ سليمان بهجت بعدها في البيت القديم، لا بسبب نزاعه مع محمّد فقط ولكن لأنّ التحقيقات أدانت فيمن أدانت زوجته «زاهية» مثبتة استغلالها لنفوذها المستمدّ من المخابرات لإثراء غير مشروع فقضي عليها بالسجن خمس سنوات. وأصابت ضربات التطهير أخا سليمان الضابط فقُضي عليه بالسجن أيضًا، ووجد سليمان نفسه وحيدًا ضعيفًا بلا سند مطاردًا بسوء السمعة ممّا اضطرّه إلى تقديم استقالته. وفي ذٰلك الوقت فرغ من بناء فيلّا المعادي فأقام بها وحده منتظرًا عودة زاهية. وأنعش أمل قلب سنيّة الجريح فتصوّرت أنّ الأحداث تمهّد لعودة العلاقة بين سليمان ومنيرة إلى سابق عهدها ولٰكنّ منيرة قالت لأمّها بصدق:

ـ لقد انتهيت منه تمامًا!

ولم يختلف هو عنها في ذٰلك فوهبت منيرة حياتها كلّها للعمل ولابنيها. وقد ترقّت مفتّشة وازدادت جدّيّة في حياتها، وإذا بها تحجّ بصحبة محمّد ذات عام، وتواظب بعد ذٰلك على الفرائض مثل كوثر منتمية إلى أسلوب أمّها في التديّن لا أسلوب محمّد، محافظة في الوقت نفسه على «ناصريّتها» ملبّية نداء العاطفة في ذٰلك أكثر من العقل، ورافضة التخلّي عنه في سوء حظّه، قالت:

ـ ما هو إلّا ضحيّة للاستعمار العالميّ!

وسارعت إليها الكهولة مثل كوثر وأكثر ولٰكنّها ـ من حسن الحظّ ـ لم تلحظ تغيُّر وجهها الجميل كما لاحظه الآخرون، كما أنّها لم تعد تستعمل أيّ أداة من أدوات الزينة. ووقعت مظاهرات الطلبة مفاجأة لها كما كانت مفاجأة لكثيرين. إنّها أوّل تحدّ داخليّ يواجه الزعيم من أخلص أبناء قبيلته. تردّد الهتاف بسقوطه، وتطايرت في الجوّ السخريات المسجوعة. وتاقت الأنفس لحكم الشعب ولمعرفة الماضي على حقيقته. وجدت منيرة نفسها ممزّقة، ففي جانب يتظاهر أبناؤها، وفي الجانب الآخر يقف زعيمها. وعجبت لموقف أمين وعليّ كما عجبت لموقف شفيق وسهام. وسألت وهي تقلّب عينيها في وجهَي ابنيها:

ـ أليس هو الرجل الذي ثرتم لإبقائه؟

فقال أمين مردّدًا ما أفعم رأسه:

ـ يجب أن يكون الدور الأوّل للشعب!

ـ أتريد رجلًا آخر؟

فهزّ منكبيه قائلًا:

ـ لا يوجد رجل آخر!

وتساءل عليّ في حيرة:

ـ ما جدوى التحقيق؟

فسألت بإلحاح:

ـ أترومون تصفية الناصريّة؟

فأجاب أمين:

ـ لسنا رافضين ولٰكنّنا غير راضين!

ـ إنّكم محيّرون!

فقال عليّ ضاحكًا:

ـ نحن حيارى!

وكانت الجامعة تستقبلهم واحدًا بعد آخر. اثنان منهما نالا ما أرادا فالتحق رشاد بالكلّيّة الحربيّة رغم معارضة كوثر، والتحقت سهام بكلّيّة الآداب مستهدفة قسم اللغة الإنجليزيّة. أمّا شفيق وأمين فقد أرادا الطبّ ولٰكنّ التنسيق حوّلهما إلى الهندسة، وأراد عليّ الهندسة فمضى إلى كلّيّة العلوم. وفي الجامعة دهمهم جوّ فائر بالبلبلة صاخب بالأصوات الجهيرة المتضاربة. الدين... الدين... الدين، ما انتصرت إسرائيل إلّا بالتوراة فالحرب يجب أن تكون بالقرآن. الماركسيّة... الماركسيّة... الماركسيّة، هي التي تقتلع مجتمعًا متهرّئًا من جذوره الخرافيّة لتشيد فوق أنقاضه مجتمعًا علميًّا عصريًّا، العِلْم... العِلْم... العِلْم... ما انتصرت إسرائيل إلّا بالتكنولوجيا، وأملنا الحقيقيّ في العِلْم والتكنولوجيا. الديموقراطيّة... الديموقراطيّة... الديموقراطيّة، فما خسف بنا الأرض إلّا الاستبداد. الناصريّة... الناصريّة... الناصريّة، وما علينا إلّا أن نخلص لمبادئها حتّى نخلص لها. دوّامة لا تسكن ولا تهدأ، والقلوب ثقيلة، والأنفس مريرة، والأفق متجهّم، والشهوات مكبوتة، وأحلام اليقظة مرهقة. وقال شفيق لأبيه ذات مساء:

ـ نحن جيل من الضحايا، إنّي أصدّق مَن يقول ذٰلك...

فسأله محمّد:

ـ ضحايا لمن؟

ـ لجميع من سبقنا!

فتغيّظ محمّد وسأله:

ـ ماذا تعرف عن مصر ما قبل الثورة؟

ـ دعنا من هٰذا وخبّرني كيف أريد أن أكون طبيبًا فتأمرني الحكومة أن أكون مهندسًا؟

فقال محمّد بامتعاض:

ـ اعرفْ وطنك، إليك مكتبتي فهي تحت أمرك...

وعرف شفيق صديقه عزيز صفوت أكثر فأدرك أنّه ماركسيّ. لم يفطن لذٰلك من قبل لقلّة معلوماته من ناحية ولتركيز عزيز على نقد أوضاع شتّى دون كشف النقاب عن هويّته من ناحية أخرى. يلاحظ الآن أنّ الهزيمة لم تنل منه عشر معشار ما نالت من الآخرين فتذكّر قول أبيه عن «توازن الشيوعيّين»، ونظر إلى عزيز صفوت نظرة غريبة وسأله وهما يسيران بلا هدف وسط المدينة:

ـ لعلّك ممّن يفضّلون الاشتراكية على سيناء؟!

فارتسمت ابتسامة في وجه عزيز الشاحب وقال:

ـ التوجّه نحو الاشتراكيّة هو المكسب الحقيقيّ لثورة يوليو...

فقال شفيق وهو يرمقه باستغراب:

ـ أنت ماركسيّ!

وراح الشابّ يتحدّث عن الهدم والبناء من جديد ففتنت الفوضى خيال شفيق واستجابت لها نفسه الحائرة، غير أنّ عزيز انقضّ على المقدّسات بسخرية فاجرة لم يتوقّعها شفيق فأحدثت عنده ردّ فعل مفاجئ رغم خفّة تديّنه. وبدافع من العناد والغضب والرغبة في الجدل والاحتجاج على التطرّف عارَضَ آراء صاحبه وكأنّه صاحب موقف بالرغم من أنّه لم يعرف من المواقف إلّا الناصريّة التي زعزعت الهزيمة أركانها. ولّما شبع من الجدل قال:

ـ إنّي في حاجة شديدة إلى امرأة!

فقال عزيز ضاحكًا:

ـ توجد فرصة حسنة.

اعترف له بأنّه يحوز صديقة، وأنّ لها أختًا قد يجد فيها مطلبه. وزاده بهما علمًا فقال إنّها من بنات المدارس، وإنّ أمّهما أرملة فقيرة تتعيّش من شراء الفاكهة نصف الفاسدة بأبخس الأثمان وتبيعها

للفقراء. وإنّها لم تضنّ على ابنتيها بالتعليم ولكنّ الفتاتين اعتمدتا على نفسيهما في الاستمرار فيه بلا موافقة أو رفض من ناحية الأمّ. قال عزيز صفوت:

ـ لي حجرة مفروشة فوق السطح، والتكاليف معقولة.

وذهب به ذات يوم إلى سطح البيت بعطفة بهان ببولاق. اخترق حوارى كئيبة لم يألفها من قبل، ولم يتنفّس بارتياح إلّا فوق السطح، ومدّ بصره جنوبًا متجاوزًا بضعة أسطح فرأى النيل يجري في شموخه ورأى شاطئه الآخر المجلّل بالأشجار والقصور والعمائر في الزمالك. ومضى به عزيز إلى الحجرة المفروشة فدهمه منظرها بالوحشة!. طولها أربعة أمتار وعرضها متران، على يسار الداخل كنبة وفي الجدار المواجه للداخل كوّة وثمّة مسمار مغروز في الجدار الأيمن وأرضها مغطّاة ببلاط معصرانيّ أغبر اللون. وجم شفيق ولكنّ الآخر لم يُلْقِ إليه بالًا، وما لبث أن جاءت زكيّة محمّدين في بنطلون رماديّ وقميص أزرق كاشف عن أعلى الصدر مفروقة الشعر مقبولة القسمات والهيئة مفصّلة الحمولات. تمّ التعارف والرضى، ولدى ذهاب عزيز أحبّها حبّ الجائع المحروم. تحدّثت بطلاقة وعفويّة كأنّها في بيتها فخامره شيء من الأسف ولكنّه ضمّها إلى قلبه بقوّة واستماتة. وتواصلت العلاقة بترحيب وسعادة من ناحيتهِ كأنّما بلغ بها أقصى ما يتمنّى. وحفظ لعزيز صفوت جميله، ولكنّ ذلك لم يمنعه من معاندته كلّما تهجّم على الإسلام، أجل وجد نفسه يدافع عن الإسلام كأنّه من تيّاره. ولاحظ أمرًا أزعجه. قرأ أحيانًا في عيني أخته سهام إعجابًا بآراء عزيز صفوت. انفرد بها ذات مساء وسألها:

ـ لعلّك لا تدرين أنّه ماركسيّ؟

فحدجته بنظرة محايدة ولم تجد ما تقوله فسألها:

ـ أتحبّذين آراءه الشيوعيّة؟

فقالت بعد تردّد:

ـ المسألة أنّها جديدة ومثيرة!

ـ هل فرغت من الناصريّة؟

ـ لا أظنّ...

ـ هل هان عليك الإسلام؟

فتفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

ـ غير معقول.

فقال وكأنّما يصف نفسه:

ـ إنّك لا تدرين لنفسك رأسًا من رِجْلين...

وثمّة مفاجأة أخرى كانت ترصد فرصتها، فما كان رشاد يخطر في بزّته الرسميّة كطالب في الكلّيّة الحربيّة حتّى صارح أمّه وجدّته قائلًا:

ـ آنَ لي أن أعلن خطبتي لسهام.

وتحمّست كوثر لذلك بدافع لم تتبيّنه بل تمنّت أن يتمّ الزواج في أقرب وقت، ورحّبت بذلك سنيّة أيضًا فحدّثت به محمّد وألفت. غير أنّ ألفت عندما فاتحت سهام في الموضوع قالت الفتاة:

ـ آسفة!

فاستقطبت أنظار ألفت ومحمّد وشفيق، وسألتها ألفت:

ـ أتريدين مزيدًا من التأجيل؟

فقالت بصراحة:

ـ لا أريدها على الإطلاق!

ذهل الجميع وتبادلوا نظرات مستنكرة، وقال محمّد:

ـ ولكنّك كنت موافقة طوال الوقت!

فقالت بهدوء وتصميم:

ـ الأمر كلّه كان عبثًا، ثمّ تبيّن لي أنّني لا يمكن أن أوافق...

هتفت ألفت:

ـ رشاد شابّ ممتاز وغنيّ ووسيم وابن عمّتك، فكّري بما سيُحدثه الرفض!

فقالت بتصميم أشدّ:

ـ أيّ شيء أهون من الكذب في مصير حياة.

فقال محمّد متأوّهًا:

ـ إنّي رجل مؤمن، والمؤمن يؤمن بالزواج أيضًا، ولو كان لي مال لزوّجت شفيق وهو رجل فكيف بالأنثى؟!

فقالت بصوت متهدّج:

ـ لا أريد يا بابا...

غلبه الإشفاق. تنهّد قائلًا:

ـ الأمر لله، سأسلّم بما أكره، ولكنّي حزين، على

نفسي وعليك، على الأيّام، كلّ ما حاق بنا، لقد ماتت جاذبيّة الأرض وتطايرت الأشياء في الفضاء!

وبطبيعته التي تُؤْثر المواجهة سافر إلى حلوان. جلس في حجرة المعيشة بين أمّه وكوثر ورشاد وقال:

- إنّي حزين بحمل رسالة حزينة!

وصبّ عليهم الحقيقة واضعًا نفسه تحت شلّالها كأنّه ضحيّة - مثلهم - من ضحاياها. وقال:

- لم يعد لنا من سلطان على أولادنا!

جفّت حيويّة أرواحهم. تلقّى كلّ منهم لطمة داهمة. ولم يعلّق أحد بكلمة فتفشّى الفتور حتّى ذهب محمّد. وسرعان ما بكت كوثر وهي تقول:

- ابني خير شباب الأسرة!

فقالت لها سنيّة:

- سيغنيك بمن هي خير منها.

أمّا رشاد فمضى من توّه إلى شقّة باب اللوق، فاختلى ما بينه وبين سهام، وسألها:

- ماذا غيّرك بعد أن سمحت لي بأن أحبّك وأعقد بك آمالي؟

فقالت سهام بصوت خافت:

- أعترف بخطئي وأسفي، إنّك شابّ رائع، ولٰكن لا حيلة لي...

فازداد تعاسة وسألها:

- أيوجد شخص آخر؟

فأجابت بوضوح:

- كلّا.

فصمت قليلًا ثمّ قال:

- إذا كان الأمر كذٰلك فلِمَ لا نجرّب حظّنا؟

فقالت بحزن:

- آسفة، انْسَ الموضوع كلّه وسامحني إن أمكن...

وانفرد محمّد بألفت وسألها:

- هل يوجد شخص آخر؟

فقالت:

- أبدًا، إنّها لا تخفي عنّي سرًّا.

فهتف الرجل:

- هٰذا أدهى وأمرّ.

ولٰكن كان ثمّة «آخر». غير أنّ سهام لم تُشِرْ إليه لأنّه لم يعترف بعد، وقد تكون واهمة. فممّا لا شكّ فيه أنّ ميلًا خفيًّا دفعها باستمرار نحو عزيز صفوت!. إنّه يراسلها بنظرات خاصّة أبلغ من أيّ لسان. مضى زحفه وئيدًا متواصلًا حتّى تفتّح قلبها للحبّ، وعند ذاك فقط عرفت أنّه شيء آخر غير الميل الذي وجدته ذات يوم نحو رشاد. وكان رشاد أقوى جسمًا وأجمل صورة إلى وزنه الماليّ المعترف به. عزيز نحيل شاحب الوجه ذو ملامح شعبيّة ومظهر فقير ولٰكن سَحَرَها نور يشعّ من عينيه، وجدّة أفكاره وحيويّة روحه وذكاؤه البيّن. والحقّ أنّ عزيز ومض في رأس ألفت دقيقة ولٰكنّها سرعان ما استبعدته كفرض يتعذّر قبوله...

كان يزور شفيق كثيرًا ويرى سهام كثيرًا، وفكرة حجب ابنتها لم تخطر لها ببالٍ، وكانت هي تجالسهم أحيانًا وكذٰلك محمّد. ثمّ ألم يسلّم محمّد نفسه بضرورة إلحاقها بالجامعة؟. قنع بضرب المثل الإسلاميّ لهم في حياته اليوميّة وحثّهم على تأدية الفرائض وما يتّسع له وقتهم من ثقافة دينيّة، مسلّمًا بعد ذٰلك أمره لله. لعلّ أمين - ابن منيرة - كان الأوحد في الأسرة الذي شمت برشاد في محنته لسابق شغفه بسهام. وظنّ أنّ فرصة طيّبة تسنح له من جديد فعبر فوق علاقته بهند رشوان وأكثر من التردّد على مسكن خاله محمّد، وراح يتودّد إلى سهام، ولٰكنّه شعر منذ أوّل خطوة بأنّها لا تشجّعه ألبتّة فلم يتمادَ في تجربته وقال لنفسه ساخطًا:

- ستكون صورة طبق الأصل من مرفت هانم!

وندم على شروعه في خيانة هند رشوان فكفّر عن زلّته بالتأكيد على إظهار حبّه لها وتعلّقه بها. وبالفعل دخل طورًا جديدًا من علاقته اتّسم بالحرارة والجدّيّة. ومضى يفكّر في المستقبل، وفي العقبات التي تعترض طريق الزواج مثل اختلاف مستوى الأسرتين، والانتظار الطويل الذي لا مفرّ منه، وتكاليف الزواج التي لا مفرّ منها أيضًا. وعند ذاك تذكّر ما يقال عن ثراء أبيه، ولٰكنّه لم ينس «زاهية» التي ينتظر خروجها من السجن، والتي يقال إنّها شريكته به إنّها القوّة الحقيقيّة وراء استثماراته. بالإضافة إلى ذٰلك فإنّ نفوذ عمّه انتهى إلى الأبد بدخوله السجن. أمّا عن دخل أسرته الخاصّة فإنّه بالكاد ييسّر لها معيشة عاديّة أبعد ما

تكون عن الترف. وكم ودّ أن يخلو بهند رشوان لعلّه يروّح عن أعصابه بطريقة فعّالة وآمنة ولكن أقصى ما أتيح له أن يختلس القبلات واللمسات في شوارع العبّاسيّة الجانبيّة. ولم يخلُ في حياته العامّة من عاطفيّة أيضًا فكان أقلّ الأحفاد تمرّدًا على الناصريّة، وأُعجب بأمّه لتمسّكها بها، وربّما من أجل ذٰلك شعر بمأساة أمّه الخاصّة أكثر من أخيه عليّ، وآنست منيرة منه ذٰلك فاختارته بخيالها، وأيضًا عقب رجوعها من الحجّ شاركها في الاهتمام بدينه متبّعًا أسلوبها متحاشيًا أسلوب خاله محمّد. ولاحظ خاله محمّد رجوعه إلى ناصريّته فقال له:

- إنّي لا أفهمك يا أمين!

فقال أمين:

- معذرة، لا أستطيع أن أنسى الخلاص من النظام الملكيّ، الإصلاح الزراعيّ، تمصير الاقتصاد، التأميم، التعليم المجّانيّ، مكاسب العمّال والفلّاحين، فلا الهزيمة ولا الفساد ولا الاستبداد سينسيني ذٰلك!

رغم ذٰلك لم يعدْ حماسه بالحماس الذي كان لكنّه كان شيئًا ما بخلاف أخيه عليّ. عليّ خسر كلّ شيء وخسر نفسه أيضًا. طحنته الخيبة، جفّت ينابيع أحلامه، حدس طنين العداوة حتّى في الخلوات وفي الليالي القمريّة. وكما صمّم قديمًا ألّا يقتني قطّة عقب فجيعته بموت قطّة محبوبة فقد عاهد الله على تجنّب المذاهب والزعامات عقب الهزيمة مصمّمًا على الرفض وحده. وحزنت منيرة على حاله فسألته مرّة:

- ماذا تحلم عن المستقبل؟

فقال بعصبيّة:

- ليتني أجد عملًا في بلد أفضل!

فسألته بعتاب:

- وتهجر وطنك؟

فقال بوضوح وتأكيد:

- في ألف داهية!

فقالت محتجّة:

- ليس في أسرتنا تفكير من هٰذا النوع!

فقال ساخرًا:

- لنا في السجن عمّ وزوجة أب!

وفي تلك الأيّام توفّي الأستاذ حسن عليا آخر أزواج مرفت هانم. اشترك عليّ في تشييع جنازته وخياله يحوم حول أرملته. خفق قلبه المحروم ونشط خياله الذي لم تبرحه المرأة مذ غمزته في بيت خاله. وتبلورت وراء إرادته اندفاعة متربّصة مغامرة. ولأنّه يعيش تحت مظلّة من الاستهتار فقد اكتسب سلوكه جراة غير معهودة. راح يعدّ الأيّام حتّى وافى يوم الأربعين، ثمّ سافر يوم الجمعة التالي إلى حلوان مساء اتّقاء للأعين. ودقّ جرس الشقّة التي اتّخذ جدّه أحمد برهان منها عشًّا لعشقه وزواجه. وعرفته مرفت هانم من أوّل نظرة في بنطلونه الأزرق وقميصه الأبيض المفتوح الطاقة لاستقبال نسمات الربيع. دهشت ولكنّها رحّبت به قائلة:

- أهلًا...

فتبعها إلى حجرة الاستقبال وهو من الانفعال لا يرى. وجلس قائلًا:

- جئت لأعزّيك ولو متأخّرًا...

فشكرته وهي تتفرّس في وجهه بارتياب. كانت ترتدي فستانًا أسود يكشف عن ذراعيها وأكثر ساقيها، ولم يمنعها الحداد من العناية بشعرها ووجهها فشعّ منها ذاك النور الباهر. ربّما بدت أصغر من سنّها ولكنّ العين لا تخطئ كهولتها خاصّة كراميش الفم وما تحت العينين، ولكنّه كان ينشد هٰذه الصورة دون غيرها. وتذكّرت هي نظراته التي استوعبتها في أكثر من زيارة لبيت ألفت فلم تشكّ في أنّ وراء الزيارة ما وراءها. أيمكن ذٰلك حقًّا؟!. وما عسى أن تصنع به؟. ودلّ ترحيبها به وتقديمها القهوة على أنّها تترك الباب مواربًا حتّى ترى ما يجيء به الغيب. وكان من ناحيته عازمًا على ألّا يتجاوز التمهيد، فنظر إلى الصالون المموّه بالطلاء الذهبيّ وقال:

- ما أجمل ذوقك!

فقالت باسمة:

- إنّه يشبه طاقم مامتك.

وكان لمح على الجدار صورة المرحوم مكلّلة بغلالة سوداء فلم يدر ماذا يقول. ولم تشأ المرأة أن تزيد من حرجه فسألته:

- هل زرت جدّتك؟

فأجاب مرتبكًا:

- كلّا.

- لعلّ أحدًا لمحك؟

- كلّا. . . نور الطريق لا يسمح بذلك.

- إنّي أشكرك على أيّ حال.

عند ذاك قام وهو يتساءل:

- هل تسمحين لي بالزيارة عند سنوح الفرصة؟

فقالت باسمة:

- إنّه بيتك بغير استئذان. . .

رجع من حلوان وهو يقول لنفسه إنّها ذكيّة ولا مانع لديها. وشغل بعد ذلك بامتحان آخر العام في الكلّيّة، ثمّ استقبل عطلته الصيفيّة. وبلا تردّد كرّر الزيارة بجرأته المقتحمة، وجلس وهو يقول:

- منعني الامتحان من زيارتك!

كأنّ الزيارة واجب غير قابل للمناقشة. وسألها وهو يلاحقها بنظرات محمومة:

- وحدك دائمًا؟

فأجابت بأسى:

- تقريبًا. . .

وأفصحت نظراته عن رغبته بقوّة لا يفي بها كلام. وقال لنفسه إنّها تفهمني وتنتظر. وقال أيضًا لو كذب ظنّي فلن أخسر من الدنيا أكثر ممّا خسرت. ولّما جاءته بقدح ليمون مدّ يده فقبض على ساعدها. حدجته بنظرة متسائلة وهي مقطّبة فشدّها إليه بقوّة ثمّ أحاطها بذراعيه. سألته كالمحتجّة:

- أأنت في وعيك؟

فأجاب وهو ينهض بطوله الفارع:

- لم أفقده كلّه بعد.

هكذا شرعت مرفت هانم في غرامها الأخير. وسجّلت تلك الليلة أوّل كلمة في صفحته المورّدة، وحقّق به عليّ حلمًا قديمًا يائسًا، أمّا مرفت فقدّمت على مذبحه ولعها العارم بالحياة والشباب. والعجب أنّه سعد مثلما سعدت وأكثر. والأعجب أنّ سيطرتها عليه فاقت سيطرته عليها، فوفّقت دائمًا إلى نفخه بالخيلاء والأريحيّة والجنون حتّى باتت المستقرّ الوحيد في الدنيا الذي يجد فيه ذاته وشفاءه وخلوده. وكانت سهام في نفس الوقت يتفتّح لها طريق آخر. امتعضت نفسها المتطلّعة عندما علمت باضطرار عزيز صفوت إلى الانقطاع عن الدراسة بعد الثانويّة العامّة ليرتزق من مراسلة بعض الجرائد العربيّة. وكان عزيز قد يئس تمامًا من جذب شفيق إلى فكره، بَيْدَ أنّه - وهو بسبيل إقناعه - دفعه وهو لا يدري إلى حضن الدين فلحق بأبيه. ولكنّه حقّق نجاحًا عفويًّا مع سهام وهو ما لم يركّز عليه من أوّل الأمر. عند ذاك انساق إليها بعقله وقلبه معًا فباتت غاية حياته. وزارها في الكلّيّة ودعاها إلى لقاءات قاصرة عليهما دون شفيق، فلمّا وافقت تلقّى من الحياة بركة ضافية. وناقشها برفق كمبتدئة ولكنّه لم يصبر مع عواطفه المتأجّجة فقال لها:

- إنّي أحبّك، من قديم، ربّما من أوّل يوم. . .

وجد في صمتها المحفوف بالرضى استجابة أخطر من استجابتها العقليّة، ولعلّها كانت الاستجابة الصادقة الأصيلة القائمة على أساس مكين حقًّا. قالت له:

- إنّي آسفة لانقطاعك عن الدراسة.

فتساءل باستهانة:

- هل تعطيك الجامعة شيئًا يُعتبر الحرمان منه خسارة؟

ثمّ ضغط على راحتها بحنان وقال:

- لن أنقطع عن الثقافة أبدًا.

وتساءل عمّا يدور برأسها من هموم المستقبل فرآه في ضوء ساطع، وصارحها بما رأى كالشهادة الجامعيّة وطبقة الأسرة والفقر، فقالت:

- لا يهمّني هذا كلّه!

فقال لها:

- إنّها مشكلات حقيقيّة ولكن في العالم الذي يؤمن بها، فإذا كفرنا بهذا العالم فلا وجود ثمّة لها. . .

وتحمّست بدافع حبّها لتقويض ذلك العالم المغضوب عليه، ولكنّها ترنّحت على الحافة وهي تشعر بحاجتها إلى المزيد من القوّة لتحقيق واقع جديد. ومع أنّ جوّ أسرتها عوّدها على الصدق والصراحة إلّا أنّها أسدلت على أسرارها الجديدة ستارًا لما تعرفه جيّدًا عن أبيها، بل وأخيها الذي انضمّ إلى الأب من خلال عناده الجدليّ قبل أيّ شيء آخر، وقالت لنفسها:

- فلنؤجّل المعارك إلى حينها!

ولكنّها لم تستطع أن تعرف خواطرها عن «المستقبل» فسألت عزيز يومًا وهما جالسان في الجنفواز:

- ألديك صورة واضحة عن المستقبل؟

فقال بهدوء لم يخلُ من امتعاض:

- عندما تكفّين عن الاكتراث بهٰذه الشواغل أعرف أنّك وصلت!

فصمّمت على أن تحوز ثقته مهما جشّمها ذٰلك من متاعب. وكان يجد في زينات محمّدين - أخت زكيّة صديقة شفيق - مفرّجًا عن توتّرات شبابه لينعم بصفاء الحبّ مع سهام غير أنّ زينات فاجأته ذات يوم قائلة:

- سأتزوّج من تاجر ليبيّ وأسافر معه إلى ليبيا.

فقال لها قبل أن يفيق من المفاجأة:

- سيتاجر بك هناك!

فقالت دون مبالاة:

- أربح لي أن أكون سلعة هناك.

واختفت من حياته مخلّفة أعصابه في مهبّ الريح. واستأثر شفيق وزكيّة بحجرة السطح. والتحقت زكيّة بكلّيّة التجارة، وتوثّقت العلاقة بينهما ملتحمة بالألفة وشيء من الاحترام حتّى قال له عزيز صفوت:

- لم تعد علاقة عابرة، على الأقلّ من ناحيتك...

فابتسم شفيق وتساءل:

- ألا يُخشى أن تلحق بأختها ذات يوم؟

- فَرْض محتمل...

فقال شفيق متنهّدًا:

- نحن نتدهور مثل مرافقنا العامّة...

- إنّهم يستعدّون للحرب...

فسأله باهتمام:

- هل نُقْدم حقًّا على هٰذه المغامرة؟

ضحك عزيز ضحكة غامضة ثمّ قال بيقين كأنّه أحد أعضاء هيئة أركان الحرب:

- في اللحظة الأولى سوف ينقضّ الطيران الإسرائيليّ على مرافق الماء والكهرباء والمواصلات تاركًا مهمّة تصفية النظام للملايين من سكّان القاهرة!

فتساءل شفيق بقنوط:

- إذن لماذا ننفق الآلاف من الملايين؟

- لا حيلة لنا في ذٰلك!

- والحلّ؟

فقال عزيز باسمًا:

- الحلّ في الداخل!

فقال شفيق بمرارة:

- الحقّ أنّ مصر محتلّة بالروس قبل الإسرائيليّين!

فقطّب عزيز قائلًا:

- الإسرائيليّون يأخذون أمّا الروس فيعطون ولولاهم لانتهى كلّ شيء!

صمت شفيق بفم مليء بالمرارة، ثمّ قال وكأنّما يخاطب نفسه:

- تكون كارثة لو لحقت زكيّة بأختها!

وسبقهم رشاد نعمان الرشيدي - ابن كوثر - إلى خوض الحياة العمليّة وألحق بسلاح المدفعيّة. ولّما بلغ سنّ الرشد تسلّم تركته حائزًا درجة من الثراء لا بأس بها. وقالت له كوثر:

- دعني أخطب لك!

فقال ضاحكًا:

- لا أتزوّج على الطريقة القديمة.

فقالت بلهفة:

- تزوّج بالطريقة التي ترضيك.

لم يكن جرحه قد اندمل تمامًا فقال:

- صبرك، ليس في الجبهة عرائس.

وأفزعتها كلمة «الجبهة» التي علمت بها لأوّل مرّة ونظرت صوب سنيّة فقال لها:

- الجميع هناك، والأعمار بيد الله.

فتساءلت كوثر في كآبة:

- والاستنزاف والردع؟!

فقالت سنيّة:

- قلبي يحدّثني بخير والله حارسه.

تظاهرت بالشجاعة لتبثّها في روح كوثر ولٰكنّ حناياها درّت إشفاقًا على الحفيد الذي تحبّه أكثر من الجميع. وصدقت نيّتها على تلاوة آية الكرسيّ عقب صلاة العشاء، ليلة بعد أخرى، لتحلّ به ورفاقه بركتها. وكم انتظرت بلوغه سنّ الرشد لتفضي إليه بآمالها عن البيت والحديقة والمدفن، وها هو يبلغه وهو

في الجبهة فكيف يطاوعها لسانها على الكلام؟!. دائمًا وأبدًا يعترضها الشوك وهي تقطف الوردة. بل هي أسرة لا يهادنها سوء الحظّ أبدًا. كوثر، منيرة، محمّد، رشاد وسهام، وقبل هٰؤلاء تطلّ من أفق الذكريات مأساة حامد برهان، فمتى تدركنا العناية الإلٰهيّة؟!. والعجيب بعد ذٰلك أن تولي شخصها كلّ عناية ورعاية كأنّما تتحدّى الشيخوخة الزاحفة. إنّها تتردّد على عيادات الأطبّاء في مواعيد منتظمة، تروي عطشها من مياه حلوان المعدنيّة، تملأ رئتيها بالهواء الجافّ المنعش، وتطارد الشيب بالحنّاء متوّجة رأسها دائمًا بهٰذا اللون الأرجوانيّ المهيب. واذا لمحت على شفاه الأبناء ابتسامة قالت:

ـ علينا أن نعدّ أنفسنا للصلاة ونحن على خير حال!

وكم من مرّة تنتقد فيها إهمال كوثر ومحمّد ومنيرة الذي جعل من رءوسهم مرتعًا للشيب يجول فيه ويصول دون معارض. وقالت لها أمّ سيّد ذات مساء وهي راجعة من السوق:

ـ رأيت في العتمة سي عليّ ابن ستّ منيرة داخلًا عمارة ستّ مرفت!

فقطّبت ثمّ قالت:

ـ لعلّه يزور زميلًا له.

ثمّ مخاطبة نفسها:

ـ لم يفكّر في زيارة جدّته!

وشكته إلى منيرة في لقاء الجمعة، وسألته منيرة بعد العشاء في شقّتها بالعبّاسيّة:

ـ أذهبت أوّل أمس حقًّا إلى عمارة مرفت هانم بحلوان؟

انحشر قلبه في حلقه وظنّ أنّه انفضح، غير أنّ منيرة أنقذته وهي لا تدري فواصلت:

ـ لا تهمّني الزيارة في ذاتها فلعلّك زرت صديقًا ولٰكن أما كان الواجب أن تمرّ بجدّتك؟، عليك أن تزورها لتخفّف من حزنها!

فازدرد ريقه قائلًا:

ـ لم يتّسع الوقت!

ثمّ بصراحة خشنة:

ـ والبيت القديم مملّ!

فقالت بعتاب:

ـ لك جدّة مدهشة لا تُملّ!

فلاذ بالصمت مستوصيًا بمزيد من الحذر. ولّما رجع رشاد لقضاء عطلته الدوريّة أثارت القاهرة انفعاله. هٰذه المدينة الخالدة التي تعيش بمعزل عن الزمان!. وصمّم من بادئ الأمر على ألّا يشير بحرف إلى حياة الجبهة الحقيقيّة. وبعد العناق قال:

ـ ليست الجبهة كما تتصوّرون، ما هي إلّا مبالغات وأوهام!

احتفظ بمعاناته في سرّيّة مقدّسة، كما دفن زلازل الانفجارات في أعماق ذاته. ومرارة الهزيمة الموروثة عن غيرهم، والمسئوليّة التي تنوء بمناكبهم عمّا حدث وعمّا يحدث وعمّا سيحدث. لذٰلك قذفت به الجبهة في أعماق هموم عامّة عاش أكثر عمره في هامشها. ولٰكن شدّ ما تبدو القاهرة لامبالية معربدة متمرّدة!. وقال لأمّه دون تمهيد:

ـ ماما، إنّي أفكّر جادًّا في الزواج!

فهتفت كوثر:

ـ ما أسعدني بسماع ذٰلك.

وقالت سنيّة بمرح:

ـ رأيت ولا شكّ ما غيّر فكرك!

فقال بغموض:

ـ في المرّة القادمة تتّضح الأمور!

الحقّ أنّه في ليالي المعاناة وردت عليه فكرة الزواج كإلهام مشرق. ووثبت إلى إرادته عندما رأى أخت زميل له في القاهرة. ولم يكن حبًّا من أوّل نظرة، وجدها مقبولة وكفى، ولم يكن بريئًا تمامًا من سهام. وأنفق العطلة في التسكّع مع الزملاء. وزار خاله وخالته أيضًا. وهناك صارحهم بما أخفاه عن أمّه وجدّته. وجد منيرة ملهوفة على المصير أكثر من الجميع ولٰكنّه لم يروِ لها ظمأ.

وقال رشاد بعتاب:

ـ القاهرة مشغولة بذاتها!

فسأله عليّ:

ـ ماذا تتوقّع غير ذٰلك؟

وقالت منيرة في حيرة:

ـ الناس إمّا يحاربون أو يسالمون أمّا نحن فقد اخترعنا

حالًا جديدة غير مسبوقة بنظير!

وفي بيت خاله محمّد ارتفعت درجة الغليان درجات أكثر. هو أيضًا ثمل بالأسى عندما رأى سهام وهاجت شجونه. ولّما عاملته برقّة وأدب وتحفّظ كأن لم يكن بينهما شيء حزن أكثر. وقالت له:

- نتمنّى لك السلامة.

فلم يحدث له أيّ سرور. أمّا خاله محمّد فقد لخّص الموقف من وجهة نظره قائلًا:

- إنّه يضحّي كلّ يوم بأرواح بريئة ليداري بها عاره!

فسأله:

- هل عندك حلّ يا خالي؟

فقال محمّد:

- ولا حلّ غيره، اسمه الحلّ الإسلاميّ!

وشعر لأوّل مرّة بأنّ شفيق منحاز إلى رؤية والده فأدرك مدى التغيّر الزاحف على آلِهِ في غيبته عنهم ما بين الكلّيّة والجبهة. لكنّه لم يحزر مدى الانقلاب الذي حلّ بسهام. إنّها الآن مؤمنة بالثورة المطلقة. أجل لعب قلبها الدور الأوّل في ذٰلك، كما لعب العناد الجدليّ دوره في انقلاب شفيق، ولٰكنّ النتيجة واحدة. وكانت تخوض عاصفة عنيفة وتشعر في الوقت ذاته بأنّها ليست إلّا بداية. وما تدري إلّا وعزيز صفوت يقول لها:

- إنّي أدعوك إلى حجرتي بدلًا من التسكّع!

وجمت، وتورّد وجهها الجميل، وتمتمت:

- حجرتك!

فقال بعجلة:

- سحبت اقتراحي!

تساءلت عمّا يعنيه انسحابه؟. ارتاحت له كقرار ولٰكنّها انسحقت تحت وطأة القلق. دائمًا تلهث وراءه فحتّى متى؟!.

أمّا هو فقال بهدوء وحنان:

- ما زلت أنتِ أنتِ، سهام كريمة المربّية الفاضلة منيرة وحامد برهان.

فقالت بعصبيّة:

- كلّا، لا تسئ بي الظنّ، ولٰكن هٰذا لا يعني...

وتوقّفت عن الكلام فقال:

- هٰذا يعني أنّك لم تتخطّي المرحلة بعد.

فتساءلت:

- لِمَ العجلة؟، لا توجد في طريقنا عقبة حقيقيّة.

فتساءل باسمًا:

- ولِمَ الصبر؟!

ها هو يحاصرها في ركن مستندًا إلى امتلاكه قلبها حتّى جذوره. ولدى اللقاء التالي تصرّف تصرّفًا غاية في الشذوذ ولٰكن بطمأنينة وثقة كاملتين. مضى بها نحو طريق جديد ولّما سألته عن وجهته أجاب:

- نحن ذاهبان إلى بولاق!

انساقت معه كالمنوّمة شاعرة بأنّها تعبر حدود وطنها مهاجرة إلى الأبد. ونبض قلبه بالصدق وأعذب النوايا فتخيّل أنّهما جسد واحد ووعي واحد. ولّما دخلا الحجرة شبه العارية استرق إليها نظرة متفحّصة وقال:

- دون مقامك بما لا يقال...

فنظرت من الكوّة صوب النيل وهي ترفع منكبيها استهانة فقال لنفسه إنّ هٰذه الحجرة ذات التاريخ الطويل في سوء السمعة تستقبل - لأوّل مرّة - صدقًا وأصالة. ورغم تظاهرها بالثبات انتفض داخلها بتيّارات متضاربة. وكانت رغبتها لا تقلّ عن رغبته ولٰكنّها لم تطاوعه بدافع رغبتها، أو لم تطاوعه بدافع رغبتها وحدها. وأقنعت نفسها بأنّها لا تستسلم ولٰكنّها تثب إلى قمّة فريدة، غير أنّها شعرت من ناحية أخرى بأنّها تتردّى إلى قعر هاوية من الأسى الدائم. وحدست بغريزة ما أنّه - على عنفه الظاهر - في حاجة إلى حنانها، وبأنّها ستفتقد الحنان إلى الأبد. ووهبت الكثير دون أن تنال ذرّة من عطاء لاضطرام عقلها، أمّا هو فمسح على وجهه في ارتياح وتمتم:

- بكلّ بساطة، هٰذا هو الزواج!

فامتعضت لهٰذا القرار المحفوف باليأس ولٰكنّها ابتسمت فسألها:

- كيف تشعرين؟

فأجابت وهي تلثم خدّه:

- بالسعادة.

- أعترف بأنّك حظّي من الحياة...

فقالت برجاء:

ـ لعلّك لا تستسلم للحنق بعد الآن!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ إنّه الوجه الآخر للحبّ العميق. . .

هٰكذا ولدت من جديد في عالم جديد. تمادت في التوغّل فيه بكلّ قوّة. لا اختيار لها فإمّا الثوريّة وإمّا الضياع. إنّها تنفصل نهائيًا عن أبيها وأمّها وأخيها، وتعايشهم اليوم كفرد من طابور خامس. واستعرضت رحلتها الطويلة ما بين رشاد وعزيز فبدت خياليّة، وأنّ كلّ خطوة تخطوها ينهدم ما وراءها فينقلب هاوية لا تسمح بالتراجع قيد أنملة. وغمغمت لنفسها:

ـ يوجد أيضًا حزن عميق.

متى يتأتّى لها أن تنشر أسرارها دون مبالاة؟!. وضاعفت من اجتهادها الدراسيّ لهفة على الاستقلال. ولم يجدّ جديد بالنسبة لمشروع رشاد عن الزواج. ولم يحضر في ميعاد إجازته الدوريّة. بدلًا من ذٰلك بلغتهم أنباء رسميّة بأنّه يعالَج في مستشفى الجيش من إصابة غير خطيرة. هرعت إليه كوثر وسنيّة وهما على حال من الفزع لا توصف. وعرفا أنّ ثمّة شظيّة أصابت ترقوته اليمنى تحتاج إلى اعتكاف قصير. وكانت إصابة كوثر أفدح من إصابته رغم أنّ حاله دعت إلى الاطمئنان التامّ. وقالت له كوثر:

ـ لن ترجع إلى الجبهة فيما أعتقد. . .

فضحك قائلًا:

ـ سأرجع حال شفائي. . .

ثمّ وهو يربّت على ظهر كفّها:

ـ نحن نقترب من هدنة!

ولٰكنّ كوثر آمنت بأنّها أيّام حروب وفواجع. وقالت:

ـ كنّا نستعدّ للزواج!

فقال ضاحكًا:

ـ تبيّن لي أنّ فتاتي مخطوبة!

فقالت بضيق:

ـ ما أكثرهنّ لمن يشاء. . .

فقال مداعبًا:

ـ تتكلّمين باعتداد الخاطبة مع أنّك لا تبرحين البيت إلّا عند الملمّات!

وكان أمين ابن منيرة أوّل من افتتح عصر الشرعيّة في جيله على غير توقّع من أحد. وجد هند رشوان تواصل نجاحها في كلّيّة التجارة بهمّة عالية فصارحته بأنّها تودّ أن يخطبها وأنّها باتت تضيق بسرّيّة علاقتهما. وكان يحبّها فوافقها على رأيها. واقتحم حجرة مكتبة أمّه التي تقرأ فيها بعض الوقت كلّ مساء وجلس قبالتها. نظرت اليه متسائلة فقال:

ـ أريد أن أخطب!

دهشت منيرة وطالبته بمزيد من الإيضاح فقال ببساطة:

ـ هند رشوان جارتنا. . .

أدرك دون جهد أنّها لم تُسَرّ، وكان يتوقّع ذٰلك، ولٰكنّه كان واثقًا من حكمتها أيضًا، أمّا أبوه فقد كتبت عليه الموافقة دون تردّد بحكم المثل الذي ضربه! وسألته منيرة:

ـ أواثق أنت من نفسك؟

ـ بكلّ يقين يا ماما، إنّها فتاة ممتازة.

فأخفت معركتها الباطنيّة وقالت:

ـ على خيرة الله.

فقال ضاحكًا:

ـ أيضًا في كلّ أسرة يجب أن يوجد ٥٠٪ من العمّال والفلّاحين!

فقالت مفصحة بعض الشيء عن موقفها الباطنيّ:

ـ ولٰكنّ الرئيس نفسه زوّج بناته من الطبقة العالية!

ورغم شتّى التعليقات كانت الخطبة أوّل حدث سارّ في جوّ الأسرة. وقيل إنّها خطبة تحمل طابع زمانها الغريب في كلّ شيء. وشهدت الأسرة جميعًا حفل الخطبة البسيط في شقّة الأسطى المتواضعة وفي مقدّمتها سليمان بهجت. وتأثّر رشاد بالطقوس ففاض قلبه بالحنين، أمّا سهام فشعرت بوطأة سرّها أكثر من أيّ وقت مضى. وتساءل عليّ في نفسه لِمَ لَمْ تُدْعَ مرفت حبيبتي؟!. أمّا شفيق فتذكّر زكيّة محمّدين مقرًّا بأنّها لا تقلّ في شيء عن هند رشوان ولٰكنّها تنتمي إلى طائفة المنبوذين!. وأدركت منيرة من سياق الحديث مع أمّ هند أنّها تحلم بزواج قريب عقب التخرّج فساورها قلق وتساءلت متى يصبح أمين قادرًا على الزواج حقًّا؟!.

وهٰذه الهموم تتضخّم في ضمائر أصحابها حتّى تحاكي الأفلاك في دورانها ولٰكنّها تذوب وتختفي إذا اصطخبت موجة عاتية. وانصبّت هٰذه الموجة دون نذير وبلا مقدّمات مثل زلزال. فذات مساء تغيّر وجه الإرسال التلفزيونيّ فاقتصر على إذاعة القرآن الكريم. ولفّت الحيرة الناس من كلّ جانب. قال البعض:

ـ هٰذا لا يكون إلّا لموت عظيم في الدولة.

ـ أو موت أحد ضيوفنا العرب!

ـ غير مستبعد أن يكون الملك حسين قد قُتل. . .

وإذا بأنور السادات ينعي إلى الأمّة العربيّة أعظم الرجال جمال عبد الناصر. قذف نائب الرئيس المستحيل في وجوه الناس باعتباره ممكنًا. وتطايرت الأفئدة في الصدور وحلّ عالم خرافيّ محلّ العالم القديم. متى وكيف ولماذا؟. وهل هٰذا ممكن؟. ولِمَ لا يكون ممكنًا؟. ما تصوّر أحد أنّه سيشهد موته. ما تصوّر أنّه يجوز أن يموت. ثمانية عشر عامًا مضت وهو يصول ويجول في كلّ صدر، ممتطٍ لكلّ منكب، منتشر في كلّ وعي، خفّاق وراء كلّ قلب، هو الحظّ والرزق، والأمان والخوف، الأمل واليأس، الصديق والعدوّ، القوّة والضعف، الأمس واليوم والغد، السلام والحرب، النصر والهزيمة، فماذا يبقى للناس إذا تلاشت فجأة هٰذه العواطف؟!. غشيت الكآبة البيت القديم. أجهشت كوثر في البكاء بلا منطق واضح إلّا أن تقدّم احترامها المشوب بالرهبة والخوف أمام حضور الموت المتجسّد لعينيها. وسرعان ما بكت أمّ سيّد وأمّ جابر. وصمتت سنيّة طويلًا ثمّ اغرورقت عيناها قائلة:

ـ لا دائم إلّا وجهه!

وسمع محمّد بالخبر لأوّل مرّة وهو ماضٍ في طريقه إلى باب اللوق. قابله زميله فهمس به في أذنه. لم يصدّقه، وخشي أن يكون وراءه شرك لجرّ الأعداء إلى المعتقل فقال لزميله بحدّة:

ـ لا تردّد ما ليس لك به علم!

فقال الرجل بيقين:

ـ أمام تلفزيون المقهى شاهدت وسمعت!

هرول إلى شقّته فوجد ألفت وشفيق وسهام حول التلفزيون، ولا تخلو عين من أثر دموع، قال وهو يجلس:

ـ البقيّة في حياتكم.

جلس واضعًا حقيبته على حجره مسندًا عصاه إلى خوان وأغمض عينيه. وانقضت دقائق قبل أن يفيق من ذهوله. ولمّا أفاق من ذهوله شعر بأنّه يولد في عالم جديد. شعر بالقيود تنحلّ من حول عنقه ويديه وقدميه. شعر بأنّ وزنه يخفّ وأنّ نسائم الأمان تهفو إلى وجدانه. وسرعان ما اجتاحه ارتياح عميق، وملأه حبور قويّ لا حيلة له فيه فأخفاه خلف جفنيه المسدلين. وتمادى به الحبور فاستغفر الله في سرّه وخاف أن يفلت منه الزمام فيغشى عليه. وقد بكت ألفت لاقتحام حقيقة الموت لقلبها بقوّة لم تعهدها من قبل. وبكى شفيق وسهام من أجل المعاشرة الوجدانيّة القديمة التي لم تتبخّر كلّها. وتساءلت سهام:

ـ من كان يتصوّر ذٰلك؟

فأجاب محمّد:

ـ لقد أنسانا كلّ شيء حتّى القدر.

فتساءل شفيق:

ـ من يخلفه يا ترى؟

فقال محمّد بازدراء:

ـ ليس في الإمكان أسوأ ممّا كان!

أمّا في العبّاسيّة فقد ملك الحزن منيرة وأمين بقوّة لا تبشّر بعزاء قريب على حين لبث عليّ فريسة للذهول حتّى تمتم بمرارة ساخرة:

ـ هٰذه هي التنحية التي لا رجوع عنها!

وعاش عزيز صفوت تلك الأيّام أكثر وقته في الشوارع والمقاهي. صاحبته سهام وقتًا منها غير قصير. وقال لها بثقة:

ـ عهد السادات قصير أمّا المستقبل فلرجالنا!

وخاض خضمّ الحزن الشامل، وشهد الجنازة، وسمع التلقين المذاع فتخيّل القبر كنهاية لا مفرّ منها، كزنزانة غارقة في الظلام، وتصوّر الضجعة المنفردة المعزولة عن المجد والخاشعة فوق حفنة من تراب. وسرعان ما دهمه وارد لم يجرِ له في بالٍ متمثّلًا في سَيْل من النكات!. تأمّل ذٰلك وتعجّب فقالت سهام:

ـ أعداؤه كثيرون أيضًا.

ولٰكن بدا الأمر أوسع من ذٰلك. وقال لها:

ـ إنّه رمز للحبّ والخوف فهو حقيق بأن يثير عواطف متناقضة...

أجل، ليس الحزن وحده ما يحرّك الناس. إنّه حزن ظاهر وفرح خفيّ ورعب كامن تتناغم جميعًا في لحن جنونيّ. الموت يعلن على الملأ أنّه يأخذ عبد الناصر نفسه فأشعرَ كلّ إنسان بقربه الشديد فقاسمه موته وهو لا يدري. قال لسهام:

ـ الناس تبكي أنفسها أوّلًا!

فقالت سهام:

ـ اعتاد الناس أن يروه وحده فوق خشبة المسرح، اليوم المسرح خالٍ، وليس أمام الفراغ إلّا الضياع والذعر...

ـ أوافقك تمامًا، فيما مضى أراد أن يتنحّى فاستبقوه فيما يشبه الثورة، ها هو الموت يفلته من قبضتهم اليائسة، ويطالبهم بحمل أمانة لم يعتادوا حملها، فراحوا في يأسهم يبكون ويتكّتون...

ويمضي الوقت ويأخذ الطوفان في الانحسار وما تلبث الدراما أن تحفل بالأحداث يجرّ بعضها بعضًا. وتتأزّم الأمور وتتعقّد ولٰكنّها تنتهي بنهاية غير متوقّعة فينتصر الرئيس الجديد على أعدائه انتصارًا مبينًا. وبالانتصار تلوح بشائر زعامة جديدة، ومولد شعبيّة جديدة متعطّشة للانتصار ومتطلّعة للأمان، وتبدأ دورة جديدة للبحث عن مخرج من الأزمات المتراكمة. وكان رشاد قد رجع إلى الجبهة في كامل عافيته، وبدا أنّه انهمك في العمل لدرجة أنسته إلى حين مشروع زواجه ولٰكنّ كوثر لم تنس. وأدركتها هموم جديدة باعتلال كبدها فتبدّت للناظر أضعف من أمّها ـ الماضية فيما بعد الستّين ـ مع محافظتها على صحّتها ورونقها، ومصارعتها للكبر مصارعة لا هوادة فيها. وفي أواخر الخريف أمطرت السماء مطرًا غزيرًا فرشح سقف الصالة وانداحت بقع بالجدران على حين تسلّلت قطرات من ركن حجرة المعيشة. عند ذاك تشجّعت سنيّة قائلة:

ـ لا مفرّ من إصلاح السطح...

وأذعنت كوثر لمشيئة أمّها دون تردّد. وجاءتها أمّ جابر الطاهية بقريب لها، أزال الطبقة المتهرّئة وثبّت مكانها طبقة من الإسمنت. وتساءلت الأمّ:

ـ ألا نعيد طلاء الصالة وحجرة المعيشة؟

ولٰكنّ كوثر ـ وكانت مدّخراتها تنفد باستمرار ـ أجابت:

ـ فلنؤجّل ذٰلك!

فقالت سنيّة وهي تداري هزيمتها بابتسامة:

ـ سيجيء الفرج على يد الرئيس الجديد.

فقالت كوثر بوجوم:

ـ ولٰكنّ رشاد غارق في الجبهة يا ماما!

ـ الرئيس مشغول بالداخل، جادّ في البحث عن حلّ سلميّ، وعلاقته بالعرب تتحسّن يومًا بعد يوم...

وفي شقّة باب اللوق استعاد محمّد شخصيّته المفقودة. مضى يتكلّم بعد عكوف طويل على المناجاة الباطنيّة. وتمّت لقاءات كثيرة بينه وبين أصدقائه القدامى. وقال له أحدهم مرّة في مكتبه:

ـ الرئيس الجديد صديق.

فقال محمّد بحذر:

ـ ليكن اعتمادنا على أنفسنا...

ـ العدالة تزحف حتّى شملت الإقطاعيّين أنفسهم...

فراح يذكّرهم بتجربة الماضي الخائبة، ووافقه على ذٰلك شفيق. أمّا سهام فأساءت الظنّ بالعهد الجديد منذ تمّ النصر لرئيسه، لا ترديدًا لأقوال صفوت فقط، ولٰكن لأنّها بلغت الغاية في تطوّرها الجديد، حتّى الدين اقتلع من قلبها. واشتدّ شعورها بالغربة في أسرتها، وشعرت بتهديد خفيّ يحدق بأمنها وهي بينهم حتّى قالت لنفسها مرّة:

ـ هٰذه الشقّة لا ينقصها إلّا مؤذّن كي تصير مسجدًا.

وقد آنست من أحد مدرّسيها ميلًا نحوها حتّى كاشفها يومًا برغبته في الزواج منها. وذعرت بشدّة، وأخبرته بأنّها «محجوزة»، مشفقة في الوقت نفسه من ترامي الخبر إلى أهلها. لذٰلك فكلّما ذكر للزواج سيرة كانت تقول على سبيل الاحتياط للمستقبل:

ـ لن أفكّر في ذلك حتّى أكمل دراستي!

وتبلورت في عقلها خطّة للمستقبل وهي أن تتزوّج من عزيز ولو اضطرّت إلى إبلاغ والديها من بعيد، بالمراسلة!. وزادتها الأيّام ثقة في حبيبها ومعرفة بجوانب حسنة فيه. فهو يحبّها بصدق لا تخطئه غريزتها، وهو جادّ كلّ الجدّ في تمسّكه بمبدئه، وحتّى غضبه على أعدائه مبطّن برومانسيّة موهوبة لإنسانيّة لم توجد بعد. ثمّ إنّه إنسان، يتذوّق الشّعر والموسيقى ويحبّ الكلاب. ولكن شدّ ما حقد على الرئيس الجديد. وقال لها مرّة:

ـ إنّه مقلب لم يجرِ لنا في خاطر، وهو دائب على مغازلة الرجعيّة العربيّة والغربيّة!

وضاعف من قلق سهام أنّ رؤيتها السياسيّة الجديدة لم تعد سرًّا مصونًا، فمن انسياق الأحاديث المتبادلة بينها وبين زميلاتها في قسم اللغة الإنجليزيّة أفلتت تعليقات شتّى تنمّ عن حقيقتها، فضلًا عن أنّ واحدة منهنّ على الأقلّ لمحتها في الجيزة بصحبة عزيز صفوت. أمّا أسرة منيرة بالعبّاسيّة فقد مضت حياتها فيما يشبه الهدوء. أجل أثار مشاعرها نبأ خروج زاهية من السجن، حتّى تساءل عليّ ساخرًا:

ـ ألا يقضي الواجب بزيارة فيلّا المعادي للتهنئة؟!

ولكنّ منيرة كانت شفيت تمامًا من سليمان بهجت، وسلّمت أيضًا بفقد عبد الناصر فاستغرقها تمامًا عملها الرسميّ ونشاطها الخاصّ في مكتبتها. وتبدّت في وقار كهولة بشعرها الأبيض وجمالها الذابل كأنّما تماثل أمّها في العمر أو تزيد عليها. ولم تلقِ بالًا لعتاب أمّها وهي تسألها:

ـ ما الذي يجعلك تبقين على هذا الشيب المبكّر؟!

وسعد أمين وهند بخطبتهما وهما بعيدان عن موعد المشكلات، وغرق عليّ في بحر العسل الذي يستحلبه بين أحضان مرفت. غير أنّ «ناصريّة» منيرة وأمين انتبهت منزعجة وهي في سبات الحداد على همسات تتردّد أحيانًا بالنقد لعصر الزعيم الراحل، قالت على مسمع من أمين:

ـ يا لها من وقاحة!

فقال أمين بامتعاض:

ـ لا عجب فنحن نسير في طريق جديد!

ولكن ما المخرج من المشكلة الأساسيّة المتجسّدة في الجبهة؟! أجل ثمّة شعور بالأمان وسيادة القانون. وثمّة غزل للديمقراطيّة، ولكنّ الجوّ راكد والغد محجوب بغمامة قاتمة. ونفد صبر الأعصاب فانفجرت مظاهرات في الجامعة. وبلغت درجة من الخطورة قبل أن تتلاشى في السكينة من جديد. واختلفت المواقف بين الأحفاد، فاشترك في المظاهرات أمين وسهام بدافعين مختلفين متقاربين، واشترك عليّ بلا دافع على الإطلاق، أمّا شفيق فانسحب إلى قاعدة المتفرّجين.

ورجع ذات مساء ـ في أثناء الاضطرابات ـ إلى أسرته بباب اللوق مضطربًا شاحب اللون، جلس مع أسرته في حجرة المعيشة ثمّ قال بتأثّر بالغ:

ـ عزيز صفوت قُتل!

وإذا بصرخة تفرّ من فم سهام ممزّقة بالألم وهي تصيح:

ـ لا!

سرعان ما تحوّلت مشاعر الأسرة من النبإ المحزن لتتركّز في فتاتها الجميلة. وغلبها الحزن فانهارت تمامًا غير مبالية بالنظرات المستطلعة وما وراءها. هكذا تكشّفت لهم الحقيقة، وفي ظرف يدعو للأناة والصبر. ونهضت ألفت فاحتوت سهام ومضت بها إلى حجرتها، ولبث محمّد وشفيق يتبادلان النظر في ذهول ووجوم. واكفهرّ وجه محمّد وبلغ به القهر منتهاه فقال لابنه بجفاء:

ـ إنّك المسئول الأوّل!

انكمش شفيق أمام انفعال أبيه وقال بصوت ضعيف:

ـ ليس ذنبي...

ثمّ وهو يستميت في دفع التهمة عنه:

ـ جرى كلّ شيء تحت أعينكم...

فصاح محمّد:

ـ لم يكن لرأيي وزن أمامكم، وحيال زمانكم...

فقال شفيق برجاء:

ـ حلمك يا بابا، كان يمكن أن يحدث أيّ شيء في الخارج، وكيف نعيش خارج زماننا؟

فقال محمّد بحنق:

ـ أعرف ما يقال، سمعته مرارًا وتكرارًا، ما هي إلّا لعنة ووباء!

ثمّ حدج ابنه بنظرة متفحّصة كأنّما يحقّق معه وسأله:

ـ معروف أنّه انقطع عن الدراسة فماذا دسّه بين المتظاهرين من الطلبة؟

ـ لعلّه ذهب كصحفيّ!

ـ بل ذهب للتحريض كشيوعيّ...

ـ ربّما، لست مسئولًا عنه...

فقال الرجل بحنق:

ـ لست آسفًا عليه ولٰكنّي آسف على نفسي!

أمّا ألفت فقد غسلت وجه سهام بالكولونيا ووهبتها من الحنوّ فوق ما تملك. وقالت:

ـ ليتك تسلّطت على أعصابك!

فقالت وهي لا تكفّ عن البكاء:

ـ لا يهمّني...

ـ تمالكي عواطفك، أرجوك!

ولٰكنّ قلبها كان يتقطّع إربًا، والحزن يزحف مهيبًا قاسيًا منذرًا بالخلود، وخرابة قاحلة تقترب لتكون لها منفى أبديًّا، لم يبق إلّا قلب يخفق وحده كقرار نغمة يفتقد جوابه على الدوام. وفي صباح اليوم التالي لم يشر أحد بكلمة إلى «حادث» الأمس. انتشر السرّ مثل شعاع الشمس في الصيف ولٰكن تجاهلته الأعين فلم تره. ومضت أيّام قبل أن يخلو إليها أبوها فيسألها:

ـ كيف حالك؟

فحرّكت شفتيها دون أن تنبس. عند ذاك قال بحنان لم تتوقّعه:

ـ لا بأس من المعاناة فهي حال الدنيا، وعلينا أن نرضى بقضاء الله دون قيد أو شرط...

وربّت على يدها وواصل:

ـ كنت يومًا مثلك سعيدًا بآمال لا تحصى، وفي بضع ساعات تقوّض عالمي ففقدت عينًا وساقًا ونصف رزقي على الأقلّ، ولٰكنّني لم أنهزم ولا ماتت ثقتي بالله، ومن يعتزّ بالإيمان لا يذلّ بالهوان، وربّنا معك يا ابنتي...

انحسر ستار الغربة أمام دفقة سلام أبويّة ولٰكن سرعان ما جثم الظلام كرّة أخرى. الحقيقة الثابتة أنّها غريبة تمامًا في أسرتها. غربة لا يداويها الحنان أو الحبّ. إنّهم يتعاملون مع «أخرى» لم يعد لها وجود، وما هم في الحقّ إلّا أعداؤها. أكان أبوها يخاطبها بهٰذا الأسلوب لو علم بما خسرته من جسدها وروحها؟!. المسألة في نظره تنحصر في حبّها لشابّ يرفضه هو لعقيدته وعدم كفاءته لها، ولعلّه سُرَّ بالقدر الذي أزاحه من طريقه مؤمّلًا في الوقت نفسه أن يهبها الحظّ من هو خير منه. إنّها في وادٍ وأباها في وادٍ آخر، ولا إنقاذ لها إلّا أن تهاجر بطريقة ما من هٰذا البيت الذي تقطّعت بينها وبينه الأسباب. وهل بقي لها من عزاء إلّا في ثوريّتها وهي الإرث الحقيقيّ لحبيبها؟!. وستظلّ بين حاضر مشتعل ومستقبل غامض تحت تهديد دائم بالحرج والفضيحة. ولم يشر محمّد بكلمة واحدة إلى مأساة ابنته في البيت القديم. وأصبحت منيرة محتكرة الصوت المعارض الوحيد في جلسة الجمعة. قال لها محمّد:

ـ إنّه عهد أمان بعد خوف، وقانون بعد فوضى...

فقالت منيرة ساخرة:

ـ تجلّت وحشيّته في قمع المظاهرات!

فتقبّض قلب محمّد وقال بفتور لم يلحظه أحد:

ـ حال استثنائيّة، والموقف يتطلّب الحزم...

ـ دائمًا يدور الكلام عن الموقف، والحقيقة أنّه لن يجرؤ على خوض حرب...

وكان محمّد في أعماقه يؤمن بذٰلك. وتساءلت كوثر:

ـ لماذا تريدين الحرب؟... سيجنّد ابناك بعد عامين على الأكثر...

ـ لا أريد الحرب ولٰكنّي أريد أن أقول إنّهم يتّخذون منها عذرًا لوحشيّتهم...

فقالت سنيّة:

ـ لندعُ له بالتوفيق...

فقالت منيرة بامتعاض:

ـ صدّقوني أنّه لن يقنع بتصفية السلبيّات الماضية ولٰكنّه سيُلحق بها الإيجابيّات أيضًا.

فقال محمّد باسمًا:

ـ قولي ما شئت فالحقّ أنّه لا وجه للمقارنة بين ما كان وما هو كائن. . .

وإذا بكوثر تقول:

ـ أتمنّى أن أسمع خبرًا واحدًا هو أنّ الحرب انتهت، وأنّ رشاد راجع ليتزوّج!

وعاودت محمّد ذكرى مأساته فعجب كيف فضّلت سهام عزيز صفوت على رشاد؟!. وقال لنفسه:

ـ لا تفسير لذلك إلّا سوء حظّي!

ولْكنّ حظًّا أسوأ من حظّه بما لا يقاس انقشع في لحظة أبديّة كأنّه سحابة صيف. ارتفع صوت راسخ النبرات في الراديو يزفّ إلى الشعب نبأ عبور قوّاته المسلّحة للقنال. أهي الحرب من جديد؟!. هل تمخّض الجوّ الراكد المؤذن بنوم طويل عن صاعقة تقتلع الأعصاب من جذورها؟. هل يتطاير المستحيل ويتلاشى كأنّه وهم ماكر؟!. هتفت كوثر بجزع:

ـ ابني!

وتساءلت سنيّة المهدي في ذهول:

ـ حرب؟!. . . ما بالها تتكرّر كالصلاة؟!

وقالت لها كوثر بصوت متهدّج:

ـ لم يكن خوفي لغير ما سبب. . .

فغمغمت سنيّة:

ـ إنّه رحمٰن رحيم!

ولم يصدّق أحد من أسرة محمّد الخبر، أو لم يصدّق ما يقال عن النصر. تذكّروا ما ذاع وملأ الأسماع أيّام ٥ يونيه. وتساءل محمّد بحيرة:

ـ لماذا نتطوّع بالانتحار؟!

وقالت سهام لنفسها إن يكن انتحارًا حقًّا فسيجيء بالشفاء لبعض أوجاعها. أجل فلن يخلّص البلد من الرجعيّة إلّا هزيمة ساحقة. وربّما انفجرت في أعقاب ذٰلك القوى الشعبيّة المطحونة وكالعادة لجأ محمّد وألفت إلى محطّة لندن وصوت أمريكا. تضاربت الأخبار بادئ الأمر ثمّ تأكّد النبأ المذهل. تجلّى النصر في هالة سحريّة كمعجزة باهرة تحلّق فوق الخيال والتاريخ. اندثرت شخصيّة صفراء مهزولة وحلّت محلّها شخصيّة تضطرم بالعافية والثقة، تلاشت روح فاسدة مكفّنة في الهزيمة وخلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام، تبخّر يأس الهزيمة وذلّ القهر وانكسار القلب وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون.

ـ انتشل الرجل مصر من الفناء، وانتشل العرب. . .

سهام منيت بالهزيمة وحدها. قتل عزيز صفوت من جديد وانتصر العدوّ ووئد الأمل وابتسم المستقبل للرجعيّة المصريّة التي تحرّر سيناء، ولم تعد هي إلّا فتاة ضائعة، منبوذة، مهدّدة بالفضيحة. ولم تخلُ منيرة من سرور، كذٰلك أمين، ولْكنّه سرور أفسدته الغيرة، وكدّره الحنق، وتساءلت بحيرة:

ـ كيف انهزم الأصل وانتصر الظلّ؟!

ثمّ عزّت نفسها قائلة:

ـ لْكنّه جمال الذي خلق هٰذا الجيش وجهّزه!

وتشبّث أمين بهٰذا القول كأنّه طوق النجاة. حتّى عليّ هزّت نشوة نفسه الرافضة ولْكنّه سرعان ما استردّته هموم طارئة بسبب مرض مرفت هانم. قهرها روماتزم مفصليّ ومتاعب في الجهاز الهضميّ وفساد في الأسنان اقتضى خلعها. انطفأ ولعها بالحياة وعجزت عن الحبّ واجتاحتها طفرة من الشيخوخة فراح يمضي وقت زيارته إلى جانب فراشها مفعم القلب بالرثاء والأسف والقرف. وفي قمّة النصر حدثت الثغرة، وكانت مفاجأة غير سارّة ولْكنّها لم تخدش المعالم الأساسيّة للصورة. غير أنّها لم تخلُ من ردّ فعل شامت عند منيرة وأمين أمّا سهام فقالت بجرأة على مسمع من والديها وأخيها:

ـ إنّها هزيمة أشنع من ٥ يونيه!

فقطّب محمّد وقال بجفاء:

ـ هٰذا ما يردّده زملاء لي من الشيوعيّين، حذارِ يا سهام، إنّك تحيّرينني. . .

فقالت بإصرار:

ـ إنّي حرّة في رأيي. . .

فهتف بها:

ـ حرّة نعم ولْكنّك مسلمة أيضًا!

فقالت لنفسها «لست مسلمة». وقالت أيضًا دون أن يدري بها أحد:

- إنّي أختنق في هٰذا البيت...

وتوقّف القتال، وتنفّست الكائنات المتوتّرة، وتمّ البعث فلا رجوع عنه. غير أنّ البيت القديم لم يسلم، أو لم يسلم تمامًا. وكان محمّد أوّل من علم بالخبر إذ زاره في مكتبه صديق من ضبّاط المدفعيّة، وقال له:

- ابن أختك رشاد أصيب في الثغرة، ونجا بأعجوبة!

قرأ محمّد في وجه صاحبه أنّه لم يُدْلِ بكلّ ما عنده فحدجه بنظرة واجمة متسائلة:

- اقتضى الأمر جراحة لبتر الرجلين!

تجلّى الحزن في عين محمّد الباقية فقال الآخر:

- نحن على أيّ حال في عصر الأطراف الصناعيّة.

وغادره وهو يقول:

- إنّه بطل!

شعر محمّد بثقل المهمّة. وأبلغ منيرة أوّلًا ثمّ اتّفقا على الذهاب معًا إلى حلوان. وجدا كوثر على حال شديدة من القلق بخلاف سنيّة التي بدت رصينة جامدة حتّى قال محمّد لنفسه «لعلّها رأت حلمًا منذرًا». وسبقته منيرة فقالت لكوثر:

- الحرب انتهت، ورشاد نجا والحمد لله...

فهتفت وهي تنظر نحوهما بارتياب:

- حقًّا؟!

فألقى محمّد بنفسه في الاعتراف قائلًا:

- تعرّض لإصابة، إنّه بطل، ولٰكنّه نجا...

فهتفت:

- قلبي لا يكذب.

فقال:

- أجريت له جراحة ناجحة!

حلّت بالبيت الحقيقة والحزن. واستقبلت القلوب أسى دائمًا ولٰكنّه مبطّن بالحمد. وامتزج الدمع بالفرح عندما رجع رشاد إلى البيت محمولًا. أجلس من أوّل يوم على كرسيّ طبّيّ ذي عجلتين ولٰكنّه أبدى روحًا عالية. لم يكن الأمر محض تمثيل ولٰكنّه - أيضًا - الشعور بالنجاة من هلاك محقّق كان مصير رهط من أقرانه طالت به عشرتهم في الكلّيّة والخندق والحرب. وقلّب عينيه الجميلتين في الوجوه المحدقة به. سنيّة... كوثر... منيرة... محمّد... شفيق... سهام... أمين... عليّ... سليمان بهجت وقال ضاحكًا:

- ها قد اجتمعتم مرّة أخرى!

وأشار إلى أمّه قائلًا:

- هٰذه السيّدة لا تريد أن تحمد الله!

ونظر إلى سهام وقال وهو يضحك من جديد:

- نجوت من مصير لا يسرّ!

فاحمرّ وجهها الجميل حرجًا وقالت:

- إنّي فخورة بك.

فقال بحرارة:

- لتكن آخر الحروب...

سُرّ برجوعه إلى البيت سرورًا عميقًا فتمتّع بالدفء والحبّ. واستهان ساعات بمصابه. غير أنّه كان يشرد أحيانًا وهو ينظر إلى المتبقّي من جسده الفارع فيذكر نشاطه وتقلّبه بين الأماكن المحبوبة مختالًا بشبابه وجماله فيهزج قلبه بالأشجان الخفيّة. ولم يكن يستسلم للحزن، كان يدفعه ويطارده ويقول لنفسه:

- عش في الواقع وإنّه لغنيّ بإمكانات لا حصر لها...

ولما قالت له جدّته مرّة:

- إنّي راضية إذعانًا للمشيئة الإلٰهيّة...

تفكّر مليًّا ثم قال لنفسه ناشدًا الراحة المطلقة:

- لا بأس لمن أبى الاستسلام للعدوّ أن يستسلم للقدر!

وقرّرت سنيّة أن تصوم رجب وشعبان ورمضان بالإضافة إلى يومي الإثنين والخميس من كلّ أسبوع. أمّا كوثر فأوقفت نفسها على رعايته. وملأ هو وقته بألوان التسلية، يدفع كرسيّه إلى الفراندا في الأجواء المناسبة، يتابع الراديو، التلفزيون، يستقبل أصدقاء النادي الرياضيّ في مساء معيّن فأحيا ذكرى اجتماعات السمر التي ولع بها جدّه حامد برهان. ولم يجد في أمّه محدّثة شائقة بخلاف جدّته التي لا ينفد مدّخرها من ذكريات الماضي وغرائب الأحلام وعجائب عالَمي الغيب والشهادة إلى مناقشاتها الواعية عن الدنيا وأحوالها. وتسأل كوثر أمّها وهما منفردتان:

- كيف يصنع إذا وجد نفسه وحيدًا ذات يوم؟

فتقول سنيّة بإيمانها الراسخ:

ـ لن يجد نفسه وحيدًا أبدًا . . .

ولأوّل مرّة في حياته يغازل القراءة وتغازله. ومن عجب أنّه انساق إليها بيسر وشغف. وتخلّق في أعماقه ميل جديد نحو الدين فاقتنى من مراجعه ما شاء وهيمن عليه الاطّلاع الدينيّ بقوّة مضت تزداد يومًا بعد يوم، وحام حول الأسئلة المحيّرة فتطلّع إلى عالم الثقافة والأشواق بحماس لم يخطر له ببال من قبل. حتّى الكتابة حلم بتجربتها حتّى قال لنفسه من فوق كرسيّه الطبّيّ:

ـ ما أضيق الوقت وأقصر العمر!

وفي أحد أيّام الجمع سأل خاله محمّد:

ـ أينبغي أن يفقد الإنسان نصف جسمه ليهتدي إلى نفسه؟

فسأله محمّد عمّا يعنيه فأجاب:

ـ فتح لي العجز الأبواب المغلقة.

وراح يحدّثه عن شغفه الجديد بالثقافة وفي مقدّمتها الدين فسُرّ محمّد ورفع عكّازته بيمناه قائلًا:

ـ طوبى لما يهبنا خصوبة الروح . . .

فقال رشاد:

ـ ويخطر لي أحيانًا أن أكتب.

فهتف محمّد:

ـ الله أكبر!

إنّها رغبة مبهمة لم تتبلور في هدف محدّد، ولكنّه دخل في دين الإسلام بالنيّة والعمل معًا. صلّى وعزم على الصيام والزكاة ومضى يقرأ القرآن والبخاري ويزداد تقبّلًا لقدَره ورضًا عنه. وهو سعيد باشتراكه في النصر والتضحية والبطولة، وهيهات أن تنغّص عليه صفوه بعض الكوابيس التي تنتاب نومه أحيانًا أو صور الشهداء التي تلمّ بخياله أحيانًا أخرى. ويتساءل:

ـ لِمَ تعذّر على الإنسان أن يعيش حياة سعيدة في هذه الدنيا؟!

ثمّ تساءل في حيرة:

ـ هل أجد عروسًا ترضى بي زوجًا؟!

وصاحَبَ ذلك ميل المؤشّر من الشرق إلى الغرب وانبثاق دعوة مصرّة إلى الانفتاح، مع تفجّر حملة ضارية على الزعيم الراحل فاضت بها الكتب والصحف والمجلّات، وبرز في ميدانها المفتوح أعداء وأصدقاء ومحايدون فصارت انتقامًا وتشفّيًا ويقظة واعترافًا وتقرّبًا. ووقف جيل الأحفاد منها موقف الدهش والبلبلة، يستوي في ذلك من أقام على ناصريّته مثل أمين أو من وافقه مثل سهام، أو من رفض كلّ شيء مثل عليّ، أو من آوى إلى عقيدة جديدة مثل شفيق.

ـ ألم يعبدوه بالأمس؟

ـ ألم يكن القائد والزعيم والمعلّم والملهم؟

ـ أيّ نفاق وأيّ خسّة وأيّ جبن!

ـ جيل يستحقّ التصفية. . .

ـ من نصدّق؟! . . .

ـ أنصدّق ما يقال الآن؟!

ـ ليس بلدًا ولكنّه مرحاض عموميّ. . . !

ولم تمرّ الحملة في لقاء الجمعة دون إثارة. لم يعد رشاد يبعث على الرثاء، فقد بات عادة، وعبر هو الأزمة بشجاعة وتطوّر بها إلى ما هو أفضل. لذلك أفصح محمّد عن سعادته بالانقضاض على العصر الناصريّ. قال:

ـ ليعلم من لم يكن يعلم، ولينتبه من فقد وعيه!

فتساءلت منيرة:

ـ هل ننسى القضاء على النظام الملكيّ، والجلاء، والإصلاح الزراعيّ، والتأميم، وتمصير الاقتصاد، والقوميّة العربيّة؟!

فقال محمّد متهكّمًا:

ـ سيعترف له المستقبل بفضل واحد باعتباره منشئ الإمبراطوريّة الإسرائيليّة!

فسألته منيرة بمرارة:

ـ أتدري ما يقول الشباب؟

ـ إنّك تقصدين الناصريّين وحلفاءهم من الملاحدة، أمّا غالبيّة الشباب فبخير وعافية وهي تعرف سبيلها كما تعرف ربّها.

واشترك رشاد في الحديث قائلًا:

ـ لكلّ عهد إيجابيّاته وسلبيّاته ومهمّة الأحرار أن يؤيّدوا الإيجابيّات ويحاربوا السلبيّات. . .

فقالت سنيّة:

ـ ومن يعمل مثقال ذرّة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شرًّا يره، صدق الله العظيم.

فقالت منيرة بازدراء:

ـ لا يعلو صوت على النفاق، هٰذه هي مأساتنا. . .

فقال محمّد بحدّة:

ـ عرفنا المشانق ولم نعرف النفاق قطّ. . .

فقالت منيرة متهكّمة:

ـ اعرفوا أيضًا الانفتاح.

فتساءلت سنيّة:

ـ ما له الانفتاح؟ . . . حتّى روسيا أخذت به. . .

ـ ولٰكنّه سيعني عندنا الغلاء والخراب.

وعند تلك النقطة غيّر محمّد شراعه قائلًا:

ـ نحن نوافق عليه ضمن خطّة الإنتاج. . .

فتساءلت منيرة:

ـ وهل توافق على ذٰلك الصقور المتحفّزة؟!

وجرت خواطر سنيّة في أسًى، إنّهم يتحدّثون عن كلّ شيء، ألا يذكر أحدهم البيت القديم بكلمة طيّبة؟!، وإن يكن هٰذا هو حظّ البيت فمن عسى أن يذكر المدفن؟! وثمّة نظرة عطف تحبو فوق الشابّ العاجز متضمّنة توسّلاتها الصامتة. البيت يوغل في القدم، أثاثه يبهت ويتهرّأ، حديقته تحتضر، أيليق هٰذا بمقام البطل؟! وقال رشاد:

ـ الحقّ أنّ الغلاء يزحف بقوّة، إليكم تجربة مارستها بنفسي، منذ عام وأشهر عُرضت عليّ فيلّا بالمعادي بستّة آلاف جنيه، علمت أمس أنّ صاحبها رفض بيعها بخمسة وعشرين ألفًا من الجنيهات!

فقالت منيرة:

ـ ما يقال عن الأراضي لا يصدّقه العقل. . .

فقال محمّد:

ـ وخلوّ الرِّجْل أصبح خرافة. . .

فقال رشاد:

ـ أفكّر أحيانًا في تجديد هٰذا البيت!

فهتفت سنيّة وقد أشرق صدرها بنور ربّها:

ـ خير ما تفعل يا رشاد، مساحة الحجرة من حجراته أوسع من مساحة فيلّا حديثة، ولا تنس الحديقة المهجورة التي يمكن أن تتحوّل إلى جنّة. . .

وساءل محمّد نفسه هل يجدّد رشاد البيت لوجه الله أو يسجّل التكاليف كيلا يهضم حقّ أمّه عندما يئول البيت ـ بعد عمر طويل ـ إلى الورثة؟. لم يتحمّس للفكرة ولم يعلّق، وتبادل مع منيرة نظرة ذات معنى دلّت على تناغم وساوسهما. أمّا رشاد ففاجأ الضيوف بقوله:

ـ سأفكّر يومًا في الزواج!

اتّجهت صوبه الأعين. وسعدوا في الحقيقة بالخبر الذي كانوا منه في شكّ، ولم تتمالك كوثر أن هتفت:

ـ دعنا نبحث لك عن عروس لائقة!

فقال بجدّيّة:

ـ صبرك، كلّ شيء رهن بوقته.

ورسخ الغلاء منذرًا بالتعلّق، وانتشر العرب في الأحياء كالماء والهواء. جاء الغلاء بالوحشيّة، أمّا العرب فجاءوا بالكرم تيّاهين بوقفهم القوميّ في البترول ولٰكنّهم نفخوا في الغلاء من حيث لا يقصدون. حتّى أمّ جابر الطاهية طالبت بمضاعفة راتبها لمواجهة الغلاء فتحقّقت مشيئتها في الحال، غير أنّها ذهبت ذات يوم ولم تعد، وعُلم أنّها سافرت بصحبة ابنها النجّار إلى السعوديّة لتعمل طاهية بأجر خياليّ. عند ذاك أنذرتهم الحياة بعناء جديد. أجل طالما أثبتت سنيّة مهارتها الفائقة في الطهي ولٰكنّها بلغت من الكبر ما لا يجوز معه الاضطلاع بمهمّة الطهي الشاقّة رغم تمتّعها بصحّة جيّدة يغبطها عليها من يماثلونها في السنّ. ورغم أنّ رعايتها لصحّتها لم تهن وإن كفّت عن صبغ رأسها بالحنّاء منذ رجع رشاد إلى بيته محمولًا على أيدي الرجال. تركت الشيب يرعى رأسها بلا حسيب قانعة بإخفائه تحت منديل محكم وتلفيعة بيضاء. ولم ترَ كوثر مفرًّا من القيام بالمهمّة رغم اعتلال كبدها وهزالها وتوسّطها الحلقة المفضية للستّين، مستعينة في التجهيز بأمّها وأمّ سيّد. وجدّوا في البحث عن طاهية حتّى وافقت ـ أمّ عبده ـ على منحهم نصف يوم بثلاثين جنيهًا شهريًّا. والتهمت ميزانيّة الطعام قدرًا لا يستهان به، يزداد مع الأيّام دون توقّف، حتّى توارت سنيّة بمعاشها خجلًا وأدركت

أنّها تعيش عالة على كوثر وابنها. لذلك لم تتردّد كوثر أن تقول لرشاد وهي منفردة به:

ـ ها أنت تفكّر في تجديد البيت والحديقة، كن حكيمًا، الأسعار ترتفع كما ترى، والبيت ـ بعد عمر طويل ـ لن يئول لنا إلّا ربعه، الحذر واجب، فإيرادك ثابت وقيمته تقلّ يومًا بعد يوم...

فقال متمهّلًا:

ـ لا تنسي أنّنا نقيم فيه، وأنّني حبيسه، ويلزمني مناخ طيّب...

فقالت متنهّدة:

ـ كما تشاء ولٰكن عليك بالحكمة والحذر...

وفاجأهم سليمان بهجت بطلاق منيرة مدّعيًا في الوقت نفسه أنّه يحرّرها من قيد يعيق حرّيّة إرادتها ويهدر سعادتها دون مقابل حقيقيّ. ولم يخدع محمّد بالطلاء، وكان بحكم مهنته ونشاطه السياسيّ ذا قدرة على النفاذ إلى الأسرار، فقال لمنيرة:

ـ المسألة أنّه وزوجه يعملان في الاستيراد، وهي كما نعلم مركز القوّة والعقل المدبّر فحملته على الطلاق لتستأثر بثمرة عملها!

فقالت منيرة بعتاب:

ـ هٰذا ما أردته من أوّل يوم.

فهزّ رأسه آسفًا وقال:

ـ فيلّا المعادي تُعتبر اليوم قصر استقبال لأغنياء العرب، يختلط فيه اللهو بالعمل، إنّي أرثي لأمين وعليّ لانتسابهما إليه!

فقالت بامتعاض:

ـ حدّثني عن موقف الدولة من هٰذا الفساد!

ـ لا جدوى من الشكوى، سليمان وزاهية ما هما إلّا قردان في حديقة ملأى بالقرود، جنّ الناس، فقدوا وعيهم، يحومون حول العرب، الذين فوق يتعهّرون والذين تحت يشحذون!

وتبادلا نظرة متجهّمة ثمّ سألها:

ـ كيف تواجهين الحياة؟

فأجابت بوجوم:

ـ كلّما مرّ شهر تساءلت ترى هل نحافظ على مستوى معيشتنا الشهر القادم؟

ـ مثلك تمامًا، لنا أولاد، من الخطر أن يهبطوا عن حدّ معيّن من الحرمان، لنحمد الله على أنّهم وصلوا إلى المرحلة النهائيّة...

فقالت متهكّمة:

ـ ثمّ تبدأ مرحلة من المشكلات الجديدة، يا لهم من جيل محاصَر سيّئ الطالع، ألم يكن الأجدر بالعرب أن ينتشلونا من وهدتنا بدلًا من أن يجعلوا منّا حقلًا للتسوّل والدعارة؟!

وكأنّ عليّ كان يحاورهما عن بعد وهو يقذف بنواياه المتّقدة نحو الوجود. يلعن وطنه ومواطنيه ويتربّص باللحظة المناسبة التي يهجره فيها إلى الأبد. وذات صباح نعت إليه أمّه مرفت هانم حماة خاله محمّد!. لم تفطن أمّه بطبيعة الحال إلى هزّته الباطنيّة. وقال لنفسه يعزّيها:

ـ ماتت في الواقع منذ أشهر.

المرأة التي وهبته حبًّا بهيميًّا غريبًا خارقًا للمألوف داوى بها جهازه العصبيّ المختلّ. خبر معها راحة متجدّدة، وأنانيّة متسلّطة، وخيلاء معربدة، وحبًّا غير مألوف يتحدّى الإكليشيهات الشعريّة الجارية، انتشله من مخالب أزمته وفي الوقت نفسه رسّخ رؤيته المتمرّدة. وقال متهكّمًا:

ـ خير ما فعلت!

وهزّ منكبيه قائلًا:

ـ أخي أمين أسعدنا حظًّا...

وكان أمين سعيدًا حقًّا، يحبّ بنتًا ممتازة وتحبّه، ولٰكنّه باقترابه من نهاية المرحلة التعليميّة الأخيرة رأى عن قرب مستقبله المعقّد بالمشكلات. على أنّه سرّه أن يسمع هند وهي تردّد:

ـ لا مشكلة بلا حلّ!

فقال لها مغالبًا همومه:

ـ ومعنا الحبّ، وفيه ما يكفي...

وكانت هند بخلافه لا تكترث للسياسة ولا الأحاديث العامّة. أجل كانت متفوّقة كطالبة، ومتفائلة، ينحصر اهتمامها في دراستها وشئونها الخاصّة ومستقبلها وتعنى في الوقت نفسه بإتقان شئون البيت كأنّها امتداد لدراستها، كما كان حبّها لأمين أقوى

عاطفة في حياتها. ولم يكن لها من الدين ـ كالسياسة ـ إلّا قشور ولٰكنّ الدين تسلّل إليها ـ على غير شعور منها ـ عن طريق الأخلاق. لذٰلك اعتدّها أمين ـ وهو يتنفّس مناخًا ينضح بالفضائح ـ لقية لا توزن بمال. أمّا شفيق بن محمّد فقد تمادى في توثيق علاقته بزكيّة محمّدين حتّى أحبّها. وبهبوط الحبّ عليه انسربت إلى أعماقه الهموم والفكر. ومن قبل ذٰلك لم يخلُ ضميره من قلق. كان يداوم على الاتّصال بها ويجترّ وساوس القلق والمحاسبة. ولّما أحبّها قال لنفسه:

ـ لا يدري أحد أين يجد قلبه مستقرّه!

وكان التفاهم بينه وبين أبيه حميًا راسخًا، كابن وأب، وكمؤمنين في عقيدة واحدة. وجد في نفسه الشجاعة الكافية كي يعترف لأبيه بعلاقته بزكيّة محمّدين غير مخفٍ عليه سرًّا من أسرار حياتها. أصغى محمّد إليه كاظمًا انفعالاته تشجيعًا له ورحمة به. وختم شفيق اعترافه بقوله:

ـ أخطأت الفتاة ولها عذر كما أخطأت ولي عذري أيضًا!

فهزّ محمّد رأسه نفيًا وقال:

ـ كلّا، كان بوسعها أن تحافظ على شرفها وكان بوسعك أن تصبر...

حدس الجواب من قبل فتساءل:

ـ وإذا تاب كلانا؟

فقال محمّد وهو يتفحّصه بعناية:

ـ التوبة أمل الخاطئين...

فتردّد لحظات ثمّ تساءل:

ـ أعني أتوافق عند ذاك على زواجنا؟!

وجد نفسه محاصرًا وتجرّع خيبة أمل مريرة. واستسلم لانفعاله فقال:

ـ اختيار سيّئ لن يعفي من عواقب وخيمة!

ـ ظننته ينقذ نفسين ضالّتين...

ـ لا ضمان لذٰلك...

ثمّ بامتعاض كالأنين:

ـ أيّ حظّ سيّئ!، لم نفق بعد من تجربة سهام المريرة، وها أنت في نفس الطريق الوعرة...

فقال شفيق بأسى:

ـ حسبتك ستبارك قراري...

هام في وادي الخيبة طويلًا. وراجع نفسه وانفعالاته. ثمّ تنهّد قائلًا:

ـ سمعت رأيي ولٰكن إذا أصررت على رغبتك فلن أعارض.

ونقل شفيق صورة ممّا دار بينه وبين أبيه إلى زكيّة في الطف أسلوب ممكن. تابعته بانتباه وعمق. لم تكن في مثل براءته بعد أن طحنتها الحياة من رأسها إلى قدميها. كفرت بكلّ شيء إلّا ذاتها، والمال... ذٰلك الساحر الذي قدّمت له نفسها قربانًا. ولم تكن تبني أيّ خيال على تخرّجها القريب وقد أنضجتها الحياة أكثر من أساتذتها أنفسهم الذين يتاجرون أيضًا بطريقتهم الأكاديميّة الخاصّة. أيغريها هٰذا الشابّ بالزواج؟. وما قيمة الزواج منه؟. وما الداعي إلى تحمّل احتقار أهله؟!. ثمّ إنّها لا تحبّه كما يتصوّر. إنّهم يصدّقون أيّ كلام يندّ عن جسد المرأة. وإن لم تنكر أنّه أوثق الزبائن علاقة بها وأقربهم مودّة إلى نفسها. ولم ترتح لإدلاله وهو يعرض عليها الزواج، ولا عن قوله «الإقلاع عن الحياة الفاسدة». أين هم المحترَمون؟.

ولّما سألها عن رأيها أجابت بوضوح:

ـ غير موافقة!

تساءل بذهول:

ـ حقًّا؟!

ـ لا تغضب، فكّر قليلًا وستقتنع بأنّك غير أهل للزواج!

فتساءل بإنكار:

ـ أنا؟!

فقالت باسمة:

ـ وأنا أيضًا!

واختفت من حياته كوهم. وكاد يجنّ. وبالتحرّي المحموم عرف أنّها اهتدت أخيرًا إلى الطريق العربيّ، وأنّها وثبت وثبة موفّقة إلى شقّة مفروشة آخذة معها أمّها الكادحة. طارت من قفص الحياة اليوميّة كما طارت أختها من قبل، وارتفعت فوق تطلّعات طبقته. وكان محمّد يلاحظه بقلق، ويعجب لصمته. وذات يوم سأله:

ـ ماذا فعلت يا بنيّ؟

فأجابه بإيجاز:

ـ اقتنعت برأيك!

لم يصدّقه الرجل الخبير ولكنّه تنهّد بارتياح قائلًا:

ـ فليحفظنا الله بعنايته.

ـ ولكنّ الزواج ضرورة لأمثالي فما العمل؟

ارتبك محمّد وشعر بالقهر، ثمّ قال محتدًّا:

ـ ما أجدر أن نوجّه هذا السؤال إلى وزير التخطيط أو إلى المجموعة الاقتصاديّة!

وبعد فترة صمت تمتم:

ـ لنضع ثقتنا في الله سبحانه...

وتخرّج شفيق وابن عمّته أمين على حين انتقل عليّ وسهام وهند رشوان إلى السنة النهائيّة. وجنّد شفيق وأمين. ووجد عليّ فرصة للسفر إلى الخارج ضمن رحلات الطلبة الموسميّة. سافر ولكنّ أحدًا لم يره بعد ذلك. وأرسل ـ من ألمانيا ـ خطابًا إلى أمّه يخبرها فيه بأنّه وجد عملًا ـ كعامل ـ في مصنع، وأنّه لدراسته العلميّة اعتُبر عاملًا فنّيًّا، وأنّه ينوي إتمام دراسته عندما يتقن اللغة الألمانيّة، وعلى أيّ حال فلن يرجع إلى مصر أبدًا. أعادت منيرة قراءة الخطاب بعينين دامعتين وقالت لنفسها:

ـ عثرة جديدة تضاف إلى سوء حظّي!

وبتكليف منها أبلغ محمّد الخبر إلى سليمان بهجت. وسُرَّ الرجل به قائلًا:

ـ أحسن صنعًا!

ثمّ واصل ضاحكًا:

ـ سأعثر عليه في إحدى رحلاتي لأبارك خطوته...

فتساءل محمّد:

ـ أما كان الأوفق به أن يصبر عامًا حتّى يحوز شهادته؟

ـ هرب من التجنيد، وله حقّ!

وتلقّى البيت القديم الخبر بهدوء نسبيّ إذ لم تعد تهزّه الأنباء السيّئة. غير أنّ سنيّة قالت:

ـ لك الله يا منيرة...

فقالت كوثر:

ـ حظّها أفضل من حظّي!

فقالت سنيّة بعتاب:

ـ ابنك جدير بالإعجاب لا الرثاء.

رغم أنّه لم يحقّق إلّا بعضًا من آمالها. أجل سُدّت الثقوب، وسنفرت الأرضيّة، وطليت الجدران فشعّت رونقًا، ونُجّدت المراتب والأغطية والمقاعد والكنب، واتّفق مع بستانيّ على تنظيف أرض الحديقة وغرس ياسمين ولبلاب أسفل الأسوار لتكسو الخضرة الأسياخ الصدئة، وتشذيب البقيّة الباقية من النخيل والبلح. سُرّت كثيرًا وسعدت ولكن أين هذه الحديقة الفقيرة من الجنّة الموعودة؟!. وخفّف من فتورها وضاعف من امتنانها ما تطلّع عليه يومًا بعد يوم ممّا ينفق على البيت. رشاد ينفق بسخاء كأنّه ربّ البيت تاركًا المعاش لنثريّاتها. كيف كانت تمضي الحياة لولا يده المبسوطة؟!. وكأنّما كانت تشاركه أفراحه في سياحته اليوميّة بين الكتاب والراديو والتلفزيون، وسهرته الأسبوعيّة مع زوّاره وسماع ضحكته المترعة بالسرور. وها هو يحلم بالزواج والكتابة وينتظر مزيدًا من الضياء. وآمن رشاد بأنّه حقّق حلم جدّته المحبوبة. وكم سرّه أن يجد منها استجابة قلبيّة لأحلامه. فهي ـ بخلاف أمّه ـ تشجّعه على الكتابة وتقول له:

ـ عرفت الحرب والسلام، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وهي الوحيدة في الأسرة التي تتّفق معه على حبّ زعيمَي الثورة، السلف والخلف معًا، وتقول:

ـ لكلّ منهما مزاياه وأياديه أمّا الأخطاء فسبحان من له الكمال وحده!

وقال يومًا لزوّار الجمعة من أهله:

ـ تبدون أحيانًا كأنّكم فقدتم الأمل، أنا وجدّتي لا نفقد الأمل أبدًا...

فقالت منيرة بمرارة:

ـ عربدة الغلاء أنستنا النصر!

ثمّ تساءلت متنهّدة:

ـ وأين عليّ؟!

وحمل محمّد على الزعيم الراحل كعادته وقال:

ـ كلّ ما نعاني من شرّ فمن صنع يديه...

فتساءلت منيرة:

ـ وأخطاء الانفتاح أهي من صنع يديه أيضًا؟!

فقال بإيجاز:

- إنّي راض عن الرئيس الحاليّ باعتباره التمهيد لدولة الإسلام!

وساءل رشاد نفسه «متى تنفرج الأزمة؟». وعقب ذهاب الزوّار زارت سنيّة - كالعادة - صورة القناطر التذكاريّة. ساق كرسيّه مقتربًا منها ورنا إلى الشباب المخصب للصورة وسألها مداعبًا:

- تحنّين للشباب يا جدّتي؟!

فقالت بشرود:

- إنّي أنظر وأتساءل من كان يتصوّر؟!

وخطرت له فكرة مشرقة فقال:

- ليست الحرب هي التجربة الوحيدة في حياتي ولكن أيضًا هٰذه الصورة ذات المصائر العجيبة!

فتمتمت:

- فِكرة!

ورجعا إلى مجلسهما وآخر شعاع للشمس يتقلّص مودّعًا حجرة المعيشة. وتذكّر إشارات خاطفة كانت تصدر عنها في أحوال نادرة عن جدودها، لم يهتمّ بها أحد قانعين جميعًا بمعرفة جدّهم صاحب البيت والأرض. غير أنّ رغبة جديدة في معرفة كلّ ما يمكن معرفته غزته بسحر جديد فقال لها:

- أودّ أن تحدّثيني عمّن عرفت من جدود يا جدّتي.

فانبسط وجهها وسألته:

- أتريد أن تكتب عنهم أيضًا؟

- إن استحقّوا ذٰلك!

- إنّهم يستحقّون وزيادة!

وداری وراء ابتسامة عدم تصديقه وهو العليم بحساسيّتها ونظرتها الخاصّة للأمور. قال:

- إنّي شديد الرغبة في الاستماع.

تبدّت مستجيبة متحمّسة واندفعت تروي قصّة جدودها كأنّما كانت تنتظر هٰذا الإذن منذ دهر طويل. قالت:

- أقدم جدّ سمعت عنه كان يدعى فرج، من الصعيد الجوّانيّ، وكان قويًّا، رزقه يأتيه من قوّته، ولٰكنّه يقبل الهدايا ولا يغتصب، فأحبّه الجيران بقدر ما هابوه، وكان وزوجته يؤاخيان الأرواح ويعرفان الغيب...

دهش رشاد. ودهش أكثر لما طالعه في وجهها من الجدّيّة. وما تمالك أن ضحك قائلًا:

- هٰذا يعني أنّه كان قاطع طريق!

فهتفت محتجّة:

- لو كان كذٰلك ما حدّثني عنه أحد بكلمة!

- لٰكن هٰذه الأوصاف...؟!

- بهٰذه العقليّة يا حبيبي يعتبر حكّامنا الأجلّاء قطّاع طرق!

- تعتبرينه إذن من الحكّام؟

- في بيته، لِمَ لا؟!

وتظاهر بالتسليم ليشجّعها على الاستمرار فقال:

- لا يخلو رأيك من وجاهة يا جدّتي...

فمضت بثقة:

- وبلغ المائة ولٰكنّ قدمه زلّت وهو في قمّة العمر.

فاشتدّ انتباهه ولٰكنّها بدت كأنّما تريد أن تعبر فوق تلك النقطة فقال بتوسّل:

- الحقيقة يا جدّتي وإلّا فما جدوى الحديث؟!

فابتسمت في حياء وقالت بصوت خافت:

- يقال إنّه أغرى بنتًا في الخامسة عشرة!

فكتم ضحكة كادت تفلت منه وهمس:

- شيء يفوق الخيال...

- إنّها زلّة ولا شكّ ولٰكنّه كان فحلًا!

- وماذا فعل أهل البنت؟

- لا علم لي بذٰلك، ولٰكنّه مات بعدها بقليل بغدرة جمل عضّه.

الحقّ أنّ جدّته التي استوت أمام عينيه كمثال للرصانة والقوّة والثقافة، الحقّ أنّها تملك جانبًا خفيًّا أشبه بالأسطورة يحتار الإنسان في تقييمه. وإذا بها تسأله:

- ما رأيك؟

- رجل عظيم حقًّا ولٰكنّني أخشى أن يسيء إلى سمعتنا في نظر الناس العاديّين...

- ألم تصادفك أحداث مسيئة للسمعة أكثر من زلّة رجل في المائة؟!

فقهقه عاليًا ثمّ قال:

ـ استمرّي يا جدّتي.

فواصلت والنشوة تورّد وجنتيها الذابلتين:

ـ الجدّ التالي يدعى غزال، الشهير بحرك، إذ فرض عليه رزقه التنقّل المتواصل بين قرية وأخرى سعيًا وراء الصيد والبيع، لم يعاشر أسرته إلّا لمامًا، فلم ينعم بالعلاقات الحميمة، كأنّه مطارَد، ولذلك وهنت علاقته بالغيب والأرواح، ولم يعرف الاستقرار، ولا الرفاهية، وشغل مسيرته بالغناء متشكّيًا من الزمان، حتّى عُثر على جثّته ذات يوم ملقاة في مصرف، ولم يُستدلّ على قاتله فقيل إنّه إنسان وقيل إنّه حيوان وقيل إنّه عفريت...

ووهبت دقيقة صمت للرثاء الذي تجلّى في عينيها ثمّ قالت:

ـ من شدّة حزني عرفت سرّ مصرعه...

فتساءل رشاد:

ـ كيف يا جدّتي؟

ـ بالحلم المضيء، رأيت بدويًّا قاطع طريق وهو يخنقه ليسلبه ماله، ثمّ جاء ذئب فنهش بطنه، وشهد الواقعة من أوّلها عفريت ساحر هو الذي رمى به في المصرف!

وتبادلا نظرة طويلة حتّى سألته:

ـ ما رأيك؟

فتساءل بارتباك:

ـ أيستحقّ غزال أن يؤرِّخ له أيضًا؟

فقالت بجدّيّة أدهشته:

ـ كيف لا؟، وهل قُدّر لمصريّ أن يلي مكانة أسمى من مكانته في زمنه؟، عاش مكافحًا ومات شهيدًا!

فقال مجاملًا:

ـ كلامك كلّه حكمة يا جدّتي...

فقالت بعتاب:

ـ حذار من السخرية، إنّي أنضج عقل في هذه الأسرة المبعثرة بين النزوات وسوء الحظّ!

ـ ثقي من جدّيّتي واستمرّي...

فقالت باسمة:

ـ ثمّ جاء فرج، فرج الثاني المتسمّى باسم جدّه، نهض لحمل الأعباء بعد مصرع أبيه، فعدل عن حياة التجوال عملًا بنصيحة أمّه، فاختار عملًا بين بين، يقوم على الحركة ولكن في القرية والسوق، يسرح بالأغنام ويبيع اللبن، فنعم بحياة مستقرّة عاديّة وعشق الله والنساء، وقرّر ذات يوم أن يفجّر قنبلة في بيئته العائليّة الساكنة...

ـ قنبلة؟!

ـ أشهر إسلامه وتسمّى باسم محمّد المهدي!

فتساءل رشاد:

ـ كيف دخل جدّنا الإسلام؟

ـ أعلن أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام زاره في المنام وعرض عليه الإسلام فقبله دون تردّد، أمّا أهله فأكّدوا أنّه عشق فلّاحة مسلمة!

ـ ورأيك أنت يا جدّتي؟

ـ سيرته بعد ذلك شهدت له بالصدق، وقد نذر بكريّه للأزهر، وهو الشيخ عبد الله المهدي أبي وجدّك!

ـ هذا جدّنا المعروف...

ـ لعلّ الوحيدة التي تذكره هي كوثر أمّك، وقد عمل أوّل حياته مدرّسًا، وكان أيضًا يرتّل القرآن بصوت عذب، ثمّ اشترى أرضًا وتفرّغ لزراعتها فعُرف بمهارته كما عرف بورعه، ولمّا اجتاحه الروماتيزم انتقل إلى حلوان وشيّد هذا البيت وكان قطعة من الجنّة...!

تأثّر رشاد بأريحيّة جدّته ونشوتها أكثر ممّا تأثّر بسِيَر الجدود أنفسهم. ولم تكن تبلورت لديه فكرة عن نوعيّة الكتابة التي سيختارها ولا عن ضرورة ـ أو عدم ضرورة ـ اشتراك الأجداد فيها. غير أنّ نشوة جدّته أضفت على الرجال الغابرين سحرًا خاصًّا نفخ فيهم ضياء في مواقعهم الموغلة في الزمان فأجّل قراره إلى حينه. وفكّر من جديد في بعث الحديقة وتحقيق حلم جدّته الملحّ.

وقال لأمه:

ـ ليتني فكّرت في شراء هذا البيت قبل الانفتاح...

فقرأت كوثر أفكاره وقالت:

ـ ما فات فات، تذكّر ما سبق أن قلته لك... ولا تنسَ الغلاء الذي لا يريد أن يقف عند حدّ...

ويحسن بك أن تفكّر في شيء واحد هو الزواج...

- تمنّيت لو أتزوّج هنا ولو نظير أجر أدفعه للمستحقّين...

فقالت كوثر باهتمام:

- عندي فكرة أحسن، أن تبيع الأرض، وتكتفي بالعمارة، وبثمن الأرض تشتري شقّة في إحدى عمارات التمليك التي تقام في حلوان وتواجه أيضًا تكاليف الزواج...

- ونترك جدّتي وحدها؟

فبادرته:

- إنّي باقية معها لآخر العمر، المهمّ متى تشرع في الزواج؟

فضحك قائلًا:

- أريني همّتك!

فهتفت متهلّلة:

- وكلّف بذلك أيضًا جميع أصدقائك...

وتخرّجت سهام وهند رشوان في عام واحد، أمّا هند فانتظرت خطاب التعيين الذي لن يصل قبل عام، وأمّا سهام فقرّرت تقديم رسالة ماجستير طامحة إلى وظيفة معيدة اعتمادًا على تفوّقها البيّن. وأنهى شفيق وأمين مدّة التجنيد فالحق الأوّل مهندسًا بشركة الملاحة والثاني مهندسًا بشركة الصناعات الكيماويّة. وهمست ألفت في أذن سهام بأنّ محاميًا في قضايا الحكومة يسعى لخطبتها فارتعدت وقالت:

- لن أفكّر في ذلك حتّى أحصل على الماجستير.

فاعترضت ألفت قائلة:

- ولكن...

غير أنّها قاطعتها قائلة:

- لي أمل كبير في بعثة إلى إنجلترا.

- والعمر؟!

- لا أهمّيّة لذلك!

وعلم محمّد برأيها فقال لها بحدّة:

- إنّك غير محتملة.

فقالت ملاينة:

- لي خطّة يا بابا.

فصاح:

- خطّة كالقطران!

واشتدّ غضبه فقال لها:

- لم يؤذني أحد في حياتي - باستثناء عبد الناصر - مثلما آذيتيني!

وحلمت سهام بالبعثة كملاذ أخير، تلوذ به بمبدئها وجرمها الخفيّ، وهما إرثها عن حبيبها الذي تلاشى في غمضة عين. وجوّ أسرتها كان ينذرها دائمًا بالتهديد والخوف حتّى تمنّت هجره وشارفت مقته. وخيّل إليها أنّ أباها - وشفيق أيضًا - يرمقانها بعين الريبة. وإن يكن في ذلك شكّ فما لا شكّ فيه أنّهما لا يباركان موقفها من الحياة. وكلّ يوم فهما يزدادان إسلامًا فيزدادان خطرًا وتزداد هي غربة. وأمّها لا أمل فيها، فهي محبّة لأبيها لدرجة العبادة ومؤمنة ببطولته، وهي في الوقت نفسه - على رقّتها - غير موافقة أيضًا على موقفها. فكيف إذا انكشف سرّها وأعلنت خسائرها!. وجمعت المشكلات بين شفيق وابن عمّته أمين. سأله شفيق:

- ما قيمة المرتّب؟

فأجاب أمين ببساطة:

- لا شيء.

- ويهمّني جدًّا أن أتزوّج.

- أنا عندي خطيبتي ولا أدري كيف أتزوّج!

- بنات الهوى ارتفعت أسهمهنّ في بورصة العرب لدرجة خياليّة...

- نحن محاصرون من جميع الجهات...

- وقد تيأس خطيبتك فترحّب بأيّ قادر.

فقال أمين بثقة:

- ليست من هذا النوع...

- لو أنّي مكانك لكتبت كتابي لأروّح عن نفسي تاركًا المستقبل للمستقبل!

وحليت الفكرة لأمين ولكنّه راح يقلّبها على شتّى جوانبها قبل أن يندفع إليها كالمجنون. ووجد بابًا لم يطرقه فقرّر أن يطرقه. وقرّر أن يطرقه سرًّا فأخفى عزمه حتّى عن أمّه المحبوبة. ذهب إلى فيلّا المعادي لمقابلة أبيه سليمان بهجت. إنّه يزوره من حين لآخر زيارات بريئة، وفي كلّ مرّة يخيّل إليه أنّ الفيلّا تزداد

تألقًا وترفًا. وكالعادة لقيه أبوه برقّة معهودة، وسأله عن مامته وجدّته وسائر أفراد الأسرة. وحضرت زاهية المقابلة فهي لا تترك الابن يخلو إلى أبيه أبدًا. ولم يجد أمين بدًّا من عرض قضيّته على مسمع منها. قال:

ـ إنّي خاطب كما تعلم يا بابا وأريد أن أتزوّج. . .

لم ينظر نحو زاهية ولكنّه شعر بأنّها ساجت بالانفعالات. وتساءل الأب ببلاهة:

ـ وماذا يمنعك؟

فضحك محرجًا وقال:

ـ أنت أدرى يا بابا.

هزّ الرجل رأسه وقال:

ـ طالما أفهمت الجميع أنّني لا أملك إلّا جدران هذه الفيلّا!

فتساءل برجاء:

ـ ولو على سبيل القرض؟

فقال سليمان بهجت بأسى:

ـ ليس لديّ إلّا الحزن والأسف.

وتدخّلت زاهية في الحديث قائلة:

ـ يا باشمهندس، أنتم أغنياء ولست في حاجة إلى قرض.

فتحوّل إليها كارهًا ومتسائلًا:

ـ أفندم؟

ـ هل لديك فكرة عن ثمن بيتكم القديم بحلوان؟

لم ينبس فقالت:

ـ ألف شركة أجنبيّة مستعدّة أن تشتريه بمليون، سامعني؟!

ثمّ وهي تضحك:

ـ أرأيت أنّكم من أصحاب الملايين؟!. . . أنا مستعدّة أن أبيعه لكم في يوم!

وغادر أمين فيلّا المعادي خائب المسعى ولكنّ الملايين تتطاير من خياله معيدة خلق الدنيا من جديد. أجل إنّ البيت ملك جدّته، وهي نفسها تعيش بمعاش لا جدوى منه في هذا الزمن. البيع يغنيها ويغني أولادها وأحفادها. وحتّى متى ينتظر أبناؤها؟! كوثر ومحمّد ومنيرة يدنون من الستّين ويعانون حياة متقشّفة. جدّته في الثمانين، وهو يحبّها، أو لا يكرهها، وصحّتها أحسن من صحّة كوثر ومنيرة أمّه، وثمّة حلّ متاح يعد الجميع بالسعادة. وهو خير على أيّ حال من رصد موتها باعتباره مفتاح الفرج للجميع. وبشّر بفكرته لدى أمّه وخاله محمّد وابن خاله شفيق وبنت خاله سهام. قال:

ـ وتنزل لكلّ مستحقّ عن حقّه فتعفى التركة من الضرائب ويبقى لها ما يجعلها من الأغنياء إلى آخر العمر.

وطابت الفكرة لمن يغالبون وحش الغلاء. وقد خطرت لمنيرة كما خطرت لمحمّد من قبل ولكنّها أشفقا من إعلانها رحمة بأمّهما، عاشقة البيت، والحالمة أبدًا بإعادة الشباب إليه. وما الضرورة في تكدير صفو امرأة محبوبة في الثمانين من عمرها؟! ولكنّهما غُلبا على أمرهما إزاء حماس الأبناء المرهقين بالأزمة، وقال محمّد:

ـ ليكن في علمكم بأنّنا ـ أنا ومنيرة ـ لن نكون البادئين بفتح الموضوع.

ولم تحمل سهام للمشكلة كلّها همًّا وقالت لنفسها:

ـ فليأكل بعضهم بعضًا!

وانضمّ أمين وشفيق إلى لقاء الجمعة التالي فأحدث حضورهما دهشة وقالت سنيّة:

ـ حسن أن تتذكّرا بين الحين والحين أنّ لكما جدّة!

فانقبض قلبا محمّد ومنيرة على حين تربّص شفيق وأمين بالفرصة المناسبة. وجرى الحديث بعيدًا عن النيّات المضمرة، آخذًا في مجراه زواج رشاد في المقدّمة، ثمّ كالعادة احتلّت السياسة مكانها الدائم المرموق. قال رشاد:

ـ النصر لم يبشّر حتى الآن بسلام دائم.

فقالت منيرة بلا تركيز حقيقيّ:

ـ بل ثمّة إشارات في الصحف إلى احتمال حرب خامسة!

فقالت كوثر بمرارة:

ـ كأنّها مباريات الكرة الدوريّة. . .

مضى الحديث في درجة حرارة منخفضة على غير عادة والضمائر مضطرمة بالمهمّة الثقيلة التي جاءوا من أجلها. وساد صمت غير طبيعيّ. وتبادل أمين وشفيق نظرة متضمّنة دعوة بالتقدّم. واخترق أمين جدار

الحرج فقال لجدّته:

- معنا كلام يستحقّ أن يُسمع!

فرمقته بنظرة بريئة باسمة فقال:

- تعلمين طبعًا بمتاعب الناس في هٰذه الأيّام، خاصّة الشباب الذين يبحثون لأنفسهم عن مستقرّ...

فقالت سنيّة بحنان:

- قلبي معكم والله لن ينسى عبده!

فقال شفيق:

- ولٰكن يوجد حلّ يا جدّتي.

- يسرّني أن أسمع ذٰلك.

- الحلّ بيدك أنت!

فدهشت سنيّة وتساءلت في حيرة:

- أنا؟!

فقال أمين:

- إنّك تملكين مليونًا من الجنيهات!

قلّبت المرأة عينيها في الوجوه ضاحكة وقالت:

- مليون!، ما أملك إلّا معاش جدّكم الذي تتناقص قيمته كلّ طلعة شمس...

فقال شفيق:

- هٰذا البيت القديم يساوي اليوم مليونًا بالكمال والتمام...

تراجع جذعها حتّى التصق بمسند الكنبة ذات الغطاء الأخضر كأنّما تلقّت ضربة، وتمتمت بصوت مبحوح:

- البيت القديم!

وراحت كالمستغيثة تنقّل بصرها من رشاد إلى محمّد إلى منيرة ثمّ تساءلت بحدّة:

- فيمَ تفكّرون؟!

شعر محمّد بأنّه ينبغي أن يشترك في الحديث ليصدّ عنه أيّ مضاعفات فقال برقّة:

- ماما، معذرة، إنّهم متأزّمون، ويروّحون عن أنفسهم بالشكوى...

فقالت بوجه متجهّم:

- إنّي متألّمة.

فقال بنبرة ملاطفة:

- معاذ الله، امنحينا بعض الصبر، لا بأس من شرح الفكرة، وأنت في النهاية صاحبة الحقّ المطلق في القبول أو الرفض، علم الله أنّني كاره للحديث، ولٰكن هل يجوز أن نتجاهل أنّات أبنائنا؟!

فقالت سنيّة بامتعاض شديد:

- سأصغي إليك وأنا كارهة!

فقال مستعينًا بمهارته المهنيّة:

- عمَّ تمخّض تفكير الأولاد؟، يقولون إنّ الشركات الأجنبيّة تشتري الأراضي بأسعار خياليّة، ويؤمنون بأنّه يمكن أن نبيع بيتنا بمليون، لا عليك بعد ذٰلك إلّا أن تشتري شقّة أو فيلّا صغيرة مناسبة وأن تستثمري بقيّة المال في مشروعات تدرّ أرباحًا محترمة، في الوقت نفسه تمدّين الأحفاد بما يمكّنهم من تأسيس حياتهم وتحقيق آمالهم، خاصّة وأنّ معاشك لا خير فيه وانتفاعك بالبيت قاصر على الإقامة المجّانيّة، هٰذه هي الفكرة، وهي تستحقّ المناقشة، ولن يحملك أحد على قرار تأبينه...

اشتدّ التأثّر بسنيّة لحدّ أنّها لم تستوعب حديث محمّد، غاية ما أدركته أنّهم ائتمروا معًا للانقضاض على البيت الذي لا تتصوّر للحياة معنًى خارج جدرانه. قالت:

- ضقتم بحياتي والله لا يحبّ ذٰلك!

فهتفت منيرة:

- ماما، كيف هان عليك أن تقولي ذٰلك؟... نحن نحبّك أكثر ممّا نحبّ أنفسنا...

- عندما رأيتكم داخلين ملكني شعور غريب...

فضحك محمّد مداريًا مرارته وقال:

- لا... اطردي هٰذا الشعور من فضلك...

- وهٰذا تأويل حلم رأيته الليلة الماضية!

- تأويله خير ولا يمكن أن يكون إلّا خيرًا!

فقالت بحزم:

- إذن فلنغيّر الحديث...

ولٰكنّ أمين تساءل:

- ألا يحزنك ألمنا يا جدّتي؟

فقالت بانفعال:

- كيف لا، إنّكم تعيشون في خواطري وأحلامي

وإن تجاهلتم وجودي لا فرق بين من يقيم منكم في القاهرة أو في ألمانيا.

ـ إنّك جدّتنا المحبوبة في جميع الأحوال.

فلم تستجب لقوله وقالت:

ـ توجد فرص كثيرة فيما نقرأ ونسمع...

فقال لها شفيق:

ـ أعطنا مثلًا.

ـ البلاد العربيّة، أيضًا ممكن أن يبدأ أمين حياة الزوجيّة في شقّة العبّاسيّة...

فقال أمين:

ـ أيّ زوجين يودّان الاستقلال بمسكن...

وقال شفيق:

ـ والبلاد العربيّة ليست تحت طلب الطالب...

فقالت بحرارة:

ـ فكّروا ولٰكن بعيدًا عن هٰذا البيت...

فقال أمين:

ـ يبدو أنّك لم تفهمي الموضوع يا جدّتي.

فقالت بعناد:

ـ لا حاجة بي إلى ذٰلك، ولن يُمسّ البيت وأنا حيّة!

ونظرت فيما أمامها وقالت بتعاسة لا تحلّ بها إلّا في الملمّات:

ـ لم يبقَ من العمر إلّا قليل، اتركوني في سلام حتّى يستردّني الله الرحيم...

فقالت منيرة بعصبيّة:

ـ ولا كلمة أخرى في الموضوع ومعذرة يا ماما...

ولّما غادروا البيت أسبلت المرأة جفنيها في إعياء وغمغمت لنفسها:

ـ الله يرحمه ويغفر له!

ودون دافع واضح قرّرت أن تمضي صباح الغد في الحديقة اليابانيّة قبل أن ينطوي الخريف ويهلّ الشتاء. لم تعد في نشاطها الأوّل، وكثير من الذكريات تتلاشى، وكثير من الأحلام تتراءى ولا تخلو من كوابيس. ثمّ إنّها تغيب كامرأة وتتجسّد في صورة ورقة ماليّة يحوم حولها الجشع. ومضت على مهل حتّى وقفت أمام الصورة التذكاريّة وهمست:

ـ أنت الدليل الحيّ على أنّ السعادة حقيقة لا خيال.

وقالت كوثر لرشاد:

ـ اشرع في بيع الأرض وحسبك ما رأيت وسمعت...

فهزّ رأسه موافقًا وقال:

ـ لٰكنّي لن أضنّ على الحديقة ببعض المال...

ـ لا أدري معنًى لذٰلك...

فقال برقّة:

ـ جدّتي تحبّني أكثر من الجميع وعليّ أن أبادلها حبًّا بحبّ...

أمّا الراجعون إلى القاهرة فقد جمعهم الديزل وهم في غاية من الانفعالات المتضاربة. قال أمين:

ـ ما كنت أتصوّر أنّها تملك هٰذه الطاقة الكبيرة من العناد!

فقال شفيق:

ـ لا تريد أن تفهم ولا أن تتفاهم...

ـ لا أريد أن أعمّر حتّى أبلغ تلك الحال...

فقالت منيرة بحدّة:

ـ تذكّرا أنّكما تتحدّثان عن أمّنا!

واختلطت الهموم الشخصيّة بالهموم العامّة، وآمن كثيرون بأنّها همّ واحد ذو أسماء متعدّدة، ألا يكون الحلّ في السلام، في الديموقراطيّة، في الشريعة الإسلاميّة؟!. المهمّ ألّا يكون حلًّا سبق أن جُرّب وأسهم في تجميع الثمار المرّة الراهنة. ليكن السلام ولٰكن ما باله يتدلّل ويتعذّر؟. ولٰكنّ الديموقراطيّة، ها هي الأفكار تتحاور وتتصارع، وتتطوّر من منابر إلى أحزاب صريحة، بل ها هو الوفد يتعملق كمارد حطّم قمقمه، وتهتزّ الأرض وتنشقّ عن قرارات انضباط تعيد المارد إلى قمقمه ولٰكنّ الأحزاب الأخرى تتكوّن وحتّى اليسار يكرّس له حزب شرعيّ لأوّل مرّة. وينادي كلّ حزب بتطبيق الشريعة الإسلاميّة ويشترك اليسار في النداء، ويشعر محمّد بأنّه لم يكن في يوم من الأيّام أقرب إلى هدفه ممّا هو اليوم. ومع ذٰلك قال بأسى:

ـ حتّى الشيوعيّون لهم حزب أمّا نحن فلا حزب لنا!

وارتفعت الأصوات المعارضة ولٰكنّ الأسعار

ارتفعت أكثر وامتلأت الأسواق بالسلع المستوردة، استهلاكيّة وكماليّة، وتحدّث المرهقون عن طبقة جديدة من أصحاب الملايين، كالوباء، يعرف بآثاره وعواقبه ولا ترى مكروباته بالعين المجرّدة. وإذا بالسماء تمطر دهشة أنست كلّ ذي همّ همّه. دهشة أسطوريّة لم يتصوّرها خيال من قبل. دهشة تتميّز بخواصّ الخوارق وسجايا المعجزات ونشوة الأساطير. عندما عُرف وأُعلن أنّ أنور السادات سيهبط بشخصه في أرض إسرائيل! وتجمّع كثيرون من سكّان الأرض أمام التلفزيون ليشاهدوا بأعينهم كيف تتحدّى الإرادة البشريّة مجرى التاريخ لتحوّله عن مساره الحتميّ عنوة وبلا سلاح. وتجلّى اللقاء بين أعداء الأمس، تصافحت الأيدي، تبودلت الضحكات، والخطب، والصلوات، وتدفّق ماء عذب من شقوق صخر صلد لتصبّ في مجرى مليء بالحصا. واستأثرت الزيارة العجيبة بحديث الجمعة في البيت القديم.

قال عنها رشاد:

ـ كأنّها غزو القمر.

وتجلّى الفتور في وجهَي محمّد ومنيرة، أخيرًا وجدا ما يتّفقان فيه. قال محمّد:

ـ هٰذه هي الثغرة التي لا انسداد لها...

وقالت منيرة:

ـ إنّه استسلام لا سلام...

فتساءلت كوثر ببرود:

ـ أتريدون حربًا بلا نهاية؟!

وبدت سنيّة مطمئنّة وسعيدة وإن خفق قلبها طيلة الوقت حبًّا وعطفًا على رشاد. ونظرت صوب محمّد وسألته:

ـ ما رأي شفيق؟

ـ إنّه مسلم مثلي تمامًا.

ـ إنّي مسلمة قبلك بربع قرن، وماذا عن سهام؟

فقال بسخرية:

ـ متّفقة معنا لأوّل مرّة!

ـ وألفت؟

ـ أظنّها مثلك يا ماما!

فالتفتت نحو منيرة قائلة:

ـ وأمين على رأيك؟، طبعًا، أخيرًا اتّفقوا!

ورجعت بعينيها إلى محمّد وقالت:

ـ إنّك رجل تغوص بين الناس، أصدقني بربّك ما رأيهم؟

فمطّ بوزه ممتعضًا وقال:

ـ الشعب مع السلام بلا عقل!

فقالت سنيّة:

ـ رأيت استقبالهم للرئيس عند عودته فلم أدهش يا ابني، كان الاستقبال مبايعة لشخصه من جديد ومباركة لخطوته، هم الذين يموتون عند الحرب ويجوعون عند اللاسلم واللاحرب، ورأيهم رأي الفطرة السليمة بعيدًا عن شرك المذاهب...

فقال محمّد بصلابة:

ـ الجهاد لا يعتلّ بالعلل، والحقّ كالشمس...

ـ كلّ شيء مشروع في سبيل الدفاع عن النفس!

فقالت منيرة:

ـ يبدو يا ماما أنّنا خسرنا العرب...

فقال محمّد:

ـ دمغونا بالخيانة ولهم حقّ.

فسألته باهتمام:

ـ ماذا يقول الناس عن ذٰلك؟

ـ إنّهم حانقون على العرب، نسوا التاريخ قديمه وحديثه، ومهما قيل عن أخطائهم فأياديهم لا يمكن أن تنسى...

فقالت سنيّة:

ـ أوافقك على ذٰلك، ولٰكنّ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام!

ـ بدأ أناس يقولون ما لنا وللعرب، لسنا عربًا، هٰكذا تبدأ فترة مأساويّة في تاريخنا الحافل بالمآسي...

فقالت بهدوء:

ـ الصواب يتوارى عند احتدام الخصام ولٰكنّه لا يفنى أبدًا...

فقالت منيرة بازدراء:

ـ ليس أمامه اختيار فإمّا يدور في فلك الولايات المتّحدة وإمّا الموت جوعًا!

ولٰكنّ العجوز كانت متفائلة. بل عادت تحلم

بتجديد شباب البيت والحديقة، والمدفن أيضًا.

وفي ذٰلك الوقت عهد رشاد إلى خاله محمّد بمهمّة بيع الأرض وشراء شقّة له في حلوان فقام بالمهمّة على خير وجه، واشترى له شقّة جديدة في عمارة للتمليك في شارع الأمين غير بعيد من شارع ابن حوقل. أمّا مهمّة البحث عن زوجة فقد تعثّرت رغم كثرة الباحثين. ولدى كلّ فشل كانت كوثر تثور غاضبة وتقول:

ـ لولاه ما كان نصر ولا سلام!

وأخيرًا أحرزت منيرة أوّل توفيق مع مدرّسة في دائرتها التعليميّة. كانت أرملة لمدرّس في الثلاثين من عمرها ـ تكبر رشاد بعامين ـ وأمّ لغلام في العاشرة، تدعى سميحة، وقد شرطت أن يقيم ابنها معها. واستمعت كوثر للمواصفات والشروط بفتور ولٰكنّها سرعان ما غيّرت رأيها عندما زارت سميحة في عين شمس ببيت والدها، فأقرّت لها بالوسامة وقوّة الخلق. ودعيت للغداء مع منيرة في البيت القديم ـ نظرًا لظروف رشاد ـ فتمّ التعارف، والارتياح من جانب رشاد، فقال عقب انصرافها:

ـ نعمة من الله . . .

وتنبّأت له جدّته بالتوفيق والذرّيّة. ونشطت كوثر وسميحة مع معونة محمّد لتجهيز الشقّة الجديدة وكان من المتّفق عليه أن يقوم رشاد بالأعباء الماليّة. وفي نفس الوقت اتّفق رشاد ـ بوساطة محمّد أيضًا ـ مع مقاول حدائق، لزراعة الحديقة بشجيرات الورد والأزهار كالفلّ والقرنفل والنرجس والحنّاء والنسرين وأشجار النخيل والكافور والسرو والحور والأكاسيا. واستعادت روح العجوز مرحها فشعشع رأسها بالآمال وقالت:

ـ ما دام أمكن هٰذا فكلّ شيء ممكن . . .

وتمّ زواج رشاد في وقار وهدوء يناسبان حاله. وتذكّرت سهام طريقها الأوّل فغشيتها كآبة عابرة وضاعفت من ساعات عملها بعزيمة ثابتة. العمل وحده يضمّد جرحها ويفتح لها الأبواب. ولم تيأس من الرسوّ في مرفأ آمن ما دامت تهيمن على صياغة مستقبلها. كانت وما زالت مطمئنّة إلى جمالها الفريد ولو أنّ الجمال لا يعفى من عثرات الحظّ ـ وهل ينسى مثل عمّتها منيرة ـ وكان ينتابها حنين إلى الحبّ والجنس أيضًا، وتسرّها مداعبات المعجبين وما أكثرهم، فتقول لنفسها أحيانًا:

ـ في مكان ما يوجد رجل مناسب واسع الإدراك . . .

والتحمت رويدًا رويدًا بشبّان وشابّات ينتمون إلى رؤيتها السياسيّة فأترعت حياتها بالأنس والخطر معًا، وقالت لنفسها:

ـ لكلّ كأس عليه أن يشربها حتّى الثمالة!

ولّما يئس أمين من جدّته كما يئس من أبيه من قبل قرّر أن يكتب كتابه. وحظيت الفكرة بارتياح أهل خطيبته فضلًا عن هند رشوان نفسها. بذٰلك وجد الفرص للترويح عن أعصابه وخفّ ضغط الحياة عليه. وكان ـ وابن خاله شفيق ـ يتابعان الإعلانات عن الوظائف المطلوبة في البلاد العربيّة. وسأل ابن خاله:

ـ ألا يعرقل موقف العرب الأخير مساعينا؟

فقال الآخر:

ـ علينا أن نجرّب.

وفعلت هند رشوان مثلهما في متابعة الإعلانات فقالت منيرة لأمين:

ـ ممكن أخلي لك غرفة في شقّتنا تجهّز للنوم.

فتساءل:

ـ والمهر؟

فلم تحر جوابًا فقال:

ـ المهندس على أيّ حال مطلوب وسنعثر على حلّ بطريقة ما في الخارج أو في إحدى شركات الانفتاح . . .

وظنّ محمّد أنّه وجد حلًّا لمشكلة شفيق حينما علم بأنّ لأحد تجّار الحديد ـ وهو زميل له في الإخوانيّة ـ ابنة في سنّ الزواج. وقال لشفيق:

ـ سيتكفّل أبوها بكلّ شيء، حتّى المسكن، قانعًا منّا بشيء رمزيّ.

فرحّب شفيق ترحيب المستغيث ولٰكنّ أفراحه انطفأت لدى رؤيتها، فهي لم تكن عاطلة من الجمال

فقط ولكنّها كانت أيضًا صورة طبق الأصل من أبيها فتراجع وهو يقول لنفسه:

ـ كأنّما أتزوّج من الرجل نفسه!

وتضايق أبوه وقال له:

ـ مال وأخلاق ودين، كن من أهل الباطن!

فأشار شفيق إلى أمّه ألفت وقال ضاحكًا:

ـ بل أكون مثلك من أهل الظاهر والباطن معًا!

فتنهّد محمّد قائلًا في غيظ:

ـ احتار دليلي. . .

وكان يتسكّع في ميدان طلعت حرب عندما دهمه منظر مثير. رأى صديقته القديمة زكيّة محمّدين خارجة من أحد الحوانيت، ماضية نحو سيّارة شيفروليه زرقاء منتظرة. تراءيا فتوقّفا عن الحركة وتهلّل وجهاهما بابتسامة، ثمّ تصافحا. دعته إلى الركوب إلى جانبها وانطلقت بالسيّارة. لم تعد الطالبة المنحرفة ولكن أصبحت امرأة تخطر في هالة ذات مغزى دسم. غانية تبرق بالجاه المستورد. لعلّ عريكتها قد لانت عقب انقطاع السيل العربيّ. وغلى ماء الشباب المحبوس في عروقه فتبخّرت التقوى ولو إلى حين. قالت وهي تتّجه نحو النيل:

ـ لم تزرني في شقّتي الجديدة!

وكشخص يقيم في جلبة محطّة باب اللوق سحره الهدوء الوافد مع نسائم النيل، كما فتنته الديكورات والمرايا والتحف. وبلغت دهشته غايتها عندما رأى أمّ زكيّة ـ وقد رآها قديمًا وهي تسرح بالفاكهة الفاسدة ـ مقبلة لتحيّته في روب مزركش وخمار أرجوانيّ وشبشب مستورد، بيدها مسبحة من القهرمان. وطيلة الوقت عانى من القلق كما عانى من الشهوة المضرمة. سلّم بالهزيمة في اللقاء الأوّل إذ كانت المقاومة فوق طاقته. لم يلمس كأس الكونياك، هذا ما استطاعه. ولّما انقصفت مخالب الوحش الناشبة في صدره حلّ في ثقوبها الانقباض كالصديد. وسألته ضاحكة:

ـ أتذكر مشروعك القديم؟

فأجاب بذهول بدافع الحرج:

ـ طبعًا.

ولم تعلّق بحرف. ترى أتريد زوجًا حقًّا؟. ولأيّ غرض؟. وفي الحال تذكّر سليمان بهجت ـ زوج عمّته السابق ـ وزاهية، وما يتردّد على الألسنة. وغادر الشقّة بقلب ثقيل وهو يرجو ألّا يضطرّ إلى العودة إليها مرّة أخرى.

وكمثل حظوظهم تعثّرت مفاوضات السلام حتّى أوشك أن يقنط أنصارها ويشمت أعداؤها، ثمّ ولدت ولادة عسيرة في كامب ديفيد، فانبسطت بحيرات الرضا كما انفجرت براكين الغضب. وكالعادة اجتمعت الأسرة في حلوان عدا الأحفاد منضمًّا إليهم رشاد الذي انتقل إلى شقّته الجديدة بشارع الأمين. وكان المطر يجيء قليلًا ويذهب قليلًا ولا ينقطع، والسماء ملبّدة بالغيوم تضفي على الضاحية جوًّا كالمغيب الدائم. وكان العمل قد بدأ في الحديقة ولكنّه لم يتواصل كالمتوقّع بسبب غياب العمّال المتكرّر، أمّا في ذلك اليوم فقد توقّف بسبب المطر. نظر محمّد إلى أرض الحديقة التي تبدّت كهدف متخلّف عن غارة جوّيّة وقال:

ـ ستكون أجمل حديقة في حلوان.

فقالت سنيّة بجزع:

ـ إنّي أعدّ الساعات والدقائق ولكنّي أدعو لرشاد من صميم قلبي. . .

فقالت كوثر:

ـ ها هو السلام فمتى الرخاء؟!

فقال محمّد متهكّمًا:

ـ ما هو إلّا كارثة، ولا نجاة إلّا بالإسلام!

فابتسمت سنيّة قائلة:

ـ دائمًا تنذروننا بالكوارث ولكنّ الله يخيّب الظنون. . . وجعجع الرعد فارتجفت كوثر، وقالت منيرة:

ـ أخشى أن يتعذّر علينا الرجوع.

وجعلت سنيّة تسترق إليهم النظرات فتمتلئ بالشجن. هزلوا وشاخوا قبل الأوان، حتّى محمّد رغم الإصرار المحفور في صفحة وجهه الذي يذكّرها بحامد برهان. ماذا جرى لهم؟. لم ينعم أحد منهم بفرحة صافية أبدًا. ولا أحد من أبنائهم. شفيق، كوثر، أمين، عليّ، الجميع سواء. الوحيد الذي عرف نفسه

مستقرًّا هو رشاد ولٰكن بأيّ تضحية فادحة؟!. والبيت هل يتجدّد حقًّا؟. وهٰذه الأرض المطيّنة متى تستوي حديقة غنّاء؟. إنّها في خيالها فردوس وأمّا في الواقع فأرض تخدّدها الحفر، وتحدق بها أكوام الطين، متى تنبسط؟... متى تجيء المشاتل؟، متى ينقطع المطر؟، متى يواظب العمّال؟. وعقب تناول الغداء انهلّ المطر أكثر وأرعدت السماء وهبطت السحب المعتمة في تموّجات عنيفة. قال محمّد:

ـ علينا أن نذهب حال توقّف المطر.

فقالت سنيّة:

ـ ما أجمل أن تبيتوا ليلتكم عندنا.

فسألها محمّد مداعبًا:

ـ ما آخر أخبار أحلامك؟

فقالت بفتور:

ـ إنّي أحلم الآن وأنا يقظانة!

فقالت منيرة ضاحكة:

ـ كرامة جديدة يا ماما!

وحست سنيّة آخر رشفة في فنجان القهوة ثمّ نادت أمّ سيّد وأعطتها الفنجان قائلة:

ـ اقرئي هٰذا وأسمعيني ما يقول.

فتساءل محمّد ضاحكًا:

ـ أما زلت تصدّقينها يا ماما؟

ـ إنّها مثل أجهزة الإعلام، ولٰكن لا غنى عنها!

وقرّبت المرأة الفنجان من عينيها الذابلتين، وتفحّصته مليًّا، ثمّ قالت بنفس الثقة التي تتحدّث بها منذ نيّف ونصف قرن:

ـ أمامك سكّة ليست بالقصيرة، فيها عقبات، ولٰكن انظري (مقرّبة الفنجان من سنيّة)... هناك تنتظرك السلامة...

وهزم الرعد فكاد الفنجان يسقط من يد العجوز ولٰكن محمّد ضحك سائلًا:

ـ ومتى يا أمّ سيّد تزول العقبات؟

وكانت سنيّة المهدي تصعّد بصرها وتصوّبه ما بين السماء والحديقة فتطوّعت بالإجابة قائلة:

ـ عندما يتوقّف الرعد!

أمام العرش

- ١ -

انعقدت المحكمة بكامل هيئتها المقدّسة في قاعة العدل بجدرانها العالية المنقوشة بالرموز الإلٰهيّة وسقفها المذهّب تسبح في سمائه أحلام البشر. أوزوريس في الصدر على عرشه الذهبيّ، إلى يمينه إيزيس على عرشها، وإلى يساره حورس على عرشه، وعلى مبعدة يسيرة من قدميه تربّع تحوت كاتب الآلهة مسندًا إلى ساقيه المشتبكتين الكتاب الجامع، وعلى جانبي القاعة صُفّت الكراسيّ المكسوّة بقشرة من الذهب الخالص تنتظر من سيُكتب لهم الخلاص من القادمين.

وقال أوزوريس:

ـ قُضي على البشر منذ قديم بأن تمضي حياتهم على الأرض معهم عند عبور عتبة الموت، كالظلّ تتبعهم حاملة الأفعال والنوايا، وتتجسّد فوق أجسامهم العارية. وعقب حوار طويل اتّفقت الكلمة على أنّ هٰذه الساعة هي الساعة الفاصلة، وها هي المحكمة تنعقد من أجل سياحة طويلة في الزمن.

وأومأ أوزوريس إلى حورس فصاح الشابّ بصوت جهوريّ:

ـ الملك مينا.

ودخل من الباب في أقصى القاعة رجل متلفّعًا بكفنه، عاري الرأس، حافي القدمين، وأخذ يقترب من العرش بجسمه القويّ وملامحه الواضحة حتّى وقف على بعد ثلاثة أذرع منه في خشوع كامل.

وأومأ أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ من الكتاب:

ـ أعظم ملوك الأسرة الأولى، حارب الليبيّين وانتصر عليهم، هاجم مصر السفلى وضمّها إلى مملكته الجنوبيّة وأعلن نفسه ملكًا على مصركلّها وتوّج رأسه بتاج مزدوج، حوّل مجرى النيل وأنشأ مدينة منف في الفراغ المتخلّف عن ذٰلك.

وقال أوزوريس مخاطبًا مينا:

ـ هاتِ ما عندك.

فقال الملك مينا:

ـ لخّص تحوت كاتب الآلهة حياتي في كلمات فما أسهل الكلام وأشقّ العمل!

فقال أوزوريس:

ـ لنا رؤيتنا في تقييم الرجال والأفعال فلا تبدّد الوقت في الثناء على نفسك.

فقال الملك مينا:

ـ ورثت مملكة الجنوب عن أسرتي، وورثت معها حلمًا كبيرًا طالما راود رجالها ونساءها وهو تطهير البلاد من الغرباء وخلق وحدة أبديّة تضمّ بين جناحيها مملكتي الجنوب والشمال، وكان صوت عمّتي أوز أقوى محرّك لإشعال ذٰلك الحلم الكبير. كانت ترمقني بإشفاق وتقول:

ـ أتقضي عمرك في الأكل والشرب والصيد؟

أو تقول بكبرياء:

ـ لم يعلّمنا أوزوريس الزراعة لتكون مناسبة للاقتتال حول توزيع ماء الفيضان...

وقلت لزوجتي المحبوبة إنّني أشعر بجذوة تستعر في صدري ولن تبرد حتّى أحقّق الحلم، ووجدتها زوجة ملكيّة رائعة فقالت لي بحماس:

ـ لا تدع الليبيّين يهدّدون عاصمتك ولا تدع

الناس يمزّقون الأرض التي وحّدها النيل.

وانكببت على تدريب الرجال الأشدّاء وصلّيت إلى الآلهة مستوهبًا الرضا والنصر حتّى تحقّق على يدي الحلم الذي طالما راود آبائي وأجدادي.

فقال أوزوريس:

ـ أزهقت من أرواح الليبيّين مائة ألف!

ـ كانوا المعتدين يا مولاي.

ـ ومن أرواح المصريّين شماليّين وجنوبيّين مائتي ألف.

ـ راحوا فدية للوحدة... ثمّ حلّ الأمن والسلام وتوقّف نزيف الدم الموسميّ من جرّاء النزاع حول مياه النيل...

فسأله أوزوريس:

ـ لِمَ لَمْ تُقنع قومك بالكلمة قبل اللجوء إلى السيف؟

ـ فعلت ذلك مع جيراني وانضمّ بعضهم دون قتال ثمّ حقّق السيف في أعوام ما لم تكن تحقّقه الكلمة في أجيال.

ـ يقدّم كثيرون هذا المنطق مداراة لإيمانهم بالعنف.

فقال مينا بحرارة:

ـ استحوذ على مشاعري مجد مصر وأمنها.

ـ ومجدك الشخصيّ أيضًا.

فقال الملك مينا بتسليم:

ـ لا أنكر ذلك ولكنّ الخير عمّ البلاد.

ـ وكان لأسرتك وأعوانك أوفى نصيب منه وللفلّاحين الحدّ الأدنى.

ـ مضى أكثر عهدي في القتال والبناء، لم أنعم بحياة القصور ولم أهنأ بلذيذ الطعام والشراب ولم أمسّ من النساء إلّا زوجتي، وكان لا بدّ من مكافأة الأعوان على قدر أعمالهم...

وطلبت إيزيس الكلمة. ثمّ قالت:

ـ مولاي يحاكم بشرًا لا آلهة، وحسب هذا الرجل الشجاع أنّه زهد في النعيم والكسل فطهّر البلاد من الدخلاء، ووحّد مصر فأطلق قوّتها الكامنة وكشف عن خيراتها المطمورة، ووفّر للفلّاحين الأمن والسلام، إنّه ابن أعتزّ ببنوّته.

وصمت أوزوريس قليلًا ثمّ قال:

ـ أيّها الملك، اتّخذ مجلسك على أوّل كرسيّ في الجناح الأيمن.

فمضى الملك مينا إلى كرسيّه مدركًا أنّه أصبح من أهل النعيم في العالم الآخر.

ـ ٢ ـ

وصاح حورس:

ـ الملك زوسر ووزيره أمحتب.

وجاء من الباب في أقصى القاعة رجلان في تتابع. المتقدّم منهما ربعة متين البنيان، والمتأخّر نحيل أميَل إلى القِصَر، كلاهما متلفّع بكفنه عاري الرأس حافي القدمين، مضيا نحو العرش حتّى مَثَلا بين يدي أوزوريس على الوضع الذي سارا عليه.

وقال أوزوريس مخاطبًا أمحتب:

ـ تقدّم وقِفْ في حذاء الملك فلا فرق في هذا المكان بين ملك ورعيّة.

فصدع أمحتب بما أُمر، وراح تحوت يقرأ صفحة جديدة.

ـ الملك زوسر، أسّس الأسرة الثالثة، غزا النوبة، اكتشف مناجم النحاس في الصحراء الشرقيّة، بنى الهرم المدرّج.

الوزير أمحتب، حكيم حفظت الأجيال حكمه، برع في الطبّ والفلك والسحر والهندسة وقدّس الناسُ ذكره بعد وفاته بمئات السنين.

ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام فقال:

ـ ورثت مملكة موحّدة مترامية الحدود جمّة الخيرات، تحبّ السلام ولكن يطمع فيها المحدقون بها... فابتكرت سياسة لنفسي ولمن يجيء بعدي تقوم على أنّ الدفاع عن مصر يقتضي غزو القائمين وراء حدودها، ولمّا كانت النوبة هي أكثر البلاد تسلّلًا إلى وطني فقد قرّرت توسيع الحدود الجنوبيّة بغزو النوبة الشماليّة وإقامة معبد للإله فيها. وعرف أمحتب بعلمه وسحره الكنوز المخبوءة في الصحراء الشرقيّة فأرسلت البعثات لاستكشاف بطن الأرض فجوزينا على ذلك بالعثور

على مناجم النحاس الذي وجدنا فيه منافع قيّمة في السلم والحرب، وتكاثر الخير فشيّدت الهرم المدرّج، كما شجّعت العلوم ومكافأة النابغين فيها، ومضت الأيّام في عهدي حاملة لمصر التقدّم والقوّة.

ودعا أوزوريس أمحتب للكلام فقال:

ـ نشأت محبًّا للعلم والمعرفة، ودرست على كهنة منف العظام فحصلت على أقصى الدرجات في الطبّ والهندسة والفلك والسحر والحكمة، ولمّا علم الملك بتفوّقي دعاني إلى العمل في حاشيته رغم انتمائي إلى الشعب الفقير فأثبتّ جدارتي في كلّ ما كلّفني به، عالجت بنجاح الملكة من مرض من أمراض الخماسين وأنقذت بالسحر كبرى الأميرات من روح شرّيرة وعين حاسدة فولّاني الملك الوزارة وعهد إليّ ببناء الهرم فكان تحفة البناء في عصره، وما بلغت ما بلغت من شأو في العلم والعمل إلّا بتأييد رع وإلهامه...

وقال أوزوريس للملك زوسر:

ـ لقد غزوت النوبة دون أن تبدر منها أيّ بادرة اعتداء على حدود مملكتك؟

فقال الملك زوسر:

ـ قلت يا مولاي إنّني اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها.

ـ نظريّة لا تصدر إلّا عن قويّ يضمر العدوان...

ـ كان واجبي الأوّل أن أدفع عن بلادي أيّ أذى محتمل...

ـ وشيّدت معبدًا للإله وأوقفت عليه أراضٍ كان ينتفع بها الفقراء.

ـ ولكنّ للمعابد حقوقًا فوق كلّ الحقوق.

ـ كلام لا يُقبل دون مراعاة للظروف والملابسات.

ولاذ الملك بالصمت فقال أوزوريس:

ـ ولم توفّر لعمّال المناجم الرعاية الكافية فهلك منهم كثيرون!

فقال الملك:

ـ لا ينجز عمل كبير بلا تضحية وضحايا.

ووجّه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أمحتب قائلًا:

ـ حدّثني عن موقفك من سياسة الملك...

فقال الوزير أمحتب:

ـ كان رأيي أنّ العلاقات التجاريّة أنجع من الغزو في تأمين الحدود، وأنّ نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ويُعفى منها أهالي النوبة الفقراء، كما رجوت ألّا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقيّة حتّى نوفّر لها الرعاية الطبّيّة والتمرين الكافي ولكنّ مولاي كان متلهّفًا على دعم أسباب الأمان والرخاء لمصر وأهلها...

فقال له أوزوريس:

ـ سعيد من يوفّق في الدفاع عن نفسه أمامنا فلا تحاول الدفاع عن غيرك، والآلهة لم تقصّر في تربيتكم فلقّنتكم مبادئ الزراعة والقتال والأخلاق معًا.

وطلبت إيزيس الكلمة ثمّ قالت:

ـ زوسر ملك عظيم رغم هفواته وأمحتب ابن عزيز تتشرّف به أمّة...

وهنا قال أوزوريس:

ـ أيّها الملك، سأكتفي بلومك، فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين.

فجلس زوسر إلى يمين مينا كما جلس أمحتب إلى يمين زوسر.

ـ ٣ ـ

ونادى حورس:

ـ الملك خوفو.

فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول، عاري الرأس حافي القدمين متلفّعًا بكفنه حتّى مثل أمام العرش بخشوع.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ الملك خوفو، رأس الأسرة الرابعة، صاحب الهرم الأكبر، نظّم الإدارة تنظيمًا لم تعرفه من قبل ولا من بعد، وفي عصره فاضت الأرض بالخيرات وعمرت الأسواق وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة، وانفجرت هيبة فرعون في الآفاق كالشمس فهابتها القبائل فشمل السلام الربوع والأنفس...

ودعا أوزوريس الملك للكلام فقال:

- فُتنت منذ صغري بالدقّة والنظام، وآمنت بأنّه يجب أن يكون لكلّ نشاط قوانينه وتقاليده لا فرق في ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجيّة، فنَفَذت شخصيّتي إلى كلّ قرية متمثّلة في الموظّفين ورجال الأمن والمعابد وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة، وهو ما أعانني على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان، اشتركت فيه الألوف المؤلّفة على مدى عشرين عامًا فلم يتسلّل إليه اضطراب أو إهمال، ولم يحرّم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ولم يغب في الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة، هٰكذا خاض قومي تجربة فذّة بنجاح مثاليّ وأثبتوا قدرتهم الفائقة على خدمة الإلٰه والفوز برضاه وبركاته.

فسأله أوزوريس:

- هل سخّرت أمّتك لبناء قبر لك؟

فقال الملك خوفو:

- لو أردت قبرًا لحفرته في الجبل بعيدًا عن الأعين الطامعة ولٰكنّي شيّدت رمزًا للخلود الإلٰهيّ يحوي من الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر، وتنافس الناس في العمل به حتّى أقمت لهم مدينة كاملة وسعيدة ومقدّسة حيث يُبذل الجهد فيها من أجل الإلٰه وحده... كان عملًا يليق بالأحرار لا العبيد!

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ممّن كُتب لهم الخلود السعيد في العالم الآخر وقال:

- يُسمح الكلام لمن يشاء.

فقال الملك مينا:

- عمل مجيد يذكّرني ببناء منف العظيمة التي لم يمهلني العمر لأتمّها.

وقال الملك زوسر:

- كان الأوفق توجيه القوّة المتاحة للغزو وتأمين الحدود.

فقال الملك خوفو:

- كانت خيرات البلاد المتاخمة تأتيني بلا قتال، وكان حرصي على أرواح رعيّتي لا يقلّ عن حرصي على المجد والخلود.

فقال له أوزوريس:

- ولٰكنّك أزهقت روحًا بريئة عندما تنبّأ لك رجل بأنّ طفلًا سيرث عرشك.

- على الملك أن يدافع عن عرشه دفاعه عن وحدة أمّته، وفي سبيل ذٰلك يصيب ويخطئ.

- ألم يكن في ذٰلك تحدٍّ لإرادة الإلٰه؟

- نحن نفعل ما نراه واجبًا ويفعل الإلٰه ما يشاء.

فقال أوزوريس:

- وذاعت أقاويل عن احتراف كبرى بناتك الدعارة.

فقال خوفو بأسى:

- قد يُصاب أنبل الناس في عِرضه بغير علمه.

- بل قيل إنّك باركت سقوطها لتواجه عسرًا ألمّ بك؟

- محض افتراء، ولا يجوز الخداع في هٰذه القاعة المقدّسة!

وطلبت إيزيس الكلمة ثمّ قالت:

- هٰذا ملك منير مثل الشمس في سماء العروش، وكم من إمبراطوريّات تلاشت وبقي هرمه شامخًا، وطالما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بني وطنه والغرباء.

وعند ذاك قال أوزوريس:

- اجلس أيّها الملك على كرسيّك بين الخالدين.

- ٤ -

وهتف حورس:

- الحكيم بتاح حتب.

فدخل رجل صغير الجسم نحيله، لم يقلّل عري رأسه وقدميه من وقاره، وتقدّم على مهل حتّى مثل في أدب أمام العرش.

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ:

- الحكيم بتاح حتب، عاش مائة وعشرة، عمل وزيرًا للملك أسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة، له وصايا قيّمة ذائعة الصيت.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- تلقّيت العلم في معبد بتاح، وتجلّى تفوّقي منذ صباي، وعملت كاهنًا ردحًا من الزمن حتّى اختارني

الملك وزيرًا له، وكانت أيّام العظمة والمجد قد ولّت وكأنّها لم تكن، وولي العرش ملوك لا قوّة لهم ولا حكمة، شُغلوا بأهوائهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف، فقوي نفوذ الكهنة وطمع حكّام الأقاليم في السلطة ونَيل المآرب، وانتشر الفساد بين الموظّفين، فناء الفلّاحون بالظلم والهوان، وارتفعت أنّات الشكاوى حتّى انعقدت دخانًا في السماوات، ودأبتُ على تأمّل الأحوال بمرارة وأذهلتني العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس، ولم أقصّر في إبداء المشورة ولكنّها تلاشت في تضاعيف التسيّب والأنانيّة، ولـمّا بلغت العاشرة بعد المائة استدعاني الملك وأمرني أن أضع كتابًا أجمع فيه مختارات من وصاياي ففعلت...

فقال له أوزوريس:

- أسمِعْنَا بعضًا من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

- إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدّمه لك ولا تتكلّم إلّا عندما يسألك.

- ما سرّ اهتمامك بآداب المائدة؟

- قصدت في الظاهر آداب المائدة ولكنّي عرّضت في الحقيقة بجشع الكهنة الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف ويتخمون بالمآكل والمشارب!

فقال أوزوريس:

- أسمعنا مزيدًا من وصاياك.

فقال بتاح حتب:

- لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفًا ويعمر بيتك، وعنيت بها حكّام الأقاليم الذين دأبوا على بسط نفوذهم متحدّين وحدة المملكة.

وهنا تساءل الملك مينا:

- هل نسوا الدماء التي سُفكت في سبيل الوحدة؟

فقال الملك خوفو:

- وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التي تقدّست في عهدي؟

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه فقال:

- قلت أيضًا «إذا دخلت منزل غيرك فاحذر أن توجّه ذهنك إلى خدر نسائه، فكم هلك أناس من جرّاء ذلك»... وقد أعلنت ذلك بناءً على ما ذاع عمّا يجري في حريم القصر.

فسأله أوزوريس:

- ألم يكن الملك يسيء معاملة حريمه؟

- من أجل ذلك قلت أيضًا «إذا كنت عاقلًا فدبّر منزلك وأحبَّ زوجتك، شريكتك في حياتك، وقدّم لها الطعام والملابس، وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور، ولا تكن شديدًا معها، فباللين تملك قلبها، وأدِّ مطالبها الحقّة ليدوم معها صفاؤك ويستمرّ هناؤك».

فقال أوزوريس:

- أسمعنا وصيّة موجّهة للجميع.

- لا تترك التحلّي بحلية العلم ودماثة الأخلاق.

فقال الملك مينا:

- لم يكن في عصري حكماء ولكنّ الرجال حرّروا أرضهم من الدخلاء ووحّدوا مملكتهم، وها هو عصر انحلال وفساد لم يتمخّض عن فعل قيّم ولكنّه ترك بعض الكلمات الجميلة، فما جدوى الحكمة؟!

فاعترض خوفو قائلًا:

- الحكمة تعيش كالهرم وأكثر.

وقالت إيزيس:

- لا تقلّلوا من قيمة ابني الحكيم، نحن نحتاج إلى الحكيم في عصور التدهور كما نحتاج إلى الطبيب في أيّام الأوبئة، وسيظلّ للكلمة الطيّبة أريجها على الدوام.

وأخيرًا قال أوزوريس:

- اذهب أيّها الحكيم إلى كرسيّك بين الخالدين.

- ٥ -

وصاح حورس بصوته الجهوريّ:

- ثوّار فترة الظلام الممتدّة ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى.

تدخل جماعة متباينة الأشكال والأحجام، مضت في أكفانها عارية الرءوس حافية الأقدام حتّى مثلت في صفّ واحد أمام العرش.

وتلا تحوت كاتب الآلهة صفحة جديدة:

- هؤلاء هم رءوس الثورة، قادوا الجماهير الغاضبة

في ثورة دمويّة مخرِّبة، ثمّ حكموا البلاد عهدًا طويلًا امتدّ ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى. ولم يتركوا وراءهم أثرًا يدلّ عليهم إلّا المعابد المهدّمة والقبور المنهوبة والذكريات المرعبة.

فقال أوزوريس:

ـ رشّحوا من يمثّلكم عند اقتضاء الكلام.

فأشاروا إلى رجل نحيل طويل كأنّما قُدَّ وجهه من صخر، وقالوا:

ـ أبنوم، فهو أوّل من دعا إلى العصيان والقتال.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال أبنوم:

ـ تجاهل التاريخ أسماءنا وأفعالنا، فهو تاريخ يدوّنه الخاصّة ونحن من عامّة الفلّاحين والصنّاع والصيّادين، ومن عدالة هٰذه القاعة المقدّسة أنّها لا تغفل من الخلق أحدًا، وقد تحمّلنا من الآلام فوق ما يتحمّل البشر، ولمّا انصبّ غضبنا الكاسر على عفن الظلم والظلمة نعتوا ثورتنا بالفوضى ونعتونا باللصوص، وما كانت إلّا ثورة على الطغيان باركتها الآلهة...

فسأل خوفو:

ـ كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدّسات؟

فقال أبنوم:

ـ بدأت المأساة بضعف الملك بيبي الثاني لعجزه وطعونه في السنّ وذهوله عمّا يجري حوله وتسليمه بأكاذيب المنافقين من حوله، فاستقلّ حكّام الأقاليم بأقاليمهم واستبدّوا بالأهالي، فرضوا المكوس الجائرة، ونهبوا الأقوات، وأهملوا أيّ إصلاح للريّ والأرض، وانضمّ إليهم الكهنة حرصًا على أوقافهم، يبيحون لهم بفتاواهم الكاذبة كلّ منكر، غير مبالين بأنّات الفقراء وما يعانون من قهر وذلّ وجوع، وكلّما قصدهم مظلوم طالبوه بالطاعة والصبر ووعدوه بحسن الجزاء في العالم الآخر، وبلغ منّا اليأس غايته، فلا حاكم يعدل، ولا قانون يسود، ولا رحمة تهبط، فانطلقت بين قومي أدعوهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوّة، وسرعان ما استجابوا إلى النداء، فحطّموا حاجز الخوف والتقاليد البالية، ووجّهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين، وسرت النار المقدّسة إلى جميع البلاد وانطلقت قذائف الغضب الأحمر على الحكّام والموظّفين ورجال الدين والمقابر، ثمّ استولينا على مقاليد الحكم.

فقال أوزوريس:

ـ أما قرأت أشعار إيبوور الحكيم وهو يرثي المقدّسات وما حلّ بالصفوة وضياع القِيَم؟

فقال أبنوم:

ـ كان إيبوور شاعرًا حقًّا ولٰكنّه كان ينتمي إلى السادة الظالمين ففاضت دموعه حزنًا على أبناء وبنات الطغاة وهاله أن يحلّ محلّهم أبناء الشعب...

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ إنّك تتحدّث يا أبنوم من منطلق حقد أسود وهو إثم كبير.

فقال أبنوم:

ـ إنّه الحقد الذي زرعه في صدورنا السادة الظالمون.

فقال الملك زوسر:

ـ عجيب ما أسمع وحقّ الآلهة!... ما مصر إلّا مركب من تقاليد مقدّسة إذا اختلّ منه عنصر تطاير البناء وتفتّت، ففرعون هو الإلٰه المجسّد، والصفوة نوّابه الذين يعكسون نوره، والموظّفون خدمه وأتباعه المبلغون رسالته، فكيف يحلّ مكان هٰؤلاء قوم من الفلّاحين والصنّاع والصيّادين؟

فقال أبنوم:

ـ لقد حلّوا محلّهم بالفعل وأثبتوا أنّهم خير منهم وأنّ الآلهة تتجسّد فيمن يرفع راية العدل والرحمة أيًّا يكون...

فهتف الملك زوسر:

ـ يا لك من وقح!

فالتفت أوزوريس إليه قائلًا:

ـ لا أسمح بتجاوز الأدب في الخطاب، اعتذِرْ.

فقال زوسر في خشوع:

ـ أقدّم المعذرة والأسف.

فقال أوزوريس مخاطبًا الجالسين على كراسيّ الخلود:

ـ تسمح تقاليد المحاكمة لكم بالمناقشة ولٰكن في حدود الأدب، وتذكّروا جيّدًا أنّكم قد تناقشون أناسًا

من ديانات أخرى جدّت بعد دينكم!

ثمّ التفت إلى أبنوم وقال:

- كان عهدكم عهد ظلام فلم يخلّف وراءه أثرًا ولا وثيقة؟

فقال أبنوم:

- ذاك مِن فِعْل المؤرّخين، لقد أقام الفلّاحون حكومة من أبنائهم، حكمت البلاد فاستتبّ الأمن وانتشر العدل وامتدّ ظلّ الرحمة، شبع الفقراء وتلقّوا العلم والمعرفة وتولّوا أكبر المناصب، قامت دولة لا تقلّ في عظمتها عن دولة الملك خوفو. ولٰكنّها لم تبدّد المال في بناء الأهرامات ولا في الحروب، وأنفقته في النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن، ولـمّا رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك أحرقوا وثائق البرديّ المسجّلة لأعمالنا...

فقال الملك خوفو:

- غابت عنك حكمة بناء الهرم.

وقال الملك زوسر:

- وغابت عنك حكمة إعلان حرب لغزو بلد على الحدود.

فقال أبنوم:

- كان شعارنا أنّ تربية فلّاح خير من بناء معبد.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- نطقت بالكفر.

فقال أبنوم:

- ليس الإله بحاجة إلى معبد ولٰكنّ الفلّاح بحاجة إلى التربية، من أجل ذٰلك باركتنا الآلهة فحكمنا مئات السنين في سلام ورخاء.

فسأله الملك زوسر:

- إذن فلماذا تقوّضت مملكتكم؟

- تقوّضت عندما نسي الحكّام أصلهم الذي نبتوا فيه وتوهّموا من جديد أنّهم منحدرون من صلب رع فأصابهم الكبر وتسلّل إليهم الظلم فحاق بهم ما حاق بكلّ ظالم.

فقال أوزوريس:

- تخلّل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرّها دين أو خلق أو قانون.

فقال أبنوم:

- أشهد أمام عدالتكم بأنّني لم آمر بها ولم يبلغني خبر عنها...

وهنا قالت إيزيس:

- أقرّ لهٰذا الابن بأنّه من أحكم أبنائي وأنبلهم، سعدت بلادي في عهده سعادة لم تذقها من قبله ولا بعده، وأنّ إيمانه يشهد له بالصدق والتقوى، أمّا ما ارتُكب من جرائم في ثورته فلا تخلو الجماهير الثائرة من مجرمين يندسّون في جموعها إشباعًا لنزواتهم.

وتفكّر أوزوريس وقتًا ثمّ قال:

- اذهبوا يا سادة إلى مجالسكم بين الخالدين.

- ٦ -

وصاح حورس:

- أمنمحعت الأوّل.

وجاء رجل متوسّط الطول قويّ البنيان بالحال التي يجيء عليها القادمون، فمثل بين يدي العرش.

وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ:

- رأس المملكة الوسطى، طهّر البلاد من بعض الدخلاء، قضى على المنازعات الداخليّة، وساس حكّام الأقاليم بالحكمة، وغزا بلاد النوبة.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- كنت أحد حكّام الأقاليم، وكانت السلطة المركزيّة في غاية من الضعف والفساد، وكانت الحروب لا تهدأ بين حكّام الأقاليم حتّى غزا البدو بعض أطراف المملكة، وأحزنني جدًّا ما آل إليه حال بلدي فصمّمت على إنقاذها، فرضت على نفسي وأسرتي التقشّف ودرّبت الرجال ثمّ غزوت ما حولي من أقاليم وأعلنت نفسي ملكًا وطالبت الحكّام بالولاء، ورضيت في سبيل ذٰلك بالنزول لهم عن بعض الامتيازات واتّخذت من أبنائهم حاشية لي، ثمّ زحفت بجيش قويّ على المتسلّلين فطهّرت البلاد منهم، ونظّمت الإدارة وأصلحت المعابد ونشرت الأمن والعدل في الريف، ثمّ غزوت النوبة لأقيم معبدًا للإلٰه الذي أيّدني بنصره.

فقال أوزوريس:

ـ كدت تُقتل في مؤامرة دبّرتها حاشيتك فما تعليلك لذلك؟

ـ أرادت امرأة أن تغتصب العرش لابنها وضمّت إليها بعض رجال النوبة. . .

ـ النوبة بلاد فقيرة لا تحتمل اغتصاب بعض أراضيها لوقفها على المعابد.

ـ تُصادفنا ضرورات لا مفرّ منها.

وهنا تكلّم الثائر أبنوم قائلًا:

ـ كان عليك أن تعيد الحكم للفلّاحين، ولٰكنّك نسيت أصلك وأرجعت البناء الظالم القديم إلى أصله.

ـ كان حكّام الأقاليم قد نسوا أصلهم، وإرجاع الحكم للفلّاحين كان يعني حربًا أهليّة. . .

فقال له الملك خوفو:

ـ لقد أعدْتَ إلى مصر تراثها المقدّس.

وقالت إيزيس:

ـ لقد أنقذ مصر من الفوضى وأجلسها على عرش المجد من جديد، ولم يكن في وسعه أن يفعل خيرًا ممّا فعل.

ونطق أوزوريس بالحكم قائلًا:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ٧ ـ

وهتف حورس:

ـ الملك أمنمحعت الثاني.

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ. . .

ـ اتّبع سياسة والده.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ أحطت خبرًا بكلّ سياسة أبي ولم أجد من سبيل خيرًا من أن أتبعها بكلّ دقّة وأمانة.

فقال الثائر أبنوم:

ـ ولٰكن مَن لا يتقدّم خطوة يتأخّر خطوتين.

فقال أمنمحعت الثاني:

ـ لقد وطّدت علاقة مصر بالنوبة، وأنشأت علاقات جديدة مع بلاد بنت جلبت لنا العطور والبخور. . .

فوجّه أبنوم سؤالًا إلى أوزوريس قائلًا:

ـ مولاي، هل يتساوى جميع الخالدين في العالم الآخر؟

فقال أوزوريس بجفاء:

ـ يجب أن تعلم أنّك لم تعد ثائرًا يا أبنوم، ولٰكن لا بأس من أن أشرح لكم المصير، فاعلموا أنّ محكمتي تفضي إلى ثلاثة مقامات، مقام الجنّة، ومقام الجحيم، ومقام بينهما للتافهينَ غير المذنبينَ ممّن لا يستحقّون الجنّة ولا النار، وفضلًا عن ذٰلك فإنّ الجنّة مراتب، ففيها ملوك وفيها خدم كلّ بحسب عمله في الدنيا. . .

وقالت إيزيس:

ـ حسبه أنّ البلاد نعمت في عهده بما نعمت به في عهد أبيه من أمان ورخاء غير منكور.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ٨ ـ

وصاح حورس:

ـ أمنمحعت الثالث.

فدخل رجل عملاق، سار بكفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تمتّعت الدولة في عهده بالاستقرار والأمان والقوّة، وَجّهَ همّته لاستخراج المعادن من الصحراء، جدّد وسائل الريّ، زادت المحاصيل وعمّ الرخاء. . .

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ورثت ملكًا مستقرًّا فزدته استقرارًا ببناء جيش قويّ، ودام حكمي خمسين عامًا فأتيحت لي فرصة طيّبة لإرسال الحملات إلى الصحراء واستخراج المعادن. وجدّدت وسائل الريّ، ففاض الخير، وارتقى الأدب والفنّ كما لم يرتقيا من قبل، وقد تغنّى الناس بعهدي مترنّمينَ:

يكسو القطرين حلّة خضراء
هو الغذاء وفي فمه الخير

فقال أوزوريس:

ـ ترك لك جدّك وصيّة تقول «واجبك يحتّم عليك استعمال الشدّة مع مرءوسيك، فالناس تحترم كلّ من يخيفهم ويفزعهم، لا تتّخذ منهم أخًا ولا رفيقًا ولا صاحبًا، كلّ من أكل خبزي قام ضدّي، وكلّ من

ائتمنته خانني» فكيف انتفعت بها؟

فأجاب أمنمحعت الثالث:

- لا أنكر أنّي تأثّرت بها أوّل عهدي بالحكم، وجميع أفراد أسرتي زلزلتهم المؤامرة التي كادت تودي بحياة جدّي العظيم الطيّب حتّى الذين لم يعاصروها، ونصحني بعض المستشارين بألّا أغدق الخير على شعبي أن يتمرّد ويطغى، ولٰكنّ القلب لا يستجيب في المعاملة إلّا إلى إلهامه الذاتيّ، وقد وجدته يحثّني على حبّ الناس وفعل الخير فلم أتردّد في إطاعته ولم أندم على ذٰلك أبدًا.

فقال أمنمحعت الأوّل:

- لقد أخطأت يا بنيّ ولولا حسن حظّك لهلكت...

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

- بل أصبت السداد والرشاد فإنّ القلب إن نطق عن الخير فإنّما عن إلهام إلٰه ينطق.

فقال الثائر أبنوم بمرارة:

- واأسفاه، كان الشعب يحكم فأصبح الإحسان إليه موضع جدل...

وهنا قالت إيزيس:

- هٰذا الابن الطيّب العظيم تتفتّح له أبواب السماء بلا دفاع.

فقال أوزوريس:

- اذهب إلى مجلسك بين الخالدين...

- ٩ -

ونادى حورس قائلًا:

- الملوك سبكمساف، نفر حوتب، حاتحور، نفر خارع، أنتف، تبهايوس.

فدخل الستّة في أكفانهم وساروا عراة الرءوس حفاة الأقدام حتّى مثلوا بين يدي العرش.

قرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حكموا مددًا قصيرة، اشتهرت بالضعف والفساد والتناحر على العرش، فقوي حكّام الأقاليم والكهنة، وطغى الموظّفون، وجاع الشعب، وطمع في مصر لصوص الأمم حتّى احتلّها الهكسوس فأذاقوها الهوان.

فدعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال سبكمساف:

- عشت مهدّدًا من أسرتي والحاشية، فعجزت عن مواجهة التحدّيات.

وقال الآخرون مثل قوله ثمّ غشيهم الصمت.

فقال أبنوم:

- واضح أنّه لم يوجد في مصر كلّها رجل ينبض قلبه بالإخلاص، وما أشبه تلك الحال بالحال التي كانت عليها البلاد يوم دعوت الفلّاحين للثورة.

فقال أمنمحعت الأوّل:

- إنّك لا تفكّر إلّا في الثورة، وقد كنت حاكمًا لإقليم ووجدت البلاد تغرق في الفوضى فلم أدعُ إلى فوضى أشدّ ولٰكنّي درّبت الرجال واستوليت على العرش فأنقذت الأرض والناس دون عدوان على الأوضاع المقدّسة ودون إهدار للأرواح والأعراض...

وقالت إيزيس:

- كانوا ضعافًا ولا حيلة لضعيف.

فقال أوزوريس:

- لقد ارتكبتم في حقّ وطنكم جريمة لا تُغتفر. ولم يكن الضعف ذنبكم الوحيد، ولٰكن خلت قلوبكم من النبل والنوايا الطيّبة، فاذهبوا إلى الباب الغربيّ المفضي إلى الجحيم.

- ١٠ -

وهتف حورس:

- الملك سيكننرع.

دخل رجل نحيل القامة مع ميل إلى الطول، فتقدّم في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- كان أمير طيبة وحاكم الجنوب الأقصى وهو الإقليم الذي لم يخضع لحكم الهكسوس وإن اضطرّ إلى دفع الجزية لهم، وتحرّش به الهكسوس تمهيدًا لضمّ إقليمه إلى سيادتهم المباشرة مدّعين أنّ خوار أفراس البحر في بحيرة قصره تنفي النوم عن أجفان ملكهم، ولٰكنّه أبى التسليم، وتقدّم على رأس جيشه لمواجهة التحدّي، وقد أبلى بلاءً حسنًا وسقط في المعركة قتيلًا بإصابات عديدة في رأسه ووجهه.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ إنّي أنتمي إلى الأسرة التي قاومت الغزو وتحصّنت في الجنوب حتّى ملّ العدوّ محاربتها فأعلنت الهدنة وترك الجنوب الأقصى تحت حكم أسرتي نظير جزية سنويّة، واستمرّ الحال على ذلك أكثر من مائة عام حتّى وليت الحكم، ولم أكن أني عن التفكير في العدوّ الغاصب ولا في الاستعداد لمناجزته إذا سوّلت له نفسه الزحف جنوبًا. وكانت إمكاناتي في العدّة والعدد محدودة فضممت النوبة إلى إقليمي وعاملتها معاملة الندّ للندّ وقوّيت جيشي بتجنيد بعض رجالها. ولـمّا تحدّاني العدوّ تضاربت الآراء من حولي، فدعت قلّة إلى الدفاع وحذّرت الكثرة من سوء العاقبة، ولكنّي شجّعت الخائفين وأيقظت الهمم بالدين والحِكَم والأمثال حتّى صحّت العزيمة على القتال، وقد قاتل جيشي قتالًا مريرًا استردّ به بعض ثقته بنفسه، وفي إحدى المعارك أحاط بي الأعداء فقتلت منهم ثلاثة ثمّ انهالت عليّ الحراب والبلط.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

ـ هل استنفدت جميع الوسائل السياسيّة قبل الدخول في معركة غير متكافئة؟

فقال سيكننرع:

ـ قد فعلت، إذ كانت تلزمني ثلاث سنوات استعدادًا للتاريخ الذي وقّته بدءًا للمعركة ولكنّي علمت بأنّهم حشدوا جبهتهم قبل إرسال إنذارهم.

فقال أبنوم:

ـ عشتَ بطلًا ومتَّ بطلًا.

فقالت إيزيس:

ـ أكرّر ما قال ابني أبنوم من أنّك عشتَ بطلًا ومتَّ بطلًا.

وعند ذاك قال أوزوريس:

ـ إلى كرسيّك بين الخالدين.

ـ ١١ ـ

ونادى حورس:

ـ الملك كاموس.

فجاء رجل متوسّط القامة متين البنيان فمضى إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تولّى الإمارة في نفس اليوم الذي قُتل فيه أبوه حتّى لا تهِن العزائم، وألقى نفسه في المعركة دون تردّد، وظلّت الحرب سجالًا وهو صامد على رأس جيشه حتّى مات.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ وجدت نفسي مطالبًا من بادئ الأمر بالمحافظة على روح القتال بين جنودي الذين هزّهم مصرع قائدهم، فانقضضت على مقدّمة العدوّ ولم أترك لجنديّ من جنودي فرصة للتردّد. ولم تغب عن تقديري قوّة العدوّ وتفوّقه، فتحصّنت في موقع ضيّق بين النيل والجبل واتّخذت موقف الدفاع حتّى أستردّ الأنفاس وأجمع الشمل، وفي الوقت نفسه واصلت التجنيد والتدريب، وفارقت الحياة بعد أن أعياني الجهد والسهر...

فقال الملك مينا:

ـ عاش كلانا مدّة حكمه في ميدان القتال.

وقال أبنوم:

ـ جميع الملوك مدينون بجاههم لمصر إلّا هذه الأسرة فإنّ مصر مدينة لها...

وقالت إيزيس:

ـ ليس الرجل في حاجة إلى دفاعي.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ١٢ ـ

وصاح حورس:

ـ الملك أحمس.

فدخل رجل طويل ممشوق القامة، فمضى بكفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حلّ محلّ أبيه عقب وفاته، ولم يكفّ عن مناجزة العدوّ، واستكمل في أثناء ذلك استعداده فتحوّل من الدفاع إلى الهجوم وأثبت مهارة في القيادة تضاهي شجاعته الشخصيّة فانتقل من نصر إلى نصر، حتّى

حاصر هواريس عاصمة الهكسوس واقتحمها، ثمّ طارد العدوّ في آسيا حتّى مزّقه وشتّت فصائله...

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- الحقّ أنّني جنيت ثمرة استعداد أسرتي الطويل، وأعانني في الكفاح ابن من أبناء الشعب هو القائد أحمس بن أبانا، وكلّما ظفرنا في موقعه ارتفعت روح القتال في جنودي وتخاذلتْ بين جنود العدوّ، فلم نعد نتصوّر أنّه يمكن أن ننهزم ولم يعد يتصوّر أنّه يمكن أن ينتصر، وبسقوط عاصمته، انتهى حكم الهكسوس وتحرّرت مصر. ولم يهدأ لي بال حتّى طاردتهم خارج الحدود الشرقيّة كيلا تقوم لهم قائمة مرّة أخرى أو يفكّروا في الانتقام، وأمضيت بقيّة عمري في تطهير البلاد من آثارهم وأعوانهم وفي تنظيم الإدارة وإصلاح الريّ والأرض، وانتهى عهدي ومصر تستقبل جيلًا جديدًا من أبنائها يزهو بالبطولة ويحلم بالغزو ويضطرم بروح الاقتحام.

فقال خوفو:

- تلك طبيعة جديدة.

فقال زوسر:

- وهي رائعة أيضًا.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- لعلّها لا تخلو من شرّ.

فقال سيكننرع:

- لا سبيل إلى حياة كريمة وسط متوحّشين إلّا بها.

وهنا قالت إيزيس:

- فلنبارك هٰذا الابن الذي حرّر أرضنا.

فقال أوزوريس:

- إلى كرسيّك بين الخالدين.

- ١٣ -

ونادى حورس:

- الملك أمنحتب الأوّل.

ودخل رجل ربعة عريض المنكبين فمضى متلفّعًا بكفنه إلى العرش، ومثل في خشوع.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- في أوّل عهده زحف الليبيّون على الغرب فطردهم بعد أن كبّدهم خسائر فادحة، كما مدّ حدود مصر الجنوبيّة، ثمّ غزا جانبًا كبيرًا من سوريا.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- وليتُ العرش فوجدت أنّ ذكريات الماضي البعيد والقريب لا تبرح الأذهان. فالشيوخ لا ينسون أشباح الهكسوس وإذلالهم لهم، والشبّان ينتشون بانتصارات أحمس ويطالبون بالمزيد منها، فعكفت أوّلًا على تنظيم الإدارة ونشر مظلّة القانون والأمن ومراقبة الموظّفين، وحدث أن تعرّضت الحدود الغربيّة لزحف ليبيّ فتصدّيت له بسرعة فاقت تقدير العدوّ وأنزلت به هزيمة منكرة، ولفحتني نار الحماس المؤجّجة في قلوب القوّاد والضبّاط فقمت بغزوة موفّقة في مجاهل النوبة، ثمّ أبلغتني العيون أنّ فلول الهكسوس تتجمّع طمعًا في استرداد ما فقدته في بلادنا فسرت على رأس حملة فأعلنتْ فلسطين الولاء دون قتال، ثمّ هجمت على تجمّعات الهكسوس في غرب سوريا فمزّقت شملهم وقضيت على البقيّة الباقية منهم، وأمرت بتشييد معبد لآمون ثمّ رجعت بالأسرى والغنائم، وتعهّدتْ جميع البلاد المغزوّة بدفع الجزية فازدادت موارد البلاد وعمرت الأسواق.

فقال أحمس:

- أحسنت بما فعلت كلّ الإحسان، فحدود مصر الجنوبيّة لا تأمن إلّا بامتلاك النوبة، ومركز الدفاع عن حدودنا الشرقيّة يقع في سوريا.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- هٰذا يعني أنّ أمان مصر لا يوجد حقًّا إلّا بخلق أعداء موتورين خارج حدودنا!

فقال أحمس:

- علّمتني الحياة أنّها صراع مستمرّ لا راحة فيه لإنسان، ومن يتهاون في إعداد قوّته يقدّم ذاته فريسة سهلة لوحوش لا تعرف الرحمة.

فقال أمنحتب الأوّل:

- ولم أضنّ بغالٍ من القرابين على المعابد، استجلابًا لبركة الآلهة ففي ساحتها المقدّسة الضمان الأوّل والأخير لنجاة مصر...

فقالت إيزيس:

- أعمال هٰذا الابن خير شهادة له . . .

فقال أوزوريس:

- امضِ إلى مجلسك بين الخالدين.

- ١٤ -

وهتف حورس:

- الملك تحتمس الأوّل.

فدخل رجل متوسّط القامة رشيق القدّ وتقدّم في كفنه حتّى مثل بين يدي العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- استقرّت الأحوال في الداخل في عهده، قام بغزوة في النوبة، وأخمد ثورة في سوريا واقترب من حدود ما بين النهرين، وعمل على جلب الأخشاب من لبنان فأدخلها في بناء المعابد.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- كانت أمّي امرأة من الشعب فلم يكن دمي الملكيّ خالصًا، فتزوّجت من الأميرة أحعموس، وأصبحت بذلك ولايتي للعرش ولاية شرعيّة. وجذبني التطلّع إلى المجهول إلى التوغّل في بلاد النوبة لعلّي أصل إلى النبع المقدّس الذي يتسلّل منه النيل، وسدّدت سهمي إلى قائد العدوّ فأرديته قتيلًا فتمزّق شمل جيشه، وكنت أوّل من بلغ الشلّال الثالث، ونصبت هناك خمسة أحجار أثريّة سجّلت انتصاراتي كما شيّدت قلعة أقمت فيها حامية، ونظّمت الإدارة فتحسّنت أحوال القبائل. وما كدت أرجع إلى طيبة حتّى جاءتني أخبار عن ثورة قامت في سوريا فقدت حملة إليها وأخمدتها. وبرجوعي إلى مصر قرّرت أن أخصّص الجزية للإصلاح والبناء، معتمدًا على عبقريّة المهندس أنيني الذي شيّد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقّفة ذات عمد من خشب الأرز اللبنانيّ، وأسعدني الحظّ بإصلاح معبد أوزوريس - معبدكم يا مولاي - بالعرابة المدفونة وزوّدته بالأثاث الجميل والأواني الذهبيّة والفضّيّة، وأوقفت عليه الأوقاف.

فسأله أحمس:

- ما سبب قيام الثورة في سوريا؟

- التخلّص من دفع الجزية.

فسأله أمنحتب الأوّل:

- ألم تترك حامية بها كما فعلت في بلاد النوبة؟

- كلّا، فقد أشفقت من تمزيق قوّاتي وأبقيت عليها درعًا للطوارئ.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- هٰكذا نحصد ما زرعنا!

أمّا الثائر أبنوم فقال:

- بلغ بك الهوان أن تضطرّ إلى الزواج من أميرة لإضفاء الشرعيّة على ولايتك، لا لذنب سوى أنّ أمّك كانت من نساء الشعب، ولولا أنّكم تبرّأتم من ثورة الشعب المجيدة وحكمه العظيم وأسدلتم عليها ستار الظلمات، لما عرّضتم كرامتكم لذٰلك الهوان.

فقال خوفو مخاطبًا أوزوريس:

- نشكو إليك أيّها الإله هٰذا المشاغب الغريب بيننا.

فقال أوزوريس:

- لقد احتلّ موضعه حكم إلٰهيّ عادل!

وقالت إيزيس مشيرة إلى تحتمس الأوّل:

- لا يحتاج هٰذا الابن إلى دفاع.

فقال أوزوريس:

- إلى كرسيّك بين الخالدين.

- ١٥ -

ونادى حورس بصوته الجهوريّ:

- الملك تحتمس الثاني.

فدخل رجل نحيل بادي الضعف، وذهب إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- قضى على تمرّد قام في الجنوب وآخر في آسيا، وكان ضعيفًا عليلًا فحكم فترة قصيرة وانتقل إلى العالم الآخر.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- عقب وفاة أبي طمع الأبناء في العرش واستند كلٌّ إلى حزب يؤيّده. وقد رشّحني أبي للعرش ولٰكنّ أختي حتشبسوت اغتصبته وتزوّجت من أخي لتغطّي به

أنوثتها، غير أنّ حزبي تمكّن من ردّ حقّي إليّ فوليت العرش دون عنف أو سفك دماء. حتّى الانتقام لم ألجأ إليه، ورغم سوء صحّتي فإنّني لم أتردّد عن ضرب التمرّد الذي قام في الجنوب والآخر الذي قام في آسيا، وتعذّر عليّ الاستمتاع بالحياة وعجزت عن الاستمرار فيها إلّا بضعة أعوام.

فقال الملك مينا:

ـ كان يجب أن تتنزل عن حقّك لضعفك، فما ينبغي أن يتصدّى للحكم ضعيف...

فقال تحتمس الثاني:

ـ رغم ذلك فقد انتصرت.

فقال مينا:

ـ بفضل الحظّ ورغم ضعفك...

ـ لقد بذل ما في وسعه واقترن عمله بالفلاح.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ١٦ ـ

ونادى حورس:

ـ الملكة حتشبسوت.

فدخلت امرأة متوسّطة القامة مليئة البناء فمضت في كفنها حتّى مثلت أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ مضى عصرها في سلام ورخاء، وقد شيّدت معبد الدير البحريّ، وأحيت الصّلات ببلاد بنت وأحضرت منها شجر المرّ وغرسته في ساحة المعبد، وانهالت عليها الجزية فتفشّى الثراء ورضي الناس.

ودعاها أوزوريس إلى الكلام فقالت:

ـ كنت الوحيدة المستحقّة للعرش، فأنا آخر من بقي من ذرّيّة الملكة أحعموس ودمائي ملكيّة إلهيّة، بخلاف أخي تحتمس الثاني الذي كان ابنًا لزوجة غير شرعيّة تدعى موت نفرت، وأخي تحتمس الثالث الذي كان ابنًا لمحظيّة تدعى إزيس. وقد اضطررت للزواج من تحتمس الثالث احترامًا لتقاليد بالية تستهجن حكم النساء، وقد عمل كاهنًا في معبد آمون ولم يكفّ عن المكايد للوصول إلى العرش وعاونه على ذلك كهنة آمون. وقد انتزع الملك منّا وتولّى أخي تحتمس الثاني بفضل تنظيم حزبه، ولـمّا مات عاد الحكم إليّ ومعي تحتمس الثالث. وقد فرضنا من الرقابة حصارًا حوله فأبطلنا مكائده وانزوى في الظلّ كشيء لا قيمة له، واستعنت برجال يُعتبرون من أعظم الرجال مثل سنموت، وسن من، وحابوسنب، ووهبت للناس عصرًا ذهبيًّا من السلام والرخاء، حتّى آمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم...

فقال أبنوم:

ـ في عهدنا الذي دفنتموه في الظلام حكمت ملكتان عظيمتان...

وسألها الحكيم أمحتب:

ـ ولِمَ لَمْ تدعمي عرشك بإشراك أخيك في الحكم؟

فقالت حتشبسوت:

ـ لم يكن مثلي من سلالة الشمس، وكانت سابقته في حَبْكِ المكائد توجب الحذر منه، وقد أشاروا عليّ باغتياله ولكنّني كرهت الغدر وسفك الدماء.

فسألها الحكيم بتاح حتب:

ـ هل يُفهم من كلامك أنّ العلاقة الزوجيّة بينكما كانت مجرّد علاقة رسميّة؟!

فأجابت قائلة:

ـ نعم.

فعاد يسألها:

ـ وهل أفنيت عمرك عذراء؟

فقال أوزوريس:

ـ لا حقّ لك في طرح هذا السؤال والملكة في حلّ من تجاهله.

وقالت إيزيس.

ـ ابنة تفخر بها أيّ أمّ وليست في حاجة إلى دفاع.

وقال أوزوريس:

ـ إلى كرسيّك بين الخالدين.

ـ ١٧ ـ

ونادى حورس:

ـ الملك تحتمس الثالث.

ودخل رجل قصير القامة متين البنيان تنطق معالم

وجهه بالجلال، فتقدّم متلفّعًا بكفنه حتّى مثل في خشوع أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تولّى العرش عقب وفاة حتشبسوت فطهّر الإدارة من خصومه وقبض على النظام بيد من حديد، أكرم كهنة آمون وبوّأهم منزلة السيادة على كهنة القطرين، وأعدّ جيشًا وأسطولًا لم تعرف البلاد لهما نظيرًا من قبل، وخاض غمار حروب عديدة تمخّضت عن إنشاء أكبر إمبراطوريّة شهدها العالم القديم حتّى وقته، دانت بسلطانها آسيا الصغرى وأعالي الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا وواحات الصحراء وهضاب الصومال وشلّالات النيل العليا، فأصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ومستودع الخيرات والسلع، وأقام المعابد والحصون والمسلّات في مصر وجميع البلاد التابعة لها، وترك وراءه وطنًا يتربّع فوق قمّة العظمة والحضارة.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ ذقت في مطلع حياتي الظلم كما لم يذقه ملك، كنت أحقّ إخوتي بالعرش نظرًا لما أودعت الآلهة فيّ من قوّة، ولما حصّلته من علوم الدنيا والدين، ولكنّي حُرمت من حقّي بسبب تافه هو أصل أمّي، ولم أصل إلى حقّي بمكيدة كما قيل ولكنّ الإله آمون وهو يستعرض الكهنة في عيده توقّف أمامي وأنا ماثل بين الكهنة معلنًا عن ترشيحه لي للعرش، فسجدت بين يديه متقبّلًا نعمته، ولكنّ حزب الملكة ضرب حولي حصارًا معتمدًا على القوّة، فتعطّلت كافّة صلاحيّاتي، وعشت في الظلّ كرجل لا وزن له، ولـمّا قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتي الشرعيّة ودنّسوا فراش زوجيّتي. وأثمر حكم المرأة ما كان خليقًا أن يثمره من ضعف، فتفكّك الجيش وتفشّى العصيان في الولايات الخارجيّة وتلاشت هيبة مصر وإلهها آمون العظيم، وكانت الإمبراطوريّة حلمي الأكبر لا حبًّا في القتال أو طمعًا في الثراء، ولكن دفعًا لشعاع الحضارة المصريّة كي يعمّ نوره ما حولنا من أقوام، وكي يحتلّ آمون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة.

فقال أحمس:

ـ أشهد بأنّك حقّقت أحلامنا جميعًا، وحسبك أنّك عرفت النصر عشرات المرّات ولم تعرف الهزيمة مرّة واحدة.

وسأله أبنوم:

ـ ماذا قدّمت للفلّاحين؟

فأجاب تحتمس الثالث:

ـ كان منهم جنودي وضبّاطي وقوّادي، وقد أصلحت وسائل الريّ وأشبعت احتياجاتهم فقتلت الفقر في ربوعهم، وتحوّل منهم جمع غفير للعمل في المدن في شتّى الصناعات والحرف والتجارة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ لقد قامت إمبراطوريّتك على الآلاف المؤلّفة من جماجم المصريّين والأمم!

فقال تحتمس الثالث:

ـ الموت لا مفرّ منه، ولئن يموت الإنسان وهو يبني المجد خير من أن يهلك في وباء أو بسبب لدغة ثعبان، والحقّ أنّني لم أكن جبّارًا ولا محبًّا لسفك الدماء، ورسمت خططي على أساس من المفاجأة والإتقان لأحصل على أسرع نصر بأقلّ تكلفة من الأرواح، وعقب حصار مجدّو وقع في يدي جميع أعدائي من الجنود والملوك والأمراء، فاستوهبوني حياتهم فرقّ قلبي لهم ووهبتهم الحياة، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقّوا العلم والحضارة، وليتأهّلوا لحكم بلادهم مكان الحكّام المصريّين، وهي سياسة إنسانيّة حكيمة لم تُعرف قبلي.

فقالت الملكة حتشبسوت:

ـ لولا الثراء الذي تركتُه لك ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك العديدة على آسيا.

فقال تحتمس الثالث:

ـ حقًّا لقد أورثتني ثراء في المال، ولكنّك تركت الجيش على حال تستحقّ الرثاء، وسرى الفساد بين رجالك المقرّبين...

فقالت حتشبسوت:

ـ ما زلت حاقدًا سيّئ الظنّ فاسد الطويّة، وما زلت مصرًّا على اتّهامي في شرفي دون دليل...

فقال أوزوريس:

- حسبكما تبادل للكلمات الجارحة...

وهنا سألته إيزيس:

- أكنت تحبّها يا بنيّ؟

فقال تحتمس الثالث:

- كانت تسخر من قِصَر قامتي التي سجدت أمامها ملوك جميع الأمم.

فقالت إيزيس:

- هٰذا الابن العظيم جدير بأن تفخر به مصر على مدى الزمان.

فقال أوزوريس:

- اذهب إلى مجلسك بين الخالدين.

- ١٨ -

وصاح حورس:

- الملك أمنحتب الثاني.

فدخل رجل عملاق تطفح الهيبة من طوله وعرضه فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- لم يعرف العرش رجلًا في قوّته البدنيّة، وكان عهده عهد سلام فعكف على البناء والتعمير.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

- كنت قويًّا فخافني جميع القريبين منّي، والتزم كلّ بواجبه وكأنّ عيني تراقبه، وكان لي قوس لا يستطيع جذب وتره سواي، ودعاني الاستقرار المستتبّ إلى تركيز همّتي على البناء والتعمير ففعلت.

وسأله الحكيم أمحتب:

- ماذا كان موقفك حيال عظمة سلفك؟

فأجاب أمنحتب الثاني:

- كان مَثَلي الأعلى، ولٰكنّي كنت أشعر أحيانًا بضآلتي بالقياس إليه فتعتريني كآبة شديدة...

فقالت إيزيس:

- على أيّ حال لقد حكمت فعمّرت ولم يطالبك زمانك بأكثر ممّا قدّمت...

فقال أوزوريس:

- إلى مجلسك بين الخالدين.

- ١٩ -

ونادى حورس:

- الملك تحتمس الرابع.

فدخل رجل طويل نحيل تقدّم حتّى مثل بين يدي العرش.

وراح تحوت كاتب الآلهة يقرأ:

- تولّى العرش بسبب وفاة وليّ العهد، وقام تمرّد في الأملاك الأسيويّة فأدّب المتمرّدين، وتزوّج من موت أويا ابنة ملك ميتاني.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- لم أكن مرشّحًا للعرش، وذات يوم قمت برحلة إلى أبي الهول وجلست في ظلّه أستريح، وداعبني شبه نعاس فسمعت صوته يطالبني بإزالة الرمال من حوله واعدًا إيّاي - إذا فعلت - بالعرش. وفي الحال دعوت العمّال وأمرتهم بإزالة الرمال متحمّلًا عبء ذٰلك كلّه. وحدث ما لم يتوقّعه أحد فمات وليّ العهد ووجدتني على العرش دون منافس. ومن أوّل يوم أدركت أنّ واجبي ينحصر في المحافظة على العظمة الموروثة، فتعقّبت المتمرّدين، ولتوثيق العلاقات مع الأمم تزوّجت من ابنة ملك ميتاني.

فقالت الملكة حتشبسوت:

- إنّها خطوة تشي بشيء من الضعف...

فقال تحتمس الرابع:

- اعتبرتها سياسة حكيمة...

فقال خوفو:

- اختيار ملكة من الخارج أمر لا يخلو من خطورة!

فقال الحكيم بتاح حتب:

- أوافق الملك على أنّها سياسة حكيمة.

فقال تحتمس الرابع:

- وفضلًا عن ذٰلك فالحريم الملكيّ لا يخلو أبدًا من نساء الأمم...

فقالت إيزيس:

- قام هٰذا الابن بواجبه في الداخل والخارج.

فقال أوزوريس:

- إلى كرسيّك بين الخالدين.

- ٢٠ -

ونادى حورس:

- الملك أمنحتب الثالث والملكة تيي.

ودخل الزوجان الملكيّان وتقدّما في كفنيهما حتّى مثلا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- دُعيت الملكة تيي مع الملك لمشاركتها في الحكم، وكان عهد هٰذا الملك عهد رخاء وعزّ لم يسبق له مثيل إذ استقبلت مصر خيرات الأمم وأموالها، وسهر على إمبراطوريّته بيقظة وكفاءة، فأدّب أيّ متمرّد أيًّا كان موقعه، واستمتع بالحياة كما لم يستمتع ملك من قبل، فشيّد القصور والمعابد، وعشق الطعام والشراب والنساء، وفي آخر أيّامه تزوّج من ابنة ملك ميتاني في سنّ حفدته فعجّلت بوفاته.

ودعاه الملك للكلام فقال:

- ورثت عن جدّي العظيم تحتمس الثالث إمبراطوريّته فعقدت العزم على أن أرث عظمته أيضًا، ولم يكن ثمّة مجال لتوسيع الإمبراطوريّة فقوّيت دعائمها وأدّبت متمرّديها، ثمّ مارست العظمة في البناء والتعمير وتوفير الرخاء لشعبي، وتحدّيت التقاليد فتزوّجت فتاة من الشعب كانت خير شريك لي في ملكي بما أوتيت من فطنة وحكمة، وخلّفت ورائي عهدًا سيظلّ رمزًا للسعادة والرخاء.

فقالت الملكة حتشبسوت:

- سرّتني شهادتك للملكة بالجدارة فهي شهادة للمرأة وفيها ردّ بليغ على أعدائها.

فقال أمنحتب الثالث:

- تيي ملكة عظيمة بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.

فقال أبنوم:

- ولٰكنّك جازيتها أسوأ الجزاء بولعك النهم بالنساء.

فقال أمنحتب الثالث:

- لكلّ ملك حريمه، وتلك الأهواء العابرة لا تنال من مكانة الملكة العظيمة...

- وتتزوّج في شيخوختك بنتًا في سنّ حفيدتك؟

فقال الملك:

- أردت أن أوثّق علاقة مصر بميتاني.

فقال أوزوريس:

- لا يجوز الكذب في هٰذه القاعة المقدّسة.

فقال أمنحتب الثالث بنبرة المعتذر:

- الحقّ أنّي سمعت عن جمالها الفائق وكنت مجنونًا بالجمال، ورغم الشيخوخة والمرض أفرطت في الحبّ حتّى قضى عليّ.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

- أكانت تلك ذروة حكمة العمر؟

فقال أمنحتب الثالث:

- ميتة الحبّ أفضل من ميتة المرض.

* * *

ودعا أوزوريس الملكة تيي للكلام فقالت:

- اختارني الملك زوجة عن حبّ، وانجذبت إليه مبهورة بالحبّ وأبّهة الملك، وربط الحبّ بيننا حتّى آخر العمر. وقد استشارني ذات مرّة فيما يعرض له من شئون الملك فأرضاه رأيي غاية الرضى وقال لي «إنّك يا تيي امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبة». ومن يومها لم يعقد أمرًا حتّى يستمع إلى رأيي، وجعلنا نستقبل الوزراء والمسئولين معًا، وأشارك برؤيتي في المسائل المطروحة على بساط البحث، وكلّ مسئول في المملكة اعترف بقدري وحكمتي. وهرع إليّ الكهنة في إبّان الأزمنة الدينيّة التي استفحل أمرها بسبب دعوة ابني أخناتون، وقد بذلت أقصى جهدي لتجنّب الكارثة، ومنع الحرب الأهليّة. أمّا عن ولع زوجي بالنساء فقد كان لكلّ فرعون حريمه، ولم تطمح زوجة إلى الاستئثار بالملك، بل لم أجد بأسًا في انتقاء الجميلات له حتّى تصفو نفسه وينهض بأمانته على خير وجه قاهرة بقوّة إرادتي غيرة المرأة الطبيعيّة مُقنِعة نفسي بأنّ الملكة ليست امرأة عاديّة وأنّها مسئولة عن مزاج زوجها كما أنّها مسئولة عن سياسته!

فسألتها حتشبسوت:

- ألم تنهزم الملكة ولو مرّة أمام المرأة؟

فقالت تيي:

- لم أعرف الهزيمة إلّا أمام ابني...

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ ولٰكنّ المرأة هي المرأة...

فقالت تيي:

ـ ولٰكنّ تيي مثال وحدها لا يتكرّر!

فقالت إيزيس:

ـ أثبتت هٰذه السيّدة جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها، وكان زوجها ملكًا عظيمًا، وهيهات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذّة العيش، وقد تقلّب في النعيم بعد أن يسّره لعامّة شعبه فتقلّب معه في النعيم، فليهنأ قلبي بهٰذا الابن وهٰذه الابنة.

فقال أوزوريس:

ـ إلى مجلسكما بين الخالدين.

ـ ٢١ ـ

وهتف حورس:

ـ الملك أخناتون والملكة نفرتيتي.

فدخل رجل تختلط الذكورة والأنوثة في قسمات وجهه، وامرأة جميلة، فتقدّما في كفنيهما حتّى مثلا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ ورثا العرش والحكم شريكين في القيام بالأمانة، ففجّر ثورة دينيّة فدعا إلى عبادة إلٰه جديد واحد، وألغى الدين القديم وآلهته، وبشّر بالحبّ والسلام والمساواة بين البشر، تعرّضت البلاد في الداخل للانحلال والفساد، كما تعرّضت الإمبراطوريّة للتمزّق والضياع، ومضت الأرض إلى حافة الحرب الأهليّة. فسقط الملك، وقضت ثورة مضادّة على ثورته، ومحق المؤرّخون والملوك عهده من التاريخ واعتبروه شرّ عهد انقضّ على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها...

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال أخناتون:

ـ منذ الصغر وأنا مواظب على ملء روحي بالمعرفة والحكمة الإلٰهيّة، حتّى هبط على قلبي وحي السماء بنور الإلٰه الواحد والدعوة إلى عبادته، وكرّست حياتي لذلك، ثمّ كرّست عرشي لـمّا وليت العرش لخدمة نفس الهدف. وسرعان ما قام صراع وحشيّ بين دعوتي النورانيّة وبين ظلمات الجهل والتقاليد وأطماع الكهنة والحكّام الظامئين إلى الجاه واستعباد الفلّاحين ورعايا أمم الإمبراطوريّة، ولم يتسلّل الضعف قطّ إلى جهادي الروحيّ، ولم أرضَ باستعمال العنف أو القهر، وذقت النصر أعوامًا فنشر الخير جناحيه، ولٰكن انعقدت سحب المكائد والدسائس، وزحفت جيوش الظلام حتّى حاصرتني من جميع الجهات فتهاوبت بلا حول وحلّت بي الهزيمة ولٰكنّ ثقتي في النصر النهائيّ لم تتزعزع قطّ، فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتي ولا مُنِيَ بنهاية أتعس من نهايتي...

وقالت الملكة نفرتيتي:

ـ صدق يا مولاي فيما قال، لقد جاهدنا جهاد الأبطال، حتّى اجتاحتنا قوى الشرّ فتقوّض البنيان السامق وتداعت أركانه...

وكان الحكيم أمحتب أوّل المعلّقين فقال:

ـ لقد كنّا نحدس قوّة إلٰهيّة واحدة تربض وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة ولٰكنّا لمسنا تعلّق الناس بالرموز المجسّدة يلتفّون حولها في كلّ إقليم يستمدّون منها القوّة والعزاء فتركنا الأمور تجري مع ما جرت عليه رحمة بالقلوب المؤمنة وحفظًا لها من الضياع...

فقال أخناتون:

ـ وجدت الناس في ضلال وأنّه آنَ لهم أن يواجهوا الحقيقة بكلّ أبعادها...

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ معاملة الناس فنّ عسير أيّها الملك ومن لا يحسنه فقد تخذله نواياه الطيّبة فيقتل من يحبّ وهو ساعٍ إلى إنقاذه.

فقال أخناتون:

ـ لولا المغرضون لتمّ الخلاص لمن نحبّ.

فسأله أبنوم:

ـ وماذا فعلت بالمغرضين؟

ـ عاهدت نفسي منذ البدء على التعامل بالحسنى ونبذ الإيذاء والقهر.

فهتف أبنوم:

ـ ليس للأشرار إلّا العصا والسيف!

فقال أخناتون:

ـ آمنت بالحبّ للعدوّ والصديق.

فقال أبنوم:

ـ لقد ضيّعت رسالتك بسذاجتك وليس رجل الخير إلّا مقاتلًا!

فقال تحتمس الثالث:

ـ لقد تركت لك أعظم إمبراطوريّة عرفها التاريخ فكيف ضاعت في عهدك وتحت إمرتك جيش لا مثيل لقوّته؟

فقال أخناتون:

ـ كان مبدئي الحبّ والسلام...

ـ زدني شرحًا من فضلك.

ـ كنت أدعو لإله واحد هو الأب والأمّ لجميع البشر فكلّهم يتساوون تحت مظلّته، وكنت أدعو إلى أن يحلّ الحبّ محلّ السيف بين الناس...

فقال تحتمس الثالث بغضب:

ـ طبيعيّ أن تضيع الإمبراطوريّة نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير، ما أنت إلّا مجنون!

فقال أوزوريس:

ـ لا أسمح بتجاوز حدود الأدب في الخطاب، اعتذِرْ.

فقال تحتمس الثالث:

ـ معذرة، ولكنّي أسجّل أسفي على ضياع عمري هدرًا!

وقال الملك مينا:

ـ لقد قامت وحدة مصر على السيف وتلّ من الجماجم، وعلى نفس الأساس كان يجب أن تقوم وحدة الإمبراطوريّة، ولكنّ سوء الحظّ سلّط علينا عدوًّا اسمه الأفكار فغزانا من الداخل وعبث بمجدنا أيّما عبث...

فقال أخناتون:

ـ لا جدوى من مناقشتكم، فالمسألة بكلّ بساطة أنّني سمعت صوت الإله، وأنّ تلك النعمة الإلهية لم تحلّ بكم.

وقالت الملكة نفرتيتي:

ـ طالما طاردتنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء، وقد حطّمتنا الدنيا بجبروتها ولكنّنا اليوم نقف بين يدي إله عادل.

وعند ذاك سألتها الملكة حتشبسوت:

ـ إذن لماذا هجرت زوجك في قمّة الأزمة؟

فأجابت نفرتيتي:

ـ لم يداخلني شكّ فيه ولكنّني توهّمت أنّني بهجره قد أنقذه من القتل.

وهنا قالت إيزيس:

ـ هذا الابن آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر ولكن لم يكن أحد مستعدًّا لفهمه أو التفاهم معه فكانت المأساة، وسوف أظلّ فخورة به إلى الأبد...

وقال أوزوريس:

ـ اجلس أنت وزوجك بين الخالدين.

ـ ٢٢ ـ

ونادى حورس:

ـ الملك ساكرع، الملك توت عنخ آمون، الملك آي.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حكم ساكرع أربعة أعوام، وتوت عنخ آمون ستّة أعوام، وآي أربعة أعوام، وكانت عصورهم عصور اضطراب وفساد، وعجزوا جيمعًا عن مواجهة الأزمة.

ودعاهم أوزوريس للكلام فقال ساكرع:

ـ بدأت حكمي شريكًا لأخناتون ولم أستطع أن أعيد للعرش هيبته.

وقال توت عنخ آمون:

ـ كانت السلطة الحقيقيّة بيد كهنة آمون.

وقال آي:

ـ وازداد نفوذ الكهنة في عهدي وكنت طاعنًا في السنّ فعجزت عن الإصلاح...

وسأل أخناتون آي:

ـ كيف تخلّيت عنّي وقد كنت أقرب المقرّبين إليّ كما كنت والد زوجتي؟

فقال آي:

ـ تخلّيت عنك لأجنّب البلاد شرّ الحرب الأهليّة.

فقال أخناتون:

ـ وكفرت بالإله الواحد بعد أن أعلنت إيمانك به بين يديّ.

فلاذ آي بالصمت.

وقالت إيزيس:

ـ كان أبنائي الثلاثة غير أكفّاء للعرش، ولولا قانون الوراثة الأعمى ما جلس أحدهم عليه، ولكنّهم يستحقّون الرحمة.

فقال أوزوريس:

ـ إلى الباب الشماليّ المفضي إلى مقام التافهين.

- ٢٣ -

وصاح حورس:

ـ الملك حور محب.

فدخل رجل متوسّط القامة متين البنيان صلب الملامح، فسار متلفّعًا في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ ولي العرش رغم عدم انتمائه إلى الأسرة المالكة، وتزوّج من موت نجمت لكي يضفي الشرعيّة على ولايته بالرغم من تقدّمها في السنّ، وانبرى بقوّة للقضاء على الفوضى والفساد والتسيّب وإصلاح ما تخرّب من معابد على عهد أخناتون، وبفضله استتبّ الأمن والنظام في داخل البلاد، أمّا الإمبراطوريّة فقد أصبحت ـ باستثناء القليل ـ في خبر كان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ حقًّا لم أكن من الأسرة المالكة ولكنّي أنتمي إلى أسرة عريقة من أسَر الشمال، وقد نشأت نشأة عسكريّة وأدّيت خدمات ناجحة على عهد الملك أمنحتب الثالث، ولـمّا ولي أخناتون العرش قرّبني إليه ومنحني ثقته ولكنّه للأسف لم يأخذ برأيي في وجوب معاقبة المفسدين في الداخل وإرسال حملات لتأديب المتمرّدين في أنحاء الإمبراطوريّة، ولـمّا بلغت الأزمة أشدّها وتخايلت في الأفق نذر الحرب الأهليّة تفاهمت مع كهنة آمون على التصفية النهائيّة لحكم أخناتون مؤثرًا المصلحة العامّة على عواطفي الشخصيّة. وكان الرأي متّفقًا على أهليّتي لمواجهة الفوضى الضاربة في أنحاء البلاد ولكن رُئِيَ أن يُحترَم القانون أوّلًا فتولّى الملوك الثلاثة ساكرع وتوت عنخ آمون وآي، وعقب وفاة آي قامت ثورة ونُهبت المقابر فلم نجد مفرًّا من تحمُّل الأمانة، وقد تزوّجت من موت نجمت أخت نفرتيتي لأنّها كانت من أوائل مَن كفر بأخناتون ورأت الانضمام إلى الكهنة لإنقاذ البلاد. ووجدت أمامي مهمّة ثقيلة ومتشعّبة ولكن لم تكن تعوزني القوّة أو العزيمة، فأخمدت الثورة، ونظّمت الجيش والشرطة والإدارة، وراقبت الموظّفين ولم أرحم منحرفًا، ثمّ جدّدت المعابد ونظّمت الأوقاف، وحميت الضعفاء من الأقوياء، ولو امتدّ بي العمر أكثر ممّا امتدّ لاستردّدت ما ضاع من إمبراطوريّة العظيم تحتمس الثالث.

وتكلّم الملك خوفو فقال:

ـ قمت بعمل مجيد أيّها الملك.

فقال أبنوم:

ـ عمل مجيد حقًّا ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب بما أنّك من سلالة أسرة عريقة وترجمتها الأمينة عندي أسرة عريقة في النهب والسلب!

فقال أوزوريس:

ـ لا أوافق على هذا الأسلوب في الخطاب، اعتذِرْ.

فقال أبنوم متجهّمًا:

ـ معذرة.

وقال تحتمس الثالث بأسف:

ـ كنت خليقًا بإرجاع الإمبراطوريّة إلى مجدها الأوّل.

فقال حور محب:

ـ كانت البلاد ممزّقة وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال.

وتكلّم أخناتون فقال:

ـ لم أحبّ أحدًا من أتباعي كما أحببتك يا حور محب ولم أكرم أحدًا منهم كما أكرمتك، وكان جزائي أن خنتني وانضممت إلى أعداء الشعب وأعدائي، ثمّ هدمت مدينتي ومعبدي ومحوت اسمي وصببت عليّ اللعنات...

فقال حور محب:

ـ لا أنكر ممّا قلتَ شيئًا، وقد أحببتك أكثر من أيّ رجل عرفته ولكنّي أحببت مصر أكثر.

ـ وشاركت في محو عبادة الواحد الأحد وإرجاع

الآلهة الزائفة إلى عروشها. . .

فقال حور محب:

ـ لم يكن في وسعي تجاهل ما تنبض به قلوب الملايين.

وهنا قالت له نفرتيتي:

ـ لقد أحببتني يا حور محب ولـمّا تزوّجت من أخناتون أضمرت له الحقد.

فقال حور محب:

ـ أقول لك أيّتها الملكة في هٰذه القاعة التي لا يجوز فيها الكذب إنّ المرأة لم تشغل من قلبي إلّا أتفه جزء فيه، وإنّ معركتي معكم كانت معركة وطنيّة لا معركة غراميّة!

وهنا قالت إيزيس:

ـ ابني هٰذا أقوى من أن يحتاج إلى دفاع.

فقال أوزوريس:

ـ إلى مجلسك بين الخالدين.

ـ ٢٤ ـ

وصاح حورس:

ـ الملك رمسيس الأوّل.

فدخل رجل طاعن في السنّ طويل القامة، فمضى في كفنه حتّى مثل بين يدي العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ ولي العرش على كبر، شرع في بناء بهو الأعمدة بمعبد الكرنك ثمّ أدركه الموت قبل أن يتمّه.

فدعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ بوفاة حور محب لم يجد العرش وريثًا شرعيًّا، وكنت كاهن التراتيل بمعبد آمون معروفًا بالحكمة وسداد الرأي والورع فرشّحني الإله للعرش، ولم تكن الإمبراطوريّة تغيب عن ذهني ولكنّ حالة البلد لم تسمح بشنّ حرب طويلة فأمرت بالعناية بالأرض ووسائل الريّ لزيادة الثروة، وشرعت في بناء بهو الأعمدة ولم يكن في العمر زيادة لمواصلة البناء. . .

فقالت إيزيس:

ـ لعلّ الاختيار لم يكن موفّقًا ولكنّ مصر لم تجد وقتها الرجل المناسب، أمّا هٰذا الابن فقد بذل أقصى جهده ولا ملامة عليه.

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ٢٥ ـ

وهتف حورس:

ـ الملك سيتي الأوّل.

فدخل رجل طويل القامة قويّ البنيان، فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تولّى العرش عقب وفاة أبيه، غزا النوبة، استردّ فلسطين، ثمّ ركّز على البناء والتعمير.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ عملت من أوّل يوم تبعًا لخطّة مرسومة، فحفظت النظام في الداخل، ثمّ غزوت الجنوب حتّى أقصى حدوده، واستردّدت فلسطين منتصرًا على الحثّيّين ثمّ عقدت معهم معاهدة صلح، وأتممت بعد ذٰلك قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك، وأصلحت المعابد التي لم تمتدّ إليها يد الإصلاح، وفي عهدي استتبّ الأمن والنظام والعدل وانتشر الرخاء، وازدهر الفنّ والأدب، وقضيت حياة طيّبة لولا ما شاب آخرها من قيام نزاع بين وليّ العهد وأخيه.

فسأله تحتمس الثالث:

ـ لِمَ لَمْ تستمرّ في محاربة الحثّيّين؟

فقال سيتي الأوّل:

ـ شعرت بأنّ جيشي قد أنهكت قواه، بالإضافة إلى أنّ الحثّيّين كانوا قومًا أشدّاء في القتال. . .

فقال تحتمس الثالث:

ـ المعاملة الوحيدة المجدية مع عدوّ قويّ هي القضاء عليه لا عقد معاهدة صلح معه!

فقال سيتي الأوّل:

ـ معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير مجدية.

فتساءل أخناتون:

ـ ولِمَ لا تجرّبون القانون الإلٰهيّ، قانون الحبّ والسلام؟!

فقال حور محب بحدّة:

ـ هو الذي أضاع الإمبراطوريّة بلا دفاع!

فسأله خوفو:

ـ وهل أوصلت أسبابك بالسلامة الإلْهيّة لتصير حقًّا من صلب الإله؟

فقال سيتي الأوّل:

ـ تمّ ذٰلك لزوجتي في معبد آمون تبعًا للطقوس المتّبعة.

فقالت إيزيس:

ـ إنّي سعيدة بهٰذا الابن عالي الهمّة!

فقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

- ٢٦ -

وهتف حورس:

ـ الملك رمسيس الثاني.

فدخل رجل طويل القامة رشيق القدّ، تقدّم في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ تولّى الملك عقب وفاة أبيه، وطّد نفوذ مصر في النوبة وآسيا، حارب الحثّيّين ثمّ عقد معهم معاهدة سلام، ثمّ كرّس حياته المديدة للبناء بصورة لم تعرفها البلاد من قبل، وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفنّ والأدب والرخاء، وقد طال عمره حتّى قارب المائة واستمتع بالحياة طولًا وعرضًا وأنجب من الأبناء ما يقارب الثلاثمائة.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ الحقّ أنّني اغتصبت العرش من أخي وليّ العهد، ليقيني بأنّ الساعة تطلّبت ما أوتيت به من قوّة وأنّ ضعف أخي سيكون طامة على البلاد لو ولي العرش، وكنت طموحًا مقدامًا، فصمّمت على أن أوفّر لوطني في داخله أقصى درجات الأمان والنظام والعدل والرفاهية، وأن أرجع الإمبراطوريّة لسابق عهدها المجيد، فوطّدت نفوذي في الجنوب، ثمّ قدتها إلى فلسطين وسوريا ولبنان، وهرع إليّ الحكّام والأمراء يقدّمون فروض الطاعة، ثمّ توجّهت بجيوشي إلى قادش لأُنزل الضربة القاضية بعدوّي القويّ وهو ملك الحثّيّين، وقد أوقعني سوء الحظّ فيما يشبه الحصار فأحاط بي العدوّ وبقيّة جيشي بعيدة عنّي في الجنوب، وثار بي الغضب، وخفت على كرامة مصر التي باتت أمانة بين يديّ، وصلّيت إلى إلٰهي طويلًا، مذكّرًا إيّاه بأنّني ما غادرت بلادي إلّا لرفعة اسمه وتوطيد جلاله، ثمّ هجمت على العدوّ وحولي شرذمة من الحرس وانقضضت عليهم كالصاعقة فشتّت نور جلالتي قلوبهم وتوالت مصارعهم تحت ضرباتي فشققت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيشي ثمّ كررنا عليهم فسحقناهم سحقًا حتّى رموا بأنفسهم في مياه النهر وتمّ لنا النصر، وحاصرت قادش فاقترح الملك معاهدة صلح وسلام لم أجد بها بأسًا، خاصّة بعد أن استرددت الإمبراطوريّة عدا أجزاء لا يُعتدّ بها، ثمّ رأيت أن أكرّس حياتي للبناء فتزوّجت من ابنة ملك الحثّيّين دعمًا للسلام، ورفعت من الأبنية ما لم يرفعه فرعون قبلي، وهيّأت من السعادة لأهل مصر ما لم يعهدوه من قبل ولا أحسب أنّهم عرفوه من بعد.

وكان سيتي الأوّل أوّل المتكلّمين فقال:

ـ ولٰكنّك بدأت حياتك باغتصاب حقّ أخيك وليّ العهد الشرعيّ.

فقال رمسيس الثاني:

ـ إنّي لا أحترم قانونًا يورث عرشًا لعاجز لا يستحقّه.

فقال أخناتون:

ـ من أين لك معرفة الغيب؟ لقد قيل عنّي يومًا مثلما تقول عن أخيك، ولٰكنّي كنت أوّل ملك يقيم للإله الواحد مملكة مقدّسة فوق الأرض.

فقال رمسيس الثاني:

ـ بل كانت كارثة حلّت بالوطن والإمبراطوريّة...

وسأله تحتمس الثالث:

ـ خبّرني كيف رضي قائد مظفّر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوّه ثمّ يتزوّج من ابنته؟

ـ هو الذي طلبها، ووجدتها مفيدة للطرفين.

ـ كيف وقعت في الحصار أيّها الملك؟

ـ وقع في يدنا جاسوسان للعدوّ اعترفا كذبًا بأنّ

العدوّ مرابط شمال قادش فأسرعت بالفرقة الأولى لأحتلّ جنوب قادش ولْكنّ العدوّ كان كامنًا في الشرق فاخترق مؤخّرة الجيش وضرب حصاره.

ـ لقد تسرّعت وكان يجب أن تنتظر جيشك القادم من الجنوب، إنّك شجاع ما في ذٰلك شكّ ولْكنّك قائد غير محنّك.

ـ لقد حطّمت الحصار ثمّ كررت على العدوّ ببقيّة جيشي فوقع في المصيدة التي نصبها لي فمزّقته شرّ ممزّق وأحرزت نصرًا حاسمًا.

فقال تحتمس الثالث مواصلًا مناقشته:

ـ لم يكن هدفك كسب معركة ولْكن واضح أنّك أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا باعتبارها مفتاحًا لجميع الطرق، فلا حقّ لك في ادّعاء النصر إلّا بتحقيق الهدف من الحملة.

فسأله رمسيس الثاني:

ـ وماذا تقول في قضائي على جيش العدوّ؟

فأجاب تحتمس الثالث:

ـ أقول إنّك كسبت معركة ولْكنّك خسرت الحرب، وعدوّك خسر معركة وكسب الحرب، وقد استدرجك إلى السلام لينظّم صفوفه، ورحّب بمصاهرتك ليأمن مواجهتك قبل أن يعوّض خسائره، قانعًا بالفوز بقادش ليهدّد منها أيّ موقع في إمبراطوريّتك في المستقبل.

فقال رمسيس الثاني:

ـ طوال حكمي الطويل لم يختلّ الأمن ساعة واحدة في الداخل أو تقم معركة تمرّد واحدة في الإمبراطوريّة المترامية أو يفكّر عدوّ في استراق النظر إلى الحدود.

فقال تحتمس الثالث:

ـ لا أنكر فضلك، لقد أعدت إلى مصر الجزء الأكبر من إمبراطوريّتها، كما تميّزت بشجاعة شخصيّة فائقة كانت خليقة بأن تلقي الرعب في القلوب.

ـ ولا تنسَ أنّ عصري كان عصر التعمير الأعظم.

فسأله خوفو:

ـ هل بنيت هرمًا؟

فأجاب:

ـ كلّا، ولْكن ليس بالهرم وحده يعمّر الإنسان، ما من إقليم في مصر خلا من معبد أو مسلّة أو تمثال لي.

فقال أخناتون:

ـ لقد استوليت على عُمُد معبدي المهدّم وشيّدت بها معبدك الجنائزيّ، وتكرّر سطوك على آثار السابقين، كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حقّ، وقلّلت من شأن كلّ عظيم سبقك كأنّ الآلهة لم تخلق سواك.

فقال رمسيس الثاني:

ـ في هٰذه القاعة المقدّسة لا أنكر خطأ ولا أدافع عن نزوة ولْكن دع غيرك يوجّه إليّ الاتّهام يكون مبرءًا من الكفر والاستهتار.

فقال أوزوريس:

ـ لا تنس أيّها الملك أنّك تخاطب رجلًا تمّت محاكمته واستحقّ الخلود. اعتذِرْ.

فتمتم رمسيس الثاني بهدوء:

ـ معذرة!

وعند ذاك سألته الملكة حتشبسوت:

ـ وما قصّتك مع النساء؟... وهل وجدت وقتًا لملاطفة أبنائك الثلثمائة؟!

فقال رمسيس الثاني:

ـ لم يتمتّع أحد بالسعادة كما تمتّعتُ، وهبتني الآلهة عمرًا مديدًا وصحّة كاملة وقدرة بلا حدود على الحبّ، ولم تهن قوّتي حتّى آخر العمر، رغم ما خصّصت به زوجتي الملكيّة نفرتاري من احترام ومودّة، أمّا أبنائي فما عرفت إلّا أقلّهم!

فسأله أمنحتب الثالث:

ـ هل استعنت بالسحر في الاحتفاظ بحيويّتك الهائلة؟

ـ كنت أصنع سحري بيديّ، فكنت أقف في القاعة الكبرى وأنا في التسعين من عمري وتدخل صفوف العجلات الحربيّة، تقود كلّ عربة امرأة عارية وترقد داخلها جارية أخرى عارية، فتظلّ تدور من حولي حتّى تتدفّق في العروق الفانية دماء الشباب!

فسأله الحكيم بتاح حتب:

ـ أكانت نفس العجلات التي أحرزت بها انتصاراتك؟

فأجاب رمسيس الثاني:

ـ كلّا، كانت عجلات الحبّ مطعّمة بالذهب الخالص معبقة بروائح النساء...

فقال أبنوم:

ـ حياتك أيّها الملك جامعة بين الجدّيّة بكلّ معانيها وبين العبث بكلّ نزواته فلعلّ الحكم عليك يجمع بين الإنصاف والردع!

فنظر أوزوريس نحوه وقال:

ـ المحكمة في غنى عن إرشادك وما أراك إلّا تحنّ إلى إشعال ثورة جديدة في عالم الخلود، فلا تتجاوز منزلتك واعتذِرْ.

فقال أبنوم:

ـ معذرة يا سيّدي العظيم.

وقالت إيزيس:

ـ أعاد هٰذا الابن مصر إلى سابق مجدها وعمَّ الرخاء في عهده القصور والبيوت والأكواخ وإذا قسنا هفواته بطول عمره تبدّت تافهة.

وقال أوزوريس:

ـ اذهب إلى كرسيّك بين الخالدين.

ـ ٢٧ ـ

وصاح حورس:

ـ الملك منفتاح.

ودخل رجل طويل القامة، كهل، فمضى على هيئته المعلومة إلى موقفه أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ قضى مدّة حكمه وهي عشرة أعوام في الدفاع عن الإمبراطوريّة فلم يمسّها سوء.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ طال عمر أبي فلم يدعْ لأحد من أبنائه أملًا في اعتلاء العرش، وقد توفّي لي عشرات الأخوة بين الشباب والكهولة حتّى حقّت لي ولاية العهد، ولـمّا وليت العرش كنت قد نيّفت على الستّين، وباختفاء الكبار تحرّكت رءوس الفتنة فنهضت شاهرًا سيفي رغم كهولتي، انتصرت على متمرّدي آسيا، ومزّقت شمل غزوة غادرة جاءت من الغرب، وقبضت على زمام الأمور في الداخل بالحزم والعزم فاستتبّ الأمن وانتشر الأمان.

فقال أخناتون:

ـ لقد اعتديت على الآثار لتشيد بأحجارها بعض القصور والمعابد مترسّمًا سيرة أبيك!

فقال منفتاح:

ـ قضيت عمري في ميادين القتال فلم يتّسع الوقت للبناء.

فقال تحتمس الثالث:

ـ أشهد بأنّك قائد ماهر.

وقالت إيزيس:

ـ شكرًا لك يا بنيّ على بطولتك وإخلاصك.

وقال أوزوريس:

ـ إلى مجلسك بين الخالدين.

ـ ٢٨ ـ

وهتف حورس:

ـ الملك أمنمسس والملك سبتاح والملك سيتي.

فدخل الثلاثة وتقدّموا في أكفانهم حتّى مثلوا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ شُغلوا بمنازعاتهم على العرش، فساد الفساد والانتهازيّة وتمزّقت وحدة البلاد وانتشر القتل والسلب والنهب.

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال أمنمسس:

ـ كنت الأحقّ بالعرش ولٰكن أحاطت بي الدسائس فسقطت بعد عام واحد.

وقال سبتاح:

ـ بل كنت أنا الأحقّ بالعرش ولٰكنّه اغتُصب منّي لخلاف قام بيني وبين منفتاح في أواخر حكمه، وشُغلت عن واجبات الحكم بمطاردة الدسائس حتّى اضطُررت للتخلّي عن العرش.

وقال سيتي:

ـ كنت أملك من القوّة ما أستطيع بها أن أحكم حكمًا طيّبًا ولٰكنّ الفساد كان قد استشرى فاجتاحنا الانحلال.

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

- ما أسرع أن يحلّ الفساد محلّ المجد، وأن ينعكس ضعف حاكم واحد على حضارة متكاملة...

فقال تحتمس الثالث:

- لعلّ المشكلة تتلخّص في كيف نعثر على الرجل القويّ المناسب في الوقت المناسب.

فقال حور محب:

- لم يكن في الأسرة رجل قويّ كفء ولكن هل خلت البلاد من ذلك الرجل؟

فقالت إيزيس:

- قضى القانون بأن يُرَشَّح الموجود لا أن يتجشّم العناء في البحث عن المطلوب، ولم يكن في وسع هؤلاء أن يفعلوا خيرًا ممّا فعلوا...

فقال أوزوريس:

- اذهبوا إلى مقام التافهين.

- ٢٩ -

ونادى حورس:

- الملك ستنخت.

فدخل رجل قصير القامة قويّ البنية فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- أعاد للقانون سيادته.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- عشت في زمن الفوضى، تعرّضت للقتل مرّة وأنا مسافر في النيل ونجوت بأعجوبة، وكنت ذا قرابة بعيدة بالملك منفتاح، فسعيت إلى العرش بمعاونة الكهنة، ولم يعترف بي أحد من حكّام الأقاليم الفاسدين ولم أكن أملك القوّة لإخضاعهم ولكن لم تعوزني الشجاعة فانقضضت على إقليم أخنوم وهو من أشدّ الأقاليم مناعة ومحقت المتمرّدين ومثّلت بهم، ومنه زحفت على طيبة، وسرعان ما تسابق الجبناء إلى تقديم فروض الطاعة، فنظّمت الجيش والشرطة، وبذلت جهدًا مضنيًا حتّى أرجعت إلى القانون سيادته فأمن الفلّاح في أرضه واستأنف نشاطه، وللأسف فارقت الحياة قبل أن أشعر رعايانا في الإمبراطوريّة بقوّة مصر.

فقال الملك خوفو:

- كان عملك الذي يمكن تلخيصه في كلمتين أشقّ من تشييد الهرم الأكبر.

وقال له الملك مينا:

- لقد أعدت إلى قلبي نبضه.

وقالت إيزيس:

- ابن عظيم سجّل عزيمته في الأرواح لا في الأحجار.

وقال أوزوريس:

- اجلس بين الخالدين.

- ٣٠ -

ونادى حورس:

- الملك رمسيس الثالث.

فدخل رجل طويل القامة ذو عملقة بادية فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- انتصر على الأعداء في آسيا والغرب والوافدين من البحر، ونشر في البلاد الأمن والأمان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- نتيجة للمعاناة في الداخل تمرّد الأمراء في آسيا، وطمع الليبيّون في الغزو، ثمّ دهمنا من بحر الشمال أقوام بنسائهم وأطفالهم يرومون الاستيطان، وفي الحال نهضت للقتال دون هوادة فطردت الليبيّين، وقضيت على الشماليّين وأسرت نساءهم وأطفالهم، ثمّ قدت حملة إلى آسيا ففتكت بالعصاة دون رحمة، وحظيت البلاد في عهدي بالأمان والاستقرار فشيّدت العديد من القصور والمعابد، ومن سوء الحظّ أنّني تعرّضت في شيخوختي إلى مؤامرة في الحريم لاغتصاب العرش، ونجوت من الموت بأعجوبة، ثمّ شكّلت محكمة عليا لمحاكمة المذنبين وأمرت بالعدل بحيث لا ينجو مجرم ولا يؤخذ بريء، ومن المؤسف أنّ قاضيين سقطا بإغراء بعض نساء الحريم ولمّا انكشف أمرهما انتحرا.

فقال تحتمس الثالث:

- مواقعك تشهد لك بأنّك من القوّاد الأفذاذ.

فقال رمسيس الثالث:

- لقد ترسّمت خطاك في غزوتي الآسيويّة.

فقال أخناتون:

- إنّ معاملتك للمتآمرين عليك، وتقديمهم لمحكمة بدلًا من أن تبطش بهم، وحثّك المحكمة على تحرّي العدل وحده، كلّ أولئك يقطع بتقديسك للقانون وشغفك بمكارم الأخلاق، كأنّما كنت من عباد الإله الواحد...

فقال رمسيس الثالث:

- كنت من عباد مكارم الأخلاق وهي تربية ينشأ في أحضانها المؤمن بالآلهة!

فقال بتاح حتب:

- إنّه كيد النساء كاد يفتك بملك عظيم وأهلّكَ قاضيين...

فقالت الملكة نفرتيتي:

- لقد خلق الإله الواحد النساء ليكشفن معادن الرجال، الثمين منها والخسيس!

فقالت إيزيس:

- تحيّة لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبل.

فقال أوزوريس:

- اذهب إلى مجلسك بين الخالدين.

- ٣١ -

ونادى حورس:

- الملوك رمسيس الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر.

ودخل تسعة رجال مختلفي الأحجام فمضوا في أكفانهم حتّى مثلوا صفًّا أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حكموا بالتتابع مددًا قصيرة ولم يكن لأحدهم من همّ إلّا المحافظة على مركزه وممارسة شهواته فاضطربت الأحوال وتفشّى الفساد حتّى استقلّ الوجه البحريّ في عهد آخرهم.

ودعاهم أوزوريس للكلام فلاذوا بالصمت.

وتكلّم رمسيس الثاني فسأل رمسيس الرابع:

- لِمَ اتّخذت اسمي اسمًا لك، ألك بي قرابة؟

فأجاب رمسيس الرابع:

- اتّخذناه على سبيل التبرّك والفخر!

فقال رمسيس الثاني:

- ولكنّكم لم تعرفوا قدره ولم توفّوه حقّه.

فقالت إيزيس:

- لا يسعني أن أطالب لهم بالعفو ولكنّي أسأل لهم الرحمة...

فقال أوزوريس:

- اذهبوا إلى مقام التافهين.

- ٣٢ -

ونادى حورس:

- الحاكم بسو با نبدد.

فدخل رجل بدين متوسّط الطول فمضى حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- استقلّ بحكم الوجه البحريّ في عهد رمسيس الثاني عشر، فازدادت الأحوال اضطرابًا في الداخل، وتقلّص نفوذ مصر في الخارج.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- كنت من أعيان تانيس، وساءني ما تتردّى فيه مصر من فوضى وانحلال، ولم يكن في وسعي أن أستولي على العرش فاستقللت بالوجه البحريّ بأمل أن أحقّق له الأمن والأمان، وقد بذلت من أجل ذلك غاية جهدي.

فقال أبنوم:

- إنّي خير من يفهم لغة الأعيان، حقًّا أنّهم يتوقون لتحقيق الأمن والأمان ولكن لأنفسهم على حساب الفلّاحين التعساء.

وقال الملك مينا:

- قضيت بفعلتك على وحدة الوطن التي أنفقت حياتي لتحقيقها.

وقال الحكيم بتاح حتب:

- واأسفي على عامّة الناس الذين عاصروك!

وقالت إيزيس:

- لا أدري كيف أدافع عن هذا الابن.

فقال أوزوريس:

ـ إلى الباب المفضي إلى الجحيم.

ـ ٣٣ ـ

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة فراح يقرأ:

ـ قضت إرادة الآلهة أن تغزو ليبيا مصر وتكوّن أسرة حاكمة، وفي نهاية حكمها تطايرت وحدة مصر فاستقلّت الأقاليم ورجعت إلى العهد الذي كانت عليه قبل الملك مينا. ثمّ غزاها الآشوريّون وتتابعت الأحزان.

ـ ٣٤ ـ

ونادى حورس:

ـ الملك بساماتيك.

فدخل رجل نحيل مائل للطول فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ أعلن نفسه ملكًا على مصر، وأعاد إليها وحدتها، وثبّت دعائم النظام. وكوّن جيشًا قويًّا من المرتزقة الأجانب استردّ به نفوذ مصر في فلسطين.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ إنّي أنحدر في الأصل من ستنخت، وكنت أحد اثني عشر أميرًا يحكمون الوجه البحريّ تحت نفوذ الآشوريّين. وتقلّص نفوذ الآشوريّين لأسباب خارجيّة فعقدت العزم على توحيد مصر وإعلان استقلالها. وقضيت على سلطة الأمراء في سلسلة من الغزوات، وأعلنت نفسي ملكًا على مصر، وعيّنت أختي نيتقريس سيّدة لكهنة طيبة لأهيمن على الكهنة فعادت الوحدة وعاد النظام. وركّزت على تحسين الحال الاقتصاديّة، وألّفت جيشًا من يونانيّين وكاريّين وسوريّين وليبيّين. ونَعِمَ الشعب بالأمان وحسن المآل، واندفعوا اندفاعًا ذاتيًّا نحو عهدهم القديم في الذوق والتقاليد وطقوس العبادة فلم أجد في ذلك من بأس، واستردت الحكم المصريّ في فلسطين فرجعت مصر إلى قريب ممّا كانت عليه منذ خمسمائة عام على أيّام رمسيس الثالث.

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ عمل جليل مشكور.

وقال الملك خوفو:

ـ وما أجمل أن توجّه الشعب نحو تراثه القديم!

فتساءل أخناتون:

ـ إنّي أعتبرها حركة رجعيّة فما تفسيرك لها أيّها الملك؟

فقال بساماتيك:

ـ كابد الشعب ما كابد من مذلّة تحت حكم الأجانب فثار ثورة سلميّة على تقاليدهم المستوردة ومن ثمّ لاذ بعراقته الأصيلة وسلفه الصالح.

فقال تحتمس الثالث:

ـ وسرت أنت في اتّجاه مضادّ فألّفت جيشك من مرتزقة الأجانب!

فقال بساماتيك:

ـ كانت مصر مهدّدة من الشرق والغرب والجنوب، وكان المصريّون قد فقدوا طموحهم العسكريّ، واستكانوا للهزيمة فأنقذت الموقف بالمتاح من الوسائل.

وعند ذاك قالت إيزيس:

ـ انظروا إلى ما قدّم إلى وطنه من خدمات في ظروف بالغة السوء.

فقال أوزوريس:

ـ إلى مجلسك بين الخالدين.

ـ ٣٥ ـ

وهتف حورس:

ـ الملك نيخاو.

فدخل رجل ذو طول وضخامة فتقدّم متلفّعًا في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ امتدّ سلطانه إلى سوريا، وانتصر على آشور ويهوّذا، ولكن صادف ذلك ظهور بابل فاستولت على سوريا وفلسطين، فقوّى حصون الحدود للدفاع، وعمل على تحسين التجارة، كما أرسل بعثة من الفينيقيّين لاكتشاف سواحل أفريقيا.

فدعاه أوزوريس للكلام فقال:

- لم أتقاعس عن واجبي أبدًا، فصادفني الحظ في مطلع حياتي وحلّت بي الهزائم في نهايتها، ولكنّ لداخل حظيَ بالأمن والأمان والازدهار.

وتكلّم تحتمس الثالث فقال:

- كان يجب أن تعرف أنّ الأمم الفتيّة لا تقف أطماعها عند حدّ، وأن تعمل على إعداد شعبك للقتال.

فقال نيخاو:

- للأسف كان الشعب قد فقد روحه.

فقال الحكيم بتاح حتب:

- لقد فقدت أنت روحك فوضعت ثقتك في الجنود الأجانب!

فقالت إيزيس:

- لم يتوانَ عن الكفاح سواء في ميدان القتال أو فوق الأرض الخضراء.

فقال أوزوريس:

- اتّخذ مجلسك بين الخالدين.

- ٣٦ -

ونادى حورس:

- بساماتيك الثاني.

فدخل رجل ذو ميل للبدانة والقِصَر فمضى حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- وطّد النظام في الداخل، ومن أجل ذلك عيّن ابنته أتحنس رع رئيسة لكهنة آمون مكان عمّته المسنّة نيتقريس، ووثّق علاقته باليونان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ليس عندي ما أضيفه سوى أنّ عهدي مضى في أمان وسلام.

فقال له تحتمس الثالث:

- كأنّك نسيت أنّ مصر كانت إمبراطوريّة ذات يوم!

فقال بساماتيك الثاني:

- ما جدوى تذكُّر الشباب الذي ولّى؟

فقال رمسيس الثاني:

- ونسيت أنّ بابل رابضة على الحدود؟

فسأله الملك أحمس:

- ماذا صنعت لبعث روح القتال في الشعب؟

ولـمّا لم ينبس بكلمة قالت إيزيس:

- مضى عهده في أمان وسلام!

فقال أوزوريس:

- مقامك بين التافهين.

- ٣٧ -

ونادى حورس:

- الملك أبريس.

فدخل رجل ربعة فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حرّض إسرائيل على بابل، واشترك في القتال فغزا بأسطوله فينيقيا ولكن حلّت به الهزيمة، وشقّ عصا طاعته الأمير أمازيس فقام بينهما نزاع قُتل في أثنائه.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- كانت بابل شغلي الشاغل، ورسمت خطّة تتلخّص في تحريض إسرائيل عليها، على أنْ أغزوَ فينيقيا في أثناء القتال وألتفّ وراء البابليّين، ولكنّ الخطّة فشلت وحلّت بنا الهزيمة.

فقال تحتمس الثالث:

- خطّة لا بأس بها ولكن أعوزتها الأيدي المنفّذة.

فقالت إيزيس:

- أطلب الرأفة.

فقال أوزوريس:

- إلى مقام التافهين.

- ٣٨ -

ونادى حورس:

- الملك أمازيس. فدخل رجل طويل نحيل، مضى في طريقه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة.

- وطّد النظام في الداخل، وغالى في اعتماده على

اليونانيّين، وشغف بالولائم والعربدة، وفي عهده ظهرت دولة الفرس فسعى إلى إقامة حلف من مصر وبابل واليونان لصدّها ولكنّها اجتاحت بابل.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ اعتبرت الملك أبريس مسئولًا عن هزيمته أمام بابل، وقدّرت أنّه أضعف من أن يواجه الموقف المعقّد فخرجت عن طاعته، واستوليت على العرش، وقد أقمت حلفًا لصدّ الفرس ولكنّ الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه فتفرّغتُ للإصلاح في الداخل.

فسألته الملكة حتشبسوت:

ـ ماذا فعلت للداخل؟

فأجاب أمازيس:

ـ عمَّ بلادي رخاء ملحوظ، وأصلحت القانون المدنيّ وحسبي أن أذكر المادّة التي ألزمت كلّ غنيّ بأن يبيّن لرئيس مدينته مصادر ثروته.

فسأله تحتمس الثالث:

ـ ماذا فعلت لإعداد قومك لمواجهة الطامعين الجدد؟

ـ لم يعد قومي يبالون إلّا بالفلاحة وحياتهم الخاصّة.

فقال له رمسيس الثاني:

ـ وكنت قدوتهم في ذٰلك بشغفك بالولائم والعربدة، وأنا لست ضدّ الولائم والعربدة إذا جاءت في إطار العظمة!

فقالت إيزيس:

ـ إصلاحاته لا يستهان بها وكانت له خطّة حكيمة لولا الفشل.

وتفكّر أوزوريس قليلًا ثمّ قال:

ـ تمكث في مقام التافهين ألف سنة ثمّ تنقل إلى الجنّة في درجة متواضعة تناسبك.

ـ ٣٩ ـ

وهتف حورس:

ـ بسماتيك الثالث.

فدخل رجل متوسّط القامة قويّ البنية، سار في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ حكم ثلاثة أشهر، ثمّ تصدّى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قمبيز ملك الفرس، وانهزم جيشه ووقع في الأسر، وقتله قمبيز واستولى على البلد.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ تولّيت العرش والجيوش الفارسيّة تتوغّل في آسيا وتتّجه نحو مصر فاستعددت بقوّاتي اليونانيّة وجنّدت على عجل جيشًا صغيرًا من المصريّين، ولاقيت العدوّ في معركة حامية فدارت الدائرة علينا ووقعت في الأسر، وقد أراد قمبيز أن أتولّى العرش بوصفي تابعًا له، ولٰكنّي عملت في الخفاء على مقاومة الغزاة فانكشف أمري ودفعت حياتي ثمنًا لذٰلك.

وتكلّم تحتمس الثالث فقال:

ـ حدّثني عن مقاومة اليونانيّين والمصريّين في المعركة.

فقال بسماتيك الثالث:

ـ لا شكّ أنّ مقاومة المصريّين كانت أشدّ بما لا يقاس.

فقال تحتمس الثالث:

ـ توقّعت أن أسمع ذٰلك، وربّما لو كان جيشك كلّه مصريًّا لتغيّر مصير المعركة ولٰكنّكم أهملتم شعبكم واعتمدتم كلّ الاعتماد على الأجانب، وبذٰلك انتهى تاريخ مصر المستقلّة على يدكم.

فقال سيكننرع:

ـ لا يجوز أن ننسى أنّه رفض العرش في ظلّ الحكم الأجنبيّ. وبنفسه ضحّى في سبيل ذٰلك، وشاركني نفس المصير...

فقالت إيزيس:

ـ أمامكم ابن سيّئ الحظّ، حارب بشجاعة، ولو كان هدفه أن يحكم بأيّ ثمن لدان له الحكم ولٰكنّه قُتل عزيزًا شريفًا.

وقال أوزوريس:

ـ خذ مجلسك بين الخالدين.

ـ ٤٠ ـ

وقال أوزوريس:

- أيّها السادة، لقد انتهت مصر الفرعونيّة، وليس من اختصاص هٰذه المحكمة أن تحاسب الحكّام الأجانب، وهي تعتبرهم جميعًا أجانب ملعونين وإن اختلفوا في الدرجة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد، وسوف نواصل محاسبة المصريّين، مَن اكتسب مصريّته بالوراثة أو من اكتسبها بالإقامة والقلب، وسيكون حكمنا غير نهائيّ في حالة اعتناق المصريّ لدين جديد مثل المسيحيّة أو الإسلام فيكون حكمنا نوعًا من التقدير التاريخيّ نرجو أن يوضع في الاعتبار عندما يحاكَم المواطن أمام محكمته الدينيّة في عالم الأبديّة، والآن أترك الكلمة لتحوت كاتب الآلهة.

فقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- انتهت مصر الآلهة والأهرامات والمعابد والضمائر المنيرة. أصبح الفرس ملوكًا على العرش الذهبيّ، عبدوا آلهتنا وتمسّحوا بتقاليدنا ولٰكنّ المصريّين مقتوهم مقتًا، ثاروا وتحرّروا، وهُزموا واستُعبدوا، وجاءنا الإسكندر غازيًا ومحرّرًا، ثمّ ورث مصر أحد قوّاده فأنشأ لأسرته دولة وحضارة، واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهريّ على حين عاش المصريّون في الظلّ يفلحون الأرض ويقنعون بالدرجة الدنيا، باستثناء الكهنة الذين بقيت لهم الشئون الدينيّة. وقد انفجرت حركات مقاومة في صورة هجرات جماعيّة أو إضرابات، وكانت تُقابَل بالعنف والشدّة، وقامت ثورات وأُخمدت بقسوة وأُريقت دماء غزيرة، وانتهى حكم الأسرة اليونانيّة في عهد الملكة كليوباطرة، ودخلت مصر تحت حكم أجنبيّ جديد هو الحكم الرومانيّ، فاعتُبرت ضيعة لإمداد روما بالغلال، وازداد وضع المصريّين سوءًا، وكلّما ثاروا على الظلم أُخمدت ثورتهم وسُفكت دماؤهم، وفي عهد الحاكم الرومانيّ نيرون دخلت المسيحيّة مصر فأقبل فريق من المصريّين يغيّرون دينهم، ولم يكن دينًا نابعًا في مصر كما حدث على عهد أخناتون ولٰكنّه كان واردًا من الخارج، وغلب الزهد على معتنقي الدين الجديد فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فرارًا من ظلم الحكّام وفساد الدنيا، وقد قاومت الحكومة الرومانيّة الدين الجديد وانهالت بحرابها على معتنقيه حتّى عُرف عصر الإمبراطور دقلديانوس بعصر الشهداء، وفي عصر تيودوسيس حتّم الإمبراطور اعتناق المسيحيّة على رعاياه فكان للديانة القديمة شهداؤها كذٰلك ولٰكنّ الأغلبيّة اعتنقت المسيحيّة، واستقلّوا فيها بمذهب خاصّ بهم، وامتزجت الروح الدينيّة بالروح الوطنيّة وعملا معًا على الثورة والاستقلال فتعرّضوا لمذابح وعذابات لا حصر لها. واتّخذ الصراع صورة معركة دينيّة بين الكنيسة المصريّة وكنيسة الدولة الرومانيّة، واستمرّ النزاع مصحوبًا بأشدّ أنواع الاضطهاد.

* * *

وفي الصمت الثقيل الذي صاحب كلام تحوت وأعقبه أشار أوزوريس إلى حورس فصاح حورس:

- المقوقس حاكم مصر.

فدخل رجل بدين مائل إلى القِصَر فمضى متلفّعًا في كفنه حتّى وقف أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

- حاكم مصر من قِبَل الإمبراطور الرومانيّ، اعتبره الأقباط مصريًّا، وفي عهده غزا العرب مصر، وقد اتّفق مع العرب تخلّصًا من الرومان، وبذٰلك دخلت مصر في عهد جديد تحت حكم العرب.

فدعاه أوزوريس للكلام فقال:

- وليت حكم مصر من قِبَل الإمبراطور، ورغم أصلي اليونانيّ فقد اعتنقت المذهب اليعقوبيّ المصريّ فرضي عنّي الأقباط واعتبروني واحدًا منهم، وقد رأيت الاتّفاق مع العرب تخلّصًا من الرومان وحصلت بذٰلك على شروط حسنة.

فسأله أبنوم:

- كيف أمّنت للاتّفاق مع الغزاة؟

فأجاب المقوقس:

- أشهد أنّهم كانوا غزاة شرفاء، وقد قسّم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى أعمال وضع على رأس كلّ منها حاكمًا قبطيًّا فشعر الأهالي براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين، وحرّر العبادة من كلّ قيد فعبد الأقباط ربّهم بالطريقة التي آمنوا بها. . .

فسأله رمسيس الثاني:

- ولِمَ جشّموا أنفسهم مشقّة الغزو إذن؟

فقال المقوقس:

ـ كانت الجزية تحمل إلى بلادهم الأصليّة أمّا الهدف الأساسيّ للغزو فيما بدا لنا فكان الدعوة إلى دين جديد بشّروا به يدعى الإسلام.

فقال أبنوم:

ـ واستقبلت مصر عصر شهداء من جديد؟

فقال المقوقس:

ـ كانوا يدعون إلى دينهم دون إكراه، ومن يشأ الثبات على دينه يدفع الجزية.

فسأله خوفو:

ـ ما وجه الخلاف بين هٰذا الدين وديننا القديم؟

ـ كانوا يؤكّدون على وحدانيّة الإله!

فصاح أخناتون:

ـ هٰذا ديني وهٰذا إلٰهي، طالما آمنت بأنّني سأنتصر في النهاية، خبّرني كيف استقبل الناس هٰذا الدين؟

ـ لم يعتنقه في حياتي إلّا قلّة لا وزن لها...

فقال أبنوم:

ـ دعونا من الشجار حول الآلهة وحدّثني عمّا أفاده الفلّاحون الكادحون!

ـ لقد ألغى عمرو بن العاص كثيرًا من المكوس التعسّفيّة فتحسّنت أحوال الفقراء.

فقالت إيزيس:

ـ عادت سياسة هٰذا الرجل على أبنائي بخير غير منكور.

فقال أوزوريس:

ـ يُمنح شهادة تزكية لعلّها تنفعه أمام محكمته الدينيّة.

حرّيّة العبادة وطَرْده للرومان.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ العقيدة هي شرف الإنسان وكرامته وعزّته وطريقه إلى الله، وقد تحمّلت ما تحمّلت من اضطهاد رومانيّ فلم أتزعزع عن عقيدتي، ثمّ آويت إلى الدير محتجًّا على السقوط البشريّ في هاوية الظلم والفساد، وقضى الله أن تقع مصر في أيدي بني إسماعيل، وأن يهيّئوا للناس حرّيّة العبادة فرجعت إلى كرسيّ البابويّة بالإسكندريّة ومارست الزعامة الروحيّة للأقباط.

فقال تحتمس الثالث:

ـ أصبح غاية ما يرتجيه المصريّ أن يفوز بغازٍ أجنبيّ عادل!

فقال البطريرك بنيامين:

ـ مضى على شعبنا العاكف في قراه زهاء ألف عام وهو خاضع لأسرات أجنبيّة تحكمه بقوّة السلاح.

فسأله أبنوم:

ـ ألم تستغلّ سلطتك الروحيّة لإيقاظ الشعب؟

فقال البطريرك:

ـ عاصرت غازيًا جديدًا أتاح لنا حرّيّة العقيدة وخفّف الأعباء عن الفقراء ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه، فلم يكن الوقت مناسبًا لبثّ روح التمرّد.

فقالت إيزيس:

ـ لا لوم على الرجل فقد عاش في زمن كان هواه مع غيرنا.

فقال أوزوريس:

ـ ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه.

ـ ٤١ ـ

ـ ٤٢ ـ

وهتف حورس:

ـ البطريرك بنيامين.

يدخل رجل نحيل متوسّط القامة، يتقدّم حتّى يمثل أمام العرش.

وقرأ تحوت كاتب الآلهة:

ـ بطريرك الأقباط، حمله الاضطهاد على الانعزال في الصحراء، أفرج عنه عمرو بن العاص بإعلانه

ونادى حورس:

ـ المصريّ أثناسيوس.

فدخل رجل نحيل متوسّط القامة فمضى في كفنه حتى مثل أمام العرش.

وقال أوزوريس:

ـ قامت هٰذه المحكمة لمحاسبة الحكّام المصريّين، وليس هٰذا الرجل حاكمًا ولٰكنّه يمثّل عودة المصريّين إلى

الحكومة، فلا تخلو شهادته من قيمة تاريخيّة.

ودعا أثناسيوس إلى الكلام فقال:

ـ عملت مترجمًا من القبطيّة إلى العربيّة حين كانت القبطيّة هي لغة الدواوين. وقد عاشت مصر في سلام وأمان حتّى كان عهد الخليفة عثمان الذي انقسم المسلمون حول سياسته، وخاضوا نزاعًا انتهى بقتله، وانقسم العرب في مصر تبعًا لذلك إلى فريقين، مؤيّدينَ لعثمان ومعارضينَ له، ونشبت بين الفريقين حروب عانى منها المصريّون الذين جرت في بلادهم. واشتدّ الأمر عندما قامت حروب بين العرب حول الخلافة حتّى آلت إلى خليفة يدعى معاوية، وتولّى أمر مصر حكّام من أتباعه. وبصفة عامّة لم نحظ بحاكم أرفق بنا من عمرو بن العاص. وفي عهد الحاكم عبد العزيز بن مروان أحدث بعض الإصلاحات ولكنّه فرض ضريبة دينار على الكهنة بعد أن كانوا معفين من الضرائب كما ضرب على البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنويًّا.

فسأله الحكيم أمحتب:

ـ وكيف كانت ردّة الفعل عند الكهنة والبطاركة؟

ـ كانت ردّة فعل مسيحيّة قوامها الحبّ والسلام والتعالي عن مطالب الدنيا.

فقال أخناتون:

ـ لم يدبّروا ثورة كما فعل أجدادهم معي!

فقال أثناسيوس:

ـ رغم ذلك كانت الأحوال تُعتبر حسنة إذا قورنت بما كانت عليه أيّام الرومان، ولكنّنا نحن الأقباط تكدّرنا عندما علمنا بدخول أفراد منّا في الدين الجديد، وتراءى لنا أنّهم كفروا تفاديًا من أداء الجزية أمّا هم فزعموا أنّ الإسلام ما هو إلّا مذهب من المسيحيّة وأنّ معتنقه ليس بكافر.

فقال الملك خوفو:

ـ لقد مهّدتم لهم الطريق بتغيير دينكم الأوّل فكرّستم سُنّة اللعب بالعقيدة...

فقال أخناتون:

ـ لا يلام الإنسان على تغيير دينه إذا كان دافعه القربى من ذي الجلال والنور، ولكنّي أعجب كيف اهتدى العرب إلى إلٰهي بينما نبذه قومي جيلًا بعد جيل.

وقالت إيزيس:

ـ لا أجد ما يوجب الدفاع عن هٰذا الابن طالما أنّ أحدًا لم يوجّه إليه تهمة ما.

فقال أوزوريس:

ـ نحن نرجو لك يا أثناسيوس حسن الختام أمام محكمتك المسيحيّة...

ـ ٤٣ ـ

وهتف حورس:

ـ المعلّم أنتناش.

فدخل رجل ربعة، ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ تولّيت أمر الكتابة بالقبطيّة لتبحُّري فيها، وفي حكم عبدالله أخي الخليفة الوليد بن عبد الملك صدر قرار بإحلال اللغة العربيّة مكان اللغة القبطيّة، فعُزلت من وظيفتي وتولّاها رجل من حمص، وعُرف عن حاكمنا بأنّه يقبل الرشوة رغم تحريم دينه لها، وتولّى بعده قرّة بن شريك وكان جائرًا ظالمًا، فاحتقر عقائدنا حتّى كان يقتحم الكنائس أحيانًا ويوقف الصلاة.

فتساءل أبنوم:

ـ وأين ذهب اتّفاق عمرو بن العاص؟

فقال أنتناش:

ـ ما أسرع أن ينسى الحكّام دينهم!

فسأله أبنوم:

ـ وماذا فعل الشعب؟

ـ لم يكن لنا قدرة على مقاومة السلطة الحاكمة.

فقال رمسيس الثاني:

ـ أسفي على حكم الفراعين!

فقال له أبنوم:

ـ الأسف حقًّا على حكم الشعب في الفترة التي كشطتموها من التاريخ أمّا الفراعين فكثرتهم كانت أقسى على الشعب من الأجانب!

فقال رمسيس الثاني:

ـ أنا لا أسمح...

ولٰكنّ أوزوريس قاطعه قائلًا:

- أنا الذي أسمح أو لا أسمح.

وساد صمت مدّة غير قصيرة، ثمّ قال أوزوريس مخاطبًا أنتناش:

- فليصحبك التوفيق أمام المحكمة المسيحيّة.

- ٤٤ -

وهتف حورس:

- دميانة السويفيّة.

فدخلت امرأة متوسّطة القامة، وتقدّمت حتّى مثلت أمام العرش.

ودعاها أوزوريس للكلام فقالت:

- فلّاحة من بني سويف، ترمّلت وأنا أمّ لولد صغير، وكان متولّي الخراج أسامة بن يزيد وقد اشتُهر بالظلم والعسف، وقد أمر أن يلبس كلّ كاهن خاتمًا من حديد في إصبعه محفورًا عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج إشارة إلى خلوّ طرفه، وهدّد من يخالف ذٰلك بقطع اليد، وفرض أيضًا ضريبة عشرة دنانير على كلّ من يركب النيل، وقد اضطرّتني ظروف المعيشة للسفر في مركب شراعيّ، وحدث أن تدلّى ابني ليشرب فخطفه تمساح ومعه تذكرة السفر، وعند محطّ الوصول طالبوني بالتذكرة، ولم يفرَج عنّي رغم شهادة الشهود حتّى بعت ما بين يديّ...

فقال الحكيم بتاح حتب:

- الدين إسلاميّ والحكم رومانيّ.

فقال أبنوم:

- فيما عدا فترة الظلام لم يعرف الفلّاح إلّا الظلم بصرف النظر عن اسم الظالم وجنسيّته...

فقالت دميانة:

- ونفد صبر الناس فتجمهروا ثائرينَ، واستمرّت الثورة حتّى مات الخليفة في دمشق فهدأت الأحوال على أمل تغيير السياسة.

فقال أبنوم:

- لتباركك الآلهة على أوّل خبر سارّ نسمعه.

وقال أوزوريس:

- أرجو أن تحظَيْ بالإنصاف في ساحة محكمتك.

- ٤٥ -

ونادى حورس:

- الحاجّ أحمد المنياوي.

فدخل رجل طويل القامة قويّ البنيان، وتقدّم حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- في الأصل من أسرة ميخائيل المنياوي، هداني الله إلى الإسلام فأسلمت، وتعلّمت اللغة العربيّة وحفظت القرآن الكريم، واشتغلت بالتدريس، ثمّ مكّنني الله من أداء فريضة الحجّ... وفي أيّامي تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز وكان من الخلفاء الراشدين مثل خلفاء المسلمين الأوائل فشكا الأقباط أسامة بن يزيد إليه فأمر بعزله ثمّ قبض عليه وحُمل إلى الخليفة مكبّلًا فمات في الطريق، وتولّى مكانه أيّوب بن شرحبيل وكان ورعًا فعوّض الأقباط عمّا حاق بهم من ظلم.

وسأله أخناتون:

- لِمَ اعتنقت الإسلام؟

- الإيمان ينفجر في القلب دون مقدّمات.

فقال أخناتون:

- صدقت، ولن يصدّقك مثل خبير، ولٰكن ألم تكن لأناشيدي دخل في ذٰلك؟

فقال أوزوريس:

- لم يُعرف اسمك إلّا بعد أيّامه بألف عام.

فقال الملك خوفو مخاطبًا أحمد:

- لعلك رغبت في التخلّص من الجزية!

فقال أحمد:

- أبدًا، لقد كان قائد الجيش حيّان بن شريح يطالب الداخلين في الإسلام بالجزية ولـمّا بلغ ذٰلك الخليفة أمره برفعها كما أمر بضربه عشرين سوطًا وقال له إنّ الله بعث محمّدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا...

فقال أوزوريس:

- ليصحبك التوفيق أمام محكمتك الإسلاميّة.

- ٤٦ -

ونادى حورس:

ـ سمعان الجرجاوي.

فدخل رجل ربعة وتقدّم حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ حدّاد من أسرة حدّادين، وفي أوّل خلافة هشام بن عبد الملك قام الأقباط بثورة، واشتركت فيها، وفقدت حياتي في إحدى معاركها، وكان يتولّى أمرنا حنظلة بن صفوان، وكان ظالمًا غشومًا، لم يكتفِ بالضرائب المفروضة على الإنسان ففرض ضرائب على الحيوان وقد عُزل بسبب ذلك بعد إخماد الثورة.

فقال أبنوم:

ـ أحيّيك كثائر من أبناء شعبنا، ولكنّي أتساءل عمّا يحبط الثورات؟!

فأجاب سمعان الجرجاوي:

ـ قوّة الخلافة لا تُقهر، وكنّا شعبًا أعزل قد فقد روحه القتاليّة، كما فقدنا مشاركة إخواننا الذين اعتنقوا الإسلام وأخلصوا قلوبهم للخلافة...

فقال أبنوم:

ـ هذا غزو من الداخل لم يحدث من قبل.

وقال أوزوريس:

ـ اذهب إلى محكمتك المسيحيّة مصحوبًا بتزكيتنا وبركاتنا.

ـ ٤٧ ـ

ونادى حورس:

ـ حليم الأسواني.

فدخل رجل طويل نحيل، مضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ تاجر غلال من أسرة كبيرة اعتنق نصفها الإسلام، وحدث أن انتقلت الخلافة إلى أسرة جديدة، عاصرت منها خليفة يدعى أبا جعفر المنصور، وتتابع الولاة على مصر لا يمكث أحدهم إلّا عامًا أو بعض عام، ولا يجد فرصة للتفكير في الإصلاح، فساءت الأحوال، وثار الأقباط في سخا، واشتدّت الحال سوءًا فعمّ البلاء والجوع حتّى أكل الناس الكلاب والآدميّين.

فسأله الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ وكيف كان حال المسلمين؟

ـ عانوا مثلنا وبلغ بهم السخط غايته واتّهموا الولاة بالخروج على الشريعة، واتّحدت مشاعرنا رغم اختلاف الدين ولكنّ القوّة الحاكمة كانت أقوى من الجميع...

فقال أخناتون:

ـ لو اعتنقتم جميعًا ديانة الإله الواحد لبادر إلى إنقاذكم.

فقال له أبنوم:

ـ كانت مشكلة خبز لا مشكلة لاهوتيّة.

فقال أوزوريس:

ـ لعلّك تجد الحكم العادل في محكمتك.

ـ ٤٨ ـ

ونادى حورس:

ـ سليمان تادرس.

فدخل رجل متوسّط القامة بدين، مضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ نقّاش ماهر، عاصرت أربعة خلفاء هم المهدي والهادي والرشيد والمأمون، وعشرات من الولاة المتتابعين غلب على أكثرهم الفسق والرشوة والظلم، وفي أيّامهم قامت انتفاضات كثيرة، وفي بعضها قام الأقباط المسيحيّون والأقباط المسلمون والعرب، اتّحدوا ضدّ الظلم وتعاونوا على دفعه، حتّى جاء المأمون بنفسه لتفقّد الأحوال، فأجرى العدل، وتحسّنت أحوال الناس على اختلاف أديانهم.

فسأله أبنوم:

ـ هل اشتركت في ثورة من الثورات؟

ـ كلّا، ولكنّي فقدت ابنًا في إحداها...

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ يخيّل إليّ أنّ الأمور مضت في مجرى جديد.

وقال أوزوريس:

ـ إنّك تستحقّ عطفنا فاذهب إلى محكمتك بسلام.

- ٤٩ -

وهتف حورس:

- موسى كاتب سرّ أحمد بن طولون.

فدخل رجل مديد القامة، ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- قبطيّ مسيحيّ، وهبني الربّ علمًا ودراية فاختارني الوليّ أحمد بن طولون كاتب سرّه، ولم يكن عربيًّا، وقد آلت إليه الأمور في خلافة المعتمد بن المتوكّل، فعمل على تثبيت ولايته، وكأنّ مصر قد عاد إليها استقلالها، بل إنّه ضمّ لحكمه سوريا وأجزاء من آسيا الصغرى، وعكف على الإصلاح والبناء والبرّ وإقامة العدل حتّى انتشرت مظلّته فوق المسلمين والمسيحيّين واليهود فلهجت الألسنة بالثناء عليه. وكان يجلس يومين للمظالم مثلما فعل الخلفاء الراشدون، لذلك فعندما اشتدّ عليه المرض خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطّم، المسلمون بقرآنهم والمسيحيّون بإنجيلهم واليهود بتوراتهم.

فسأله الحكيم بتاح حتب:

- هل انتفع الأقباط المسيحيّون بمنزلتك عند الوالي؟

فأجاب موسى:

- لقد كان اختياره لي دليلًا على إيمانه بالمساواة بين الطوائف فاعتنقت إيمانه بالمساواة وحتّى عندما رشّحت له المهندسين المسيحيّين لبناء الحصون والمساجد كنت متحرّيًا الدقّة بلا تحيّز، والحاكم العادل يستخرج من طوايا معاونيه خير ما فيها بما هو قدوة لهم...

وسأله الحكيم أحتب وزير زوسر:

- وكيف جرت العلاقات بين الطوائف؟

- على خير ما يكون وكما ينبغي لها أن تجري في ظلّ حاكم عادل. في عهده أصبحت مصر شعبًا واحدًا ذا أديان ثلاثة، وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ويكثر عدد معتنقيه.

واستأذن تحوت كاتب الآلهة في توجيه سؤال ولمّا أذن له قال:

- لماذا سَجَنَ البطريرك ميخائيل بطريق كنيسة الإسكندرية؟

فأجاب موسى:

- لم يكن الذنب ذنبه ولٰكنّه كان دسيسة من أسقف حقود يدعى سكا زعم لابن طولون أنّ البطريرك يدّخر ثروة طائلة لا حاجة له بها فطالبه ابن طولون بالتبرّع بشيء من ثروته في ظرف كان الوالي يتوثّب لدفع جيوش أجنبيّة فاعتذر البطريرك بعجزه فسجنه بتهمة الخيانة، ولمّا ولي ابنه خمارويه بعده تبيّن له وجه الحقيقة فأطلق سراحه وأرجعه مكرّمًا، ولم يكن خلفان ابن طولون مثله قوّة وحزمًا فدالت دولتهم ورجعت مصر تتطلّع إلى الغد بعين حذرة.

فقال أوزوريس:

- عرضت صفحة مشرقة فلتصحبك السلامة.

- ٥٠ -

وهتف حورس:

- عليّ سندس.

فدخل رجل قويّ البنية متوسّط القامة ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- سقّاء، عشت جلّ حياتي في ظلّ الدولة الأخشيديّة، وكانت مصر قد عادت إلى الخلافة العبّاسيّة وتتابع عليها الولاة بالعشرات يصبّون المظالم على المصريّين غير مفرّقين بين مسيحيّ ومسلم حتّى تولّى أمورنا محمّد أطفيح، مملوك، من سلالة ملوك فرغانا، فاستقلّ بمصر ولقّب نفسه بالأخشيديّ كما جرى عليه العرف بين ملوك فرغانا، وصدّ عن مصر الطامعين فيها، وكان - لدى كلّ حملة - يطالب المسيحيّين بالمعاونة، ثمّ آل الحكم إلى وزيره الخصيّ كافور الذي لقّب نفسه بالأخشيديّ، وفي عهده حكمت مصر الحجاز والشام، وطارد الموظّفين الفاسدين فتحسّنت الأحوال في عهده.

وسأله رمسيس الثاني:

- كيف رضيتم بأن يحكمكم مملوك وخصيّ؟

فأجاب عليّ سندس:

- ما كان يهمّنا كمسلمين إلّا أن يحكمنا حاكم مسلم عادل، والعبد العادل خير من الأمير الظالم...

فتساءل رمسيس الثاني:

- ومن أين لعبد أن يتفوّق على أمير؟

فأجابه أخناتون:

- بفضل عبادة الإله الواحد، لقد دعوت في حياتي للمساواة بين البشر فرُميت بالجنون!

فقال أوزوريس:

- لتصحبك السلامة إلى محكمتك الإسلاميّة.

- ٥١ -

وهتف حورس:

- ابن قلاقس.

فدخل رجل قصير القامة مع مَيْل للبدانة وسار حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- أنا أبو الفتح نصرالله بن عبدالله الشهير بابن قلاقس اللخميّ الإسكندريّ الملقّب بالقاضي الأعزّ.

فقال أوزوريس:

- إنّه اسم يفوق في طوله اسم أيّ فرعون، ماذا كنت تعمل؟

- مرسي السفن المقلعة من مصر ولٰكنّي كنت شاعرًا، زرت المغرب وصقلّية ومدحت أمراءهما كما مدحت الفاطميّين وملوك اليمن، وكانت مصر بلدي والإسلام وطني والمدح رزقي، من ذٰلك قصيدتي في مدح ياسر بن بلال التي مطلعها:

سافر إذا ما شئت قدرا

سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسب ما جرى

طيّبًا ويخبث ما استقرّا

وأنا القائل أيضًا:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة

واعجب لما بعدها من حمرة الشفق

فقال أوزوريس:

- حدّثنا عن زمانك أمّا الشعر فله محكمة أخرى.

فقال ابن قلاقس:

- دالت دولة الأخشيد فاستولى الفاطميّون على مصر دون حرب، وبنوا القاهرة والأزهر وحسنت في أيّامهم الإدارة وجرت الأرزاق، ولـمّا جاء المعزّ لدين الله استقبل صفوة القوم وكان فيهم عبدالله بن طباطبا الأديب العلّامة فسأل الخليفة: «إلى من ينتسب مولانا؟» فسلّ الخليفة نصف سيفه وقال «هٰذا نسبي» ونثر عليهم الذهب وقال «وهٰذا حسبي» فقالوا جميعًا سمعنا وأطعنا.

فسأله أبنوم:

- لماذا لم تستقلّوا ببلدكم عقب انهيار دولة الأخشيد؟

فأجاب ابن قلاقس:

- ولِمَ نستقلّ على حين يوجد أكثر من خليفة مسلم؟ . . . المسلم لا يهمّه الاستقلال وما يريد إلّا حاكمًا مسلمًا قويًّا عادلًا وقد وجدناه عند الفاطميّين.

- وبايعتم على الطاعة أمام السيف والذهب؟

- وهل تقوم دولة إلّا عليهما؟! وقد حفل عهد الفاطميّين بالعلم والفنّ والبناء وحظي المسيحيّون بالثقة والأمان، ولٰكنّ عهد الحاكم بأمر الله لا يُنسى فقد تلاطمت فيه المتناقضات، مرّة ينصف المسلمين ويضطهد الأقباط وأخرى ينصف الأقباط ويضطهد المسلمين، وثالثة يضطهد الجميع، ثمّ ختم عهدهم بمجاعة ضارية عفّت المهابة والمجد وأصابت الناس بالمحن. . .

فقال أوزوريس:

- اذهب بسلام إلى محكمتك.

- ٥٢ -

ونادى حورس:

- الوزير قراقوش.

فدخل رجل ربعة ومضى حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- دالت دولة الفاطميّين فجاء صلاح الدين الأيّوبي إلى مصر لينشئ دولة جديدة هي الدولة الأيّوبيّة، وعملتُ تحت جناحه وزيرًا، وشهدت إصلاحاته الداخليّة من تنظيم للإدارة وتخفيف للمكوس وإقامة العدل، كما شهدت إنجازاته الخارجيّة مثل توحيده العرب ومحاربة المسيحيّين الأجانب والانتصار عليهم،

واستوائه بين الفرسان مثالًا للشجاعة والشهامة والمروءة والعظمة. وقد تحرّيت في كلّ أعمالي الصلاح والعدل ولكنّي اشتُهرت بالظلم بلا وجه حقّ وذلك نتيجة لاضطراري إلى إزالة مساكن كثيرين وأنا أبني سور القاهرة، فما عُرف عادِل بالظلم كما عُرفتُ.

وسأله ـ بعد استئذان ـ تحوت كاتب الآلهة:

ـ ألم تعتدِ على أحجار بعض الأهرامات لتبني بها سورك دون احترام للغابرين؟

ـ انتزعتها من آثار وثنيّة لأقيم بها مباني في سبيل الله ورسوله. . .

فقال خوفو:

ـ نسي الأحفاد دين أجدادهم وشُغلوا بحاضرهم.

فقال أخناتون:

ـ حسبهم أنّهم آمنوا بإلٰهي!

فقال قراقوش:

ـ لم يكن خلفاء صلاح الدين على مستواه، وجاء مسيحيّو الشمال ليقضوا على مجدهم فهلكت دمياط وتعذّبت رشيد وقُتل الرجال وانتهكت النساء، ولكنّهم في النهاية انهزموا وغادروا البلاد.

فقالت إيزيس:

ـ وذهبت دولة بخيرها وشرّها.

فقال أوزوريس:

ـ اذهب إلى محكمتك مشكورًا.

ـ ٥٣ ـ

ونادى حورس:

ـ الشهاب الخفاجي.

فدخل رجل قصير القامة مفرط البدانة وتقدّم في سيره حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت في سرياقوص، وصرت من رجال اللغة والأدب، فأنا القائل:

حتّام يغزوني صدوده
والصبر قد كثرت جنوده
نشوان يعبث بي كما
عبثت بآمالي وعوده

وقد عاصرت زمن المماليك الذين اقتناهم الأيّوبيّون لجمالهم، ثمّ ربّوهم تربية حسنة ليقوموا بخدمتهم، فورثوا الملك عنهم. وقد كان منهم سلاطين عظام، حسن إسلامهم، فأحبّوا العدل والنظام وشيّدوا العمائر، وهم الذين صدّوا التتار وطهّروا بلاد الإسلام من الصليبيّين، ولكنّ أكثرهم كانوا فاسقين فاسدين جشعين، فعانى الأهالي على أيديهم العذاب والفقر والذلّ.

فقال تحتمس الثالث:

ـ ما كنت أتصوّر أن يكون للمماليك عصر.

وقال الحكيم بتاح حتب:

ـ لقد قلت في الحبّ شعرًا، ألم يحرّك عذاب الناس وجدانك الشعريّ؟

فقال الشهاب الخفاجي:

ـ في رسالة لي قلت عن الأهالي «ذهب أرباب الهمم العالية ولم يبقَ إلّا من يفتخر بالرمم البالية، روح الشوم، ونتيجة اللوم، وخليفة البوم، وإن طال التحمّل والسكوت، فكم بكت السماء أرضًا فقدت حبيبًا، وساعدتها سحب انتحبت نحيبًا، هكذا مرّ على شعب مصر مئات أعوام من العذاب والذلّ، ولولا الإسلام لهلكوا وبادوا. . .».

فسأله أبنوم:

ـ وماذا قلت عن المماليك؟

ـ ما كان في وسعي أن أعرّض رقبتي لسيوفهم!

فسأله الحكيم أمحتب:

ـ ماذا كان دور الإسلام الذي أشرت إليه؟

ـ كان الشجعان من رجال الدين يتصدّون أحيانًا للطغاة دفاعًا عن المظلومين فيكلّل مسعاهم بالنجاح، وكان البؤساء يجدون في دينهم العزاء والأمل. . .

ونظر أوزوريس نحو الخالدين فوق مقاعدهم وقال:

ـ أيّها السادة، إنّي أشعر بحزنكم وغضبكم، وأودّ أن أخبركم بأنّ المحكمة ستوجّه لدى الفراغ من عملها نداء إلى المحكمتين، المسيحيّة والإسلاميّة، بإنزال أشدّ العقوبات بجميع الحكّام الظالمين الذين اعتلوا عرش الفراعنة.

ثمّ نظر إلى الشهاب الخفاجي وقال:
- اذهب بسلام إلى محكمتك بلا تزكية ولا إدانة منّا.

- ٥٤ -

وقال تحوت كاتب الآلهة:
- ولـمّا دالت دولة المماليك سقطت مصر غنيمة في يد الدولة العثمانيّة، وتتابع عليها مئات الباشوات كولاة، وشاركهم في حكم البلاد الجيش العثمانيّ وبقيّة المماليك، ولم تعرف البلاد إلّا النادر واليسير من الراحة والتقدّم في فترات عابرة، ثمّ قام النزاع بين القوى الحاكمة، وتفشّى الاغتيال والغدر، وغرق الشعب في الهمّ والذلّ والجهل، واستمرّ ذٰلك بضع مئات أخرى من السنين.

* * *

ونادى حورس:
- عليّ بك الكبير.
فدخل رجل ذو طول وقوّة ومضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.
وقال أوزوريس:
- إنّك أوّل حاكم أجنبيّ نستدعيه إلى محكمتنا لما تضمّنته سياسته من نزعة مصريّة واضحة لم تُلمس من قبل، ها أنا أدعوك إلى الكلام.
فقال عليّ بك الكبير:
- كنت في الأصل من مماليك إبراهيم كخيا، فميّزني لشجاعتي فصرت أحد البكوات المعدودين، ثمّ رُقّيت شيخًا للبلد، وعند ذاك فكّرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانيّة، وتمّ لي ما أردت، وسرعان ما خفّفت المكوس وأقمت العدل ونفّذت بأمانة حكم الإسلام فنعم بالسلام والأمان أهل مصر، مسلمين ومسيحيّين ويهودًا، ومددت سلطاني حتّى شمل الجزيرة العربيّة والشام والنوبة، ولولا خيانة أبي الذهب أحد مماليكي المقرّبين لكان لمصر مصير غير المصير، ومتُّ كريمًا كما عشت كريمًا. . .
وتكلّم أخناتون فسأله:
- ألا يُعتبر استقلالك بمصر تمزيقًا لوحدة الإسلام دين الإلٰه الواحد؟
فقال عليّ بك الكبير:
- كان العثمانيّون يمارسون الظلم والفساد تحت شعار إسلام زائف، وهالني ما يلقى أهل مصر من عذاب، فلم أجد من سبيل إلى إسعادهم في ظلّ إسلام حقيقيّ إلّا بالتحرّر من ربقة العثمانيّة.
فقال تحتمس الثالث:
- وبدأت مشكورًا في استرداد بعض من إمبراطوريّتي.
وقال أمنمحعت الأوّل:
- لم تنتفع بوصيّتي التي دوّنتها عقب مؤامرة دُبّرت في قصري بيد أقرب المقرّبين لي وكدت أهلك ضحيّة لها!
فقال عليّ بك الكبير:
- الحقّ أنّي لم أسمع عنها، وقد كان لي في كتاب الله وسنّة رسوله ما يكفيني لولا أنّ الحذر لا ينجّي من القدر.
فقال أوزوريس:
- إنّك تستحقّ عندنا كرسيّ الخلود وسيسجّل ذٰلك في تزكيتنا لك.

- ٥٥ -

وهتف حورس:
- السيد عمر مكرم.
فدخل رجل دون الطويل وفوق المتوسّط ذو بنيان مستقيم، فمضى في كفنه حتّى مثل أمام العرش.
ودعاه أوزوريس للكلام فقال:
- وُلدتُ في أسيوط، وتلقّيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفوة، ثمّ تبوّأت نقابة الأشراف، ودأبت على ردع القوى دفاعًا عن الشعب المعذّب، ولـمّا جاء الفرنسيّون لغزو بلادنا دعوت الشعب للقتال وسرت في طليعته، ولٰكنّ جيوشنا انهزمت واحتلّ الفرنسيّون القاهرة، وقد اختاروني لعضويّة الديوان فرفضتها بإباء وهاجرت إلى سوريا تاركًا أموالي وأملاكي عرضة للنهب، ولـمّا غزا الفرنسيّون سوريا أعادني نابليون إلى مصر مكرّمًا ولٰكنّي اعتزلت في بيتي،

ولـمّا ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها، فلمّا أُخمدت بقسوة هاجرت من مصر ثانية ولم أعد إلّا بعد جلاء الفرنسيّين. وتزعّمت الثورة على المماليك، وعلى الوالي التركيّ، وبايعت حاكمًا جديدًا لما آنست فيه من مَيْل إلى المصريّين وجنوح إلى العدل والاستقامة، وحتّى ذٰلك الحاكم قاومته لـمّا تناسى تعهّده لنا فنفاني، وانتهت حياتي في المنفى. . .

وتكلّم أبنوم فقال:

ـ إنّك فرد من الشعب كرّس حياته للدفاع عن الشعب، دعاه للقتال لأوّل مرّة منذ ثورتي المباركة، وثار على الحاكم الأجنبيّ وولّى بقوّة الشعب حاكمًا جديدًا، خبّرني أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضًا؟

فأجاب السيّد عمر مكرم:

ـ كلّا، ولٰكنّه كان مسلمًا وبدا لي عادلًا.

ـ يا للخسارة، ولِمَ لَمْ تستولِ على الحكم؟

ـ ما كانت الدولة العثمانيّة توافق على ذٰلك. . .

ـ أقول مرّة أخرى يا للخسارة. . .

فقال أخناتون:

ـ لعلّك آثرت وحدة الإسلام دين الإله الواحد؟

فأجاب السيّد عمر مكرم:

ـ أجل، ذاك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله.

وقالت إيزيس:

ـ على أيّ حال فإنّي سعيدة بهٰذا الابن.

وقال أوزوريس:

ـ إنّك تستحقّ مكانك بين الخالدين وسيسجّل ذٰلك في تزكيتنا لك.

ـ ٥٦ ـ

ونادى حورس:

ـ محمّد عليّ باشا.

فدخل رجل مليء مستقيم البنيان قويّه وتقدّم حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت في مدينة قولة، نشأت يتيمًا، ولـمّا ترعرعت انتظمت في سلك الجنديّة، وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيّين. ولـمّا جلا الفرنسيّون عن مصر جعلت أدرس الأحوال وأفكّر في المستقبل. تكشّف لي ضعف العثمانيّين، ووحشيّة المماليك، وانتبهت إلى قوّة ثالثة لا يحسب حسابها أحد هي قوّة أهالي البلاد وزعمائهم، فقرّرت أن أوثّق علاقتي بهم لعلّهم يصلحون أساسًا أقيم عليه دولة جديدة تستعيد من الماضي أمجاده الغابرة. ونجحت في ذٰلك أيما نجاح، حتّى خلع الأهالي الوالي التركيّ وبايعوني حاكمًا محلّه. واعترف الباب العالي بالأمر الواقع فاستتبّ لي الأمر. وشرعت في العمل فلم أكفّ عنه حتّى نهاية عمري. تخلّصت من المماليك وهم الشرّ المقيم. وتلقّيت من الباب العالي أمرًا بمحاربة الوهّابيّين في الجزيرة العربيّة فانتصرت عليهم. وكوّنت جيشًا من المصريّين، وفتحت السودان، وقُتل ابني إسماعيل في الحرب فانتقمت له بقتل عشرين ألفًا من العدوّ، وأنشأت للجيش مدارس ومصانع كما أنشأت أسطولًا مستعينًا في ذٰلك كلّه بالخبراء الفرنسيّين. ولم أغفل الإصلاح فأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون وغرست الأشجار والحدائق، كما أنشأت مدارس للطبّ وبنيت المستشفيات، وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا بلد الحضارة الحديثة، ونظّمت الإدارة والأمن، ومن آثاري الكبرى القناطر الخيريّة، كما أنشأت أوّل مطبعة في الشرق وهي مطبعة بولاق. وطلب منّي الباب العالي أن أحارب عنه في المورة والشام فحقّقت انتصارات عظيمة حتّى حلّ الرعب في قلب الباب العالي نفسه فأراد أن يوقفني عند حدّي ولٰكنّي حاربته وغزوت بلاده وكدت أستولي على عاصمته لولا تدخُّل الدول الأجنبيّة التي خافت أن تتجدّد دولة الإسلام على يدي، وتآلبت عليّ الدول، واضطرّتني للخضوع للباب العالي نظير أن يجعل مصر وراثيّة في بيتي، واضطررت لتصفية الجيش وكثير من المدارس والمصانع، وساءت حال البلاد، ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلي ثمّ حياتي. . .

قال خوفو:

ـ كأنّها أسرة فرعونيّة جديدة رغم أصلها الأجنبيّ.

وقال تحتمس الثالث:

ـ لقد أعدت إمبراطوريّتي، وإنّي أشهد لقائدك بالبراعة، ولكنّك فقدتها في أثناء حياتك فهي أقصر الإمبراطوريّات عمرًا في التاريخ، وإنّي أعجب كيف قتلت عشرين ألفًا انتقامًا لابنك كأنّك لم تسمع عن سياستي الحكيمة في الأمم المغزوّة؟

فقال محمّد عليّ:

ـ لم أسمع عنها، ولم يهتمّ أحد بآثاركم قبل أن يهتمّ بها علماء الحملة الفرنسيّة ويحلّون ألغاز لغتها، غير أنّني كنت أستلهم حكمتي الخاصّة من المعاملة المباشرة للبشر. . .

فقال تحتمس الثالث:

ـ إنّي أشهد لك بالعظمة، وعلى ضوء ذٰلك أفهم غرورك، وكان بودّي أن أتسامح معك لولا النهاية السريعة الأسيفة التي آلت إليها إمبراطوريّتك، وهٰذا يعني أنّ إدراكك رغم ذكائك كان ناقصًا، لم تدرك أبعاد الموقف الدوليّ جيّدًا فتحدّيته وأنت لا تدري، وعرّضت نفسك لقوّة لا قِبَل لك بها.

ـ اعتقدت أنّ فرنسا ستقف إلى جانبي حتّى النهاية. . .

فقال له الحكيم بتاح حتب:

ـ هٰذا أيضًا لا يدفع عنك مظنّة قِصَر النّظر.

فقال محمّد عليّ:

ـ كانت ثمّة فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام من منطلق مصر الفتيّة.

فقال أخناتون:

ـ إنّي أدرك ذٰلك تمامًا وأحيّي طموحك لإحياء دولة الواحد الأحد. . .

فقال الملك خوفو:

ـ ليتك وضعت عبقريّتك وأحلامك في تقوية مصر وقنعت بذٰلك.

وقال أبنوم:

ـ لم يكن إيمانك بالشعب كاملًا ولا حبّك له بالقدر الذي يجعلك توظّف جهدك الحقيقيّ لإحيائه ودعمه، استخدمت الفلّاح في سبيل الأرض والدولة وكان الواجب أن توجّه كلّ مؤسّسة لخدمة الشعب، ولكن لا يفكّر بهٰذه الطريقة إلّا مَن كان مثلي أنا. . . ومهما يكن من أمر فلن أنسى لك فضل دفعك الفلّاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكريّة والعلم. . .

وهنا قالت إيزيس:

ـ ومن أجل ذٰلك أعتبر هٰذا الحاكم الأجنبيّ من أبنائي.

وقال أوزوريس:

ـ لو كانت هٰذه المحكمة هي صاحبة الفصل في تقرير مصيرك لوجّهت إليك نقدًا قاسيًا وتوبيخًا جارحًا ثمّ حفظت لك حقّك في مقعدك بين الخالدين، وسنرفع بشأنك تقريرًا إلى محكمتك الإسلاميّة ينوّه بأعمالك الجليلة وسيُعتبر في جملته تزكية لشخصك من مصر وآلهتها.

ـ ٥٧ ـ

ونادى حورس:

ـ أحمد عرابي.

فدخل رجل مائل للطول والامتلاء ذو رزانة ووقار، فتقدّم حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ حفظت القرآن صغيرًا بقريتي بالشرقيّة، وانتظمت في سلك الجنديّة في الرابعة عشرة، وصلت إلى رتبة قائمقام فكنت أوّل مصريّ يصل إلى هٰذه الرتبة، وكانت الرتب الكبيرة وقفًا على الشراكسة، وكان المصريّ محتقرًا في وطنه، فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربيّة الشركسيّ المتحيّز فقُبض علينا، فثار الجند الوطنيّون حتّى أُفرج عنّا، ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم فتحرّكت بالجيش إلى قصر عابدين وطالبت الخديو بإسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نوّاب فقال لي «أنا ورثت ملك هٰذه البلاد وما أنتم إلّا عبيد إحساناتنا». فقلت «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا، فوالله الذي لا إلٰه إلّا هو إنّنا سوف لا نورّث ولا نُستعبَد بعد اليوم» وقد انتصرنا على أعداء الشعب وتكوّن مجلس نيابيّ ووزارة وطنيّة، ثمّ تدخّلت الدول الأجنبيّة لمنع المصريّين من تولّي شئونهم خوفًا على مصالحها، وخان الخديو وبعض الانتهازيّين الوطن فاتّفقوا مع أعدائنا الإنجليز،

ودافعنا عن وطننا بكلّ ما نملك ولٰكنّنا انهزمنا وحوكمنا وحُكم علينا بالنفي المؤبّد ومصادرة أملاكنا.

وتكلّم الملك خوفو فقال:

ـ ولٰكنّك تحدّيت الجالس على العرش وخاطبته بما لا يخاطَب به الملوك!

فقال أوزوريس:

ـ تغيّر الزمان أيّها الملك فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة ولٰكن بالمشاركة مع الشعوب.

فقال خوفو:

ـ مشاركة الفلّاحين في الحكم تعني الفوضى.

فقال أبنوم:

ـ بل هي وثبة كبرى في مدارج الخير.

وقال أحمد عرابي:

ـ كان الخديو ورجاله من عنصر أجنبيّ.

فقال الملك مينا:

ـ لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشريّة متنوّعة اندمجت جميعها في الوطن وأخلصت للعرش.

فقال أحمد عرابي:

ـ لم أكافح إلّا العناصر التي أبت الاندماج، والدليل على ذٰلك أنّ حزبي لم يخلُ من وطنيّين من أصل شركسيّ.

فسأله أبنوم:

ـ ولِمَ لَمْ تقتل الخديو وتكوّن أسرة جديدة من أصل شعبيّ؟

كان هدفي تحرير الشعب وإشراكه في حمل المسئوليّة...

فقال أبنوم:

ـ كان قتله أفضل ولٰكنّك على أيّ حال صاحب الفضل في الدفاع عن حقّ الشعب...

وتكلّم تحتمس الثالث فقال:

ـ كان الموقف يتطلّب قيادة عسكريّة خارقة في عبقريّتها وللأسف لم يتهيّأ لك شيء من ذٰلك.

فقال أحمد عرابي:

ـ بذلت أقصى ما لديّ.

وقال رمسيس الثاني:

ـ وكان يجب أن تقاتل حتّى الموت بين جندك.

وقال أبنوم:

ـ وكان يجب أن تقضي على جميع أعدائك لتقضي على الخيانة في مهدها.

فقال أخناتون:

ـ إنّك رجل طيّب القلب فجرت عليك النهاية المقدّرة للقلوب الطيّبة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ هٰكذا ثرت من أجل حرّيّة الشعب فجررت عليه احتلالًا أجنبيًّا...

وهنا قالت إيزيس:

ـ هٰذا ابن مترع القلب بالنوايا الطيّبة، وَهَبَ شعبه ما يملك من حبّ غير محدود وقدرات محدودة، وقد تآمر الأعداء على تصفية ثورته ولٰكنّهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التي غرسها في الأرض الطيّبة.

وقال أوزوريس:

ـ إنّي أعتبرك نورًا تألّق في الظلمات التي رانت على وطنك، وقد عوقبت في حياتك بما يُعتبر تكفيرًا عن أخطائك فعسى أن تحظى بالبركات في ساحة محكمتك، ولن نقصّر عن التنويه بفضلك بما أنت أهله.

ـ ٥٨ ـ

وهتف حورس:

ـ مصطفى كامل.

فدخل شابّ ممشوق القامة عذب الملامح، ومضى عاري الرأس حافي القدمين حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ بلغت الوعي وأنا تلميذ في عصر الاحتلال البريطانيّ فكرهته وصمّمت على محاربته، وشرعت في ذٰلك وأنا تلميذ، وزارنا في المدرسة جناب الخديو عبّاس الثاني فاستقبلته بخطبة وطنيّة حماسيّة استجابت لها وطنيّته وشبابه، وتوثّقت بيني وبينه منذ ذٰلك اليوم علاقة وثيقة، فمضى يمدّني بالتشجيع والمال للتخلّص من الاحتلال، واستوت علاقتي على نفس النهج مع الخليفة والجمعيّة الإسلاميّة، أمّا قبلتي في جميع الأحوال فكانت استقلال مصر وحرّيّتها، من أجل ذٰلك تغيّر موقفي من الخديو عندما اتّفق مع الاحتلال، وكانت

حال الشعب لا تبعث على الأمل ولكنّي لم أقصّر في إيقاظ وعيه الوطنيّ بالكلمة في الصحف والخطابة، كما قمت بالدعاية لقضيّة وطني في الخارج حتّى عرفها الأحرار في أوروبا وخاصّة فرنسا، ولـمّا ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى في دنشواي استنكرت أعمالهم الوحشيّة ونددت بالأحكام التي أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء فزعزعت عرش طاغية الإنجليز في مصر حتّى اضطرّت بلاده إلى استدعائه، ثمّ أسّست الحزب الوطنيّ وهو أوّل حزب سياسيّ منظّم أنشئ في مصر، تضمّن برنامجه الجلاء والدستور في ظلّ الدولة العثمانيّة، وواظبت على الجهاد في الداخل والخارج حتّى أسلمت الروح في عزّ الشباب...

وتكلّم بساماتيك الثالث فسأله:

ـ ألم يقتلك الإنجليز؟

ـ كلّا.

ـ هٰذا عجيب، لقد عاصرت الاحتلال الفارسيّ مثلما عاصرت الاحتلال الإنجليزيّ، ومثلك حاولت إيقاظ الوعي الوطنيّ ولـمّا علم قمبيز بأمري قتلني دون تردّد، فكيف تركك الإنجليز دون عقاب؟!

فقال مصطفى كامل:

ـ كان الاحتلال قد تمكّن من دعم سيطرته الكاملة على البلاد فلم يرَ بأسًا من منح معارضيه شيئًا من الحرّيّة، استهانة بهم في الواقع، وتظاهرًا أمام العالم باحترام القِيَم...

ـ ألم تتعرّض لأذى ملموس؟

ـ أضمر لي الكراهية وحرّض أصدقاءه على مهاجمتي.

ـ زمانك وفّر لك من الأمان ما لم يوفّر لي بعضه، والحقّ أنّي لم أعرف مجاهدًا سعيد الحظّ مثلك، حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعيّة الإسلاميّة، وهاجمت عدوّك في الداخل والخارج دون عقاب، واكتسبت مجدًا وشهرة دون أن تدفع ثمنًا، لم تُقتل كما قُتلت أنا، ولم تُنفَ كما نُفي أحمد عرابي...

فقال مصطفى كامل:

ـ أحمد عرابي خائن جرّ على بلاده الاحتلال...

فقال له أبنوم:

ـ كيف تتّهم الرجل بالخيانة وهو ما ثار ونُفي إلّا دفاعًا عن شعبك! وما كان الخائن إلّا والد صديقك ومؤيّدك ومعينك، وقد خان وطنه بشهادتك كما خان أبوه من قبل.

فقال مصطفى كامل بإصرار:

ـ إنّي أعتبره المسئول الأوّل عن الاحتلال...

فقال أبنوم:

ـ إنّك شابّ وطنيّ متحمّس صادق النيّة سعيد الحظّ، عشت حياتك في جوّ معبق بأبّهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسيّة، لم تشمّ رائحة العرق الكادح ولم تكابد آلام الجهاد الحقيقيّة ولم تتورّع عن النيل من الثائر الحقيقيّ...

وهنا قالت إيزيس:

ـ إنّه الابن الذي أيقظت حماسته الوجدان الوطنيّ بعد أن كاد الاحتلال يُخمد أنفاسه.

وقال أوزوريس:

ـ لم يكن بوسعك أن تفعل خيرًا ممّا فعلت ولن يُنسى فضل كلماتك، فاذهب إلى محكمتك مصحوبًا بدعواتنا القلبيّة.

ـ ٥٩ ـ

وهتف حورس:

ـ محمّد فريد.

فدخل رجل ربعة ريّان الوجه وتقدّم عاري الرأس حافي القدمين حتّى وقف أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ انحدرت من أسرة عريقة في الأرستقراطيّة، وشاركت مصطفى كامل في موقفه الوطنيّ منذ بدايته، وبسبب ذٰلك استقلت من الحكومة متفرّغًا للقضيّة الوطنيّة قبل كلّ شيء، وتوثّقت العلاقة بيني وبين مصطفى فرشّحني لخلافته في رياسة الحزب، وقد سرْت على نهجه في الوطنيّة والخطابة والكتابة حتّى قُبض عليّ وزُجّ بي في السجن، وفي السجن ساوموني كي أخفّف من عنف موقفي لقاء العفو فرفضت أيّ مساومة وخرجت من السجن أصلب عودًا وأشدّ

مراسًا، وقمت برحلات في البلاد داعيًا للوطنيّة، فدُبِّرت مؤامرات لإدخالي السجن مع قادة الحزب الكبار فقرّ قرارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد في الخارج، وأحكمنا التدبير للهرب في الوقت المناسب ونجحنا في ذلك، وبقدر ما أنجزنا من أعمال في الخارج بقدر ما تعرّض الحزب في الداخل إلى الضعف والتفكّك، وكابدنا المرّ من الحنين إلى مصر والأهل وتخلّي الكثيرين عنّا، وقامت في مصر ثورة ١٩١٩، ثورة غير متوقّعة، لم تجرِ لي في بال، قامت وأنا في منفى منسيّ وآخرون يتربّعون على كراسيّ الزعامة. وقد أظهرنا رضانا على رجالها مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم، وهنّأنا الأمّة على ثورتها، وحيّينا ذكرى شهدائها ودعوناها إلى الصمود حتّى النهاية، وانتهت حياتنا في المنفى.

وتكلّم بساماتيك الثالث فقال:

ـ زعامة مقنعة بما تعرّضت له من اضطهاد.

وقال الحكيم بتاح حتب:

ـ كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير كسائر رجال طبقتك الثريّة ولكنّك طرحت ذلك كلّه واخترت النضال والعذاب في سبيل مصر، إنّك رجل عظيم...

أمّا أبنوم فقال:

ـ خبّرني كيف يترك زعيم أمّته في محنة ليجاهد في الخارج؟

فقال محمّد فريد:

ـ دبّروا للزجّ بنا في السجن.

فقال أبنوم:

ـ ولكنّ الزعيم الحقّ يعلم أنّه خُلق للسجن أو القتل لا للجهاد في الخارج...

ـ كان الجهاد في الخارج ضمن خطّتنا الوطنيّة منذ أيّام مصطفى كامل...

فقال أبنوم:

ـ قد يُقبل كعمل إضافيّ لاستكمال العمل الأصليّ في الداخل، أمّا أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقيّة فهو تصرّف بعيد عن الشجاعة والحكمة معًا، المسألة أنّكم من الأعيان الذين قضيتُ عليهم في ثورتي بلا رأفة، إنّكم تحبّون الزعامة ما ضمنتْ لكم الجاه والاحترام، ولكن لا قِبَل لكم بالكفاح الصادق وما يسوق إليه من سجن أو تعذيب أو موت، لذلك تخلّيت عن الأمانة في اللحظة الحرجة مؤثرًا الجهاد الآمن في الخارج، وأصبحت بذلك المسئول عمّا حاق بالحركة الوطنيّة من ضعف وتفكّك، لذلك أيضًا لا أعجب لدهشتك لاشتعال ثورة عامّة في الشعب، وأدهش في الوقت نفسه لشعورك المتعالي بالظلم لاختيارها زعيمًا غيرك، كأنّ الزعامة ميراث يُتداول في طبقتك كالأرض والمال حتّى بعد الهرب من ميدانها.

فقال محمّد فريد:

ـ إنّك تردّد ما قاله أعداؤنا!

ـ لا أنكر وطنيّتك، ولكنّك أحببت مصر على حين انطويت في صميمك على احتقار للمصريّين ولم يفارقك الشعور بالانتماء إلى أصل أسمى، ولم يكن مفرّ من أن تنقلب حياتك إلى مأساة لأنّه لا يمكن أن يتبوّأ زعامة شعب إلّا رجل من الشعب، يتميّز بالعظمة الإنسانيّة لا العظمة الأرستقراطيّة...

وهنا قالت إيزيس:

ـ أمّا أنا فأعتبره من خيرة أبنائي خلقًا وإخلاصًا ووطنيّة، ولم يكن في وسعه أن يفعل خيرًا ممّا فعل مع مراعاة ظروف مولده ونشأته.

وقال أوزوريس:

ـ لك منّا تزكية يسندها الحبّ والاحترام فاذهب بسلام إلى محكمتك مع أصدق تمنّيات التوفيق.

ـ ٦٠ ـ

ونادى حورس:

ـ سعد زغلول.

فدخل رجل طويل القامة، مهيب الطلعة، قويّ القسمات، جذّاب الملامح، وتقدّم في سيره حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ ولدت في أبيانه، درست في الأزهر، تتلمذت على جمال الدين الأفغانيّ، عملت محرّرًا بالوقائع

المصريّة تحت رياسة وأستاذيّة محمّد عبده، انضممت إلى العرابيّين في ثورتهم، وفي أوّل عهد الاحتلال البريطانيّ اعتُقلت كعضو في جمعيّة الانتقام وفُصلت من وظيفتي، وعملت في المحاماة، فالقضاء، اختُرت وزيرًا للمعارف ثمّ وزيرًا للعدل، وعقب انتهاء الحرب العظمى الأولى وإعلان الهدنة تولّيت زعامة الحركة الوطنيّة، وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنيّة بين المسلمين والمسيحيّين، وناديت بحقّ مصر في الحرّيّة والاستقلال، فقبضت عليّ السلطات البريطانيّة ونفتني إلى جزيرة مالطة، وما إن ذاع الخبر حتّى قامت الثورة الشعبيّة احتجاجًا على نفيي ومطالبة بالاستقلال، ممّا اضطرّ إنجلترا إلى الإفراج عنّي، وسافرت مع أعضاء الوفد إلى باريس لعرض قضيّتنا على مؤتمر الصلح فأغلق أبوابه في وجوهنا، ودخلنا في مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة، وحدث انقسام في الوفد، ورجعت إلى مصر، ثمّ نُفيت مرّة أخرى إلى جزر سيشل في المحيط الهنديّ ولم يفرّج عنّي إلّا سنة ١٩٢٣، وتولّيت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبيّة، ودخلت في المفاوضات التي سرعان ما فشلت، واضطررت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار الإنجليز، ثمّ ائتلفتِ الأحزاب أمام دكتاتوريّة الملك، وتولّيت رياسة مجلس النوّاب، تاركًا رياسة الوزارة للدستوريّين، ودارت المفاوضات من جديد ولٰكنّي غادرت الدنيا قبل أن أعرف نتائجها. . .

وتكلّم أبنوم فقال:

ـ لقد قمت أنا بأوّل ثورة شعبيّة في نهاية الدولة القديمة وقمتَ أنت بالثورة الشعبيّة الثانية بعد آلاف السنين فأنت أخي وخليفتي وحبيبي.

فقال الملك خوفو:

ـ ثمّة فرق بين الثورتين يجب أن يُذكر وهو أنّ ثورة أبنوم كانت ثورة العامّة على الصفوة أمّا ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كلّه فقراء وأغنياء على الاحتلال الأجنبيّ. . .

فقال أبنوم:

ـ أعتقد أنّ الأغنياء لا يحبّون الثورة.

فقال سعد زغلول:

ـ حرصت من أوّل الأمر على الاتّحاد كقوّة لا غنى عنها أمام العدوّ، ولٰكن ثبت لي أنّ الأغنياء يكرهون الثورة أكثر ممّا يكرهون الاحتلال.

فقال أبنوم:

ـ كان يجب أن تتخلّص منهم.

فقال سعد زغلول:

ـ لقد انشقّوا عليّ راسمينَ لأنفسهم طريقًا إلى الاستقلال يناسب رؤيتهم.

وقال الملك مينا:

ـ لقد وحّدت المصريّين كما وحّدتُ أنا مملكتهم فأنت في ذٰلك صديقي وخليفتي. . .

وسأله أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ رغم ما ثبت لك من زعامة بعد الثورة فإنّك قبلت العمل في ظلّ الاحتلال قبل الثورة ولم تنضمّ للحزب الوطنيّ، ما تفسير ذٰلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كان الحزب الوطنيّ يدعو إلى مبادئ خياليّة، من ذٰلك أنّه لا مفاوضة إلّا بعد الجلاء ممّا يعني بقاء الاحتلال إلى الأبد، ومنه مقاطعة الوظائف العامّة لهيمنة الإنجليز عليها، ولا يكفي في نظري أن تطالب الناس بسلوك معيّن ولٰكن يجب أن يكون هٰذا السلوك ممكنًا دون تهاون أو إجحاف، وأن يصلح للتطبيق العامّ، وقد استطاع مصطفى كامل مقاطعة الوظائف بما كان يمدّه الخديو وغيره به من مال، واستطاع محمّد فريد ذٰلك لثرائه الواسع، ولٰكن ماذا يصنع أتباع الحزب؟. . . إنِ اتّبعوا مَثَل زعامتهم هلكوا وإن خالفوها مضطرّين خانوا العهد، فكيف يدعو أناس إلى ذٰلك المبدأ المتعالي الذي يعزّ على التطبيق ويورث الشعور بالإثم؟. . . ثمّ كيف نترك الوظائف العامّة للأجانب؟ وقد قبلت الحياة الرسميّة لأمارس من خلالها ما استطعته من مقاومة ومن أداء خدمات لوطني كان في أشدّ الحاجة إليها، وقد اعترف بذٰلك خصومي قبل أصدقائي. . .

فقال أوزوريس مخاطبًا الجميع:

ـ أعمال هٰذا الزعيم مدوّنة في الكتاب لمن يريد أن يطّلع عليها ولٰكنّا في هٰذه المحكمة لا نناقش إلّا

الأعمال الفاصلة.

ثمّ خاطب سعد قائلًا:

ـ زعم خصومك أنّ الثورة قامت وأنت في المنفى وأنّك لم تفعل شيئًا لإشعالها بل أنّك دُهشت لقيامها كحدث غير متوقّع فما قولك في ذٰلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كانت حال البلاد تدعو لليأس، وأعترف بأنّني دُهشت لقيام الثورة كما دُهش الزعيم السابق لي وهو محمّد فريد ولٰكنّي لم أقصّر في تهيئة الجوّ لها بالخطابة لدى كلّ مناسبة والاجتماع بالناس في بيتي وفي دعوة الناس في الريف والمدن لتأييدي في موقفي ممّا عبّأ الشعور القوميّ، والثورة قامت احتجاجًا على نفيي فكان شخصي في الواقع هو مُشعِلها المباشر.

فقال أبنوم:

ـ الموقف الخطير يتطلّب عادة سلوكًا معيّنًا والزعيم القادر هو مَن يستطيع أن يكون القدوة لهٰذا السلوك، وقد كان الموقف يحتاج إلى التضحية، فهي أقصى ما يستطيع شعب أعزل أن يقدّمه حيال قوّة قاهرة، ولـمّا تحدّى سعد العدوّ واضطرّه إلى نفيه أعطى هٰذه القدوة المطلوبة ففعل الشعب مثله وقامت الثورة، وممّا يشهد لسعد بالعظمة أنّه أقبل على التضحية وهو يائس من ثورة تحميه أو تدافع عنه فكانت تضحيته كاملة شجاعة نبيلة لا أمل لها في أيّ نوع من النجاة، ولو كان يأمل في ثورة لقلّل ذٰلك درجة من ضخامة تضحيته...

فقال أوزوريس:

ـ وقيل أيضًا إنّ تعصّبك لزعامتك هو ما اضطرّ العقلاء من معاونيك على الانشقاق عليك، فما قولك في ذٰلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ المسألة أنّني اندمجت في الثورة وآمنت بها ووجدت فيها ضالّتي التي كنت أبحث عنها طوال حياتي، أمّا العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة، كانوا ذوي مال وخبرة وحنكة ولٰكنّ وطنيّتهم لم تكن خالصة كما كان إيمانهم بالشعب معدومًا...

فقال أوزوريس:

ـ وقال بعض أعوانك إنّه كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رياسة الوزارة؟

فقال سعد زغلول:

ـ كانت وزارتي امتدادًا للثورة على المستوى الرسميّ...

فقال أبنوم:

ـ كنت أفضّل أن تأخذ برأي أولٰئك الأعوان!

وهنا قالت إيزيس:

ـ لتبارك الآلهة هٰذا الابن العظيم البارّ الذي برهن على أنّ شعب مصر قوّة لا تُقهر ولا تموت.

وقال أوزوريس:

ـ إنّك أوّل مصريّ يتولّى الحكم منذ العهد الفرعونيّ، وتولّيته بإرادة الشعب، من أجل ذٰلك أهبك حقّ الجلوس بين الخالدين من أجدادك حتّى تنتهي المحاكمة، ثمّ تمضي بسلام إلى محكمتك مصحوبًا بتزكيتنا وصادق أمانينا.

واتّخذ سعد زغلول مجلسه بين الخالدين في قاعة العدل المقدّسة.

- ٦١ -

وهتف حورس:

ـ مصطفى النحّاس.

فدخل رجل قويّ الجسم والوجه مائل للطول، تقدّم في سيره حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

ـ وُلدت في سمنود في أسرة من أبناء الشعب الفقراء، وبفضل اجتهادي أتممت تعليمي، ولتفوّقي عُيّنت في القضاء فعُرفت بالعدل والنزاهة، وكنت من أنصار الحزب الوطنيّ الذي زاملت رئيسه طالبًا بالمدرسة الخديويّة، وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول اختارني عضوًا فيه، ونُفيت معه إلى سيشل عام ١٩٢١، واشتركت في وزارته الشعبيّة الثوريّة، وعقب وفاته انتُخبت رئيسًا للوفد، وحملت عبء الجهاد في سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطيّة ربع قرن من الزمان، وقد تولّيت الوزارة سبع مرّات وأُقلت منها ستّ مرّات لخلافات مع الإنجليز أو الملك، وفي ١٩٣٦ وتحت ضغط التهديد بحرب عالميّة قبلت

الائتلاف مع الأحزاب وعقدنا معاهدة مع الإنجليز اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلاء بعد عشرين عامًا، وقامت الحرب العالميّة في فترة حكم استبداديّ ملكيّ، واتُّهم الملك بالاتّصال بأعداء الإنجليز فنشبت أزمة سياسيّة خطيرة وفكّر الإنجليز في خلع الملك، وتقدّمتُ لإنقاذ البلاد والعرش وألّفت وزارة في ظروف عسيرة، ولمّا انتهت الحرب بانتصار الإنجليز شرعت في المطالبة بالجلاء الفوريّ ولكنّ الملك أقالني، ورجع الملك إلى استبداده وسارت الأمور من سيّئ إلى أسوأ حتّى اضطرّ إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠ فرجعت إلى الوزارة، وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء، ولمّا لم أجد منهم استجابة ألغيت المعاهدة وأعلنت الجلاء فتآمر عليّ أعدائي في الداخل والخارج واستطاع الملك أن يتخلّص منّي. وقامت ثورة يوليو واضطررت إلى اعتزال السياسة حتّى وافاني الأجَل.

فقال أوزوريس:

ـ يهمّ الحاضرين أن يعرفوا بعض الإنجازات التي قدّمتها في أثناء تولّيكم الوزارة؟

فقال مصطفى النحّاس:

ـ بالرغم من أنّ الشعب لم يحكم إلّا ثمانية أعوام نظير تسعة عشر عامًا استبدّ فيها الملك وأحزاب الأقلّيّة بالسلطة، وبالرغم ممّا تعرّضتُ له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكرّرة لاغتيال حياتي فقد وفّقني الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة، منها على سبيل المثال، إلغاء الامتيازات الأجنبيّة، إلغاء صندوق الدين، تأسيس جامعة الدول العربيّة، استقلال القضاء، استقلال الجامعة، قانون التوظّف، منع الأجانب من تملّك الأراضي الزراعيّة، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الإجباريّ ضدّها، الاعتراف بنقابات العمّال، فرض استعمال اللغة العربيّة في الشركات الأجنبيّة، الضمان الاجتماعيّ، ديوان المحاسبة، مجّانيّة التعليم الابتدائيّ والثانويّ والمتوسّط، ديوان المحاسبة.

وقال أبنوم:

ـ مرحبًا بالثائر الشعبيّ الثالث في حياة شعبنا، وقد استمدّ قوّته من إيمانه بشعبه وإلهه، واتّسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة، وقد عاش فقيرًا ومات فقيرًا...

وقال الملك أخناتون:

ـ تقبّلْ حبّي أيّها الزعيم، إنّك مثلي تفانيًا في الإيمان بالإله الواحد، والإخلاص للمبادئ الطاهرة، ومثلي أيضًا في حبّ البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون حاجز من التعالي أو الكبرياء، ومثلي تعرّضت لعداوة الأوغاد وعبّاد السلطة وأسرى الأنانيّة حيًّا وميتًا، ومثلي أخيرًا فيما حظيت به من نشوة النصر وما ابتليت به من الجحود والهزيمة، ولكن أبْشِرْ فالنصر في النهاية لنا...

وهنا قالت إيزيس:

ـ وهذا ابن أصيل من أبنائي البررة.

فقال أوزوريس:

ـ إنّي أهبك حقّ الجلوس مع الخالدين حتّى نهاية المحاكمة، ثمّ تمضي إلى محكمتك مشفوعًا بأكرم تزكية.

ـ ٦٢ ـ

وهتف حورس:

ـ جمال عبد الناصر.

فدخل رجل طويل القامة، واضح الملامح، عظيم الشخصيّة، ومضى في سيره حتّى وقف أمام العرش.

ودعاه أوزوريس إلى الكلام فقال:

ـ أنتمي إلى قرية بني مرّ من أعمال أسيوط، ونشأت في أسرة فقيرة من أبناء الشعب فكابدت مرارة العيش وشظفه، وتخرّجت في الكلّيّة الحربيّة عام ١٩٣٨، واشتركت في حرب فلسطين، وحوصرت مع مَن حوصِرَ في الفالوجا، وقد هالتني الهزيمة، وهالتني أكثر جذورها الممتدّة في أعماق الوطن، فخطر لي أن أنقل المعركة إلى الداخل حيث يكمن أعداء البلاد الحقيقيّون، وأنشأت في حذر وسرّيّة تنظيم الضبّاط الأحرار، ورصدت الأحداث انتظارًا للّحظة المناسبة للانقضاض على النظام القائم، وقد حقّقت هدفي في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ثمّ تتابعت إنجازات الثورة مثل إلغاء النظام الملكيّ، واستكمال استقلال البلاد بالجلاء التامّ، والقضاء على الإقطاع بإصدار قانون الإصلاح

الزراعيّ، وتمصير الاقتصاد، والتخطيط لإصلاح شامل في الزراعة والصناعة يستهدف خير الشعب وتذويب الفروق الطبقيّة، وبنينا السدّ العالي وأنشأنا القطاع العامّ متّجهين نحو طريق الاشتراكيّة، وكوّنّا جيشًا حديثًا قويًّا، ونشرنا الدعوة للوحدة العربيّة، وساندْنا كلَّ ثورة عربيّة أو أفريقيّة، وأمّمنا قناة السويس فكنّا منارة وقدوة للعالم الثالث كلّه في نضاله ضدّ الاستعمار الخارجيّ والاستغلال الداخليّ، وحظي الشعب الكادح في عهدي بعزّة وقوّة لم يعرفهما من قبل، ولأوّل مرّة يشقّ طريقه إلى المجالس التشريعيّة والجامعات ويشعر بأنّ الأرض أرضه والوطن وطنه، وقد تربّصتْ بي قوى الاستعمار حتّى أنزلت بي هزيمة منكرة في ٥ يونيه ١٩٦٧ فزلزلت العمل العظيم من جذوره وقضت عليّ بما يشبه الموت قبل موافاة الأجَل بثلاثة أعوام، وقد عشت مصريًّا عربيًّا مخلصًا ومتُّ مصريًّا عربيًّا شهيدًا.

وتكلّم الملك رمسيس الثاني فقال:

ـ دعني أعرب لك عن عظيم حبّي وإعجابي، وما حبّي لك إلّا امتداد لحبّي لذاتي فما أكثر أوجه الشبه التي تجمع بيننا، كلانا يشعّ عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده، وكلانا جعل من هزيمته نصرًا فاق كلّ نصر، وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة فأغار على أعمال الآخرين ممّن سبقوه، وقد ساندني الحظّ بأن تولّيت عرش مصر وهي سيّدة الأمم أمّا أنت فحكمتها وهي أمّة صغيرة وسط عمالقة، وقد وهبتْني الآلهة طولًا في العمر وقوّة في الروح والجسد وضنّت عليك إلّا بالقليل فعاجلك الأجَل قبل الأوان. . .

وتكلّم الملك مينا فقال:

ـ ولٰكنّ اهتمامك بالوحدة العربيّة فاق اهتمامك بالوحدة المصريّة فحتّى اسم مصر الخالد شطبته بجرّة قلم، واضطررتَ العديد من أبناء مصر إلى الهجرة التي لم يمارسوها إلّا في فترات قهر عابرة!

فقال جمال عبد الناصر:

ـ ليس الذنب ذنبي إذا توهّم بعض المصريّين أنّ الوحدة العربيّة تعني الضياع لهم، وليس الذنب ذنبي إذا تحقّقت أعمال مجيدة على يدي بعد أن عجز السابقون عن تحقيقها، فالحقّ أنّ تاريخ مصر الحقيقيّ بدأ مع ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وسرت همهمة بين الجالسين مضت تشتدّ حتّى هتف أوزوريس:

ـ النظام والهدوء أيّها السادة، أفسحوا صدوركم لأيّ قول يقال. . .

فقال أبنوم:

ـ اسمحْ لي أن أحيّيك بوصفي أوّل ثائر من فقراء مصر، وإنّي لأشهد لك بأنّ الفقراء لم ينعموا بالأمان والأمل في عهد ـ بعد عهدي ـ كما نعموا في عهدكم. ولا مأخذ لي عليك إلّا إصرارك على أن تكون ثورتك بيضاء على حين كان يجب أن تجري الدماء فيها أنهارًا!

فتساءل الملك خوفو محتجًّا:

ـ ماذا يقول هٰذا السفّاح؟!

فقال أوزوريس بحدّة:

ـ تذكّر أنّك لست على عرشك، اعتذِرْ.

فقال خوفو بخشوع:

ـ معذرة.

وقال الملك تحتمس الثالث:

ـ على الرغم من نشأتك العسكريّة فقد أثبتَّ قدرة فائقة في كثير من المجالات إلّا العسكريّة، بل إنّك لم تكن قائدًا ذا شأن بأيّ حال من الأحوال!

فقال جمال عبد الناصر:

ـ تعذّر عليّ النصر على جيش متفوّق في التسليح ومؤيَّد بأقوى دولة على سطح الأرض!

فقال أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ كان واجبك أن تتجنّب الحرب وأن تكفّ عن استفزاز الدول الكبرى. . .

فقال جمال عبد الناصر:

ـ كان ذٰلك يتناقض مع أهدافي وقد خُدعت أكثر من مرّة.

فقال الحكيم بتاح حتب:

ـ إنّه عذر أقبح من الذنب.

وقال سعد زغلول:

ـ لقد حاولت أن تمحو اسمي من الوجود كما محوت اسم مصر، وقلت عنّي إنّني اعتليت الموجة

الثوريّة عام ١٩١٩، فدعني أحدّثك عن معنى الزعامة، الزعامة هبة ربّانيّة وغريزة شعبيّة، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظّ أعمى، والزعيم المصريّ هو الذي يبايعه المصريّون على اختلاف أديانهم وإلّا لم يكن زعيمًا مصريًّا أبدًا، وإن جاز أن يكون زعيمًا عربيًّا أو إسلاميًّا، بيد أنّني رغم ذلك لم أضمر لك الرفض، واعتبرت تجنّيك عليّ نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدّمت من خدمات جليلة، لقد قامت الثورة العرابيّة فناضلتْ نضالًا كريمًا وأحبطتْ إحباطًا أليمًا، وقامت ثورة ١٩١٩ فحقّقتْ من المآثر ما شهد به التاريخ ولكن تكاثر أعداؤها حتّى اجتاحها حريق القاهرة، ثمّ جاءت ثورتك فتخلّصتْ من الأعداء وأتمّت رسالة الثورتين السابقتين، وبالرغم من أنّها بدأت كانقلاب عسكريّ إلّا أنّ الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها وأن تقيم حكمًا ديمقراطيًّا رشيدًا، ولكنّ اندفاعك المضلّل في الطريق الاستبداديّ هو المسئول عن جميع ما حلّ بحكمك من سلبيّات ونكبات...

فقال جمال عبد الناصر:

ـ كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثوريّة...

فقال مصطفى النحّاس:

ـ حجّة دكتاتوريّة واهية طالما سمعناها من أعداء الأمّة، كان بين يديك قاعدة وفديّة شعبيّة انهلْتَ عليها بدبّاباتك، وعجزت عن إقامة بديل عنها فظلّت البلاد تعاني الفراغ، ومددت يدك إلى المنبوذين من الأمّة فوقعت في تناقض مؤسف بين عمل إصلاحيّ يُعتبر في روحه امتدادًا لروح الوفد وأسلوب حكم يُعتبر امتدادًا لحكم الملك والأقلّيّات، حتّى قضى أسلوب الحكم على جميع النوايا الطيّبة!

فقال جمال عبد الناصر:

ـ الديمقراطيّة الحقيقيّة كانت تعني عندي تحرير المصريّ من الاستعمار والاستغلال والفقر...

فقال مصطفى النحّاس:

ـ وأغفلت الحرّيّة وحقوق الإنسان، ولا أنكر أنّك كنت أمانًا للفقراء ولكنّك كنت وبالًا على أهل الرأي والمثقّفين وهم طليعة أبناء الأمّة، انهلْتَ عليهم اعتقالًا وسَجْنًا وشنقًا وقتلًا حتّى أذللت كرامتهم وأهنت إنسانيّتهم ومحقت إيجابيّتهم وخرّبت بناء شخصيّاتهم والله وحده يعلم متى يُعاد بناؤها، أولئك الذين جعلتْ منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع في شتّى المناشط السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، بل أفسد الاستبداد عليك أجمل قراراتك، انظر كيف فسد التعليم، وتفسّخ القطاع العامّ، وكيف قادك التحدّي للقوى العالميّة إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة، لم تَفِدْ من الرأي الآخر ولم تتّعظ بتجربة محمّد عليّ، وماذا كانت النتيجة؟... دويّ وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تلّ من الخرائب...

فقال جمال عبد الناصر:

ـ لقد نقلت وطني من حال إلى حال كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها، وسوف تعالَج السلبيّات حتّى تزول وينساها الزمن ويبقى ما ينفع الناس، وعند ذاك يقرّ الناس بعظمتي الحقيقيّة...

فقال مصطفى النحّاس:

ـ ليتك تواضعت في طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدّم له في شتّى مجالات الحضارة، إنّ تنمية القرية المصريّة أهمّ من تبنّي ثورات العالم، إنّ تشجيع البحث العلميّ أهمّ من حملة اليمن، ومكافحة الأمّيّة أهمّ من مكافحة الإمبرياليّة العالميّة، واأسفاه لقد ضيّعت على الوطن فرصة لم تتح له من قبل، فلأوّل مرّة يحكم ابن وطنيّ من أبناء البلاد دون مناوئ من مَلِك أو مستعمِر، ولكنّه بدلًا من مداواة ابن وطنه المريض دفع به إلى مباراة البطولة العالميّة وهو ينوء بأمراضه فكانت النتيجة أن خسر البطولة وخسر نفسه...

وهنا قالت إيزيس:

ـ إنّ فرحتي برجوع العرش إلى أحد أبنائي لا تقدَّر، وإنّ أعماله الجليلة لتحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجيلها، أمّا الأخطاء فلا أدري كيف أدافع عنها...

فقال أوزوريس:

ـ لو كانت محكمتنا هي صاحبة الكلمة الأخيرة في

الحكم عليك لاقتضانا العدل تأمّلًا وعناء طويلين، فقليلون مَن قدّموا لبلادهم مثلما قدّمت من خدمات، وقليلون مَن أنزلوا بها مثلما أنزلت من إساءات، ولُكن بالنسبة لأنّك أوّل من يجلس على عرشها من أبنائها، وأوّل من يخصّ الكادحين برعايته فإنّنا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة، وستذهب بعد ذُلك إلى محكمتك مؤيّدًا بتزكية مناسبة.

- ٦٣ -

ونادى حورس:

- محمّد أنور السادات.

فدخل رجل متوسّط القامة رشيق القدّ عميق السمرة، مضى في سيره حتّى مثل أمام العرش.

ودعاه أوزوريس للكلام فقال:

- ولدت في قرية ميت أبو الكوم، ونشأت في أسرة فقيرة، ووجدت عناء لا يُستهان به كي أستمرّ في الدراسة، وقد تشبّعت بروح الوطنيّة منذ صغري، وشاركت في المظاهرات الوفديّة، ثمّ أمكنني الالتحاق بالكلّيّة الحربيّة التي فتحت أبوابها لأمثالي من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦، ومنذ تخرُّجي هالني وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكريّة الإنجليزيّة، وخامرتني أفكار للدعوة لثورة مسلّحة ضدّ الإنجليز فأنشأت أوّل تنظيم سرّيّ في الجيش عام ١٩٣٩، وقد اتّصلت بالإخوان المسلمين وأعجبت بنشاطهم، كما حاولت أثناء الحرب الاتّصال بالألمان، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريّين، وقد قُبض عليّ نتيجة لذُلك، وحوكمت، ولُكنّي نلت البراءة، بل ورجعت إلى خدمة الجيش، وفي ذُلك الوقت اتّصل بي جمال عبد الناصر وضمّني إلى تنظيمه، وقامت الثورة في يوليو ١٩٥٢، وتتابعت الأحداث حتّى وافى الأَجَل جمال عبد الناصر فخلفته في منصبه في ظرف بالغ الدقّة، وكنت على علم بالسلبيّات التي نخرت في عظام عهد عبد الناصر فتوثّبت لإحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذي تتردّى فيه، قضيت على مراكز القوى، واتّجهت على مهل نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطيّة، وفي ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت العدوّ المحتلّ، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقّعه أحد، وحقّقت انتصارًا أنقذ الروح العربيّة من القنوط كما انتشل الشرف من الهوان، ثمّ تسنّمت بمغامرة أخرى باقتحامي بلد الأعداء داعيًا إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح، وانتهى سعيي الطويل إلى معاهدة كامب دافيد، وناديت بالانفتاح لإنقاذ الاقتصاد الوطنيّ، وتقدّمت في الديمقراطيّة خطوات جديدة، ولُكن اعترضتني عقبات غيّرتْ من حساباتي، فقد انحرفتِ المعارضةُ، وهبّ التيّار الدينيّ يهدّد البلاد بالعنف، فوقفت من الجميع موقفًا حازمًا لا مفرّ منه، ولُكنّ الأمور انتهت باغتيالي في ذكرى اليوم الذي حقّقت فيه لوطني عزّة النصر.

وتكلّم الملك أخناتون فقال:

- أحيّيك كداعية من دعاة السلام، ولا أدهش لاتّهام خصومك لك بالخيانة فقد تلقّيت منهم نفس التهمة لذات السبب.

فقال تحتمس الثالث:

- يذكّرني انتصارك بانتصار رمسيس الثاني الذي كُلّل بمعاهدة سلام والزواج من ابنة ملك الحثّيّين!

فقال رمسيس الثاني:

- الحاكم مسئول أوّلًا عن حياة شعبه، ومن هٰذا المنطلق يقوم على الحرب أو يجنح إلى السلام.

فقال أنور السادات:

- وقد آمنت بصدق بعقم الاستمرار في الحرب.

وقال الملك أمنحتب الثالث:

- ما أشبهك بي أيّها الرئيس في حبّ الرفاهية لشعبك ولنفسك، كلانا عشق الأبّهة والنعيم والعظمة والقصور، غير أنّ زماني سمح لي بأن أنهل من النعيم بلا كدر أمّا زمانك فأذاقك الحلو والمرّ، دعني أعرب لك عن حبّي وعطفي.

وقال الملك حور محب:

- تولّيت الحكم في ظروف تشبه في بعض مناحيها الظروف التي تحدّتني أوّل حكمي عقب وفاة الملك العجوز آي، وأعترف بأنّك قمت بأعمال جليلة، ووجّهت ضربات صادقة، ولُكنّك تهاونت في معاقبة الفساد والمفسدين حتّى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك

إلى هزائم.

فقال أنور السادات:

ـ شُغلت بتشجيع العاملين عن الضرب على أيدي المفسدين.

فقال حور محب:

ـ لا قيام لدولة إلّا على الانضباط والأخلاق.

وسأله جمال عبد الناصر:

ـ كيف هان عليك أن تقف من ذكراي ذاك الموقف الغادر؟

فقال أنور السادات:

ـ اتّخذت ذلك الموقف مضطرًّا إذ قامت سياستي في جوهرها على تصحيح الأخطاء التي ورثتها عن عهدك.

ـ ولٰكنّي عهدتك راضيًا ومشجّعًا وصديقًا؟

ـ من الظلم أن يحاسَب إنسان على موقف اتّخذه في زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!

ـ وما النصر الذي أحرزتَه إلّا ثمرة استعدادي الطويل له!

فقال أنور السادات:

ـ ما كان لمنهزم مثلك أن يحقّق انتصارًا، ولٰكنّي أرجعت للشعب حرّيّته وكرامته ثمّ قدته إلى نصر أكيد.

ـ ثمّ نزلت عن كلّ شيء في سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة...

فقال أنور السادات:

ـ لقد ورثت عنك وطنًا يترنّح على هاوية الفناء، ولم يمدَّ لي العرب يد عوْن صادقة، ووضح لي أنّهم لا يرغبون في موتنا كما لا يرغبون في قوّتنا كي نظلّ راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردّد في اتّخاذ قراري...

ـ واستبدلت بعملاق طالما ساندَنا عملاقًا طالما ناصبَنا العداء.

ـ اتّجهتُ إلى العملاق الذي بيده الحلّ، وصدقت الحوادث ظنوني!

ـ واندلقت في الانفتاح حتّى أغرقت البلاد في موجة غلاء وفساد، وبقدر ما كان عهدي أمانًا للفقراء كان عهدك أمانًا للأغنياء واللصوص.

فقال أنور السادات:

ـ لقد عملت لخير مصر فوثب الانتهازيّون من وراء ظهري!

وتكلّم مصطفى النحّاس فقال:

ـ حاولت اغتيالي وكدت تنجح لولا العناية الإلٰهية، ثمّ فقدت حياتك نتيجة للاغتيال، ترى ألا زلت تؤمن به؟

فقال أنور السادات:

ـ نحتاج لأضعاف عمرنا كي نتعلّم الحكمة.

فقال مصطفى النحّاس:

ـ وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطيّة فدُهشت ثمّ تبيّن لي أنّك تريد حكمًا ديمقراطيًّا تمارس على رأسه سلطاتك الدكتاتوريّة!

ـ أردت ديمقراطيّة ترعى للقرية آدابها وللأبوّة حقوقها.

ـ هٰذه ديمقراطيّة قَبَليّة.

فقال سعد زغلول:

ـ هٰذا حقّ، ولٰكنّ الديمقراطيّة الحقيقيّة تُؤخذ ولا تُمنح فلا تُغالِ في لومه...

وقال مصطفى النحّاس:

ـ واشتدّت الضائقة بالناس، وحدث ما يحدث عادة في مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرّف، فتركت الأمور تستفحل كأنّك لا تبالي، ثمّ انفجرتَ بغتة فألقيت بالجميع في السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيّين والمتطرّفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصّة...

فقال أنور السادات:

ـ وجدت أنّه لا مفرّ من ضربة حاسمة اتّقاء لفوضى توشك أن تجرّ البلاد إلى حرب أهليّة...

فقال سعد زغلول:

ـ عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه يخلق منه خصمًا، وعند ذاك تُهدر قوّة البلاد الأساسيّة في صراع داخليّ بدلًا من أن توجّه للعمل الصالح.

وهنا قالت إيزيس:

ـ بفضل هٰذا الابن رُدّت الروح إلى الوطن، واستردّت مصر استقلالها الكامل كما كان قبل الغزو

الفارسيّ، وقد أخطأ كما أخطأ سواه وأصاب أفضل ممّا أصاب كثيرون.

فقال أوزوريس:

ـ أرحّب بك بين الخالدين من أبناء مصر، وسوف تمضي بعد ذلك إلى محكمتك الأخرى مؤيّدًا بتزكية مشرّفة منّا.

ـ ٦٤ ـ

قلّب أوزوريس عينيه في الخالدين وقال:

ـ ها هي حياة مصر، قد عُرضت عليكم بكلّ أفراحها وأحزانها، مذ وحّدها مينا وحتّى استردّت استقلالها على يد السادات، فلعلّ لبعضكم رؤية يريد أن ينوّه بها؟

وطلب الملك أخناتون الكلمة ثمّ قال:

ـ أدعو للاستمساك بعبادة الإله الواحد باعتباره المعنى والخلود والتحرّر من أيّ عبوديّة أرضيّة.

وقال الملك مينا:

ـ والحرص على وحدة الأرض والشعب فالنكسة لا تجيء إلّا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة.

وقال الملك خوفو:

ـ على مصر أن تؤمن بالعمل، به شيّدت الهرم، وبه تواصل البناء.

وقال أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ وأن تؤمن بالعلم فهو القوّة وراء خلودها.

وقال الحكيم بتاح حتب:

ـ وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتنعم بنضارة الحياة وتنهل من رحيقها.

وقال أبنوم:

ـ وأن تؤمن بالشعب والثورة لتطّرد مسيرتها نحو الكمال.

وقال الملك تحتمس الثالث:

ـ وأن تؤمن بالقوّة التي لا تتحقّق حتّى تلتحم بجيرانها.

وقال سعد زغلول:

ـ وأن يكون الحكم فيها من الشعب بالشعب من أجل الشعب.

وقال جمال عبد الناصر:

ـ وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعيّة المطلقة.

وقال أنور السادات:

ـ وأن يكون هدفها الحضارة والسلام.

وهنا قالت إيزيس:

ـ ليضرع كلٌّ منكم إلى إلهه أن يهب أهل مصر الحكمة والقوّة لتبقى على الزمان منارة للهدى والجمال.

فبسط الجميع أكفّهم واستغرقوا في الدعاء.

رحلة ابن فطومة

الوَطَن

الحيـاة والمـوت، الحلم واليقـظة، محـطّات للروح الحائر، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متلقّيًا من الأشياء إشارات وغمزات، متخبّطًا في بحر الظلمات، متشبّثًا في عناد بأمل يتجدّد باسمًا في غموض. عمّ تبحث أيّها الرحّالة؟، أيّ العواطف يجيش بها صدرك؟، كيف تسـوس غرائـزك وشطحـاتك؟، لِمَ تقهقـه ضـاحكًا كالفرسـان؟، ولِمَ تذرف الـدمع كـالأطفال؟ وتشهـد مسرّات الأعيـاد الراقصـة، وترى سيف الجـلّاد وهو يضرب الأعناق، وكلّ فعل جميل أو قبيح يستهلّ باسم الله الرحمٰن الرحيم. وتستأثر بوجدانك ظلال بـارعة براعة الساحر مثـل الأمّ والمعلّم والحبيبة والحـاجب، ظـلال لا تصمد لـرياح الـزمن ولكنّ أسماءهـا تبقى مكلّلة بالخلود. ومهما نبا بي المكان فسوف يظلّ يقطر ألفة، ويسدي ذكريات لا تنسى، ويحفر أثره في شغاف القلب بـاسم الـوطن. سـأعشق مـا حييت نفثـات العطّارين، والمآذن والقباب، والوجـه الصبيح يضيء الـزقـاق، وبغـال الحكم وأقـدام الحفـاة، وأنـاشيـد الممسوسين وأنغام الرباب، والجياد الراقصة وأشجـار اللبـلاب ونوح اليـمام وهديـل الحمام. وتحـدّثني أمّي فتقول:

ـ يوم مولدك.

وتهزّ رأسها جميل التكوين فأقول بحبور:

ـ بل يومك هو الأصل!

كان أبي محمّد العنّابي تاجر غلال مترعًا بـالثراء. أنجب سبعة تجّار مرموقين، وعمّر حتّى جاوز الثمانين متمتّعًا بالصحّة والعافية. وفي الثمانين رأى أمّي الجميلة فطّومة الأزهريّ وهي بنت سبعة عشر، آخر عنقود جزّار يدعى الأزهريّ قطائف فغزت قلبه وتزوّج منها وأقام معها في دار رحيبة اشتراها باسمها، محدثًا في أسرته غضبًا وشغبًا. اعتبر إخوتي الزواج لعبة قذرة غير مشروعة، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضي وكبير التجّار ولكنّه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة، فاعتدّ الزواج حقًّا لا يقبل المناقشة، وفارق السنّ وهمًا يتعلّل به المغرضون، وراح ينهل من معين سعادته بقلب مليء بالثقة.

ـ وجاء مولدك مؤكّدًا للهزيمة مجدّدًا للغضب!

وأقول لها كثيرًا:

ـ لا حدّ لطمع الإنسان!

فمنـذ حـداثتي وأنـا أتلقّى أجمـل الكلمات رغم ارتطامي بأقبـح الفعال. وسمّاني أبي «قنديـل» ولكنّ إخـوتي أطلقوا علـيّ «ابن فطّومـة» تبرُّؤًا من قـرابتي وتشكيكًا فيها. ومات أبي قبل أن يـطبع صـورته في وعيي تـاركًا لنـا ثروة نضمن حياة رغدة حتّى آخـر العمـر. وقطعت الخصـومة مـا بيننا وبين إخـوتي. وخافتهم أمّي على نفسها وعليّ فأطاحت بها الوساوس والظنون حتّى قرّرت ألّا ترسلني إلى الكتّاب، فعهدت بي إلى الشيخ مغاغـة الجبيلي ـ وكـان جارًا لأسرتهـا ـ ليلقّنني العلم في داري. وعنه تلقّيت دروسًا في القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب والفقه والتصـوّف والرحلات. كان في الأربعين، قـويًّا مهيبًـا، ذا لحية رشيقة وعمامة عاليـة، وجبّة أنيقـة، وعينين لامعتـين ثاقبتَي النظرة، يمدّ صوته المليء عنـد إلقاء الـدرس،

ويرسله على مهل وهدوء، ويذلّل الصعب بجودة الشرح ورقّة الابتسامة. وكانت أمّي تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل، تنصت من وراء ستار ونحن في القاعة شتاءً، ومن وراء خصاص ونحن في السلاملك في بقيّة الفصول. وكانت تقول لي:

- أراك سعيدًا بمعلّمك، وهذا حظّ حسن...

فأقول لها بحماس:

- إنّه شيخ عظيم...

وكان يخصّص وقتًا للمناقشة، فيطرح ما يرى من أسئلة ولكنّه يدعوني لإعلان خواطري ويعاملني معاملة الراشدين. ويومًا - لا أذكر في أيّ فترة من العمر - سألته:

- إذا كان الإسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء؟!

فأجابني بأسى:

- الإسلام اليوم قابع في الجوامع لا يتعدّاها إلى الخارج!

ويفيض في الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه... حتّى الوالي لا يسلم من شرره. وقلت له:

- إذن إبليس هو الذي يهيمن علينا لا الوحي.

فقال برضا:

- أهنّئك على قولك، إنّه أكبر من سنّك...

- والعمل يا سيّدنا الشيخ؟

فقال بهدوء:

- أنت ذكيّ، وكلّ آتٍ قريب...

أمّا حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور. وتكشّف في مجرى حديثه عن رحّالة قديم. قال:

- عرفت الرحلات في صحبة المرحوم أبي فطّومنا بالمشرق والمغرب...

فأقول بلهفة:

- حدّثني عن مشاهداتك يا سيّدنا.

فحدّثني بسخاء حتّى عايشت بخيالي ديار المسلمين المترامية، وتبدّى لي وطني نجمًا في سماء مكتظّة بالنجوم. وقال:

- ولكنّ الجديد حقًّا لن تعثر عليه في ديار الإسلام!

وتتساءل عيناي عن السبب فيقول:

- جميعها متقاربة في الأحوال والمشارب والطقوس، بعيدة كلّها عن روح الإسلام الحقيقيّ، ولكنّك تكتشف ديارًا جديدة وغريبة في الصحراء الجنوبيّة...

أثار أشواقي لدرجة الاشتعال ثمّ قال:

- قمت بتلك الرحلة وحدي عقب وفاة أبي، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل، ولكنّ القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهليّة في دار الأمان...

ويحدجني بنظرة غريبة ثمّ يقول:

- وهي ديار وثنيّة!

فهتفت:

- أعوذ بالله!

- ولكنّ الغريب لا يلقى فيها أو في الطريق إليها إلّا الأمن لحاجتها الملحّة إلى التجارة والسياحة...

فهتفت مرّة أخرى:

- ولكنّها ملعونة...

فقال بهدوء:

- لا حرج على المشاهد.

- ولِمَ لَمْ تعاود الكرّة؟

- ظروف الحياة والأسرة أنستني أهمّ هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل.

فسألته بشغف:

- وما خطورة دار الجبل؟

فقال متنهّدًا:

- تسمع عنها الكثير، كأنّها معجزة البلاد، كأنّها الكمال الذي ليس بعده كمال...

- لا شكّ أنّ كثيرين من الرحّالة قد كتب عنها...

فقال بنبرة لم تخلُ من أسى:

- لم أصادف في حياتي آدميًّا ممّن زاروها، ولا وجدت كتابًا عنها أو مخطوطًا...

فقلت بضيق:

- إنّه أمر عجيب لا يصدَّق...

فقال بكآبة:

- إنّها سرّ مغلق...

وكأيّ سرّ مغلق شدّني إلى حافته، وغاص بي في ظلماته، وضرم النار في خيالي، وكلّما ساءني قول أو فعل رفّت روحي حول دار الجبل. وراح الشيخ مغاغة الجبيلي ينوّر عقلي وروحي ويبدّد الظلام من حولي، ويوجّه أشواقي إلى أنبل ما في الحياة. وسعدت أمّي بما أكتسبه يومًا بعد يوم، وشاركت في تكويني بحبّها وجمالها. متوسّطة الطول كانت، رشيقة العود، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة. ولم تتردّد مرّة عن إعلان إعجابها بجمالي ونجاحي ولٰكنّها قالت لي بنفس الصراحة:

- كلامك كثيرًا ما يكدّر صفوي...

وتساءلت عن السبب فقالت:

- كأنّك لا ترى إلّا الجانب القبيح من الحياة!

ولم تكن تنكر أقوالي أو ترى فيها أيّ مبالغة، ولٰكنّها أفصحت عن إيمانها قائلة:

- الله صانع كلّ شيء، وله في كلّ شيء حكمة...

فقلت مندفعًا:

- ساءني الظلم والفقر والجهل!

فقالت بإصرار:

- الله يطالبنا بالرضا في جميع الأحوال.

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولٰكنّ موقفه كان واضحًا تمامًا فهو يؤمن بالعقل وحرّيّة الاختيار ولٰكنّه همس في أذني برقّة:

- تجنّب إزعاج والدتك...

وهي نصيحة انسقت إلى اتّباعها مدفوعًا ومدعمًا بحبّي الكبير لها، ولم أجد في ذٰلك مشقّة فقد كانت سذاجتها تعادل جمالها نفسه. غير أنّ الأيّام التي وهبتني الدرس والتربية دفعت بي أيضًا إلى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة، وتجلّت مشاهدها على ضوء مشاعل جديدة. ويسألني الشيخ مغاغة الجبيلي:

- ماذا نويت أن تعمل في هٰذه الحياة التي لا تكتمل إلّا بالعمل؟

ولٰكنّي كنت أرى حليمة عدلي الطنطاوي بعين جديدة. طالما رأيتها على عهد الصبا وهي تقود أباها الضرير قارئ القرآن. لهم بيت صغير قديم في حارتنا التي تقوم فيها دارنا متألّقة كالكوكب. وكان اهتمامي يتجاوزها إلى أبيها بقامته النحيلة وعينيه المطموستين وأنفه الغليظ المجدور. أثار عطفي ودهشتي، وأعجبني صوته وهو يؤذّن للصلاة متطوّعًا أمام باب داره. وحوّلتني الأيّام اللاهثة إلى البنت فاكتشفتها من جديد. كانت أرض الحارة زلقة غبّ مطر خفيف، وكان الشيخ يسير بحذر مسلّمًا يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسّس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقّب عن حبّ. وسايرته حليمة غائصة في جلباب فضفاض غامق اللون لا يظهر من خمارها المسدل إلّا عينان ولٰكنّ هيئتها تمثّلت لعينيّ المُشرَبتين بماء الفتوّة أنثى كاملة، تتجسّد جواهرها المستورة كلّما خفق النسيم بجلبابها كأنّها جمرات تحت رماد. وزلّت قدمها أو كادت فشدّت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرّك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن وجهها فانطبع بتمامه على بصري غارسًا حسنه في أركان وجداني. تلقّيت في لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافّة الرموز التي تقرّر مصير قلب. وسألتني أمّي بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذي تكتمل به الحياة:

- ألا توافقني أنّه لا يصلح لك إلّا التجارة؟

فأدهشتها إذ قلت:

- إنّي أفكّر في الزواج أوّلًا!

ورحّبت بحرارة مؤجّلة الحديث عن «العمل»، وراحت تصف لي بعض بنات التجّار ولٰكنّي أدهشتها مرّة أخرى وأنا أقول:

- وقع اختياري على حليمة بنت الشيخ عدلي الطنطاوي...

تلقّت أمّي صدمة لم تدارها وقالت:

- إنّها دون المطلوب في كلّ شيء!

فقلت بإصرار:

- ولٰكنّي أريدها...

فقالت باستياء مُتجهّمة الوجه:

- ستشمت بنا إخوتك!

ولٰكنّ إخوتي كانوا كشيء لم يكن. وشعوري بأنّي رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت. وهي لم تعاندني

وإن ضنّت عليّ بالموافقة، وفي الوقت نفسه لم تفقد الأمل. وإذا بالأمور تجري مع رغباتي وإن يكن بثمن باهظ. مضت معارضة أمّي تخفّ حتّى قالت لي مسلّمة:

- سعادتك أغلى عندي من أيّ شيء أو اعتبار. . .

وفي الحال قامت بما يُنتظر منها فذهبت من السراي إلى البيت المتهرّئ وخطبت لي حليمة. ومرّة تالية صحبتني معها فجالسنا الشيخ عدلي الطنطاوي وحرمه، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليدين، ومكثت دقائق معدودة ثمّ ذهبت. ومضى الاستعداد للزواج بسرعة محمودة. ولاحظت يومًا أنّ أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي يعاني ارتباكًا غير معهود، وأنّه يحدّثني بنبرة جديدة تمامًا. قال بهدوء وهو ينظر إلى مركوبه:

- ثمّة أمر هامّ يا قنديل.

فأثار اهتمامي لأقصى درجة فقلت:

- رهن إشارتك يا مولاي. . .

فقال بأسى:

- لم أعد أطيق وحدتي. . .

كان الشيخ أرمل، وقد أنجب ثلاث بنات تزوّجن وقَرْن في بيوتهنّ. سألته ببراءة:

- ولِمَ تبقى وحيدًا؟. . . ألم يتزوّج النبيّ عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيّدة خديجة؟!

- صدقت، وهٰذا ما أفكّر فيه. . .

فقلت بحماس:

- وإنّك لرجل ترحّب به كرام الأسر.

فقال بحياء:

- ولٰكنّ مطلبي في أسرتك بالذات!

فدهشت وأحدق بي انزعاج شامل. تساءلت:

- أسرتي؟!

فأجاب بخشوع:

- أجل، الستّ والدتك!

فقلت بعجلة:

- ولٰكنّ والدتي لا تتزوّج!

- لِمَ يا قنديل؟

فحرت قليلًا ثمّ قلت:

- إنّها أمّي!

فقال بهدوء:

- الزواج شريعة الله سبحانه، ولن يهون عليك أن تتزوّج وتترك أمّك وحيدة!

وصمت قليلًا ثمّ قال:

- الله يهدينا إلى سواء السبيل. . .

في وحدتي تلاطمت أفكاري، وترتّبت الأحداث في خيالي في صورة جديدة كئيبة. قلت لنفسي إنّ إذعان أمّي المفاجئ لرغبتي في الزواج من حليمة ليس إلّا نتيجة لرغبتها في الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلي. حصلت أمور بريئة من وراء ظهري ولٰكنّها اعترضت حلقي، وجدت نفسي في موقف دقيق حرج ما بين أعزّ شخصين في حياتي وبين غضبي وسخطي وحيائي. وهتفت من أعماقي:

- اللّٰهمّ جنّبني الظلم والحمق. . .

الحقّ أنّني سلكت سلوكًا هو أحقّ بشخص أكبر منّي سنًّا وتجربة. تركت الأمور تجري كما يشاء الله، وأقنعت نفسي المتمرّدة بأنّ الزواج حقّ للرجل والمرأة، وأنّ أمّي ليست أمًّا خالصة ولٰكنّها امرأة أيضًا، وأنّنا خُلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها، ونتلقّى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين. وحملت التجربة بكافّة أبعادها على عاتقي وفاتحت أمّي بالموضوع بصراحتي المألوفة. وأبدت دهشة أحنقتني وتمتمت:

- ما خطر لي ذٰلك ببال. . .

فقلت ببرود:

- ولٰكنّه حقّ وعدل.

ومضيت أهضم خيبتي على حين قالت هي في تلعثم:

- أريد فرصة للتفكير. . .

اعتبرت ذٰلك أوّل إشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت بقلب كئيب، حتّى همست لي في حياء وارتباك:

- لتكن مشيئة الله!

وتأمّلت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداري حياءنا بقبسات الوحي الإلٰهيّ. وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأمّ، وتمّ

الاتّفاق على انتقال أمّي إلى دار الشيخ مغاغة وهي دار حسنة، وانتقال حليمة إلى السراي. وصمّمت على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضًا عن ذيلي رواسب الأكدار. ولْكن هبط علينا قدر فنسف خطّتنا. زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالي فاقتحمّنا كعاصفة. رأى ذات يوم حليمة فقرّر أن يجعل منها زوجته الرابعة. وذعر الشيخ عدلي الطنطاوي وقال لأستاذي الشيخ مغاغة:

ـ لا قِبَل لي بالرفض!

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد، فزُفّت حليمة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة. انطويت على نفسي ذاهلًا وأنا أتساءل عن قلب حليمة، عن مشاعرها الدفينة، هل شاركتني ألمي أو أنّ لآلاء الملك أسكرها وبهر عينيها. ووجدْتُني في وحدتي أقول لنفسي:

ـ خانني الدين، خانتني أمّي، خانتني حليمة، ألا لعنة الله على هٰذه الدار الزائفة...

بدا كلّ شيء كالحًا، بدءًا من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلي الطنطاوي حتّى الوالي نفسه، مرورًا بأناس ومعاملات تستحقّ الطوفان ليحلّ محلّها عالم جديد نظيف. لم أتأثّر بعطف أمّي وحزنها، ولا حِكَم الشيخ مغاغة التي ذرّها عليّ. بدت لي الدنيا صفراء كريهة لا تُحتمل ولا تعاشَر. وقالت لي أمّي:

ـ يجب أن تتزوّج في أقرب وقت ولعلّ الله يدّخر لك أفضل ممّا اخترت!

فهززت رأسي رافضًا، فقال الشيخ مغاغة:

ـ اشرع في العمل بلا تأخير.

فهززت رأسي أيضًا... فقال الرجل:

ـ لديك ولا شك خطّة...؟

فقلت مُعربًا عن عواطفي الجائحة:

ـ أن أقوم برحلة!

فتساءلت أمّي في انزعاج:

ـ أيّ رحلة؟... إنّك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك!

فقلت:

ـ هي أنسب سنّ للرحلة...

ونظرت إلى أستاذي مليًّا وقلت:

ـ سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولْكنّي لن أتوقّف كما توقّفت بسبب الحرب الأهليّة التي قامت في الأمان، سأزور الأمان والغروب ودار الجبل، أيّ وقت يلزمني لذلك؟

فقال الشيخ مغاغة الجبيلي وهو يلحظ أمّي بإشفاق:

ـ يلزمك عام على الأقلّ إن لم يزد.

فقلت بتصميم:

ـ ليس هٰذا بالكثير على طالب الحكمة، أريد أن أعرف، وأن أرجع إلى وطني المريض بالدواء الشافي...

وهمّت أمّي بالكلام ولٰكنّي سبقتها قائلًا بحزم:

ـ إنّه قرار لا رجعة فيه...

واستحوذ عليّ الحلم، وتلاشى الواقع، وتراءت دار الجبل لعين خيالي كنجم معشوق يعتلي عرشه وراء النجوم، فنضجت الرغبة الأبديّة في الرحلة على لهيب الألم الدائم. وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلي للواقع فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا. كان في الأربعين، يدعى القاني بن حمديس، قويّ البنيان والرأي. قال الشيخ مغاغة:

ـ أودّ أن يذهب معك ويرجع معك.

فقال الرجل:

ـ هٰذا يتوقّف على رغبته، نحن نقيم في كلّ دار عشرة أيّام، فيمضي معنا مَن يقنع بها ويتخلّف من يروم المزيد، وعلى أيّ حال توجد قافلة كلّ عشرة أيّام...

فقال لي الشيخ مغاغة:

ـ عشرة أيّام فيها الكفاية...

فقلت:

ـ أعتقد ذٰلك...

أمّا أمّي فركّزت على مسألة الأمن فقال لها الرجل بوضوح:

ـ لم تتعرّض قافلة لهجوم أبدًا، إنّ أهل البلاد لا يحظون بعشر معشار ما يحظى به الغريب من حماية...

وأخذت في الاستعداد للرحلة مُسترشِدًا بأستاذي الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس

وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب. ورأيت أن يتمّ زواج أمّي بالشيخ قبل رحيلي، غير أنّ الشيخ انتقل إلى السراي حتّى لا تُهجر بلا ساكن. ولبستني حال جديدة، فقلّ تفكيري في أحزاني، وهيمنت الرحلة على حواسّي، وانفسح أمامي مجال غير محدود للأمل...

دَارُ المَشْرِق

ودّعتني أمّي وداعًا حارًّا دامعًا وهي تقول:

ـ أغنانا الله عن ذٰلك كلّه ولٰكنّها إرادتك!

فقلت لنفسي: «على أيّ حال لم أتركك وحدك». وصحبني الشيخ مغاغة الجبيلي إلى ميدان المكوس فبلغناه قبيل الفجر، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل. امتدّ الظلام حولنا يتنفّس نسائم الربيع وفوقنا ترامقت النجوم الساهرة. همس الشيخ مغاغة في أذني:

ـ لا تتخلّف عن قافلة ابن حمديس.

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف:

ـ السير عقب صلاة الفجر.

ورآنا فصافحنا وقال لي:

ـ جميع الرفاق من التجّار وأنت الرحّالة الوحيد بيننا!

فلم يسرّني ذٰلك ولٰكنّي لم أتكدّر له. وارتفع صوت الأذان مُحلّقًا فوق الرءوس فمضينا نحو جامع السوق، وانتظمنا في آخر صلاة جامعة تتاح لنا. وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتّخذنا مجالسنا مع الحقائب. وبدأ الطابور يتحرّك على إيقاع حادّ فغاص قلبي بحنين الوداع وتحرّكت في أعماقه ذكريات أمّي وحليمة في غلاف من ذكريات الأسى الشامل الذي يحتوي وطني كلّه. وغمغمت في أحضان الظلام:

ـ اللّٰهمّ بارك خطاي.

وأخذت الظلمة ترقّ، وتلوح بشائر النور الموعود في الأفق، حتّى تخضّب بحمرة باسمة وبزغ حاجب الشمس، ناشرًا الضياء فوق صحراء بلا حدود. تجلّت القافلة خطًّا راقصًا في صفحة كونيّة مُتحدّية بالجلال، وانغمر جسمي في حركة رتيبة متتابعة تحت موجات من نور متدفّق، وهواء سابح، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف، ومنظر ثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية. لذت من المنظر الواحد بنفسي فغصت في ذكرياتها الملحّة وانفعالاتها المرّة، وأحلامها الورديّة. وعند كلّ عين ماء كنّا نتوقّف للطعام والوضوء والصلاة والسمر. عرفت نخبة من الرفاق التجّار ورمقوا «الرحّالة الوحيد» بنظرات غريبة. وقلت مفسّرًا ومتباهيًا:

ـ سأذهب حتّى دار الجبل!

فتساءل أحدهم باستهانة:

ـ وما دار الجبل؟

وقال ثان بفخار:

ـ نحن دار الإسلام...

وقال ثالث:

ـ التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران...

وقال رابع:

ـ كان النبيّ عليه الصلاة والسلام تاجرًا.

فقلت كالمعتذر:

ـ وكان أيضًا رحّالة ومهاجرًا!

فقال الأوّل:

ـ ستبدّد ثروتك في الترحال وترجع إلى بيتك فقيرًا...

فقلت كاظمًا غيظي:

ـ لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل...

وكنت أحترم التجارة ولٰكنّني آمنت بأنّ الحياة رحلة كما هي تجارة. وتتابعت الأيّام طويلة وثقيلة، حارّة بالنهار باردة بالليل، ورأيت النجوم كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لانهائيّة، وعرفت أنّ حزني من أمّي أكبر ممّا تصوّرت، وأنّ حبّي لحليمة أقوى من أن يؤثّر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلّع نحو المجهول. وسرنا ما يقارب الشهر حتّى لاحت لنا من بعد أسوار دار المشرق. عند ذاك قال القاني بن حمديس:

ـ سنعسكر عند العين الزرقاء، وندخل الدار عند منتصف الليل.

وأعددنا أنفسنا. ولـمّا صلّينا العشاء سمعت من يهمس:

- آخر صلاة حتّى نرجع من بلاد الوثنيّة!

فامتعضت كثيرًا ولكنّي كنت أُعدّ نفسي لحياة جديدة طويلة فقلت لنفسي: «الله غفور رحيم».

وقبيل منتصف الليل تقدّمت القافلة من الدار الجديدة. وقابلنا عند المدخل رجل عاري الجسد إلّا من وزرة تستر العورة، بدا طويلًا نحيلًا على ضوء المَشاعِل، وقال الرفاق إنّه مدير الجمرك. قال الرجل بصوت جهوريّ:

- أهلًا بكم في المشرق عاصمة دار المشرق، إنّها ترحّب بالتجّار والرحّالة، ومن يلزم حدوده فلن يلقى إلّا الطيّب والجميل.

ودخلت القافلة بين صفّين من الحرّاس، فمضى التجّار إلى السوق، ومضى بي دليل إلى فندق الغرباء. أناخ الجمل أمام سرادق كبير كأنّه ثكنة، وحمل الدليل حقائبي إلى الداخل فأدركت أنّه فندق الغرباء. كان سرادقًا كبيرًا منقسمًا إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتدّ، وكلّ جناح يحوي غرفًا متلاصقة أضلاعها مبنيّة من الأقمشة الوبريّة. وكانت الحجرة التي اختيرت لي بسيطة بل بدائيّة، أرضها رمليّة، وبها فراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض، وسحّارة للملابس، وشلتة في الوسط. وما إن فرغت من تفقّد حقائبي حتّى هرعت إلى الفراش بحنين شخص حُرم من الرقاد الطبيعيّ شهرًا كاملًا، فنمت نومًا عميقًا حتّى أيقظني حرّ النهار. ونهضت كالمتوعّك، ومرقت إلى البهو فوجدته مكتظًّا بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم يفطرون. وجاءني رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتزرًا بما يغطّي العورة وقال لي باسمًا:

- أنا فام صاحب الفندق، هل قضيت ليلة مريحة؟

فقلت والعرق يسيل فوق جبيني:

- شكرًا.

- هل آتيك بالفطور؟

فقلت بلهفة:

- بل أريد الحمّام.

وقادني إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما يلزمني لأغتسل وأمشط شعر رأسي ولحيتي الصغيرة. وعدت نحو غرفتي فوجدت فام قد جاء بطبليّة وراح يعدّ لي الفطور. سألته:

- هل أستطيع أن أصلّي في غرفتي؟

فقال محذّرًا:

- قد يراك أحد فتتعرّض لما يَسوؤك...

وجاءني بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور حتّى شبعت. وقال لي:

- كنتُ ذات يوم ممّن يعشقون الرحلات.

فسألته:

- أأنت من المشرق؟

- أصلي من الصحراء ثمّ استقرّ بي المقام في المشرق...

سرّني أن أجد فيه رحّالة قديمًا فقلت:

- دار الجبل هي الهدف الأخير من رحلتي...

- وهي هدف الكثيرين ولكنّ أسباب الرزق حجزتني عنها...

فسألته بلهفة:

- ماذا تعرف عنها يا سيّد فام؟

فأجاب باسمًا:

- لا شيء إلّا ما توصف به أحيانًا كأنّما هي معجزة الدهر، ومع ذلك فلم أصادف رجلًا واحدًا ممّن زاروها...

وقال لي صوت باطنيّ بأنّني سأكون أوّل ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثمّ يعلن سرّها للعالمين. وسألني:

- هل تمكث طويلًا في المشرق؟

- عشرة أيّام ثمّ أذهب مع قافلة القاني بن حمديس...

- عظيم، سِرْ وانظر وتمتّع بوقتك، وحسبك غطاء للعورة ولا تزد عن ذلك...

فقلت مستنكرًا:

- لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة.

فقال ضاحكًا:

- سترى بنفسك، نسيت أن أسألك عن اسمك الكريم؟

- قنديل محمّد العنّابي...

فرفع يده إلى رأسه تحيّة وذهب. غادرت الفندق في

الضحى مُتلفِّعًا بعباءة خفيفة واسعة المسامّ، لابسًا عمامتي لتقيني الشمس. وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون. ولدى مغادرتي الفندق هالني أمران، العري والفراغ.

الناس، النساء منهم والرجال على السواء، عرايا تمامًا كما ولدتهم أمّهاتهم. والعري عادة مألوفة لا تلفت نظرًا ولا تثير اهتمامًا، كلٌّ ذاهبٌ لوجهته، ولا يثير الغرابة إلّا الغرباء أمثالي لما يرتدون من ملابس. والأجساد نحاسيّة اللون، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلّة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح. وجدت مشقّة لأزيل عن وجداني الشعور بالشذوذ لملابسي التي أرفل فيها، ووجدت مشقّة أكبر في صرف بصري عن مشاهد العري المثيرة وما بعثته في دمائي من نيران متأجّجة. وقلت لنفسي:

ـ يا لها من دار تقذف بمن كان في شبابي إلى فتنة مُحرِقة!

أمّا الأمر الغريب الثاني فهو هٰذا الفراغ المُمتدّ المُترامي، كأنّما انتقلت من صحراء إلى صحراء. أهٰذه هي حقًّا عاصمة المشرق؟. أين القصور، أين البيوت، أين الشوارع، أين الحواري؟؟. لا شيء إلّا أرضًا تعلو جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية، وثمّة تجمّعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام، يتجمّع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز. وهنّ عرايا أيضًا، وجمالهنّ لا بأس به ولكن تخفيه القذارة والإهمال والفقر. الحقّ أنّي لم أتمادَ في نقد مظاهر البؤس في هٰذا البلد الوثنيّ الذي قد يكون له من وثنيّته عذر، ولكن أيّ عذر أعتذر به عن أمثال هٰذه المظاهر في بلدي الإسلاميّ؟. وقلت لنفسي:

ـ انظر وسجّل واعترف بالحقيقة المرّة.

وفيما عيناي تدوران في حيرة ودهشة استحوذ عليّ شعور بالهيمان استخرج من أعماقي العاشق الكامن. تذكّرت حليمة بقوّة مُهيمِنة وغشيت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعّة الشمس. وحرت من أمري وقتًا ولكنّي لمحت فتاة تعدو، قادمة من ناحية الفندق مُتّجهة كالسهم نحو بقعة مُزدحمة وغاصت في عبابها فتوارت عن عينيّ. لعلّي لمحتها وهي ذاهبة أيضًا. لعلّي لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها وأنا شبه نائم أو ذاهل. إنّها وراء ما اجتاحني من انفعال وجدانيّ عميق. حقًّا إنّها مشرقيّة نحاسيّة عارية ولٰكنّ تكوين وجهها صورة قريبة جدًّا من صورة حليمة حبيبتي المفقودة، بل قرّرت أن أقتنع بأنّها حليمة المشرق، وأنّني سأراها مرّة أخرى. وانتقلت من مكان إلى مكان، لا أرى جديدًا، أكابد فتورًا يتزايد، وقلبي ينسحق تحت الأسى والشجن، وخيالي يبحث عن حليمة المشرق. في الغربة أتخلّق من جديد في صورة جديدة. تتكوّن في أعماقي اندفاعات جريئة لإشباع الرغبات وممارسة المغامرات. إنّي أتخلّى عن حضارة وأسلّم نفسي لحضارة جديدة. أتوق إلى الحياة بعيدًا عن الرقباء. الرقباء الذين يتجسّدون في الخارج والذين ينبضون في الداخل. ووجدتني عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدري كيف ساقتني إليه قدماي المُتعبتان. خلاء نظيف خالٍ من الماشية ومن الرعاة تحفّ به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أرَ مثلها من قبل، ويقوم في أعماقه قصر كبير ذو سور محيط. يحرس مداخله طابور من الفرسان المدجّجين بالسلاح. ولم يكن بالساحة إلّا نفر من الغرباء أمثالي يقلّبون أعينهم في دهشة وإعجاب. كيف قام هٰذا القصر بين الخيام؟. . . إنّه ولا شكّ قصر ملك المشرق، وطبعًا غير مسموح بزيارته، وكنت ظننت أنّ رئيس المشرق ما هو إلّا شيخ قبيلة يقيم في خيمة تناسبه حجمًا وأناقة. سألت أحد الغرباء:

ـ أهو قصر الملك؟

فأجاب باهتمام:

ـ هٰذا ما يبدو.

الحقّ أنّه لا يقلّ فخامة عن قصر الوالي في وطني ولكنّه يبدو غريبًا مقطوع الصلة بما حوله. وأخذ الجوّ يلطف، ويسفر عن وجهه الربيعيّ، ولكنّ شعوري التعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس سبيلي إلى الفندق. ووجدت فام صاحب الفندق جالسًا على أريكة من سعف النخل عند المدخل فلاقاني بابتسامة وقال:

ـ هل تناولت غداءك في السوق؟

فقلت بعجلة:

- لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشني أيّها الرجل الكريم...

وجلست أمام الطبليّة أمام حجرتي فجاءني فام بخبز الشعير وشريحة من لحم البقر مقليّة في الدهن مخفّفة بالخلّ وطبق مليء تمرًا وسفرجلًا وعنبًا، وسألني:

- هل آتيك بخمر البلح...؟

فقلت وأنا أُقبل على الطعام بنهم:

- أعوذ بالله.

فتمتم الرجل:

- الخمر موسيقى الرحلات!

أكلت حتّى شبعت، واستأذنته في الجلوس معه على الأريكة فرحّب بي جدًّا، فجلسنا والمساء يتيه بقمر يوشك أن يصير بدرًا. تلقّيت نسائم عذبة غريبة كلّ الغرابة عن قيظ النهار، وسرعان ما زحف عليّ الهدوء والاسترخاء. قال فام:

- توجد خيام للضرب والرقص وما يتمنّاه الغريب...

فقلت:

- فلنؤجّل ذلك إلى وقته...

- هل أعجبك ما رأيت؟

فقلت بفتور:

- لا شيء يستحقّ المشاهدة سوى القصر ولكنّي في حاجة إلى معلومات لا يُعثر عليها عادة في الطريق...

- صدقت فيما قلت...

- قصر الملك آية من الآيات!

فقال باسمًا:

- لا يوجد ملك في دار المشرق!

لعلّه قرأ الدهشة في وجهي فواصل:

- دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن؛ لكلّ مدينة «سيّد» هو مالكها، يملك المراعي والماشية والرعاة، الناس عبيده، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن، فالقصر الذي شاهدت هو قصر سيّد العاصمة، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم، ولكلّ سيّد قوّة مسلّحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصحراء...

يا له من نظام غريب! إنّه يذكّرني بالقبائل الجاهليّة ولكنّه مختلف، كما يذكّرني بملّاك الأرض في وطني ولكنّه مختلف أيضًا. جميعها تمثّل درجات متفاوتة من الظلم، وعلى أيّ فإثمنا - نحن دار الوحي - أفظع من سائر الخلق. وأخذت حذري فاكتفيت بالإصغاء حابسًا ملاحظاتي النقديّة كما يجدر بالغريب. وسألته:

- كيف شيّد هٰذا القصر الباهر وجميع رعيّته من الرعاة البسطاء؟

فأجاب فام في مباهاة:

- جاء بالمهندسين والعمّال من دار الحيرة، وزوّده بأجمل الأثاث والتحف التي تفخر بصنعها دار الحلبة...

وصمتُّ قليلًا ثمّ قلت:

- حدّثني يا سيّد فام عن دينكم...

- أهل المشرق جميعًا يعبدون القمر، في ليلة البدر يتجلّى الإله في تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن للصلاة، ثمّ يمارسون طقوسه رقصًا وغناء وسكرًا وغرامًا...

فذهلت كثيرًا ثمّ تساءلت:

- وبذٰلك يضمنون الخلود في الجنّة؟

- لا نعرف خلودًا ولا جنّة، وليس لنا إلّا ليلة البدر!

فتردّدت قليلًا ثمّ سألت:

- ألا يوجد طبّ وتعليم؟

فقال باستهانة:

- أبناء السيّد يتعلّمون الفروسيّة ومعلومات عن الإله القمر، وفي كلّ قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة، أمّا الناس فيُتركون للطبيعة، ومَن يصبه مرض يُعزل حتّى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح...

فنظرت إليه كالمتسائل فاستدرك:

- إنّها سنّة القمر وتعاليمه وهي تتوافق مع الحياة تمامًا، لذٰلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى، نحن أسعد الشعوب يا سيّد قنديل!

قلت لنفسي إنّه فقدان الوعي بلا زيادة ولا نقصان ولكنّي قلت له:

- هنيئًا لكم يا سيّد فام!

وقضيت شطرًا من الليل وأنا أدوّن في دفتري تاريخ الرحلة ومَشاهِدها، وقطعت شطرًا آخر مسهّدًا أفكّر فيما صادفني من أحوال وأفكار، وأتأمّل عذابات الإنسان في هٰذه الحياة، وأتساءل هل حقًّا يوجد في دار الجبل الدواء الشافي لكلّ داء؟!.

ومرّت أيّام بلا جديد سوى أنّني وجدت الشجاعة على التخفّف من ملابسي مُكتفيًا بسروال قصير وطاقيّة. وذات صباح دهمتني حركة غير عاديّة منبثّة في الأرجاء وتهامس حميم بين النزلاء حتّى هرعت إلى فام أسأله عمّا هنالك فهتف:

ـ هٰذه ليلة البدر. . . ليلة حضور الإلٰه والعبادة!

فهزّني الخبر ووعدني بمشهد سعيد حقًّا مَن يراه. وذهبت من فوري إلى السوق فالتقيت برفاقي التجّار المُعسكِرين عند مدخله. كانوا ينفقون نهارهم في العمل وليلهم في الملاهي. وسرعان ما انهمكوا في المقايضة بهمّة وخبرة. ولاحظت أنّهم لا يتعاملون مع الأهالي، ولٰكن مع مندوبي السيّد صاحب العاصمة، فهو البائع والشاري وحده. أمّا بقيّة السوق فعبارة عن ممرّ ضيّق أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحليّ الرخيصة من الخرز. وتناولت غذائي في الفندق ثمّ ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب. وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون في كثافة هائلة في شكل دائرة ترك وسطها خاليًا. كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسيّة تنضح بالعرق وتنفث في الجوّ رائحة آدميّة مثيرة. وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبّة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفّز للمغامرة. وما إن غابت الشمس في ناحية حتّى تهادى البدر صاعدًا من الناحية المقابلة عظيمًا جليلًا عذبًا واعدًا فهلّل الناس حتّى ذعرت الطيور في الجوّ. مضى يصعد مرسلًا ضوءه الذهبيّ على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنّما لتقبض على الضوء السابح. ومرّ وقت غير قصير في صمت خاشع حتّى استقرّ القمر في كبد السماء. عند ذاك ندّ صوت منذر طويل عن بوق في مكان ما فانشقّ طريق في شمال الدائرة موسعًا لقادم وقور، طويل القامة، مرسل اللحية منفوش الشعر، عاري الجسد، تقدّم مُتوكّئًا على عصا طويلة حتّى وقف في مركز الدائرة. تركّزت الأعين على كاهن القمر، وازداد الصمت صمتًا. ولبث الرجل فترة جامدًا، ثمّ ترك عصاه تسقط عند قدميه، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المُؤلّفة من الأذرع. وصفّق بيديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد في لحظة واحدة. انطلق بقوّة وشمول فكأنّ الأرض والسماء وما بينهما قد شاركت فيه منتشية بسكر الغناء ووجد العاشقين. وانسربت إلى أعماقي نغمة مُفعَمة بالحرارة، مميّزة الوحشيّة والخشونة، مجلّلة بدويّ وأصداء، فجاش صدري بانفعالات ترتعش باللذّة والرهبة. وتصاعدت لذروة الانفجار، ثمّ أخذت في الهبوط الوئيد، خطوة في أثر خطوة، حتّى استنامت للهدوء وغاصت في الصمت. وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته الأذرع وتحوّلت إليه الأعين. والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول:

ـ ها هو الإلٰه يتجلّى بجماله وجلاله، يحضر في ميعاده، لا يتخلّى عن عباده، فنِعْم الإلٰه وهنيئًا للعباد.

ندّت عن البحر المحيط همهمة شكر، فواصل الكاهن حديثه:

ـ إنّه يقول لنا في دورته إنّ الحياة لا تعرف الدوام، وإنّها نحو المحاق تسير، ولٰكنّها طيّبة للطيّب، وبسمة للباسم، فلا تبدّدوا ثروتها في الحماقة. . .

انطلقت من الحناجر زغاريد كالشهب وصفّقت الأيدي على إيقاع راقص. واستمرّ الكاهن يقول:

ـ حذارِ من الخصام، حذارِ من الشرّ، الحقد يفري الكبد، النهم يتخم البطن ويجلب الداء، الطمع هَمّ وبيل، امرحوا، والعبوا، وانتصروا على الوساوس بالرضى. . .

وفي الحال ترامت دقّات طبول، فاهتزّت الخواصر راقصة، ولبّت نداءها الأثداء والأرداف، وتمادت الحركة مُنتشِرة مُترامية تحت ضوء القمر. رقصت الأرض وباركها البدر، واختلط العناق بالرقص، واندمج الجميع في غرام شامل تحت ضوء القمر. جعلت أنظر بعينين ذاهلتين، كأنّني في حلم شباب،

دمي يشتعل في عروقي، ورغباتي تتلاطم في جنون، وقلبي يتوق إلى الجنون. ورجعت وأنا أترنّح من شدّة الانفعال، وقبضة الشهوة تشدّ بعنف على أعصابي الملتهبة. ولبثت في غرفتي بالفندق ساهرًا على ضوء شمعة، أدوّن كلمات في دفتري، وأفكّر في المحن التي تتربّص بإيماني وتقواي، وأتذكّر عهد تربيتي الدينيّة والعقليّة على يد الشيخ مغاغة الجبيلي. واستسلمت لأفكاري في استرخاء بائس حتّى اخترقتْ أذنيّ بغتة صرخة استغاثة. وثبت قائمًا متحفّزًا فوجدتني في ظلام دامس، وسرعان ما انتبهت إلى أنّني كنت نائمًا، بل إنّ النوم كان يغشى الكون كلّه. واستيقظت مبكّرًا، وقلت لفام وأنا أهمّ بمغادرة الفندق:

- هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة؟

فقال فام:

- هو كاهن القمر، يرحّب دائمًا بلقاء الغرباء، سأعدّ لك لقاءً معه...

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدًا من التجّار. وأخبرني القاني بن حمديس أنّهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب السيّد. وسألني:

- هل قرّرت أن ترحل مع قافلتي؟

فأجبت بتلقائيّة:

- أجل، لا شيء يستحقّ المشاهدة بعد...

- صدقت فهو بلد فقير ولكنّ الرحلات القادمة تعد بمشاهد ثريّة...

فقلت بصدق:

- ما يهمّني حقًّا هو دار الجبل!

فابتسم قائلًا:

- متّعك الله بأجمل ما خلق...

واشتدّت وطأة الملل والحرّ، فرحت أسلّي نفسي بالمشي في السوق. ورغمًا عنّي توقّفت مذهولًا أمام خيمة رجل عجوز يعرض التمر في أوعية من الخوص. لمحت وراءه في عمق الخيمة الفتاة الفاتنة، حليمة المشرق النحاسيّة العارية، وهي تزقّ حمامة، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذي لم ينل منه السوء بعد. وقفت محملقًا ناسيًا ذاتي، أرى الماثلة أمام عينيّ، وأتذكّر من خلالها حليمة بوجهها البدريّ وعينيها السوداوين وعنقها الطويل. أرى تاريخ قلبي كلّه متجمّعًا في لحظة ومثال، وقد التقى في بؤرته يقظة الماضي وسحر الحاضر وحلم المستقبل. أيّ هيام ينسكب في روحي من هٰذا التكوين الفريد! أيّ نداء وأيّ أَسْر! رنوت إليها غارقًا فيها، مُتجاهلًا أباها العجوز، وحيائي العتيق، وما أُلزم به نفسي من قيود الأدب. ونسيت تمامًا الملل والحرّ والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل، وحتّى الآمال المُدّخرة من أجل الوطن. نسيت كلّ شيء لأنّي ملكت كلّ شيء وطواني في صدره الرضى والقناعة والغنى. وتراجعت الفتاة حتّى توارت عن ناظريّ فوجدت نفسي مُنفردًا بنظرات العجوز الثابتة. باخ جنوني السعيد فسقطت في قبضة الحياة اليوميّة ذات الوساوس والعرق، ومضيت أبتعد. وأدركني صوت هرم ينادي:

- يا غريب!

فقلت لنفسي في المحذور وقعت. وتلفّتّ متوقّفًا. قال برقّة:

- تعال...

فدنوت منه في حياء فسألني:

- ألم تعجبك ابنتي عروسة؟!

فانعقد لساني دهشة ولم أجب فعاد يسأل:

- ألم تعجبك عروسة؟... لا مثيل لها في المشرق!

تمتمت بارتباك:

- معذرة...

فقال بفخار:

- ما رآها شابّ إلّا أحبّها...

فقلت مُعتذرًا وأنا أظنّه يسخر منّي:

- ما قصدت سوءًا قطّ...

فقال العجوز بحدّة:

- لا أفهم لغة الغرباء، أجبني هل أعجبتك؟

فتردّدت مليًّا ثمّ قلت:

- إنّها تستحقّ الإعجاب كلّه.

- أجبني بصراحة هل أعجبتك؟

فحنيت رأسي معترفًا فقال:

- ادخل...

تردّدت فتناول يدي وجذبني إلى الداخل. ونادى

عروسة فجاءت بجسمها العاري وجعلت ترنو إليّ، حتّى سألها:

ـ ما رأيك في هٰذا الغريب المُغرَم بك؟

فأجابت بلا حياء أو تلعثم:

ـ إنّه مطلوبي يا أبي. . .

فضحك العجوز قائلًا:

ـ أخيرًا نَوَّرك القمر!

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارًا. وجدتني مُنفرِدًا بها في أمان كما بدا ولٰكن في حيرة أفسدت عليّ السعادة المتاحة الشاملة. أيعني هٰذا الزواج في هٰذه الدار؟ أيعني إباحيّة كالتي شهدتها تمارَس تحت ضوء القمر؟. وراحت تنظر إليّ وتنتظر، وحبّي يهفو إليها من تحت غشاء القلق. وسألتها:

ـ ما معنى هٰذا يا عروسة؟

سألتني:

ـ ما اسمك ومن أيّ البلاد أنت؟

ـ اسمي قنديل، ومن دار الإسلام. . .

ـ عمّ تسأل؟

فسألتها وأنا أشير إلى الخارج:

ـ أهو أبوك؟

ـ نعم.

ـ أيّ علاقة بيننا الآن؟

ـ عرف أبي أنّك تعجبني فدفعك إليّ.

ـ هٰذا هو المتّبع هنا؟

ـ طبعًا.

ـ وماذا بعد ذٰلك؟

ـ لا أدري، لٰكن لماذا تغطّي وسطك بهٰذه الوزرة؟

وراحت تنزعها بازدراء، ووقفنا نترامق، وفجأة ركعت طارحًا عن عاتقي كلّ همّ، وضممت ساقيها إلى صدري. وعند الظهيرة قال لي الأب:

ـ ادعنا إلى الغداء. . .

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأسرة واحدة. وعقب استراحة قصيرة قال العجوز:

ـ اذهب مصحوبًا بالسلامة. . .

فسألته بقلق:

ـ هل آتي غدًا؟

فقال دون مبالاة:

ـ هٰذا شأنها وشأنك. . .

رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل. تلخّصت الحياة كلّها في عروسة. والتمست عند فام مزيدًا من الضوء فقال:

ـ هٰذه العلاقة تمارَس هنا بلا قيود، ما إن تُعجب فتاة بفتى حتّى تدعوه على مرأى ومسمع من أهلها، وتنبذه إذا انصرفت عنه نفسها محتفظة بالذرّيّة التي تنسب إليها. . .

وكرهتُ ذٰلك من صميم قلبي غير أنّ فام قطع عليّ أفكاري قائلًا:

ـ سنذهب عصرًا إلى كاهن القمر وهو يرحّب بك. . .

كان حماسي للّقاء قد فتر شيئًا ما ولٰكنّي استعنت عليه بالعزيمة حتّى أُنجز كتاب رحلتي على أكمل وجه. واصطحبني فام عصرًا إلى خيمة الكاهن التي قامت في بقعة خالية، وكان يجلس متربّعًا على فروة أمام مدخلها فرمقني متمعّنًا وقال:

ـ اجلس. . . أهلًا بك. . .

وفارقنا فام فقال الكاهن:

ـ أخبرني فام أنّك تدعى قنديل محمّد العنّابي وأنّك من دار الإسلام؟

فقلت متودّدًا:

ـ هٰذا حقّ. . .

فقال وهو ينفذ بعينيه في صدري:

ـ واضح أنّك تجري وراء المعلومات شأن الرحّالة الغريب!

فقلت برقّة:

ـ عند الحكيم توجد المعاني التي تخفى على المشاهد العابر. . .

فقال بهدوء:

ـ كن صريحًا ولا خوف عليك فلن تخرج المعاني إلّا لمن يطرق الباب بصدق. . .

تفكّرت مليًّا ثمّ قلت بادئًا بالموضوع الذي يستغرقني:

ـ أعجب ما صادفني في المشرق علاقة الرجل بالمرأة. . .

فابتسم قائلًا:

ـ نصف المصائب في البلدان إن لم يكن كلّها تجيء من القيود المكبِّلة للشهوة، فإن شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوًا ورضى!

فقلت بحذر:

ـ في دارنا يأمرنا الله بغير ذٰلك!

ـ عرفت أشياء عن داركم، عندكم الزواج وكثيرًا ما يتمخّض عن مآسٍ مؤسفة، والناجح منه يستمرّ بفضل الصبر، كلّا يا صاحبي، حياتنا أبسط وأسعد.

فتساءلت بقلق:

ـ قد تزهد المرأة عندكم في رجلها وهو ما زال مقيمًا على حبّها؟

ـ النساء كثيرات، والسلو يسير، كلّ متاعبكم تجيء من الحرمان...

ـ حتّى الحيوان يغار على شريكته!

فابتسم قائلًا:

ـ يجب أن نكون أفضل من الحيوان...

فتمتمت وأنا أخفي تقزّزي:

ـ لا سبيل إلى التلاقي...

ـ إنّي مسلّم بهٰذا، ولٰكن عليك أن تفهمنا جيّدًا، إنّنا ننشد البساطة واللعب، إلٰهنا لا يتدخّل في شئوننا، إنّه يقول لنا كلمة واحدة وهي أنّه لا شيء يدوم في الحياة وأنّها إلى محاق تسير، بذٰلك أشار إلى الطريق في صمت، أن نجعل من حياتنا لعبًا ورضى...

فقلت مُتشجّعًا بحرارة الحديث:

ـ لقد سمعت موعظتك، ووجدتها لا تنطبق على السيّد المالك لكلّ شيء...

فهزّ رأسه في أسى وقال:

ـ كثيرًا ما يحوم الغرباء حول ذٰلك، ولٰكنّ السيّد هو الذي يدفع عن الدار هجمات البدو، وهو ـ وبقيّة السادة ـ أملنا في التصدّي لأطماع دار مثل دار الحيرة، أجل الحرب تتهدّدنا، والسادة هم الذين يعدّون أنفسهم للدفاع، وهم أيضًا الذين يتصدّون لأيّ عدوان في الداخل فيهيّئون للعبيد حياة آمنة، هل تستكثر عليهم بعد ذٰلك أن يملكوا كلّ شيء لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة؟!

فقلت مُتحدّيًا:

ـ يوجد نظام أفضل يوفّر للناس كافّة حقوقهم ويعدّهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة!

فمطّ الرجل شفتيه مضمومتين وقال بحسم:

ـ الكائنات في دارنا أنواع: نبات، وحيوان، وعبيد، وسادة، ولكلّ نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى...

فقلت وأنا في غاية الاستياء:

ـ الناس عندنا إخوة من أب واحد وأمّ واحدة لا فرق في ذٰلك بين الحاكم وأقلّ الخلق شأنًا...

فلوّح بيده استهانة وقال:

ـ لست أوّل مسلم أحادثه، إنّي أعرف عنكم أشياء وأشياء، ما قلت هو حقًّا شعاركم ولٰكن هل يوجد لتلك الأخوّة المزعومة أثر في المعاملة بين الناس؟

فقلت بحرارة وقد تلقّيت طعنة نجلاء:

ـ إنّه ليس شعارًا ولٰكنّه دين...

فقال ساخرًا:

ـ ديننا لا يدّعي ما لا يستطيع تطبيقه...

فقلت وقد شدّتني الصراحة إلى أعماقها:

ـ إنّك رجل حكيم، إنّي أعجب كيف تعبد القمر وتتصوّر أنّه إلٰه؟!

فقال بجدّيّة وحدّة لأوّل مرّة:

ـ إنّنا نراه ونفهم لغته، هل ترون إلٰهكم؟

ـ إنّه فوق العقل والحواسّ...

فقال باسمًا:

ـ إذن فهو لا شيء!

كدت ألطمه ولٰكنّي كظمت حنقي واستغفرت ربّي، وقلت:

ـ إنّي أسأل الله لك الهداية.

فقال باسمًا:

ـ وإنّي أسأل إلٰهي لك الهداية.

وصافحته مُودِّعًا، ورجعت إلى الفندق ثائر الأعصاب موجع القلب. وعاهدت نفسي أن أسمع ـ في رحلتي ـ كثيرًا وأن أناقش قليلًا أو لا أناقش على الإطلاق. وقلت لنفسي مُتحسّرًا:

ـ ديننا عظيم وحياتنا وثنيّة!

ومع اليوم التالي ذهبت مبكّرًا إلى السوق، إلى خيمة عروسة، رحّب بي العجوز باسمًا وقالت عروسة بدلال:

- تأخّرت حتّى قلت إنّه هرب...

ولثمت ثغرها فهمّت بالذهاب إلى ركننا المستور ولٰكنّي أوقفتها وقلت لأبيها:

- يا والدي أريد أن أتزوّج من عروسة.

فقهقه العجوز فاضحًا فاه المثرم وقال:

- كما تفعلون في بلادكم؟

- أجل، وفي تلك الحال سأصطحبها معي في رحلتي حتّى نرجع معًا إلى وطني...

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل:

- ماذا ترين يا عروسة؟

فقالت عروسة بسرور:

- تحت شرط أن يتعهّد بإرجاعي إلى المشرق إذا راق لي ذٰلك...

فقلت بلا تردّد:

- لك هٰذا يا عروسة!

- ولٰكنّني لا أملك حقّ الموافقة النهائيّة، فنحن جميعًا عبيد السيّد وهو مالكنا الشرعيّ، فاذهب إلى القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة...

اعترضتني هٰذه العقبة التي لم ترد لي بحسبان ولٰكنّني لم أجد بدًّا من تذليلها. وأمضيت نصف النهار مع عروسة في سعادة وراحة عميقتين. ولـمّا رجعت إلى الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلني فوعد باصطحابي إلى الحاجب. هٰكذا قدّر لي أن أعبر باب القصر، وأن أشهد جانبًا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها وأنا في طريقي إلى ركن الحاجب. كان يجلس في صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد، مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة. كان فوق الستّين، بدينًا، ثقيل النظرة، مُغلّفًا بالعزلة والكبرياء. لثم فام يده وعرض مطلبي ولٰكنّ الحاجب لوّح بيده رافضًا، وقال:

- منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد.

ونظر إليّ وقال:

- انضمّ إلينا إذا شئت كما فعل فام فتندرج في جملة العبيد وتتمتّع بالأمن والرضى والجارية معًا.

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبة والشجن. وقال لي فام ونحن ماضون نحو الفندق:

- استمتع بفتاتك حتّى تشبع، وسرعان ما تشبع!

فضاعف من أحزاني وهو لا يدري. وواصل حديثه قائلًا:

- لم يكن الوقت مناسبًا لإنجاح مسعاك فثمّة أنباء عن تحفّز الحيرة لإعلان الحرب علينا...

فسألته بقلق:

- وما الأسباب وراء ذٰلك؟

فضحك بمرارة قائلًا:

- الطمع في كنوز السادة والمراعي الغنيّة، ولن تعوزهم علّة يعتلّون بها...

وساورني القلق فزاد من متاعب قلبي. وافترقنا عند أقرب نقطة إلى السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من فوري. واستقبلني العجوز مُتفحّصًا وجهي فقال:

- خاب مسعاك والقمر...

وضحكت عروسة ضحكة لا معنى لها فرددت بأسف:

- خاب مسعاي.

فقال العجوز ضاحكًا وهو يومئ إلى عروسة:

- إنّها تنتظرك!

فقلت بأسى:

- يعزّ عليّ أن تكون علاقتي بها عابرة.

فقال العجوز ساخرًا:

- كلّ علاقة عابرة يا غريب.

فقلت بحرارة:

- تمنّيت أن تكون دائمة.

فقال مقهقهًا:

- يا لك من رحّالة أنانيّ...

ثمّ وهو يواصل القهقهة:

- حذارِ من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحبّ البساطة!

- كأنّكم لا تعرفون الحبّ!

- نعرف أنّه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام في الأحوال الجنونيّة. فماذا تريد أكثر من ذٰلك؟

سألته جادًا:

- ماذا تقترح لمجنون مثلي؟
- استأجرها لمدّة تتجدّد حتّى تنتهي!
- هل أرجع في ذٰلك إلى الحاجب أيضًا؟
- كلّا، هٰذا حقّي بصفتي والدها، أيّ مدّة تريد؟
- أطول مدّة ممكنة.
- استأجرها شهرًا بشهر.
- ليكن.
- ولٰكنّ الاتّفاق ينتهي حال ترغب هي في ذٰلك.

فحنيت رأسي موافقًا فقال:

- الشهر بثلاثة دنانير. . .

تمّ الاتّفاق ومضيت بعروسة إلى حجرتي بالفندق. صمّمت على ألّا أفسد سعادتي، وأن أعتبر الساعة الراهنة هي العمر كلّه. ولٰكنّي قلت لها برجاء:

- دعيني أستر جمال جسدك.

فقالت بانزعاج:

- لا تجعل منّي أضحوكة.

فتراجعت مسلّمًا بكلّ شيء. وتراءت لي وهمًا سعيدًا ينذر بالزوال فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن. ولٰكنّ الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب. وكانت تحبّ الانطلاق في المراعي والتجوّل في السوق فسرنا معًا في حبور. ورآني القاني بن حمديس فأقبل نحوي قائلًا:

- نحن راحلون مع الفجر.

فقلت في حياء:

- ولٰكنّني باقٍ.

فقال ضاحكًا:

- ستجد قافلة كلّ عشرة أيّام. . .

إنّي مستغرق بالحبّ ولا شأن لي بالزمن. لا أهمّيّة الآن للرحلة ولا للمهمّة، ولو بقيت لآخر العمر. وها هي بشائر الأمومة تهلّ بأفراحها القلبيّة وأسقامها الجسديّة فأستعيد بها من تقلّبات القلوب وجوامح الأهواء، وأطمح إلى حياة مُستقرّة ولو ربطتني في النهاية بالمشرق، وغيّرت بشرتي وأحلامي. وقلت ساخرًا من نفسي:

- يبدو أنّني خُلقت للحبّ لا للرحلات!

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى ساحة العبادة. ذهبنا إلى الساحة زوجين حتّى انحشرنا في الزحام. هناك قالت لي بجدّيّة:

- هٰذه ليلة الإلٰه ينفصل فيها القرين عن قرينه. . .

وفرّت من بين يديّ فذابت في الجموع. لبثت وحيدًا مضطربًا غاضبًا مسلوب الإرادة والسرور وتتابعت الطقوس وأنا أتساءل عمّا تفعله حبيبتي مع آخر غريب. ولمّا جاءت ساعة العناق تعرّضت لي امرأة في الأربعين على شيء من الجمال وفتحت لي ذراعيها. رأيت فيها يقع لي ما يقع مع عروسة في مكان ما. ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحًا، فغبت عن وعيي واندمجت في صلاة المشرق. وعند الفجر تكوّمت مقرفصًا عند مدخل الفندق حتّى وافتني عروسة وهي تترنّح. نهضت إليها واجمًا فتأبّطت ذراعي إلى حجرتنا وهي تسألني:

- أعجبتك المرأة؟

فقلت بمرارة:

- لقد نجّسنا علاقة مقدّسة يا عروسة. . .

فقالت بانزعاج:

- إنّك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لي في ذٰلك.

ثمّ أقبلت عليّ باسمة وهي تقول:

- ما زلت أحبّك، ما زلت رجلي الوحيد. . .

أعترف بأنّ حبّي لم يضعف، وبأنّ الخوف من الفراق كان يلهبه. باتت سعادتي وشقائي. وحرقني الصيف فهو جحيم، وفيه تنمحق الخضرة وتقتات الماشية على المخزون المجفّف من الأعشاب، ويجيء الخريف فتهدأ النيران قليلًا ويسقط الرذاذ من حين لحين، ثمّ يقبل الشتاء بجوّه اللطيف المعتدل وأمطاره الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية ويظلّ العراة عراة. وتنجب عروسة وليدها الأوّل فيسمّى «رام بن عروسة» كأنّما أنجبته وحدها ولا شأن لي به. ويقول لي أبوها:

- ها أنت تدخل في عامك الثاني وهي ما زالت تحبّك، أأنت ساحر يا غريب!!

وبزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام بن عروسة،

وتبعه بعد عام لام بن عروسة وحملت للمرّة الرابعة حتّى اشتهرت علاقتنا بين القوم بالشذوذ، وقيل إنّي أشدّها إليّ بقوّة السحر الذي لُقّنته في دار الإسلام. وانسقت وأنا لا أدري إلى تربية رام على مبادئ الإسلام. وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفّره له من عناية وغذاء وقد أعطى مثالًا لما كان ينبغي أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبوديّة. كفّرت بتلقينه مبادئ الإسلام عن إهمالي الاضطراريّ لعقيدتي احترامًا للبلد الذي يؤويني، غير أنّ عروسة لم تخفِ استياءها وقالت لي بجدّيّة:

ـ إنّك تنشئه على الكفر وتعدّه لحياة تعيسة في بلده... فقلت برقّة:

ـ إنّي أنقذ روحه كما تمنّيت أن أنقذ روحك ذات يوم... فقالت بصرامة:

ـ لن أسمح لك بهذا أبدًا...

تبدّت صارمة عنيدة حتّى جزعتُ خوفًا على حبّي. وأفضت إلى أبيها بهمومها ونحن في زيارة له فهاله الأمر وصاح بي:

ـ ابعد عن ابننا يا غريب...

وخيّل إليّ أنّ النبأ تسرّب إلى الخارج، رغم تكتّمنا له، وأنّ نظرات الغضب تحرقني في الطريق. وطاردني القلق حتّى قلت لنفسي:

ـ البناء مُهدَّد بالانهيار...

وصدق حدسي فجاءني فام صاحب الفندق فأخذني من حجرتي إلى حجرته حيث وجدت ضابط شرطة في انتظاري. سألني:

ـ أنت قنديل محمّد العنّابي؟

فأجبت بريق جافّ:

ـ نعم.

فقال بجفاء:

ـ ثبت أنّك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر...

فسألته بجزع:

ـ كيف ثبت هذا؟

ـ نحن أدرى بواجبنا، اسمع فلم أحضر للمناقشة، صدر أمر السيّد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها، وأن ترحل عن المشرق مع أوّل قافلة...

هممت بالكلام ولكنّه قال بغلظة:

ـ لم أحضر للكلام، أنت محجوز معي حتّى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها، وستظلّ تحت الحراسة حتّى تلحق بالقافلة...

فقلت بضراعة:

ـ دعني أودّعهم...

فقال بخشونة:

ـ لقد وقع عليك أخفّ جزاء فكن شكورًا...

ورجعت إلى حجرتي بعد ساعة ـ التي تحوّلت إلى سجن ـ فوجدتها خالية من الأمّ والأولاد والحبّ والأمل. لحظة كئيبة تنداح في أعماق النفس فتنكشف الحياة عن حلم أو وهم. ولحق بي فام فرمقني بعطف وقال:

ـ تحمّل كما يجدر برجل رحّالة!

فقلت بصوت متهدّج:

ـ حزني شديد جدًّا يا فام...

تفرّس في وجهي قليلًا ثمّ قال:

ـ أطلق دموعك، الرجال يبكون أحيانًا...

فقلت وأنا أشدّ على محابس دموعي:

ـ تبخّرت مسرّات الحياة...

ـ إنّها تتجدّد وتجيء أيضًا بالعزاء...

وربّت منكبي ثمّ قال:

ـ تعلّم أنّ الرحّالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة...

دارُ الحيرة

تحرّكت القافلة في ظلمة الفجر المبشّرة. شدّ قلبي إلى الوراء وغصّ حلقي بالحزن والدموع، وتجمّعت النجوم فوقنا تنظر إلينا وننظر إليها وانعدم العزاء. كما فارقت وطني منذ حوالى خمسة أعوام محبطًا بخيانة الأمّ والحبيبة والولاة. انقلبتُ رحّالة مرّة أخرى أفكّر بالبلدان والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل أين؟ وقلت إنّ هذه النجوم أقرب إليّ من عروسة والأبناء. وستظلّ القوافل تسير حاملة الأموال والآمال فمن

يحمل الأحزان؟. ويتلاشى الظلام ويشرق النور وتتبدّى الصحراء بلا حدود كأنّها الفناء. ترى ماذا يقولون عنّي في الوطن ولِمَ لم أصادف مرّة أخرى القاني ابن حمديس. وقلت لنفسي إنّ خير ما تفعل يا رحّالة أن ترى وتسمع وتسجّل وأن تتحاشى التجارب. وأن تعاود أحلامك عن دار الجبل. وأن تحمل الدواء الشافي لجراح الوطن. وقطعنا المسافة ما بين المشرق والحيرة في شهر ثمّ عسكرنا على كثب من واحة الزمام لندخل دار الحيرة عند منتصف الليل. وواصلنا السير مع الليل حتّى تبدّى لنا سور الدار تحت ضوء النجوم ومضينا نقترب من بابها الكبير.

أمام المدخل، على ضوء المشاعل، وقف مدير الجمرك، وكان على ما بدا من العسكريّين بخوذته ودرعه وسيفه ووزرته القصيرة. قال بصوت قويّ أسمع القافلة كلّها:

ـ أهلًا بكم في الحيرة عاصمة دار الحيرة، ستجدون رجال الشرطة في كلّ مكان فتسألونهم عمّا تريدون، وتتبعون إرشاداتهم بدقّة تجعل من رحلتكم ذكرى طيّبة لا يشوبها ما ينغّص.

فقلت لنفسي «إنّه ترحيب وإنذار». واخترقنا الباب ثمّ انقسمنا فذهب التجّار إلى فندق السوق، ومضى بي دليل إلى فندق الغرباء. اخترقنا ظلامًا شديدًا، تسبح فيه مشاعل رجال الشرطة هنا وهناك كالنجوم. واقتربنا من الفندق فرأينا مدخله الكبير على ضوء المشاعل، وشعّ نور من بعض النوافذ. إنّه بناء كبير مشيّد بالأحجار ولكنّه مكوّن من دور واحد. وسرعان ما ذهبت وراء حقائبي المحمولة إلى حجرتي. حجرة متوسّطة، بها فراش يعلو عن الأرض ذراعًا، ذو غطاء أرجوانيّ يناسب جوّ الخريف المعتدل، وبه صوان ملابس، وأريكة صغيرة، وثمّة شمعدان في كوّة في الوسط تشتعل به شمعة غليظة متوسّطة الطول، أمّا الأرض فمغطّاة بحصيرة مزركشة. توجد حضارة ولا شكّ، وشتّان ما بينها وبين المشرق. وما كدت أخلع ملابس السفر وألبس قميص النوم حتّى جاءني رجل متوسّط القامة أسمر في الخمسين يرفل في عباءة خفيفة. قال:

ـ هام... صاحب الفندق...

فصافحته قائلًا:

ـ قنديل محمّد العنّابي، رحّالة...

ـ أتريد عشاء؟

ـ تناولته في الطريق.

فابتسم وقال:

ـ الليلة بياتًا وطعامًا بدينار والدفع مقدّمًا...

قدّرت أنّ إقامتي ستمتدّ عشرة أيّام فأدّيت إليه عشرة دنانير فسألني:

ـ من أيّ البلاد؟

ـ دار الإسلام.

فقال محذّرًا:

ـ لا يُمارَس في الحيرة إلّا دين الحيرة.

فذكّرني بمآساتي ولكنّي سألته:

ـ وما دين الحيرة يا سيّد هام؟

ـ إلهنا هو الملك.

وحيّاني وانصرف. نفخت الشمعة فأطفأتها وآويت إلى الفراش وأنا أقول لنفسي، الملك بعد القمر، يا له من ضلال. ولكن رويدك، ألا يتصرّف الوالي في وطنك كأنّه إله؟!. استمتع بالرقاد بعد متاعب السفر، ولُذْ بالنوم من متاعب الحياة كلّها. استيقظت مبكّرًا بخلاف ظنّي وفي الحال أدركت أنّ جلبة شديدة تهبّ من الطريق هي التي انتزعتني من نومي. وفتحت نافذة فرأيت في ضوء البكور جيشًا لجبًا، فرسانًا ورَجّالة، يتقدّم على دقّات طبل نحو باب المدينة. جعلت أشاهد وأتساءل. ولمّا خلا الطريق طلبت الفطور فجاءتني صينيّة من نحاس عليها طعام مكوّن من حليب وزبد وجبن وعيش وعنقود من العنب. هممت أن أسأل الخادم عن مسيرة الجيش ولكنّ الحذر أمسكني. وارتديت ملابسي للخروج فوجدت مدخل الفندق مكتظًّا بالناس وهم يتحاورون:

ـ إنّها الحرب كما توقّع كثيرون.

ـ ضدّ المشرق ولا شكّ...

ـ لتحرير شعب من خمسة من الطغاة...

ـ سيكون تاريخًا جديدًا للمشرق تحت حكم إله عادل...

انقبض صدري وطارت أفكاري لتحوم حول عروسة وأبنائها. كيف يكون مصيرهم؟. ليست الرغبة في تحرير أهل المشرق هي ما دفعت إلى الحرب ولٰكنّه الطمع في المراعي وكنوز السادة الخمسة. وسوف يقع قهر شديد لتحويل الناس من عبادة القمر لعبادة الملك. سوف تزهق أرواح وتهتك أعراض وتتشرّد الألوف. ألا يحدث ذٰلك في حروب تنشب بين أناس على دين واحد يدعو للتوحيد والأخوّة؟!. وجاءني هام صاحب الفندق قبل أن أغادره وقال لي:

- تقرّر رفع الأجرة نصف دينار لمواجهة أعباء الحرب.

فأدّيتها صاغرًا فقال باسمًا:

- ليس كثيرًا في سبيل تحرير العبيد!

فلعنته في سرّي كما لعنت الشعارات الكاذبة جميعًا. ومن شدّة قلقي ذهبت إلى فندق السوق فوجدت رفاقي التجّار مجتمعين في البهو. جالستهم متابعًا أحاديثهم:

- أيّام الحرب غير مأمونة...

- قد تضيع أموالنا لآخر درهم.

- ولٰكنّ الأسعار سترتفع أيضًا.

- والمكوس الإضافيّة؟

وقال صاحب القافلة:

- الحروب لا تزول أبدًا، ونفعها للتجارة أكثر من ضررها، ولا أظنّ أنّ هٰذه الحرب ستطول فالحيرة أقوى من المشرق بما لا يقاس، في أقلّ من أسبوع سينتهي كلّ شيء...

تركّزت أفكاري على أسرتي المفقودة. قرّرت البقاء في الحيرة قريبًا من المشرق. وراودني أمل جديد أنّه بعد ضمّ المشرق إلى الحيرة أستطيع أن أسافر إلى المشرق لعلّ الله يجمعني بأسرتي رحمة منه وكرمًا. ولعلّي أستطيع أن أتزوّج منها وأمضي بها معي في رحلتي إلى وطن جديد ودين جديد. طابت حياتي بهٰذا الأمل الجديد فانشرح صدري للتجوّل والرحلة، واكتشاف الحيرة عاصمة دار الحيرة. سرت بلا توقّف وبلا كلل. أنظر وأسمع وأسجّل في الذاكرة. إنّها مدينة كإحدى مدن بلادي. فيها ميادين وحدائق، وشوارع وحَوارٍ، وعمائر وبيوت ومدارس ومستشفيات، عامرة بالخلق، وفي كلّ موقع شرطيّ، وملاهي الرقص والغناء موفورة. وسوقها كبيرة مترامية متعدّدة الحوانيت، وبها سلع من الحيرة ومن جميع البلدان. وبعث في جوّ الخريف المعتدل نشاطًا غير محدود فتواصلت أيّام الاكتشاف والمشاهدة والتسجيل. ومن آنٍ لآنٍ أزور فندق السوق فألقى الرفاق أو أجالس صاحب القافلة، وقد قال لي مرّة:

- جوّ الحيرة معتدل بصفة عامّة، صيفه محتمل وشتاؤه مقبول...

ولـمّا حدّثته عن كثرة رجال الشرطة قال لي:

- الأمن مستتبّ ولٰكنّهم يحمون الدولة...

الحقّ أنّي طفت بأحياء الأغنياء وهي جميلة هادئة، قصورها متاحف، وسكّانها يتحرّكون في هوادج، كما زرت أحياء الفقراء بأكواخها وخرائبها ومناخها الكئيب وأناسها التعساء وقلت في ذٰلك لصاحب القافلة:

- يزعمون أنّ الحرب قامت من أجل تحرير العبيد في المشرق، هلّا حرّروا عبيد الحيرة؟

فتساءل الرجل هامسًا:

- وماذا تقول في بلادنا، بلاد الوحي؟!

فقلت بحزن:

- ما من سيّئة عثرت بها في رحلتي إلّا وذكّرتني ببلادي الحزينة...

فقال لي الرجل وهو يمضي عنّي:

- عليك أن تشاهد قصر الملك الإلٰه...

ولم يغب عنّي ذٰلك، وقد وجدته قائمًا منيفًا شامخًا في عزلة وسط فراغ مسوّر بالنخيل والحرّاس. إنّه مثل قصر الوالي في وطني أو أفخم. وثكنات الحرس تقوم في جانب، ومعبد الملك الإلٰه يقوم في جانب آخر. وشدّ بصري حقل من الأعمدة مسوّر بسياج من حديد فاقتربت منه حتّى رأيت أنّ رءوسًا آدميّة منفصلة عن أجسادها تتدلّى من هامات الأعمدة. ارتعدت لهول المنظر. ولا أنكر أنّني رأيت صورة مصغّرة منه في صباي في وطني. إنّهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة. واقتربت من حارس وسألته:

- هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هٰؤلاء القتلى؟

فأجابني بجفاء:

- التمرّد على الملك الإله!

فذهبت مسديًا إليه شكري، وأنا على يقين من أنّهم شهداء للعدل والحرّيّة قياسًا على ما يقع عادة في بلاد الوحي. إنّه عالَم غريب حافل بالجنون، وستكون معجزة حقًّا إذا وجدت الدواء الشافي في دار الجبل.

وسألت هام صاحب الفندق مساء:

- ماذا في دار الحيرة من مواقع تستحقّ المشاهدة خارج العاصمة؟

فقال الرجل بثقة:

- عدا العاصمة لا يوجد إلّا الريف وليس به ما يسرّ الرحّالة...

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحني ذلك من التفكير في عروسة وأبنائها. وسهرت ليلة في ملهى فهالتني عربدة السكارى وفسق الفاسقين ممّا يعفّ قلمي عن الخوض فيه. وعند مروري بفندق السوق قال لي صاحب القافلة:

- نحن سائرون فجر الغد فهل تجيء معنا؟

فأجبته واجمًا:

- كلّا، إنّي باقٍ بعض الوقت...

جذبتني عروسة للبقاء ولكن آلمني ما ينتظرني من وحدة مخيفة. واستيقظت عند الفجر فتخيّلت القافلة وهي تتحرّك على صوت الحادي. نداء كالقدَر يدعوني للبقاء وأمل في السعادة لا يريد أن يخبو. ولم أشأ أن أبدّد وقتي سدًى فنشطت لتحصيل المعلومات التي لا تجود بها المشاهدة. ولم أجد عند صاحب الفندق فراغًا للحديث كالذي وجدته في المشرق، فسألته أن يدلّني على حكيم هٰذه الدار إن سمح لي بلقاء. قال هام:

- في وسعي أن أعدّ لك لقاء كما حدث مع غيرك...

وذهبت في الميعاد عصرًا إلى بيت الحكيم ديزنج. بيت جميل تكتنفه حديقة ملأى بالأزهار وأشجار الفاكهة. استقبلني بابتسامة لطيفة وأجلسني على أريكة إلى جانبه. كان في الخمسين قويّ الجسم واضح القسمات تتواءم قلنسوته البيضاء مع عباءته البيضاء. طلب منّي أن أقدّم نفسي ففعلت ذاكرًا اسمي ومهمّتي ووطني. قال:

- بلادكم عظيمة أيضًا، خبّرني عمّا أعجبك في دارنا؟

فقلت مداريًا ذاتي:

- أشياء لا تعدّ ولا تحصى... حضارة وجمال... قوّة ونظام...

فسأل في مباهاة:

- وما رأيك في حرب نعلنها مضحّين بأبنائنا من أجل تحرير دار غريبة؟

- هٰذا ما لم نسمع بمثله من قبل...

فقال بيقين:

- نحن نقدّم للناس مثالًا للوطن السعيد الشريف...

فأحنيت رأسي موافقًا فقال:

- لعلّك تسأل عن سرّ ذٰلك كلّه؟ لقد دلّوك عليّ باعتباري حكيم هٰذا البلد، والحقّ أنّني ما أنا إلّا تلميذ، مولانا هو الحكيم وهو الإله وهو مصدر كلّ حكمة وخير، إنّه يجلس على العرش، ثمّ ينعزل في جناح صائمًا حتّى يشعّ منه النور فيعرف أنّ الإله قد حلّ فيه، وأنّه صار الإله المعبود، عند ذاك يمارس عمله، يرى كلّ شيء بعين الإله، فنتلقّى منه الحكمة الأبديّة في كلّ شيء، ولا نطالَب بعد ذٰلك إلّا بالإيمان والطاعة...

تابعته باهتمام وأنا أستغفر ربّي في سرّي، أمّا هو فواصل حديثه قائلًا:

- فهو ينشئ الجيش ويختار له قوّاده فيكون جيش النصر، ويعيّن مِن أسرته المقدّسة الحكّام، وينتخب من الصفوة قادة للعمل في الأرض والمصانع، أمّا بقيّة الناس فلا قداسة بهم، ولا مواهب، يعملون في الأشغال اليدويّة، ونوفّر لهم اللقمة، يلي هٰؤلاء الحيوانات، ويلي الحيوانات النبات والجماد، نظام محكم كامل يضع كلّ فرد في موضعه محقّقًا بذٰلك العدل الأكمل...

وسكتَ مليًّا وهو ينظر إليّ ثمّ قال:

- لذٰلك فنحن لنا أكثر من فلسفة، نخاطب الصفوة بما يقوّي في نفوسهم القوّة والهيمنة والنموّ،

ونستعين على ذٰلك بتوفير التعليم لهم والطبّ، أمّا الآخرون فنقوّي بهم مواهب الطاعة والانقياد والقناعة، ونهديهم إلى الكنز الروحيّ المدفون في أعماق كلّ منهم، والذي يهيّئ لهم بالصبر والاجتهاد السلام، بهٰذه الفلسفة المزدوجة تتحقّق السعادة للجميع، كلّ بحسب استعداده وما أُعدّ له، فنحن أسعد أهل الأرض طرًّا...

تفكّرت فيما يقال وفيما لا يقال ثمّ سألته:

ـ مَن يملك الأرض والمصانع؟

ـ الإلٰه، هو الخالق وهو المالك...

ـ وعلاقة الصفوة بها؟

ـ هم ملّاكها بالنيابة، والريع يقسم مناصفة بينهم وبين الإلٰه.

فوثبت خطوة جديدة متسائلًا:

ـ كيف تُنفَق أموال الإلٰه؟

فضحك لأوّل مرّة وقال:

ـ وهل يُسأل إلٰه عمّا يفعل؟!

ـ إذن مَن ينفق على المدارس والمستشفيات؟

ـ الصفوة باعتبارها وقفًا عليهم وعلى أبنائهم.

ثمّ متسائلًا في زهو:

ـ أليس هٰذا هو الكمال نفسه؟!

فقلت مداريًا ما في نفسي:

ـ هو ما يقال عادة عن دار الجبل.

فهتف بقوّة:

ـ دار الحيرة هي دار الجبل.

فقلت بوضوح:

ـ صدقت أيّها الحكيم ديزنج!

فقال بثقة ويقين:

ـ أن تعيش بإرشاد الإلٰه وتوجيهه هو أقصى ما يطمح إليه الإنسان من عدل وسعادة.

فقلت متسلّلًا:

ـ لذٰلك يشتدّ عجبي من أولٰئك المتمرّدين الذين رأيت رءوسهم المعلّقة!

فهتف بغضب:

ـ لا تخلو طبيعة البشر من انحراف وسوء ولٰكنّهم قلّة على أيّ حال.

وفي نهاية المقابلة قدّم لي تفّاحة وقدحًا من حليب فرجعت إلى وحدتي في الفندق متفكّرًا مغتمًّا. وتذكّرت أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي فسألته على البعد:

ـ أيّهما أسوأ يا مولاي، مَن يدّعي الألوهيّة عن جهل أم من يطوّع القرآن لخدمة أغراضه الشخصيّة؟!

وكابدت الملالة أيّامًا ثمّ بلغتني أنباء انتشرت مع نسائم الخريف تؤكّد أنّ جيش الحيرة قد انتصر وحقّق أهدافه، وأنّ دار المشرق أصبحت الإقليم الجنوبيّ لدار الحيرة. وتدفّق الفقراء إلى الطرقات يعلنون فرحتهم بالنصر كأنّهم هم الذين سيجنون ثمرته. وتساءلت في قلق بالغ:

ـ ترى كيف أنت يا عروسة؟... وكيف أنتم يا أبنائي؟!

وبكّرت يوم عودة الجيش المنتصر فاتّخذت موقفي غير بعيد من الفندق، في الطريق الملكيّ الممتدّ من مدخل الحيرة حتّى سراي الملك. كان الزحام شديدًا على الجانبين حتّى خيّل إليّ أنّه لم يبقَ من الأهالي أحد في بيته أو مكان عمله. وعند الضحا ترامت إلينا دقّات الطبول، وتقدّم الموكب فرسان يحملون في سنان رماحهم خمسة رءوس هي رءوس السادة الذين كانوا يملكون مدن المشرق. هٰكذا رأيت لأوّل مرّة السيّد الذي ذهبت يومًا إلى حاجبه لمساومته على شراء عروسة. وتبع ذٰلك طابور طويل من أسرى الحرب يسيرون عرايا مكبّلي الأيدي بين صفّين من الحرّاس. وتتابعت فرق الجيش من فرسان ورجّالة في جوّ عاصف بالهتاف الحارّ. يوم نصر وأفراح، أمّا المآسي الدامية التي خلّفها وراءه فلا يعلمها إلّا الله. حياة بشريّة غريبة يمكن تلخيصها في كلمتين، دماء وزغاريد. وفي ذيل الجيش سارت السبايا من النساء بين ذراعين من الحرّاس. خفق قلبي خفقة شديدة وتمثّلت عروسة لعينيّ كما رأيتها أوّل مرّة، بل كما رأيتها وهي تقود أباها في الحارة التي شهدت مولدي!. وزاغ بصري بين الوجوه المنكسرة والأجساد العارية. وصدقت لهفتي فاستقرّت عيناي على وجه عروسة!. هي عروسة بجسدها الممشوق ووجهها المليح التعيس تتقدّم ذاهلة يائسة ضائعة. اشتعل بي نشاط مقتحم.

التزق بصري بها. اندفعت تابعًا لطابور السبايا غير مبالٍ بمن أرتطم بهم من الواقفين ولا باحتجاجاتهم ولا باتّهاماتهم الباطلة بأنّني أجري وراء أجساد النساء العارية. ناديتها مرارًا فتلاشى صوتي في هدير الأصوات المتصاعدة. لم أفلح في لفت نظرها أو تنبيهها. حتّى حجزني عنها الحرّاس الذين منعوا الجماهير من دخول ميدان القصر المخصّص للصفوة من أهل الحيرة. هٰكذا تجلّت واختفت كالشهاب تاركة إيّاي للجنون والقنوط. وأين الأبناء؟. هل يعيشون الآن في كنف جدّهم؟. وفضفضت ضيقي بالإفضاء بسرّي إلى هام صاحب الفندق فقال لي:

ـ قد تعرض للبيع في سوق الجواري!

فقلت في ارتياب:

ـ ولٰكنّها حرب تحرير؟!

فقال:

ـ إلّا السبايا فلهنّ معاملة خاصّة!

باركت هٰذا النفاق باعتباره ثقبًا للأمل في سماء سوداء. وتشبّثت أكثر بالبقاء، وجعلت أطوف بسوق الجواري كلّ يوم، وحلمي بجمع الشمل يتحدّى اليأس، وذات مساء تلقّاني صاحب الفندق بابتسامة مُشجّعة وقال:

ـ غدًا ستعرض السبايا للبيع...

نمت ليلتها نومًا متقطّعًا. وذهبت إلى السوق فكنت أوّل الذاهبين. ولمّا عُرضت عروسة اقتحمت المزاد بإصرار. تبدّت في ثوب أخضر لأوّل مرّة في حياتها، وتجلّى جمالها، رغم الحزن الشديد. وكانت تنظر في داخل ذاتها المهيضة فلم ترني ولم تتابع ما يجري. ولم يبق معي في المزايدة إلّا شخص سمعت من يهمس بأنّه مندوب الحكيم ديزنج. ورسا المزاد عليّ بثلاثين دينارًا، فلمّا دُفعت إليّ عرفتني فارتمت بين يديّ وهي تنشج حتّى أثارت دهشة جميع مَن بالسوق. ولم تكن ثمّة فرصة لتبادل حديث فمضيت بها خارجه، وفي الطريق ما ملكت أن سألتها:

ـ كيف الأبناء يا عروسة؟

ولٰكنّي كففت عن ملاحقتها لشدّة انفعالها حتّى خلوت إليها في حجرتي بالفندق. هنالك عانقتها بحرارة، وتركتها على الأريكة حتّى تثوب لنفسها، ثمّ قلت:

ـ إنّي حزين لما قاسيت من عناء.

فقالت بصوت غريب:

ـ لٰكنّك لم ترَ شيئًا...

ـ حدّثيني يا عروسة فإنّني أوشك أن أجنّ...

فقالت ودموعها تسيل:

ـ عن أيّ شيء؟، إنّه الهول، اقتحموا الخيمة، قتلوا أبي بلا سبب، قبضوا عليّ، أين الأولاد؟... لا أدري، قُتلوا؟... تاهوا؟!... دع الجنون لي أنا...

فقلت مكابرًا مخاوفي:

ـ لماذا يقتلون الصغار؟... كلّا... إنّهم في مكان ما... سنعثر عليهم...

ـ إنّهم وحوش، لماذا يمثّلون بنا بعد الانتصار على جيشنا؟!... لٰكنّهم وحوش. كانت ليلة بدر والإلٰه حاضرًا يرى ويسمع ولا يفعل شيئًا!

فقلت مواسيًا:

ـ على أيّ حال اجتمع شملنا، وقلبي يحدّثني بأنّ الرحمة آتية...

فهتفت:

ـ لا توجد رحمة، ولن أرى أبنائي...

فقلت برجاء:

ـ عروسة، الحياة شرّها كثير، ولٰكنّ خيرها وفير أيضًا...

ـ لا أصدّق...

ـ سترين... سنرحل مع أوّل قافلة إلى المشرق للبحث عن الأبناء...

ـ متى تقوم؟

ـ مداها عشرة أيّام...

رنت إلى لا شيء في حزن عميق ففاض قلبي بالحنين كعين متفجّرة. وتسلّينا في فراغنا الطويل بالتجوّل في المدينة والمشاهدة واجترار الأماني والاستعداد للسفر. غير أنّ هام صاحب الفندق كان يدّخر لي مفاجأة فدعاني إلى حجرته ونظر إليّ بشيء من الحرج وقال:

ـ لديّ أخبار غير سارّة. . .

فتساءلت ساخرًا:

ـ أكثر ممّا لديّ؟

فقال بهدوء:

ـ الحكيم ديزنج يرغب في حوز فتاتك.

فدهشت وقلت بحدّة:

ـ أرجو أن تعتبرها زوجتي. . .

ـ سيؤدّي إليك ثمنها. . .

ـ إنّها ليست سلعة. . .

فقال لي بنبرة ناصحة:

ـ ديزنج رجل قويّ وهو من المقرّبين إلى الإله. . .

فقلت وأنا أداري انزعاجي:

ـ الغرباء في بلادكم آمنون.

فقال بحرارة:

ـ عاود التفكير من أجل صالحك.

فقلت بإصرار:

ـ رأيي في هٰذه المسألة واحد، لا يتغيّر. . .

وحرت في أمري، هل أنقل الحديث إلى عروسة؟. هل أضيف إلى أحزانها حزنًا جديدًا؟. الحقّ أنّي أشفقت من تكدير صفو الحلم الباقي لها. وتساءلت هل يستطيع ديزنج أن ينتزع عروسة منّي بقوّة نفوذه؟. وتذكّرت حاجب الوالي الذي سرق منّي حليمة في وطني، ولٰكنّي لم أطمئنّ إلى رأي مستقرّ. وطوال الوقت شعرت بخطر يطاردني، وبأنّ سعادتي لا تقف على قدمين، ولا أجنحة لها. وفي صباح اليوم السابق ليوم الرحيل بأربعة أيّام استدعاني خادم لمقابلة هام في حجرته. وهناك وجدت ضابط شرطة فقدّمني هام إليه، وإذا به يقول:

ـ ستذهب معي لمقابلة رئيس شرطة العاصمة.

سألته عن السبب فادّعى الجهل به. طلبت أن أخبر فتاتي فقال الضابط:

ـ سينوب عنك هام في ذٰلك. . .

وذهبنا إلى إدارة الشرطة العامّة بالشارع الملكيّ فمثلت أمام المدير الذي جلس على أريكة بين بعض معاونيه. نظر إليّ نظرة لم أرتح لها وسألني:

ـ أنت قنديل محمّد العنّابي الرحّالة؟

فأجبت بالإيجاب، فقال:

ـ إنّك متّهم بالسخرية من دين هٰذه الدار التي تستضيفك!

فقلت بقوّة ووضوح:

ـ تهمة لا أساس لها من الصحّة. . .

فقال ببرود:

ـ يوجد شهود.

فهتفت:

ـ لا يمكن أن يشهد بذٰلك ذو ضمير.

فقال باستياء:

ـ لا تطعن الأبرياء ولتدَعْ ذٰلك لتقدير القاضي.

وألقي القبض عليّ. وفي صباح اليوم التالي قُدّمت إلى المحكمة. أعلنت التهمة فرفضتها. وجاء شهود خمسة على رأسهم هام صاحب الفندق فأدلوا بشهادة واحدة ـ كأنّها قطعة محفوظات ـ بعد أن أدّوا اليمين. وأصدرت المحكمة حكمها بسجني مدى الحياة، مع مصادرة أموالي وما أملك، وبذٰلك دخلت عروسة في المصادرة. حدث ذٰلك كلّه ما بين يوم وليلة. ذقت طعم اليأس المرير وعرفت أنّه حقيقة تقع لا حكاية تروى. ضاعت عروسة، تلاشت الرحلة، تبدّد حلم دار الجبل، اختفى وجودي نفسه من هٰذه الدنيا. وكان السجن عند مشارف المدينة في منطقة صحراويّة. وهو عبارة عن مكان متّسع تحت الأرض، ذي منافذ ضيّقة في السقف، جدرانه من الأحجار الكبيرة، وأرضه رمليّة. ولكلّ سجين سروال لا غير وفروة، يكتنفه جوّ خانق ذو رائحة كدرة، نصف مظلم كأنّه فجر لا تشرق فيه شمس. نظرت حولي وقلت في ذهول: «سأبقى هنا حتّى آخر يوم في حياتي!». وتطلّع إليّ الرفاق وسألوني عن جريمتي. سألوني وسألت. أدركت أنّ ما يجمعنا هي جرائم العقائد والسياسة، وأنّي واجد في ذٰلك شيئًا من العزاء إن أمكن لمثلي أن يتعزّى. إنّهم مجموعة نادرة من الأحرار الذين تضيق بهم الأجواء الفاسدة، سمعوا حكايتي فعلّق أحدهم عليها قائلًا:

ـ حتّى الغرباء. . .

ولم يكن أحد منهم قد كفر بالإله فهٰذه جريمة

عقوبتها ضرب العنق، ولكن نُقلت عنهم تساؤلات ناقدة لبعض التصرّفات الشاذّة التي تمسّ العدالة أو حرّيّة الإنسان. ورأيت بينهم عجوزًا نيّف على الثمانين، قضى منها في السجن خمسين عامًا بدأها على عهد الملك السابق سلف الملك الحاليّ. رأيته قد فقد حواسّه وذاكرته فهو لا يدري أين هو، ولا ماذا جاء به، وينطرح على فروته جسدًا ضئيلًا بلا روح. قال صوت:

- إنّه أجدرنا بالتهنئة.

فصدّقت على قوله بلا تردّد. وحامت أفكارنا حول وضع الإنسان في هٰذا العالم.

- لا يوجد بلد سعيد.

- الشكوى هي لغة الإنسان المشتركة.

- نحن الحائرون بين الواقع القبيح والحلم الذي لا يتحقّق.

- لكن ثمّة بلدان أفضل...

- هي نفسها لم تعرف الرضى بعد.

- ودار الجبل؟

وثب قلبي في صدري حال استقبال الاسم الساحر. تذكّرت بحسرة هدفي الضائع. وسألت:

- ماذا تعرف عنها؟

- ليس أكثر ممّا يقال عادة من أنّها وطن الكمال...

فسألت باهتمام:

- ألم تقرأ عنها كتابًا أو قابلت من زوّارها أحدًا؟

- كلّا... ليس إلّا ما يقال...

- ومنذا يُحقّق الحلم؟

- الإنسان، لا شيء سوى الإنسان...

ومللت الكلام. مللت مكابدة الحسرات. مللت أكاذيب الأمل. وقلت لنفسي:

- لا دنيا لي إلّا هٰذا السجن الأبديّ.

لم أجد في عقلانيّة أستاذي الشيخ مغاغة أيّ جدوى في سجني الدائم ولكنّي وجدت في قدريّة أمّي الساذجة راحة اليأس، كأنّها فلسفة خلقت خاصّة للسجن الأبديّ. قلت مستسلمًا: «لتكن مشيئة الله... فكلّ ما جاءني من عنده». سلّمت نفسي لقدري. دفنت آمالي. شيّعت للفناء ماضيّ وحاضري ومستقبلي. الأمل الوحيد الباقي لسجين مثلي هو قتل الأمل، والتكيّف مع القبر الذي ازدردني، والزواج من اليأس المهيمن المترامي الراسخ. أطرد أشباح الوطن والأمّ وعروسة والأبناء ودار الجبل. وآلف الرائحة الكدرة فلا رائحة في الوجود غيرها، والضوء الخابي نصف المظلم فلا ضوء في الكون غيره، والهوامّ المنتشرة فهي مالكة المكان وصاحبة الحقّ الأوّل فيه، والألم والملل فهما الرفيقان الدائمان. ورحت أغرق في أعماق لانهائيّة. ويسود الصمت ويتحوّل العذاب إلى عادة وأنهل من اليأس قوّة عجيبة على الاحتمال والصبر. ويخترق جدار الصمت صوت يقول:

- يحكى عن سجين قديم أنّه أنشأ في ذاته قوّة خارقة حتّى استطاع أن يخترق جدار السجن كأنّه صوت وطار في الهواء إلى ما وراء الحدود!

فيتلقّى صبري هٰذا الهذيان بطيبة. وبعد يوم أو عام قال صوت آخر:

- قد تقوم الحرب بين الحيرة والحلبة فنصعد مرّة أخرى إلى سطح الأرض...

فأعفو عمّن ذكّرني بسطح الأرض وأتساءل متى أفقد الحواسّ مثل العجوز السعيد!. وهبطت في الأعماق درجات في أثر درجات فضاع الزمن فيما ضاع من أسباب الحياة، واختفى التاريخ. وجهلت الساعة واليوم والشهر والعام، توارت المعالم، وبات عمري لغزًا، وجعلت أكبر بلا تحديد ولا حساب، ولا مرآة أرى فيها نفسي إلّا الرفاق فأتخيّل ما صرت إليه من بشاعة وقذارة، فلم ينعم بالسعادة في دنيانا المظلمة إلّا الهوامّ والحشرات. لا شكّ أنّ الأجيال والعصور والدهور تتعاقب وأنّنا نتذوّق طعم الفناء بجلاله الأبديّ. هٰكذا... هٰكذا... هٰكذا... حتّى زجّ إلينا بقادم جديد التففنا حوله كالهوامّ، ننظر باستغراب إلى القادم من العالم الآخر. رغم كبره وتعاسته خيّل إليّ أنّني لا أراه لأوّل مرّة. وكان العجوز قد مات منذ زمن لا ندريه فحلّ محلّه. وراح ينظر في وجوهنا ويبكي. وقال قائل:

- لا تبكِ يا رجل فالدموع تؤذي الهوامّ...

وسأله سائل:

ـ مَن أنت؟

فأجاب برثاء:

ـ أنا الحكيم ديزنج.

فخرجت من غيبوبتي الأبديّة وصحت بصوت غريب:

ـ ديزنج... ديزنج... هيهات أن أنساك...

فسألني:

ـ من أنت؟!

فهتفت وقد وقعت في الزمن:

ـ إنّي ضحيّتك!

فقال بضراعة:

ـ أصبحنا في البلوى سواء.

فصرخت:

ـ كلّا لسنا سواء.

فهتف:

ـ انقلبت الدنيا، ثار قائد الجيش على الملك وقتله وأحلّ نفسه محلّه!

فدبّت الحياة في الرفاق وانبعثت منهم انتفاضة حماسة، وتساءل أحدهم:

ـ ماذا يحدث فوق سطح الأرض؟

فقال ديزنج:

ـ قتل رجال الملك، أمّا أنا فقضي عليّ بالسجن مدى الحياة...

امتلأت العيدان الخاوية بأمل جديد وتعالى الهتاف للإله الجديد أمّا أنا فسألته بوحشيّة:

ـ ألا تتذكّرني؟

فسألني بخوف:

ـ من أنت؟

فهتفت:



ـ أنا صاحب عروسة، تذكّرتني؟

فتراجع في حذر ونكس رأسه...

ـ ماذا حصل لها يا وغد؟!

قال بذلّ وانكسار:

ـ حاولنا الهرب في القافلة الذاهبة إلى دار الحلبة ولكنّهم قبضوا عليّ أمّا هي فرحلت إلى الحلبة...

ـ ماذا عن أبنائها؟

ـ سافرنا معًا إلى المشرق للبحث عنهم ولكنّنا لم نعثر لهم على أثر، حدث ذٰلك منذ عهد طويل...

لٰكنّي نسيت أحزاني فيما نسيت أمّا غضبي فكان يتصاعد. وصرخت فيه:

ـ ما أنت بحكيم ولٰكنّك وغد لئيم، لم تتورّع عن تلفيق تهمة لي لتسرق امرأتي، والقتل دون ما تستحقّ من عقاب...

وهبط عليّ صوت الحارس من منفذ في السقف يأمرني بالابتعاد عنه فرجعت إلى موضعي وجسمي الضعيف ينوء بدفقة الحياة المباغتة التي اكتسحته. جلست على فروتي مسند الظهر إلى الجدار مادًّا ساقيّ، مُتلقّيًا من جديد تيّار الحياة والتاريخ. ووددت أن أسأله عن المدّة التي قضيتها في السجن ولٰكنّي كرهت أن أواصله بحديث. غير أنّه نظر نحوي وقال بحزن:

ـ إنّي آسف ونادم.

فقلت بحنق:

ـ مثلك غير جدير بالندم.

فقال بنفس النبرة:

ـ نلت جزائي بمعاشرة امرأة لم تكفّ عن كراهتي قطّ...

ثمّ وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ عشرون عامًا لم تغيّر من قلبها!

عشرون عامًا!، يا لضياع العمر. جاءني الجواب قاسيًا قاطعًا كنصل الخنجر. ها هو الرحّالة ينحدر إلى منتصف الحلقة الخامسة. وسيموت ذات يوم في هٰذا القبر وما حقّق هدفًا ولا حظي بمتعة ولا أدّى واجبًا. وضاعف من وكسي تواجد هٰذا الوغد معي في قبري ليذكّرني بعثراتي وسوء حظّي وحَيْدي عن هدفي. أمّا الرفاق فاشتعلت أنفسهم بأمل جديد، وتوقّعوا جميعًا أن يصدر عفو شامل عنهم بين ساعة وأخرى. ولم يخب أملهم فجاءنا ذات يوم مدير السجن وقال:

ـ اقتضت إرادة الإلٰه الجديد إصدار عفو شامل عن ضحايا الملك المخلوع الغادر.

ووقفنا جميعًا نهتف بالدعاء والتأييد. وغادرنا السجن فلم يبقَ فيه إلّا ديزنج. وآذانا ضوء النهار في الخارج لاعتيادنا الظلام فحجبنا أعيننا بأكفّنا. ومضى بي ضابط إلى مركز الغرباء. وقال لي المدير:

ـ نحن آسفون لما حلّ بك من ظلم يتنافى مع مبادئ وقوانين دار الحيرة، وقد تقرّر أن يُرَدّ إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التي غادرت البلاد.

وذهبت من فوري إلى حمّام عموميّ فحلقوا لي شعر رأسي وجسدي، واغتسلت بالماء الدافئ، ودهنت رأسي وجسمي بزيت الباشام لاستئصال الهوامّ والحشرات. وقصدت فندق الغرباء وأنا أتوقّع لقاء مثيرًا بيني وبين هام غير أنّه تبيّن لي أنّ الرجل مات وحلّ محلّه آخر يدعى تاد هو ابن أخيه وزوج ابنته. وكان اللقاء المثير حقًّا لا بيني وبين هام ولكن بيني وبين نفسي في المرآة. رأيت قنديل الكهل المبعوث من قبره بعد دفن استمرّ عشرين عامًا. كهل حليق الرأس والذقن ناحل ذابل غائر العينين ذو لون كئيب ونظرة ميتة ووجنتان بارزتان. وفي الحال قرّرت أن أبقى في الحيرة حتّى أستردّ شيئًا من الصحّة والعافية والتوازن الداخليّ. ورحت أمشي لا لأرى جديدًا ولكن لأدرّب قدميّ على المشي. وجعلت أتساءل عمّا يجدر بي عمله، هل أرجع إلى وطني قانعًا من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودقّ أبواب المصير؟. وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجدب والخيبة. وحدّثني قلبي بأنّني في وطني معدود من الأموات لا أحد ينتظرني أو يهمّه مرجعي، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم فاستأصل الجذور وبذر في أصولها الغربة والوحشة. كلّا لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء. بدأت رحّالة، سأظلّ رحّالة، وفي طريق الرحلة أسير. إنّه قرار وقدر، خيال وفعل، بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتّى دار الجبل. ترى كيف تتبدّين اليوم يا عروسة وأنت بنت أربعين؟!

دار الحلبة

كالأيّام الخالية تحرّكت القافلة في تؤدة وجلال. انغمسنا في ظلمة الفجر الرفيقة لا لأنهل من الشّعر هذه المرّة ولكن لأتلقّى لطمات من ذكريات السجن، وحسرات من العمر الضائع. ورأيت أشباح الرفاق فرأيت جيلًا جديدًا من التجّار، فما زال النشاط يتمادى والمال يتكاثر والجاه يصيد المغامرين أمّا الحالمون فالحيرة لهم. وتتابعت عليّ إحباطاتي الماضية، ساعة غادرت الوطن ناعيًا حليمة، ساعة طُردت من المشرق باكيًا عروسة، وساعة أودّع الحيرة نادبًا السعادة والشباب. وانتبهت إلى الشرق فرأيته يموج بماء الورد الأحمر واندلاح وجه الشمس كدأبه طيلة عشرين عامًا. وتجلّت الصحراء لانهائيّة وتفشّى الصيف. وتواصل السير ما يقارب الشهر، وفي إحدى محطّات الراحة سألت صاحب القافلة عن القاني بن حمديس فقال لي:

ـ البقيّة في حياتك.

وسألت عن الشيخ مغاغة الجبيلي ولكنّه لم يسمع به، لا هو ولا أحد من تجّار القافلة. وعسكرنا في الشامة استعدادًا لدخول الحلبة. كانت لحيتي قد نبتت وكذلك شعر رأسي وأخذ دم الصحّة يجري من جديد. وواصلنا السير حتّى رأينا السور العظيم تحت ضوء تربيع القمر. وتقدّم إلينا مدير الجمرك بسترته الخفيفة المناسبة لجوّ الصيف المعتدل وقال بصوت مرح:

ـ أهلًا بكم في الحلبة عاصمة دار الحلبة، دار الحرّيّة...

دهشت لسماع الكلمة الملعونة في كلّ مكان، ودهشت أيضًا لخلوّ كلامه من التحذير المعلن أو الخفيّ.

وقلت لصاحب القافلة:

ـ أوّل دار ترحّب بالقادم بلا نذير.

فضحك قائلًا:

ـ إنّها دار الحرّيّة ولكنّ الحرص أمان الغريب...

ومضوا بي وحدي إلى فندق الضيوف. وفي الطريق ـ تحت ضوء القمر ـ تناثرت معالم من المدينة في عظمة موحية بمنظر جديد، إلى كثرة من الهوادج الذاهبة والآتية على ضوء المشاعل رغم اقترابنا من الهزيع الأخير من الليل. أمّا مدخل الفندق فقد استوى في اتّساع وعمق تحت سقيفة تتدلّى منها القناديل على هيئة تبهر الأبصار. وبدا بناء الفندق ضخمًا مرتفعًا ينطق بجمال الهندسة ونعمة الثراء. أمّا حجرتي فادّخرت لي مفاجأة أخرى بألوان جدرانها الزرقاء وسجّادتها الوثيرة وفراشها النحاسيّ المرتفع بأغطيته

المزركشة، وغير ذٰلك ممّا لا يوجد عادة إلّا في البيوت الكريمة بوطني. تطالعني هنا حضارة بلسان بليغ مُتفوّقة ولا شكّ على حضارة الحيرة بدرجات ودرجات. ووجدتني أتساءل ترى أين وكيف تعيش عروسة؟. وقبل أن أنغمس في الذكريات زارني رجل متوسّط العمر يرتدي سترة زرقاء وسروالًا أبيض قصيرًا، قال باسمًا:

ـ قلشم... مدير الفندق...

فقدّمت له نفسي فسألني برقّة:

ـ أيّ خدمة؟

فقلت بصراحة:

ـ لا شيء مقدّمًا على النوم الآن إلّا أن تخبرني بأجرة الإقامة.

فقال باسمًا:

ـ ثلاثة دنانير لليلة!

هالني الرقم وقلت لنفسي إنّه يبدو أنّ كلّ شيء يتمتّع بالحرّيّة في الحلبة حتّى الأسعار، وكالعادة دفعت أجرة عشرة أيّام بلياليها.

وأسلمت نفسي إلى فراش لم أحظ بمثل حنانه منذ غادرت وطني. واستيقظت مبكّرًا فجاءني الفطور إلى حجرتي من الخبز واللبن والجبن والزبد والعسل والبيض. أدهشني الطعام بكمّيّته وكيفيّته فاقتنعت أكثر بأنّي أزور عالمًا جديدًا مثيرًا. وغادرت الحجرة تحرّكني لهفة وأشواق، وأمل بأنّي سأعثر على عروسة أيضًا لكي تتمّ لعبة القدر. وقابلني قلشم عند مدخل الفندق فقال لي:

ـ توجد هوادج تحت تصرّف الرحّالة لمشاهدة المعالم الهامّة...

فتفكّرت قليلًا وقلت:

ـ أودّ أن أبدأ بمفردي وكيفما اتّفق...

ومنذ اللحظة الأولى شملني شعور بأنّي في مدينة كبيرة يذوب فيها الفرد فلا يدري به أحد. ترامى أمام الفندق ميدان واسع مستدير تقوم على محيطه العمائر والحوانيت، تتوسّط نهايته قنطرة تعلو نهرًا وتفضي إلى ميدان صغير تتفرّع منه شوارع كبيرة لا ترى لها نهاية، تحفّ بجوانبها العمائر والأشجار، أين أتّجه؟... وأين توجد عروسة؟... وكيف أسير بلا مرشد؟!. تركت قدميّ تقودانني بحرّيّة في مدينة الحرّيّة، فانبهرت بكلّ ما وقعت عليه عيناي بين خطوة وأخرى. شبكة من الشوارع لا تعرف لها أوّل من آخر، صفوف من العمائر والبيوت والقصور، حوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به حصر، مصانع ومتاجر ودور لهو، حدائق كثيرة متعدّدة الأشكال والألوان، تيّارات لا تنقطع من النساء والرجال والهوادج، أغنياء وكبراء، وفقراء أيضًا وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة. ملابس الرجال والنساء مُتنوّعة، وللجمال حظّ موفور وكذٰلك الأناقة، ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرّر القريب من العري، والجدّ والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة، وكأنّني ألقى لأوّل مرّة بشرًا لهم وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم، ولٰكن كيف يأمل آدميّ في العثور على عروسة في هٰذا البحر الهادر بلا شطآن؟!. سرت وتعبت واسترحت في الحدائق وأنا أشعر طيلة الوقت بأنّني لم أبدأ بعد. وندمت على أنّني لم آخذ هودجًا من هوادج الرحّالة كما أشار قلشم، غير أنّه صادفني حادثان مثيران. أوّلهما حادث فرديّ ألممت به في حديقة عامّة إذ رأيت رجالًا من الشرطة يستجوبون بعض الأفراد، ثمّ علمت أنّ البستانيّ عثر على جثّة امرأة قتيلة في ركن من الحديقة. وأمثال هٰذا الحادث تقع كثيرًا في كلّ مكان، أمّا الذي أثار دهشتي وانزعاجي فكان مرور مظاهرة من نساء ورجال وهم يهتفون بمطالبهم ورجال الشرطة يتبعونهم دون أن يتعرّضوا لهم بخير أو شرّ. تذكّرت مظاهرة شبيهة شهدتها في وطني قصدت الوالي لتشكو إليه رفع المكوس وضيق الحال. أمّا هٰذه المظاهرة فكانت تطالب بالاعتراف بشرعيّة العلاقات الجنسيّة الشاذّة!. لم أصدّق عينيّ ولا أذنيّ، وأيقنت بأنّني أطوف بعالم غريب، وأنّ هوّة سحيقة تفصل ما بيني وبينه، وخالطني خوف من المجهول. واقترب الظهر وارتفعت الحرارة إلى أقصى حدّ غير أنّ صيف الحلبة صيف محتمل، ومضيت أتساءل عن كيفيّة الرجوع إلى الفندق

عندما تهادى صوت في الجوّ يصيح:

ـ الله أكبر...

وثب قلبي في صدري وثبة عنيفة أشعلت النار في حواسّي. ربّاه إنّه أذان. هٰذا مؤذّن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلاميّة؟!. واندفعت على هدى الصوت حتّى وجدت جامعًا عند مدخل شارع. لم أسمع هٰذا الصوت ولا رأيت هٰذا المنظر منذ ربع قرن. إنّي أولد من جديد وكأنّما أكتشف الله لأوّل مرّة. ودخلت المسجد، توضّأت، وقفت في صفّ ورحت أصلّي الظهر في فرحة متوهّجة، بعين دامعة، وصدر منشرح. وتمّت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولٰكنّي تسمّرت في مكاني حتّى لم يبقَ في الجامع إلّا الإمام وأنا. هرولت نحوه، حويته بين ذراعيّ، وانهلت عليه تقبيلًا. استسلم لانفعالي هادئًا مدركًا باسمًا، ثمّ تمتم:

ـ أهلًا بالغريب...

وجلسنا غير بعيد من المحراب. قدّمت له نفسي فقدّم لي نفسه، الشيخ حمادة السبكي، من أهل الحلبة الصميمين. قلت بأنفاس مضطربة وصوت متهدّج:

ـ ما تصوّرت أنّ الحلبة دار إسلاميّة...

فقال بهدوء:

ـ الحلبة ليست من ديار الإسلام...

ولـمّا قرأ دهشتي قال:

ـ الحلبة دار الحرّيّة، تمثل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون ويهود ومسيحيّون وبوذيّون، بل فيها ملحدون ووثنيّون...

فازددت دهشة وسألته:

ـ كيف تأتّى لها ذٰلك يا مولاي؟

فقال ببساطة:

ـ كانت في الأصل وثنيّة، وأتاحت حرّيّتها الفرصة لكلّ مَن شاء أن يدعو إلى دينه، وتوزّعت الديانات أهلها فلم تبقَ اليوم إلّا قلّة من الوثنيّين في بعض الواحات!

فسألته واهتمامي يتصاعد:

ـ وبأيّ دين تلتزم الدولة؟

ـ الدولة لا شأن لها بالأديان...

ـ وكيف توفّق بين أهل الملل والنحل؟

فقال بوضوح:

ـ تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة.

فسألته كالمحتجّ:

ـ وهل يرضون بذٰلك؟

ـ كلّ طائفة تحتفظ في داخلها بتقاليدها الذاتيّة، والاحترام يسود العلاقات العامّة لا امتياز لطائفة ولو جاء رئيس الدولة منها، وبالمناسبة أخبرك بأنّ رئيسنا الحاليّ وثنيّ!

دار مذهلة ومزلزلة للدماغ. وقلت متفكّرًا:

ـ حرّيّة لم أسمع عنها من قبل، هل أتاك يا مولاي حديث المظاهرة التي تطالب بالاعتراف بشرعيّة العلاقات الشاذّة؟!

فقال الإمام باسمًا:

ـ فيها مسلمون أيضًا!

ـ لا شكّ أنّهم يتعرّضون للجزاء داخل طائفتهم...

نزع الشيخ عمامته فمسح على رأسه ثمّ أعادها وهو يقول:

ـ الحرّيّة هي القيمة المقدّسة المسلّم بها عند الجميع!

فقلت محتجًّا:

ـ هٰذه حرّيّة جاوزت الحدود الإسلاميّة...

ـ لكنّها مقدّسة أيضًا في إسلام الحلبة...

فقلت وأنا أكابد خيبة أمل:

ـ لو بُعث نبيّنا اليوم لأنكر هٰذا الجانب في إسلامكم...

فتساءل بدوره:

ـ ولو بُعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كلّه؟!

آه... صدق الرجل وأذلّني بتساؤله. وقال الإمام:

ـ طوّفت بديار الإسلام كثيرًا!

فقلت بأسى:

ـ من أجل ذٰلك قمت برحلتي يا شيخ حمادة، أردت أن أرى وطني من بعيد، وأن أراه على ضوء بقيّة الديار، لعلّي أستطيع أن أقول له كلمة نافعة...

فقال الشيخ باستحسان:

ـ أحسنت، وفّقك الله، وستأخذ من دارنا أكثر من عبرة!

قلت وقد عاودني حبّ استطلاع الرحّالة:

ـ أمامنا ـ إذا سمحت ـ فرص لتبادل الآراء، ولٰكن هل تستطيع الآن أن تمدّني بمعلومات عن نظام الحكم في هٰذه الدار العجيبة؟

فقال الشيخ حمادة:

ـ إنّه نظام فريد، لم يصادفك فيما رأيت ولن يصادفك فيما سترى...

ـ ولا دار الجبل؟

ـ لا أعرف شيئًا عن دار الجبل حتّى أدخلها في المقارنة، ما يصحّ أن تعرفه هو أنّ رئيس دولتنا يُنتخب تبعًا لمواصفات علميّة وأخلاقيّة وسياسيّة، فيحكم مقدار عشر سنوات، ثمّ يعتزل ليحلّ محلّه قاضي القضاة، وتجري انتخابات جديدة بين الرئيس المُعتزِل والمرشّحين الجدد...

فهتفت بحماس:

ـ نظام حسن...

ـ كان الأجدر بالمسلمين أن يبشّروا به قبل غيرهم، هٰذا وللرئيس مجلس من أهل الخبرة في جميع الأنشطة، يعاونه بالرأي...

ـ وهل رأيه ملزِم؟

ـ عند الاختلاف يعتزلون جميعًا ويجري الانتخاب من جديد...

فهتفت:

ـ نِعْم النظام...

فواصل الشيخ حمادة السبكي حديثه:

ـ أمّا الزراعة والصناعة والتجارة فيقوم بها القادرون من الأهالي...

فقلت وأنا أتذكّر بعض ما رأيت من مشاهد:

ـ لذٰلك يوجد أغنياء وفقراء...

فقال الشيخ:

ـ كما يوجد عاطلون ولصوص وقتلة!

فابتسمت قائلًا بنبرة ذات مغزى:

ـ الكمال لله وحده.

فقال بجدّيّة:

ـ ولٰكنّنا قطعنا شوطًا لا يستهان به في هٰذا السبيل!

ـ لو أنّكم تطبّقون الشريعة؟!

ـ لٰكنّكم تطبّقونها!

فقلت بإصرار:

ـ الحقّ أنّها لا تطبّق.

ـ الالتزام هنا بالمرجع، وهو يطبّق نصًّا وروحًا...

ـ ولٰكنّ الدولة ملتزمة بالأمن والدفاع فقط فيما يخيّل إليّ...

ـ وبالمشروعات العامّة التي يعجز عنها الأفراد كالحدائق والجسور والمتاحف، ولها مدارس بالمجّان للنابغين من الفقراء، ومستشفيات بالمجّان كذٰلك ولٰكنّ جلّ الأنشطة فرديّة...

فتفكّرت مليًّا ثمّ سألته:

ـ لعلّكم تعتبرون أنفسكم أسعد البشر؟

فهزّ رأسه جادًّا وقال:

ـ إنّه حكم نسبيّ يا شيخ قنديل، ولا يمكن أن يطلَق بثقة كاملة ما دام يوجد أغنياء وفقراء ومجرمون، فضلًا عن ذٰلك فحياتنا لا تخلو من قلق بسبب من الأطماع المتبادلة بيننا وبين الحيرة في الجنوب، وبيننا وبين دار الأمان في الشمال، فهٰذه الحضارة الفريدة مهدّدة وقد تندثر في موقعة، وقد تتدهور حتّى مع النصر إذا اجتاحتنا الخسائر، ثمّ إنّ الاختلافات الدينيّة لا تمرّ دائمًا بسلام...

وسألني عن برنامج رحلتي فلخّصت له ما صادفني مذ تركت الوطن، فحزن الرجل لي وتمنّى لي التوفيق. قال:

ـ أنصحك باكتراء هودج سياحة فمعالم العاصمة أكثر من أن تحيط بها بنفسك وعندنا مدن أخرى كثيرة تستحقّ المشاهدة، أمّا العثور على عروسة في دارنا فأيسر منه الوصول إلى دار الجبل...

فقلت بأسى:

ـ إنّي أدرك ذٰلك تمامًا ولٰكنّ لي مطلبًا آخر هو أن أزور حكيم الحلبة...

فقال بدهشة:

ـ ماذا تعني؟... للمشرق حكيمها، وللحيرة حكيمها، أمّا هنا فمراكز العلم تموج بالحكماء، وستجد

عند أيّ منهم ما ترغب في معرفته وأكثر. . .

شكرت له حديثه ومودّته وقمت وأنا أقول:

ـ آن لي أن أذهب.

فأمسك بي قائلًا:

ـ بل ستتغدّى معًا في بيتي. . .

رحّبت بالدعوة لأنغمس في حياة الحلبة. سرنا معًا حوالى ربع ساعة إلى شارع هادئ تحفّ به أشجار الأكاسيا على الجانبين، واتّجهنا إلى عمارة أنيقة يقيم الإمام في دورها الثاني. لم أشكّ أنّ الإمام من الطبقة الوسطى ولٰكنّ جمال حجرة الاستقبال دلّني على ارتفاع مستوى المعيشة في الحلبة. وصادفتني تقاليد غريبة تُعتبر في وطني بعيدة عن الإسلام، فقد رحّبت بي زوجة الإمام وكريمتها بالإضافة إلى ابنيه. وتناولنا الغداء على مائدة واحدة، بل قُدّمت إلينا أقداح نبيذ. إنّه عالم جديد وإسلام جديد. وارتبكت لوجود المرأة وكريمتها، فمنذ بلغت مشارف الشباب لم تجمعني مائدة طعام مع امرأة لا أستثني من ذٰلك أمّي نفسها. ارتبكت وغلبني الحياء ولم أمسّ قدح النبيذ. قال الإمام باسمًا:

ـ دعوه لما يريحه. . .

فقلت:

ـ أراك تأخذ برأي أبي حنيفة؟

فقال:

ـ لا حاجة بنا إلى ذٰلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقّف، ونحن نشرب مجاراة للجوّ والتقاليد ولٰكنّنا لا نسكر. . .

كانت زوجه ستّ بيت، أمّا سامية كريمته فكانت طبيبة أطفال بمستشفى كبير، وأمّا الابنان فكانا يعدّان نفسيهما ليكونا مدرّسين. وأذهلتني انطلاقة الأمّ وكريمتها في الحديث أكثر ممّا أذهلني العري في المشرق. تحدّثنا بتلقائيّة وشجاعة وصراحة كالرجال سواء بسواء. وسألتني سامية عن الحياة في دار الإسلام وعن دور المرأة فيها. ولمّا وقفتُ على واقعها انتقدته بشدّة، وراحت تعقد المقارنات بينه وبين المرأة في عهد الرسول والدور الذي لعبته، حتّى قالت:

ـ الإسلام يذوي على أيديكم وأنتم تنظرون. . .

وتأثّرت أيضًا بجمالها وشبابها، وضاعف من تأثّري طول حرماني وتقدّمي في السنّ. وحكى لهم الإمام جانبًا من حياتي ورحلتي وهدفي منها. قال:

ـ على أيّ حال فليس هو من المستسلمين. . .

فقالت سامية لي:

ـ إنّك تستحقّ الإعجاب. . .

فبلغ بي التأثّر مداه. وجاء العصر فأدّينا صلاته جميعًا وراء الإمام ممّا دعاني إلى التفكير والتأمّل أكثر. وغادرتهم بجسدي وهم يحتلّون بعمق صميم روحي. وفي الطريق ثار بي الحنين إلى الاستقرار والدفء والحبّ. أين عروسة؟. أين دار الجبل؟. ضاع الشباب تحت الأرض، فمتى أستقرّ وأكوّن أسرة وأنجب ذرّيّة؟ حتّى متى أظلّ ممزّقًا بين نداءين؟!.

وفي اليوم التالي اكتريت هودجًا، طاف بي بمعالم العاصمة الهامّة، مراكز التعليم، القلاع، المصانع الكبرى، المتاحف، الأحياء القديمة. وأخبرني المرشد أنّ أهل الديانات المختلفة يمثّلون سير أنبيائهم في الجوامع والكنائس والمعابد فأعلنت عن رغبتي في مشاهدة سيرة نبيّنا عليه الصلاة والسلام، فمضى بي إلى أكبر جامع في العاصمة، وجلست بين المشاهدين، وراح قوم يمثّلون السيرة في باحة الجامع من بدايتها إلى نهايتها. رأيت فيها خيّل إليّ النبيّ والصحابة والكفّار، وهو ما اعتبرته جرأة تقارب الكفر، ولٰكن كان عليّ أن أرى كلّ ما يستحقّ التسجيل. وأثّر فيّ الشخص الذي يقوم بدور الرسول للحدّ الذي صدّقته، فانفعلت به انفعالًا فاق كلّ تصوّر حتّى رأيته في المنام. وقلت لنفسي:

ـ إنّ ما يدهشني حقًّا هو أنّ إيمان هٰؤلاء الناس صادق وأمين. . .

ودعوت الإمام وأسرته للغداء في الفندق فتوثّقت علاقتي بهم أكثر. وقال لي الشيخ:

ـ سأعدّ لك لقاء مع حكيم ذي مكانة يدعى مرهم الحلبي. . .

فشكرت له اهتمامه بي، وقضينا وقتًا طيّبًا، وخفق قلبي بالسرور والانشراح طوال الوقت. وفي صباح اليوم التالي غادرت حجرتي بالفندق لزيارة الحكيم. غير أنّني وجدت كثيرين من النزلاء مجتمعين في مدخل

الفندق وهم يخوضون في حديث أثار اهتمامهم فيما بدا إلى أقصى حدّ.

ـ الخبر يقول إنّ قائدًا من قوّاد الحيرة ثار على الملك ولٰكنّه فشل فهرب إلى دار الحلبة...

ـ أتعني أنّه يقيم الآن في الحلبة؟

ـ يقال إنّه يقيم في واحة من واحات الحلبة...

ـ المهمّ أنّ ملك الحيرة يطالب بالقبض عليه وتسليمه له.

ـ لكنّ ذٰلك مخالف لمبادئ «المرجع».

ـ وقد رفض طلبه...

ـ هل تنتهي المسألة عند هٰذا الحدّ؟

ـ إنّهم يتهامسون عن حرب...

ـ وإذا انتهزت دار الأمان الفرصة وهاجمت دار الحلبة؟!

ـ هٰذه هي المشكلة الحقيقيّة...

تسلّل القلق إلى أعماقي أنا الذي تطاردني الحروب من دار إلى دار. وأردت الذهاب إلى الحكيم ولٰكن هالني أن أرى الميدان وهو يتلقّى مظاهرات عديدة كأنّما كانت على ميعاد. اضطررت للبقاء في مدخل الفندق، أنظر وأسمع وأنا من الدهشة في غاية. مظاهرة تطالب بتسليم القائد الهارب. مظاهرة تنذر مَن يسلّمه بالويل. مظاهرة تطالب بإعلان الحرب على الحيرة. مظاهرة تطالب بالمحافظة على السلام بأيّ ثمن. ملكتني الحيرة وتساءلت عمّا يمكن أن يفعله حاكم بإزاء هٰذه الآراء المتضاربة. وانتظرت حتّى خلا الميدان فذهبت مسرعًا إلى دار الحكيم مرهم فبلغتها متأخّرًا ساعة عن الميعاد. استقبلني في حجرة أنيقة حوت الكتب والمقاعد والشلت معًا. وجدته طويلًا نحيلًا في الستّين من عمره، أبيض الشعر واللحية، يرفل في عباءة زرقاء خفيفة. قَبِل اعتذاري عن التأخير، ورحّب بي، ثمّ سألني:

ـ أيّهما تفضّل، الجلوس على المقاعد أم الشلت؟!

فقلت باسمًا:

ـ الشلتة أحبّ إليّ...

فقال ضاحكًا:

ـ هٰكذا العرب، إنّي أعرفكم، زرت بلادكم ودرست معارفكم.

فقلت بحياء:

ـ لست من علماء وطني ولا فلاسفته ولٰكنّي مُحِبّ للمعرفة، ومن أجل ذٰلك قمت بهٰذه الرحلة...

فقال بهدوء مشجّع:

ـ في هٰذا ما يكفي، وما هدفك من الرحلة؟

فتفكّرت مليًّا ثمّ قلت:

ـ زيارة دار الجبل.

ـ لم أعرف أحدًا زارها أو كتب عنها.

ـ ألم تفكّر يومًا في زيارتها؟

فقال باسمًا:

ـ مَن آمنَ بعقله أغناه عن كلّ شيء.

فقلت مستدركًا:

ـ دار الجبل ليست بغايتي الأخيرة ولٰكنّي أرجو أن أرجع منها إلى وطني بشيء يفيده...

ـ أرجو لك التوفيق...

فقلت كالمعتذر:

ـ الحقّ أنّي جئت لأسمع لا لأتكلّم...

ـ هل لديك سؤال يشغلك؟

فقلت باهتمام:

ـ حياة كلّ قوم تتكشّف عادة عن فكرة أساسيّة؟

فاعتدل في جلسته وقال:

ـ لذٰلك يسألنا محبّو المعرفة من أمثالك كيف صنعتم حياتكم.

ـ وحياتكم جديرة بإثارة هٰذا السؤال...

ـ الجواب بكلّ بساطة، لقد صنعناها بأنفسنا.

فتابعته في تركيز وصمت، فقال:

ـ لا فضل في ذٰلك لإله، آمن مفكّرنا الأوّل بأنّ هدف الحياة هو الحرّيّة، ومنه صدر أوّل دعوة للحرّيّة، وراحت تتسلسل جيلًا بعد جيل...

وابتسم، وصمت حتّى تستقرّ كلماته في مستقرّها من نفسي وقال:

ـ بذٰلك اعتبر كلّ تحرّر خيرًا وكلّ قيد شرًّا، أنشأنا نظامًا للحكم حرّرنا من الاستبداد، وقدّسنا العمل ليحرّرنا من الفقر، وأبدعنا العِلْم ليحرّرنا من الجهل، وهٰكذا... وهٰكذا... فإنّه طريق طويلة بلا نهاية...

حفظت كلّ كلمة بدرت منه باهتمام بالغ أمّا هو فقد واصل حديثه قائلًا:

ـ لم يكن طريق الحرّيّة سهلًا، ودفعنا ثمنه عرقًا ودمًا، كنّا أسرى الخرافة والاستبداد، وتقدّم الروّاد، وضُربت الأعناق، واشتعلت الثورات، ونشبت حروب أهليّة، حتّى انتصرت الحرّيّة وانتصر العلم...

حنيت رأسي مُظهرًا إعجابي فراح ينقد أنظمة دار المشرق، ودار الحيرة ويسخر منها، بل سخر أيضًا من نظام دار الأمان التي لم أزرها بعد، وحتّى دار الإسلام لم تسلم من حدّة لسانه. والظاهر أنّه قرأ تغيّرًا في صفحة وجهي فسكت، ثمّ قال بنبرة المعتذر:

ـ إنّكم لا تألفون الرأي الحرّ؟

فقلت بهدوء:

ـ في حدود مُعيَّنة...

فقال متراجعًا:

ـ معذرة، ولكن عليك أن تعيد النظر في كلّ شيء.

فقلت مدافعًا:

ـ داركم لا تخلو من فقراء ومنحرفين...

فقال بحماس:

ـ الحرّيّة مسئوليّة لا يستطيع الاضطلاع بها إلّا القادرون، وليس كلّ مَن ينتمي إلى الحلبة أهلًا لهذا الانتماء، لا مكان للعجزة بيننا...

فتساءلت بحرارة:

ـ أليست الرحمة قيمة مثل الحرّيّة؟!

ـ هذا ما يردّده أهل الديانات المختلفة، وهم الذين يشجّعون العجزة على البقاء، أمّا أنا فلا أجد معنى لكلمات مثل الرحمة أو العدالة، يجب أوّلًا أن نتّفق على مَن يستحقّ الرحمة ومَن يستحقّ العدالة!

ـ إنّي أخالفك في ذلك حتّى النهاية.

ـ أعرف ذلك!

ـ لعلّك ترحّب بالحرب؟

فقال بوضوح:

ـ إذا وعدت بمزيد من الحرّيّة، ولست أشكّ مطلقًا في أنّ انتصارنا على الحيرة والأمان خير ضمان لسعادة شعبيهما!

وبهذه المناسبة إنّني على مبدإ الجهاد في الإسلام.

وراح يفسّره تفسيرًا عدوانيًّا فتصدّيت لتصحيح نظريّته ولكنّه لوّح بيده باستهانة وقال:

ـ لديكم مبدأ عظيم ولكنّكم لا تملكون الشجاعة الكافية للاعتراف به!

فسألته:

ـ إلى أيّ دين تنتمي أيّها الحكيم مرهم؟

فأجاب باسمًا:

ـ دين إلهه العقل ورسوله الحرّيّة!

ـ وجميع الحكماء مثلك؟

فقال ضاحكًا:

ـ ليتني أستطيع أن أزعم ذلك...

وجاءني بكتابين، الأوّل هو «المرجع» أو القانون الأوّل في الحلبة، والثاني من تأليفه وعنوانه «اقتحام المستحيل». وقال:

ـ اقرأ هذين الكتابين تعرف الحلبة على حقيقتها...

فشكرت له كرمه كما شكرت له حسن ضيافته ثمّ ودّعته وانصرفت. وتناولت الغداء في الفندق وكانت الألسنة جميعًا تلهج بالحرب. وذهبت عصرًا إلى الجامع فصلّيت وراء الشيخ حامد السبكي، ودعاني إلى مجالسته فلبّيت مسرورًا. وإذا به يسألني باسمًا:

ـ هل عثرت على عروسة؟

فقلت بجدّيّة:

ـ التعلّق بعروسة وهم لا معنى له!

فصدّق على قولي قائلًا:

ـ هذه هي الحقيقة.

ثمّ سألني بعد صمت قصير:

ـ هل تمضي في رحلتك مع أوّل قافلة؟

فقلت وأنا أشعر بشيء من الحرج:

ـ كلّا، أريد البقاء فترة أخرى...

ـ قرار حسن، ويتوافق مع الأحداث المتلاحقة، فقد منع ملك الحيرة سير القوافل بين الحيرة والحلبة كردّ على رفضنا تسليم القائد الهارب.

فدهشت وقلقت فقال الشيخ:

ـ وقد غضب كبار ملّاك الأراضي ورجال الصناعة والتجارة وعقدوا مع الحاكم اجتماعًا خطيرًا يطالبون فيه بإعلان الحرب!

فتساءلت بقلق:

ـ وكيف يكون موقف دار الأمان؟!

فقال الشيخ باسمًا:

ـ كأنك صرت من أهل الحلبة!، الخلاف بين الحلبة والأمان يدور حول ملكيّة بعض عيون الماء في الصحراء الممتدّة بيننا وبينهم، سيسوّى النزاع لصالح الأمان فورًا كيلا تفكّر في الغدر. . .

فقلت بقلق:

ـ إنّي غريب. ونذر الحرب تتطاير من حولي. . .

ـ أفضل ما تفعل أن تبقى في الحلبة، وإن طال المقام فلديك من المال ما ييسّر لك عملًا مثمرًا. . .

تخلّيت عن القافلة رغم إشفاقي من أن تكون آخر قافلة تقوم نحو دار الأمان. شدّتني الحلبة إليها بقوّة بما وجدت في جوّها من نقاء، وما آنست في بعض أهلها من أمل. وقسّمت وقتي بين السياحة وأسرة الشيخ حامد السبكي، أمّا عروسة فكانت تحلّق مع نجوم الليل. وتشبّعت الحياة اليوميّة بخواطر الحرب، واستاء كثيرون للتنازلات التي نالتها دار الأمان دون أن تسفك لها نقطة دم. وقال لي مدير الفندق متجهّمًا:

ـ رغم تضحيتنا بعيون المياه فقد تغدر بنا دار الأمان. . .

وتوتّرت الأعصاب لأقصى حدّ وانتقلت إليّ عدواها فأصابني ما أصاب الناس من حولي، وأفزعتني الساعات المحدودة التي أمضيها في وحدة بالفندق ما بين السياحة وأسرة آل السبكي. وثارت أعصابي، وطالبتني بالإشباع والاستقرار. ولمّا أعلنت الحلبة الحرب، وأرسلت جيشها إلى الحيرة، ثارت أعصابي أكثر، ورحت أنقّب في العاصفة الحمراء عن كهف آمن ألوذ به. وتحدّث الناس عن الحرب، ووازنوا بين القوّات والإمكانيّات، وانحصرت أنا بعنف في التماس أسباب الإشباع والاستقرار. نسيت كلّ شيء إلّا هٰذا الهدف القريب. كأنّني في سباق أو مطاردة. وشجّعني على ذٰلك جوّ الأسرة وصداقة سامية الصادقة لي، وإعجابها بالرحّالة، وعطفها على أحزانه الطويلة قلت لنفسي «إنّها فتاة كاملة، ولا حياة لي بدونها». وقلت للشيخ الإمام:

ـ توكّلت على الله وقرّرت أن أتزوّج. . .

فتساءل الشيخ:

ـ هل عثرت على عروسة؟

فقلت في حياء:

ـ انتهت عروسة على أيّ حال. . .

ـ هل وقع اختيارك على أحد؟

فقلت بهدوء:

ـ مطلبي عندكم!

فابتسم ابتسامة مشجّعة وتساءل:

ـ أتتزوّج كرحّالة أم مقيم؟

فقلت بصدق:

ـ لا أظنّ أنّ الحلم سيتلاشى. . .

ـ كلّ شيء يتوقّف على إرادتها، لِمَ لا تكلّمها بنفسك؟

فارتبكت وقلت:

ـ يستحسن أن تنوب عنّي.

فقال بعطف:

ـ ليكن، إنّي أدرك موقفك. . .

وتلقّيت الموافقة في اليوم التالي. وكنت متلهّفًا فاستجابوا لي. استأجرت شقّة في نفس الشارع. تعاونّا على تأثيثها. وتمّ العقد في هدوء يناسب ظروف الحرب. وجمعنا بيت الزوجيّة فسعد قلبي واستعدت توازني. وجاءت أنباء القتال مشجّعة ولٰكنّ الحزن شقّ طريقه إلى قلوب كثيرة وارتفعت أسعار سلع لا حصر لها. واقترح عليّ الشيخ حامد السبكي المشاركة في محلّ لبيع التحف والحليّ فوافقته بحماس. وكان شريكاي شقيقين مسيحيّين، وكان محلّهما يوجد بميدان الفندق. واقتضى العمل أن أبقى في المحلّ معهما سحابة النهار فأقبلت على العمل ـ لأوّل مرّة في حياتي ـ بنشاط محمود. وكانت سامية تمضي نفس الوقت في المستشفى. وقد قالت لي:

ـ يجب أن تجعل من الحلبة مقامك الدائم، أتمم رحلتك إذا شئت ولٰكن لتكن العودة إلى هنا. . .

فقلت بصراحة أيضًا:

- قد أرى أن أرجع إلى وطني كما رسمت لأنسخ كتابي ولا بأس من الإقامة هنا...

فقالت بسرور:

- في هذه الحال سأصحبك إلى وطنك في الذهاب والإياب، أمّا الإقامة الدائمة فلن نجد مثل الحلبة في حضارتها...

فتردّدت قليلًا ثمّ قلت:

- يخيّل إليّ أنّ عملي الجديد سيدرّ علينا رزقًا وفيرًا، ألا يدعوك ذلك إلى التفكير في الاستقالة من عملك في المستشفى؟!

فضحكت ضحكة عذبة وقالت:

- العمل في دارنا مقدّس للمرأة والرجل على السواء، عليك أن تفكّر من الآن فصاعدًا كرجل من رجال الحلبة!

فرنوت إلى بطنها بحنان وقلت:

- إنّك في حكم الأمّ يا سامية...

فقالت بمرح:

- هذا شأني أنا...

وتجلّت الأمومة للعين والصيف يطوي آخر صفحاته. ووردت نسائم الخريف مترعة بالرطوبة وظلال السحب. وكلّ يوم أكتشف من عالم زوجتي المحبوبة جديدًا. إنّها معتزّة بنفسها في غير غرور، مغرمة بالمناقشة، مؤمنة صادقة وبقوّة انشرح لها صدري. لعلّ أعجب ما صادفته في رحلتي هو إسلام الحلبة الذي يستعر التناقض بين ظاهره وباطنه. قالت لي:

- الفرق بين إسلامنا وإسلامكم أنّ إسلامنا لم يقفل باب الاجتهاد، وإسلام بلا اجتهاد يعني إسلامًا بلا عقل...

ذكّرني قولها بدروس أستاذي القديم. غير أنّي كنت مغرمًا بالأنثى الكائنة فيها وملاحتها المشبعة لغريزتي المحرومة. طاردت تلك الملاحة بنهم غير مبالٍ بما عداها غير أنّ شخصيّتها كانت أصدق وأقوى من أن تذوب في ملاحة الأنثى الناضجة. وجدت نفسي وجهًا لوجه مع ذكاء لمّاع، ورأي مستنير، وطبيبة ممتازة. واقتنعت بتفوّقها عليّ في أمور كثيرة فساءني ذلك، أنا الذي لم أرَ في المرأة إلّا متعة للرجل. وخالط ولعي بها حذر وخوف، ولكنّ الواقع طالبني بالتكيّف مع الجديد، وملاقاته في منتصف الطريق، حرصًا عليه، وعلى سعادتي المتاحة. وقلت لنفسي:

- إنّه لسرّ أن تهبني نفسها بهذا السخاء، وإنّني لسعيد الحظّ حقًّا!

ومداراة لمخاوفي الدفينة قلت لها مرّة:

- إنّك يا سامية كنز لا يقدّر بثمن...

فقالت لي بصراحة:

- وفكرة الرحّالة الذي يضحّي بالأمان في سبيل الحقيقة والخير تفتنني كثيرًا يا قنديل...

وذكّرتني بمشروعي النائم. أيقظتني من سبات الراحة والعسل. من الحبّ والأبوّة والحضارة. وقلت كأنّما لأستحثّ المستنيمة للواقع:

- سأكون أوّل من يكتب عن دار الجبل.

فقالت ضاحكة:

- لعلّك تجدها أبعد ما يكون عن الحلم...

فقلت بإصرار:

- إذن أكون أوّل من يبدّد الحلم...

وانطوى الخريف وهلّ الشتاء. ليس برده أقسى من برد وطني ولكنّه غزير الأمطار ولا ترى شمسه إلّا في أوقات نادرة. وتشتدّ به الرياح وتزمجر ويقصف الرعد هائلًا فيحفر أثره في أعماق النفس. وتحدّث الناس عن الحرب التي لا تريد أن تنتهي وشاركتهم في عواطفهم بصدق فتمنّيت أن تنتصر الحرّيّة على الملك الإله وأن يولد وليدي المنتظر في أحضان الحرّيّة والأمان. ولحقت سامية بي في بيتنا ذات مساء عائدة من عملها، متألّقة بفرحة أحيت نضارتها التي أضناها الحمل وهتفت:

- أبشر، إنّه النصر!

وراحت تخلع معطفها وتقول:

- سلّم جيش الحيرة، انتحر الملك الإله، أمست الحيرة والمشرق امتدادًا للحلبة، وكُتبت الحرّيّة والحضارة لشعوبها...

انتقلت الفرحة إلى قلبي، غير أنّ بعض المخاوف المتولّدة من تجارب الماضي جعلتني أتساءل:

ـ ألا يؤدّون ثمن الهزيمة بطريقة ما؟

فقالت بحماس:

ـ مبادئ المرجع واضحة. . .، ولم يبقَ من عقبة قائمة في طريق الحرّيّة إلّا دار الأمان. . .

فقلت ببراءة:

ـ إنّها على أيّ حال لم تغدر بكم وأنتم تكابدون حربًا طويلة. . .

فقالت بحدّة:

ـ هٰذا حقّ، ولٰكنّها عقبة في طريق الحرّيّة. . .

وكان يوم عودة الجيش الظافر يومًا مشهودًا. خرجت الحلبة رجالًا ونساء لاستقباله ورشقه بالزهور رغم برودة الجوّ وانهلال المطر. وتواصلت الاحتفالات على جميع المستويات أسبوعًا كاملًا. وسرعان ما لاحظت ـ ما بين الطريق ومحلّ عملي في ميدان الفندق ـ أنّ حالًا غريبة، مناقضة للأفراح، تسري بقوّة، وبلا تردّد، ولا حذر. تطايرت إشاعات عن عدد القتلى والجرحى مصحوبة بالضيق والأسى. ووزّعت منشورات تتّهم الدولة بأنّها ضحّت بأبناء الشعب لا لتحرير شعوب المشرق والحيرة ولٰكن من أجل مصالح ملّاك الأراضي والمصانع والمتاجر، وأنّها كانت حرب «قوافل» لا مبادئ. وتلقّيت منشورًا آخر يتّهم أصحاب المنشورات السابقة بأنّهم أعداء الحرّيّة وعملاء دار الأمان. ونتيجة لذٰلك قامت مظاهرات صاخبة تهاجم دار الأمان، وتطعن في اتّفاقيّة التنازل لها عن عيون المياه. واجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة وصدر قرار بالإجماع بإلغاء اتّفاقيّة عيون المياه، واعتبار العيون ملكيّة مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديمًا. ومضى الناس من جديد يتحدّثون عن حرب جديدة محتملة بين دارَي الحلبة والأمان!

وجاء الشيخ السبكي وأسرته للغداء على مائدتي، وجلسنا نتحادث ونتبادل الآراء، وقلت للشيخ كالمحتجّ:

ـ إذا كان هٰذا الاضطراب نتيجة لنصر حاسم فكيف كان يكون الحال لو جاء نتيجة لهزيمة؟!

فأجابني باسمًا:

ـ هٰذه هي طبيعة الحرّيّة. . .

فقلت بصراحة:

ـ إنّها تذكّرني بالفوضى!

فقال ضاحكًا:

ـ هي كذٰلك لمن لم يتعامل مع الحرّيّة.

فقلت بمرارة:

ـ ظننتكم شعبًا سعيدًا ولٰكنّكم شعوب تمزّقها الخلافات الخفيّة. . .

ـ لا دواء إلّا المزيد من الحرّيّة. . .

ـ وكيف تحكم أخلاقيًّا على إلغاء اتّفاقيّة عيون المياه؟

فقال بجدّيّة:

ـ كنت أمس في زيارة للحكيم مرهم الحلبي فقال لي إنّ تحرير البشر أهمّ من هٰذه القشور. . .

فهتفت:

ـ القشور!. . . لا بدّ من الاعتراف بأساس أخلاقيّ. . . وإلّا انقلب العالم إلى غابة!

فقالت سامية ضاحكة:

ـ لٰكنّه كان وما زال غابة!

وقال الإمام:

ـ انظر يا قنديل إلى وطنك دار الإسلام فماذا تجد به؟. . . حاكم مُستبدّ يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاقيّ؟ ورجال دين يطوّعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقيّ؟ وشعب لا يفكّر إلّا في لقمته فأين الأساس الأخلاقيّ؟!

اعترضت حلقي غصّة فسكتُّ. وعاودتني ذكرى الرحلة فسألت:

ـ هل تقوم الحرب قريبًا؟

فقالت سامية:

ـ لن تقوم إلّا إذا شعر أحد الطرفين بأنّه أقوى أو إذا غلبه اليأس.

وتساءلت حماتي:

ـ لعلّك تفكّر في الرحلة؟

فقلت باسمًا:

ـ يجب أن أطمئنّ أوّلًا على سامية. . .

وأنجبت سامية وليدها الأوّل في أواخر الشتاء. وبدلًا من أن أتأهّب للرحيل استسلمت للحياة الناعمة

ما بين البيت والمحلّ. انغمست في الحلبة، في الحبّ ووفرة الرزق والأبوّة والصداقة وكنوز السماء والحدائق التي لا نهاية لحسنها. ما حلمت بشيء أجمل من أن يدوم الحال. وتوالت الأيّام حتّى صرت أبًا لمصطفى وحامد وهشام. على أنّني رفضت الاعتراف بالهزيمة، وكنت أقول لنفسي في حياء:

ـ آه يا وطني... آه يا دار الجبل!

وكنت أسجّل بعض الأرقام في دفتر الحسابات بمحلّ التحف عندما وجدت أمامي عروسة! ليس حلمًا ما أرى ولا وهمًا! هي عروسة ترفل في وزرة قصيرة ومطرف مطرّز باللآلئ ممّا ترتديه نساء الطبقة المحترمة في فصل الصيف. لم تعد شابّة، ولا منطلقة عارية، ولكنّها ما زالت مُتوَّجة بجمال ووقور محتشم. كأنّها معجزة انبثقت من المستحيل. كانت تقلّب بين يديها عقدًا من المرجان وأنا أتطلّع إليها في ذهول. وحانت منها التفاتة إليّ فالتصقت عيناها بوجهي وهما يتّسعان ونسيت نفسها كما نسيت نفسي. ناديت مبتهلًا:

ـ عروسة!

فردّدت بذهول:

ـ قنديل!

وترامقنا حتّى قرّرنا في وقت واحد أن نفيق من ذهولنا وأن نرجع إلى الواقع. قمت إليها فتصافحنا متناسين ما حلّ بشريكيّ من دهشة. وسألتها:

ـ كيف حالك؟

ـ لا بأس، كلّ شيء طيّب...

ـ مقيمة هنا في الحلبة؟

ـ منذ تركت الحيرة!

وبعد تردّد سألت:

ـ وحدك؟

ـ متزوّجة من رجل بوذيّ، وأنت؟

ـ متزوّج وأب.

ـ لم أنجب أطفالًا...

ـ أرجو أن تكوني سعيدة...

ـ زوجي رجل فاضل وتقيّ وقد اعتنقت دينه...

ـ متى تزوّجت؟

ـ منذ عامين...

ـ يئست من العثور عليك...

ـ إنّها مدينة كبيرة.

ـ وكيف كانت حياتك قبل الزواج؟

فلوّحت بيدها بامتعاض وقالت:

ـ كان عام معاناة وعذاب!

فتمتمت:

ـ يا لسوء الحظّ...

فقالت باسمة:

ـ الختام حسن... سنقوم برحلة إلى دار الأمان، ومنها إلى دار الجبل، ثمّ نسافر إلى الهند...

فقلت بحرارة:

ـ لتحلّ بك بركة الله في كلّ مكان!

ومدّت لي يدها فتصافحنا، وتناولت مشتراها، ثمّ ذهبت بسلام. وجدت نفسي مُطالَبًا بإلقاء ضوء على الموقف أمام شريكيّ. وواصلت عملي كاتمًا انفعالاتي، مع اعتقاد راسخ بأنّ كلّ شيء قد انتهى. واعترفت لسامية بما كان، وببساطة ولامبالاة. ولم أخلُ من شعور بالإثم إزاء ما اضطرم به صدري من اهتمام زائد. اهتزّ اهتزازة عنيفة وتفجّرت من جدرانه ينابيع أسى وحنين. غمرته دفقات حارّة من الماضي حتّى أغرقته. ولا أستبعد أنّ الحبّ القديم رفع رأسه ليبعث من جديد ولكنّ الواقع الجديد كان أثقل وأقوى من أن تعبث به الرياح. غير أنّ الرغبة الكامنة في الرحلة استيقظت في روعة ووثبت إلى المقدّمة متطلّعة إلى الغد بإرادة صلبة لا تلين. وخشيت أن أندفع إلى تنفيذها فأجلب على نفسي الظنون، فاتّخذت قرارًا بتأجيلها عامًا، على أن أمهّد لها في أثناء العام بما يهيّئ الأنفس لتقبُّلها.

وقد كان.

وأذنت لي زوجتي المحبوبة بلا حماس وبلا فتور. ووكّلت عنّي الشيخ الإمام ليحلّ محلّي في التجارة لحين عودتي، وخصّصت للرحلة من الدنانير ما يوفّر لي حياة كريمة. ووعدت بالعودة إلى الحلبة عقب الرحلة، على أن أصطحب زوجتي وأبنائي إلى دار الإسلام فأنسخ كتاب الرحلة وألقى الباقين على قيد الحياة من أهلي، ثمّ نرجع إلى الحلبة.

وأشبعت أشواقي من سامية ومصطفى وحامد وهشام، وتركت زوجتي وهي تستقبل في جوفها حياة جديدة...

دار الأمان

تحرّكت القافلة تشقّ ظلمات الفجر، مستقبلة طلائع الصيف. الشيخ السبكي قال لي عن جوّ دار الأمان:

ـ شتاؤها قاتل، خريفها قاسٍ، ربيعها لا يُحتمل، فعليك بالصيف...

وكالعادة ذكّرتني القافلة بالأيّام الماضية ولكنّي أمسيت كهلًا يتأثّر بقدر. وشعشع ضوء النهار فكشف صحراء جديدة، كثيرة التلال، تحدّ جوانبها وديان منخفضة وتنتشر بأرجائها نباتات شوكيّة كالقنافذ تتميّز بخضرتها اليانعة ووحشيّتها المثيرة. وبعد أسابيع من السير بلغنا منطقة مياه العيون، وهي كثيرة، ولكنّها لا تبرّر نذر الحرب التي تهدّد بها سلام دارين كبيرتين كالحلبة والأمان. وتواصل السير في أرض آخذة في الارتفاع التدريجيّ حتّى عسكرنا في هضبة النسر، وقال قائد القافلة:

ـ سوف نتحرّك عند منتصف الليل لنصل فجرًا إلى سور دار الأمان...

وواصلنا السير في جوّ لطيف حتّى تراءى لنا السور العظيم على ضوء المشاعل. وقفنا أمام البوّابة. تقدّم منّا رجل بين حاملي المشاعل وصاح بصوت غليظ:

ـ أهلًا بكم في الأمان عاصمة دار الأمان، أهلًا بكم في دار العدالة الشاملة!

وصمت الرجل دقيقة ثمّ قال:

ـ سيذهب التجّار مع مرشد إلى المركز التجاريّ أمّا الرحّالة فيذهبون إلى مركز السياحة.

لم أذهب إلى فندق مباشرة كما فعلت في المشرق والحيرة والحلبة ولكنّي تبعت المرشد إلى دار رسميّة صغيرة متينة البنيان، نظيفة، تقوم في رعاية حرّاس مسلّحين، واقتدت إلى حجرة مضاءة بالمشاعل يتصدّرها موظّف وراء مكتب، وعلى جانبيها حارسان كأنّهما تمثالان. مثلت أمامه فسألني عن اسمي، وعمري، وما أحمل من دنانير، وعن تاريخ رحلتي والهدف منها. ولذت بالصدق المطلق فقال الرجل:

ـ سأعتبرك من أهل الحلبة بعد أن تقبّلتها دارًا للعمل والإقامة الزوجيّة.

فلم أعترض، فقال:

ـ سنسمح لك بإقامة عشرة أيّام وهي كافية لما يريده السائح.

فسألت:

ـ وإذا طابت لي الإقامة ورغبت في مدّها؟

ـ في تلك الحال تقدّم طلبًا برغبتك لننظر فيه، ونقرّر قبوله أو رفضه.

فأحنيت رأسي راضيًا مخفيًا في الوقت نفسه دهشتي، فرجع يقول:

ـ وسنعيّن لك مرافقًا ملازمًا...

فسألته:

ـ هل يعرض عليّ ذلك لأقبله أو أرفضه؟

ـ بل هو نظام متّبع لا مفرّ منه لخير الغرباء!

وصفّق بيديه فدخل الحجرة رجل قصير في الستّين يرتدي نفس الملابس المكوّنة من سترة كأنّها جبّة قصيرة ووزرة تصل إلى الركبتين وصندل وطاقيّة كأنّها خوذة من قطن أو كتّان. قال الموظّف وهو يردّد رأسه بيننا:

ـ قنديل محمّد العنّابي سائح... فلوكة مرشدك ومندوب مركز السياحة.

وغادرنا المركز وفلوكة يتبعني صامتًا كأنّه ظلّي وقد سلبني روح المغامرة والحرّيّة. وخطا خطوة واسعة فصار إلى جانبي فخضنا الظلام معًا مستأنسين بأضواء النجوم ومشاعل حرّاس الأمن. قال باقتضاب:

ـ نحن في الطريق إلى الفندق...

ومن خلال ميدان مربّع اقتربنا من الفندق الذي لاح على ضوء المشاعل فخمًا عظيمًا لا يقلّ روعة عن فندق الحلبة. أمّا الحجرة فكانت أقلّ من المساحة وأكثر بساطة ولكن لا ينقصها شيء من أسباب الراحة، كما كانت بالغة النظافة. ولاحظت وجود سريرين بها جنبًا إلى جنب فتساءلت بقلق:

ـ ما معنى وجود السرير الآخر؟

فأجاب فلوكة بهدوء:

ـ إنّه لي. . .

فسألته باحتجاج لم أعن بإخفائه:

ـ أتنام معي في حجرة واحدة؟

ـ طبعًا، ما معنى أن نشغل حجرتين إذا كان يكفي أن نشغل حجرة واحدة؟

فقلت باستياء:

ـ قد يطيب لي أن أنفرد بحجرة!

فقال دون أن يخرج عن هدوئه:

ـ ولٰكن هٰذا هو النظام المتّبع في دارنا!

فتساءلت متذمّرًا:

ـ إذن لن أحظى بالحرّيّة هنا إلّا في دورة المياه.

فقال ببرود:

ـ ولا هٰذه أيضًا!

ـ أتعني ما تقول حقًّا؟

ـ لا وقت لدينا للهذر.

فقطّبت هاتفًا:

ـ الأفضل أن ألغي الرحلة.

ـ لن تجد قافلة قبل مرور عشرة أيّام.

وراح يغيّر ملابسه ويرتدي جلباب النوم ومضى نحو سريره وهو يقول:

ـ كلّ شيء هنا جديد فهو غير مألوف فتَحَرَّرْ مِن أسْر العادات السيّئة. . .

وانهزمت أمام الواقع فغيّرت ملابسي وركنت إلى فراشي، وهرب منّي النوم طويلًا من شدّة الانفعال حتّى غلبني التعب.

ومع الصباح بدأ الحرج، غير أنّي أمرّ على أشياء مرّ الكرام ثمّ قادني فلوكة إلى بهو الطعام فجلسنا إلى مائدة صغيرة وتناولنا فطورًا من اللبن والفطائر والبيض والفاكهة المسكّرة. وهو يمتاز بالجودة والكفاية فالتهمته تاركًا قدحًا صغيرًا من الخمر لم أمسّه. قال لي فلوكة:

ـ ستقدّم الخمر مع كلّ وجبة وهي ضروريّة.

فقلت بإصرار:

ـ لا حاجة بي إليها.

فقال بهدوئه الملازم:

ـ عرفت كثيرين من المسلمين يدمنونها.

فابتسمت ولم أعلّق فقال متسائلًا:

ـ أتصدّق حقًّا أنّ إلٰهك يهمّه أن تشرب خمرًا أو لا تشربها؟

ولـمّا رأى تغيّر وجهي قال برقّة:

ـ معذرة!

وغادرنا الفندق معًا للقيام بجولتنا السياحيّة الأولى. ألقيت نظرة شاملة ثمّ ارتدّ إليّ طرفي فيها يشبه الخوف. هالني الخلاء. الميدان وما يتفرّع عنه من شوارع، كلّها خالية، لا أثر فيها لإنسان. مدينة خالية، مهجورة، ميتة. إنّها بالغة في نظافتها وأناقتها وحسن هندامها، في عمائرها الضخمة، وأشجارها الباسقة، ولٰكن لا أثر للحياة بها. نظرت إليه منزعجًا وسألته:

ـ أين الناس؟

فأجاب بهدوئه المثير:

ـ إنّهم في أعمالهم، نساء ورجالًا. . .

فسألته بدهشة:

ـ ألا توجد امرأة غير عاملة؟. . . ألا يوجد عاطل؟

ـ الجميع يعملون، لا يوجد عاطل، لا توجد امرأة غير عاملة، أمّا العجائز والأطفال فسوف تراهم في حدائقهم. . .

فقلت غير مصدّق:

ـ الحلبة تموج بالنشاط ولٰكنّ شوارعها تكتظّ دائمًا بالناس. . .

فتفكّر مليًّا وقال:

ـ نظامنا لا شبيه له بين النظم، كلّ فرد يعدّ لعمل ثمّ يعمل، وكلّ فرد ينال أجره المناسب، الدار الوحيدة التي لا تعرف الأغنياء والفقراء، هنا العدل الذي لم تستطع دار أخرى أن تحقّق جزءًا منه. . .

وأشار إلى العمائر ونحن ننتقل من شارع خالٍ إلى آخر:

ـ انظر، كلّها عمائر عظيمة ومتشابهة، لا توجد سرايات ولا دور منفردة، ولا عمائر عظيمة وأخرى متوسّطة، الفروق في الأجور يسيرة، الجميع متساوون إلّا مَن يميّزه عمله، وأقلّ أجر يكفي لإشباع ما يحتاجه الإنسان المحترم من مأوى وغذاء وكساء وتعليم وثقافة وتسلية أيضًا. . .

عزّ عليّ التصديق، وقلت ما هو إلّا كلام يحفظه عن ظهر قلب، غير أنّ منظر الشوارع والعمائر راعني، إنّها لا تقلّ في هندستها عن الحلبة نفسها. ومضى بي فلوكة إلى حديقة مترامية، يبلغها القاصد فوق جسر كبير مقام على نهر عريض. لم أشهد حديقة في اتّساعها وتنوّع أشجارها وأزهارها. قال فلوكة:

- إنّها حديقة مَن طعن بهم السنّ فيما وراء مرحلة النشاط والعمل.

رأيت الطاعنين في السنّ من الجنسين، يجدون في الحديقة مرتادًا للنزهة، وملاعب رياضيّة خفيفة، ومجالس للسمر والغناء.

- في كلّ مدينة حديقة مماثلة...

قال ذٰلك في ارتياح ومباهاة فقلت لنفسي إنّه نظام حسن ورعاية إنسانيّة لم أجد لها مثيلًا في الدور السابقة. ولفت نظري كثرة المعمّرين ممّن جاوزوا الثمانين على أقلّ تقدير، ولم أخفِ هٰذه الملاحظة عن فلوكة فقال من فوره:

- يمتاز الغذاء عندنا بوفرة عناصره الغذائيّة الأصليّة مع تجنّب الترف، وممارسة الألعاب الرياضيّة في أوقات معيّنة خلال ساعات العمل...

ومن طرائف ما شاهدت في الحديقة عروسان يقضيان شهر العسل، أرمل وأرملة في الحلقة الثامنة، وكانا يجلسان على شاطئ بحيرة صناعيّة مدلّيين ساقيهما في مائها المكتسي بلون أخضر بما ينعكس على سطحه من أوراق الشجر التي تحنو فوقه... واستأنست بالبشر فمكثت في الحديقة مدّة طويلة حتّى قال لي فلوكة:

- آن لنا أن نزور حديقة الأطفال...

وكان يفصل بينها وبين حديقة العجائز ميدان متّسع يكفي لأن تُنشأ فيه مدينة صغيرة وترامت إلينا أصوات الصغار ونحن نقترب منها، وكانت مترامية الأطراف كأنّها دار مستقلّة، مكتظّة بسكّانها ما بين الطفولة والصبا، وبها ملاعب لا حصر لها، وأركان للدراسة والتربية، ومربّون ومربّيات، فسألت صاحبي:

- أهي للهو أم للتربية؟

فأجاب:

- للاثنين معًا، وهنا تكتشف المواهب المختلفة، ويتوجّه كلّ بحسب استعداده، وكما يُرسم له، وينوب المربّون والمربّيات عن الآباء والأمّهات المنهمكين في أعمالهم...

فقلت ببراءة:

- ولٰكن لا شيء يعوّض عن حنان الوالدين...

فقال فلوكة بهدوء:

- حِكَم وأمثال لم يعد لها معنى في دار الأمان...

لم يتّسع النهار لزيارات جديدة فتناولنا الغداء في الفندق وكان مكوّنًا من شواء وقرنبيط وخبز وتفّاح، ومضى بي إلى الميدان الكبير قبيل الغروب، وقفنا تحت شجرة حور وهو يقول:

- آن لك أن ترى أهل الأمان...

كان ثمّة أربعة شوارع كبيرة تصبّ في الميدان، ومع الغروب تجلّت بشائر البشر كأنّها ساعة البعث، وسرعان ما راح كلّ شارع يقذف بجموع لا يحيط بها الحصر من النساء والرجال، لكلّ طائفة زيّ بسيط واحد كأنّها فرقة جيش، ورغم أمواجهم المتتابعة الهادرة تقدّموا في نظام، لا يندّ عنهم أكثر من همس، بوجوه جادّة ومرهقة، وخُطًى مسرعة، كلّ إلى هدفه يسير، للقادمين جانب وللذاهبين جانب، لا اضطراب ولا مرح أيضًا، صورة مجسّدة للمساواة والنظام والجدّيّة أثارت إعجابي بقدر ما بعثت فيّ القلق والحيرة. وبلغ الزحام ذروته ثمّ مضى يخفّ وئيدًا ولٰكن دون توقّف حتّى استعاد الخلاء مملكته الشاملة مع هبوط الظلام.

سألت فلوكة:

- إلى أين؟

- المساكن!

- ثمّ يرجعون كرّة أخرى للسهر؟

- بل يبقون حتّى الصباح. أمّا الملاهي فتُبعث فيها الحياة ليلة العطلة الأسبوعيّة...

فسألت بقلق:

- أيعني هٰذا أنّ ليالينا ستقضى في الفندق؟

فقال دون مبالاة:

- في فندق الغرباء ملهًى تجد فيه ما تشاء من شراب ورقص وغناء...

وقد سهرنا به ليلتنا، فشهدت رقصًا غريبًا وسمعت غناء جديدًا، وبعض الألعاب السحريّة، ولٰكنّها لم تكن مختلفة اختلافًا جذريًّا عمّا شهدت وسمعت في الحلبة. . .

وفي اليوم التالي زرنا مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطبّ. الحقّ أنّها لم تكن تقلّ عن أمثالها في الحلبة عظمة ونظامًا وانضباطًا، واستحقّت دائمًا إعجابي وتقديري وهزّت عقيدتي الراسخة في تفوّق دار الإسلام في الحضارة والإنتاج، غير أنّي لم أرتح لتجهّم الوجوه وصلابتها وبرودها المخيّم، هٰذه السجايا التي جعلت من مرافقي فلوكة شخصًا لا غنى عنه ولا مسرّة فيه.

وزرنا قلعة تاريخيّة جليلة الشأن حُلّيت جدرانها بالنقوش والصور. قال فلوكة:

ـ في هٰذه القلعة دارت آخر معركة انتهت بهزيمة الملك المستبدّ وانتصار الشعب. . .

ومضى بي إلى بناء ضخم كالمعبد وهو يقول:

ـ إليك محكمة التاريخ، هنا حوكم أعداء الشعب وقضي عليهم بالموت. . .

فسألته عمّن يعني بأعداء الشعب. فقال:

ـ ملّاك الأرض وأصحاب المصانع والحكّام المستبدّون! لقد انتصرت الدولة بعد حرب أهليّة طويلة ومريرة.

وتذكّرت ما أخبرني به أستاذي الشيخ مغاغة الجبيلي من أنّه لم يستطع أن يواصل رحلته بسبب نشوب حرب أهليّة في دار الأمان. وتذكّرت أيضًا تاريخ الحلبة الدامي في سبيل الحرّيّة. وهل كان تاريخ الإسلام في دارنا دون ذٰلك دمويّة وآلامًا؟. فماذا يريد الإنسان؟. وهل هو حلم واحد أو أحلام بعدد الدور والأوطان؟. وهل حقًّا وُجد الكمال بدار الجبل؟!.

وسألني فلوكة:

ـ هل تمضي الليلة في الملهى كأمس؟

فأعلنت عن فتوري بالصمت فقال مشجّعًا:

ـ غدًا تحتفل الدار بعيد النصر، وهو يوم مشهود!

وتناولنا العشاء ثمّ جلسنا في بهو المدخل بالفندق نتلقّى نسائم الصيف اللطيفة. وقلت لفلوكة:

ـ إنّي رحّالة كما ترى، وقد جرت العادة في بلادي أن يسجّل الرحّالة أنباء رحلته، وعلى ذٰلك تلزمني معلومات كثيرة لا تكفي المشاهد للإلمام بها.

فأصغى إليّ بهدوء دون أن ينبس فقلت:

ـ يهمّني أن أجتمع بحكيم من حكماء داركم فهل تستطيع أن تحقّق لي رغبتي؟

فأجاب:

ـ حكماء دار الأمان مستغرقون بواجباتهم ولٰكنّني أستطيع أن أمدّك بما تشاء من معلومات!

فهضمت خيبتي بسرعة مصمّمًا على خوض التجربة. قلت:

ـ أريد أن أعرف نظامكم السياسيّ، كيف تحكمون؟

فأجاب دون تردّد:

ـ لنا رئيس منتخب، تنتخبه الصفوة التي قامت بالثورة، وهي تمثّل صفوة البلدان جميعًا من علماء وحكماء ورجال الصناعة والزراعة والحرب والأمن، ويتولّى منصبه بعد ذٰلك مدى الحياة، ولٰكنّهم يعزلونه إذا انحرف!

ذكّرني ذٰلك بنظام الخلافة في دار الإسلام ولٰكنّه ذكّرني أيضًا بمآسي تاريخنا الدامي فسألته:

ـ ما هي صلاحيّاته؟

ـ إنّه المهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفنّ، إذ إنّ الدولة عندنا هي صاحبة كلّ شيء، والرعايا موظّفون كلّ يعمل في حقله لا فرق في ذٰلك بين الكنّاس والرئيس. . .

ـ ألا يعاونه أحد؟

ـ مستشاروه، والصفوة التي انتخبته، ولٰكنّه صاحب الرأي الأخير، ولذٰلك فنحن في مأمن من الفوضى والتردّد. . .

فتردّدت قليلًا ثمّ قلت:

ـ ولٰكنّه أقوى من أن يُحاسَب إذا انحرف. . .؟

فخرج من بروده لأوّل مرّة وقال بحدّة:

ـ القانون هنا مقدّس!

ثمّ مواصلًا قبل أن أنبس:

ـ انظر إلى الطبيعة، أساسها القانون والنظام لا الحرّيّة!

ـ ولٰكنّ الإنسان من دون الكائنات يتطلّع دائمًا إلى الحرّيّة. . .

ـ إنّه صوت الشهوة والوهم، لقد وجدنا أنّ الإنسان لا يطمئنّ قلبه إلّا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام، ووضعنا الحرّيّة تحت المراقبة. . .

ـ أهٰذا ما يأمر به دينكم؟

ـ نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدّخر احتياجاته.

ـ الأرض؟!

ـ وهي لم تقل لنا شيئًا ولٰكنّها خلقت لنا العقل وفيه الغنى عن أيّ شيء آخر.

ثمّ واصل بكبرياء:

ـ دارنا هي الدار الوحيدة التي لن تصادفك فيها أوهام أو خرافات!

استغفرت الله في سرّي طويلًا. قد يجد الإنسان لوثنيّة دار المشرق عذرًا، ومثلها دار الحيرة، ولٰكنّ دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض؟. . . وكيف تبوّئ عرشها رجلًا منها فتُنزله منزلة الملك الإله؟. إنّها دار عجيبة. أثارت إعجابي لأقصى حدّ، كما أثارت اشمئزازي لأقصى حدّ. ولٰكن ساءني أكثر ما آل إليه حال الإسلام في بلادي، فالخليفة لا يقلّ استبدادًا عن حاكم الأمان، وهو يمارس انحرافاته علانية، والدين نفسه تهرّأ بالخرافات والأباطيل، أمّا الأمّة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض، فسبحان الذي لا يُحمد على مكروه سواه. ونمت ليلتها مرهقًا ورأيت أحلامًا مزعجة. وأشرق يوم العيد. ولـمّا كان يوم عطلة عامّة فقد تبدّت العاصمة حيّة دافئة طيلة النهار. وقادني فلوكة إلى ميدان القصر. رأيت القصر قلعة منيفة، وتحفة معماريّة لا نظير لها، يمتدّ أمامه ميدان هائل يتّسع لألوف الألوف من البشر. اتّخذنا موقعًا وسطًا وأخذ الناس يتوافدون ويقفون في نظام صفوفًا صفوفًا فوق محيط الدائرة. تفرّست في الوجوه بحبّ استطلاع شديد. يا لهم من صور مكرّرة في الملابس واللون والوزن. بشرة لم تلفحها شمس محرقة، وقامات قويّة ونحيلة معًا، ووجوه أشرقت بالابتسام تحيّة للعيد رغم تجهّمها الدائم فيما عدا ذٰلك من أيّام. جمال الوجوه في الحلبة أرفع درجة بلا شكّ ولٰكنّ المساواة هنا تدعو للعجب، ولذٰلك تقرأ في الأعين طمأنينة راسخة وشيئًا غامضًا ينذر بالخمول.

ونُفخ في بوق إيذانًا ببدء الاحتفال.

ومن أقصى نقطة في محيط الدائرة المواجهة للقصر تقدّم موكب حاملات الورود، من فتيات متألّقات بالشباب، يسرن في أربعة صفوف نحو القصر، ثمّ وقفن في طابورين متقابلين أمام مدخله الكبير. واندفعت الجموع تردّد نشيدًا واحدًا، في قوّة مؤثّرة وجمال أيضًا. تصاعد الصوت في انسجام جامعًا الحشود في لحظة وجدانيّة واحدة، مستوحاة من ذكريات حميمة مشتركة. وانتهى بتصفيق حادّ استمرّ دقيقتين. ومسّني فلوكة بكوعه وهمس في أذني:

ـ الرئيس قادم. . .

نظرت نحو القصر فرأيت جماعة تتقدّم من أعماق باحته، وكلّما تقدّمت وضحت معالمها. الرئيس يتقدّم تتبعه جماعة من الصفوة الحاكمة. وراح يمشي بحذاء محيط الدائرة ليتبادل التحيّات مع الجموع عن كثب. ولـمّا مرّ أمامي لم يكن يفصله عن موقفي أكثر من أشبار. رأيته متوسّط الطول مفرطًا في البدانة غليظ القسمات واضحها. ولم تكن حاشيته دونه في البدانة فلفت ذٰلك انتباهي بشدّة، وأيقنت أنّ الرئيس ورجاله يحظون بنظام غذائيّ خاصّ يشذّ عمّا تخضع له جموع الشعب. وتخيّلت ما يمكن أن يدور بيني وبين فلوكة من حوار عن ذٰلك. سيقول لي إنّ نظام الأمان لا يخلو من امتيازات يختصّون بها الأفراد تبعًا لتفوّقهم في العلم والعمل، وإنّه من الطبيعيّ أن يكون على رأس هٰؤلاء الرئيس المنتخَب ومعاونوه. وإنّ هٰذه الامتيازات تُمنح في حدود ضيّقة لا تسمح بوجود فوارق طبقيّة حقيقيّة ولأسباب معقولة لا صلة لها بامتيازات الأُسَر والقبائل والطبقات في المجتمعات الأخرى التي يسودها الظلم والفساد. والحقّ أنّي لم أجد في ذٰلك ما يخرق القانون العادل السائد في دار الأمان، ولم أجد به وجه شبه بما يجري في الدور الأخرى وعلى رأسها دار الإسلام نفسها من تفاوت فاحش ظالم في معاملة الناس. وخطر لي أنّي أرى الأمور بوضوح أكثر من ذي قبل. أجل،

إنّ لدار الحلبة هدفًا وقد حقّقته بدقّة، وإنّ كذٰلك لِدار الأمان هدفًا وقد حقّقته بدقّة، أمّا دار الإسلام فهي تعلن هدفًا وتحقّق آخر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسب، فهل يوجد الكمال حقًّا في دار الجبل؟!

رجع الرئيس إلى منصّة أمام القصر فصعد إليها. ومضى يخطب شعبه، عارضًا عليه تاريخ ثورته، وموقعة نصره، وما أنجز له في مجالات حياته المختلفة. ركّزت على متابعة العواطف المتبادلة بين الرجل والناس، فلم أشكّ في حماسهم، وتلاقيهم في آمال واحدة، ورؤية متماثلة. ليسوا بالأمّة المقهورة المغلوبة على أمرها، ولا الفاقدة الوعي والتربية، لعلّ ما ينقصها شيء هامّ، لعلّ سعادتها تشوبها شائبة، رأيتها أمّة متماسكة وذات رسالة لا تخلو من إيمان من نوع ما.

عندما انتهى الرئيس من خطابه اخترقت الميدان ثلّة من الفرسان شاهرة رماحها، وقد غرست في أسنّة الرماح رءوس آدميّة منفصلة عن أجسادها. غاص قلبي من فظاعة المنظر ونظرت نحو فلوكة، فقال باقتضاب:

- خونة متمرّدون!

لم يتّسع الوقت للحوار. وعاد الشعب يردّد النشيد، وانتهى الاحتفال بهتاف شامل.

وعدنا إلى الفندق لتناول الغداء. وفي أثناء ذٰلك قال فلوكة:

- أزعجك منظر الرءوس المقطوعة؟... ضرورة لا مفرّ منها، نظامنا يطالبنا بألّا يتدخّل إنسان فيما لا يعنيه وأن يركّز كلّ فرد على شئونه، فالمهندس لا يجوز أن يثرثر في الطبّ، والعامل لا يجوز أن يخوض في شئون الفلّاح، والجميع لا شأن لهم بالسياسة الداخليّة أو الخارجيّة، ومَن تمرّد على ذٰلك فجزاؤه ما رأيت!

أدركت أنّ الحرّيّة الفرديّة عقوبتها الإعدام في هٰذه الدار، واعترتني لذٰلك كآبة شديدة، وحنقت على فلوكة لإيمانه المتعصّب بما يقول.

وسهرنا ليلًا في سيرك كبير اكتظّ بالناس، وشهدنا من أفانين الألعاب والغناء والرقص ما يسلّي ويسرّ، وتناولنا عشاءً من الشواء والفواكه، وشرب فلوكة، ودعاني للشرب، ولـمّا لم أستجب اضطرّ إلى الاعتدال وهو كظيم. وغادرنا السيرك عند منتصف الليل، وسرنا على مهل تحت ضوء القمر في شوارع معمورة بالمترنّحين، وطاب لي الحديث فقلت:

- ما أجمل لهوكم!

فقال باسمًا لأوّل مرّة إمّا لمناسبة العيد أو الخمر:

- وما أجمل جدّنا!

ورآني أبتسم فلم يرتح لابتسامتي وقال:

- أترى الحياة في وطنك الأوّل أو وطنك الثاني خيرًا من حياة الأمان؟

فقلت بمرارة:

- دع وطني الأوّل فأهله خانوا دينهم...

فقال بخشونة:

- إذا لَمْ يتضمّن النظام الوسيلة لضمان تطبيقه فلا بقاء له.

- إنّنا لم نفقد الأمل بعد.

- إذن لِمَ كانت الرحلة إلى دار الجبل؟

فقلت بفتور:

- العِلْم نور...

فقال ساخرًا:

- ما هي إلّا رحلة إلى لا شيء...

وتتابعت الأيّام مضجرة. وأخذ الناس في الفندق يتحدّثون عن العلاقة بين الحلبة والأمان بنبرة إشفاق وتشاؤم. وسألت فلوكة عمّا يكمن وراء ذٰلك فقال:

- في حربهم مع الحيرة تظاهروا بالاعتراف بحقّنا في عيون المياه، ولـمّا انتصروا سحبوا اعترافهم بكلّ خسّة ودناءة، واليوم يقال إنّهم يجنّدون جيشًا من البلدين اللتين استولوا عليهما، المشرق والحيرة، وهٰذا يعني الحرب...

واستحوذ عليّ القلق فسألته:

- وهل تقوم الحرب حقًّا؟

فأجاب ببرود:

- نحن على أتمّ استعداد...

فحامَ فكري حول سامية والأبناء، وتذكّرت مأساة عروسة وأبنائها. وانتظرت على لهف انتهاء الأيّام العشرة. ومرّ يوم ويوم دون حدث فاطمأنّ قلبي

وأخذت أستعدّ للرحيل. وفي تلك الأونة خطر لي أن أسأل فلوكة عن الرحّالة البوذيّ وزوجته عروسة اللذين زارا الأمان منذ عام فأكّد لي أنّه يمكن أن يمدّني بمعلومات عنهما عندما نذهب إلى المركز السياحيّ في آخر أيّام الإقامة. وأنجز الرجل وعده، وراجع الدفاتر بنفسه، وقال لي:

ـ مكث الزوجان في دار الأمان عشرة أيّام ثمّ سافرا في القافلة الذاهبة إلى دار الغروب، غير أنّ الزوج مات في الطريق ودُفن بالصحراء أمّا الزوجة فواصلت رحلتها إلى دار الغروب...

هزّني الخبر، وتساءلت عن مكان عروسة وحالها، وهل أجدها في دار الغروب أو تكون رحلت إلى دار الجبل أو رجعت إلى المشرق؟!

وعند الفجر كنت ومتاعي في محطّ القافلة. صافحت فلوكة وقلت له:

ـ أشكر لك مرافقتك لي الطيّبة وما أسديته إليّ من فوائد.

فشدّ على يدي صامتًا. ثمّ همس في أذني:

ـ قامت الحرب بين الحلبة والأمان...

اضطربت لدرجة منعتني من الاستمرار في الكلام. حتّى البادئ بالحرب لم أسأل عنه.

وهيمنت عليّ ذكريات سامية والأبناء، وحتّى الوليد المنتظر...

دَارُ الغُرُوب

انغمست القافلة في ظلمات الفجر وأنا أنظر إلى لا شيء بقلب مشحون بالقلق. لم يُكتب لي أن أرحل مرّة بقلب مطمئنّ ونفس صافية ولكن تغشاني دائـمًا المخاوف. خيالي المحموم يحوم حول الحلبة داعيًا بالسلامة لسامية ومصطفى وحامد وهشام، متسائلًا في حيرة عن نتيجة ذلك الصراع الدامي بين أقوى دارين. ورفعت بصري إلى حديقة السماء المزهّرة وغمغمت «كن معنا يا إله السماوات والأرض». وأشرقت الأرض بنور ربّها فرأيت صحراء مترامية مستوية وجوًّا صيفيًّا حنونًا، كما رأيت الغزلان تثب هنا وهناك حتّى أطلقت عليها صحراء الغزلان. وامتدّ السفر شهرًا فعانينا عناء غير ذي عنف يبشّر بالحسنى. وفي هزيع من الليل بشّرنا صوت بأنّنا بلغنا حدود دار الغروب. وكان القمر نصفًا، والجوّ مفضّضًا ولكنّي لم أرَ سورًا، ولا مندوب الجمرك. وقال صاحب القافلة ضاحكًا:

ـ هذه دار بلا حرّاس فادخلوها بسلام آمنين...

فسألته:

ـ وكيف أعرف السبيل إلى فندق الغرباء؟

فقال وهو يواصل الضحك:

ـ سينبئك نور النهار بما تسأل عنه...

وانتظرت مشوّقًا حتّى أشرقت الشمس. لعلّها أجمل شمس عرفتها في حياتي، فهي نور بلا حرارة أو أذى، يزفّها نسيم عليل ورائحة طيّبة. وترامت أمامي غابة غير محدودة. ولكن لم يقع بصري على بناء، كوخ أو بيت أو قصر، كما لم أشاهد أحدًا من الناس. لغز جديد عليّ أن أكتشفه ولكن ماذا أصنع بمتاعي؟. ورجعت إلى صاحب القافلة فقال:

ـ ضعه في مكانه ولا تخف، اذهب آمنًا وعُدْ آمنًا...

واخترت موضعًا قريبًا من عين الماء فجعلتها علامة، ووضعت الحقائب، وأودعت الدنانير حزامًا تمنطقت به تحت الجلباب. ورحت أتجوّل مستكشفًا. أسير فوق أرض معشوشبة، نثرت على أديمها أشجار النخيل والفاكهة، تتخلّلها عيون مياه وبحيرات. وخيّل إليّ في أوّل الأمر أنّها خالية من البشر، حتّى رأيت أوّل آدميّ متربّعًا تحت نخلة، كهلًا أبيض الشعر مرسل اللحية، صامتًا وناعسًا أو غائبًا، متوحّدًا بلا قرين أو قرينة، فدنوت منه كأنّي عثرت على كنز وقلت له:

ـ السلام عليك يا أخي...

ولكن لم يبدُ عليه أنّه سمعني فكرّرت السلام وقلت:

ـ إنّي رحّالة وفي حاجة إلى كلمة تضيء لي الطريق...

فلم تندّ عنه نأمة وظلّ غائبًا في ملكوته فسألته:

ـ ألا تريد أن تتحدّث معي؟

فلم يظهر عليه أيّ ردّ فعل وكأنّما لا وجود لي فآيسني منه، فتحوّلت عنه مرغمًا وواصلت السير. وكلّما أوغلت صادفني آخر على مثل حاله، رجل أو امرأة، فأبذل المحاولة من جديد ولا ألقى إلّا الرفض أو التجاهل، حتّى خيّل إليّ أنّها غابة من الصمّ البكم العمى. ألقيت نظرة شاملة مفتونة على الجمال من حولي وغمغمت «إنّها جنّة بلا ناس». تناولت من الفواكه الساقطة على الأرض حبّات حتّى شبعت، ثمّ رجعت إلى متاعي فرأيت التجّار وهم يملئون أجولتهم بالفاكهة بلا حساب ولا رقيب. ولـمّا رآني صاحب القافلة ضحك وقال:

ـ هل استطعت أن تستنطق أحدًا منهم؟

فحرّكت رأسي بالنفي فقال:

ـ إنّها جنّة الغائبين، لكنّ خيراتها مبذولة بلا حساب...

فسألته باهتمام:

ـ ماذا تعرف عنهم؟

فقال دون مبالاة:

ـ يوجد في الغابة شيخ يقصده القاصدون فلعلّه يمدّك بما تسأل عنه...

فأحيا أمل الرحّالة من جديد فقلت له وأنا ثمل بنشوة فوز:

ـ ما أجمل جوّ الصيف هاهنا!

فقال الرجل:

ـ هٰكذا في جميع الفصول!

ونهضت مع الشمس نشيطًا متفائلًا فسمعت أحد التجّار يقول:

ـ سنظلّ نذهب ونجيء ما بين الأمان والغروب حتّى تنتهي الحرب وتفتح الطرق للقوافل من جديد...

وانطلقت إلى عمق الغابة أتقدّم ساعات بلا توقّف حتّى ترامى إليّ صوت غناء جماعيّ. اتّجهت نحو الصوت حتّى تراءى لعينيّ منظر جماعة من نساء ورجال تجلس فوق الأرض على هيئة هلال، بين يدي شيخ هرم يتّخذ مجلسه تحت شجرة وارفة، وكأنّه يعلّمهم الغناء وهم يردّدون الصوت في حنان بالغ. جعلت أقترب حتّى قبعت وراءهم، ونظرت إلى الرجل فرأيت شيخًا عاريًا إلّا ممّا يستر العورة كأنّ هالة من نور تحدق بوجهه الوضيء وعينيه الجذّابتين. وخُتم الغناء، أو الدرس، فقام الرجال والنساء وتفرّقوا في هدوء. لم تكن عروسة بين النساء، ولم أعثر عليها أمس ولٰكنّ رائحتها كانت تخالط في الجوّ روائح الفاكهة والأعشاب الخضراء. لم يبقَ في المكان إلّا الشيخ وأنا. وقفت في خشوع بين يديه فنظر إليّ بعينيه الصافيتين فشعرت بأنّني موجود. تلاشت الغربة التي خنقتني في الغابة أمس فانتميت إلى دار الغروب ولم تضع الرحلة سدى. رفعت راحتي إلى جبيني تحيّة وقلت:

ـ إنّك ضالّتي يا مولاي.

فسألني وهو يتفرّس في وجهي:

ـ قادم جديد؟

ـ نعم.

ـ ماذا تريد؟

ـ رحّالة يمضي من دار إلى دار وراء المعرفة.

فأغمض عينيه دقيقة ثمّ فتحهما وقال:

ـ غادرت دارك للمعرفة، ولٰكنّك حدت عن الهدف مرّات، وبدّدت وقتًا ثمينًا في الظلام، وقلبك موزّع بين امرأة خلّفتها وراءك وامرأة تجدّ في البحث عنها!

ذهلت حقًّا ورمقته بخوف ثمّ قلت:

ـ كيف تأتّى لك أن تقرأ الغيب؟

فقال ببساطة:

ـ هنا يفعلون ذٰلك وأكثر.

ـ أأنت حاكم هٰذه الدار؟

ـ لا حاكم لهٰذه الدار، وأنا مدرّب الحائرين...

فقلت بحرارة:

ـ زدني فهمًا!

ـ كلّ شيء مرهون بوقته...

فأومأت إلى ما حولي وقلت:

ـ لماذا لا يردّون تحيّة أو يسمعون كلمة؟

فقال بهدوء:

ـ حياتهم هنا موافقة للحقّ ومفارقة للخلق.

- يبدون كالغائبين؟

- باب الصبر على مرارة البلوى لإدراك حلاوة النجوى.

فتفكّرت فيما سمعت ثمّ سألته:

- وما غايتهم من وراء ذٰلك؟

- جميعهم مهاجرون، من شتّى الأنحاء يجيئون إعراضًا عن الهواء الفاسد، وليعدّوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل...

فطربت للاسم وقلت بحبور:

- إذن سأجد رفاقًا في رحلتي الأخيرة...

فلاحت ابتسامة في عينيه وقال:

- عليك أن تعدّ نفسك مثلهم.

- كم يتطلّب ذٰلك من وقت؟

- كلّ بحسب قدرته، وقد تخور الهمّة فينصح بالبقاء في الغروب...

فانقبض صدري وسألته:

- وإذا أصرّ على الذهاب؟

- يُخشى أن يعامَل هناك كالحيوان الأعجم!

فدهمتني حيرة شديدة وسألته:

- وكيف تعدّهم للرحلة؟

فقال بوضوح:

- كلّ شيء يتوقّف عليهم، إنّي أدرّبهم بالغناء لتمهيد الطريق، ولٰكن عليهم أن يستخرجوا من ذواتهم القوى الكامنة فيها.

فقلت بحيرة:

- لم أسمع مثل هٰذا الكلام من قبل.

- هٰذا شأن كلّ جديد.

فسألته بضراعة:

- ما معنى أن أستخرج من ذاتي القوى الكامنة فيها؟

- معناه أنّ في كلّ إنسان كنوزًا مطمورة عليه أن يكتشفها خاصّة إذا أراد أن يزور دار الجبل.

- وما العلاقة بين هٰذا ودار الجبل؟

فصمت مليًّا ثمّ قال:

- إنّهم هناك يعتمدون في حياتهم على هٰذه الكنوز فلا يستعملون الحواسّ ولا الأطراف!

فقلت برجاء:

- هلّا وهبتني فكرة عن هٰذه الكنوز؟!

- لا تتعجّل.

- ومتى أعرف أنّني وُفّقت؟

فقال بهدوء:

- عندما يتأتّى لك أن تطير بلا أجنحة!

فأمعنت النظر فيه بذهول، ثمّ قلت متأثّرًا بجدّه وصدقه:

- لعلّك تحدّثني على سبيل المجاز.

- بل هي الحقيقة دون زيادة... الدار هناك تقوم على هٰذه القوى، وبها شارفت الكمال...

فقلت بتصميم:

- ستجدني من المخلصين...

- سيكون جزاؤك المكوث في دار الجبل.

فقلت بعجلة:

- ما هي إلّا زيارة أرجع بعدها إلى داري.

فقال بيقين:

- سوف تنسى بها الدنيا وما فيها.

- لٰكنّ وطني في حاجة إليّ...

فسألني متعجّبًا:

- وكيف تركته؟

- قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه.

فقال الشيخ بامتعاض:

- إنّك من الهاربين، تعلّلت بالرحلة فرارًا من الواجب، لم يهاجر أحد إلى هنا إلّا بعد أن أدّى واجبه، ومنهم من خسر زهرة عمره في السجن في سبيل الجهاد لا بسبب امرأة...

فهتفت جزعًا:

- كنت فردًا حيال طغيان شامل...

- هٰذا عذر الخائر!

فتوسّلت إليه قائلًا:

- ليكن من أمر الماضي ما يكون فلا تثبط همّتي ولا تبدّد حياتي هباء...

فلاذ بالصمت حتّى اعتبرت الصمت رضى، وتشجّعت قائلًا:

ـ ستجدني من أهل العزم والإخلاص. . .

وقمت حانيًا رأسي في خشوع. وخطر لي خاطر فتردّدت جافلًا من إعلانه، وإذ به يقول:

ـ تريد أن تعرف ماذا فعل الدهر بعروسة!

فذهلت كما ذهلت حين انتزع ماضيّ من الظلمات. وساءلت نفسي ترى أهكذا يتفاهمون في دار الجبل؟. أمّا هو فقال:

ـ لقد سبقت إلى دار الجبل!

فسألته بدهشة:

ـ وُفّقتُ في خوض التجربة؟

فقال باسمًا:

ـ بفضل ما عانت في حياتها من آلام. . .

ولـمّا هممت بالذهاب تساءل:

ـ ما فائدة الدنانير تكنزها حول وسطك؟

رجعت إلى محطّ القافلة فأودعت الدنانير إحدى الحقائب. وقال لي صاحب القافلة:

ـ نحن ذاهبون فجر الغد.

فقلت دون مبالاة:

ـ إنّي باقٍ.

وفي أعقاب الفجر كنت أوّل من قصد مجلس مولاي. ولحق بي نفر من القادمين الجدد فجلسنا على هيئة هلال، عرايا إلّا ممّا يستر العورة. وقال الشيخ:

ـ أحبّوا العمل ولا تكترثوا للثمرة والجزاء.

وصمت قليلًا ثمّ واصل حديثه:

ـ أوّل درجة في السلّم هي القدرة على التركيز الكامل. . .

وصفّق بيديه ثمّ قال:

ـ بالتركيز الكامل يغوص الإنسان في ذاته.

وراح يغنّي ونحن نردّد غناءه. وقد رفعني الغناء إلى عالم آخر. وعند كلّ مقطع تدفّق من وجداني ينبوع قوّة.

وعدت إلى مجلسي تحت نخلة وشرعت في التجربة. صارعت التركيز وصارعني. والتحمت في معركة حامية مع صور حياتي الماضية. تغزوني بالحبّ والوفاء وأطاردها بمرّ العناء وتمرّ الأيّام مليئة بالعذاب والعزم والأمل. وعند بداية كلّ درس، قبل الغناء والترديد، يوصينا بحبّ العمل وإهمال الثمرة والجزاء ويقول:

ـ بذلك تُوثّق المودّة بينكم وبين روح الوجود.

كما يوصينا بالتركيز قائلًا:

ـ إنّه مفتّح أبواب الكنوز الخفيّة.

ويقول بيقين:

ـ هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفيّة يكتشفون الحقائق ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحقّقون العدل والحرّيّة والنقاء الشامل.

وأرجع إلى عزلتي وأنا أتخيّل اليوم الذي أسلّط فيه قواي الكامنة على كلّ معوجّ في وطني لأنشئه من جديد مقامًا صالحًا لقوم صالحين. وتمرّ الأيّام وأنسى الزمن فلا أدري كم مضى عليّ من أيّام وشهور، ويمتلئ وعائي بالثقة، وتبرق في ظلماته بوارق الإلهام. واستيقظت ذات يوم قبل الفجر مبكّرًا عن ميعادي المعتاد. وذهبت من فوري إلى الشيخ فوجدته جالسًا تحت ضوء النجوم فاتّخذت مجلسي وأنا أقول:

ـ ها أنذا يا مولاي.

فسألني:

ـ ماذا جاء بك؟

فقلت بثبات:

ـ نداء صدر منك إليّ.

فقال راضيًا:

ـ هٰذه خطوة أولى للنجاح وأوّل الغيث قطر.

وصمتنا في انتظار قدوم الرفاق حتّى اكتمل هلالنا. وبدا وجه الشيخ في ضوء الشروق واجمًا. وشرع في الغناء كالعادة فردّدنا الغناء ولٰكنّا لم نثمل بالسرور. وقبل أن ننصرف عنه قال:

ـ الشرّ قادم فتلقّوه بالشجاعة الجديرة بكم. . .

ولم يضف إلى ذٰلك كلمة متجاهلًا أعيننا المتسائلة. . .

واستيقظنا غداة اليوم التالي على جلبة وصهيل خيل. ونظرنا فرأينا المشاعل منتشرة فوق الأرض كالنجوم، رأينا جيشًا من فرسان ورجّالة يطوّق دار الغروب دون سابق إنذار. وهرع الجميع إلى موقع الشيخ وجلسوا حوله صامتين هادئين. وراحوا يغنّون حتّى أشرقت الشمس وعند ذاك قدم قائد يتبعه حرّاس حتّى وقف

أمامنا. من النظرة الأولى اكتشفت أنّهم من جيش دار الأمان، وتساءلت في قلق ترى هل انتصروا على الحلبة؟. وقال القائد:

ـ بالنظر إلى الحرب الدائرة بيننا وبين الحلبة، وبناء على ما بلغنا من أنّ الحلبة تفكّر في احتلال دار الغروب لتطوّق دار الأمان، فقد اقتضت دواعي الأمن أن نحتلّ أرضكم.

ساد الصمت ولم يعلّق أحد من جانبنا بكلمة فقال القائد:

ـ إذا أردتم البقاء فعليكم أن تزرعوا الأرض وأن تنضمّوا إلى البشر العاملين وإلّا فسوف نعدّ لكم قافلة تحملكم إلى دار الجبل.

ساد الصمت مرّة أخرى حتّى خرقه الشيخ موجّهًا خطابه لنا:

ـ اختاروا لأنفسكم ما تحبّون...

فاستبقت الأصوات هاتفة:

ـ دار الجبل... دار الجبل...

فقال الشيخ محذّرًا:

ـ ستلقون عناءً لنقص تدريبكم...

فأصرّوا هاتفين:

ـ دار الجبل... دار الجبل...

فقال القائد بحزم:

ـ مَن يُعثر عليه منكم ها هنا بعد قيام القافلة سيُعتبر أسير حرب!

البداية

عند الفجر غادرت القافلة دار الغروب. لأوّل مرّة يستأثر بها الرحّالة والمهاجرون ولا يُرى بها تاجر واحد. ولفّنا قلق وحزن وإشفاق، لما حلّ بدار الغروب، ولانقطاعنا الإجباريّ عن التدريب، وتمنّيت أن تسنح في الطريق فرص لمعاودة التركيز والاجتهاد تخفيفًا من العناء المنتظر. وكشف الشروق عن صحراء مستوية، تكثر في أرجائها عيون المياه. وسرنا شهرًا حتّى اعترض سبيلنا الجبل الأخضر ممتدًّا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وكان علينا أن نعبر الجبل صعودًا وهبوطًا، وترامى أمامنا فجّ واسع يتدرّج في صعوده تدرّجًا هيّنًا رفيقًا فاتّجهت إليه القافلة. وتساقط الرذاذ في أوقات متقطّعة فآنس من وحشتنا. وجعلنا نسير بالنهار ونعسكر في الليل حتّى بلغنا السطح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. كان سطحًا عريضًا غزير الأعشاب، وعند حافته قال الشيخ وهو يشير بيده:

ـ هاكم دار الجبل.

كان يشير إلى جبل آخر يفصل بينه وبين الجبل الأخضر صحراء، وعلى سطحه قامت الدار عالية مترامية هائلة القباب والمباني تنطق بالعظمة والسموّ. نظرت صوبها بذهول وافتتان. لم تعد حلمًا ولكنّها حقيقة، وحقيقة قريبة، فليس بيننا وبينها إلّا أن نهبط السفح ونقطع الصحراء القصيرة ثمّ نصعد الجبل الآخر فنجد أنفسنا أمام مدخلها، ومدير الجمرك يقول لنا:

ـ أهلًا بكم في دار الجبل، دار الكمال...

وقلّ صبرنا وتعجّلنا الرحيل فهبطت القافلة سفح الجبل في أسبوعين حتّى بلغنا الصحراء. ودهمتنا دهشة إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنّها بلا نهاية ولم نكد نرى الجبل الآخر من شدّة إيغاله في البعد. عجبت لخداع البصر، وأيقنت من أنّه ستمضي أيّام وأسابيع قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذي تقوم على سطحه دار الجبل. وسرنا أسابيع وأسابيع، وضاعف من طول المسافة اعتراض التلال والهضاب ممّا اضطرّنا إلى الانعطاف إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى، حتّى خيّل إليّ أنّه انقضى عمر قبل بلوغنا سفح الجبل الآخر. ووقفنا أسفله ننظر إلى أعلاه فوجدناه يعلو على السحب ويتحدّى الأشواق. وإذا بصاحب القافلة يقول:

ـ هنا ينتهي سير القافلة يا سادة!

فلم أصدّق أذنيّ وقلت:

ـ بل تصعد بنا حتّى دار الجبل.

فقال الرجل:

ـ الممرّ الجبليّ ضيّق كما سترون لا يتّسع لناقة أو جمل...

وهرعنا إلى شيخنا فقال بهدوء:

ـ صدق الرجل.

ـ وكيف نواصل رحلتنا؟

فقال بلا مبالاة:

ـ على الأقدام كما واصلها السابقون.

وقال صاحب القافلة:

ـ من يشقّ عليه السير فليرجع مع القافلة.

ولكن لم تهن عزيمة أحد وصمّمنا على المغامرة. وفكّرت في ذاتي وفيمن خلّفت ورائي وفيما قد يصادفني من أسباب تحول دون عودتي، فكّرت في ذلك فخطر لي خاطر وهو أن أعهد بدفتر رحلتي إلى صاحب القافلة ليسلّمه إلى أمّي أو إلى أمين دار الحكمة، ففيه من المشاهد ما يستحقّ أن يُعرف، بل به لمحات عن دار الجبل نفسها تبدّد بعض ما يخيّم عليها من ظلمات وتحرّك الخيال لتصوُّر ما لم يُعرف منها بعد. ولا بأس بعد ذلك أن أفرد دفترًا خاصًّا لدار الجبل إذا قُيّض لي زيارتها والرجوع منها إلى الوطن. وقَبِلَ الرجل القيام بالمهمّة، فنفحته بمائة دينار، وقرأنا الفاتحة. تخفّفت بعد ذلك من وساوسي، وتأهّبت للمغامرة الأخيرة بعزيمة لا تُقهر.

* * *

بهذه الكلمات خُتم مخطوط رحلة قنديل محمّد العنّابي الشهير بابن فطّومة.

ولم يرد في أيّ كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك.

هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟

هل دخل دار الجبل وأيّ حظّ صادفه فيها؟

وهل أقام بها لآخر عمره أو رجع إلى وطنه كما نوى؟

وهل يُعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟

عِلْم ذلك كلّه عند عالِم الغيب والشهادة.

التَنْظِيمُ السِّرّي

التّنظيمُ السِّرّيّ

في ركن النادي الذي يجمعنا للسمر تنطلق الآراء كالمفرقعات. لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتّى تمزّقها جدلًا. وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتّى تبحّ منّا الأصوات إلّا ذٰلك الصديق القديم. لا يشترك في همومنا الجدّيّة برأي أو بلا أو بنَعَم. قد يثرثر في الأمور العابرة ولٰكنّه عند الجدّ يلوذ بالصمت. يغيب عنّا بنظرة شاردة. يتّخذ من هامش الحياة وطنًا. على ذٰلك لم يخرج من قلوبنا لمودّته الدافئة وجذوره المتأصّلة في منابتنا. ويومًا اتّصل بي تليفونيًّا في الديوان وقال لي:

- أودّ مقابلتك غدًا صباحًا في محلّ توت عنخ آمون.

فوافقت من فوري، وفي الموعد جلست أنتظره. وهلّ عليّ دون تأخير، فرحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد، وهو يرنو إليّ جادًّا حتّى خُيِّل إليّ أنّه استعار شخصيّة جديدة تمامًا. وقرّب رأسه منّي وقال:

- فكّر قبل أن تتكلّم، فالكلمة هنا ارتباط أبديّ.

فأثار اهتمامي لدرجة لم أتوقّعها، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح. قال:

- لم يكن مفرّ من هٰذا التحذير، ثمّ أدخلُ في الموضوع رأسًا!

فقلت واهتمامي يتصاعد:

- ادخلْ.

فكوّر قبضته الضخمة وتساءل:

- آنست منك رغبة في العمل؟

فلمحت أوّل بصيص نور، وسألته في دهشة:

- كيف عرفت ذٰلك؟

- من متابعتي للمناقشات!

فقلت بدهشة أكثر:

- حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا!

فابتسم ولم ينبس فقلت:

- هاتِ ما عندك.

فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألني:

- أتعني ما تقول حقًّا؟

فقلت بصدق:

- كلّ كلمة، كلّ كلمة!

- إذن فأنت ترغب في العمل؟

أدركت مغزى تحذيره ولٰكنّ وعائي كان طافحًا بما فيه فقلت مندفعًا إلى مصيري:

- أجل.

- العمل - بخلاف الكلام - باهظ التكاليف.

فقلت بتحدٍّ:

- أدرك ذٰلك تمامًا.

فقال ببطء:

- الندم فيما بعد غير مُجْدٍ.

- أعتقد ذٰلك.

- والتراجع يعني الموت.

- طبعًا... طبعًا.

فقال بارتياح:

- صدقني حدسي.

فقلت وأنا أغالب انفعالاتي الداخليّة:

- يا لك من داهية!

فقال كالمعتذر:

- هي الحياة.

فقلت بشيء من الحدّة:

ـ أو هو الموت، ليفعل الله ما يشاء.

ـ بداية طيّبة.

فقلت بشوق:

ـ هاتِ ما عندك.

فقال بسرعة:

ـ ما لديّ قليل، أقلّ ممّا تتصوّر، أسرة مكوّنة منّي وأربعة آخرين ستعرفها مساء، عدا ذٰلك لا أعرف إلّا شخصًا أتلقّى منه الأوامر . . .

ـ ولٰكنّ الأسرة وحدة في كلّ، وعلى رأس الكلّ رئيس، ماذا تعرف عن ذٰلك؟

فقال ببساطة:

ـ لا شيء . . .

فتساءلت في حيرة:

ـ ونظلّ نعمل في الأسرة يحيط بنا الظلام؟

ـ ربّما، وربّما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى.

ـ ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى؟

ـ عِلْمي علمك، المهمّ العمل والهدف؟

وتفحّصني بنظرة ثاقبة وقال:

ـ إنّهم أدرى بما يحقّق الأمان والنجاح.

ومرّ بي نهار لم يمرّ بي مثله في حياتي. كمن يبدّل لحمه ودمه وخلاياه وروحه. كمن يولد في دنيا جديدة ذات قوانين جديدة. كمن يودّع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت. لم يبقَ لي من الماضي إلّا الاسم وحتّى هٰذا سرعان ما يتغيّر. وفي المساء انعقد أوّل اجتماع للأسرة في بيت صغير بمصر القديمة. كنّا خمسة، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ«ا». لِمَ لا؟ لقد أصبحنا رموزًا لتحقيق أهداف. وجلس على رأس المائدة ينقّل عينيه بيننا، مكتسيًا مهابة جديدة وتأثيرًا نافذًا. قال:

ـ أرحّب بكم في أسرتنا التي جمعتنا على الخير، هي التي أخرجتنا من العبوديّة وطهّرتنا من عبادة الأصنام، فلنجعل من الكمال زينتنا ومن الحبّ رابطتنا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل في نطاق ما نعرف ـ ولا نسأل عمّا لا نعرف ـ واحذروا الخطأ فلا خطأ يمرّ بلا عقاب.

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل، أو لمعرفة الأجوبة عن بعض أسئلة عاجلة، ومناقشة الاقتراحات. وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر «ا» على إعجابي بعقله الراجح وحدسه الصادق وخلقه المتين مع قوّته الجسديّة الخارقة كأنّما هو بطل من أبطال المصارعة الحرّة، وإن ساءتني جدّيّته الصارمة التي تضنّ بالابتسامة فضلًا عن الدعابة. وعزّيت نفسي قائلًا إنّه لولا ضرورة هٰذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذي يضع ولا شكّ الرجل المناسب في المكان المناسب، والذي تتسلّل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبينَ مجهولينَ كذٰلك، حتّى إنّ «ا» نفسه لا يعرف مِن ذاك الجهاز المعقّد إلّا فردًا واحدًا. وقد رأيته يلوذ بالصمت في أعقاب مناقشة ثقيلة جرت في أحد الاجتماعات فقلت بعفويّة:

ـ ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأُسَر بالرئيس الأعلى في اجتماعات دوريّة لنطمئنّ على سير الأمور؟

فاستيقظ من صمته راميًا إيّاي بنظرة صلبة ثمّ قال:

ـ ارتكبتَ عدّة أخطاء دفعة واحدة!

وراح يعدّد على أصابعه قائلًا:

ـ قطعت عليّ تفكيري، تدخّلت فيما لا يعنيك، خالفت وصيّة من الوصايا!

فهالني الأمر وقلت معتذرًا:

ـ إنّي آسف يا سيّدي.

ـ لا بدّ من العقاب، وإنّي أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرًا كاملًا ابتداءً من هٰذه الساعة!

وصدمني الحكم ولٰكنّي لم أنكص عن تنفيذه ـ رغم ثقله ـ بوازع من ضميري. على أنّنا كنّا نشعر في الوقت نفسه بأنّنا موضوعون تحت مراقبة خفيّة يمارسها جهازنا الغامض، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرّة. هٰذا ما تطوّعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونيّة المقدّسة في تغيير الكون. حسبنا أن نؤمن بأنّنا ضمن الصفوة المختارة بدقّة رسم خطوطها ذٰلك الرئيس الأعلى الذي صار ـ هو وجهازه ـ أسطورة يتحدّث عنها الناس في كلّ مكان، وتنشط دوائر الأمن العامّ إلى اكتشافها بكلّ سبيل انطلاقًا من حوادثها المتكرّرة ومنشوراتها السرّيّة المثيرة. وما أدري يومًا ونحن مجتمعون حول المائدة إلّا و«ا» ينظر نحوي ويسأل:

ـ أين القلم الرصاص الذي وجدته أمامك في الجلسة السابقة؟

فقلت ببراءة:

ـ لعلّي أخذته معي.

فسأل ببرود:

ـ من أين علمت أنّه وُزّع للامتلاك؟

فقلت في استياء:

ـ سأردّه في المرّة القادمة أو أبتاع بديلًا عنه.

فقال ببرود أشدّ:

ـ نحن نعتبر ذٰلك نوعًا من السرقة!

فقلت بغضب:

ـ لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف نُتّهم بسرقة قلم رصاص؟

فقال بهدوء هو أشدّ من الحدّة:

ـ لا تمنّ علينا بالتضحية، فإنّك لا تضحّي من أجلنا ولٰكنّنا نضحّي جميعًا من أجل الهدف وقد حكمت عليك بألّا تستعمل يدك اليسرى لمدّة شهر!

ركبني همّ ثقيل فذهبت إلى مطعم «فلسطين» بالسكّة الجديدة لتناول العشاء. وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة. لاحظتُ رغم همّي أنّها لم تطلب شيئًا ولم يقترب منها الجرسون. ولاحظت أيضًا أنّها تنظر نحوي بجرأة وثبات لا يصدران إلّا عن امرأة هوى. على جمال كانت ولٰكنّ منظرها أوحى بالفقر، بل والجوع أيضًا. قالت لي عيناها «ادعوني للعشاء من فضلك». ورقّ قلبي لها فابتسمت وسرعان ما ردّت الابتسامة بأخرى مبتذلة. قلت إنّها ما زالت تشقّ طريقها الوعرة، وأشرت إلى المقعد الخالي أمامي فانتقلت إليه دون تردّد. تناولنا عشاء من المكرونة والخبز الجافّ فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء. حلّ الارتياح مكان التوتّر في وجهها، وتبادلنا الابتسام دون تعارُف، ثمّ سألتها لأبدّد الصمت:

ـ مِن هنا؟

فقالت بنبرة ذات معنى:

ـ مسكني فوق المطعم.

لم تكن في رأسي خطّة نهائيّة فنظرتُ في الساعة فسألتني:

ـ نقوم؟

فاستسلمتُ بلا حماس وبلا فتور فتأبّطتْ ذراعي ومضت بي نحو مدخل المبنى في عطفة خلفيّة. لست من مدمني ذٰلك ولا من الهواة ولٰكنّها تعرض لعازب. وكانت رقيقة وثرثارة وغير محنّكة فدار حديثها حول ضجيج العاصمة. وسألتني:

ـ ما ليدك اليسرى؟

فقلت بامتعاض:

ـ روماتيزم خفيف.

فقالت مجامِلة:

ـ ولٰكنّك في عزّ الشباب.

فقلت بضيق:

ـ أمراض عصرنا لا تفرّق بين شيخ وشابّ.

وغادرتها وهي تقول:

ـ لتكن أولى الزيارات لا آخرها . . .

وصادفتني متاعب متلاحقة في البيت والديوان لعدم استعمال يدي اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين. وتمخّض اجتماع الأسرة التالي عن مكدّرات جديدة لم تكن في الحسبان، إذ التفت «ا» نحوي قائلًا:

ـ ما زلتَ ماضيًا في طريق الضلال!

فنظرتُ إليه مبهوتًا فقال:

ـ الزنا بعد السرقة.

فالتهبت وجنتاي وغضضت بصري، فقال:

ـ كأنّك لا تدرك خطورة زلّتك؟!

فقلت باستياتة:

ـ هفوة شخصيّة لا تمسّ سلوكي العامّ.

ـ هراء المرأة أشدّ خطورة من الشرطة.

فقلت مدافعًا:

ـ الزواج عسير جدًّا في هٰذه الأيّام.

فقال ببرود:

ـ في الهدف ما يغني ويسلّي عن سواه . . .

وواصل عقب صمت قصير:

ـ إنّك كثير الجدل فمتى تتعلّم الطاعة؟

وفكّر قليلًا ثمّ قال:

ـ مراعاة لظروفك سأكتفي بتغريمك مائة جنيه

تؤدّيها على أقساط!

وجدتني في مأزق. كدت أندم على فكرة التطوّع نفسها ولكن لم يغب عنّي أنّ التراجع الآن يعني الموت. وتعزّيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء وتنفيذ ما أكلّف به من أعمال. وتخيّلت رئيسنا الأعلى ـ قياسًا على «ا» ـ في صورة عملاقة جبّارة جديرة حقًّا بالإجلال والخوف. ومازج شوقي إلى معرفته رغبة في البقاء بعيدًا عن بابه. ولم أخطئ بعد ذلك، وتقدّمت في الدرس والتدريب تقدّمًا محمودًا سمعت من أجله الثناء تلو الثناء، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات. وفي ختام اجتماع هامّ للأسرة، استبقاني «ا»، ووضع أمامي مظروفًا مغلقًا وقال:

ـ تسافر إلى (...) وتقابل (...) الكاتب بالمحكمة وتسلّمه الرسالة خِفْيَةً وتعمل بما يشير به عليك.

كنت تدرّبت تمامًا على وسائل معرفة المكان ومواعيد القطارات والاتّصالات الخفيّة. وشرعت في العمل خطوة فخطوة حتّى سلّمت الرسالة للرجل. وأشار عليّ بالنزول في فندق بالبلدة والانتظار. وفي الصباح جاءتني سيّارة فورد قديمة، ودعاني السائق إلى الجلوس إلى جانبه وانطلق بها بلا تعارُف أو كلام. وفي وسط الطريق قال:

ـ في الصندوق الخلفيّ حقيبة جلديّة.

ووقف على مبعدة من البيت الذي تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة. حملت الحقيبة رغم ثقلها وسرت بها نحو البيت. غالبت توتّري لدقّة الموقف وخطورته، ثمّ وضعتها على المائدة أمام «ا»، وجلست مزهوًّا وأنا أشعر بأنّني هجرت دنيا الناس إلى الأبد. وفتح «ا» الحقيبة فحال غطاؤها بيني وبين رؤية ما بداخلها. ودام فحصه ربع ساعة ثمّ أغلق الحقيبة وقال:

ـ أمضيت وقتًا في المقهى ناسيًا أنّ الغريب يلفت الأنظار في البلدان الصغيرة.

فخفق قلبي متوقّعًا عقوبة جديدة ولكنّه قال:

ـ ولكنّك عبرتَ البحر بسلام!

فشاع في نفسي الرضا وامتلأت ثقة وإحساسًا بالنصر، وقمت بأعمال قيّمة على مدى غير قصير، في وثبات متلاحقة حقّقت لي مركزًا لا بأس به. واستدعاني «ا» ذات يوم فوجدته وحده بحجرة الاجتماع. أجلسني في أقرب مقعد إليه وقال لي:

ـ تقرّر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة.

نظرت إليه مليًّا وأنا أغالب انفعالاتي ثمّ سألته في حذر:

ـ أتسمح لي بسؤال أو أكثر؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسألته:

ـ ماذا يعني أسرة جديدة؟

ـ أسرة الزميل الوحيد الذي أعرفه خارج أسرتنا ويدعى «ب»، وهي وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا فكرة لي عن عددها تنتهي بالجهاز الأعلى.

فداخلني ارتياح وسألت:

ـ وما نوع العمل في الأسرة الجديدة؟

ـ لا أدري!

ـ من الذي رشّحني للأسرة الجديدة؟

فأجاب ببساطة:

ـ عملك.

وقام آخذًا بيدي إلى حجرة صغيرة داخليّة وهو يقول:

ـ دعني أقدّمك إلى رئيسك الجديد.

وجدناه جالسًا ينتظر. ومن عجب أن طالعني بصورة مناقضة تمامًا لتخيّلي له. تصوّرته يفوق «ا» في القوّة والعملقة فإذا بي حيال شابّ يكبرني بأعوام جميل المحيّا رقيق الحاشية يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته. كيف يرأس هٰذا الشابّ أسرة هي أقرب في موقعها من الرئيس الأعلى وعليها مهامّ ـ ولا شكّ ـ تجاوزها في الشدّة والعنف؟! وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته في شخصينِ تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل؟ ترى متى يتاح لي مقابلة ذٰلك الرئيس العجيب الذي أقضّ مضاجع الشرطة وأثار الرأي العامّ لدرجة الهوس؟ وتبادلت مع «ب» كلمات رقيقة فاستحوذ على حبّي من اللحظات الأولى. ومضى بي في سيّارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقّارة. سألته قبل أن ندخل:

ـ أعندك فكرة عن هٰذه الحديقة؟

فدخل مبتسمًا وهو يتأبّط ذراعي. وسرعان ما احتوتنا مقصورة تكتنفها الخضرة والأزهار وتحبو فوقها أشعّة الشمس في مطلع شتاء لطيف. وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها وهي مكوّنة مثل أسرتي الأولى من خمس ولكنّي عجبت لاختياره مكان الاجتماع في حديقة سيّئة السمعة لا يَردُها عادة إلّا طلّاب الحبّ المحرّم. وقلت لعلّه داهية ذات قشرة ذهبيّة أو ماء تحت تبن. وشربنا الشاي بسرور وارتياح وهو يقول:

ـ أهلًا بكم في أسرتنا الجديدة.

وتفكّر قليلًا ثمّ واصل:

ـ لكلّ منكم سابقته المحمودة المتّسمة بالشدّة والخطورة، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذي أسلوب آخر، لا تنكّر للماضي ولكنّنا نستكمله بأسلوب جديد كلّ الجدّة، وإلّا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة، مستهدفين في النهاية غاية واحدة، وإيّاكم والاستهانة بعملكم الجديد ذي المظهر الخادع، فمثلكم مثل زارع يرمي في الأرض ببذرة لا تكاد تُرى، ولكنّها ستنمو ذات يوم شجرة باسقة يلوذ بظلّها المعذّبون في الأرض . . .

وصمت قليلًا ثمّ قال:

ـ كانت مهمّتكم السابقة التصدّي للوجه القبيح والانهيال على قبحه بالكلمات الصادقة، أمّا مهمّتكم الجديدة فهي التغنّي بالوجه الجميل المنشود، حلم اليوم وحقيقة الغد، ولكن أيّ أغانٍ وأيّ ألحان؟! . . . أغاني جديدة وألحان جديدة.

التمع في الأعين حبّ استطلاع وهّاج فقال:

ـ سأكون المؤلّف والملحّن وستكونون المغنّين وسأضع في كلّ حنجرة اللحن الذي يناسبها!

وضح في الوجوه ما يشبه الذهول فقال:

ـ المهمّة ظاهرها الترفيه ولكنّها تنطوي على جدّيّة فائقة ويحفّ بها الخطر من كلّ جانب . . . ، فليوطّن كلّ نفسه على التضحية.

وقلّب عينيه في وجوهنا متسائلًا:

ـ هل من أسئلة؟

وفي الحال سألته:

ـ أنعتبر حديثك من المجاز والرمز؟

فأجاب ببساطة:

ـ بل إنّه واقع وحقيقة . . .

ـ هل حقًّا تُحفّظنا ألحانًا لننشدها؟

ـ بكلّ تأكيد.

ـ لكنّنا لسنا مغنّين.

ـ كلّ فرد يستطيع أن يغنّي في حديقة عامّة فيسمعه من يشاء أن يسمع.

ـ من ناحيتي لا أملك أيّ موهبة غنائيّة.

ـ لا يهمّ. العبرة باللحن أمّا الأغنية فأغنية حبّ من لون جديد!

ـ قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرًا لصفوه.

ـ ربّما.

ـ وقد يسخر منّا.

ـ ربّما.

ـ وقد يعتدي علينا.

ـ ربّما، ولذلك لا بدّ من توطين النفس على التضحية . . .

فقال زميل منفعلًا:

ـ عملنا السابق أخفّ رغم عنفه.

فأجاب باسمًا:

ـ محتَمل جدًّا.

وتردّدتُ قليلًا ثمّ قلت:

ـ لديّ سؤال وأخاف العقاب.

فقال «ب» بسرعة:

ـ لا موضع للعقاب في قاموسنا.

فسألته:

ـ وما جدوى الأغاني والألحان والغناء؟

فقال بهدوء:

ـ أكبر ممّا تتخيّل . . .

فسألت مندفعًا بشجاعة جديدة:

ـ وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا؟

فقال باسمًا:

ـ لسنا إلّا أدوات تنفيذ . . .

ثمّ بنبرة حماسيّة:

ـ اسمحوا لي أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنبيذ لنتعاهد على الحبّ والعمل ونحن في أطيب حال . . .

وشرعنا في الحال في الحفظ والتدريب، ثمّ في العمل. وتعرّضتُ لحرج ومتاعب لا نهاية لها. آمنت بأنّ عملي الجديد أشقّ من القديم رغم إحساسي بأنّني أعمل في جوقة موسيقيّة تحت إشراف شاعرٍ وملحّن في آنٍ. وعجبت لشأنه، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذي يستعمل كلّ هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه. واستقرّت في وجداني عبارة «ب»: «لا موضع للعقاب في قاموسنا»، فشجّعني ذلك على التخفيف من توتّر أعصابي بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع، رغم ما سمعت من إدانة لذلك، وتحذير من المرأة التي هي أشدّ خطرًا من الشرطة، ورغم علمي المسبق بأنّ سلوكي لن يخفى عن رئيسي كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامّة. وسُرَّت الفتاة بزيارتي سرورًا أنساني قلقي ووساوسي، وهداني إلى اكتشاف جانب رقيق في قلبها لا يوجد عادة في حومة الاحتراف. وقال لي «ب» في أوّل اجتماع تلا مغامرتي:

- لا اعتراض لي على الحبّ.

فاشتعل وجهي بالحياء فقال:

- ولٰكنّه دون ما رباط عبء على نقاء القلب...

ففطنت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار:

- ولٰكن...

فقاطعني:

- لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنتَ الحرب عليها!

ثمّ تحوّل إلى موضوع الاجتماع كأنّما قال قولته الأخيرة في المسألة. وجاء زواجي من الفتاة مغامرة لا تقلّ في خطورتها عن كبرى مغامراتي التي قمت بها وأنا عضو في أسرة «ا». وفي ليلة الزفاف أتى «ب» دون دعوة وأهداني قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر. وهمس في أذني وأنا معه آخر الليل:

- صُنْ سرّك في أعماق قلبك وحده.

وواصلتُ حياتي ما بين الديوان والحدائق العامّة وعشّ الزوجيّة فوق مطعم فلسطين. وكان الاجتماع لم يُسبق بمثله إذ تخلّف عنه لأوّل مرّة أحد الزملاء. وأشار «ب» إلى المقعد الخالي وقال بأسى:

- أُلقي القبض عليه.

فذهلت أنفسنا وتغيّرت ألواننا فقال:

- لعلّه تهاون في الكتمان.

فقال زميل:

- قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدّد أمن الأسرة.

فقال:

- من أجل ذٰلك سنؤجّل اجتماعاتنا إلى أجَل غير مسمّى، وسنختار مكانًا آخر. على أنّي متيقّن أنّه سيتحدّى الموت قبل أن يعترف!

رجعتُ إلى وحدتي الأولى. وانسربت إلى نفسي سموم الهواجس والمخاوف فتوقّعت أن تصل إلى عنقي القبضة الحديديّة في أيّ وقت من ليل أو نهار. أجل كانت حياة كلّ زميل مجهولة تمامًا من بقيّة الزملاء خارج نطاق العمل المشترك، ولٰكن أيّ ضمان ثمّة لذٰلك؟! كانت أيّام خوف وضياع. وصادفني يومًا أحد الزملاء في ميدان العتبة. صافحني خارقًا تقاليدنا الثابتة وقال:

- معذرة، ثمّة أخبار غاية في الخطورة.

تولّاني رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعينيّ دون لساني فقال:

- قبضوا على رئيسنا «ب» نفسه!

فهتفت بفزع:

- من أين لك هٰذا؟

قال بغموض:

- شائعات تطايرت من مكان عملي، والشائعة في مكان عملي تُعتبر خبرًا!

تجهّم وجهه حتّى الظلمة وقال:

- ويقال إنّه قُتل وهو يُستجوب!

هتفت:

- يا للفظاعة.!

فقال:

- وثمّة همس عن أنّ زميلنا المقبوض عليه أوّلًا قد باع نفسه ودلّ على الرجل...

فقلت باضطراب:

- يجب أن نهرب.

فقال بحنق:

ـ لا خوف من ناحيته بعد فقد وُجد في السجن ميتًا بالسمّ والتحقيق جارٍ مع الجميع...

وتابعت الصحف ولكنّها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا. تُركنا في الظلام، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز، وانطويت على سرّي دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العزاء. واحتوتني غربة وسط عالمٍ مُعادٍ لا أدري متى ينتشلني اليأس من العذاب. واستدعاني رئيسي المباشر في الديوان وسألني:

ـ ما لك؟ لست كعادتك، أهو الزواج؟

فادّعيت المرض فقال:

ـ قُمْ في إجازة تجنّبًا لمزيد من الأخطاء.

هربت من الديوان لأسقط بكلّيّتي في قبضة نفسي. أمّا زوجتي فأرادت أن تخفّف عنّي بعض ما لمست من اضطرابي فقالت:

ـ ستكون أبًا يا حبيبي.

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكّر طعمه أو رائحته. واتّجه فكري إلى رئيس الجهاز الأعلى، فتساءلت عمّا يدبّر لرتق الفتق الذي مزّق جهازه، كيف يصل ما انقطع، وهل يعلم بما نعاني في ضياعنا، أو يفكّر في التخلّص منّا حفظًا لأمن جماعته كما تخلّص من زميلنا الخائن؟! وانطوت الإجازة، ورجعت إلى عملي، وكلّما مرّ يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شيء من الطمأنينة، حتّى بتّ أعتقد أنّي راجع حتمًا إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليوميّة كفرد من ملايينها الذين يتعذّبون ويتشكّون ويتصبّرون وينتظرون دون جدوى. وقلت لنفسي على سبيل التعزّي لعلّ التفاهة في النهاية أرحم من الخوف والضياع. وتعاقبت الأشهر حتّى خرج وليدي الأوّل إلى الوجود، ومضيت أنهمك في مجريات الحياة اليوميّة. وذات صباح وعقب أبوّتي بشهر، دقّ جرس الباب فذهبتْ زوجتي لترى الطارق ثمّ عادت لتقول بدهشة:

ـ يقول إنّه مندوب شركة الشرق للتأمين!

فذهبت بنفسي إلى الباب وسألته عمّا يريد فقال بصوت عريض مليء:

ـ اسمح لي بخمس دقائق، إنّي قادم من أجل ابنك ربّنا يحفظه بعين رعايته...

وجلسنا في حجرة الاستقبال متواجهين. كان متوسّط الطول متين البنيان أنيق المظهر، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر، قويّ النظرات، بيده حقيبة وجاءت زوجتي مدفوعة بحبّ الاستطلاع فانتظر حتّى جلست وقال:

ـ جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك، ومهمّتي هي صميم عملي فنحن نتابع المواليد ونزور الأُسَر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء، ويا بخت مَن يرى غده في يومه...

فسألته زوجتي:

ـ أيكلّفنا ذلك ما لا نطيق؟

فأجاب بنبرة مشجّعة:

ـ التأمين أصلًا للذين لا يملكون، وهو درجات ولكلّ درجته، وإنّ بَعْد العسر يسرًا...

وفتح حقيبته فتناول كرّاسة أعطانيها وهو يقول:

ـ إنّها حاوية لكافّة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله.

ونهض قائمًا فاصطحبته إلى الباب مودّعًا. ودسّ في يدي ورقة، وصافحني وهو يهمس:

ـ لا علاقة لي بشركة التأمين، اقرأ ما في الورقة بعيدًا عن عينَي زوجتك، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخّر.

قال ذاك وذهب. وددت لو بقي دقيقة أخرى لِيبلّ ريقي الجاف. هكذا بُعثْتُ فجأة واشتعلت روحي بالنار المقدّسة من جديد. رجعتُ إلى الحياة ومعاناة الإحساس المضني بحمل الأمانة.

وفي الموعد كنت في بيت عتيق بالقلعة، يقع في بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى. وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكوّنة من خمس يرأسها «جـ» (مندوب شركة الشرق)، أمّا الأربعة الآخرون فكان اثنان منها ـ أنا أحدهما ـ من أسرة المرحوم «ب»، وواحد زاملته في أسرة «ا»، والرابع جديد لم تقع عليه عيناي من قبل. قال «جـ»:

ـ مضى ما يقارب العام دون اتّصال.

فقلت من فوري:

ـ عام محنة وعذاب.

أمّا زميلي من أسرة «ب» فتساءل:

ـ هل عادت أسرتنا القديمة، أسرة «ب»، برياسة جديدة؟

فقال «جـ»:

ـ أسرة «ب» موجودة برياسة جديدة أمّا هٰذه الأسرة فهي أسرة جديدة بالنسبة لكم.

وتنحنح ثمّ واصل حديثه:

ـ لم يمض العام هدرًا، كلّا، ولكنّه مضى في التحرّي والمتابعة والمراقبة، كان على رئيسنا الأعلى ـ وهٰذا محض ظنّ منّي ـ أن يطمئنّ إليكم وأن يسبر غور الشرطة وعيونها الشرهة، وأعتقد أنّي تلقّيت أوامره في الوقت المناسب . . .

وقلت لنفسي إنّ هٰذا الرجل يعني ما يقول وإنّه قادر على ملء الفراغ بالثقة، وسرعان ما أحببته أمّا هو فقال:

ـ أهلًا بكم في أسرتكم الجديدة، هي الأخيرة أيضًا، يليها مباشرة الجهاز الأعلى، ولا أخفي عنكم أنّي أتلقّى التوجيهات من السكرتير العامّ نقلًا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه.

وأشعل سيجارة، آذنًا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء، ثمّ قال:

ـ ونعلّكم تتساءلون عن أسلوب العمل، أوّل ما أقول إنّه يقوم بصفة مبدئيّة على القواعد المرعيّة في الأسرتين السابقتين، فلا يجوز أن تُهمَل تجربة ناجحة أثبتت جدواها، فلا تنسوا ما تمرّستم به في أسرتكم الأولى وما تمرّستم به في أسرتكم الثانية، بالإضافة إلى ما سيجدّ، ولا تنسوا أنّ جميع الأُسَر وحدات في أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد.

وقلّب عينيه في وجوهنا ثمّ واصل حديثه:

ـ وفي كلّ أسرة طالبوكم بحبّ زملائكم فيها، وهو أوّل مطلب أطالبكم به في نطاق أسرتكم، ولٰكنّكم مطالَبون إلى ذلك بحبّ الجميع بلا تفرقة وفاء بحقّ المنبع الذي منه نهلتم، ولو لم يبادلوا حبّكم بحبّ مثله لجهلهم بوجود أسرتكم!

وتمهّل قليلًا ثمّ قال:

ـ وعملنا عجيب، ومحيّر إلّا لمن يعقل، يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهوّر، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح، إلى الاعتماد على النفس والتوكّل على الله، إلى الزهد في كلّ شيء، والشكر على كلّ طيّب، إلى حبّ الحياة وحبّ الموت!

وانتظر حتّى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول:

ـ وقد ألفتم الطاعة فيما مضى، وما زلتم مطالَبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر، ولٰكنّكم مطالَبون بالإبداع فيما عدا ذٰلك، لا راحة ولا كسل ولا رجوع إليّ إلّا فيما أبلغت من أوامر صريحة، وقد تمرّستم بكافّة الأساليب، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه، ومصيركم رهن بفطنتكم. . .

ولأوّل مرّة أشعر بأنّ المهمّة أشقّ ممّا تصوّرت. فإذا به يقول:

ـ وما العاقبة؟. . . قد تكون الشرطة والعياذ بالله، أو ميتة بطوليّة، أو الترقّي إلى مكتب الرياسة!

ولم أتمالك أن رفعت إصبعي فأذن لي بالكلام فقلت:

ـ تصوّرت أنّني كلّما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقلّ الاعتماد على النفس . . .

فقال بثقة:

ـ تصوُّر خاطئ، فرئيسنا حُرّ، وما كانت ثورته إلّا من أجل الحرّيّة. . .

فتماديت في السؤال قائلًا:

ـ لِمَ لا يسمح لنا القائد لنستمدّ منه الشجاعة والقوّة؟

فأجاب:

ـ لا سبيل إلى ذٰلك إلّا بالعمل. إلى ذٰلك فهو يتابع العمل بكلّ يقظة.

فتماديت أكثر قائلًا:

ـ رغم ذٰلك فقد ترك «ب» لجلّاديه يقتلونه!

فرنا إليّ طويلًا حتّى عصرني الندم ثمّ قال بصوت مهموس:

ـ لا أحد يملك أن يقطع برأي في مصير زميلنا العزيز. . .

وتبادلنا نظرات هاتفة جيّاشة ولٰكنّه قال بعجلة وحزم:

ـ آنَ لنا أن نرفع الجلسة التي ما قصدت بها إلّا التعارف، وإلى اللقاء. . .

وتعاقبت الاجتماعات، وتتابعت الأوامر، وكثرت الاجتهادات، وأنجزنا أعمالًا كبارًا، حتّى لاح النصر في الأفق مثل إشراقة الفجر. وسقط كثيرون متلفّعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالًا وإصرارًا، وجعل رئيسنا «جـ» يقول لنا كلّما اجتمعنا:

ـ حقًّا إنّكم لرجال!

أو يقول:

ـ سيرحل الشرّ عمّا قليل فقد يئس من الأرض.

وكان ذا حلم يشجّع على المناقشة فقلت له ذات مرّة:

ـ أما آنَ لي أن ألقى الرئيس؟

فقطّب في غير غضب وسألني في عتاب:

ـ أيداخلك شكّ في عدالة تقديري؟

فقلت بسرعة وصدق:

ـ معاذ الله يا سيّدي.

ـ ألا يكفيك ما أنت في شغل به؟

فقلت بتوسّل:

ـ أصبحت يا سيّدي وكأنّني من مجانين العشق.

فضحك ضحكة خفيفة وقال:

ـ من يدري؟ لعلّك رأيته وأنت لا تدري.

فرمقته بذهول غير مصدّق فقال:

ـ إنّه ـ على مدى علمي ـ لا يعيش في برج عاجيّ، ولكنّه يمارس حياته بين الناس، وربّما غشي الأماكن التي تجوبها للعمل أو الراحة. . .

فقلت منكرًا:

ـ لو لمحته للفت نظري بقوّة شخصيّته.

فقال باسمًا:

ـ ما أكثر الأشياء الجديرة بجذب الأنظار لولا انغماسنا في الأمور العابرة. . .

ردّدت قوله على مسمع قلبي طويلًا، وكدت أُشغل به عن كلّ شيء، لولا نداء العمل الذي لا يكفّ عن الصراخ.

* * *

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتّى انفجر رأي لم يقنع بكافّة الإنجازات التي تمّت وتلهّف على النصر النهائيّ. من أيّ أسرة انبثق ذلك الرأي؟ أم هل انبثق في الأسر الثلاث في وقت واحد؟ بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عامّ تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر في الخطّة من أوّلها إلى آخرها. ولـمّا لم تلقَ الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرّد الأوّل في الجماعة. فقد اجتمع ممثّلون عن الأسر، وتسابقوا في عرض تصوّراتهم الجديدة. واحتدم النقاش حتّى انتهى بكلّ فريق إلى التحيّز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناداة العامّة بالانضواء تحت لوائها. وزلّت القدم زلّة أخرى فراح كلّ فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى. وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم، ثمّ انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدي والأرجل، وتمزّقت الوحدة، وانعزل الناس الطيّبون وهم يذرفون الدمع، متوقّعين أن تنقضّ الشرطة في الوقت المناسب فتقوّض البناء من أساسه. ولم أصدّق ما أرى وما أسمع وقطّع الأسى قلبي، وهرعت إلى ربّ أسرتي وقلت له:

ـ ما حدث لا يصدّق.

فقال بحزن:

ـ هذه الأمور تحدث.

فتساءلت بحسرة:

ـ أبعد مشارفة النصر نقع في اليأس؟

فهتف بحدّة:

ـ لا تلمس اليأس بلسانك!

ـ أما يزال لديك أمل؟

فقال بنبرة قويّة واضحة:

ـ انتظر، كلّا، لا تنتظر. اندفعْ بلا تردّد لصنع ما هو صادق وطيّب، ما هو إلّا امتحان وككلّ امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل.

وتلقّيت كلماته كما يتلقّى الظمآن قطرة من الماء العذب.

ممرّ البستان

بعد تردّد طويل أجمعت على الذهاب.

نشدت الستر في الليل، وغصت في عطفة السنبلة المستكنّة تحت أمواج الظلام. عرفت طريقي بضوء الذاكرة الخفيّ، هاتِك الظلمة ومرشِد القَدَم. وتسلّلت من الباب الحديديّ الموارب ففغمتني رائحة بخور أليفة. ومن حسن الحظّ أنّني لم أجد في الدار أحدًا من الزوّار فطالعتني وحدها متربّعة على أريكتها الفارسيّة، في ثوب مزخرف بألوان شتّى هادئة على هيئة أهلّة وزهور، مرسوم بحنايا جسم مدمج فصيح، وجفنين شبه مسدلتين، على أنامل تعبث بأوراق اللعب، لا تملّ في وحدتها من استطلاع الغيب. لم ترفع عينيها نحوي كأنّما عرفتِ القادم مِن وَقْع خطاه، وكأنّما تعمّدت تجاهله. ولفرط شعوري بالإثم لم أجرؤ على مبادءتها بالتحيّة فجلست على أقرب كرسيّ إليها لائذًا بالصمت. واصلتْ قراءة الورق، ومضيتُ أفكّر في طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخّر من رأسي ما كنت أعددته تأثّرًا بجوّ الحجرة المفعم بالذكريات، وبفتنة الإغراء الماثلة في تراخٍ. وتظاهرت بالاهتمام كأنّما كاشفها الورق بحقيقة غير عاديّة، فهمست:

ـ فِعْل آخر يناطح عناده!

وندّت عنها آهة مليحة وتمتمت تكمل الرؤيا:

ـ سيلهب ظهره سوط محمّلة أطرافه بالرصاص!

فقلت في تسليم مجيبًا على تعريضها بي:

ـ ما مضى قد مضى وعليّ أن أنظر إلى الغد.

وكأنّها بوغتت بوجودي فنظرت نحوي بدهشة وهتفت ساخرة:

ـ دستور يا أسيادي!

فوضعت مظروفًا متوسّطًا بين يديها وقلت:

ـ جئت لأسدّد ديوني وأنظر إلى الغد...

فقالت تخاطب الورق:

ـ جاء ليسدّد ديونه وينظر إلى الغد.

فقلت برجاء:

ـ يجمعنا العيش والملح، وأنت سيّدة العارفين!

فقالت بجدّيّة لأوّل مرّة:

ـ هٰذه أمور تقع كلّ يوم.

فقلت بحرارة:

ـ لم يعد الزمن يأذن إلّا بمطلب واحد.

فأجابت بهدوء:

ـ الأمان.

فقلت متشجّعًا:

ـ الأمان، وكلّما شاورت في الأمر صاحبًا أشار إلى رَجُل واحد!

فقالت باسمة:

ـ إنّه مَن يشار إليه في هٰذه الأيّام.

فقلت بأسى:

ـ ولم أجد مَن أستشفع به إليه لما عرف عنه من كراهية للوساطة ولٰكنّهم قالوا لي إنّ كلمتك أنت لا يمكن أن تخيب عند أيّ عظيم.

فقالت في مباهاة:

ـ هٰذا حقّ لو أنّه كان من أصحابي.

فتنهّدتُ ولم أدرِ ما أقول فقالت هي ملاطِفة:

ـ اعرفْ طريقك بنفسك.

فندّت عنّي ضحكة ساخرة وقلت:

ـ ها أنت تهزلين . . .

ـ لو يجيء مرّة واحدة لملكته كالآخرين، ولٰكنّ أغلب روّاد حانة القمر من أصحابي إلّا هو.

فقلت في حسرة:

ـ آه لو تقع هٰذه المعجزة!

وتبادلنا النظر مليًّا. وفاضت عيناها بحيويّة طارئة، وضحكتْ، ثمّ سألتني:

ـ ما رأيك؟

فرمقتها بنظرة متسائلة فقالت:

ـ أن تقوم أنت بالمهمّة . . .

ـ أيّ مهمّة؟

ـ المجيء به إلى هنا.

ـ ولٰكن كيف؟

فقالت بجدّيّة:

ـ إنّه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل، ثمّ يخترق ممرّ البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيّارته، فالممرّ هو أنسب مكان للقائه . . .

ـ ولٰكنّه أبعد ما يكون عن معرفتي!

فأغرقت في الضحك وقالت:

ـ تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيّبين وتقول

هامسًا: «أتريد كأسًا جميلًا؟ بيت نظيف مكنون!».

فقطّبتُ غاضبًا من سخريتها وأشَحْتُ عنها بوجهي، فسألتني:

ـ ألا يعجبك اقتراحي؟

فقلت بحدّة:

ـ اسخري ما شئت من ورطتي!

فقالت بجدّيّة:

ـ إنّي جادّة إن كان الأمان يهمّك حقًّا.

فصحت متسخّطًا:

ـ كيف تتصوّرين أن أفعل بنفسي ذٰلك!

ـ ما هي إلّا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد.

فتساءلتُ بازدراء:

ـ أليس لديكِ الكثيرون ممّن يحترفون ذٰلك؟

فقالت بإباء:

ـ لست في حاجة إلى أحد منهم.

ـ وهل أكون أنا أوّل مَن تختارين...!

ـ ما هي إلّا مغامرة عابرة، ألا تفهم...؟

ـ كلّا لا أفهم.

ـ بل عليك أن تفهم، ولا بأس أن تختار موضعًا في الممرّ بعيدًا عن نور المصباح لتتشجّع بالظلام.

ـ وكرامتي؟

ـ إنّي لا أدعوك إلى الاحتراف، ما هي إلّا حيلة لمرّة واحدة، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر...

لدى عودتي لم أرَ ما أمامي من شدّة انفعالي. لم يداخلني شكّ في قوّة سيطرة المرأة على الرجال ولٰكنّي رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس حتّى خُيّل إليّ أنّي لم أعد أكترث للأمان، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة. وكأنّما هانَ عليّ أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر. واشتعلت في رأسي حرب بلا هوادة ولا توقُّف. ورحت أجوب المقاهي والحانات في ليل لا يريد أن يتزحزح. وقبيل منتصف الليل بقليل وجدتني واقفًا في ممرّ البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح. ماذا جاء بي؟ لعلّي أردت أن ألقي نظرة من قُرْب على ذٰلك الرجل الذي لم أر إلّا صورته في الصحف في بعض المناسبات. وكأنّه كان يتحرّك بانضباط فلكيّ، فعند منتصف الليل تمامًا أهَلَّ من ناحية حانة القمر بقامته المديدة يمزّق السكون بوقع خطاه الثقيلة. خفق قلبي وتهاويت من عليائي. ولـمّا حاذاني في مسيره تقدّمت منه خطوة، وسرعان ما تشتّت عقلي في مخاوف شتّى فكدت أرى الأصابع تشير إليّ. عند ذٰلك امّحت ذاكرتي وشلّ لساني. وانتبه هو إليّ فضرب بشبا عصاه الأرض محتجًّا على اقترابي المفاجئ، فتراجعت ومضى في سبيله.

ولم يدم ذٰلك طويلًا ففي أثناء النهار لم أعفِ نفسي من اتّهام. لماذا ذهبت إلى ممرّ البستان؟ لِمَ اقتربت من الرجل خطوة؟ وهل منعني حقًّا من الكلام إلّا تشتُّت عقلي ووقوعه فريسة للمخاوف؟ الحقيقة أنّني أخاف الناس. هم الأشباح التي تطاردني. ترى هل ينفعوني غدًا لو قاسيت شظف العيش والهوان؟! وانسقت بقوّة إلى مطاردة الأشياء الغريبة عن ذاتي، ولم أبالِ أن أتّخذ موقفي في ممرّ البستان قبيل منتصف الليل. وانتظرت في تصميم وحيرة معًا حتّى أقبل الرجل نحوي في طريقه إلى الميدان. واقتربت منه وأنا أهمس:

ـ لديّ كأس ونديم جميل وبيت آمن!

والتفت نحوي التفاتة سريعة. كان الظلام يفصل بيننا ولٰكنّه أحاط ولا شكّ بهيئتي.

وسرعان ما أشاح عنّي بوجهه وقال وهو يمضي بنبرة غاضبة:

ـ عليك اللعنة.

احترقتُ حياءً وخزيًا فلم يغمض لي جفن. لقد بعت أعزّ ما أملك بلا ثمن. رضيت بالهوان ولٰكنّه أعرض عنّي بكلّ ازدراء. ومع الليل ذهبت إلى عطفة السنبلة، وما أن رأتني مقبلًا على مجلسها حتّى هتفت:

ـ الخيبة مسطورة على وجهك!

فقلت وأنا أنحطّ فوق الكرسيّ يائسًا:

ـ لنبحث عن وسيلة أخرى.

وحكيت لها ما حصل، فقهقهت ساخرة وقالت:

ـ يا لك من بغل، تتعرّض لجنابه بهٰذا المظهر الوقور الأنيق؟!

فسألتها حانقًا:

- وماذا كان بوسعي أن أفعل؟

فاسترسلت في الضحك ثمّ قالت:

- لعلّه ظنّك شخصًا من خصومه يروم الإيقاع به . . .

- على أيّ حال فإنّ ذلك يؤكّد وجوب البحث عن سبيل آخر.

فقالت بجدّيّة:

- لا سبيل لك غير ذلك فلتصحّح التجربة.

فتفرّستُ في وجهها الجميل غير مصدّق فقالت:

- البس الرداء المناسب لغايتك.

رجعت غاضبًا عليها، غاضبًا على نفسي، غاضبًا على رغبتي الملحّة في الأمان. ومضت أيّام وأنا مستغرق في حوار مجنون مع ذاتي، حتّى وجدتني مرتديًا جلبابًا وطاقيّة وحذاء باليًا، أنتظر في ذات الموقع بممرّ البستان قبيل منتصف الليل. ومن شدّة إحساسي بالهوان هانَ عليّ فلم أعد أبالي به. ولـمّا أزفّت الساعة أقبل بقامته المديدة فتوثّبت للعمل حتّى حاذاني فدنوت منه وأنا أقول:

- عندي ما يسرّ العين وتشتهيه النفس.

فلوّح بعصاه حتى تقهقرت مذعورًا وقال بامتعاض وسخرية:

- ماذا قلت يا صاحب السموّ!

ورجعت إلى داري وأنا ألملم نفسي المبعثرة وأغوص في أعماق خيبة جامعة. وتضاعف سخطي ولٰكن تضاعف تصميمي أيضًا. وذهبت إلى السيّدة وقصصت عليها قصّتي متحدّيًا. غير أنّها هزّت رأسها في أسف وقالت:

- حقًّا إنّك لبغل، وفي حاجة إلى مَن يسندك لدى كلّ خطوة تخطوها.

فقلت ثائرًا:

- اقتربت منه لا فرق بيني وبين أحقر صعلوك.

فتساءلت ساخرة:

- وصوتك؟

- صوتي؟

- خاطبته يا حضرة بالصوت الذي اعتدت أن تخاطب به مرءوسيك!

فقلت بارتياب:

- لا أظنّ . . .

فقاطعتني:

- لا تبدّد الوقت، إنّي خبيرة بهٰذه الشئون!

وغبت أيّامًا قضيتها في التفكير والحزن والتدريب دون أدنى تفكير في التراجع. وكيف أتراجع بعد أن بعت كلّ شيء بلا ثمن؟ ولـمّا رجعت إلى موقعي بممرّ البستان كان الصبر قد أنهكني وكذٰلك القلق والأسى. ولـمّا حانت اللحظة المرتقبة تقدّمت بخفّة وحنيت رأسي بذلّ وقلت بانكسار ولٰكن بمرارة لم أستطع التخلّص منها:

- عندي شيء طيّب، في مكان محترَم وآمِن. . .

فمضى دون اكتراث بي، ولـمّا هممت بإسماعه صوتي من جديد نهرني قائلًا:

- الأجدر أن تدعو الناس إلى المآتم!

وسرعان ما فطنت إلى زلّتي، بل الحقّ أنّني حنقت على نفسي لغلبة المرارة على صوتي. واعترفت بكلّ شيء للسيّدة لأتّقي سخريتها. وقلت بتسليم:

- لن أعود إلى المحاولة.

فتساءلت في استنكار:

- أتيأس بعد أن لم يبقَ إلّا قيراط من الصبر؟

فنفختُ قائلًا:

- لا نهاية للأخطاء، وقد مللت. . .

فقالت لي بنبرة مشجّعة متجنّبة أيّ إشارة من السخرية:

- فكّر قليلًا يا صاحبي القديم، كيف يمكن أن تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح؟ إنّك متوهّم أنّك صبرت بما فيه الكفاية ولٰكن ما قيمة الصبر بغير الرضا؟ وقد أبديتَ إصرارًا لا بأس به إذ مَن كان يتصوّر أنّك تقدم على ما أقدمت عليه؟ ولا تنسَ في النهاية أنّك تسعى إلى اصطياد رجل ولا كلّ الرجال. . .

فقلت بريبة:

- يخيَّل إليّ أنّه ليس من أهل ذٰلك؟

فقالت ضاحكة:

- بل هو ذٰلك نفسه!

ثمّ مواصلة بجدّيّة:

- ولولا ثقتي من ذٰلك ما عرّضتك للتجربة، وأنا لست ممّن يخونون العيش والملح...

وتركتها بروح منتعشة، وتفتّح الورد في صدري من جديد، فصبرت أيّامًا ولا همّ لي في الحياة إلّا ممرّ البستان، حتّى وجدتني في الموقع أنتظر. ورأيته مقبلًا بقامته المديدة فالتزمت موقفي حتّى مرّ... ثمّ تبعته بخشوع وأنا أهمس:

- لا تدع فرصة العمر تفوتك!

فلم يلتفت نحوي ومضى. فتبعته بعناد وأنا أهمس:

- بيت آمِن ويليق بجنابك...

وإذا به يسألني فجأة:

- أين؟

فقلت بسرور لم أجرّبه من قبل في حياتي كلّها:

- عطفة السنبلة، البيت الثالث إلى يمين الداخل.

وكنّا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيّارته، ولـمّا جاء مهرولًا، صاح به آمرًا:

- اقبض على هٰذا الرجل ونادِ الشرطيّ!

فوضعت راحتي على فم السائق باستماتة وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق:

- كلّا... انتظر... لست منهم... أنا رجل محترم...

فأمره بإشارة أن يدعني وشأني وتساءل متهكّمًا:

- محترم؟

فقلت وما زلت أنتفض كالمصعوق:

- إليك بطاقتي...

وتناولها وراح ينظر فيها ثمّ تساءل:

- كأنّك محتال.

فاندفعت أقصّ عليه قصّتي بصراحة كاملة منذ اجتاحني نشدان الأمان فأزاح بقيّة مطالب الحياة عن كاهلي. وصمت مليًّا وهو يتفحّصني على ضوء الشعاع الهابط من مصباح في الميدان، ثمّ قال ببرود:

- إيّاك أن تريني وجهك مرّة أخرى!

* * *

وعقب أيّام لم أحصها جررت قدميّ إلى عطفة السنبلة وكأنّما قد طعنت في العمر أعوامًا مديدة. ولـمّا شارفت مدخل الدار برزت من تلافيف الظلام عجوز واعترضت سبيلي قائلة بصوتها الهرم:

- السيّدة معتكفة.

فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت:

- ماذا وراءك يا أمّ بركة؟

فعرفت بدورها صوتي وقالت:

- السيّدة تطالبك بتجنّب الزيارة حتّى ترسل في طلبك.

فخفق قلبي وتساءلت:

- هل تنتظر السيّدة زائرًا مهمًّا؟

فقالت أمّ بركة:

- لا عِلْم لي بشيء، اذهب مصحوبًا بالسلامة.

ولم أجد مفرًّا من الرجوع. وتكشّفت لي سحب الغموض عن أمل. ما كانت تتّخذ هٰذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامّة. وما معنى قولها «حتّى ترسل في طلبك» لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلتي؟. أسفر الظلام عن أمل. وخفق قلبي بالرؤى. ولاح لي الأمان بوجهه المشرق وراء غبش الظلام. لم يبقَ إلّا التحلّي بالصبر. وها هو التلهّف يحيل الصبر عذابًا حقيقيًّا. ومرّت الأيّام. وعذاب الصبر يتفجّر ويزداد افتراسًا. همّي الوحيد هو الانتظار. وتساؤلي المتردّد هو:

- متى يجيء الرسول؟!

البُستانيّ

كان وما زال حلمي الورديّ أن أستقرّ بعد المعاش في بيت ذي حديقة صغيرة، وأن أكرّس بقيّة العمر لفلاحة الأزهار والبساتين. ومن أجل تحقيق هٰذا الحلم رسمت لنفسي خطّة طويلة الأمد، أن أبذل في عملي أقصى ما أملك من جهد كي أرقى في سلّمه إلى درجة نضمن لي معاشًا محترمًا، وأن أسيطر على سلوكي ونظام معيشتي كي أدّخر من مرتّبي ما ييسّر لي بناء البيت المنشود بعد انضمامي إلى إحدى الجمعيّات التعاونيّة، وأن أدرس دراسة متأنّية فلاحة الأزهار

والبساتين. ولو أنّ الخطّة نُفّذت في كتمان وحكمة ما تعرضتُ لقيلٍ أو قالٍ، ولكنّني كنت وما زلت من الآدميّين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم، فعرف جميع الصحاب حلمي الورديّ وما أعدّ له، وعلم به آخرون، حتّى عُرفتُ على مَرّ الأيّام، وعلى سبيل المزاح، بالبستانيّ. وجرت المقادير في مجاريها غير عابئة بحلمي الأثير، فتعرّض العالَم لويلات من الحروب والأزمات، فمضت الأسعار في ارتفاع وقيم النقود في الهبوط، ولم تتحقّق وفرة بلا حساب إلّا فيما أنتجت من بنين وبنات. والأدهى من ذٰلك كلّه أنّي لم أحظَ برئيس ينتفع بمواهبي فيرشّحني لدى حلول الفرصة للترقية. وكنت أقول بصوت باتت الشكوى سمة غالبة على نبرته:

ـ يا سادة ـ ألا يلقى عملي المتواصل عندكم شيئًا من الجزاء؟

ولـمّا لا أجد أذنًا صاغية أقول:

ـ وإذا عزّ العدل أفلا يوجد شيء من الرحمة؟

فيقول لي رئيسي:

ـ انتبه لواقعك يا بستانيّ، أين الإنتاج الذي تحدّث عنه؟ ما أنت إلّا مستخدَم عاديّ دون المستوى المطلوب. . .

فأقول مستميتًا في الدفاع:

ـ ولٰكنّي مجتهِد، ولكلّ مجتهِد نصيب.

فيضحك قائلًا:

ـ لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة، اليوم نحن نربط الحوافز بالإنتاج . . .

وجعلت أغوص في الحيرة والظلام. أقلعت عن ذكر حلمي الورديّ ولٰكنّه ظلّ فرجتي وحلم يقظتي. وكلّما لمحت لونًا أخضر تراءت لخيالي الحديقة، فتنقّلت بين ورودها وأزهارها. ملقيًا خبرتي في خدمتها، متلقّيًا منها مسرّات الأريج والألوان. غير أنّ زوجتي لم يكن يشغلها إلّا مستحقّات البقّال والجزّار والدروس الخصوصيّة، ولا تكفّ عن تذكيري. وعانيت أمر تحمُّل الأعباء ومرارة الإخفاق حتّى رقّ لي رفقاء الطريق من زملائي الخائبين فهمس في أذني أحدهم:

ـ كيف تحتمل الحياة بلا ابتسامة؟

فسألته:

ـ خبّرني كيف يروق لك الابتسام؟

فهمس بإغراء:

ـ عليك بخمّارة «خذ واشكر».

كان في غاية الوقار والتعاسة فعجبت لشأنه وقلت بفتور:

ـ كيف تدعونني إلى مزيد من الإنفاق؟!

فضحك قائلًا:

ـ معاذ الله، هل يعزّ عليك ادّخار قرش واحد ولو بالرجوع مشيًا على الأقدام مرّة؟

تكلّم بثقة ويقين فقلت أجرّب، وهٰكذا اهتديت إلى خمّارة «خذ واشكر» في عطفتها الأثريّة «زاوية العابدين» بالباب الأخضر. وهي أشبه بمغارة في جوف جبل، تعيش في ليل دائم يغوص في عمق المبنى الضيّق المهلهل التي تقع في أسفله، يفضي إليها باب مقوّس الهامة ولا نافذة فيها، ذات شكل بيضاويّ، وفي نهاية عمقها يقوم برميل ضخم ذو صنبور سفليّ يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يدعى عبد البرّ، وتصطفّ على جناحيها أُخْوِنَة خشبيّة ومقاعد من القشّ المجدول. ويقدّم الشراب في كوب صغير مضلّع لا يملأ عين الظامئ، وهو شراب مجهول الهويّة لا يعرف كنهه حتّى الراسخون في السكر والعربدة. وسرعان ما تبيّن لي أنّ قلّة من روّاد الخمّارة مَن يستطيعون تجرُّع الكوب حتّى ثمالته، وكثرة تقنع بنصفه لشدّة مفعوله وبقاء أثره حتّى الفجر. وما كدت أرشف منه رشفات حتّى أكرمني غاية الكرم فاغتال بنفثاته الزاحفة وحوش الهموم التي تطاردني ليل نهار، وأحلّ محلّها الأنس والرضا والبشاشة. ووجدتني وسط الحديقة أغرس جذورًا جديدة وأقطف أزهارًا يانعة. ومال صاحبي نحوي قائلًا:

ـ هلمّ نناقش همومنا الملحّة. . .

فقلت محتجًا:

ـ أريد الحديث عن الورود وأنواعها. . .

فقال ضاحكًا:

ـ ها قد وصلت إلى الحديقة.

فسألته:

ـ ألا تسمع تغريد البلابل؟

واندفعنا نغنّي معًا:

ـ الزهر في الروض ابتسم

وكانت تقاليد الخمّارة ترحّب بالغناء. ومن كلّ ركن ترامت أغنية مشرقة، وجلس عبد البرّ بلا حراك وهو يبتسم.

* * *

وحرصت على كتمان السرّ ما وسعني ذٰلك غير أنّ الخمر ذات رائحة ناطقة من المتعذّر إخفاؤها إلى الأبد، من أجل ذٰلك افتُضح أمري، وتلقّيت فيضًا من اللوم والتعنيف وكانت زوجتي أوّل البادئين فقالت لي:

ـ أكان ينقصنا هٰذا الداء؟ . . .

فقلت لها بصدق:

ـ إنّي أؤدّي ثمنه مشيًا على الأقدام ولم يمسّ الميزانيّة بسوء.

فتساءلت:

ـ والأولاد الذين يكبرون يومًا بعد يوم؟

فقلت بضيق:

ـ ربّنا يستر.

ولٰكنّ السرّ انتشر في أماكن كثيرة، تعدّى من لسان إلى لسان، فدعاني بالكاساتيّ من سبق أن أطلقوا عليّ البستانيّ. وتجلّى أثر ذٰلك في موسم الترقيات، فقال لي رئيسي متهكّمًا:

ـ كنت ذا همّ واحد فأصبحت ذا همّين . . .

فقلت محتدًّا:

ـ يا أهل العدل والإنصاف، احكموا على عملي، ولا شأن لكم بسلوكي خارج الديوان.

فقال الرجل بامتعاض:

ـ ولٰكنّ الثقة لا تفرّق بين هٰذا وذاك.

فقلت محتدًّا أكثر:

ـ المسألة أنّني بلا شفيع!

* * *

واستجاب القدر لشكاتي الخفيّة فجاد عليّ بالشفيع المنشود. كنت في خمّارة «خذ واشكر» على أحسن حال. وحكيت لصاحبي حالي بيني وبين رئيسي وأنا مغمض العينين فقال لي:

ـ سيكون لك الشفيع الذي تريد.

فالتفتُّ إليه متسائلًا ولٰكنّه كان قد اختفى تمامًا. وحلّ محلّه آخر لم أره من قبل. كان يرتدي عباءة من كتّان أبيض ذات ذيل من جلد النمر وعلى رأسه عمامة خضراء. عجبت بهيئة وجهه التي تذكّر بوجه الأسد رغم ميل جسده إلى القِصَر. وسألته بدهشة:

ـ مَن أنت؟ . . . وأين جليسي؟

فأجاب بهدوء مفعم بالثقة:

ـ إنّي شفيعك.

ولم يداخلني شكّ في صدقه أو قدرته، وتلقّيت ذٰلك فيما يشبه الإلهام الذي لا يناقَش. من أجل ذٰلك قمت وأنا أقول:

ـ خير البرّ عاجله.

واصطحبته إلى بيت رئيسي في الزيتون، في تلك الساعة المتأخّرة من الليل. وطرقت الباب بشجاعة لا أدري من أين مأتاها ففتح الباب بنفسه، ونظر إليّ بذهول واستياء لم يحاول إخفاءه. وجلس قبالتنا في حجرة الاستقبال متجهّم الوجه، فقلت:

ـ معذرة عن زيارة في وقت غير مناسب.

فقال دون مجاملة:

ـ هٰذه الساعة من الليل!

فأومأت إلى رفيقي وقلت:

ـ أقدّم لسيادتك شفيعي . . .

فلم يحوّل بصره عنّي، وقرأت في ناظريه توجّسًا وقلقًا، فالتفتُّ إلى صاحبي وقلت برجاء:

ـ تكلّم يا سيّدي . . .

فقال الشفيع بهدوئه المكين:

ـ إنّه يستحقّ الترقية لدرجة جديدة في طريقه الطويل!

فنظرت إلى رئيسي وهو غائص في روبه البنّيّ القاتم فإذا به يتهادى في القلق والخوف. وأشفقت من إحراجه فنهضت قائمًا وأنا أقول:

ـ موعدنا الغد يا سيادة الرئيس . . .

* * *

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدّرت فقد تقرّر إحالتي على المعاش قبل بلوغي السنّ القانونيّة بخمسة

أعوام. ولم تجدِ الشكاوى المتلاحقة التي رفعتها إلى الجهات المختصّة. وساء مركزي في أسرتي وفي الأماكن الأخرى. وكاد بناء أسرتي أن ينهار لولا سعي أهل الخير لإلحاقي بأعمال إضافيّة، فعملت مصحّحًا بمطبعة السعادة، وكاتبًا على الآلة الكاتبة بالقطعة في مكتب تَوْكل. وبات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة ولكنّي لم أكفّ عن ممارسة أحلام اليقظة في خمّارة «خذ واشكر». وجعلت أقول لصاحبي:

ـ كأنّما جاء الشفيع ليخرب بيتي...

فقال الرجل:

ـ ولكنّ حالتك اليوم أحسن ممّا كانت وأنت في الخدمة...

فقلت متشكّيًا:

ـ ولكنّي أعمل كالثور في الساقية.

فقال باسمًا:

ـ الصبر مفتاح الفرج.

فقلت بحنق:

ـ وددت لو يجيء مرّة أخرى لأسأله.

فقال ساخرًا:

ـ خلّها على الله بلا مناقشة ولا وجع دماغ.

* * *

وبلغتْ دراستي لفلاحة الأزهار والبساتين غاية يُعتدّ بها، فسنحت لي فكرة مثيرة، وهي أن أستثمر معلوماتي متطوّعًا بلا أجر. ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة؟ ومن المستحيل ممكنًا؟ إنّ الحدائق الخاصّة في حيّنا متوفّرة بكثرة تفوق الحصر، وإذا عرضت على أصحابها خدماتي فلن يرفضوها ولو على سبيل مجاملة الجار. بذلك لا يُهدر عنائي الطويل المتواصل ولا يتلاشى سروري في الحياة. وها أنا أمضي البقيّة الباقية من حياتي في الخضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو شراء أو بناء، وكأنّني أملك بدل الحديقة الواحدة عشرًا.

هكذا حقّقت حلمي متجاوزًا كافة عقبات الطريق...

النّسيان

اشتعل خيالي فانفجرت موجاته في جميع الأرجاء ولكنّه لم يلمّ بالمدينة اللانهائيّة. إنّها تربض في أيّ مجال من مجالات البصر، كائنًا عملاقًا بلا حدود ولا تناسق، ملوّحة بآلاف الأذرع والسواعد والأصابع، تستوي فوقها آلاف مؤلّفة من الأبنية الشاهقة المجلّلة بطابع العصر المتعجرف التيّاه، وأخرى مُتهرّئة حال لونها في قبضة الزمن الجارف وثالثة آيلة للسقوط يلتصق بها سكّانها في استسلام وإصرار، وفي فجاجها يتلاطم الناس في صخب ويتلاقون في غفلة وضوضاء، وتتابع الباصات والسيارات والكارو والجمال وعربات اليد عازفة أصواتها المتضاربة، والحوادث كثيرة والأفراح صارخة والجنازات زاعقة والمشاجرات دامية والعناق حارّ وحناجر تنادي على سِلَع من الشرق والغرب والجنوب والشمال، ويختلط الأنين الشاكي بشهقة الحمد والرضا.

مأوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة في البحر العاصف. يستقبلني شيخ القبيلة المهاجرة قائلًا:

ـ ابن جديد، أهلًا بك في أسرتك.

فألثم يده وأقول:

ـ شكرًا لك يا عمّي.

ووجدت مقعدي في المعهد ينتظر أيضًا. وكنت عند حسن الظنّ فتُوّجتِ الرحلة بالنجاح. وأُلحقتُ بالعمل في مصلحة المساحة وأنا أقول «مَن جَدّ وَجَدَ». ومن العمل تسلّلت إلى المقاهي والأصحاب ولكن بحذر المتقشّفين. وراودتني أحلام القلوب الصائمة. وفي مأوانا ورود متفتّحة. ودارت العجلة بالأصباح والأصائل والأماسيّ. وحدث شيء مألوف. حلم عابر يُذكر أو يُغفل. ولكن يبدو أنّه ومض في عينيّ ومضة لم تغب عن بصر شيخنا الثاقب. فقال لي وهو متربّع على أريكته يناجي حبّات مسبحته:

ـ في نفسك شيء يدور.

فقلت باسمًا:

ـ جاءني في المنام شخص وحذّرني من النسيان...

فتفكّر مليًّا ثمّ قال باسمًا أيضًا:

ـ إنّه يذكّرك بالشباب!

وفطنت إلى ما يلمح إليه. وفي مهجرنا لا تحول الصعاب بين المرء وبين ما يشتهي قلبه. قبيلة متآخية متراحمة. والحجرة تتّسع لزوجين بمثل ما تتّسع لفرد. والعروس جاهزة منتظرة وثمّة تسهيلات جمّة ومساعدات ميسّرة. ويقول الشيخ:

ـ لنلتزم بالسنّة الشريفة، وعلى بركة الله.

وتُطلى الحجرة، وتؤثّث بالجديد المناسب، وتستقبل عروسين في تلك المدينة الهائلة التي لا تبالي بأحد. والحياة في مهجرنا تقوم على التضامن، وتتفتّق عن حِيَل كثيرة للتغلّب على عسرة الأيّام. وأقول لنفسي وأنا في غاية السعادة:

ـ طريقنا عبّدته أقدام أسلاف كرام.

وانهمكت في الحبّ والزواج والأبوّة والعمل. وجعلت أقول للشيخ:

ـ الفضل لله ولك.

فيقول بامتنان:

ـ بيتنا مثل سفينة نوح في هٰذا الطوفان الذي يحدّق بنا.

فقلت له:

ـ عمّي، الناس تحسدنا وتغبطنا...

ـ ويزداد ذٰلك كلّما أمعنّا في الزمن.

وانتبهت ذات ليلة على الحلم يعود من جديد. ويحذّرني ذٰلك الرجل من النسيان. رأيته كما رأيته في المرّة الأولى أو هٰكذا خُيّل إليّ. الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام. واستمع الشيخ إليّ باهتمام ثمّ قال:

ـ عوّدتنا أن تحلم بهواجسك.

فقلت:

ـ قلبي مطمئنّ وخالٍ من الهواجس.

ـ حقًّا؟! ألا تفكّر في مستقبل أسرتك؟

فقلت كالمحتجّ:

ـ سعيد في هٰذا الزمان من يستعدّ ليومه.

ـ وماذا تفعل غدًا إذا ألحّت عليك المطالب؟

فلذت بالصمت في كآبة، فقال:

ـ افعلْ كما يفعل كثيرون، استعِنْ بعمل إضافيّ...

ويسّر لي بنفوذه التدريب في مركز سباكة. وبرعت في ذٰلك براعة محمودة. ورحت أستثمر خبرتي الجديدة مساء بعد فراغي من عملي الرسميّ. وتوفّرت أرباحي فتراكمت مدّخراتي. وتابع الشيخ نجاحي بارتياح وهو يقول:

ـ هٰذا خير من الانحراف، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطط بسبعة أرواح.

ودبّ في أوصالي نشاط باهر، وانتشيت بحبّ الحياة وتغافلت عن فوضاها الضاربة في كلّ موضع. وأغراني ذٰلك باكتراء شقّة غُرّمت فيها خلوًّا لا يُستهان به. وودّعني عمّي في شيء من الفتور وهو يقول:

ـ هٰكذا تجري الأمور.

وآمنت بأنّه لا طمأنينة لحيّ بغير العمل والمال، وبأنّ أسعد ما نناله في دنيانا مستقبل مأمون. وحافظت على اعتدالي بقدر الإمكان فلم يجدّ جديد في حياتي سوى التدخين واللحوم الدسمة والحلوى الشرقيّة. وتخرّج أبنائي وبناتي في مدارس اللغات. وأقبل مع الأيّام كلّ شيء حسن. وفي غمرة حياتي العذبة انتبهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرّة الثالثة، ويحذّرني الرجل من النسيان كعادته. رأيته كما رأيته في المرّتين السابقتين أو هٰكذا خُيّل إليّ. الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام. وعجبت ولم أفلح في الاستخفاف به. ولم يكن الشيخ قريبًا لأحاوره، وكنت قد انقطعت عنه فترة غير قصيرة لانهماكي في العمل فكرهت أن أزوره زيارة غير بريئة لمنفعة. وساورني قلق تسلّل لسلوكي فعانت منه زوجتي، وقالت لي:

ـ خير من ربّنا وشرّ من أنفسنا!

فقلت باستهانة:

ـ ما هو إلّا حلم على أيّ حال...

فقالت مصدّقة:

ـ ولا أراك تنسى شيئًا...

ولٰكنّي لم أستطع التملّص من قبضة الحلم العجيب. ظلّ يطاردني ويشغل بالي. وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرور. فجأة وبلا انتباه. وانقضّت عليّ سيّارة من

قريب فلم تستطع أن تتحاماني أو تفرمل قبل أن تصدمني وتطيح بي كالكرة. فقدت الوعي تمامًا حتّى استيقظت في المستشفى على حال لا يرجى معها أمل.

* * *

ومن منطلق العبرة والأسى يحدّثنا الشيخ فيقول:

- نُقل إلى المستشفى تظلّه سحابة الموت السوداء، فأُجريت له جراحة خطيرة، وثبت من التحقيق وشهادة الشهود بأنّه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنّما يقصد الانتحار، وبأنّ لا مؤاخذة البتّة على السائق، وجلستُ جنب فراشه وقد علمت بأنّه لا أمل في نجاته، وزارنا صاحب السيّارة مواسيًا ومتطوّعًا لمدّ يد المساعدة، فمكث قليلًا ثمّ ذهب. وتحرّك جفنا ابن أخي وتجلّت ومضة ضعيفة في عينيه فأدنيت أذني من فيه. وسمعته يهمس:

- إنّه الرجل، هو هو صاحب الحلم...

وكانت آخر كلمات ندّت عن شفتيه...

صاحبة العصمة

يوم جاءت كان يوم بياض نهاره توارى في عتمة غاشية تحت السحب المتراكمة، ونسائمه جالت مثقلة بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف، ونذر المطر تهيم في الفضاء. وتوجّس الناس فحملوا السلع إلى أعماق الحوانيت ولاذت عربات اليد بالأفنية. لم يبقَ في الحارة إلّا الصغار يتحدّون عبوس الجوّ بمرحهم المستهتر. جاءت في حنطور يتأوّد فوق أديم مبلّط، يشدّه حصان مهزول، ويسوقه حوذيّ عجوز نعسان، مسبوقة في اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين المتفحّصة. وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية القبو، فمرقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محجّبة لم يكشف نقابها المحكم عن ملمح من ملامحها، وتبعتها عجوز سافرة مقوّسة الظهر من الهرم. أذاعت صاحبة البيت بأنّ الدور الثاني والأخير اكترته أسرة ذات شأن ووزن ولكن لم يتصوّر أحد أن تتكوّن من امرأة وحيدة وخادم عجوز. ولـمّا دارت العربة بصعوبة لضيق المكان لترجع من حيث أتت وثب رجل نحو الحوذيّ وسأله:

- من أين جئت بحمولتك؟

فأجاب العجوز وهو يهزّ اللجام مستحثًّا حصانه على السير:

- من زين العابدين.

ولم يُشبع الجواب نهم أحد وأخذ الرذاذ يرشّ الأرض، وقال صوت:

- الخير على قدوم الواردين.

فتعجّب آخر:

- أيّ خير في هٰذا الجوّ العاصف!

ورغم انهماك الخلق في غيابات الحياة اليوميّة وانغماسهم في الحساب نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون وجاشت صدورهم بالأخيلة المحرّمة، واستفحل الخطب بتسلّل أنباء عن ترمّلها المبكّر ووحدتها المثيرة وترفّعها المتحدّي وما خلّفته وراءها من احتدام الأهواء الجامحة. تقول مالكة البيت بفخار:

- أرملة الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف باسمه وشرطه الأوّل أن يبقى استحقاقها ساريًا ما بقيت أرمل فإذا تزوّجت سقط حقّها في الريع...

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول:

- لمحة عابرة ولٰكنّها ثمرة ناضجة قبيل منتصف العمر، ليس كمثل جمالها شيء...

ويتجهّم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم وتقول محتجّة:

- لا ترحّب بلقاء أحد، ولا أنا صاحبة البيت، أُصبح على وجه خادمتها الكركوبة أمّ طاهر، أمّا كوثر هانم...

ويقاطعها أكثر من رجل:

- اسمها كوثر؟

- كوثر البدري كما هو مرقوم في عقد الإيجار...

وأمّ طاهر تجول في الحارة مع تعاقب الأيّام. تطوف بالجزّار والبقّال والفاكهيّ والعطّار والبنّان وتعرض عن المتطفّلين. وسيّدتها قابعة في أعماق ذاتها، لا تغادر البيت، لا تلوح في نافذة، ولٰكنّها غزت الأخيلة بسحرها الخبيء، وأشعلت الوجوه والأطراف بوقع

نظرتها المتسلّلة الخفيّة من وراء النوافذ المغلقة، تَرى ولا تُرى، تقيم وتزن وتحكم من جانب واحد، وهم تحت رحمة مجهولها لا عِلْم لهم بما يروق أو يسخط، بما يفتح الأبواب أو يغلقها، بما يقرّب أو يُبعد. وهي وفدت إلى الحارة في وقت استقرّ فيه زحل في برج الحظّ المائل، فأرسل نحسه ليغمر القاصي والداني. ثقلت الأرواح ففقدت خفّة مرحها، وصمّت الآذان عن سماع الغناء، وجفّت القلوب فتلاشت خفقة الحبّ والحنان، ومضت الشمس تشرق وتغرب والقمر يسطع ويأفل فلا يظفر بمن يدهش أو يفرح أو يتذكّر، ولٰكن احتدم البيع والشراء، وتناطح الربح والخسران، وتوالى الملء والتفريغ، وكثر الغشّ والحلف بالطلاق، والحجّ لعقد الصفقات، والزواج لتأمين الدعارة، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب، حتّى حارَ بِن أمره ينسون، الشابّ مجهول الأب نحيل الجسم ذو قلب الطفل ووجه العذراء، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيّام الماضية؟ ما زال سقّاء الحارة يطوف على البيوت بالقِرَب ولا يجد عند المساء من يلهو معه أو يطرب لصوته إذا غنّى. وفدت إلى الحارة وهي على تلك الحال فما فعل مجيئها إلّا أن أرّث الطمع وهيّج الجشع وقدح زناد الهدم والتخريب. وقال مُدّعو الحكمة إنّ امرأة هٰذا حالها لا تفرّط في الوقف من أجل الشرع ولٰكنّها في النهاية تمهّد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب فيفوز بالحبّ والمال معًا. وفي الليالي الساهرة التي يحتفلون فيها بالصفقات الرابحة تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات، وتغصّ الأرض بالجماهير، وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء. وترتسم هامتها وراء خصاص النافذة فتنبض العروق بالحماس، ويشمل بالنشوة السكارى والمفيقون، فيتبارون في الرقص والمصارعة والمزاح يقدّمونها قرابين تحت النافذة، استثارة للرغبات الكامنة وتمهيدًا للاقتحام. ويراقب شيخ الحارة ما يجري بعين تطفح بالكآبة فيحدس قلبه المتاعب المقبلة في طيّات السحب، ولم يجد من يحاوره إلّا ينسون المستقرّ في رحاب الطيبة والأسى فيقول له:

ـ لا يتذكّرون قتلى أسلافهم يا ينسون.

فيسأله الفتى الذي سعد بإقباله:

ـ كيف قُتلوا يا شيخنا؟

فيقول ماضغًا مرارة الذكرى:

ـ لأتفه الأسباب يا ينسون. . .

ومضت أيّام ذاك الشتاء العاتي دون أن تصيب شهوة مرماها فانفجر غضب الكبرياء في القلوب المحتدمة بالضجر، وتمخّضت ليالي الغرز عن مكيدة، فاختفت أمّ طاهر هاجرة خدمة السيّدة الوحيدة، وتعهّدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أيّ مساعدة للجميلة المتوارية. دبّروا ذٰلك ليجبروا المرأة على الظهور والمشي في السوق ثمّ يكون بعد ذٰلك ما يكون. ولم تكن المكيدة ممّا يتّفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة، ولٰكنّها لم تنبُ عن ذوقها الذي اكتسبته أخيرًا في دوّامة الأعاصير الجارية، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم وتحقيق أخيلتهم المحمومة. ولم تشغلهم أعمالهم عن التربّص بالمسكن المغلق. عمّا قليل ستهلّ عليهم بقامتها الممشوقة، كاشفة عن ذاتها، ويتهادى إلى الآذان صوتها الناعم. وباقتراب اللحظة المترقّبة اضطرمت المنافسة في الأعماق، وتوتّرت العلاقات واندلع الاستفزاز في المحاجر فأنذر بأوخم العواقب. منّى كلٌّ نفسه بها ورأى ذاته في مرآة الوجود الأجدر والأحقّ بملكيّتها شرعًا أو سفاحًا. وتوثّب شيخ الحارة للعمل ولٰكنّ الأحداث لم تمهله، فنشبت معارك وحشيّة، كلّما سدّ ثغرة انفتقت ثغرة، وتعرّت الأنفس بلا حياء. وجمع الشيخ عزيمته ومضى إلى البيت، وطرق باب الستّ. ومن وراء شرّاعة الباب المواربة قال:

ـ أنا شيخ الحارة.

فجاءه صوت غاية في العذوبة وهو يقول:

ـ انتظرتك من أوّل يوم!

ـ عظيم، ماذا ترين حلًّا لهٰذه الوحلة؟

فقالت بعتاب:

ـ ظننتك قادمًا بالحلّ!

ـ الوحش انطلق بلا رادع، ولن يرجعه إلى قفصه إلّا أن تذهبي بسلام . . .

فقالت بأسى:

- جئت هربًا من هٰذا الوحش!

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- اختاري أحدهم.

فقالت بازدراء:

- لا خيار بين هٰؤلاء الحقراء.

- منهم من يُعَدّ من أغنى الأغنياء.

- ليس المال ما ينقصني.

- ستخرجين اليوم أو غدًا إلى حارتهم.

- لم أعتد الجولان في الطرقات.

- لن يسعى إليك الطعام على قدمين؟

فصمتت مليًّا ثمّ قالت:

- يا شيخ الحارة، أرسل إليّ الفتى ينسون!

فهتف الرجل ذاهلًا:

- ينسون!؟

فقالت بهدوء:

- نعم، إنّه يصلح للخدمة.

- سيغرونه بهجرك كما فعلوا مع أمّ طاهر وصاحبة البيت؟

- قلبي يحدّثني بخلاف ذاك.

- أخاف عليه سوء العاقبة.

- أرسله، ودع الأمر لي . . .

وانتبه الرجال فإذا ينسون يعمل في خدمة السيّدة الجميلة. يذهب ويجيء في طمأنينة الغافل عن النذر المحدقة به. وتغيّر منظره. خطر في جلباب صوفيّ وطاقيّة بيضاء ومركوب أحمر. وفي حمّام السلطان تجلّى لونه الحقيقيّ لأوّل مرّة. وثبت لكلّ ذي عين أنّ له شبابًا ورونقًا. وتفاقمت الشائعات المغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم. ولم تنهزم المرأة ولٰكنّها تحدّت الجميع بإرادة لم تجرِ لأحد في بالٍ. استدعت المأذون في رابعة النهار، وأتت - من بين معارف أسرتها - بشاهدينِ خطيرينِ، حمل حضورهما معها فصل الخطاب، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العامّ، وقالت المرأة لشيخ الحارة:

- ضحّيت بنصيبي في وقف النقيب قانعة بالحبّ والأمان ومدّخر من المال يكفي لبدء حياة جديدة.

* * *

وحتّى اليوم أتذكّر هٰذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصبا، ولٰكنّي أتذكّر أيضًا أنّ أبي أقسم لي مرّة أنّها حكاية حقيقيّة، وأنّه عاصرها على عهد شبابه الْمولّي.

في أثر السّيّدة الجميلة

ذات صباح مبكّر دافئ، صادفتها عند منعطف البرج وليس في الطريق غيرنا سوى الكنّاس. كنت قادمًا نحو المنعطف من ناحية وهي قادمة من الناحية المقابلة وبيننا أشعّة الشمس المشرقة تحبو فوق الأرض الخضراء.

ألقيت نظرة عابرة فشُدّت بقوّة باهرة لتستقرّ فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصّة لا جدوى من وصفها. الجميلات كثيرات ولٰكنّ إحداهنّ تُخصّ بميزة سرّيّة يتسلّل منها إلى قلب ما نداء مبهم لا يقاوَم. قوّته الحقيقيّة في الأمر الصادر منه، وقوّته الحقيقيّة أيضًا في الاستجابة الحارّة إليه التي لا تفسير لها. من أجل ذٰلك وقعتُ أسيرًا بلا معركة أو من خلال معركة لم أشعر بها قطّ. انشرح صدري بقوّة عجيبة، واستسلم قلبي بلا قيد أو شرط، كأنّها غاية الدنيا وثمرتها النهائيّة، هي ما أريد، وما تعلو على جميع ما تَعِدُ به الدنيا من جاه ومال وسعادة. ونسيت شواغلي جملة، وهموم اليوم والغد، وما كنت ماضيًا لأؤدّيه ممّا يمتّ بصلة لأسرتي أو عملي. تلاشى كلّ شيء، ولم يبق إلّا هٰذه الصورة العذبة المتوّجة لجسم رشيق يمضي بها في مشية معتدلة هادفة على مبعدة أمتار وأنا في أثرها مركّز الوعي في حركتها اللدنة المتتابعة. وهالني وأثقل مهمّتي هالة الجدّيّة التي تكسوها، ورصانة الخطو التي تحملها بعيدًا عن ألفة المرح وأمل القرب. ترى ماذا أبغي؟

ولٰكنّني أبغي شيئًا محدّدًا ولا أملك خطّة واضحة. المسألة بكلّ بساطة أنّني عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب.

إنّه أمر خطير في الواقع. ليس لهوًا أو عبثًا ولٰكنّه فقدان كامل للذات، واندفاع أهوج في سبيل جديد لم

يلج من قبل في جدول أعمالي، ضعت بالطول والعرض وأصبح الماضي كلّه في خبر كان. وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة ـ أو المرأة ـ إلى المستشفى ودخلت فواصلت سيري أمتارًا ثمّ توقّفت تحت شجرة. أتعمل في المستشفى أم تعود مريضًا؟

لم أفكّر في الذهاب على أيّ حال ولا في التخلّي عن أن أكون ظلًّا لها.

وتذكّرت في فترة الانتظار حرّيّتي وبأنّه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة والإفاقة من هٰذه السكرة الغامرة؟!

ومن شدّة شعوري بالأسْر دعوت إرادتي أن تمدّني بالرعاية الواجبة، ووردت على ذاكرتي تجربة سابقة متشابهة ولٰكنّها بعيدة عن التطابق.

ثمّة سحر كان، نفثته نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال وفعل بي ما لا يقال، ولٰكنّ التجربة الجديدة، رغم ذٰلك، جديدة تمامًا وغير مسبوقة بنوعها، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها إلّا «بروفة» باهتة. ومرّ وقت ثقيل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو موقفي ماضية في طريقها. ولدى مرورها بي تلقّيت نظرة عابرة فلم أدرِ إن كانت تذكّرتني أم لا، وذهبتْ مجلّلة بجدّيّتها ومناعتها وفتنتها الغامضة، ساحبة إيّاي وراءها.

وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير. وصاحبني تساؤل دائم عن جدوى إصراري أو معناه أو الهدف منه، ولٰكنّه لم يقلّل من حدّة نشاطي المندفع. وساورتني احتمالات ممكنة كأن تستقلّ سيّارة فتغيب عن أفقي ولٰكنّني لم أنثنِ عن السير. وأظنّها على وعي ما بمتابعتها ولٰكنّها لم تبدِ عن أيّ ردّة فعل، فضلًا عن أنّها لا يعتريها تعب أو ضجر. وقلت لنفسي إنّ محاولة التعارف خطوة لا بأس بها، وربّما تمخّضت عن جديد، وهي على أيّ حال خير من السير الأخرس. وأسرعت لألحق بها، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قويّ البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهلّلًا:

ـ أشرقت الأنوار.

تصافحا بحرارة فواصلتُ السير حتّى وجدت مأوى قريبًا وراء حجرة تفتيش كهربائيّة. وراقبت انهماكهما في حديث غير مسموع. وأشار الرجل إلى محلّ «باباز» فمضت برفقته إليه ثمّ اختفيا داخله.

أنتظر أم أدخل؟

لبثت فترة تمزُّق وحيرة، ثمّ اقتحمتُ المحلّ كأنّما أبحث عن شخص ما. وجعلت أجول في الأركان ببصري، فرأيتهما جالسين حول مائدة، أمامها زجاجة بيبسي وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلا حديثًا حول التلاوة، في الغالب، فدوّن الرجل بعض الملاحظات، ثمّ صفّق داعيًا الجرسون فأسرعتُ إلى الانتظار في الخارج وخرجا في أعقابي، فتصافحا أمام المحلّ، أمّا الرجل فرجع إلى الداخل وأمّا المرأة فسارت نحو شارع خيري، وفي الحال تحرّكتُ في خطّي المرسوم.

وبعد مسيرة دقائق انحرفتْ نحو دكّان ساعاتيّ فوقفتُ تحت شجرة مستقبلًا حرارة متصاعدة وأصواتًا متضاربة وزحمة تنقضّ ما بين مركبات وآدميّين وكأنّما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال.

وغادرتِ المحلّ بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفيّة.

كيف يتأتّى لي أن أهمس في أذنها بما أريد وسط هٰذا الانفجار الآدميّ الآليّ الذي يتعاظم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعّة الشمس والأنفاس الحارّة؟ رأيتها تتّجه نحو «البنك الأهليّ» وتغوص داخله فتوقّفت في ضيق شديد ثمّ دخلت وراءها متعلّلًا بفكّ ورقة ماليّة. لمحتها تقف أمام شبّاك لعلّه لصرف الشيكات ثمّ تقف جنب أريكة مكتظّة تنتظر. ولبثت واقفًا، ولٰكنّني خفت أن أثير ريبة فذهبت خارجًا وانتظرت أمام بيّاع جرائد ومطبوعات رحت أتفحّصها وأراقب باب البنك في الوقت ذاته.

حتّى متى أستطيع اتّقاء الشعور بالتعب؟

ها هو الوقت يمضي في توتّر أعصاب وتصلّب عضلات. ثمّ تلوح في باب البنك بشموخها الفطري فيخفق فؤادي بارتياح عابر عميق. أتبعها متجدّد النشاط متحيّن الفرصة للالتحام بها ومهما كلّفني ذٰلك من مخاطرة. ولٰكنّها مالت إلى السنترال. هٰذا مكان لا

يثير الوجود فيه تساؤلًا أو ريبة. دخلتُ بجرأة وانتظرتُ قريبًا من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما. وسمعت العاملة وهي تقول لها «رقم ١١»، رأيتها وهي تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها. ترى ألم يُفتن بها سواي؟ أيّ قضاء قُضِي به عليّ هٰذا الصباح؟ ثمّة تعب خفيف بدأ دبيبه في ساقيّ وهناك شبح الإحباط أيضًا. وظلّ الشكّ المؤرّق. ويوجد أيضًا شعور قائم بتفاهة كلّ شيء خارج نطاق المغامرة المجنونة. ها هي خارجة من المقصورة بوجه مورّد بالرضى. تحرّكْ... تحرّكْ... لا يجوز التراجع بعد ما كان.

لعلّها نسيتني تمامًا ولكن لا محيد عن السير. بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحرّ أشدّه. لا فرصة ألبتّة للمناورة. أسبقها مرّة وأتأخّر عنها أكثر الوقت لعلّها تتذكّر رجل البرج. لم أتمكّن من قراءة أصابعها أهي متزوّجة؟ مخطوبة؟ حرّة؟ وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيا جانبًا، وتوقّفتُ ماثلًا نحو باب عمارة. ما أجمل ابتسامتها وأرشق إشارتها. وانتهى اللقاء فواصلتْ سيرها مارّة أمامي لمحتني ما في ذٰلك شكّ. وكردّ على ذٰلك زادت من سرعتها ومن جدّيّتها. وأعود للتساؤل عن معنى ذٰلك. لكن لا حيلة للعقل في الموضوع كلّه. أو لعلّه يقرّني على سلوكي طالما أجد فيه أملًا أو سعادة. يقول لي استمرّ إذا شئت ولكن لا تتورّط في خطأ. وأصبح الشعور بالتعب واضحًا. وعرّجتُ إلى شارع البورصة المكتظّ بالسيّارات الواقفة على جانبيه. ويقلّ الزحام هنا لدرجة تغري بالجرأة. ودون تردُّد أحثّ الخطى حتّى أحاذيها فوق الطوار.

أنظر نحوها فتتلقّى نظرتي بعين متحفّزة. أقول:

- هل...

ولكنّها تقاطعني بصرامة:

- احترمْ نفسك.

- أودّ أن أتشرّف...

ولكنّها لم تسمعني غالبًا لاندفاعها إلى الأمام. إنّه رفض صادق. تكاثف الإحباط والشعور بالتعب.

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة. لكنّني لم أستطع. إنّه حكم مؤبّد فيما بدا. ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد. دخلت وراءها مطمئنًّا كما دخلتُ السنترال. ورحت أقلّب عينيّ في الكتب وأسترق النظر.

امتدّت يدها البضّة القمحيّة إلى كتاب «القوى الخفيّة». ابتسمتُ رغم القهر، وتناولتُ نسخة تحيّة لها. ثمّ تبعتها إلى الخارج كالمنوّم. ودخلنا أيضًا صيدليّة واضطررت إلى ابتياع حقّ أسبرين. وبدأت قدماي تشكوان. توسّطت الشمس السماء. عجبت لطول ما انقضى من النهار. ولم أجد أمامي إلّا الحظّ فلعنته وتساءلت على وجه مَن أصبحت اليوم؟ وعبرتني عتمة الهواجس فلم أدرِ كيف وصلنا إلى شارع التحرير. ورأيتها ماضية نحو مطعم «الشامي» فسرعان ما نهشني الجوع. وبجرأة اخترت مائدة مقابلة لها. ودون مبالاة غادرتْ مائدتها إلى أخرى في أعماق المحلّ. صفعة متوقّعة على أيّ حال. وأمرت بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء. وختمت بفنجان قهوة وأنا أرقب مدخل المحلّ بعناية وغزتني رغبة في الاستلقاء وعلى عكس ما قدّرت استفحل إحساسي بالتعب. ولـمّا رأيتها تتهادى خارجة قمت من فوري فتبعتها. وتريّثتْ أمام محلّ أثاث لترى في مرآة معروضة الطريق وراءها. ورأتني بلا شكّ، وواصلت سيرها في هالة تنطق بالغضب والاحتجاج. وصدرت إليها إشارات من سيّارات عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت في شموخ منيع. المصيبة أنّها لا تكلّ ولا تملّ ولا توحي بقصد هدف محدّد. على الأقلّ هي تعلم أمّا أنا فلا أعلم وحتّى اليأس القاطع تمنّيته. وعثرت بشيء فوق الطوار فكدت أفقد توازني وارتطمت برَجُل قذفني بجملة كالطعنة «فتّح عينك». وانضاف إلى الإرهاق العامّ إحساس بالظمأ ورغبة في إفراغ المثانة وبألم نصفيّ في الرأس. وثمّة تساؤل مقلق هبها استجابت فماذا عندي لأقدّمه؟ لماذا يتهادى فيّ الجنون بلا طائل؟ ورأيتها تتّجه نحو حديقة «لبتون» فتجدّد أمل مبهم. ووجدتها تمضي إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء، وتُستقبل بمناورة بالغة. آثرت في الحال أن أنتظر في الخارج لشدّة الزحام، ولكن حتّى متى أنتظر؟ ما بي قوّة والصبر يتلاشى بسرعة. وتذكّرت العمل الذي كان

عليّ أداؤه والمواعيد التي أخلفتها، والرسائل التي كان عليّ تحريرها. ولٰكن ما جدوى الندم. واشتدّ ضغط المثانة. جلْتُ بنظرة زائغة. اقتربت من سيّارة واقفة. انهارت قوى المقاومة. استسلمت وأنا أتلفّت. وعندما أخذت أزرّر البنطلون غمرني ظلّ رجل طويل، مكفهرّ الوجه، صاح:

ـ على السيّارة يا وقح!

رمقته بعين خجول معتذرة ولٰكنّه دفعني بغضب فترنّحت فاقدًا صوابي، وبغير تقدير للأمر لطمته، فما كان منه إلّا أن انهال عليّ ضربًا حتّى تركني على أسوأ حال. جعلت أمسح وجهي بمنديل وأجفّف به دمًا سال من أنفي ثمّ أسوّي رباط الرقبة والسترة. أصبح منظري زريًّا، وتضاعف تعبي وضعفي. عليّ الآن أن أذهب بلا تردّد. غير أنّني لم أتحرّك. حملت تعاستي ووقفت على ساقين تئنّان من التوجّع. ما زلت أنتظر وأناجي جنوني البيّن. وتهادت إلى سمعي أغنية «الزهر في الروض ابتسم» فتابعتها بأسى لا يناسب معانيها بحال. وخطر ببالي بيت أبي العلاء:

فسـلِّمْ إلى الله ربِّـك   فكلّ ما جاءك من عنده

غير أنّني فكّرت في اغتيال الرجل الذي انهال عليّ ضربًا، ولعلّها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لا معنى لها. وانتبهت منزعجًا إلى ما حولي وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوّق جسدي الذي أنهكه السير وهاضته اللكمات. ولأوّل مرّة أفكّر جادًّا في الإقلاع عن جنوني والرجوع من خيبتي القويّة.

وهممت بالتحرّك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها وتتّجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ريحان. توهّج الأمل من جديد في قلبي الذابل وتناسيت هواجسي وتبعتها وأنا أجرّ نفسي جرًّا، وأجِدّ من بصري المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة. وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتي بغتة. لم أدرك قبل مرور ثوانٍ أنّني سقطت في حفرة. زُلزلت مفاصلي وفغمت خياشيمي رائحة ترابيّة عميقة لم أعهدها من قبل. ولم يبقَ منّي على السطح إلّا عنقي ورأسي. حاولت الخروج ولٰكن خذلتني قواي الخائرة.

وأرسلت عينيّ صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة فلا أعثر لها على أثر. أفلتت إرادتي وأشواقي، وهيهات أن ألحق بها. الأمر يقتضي معجزة إن يكن ثمّة مجال للمعجزات.

وانتظرت أن يقترب منّي عابر سبيل لأستنجد به. وبلغ منّي الإعياء غايته فأسندت رأسي إلى حافة الحفرة مستسلمًا إلى قدري.

السيّد «س»

عبثًا أحاول تذكّر حياتي في مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد. تلك النبضة المنبثقة من تلاقي جرثومة متوتّرة ببويضة متلهّفة في أوّل مأوى آمِن يتاح لي. في أيّ غيب كنت أهيم قبل ذٰلك منطلقًا مع تيّار متّصل غير محدود من الذكور والإناث، تشارك في مهرجانه قوى عديدة من النبات والحيوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة، في تناغُم مع دورة الأرض والقمر والشمس في حضن درب التبّانة العظيم الماضي في حوار دائم مع دروب لا نهاية لها. لعلّ إشارات من ذُلك الغيب تتجلّى في أحلامي في صور أفراح غامضة وكوابيس ثقيلة سرعان ما تتلاشى في كون النسيان العنيد مخلّفة في النفس قلقًا يتلاطم مع الواقع الصلد ناشرًا تساؤلات عديدة ودعوات مغرية للرقص والتنقيب. أمّا كهنة آمون فقد أخفوا أسرارهم، وأمّا كهنة الهند فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشريّ منذ أقدم العصور ولٰكن لا سبيل إلى اليقين في هٰذه المسألة، ولو سلّمت برأيهم لتعذّر عليّ معرفة الخطيئة التي ارتكبتها في زمن سحيق، والتي يكفّر عنها شخصي الراهن بمعاناته المستمرّة التي لا يج لها تفسيرًا. فلنؤجّل القول في ذٰلك إلى حينه ولنلق نظرة على يوم الميلاد. إنّه يوم تخفق له أفئدة البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبديّة. يجيء المخاض على أنغام أهازيج شجيّة، تنطرح المرأة على الفراش في جوّ مضمّخ بأنفاس الخلق، ترعاها يد الخبرة، وتحدّق بها القلوب المترعة بالأشواق، هامسة بالإشفاق داعية بالسلامة، مترقّبة إذن يد العناية

بالفرج، مسبّحة للخالق، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارّة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة، مكلّلة بالظفر، في لحظة صراع محتدم مع الموت المقدّس. ومن حسن الطالع أنّ الأشهر التسعة المنقضية في الظلمات لم تتلاشَ في العدم، حفظتها من الضياع ذاكرة خاصّة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليوميّة. سجّلت حياة النطفة المزهوّة بتوحّدها كما سجّلت تحوّلها إلى علقة. وعليه فلم يندثر تقلّبها بين السرور والألم، وما تلقّت من انبساط وانقباض، من راحة وتوتّر، من رضى وسخط، وما واكب نشأة العظام من اضطراب، واستقبال اللحم بنشوة سانحة، أمّا المخّ والوعي فقد أضفيا جدّيّة جاوزت حدود المقام. أصبح الغذاء من هموم الحياة اليوميّة، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمّل، والزمن عبثًا لا يُستهان به، حتّى متى يستمرّ ذٰلك؟ وما معنى هٰذه الحياة؟ ولٰكن تغيّر الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها، وما زامل ذٰلك من إحساس بالشيخوخة، فلن يهوّن أبدًا الرحيل إلى المجهول، أهو العدم؟ أثمّة حياة أخرى؟ ويأبى العقل أن يصدّق ذٰلك أو يتعلّق بأمل مخادع، وما هي إلّا خدعة سخيفة لا معنى لها. وما أن تلقّفتني يد الدنيا حتّى تُمحي الماضي محوًا تامًّا فكأنّه لم يكن. هنا ينقضّ الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأوّل مرّة. وتمرّ فترة لا أمان فيها وكأنّني أهوي في فراغ، ويمرّ دهر حتّى أَلَفَ في الأقمطة وكأنّما رجعت إلى موطني المنسيّ. وينسكب الدفء في فيَّ، ويحتويني حضن ستبقى ذكراه معي طويلًا. وتمرّ فترة يتذكّرها الحالمون جنّة وارفة متناسين متاعبها وأشجانها، من افتقاد الأمان والشبع أحيانًا، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية، ورضع الحزن مع لبن أمّ لا تصفو لها الحياة دائمًا، وغزو أمراض عدّة تفسد مذاق الحياة. ثمّ تتطفّل الحضارة بثقلها لتصبّ الوافد الجديد في قالب مهذّب، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة، ويتعلّم المشي والكلام، ويُستعان على ذٰلك بالحوافز والردع، ولا بأس بالزجر بل والضرب، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقّق أبدًا. وما إن يقوم على رِجْلين، وربّما قبل ذٰلك، حتّى يلحق به آخر فيشعر شعورًا خفيًّا بأنّه أصبح موضة قديمة، وأنّه يُدفع دفعًا إلى دخول عالَم جديد هو عالَم التربية الواعية الهادفة. ويتناسى الجاحدون عهده، ويفكّرون في طريقة مهذّبة للتخلّص منه، فيعرّفونه بالله، بجحيمه قبل جنّته، وشياطينه قبل ملائكته، فلم أدرك مزايا الجنّة ولٰكنّي ارتعدت أمام رعب الجحيم، ولم أتذوّق حلاوة الملائكة ولٰكنّي تجرّعت غصص الشياطين، وأحدق بي عالَم منذر بالويلات. وألفت النهر والصفع واللعن والعصا، وبذلت قصارى جهدي لأنعم بأبسط المطالب وأتفادى من العدوان. وأُحمل ذات يوم إلى المدرسة فأضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأغراب، وأتساءل أيّ حياة هٰذه، وهل لو كنت خُيّرت كنت اخترتها؟ وإنّه لممّا يبعث على الضحك أن أتذكّر تلك الفترة في زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود. ولٰكن مهلًا فلعلّ هٰذا الحكم لا يخلو من صدق، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء في رحاب الأسرة. وحتّى في أشدّ حالات الضيق هناك الخيال ألوذ به فيرحل بي إلى عوالم غريبة، ويخلق الحياة في الجماد، ويبدع الحكايات، ويتلقّى من الوجود صورًا للأشياء والنساء والرجال والعلاقات سينضجها الزمن ويحوّلها إلى معانٍ ما كانت تخطر بالبال. وبفضل ذٰلك كلّه أتدرّب على تمثيل أدوار لم يأن زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق، وأخوض معارك ضارية، وأتزوّج، وأتاجر وأربح أموالًا طائلة، وأصلّي وأصوم فأضمن الجنّة، ولٰكن أيضًا أتشاجر فيشجّ رأسي، وأعشق قريبة تكبرني بعشرة أعوام، وأتحايل لأغويها فآكل علقة مناسبة. مَن علّمك هٰذا الكلام يا ولد؟ خبر أسود، وأنت في البيضة، وأتوسّل إليها دامع العين بألّا تشكوني إلى أمّي، ولٰكن مَن علّمك ذٰلك؟ في السينما رأيت أشياء ومن شبّاك بدروم جارتنا الفقيرة رأيت أيضًا، ألا تعرف جزاء من يتلصّص على الناس؟ توبة... توبة. ولا تتاح النجاة حتّى أوافق على حمل رسالة سرّيّة منها إلى أخي!! ويجدّ جديد، فتحصل أمور، وتلوح أعراض، ويتكلّم مُدّعو الحكمة من الأصحاب، إنّه البلوغ. الشَّعْر لا ينبت لغير ما سبب،

والصوت لا يخشوشن لمجرّد التغيير، وتمتلي النظرات البريئة بدماء الغرض والهوى، وتحلّ بالبدن قوّة مجهولة ماكرة غادرة، تضغطه بدغدغة حادّة، وتسكب في الشرايين نارًا، يستهين بزواجر الجحيم ونواهيه، يحول بيني وبين الله والطاعة والعهود، ولم تعد الأشياء هي الأشياء ولٰكنّها تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتعًا للخيال النهم. وربّما تحصل أمور من نوع آخر وفي نفس الوقت، كردّة فعل، وتكفير حادّ يُروى ظمأه من ندى السحاب الأبيض المشغوف بالتعالي، فيخفق القلب خفقة لم يخفق مثلها مذ كان فكرة هائمة في عالَم الغيب، ويستوي الحبّ أمامه كنجمة متألّقة في سماء مكفهرّة تحوطه العناية الملائكيّة وتسبح في السماوات السبع، تمطر وابلًا من الأفراح والآلام، فتنبت في الأرض أزهارًا وأنغامًا، وتستجيب للغة خفيّة، فتثب هنا وهناك وراء المستحيل، في عالم مسحور فيه كلّ شيء إلّا الأمل، مُجِدّة وراء موسيقى الكلمات وحمرة أوراق الورد وفضّيّة شعاع القمر وحكمة صمت الموت. وبعد عناء طويل يجيء الشكّ على غير ميعاد، ملوّحًا بسياط محمَّلة أطرافها بالرصاص، كلّما ألهبته تحدّى العرف والأب والأمّ وأركان المعبد، وبشيء من التردّد يرمي بنفسه في بئر الجنون الأحمر، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسمّ، ليمحق المكر والخداع، بإشباعه حتّى الموت، وتركه جثّة من الخمود والأسى. هٰكذا. . . هٰكذا. . . هٰكذا. وبوحي من حظّ حسن تتراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال. كان من الممكن أن يحدث غير ذٰلك فما هي إلّا احتمالات تطاول احتمالات، ولكلّ قصّته. من أجل ذٰلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون. وأمضي في سبيلي طاويًا ذكرياتي في زاوية أرجو لها النسيان. أصبحت كائنًا جادًّا، أحيّي الأهل صباحًا والأصحاب مساء، وأتلقّى في اهتمام بالغ حظّي من تراث البشر وخبرتهم. وتهلّ علينا متاعب من نوع جديد. ما رأيك هٰذا الدرس يتطلّب عمرًا لإتقانه؟ أجل. . وهناك أيضًا الأزمة الجديدة، صدقت ونحن مدعوّون غدًا لاجتماع هامّ، صدّقني لا مناص من أن يذهب هٰذا الجيل كلّه إلى الجحيم، وماذا عن مستقبلنا نحن؟ لا شيء يعادل ما نبذل من جهد. ورغم كلّ شيء تبدأ الحياة العمليّة متعثّرة محدودة الأمل، محفوفة بحياة سياسيّة غاية في القلق والاضطراب، وحياة جنسيّة لا تقلّ عنها قلقًا واضطرابًا. وتتعدّد الطرق هنا أيضًا. كان يمكن بشيء من الانتهازيّة أن يقبل وجه أكثر إشراقًا وأقلّ جدارة. وكان يمكن التمادي في التجارب المُرّة حيث يفضي الطريق إلى السجن أو الصعلكة. ولٰكن قادتنا الرغبة الحميمة في البقاء إلى الرشد المتواضع فاستقررنا فوق كرسيّ الروتين تحت مظلّة من نسيج العنكبوت، ورضينا بلون تقليديّ من الحبّ أفضى بنا إلى نوع تقليديّ من الزواج، ورحنا نَعْبر الجسر الذي عبره قبلنا الملايين، نعمل بلا حماس، ونشهد بعين الأسى تبلُّد عواطفنا ونقار الأُسَر النامية وصراع الجنسين المعروف، وتطوف بنا مسرّات لا يستهان بها، مثل الأبوّة الدافئة، وانتصارات صغيرة تتحقّق برضا المدير أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسيّ مؤقّت، وهٰكذا. . . وهٰكذا. . . وهٰكذا. ونصحو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولّى وصمتت أهازيجه، وجاء عصر العقل مصحوبًا بالعناء الاقتصاديّ، والدروس الخصوصيّة، وجزية الطبّ والدواء، والشجار لأتفه الأسباب، والبكاء على الأطلال، وارتفاع ضغط الدم لأوّل مرّة، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة، وإقبال شركة التأمينات مشكورة للمشاركة في الرزق المحدود. ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوّعة، فهٰذا ابن يهيم في ملعب الكرة، ويرتكب الثاني حماقة كادت تُغرق السفينة كلّها، أمّا الثالث فقد استبدل بإلٰه الآباء والأجداد خواجا غير مفهوم اللغة، وأخيرًا فقد أطلق الرابع لحيته وقذف الجميع بتهمة الكفر. وانهالت عليّ التُّهم من كلّ جانب، رجعيّ. . . جاهِل. . . تقليديّ. . . كافِر. ونفّست شريكتي عن بلواها بتحميلي مسئوليّة كلّ شيء، نتيجة التدليل والدلع، ربّنا يعاقبك على أنانيّتك وزيغان عينك وسوء معاملتك لي. ولم أصدّق أذنيّ، ورحت أذكر بأغاني عبد الوهاب في ضوء القمر على شاطئ النيل، والسعي المرهق لاختيار هديّة إحياء لذكرى الزواج، وسهر الليالي إلى جنب فراش المرض.

رغم ذلك كلّه سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان. ارتفعتُ درجة بعد درجة وكبر المرتّب وتغيّر المكتب والحجرة، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيت برأس مرفوع مكلّل بهالة روتينيّة وشمخة بيروقراطيّة، ولكنّ ذلّ الحاجة والتورّط في الأعمال الإضافيّة خرقٌ للائحة ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلّة المصروف، كلّ أولئك أطفأ مشاعل المجد وأحلّ روح التسوّل مكان زهو العظمة. حتّى الخادم اضطررنا للاستغناء عنها أو أنّها بالحري استغنت هي عنّا، ولم أجد إلّا المواعظ أُلقيها يمنة ويسرة، لا خيار فإمّا النجاح وإمّا الموت، الترف من سوء الخلق، أعرِضوا عن الدنيا تُقبل عليكم، سيّدنا محمّد عاش على التمر واللبن، وسيّدنا عمر تغيّر لونه من أكل الزيت، والدولة الرومانيّة سقطت لانغماسها في مطالب الجسد، كذلك الدولة الإسلاميّة. ويردّون عليّ ومعهم أمّهم، ألقِ مواعيظك على الحكّام، على أصحاب الملايين، على اللصوص والخطّافين والطفيليّين، نحن نريد لقمة وبدلة وأقلّ مصروف معقول، أيّ مدير أنت؟ ما جدوى خدمتك الطويلة في حكومة لا ترعى حقّها لموظّفيها، تنفق على الحفلات بغير حساب وتضنّ عليكم بالملّيم. وأتساءل ما العمل؟ يجب ألّا تتوقّف حياتنا وإلّا ضعنا، الأسهل أن ندبّر حياتنا في حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحكّام والمسئولين، ونعرّض أنفسنا لمخالبهم الحادّة المفترسة، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعًا عن غنائمهم، فإذا قامت ثورة إسلاميّة تنمّروا لها وللإسلام دفاعًا عن غنائمهم؟! فلا الإسلام يهمّهم ولا الإلحاد ولا يعبدون إلّا المال والجاه، وأنا رجل ضعيف، بدأ الشيب زحفه إلى شعري قبيل الأوان، ولا غاية لي في دنياي إلّا أن أبلغ بكم برّ الأمان، فساعدوني يرحمكم الله كي ننجو من الغرق. وفي زحمة الغياهب تعترض سبيلي تلك المرأة اللعوب وتغمز لي بعينها، يا للهول.! هل بقي فيّ شيء ما زال يلفت نظر الحسان؟ في وقدة الاشتعال داعبتني نسمة متألّقة بالزهو، وفرحة واردة من الغيب، حتّى اختلت في مشيتي وأصررت على حلق ذقني كلّ صباح، وعند حساب التكاليف المطلوبة بحدّها الأدنى حضرني ملاك الرحمة، ألا يلزمني تقديم هديّة، أو اكتراء أيّ مكان ولو ليوم واحد، وإعداد عشاء وشراب كالأيّام الخالية؟ وكبحت أهوائي بقوّة لا تُتاح إلّا للمفلسين، وهربت معتلًّا بمختلف الأعذار، وخرجت من التجربة موسومًا بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم، وأشاعت الغندورة في كلّ مكان بأنّني مصاب بداء خفيّ كريه الرائحة، وكلّما صادفتني في طريق هتفت بي كيف حالك يا أقرع؟ فأحمد الله على أنّني رأيت برهان ربّي في الوقت المناسب. وهٰكذا. . . وهٰكذا. . . وهٰكذا. وأصحو ذات يوم لأجد أنّ الكهولة أيضًا قد ولّت، وأنّني أتّخذ الإجراءات المعهودة تمهيدًا للإحالة على المعاش وأنّني أودّع بصفة نهائيّة التعاليم الماليّة ولائحة المخازن والمشتريات. وبقدرة الرحمٰن الرحيم انحلّت عقدة الأزمة فتخرّج الأبناء ومضى كلّ في سبيله. ووجدت وشريكتي نفسنا بين يدي الشيخوخة بلا دفاع، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كلّ عليلة وعانيت مُرًّ أرَقٍ مستمرّ، أمّا الشريكة فقد خلعت ثوب الأنوثة وباتت بَيْنَ بَيْن، وخانها عضوان هامّان هما القلب والجهاز الهضميّ، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة، ونبتت لها شعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم. ومهما يكن من أمر فحالُنا خير من حال كثيرين، ألم أتمّ رسالتي على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدّية؟! ولكن للأسف جدّت أمور لم تكن في الحسبان فاثنان من الأبناء وجدا عملًا مجزيًا في الخارج فودّعناهما بقلب حزين، وأصبح أحد الاثنين الباقيين زبونًا مزمنًا للشرطة والنيابة، أمّا الأخير فقد تورّط فيما لم يجرِ لي في بال وحُكم عليه بعشرين سنة. وربّما استطعت أن تتصوّر حالي ولكنّك ستعجز تمامًا عن تصوُّر حال شريكتي. إنّها لا تكفّ عن الدعاء على الدولة برمّتها، ونابت عن ابنها السجين في تكفير المجتمع كلّه، وأرادت أن تحجّ لتدعو على الدولة في بيت الله الحرام ولكن من أين لي المال الذي أحقّق به رغبتها؟! وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب في المقهى، ونازعتني نفسي إلى زيارة الأماكن التي شهدت طفولتي وصباي وأحلامي السعيدة، وتتابع أمام عينيّ

شريط حياتي بجميع ما حفل به من متناقضات وعبَر، وكلّما شيّعت صديقًا أو زميلًا إلى مثواه الأخير لاح لي يومي وهو يقترب، وقلت لامرأتي إنّ خير ما نفوز به في هٰذه الحياة هي الحكمة، فإذا عرفناها عرفنا الرضا وسلّمنا بأنّه لا شيء في الحياة يستحقّ الحزن أو الأسف، فلنسلّم أمرنا لله فكلّ ما جاءنا من عنده. ولم يمهلني المرض لمعاشرة الحكمة طويلًا، فانطرحت على الفراش بلا حول وقال لي كلّ شيء إنّها النهاية. وتساءلت ترى ما مذاقك أيّها الموت، وكيف تحلّ إذا حللت، وعلى أيّ حال نترك هٰذه الدنيا المليئة بالإغراء والخداع. وذات صباح دهمتني هٰذه اللحظة الفريدة المقدّسة، فقدت الوزن والتوازن وانغمست في شعور كامل الجدّة لم ينبض به الوجدان من قبل، قلت إنّني سأسبح أو أطير وإنّني أستقبل عالـمًا لم يُطرق من قبل، وإنّ الضوء هادئ لدرجة السحر وإنّه بلا نهاية، وإنّني مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق وإنّ أهازيج البشر تعزف من حولي. وانفلتُّ من الجسد إلى الحقيقة المطلقة، وتجلّى لي ما قبل الميلاد وعبوري بالدنيا والمستقرّ الأخير منظرًا واحدًا جامعًا متكاملًا كالوردة الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سرّ فثملت بالاستنارة والسعادة الحقيقيّة، ولم يبقَ معي من ذكريات الدنيا إلّا المثل الشعبيّ الذي يقول:

«اللي تحمل همّه ما يجيش أحسن منه».

شارع ألف صنف

شارع ألف صنف، للأحلام والحقائق، مطهى الرغبة في سخائها وتنوّعاتها، وتلخيص مركّز معجز لشهوة الحياة. تقوم على جانبيه ذوي الطوارين العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان. حوانيت متلاصقة ومتراصّة مبهرة بأناقتها، ثمينة بمعادنها؛ تخطف الأبصار بشتّى الألوان، فيجد كلّ عضو في الجسم البشريّ وكلّ نزعة في الجهاز العصبيّ ما يشتهيه. من أغذية متعدّدة الجنسيّة ومرطّبات وخمور وملابس وأدوات منزليّة، وروائح عطريّة، وأدوية ومقوّيات ولعب أطفال، وسيّارات وأجهزة طبّيّة وكهربائيّة ووسائط للاستهلاك والإنتاج، يضطرب بينها تيّار من الخلق لا ينقطع من الجنسين وكافّة الأعمار، سوقًا لمن يشتري، ومرتادًا لمن يتفرّج. وفي وسط جناحه الأيمن يقع مقهى «عكاظ»، مقهى وخمّارة ومطعم ولٰكنّه يختصّ برجال الأعمال وعقد الصفقات، وندر أن يطوف به زبون عاديّ، بالإضافة إلى القوّادين والنصّابين وبنات الهوى ممّن لا تتمّ صورة الوجود إلّا بهم. وفي الأدوار العليا من العمائر توجد فنادق وبنسيونات، يأوي إليها عادة رجال الأعمال غير القاهريّين، وفي رحاب حصانتهم ينعم أهل الهوى بمنازل للدعارة شبه آمنة. من أجل ذٰلك جرى تاريخه منذ قديم في سلام نسبيّ، فلم ترد أخباره في صفحات الحوادث شأن غيره من الأماكن التي تلاحقها عين الشرطة الساهرة. ومن أجل ذٰلك أيضًا لفت مجيء ذٰلك الزبون الطارئ الأنظار، وبخاصّة وأنّه لم يزر مقهى عكاظ زيارة عابرة لتناول فنجان قهوة أو كأس كونياك أو طبق مكرونة، كلّا لقد اختار مجلسًا في عمق المقهى غير بعيد من البوفيه، يحتلّه من الضحا حتّى منتصف النهار، ثمّ يعود إليه من الخامسة حتّى وقت التشطيب. ذو مظهر متواضع، ببدلة اقتصاديّة، ووجه أربعينيّ ناطق بأصله الشعبيّ، فلا هو من رجال الأعمال، ولا من أصحاب الصفقات، ولا من روّاد الفرجة والشراء، ولا من طلّاب اللهو. يأمر بفنجان قهوة، ويجلس هادئًا مبرًّأ من سمات الانتظار والتململ، لا يسعى لمعرفة أحد ولا يشجّع أحدًا على معرفته، كأنّه غائب تمامًا عمّا يدور حوله. وتلك واقعة تمرّ فلا تستحقّ الذكر في أيّ مقهى إلّا مقهى عكاظ الذي لم يألف إلّا أعضاءه المعروفين. لذٰلك اكتسب شهرة منذ الأسبوع الأوّل لظهوره. لفت الأنظار وأثار جملة من التساؤلات. وتطوّع قوّاد لاستخراجه من قوقعته فجلس فيما يليه وسأله عن الساعة ولٰكنّ الرجل أشار صامتًا إلى ساعة المقهى المثبتة في الجدار فوق الميزان ولم ينبس بكلمة. وضاق به الجميع واعتبروا حضوره غزوًا لحصنهم الحصين. ومرّ وقت قبل أن يُعرف اسمه بمحض الصدفة إذ رنّ جرس التليفون

فرفع نادل السّماعة ثمّ نادى:

- السيّد منصور زيّان.

فقام الرجل إلى التليفون تحدق به الآذان.

- آلو.

- . . .

- هات ما عندك.

- . . .

وطالت مكالمة المتحدّث، وأخيرًا قال السيّد منصور:

- طظ.

وأرجع السّماعة إلى موضعها وعاد إلى مجلسه دون أن يشفي غليل أحد، فازداد غموضًا وازدادوا ضجرًا. ولم يجدوا بدًّا في النهاية من إهماله. وشُغلوا عنه بحادث يُعتبر غاية في الاستثناء في هٰذا الشارع، وهو كبس الشرطة لبنسيون وسَوْق مَن وُجد فيه من نساء ورجال إلى القسم. تبودلت نظرات حائرة، ونوقش الموضوع على أوسع نطاق، كيف حدث ما حدث ممّا يُعَدّ خرقًا للتقاليد المرعيّة؟! ونظر قوّاد ناحية منصور وهمس:

- جاء النحس مع النحس.

ولم يكترث أحد لقوله. ولٰكن لم يكد يمرّ شهر على الحادث حتّى استُدعي كبير من رجال الأعمال بتهمة التهرّب من ضرائبه المُستحقّة، فاهتزّت الأفئدة وانتشر الذعر مثل صرخة بليل. ماذا يحدث في الدنيا؟ ليس اليوم كالأمس. ثمّة نذير شرّ يزحف. ولغير ما سبب منطقيّ تضاعف الضيق بالسيّد منصور باعتباره شؤمًا كما قال القوّاد ذات يوم. وعندما ضُبطت سلع مهرّبة من الجمرك وقُبض على أصحابها انفجر الذعر وعقد الرجال اجتماعًا للتشاور. شعروا بأنّهم مطارَدون وبأنّ دورهم آتٍ لا ريب فيه. وقال أحدهم:

- عنّت لي فكرة، إنّه ليس نحسًا فحسب!

- تعني سي منصور؟

- أجل.

- إنّه مرشد ذو دور مرسوم.

- ولٰكنّه لا يبارح مجلسه؟

- لا عِلْم لنا بما يفعل قبل ذٰلك أو بعد ذٰلك.

وتراكم الشكّ حتّى صار يقينًا بلا دليل. لم يجئ لتزجية الفراغ. ماذا يحمله على المجيء يومًا بعد يوم؟ ما عمله؟ كيف يعيش؟ وأجمعوا على أنّه مرشد لحساب جهة معادية وأنّ عمله لن يتمّ إلّا بالقضاء عليهم أجمعين. واقترح بعضهم التخلّص منه. ولٰكن ألا يُعَدّ ذٰلك حمقًا غير مُجْدٍ، واستفزازًا لقوّة مجهولة لا يُستهان بها؟ واقترح البعض احتواءه وشراءه بأيّ ثمن، ولديهم المال والنساء. ولعلّ مناسبة الاحتفال برأس السنة الجديدة أن يتيح فرصة فريدة لاصطياده. وتزيّن المقهى في الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح الكهربائيّة الملوّنة، وتوسّطته طاولة طويلة صُفّت فوقها قوارير الويسكي بغير حساب، وجلس إليها في الوقت المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قوّاد، وبقي الرجل وحده بمجلسه المختار. وانضمّت إلى الموجودين مجموعة مختارة من الحسان في أحسن صورة وعلى أتمّ استعداد. وانطلقت الأنخاب كالشهب حتّى تغلغل المرح في أعماق الكآبة. والتفت أحدهم نحو الرجل وقال:

- هلّا شرّفتنا يا سيّد منصور؟

فبسط راحته على صدره شاكرًا صامتًا مصرًّا على توحّده. ولٰكنّ الآخر لم ييأس فملأ له كأسًا ورجا أقرب الجلوس إليه ـ امرأة ـ أن تقدّمها له ففعلت برشاقة وقال رجل الأعمال:

- من أجل خاطرنا.

ولٰكنّه أعاد الكأس إلى الطاولة معلنًا عن شكره بإحناءة من رأسه لائذًا بصمته. وتساءل رجل الأعمال مداريًا وقدة غضبه:

- كيف تمرّ بك هٰذه الليلة كغيرها من الليالي؟

فخرج منصور من صمته قائلًا في غير ما اكتراث:

- الواقع أنّها كغيرها من الليالي.

فقالت المرأة محتجّة:

- لا . . . لا . . . وأستطيع ان اثبت ذٰلك.

وقال رجل أعمال آخر:

- أذكر رجلًا يشبهك تمامًا إلّا أنّه يرتدي جبّة وقفطانًا.

فقال منصور:

- لعلّه أنا دون سواي!

- ولكنّه بجبّة وقفطان؟
- هٰذا هو ردائي في غير فصل الشتاء!
- بدلة في الشتاء وجبّة وقفطان في الصيف؟
- بالتمام والكمال!

وتبادلوا نظرات ساخرة، غير أنّهم تقدّموا خطوة جديدة مع تماديهم في الشراب فراحوا يقدّمون أشخاصهم واحدًا في أثر واحد ليحملوه على تقديم نفسه، ولٰكنّه تابعهم في غير اكتراث وتحدّى عربدتهم بالإصرار على الصمت. أيّ إهانة! وقالت المرأة إنّ هٰذا يعادل أن تتعرّى امرأة أمام رجل فيتّخذ من جسدها مسندًا لرسالة يروم كتابتها. وسأله الرجل واجمًا:

- ألا ترغب في تقديم نفسك؟

فأجاب في برود:

- كلّا.

أيقنوا من أنّه يتكلّم من موقع قوّة وثقة وأنّ وقاحته لن تقف عند حدّ. وانقلب الرجل غاضبًا فهتف:

- اغرب عنّا قبل أن تفسد علينا ليلتنا!

فقال بتحدٍّ:

- الواقع أنّكم تفسدون عليّ ليلتي.
- لا خير فيمن لا يحبّ الناس.

فكرّر ساخرًا:

- لا خير فيمن لا يحبّ الناس.

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحلّ عقدة ألسنتهم فتبوح له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم، ففسدت السهرة بالفعل ومضت في توتّر وتعاسة. وأقسموا ليهتكنّ سرّه. وعهدوا إلى قوّاد معروف بالنشاط أن يتجسّس عليه ليوافيهم بخبره. وانطلق الرجل في أثره وانتظروا.

ومرّت أيّام وكلّ شيء يجري على حاله ولٰكنّ الرجل لم يرجع من رحلته ولم يظهر له أثر. وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق ولم يسفر الانتظار عن شيء. فُقِدَ المرشد لا ريب في ذٰلك، وفي أثناء ذٰلك سقط متهرّب آخر ومهرّب مخدّرات ذو وزن في الهيئة الاجتماعيّة. وأظلّ الذعر الشارع العتيد فانطفأت أنواره. وتطوّع قوّاد جديد بالعمل مدعمًا بحذر أشدّ ولٰكنّ ظلمة المجهول ابتلعته كما ابتلعت صاحبه. وتمطّى كابوس الخوف، فاختفى القوّادون، وتعطّلت الدعارة، وانكمش الانحراف، ولبث الرجل الغامض بمجلسه، أفنديًّا في الشتاء وبلديًّا بقيّة العام. وتتابع السقوط وهرب مَن هرب. وقال له أحدهم وهو يتأهّب للذهاب:

- عرفتك، ما أنت إلّا عميل لدولة أجنبيّة، اختارتك لتحطيم القوى الوطنيّة...

فهزّ الرجل رأسه في دهشة وتساءل:

- عمَّ تتكلّم أيّها السيّد الفاضل؟!

وتحيّر صاحب المقهى العجوز الذي رأى كثيرًا وسمع كثيرًا. رأى الحادثات وهي تقع ولٰكنّه لم يعرف لها تفسيرًا. دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافّة. انقلب الشارع من حال إلى حال، ذهب أناس وجاء أناس، تراجع زبائن وقدِم زبائن، أُلغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة، واستقبل المقهى روّادًا عاديّين لا عِلْم لهم بسابقيهم، ولم يبرح الرجل الغامض مكانه، ولا بدا عليه أنّه يدرك من حقائق الأمور أكثر ممّا يدرك هو. ويجيء قوم من هواة المعرفة فيحدّقون بصاحب المقهى ويقولون:

- كلّ شيء حدث تحت سمعك وبصرك فخبّرنا عمّا حصل يرحمك الله...

فيقول الرجل ببراءة:

- عِلْمي علمكم يا سادة، وها هو الرجل الذي جعلوا منه أسطورة، مثلي ومثلكم، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلًا غير مألوف، فلست أملك علمًا أضنّ به عليكم، وما أعرف أكثر ممّا تعرفون من أنّ دنيا برمّتها اختفت كما تختفي مدينة في أعقاب زلزال مدمِّر، ونشأت مكانها دنيا جديدة، فسبحان علّام الغيوب...

المسخ والوحش

أعجبتني حكاية الشاطر حسن في بلاد الواق الواق. غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم

غامض فأسعده حظّه الميمون بلقاء سيّدنا الخضر. وقرأ سيّدنا في وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدّثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدميّ أحجارًا غير كريمة فأشعل في قلبه رحمة وهمّة. ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعها إلى إنسانيّتها المهدرة وذٰلك بقتل الوحش. ودلّه على المكان الملقاة فيه الأحجار الممسوخة، والوسيلة التي يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينيه الحزينتين الأحجار الآدميّة، وتربّص بالوحش حتّى جاء في وقته المعلوم فأكل وشرب ونام، فوثب عليه وقتله، وفي الحال تلاشت الصفة الحجريّة واستوت الأحجار بشرًا يهلّلون فرحًا ببركة الحياة المستردّة. ورحت أتذكّر الحكاية وأنا بمجلسي المعهود في خمّارة نجمة الصبح ورأسي مشعشع بالنشوة. وكالعادة غبت في أعطاف حلم ورديّ، ثمّ انتبهت على رَجُل يجلس إلى جانبي يمزج النبيذ بعصير الليمون، ملتفّ بعباءة أرجوانيّة، مُعْتَمّ بعمامة خضراء، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتّى ثغرة صدره. ولم يكن التطفّل من شيم أهل خمّارتنا ولٰكنّ الأنس حلّ بي فحدس قلبي أنّه صديق يشعّ الخير من ومضات عينيه. قلت مرحّبًا:

ـ أهلًا.

فقال بنبرة باسمة:

ـ صحّتك.

واستسلمت للنشوة إلى مراقيها حتّى هتفت:

ـ هٰذه ليلة ولا كلّ الليالي.

فسألني بعذوبة:

ـ كيف اهتديت إلى هٰذه الخمّارة التي بالكاد لا يعرفها إلّا روّادها؟

فقلت جذلًا:

ـ بحسن الحظّ وحده، ومن يومها لم يعد يؤرّقني شيء...

فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية كما يمتزج في قدحه النبيذ بالليمون:

ـ ولا المسوخ؟!

دقّت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة في قلبي فتساءلت:

ـ أيّ مسوخ تعني؟

ـ هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم، ولا نجاة لهٰؤلاء أو أولٰئك إلّا بقتل الوحش!

فتهدّج صوتي وأنا أقول:

ـ لعمري إنّك لسيّدنا الخضر دون غيره!

ـ لا أهمّيّة لذٰلك، المهمّ مَن يكون الشاطر حسن؟

وهمّ بالقيام فأمسكت براحته وسألته بشغف:

ـ متى أراك ثانية؟

فقال واقفًا معلنًا عن قامته الطويلة النحيلة:

ـ لا أهمّيّة لذٰلك.

وذهب مشيّعًا بمودّتي الخالصة. وبقوّة آسرة، ودون مقدّمات، آمنت بأنّني صاحب رسالة وأنّه آنَ لي أن أودّع أحلام اليقظة. ولٰكن مَن يكون المسوخ؟ ومَن يكون مسوخ المسوخ؟ ومَن يكون الوحش؟ وكيف فاتني أن أستجوبه؟ ولم يغب عنّي السرّ، فالحقيقة أنّ محضره يشتّت الإرادة. وجدتُني في محضره طوع خواطره، مسلوب المنطق، لا أزيد عمّا يريد حرفًا. هٰذه هي الحقيقة. ولذٰلك لم يداخلني شكّ في أنّه وليّ من الأولياء. وأدركت بعد فوات الوقت أنّني لم أنتبه لقيمة الوقت، وأنّني عبرت معه لحظة من اللحظات التي تُسترجع فيها بعد بشقّ الأنفس فيعتدّها الخيال إحدى الفرص التي لا تتكرّر ولا يجدي معها الندم. واستدعيتُ بإشارةٍ النادلَ عمّ زياد البرلسي ثمّ سألته:

ـ هل تعرف الشيخ الذي كان يجلس إلى جانبي؟

فقطّب متذكّرًا وقال:

ـ شغلني العمل عن ذٰلك.

ـ ولٰكنّك قمت بخدمته وقدّمت إليه طلبه؟

ـ لعلّه كان يجلس في مكان ما ثمّ انتقل إليك بقدحه.

وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالًا من أحوال السكر تذهب بذهابه، ولٰكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطر ممّا يُتصوّر. نفذ السهم إلى مركز اليقين. وما كان في وسعي أن أتحلّل من مهمّة ألقتها الأقدار على عاتقي فأرضى هانئًا بالعودة إلى آفة اللاشيء. وألقيت نظرة على مَن حولي من السكارى فإذا بهم يَسبحون فوق تيّار من الهموم المتضاربة

ويناقشونها بندًا بندًا بغير ملل. الأسعار، التهريب، الاستيلاء على أراضي الدولة، الثروات غير المشروعة، سوء المعاملة، الطوابير، الديون، النفوذ الأجنبيّ، القذارة، المجاري، المذابح، وغيره ممّا لا يحيط به حصر، ولٰكن لا أحد يتحدّث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ أو الوحش. ومتشجّعًا بحنان الليالي المتابعة سألت:

- هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباءة الأرجوانيّة؟

فانطرحتْ لحظة صمت ثمّ اندفعت أصوات ضاحكة تغنّي:

يا بو العباية

لم يبلّ أحد ريقي وغرقوا في الضحك والهناء، فعدت أسأل:

- مَن المسوخ؟ هل جرى لكم عِلم بذٰلك؟

فهاجوا بحركات الضحك الراقصة غير أنّني سألت بإصرار:

- ومَن يكون الوحش؟

فصاح أحدهم:

- أخوكم وصل، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين!

أقلعت عن السؤال. وغادرت الخمّارة وأنا أعدّ نفسي من مواليد تلك الليلة العجيبة. وكلّما أقبلتُ على الخمّارة أقبلتُ على أمل في أن أرى الشيخ من جديد ولٰكن دون جدوى. وطيلة نهاري أتساءل عمّن يكون المسوخ وعمّن يكون الوحش. وكلّما مررت بحيوان أو شجرة أو حجر استحوذ على خيالي ولمحت في صميم جوهره مسخًا من بني آدم يئنّ ويتعذّب. وساءتني التفرقة في المعاملة بيني وبين الشاطر حسن، فبقدر ما أعانه الخضر على أداء مهمّته بقدر ما أعرض عنّي، تاركًا إيّاي للكدح والعذاب. وانتهت بي الحيرة إلى اتّخاذ قرار جريء، وهو أن أسأل أهل الرأي والخبرة، مستشهدًا بقول القائل «لا خاب مَن استرشد». واتّجه ذهني أوّل ما اتّجه نحو السيّد «م» وهو من البارزين في الحزب الوطنيّ الديمقراطيّ. توسّلت إلى مقابلته بصديق، ثمّ عرضت عليه حيرتي، وسألته:

- مَن هم المسوخ، ومَن هم مسوخ المسوخ، ومَن هو الوحش؟

ولم يأخذ من التفكير إلّا أقصر وقت ثمّ قال بثقة:

- عندنا نوعان منهم، مسوخ من العملاء الملاحدة، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم، والوحش في هٰذه الحال هو الشيوعيّة أو إن شئت الاتّحاد السوفييتيّ. ومسوخ من التيّار الدينيّ المنحرف، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين. والوحش في هٰذه الحال بعض الدول مثل إيران وليبيا...

وتركته شاكرًا وبي غصّة من خيبة الأمل إذ مهما تكن ثقتي في نفسي ورسالتي فمن أين لي بالقوّة التي أقتل بها الاتّحاد السوفييتيّ وإيران وليبيا؟ ولٰكنّ همّتي لم تفتر فاتّجه تفكيري في الحال نحو الأستاذ «ا» المعترَف بحكمته في حزب التجمّع، واستقبلني سيادته بلا أدنى صعوبة، فعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

- مَن هم في رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ ومَن هو الوحش؟

فاعتدل في جلسته وابتسم ابتسامة العالِم بكلّ شيء وقال:

- يستوي عندي أن تكون سائلًا بريئًا أو أن تكون قادمًا من طرف السيّد وزير الداخليّة، ولٰكنّ ذٰلك لن يمنعني من اجابتك طالما أنّنا نعمل في وضح النهار، فاعلم أنّ المسوخ هم عملاء الغرب، ولا يوجد مسوخ المسوخ لأنّه لا أتباع لهم، وما الملتفّون حولهم إلّا مجموعة من الانتهازيّين تجدهم بأشخاصهم في رحاب كلّ حكومة، أمّا الوحش فهو الإمبرياليّة العالميّة أو إن شئت الولايات المتّحدة الأمريكيّة...

فأكّدتُ لسيادته أنّ حيرتي نابعة من ذاتي ولا علاقة لها بالسيّد وزير الداخليّة، وشكرت له بيانه، ثمّ غادرته مُوْقِنًا بأنّ الصعود إلى القمر بلا تكنولوجيا أيسر عليّ من قتل ذٰلك الوحش الجديد. ومع ذٰلك صمّمت على السير في طريقي حتّى نهايته. تذكّرت صديقًا قديمًا انخرط منذ أعوام في تيّار دينيّ متطرّف فقصدته دون تردّد. استقبلني مداريًا فتوره إكرامًا للعهد القديم ولٰكنّه امتنع في الوقت نفسه عن مصافحتي متمتمًا:

- معذرة، لا أصافح كافرًا!

وكنت موطّنًا نفسي على تحمُّل أيّ سلوك يجيئني منه

فقبلت عذره، وعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

ـ مَن هم المسوخ؟ ومَن مسوخ المسوخ؟ ومَن يكون الوحش؟!

فقال من فوره:

ـ المسوخ هم حكّام البلاد الإسلاميّة ورجال الدين بها، ومسوخ المسوخ هم جمهرة المسلمين، وأمّا الوحش فهو نظام الحكم في كلّ مكان...

وغادرت موضعه مغموسًا في المرارة. خُيّل إليّ أنّ القضاء على الاتّحاد السوفييتيّ والولايات المتّحدة معًا أيسر من القضاء على الوحش الجديد، ولكنّي لم أنثنِ عن مسيرتي. وتذكّرت الأستاذ «ن» الذي يمثّل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل. واستقبلني سيادته بحرارة لا توهب عادة إلّا للأصدقاء. وعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

ـ مَن هم المسوخ، ومَن هم مسوخ المسوخ، ومَن هو الوحش؟

فقال باسمًا في ثقة تامّة:

ـ المسوخ هم جميع السياسيّين غير الوفديّين، ولا أتباع لهم في الحقيقة فالبلد وفديّ مئة في المئة، أمّا الوحش فهو النظام الدكتاتوريّ الذي لم يوفّق بعد إلى قناع يخفي به وجهه...

وتركته شاكرًا وأنا أقول لنفسي حقًّا إنّ هٰذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخر ولكن بالقياس إلى قوّتي الذاتيّة يمكن القول بأنّ «سي أحمد أخو الحاجّ أحمد». ولم يبقَ في جدولي إلّا المثقّفون فاخترت الأستاذ «ا» لمنزلته المعترَف بها من الجميع. واستقبلني بحياد فعرضت عليه حيرتي ثمّ سألته:

ـ مَن هم يا أستاذ المسوخ، ومَن هم مسوخ المسوخ، ومَن هو الوحش؟

فأجابني بجفاء:

ـ المسوخ هم الجهلة وتجدهم في كلّ موقع لا بقاء لهم إلّا بالقوّة، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولٰكنّهم أكبر دهاء وانتهازيّة، أمّا الوحش فهو الجهل...

وتركته وأنا أتساءل وكيف يمكنني قتل الجهل؟ أجل إنّي أعتبر الأستاذ «و» خير من يجسّد الجهل ولٰكن هل يزول الجهل بقتله؟ ووجدتني أغوص أكثر وأكثر في دوّامة لا فكاك منها، حتّى ورد على خيالي مولاي العارف بالله الشيخ «ص» فقصدته من فوري، واستقبلني ـ كالعادة ـ باسمًا مرحّبًا، ولٰكنّه بادرني قائلًا:

ـ أعرف ما ساقك إليّ اليوم!

فلم أدهش لسابق علمي بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب. وقال متّعني الله بعمره ونورانيّته:

ـ ما المسوخ إلّا عشّاق هٰذه الدنيا الفانية، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة، أمّا الوحش فهو النفس الضالّة...

وعدت إلى بيتي وأنا أقول لنفسي حقًّا إنّ هٰذا الوحش لا يُستهان بأمره، ولٰكنّ قتله ممكن، ولن يعرّضني لقبضة القانون. وأعلنت الحرب، وأقسمت على الصمود والتصدّي مهما طال بي الزمن. ولم أهجر بطبيعة الحال خمّارة نجمة الصبح التي عرفتُ أستاذي العارف بالله في ركن من أركانها. وفي ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتي في مجلسي المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانيّة إلى جانبي وهو يمزج النبيذ بالليمون. وهتفت:

ـ يا للسعادة، لقد جئت أخيرًا...

ولٰكنّه لم يعرني أدنى اهتمام فقلت:

ـ لقد عملت بمشورتك، وها أنا أقاتل الوحش حتّى أقتله...

وأصرّ على تجاهلي تمامًا ولم يلقِ عليّ نظرة واحدة ولم تهبّ عليّ من ناحيته نسمة أنس أو مودّة.

وأفرغ قدحه في فيه ثمّ نهض متجهّمًا وذهب.

تركني لحيرة لم تخطر لي في بال.

البقاء للأصلح

المنّة لله، لا أحمل في الدنيا همًّا. مترجم محترَم، ومالِك بيت مكوّن من ثلاثة أدوار وبدروم، متزوّج وموفّق وأب لشابّ وشابّة متزوّجين، وإلى هٰذا كلّه فإنّني حسن الهضم لهموم الدنيا الصغيرة. في العصارى

ـ عدا أيّام الشتاء ـ أجلس في شرفة الدور الأوسط برفقة زوجي والقهوة والفول السودانيّ واللبّ الأبيض، يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بحوانيته وجراجه العموميّ، نتفرّج على كلّ مَن هبّ ودبّ. من مجلسنا نرى سكّان بيتنا في الذهاب والإياب، عليّ كمال ساكن الدور الأعلى وهو محام ونطلق عليه «الأستاذ»، وصاحب الدور الأوّل مدكور البقلي ونطلق عليه «الشيخ» رغم أنّه أفنديّ وذٰلك لإرساله لحيته، أمّا البدروم فتقيم فيه ستّ محسنة رضوان وندعوها «المحمل» لسمانتها. وعلى صغر البيت فكلّ أسرة مستقلّة بذاتها لا تعرف من أصول الجيرة إلّا التحيّة العابرة عند اللقاء النادر. من أجل ذٰلك انطوت كلّ أسرة على أسرارها فلا أعرف عن أيّ منها شيئًا يستحقّ الذكر. غير أنّني لاحظت دون جهد كثرة زوّار الأستاذ والشيخ أمّا ستّ محسنة فكانت تعيش في عزلة شبه مطلقة. وذات يوم طلب الاستاذ مقابلتي فاستقبلته مرحّبًا ومداريًا قلقي حيال قسماته الحادّة ونظرته الثاقبة. اعتذر عن تطفّله بأسلوب لبق ثمّ قال:

ـ حرصًا على وقتك سأدخل في الموضوع مباشرة.

فشجّعته بابتسامة فقال:

ـ أنا في حاجة إلى البدروم والدور الأوّل وسيعود عليك ذٰلك بخير وفير!

فقلت وأنا في غاية الدهشة:

ـ ولٰكن لكلٍّ ساكنه وأنت أدرى بقوانين المساكن!

فقال بثقة:

ـ سيضطرّون إلى إخلاء مسكنيهما ولٰكن يجب أن نتّفق قبل ذٰلك.

فتساءلت في حيرة:

ـ كيف؟

فكوّر قبضته السمراء تحت ذقنه وقال:

ـ ثبت لديّ أنّ مدكور البقلي من الخطرين وأنّه جعل من شقّته ملتقى لنفر من التيّار المتطرّف.

فتولّاني خوف وقلق وقلت:

ـ لا عِلْم لي بذٰلك ولا شأن لي به.

ـ طبعًا، سأتكفّل بالواجب، ولٰكنّا علينا أن نتّفق أوّلًا . . .

ـ وستّ محسنة رضوان؟

فضحك ضحكة مقتضبة وقال:

ـ اصْحَ يا نائم، إنّها تنتظر حتّى يجثم النوم ثمّ تستقبل أهل الدعارة!

ففزعت هاتفًا:

ـ لا!

ـ هي الحقيقة، وسوف تلمسها بنفسك. . .

ـ إنّك مُقْدِم على مغامرة خطيرة!

ـ إنّي واثق من نفسي تمامًا.

وشملنا صمت غير قصير، ولّما استرددت أنفاسي سألته:

ـ وماذا تفعل بالشقّتين؟

ـ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الدور الأوّل دارًا للنشر، وسيكون لك عَقْد مناسب. . .

وقلت وأنا أنفخ:

ـ تلزمني مهلة للتفكير والتشاور مع الهانم.

فقام وهو يقول:

ـ طبعًا، ولٰكن ليكن الموضوع سرًّا بيننا.

وأفضيت بهمّي كلّه إلى زوجي فقلّبت الأمر على وجوهه ثمّ انتهت إلى أنّه إذا صحّ ما يدّعيه الأستاذ ونجح تدبيره فسوف يتطهّر البيت ويضاعف الدخل، وما علينا من بأس طالما أنّه لن يورّطنا فيما لا نحبّ. ولٰكن قبل أن يتمّ اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ مدكور البقلي مقابلتي. توقّعت من فوري مزيدًا من الارتباك والهواجس، وخُيّل إليّ أنّه شعر بطريقة ما بما يدور حوله فبادر للعمل. وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجي وقال:

ـ يقتضيني ديني أن أصارحك بالحقّ الذي علمته، فقد ثبت عندي أنّ الدور الأعلى ما هو إلّا خليّة هدّامة، وأنّ البدروم بؤرة فسق، وسأقوم بما يفرضه عليّ ديني وضميري. . .

انهالت عليّ كلماته كطلقات الرصاص فغرقت في دوّامة صاخبة وتمتمت:

ـ أيّ فظاعة لم تجرِ لي في بال!

ـ إنّك رجل طيّب وحسن الظنّ بالناس، وسيكون خلاص بيتك على يديّ إن شاء الله، وفي مقابل ذٰلك

أرجو أن توافق على تأجير الشقّتين لي!

فتساءلت بذهول:

ـ ما حاجتك إليهما؟

ـ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقّة دار نشر وعلى أن يتمّ الاتّفاق بيننا على ذٰلك.

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر في الدهشة والارتباك:

ـ أعطني مهلة للتفكير.

فقام وهو يقول:

ـ لك هٰذا يا أخي في الإسلام، وليكن الأمر سرًّا بيننا، ولٰكن تذكّر أنّ خير البرّ عاجله...

ولمّا علمتْ زوجي بما دار بيننا بردَ حماسها الأوّل، وبدا لها الأمر أشدّ تعقّدًا وخطورة فخافت التورّط فيما لا تحمد عقباه، وتفكّرت مليًّا ثمّ انتهت إلى رأي فقالت:

ـ علينا أن نمتنع عن أيّ اتّفاق ثمّ ننتظر.

فارتحت إلى رأيها، وعزمت على مصارحة الرجلينِ بأنّه لا شأن لنا بالموضوع، ولا اتّفاق نرتبط به قبل أن ينجلي الموقف. ولم تكد تمضي ساعات على ذهاب الشيخ حتّى رنّ جرس الشقّة، وإذا بستّ محسنة رضوان تطالعني بجسمها المترامي، في فستان بنّيّ محتشم، معتمرة بخمار أبيض. تمتمت:

ـ دستوركم.

ثمّ مضت نحو حجرة الاستقبال تتبختر كالتختروان وجلست وهي تقول:

ـ أودّ الاجتماع بك والستّ حرمك.

وقد كان. وفي أثناء الجلسة استرقتُ النظر مستطلعًا فبدت لي غير ما تبدو من بعيد، لا لحسنها ونضجها الأنثويّ فحسب، ولٰكن لتلك النظرة التي لا يخفيها التصنّع، نظرة مليئة بالخبرة والمجون فقلت لنفسي إنّها ولا شكّ كما يقال عنها. وقالت المرأة بنبرة جريئة وناعمة:

ـ كان يجب أن نتعارف من قبل كما يليق بامرأة وحيدة مثلي، ولكنّي شعرت بأنّكما تؤثران العزلة...

ثمّ مغيّرة درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون باهتمام أكثر:

ـ ما علينا، ها هي الضرورة تسوقني إليكم، وتدعونا جميعًا للدفاع عن النفس!

فأقبلتْ زوجي نحوها بتركيز أكثر قائلة:

ـ خيرًا؟

ـ يصدق على بيتنا المثل القائل يا ما تحت السواهي دواهي، وبفضل من سهري المعتاد وراء الشيش المغلق عرفت أشياء وأشياء...

وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا فواصلت المرأة:

ـ تبيّن لي أنّ الدور الأعلى وكر هدّامينَ وأنّ الدور الأوّل وكر منحرفينَ، رأيت بعينيّ وسمعت بأذنيّ، وأخوف ما أخاف أن يكون المسكنان قد تحوّلا إلى مخزنينِ للذخيرة، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن لا ندري!

فاستعاذت زوجي بالله بصوت متهدّج فقالت ستّ محسنة:

ـ اطمئنّي فإنّي أعرف كيف أدافع عن نفسي، وعن الناس الطيّبين، غير أنّه لي رجاء هو أن أستأجر شقّتيهما بعد خلوّهما!

فتسرّعت زوجي قائلة:

ـ لك هٰذا. يا ستّ محسنة.

أمّا أنا فسألتها:

ـ وما حاجتك إليهما؟

فقالت باسمة كاشفة عن سنّتين ذهبيّتين لأوّل مرّة:

ـ بصراحة سأجعل الدور الأوّل كافتيريا والآخر مطعمًا على أحدث طراز، وسيدرّ العقد الجديد عليكم أكثر ممّا تدرّ عمارة، ولذلك يجب أن يتمّ بيننا اتّفاق مبدئيّ!

ومن منطلق تجربتي السابقة بالموقف نفسه قلت:

ـ تلزمنا مهلة للتفكير.

ـ صدّقني لا ضرورة لذٰلك، سيتمّ كلّ شيء بأسرع ممّا تتصوّرا!

فتمتمت:

ـ مهلة قصيرة...

ـ أمهلك، ولا تنسَ صاحبة الفضل في تخليصك من شرّ مؤكّد.

ثمّ وهي تمضي في سبيلها:

ـ يكفيني كلمة شرف!

فقالت زوجي بحرارة:

ـ كلمة شرف لا رجوع عنها!

وحقًّا تتابعت الأحداث بأسرع ممّا تصوّرنا. في تلك الليلة اقتحم رجال الأمن الشقّتين، وسمعنا أنّهم عثروا على أدلّة بيّنة، وخُتمت الشقّتان بالشمع الأحمر. ولّما زايلنا الذهول والانفعال قلت لزوجي:

ـ ستطالبنا بإتمام الاتّفاق.

فقالت بثقة:

ـ إنّها صفقة رابحة ولعلّه من الأوفق أن ننتقل نحن إلى الدور الأعلى بعيدًا عن الضجّة.

فقلت بقلق:

ـ ولكنّي أرجّح أنّ ما قيل عنها حقّ وصدق.

ـ لو صحّ ذٰلك لقُبض عليها أيضًا!

ـ لها عينان فاجرتان . . .

ـ إنّها بالنسبة إليّ صاحبة فضل ولسنا المسئولين عن الأخلاق في البلد.

وكان للمرأة ما أرادت. وتحوّل بيتنا إلى كافيتريا ومطعم على أحدث طراز. في بادئ الأمر ساورني شكّ في نجاح المشروع لبُعْد مكانه عن وسط المدينة، ولكن سرعان ما أذهلني نجاحه، وإقبال السيّارات الفارهة عليه حاملة أناسًا ما كان يخطر ببال أنّهم سيشرّفون بيتي المتواضع بحال من الأحوال.

المنّة لله، لا أحمل في الدنيا همًّا.

الفأر النرويجيّ

من حسن الحظّ ألّا نكون وحدنا في هٰذه المحنة. وقد دعانا السيّد (ا.م) بوصفه أقدم ملّاك الشقق في العمارة إلى اجتماع في شقّته لتبادل الرأي. لم يزد عدد الحاضرين عن عشرة بما فيهم الداعي السيّد (ا.م) وهو فضلًا عن أقدميّته أوسعنا ثراء وأرفعنا مركزًا. ولم يتخلّف أحد، كيف يتخلّف والمسألة تتعلّق بالفئران وغزوها المحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا. ويبدأ الداعي بصوت ملؤه الجدّيّة «تعلمون. . .» ثمّ يسرد ما تردّده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشع. وترتفع أصوات من أركان الحجرة:

ـ ما يقال يفوق الخيال.

ـ هل رأيتم الريبورتاج التلفزيونيّ؟

ـ ليست فئرانًا عاديّة ولكنّها تهاجم القطط والآدميّين.

ـ ألا يُحتمل أن يوجد شيء من المبالغة في الموضوع؟

ـ لا. . . لا، الواقع أكبر من أيّ مبالغة.

ثمّ يقول السيّد (ا.م) بهدوء واعتزاز برياسته:

ـ على أيّ حال ثبت أنّنا لسنا وحدنا، هٰذا ما أكّده لي السيّد المحافظ.

ـ جميل أن نسمع ذٰلك.

ـ فما علينا إلّا أن ننفّذ التعليمات بدقّة، ما يجيء منها عنّي مباشرة أو ما يجيء عن طريق السلطة . . .

وخطر لأحدنا أن يسأل:

ـ هل يكبّدنا ذٰلك تكاليف باهظة؟

فلجأ إلى الدين قائلًا:

ـ الله لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها.

ـ المهمّ ألّا تكون مرهقة.

فلجأ إلى الحكمة قائلًا:

ـ لا يُدفع الشرّ بما هو شرّ منه!

وعند ذاك قال أكثر من صوت:

ـ ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين.

فقال السيّد (ا.م):

ـ نحن معكم ولٰكن لا تعتمدوا علينا كلّ الاعتماد، اعتمدوا أيضًا على أنفسكم ابدءوا على الأقلّ بالبديهيّات.

ـ عين العقل والصواب ولٰكن ما البديهيّات؟

ـ اقتناء المصايد والسموم التقليديّة.

ـ عظيم.

ـ الإكثار ما أمكن من القطط في بئر السلّم وفوق السطح وفي الشقق أيضًا إذا سمحت الظروف.

ـ لٰكن يقال إنّ الفأر النرويجيّ يهاجم القطط؟

ـ لن يخلو القطّ من فائدة.

ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة. وسرعان ما غلب التفكير في الفئران على سائر همومنا. فكثر ورودها علينا في أحلامنا وشغلت أوسع مساحة في حوارنا، وتصدّت لنا باعتبارها المشكلة الأولى في وجودنا. ومضينا ننفّذ ما تعهّدنا به، ولبثنا ننتظر مجيء العدوّ. يقول بعضنا إنّه لم يبق من الزمن إلّا أقلّه، ويقول آخرون سنلمح ذات يوم فأرًا يمرق فيكون النذير بأنّ الخطر قد دهم. وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفئران. هو في رأي نتيجة لخلوّ مدن القنال حين الهجرة، وفي رأي يرجع إلى سلبيّات السدّ العالي، ورأي يحيله إلى نظام الحكم، وكثرة ترى فيه غضبًا من الله على عباده لتنكّرهم لهداه. وبذلنا جهدًا مشكورًا للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد. وفي اجتماع تالٍ بمسكن السيّد الفاضل (ا.م) قال حفظه الله:

- سرّني ما اتّخذتم من أسباب الوقاية، وأسعدني أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط، أجل إنّ البعض شكا إليّ تكاليف تغذيتها ولكنّ كلّ شيء يهون في سبيل الأمن والأمان...

وقلّب عينيه في وجوهنا بارتياح ثمّ تساءل:

- ترى ما أخبار المصايد؟

فأجاب أحدنا وهو مربٍّ فاضل:

- سقط عندي فأر هزيل من فئراننا الوطنيّة.

- أيًّا تكن هويّة الفأر فهو مؤذٍ، أمّا اليوم فيهمّني أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيطة بعد أن أصبح العدوّ على الأبواب، وسوف توزّع علينا كمّيّات من السمّ الجديد المطحون في الذرّة، يوضع في الأماكن الحسّاسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات المستأنسة...

وحصل فعلًا ما وعد به الرجل، وقلنا حقًّا لسنا وحدنا في المعركة، وتدفّق منّا الثناء على جارنا الهمام، ومحافظنا الجليل. أجل حملنا ذلك الكثير من الانتباه يضاف إلى همومنا اليوميّة. كذلك وقعت أخطاء لا مفرّ منها، فقُتلت قطّة في إحدى الشقق، وعدد من الدجاج في شقّة أخرى. ولكن لم تحدث خسائر في أرواح البشر. وكلّما مضى وقت اشتدّ توتّر أعصابنا ويقظتنا وثقل على قلوبنا همّ الانتظار فقلنا وقوع البلاء ولا انتظاره. ويقابلني جار ذات يوم في محطّة الباص فيقول لي:

- سمعت من ثقة أنّ الفئران أهلكت قرية وزمامها كلّه.

- لا أثر لهذا الخبر في الجرائد!

فحدجني بنظرة ساخرة ولم ينبس. وتخيّلت الأرض سائلة بحشود من الفئران لا أوّل لها ولا آخر، وجموعًا من المهاجرين تهيم على وجهها في الصحراء، أيمكن أن يقع هذا يا ربّي؟! ولكن ما وجه الاستحالة في ذلك؟ ألم يرسل الله من قبل الطوفان والطير الأبابيل؟ هل يكفّ الناس غدًا عن كفاحهم اليوميّ ليرموا بما يملكون في أتون المعركة؟ وهل ينتصرون أو تكون النهاية؟

وفي الاجتماع الثالث بدا السيّد (ا.م) منشرحًا وراح يقول:

- تهانيّ يا سادة، النشاط متّقد على أكمل وجه والخسائر ضئيلة لا تُذكر ولن تتكرّر بإذن الله، وسوف نصبح من أهل الخبرة في مقاومة الفئران، وربّما استعانوا بنا في المستقبل في أماكن أخرى، والسيّد المحافظ في غاية من السعادة...

وأراد أحدنا أن يشكو قائلًا:

- الحقّ أنّ أعصابنا...

ولكنّ السيّد (ا.م) قاطعه:

- أعصابنا؟!... لا تفسد نجاحنا بكلمة طائشة!

- متى يبدأ الهجوم الفأريّ؟

- لا أحد يستطيع أن يقطع برأي، ولا أهمّيّة لذلك طالما أنّنا مستعدّون للمعركة...

ثمّ واصل بعد فينة صمت:

- التعلميات الجديدة ذات خطورة خاصّة وهي تتعلّق بالنوافذ والأبواب وأيّ ثقب في جدار أو غيره. أغلقوا النوافذ والأبواب، افحصوا حافة الباب السفليّة بصفة خاصّة، فإن وُجد زيق تنفذ منه قشّة أقيموا وراءه عوارض خشبيّة لتسدّه بالكامل، وعند التنظيف صباحًا يُبدأ بحجرة فتُفتح نوافذها، يكنس فرد ويقف آخر مسلّحًا بعصا للمراقبة ثمّ تُغلق النوافذ ويُنتقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب، وبانتهاء التنظيف تكون الشقّة علبة محكمة الإغلاق أيًّا كان المناخ...

وتبادلنا النظرات في وجوم وقال صوت:

- من المتعذّر الاستمرار في ذلك.

فقال الرجل بوضوح:

- بل عليكم أن تلتزموا بالدقّة البالغة في التنفيذ...

- حتّى في الزنزانة توجد...

وسرعان ما قاطعه بحدّة:

- نحن في حرب، أي في حال طوارئ، وليس الخراب فقط ما يهدّدنا ولكن الأوبئة أيضًا والعياذ بالله يجب أن نحسب حسابها!

ومضينا ننفّذ ما أُمرنا به صاغرين. وغصنا أكثر في مستنقع الترقّب والحذر وما يصحبه من ضيق وملل. واشتدّ توتّر الأعصاب فتُرجم إلى منازعات حادّة يوميّة بين ربّ البيت وربّتها والأبناء. ورحنا نتابع الأنباء فصار الفأر النرويجيّ بجسمه الضخم وشاربه الطويل ونظرته المنذرة الزجاجيّة نجمًا من نجوم الشرّ يجول في أخيلتنا وأحلامنا، ويستقطب جلّ أحاديثنا. وفي آخر اجتماع قال السيّد (ا.م):.

- بشرى، خُصّصت فرقة من أهل الخبرة لتفقّد العمائر والشقق والمحالّ المعرّضة للخطر، وذلك دون المطالبة بأيّة رسوم إضافيّة...

وكان خبرًا سارًّا استقبلناه بارتياح عامّ، وأملنا أن نزيح عن صدورنا بعض العناء الذي تعانيه. وذات يوم أخبرنا البوّاب أنّ المندوب تفقّد مدخل العمارة وبئر السلّم والسطح والجراج فبارك جماعات القطط المنتشرة هنا وهناك، ونبّه عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن أيّ فأر يظهر، نرويجيًّا كان أو مصريًّا. وعقب انقضاء أسبوع واحد على الاجتماع دقّ جرس الشقّة وإذا بالبوّاب يبشّرنا بقدوم المندوب مستأذنًا في التفتيش. لم يكن الوقت مناسبًا إذ كانت زوجي قد فرغت لتوّها من إعداد الغذاء غير أنّني هرعت إلى الخارج لأرحّب بالقادم. وجدتني أمام رجل متوسّط العمر مكتنز الجسم ذي شارب غليظ يذكّر وجهه المربّع بوجه قطّ بأنفه القصير المطموس ونظرته الزجاجيّة. رحّبت به مداريًا ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة، وقلت لنفسي حقًّا إنّهم يحسنون الاختيار. وسرت بين يديه ومضى يتفقّد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب ويهزّ رأسه بارتياح. غير أنّه رأى في المطبخ نافذة صغيرة مصفّحة بغشاء سلكيّ ذي ثقوب بالغة الصغر فقال بحزم:

- أغلقوا النافذة.

وهمّت زوجي بالاحتجاج ولكنّه بادرها قائلًا:

- الفأر النرويجيّ يقرض السلك!

ولـمّا اطمأنّ إلى نفاذ أمره راح يتشمّم رائحة الطعام معلنًا استحسانه فقلت له:

- تفضّلْ.

فقال ببساطة:

- لا يأبى الكرامة إلّا لئيم!

وفي الحال أعددنا له مائدة وحده زاعمينَ له أنّنا سبقناه. وجلس إلى المائدة وكأنّما يجلس في بيته، وجعل يلتهم الطعام بلا حرج ولا حياء وبنهم عجيب. ومن باب الذوق غادرناه وحده. غير أنّني رأيت بعد حين أن أطوف به لعلّه في حاجة إلى شيء. وفعلًا جدّدت له طبقًا، وفي أثناء ذلك لاحظت تغيّرًا مثيرًا في منظره شدّ إليه عينيّ بقوّة وذهول. خيّل إليّ أنّ هيئة وجهه لم تعد تذكّر بالقطّ ولكنّها تذكّر بالفأر، بل الفأر النرويجيّ نفسه. ورجعت إلى زوجي ورأسي يدور، لم أصرّح لها بما رأيت ولكنّني طالبتها بأن تشجّعه وترحّب به، فغابت دقيقة أو دقيقتين ثمّ رجعت شاحبة اللون وحملقت في وجهي ذاهلة، ثمّ تمتمت:

- أرأيت شكله وهو يأكل؟

فأحنيت رأسي بالإيجاب فهمست:

- إنّه لأمر مذهل يعزّ على التصديق.

فوافقتها على رأيها بهزّة من رأسي الدائر. ويبدو أنّ إغراقنا في الذهول أنسانا مرور الوقت فانتبهنا مع صوته آتيًا من الصالة وهو يقول بمرح:

- عامرًا!

فاندفعنا نحوه ولكنّه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجيّ وذهب. ولم نلمح منه إلّا ظهره المترجرج، ثمّ التفاتة سريعة ودّعنا بابتسامة نرويجيّة خاطفة. ووقفنا وراء الباب المغلق نتبادل نظرات حائرة.

قاتل قديم

صدرت «يوميّات علاء الدين القاهريّ» فاقتحمت عزلة شيخوختي، عاصفة بهدوئها وانقطاعها عن الحياة العامّة. عاد اسمه يطاردني وينكأ جرحًا في كبريائي. ويذكّرني بفترة الاحترام والتقدير، وعهد النفور والرفض، وأخيرًا الفشل. وأقتني الكتاب، وأنهمك في قراءته، بدءًا من مقدّمة ابن أخيه، فأقف على سرّ تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احترامًا لوصيّته، وأغوص بين السطور لعلّي أعثر على حلّ اللغز الذي حيّرني، وينبثق من إحدى اليوميّات بصيص نور فأمتلئ بالاستنارة وأنتفض من الذهول، وأهتف في حجرتي المغلقة:

ـ كان القاتل بين يديّ طوال الوقت!

واخترقت الضباب إلى حجرتي في نقطة الشرطة فرأيت رجلًا يندفع داخلًا مضطربًا شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول ويقول لاهثًا:

ـ الأستاذ قتيل في فراشه.

وتفحّصته بعين محترفة متسائلًا عمّن يعني فقال:

ـ الأستاذ علاء الدين القاهريّ.

فأشعل اهتمامي، وأدركت في الحال أنّ الروتين سينحرف عن مجراه المألوف.

ـ أنا خادمه، ذهبت إلى بيته صباحًا كالعادة، رأيت باب حجرة نومه مفتوحًا فألقيت نظرة فرأيته في فراشه غارقًا في دمه.

واستجابة لاستفسار قال:

ـ أغادر بيته ليلًا وأعود إليه في الصباح فأفتح الباب بمفتاح، أمّا المفتاح الآخر ففي حوزة الأستاذ. . .

لم أضيّع وقتًا أكثر من ذلك فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوّة من الجنود والمخبرين. وفي الطريق غمرتني ذكريات. ذكرت حماسي لفكره أيّام الدراسة الذي زحف عليه الفتور فيما بعد وخُتم بالرفض. كان أستاذًا جامعيًّا مرموقًا، ومؤلّف كتب تُعتبر المرجع الأوّل في الدعوة للحضارة الغربيّة والنقد المرّ للتراث، فحظيتْ بقلّة من المعجبين وكثرة من الناقمين. وجرى الزمن وتغيّر، فبلغ سنّ المعاش، واعتزل في بيته، واقتصر اتّصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء ممّن على شاكلته في الرأي، وبعض الشباب من المعجبين. وعانى الجوّ العامّ من اختناق في الفكر على المستويين الرسميّ والشعبيّ فلم يُعِدْ طبع كتبه، ولم يتيسّر الاطّلاع عليها إلّا في دار الكتب وخاصّة لأصحاب الرسائل الجامعيّة. رغم ذلك كلّه بقي اسمه حقيقة ثقافيّة ذات وزن ثقيل في الجيل المخضرم وقلّة من الشباب، فلم تغب عنّي خطورة الجريمة وأثرها المنتظر. ودرست موقع البيت من الخارج وسط صفّ من بيوت مماثلة شيّدتها جمعيّة تعاونيّة. بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين. ورأيت الجثّة منكفئة على وجهها، والغطاء منحسر عن نصفها الأعلى، والدم يغطّي مؤخّر الرأس والقفا وينداح فوق الحشيّة والوسادة. غلّفه وجه الموت الأخرس المغترب، بهتت صلعته، وتمدّد أنفه الكبير الأقنى في صفحة ضاربة للزرقة غائصة في اللامبالاة. لا أثر للمقاومة ثمّة، وكلّ قطعة أثاث مستقرّة في موضعها في طمأنينة تامّة، وفي الحال لحق بي المأمور ومدير الأمن والنائب العموميّ، وجرى فحص شامل للمسكن ومحتوياته. وبهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن فلا يشذّ شيء عن موضعه. عدا صينيّة على خوان في حجرة الاستقبال تحوي عددًا من أقداح الشاي في قراراتها شيء من السائل؛ ووعاء معدنيّ مفضّض به بقايا من البسكوت المطعّم بالشيكولاطة، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر. وصوان الملابس لم يُمَسّ، والساعة، والولّاعة، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه. وتبودل حديث أوّليّ بين المسئولين:

ـ الجريمة لم تُرتكب من أجل السرقة.

ـ احتمال راجح ولكن يقتضي مزيدًا من التحرّي.

ـ هناك باب الخصومة والانتقام.

ـ هل تدخل في هذا الباب الخصومة الفكريّة؟

ـ لكنّ الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه ـ وإن وجب أن يمتدّ البحث لكلّ شيء . . .

ـ والعلاقات الخاصّة المجهولة أيضًا.

وعرفت القنوات التي ستتدفّق منها التحرّيات، ثمّ بدأ التحقيق باستجواب الخادم عمّ عبده مواهب. رجل في الخمسين، يعمل طاهيًا وشغّالًا عند الأستاذ منذ عشرين عامًا، وهو محور البيت كما يخلق ببيت أعزب يعيش وحده. ينتهي عمله عقب تقديم العشاء في الثامنة ثمّ يغادر البيت حوالى التاسعة ليمضي إلى مسكنه بمصر القديمة ثمّ يرجع في الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادة. ويخالف هٰذا النظام في الليالي التي يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشبّان، فربّما تأخّر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذي قُتل الأستاذ في ليلته عقد ـ الأستاذ ـ جلسة مع أربعة من الشبّان ممّن يتردّدون كثيرًا عليه، وهم طلبة دراسات عليا، معروفون جيّدًا بالاسم والصورة لدى عمّ عبده مواهب. غير أنّ عمّ عبده شعر بصداع فاستأذن في الانصراف حوالى العاشرة، ولـمّا رجع صباحًا كالعادة اكتشف الجريمة.

ـ هل تشكّ في أحد الزوّار الأربعة؟

ـ أبدًا... (ثمّ بتوكيد) أبدًا... أبدًا...

ـ لماذا؟

ـ كانوا يحبّونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ، والعِلْم عند الله، والكلمة الأخيرة لك...

وقلت لنفسي، أمامنا جريمة قتل، القاتل كان في داخل البيت، وجدنا مفتاح البيت الخاصّ بالأستاذ في درج المكتب، وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة وكانت النوافذ مغلقة من الداخل. وكخطوة أولى حجزت عمّ عبده والطلبة الأربعة وانطلقنا في قنوات التحرّيات.

بحثنا مصادر الثروة فوضح لنا أنّه لا يملك إلّا معاشه وحسابه في المصرف المتحصّل من فوائد شهادات الاستثمار، وليس في ميزان الصرفيّ ما يدلّ على أنّه سحب مبلغًا أكثر من المعتاد صرفه كلّ شهر لتغطية نفقاته. ولم تدلّنا التحرّيات عن الطلبة وعمّ عبده مواهب على أيّ علاقة مريبة أو شبهة من الشبهات، وفُتّشت البيوت تفتيشًا دقيقًا، وكان عمّ عبده يعيش في مسكن صغير هو وزوجه أمّا أبناؤه الثلاثة فيعملون في السعوديّة، ولـمّا سُئلت زوجته عن ميعاد عودته ليلة الحادث أجابت بأنّها تنام مبكّرة ووضح أنّه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت. وكان بعطفة السدّ القائم بها مسكنه مقهى عند المنعطف شهد صاحبه بأنّ عمّ عبده غشى المقهى ليلتها كعادته فلم يتناقض ذٰلك مع أقوال الرجل الذي قال إنّه قصد المقهى ليعالج صداعه بالقهوة والأينسون وخلافه، أمّا عن الوقت فلم يستطع الرجل أن يحدّده لانشغاله المتواصل بعمله. وضحت لنا براءة الطلبة فلم يبقَ في يدي إلّا عمّ عبده مواهب. هو الذي يمكنه دخول البيت في أيّ وقت ودون عائق ثمّ يغادره بسلام، ولٰكن لماذا يقتل الأستاذ؟ والحقّ ـ وأقرّر ذٰلك من واقع خبرة ودراسة ـ أنّه رجل ورع طيّب مستقيم، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلًا أو زائفًا، وبعيد أيضًا أن يوحي وجهه بالجريمة أو الشرّ، وغضبت حيال الغموض الجاثم. وتعلّق الأمل بالعلاقات الخاصّة الخفيّة. وقلت لعمّ عبده مواهب:

ـ حدّثني عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوّج قطّ؟

فأجاب متجهّمًا:

ـ لا أعرف شيئًا.

ـ تكلّم، ألا تريد أن تبرّئ نفسك؟

ـ لي الله، لن يأخذني بجريمة غيري.

ـ لكلّ منّا هفواته وعيوبه فحذار أن تدافع عن القاتل بحسن نيّة!

ولٰكنّه أصرّ على موقفه. وجاءني مرشد باللبّان الذي شهد بأنّه رأى في بيت الأستاذ في أثناء تردّده عليه امرأة متوسّطة العمر على جمال ملحوظ. وبعد مواجهة بين اللبّان وعمّ عبده قلت للأخير بحزم:

ـ هاتِ ما عندك عن هٰذه المرأة.

فقال بقلق:

ـ ربّنا أمر بالستر.

فقلت بحزم أشدّ:

ـ وأمر بعقاب القاتل فتكلّم لتخلّص نفسك من الشبهة المحيقة بك.

فاعترف قائلًا:

ـ هي أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ، تعيش في أسرة فقيرة ولٰكنّها لا تتسامح فيما يمسّ العرض، ولو انكشف سرّها لتعرّضت للهلاك...

ووعدته بأن نستدرجها إلى التحقيق في تكتّم. وعرفت ما يلزمني عن المرأة، مسكنها، أولادها، أخيها الميكانيكيّ المعروف بفظاظته، وعرفت أيضًا أنّ عمّ عبده كان يسفر أحيانًا بين الأستاذ والمرأة على كره شديد منه.

داخلني شعور بأنّ الحقيقة ستُقذف إليّ بعد تمنّعها العسير. ولـمّا رأيت المرأة فتر حماسي. وجدت امرأة تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاهة. وصارحتني بأنّها استسلمت للرجل لشدّة حاجتها ولعطفه وكرم أخلاقه، وأنّ موته سدّ في وجهها باب الرجاء. وقالت إنّها كانت تزوره نهارًا تجنّبًا لإثارة الشبهة عند أحد وخاصّة أخيها، وأنّها لم تدخل بيته طوال الأسبوعين السابقين للحادث مستشهدة في ذٰلك بعمّ عبده مواهب. ورجع الغموض إلى ما كان وربّما أشدّ. ونشط خيالي في طرح الفروض، فحامَ حول أخيها الميكانيكيّ ولكن قُطع الشكّ باليقين عندما أثبتت التحرّيات بأنّ الشابّ كان محبوسًا في قسم الخليفة يوم الجريمة لتورّطه في مشاجرة. انتهى. لم يسفر التحقيق ولا التحرّيات عن شيء، وقُيّدت الجريمة ضدّ مجهول. وقلت لنفسي وأنا من القهر في نهاية:

ـ هٰذه الأمور تحدث أيضًا!

ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين عامًا عى ارتكابها، وبعد أن تركتُ الخدمة منذ خمسة أعوام أو يزيد. أعادني إليها نشر «يوميّات علاء الدين القاهريّ». ورحت أقرأ بشغف مدركًا الأسباب التي جعلت الأستاذ يوصي بتأخير النشر ربع قرن لتعرّضها لأشخاص رأى من المستحسن ألّا يهتك الستر عن أفكارهم إلّا بعد وفاتهم أو في الأقلّ بعد انتهاء خدمتهم الرسميّة. وفي إحدى اليوميّات قرأت:

«عمّ عبده مواهب صارحني برغبته في ترك خدمتي فانزعجت جدًّا لشدّة حاجتي إليه خاصّة في هٰذه المرحلة الحرجة من العمر والوحدة، ولأمانته واستقامته وطيبة قلبه وتقواه. وقلت له:

ـ إنّي أعاملك كصديق يا عمّ عبده.

فتمتم:

ـ لا ينكر النعمة إلّا لئيم.

ـ إذن لا تتركني، والعمل على أيّ حال أفضل من الفراغ.

فغمغم:

ـ لا حيلة لي يا سيّدي.

ـ بل يوجد سبب، لا تخفِ عنّي شيئًا...

فصمت مليًّا ثمّ قال:

ـ قلبي يقشعرّ ممّا أسمع أحيانًا في مجالس الزوّار!

فقلت بدهشة:

ـ لن يأخذك الله بذنوب غيرك، لك عليّ أن أسكت الحوار إذا دخلت الحجرة لخدمة...

وما زلت به حتّى عدل عن رأيه. ولٰكن يبدو أنّه لم يكفّ عن التصنّت وقد ضبطته مرّة لصق الباب وأنا ذاهب لبعض شأني فعاتبته عتابًا مرًّا، وذات يوم وهو يقوم على خدمة إفطاري حانت منّي التفاتة إلى مرآة فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب، فاعترضتني كآبة وتساءلت كيف أحتفظ برجل يضمر لي هٰذا الشعور الأسود؟!». وفي مكان آخر من اليوميّات وكظرف مشابه قرأت هٰذه العبارة عن عمّ عبده مواهب «يجب التخلّص منه في أقرب فرصة، وقد ناقشت مشكلته في إحدى الجلسات الثقافيّة فأثنى الزوّار عليه وقالوا إنّه مثل للاستقامة والطيبة ولٰكنّي على خبرة بما يمكن أن يصدر عن هٰذه الأنماط إذا جُرحت ضمائرها، يجب التخلّص منه في أقرب فرصة مهما صادفني من صعوبات في إحلال آخر محلّه».

امتلأت بالاستنارة متأخّرًا جدًّا وهتفت:

ـ كان القاتل بين يديّ طوال الوقت!

الآن قد سقطت العقوبة، واندثر التحقيق، وتوفّي الكبار الذين باشروا التحقيق أو أشرفوا عليه، ولعلّ القاتل قد لحق بهم أو سبقهم إلى جوار ربّه. وأمكنني أخيرًا أن أقف على الباعث على الجريمة الذي ضللته وقتها. ترى هل مات الرجل أو ما زال حيًّا؟ ولم أستطع مقاومة الرغبة في السعي وراءه رغم إفلاته القانونيّ من العقوبة. تمنّيت أن أعثر عليه ولو لأعلن انتصاري العقيم. ولن يتّضح عقمه ـ لجهله غالبًا بالقانون ـ حتّى أكاشفه بذٰلك.

وانتقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعًا

بحبّ استطلاع ورغبة متوارية في الانتقام. وجدت عطفة السدّ كما كانت ببيوتها العتيقة والمقهى القائم عند المنعطف لم يكد يتغيّر إلّا وجه صاحبه. وكان عمّ عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات فطرقت بابه واقتحمت مسكنه.. استقبلني بدهشة، ببصر ضعيف، ولم يتذكّرني، وطالعني بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض كالزغب تبرز من حافة طاقيّة بيضاء. قلت له:

ـ إنّك لا تتذكّرني.

فبسط راحته متسائلًا فقلت:

ـ ولٰكنّك لم تنسَ ولا شكّ مصرع الأستاذ علاء الدين القاهريّ!

فومضت في سحابة عينه نقطة لامعة وقطّب في حذر:

ـ أنا ضابط التحقيق، كلانا تقدّم به العمر.

فتحرّكت شفتاه من همس لم أتبيّنه ولٰكنّي قرأت في صفحته أمارات الانسحاق.

وقلت بثقة:

ـ أخيرًا انكشفت الحقيقة وثبت أنّك قاتله!

واتّسعت عيناه في ذهول ولٰكنّه خرس فلم ينبس. وقام بجهد وصعوبة ولٰكنّه ما لبث أن انحطّ فوق الكنبة. أسند رأسه إلى الجدار ومدّ ساقيه وتقلّصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابيّة، وفتح فاه، ربّما ليقول شيئًا لم يقله أبدًا، ثمّ استسلم أمام قوّة مجهولة فمال رأسه على كتفه.

وجزعت فهتفت به:

ـ لا تخف، انقضى زمان الجريمة، اعتبر حديثي مزاحًا...

ولٰكنّه كان قد أسلم الروح.

* * *

أقدمت على مغامرة لأحقّق نصرًا عقيمًا فبؤت بهزيمة جديدة أفقدتني ما كنت أحظى به من راحة البال.

ومن حين لآخر أتساءل في ضيق:

ـ ألا أعتبر أنا أيضًا قاتلًا؟!

الخَنْدَق

رغم عنايتي الملحوظة بنظافة جسدي وصحّتي العامّة فإنّ الإحساس بالقذارة والمرض يلحّ عليّ كفكرة ثابتة أو جوّ ثقيل جاثم. لست أقيم في جسد وأطراف فحسب ولٰكن أيضًا في شقّة عتيقة بالية وعطفة هرمة تغوص في النفايات. تعرّى السقف من الطلاء وتكشّف في مواضع عن عروق لا لون لها، وتشقّقت الجدران في خطوط متوازية ومتقاطعة، وانفجرت الأرضيّة عن نتوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة المتهرّئة. والسقف والجدران تنضح صيفًا بالحرارة المحرقة وترشح شتاء بالرطوبة أو برشاش المطر. والسلّم آخِذ في التآكل، ودرجة منه تصدّعت فتهاوى نصفها وأصبحت عثرة في طريق الصاعد والهابط وخطرًا لا يُستهان به في ظلمة الليل. هٰذا بالإضافة إلى الشقّ الطوليّ الذي يسوخ في جناح البيت الخارجيّ الملاصق لدورات المياه، وهو جناح تقشّر ملطه وكلسه وبرزت أحجاره. وعطفة الحسني اختفى طوارها تمامًا، ولا أحد يذكر أنّه كان لها طواران سواي بوصفي من مواليد هٰذا البيت، بخلاف أسرتي إبراهيم أفندي ساكن الدور الأوسط والشيخ محرّم ساكن الدور الأرضيّ اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عامًا على أكثر تقدير. على أيّام صباي كان البيت كهلًا لا بأس به، والعطفة ذات أديم مبلّط بالأحجار وطوارين، لا تقلّ في رونقها عن شارع الشرفا الذي تنحدر إليه. اختفى الطواران تحت الأتربة والنفايات، وهٰذه تتراكم يومًا بعد يوم زاحفة من الجانبين نحو وسط الطريق الضيّق، وعمّا قليل لن يبقى للسكّان إلّا ممرّ كالخندق يذهبون منه ويجيئون، وربّما ضاقت حافتاه عن أن تسع جسم ستّ فوزيّة حرم إبراهيم أفندي. يطبق على وجداني شبح القِدَم وتوقّع الانهيار وتفشّي القذارة فيطاردني الإحساس بالمرض. والخوف أيضًا. وحيد في شقّة تفرّق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر، وموظّف بالإضافة. موظّف وحيد في بيت آيل للسقوط، يئنّ في قبضة الغلاء، يتساءل عن مصيره لو

وقع زلزال أو غارة جوّيّة في هٰذه الأيّام المنذرة بالحروب، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتف أنفه وبلا سبب خارجيّ. وأعقد العزم على مطاردة الهواجس بنفس القوّة التي تطاردني بها، أن أسلّم أمري لله، ألّا أتعجّل الهمّ قبل وقوعه، أتناسى همومي في المقهى بين الصحاب من الموظّفين الكادحين أو بين يدي التلفزيون، تلفزيون المقهى. غير أنّ الهمّ يرجع كأكثف ما يكون في اليوم الأوّل من كلّ شهر. يوم يحسب حسابه الشيخ محرّم وستّ فوزيّة التي تنوب عن زوجها في المعاملات لقوّة شخصيّتها، كما أحسب حسابه ألف مرّة. في هٰذا اليوم يهلّ علينا عبد الفتّاح أفندي ساعي البريد ومالك البيت القديم. رجل في الخمسين، ما زال متمسّكًا بطربوشه، ثقيل الظلّ، ربّما لا لعيب فيه. أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إليّ صوت ستّ فوزيّة وهي تنهره بخشونة وتلقمه الحجر تلو الحجر. أمّا أنا فأعالجه بالكياسة ما استطعت. أستقبله وأجالسه على كنبة وحيدة وأقدّم له الشاي. ويطيب له أن يردّ التحيّة فيسألني:

ـ بودّي أن أجيء مرّة فأجدك مكمّلًا نصف دينك!

فأسأله وأنا أداري غصّة:

ـ عندك عروس وزيجة بالمجّان؟

فينفخ بخار الشاي ويحسو حسوة ذات فحيح ويهزّ رأسه دون أن ينبس. وأقدّم له الإيجار، ثلاثة جنيهات، فيتناولها باسمًا في سخرية، يفنّدها بين أصابعه، يقول:

ـ أقلّ من ثمن كيلو لحمة، والاسم مالك بيت. . .

ثمّ يواصل متشجّعًا بصمتي:

ـ أموال أيتام يعلم الله.

فأقول:

ـ مظلومان يتناطحان، ولٰكن ما الحيلة؟!

ـ لولا احتلالكم للبيت لبعته بالشيء الفلانيّ..

ثمّ بنبرة وعظيّة:

ـ وهو آيل للسقوط، ألم تنذركم اللجنة؟

فأتساءل:

ـ وهل نلقي بأنفسنا إلى الشارع؟!

أفتقد دائمًا الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد الإحساس بالنظافة والصحّة. على ذاك فحالي خير من الآخرين فإنّي على الأقلّ وحيد. عن عجز لا عن رغبة ولٰكنّي وحيد. حبيس كَبْت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تُدفن تحت النفايات. أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنيّة ولو على فترات من الزمن، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعيّة. أحلم بمسكن ممّا أرى في إعلانات الجمعيّات التعاونيّة، وعروس ممّا أشاهد في صفحة العرائس الأسبوعيّة، أو حتّى مثل ستّ فوزيّة. أتعزّى بقراءة «حلية الأولياء»، بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكّلين الطارحين لهموم الدنيا تحت أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة. غير أنّ خبرًا عارضًا عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوّة الشرطة عقب تصدّع جانب منها، يهزّني من الأعماق، يستردّني من فردوس الأولياء، يملؤني بالرعب، أين يذهبون، ماذا يبقى لهم من المتاع، كيف يتصرّفون؟! ويتضاعف إحساسي بالوحدة رغم انتمائي إلى أسرة كالقبيلة متناثرة في أنحاء المدينة الكبيرة. إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة! العواطف طيّبة ولٰكن لا بيت يرحّب بجديد. كلّ بيت بالكاد يسع سكّانه. وكلّ فرع ينوء بهمومه. قد أجد ملاذًا ليوم أو أسبوع أمّا الإقامة الدائمة فهي ورم سرطانيّ لا يُحتمل. وأهرع إلى المقهى فهو جنّة المأوى. أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء في تبادل الشكوى. ومن عجب أنّني معدود بينهم من المحظوظين لتوحّدي وخفّة حمولتي. وحدتي المرعبة قيمة محسودة. يا بختك لا زوجة ولا بنت ولا ولد. لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصيّة. بوسعك أن تأكل لحمة مرّة في الأسبوع وربّما مرّتين. مسكنك الوحيد الذي لا يشهد شجارًا ولا نقاشًا. وأهزّ رأسي في رضا ولٰكنّي أتساءل في باطني هل نسوا آلام الكبت والوحدة! غير أنّي أجد في أنينهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تلقى على قبر. ويقول لي أحدهم مرّة:

ـ عندي حلّ لكافّة مشكلاتك.

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر فيقول:

ـ زيجة، توفّر المسكن واليسر ولا تكلّفك مليمًا واحدًا.

ثمّ فيما يشبه الهمس:

ـ امرأة تناسب المقام.

وأتخيّل في الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلّا شهادة السجلّ المدنيّ. وسيلة شاذّة من وسائل الإنقاذ مثل الانحراف والجرائم الخفيّة، طوق نجاة مثل جثّة طافية. الحقّ أنّني فقدت الأمل ولٰكنّي ما زلت محتفظًا بالكبرياء. من أجل ذٰلك يصفونني بالطيبة كمرادف للبلاهة. أتصبّر وأقاوم. أعود إلى كتاب حلية الأولياء وأقرأ جرائد المعارضة. ربّما ألجأ أحيانًا إلى حيل الطفيليّين ولٰكنّها زلّة تُغتفر. أزور بيوت الأهل في غير أوقات الغداء إمعانًا في إظهار البراءة على أمل أن أدعى إلى وليمة، ولٰكنّ روح العصر لم تعد تؤمن بهٰذه التقاليد العريقة. ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم والأعياد فيسعدني الحظّ بوليمة أو وليمتين في العام. وما أن يتهادى إليّ صوت ربّة البيت وهي تقول:

ـ ما أنت بالغريب ولا بالضيف، اعتبر نفسك في بيتك . . .

ما إن تلوح هٰذه الإشارة الخضراء حتّى أنقضّ على المائدة مثل نسر جائع وكأنّما أشهد العشاء الأخير. الأدهى من ذٰلك كلّه أنّني مواطن عاديّ، لا طموح عنده ولا خيال. نلت من التعليم ما يكفي وألحقتني القوى العاملة بإدارة ما. ما تمنّيت بعد ذٰلك إلّا بنتًا طيّبة وشقّة صغيرة. انقلبت الدنيا لا أدري كيف وماجت بالعجائب. وتحدّدت إقامتي في البيت المتهالك. وكلّما ارتفع مرتّبي انخفض كأنّه فزّورة من فوازير رمضان. ذاب شبابي في التضخّم وكلّ يوم أغالب أمواجًا هادرة تهدّدني بالغرق. ويقال لي:

ـ هاجر ففي الأسفار مليون فائدة . . .

ولٰكنّي بطيء الحركة ومشدود للأرض ولم أستسلم لقبضة اليأس. من حين لآخر تومض في سمائي المظلمة بارقة. تنعشني تصريحات الوزراء وطلقات المعارضة ونوادر الأولياء. ألم يكن ابن حنبل يتصدّق بالجوائز السنيّة وهو يتضوّر جوعًا؟ وأتسلّى أحيانًا في نافذتي وأنا أرقب ستّ فوزيّة وهي تتبختر في الخندق بين حافتيه المطبقتين. وذات يوم قرّرت أن أزور مدفن الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا وقعت الواقعة. هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد دورة للمياه فهي مأوى مَن لا مأوى له.

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشجيرات الصبّار في الأركان، أمّا حجرة الرحمة إلى يمين القادم فقد انقلبت خليّة نحل تموج بالنساء والأطفال والأثاث البالي المكوّم ومواقد الغاز والحلل وتعبق بروائح التقلية والفول والباذنجان والزيت المقليّ. رمقتني أعين المستوطنين بتوجّس وقرأت في أعماقها نذر التحدّي. ابتسمت في استسلام ووقفت قبالتهم متحرّرًا من القوّة والمجد. وقلت لامرأة ذكّرني حجمها بستّ فوزيّة:

ـ لا بأس، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة كمأوى؟

فقالت ضاحكة:

ـ أنت صاحب حقّ ونحن ضيوفك، ننزل لك عن ركن، والناس للناس. . .

فقلت ممتنًّا في الظاهر:

ـ جوزيتِ خيرًا. . .

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة. تخيّلت الأجيال التي لم يبقَ منها إلّا هياكل عظميّة. رعيل من أهل الحِرَف والتجّار والموظّفين وستّات البيوت وخالٌ لم أدرك عصره ولٰكنّي سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاده في ثورة ١٩١٩.

وقفت مليًّا وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع:

ـ أمدّوني يرحمكم الله بإيمانكم، وهبني يا خالي شيئًا من شجاعتك!

عِندَمَا يأتي الرّخَاء

مات الأب ففقد الابن عرشه. ذٰلك أنّه كان وحيد أبويه، وليّ العهد المدلّل، المغموس في نعيم الحنان. ما إن بلغ الحلم حتّى زوّجه أبوه ليفرح به فأنجب بدوره ابنًا وحيدًا، وزوّجه في حياة أبيه ليفرح به أيضًا. أمّا الأب المدلّل فأفسده الدلع فقعد عن التعليم دون أن يحصل على الابتدائيّة وأمّا الحفيد فقد نال التجارة الثانويّة بطلوع الروح. وعقب وفاة الأب ـ

الجدّ - وجد الخليفة الأوّل نفسه وحيدًا عاطلًا، والخليفة الثاني كاتبًا على الآلة الكاتبة.

- كان أبي سمسارًا رزقه موفور ولٰكن ينفق عن سعة، عشنا في حياته كالملوك غير أنّه لم يخلّف شيئًا.

أورثه بيتًا من ثلاثة أدوار ودكّان بالسيّدة، يقيم هو في دور وابنه في دور ويقبض إيجار الدور الثالث والدكّان ستّة جنيهات كلّ شهر، مثل مرتّب ابنه. أجل كان المبلغ كافيًا لمعيشة أسرة في مطلع القرن ولٰكنّه لا يهيّئ لها أيّ لون من ألوان الترفيه المشروع.

- كيف أطيق هٰذه الحياة أنا ربيب النعيم، طعامي طعام ولائم، وملبسي أنموذج للأناقة، مجلسي في قهوة الشيشة، ونزهتي عند كشكش بك ومنيرة المهديّة، كيف أطيق هٰذه الحياة؟

ويقول له ابنه معاتبًا:

- لِمَ عجّلت بتزويجي؟... ها أنا أب وأنا دون العشرين...

فيجيبه متنهّدًا:

- إنّما الأعمال بالنيّات يا بنيّ! أنا أيضًا وجدتني زوجًا لبنت تكبرني بأعوام قبل أن أفرّق بين الألف والباء!

وكان المُستحِقّ الوحيد لوقف جدّه للمرحومة أمّه فزار لأوّل مرّة إدارة الأوقاف الأهليّة مسوقًا بنبضة أمل رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه. وقال له الموظّف المختصّ:

- ثروتك على الورق ضخمة، أربع قطع أراضي فضاء بالمنشيّة، ومال بدل ناتج عن دخول قطعة خامسة في التنظيم مقداره أربعون ألفًا من الجنيهات...

فتساءل بصوت متهدّج كيف يمكنه الانتفاع بثروته فقال الموظّف:

- لا شيء للأسف، الأرض وقف لا تُمَسّ، والمال وقف لا يُمَسّ، وهو مودع في البنك بلا فوائد لأنّ الفوائد ربا والربا حرام وكلّ حرام في النار.

وهٰذه النار التي تندلع في قلبه وآماله؟! لم يعد له من حديث إلّا الوقف والحرمان. ويطوف بالأراضي الفضاء المطروحة كخرائب، ويسأل عن أجر المثل فيحسب ثمنها بما لا يقلّ عن ثمانين ألفًا من الجنيهات بالإضافة إلى مال البدل، وراح يهذي بالثروة والحرمان والفقر والحظّ.

وقال له عمّه:

- بِعْ بيتك واستثمر ثمنه في عمل نافع.

ولٰكنّه يقول معترفًا بالحقيقة الصخريّة:

- لا أصلح لشيء يا عمّي.

ويستطرد باسمًا في حياء:

- الله يغفر لك يا أبي.

والزمن يسترق الخطى، لا يبالي ولا يمهل، فيتوغّل الرجل في الشباب حتّى يرقى ذروته ويطلّ على الرجولة دون أدنى رغبة فيها. تتبلور شخصيّته بين الأصحاب والأقارب نمطًا للإنسان الشاكي الباكي، مجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل، يضحك منه في الخفاء مَن يشفق من الجهر، ويعالنه بالسخرية مَن يضيق به، ومن وراء وراء يقولون عنه:

- سيُجنّ ذات يوم.

- بل جُنّ فعلًا وما كان كان...

وتغزو مظاهر الحضارة حتّى الأحياء الوطنيّة. وجاوزت السيّارات حدود الندرة. وكذٰلك المطاعم والملاهي. وانطلق الرعيل الأوّل من الحسان سافرات الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة. هٰذا وامرأته منهمكة بين الطهي والغسيل والمكنسة فبرزت الستّ العاملة وتوارت الأنثى المغرية. وهو خلقه الله جميلًا يحبّ الجمال فتنمّر وتوثّب للنزاع والنكد. تقول امرأته:

- ما حيلتي! ابتُليت به أفظع ممّا ابتُلي هو بالحياة...

ويقول هو:

- أنا غنيّ محكوم عليه بالفقر، والدنيا حلوة...

ويقول له عمّه:

- الدنيا حظوظ، ولله في خلقه شئون، والسعيد من يمتثل لإرادة الله.

فيقول:

- أنا مظلوم... مظلوم... مظلوم...

- وما الحيلة يا بن أخي؟

- أحرام أيضًا أن أشكو الظلم؟!

فيقول الرجل مداريًا ضيقه بابتسامة لا لون لها:

- أليس لكلّ إنسان همومه؟!

وتتوثّق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف. يصبح نجمًا في سمائها المنسوجة من خيوط العنكبوت. ويمدّون له في حبل الأمل.

- ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف؟

- انتظر خيرًا قريبًا.

وتنشب الحرب العالميّة الثانية، يتسنّم ذروة الرجولة فينحدر نحو الكهولة، ويتلقّى من الغيب نذرًا في صورة شعيرات بيضاء لمعت في سوالفه وشاربه الذي يعتزّ به أيّما اعتزاز. وتشرئبّ الأسعار برءوسها في بطء واستمرار فيهتزّ الباقي من أمنه. على حين تنتشر مظاهر الحضارة واللهو، وتتلألأ الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور، ويتدفّق المنهل العذب يدعو الشاربينَ للورود، وتسرع زوجته إلى الكهولة والخراب.

- كان في البيت رجل واحد فأمسى فيه اثنان!

وتقول امرأته لجارة لها:

- لو تحقّقت أمنيته في الصباح لتزوّج عليّ قبل مجيء المساء، لا حقّق الله أمنيته!

ويقول له ابنه:

- لم تعد الحياة كما كانت، القروش مثل العصافير سرعان ما تطير...

ويقول له موظّف الوقف الأهليّ:

- لا يمكن مواجهة أعباء الحياة بريع بيتك، انزل عن كبريائك وحرّر عريضة بطلب شيء من الخيرات...

وبعد تردّد راقت له الفكرة. ولمّا لم يكن يحسن الكتابة فقد تولّاها عنه الرجل. وقال له برجاء:

- ربّنا أمر بالستر.

فقال له الموظّف:

- سرّك في بئر...

وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحرّيات التقليديّة. تتفقّد البيت وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة، ثمّ يقول لها بدافع من كبريائه:

- سلي يا ابنتي عن أصلي في إدارة الأوقاف.

فتقول له بعذوبة:

- أعرف كلّ شيء...

وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأوّل مرّة. سألها في دعابة:

- ألا تمنح الوزارة بدلًا من المرتّب أشياء عينيّة؟

فتساءلت في براءة:

- مثل ماذا؟

فقال ضاحكًا:

- مثلك يا ابنتي!

فودّعته ضاحكة. وصرخت زوجته:

- تحت سمعي وبصري ولا تتورّع عن المغازلة...

فقال بجدّيّة مصطنعة:

- غازلتها بالأصالة عن نفسي ونيابة عنك أيضًا...

فصاحت:

- ما يؤدّبك إلّا الفقر.

وتقرّر له مرتّب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهريًّا.

وسأل الموظّف متعضًا:

- ثلاثة جنيهات؟!

فقال الرجل:

- مناسب جدًّا بالقياس إلى أمثاله.

- لا يساوي ما بذلت من كرامتي...

- الأُسَر التي أناخ عليها الدهر أكثر ممّا تتصوّر.

على أيّ حال زار المفتّشة في إدارة التحرّيات، في الظاهر ليشكرها، وفي الحقيقة ليتملّى شبابها ونضارتها. ورجع إلى بيته وفي قلبه حلم. وأنجب الحلم أحلامًا أخرى عن فيلّا وسيّارة ومائدة. أمّا الواقع فلم يتمخّض إلّا عن غلاء يرتفع، ومغريات تنتشر، وشيب يتفشّى، وضغط دم - ذلك الداء المتوارث في أسرته - يستقرّ. وتمزّقت روابط الزوجيّة حتّى حلّ الكره محلّ الرحمة. تقول له:

- لا أرى في وجهك إلّا العبوس.

فيقول:

- حبّ الحياة ليس جريمة.

- اشكر ربّك على الابن والصحّة.

- ابني يتأوّه وصحّتي تلفت.

- إنّي رفيقة عمرك.

- هٰذه هي المصيبة.
- تأخذني برتقالة وتعرض عنّي قشرة.
- بل قشرة من أوّل يوم.

ورقّ الابن لأمّه فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت ولٰكنّها قالت له معتذرة:

- سيبحث عن خادمة ولا أستبعد أن يتزوّجها.

وتتقدّم الأيّام فيكثر كلّ شيء سيّئ ويقلّ كلّ شيء حسن. ويتلقّى الرجل أنباء قيام ثورة يوليو وهو يعاني من أوجاعه فلا يثير اهتمامه أيّ حدث عامّ.

ويتلقّى بعد ذٰلك أنباء حلّ الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريح الفراش بصفة نهائيّة. ويُسرِّح بصره في الغيب طويلًا، طويلًا، طويلًا، ثمّ يتمتم:

- حكمتك يا ربّ...

عندما يأتي المساء

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة في عزّ أيّام الربيع. توفّيت الستّ الكبيرة عن ثمانين عامًا مخلّفة لابنتها فيلّا بالهرم وبضعة آلاف من الأموال السائلة. وكانت الابنة الستّينيّة تقضي مع زوجها السبعينيّ الفترة المتبقّية من العمر يظلّلها الوفاق والهدوء واليسر. وحرّكت الثروة الطارئة الطموح إلى حياة جديدة، فقالت الزوجة:

- نستطيع الآن أن نعيش في فيلّا جميلة بالهرم، وأن نغادر هٰذا الشارع الكئيب.

فتجلّت في عينَي الزوج نظرة فاترة وغمغم:

- الهرم!

ثمّ واصل:

- شقّتنا مريحة، عشرة عمر طويل، بدأ بشهر العسل، وجميع المعارف والأحباب حولنا...

فقالت بازدراء:

- لو تكن جنّة لحقّ لنا أن نملّها...

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجدّ وراحت تفكّر بصوت مرتفع:

- الفيلّا تحتاج لتجديدات بسيطة، وشيء من الديكورات، وبها أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثنا مثل حجرة السفرة والمطبخ، ويلزمنا شيء من التنجيد أيضًا، النقود متوفّرة والحمد لله، وممّا يزيد من مزاياها أنّها تقع في شارع داخليّ مسفلت ومشجّر وهادئ بالقياس إلى الشارع العموميّ...

واعترت الزوج كآبة فراح يفكّر بصوت مرتفع أيضًا:

- بين الجناين موقع عتيق حقًّا ولٰكنّ العمارة جديدة نسبيًّا، شُيّدت منذ خمسين عامًا ومؤكّد أنّها تستطيع أن تحافظ على صلاحيّتها خمسين عامًا جديدة، الشقّة لا ينقصها شيء، شمسها متوفّرة وهواؤها طيّب، وأهمّ من ذٰلك كلّه يوجد حولنا جيران العمر، أنا رجل عجوز، فراغي طويل، ولولا بقيّة من أصدقاء ما تحمّلت الحياة، بنتي الوحيدة وزوجها في السعوديّة، والأقارب لا يتلاقون في هٰذا الزمان إلّا في الجنازات العامّة!

وحدجته بنظرة أطلّ منها العناد والتجهّم وتساءلت:

- أنضحّي بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصيّ؟!

اشتعلت أعصابه سريعة الاشتعال وقال بمرارة:

- عنادك يفترس إنسانيّتك، قدّري حال رجل لم يعد له حظّ من الدنيا إلّا نفر من الأصدقاء...

- حسبت أنّ لك زوجة أيضًا!

- طبعًا... طبعًا... ولٰكنّ الرجل لا يستغني عن أصدقاء العمر!

- التلفزيون فيه الكفاية ولٰكنّك مدمن سهر.

- كفّي عن العناد وفكّري بإنسانيّة.

- فكّر أنت بشيء من العقل.

في البدء كان الحبّ. في الشباب الباكر كان الزواج. هو مهندس ريّ وهي ستّ بيت وحاملة للابتدائيّة أيضًا. أنجبا ابنة وحيدة، طبيبة متزوّجة من طبيب ويعملان في السعوديّة. عبرا سنوات التعارف والتوافق وعثرات الاختلاف في الذوق والعادات بنجاح حتّى استقرّا في سكينة الشيخوخة. رغم ذٰلك قال لنفسه بقلق «إنّها عنيدة وإذا تسلّطت عليها فكرة انقلبت حجرًا صلدًا لا سبيل إلى التفاهم معه» وقالت

لنفسها «إنّه طفل مدلّل عصبيّ ويبيع بالدنيا مزاجه». وشرعت في تجديد الفيلّا فانقبض صدره وغشيته سحب المخاوف. وقال لها:

- أجّريها مفروشة تدرّ عليك الشيء الفلانيّ.

ولٰكنّها قالت بإصرار:

- ما حاجتنا إلى النقود في هٰذه السنّ؟ ولا ابنتنا في حاجة إليها، ولٰكن من حقّنا أن ننعم بشيء من الراحة والجمال وحسن الختام.

- وأصحابي؟! تذكّري أزمة المواصلات، الانتقال معناه العزلة، وفي العزلة قضاء عليّ!

- ربّنا يكمّلك بالعقل وسداد الرأي.

لم يعشق هواية ممّا تثري الفراغ. تُرك لتيّار الزمن بلا طوق نجاة. يستيقظ من نومه حوالى الظهر وينتظر المساء. تديّنه صادق وبسيط ولا يشغل له بالًا. يهرع مع الليل إلى منظرة صديق على المعاش كان معلّم لغة عربيّة، يملك بيتًا صغيرًا ذا حديقة صغيرة، ويوافيهما ضابط جيش عجوز على المعاش أيضًا وصيدليّ قبطيّ اعتزل العمل. يتسامرون، يلعبون النرد، يحتسون الشاي أو المرطّبات تبعًا للفصول، يدخّنون، ثمّ يفترقون عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة في بين الجناين. في الزمان الأوّل كانت البيوت تطلّ على الحقول والحدائق وتعبق بشذا الحنّاء وتغوص في الهدوء. اليوم اكتظّت بالبيوت والسكّان، والخرائب الموقوفة التي انقلبت أسواقًا لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة، وازدحم الطريق بالصبية وصار ناديًا أهليًّا للعب الكرة، ولٰكنّ القلب ما زال يجد سلواه في المناجاة والسمر. ماذا يتبقّى له في الحياة إذا حُرم من هٰذه السلوى الباقية؟! وقال لها أخيرًا بنبرة حاسمة:

- لن أغادر هٰذه الشقّة إلّا إلى القبر.

فقالت بحنق:

- إذا تمّ إعداد الفيلّا فلن أبقى هنا لحظة واحدة.

فارتفع صوته وهو يقول:

- أنت امرأة عنيدة بلا قلب.

فهتفت:

- أنت أنانيّ لا يهمّك إلّا مزاجك.

- لي عليك حقّ الطاعة.

- الطاعة من حقّ العاقل.

- قلّة أدب.

- أنا بنت ناس علّموا الناس الأدب.

- لي الجنّة على احتمال عشرتك.

- الحقّ أنّي أنا الشهيدة، لولا صبري لعشت طيلة عمرك وحيدًا...

- أنا؟!

- نعم... آه لو أفرغ قلبي ما فيه!

- جنس جاحد حقيقة.

- أجري على يد الله وحده، هل نسيت افتضاح سلوكك عام ١٩٢٦؟!

- ١٩٢٦! يا ألطاف الله! إنّي لا أتذكّر ما يقع بالأمس...

- ولٰكنّي لا أنسى، ولا أنسى فجورك وأنت مفتّش ريّ بكفر الشيخ في ١٩٣٠!

- حقًّا إنّك ذاكرة مذهلة لحفظ أنباء السوء وتنسين ما عدا ذٰلك، نسيت على سبيل المثال أنّني ضحّيت بأجمل عروس من أجلك...

- بل سال لعابك دائمًا طمعًا في مساعدات بابا الله يرحمه... أنانيّ ونفعيّ!

- قذارة وقلّة أدب.

- اخرس!

وانتفض واقفًا ووجهه يموج بالغضب فانتصب عنقها في تحدّ رغم توقّعها عدوانًا قياسًا على مرّات متباعدة لا تستطيع أن تنساها أبدًا. غير أنّه كظم غيظه وقال وهو يغادر الحجرة:

- ليكن في علمك أنّ مغادرة الشقّة تعني الطلاق.

فصرخت:

- إنّي أرحّب به وإن جاء متأخّرًا.

وعلى أثر رسالتين تلقّتهما من الأمّ والأب حضرت الابنة من السعوديّة دون إبطاء. انفردت بالأمّ محاولة إقناعها ففشلت. ولم تكن أكثر توفيقًا مع أبيها. وجمعت بينهما وقالت:

- من المبكي والمضحك معًا أن يجري للطلاق ذكر بينكما في هٰذه المرحلة من العمر، فليغفر الله لكما هٰذه السقطة اللسانيّة الشنيعة...

ونقّلت بينهما عينًا حزينة وواصلت:

ـ انتقلي يا ماما إلى الفيلّا وابقَ يا بابا في الشقّة، وأجّلا قراركما الأخير للزمن والوحدة. . .

وشملهم صمت ثقيل خفّفته بدعابات متكلّفة صدرت عن نفس مليئة بالشجن ثمّ ودّعتهما راجعة إلى مقرّ عملها وقد اقتنع كلّ طرف بأنّها منحازة إليه في أعماقها وإن أبت أن تعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر.

ووقع الانفصال ممزّقًا لأوّل مرّة وحدة حياة مشتركة طويلة العمر. انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثريّة مترعة بالوحشة. ولبث الزوج في شقّة مقفرة عارية الحجرات إلّا حجرة نومه المكوّنة من فراش مفرد وصوان قديم وكليم صغير، واقتصر المطبخ على الأوعية والأواني الضروريّة وموقد بوتاجاز صغير ومائدة ذات مقعد وحيد وفريجدير لحفظ الطعام. وتمّ الاتّفاق على أن تجهّز له طعامه الأسبوعيّ طاهية الأسرة في يوم معيّن على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأواني. وكان ينام نهاره كلّه هربًا من وحدته وينتظر على لهف ميعاد السهرة التي يمارس فيها حياته الحقيقيّة. وحاول الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلًّا آخر ولٰكنّه قال:

ـ لا تشغلوا بالكم يا جماعة، المهمّ أن تسعفني الصحّة حتّى النهاية. . .

واعتبرت الزوجة أنّ كلّ يوم يفوت من غير أن يقرّ بخطئه إهانة متجدّدة لكرامتها وجرحًا يغوص في كبريائها. ويشتدّ حقدها وغضبها. وتعالج الوقت الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشريحه بلا رحمة وفضح ما خفي من مساوئه. ويبلغه ذٰلك فيردّ اللطمة بعشر أمثالها حتّى تجسّدت حياتها المشتركة في صورة سوداء تثير الفزع. وجرى الزمن والخصام يزداد سوءًا وفظاعة. وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على غير عادة، ولٰكنّه جاء متأخّرًا عن موعده وهم يتجاذبون القلق والظنون. وقال كالمعتذر:

ـ شعرت بوعكة ممّا يطرأ في تغيّر الفصول.

وكانت الوحدة التي يعيش مهملًا في طيّاتها تحزنهم فأقبلوا يناقشونها بجدّيّة:

ـ لا تأمن للحاضر وعليك أن تفكّر في المستقبل.

فقال بهدوء وهو يداري ضيقه:

ـ فعلت ذٰلك كثيرًا!

ـ وكيف انتهيت؟

ـ قرّرت أن أكفّ عن التفكير. . .

وضحك ثمّ واصل:

ـ أعرف ما يقلقكم، ماذا أفعل لو أقعدني المرض أو حضرني الموت! سأكون سعيدًا إذا قُدّر لي موت خاطف، وإن تكن الأخرى فما جدوى التفكير إلّا مكابدة الهمّ قبل وقوعه. . .

ـ ولٰكن لكلّ مشكلة حلّ.

فهتف:

ـ فات أوان الوفاق، ثمّ إنّها عنيدة، والاستسلام يعني بالنسبة لي انتحارًا بطيئًا. . .

وضحك عاليًا وقال:

ـ إذا حمّ القضاء وجدني الموت وحيدًا لا مفرّ، وما عليكم إذا تخلّفتُ ليلة ولم يُفتح بابي إلّا أن تتّخذوا الإجراءات المألوفة، وآسف مقدّمًا على إزعاجكم. . .

تحت السّمع والبصر

حقًّا أنّ الشارعٰ خالٍ أو شبه خالٍ فيما يبدو ولٰكن لا يخلو شارع من آدميّين. إنّه شارع جانبيّ يوصل بين طريقين عموميّين. وهو سكنيّ لا توجد به إلّا دكّان كوّاء. مع هبوط المساء من فوق رءوس الأشجار على الجانبين أغلقه صاحبه وذهب. سبحت أضواء مصباحين في أوّل الطريق وآخره في العتمة المتزايدة فأضفت على الجوّ لونًا غامضًا بين النور والظلام. واستقرّت سيّارتان متباعدتان في موقفيهما بحذاء الطوار مسربلتين بغطاءين من المشمّع الرماديّ، وانتظرت بقيّة الفراغات السيّارات القادمة. وخيّم على الشارع هدوء خامل جدير بمعبر نادر الروّاد وأضاءت نوافذ المساكن بالأنوار وهي مفتوحة لتلقّي نسائم الربيع. . . من أجل ذٰلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجيّة من إحدى النوافذ فبلغت النوافذ القريبة وتمادت في ذيوعها حتّى كدّرت هدوء الشارع. أنتَ وحش. أنتِ مجنونة. لن أبقى في هٰذا البيت ساعة أخرى. مجنونة، في يدي

الدليل، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقليّة. مصير أمّك وأخواتك. تحطّمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيهًا! سأشعل النار في هٰذا البيت العفن. ويعلو الصراخ مختلطًا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال. ومرّ عابر بالشارع فتوقّف قليلًا تحت النافذة ثمّ ضحك طويلًا وواصل سيره. وتجلّت أشباح آدميّين في النوافذ القريبة. ولّما استمرّت المعركة نوقشت على نطاق واسع. خناقة حامية. ليست الأولى. لكنّها الأعنف. ألا يمكن عمل شيء؟ مثل ماذا؟ أنتدخّل مثلًا؟ لكنّنا لا نعرفهم، نتقابل أحيانًا في مدخل العمارة فلا نتبادل تحيّة. الواجب. قد يسوءهم ذٰلك. لن تنتهي الليلة على خير. ربّنا موجود. الرجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا يُنسى. لا تبالغي هي أيضًا لها حركات عصبيّة مريبة. هو السبب هٰذا واضح. أو العكس تمامًا وهو ما أعتقد. لكلّ رجل شيطانه. ولكلّ امرأة. الرجال ظالمون بالفطرة. ما هم إلّا ضحايا. ضحايا؟! الله شهيد. معركة غير متكافئة وسيقع أذى لا شكّ فيه. حطّمتْ في غضبها تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيهًا. من عذابها. أو جنونها. مَن أدراك أنتَ؟ أهٰذه حنجرة امرأة عاقلة؟! أفقدها وعيها. المعركة تشتدّ ولا أحد يبالي بالأطفال. أمّه وأخواته وراء ذٰلك كلّه. لا، المسألة أخطر من ذٰلك، فتّشي عن الميزانيّة. يُرى كثيرًا وهو يشتري الخمور. هي أيضًا متبرّجة أكثر من اللازم. ألا ترى أنّ المعركة لا تقف عند حدّ؟ أجل اشتدّ النزاع وارتفعت الأصوات أكثر وتوكّد أنّ الليلة لن تمرّ بسلام. اترك ذراعي يا مجرم. مجنونة لا تحسب حسابًا للفضيحة. دعني أطلب النجدة. إذن أطلب مستشفى الأمراض العقليّة. تضربني! ستدفع ثمن اللطمة غاليًا. وينفجر صوات مخيف ثمّ ينكتم الصوت تحت ضغط راحة يد فيما بدا. ولأوّل مرّة تجيء فترة سكون عدا عويل الأطفال وتمتدّ دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع. شبح المرأة يغادر باب العمارة مهرولًا نحو الطوار الآخر. تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد. هربت من البيت. لعلّه الحلّ الوحيد. بملابس البيت وغالبًا لا تملك مليّمًا. ترى أين يقيم أهلها؟ هل نتركها في الطريق؟ لو آويناها لوجدنا أنفسنا طرفًا في المعركة. كيف تتصرّف المسكينة؟ تستقلّ تاكسي وهناك ستجد من يؤدّي عنها الأجرة. لم يتحرّك أحد لنجدتها. مرّة رجل تدخّل بحسن نيّة فاتّهمه الزوج ووقع في مصيبة. يا لها من دنيا مخيفة! ما باليد حيلة. وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع اندفع شبح الزوج من باب العمارة فاشتعل الاهتمام لأقصى حدّ. جرى نحو المرأة حتّى أمسك بها. تراءت وهي تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدّة. صرخت مستغيثة بالناس فاشتدّ في جذبها، وبلغ الصراع أعنف أحواله. ويمرّ عابر جديد للشارع فيقف على مبعدة ويهتف:

ـ كفى هٰذا لا يليق.

فصاح به الزوج:

ـ ابعد وإلّا حطّمت رأسك.

يبتعد الرجل خطوات، يتردّد قليلًا ثمّ يمضي في طريقه.

وتنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء:

ـ تعضّينني يا كلبة... سأقتلك.

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأجّجة بالرغبة في الانتقام فتقع المرأة متلوّية صارخة. ولم يقنع الرجل بذٰلك فما زال ألمه الحادّ يستفزّه إلى المزيد فعدا نحو العمارة صائحًا:

ـ سأذبحك عليك اللعنة، وعلى الدنيا ألف لعنة.

وسرى الرعب في المطلّين من النوافذ. ركلها ركلة قاتلة. ولٰكنّه جنّ وسيرجع بسكّين يجهز بها عليها. لا، مجرّد كلام. نطلب النجدة. سنصبح أسرى إجراءات معقّدة حتّى يصدر الحكم. لا بدّ من طلب النجدة. سيصدق علينا المثل القائل خيرًا تفعل شرًّا تلقى. هل نتركها ملقاة حتّى تُذبح؟ لن يحدث شيء، هي عضّته وهو ركلها وانتهى الأمر. نذهب إليها فقد تكون في حاجة إلى إسعاف. ليس الآن فقد يرجع المجنون! وأصرّ رجل في العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة. وطلبها بالفعل وحثّها على الإسراع وسُئل عن اسمه ورقم تليفونه، وهمس لزوجه بذٰلك فحذّرته العواقب فأغلق السكّة. أمّا الزوجة فمضت تزحف على أربع وتئنّ وتستغيث وقد بُحّ صوتها.

وهـرع نحوهـا عابـر جديـد فانحنى فـوقهـا وحـاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عمّا حلّ بها. وعند ذاك ظهر الزوج مرّة أخرى وانقضّ نحو المرأة رافعًـا يده بالسكّين. رآه الرجل الذي خفّ لمساعدة الزوجة ففزع من منظره وفزع أكثر لمّا رأى السكّين في يده. تراجع مهرولًا وهو يهتف:

ـ اعقل... ستلقي بنفسك إلى الهلاك.

ولٰكنّ الجنون كان قد تسلّط تمامًا على وعي الزوج وأصدر قراره بالخراب الشامل. هوت يده بالسكّين في الرقبة فغاصت فيها حتّى مقبضها منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدميّة، مصحوبة بحركة عنيفة نهائيّة لا أمل بعدها. ورغم أنّه كان يلهث إلّا أنّه وقف في غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقيًا بكلّ شيء وراء ظهره. صوّتت امرأة في النافـذة. سقطت أخرى مغمًى عليها. اشتدّ توتّر الأعصاب. لا بدّ من الاتّصـال بالنجـدة. ما الفـائدة؟ ستجيء عـاجلًا أو آجلًا. لعلّه ما زال يوجد أمل في إنقاذها. هيهات! إنّهم يحقّقون مع الشهود كما لو كانوا متّهمينَ. وربّما وجدت نفسك متورّطًا في خطأ لا يفطن إليه إلّا رجال القانون. مهما يكن من أمر فعلينا أن نعترف بأنّ موقفنا شاذّ وأنّه لا يصـدَّق. عندي أمثلة بـالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم في مثل هٰذا الأمر. الحقّ أنّنا أخطأنا ولا عذر لنا. ما جدوى الكلام، ضاعت الستّ. وضاع الرجل. وضاع الأطفال. وربّما لم نُعْفَ بعد ذٰلك كلّه من الاستجواب. وقد حصل فتحقّقت مخاوفهم. وأدلى كلّ بشهـادتـه منتحـلًا لنفسه شتّى المعاذير، فمن كان يظنّ أنّ خلافًا زوجيًـا يفضي إلى تلك النهاية؟ ومن يجرؤ على التعـرّض لقاتـل تلبّسته حال جنونيّة؟ وكلّهم أنكر واقعة الاتّصال بـالنجدة، وأكثر من واحد قال إنّه القدر وإنّ الحذر لا ينجّي من القدر.

ويحكي الضابط الحادثة في مجالسه ويقول بمرارة:

ـ كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل ولٰكنّ ذٰلك ما حدث دون زيادة!

آخِرُ اللّيْـل

غـادر الجحيم عنـد منتصف الليـل. جميـع أنـوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر في باطنه، تنفجر في نافورة من الأضواء المتضاربة، وأعلى العمائر يتراقص. لا ملمح هداية يستدلّ به في خطّ سيره، ولا علامة يسترشد بها، فرّ الجميـع وتلاشـوا. السيّارات تقلّ بعض الشيء، الآدميّون لا ينتهون. يترك نفسه لقدميه، كما اعتاد أن يعتمد عليهما في الملمّات، ومَن تقده قدماه فلا يضلّ. ثمّة قصّة عن حمار مرموق ولٰكن مـا هي؟ ها هـو رَجُل قـادم من الناحيـة الأخرى، سيرتطم به إذا سار في خطّ مستقيم. لٰكنّ القادم ينتبه إليه، ينحرف، لا شـبرًا أو شبرين، ولٰكن إلى وسط الشارع كأنّما يهرب. الجبان. تضاعف شعوره بقوّتـه الكامنة ودار رأسه تيهًا. ولم يعد يقلق لنسيان قصّـة الحمار المرموق. واصل سيره يخوض الليـل والأنوار، يعرض عن أبواب المحالّ المغلقة، ويتجاهل المـارّة. ووجد نفسه أمام مطعم «الرائد» فانطلق داخله حتّى وقف أمام طاولة صاحبه الذي رمقه بنظرة حذرة:

ـ الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها، أنا قادم إليك من آخر الدنيا.

فهزّ الرجل رأسه متعجّبًا:

ـ لن أوصيك فلست في حاجة إلى توصية، وأنت العليم بالزبائن، وعارف طلبي، تشكيلة محـترمة من الكبـاب والكفتـة والـطرب مـع كـافّـة السلطات والمخلّلات، سخن العيش، ولا تنسَ الحلوى، هـل يطول الانتظار؟

فقال المعلّم:

ـ بل نرسلها إلى البيت كالعادة.

ـ تشكر.

ودسّ يده في جيبه ولٰكنّ الآخر عاجله قائلًا:

ـ سنرسل الفاتورة مع الطعام.

فرفع يده تحيّة ثمّ ذهب. رجع إلى خوض الليـل والأنوار وتجاهل المارّة. وعاد يحاول تذكّر قصّة الحمار المرموق. حتّى وجد نفسه أمام محلّ «الكبير» الحلوانيّ

المعروف، فاندفع حتّى وقف أمام صاحبه:

ـ الدنيا صغيرة رغم ما يُقال عنها.

فقال الرجل باسمًا:

ـ وأنت قادم من آخر الدنيا.

ـ عمرك أطول من عمري.

ـ أعرف المطلوب، تشكيلة من البسبوسة والكنافة والبقلاوة بأنواعها المختلفة.

ـ كبير ابن كبير.

ـ وستسبقك إلى البيت مع الفاتورة.

فرفع يديه شاكرًا ومضى إلى العالَم الآخذ في النعاس. واقتحمته ذكرى عزيزة جدًّا. ذكرى ذٰلك الرجل الذي صاحَبَه يومًا مثل ظلّه. شدّ ما يستحقّ الرثاء بحكايته الغريبة. وخليق به أن يقول له شدّ حيلك واضرب الدنيا بالمركوب فهي دنيا لا تستأهل إلّا ضرب النعال. هو ثالث ثلاثة أشقّاء وأصغرهم. نعم أصغرهم يا عزيزي فاشترك الآخران في تدليلك فترة من الزمن ولو على سبيل المجاراة ومداراة الغيرة المتأصّلة. وشاء الحظّ وهو كلّ شيء في الدنيا أن يوفَّقا في المدارس فيصير الأكبر وكيل وزارة الماليّة والأوسط كبير مفتّشي الريّ، على حين أبى الحظّ أن تحظى بأيّ قدر من التوفيق، فحتّى الخطّ لم تفكّه. ولكن ما قيمة ذٰلك لشخص قُدّر له أن يملك بالوراثة مائة فدّان؟! وملكتها يا عزيزي، ورحت تستمتع بها، وتغدق في الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم، فانهالت عليك الاتّهامات لا أوّل لها ولا آخر، ورُميت فيما رُميت به بالسفه، واستصدروا عليك حكمًا بالحجر. سرقوك الشياطين، وقتّروا عليك الرزق حتّى انسدّت في وجهك الطرق، ولم يكن عجيبًا بعد ذٰلك أن تقسم لتجلبنّ عليهم الفضيحة والعار.

ووجد نفسه أمام حانة إيديال.

هشّ وبشّ واقتحم ستارها المسدل ذا الخيوط الخرزيّة البيضاء. رأى الفرسان في الركن الأيمن حول الكئوس. وجموا لحظة وهم ينظرون، فقال ليُذهب عنهم الروعة:

ـ لا ترتاعوا.. أخوكم من طين مثلكم!

فغلبهم الضحك وقال أحدهم:

ـ نقدّم لك كأسًا؟

فقال باستعلاء:

ـ لا أسمح لقذارة بالدخول في معدتي، ولٰكنّي سأهنّئك قريبًا بوكالة الوزارة!

ـ ربّنا يسمع منك!

وسأله آخر:

ـ أصحيح ما يقال؟

ـ وما هو؟

ـ أنّه عُرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها؟

فقال بإباء:

ـ لست ممّن يبيعون أنفسهم عند أوّل طلب!

ـ حتمًا ستقبلها في ظروف أفضل؟

ـ وعند ذاك تهنأ البلد قبل أن أهنأ أنا.

ـ رَجُل ولا كلّ الرجال...

ـ أنتم مدعوّون عندي لقضاء سهرة رأس السنة.

ـ وستكون ليلة ولا كلّ الليالي.

وغادر الحانة إلى عالم التيه. ومرّة أخرى ذكر الرجل الذي صاحبه يومًا مثل ظلّه. من الجحود ألّا يزوره ليعزّيه بكلمتين. إنّ موقفك يوم عزمت على أن تلطّخ غرورهم بالعار موقف لا يُنسى. خلعت البدلة يا بطل واستبدلت بها جلبابًا أزرق. واقتنيت عربة يد وسرحت ببطّيخ في مجالهم الحيويّ وعلى مرأى من الذاهب والجائي. وارتعدت منهم المفاصل وساقوا عليك الأهل والأصدقاء ولٰكنّك صمدت صمود الأبطال. واضطرّوا في النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين باللامبالاة فتماديت في التحدّي، وقضيت لياليك في غرز عرب المحمّدي. يا فارس الفرسان وضارب الدنيا بنعلك. وحتّى يتاح لي لقاؤك تقبّل على البعد إعجابي وتقديري. أمّا أنت يا نوسة، يا سليلة الشرف، وكنز الجمال والفتنة فحسبنا تعذيبًا لأنفسنا. الدلال له حدّ أو هٰذا ما ينبغي له. اخترتك من بين آلاف من كريمات الأسر العريقة. ولم أخترك للأسباب التي يجري وراءها الجشعون، لا لأصلك الطيّب، أو أخلاقك الكريمة، أو تعليمك الراقي، ولٰكنّي اخترتك من أجل الحقيقة السافرة، عينيك اللوزيّتين السوداوين بكحلهما الربّانيّ، وصدرك الملهم، وخلفيّتك التي تجلّ

عن الوصف. ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقة واحدة يا زينة نساء الأرض. ضاع منّا وقت طويل بلا طائل، وضياعه كفر بالنعمة، إنّي قادم يا نوسة، فارجعي إلى قسمتك ونصيبك فإنّ جميع طلباتك مستجابة. سرّ المأساة كلّها في كلمة أنّني وُلدت في عصر يتشرّد فيه الملوك في بلاد الغربة، كالمتسوّلين بعد أن خلّفوا عروشهم وراءهم بيد السوقة، ثمّ إنّهم بعد ذٰلك لا يأمنون الغدر ولا ينجون من المؤامرات. بذٰلك تنبّأ قارئ الكفّ ولٰكنّني لم آخذه مأخذ الجدّ في وقته، وتركت الزمن يجري كيف شاء حتّى استحكم الحصار.

وقادته قدماه في تجواله إلى البنك الأهليّ الغارق في نومه مسدل الأجفان. لعلّه من الحكمة أن يسحب من حسابه بعض المال ليواجه نفقاته الكثيرة ولٰكنّه لا يستطيع أن ينتظر حتّى الصباح. وخيّل إليه أنّه أصبح على حال تمكّنه من الاهتداء إلى منزله العامر، وأنّ هيئة الأشياء آخذة في التغيّر رويدًا رويدًا، وأنّ رأسه يتغيّر أيضًا. حتّى المشي لم يعد مستساغًا إلى غير ما نهاية وأنّ جسمه يطالب بحظّه من الراحة. ألعن الساعات ساعة تعرف فيها مَن تكون وكم يتبقّى من الزمن، وتعرف أيضًا أنّ الوقت صيف وأنّ الجوّ عدوّ الإنسان، وأنّه يرغم على التسليم دون شرط. ها هو النيل يجري في حال من الكآبة والاستسلام بعد أن كُبّل بالأغلال وأذعن لمشيئة البشر. وتحت الكوبري توجد أريكة من الصوان خالية لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد. تحسّسها براحته، ومضى إلى شاطئ النيل فعبر الحاجز الحجريّ ثمّ انحدر نحو الماء. خلع جلبابه مبهم اللون وعلّقه بفرع شجرة فبدا عاريًا كما ولدته أمّه. وراح يغوص في الماء حتّى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق في تلك الساعة من الليل. وغنّى بصوت كالخوار «البحر بيضحك ليه»، وغسل وجهه ورأسه الأصلع ثمّ صعد راجعًا إلى الطوار آخذًا جلبابه بيده. وانتظر حتّى جفّ جلده وارتدى الجلباب، واستلقى فوق الأريكة. وما لبث أن تلاشى في الغيب فتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع...

القَتْل وَالضّحك

ما أكثر الراحلين! أدهش وأتحيّر كلّما طافت أشباحهم بذاكرتي. أسباب متنوّعة، متضاربة، وأحيانًا متناقضة، ولٰكنّها تفضي إلى نهاية واحدة. ويطاردني حلم ثابت. يلحّ عليّ في أوقات الفراغ وما أطولها. حلم خليق بصاحب ثأر تخلّى عن إنجاز مهمّته. وهو لا يفارقني حتّى في ذٰلك البيت الخلويّ الذي صادفته ذات يوم ناشدًا النسيان ساعة أو بعض ساعة. أجلس إلى جانب المعلّمة المتربّعة فوق كنبة تركيّة مثل قاعدة تمثال ـ ضمن زوار ـ وأتفحّص بعناية المكان ومعروضاته. أتصفّح الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء، البدينة والملفوفة والنحيلة، وهنّ جميعًا على أتمّ الاستعداد. على مألوف التقاليد بتقديم الشراب فتهشّ المعلّمة وتثني على الأصل الطيّب قائلة إنّ جلّ زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة. والشهادة لله أنّ المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متألّقة ورائحة البخور مخدّرة مقدّسة، أمّا السيّدة اللحيمة فتباهي قبل كلّ شيء بالأمن والأمان. وأظلّني الحلم القديم بجناح يقطر دمًا، وبهمسات داعية للخير والفلاح. ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها فقلت للمعلّمة «الحمراء»، أي ذات الفستان الأحمر. سرعان ما صرنا وحدنا في الحجرة الصغيرة الكاملة فراحت تتجرّد من فستانها وقميصها وتستلقي في تسليم وسلامة. اقتربت من الفراش بكامل ملابسي يقودني الحلم القديم. أعابث الخدّ والعنق وأغوص في اللحظة الحاسمة. وبسرعة أطوّق العنق الرقيق الطويل بقبضتي وأشدّ عليه بكلّ ما أوتيت من قوّة. غير متأثّر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها في الهواء واستغاثة عينيها الجاحظتين اليائسة الملهوفة على النجاة. ولم أفكّ قبضتي حتّى سكن كلّ شيء سكون الموت. وأقف وأنظر وقلبي يلهث في دقّات متتابعة. وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك ويرسم على صفحته النائية آي البعد واللامبالاة. وأفكّر في النجاة مؤجّلًا ما عداه. دون عجلة كيلا أثير التساؤل. ونظرت إلى

نفسي في مرآة صغيرة في موضع عاكس للفراش والجثّة. وأجهضت قشعريرة اقتحمتني بقوّة غير حميدة. وقلت لنفسي معزّيًا ومشجّعًا «أدّيت ما كان عليّ أن أؤدّيه». ها أنا أمضي نحو الباب. أفتحه، أتركه مواربًا زيادة في إبعاد الشبهات، وأسير متمهّلًا نحو الباب الخارجيّ متجاهلًا المكان والحاضرين. وعندما أنتهي إلى الطريق النائم في ليل الصيف أحثّ الخطى مدفوعًا برغبة طارئة في الهرب نحو الشارع الرئيسيّ. وأبلغ بنسيون ليدا وسط المدينة في الهزيع الأخير من الليل. أتناول حبّة منوّم لا أتعامل معه عادة إلّا عند الشدائد. صحوت من نومي قبيل الظهر مشتعل الرأس بالكسل والذكريات. طلبت الإفطار ولكنّي حسوت الشاي وحده وأنا أقول لنفسي أنت من الآن فصاعدًا قاتل جاري البحث عنه. ترى هل أحلّ مشكلتي بقوّة الإرادة أو أنّني أسير من سيّئ إلى أسوأ؟ وماذا عن حياتي الجديدة بالتأمّل في هٰذه الساعة الفاصلة الدامية؟ فَرْدٌ أُعِدّ للخيال ولكنّه يتعيّش من السمسرة، معارفه بلا حصر ولا صديق له، يمقت فكرة الزواج والإنجاب. وذهبت إلى البلفدير بالهرم لأنفرد بنفسي وأفكّر. جوّ لطيف في أواخر الربيع والجلوس يحلو في حديقة النخيل وأصص القرنفل. غالبًا لم يعرفني أحد من الزبائن المعدودين. هناك لا يُسأل أحد عن هويّته ولكن حتمًا ستحصر التهمة في جريمة يودّ الجميع أن تندثر وتختفي. أرفع قدح البيرة وأتخيّل ما حدث. المعلّمة تتساءل عمّا أخّر البنت عن الرجوع إلى الصالة. ترسل في طلبها. إمّا تفضح صرخة فزع الجريمة وإمّا يُحبَس الفزع في الصدور ويُدفَن السرّ في بئر. في الحال الأولى ينفضّ السامر في عجلة ولهوجة ويفرّ كلّ إلى حال سبيله. في الحال الثانية يتواصل العمل في أمان. وفي الحالين تفكّر المعلّمة كيف تخفي الجثّة وتحمي نفسها وعملها من قبضة القانون. الجميع الآن يعملون على طمس أيّ أثر يمكن أن يؤدّي إليّ، يتمنّون لي السلامة ضمانًا لسلامتهم وسمعتهم. أستطيع أن أهدّدهم وهم لا يستطيعون. لكن هل تنجح المعلّمة في إخفاء معالم الجريمة؟ ألا يتسرب إليها الخطر من منفذ لم يجرِ لحذرها في خاطر؟ تناولت غداءي في البلفدير مع مزيد من البيرة والنشوة. وعند هبوط العتمة مضيت في تاكسي إلى الشارع، وتفحّصت البيت وأنا أمرّ به. وجدته مسربلًا في هدوئه ورأيت النور يشعّ في نافذتين، وكأنّما يواصل تقديم خدماته اليوميّة. ولم يكدّر صفوي في الليلة التالية إلّا أنّني رأيت في نومي استغاثة الفتاة البائسة وهي تغوص في الانكسار بين قبضتيّ. ولكن ذٰلك كان أهون ما توقّعت. وتساءلت عن مستقرّها الأخير، أيكون قعر النيل أم مفازة في الصحراء، أم مدفنًا في باطن حديقة البيت الخلفيّة؟ سيشترك الجميع في جريمة الإخفاء بدافع الرغبة في النجاة والدفاع عن لقمة العيش، وأفظع من ذٰلك ينسى في وقت أقصر من ذٰلك. وأتصفّح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدّر الطمأنينة. رغم ذٰلك لم يغب عن وجداني ما حصل دقيقة واحدة. إنّه حيّ بكلّ تفاصيله هناك. وهو يزعجني أيّما إزعاج. ولذٰلك تخطر لي أفكار جنونيّة لا بهدف التنفيذ ولكن حبًّا في استعراضها ليس إلّا، كأن أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة. ولكنّي وجدت وسيلة للترويح عن النفس مأمونة العواقب في مقهى «العائلات» حيث تجمعني الأماسي ببعض الصحاب. رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال واستطلعت تصوّراتهم عمّا يمكن أن يحدث. أجمعوا على أنّ مصلحة الجميع تقتضي إخفاء آثارها، غير أنّ أحدهم قال:

- ويُعثر على الجثّة ولو بعد حين، وربّما بمصادفة لا تجري على بال، ثمّ يُنتزع القاتل من مكمنه الآمن. . .

ضايقني ذٰلك بطبيعة الحال. وخفت أن يتلاشى الأمل - بارتكاب الجريمة - في حياة أشدّ معاناة. وما الحيلة وكلّما نظر نحوي رجل توهّمت أنّه كان هنالك تلك الليلة؟ أو كلّما سمعت وقع قدم ورائي تصوّرت أنّ أحدهم يتبعني؟! وضاعف صاحبي من كربي عندما قال لي:

- أتذكر جريمتك الخياليّة؟. . . حكيتها لصديق مخرج تلفزيونيّ فأثارت خياله وقرّر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم.

ضايقني ذٰلك، وآيسني بصفة قاطعة من النسيان.

وضايقني أكثر أنْ جاء المخرج مع صاحبي ذات مساء للمناقشة. قال:

- أنت صاحب الفكرة وتستحقّ مكافأة رمزيّة، هل تستطيع أن تصيغها في قصّة؟

فحرّكت رأسي نفيًا فقال:

- طبعًا هي بصورتها الراهنة مستحيلة.

- مستحيلة؟!

- لا بدّ من باعث على الجريمة، الحبّ والخيانة مثلًا، أو يكون القاتل مهزوز العقل فيتصوّر أنّه بقتل امرأة من هٰذا النوع فهو يحارب الرذيلة مثلًا...

فندّت عن منكبي حركة استهانة فقال:

- لا جريمة بلا باعث، ولا بدّ أن ينال القاتل جزاءه أيضًا.

فقلت وأنا أداري غيظي:

- هٰذا قانون الجرائم الخياليّة، أعني الروائيّة.

- العمل يجب أن يكون معقولًا وأخلاقيًّا.

فندّت عن منكبي حركة الاستهانة فقال ضاحكًا:

- يبدو أنّك لا تصلح أن تكون مؤلّفًا.

فقلت ساخرًا:

- ولٰكنّي أصلح أن أكون قاتلًا...

فقهقه ضاحكًا، وتفرّس في وجهي بمودّة وقال:

- على كلّ حال فالفكرة تعد بقصّة جيّدة إذا اهتدينا إلى باعث مثير ومقنع واقترحنا خطّة محكمة للكشف عن الجثّة والقبض على القاتل.

فتساءلت بكآبة باطنة:

- مثل ماذا؟

- الخطّة المحكمة لا تُرتجل ولٰكنّها تُسبق بتأمّل وتفكير ومراجعة الأفلام المشابهة، غير أنّه على سبيل المثال يمكن أن نتصوّر للضحيّة عاشقًا مخلصًا يحفزه اختفاؤها للعمل، أو أن تُكتشف الجثّة بالمصادفة عن طريق بستانيّ الحديقة أو صيّاد في النيل، الفروض هنا لا حصر لها.

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء فسقطتُ في دوّامة الظنون. وغلبني ميل جامح لملاحظة الناس والأشياء. أسير متمهّلًا رغم الزحام أو أجلس قريبًا من الطريق لأتصفّح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسلع وواجهات المحالّ والمباني، أتصفّحها بعناية عالم مكلّف بوصفها وتحليلها.

ووجدتني وجهًا لوجه مع المعلّمة في بقّالة السعادة بشارع البستان. رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهزمت أمام خوف جاثم. تجاهلتني فخانها الاضطراب غير أنّه لم يلمس هزيمتها سواي. ولمّا انتهينا من التسويق وقفنا أمام الدكّان متقاربين فقالت همسًا:

- ها أنت حقيقة لا خيال.

نظرت نحوها كالمنكر فتساءلت:

- لِمَ فعلتَ فعلتك المنكرة؟

تساءلت كالداهش:

- حضرتك تكلّمينني؟

فمضت عنّي وهي تقول:

- منّك لله!

كدت أضحك، وغمرني إحساس بالأمان، بل فكّرت في تكرار التجربة في بيت جديد. غير أنّه كان إحساسًا عابرًا. وارتددت إلى الملاحظة والغوص في صميم الأشياء. وفي أوقات الفراغ أتذكّر قول المخرج «الفروض لا حصر لها». هٰذه هي الحقيقة الغائبة عن ملاحظتي، ولٰكنّها تتضارب في عقل أو أكثر ليل نهار. يوجد فاعل أصليّ هو أنا، وشركاء هم المعلّمة ومَن ساعدها على إخفاء الجريمة وتوجد الضحيّة أيضًا. لا يمكن أن تبقى هٰذه الأشلاء مبعثرة إلى الأبد. وغير محتمل أن أظلّ منفردًا بنفسي بلا نهاية. وقمت بزيارة غير متوقّعة للمخرج في مكتبه. استقبلني بابتسامة عريضة قائلًا:

- حُلّت المشكلات كلّها تقريبًا...

فأعلنت رضاي متمتمًا:

- مبارك!

- وجدنا الخطّة المحكمة، اكتُشفت الجثّة وقُبض على المعلّمة، وقرأ القاتل قصّته خبرًا في الجرائد فقرّر الانتحار، ترى ما رأيك في أفضل وسيلة للانتحار؟

فاقشعرّ بدني وتساءلت:

- ماذا تقصد؟

- نحن أمام عدّة اختيارات، ضع نفسك في مكانه فماذا كنت تختار؟

فازدردت ريقي وقلت:

ـ أخفّها ألمًا!

فقال ضاحكًا:

ـ أنت تفكّر في نفسك ولٰكنّني أفكّر في أمرين، أوّلًا أشدّهما تأثيرًا في الجمهور، وثانيًا أصلحهما من الناحية الجماليّة للكاميرا!

وقلت لنفسي: يا له من رجل سعيد!

العائش في الحقيقة

أصل الحكاية

وُلدت الرغبة في أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة، والسفينة تشقّ طريقها ضدّ التيّار الهادئ القويّ في أواخر فصل الفيضان. بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبًا إلى بانو بوليس لزيارة أختي التي استقرّ بها الزواج هناك. وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة، مدينة تطلّ من أركانها عظمة غابرة، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشيائها. مترامية بين النيل غربًا ومحراب الجبل شرقًا، متعرّية الأشجار، خالية الطرقات، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة، لا تنبض بها حياة ولا تندّ عنها حركة، يجثم فوقها الصمت وتخيّم عليها الكآبة وتلوح في قسماتها أمارات الموت. اجْتلْتُ فيها البصر فانقبض صدري، وهرعت إلى أبي حيث يسترخي على أريكة فوق المنصّة مجلّلًا بشيخوخته وسألته:

ـ ما شأن هذه المدينة يا أبي؟

فأجاب دون تأثّر:

ـ مدينة المارق، المدينة الكافرة الملعونة، يا مري مون..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات منثالة ثمّ سألت:

ـ ألا يوجد بها حيّ؟

فأجاب أبي باقتضاب:

ـ ما زالت المرأة المارقة تتنفّس في قصرها أو سجنها وهو الأصحّ، كما يوجد بعض الحرّاس بلا ريب...

فغمغمت متذكّرًا:

ـ نفرتيتي!

ترى كيف تعاني وحدتها وذكرياتها؟!. وسرعان ما استعدت ذكريات صباي في قصر أبي بسايس، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذي أطاح بأرض مصر، والإمبراطوريّة، وما سمّوه بحرب الآلهة، وفرعون الشابّ الذي مزّق التراث والتقاليد وتحدّى الكهنة والقدر. أجل تذكّرت تلك الأيّام المنسيّة، وما قيل عن دين جديد، وتمزّق الناس بين الإيمان والولاء، والجدل حول الحقائق الغامضة، والهزائم المريرة، والنصر المقترن بالحزن. ها هي مدينة العجائب مستسلمة للموت، ها هي سيّدتها سجينة تتجرّع الألم في وحدة، ها هو قلبي الشابّ يدقّ بعنف طامحًا لمعرفة كلّ شيء. وقلت لأبي:

ـ لن ترميني بحبّ الدعة بعد اليوم يا أبي، إنّ رغبة مقدّسة تغزوني مثل ريح الشمال كي أعرف الحقيقة وأسجّلها كما كنت تفعل في صدر شبابك يا أبي...

فرمقني أبي بعينيه الكليلتين وتساءل:

ـ ماذا تريد يا مري مون؟

ـ أريد أن أعرف كلّ شيء عن هذه المدينة وصاحبها، عن المأساة التي مزّقت الوطن وضيّعت الإمبراطوريّة...

فقال بجدّيّة:

ـ ولكنّك سمعت كلّ شيء في المعبد.

فقلت بحماس:

ـ قال الحكيم قاقمنا «لا تحكم في قضيّة حتّى تسمع الطرفين»!

ـ الحقيقة هنا واضحة فضلًا عن أنّ الطرف الآخر، المارق، قد مات...

فقلت بحماس متصاعد:

ـ أكثر الذين عاصروه ما زالوا أحياء يا أبي، وجميعهم أقران لك وأصدقاء. فأيّ توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لي مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتي عليها الزمن كما أتى على المدينة . . .

وواصلت إلحاحي عليه حتّى استجاب لرغبتي، بل لعلّه تحمّس لها في باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق، ولرسوخه في العلم الذي جعل مِن قَصْرنا منتدًى لرجال الدين والدنيا حتّى عُرف بين صحبه «بصاحب الأرض الطيّبة والحكمة النادرة»، كما عُرف قصره بالندوات تُروى بها الحكايات وتُردَّد الأشعار وتمتدّ بها موائد البطّ والنبيذ.

وحرّر لي رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث، مَن شارك فيها من قريب أو بعيد، مَن ذاق حلوها ثمّ مرّها، ومَن ذاق مرّها ثمّ حلوها. وقال لي:

ـ اخترت سبيلك بنفسك يا مري مون فاذهب في رعاية الآلهة، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة أمّا أنت فتريد الحقيقة، وكلٌّ على قدر همّته، ولكن احذر أن تستفزّ صاحب سلطان أو تشمت بساقط في النسيان، كُنْ كالتاريخ يفتح أذنيه لكلّ قائل ولا ينحاز لأحد ثمّ يسلّم الحقيقة ناصعة هبة للمتأمّلين . . .

وسعدت جدًّا بالخلاص من الخمول والتوجّه إلى تيّار التاريخ الذي لا تعرف له بداية ولن يتوقّف عند نهاية، ويضيف كلّ ذي شأن إلى مجراه موجة مستمدّة من حبّ الحقيقة الأبديّة . . .

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد «المارق». أصبحت العاصمة من جديد، يزيّن عرشها فرعون الشابّ توت عنخ آمون، وعاد إليها رجال السلم والحرب، واستقرّ الكهنة في معابدهم. وعمّرت القصور وغنّت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع. كلّ شيء يتألّق بالعزّة والاستقرار، وتيّار السابلة لا ينقطع. وكنت أزورها لأوّل مرّة في حياتي فبهرني جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر، واقتحمتني أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفّاتها فتبدّت لي بلدتي سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء. وقصدت في الموعد المضروب معبد آمون، فاخترقت بهو الأعمدة في إثر خادم ثمّ ملت إلى دهليز جانبيّ أوصلني إلى الحجرة التي انتظرني بها الكاهن الأكبر. رأيته يجلس في الصدر على كرسيّ من الأبنوس ذي مقبضين من الذهب، شيخًا هرمًا حليق الرأس، داخل نقبة طويلة واسعة، يلفّ أعلاه بوشاح أبيض. وضح لي أنّه رغم شيخوخته يتمتّع بحيويّة فائقة وقلب مطمئنّ. حيّا أبي ونوّه بإخلاصه قائلًا:

ـ عرّفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال.

وأثنى على مشروعي متمتمًا:

ـ لقد حطّمنا الجدران بما سجّلت من أكاذيب ولكنّ الحقيقة يجب أن تسجّل.

وحنى رأسه كالممتنّ وهو يقول:

ـ اليوم يتربّع آمون على عرشه، ويقف في سفينته المقدّسة بقدس الأقداس سيّدًا للآلهة، حاميًا لمصر، رادعًا لأعدائها، ويستردّ كهنته سيادتهم الشاملة، هو الإله الذي حرّر وادينا بيد أحمس، ومدّ حدودنا شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا بيد تحتمس الثالث، هو الإله الذي ينصر ويذلّ من يخونه.

فركعت إجلالًا حتّى أذن لي فجلست على مقعد منخفض بين يديه، واستجمعت حواسّي للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول:

ـ إنّها قصّة حزينة يا مري مون بدأت فيما يشبه الهمس البريء، وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أمّ المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث. امرأة من الشعب لا يجري في عروقها دم ملكيّ، من أسرة نوبيّة، وكانت قويّة وداهية كأنّ في رأسها أربع أعين ترى الجهات جميعًا في وقت واحد. وكانت في الظاهر تحرص على إرضائنا ومودّتنا، ولن أنسى قولها لي

يوم احتفال بعيد النيل:

- أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون!

وكان من عادتها أن تحدّق في الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتّى يحنوا الرءوس متعثّرين في ارتباكهم. ولم نتوجّس منها خيفة ولا ننسى حبّ فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون، حتّى وجدنا الملكة تهتمّ بتوسيع مجال الدراسات الدينيّة لتشمل ديانات الآلهة الأخرى وخاصّة الإله آتون. ولم يعد الأمر في ظاهره أن يكون زيادة في المعرفة بديانات نحترمها جميعًا ونقدّسها، فلم نجد ثمّة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز في طيبة موطن آمون. ولم يلطّف من مشاعرنا ما ردّدته تيي من أنّ آمون سيظلّ سيّد الآلهة إلى الأبد كما أنّ كهنته سيظلّون على رأس كهنة مصر بلا استثناء. وقال لي توتو الكاهن المرتّل:

- إنّي أستشفّ وراء القرار سياسة جديدة لا شأن لها بالدين في ذاته!

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال:

- الملكة العظمى تخطب ودّ كهنة الأقاليم لتقيم توازنًا بيننا وبينهم فتحدّ من سلطان الكهنة وتقوى سلطة العرش.

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس:

- نحن خدّام الإله والشعب، نحن المعلّمون والأطبّاء، والمرشدون في الدنيا والعالم الآخر، والملكة العظمى سيّدة حكيمة وهي لا شكّ تقرّ لنا بالفضل.

فقال توتو بامتعاض:

- النزاع على السلطة، والملكة قويّة طموح، وهي في رأيي أقوى من الملك نفسه!

فقلت وكأنّما أناقش مخاوفي:

- نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر.

ولعلّه من المفيد الآن أن أحدّثك عن الملك أمنحتب الثالث. لقد شيّد له جدّه تحتمس الثالث إمبراطوريّة لم تسبق بمثيل في اتّساعها وتعدّد أجناسها. وكان ملكًا قويًّا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أوّل نذير يخطر، وحقّق انتصارات حاسمة حتّى دانت له الإمبراطوريّة بالطاعة الكاملة. غير أنّ عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء. جنى هو ثمار ما تعب أسلافه في زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء، وبنى القصور والمعابد والتماثيل، وغرق حتّى أذنيه في الطعام والشراب والنساء. وعرفت المرأة الداهية نقاط القوّة والضعف في زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار، شجّعته على الحرب حين الحرب، وتسامحت معه في شهواته مضحّية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكلّ جدارة، ولتمارس طموحها غير المحدود، ولا أنكر أنّها كانت مُلِمّة بكلّ صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطوريّة، ولا أنكر إخلاصها وبُعْد نظرها وحرصها على المجد والعظمة، ولكنّي آخذ عليها نهمها للسلطة، ذلك النهم الذي سوّل لها أن تستغلّ الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوّة للعرش دون الكهنة أجمعين. ثمّ تبيّن لي أنّ ثمّة أفكارًا أخرى تدور برأسها، فقد زارت المعبد يومًا لتقديم القرابين، وتقدّمتني بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقامتها القويّة المتوسّطة، فلمّا استقرّ بنا المجلس سألتني:

- ماذا يحزنك؟

وجعلت أفكّر في اختيار ردّ مناسب ولكنّها عاجلتني قائلة:

- إنّي أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة، إنّك تظنّ أنّي أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون؟

فقلت مسلّمًا:

- كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة...

فقالت وعيناها تبرقان:

- إليك ما أفكّر فيه أيّها الكاهن الأكبر، آمون سيّد آلهة مصر، وهو يقوم أمام رعايانا في الإمبراطوريّة رمزًا للسلطة وربّما للهزيمة، أمّا آتون إله الشمس فإنّه يشرق في كلّ مكان وبوسع أيّ مخلوق أن ينتمي إليه دون غضاضة!

ترى أهذا حقًّا ما تفكّر فيه أم إنّه حجّة جديدة تداري بها رغبتها الحقيقيّة في تقليم أظافرنا؟ على أنّ الفكرة نفسها لم تفز بإقناعي وقلت:

- مولاتي، أولئك المتوحّشون يحكمون بالقوّة لا بالمودّة!

فقالت باسمة:

ـ وبالمودّة أيضًا، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس . . .

وآمنت بأنّها رؤية أنثويّة عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة، وهٰذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد.

وسكت الكاهن الأكبر كأنّما ليتأمّل أو ليتذكّر ثمّ واصل حديثه:

ـ وممّا يذكر أنّه صادفتها في مطلع حياتها الزوجيّة متاعب فلبثت مدّة غير قصيرة لا تنجب، تعاني المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبيّ، وبفضل آمون وكهنته، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القويّ حملت الملكة ولٰكنّها أنجبت بنتًا! وكلّما التقينا في القصر أو المعبد رمقتني بنظرة حذرة مترعة بسوء الظنّ كأنّني المسئول عن سوء حظّها. وما كنّا نفكّر في تعكير صفو العرش أبدًا ولٰكنّها كانت قليلة الثقة في الناس لفساد طويّتها.

وسكت مرّة أخرى كالمتردّد ثمّ قال:

ـ وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين!

وتريّث الرجل حتّى اشتعلت تساؤلاتي الخفيّة ثمّ قال:

ـ مات أكبرهما وأصلحهما وبقي الآخر ليمارس شذوذه في تخريب مصر.

وقرأ الكاهن تساؤلاتي المحرقة فقال:

ـ نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين، لنا من السحر قوّة، ولنا من العيون قوّة. . . فالمارق مجهول الأب، فاقد الرجولة، مؤنّث الصورة، متنافر القسمات. وعلى مثال أبيه تزوّج من فتاة من الشعب، جمعت في شخصها مثل أمّه بين الأصل الشعبيّ والطموح الجنونيّ والفسق. جميلة عنيدة متحدّية فاندفعت معه في سياسته المدمّرة. وأنجبت له ستّ بنات من رجال آخرين. ورغم حبّه الظاهر لها فلعلّه لم يحبّ في الواقع إلّا أمّه، أعطته الحياة والأفكار، ولشدّة التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقًا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجّة اقترانه باسم آمون، أمّا الحقيقة فهي أنّه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله في حياته. وقد لقّنته أمّه دين آتون التي آمنت به لأهداف سياسيّة ولٰكنّه آمن به إيمانًا حقيقيًّا نابذًا السياسة التي لم توافق طبيعته الأنثويّة، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقّعه أمّه نفسها. ما زلت للأسف أتذكّر صورته الكريهة. . ما كان رجلًا وما كان امرأة، وكان ضعيفًا لحدّ الحقد على الأقوياء جميعًا من رجال وكهنة وآلهة. وقد اخترع إلٰهًا على مثاله في الضعف والأنوثة، تصوّره أبًا وأمًّا في وقت واحد، وتصوّر له وظيفة وحيدة هي الحبّ! فكانت عبادته رقصًا وغناء وشرابًا، وغرق في مستنقع الحماقة معرِضًا عن واجباته الملكيّة على حين كان رجالنا المخلصون في الإمبراطوريّة وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدوّ، يستغيثون ولا يغاثون، حتّى ضاعت الإمبراطوريّة وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس. هٰذا هو المارق الذي سمّى نفسه إخناتون!

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدّة الذكريات ثمّ شبك أصابع يديه في قبضة واحدة وراح يقول:

ـ ومنذ نشأته الأولى جاءتني الأخبار عنه بلسان رجال لي في القصر ممّن نذروا أنفسهم لآمون والوطن. وعنهم عرفت أنّ وليّ العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون، وأنّه رغم حداثة سنّه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغاني. أدركت لتوّي أنّه صبيّ غريب ينذر بالمتاعب. وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفي. وابتسم أمنحتب الثالث وقال:

ـ ما زال ابني طفلًا.

فقلت:

ـ ولٰكنّ الطفل يكبر ويحتفظ في أعماقه بأفكار طفولته.

فقالت تيي:

ـ إنّه ينشد الحكمة في كافّة مظانّها بقلب بريء.

قال فرعون:

ـ عمّا قريب يبدأ تدريباته العسكريّة ويعرف أهدافه الحقيقيّة.

فقالت تيي:

ـ لا حاجة بنا إلى مزيد من البلدان ولكنّنا في حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها . . .

فقلت بوضوح :

ـ لا سبيل إلى المحافظة عليها إلّا بالاعتماد على آمون وبممارسة القوّة.

فقالت المرأة الداهية :

ـ ما رأيت حكيمًا يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون!

فقلت بإصرار:

ـ إنّي لا أستهين بالحكمة ولكنّي أراها لغوًا بغير سند من القوّة.

فقال أمنحتب:

ـ لا خلاف في هٰذا القصر على أنّ آمون هو سيّد الآلهة.

فقلت بقلق :

ـ إنّه انقطع عن زيارة المعبد .

فقال الملك :

ـ صبرًا، عمّا قليل سيؤدّي كافّة واجباته كوليّ للعهد . . .

لم أرجع من اللقاء بما يسكّن الخواطر، بل لعلّ مخاوفنا ـ نحن الكهنة ـ وجدت ما يسوّغها ويقوّيها. وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أنّ ذٰلك الجسد المهزول ينطوي على سراديب قوّة وعناد شرّيرة تنذر بأوخم العواقب. وذات يوم قابلني أحد أتباعي وقال لي :

ـ الشمس نفسها لم تعد إلٰها!

فسألته عمّا يعني فقال :

ـ إنّهم يتهامسون هناك عن إلٰه جديد لم يُعرف من قبل تجلّى لروح وليّ العهد وطالبه بأن يعبده باعتباره الإلٰه الوحيد الحقيقيّ في الوجود، هو وحده لا شريك له ، وكلّ معبود سواه باطل.

صعقني الخبر صعقًا، وأيقنت أنّ الموت الذي خطف الأخ الأكبر أهون وأرحم من الجنون الذي حلّ بالأصغر، وتجسّدت أمام عينيّ الكارثة في أبشع صورة.

ـ أأنت واثق ممّا تقول؟

ـ إنّما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .

ـ وكيف تجسّد له ذٰلك الإلٰه المزعوم؟

ـ سمع صوته فقط. . .

ـ لا شمس ولا نجم ولا تمثال؟

ـ لا شيء ألبتّة.

ـ وكيف يعبد ما لا يرى؟

ـ إنّه يؤمن بأنّه القوّة الوحيدة الخالقة.

ـ لقد أذاب المجنون ذاته في اللاشيء!

وقال الكاهن المرتّل توتو:

ـ لقد جنّ وفقد الأهليّة لتولّي العرش.

فقلت برجاء :

ـ اهدأ يا توتو، فمهما كفر فستظلّ الآلهة باقية معبودة للملايين . . .

فتساءل بحدّة :

ـ ولٰكن كيف يتولّى العرش كافر مارق؟

فقلت بكآبة :

ـ فلننتظر حتّى تُعلَن الحقيقة ثمّ نقدم على طرح الموضوع للمناقشة مع الملك، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها في تاريخنا الطويل . . .

وحدث أن تزوّج وليّ العهد من نفرتيتي الابنة الكبرى للحكيم الصديق آي. كانت أيضًا مثل الملكة العظمى تيي من أصل شعبيّ ولكنّي تعلّقت بأمل واحد واهٍ وهو أن يردّه الزواج إلى شيء من التوازن. ودعوت آي إلى مقابلتي فوجدته حذرًا في حديثه فقدّرت حرج مركزه ولم أُثِرْ من جانبي إلى أنباء الكفر، ولكنّي اتّفقت معه على أن يرتّب لتدبير زيارة سرّيّة تتمّ بيني وبين ابنته. وتأمّلتها بعين فراستي المستمدّة من روح آمون فتكشّف لي جمالها عن قوّة ذكّرتني بالملكة العظمى تيي فرجوت أن تكون هٰذه القوّة لنا لا علينا. وقلت لها:

ـ تقبّلي بركاتي يا ابنتي وابنة صديقي آي .

فشكرتني بعذوبة فقلت:

ـ أرى من واجبي أن أذكّرك، ولست في حاجة إلى تذكير، بأنّ العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيّد الآلهة ، وفرعون ، والملكة .

فقالت:

- سعيد مَن يصغي إلى حكمتك.

فقلت:

- والملكة الحكيمة تشارك الملك في المحافظة على الوطن والإمبراطوريّة.

فقالت بثبات:

- أيّها الكاهن المقدّس، قلبي مليء بالحبّ والإخلاص.

فقلت بوضوح:

- مصر مثوى التقاليد الخالدة، والمرأة هي الوعاء المقدّس للتقاليد.

فقالت بالثبات نفسه:

- وقلبي مليء بالواجب أيضًا.

يا لها من حذرة متحفّظة كتمثال بلا نقوش تفسّره. لقد تكلّمت ولم تقل شيئًا ولم يكن بوسعي أن أكاشفها بأكثر من ذلك. غير أنّها في الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقّع. إنّ تحفّظها يعني أنّها تعرف كلّ شيء. وأنّها لن تكون معنا. إنّها مرشّحة للعرش بضربة حظّ خليقة أن تدير أكبر رأس، وسيكون همّها الأوّل في الحياة المحافظة على العرش، لا آمون ولا الآلهة. وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن في قدس الأقداس ثمّ وافيتهم بفحوى الحوار بيني وبين نفرتيتي، فقال توتو معلّقًا:

- سينكشف الغد عن ليل طويل.

ثمّ خلا إليّ متسائلًا:

- ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماي؟

فلمحت ما يرمي إليه وقلت بصراحة:

- لا نستطيع أن نتحدّى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيي.

بدا أنّ الأمور لا تسير يسيرةً في القصر بين المجنون ووالديه، من أجل ذلك صدر أمر ملكيّ لوليّ العهد ليقوم برحلة تعارف في أرجاء الإمبراطوريّة. ولم أشكّ في أنّ الملك أراد أن يعرّف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعلّه يفيق من ضلاله. وحمدت له ذلك في نفسي غير أنّ كآبتي ظلّت راسخة. وفي أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمّيّة، فقد أنجبت تيي توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون، بعد فترة تدهورت صحّة الملك العجوز ومات. ورحل مبعوثون إلى وليّ العهد بالأخبار ليرجع فيتولّى سلطته. وتشاورنا نحن الكهنة حول مستقبل البلاد فاتّفقنا على رأي. وسعيت إلى مقابلة الملكة تيي رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها. وجدتها في حزنها قويّة ثابتة واعية بأهدافها. وكان عليّ أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلّفني ذلك. قلت:

- جئت يا مولاتي لأفضي برأيي إلى الأمّ الشرعيّة للإمبراطوريّة.

وأصغت إليّ ومنظرها يوحي بأنّها تحدس بفطنة ما سيقال.

- مولاتي، أصبح معروفًا أنّ وليّ العهد قد كفر بجميع الآلهة.

فتجهّم وجهها وقالت:

- لا تصدّق كلّ ما تسمع.

فقلت بلهفة:

- إنّي على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتي.

فقالت باقتضاب:

- إنّه شاعر أيّها الكاهن الأكبر.

ولذتُ بالصمت بغير اقتناع فقالت بثقة:

- سوف يعرف واجبه تمامًا.

فقلت مستجمعًا شجاعتي:

- مولاتي تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش!

فقالت بضيق:

- لا خوف على عبادة الآلهة!

فقلت مستزيدًا من شجاعتي:

- أمامنا حلّ إذا مسّت الضرورة إليه وهو أن نولّي أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصيّة على العرش!

فقالت بحزم:

- سيحكم أمنحتب الرابع لأنّه وليّ العهد.

هكذا غلبت الأمّ العاشقة الملكة الحكيمة وضيّعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة.

ورجع وليّ العهد المؤنّث المجنون. ودُفن الملك الأب في موعده، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسميّة. لأوّل مرّة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر. كان ذا سمرة غامقة، وجسم طويل نحيل، وعينين حالمتين، وتكوين أنثويّ لا يخفى على أحد، أمّا ملامحه

فمتنافرة مثيرة للقلق. إنّه كائن هزيـل حقير لا يليق بعرش ولا يتصوّر أن يتحدّى بعوضة لا آمون سيّـد الآلهـة. وداريت تقزّزي وعـزّيتـه مقتبسًـا من حكم الحكماء وشعر الشعراء، وهو يرمقني بنظرات محيّرة. لا كراهية فيهـا ولا تحدٍّ ولا ودّ. وشتّت منـظره فكري لدرجة أن غلبني الصمت فبادرني هو قائلًا:

ـ طالما تسبّبت لي في مناقشات مرهقة مع والديّ!

فاستردت قدرتي على الكلام فقلت:

ـ لا همّ لي في الحيـاة إلّا آمون والعـرش ومصر والإمبراطوريّة . . .

فقال بهدوء:

ـ لديك ما تقوله ولا شكّ.

فقلت وأنا أتأهّب لخوض المعركة:

ـ سمعت أنباء مقلقة ولٰكنّي لم أصدّقها.

فقال بلا مبالاة:

ـ إنّها حقيقيّة!

فذهلت وانعقد لساني فواصل حديثه:

ـ إنّي المؤمن الوحيد في بلد من الضالّين.

ـ لا أصدّق أذنيّ.

ـ بل صدّقهما، لا إله إلّا الإله الواحد.

واقتحمني الغضب لعقيدتي فلم أعد أبالي بالعواقب دفاعًا عن آمون وسائر الآلهة.

وقلت بصراحة مخيفة:

ـ هٰذا تجديف لن يغفره آمون لبشر . . .

فقال بهدوء باسمٍ:

ـ لا يملك منح المغفرة إلّا الإله الواحد.

فقلت وأنا أنتفض من شدّة الانفعال:

ـ إنّه لا شيء.

فبسط ذراعيه بحنان وقال:

ـ هـو كلّ شيء، الخلق . . . القوّة . . . الحبّ . . . السلام . . . السرور.

ثمّ ثقبني بنـظرة نافـذة تتناقض تمـامًـا مـع هيكله الواهن:

ـ إنّي أدعوك للإيمان به.

فقلت محذّرًا محتدًا:

ـ احذر غضب آمون، إنّه قادر على المنع قـدرته على العطاء، قادر على العون قدرته على الخذلان، قادر على التأمـين قدرتـه على التـدمير، خَفْ عـلى رزقك وذرّيّتك وعرشك وإمبراطوريّتك.

فقال متماديًا في الهدوء:

ـ إنّي طفل يحبو في رحاب الواحد، وبرعمة تتفتّح في حديقته، إنّي راضٍ بقَدَره خادم لأمره، وقد تعطّف فتجلّى لروحي حتّى أترعت بالأنوار وسالت بالأنغام. ولن أبالي بعد ذٰلك بشيء!

فقلت بغضب:

ـ إنّ وليّ العهد لا يصير فرعون حتّى يتـوّج بين يدي آمون!

فقال باستهانة:

ـ بـل يتوّج تحت نـور الشمس في رعايـة الخالق الوحيد . . .

وافترقنا على أسوأ حال. معي آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدّسة عند رعاياه وجنونه الذي لا يبالي بشيء. وتوثّبت للحرب المقدّسة موطّنًا نفسي على التضحية فداء لإلٰهي ووطني. ولم أتوانَ عن العمل لحظة، وقلت لأبنائي الكهنة:

ـ فرعون الجديد كافر، عليكم أن تعلموا بذٰلـك وأن تُعلموا الناس به . . .

ورغم حماسي وجدتني مسوقًا إلى كبح جماح تـوتو الكاهن المرتّل فاقترحت عليه الانضمام في الظاهر إلى المارق ليكون عينًا لنا عليه. ومن ناحيـة أخرى فلم يتوانَ الملك أيضًا عن العمل فتمّ التتويج في رحاب الإله المزعوم وأصرّ بتشييد معبد له في طيبة مدينة آمون المقدّسة، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم بدوافع شتّى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم. ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغيّر المصير ولٰكنّهم سقطوا كالنساء الداعرات. هٰذا الحكيم آي اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه، وحورمحب الجنديّ الشجـاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليـه مجرّد تغيير اسم لا معنى له، أمّا الآخرون فلم يكونوا سـوى منافقـين لا همّ لهم إلّا الجـاه والمـال. ولـولا ارتـدادهم عن غيّهم في اللحظة الحـرجة لاستحقّـوا

القتل، وقد فازوا بالحياة ولٰكنّني لا أكنّ احترامًا لأيّ منهم. واشتدّ التوتّر في طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة في تاريخنا المجيد. وجزعت الملكة الوالدة تيي وهي ترى غرس يديها وهو يتحوّل إلى نبات سامّ، وهو ينحدر نحو الهاوية جارًّا معه أسرته إلى الفناء. وواظبتُ على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة تلطيف موجة التمرّد العارمة التي تهدّد باقتلاع العرش. وجعلت تقول لي:

ـ بالولاء تكسبون وبالتمرّد تخسرون . . .

وكنت أقول لها:

ـ كيف تطالبيننا بالولاء لكافر! ليتكم آمنتم بنصائحي!

فتقول لي:

ـ علينا أن نطرد اليأس من أفقنا!

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنّث المدلّل، وانهارت قوّتها التقليديّة حيال قوّة جنونه الخفيّة، ولم يكن مفرّ من أن نواصل القتال حتّى النهاية. من أجل ذٰلك ضاق المجنون بطيبة، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائيّة في عيد آمون، فادّعى أنّ إلٰهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تُشيَّد من أجله. هٰكذا أجبرناه على الهجرة مصحوبًا بثمانين ألفًا من المارقين ليقيموا لأنفسهم سجنًا تحلّ به اللعنة. وخلا لنا الجوّ لإدارة معركتنا المقدّسة، وخلا له الجوّ للإمعان في الكفر والضلال حتّى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهي والسكر والعربدة والفسق التي يبشّر بها إلٰه مجهول الهويّة شعاره الحبّ والسرور!. وكلّما ألحّ على المجنون ضعفه الطبيعيّ غالى في إظهار قوّته فأمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة. وقلت لأبنائي الكهنة:

ـ لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبّوا الموت.

وقد وجدنا في بيوت المؤمنين مأوى وفي قلوبهم جيوشًا فواصلنا الجهاد بهمّة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يومًا بعد يوم. وتمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيًا شعبه إلى الكفر، وشدّ ما عانى الشعب في تلك الأيّام السود من تمزّق بين ولائه لآلهته وولائه لمليكه الذي أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثويّ ووجهه المنفّر وزوجته الجميلة الفاسقة.

تلك كانت أيّام الأحزان والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة. وأحدثت رسالة الحبّ المؤنّث آثارها فاستهتر الموظّفون بواجباتهم واستغلّوا الناس أبشع استغلال، وسرى التمرّد في أنحاء الإمبراطوريّة، واستهان بحدودها الأعداء، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلًا من الجيوش فقُتلوا دفاعًا عن إمبراطوريّتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون. وتوقّف الخير المتدفّق على أرض مصر من جميع البلدان حتّى خلت الأسواق وأفلس التجّار وجاع العباد. وصِحْت بأعلى صوتي:

ـ ها هي لعنة آمون الغاضب تحلّ بنا فإمّا القضاء على المارق وإمّا الحرب الأهليّة.

ولم أدعْ فرصة للخير لم أجرّبها لتجنيب البلاد ويلات الحرب فقابلت الملكة الأمّ تيي، وقالت لي بحرارة:

ـ إنّي حزينة أيّها الكاهن الأكبر.

فقلت بمرارة:

ـ لم أعد كاهنًا أكبر، لست إلّا شريدًا مطارَدًا. . .

فقالت ملعثمة:

ـ إنّي أسأل الآلهة أن تمدّنا برحمتها.

فقلت لها:

ـ لا بدّ من العمل، إنّه ابنك، وهو يحبّك، وإنّك تتحمّلين تبعة لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب حرب أهليّة لن تُبقي على شيء . . .

فقالت بامتعاض لتذكيري لها بمسئوليّاتها فيما حدث:

ـ لقد قرّرت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون . . .

ولا أنكر أنّها بذلت جهدًا ولكنّها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت، ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسي مجازفًا إلى أخت آتون واجتمعت بالرجال وقلت لهم:

ـ إنّي الآن أتكلّم من موقع القوّة، وورائي رجال ينتظرون إشارة للانقضاض عليكم، ولكنّي آثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون سفك

دماء أو خراب، وسأترك لكم مهلة لتؤدّوا واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم . . .

وقرأت في وجوههم الاقتناع بما قلت، وبصرف النظر عن دوافعهم الحقيقيّة فقد أدّوا ما طالبتهم به وجنّبوا البلاد شرّ ويلات كثيرة. قابلوا المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين، إعلان الحرّيّة الدينيّة وإرسال جيش للدفاع عن الإمبراطوريّة. ولٰكنّه رفض معلنًا بذٰلك جنونه على الملأ. وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل وأن يدعو إليها كيفما شاء ولٰكنّه رفض أيضًا. غير أنّه عيّن أخاه سمنخ رع شريكًا له في العرش، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارًا منّا. وبإزاء عناد المجنون قرّر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون الجديد، بذٰلك تغيّرت الدولة بلا حرب ولا خراب، وفي نظير ذٰلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومَن أبقى على الوفاء له من رجاله.

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل، وانقشع الكابوس ومضى كلّ شيء يعود إلى أصله على قدر الإمكان. أمّا المارق فبعد أن شبع جنونًا أدركه المرض وما لبث أن مات خائب المسعى في الدنيا وفاقد الأمل في العالم الآخر، مخلّفًا وراءه زوجته الشرّيرة تعاني الوحدة والهجر والندم.

وصمت الرجل طويلًا وهو يرنو إليّ ثمّ قال:

ـ نحن نضمّد جراحنا، يلزمنا عمل كبير وشاقّ، خسارتنا في الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر، كيف حدث هٰذا؟!. . . كيف أتيح لمجنون مشوّه أن يفعل بنا ذٰلك كلّه تحت سمع العقلاء وبصرهم؟!

وتريّث قليلًا ثمّ خاطبني قائلًا:

ـ لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجّلها في دفترك بأمانة، وأبلغ تحيّاتي والدك.

«آي»

هو الحكيم، أبو نفرتيتي وموت نجمت، ومستشار المارق. حفر الكبر أخاديد في وجهه وسكن فيها، استقبلني في قصره المُطلّ على النيل في جنوب طيبة. جرى حديثه في هدوء وبصوت منخفض ودون أن ينبض وجهه بأيّ انفعال. وقد أثّر فيّ وقاره وعمره المديد وما يطوي في صدره من تاريخ حافل. بدأ حديثه بقوله:

ـ ما أعجب الحياة، إنّها سماء تمطر تجارب متناقضة.

وتفكّر مستغرقًا بفَيْض من الذكريات ثمّ قال:

ـ التحمتُ بالأحداث في يوم من أيّام الصيف، دُعيت إلى مقابلة الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيي، ولّما مثلت بين يديها قالت لي الملكة:

ـ يا آي، أنت رجل حكيم، تعرف أجمل ما في الدنيا والدين، قرّرنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتمس وأمنحتب . . .

فحنيت رأسي الحليق وقلت:

ـ سعيد مَن يحظى بخدمة مولاه ومولاته.

وكان تحتمس في السابعة وأمنحتب في السادسة. وكانا جدّ مختلفينِ لحدّ التضادّ، فتحتمس قويّ وسيم قصير القامة، وأمنحتب ضعيف البنية غامق السمرة طويل القامة أنثويّ القسمات وذو نظرة رقيقة وغازية معًا تلتصق بالنفس بعمق. وما لبث أن مات الصبيّ الجميل وبقي الضعيف الغريب. وهزّ الموت الصبيّ الحيّ هزّة عنيفة جدًّا. بكى طويلًا، وكلّما خطرت ذكرى بكى من جديد. وقال لي:

ـ كان يزور معبد آمون، ويتلقّى الرقا والتعاويذ ولٰكنّه مات . . .

وقال لي أيضًا:

ـ وأنت الحكيم المعلّم فلم لا تردّ إليه الحياة؟

وقلت له:

ـ إنّ الروح تقول للميت «ألْقِ عنك هٰذا الحزن أيّها الأخ، إنّني باقية».

وجرّنا ذٰلك إلى حديث عن الحياة والموت، وشدّ ما

أدهشني بإدراكه ووجدانه. كان يفوق سنّه بأجيال. وساءلت نفسي أيّ صبيّ هذا؟!. أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب؟. وقد أتقن مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة حتّى قلت مرّة للملكة تيي:

- إنّ تفوّقه ليخيف معلّمه.

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيّل ما يصدر عن عقله من عجائب إذا ما اعتلى يومًا عرش أجداده. سوف يتفوّق على والديه رغم عظمتهما.

أجل كان أمنحتب الثالث ملكًا عظيمًا، بدّارًا لتأديب العصاة، مقبلًا وقت السلم على الطعام والشراب والنساء في عصر عُرف بالرخاء، وقد أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع في أسْر العلل وفسدت أسنانه فكدّرت صفو أيّامه الأخيرة. أمّا تيي فكانت من أسرة نوبيّة كريمة، وشهدت لها الأيّام بالقوّة والحكمة حتّى بزّت حتشبسوت نفسها. وبسبب من غرام زوجها بالنساء ولموت بكريّها تحمس ولعت بالصبيّ الضعيف المعجزة ولعًا خرق المألوف فكانت له الأمّ والحبيبة والأستاذ. وكانت تحبّ الحكم أكثر من الحبّ فضحّت بقلبها في سبيل السلطة، وقد اتّهمها الكهنة ظلمًا بأنّها المسئول الأوّل عن انحراف ابنها الدينيّ، ولكنّ الحقّ أنّها أرادت أن يلمّ ابنها بديانات آلهة بلاده جميعًا، وكانت تحلم بأن يحلّ آتون محلّ آلهة الإمبراطوريّة باعتباره الشمس التي تنفث الحياة في كلّ مكان، فتؤلّف بين رعاياها برابطة الدين القويّة لا بدافع القوّة وحدها. كانت ترمي إلى وضع الدين في خدمة السياسة من أجل مصر، ولكنّ ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت، وأبت طبيعته أن يجعل الدين في خدمة أيّ شيء وأن يجعل كلّ شيء في خدمة الدين. الأمّ طرحت سياستها عن وعي وتدبير ولكنّ الابن صدّق وآمن وكرّس حياته لرسالته حتّى ضحّى بوطنه وإمبراطوريّته وعرشه.

وسكت آي قليلًا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه صغيرًا مضغوطًا تحت شعره المستعار ثمّ واصل حديثه:

- كان فذًّا منذ صباه كأنّما ولد بعقل كاهن ناضج، كان معجزة حتّى وجدتني في كثير من الأحايين أناقشه مناقشة الندّ للندّ وهو في العاشرة. وكان الحماس يتدفّق من منطقه كأنه ينابيع ساخنة، وبرزت في الهيكل الضعيف إرادة قويّة لا تتوافق بحال مع ضعفه، فأقنعني ذلك بأنّ روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدرّبة آلاف المرّات. وهام بالدروس الدينيّة هيامًا فاق كلّ توقّع وأضرّ بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش. ولم يكن يسلّم بفكرة دون مناقشة قويّة، ولم يخفِ ارتيابه في كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة. وإذا به يقول لي ذات يوم:

- طيبة!، تقولون إنّها المدينة المقدّسة!، إنّها وكر التجّار الجشعين والفسق والعهر، ومَن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلّمي؟ ألا إنّهم مَن يضلّون البسطاء بالخرافات، ويشاركون الفقراء في أرزاقهم المحدودة، ويغوون الفتيات باسم البركة، فجعلوا من معبدهم مرتادًا للدعارة والعربدة، عليكِ اللعنة يا طيبة!

وأقلقني قوله، وتخايلت لعينيّ أصابع الاتّهام وهي تشير إليّ بوصفي معلّمه، فقلت له:

- إنّهم الأساس المتين الذي يقوم عليه العرش.

فهتف غاضبًا:

- لا كرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور.

فقلت كالمحذّر:

- إنّهم قوّة لا يستهان بها مثل الجيش . . .

فهتف ساخرًا:

- وقطّاع الطرق أيضًا قوّة لا يستهان بها.

من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثاوي في قدس الأقداس، فتطلّع إلى آتون الذي يضيء نوره العالمين، وقال في ذلك:

- آمون إله الكهنة، آتون إله السماء والأرض.

فقلت بحرارة:

- إنّك مطالَب بالإخلاص لجميع الآلهة.

فتساءل مقطّبًا:

- أليس لنا قلوب نميّز بها بين الحقّ والباطل؟

فقلت بإغراء:

- سوف تتوّج ذات يوم بين أحضان آمون.

فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلًا:

- ولِمَ لا أتوّج تحت نور الشمس في الهواء الطلق؟!

- آمون هو الذي سانـد جـدّك حتّى قيّض لـه النصر.

فتفكّر مليًّا ثمّ تساءل:

- لا أدري كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته؟

فقلت بقلق:

- له حكمته المضنون بها على البشر.

- الشمس لا يفرّق نورها بين مخلوق وآخر.

فقلت بإصرار:

- الحياة ميدان صراع، لا تنسَ ذلك.

فقال بأسًى:

- يـا معلّمي لا تحـدّثني عن الصراع، ألم تشهـد الشمس عنـد شروقها فـوق الحقول والنيـل؟! ألم تر الشفق عنـد المغيب؟، ألم تسمع تغـريد البـلابـل؟، وهديل الحـمام؟. . ألم تقتنص أبدًا الفـرحة المقـدّسة الغائبة في أعماق حياتنا؟!

شعرت بأنّ الزمام يفلت من يـديّ، وأنّ الشجرة تنمـو على هـواها، وأنّني أجَـرّ إلى مأزق، فـأفضيت بمخـاوفي إلى الملكـة تيي، ولكنّهـا لم تشـاركني قلقي وقالت لي:

- يا آي، ما زال طفلًا بريئًا، سوف يخبر الدنيا، وعمّا قليل سيتلقّى تدريبه العسكريّ.

ودُعي الكاهن الصغير إلى الجنديّة الخـاصّة ضمن أبناء السادة النبلاء مثل حور محب، ولكنّه لم يتناغم معها، أو لم يجد القوّة اللازمة لها، فكرهها، وسجّل على نفسه فشلًا لا يليق بأبناء الملوك. وقال بمرارة:

- لا أودّ أن أتعلّم مبادئ القتل.

وحزن لذلك أبوه حزنًا شديدًا وقال لي:

- إنّ الملك الذي لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قوّاده.

وحدّثني الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه، ولعلّه منذ ذلك الوقت ترسّبت في أعماقه مشاعر غير طيّبة عن أبيه العظيم، وهي التي غالى الكهنة فيما بعد في تفسيرها متّهمين إيّاه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثـار، والحقّ أنّه لم يمـح اسم أبيه إلّا لاقـترانه بآمون، وآي ذلك أنّه أعدم اسمه القديم واتّخذ اسمًا جديدًا هو «إخناتون». ثمّ بلغ ذروة غربته مقتلعًا نفسه من كافّة جذوره في ليلة غريبة لم يطّلع عليها سواه. تمّ ذلك في الخلوة التي كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلّة على النيل. وعلمت بما كان عندما لقيته في الحديقة في الصباح. أغلب الظنّ أنّنا كنّا في الربيع في يوم بريء من الرطوبة والخماسين.

رنا إليّ بوجه شاحب وعينين مسحورتـين وقال لي دون أن يردّ تحيّتي:

- يا معلّمي، قد تجلّى الحقّ!

عجبت لمنظره وسألته عمّا يعني فقال:

- كنت في الخلوة قبيـل الشروق، رفيق الليـل يودّعني والصمت يباركني، وخفّ وزني فخُيّل إليّ أنّني سامضي مع ذيول الليل، وتجسّدت الظلمة كائنًا حيًّا يومئ بالتحيّة، وأشرق في داخلي نور طيّب الرائحة، فرأيت الكائنات كلّها مجتمعة في مجال تحيط به العين، تتهـامس متبادلـة التهـاني تهـزّهـا سعـادة الـترحيب، وتستقبل الحقيقة المقبلة، وقلت لنفسي أخيرًا انتصرت على الموت والألم، وانهلّت فـوقي فيوضـات السرور، وتسلّل الوجود إلى صدري فملأه بـرحيقه العـذب، وسمعت بكلّ وضوح صوته وهو يقول لي «أنـا الإله الواحد، لا إله غيري، أنا الحقّ، أقذف بروحك في رحـابي، اعبدني وحـدي، وهبني ذاتك فقـد وهبتك حبّي».

تبـادلنا النـظر طويـلًا. غلبني الصمت، واليأس. قال:

- ألا تصدّقني يا معلّمي؟

فقلت صادقًا:

- إنّك لا تكذب أبدًا.

فقال بنشوة عجيبة:

- إذن فعليك أن تصدّقني.

فسألته بلهفة:

- وماذا رأيت؟

- سمعت الصوت في مهرجان الفجر . . .

فقلت بعد تردّد:

- هٰذا يعني أنّه لا شيء.

فقال بيقين:

ـ هٰكذا يتراءى الكلّ إذا تجلّى!

ـ لعلّه آتون.

ـ كلّا، لا آتون ولا الشمس، إنّه ما وراء ذٰلك وما فوق ذٰلك، إنّه الإله الواحد.

فتساءلت في حيرة:

ـ وأين تعبده؟

ـ في أيّ مكان، في أيّ زمان، وسوف يمدّني بالقوّة والحبّ . . .

ولاذ آي بالصمت. وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون. ولٰكنّي تذكّرت وصيّة أبي فأمسكت. لقد ارتدّ في اللحظة الحرجة مع المرتدّين وربّما ظلّ إيمانه سرًّا إلى الأبد. واستأنف آي حديثه قائلًا:

ـ لم أجدْ بدًّا من إبلاغ الملك والملكة بما كان. وبعد أيّام وجدت الأمير ينتظرني في الحديقة التي يفضّل البقاء فيها ما أمكنه ذٰلك، فقال لي معاتبًا وباسمًا:

ـ وشيت بي كعادتك يا معلّمي.

فقلت بهدوء:

ـ إنّه واجبي أيّها الأمير.

وضحك قائلًا:

ـ استدعاني أبي لمقابلة مثيرة، فرويت له تجربتي فعبس قائلًا:

ـ لا مفرّ من عرضك على الطبيب بنتو.

فقلت له بأدب:

ـ إنّي في تمام الصحّة والعافية.

فقال بخشونة:

ـ لا أعرف مجنونًا اعترف بجنونه أبدًا.

ثمّ بنبرة وعيد:

ـ مصر بلد الآلهة، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه، وهٰذا الإله الذي تحدّثني عنه لا شيء فهو لا يستحقّ أن ينضمّ إلى مجمع الآلهة.

فقلت بهدوء:

ـ إنّه الإله الوحيد ولا إله غيره.

فصاح بي:

ـ هٰذا كفر وجنون.

فكرّرت قولي حتّى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشرّ:

ـ إنّي آمرك بأن تتخلّى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك.

وانقطعت عن المناقشة احترامًا لأمره، وقالت الملكة بنبرة لطيفة:

ـ إنّك مطالَب باحترام واجب مقدّس ولينبض قلبك بما يشاء حتّى تثوب إلى الهداية . . .

وغادرت مجلسهما حزينًا يا معلّمي ولٰكن أشدّ إصرارًا . . .

فقلت له بإخلاص:

ـ فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدّسة، لا تنسَ هٰذا أبدًا.

وحدّثني قلبي بأنّ مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال، وأنّ هٰذه الأسرة المجيدة التي حرّرت الوطن وأنشأت له إمبراطوريّة إنّما تقف على حافة هاوية. وفي ذٰلك الوقت، وربّما قبل ذٰلك فلست متأكّدًا من ترتيب التواريخ استدعاني كاهن آمون إلى مقابلة خاصّة. قال لي:

ـ بيننا عهد قديم يا آي، ما هٰذا الذي يقال؟

قلت لك إنّني لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمّت عقب ما ذاع عن ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد. على أيّ حال قلت له:

ـ الأمير يمرّ بالفترة الحرجة من العمر، إنّه إنسان ممتاز، ومثله قد يدفعه الخيال شرقًا وغربًا، ولٰكن سرعان ما يُرجعه النضج إلى الحقّ . . .

فتساءل بمرارة:

ـ وكيف تمرّد على حكمتك وأنت خير المعلّمين؟

فقلت مدافعًا عن نفسي:

ـ ما أصعب ترويض النهر في إبان الفيضان!

فقال بصوت قويّ:

ـ على أيّ رجل من صفوة هٰذه الأرض ألّا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطوريّة!

وجعلت أناجي حيرتي ليل نهار منفردًا ومع أسرتي المكوّنة من تي زوجتي ونفرتيتي وموت نجمت ابنتيّ. وعلى حين اتّهمت تي وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتي تنجذب إلى آرائه بتلقائيّة مثيرة، وتهمس في أذني:

ـ إنّه الحقّ يا أبي!

ولا بدّ من كلمة هنا عن نفرتيتي. كانت تقارب إخناتون في سنّه، ومثله حازت عقلًا يفوق سنّها. وقد تلقّت البنتان تربية عامّة ومنزليّة ممتازة، ولٰكنّ موت نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهي والرسم والرياضة والرقص الدينيّ، أمّا نفرتيتي فمع إتقانها ذٰلك كلّه تبحّرت بدافع شخصيّ في الدين والأفكار. ثمّ كان ميلها إلى آتون، والأعجب من ذٰلك كلّه أنّها آمنت بإلٰه إخناتون وقالت بصراحة:

ـ هٰذا هو الإلٰه الذي انتشلني من حيرتي المعذّبة.

وأثارت بذٰلك سخط تي مربّيتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت التي اتّهمتها بالضلال.

وحدث في ذٰلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عامًا على جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأوّل مرّة. وشاء القدر أن تستحوذ نفرتيتي على قلب الأمير، وهٰكذا تزوّجت من إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدّق ما يقع. واستدعاني كاهن آمون مرّة أخرى وقال لي بنبرة ذات مغزى:

ـ أصبحت عضوًا في الأسرة المالكة يا آي.

وشعرت بأنّه يوشك أن يعدّني من الخصوم فدافعت عن الأمير ما وسعني ذٰلك وقلت له:

ـ إنّي رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب.

فقال بهدوء:

ـ لندع الأيّام تكشف لنا عن معدن الرجال!

وطلب منّي أن أعدّ مقابلة بينه وبين نفرتيتي ففعلت بعد أن زوّدت ابنتي بالوصايا. ولٰكنّها والحقّ يقال لم تكن في حاجة إلى وصاياي فأسمعته كلامًا جميلًا دون أن تكشف عن سرّ أو تلتزم بعهد. واعتقد أنّ عداء الكهنة لابنتي بدأ مع تلك المقابلة.

وقالت لي نفرتيتي:

ـ لم تكن مقابلة يا أبي ولٰكنّها كانت مبارزة غير معلنة، الداهية يدافع عن الإمبراطوريّة على حين أنّه يدافع في الواقع عن نصيب معبده من الأغذية والكساء والخمور.

وتراكمت في الأفق سحب الكآبة، واشتدّ النزاع بين الملك ووليّ العهد، وأخيرًا استدعاني الملك وقال:

ـ أرى أن يقوم الأمير برحلة في أرجاء الإمبراطوريّة ليخبر بنفسه الحياة والناس . . .

فقلت باقتناع:

ـ فكرة طيّبة يا مولاي!

كان الملك يقضي في ذٰلك الوقت أسعد أيّامه الأخيرة مع عروس في سنّ أحفاده هي تادوخيبا بنت توشراتا ملك ميتاني، وإن كانت وبالًا على صحّته!. أمّا إخناتون فقد غادر طيبة مصحوبًا ببعثة من صفوة الرجال. كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة. سعى إلى عبيده في الميادين والحقول ملقيًا عليهم مودّة وبشاشة أذهلتهم، وكانوا ولا شكّ يتوقّعون أن يمثلوا بين يدي إلٰه جبّار ينظر إليهم من عَلُ أو لا ينظر إليهم على الإطلاق. ودعا إلى لقائه رجال الدين في الولايات المختلفة ولم يَنِ عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التي تبيح تقديم قرابين من البشر. وبشّر بإلٰهه الواحد، القوّة الكائنة في قلب الوجود، الخالقة للجميع على سواء والتي لا تفرّق بين رعاتهم ونبلاء مصر. كما دعا إلى الحبّ والسلام والسرور مؤكّدًا أنّ الحبّ هو قانون الحياة، وأنّ السلام هو الهدف، وأنّ السرور هو شكر المخلوق لخالقه.

في كلّ مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونيّة. وبلغ منّي الذعر مداه فقلت له:

ـ أيّها الأمير، إنّك تقتلع الإمبراطوريّة من جذورها، وتنثرها في الهواء.

فتساءل ضاحكًا:

ـ متى يدخل الإيمان قلبك يا معلّمي؟

فقلت بمرارة:

ـ لقد هاجمت الديانات التي جرى أجدادي على احترامها، وأعلنت المساواة والحبّ والسلام، ولن يعني هٰذا بالنسبة للرعايا إلّا فتح باب التمرّد وشقّ عصا الطاعة . . .

وتفكّر مليًّا ثمّ تساءل:

ـ لماذا يؤمن العقلاء بالشرّ بكلّ هٰذه القوّة؟!

فقلت بتسليم:

- نحن نؤمن بالواقع.

فقال باسمًا:

- يا معلّمي، سأعيش في الحقّ إلى الأبد . . .

وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم أمنحتب الثالث.

* * *

وهنا سرد عليّ أنباء العودة، والجنازة، وجلوس الأمير على عرش أجداده باسم أمنحتب الرابع، ونفرتيتي شريكته بوصفها الملكة العظمى، وكيف دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا إيمانهم به، وكيف عيّن نتيجة لذلك ماي قائدًا لجيش الحدود، وحور محب قائدًا للحرس، وهو - آي - مستشارًا للعرش. وقد ورث الملك حريم أبيه كالمتّبع فأحاطه بالرعاية والزهد! كما أمر بتخفيف الضرائب وبإحلال الحبّ محلّ العقاب. وكيف توتّر الجوّ بينه وبين كهنة آمون حتّى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له. وقد وقف آي عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمّل فقال لي:

- ستسمع عن ذلك أقوالًا متضاربة ولكن لا علم لأحد بأسرار القلوب!

وبدا أنّه شعر بأنّه مطالَب بالكشف عن سرّ قلبه هو فقال:

- عن نفسي آمنت بالإله الجديد باعتباره إلهًا يمكن ضمّه إلى بقيّة الآلهة، وكنت أرى أنّه لا يجوز التعرّض إلى حرّيّة العقيدة!

وقال معلّقًا على سياسة الحبّ إنّه قال لمولاه:

- عندما يأمن الموظّف من العقاب سيقع في الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب.

ولكنّ الملك قال له بيقين:

- ما زلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحبّ، ولن يخذلني إلهي أبدًا.

* * *

وقال آي مواصلًا حديثه:

- انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة، لم ولن ترى العين أجمل منها، وأقيمت أوّل صلاة بالمعبد القائم في وسط المدينة، وأمسكت نفرتيتي بالطنبور متألّقة الشباب والجمال وراحت تغنّي بصوت رخيم:

يا حيّ يا مُبدئ الحياة

ملأت الأرض كلّها بجمالك

وقد قيّدتنا بحبّك!

واستقبلنا أيّامًا أعذب من الأحلام، حافلة بالهناء والسرور والحبّ والرخاء. وتفتّحت القلوب حقًّا للإيمان الجديد. ولكنّ الملك لم ينسَ رسالته. وباسم الحبّ والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر. فما لبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار، حتّى اسمه غيّره، وقام برحلاته المشهورة في أنحاء البلاد داعيًا إلى دينه، دين الواحد والحبّ والسلام والسرور. وعجبتُ لاستقبال الناس له في كلّ مكان بالحماس والحبّ. وانطبعت صورته وصورة نفرتيتي في القلوب كما لم تنطبع صورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم.

ثمّ أخذت الأحزان تزحف، متردّدة أوّل الأمر ثمّ انهلّت كالشلّال. مدّت قبضتها أوّل ما مدّت إلى أحبّ بناته إلى قلبه، ابنته الثانية، ميكيتاتون الجميلة، فجزع لموتها جزعًا شديدًا، وبكاها بدموع غزيرة أشدّ ممّا بكى أخاه تحتمس في صباه، وجعل يصرخ من قلب مكلوم:

- لماذا يا إلهي . . . لماذا يا إلهي؟!

حتّى توهّمت أنّه على وشك الكفر به. ثمّ ذاعت أنباء الفساد في دواوين الحكومة والأسواق، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء. ثمّ جاءتنا أخبار الإمبراطوريّة بتمرّد الولايات وتحرّش الأعداء بالحدود حتّى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتاني . . . والد بادوخيبا. وقدّمت نصيحتي قائلًا بإلحاح:

- لا بدّ من التطهير في الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبراطوريّة . . .

ولكنّي وجدته صامدًا ثابتًا لا يتغيّر ولا ييأس. قال لي:

- سلاحي الحبّ يا آي، اصبر وانتظر . . .

كيف أفسّر هذه الظاهرة الغريبة؟

الكهنة يتّهمونه بالجنون، وبعض رجاله شاركوهم

في هٰذا الاتّهام في الأيّام الأخيرة من الأزمة. ولقد حرت في أمره ولٰكنّني رفضت وما زلت أرفض ذٰلك الاتّهام. لم يكن مجنونًا، ولٰكنّه لم يكن أيضًا مثل سائر العقلاء، كان شيئًا بين هٰذا وذاك لم أعرف كنهه. وزارتنا الملكة الوالدة تيي وسُرّ الملك بالزيارة سرورًا فاق كلّ تصوّر، واستقبلها استقبالًا لم تشهد أخت آتون له مثيلًا. ونزلت الملكة في قصر شيّد لها خصّيصًا في جنوب أخت آتون وظلّ خاليًا في انتظارها. واستدعتني فاجتمعت بها وقد ساءني أن ألاحظ تدهور صحّتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنّها الحقيقيّة. قالت:

ـ جئت لحديث طويل معه ولٰكنّي رأيت أن أمهّد لذٰلك بحديث مع رجاله.

فقلت:

ـ لم أقصّر في واجبي كمستشار أمين.

فقالت:

ـ أصدّقك يا آي، ولٰكنّ تراثنا لا يمكن أن يضيع هدرًا، ولٰكنّي أريد أن تصارحني بأمانة، هل تظلّ وفيًّا لابني مهما حدث؟

فقلت بصدق:

ـ لا يداخلك شكّ في ذٰلك.

ـ هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معيّنة ترى أنّها تعفيك من الولاء؟

فقلت بإخلاص:

ـ إنّي عضو في أسرته فلا أتخلّى عنه أبدًا.

فقالت متنهّدة:

ـ شكرًا لك يا آي، الحال خطيرة جدًّا، هل تثق في إخلاص الآخرين بنفس القوّة؟!

فتفكّرت قليلًا ثمّ قلت:

ـ بعضهم على الأقلّ لا يرتقي إليهم شكّ.

فقالت بتوجّس:

ـ يهمّني أن أسمع رأيك في حور محب خاصّة؟

فقلت دون تردّد:

ـ قائد مخلص وزميل صبا الملك...

فقالت بكآبة:

ـ هو مَن يقلقني يا آي...

ـ ربّما لأنّه صاحب القوّة ولٰكنّه لا يقلّ إخلاصًا للملك عن مري رع.

وحصل اللقاء بين تيي وبين الملك ولٰكنّها فشلت مثلنا، ورجعت إلى طيبة خائبة الرجاء، ثمّ ساءت حالتها الصحّيّة وماتت تاركة وراءها تاريخًا ملكيًّا بالغ الروعة.

ومضت الأحوال من سيّئ إلى أسوأ حتّى نفضت جميع الأقاليم عنها الولاء للملك، وبتنا محاصرين في سجن اسمه أخت آتون نحن وإلٰهنا الواحد! وشعر كلّ واحد بدنوّ الكارثة إلّا إخناتون الذي جعل يقول بكلّ ثقة:

ـ لن يخذلني إلٰهي!

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمدًا على قوّة لا قِبَل لنا بها. وكنت أنا أوّل مَن تسلّل إلى قصر الكاهن. ودهشت وأنا أتفرّس في وجهه وهو متنكّر في زيّ تاجر. وقلت له:

ـ لماذا تتخفّى وأنت تعلم أنّ الملك لا يؤذي أحدًا؟

فتجاهل قولي وقال لي بلهجة حازمة:

ـ دبّر لي لقاء مع رءوس الرجال...

واجتمع بنا في حديقة قصر الملكة الراحلة تيي، ولم يخفَ عنّا أنّه يتكلّم من موقع القوّة، وأنّه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنّه حيّة تسعى تحت أرجلنا. وقد حرتُ في تفسير سلوك الرجل لأنّني لم أكن أحسن به الظنّ. واستشففت وراءه حقيقة لم يبح بها وهي أنّه لم يكن واثقًا من ولاء كلّ جيوش الأقاليم ومشفقًا من مغبّة فوضى عسكريّة ضارية تنتهي بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن. غير أنّني اقتنعت بأنّ الخطر الذي يتهدّده لا يقلّ عن الخطر الذي يتهدّدنا، وأنّ مصر هي الخاسر في الحالين. ولم يتقوّض الاجتماع بذهابه. شعرنا جميعًا بأنّنا مطالبون باتّخاذ قرار.

ورغمًا عنّي وجدتني أسأله مقاطعًا لأوّل مرّة:

ـ مَن شهد ذٰلك الاجتماع من رجال الملك؟

فضيّق عينيه الباهتتين ثمّ قال:

ـ لم أعد أتذكّر، مضت أعوام وأعوام، ولٰكن كان بينهم حور محب وناخت وربّما توتو وزير الرسائل

أيضًا، على أيّ حال كان حور محب أوّل المتكلّمين فقال:

- إنّي صديقه وقائد حرسه!

وقلّب عينيه البنّيّتين في وجوهنا وقال بهدوء وتصميم:

- لا مفرّ من حسم الموقف لإنقاذ البلاد.

ولم ينبس أحد باعتراض. وطلبنا مقابلة رسميّة. وأدّينا فروض التحيّة التقليديّة أمام العرش. وكان إخناتون يبتسم أمّا نفرتيتي فتبدّت جامدة عاطلة من تألّقها المألوف. وابتدرّنا إخناتون:

- ليس وراءكم خيرا!

فقال حور محب:

- جئنا من أجل خير مصر يا مولاي.

فقال بهدوء ويقين:

- إنّي أعمل لخير مصر ولخير العالم كلّه.

فقال حور محب:

- البلاد على شفا حرب مهلكة، ولا بدّ من قرار حازم لتجنيبها ويلات الخراب.

فسأله الملك:

- هل لديكم اقتراح؟

فقال:

- لا مفرّ من إعلان الحرّيّة للأديان، وإصدار أمر لجيش الحدود بالدفاع عن الإمبراطوريّة . . .

فهزّ الملك رأسه المتوّج بتاج القطرين وقال:

- هٰذا يعني الارتداد إلى الكفر وما يحقّ لي أن أصدر قرارًا إلّا تنفيذًا لإرادة إلٰهي الخالق الواحد.

فقال حور محب بجرأة:

- من حقّك يا مولاي أن تحتفظ بعقيدتك ولٰكن عليك في تلك الحال أن تتنازل عن العرش. .

فقال بإصرار وعيناه تتوهّجان كضوء الشمس:

- هيهات أن أرتكب خيانة في حقّ إلٰهي المعبود بالتخلّي عن عرشه!

وحوّل إخناتون عينيه إليّ فشعرت بأنّني أغوص في أعماق الجحيم ولٰكنّني قلت:

- إنّه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك.

فقال الملك بأسًى:

- اذهبوا بسلام.

ولٰكنّ حور محب قال:

- بل نترك لك مهلة للتأمّل.

وغادرت قاعة العرش مع مَن غادرها وأنا أعاني من وخز قلق لعلّه لم يفارقني حتّى اليوم. وفي أيّام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة. هجرت نفرتيتي القصر الفرعونيّ واعتزلت في قصرها شماليّ أخت آتون. وقابلتها مستطلعًا ولٰكنّها قالت لي بإيجاز غامض:

- لن أغادر قصري حتّى الموت.

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذٰلك. أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه سمنخ رع شريكًا له على عرشه، غير أنّ كهنة طيبة بايعوا توت عنخ آمون الأخ الثاني ملكًا معلنينَ بذٰلك عزلهم لسمنخ رع وإخناتون نفسه، وبدا أنّه لا خيار فإمّا التسليم بالأمر الواقع وإمّا الحرب. وقابل حور محب الملك فوجده مصرًّا على موقفه، وقال له:

- لن أخون إلٰهي، وهو لن يخذلني، سأصمد في مكاني ولو وحدي . . .

فقال له حور محب:

- نستأذنك يا مولاي في هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة، بذٰلك تعود الوحدة للبلاد ويختفي شبح الخراب، وأتعهّد لك بأنّه لن يمسّك الأذى حيًّا أو ميتًا، وما دفعنا إلى ذٰلك إلّا الرغبة في إنقاذ البلاد وإنقاذك.

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس:

- افعلوا ما بدا لكم، لن ألومكم على ضعف إيمانكم، ولست في حاجة إلى حماية أحد فإلٰهي معي، وهو لن يخذلني . . .

ونفّذنا قرارنا في وجوم وحزن، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتّى خلت من الأحياء، إلّا إخناتون في قصره، ونفرتيتي في قصرها، ونفر من الحرّاس والعبيد. وما لبث أن غزا المرض الجسد الذي لم يعرف الراحة مذ شبّ على قدميه، فمات وحيدًا، وكان يغمغم وهو يحتضر:

يا خالق الجرثومة في المرأة
وصانع النطفة في الرجل

ومعـطي الحياة للوليـد في بـطن امّـه
لايـعـرف الـوحـدة مَـن يـذكـرك
وإذا غـاب عـنـك الـوعـي
صـارت الأرض في ظـلمـة
كأنّها موات

وسكت آي ليستردّ ذاته من تيّار الذكريات، ثمّ نظر نحوي بعطف وقال:

ـ هٰذه هي قصّة إخناتون الذي يدعى اليوم إذا ذُكر بالمارق وتُصَبّ عليه اللعنات. ولا أستطيع أن أهوّن من الخسائر التي حاقت بالبلاد بسببه فقد خسرت إمبراطوريّتها ومزّقتها الخلافات، ولكنّي أعترف لك بأنّني لا أستطيع أيضًا أن أنزع من قلبي حبّي له وإعجابي به، فلندع الحكم النهائيّ عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبديّ.

* * *

وغادرت قصر الحكيم آي وأنا أعتقد أنّ الحكم النهائيّ عليه هو أيضًا لن يعرف إلّا حين يوضع قلبه فوق كفّة الميزان أمام عرش أوزوريس.

«حور محب»

متوسّط القامة، متين البنيان، ذو مظهر يوحي بالقوّة وصدق العزيمة، سليل أسرة كهنوتيّة متوسّطة بمنف غنيّة بمَن عُرف من رجالها من أطبّاء وكهنة وضبّاط، وكان أبوه أوّل من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة «رئيس الجياد» في بلاط أمنحتب الثالث. وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذي احتفظ بوظيفته كقائد للحرس في العهد الجديد، ووكل إليه بمهمّة القضاء على الفساد في داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز في ذٰلك نجاحًا مرموقًا. وقد شهد له كاهن آمون الأكبر، وصدّق على ذٰلك الحكيم آي، بأنّه كان بطل اللحظة الحرجة في مأساة العهد البائد. استقبلني في قاعة استقباله المتّصلة بحديقة القصر، وأنشأ يحدّثني عن «المارق» قائلًا:

ـ كان رفيق صباي، وصديقي، قبل أن يصير مليكي، ومذ عرفته وحتّى الساعة التي ودّعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله في هٰذه الدنيا سوى الدين.

وراح يستجمع أفكاره مليًّا ثمّ استمرّ قائلًا:

ـ أوليته الاحترام الذي يستحقّه مذ عرفته، ذٰلك أنّي ربّيت على تقديس الواجب، وعلى وضع الشيء في موضعه بصرف النظر عن عواطفي الشخصيّة، وكان هو وليّ العهد وكنت أنا أحد رعاياه، فلزمني احترامه، أمّا باطني فقد احتقره، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة في وجهه وجسده، ولم أتصوّر أن أكون صديقًا حقيقيًّا، غير أنّ الواقع أنّني صرت صديقه بكلّ معنى الكلمة. وإنّي لأتساءل كيف كان ما كان؟. ربّما لأنّني عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذّبة ذات السحر النافذ. كان ذا مقدرة عجيبة على اصطياد القلوب وأسْر النفوس، ألم يهتف له الشعب وهو يدعوه إلى الكفر بآلهة الآباء والأجداد؟. وكنّا ـ هو وأنا ـ على طرفَي نقيض، فلم يمنع ذٰلك عواطفنا من أن تتجسّد في صورة صداقة متينة، صمدت للأعاصير حتّى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر. إنّي أسمعه وهو يقول لي باسمًا:

ـ حور محب، أيّها الوحش المتعطّش للدماء، إنّي احبّك.

وعبثًا حاولت أن أعثر على شيء مشترك بيننا. دعوته كثيرًا إلى الصيد وهو رياضتي المفضّلة فكان يقول لي:

ـ لا تدنّس الحبّ الذي ينبض به قلب الوجود.

لم يكن يعجب بالزيّ العسكريّ فكان يرمق سروالي القصير وقلنسوتي وسيفي ويتساءل متهكّمًا:

ـ أليس عجيبًا ان يدرّب أناس مهذّبون على القتل ليحترفوه بعد ذٰلك؟

حتّى قلت له مرّة:

ـ ترى ما رأي جدّك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول؟

فهتف:

ـ جدّي العظيم! أقام عظمته على هرم من جثث المساكين، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدّم القرابين من الأسرى إلى آمون، فأيّ جدّ عظيم وأيّ إله دمويّ..

وقلت لنفسي إنّه يُقبَل كصديق رغم شذوذ آرائـه ولٰكن كيف يجلس بها على العرش؟!. لم أستطع أبدًا أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر، ولم أتحوّل عن رأيي هٰذا في أيّ وقت من الأوقات، ولا أستثني من ذٰلك أهنأ الأوقات وأحفلها بالسرور، بل لعلّه تبدّى لعينيّ في تلك الأيّام السعيدة أوغل في البعد عن هيبة الفراعنة ومجدهم الخالد. وحدث أن انتدبتُ لتأديب بعض العصاة في طرف من أطراف الإمبراطوريّة قائدًا لأوّل مرّة لحملة عسكريّة. وهناك أحرزت نصرًا حاسمًا فرجعت بالغنائم والأسرى. ونلت الجزاء تكريمًا نبيلًا من مـولاي أمنحتب الثالث. وهنّـأني الأمير بسلامة العودة فدعـوته لمشـاهدة الأسرى. استعـرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون في الأغلال. رنا إليهم طويلًا فنظروا نحوه مستعطفين كأنّما لمسوا الضعف في أعماق نظرته. وأظلّت وجهه غمامة كآبة وقال لهم برقّة:

ـ اطمئنّوا فلن يمسّكم أذى!

وهـاج خـاطـري لأنّني كنت عـلى يقـين من أنّهم سيلقون ألوانًا من التأديب حتّى يتعـوّدوا على النظام والعمل. ولمّا رجعنا معًا سألني باسمًا:

ـ أأنت فخور بما صنعت يا حور محب؟

فقلت بصراحة:

ـ إنّي أستحقّ ذٰلك أيّها الأمير.

فتمتم في غموض:

ـ يا لها من مشكلة!

ثمّ ضحك قائلًا في دعابة:

ـ ما أنت إلّا قاطع طريق يا حور محب!

ذٰلك كان وليّ العهد المرشّح للجلوس على العرش. على ذٰلك فقد شدّني إلى صداقته وحبّه، وأغراني دائمًا بمتابعة أفكاره التي لم أتأثّر بها قطّ، كمن يتابع صوتًا غريبًا لا ينتمي للبشر. وما زلت حتّى الساعة أتساءل في حيرة كيف صادقته وكيف أحببته؟! وبهٰذه المناسبة أذكر مناقشة دينيّة جرت بيننا أمام خلوته بحـديقة القصر الملكيّ. سألني:

ـ لماذا تصلّي يا حور محب في معبد آمون؟

فـأخذت للسؤال، خـاصّة وأنّني لم أملك إجـابـة ترضيه أو ترضيني. ولمّا وجدني صامتًا سألني:

ـ هل تؤمن حقًّا بآمون وما يقال عنه؟

فتفكّرت قليلًا ثمّ قلت:

ـ لا كما يؤمن الناس به!

فقال بجدّيّة:

ـ إيمان أو لا إيمان، ولا ثالث بينهما.

فقلت بصراحة:

ـ لا أهتمّ بـالدين إلّا بـاعتباره من تقـاليـد مصر الراسخة.

فقال بثقة مثيرة:

ـ إنّك تعبد ذاتك يا حور محب.

فقلت بتحدٍّ:

ـ قل إنّي أعبد مصر.

ـ ألم يساورك إغراء لمعرفة سرّ الوجود؟

فقلت بمرارة:

ـ إنّي أعرف كيف أحتق هٰذا الإغراء.

ـ يا للخسارة، وماذا فعلت من أجل روحك؟

فقلت متبرّمًا بالمطاردة:

ـ إنّي أقدّس الواجب، وقد شيّدت لي مقبرة!

فقال متنهّدًا:

ـ أتمنّى يومًا أن تذوق سرور القُرْب.

فتساءلت في دهشة:

ـ القرب؟

ـ القرب من خالق الوجود الواحد.

فتساءلت في شيء من الاستهانة:

ـ ولم يكون واحدًا؟

فقال بهدوء:

ـ إنّه أقوى وأجلّ من أن يوجد شريك له.

ذٰلك الشابّ المهزول، الذي يتجنّب القصر ويهيم بالحديقة. المولع بالأزهـار والغناء والـطيور مثـل فتاة مهذّبة. لِمَ لَمْ يُخلق أنثى؟. لقد همّت الطبيعة بأن تفعل ذٰلك ولٰكنّها عدلت عنه في اللحظة الأخيرة لسوء حظّ مصر.

وسكت حور محب وقتًا ثمّ واصل الحديث:

ـ وتوكّد مصيره بزواجه من نفرتيتي. ظهرت لأوّل مرّة في القصر الفرعونيّ في الاحتفال بمرور ثلاثين عامًا على جلوس الملك على العرش فبهرت الأعين بجمالها

وشخصيّتها، واشتركت في الرقص مع بنات السادة، وغنّت بصوت رخيم:

أخي ما أحلى الذهاب إلى البحيرة
والاغتسال على مرأى منك
لترى جمالي في ثوبي الكتّانيّ الرقيق
حينما يبتلّ ويلتصق بجسدي
تعال وانظر إليّ

ولا أشكّ أنّ آي وتي زوجته أحسنا تقديم كريمتهما، ومهّدا لها الطريق إلى العرش. ولا تنسَ أنّ آي كان معلّم الأمير ومرشده فلاحت له ولا شكّ الفرص للتأثير في شخصيّة ضعيفة متهالكة وإيقاعها في الشرك. على أيّ حال فازت نفرتيتي في الحفل بإعجاب الأمير وأمّه الملكة تيي معًا. وسرعان ما زفّت نفرتيتي إلى الأمير. وأذكر أنّ كاهن آمون قال لي في حفل الزفاف:

ـ لعلّ الزواج يُصلح ما أفسده تهوُّر الشباب.

فقلت له ببرود:

ـ إنّها كما ترى من أصل شعبيّ، وما كانت تحلم بالعرش، ولن تجازف أبدًا بإغضاب زوجها الملك!

وقد ساءلت نفسي ترى أكانت نفرتيتي ترضى بالأمير زوجًا لو لم يكن وليًّا للعهد؟!. الحقّ أنّه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أيّ فتاة ولو كانت فلّاحة ساذجة. وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحدّيًا للتقاليد. وعلمت متأخّرًا بعض الوقت بادّعاءاته الغريبة عن تجلّي إلٰهه له وسماع صوته، ورأيت المستقبل يتسربل بليل بهيم. وبازدياد التوتّر غضب الملك أمنحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطوريّة.

***

هنا حدّثني بإسهاب عن مناقشاته الدينيّة، واتّصاله بالرعايا وتبشيره بالمساواة والحبّ والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدّثني به الحكيم آي.

* * *

وقال معلّقًا على الأحداث:

ـ ولأوّل مرّة، ورغم الصداقة والولاء، تمنّيت أن أقتله بسيفي قبل أن يجلب علينا الخراب. والحقّ أنّي تمنّيت قتله دون أن أضمر له أيّ شعور بالكراهية.

ومات أمنحتب الثالث واستدعي الأمير للجلوس على عرش تحتمس الثالث. وتولّى العرش ودعا الرجال واحدًا في إثر واحد ليعرض عليهم دينه. ولّما جاء دوري قال لي:

ـ لا بدّ من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معي يا حور محب.

وبصراحتي المعهودة قلت له:

ـ مولاي، موقفي من الآلهة معروف لديكم، ولٰكنّي رجل الواجب وخادم العرش، وإنّي أعلن إيماني بالإلٰه الواحد إخلاصًا لعرشك وخدمة لوطني . . .

فقال باسمًا:

ـ حسبي ذٰلك الآن، لا أحبّ أن يخلو قصري منك يا حور محب، وسوف تتلقّى رحمة الإيمان ذات يوم.

وبدأت حياة جديدة في خدمة ملك جديد وإلٰه جديد، وبإخلاص كامل غريب لأنّه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره. ولٰكن لا مفرّ من الاعتراف بأنّ الملك تكشّف عن قوى خفيّة لم أعرفها فيه من قبل. رغم الضعف الجسديّ والأنوثة الخلقيّة انطلقت منه عزيمة متحدّية مثل ألسنة اللهب لا تدري من أيّ مجهول استعارها، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة، وحطّم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويذ. وتكشّفت نفرتيتي عن ملكة كأنّما لم تخلق إلّا كي تكون ملكة عظمى مثل تيي وحتشبسوت، فكانت هي المدبّرة لشئون الملك على حين تفرّغ هو لرسالته. بيد أنّها بدت لي ـ وللجميع ـ مؤمنة بالدين الجديد إيمانًا فاق للأسف كلّ تصوّر. والحقّ لقد قيل عن هٰذه المرأة كلّ ما يمكن أن يقال، وأنا أكره شخصيًّا ترديد ما يقال عن الأمور الشخصيّة، ومع ذٰلك فإنّ إيمانها يبقى لغزًا يطلب حلًّا. أحيانًا لم أشكّ في صدقها، وأحيانًا أخرى ساورتني شكوك. هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع؟. هل تشجّعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا؟، أكان لأبيها في ذٰلك دور خفيّ لعبه بيد ابنته؟. وقد حاول الكهنة أن يبصّروها بالعواقب ولٰكنّها خيّبت رجاءهم فصبّوا عليها مقتهم حتّى هٰذه الساعة. إنّهم آمنوا بضعف

إخناتون ولم يتصوّروا به قدرة على التحدّي أو النضال أو الابتكار. من أجل ذلك اتّهموا أمّه تيي بأنّها خالقة أفكاره كما اتّهموا نفرتيتي بأنّها سرّ عناده وصلابته. وهي صورة خاطئة. لك أن تدين الجميع ولكن لا شكّ أنّ جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه. وبالانتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة. وانغمس في التبشير لدينه في جميع الأقاليم. وهادنتنا أيّام نصر وسعادة ورخاء حتّى خيّل إليّ أنّ هٰذا الشابّ المتهافت قد قيّض له أن يقوّض بنيان الدنيا وأنّه يعيد بناءه من جديد على مثال من صُنْعه وتخطيطه. تابعتُ غزواته للأقاليم واستقبال الجموع له بانبهار. آنستُ في الجوّ قوّة من نوع جديد تمارس بجدارة مذهلة. ولٰكنّني لم أخل أبدًا من شكّ في العالم الجديد الذي يتخلّق فيما يشبه الاكتساح. أيصمد هٰذا العالم للزمن؟. هل يمكن أن تتوازن الأمور على سنّة الحبّ والسلام والسرور؟!. وأين تذهب حقائق الحياة وتجاربها؟. وقالت لي نفرتيتي مرّة وهي قارئة للأفكار:

ـ إنّه مُلْهَمٌ، ولن يخذله إلٰهه الذي أغدق عليه حبّه، وسيكون النصر لنا...

وانفردتُ يومًا بالوزير ناخت في مجلس صفو وشراب، وكنت وما زلت مؤمنًا بمقدرته السياسيّة، فسألته:

ـ أتؤمن حقًّا بالإله الواحد، إله الحبّ والسلام؟

فقال بهدوء:

ـ نعم، ولٰكنّي لست مع مصادرة الآلهة الأخرى.

فقلت بارتياح:

ـ حلّ وسط، ألم تُشِرْ عليه به؟

ـ بلى، ولٰكنّه يعتبره كفرًا.

ـ ونفرتيتي؟

فقال بأسف:

ـ إنّها تتكلّم بلغته!.

* * *

ومضى يحكي لي في إسهاب كيف انقلبت الأمور في الداخل والخارج دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آي.

ثمّ قال:

ـ وعند ذاك نصحته قائلًا: «علينا أن نغيّر من سياستنا»، ولٰكنّه كان يتصدّى لأيّ خطوة توحي بالتراجع، وينتشي بالحماس، فقال لي:

ـ يجب المضيّ في المعركة الإلٰهيّة حتّى نهايتها، ولن يكون لها إلّا نهاية واحدة هي النصر!

وربّت على منكبي بعطف ثمّ واصل:

ـ لا تشارك التعساء إصرارهم على حبّ التعاسة!

ولّما ازدادت الحال سوءًا تمنّيت مرّة أخرى أن أقتله بسيفي وأنقذ البلاد من جنونه. تمنّيت أن أقتله باسم الحبّ والولاء. وتبيّن لي أنّ ما حسبته قوّة جبّارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ما هي إلّا جنون أهوج يجب حصره وشكمه. وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تيي، واستدعتني إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون. وقالت لي:

ـ سيكون لي حديث طويل مع الملك.

فقلت لها بكلّ إخلاص:

ـ لعلّك توفّقين فيما فشلنا فيه.

فرمقتني بنظرة كنت خبيرًا بعمقها وسألتني:

ـ هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأي جديد في الموقف؟

فأجبتها من فوري لسابق علمي بتأويلاتها للتردّد الذي قد يسبق الإجابة:

ـ اقترحت يا مولاتي تغيير السياسة في الداخل والخارج.

فقالت بارتياح:

ـ هٰذا ما يُنتظر من المخلصين أمثالك.

ـ إنّه مليكي وصديقي كما تعلمين يا مولاتي...

فواجهتني بنظرة صريحة وسألتني:

ـ هل تعدني يا حور محب بالمحافظة على الولاء له في جميع الظروف والأحوال؟

فقلت وعقلي يعمل بسرعة فائقة:

ـ أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال.

فقالت بارتياح غير خافٍ:

ـ إنّهم يطالبون برأسه، وإنّك رجل القوّة التي تحافظ عليه، وربّما سعوا إلى استقطابك عاجلًا أو آجلًا.

فكرّرت وعدي بالصدق والإخلاص. وقد حافظت على عهدي عندما اقتنعت بأنّ خير وسيلة للدفاع عنه هي التخلّي عنه. وفشلت تيي في مسعاها رغم ما عُرف عنها من سيطرة كاملة عليه. وغادرت أخت آتون لتموت في حسرة أبديّة. وضُيّق الخناق علينا في مدينة الإله الجديد، وتوكّد لديّ أنّ الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلًا عن محبوبه المختار. وذقنا الحرمان وتهدّدنا الموت من الشمال والجنوب. ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعلّه زاده إصرارًا وعنادًا، ولم تنطفئ نشوته الدينيّة فكان يقول لمحدّثه:

- لن يخذلني إلهي يا ضعيف الإيمان.

وكلّما رأيت وجهه المتألّق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من جنونه. لم تكن معركة دينيّة كما تجري في الظاهر ولكنّها كانت فوضى جنونيّة تحتدم في رأس رجل وُلد في هالة من الشذوذ. ثمّ كانت زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا، وقد قبض على يدي بقوّة وقال لي:

- إنك رجل الواجب والقوّة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك.

والحقّ أنّي أكبرت في الرجل ارتفاعه عن التشفّي والانتقام وسعيه إلى تجنيب البلاد ويلات المزيد من الخراب. وطلبنا المقابلة. كانت عسيرة وأليمة وحزينة. كنّا ننفض عنّا الولاء نحو الرجل الذي لم يكن لشيء سوى الحبّ. الذي صوّر له جنونه حلمًا عجيبًا أراد لنا أن نشاركه في سعادته الوهميّة. واقترحت عليه إعلان حرّيّة الأديان والدفاع الفوريّ عن الإمبراطوريّة. ولّما رفض اقترحت عليه أن يتخلّى عن العرش ويتفرّغ لنشر دينه. وغادرناه ليعيد النظر في الموقف كلّه. وقد أشرك سمنخ رع في عرشه على حين هجرته نفرتيتي ولكنّه لم يتراجع خطوة عن إصراره. وقرّرنا التخلّي عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن، بعد الاتّفاق على ألّا يتعرّض له أحد - ولا لزوجه - بأذًى. وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطّع لها قلب مصر، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة عريقة!

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسّق أوراقي تأهّبًا للذهاب. غير أنّني سألته:

- كيف تفسّر هجر نفرتيتي له؟

فأجاب دون تردّد:

- لقد أدركت ولا شكّ أنّ جنونه جاوز خطّ الأمان فهجرت قصره محافظة على حياتها!

- ولِمَ لَم تهجر المدينة معكم؟

فقال بازدراء:

- كانت على يقين من أنّ الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصليّ في الجريمة الكبرى!

فسألته وأنا أحيّيه مودّعًا:

- وكيف مات؟

- عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة، واهتزّ إيمانه ولا شكّ بتخلّي إلهه عنه، فمرض أيّامًا قليلة ثمّ مات.

فسألته بعد شيء من التردّد:

- كيف تلقّيت خبر موته يا سيّدي القائد؟

فأجابني متجهّمًا:

- لقد قلت كلّ شيء!

«بك»

يعيش المثّال بك في جزيرة نيليّة على مبعدة ميلين جنوب طيبة. في بيت أنيق يقع في وسط مزرعته الصغيرة، وفي شبه عزلة. ورغم ما يُشهد له به من تفوّق في فنّه إلّا أنّه لم يُدْعَ للمشاركة في بناء الدولة الجديدة لما عُرف عنه من ولاء لسيّده السابق، بل ولما يُتّهم به أحيانًا من الكفر بالآلهة القديمة. وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره، طويل القامة نحيلها مع قوّة ونشاط، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاها كآبة. تبسّم وهو يقرأ رسالة أبي ثمّ نظر إليّ قائلًا:

- انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم!

وقد عرفته وأنا صبيّ أتلقّى أصول الصنعة في مدرسة أبي «من» المثّال الأكبر للملك أمنحتب الثالث. فذات يوم زارنا صبيّ محمولًا على محفّة، فهمس أبي في أذني:

- وليّ العهد!

رأيت صبيًّا يماثلني في العمر، نحيلًا ضعيفًا، ذا نظرة شديدة التأثير، بسيطًا بشوشًا، مغرمًا بلغة الأحجار المعجزة. جاء ليشاهد ويتعلّم، ويحاور في ألفة محبّبة سرعان ما تُنسيك أنّك تحادث ابنًا من سلالة الآلهة. واظب على زيارتنا في أيّام معيّنة فنشأت بينه وبيني صداقة، باركها أبي فخورًا وسعدت بها أنا غاية السعادة. وجعل أبي يقول لي عنه:

- إنه رجل ناضج ذو سنّ صغيرة يا بك!

أجل كان كذلك. حتّى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكّر وإن فسّره على هواه بأنّه قوّة شرّيرة حلّت فيه. كلّا يا سيّدي. القوّة الشرّيرة معشّشة في قلوب الكهنة. أمّا سيّدي ومولاي فلم يعرف الشرّ قلبه وربّما كان ذلك سرّ مأساته. ولّما تقدّم به العمر سنوات أخذ يناقش أبي وهو مكبّ على صنع تمثال لأمنحتب الثالث. قال له وهو يتابع العمل بين أبي ومعاونيه:

- لكم تقاليد يا معلّم تخنق الأنفاس...

فقال أبي بفخار:

- بالتقاليد نقهر الزمن أيّها الأمير.

فهتف مولاي بنشوة:

- مع مولد كلّ شمس يولد جمال جديد...

واقترب منّي وهمس:

- يا بك، لن يكون هذا تمثالًا أمينًا لأبي، أين الحقيقة؟!

الحقيقة التي عاش من أجلها ومات في سبيلها. منذ وقت مبكّر انثالت على روحه إلهامات الغيب، كأنّما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها.

ويومًا ما قال لي:

- إنّي أحبّك يا بك، أتقنْ درسك لتكون رَجُلي في حقل الإبداع.

الحقّ يا سيّدي أنّي مدين لمولاي وسيّدي بكلّ شيء، بالدين والفنّ معًا. إنّه الذي وجّه مداركي لدين آتون، وفتح قلبي بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذي تجلّى له صوته بالإيمان والحبّ:

تضيء الأرض بنورك
فتنجلي عنها الظلمات
يا خالق الأرض والسماء
والإنسان والأنعام

وغمرني السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة:

- أشهد يا أميري، أنّي مؤمن بإلهك...

فقال بحبور:

- إنّك ثاني المؤمنين بعد مري رع ولكن ما أكثر الأعداء يا بك.

وعلمت فيما بعد أنّ نفرتيتي آمنت معنا في وقت واحد وهي في قصر أبيها آي. وكان يحدّثني في أوقات متباعدة عمّا يلقى من عناء بسبب رسالته فكنت ألمّ بشذرات من الأحداث رغم عزلتي في المحجر خارج طيبة. وهداني إلى الفنّ الحقيقيّ أيضًا. فإن كان أبي هو الذي علّمني الأصول فمولاي هو الذي وهبني الروح. لقد وهب ذاته للحقيقة في الوجود والفنّ. من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للدنيا ولا يحسنون إلّا لغتها المتبذلة، ويُقبلون معها ويدبرون معها، ويهرعون إلى أيّ مائدة مثل الصقور والغربان. مولاي نوع آخر، اسمع إليه وهو يناجي إلهه قائلًا:

- يا خالق الحيّ والجماد، خُصَّ بصري بنورك، وصدري بسرورك، وقلبي بنبضك الكونيّ العذب.

وأصغ إليه وهو يقول لي:

- احذر تعاليم الفنّ التي يريد أن يكبّلنا بها الأموات، اجعل حجرك مثوى للحقيقة!

ويقول لي أيضًا:

- لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبث بها، انقلها بأمانة، أبرزها بتقوى، لا تسلّط عليها الخوف أو الشهوة أو الأماني الكاذبة، اعكس كلّ ما بي من نقص في الوجه والجسد ليتجلّى جمالك في الحقيقة!

ذلك هو مولاي وأستاذي الذي لا يعيد نغمة قديمة، الذي يبهر بالجديد الحيّ، محطّم الأوثان، مقتلع التقاليد البالية من جذورها، السابح في بحر المجهول، المنغمس في نشوة الحقيقة. ويوم اعتلى العرش أعلنت إيماني مرّة أخرى بين يديه وتقلّدت وظيفة «المثّال الأكبر للملك». ويوم أمره الإله بالهجرة

إلى المدينة الجديدة، ذهبت على رأس ثمانين ألفًا من العمّال وأهل الصنعة لنشيّد أجمل مدينة عرفتها الأرض، مدينة النور والإيمان، أخت آتون. ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغنّاء والبحيرات المترعة، آية آيات الفنّ والجمال التي انقضّ الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن.

وسكت مرغمًا ليجترّ حزنه المقيم على رائعة حياته التي تتهاوى ساعة بعد أخرى، وتتفتّت لتضيع في زحمة تراب الأرض. واحترمت سكوته حتّى خرج منه قائلًا:

ـ وكان لمولاي إنجازه في الفنّ أيضًا فأبدع شعرًا ورسمًا، وجرّب أصابعه الطويلة الرشيقة في مناجاة الحجر، وإليك سرًّا لا يعرفه إلّا الأقلّون، فقد نحت لنفرتيتي تمثالًا نصفيًّا آية في الحقيقة والجمال، لعلّه يوجد الآن في القصر المهجور أو في قصر نفرتيتي، إن لم تكن انتقمت منه يد التخريب، وعندما هجرته الملكة بغتة مخلّفة في قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى، معربًا بذلك عن خيبة أمله مع الإبقاء على بقيّة التمثال رمزًا لحبّ خالد، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلّا في لحظة يأس أخيرة. لقد كانا معًا الرمز الحيّ للإله الذي هو أب وأمّ معًا، وكان اتّحادهما عن حبّ جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث، فكيف دهمتنا بهجر الرجل في اللحظة الأخيرة؟!. لِمَ لَمْ نبقَ إلى جانبه حتّى النهاية؟. لقد اتّهمها أعداؤها بأنّها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانًا مناسبًا في الدولة الجديدة، ولكنّها لم تخطب مودّة أحد، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحوّل إلى سجن. كلّا، لا تنتمي مولاتي إلى الانتهازيّين، ولكنّي أعتقد أنّ إيمانها اهتزّ لموقف الإله اللامبالي من الأحداث، فهجرت العرش والعقيدة في ساعة يأس سوداء. أمّا مولاي فلم يتزحزح عن إصراره قيد حبّة رمل. كيف لا وهو الذي تجلّى الإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب؟! لم يعدْ وجدانه يتّسع لسماع صوت آخر، ولم يعد يكترث لرأي أو نصيحة كما ينبغي لمنغمس في الحقيقة. وهو لم ينهزم ولكنّنا نحن الذين انهزمنا، فحتّى أنا خامرتني شكوك، خاصّة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش، وأكثر عندما قرّر الجميع التخلّي عنه. وجدته واقفًا في خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء والصمت. ولمّا رآني قال:

ـ سوف تذهب معهم يا بك.

فقلت بغضب:

ـ لم يجرؤ أحد على مخاطبتي في ذلك يا مولاي.

فقال باسمًا:

ـ ولكنّك ستذهب يا بك.

فقلت بحماس:

ـ سأبقى إلى جانب مولاي إلى الأبد.

فقال برقّة:

ـ ستذهب مختارًا أو مكرهًا . . .

ولذت بالصمت فخامرني الشكّ من جديد فسألته:

ـ مولاي، أيمكن أن ينتصر الشرّ؟

فرأيته يغيب ثمّ يرجع ليقول لي:

ـ الخير لا ينهزم، والشرّ لا ينتصر، ولكنّنا لا نشهد من الزمان إلّا اللحظة العابرة، والعجز والموت يحاولان بيننا وبين رؤية الحقيقة.

وراح يترنّم بصوت عذب:

إنك في قلبي
وليس هناك من يعرفك غير ابنك
فأنت الذي علّمته
والأرض في قبضة يدك

وكما أنّه لم يتخلّ عن إيمانه لحظة فلم يفرّط أبدًا في ناموسه الأسمى وهو الحبّ. فحتّى في تلك الساعة التي رأى فيها الهرم الذي شيّده يتهاوى حجرًا في إثر حجر، ورجاله ينضمّون إلى أعدائه، وزوجته المحبوبة تهجره دون كلمة وداع، حتّى في تلك الساعة المنحوسة لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد، ذلك الرجل الذي ترفّع حتّى عن العقاب المشروع، الذي هام بالإنسان والحيوان والجماد. انظر يا سيّدي، لقد تولّى المُلك في عصر الرخاء، دانت له إمبراطوريّة مترامية وشعب محبّ مطيع، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما عزّت عليه، ولكنّه أعرض عن ذلك كلّه، واهبًا ذاته للحقيقة، متحدّيًا قوى الشرّ والأنانيّة والطمع، فضحّى بكلّ شيء وهو يبتسم. وقد سألته يومًا بعد أن ذرّت قرون الشرّ والهمجيّة:

- مولاي، لِمَ لا تلجأ إلى القوّة دفاعًا عن الحبّ والسلام؟

فقال لي باسمًا:

- لا يتردّد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة في البطش وسفك الدماء، ولست منهم يا بك.

ولن أنسى عطفه على شخصي حينما آنس منّي ميلًا إلى «موت نجمت» أخت زوجته فسعى إلى تزويجي منها، وكيف واساني عندما أبت الزواج منّي قائلًا:

- إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها!

واستفسرت عمّا يعنيه قوله ولكنّه لم يزد. وقد صمّمت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلّها للهجرة، ووجدت رفيقًا مصمّمًا في كاهن الإله الواحد مري رع، ولكنّ الحكيم آي قابلني وقال لي:

- إنّنا نهاجر لصدّ هجوم لا قِبل لنا به دفاعًا عن حياته، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذٰلك الإنسان، فإنّي حموه ومعلّمه!

فقلت:

- أيّها الحكيم، إنّ بقائي لن يغيّر من الأمر شيئًا.

فقال:

- ينصّ الاتّفاق بيننا وبين الكهنة على ألّا يُمسّ الملك بأذى تحت شرط ألّا يبقى أحد من أتباعه في المدينة سوى نفر من الخدم.

هٰكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبي يتمزّق، وما زال يتمزّق حتّى الساعة. وما زال الشكّ ينخر في إيماني رغم قول مولاي الحكيم، فأحيانًا أصلّي للإله وأحيانًا أُضرب عن الصلاة. ولّما بلغني نبأ وفاته تجدّدت أحزاني وبكيت حتّى صفيت ماء عينيّ. وقد حدّثني قلبي بأنّه لم يمت ولكنّهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة. وها أنا أعيش بلا هدف أو سرور في انتظار الموت مثل مدينتي الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن.

«تادوخيبا»

هي في الأصل ابنة توشراتا ملك ميتاني أصدق صديق للعرش المصريّ. تزوّج منها أمنحتب الثالث في أيّامه الأخيرة، وهو في الستّين وهي في الخامسة عشرة، ثمّ ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش. وهي تعيش اليوم في قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد. وقد استقبلتني بناء على توصية من حور محب. في الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة. ولقيتها في حجرة فاخرة وهي تجلس على كرسيّ من الأبنوس المطعّم بالذهب. شجّعتني بابتسامة وراحت تروي قصّتها قائلة:

- عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة، في جوّ مشحون بالغيرة والحقد. وعجبت للملكة العظمى تيي، كيف تبوّأت مركزها الرفيع، على حين يوجد عشرات مثلها ممّن يقمن بالخدمة في حريم أبي الملك العظيم توشراتا. وعجبت أكثر لمنظر وليّ العهد الذي كنت أراه في الحديقة، أيّ مخلوق هزيل قبيح يثير الاحتقار أكثر ممّا يثير العطف. وساءت صحّة الملك الأب فاتّهمني الحاقدون بأنّني المسئولة عن ذٰلك، والحقّ أنّي قرأت النهاية القريبة في صفحة وجهه المتغضّن منذ الليلة الأولى. ورحت أفكّر هل يرثني قريبًا ذاك الصبيّ الحقير؟! وقلت لنفسي إنّ الحياة مع أبيه العجوز أفضل، فهو عظيم ومرح وذو حيويّة تناقض سنّه وصحّته. وكثيرًا ما كان الحديث يدور حول وليّ العهد في الحريم، فنتندّر بولعه بالفنون النسائيّة كالرسم والغناء، وعدم لياقته الواضحة للعرش، وزهده المريب في النساء. ووافتنا أخباره عن هوسه الدينيّ وما يحدثه ذٰلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من قلق ومخاوف. وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز في وجداننا، فهموم النساء اليوميّة تغطّي على شئون الدولة، إلّا موت الملك الذي هزّ الأعماق وفرض علينا طقوسًا لا طاقة لنا بها. واعتلى المخلوق الحقير العرش هو ونفرتيتي التي تزوّجها في حياة أبيه، وآل إليه حريم أبيه. وأسبغ علينا رعايته كأنّنا حيوانات مستأنسة

ولكنّه لم يقترب منّا حتّى شاع بين النساء الآتيات من شتّى الأمم الانحلال والشذوذ. وتساءلت امرأة:

ـ لماذا لا يهتمّ بنا ويكفّ عن معاركه الدينيّة الوبيلة؟

فأجابتها أخرى:

ـ لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء . . .

ومع ذٰلك فقد دبّت الغيرة في قلب نفرتيتي، فقرّرت أن تزور الحريم للتحيّة والتعارف. وخمّنت كلّ امرأة الباعث الحقيقيّ وراء الزيارة وهو أن تراني أنا عن قرب، وذٰلك لما ذاع في القصر عن جمالي وشبابي. كنت الوحيدة التي تماثلها في العمر، وتنافسها في الجمال، وتتفوّق عليها في الأصل إذ إنّني كريمة ملك على حين أنّها ابنة رجل من الشعب يدعى آي، كان أوّل مَن أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك، وأوّل مَن بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما آذنت شمسه بالغروب. جاءتنا الملكة الجديدة بين صفّين من الجواري، وحيّتنا امرأة امرأة تبعًا لأقدميّتنا في الحريم، وعندما جاء دوري ـ وكان الأخير ـ ثقبتني بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها في أدب وتحدٍّ معًا، حتّى تجلّى الركود في ماء وجهها. من أجل ذٰلك حنقت على الملكة الوالدة تيي عندما نبّهت ابنها الملك الهزيل إلى «واجبه» نحو حريمه، وخاصّة تادوخيبا ابنة الملك الصديق توشراتا.

لم تغفر لها تدخّلها، واشتعلت غضبًا حينما أذعن الملك لإرادة أمّه المحبوبة فقرّر زيارتي. وكما تقضي التقاليد انتظرته في حجرتي فوق سريري المطعّم بالذهب، عارية تمامًا، غير مُخفية حسنًا من محاسني. وأقبل شبه عارٍ إلّا من وزرة قصيرة تطوّق وسطه، فجلس على طرف السرير باسمًا في رقّة مجلّلًا بهدوء غير طبيعيّ. وهمس متسائلًا:

ـ أيسعدك أن تنجبي لي وليدًا؟

فقلت وأنا أغالب تقزّزي:

ـ إنّه الواجب يا مولاي!

فحارت في عينيه نظرة بائسة وهمس:

ـ إنّي أبحث عن الحبّ فهو واجبي الأوّل والأخير.

فسألته بجرأة:

ـ وهل ترغب فيّ عن حبّ يا مولاي؟

فربّت ظهر يدي بعطف وقال:

ـ لا عليك!

ولثم جبيني ثمّ غادر الغرفة كما جاء. ولم أبح بسرّ الليلة لأحد فظنّ النساء أنّ نفرتيتي قد خسرت نصف قلب الملك على الأقلّ. وكرّت الأيّام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطرمة في الخارج حتّى صدر القرار ببناء مدينة جديدة. وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون، وسعد جميع من حولنا، ونُبذنا في جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة، دافعة للشذوذ، ولمّا عُرف أنّ الملك الأبله يعالج الخطايا بالحبّ لا العقاب، انتشر الفسق بين الجنود والنساء، وأُهدرت جميع القيم. وراح الملك ينشر دينه الجديد في الأقاليم، واستبَقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد بغير إيمان حقيقيّ، حتّى خُيّل إليّ أنّه دين بلا مؤمنين، وأنّه كوّنَ أمّة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال. ولم أتصوّر أن يكون لهٰذا الكون الكبير إله واحد!. إنّ كلّ مدينة في حاجة إلى إله يعنى بشئونها، وكلّ نشاط إنسانيّ في حاجة إلى إله متمرّس فيه. وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحبّ؟ إنّه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمّه به. وكان يلقي على الجموع شعره ثمّ تترنّم زوجته بإنشادها، فحلّ محلّ العرش المعبود فرقة جوّالة من الشعراء والمطربين، وتلاشت هيبة الفراعنة. وكان لا بدّ أن يقع ما وقع، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر، وتتابعت المصائب في داخل البلاد كما في الإمبراطوريّة، وصمد أبي الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل في طلب النجدة حتّى سقط مضرّجًا بدمه في الميدان دفاعًا عن مَلِك أبله. وأحسن أناس الظنّ به فحسبوه شاعرًا نبيلًا أخطأ القدر بإجلاسه فوق العرش. أمّا الحقيقة فهي أنّه كان مخلوقًا غريبًا، لا هو ذكر ولا هو أنثى، يؤرّقه الشعور بالنقص والهوان، فجرّ الناس إلى الهوان، وأعلن شعار الحبّ ولٰكنّه أشعل في القلوب البغضاء والحقد والفساد، فمزّق وطنه وضيّع إمبراطوريّته. وجارته في جنونه المرأة الداهية نفرتيتي لتستأثر بالسلطة، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال. وقد أقنعت الجميع بأنّها وزوجها يشكّلان أجمل صورة للحبّ والوفاء، كانا يتبادلان القُبَل أمام الجموع في شوارع

أخت آتون وفي لقاءات الأقاليم. والحقّ الذي يؤمن به نساء القصر كافّةً أنّه لم تقم بينهما علاقة زوجيّة على الإطلاق، وما كان بوسعه أن يقيمها، ومارست حبّها متعدّد النزوات مع المثّال بك والقائد حور محب والقائد ماي وغيرهم، ومنهم أنجبت بناتها الستّ. بل قد تهامس بعض الجواري بأنّه لم يمارس علاقة جنسيّة إلّا مع أمّه الملكة تيي!...

ولاذت بالصمت وهي تلاحظ ما ارتسم في وجهي من آي الذهول، ثمّ واصلت:

ـ وعُرف بيننا ذلك كحقيقة لا شكّ فيها، وعرف أيضًا أنّه أنجب منها بنتًا، إنّه لم يستطع الجنس مع غيرها، وشهدت أكثر من جارية بأنّها رأت الفعل رؤية العين، ولم يغب ذلك عن نفرتيتي، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر. المشكلة أنّ كثيرين لا يتصوّرون أنّ الرجل الذي زلزل الدنيا يمكن أن يتمخّض عن كائن هزيل تافه لا وزن له. لكنّها الحقيقة التي يجب أن تُعرف وأن تسجّل. ولولا أنّه كان الوريث لأعظم أسرة في التاريخ لمضى فردًا حقيرًا في أزقّة طيبة يتدفّق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان، ولا غرابة أن يستطيع معتوه ـ إذا جلس على العرش ـ أن يخرب إمبراطوريّة!. ولولا أنّ نفرتيتي راقت في عينيه لما كانت إلّا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات.

وقبيل النهاية بقليل زارت الملكة الأمّ أخت آتون لإنقاذ السفينة الموشكة على الغرق، ولكنّ النقاش احتدّ بينها وبين نفرتيتي، ولم تتورّع الملكة الشابّة عن اتّهام العجوز بأنّها متواطئة مع أعداء العرش، ولكنّ إخناتون حزن لذلك الاتّهام ودافع عن أمّه وعشيقته دفاعًا حارًّا، فغضبت نفرتيتي وأسرّتها له في أعماقها، وانتقمت في اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرّر رجاله التخلّي عنه، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعًا في الدولة الجديدة، وربّما طمحت أن تكون زوجة لتوت عنخ آمون، ولكنّهم وطئوا مسعاها بالنعال، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزّقوها إربًا.

صمتت تادوخيبا وهي تبتسم بازدراء ثمّ ختمت حديثها قائلة:

ـ هذه هي قصّة المعتوه وديانته الخرقاء!

«توتو»

ـ لم أكفر بإلهي آمون قطّ، ولم أنضمّ إلى قافلة المنافقين والانتهازيّين، ولكنّني خدمت المارق بالاتّفاق مع كاهن آمون الأكبر لأكون عينه اليقظة في القصر، ويده الضاربة عند الضرورة.

هكذا بادرني توتو وزير الرسائل في عهد إخناتون دافعًا عن نفسه تهمة النفاق التي تحلّق فوق رجال إخناتون. وقد قابلته في مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتّل في عهد توت عنخ آمون كما شغلها في عهد أمنحتب الثالث. وهو رجل دين ريّان الوجه جاحظ العينين عنيف الأعصاب. ودون تردّد راح يعطيني تصوّره عن المأساة. قال:

ـ امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام، فلم يتسلّل إليها الخور إلّا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته في العرش من أسرة شعبيّة فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول. وقد اتّبع الملوك العظام معنا ـ نحن كهنة آمون ـ سياسة جديدة. عرفوا لآمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرًا لجميع الآلهة، وفي الوقت نفسه أوْلوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم، ليضمنوا إخلاص الجميع، وليقيموا بيننا وبين بقيّة الكهنة توازنًا يضاعف من قوّة العرش واستقلاله. ولم تصادف تلك السياسة هوًى في نفوسنا ولكنّها لم تبلغ بنا حدّ الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سموّ مركزنا. ولّما ولي العرش المارق وجد الطريق أمامه واضحًا، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزمًا بمنهج آبائه وأجداده، ولكنّ الخنفساء توهّمت أنّها أسد فكانت الكارثة. لم يكن كأحد من سابقيه في القوّة أو الحكمة. وكان واعيًا بضعفه وقبحه وأنوثته، ولكنّه أوتي من المكر والخبث ما لا يتاح إلّا لمن أذلّه الضعف وأحرقه الحقد، فقرّر أن يتخلّص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثمّ ينصّب نفسه إلّهًا يستأثر بالعبادة دون شريك إلّا إلّهًا وهميًّا يتّخذه قناعًا لطموحه. ومضت تبلغنا أنباء عن معجزات الصبيّ الذي تفوق قواه سنّه الصغير، حتّى

عرفنا حكاية الإله الجديد الذي تجلّى له ودعاه إلى الكفر بجميع الآلهة. وقلت يومها للكاهن الأكبر:

- إنّها مؤامرة ويجب أن تُقتل في مهدها.

وبدا أنّه لا يسلّم بأنّها مؤامرة فقلت:

- إنّي أتّهم الملكة تيي والحكيم آي، أمّا الغلام فلا مسئوليّة عليه.

فقال الكاهن الأكبر:

- لا أعفي الملكة من جانب المسئوليّة ولكنّها مسئوليّة الخطأ في التقدير، أمّا آي فقد توكّد لي أنّه لا يقلّ عنّا انزعاجًا . . .

ولم يسعني إلّا تصديقه فهو معصوم من الخطأ فقلت:

- إذن فنحن حيال كائن قد حلّت فيه روح ست إله الشرّ فيجب اغتياله فورًا.

فقال الكاهن:

- الأمر لم يفلت بعد من يَدي الملك والملكة . . .

وآمنت بأنّنا سندفع ثمن تردّدنا غاليًا. وجعلت أدعو إلهي مردّدًا:

يا آمون أنت سيّد الصامتين
الذي يأتي على صوت الفقير
عندما ناديتك في محنتي
جئت لتخلّصني
يا آمون يا سيّد طيبة إنّك أنت
الذي تخلّص من في العالم السفليّ
إذا ناداك إنسان
فإنّك أنت الذي تحضر من بعيد.

* * *

ومضى يسرد لي الحوادث التاريخيّة كما سمعتها من قبل، رحلة الأمير في الإمبراطوريّة، عودته، اعتلاؤه العرش.

* * *

وهنا قال معلّقًا:

- أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبوّءوا مراكزهم في الدولة الجديدة. لقد سقط الجميع بلا كرامة، فأتاحوا للمكر الخبيث أن ينفث سمّه ويهلك الأرض، ولا عذر لهم عن خيانتهم، فهم مسئولون جميعًا عمّا حلّ بنا من خراب. قلت للكاهن الأكبر:

- لا جريمة بلا عقاب، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق والمارقة وآي وحور محب وناخت وبك . . .

فقال:

- الوطن لا يحتمل مزيدًا من الخراب.

فقلت بإصرار:

- لا بدّ من دم لنحظى برضا آمون.

فقال:

- إنّي أدرى بما يُرضي إلهي.

فصمتُّ وباطني يغلي بالحنق، فإنّي أومن بأنّ الجريمة التي تفلت من العقاب تكرّس الإثم بين الناس وتزعزع الثقة في العدالة الإلهيّة وتمهّد لارتكاب المزيد من الجرائم. وشدّ ما يسوءني أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنّه أحدهم، كيف نوفّر الأمان لمن شارك في إلحاق الخراب بنا؟!

* * *

وواصل سرده للأحداث، بناء أخت آتون، الانتقال إلى المدينة الجديدة، الانغماس في نشر الدعوة.

* * *

قال:

- بتُّ قريبًا منه، أعمل في رحابه، وأتلقّى كالآخرين هذيانه، فعرفته على حقيقته أكثر من ذي قبل. كان يمكن أن يكون شاعرًا أو مطربًا، ولكنّه جلس على عرش الفراعنة، فكانت الكارثة. قرّر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة. أراد أن يقول لتحتمس الثالث «رغم قوّتك ومهارتك العسكريّة فإنّني الأقوى». لم يكن ملهمًا كما اعتقد البعض ولا مجنونًا كما ظنّ البعض الآخر، ولكنّه حظي بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبثاء فأجاد تمثيل دوره. تخيّل أنّه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه، فعاش في دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها وأناسها ونصّب نفسه إلهًا عليها معتمدًا على سحر العرش وسيطرته على النفوس. من أجل ذٰلك تلاشى سحره لدى أوّل صدام حقيقيّ مع الواقع واجتاحه الفساد

والتمرّد والعدوّ وفرّ عنه الجبناء. وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تثمر من خوارق الأفعال والأقوال. وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل في خلوته. كانت تتلبّسه حال من الانفعال المفتعل. فيخرج من حافة الوعي غائصًا في المجهول، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئيّة، ثمّ يعود رويدًا إلى وعيه فيحدّثنا عن إلهه الذي لن يخذله أبدًا. وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال آي وحور محب وناخت وأتساءل هل حقًّا يصدّقون المهزلة؟... هل حقًّا جاز عليهم خبثه الأنثويّ؟!... كلّا، لقد تظاهروا بتصديقه لينال كلٌّ مأربه، وما كشفوا عن أنفسهم إلّا حين تهدّدهم الموت من الشمال والجنوب.

* * *

وحدّثني عن انقلاب الأحداث، فساد الموظّفين، عذاب الناس، تمرّد الإمبراطوريّة، تحرّش الحيثيّين بالحدود، مصرع توشراتا.

* * *

قال:

- أغرقني فيضان من الخوف على البلاد ففكّرت جادًّا في اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شرّه. وعثرت بلا كبير عناء على مَن تطوّع لقتله في خلوته قبل الشروق، ويسّرت له مخبأ في الحديقة، وكاد الرجل ينجح في مهمّته لولا أن أدركه في اللحظة الأخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحقّ بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد. واستعنت كثيرًا بالسحر ولٰكنّه لم يصب الهدف من سوء حظّ البلاد، ولعلّ الخبيث كان يلجأ إلى السحر المضادّ.

* * *

وروى ما تلا ذلك من انتشار التمرّد في الأقاليم، زيارة الملكة تيي لأخت آتون، اللقاء التاريخيّ بين كاهن آمون ورجال إخناتون.

* * *

قال:

- ولّما يئس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة في اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه في عرشه، ولٰكنّي نجحت في اغتيال الشابّ بوسائلي الخاصّة، وإذا بالبناء يتصدّع باختفاء نفرتيتي نفسها فمات الشرّ ولٰكن بعد أن نفث سمّه في جميع الأوصال. وقد كان من سوء حظّنا جميعًا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتي زوجة له. حقًّا إنّها امرأة قويّة الشخصيّة راجحة العقل فائقة الجمال، ولٰكنّها مثله مريضة بالطموح، فآمنت في الظاهر بدينه، وشاركته في الواقع مكره وخبثه. وعلى اليقين لم تكن تحبّه وما كان في وسعها ذلك ولٰكنّها هامت بالقوّة والسيادة المطلقة. ولعلّها دليل آخر على الدور الخفيّ الذي قام به الداهية آي الذي كان يتلقّى في المناسبات هدايا الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تي من الشرفة الملكيّة فيحملها العبيد في القدور إلى قصره. ولٰكن كيف تعامت المرأة الذكيّة عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطوريّة؟. وهل آمنت حقًّا برسالة الحبّ والسلام؟!. الحقّ أنّي لا أتصوّر ذلك ولا أسيغه، ولٰكن لعلّها غالت في تقدير سحر العرش الفرعونيّ وتوهّمت أنّه السحر الذي يغني عن العقاب والسيف وجيش الدفاع. ولعلّها أدركت الخطأ في وقت مبكّر ولٰكنّها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادر. ولّما تخلّت الحاشية عن الملك تخلّت عنه متعلّقة بأمل أخير ألّا يغدر بها عشّاقها. وأعتقد أنّ حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقبولها في طيبة ولٰكنّه رفض ذلك وأصرّ على الرفض. وقد مات المارق وما زالت هي تتنفّس في سجنها متجرّعة الأحزان والحسرات.

لو أنّ الذي خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدوّ من الحيثيّين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر ممّا فعل المارق اللعين...

«تي»

هي زوجة الحكيم آي، في السبعين من عمرها، صغيرة الجسم، ممتازة في صحّتها بالقياس إلى عمرها، حلوة المحضر. وقد تزوّج منها آي عقب موت زوجته الأولى أمّ نفرتيتي فتلقّتها تي وهي بنت عام أو عامين،

ثمّ أنجبت له موت نجمت. ولّما رفع الحظّ نفرتيتي إلى العرش اختارت تي ضمن حاشيتها ووهبتها لقب «مربّية الملكة». ولولا أنّها كانت تحبّها ما فعلت ذٰلك، وهو ما يدلّ على أنّ تي أحاطت نفرتيتي برعايتها وحبّها وأنّها لم تكن «امرأة أب» بالمعنى المألوف.

وقد سردتُ لها المعلومات التي حصّلتُها عن الأحداث التاريخيّة، ثمّ قلت:

ـ لا داعي للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظًا على وقتك وراحتك.

فقالت تي:

ـ لم أخالط الملك رغم قربي من زوجته، ولعلّه لم يخاطبني إلّا مرّات معدودة، ولٰكنّ عذوبته لا تبرح القلب أبدًا. وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجي آي الذي اختير لتعليمه. وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون، ثمّ أذهلنا أضعافًا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد. الحقّ أنّه أذهلني أنا وابنتي موت نجمت أمّا حبيبتي نفرتيتي فكان لها موقف آخر. ولكن عليّ قبل ذٰلك أن أعرّفك بها، إنّها بنت ذكيّة، وذات روح متوثّبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينيّة، ونضجها يفوق سنّها بكثير، حتّى قلت يومًا لزوجي آي:

ـ يخيّل إليّ أنّ ابنتك ستكون كاهنة!

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأخوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة ولٰكنّ الحقّ كان دائمًا معها، ولا أذكر أنّها تورّطت في خطأ مرّة، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير. وكانت تتفوّق في تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتي من ردّة فعل يتعذّر إصلاحها. وجعلت تتلقّى كلمات وليّ العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون، ثمّ تباغتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد. وقالت لها موت نجمت:

ـ إنّه كافر.

فقالت بيقين:

ـ لقد سمع صوت الإله.

فصاحت بها:

ـ وأنت أيضًا كافرة!

كانت ذات صوت عذب، وشدّ ما كان يسرّنا أن نسمعها وهي تغنّي:

ماذا عساي أقول لأمّي
فكلّ يوم أرجع إليها بالطيور
أمّا اليوم فلم أنصب شباكي
لأنّ حبّك قد ملكني

وبعد إيمانها راحت تغنّي للإله الجديد وحدها في الحديقة ولا أحد منّا يريد أن يطرب لها، ولٰكنّي أذكر صوتها الذي اقتحم عليّ حجرتي ذات صباح وأنا أمشط شعري:

يا حيّ
يا جميل يا عظيم
بك عمّ الفرح
وأترع الكون بالنور

هٰكذا كان قصرنا أوّل بيت يتردّد فيه نشيد الإلٰه الجديد. ودُعينا لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عامًا على جلوس أمنحتب الثالث على العرش. وسُمح لنا باصطحاب بنتينا لأوّل مرّة لشهود احتفال بالقصر الفرعونيّ. وزيّنت البنتين لعلّهما يروقان في أعين صفوة الشباب، فارتدت كلّ منهما ثوبًا طويلًا فضفاضًا، وطوّقت منكبيها بمعطف مزركش قصير، منتعلة صندلًا ذا سيور ذهبيّة. دخلنا قاعة لا تقلّ مساحتها عن مساحة قصرنا كلّه، مطوّقة بالمشاعل ومقاعد المدعوّين على حين تصدّرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات. وبين هٰذا وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات، وتنقّل العبيد بين المدعوّين والمدعوّات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة. وقلّبت عينيّ بين صفوة الشباب فتمنّيت لابنتي حور محب الضابط الواعد وبك المثّال الموهوب. ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى نفرتيتي آتية من نخبة الحاشية، حور محب وبك وناخت وماي، خاصّة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنّين في رحاب الملكين. وقد رقصت حبيبتي برشاقة آسرة، وغنّت بصوت عذب فاقت به المطربات المحترفات. لعلّي في تلك الليلة شاركت ابنتي موت نجمت غيرتها الصامتة، غير أنّني عزّيت نفسي قائلة «إذا تزوّجت

نفرتيتي خلا الجوّ لموت نجمت وتجلّى نورها دون منافس». وبدافع من حبّ الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتيتي لأكتشف أين تتّجه نظراتها فأدهشني أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلّمها الروحيّ . . . وليّ العهد! ونظرت نحوه فهالتني غرابة صورته ورقّته الأنثويّة المثيرة للدهشة. ولمّا التقت عيناي بعينيها همستْ لي:

- حسبته عملاقًا!

ولٰكنّ انبهارها غطّى على دهشتها، ولم تكن تحلم بما يدّخره لها القدر. ورجعنا إلى قصرنا، فقلت لزوجي آي:

- سيطرق بابنا الخطّاب يا آي فدبّر أمرك . . .

فقال بهدوئه المألوف:

- الآلهة ترسم لكلٍّ مصيره.

وبعد مرور يوم أو يومين فاجأني آي بقوله:

- الملكة تيي ترغب في مقابلة نفرتيتي . . .

فأذهلنا الخبر، وسألته:

- ماذا يعني ذٰلك؟

فتفكّر مليًّا ثمّ قال:

- لعلّها سترشّحها لوظيفة في القصر!

- ولٰكنّك تعرف أشياء ولا شكّ!

فقال:

- كيف بمعرفة ما يدور في رأس الملكة العظمى؟

وأخذ يلقّنها أصول الآداب المتّبعة في لقاء الملوك، وقلت لها:

- فليباركك آمون برعايته . . .

فقالت بثبات:

- إنّي أسأل الإلٰه الواحد رعايته . . .

فهتف بها آي بحزم:

- حَذارِ أن تتفوّهي بحماقة في حضرة الملكة.

وذهبت نفرتيتي. ورجعت شديدة الانفعال فطوّقتني بذراعها وأجهشت في البكاء، أمّا آي فقال:

- اختارتها الملكة زوجة لوليّ العهد!

عصف الخبر بأفئدتنا عصفًا. سمت به حبيبتي نفرتيتي فوق الغيرة والمنافسة. ها هي تفتح لنا باب الحظّ السعيد لننفذ منه إلى الأسرة المالكة. لقد أظلّنا حظّها بجناحيه العريضين وحلّق بنا فوق الجميع. من أجل ذٰلك هنّأتها من أعماق قلبي، وكذٰلك فعلت موت نجمت. وراحت تحدّثنا عمّا دار بينها وبين الملكة العظمى، ومن شدّة تأثّري لم أتابعها بالدقّة المتوقّعة، وليس في ذاكرتي اليوم إثارة منه، وما أهمّيّة الحديث إذا قيس بالنتيجة التي انتهى إليها؟. وتمّ الزواج في حفل رائع أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث. وصرنا جميعًا ضمن الأسرة المالكة، واختارتني حبيبتي لوظيفة المربّية الخاصّة لها، وهو مركز في القصر يلي مركز الأميرات مباشرة!. وبالزواج صارت نفرتيتي والأمير وحدة لا تتجزّأ، ولا يفرّق بين نصفيها إلّا الموت. وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات، ودبّرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش، وشاركته حمل رسالته الدينيّة كأنّها كاهنة مختارة حقًّا بعناية الإلٰه الواحد. صدّقني لقد كانت ملكة عظيمة بكلّ معنى الكلمة. لذٰلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها في ذروة محنته. ولعلّه أوّل قرار اتّخذته دون علمي فهرعت إليها في قصرها، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء. ولم يبدُ عليها أنّها تأثّرت لحالي، وقالت لي بهدوء:

- اذهبي بسلام . . .

فقلت برجاء:

- إنّهم يذهبون وقاية للملك من أيّ شرّ.

فكرّرت ببرود:

- اذهبي بسلام.

فتساءلت في حيرة:

- وأنت يا مولاتي؟

فقالت ببساطة:

- لن أغادر هٰذا القصر.

فهممت بالكلام ولٰكنّها قاطعتني بنبرة آمرة:

- اذهبي بسلام.

وغادرتها كأتعس امرأة على وجه الأرض. وفكّرت طويلًا فيما دفعها إلى الاختفاء، فلم أهتد إلّا إلى فرض واحد، هو أنّها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلٰهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة، على أن ترجع

إليه بعد ذهاب الجميع. ولا أشكّ في أنّها سعت إلى ذلك ولكنّها مُنعت بالقوّة. ولا تصدّق أيّ تفسير آخر لهجرها القصر. سوف تسمع أقوالًا متضاربة، وسيدلي كلّ رجل بما يؤكّد أنّه الحقّ، بينا ينطق عن هواه. لقد علّمتني حياتي بألّا أثق في أحد ولا أصدّق أحدًا. وها هو الزمن يمضي وأنا أتساءل دائمًا أكان مولاي إخناتون يستحقّ تلك النهاية المحزنة؟. كان النبل والصدق والحبّ والرحمة فلِمَ لَمْ يبادله الناس نبلًا بنبل، وصدقًا بصدق، وحبًّا بحبّ، ورحمة برحمة؟. لماذا انقضّوا عليه كالوحوش يمزّقونه، ويمزّقون ملكه كأنّه عدوّ أثيم؟!. ولقد رأيته في المنام منذ أعوام مطروحًا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر في عنقه، فاستحوذ عليّ شعور قويّ بأنّهم قتلوه قتلًا مدّعين كذبًا أنّه مات ميتة طبيعيّة.

وسكتت وهي تنظر فيما أمامها بأسًى، ثمّ تمتمت:

- لقد عاشرنا رجلًا لا يتكرّر.

«موت نجمت»

في بدء الحلقة الرابعة، جميلة رشيقة، يشعّ من عينيها العسليّتين ذكاء، شعرت في محضرها بوجود مسافة بيني وبينها لا يمكن أن تُعبر. وهي ابنة آي وتي وأخت نفرتيتي، وتقيم في جناح خاصّ بها في قصر آي. وثمّة لغز رابض في حياتها وهو أنّها لم تتزوّج رغم كثرة خطّابها. وما كدت أجلس بين يديها أبسط أوراقي حتّى أنشأت تقول:

- قُدّر لنا أن نشارك في مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبي الحكيم آي معلّمًا له، فحمل أبي إلينا أخباره وأفكاره، ومن أوّل الأمر أسأت به الظنّ، واتّهمت عقله، ثمّ أثبتت الأيّام صدق شعوري وتفكيري. وكان لنفرتيتي موقف آخر دهشت له الأسرة أمّا أنا فلم أدهش له. كانت تحبّ دائمًا أن تلفت الأنظار بتحدّيات مفتعلة، وتودّ أن تثير من حولها عواصف المناقشات. أجل كانت ذكيّة ولكنّها لم تكن صادقة ولا مخلصة، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون، وما دعاها أخيرًا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل. وقد سمعتها مرّة وهي تقول لأبي:

- أبلغ يا أبي وليّ العهد أنّني مؤمنة بإلهه.

فقال لها أبي متجهّمًا:

- إنّك حمقاء يا نفرتيتي ولا تقدّرين العواقب!

وكنت بسبب تجديفها أخاف أن تحلّ اللعنة بنا جميعًا. لقد بقي إيماني بآلهتي حيًّا في قلبي لا يتزعزع. أجل أعلنت إيماني بالإله الجديد لانتمائي للأسرة الملكيّة، وبقصد أن أبذل ما أستطيعه في موقعي الجديد دفاعًا عن آلهتي المقدّسة، ولكنّ إيماني بآلهتي لم يَهِنْ قطّ. وأتيح لي أن أرى المارق لأوّل مرّة في حفل العيد الثلاثينيّ للجلوس على العرش، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحرفة وبين صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقبح. لذلك فلا تأخذ مأخذ الجدّ ما قد تسمع عن الحبّ النبيل الذي جمع بين قلبي المارق وملكته العظمى نفرتيتي، فإنّي أعرفها حقّ المعرفة، وأعرف المثال الذي حلمتْ به كفئًا لأشواقها، إنّه لا يمتّ بصلة للفتى الهزيل القبيح العاجز الذي خُلق نصف أنثى ونصف ذكر. وكانا يزعمان أنّهما يعيشان في الحقيقة، أمّا هو فكان يعيش في الجنون، وأمّا هي فعاشت في الكذب والخديعة، ولم تحبّ سوى العرش والسلطان. وفي الحفل غلبتها طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنّها امرأة محترفة، ورمت شباكها حول حور محب ولكنّه لم يكن يكترث لذلك النوع من النساء المبتذلات. ولمّا دُعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء، قمت أنا فرقصت في احتشام، واخترت أغنية موجّهة لفرعون:

أنت تجيء كالشبع فينتهي الجوع
أنت تجيء كالثياب فينتهي العري
أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء
تعطي الدفء لمن أصابه البرد

أمّا نفرتيتي فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ولكنّها سرقت استحسان الفاسقين وما أكثرهم، ثمّ اختارت أغنية خليعة فغنّت:

في صحّتك
اشربي حتّى تثملي

ولا تضيقي ذرعًا بالسرور
لقد حضرت ونصبت الفخ
لنفتح الفخ سويًا
أنا وأنت معًا بمفردنا
ما أجمل أن تكون معي هناك

ونكّس أبي ذقنه وتلعثمت أمّي. وتهامست المغنّيات المحترفات «ما أجدر هذه البنت بأن تغنّي معنا». ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل وهي تحلم بأن يطرق بابنا في الصباح حور محب ولكنّ الأقدار كانت تعدّ لنا مفاجأة أخرى إذ كانت تعدّها لمصر والإمبراطوريّة. دُعيت الماكرة إلى مقابلة تيي الملكة العظمى ورجعت زوجة لوليّ العهد. وقلت لأمّي ألا يدعم فرعون شرعيّته عادة بالزواج من أميرة ذات دم ملكيّ؟. فقالت لي أمّي:

ـ لا أهمّيّة لذلك إذا كان فرعون صاحب قوّة مسيطرة، وقد وافق على اختيار عروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه.

وقبّلتني هامسة في أذني:

ـ كوني عاقلة يا موت نجمت، لا شكّ أنّك أفضل منها ولكن لا حيلة لنا مع الحظّ، فاقنعي بأنّك ستصبرين من الأميرات، وبأنّ الدنيا ستُقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك!

فقلت لها بصراحة ووضوح:

ـ سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص.

وهو ما حرصت عليه دائمًا ولم أنحرف عن خطّه المستقيم. وكلّما خلوت إلى نفرتيتي سألتها:

ـ هل راق لعينيك حقًّا؟

ومع أنّها أدركت مَنْ أعني إلّا أنّها تساءلت متغابية:

ـ مَن تعنين يا موت نجمت؟

ـ زوجك المقبل!

فقالت بحماس:

ـ إنّه معجزة بين الرجال!

فسألتها بعناد:

ـ أهو كذلك كزوج؟

فأجابت بغموض:

ـ لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج!

وقرأت أفكارها كما أقرأها عادة. سوف تقاسمه العرش ملكة وكاهنة. ولن يعجزها أن تظفر بمن يُشبع عواطفها المتعطّشة للحبّ والحياة. وقد مارست ذلك بكلّ طمأنينة، معتذرة أمام ضميرها بعجزه، لائذة بسياسته المعلنة في الاعتماد على الحبّ ورفض العقاب والعنف، فلم تخش من جانبه انتقامًا كسائر الفاسدين من معاونيه. وقد توكّد لي عجزه وشذوذه من خلال اتّصالاتي اليوميّة بحريمه. هناك يعرفون الحقائق التي تخفى عن أقرب المقرّبين من رجال الدولة. هناك تندّروا بعجزه. وهنا فضحوا سرّ العلاقة الآثمة بينه وبين أمّه، المرأة الوحيدة التي عَبّر عجزه في حضنها، والمرأة الوحيدة التي أنجبت له ابنة. وذاك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها. من أجل ذلك ثبت لديّ أنّ بلادي تمضي نحو مصير أسود. وعاهدت ضميري أن أقف مع الحقّ حيث يكون. ومات أمنحتب الثالث، وتبوّأت نفرتيتي العرش ملكة عظمى مكان تيي. وعشنا أيّامًا كئيبة في طيبة، ثمّ انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان. واستقبلنا من الزمان أيّام سرور ونصر ورخاء، وأمهلت الآلهة للمارق، فتركته يلغي وجودها ويصادر أوقافها، ومهّدت له أسباب النجاح والسرور، حتّى ظنّ الجاهل أنّ الفوز المبين قد تقرّر للإله الجديد ولرسالته الخياليّة في الحبّ والسلام. وقلت لأمّي وليس معنا ثالث:

ـ أين الآلهة؟ ما لها لا تغضب لما حاق بها؟

وإذا بأمّي تقول:

ـ ذلك شاهد على صدق الإله الجديد يا موت نجمت!

فرمقتها بذهول، وخيّل إليّ أنّ دنيا تغرب وأنّ دنيا أخرى تشرق لا سبيل إلى الشكّ فيها. ولكنّ ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى، وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معًا. وكلّما عضّنا الدهر قلت لأبي:

ـ ها هو آمون يكشّر عن أنيابه.

فيقول لي:

ـ لا تردّدي أقوال الكهنة الحاقدين!

فأقول له:

- حدّثني يا أبي عن واجبك في هٰذه الظروف؟

فيقول باستياء:

- لست في حاجة إلى من يذكّرني بواجبي يا موت نجمت!

ومرّة سألت نفرتيتي:

- ألا تفعلين شيئًا للدفاع عن عرشك؟

فقالت لي بحماس لم يجزْ عليّ:

- نحن نفنى في خدمة عرش الإلٰه الواحد.

لم تكن مخلصة. ولم تعرف الإخلاص الحقيقيّ في حياتها. كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبّة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة. ومن خلال محاولاتي الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمرّ الحوار بيننا حتّى تكاشفنا تمامًا، ثمّ كان الوسيط بيني وبين كاهن آمون الأكبر. وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد. كان عليّ أن أختار بين إخلاصي لأسرتي الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة. واخترت بعد أن دفعت ثمن اختياري ألمًا وعذابًا، هٰكذا انضممت إلى المعسكر الآخر، معرضة عن مصلحتي الشخصيّة وسعادتي الأسريّة. وقال لي توتو يومًا:

- الكاهن الأكبر يطالبك بالسعي لضمّ الملكة إلينا!

فقلت له:

- لقد سعيت إلى ذٰلك من قبل أن أكلّف به، ولٰكنّي وجدتها لا تقلّ جنونًا عن المارق.

وبناء على ذٰلك أرسل الكاهن الملكة تيي إلى أخت آتون، ثمّ جاء بنفسه ليلقي على الرجال إنذاره الأخير. وشدّ ما عارض توتو ذٰلك. كان يقترح الانقضاض عليهم دون إنذار، ووضعهم جميعًا في الأغلال، وإشعال النار في المدينة المارقة. وكنت أودّ أن أضمّ حور محب قائد الحرس إلينا، فهو صاحب القوّة الحقيقيّة في المدينة، وعُرف دائمًا بالصلابة والاستقامة. ومن خلال الأحاديث التي دارت بيني وبينه آنست منه اتّفاقًا في الرأي يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة. ولّما لاحت في الأفق نذر الحرب الأهليّة قلت له:

- علينا أن نعيد النظر في مواقفنا.

فرمقني بنظرة متسائلة فقلت بصراحة:

- لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادًا.

فسألني بدهاء:

- ألم تفاتحي أختك الملكة في ذٰلك؟

فقلت بصراحة أذهلته:

- إنّها لا تقلّ جنونًا عن الملك!

فسألني باهتمام:

- ماذا تقترحين؟

فقلت بحدّة:

- كلّ شيء مباح لإنقاذ البلاد . . .

ثمّ كانت النهاية التي عرفتها. نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس لبلادنا في الماضي. مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلًّا قدسيّة العرش التقليديّة في ممارسة نزواته. لا شكّ في أنّ ذنب نفرتيتي أثقل من ذنبه لما خُصّت به من ذكاء ودهاء، ولٰكنّها لم تهتمّ إلّا بذاتها وطموحها، فلمّا تولّى عنه المجد هجرته في الحال، منضمّة في الظاهر إلى أعدائه، مرشّحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد، ولٰكنّ حيلتها لم تنطلِ على أحد، فانقبرت في وحدة مظلمة لتجترّ العذاب والندم.

«مري رع»

في الحلقة الرابعة، أسمر خمريّ، نحيل، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانًا للمأساة، يعيش في بيت صغير، بلا رفيق أو خادم، ذٰلك الذي كان يومًا الكاهن الأكبر للإلٰه الواحد، في مدينة النور أخت آتون. وقد زرته في بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال. ولّما قرأ رسالة أبي سألني باسمًا:

- ولِمَ تتجشّم هٰذا التعب؟

فقلت ببساطة:

- لأعرف الحقيقة.

فقال وهو يهزّ رأسه في أسًى:

- حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلّاب الحقيقة.

ثمّ مضى يقول:

- لعلّي الشخص الوحيد الذي حُمل بالقوّة من أخت آتون بعد أن رفض التخلّي عن مولاه، وقد سكت الصوت الإلهيّ وتهدّم المعبد ولكنّ الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد.

ورنا إليّ طويلًا بعينيه البنّيّتين ومضى يقول:

- أسعدني حظّي في صباي بأن أكون ضمن حاشية الأمير، فملت مثله إلى الأمور الروحيّة، ودرسنا معًا ديانة آمون وديانة آتون. ومثل كثيرين فُتنت به وأُخذت بحديثه الساحر، ورُوّعت بنضجه السريع الخارق للمألوف. وقد باركني بقوله الذي غزا به قلوب أتباعه، فقال لي:

- إنّي أحبّك يا مري رع فلا تضنّ عليّ بحبّك.

فتغلغل حبّه في قلبي حيث لم تبلغ عاطفة من قبل، حتّى أباح لي خلوته على شاطئ النيل في أيّ وقت أشاء. وهي خلوة في الطرف الغربيّ من القصر، تطلّ على النيل، في هيئة مظلّة تقوم على أربعة أعمدة تحدق بها أشجار النبق والنخيل، أرضها من العشب النضير، تتوسّطها حصيرة خضراء ووسادة. كان يستيقظ عند الفجر فيمضي إلى الخلوة ينتظر شروق الشمس، ويتغنّى لقرصها البازغ من وراء الحقول. وما زال صوته العذب يجيش في صدري، وينتشر في حواسّي مثل رائحة البخور المقدّس وهو يترنّم:

إنّك تسطع جميلًا في جبل النور في السماء
يا آتون الحيّ يا من عاش أوّلًا
إنّك إذا أشرقت في جبل النور الشرقيّ
ملأت كلّ بلد بجمالك
إنّك جميل، إنّك عظيم
إنّك تتلألأ عاليًا فوق كلّ بلد
وأشعّتك تضمّ البلاد
وكلّ شيء خلقته
إنّك بعيد ولكنّ أشعّتك على الأرض

وكان يذوب من الوجد، وتنبثق من وجهه الصبيح الأنوار، ثمّ نتجوّل في الحديقة وهو يقول:

- لا يوجد سرور خالص إلّا في العبادة.

ذلك أنّ حياته لم تخلُ من منغّصات. وذات مرّة تشكّى لي قائلًا:

- يأبى أبي إلّا أن يجعل منّي مقاتلًا يا مري رع!

لم يمرّ تدريبه العسكريّ الفاشل دون أن يترك نفسه ألمًا يحزّ. أو ينظر في المرآة المؤطّرة بالذه الخالص ويقول باسمًا:

- لا قوّة ولا جمال!

أمّا موت أخيه الأكبر تحتمس فقد حفر في وجدا جرحًا غائرًا لعلّه لم يبرأ منه إلّا حينما أصيب بجر أشدّ بموت ابنته المحبوبة ميكيتاتون. شدّ ما بكى أخ الذي نصبه موته وجهًا لوجه مع حقيقة الموت الصا الغامضة. وسألني:

- ما الموت يا مري رع؟

فلذْتُ بالصمت متحاشيًا الإجابات التقليديّة ال يضيق بها. فعاد يقول:

- ولا آي نفسه يعرف، قرص الشمس وحـ يشرق بعد الغروب، أمّا تحتمس فلن يرجع إلى هـ الوجود مرّة أخرى!

وهكذا أعلن حربًا أبديّة على الضعف والقبـ والحزن. ومضى في طريقه المجهول مثل شعا الشمس، تنذر بوادره كلّ يوم بجديد، حتّى لقيته ذا صباح مشرق شاحب اللون في خلوته، مستقرّ النظرة ثابت الجنان، فقال لي دون أن يردّ تحيّتي:

- ليست الشمس شيئًا يا مري رع.

فلم أدرك مقصده فجذبني إلى مجلسه فوق الحصيـ وقال:

- استمع إلى الحقيقة يا مري رع. ليلة أمس أسكرني الشوق بلا خمر، وتجسّد لي الظلام جليسًا أنيسًا كالعروس المتجلّية، وحلّقت بي نشوة آسرة ا الفضاء، وهناك عبر ألف خيال وخيال بزغت الحقيـ للفؤاد أقوى من أيّ منظر تراه العين، وترامى إ صوت أجمل من عبير الأزهار فقال لي «املأ وعاء قلبك بأنفاسي، واطرد عنه ما ليس منّي، أنا القوّة التي تتسلّ منها قوى الوجود، أنا النبع الذي تتدفّق منه الحياة، ' الحبّ والسلام والسرور، املأ وعاء قلبك منّي ويَسّ مشربًا للمعذّبين في الكون».

ومن شدّة تألّقه تراجع رأسي في انبهار، فقال لي:

- لا تخف يا مري رع، ولا تبتعد عن السعادة!

فغمغمت وأنا ألهث:

- يا له من نور!

فقال بعذوبة صافية:

- تعال لتعيش معي في الحقيقة.

فاعتدلت في جلستي وقلت:

- إنّي معك إلى الأبد.

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أوّل كاهن للإله الواحد الذي لا إله غيره، وغدا معلّمي وأستاذي، ورائد مَن لبّوا النداء. وقلت له:

- آمنت بإلهك.

فقال بحبور:

- أحسنت، ولتكن أوّل كاهن في معبده.

وأعلن إيمانه لخاصّته ولكنّه لم يتعرّض للآلهة إلّا فيما بعد، وبالتدرّج أيضًا، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أوّلًا، ثمّ ألغاها ووزّع أوقافها على الفقراء في خطوة تالية. أمّا على عهد إمارته فلم يكن بوسعه في حكم والده أن يكون صاحب قرار. وقد تزوّج من نفرتيتي وهو وليّ للعهد، فوهبه الزواج سعادة كبرى، غير أنّ أسعد ما أسعده حظي به في إيمانها الصادق بإلهه. وفي أخت آتون تبوّأتُ مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد، ولّما عزم مولاي على مصادرة المعابد قلت له:

- إنّك تتحدّى قوّة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتّى البحر.

فقال لي بثقة:

- ما الكهنة إلّا دجّالون، يستعبدون الضعفاء، وينشرون الخرافات، وينهبون الأرزاق، معابدهم مواخير، وقلوبهم ثملة بحبّ الدنيا . . .

فاكتشفت فيه قوّة حقيقيّة أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه، وشجاعة لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماي قائد الحدود. وقد حسبه أناس لغزًا لا يحلّ لكنّه وضح بالنسبة لي مثل نور الشمس. لقد فني في حبّ إلهه وأحبّه الإله فكرّس حياته لخدمته ملقيًا بالعواقب جانبًا، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه. لم أدهش لسلوكه في رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريّته، ولم أدهش لتمسّكه برسالة الحبّ والسلام حتّى في أحرج الظروف، ولم أدهش لموقفه الأخير عندما تخلّى عنه أقرب المقرّبين إليه. كان يعيش في رحاب الإله ويصدع بأمره، ولا يبالي بعد ذلك بما يحيق به، إذ كيف يمكن مَن ينغمس في الحقيقة أن يكترث لمكر الساسة ودهاء العسكريّين؟! وقد رموه بالخيال والحلم والجنون، فكان هو العائش في الحقيقة، وكانوا هم الخياليّين الحالمين المجانين الغارقين في أوهام الدنيا الفاسدة. ولم يكن العرش يهمّه كما يهمّ الملوك العاديّين. بل إنّني أذكر أنّه عندما دُعي من رحلته لتولّي العرش بعد وفاة أبيه، تجهّم وجهه وتساءل:

- ترى هل تشغلني الشواغل عن إلهي؟

فقلت له بحماس صادق:

- بل إنّك مدعوّ يا مولاي لوضع قوّة العرش في خدمة الإله، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة.

فسرى عنه وتمتم:

- نطقت بالحقّ يا مري رع، فكما قدّموا لآلهتهم قرابين من البشر المساكين، سأقدّم قوى الشرّ قرابين لإلهي، محطّمًا الأغلال التي يرسف فيها مَن لا حول لهم.

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك ولكن في سبيل الحقيقة والحبّ والسلام وسعادة البشر، وأثبت في غمارها أنّه أقوى عشرات المرّات من تحتمس الثالث نفسه، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتي أمورهم اليوميّة أمّا هو فلا يني عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقًّا بالنعمة الإلهيّة والنبل البشريّ. وتجلّى سحره كأقوى ما يكون في نشر دعوته بالأقاليم، وقد فُتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبّتهم مع الأزهار والرياحين.

وسكت مري رع ليتنهّد طويلًا ثمّ واصل حديثه:

- ثمّ جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضًا مسوقة بأنفاس الحقد في داخل البلاد وخارجها. وتلقّاها كلّ رجل بحسب قوّة إيمانه، ولم يعبأ بها مولاي وراح يردّد:

- لن يخذلني إلهي.

وقال لي يومًا في المعبد:

- الرجال ينصحونني بالاعتدال وإلهي يأمرني

بالإيمان فأيّهما أتبع يا مري رع؟

ولم يكن سؤاله الساخر في حاجة إلى إجابة. ولّما مضت الأزمة في الاشتداد جاء حور محب لمقابلتي في المعبد وقال لي:

ـ أيّها الكاهن الأكبر، إنّك أقرب الرجال إلى الملك.

فأجبته وأنا أحدس ما سيقول:

ـ تلك نعمة الإله عليّ.

فقال بصراحة:

ـ الأمور تقتضي تغيير السياسة.

فقلت له بثبات:

ـ أستمع لصوت الحقيقة وحدها.

فقطّب فيما يشبه الضجر وقال:

ـ أتوقّع أن أسمع كلامًا معقولًا.

فقلت بحدّة:

ـ لا تفاهُم إلّا بين المؤمنين.

ولّما علمت بقرارهم في التخلّي عن الملك بحجّة الدفاع عن حياته قلت لآي:

ـ من ناحيتي لا أقرّ العودة إلى الكفر.

ورفض مولاي التراجع خطوة واحدة ولكن كانت له خطّته أيضًا في تجنّب الحرب الأهليّة فكان عازمًا على مواجهة الشعب وحده والجنود المتمرّدين، وكان كامل الثقة في قدرته على إعادتهم إلى حظيرة الإيمان، ولكنّ الحاشية آمنت بأنّه سيُقتل حتمًا وأنّهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له. وتخلّى عنه الجميع، وقد ضمّوني إلى قافلتهم المرتدّة بقوّة الجند، وأمروا الحرس بمنعه بالقوّة إذا صمّم على مواجهة الشعب. وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل، ووجد نفسه وحيدًا حبيسًا في قصره، حتّى نفرتيتي ذهبت مع الذاهبين، وعند ذاك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذي بذل حياته الغالية في بثّه وتثبيته. وقيل لنا عقب ذلك إنّ المرض تمكّن منه وقضى عليه. والحقّ أنّي أشكّ في ذلك، وأرجّح أنّ الأيدي الآثمة امتدّت إليه في عزلته وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة. وقد مات دون أن يعلم بأنّني ما تخلّيت عنه إلّا بالقوّة، وفي اعتقادي أنّ نفرتيتي أبعدت عنه بالقوّة أيضًا، ولا أتصوّر غير ذلك أبدًا.

وصمت مرّة أخرى ليتنهّد ثمّ رنا إليّ طويلًا وقال:

ـ ولكنّه لم يمت، ولا يمكن أن يموت، إنّه الحقيقة الباقية والأمل المتجدّد، ولينتصرنّ عاجلًا أو آجلًا، ألم يَعِدِ الإلهُ بأنّه لن يخذله؟!

ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البرديّ فأعطاها لي وهو يقول:

ـ إنّها تحوي رسالته وأناشيده، اقرأها يا فتى، وليستجيبنّ لها قلبك المحبّ للحقيقة، فإنّك لم تقم برحلتك لغير ما سبب . . .

« مـاي »

سعيت إلى لقائه في رنو كولبورا على الحدود حيث يقيم في خيمة بين جنوده من جيش الحدود. كان على عهد إخناتون قائدًا لجيش الحدود، وما زال يشغل مركزه بكلّ جدارة في العهد الجديد. وقد وجدته كهلًا عملاقًا جادّ الملامح معتزًّا بنفسه لحدّ كبير. وبعد إطلاعه على خطاب والدي قال بانفعال مرحّبًا بالفرصة التي دعته للتنفيس عن صدره:

ـ ذلك المارق، مجهول الأب، الذي أذلّ بشذوذه أعناق الرجال!. لقد سكتت طبول القتال، ونكّست رايات المجد، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكّرة في إهاب الرجال. وقد أُرغمت ـ أنا قائد الدفاع عن الإمبراطوريّة ـ على التجمّد وأوصال الولايات تتمزّق وتقع في قبضة المتمرّدين والأعداء، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشى في الهواء. أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكريّ، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطّاع الطرق. ومن حسن حظّي أنّني لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبي التردّد على أخت آتون بين الحين والحين. وفي كلّ مرّة كانت تتملّكني الحيرة لخدع رجال مثل آي وحور محب وناخت لغِرٍّ مشوّه، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد. وكنت وما زلت مخلصًا لآلهة بلادي وتقاليدها المتوارثة، يوم بلغني كفره غضبت غضبًا شديدًا،

وعقدت العزم على الانضمام إلى المؤمنين إذا شقّوا عصا طاعته. ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أنّ اللعنة الكبرى ستحيق بنا، وستوجّه ضربتها إلى الجميع غير مفرّقة بين الخبيث والطيّب. ولدى زيارة لي لطيبة، جاءني بليل الكاهن الأكبر لآمون، وسألني:

- هل تجد حرجًا في هٰذا اللقاء؟

فأجبته بصراحة أدهشته:

- لي الشرف، وقصري رهن إشارتك.

فشكرني وقال:

- إنّك من جيل الأبرار يا ماي. انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدّمون القرابين، ويفزعون إلى كاهنهم في الملمّات فيرشدهم في الحياة وحين الموت، ضاع المساكين كالأغنام الضالّة . . .

فقلت بامتعاض شديد:

- وما جدوى التشكّي؟! ألا ترى أنّ الواجب يطالبنا بالتخلّص منه؟

فتفكّر قليلًا ثمّ قال:

- ولٰكنّ ذٰلك سيجرّ علينا حربًا طاحنة!

- ألا يوجد حلّ؟

فقال بيقين:

- إقناع رجاله المقرّبين!

- يا له من أمل بعيد.

فقال الرجل بحذر:

- لن نعمد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل . . .

فعاهدته قائلًا:

- ستجدون جيش الدفاع وراءكم في اللحظة المناسبة.

ولٰكنّ نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتًا طويلًا، حلّت فيه الكارثة بالبلاد، فلم يبقَ إلّا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض. ولقد تساءل كثيرون عن سرّ المأساة. أقول لك إنّ سرّها يكمن في ضعف المارق، ضعف جسده وعقله معًا. لقد أفرطت أمّه في تدليله فنشأ شديد الحساسيّة لحدّ المرض، داعيًا بانحطاطه لدى المقارنة بأقرانه المميّزين مثل حور محب وناخت وبك، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثويّ والعذوبة المخنّثة، على حين بيّتَ الغدر لكلّ قويّ، إلٰهًا كان أو كاهنًا، ليخطر وحده في الساحة، محتكرًا لصوت الإلٰه الذي اخترعه، ولقوّته غير المحدودة. من ناحية أخرى تصدّى ضعفه لكلّ طامع كإغراء لا يقاوم. أجل لقد هرع إليه الرجال لا خوفًا من قوّته ولٰكن طمعًا في ضعفه. من أجل ذٰلك أعلن رجال الإمبراطوريّة إيمانهم برسالته، فبعث إليهم برسائل الحبّ حين تمرّدهم بديلًا عن جيش الدفاع. ومن أجل ذٰلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقي الشكّ إلى عقولهم مثل آي وحور محب وناخت، وامرأة داهية مثل نفرتيتي. كان ضعفه الطعم الذي جُذِبَ إليه المنافقون والطمّاعون واللصوص والفاسقون. ولبثوا يتابعون أناشيده في المعبد ثمّ ينهبون الأموال ويستغلّون العباد، حتّى تهدّدهم الموت فتخلّوا عنه وانضمّوا إلى أعدائه محمّلين بغنائمهم. لذٰلك أعلنت رأيي للكاهن الأكبر عند اشتداد الأزمة. قلت له:

- لا تقم بزيارتك لأخت آتون، لا تنذرهم، دعني أزحف عليهم وأبيدهم ليستقرّ قلب العدالة . . .

وأيّدني توتو بحماس أشدّ ولٰكنّ الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن الدماء، فقال لي:

- حسبنا ما أصابنا.

وأدركت ما يجول بخاطره. إنّه رجل داهية وينظر إلى بعيد. فقدّر ولا شكّ أنّه إن أذن لي في القتال فقضيت على المارق ورجاله، أحرزت بحقّ الصدارة والبطولة، وحزت بذٰلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش. وعند ذاك سيجد على العرش ملكًا قويًّا لا يمكن أن يتجاوز حجمه الطبيعيّ في رحابه. لذٰلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلامًا لا حول له ليكبر ويتضخّم على حسابه. وها هم اليوم يحومون حول العرش، الكاهن وآي وحور محب، ويتربّصون بصاحبه. هٰكذا تجري الأمور في مصر التي نضب فيها معين الإخلاص.

على أيّ حالٍ فنحن اليوم خير ممّا كنّا أمس. لقد هُجر المارق مع ضعفه فهات غمًّا، وها هي الداعرة

تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال المدينة الكافرة.

وسكت ماي مضفيًا على نبرته نغمة الختام، بيد أنّي سألته:

ـ ونفرتيتي يا سيّدي القائد؟!

فقال بلا مبالاة:

ـ امرأة جميلة خُلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظّها أن تمارس هوايتها في عشق الرجال من فوق العرش، ولا تصدّق ما يحتمل أن تسمعه عن كفاءتها كملكة، فلو كان بعضه حقًّا لا كلّه ما سقطت البلاد في عهدها في هوّة الفساد والخراب، وقد تخلّت عنه في اللحظة التي فقد فيها نفوذه، ولكنّها خابت في ركوب السفينة الجديدة!

«محو»

زرته في قريته جنوب طيبة يعيش من الزراعة بعد أن كان رئيسًا لشرطة إخناتون في أخت آتون. وهو في الأربعين من عمره، غليظ القسمات واضحها، قويّ البنيان، تطلّ من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة. ولّما قرأ رسالتي شبك أصابعه فوق رأسه داعيًا بحسرة ذكريات تولّت، وأنشأ يقول:

ـ جفّت ينابيع السرور من بعده، سامحتك الآلهة يا مصر!

بدأت علاقتي به بطريقة لا تتكرّر ولا يحلم بمثلها أمثالي. كنت جنديًّا من حرس القصر الفرعونيّ، وكنت ألمحه في الحديقة من بعيد. وذات صباح رأيته مقبلًا نحوي كأنّما اكتشفني لأوّل مرّة فتحوّلت إلى تمثال بين يديه. نظر إليّ طويلًا حتّى شعرت بنظرته تجري مع دمي وتتردّد مع أنفاسي. وإذا به يسألني:

ـ ما اسمك؟

ـ محو.

ـ من أيّ مكان أنت؟

ـ من قرية فينا.

ـ صناعة أهلك؟

ـ فلّاحون.

ـ لماذا اختارك حور محب في الحرس؟

ـ لا أدري.

ـ إنّه يختار الشجعان.

فانتفض قلبي سرورًا ولم أنبس، فقال بثقة:

ـ إنّك شابّ صادق يا محو.

فطرت من الفرح ولزمت الصمت، وإذا به يسألني:

ـ أتقبل صداقتي؟

فتلاشى عقلي من الذهول وتمتمت:

ـ ما أرفع هٰذا الشرف عن متناولي!

فمضى باسمًا وهو يقول:

ـ سنلتقي كثيرًا أيّها الصديق.

تلك واقعة حقيقيّة، فهٰكذا كان يختار رجاله. وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون، وتجلّي إله جديد له، كما عزفت على كثب منّا أناشيده. وتفتّح قلبي لكلّ ما يجيء منه. جذبني إليه سحره النفّاث وحبّي العميق له. لعلّي لم أفهم ممّا سمعت إلّا القليل، ولعلّي تحيّرت طويلًا أمام إلٰه الغامض الذي لا يتجسّد في تمثال، ويعامل الناس بالحبّ دون العقاب، ولعلّي لم أكفر بآمون، ولكنّي آمنت حبًّا في مولاي، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم. عاش في الحبّ للحبّ، لم يصدر عنه أذًى لإنسان أو حيوان، لم يلوّث يده بدم، ولم يعاقب مذنبًا. ولّما اعتلى العرش استدعاني وقال لي:

ـ لا ألزمك بشيء تكرهه يا محو، وسيجري رزقك هنا أو هناك، فهل ترغب في إعلان إيمانك بالإلٰه الواحد الذي لا إله غيره؟

فأجبت دون تردّد:

ـ أعلن إيماني بالإلٰه الواحد يا مولاي، وأعلن استعدادي للموت في سبيله.

فقال بهدوء:

ـ ستكون رئيسًا للشرطة ولٰكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك الغالية . . .

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت في أحضان كلماتهم ورضعت حبّهم وتقديسهم. ومع ذٰلك فلم تصدر عن يدي ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسًا لشرطته عدا ضربة واحدة انطلقت من يدي بلا إذن منه. ويوم تسلّمت الرياسة قال لي:

ـ ليكن سلاحك منذ اليوم زينة، أدّبِ الناس بالحبّ كما علّمتك، ومَن لم يؤدّبه الحبّ يؤدّبه المزيد من الحبّ . . .

وكنّا نقبض على اللصوص فنستردّ ما سلبوا، ونهيّئ لهم عملًا في المزارع، ونلقّنهم رسالة الحبّ والسلام. أمّا القتلة فيُرسلون إلى المناجم، وتوفّر لهم أسباب الراحة والرزق، ويتلقّون في أوقات الفراغ دروسًا في الدين الجديد. وكثيرًا ما لقينا من ذلك ضروبًا من الجحود والغدر، ولكنّ حرارته لم تفتر أبدًا، وكان يقول:

ـ سترون قريبًا شجرة الأمل مثقلة بالثمار.

كان إيمانه قويًّا راسخًا متحدّيًا لا يتزعزع ولا يهن، ذلك الملك العجيب الذي شبّع الهواء بالسرور في مدينة النور، وأثملت أناشيده قلوب الرجال والنساء والطير. كان يومه يمضي على غير ما عهد الملوك من آبائه وأجداده، فهو يتعبّد في الخلوة، يخطب من شرفة قصره، ويلقي أناشيده في المعبد، ويتجوّل في عربته الملكيّة في شوارع أخت آتون، بصحبة الملكة، بلا حرس، مخالطًا جموع شعبه، محطّمًا الحواجز التقليديّة بين العرش والناس، داعيًا في كلّ مكان إلى العبادة والحبّ، والجميع من الوزراء حتّى عمّال النظافة يترنّمون بنشيد الولاء للإله الواحد.

وذات صباح جاءني أحد معاونيّ وقال لي:

ـ ثمّة همس بين الصفوة عن أنباء سوء!

باحت الأسرار بما أضمرت من فساد الموظّفين ومعاناة الفلّاحين وتفشّي العصيان في الإمبراطوريّة. خرجت الحشرات من جحورها زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل. وأشفق قلبي ممّا عسى أن يتسلّل إلى مولاي من الكدر، غير أنّ الأحداث لم تزده إلّا صلابة وإيمانًا وثقة في النصر. ولم يَهِنْ تمسّكه بالحبّ، بل لعلّه قويَ واشتدّ، وكأنّ الظلام لم يدلهمّ إلّا ليَعِده بالنور القريب. وفي تلك الأيّام الكالحة تسلّل مجرم من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله في غبش الظلام، وكاد ينجح لولا أن عاجلته بسهم في صدره. وانتبه مولاي إلى ما أريد به فجعل يتفرّس في وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه، ووجم طويلًا ثمّ نظر نحوي قائلًا في فتور:

ـ قمت بواجبك يا محو.

فهتفت منفعلًا:

ـ إنّي فداء لمولاي.

فسألني بنفس النبرة الفاترة:

ـ أما كان في مقدورك أن تقبض عليه حيًّا؟

فقلت صادقًا:

ـ كلّا يا مولاي . . .

فقال بأسًى:

ـ دبّر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبغضها واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن في الشرك.

فقلت بحرارة:

ـ بعض الشرّ لا يُصلحه إلّا السيف!

فقال ساخرًا:

ـ هكذا يؤكّدون، ويكرّرون من قبل أن يوحّد مينا القطرين، فهل محقوا الشرّ؟!

فأخذته نشوة مباغتة فهتف:

ـ متى يرى البشر المشرق والمغرب في دفقة نور واحدة؟!

انحدرنا من سيّئ إلى أسوأ، وتكشّف الرجال عن أشباح خاوية، وجرفتهم رياح الخريف أوراقًا صفراء جافّة لا إيمان لها ولا وفاء، واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرّروا التخلّي عنه باسم الدفاع عن حياته. وما أدري إلّا وحور محب يصدر لي أمرًا بمغادرة المدينة على رأس جنودي. ولم يكن في مقدوري مناقشته، وحتّى توديع مولاي لم يُسمح لي به. وذهبت إلى طيبة وبي غصّة ندم لم تفارقني حتّى اليوم. وسُرّحتُ فيمن سُرّح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتي كاسف البال إلى الأبد. وترامت إلينا نتف من أنباء مولاي السجين في قصره، ثمّ أعلن خبر وفاته مريضًا فلم يداخلني شكّ في اغتياله. كيف تلاشى الحلم الجميل بهذه السرعة؟! كيف تخلّى عنه الإله بعد أن سكب في أذنيه صوته المقدّس الواعد؟، كيف وكيف أيّتها الدنيا التي لا معنى لك؟!

وسكت وهو من الحزن في غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثمّ سألته:

ـ ترى ما تصوّرك العامّ عنه؟

فأجاب في حيرة:

ـ إنّه روح العذوبة والصفاء ولكنّي لا أستطيع أن أقول عنه أكثر ممّا تقول الوقائع التي سردت . . .

ـ ونفرتيتي؟

ـ إنّها الجمال والجلال.

فقلت بعد تردّد:

ـ ما أكثر ما يقال عنها!

فقال بوضوح:

ـ أقول لك كرئيس للشرطة إنّني لم أسجّل عنها حركة سوء واحدة، رغم أنّي قرأت في أعين حور محب وناخت وماي نظرات جشعة مضمّخة بأخبث الشهوات، وعلى مدى علمي أنّها لم تشجّع أحدًا على تجاوز حدوده . . .

ـ لِمَ انفصلتُ عنه في رأيك؟

فأجاب في حيرة:

ـ إنّه لغز لم أستطع حلّه إلى الآن!

ـ يخيّل إليّ أنّك كفرت بإله مولاك؟

فأجاب بعبوس:

ـ لم أعد أومن بإله!

«ناخت»

سليل أسرة عريقة، ربعة، ذو وجه أبيض مشرّب بحمرة، رزين أكثر من أيّ إنسان، في الأربعين أو نحوها، كان وزير إخناتون، وهو يعيش اليوم في مقاطعته بإقليم دكما في وسط الدلتا. لم يشغل وظيفة في الدولة الجديدة ولكنّه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه في المشكلات الكبرى. رحّب بي منوّهًا بالعلاقات القديمة التي تربط بين أسرتّينا ثمّ مضى يدلي برأيه ـ متجاوزًا الأحداث التي باتت معروفة لديّ ـ وهو يقول:

ـ دعني أخبرك بأنّني رجل غير سعيد، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليّتي كما يجب، فأفلت منّي الملك، وتمزّقت تحت بصري الإمبراطوريّة. لقد اعتزلت الحياة العامّة ولكنّ الهموم لم تعتزل قلبي. وكلّما ألحّ عليّ الكدر ساءلت نفسي أيّ رجل كان مولاي إخناتون الذي وُصف اليوم بالمارق؟.

كنت من رفقاء صباه مثل حور محب وبك، ورغم كلّ ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح في حملنا على حبّه، والإعجاب بقوّة إدراكه ونضجه المبكّر. ولكن ثمّة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهي أنّ شئون الدنيا الواقعيّة لم تكن تهمّه، وكانت تبعث في نفسه الملالة والسقم. كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليوميّة التي تكون النواة الصلبة التي ترتكز عليها تقاليد العرش المقدّسة مثل الاستيقاظ في ساعة محدّدة، والاستحمام والإفطار والصلاة واستقبال المسئولين وزيارة المعبد، وكان يغمغم:

ـ أيّ عبوديّة!

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلّل لذّته في التحدّي وتحطيم الآنية الثمينة، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سرّ الكون، والسيطرة على الحياة والموت. وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس. لقد انكسر قلبه أمام الموت ولكنّه صمّم على أن يردّ الضربة بلا هوادة. وكان ذا خيال وثّاب، وكان خياله من القوّة بحيث وقع في النهاية أسيرًا له وهو لا يدري. ونحن أيضًا كان لنا خيال، ولكنّا كنّا على وعي بأنّه خيال. أمّا هو فكان خياله يتجسّد له حقيقة واقعة. من أجل ذلك ظنّ به الجنون أو العته. كلّا، لم يكن مجنونًا ولا معتوهًا ولكنّه لم يكن طبيعيًّا أيضًا. كان على حداثته مبعث قلق لوالديه وللكهنة، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقرّبين. يشكّ في آمون سيّد الآلهة، ويعبد آتون ثمّ يسرّ إلينا باهتدائه إلى الإله الواحد الذي لا إله غيره. لم أشكّ في صدقه، كم لم أشكّ في خطئه. كان صادقًا لأنّه لم يكذب قطّ، ولكنّه لم يسمع صوت إله، وكان المتكلّم قلبه هو. وما من بأس في أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة، أمّا أن يكون الزاعم وليًّا لعهد أمنحتب الثالث فالأمر يختلف. ولم يصمت ذلك الصوت الخفيّ، ولكنّه راح يبدع للناس رسالة في الحبّ والسلام والسرور، ويضمر للآلهة والمعابد

وإمبراطوريّتنا الفناء. وإذا بالشاعر يصير ملكًا، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحلّ محلّها فتختلّ الموازين وتقع المأساة. ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد! . كان من رأيي الرفض، وقلت لحور محب:

ـ قد يعدل عن غيّه إذا وجد نفسه وحيدًا.

فقال لي:

ـ سيجد غيرنا ممّن لا أخلاق لهم ولا خبرة فيجرّون البلاد إلى الخراب.

فسألته:

ـ أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا؟

فابتسم ساخرًا وقال:

ـ إنّه أضعف من أن يستهين برأينا!

وهزّ منكبيه وتمتم:

ـ إنّه يملك الكلمات ونحن نملك القوّة . . .

من أجل ذلك أعلنت إيماني بدينه بين يديه. واختارني وزيرًا فتلاشت مخاوفي أو كادت. وكنت ألقاه كلّ يوم سواء في طيبة أو في أخت آتون، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت تاركًا الرأي والتوجيه للملكة التي أثبتت جدارة فاقت كلّ تصوّر، أمّا هو فلم يتحدّث إلّا عن إلٰهه ورسالته، وما يتعلّق بذلك من توجيهات وقرارات. وواجهت أوّل تحدّ عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة، وحذّرته من العواقب وإذا به يقول لي كالمعاتب:

ـ يا ضعيف الإيمان!

ومضى بي إلى الشرفة فأطلّ على الجموع المحتشدة، وكانت له قوّة السحر في نفوسهم، فأعلن قراره بقوّة مخيفة وارتفع هتاف الجماهير إلى السماء، وشعرت بأنّني أصبحت لا شيء، وأنّ ذاك البناء المتهافت يتفجّر عن قوّة مجهولة لا قِبل لنا بها. ورغم حكمة نفرتيتي كانت تسلّم له في رسالته وتتحمّس لها كأنّها هي صاحبة الرسالة. والحقّ أنّ ذلك أدهشني حتّى قلت لنفسي:

ـ هٰذه المرأة إمّا أن تكون شريكته الروحيّة أو تكون أكبر ماكرة عرفتها البشريّة! وفي تقديري أنّه ممّا أكّد له النجاح أنّه لم يتصدّ لمعارضته سواي. فحور محب لم يتكلّم إلّا عندما بلغت الأزمة ذروتها، وأمّا آي المستشار فقد شجّعه طيلة الوقت متظاهرًا بالحماس والورع والتفاني في حبّ الإلٰه الجديد. ودعني أصارحك بأنّني أتّهم ذلك الرجل بالمكر وسوء الطويّة، إنّه رسم خطّة ليثب إلى عرش مصر، وإليك تصوّري كاملًا. لقد اختير معلّمًا لوليّ العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعًا. هو الذي وجّهه إلى ديانة آتون، وهو الذي بثّ في روحه فكرة الإله الواحد وأنّه صاحب رسالته. وهو الذي دبّر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه، وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد. بذلك صار حَما الملك ومستشاره المعروف في مصر بالحكيم. وزيّن له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهي الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعيّ. ولم تكن تخفى عنه الأسباب التي ترشّحه للعرش، فهو حمو الملك وهو الحكيم، وهو أيضًا طاعن في السنّ لا ييأس الطامعون في العرش من انتظار أجله ليحلّوا محلّه. ولعلّه رسم أيضًا أن يتزوّج من ابنته نفرتيتي فيدعم شرعيّته وتستمرّ هي ملكة لمصر. ورأيي هٰذا لا يستند إلى تصوّري وحده ولٰكن لما وافاني به بعض العيون، ولٰكن أفشل خطّته ولاء الشعب للملك أوّلًا، ثمّ تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة، ولٰكنّي أعتقد أنّه ما زال يجترّ حلمه القديم.

ولم أستطع أن أبوح برأيي لأحد، ولٰكنّني ثابرت على تقديم نصحي للملك، قلت له:

ـ لا شكّ أنّ إلٰهك هو الإلٰه الحقّ، ولٰكن دع الناس إلى آلهتهم، شيّد له في كلّ إقليم معبدًا وسيكون له النصر الأخير، ولٰكن جنّب البلاد شرّ الفتن!

ولٰكن كان أسهل عليّ أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح إخناتون عن قراره، وما زاد عن أن قال لي:

ـ يا ضعيف الإيمان!

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد، والإمبراطوريّة من الضياع، قلت له:

ـ الدفاع عن النفس حقّ ولا يتناقض مع الحبّ والسلام.

فقال لي بحماسه العجيب:

ـ حتّى الحيثيّون أنفسهم سيخشعون لسحر الحبّ، الحبّ أقوى من السيف والكبرياء!

ولّما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرًّا بكاهن آمون وقائد الدفاع ماي، وقلت لهما:

ـ لا بدّ من الإقدام على عمل وإلّا فقدنا الجدارة والشرف.

فنظرا إليّ مستطلعين فقلت:

ـ فليكفّ الكهنة عن إثارة القلاقل في الداخل، وليزحف ماي بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطوريّة.

فتسائل ماي:

ـ أزحف بلا أمر من فرعون؟

فقلت بهدوء:

ـ بلى . . .

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا:

ـ وبعد؟

فقلت:

ـ حينما يتمّ النصر لماي يطالب الملك بإطلاق حرّيّة الأديان.

وإذا بالكاهن يقول لي:

ـ خطّة غير حكيمة فقد يتمرّد قوّاد الجيش على ماي إذا أمرهم بالزحف دون أمر فرعونيّ . . .

ثمّ قطّب حتّى احتقن الدم بوجهه وقال لي:

ـ إنّك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا، فلا شكّ أنّه بلغك نجاحنا في بثّ دعوتنا في الأقاليم فقرّرت أن تحرمنا من جنودنا الموالين لنا . . .

تلقّيت الطعنة في غضب وغادرتهما موقنًا بأنّ أحدًا لا يشغل باله إلّا بمصلحته الذاتيّة، وأنّ مصر ضائعة بين أوغاد، وأنّ تبعة خرابها تقع على الجميع ما بين مُوالين للملك والمعارضين له لا على أخناتون وحده، بل لعلّه أنقى المذنبين ضميرًا وأصفاهم نيّة. لقد لعب به الدهاة، ورسموا له خطّة ماكرة ليحقّقوا في رحابه جشعهم، ثمّ ليَرِثوا ملكه عقب السقوط الحتميّ، ولكنّه صدّق كذبتهم وآمن بها، وتفجّرت من إيمانه قوّة لم يعمل أحد حسابها، فاجتاحتهم فترة من الزمن، وغزت القلوب بسحر عجيب، حتّى ارتطمت بصخرة الواقع الحادّة القاسية، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع، ثمّ لاذ الانتهازيّون الجشعون بقارب النجاة في آخر لحظة، تاركين ضحيّتهم الأعجوبة يغرق وحده وهو لا يصدّق أنّ إلٰهه المزعوم قد تخلّى عنه حقًّا. ومزّق الجميعُ أقنعتهم، وعلى رأسهم آي ونفرتيتي، واختلفت مصائرهم ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحقّ، باستثناء المارق المسكين، ولدرجة ما نفرتيتي التي لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة، أمّا مصر فقد تحمّلت أخطاء الجميع وتعدّدت في جسدها الجراح . . .

وصمت الوزير طويلًا ثمّ تمتم في أسًى عميق:

ـ هٰذه هي قصّة الخداع والبراءة والحزن الأبديّ . . .

«بنتو»

كان طبيب إخناتون الخاصّ، وما زال يشغل نفس الوظيفة في قصر توت عنخ آمون، في الستّين من عمره، نبيل المظهر، وينبض به عرق نوبيّ، وقد زرته في قصره الأنيق في وسط طيبة. وجدته هادئ الطبع، خافت الصوت، جمّ النشاط متأنّقًا في ملبسه. مضى يتكلّم في استسلام لتيّار الذكريات، قائلًا:

ـ مهما قيل عن إخناتون الذي يُعرف اليوم بالمارق فإنّ ذكراه تدفئ القلب بالحبّ، وتتحدّى الذاكرة بعجائبها، هل حقًّا عاش ذٰلك الرجل بيننا؟ . . . هل حقًّا كرّس حياته للحبّ؟. وهل حقًّا خلّف وراءه هٰذه العواصف من الحقد والكراهية؟. وكلّما تذكّرته تذكّرت معه القلق الذي أثاره في قلوب القريبين منه والبعيدين منذ صباه المبكّر. كانت الملكة العظمى تيي تسألني:

ـ ما سرّ ضعفه يا بنتو؟

شدّ ما حيّرني ذٰلك السؤال. لم يكن به مرض، ولٰكنّه كان نحيلًا هزيلًا شاحب اللون، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث، بخلاف شقيقه تحتمس القويّ الجميل، ولم يحبّ الألعاب الرياضيّة ولا الطعام الجيّد. وكنت أصلّي إلى تحوت إلٰه العِلْم وأقول له «تعال إليّ وأرشدني فإنّي خادم في دارك». ولم ينفع معه عصير الأعشاب المباركة برقية إيزيس ولا تمائم تحوت كاتب

رسائل الآلهة. وبلغ الخوف غايته عندما مسّه المرض في الخماسين، وجرّ معه أخاه تحتمس فرقدا في حجرة واحدة. وقالت لي الملكة تيي:

- بهما إمساك، وانظر إلى صفرة وجهيهما...

ففحصتهما وقلت:

- بالقلب حرارة وفي البطن انتفاخ، لا بدّ من شراب يفرغ الأمعاء، ثمّ انقعوا جعة حلوة مع دقيق جافّ لمدّة ليلة واحدة ليأكلا منه أربعة أيّام.

قبل أن تنتهي الأيّام مات تحتمس القويّ، ونجا الضعيف من كلّ سوء. ودار الصبيّ في جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطّع من الحزن. وكلّما رآني رماني بنظرة احتجاج ويقول:

- تركت أخي للموت!

ونظر إلى أبيه وقال معاتبًا:

- عندما أصير فرعون سأقتل الموت!

وسألني يومًا بحرارة:

- ألا يمكن أن يرجع تحتمس يومًا واحدًا؟!

فقلت له:

- صَلِّ للآلهة التي أنقذت روحك، أمّا الموت فلا رجعة منه. وكلّنا سنموت... فسألني بحدّة:

- لماذا؟

فقلت له ملاطفًا:

- ردّد الأغنية التي كنت تترنّم بها مع أخيك الراحل:

أولئك الذين يتحدّث الناس بكلامهم
أين ديارهم الآن؟
كأنّها لم تكن
افرح حتّى تنسى قلبك
فإنّ أوزوريس لا يسمع العويل
ولا ينقذ الصراخ إنسانًا من عالم الأموات.

وصاحَبَه الحزن زمنًا طويلًا حتّى خُيّل إليّ أنّه فاق أمّه في حزنه على أخيه. ومرّة وأنا أتعهّده بالرعاية الطبّيّة سألني:

- لِمَ هذا الجهد كلّه طالما أنّنا كلّنا سنموت؟

فابتسمت وواصلت عملي فرجع يسأل:

- لم تبتسم كأنّك لن تموت؟

فقلت له متهرّبًا من مطاردته:

- سَلْ معلّمك آي.

فقال باستهانة:

- إنّه لا يعرف أكثر ممّا تعرف.

وكان نضج حديثه مع هزاله وحداثته ممّا يهزّ النفس من أعماقها. وقد تابعت مغامراته الروحيّة بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذي لا حدّ له، وقلت لنفسي إنّ هٰذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصي على الإدراك، مثير للقلاقل، متحدّية للقوى المتربّصة به، فماذا يخبّئ له الغيب إذا جلس يومًا على عرش أجداده؟. وكان نشاطه - مع ضعفه - ممّا يبعث على الذهول. كان ينام قليلًا، يتعبّد كثيرًا كأنّه كاهن، ويقرأ كثيرًا كأنّه حكيم، ولا يملّ من طرح الأسئلة والنقاش. وضاق به الملك أبوه فقال بمرارة:

- أثبت أنّه جدير بأيّ كرسيّ إلّا كرسيّ العرش!

ويومًا لاحظت أنّه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها، فقلت له:

- إنّك تدرك كثيرًا من الأشياء ولٰكنّك لم تدرك عظمة أبيك بعد.

فقال بعصبيّة:

- ساءني منظره وهو يلتهم الطعام.

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة. وكنت أتصوّر أنّ سلامة الجسم هي أساس لسلامة الروح، فأثبت لي أنّ العكس صحيح أيضًا، وأنّ قوّة الروح قد تمدّ الجسم الضعيف بقوّة تفوق إمكاناته. ولا أنسى قوله لي مداعبًا:

- إنّك تهتمّ بالجسم كأنّه كلّ شيء بينا القوّة الحقيقيّة تكمن في الروح، هي الخالدة أمّا الجسم فهو بناء مهلهل قذر سيّئ الأخلاق سرعان ما يتقوّض عقب قرصة حشرة!

وهتف وكأنّه نسي وجودي تمامًا:

- لا أدري ماذا أريد ولٰكنّي مليء بالرغبة، ألا ما أحزن الليل الطويل!

وكان يقبع في الظلمة منتظرًا الشروق ثمّ يتلقّى النور فيتألّق بالفرح، حتّى تلقّى يومًا مع دفقة النور صوت الإله الواحد، وعصف الرعب بقلب طيبة

المطمئنّ. وقلت لنفسي:

- إنّه ليس نسمة من نسائم الربيع ولْكنّه عاصفة من عواصف الشتاء!

واستدعاني الملك والملكة، وسألتني تيي:

- ما معنى هٰذا الصوت يا بنتو؟

فقلت بحيرة:

- لعلّ آي الحكيم أقدر على الإجابة منّي يا مولاتي.

فقال الملك بضجر:

- إنّها تسألك كطبيب.

فقلت بإخلاص:

- لا أعرف عقلًا أنضج من عقله يا مولاي.

فسألني بحدّة:

- أهو يعبث بنا؟

فقلت بإخلاص:

- إنّه صادق وأمين.

- يبدو أنّك لا تملك تفسيرًا لذٰلك.

- هٰذا حقّ يا مولاي.

فسألني مقطّبًا:

- أأنت مؤمن بسلامة عقله؟

- أجل يا مولاي.

- ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوّة شرّيرة؟

فقلت بصدق:

- العبرة بما يدعو إليه.

فهتف غاضبًا:

- العبرة بما سيرسل علينا من زوابع.

وجاء زواجه من نفرتيتي مبشّرًا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أنّ الزواج سيعقل من اندفاعه ويردّه إلى الاتّزان والرؤية العمليّة. ولْكنّ الزوجة كانت كاهنة فانطلقا في طريقهما حتّى نهايته لا توقفهما قوّة فوق الأرض. ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة، وشعر الجميع بدنوّ المعركة وتوتّرت الأعصاب لأقصى حدّ. ودعاني الملك فيمن دعا من رجاله وخيّرني بين الإيمان بدينه وبين ممارستي لحياتي كيفما أشاء بعيدًا عن بلاطه، ولم أتردّد في الاختيار فأعلنت بين يديه إيماني بالإلٰه الواحد. لم يكن في وسعي الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيّته الفائقة، كما أنّني أحببت إلٰهه واعتبرته فيما بيني وبين نفسي كبير الآلهة مع حفاظي على إيماني القديم بسائر الآلهة، خاصّة تحوت إلٰه العلم الذي أداوي المرض بتمائمه وتعاويذه. وتعاقبت الأحداث كما عرفت، ومضى الرجال يشيّدون للإلٰه الجديد مدينته، وانتقلنا إليها في جمع زاخر ونحن نردّد الأناشيد، واستخفّ الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر:

- ها نحن ضيوفك يا إلٰهي في مدينتك الطاهرة التي لم تلوّث بعبادة إلٰه زائف...

واستقبلنا عهدًا سعيدًا تمنّينا معه الخلود على الأرض، وجعلت أقارن كلّ صباح بين ما يلقى علينا في المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرني شكّ في أنّ دفقات من نور صافٍ تملأ أرواحنا بخمر إلٰهيّة صافية.

وعرض لنا أوّل عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون. وقد توسّل إليّ قائلًا:

- بنتو، أنقذ محبوبة قلبي.

ولّما لفظت الجميلة أنفاسها أجهش في البكاء كما نفرتيتي وأكثر، وعاتب إلٰهه عتابًا تجاوز حدّ الصبر، حتّى قال له مري رع الكاهن الأكبر:

- لا تُغضب الإلٰه بدموعك يا مولاي.

فانفجر مولولًا، من الحزن أو الندم أو كليهما معًا.

وهتفت نفرتيتي:

- ما هو إلّا سحر كهنة آمون!

وكانت تردّد ذٰلك القول كلّما أنجبت بنتًا وضاعت فرصة جديدة لإنجاب وليّ العهد. وكان هو يشاركها الألم، ويحزن لحزنها، فسألني مرّة:

- أليس لديك من نصيحة تجدي لإنجاب ذكر؟

فقلت له:

- أبذل جهدي يا مولاي.

فسألني:

- أتؤمن بسحر الكهنة؟

فقلت كارهًا:

- لا يجوز الاستهانة به.

فتفكّر مليًّا ثمّ قال لي واجمًا:

- ليتصرنّ الإله الواحد، ويملأنّ الكون بأفراحه، ولكنّنا نحن البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة.

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس في نور الحقيقة. ولّما تتابعت كربات الأزمات في الداخل والخارج، أرسل إليّ كاهن آمون الأكبر رسولًا سرّيًّا، ذكّرني بعهد طلبي العِلْم في معبد آمون، ثمّ طرح عليّ هٰذا السؤال:

- أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذي يتهدّده؟

فأدركت من توّي أنّه يطالبني كطبيب باغتيال الملك، ولذلك قلت له بنبرة حاسمة:

- مهنتي تأبى الخيانة.

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدًا من مراقبة الطهاة، هٰذا والأمور تمضي من سيّئ إلى أسوأ.

وسكت الطبيب بنتو وقتًا ينشد شيئًا من الراحة في خضمّ الذكريات المرهقة فتذكّرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون الجنسيّة، ورجّحت ألا يعرض الرجل لها، فسألته عنها مدفوعًا بحبّ استطلاع لا يقاوم. وعند ذاك قال:

- كان جسمه يجمع بين خواصّ الذكر والأنثى، كذٰلك قسمات وجهه، ولكنّه كان رجلًا قادرًا على الحبّ والإنجاب.

ارتعشت شفتاي بسؤال مضطرم، وتردّدت طويلًا، ثمّ استجمعت شجاعتي وسألته:

- هل ترامى إليك ما قيل عن علاقته بأمّه؟

فتجهّم وجهه وأجاب:

- وسمعت مثلما سمعت أنت، ولكنّي أعتقد أنّه محض افتراء!

وتريّث ووجهه يزداد تجهّمًا ثمّ قال:

- المسألة أنّه كان إنسانًا فاق سموّه أيّ إنسان، يبشّر بمملكة إلٰهيّة لا تتوافق مع طبيعة البشر، فأشْعَرَ كلّ فرد بتفاهته، وتحدّاه باستفزاز لا قِبل له به، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيوانيّ..

فسألته متشجّعًا بسماحته:

- وما رأيك في نفرتيتي؟

- ملكة عظمى بكلّ جدارة.

- وكيف تفسّر انفصالها عنه؟

- لديّ تفسير واحد، هي أنّها لم تصمد للضربات المنهالة فأصيبت بانهيار، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها.

ثمّ واصل حديثه قائلًا:

- وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلّي عنه، وقد استأذنت حور محب في السماح لي بالبقاء إلى جانبه بوصفي طبيبه الخاصّ فأخبرني بأنّ الكهنة قرّروا إرسال طبيب من لدنهم! ولكنّه سمح لي بفحصه إذا شئت قبل الرحيل. وذهبت من فوري إلى القصر الذي لم يبقَ به إلّا نفر من العبيد، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه. وجدته في خلوته وحيدًا وكان يصلّي، مغرّدًا بصوته الحنون:

إنّك جميل... إنّك عظيم
بك يفرح قلب الإنسان
وتخضرّ الأشجار والأعشاب
وترفرف الطيور
وتقفز الحملان
خلقت ملايين الأشبال.
إنّك في قلبي
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك إخناتون.

ولّما فرغ من صلاته نظر نحوي باسمًا فغضضت بصري دامع العينين. سألني:

- كيف تيسّر لك أن تجيء يا بنتو؟

فقلت بصوت متهدّج:

- سُمح لي بأن أفحص مولاي قبل الرحيل.

فقال في هدوء:

- إنّي في خير حال يا بنتو.

فقلت بأسًى:

- جميع الأوفياء أُكرهوا على الذهاب.

فقال باسمًا:

- أعرف مَن ذهب باختياره ومَن ذهب على رغمه.

فانحنيت حتّى لثمت يده وأنا أقول:

- يعزّ عليّ أن تبقى وحدك.

فقال بهدوء:

ـ لست وحدي يا ضعيف الإيمان.

ثمّ بقوّة منعشة:

ـ يتصوّرون أنّ الهزيمة حلّت بي وبإلٰهي، ولٰكنّ إلٰهي لا يخون ولا يقبل الهزيمة.

وغادرته متورّم العينين من البكاء وأنا على يقين من أنّ الطبيب المنتدَب ليحلّ محلّي سيزهق باغتياله أنبل روح حلّت بجسد بشريّ. وغصت في وحدة لم أخرج من وحشتها حتّى الساعة . . .

« نفـــرتـــيتي »

سُمح لي بدخول أخت آتون بإذن خاصّ من القائد حور محب. مراكز الحراسة المتقاربة تمتدّ بطول شاطئها على النيل. اخترقت نصف المدينة الشماليّ ما بين المرسى وحتّى قصر الملكة السجينة، يتقدّمني جنديّ من جنود الحراسة. وطيلة مسيرتي تلقّيت من الذكريات تيّارًا مفعمًا بالزبد واللآلئ، متلاطمًا بين العبر والدهشة، تحلّق فوقه غربان الفناء. اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافّة وخليط من الأخشاب التي نزعتها العواصف من النوافذ والأبواب. البوّابات الكبيرة مغلقة كالجفون المسدلة على أعين باكية، وجفّت الحدائق فتلاشت خضرتها وألوانها، ولم يبقَ منها إلّا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنّطة وجواسق متداعية وأسوار منهارة، يخيّم فوقها صمت ثقيل مكتوم الزفرات، وفي الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هي ما تخلّف عن معبد الإلٰه الواحد المتهدّم الذي تجاوبت في أركانه أعذب الألحان المقدّسة. اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطلّ من أعينها نظرات الحقد والانتقام، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبديّة. كان الوقت عصرًا ونحن نقبل على قصر الملكة في أقصى الشمال، وقد تبدّى شامخًا بأبعاده، مضيئًا بحديقته الغنّاء، حزينًا بنوافذه المغلقة عدا نافذة واحدة خفق لمرآها قلبي. وكان الخريف يتوسّط عمره، والفيضان محتفظًا بفيض من فتوّته، والماء ضاربًا إلى الاحمرار الداكن، فامتلأت منه بحيرة القصر الصناعيّة. خفق قلبي وأنا أقترب من ختام رحلتي، وكأنّني لم أقم بمغامرتي المثيرة إلّا من أجل لقاء هٰذه السيّدة الوحيدة.

ووجدْتُني في حجرة صغيرة أنيقة، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدّسة، في صدرها كرسيّ من الآبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب، وبين يديه يقع كرسيّ من الآبنوس ذو مقبضين من الذهب الخالص. وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيّدة العجيبة مقبلة في ثوب أبيض فضفاض، رشيقة جميلة عظيمة، لا ينحني ظهرها تحت وطأة أربعين عامًا مثقلة بالمحن وسوء المآل. جلست وأشارت إليّ بالجلوس وطالعتني بعينين ساجيّتين تنداح في جمالهما الملالة. بدأتُ بالثناء على أبي ثمّ سألتني بمرارة:

ـ كيف وجدت مدينة النور؟

فغضضت بصري المفتون بجمالها ولذت بالصمت، فأنشأت تقول:

ـ لقد سمعت الكثير عنه وعنّي فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة . . . شببت وترعرعت مليئة بحبّ الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبي آي. لم أشعر بفقد أمّي في عامي الأوّل لما وجدته عند تي من حنان قلب كبير فكانت لي أمًّا لا زوجة أب، ووهبتني طفولة سعيدة. ولم تتبدّل عواطفها بمولد أختي موت نجمت بفضل حكمتها، ونشأنا أختين متحابّتين، وإن جنى عليّ تفوّقي بعد ذٰلك ما يجني من إثارة للغيرة والحسد، وإن لم يستفحل ذٰلك بيننا إلّا فيما بعد. وظلّت تي على حنانها لا تفرّق بيننا، على الأقلّ في الظاهر، فشكرت لها ذٰلك، وكافأتها عليه في حينه فاخترتها مربّية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات، وذات يوم جاءنا أبي برجل مبارك ممّن يقرءون الغيب، فنظر في طالع الأختين، وقال:

ـ هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر.

فدهش أبي وسأله:

ـ الاثنتان؟

فأجابه بيقين على مسمع منّا:

ـ الاثنتان.

وتحيّرنا طويلًا بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته، حتّى قلت ضاحكة:

ـ قد تجلس إحدانا ثمّ تخلفها الأخرى.

ولم ترتح تي إلى ما يشير إليه قولي من معنى فقالت بحزم:

ـ لننسَ هٰذه النبوءة ونَدَع المصير للآلهة!

وصمّمنا على نسيانها ولٰكنّها كانت تلوح في أفق الخيال بين الحين والحين، حتّى جاءت الحوادث ففجّرتها تفجيرًا. وسمعت عن إخناتون أوّل ما سمعت عن طريق أبي بعد أن اختير معلّمًا له. كان ينوّه في مجالسنا العائليّة بعقله ونضجه المبكّر. ومرّة قال عنه:

ـ يا له من شخص مثير، إنّه ينتقد الآلهة والكهنة، ولم يعد يؤمن إلّا بآتون! وبخلاف أمّي وأختي وجدت صدًى لما يقول في نفسي، إذ كنت أعشق آتون أيضًا، وأُعجب بجماله الشامل للسماء والأرض، على حين تقبع الآلهة في ظلام المعابد. لذلك قلت ببراءة:

ـ معه الحقّ كلّ الحقّ يا أبي.

فاسخط قولي أمّي وأختي أمّا أبي فقال باسمًا:

ـ نحن نعدّك لتكوني زوجة لا كاهنة.

لٰكنّني خُلقت لأكون كاهنة مع حبّي للأمومة والمجد الدنيويّ! ولّما نقل إلينا أبي أوّل نبأ عن الإلٰه الجديد، الواحد الذي لا إلٰه غيره، زلزلنا بعنف، وثارت العواطف لأقصى حدّ، وتعرّض وليّ العهد لقارص الكلمات. وسألته أمّي:

ـ ما رأي الملك والملكة؟

فقال آي واجمًا:

ـ ثمّة أزمة في القصر لم يشهد لها مثيلًا من قبل.

وقالت أمّي بإشفاق:

ـ أخشى أن يوجّه إليك لوم بوصفك معلّمه.

فقال بأسًى:

ـ لٰكنّها أدرى بابنها، وبأنّه لا ينساق وراء أحد مهما جلّ شأنه.

فقالت موت نجمت:

ـ إنّه مجنون، وسيفقد عرشه، أليس للعرش وريث آخر؟

فقال أبي:

ـ ليس له سوى أخت كبرى عليلة . . .

وفي أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتّى خفت أن يغمى عليّ. تمثّل لي وليّ العهد أسطورة ذات جاذبيّة لا تقاوَم. لٰكنّني تردّدت عن اتّخاذ قرار ووقعت في العذاب. وذات مساء سمعت خفيةً أبي وهو يتلو وحده نشيدًا من أناشيد الأمير:

إنّك جميل إنّك عظيم
بك يفرح قلب الإنسان
وتخضرّ الأشجار والأعشاب
وترفرف الطيور
وتقفز الحملان

فحفظته وأنا في نشوة مسكرة، ورحت أردّده وقلبي يتفتّح له ويمتلئ برحيقه. انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور. وتقرّر مصيري بأن أكون الفراشة التي تنجذب إلى النور حتّى يهلكها. وغزاني الإيمان بقوّة ولطف في موكب مغرّد بالأهازيج، واهبًا الطمأنينة والسلام. وهمست:

ـ يا إلٰهي الواحد، إنّي مؤمنة بك، إلى الأبد.

وأظهرت نفسي لأبي وأخذت أردّد النشيد فرمقني مقطّبًا وهو يتساءل:

ـ تسترقين السمع؟

فتجاوزت عتابه وسألته:

ـ ما رأيك يا أبي في الصوت الذي سمعه؟

فأجاب ببرود:

ـ لا أدري.

فسألته بجرأة:

ـ أيحتمل أن يكون كاذبًا؟

فصمت مليًّا ثمّ قال:

ـ إنّه لا يكذب أبدًا.

ـ إذن فهو صوت حقيقيّ!

فبدا متردّدًا ومشفقًا ولٰكنّه قال:

ـ ربّما كان حلمًا ما سمع!

فقلت بنبرة تسليم واعتراف:

ـ أبي، إنّي مؤمنة بالإلٰه الواحد!

فتغيّر لونه وهتف:

ـ حَذارِ يا نفرتيتي، احتفظي بسرّك في قلبك حتّى أقتلعه منه!

ودُعينا كما تعلم للمشاركة في حفل عيد الجلوس.

وقالت لنا تي:

ـ يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما في أجمل زينة.

غير أنّني كنت متلهّفة على رؤية شخص واحد، ذلك الذي هداني إلى نور الحقيقة. وفي البهو العظيم رأيت أفرادًا قدّر لي أن أخوض معهم بحر الحياة بحلوه ومرّه مثل حور محب وناخت وبك وماي وغيرهم، ولكنّ قلبي لم يرَ في الواقع إلّا مولاي. وأعترف لك بأنّ منظره صدمني صدمة غير متوقّعة. تصوّرته تمثالًا من نور، ولكنّي وجدته نحيلًا متهافتًا مخيّبًا للأحلام. وأفقت من هزيمتي العابرة بسرعة، تجاوزت المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه، التي اختصّها الإله بحبّه ورسالته، وأعلنت لها فيما بيني وبين نفسي الولاء إلى الأبد. كان يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة. ولم تتحوّل عنه عيناي، ولعلّ كثيرين لاحظوا ذلك وفسّروه بحسب أهوائهم، ثمّ أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية. ولن أنسى ما قالته لي موت نجمت فيما بعد وهي تعاني لدغة الغيرة:

ـ لقد حدّدت لك هدفًا ونلته!

وتمنّيت أن ينظر نحوي. وقد فعل. ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأوّل مرّة. وهمّ بأن يمضي بنظرته الملولة ولكنّه توقّف فيما يشبه الدهشة. وكأنّه بُهر، أو تساءل عمّن تكون تلك الفتاة التي تحدّق فيه بنهم. وحانت منّي التفاتة إلى الملكة العظمى تيي فوجدتها تنظر نحوي كذلك فاضطرب فؤادي أيّما اضطراب. وحلّقت أحلامي في آفاق بعيدة ولكنّها لم تقترب في هيمانها من الواقع الذي جاءت به الأحداث. ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة، وموت نجمت غارقة في كآبتها. ولّما خلَتْ إليّ في غرفتي قالت بانفعال:

ـ توكّد ظنّي!

فسألتها عمّا تعني فقالت:

ـ إنّه مريض ومجنون!

فعرفت بالبداهة مَن تعني فقلت:

ـ لقد رأيتِ مظهره ولكنّك لم تخبري قلبه.

وقال لنا أبي في اليوم التالي:

ـ الملكة تيي دعت نفرتيتي لمقابلتها.

وهزّ الخبر الأسرة هزّة عنيفة، وتبادلنا نظرات متسائلة. أمّا أبي فقال:

ـ لا شكّ أنّ وراء ذلك شيئًا من الرضا أو الإعجاب...

وقالت تي بمباهاة:

ـ أتنبّأ بأنّها ستضمّك إلى حاشيتها الخاصّة.

وذهبت برفقة أبي. وقادوني إلى استراحة الملكة المطلّة على الحديقة الداخليّة. سجدت بين يديها، ثمّ أذنت لي بالجلوس على أريكة إلى يمين مجلسها. وجعلت تتفحّصني غير عابئة بحساسيّتي، ثمّ سألتني:

ـ اسمك نفرتيتي؟

فأجبت بإحناءة من رأسي فقالت بلطف:

ـ اسم على مسمّى!

فشعرت بالفرح يشتعل في وجنتيّ.

ـ ما عمرك؟

ـ ستّة عشر عامًا.

ـ تبدين أنضج من ذلك!

ثمّ فيما يشبه الدعابة:

ـ لماذا دعوتك في ظنّك؟

فألهمت أن أجيب:

ـ لخير هو فوق ما أستحقّ.

فابتسمت قائلة:

ـ إجابة حسنة، ماذا حصّلت من العلم؟

ـ القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى الثقافة المنزليّة.

ـ وما رأيك في مصر؟

ـ سيّدة الدنيا وملكها ملك الملوك.

وباهتمام سألت:

ـ مَن إلهك المفضّل؟

فقلت مضطرّة إلى إخفاء الحقيقة:

ـ آتون يا مولاتي.

ـ وآمون؟

ـ هو مشيد الإمبراطوريّة أمّا آتون فهو الذي يطوف بها كلّ يوم!

ـ لا سلطان على ما ينبض به القلب ولكن يجب

الإقرار بأنّ آمون هو كبير الآلهة.

فقلت بتسليم:

ـ هو كذٰلك يا مولاتي.

ـ بصراحة هل ذاق قلبك الحبّ؟

فقلت دون تردّد:

ـ كلّا يا مولاتي.

ـ ألم يتقدّم أحد لخطبتك؟

ـ كثيرون ولٰكنّ أبي لم يجد في أيّهم الكفاءة.

وتفرّست في وجهي مليًّا ثمّ سألتني:

ـ ما شعورك بصراحة عمّا يقال عن انحراف وليّ العهد عن آمون؟

ولأوّل مرّة تجمّد لساني فلم أنبس فقالت بنبرة ملكة:

ـ أجيبيني بصراحة!

فاسعفني دهائي فقلت:

ـ مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعيّة بين العرش والكهنة.

فابتسمت في ارتياح وقالت:

ـ إجابة حسنة.

ثمّ اعتدلت فيما يشبه الدلال وسألت:

ـ حدّثيني عن فتى أحلامك، كيف تودّين أن يكون؟

فتريّثت في ارتباك ثمّ تمتمت:

ـ أن تكون له قوّة المحارب وروح الكاهن.

فقالت ضاحكة:

ـ إنّك طموحة جدًّا، مَن تفضّلين إذا خُيّرت؟

ـ أفضّل صاحب الروح.

ـ حقًّا؟

ـ أجل يا مولاتي.

ـ لست كغيرك من البنات.

ـ لا دنيا عندي بلا دين.

ـ وهل دين بلا دنيا؟

فتراجعت قائلة:

ـ ولا دين بلا دنيا.

وصمتت طويلًا وأنا أكتم انفعالاتي المتصاعدة، ثمّ سألتني:

ـ أرأيت وليّ العهد؟

ـ في حفل عيد الجلوس يا مولاتي.

فسألت بصوت غريب:

ـ وكيف ترينه؟

ـ إنّه يتفرّد بقوّة خفيّة تميّزه عن سائر الشباب . . .

ففاجأتني متسائلة:

ـ أعني كزوج؟

وخرست من هول المفاجأة حتّى كرّرت السؤال فقلت بصوت متهدّج:

ـ لا تسعفني الكلمات يا مولاتي.

ـ ألم يساورك حلم يومًا بأن تصيري ملكة؟

ـ أحلامي جزء من قلبي المتواضع.

ـ ألا يفتنك العرش؟

ـ إنّه في سماء لا ترتفع إليها أحلامي.

فصمتت قليلًا ثم قالت:

ـ اخترتك زوجة لابني وليّ العهد.

فاغمضت عينيّ من شدّة التأثّر، ثمّ قلت عندما استرددت قدرتي:

ـ ولٰكنّه لا يعرفني ولا يهتمّ بي.

فقالت باعتزاز:

ـ ولٰكنّه يرضخ لمشيئتي عن حبّ راسخ . . .

ثمّ مواصلة الحديث بجلال:

ـ يهمّني في المقام الأوّل أن أجد له شريكة مناسبة، ولّما رأيتك ألهمني حدسي بأنّك الشريكة المطلوبة، وإنّي أومن بالحدس إيماني بالعقل.

فأخرسني التأثّر الشديد عن التفوّه بأيّ كلمة واستمرّت هي تقول:

ـ ولٰكنّ الملكة خُلقت للواجب قبل كلّ شيء، ما رأيك في ذٰلك؟

ـ ارجو أن أكون كما تودّين يا مولاتي.

فقالت بصوت نافذ:

ـ عديني بالتعاون معي دون قيد أو شرط.

فقلت وأنا لا أقدّر مسئوليّة قولي:

ـ إنّي أعدك بذٰلك.

ـ وأنا مطمئنّة إلى شرف كلمتك.

كان الامتنان يشلّني عن التفكير، ولكن ما إن

غادرت محضرها حتى شعرت بأنني أرسف في أغلالها، وبأنها قوة لا يمكن الاستهانة بها، وبأنها رقيب يرصدني من الداخل والخارج معًا. وتذكرت وليّ العهد فأيقنت من أنّ جلاله مهما جلّ فإنّه لن يسوّغه لي كزوج، وأنّني سأدفع ثمن المجد غاليًا. وذهلت الأسرة للخبر وثملت به. أجل يمكن تصوّر أثره في أعماق قلب موت نجمت، ويمكن تصوّر مشاركة تي لابنتها في عواطفها الخفيّة، ولكنّ الحظّ تدفّق تلك المرّة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات. وإن يكن وعدني بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة. من أجل ذلك أقبلوا عليّ يُسدون إليّ القبلات وأطيب الدعوات. وتذكّرت النبوءة وكيف تحقّقت بمعجزة فهل تتحقّق أيضًا لموت نجمت؟. وساورني قلق. ولعلّ موت نجمت تذكّرت ذلك أيضًا فشحذت صبرها ونواياها، ولكنّني صمّمت على طرد المخاوف. ودعاني أبي إلى حجرته وقال لي بحنان:

ـ اليوم تسعد أمّك في قبرها.

فقلت بأسى:

ـ لعلّها.

فسألني باسمًا:

ـ كيف تشعرين؟

فأجبت بصدق:

ـ الحقيقة تفوق أيّ خيال.

ـ لا يستطيع الحظّ أن يهب فرصة للسعادة أقوى من ذلك.

فتساءلت:

ـ هل أضمن السعادة حقًّا يا أبي؟

فقال بحنان:

ـ العرش يهب المجد أمّا السعادة فرهن بحكمة القلب.

فقلت بتأثّر شديد:

ـ ما أصدقك يا أبي!

فقال بعطف:

ـ سأصلّي من أجل نجاحك وسعادتك.

وتمّت مراسيم الزواج بسرعة غير عاديّة. واحتفل به في القصر احتفالًا يليق بعظمة الملك امنحتب الثالث ولعه بمتع الحياة. ومضت بي تي إلى الحجرة المذهّبة وهمست في أذني بكلماتها المفيدة، وأجلستني على السرير الذهبيّ في ثوب شفّاف يتجلّى تحته جسمي العاري. ولاح في الباب وليّ العهد والمشاعل في الأركان تزهر. نزع شملته عن وزرة شفّافة وأقبل نحوي في خفّة يطلّ من عينيه الشغف العذب. أوقفني فوق السرير وضمّ ساقيّ إلى صدره وهمس في أذني:

ـ أنت شمس حياتي.

وكان ينعم روحي بنوره أمّا جسدي فقد تقلّص وانكمش أمام منظره الغريب. وراح يقول بصراحة عجيبة:

ـ أحببتك في عيد الجلوس، هرولت إلى أمّي وصارحتها برغبتي في الزواج منك.

وضحك بسرور ثمّ واصل حديثه:

ـ أنكرت عليّ رغبتي في الزواج من فتاة لا يجري في عروقها الدم الملكيّ فقلت لها «وأنت كذلك يا أمّي»، فتظاهرت بالغضب، ولكنّها استدعتك إلى مقابلتها، ثمّ زفّت إليّ موافقتها . . .

وتذكّرت ما ادّعت من أنّها صاحبة الفكرة وداريت ابتسامة. وكان عليّ أن أتكلّم، وأن أقول قولًا صادقًا، فقلت:

ـ لقد آمنت بإلهك وبك من قبل أن أراك.

فهتف بحبور:

ـ على لسان آي أليس كذلك؟، إنّك أوّل مَن آمن يا نفرتيتي.

فقلت وأنا أدفع عن نفسي اللحظة الحرجة ما استطعت:

ـ سأكون أوّل من يترنّم بنشيد الإله في معبده.

ـ أعدك بذلك.

ثمّ لثم شفتيّ وهمس:

ـ ولكن عليك ان تنجبي وريثًا لعرش الإله!

وتلاشت مشاعري القدسيّة فلم يبق محلّها سوى الحياء والضيق ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين. أمّا عن حياتي الروحيّة فقد تلقّيت منه مددًا لا يفنى أترع قلبي بالنور، حتّى توقّعت ان يكلّمني الإله كما يكلّمه، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر. أمّا

جسمي فكان يتجلّد في كآبة وصمت. وحلّت به الشمرة فتوعّكت صحّتي وتغيّر لوني، وعبث القادم بي، عبث برشاقة جسمي الجميل. وكان مولاي يعيش في الحقيقة ويكرّس ذاته للحقيقة، ويتحدّى كافّة القوى من أجل الحقيقة، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين، فساءلت نفسي في قلق كيف أجيبه لو خطر له يومًا أن يسألني «أتحبّينني يا نفرتيتي». لن أجد الشجاعة للكذب عليه. وفضلًا عن ذلك فقد تعلّمت منه أن أحبّ الحقيقة وأن أكره الكذب. وأعددت إجابة على سؤاله المحتمل، وهي أن أقول له:

ـ سيجيء الحبّ في وقته فمعذرة لأنّني أكره الكذب مثلك.

وهي إجابة ربّما تلاشت معها أحلامي، وأقصتني عن المجد والنور. ولكنّه لم يطرح ذلك السؤال قطّ، فظلّ من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقي. ويومًا استدعتني الملكة تيي إلى استراحتها، وراحت تتفحّص جسدي باسمة ثمّ قالت:

ـ اعتني بنفسك ففي بطنك تدبّ حياة ستنضمّ عاجلًا إلى تاريخ هذا الوطن.

فلمست في قولها إشارة إلى انتظار وليّ العهد فقلت:

ـ صلّي من أجلي يا مولاتي.

فقالت بثقة:

ـ أمامك عمر طويل.

فقلت بإشفاق:

ـ لا حيلة لي في ذلك.

فقالت محذّرة:

ـ لا تسلّطي الخوف على فكرك.

فقلت كالمتشكّية:

ـ لن أسأل عمّا ليس في طوق البشر.

فهمست:

ـ الملكة ليست كسائر البشر!

إنّها تحطّم وسائل دفاعي. امرأة قويّة وداهية وجديرة بما يصفها أبي به من عظمة. وزوجي يحبّها لدرجة مثيرة، وهي تعتبره ملكها وحدها حتّى بعد زواجه. وشعرت أنّني ما زلت ارسف في أغلالها.

ومضت أنباء الإله الجديد تتسرّب إلى الكهنة ومضى الجوّ يكفهرّ. وفي تلك الفترة من حياتنا عرفت مدى قوّة زوجي المستترة وراء ضعفه الجسديّ، لمست صلابة روحه، وقوّة تصميمه، وعنف شجاعته، وصموده أمام التحدّيات. قال لي مرّة:

ـ إنّ أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تثنيني عن هدفي.

فقلت له متأثّرة بحماسه:

ـ إنّي معك في جميع الأحوال.

فهتف:

ـ لن يخذلنا إلهنا.

حتّى أبوه وأمّه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه. ودعتني تيي إلى لقاء في يوم أعتبره من أخطر أيّام حياتي. سألتني:

ـ هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة؟

فقلت لها وأنا أتوثّب لمعركة:

ـ أحزان طيبة هي أحزاننا.

فتساءلت بدهاء:

ـ ألم تؤثّر فيه كلماتك الطيّبة؟

فقلت بجرأة:

ـ كلمات إلهه هي الأقوى.

فقالت بتوجّس:

ـ ولكنّك لا تبدين حزينة أو قلقة.

فهويت على أغلالي قائلة:

ـ إنّي مؤمنة بما يقول يا مولاتي.

بذلك التصريح أعلنت أنّ حبّي للإله أقوى من حبّي للعرش وحرّرت نفسي. واتّسعت عيناها النجلاوان وتساءلت:

ـ آمنت حقًّا بالإله الجديد؟

ـ نعم يا مولاتي.

ـ لكنّ ذلك يعني إنكار آلهة مصر؟

فقلت بحرارة:

ـ إنّه واحد لا شريك له.

فتساءلت بنبرة غاضبة:

ـ أليس من حقّ الآخرين أن يعبدوا آلهتهم؟

ـ إنّه لا يتعرّض للآخرين.

ـ لكنّه سيكون يومًا الملك الخادم لجميع الآلهة؟
ـ نحن لا نخدم إلّا إلٰهًا واحدًا.
فهتفت:
ـ ألا تقدّرين عواقب هٰذا التمرّد؟
فقلت بثقة صادقة:
ـ إلٰهنا لن يخذلنا أبدًا.
فسألتني بغيظ ومرارة:
ـ ألم تعديني بالتعاون دون قيد أو شرط؟
فقلت برقّة:
ـ إنّك مولاتي ولٰكنّه الإلٰه فوق كلّ شيء.

ورجعت إلى جناحي دامعة العينين، مجهولة المصير، ولٰكن مطمئنّة القلب. وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطوريّة. وقيل وقتها إنّه أريد بها ترويض وليّ العهد وتعريفه بمواقع إمبراطوريّته لعلّه يرجع عن غيّه!. ولٰكنّي شعرت أيضًا بأنّ تيي شرعت تعاقبني بحرماني من زوجي في وقت أوشكت فيه على الوَضْع. ولّما ذهب ألقى بي في خضمّ تجربة جديدة ما تصوّرتها قطّ. ماذا حدث في تلك الأيّام؟. انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلّا ظلامًا. وغزتني وحدة مخيفة خانقة، لم يخفّف منها ملازمة مربّيتي تي ولا غناء الجواري ورقصهنّ. واحتوتني الكآبة ودثّرتني بكفنها.

افتقدت مولاي في كلّ ركن من أركان جناحي وفي كلّ ساعة من يومي. لم أتخيّل أنّه يشغل ذٰلك الحيّز كلّه من حياتي، واكتشفت أنّه سرّ حياتي وكنز سعادتي، لا كمعلّم فحسب، ولٰكن كزوج وحبيب أيضًا. وبكيت ندمًا على عماي وجهلي، وتلهّفت على رجعته لألقي بقلبي تحت قدميه. وحدث في القصر ما سرى عنه بعض همومه، فقد جاءني المخاض، كما جاء الملكة تيي، في وقت واحد تقريبًا، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون. ولّما عرفتُ بأنّني رزقت أنثى ركبني الهمّ والحزن، وتوكّد لديّ بأنّ مركزي يزداد ضعفًا أمام امرأة القصر القويّة. وترامت إليّ همسات الحريم بأنّ لعنة الكهنة قد حلّت بي وأنّني لن أنجب ذكرًا ما حييت.

وفي تلك الأثناء جاءت تادوخيبا ابنة ملك ميتاني لتلعب دورها في طيبة. وكان الملك أمنحتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعمًا لأواصر الصداقة بينه وبين ميتاني. وكانت تيي تدرك بواعث زوجها الحقيقيّة ولٰكنّها كانت دائمًا تسلّط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوّة خارقة على الغيرة مكرّسة جلّ وقتها للحكم. وجاءت تادوخيبا تشقّ طريق طيبة في موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية. تسلّيت بسماع الأنباء وأنا غارقة في وحدتي وأحزاني، وحدّثتني تي عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها، وختمت حديثها بقولها:

ـ ولٰكن لا تعلو على شمسنا شمس في الوجود!

وذاع في جنبات القصر أنّ الملك العجوز الذي أخذ المرض يكدّره قد هام بالعروس الجديدة التي في عمر أحفاده، وأنّه غرق في بحر العسل. ولٰكنّ باله لم يصفُ طويلًا إذ جاءت التقارير عن رحلة وليّ العهد لتعصف بأمنه وسعادته. ودعيتُ للاجتماع بالملك والملكة فهالني أوّل ما هالني ما حلّ بالملك من ضعف نتيجة لإفراطه في الحبّ واللهو. رغم ذٰلك بدا غاضبًا شرسًا، وجعل يهتف:

ـ يا له من فتًى طائش.
فقالت تيي:
ـ يمكن أن نستردّ هيبتنا بعرض لجيش الدفاع في أنحاء الإمبراطوريّة!
فقال لها ساخرًا:
ـ لقد بدّد الأحمق مدّخره الموروث من الإجلال ولن يستردّه مهما فعلنا.
فتساءلتُ بعد تردّد:
ـ ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه؟
فهتف بي:
ـ ما أنت إلّا حمقاء مثله.
وقالت لي المرأة الداهية:
ـ كان بوسعك أن تعقّليه!
فقلت لها وأنا أداري انفعالي:
ـ هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتي!
فقالت متمادية في تحدّيها لي:

- ولٰكنّك تشجّعينه وأنت راضية!

فلوّح أمنحتب الثالث بيده مهدّدًا وقال:

- سأخيّره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد!

ورجعت إلى أحزاني مشفية على اليأس. ولٰكن تي أيقظتني في صباح اليوم التالي، ثمّ همست في أذني:

- مات الملك يا مولاتي.

وثقل قلبي بالحزن. وجعلت أتساءل ترى هل نفّذ الملك وعيده قبل وفاته؟. وهل يمكن أن تضحّي تيي بابنها المعبود؟!. وفي الفترة التي حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتني الملكة وقالت لي وهي ترمقني من خلال عينيها الحمراوين من أثر البكاء:

- اعلمي أنّ الكهنة اقترحوا عليّ المناداة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكًا على أن أتولّى الوصاية على العرش.

لم أشكّ في تلك اللحظة في أنّها أنزلت بي عقابها بكلّ ثقله وعنفه فقلت مستسلمة لقدري:

- قرارك دائمًا يصدر عن حكمة وإنّي به راضية!

فتساءلت بقسوة:

- أتنطقين عن صدق؟

فأجبت بهدوء اليأس:

- وماذا أملك سوى ذٰلك؟

فقالت بحدّة:

- غلب الحبّ الحكمة فرفضتِ الاقتراح!

فتنفّستُ بعد غرق وأعياني الكلام فسألتني ساخرة:

- سعيدة؟

فقلت بأمانة:

- نعم يا مولاتي فإنّي أمقت الكذب!

- هل تعدينني بالدفاع عن العقل والتقاليد؟

فقلت وأنا أتمزّق:

- لا أستطيع يا مولاتي!

فنفخت مغيظة محنقة وهتفت:

- إنّـك تستحقّـين العقـاب، ولٰكنّـك جـديرة بالإعجاب أيضًا، فلتواجها مصيركما بحكمتكما ولتكن مشيئة الآلهة!

وصرفتني مكفهرّة الوجه فعدت إلى جناحي سعيدة رغم الحداد وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغير. وما لبث حبيبي أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدّد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكلّ قوّة حبّي. وتفرّس في وجهي وقتًا ثمّ قال بطمأنينة:

- أخيرًا جاء الحبّ يا نفرتيتي!

فأذهلني قوله وعزّاني وقلت متلعثمة:

- إنّي أحبّك من قبل أن تراك عيناي.

فقال باسمًا:

- ولٰكنّك لم تحبّيني كزوج إلّا هٰذه المرّة!

فأذهلتني قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس. ومثل أمام جثّة أبيه قبل الدفن، ورجع إليّ بأثر البكاء في عينيه ثمّ قال كالمعتذر:

- الموت يهزّني حقًّا، ثمّ إنّني لم أحبّه كما يجب!

وجلسنا على العرش في جوّ مليء بالتربّص والتحدّي، وسرعان ما تجلّت قوّة حبيبي الكامنة كأعظم ما تكون القوّة. وبدأ بعرض دينه على رجاله فأعلنوا إيمانهم به. ولم أشكّ أنا في صدقهم قياسًا على نفسي، ولٰكنّ الأحداث أثبتت أنّ أكثرهم لم يكونوا صادقين، أو أنّ إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس، باستثناء مري رع الكاهن الأكبر. ولا أشكّ اليوم في أنّ بصيرته الصافية لم تُخدع بهم، وأنّها نفذت إلى أغوار قلوبهم، ولٰكنّه كان يؤمن دائمًا بأنّ الحبّ كفيل بهداية الجميع في النهاية، وأنّهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحيّ إلى الإيمان الحقيقيّ عندما يأزف الوقت وكما فعلت أنا في علاقتي الزوجيّة به. بل أقول أكثر من ذٰلك بأنّ نفرًا منهم اقتنعوا بعدم أهليّته للعرش فحلموا بأن يخلفوه في ذروة الأزمة، منهم حور محب، بل منهم أبي آي نفسه، وليس الحدس مرجعي الوحيد في تصوّري هٰذا ولٰكنّي استخرجته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير في أيّام الهزيمة. لذٰلك أراحني جدًّا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم، وإن كنت أشكّ في أنّهم يئسوا حقًّا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى. على أيّ حال بدأ حكمنا في ذٰلك الجوّ المتوتّر، ولٰكنّنا كنّا سعداء رغم كلّ شيء، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكوّنت

ثمرة جديدة في بطني نتيجة للحبّ الكامل هٰذه المرّة. ولم يعرف امرأة غيري رغم أنّه ورث حريم أبيه كما تقضي التقاليد، وفيه الميتانيّة الجميلة تادوخيبا.

وزارتنا الملكة الوالدة تيي فتوقّعت متاعب من نوع ما. وصحّ ظنّي فقالت لابنها على مسمع منّي:

- أيّها الملك، إنّك تهمل الحريم . . .

فقال زوجي ضاحكًا:

- إنّي مُوَحِّد في الحبّ كما في الدين!

فقالت بجدّيّة:

- ولٰكنّك مطالَب بالعدل. ولا تنسَ تادوخيبا ابنة صديقنا توشراتا فهي تستحقّ الرعاية إكرامًا لأبيها. .

ونظرت نحوي فزاغ عنها بصري وأنا في غاية الضيق فقالت بدهاء:

- نفرتيتي تثبت كلّ يوم أنّها جديرة بالعرش فلعلّها توافقني على رأيي . . .

فواظبت على صمتي كاظمة غيظي على حين راحت تحدّث عن واجبات الملكة. ولم أستطع أن أقهر رغبتي في زيارة الحريم، في الظاهر للتعارف وفي الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة. ووجدتها جميلة حقًّا ولٰكنّ ثقتي بنفسي لم تتزعزع، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا عدوّتين سافرتين. وفي اليوم التالي جالست زوجي في جوسق بالحديقة وإذا بي أسأله:

- ماذا تنوي بالنسبة للحريم؟

فأجابني ببساطة:

- لا رغبة لي فيه!

فقلت باحتجاج:

- ولٰكنّ الملكة الوالدة لا تكترث للرغبات!

فقال بغموض:

- إنّها مولعة بالتقاليد!

فقلت بوضوح:

- أمّا أنت فإنّك عدوّ التقاليد الأوّل.

فضحك بسرور وقال:

- صدقت يا حبيبتي!

وأظنّ أنّه في ذٰلك الوقت تمّت المقابلة المثيرة بيني وبين كاهن آمون الأكبر. تمّت بناء على طلبه وبوساطة أبي. وقال لي:

- مولاتي، لعلّك تعلمين بما جئت من أجله؟

فقلت له دون مواربة:

- إنّي مصغية إليك أيّها الكاهن الأكبر.

فقال برجاء:

- ليعبد الملك من يشاء من الآلهة ولٰكن لجميع الآلهة وعلى رأسها آمون حقّ في الرعاية.

فقلت:

- إنّنا لا نتعرّض بسوء لأيّ إلٰه.

فقال برقّة:

- إنّني أطمح إلى دفاع الملكة عنّا عند الضرورة!

فقلت بصدق:

- لا أستطيع أن أعد إلّا بما يسعني الوفاء به.

فقال بأسى:

- كان أبوك واحدًا منّا وبيني وبينه صداقة لا تنفصم عراها.

فقلت:

- يسرّني أن أسمع ذٰلك.

وذهب الرجل ولا شكّ عندي في أنّه أضمر لي عداوة ثابتة. وكرّس الملك حياته كلّها لرسالته، داعيًا للحبّ بالحبّ، نافيًا العنف والقهر والعقاب، مخفّفًا الضرائب عن الفقراء، حتّى آمن الجميع بأنّ عهدًا جديدًا من الخير يحلّ بأرض مصر. وجاءني المخاض فولدت ابنتي الثانية سيكيتاتون فخاب رجائي للمرّة الثانية في إنجاب وليّ للعهد. وكثر الحديث عن سحر الكهنة ولٰكنّ زوجي أحبّ المولودة من أوّل نظرة وقال لي مواسيًا:

- سيجيء وليّ العهد في حينه لا قبل ذٰلك.

وكمّل تشييد معبد جديد لإلٰهنا الواحد في طيبة، وذهبنا في موكب لافتتاحه، وإذا بالكهنة يجمعون أذنابًا لهم فتظاهروا في طريق الملك وهتفوا لآمون. واستاء القصر لذاك التحدّي السافر، وسهر الملك في الشرفة مغتمًّا على غير العادة، وراح يخاطب طيبة قائلًا:

- طيبة، يا مدينة الشرّ والأشرار، يا مثوى الإلٰه الكاذب والكهنة الفاسقين، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة!

وأمره الإلٰه ببناء مدينة جديدة له، ونفّذ الأمر فرحل

بك على رأس ثمانين ألفًا من المهندسين والعمّال لتشييد مدينة الإله الواحد. وعشنا في أثناء ذلك هاتين بسعادتنا الشخصيّة يتربّص بنا جوّ عدائيّ شديد التوتّر. وأنجبت أنحس ياتون ونفر آتون مسلّمة أمري لإلهي خالق الإناث والذكور. وفي الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحبين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون أمّا الملكة تيي فأصرّت على البقاء في طيبة على كثب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد.

ولمّا وجدتُني في مدينة النور أخت آتون المتجلّية في وحدة هندسيّة متناسقة استخفّني السرور فهتفت في نشوة وبراءة:

- ما أجمل الجمال، ما أعذب روحك يا إلهي!

وافتتحت المدينة بالصلاة في المعبد، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه، ثمّ ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة، ورسم مري رع كاهنًا أكبر. وجرى نهر الحياة حاملًا إلينا بركات السعادة والنصر، حتّى رجع إليّ يومًا من خلوته يلوح في وجهه الجدّ والتصميم وقال لي:

- أمرني إلهي بأن يعبد وحده في البلاد!

وفي الحال أدركت خطورة ما ينطوي عليه ذلك الأمر، فتساءلت:

- والآلهة الأخرى؟

فقال بثبات وعيناه تومضان:

- سأصدر أمري بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها.

وران عليّ صمت حتّى تساءل:

- لا تبدين سعيدة يا نفرتيتي؟

فقلت بعجلة:

- إنّك تتحدّى كهنة البلاد أجمعين.

فقال ببساطة وثقة:

- إنّي على ذلك لقادر.

فقلت بعد تردّد:

- ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل الحبّ والسلام؟

- لن ألجأ إلى العنف ما حييت!

- وإذا تصدّوا لأمرك بالمقاومة؟

- سأوزّع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرّض لمتمرّد بسوء قانعًا بدعوة شعبي إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك.

فانكشف عنّي الغم، وقبّلته وأنا أقول:

- لن يتخلّى عنك إلهك.

وصدر الأمر. وحدث ما لم أتوقّعه فنفّذ بهدوء شامل. بفضل الإله، وبقوّة العرش المهيمنة على النفوس. وازددنا ثقة بغير حدود. وفي العصارى كنّا ننطلق في عربتنا الملكيّة بلا حرس نجوب شوارع أخت آتون الواسعة تحفّ بنا الجماهير المتحمّسة والنخيل والصفصاف وأشجار البلح، محطّمين حواجز الوهم بين العرش والناس، نكاد نعرف الناس جميعًا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم، وحلّ الحبّ حقًّا محلّ الخوف القديم، وتغنّى الجميع بأعذب الألحان القدسيّة. وهمس أبي في أذني مرّة:

- أخشى أن تبدّدوا هيبة الملك.

فقلت له وأنا أضحك:

- نحن نعيش في الحقيقة يا أبي..

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدّسة داعين لعبادة الإله الواحد الأحد، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر، ولم نكترث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرّيّ ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا. ولم يعد سلوك مولاي يُدهش أحدًا لانغماسه الكلّيّ في عالمه المقدّس، أمّا أنا فأدهشت الكثيرين حتّى سلّموا بأنّني لغز لا يُحَلّ. إذ كيف أهيم مثله في عالمه القدسيّ رغم وعيي الكامل بواقع الشئون الإداريّة والماليّة للبلاد! فلعلّهم لم يصدّقوا أنّني كنت صنوه في الإيمان والحماس للرسالة. وكنت أشاركه الحياة في الحقيقة وأصدّق كلّ كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذي لم يكذب قطّ. وقال لي ونحن ننتشي بذروة الفوز:

- عندما تتطهّر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعًا بسماع الصوت الإلهيّ ويعيشون في الحقيقة!

ذلك كان حلمه، أن يعيش الناس أجمعون في الحقيقة.

ورجعنا من رحلاتنا الموفّقة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه. وجثا إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصلّي، وانتحيت بالطبيب بنتو في أقصى الحجرة وقلت له:

- البنت تموت يا بنتو.

فأجابني بأسّى:

- قد بذلت ما في وسعي!

فقلت في حنق وقهر:

- إنّهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحبّ الكائنات إلى قلبه..

وسمعته يهمس بحرارة مخاطبًا إلٰهه:

- لا تفجعني فيها يا إلٰهي، إنّي أحبّها ولا أطيق الحياة بدونها..، إنّها أنضج من عمرها وستكرّس حياتها لخدمتك..

لكنّ روحها مضت تتسرّب رويدًا من قبضة حبّنا حتّى تركتنا متسامية للنجوم. وانكببنا عليها نبكي ونولول مستسلمين لطغيان الحزن. وجعل يخاطب إلٰهه:

- لماذا يا إلٰهي؟، لماذا تمتحن إيماني بشدّة لا داعي لها؟، لماذا تصارحني بقسوة بأنّني ما زلت بعيدًا عن معرفتك، لماذا تعاملني بعنف وأنت الرحمة، وبجفاء وأنت الحبيب، وبغضب وأنا المطيع، وبغموض وأنت النور، لماذا إذن كسوتها بهٰذا الجمال ومنحتها هٰذا الذكاء؟ ولماذا جعلتنا نحبّها كلّ الحبّ ونعدّها لخدمتك في معبدك؟

وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد وخارجها ممّا علمتها بالتفصيل كما ذكرت لي. ولعلّ أتعس الناس هم الذين يتداوون من حزنهم بحزن أشدّ. وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة بحذافيرها. ولا أنكر أنّ عزيمتي اجتاحتها الكآبة وخامرني القلق، أمّا مولاي فقد صمد أمام العاصفة كأنّه الهرم الأكبر. وقال بثقة لا حدّ لها:

- لن يخذلني إلٰهي، ولن أحيد عن الحبّ قيد ذرّة رمل.

وعدتني قوّته الخارقة فانتعشت روحي قاهرة جميع الهواجس والوساوس، وندمت على ضعفي العابر. ولّما ساءت الحال أكثر جاءتنا الملكة الوالدة تيي. واجتمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا في قصرها بجنوب أخت آتون. وبدأت حديثها قائلة:

- السماء مليئة بالغيوم.

ونقّلت بيننا عينيها اللتين أحاط بهما الكبر وقالت:

- أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك في جميع الظروف والأحوال.

فسألتها:

- ترى هل داخلك الشكّ فيهم؟

فقالت لي بعتاب:

- المحن تطالبنا بالتماس اليقين..

فقال إخناتون:

- إلٰهي لا يبالي بالمحن!

فقالت بحدّة:

- بل عمّا قليل ستنفجر الفتن.

فقال بثقة:

- لن يتخلّى عنّي إلٰهي أبدًا.

- لا أملك الحقّ في التحدّث باسم الآلهة، إنّهم أكبر من ذٰلك وإنّي أصغر من ذٰلك، ولكنّي أعرف ما يجري في دنيا الناس.

فقال بأسّى:

- أمّي، إنّك غير مؤمنة..

- لا تتحدّث عمّا بيني وبين الغيب، حدّثني كملك وأصغ إليّ كملكة، أقول لك تحرّك قبل فوات الأوان، لديك جيش الحدود بقيادة ماي فمُرْهُ بالزحف على الإمبراطوريّة، ولديك قوّات الحرس والشرطة فمُرْها بضرب الفساد والمفسدين، أسرع قبل أن يتهاوى عرشك أنقاضًا..

فقال بحدّة:

- لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة.

فقالت في أسّى عميق:

- لا تجعلني أندم على تمسّكي لك بالعرش.

فهتف:

- لا يهمّني العرش إلّا باعتباره الوسيلة لخدمة الإلٰه!

فنظرت إليّ تيي وقالت:

ـ تكلّمي أيّتها الملكة فلعلّي لم أخترك إلّا من أجل هٰذه الساعة..

فقلت بحماس لا يقلّ عن حماس مولاي:

ـ لن يخذلنا إلٰهنا يا أمّاه.

فاكفهرّ وجهها المتغضّن وقالت بغضب:

ـ استحكم الجنون وانتصر القدر.

وغادرت تيي أخت آتون حزينة مريضة، ولم يمتدّ بها العمر في طيبة إلّا أيّامًا ثمّ فاضت روحها الكسيرة. ولم تمضِ أيّام حتّى طلب آي وناخت وحور محب مقابلة الملك فاستقبلناهم في الحال. ولّما نظر إخناتون في وجوههم قال باسمًا:

ـ لم تجيئوا لخير.

فقال آي:

ـ جئنا يا مولاي مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطوريّة!

فتساءل إخناتون:

ـ وماذا عن إيمانكم بخالق كلّ شيء؟

فقال آي:

ـ ما زلنا نؤمن به ولٰكنّنا مسئولون عن دنيانا يا مولاي..

فقال إخناتون:

ـ لا قيمة لهٰذه المسئوليّة إذا لم تنبع من ذٰلك الإيمان..

وعند ذاك قال ناخت:

ـ العدوّ يتوغّل في الإمبراطوريّة، والولايات أعلنت تمرّدها في البلاد، ونحن في الواقع محصورون في أخت آتون..

فقال الملك بإصرار:

ـ لن يتخلّى عنّي إلٰهي، وبالتالي لن أتخلّى عن رسالته!

وهنا قال حور محب:

ـ سوف تفرض الحرب الأهليّة نفسها علينا!

فقال إخناتون:

ـ لن تقوم حرب أهليّة.

فتساءل حور محب:

ـ هل نُترك حتّى نُذبح كالأغنام؟

فقال الملك:

ـ سألقى الجيش المهاجم وحدي بلا سلاح.

فقال حور محب بحزم:

ـ سيقتلونك ثمّ يقتلوننا، وطالما أنّك مستمسك بديانتك فتنحَّ عن العرش وتفرّغ لها..

فقال بوضوح:

ـ لن أتنحّى عن عرش الإلٰه فهي الخيانة!

ثمّ نظر في وجوههم وقال:

ـ إنّي أعفيكم من الولاء لي.

فقال حور محب:

ـ سنترك لجلالتكم مهلة للتدبّر.

وذهبوا مخلّفين وراءهم إنذارًا نهائيًّا. وما كنت أتصوّر أن يلقى فرعون مثل ذٰلك الهوان. وتساءلت في حيرة بالغة حتّى متى يضنّ علينا إلٰهنا بالنصر؟. وعجبت لإيمان حبيبي الراسخ، واقتنعت بأنّني ما زلت دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد.

وجاء حور محب لمقابلتي على انفراد وقال لي:

ـ افعلي شيئًا، افعلي ما بوسعك، سيُقتل حتمًا إذا أصرّ على موقفه، بل قد يُقتل بيد أحد رجاله! عليك أن تفعلي شيئًا قبل فوات الفرصة..

وتخايل لعينيّ شبح الموت والهزيمة، تسلّل وهن إلى إرادتي، وشيء من الشكّ إلى عقيدتي، وتساءلت في حيرة معذّبة كيف أنقذ حبيبي من الموت؟!. وخطر لي أنّني إذا هجرته فلعلّ ثقته بنفسه تتزعزع فيذعن لمشيئة رجاله، ويتنحّى عن العرش. أجل سيؤمن بأنّني خنته كالآخرين ولٰكنّني لم أكن أملك وسيلة أخرى. هٰكذا أقدمت على هجر حبيبي وقصري، فلذت بقصري الخاصّ في شمال أخت آتون باكية العينين، دامية القلب. وزارتني أختي موت نجمت، وأخبرتني بأنّ الملك مصرّ على عناده، وأنّهم وجدوا الحلّ في إخلاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد، وبذٰلك تنعدم دواعي الحرب الأهليّة، ثمّ سألتني بخبث:

ـ متى ترحلين إلى طيبة؟

وكنت أقرأ أفكارها بوضوح فقلت بخشونة:

ـ لقد تحقّقت نبوءة، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقّق، فاذهبي بسلام، أمّا أنا فسأبقى إلى جانب

زوجي وإلهي. .

وغمرتني أيّام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبي جميع ذكريات السعادة الماضية فكأنّني لم أذق للسعادة طعمًا على مدى عمري. قبعت في قوقعة الشعور بالإثم، أرقب من نافذتي مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة. ترامى إليّ هديرهم وبكاؤهم، وصراخ أطفالهم، ونباح كلابهم، ورأيت تيّاراتهم لا تنقطع، ماضية في طوابير، حاملة ما خفّ من متاعهم، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب، وأغلقت النوافذ والأبواب، تابعتهم نظراتي الحائرة حتّى آخر حيّ، ثمّ رأيت الوحشة تحلّ محلّهم في المساكن والحدائق والشوارع وتطوّق الأشجار، ورأيت الفناء يحلّق في الجوّ مرسلًا نذره الساخرة، فهتفت من قلبي الجريح:

أخت آتون. . يا مدينة النور. . يا مدينة الوحدة القاتلة. . قاسمينا الحظّ والمصير. . أين التراتيل والألحان. . أين قُبلات النصر والحبّ. . أين أنت يا إلهي الواحد. . لِمَ تخلّيت عن المخلصين؟!

خلت المدينة. وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى. لم يبقَ من أهلها إلّا سجينان، حبيبي وأنا، ونفر من حرس الأعداء. ترى فيمَ يفكّر، وكيف يراني، وإلامَ آلَ إيمانه؟. وقرّرت أن أذهب إليه لنتكاشف ونصفّي الحساب ولكنّي مُنعت من مغادرة القصر، وحيل بيني وبين مراسلته، فأدركت أنّه لم يبقَ لي إلّا انتظار الموت في السجن. وكذلك حبيبي ومولاي. وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبي البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبي آي أو القائد حور محب، ولكنّ رئيس الحرّاس قال لي بحزم وخشونة:

- إنّك ممنوعة من أيّ اتّصال بالخارج.

فتصبّرت على أيّام الوحدة والحزن بلا أمل. وغفلت عن معالم الزمن غارقة في تأمّلات حزينة وصلوات متواصلة حتّى استرددت إيماني خالصًا بإلهي رغم كلّ شيء، بل وآمنت بأنّ النصر النهائيّ سيكون له وإن طال الانتظار. وكبر عليّ أن أتصوّر أنّ حبيبي الذي عرفته أكثر من أيّ إنسان يمكن أن ييأس أو ينهزم أو يفقد ثقته في إلهه الذي خصّه بمناجاته دون الناس جميعًا. لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيويّ ولكنّه ظلّ ولا شكّ هائمًا في الحقيقة مطّلعًا على الأبديّة، سعيدًا بين يدي إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة، منغمسًا في الأنس والرضا والحبّ.

ولذلك فعندما جاءني رئيس الحرس وقال بصوته الجافّ:

- أذن لي أن أبلغك بأنّ الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل. وأنّ بعثة ملكيّة قامت بتحنيطه ودفنه تبعًا للمراسيم الفرعونيّة.

لم أصدّق كلمة ممّا قيل. حبيبي لم يمرض مرضًا أفضى به إلى الموت. لعلّهم اغتالوه ليؤمّنوا نصرهم الزائف، ففارق الدنيا المارقة ليستقرّ في قلب الخلود. وسوف ألحق به ذات يوم ليطّلع على براءتي ويمنحني عفوه ويُجلسني إلى جانبه على عرش الحقيقة.

* * *

وتلاشى الصوت العذب بعد الجهد، ولبثت مولاتي صامتة حزينة جليلة تتحدّى المِحَن. ودّعتها بكلّ إكبار، وانصرفت على رغمي مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة.

* * *

ولّما رجعت إلى سايس استقبلني أبي بشوق، وراح يسألني عن رحلتي وأجيبه، وامتدّ الحوار بيننا أيّامًا وتشعّب. وقلت له كلّ شيء تقريبًا، ولكنّي أخفيت عنه أمرين:

وَلَعي المتزايد بالأناشيد.

وحبّي العميق لتلك السيّدة الجميلة.

يوم قتل الزّعيم

محتشمي زايد

نوم قليل وفترة انتظار ثملة بالدفء تحت الغطاء الثقيل. النافذة تنضح بضياء خفيف ولكنّه يتجلّى بقوّة في ظلام الحجرة الدامس. اللّهمّ إنّي أنام بأمرك وأصحو بأمرك وإنّك مالك كلّ شيء. ها هو أذان الفجر يفتتح يومي الجديد، ويسبح في بحر الصمت الشامل هاتفًا باسمك. اللّهمّ عونك لهجر حنان الفراش والخروج إلى قسوة برد هذا الشتاء الطويل. حبيبي يغطّ في نومه في الفراش الآخر فلأتلمّس طريقي في الظلام أن أوقظه. ما أبرد ماء الوضوء ولكنّي أستمدّ الحرارة من رحمتك. الصلاة لقاء وفناء. مَن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه. كلّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقرّبني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم. أنتزع نفسي من تأمّلاتي أخيرًا لأوقظ النيام. أنا منبّه هذه الأسرة المرهقة. حسن ألّا تخلو من نفع وأنّني في هذا العمر. طاعن في السنّ متين الصحّة بفضل الله. لا بأس أن أضيء المصباح الآن. وأنقر باب الحجرة بأصبعي هاتفًا «فوّاز» حتّى أسمع صوته وهو يقول «صباح الخير يا أبي». أرجع إلى حجرتي وأضيء مصباحها أيضًا فأرى حفيدي مستغرقًا في نومه لا يبدو منه إلّا وسط وجهه بين حافتي الغطاء والطاقيّة. ما باليد حيلة. عليّ أن أخرجه من دنيا الراحة إلى الجحيم. وأهمس بقلب مفعم بالعطف عليه وعلى جيله «علوان... اصْحُ». ويفتح عينيه العسليّتين، ويتثاءب، ويقول باسمًا «صباح الخير يا جدّي». ويعقب ذلك حركة أقدام، ونشاط السنة، وحياة تدبّ ما بين الحمّام وحجرة السفرة. وأستمع إلى قرآن الصباح في الراديو حتّى تناديني هناء زوجة ابني «السفرة جاهزة يا عمّي». أهمّ ما بقي لي في مسرّات الدنيا الطعام. ما أكثر نِعَم الله في دنياه. اللّهمّ جنّبني المرض والعجز. لا أحد ثمّة للعناية بالآخرين. ولا فائض مال للتمريض. الويل لمن يسقط. يجمعنا في الصباح المدمّس وحده أو الطعميّة. هما معًا أهمّ من قنال السويس. سقيًا لعهد البَيْض والجبن والبسطرمة والمربّى، ذلك عهد بائد، أو ق .ا. أي قبل الانفتاح. الأسعار جنّت، كلّ شيءٍ قد جنّ. ما زال فوّاز مائلًا للبدانة، وهو يستعين بالخبز، ومثله هناء ولكنّها تسرع نحو الكبر قبل الأوان. ابن خمسين يبدو اليوم كأنّه ابن ستّين. وقال فوّاز بصوته الجهير:

ـ سنعمل أيّامًا صباحًا ومساء بالوزارة فأضطرّ إلى الانقطاع عن الشركة...

ساورني قلق. إنّه وزوجه يعملان في شركة قطاع خاصّ. ودَخْلهما ومعاشي ومرتّب علوان تفي بالكاد بضرورات الحياة فما الحال إذا استغنت عنه الشركة؟!

فقلت برجاء:

ـ لعلّها أيّام قليلة.

وقالت هناء:

ـ سأقوم ببعض عملك وآتيك بما لم يُنجَز منه وأشرح لمدير القسم ظروفك...

فقال فوّاز متسخّطًا:

ـ هذا يعني أن أعمل من الصباح حتّى منتصف الليل.

أتمنّى دائمًا ألّا نثير غبار الهموم على مائدة الطعام ولكن كيف؟. وقال علوان:

ـ والد أستاذتي علياء سميح يسوق تاكسي في

أوقات فراغه ويربح أكثر طبعًا.

فسأله والده:

- هل يملك التاكسي؟

- أظنّ ذٰلك.

- ومن أين لي بشراء واحد؟!، وهل كان أبو أستاذتك غنيًّا أو مرتشيًا؟

- كلّ ما أعرفه أنّه رجل محترم.

فقلت:

- اختار طريقًا شريفًا في النهاية.

فقال علوان ضاحكًا:

- لعلّي أختار طريقًا مثله يومًا ما.

فسألته هناء بجدّيّة:

- ماذا ستفعل؟

- سأكوّن عصابة للسطو على البنوك!

فقال فوّاز بامتعاض:

- خير ما تفعل.

ومُسحت الأطباق مسحًا، ومضت بها هناء إلى المطبخ، وما لبثوا أن ودّعوني وذهبوا. وجدتُني في الشقّة الصغيرة وحيدًا كالعادة. اللّهمّ ارزقهم واكْفِهِمْ شرّ الأيّام. اللّهمّ امنحني شيئًا من نعمة القرب والولاية. لو تركت البيت على حاله لبقي ملهوجًا في فوضى شاملة حتّى المساء. أفعل ما أستطيع في حجرة نومي، وحجرة المعيشة حيث أمضي وحدتي مستمعًا للقرآن والأغاني والأخبار في رحاب الراديو أو التليفزيون. لو توجد حجرة رابعة لأمكن أن يقيم علوان فيها عشّه. الحمد لله لا اعتراض على قضائه. مرّ العارف أبو العبّاس المرسي بالقاهرة بأناس يزدحمون على دكّان خبّاز في سنة الغلاء فرقّ قلبه لهم، ثمّ وقع في نفسه أنّه لو كان معي دراهم لآثرت بها هٰؤلاء فأحسّ بثقل في جيبه فأدخل فيه يده فوجد فيه جملة من الدراهم فأعطاها للخبّاز وأخذ بها خبزًا فرّقه، فلمّا انصرف وجد الخبّاز الدراهم زائفة فاستغاث عليه وأمسكه. فعلم أنّ ما وقع في نفسه من الرقّة اعتراض على قضاء الله فاستغفر وتاب وسرعان ما تبيّن للخبّاز أنّ الدراهم صحيحة! ذٰلك هو الوليّ الكامل ولا تتأتّى الولاية إلّا لمن يعرض عن الدنيا. شارفت الثمانين وما وسعني أن أعرض عن الدنيا. هي دنيا الله وهِبَتُه الخاطفة لنا فكيف أعرض عنها؟. أحبّها ولٰكنّ حُبّ الحُرّ التقيّ العابِد فلمَ تضنّ عليّ بالولاية؟. يهمّني القرآن والحديث كما يهمّني الانفتاح وكما تهمّني لقمة المدمّس بالزيت الحارّ والكمّون والليمون. ومَن ذا يحيط برحمة الله الواسعة فقد أُشيرُ ذات يوم من بعيد إلى المصباح فيضيء دون أن أمسّ مفتاحه. لم يبق لي من أصدقاء العمر إلّا واحد فرّقت بيننا الشيخوخة. وحدة النفس والمكان والزمان. وكفّت العينان عن القراءة منذ عام. نومي قليل جدًّا ولا أخاف الموت. أرحّب به حالما يجيء ولٰكن ليس قبل ذٰلك. عندما افتتح الملك فؤاد المدرسة انتُدبت لإلقاء كلمة المدرِّسين. يوم مجد. أثلج صدري بهتاف الأولاد «يعيش الملك ويحيا سعد». تغيّر الهتاف وتغيّرت الأغاني. انفجر أخيرًا الغلاء. من وراء الزجاج المغلق أرى النيل والأشجار. بيتنا أقدم وأصغر بيت في شارع النيل. قزم وسط العمائر الحديثة. النيل نفسه تغيّر وكأنّه مثلي يكابد وحدة وشيخوخة. لبسته حال واحدة، فَقَدَ مجده وأطواره، لم يعد في مقدوره الغضب. ما أكثر السيّارات، ما أكثر الثروات، ما أشدّ الفقر، ما أكثر الأحباب الراحلين!. يوم غائم منذر بالمطر. في مثله كانت تحلو الرحلة إلى حدائق القناطر. أصدقاء العمر يجتمعون حول الدجاج المقليّ والبطاطس والشراب والفونوغراف. أسمر ملك روحي، إن كنت أسامح وأنسى الأسيّة. كلّهم هياكل عظميّة وضحكاتهم المترعة بالسرور والأمان ذابت في تضاعيف الفضاء. وقفوا ورائي صفًّا ليلة الزفاف. ليلة كشف النقاب لأوّل مرّة عن وجه فاطمة. خمس سنوات مضت على آخر زيارة لقبرك. أيّ سرعة جنونيّة في هٰذا الزحام الذي لم تعرف له الأشجار مثيلًا مذ غُرست في عصر إسماعيل!. المجنون يجري بلا وعي نحو حادثة يرصده عندها الأجل. قال رسول الله ﷺ (يا عبدالله، كن في الدنيا كأنّك غريب، أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتى). صدق رسول الله.

علوان فوّاز محتشمي

صباح يوم جديد. قديم. جديد قديم. جديد قديم. جديد قديم. جديد قديم. قديم جديد. دوّخيني يا ليمونة. إن لم يوجد قديم حسن فليوجد جديد سيّئ. أيّ شيء خير من لا شيء. الموت نفسه تجديد. المشي صحّة واقتصاد. المفروض أنّه طريق العشق والجمال فانظر ما هو. آه يا قدمي! آه يا حِذائي! تحمّلا وتصبّرا هٰذا زمن التحمّل والتصبّر. في زمن النار والوحوش لا نسمة ترطّب الفؤاد إلّا أنت يا حبيبتي. للأشجار الباسقة فضل وللنيل فضل أيضًا لا ينكر. انظر إلى أعلى إلى السحب البيضاء ورءوس الأشجار لتنسى سطح الأرض المجدور. ستلقى يومًا شيطانًا بريئًا فتؤاخيه. إنّي عبد العقل الراجح والخلق الكريم والعينين السوداوين المظلّلتين بحاجبين مقرونين. منذ الصغر منذ الصبا منذ الشباب في البيت القديم الضائع بين العمائر الشاهقة، دسيسة بين الأغنياء. سيقتلنا صاحب البيت ذات يوم. عجيب أن يخلد الحبّ في ظلّ الفساد المنتشر. هٰذا الطوار المتهرئ هل تخلّف عن غارة جوّيّة؟. وأكوام القمامة رابضة بالأركان تحرس العشّاق. صباح الخير أيّها المكدّسون في الباصات. وجوهكم تطلّ من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين في يوم الزيارة. والجسر المكتظّ بالعابرين. السائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بنهم وبلا تذوّق. جدّي قال:

- اشتدّي أزمة تنفرجي.

يا جدّي المحبوب حتّى متى نحفظ ونردّد؟ إنّه صديقي الأوّل. ما أنا إلّا يتيم. فقدت أبويّ بعد أن فقدا نفسهما في عمل يتواصل من الصباح حتّى المساء. موزّعين بين الحكومة والقطاع الخاصّ في سبيل اللقمة والضرورة. لا نلتقي إلّا خطفًا.

- لا وقت للفلسفة من فضلك، الا ترى أنّنا لا نجد وقتًا للنوم؟! إن صادفتْ إحدى أخواتي عثرة في حياتها الزوجيّة ندبت أنا لإصلاح ذات البَيْن!. زمن لا يجد فيه أحد عند آخر عونًا. على كلٍّ أن يصارع وحسن حظّه وحده. أخيرًا ها هي شركة الأغذية. إحدى شركات القطاع العامّ. اقرأ على مدخلها بالبنط العريض «ادخلوها بلا أمل». ها هي محبوبتي في إدارتنا العتيدة، العلاقات العامّة والترجمة. تغدق عليّ ابتسامة الحبّ. قلت لها معاتبًا:

- لو انتظرت دقائق لجئنا معًا.

فقالت بمرح:

- لظروفٍ كان عليّ أن أتناول فطوري في البرازيل.

بفضل جدّي جمعتنا شركة واحدة وإدارة واحدة. أو بفضل ضابط من الضبّاط الأحرار كان يومًا تلميذه. جدّي شخصيّته لا تُنسى. يتذكّر فضله رجل من جيل أنكر فضل السابقين. ما أكثر البنات في إدارتنا! ها هي جيوش الأوراق تجمّ عملنا في غير حاجة إلى تركيز. جدّي. أعمل حينًا وأسترق النظر إلى حبيبتي رندة حينًا. أتذكّر وأحلم وأحلم وأتذكّر. قصّة طويلة ترجع إلى أقدم عصور الحياة في بيتنا القديم الفريد. لعبنا في الطفولة واحد وعمرنا واحد. ماما تؤكّد بغير دليل أنّها أكبر منّي. ويجيء البلوغ مصحوبًا بالحياء والحذر. والرقيب يتدخّل هادمًا المسرّات. لكنّ الحبّ اقتحم في حينه. في المرحلة الثانويّة. انهالت على السلّم بين الطابقين المداعبات العابرة والعبارات الرمزيّة. وذات يوم دسست في يدها رسالة اعتراف. كجواب منها أهدتني قصّة وفاء الجيلين. لّما نجحنا في الثانويّة العامّة في عام واحد قلت لجدّي أريد أن أخطب رندة سليمان جارتنا. جدّي قال لي إنّه على أيّامه لم يكن يُباح الكلام في الخطبة قبل أن يستقلّ الشابّ بحياته ولكنّه وعد بفاتحة بابا وماما في الموضوع كما وعد بتأييدي. أمّي قالت إنّ آل سليمان مبارك أقرب من الأقارب، ورندة بمنزلة بناتها ولكنّها أكبر منك!. وقال أبي إنّها تماثلك في السنّ إن لم تكن أكبر وتماثلك أيضًا في الفقر. أُعلنت الخطبة في يوم سعيد. وقتها كان الحلم يمكن أن يصير واقعًا. منذ التحقنا بالعمل موظّفينِ واجهتنا حقائق جديدة. ومرّت أعوام ثلاثة فختمنا السادسة والعشرين. كنت عاشقًا فأصبحت مرهقًا عاجزًا مسئولًا. لا نجتمع اليوم للمناجاة ولكن لمناقشات توشك أن تُلحقنا بالمجموعة

الاقتصاديّة. الشقّة... الأثاث. أعباء الحياة المشتركة. لا حلّ لديها ولا حلّ لديّ ولا نملك إلّا الحبّ والإصرار. أُعلنت الخطبة في عهد الناصريّة وواجهنا الحقيقة في عصر الانفتاح. غرقنا في دوّامة عالم مجنون. حتّى في الهجرة لا مجال لنا. بين الفلسفة والتاريخ ضعف الطالب والمطلوب. لا لزوم لنا. ما أكثر مَن لا لزوم لهم! كيف حاق بنا هٰذا الضياع؟ إنّي مسئول مطارَد تحاصره التساؤلات. وهي جميلة ومطلوبة وأنا قائم مثل السدّ في طريق حظّها. نظرات والديها المتعضة لا تفارقني... أكاد أسمع ما يقال من ورائي. فوق ذٰلك تهيم أحلام الإصلاح. تجيء من فوق أو من تحت. بقرارات أو بانتفاضات. معجزة العلم والإنتاج. لٰكن ما الحلّ مع ما يقال عن الفساد واللصوص؟ ما أفظع ما تقول الدكتورة علياء سميح وما يقول محمود المحروقي. أين الصواب؟ لِمَ أشكّ في كلّ شيء؟. منذ تهاوى مثلي الأعلى في ٥ يونيه. كيف يجد أناس سبيلًا سحريًّا إلى الثراء الفاحش وفي زمن لا يُصدَّق؟. ألا يمكن أن يحدث ذٰلك بلا انحراف؟. ما سِرُّ حرصي على الاستقامة؟ ما أطمح في هٰذه الساعة إلى أكثر ممّا يؤهّلني للزواج من رندة. دُعينا إلى مقابلة مدير الإدارة أنور علّام، أنا ورندة. كثيرًا ما نُدعى معًا لتعاوننا المشترك على ترجمة اللائحة. إنّه مدير لطيف المعاملة جميل الاستقبال محبّ للدعابة، نحيل طويل غامق السمرة مستدير العينين ذو نظرة نافذة، وأيضًا كهل يشارف الخمسين من عمره وأعزب. وكعادته قال:

- أهلًا بالعروسين!

وراح ينظر في أوراقنا بسرعة وذكاء مبديًا بعض الملاحظات. وردّ التسويدة متسائلًا:

- متى نفرح بكما؟

إنّي أعتبر أسلوبه في التدخّل في الشئون الخاصّة للموظّفينَ سياسة وإن لم تصادف منّي ارتياحًا مثل نظرة عينيه. على أنّي أجبته:

- مشكلتنا حتّى الآن لا حلّ لها.

فقال باستهانة جريئة:

- لا مشكلة بلا حلّ.

فقلت كالمحتجّ:

- ولٰكن...

وإذا به يقاطعني:

- لا تردّد أقوال العاجزين.

فملأني الغيظ وسألته:

- ما الحلّ في تصوّرك؟

فضحك ضحكة مستفزّة وقال:

- لا تطلب الحلّ عند الآخرين!

رجعت إلى مكتبي وفكرة تساورني أنّه تعمّد أن يُظهرني في صورة العاجز أمام رندة. وعشت في غبش هٰذه الفكرة طيلة الوقت حتّى أذن موعد الانصراف. ولدى عودتنا معًا إلى شارع النيل ملفوفينِ في معطفينا قلت لها:

- الرجل أثار أعصابي.

فقالت وهي تحبك طوق المعطف حول عنقها السمح:

- وأنا كذٰلك.

- إنّه سمج يدّعي الظرف.

- هو كذٰلك.

- هل تصدّقين أنّه يوجد حلّ لمشكلتنا لم نهتدِ إليه بعد؟

فتفكّرت قليلًا ثمّ قالت:

- أملي في الله كبير، نحن نفكّر وكأنّ كلّ شيء سيبقى على حاله إلى الأبد!

فقلت بقلق:

- ولٰكنّ العمر يجري يا رندة.

فقالت باسمة:

- ربّما ولٰكنّ الحبّ ثابت!

رندة سليمان مبارك

أصعد السلّم إلى الشقّة ويقف هو أمام شقّته كأنّما ليطمئنّ عليّ حتّى أبلغ بابي. ودّعني بقبلة فاترة شأن المهموم بأفكاره. لعنة الله على المدير. استفزّه بلا سبب. ظلّ طول الوقت كئيبًا مغتمًّا. أفهم ذٰلك جيّدًا

ولكن ألا يثق بي؟!. لا مساحة عندنا لمزيد من القلق. رائحة الملوخيّة تجول في الشقّة ما أشدّ استجابتي لها! أبي نائم فوق مقعده؟. ألثم جبينه فيختلج جفناه. يبتسم بحنان. هزلت وضعفت لعنة الله على الروماتزم. محتشمي بك جدّ حبيبي أقوى منه عشر مرّات رغم أنّه يكبره بعشر سنوات. صوت ماما يعلن أنّ السفرة جاهزة. أحبّ الملوخيّة ولكنّ ماما لا تعجبها شهيّتي. كثيرًا ما تقول لي:

- النحيف لا يقاوم الأمراض.

فأقول لها:

- البدانة أيضًا ضارّة.

- عنيدة، إن قلت يمينًا قالت شمالاً.

ماما بدينة وكانت كذلك من قديم. تصلّي وهي قاعدة على الكنبة. من أجل ذلك يكتنفني الحذر عند تناول الطعام. ظنّت نفسها غنيّة بدخلها البالغ خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر. لعلّها كانت على حقّ في الأيّام الأسطوريّة التي تحكي لنا، أيّ قيمة اليوم لدخلها ومعاش بابا ومرتّبي جميعًا؟!.

ركّب أبي طاقم أسنانه الذي لا يستعمله إلّا حين تناول الطعام وراح يأكل على مهل ويشكو شدّة البرد. انضمّت أختي المطلّقة سناء التي تشاركني حجرة نومي. إنّها تدرس السكرتارية في معهد خاصّ لتجد لها عملًا فلا تكون عالة على أحد. بعد الغداء استلقيت على فراشي فعاودتني ذكرى القبلة الفاترة. لا أحبّ هذا. إهانة أو ما يشبه ذلك. إذا تكرّر ذلك فسوف أصارحه لا تقبّلني إلّا وأنت تحبّني لا يشغلك شيء عن حبّي. ماذا بقي لنا سوى الحبّ؟. أراعيه كأنّما أنا أمّ وكأنّما هو ابن مدلّل متمرّد. آه لو أمكنه أن يكون مهندسًا!. كان «زمنًا» من أبطال الانفتاح لا من ضحاياه. وضحيّة أيضًا لـ ٥ يونيه واختفاء البطل المنهزم. حائر لا موقف له. حتّى متى؟. يحتقر السابقين ويؤمن بأنّه خير منهم لماذا؟. متى ينظر إلى نفسه نظرة ناقدة موضوعيّة؟. لعلّه دوري وواجبي ولكنّي أخشى على الشيء الباقي الوحيد حبّنا. أحبّه والحبّ لا عقل له. أريده بكلّ قوّة نفسي. كيف؟ ومتى؟ أختي سناء تزوّجت عن حبّ وقنعت بالثانويّة العامّة ونصيب ستّ البيت وشابّ من ذوي الأملاك ثمّ لم توفّق ومات الحبّ. الاتّهامات انصبّت كالعادة على الطرف الآخر ولكنّها عصبيّة. تثور كالبركان لأتفه الأسباب فمن يحتمل ذلك؟!. من أجل ذلك تعوّدت على أن أحذر الغضب كما أحذر الإفراط في الطعام. متى تتيسّر تلك السعادة الملعونة؟!. حتّى متى يصمد الجمال أمام الزمن الجارف؟ لا ولم أعرف أنّني نمت إلّا بحلم رأيته. قمت عصرًا... لاطفت قطّتي دقيقة... صلّيت العصر والظهر معًا. شكرًا لماما فهي مربّيتي الدينيّة. أمّا بابا!. ماما زوجة موفّقة رغم فارق السنّ بينها وبين بابا ورغم لا دينيّة بابا!. أتذكرين محاسبتك له في الزمان الأوّل؟

- بابا لِمَ لا تصوم مثلنا؟

يقول ضاحكًا:

- الصغيرة تحاسب أباها.

- ألا تخاف الله؟

- الصحّة يا حبيبتي. لا يغرّنّك مظهري.

- والصلاة يا بابا؟

- أوه... سأحدّثك عن ذلك عندما تكبرين...

ليس كذلك الحال في شقّة حبيبي. الجدّ والأب والأمّ يصلّون ويصومون. لا دينيّة أبي اليوم ساطعة مثل شيخوخته ومرضه. لم يتفوّه أبدًا بكلمة مريبة ولكنّ في السلوك ما يكفي. في ثورات غضبه يسبّ الدين. ربّما استغفر الله إرضاء لي أو لماما كشعار ليس إلّا كسائر الشعارات الجوفاء التي تنهال علينا من أفواه المسئولين. زمن شعارات مقزّز. حتّى الراحل البطل لم يعفّ عن ترديد الشعارات. وبين الشعار والحقيقة هوّة سقطنا فيها ضائعين. ولكن ما حبيبي؟... متديّن؟... لا دينيّ؟... ملتزم؟... لا ملتزم؟ علياء سميح؟... محمود المحروقي؟!... آه... إنّه حبيبي وكفى ورزقي على الله. دائم البحث عن شيء مفقود. لو حُلّت مشكلتنا لعرف لنفسه مرفأ. ينطح الصخر ويقبض على الهواء. حجرة المعيشة تجمعنا... أبي بمرضه وشيخوخته وإلحاده، ماما وبدانتها المفرطة وهموم الآخرين، سناء وضيقها بوضعها وشعورها الأليم بالغربة، أنا ومشكلتي المزمنة. في الظاهر والداي

قد أتمّا رسالتهما فأيّ سخرية. ها هو التحقيق الصامت يحاصرني. ماذا بعد خطبة طالت أحد عشر عامًا؟. ألا يوجد بصيص أمل؟.

تقول سناء بصوتها الرفيع الحادّ:

- لتنتظر حتّى تترمّل وهي مخطوبة!

فأقول لها بصرامة:

- لا شأن لك بي.

فتقول ماما:

- ذكّريه يا رندة كي لا ينسى.

- نحن نعيش همومنا كلّ دقيقة فلا داعي للتذكير.

ثمّ بمزيد من الحدّة:

- إنّي رشيدة، اخترت سبيلي بملء حرّيّتي، ولن أندم على شيء.

ويقول أبي بضجر:

- رندة رشيدة ومسئولة عن نفسها.

فتقول ماما بحسرة:

- كم من عرسان لقطة فقدناهم!

فأقول بكبرياء:

- لست جارية معروضة في السوق للبيع!

- أنا أمّك، فوق أيّ شبهة، تزوّجت بالطريقة القديمة ووفّقت والحمد لله.

- يا ماما لكلّ جيل طريقته، وجيلنا فاق الجميع في سوء حظّه.

فيقول أبي باسمًا:

- جاء عصرٌ أكلَ الناس فيه الكلاب والقطط والحمير والأطفال ثمّ أكل بعضهم البعض!

فقلت بمرارة:

- لعلّنا أسعد من عصر آكلي البشر...

وهتف أبي مغيّرًا الجوّ:

- حسبكم... المسلسل التليفزيونيّ بدأ...

انتزعتني المقدّمة الموسيقيّة التي أحبّها من الصراع. بقوّتها الانسيابيّة دعت حبيبي فهبط من الغيب وجلس إلى جانبي. انقلبت فجأة إلى أنثى حالمة شديدة الفهم للحياة الزوجيّة. وطاردت دمعة خائنة أوشكت أن تفضحني. هل تقبل الدنيا بدونه؟

وقالت ماما:

- يا بَخْت أبطال المسلسلات!... فما أسرع أن يجدوا لمشكلاتهم الحلّ السعيد!

محتشمي زايد

في وحدتي أنتظر. أحبك الروب حول جسدي النحيل وأسوّي الطاقيّة فوق رأسي الأصلع، أربّت على شاربي وفي وحدتي أنتظر. «لا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها». جرس الباب يرنّ. أفتح الباب فتدخل أمّ عليّ. في معطف سنجابيّ والخمار الأبيض يحدق بوجهها القمحيّ الريّان.

- كيف حالك يا بك؟

- نحمده يا أمّ عليّ.

- الشتاء لا يريد أن يرحم.

وكامرأة يوزن وقتها بالنقود خلعت المعطف وعلّقته بمشجب قائم غير بعيد من الباب ثمّ مضت إلى حجرة نوم فوّاز وهناء. تبعتها كما نُبّهَ عليّ. جلست على مقعد أتابعها وهي تكنس وتنفض وتنظّف وتلمّع وترتّب. نشيطة خفيفة رغم امتلائها. يخافون أن تمتدّ يدها إلى شيء. سوء ظنّ لا مبرّر له وهو من رواسب الماضي. أمّ عليّ ساعتها بجنيه وتنتقل من بيت إلى بيت كالنحلة فإيرادها يزيد عن مرتّباتنا جميعًا مجتمعة، ولكنّي أرتاح إلى الانفراد بها. نزهة أسبوعيّة تنفخ في وجداني نغمة الحلم الغابر. الانفراد بها يتجسّد في حال يضطرب لها روتين الزمن. ويواجه الأنا القديم الأنا الطارئ فيتناجيان وبينهما فاصل الزمن بلغتين غريبتين لا تفضيان إلى تفاهم ثمّ يستعير القلب من مخزونه البائد خفقة خاطفة تعيش حياة مقدارها ثلاثون ثانية. وعندما تنحني لتعيد بسط الكليم أتصوّر أن أقرصها بحنان، مجرّد تصوُّر، فإنّني مسيطر على زمامي تمامًا وهي مطمئنّة من ناحيتي تمامًا. كأنّها رجل في النشاط والقوّة وتماسك الشخصيّة. «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا». وأسألها متمرّغًا في انفرادي بها:

- كيف حال المعلّم؟

- ربّنا يلطف به.

ـ والأولاد؟

ـ هاجروا، لم يبق إلّا العبيط.

وتضحك ثمّ بدورها تسألني:

ـ ما آخر أخبار صاحب عمارتكم؟

ـ يئس وسكت.

ـ من كان يصدّق أنّ الأرض تجنّ مثل بني آدم؟!

ـ الجنون أصل كلّ شيء يا أمّ عليّ...

ما أشدّ شعوري بالانفراد بك! حوالينا ولا علينا يا ربّ، كأيّام شارع خيرت المسقوف بالشجر، وتحت مظلّة من الأفكار الحرّة المستوردة، فكريّة ورتيبة الممرّضتان وشقاوة الغجر. الحياة فصول ولكلّ فصل مذاقه وطوبى لمن أحبّ الدنيا بما هي دنيا الله. في زيارة لسليمان مبارك أبي رندة قال لي:

ـ أغبطك على صحّتك يا محتشمي.

فقلت بثقة:

ـ الوراثة والإيمان يا عمّ سليمان.

فتساءل وهو ينظر نحوي بخبث:

ـ كيف أصدّق أنّ مثلك يؤمن بالخزعبلات؟

ـ الله يهدي من يشاء.

ـ كأنّك في ماضٍ ما، ما كنت ملحدًا.

فقلت باسمًا:

ـ إيمان موروث، شكّ، إلحاد، عقلانيّة، لا أدريّة، ثمّ إيمان!

فتساءل ساخرًا:

ـ بوفيه مفتوح؟!

ـ هي الحياة الكاملة...

ـ إنّي فخور بشبابي، راضٍ بالعدم، عابد للحقيقة، وقد أوصيت زينب إذا جاء الأجل ألّا ينشر نعيّ ولا تكون جنازة ولا مأتم ولا حداد!

ـ ما هو إلّا نور يهبط فجأة فيبدّد الظلمات.

ـ المسألة أنّ العمر تقدّم بك حتّى لاح لك الموت...

حوار عقيم، «وقل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا». صديقي يعيش في كَوْن خالٍ وأعيش في كَوْن آهِل بالأحباب. أستغفر الله. يا لها من زيارة زيارة أمّ عليّ. ماذا يفعل المسكين علوان؟. محرومون وسط سيرك من اللصوص. أحدّثه عن زماني لعلّه. رمى ببهلوان يطلق في العطسة عشرة شعارات عقيمة. أمّ عليّ تنتهي من عملها. تغسل اليدين والوجه وترتدي معطفها السنجابيّ وتنظر في ساعة يدها لتعرف مستحقّاتها. أسلّمها النقود فتذهب قائلة:

ـ فتك بعافية يا بك.

ـ مع السلامة يا أمّ عليّ، لا تنسي الميعاد القادم.

وتعود الوحدة. أتمشّى في الشقّة بعد تعذُّر المشي في الشارع. القرآن والأغاني. طوبى لكم يا من اخترعتم الراديو والتليفزيون. بامية ومكرونة الغداء. حبّب الله إليّ العبادة وجعل قرّة عيني في الطعام. أيّ وحدة والكون من حولي مكتظّ بملايين من الأرواح؟. أحبّ الحياة وأرحّب بالموت في حينه. كم من تلميذ قديم لي قد صار اليوم وزيرًا. لا رهبانيّة في الإسلام. ما مثلي ومثل الدنيا إلّا كراكب سار في يوم صائف فاستظلّ تحت شجرة ساعة من نهار ثمّ راح وتركها. كثيرًا ما أحادث حفيدي المحبوب عن الماضي لعلّه من حيرته يخرج. أغريه بالقراءة وقليلًا ما يقرأ، ويستمع إليّ بدهشة مَن يعزّ التصديق عليه. دعنا من علياء سميح ومحمود المحروقي، ألم تحملك الأحداث على الإيمان بالوطن والديموقراطيّة؟. وما معنى الإصرار على التمسّك ببطل منهزم راحل؟!. كيلا تصبح الدنيا فراغًا يا جدّي. إنّي ألفت نظرك إلى أشياء غاية في الجمال. يضحك ويقول لي:

ـ ما أريد الآن إلّا شقّة ومهرًا مناسبًا!

كيف أستطيع تجنّب هموم الدنيا ومعي حفيدي المحبوب؟!. ما أجمل كرامات الأولياء!

علوان فوّاز محتشمي

علّمني زمني أن أفكّر. علّمني أيضًا أن أستهين بكلّ شيء وأن أشكّ في كلّ شيء. ربّما قرأت عن مشروع منعش للآمال وسرعان ما يكشف المفسّرون عن حقيقته فلا يتمخّض عن أكثر من لعبة قذرة. هل تترك السفينة للغرق؟!. هي عصابة مسلّطة علينا لا أكثر

ولا أقلّ؟!. أين الأيّام الحلوة؟. كانت توجد أيّام حلوة لا شكّ في ذٰلك. ولي أنا أيضًا أيّام. حين كانت الشقّة عامرة بالأخوات والدفء وكانت الأعباء يسيرة. كان لأبي وأمّي وجود في البيت. وكان يوجد حوار وضحك وحماس الدراسة وسطوة البطولة. إخْنا الشعب. اخترناك من قلب الشعب. والحبّ كان باقة من الورد في قرطاس من الأمل. فقدنا زعيمنا الأوّل ومطربنا الأوّل. ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضادّ فيفسد علينا لذّة النصر. نصر مقابل هزيمتين. اخترناك من قلب الشعب. وتجذب حبيبتي الشصّ من الماء فتخرج فارغة وتنغرز في إبهامي وتترك أثرًا ما زال باقيًا حتّى اليوم. على شاطئ النيل أمام بيتنا قلت لها إنّك لا تحسنين صيد السمك ولٰكنّك اصطدت قلبي وأسلت دمي. من الأخوّة إلى الحبّ حدث تغيُّر بطيء مثل قرون أوراق الشجر التي تسبق بالظهور في أوائل الربيع ولا تُرى إلّا عند التأمّل. أنوثة وتورُّد الخدّين ووشاية أعلى الفستان. باللغة حين تقول الكلمة شيئًا وتشير إلى شيء آخر وتلاشت البراءة وحلّت محلّها مفاوضات وتوسّلات من أجل لثمة فوق الخدّ أو الشفة. أطيب ثمرة في الشجرة أخلاق وعقل وجمال. يضايقني أحيانًا أن تبدو أعقل منّي. لا أنسى حزن نظرتها عندما اعترفت لها بعجزي عن اختيار القسم العلميّ. حوار طويل لم يجر على لساننا ولٰكنّه يتربّص بنا في زاوية ما. أسرتانا سقطتا معًا في حفرة الانفتاح. شدّ ما يحزنني ألّا تظهري في الملابس اللائقة بجمالك. أيّ مسئوليّة تثقل كاهلي. قلت لها مرّة في استراحة الهرم:

ـ فلنتسلَّ بحصر أعدائنا.

فدخلت اللعبة قائلة:

ـ غول الانفتاح واللصوص الأماثل. . .

ـ هل ينفعنا قَتْل مليون؟

فقالت ضاحكة:

ـ قد ينفعنا قتل واحد فقط!

فقلت ضاحكًا أيضًا:

ـ إنّك اليوم رندة المحروقي. . .

* * *

أنور علّام المدير يستدعيني إلى حجرته ويطلب إليّ ان أزوره في مسكنه في الخامسة مساء لإجراء مراجعة شاملة قبل إعداد الحساب الختاميّ. أخبرت رندة فلم تعلّق. مسكنه في عمارة نصف جديدة بالدقّى تقع أمام أحد مداخل جسر ٦ أكتوبر. استقبلني ببشاشة وهو مرتدٍ بدلته وقال:

ـ لا تغرقك فخامة الشقّة فأختي تعيش معي وهي أرملة غنيّة. . .

كأنّما ينفي عن نفسه الشبهات. كلّ فرد مهدّد اليوم بالشبهات. وعملنا بهمّة حتّى الساعة الثامنة. في أثناء ذٰلك دخلت الأرملة بالشاي تعارف بيننا وقدّمها قائلًا «جولستان أختي». من النظرة الأولى شعرت بأنّني أمام امرأة يقع عمرها ما بين الأربعين والخمسين، مقبولة المنظر، ممتلئة في تكوين حسن، مثيرة رغم رزانتها واحتشامها أو ربّما لرزانتها واحتشامها. لم تجلس وقالت وهي تغادرنا:

ـ استبقِ الأستاذ للعشاء معنا.

فقال أنور علّام:

ـ هٰذا أمر!

أعدّت لنا مائدة من الشواء والسلطات المتنوّعة والجبن والزيتون ثمّ مهلّبيّة وتفّاح. وسمعت أنور علّام يقول ونحن نتناول عشاءنا:

ـ أنا وكيل أعمالها فقد ورثتْ عن زوجها عمارتين وشهادات استثمار.

لفت نظري تعريفه لي بأملاكها فسرحت في أكثر من ظنّ. وراح يحكي لها عن مشكلة خطبتي بإشفاق.

ـ هٰذه حال جيل بأسره.

فقال الرجل:

ـ وممّا يزيد المشكلة تعقيدًا أنّ علوان من أصحاب المبادئ!

فقالت بإعجاب:

ـ جميل أن أسمع ذٰلك، الأخلاق أهمّ شيء في الدنيا.

نبرتها لا تدع مجالًا للشكّ في صدقها. وإنّي أجدها مثيرة للغاية. وإنّي مخزن بارود عند أيّ إثارة. معاناتي في هٰذه الناحية تستحقّ الرثاء. وقال أنور:

ـ أختي كـاملة في كـلّ شيء إلّا شيئًـا واحـدًا لا أوافقها عليه هو إعراضها عن أكثر من فـرصة زواج طيّب. . .

فقالت بهدوء:

ـ لست سلعة وليسوا رجالًا. . .

فقال أنور علّام:

ـ ثراء المرأة قيمة مشروعة ولا عيب على الرجل إذا أولاها ما تستحقّه بالإضافة إلى المزايا الأخرى.

فقالت السيّدة جولستان:

ـ لا رجل جدير بالثقة في هٰذا الزمان.

وملت إلى تغيير مجرى الحديث فسألت مديري:

ـ معذرة يا سيّدي لِمَ لم تتزوّج حتّى اليوم؟!

فقال بغموض:

ـ أسباب كثيرة.

ولم يذكر سببًا واحدًا فقالت جولستان:

ـ إنّه مخطئ، وهو قادر على الزواج.

وراح يسـألني عن أسرتي وأسرة رندة وأنـا أجيبـه بصدق وإيجاز حتّى قال:

ـ رندة فتاة ممتازة ولٰكنّ الزمن يسرقها.

طعنـة وأيّ طعنـة!. مقصـودة أم جـاءت عفـو الخاطر؟!.

على أيّ حال أفسدت عليّ السهرة. ولم يخفّف من حدّتها قول جولستان:

ـ الحبّ هو العمر الحقيقيّ. . .

وغـادرت المسكن مشحونًـا بالسخط عـلى الرجـل والإثارة من ناحية شقيقته. . .

رنده سليمان مبارك

اعتمدت رسائلي المترجمة من المدير ولم يبق إلّا أن أذهب ولٰكنّه مالَ بكرسيّه المتحرّك إلى الوراء وقال لي:

ـ آنسة رندة، عندي حكاية تهمّك.

ماذا عنده يا ترى؟. . .

قال:

ـ هي طبيبة شابّـة، كانت مخطوبة لـطبيب زميل لأعوام، يئسا من الزواج، فسخا خطبتهما، تـزوّجت من تاجر في وكالة البلح ووافقت على رغبته على البقاء في البيت كستّ بيت. . .

دهشت واستأت ولٰكنّي سألته بهدوء:

ـ لماذا تتصوّر أنّ هٰذه الحكاية تهمّني؟

فسألني متجاهلًا سؤالي:

ـ ما رأيك في تلك الطبيبة؟

فقلت بشيء من الجفاء:

ـ لا أستـطيع أن أحكم عـلى واحـدة لا أعـرف ظروفها.

فقال بهدوء:

ـ أنا أعتبرها عاقلة، فستّ البيت خـير من طبيبة عانس!

غادرته بوجه لا أشكّ في أنّه عالنه باستيائي. لـه نظرات طامعة لا يمكن تجاهلها. والحقّ أنّه يشكّل عبئًا علينا. أنا وعلوان. في صباح الجمعة التـالي لزيـارته لبيت المدير ذهبنا إلى استراحة الهرم. الجوّ بارد حقًّـا ولٰكنّ الشمس ساطعة، ونحن ننظر من عَلٍ إلى المدينة التي تبدو عظيمة هادئة مترامية كأنّما خالية من الهموم والقاذورات. وسألته ونحن نحتسي الشاي:

ـ كيف كانت زيارتك للبك المدير؟

فأعادها عليّ بتفاصيلها، حتّى أفسدت عليّ جلستي الحلوة. قلت:

ـ يبدو أنّها لم تكن زيارة عمل!

ـ بل عملنا ثلاث ساعات متتابعة.

فقلت بتحدّ:

ـ أنت فاهِم قصدي. . .

فقال بسخط:

ـ إنّه شخص مثير للأعصاب. . .

ـ وأخته؟!

ـ عاقلة متّزنة احترمتها كأمّ. . .

فضحكت ضحكة باردة وتساءلت:

ـ وهل عاملتك كابن؟

فتساءل محتجًا:

- تحقيق واتّهام يا رندة؟

فقلت بسرعة:

- لا سمح الله.

ورويت له ما دار بيني وبينه في مكتبه فقطّب غاضبًا وهتف:

- سأطالبه بألّا يتدخّل فيا لا يعنيه.

فقلت بتوسّل:

- الأفضل أن نهمله كي لا تسوء العلاقة بينك وبين مديرك.

فقال بامتعاض:

- المسألة أنّ موقفي منك ضعيف لا أدري كيف أدافع عنه...

فقلت بلطف:

- لست متّهمًا ولا أطالبك بدفاع.

- إنّي مسئول وحزين.

- لا حيلة لنا.

- لكنّه وغد ويعِدّ خطّة...

- أهمله مع حقارته.

وصمتنا قليلًا هاربين إلى رحمة الطبيعة حولنا حتّى جاءني صوته متشكّيًا:

- كأنّنا نسينا حديث الحبّ...

فقلت مدارية حزني:

- لسنا في حاجة إلى مزيد منه.

فقال وهو يرمقني بامتنان:

- أحبّك.

فقلت وأنا في غاية من التأثّر:

- أحبّك.

فتساءل في حيرة:

- ترى ما المغامرة الشريفة التي تدرّ علينا ما نحن في حاجة إليه من مال؟

فقلت باسمة:

- ألا تملك موهبة الفتى الأوّل في السينما؟

- وأنت ألم تجرّبي صوتك ولو في الحمّام؟

وضحكنا رغم همّنا المشترك، وقال:

- ليست المشكلة تحسين مرتّب ولكنّها مشكلة الخلوّ والأثاث أيضًا.

ثمّ واصل بعد صمت قليل:

- المحروقي تزوّج بكُلّ بساطة، ولكنّه يعيش في مخيّم مع طائفته.

تخيّلت المخيّم وحياته. كأنّه خيال لا حقيقة. رغم ذٰلك هفا فؤادي إليه. خيمة بسيطة ولكن يخفق بين جوانحها الحبّ. وفاض من قلبي نبع حنان متدفّق. وقال بصوت دلّني على أنّه يشاركني أشواقي:

- شدّ ما أريدك أكثر من أيّ شيء في الوجود.

انضباطي خلقة مركّبة في أعماقي منذ الصغر. حواري مع رغباتي الجامحة دائمًا ينتصر. لم تؤثّر فيّ تجارب شاهدتها عن كثب. حافظت على تصوّري الوقور لمعنى الحرّيّة. لم أتزعزع للتهم الساخرة المألوفة بالانغلاق والرجعيّة. ولم أبرأ من الحزن.

محتشمي زايد

ليلة أمس رأيت فيها يرى النائم سيّدي أبا ذرّ. العبادة تغدق عليّ شفّافيّة وهّابة للرؤى. لحبّي الدنيا أقف عند ذاك الخطّ لا أتجاوزه. وترد على خاطري هٰذه الحكاية «قال محمّد بن العطّار، قال لي الشيخ محمّد راهين يومًا: كيف قلبك؟ فقلت له: لا أعرف كيفيّته، وذكرت ذٰلك لسيّدنا شاه نقشبند وكان واقفًا فوضع قدمه على قدمي فغبت عن نفسي فرأيت جميع الموجودات مطويّة في قلبي، فلمّا أفقت قال: إذا كان القلب هٰكذا فكيف يتسنّى لأحد إدراكه؟، ولهٰذا قال في الحديث القدسيّ: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن». ترد على خاطري تلك الحكاية فأغبط الأولياء وأتسوق إلى الكرامات ولكنّي أقف عند حافة بحر التصوّف مستمسكًا بالعبادة قانعًا بها في أحضان دنيا الله. وقد يرتدّ بصري المتأمّل الهادئ بنور من الوهّاب. لا، ولا أندم على مراحل الحياة التي مررت بها فقد منحت كلّ مرحلة نورها. اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدًا. ويدقّ جرس الباب عند الضحى. مَن القادم وليس اليوم بيوم أمّ عليّ؟. وأفتح الباب فتدخل

زينب هانم أمّ رندة. أستقبلها بترحاب وأنا أعجب لبدانتها رغم الضائقة. وتجلس في حجرة المعيشة وأسكت الراديو فتقول:

ـ لا أحد لي غيرك يا محتشمي بك.

فقلت وأنا أسائل نفسي عمّا جاء بها:

ـ لنا الله جميعًا. . .

ـ فوّاز بك وهناء هانم أولى بالحديث ولكنّ العمل المتواصل لم يترك لهما فراغًا، ولا فائدة تُرجى من مخاطبة علوان، ففيك الكفاية والبركة.

آه، فهمت كلّ شيء مقدّمًا، إنّها قادمة من أجل مشكلة علوان ورندة.

ـ إنّي مصغٍ إليك يا زينب هانم.

ـ عندك حسْن التقدير، البنت يا محتشمي بك على وشك الضياع.

ـ لا سمح الله.

ـ إنّكم لدينا المفضّلون على غيركم ولكن حتّى متى ننتظر؟

شعرت بالخطر الزاحف نحو حفيدي المحبوب فتساءلت:

ـ زينب هانم، أليست رندة رشيدة ومثقّفة وتميّز بين ما ينفعها وما يضرّها؟

ـ الحبّ يضلّ يا محتشمي بك، أصبح الحبّ في هٰذه الأيّام الهمّ. هل تزوّجت أنت عن حبّ يا محتشمي بك؟، هل تزوّج فوّاز بك عن حبّ؟

ـ ولكنّهما يؤمنان به.

ـ ونتركهما حتّى يدمّرهما معًا؟

وتنهّدتْ بصوت مسموع شأن العاجز فقالت ولُغْدها يتحرّك:

ـ فلنبذل جهدًا للإنقاذ وليفعل الله ما يشاء، ربّما وجد كلاهما ما يناسبه.

ـ أهٰذا رأي سليمان بك أيضًا؟

ـ إنّه أبوها كما إنّني أمّها، وما يحزننا إلّا أنّ علوان فتى طيّب وجدير بكلّ خير. . .

وتمتمت وأنا أختم الحديث:

ـ وسيّئ الحظّ أيضًا.

فذهبت وهي تقول:

ـ اعتمادي بعد الله عليك.

يا له من صباح! قضي عليّ أن أكون وسيط السوء إلى أعزّ الناس على قلبي. انكمشت في مقعدي متلفّعًا بالكآبة. وفي أثناء الغداء لم أشر إلى الزيارة حتّى انفردت بالشابّ عصرًا في حجرة المعيشة. لم ينتبه بطبيعة الحال إلى معنى نظراتي حتّى سألته:

ـ هل تغفر لي حديثًا غير سارّ؟

فرماني بنظرة متوجّسة وقال ساخرًا:

ـ هٰذا هو الأصل في الأحاديث يا جدّي.

ـ عن رندة يا علوان.

فتغيّر وجهه الحسن وغشيه الحبّ فعرضت الموضوع بتفاصيله. كوّر قبضته وألصقها بفيه معتمدًا بكوعه على خوان قديم وقال:

ـ كأنّني مجرم مطارَد يا جدّي.

ـ يجب أن نفكّر بهدوء وشجاعة.

ـ أريد أن أعرف انطباعك يا جدّي.

فازددت ضيقًا وأنا أقول:

ـ لهم عذرهم، هٰذا ما يجب أن نسلّم به.

فقال بحدّة:

ـ رندة ليست قاصرًا.

ـ بلى، ولكنّ الانتظار يبدو بلا نهاية.

ـ أنا لم أقصّر.

ـ لا أحد يتّهمك.

ـ الرأي الأخير لهم أم لها؟

ـ الآن هو بين يديك أنت.

ـ أنا؟

ـ العمر يجري، وأنت فتى عاقل، بيدك إنقاذها، وربّما إنقاذ نفسك أيضًا. . . إنّه ليس مجرّد سوء حظّ. إنّه خطّ طويل من المآسي. ٥ يونيه والانفتاح وروسيا والولايات المتّحدة ومملكة المنحرفين.

وتساءل:

ـ ولو أصررت على الرفض؟

فقلت بتسليم:

ـ افعل ما تراه صوابًا. . .

فهزّ رأسه قائلًا في غموض:

ـ أعدك بذلك يا جدّي.

وعلم فوّاز وهناء بالموضوع مساء. وانفعلت هناء غاضبة وقالت إنّ قلبها لم يوافق على الخطبة إلّا مضطرًّا. أمّا فوّاز فقال إنّه طالما حذّر ابنه من هٰذه النهاية المحتومة. وقال:

- الخطبة تعرقل الاثنين.

وقالت هناء تخاطبني:

- أقنعه يا عمّي، إنّه يعاندنا ولٰكنّه يقتنع بك، لو سمع كلامي من أوّل الأمر ما انتهى بنا الأمر إلى هٰذه الخاتمة المهينة!

وجالت بنفسي الآية الكريمة «سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

علوان فوّاز محتشمي

لم يبق من الشتاء شيء والجوّ ينعم بصفاء نادر. السوء كلّه كامن فيّ وحدي. كان يجب أن أختار مكانًا آخر غير استراحة الهرم. هٰذا الموقع عند حافة الهضبة سجّل لنا أجمل الذكريات. هدوء نظرة عينيها ضاعف من إحساسي بالذنب. لا يوجد شخص يستحقّ الاحترام ولا فِعْل يستحقّ الثقة ولا وعد يستحقّ التصديق. ذٰلك التاريخ المنحدر ما بين العندليب الأسمر والغراب الأسمر فلتكفّ الدكتورة عن إلقاء الشعارات فهي زوجة وأمّ وشربت العشق حتّى الثمالة فلنحتسِ الشاي في هناء، أو لتهنأ به وحدها، أما أذوق له طعمًا.

- أعوذ بالله من صمتك!

فرنوت إلى هامات النخيل المنثور فوق المنحدر وسألتها:

- رندة، هل علمت بزيارة مامتك لجدّي؟

فقالت باستهانة:

- لم تمرّ بسلام ولكن لا جديد تحت الشمس. . .

فقلت بأسى:

- لو صحّ ذٰلك لتزوّجنا منذ سنوات.

- أراك متأثّرًا أكثر ممّا توقّعت.

- اختنقت الأنفاس.

- اعتدنا أن نصمد حيال المعارضة.

- حتّى متى؟

- لا أهمّيّة للوقت.

- الوقت مهمّ أردنا أم لم نرد، ومسئوليّتي ثقيلة.

فقالت بحزم:

- لست معفاة من المسئوليّة، إنّي مثلك تمامًا.

- لا مفرّ من التسليم بأنّي أهدر مستقبلك.

- ومستقبلك أنت؟

- الأمر يختلف وقد يتزوّج الرجل في الخمسين.

شحب وجهها وهي تتمتم:

- لأوّل مرّة أجدك منهزمًا يا علوان.

فقلت بعد تردّد:

- ربّما لأنّني أنتصر على أنانيّتي لأوّل مرّة!

فهتفت بفزع:

- ربّاه. . . أتفكّر حقًّا في. . .

وأشفقت من إتمام جملتها فقلت وأنا أمرق من جرحي:

- إنّي أحرّرك من قيدي.

قالت بانفعال شديد:

- علوان. . . لا أطيق سماع ذٰلك.

- أعيدي التفكير في موقفك بعيدًا عن ظلّي الثقيل. . .

- إنّي حرّة ولا سلطان لأحد عليّ. . .

- الأمر يتطلّب إعادة نظر.

فتفكّرت في وجوم ثمّ قالت:

- إنّه منطق سليم ولٰكنّي أشكّ في سلامته في ظلّ حبّ حقيقيّ. . .

فقلت بسرعة وحرارة:

- حذار من الشكّ فيّ، لا تزيدي الموقف سوءًا، فالحبّ أيضًا هو التضحية. . .

- لا حاجة لك إلى التضحية. . .

- إنّي أقرّر ما أراه صوابًا.

فقالت بمرارة:

- قل إنّك أصبحت تجدني عقبة في سبيلك.

- سامحك الله يا رندة، لن أدافع عن نفسي. . .

- إنّني أرفض تضحيتك.

فقلت بوضوح:

- وأنا مصرّ عليها.

وفصل بيننا صمت أثقل من الليل الزاحف. انسحب كلانا إلى داخل ذاته. وباعد اليأس ما بيننا إلى ما لا نهاية حتّى فَقَدَ مجلسُنا أيّ معنى. وقامت متثاقلة وهي تقول:

- لا وجه لبقائي هنا.

فقمت ضامر الحيويّة. كأنّنا غريبان سيذهب كلّ إلى وطنه. ولا شيء أقوى من الحبّ إلّا الألم. تخايلتْ لعينيّ الوحدة المتربّصة بي في نهاية الطريق. وطوال الطريق لم نتبادل كلمة. ولا تحيّة عند الفراق داخل العمارة القديمة. وجدت والديّ في حجرتهما وجدّي وحيدًا أمام التليفزيون. جلست على مقربة منه فنظر نحوي بتوجّس واستطلاع ثمّ قال وكأنّما يهرب من أفكاره:

- فيلم عن امرأة مجنونة، لم أحبّه...

فجاريته متسائلًا:

- ولِمَ ترى ما لا تحبّ؟

- في القناة الأخرى خطبة.

- ولِمَ لا تغلقه؟

- هو خير من لا شيء.

فقلت:

- الخطبة فُسخت!

وجم وتجلّى في عينيه الخابيتين الهمّ ثمّ غمغم:

- أعانك الله على بلواك!

فقلت بجفاء:

- فُسخت وانتهى الأمر.

فقال بأسى:

- لديّ شعور بالذنب.

فقلت بصوت بارد:

- لا ذنب لك يا جدّي.

رَندَه سُليمَان مُبَارَك

رأيت صورة وجهي معكوسة في نظرة أمّي التي استقبلتني بها. ها هي تداري عينيها في إشفاق وما يشبه الخوف. قلت لها على مسمع من أبي:

- هنيئًا لك، نجح مسعاك.

فغرقت أكثر في الصمت حتّى اغرورقت عيناها، وإذا بأبي يقول:

- إنّي مطمئنّ إلى رجاحة عقلك.

فقلت محتجّة:

- بابا... من فضلك لا تعاملني كطفلة...

فقال بهدوء:

- لن تندمي، وسوف أذكّرك بذلك في يوم قريب.

ونطقت أمّي لأوّل مرّة قالت:

- أنت مؤمنة ولا خوف على مؤمن.

وقال أبي:

- أمّك لم تخطئ يا رندة!

ولكنّها دنيا جديدة تمامًا التي عليّ أن أعايشها منذ الساعة. دنيا لا يوجد بها أثر لعلوان. دنيا على القلب أن يصبر عليها حتّى يجيئه الفرج بموته. ودهمني شعور قاسٍ بتقدّم سنّي وأنّني أطرق أبواب العنوس برجاء خائب. وتبدّت لي حجرة نومي قديمة بالية بسريريها العتيقين وصوانها المقشّر وسجّادتها الجرداء التي لم يبقَ من رسومها إلّا خيال. حتّى سناء أختي باتت مضجرة مؤذية وهي تقول لي ببرود:

- إنّك تستحقّين التهنئة.

وثار غضبي على علوان. أثبت أنّه أضعف ممّا تصوّرت. وأنّه خليق أن يبقى حائرًا بلا مرفأ إلى الأبد. بل لعلّه سرعان ما ينحرف. أو يبيع نفسه لامرأة مثل جولستان. الحقيقة أنّه ضاق بحمل المسئوليّة. إنّه يهرب من عجزه. وفي ظنّه أنّه لن يُرمى بعد اليوم بالعجز عن الزواج. وقلت لنفسي إنّني يجب أن أسعد بالتحرّر منه. إنّني أخفّ ممّا كنت في أيّ يوم مضى. هجرني وخانني. مَن غيره يُسأل عن تعاستي ذات الأنياب الحادّة. يجب أن أهيّئ نفسي على التحرّر منه. من الآن فصاعدًا أستطيع أن أزِنَ الأمور بعقل غير مشلول بقيود القلب. أنا حرّة... أنا حرّة... حسبي ذلك. ماذا كان يعني أنور علّام بقوله؟ يا للتعاسة التي تتمطّى بلا حدود. هل يشفي الزمن حقًّا

من الحبّ؟ متى وكيف عليه اللعنة. سأضاعف له الازدراء كلّما ضاعف لي الذلّ. والداي يُمعنان في الهرب حتّى ينظّما صفوفهما. أوّل النصر هزيمة ثمّ ينتصر. هرب وتحرّرت. احملي ألمك بشجاعة حتّى يتبخّر. انتظرت حضوره في الإدارة صباحًا مصمّمة على لقائه كزميل وكأنّ شيئًا لم يكن تماديًا في إعلان اللامبالاة. لكنّني لم أستطع. لم أنظر نحوه ففضحت تعاستي. ترى كيف بات ليلته؟ شاركني العذاب أم غطّ في نوم الراحة والحرّيّة؟ وكان لا بدّ للسرّ أن ينكشف فعُرف في الإدارة وأحدث في الظاهر على الأقلّ وجومًا. لم يعلّق أحد بكلمة. لعلّ المفلسين قد سعدوا فالتعساء يتعزّون بالتعساء. ولـمّا جاء دوري للمثول بين يدي مدير الإدارة أنور بدا علّام أوّل الأمر جادًّا أكثر من المألوف. ولكنّه قبل أن يأذن لي في الانصراف قال:

ـ علمت وأسفت!

فلُذْتُ بالصمت فقال:

ـ لكنّها نهاية محتومة، وفي تقديري أنّها جاءت متأخّرة.

ثمّ بنبرة أقوى:

ـ مثلك لا يصلح لها أن تعلّق مستقبلها بوعد مجهول كأنّك لا تدركين قيمتك الحقيقيّة.

ولم أنبس بكلمة فقال:

ـ عندما قلت يومًا إنّ لكلّ مشكلة حلًّا كنت أفكّر في هٰذه النهاية وإن يكن كلّ وجود إلى زوال فالحزن لن يشذّ عن هٰذه القاعدة!.

ثمّ قال وهو يعيد إليّ الإضبارة.

ـ نصيحتي يا آنسة رندة أن تتذكّري دائمًا أنّنا في عصر العقل وأن تعتمدي عليه كلّ الاعتماد فكلّ ما عداه باطل... باطل... باطل...

وطوال حديثه تصفّحني بنظرات جريئة لم يعد يخفّف منها الحاجز الذي كان قائمًا. لم يخفّ نفوري منه ولم يزدد ولكنّني لم أعد أجده ظاهرة شاذّة. وفي المساء قال لي أبي:

ـ أودّ أن أصارحك يا رندة بأنّه لو كان كامل الإخلاص لـما تخلّى عنك أبدًا.

بابا ساخر يسيء الظنّ بالبشر ودأبه التنقيب وراء كلّ فعل حسن حتّى يعثر له على تفسير قبيح. ورغم أنّني ملت لتصديقه إلّا أنّني قلت:

ـ لأنّه لم يعد يحتمل المزيد من اللوم فقد أقدم على تضحية أليمة. إنّي أعرفه خيرًا منك يا بابا.

فقال باسمًا:

ـ أتنبّأ لك بخاتمة سعيدة.

ولـمّا لم أعلّق بكلمة قال:

ـ ما دمنا قد تحرّرنا من الحبّ فلنَكِلْ مصيرنا للعقل، وفي هٰذه الحال لا غضاضة من الاستماع لرأي الآخرين.

فقلت باستياء:

ـ إنّه أمر يعنيني وحدي.

ـ بل يعنينا جميعًا.

واأسفاه! علوان يمعن في البعد وها نحن نتحدّث عن حياة جديدة.

محتشمي زايد

الحمد لله. كلّ شيء طيّب لولا حزن علوان. ربيع هٰذا العام لطيف نادر الخماسين فمتى يسلو علوان وينسى. الحمد لله. فاليوم يمضي بين العبادة والتلاوة والطعام والأغاني والأفلام. عند الثمانين نتوقّع قدوم ضيف لا ريب فيه فاللّٰهمّ حسن الختام. اللّٰهمّ جنّبنا العجز والأوجاع وانشر ندى رحمتك في أركان هٰذا البيت القويم. ودنيا الله جميلة خليقة بكلّ حبّ فأيّ روح شرّيرة قد حلّت بها. السماء والنيل والأشجار وأسراب الحمام وهٰذا الصوت المليح «إنّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» لو تُركت وشيخوختي لكنت سعيدًا ولكنّي لا أُترك في سلام. سقيًا لعهد الإيمان الساذج كما تذكره الذاكرة، وعهد الشكّ

ومنازعاته ما أثراها بفتنة اليقظة، وعهد الإلحاد وتحدّياته وغناها بالشجاعة والاقتحام، وعهد العقل وحواره الدائم، وأخيرًا عهد الإيمان والأمل. أصبح الموت آخر المغامرات الواعدة. مناجاته تهوّن حمل الأعباء على الحامل. سيجيء في ساعةٍ ما سافرًا عن وجهه وسوف أقول له بكلّ مودّة اقطف الثمرة وهي في تمام نضجها. يومًا كنت أحدّث علوان عن المسلسل التليفزيونيّ الجديد فقال لي:

- جدّي، أهنّئك على راحة بالك.

أزعجني قوله فقلت له:

- في صوتك احتجاج يا علوان.

فضحك في حياء ولم ينبس فقلت:

- توجد مرحلة أخيرة اسمها الشيخوخة، إنّي أمدّ يدي لأقبض على حلقة الثمانين في مَرْقى الجبل فمن حقّي أن أركّز على خلاصي تاركًا هموم وطني لبنيه. وقد قمت بالتزاماتي في حينها على قدر استطاعتي. وحاولت جهدي على حملك على الالتزام وما زلت أحذّرك عواقب الشيخوخة المبكّرة، إنّ قاموسك لا يحوي إلّا بطلًا شهيدًا واحدًا. قضيت فترة متلقّيًا مسحورًا، وتقضي الأخرى متحسّرًا حائرًا، أقلّ ما أقوله عن نفسي إنّي شهدت من تلاميذي ثلاثة من الوزراء!

فتساءل ضاحكًا:

- أتعدّ ذلك من حسناتك يا جدّي؟

فما تمالكت من الضحك عاليًا وقلت:

- إن تكن الأخرى فلندع الحكم للتاريخ، أمامكم تحدّيات خليقة بأن تخلق أبطالًا لا حائرين!.

وربّت ذراعه بحنان ثمّ واصلت:

- قم بواجبك في حينه حتّى تفرغ ذات يوم لطريق الله وأنت مطمئنّ الضمير.

لو وهبني الله نعمة الكرامات لأوجدت له شقّة ومهرًا ولكنّ العين بصيرة واليد قصيرة. إنّه الآن يصارع ألمه وجراحه وما أملك له إلّا الدعاء. وأذكر سخريات سليمان مبارك والد رندة في زمن مضى:

- ترى هل نسي الدرويش الماكر عهد فسقه ومجونه؟

فقلت له باسمًا:

- حلّ الحبّ محلّ الخوف فيما بيني وبين ذي الجلال.

- تُنافس إبليس بالطول والعرض ثمّ تطمح إلى الغفران.

- حتّى عهد المجون أعتبره من أطيب ذكريات الحياة. فصاح الرجل ساخرًا:

- اشهدوا يا هوه!... واعجبوا لهذا الدرويش المودرن...

- يا مخرّف، لقد بلغت في الطريق درجة من الوعي أجد فيها عند أغنية «حبايبي كتير يحبّوني لكن إنْتَ اللي شاغلني». روحًا من الصوفيّة.

فقهقه متسائلًا:

- وماذا تجد في أغنية «يوم ما عضّتني العضّة»؟!

- اسخر ما شئت، إنّ نزوات المربّي الفاضل التي مارسها وراء ستر وقاره لم تكن إلّا صلاة شكر ساذجة.

فهتف:

- محتشمي، أشهد أنّك وليّ مغاني الهرم وملتقى مهرّبي الانفتاح.

المشكلة الحقيقيّة هي علوان. ترى هل يعتبرني المصدر الذي انطلقت منه شرارة تعاسته؟

- أودّ يا علوان أن أحمل عنك بعض حزنك!

فقال بضيق:

- الحقّ أنّني لا أدري ماذا أفعل بحياتي.

- سيبلغ البلد يومًا شاطئ الأمان.

- سأبلغ الشيخوخة قبل ذلك

فقلت متنهّدًا:

- «ويخلق ما لا تعلمون».

- ما أسرع أن تجدوا النجاة في جملة جميلة يا جدّي!

- علوان، في الثلاثينات فُصلت من عملي بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب، كنت صاحب أسرة وأبناء ومن كبار الفقراء، اشتغلت بمدرسة الإعداديّة الأهليّة بمرتّب حقير، وأمسكت حسابات بقّال من أصدقائي، ومكثنا عامًا كاملًا لا نطبخ إلّا العدس، وعندك أبوك فاسأله...

تابعني بنصف وعي ثمّ قال بامتعاض:

ـ بتّ أكره نفسي.

فقلت برجاء:

ـ لعلّه إيذان بميلاد جديد.

فقال ساخرًا:

ـ أو موت جديد.

فقلت بحرارة:

ـ ليكن حديثنا عن الحياة لا الموت.

فقال بحدّة:

ـ الموت أيضًا حياة!

وتردّدتْ في نفسي الآية الكريمة «مَن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها».

علوان فواز محتشمي

جريح القلب والكرامة. أهيم على وجهي ككلب بلا مأوى. حرارة الجوّ تبخّر لذّة المشي. مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة. أجلس وأطلب القهوة وأرهف السمع. هنا معبد تُقدَّم به القرابين إلى البطل الراحل الذي أصبح رمزًا للآمال الضائعة آمال الفقراء والمعزولين. هنا أيضًا تنقضّ شلّالات السخط على بطل النصر والسلام. النصر يتكشّف عن لعبة والسلام عن تسليم. على مسمع من السيّاح الإسرائيليّين. أسمع وأهنأ بشيء من العزاء. أنتم إذا شئت حزب وهميّ لا شعار له إلّا الرفض. إنْ أضجرك الكلام فمدّ البصر إلى الطريق. راقب حركة الذاهبين والجائين. حركة سريعة لا تتوقّف ولا تنقطع. وجوه مكفهرّة ماذا وراءها؟. الرجال والنساء والأطفال، حتّى الحبالى لا يقرن في بيوتهنّ. كلّ يحمل مأساته أو مهزلته. حوانيت الأثاث والبوتيكات مكتظّة. كم أمّة تعيش جنبًا إلى جنب في هٰذه الأمّة؟ أضواء الميدان قويّة مثيرة للأعصاب، ومثيرة للأعصاب أيضًا، قوارير المياه المعدنيّة على موائد السيّاح. ماذا نشرب نحن؟!. وأغرب الأغاني تنطلق من التاكسيات في راديو المجاذيب. لا يبقى على حاله التي كان عليها إلّا الشجر والعمائر. وتدوّي خطبة من راديو في مكان ما فتنتشر الأكاذيب في الجوّ مع الغبار. تعب... تعب... فلنعد إلى الكلام. خرابة صغيرة بمائة ألف. الجرائم الأكاديميّة في الجامعة. كم عدد أصحاب الملايين؟. الأقارب والأصهار والطفيليّون. المهرّبون والقوّادون والشيعة والسنّة. حكايات ولا ألف ليلة. الجرسون عنده أيضًا حكاية وعند ماسح الأحذية. متى تبدأ المجاعة؟. الرشوة عيني عينك وبأعلى صوت. الاستيلاء على الأراضي. شيخ العصابة له أوراد. والفتنة الطائفيّة من يوقظها؟. مجلس الشعب كان مكانًا للرقص فأصبح مكانًا للغناء. الاستيراد بدون تحويل عملة. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيضة اليوم؟. والنقوط في ملاهي الهرم. وفسخ الخطبة!. ماذا قال إمام الجامع على مسمع من جنود الأمن المركزيّ؟. لا مرحاض عامّ في الحيّ كلّه. لِمَ لا نؤجّرها مفروشة؟. ما هو إلّا ممثّل فاشل. وضَرْب المُفاعِل العراقيّ؟ صديقي بيجين... صديقي كيسنجر. الزيّ زيّ هتلر والفعل شارلي شابلن. ويسود صمت شامل ريثما تذهب امرأة قادمة من الطريق إلى بيت دعارة وراء المقهى وتعقد مقارنة بين تضخّم عجيزتها والتضخّم المالي العامّ. متفائل يؤكّد أنّها تشتغل لتجمع رسوم رسالة الدكتوراه وأنّ قلبها أنقى من الذهب. وشابٌّ شاذّ يقترح الشذوذ كحلّ لأزمة الحبّ في الطبقة ذات الدخل الثابت وأيضًا لتحقيق الهدف من تنظيم الأسرة. لا خلاص إلّا بالخلاص من كامب ديفيد. العودة إلى العرب والحرب. حرب أبديّة والويل لعملاء التطبيع. كفى... كفى... في الوقت متّسع لقليل من التسكّع. الفرار منك جهد ضائع يا رندة. مرض الحبّ بطيء الشفاء وأخاف أن يكون من الأمراض المزمنة. لا يعزّيني عن إساءتي إليها إلّا أنّني أسأت ضعفينِ إلى نفسي. وعندما رأيت والديّ على مائدة العشاء حسدتهما. أراحا نفسهما من هموم كثيرة بالعمل. التهمهما العمل وهٰذا شيء حسن. ليس كما كنت أتصوّر. بكلّ حزم يقولان:

ـ أعْفِنا من الحديث عن نفسك أو عن البلد.

حسبنا أنّنا نشقى من أجلكم. حلّ مشاكلك بنفسك والبلد له ربّ. اذكر أبي المخضرم في حماسه.

هتفَ للثورة ولبسَ الحداد في هزيمتها وقُضي عليه في الانفتاح. سمعته يقول:

- تمرّ الأيّام فلا أجد وقتًا لحلق شعري أو تقليم أظافري.

وسمعته يقول لجدّي:

- أنحشر في الباص وآخذ هناء في حضني لأبعد عنها أحضان الجياع.

ومرّة قال لي:

- يوم الجمعة، يوم العطلة، تتراكم الواجبات، وقت للحمّام، وقت للعزاء، وقت للاعتذار، ساعة واحدة للاسترخاء وفيها تهجم عليّ همومك وهموم البلد.

في تخبّطي ألقى أستاذي في نادي الخرّيجين. يا أستاذي لقد فسخت الخطبة. غير موافقة طبعًا وتطالبني بإعداد لقاء بينها وبيننا مجتمعين. الوداع يا أستاذي مضى وقت الكلام. أعدك بأن أكون عدوًّا للكلام بقيّة العمر. وخيّل إليّ أنّ المحروقي حلّ مشاكله بالمروق من العصر. إنّه يعتقد أنّه هزم العصر وطوّعه لأغراضه. ماذا صنع بنفسه؟. تعلّم حرفة السباكة. دفن شهادته في أوّل وعاء قمامة. سألته والدكّان؟. أجاب دون أن يبتسم فنادرًا ما يبتسم أسير حاملًا حقيبة حاوية للأدوات وأنادي سبّاك... سبّاك. فتنهال عليّ الطلبات، سأصير قريبًا أغنى من سيّدنا الزبير. وعندما هممت بالانصراف قال لي ساخرًا «أدعوك للدخول في دين جديد اسمه الإسلام» ولـمّا خلا أنور علّام إليّ قال:

- آسف، ولكنّك فعلت الصواب، وسوف تضحك لك الدنيا.

وعقب انقضاء أسابيع دعاني إلى عمل عاجل في شقّته بالدقّي. ولـمّا انتهينا من العمل دعاني للعشاء. توقّعت ذلك من بادئ الأمر. وشاركتنا العشاء جولستان فلم أدهش. أعلنتْ أسفها على فسخ خطبتي بكلمة عابرة ثمّ تركّز الحديث على الغناء الحديث. وأسمعنا أنور علّام شرائط متنوّعة كعيّنات منه.

- يبدو أنّك تحبّه يا بك.

فقال ببساطة:

- على الأقلّ لا أنفر منه.

وتلاقيت مع جولستان في نظرات مسترقة باحث بمودّة لا خفاء فيها. دافئة وعميقة ومراوغة. إنّها غير مقصّرة في إبداء مفاتنها ورزانتها معًا. كأنّما تقول لي إنّي امرأة فاضلة ولكن لا حيلة لي مع مفاتني. هل يعجبك هذا الطراز من النضج الأنثويّ المتخطّي للشباب؟. المسألة بالنسبة إليّ مسألة جوع أوّلًا وأخيرًا. لعلّها تنظر إليّ باعتباري حَمَلًا على حين أنظر إليها بعيني ذئب. أيّ ضغط يزاح عن أعصابي لو أذعنت لي كخليلة!. لكن كيف ومتى وأين؟. وقال أنور علّام:

- بعد شهر على الأكثر ينتهي العمل في فيلّا جولستان الجديدة، وسوف تنتقل إليها وتتركني وحدي.

فسألته مجاريًا لمسرى الحديث «ولِمَ لا تنتقل معها يا بك؟»

فأجاب:

- إنّي أفكّر في إعداد شقّتي للزواج، آن لي أن أتزوّج!

رَنده سُليمان مُبارَك

الأمل في الزمن. هو أيضًا يُميت ويُحيي. سيهلك المكروب ذات يوم ويتجلّى وجه الشفاء. ولن يخذل الله مؤمنًا صادقًا. اليوم نتبادل الحديث ونتعاون كزميلينِ في مكتب واحد. كزميلين غريبين لم يذوبا في قبلة قطّ. وأحيانًا أراه - مثلي - يستحقّ الرثاء. لم أعد أدينه ولم أعد أحترمه. التجربة الجديدة التي تقتحمني هي أنور علّام. يستقبلني ببشاشة غير عاديّة. ويحاورني مداعبًا معلنًا عن إعجابه ومودّته. إنّي أتوقّع وأفكّر تحت مظلّة من الكبرياء تأبى التسليم بالهزيمة. من ناحية أخرى قدّرت ماما أنّ الهدنة انقضت وأنّه آن لها أن تتكلّم فقالت لي ونحن جلوس معًا في حجرة المعيشة:

ـ علمت أنّ إبراهيم بك مستعدّ أن يتقدّم من جديد.

إنّه كهل صاحب مصنع معادن تقدّم منذ عامين ورُفض. والظاهر أنّها لاحظت استيائي فقالت:

ـ نحن متّفقان على أنّه طالما لا يوجد ارتباط فالأمر يفصل فيه العقل وحده.

فقلت معترضة:

ـ لكنّه أرمل وأب!

فقالت برجاء:

ـ ولكنّه غنيّ ومستعدّ أن يأخذك بملابسك.

ـ ليست مجرّد بيع وشراء.

ـ ولكنّنا لن نجد مثله بسهولة.

فقلت بحدّة:

ـ لست متعجّلة.

فقالت بإشفاق:

ـ الزمن يجري بسرعة. . .

فقلت بتحدٍّ:

ـ لن أكون أوّل عانس في التاريخ.

لزم أبي الصمت طوال الوقت. ولم أكن صادقة تمامًا في التعبير عن حالي، فالحقّ أنّني راغبة في إثبات وجودي ولكن ليس على حساب كرامتي، الكفاءة يجب أن تشمل المال والاحترام، أنور علّام يملك الاثنين، ولو كانت به شبهة لطبّقت الآفاق. وهو على الأقلّ مقبول وغير منفّر شكلًا، والفجوة بين عمرينا معقولة لدرجة. أمّا الحبّ فمن الحماقة أن أفكّر فيه الآن. ولم يطل بي الانتظار، فعلى أثر اعتماد تقريري ذات صباح قال لي:

ـ يصحّ الآن أن أسألك عن رأيك!

تساءلت وقلبي يخفق بالتوقّع:

ـ فيمَ يا بك؟

ـ إنّي أطلب يدك، ما رأيك؟

فلذت بالصمت كالمبغوتة فقال:

ـ لعلّي لا أجيد حديث الحبّ، لكنّه موجود، لست خياليًّا وحسبي أن أقول إنّي أجدك حائزة لكافّة الشروط بكلّ جدارة. . .

فهمست:

ـ الأمر مفاجأة.

ـ طبعًا تطلبين مهلة للتفكير، معقول، ولكن دعيني أزكّي نفسي بالقدر اللازم، فمثلي لا يشرع في الزواج إلّا إذا كان على يقين من قدرته لحمل مسئوليّته. . .

ـ إنّي شاكرة وسأفكّر في الموضوع. . .

وعرضت الموضوع على والديّ مساءً. وقالت أمّي بلا تردّد:

ـ على خيرة الله.

وقال أبي:

ـ نوافق على ما توافقين عليه.

ولـمّا انفردت بأمّي سألتها عمّا يمكن أن نقدّمه فقالت بمرارة:

ـ من ناحية أبيك لا شيء، من ناحيتي فلديّ بقيّة من حليّ يمكن أن أجهّز شخصك بثمنها، ويستحسن أن يعرف الرجل كلّ شيء. . .

مرارة التجربة التي طحنتني مزّقت أقنعة الحياء الفارغة. أنضجتني أكثر ممّا قدّرت. صمّمت على الجهر بالحقيقة على أنّه لم يكن في حاجة إلى صراحتي لسابق علمه بأزمتي. وقال لي أيضًا بصراحة:

ـ سأقوم بتأثيث الشقّة وحسبي ذلك.

فوافقت طبعًا فقال:

ـ يجب أن نعرف للوقت قيمته وأن يتمّ كلّ شيء في أقصر وقت. . .

وتمّ إعلان الخطبة في شقّتنا. اقتصر الحفل على والديّ وأخواتي، ومن ناحيته على جولستان هانم وأخ طاعن في السنّ. لم يشهده أحد من جيران العمر. وقد أهدتني جولستان قلادة ذهبيّة ذات فصّ ماسيّ ثمين. وكنت في أعماقي متوتّرة الأعصاب ولكن ضبطت انفعالاتي بقوّة ومثّلت دوري بلباقة حسدت نفسي عليها. ولـمّا انفردت بسناء في حجرتنا انهار سدّ المقاومة فأجهشت في البكاء. ورمقتني بوجوم مليًّا ثمّ قالت:

ـ ليكن هذا وداعك الأخير للماضي العقيم.

فقلت مولولة:

ـ خسرت أثمن ما في حياتي. . .

فعطفتْ عليّ أكثر من أيّ وقت مضى وقالت:
ـ لا أوافقك ولكن لندع كلّ شيء للزمن.

محتشمي زايد

فوقنا على بعد أشبار ثمّة حفل لإعلان خطبة رندة. علوان انتهى من ارتداء قميصه نصف الكمّ وبنطلونه الرماديّ. بدا ساعداه مفتولين وزغب صدره من فتحة القميص فاحمًا، وتجلّى الانسجام في قسمات وجهه المحتقنة بالحزن، شباب وجمال وأسًى. ماذا يعتلج في أعماقه في هٰذه الساعة اللعينة؟. لم أذق مرارتها إلّا في الشِّعر. هل لديّ ما أقوله له؟ لم أجد سوى نظرة وابتسامة. ورفع يده تحيّة ومضى وهو يقول كعادته:
ـ فتك بعافية يا جدّي.

وساء طبعي فجأة كأنّما ازدردت كيلو شطّة وفلفل. رميت بعيدًا عنّي بخور العبادة. عالم مجنون وبائس. أيّها الأحبّاء الراقدون تحت الأرض ما أكثركم! رأسي ثمل بذكرياتكم دون سبب واضح. وسبقكم مئات الأنبياء والأولياء فلينعم التراب بأطيب ما في الحياة. لماذا يتدفّق الماضي في روحي كشلّال وبقوّة بركان ثائر. هتافات الثورة تدوّي من جديد، الاستقلال التامّ أو الموت الزؤام، الشعب فوق الملك. أزيز النار المشتعلة في القاهرة، عظمة الراحل وهزيمته، عظمة خليفته ونكسته، الجنون يشقّ طريقه في الصخر حاملًا الجوع والديون، أيّها الأحباب الذاهبون ما أكثركم! ما فكّرتم في الموت ولا جرى لكم المرض في حساب، ومنكم مَن مزج الكونياك بالزنجبيل وطارد النسوان في الموالد، ومَن كان يخلع نفسه من مائدة القمار ليصلّي الفجر حاضرًا، ومَن رمى نفسه في مياه النيل المشعشعة بضوء القمر والزورق انشراعيّ يدور حوله حاملًا الحشاشة المجدع، وفتية القدر الذين تسلّحوا بالإيمان والأحجار وخرجوا يتحدّون الشرطة والجيش في عيد الدستور الملغى، إنّي أشهد المعركة وأسمع أزيز الرصاص ووقع الأقدام الثقيلة المطاردة، ما أكثركم أيّها الراحلون الأعزّاء وما أجهل القبور اللامبالية بأقداركم! وذكرى جدّي الأزهريّ مدرّس النحو الذي كان يخاطب جدّتي الأمّيّة بالفصحى وخلّف ذرّيّة من العقلاء والمجانين ما زالت حتّى اليوم منجبة للعقل والجنون، ما ذنب حفيدي يا حثالة الأرض؟، ورّثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون وكأنّ الثورة ما قامت إلّا من أجل سعادتكم وتعاستنا. آه يا ربّي متى تهبني الشجاعة لأنبذ الدنيا وما فيها؟. حتّى متى أحنّ إلى كرامات لا تتيسّر؟، متى أطير في الهواء أو أمشي فوق الماء؟، متى أشير إلى الظالم فأصعقه وأريح الدنيا من شرّه؟، الحقّ أنّها تجربة فاشلة وأنّ الإنسان عجز عن أن يتعامل معها كنعمة كبرى فنجّسها بالغدر والأنانيّة والخيانة، ها أنا أتمشّى في الشقّة لأفرخ غضبي، وها أنا أتصفّح قطع الأثاث البالية كأنّما أودّعها، وأقرأ وسط مسند الكنبة حكمة مرقومة بالخطّ الفارسيّ الأسود وسط هلال من الأصداف «من تأنّى نال ما تمنّى»، أيّ أناة يا ربّي؟، صبرنا آلاف السنين حتّى انقلب الصبر رذيلة والتمنّي عاهة، وأشرب قدحًا من الأنيسون وأعود إلى مجلسي، وترفّ على شفتيّ ابتسامة، ابتسامة؟!، من أيّ مكان في الغيب وردت؟ هٰذه الابتسامة الضالّة في غابة الأحزان، تقول إنّها قادمة من زمن الجنون المليح مقتحمة جدار التقوى، نديّة بأنفاس الخمر وعرق الغانيات في البقاع المحرّمة، من محراب أقران الشباب والنزق والجهاد، ضحكاتهم تطير في الفضاء البعيد لم تظفر بعد بجهاز استقبال يعيدها إلى الأرض، وزمرّدة ترقص شبه عارية وتغنّي «الميّة حصلت نصّي»، ليالي العربدة والمجون والمنبوذين بلا ذنب، حيث تتجلّى الحكمة والصدق فوق جباه العاهرات والقوّادات، يقلن لنا بكلّ تواضع ألسنا أرحم بكم من حكّامكم العظام؟، نحن نبذل أنفسنا في سبيل الترفيه عنكم وهم يضحّون بكم بغية الترفيه عن ذواتهم، فإلى جنّة الخلد يا زمرّدة ويا لهلوبة ويا أمّ طاقيّة، ويا جميع المنحرفين والمنحرفات ممّن لم نُقِرّ بفضلهنّ حتّى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم، سقيًا للياليكم المنزوية في أعطاف الدخان والنشوة، المنطوية في فنون التلميع والتسمين، المبذولة للدهن والتمشيط، كلّ جهد وتخطيط من أجل

الآخرين، والرضا بعد ذلك باللقمة والازدراء وشماتة الشامتين، هذا ما قالته ابتسامة رفّت في غير أوانها وفي ظلّ زمن مجنون وقلب كسير، والندم كبير والطمع في المغفرة بلا حدود، والضيق بالغ غايته من كثرة الأسئلة عمّا يجوز ولا يجوز وعمّا يجب أو لا يجب على حين ينشغل اللصوص بتوزيع الغنائم، أستعيذ بالله وبكلّ صاحب كرامة وبكلّ مالك علم أن يقدم لتبديد ظلمات هذا الليل الطويل. وجاءني فوّاز وهناء قبيل النوم وسألني الرجل:

ـ ماذا تتوقّع لعلوان؟

فقلت بهدوء يوحي بالثقة:

ـ كلّ خير، إنّه قويّ، وسوف يعبر الأزمة بسلام.

وقالت هناء:

ـ إنّه الآن حرّ ويستطيع أن يشقّ طريقه كيفما يشاء.

ـ لا تنس أنّه هو صاحب القرار...

تمنّيت أن يرجع قبل أن أخلد للنوم، وعرضت لي فكرة قديمة جديدة وهي أنّ الإنسان يجب أن يعشق الدنيا وأن يتحرّر من عبوديّتها في آن. وعدت أقول لنفسي ما أكثر الأحباب الذين ذهبوا، وهل حقًّا عاشرتهم طويلاً في هذه الدنيا الدائبة على أكل بنيها؟!

علوان فوّاز محتشمي

قمت بدوري بكلّ صفاقة. أقبلت على رندة في مجلسها بالمكتب باسطًا يدي وقلت:

ـ أصدق التهاني.

رمقتني بلمحة عابرة وتمتمت:

ـ شكرًا. عقبى لك.

وانتهزت فرصة خلوّ المكان لفترة قصيرة فقلت لها من موقعي القريب منها:

ـ لا أخفي عنك أنّني تمنّيت لك زيجة أفضل.

فتساءلت بهدوء:

ـ ما لها هذه؟

ـ الحقّ... أريد أن أقول إنّك تستحقّين أحسن زيجة.

فقالت باسمة في غموض:

ـ إنّه حسن ظنّك!

وقلت لنفسي إنّه عليّ أن أطوي هذه الصفحة إلى الأبد. ولنتحمّل الألم حتّى نمحقه محقًا. إن استسلمت للحزن جننت. ولـمّا علمت بوصول المدير قصدته في الحال وقلت له:

ـ معذرة، إنّي قادم للتهنئة.

فقال بمودّة:

ـ لولا انصرافك عن الموضوع ما اقتربت منه.

ـ إنّك دائمًا تفعل الصواب.

ـ شكرًا وعقبى لك، عليك من الآن فصاعدًا أن تفكّر في مصلحتك...

لم أدرِ ماذا أقول فواصل:

ـ الطريق واضح وما عليك إلّا أن تفكّر بصفاء.

فقلت وأنا أهمّ بالذهاب:

ـ نصيحة ثمينة يا بك.

فقال بسرعة:

ـ أنا مكلّف بدعوتك، شقيقتي دعتنا لحفل شاي صغير ابتهاجًا بانتقالها إلى الفيلّا الجديدة...

حقًّا إنّ الطريق واضح. وقلت:

ـ يسعدني أن أقبل الدعوة.

قبلت الدعوة رغم أنّ فكرة بيع نفسي لم تخطر لي ببال. وقصدت العنوان حوالى السادسة مساء في جوّ حارّ رطب. وجدت الفيلّا غير بعيدة عن عمارة أنور علّام. صغيرة وأنيقة وذات حديقة ثريّة بأشجار الورد البلديّ والبنفسج، جلست في ثوى جديد ورديّ اللون محلّاة جدرانه بلوحات مصوغة بالكانفاه. وجلست بيننا جولستان في فستان أبيض دقيق الرسم لتكويناتها المثيرة. وقال أنور علّام:

ـ الحفل مقصور علينا فأنت مدعوّ باعتبارك من الأسرة!

فقالت جولستان بنعومة:

ـ لم تعجبني أخلاق أحد من زملائك سواه!

فشكرتها على حين قال أنور علّام ضاحكًا:

ـ حقًّا إنّ شهادتك في محلّها.

وشربنا الشاي والتهمت قطعة كبيرة من التورتة وراح أنور يقول:

ـ يتحدّثون عن مضاعفات فتنة طائفيّة.

فتساءلت جولستان:

ـ ما معنى ذٰلك؟

وتساءلت بدوري:

ـ أين الحكومة؟

فقال أنور:

ـ أيّام قلق.

فنظرت جولستان نحوي وقالت برثاء:

ـ يا لكم من جيل يستحقّ الرثاء!

فقلت بامتعاض مكمّلًا:

ـ والتعنيف أيضًا.

وقام أنور قائلًا:

ـ لديّ مكالمات عاجلة، عن إذنكم دقائق.

في خلوتنا رنت إليّ بعطف وتمتمت:

ـ ما يستحقّ مثلك إلّا كلّ خير...

تساءلت عمّا تعنيه؟... السياسة أم مآساتي الشخصيّة؟، ولٰكن استحوذ عليّ انفعال جنسيّ من وحي جسمها الناضج. وركّزت فيه نظرة مشحونة بصراحة فاضحة. تمنّيت شيئًا واحدًا هو أن أتّخذ منها خليلة. وقلت همسًا بريق جافّ:

ـ أودّ أن أنفرد بك.

فقالت برزانة:

ـ أرحّب بالانفراد برجل ذي خلق مثلك.

تعطّل التيّار الكهربائيّ المتدفّق في صدري. قالت الكثير وبأقلّ الكلمات. وندت أحلامي الطائشة ورحّبت في الوقت نفسه بي. وتماديًا في الإيضاح قالت:

ـ إنّي أحترم نفسي وأرحّب بمن يحترم نفسه.

فداريت خيبتي قائلًا:

ـ ما أسعدني بسماع ذٰلك.

ـ بيتي يرحّب بك في أيّ وقت، لقد عرفت عنك الكثير ولٰكنّك لم تعرف عنّي شيئًا يستحقّ الذكر...

رنده سليمان مبارك

إنّه يطالب بالزفاف في أقرب فرصة ولا أجد عذرًا للتأجيل. وتقرّر إقامة الاحتفال بفيلّا جولستان هانم وتعذّر على أبي الحضور. كان حفلًا صامتًا ولٰكنّه ثريّ بالبوفيه الممتاز وبمن شهده من كبار موظّفي الشركة ونخبة من رجال الأعمال. وضعت على وجهي قناع سعادة لا ريب فيه والحقّ أنّي دعوت لنفسي طويلًا بالتوفيق وصمّمت عليه، وكانت ورائي رغبة صادقة في التفاهم والتكيّف مع حياتي الجديدة. أخوف ما خفت أن أرى علوان بين المدعوّين ولٰكنّه لم يوجد. وقلبي وإن خلا من الميل فإنّه لم يتكدّر بالنفور. ترى لو كان علوان هو عريس الليلة فماذا كان سيفعل؟. عشت عمري لا أتصوّر أنّه يمكن أن أهب نفسي لسواه. ها هو الواقع يفرض قرارًا آخر. حسبي أنّني أشعر بأنّ أنور يمكن أن يحبّ ذات يوم، في هٰذا الكفاية. ولم تنقطع وفود المهنّئين في الأيّام التالية وخاصّة من أهلي. ولٰكن ما شأن هٰؤلاء الرجال؟. يجيئون حاملين الهدايا، نرحّب بهم معًا، تقدّم لهم الخمور. ليلة بعد أخرى لا ينقطع تيّارهم الغثّ ومنهم مواظبون. ولـمّا أرهقتني الوجوه الثابتة، والمجاملة المبذولة من ناحيتي عن تأفّف عميق قلت له:

ـ ما أكثر أصدقاءك من رجال الأعمال!

فقال لي بصراحة لافتة للنظر:

ـ إنّهم في الحقيقة مستقبلنا.

فتساءلت في حيرة:

ـ ماذا تعني؟

ـ وظيفة مثل وظيفتي لا قيمة لها إلّا في نظر موظّف ناشئ، مستقبلنا الحقيقيّ في القطاع الخاصّ، في المغامرة الذكيّة التي ترفع الشخص من طبقة إلى طبقة، فلا تقصّري في الاحتفاء بهم!

إذن فهي زيارات عمل!. لم أرتح لذٰلك، وقلت:

ـ إنّك أفهمتني أنّك واثق من نفسك من الناحية الماليّة.

فقال بصراحة مكشوفة:

ـ عن هٰذا السبيل وحده، عدا ذٰلك فلا أمان

لأحد في هٰذا الموج المتصاعد بلا توقّف من الغلاء!

نسجت الكآبة حولي غشاء محكمًا فقال بحماس:

- إذا لم يكوّن الإنسان ثروة خياليّة في هٰذه الظروف فلا بارك الله فيه...

- ألا يكفي ما يوفّر لنا معيشة مريحة؟

- مريحة؟!... نحن في سباق يا محبوبة لا رحمة فيه...

ها هو شخص جديد يبرز لي من وراء الشخص الآخر، وبعجلة مذهلة، لا يطيق الصبر ولا يصبر على التدرّج ولا يعمل حسابًا لأثر ردّ الفعل في نفسي. إنّه يقول لي بكلّ بساطة إليك ذاتي بلا قناع ولا لفّ ولا دوران، فما رأيك؟!. إنّه لا يرى في هٰذه الدنيا إلّا طموحه ولا يحفل إلّا به، يسدي إليه صلاته مائة مرّة في اليوم، وكأنّما لا وجود لي إلّا من خلال الدور الذي يمكن أن ألعبه في مخطّطه المترامي. حتّى التمثيل الكاذب لا يتقنه أو لا يبالي به. إنّه مفاجأة ومفاجأة صاعقة قذفها السيل مِن علٍ، ولا وجود للحبّ إلّا في لحظته، وسرعان ما شعرت بخيبة أمل لا عزاء فيها، وأنّني بعت نفسي بلا مقابل، أو أنّ الحال أسوأ من ذٰلك. وأنّني أخجل من إعلان خيبتي كنت أتوهّم أنّني على الأقلّ غاية فإذا بي وسيلة لا قيمة لها إلّا بما تؤدّيه. وظيفتي هنا أن أجامل وأسامر وأقدّم الشراب. ولم يقنع بذٰلك كلّه فأخبرني أنّه لا يستطيع أن يؤجّل أعماله المسائيّة أكثر من ذٰلك وأنّه سيعهد إليّ وحدي بمهمّة الضيافة والاستقبال، قال ضاحكًا:

- إنّها امتداد لعملك في العلاقات العامّة.

فقلت معترضة:

- ولكن لا شيء مشتركًا بيني وبينهم...

- لا أهمّيّة لذٰلك، حسبك أنّك لبقة وذكيّة ومثقّفة، ونحن شريكان، والشريك ينوب عن شريكه خاصّة فيما يعود عليهما في النهاية بالخير...

فقلت بحدّة، أوّل حدّة تنتاب شهر العسل في إبّانه:

- لغة سوق ما تصوّرت أنّني سأتعامل معها!

فقال باسمًا:

- خير البرّ عاجله.

ووخزتني سخريته فشعرت بأنّ تجربتي تتهاوى في جرف الفشل. ووجدت نفسي وحيدة وسط رجال يشربون ويقهقهون، ويتوثّبون لاختراق الحدود. وصكّت أذنيّ نكتة وقحة فاقتحمتني موجة هادرة من الاستياء والغضب، وقلت ببرود:

- حسبكم!

فنظروا إليّ واجمين فقلت بخشونة:

- كفاكم شربًا!

فتساءل أحدهم:

- هل تجاوزنا حدود الأدب؟

فقلت دون مبالاة:

- أظنّ ذٰلك!

- لعلّها إشارة للانصراف؟

فقلت متمادية في الغضب:

- دون مناقشة!

وانتظرت وأنا على أسوإ حال أدور مع الهواجس وتدور معي. ولـمّا رجع حوالى منتصف الليل غاض البِشْر من وجهه حال وقوع عينيه عليّ. تساءل:

- خير؟!

- لا خير ألبتّة، إنّه بيت وليس بخمّارة...

- ماذا حصل؟

- باختصار طردتهم وافهم ما تشاء...

انحطّ على المقعد أمامي صامتًا، ثمّ تمتم بعد صمت:

- انهار بناء شامخ.

فصمتُّ بحدّة:

- فوق رءوس مجموعة من السفلة...

- خيبة أمل...

فسألته بغضب شديد:

- ألا تريد أن تفهم؟

فقال بهدوء شديد مثير:

- حسبتك أوسع إدراكًا...

فصمتُّ:

- الحقّ أنّي لا أفهمك، أنت شخص غريب...

فقال بهدوئه المثير:

- المسألة سوء تفاهم.

ـ سوء تفاهم؟!

ـ أعني سوء تقدير من ناحيتي. . .

فصرخت:

ـ يبدو لي أنّك إنسان وضيع!

فدعاني إلى تمالك نفسي بإشارة من يده وقال:

ـ لا. . . لا. . . لا داعي لفتح هٰذا القاموس، أنا عشت دهرًا لم أعرف الغضب. . .

ـ إنّها شهادة ضدّك. . .

ـ هدّئي خاطرك، حصل خطأ، وبيدنا تصحيحه. . .

فقلت بتصميم:

ـ إنّي ذاهبة.

ـ ولِمَ العجلة؟، انتظري الصباح. . .

ـ لن أبقى في هٰذا البيت لحظة أخرى.

فقال بتسليم:

ـ لك ما تشائين، ولا داعي للغضب. . .

محتشمي زايد

«إنّه لا يحبّ الظالمين». ما هٰذا القرار أيّها الرجل؟!. تعلن ثورة في ١٥ مايو ثمّ تصفّيها في ٥ سبتمبر؟. تزجّ في السجن بالمصريّين جميعًا من مسلمين وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر؟. لم يعد في ميدان الحرّيّة إلّا الانتهازيّون فلكِ الرحمة يا مصر. «ومن كان في هٰذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا». وأذكر يوم حُدّدت إقامة سعد زغلول في بيت الأمّة فزحف الانتهازيّون بالولاء الزائف نحو القصر، لماذا تعيد تمثيل تلك المسرحيّة القديمة من ريبوتوار المآسي المصريّة؟. وأذكر عهود الاستبداد بسوادها الكالح أفكانت ثورة ١٩١٩ حلمًا أم أسطورة؟!. (ليس الشديد بالصرعة. . . إنّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب). ترى ماذا تخبّئ أيّها الغد؟. أمّا عن أمسي فقد فقدت أقدم وآخر صديق. صداقة دامت خمسة وسبعين عامًا. يوم تعارفنا على عتبة المدرسة الأوّليّة. لولا الشيخوخة وسوء المواصلات. . . آه. صمّمت على تشييع الجنازة. رحلة شاقّة كرحلة الحاجّ وتوكّأت على علوان. في دار المناسبات استعرضت فيلم العمر الثريّ: المدرسة، الشارع. . . المقهى. . . الحانة. . . لجان الطلبة. . . ليالي الزفاف. . . أعياد الميلاد. الوجه ها هو. . . الابتسامة ها هي. . . هل سمعت آخر نكتة؟. . . والشكوى من الدهر. . . أنتّفق في كلّ شيء ونختلف في الأهليّ والزمالك؟ عليك بقدح ماء على الريق. . . ولا تنس دواء الذاكرة. فاتني أن أسمع تعليقك على ٥ سبتمبر ولٰكنّني أعرفه. وبدأت التلاوة. «كلّ نفس ذائقة الموت» سرعان ما جاء الموت بابتسامته المراوغة وجلس إلى جانبي. لا تتعجّل فلم تبق إلّا خطوة. موت صديقي القديم بروفا لموتي. أرى كلّ شيء، الغسل والدفن والمشيّعين. وأقرأ النعيّ، محتشمي زايد من رجال التربية القدامى وشباب الحركة الوطنيّة. هل تذكره؟، ظننته مات من زمان. ويجيء النسيان متثائبًا ولٰكنّي أسلّم بمنتهى الرضا. حقًّا إنّه عمر طويل ولٰكنّه يبدو الساعة كلحظة عابرة. الحبّ والعنف والغضب والأمل ألا ما أكثر الراحلين! لا فرق الآن بين أن تكون أنت في النعش وأنا ماشٍ وراءك أو العكس. وحيّاني ابنه بحرارة وقال لي في احتضاره حمّلني التحيّة إليك. . .

وفي المساء عاتبني ابني فوّاز قائلًا:

ـ في سنّك يُعفى الإنسان من أمثال هٰذه الواجبات.

أمّا هناء فقالت:

ـ اشتريت اليوم كتابًا لا يقدَّر بثمن هو «كيف تصلح أجهزتك المنزليّة»، فلعلّه يحرّرنا من السبّاك والكهربائيّ.

وعند ذاك تساءل علوان:

ـ ألا يوجد كتاب يحرّرنا من الحكّام؟

فقال فوّاز:

ـ لا حديث للناس إلّا اعتقال الذين اعتُقلوا. . .

فعاد علوان يقول بعصبيّة:

ـ أستاذتي علياء في السجن وصديقي محمود المحروقي أيضًا!

فقلت ملاطفًا:

ـ ثمّة وعد بمحاكمة سريعة حتّى لا يضارّ بريء.

ـ أما زلت تصدّق الأكاذيب يا جدّي؟

ما أنقذه من القضبان إلّا حيرته والويل للمنتمين.

ولـمّا خلا لنا المكان قلت له:

ـ آمل أن تتغلّب على أزمتك بما أعهده فيك من شجاعة!

فقال ساخرًا:

ـ المصائب تقلّ حدّتها بالتكاثر فتتكسّر النصال على النصال...

وأغلق التليفزيون ورجع إلى مجلسه إلى جانبي وهو يقول:

ـ جدّي، لا أحبّ أن أخفي عنك سرًّا...

أصغيت إليه مستطلعًا باهتمام فقال:

ـ توجد قرائن قويّة على دعوة موجّهة لي للزواج من شقيقة أنور علّام زوج رندة...

ـ حقًّا، إنّي بمزيد من المعلومات...

ـ هي أرملة تكبرني بعشرين عامًا، غنيّة جدًّا...

ـ والشكل!

ـ ليس كما تظنّ، مقبولة ومحترمة أيضًا.

فلذت بصمت ثقيل فسألني:

ـ ما رأيك يا جدّي؟

فقلت من مأزقي:

ـ إنّه قرار خاصّ جدًّا يحسن ألّا يشاركك فيه أحد.

ـ ولكنّني مصمّم على معرفة رأيك.

ـ هل تحبّها؟

ـ كلّا ولكنّني لا أكرهها...

ـ لا أدري ماذا أقول...

ـ يوجد ما يقال...

ـ لا حقّ لي في تشكيل مصيرها، إنّي أنتمي إلى عالم آخر وليس من الحكمة أن يستبدّ عالم بعالم آخر.

ـ ولكنّك لم تعوّدني الهرب...

فصمتُّ قليلًا ثمّ قلتُ:

ـ للمشروع مزايا لا يستهان بها وعيوب لا يستهان بها أيضًا، وفي مثل حالك ترجح مزاياه بعيوبه!

فابتسم ابتسامة غامضة وقال بحدّة:

ـ إنّي أرفض أن أبيع نفسي!

فجرى ماء الراحة في أعماقي الملتهبة ولكنّي سألته:

ـ هل اتّخذت قرارك مع التفكير اللازم.

ـ وأكثر من اللازم.

فقلت بحرارة:

ـ أسأل الله أن يعوّضك عنها خيرًا.

وقلت لنفسي «كراماتك يا سيدي الحنفي!»

علوان فوّاز محتشمي

وأنا أهمّ بالذهاب قال لي جدّي:

ـ أما عرفت يا علوان؟

فرمقته متسائلًا فقال:

ـ رندة طلّقت!

غمرتني موجة عالية من الذهول والخوف والارتياح وهتفت:

ـ ما زالت في شهر العسل!

ـ والدتك أنبأتني به هٰذا الصباح.

ـ كيف يمكن أن يحدث هٰذا؟

ـ عندما تتعذّر المعاشرة...

ثمّ وهو يودّعني:

ـ أردت أن أنبّهك حتّى لا تفاجأ به هناك.

غصت في انفعالاتي طيلة الطريق. لم أر إلّا حزني وفرحتي التي ضقت بها. ورأيت رندة مستكنّة في غشاوة كآبتها كما رأيت ظلّ الكآبة منتشرًا في المكتب كلّه. صافحتها وأنا أقول:

ـ إنّي...

فقاطعتني:

ـ شكرًا:

فقلت بصدق:

ـ إنّك لا تستحقّين ذلك.

فقالت بهدوء:

ـ أكرّر الشكر ولا داعي للمزيد.

وتطايرت الأقاويل بعيدًا عن مسمعها فسمعت

الأعاجيب. واضح أنّه فشل كما يحدث للكثيرين ممّن يتزوّجون في سنّ متأخّرة، لا... لا... إنّه شاذ... تأمّلوا حركات يديه، بل العلّة في برودها فالجمال الظاهر ليس كلّ شيء، يقال أيضًا إنّه توجد علاقة آثمة بينه وبين أخته، سمعت وتألّمت. إنّي أحبّك يا رندة كما كنت وأكثر، يحزنني أن أجدك في موقف منهزم، قلبي مع كبريائك الجريح. وخيّل إليّ أنّني قد أقترب من السرّ عند أنور نفسه. أعلنت له أسفي فحدجني بنظرة ساخرة.

وتمتم:

- شكرًا!

أدركت من توّي أنّه يشكّ في صدقي فقلت:

- آسف لكما معًا.

فقال ببرود:

- لا شيء يوجب الأسف.

وعبر إلى الأوراق المعروضة دون زيادة. ودعتني جولستان هانم لزيارتها فلبّيت دون تردّد وأنا على شبه يقين من أنّني سأعرف عندها الحقيقة. وجدتها متحلّية كعروس وقالت لي معاتبة:

- الا تزورني إلّا إذا دعوتك؟

- أخاف أن أحرجك.

- عذر لا معنى له وأنت أوّل مَن يدرك ذٰلك.

وقدّمت لي دندرمة محشوّة بالمسكّرات ثمّ قالت:

- عنّت لي فكرة.

فنظرت نحوها باهتمام فقالت:

- أخي بدأ ينشغل بنفسه عنّي فهل تعمل أنت وكيلًا لأعمالي؟

تبدّى لي الاقتراح مثل هاوية تنداح تحت قدميّ فقلت:

- قد يغضبه ذٰلك!

- هو صاحب الفكرة!

فقلت متحرّجًا:

- أمهليني كي أفكر فقد عرض عليّ بعضهم أن ألتحق بقسم الماجستير.

- العمل بسيط ولٰكنّه يحتاج إلى شخص أمين.

- ستكون المهلة قصيرة جدًّا...

وإذا بها تتطوّع لإطلاعي على جانب هامّ من ماضيها، قالت:

- طالما رُميت بالجشع بسبب زواجي، والحقيقة أنّ أبي هو الذي زوّجني من رجل يكبرني بثلاثين عامًا، على ذاك مضت حياتي معه مكلّلة بالاستقامة والأمانة، وكانت وما زالت سمعتي أنقى من الماس.

فقلت بيأس لم تفطن إليه:

- إنّك مثال للاحترام.

ثمّ في مراوغة:

- أنور بك رجل محترم أيضًا ولٰكن تأمّلي سوء حظّه...

فرمتني بنظرة متوجّسة وسألتني:

- أترثي له أم لزوجته؟

فقلت متحدّيًا:

- ما مضى قد مضى وانقضى!

- حقًّا؟!

- هي الحقيقة بكلّ بساطة.

- إذن دعنا من هموم الآخرين ولننتبه لهمومنا!

فانحصرت في ركن لا أدري ماذا أقول فقالت بصراحة ذكّرتني بأخيها:

- أنت فاهم وأنا فاهمة...

ثمّ بشيء من التأثّر:

- من حقّي أن أسعى إلى سعادتي طالما أنّ كرامتي مصونة.

فقلت حتّى لا ألزم الصمت أكثر ممّا يحتمل:

- إنّي أحترم هٰذا المنطق السديد...

فقالت بعذوبة:

- لن تندم. وإنّي منتظرة.

رندة سليمان مبارك

ستّ أعين تدور في فلك الحيرة. عيناي في عيني أمي، عيناي في عيني أبي، عينا أمّي في عيني أبي، أعيننا جميعًا تتنافر هاربة. في تلك الساعة من الليل ذهلت أمّي لمرآي. شحب لون وجهها عاكسًا لون

وجهي. همست وأبي يغطّ في نومه تحت الملاءة الأرجوانيّة:

ـ رندة... ماذا وراءك؟

وقفنا في وسط الصالة وأفرغت ما في صدري دفعة واحدة:

ـ إنّه الطلاق!

وصببت عليها الحكاية بتفاصيلها. وعلم أبي بها بعد الفطور صباحًا على درجات. قلت له:

ـ لا يمكن أن نتّفق...

وراحت أمّي لتتحدّث عن الزوّار والخمر. احتقن وجهه بالغضب فقلت له:

ـ لا تحمّل صحّتك فوق طاقتها.

فقال بحنق:

ـ فهمت كلّ شيء. لو بي قدرة لأدّبته.

ـ لا ضرورة لذلك، كان صريحًا، وسرعان ما اعترف بفشله.

ـ كيف غابت عنك حقيقته؟

ـ لكلٍّ أسراره ولا أنكر أنّني خُدعت.

ـ يستحسن أن نستشير محاميًا.

فقلت بإشفاق:

ـ هو أقصر سبيل لنشر الفضيحة، ومن ناحية أخرى فقد سلّم لي بكافّة حقوقي دون أدنى اعتراض.

ـ قد يغري هٰذا الطلاق السريع ألسنة السوء بك؟

ـ إنّي واثقة من نفسي وسرعان ما يُنسى كلّ شيء.

ورغم أنّ أحدًا من الزملاء لم يكدّر صفوي فقد شعرت طيلة الوقت بجوّ محموم بالتساؤلات المكتومة. خاصّة من ناحية علوان الذي بلغ غضبي منه مداه. ومرّة همس لي ونحن منفردان:

ـ إنّي حزين جدًّا.

فسألته ببرود:

ـ لماذا؟

ـ لعلّه الشعور بالذنب.

ـ لا شأن لك بما كان.

فتحوّل عنّي بعينيه وهو يقول:

ـ مازلت أحبّك.

فقلت بحدّة:

ـ لا أريد سماع هٰذه الكلمة من فضلك!

وبمرور الوقت ضقت بكلّ شيء وحتّى بغضبي ضقت. ورجعت أنظر إليه كما أنظر إلى نفسي برثاء. بل وجدت شيئًا من خلوّ البال فتساءلت ترى كيف تسير الأمور بينه وبين جولستان، هل يتزوّج منها يومًا ما؟ وأيّ غرابة في ذلك وربّما كانت المرأة خيرًا من أخيها. لم أجد بها ما يسوء. وهي تريده ما في ذلك من شكّ. اللعنة... إنّها تحبّه. من كان يتصوّر أنّنا نفترق؟ من كان يتصوّر أنّ الآمال الكبار يمكن أن تتلاشى كقبضة من غبار؟. وهمس لي عند ميعاد الانصراف يومًا:

ـ أشعر بدافع قويّ لتبادل الرأي!

صمتُّ صمْتَ القبور لرغبتي الشديدة في الحديث.

وذهبنا إلى استراحة الهرم فتناولنا بعض السندوتشات مع الشاي ورحنا نتبادل النظر في بلاهة. سألني:

ـ هل لديك خطّة؟

فقلت ببساطة:

ـ أعيش بلا خطّة ولا أحلام وهو غاية الراحة.

ـ وأنا أيضًا ولكنّ جدّي يقول إنّه ما بين غمضة عين و...

قاطعته:

ـ دعنا من جدّك وأمثاله فهي لا تصلح لنا، متى تتزوّج من جولستان؟

فقطّب متسائلًا:

ـ من قال ذلك؟

ـ مجرّد سؤال.

ـ أنا لا أبيع نفسي.

ـ إذن تَرى أنّني بعت نفسي؟

فقال بسرعة:

ـ كلّا، الأمر مختلف، لا غرابة في أن تتزوّج فتاة من رجل يكبرها أمّا العكس...

وتصفّح وجهي بقوّة ثمّ سألني:

ـ ما أسباب الفشل في زواجك؟

بي رغبة حقيقيّة للاعتراف له بالحقيقة. وهو دون الآخرين.

- تعدني بألّا تبوح بالسرّ لإنسان؟
- أعد بشرفي.
وأفرجت عن المأساة الحبيسة في ضلوعي، حتّى هتف:
- الوغد!
- انتهى وقت الغضب فلا تنسَ وعدك.
- فاقَ أيّ خيال.
- ليس أعجب ممّا سمعنا في حياتنا...

محتشمي زايد

أرى في أحلامي أبي وأمّي وأختي محاسن... ورأيتهم مرّة في منطاد يحلّق فوق رأسي، ترى هل أزفّ الرحيل؟. هل آن للعجوز أن يعفي الدولة من صرف معاشه؟. الصحّة جيّدة رغم عين الحسود سليمان مبارك، ولكنّ الصحّة مَهلكة مثل المرض. كفى بالصحّة داء، صدق رسول الله. عبدك منتظِر يا ربّ، يتوقّع بين آونة وأخرى أن يدقّ الجرس وسوف يستقبل الطارق بما يليق به من طاعة وترحاب. حسن الختام يا ربّ، جنّبني الأوجاع والعجز وشكرًا على حياة طويلة عريضة. حسبي أنّي لم أقدّم أذى لإنسان في هٰذا العالم الحافل بالأذى. والشيخوخة قضيتها جوّالًا بين كلماتك وأنبيائك وأوليائك، وقبل ذٰلك كابدتها في دنياك ونعمائك. رياضتي العبادة وتسليتي الطرب وسروري الطعام الحلال. ها هو العيد يطلّ علينا متوّجًا بأنداء الخريف. نهر من السحب البيضاء يتدفّق فوق النيل الأسمر والأشجار الباسقة دائمة الخضرة. أيّام قلائل نادرة في حياة هٰذه الأسرة الممزّقة. فوّاز يملأ جلبابه في استرخاء، وهناء تمشط شعرها الأبيض، وعلوان يحلق ذقنه تأهّبًا للانطلاق. قلت بسرور وأنا أتصفّحهم حولي:
- أخيرًا نجتمع كأسرة يا أولادا
فقال فوّاز بصوته الجهير:
- نقطة راحة في بحر من التعب.
- لو كانت الدنيا غير الدنيا لخرجنا إلى القناطر.
- فكرة غير صالحة للعصر أو قل إنّها جنونيّة.
قالت هناء ضاحكة:
- نأكل وننام، هٰذا ما تبقّى لنا من العيد.
- وأنت يا علوان؟
- إلى المقهى على الأقدام!
فقال فوّاز باسمًا:
- ثرثرة كالعادة!
فقلت:
- وعيد آخر اتّفقت دورته مع العيد، عيد النصر.
فقال علوان ساخرًا:
- النصر والسجن.
فقلت بنشوة غازية:
- لا دوام لحال، الجديد أيضًا آتٍ لا ريب فيه.
- حقًّا؟!... يحيا الصبر والانتظار!
فقال فوّاز حالـمًا:
- مفاجأة بتروليّة أو اكتشاف نهر مغمور في الصحراء!
فقال علوان:
- أو اندلاع ثورة.
فتساءل فوّاز:
- هل تعني الثورة إلّا مزيدًا من الخراب؟
فقال علوان متهكّمًا:
- ضربوا الأعور على عينه!
يتحدّثون عن الثورة بلا معرفة. لم يسمعوا عنها. حكى لهم الراوي المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرّس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن «لماذا فشلت ثورة ١٩١٩؟». يا أبناء الأبالسة ألا توجد قطرة حياء؟. يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون. ها هو علوان يلوّح بيده ويذهب. يذهب حاملًا خيبة فَرْد وجيل معًا. وفتحت هناء التليفزيون قائلة:
- نشاهد الحفل.
المنظر العامّ ثريّ يوحي بالفرح الشامل. قدوم الرئيس في هالة لألاءة كليلة القدر. عليه بزّة القيادة. وبيده صولجان الملك. وتتابعت الصفوف والأعلام. قالت هناء ببراءة:
- شدّ ما هو معجب بنفسه...

فقلت:

- اليوم يومه.

فقال فوّاز:

- إنّه لسعيد، وهو حقيق بذلك...

ثمّ مستدركًا في أسًى:

- خسر الكثير منذ ٥ سبتمبر.

عَرْض فوق الأرض وعرض في السماء، منظر نادر لا يتكرّر. قلت بصوت من الماضي:

- لم نكن نرى الجيش إلّا يوم المحمل.

- انظر يا أبي. هٰذا عالم آخر...

وقالت هناء ضاحكة:

- وجه مورّد كأنّه مطليّ بروج.

وتمرّ الفيالق ويمرّ الوقت، ويزحف عليّ الكسل وشيء من النعاس. وأصحو في لحظة غريبة من الزمان. قرص التاريخ أذني، والدهر. قالا لي هٰكذا وقعت الأحداث التي قرأتها في صحف التاريخ بانتباه عابر. ها هي تقع في حجرة المعيشة. تضطرب الشاشة الصغيرة وتتميّع، وتنقضّ حركة غير عاديّة، وتنطلق أصوات، ثمّ يدهمنا الاختفاء.

- هل حصل شيء في التليفزيون يا فوّاز؟

- ليس في الجهاز... لا أدري ماذا حصل...

وقالت هناء بقلق:

- شيء غير عاديّ... قلبي غير مطمئنّ...

فقال فوّاز:

- ولا أنا...

تساءلت:

- هل... ؟!

قال فوّاز:

- الله أعلم يا بابا، عمّا قليل سنعرف كلّ شيء...

وقلت من قلبي:

- اللّهمّ حوالينا، لا علينا...

علوان فوّاز محتشمي

ليكن عيد ولننس همومنا ولو ساعة واحدة. ولٰكن كيف والباب له مائة مفتاح؟ ماذا يقول لي النيل وماذا يقول الشجر؟. اسمع جيّدًا، إنّها تقول، يا علوان يا فقير يا عائشًا بين الأسوار، رندة تعود إليك تحت مظلّة الصداقة والحوار، في ظلّ حبّ غير معلن يقوم على أرضيّة مستندة إلى عمودين من الصلب واليأس تظلّها أحلام غامضة. لا مطاردة من الأهل ولا أمل ولا يأس. امش مشية عسكريّة سريعة فهٰذا يوم الجنود. وها هو المقهى مكتظّ بعلماء الكلام. هنا ينعدم الرضا والفعل. بيننا مائدة عليها ترانزستور تطوّع أحدهم بإحضاره. كما فعل يوم أذاع علينا الرئيس الراحل هزيمته عقب ٥ يونيه. أوّل ما سمعت قائلًا يقول:

- الرئيس الراحل في هزيمته أعظم من هٰذا في نصره.

هٰذا يذكّرني برأي أدلى به جدّي مرّة، قال لي:

- نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسّبت نغمة الأسى في أعماقنا، فأحببنا الغناء الشجيّ والمسرحيّة المفجعة والبطل الشهيد، جميع زعمائنا شهداء: مصطفى كامل شهيد الجهاد والمرض، محمّد فريد شهيد المنفى، سعد زغلول شهيد النفي أيضًا، مصطفى النحّاس شهيد الاضطهاد، جمال شهيد ٥ يونيه، أمّا هٰذا المنتصر المعجباني فقد شذّ عن القاعدة، تحدّانا بنصره، ألقى في قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيّأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التي ألفناها جيلًا بعد جيل، فاستحقّ منّا اللعنة والحقد، ثمّ غالى بالنصر لنفسه تاركًا لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هٰذه هي العقدة.

وغرقنا في دوّامة الحوار الأرعن والترانزستور يذيع تفاصيل عيد النصر لمن يسمع حولنا من روّاد المقهى. وسرقنا الوقت كالعادة حتّى انتبهنا على أصوات غريبة وصوت المذيع وهو يصرخ:

- الخونة... الخونة...

شُلّت الألسنة وزاغت الأبصار. تلاصقت الرءوس فوق الترانزستور ولٰكنّه انقطع عن متابعة الحفل وراح

يذيع بعض الأغاني.
- ماذا حدث؟
- شيء غير عاديّ.
- قال... الخونة... الخونة... الخونة...
- اعتداء!
- على مَن؟
- سؤال سخيف حقًّا...
- الأغاني المذاعة تدلّ...
- متى كان للمنطق أهمّيّة؟
- شيئًا من الصبر!

ماتت أيّ رغبة في العودة إلى البيت. تلاصقنا بشعور دعانا إلى البقاء معًا أمام المجهول.

تناولنا غداء موجزًا من المكرونة وانتظرنا. وبعد وقت عنيف أعلن المذيع أنّه حصلت محاولة للاعتداء فاشلة وأنّ الرئيس غادر الحفل وأنّ قوّات الأمن مسيطرة على الموقف تمامًا، وانطلقت الأغاني من جديد.
- ها هي الحقيقة.
- الحقيقة؟
- فكّرْ قليلًا.
- بعض الحقائق لا يمكن إخفاؤها.
- ولٰكن يمكن تأجيلها.
- مَن المعتدون؟
- مَن غير التيّار الدينيّ؟
- لٰكنّه يجلس بين الجنود والحرس.
- انتبهوا... بدأت إذاعة الأناشيد الوطنيّة...

وإذا بإذاعة جديدة تعلن عن إصابة طفيفة للرئيس وأنّه يلقى العناية الكاملة في المستشفى. قلوبنا ترقص في مدّ الاحتمالات المتصاعد. الزمن توقّف وغيّر لونه ثمّ أطلّ علينا بوجه جديد.
- أصيب الرجل، ماذا بعد؟
- استعدّوا للسجن.
- عودة مؤكّدة للإرهاب.
- سينجو وينتقم.
- هل نسمع القرآن بعد الأناشيد؟!

وتحمّلنا الوقت على ثقله حتّى صحّت النكتة وبدأت التلاوة. بهتنا أوّل الأمر. إنّه اليقين. يا للذهول! حقًّا؟!. انتهى الرجل؟... مَن كان يتصوّر؟ لماذا نؤمن أحيانًا بأنّه يوجد مستحيل. لماذا نتصوّر أنّه توجد حقيقة في هٰذه الدنيا سوى الموت؟. الموت هو. الموت هو الدكتاتور الحقيقيّ. ويجيء البيان الرسميّ كالجملة الختاميّة. ترى ماذا يقول الناس؟. أريد أن أسمع ما يقال حولنا في المقهى. وتحرّكتُ مرهف السمع. لا حول ولا قوّة إلّا بالله. هو وحده الدائم. البلد يواجه خطرًا لا يستهان به. لا يستحقّ هٰذه النهاية مهما قيل عن أخطائه... في يوم نصره؟. مؤامرة... توجد مؤامرة محكمة ولا شكّ. في داهية... الموت أنقذه من الجنون. على أيّ حال كان يجب أن يذهب. هٰذا جزاء مَن يتصوّر أنّ البلد جثّة هامدة. بل هي مؤامرة خارجيّة. لا يستحقّ هٰذه النهاية. إنّها نهاية محتومة. كان لعنة. مَن قتل يُقتل ولو بعد حين. في لحظة انهارت إمبراطوريّة. إمبراطوريّة اللصوص. فيم تفكّر العصابة الآن. عدت إلى مجلسي تمزّقني انفعالات متضاربة من الأسى والخوف والسرور. وأفعمني ترحيب غامض باحتمالات مجهولة واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق غير محدودة. ليكن الغد ما يكون أسوأ من اليوم. حتّى الفوضى خير من اليأس ومقاتلة الأشباح خير من الخوف. هٰذه الضربة زلزلت عرشًا واخترقت حصونًا. ومع المساء همت على وجهي. أرهقني الكلام. ما أرغبني في المشي! على كلّ عابر أرى أثرًا من الموت. وأجدني فجأة أمام فيلّا جولستان وأرى سيّارة أنور علّام واقفة تنتظر صاحبها. تتفجّر في داخلي كلّ شهوة للجنس وكلّ نزوع للقتال...

رندة سليمان مبارك

يا للفظاعة. ألا توجد وسيلة إلّا القتل؟. وما ذنب زوجته وبناته؟. لست من أنصاره ولٰكنّه لا يستحقّ هٰذه النهاية. إنّه يعيدني إلى المشكلات العامّة بعد طول

انغماس في مشكلاتي الخاصّة. القتل كريه والله لا يحبّه. أمّي بكت كإنسان لم تغيّره السياسة. وجمت حجرة المعيشة أكثر من وجومها المألوف في تلك الأيّام. وسألت أبي عن رأيه فقال:

ـ هيهات أن يردّ رأيي الحياة لميت.

ورنا إليّ مليًّا بعينيه الذابلتين ثمّ واصل:

ـ البلد مريض بالتعصّب يا رندة، أين أيّام «لماذا أنا ملحد؟» يريدون أن يُرجعونا أربعة عشر قرنًا إلى الوراء.

وصمت قليلًا ثمّ قال:

ـ أنا عارف أنّك لا توافقين على رأيي كلّه فافعلوا بزمانكم وليفعل بكم ما يشاء ولٰكنّنا متّفقان على رفض القتل...

إنّه الخطّ الأدنى الذي نقف عليه معًا. ترى أين أنت يا علوان؟. إنّك لا تحبّه فهل سررت بنهايته؟. وعلى غير توقّع اقتحم علوان شقّتنا بعد طول انقطاع وبجرأة دلّت على قوّة دوافعه. وسرعان ما انفردنا بأنفسنا في الصالة على كرسيّينِ متجاورينِ حول السفرة. وسألته:

ـ أين كنت وقتها؟

فقال باضطراب أفزعني:

ـ دعينا من ذٰلك فما من جديد يقال، رندة أصغي إليّ جيّدًا...

ـ ماذا عندك؟

ـ وجدتني مساء اليوم أمام فيلّا جولستان وسيّارة أنور علّام المنتظرة، ودون دعوة ولا تدبير سابق اندفعت إلى الداخل، وكان هو أوّل من رأيت فهتف مرحّبًا «أهلًا» ربّ صدفة خير من ميعاد، وإذا بي أصيح مفقود الرشد «يا قذر!» ولكمته في صدره بقوّة فترنّح وهوى إلى الأرض، وهنا نبّهتني صرخة جولستان إلى وجودها، قالت لي بحزم «كفّ عن همجيّتك» وساعدته على القيام وهو يلهث فمضت به إلى حجرة نومها. تسمّرت في موقفي غائب الوعي تقريبًا. وغابت هي ربع ساعة ثمّ رجعت شاحبة اللون ذاهلة النظرة وغمغمت:

ـ ماذا فعلت يا مجنون؟. لقد قتلته!

حملقت في وجهها دون أن أنبس. اغرورقت عيناها وتمتمت:

ـ ماذا فعلت يا مجنون؟!... لماذا قتلته؟

وانحطّت إعياء على مقعد مسنِدة رأسها إلى راحتها على حين مضيت أستردّ وعيي وأدرك أبعاد فعلي. وأخيرًا قلت:

ـ استدعي الشرطة، إنّه قدري...

لم تندّ عنها حركة ورغبت بكلّ قوّتي في التخلّص من الموقف فقلت:

ـ سأذهب بنفسي إلى الشرطة...

فأشارت بيدها إشارة غامضة وهمست:

ـ اقعد حيث أنت.

ومرّ الوقت على أعصابي ثقيلًا مثل وابور الزلط فقلت:

ـ لا معنى للانتظار.

فهمست:

ـ انتظر.

وأحنت رأسها تخفي عينيها عنّي وهمست:

ـ كان يشكو تعبًا مزمنًا في قلبه!

فيم تفكّر؟. ساورني شكّ عاكِس لنور خاطف من أمل مذبذب.

ـ لٰكنّي أنا الذي...

فقالت بهدوء دلّ على أنّ رأسها المضطرب شرع يفكّر:

ـ لا أثر للضرب.

بهٰذه العبارة تورّطت كشريكة في الجريمة. تفرّست في وجهها بذهول وأنا أعجب لطبيعة الشخص التي قد تظلّ خافية في الظروف العاديّة إلى الأبد. أيّ امرأة!. ولكنّ فرحتي بطوق النجاة كانت فرحة غريق يائس. قلت:

ـ لن يخفى شيء على الطبيب.

فقالت بثقة:

ـ لا شأن لك بهٰذا.

وتبادلنا نظرة فاضحة لكلينا وقالت:

ـ طبعًا أنت فاهم لماذا أعمل على إنقاذك؟

فأحنيت رأسي ممتنًّا وأنا لا أصدّق فسألتني:

ـ هل أثق في شرفك؟

. . . وتعهّدت بشرفي. . .

ولـمّا انتهى سألته وأنا من اليأس في نهاية:

ـ لماذا تبوح لي بسرّك؟

ـ لا سرّ بيننا يا رندة.

فقلت بمرارة:

ـ لقد ارتكبت جريمتك غضبًا لي، وأنت تستحقّ النجاة.

ـ أهٰذا رأيك؟

ـ طبعًا. لا يمكن أن أشير عليك بالموت.

فقال بانفعال:

ـ في الحقيقة إنّني لم أقل كلّ ما عندي، فما غادرت الفيـلّا حتّى احتقـرت نفسي وكـرهت القـرار الـذي اتّخذته، وفي حيرتي قصدتك لأعترف بكلّ شيء. . .

فقلت له بإشفاق:

ـ إنّي مدركة تمامًا لمشاعرك ولكنّي لا ألومك عـلى قرارك!

فقال بعناد خفق له قلبي:

ـ ولكنّي أرفض.

ـ هٰذا هو الجنون.

ـ ليكن.

فقلت متوسّلة بحرارة:

ـ المعجزة لن تتكرّر.

ـ ليكن.

ـ لا وقت للندم.

ـ لن أندم أبدًا.

ـ إنّي بريئة ممّا تفكّر فيه.

فقام وهو يقول:

ـ سأرجع إليها لأصارحها بكلّ شيء.

ـ لا أوافق.

فقال وهو يمضي:

ـ وأنا مصمّم. . .

محتشمي زايد

بعد اختفاء علوان أغرق في وحدة مطلقة. حزني عميق وحزن أبويه لا قرار له، أمّا العالم حولنا فيشرئبّ إلى أمل جديد، ورندة أيّ شجاعة ساقتها إلى المحكمة لتدافع عن الشابّ بحيائها وكرامتها. وكان من حسن الحظّ أن تشخّص الجريمة كضرب أفضى إلى مـوت. أعوام تمرّ ثمّ يغادر السجن صاحب حرفة يكـون بها أقدر على تحدّيات الحياة وتحقيق آماله. لا أحسبني أراه مرّة أخرى، سيجد حجرتي خالية فيمكنـه أن يتزوّج حبيبته فيها. ترى هل بقيتُ أكثر ممّا يجوز وهل لعبت دورًا وأنا لا أدري في تعقيد مشكلته؟!.

آن لي أن أنضمّ إلى فريق المسبّحينَ المتطلّعينَ إلى الأبديّة في رحاب ذي الجلال.

حديث الصباح والمساء

حرف الألف

أحمد محمّد ابراهيم

في السماء زرقة صافية، وعلى الأرض تغفو ظلال أشجار البلخ، وأديم الميدان العتيق يشرق بنور الشمس، ويتلقّى من الحارات هديرًا لا ينقطع. ميدان بيت القاضي يضمّ قسم الشرطة الحديث وبيت العدل والمال القديم، وتطؤه أقدام حافية وشباشب مزخرفة ومراكيب ملوّنة وحوافر الخيل والحمير والبغال. ويطلع أحمد على ذلك الملعب الواسع فسرعان ما ينسى بيته الأصليّ، بيت والديه بحارة الوطاويط. كان ابن أربعة أعوام عندما حُمل إلى بيت جدّه لأمّه بميدان بيت القاضي ليؤنس وحدة خاله قاسم الذي كان يكبره بعام ونصف عام. خلا البيت بعد زواج البنات والصبيان فلم يبق فيه إلّا عمرو أفندي الأب وراضية الأمّ، وآخر العنقود قاسم. لم يعرف قاسم أخواته صدريّة ومطريّة وسميرة وحبيبة، وأخويه عامر وحامد إلّا كضيف عابر مع أمّه أو أبيه، يزورهم، كما يزور فروع أسرته في ميدان خيرت أو سوق الزلط أو العبّاسيّة الشرقيّة. وفي بيت شقيقته مطريّة بحارة الوطاويط أحبّ ابنها أحمد حبًّا فاق حبّه للجميع. وكان لأحمد أخ أكبر يدعى شاذلي وأخت في اللفّة تدعى أمانة ولكنّه خصّ أحمد بكلّ قلبه. وكانت مطريّة تحبّ قاسم كأبنائها فأهدته إليه ليعيش في كنف جدّيه ويؤنس وحدته في بيت كبير خالٍ من الأنيس. ولم يرتح محمّد أفندي إبراهيم ـ أبو أحمد ـ لذلك كما لم ترتح له أمّه ـ حماة مطريّة ـ ولكنّهما لم يعترضا مصمّمين على أن يستردّاه حال بلوغه السنّ المناسبة لدخول الكتّاب. وجهل قاسم تلك النيّة المبيّتة فنعم بالصحبة في صفاء لا يشوبه كدر. وكان أحمد كأنّه آية في الجمال، مورّد البشرة ملوّن العينين ناعم الشعر خفيف الروح، يتبع خاله كظلّه في أرجاء الميدان، يشاهدان ألعاب الحاوي، وعربة الرشّ، وطابور جنود الشرطة. ويستقبلان معًا عمّ كريم بيّاع الدندورمة، ويتابعان بشيء من الخوف مواكب الجنازات. وكانت الرائحة والغادية من الجارات تنظر إلى أحمد وتتساءل:

ـ مَن هٰذا الولد الجميل؟

فيجيب قاسم باعتزاز:

ـ أحمد ابن أبلة مطريّة.

فتمضي المرأة وهي تقول:

ـ الجميل ابن الجميلة.

وكان محمّد أفندي إبراهيم يقول لراضية أمّ قاسم:

ـ لا تملئي رأس أحمد بحكايات العفاريت يا نينة.

فترمقه باحتقار وتقول:

ـ يا لك من مدرّس جاهل!

فيضحك الرجل كاشفًا عن ثنيته المتراكبتين ثمّ يواصل تدخين غليونه. ذٰلك أنّ ختام اليوم يتمّ عادة بين يدي راضية فتنداح النشوة في قلبَي الطفلين على سماع الحكايات قبيل النوم، وتنهمر على خيالهما كرامات الأولياء وعبث العفاريت، وينغمس الواقع في دنيا الأحلام والخوارق والآيات الربّانيّة. وتمضي بهما في أوقات الفراغ من بيت إلى بيت، ومن ضريح وليّ إلى جامع حبيب من آل البيت. وظلّت الدنيا لهوًا ولعبًا حتّى حُمل قاسم ذات يوم إلى الكتّاب ليبدأ حياة جديدة

وليحرم من رفقة أحمد ثلثي النهار. والكتّاب يقع في منحنى من منحنيات عمارة الكبابجي على بعد خطوات من البيت، ولٰكنّه محاط بسياج من التقاليد الصارمة تجعل منه سجنًا تتلقّى فيه المبادئ الإلٰهيّة تحت تهديد المقرعة. . . ولم تُجدِ التوسّلات ولا الدموع. ويغادره عصرًا فيلقى أحمد وأمّ كامل في انتظاره عند الباب. لم تعد الدنيا كما كانت. تسلّلت إليها هموم لا مفرّ منها. وبغريزة يَقِظة شعر بخطر آخر يتهدّده من ناحية محمّد إبراهيم والد أحمد، فهو لا يرتاح لإقامة أحمد بعيدًا عنه. وتتجلّى في عينيه الجاحظتين نظرة باردة نحوه، ويقول لأمّه:

- أنا لا أحبّ هٰذا الرجل.

فيكفهرّ وجهها الأسمر الطويل وتقول له:

- يا لك من جاحد! ألم يهدِ إليك ابنه؟

- ولٰكنّه يريده.

فتضحك قائلة:

- أترغب في أن ينزل لك عن ملكيّته؟!

* * *

ولٰكنّه ذات يوم لم يجد أحمد في انتظاره لدى خروجه من الكتّاب، ووجد أمّه جادّة أكثر من عادتها، وقالت له:

- حبيبك مريض.

ورآه مستغرقًا في نوم ثقيل في فراشه، وراحت أمّه تعمل له مكمّدات خلّ وهي تتمتم:

- يا ولدي. . . يخرج منك صَهْد كالنار. . .

ولا تكفّ عن تلاوة الآيات. ولـمّا رجع عمرو أفندي إلى البيت مساء رأى أن يرسل أمّ كامل لإخطار مطريّة وزوجها. ولمّا لم تنخفض الحرارة بالبخور والتعاويذ، جاء عمرو أفندي بطبيب من الجيران، ولٰكنّه أعلن أنّه طبيب عيون ونصح باستدعاء الدكتور عبد اللطيف المقيم في باب الشعريّة. واعترض عمرو أفندي قائلًا:

- ولٰكنّه متزوّج من العالمة ببه كشّر!

فقال الطبيب ضاحكًا:

- ببه كشّر لم تُنْسِه الطبّ يا عمرو أفندي. . .

وجاء الطبيب زوج العالمة المشهورة، وشعر قاسم بأنّه شحن الجوّ بمزيد من التوتّر. وسمع أمّه وهي تقول:

- أنا لا أصدّق الأطبّاء ولا أعترف إلّا بطبيب واحد هو خالق السماوات والأرض. . .

وتمرّ الأيّام ويتساءل قاسم أين أحمد، أين غابت نضارته وجماله؟!

عاد عصر يوم من الكتّاب.

دهمه البيت بمنظر جديد. رأى أهله جالسينَ في صمت غريب. في حجرة أحمد لمح أمّه وجدّة صديقه لأبيه، وفي حجرة المعيشة رأى إخوته وأخواته. . . عامر وحامد وصدريّة وسميرة وحبيبة. أمّا مطريّة فكانت تجهش في البكاء وإلى جانبها يجلس محمّد إبراهيم واجمًا يدخّن غليونه. وتسرّب الخوف إلى قلبه مع الهواء المفعم بالحزن، وأدرك بطريقة ما أنّ ذٰلك العدوّ الذي سمع عنه في مناسبات ماضية، الذي رآه يخيّم فوق الجنازات المتّجهة نحو الحسين، قد اقتحم بيته وخطف أحبّ خلق الله إلى قلبه. وصرخ باكيًا حتّى حملته أمّ كامل إلى السطح. ومن وراء خصاص نافذة الحجرة الصيفيّة رأى جدّة أحمد تحمل بين ذراعيها لفافة مزركشة وتستقلّ حنطورًا مع ابنها وعمرو أفندي. وذهب الحنطور يتبعه حنطور آخر يحمل عامر وحامد وعمّه سرور أفندي. جنازة من نوع جديد فهل انتهى أحمد؟! أبى أن يصدّق ذٰلك أو يسلّم به. آمن من كلّ قلبه بأنّه سيراه مقبلًا ذات يوم مكلّلًا بعذوبته الورديّة ولٰكنّه لم يكفّ عن البكاء. وفي الليل انفضّ الجمع، نهره أبوه قائلًا:

- كفاية!

فسأل أباه برجاء:

- أين ذهبتم به؟

فقال عمرو:

- لم تعد طفلًا، أنت في الكتّاب وتحفظ سُوَرًا من كتاب الله، أحمد مات، وكلّ إنسان سيموت كما يشاء الله، وهٰذه هي إرادة الله. . .

فتساءل محتجًّا:

- ولٰكن لماذا؟

- إرادة الله، ألا تفهم؟

- لا أفهم يا بابا. . .

- لا. . . هٰذه قلّة أدب أمام الله. . . سيذهب أحمد

إلى الجنّة بغير حساب وهٰذا حظّ عظيم... فاحذر قلّة الأدب...

فصاح:

- أنا حزين جدًّا يا بابا...

- اقرأ الفاتحة يبرد قلبك...

لكنّ قلبه لم يبرد. وكان كلّما تذكّره بكى. وقيل إنّ حزنه عليه فاق حزن أمّه نفسها... ولم يسلّ عن حزنه حتّى تحطّم واقعه وخلق خلقًا جديدًا لم يجرِ لأحد على بال.

أحمد عطا المراكيبي

عملاق في الرجال، بالطول والعرض، وقسمات الوجه الخليقة بتمثال، يجري دمه الدافق في أديم أسمر، صورة خياليّة لبطل حكاية شعبيّة بشاربه الكثّ وراحته المنبسطة، وظاهر يده الأشعر، يملأ مقعد الحنطور وهو يتهادى به في ميدان بيت القاضي قبل أن يقف أمام البيت القديم إذا جاء لزيارته في هالة إقطاعيّ كبير. ويتلقّى ابن أخته عمرو أفندي - وهو يماثله في السنّ - بين أحضانٍ عامرةٍ بالودّ، ويصافح راضية بحرارة، ويضع الهدايا فوق الكنصول وهو يتساءل:

- أين قاسم؟

وينِدّ عنه صوت هادئ خفيض يُعدّ غريبًا بالنسبة للهيكل العملاق الصادر عنه، وتشعّ من عينيه البنّيّتين نظرة وانية متودّدة تتحلّى بالطيبة والسلام، كأنّه مسجد ضخم يجمع بين الجلال والأمان.

- حدّثنا كيف حال أولادنا؟

يقصد البنات والأبناء. وكان يزور الجميع على فترات وخاصّة البنات ليزكّي مكانتهنّ أمام أزواجهنّ. وكان يغمر قاسم بالحلوى، وقد حزن لوفاة أحمد الذي أحبّه كثيرًا لجماله.

ويبقى عادة للغداء مشترطًا تقديم وجبة بلديّة من طواجن راضية التي اشتهرت بإتقانها مع إضافات جاهزة من طعميّة الحلوجي وكباب العجّاني، ويواصل البقاء حتّى يقضي السهرة مع عمرو، وشقيقه سرور في الكلوب المصريّ. وكان الفرع الفقير من الأسرة يسعد بزيارات الفروع الغنيّة مثل آل المراكيبي وآل داود ويزهو بما تحدثه من أثر باقٍ في الحيّ رغم أنّ راضية كانت تقول لعمرو:

- لا أصل لأحد منهم، كلّهم نشأوا في التراب!

ثمّ تلتفت إلى قاسم قائلة بتحدٍّ:

- يوجد رجل واحد ظفره بكلّ هٰؤلاء هو جدّك الشيخ معاوية!

فيبتسم عمرو ويصمت إيثارًا للسلامة. على أنّ قاسم لا يفيق أبدًا من سحر سراي آل المراكيبي بميدان خيرت. في حجم ميدان بيت القاضي وفي ارتفاع القلعة، ولها حديقة مثل حديقة الحيوان، لا حصر لحجراتها، ولا مثيل لأثاثها، وأيّ تحف مختلفة الأشكال والألوان وتلك التماثيل من الجصّ والبرنز في الأركان، وفوزيّة هانم حرم أحمد بك ونازلي هانم حرم محمود بك، ذاتا البشرة العاجيّة والأعين الملوّنة. عالَم حقيقيّ يفوق بسحره عالَم الحكايات والأحلام. وجدّته لأبيه نعمة عطا المراكيبي هي أخت أحمد بك ومحمود بك. ولكنّها امرأة فقيرة رغم ذٰلك لا تملك من دنيا الله سوى ابنيها عمرو وسرور وابنتها رشوانة، غير أنّ الأخوين الثريّين كانا يحبّان أختهما ويحبّان ذرّيّتها وخاصّة عمرو أفندي الذي تميّز بحكمة فطريّة. وكان أحمد بك يوثّق عروته بآل داود، أقارب أولاد أخته نعمة وأصهاره، على ما بين الفرعين الثريّين من غيرة متبادلة ويدعوهم لسراي ميدان خيرت، وكان أحمد أحبّ إلى عبد العظيم باشا داود من أخيه لدماثة خلقه وبساطته وتواضعه. ولٰكن جرت العادة عند ذكر آل المراكيبي في بيت عمرو أن يقول عبد العظيم باشا بسخرية:

- مال كثير وجهل أكثر وما المنبع؟... بيّاع مراكيب حقير بالصلحيّة!

أو يقول محمود عطا عن آل داود:

- ألقاب رنّانة... والأصل أجير على باب الله!

فيقول عمرو بتقواه المعروفة: كلّنا أولاد آدم وحوّاء.

وقد بدأ عمرو وسرور ومحمود وأحمد حياتهم

التعليميّة في سنوات متقاربة وقنعوا بالشهادة الابتدائيّة، فالتحق عمرو وسرور بالحكومة لفقرهما، واقتحم محمود تجربة الحياة تحت جناح أبيه، وجنح أحمد للدعة وحياة الأعيان، فأسقطه أبوه من حسابه. كان يمضي وقتًا في العزبة ببني سويف على هامش العمل الزراعيّ، ثمّ يرجع وحده، أو هو وفوزيّة هانم إلى السراي بالقاهرة بمقامه في الدور الثالث، وينفق وقته بين زيارات الأهل واستقبال الأصحاب. كان بهوه الفخم معدًّا لاستقبال الأصدقاء والأقارب، يحتسون الشاي والقهوة والقرفة ويلعبون النرد والشطرنج ويدعون للغداء أو العشاء، ويسهرون في ليالي رمضان والمواسم حتّى مطلع الفجر. كان الفونوغراف رفيق خلوته، والحنطور متعته، وحدائق شبرا والقبّة مرتاده، والسيّدة مصلّاه أيّام الجُمَع، وقد يحضر بعض ليالي الذكر الصوفيّة مع عمرو ابن أخته المنتسب للطريقة الدمرداشيّة. ولـمّا مات الأب عطا المراكيبي تلقّى مجرى حياته الهادئ الدائم الخضرة دفقة هواء عنيفة كادت تعصف به. وجد نفسه بغتة أمام مسئوليّة ضخمة لم يدرَّب على التعامل معها. كان عليه أن يدير أرضه الموروثة - ثلاثمائة فدّان - بالإضافة إلى أرض زوجته البالغة المائة. وقال له محمود بك:

- ستتعلّم كلّ شيء، ولديك مَن يعاونك، ولكن... وكَوّر الرجل يده الغليظة ثمّ واصل:

- عليك أن تتخلّى عن طيبتك، فالتعامل مع الفلّاحين والمستأجرين غير التعامل مع الأصحاب والأقارب!

وفكّر طويلًا وهو يتخبّط في الشرك، ثمّ قال:

- أنت أخي الأكبر، وما لقيت منك إلّا البرّ والوفاء، وأنا لم أخلق لذلك...

بذلك حلّ محمود محلّ أبيه. ولم ترتح فوزيّة هانم للقرار وقالت له بأدبها الجمّ:

- شدّ ما تعجّلت قرارك دون مشاورة.

فسألها بحيرة:

- هل يداخلك شكّ من ناحية أخي؟

فقالت بأمانة:

- نِعْمَ الأخ هو ولكن لِمَ تضع نفسك تحت وصايته؟

فقال:

- إنّه شقيقي وحبيبي، وأنت شقيقة زوجته، وأسرتنا مثال في الوئام والحبّ، وقد فعلت ما أراه مناسبًا...

وواصل حياته الناعمة، وكان يتسلّم نصيبه دون مراجعة، وكان الخير عميمًا والبال رائقًا. وانقضّت عليه ثورة ١٩١٩ فهزّته من الأعماق وأشعله سحر زعيمها، وتبرّع لها بعشرة آلاف جنيه مستجيبًا لاقتراح أخيه. تناسيا وصيّة قديمة لأبيهما بالبعد عن السياسة وتجنُّب ما يثير غضب السلطات الشرعيّة وغير الشرعيّة. كان المدّ أقوى من أن يفلت منه إنسان. ولكن عندما أطلّ الشقاق بقرنه وحصل الخلاف بين سعد وعدلي، تشاور الرجلان فيما ينبغي فعله. أو راح محمود يفكّر وأحمد يتابعه. قال محمود:

- انقضت فترة العواطف وجاءت فترة العقل.

فقال أحمد:

- الأرض كلّها مع سعد.

- نكون حيث تكون مصلحتنا.

فاشتدّ انتباه أحمد حتّى استطرد أخوه:

- لا يغرّنّك الهتاف، الإنجليز هم القوّة الحقيقيّة، عدلي قريب منهم ولكنّه لا يوفّر الأمان الدائم، هناك سلطة شرعيّة هي الوسيلة الباقية بين الإنجليز وهي العرش، فليكن ولاؤنا للملك!

فقال أحمد مستسلمًا:

- الصواب معك دائمًا يا أخي!

وعرف ذلك الموقف في بيت القاضي حيث يتجاور بيتا عمرو وسرور. وهمس عمرو بأسلوبه الهادئ:

- سلوك غير لائق.

فقال سرور بسخرية:

- أقاربنا الأغنياء. وهبهم الله مالًا لا يُعدّ وخِسّة لا تُدانى...

وكان عمرو يتحرّج من العنف لأكثر من سبب، لهدوء طبعه من ناحية، ولزواج حامد ابنه من شكيرة بنت محمود بك، وعامر من عفّت بنت عبد العظيم باشا، ولكنّه لم يُخفِ رأيه عن خاله أحمد بك وهو يتعشّى معه في السراي فقال له أحمد باسمًا:

ـ علم الله أنّ قلبي معكم ولكنّه رأي محمود!

فقال عمرو آسفًا:

ـ الميدان تحت بيتنا يموج بالمظاهرات كلّ يوم، والهتاف بسقوط الخونة يتصاعد إلى السماء...

فقال أحمد:

ـ أصحاب المصالح لا يحبّون الثورات يا بن أختي...

والواقع أنّ أحمد هو الذي تعرّض للنقد لاختلاطه بالناس ليل نهار، أمّا محمود فكان أكثر وقته منغمسًا في عمله في العزبة. ونتيجة للولاء المعلن في تلك الفترة الحرجة فاز الأخوان برتبة البكويّة في عيد الجلوس، وسُرّ بها الرجلان سرورًا فاق كلّ تصوّر. وأولم أحمد وليمة دعا إليها جميع الأقارب نساء ورجالًا، من آل عمرو وسرور وداود، وبدت السراي في حلّة لا تبدو بها إلّا في الأفراح. وغاص أحمد في حياته الخاصّة حتّى قمّة رأسه، ولم يأذن بهموم الوطن بالتسلّل إلى خلوته وتكدير صفوها. ولكن بتقدّم الزمن ونموّ الأبناء جاءته المتاعب من حيث لم يحتسب. لم يوافق ابنه الأكبر على الوضع الذي اختاره لنفسه تحت وصاية أخيه. وخاض نزاعًا طويلاً عنيدًا مع أمّه أوّلًا ثمّ مع أبيه ثانية. ولم يعفِ أباه من ملاحقته حتّى وعد باسترداد حقّه الذي نزل عنه بمحض اختياره. ومن تلك الشرارة اندلعت النيران في أركان الأسرة المتّحدة. انتهز أحمد فرصة زيارة محمود للقاهرة لبعض شأنه وفاتحه في الموضوع على استحياء، وختم حديثه كالمعتذر قائلًا:

ـ الأولاد كبروا ولهم رأيهم!

أدار محمود ما سمع في رأسه طويلًا وهو يتلقّى من الغضب أمواجًا هادرة. كان قد تطبّع بسلطة غير محدودة، ومارس في السراي هيبة تجاوزت أسرته إلى أسرة أخيه الوديع الطيّب. كانت فوزيّة هانم تهابه وتصدع بأوامره على حين تناقش زوجها مناقشة الندّ للندّ. وكان ابنا أحمد يلتزمان أمامه حدود الأدب والطاعة على حين يتعاملان مع أبيهما بالحبّ والمرح والحرّيّة. وأفلت الزمام من يدَي محمود فقال لأخيه:

ـ يا لك من رجل ضعيف! كيف سمحت لابنك بهذا العبث؟!

فاستاء أحمد ولم يشأ أن يفرّط في احترام أبنائه له فقال:

ـ لا ضرورة للكلمات القارصة يا أخي...

فسأله بوحشيّة:

ـ هل تشكّون في ذمّتي؟

فبادر يقول:

ـ معاذ الله، ما هو إلّا حقّي في تَوَلّي شئوني بنفسي...

ـ حقّك في تدمير نفسك بنفسك بوحي من حماقة أولادك؟

فقال عابسًا:

ـ الله المستعان...

وتلا ذلك مناقشة مع عدنان الابن الأكبر لأحمد اعتبرها محمود بك قحة تستحقّ الزجر. وكان أن خاطب الشابّ عمّه بشيء من العنف اعتدّه الرجل جريمة. وسرت النار من فرد إلى فرد. تخاصم الشقيقان، وانحازت كلّ زوجة إلى زوجها ممزّقة الولاء لشقيقتها، وتبادل أبناء العمّ أسوأ ألوان السباب. وتهرّأت عروة الأسرة، وانطوى كلّ فرع على نفسه في دوره بالسراي كأنّه لا يعرف الآخر، وخابت مساعي رشوانة وعمرو وسرور في إصلاح البين، بل إنّ حامد بن عمرو ـ وكان يقيم مع زوجته شكيرة في دور محمود وأسرته ـ وجد مشقّة وحرجًا ليحافظ على صلته الطيّبة بآل أحمد خال أبيه. وانتقل أحمد بك إلى العزبة في بني سويف ليتسلّم أرضه على كبر، فيزرع ما يزرعه منها ويؤجّر ما يؤجّره، ولقي في ذلك من المتاعب ما لم يتصوّره وتعرّض لخسائر لم تجرِ له في حسبان. وقبيل الحرب العظمى الثانية بقليل أصيب الرجل بالفالج وحُمل إلى فراشه بالقاهرة في انتظار النهاية. كان أوّل من هوى من الجيل الثاني العتيد، وكانت الأمراض ترشّح بقيّة الجيل للحاق به بطريقة أو بأخرى، وكان عمرو ما زال يقاوم الأجل، وفي الحال زار محمود بك وقال له:

ـ آن لك أن تنسى الخصام وأسبابه وأن تعود شقيقك...

وصمت الرجل متأمّلًا ثمّ قال:

ـ ثمّة أمور لا تُنسى، ولٰكنّي سأفعل ما يليق بي. . وما تدري أسرة أحمد بك إلّا ومحمود بك يستأذن في الدخول. وجموا ووقفوا له متأدّبين وقد دمعت أعينهم. وكان بصحبته زوجته وأبناؤه فتمّ التصافح وقال الرجل:

ـ يـذهب الشقـاق ويُنسى ويـظلّ القلب ينبض بدقّات القربى. . .

ومضى إلى أخيه المطروح فوق فراشه بلا حركة ولا نطق. انحنت فوزيّة هانم فوق أذنه وهمست:

ـ أخوك محمود بك جاء ليطمئنّ عليك.

فانحنى بدوره فوقه ولثم جبينه ثمّ استقام وهـو يقول:

ـ العفو عند الرحمٰن، شدّ حيلك.

ورفع الرجـل جفنيه الثقيلين، وتبـدّى عجزه عن النـطق، ولٰكن لم يشكّ أحـد في الأثر الـطيّب الذي اختلجت به وجنتاه المحتقنتـان. وأسلم الروح عنـد منتصف تلك الليلة الحزينة.

أدهم حازم سرور

مهندس معماريّ من خرّيجي عام ١٩٧٨. استقبل حيـاته العمليّـة وهو ابن خمسـة وعشرين في القاهـرة الحافلة بالمشكلات، ولٰكنّه لم يعـثر في حياتـه بمشكلة واحـدة. وتلاطمت حـولـه أمـواج البشر والمركبـات وانفجر هديرها مثل عزيف البراكين، ولٰكنّـه نعم في فيـلّا والديـه بالـدفّي بالهـدوء والسكينة وشـذا الورد والأزهار، وتحيّر جيله في مسالك الحياة بحثًا عن الهويّة والبيت والـزوجة وتحقيق الـذات ولٰكنّه وجـد مكتب والده الهندسيّ في انـتظاره ليشغل فيـه مركـز السيادة المرموق. وسيمٌ مثل أبيه، ومثله أيضًا ضعيف العين اليسرى لدرجة العمى، ولا يعرف من شئون الدنيا إلّا فنّه ولا ينتمي إلّا لأحلام التفوّق والثراء، ويكاد لرقّة دِينه أن يكون بلا دِين عن غير إلحاد. وقالت سميحة هانم أمّه مخاطبة أباه:

ـ خسرنا أخاه الأكبر، فدعني أهيّئ له حياة محترمة!

فقال برقّة مشفقًا كالعادة من إغضابها:

ـ هٰذا جيل يختار لنفسه فلا تتحدّي كبرياءه. . .

ولٰكنّها غضبت رغم رقّته، اشتعلت كالعادة صائحة:

ـ في أسرتكم عِرْق قذر أخشى أن يسوقه إلى طريق أخيه. . .

فأشعل سيجارة وقال لها:

ـ افعلي ما بدا لك. . .

ولٰكنّ أدهم كان مبادرًا بأكثر ممّا تخيّلت، فأخبرهما وهـم جلوس في حديقة ميناهاوس صباح يوم العـطلة بأنّه اختار شريكة حياته. . . وفـزعت أمّه وحملقت في وجهه متسائلة، وحدس الشابّ مخاوفها فقال باسمًا:

ـ كريمة، في السنة النهائيّة بكلّيّة الحقوق، أبوهـا محمّد فوزي مستشار بقضايا الحكومة . . .

هدأت أعصابها فيما بدا وتناولت ملعقة من الكاساتا وراحت تلوكها في فمها المنقوشة حـوافيه بتجعيـدات السنين، ثمّ تمتمت:

ـ لا بدّ من التحرّي. . .

فقطّب أدهم، وقال الأب ملاطفًا:

ـ مجرّد إجراءات ولٰكنّي متفائل. . .

وتبودلت زيارات، وحظي الاختيار بالرضا، وكان لا بدّ أن تعلّق بنقد ما فقالت لحازم زوجها:

ـ أمّها جاهلة فيما يبدو.

فعجب الرجل لقولها إذ إنّها ـ سميحة ـ لم تحصل على البكالوريا ولٰكنّه قال:

ـ لا أهمّيّة لذٰلك. . .

وتمّ الاتّفاق على كلّ شيء، واشترى حـازم لابنه شقّة في المعادي بتسعين ألفًا من الجنيهات، استقرّ ابنه وعروسه فيها في نهاية العام.

ولم يكن أدهم يعرف من شجرة أهله إلّا فرع أمّه، جـدّه محمّد سـلامة منشئ المكتب الهنـدسيّ وأخوالـه وخـالاته. أمّـا أهل أبيـه فكان يعـرف ـ ربّما معـرفة عـابرة ـ أنّ جـدّه سرور أفندي عـزيز كـان مـوظّفًـا بالسكك الحديديّة، وأنّ عمرو أفندي عمّ والده كان موظّفًا بالمعارف، وكان له عمّات ولكلّ أبنـاء وبنات ولٰكنّه لم يرَ أحدًا منهم. يعرف أيضًا أنّ أسرته من حيّ الحسين وهو حيّ يقترن في ذهنه بالفقر والتـأخّر فـلا حاجة به إلى تذكّره، ولم يمرّ به إلّا عابرًا وهو في سيّارة. وكثيرًا ما يلتقي بنفر منهم في الميادين أو بعض الأماكن

العامّة فلا يعرفهم ولا يعرفونه. وتابع أبوه نشاطه بارتياح، واطمأنّ إلى أنّه إذا تقاعد يومًا ـ وهو قريب ـ فسيترك المكتب لرجل قادر. وقد قال له يومًا بمناسبة ما ذاع وشاع عن الفساد:

ـ كلّ الفرص متاحة لك، العلم والذكاء والهمّة فتجنّب الانحراف، لا تسخر من النصيحة. إن كنت ممّن يسخرون من القِيَم، فعلى الأقلّ احرص على السمعة واخشَ السجن!

أمانة محمّد إبراهيم

مشرقة اللون، دقيقة القسمات، ناعمة الشعر، صورة جديدة لأمّها مطريّة لولا بروز ما في ثنيتيها. وهي آخر مَن أنجبت مطريّة، وجاء ميلادها قبيل وفاة أحمد بأشهر. وأحبّها خالها قاسم ولكنّه لم يجرؤ على المطالبة بها كما فعل مع شقيقها الراحل. فجعل يحبّها من بعيد حتّى انتزعته مأساته الشخصيّة من هموم الدنيا جميعًا. وماتت جدّتها لأبيها وهي في السابعة فحزنت عليها حزنًا أكبر ممّا يجوز في سنّها. ودخلت المدرسة الابتدائيّة دون اعتراض بحكم زمنها، وبحكم زمنها أيضًا انتقلت منها إلى المرحلة الثانويّة. ومع أنّ مطريّة لم يكن يشغل بالها إلّا الزواج إلّا أنّها قالت لزوجها:

ـ كبنات أختي سميرة، الدنيا كلّها تودّ أن تتعلّم اليوم. . .

وكان محمّد إبراهيم يسلّم بذلك دون مناقشة. وكان قد رُقّي لدرجة مدرّس أوّل مع بقائه في مدرسة أمّ الغلام بشفاعة عبد العظيم باشا داود. والحقّ أنّ أمانة أبدت استعدادًا طيّبًا للتعليم وتجلّى تفوّقها في الرياضيّات، وتراءت لها الجامعة كحلم سهل التحقيق. وحصلت على البكالوريا ولكن في العطلة الصيفيّة التالية مرض أبوها مرضًا لم يمهله فسرعان ما توفّي وهو في الخمسين. وورثت الأسرة البيت والمعاش وإيجار دكّان في أسفل البيت، وكانت الحرب العظمى الثانية قد انتهت ورحل من الجيل الثاني عمرو وسرور ومحمود عطا، فشعرت مطريّة بأنّها تواجه الحياة وحيدة. في ذلك الوقت تقدّم عبد الرحمٰن أفندي أمين الموظّف بدار الكتب لطلب يد أمانة. رجل يكبرها بخمسة عشر عامًا ذو سمعة طيّبة وكان رأي أمانة أنّ الرجل مقبول ولكنّها تودّ أن تكمل تعليمها. وقالت لها مطريّة بعطف:

ـ ظروفنا تقتضي تفضيل الزواج.

وشاورت مطريّة أمّها فقالت راضية:

ـ الرجل المناسب أهمّ من الجامعة ألف مرّة. . .

ونظرت إلى أمانة بإعجاب وقالت:

ـ كيف تهتمّ بالتعليم بنت في جمالك؟

وقال لها خالها الشيخ قاسم:

ـ رأيتك في المنام وأنت ترقصين في قسم الجماليّة!

وسألت مطريّة أمّها عن تأويل الحلم فقالت دون تردّد:

ـ القسم هو الأمن والأمان، هو بيت الزوجيّة. . .

وجهّزت مطريّة أمانة بمهرها وثمن حليّها وحليّ جدّتها لأبيها وما تبقّى من مدّخر قليل للمرحوم محمّد إبراهيم وزفّت إلى زوجها بشارع الأزهر. ووضح أنّ الحبّ أظلّ بجناحه الأسرة الجديدة، ولكنّ التوافق بين الزوجين بدا من أوّل الأمر أنّه يقتضي عناء مريرًا. المسألة أنّ عبد الرحمٰن أمين آمن بسيادة الرجل، وأنّها كانت شديدة الحسّاسيّة تتهوّل في وجدانها قرصة نملة فتخالها قرصة ثعبان. سرعان ما تبكي وتنفرد بنفسها أو تذهب من الأزهر إلى حارة الوطاويط. وتمضي بها مطريّة لتفضّ الاشتباك فتتورّط في الخصام. وقالت لها شقيقتها الكبرى صدريّة:

ـ ليس زوج بنتك بأسوأ من زوجي. . . ومع ذلك لم يدرِ أحد بما ينشب بيننا، لا تتدخّلي بينهما ولا تميلي مع أمانة مع كلّ خلاف. . .

وعلمت راضية بذاك النقار المتجدّد فاستعانت بالتعاويذ والرقى وزيارة الأضرحة، وبدا أنّ الحال تنذر دائمًا بمزيد من الشقاق حتّى لاح شبح الطلاق بوجهه القبيح كالوطواط الأعمى. وضاعف من عمق المأساة أنّ أمانة بمجرّد أن أنجبت بكرها محمّد استحوذت عليها الأمومة واختفت الزوجة الجميلة أو كادت. وأنجبت بعده عمرو وسرور وهديّة، وابتعد شبح

الطلاق، واستمرّ النقار، وانطبع الوجه الجميل بطابع أسًى دائم. وشرع الأبناء في التعليم مع أوّل جيل لثورة يوليو، وعبروا جوّ بيتهم الكئيب فحلّقوا في سماوات من الآمال والمجد حتّى غرقوا في بحر الحيرة الذي ابتلع ضحايا ٥ يونيه ١٩٦٧، ومضوا يستقبلون حياة عمليّة بعد رحيل الزعيم الأوّل. وفي موجة النصر والانفتاح فازوا بعقود عمل في البلاد العربيّة حتّى هديّة لم تتخلّف عن ذلك. وكانت مطريّة قد رحلت بدورها بعد معاناة طويلة لخيبة الأمل، بعد موت البكريّ ورحيل الزوج قبل الأوان، وانحراف شاذلي، وسوء حظّ أمانة. وسلّم عبد الرحمٰن أمين بالواقع بعد طعونه في السنّ، ونعمت أمانة بنجاح أبنائها وإن حلّ بها الكبر والسقام قبل الأوان. وبحكم الزمن شهدت رحيل الأعزّة من الأخوال والخالات وبقيّة الأقارب، وقرأت كتاب الأحزان وهو يقلب صفحاته صفحة في إثر صفحة... واستمعت إلى نبوءات الشيخ قاسم المرسَلة من وراء السحب لتجري أحكامها فوق المصائر...

أمين سرور عزيز

ولد ونشأ في بيت القاضي، وكان بيت سرور أفندي يلاصق بيت شقيقة عمرو أفندي، كما كان أمير يقارب ابن عمّه قاسم في سنّه، وقد شارك ابنَ عمّه في لعبه وجولاته، وانفصل عنه عقب مأساته على رغمه. وكان بخلاف إخوته قويًّا مع مَيل إلى البدانة وحبّ للدعابة، وكان أشبه الجميع بعمّه عمرو في رجولته وتقواه. وقد عرف ثورة ١٩١٩ كأسطورة من المظاهرات والمعارك والقصص فترعرع سعديًّا وطنيًّا مؤمنًا. وحاول أن يقلّد أخاه لبيب في تفوّقه واجتهاده فشقّ طريقه بنجاح ولكن دون أخيه بمراحل. وبسبب من تقواه وروحه المحافظة على الآداب والتقاليد ساءت علاقته بأخته جميلة التي كانت تكبره بأربع سنوات، لاعتراضه على ما اعتبره تحرّرًا في سلوكها لا يليق بسمعة الأسرة ولا بكرامة الدين. ولم يرَ أحد من أسرته رأيه فزادوا غضبه حتّى قال له أبوه:

- أنت متعصّب أكثر من اللازم فدَعِ الأمر لي...

وبدخوله المرحلة الثانويّة بدأ يشارك في المعارك الحزبيّة التي نشبت بعد رحيل سعد زغلول. اشترك في المظاهرات التي قامت احتجاجًا على دكتاتوريّة محمّد محمود، وأصابته هراوة لبث بسببها في المستشفى أسبوعين. وكان له ثلاثة أقارب من ضبّاط الشرطة في مراكز حسّاسة بالداخليّة، حامد عمرو ابن عمّه، وحسن محمود عطا ابن خال أبيه، وحليم عبد العظيم داود ابن عمّ أبيه. وتشاوروا في الأمر وكلّفوا أقربهم إليه بتحذيره وترشيده. وكان حديث قدّمه حامد على مسمع وشهود من سرور عمّه، وعمرو أبيه. قال مخاطبًا ابن عمّه:

- اسمك على رأس قائمة سوداء في الداخليّة...

فقال أمير ضاحكًا، وكان الضحك عادته:

- لي الشرف...

فأشار ابن عمّه إلى أثر الجرح في صدغه وقال:

- ما كلّ مرّة تسلم الجرّة.

وقال له أبوه:

- لا يتورّعون عن فصلك من الكلّيّة...

وقال حامد:

- إنّي وَفْدِيّ مثلك، ولكن لا بدّ من النصيحة...

وكان الشابّ لا يخفي احتقاره لآل عطا وآل داود، وكان يشعر بفتور عواطف أبيه نحوهما، وتهكّمه عند كلّ مناسبة بأصلهما. ومضى أمير يتألّق في سماء السياسة في أوساط الشباب الوفديّ، ويقدّم لزعماء الوفد، ويطير بطموحه الوطنيّ إلى آفاق بعيدة. وحاول شقيقه لبيب - وكان وكيل نيابة في ذلك الوقت - أن يفرمل من اندفاعه ولكنّه قال له:

- قد عرفت سبيلي ولن أتراجع عنه...

فسأله بهدوئه الطبيعيّ:

- وإذا رُفِتّ ونحن فقراء كما تعلم؟

فقال بثقة:

- في تلك الحال أعمل في الصحافة...

ولكنّه لم يُرفت ولم يعمل في الصحافة ولم يواصل جهاده السياسيّ. ففي أوائل عهد إسماعيل صدقي،

وفي طوفان المظاهرات التي قامت احتجاجًا على إلغاء دستور ١٩٢٣، أردته رصاصة قتيلًا في شارع محمّد عليّ. وقد تولّى رجال الأمن دفنه مع كثيرين حتّى لا تهيّئ جنازاتهم فرصة لقيام مظاهرات جديدة، ولم يسمح لشهود دفنه إلّا لأبيه وعمّه وإخوته. وقد هزّ موته المبكّر آل سرور من الأعماق، وكذلك آل عمرو، وتذكّروا ما قاله له الشيخ قاسم في آخر زيارة لبيت عمّه:

ـ سترفع العلم الأحمر.

فأوّلوا قوله بأنّه إشارة إلى دمه المسفوح يوم استشهاده!

حرف الباء

بَدريّة حسين قابيل

ولدت في شقّة بعمارة حديثة بشارع ابن خلدون، فكانت بكريّة حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلي وسميرة كريمة عمرو أفندي والرابعة في ترتيب ذرّيّته. وكان الحيّ يعبق برائحة اليهود المتفرنجين. وكانت الشقّة تشرق بالأناقة وحسن الذوق ويسر الحياة. وبنموّ بدريّة جرت العذوبة في ملامحها والرشاقة في أطوار سلوكها. وكانت إذا زارت البيت القديم في بيت القاضي بصحبة والديها لفتت الأنظار بنضجها المبكّر. ويضحك جدّها عمرو أفندي ويقول:

ـ الظاهر أنّها ستستعمل الحجاب والنقاب قبل الأوان.

فيقول حسين قابيل:

ـ ولكنّها يا عمّي ستواصل تعليمها إلى النهاية...

فتقول راضية ضاحكة:

ـ يا له من عالَم مجنون. ولكنّه لذيذ.

فتقول سميرة:

ـ لن نفرّق بين البنات والصبيان في شيء.

وتسألها راضية:

ـ وإذا جاء عريس في السكّة؟

فتقول سميرة دون تردّد:

ـ عليه ان ينتظر أو يذهب مع السلامة...

فيقول الأب مداريًا اعتراضه بابتسامة:

ـ سميرة... أنت خواجاية غريبة في أسرتنا!

وفعلًا حين المراهقة رآها تاجر في زيارة لدكّان والدها فأراد أن يخطبها، ثمّ عدل لمّا عرف أنّ عليه أن ينتظر حتّى تنتهي من تعليمها. ولكن جاء زائر آخر عجزوا عن التعامل معه: كانت قد جاوزت الخامسة عشرة، وكانت تجالس أمّها وإخوة لها في الشرفة، عندما سقطت على وجهها متصلّبة الجسد مرتجفة الأطراف وفوها ينثر الزبد... آه... إنّه الصَّرَع. وكانت مأساة قاسم قد حفرت في الوجدان.. ولكنّ هٰذا صرع شديد العنف. واستُدعي الطبيب ونصح بالراحة وتغيير الهواء ومزيد من لين المعاملة، وانقطعت عن المدرسة، وحلّت في عينيها النجلاوين، مكان النظرة المتألّقة، أخرى خابية ذاهلة، وتلاشى الحوار وحلّ محلّه هذيان. واستغاثت سميرة بأمّها، وقال حسين قابيل:

ـ لو كانت تملك نفعًا لنفعت به ابنها.

ولكنّ سميرة لم تأخذ بذٰلك المنطق، وجاءت راضية ببخورها ورقاها وتعاويذها. وطافت بالبنت أضرحة الأولياء وآل البيت، ومضت الحال من سيّئ إلى أسوإ، فلم يبقَ منها إلّا خيال.

وفي صباح يوم من الأيّام قالت بدريّة لأمّها:

ـ رأيت في النوم أميرًا يدعوني إلى نزهة في القناطر...

فرانّ التشاؤم على قلب سميرة، وعند الضحى احتضرت الفتاة ثمّ أسلمت الروح. هٰكذا فقدت سميرة بكريّتها كما فقدت مطريّة بكريّها، ولكنّها فقدتها وهي في أوج صباها، وأحاط بها المعزّون من آل عمرو وسرور، ومحمود بك عطا وأحمد بك عطا، وعبد العظيم باشا داود. وشدّ ما حزنت راضية، وكانت تتذكّر حال ابنتها وتناجي ربّها قائلة:

ـ رحمتك يا رحمٰن يا رحيم.

وكان سرور أفندي يحنق عليها في باطنه ويتّهمها بأنّها كانت السبب في عدم اختيار إحدى كريمتيه لأحد أبنائها، فراح يشنّع بها كعادته في ذٰلك ويقول لزينب زوجته:

ـ كلّ ذٰلك موروث عن أسرتها فما من رجل بها أو امرأة إلّا وبه مسّ من الجنون، وهي في مقدّمة الجميع...

بليغ معاوية القليوبي

هو آخر عنقود الشيخ معاوية القليوبي، وشقيق راضية زوجة عمرو أفندي، وقد ولد في بيت الشيخ بسوق الزلط بباب الشعريّة، ولعلّه المولود الوحيد الذي أنجبه الشيخ بعد خروجه من السجن. ونشأ من صغره نشأة دينيّة، وألحقه أبوه بالأزهر في سنّ مبكّرة. ويزور شقيقته في بيت القاضي فيلفت الأنظار بشبابه وجبّته وقفطانه وعمامته، ويحدث في أسرة راضية إثارة تجمع بين الاحترام والفكاهة معًا، وهو بطبعه يشبع الناحيتين، فيرتّل القرآن بصوت جيّد استجابة لأخته، ويداعب البنات والصبيان بالمِلَح. وكان ذا وجه قمحيّ مستدير جذّاب الملامح، ولا يخفي حبّه للطعام اللذيذ، وخبرته بصنوفه لا تقلّ عن خبرته بالدين الذي يَدرسه. وتقول له راضية بلسانها اللاذع:

ـ الأصلح أن تكون طبّاخًا من أن تكون عالِـمًا من علماء الدين كأبيك...

فيقهقه قائلًا:

ـ أنا رجل حائر بين أب عالِم وأخت مؤاخية للعفاريت...

في ذلك الوقت كان الشيخ معاوية قد انتقل إلى جوار ربّه، وقد تمّت خطبة راضية على يديه.ولكنّه لم يشهد دخلتها. وعقب وفاته لم تجد غرائز بليغ من يكبحها. وفي جلسة جمعت راضية مع جليلة أمّها العجوز فوق الكنبة، في مدخل البيت الذي يتصدّره الفرن وتقع البئر في جناحه الأيسر، في جلسة حزينة لاحظت راضية أنّ أمّها غارقة في بحر من الغمّ على غير عادة، ولـمّا سألتها عمّا بها قالت:

ـ أتصدّقين يا راضية؟... أخوك الشيخ الأزهريّ بات يرجع كلّ ليلة سكران فاقد الوعي؟

وفزعت راضية وهتفت:

ـ أعوذ بالله...

ـ أنا.. أمامه بلا حول...

ووجدت راضية نفسها أعجز من أمّها حياله... واستعانت بعمرو أفندي ولكنّ بليغ كان يتظاهر بالندم ويتمادى في ضلاله. وأثار فيها حوله استهجانًا عامًّا وسخطًا متصاعدًا، فترامت الأنباء إلى إدارة الأزهر، وانتهى الأمر بفصله وطرده بدون أن يحصل على العالميّة. وجد نفسه ضائعًا وبلا مورد. وكانت أمّه تملك قطعة أرض فضاء فنزلت له عنها فباعها، وقرّر أن يستثمرها في بقالة الجملة. وسافر إلى أهل أبيه في قليوب وراح يشتري الجبن والسمن، ويحملها إلى القاهرة ليوزّعها على البقّالين. وقامت الحرب العظمى الأولى فأثرى ثراءً مذكورًا وتحسّنت أحواله. ومن يومها أخذ نجمه في التألّق والصعود. وفي تلك الفترة تزوّج من أمينة الفنجري. أسرة ذات مال واحترام. ولـمّا قامت الحرب العظمى الثانية بلغ غايته من الثراء، فشيّد العمائر، وبنى لنفسه سرايا في القبيسي عرفت في الحيّ «بعابدين القبيسي» لعظمتها وفخامتها. ولم ينجب إلّا ولدًا واحدًا رآه من كبار القضاة. وأثبت أنّه تاجر ماهر، ولكنّه لم يتخلّ عن الداء الذي طُرد من أجله من الأزهر حتّى آخر عمره. وكان يزور بيت القاضي في الحنطور تارة أو السيّارة فيما بعد، محمّلًا بالهدايا، مشيعًا في الخلق الأثر الذي يتابعه خفية بسرور لا مزيد عليه. وكان يحافظ على صلاته وصومه وزكاته محافظته على كأسه، ويثابر على الاستغفار مثابرته على الغرور والفخار. وقد امتدّ به العمر حتّى مشارف الخمسينات، بعد أن رحل أحمد عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا وجليلة أمّه وأخواته نهيرة وشهيرة وصديقة فلم يبقَ بعد إلّا أخته الكبرى راضية مؤاخية العفاريت. وقد أصيب بتلف الكبد، ولازم الفراش الوثير نصف عام ثمّ فارق الحياة وهو نائم، أو هٰكذا خيّل لزوجته أمينة الفنجري.

بهيجة سرور عزيز

شهد ميدان بيت القاضي ملاعب طفولتها مع أخيها لبيب وأختها جميلة، ومنذ نشأتها خالطت بنات وأبناء عمّها عمرو. وجمع الطبع الهادئ بينها وبين أخيها

الأكبر لبيب وابنة عمّها سميرة، وإن ماثلت في العمر ابن عمّها قاسم. تبدّى وجهها في هالة بيضاء كأمّها ستّ زينب مشرّبة بحمرة. صافية العينين الخضراوين، في صوتها دسامة تذكّر بصوت والدها سرور أفندي. وفي سجيّتها رزانة فطريّة جرت عليها تهمة ظالمة بثقل الدم، ومحافظة على التقاليد وتديّن حصّناها ضدّ عبث الصبا. واكتفى في تعليمها بالكتّاب كبنات عمّها وأختها جميلة. وتفرّغت مثلهنّ لفنّ البيت من طهي وحياكة وما يجري مجراهما، وأخذت موضعها منذ وقت مبكّر في محطّة الانتظار التقليديّة، انتظار ابن الحلال. ولعلّ أنسب أحد لها من الأسرة كان حامد ابن عمّها، ولْكنّ آل عطا المراكيبي استولوا عليه بوضع اليد ممّا أثار أشجان سرور أفندي وزوجته زينب هانم. وكانا قد مرّا بالتجربة نفسها عندما راودتها الأحلام في زواج عامر من جميلة. وعلى ذٰلك قال سرور لشقيقه عمرو:

- ألم تفكّر في بهيجة قبل أن تهدي حامد لمحمود المراكيبي؟

فقال له عمرو:

- نحن يا سرور فقراء على باب الله ونبحث لطيورنا عن ريش، وابنتك جميلة والحمد لله ولن يطول انتظارها...

من أجل ذٰلك تناقضت عواطف سرور حيال شقيقه الأكبر بين الحبّ والمرارة، كعواطفه حيال أهله جميعًا ممّا أطلق لسانه فيهم كالخنجر بلا رحمة، وممّا أنزله في النهاية من قلوبهم منزلة لا تقارن بحال بالمنزلة التي حظي بها أخوه عمرو. وغضبت زينب زوجته لذٰلك الجواب الناعم المحبط الذي يلطمهم به للمرّة الثانية، وقالت بسخط شديد رغم أنّها لم تخرج عن برودها السطحيّ:

- أنا أعرف السرّ وراء ذٰلك كلّه!

فقال سرور:

- المسألة أنّ أخي شديد الشعور بضعته بين أقاربه الأغنياء. ويتحرّق دائمًا على التعلّق بفروعهم العالية...

- ولا تنسى راضية ربيبة الجان والسحر أنّها تغار منّي وتضنّ عليّ بالخير.

لم تكترث بهيجة لضياع حامد... كانت تنفر من خشونته وابتذاله. في الوقت نفسه راقبت بازدراء شديد العبث الفاضح الذي تمارسه أختها جميلة مع ابن عمّها قاسم. كانت أختها ابنة ستّ عشرة وابن عمّها في الثانية عشرة أو يزيد قليلًا، فما هٰذا الذي تضبطه أحيانًا فوق السطح أو تحت بئر السلّم؟!. الأخلاق تأباه والدين يتوعّده وهي تكتمه خوف العواقب. ولـمّا خطبت جميلة وعقلت وجدت نفسها تفكّر في قاسم بدورها. لم تكن كأختها النزقة المجنونة. خفق قلبها بعاطفة رقيقة ولْكن داخل قفص ذي قضبان صلبة من الحياء والتقاليد. وقد انتبه الفتى لها وقرأ في عينيها الصافيتين النداء الصامت، وسرعان ما لبّى مفعمًا بالشهوة والأمل في أن يواصل معها العبث الذي انقطع بضياع جميلة. ولْكنّه وجد قلبًا محبًّا وإرادة من فولاذ. وحامَ حولها كالمجنون حتّى قالت لها أمّها:

- إنّه من سنّك فلا يصلح لك.

لم تعترض ولْكنّها لم توافق فقالت الأمّ:

- أمامه مرحلة طويلة ولا تنسي أمّه...

وشعرت بالتعاسة. ولمّا ألمّ بالفتى ما ألمّ فاعتبر مفقودًا غرقت في التعاسة حتّى قمّة رأسها. ولم ترَ بدًّا من العودة إلى... محطّة الانتظار. ولْكنّ انتظارها طال دون سبب حتّى وضعتها ألسنة الأسرة في سلّة واحدة مع دنانير بنت عمّتها رشوانة. البنت جميلة ومثال كريم للأخلاق الفاضلة، فلِمَ صدّ عنها الخطّاب؟!. وطال الانتظار وانكسار القلب حتّى توفّي عمّها عمرو وأبوها سرور وأمّها زينب.

وجاء عام ١٩٤١ وهي وحيدة في بيتهم القديم المجاور لبيت عمّها في بيت القاضي، تعاونها أمّ سيّد، وينزل بها أخوها لبيب كالضيف الذي أقصاه عمله عن القاهرة. وجعلت تقترب من الثلاثين وهي تمضغ اليأس ليل نهار، وليس لها من الدنيا إلّا نصيبها من معاش أبيها. وفجأة - وكأنّما بوحي - انتبه لها الشيخ قاسم من جديد وقال لأمّه:

- أريد أن أتزوّج من بهيجة!

واعتبرت راضية الطلب كرامة من كراماته، وأمرًا تنزّل يحيط به الغمام، فحدّثت لبيب في أوّل زيارة. ففكّر الرجل طويلًا. ابن عمّه لا ينقصه المال

ولٰكن. . . ؟!. وعرض الأمر على أخته فتلقّى الموافقة. أهو اليأس؟ أهو الحبّ القديم؟. . . أهو الخوف من الوحدة؟. . .

وتمّ الزواج الذي تندّرت به الأسرة طويلًا في ليلة تعرّضت فيها القاهرة لغارة جوّيّة طويلة وزلزلت أركانها بدويّ المدافع المضادّة. . .

وانتقلت بهيجة إلى بيت عمّها، لأنّ قاسم أمر بألّا يغادر بيته. ومضت أعوام دون أن تنجب ولٰكنّ قاسم طمأنها قائلًا:

ـ سوف تنجبين ذكرًا عندما يرضى القمر. . .

وقد أنجبته في عام ١٩٤٥ وأسماه أبوه النقشبندي. بدأ حياته التعليميّة عقب قيام ثورة يوليو، وثمل طوال عهد دراسته بالعظمة والمجد، وحظي بوجه مشرق وقوام رشيق وذكاء لمّاح، وتخرّج مهندسًا عام ١٩٦٧. وتقرّر إرساله في بعثة، ودعت له راضية وهي في قمّة شيخوختها، وقال له أبوه:

ـ الله معك، إنّي أودّعك بلا دموع. . .

وسافر النقشبندي إلى ألمانيا بعد مضيّ أشهر على ٥ يونيه، مهيض الجناح حزين الفؤاد، وعلم هناك بموت الزعيم فلم يحزن، ولـمّا حصل على الدكتوراه عدل نهائيًّا عن العودة إلى مصر، وعمل في ألمانيا وتزوّج من ألمانيّة ثمّ تجنّس بالجنسيّة الألمانيّة. ولـمّا علم أبوه بذٰلك قال مرّة أخرى:

ـ الله مَعَك، إنّي أودّعك بلا دموع. . .

وبعد رحيل راضية بقي قاسم وبهيجة في البيت القديم وراء شجرة البلخ التي شهدت حبّهما القديم، وما زال قلباهما ينبضان بالحبّ والعزلة. . .

حرف الجيم

جليلة مرسي الطرابيشي

ولدت في أواخر الربع الأوّل من القرن التاسع عشر في باب الشعريّة لأب كان يعمل في مصنع الطرابيش الذي أنشأه محمّد عليّ فيما أنشأ من مصانع. وكان الأب قريبًا للشيخ القليوبي وغير بعيد من بيته بسوق الزلط، فخطب ابنته جليلة لابنه الشيخ معاوية الذي بدأ حياته في ذٰلك الوقت كمدرّس مبتدئ بالأزهر الشريف. هٰكذا صارت ربّة البيت القديم بسوق الزلط وعرفت في الحيّ بجليلة الطرابيشيّة. وكانت ذات قامة طويلة، جعلتها تنظر إلى الشيخ مِن عَلُ ـ الأمر الذي لم يغفره لها أبدًا ـ سمراء رشيقة ذات جبهة عالية وعينين بنّيّتين نجلاوين. وقد أنجبت له مع الأعوام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ. وعرفت بأنّها موسوعة في الغيبيّات والكرامات والطبّ الشعبيّ، وكأنّما أخذت من كلّ ملّة بطرف بدءًا من العصر الفرعونيّ، ومرورًا بالعصور الوسطى. وحاول الشيخ معاوية ما استطاع أن يلقّنها أصول دينها ولٰكنّه من خلال المعاشرة الطويلة أخذ منها أكثر ممّا أعطاها. فكان يطاوعها «حين المرض» وكلّما دهمه خطب من خطوب الحياة، يسلّمها رأسه لترقيه، أو يستسلم لبخورها، أو يردّد وراءها بعض التعاويذ. وكانت صلبة، عنيفة إذا لزم الأمر، فكانت الجارات يعملن لها ألف حساب، وقد لقّنت بناتها جميع ما لها من علم وخبرة، فاستجبن لها بدرجات متفاوتة، وبرعت راضية في استيعاب ميراثها أكثر من الجميع وحظيت بحبّها أكثر من أيّ من ذرّيّتها بما فيهم الابن بليغ. وكلّما أراد الشيخ معاوية التسلّط عليها صمدت له بصلابة، حتّى التهديد بالطلاق لا يخيفها. ولم تغب عنه قوّة أخلاقها ومهارتها المنزليّة الفائقة، فتراجع راضيًا بالمهادنة والمشاركة. وكانت تقدّس معتقداتها لدرجة التفاني والتصلّب، وتجلّى ذٰلك يوم وفاة زوجها الشيخ معاوية في عصر الاحتلال. كانت خطبة راضية لعمرو قد أعلنت عقب اتّفاق جرى بين الشيخ معاوية وعزيز زياد والد عمرو وصديق الشيخ. وعقب الوفاة بساعة واحدة، وصوات ستّ جليلة يذيع الخبر المشئوم، وصل نيشان العروس، أولى هدايا العريس، على غير علم منه بما حدث. وتقبّلت جليلة الهديّة ـ سمكة في حجم ابنها بليغ ـ ونفحت حامليها بما قسم. وانقبض قلبها لمجيء النيشان وسط هدير الصوات، وأشفقت من عواقب ذٰلك على مستقبل أحبّ ذرّيّتها إليها. ووقفت فوق رأس الشيخ المسجّى بلحافه الأخضر

وناجته من قلبها المكلوم:

- اغفر لي يا معاوية. . .

وهرولت إلى حجرة في الجانب الشرقيّ للبيت تطلّ من بعيد على جامع سيدي الشعراني وهي تقول لنفسها:

- لا يفكّ عقدة النحس إلّا استقبال الهديّة بما يليق.

وجفّفت دموعها ووقفت وراء النافذة وأطلقت زغرودة مجلجلة ترقص على أنغام فرح متدفّق. ورجعت بسرعة إلى حجرة الجثمان وراحت تصوّت من أعماق صدرها. ولم يغب ذلك عن بعض الآذان الماكرة، وتهامسن به، ثمّ تندّرن به على مدى العمر وتنوقل كشهادة حيّة على غرابة أطوار المرأة المثيرة، التي جمعت بين التقوى والحبّ والجنون. ولكن لم ينل خطْب من بنيانها المتين ما ناله رحيل زوجها، حزنت عليه بالطول والعرض ولبثت تلهج بمآثره الحقيقيّة والخياليّة طيلة عمرها الطويل. فقد عمّرت حتّى جاوزت المئة. . .بعشرة أعوام، عاصرت فيها فترة من حكم محمّد عليّ وعهود إبراهيم وعبّاس وسعيد وإسماعيل وتوفيق والثورة العرّابيّة وثورة ١٩١٩. ولم يرسب في أعماقها زمن كالثورة العرّابيّة التي اعتبرت زوجها من أهمّ رجالها، وما أكثر ما روت من بطولاته وسجنه لأحفادها، وذهب بها الخيال في ذلك كلّ مذهب حتّى ليخيّل للسامع من أبناء وبنات راضية أنّ الشيخ معاوية هو الذي عرّب محمّد عليّ، وهو الذي اعتمد عليه عرّابي بعد الله، واختلطت صورة عرّابي في راسها بعنترة والهلاليّ وآل البيت إكرامًا قبل كلّ شيء لذكرى الشيخ معاوية. ولم تسعد بذرّيّتها بسوى راضية وأبنائها. وحظي عمرو برضاها، وإن لم تزر بيت القاضي إلّا مرّات معدودات بسبب طعونها في السنّ، أمّا شهيرة وصديقة وبليغ فقد تركن في قلبها جراحًا لا تلتئم. أنّت تقول لبليغ وهو ملقى مخمورًا على كنبة المدخل:

- أنت سكّير عاصٍ وعارٌ على زيّك الشريف. .

ولـمّا أورقت شجرته وصار تاجرًا مرموقًا قالت له:

- وهبك الله الثروة ليمتحنك فاحذر امتحانه. . .

وكان بليغ يحبّها ويشكّ في سلامة عقلها، وقد رجعت شهيرة إلى بيتها طريدة فملأته قططًا، أمّا صديقة فوا أسفي عليك يا صديقة. . .

وكان قاسم أحبّ الأحفاد إلى قلبها. يغمرها بقبلاته، وينصت لحكاياتها، ويصدّقها بقلبه وحواسّه، ولـمّا حصل ما حصل، لم تجزع وقالت لراضية:

- أبشري، ربّنا وهبك وليًّا. . .

وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمرها ـ نهاية الربع الأوّل من القرن وعند مشارف الثلاثينات ـ أقعدها الكبر، وسدّت المنافذ بينها وبين الوجود ففقدت السمع والبصر، وبقي لها الوعي فكانت تعرف الأحباب بأناملها، وقامت شهيرة بخدمتها ما استطاعت حتّى ضاقت بها، وكانت أحنّ على القطط منها على أمّها. وكانت تشكوها إلى راضية كلّما قامت بزيارة لها، فتعاقب راضية شقيقتها وتذكّرها بوصيّة الرسول بالأمّ فتقول شهيرة:

- ما أسهل الوعظ، ولكنّك تعيشين مكرّمة في بيتك وتُلقين عليّ وحدي تنفيذ الوصيّة!

وفي إحدى الزيارات وجدت راضية المدخل يموج بالقطط، تموء وتتداخل بأسلوب وحشيّ ينذر بالدهشة، ورأت جليلة ملقاة على الكنبة مسلمة الروح، وكانت شهيرة نائمة في الدور الأعلى. . .

جَميلة سرُور عَزيز

لم يرَ ميدان بيت القاضي وأشجاره المثقلة بأزهار «ذقن الباشا» أجمل منها إلّا تكن مطريّة ابنة عمّها عمرو. وهبتها أمّها بشرتها العاجيّة وعينيها الخضراوين النجلاوين، وفاقت أمّها بفيها الأنيق كالقرنفلة وجسمها المدمج. وبخلاف أمّها كانت تموج بالحيويّة والخفّة واستمدّت من غرائز أبيها لفحات حارّة خضّبت وجنتيها بماء الورد الأحمر. وسبقت زمنها لا بالتعليم، فلم يجاوز نصيبها منه محو الأمّيّة كأختها وبنات عمّها، ولكنّه بالتحرّر التلقائيّ المنطلق بقوّة نضج مبكّر ونداء الأشواق المبهمة، فتلوح في النافذة لتسقي أصيص الورد، أو تخطر بنصف نقاب فيما بين بيتها وبيت عمّها

المجاور، أو تلاقي النظرات الجائعة بدلال متمرّد. في طفولتها كانت تجول في الميدان بصحبة أخيها الأكبر لبيب، وانضمّ إليهما بعد سنوات قاسم. كانت تكبر قاسمًا بسنوات ولـمّا ناهـزت الحلم لم تجد سـواه لعبة لقلبها المتحفّز. وكلّما خلت به لاعبته لتوقظه من براءته فتبعها في حيرة ثملة ممتعة كرؤيـة جمال الفجـر لأوّل مرّة، ولمس بأنامله المتشنّجة جواهر حالَ الجهل بينه وبين معرفة قيمتها. ولـمّا قارب الثالثة عشرة سقط في الشهد قبل الأوان. وتفتّح على راحتها الناعمة المخضّبة بالحنّاء كالوردة وأخلد بكلّ عذوبة إلى نفثات صدرها المضطرم، وبسبب من تلك الرعونة تصدّى لها أخوها أمير، وعنّفها حتّى ضاقت به وبكت. وقالت له أمّه:

- تذكّر أنّك أخوها الصغير...

فقال لها:

- سمعتنا!

فقالت زينب بهدوئها الذي لا تخرج عنه:

- إنّي أعرف بنتي تمامًا وهي مثال للأدب...

ولمّا جاوز أمير حدوده قال له سرور أفندي:

- دعِ الأمر لي...

وكان سرور أفندي يميل إلى التسامح المعتدل، وكان في ذلك الوقت يتساءل عمّا جعل عامر ابن أخيه عمرو يميل إلى عفّت بنت عبد العظيم داود دون جميلة بنت عمّه. ويقول لزوجته:

- الله يخيّبه. أليست بنتنا أجمل؟

فتقول زينب ساخرة:

- أليس هو ابن راضية المجنونة؟!

ويقول سرور بمرارة:

- أخي يزعم أنّه من أهل الطريق، ولكنّ رغبته في القرب من أهله الأغنياء تفوق رغبته في القـرب من الله!

والحقّ أنّ جميلة أخافت الأسر المحافظة من الجيران فـأحجمت عنها رغم جمـالها، حتّى قيّض لهـا حظّهـا ضـابط شرطة جـديدًا بقسم الجـماليّة يـدعى إبراهيم الأسواني. كان ممشوق القوام طويله غامق السمـرة، رآها فأعجبته، ووجد سمعة البنت طيّبة، فخطبها بلا تردّد. وما يدري قاسم إلّا وفاتنته ومعلّمته تتغيّر بين يوم وليلة كتفّاحة اجتاحها العطب. اختفت وحلّ بها وقـار، لا يحلّ إلّا مـع الزمن الـطويـل، وزفّت إلى العـريس في مسكنه بـدرب الجماميـز في حفل أحيتـه الصرّافيّة والمطرب أنور. وما لبثت الأسرة الجديدة أن غادرت القاهرة بحكم عمل الـزوج، فمضت أعوام وأعوام وهي تشرّق وتغرّب دون إنجـاب، وبعد أن مات سرور أفندي قبل أن يرى أحفاده من جميلة. وفي أثناء ذلك حصلت لإبراهيم الأسواني أمور. فقد كان وفديًّا، وافتضحت عواطفه في تراخيه بالقيام بواجبه في عهود الديكتاتوريّات، حتّى انتهى الأمر بفصله. وكان قد ورث عشرين فدّانًـا فرحـل بأسرتـه إلى أسوان، وانضمّ إلى الـوفـد جهـرًا، وانتخب عضـوًا بمجلس النوّاب، وثبّت عضوًا دائمًا بالهيئة الوفـديّة. وأنجبت جميلة بعد العلاج من عقمها خمسة ذكور عاش منهم سرور ومحمّد، وكان الزواج قد حوّلها من الرعونة إلى رزانة عجيبة وجدّيّة فائقة وأمومة سخيّة، وكأنّها قـد تمادت في بدانتها إلى درجة يضرب بها المثل. ولم يكن إبراهيم الأسواني يخلو من انفعـالات وأحوال ولكنّهـا كـانت كـالمحيط الـذي يستقبـل الأمـواج العـاليـة والعواصف الهادرة ثمّ يهضمها في صبر وأناة كي يعود إلى هدوئه الشامل وسيادته الكاملة. فهٰذا يصدّق أنّها هي التي نصحت أمانة بنت مطريّة مرّة فقالت لها:

- على الزوجة أن تكون مروّضة للوحوش!

ولـمّا قامت ثورة يـوليو أيقن إبـراهيم الأسواني أنّ حياته السياسيّة قد انتهت، فاعتزل في أرضه وتفـرّغ للزراعة، وكان ابناه سرور ومحمّد قد صارا ضابطين طيّارين، وانقرضت هٰذه الأسرة بقضاء لا رادّ له. أمّا إبراهيم الأسواني فقد قُتِل في تصادم بين قطارين عام ١٩٥٥. كـان في الخـامسـة والخمسـين وجميلة في الخمسين. وأصيبت طائرة سرور في حـرب ١٩٥٦ ولقي مصرعه، ولحق به أخوه محمّد في حرب ١٩٦٧، وأنقذت جميلة من الوحدة والأحزان عام ١٩٧٠ فماتت بسرطان المعدة وهي في الثالثة والستّين من عمرهـا. وكانت حين وفاتها كأنّها مقطوعة من شجرة لا أهـل لها.

حرف الحاء

حَازم سرُور عَزيز

من أيّامه الأولى نشأ عزوفًا متوحّدًا يقف أمام بيته مبتعدًا عن إخوتـه وأبناء عمّـه يتفرّج عـلى الـرائـح والغادي بين حارات الميدان. لم يدخل بيت عمّه عمرو مرّة واحدة، وكان عمرو يقول لسرور ضاحكًا:

ـ ابنك حازم عدوّ للبشر. . .

وكـان وسيمًا كـأمّه، قصـيرًا كبهيجـة، وفي عينـه اليسرى ضعف طبيعيّ بلغ بها العمى، ولم يُرَ ضاحكًا أو منفعلًا قطّ. وتجلّت نجابتـه منذ كـان في الكتّاب فاوشك أن يعيد سيرة أخيه الأكبر لبيب، وانحصر في ذاته فلم يعرف هدفًا في الحياة سوى النجاح والتفوّق، وجهـل وجـوده جميـع أهله من آل عـطا وآل داود. ولتفوّقه لم يكلّف أباه مليمًا في تعليمه، حتّى الهندسة دخلها بالمجّان بكلّ جدارة. وتبيّن لأخيـه أمير أنّه لا يعرف اسم رئيس الوزراء ولا ينظر في الصحف ولا تصل إلى وجدانه أيّ موجة من بحر الأحـداث التي يضطرب بها الوطن. وسأله:

ـ أتظنّ الدنيا مذاكرة فحسب؟!

ولكن لم يكن بوسع أحد أن يجرّه إلى مناقشة على الإطلاق. ولـمّا رحل أمير ضحيّة لجهاده ذهل وصمت ووجم ولم ينبس بكلمة ولم يذرف دمعة، وسرعان ما واصل حياته وتخرّج مهندسًا في عام ١٩٣٨، ولم يتّجه نحو الحكومة بسبب عجزه، ولكنّه وجد وظيفة أفضل في شركة مقاولات الدكتور محمّد سلامـة الذي كـان أستاذًا له في المدرسة. كان الدكتور المهندس يعجب به ويحبّه ويرى فيه مثالًا للذكاء والعمل والبعد عمّا يثير المتاعب. وكان يزور أستاذه في فيلّته بالـدقّي لإنجاز بعض الأعمال، وهناك عرف كريمته سميحة. كانت على درجة من الجمال مقبـولة ولكنّها كانت كـريمة مـديره وأستاذه وهو الأهمّ. ولم يغب عن فـطنته أنّ البـك يشجّع تعارفهما، وأدهشه ذلك لما يعرفه الـرجل من بساطة أصله وفقره. وركبه الغرور حينًا من الدهر، إلى أن تمّ الزواج وأقام في شقّة بعمارة يملكها الدكتور المهندس وحسب أنّه ملك العالمين. هناك وضحت له الحقيقة وجابهته بوجه منذر بالخطر، بأنّ العروس ذات جهاز عصبيّ لا يخلو من خلل، وسرعان ما أسفرت عن طبيعـة لا يمكن مداراتهـا. كانت عـاصفة تهيـج وتنتشر لأوهى الأسباب. وربّما بلا سبب ألبتّة. وكان قد خلق بجهاز مانع للصواعق فطريّ اقتبسه من ستّ زينب أمّه، وكان يعيش برأسه لا بقلبه، فقال لنفسه وهـو ملتفّ بالـروب الحريـريّ الكحـليّ وغـائص في الفوتيل بحجرة المعيشة:

ـ ليكن، فهي زيجة على أيّ حال عادلة . . .

ضمنت له مستقبلًا يعزّ عن الأحلام، وهـو يملك من الذكاء والهمّة ما يجعله قادرًا على استثماره على خير ما يمكن أن يكون، ولو كانت سميحة عروسًا كاملة أو حتّى عاديّة لاستحقّت زوجًا من طبقتها في درجة عالية أو في السلك السياسيّ، ولقد أهداها أبوها إليه بعد تفكير وتدبّر وعليه أن يقبل الهديّة بتفكير وتدبّر كذلك، وقال لنفسه أيضًا:

ـ إن تكن مريضة فأنا الطبيب!

وقد كان.

وتتابعت وفيّات آل سرور وعمرو الهامّة قبيل الحرب العظمى الثانية، وفي أثنائهـا بدأت بـرحيل عمـرو، فسرور، ثمّ زينب. وكـانت سميحـة قـد ضـاقت بزيارات أمّه وأبيه وإخوته فقرّرت في لحظة جنون ألّا تشارك في العزاء! ونظر إليها بتوسّل وقال:

ـ ولكن. . .

وضمّن لهجتـه كلّ المعـاني المطلوبـة ولكنّها قـالت بحدّة:

ـ لن أذهب إلى ذلك الميدان المليء بالحشرات، ولا أحبّ أن يجيئني أحد منه. . .

ولم يغضب ولم ينبئ وجهه عن شيء، وسرعان ما انقطعت العلاقة بينه وبين أهله. اندمج في أهلها كظلّ لها ونسي أصله. غير أنّ طاعته العمياء لم تكفل لـه السلامة. فعلى أثر سهرة في شقّته شهدتها حماته وأختها وبعض الأقارب، قالت له لـمّا انفردا بنفسيهما:

ـ لم تعجبني، غلب عليـك الصمت، وبـدرت

كلماتك القليلة بلا معنى... !

فقال معتذرًا وبأسلوب غاية في الأدب والرقّة:

ـ الكلام الكثير يوجع رأسي، ولم يجرِ ذكر لأيّ موضوع هامّ...

فصرخت:

ـ إن لم يكن الكلام في الهندسة يصبح لغوًا... ؟

فلاطفها بابتسامة وإذا بها تثور وتهدر بأقسى الألفاظ ثمّ تقبض على فازة ثمينة وتقذف بها الجدار فتتحطّم وينهال حطامها على غطاء الكنبة المطرّز بالكانافاة. ونظر إليها باسمًا مشفقًا ثمّ قال بحنان:

ـ لا شيء في الوجود يستحقّ أن تجشّمي نفسك من أجله هٰذا الغضب كلّه... ولٰكنّ الشقّة شهدت أيضًا العناق والأبوّة والأمومة، وقد أنجبت له حسني وأدهم، وعلا مركزه بثبات وجدارة في الشركة، وزاد اعتماد محمّد بك سلامة عليه مع الأيّام حتّى حلّ محلّه ـ بعد وفاته ـ نيابة عن سميحة، وشارك في رأس المال بمدّخراته، وازدهرت الشركة في عهده أكثر من ازدهارها الأوّل، وشيّد حازم فيلّا في الدقّي انتقلت الأسرة إليها، وقد هضم نزواتها جميعًا ببطولة خارقة، ولٰكنّ بعض النزوات بدت عسيرة في هضمها. مثال ذٰلك أنّ محمّد بك سلامة كان عضوًا في الهيئة الوفديّة، على حين أنّ حصيلة حازم من السياسة كانت صفرًا، ولٰكنّه بإزاء حماسها أعلن في البيت على الأقلّ وفديّته. وهي لم تقنع بالإعلان البارد، فرجع يومًا إلى شقّته فرأى صورة النحّاس معلّقة مكان صورة سرور أفندي أبيه. نظر واجمًا دون أن يجرؤ على إبداء أيّ ملاحظة فقالت:

ـ إنّي أتشاءم من صور الأموات، وهٰذه صورة زعيم الأمّة... ولم يبدِ أيّ ملاحظة حتّى بعد أن رحل محمّد بك سلامة والنحّاس وظلّت صورتاهما بمكانهما! ويوم انتقلت الأسرة إلى الفيلّا الجديدة ضحكت ضحكتها العالية وقالت:

ـ احمد ربّنا يا غبيّ، رفعناك من الحضيض إلى القمّة...

فقال باستسلام:

ـ الحمد لله على كلّ شيء...

فقالت مقطّبة:

ـ ولا تنسَ نصيبي من الشكر...

فقال ببروده المعهود:

ـ أنت الخير والبركة...

ولمّا قامت ثورة يوليو خاف أن تكون وفديّته المزعومة قد جاوزت جدران مسكنه ولٰكنّه لم يتعرّض لسوء، ودأب على مدح الثورة في شركته، والحملة عليها في بيته مجاراة لسميحة، وهو يقلّب عينيه فيما حوله مستعيذًا بالله. ولدى كلّ مناسبة تقول بحنق:

ـ هل سمعتم عن بلد تحكمه مجموعة من الكونستبلات؟!

فيهمس في أذنها بتدخّل:

ـ احذري الخدم... والجدران... والهواء...

وشدّ ما فرحت بالعدوان الثلاثيّ وشدّ ما خابت آمالها. وفي ٥ يونيه أغلقت على نفسها حجرتها وراحت ترقص، وساعة بلغها نبأ وفاة الزعيم زغردت حتّى هبّ حازم واقفًا وهو يصرخ لأوّل مرّة:

ـ أنا في عرضك!

وكانت الشركة قد أُمّمت، ولٰكنّ سائر مقتنيات الأسرة لم تمسّ، وفي عهد السادات بلغ حازم ذروته الحقيقيّة، وفتح مكتبًا هندسيًّا وبات في عداد أصحاب الملايين. وقالت سميحة عن الزعيم الجديد:

ـ حقيقة أنّ وجهه أسود ولٰكنّ قلبه أبيض...

ولٰكن لعلّ هزيمة سميحة على يد ابنها حسني فاقت هزيمتها السياسيّة ضراوة. من بادئ الأمر أرادت أن تسيطر على الذرّيّة كما سيطرت على الأب ولٰكنّها سجّلت خيبة كاملة. أمّا حسني فقد حطّم السدود والقيود، أمّا أدهم فلم يخيّب أحلامها بعد أن صنع حياته بقراره المستقلّ عن الجميع. ولم تجد سميحة مَن تصبّ عليه غضبها سوى حازم فقالت له باحتقار:

ـ لولا ضعفك وغباؤك لما كان ما كان...

وسقطت في كبرها فريسة للاكتئاب حتّى اضطرّت إلى قضاء شهر في مصحّة أعصاب بحلوان. وبقي حازم صامدًا رغم إصابته بالسكّر، بل لعلّه تكيّف تمامًا مع معاشرة المرأة المريضة. أجل شدّ ما تمنّى موتها فترة طويلة من عمره خاصّة بعد وفاة حميّه. كانت

تراوده أحلام غريبة، فيراها مرّة ضحيّة حادث للسيّارة، أو مرض عضال، أو غريقة في البحر الأبيض، أو. . . أو. . .

ولكنّه كفّ عن أحلامه، واستوحش البيت حين إقامتها بالمصحّة، واعتبر نفسه قد حقّق حلمه الأبديّ في النجاح والثراء. . .

حامد عمرو عزيز

منذ نشأته الأولى بدأ نبتًا شاذًّا في أرض أسرته. ولعلّ عمرو أفندي لم يتعب في تربية أحد من ذرّيّته كما تعب في تربيته، أحبّ اللعب والعراك واكتسب ثروة من قاموس أوباش الحواري والأزقّة، وطالما مارس عنفه مع أخواته برغم أنّ ترتيبه كان السادس بينهم. ونتيجة لذلك تعثّرت خطواته في الكتّاب والمدرسة، وكثيرًا ما يرجع إلى البيت القديم ممزّق الجلباب أو دامي الأنف فيتعرّض لمجابهة أخيه الأكبر عامر، ولم يكن يتورّع عن ضربه أحيانًا، بخلاف عمرو أفندي الذي كان يقنع بالزجر والنصيحة والتهديد، وتظلّ راضية من أجله في تعامل متواصل مع الرقى والتعاويذ وتذرّ النذور لأضرحة الأولياء.

وكان يضمر أخبث النوايا لبنات الأقارب مثل جميلة وبهيجة ابنتي عمّه، ودنانير بنت عمّته رشوانة، لولا سوء سمعته الذي حمل الأمّهات على الحذر منه. وامتاز أيضًا بين آله بضخامة في الجسم وكبر ووضوح في القسمات أضفت عليه حال رجولة مبكّرة. وكان حلمه الأثير أن يقود عصابة مثل مشاهير الفتوّات الذين يهدمون اللذّات في حيّه العريق. ولـمّا حصل على شهادة الكفاءة بعد أكثر من محاولة نصح محمود عطا المراكيبي والده بأن يختصر الطريق ويُدخله مدرسة الشرطة، قال:

ـ هو الحلّ الذي وجدته لابني حسن.

ورحّب عمرو أفندي بالنصيحة فتعهّد محمود عطا بتذليل العقبات بشفاعته التي لا تُردّ، باعتباره من الأعيان المرموقين. هكذا دخل حامد المدرسة مع حسن ابن خال أبيه في عام واحد. وجاهر محمود برغبته في تزويج حامد من كبرى بناته شكيرة فسرّ عمرو بتلك الرغبة التي توثّق علاقته بآل المراكيبي، كما وثّق ابنه عامر علاقته بآل داود. هيّأ الزواج لفرعه الذابل من أسباب المجد ما لم يكن يحلم به وعزّز موقعه في الشجرة الشامخة فشعر بالرفعة والرضا. وسُرّ حامد أيضًا رغم منظر خطيبته الذي لا يسرّ لطموحه إلى طيّبات الحياة. راضية وحدها امتعضت وقالت:

ـ يا له من اختيار يستحقّ الرثاء. . .

فقال لها عمرو:

ـ احمدي الله يا وليّة. . .

فقالت بحدّة:

ـ الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه!

فقال الرجل برجاء:

ـ البيوت السعيدة تقوم سعادتها على الأصل والأخلاق. . .

فقالت بسخرية:

ـ والمال!. . . آه يا ناري!

وأفضى سرور أفندي باستيائه إلى شقيقه، وراح يفسّر الأمر فيما بينه وبين نفسه برغبة أخيه الجامحة في التعلّق بأذيال أقاربه الأغنياء، وبأنّ محمود عطا اختار بنفسه عريسًا لابنته كحامد لشعوره العميق بتفاهة ابنته، وبأنّه إذا لم يظفر لها بشخص بسيط مكبّل بأفضاله فلن يتقدّم لها إلّا بلطجي ممّن يطمعون في مالها واستغلالها ونهبها. ولـمّا اتّهمت ستّ زينب راضية بأنّها لا تحبّ لهم الخير قال لها سرور:

ـ المسألة أكبر من راضية، إنّها صفقة يبدو حامد في ظاهرها هو الرابح، والحقيقة أنّ الرابح الحقيقيّ هو المراكيبي وابنته التي ما كانت لتجد عريسًا يجبر الخاطر، وأخي رجل طيّب ومغفّل. . .

ولم تُسَرّ واحدة من بنات عمرو، وقالت صدريّة معلّقة على الخبر:

ـ سيتزوّج أخي من رجل كامل الرجولة!

ولـمّا قامت ثورة ١٩١٩ كان حامد في السنة النهائيّة، وقد مال قلبه إليها بمجامعه، واتُّهم بالتحريض على الإضراب، وحوكم، وأُنزل إلى السنة الأولى من

جديد، وكان الجميع يستبقون في بذل التضحيات فلم يحزن عمرو أفندي كثيرًا، وحمد الله على أنّه لم يُفصَل ويُلْقَ به في الطريق. ولـمّا تخرّج ضابطًا، كانت مكانة محمود بك قد ارتفعت بإعلان ولائه للملك، فأمكنه أن يُلحق حامد بالمراكز الرئيسيّة في الداخليّة مع ابنه حسن، وسرعان ما زفّت إليه شكيرة دون مطالبته بأيّ تكاليف فعليّة، فانتقل من البيت القديم ببيت القاضي إلى سراي ميدان خيرت ليحتلّ هو وعروسه جناحًا صغيرًا في الطابق الأوسط الخاصّ بآل محمود.

نقلة ثوريّة بلا شكّ، ربيب الحواري في زواياها الكاسدة يجد نفسه بين يوم وليلة في سراي سامقة، تحيط بها حديقة غنّاء، وتزيّنها التحف والتماثيل والأثاث الفاخر، وتطربها لغة الهوانم الرفيعة بأعذب ألحانها، وتحفل موائدها بأطيب الأطعمة، وتعبق إلى جانب ذلك بمناخ دينيّ مهذّب لا أثر فيه لغيبيّات راضية الخارقة. وجد حامد نفسه في قفص يحرسه رجل جبّار هو محمود عطا المراكيبي وهانم غاية في العذوبة والجمال هي نازلي هانم، أمّا شريكة حياته وقريبته فكادت تكون صورة من أبيها في تكوينه الصلب ونسخة من أمّها في التهذيب والورع. ولم يكن بوسعه أن يغيّر من طبعه، فقد تعامل في صباه مع البلطجيّة وها هو يواصل تعامله معهم كضابط شرطة كلّما تمادوا في انحرافهم! ولم يكن من الممكن أن يولد حبّ في خليّته الصغيرة، وما جرّب في حياته سوى اللذّة العابرة، ومنذ الأسابيع الأولى في حياته الزوجيّة أسفرت طبيعته عن حقيقتها في الكلمة والفعل. أجل لم ينسَ القفص والحارسين، كان يهاب محمود بك أكثر من أبيه، ويقف أمامه كما يقف أمام رؤسائه العظام بالداخليّة، فكبح جماحه، على قدر استطاعته، وروّض نفسه على الرضا بواقعه، ولكنّ العادة قاهرة واللسان خائن. وقد ارتعبت العروس وهمست لأمّها: إنّه غاية في الابتذال، أكله وشربه وحديثه...

وكانت الهانم ستّ بيت بالمعنى الكامل. طالبتها بالحكمة والصبر، وقالت لها:

ـ كلّ ذلك لا يمنع من أن يكون رجلًا صالحًا..

كانت خير وساطة بين الطرفين ولم يدرِ أحد شيئًا عمّا يدور في الجناح الجديد. سرعان ما اعترضت الهانم مشكلة جديدة نشأت عن الكراهية المتبادلة بين راضية وشكيرة. لم تكن راضية تدري كيف تداري عواطفها، وكانت شكيرة لا تمارس النفاق. وكانت المودّة بين نازلي هانم وراضية كاملة، ولكنّها كانت في أعماقها تؤمن بخطورتها، وقالت لابنتها:

ـ حذار، حماتك عليمة بفنون السحر وأسرار الأولياء، وأنا أصدّق ما يقال من أنّها مؤاخية للعفاريت، أعطيها حقّها الكامل من الاحترام والمجاملة...

وكانت تتوسّل إلى راضية قائلة:

ـ من أجل عشرتنا وحبّنا اصفحي عن ابنتي وامسحي أيّ خطأ منها في وجهي...

في خضمّ ذلك الاضطراب أنجبت له وحيدة وصالح وحظيت من حياتها المتوتّرة بشيء من العزاء، رغم أنّها حياة لم تعرف الحبّ ولا السلام، كما أنّ منغّصاتها انحصرت في أضيق الحدود. ولـمّا وقع الشقاق بين الشقيقين محمود وأحمد، وتمزّقت وحدة الأسرة، خشي عمرو أن يجرف ابنه تيّار عداوة لا شأن له بها. وكان عمرو يسعى لإصلاح ذات البَيْن، ويحافظ على علاقته الطيّبة بخاليْه فنصح حامد بأن يلتزم بموقفه هو ـ عمرو ـ وألّا يقطع صلته بأحمد بك، وسعى لدى محمود حتّى انتزع منه موافقته على ذلك، وارتاح حامد لذلك إذ كان يميل في أعماقه إلى خاله أحمد ويؤمن بعدالة مطلبه. وفي الفترة السابقة للحرب العظمى الثانية وما تلاها من أعوام، رحل عن الدنيا أحمد وعمرو ومحمود فشعر حامد بتحرّره من الرقباء، وبلغت علاقته بزوجه الغاية من السوء. وقد أشقى ذلك فيمن أشقى وحيدة وصالح فتمزّقا بين والديهما. أجل كانت شكيرة صاحبة الأثر الأكبر في تربيتهما فنشآ نشأة مهذّبة وعُرفا بالاجتهاد والتديّن، ولم يعفيا والدهما قطّ من الاتّهام وأدانا معاملته الفظّة لأمّهما وإن حافظا ما استطاعا أمامه على الحياد والأدب. ولكنّه تلقّى نجواهما من نظرات عينيهما، وشعر بالغربة والغضب. وظلّ حامد على إيلاء حماته بما تستحقّه من احترام ومجاملة، ولكنّها اضطرّت أن تقول له:

ـ لقد أدميت قلبي بسوء معاملتك لشكيرة. . .

وكان يحقد على شكيرة ويتصوّر أنّها التهمت خير سني حياته بغير حقّ. وتلاحيا مرّة وتبادلا كالعادة كلمات قاسية، وإذا بها تصرخ في وجهه وهي تبكي:

ـ إنّي أكرهك أكثر من الموت. . .

وأقدم على الحلم الذي راوده طويلًا فطلّقها، وقال معتذرًا لقريبه وصديقه وزميله حسن شقيقها:

ـ معذرة، لم أعد أحتمل، وكلّ شيء بمشيئة الله. . .

ولم يعد إلى البيت القديم في بيت القاضي إلّا شهرًا واحدًا. ولخّصت راضية موقفها قائلة:

ـ ما كان يجب أن يتمّ ذلك الزواج، ولكن ما كان يحقّ لك الطلاق إكرامًا لوحيدة وصالح. . .

رغمَ أنّها اتُّهمت في السراي بأنّ سحرها كان وراء الطلاق كما كان وراء فشل الزواج من أوّل يوم.

وانتقل حامد إلى شقّة في عمارة جديدة بشارع المنيل دلّه عليها قريبه حليم بن عبد العظيم باشا داود حيث كان يسكن شقّة أخرى بها. وفي الخمسينات وهو يقترب من الخمسين أعجبته أرملة في الأربعين تدعى عصمت الأورفلي فتزوّج منها وجاء بها إلى شقّته بادئًا حياة جديدة. ووهنت علاقته بوحيدة وصالح وإن لم تنقطع. ولمّا قامت ثورة يوليو أحالته إلى المعاش ضمن ضبّاط الشرطة الذين اعتبرتهم أعداء للشعب، علمًا بأنّه حافظ على وفديّته في قلبه دائمًا، ولكنّ الثورة عدّت الوفديّين أعداء للشعب أيضًا. وانطوى على نفسه حينًا في مسكنه مع عصمت حتّى تبيّن له أنّ حكيم ابن شقيقته سميرة من المقرّبين ومن أصحاب النفوذ، فطلب إليه أن يفعل شيئًا من أجله، وفعلًا تعيّن مدير علاقات عامّة بعمر أفندي بخمسين جنيهًا شهريًّا إلى معاشه. وطابت له الحياة نوعًا ما، ووجد في الزوجة الجديدة امرأة محنّكة تعاملت بمكر حسن مع نزواته وابتذالاته وهيّأت له حياة مستقرّة. . . لا انفصام لها فيها بدا. ولم ينقطع أبدًا عن زيارة البيت القديم والتودّد الصادق لأمّه وأخيه قاسم، وكان يجد في غرابة أطوارهما ما يسرّه ولا يكفّ عن ممازحتها. يترك جبينه لأمّه تلثمه بحنان، ويسلّم رأسه لها لترقيه وتتلو عليه الصمديّة وبعض محفوظاتها من الأوراد، ويسأل أخاه عن الطالع والمستقبل، ثمّ يجول في ربوع الصبا ويزور الحسين قارئًا الفاتحة، وكان ذلك يمثّل الغاية والنهاية في حياته الدينيّة. وكان أيضًا يزور بيوت أخواته وبيت أخيه عامر وآل داود. وفي تلك الفترة من حياته توثّقت علاقته بحليم بن عبد العظيم باشا، وقد جمع بينهما نفس المصير على يد الثورة، كما توثّقت صلته أكثر بابن عمّه لبيب، وكان يشارك الأوّل في تدخين الحشيش وكان يشارك الأخير في السكر، ثمّ يؤاخي بين أرواحهم نقد الثورة والسخرية برجالها وتذكُّر أيّام العزّ الماضية. لم ينغّص عليه صفوه إلّا شعوره المطارد بأنّ وحيدة وصالح لا يكنّان له من الحبّ ربع ما يكنّه لهما منه، وأنّهما يؤثران أمّهما عليه بلا حدود. وشهد بكلّ وجدانه مآسي وطنه، ومآسي أسرته، وشهد أيضًا وثبة أكتوبر ١٩٧٣. وفي العام التالي شعر بضعف، شخّص أوّلًا بأنّه فقر دم، ثمّ عرفت زوجته من نتيجة التحاليل أنّه سرطان دم، وأنّ النهاية واقفة أمام الباب. ولم يدرِ ما أصابه، ونُقل إلى المستشفى وهو يجهله، وشهد ساعاته الأخيرة الممزّقة بنزع الألم زوجته ووحيدة وصالح، وفي اللحظات الأخيرة طلب رؤية راضية ولكن تعذّر ذلك بطبيعة الحال لأنّها من ناحية كانت قد جاوزت المائة، ومن ناحية أخرى لم تعلم بمرض ابنها، وظلّت على جهلها به حتّى وفاتها. وأسلم الرجل الروح بعد عذاب، وودّعته دموع زوجته ووحيدة وصالح. أمّا شكيرة فلم يخفّف الموت من كراهيّتها العميقة له.

حبيبة عمرو عزيز

إن يكن لميدان بيت القاضي والحواري التي تصبّ فيه وأشجار البلخ السامقة أثر في قلوب آل عمرو وآل سرور، إن يكن للمآذن والدراويش والفتوّات والأفراح والمآتم أثر، إن يكن للحكايات والأساطير والعفاريت أثر، فهي حياة تجري مع الدم وتكمن في جذور البسمات والدموع والأحلام في قلب حبيبة ـ الخامسة في ذرّيّة عمرو أفندي ـ لم تطق مغادرة الحيّ على سنوح

الفرص الباهرة، ولم يحبّ الأب أو الأمّ أحد كحبّها لهما، ولا الإخوة ولا الأخوات ولا أبناء العمّ ولا بناته، حتّى الجيران والقطط. بكت كلّ راحل وراحلة حتّى عُرفت بالنائحة، وحفظت الذكريات والعهود، وثملت دائمًا بالماضي وأيّامه الحلوة. كادت في الجمال أن تماثل سميرة لولا سحابة تعلو عينها اليسرى. ووقف حظّها من التعليم عند محو الأمّيّة، وسرعان ما استردّت أمّيّتها لإهمالها. ولم تعرف من الدين إلّا دين أمّها الشعبيّ ولكنّها اقتنعت بأنّ عشق الحسين هو خير وسيلة إلى الآخرة. وفي سنّ السادسة عشرة خطبها مدرّس لغة عربيّة يدعى الشيخ عارف المنياوي من زملاء أخيها عامر وزُفّت إليه في الدرب الأحمر، وبعد عام من حياة سعيدة أنجبت له «نادر»، وبعد عامٍ ثانٍ سقط الرجل في قبضة السرطان ومضى قبل الأوان. وهتفت راضية من قلب مكلوم:

- ما أسوأ حظّك يا ابنتي.

وعاشت حبيبة مع حماتها على دخل دكّانين بالمغربلين، مكرّسة حياتها لوليدها، أرملة دون العشرين من عمرها. وأحبّت نادر حبّ الأمومة المعتاد بالإضافة إلى حبّ قلب كأنّما تخصّص في الحبّ. ولمّا أنهى نادر مرحلة الكتّاب في أوائل الثلاثينات أراد محمود بك عطا أن يزوّجها من عمدة ببني سويف. وقد رحّبت الأسرة بذلك، وكان عليها أن تسلّم نادر إلى عمّه، ولكنّها رفضت بقوّة، أبت أن تسلّم ابنها كما كرهت أن تغادر الحيّ. وقال لها حامد أخوها:

- أنت مجنونة ولا تدرين ماذا تفعلين!

فقالت:

- بل أدري ما أفعل تمامًا...

وحاول عمرو وحاولت راضية ولكنّها لم تعدل عن قرارها. وتخرّج نادر في مدرسة التجارة العليا في أثناء الحرب العظمى الثانية. وتعيّن في مصلحة الضرائب، ولكنّه عُرف من أوّل يوم بطموحه الذي لا حدّ له، وراح يدرس اللغة الإنجليزيّة في أحد المعاهد الخاصّة، وأشفقت أمّه عليه من انهماكه في العمل ما بين المصلحة والمعهد. وتسأله:

- لماذا تكلّف نفسك هذا التعب كلّه...؟

ولكنّه كان راسمًا هدفًا ولم تكن قوّة هناك لتحيد به عنه. أمّا حبيبة فقد توّجت الكهولة حياتها الجافّة فبليت وتبدّت كالعليل. وراقبت صعود ابنها بسعادة، ولم يكن يضنّ عليها بمال، ولكنّها أبت أن تهجر الدرب الأحمر إلى مغانيه الجديدة. ولمّا تركها إلى بيت الزوجيّة غاصت في غربة مخيفة لم تفلت من قبضتها حتّى الموت. وقالت لها راضية:

- نحن نربّيهم لهذا وعليك أن تفرحي وتحمدي الله...

فقالت بانكسار:

- شدّ ما ضحّيت من أجله!

فقالت راضية:

- هكذا كلّ أمّ. وعليك أن تزوري سيدي يحيى بن عقب...

وكانت حبيبة آخر مَن مات من آل عمرو، فبكت الجميع بحرارتها المعروفة حتّى صفت عينيها، ولمّا ماتت لم تجد مَن يبكي عليها...

حسن محمود المراكيبي

نشأ في أحضان النعيم ما بين السراي الكبرى بميدان خيرت وسراي العزبة ببني سويف. وكأنّما جيء بنازلي هانم إلى آل المراكيبي لتحسين النسل، فتجلّى أثرها الطيّب في الذكور، ومنهم حسن الذي عرف بطول قامته ووسامته ومتانة عوده. وبفضل تقاليد تلك الأيّام وسماحة القاهرة على عهدها لم يكن يمرّ أسبوع دون تزاور بين ميدان خيرت وميدان بيت القاضي. وأراد محمود بك أن يوجّه بكريّه لدراسة الزراعة لينتفع به في حينه، ولكنّ إقباله على الدراسة كان فاترًا كقريبه حامد، فأدخلهما الرجل مدرسة الشرطة معًا. وغمرته ثورة ١٩١٩ بعواطفها القويّة وإن لم يتعرّض بسببها للأذى كما حصل لحامد. وسرعان ما شارك أسرته موقفها من زعيم الثورة وولائها للملك. وكان ذلك أوفق لعمله في الداخليّة فلم ينقسم كحامد بين باطن وفديّ وظاهر حكوميّ. وبفضل نفوذ أبيه لم يعرف عناء العمل في الأقاليم، ولم يستجب لرغبة أبيه في

الزواج المبكّر، ولٰكنّه مارس حياة إباحيّة مستغلًّا سحر زيّه الرسميّ الملوّن وما توفّر له من نقود مرتّبه والنفحات التي كانت تكرمه بها أمّه. ولٰكنّه أذعن أخيرًا فتزوّج من عروس تدعى زبيدة من أسرة أمّه. فزفّت إليه في شقّة بجاردن سيتي، وعاش في مستوى يحسده عليه وكيل الداخليّة نفسه. واشتهر في عهود الانقلابات السياسيّة بالعنف في تفريق المظاهرات. وتلقّى حملات متتابعات في الصحف الوفديّة، بقدر ما أساءت إلى سمعته لدى الجماهير فإنّها زكّته خير تزكية عند السراي والإنجليز، وأتاحت له ترقيات استثنائيّة. وقال عمرو أفندي لحامد ابنه:

ـ دخلتها المدرسة في عام واحد وها هو يرقّى إلى رتبة اليوزباشي على حين أنّك ما زلت ملازمًا ثانيًا. . .

وكان سرور أفندي حاضرًا على نفس مائدة الغداء فقال بلسانه الحادّ:

ـ خائن وابن مراكيبي!

ولٰكنّ حامد وحسن كانا صديقين بالإضافة إلى قرابتهما، وتوثّقت العلاقة أكثر بعد زواج حامد من شكيرة. وقد تعرّض حسن للموت في عهد صدقي فأصابت طوبة رأسه وأخرى عنقه، وقضى في المستشفى شهرًا كاملًا. وكان أعنف إخوته على آل عمّه أحمد عندما فرّق الخلاف بين الأخوين. بل قد تصادم مع ابن عمّه عدنان واعتدى عليه بالضرب في السراي فكان يومًا مأساويًا في تاريخ الأسرة. وأنجب حسن ثلاثة من الذكور محمود وشريف وعمر، وضرب بهم المثل في الجمال والذكاء. ولـمّا قامت ثورة يوليو كان لواء. وكان ثريًا جدًّا بما ورثه وما ورثته زوجته، ولٰكنّ الثورة أحالته على المعاش في حركة تطهير الشرطة فخرج مع حامد في قائمة واحدة، وكانت علاقته به قد انقطعت بعد طلاق شكيرة. وقال لزبيدة:

ـ علينا أن نبيع الأرض فقد انقلب الدهر على ملّاك الأراضي.

والضرر الذي لحقه بيد الثورة لا يقاس بما دهم غيره من طبقته، منهم ابن عمّه عدنان، ولٰكنّه وجد نفسه، في المعسكر المضادّ، ومارس عواطفه كلّها نحو الثورة الصاعدة. ومضى يبيع أرضه وأرض زبيدة على دفعات وأنشأ بماله متجرًا في شارع شريف راح يديره بنفسه فازدادت ثروته. أمّا أبناؤه محمود وشريف وعمر فقد تربّوا في مدارس الثورة وتشبّعوا بفلسفتها وثملوا ببطولة زعيمها، ولم يأسف حسن على ذٰلك، بل وجد فيهم وفي أخويه عبده ونادر حماية له من أعاصير تلك الأيّام، ولعلّ أخويه كانا وراء الأسباب الخفيّة التي جنّبت متجره التأميم عام ١٩٦١. ولـمّا وقعت كارثة ٥ يونيه كان محمود وشريف وعمر قد تخرّجوا أطبّاء وعملوا في مستشفيات الحكومة، وأدركتهم النكسة التي زلزلت الجيل الناصريّ فأذرته مع رياح الضياع واليأس. ولذٰلك ما كاد الزعيم يرحل ويحلّ محلّه السادات حتّى هاجر محمود وشريف إلى الولايات المتّحدة ليبدآ حياة علميّة جديدة ناجحة، أمّا عمر فقد فاز بعقد عمل في السعوديّة. ووجد حسن في السادات وسياسة الانفتاح بغيته وعزاءه عن كافّة هزائمه الماضية فشمّر للعمل والثراء الخياليّ، وشيّد له ولزوجته قصرًا في مدينة المهندسين وعاش عيشة الملوك وهو يحلم بعودة أولاده ذات يوم ليرثوا ما جمع لهم من ملايين. وانتهت حياته في الثمانينات في حادث عارض، إذ كان يسوق سيّارته المرسيدس في شارع الهرم فانقلبت به واحترقت، واستخرجوا جثّته منها متفحّمة متخلّية عن الدنيا وملايينها. . .

حسني حازم سرور

هو بكريّ حازم وسميحة. وكان ذا جسم رياضيّ ووجه مليح وذكاء وقّاد. وقد نشأ في النعيم في فيلّا الدقّي، وتخرّج مهندسًا عام ١٩٧٦، ولم يجد ـ كأخيه ـ في حياته مشكلة ما، ولا عرف هموم الانتماء، ومثل أبيه جرى في طريق النجاح والثراء في مكتب أبيه. وأرادت سميحة أن تسيطر عليه كما سيطرت على أبيه ولٰكنّها وجدته مستعصيًا على السيطرة، ويثور مثلها لأتفه الأسباب، ولمست فيه المرأة جموحًا خطرًا فنزعت تخطّط لزواجه ولٰكنّه قال لها بوضوح:

ـ لا شأن لك بهٰذا. . .

فقالت بحدّة:

ـ ولٰكنّك طفل. . .

فضحك عاليًا وهو ينظر نحو أبيه الذي زاغ من عينيه وقال:

ـ أنا المالك الوحيد لحياتي. . .

ـ ولٰكنّك لا تدري شيئًا عن الزوجة الصالحة. . .

فسألها بسخرية:

ـ وما الزوجة الصالحة؟

فقالت بصوت مرتفع:

ـ الأصل والمال وهما مترادفان!

فقال مواصلًا سخريته:

ـ شكرًا لا حاجة بي إلى خاطبة!

وكان قد عشق راقصة بأحد ملاهي الهرم تدعى عجيبة، تجاوز عشقه لها النزوة العابرة، حتّى اقترح عليها فكرة الزواج . . . وقالت له:

ـ لولا الحبّ ما قبلت قيد الزواج. .

وسعد بذٰلك كلّ السعادة، غير أنّها اشترطت عليه ألاّ يطالبها بهجر حياتها الفنّيّة، فتفكّر مغتمًّا ثمّ قال:

ـ إذن لنبقَ كما نحن. . .

فقالت غاضبة:

ـ بل يذهب كلّ منّا إلى حال سبيله.

فقبل مرغمًا وعقد زواجه عليها. وكان أخوه أدهم أوّل من علم. وكان أبوه الثاني. ولـمّا حمل الخبر إلى سميحة ثارت ثورة وجم لها الخدم وتساءل الجيران. أمّا حسني فانتقل إلى شقّة تملكها زوجته بشارع الهرم. وهناك قالت له:

ـ لم أهجر حياتي الفنّيّة لأنّ السينما بدأت تعترف بأهمّيّتي. . .

ولٰكنّ الظاهر أنّ طريق ذٰلك الاعتراف لم يكن ممهّدًا، وأنّ الأمر احتاج إلى أن ينشئ حسني شركة إنتاج سينمائيّ من أجل عبقريّة زوجته. وشعر بأنّ أباه لا يوليه الثقة التي كان يحظى بها فطالب بنصيبه من رأس المال على أن يتفرّغ لعمله الجديد. وحقّق له أبوه رغبته وهو يقول له:

ـ ليكن ذٰلك سرًّا بيننا. . .

بذٰلك انفصل حسني تمامًا عن أمّه بل عن أسرته. . . وأنتج لعجيبة فيلمين لم يستطيعا أن يخلقا منها شيئًا يذكر. وترامت إليه أنباء عن علاقة مريبة بينها وبين ممثّل أدوار ثانويّة يدعى رشاد الجميل، فرصد لهما العيون حتّى ضبطهما في شقّة مفروشة بالعجوزة. واعتدى عليها بالضرب حتّى قتلها، وحوكِمَ، وقضي عليه بخمسة عشر عامًا. وعرف أقرباؤه خبره ممّا نشرته الصحف وما كانوا قد سمعوا به من قبل. وأكثر من شخص منهم هتف:

ـ يا ألطاف الله، إنّه حازم بن سرور أفندي رحمه الله.

حكيم حسين قابيل

الناظر في عينيه الواسعتين العسليّتين يبهره حسن تكوينهما وقوّة إشعاعهما، ورأسه الكبير غزير الشعر يضفي عليه مهابة. وهو الثالث في ترتيب ذرّيّة سميرة بنت عمرو أفندي وزوجها حسين قابيل تاجر التحف بخان الخليلي. وكان شارع ابن خلدون مدرج طفولته وصباه حيث تقيم الأسرة بعمارة به، كما كانت حديقة الظاهر بيبرس ملعبه. وعلى ذكائه وتفوّقه ولع منذ الصغر بالمقامرة، مارسها أوّلًا في الدومينو والطاولة وأخيرًا في البوكر والكنكان.

كما عرف بصداقته الحميمة لجار من جيرانه تلازما في المرحلتين الابتدائيّة والثانويّة، ثمّ اتّجه حكيم إلى مدرسة التجارة على حين التحق الآخر بالكلّيّة الحربيّة. وقد عرف حكيم أهل أمّه جميعًا، عمرو وسرور والمراكيبي وداود كما عرف أهل أبيه، وأدهش خالَيْه عامر وحامد بآرائه السياسيّة الرافضة أو شبه الرافضة للوضع كلّه. قال له حامد:

ـ إنّي أعتبر المعاهدة إنجازًا مشرّفًا للوفد!

فقال حكيم:

ـ لا حصر لسلبيّاتها، ثمّ إنّي لا أومن بالأحزاب. . .

ـ الإخوان تجّار دين ومصر الفتاة عملاء فاشيست!

ـ ولا هٰؤلاء جميعًا!

ـ إذن بماذا تؤمن؟

ـ لا شيء. . .

وضحك عامر ضحكة خفيفة فقال حامد:

ـ هٰذه نغمة نشاز في أسرتنا. . .

وتخرّج حكيم في إبّان الحرب العظمى الثانية، بعد وفاة والده بقليل، وتعيّن في مصلحة الضرائب، وما لبث أن أحبّ زميلة له تدعى سنيّة كرم فتزوّج منها وأقاما في شقّة بالعبّاسيّة الغربيّة، وأنجب منها حسين وعمرو، ووعدت الحياة بخطّ روتينيّ معروف الأوّل والآخر. ولكن قامت ثورة يوليو وإذا بصديق عمره نجم من نجومها، وبذلك تفتّق المستقبل عن أبعاد جديدة لم تجرِ لأحد في خاطر. وفي الوقت المناسب اختير حكيم في وظيفة إشرافيّة في إدارة التوزيع بإحدى الصحف الكبرى، ووثب مرتّبه بجرّة قلم من العشرات إلى المئات. ودوّى مقامه في شجرة الأسرة من أسفلها إلى أعلاها. تاهت به أسرة سميرة، وسعد به آل عمرو رغم وفديّتهم المهيضة، أمّا المعارضون من آل المراكيبي وداود فقد قالوا ساخرين:

ـ ذهب فساد متواضع وجاء فساد شَرِه...

ولصلته بصديقه الحميم هابه حتّى الوزراء وداهنه الأعداء والأصدقاء. وسرعان ما انتقل إلى شقّة جديدة بالعبّاسيّة الشرقيّة واقتنى سيّارة وأصبح حقيقة من رجال العهد. وكان وفيًّا لاسرته ولأصدقائه، فمدّ يد المعاونة لخاله حامد ولابن خالته نادر، وبفضله عومل أخوه الأصغر سليم معاملة لم تخلُ من إنسانيّة عند التحقيق معه قبل سجنه، كما كان الوساطة الناجحة وراء تعيين كثيرين من أصدقائه حرّاسًا عقب فرض الحراسة على مَن فرضت عليهم من الأُسَر. وظلّت علاقته بصديقه الحميم كما كانت رغم استوائه قائدًا بين القادة الجدد، فلا يمرّ أسبوع دون لقاء عائليّ في قصر القائد يتبادلان فيه نجوى الحبّ والذكريات. وفي إحدى هذه المرّات سأله بلا كلفة:

ـ أما آن الأوان لترشّحني وزيرًا؟

فقال الرجل:

ـ وما قيمة الوزير؟ سينقص دخلك إلى النصف...

ـ ولو...

فقال الآخر ضاحكًا:

ـ أصارحك بأنّي فعلت...

ورمقه بنظرة باسمة ذات معنى، فقال حكيم:

ـ أعدك بأن أقلع عن القمار...

فقال واجمًا:

ـ ومسألة أخيك سليم أيضًا!

وعدل عن التفكير في الوزارة ولكنّ نجمه استمرّ في الصعود فانتخب عضوًا في مجلس الأمّة، وما زال نوره يتألّق حتّى ٥ يونيه فابتلعت الظلمات صديقه فيمن ابتلعت، وتلاشى نفوذه بضربة واحدة وإن بقيت له وظيفته. جاء السقوط هزيمة شخصيّة فوق الهزيمة العامّة ومضغ مرارة الهوان بعد حلاوة العزّة. وشقّ عليه تنكّر الكثيرين له حتّى الذين انتشلهم من التفاهة بوفائه. ولم يبقَ له من عزاء في الدنيا إلّا في ابنيه حسين وعمرو اللذين صارا ضابطين في سلاح الفرسان. وفي تلك الآونة تجلّت به أعراض ضغط الدم الخبيث وقاسى منها ما قاسى، ثمّ دهمته داهية كثيرًا ما ناوشته في أحلام يقظته السوداء، عندما بُلّغ باستشهاد عمرو في حرب الاستنزاف وكان ـ بخلاف سنيّة ـ يحبّ ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر، تاركًا أحزانه تنعقد في أعماقه كالعكارة في جوف الوعاء. وواصل وجوده حتّى رحل زعيم وخلفه آخر، وعاصر ٦ أكتوبر فهزّته نشوة لم يشعر بمثلها منذ الأيّام السعيدة قبل ٥ يونيه، ولكن سرعان ما خمدت شعلتها عندما تلقّى نبأ استشهاد ابنه الباقي حسين في الميدان. وانفجر الضغط صاعدًا بلا ضابط فوق ضبط النفس والتظاهر بالشجاعة والرضا بالقدر فقتله، وتحدث تلك الأمور وراضية تهيم في ذروة شيخوختها. وتُضاحِك الملائكة في البيت القديم.

حَليم عَبدالعَظيم دَاوُد

ولد ونشأ في فيلّا أنيقة بالعبّاسيّة الشرقيّة، وهو الابن الثالث لعبد العظيم باشا داود. مقبول الوجه رياضيّ الجسم مدمن منذ صغره للهو واللعب والمزاح والعربدة، لا تصدر عنه كلمة جدّ واحدة. أخواه اللذان سبقاه كانا غاية في الجدّ والاجتهاد، لذلك قال:

ـ خُلقت لأُحدِث التوازن الضروريّ في الأسرة.

ويتابع عبد العظيم باشا عثراته المدرسيّة بمرارة

ويقول له:

- ستكون عارًا على نفسك وأسرتك.

ولكنّه لم يكن يكترث للملامة، ولم يحتفظ من سجايا أسرته إلّا بالكبرياء والغرور والنظرة إلى الآخرين من عَـلُ، حتّى أهله كـمال وعمـرو وسرور أضمـر لهم الازدراء وحنق على المتفوّقين منهم، ولم يسلم من لسانه إلّا عـامر الـذي تـزوّج من شقيقتـه عفّت، أمّـا آل المراكيبي فكان يضعهم - رغم ثرائهم - في الدرجة التي كـرّستها لهم أسرة داود بـاعتبارهم أشبـاه أمّيّين ومن صلب رجل كان يبيع المراكيب. ولم يكن يتورّع عن إغواء قريباته الجميلات اللاتي يقاربن سنّه مثل جميلة وبهيجة ابنتي سرور أفندي أو دنانير بنت رشوانة... لولا ثقل التقاليد ويقظة الأمّهات. ولعلّ حامـد كان الوحيد الذي يعمل له ألف حساب لقوّته واستعداده الفطريّ للعنف، فحقد عليه، ولم يَصْفُ ما بينهما إلّا حين جمع بينهما سوء المصير في أواخر العمر. وفي صباه ومراهقته - وبتدليل أمّه له - أتقن السبـاحة والكـرة والقمار والخمر والعشق والمزاح، وامتاز أيضًـا بصوت عذب فكان يقول بغروره المعهود:

- لولا تقاليد الأسرة لكنت مطرب العصر.

وبعـد صراع طويـل مع المـدرسة قـرّر الالتحـاق بمدرسة الشرطة. واستاءت الأسرة رجالًا ونساء وقال له أبوه:

- نحن أسرة قانون وطبّ...

فاعترف له قائلًا:

- لا صبر لي على المذاكرة.

ولـمّا التحق بـالمـدرسة وجـد حسن محمـود عـطا المراكيبي بالسنة النهائيّـة وحامـد بالمرحلة الوسـطى، فكان عليه أن يؤدّي لهما في نطاق التقـاليد المـدرسيّة فروض الذلّ والطاعة، وكان أهون على نفسه أن يؤدّي ذٰلك لأيّ جنديّ... ومرّة تناول الثلاثة الغداء عند راضية، وهناك تحرّر من واجباته والتزاماته، وخاضوا ثلاثتهم حديث الأصل، في مفاخرة ساخرة، فذكّرهما بأصلهما وعيّروه بأصله. قال له حامد:

- أنتم باشوات حقًّا ولكنّكم من طين الأرض خرجتم.

وتابعت راضية حديثهم باسمةً ثمّ قالت:

- الكلّ في النهاية من صلب آدم وحوّاء، وليس في الأسرة كلّها من بطل إلّا أبي الشيخ معاوية...

وكان حليم يعتبر راضية من عجائب هٰذه الدنيـا بِدَرْوَشَتِها وسحرها وأورادها وعفاريتها، ويقول لأمّه:

- لولا الحظّ لاتّخذتْ مكانها الطبيعيّ بين مجذوبات الباب الأخضر.

وتهتف به أمّه:

- إيّاك أن تمسّ بسوء أحبّ الناس إليّ...

كانت تؤمن بها، وعند كلّ لقـاء تدعـوها لقـراءة فنجانها، وعندما حدست قرب نهايتها في كبرها أوصت بأن تشهد راضية غسلها دون غيرها من أهلها أو أهل زوجها.

وتخرّج حليم ضابطًا بعد حامد بعامٍ، وبفضل أبيه عُيّن في المراكز الخاصّة بالداخليّة فقضى أكثر خدمته في حراسة الأميرات والوزراء. وقد مرّت به ثورة ١٩١٩ وكـأنّها فيلم مثير يشاهده في إحدى دور العرض. لم يعرف طيلة حياته انتماء إلّا إلى اللهو والعربدة والمزاح والطرب... كان أبـوه وأخواه من دراويش الأحـرار الدستوريّين، أمّا هو فكان درويش الحانات والملاهي الليليّة ونوادي القمار. ولم يفكّر أبدًا في تكوين أسرة أو الالتزام بأيّ قيـد. وقد اختـار لنفسه شقّـة في عمارة بشارع النيل - هي التي دلّ عليها حامد بعد طلاقه - وزيّنها بهدايا الأميرات والوزراء، وشهدت من بنـات الليل والفنّانات أشكالًا وألوانًا. ولم يكن يتورّع حتّى عنـدمـا ارتفعت رتبته أن يقضي سهـرة في عـوّامـة مونولوجست، يسكر ويعربد ويغنّي، ثمّ يرجع عنـد الفجر إلى مأواه وهو يترنّح. وقد ساءت العلاقة بينه وبـين والده، وبينـه وبين أخـويه، وبُـذلت محاولات عقيمة لتزويجه. ومع الأيّام غلبهم بروحه المرحة فغزا قلوبهم وبيوتهم حتّى سلّموا به كشرٍّ لا بدّ منـه، بل لعلّه كان أمتع شرّ في أسرتهم. ولـمّا قامت ثورة يوليو نُقل إلى التفتيش. أجل كان أحسن حظًّا من حـامد وحسن ولكنّه عانى العمل الجادّ لأوّل مرّة على كبر. إلى هٰذا فقد أظهر للثورة حنقًا من أوّل يوم، وتساءل كيف يسرق الحكم أناس لا ميزة لهم إلّا استحواذهم على السلاح؟ وهل يحقّ قياسًا على ذٰلك أن يتحوّل قطّاع الـطرق إلى ملوك؟ . ومـا هـٰذا الذي يحـدث لـلأُسَر

الكريمة؟. وكيف تُلغى الباشويّة بجرّة قلم؟. وكيف يخاطب بعد اليوم أباه وشقيقه الأكبر؟. وكيف يؤدّي هو سلام التعظيم لضابط يماثله في الرتبة أو يقلّ عنه؟. والأدهى من ذلك كلّه أنّه يوجد من آل المراكيبي ضابطان يُعتبران من الصفّ الثاني من الحكّام!. وأنّ حكيم ابن سميرة يلحق أيضًا بهيئة الحكّام!. حقًّا لقد انقلب العالم فصار عاليه أسفله وصار أسفله عاليه، اضطرمت في قلبه نيران الغيرة والحنق وتجهّم بكلّ غضب للعالم الجديد الذي تجهّمه.

وشدّ ما فرح بالعدوان الثلاثيّ فظنّ أنّ الستار سيسدل على المهزلة ويستقيم حال الدنيا، ولكنّ الحوادث خيّبت أمله واستقبل الزعيم حياة جديدة كلّها فتوّة وبطولة. وفي الستّينات توفّي أبوه، وتبعه شقيقه الأكبر بعد عامين فتضاعفت غربته وأساه وأفرط بلا حرص في لهوه وعربدته. وكان يقضي ليله في شقّة فاخرة تدار للقمار السرّيّ عندما كبسها البوليس. وأظهر شخصيّته لرئيس القوّة ولكنّه تعامى عن ذلك وساقه مع الآخرين إلى قسم شرطة قصر النيل، ولم تنتهِ المسألة إلى خير فأرسل إليه وزير الداخليّة يطالبه بتقديم استقالته تفاديًا لما هو أسوأ، فقدّمها على رغمه، ووجد نفسه على المعاش. وقرّر في ظلمة اليأس أن يقصّر خطوطه. وعرض عليه حامد أن يوسّط حكيم ليجد له عملًا كما نفعه ولكنّه رفض شاكرًا. فضّل أن يعيش في نطاق معاشه على أن يذلّ نفسه أمام حكيم ووجد في المعاش ما يكفي لمعيشته، واستبدل بالويسكي الحشيش لرخصه النسبيّ وأثره المناسب، وتفرّغ بكلّيّته للحقد على العهد ورجاله والسخرية منهم في غرزته الخاصّة الحافلة بالحاقدين. ولـمّا وقعت كارثة ٥ يونيه قرّر أن يحجّ لبيت الله الحرام. ولم يكن له من الدين إلّا الاسم كغالبيّة أسرته، ولكنّه حجّ، ورجع إلى حياته لم يغيّر منها شيئًا، وسكنت انفعالاته بعض الشيء، ولكنّه أصيب بالسكّر، ولم يكن يملك من الإرادة ما يواجه به متطلّباته من الرجيم فاستفحل معه، وحصلت له مضاعفات متلاحقة. وذات مساء اتّصل تليفونيًّا بجاره وقريبه حامد وقال له:

ـ تعال أنت وزبيدة هانم... إنّي أحتضر...

وفعلًا أسلم الروح تلك الليلة بين حامد وزوجه.

حرف الخاء

خليل صبري المقلّد

بكريّ زينة صغرى بنات سرور أفندي، وُلد ونشأ في مسكن الأسرة في بين الجناين، في مستوى متوسّط حسن. بفضل ارتفاع مرتّب أبيه النسبيّ يعتبر أفضل من مستوى جدّه الذي توفّي قبل زواج أمّه من أبيه، وكان أشبه الأحفاد بخاله لبيب، فائق الجمال الموروث عن جدّته ستّ زينب وأمّه أيضًا زينة التي خصّت بجمال لا بأس به وإن يكن دون شقيقتيها جميلة وبهيجة. وكانت زينة تفارق بين وجهه ووجه شقيقته الصغرى أميرة بحسرة، فقد اقتبست البنت من أمّها أنفًا أفسد صفحة وجهها الحسن ولبّد سماء مستقبلها الأنثويّ بالمخاوف، غير أنّها سرعان ما خطفها الموت عقب نزلة معويّة حادّة. وأبدى خليل نجابة في حياته المدرسيّة، وتشرّب بحماس جيل الثورة الناصريّة، غير أنّه تلقّى تجربة عاطفيّة استثنائيّة في ختام مرحلته الثانويّة، إذ نشأت علاقة بينه وبين جارة أرملة جاوزت الثلاثين من عمرها تدعى خيريّة المهدي كانت تكبره خمسة عشر عامًا..

وذات مساء قالت زينة لزوجها صبري المقلّد:

ـ خيريّة المهدي أغوت ابنك المحترم!

وبهت صبري أوّل الأمر. لم يكن متزمّتًا، وكان أبًا ودودًا متفاهمًا لأقصى درجة، وقد كان في شبابه عربيدًا حتّى انضبط بالزواج بمعجزة. وبقدر ما أزعجه الخبر بقدر ما أثار تيهه، وراقب الولد حتّى تأكّد له تردّده على بيت الأرملة، وقالت له زينة:

ـ إنّك لا تتحرّك...

فسألها:

ـ هل تؤمنين بجدوى النصيحة؟

فقالت بقلق:

ـ إنّها في سنّ أمّه...

ـ سرعان ما يشبع ويذهب...

فقالت معترفة:

- من ناحيتي لن أسكت، فهل تتصوّر أنّهما يفكّران في الزواج؟

وضحك الرجل غير متمالك نفسه وهتف:

- العبيط!

وراح يتحرّى حتّى عرف أشياء. وقال لزينة:

- المرأة غنيّـة...

ولمست منه ترحيبًا فاستنجدت بأخيها لبيب، وكانت حياته العامّة والخاصّة لا تسمح له بتقبّل المزيد من المشكلات، وفي الوقت نفسه لم يستطع أن يتجاهل حيرة شقيقته الصغرى، فزار بين الجناين متفضّلًا، وجمع بين الابن ووالديه، وعرض الموضوع صراحة، ولم تسفر المناقشة عن نتيجة ترضي زينة، وقال خليل:

- لن يحول شيء بيني وبين الاستمرار في الدراسة...

فقال لبيب حاسمًا الموضوع ومخاطبًا زينة:

- احمدي ربّنا، العروس عمرها كبير ولكن مالها وفير...

وأرادت زينة أن تؤجّل الزواج حتّى ينتهي خليل من دراسة الحقوق ولكنّ العروس كانت أحرص على حظّها من ذلك، ولم يتأخّر الزواج إلّا ريثما تجدّد المرأة بيتها وتؤثّثه، وتزوّجت من خليل، ولـمّا حصل على الليسانس في عام ١٩٦٥ كان قد أنجب بكريّه عثمان وتعيّن في قضايا الحكومة، وقدّر كثيرون أنّ الزواج مقضيّ عليه بالفشل في سنّ معيّنة، ولكنّ خيريّة فارقت الحياة في الخمسين وهي تجري جراحة في الكلوة، ولم تنجب سوى عثمان، ولم يفكّر خليل في الزواج مرّة أخرى.

حرف الدّال

دَاوُد يَزيد المَصري

هو الابن الأصغر ليزيد المصري وفرجة الصيّاد. ولد بعد أخيه عزيز بعام في بيت بالغوريّة على مبعدة يسيرة من بوّابة المتولّي، وكانت فرجة الصيّاد ترقب الوقت المناسب لإرسالهما إلى أمّها بالسوق ليتدرّبا على بيع السمك ولكنّ يزيد قال لها:

- أحبّ أن يتعلّما أوّلًا في الكتّاب...

فتساءلت محتجّة:

- ولم نضيّع الوقت بلا ثمرة؟

فقال الرجل بثقة:

- لولا أنّي أفكّ الخطّ وأعرف مبادئ الحساب ما ظفرت بعملي في وكالة الورّاق...

وكانت المرأة تجد في بيع السمك فوائد لا يحظى بمثلها زوجها في الوكالة، ولكنّها لم تستطع ثنيه عمّا عزم. ووجد الرجل تشجيعًا من صديقه الشيخ القليوبي المدرّس بالأزهر، بل قال له:

- الكتّاب وبعده الأزهر إن شاء الله تعالى...

ولكنّ تديُّن يزيد - كصديقه الثاني عطا المراكيبي الذي كان يقيم في نفس البيت - كان قانعًا بأداء الفرائض المتاحة كالصلاة والصوم لا يتجاوزهما إلى أحلام دينيّة أعمق، فرسم لولديه الكتّاب كمدخل للحياة العمليّة. وذات يوم والشقيقان يجولان ما بين الغوريّة والسكّة الجديدة رأيا نفرًا من رجال الشرطة، أمّا عزيز فبإلهام خفيّ هرب، وأمّا داود فقد اعتقله رجال الشرطة وساقوه إلى المجهول. وتحدّث الناس بما رأوا، وعرفوا أنّ الوالي محمّد عليّ يحمل أبناء الناس إلى ما وراء الأسوار ليلقّنوا علومًا جديدة، إنّه يحبسهم تحت الحراسة حتّى لا يفرّوا من التعليم. وقال عزيز لأبيه:

- لولا العناية لسقطت في أيديهم...

وشكا يزيد «مصيبته» إلى الشيخ القليوبي فقال له:

- لا تحزن، ابنك في الحفظ والصون، وربّنا يدفع عنه السوء...

وبلغ الحزن بالأسرة منتهاه، ودعت فرجة على الوالي بالهلاك، وشدّدوا في المحافظة على عزيز الذي واصل تعليمه في الكتّاب، ومضت أعوام فاشتغل عزيز ناظرًا لسبيل بين القصرين وتزوّج من نعمة المراكيبي ابنة عطا المراكيبي، وإذا بداود يرجع إلى الغوريّة وقد أتمّ تعليمه... وفرحت الأسرة بعودته فرحة كبرى، ولكنّها لم تدم، إذ قال داود:

- سيرسلوننا في بعثة إلى فرنسا.

فصاح يزيد:

- بلاد الكفّار!

- لنتعلّم الطبّ.

وصاح عزيز:

- لولا عنايتك يا ربّ لكنت من الذاهبين!

وسافر داود ليخوض تجربة ما كانت تجري له في حلم. وفي غيابه توفّي يزيد المصري وفرجة الصيّاد، وأنجب عزيز رشوانة وعمرو وسرور، ووثب عطا المراكيبي من حضيض الفقر إلى ذروة الثراء، ثمّ انتقل من الغوريّة إلى سراي ميدان خيرت، ورجع داود طبيبًا، وقصد مسكنه القديم بالغوريّة الذي انفرد به عزيز وأسرته. جمع الحبّ مرّة أخرى بين الشقيقين، وجعل عزيز يراقب أخاه باهتمام وتوجّس، سَرّه أن يجده محافظًا على صلاته، شغوفًا كالعادة القديمة بزيارة الحسين، وإن تغيّر زيّه، وإلى درجة ما لهجته. وبدا له أنّه يطوي في أعماقه النصف الآخر الذي اكتسبه في بلاد الكفّار. سأله:

- ألم يحاولوا أن يردّوك عن دينك؟

فأجاب ضاحكًا:

- كلّا البتّة...

وودّ أن يحدّثه أكثر «عنهم» ولكنّه آثر السلامة. وسأله أيضًا:

- هل حقًّا تشرّحون الجثث؟

فأجاب:

- عند الضرورة ومن أجل خير البشر!

فيحمد عزيز الله في سرّه على إكرامه له بالهرب في ذٰلك اليوم البعيد. وقال لأخيه:

- لولا ظروفك لكنت أبًا من زمن...

فقال داود:

- هٰذا هو شغلي الشاغل...

وكانت توجد أسرة تركيّة بدرب قرمز.. «آل رأفت» فأشار إليهم قائلًا:

- لعلّهم يرضون لبنتهم بطبيب عائد من فرنسا!

ووجدا في عطا المراكيبي في حاله الجديدة الشخص المناسب للكلام في الموضوع. ولٰكنّ داود رُفض باعتباره فلّاحًا حقيرًا ولم يشفع له علمه ولا زيّه ولا وظيفته... وتألّم الشابّ ونظر إلى أخيه مسترشدًا فقال عزيز:

- عندنا أسرة الورّاق التي كان أبونا يشتغل في وكالتهم...

أسرة من أصل مصريّ شاميّ، ووجدوا ضالّتهم في حفيدة الورّاق الكبير سنيّة الورّاق، فرحّبوا بالعريس، وتمّ الزفاف، ومضى داود بعروسه إلى بيت جديد بالسيّدة، وقد أنجب منها ولدًا - عبد العظيم - وثلاث بنات اختطفهنّ الموت صغارًا. وترقّى داود في عمله حتّى حصل على رتبة الباشويّة ورسخت مكانته الرسميّة والعلميّة. وقيّض له أن يوفّق بين شخصيّتيه المتنافرتين توفيقًا ناجحًا فكان في عمله الطبّيّ خير رسول لحضارة جديدة، له رؤيته المستقبليّة الوطنيّة التي يحفزها شعور أليم بما ينقص وطنه في مجاله، وله صداقاته الوطيدة بأقرانه من المصريّين والأجانب، وإلى جانب ذٰلك توافُق مع زوجة - رغم جمالها ودرجتها الاجتماعيّة وتعليمها الأوّليّ الساذج - لم تكن تختلف اختلافًا جوهريًّا عن أمّه فرجة السمّاك، ولا عن زوجة أخيه الأكبر نعمة المراكيبي... بل إنّه لم يتحرّر من تقاليد الأسرة والبيئة، فكان يزور بيت الغوريّة بدافع الحبّ والواجب معًا، وهناك ينسى شخصيّته المكتسبة تمامًا فيجلس إلى الطبليّة ويأكل بشراهة السمك والطعميّة وثريد العدس والفسيخ والبصل الأخضر، ويتابع بعين العطف والمودّة النامية بين عبد العظيم من ناحية وبين رشوانة وعمرو وسرور من ناحية أخرى، ويزور الحسين ويجول في الباب الأخضر، ويتعرّف إلى أصهار أخيه عطا المراكيبي ثمّ ابنيه محمود وأحمد، وصديقه الشيخ معاوية القليوبي الذي يصير حمًا لابن أخيه عمرو. في تلك الأوقات كان يرتدّ إلى داود الأوّل ابن يزيد المصري وفرجة الصيّاد، ابن الغوريّة وروائحها الذكيّة النافذة ومآذنها السامقة ومشربيّاتها المسربلة بالتاريخ، وقد تمنّى أن يجعل من ابنه عبد العظيم طبيبًا مثله ليعيد سيرته، ولٰكنّ الشابّ اتّجه إلى دراسة الحقوق، مدرسة الصفوة والوزراء، ثمّ مارس حياة قانونيّة فخيمة وناجحة. ولـمّا بلغ الدكتور الباشا الخمسين عشق جارية سوداء، وتزوّج منها، محدثًا في الأسرة دهشة ومثيرًا أقوالًا وقد اختار لها مسكنًا خاصًّا

في السيّدة، وخصّص لها قبرًا في حوش الأسرة الذي شيّده يزيد المصري على كثب من ضريح سيدي نجم الدين عقب حلم رآه. وقد امتدّ به العمر حتّى عصر الاحتلال وعاصر مع أخيه الثورة العرّابيّة، وأيّداها بالقلب، وتجرّعا مرارة سقوطها، ورحل الشقيقان في عامين متعاقبين في أوائل عهد الاحتلال، ودفنا جنبًا إلى جنب في القبر الذي افتتحه يزيد المصري، وسرعان ما حلّت بجناحه الحريميّ فرجة الصيّاد، ونعمة عطا المراكيبي وسنيّة الورّاق، والجارية آدم في قبرها الخاصّ.

دلال حمادة القنّاوي

ولدت ونشأت في بيت والديها بخان جعفر، وهي صغرى ذرّيّة صدريّة وحمادة القناوي، ومسكنها على مبعدة يسيرة جدًّا من بيت جدّها عمرو، وكانت تألف عمرو وراضية كما تألف والديها. ومثل جميع الأحفاد تحبّ راضية وتسحر بغرائبها، خاصّة وأنّ الجدّة لا تكفّ أبدًا عن نشر ثقافتها الفطريّة المسربلة بالخوارق في جميع الأجيال. وتقول لابنتها صدريّة:

- دلال جميلة ولكن كيف تسلّلت لذرّيّتك القاهريّة هذه النبرة الصعيديّة؟

فتقول صدريّة ساخرة:

- من البغل!

مشيرة إلى زوجها الذي أنفقت حياتها في ترويضه، وتضحك راضية قائلة:

- إنّه غبيّ كالحجر ولكنّه رجل كريم. . .

وكعادته لم يسمح لدلال - كنهاد ووردة - بأكثر من عامين في الكتّاب ثمّ تولّت صدريّة تربيتها وتدريبها. وراحت صدريّة تستعرض فتيان الأسرة من أبناء أخواتها وأخويها وعمّها وآل المراكيبي وداود. ولكنّ بنات القناوي كنّ يجيئهنّ العرسان من قنا وما حولها باسم آل قناوي، تقدّم لها عمدة شابّ يدعى زهران المراسيني يملك أرضًا مجاورة لأرض أبيها وأعمامه.

وقالت صدريّة:

- قُضي عليّ بأن يفرّق القطار بيني وبين بناتي.

وأجّلت مأساة شقيقتها وردة الزواج عامًا، ثمّ زفّت إليه في القاهرة، وبعد أسبوع واحد حملها إلى وطنه، واستقرّت دلال بالكرنك بصفة نهائيّة، وأنجبت أربع بنات وثلاثة صبيان، ولم تكن تزور القاهرة إلّا في المناسبات.

دنانير صادق بركات

هي الابنة الوحيدة لرشوانة - الشقيقة الكبرى لعمرو وسرور - وصادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش. ولدت في بين القصرين ببيت يملكه أبوها، ونشأت في أحضان نعمة لا بأس بها وتبشّر بالمزيد ولم تنجب رشوانة غير وحيدتها لِعَيْبٍ فيها. ولكن لحسن حظّ الأسرة أنّ صادق بركات كان يسبق له الزواج مرّتين دون إنجاب، فعُدَّ العيب مشتركًا. وترعرعت دنانير بين أمّ متديّنة لحدّ المشيخة وأب ينتمي لأسرة تعتبر رائدة في تعليم البنات. وكانت على قدر من الجمال لا بأس به واستعداد للبدانة وكانت تُعَدّ من المزايا، وإلى ذلك فقد أبدت نشاطًا يبشّر في المدرسة بكلّ خير. ونالت الشهادة الابتدائيّة فألحقت بالثانويّة الأمر الذي لفت انتباه خال رشوانة محمود بك عطا المراكيبي فسأل عمرو:

- أأنت راضٍ عن ذلك؟

فقال عمرو:

- أبوها راضٍ.

وزار الرجل بين القصرين واجتمع بالأسرة، وقال:

- إنّي لم أسمح لشكيرة بتجاوز الابتدائيّة.

فقال صادق بركات:

- الزمن تقدّم يا محمود بك والبكالوريا مناسبة لهذا الزمن. . .

وقالت رشوانة:

- إنّي واثقة من أخلاق ابنتي . . .

وكان محمود بك لا يخلو من دعابة ولو بأسلوبه الفظّ فقال:

- ربّما قالت أمّ ريّا وسكينة عنهما يومًا ما تقولين.

وغادرهما ساخطًا. وفرحت دنانير بقرار أبيها.

ستصير بالبكالوريا قريبة من مستوى فهيمة وعفّت ابنتي عبد العظيم داود. وسترتفع درجات على جميع بنات خالّيها عمرو وسرور، ولها أن تحلم بعد ذلك بعريس لائق. وكانت رشوانة تستصحبها لزيارة الأصول والفروع فترى الشجرة مثقلة بالثمار، عامر وحامد ولبيب وحسن وغسّان وحليم، وهي في نظر نفسها على الأقلّ لا تقلّ جمالًا عن أجمل بنات الأسرة. ولـمّا قاربت الختام حدث شيء كالمصادفة أقنعها بأنّ المصادفة مأساة المآسي في حياة البشر. سقط أبوها في الدكّان مشلولًا وحُمل إلى البيت ليرقد على فراشه بلا حول حتّى النهاية. صُفّيت التجارة بإشراف عمرو وسرور ومحمود بك وقبض الرجل خمسمائة جنيه هي كلّ ما بقي له للعلاج وحياة الأسرة. ورأت دنانير أنّه لم يعد أمامها إلّا مواصلة التعليم والتطلّع إلى العمل. لم يكن متاحًا لها إلّا مدرسة المعلّمات وكان على المعلّمات وقتذاك أن يمضين حياتهنّ بلا زواج ما أردن الاحتفاظ بالوظيفة. وتوكّدت هذه الخطّة عقب وفاة صادق بركات. أجل رأى محمود بك رأيًا آخر، قال:

ـ لتتزوّج دنانير.. وأنا أتكفّل بك يا رشوانة...

ومالت رشوانة للموافقة، ولكنّ دنانير ـ وبدافع من كبريائها ـ أبت ذلك وأصرّت على اختيار مصيرها. لم تكن سعيدة باختيارها، زهدت فجأة في حلم الزواج الذي صاحبها منذ الصبا. كانت أتعس أهل الأرض ولكنّها اختارت تعاستها بنفسها. وقالت لها رشوانة:

ـ إنّك تضحّين بنفسك من أجلي...

فقالت بثبات:

ـ بل اخترت ما يسعدني...

وأصبحت معلّمة وعانسًا إلى الأبد، تعزّت عن خيبتها بإتقان العمل والإفراط في الطعام. وتمضي في الحياة متسائلة أين كان يختبئ لي هذا الحظّ الأسود؟!. ما أكثر الأعين التي ترمقها بنهم، من شباب الأسرة والأغراب، كأنّهم يتساءلون: هذه الفتاة الممنوعة من الزواج ألا تحلم بالحبّ؟. جميع قريباتها مستقرّات في بيوت الزوجيّة حتّى الدميمة المذكرة، وهي لا تعبرها النظرات دون أثر يبقى ويستفحل. وما تأوي إلى فراشها بعد يوم مليء بالسخرة إلّا وتتأبّط معها خيالًا ليؤنس وحدتها. إنّها دائبة على تعويض لهفاتها وحسراتها بالأخيلة المحمومة الفاجرة والسقوط الوهميّ، والصداقات الحميمة العقيمة مع الزميلات المحرومات في مجال عملها الرهبانيّ. مكاتب حياة سرّيّة في عالم الحلم تتناقض تمامًا مع حياتها الظاهرة القائمة على عمل جادّ استوجب الثناء، والتزام بالفرائض الدينيّة استحقّ الاحترام، وسلوك رصين أيأس منها الطامعين وحاز تقديرهم، وفي تلك الفترة الصاعدة من شبابها ونشاطها عرض لها ابن خالها لبيب بشبابه وجماله ووظيفته القضائيّة اللامعة، وكان سبيل الغزو له ممهّدًا لولا أنانيّته القبيحة. دعاها إلى حديقة الأسماك الهادئة ليعرض عليها علاقة سرّيّة تناسب في تصوّره حالها. قال:

ـ أنت ممنوعة من الزواج وأنا مُضرب عنه...

وقالت لنفسها حانقة إنّه يريدها خليلة ولا يراها أهلًا للزوجيّة. وقالت بامتعاض وازدراء:

ـ عرض جدير بامرأة ساقطة!

وتلقّى اللطمة ببروده الطبيعيّ الموروث عن ستّ زينب أمّه، ورجعت هي إلى بين القصرين مفعمة حنقًا على آلها جميعًا... إنّهم حقراء، أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء. يبيعون أنفسهم بلا كرامة. من أجل ذلك تزوّج عامر من عفّت بنت عبد العظيم، وتزوّج حامد من شكيرة رغم قبحها. وعندما ترنو عين شابّ من آل المراكيبي أو آل داود إلى بنت من بنات عمرو أو سرور تقوم القيامة وتثور الكرامة. حقراء حقراء... آل المراكيبي باعوا أنفسهم للمَلِك ضمانًا للمصالح، وآل داود انضمّوا للأحرار الدستوريّين متوهّمين أنّهم يتبعون طريق الأُسَر الكريمة وأصلهم الحقيقيّ نابع من التراب، وما كان داود باشا إلّا الشقيق الأصغر لعزيز ناظر السبيل!. ما من شابّ منهم من سنّها أو أكبر إلّا وطمع في عرضها، ولم يفكّر أحدهم في الزواج منها، وأطيبهم جميعًا مجذوب من مجاذيب الحسين. على أنّ فترة الشباب الخضراء لم تخلُ من فرصة عريقة، أتاحها لها ناظر المدرسة الذي اقترح عليها الاستقالة والزواج منه، ولكنّها بقدر ما سعدت باقتراحه لم تتردّد في رفضه حفاظًا على أمّها أن تعيش

تحت رحمة أحد من هذه الأسرة الحقيرة التي تعبد المال والجاه وتستبيح في سبيلها كلّ جليل. وواصلت حياتها الشاقّة القاحلة، تربّي بنات الناس وتُعِدُّهنّ للأزواج، منقسمة بين سلوك خياليّ فاجر، وواقع مُتّسم بالجدّيّة والتقوى والاحترام. وهامت شجرة الشباب في ربيع تعلوه كآبة الوحدة وآلام الحرمان وعبث الأخيلة المحرومة، ثمّ مضت أوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة، تاركة آثارها في بدانة تتمادى وقسمات تغلظ، وعضلات تترهّل، ومرارة تستفحل. وفي أثناء ذلك رحل عمرو وسرور وأحمد ومحمود، وتنكّرت أشياء كثيرة، ثمّ مرضت أمّها بداء القلب ولزمت الفراش. وكانت تقول لها:

ـ لن أغفر لنفسي ما حلّ بك...

فتجيبها باسمة متظاهرة بالمرح:

ـ لقد اخترت ما يناسبني...

فتتوسّل إليها قائلة:

ـ تزوّجي عند أوّل فرصة...

فتكذب قائلة:

ـ سيحدث ذلك قريبًا جدًّا...

رغم أنّها لم تعد تلفت نظر أحد. واحتضرت رشوانة وهي تقدّم لها تفّاحة للعشاء. وأدركت دنانير الموقف على عدم خبرتها به فهتفت:

ـ لا تتركيني وحدي...

ولفظت المرأة أنفاسها الأخيرة وهي تسندها إلى حضنها. وأجهشت في البكاء، وأرسلت الخادم العجوز لإحضار راضية من بيت القاضي. وبرحيل الأمّ... عانت وحدة مطلقة في بين القصرين. وباتت مثالًا للبدانة والكآبة. ولـمّا قامت ثورة يوليو وجدت فيها انتقامًا أيضًا من الجبّارين والمنحلّين والانتهازيّين، عاشرتها بارتياح فاتر، وكان الفتور قد أدرك كلّ شيء حتّى حياتها السرّيّة وعبثها العقيم، وبفضل الراديو ثمّ التليفزيون اقتحمت أعاصير الثورة وأحداثها وحدتها، ونفخت قبسات من الروح في فتورها، ولكنّ ذلك عبَرَها بسرعة، حتّى أحيلت على المعاش وأوت إلى ظلمة ظلمات الوحدة. ولم يعد لها من عزاء في هذه الدنيا سوى العبادة وتلاوة القرآن. ومات زعيم وتولّى زعيم، وانفجرت أحداث جديدة، ثمّ جاء الانفتاح، وبدأت تعاني مع الوحدة والكبر الغلاء المتصاعد. وأخذت تعيد حسابها وتتساءل:

ـ أكتب عليّ أن أقاسي متاعب المعيشة من جديد؟!... وهل حقًّا يخفي الغد ما هو أسوأ؟!

حرف الرّاء

رَاضيَة مُعَاويَة القليُوبي

بكريّة الشيخ معاوية القليوبي وجليلة الطرابيشيّة. ولدت ونشأت في البيت القديم بسوق الزلط، وتبعتها شهيرة وصديقة وبليغ. وكانت صديقة أجمل الأخوات الثلاث أمّا راضية فأقواهنّ شخصيّة وأحَدّهنّ ذكاء، وإلى ذلك فجمالها لا بأس به. كانت طويلة القامة ممشوقة القوام عالية الجبين ذات أنف مستقيم وعينين لوزيّتين سوداوين وبشرة قمحيّة، وكأنّها صورة من أمّها. وقد عُني الشيخ بتربية ذرّيّته تربية دينيّة فكانت الأكثر استجابة رغم أنّ حصيلتها من الناحية النظريّة لم تجاوز معرفة الصلاة والصوم وحفظ بعض السور الصغيرة ولكنّ قلبها تشرّب حبّ الله وآل البيت. على ذلك فما تلقّنته عن أبيها لا يقاس بعشر معشار ما تلقّنته عن أمّها من الغيبيّات والخوارق وسِيَر الأولياء وكراماتهم وأسرار السحر والعفاريت، والأرواح الساكنة في القطط والطيور والزواحف، والأحلام وتأويلها، وقراءة الطالع، والطبّ الشعبيّ وبركات الأديرة والقدّيسين والقدّيسات. ورسخ من إيمانها بأمّها ما شهدته من ركون أبيها نفسه ـ العالم الأزهريّ ـ إلى وصفاتها الطبّيّة ورقاها وتعاويذها، واحتفاظه بالحجاب الذي أهدته إليه فوق صدره. وكانت راضية عصبيّة المزاج، تمارس الحبّ والكراهية في اليوم الواحد عشرات المرّات. وقد شهد مدخل البيت ـ حيث الفرن والبئر وركن المعيشة اليوميّة ـ تسلّطها على أختيها، وتحيُّز الأمّ لها، ممّا أثار ضغينتهما عليها. وما كادت تبلغ الرابعة عشرة حتّى خطبها عزيز يزيد المصري صديق الشيخ معاوية لابنه عمرو أفندي

الموظّف بنظارة المعارف. وكان الشيخ في ذٰلك الوقت معتزلًا في بيته عقب خروجه من السجن الذي قضي عليه به بسبب اشتراكه في الثورة العرّابيّة، فتلقّى أوّل فرحة في حياة لم تعد تبشّر بخير في ظلّ الاحتلال. ولٰكنّ الحظّ لم يمهله فتوفّي قبل أن يجهّز ابنته، وحمل نيشان العروس إلى بيته في نفس يوم الوفاة، الأمر الذي أغرى جليلة بأن تزغرد وتصوّت في لحظتين متعاقبتين وتصير بذٰلك نادرة في الحيّ كلّه. وخلا زفاف راضية من الأفراح المعهودة، وانتقلت إلى البيت الذي أعدّه عمرو لحياته الزوجيّة بميدان بيت القاضي، وكان عمرو في العشرين من عمره، طويل القامة متوسّط القدّ، ذا شارب غزير وقسمات واضحة، واستعداد كامل للحياة الزوجيّة. وسرعان ما ربط الزوجين حبّ زوجيّ متين صمد لتقلّبات الحياة وتضارب العادات والأمزجة. ومع الحبّ عرفت راضية أوّل صداقة مع رشوانة أخت زوجها بخلاف نعمة المراكيبي حماتها، وكأنّما حدست ما دار من ورائها عندما ذهبت المرأتان لخطبتها، إذ قالت نعمة لابنتها رشوانة وهما في طريق العودة:

ـ أجمل البنات الصغرى!

فقالت رشوانة:

ـ العروس مناسبة جدًّا، وعلى خيرة الله...

فقالت نعمة بارتياب:

ـ أخاف أن تكون أطول من عمرو.

فقالت رشوانة بيقين:

ـ كلّا، عمرو أطول يا نينة...

على أيّ حال حدست راضية بشفّافيّتها تحفّظ نعمة حيالها وتوثّبت من أوّل يوم للدفاع أو الهجوم إن اقتضى الأمر، ولٰكنّ الله سلّم دائمًا فلم يقع بينهما ما يصلح للقيل والقال. وأقبل رجال الأسرة ونساؤها للتعارف والتوادد، سرور شقيق زوجها، وعزيز حموها، والدكتور داود، وحرمه سنيّة هانم الورّاق وابنها عبد العظيم، ومحمود عطا المراكيبي، ونازلي هانم وأحمد عطا المراكيبي، وفوزيّة هانم. اعتقدت أنّها ستعرف نساء على شاكلتها أو لعلّها تتفوّق عليهنّ كما تفوّقت على شقيقتيها، ولٰكنّها وجدت نفسها حيال هوانم من طبقة عالية. ربّما هَوَّنَ من وطأة الفوارق دماثة أخلاقهنّ وما طُبعن عليه من أدب فائق، ولتقارب العقليّة رغم تفاوت المظهر والمنظر. واشتدّ الإحساس بالفوارق أكثر عندما ردّت الزيارات بصحبة عمرو، فرأت بيت الدكتور بالسيّدة، ثمّ تاهت في سراي ميدان خيرت بأبّهتها الأسطوريّة. هناك فقط تنبّهت إلى أنّ جهازها لا شيء، لا شيء ألبتّة، وكم توهّمت أنّ فراشها ذا العمد الأربعة والسلّم الخشبيّ، ومرآة حجرة الاستقبال ذات الحوافي المرشوقة بالورد الاصطناعيّ والكنبة الإسطمبوليّة الطويلة، كم توهّمت أنّ ذٰلك الأثاث من التحف المبهرات، وانكسرت نفسها، وقالت لأمّها بنبرة المعترف:

ـ سأحدّثك عمّا رأيت...

وأصغت جليلة إليها صامتة، ثمّ تساءلت باستهانة هل يوجد بينهم بطل من أبطال عرّابي باشا كالشيخ معاوية؟

وسرعان ما استردّت راضية ثقتها بنفسها، وراحت تحدّث الهوانم عن تراثها من الغيبيّات والكرامات. ولٰكنّ العلاقة الجديدة تعطّرت بماء الورد بفضل أخلاق الهوانم، ونشأت مودّة حقيقيّة بين الجميع، وكان لأطوار راضية الغريبة فضل في ذٰلك بما تميّزت به من إثارة لا تقاوَم. واحتدم صراع بين الزوجين على السيادة، فقد أراد عمرو أن تنطوي زوجةً في البيت، فلا تعبر عتبته إلّا بصحبته، ورأت هي أنّ علمها الغيبيّ يطالبها بزيارات دوريّة لآل البيت وأضرحة الأولياء. وحذّرته من أن يقف عثرة في ذٰلك السبيل. وكان عمرو من أتباع الطريقة الدمرداشيّة ويؤمن بأفكار راضية وتراثها ويخشى عواقب التمادي والمغالاة، فأذن لها بالحركة مستوهبًا من ورائها خيرًا وبركة، مطمئنًّا إلى خلقها، راضيًا بمهارتها الفائقة في إدارة بيته وتفانيها في توفير أسباب الفرحة له. وسارت الأمور سيرًا حسنًا، وما من نزاع بينهما دام أكثر من ساعات، فكانت إذا غضبت حلمت، وإذا انفجرت عصبيّتها تغاضى وتسامح. وتوطّدت مكانتها بين فروع الأسرة الباسقة حتّى قبل أن تتوثّق بالمصاهرة، فشاركت سنيّة الورّاق في الخطبة لعبد العظيم، كما شاركت نعمة

المراكيبي في الخطبة لسرور أفندي، وأنجبت مع الأيّام صدريّة وعامر ومطريّة وسميرة وحبيبة وحامد وختمت بقاسم. ولم تكفّ يومًا عن بثّ رسالتها التراثيّة في ذرّيّتها أسوة بفروع الأسرة والجيران، حتّى تبلورت شخصيّتها في الحيّ كلّه كسيّدة الأسرار الغيبيّة، وأضافت إليها الفخر ببطولة أبيها الذي بفضله جعلت من عرّابي وثورته أسطورة ذات كرامات وخوارق تداخلت في كرامات البدوي وأبي العبّاس وأبي السعود والشعراني وامتزجت بعنترة ودياب وإنسات الجنّ وذكورهم والسحر والتمائم والأحجبة والبخور والرقا.

ولم تتردّد عن مصارحة داود باشا قائلة:

ـ طبّك هٰذا لا جدوى منه ولا خير فيه.

أو تقول له:

ـ يوجد طبيب واحد لا شريك له هو الله عزّ وجلّ.

وكان الباشا يحبّ حديثها ويجاريها على قدّ عقلها، ويداعبها أحيانًا فيقول:

ـ ولكنّك يا ستّ أمّ عامر تجعلين مع الله آلهة أخرى من الأولياء والعفاريت...

فتقول بإيمان:

ـ أبدًا... إرادته وراء كلّ شيء... لولاه ما أمكن سيدي النقشبندي أن يوجد في مكّة وبغداد والقاهرة في وقت واحد!

وكان يجمعها وعمرو تصوّرات متقاربة فوجدا دائمًا الحديث المشترك والتفاهم الدائم. وقد شاهدت ثورة ١٩١٩ من مشربيّة بيتها العتيق، وسجّلت في قاموسها الخالد وليًّا جديدًا، اسمه سعد زغلول.

ولـمّا اشترك عمرو في إضراب الموظّفين تساءلت بقلق:

ـ هل يسجنونه كما سجنوا الشيخ معاوية؟.

واخترقت الشوارع المليئة بالفتن وزارت ضريح سيدي يحيى بن عقب ودعت على الإنجليز وملكتهم ـ كانت تعتقد أنّ الملكة ما زالت على قيد الحياة ـ بالهلاك الأبديّ. وساورها القلق لاشتراك عامر في المظاهرات، والعقاب الذي حلّ بحامد لاتّهامه بالتحريض على الإضراب في مدرسة البوليس.

وأمام ضريح الحسين هتفت من قلب معذّب:

ـ اللّٰهمّ نجّنا من شرّ هٰذه الأيّام... اللّٰهمّ انصر المظلومين...

كانت تربّي ذرّيّتها بتراثها وإذا بالجميع يتكلّمون عن الوطن وسعد، اتّسع مجال الوجدان وأصبحت الحوادث هي المربّي الأوّل. وصمدت راضية وعمّرت مثل أمّها حتّى جاوزت المائة سنة. في أثناء ذٰلك تحوّل الأبناء إلى أسر وشبّ أحفاد جدد. وسمعت بوليّ آخر اسمه مصطفى النحّاس، وأخيرًا آخر الأولياء الذين عاصرتهم جمال عبد الناصر الذي رفع أحفادًا لها حتّى السماء وخفض أعزّة منهم إلى الحضيض أو السجن، فراوحت بين الدعاء له والدعاء عليه. وقد انقرضت من أسرتها في حياتها الأمّ والأخوات، وأحمد عطا وعمرو وسرور ومحمود عطا، وآخرون لم تدرِ بهم. ولٰكنّ قلبها لم يعرف الرعب أكثر ممّا عرفه في زمانين... وفاة عمرو الذي حزنت عليه عمرًا كاملًا، ومأساة قاسم وخاصّة في أوّل العهد بها. غير أنّها صمدت بقوّة خارقة، وهزمت همومها بحيويّة نادرة المثال، ولم تتقاعد في بيت إلّا وهي تشارف المائة، وواظبت على الحركة في مداخله، ولم تعجز عن الحركة إلّا في عامها الأخير، ولـمّا حتّم القضاء طرقها الموت بلطف ودماثة. كانت صدريّة متربّعة على الفراش عند قدميها، وإذا بها تسمعها تغنّي بصوت ضعيف:

عودي يا ليالي العزّ عودي

فضحكت صدريّة وتساءلت:

ـ أتغنّين يا نينة؟

فقالت:

ـ كنت أغنّي هٰذه الأغنية وأنا أرقص بين البشر والفرن.

ومال رأسها الناحية اليسرى لائذًا بالصمت الأبديّ...

رشوانة عزيز يزيد المصري

هي بكريّة عزيز أفندي ونعمة عطا المراكيبي. ولدت ونشأت في مسكن الأسرة بالغوريّة حيث أقام

يزيد المصري بالدور الأوّل وسكن الثاني عطا المراكيبي جدّ رشوانة لأمّها. ولـمّا ولد عمرو وسرور تبيّن أنّ الولدين أجمل من البنت ولٰكنّها كانت مقبولة ذات جسم ممتاز. وألقاها أبوها على أخيها ولٰكنّها درّبت خير تدريب على فنون البيت ومالت بطبعها وتأثّرها بأمّها إلى التديّن فعُرفت على مدى عمرها بالتقوى والورع. ولمّا بلغت الخامسة عشرة رغب في الزواج منها المعلّم صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش... كان من المتعاملين مع عطا المراكيبي، ومنه عرف عزيز ناظر السبيل وزوج ابنته... فطلب منه يد بكريّته، وزفّت إليه في بيت يملكه في بين القصرين على كثب من سبيل أبيها... وكان صادق بركات قد سبق له الزواج مرّتين ولم ينجب، ومرّت أعوام على رشوانة دون حمل، ثمّ أنجبت ابنتها الوحيدة دنانير، فسرّ الجميع لذٰلك وخاصّة صادق بركات نفسه. وكان مستوى الرجل الماليّ حسنًا، وأفضل بكثير من عطا المراكيبي وعزيز يزيد المصري، فتمتّعت رشوانة بحياة طيّبة، مطبخها عامر وعروس برقعها من الذهب الخالص. وتزور والديها في الغوريّة أو أخويها عمرو وسرور في بيت القاضي محمّلة بالهدايا. واستوت دنانير على مثال أمّها مقبولة أو أحسن درجة، وأثبتت نجابة في المدرسة فشجّعها أبوها على الاستمرار رغم اعتراض محمود بك عطا المراكيبي. وأيّدت رشوانة خطّة زوجها لتتساوى ابنتها مع فهيمة وعفّت كريمتي عبد العظيم داود ابن عمّها، ولٰكنّها كانت راسمة الزواج كنهاية سعيدة يقف عندها التعليم. ولذٰلك درّبت ابنتها على فنون البيت في العطلة المدرسيّة الطويلة وانتظرت على لهف ابن الحلال. ولـمّا لزم صادق بركات الفراش نتيجة لمأساة مرضه سلّمت باستمرار دنانير في التعليم كضرورة لا مفرّ منها، على الأقلّ حتّى يتيسّر لها الزواج، واشتدّت الحاجة إلى ذٰلك عقب وفاة صادق بركات، وبعد أن أصبحت بلا مورد، ولم تجد بأسًا في أن تتزوّج دنانير على أن تعتمد هي في معاشها على خالها محمود بك لولا إباء دنانير وإصرارها على العمل حتّى مع الحرمان من حقّها المشروع في الزواج. وقد مات أبوها عزيز دون أن يترك لها شيئًا تركنُ إليه، وماتت أمّها نعمة فقيرة، إذ إنّ ثراء عطا المراكيبي جاءه من زوجته الجديدة التي تزوّج منها بعد وفاة زوجه الأولى أمّ نعمة وكانت تدعى سكينة وهي ابنة صاحب دكّان المراكيبي الذي ورثه عطا عنه أو أداره نيابة عن سكينة صاحبته الأصليّة، وقد صفّي الدكّان بعد وفاة سكينة. كرهت رشوانة فكرة التضحية بدنانير من أجلها هي، وحاولت إقناعها عبثًا بعرض خالها محمود الكريم، والذي أبدى أخوه أحمد المشاركة فيه حبًّا وكرامة، ولٰكنّ دنانير أبت ذٰلك، وقالت لأمّها:

ـ سنعيش بكرامتنا مهما كلّفنا ذٰلك...

ولم تخفِ عنها انتقادها الثابت لخالها ولسائر أسرتها، قالت:

ـ إنّهم يعبدون المال والجاه ولا كرامة لهم...

فقالت لها رشوانة بارتياع:

ـ ما أقساكِ في حكمك، إنّهم أناس طيّبون ويتّقون ربّهم...

فقالت لها برقّة:

ـ أنت طيّبة وتحكمين عليهم بطيبتك، ومن هنا الخطأ...

وراحت تبثّ قلقها للجميع... لأخيها عمرو، وراضية، ولنازلي هانم وفوزيّة هانم، وفريدة هانم حسام حرم عبد العظيم داود، فلم يوافق أحد على كبرياء البنت، وتنبّأوا لها بالندم حيث لا ينفع الندم، أمّا راضية فتساءلت:

ـ ومَن الكافر الذي حرّم الزواج على المعلّمات؟!

وكانت رشوانة تلاحظ ابنتها بقلق، محاولة النفاذ إلى أعماقها، متسائلة عن أفكارها وعواطفها وعن المخبّأ لها في زوايا حياتها الغريبة التي تشبه حياة الرجال.

وكلّما توتّرت لها أعصاب أو شكت شأنًا من شئون العمل فسّرت رشوانة الحال بدواعٍ أخرى مستقرّة في أعماق تلك الحياة الشاذّة السقيمة، وتراها وهي تزداد بدانة وتفقد طلاوة شبابها وجمالها يومًا بعد يوم، وتتطبّع بطابع الجدّيّة والخشونة كأنّما يحوّلها العمل وهي لا تدري إلى رجل. وتخلو إلى أخيها سرور أفندي في بيته بميدان بيت القاضي وتقول له:

ـ فيك الخير يا أخي، لماذا لا تخطب دنانير لابنك

لبيب؟

فيقول سرور متهرّبًا:

ـ لكنّها لا تريد أن تتركك تحت رحمة الغير...

ـ أستطيع أن أقنعها إذا سعدت بعريس لقطة كابنك.

فقال لها بصراحة:

ـ الحقّ أنّي لا أرحّب بزواج لبيب حتّى تتزوّج جميلة وبهيجة وزينة، أنا رجل لا أملك سوى مرتّبي الصغير ولا غنى عن مساعدته لتجهيز البنات...

وترجع بغصّة لتجترّ همومها التي لا تتخلّى عنها إلّا أويقات صلاتها. وتنظر فترى الشباب يختفي تمامًا وتحلّ محلّه صورة كئيبة موسومة بالخشونة والجفاف فلا يشكّ أحد أنّه خيال عانس تعكّر لها الدهر وتراكم الهموم برحيل الأحبّة واحد في إثر آخر، ذهب أحمد وعمرو ومحمود وسرور، وإذا بقلبها يخونها بالمرض بعد أن خانها بالحزن الدائم. وتستوطن الفراش على كره، وتسهر ليالي من الألم، وتشعر بأنّ الموت يأخذ أهبته... ويعودها آل المراكيبي وآل داود ويتردّد عليها آل عمرو وسرور، وتوصي كلّ فرد بدنانير، وقالت لابنتها وكأنّما تلقي إليها بوصيّتها الأخيرة:

ـ تزوّجي في أقرب فرصة!

وساعة الاحتضار وثبت دنانير إلى الفراش، وأسندتها إلى صدرها، وراحت تتلو ما تيسّر لها من الآيات، حتّى لفظت المرأة أنفاسها، وأصبحت هي وحيدة بكلّ معنى الكلمة...

حرف الزاي

زينب عبد الحليم النجّار

ولدت ونشأت في عطفة الكردي بالحسينيّة لأب مصريّ يدعى عبد الحليم النجّار ـ صاحب دكّان نجارة صغيرة بالحسينيّة ـ وأمّ سوريّة.

وقد تزوّجت من سرور أفندي بعد زواج شقيقه الأكبر عمرو بثلاثة أعوام. وكان عزيز يؤمن بالزواج المبكّر فلم يُلْقِ بالًا لاعتراض سرور وقال له:

ـ الزواج لأمثالك دواء ناجع...

وقال له أخوه عمرو:

ـ أنت صاحب مزاج وعلى قدّ حالك، والزواج أرخص وسيلة!

واستعانوا بخاطبة فدلّتهم على بيت عبد الحليم. وكان الرجل ذا سمعة طيّبة وميسور الحال لدرجة لا بأس بها. أجل اعترض عليه بصفة صاحب حرفة ولٰكنّ الخاطبة قالت:

ـ البنت أدب وجمال...

وذهبت نعمة وراضية للزيارة التقليديّة. انبهرتا حقًّا بجمال العروس. وكانت بيضاء فاحمة الشعر ذات عينين خضراوين وجسم لدن ونظرة عميقة الهدوء. وقالت نعمة وهما في طريق العودة:

ـ آية في الجمال...

فأشعلت غيرة راضية وقالت وكأنّما تؤيّد وتدافع:

ـ أمّا الأصل فكلّنا أولاد حوّاء وآدم!.

وزُفّت زينب إلى سرور في بيت مجاور لبيت عمرو بميدان بيت القاضي، وحال رَفَعَ النقاب عن وجهها وَقَعَ في غرامها، أمّا هي فقد أحبّته حتّى آخر عهدها بالحياة. وقد أنجبت له من الذرّيّة: لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم وكان جمالها جواز المرور إلى احتفاء الأسرة وفروعها بها، ورسخ الأثر بأدبها ودماثتها وهدوء طبعها. أجل شعرت بغريزة ما بغيرة راضية منها ولٰكن لم ينجم عن ذٰلك أيّ مضاعفات بفضل هدوء طبعها المتهادي لحدّ البرود. طالما احترمتها وجاملتها وقدّمتها على نفسها بوصفها حرم الشقيق الأكبر. وطالما أملت أن يكون أبناؤها أزواجًا لبناتها، وكلّما اتّجه أحدهم إلى قبلة أخرى اتّهمت راضية بأنّها وراء انحرافه عن قبلته المشروعة وصاحبة الحقّ الأوّل فيه. ولٰكنّ ذٰلك لم يفسد الودّ بين الأسرتين ولا ظهر فيه أثر فوق السطح. متاعبها الحقيقيّة بدأت مع اقتراب سرور من الكهولة فلم يغب عن إحساسها اليقظ تململه ولا تطلّعه التلقائيّ لكلّ من هبّت ودبّت من حِسان الحيّ. وبسبب ذٰلك قام النزاع بينهما على كِبَر. من ناحيته دفع عن نفسه التهم بحدّة وعصبيّة، ومن ناحيتها عاتبت واشتكت بصوتها المهموس ودماثتها

الصامدة، ولـمّا فرغ صبرها شكته إلى أخيه الأكبر عمرو أفندي، وقال عمرو لأخيه:

- الناس تكبر تعقل. . .

فأكّد له أنّ الأوهام لا تريح زوجته، فقال عمرو:

- أولادك كبروا أيضًا. . .

وعلمت راضية بالمشكلة فراحت تقول لسلفتها:

- وأين يجد جمالًا كجمالك؟!

ولكنّها سرّت في باطنها وقالت لنفسها إنّ المرأة لا تحيا بجمالها وحده!

ولم تنجُ من عواقب الحزن فأصابها مرض السكّر والضغط وتناوبتها الوعكات وزحف الشحوب على رونقها المتألّق ليطفئه رويدًا رويدًا قبل الأوان. وقرأت دوامًا أحلام الجشع في نظرات سرور، وعاشت في جوّ ملبّد بسُحب المخاوف. وتناوبتها هواجس محضة بأنّه لولا الفقر لتزوّج مرّة أخرى، وهل يبعد أن يظفر بامرأة غنيّة تحبّه كما جرى حظّ عطا المراكيبي قديمًا؟! وطالما غبطت راضية على قناعة زوجها وعلوّ مكانتها في الأسرة نتيجة لمصاهرتها لآل المراكيبي وآل داود. وتقول لزوجها:

- انظر كيف يحبّون أخاك ويغدقون عليه الهدايا، أمّا أنت فقد أثرت نفورهم بحدّة لسانك!

وجاءت الحرب العظمى الثانية بإظلامها وغاراتها. ولكنّ أفظع غارة انقضّت من القدر على سرور نفسه فأتلفت صحّته وسلّمته ليد الموت قبل الأوان وهو في عامه الأخير من الخدمة. ضربة قاضية نزلت بها بغياب الرجل الذي لم يفتر حبّها له ساعة واحدة من عمرها رغم فتور رغبته وركود حبّه. وعقب عام واحد من وفاته أصابها نزيف في المخّ فراحت في غيبوبة امتدّت ثلاثة أيّام، ثمّ أسلمت الروح في صباح اليوم الرابع بين يدَي راضية. . .

زينة سرور عزيز

هي صغرى بنات سرور أفندي والرابعة في ذرّيته. اشتهرت بعينين خضراوين واسعتين وجسم سريع النضج يوحي بأنّه جسم امرأة لا بنت عذراء. وحجزت في البيت في سنّ مبكّرة بعد فكّ الخطّ في الكتّاب، ومضت نحو المراهقة في محطّة انتظار ابن الحلال. وذهبت جميلة إلى بيت الزوجيّة، وبقيت هي مع بهيجة في محطّة الانتظار. تفتّح شبابها على أسرتها حين دهمها الغروب والتوتّر في جوّ الإظلام والغارات، ولحظت من وقت مبكّر مناورات القلوب التي تدور بين بهيجة وقاسم، وفطنت بغريزة متوقّدة إلى أنّ سنّها المتماثل لا يرشّحها للزواج، وأنّه أولى بالفتى أن ينتبه إليها هي. ودأبت ستّ زينب على اصطحابها - هي وبهيجة - في زياراتها لبيوت الأسرة. شدّ ما تلتهمها الأعين ولكن يبدو أنّ أحدًا لا يراهما أهلًا للزواج. إنّها أسرة تستأهل ما يردّده أبوها عنها وأكثر. . . وحلّ المرض بقاسم فلاذ بعالَمه الجديد، وتلقّت أختها الطعنة في صمت وصبر وتسليم. ورحل أبوها ثمّ تبعته أمّها، فوجدت نفسها مع أختها وحيدتين، يلمّ بهما أخوها لبيب كلّما سمح له عمله خارج القاهرة. وقالت لهما راضية:

- الله لا ينسى عباده ومَن توكّل على الله فلا يحزن.

وذات يوم وكان لبيب يجالسهما في جلبابه، قال:

- جاءني أحدهم يطلب يدك يا زينة.

خفق قلبها، ونظرت نحو بهيجة نظرة مفعمة بالذنب. فقال لبيب:

- لكلّ إنسان حظّه، وفي وقت لا يتقدّم ولا يتأخّر.

فقالت بهيجة رغم غرقها في اليأس:

- صدقت تمامًا يا أخي. . . مبارك عليها. . .

فقال الرجل:

- من ناحيتي لا أستطيع أن أهمل فرصة. . .

وساد صمت ثقيل، ثمّ قال وكان ذا قدرة على مواجهة أحرج المواقف:

- اسمه صبري المقلّد، موظّف بشركة الكيماويّات.

فتمتمت زينة بريبة:

- شركة!

- أفضل من الحكومة. . . الدنيا تتغيّر. . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه الكبير:

- سمعت أنّه سكّير، وهو نفسه اعترف بذلك، ولكنّه أكّد لي أنّه تاب وأنّه يؤهّل نفسه للزواج

بجدّيّة... ما رأيك؟

قالت باستسلام:

ـ الرأي رأيك.

ـ هٰذا الكلام لا ينفع اليوم.. سوف ترينه بنفسك...

وجاء صبري المقلّد فاستقبله لبيب في حجرة الاستقبال القديمة. وتزيّنت زينة وارتدت أحسن ما عندها من ملابس ودخلت للقاء حظّها. لم تستطع أن تتفرّس في وجهه، ولٰكنّ لمحة كفت لإعطاء صورة عنه. كان نحيلًا بدرجة ملحوظة هائل الأنف كبير الشدقَيْنِ طويل الوجه. ولـمّا ذهب قال لبيب:

ـ لا يعيب الرجل قبحه... مرتّبه محترم... أسرته طيّبة... والرأي الأخير لك...

تبيّن لها أنّها تريد زوجًا بأيّ ثمن: لا صبر لها على تلك الحياة الكئيبة وليكن الله مع بهيجة. وزفّت إليه في بيت تملكه أمّه ببين الجناين... وبدت سعيدة بزواجها تمامًا وأنجبت له خليل وأميرة. وماتت أميرة طفلة مخلّفة جرحًا غائرًا في قلب الأمّ الشابّة. وكان صبري يكبرها بعشرين عامًا ولٰكنّها نعمت في كنفه بحياة طيّبة، فرفلت في أجمل الثياب وتناولت أشهى الأطعمة حتّى تمادت في السمانة وشابهت عوالم الزمان الأوّل. وقد صدمها زواج ابنها خليل من أرملة في مثل سنّها، ولٰكنّها عبرت محنتها بسرعة ودون أزمة حقيقيّة. ولم يكدّر صفوها إلّا الزمن الذي قطع ما بينها وبين أهلها جميعًا حتّى تخايلت لعينيها القبيلة القديمة المتداخلة باللقاءات المتواصلة مثل حلم لا ظِلّ له عن الواقع. وقد جاء الزمن بالراديو والتليفزيون وراحت القاهرة تتضخّم وتنهمر عليها الأحداث والحروب والعلل. وكأنّ بين الجناين أصبحت مثل غيرها من الأحياء مملكة مستقلّة لا تعبر حدودها إلّا في الملمّات..

حرف السين

سرور عزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في بيت الغوريّة على مرأى من بوّابة المتولّي، مع شقيقه الأكبر عمرو وأختهما الكبرى رشوانة. وترامى مراح طفولتهم ما بين البوّابة وسبيل بين القصرين حيث يجلس الأب عزيز على عرشه المائيّ. وكان سرور يشبه أخاه في طوله ووضوح ملامحه، ولٰكنّ وجهه أنبأ عن تناسقٍ ألطف كما مال جسمه إلى البدانة. وكانت جدّته نعمة المراكيبي تخصّه بحبّ لا يحظى بمثله عمرو أو رشوانة، وتدلّله رغم احتجاج عزيز وتحذيراته. ونشأ طبعًا مؤمنًا ولٰكن بلا قيود بخلاف أسرته جميعًا، فلم يؤدّ الصلاة، ولا الصيام حتّى بلغ الخمسين من عمره، وستنطبع أسرته الخاصّة بطابعه فيما بعد، وبدا كسولًا كارهًا للتعلّم فتعثّرت خطواته... أمّا في معابثة البنات ومطاوعة الغريزة فقد أنذر سلوكه بالمتاعب. وحاول جرّ أخيه عمرو معه ولٰكنّه لم يجد منه استجابة تُذكر، ووجد على العكس صدًّا وملامة. وقد تبادلا حبًّا أخويًّا متينًا وصمد في النهاية أمام ما شاب علاقتهما مع الزمن من خلافات. ومضى في مدرسته الابتدائيّة بصعوبة، ولم يكن حظّ عمرو أوفر منه، ولذٰلك ما كان يحصل على الابتدائيّة حتّى ألقى سلاحه، وسعد بوظيفة في السكك الحديديّة. كانت الابتدائيّة شهادة ذات شأن فارتاح بال عزيز وحمد الله. أجل تمنّى المزيد لابنَيه متأثّرًا بمثال أخيه داود باشا وابنه عبد العظيم، ولٰكنّه قال لنفسه «القناعة كنز». بل راح يفكّر في الخطوة التالية المهمّة وهي الزواج... ولمّا حادثه ابوه في الأمر وجد منه فتورًا، فصارحه بأنّه لا يبارك سلوكه وأنّه يرى في الزواج خير علاج له... .وانضمّ عمرو إلى رأي والده بحماس، وسرعان ما أذعن سرور احترامًا لهما وتطلّعًا لسحر الزواج أيضًا...ودلّتهم الخاطبة على بيت زينب، وذهبت قافلة من نعمة ورشوانة وراضية لخطبة زينب. وزفّت إليه في البيت المجاور لبيت أخيه بميدان بيت القاضي، وبهر سرور بجمال زوجته وطبعها الهادئ وخلقها الدمث، ووجد بين يديها الحبّ والشفاء، وأنجبت له في حياة موفّقة لبيب وجميلة وبهيجة وزينة وأمير وحازم. كان لسرور من وظيفته الرسميّة وزوجته الممتازة وذرّيّته الجميلة ما يؤهّله لطمأنينة النفس، ولٰكنّه كان دائمًا يحوم حول ما يفتقده

فخسر كثيرًا من الأحلام وأخَذَ الحسد قلبه ولسانه. جمع بينه وبين زينب حال واحدة، توارت عند زوجة وراء طبعها الهادئ وخلقها الدمث، وتجلّت مع فحولته غير المبالية. عرف ـ كان لا بدّ أن يعرف ـ ماذا كان جدّه عطا المراكيبي وماذا صار وكيف ابتسم له الحظّ، كما عرف الأصل الذي صدرت عنه باشويّة عمّه داود، واحتجّ على ثراء جدّه وفقر أمّه واتّهم جدّه بالدناءة والقسوة. ولسعته الغيرة من أخيه المحبوب عمرو لإغداق الجميع عليه بالحبّ والهدايا وتجاهله هو كأنّه ليس بشقيق عمرو، متغافلًا عن حدّة لسانه التي نفّرت القلوب منه. وضاعف من تأزّمه أنّ عمرو تخطّى ابنتيه وزوّج ابنيه من آل داود وآل المراكيبي. أجل لم تطف عواطف السخط إلى السطح فيما بين الشقيقين أو الأسرتين وغلب الحبّ دائمًا، ولكنّ الباطن ماج كثيرًا بالانفعالات المتضاربة. حتّى ما بين راضية وزينب فقد غطّاه السلام دائمًا، وحسن المعاشرة، وشدّ ما بكى سرور يوم وفاة عمرو كما احتضرت زينب تحت مظلّة حانية من تلاوة راضية ودموعها. وكما كان سرور دون أخيه في تقواه كان كذلك في وطنيّته، ولكنّ ثورة ١٩١٩ أودعت قلبه المتمرّد قدرًا من الدفء لم يتلاشَ حتّى النفَس الأخير. وظلّ يفاخر باشتراكه في إضراب الموظّفين كما لو كان المُضرِب الوحيد، وظلّت ذكريات مظاهراتها عالقة بخياله كأفتن الطيّبات التي عشقها في حياته. تلك الموجة العاتية الهادرة بأناشيد المجد التي جرفت الآباء والأبناء واقتحمت قلوب النساء وراء المشربيّات، ولذلك وجد في ارتداد آل المراكيبي وآل داود عن زعامتها المقدّسة مجالًا يضرب فيه لسانه بغير تحفّظ. يقول لأخيه:

ـ لنا خال لا يعبد في الدنيا إلّا مصالحه..

أو يقول:

ـ وبيت عمّنا الجليل المنضمّ لعدلي توهّمًا أنّه حقًّا من العائلات!

ومع الكهولة تفجّرت ثورة أخرى في أعماق سرور تمرّد بها على حبّ زوجته وانطلقت عيناه وغرائزه وراء أحلام المراهقة من جديد. ونشب الشقاق بينه وبين زينب الوديعة المحبّة الحزينة. وتعاتبه بصوتها المهموس:

ـ ماذا نصنع لو شكتك جارتنا إلى زوجها؟

فيقول بحدّة:

ـ لا يوجد أصلًا موضوع للشكوى.

ولـمّا شكته هي إلى عمرو صبّ غضبه عليها وهدّدها بأنّه سيتزوّج ثانية وقتما يشاء. وكان الزواج مرّة أخرى أمنية يعجز عن تحقيقها. والحقّ أنّه لم يخن زوجته إلّا مرّتين، واحدة في بيت من بيوت البغاء، والأخرى علاقة عابرة لم تدم أكثر من أسبوع. وحنق أكثر على فقره، وأكثر وأكثر على جدّه الفظّ، ودأب على شراء أوراق اليانصيب لعلّ وعسى، ولكنّه لم يجنِ من ذلك كلّه إلّا العتاب الصامت يلوح في أعين بكريّه لبيب وبناته، خاصّة عندما تدهورت صحّة زينب. ولـمّا رحل عمرو دهمه شعور بالوحدة والكآبة، وجاءت الحرب والإظلام والغارات فأعلن أنّ الحياة صفقة خاسرة، ولم يجد من سلوى في الحياة إلّا في عظمة ابنه لبيب الذي تاهَ بها مع الجميع، الأمر الذي زاده ثقلًا على قلوب الأهل. وفي الفترة الأخيرة من حياته انقطع عن زيارة آل المراكيبي وآل داود، ولكنّه كان يزور كثيرًا أبناء عمرو وبناته ويشارك في أفراحهم وأحزانهم، كذلك بيت أخيه، وكانوا يحبّونه منذ صغرهم وتضاعف حبّهم له عقب وفاة أبيهم. وفي العام الأخير من خدمته الحكوميّة أصابته أزمة قلبيّة وهو جالس في المشربيّة في ليلة خريف يرنو إلى الظلام الجاثم فوق البيوت والمآذن، متوقّعًا بين ساعة وأخرى نذير الغارة المعتاد. وقد فارق الحياة في أقلّ من دقيقة واحدة.

سليم حسين قابيل

آخر ذرّيّة سميرة عمرو وحسين قابيل. ولد ونشأ في شارع ابن خلدون. وتوفّي أبوه وسنّه عام واحد فترعرع في حياة منضبطة غير الحياة الرخيّة التي تقلّبت فيها أسرته وهو خاطرة في عالم الغيب. وكان وسيمًا كأمّه، فارع العود كأبيه، كبير الرأس والعقل كأخيه حكيم. ومنذ صغره تجلّت صلابته وعناده كما تجلّى تفوّقه الدراسيّ. وعدّته أخته هنّومة بتديّنها وصرامتها

الأخلاقيّة. وظنّ عهدًا طويلًا أنّه يتلقّى حقائق الغيب عن لسان جدّته راضية. وكان يحبّ كرة القدم ويجيدها، ويحبّ مخالطة البنات في حديقة الظاهر بيبرس، ويكره الإنجليز، ودائمًا تداعب خياله أحلام الإصلاح والمدينة الفاضلة. ولم يمل إلى حزب من الأحزاب، صدّه عن ذلك أخوه حكيم الذي رفض الجميع بدون استثناء. وسمع حكيم يقول مرّة:

- نريد شيئًا جديدًا.

فقال بتلقائيّة:

- مثل سيّدنا عمر بن الخطّاب...

واتّجه بدافع من مزاجه وبتأثير من هنّومة إلى الكتب الدينيّة في مكتبة أخيه. كان حلم المدينة الفاضلة يغلب عليه الكرة والبنات. ولـمّا قامت ثورة يوليو كان في المرحلة الثانويّة فرحّب بها بكلّ حماس كمنقذ من الضياع، وشدّ من ارتباطه بها الدور الذي لعبه شقيقه حكيم فيها. لأوّل مرّة خُيّل إليه أنّ المدينة الفاضلة تُبنى حجرًا بعد حجر. وظنّ أنّه بانضمامه إلى الإخوان إنّما يندمج أكثر في الثورة، فلمّا وقع أوّل تناقض بين الثورة والإخوان أبقاه قلبه مع الإخوان، ومضى يختلف مع شقيقه. وقال له حكيم:

- الحذر.

فقال:

- الحذر لا ينجّي من القدر.

والتحق بالحقوق ونشاطه السياسيّ - أو الدينيّ - في تصاعد. ولكنّ أحدًا من أهله لم يتصوّر أنّه سيكون بين المتّهمين في قضيّة الإخوان الكبرى. وتحيّر حكيم وقال لأمّه الجزعة:

- لا حيلة لمخلوق!

وحكم عليه بعشر سنوات فترنّحت سميرة تحت وطأة الضربة، ووجدت أنّ تألّق نجم حكيم لا يعزّيها شيئًا عن سجن سليم، فأضمرت الكراهية للثورة وراحت راضية تدعو على الثورة ورجالها، وخرج سليم من السجن قبل ٥ يونيه بعام فأتمّ المتبقّي له من الدراسة وحصل على الليسانس، وعمل في مكتب محامٍ إخوانيّ كبير. ولّما وقعت الهزيمة الكبرى اعتبرها عقابًا إلهيًّا على حكم كافر. ولم تنقطع صلاته بالزملاء ولكنّها مضت في تكتّم شديد وحذر، ووجد متنفّسًا في الكتابة فوهب لها سنوات من عمره تمخّضت عن ثمرة جيّدة في كتاب «العصر الذهبيّ للإسلام» ثمّ أتبعه بكتاب «أهل العزم والتقوى». وفي الوقت نفسه أحرز نجاحًا لا بأس به كمحامٍ، وتحسّنت أحواله الماليّة من رواج كتابيه خاصّة بعد أن ابتاعت السعوديّة منهما كمّيّة موفورة. ولـمّا رحل زعيم الثورة داخله شيء من الطمأنينة، فقالت له سميرة:

- آن لك أن تفكّر في الزواج.

فاستجاب لصوتها استجابة ملهوفة فقالت:

- عليك أن ترى هديّة بنت أمانة بنت خالتك مطريّة.

هي صغرى ذرّيّة أمانة وكانت قد رجعت توًّا من الخليج بعد اشتغالها بالتدريس هناك عامين واشترت شقّة في منشيّة البكري. وزار بصحبة سميرة بيت عبد الرحمن أمين وأمانة في الأزهر ورأى هديّة، مدرّسة جميلة في ريعان الشباب تمتّ بجمالها إلى جمال جدّتها مطريّة قمّة جمال الأسرة. وخطبتها سميرة وزفّت إليه واستقرّ بها في شقّتها بمنشيّة البكري. وحظي سليم بزوجة طيّبة وحياة عمليّة آخذة في الازدهار. وأنس في حُكم السادات مودّة ورحمة، ولم يقلقه إلّا التيّارات الدينيّة الجديدة التي انبثقت من الإخوان، ثمّ شقّت لنفسها مجاري جديدة محفوفة بالتطرّف والغموض. وكان يقول لأخيه حكيم:

- ثمّة صحوة إسلاميّة شاملة لا شكّ فيها، ولكنّها بعثت فيها بعثت خلافات قديمة تستنفد قواها فيما لا يجدي...

ولكنّ حكيم كان يهيم في وادٍ آخر، وكان - رغم عواطفه الشخصيّة - يعتبر ما حلّ بالنظام في ٥ يونيه كارثة محقّقة، وأنّ الوطن يمضي إلى مجهول. ومضت الأيّام فتلقّى سليم من ربّه عهد الأبوّة والوفرة في الرزق، والرضوان يوم النصر، ولا شيء من ذلك كلّه يزحم في نفسه إيمانه الراسخ وحلمه الأبديّ بالمدينة الإلهيّة الفاضلة، وجرف معه في تيّاره العارم هديّة حتّى قالت:

- كنت ضالّة فهديت والحمد لله...

وأصبح سليم من كتّاب الدعوة في مجلّة الإخوان، ودهمه ما دهم زمرته من غضب لمغامرة السادات الكبرى في سبيل السلام، وارتدّ مرّة أخرى إلى عنفوان السخط والتمرّد، حتّى صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١، ورُمي به في السجن من جديد. ولـمّا وقع حادث المنصّة قال:

ـ عقاب إلهيّ لحكم كافر...

وتنفّس الحرّيّة في جوّ جديد، ولٰكنّه كان قد فقد الثقة في كلّ شيء إلّا حلمه، فمن أجله يعمل ومن أجله يعيش...

سميرة عمرو عزيز

هي الرابعة في ذرّيّة عمرو والثانية في الجمال بعد مطريّة. ومن خلال لعبها فوق السطح وتحت شجرة البلخ في الميدان، أو دراستها في الكتّاب تبلورت لها شخصيّة رزينة وطبع هادئ وذكاء وقّاد. نادرًا ما التحمت في «نقار» مع إخوتها، وعند احتدام العنف كانت تنزوي في ركن قانعة بمشاهدة ما يجري ممّا ستُدعى للشهادة عليه فيما بعد. ورغم أنّها فاقت أمّها بجمالها، إلّا أنّها كانت تمتّ إليها في الهيئة العامّة ـ عدا الطول ـ الأمر الذي جعل راضية تخصّها بإعجاب شديد. وبخلاف أخواتها حفظت المبادئ التي لُقّنتها في الكتّاب ونمّتها بالاجتهاد فكانت الوحيدة بينهنّ التي تواظب على قراءة الصحف والمجلّات في الكبر.. وفي زياراتها لآل المراكيبي بسراي ميدان خيرت أو آل داود بالعبّاسيّة الشرقيّة كانت تسجّل في وعيها ما تراه من أناقة الترتيب وآداب المائدة وإيقاع الحديث وجمال الموضة وتحاول اكتسابه والتطبّع به ما وسعتها الحيلة وسمحت الظروف. وكان محمود بك عطا يقول بمزاحه الخشن:

ـ أنتم أسرة بلدي، ولٰكن فيكم بنت من بنات الفرنجة!

وأدركتها المراهقة ولٰكنّها لم تعاشر طويلًا أحلام العواطف الدفينة، إذ سرعان ما تقدّم لخطبتها صديق لأخيها عامر يدعى حسين قابيل صاحب دكّان تحف في خان الخليلي. زامَلَ أخاها حتّى البكالوريا ثمّ خلف أباه في الدكّان عقب وفاته. وكان رغم شبابه ذا سمات فحلة وثبت به إلى الرجولة قبل الأوان، ضخم الجسم، كبير الرأس، حادّ البصر، وعلى خلق كريم وثراء لا بأس به. وبخلاف صدريّة ومطريّة زفّت سميرة إلى زوجها في حيّ الظاهر، بشقّة في عمارة جديدة بشارع ابن خلدون. وجاء ذٰلك مناسبًا لها تمامًا، فصادفت كثرة من الأسر اليهوديّة، وتعلّمت العزف على البيانو، وربّت كلبة لوليّ كانت تصحبها في نزهاتها بحديقة الظاهر بيبرس. ولـمّا علم عمرو بذٰلك قال محتجًّا ومسلّمًا بالأمر الواقع في آن... ما شاء الله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله...

وكان حسين قابيل ميسور الحال وكريمًا، فتفجّرت ينابيع الحياة الرغيدة في مسكنه، وأشبعت سميرة هواها الكامن إلى الموضة والمعيشة الأنيقة، وضاعف من سرورها ما طُبع عليه زوجها من جميل المعاشرة وأدب المعاملة، وأمام الآخرين كان يخاطبها بقوله «يا سميرة هانم» وتناديه بقولها «يا حسين بك» وكان الرجل يجمع في قلبه بين الوطنيّة الصادقة والتديّن العميق، وينشرهما فيمن حوله، لذٰلك نفذت ثورة ١٩١٩ إلى عمق قلب سميرة لم تصل إلى مثله في قلب أيّ من أخواتها، كذٰلك كان تديّنها أسلم من الشوائب إذ كانت أقلّ أخواتها تأثّرًا بغيبيّات راضية. وقد أنجبت له بدريّة وصفاء وحكيم وسناء وفاروق وهنّومة وسليم، وجميعهم حظوا بنصيب موفور من الجمال والذكاء، وتعاون الوالدان على تربيتهم تربية سليمة في كنف الدين والمبادئ. ومن أوّل يوم قالت له:

ـ سنعلّم البنات كالصبيان.

فوافق بحماس، واستطاعت سميرة بتألّقها أن تحرّك شيئًا من الغيرة عند آل المراكيبي وآل داود أنفسهم، غير أنّ حياتها لم تخلُ من أحزان كثيرة ففقدت بدريّة وسناء وحكيم وأسرته، وانشقّ قلبها قلقًا على سليم في شتّى أطوار حياته. ومن العجيب أنّها كانت تلقى المصائب بإرادة مؤمنة صابرة قويّة، قادرة على تلقّي المصائب وهضمها، ومعايشة الحزن الباقي بحكمة جعلتها غرضًا سهلًا للاتّهام بالبرود. وتقول لها راضية:

ـ إنّك لا تؤمنين كما يجب بالحجاب والرقا والبخور والأضرحة، ولا علم إلّا علم الأوّلين..

وتتساءل سميرة في نفسها دون أن تبيّن هل أجدت هٰذه الوسائل في دفع المصائب عن صدريّة ومطريّة؟!. وحمّ القضاء فتوفّي حسين قابيل بعد مولد سليم بعام واحد وأربعة أعوام خلت على وفاة أبيها. ولم ترث عنه إلّا مخزنًا من التحف، دبّرت أمورها على عوائد بيعها عند الحاجة، وقد رحل الأب، وذرّيّته ماضية في مراحل التعليم ما بين الثانويّة والجامعة...

وسألتها راضية:

ـ ماذا تبقّى لك يا سميرة؟

فأجابت:

ـ مخزن من التحف.

فقالت المرأة:

ـ بل يبقى لك خالق السماوات والأرض...

حرف الشين

شاذلي محمّد ابراهيم

الابن الثاني لمطريّة ومحمّد إبراهيم وقد ولد ونشأ في بيت والديه بحارة الوطاويط. كان جميلًا ولٰكن دون أخيه أحمد المتوفّى درجة، وحلّ محلّ أخيه الراحل في زمالة خاله قاسم، ولٰكنّه لم يفز بالمنزلة الأسطوريّة التي فاز بها أحمد. ومن صغره خالط بيت جدّه عمرو، وآل سرور، والمراكيبي وداود، وثابر على ذٰلك في سائر أطوار حياته ناهجًا سبيل أمّه في حبّ الناس والإكثار من معاشرتهم. ومن صغره أيضًا تجلّت له مواهب سوف تصحبه في حياته كخفّة روحه وميله للهو وتطلّعه للمعرفة وحبّه البنات وتوفيقه في ذٰلك كلّه، رغم أنّه لم يحرز في حياته التعليميّة إلّا درجة وسطى. ولعلّه ورث عن أبيه حبّ الاطّلاع ووجد زاده في الكتب والمجلّات التي يقتنيها. وأضاف إلى معارفه من الأهل أصدقاء جددًا من قادة الفكر المعاصر، أيقظوه من سباته وألهبوه بالتساؤلات التي لم ينقطع عنها طيلة عمره. ورغم ثقافته الإنسانيّة المتنامية وجد استعداده في دراسة العلوم الرياضيّة فالتحق بكلّيّة العلوم، ثمّ اشتغل مدرّسًا كأبيه، واستقرّ في القاهرة بوساطة آل المراكيبي وآل داود. وواصل حياته مشغولًا بثقافته ولهوه عن المستقبل حتّى قال له أبوه:

ـ إنّك مدرّس، ومهنة التدريس ذات تقاليد، وأرى أن تفكّر في الزواج...

وقالت مطريّة:

ـ البنات في أسرتنا كثيرات، بنات خالاتك، وبنت عمّنا زينة!

وكان قد غازل الكثيرات دون جدّيّة، ولم يشعر نحو إحداهنّ بحبّ حقيقيّ، فقال:

ـ سأتزوّج بالأسلوب الذي أقتنع به...

فقال أبوه محذّرًا:

ـ المدرّس يجب أن يكون حسن السمعة...

حسن السمعة؟!. كان يعبر فترة من الحياة يتساءل فيها عن معنى كلّ شيء حتّى حسن السمعة!. وكان كلّما خلا إلى نفسه طرح هٰذا السؤال: مَن أنا؟!. كان ظمؤه إلى تحديد علاقته بالكون جنونيًّا مضنيًا. وكان لا يكفّ عن مناقشة الجميع، خاصّة من يأنس فيهم ميلًا للمناقشة، كابن خالته حكيم، وغيره من شباب آل المراكيبي وآل داود وآل سرور. وتجرّأ بعد ذٰلك على مقابلة طٰه حسين والعقّاد والمازني وهيكل وسلامة موسى والشيخ مصطفى عبد الرازق. ولم يكن الدين موضع رفضه ولٰكنّه أراد أن يعتمد على عقله حتّى آخر المدى، وكلّ يوم كان له شأن. حتّى خاله قاسم كان يحاوره ويناجيه. وحتّى الثاوون في مقابرهم من أهله كان يسائلهم في مواسم القرافة. ولمّا حمل جدّه عمرو إلى فراشه وهو يودّع الحياة، جيء بممرّضة تدعى سهير لتحقنه، فأعجب بها شاذلي رغم تسلّط الحزن. وراح يساعدها في تسخين الماء تحت مراقبة خفيّة من عينَي عفّت زوجة خاله عامر اللتين ندّت عنهما نظرة خبيثة ماكرة. وتوطّدت علاقة حبّ بين الاثنين قبل حلول الأربعين. وتبيّن له أنّه جادّ هٰذه المرّة أكثر ممّا تصوّر فأعلن رغبته في الزواج منها. وصارحته مطريّة قائلة:

ـ لك وجه جميل وذوق رديء!

وكان يردّ على العتاب بالضحك. وقالت مطريّة:

- أصلها واطي وجمالها مبتذل.

فقال لها:

- استعدّي للفرح.

وسلّم محمّد إبراهيم بالأمر الواقع دون اكتراث، ولم تفكّر مطريّة في إغضاب ابنها أكثر ممّا قالت، واختار شاذلي شقّة في عمارة جديدة بشارع أبو خوده واستقبل حياة الحبّ والزوجيّة. واستقالت سهير من عملها وتفرّغت لحياتها الزوجيّة، وأثبتت أنّها فتاة لبقة وطيّبة وسرعان ما حازت رضا حماتها. وكان شاذلي سيّئ الحظّ في ذرّيّته، توفّي له خمسة في سنّ الرضاعة، وعاش محمّد وحده، وصار ضابطًا في الجيش، ولكنّه استشهد في الاعتداء الثلاثيّ. وعاش شاذلي حياته منقّبًا عن ذاته، يقرأ ويناقش ويتساءل ثمّ يصطدم بجدار اللاأدريّة فيبدأ الشوط من جديد. ولم يهتمّ بالسياسة إلّا باعتبارها حوادث تدعو للتأمّل والمعرفة، فلم يقع تحت سحر الوفد، وتابع تقلّبات ثورة يوليو كما يتابع فيلمًا سينمائيًّا مثيرًا، ولكنّه حزن على ضياع محمّد حزنًا لم يبرأ منه طيلة عمره. وقال مرّة لشقيقته أمانة:

- كلانا لم يخلق للسعادة الصافية...

ووجد شيئًا من العزاء في حبّ ذرّيّتها، أمّا سليم ابن خالته وزوج هديّة بنت أخته فكان يخيفه بصرامته وحدّته. لم يجد في حواره متاعًا ولا لذّة.

وقال له سليم:

- حيرتك مستوردة ولا يجوز لمُسْلِم أن يقع فيها.

وظلّ على ودّه لقاسم رغم ما طرأ عليه، وكان يصطحبه أحيانًا إلى الكلوب المصريّ حيث تنهمر عليهما ذكريات الآباء والأجداد، وكمعلّم راح يراقب الأجيال المتعاقبة بذهول، وقال مرّة يحادث نفسه:

- لا أحد يشغل باله إلّا بلقمة العيش والهجرة فما جدوى العذاب؟!

شاكر عامر عمرو

ولد ونشأ في «بين الجنايين» وهو شارع تقوم على جانبيه بيوت حديثة وتمتدّ شرقيّه وغربيّه الحقول المزروعة بالخضروات وأشجار الحنّاء. وهو بكريّ عامر وعفّت وحفيد عمرو أفندي من ناحية وعبد العظيم باشا داود من ناحية أخرى. وكان دَخْل أبيه من مرتّبه ودروسه الخصوصيّة، بالإضافة إلى ملكيّة أمّه للبيت الصغير الأنيق ذي الحديقة الخلفيّة بتكعيبة العنب وشجرة الجوافة وشجيرات القرنفل، كلّ أولئك هيّأ معيشة حسنة المستوى للأسرة، كما وفّر لشاكر البكريّ مظهرًا جميلًا وتدليلًا لا يفتقر للإرشاد القويم. وبالرغم من تفوّقه الرياضيّ شقّ طريقه في المدارس بنجاح. ولّما لحق به في الوجود أخواه قدري وفايد لعبت الغيرة دورها بين الإخوة، ولم تخلُ من معارك، ونزاع مع الوالدين، ولكنّها اعتبرت رغم ذلك أسرة متماسكة يغلب عليها الوفاق. وكان للحبّ المتبادل بين الزوجين نفحاته الزكيّة في إضفاء جوّ السلام ونشر المحبّة، وبقدر ما تجلّى الأب صديقًا أبدت الأمّ محاولاتها في التسلّط. وأحبّ شاكر جدّه عمرو وجدّته راضية وتظاهر دائمًا باحترام غيبيّاتها، كما أحبّ جدّه عبد العظيم باشا وجدّته فريدة هانم حسام. وتلقّى عن آل داود احتقارهم التقليديّ لآل المراكيبي الذي اشتدّ بعد أن صارت شكيرة سلفة لعفّت أمّ شاكر. ونشأ شاكر، وانتماؤه لأسرته وذاته يغلب فيه أيّ انتماء لوطن أو لحزب من الأحزاب. ورث ذلك عن أمّه التي كانت غير منتمية بحكم تربيتها وإن أعلنت في المناسبات ولاءها للعدليّين متابعة لأبيها، أمّا الأب فلم يعد له من وفديّته القديمة - في بيت الزوجيّة - إلّا عاطفة باهتة أخفاها في أعماقه فلم يمتدّ تأثيرها إلى أولاده. والتحق شاكر بكلّيّة الطبّ، وخاض أوّل تجربة عاطفيّة جادّة في حياته بحبّه صفاء بنت عمّته سميرة. وكانت لهما قصّة ترامت أنباؤها إلى عفّت أمّه فجنّ جنونها. لم يكن في صفاء ما يعيب، فهي جميلة وطالبة في الآداب، وقريبته. ولكنّ عفّت، رغم علاقتها الطيّبة بآل عمرو ابن عمّ أبيها، إلّا أنّها كانت تَراهم دون مستواهم، وأنّ عروس ابنها يجب أن تكون من درجة أعلى بمراحل. وثار غضبها ولم تُخفِه، وعلمت به سميرة وآل عمرو، وأحدث ما أحدث من استياء، وفي الوقت نفسه لم يُبْدِ شاكر مقاومة جدّيّة لأمّه. فنصحت

سميرة ابنتها صفاء بقطع علاقتها بابن خالها. وغضبت الفتاة لكرامة أسرتها وقطعت العلاقة بعد اقتناع بعدم جدّيّة شاكر. لم يخرج شاكر من تلك التجربة مهيض الجناح ولٰكنّه لم يخلُ من حنق على أمّه. وقد تخرّج طبيبًا، وبفضل خاله الدكتور لطفي باشا عبد العظيم عُيّن في وظيفة بالمعامل بوزارة الصحّة، ثمّ أمكنه فتح عيادة خاصّة لأمراض الدم بعد بضع سنين. وراحت أمّه ترسم خطّة لتحقّق حلم الزواج الجدير به في نظرها. وكان هو يتردّد على ملاهي الهرم القديمة فأحبّ راقصة هنغاريّة، واكترى لها شقّة في الهرم، وتحوّلت العلاقة إلى حبّ حقيقيّ فتزوّج منها سرًّا، ولم يجرؤ على مكاشفة أمّه بالحقيقة ولٰكنّه كاشف بها أباه. وصعقت عفّت، وثارت ثورة علم بها القاصي والداني وكثر الشامتون. وانتقل الدكتور إلى مأواه الجديد وأنذر الحال بالانفصال الكلّيّ عن أسرته. وقالت راضية لعفّت:

ـ لا يجوز أن تخسري ابنك والزواج في النهاية قسمة ونصيب...

ومع الزمن رجعت العلاقات في أضيق الحدود. وقامت ثورة يوليو وانقلب المجتمع رأسًا على عقب، وطارت الباشويّة من آل داود، وهبطت قيمة الأطبّاء والقضاة، فحقد شاكر على العهد الجديد حقدًا أفسد عليه أعصابه. ودبّر أمره للهرب، فانتهز فرصة حضور مؤتمر طبّيّ في شيكاغو، وهاجر إلى الولايات المتّحدة وأقام بها قاطعًا علاقته بوطنه وأهله. وقد رجع في منتصف الثمانينات مصطحبًا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدّته راضية كضيف أجنبيّ، ثمّ سرعان ما رجع إلى وطنه الجديد...

شكيرة محمود عطا المراكيبي

فتحت عينيها على سراي ميدان خيرت برياشها وتحفها وحديقتها الغنّاء. من سوء حظّها أنّها اقتبست أهمّ معالمها من أبيها محمود بك متجاهلة أصل أمّها نازلي هانم المترع بالجمال والعذوبة، ربعة قويّة الجسم كبيرة الرأس خشنة القسمات، عنيدة متطرّفة في أحكامها متعصّبة لرأيها لا تتزحزح عن عاطفة، مع تديُّن قويّ وأخلاق متينة وعادات مهذّبة رفيعة. لولا ذٰلك ما خطب أبوها حامد عمرو لها بنفسه وقاية لها من الانتهازيّين. ورغم الفارق الشاسع بين الأسرتين فلم يتحمّس للزواج أحد من آل عمرو سوى عمرو نفسه. وأطلقوا على شكيرة منذ إعلان الخطبة «شكير بك عطا». وبكلّ أمانة أحبّت شكيرة زوجها الشابّ من أوّل يوم، وكانت على أتمّ استعداد لفتح قلبها لآله جميعًا. أجل لم يغب عنها ما يحمل في طيّاته من ذوق وتقاليد ومعاملة بعيدة بشعبيّتها كلّ البعد عن تربيتها الرفيعة المهذّبة، ولٰكنّها قالت لنفسها:

ـ كلّ شيء قابل للتغيير!

ولٰكنّها لاحظت أيضًا أنّ عاطفته كانت نهمًا عابرًا وأنّ طلائع الفتور لاحت في شهر العسل نفسه. ودهمها ذٰلك كصاعقة فآلمها أشدّ الألم وطعن برأسه السامّ المسنون حبّها وكبرياءها، ولم تكن تخفي عن أمّها شيئًا فقالت نازلي هانم:

ـ هٰذه أحوال تمرّ، كوني لبقة كيّسة.

وحدّثتها حديث الهوانم المجرّبات طاوية قلقها في قلبها. وقالت لها أيضًا:

ـ إنّه من بيئة شعبيّة، وبحكم عمله كضابط شرطة لا يتعامل إلّا مع الساقطين!

وكان حامد يعمل حاسبًا لجبروت حميّه ولإقامته بين أفراد قبيلته فلم يرتفع له صوت، ولٰكنّه كان يدسّ بدواته دسًّا رفيقًا ومؤذيًا في آن. وغضبت مرّة فقالت له:

ـ كثيرون لا يعرفون النعمة إلّا بعد زوالها!

فقهقه ساخرًا وقال:

ـ إنّ زواجك منّي هو النعمة حقًّا لك أنت!

ـ إذن لماذا رضيت؟!

ـ الزواج قسمة ونصيب.

ـ وطمع وجشع أيضًا.

هٰكذا بدأ عراك لم ينقطع على مدى السنين حتّى حسمه الطلاق فيما بعد. وارتفع درجة في حرارته فصاحت به مرّة:

ـ إنّك تنضح بالقذارة...

فسألها متهكّمًا:

- ألم يحدّثوك عن جدّك بيّاع المراكيب؟!

ولٰكنّ شكيرة رغم غضبها وصلابتها لم تخلُ من حكمة، فظلّت أسرار حياتها الزوجيّة التعسة خافية في أضيق الحدود، حتّى نازلي هانم لم تعلم بكلّ تفاصيلها. . . بل يمكن القول بأنّها لم تنضب من حبّ له رغم كلّ شيء حتّى وفاة أبيها، وأنجبت له وحيدة وصالح، وأملت كثيرًا أن يستقيم حاله مع الزمن ولٰكن دون جدوى. ولم تكن علاقتها مع أسرته بأحسن من علاقتها معه. كانت تعتبر راضية - قبل زواجها - امرأة غريبة الأطوار، ثمّ حكمت بعد ذٰلك بجنونها، وتبادلتا كراهية ماحقة رغم الصداقة الجميلة بين راضية ونازلي. وقالت نازلي:

- حذار أن تُغضبي حماتك، إنّها مؤاخية للجان!

فقالت شكيرة:

- اعتمادي على الله وحده.

كذٰلك تبادلت كراهية مع عفّت زوجة عامر ضاعفت ما بين آل عطا وآل داود من غيرة ومنافرة. ولّما رحل جيل الكبار تنفّس حامد وتطاير سخطه في الهواء بلا ضابط، وانتهى الأمر بالطلاق. وقد كرهت شكيرة حامد وأهله كراهية عميقة لم تخفِ حدّتها أبدًا. وواظبت على لعنه وتشريحه حتّى بعد موته. وفي وحدتها استغرقها التديّن وحجّت أكثر من مرّة، وكانت تحرص على الفرائض من صلاة وصوم وزكاة، كما تحرص على لعن أعدائها والدعاء عليهم في الدنيا والآخرة.

شهيرة معاوية القليوبي

هي الابنة الثانية للشيخ معاوية وجليلة الطرابيشيّة. ولدت ونشأت ببيت الأسرة القديم بسوق الزلط بباب الشعريّة، وملعبهنّ كان مدخل البيت ما بين الفرن والبئر وكنبة المعيشة، هو الذي جمع بين راضية وشهيرة وصديقة وبليغ. وفيه سمعت وصايا الشيخ الأب، وجرت كلمات جليلة محمّلة بغيبيّات العصور الخوالي. ومن بادئ الأمر لم تستجب شهيرة للدين وفرائضه ولٰكنّها استقبلت التراث الغيبيّ بحماس وأضافت إليه من خيالها الكثير، وكانت تشبه راضية جسمًا ووجهًا مع ميل أكثر إلى البياض وتفوّق في العنف وسلاطة اللسان وتمادٍ في غرابة الأطوار التي تماسّ حافة الجنون. وعقب وفاة أبيها بعامين خطبها أحد تلاميذه من قرّاء القرآن الكريم، ذو صوت عذب ومنظر وجيه ورزق موفور، فزفّت إليه في مسكنه بباب البحر غير بعيد من بيت الأسرة. وأنجبت منه ولدًا جميل الصورة أسماه أبوه عبده تيمّنًا باسم سي عبده الحامولي الذي كان مولعًا بصوته. ومضت حياتها الزوجيّة في توفيق رغم حدّة طبعها وسلاطة لسانها، ولٰكنّ الشيخ عليّ بلال - الزوج - كان يعلّق على ذٰلك بدعابة قائلًا:

- هٰذه توابل الحياة الزوجيّة.

وقد توطّدت مودّته لعمرو أفندي وآله، وكلّما زار بيت ميدان بيت القاضي رجاه عمرو أن يبارك البيت بتلاوة منه فيتربّع في حجرة الاستقبال عقب الغداء واحتساء القهوة ويقرأ ما تيسّر من القرآن الكريم بصوته العذب. وأغراه صوته وأصدقاؤه بإنشاد المدائح النبويّة في المواسم، فاتّسع مجال رزقه وكثر المعجبون به حتّى دُعي لإحياء بعض الأفراح بإنشاد المدائح. وفي ذٰلك الجوّ المعبق بالأفراح، والليالي الملاح جرت رجله لتدخين الحشيش. وأخيرًا اقترح عليه أحد الملحّنين أن يتحوّل إلى مطرب متنبّئًا له بمستقبل ورديّ. واستجاب للدعوة بقلب طروب، ولم يجد بأسًا في هجر السُّوَر الشريفة ليغنّي «إوْعَ تكلّمني بابا جَيّ ورايا» و«ارخي الستارة اللي في ريحنا» و«الهفّ يا لا بفّ يا سمك مقلي» ونجح في ذٰلك نجاحًا مرموقًا، وسجّل أسطوانات راجت في السوق وأذاعت اسمه على الألسنة. وضرب عمرو أفندي كفًّا بكفّ وقال:

- يا للخسارة. . .

وبدأت شهيرة تخاف على مكانتها الزوجيّة من إغراءات الوسط الجديد فقالت له:

- تزوّجتك شيخًا مباركًا فانقلبت إلى عالمة!

وثمل الرجل بنجاحه وصار واسطة العقد في كثير من جلسات الحشيش، ولم يتورّع بعد ذٰلك عن معاقرة الخمر وتبخير بيته آخر الليل برائحتها الكريهة النفّاذة مذكّرًا شهيرة بمأساة أخيها بليغ، فغطّى صوتها على

مؤذن الفجر في زجره وسلقه بلسانها الحادّ. ثمّ ترامى إليها أنّه بدأ يغازل العوالم فانقضّت عليه بوحشيّة فتحت له أبواب الجحيم على مصاريعها فقرّ عزمه على تطليقها. ولكنّه قبل أن ينفّذ عزمه أفرط ليلة في البلبعة فكبست على قلبه وأسلم الروح في مجلس أنس وهو يداعب أوتار عوده. وأدّت شهيرة طقوس الحزن بلا مشاركة وجدانيّة، وأجّرت البيت ودكّانين أسفله، وحملت عبده راجعة إلى بيتها القديم لتشارك أمّها وحدتها.

وقالت لها راضية:

ـ ليكن عبده لك قرّة عين...

ولكنّ عبده انخطف في حمّى كحلم بعد أن عرفت أمّه في الحيّ بأمّ عبده، والتصق بها اللقب حتّى آخر عهدها بالحياة. وولعت بتربية القطط، وكرّست حياتها للعناية بها حتّى ملأت عليها فراغ حياتها، وزحمت البيت القديم... وراحت تؤكّد أنّها باتت خبيرة بلغتها وبالأرواح التي تسكن أجسادها، وأنّها عن طريقهنّ تتّصل بعالم الغيب. ووجدت في راضية خير صديقة لها. وكان اجتماعهما سواء في بيت القاضي أم في سوق الزلط تمهيدًا طبيعيًّا لعقد جلسة غريبة تتبادل فيها الخبرات عن عوالم الجان والغيب وأبناء الأسرار الخفيّة، كانتا في ذلك قلبًا واحدًا وعقلًا واحدًا رغم سوء ظنّ راضية بها واتّهامها لها بحسدها على ذرّيّتها وزواجها الموفّق. واشتهرت في حيّ سوق الزلط بشخصيّتها الغامضة المرهوبة ولسانها السليط. ولم يعرف عنها أنّها أدّت فريضة، وكانت تجهر بإفطارها في رمضان وتقول:

ـ الواصل ليس في حاجة إلى فريضة تقرّبه من الله...

ولمّا رحلت أمّها غرقت في وحدتها وانغمست في دنيا القطط حتّى قمّة رأسها الأشيب. وكان أخوها بليغ يتعهّدها برعايته ويدعوها لزيارة قصره المنيف ولكنّها كرهت زوجته بلا سبب. ولم تكن تغادر القطط إلّا لزيارة سيدي الشعراني أو زيارة راضية... وفي عام ١٩٤٧ أصابها وباء الكوليرا فنقلت إلى مستشفى الحمّيات بعد أن أوصت جارة بالذهاب إلى راضية للعناية بالقطط. وماتت في المستشفى مخلّفة حوالي أربعين قطّة وقطًّا. وبكى أبناء وبنات راضية الخالة التي كانت تثير ضحكهم في حياتها...

حرف الصّاد

صالح حامد عمرو

نشأ في سراي ميدان خيرت في الجناح المخصّص لحامد وشكيرة. وهو وأخته وحيدة يمثّلان أوّل جيل للأحفاد في آل المراكيبي ولذلك حظيا بتكريم خاصّ من الجدود والأخوال. وكانت الحديقة الكبيرة ملعبه وحلمه، أحبّها في الربيع وهي تجود بأخلاط روائحها الزكيّة، كما أحبّها في الشتاء إذا غسلتها مياه الأمطار النادرة. وارتبط بأمّه أكثر من أبيه لانشغال أبيه بعمله، وارتبط بها أكثر كلّما لمس آثار محنتها مع أبيه. وكان قويّ الجسم كأبيه حسن الملامح كجدّه، ولكنّ أمّه ربّته تربية دينيّة أرستقراطيّة رفيعة فنشأ ذا ضمير ومبادئ تقوى، وكان عنيدًا كأمّه ممّا أضفى عليه شبهة غباء هو في الحقيقة أبعد ما يكون عنه. وأكّد ذلك تشدّده في الحكم على الناس، بالقران والسنّة، دون تسامح أو لين. وربّما كان أبوه أولى ضحاياه رغم حبّ الرجل الشديد له. هو أيضًا كان يحبّ أباه ولكنّه رآه مبتذلًا ووضعه في خانة واحدة مع الخطاة والساقطين مع إيلائه حقّه الكامل من البرّ والولاء. ولم يغب موقفه عن غريزة حامد، وشكا أمره إلى أخيه عامر قائلًا:

ـ شكيرة أنشأتهم على النفور منّي...

ومن أجل ذلك قال عامر لصالح مرّة:

ـ أنت رجل صالح يا صالح فلا تنس البرّ بأبيك.

فقال صالح:

ـ ما أهملت له حقًّا أبدًا.

ـ لعلّه لا يقنع بالرسميّات...

فقال بصراحته الحادّة:

ـ إنّه يظلم ماما يا عمّي.

وقرّب ذلك الخلق بينه وبين سليم ابن عمّته، مع فارق وهو أنّ سليم كان يقرن العاطفة بالعمل أمّا

صالح فكان يقول لنفسه:

ـ حسبي القلب وهو أضعف الإيمان...

لذلك أحبّ الإخوان دون أن ينخرط في سلكهم، وأدان ولاء آله ـ آل المراكيبي ـ للمَلك كما أدان الأحزاب جميعًا، وبمتابعة الصراع الدائم بين والديه نفر نفورًا عامًّا من آل أبيه، آل عمرو وسرور، كما احتقر آل داود، وآمن مع أمّه بأنّ جدّته راضية ما هي إلّا امرأة مخبولة! وبنجاحه المتواصل في المدارس قال له حامد:

ـ عليك بالطبّ وأنت أهل لذٰلك!

ولٰكنّ شكيرة قالت:

ـ بل الزراعة ولك أرضي بعد ذٰلك تعمل بها.

وطابت له فكرة أمّه فلعنها حامد في سرّه. وبعد تخرّجه في الزراعة سافر إلى بني سويف مصمّمًا على خلق مزرعة حديثة من أرض أمّه التي ورثتها بعد وفاة جدّه الجبّار. وخطب إحدى قريبات جدّته نازلي هانم وتدعى جلفدان، وتوفّر للعمل في الأرض بهمّة عالية، كما ربّى العجول وأقام منحلًا للعسل. وارتدى ملابس أعيان الريف. ولم يكن يرتدي البدلة إلّا حين زيارة القاهرة. ولّما قامت ثورة يوليو عاداها بقلبه رغم أنّها لم تمسّه بسوء، ورغم أنّه وجد خاليه عبده وماهر من رجالها. وفي عهد الانفتاح اتّسع رزقه وكثرت ذرّيّته وظلّ على ولائه لمبادئه. وازداد استياءً من أبيه بعد تطليقه أمّه وزواجه الثاني، ولٰكنّه لم يخلُ من حزن صادق لدى وفاته. وتأقلم بالريف وأحبّه وعشق عمله ونجاحه وأصبح يطلق على القاهرة «مدينة العذاب»...

صدريّة عمرو عزيز

قيل عنها بحقّ نحلة آل عمرو. كالآخرين ولدت ونشأت في البيت القديم بميدان بيت القاضي. بلون ضارب لسمرة أعمق، وقامة أميل للقصر، وجسم نحيل حسن التكوين، وقسمات مقبولة، استُقبلت بفرحة يشوبها فتور إذ انعقد الأمل بمولد ولد ولٰكنّها بحكم سنّها مارست الأمومة لإخوتها وأخواتها منذ الصبا. وكانت نجيّة أمّها ووريثة تراثها، ولم تخلُ أيضًا من قدر من الدين الصحيح. أمّا براعتها في فنون البيت من طهي وتنظيف وشغل الإبرة فكان مضرب الأمثال، وتعلّمت في الكتّاب أشياء وفكّت الخطّ ولو أنّها رُدّت إلى الأمّيّة لعدم الاستعمال. ولم تكن تكفّ عن العمل ولا عن الغناء رغم أنّها لم ترزق أيّ ميزة في حنجرتها، تُرى في المطبخ مساعدة لأمّها أو حالّة محلّها، أو جالسة إلى ماكينة الخياطة، أو فوق السطح تتفقّد أحوال الدجاج والأرانب. وعندما اكتظّ البيت بعامر ومطريّة وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم لعبت دور نائبة الأمّ وأسهمت في اللعب والسرور والصراخ والعراك وتفوّقت في كلّ. وقد اكتسبت منزلة لم يشاركها فيها أحد، وحافظت عليها حتّى آخر العمر، وقاسمت الجميع همومهم رغم ثقل همومها، وآمنت بأمّها واعتبرتها من صاحبات الكرامات. وما كادت تبلغ الخامسة عشرة حتّى تقدّم لطلب يدها صعيديّ من الأعيان يدعى حمادة القناوي فتحقّق الحلم الذي راودها منذ جاوزت العاشرة! وكان ذهابها يمثّل أوّل فراق في الأسرة وأوّل فرح لها. وكان حمادة من معارف عمرو، وكان من عشّاق القاهرة فأقام بها مع أمّه ـ عقب وفاة أبيه ـ مؤجّرًا أرضه البالغة ثلاثين فدّانًا لعمّه في قنا. وقد زارت رشوانة وراضية وزينب حرم سرور بيت الرجل بدرب القزّازين، وقالت رشوانة لأخيها عمرو:

ـ أمّ حمادة امرأة تقيّة لا تفوقها فريضة...

وفي مجلس ببيت عمرو جمع بينه وبين سرور ومحمود بك عطا قال سرور أفندي:

ـ العريس عاطل لا عمل له وهٰذا شيء رديء.

فقال عمرو:

ـ إنّه يملك ثلاثين فدّانًا.

فقال سرور بغروره الخاوي:

ـ ولو... إنّه لا يكاد يفكّ الخطّ...

فقال محمود عطا:

ـ قيمة الرجل في ماله.

وقال عمرو:

ـ وأسرته محافظة طيّبة.

وارتاحت صدريّة إلى منظره ذي الطول والقوّة،

وأناقة جبّته وقفطانه، ورجولة ملامحه، كما تـراءى لها من وراء خصاص المشربيّة. وزفّت إليه في بيت اكتراه في خان جعفر من أملاك الدهل الحلواني. وقد أهداها محمود عطا حجرة الاستقبال كما أهداها أحمد بك عطا حليًّا وثيابًا، وأهداها عبد العظيم داود ثوب العرس. وبدأت صدريّـة حياتهـا الزوجيّـة مع حمادة القناوي معتمدة على وصايا أمّها وبركاتها ومهارتها الفائقة كستّ بيت. وكـان حمادة مشكلة متعـدّدة الأطراف. أجـل تبادلا استجابة مفعمة بالمودّة، وشعر كلاهمـا بأنّـه في حاجة متينـة إلى الآخر. ولٰكنّ صـدريّة كـانت ذات حسّاسيّة وحدّة في الطبع والعناد لا يستهان به، وكان الرجل ثرثارًا ضيّق الذهن محبًّا للفخر والسيطرة، وهيّأ له فراغه غير المحدود التدخّل فيما يعنيه وما لا يعنيه. لم تعتد أنّ رجلًا يغطّ في نومه حتّى الضحى، ويستيقظ فيوقف نشاطها المنزليّ ليحدّثها حديثًا لا أوّل لـه ولا آخر عن أسرته وأمجادها وأمجاده هو الخياليّة، ويلاحقها بملاحظاته الغبيّة عن عملها الذي لا يفقه فيه شيئًا. ولم يكن يعـرف من دينه إلّا اسمـه، فلا يصـلّي ولا يصوم، ولا تكاد تمضي ليلة دون أن يسهر في البارزيانا فيشرب النبيـذ ويتعشّى بالمـزّة. لم يكفّا عن الـزوجيّة والإنجاب فأنجبت له «نهاد وعقل ووردة ودلال» ولم ينقطعا عن الجدل العقيم، فيفاخر بأسرته من الملّاك. وتُساق إلى المفاخرة بآل عطا وداود والشيخ معاوية بطل الثورة العرّابيّة، وأحيانًا تحتدّ المناقشة فيتبادلان أقسى الكلمات.

وكانت صدريّة حريصة على كتم بخار حلّتها تحت غـطائها المحكم، وعـلى حلّ مشـاكلها بنفسهـا دون إشراك أهلها فيها. ولٰكنّ راضية كانت تفطن إلى أشياء بوحي غريزتها، وأيضًا بما لمسته في الرجل من ثرثـرة موجعة للرأس. وقالت لابنتها:

ـ الزوجة يجب أن تكون طبيبة!

فقالت صدريّة:

ـ عليك بزيارة الأضرحة المفيدة لهٰذه الحال. . .

فقالت راضية:

ـ وما جدوى زيارة الأضرحة في هٰذه الحال؟. . . العلاج الناجع في قطع لسانه!

والواقع أنّ أذى ثرثرته لم يقتصر على زوجته ولٰكنّه جاوزها ـ بزياراته ـ إلى آل عمرو وسرور والمراكيبي وداود حتّى صار نادرة في الأسرة كلّها. وتبيّن لها بعد ذٰلك أنّ عينه لا تعرف الحياء، فهي تمتدّ إلى أيّ امرأة جميلة ذاهبة أو آئبة فتنغّص عليها صفوها أكثر وأكثر. وتسأله مستنكرة:

ـ أليس عندك حياء؟

فيقول ساخرًا:

ـ لا ضرر من النظر. . .

ولٰكنّها ضبطت إشـارات متبادلـة بينه وبـين أرملة حسناء تقيم في البيت المواجه لها. واشتعلت بهـا نار طيّرت النوم من عينيها فظلّت متيقّظة حتّى ميعاد عودته من سهرة البارزيانا. وغادرت بيتها إلى الطريق متلفّعة بالظلام وبيدها وعاء مملوء بالماء. وجاء الـرجل يشقّ الظلماء فأحسّت بباب بيت الأرملة وهو يفتح وشبحها يتخايل في مدخله. وتوقّف الرجل، ثمّ مال نحوها. وتقدّمت هي بسرعة إلى منتصف الطريق وقذفت بالماء على شبح المرأة فصرخت وتهاوت في الداخل. وذهل الرجل ونظر نحوها متسائلًا:

ـ مَن؟

فقالت بصوت محتدم:

ـ إلى بيتك يا قليل الحياء. . .

وكان تلك الليلة يترنّح. ودخل صامتًا، وهتف غاضبًا:

ـ سأثبت لك أنّي رجل متوحّش عند اللزوم. . .

ولٰكنّ الضحك غلبه في سكره فارتمى عـلى الكنبة وهو يقول:

ـ أنت امرأة مجنونة مثل أمّك!

وخاصمته زمنًا، ثمّ رجعا إلى المعاشرة والمناقرة، ولم يحسم الأمر بينهما إلّا المرض. أصابه ضغط دم أثّر في سلامة قلبه فاضطرّ إلى الامتناع عن الشرب وحلّ به خمول عامّ يشبه ـ في بعض مظاهره ـ الحكمة. ووفدت الأحزان، ففقدت صدريّة ابنتها وردة في عزّ شبابها، ثمّ أباها، وأختها مطريّة. وأخيرًا مات حمادة وهو في زيارة لأهله في قنا، وبقيت صـدريّة وحيـدة في خان جعفر رافضة الانتقـال إلى بيت ابنها عقـل رغم برّه

الشديد بها. ولمّا شعرت راضية بتدهور صحّتها قالت لصدريّة:

ـ أريد أن تكوني إلى جانبي حتّى تغمضي عينيّ. .

فأغلقت بيتها راجعة إلى البيت الذي شهد مولدها لتكون إلى جانب الأمّ التي فضّلتها على الجميع. كانت الأمّ قد جاوزت المائة بسنوات والابنة قد اقتربت من التسعين رغم تماسكها ونشاطها. وتقضّت تلك الأيّام الأخيرة في حومة الذكريات، وردّدت الأمّ أغنية كانت تردّدها في أواخر الربع الأوّل من القرن التاسع عشر ثمّ أسلمت الروح، فأغمضت صدريّة عينيها وهي تودّ أن تبكي فلا تستطيع. . .

صَديقَة مُعَاويَة القَليوُبي

ثالثة بنات الشيخ معاوية وجليلة الطرابيشيّة، وجاء مولدها بالبيت القديم بسوق الزلط بعد سجن الشيخ بنصف عام. وفاقت شقيقتيها راضية وشهيرة بجمالها، بل كانت بوجهها المائل للبياض وخدّيها المورّدتين وقسماتها المتناسقة وشعرها الأسود الغزير وقدّها الطريّ الرشيق مثالًا للحسن بغير منازع في الحيّ كلّه، ولم يفقها في الأسرة سوى مطريّة بنت عمرو وراضية التي شابهتها في الأصول وتجاوزتها في الخفّة والتهذيب. وكانت الوحيدة التي لم تنل حظّها من تربية الشيخ الدينيّة، فنشأت ثمرة خالصة لتراث جليلة، مع عذوبة في المعاملة وحبّ للغناء تزكّيه حنجرة لا تخلو من جودة في الأداء. ولجمالها وعذوبتها حظيت بأكبر قسط من حبّ أبناء راضية وبناتها، وتقدّم لها بعد وفاة أبيها بأعوام وبعد زواج شهيرة بعام واحد طبيب أسنان شاميّ من سكّان الحيّ فزفّت إليه، وأقاما في عمارة جديدة بالفجالة. وسرعان ما دهمتها الخطوب فمات زوجها قبل أن تحبل، ومرضت بالسلّ، ورجعت إلى حضن جليلة تنشد الأنس والشفاء. واهتزّت قلوب الأسرة لفجيعتها، وذوى جمالها وتغيّر حالها وتكالبت عليها الآلام دون أيّ أمل في الشفاء. وشعرت بأنّها تنحدر نحو الهاوية، وضاقت باليأس والألم والأرق والسعال، وفي لحظة يأس مدلهمّة رمت بنفسها في البئر. وصوّتت جليلة فهرع إليها أهل النجدة من الجيران، وانتشلوا صديقة وهي في الرمق الأخير. وقضت ساعات عذاب من ليل طويل محموم، يحيط بها أمّها وأختاها راضية وشهيرة، وقد اكتظّ المدخل بالرجال من الأسرة والجيران، وفاضت روحها بعد نضال معذّب قبيل الفجر وهي في عزّ الشباب واليأس والألم. وحزنت جليلة عليها طويلًا، وأمرت بتغطية البئر بغطاء متين من الخشب والاستغناء عنها كلّيّة. وكانت تحلم بها من حين لآخر وقالت مرّة لراضية:

ـ في ليلة سيدي الشعراني رأيت صديقة على مقربة من البئر واقفة في سحابة بيضاء مشرقة الوجه بابتسامة. . .

فصدّقتها راضية بإيمان عميق وسألتها:

ـ هل حدّثتك يا أمّي؟

فقالت جليلة:

ـ سألتها عن حالها فقالت لي إنّ الله غفر لها انتحارها، وإنّها تخبرني بذلك ليطمئنّ قلبي. . .

فهتفت راضية:

ـ الحمد لله الرحمٰن الرحيم. . .

فقالت جليلة:

ـ رأيتها في غاية من الجمال كالأيّام الماضية. . .

صَفَاء حسَين قابيل

هي الثانية في ذرّيّة سميرة وحسين قابيل، ولدت ونشأت في بيت ابن خلدون، ورضعت في مهدها اليسر والهناء مستظلّة بأيّام العزّ والهناء وخمائل حديقة الظاهر بيبرس. ومع أنّ جميع أبناء سميرة عُرفوا بالجمال والصحّة والنجابة، فإنّ صفاء كانت أوفرهنّ جمالًا ومرحًا. كما لاعبت جدّتها راضية ورقصت بين يديها ونفثت حرارتها الزكيّة في كلّ مكان تحلّ فيه. ونمت بسيطة ومتسامحة، تحبّ الحياة أكثر من المبادئ التي توزّعت إخوتها وأخواتها. وهام بها حسين قابيل هيامًا واعتدّها تحفة أجمل من جمع التحف التي يتاجر بها. ومضت في الدراسة بنجاح حسن، والتحقت بكلّيّة الآداب قسم اللغة الإنجليزيّة، ومات حسين قابيل

تاركًا في قلبها جرحًا عميقًا، وشعرت بعناء أمّها وهي تعدّ الأسرة لمستوى جديد من المعيشة فخيّم على مرحها ظلام أشدّ من ظلام ليالي الحرب والغارات. وتلاقت في تجوالها بشباب الأسرة ما بين آل سرور والمراكيبي وداود ولْكنّ شاكر ابن خالها عامر كان الذي ألقى عليها شباك اهتمامه وإعجابه. كان طالبًا بالطبّ فأمكنهما أن يلتقيا كثيرًا بعيدًا عن تقاليد الأسرة، وبلغ قلبها فطامه على يديه، فاعتقدت بأنّه فتى المستقبل المأمول لإسعادها. ولم يغب عنها حرصه على إحاطة علاقتهما بالسرّيّة، ولم تدرك لذْلك مغزًى، فسألته مرّة:

- ممّ تخاف؟

فأجاب بصراحة وسخط:

- ماما!

فعجبت لشأنه وشأنها وحدست أنّه ليس الرجل كما ينبغي له. ورجعت ذات يوم من كلّيّتها فوجدت أمّها واجمة متجهّمة فأدركت لسابق معرفتها بقوّة انضباطها أنّ حدثًا قد حدث.

وقالت سميرة باستياء:

- عفّت زوجة خالك!

وخنق قلبها وشعرت بتلاشي أملها. وقالت سميرة:

- صارحتني بلا حياء بأنّ عليّ أن أمنعك عن ابنها. . .

فهتفت صفاء بغضب:

- ولْكنّي لا أطارده.

فقالت سميرة بأسًى:

- أغلقي هٰذا الباب بالضبّة والمفتاح. . .

أجل. لا مفرّ من ذٰلك. ولا نجاة من الألم، ولْكن لماذا؟. وواصلت سميرة:

- ينظرون إلينا من فوق، وقديمًا حصل ذٰلك مع خالتك مطريّة!

تساءلت بحنق:

- كيف يتصوّرون أنفسهم؟!

- ما علينا، أريد أن أطمئنّ عليك. . .

فقالت باستهانة:

- اطمئنّي تمامًا. . .

وقد تجرّعت ألمًا ومهانة ولْكنّها لم تخلُ من بعض سجايا أمّها الفريدة وهي القدرة على التصدّي للكوارث. وانقطعت العلاقة مشفوعة بالازدراء. وتخرّجت، وتعيّنت مترجمة بإدارة الجامعة بوساطة الأكابر من أهل أمّها!. ورآها السكرتير المساعد للإدارة فرغب في الزواج منها. كان يكبرها بحوالى عشرين عامًا ولْكنّه ذو درجة عالية ودَخْل لا بأس به. ووزنت العرض فوجدته مناسبًا لحالها تمامًا، وتبيّن لها أنّها «عمليّة» أكثر ممّا ظنّت. وزفّت إلى صبري بك القاضي بفيلّته بحدائق القبّة. ووهبتها حياتها الجديدة ما تحبّ من عيشة رغدة وزوج محبّ كريم وأمومة قنعت بولدين عليّ وعمرو. ولـمّا قامت ثورة يوليو لعبت بأسرتها كما شاءت فرفعت شقيقها حكيم وضيّعت سليم، ومن حسن حظّها هي أنّ صبري القاضي كان قريبًا لضابط مهمّ فترقّى في مدّة قصيرة حتّى شغل وظيفة وكيل وزارة التربية، وأحيل إلى المعاش لبلوغه السنّ ولْكنّه دفعها مرّات حتّى وصلت إلى درجة مدير عامّ. وأشرفت بنفسها على تربية عليّ وعمرو حتّى التحقا بالسلك السياسيّ. هٰكذا تألّق هٰذا الفرع في عقد البيروقراطيّة الماسيّ ونجا من شرّ العواصف.

حرف العين

عامر عمرو عزيز

أوّل هديّة من عالم الغيب تغمر قلبَي عمرو وراضية بالفرحة والرضا والفخر، وتؤكّد الحقيقة التي يؤمن بها ميدان بيت القاضي وهي أن ليس الذكر كالأنثى. وجاء مشرقًا بوجه مليح، يقتبس ملاحته من خير ما حظيت به راضية من استقامة الأنف وعلوّ الجبهة، وما ستعرف به سميرة فيما بعد من دقّة القسمات وتناسقها. ومن أبيه أخذ هدوء الطبع والتقوى ونزعة القيادة والرعاية. طالما جمع أخواته فوق السطح ليقوم بينهنّ بدور شيخ الكتّاب، وبيده عصا منعه من استعمالها الحياء والعذوبة. ونشأ نظيفًا أنيقًا يطوف بالأحياء باسمًا متأمّلًا ويتربّع أمام ضريح الحسين لاهجًا بالدعاء. ونجح دائمًا في كسب الأصدقاء من الجيران، من طبقته

ومن الطبقة الأعلى. ولم يستطع الأدنون أن يتحرّشوا به أبدًا. وفاز بالحظوة أيضًا في سراي ميدان خيرت وعند آل داود. وشقّ طريقه التعليميّ بالنجاح وتفوّق في العلوم والرياضة، وبفضل كبراء الأسرة نال امتياز المجّانيّة فتخفّف أبوه من عبء لم يكن ليتحمّله وهو في حومة تزويج صدريّة ومطريّة وسميرة... ومنذ صباه حدث الميل المتبادل بينه وبين عفّت بنت عبد العظيم باشا داود. حدث فوق السطح في ظلّ الغسيل المنشور، ونما مع الأيّام والزيارات المتبادلة حتّى صار حبًّا وحلمًا للمستقبل. وكانت تلك الأمور تقع سرًّا ولكنّ رائحتها تفوح كالوردة، وانتصر الحبّ أوّل ما انتصر على البنت المترفّعة التي كانت تنظر إلى أسرتها من عَلُ كأنّ الله لم يخلق للنبل إلّا أسرتها. وقالت فريدة هانم حسام لعبد العظيم باشا:

ـ نحن نربّي بناتنا في المدارس الإفرنجيّة ليكنّ صالحات لطبيب أو وكيل نيابة من أسرة...

فقال الباشا:

ـ عمرو ابن عمّي ولا أعدل به أحدًا...

وكانت الهانم تشاركه عواطفه، وتحبّ راضية، وتحبّ عامرًا بصفة خاصّة فسرعان ما استجابت. وسرّ عمرو وراضية بذلك، وكان عمرو تيّاهًا فخورًا بأقاربه العظام فاعتبر ارتباطه بهم بالمصاهرة فوزًا كبيرًا. وكان محمود عطا بك يفكّر في عامر كزوج لشكيرة، فلمّا سقط الفتى في أيدي منافسيه قال لعمرو:

ـ سيكون حامد لشكيرة...

وتمّت بذلك سعادة عمرو، الأمر الذي عرّضه لملامة شقيقه سرور، فأخذ عليه تجاهله لبناته، ودافع عمرو عن موقفه متعلّلًا بجمال بنات أخيه اللاتي لا يخشى عليهنّ من البوار، وبفقر أولاده الذين في حاجة إلى دعامة. فقال سرور بمرارة:

ـ إنّهم يضنّون عليك بالذكور...

فتألّم عمرو ولكنّه قال مستوحيًا طبيعته المتواضعة:

ـ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه...

فقال سرور وهو يداري غضبه:

ـ أصبحت يا أخي درويشًا لا تغضب!

وودّ عامر أن يلتحق بمدرسة الطبّ معتمدًا على تفوّقه العلميّ، ليكون أهلًا بكلّ معنى الكلمة بعفّت، ولكنّ أباه اختار له مدرسة المعلّمين لامتيازها بالمجّانيّة، قائلًا لابنه المحبوب:

ـ المجّانيّة في الطبّ متعذّرة، والعين بصيرة واليد قصيرة...

وكان عامر مثالًا في الطاعة والتجاوب مع الحقائق مهما تكن مرارتها، فقال لأبيه متظاهرًا بالرضا:

ـ المعلّمين مدرسة عليا على أيّ حال...

وتسامحت عفّت وآلها، وقالت عفّت لنفسها إنّ معلّمًا تحبّه خير من طبيب لا تحبّه. وهضم عامر خيبة أمله العسيرة ومضى في طريقه مكلّلًا بالنجاح والرضا. ولـمّا قامت ثورة ١٩١٩ دخل معبدها مع أسرته، واشترك في المظاهرات، من قلبه الصافي يحيا سعد. وكان في السنة النهائيّة فسرعان ما ابتعد عن النشاط المباشر بممارسة حياته العمليّة. وقد اتّفق على الزواج بعد عام واحد من ذلك التاريخ. أصبح ضيفًا في أسرته التي لم يخلّف في صدور أبنائها إلّا كلّ طيّب، باستثناء المشاحنات التي كانت تقوم بينه وبين أخيه حامد بسبب طبيعة حامد المتمرّدة وسلوكه الجامح... وكم بذلت راضية من تعاويذها وتمائمها لطرد روح الشرّ من بين الشقيقين، ولكن ما إن بدأ حياتهما العمليّة حتّى حلّ الصفاء مكان الكدر. وكان عبد العظيم داود قد شيّد لابنته بيتًا في بين الجناين، دخلته الكهرباء والماء والمجاري، وتحلّى في خلفيّته بحديقة صغيرة، فانتقل عامر مع عروسه المتفرنجة إلى البيت الجديد ليستهلّ حياة زوجيّة سعيدة طويلة. وقد هزّ الزواج أسرة آل عمرو من أوّل يوم. وضح تمامًا أنّ العروس الجديدة من طراز مخالف لأخوات عامر، فهي متخرّجة في المير دي دييه، ترطن بأكثر من لغة، وتتقن اللعب بالبيانو، وتعرف معلومات عن فرنسا وتاريخها وديانتها ولا تكاد تعرف شيئًا عن بلدها تاريخًا أو عقيدة، وتفاخر بذلك دون خفاء، برغم تفشّي الروح التي أطلقتها الثورة الوطنيّة. وكانت ذات شخصيّة قويّة متسلّطة فالتهمت شخصيّة زوجها الوديعة الدمثة، فلم يجرؤ الشابّ على تذكيرها بأنّ الصوم واجب في رمضان، وصام وحده معتمدًا على نفسه في إعداد

سحوره، وإلى ذلك فقد بُهر برطانتها ومهارتها في العزف. ولّما خرج العدليّون على سعد زغلول وجد عامر نفسه غريبًا في آل داود، وتجنّب تكدير الصفو بالدفاع عن وفديّته الكامنة فطواها في صدره. ولم تكن عفّت تهتمّ بالسياسة أيّ اهتمام جدّيّ، ولكنّها جارت أباها تعصّبًا له ليس إلّا، وكانت تقول لزوجها:

ـ لا وجه للمقارنة بين عدلي باشا النبيل وبين زعيمك الأزهريّ!

فيبتسم عامر متحاشيًا الجدل، ومرّة سأله عبد العظيم داود:

ـ هل تعتقد حقًّا أنّنا نستطيع تحمّل أعباء الاستقلال؟

فتساءل عامر:

ـ لِمَ لا؟

فأجاب الرجل:

ـ حسبنا استقلال ذاتيّ ولكنّنا بدون حماية الإنجليز نضيع بلا رحمة...

أيضًا فإنّ راضية غضبت من تعالي عفّت واستسلام عامر رغم صداقتها الوطيدة مع فريدة هانم، ورغم إعجابها بجمال عفّت، وقالت لابنها:

ـ الرجل يجب أن يكون سيّدًا في بيته...

وقالت لعمرو:

ـ عفّت تتوهّم أنّها أميرة...

فقال لها الرجل:

ـ لا تحرّضي عامر على ما يفسد سعادته...

واقتنعت بذلك آخر الأمر، خاصّة بعد أن أنجبت عفّت شاكر وقدري وفايد الذين أحبّتهم راضية بمجامع قلبها. واستوعب الحبّ المكين كافّة التناقضات، واستوت زيجة عامر وعفّت مثلًا نادرًا في الزيجات الموفّقة. زواج لم يعرف الملل أو الانتكاس أو الفكر وأثار الغيرة والحسد، قال حامد عنه:

ـ سرّ سعادة أخي أنّه ذاب في إرادة زوجته، يا له من ثمن...

وعلى عادة سرور أفندي في النقد المرّ قال يومًا لزينب زوجته:

ـ لقد تزوّج حامد برجل كما تزوّجت عفّت بامرأة...

ووفّق عامر في حياته المهنيّة توفيقه في حياته الزوجيّة، فكان من أحبّ المعلّمين إلى تلاميذه وأعظمهم تأثيرًا فيهم، ومن القلّة التي تعيش ذكراها مع الأجيال التي تربّيها حتّى آخر العمر. وقد انتفع بذلك في زيادة إيراده بفضل الدروس الخصوصيّة، وفي تذليل كثير من الصعوبات بفضل ذوي النفوذ من تلاميذه السابقين، أمّا أعلى درجة سجّلها حظّه فقد حدثت بعد قيام ثورة يوليو ووجدان اثنين من تلاميذه في مجلس قيادة ثورتها. أمّا عفّت فقد مقتت الثورة لإلغائها باشويّة شقيقها ولم تغفر لها استهانتها بالمهن الرفيعة كالطبّ والقضاء، ولكنّ عامرًا شعر بأنّه ـ بفضل تلميذيه ـ من رجالها رغم وفديّته المكبوتة بين جدران آل داود. ولم تكن سعادة عامر بأبنائه دون سعادته بزواجه لتفوّقهم ونجاحهم، ولكنّهم أحدثوا له ولأمّهم متاعب، لم تجرِ لهم على بال، سواء كان ذلك بسبب السلوك الشخصيّ أم بسبب السياسة. ثمّ عرف كلّ أمر مستقرّه، واستقبل عامر حياة معاش امتدّ ربع قرن في بيت صار مثالًا لرفقة الشيخوخة كما كان مثالًا لسعادة الحبّ. وحافظ الرجل على صحّته وحيويّته، يقرأ الصحف والمجلّات، ويسمع الأغاني، ويشاهد التليفزيون. ولتفوّقه في الصحّة وتدهور زوجته راح يقدّم لها الخدمات ويشرف بنفسه على الخادم والطاهية، ويلاعب الأحفاد، أو يونخزه الحنين فيمضي مع أحد أبنائه في سيّارته إلى الحيّ العتيق، فيزور البيت القديم حيث يقيم قاسم، ويصلّي في الحسين، ويجلس ساعة في الفيشاوي، ويتناول غداءه عند الدهّان، ثمّ يرجع إلى بين الجناين منتشيًا مغرّد الروح. وعاش حتّى قارب التسعين، فطرب لأمجاد يوليو، وانكوى بخمسة يونيه، وأفاق في ١٥ مايو، وطرب مرّة أخرى في ٦ أكتوبر المجلجلة، وانقبض في ٦ أكتوبر الدامية، وفارق الدنيا بهدوء يغبط عليه كختام حسن. استيقظ صباحًا في ميعاده، مضى إلى المطبخ ليعدّ الشاي لنفسه ولعفّت، وعاد به ليحسواه في الفراش ولـمّا فرغ من قدحه قال:

ـ قلبي ليس على ما يرام.

واستلقى على ظهره ليستريح، وسرعان ما مال رأسه على الوسادة وكأنّما قد غفا . . .

عبد العظيم داود عزيز

الابن الوحيد الذي بقي من ذرّيّة داود باشا وسنيّة الورّاق. نشأ في بيت السيّدة وتلقّى تربية رفيعة من أمّ هانم وأب يعتبر من الرجال المعدودين في عصره. ومنذ صغره خالط أهله في الحيّ العتيق، وأحبّ بصفة خاصّة ابن عمّه عمرو، ولٰكنّه خالط أيضًا نوعًا آخر من البشر هم الأجانب من أقران أبيه الذين كثيرًا ما تناولوا عشاءهم على مائدته وتبادلوا الأنخاب. تقلّب بين التراث والمعاصرة ولٰكنّ الدين لم يلعب في حياته عشر معشار دوره في حياة صديق روحه عمرو. وكان نحيلًا أسمر وسيم الطلعة كبير الرأس راجح العقل كبير الطموح. وشقّ طريقه الدراسيّ بتفوّق ثمّ التحق بكلّيّة الحقوق. كان أمل أبيه أن يجعل منه طبيبًا ولٰكنّه عشق البلاغة والآداب وتخصّص في القانون المناسب لأمثاله من أبناء الكبراء. وتعيّن في النيابة دون حاجة إلى وساطة أبيه العظيم واستحقّ من أوّل يوم احترام رؤسائه وخاصّة الإنجليز. ولعلّه أوّل من اختار زوجة برؤية عينيه في أسرته. لمح فريدة في حنطور الأسرة، فسرّه لونها الأبيض وقسماتها الأنيقة، ثمّ عرف اسم الأسرة. وذهبت سنيّة الورّاق وراضية ورشوانة لزيارة الأسرة الكريمة ورفع التقرير عنها. وكان حسام تاجر حرير سوريًّا وذا مال، وزفّت إليه فريدة في فيلّا شارع السرايات مصطحبة معها جمالًا جديدًا ومالًا واستعدادًا طيّبًا للمعاشرة الزوجيّة. وأنجبت له مع الأيّام لطفي وغسّان وحليم وفهيمة وعفّت. وكان عبد العظيم ممتازًا في عمله وذا اهتمام بالسياسة. وكان من أنصار حزب الأمّة وصديقًا لبعض رجاله المبرّزين وممّن يؤمنون بتهريج الحزب الوطنيّ. وتوهّج فؤاده بالحماس لثورة ١٩١٩ ولكن ما إن انقسمت الجبهة حتّى مال بعقله وقلبه إلى عدلي يكن وصحبه. وكان يرمق انزعاج ابن عمّه عمرو مقهقهًا ويقول:

ـ سَحَرَك المهرّج الكبير. . .

فيقول عمرو:

ـ إنّه زعيم الأمّة وأملها. . .

كان عمرو يشعر بدفء الرابطة بينه وبين عبد العظيم عندما يزوره هٰذا في بيت القاضي، أمّا إذا ذهب عمرو إلى فيلّا السرايات فتواتيه غربة في الجوّ «الإفرنجيّ» الذي يسود السلوك والعادات، من ذٰلك أنّ عبد العظيم باشا كان يفتح شهيّته عادة بكأسين من الويسكي، أو يخاطب كريمته فهيمة وعفّت أحيانًا بالفرنسيّة! وكان محمود عطا المراكيبي يتودّد إلى الباشا ويحبّ أن يوثّق علاقته به رغم المنافسة الخفيّة بين الأسرتين. والحقّ أنّ عبد العظيم باشا لم يكن يميل إليه ولٰكنّه تبادل معه الزيارة إكرامًا لابن عمّه عمرو. وقد أراد محمود بك أن يستعين بنفوذه في إحدى قضاياه الكثيرة فقطّب عبد العظيم وقال بوضوح:

ـ الظاهر أنّه لا فكرة لك عن نزاهة القضاء. . .

وكان محمود بك يؤمن ـ بوحي حياته العمليّة ـ بأنّ الشعار شيء والواقع شيء آخر، فصدمه جفاء صاحبه ولعنه في سرّه. ولٰكنّه وجد نفسه معه في جبهة واحدة بعد الانقسام السياسيّ. وأراد أن يهوّن من شأن الخلاف فقال:

ـ الولاء للملك أو الإنجليز سيّان. . .

فقال عبد العظيم باشا:

ـ لا ولاء للإنجليز ولٰكنّها صداقة. . .

ـ أليس الملك أفضل؟

ـ الملك ذو ولاء للإنجليز ونحن دعاة الدستور.

ـ ولٰكنّ الدستور سيسلّم الحكم لسعد.

ـ لعلّه وَهْم. . .

ـ إنّه يسحر الناس بدعوة الاستقلال التامّ، وبهٰذه المناسبة ما رأيك في هٰذه الدعوة؟!

فقال الرجل وهو يهزّ رأسه الكبير:

ـ المجانين لا يعرفون معنى الاستقلال، الاستقلال مسئوليّة ضخمة، من أين لنا الإنفاق على الدفاع؟! . . . أليس الأفضل أن نترك ذٰلك للإنجليز ونتفرّغ لإصلاح أحوالنا؟

فقال محمود بك بحرارة:

ـ صدقت، واستقلال زغلول خليق بأن يقود إلى

ثورة عرّابيّة جديدة. . .

وقد حقّق لطفي البكريّ لأبيه أمله بخلاف غسّان وحليم، ولٰكنّ عبد العظيم يعتبر بصفة عامّة أبًا سعيدًا. وكاد لطفي ينحرف عندما مال إلى مطربيّة بنت عمرو ولٰكنّ الله سلّم، وإن أسف عبد العظيم على موقفه من ابنة حبيبه عمرو. وولي مع الأيّام مناصب قضائيّة عظيمة ثمّ أحيل إلى المعاش وهو رئيس لمحكمة الاستئناف العليا. ولقوّة حيويّته عمل محاميًا حتّى الخمسينات، ثمّ تقاعد بعد أن طعن في السنّ. ولم يقعد عن الحركة فكان يذهب كلّ مساء إلى مقهى لونابارك ليلعب الطاولة مع المعمّرين من جيله. ولـمّا قامت ثورة يوليو كان قد توغّل في الشيخوخة للدرجة التي يهون معها الاهتمام بالأشياء. وأصابه التهاب حادّ في البروستاتا فنقل إلى المستشفى ولٰكنّه أسلم الروح بعد يومين.

عبده محمود عطا المراكيبي

ولد ونشأ في سراي ميدان خيرت. وهو الثالث في ذرّيّة محمود بك ونازلي هانم. واتّسم منذ صغره بالوسامة والنجابة، وتربّى في أحضان العزّ، وتلقّن مبادئ الأخلاق والتهذيب والتديّن على يد أمّه الجميلة المهذّبة، ونما نَفورًا من الاختلاط بصفة عامّة فعرف أهله من آل عمرو وسرور ورشوانة ولٰكنّه لم يتّخذ صديقًا منهم. وأغرم بالرياضة وتفوّق خاصّة في السباحة، وعشق المطالعة، وشقّ طريقه في المدارس بتفوّق أهّله للالتحاق بكلّيّة الهندسة. ولـمّا تخرّج التحق بسلاح المهندسين بالجيش بعد المعاهدة. وبدأ يخرج عن خطّ الأسرة السياسيّ فلم يتشيّع للملك كأبيه وعمّه، ولٰكنّه انضمّ إلى الجيل القلق الغاضب على الجميع والمتطلّع إلى الجديد مثل قريبه حكيم حسين قابيل. واقترحت عليه أمّه الزواج من آل الماوردي وهم أسرة إقطاعيّة، فتزوّج. واستأجر لعروسه شقّة أنيقة في الزمالك، غير أنّ ذٰلك الزواج لم ينجب ولم يوفّق ولعلّ فائدته الوحيدة انحصرت في تعريفه بنفسه وأبعادها. تبيّن له أنّه رغم يسره لا يطيق الإنفاق ويتألّم لبذل قرش واحد في غير موضعه ودون حساب وتخطيط. وكانت جولستان من محبّات البذخ والحياة الاجتماعيّة والتباهي بكافّة جماليّات المظاهر المبهرة، فعجز كلّ طرف عن النزوع عن شيء من تقاليده وعاداته، فارتطما في عنف جعل من حياتهما جحيمًا لا يطاق. وقالت له الفتاة بصراحة:

ـ لم نخلق لحياة مشتركة.

فقال لها متلمّسًا طريقه للنجاة:

ـ أوافق على ذٰلك دون قيد أو شرط!

وهجرت بيت الزوجيّة انتظارًا للطلاق، ودُرست المسألة على أعلى المستويات، فوجد عبده من والديه تأييدًا لموقفه أو على الأقلّ معارضة صريحة لأسلوب جولستان في الحياة. وقال محمود بك:

ـ أنا لا أحبّ الطلاق ولٰكنّه ضرورة لا مهرب منها في بعض الظروف.

ووقع الطلاق جارًّا وراءه خسائر مادّيّة لا يُستهان بها ما بين مؤخّر الصداق والنفقة ممّا حمل الشابّ على اتّخاذ قرار من الزواج التزم به بقيّة عمره. وعاد إلى حجرته الجميلة بالطابق الثاني من سراي ميدان خيرت، مكرّسًا نشاطه لعمله ومطالعاته المتنوّعة. وألف المزاج بينه وبين أخته نادرة وأخيه ماهر، وانضمّ الأخوان في الوقت المناسب إلى الضبّاط الأحرار. ولـمّا قامت ثورة يوليه وجدا نفسيهما بين رجال الصفّ الثاني، وكان محمود بك قد توفّي قبل ذٰلك فنجا الورثة من قبضة الإصلاح الزراعيّ. وتقلّد عبده مركزًا قياديًّا في سلاح المهندسين، وعقب النكسة تولّى رياسة شركة المعادن جزاء ولائه المستمرّ لعبد الناصر. ورغم تأثّره الشديد لهزيمة ٥ يونيه إلّا أنّه كان ضمن الذين اعتبروا أنّ خسارة الأرض كارثة تهون بالقياس إلى النصر المعنويّ الذي حقّقه البلد بالاحتفاظ بزعامة عبد الناصر والنظام الاشتراكيّ. وطبعًا لم يكن سعيدًا بطرد أخيه ماهر لولائه لعبد الحكيم عامر، كما لم يسعد من قبل بإحالة أخيه الأكبر حسن إلى المعاش، وتعزّى دائمًا بقوله:

ـ الوطنُ فوق كلّ شيء. . .

واستُغنِيَ عنه في عهد الرئيس السادات فآوى إلى

بيته وأرضه، ولـمّا هلّ عصر الانفتاح أنشأ مكتبًا هندسيًّا مـع بعض الزمـلاء وأثرى ثـراء فاحشًـا. ولم يبـارح السراي التي ولـد فيها ولا الـطبع الـذي قضى عليه بالوحدة، والتزم بالحياة البسيطة رغم إيغاله في الثراء ويقينه من أنّه يكنز المال للآخرين . . .

عدنان أحمد عطا المراكيبي

ولـد ونشأ بسراي آل المراكيبي بميـدان خـيرت، وتلقّى في أحضان النعيم مبادئ التربية الرفيعة والدين. وبالرغم من أنّـه نما بـين والد وديـع دمث وأمّ هانم جليلة المقام والخلق (فوزيّة هانم شقيقة نازلي هانم)، إلّا أنّه كان أشبه بعمّه الجبّار محمود بك في صلابته وميله إلى السيطرة. وكان أكثر ذٰلك الجيل حبًّا لآله الآخرين عمرو وسرور ورشوانة، وتعلّقًا بـالحيّ العتيق. ومن بادئ الأمر تمرّد باطنه على عمّه الجبّار الـذي يفرض سطوته على السراي بما فيهم أسرة شقيقه أحمد. وما كاد يناهز الحلم حتّى أعلن سخطه على وصايـة عمّه واستئثاره بإدارة الأرض كأنّه مالكها الوحيد. وسأل أمّه عن سرّ ذٰلك فقالت:

ـ أبوك راضٍ بذٰلك. . .

فانقلب إلى أبيه يحاوره، حتّى نغّص عليه صفوه. وقال له بصراحة:

ـ إنّه لوضع مهين!

وما زال وراءه حتّى أخرجه من جنّته فكان ما كان فبدأ الخصام الذي قسم الأسرة العريقـة إلى جبهتين متعاديتين، فأنكر الأخ أخاه والأخت أختها وأبناء العمّ والخـالة أبنـاء عمّهم وخالتهم. وتحـدّى عدنـان عمّه فبصق هٰذا على وجهه، وتبادل عدنان وحسن الضرب في حديقة السراي، فأظلّت الأسرة غمامـة سوداء مـا زالت تحجب النور والدفء عنها حتّى تلاشت عنـد احتضار أحمد بك. وتسلّم أحمد بك أرضه وهو على جهل تامّ بكلّ شيء، وحدثت خسائر لا مفرّ منها، حتّى ختم عدنان دراسته الزراعيّة وهرع إلى بني سويف فتسلّم العمل من أبيه وأنقذه من التلف. وكان عدنان بخلاف أخيه وأبناء عمّه يعشق بنـات البلد، فأحبّ أرملة في الخامسة والثلاثين عـلى حين لم يكن جـاوز الثلاثين، وأعلن رغبته في الزواج منها غير ملقٍ بالًا إلى جزع أمّه، وحقّق رغبته وجاء بستّ تهاني إلى السراي ثمّ حملهـا إلى سراي العزبـة. وقـد أنجبت لـه فؤاد وفاروق ثمّ انقطعت عن الحمل. وكانت كلّما ضاقت بالريف سافرت إلى القاهرة لتنكّد عيشة فوزيّة هانم. ولمّا قامت ثورة يوليو كان عدنان ـ لأكثر من سبب ـ الوحيد الذي طبّق عليه قانون الإصلاح الزراعيّ، ولم يكن يختلف عن أبيه وعمّـه ولاءً للعـرش وكـراهيـة للثـورة، ولٰكن لم ينـدّ عنـه قـول أو فعـل يعـرّضـه للمؤاخذة. وقد نجح فؤاد في أن يصير زراعيًّا كأبيه ويعاونه، أمّا فاروق فلم يـوفّق في الدراسـة واحترف الإجـرام عـلى الأسلوب الـريفيّ حتّى قُتـل رميًـا بالرصاص وهو يغـادر المسجد عقب صـلاة الجمعة. وقد سعد عـدنان بـالاعتداء الـثلاثيّ ولٰكنّ سعادتـه انتكست، وسعد أكثر في ٥ يونيه، وتمّت سعادته في سبتمـبر ١٩٧٠، وبتولّي السـادات رجع الـرجل إلى الشعور بالولاء نحو الحاكم، وشاركه بقلبه انتصاراته في ٦ أكتوبر والسلام، أمّا الانفتـاح فقد اعتـبره بابًـا من أبواب الجنّة، وعمل في تربية العجول والدجاج والبَيض وربـح أربـاحًـا خياليّـة، ولم يكتفِ بذٰلـك فانضمّ إلى الحزب الوطنيّ وانتخب عضوًا في مجلس الشعب. . .

عزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في الدور الأوّل من بيت الغوريّة في ظلّ بوّابة المتولّي، وهو بكريّ يزيد المصري وفرجة الصيّاد. وقد أنجب الزوجان ولدين وأربع بنات فماتت البنات وهنّ في المهد وبقي عزيز وداود. وتمتّع الولدان بصحّة جيّدة ونموّ يبشّر بالقوّة مع وسامة في الخلق ووضوح في الملامح، واتّخذا من الطريق العامر بالناس والحوانيت وعربات اليد المحفوف بالجوامع والمآذن ملعبًا ما بين البوّابة ووكالة الورّاق في الجماليّـة حيث كان يشتغـل أبوهما خازنًا بوكالة الورّاق. وجاءت الحملة الفرنسيّة وذهبت قبل أن يبلغ الشقيقان الوعي فمرّ بهما نابليون بونابرت كما يمرّ بيّاع الفجل أو بيّاع الدوم. ولّما استوى

عزيز طفلًا ناضجًا قال عمر يزيد المصري بلكنته الإسكندريّة:

ـ آن أوان الكتّاب...

فاعترضت فرجة الصيّاد قائلة:

ـ بل أرسله إلى أمّي في السوق...

فقال:

ـ فكّ الخطّ هو الذي يَسَّرَ لي عملي في وكالة الورّاق...

وكانت فرجة تؤمن بالسوق التي جاءت منها ولكنّها لم تستطع أن تثنيه عن رأيه. وبارك رأيه فضيلة الشيخ القليوبي في قهوة الشربيني، فقال:

ـ نِعْمَ الرأي.. وبعد الكتّاب إلى الأزهر.

ولاذ الصديق الثالث عطا المراكيبي بالصمت. وعطا المراكيبي كان ساكن الدور الثاني ببيت الغوريّة هو وزوجه سكينة الفرارجي وابنته الوليدة نعمة. وقد تمّ التعارف بين الرجال الثلاثة في دكّان عطا المراكيبي في الصالحيّة، ثمّ صارت تجمعهم قهوة الشربيني بالدرب الأحمر فيشربون الزنجبيل ويدخّنون الحشيش. وكان الشيخ القليوبي مدرّسًا في الأزهر وقد دعاهما على الغداء أكثر من مرّة في بيته بسوق الزلط. رأوا وليده معاوية وهو يلعب بين البئر والفرن. وتساءل عطا المراكيبي:

ـ هل تُدخله الأزهر بعد الكتّاب؟

فقال يزيد:

ـ يفعل الله ما يشاء.

لكنّه كان يقنع من الدين بالفرائض المتاحة كصديقه عطا ولا طموح له بعد ذٰلك. والتحق عزيز بالكتّاب ثمّ لحق به داود فحفظا أجزاء من القرآن وتعلّما مبادئ القراءة والكتابة والحساب. وفي تلك الأثناء وقع داود في مصيدة التعليم ونجا عزيز بمعجزة ظلّ يحمد الله عليها حتّى آخر عمره. وكان من حياة داود ما كان أمّا عزيز فلمّا بلغ سنّ العمل سعى له الشيخ القليوبي في ديوان الأوقاف فتعيّن ناظرًا لسبيل بين القصرين. ارتدى الجلباب والمركوب وشملة من الكتّان صيفًا وأخرى من الصوف شتاءً، ولكنّه استبدل بالعمامة الطربوش فعُرف في الحيّ بعزيز أفندي على سبيل الفكاهة، ثمّ التصقت به على مدى العمر. وتقرّر له ملّيم على كلّ قربة فقال له يزيد:

ـ مَنَّ الله عليك بوظيفة مهمّة...

لم يكن يحزنه في تلك الأيّام السعيدة سوى عثرة حظّ أخيه، وتضاعف حزنه حين تقرّر إرساله إلى فرنسا. وسأل صديقه الشيخ معاوية الذي حلّ محلّ أبيه في الأزهر بعد تقاعد الرجل لكبره:

ـ ما ذنب داود يا شيخ معاوية؟

فأجاب الشابّ:

ـ ليس كلّ علوم الكفّار بكفر ولا الإقامة في بلاد الكفّار، وليحفظه الله...

ودخل عزيز في فرن المراهقة، وتسلّل إليه رغم تقواه الخطأ فقال يزيد لفرجة:

ـ علينا أن نزوّجه...

فقالت فرجة:

ـ نعمة بنت صديقك عطا مليحة ومناسبة...

وزفّت إليه البنت في بيت أبيه بالغوريّة. وعقب عامين تزوّج صديقه الشيخ معاوية من جليلة الطرابيشيّة في بيت سوق الزلط. وعاش يزيد المصري وفرجة حتّى شهدا مولد رشوانة وعمرو وسرور، ثمّ مات يزيد في أثناء عمله بالوكالة ودفن بحوشه الذي بناه على كثب من ضريح سيدي نجم الدين بعد حلم رأى فيه الشيخ وهو يدعوه إلى جواره، ولحقت به فرجة الصيّاد بعد عام واحد من وفاته. وحدثت أمور ذوات شأن، فقد ماتت سكينة أمّ نعمة، وتزوّج عطا المراكيبي من أرملة غنيّة كانت تقيم في الدور الأعلى للبيت المواجه لدكّانه، وانتقل الرجل فجأة إلى طبقة عالية، فشيّد سراياه بميدان خيرت، وابتاع عزبة ببني سويف، وأنجب على كبر محمود وأحمد، واستهلّ حياة جديدة كأنّما هي حلم من الأحلام. ووجد عزيز أفندي نفسه صهرًا لرجل عظيم من الأعيان كما وجدت نعمة زوجته نفسها ابنة لذٰلك الرجل العظيم. ولهجت الألسنة بقصّة عطا المراكيبي وحظّه وذوبان الزوجة الغنيّة تحت جناحه، ولكنّ نعمة لم يصبها من ذٰلك كلّه خير، لا هي ولا أسرتها، فيما عدا بعض الهبات في المواسم. وقال الشيخ معاوية لصديقه عزيز:

ـ إذا سبقت الزوجة زوجها في الوفاة ورثها مع ابنيه، فترثه زوجتك، أمّا إذا سبق هو فلا حظّ لحرمك...

وكان آل عطا وآل عزيز يتبادلون الزيارات، ويختلط عمرو وسرور ورشوانة بمحمود وأحمد، ويقلّب عزيز عينيه في الحديقة والتحف ويغمغم في نفسه:

ـ سبحان المنعم الوهّاب...

ويقول لصديقه الشيخ معاوية:

ـ إنّه جلف لا يستحقّ النعمة.

فيقول الشيخ:

ـ لله في خلقه شئون...

وفي أثناء ذلك رجع داود من فرنسا طبيبًا، ثمّ تزوّج من حفيدة الورّاق وأقام في بيت السيّدة وأنجب عبد العظيم. وعلّم عزيز أفندي ابنيه عمرو وسرور فتعيّن عمرو في نظارة المعارف كما تعيّن سرور في السكك الحديديّة، وتزوّجت رشوانة من صادق بركات تاجر الدقيق بالخرنفش وزفّت إليه في بيته ببين القصرين، وتزوّج عمرو من راضية كبرى بنات الشيخ معاوية كما تزوّج سرور من زينب النجّار، وانتقل الأخوان إلى بيتين متجاورين في ميدان بيت القاضي. ولمّا قامت الثورة العرّابيّة اشترك فيها عزيز بقلبه ولكنّ الشيخ معاوية أسهم بقلبه ولسانه، وحكم عليه بالسجن بعد تصفية الثورة.

وقد تمّ زواج عمرو من راضية في الفترة التي أعقبت الإفراج عن الشيخ، ولكن لم يتسنّ للشيخ شهود الزفاف فقد وافاه الأجل بعد أسبوع من إعلان الخطبة وقراءة الفاتحة. وحظي عزيز أفندي بالصحّة وطول العمر والراحة الزوجيّة ولم يعانِ الفقر أو الحرمان، وتمتّع بدفء الوشائج العائليّة ما بين ميدان خيرت والسيّدة وسوق الزلط، وتقدّست منزلته عند ذرّيّته كما فرح بتعليمهم وانتسابهم إلى الحكومة وخطرانهم في البدلة والطربوش. ولم يخلُ مع الأيّام من اعتزاز بمنزلة شقيقه الأصغر ورتبته، خاصّة بعد أن اطمأنّ إلى إيمانه ومحافظته على الفرائض وولائه الودود له وجلوس الأسرتين حول الطبليّة كلّما آنسه بالزيارة وطوافه معه بالحسين والقرافة. ومَنّ الله عليه فشهد مولد أحفاده، وأكرمه أخيرًا بميتة طاهرة فأسلم الروح وهو ساجد فوق سجّادة الصلاة في صباح يوم من أيّام الخريف في بيت الغوريّة.. ودُفن إلى جوار أبيه في حوش الأسرة الذي أصبح يُعرف بحوش نجم الدين...

عِفّت عَبد العظيم دَاوُد

ولدت ونشأت بفيلّا الأسرة بشارع السرايات بالعبّاسيّة الشرقيّة. وبها ختم عبد العظيم باشا داود وفريدة حسام ذرّيّتهما المكوّنة من لطفي وغسّان وحليم وفهيمة وعفّت. ولدت عفّت على وسامة لا يستهان بها، امتزج في وجنتيها بياض أمّها الشاميّة وسمرة أبيها فأسفرا عن لون قمحيّ مورّد وعينين لوزيّتين سوداوين لا تخلو نظرتهما من تسلّط ومكر، وتقلّبت في نعيم في فيلّا أنيقة تحدق بها الرتب والنياشين فنهضت ـ كسائر أعضاء أسرتها ـ على قوائم راسخة من الكبرياء والتعالي والغرور... ومن بادئ الأمر لم يرضَ الأب لكريمتيه الأمّيّة أو شبه الأمّيّة كبنات الفروع الأخرى، كما لم يفكّر في تعليمهما تمهيدًا للعمل الأمر الذي رآه أولى ببنات الفقراء من عامّة الشعب، فاختار لهما التعليم التهذيبيّ في نظره الذي يعدّهما للزواج من الكبراء. ووجد بغيته في المدارس الأجنبيّة والمير دي ديبه بصفة خاصّة. وتعلّمت عفّت الفرنسيّة والإنجليزيّة والآداب وفنّ البيت والموسيقى، وتشرّبت روحها بتراث غريب حتّى ليخيّل للرائي أنّها إفرنجيّة ذوقًا وعقلًا وتراثًا. ومع أنّها لم تنطق بكلمة تخدش إيمانها إلّا أنّها عاشت حياتها وهي تجهل دينها وتراثها جهلًا تامًّا، ولا تجد في ذاتها أيّ انتماء إلى وطنها رغم معايشتها لثورة ١٩١٩، لولا تعصّب سطحيّ لموقف أبيها السياسيّ انطلقت إليه من منطلق الكبرياء والأسرة. ولكنّ الغريزة تمرّدت على ذلك كلّه فأمالت قلبها منذ الصغر نحو عامر قريب أبيها. في ذلك الزمان كانت رابطة الأسرة أقوى من الطبقة والرتبة والجاه والثروة، وكانت زيارة بيت القاضي تعدّ في وجدان آل داود من الرحلات الممتعة، بمناظرها

الطريفة وأغذيتها البلدي وغيبيّـات راضية، رغم أنّ شعورهم بالتعالي لا يمكن أن يفارقهم. ولم يجد الميل المتبادل بين عامر وعفّت معارضة في بيت عبد العظيم، بل لعلّه وجد ترحيبًا. وعلى أيّ حال فالنظرة إلى البنت تختلف عن النظرة إلى الولد، فإهداء بنتهم إلى ولد من آل عمرو لا بأس من قبوله، أمّا أن يرغب ولد من آل داود في بنت من بنات عمرو أو سرور فانحراف خطير يجب أن يكبح بكلّ حزم. ودماثة أخلاق عمرو هوّنت عليه التسامح مع ذلك الموقف وتلمُّس الأعذار له، أمّا سرور فلم يعفه من لسانه الحادّ الذي أبعده درجات عن قلوب آل المراكيبي وآل داود جميعًا. كـان عند الضرورة يقول متهكّمًا:

ـ لماذا ينسى آل عـطا العـظام المراكيب ودكّـان الصالحيّة؟. . . ولماذا ينسى آل داود عمّ يزيد وفرجـة السمّاك؟

ولمّا آن لعفّت أن تتزوّج شيّد لها الباشا بيتًا جميلًا في بين الجناحين استقبلت فيه حياتها الزوجيّة السعيدة التي حطّمت منطق أعداء الزواج. أجل فمنذ اليوم الأوّل سلكت عفّت سلوك أمـيرة وضعتهـا الـظروف بـين الرعيّة، فلم تخلُ الحياة الجديدة من توتّرات بين عفّت وأخـوات عامـر، أو بنات سرور، أو شكـيرة عندمـا صارت سلفة لها، بل حتّى راضية نفسها على ما بينها وبين فريدة حسام من مودّة، ولكن لم ينعقد الخصام لحدّ القطيعـة أو العداوة، وغلب دائـمًا هوى المـودّة القديمة الراسخة، أمّا ما بين الزوجـين فقد مضى في عذوبة وسلام، وتسليم كلّيّ من جانب عامـر لإرادة محبوبته القويّة فلم يرتفع له صوت غضب أكـثر من مـرّات معدودات، ولم يبيتـا أبدًا عـلى خصام. وقـد أنجبت له شاكر وقدري وفـايد، ولم تستـطع أن تمدّ فوقهم مظلّة سطوتها، فجرح شاكر كبرياءها، وحرّك قدري مخاوفها وإشفاقها، ولكنّ ثلاثتهم كـانوا أمثلة طيّبة للنجابة والنجاح. وقامت ثورة يـوليو وتعـاقبت الهزائم ثمّ حلّ النصر والسلام وتجمّعت سحب الفتن والجريمة، وهي لائذة بحصن المتفرّج لا يعنيها شيء إلّا بقدر أثره المباشر على أسرتهـا أو أبنائهـا. وتقدّم بهـا العمر وهدأت نـوازع كبريـائها ونعمت رغم جـريان الأحداث برفقة حبيب العمر والأبناء والأحفاد، حتّى غاب عامر عن دنياها في غمضة عين وهو يحـادثها، ومن ثمّ استقبلت حياة صامتة تعلوها كآبة دائمـة. . .

عطا المراكيبي

في الأصل كان صبيًّا في دكّان الصالحيّة لصـاحبها المغربيّ جلعاد المغـاوري، التقطه الـرجل يتيـمًا وربّاه وأذن لـه بالبيـات في دكّانـه. وأثبت الصبيّ جـدارة وأمانة، ولزم صاحبه حتّى صار شابًّا يافعًا قويّ الجسم ربعة غليظ القسمات ضخم الرأس، فزوّجه من ابنته الوحيدة سكينة وجعله نائبه في الدكّان. وأقام معه في مسكن الغوريّة جارًا للمعلّم يزيد وابنه عـزيز. ولـمّا رحل جلعاد وزوجه ورثت سكينة الدكّان شرعًا وورثها عطا فعلًا. وكان متحلّيًا بأخلاق التجّار الدمثة يغطّي بها خشونة سجايـاه فأمكنـه أن يكون صـديقًا ليـزيد والشيخ القليوبي. أمّـا سكينة فكـانت على قـدر من الوسامة وبنيان هلهله الضعف، فتلكّأ إنجابهـا فترة، ثمّ أنجبت نعمة عقب ولادة عسيرة كادت تبذل فيها حيـاتها. وورثت نعمـة عن أمّها عينيهـا السـوداوين النجـلاوين ونعومـة بشرتها السمـراء وغزارة شعـرها الكستنائيّ مع صحّة جيّدة. وكانت سكينة جارة حسنة الجـوار ففازت بقلب فـرجة السمّاك ومهّدت بـذلك الطريق لزواج نعمـة من عزيـز في الوقت المنـاسب. وجمـع مقهى الشربيني بـالـدرب الأحمـر بـين الشيـخ القليوبي ويزيد وعطا ليلة بعد أخرى، وشـهد الرجال نابليون بونابرت على جواده وهو يسير على رأس جنوده أمام المشهد الحسيني، وعاصروا تقلّبات حملته، وخاصّة ثورتي القاهرة، وكاد يـزيد يهلك في الثـورة الثانيـة، وعاصروا بعد ذلك ولاية محمّد عليّ ومذبحة المماليك، والثورة التي أحدثها الوالي في البلد وأهلها. ورغم أنّ الشيخ القليوبي كان يمتاز بثقافته الدينيّة إلّا أنّ الوشائج الشعبيّة والتراثيّة كانت تقرّبه من وجدان صاحبيه، ولم يغب عنه ما طبعا عليه من حرص وجهل ولكنّه كان يأخذ الناس على علّاتها ويقنع منها بـالجانب الأليف

والمودّة المتاحة. وقد دعاهما مرّات إلى بيت سوق الزلط في مقابل مرّة يتيمة دعي فيها إلى بيت الغوريّة، وكان يزيد أحبّ إليه من عطا، ولمس فيه أركانًا من الرجولة والشهامة والتقوى افتقدها في الآخر، ومع ذلك لم يضق أبدًا بعطا ولا فكّر في نبذه. وظلّ عطا على حاله من القناعة والرقّة حتّى توفّيت امرأته سكينة بعد عام من زواج ابنتها نعمة من عزيز أفندي ابن المعلّم يزيد. وإذا بالحيّ كلّه يفاجأ بزواجه من الأرملة الثريّة هدى الألوزي. كانت تقيم في بيتها العتيق على الجانب المواجه لدكّان المراكيبي فهل كان للقصّة تمهيد قديم لم يفطن إليه أحد؟. وقال القليوبي ليزيد:

ـ ستحدث أمور، لا يمكن أن توافق هدى هانم على بقاء زوجها في دكّانه. . .

وراح عطا يفكّر بعقل مدبّر لم يجد من قبل الفرصة المناسبة لاستغلال مواهبه. وشاور في أمره أهل الحلّ والعقد في تلك الشئون من جيرانه الأغنياء واليهود المدرّبين. وفي الحال اقتنى أراض فضاء، وشرع في تشييد السراي الكبرى بميدان خيرت، وعقب مرور زمن اشترى عزبته في بني سويف وأقام فيها السراي الريفيّة. وأنجبت له هدى هانم الألوزي محمود وأحمد، ومضى يدرس الزراعه ويوثّق علاقاته بجيرانه الجدد، والحقّ أنّ الثروة كشفت عن مواهبه الكامنة وقوّة شخصيّته، كما هتكت حرصه وشحّه وجشعه اللانهائيّ إلى الثراء. وبخلاف الظنون فرض سيطرته الكاملة على امرأته والمتعاملين معه حتّى شبّهه الشيخ القليوبي بالوالي الذي جاء مصر جنديًا بسيطًا ثمّ تعملق فوق هامة إمبراطوريّة مترامية. بل كانت نهاية إمبراطور بني سويف خيرًا من نهاية الوالي ألف مرّة. ووهنت علاقته بأصدقائه القدامى ولكنّه لم ينقطع من زيارة نعمة وعزيز في الغوريّة، يغزو الحيّ في حنطوره طاويًا نظرات الحسد تحت حذائه، مقدّمًا الهدايا العابرة في المناسبات، ويدعو الأسرة إلى سرايا ميدان خيرت، الأمر الذي ربط بالمحبّة قلوب رشوانة وعمرو وسرور ومحمود وأحمد. ولكنّ نوبات كرمه تلك لم تجاوز حدودها أبدًا، بل بدا أنّ ابنيه أحنّ على أختهما الفقيرة نعمة منه هو. وطبعًا دفع بابنيه إلى المدارس ولكنّ أنفاسهما انقطعت بعد الابتدائيّة كابني أختهما عمرو وسرور، ولم يأبه لذلك وراح يعدّهما للزراعة إلى جانبه، أمّا محمود فقد شرح صدره بقوّة استجابته وصلابة شخصيّته، وأمّا أحمد فقد خاب أمله فيه حتّى تركه يائسًا لحياته الوادعة. وكان بكري العرشي ربّ أسرة مملوكيّة تجاور عزبته وكانت له بنتان، نازلي وفوزيّة، مثالان في الجمال والتهذيب، فخطبهما لابنيه محمود وأحمد، واحتفل بزواجهما في فرح واحد أحياه عبده الحامولي وألمز. وعمّر عطا في الوجود حتّى أدرك الثورة العرّابيّة، ولم تغز وجدانه من مدخل وطنيّ ولكن من زاوية أملاكه وأمواله، فلمّا صعدت موجتها حتّى ظنّ لها النصر المبين أعلن تأييده لها، وتبرّع بشيء من المال طاويًا آلامه في صدره، ولمّا تكالبت عليها القوى المعادية ولاح فشلها في الأفق أعلن ولاءه للخديو. وجاء عصر الاحتلال البريطانيّ فساوره القلق مرّة أخرى من تلك الأحداث التي لا يدري ما عقباها على أرضه. وقال له نسيبه بكري العرشي:

ـ لن يغادر الإنجليز هذا القطر ولن نخرج ما حيينا من الإمبراطوريّة البريطانيّة . . .

ولّما شعر بأنّه يمضي نحو النهاية قال لابنه محمود:

ـ سأترك لك نصيحة هي أغلى من المال، اعتبر العزبة وطنك وهبها كلّ نقطة إخلاص في قلبك وحذار من الخطب والشعر. . .

ومات الرجل بالشيخوخة وحدها، ولحقت به زوجته بعد أشهر، فورث الثروة كلّها محمود وأحمد، وانطفأ أمل عزيز ونعمة إلى الأبد. . .

عقل حمادة القنّاوي

في خان جعفر وُلد، وفيما بين بيت القاضي وبين القصرين وحارة الوطاويط وابن خلدون والعبّاسيّة الشرقيّة وبين الجناين وميدان خيرت، لعب وطاف وساح وصادق وأحبّ. وهو الثاني في ذرّيّة صدريّة وحمادة القناوي، اقتبس من أمّه عينيها الجميلتين ومن أبيه أنفه الأفطس وقوّة جسده مع ميل شديد إلى

القِصَر. وعشقه أبوه وكرّسه بكلّ فخار وليًّا للعهد. وتابع نجاحه في التعليم بسعادة وزهو، فعوّضه عن جهله وأمّيّته خيرًا وأيّ خير. وعشق منذ صباه الدين والهندسة، والتحق بكلّيّة الهندسة، ولم ينقطع عن القراءات الدينيّة، ومال إلى الفلسفة الدينيّة أيضًا ثمّ جرفه تيّار من الأفكار المتضاربة فاستقرّ عمرًا في مقام الحيرة. وفي تجواله في فروع أسرته أعجبته هنّومة بنت خالته سميرة فأراد أن يحجزها لنفسه ولكنّ البنت قالت لأمّها:

ـ أنا أطول منه بصورة واضحة فهو غير مناسب!

وصدمه ذٰلك وأشعل في جوارحه الغضب. وظلّ مواظبًا على الصلاة والصوم رغم شكوكه. لم يستطع أن يؤمن ورفض أن يكفر ولاذ بالفرائض. وتفشّى الشكّ في خلاياه فلم يستطع أن ينتمي. انتبه إلى الوفد في عصر هبوطه، وكره انغلاق الماركسيّين، واحتقر تهريج مصر الفتاة، ولـمّا قامت ثورة يوليو نفر منها رغم عدم مساسها له لشعوره بعداوتها لطبقة الملّاك التي ينتسب في النهاية إليها. وحزن كثيرًا على أخته وردة كما حزن على أبيه. ولـمّا تخرّج توظّف في مكتب هندسيّ وفكّر جادًّا في الزواج لعلّه ينتشله من الخواء الذي يخنقه. وأعجبته أخت لزوج أخته نهاد فخطبها وتزوّج منها، وأقام معها في شقّة في عمارة صغيرة مجاورة لبيت خاله عامر ببين الجناين. وكانت لهفته على الإنجاب حارّة كآل أبيه، ولكن تبيّن له أنّه عقيم لا ينجب. وشدّ ما أحزنه ذٰلك وأوجعه. وقالت له جدّته راضية:

ـ لا تصدّق الأطبّاء ولا تيأس من رحمة الله. . .

وتبدّت له الحياة في صورة رغائب مستحيلة، دائمًا حبيبة ومستحيلة. ولـمّا خلا بيت أمّه من الأنيس وانفردت صدريّة بوحدتها قال لها:

ـ تعلمين كم أحبّك، أقيمي معنا في بين الجناين. . .

فقالت باسمة:

ـ لا أترك الحسين ولا جدّتك.

وحرص أكثر على أداء الفرائض وعلى جني أرباح موهبته المعماريّة. وذات يوم قال لحكمت زوجته:

ـ لا أحبّ أن تبقي معي يومًا واحدًا دون رغبة حقيقيّة. . .

فتجهّمت دقيقة ثمّ قالت:

ـ إنّي راضية تمامًا والحمد لله. .

فالشكّ أخذ يساوره في مستقبل علاقته بزوجته، كما مضى يملك عليه تفكيره بالنسبة لمستقبل وطنه الذي يتزحزح من مأزق إلى مأزق. ولم يعاوده تنفّسه الطبيعيّ إلّا في عهد السادات. ووجد في الانفتاح فرصة لأعمال كبيرة تنسيه الوساوس والهواجس. واختار الشقق ميدانًا لتجارته مستفيدًا من مدّخراته وبيع نصيبه من ميراث أبيه. وربح أموالًا طائلة، وعمل بنشاط فائق حتّى عبر الستّين، وعند ذاك تساءل:

ـ وبعد؟!

وفكّر طويلًا ثمّ قال لحكمت:

ـ مللت العمل وآنَ لنا أن نستمتع بأموالنا. . .

فتساءلت ببراءة:

ـ ماذا ينقصك؟

فضحك ساخرًا وقال:

ـ السياحة، علينا بالسياحة، سنرى الدنيا ونذوق أجمل ما فيها. . .

فارتبكت. إنّها لم تعرف من دنياها إلّا قرية أبيها وبين الجناين ولا رغبة لها في المزيد.

ولـمّا لمس حيرتها قال:

ـ لن تحتاجي معي إلى ترجمان. . .

وقال لنفسه إذا كرهت الفكرة مضيت لها وحدي. ولٰكنّها كالعادة طاوعته ومضت تجهّز الحقائب. وانطلقت من جوفه شرارة شكّ فتأمّل ما حوله قليلًا ثمّ قال لنفسه:

ـ لا يبعد أن تحترق بنا الطائرة، إنّي خبير بمنطق الحوادث!.

ولٰكنّ الطيارة لم تحترق والوساوس لم تخمد. . .

عمرو عزيز يزيد المصري

ولد ونشأ في بيت الغوريّة، بين رشوانة وسرور، وتشرّب قلبه رحيق الحيّ بحبّ وشغف، فاختالت في

نفسه تقاليد أهل البلد وانتشر من أردانه عبير الروح والـدين. ولعلّه كان أحبّ الثلاثة إلى عزيز ونعمة لشبهه بأبيه بجسمه المليء في اعتدال وبشرته القمحيّة وعينيه الواسعتين الصافيتين. وكان العقل المدبّر الكابح لرشوانة وسرور في لعبهم وتجوالهم بين بوّابة المتولّي وسبيل بين القصرين، وعرف فيما بعد بالحكيم الذي يُرجع إلى رأيه في شتّى الأمور. وحظي بنفس المنزلة بين خاليه محمود وأحمد وابن عمّه عبد العظيم. وقد أخلص لفرائض الدين منذ صغره، ولعب دور الشرطيّ في حياة سرور المحفوفة بالنزوات. ودخل الكتّاب فحفظ ما تيسّر له من القرآن الكريم، وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة، ثمّ دخل المدرسة الابتدائيّة في الثانية عشرة من عمره فحصل على الابتدائيّة بعد بذل أقصى ما يملك للتعلّم. وبسعي من داود باشا عيّن في حسابات نظارة المعارف. وحاز دائمًا تقدير الرؤساء والزملاء، وأثرى حياته بصداقة الأصدقاء، ونوّرها بقراءة القرآن وكُتب الأولياء، ونوّع مجال حركته بأريحيّة معطّرة بحبّ الدين والدنيا، فكان يشهد الأذكار في الصنادقيّة، ويسمع الحامولي في الأفراح، ويجالس الأحباب في الكلوب المصريّ. وكان هادئ الطبع، ينال بالحلم ما لا يناله بالقوّة والغضب، وما كاد أبوه يزكّي له فكرة الزواج حتّى رحّب بها ترحيب شابّ قويّ تقيّ. وتمّ اختيار راضية له، كبرى بنات الشيخ معاوية صديق أبيه، فزفّت إليه في بيت حديث البناء بميدان بيت القاضي، حيث استهلّ حياة زوجيّة موفّقة مثمرة. وجد في راضية شخصيّة مناقضة لذاته، بعصبيّتها وعنادها، وغيبيّاتها التي لا ضابط لها، ولولا هدوء طبعه وحلمه ما جرت الأمور في مجراها الآمن مع عدم إهدار شيء من مهابته في بيته. ولكنّه لم ينج من تأثيرها فآمن بتراثها وطبّها الشعبيّ، واضطرّ إلى أن يسمح لها بزيارة أضرحة الأولياء، رغم أنّه كان يفضّل أن تستكنّ في بيتها أسوة بزينب امرأة أخيه والهوانم زوجات محمود وأحمد وعبد العظيم. قالت له في اختيال:

ـ كلّهنّ هوانم طيّبات ولكنّهنّ جاهلات لا شأن لهنّ بأمور الغيب...

وفي مقابل ذلك جعلت له في بيته مستقرّ رحمة ومودّة، وأنجبت له صدريّة وعامر ومطريّة وسميرة وحبيبة وحامد وقاسم. وكان عمرو ـ بخلاف سرور ـ فخورًا بأهله، بسراي ميدان خيرت وفيلّا شارع السرايات والأراضي والأملاك والرتب، ولذلك حظي بيته بعطف الجميع، وطاف به الحنطور تلو الحنطور، يحمل إليه أعيان بني سويف وهوانمهم وآل داود وهوانمهم، يجلسون حول طبليّته، ويغمرونه بالهدايا، ويستمعون إلى نوادر راضية وتراثها منوّهين ببطولة أبيها بطل الثورة العرّابيّة. وتلك المودّة العميقة هي التي فتحت باب المصاهرة إلى آل عطا وآل داود فزادت منزلته رفعة وقوّة، وأثارت من سوء التفاهم بينه وبين سرور ما كان خليقًا بأن يفسد العلاقة بينهما لولا متانة الأساس وعمق الذكريات. وطالما قال سرور بحسرة:

ـ لو ماتت هدى الألوزي قبل عطا المراكيبي لكنّا من الوارثين!

فيقول:

ـ لا اعتراض على المشيئة الإلهيّة.

تغلّب على تلك الوخزة بسماحة إيمانه، وكان دأبه إذا ناوشته نقمة أن يذكّر نفسه بالنعم الكثيرة المتاحة كالصحّة والأولاد. أجل تفجّر غضبه يوم وأد آل داود ميل لطفي لمطريّة وترك راضية تهدر قاذفة لعناتها وقال لنفسه:

ـ صدق مَن قال إنّ الأقارب عقارب!

ولكنّها كانت غمامة ما لبثت أن تلاشت تحت أشعّة شمس دائمة واتّسع قلبه أيضًا للعواطف الوطنيّة. فاته أن يشارك أباه خيبته لنكسة الثورة العرّابيّة، ولكنّه كثيرًا ما رأى جنود الاحتلال وهم يطوفون بالحيّ العتيق كالسائحين. وأفعم وجدانه فيما بعد بكلمات مصطفى كامل ومحمّد فريد، ثمّ بلغ قمّة انفعاله في ثورة ١٩١٩، وعشق زعيمها، واشترك في إضراب الموظّفين، وحافظ على ولائه للزعيم رغم انشقاق أهله العظام محمود وأحمد وعبد العظيم عليه. وتابع خليفة الزعيم ـ مصطفى النحّاس ـ بكلّ وجدانه، ووزّع الشربات يوم عقد المعاهدة. وأيّد الزعيم بقلبه ضدّ الملك الجديد، وغضب مع الغاضبين لإقالته من الحكم رغم أنّه كان يعاني ضعف القلب الذي أودى به بعد

ذٰلك بقليل. وقد تحمّل عبء الأولاد وهم في رعايته، وشارك في همومهم بعد أن استقلّ كلّ ببيته. وكان يقول:

ـ نحن نحلم بالراحة دائمًا ولٰكن لا راحة مع الحياة...

ثمّ يلوذ بإيمانه تاركًا الخلق للخالق. وكم ناط بقاسم من آمال، وماذا كان المصير؟!. ولـمّا أحيل إلى المعاش غشيته وحشة لم يكن يفيق منها أبدًا، ثمّ دهمه مرض القلب من حيث لم يحتسب فحدّد حركته ومسرّاته الحميمة وغاص به إلى قعر الكآبة. وذات مساء وهو جالس في الكلوب المصريّ أغمي عليه، فحُمل إلى فراشه في حال احتضار، وأسلم الروح قبيل الفجر على صدر راضية...

حرف الغين

غسّان عبد العظيم داود

ولد ونشأ في فيلّا شارع السرايات وهو الثاني في ذرّيّة عبد العظيم باشا داود. ولعلّه الوحيد من أبناء عبد العظيم باشا الذي لم يقتبس من رواء أمّه فريدة هانم حسام شيئًا. كان مائلًا للقِصَر، نحيفًا، غامق السمرة، متجهّم الوجه غالبًا، وغالبًا يحمل طابع المتقزّز كأنّ ليمونة تُعصر في فيه!. وكأنّما خُلق ليشمئزّ من الدنيا ومَن عليها، فهو في الفيلّا منفرد بنفسه في حجرته، أو يتمشّى في الشوارع الشرقيّة الصامتة تحت ظلّ أشجارها الفارعة، أو يتوغّل في الصحراء الخالية. لم يُعرف له صديق واحد من الجيران، ولا نمت بينه وبين أخويه لطفي وحليم أو حتّى فهيمة وعفّت وشيجة أخويّة، وفي المرّات النادرة التي لاعب فيها أخاه حليم سواء في حديقة الفيلّا أم في الشارع انتهت بسوء تفاهم وخصام، وختمت مرّة بمشاجرة هُزم فيها رغم أنّه الأكبر. واصطحبه أبوه معه لزيارة أهله خاصّة آل عمرو، ودُعي مرّة مع الأسرة إلى سراي آل عطا بميدان خيرت، فكان يشاهد بعينيه ولا يكاد ينبس بكلمة ولم يفز بصديق واحد. وأطلقوا عليه «عدوّ البشر»، وتهكّموا بوجهه الصامت المشمئزّ، وعوده النحيل، ونفوره الدائم، وكبريائه المتوحّد. أجل كانت عيناه تعكسان شعاع النهم وهما تنظران إلى البنات الجميلات من قريباته ولٰكنّه لم يصل النظرة بابتسامة ولا بأيّ إشارة. ويقول له أبوه:

ـ يجب أن تخرج من عزلتك.

فيقول بنبرة قاطعة:

ـ إنّي أعرف أين توجد راحتي ولا أهمّيّة لشيء وراء ذٰلك...

ـ وماذا تفعل في حجرتك المغلقة؟

ـ أسمع أسطوانات... أو أقرأ...

ولٰكنّه لم يكشف عن أيّ موهبة ذوقيّة أو فكريّة. وقد تابع رؤية أبيه السياسيّة ربّما لأنّها وافقت تعاليه واحتقاره الطبيعيّ للعامّة، واعتبر المطالب الوطنيّة والزعامة الشعبيّة ألوانًا من التهريج المبتذل. ولم تغب عن حاسّته تدنّي صورته الكئيبة بين صور أسرته الرائقة، وتحدّى عزّة نفسه قدر من الغباء أعجزه عن بلوغ التفوّق الجدير في نظره بمركزه الاجتماعيّ وكبريائه الطبقيّ. وقد قسا على نفسه وكلّفها من الاجتهاد ما لا تطيق، وسهر الليالي في المذاكرة فلم يظفر إلّا بالنجاح العاديّ الذي بالكاد ينقله من مرحلة إلى مرحلة في ذيل الناجحين. سام نفسه العذاب ليتفوّق دون جدوى، ورمق المتفوّقين بالحقد والاحترام، وأترع قلبه بالأسى لعجزه. كيف يعاشر هٰذا العجز على حين أنّ جدّه باشا وأبوه باشا وشقيقه الأكبر باشا؟! وتراءى له المستقبل كخصومة عارية مفعمة بالتحدّي والاستفزاز. ولم يجد في الدين أيّ عزاء لأنّه كسائر إخوته لم يعرفوا الدين إلّا عنوان هويّة بلا مضمون، فعبد العمل عبادة ووهبه نفسه كلّها ليقنع في النهاية مرغمًا بأقلّ ثمرة تنبتها أرضه القاحلة. ولـمّا التحق بالحقوق وجد هناك قريبه لبيب بن سرور أفندي محاطًا بهالة من الإعجاب لتفوّقه وحداثة سنّه فضاعف ذٰلك من كآبته وتعاسته، واحتجّ على الأقدار التي ميّزت قريبه الفقير ابن الفقير بالموهبة وحرمته منها هو سليل الباشوات والمهن القضائيّة والطبّيّة الرفيعة. ولعلّ من أسباب احتقاره للوطنيّة كان حماس أهله الفقراء ـ وآل عمرو وآل سرور ـ لها، فلم يتحمّس لثورة ١٩١٩ في إبّانها

وسرعان ما لاذ بجناح الخارجينَ عليها مع أبيه وأسرته. وعند التخرّج رأى قريبه يتعيّن في النيابة، ووجد نفسه رغم العرق والسهر في الذيل. وبسعي من أبيه المستشار الكبير عُيّن في قضايا الحكومة بوزارة المعارف فالتحق بالعمل ساخطًا متبرّمًا رغم أنّه لا يستحقّه. واشتهر في حياته العمليّة بالانطواء والاجتهاد والغباء، ولدى كلّ حركة ترقيات كان أبوه يسعفه، ومضى في عزلته ما بين الديوان والفيلّا، بلا صديق ولا حبيبة، لا يكاد يبرح مكتبته التي كوّنها عامًا بعد عام إلّا حين الضرورة القصوى. وربّما رُؤي وحيدًا في حديقة عامّة أو في النادي، وربّما تسلّل في حذر تامّ إلى بيت راقٍ من بيوت الدعارة السرّيّة. وقالت له فريدة هانم حسام:

ـ آن لك أن تفكّر في الزواج...

فرمقها بدهشة وامتعاض وتمتم:

ـ لم يبقَ إلّا هٰذا...

أكثر من سبب كرّه إليه فكرة الزواج. في مقدّمتها انغماسه في وحدته المقدّسة وعجزه عن الخروج منها وخوفه أن ترفضه الفتاة اللائقة بمركزه وأسرته للمآخذ الكثيرة التي لا تغيب عن وجدانه. ولم تكفّ فريدة هانم عن القلق عليه، خاصّة بعد وفاة عبد العظيم باشا وشعورها بدنوّ الأجل، وبأنّها ستتركه في فيلّا كبيرة خالية. يضاف إلى ذٰلك ما صبّته عليه ثورة يوليو من أحزان جديدة لم تخطر له على بال من قبل. تساءل في جزع:

ـ أيبلغ بنا التدهور أن تحكمنا مجموعة من العساكر الأمّيّين؟!

وراقب ما حاق برُتَب أسرته وقيَمها القانونيّة والطبّيّة بفزع، وتساءل:

ـ هل أبكي اليوم رعاع الوفد؟!

وقالت له فريدة:

ـ غدًا الحق بأبيك، يلزمك زوجة وأبناء...

فقال لها بخشونة:

ـ العقم هو العزاء المتبقّي لنا!

وأصرّ على عناده الحقود، ولم يتزعزع تصميمه بعد وفاة أمّه، وأحيل على المعاش في أوائل السبعينات فواصل حياته في وحدته كالشبح، وكأنّما لم يحظَ من دنياه إلّا بصحّة متينة صامدة قانعًا من مسرّات الدنيا بالطعام والكتب ثمّ بالتليفزيون والخادمة الجديدة...

حرف الفاء

فاروق حسين قابيل

الخامس في ذرّيّة سميرة وحسين قابيل. ولد ونشأ في شارع ابن خلدون، واستقبل الدنيا بجسم رشيق قويّ ووجه وسيم مثل إخوته وأخواته، وذكاء وقّاد يبشّر بكلّ خير، ولٰكنّه نما في مناخ الانضباط الذي ساد الأسرة بعد وفاة حسين قابيل. ومنذ صغره حلم بأن يكون طبيبًا وبعزيمة قويّة حقّق حلمه عابرًا عقبات التنسيق. وقد توزّع قلبه الحماس لثورة يوليو بحكم مولده وميْلًا مع أخيه حكيم، والنفور منها أحيانًا عطفًا على الإخوان وحبًّا في أخيه سليم الذي قُذف به في السجن. ووجد الخلاص من التناقضات في الاهتمام بمهنته، فحصل على الدكتوراه، وفتح عيادة خاصّة إلى جانب عمله في المستشفى. وجمع الحبّ بينه وبين زميلة هي الدكتورة عقيلة ثابت، فتزوّجا وأقاما في شقّة حديثة بمصر الجديدة. وشدّ ما حزن فاروق على مصير شقيقه حكيم، وغربة شقيقه سليم، فقد عُرف أبناء سميرة بقوّة تماسكهم، كما عرفوا أيضًا ـ كأمّهم ـ بالصمود حيال المصائب. ولٰكنّه تجنّب الجهر بآرائه السياسيّة خارج محيط أسرته اتّعاظًا بما أصاب أخوَيْهِ حكيم وسليم، متفرّغًا لمهنته. وفي هٰذا المجال أحرز منزلة فريدة كجرّاح، كما وليت زوجته مناصب رفيعة كمولّدة، وقد أنجبت له بنتين توجّهتا بكفاءة نحو الطبّ أيضًا. وكان فاروق من القلّة التي آمنت بسياسة السادات فيما عدا الانفتاح غير المنضبط الذي فتح أبوابه باندفاع جرّ على البلد ويلات اقتصاديّة لا يستهان بها. ولم يكن ضمن القطاع الذي سُرّ لمصرعه، وقال مرّة لخاله عامر:

ـ لقد ولي السادات نيابة عن عبد الناصر ثمّ قُتل كذٰلك نيابة عنه!

وممّا يُذكر له كطبيب معدود ومقصود أنّه لم يتهاون في جانب المبادئ فلم تجاوز تسعيرة أتعابه حدود المعقول أبدًا. . .

فايد عامر عمرو

الابن الثالث لعامر وعفّت. ولد ونشأ كأخويه في بيت بين الجناين، وكان كثير الشبه بجدّته فريدة حسام في بياض البشرة وجمال العينين، ورشاقة القدّ. وقد رضع غير قليل من تراث راضية وعمرو والحيّ العتيق، ولكنّه تشبّع بتقاليد جدّته فريدة وجدّه عبد العظيم باشا داود. ومنذ صباه عشق القانون والمجد القضائيّ، كما عشق الثقافة الحديثة، ثقافة السينما والراديو ثمّ التليفزيون، ورغم حبّه لجدّيْه عمرو وعبد العظيم فلم يكترث لا للوفد ولا للأحزاب الأخرى، ولـمّا تخرّج في الكلّيّة كان من المتفوّقين، وبفضل تفوّقه ومنزلة عبد العظيم باشا تعيّن من فوره في النيابة. ولعلّه الوحيد من أبناء عفّت وعامر الذي لم يكدّر صفوهما بسلوكه أو فكره مثل أخويه شاكر وقدري، ولـمّا أعلن ذات يوم أنّه يحبّ بنتًا تدعى ماجدة العرشي طالبة بكلّيّة الحقوق اضطربت عفّت لمرارة التجارب الماضية، ولكنّها سعدت عندما توكّدت من أنّ البنت كريمة لطبيب وحفيدة لطبيب أيضًا وأنّ الأسرة على مستوى طيّب جدًّا ومناسب جدًّا. وقالت عفّت لعامر:

ـ أوّل زيجة تبلّ الريق!

وتزوّج فايد ودخل في شقّة بمصر الجديدة. ولمّا قامت الثورة لم ينفر منها رغم إهدارها لرتب جدّه وخاله، بل ربّما مال إليها ولم يخفِ ذلك عن أمّه وأبيه. . . قال:

ـ جاءت في وقتها تمامًا. . .

وترقّى فايد في درجاته المعهودة حتّى درجة المستشار. ولم يتغيّر موقفه من الثورة وزعيمها، حتّى محنة ٥ يونيه لم تغيّره وإن مزّقت قلبه تمزيقًا. أمّا السادات فقد أيّده في حربه وفتحه صفحة الديموقراطيّة من جديد، وشكّ كثيرًا في خطوة السلام، ثمّ لعنه بسبب الانفتاح والنكسة الديموقراطيّة، ومع أنّه لم يوافق على الاغتيال إلّا أنّه لم يحزن عليه واعتقد أنّه نال ما يستحقّه تمامًا. ولم ينجب فايد سوى بنت وحيدة، وقد تخصّصت في الكيمياء، ودعتها عفّت باسم أمّها فريدة.

فرجة الصيّاد

عرفتها الغوريّة في الرابعة عشرة، قويّة الجسم، مليحة الوجه، تجول في جلباب أزرق، وعلى رأسها مقطف فيه سمك وميزان. اضطرّت إلى الخروج من مسكنها في السكّريّة بعد وفاة أبيها وعجز أمّها عن الحركة، ورعتها تقاليد الجيرة والتقى. وذات يوم ناداها رجل قويّ ذو لهجة غير قاهريّة ليبتاع سمكًا فأنزلت المقطف إلى الأرض وقرفصت وراءه وراحت تزن له رطلًا. ونظر إليها مليًّا ثمّ قال:

ـ أنت حلوة يا شابّة. . .

فقالت له بخشونة:

ـ تريد السمك أم الميزان يحطّم وجهك؟

فشخر الرجل بعفويّة فانتصبت واقفة مستعدية أهل المروءة. وانقضّ على الرجل الغريب رجال وتحرّج الموقف، ولكن برز من الجمع رجل يعرفونه هو عطا المراكيبي وهتف:

ـ صلّوا على النبيّ. . .

وضحك قائلًا:

ـ إنّه اسكندريّ، جاري في بيتي، لا يعرف عادات البلد، والشخر عندهم كالتنفّس عندنا. . .

وأنقذ جاره ومضى به إلى دكّانه. . .

وعطا نفسه تشاءم من مقدم الرجل، لأنّه جرّ وراءه جيش الكفّار، جيش نابليون، وقد سأله:

ـ ماذا جاء بك؟

فأجاب:

ـ قتل الوباء أهلي فعزمت على هجر الإسكندريّة.

وتغيّر الحال عندما تزوّج عطا من سكينة ابنة معلّمه فتفاءل بمقدمه وأحبّه وقال له:

ـ قدم خير يا عمّ يزيد!

ولم ينسَ يزيد المصري فرجة الصيّاد فقال لصاحبه:

ـ أريد أن أكمل نصف ديني ببيّاعة السمك. . .

وخطبها عطا المراكيبي من أمّها ثمّ زفّت إليه في شقّته ببيت الغوريّة. ويقول عطا المراكيبي إنّه بمجرّد أن أغلق الباب على العروسين سمع المدعوّون في الصالة الخارجيّة شخرة تنفذ من ثقب الباب مثل قرقرة الماء في النارجيلة!

وقد وفّق يزيد المصري في زواجه وأنجبت له فرجة ذرّيّة كثيرة لم يبقَ منها إلّا عزيز وداود. وامتدّ العمر بالزوجين حتّى شهدا مولد الأحفاد. وفي ليلة رأى يزيد رجلا في المنام قال له إنّه نجم الدين الذي يصلّي أحيانًا في ضريحه ونصحه قائلًا:

ـ شيّد قبرك جنب ضريحي لنتلاقى كما يتلاقى المحبّون...

ولم يتردّد الرجل فبنى حوشه الذي دفن فيه، وما زال حتّى اليوم يستقبل الراحلين من ذرّيّته المنتشرة في أنحاء القاهرة.

فهيمة عبد العظيم داود

كانت تدعى بعاشقة الورد من طول مكثها في حديقة الفيلّا بشارع بين السرايات. وكانت أجمل ذرّيّة عبد العظيم باشا داود، وفي الجمال فاقت فريدة هانم حسام. وربّما كانت في الذكاء دون عفّت ولكنّها كانت أطيب قلبًا وأصفى روحًا. وقد تربّت معها في المير دي دييه ولنفس الهدف أي إعدادها للحياة الزوجيّة الرفيعة. وجاء زواجها تقليديًّا رغم ذلك فخُطبت ـ عن طريق جارة ـ لوكيل نيابة يدعى عليّ طلعت. وشيّد عبد العظيم باشا داود لها بيتًا في بين الجناين كما فعل لعفّت وزفّت فيه إلى العريس. وكانت الزيجة في غاية من التوفيق، وأنجبت له داود وعبد العظيم وفريدة، ولكنّ سوء البخت الذي تربّص بالأسرة بعد ذلك صار مضربًا للأمثال. ففقدت فهيمة ذرّيّتها بعد أن اكتمل لها الشباب وأضاء الأمل. مات داود بالتيفود وهو طالب في السنة الثالثة بكلّيّة الحقوق، ومات عبد العظيم بالكوليرا بعد تخرّجه من العلوم بأشهر، وماتت فريدة بروماتيزم القلب وهي في الثانويّة العامّة. وأذهل الأسى العميق الوالدين لدرجة الزهد في الحياة، فطلب عليّ طلعت الإحالة إلى المعاش وهو مستشار في استئناف القاهرة وتفرّغ للعبادة والقراءات الدينيّة في عزلة دائمة ما بين بيته والقرافة، أمّا فهيمة ـ وهي من أسرة يقبع الدين فيها منزويًا على هامش حياتها ـ فقد بدأت تتساءل عن المصير، وعن اليوم الذي تجتمع فيه بذرّيّتها الهالكة مرّة أخرى، وراحت تقتني من السوق جميع ما فيها من كتب الأرواح وتحضيرها والقوى الخفيّة، وآمنت أخيرًا براضية وتراثها الذي كانت تتابعه فيما مضى بابتسام وسخرية. وقال لها أبوها عبد العظيم باشا:

ـ الصبر يا بنتي، وددت لو كنت الفداء لأبنائك.

فقالت له:

ـ أنت الخير والبركة يا بابا، ربّنا يطوّل لنا في عمرك...

وكان كلّما شيّع جنازة شابّ من أبنائها فتقدّم المشيّعين بشيخوخته الطاعنة شعر بحرج وما يشبه الذنب، وتضايق من النظرات المحدقة به في إجلال صامت. وما لبث عليّ طلعت أن انتقل إلى رحمة الله مصابًا بأنفلونزا حادّة فوجدت فهيمة نفسها وحيدة في ملكوت أرواحها، وقد عمّرت طويلًا بعد وفاة والديها وأقاربها من ذلك الجيل العريق المقدّس للتقاليد ووشائج القربى، فباتت نسيًا منسيًّا فيما عدا كلمة تتبادلها في التليفون مع شقيقتها عفّت...

حرف القاف

قاسم عمرو عزيز

آخر عنقود ذرّيّة عمرو وراضية. ولد ونشأ في بيت ميدان بيت القاضي، وهو الوحيد من الأبناء الذي لم يبارحه. وبدا من مطلعه نحيلًا متحرّكًا، ولم يكن به شبه واضح لوالديه، ولكنّه إذا ضحك استحضر صورة أبيه الضاحكة، وإذا انفعل ذكّر الملاحِظ براضية. وكان السطح ملعبه والميدان بأشجاره الفارعة وعاش بكلّ وجدانه في أمطار الشتاء ورياح الخماسين. ولم يتح له أن يتّخذ من أحد من إخوته أو أخواته رفيقًا

فما كاد يشبّ حتّى كانوا قد تفرّقوا في بيوت الزوجيّة، ولكنّه وجد العوض في أبناء عمّه سرور وأبناء الجيران، كما وجد مراحه في بيوت المتزوّجين وعند آل عطا وآل داود. وكان أخلص المستمعين لأمّه وأصدق التابعين لها في أحلامها وجولاتها الروحيّة بين الجوامع والأضرحة. وكلّما جمح به الخيال وجد عندها الأذن الصاغية والقلب المصدّق، ففي إحدى ليالي رمضان أخبرها أنّه رأى ليلة القدر كطاقة من نور مشعّ انداحت لحظات في السماء، وأنّه اطّلع في ليلة أخرى من وراء خصاص المشربيّة على زفّة من العفاريت. ومنذ صباه وهو يتطلّع إلى بنات الأسرة بحبّ استطلاع موسوم بشهوة مستوفزة قبل أوانها، وحام بصفة خاصّة حول دنانير وجميلة وبهيجة إلى بنات الجيران وفتياتهم ولم يعتق سيّداتهم من رغباته الغامضة الآثمة، مع تديّن مبكّر وصلاة وصيام. ودخل الكتّاب على رغمه وتلقّى فيه المبادئ بقلب نفور وعقل متمرّد ولم يستطع أبدًا أن يفرّق بين المدرسة وسجن قسم الجماليّة الذي رأى الوجوه التعيسة تلوح وراء قضبان نافذته. ويسأله عمرو في مجلس الليل بعد العشاء:

- ألا تريد أن تكون كأخويك؟

فيقول بصراحة:

- كلّا...

فيقطّب الرجل ويقول منذرًا:

- لا تضطرّني إلى تغيير معاملتي لك...

اهتزّت صورة أبيه في عينيه من عجز عن دفع الموت عن ابن أخته أحمد، حين ترك لدموعه غير المجدية. يريد الآن أن ينعم بحضن جميلة رغم ما يعقبه من ألم يقبض على قلبه عندما يقبل على صلاته. دائمًا تعذّب بين الحبّ والعبادة، وأعين الرقباء أيضًا مثل بهيجة وأمّه. بين الدجاج والأرانب والقطط فوق السطح ضبطتهما راضية مرّة. لدى ظهورها انفكّ الاشتباك فطارت جميلة كالحمامة والدم ينبثق من وجنتيها من شدّة الحياء. وقطّبت راضية، ثمّ أشارت بيدها المعروقة إلى السماء الحانية فوق السطح وقالت:

- من هناك يرى الله كلّ شيء...

وتوارت جميلة عندما جاء ابن الحلال، والحق قاسم جرح الحبّ بجرح الموت، وراح يراقب رءوس الأرانب المطلّة من فوهة البلاص المقلوب. وسرعان ما وجد نفسه حيال أوهامه وجهًا لوجه، ودروس المدرسة الثقيلة، وابتسامة لا ترى بالعين المجرّدة آتية من عيني بهيجة الجميلتين. وظنّ الأخت مثل أختها ولكنّه وجد قلبًا عذبًا وإرادة صلبة. أيّ فائدة ترجى من ذلك الحوار الصامت؟!. حتّى ستّ زينب أمّها قالت لها:

- إنّكما متماثلان في السنّ فهو غير مناسب...

وقالت له راضية:

- المهمّ أن تشدّ حيلك في المدرسة...

وبسط عمرو راحتيه داعيًا:

- اللّهمّ اجبر بخاطري في هذا الولد...

ومن شدّة الحصار بكى قاسم. كان بمجلس والديه الليليّ فسأله أبوه عمّا يبكيه فقال:

- تذكّرت أحمد!

فقطّب عمرو وهتف:

- ذاك تاريخ قديم، حتّى أمّه نسيته!

ومضى ينظر إلى الأشياء بحزن ويبكي. وقالت راضية لعمرو وهما منفردان:

- عين أصابت الولد.

فقال عمرو بغيظ:

- يحسدونه على خيبته!

وبخّرته، وجعل يتشمّم الشذا الغامض ثمّ سقط مغشيًّا عليه. ومضى به أبوه إلى الطبيب فقرّر أنّها حالة صرع خفيف لا خوف منه ولكن يلزمه راحة وتغيير هواء. وتذكّروا مأساة بدريّة بنت سميرة. ونظر مرّة إلى الفراغ بحضور والديه وقال:

- سأفعل جميع ما تريدون...

وتساءل عمرو:

- أهو هذيان مرض؟

فقالت راضية بيقين:

- بل هو اتّصال بأهل الغيب...

وعلم الأهل بحاله فتقاطروا على بيت القاضي يعودونه، وحدجوه بنظرات مليئة بحبّ الاستطلاع والتوجّس، وجرى التهامس في سراي آل عطا فقالت شكيرة لأمّها:

ـ ما هو إلّا عرق الجنون النابض من قديم في أسرة راضية . . .

وقالت مثل ذلك ستّ زينب لسرور في بيتها. أمّا راضية فوكّدت لعمرو علمها بتلك الحال وقالت له بثقة ويقين:

ـ لا تخف ولا تحزن وكن مع الله . . .

ودارت بابنها على الأضرحة، وحرقت البخور في أركان البيت من بابه إلى سطحه. أمّا قاسم فهجر المدرسة باستهانة، وراح يتجوّل في الحواري، أو يطوف ببيوت إخوته وأخواته وأقربائه في ميدان خيرت وشارع السرايات وبين الجناين، وفي كلّ موقع يتناول المشروبات وينثر كلماته الغامضة تنبّئًا عن المستقبل كما يتراءى له، وتجيء الحوادث مصدّقة لنبوءاته حتّى عُرف بينهم بالشيخ ولم يعد أحد منهم يجرؤ على السخرية منه. وقال محمود بك عطا لعمرو المحزون:

ـ إنّها مشيئة الله، وأنت رجل مؤمن، والولد فيه سرّ لا يعلمه إلّا الله، إنّه يقرأ خواطري حتّى بتّ أعمل له ألف حساب . . .

فتساءل عمرو:

ـ ولكن مستقبله ورزقه؟

فقالت خالته شهيرة وكانت حاضرة:

ـ الله لا ينسى مخلوقًا من مخلوقاته فما بالكم بواحد من أوليائه؟

والواقع أنّ سمعته انتشرت في صورة أساطير فأخذ يقصده أصحاب الآمال المعذّبة محمّلين بالهدايا ثمّ النقود، حتّى اضطرّت الأسرة لإعداد حجرة المعيشة بالدور الأوّل لاستقبال زوّاره، وحتّى ذهل عمرو عندما وجد رزقه ينمو ويفوق رزق أخويْه مجتمعين. وتلاشت مشكلته بحكم العادة، وكأنّما خلق لهذه الولاية، وبدّل قاسم بملابسه الإفرنجيّة الجلباب والعباءة والعمامة، وأرسل لحيته، وقسّم وقته بين استقبال زوّاره وبين العبادة فوق السطح، وحتّى أمّه ـ الأستاذة العريقة ـ أصبحت من تلامذته ومريديه. وفتح صدره لأحزان أسرته وانغمس في مآسيهم، وشيّع أمواتهم، وصلّى عليهم في جوف مقابرهم. وذات يوم وكان قد بلغ الثلاثين من عمره خفق قلبه خفقة أعادت إليه ذكريات قديمة مبلّلة بماء الورد، وناداه صوت ناعم للخروج من بيته فاشتمل بعباءته وخرج، ومن توّه توجّه نحو بيت عمّه المجاور. واستقبلته بهيجة بذهول وهي تسائل نفسها عمّا جعله يقتحم وحدتها اليائسة. راحا يتبادلان النظرات كالأيّام الخالية، ثمّ قال:

ـ رأيتك في المنام تلوّحين لي . . .

فابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها فقال:

ـ وقال لي هاتف من الغيب آنَ لكما أن تتزوّجا. . .

وقام من فوره فغادر البيت راجعًا إلى بيته وقال لأمه:

ـ أريد أن أتزوّج فاخطبي لي بهيجة . . .

وقالت راضية لنفسها إنّ جميع الأولياء تزوّجوا وأنجبوا. وعندما جاء لبيب لزيارتها أبلغته بالخبر. وشاور لبيب ابنَي عمّه عامر وحامد فاتّفق الرأي على أنّ قاسم قادر على القيام بأعباء أسرة ولكنّ الأمر رهن بموافقة بهيجة. والعجيب أنّ بهيجة وافقت. قيل إنّه اليأس وقيل إنّه الحبّ القديم، ومهما يكن من أمر فقد زفّت إليه بعد أن تجدّد البيت القديم بالأثاث الجديد. وتمّ الزفاف فيما يشبه الصمت بسبب الإظلام المخيّم في فترة الحرب. واحتفلت به المدافع المضادّة للطيّارات. ومضت سنوات عقم ثمّ أنجبت بهيجة ابنها الوحيد النقشبندي الذي شابهَ في جماله خاله لبيب. وكان كامل الصحّة والذكاء فتخرّج مهندسًا في عام النكسة. وأُرسل قبيل السبعينات في بعثة إلى ألمانيا الغربيّة، وكانت حال البلد قد أرهقت صحّته النفسيّة فقرّر الهجرة، والتحق بعمل هامّ في مصنع صلب بعد حصوله على الدكتوراه، وتزوّج من ألمانيّة واستقرّ هناك بصفة نهائيّة. وحزنت بهيجة لذلك حزنًا شديدًا أمّا قاسم فلم يكن يحزن لشيء. . . وودّعه قلبه بغير دموع . . .

قدري عامر عمرو

ولد ونشأ في بيت بين الجناين وهو الابن الأوسط لعامر وعفّت. من صغره كان شعلة في اللعب والجدّ والخيال. ومن صغره أيضًا أولع بالاطّلاع والاهتمام بالحياة العامّة بخلاف أخويه، ثمّ وجد نفسه في

اليساريّة. وعشق الفنّ والأدب رغم موهبته العلميّة ووضع حجر الأساس في مكتبته الخاصّة وهو في أولى سنيّ الدراسة الثانويّة. وكاد يكون صورة من أبيه غير أنّه كان أفرع طولًا وأقوى بنيانًا، إلى طبيعة إيجابيّة ضاربة جرّت عليه المتاعب. وكم كانت دهشة عامر كبيرة عندما قُبض على ابنه ضمن نفر من اليساريّين. وهرع الرجل إلى حميّه عبد العظيم باشا فسعى الرجل إلى الإفراج عنه بحجّة حداثته ولٰكنّ الباشا ذهل وقال لعامر وعفّت:

ـ كيف تكوّن هٰذا الولد في بيتكما؟

فقال عامر في حياء:

ـ نحن لا نقصّر في تربيتهم ولٰكنّ الآخرين يتسلّلون إلى حياتهم فيفسدونها...

ودخل قدري كلّيّة الهندسة وهو مسجّل في الصفحة السوداء في جهاز الأمن. ونبّه حليم أخته إلى خطورة الوضع على مستقبله، وهٰذا ما فعله حامد مع شقيقه عامر. وتكرّر اعتقاله والإفراج عنه وهو طالب في الهندسة. وانجذب ذات يوم إلى شاذلي ابن عمّته مطريّة لجامع الثقافة بينهما ولٰكنّه وجده بلاأدريّته وصوفيّته العقليّة نقيضًا له فضاق به وهجره. ولـمّا تخرّج مهندسًا تجنّب التوظّف في الحكومة، فاشتغل في مكتب هندسيّ لأحد أساتذته المحالين على المعاش. وكان مهندسًا كفئًا ولٰكنّه سيّىء السمعة من الناحية السياسيّة. وأرادت أمّه أن تزوّجه ليستقيم أمره من ناحية وليعوّضها عن خسارتها في شاكر، ورحّب من ناحيته بالفكرة. وأرادت أن تزوّجه من إحدى بنات خاله لطفي باشا ولٰكنّها لم تلقَ الحماس الذي حلمت به وحدست ما وراء ذٰلك من سمعته السياسيّة. وتضاعف همّها عندما رفضه جيران لها لشكّهم في إسلامه وبالتالي في بطلان الزواج!. وغضب قدري على فكرة الزواج كغضبه على البورجوازيّة بعامّة، وآمن بحكمة خاليه غسّان وحليم في إضرابهما عن الزواج. ولـمّا قامت ثورة يوليو كان قد كفّ عن نشاطه العمليّ في السياسة ولٰكن ظلّ مبقيًا على اعتقاده وأصدقائه فلم تتبدّد من حوله عتمة السمعة. وتقدّم في عمله تقدّمًا ملموسًا ومبشّرًا بالمزيد، ولٰكنّه اعتقل للمرّة الثالثة، واستنجد أبوه ببعض كبار الضبّاط من تلاميذه السابقين فأكرموه بالإفراج عنه. ومنذ ارتبطت الثورة بالكتلة الشرقيّة مال إليها ومضى يرى في خطاها ما لم يكن يراه من قبل. ولعلّ ذٰلك ممّا هوّن عليه بعض الشيء مصاب الوطن في ٥ يونيه باعتباره كان مدخلًا حاسمًا لترسيخ النفوذ السوفييتيّ في مصر ومقرّبًا إلى الثورة الشاملة حين تنضج أسبابها. ولعلّ ذٰلك ما جعله يستقبل نصر ٦ أكتوبر بسخط لم يستطع أن يخفيه، وبذله أقصى ما عنده من منطق ومعلومات ليفرغه من مضمونه أو تصويره في صورة التمثيليّة المفتعلة، وقال لنفسه:

ـ انتصار البورجوازيّة يعني انتصار الرجعيّة!

ومن أجل ذٰلك ناصبَ السادات العداء منذ تجلّى للعين خطّه السياسيّ وأضمر له الكره حيًّا وقتيلًا، رغم إقبال الثراء عليه بغير حساب في عصر انفتاحه. وقد اعتقل في طوفان سبتمبر ١٩٨١، وأفرج عنه مع الجميع ليواصل عمله الناجح وآماله الحبيسة، وكان ذٰلك قبل وفاة أبيه بأيّام...

حرف اللّام

لبيب سرور عزيز

هو بكريّ ذرّيّة سرور وزينب، طالع الدنيا بوجه مليح مشرق شبيه بوجه أمّه وقامة دون المتوسّط في الطول رقيقة البنيان كأنّما أعدّت لتلقّي أنوثة عذراء. ومن عجب أنّه طبع منذ طفولته على الهدوء والرزانة وكأنّما وُلد بالغ الرشد. ولم يجاوز لعبه الوقوف أمام باب البيت ليشاهد الأشياء أو يتابع تحرّكات ابن عمّه قاسم ـ الذي يصغره بسنوات ـ وهو يتعفرت كأمثاله، أو يتمشّى في الميدان وهو يقزقز اللبّ. وكانت راضية تناديه فتقول بمحبّة:

ـ يا صاحب العقل الكامل.

وكانت تقول عنه أيضًا:

ـ أبوه موفور الحظّ من الحماقة وأمّه عبيطة فمِن أين له هٰذا العقل!!

وفي الرابعة من عمره أرسله سرور أفندي إلى الكتّاب متشجّعًا برزانته وإعراضه عن شقاوة الأطفال، ورأى أنّه لن يخسر زمنًا إذا انقضى عام أو عامان قبل أن يستطيع الاستيعاب والإدراك، ولكنّه حصّل في العامين معرفة حازت رضى سيّدنا الشيخ فقال لعمّه عمرو أفندي:

ـ ابن أخيك لبيب ولد عجيب وعليكم أن تدخلوه المدرسة الابتدائيّة . . .

لم يكن أحد يقترب من المدرسة الابتدائيّة في ذلك الوقت دون الثامنة أو التاسعة فقدّم له أبوه في امتحان القبول بلا اكتراث جدّيّ، وجاء نجاحه مفاجأة، وانتظم في الدراسة وهو ابن ستّ سنوات. ومضى ينجح عامًا بعد عام محدثًا في محيط الأسرة دهشة، والأعجب من ذلك أنّه واظب على المذاكرة بلا حضّ أو إغراء، وبلا مساعدة من أحد، حتّى حصل على الابتدائيّة وهو ابن عشر. وأهّله سنّه وتفوّقه لدخول إحدى مدارس الخاصّة الملكيّة بالمجّان. وشقّ طريقه في المدرسة الثانويّة كالعهد به، ولـمّا ناهز الحلم صدّ عن أيّ إغراء جاءه من أركان الأسرة أو الطريق، مطاوعًا تحذيرات أمّه، منصرفًا بإرادته عمّا يعيق اجتهاده واستقامته، حتّى حصل على البكالوريا وهو ابن ستّ عشرة. وكانت المعلّمين العليا هي المدرسة المفضّلة والمناسبة لظروف الأسرة، ولكنّ الفتى الطموح أعلن عن رغبته في الالتحاق بمدرسة الحقوق. وتمتم سرور وهو بين الخوف والرجاء:

ـ إنّها مدرسة الحكّام!

وقال عمرو:

ـ نشاور عبد العظيم . . .

وكان الباشا معجبًا بسيرة الفتى فسعى لإلحاقه بالمدرسة وبالمجّان أيضًا. وفصّل له أبوه بدلة ذات بنطلون طويل لأوّل مرّة، وذهب إلى المدرسة لتحدّق به الأعين بدهشة، وتحوم من حوله التعليقات الساخرة عن «مدرسة الحقوق الأوّليّة» و«روضة الأطفال الملكيّة» ولم تتغيّر النظرة نحوه حتّى أثبت تفوّقه وقدراته. بل لم يتأخّر عن الاشتراك في المظاهرات لـمّا اندلعت ثورة ١٩١٩ وتوزيع المنشورات وإن جرى تحرّكه غالبًا في الظلّ والأمان. ولم يغب عنه شيء من الفوارق الطبقيّة بينه وبين أقرانه، وخلّفت رواسب في النفس ولكنّه تجاوزها بهدوء طبعه وحكمته الفطريّة. لم يغتمّ لبدلته الوحيدة، وعدم مشاركته في أيّ حياة اجتماعيّة أو ترفيهيّة أو لركوبه الدرجة الثانية في الترام، وتجنّب إزعاج أبيه بأيّ مطلب يتحدّى قدراته، كان دائمًا صاحب العقل الكامل كما قالت راضية. وجنى من صبره واجتهاده الثمرة فحصل على الليسانس وهو ابن ثماني عشرة معدودًا بين العشرة الأوائل. ولم تعترض النيابة على قبوله بسبب الأصل إكرامًا لعبد العظيم داود، ولكنّها أبت تعيين معاون نيابة قاصرًا! فاتّفق على إلحاقه بوظيفة كتابيّة في محكمة حتّى يبلغ سنّ الرشد. والتحق بعد ذلك بالنيابة رافعًا رأس آل عزيز، وظافرًا لهم بمركز في البيروقراطيّة العالية، في مواجهة آل داود وآل عطا، ومحدثًا في الوقت نفسه انفعالات من الغيرة والحسد والإعجاب في فروع الأسرة جميعًا حتّى أقرب الناس إليه وهم أبناء عمّه. وشمخ سرور أفندي برأسه عاليًا كأنّما أصبح النائب العموميّ، فازداد لسانه حدّة، وأثره سوءًا في أنفس الآخرين، وبات ثقيلًا لا يطاق، وبخلاف المظنون والمنطقيّ هبّت على لبيب رياح الهموم. أجل أثبت دائمًا كفاءة ونزاهة كوكيل نيابة وقاضٍ فحاز الثقة والاحترام، ولكنّ ظروف أسرته حتّمت عليه تأجيل الزواج حتّى يعاون في تربية إخوته وتزويج أخواته. من ناحية أخرى انطلقت غرائزه المكبوحة لتستعيض عمّا فاتها في الطفولة والصبا والمراهقة، وإذا به يولع بالخمر والنساء، فيمارس العربدة والفسق مع المحافظة على تقاليد مهنته ما وسعه ذلك. وألف تلك الحياة حتّى عشقها لذاتها، ولم يفكّر في تغييرها لـمّا فرغ من واجباته العائليّة، على تهديدها لسمعته وإنهاكها لصحّته. ولـمّا قامت ثورة يوليو، واهتزّ مركز القانون ورجاله، غزته الكآبة كوفديّ قديم من ناحية وكرجل من رجال القانون من ناحية أخرى. ولم ينقطع أبدًا عن زيارة أسرته في جميع فروعها، وراح يتابع أثر الثورة فيها مع الحرص التامّ في الإفصاح عن ذاته. وربّما كان حامد ابن عمّه أقربهم لنفسه فهمس له مرّة:

ـ ما الحيلة؟... أمامنا رجل يدّعي الزعامة وبيده مسدّس!

ولـمّا رُقّي إلى رياسة محكمة استئناف الإسكندريّة وقارب سنّه المعاش تفجّر تغيير في داخله في صورة طفرة عارمة فاندفع بكلّ قواه في طريق العبادة والزواج. مارس العبادة لحدّ الدروشة، وفكّر أوّل ما فكّر في الزواج من دنانير بنت عمّته. لم ينسَ أنّه حاول يومًا في غيّه أن يرافقها لولا رفضها الحاسم له، ولكنّ منظرها الذي آلت إليه أثار نفوره. فاتّجه نحو امرأة من بنات الهوى عرفها مطربة من الدرجة الرابعة بملهى ليليّ على عهد الشباب. ولم يقطع صلته بها على كثرة مَن تقلّب في حبّهنّ من النساء. وكانت في ذلك الوقت قد كفّت عن الحرفة لكبر سنّها ولكنّها لم تعطّل تمامًا من الأنوثة. وسرعان ما تزوّجا، وأقاما بشقّة أنيقة بمصر الجديدة. وأدّيا معًا فريضة الحجّ، وعاشا معًا في سلام زهاء عام. وكانت الخمر قد استهلكت كبده فأصابه نزيف داخليّ وهو يرأس المحكمة. وحُمل من الإسكندريّة إلى بيته في القاهرة حيث أسلم الروح. وغادر الحياة ومصر في عزّ مجدها الناصريّ قبيل هزيمة يونيه بأشهر.

لطفي عبد العظيم داود

هو بكريّ عبد العظيم داود وفريدة حسام. كان في الجمال صورة من أمّه وشقيقته فهيمة كما حظي بذكاء أبيه وجدّه داود. وفي صباه ومراهقته توثّقت أسباب المودّة بينه وبين آل عمرو وخاصّة عامر، كما هام بالحيّ العتيق وأطوار راضية الغريبة الخارقة للمألوف. وفتنه جمال مطريّة كما فتنها جماله، فنشأت قصّة حبّ حييّة في تقاليد ذلك الزمان. وتفتّحت القلوب وربت لاستقبال أمطار الأنباء السعيدة. ولكن ما كاد لطفي يشير من بعيد إلى رغائبه حتّى كأنّه فجّر قنبلة في فيلّا آل داود بشارع السرايات. تناسَوا القربى، وحبّ عامر وعفّت، وأخوّة عمرو وعبد العظيم، واعتبروا الإشارة زلّة ذوق ضلّ الهدى وتردّى في هاوية الانحطاط. وحوصر لطفي حتّى خطبت مطريّة وتلاشى الخطر. وغضبت راضية وصبّت لعناتها على مَن لا أصل لهم، وتوجّع قلب عمرو واحتقن وجهه بالدم. وحرّض سرور أخاه قائلًا:

ـ ما ينبغي لغضبك أن ينطفئ...

غير أنّ صداقة فريدة حسام تكفّلت براضية، وأحسن عمرو ـ كالعادة ـ الحوار مع انفعالاته. وغلبت رابطة الأسرة طوارئ نزواتها. ما أكثر ما يقول بنات داود في بنات عمرو وسرور وما أكثر ما يقول بنات عمرو وسرور في بنات داود، وما أفظع ما يتهكّم به آل داود على آل عطا وما أقسى ما يتندّر به آل عطا على آل داود، ولكنّ متانة الأساس كانت تصمد للزوابع والأعاصير التي تهبّ على البيت الكبير. وفي تلك الأيّام الغريبة كان الحبّ ينسى في مواعيده المعقولة. وسرعان ما انشغل لطفي بدراسة الطبّ حتّى حصل على إجازته. وسافر في بعثة إلى ألمانيا ثمّ رجع ليستهلّ حياته العلميّة الفريدة في وزارة الصحّة. وأثبت نبوغه في الإدارة والعلم، وظفر بمكانة مرموقة بين الأحزاب المتخاصمة رغم انتماء أسرته المعروف، ولكنّه كان أدنى إلى الاستقلال منه إلى الحزبيّة، ولم يتردّد في إعلان ولائه للعرش كموظّف كبير أمين، وبذلك ظفر بالبكويّة ثمّ الباشويّة وهو ما بين الشباب والكهولة. وقد لعب عمرو دورًا تاريخيًّا في تزويج لطفي. ذلك أنّه كان صديق صبا لرجل أصبح رئيسًا للقومسيون الطبّيّ هو بهجت بك عمر. ورأى كريمته آمال خرّيجة المير دي ديه وذات الجمال الفريد، فخطر له انسياقًا مع طبيعته الدمثة وحرصه على كسب القلوب أن يخطبها للطفي فسعى سعيه الجميل بين آل عبد العظيم وآل بهجت. وتمّت على يديه زيجة من أسعد الزيجات، وأصبح بها صاحب الفضل المعترف به في الأسرتين. ونشأت الأسرة الجديدة في فيلّا بالدقّي، ولم تتردّد تلك الأسرة المصرو ـ أوروبيّة عن زيارة مُنشئها عمرو أفندي في بيته العتيق بميدان بيت القاضي. وفتنت آمال بالحيّ العريق وبراضية، وأضافت إلى زوّار البيت الكبراء أمثال آل عطا وداود وآل بليغ معاوية وردة جديدة فوّاحة بعبير إفرنجيّ وسحر من نوع جديد فتن

الأهل والجيران بمثل الجذبة الصوفيّة، وقد أنجبت له فريدة وميرفت وداود، وعاشوا - عقب المراهقة - في الخارج، فريدة وميرفت زوجتين لرجلين في السلك السياسيّ، وداود طبيبًا في سويسرا وتزوّج من سويسريّة. ولـمّا قامت ثورة يوليو كان لطفي من القلّة التي لم يمسّها سوء من طبقته حتّى أحيل إلى المعاش وهو وكيل وزارة. ولكنّه خسر جُلَّ مدّخراته الموظّفة في أسهم وسندات عند التأميم، وقد توفّي عقب وفاة أبيه في السبعين بسرطان المعدة، وهي سنّ تُعتبر من الشباب في أسرة عبد العظيم المعمّرة...

حرف الميم

مازن أحمد عطا المراكيبي

أعذب من الورود التي تتلألأ في الحديقة الكبيرة بسراي آل المراكيبي. ازدهرت في شخصه دماثة أبيه أحمد بك وجمال أمّه فوزيّة هانم. وكان من أحبّ الشخصيّات إلى قلوب آل عمرو بل وسرور وداود. ومنذ صباه أحبّ ابنة عمّه نادرة وأحبّته. ولذلك كان أشقى الناس جميعًا بالخلاف الذي مزّق الأسرة، وتعرّض لذلك إلى غضب شقيقه عدنان مفجّر الثورة. وكان متعثّر الخطوات في دراسته، ولكنّه اختار الزراعة ليستثمر دراسته في حياته العمليّة كي لا تتكرّر المأساة مرّة أخرى في المستقبل. ورغم حداثة سنّه النسبيّة سعى سرًّا لدى قريبه عمرو أفندي ليبارك محاولاته للتوفيق بين الشقيقين الغاضبين، وحثّ خفية حبيبته وابنة عمّه على حفظ حبّهما بمنجاة من العاصفة حتّى تهدأ. ولـمّا مرض أبوه الطيّب مرض الوفاة وانقشعت غيوم الأحزان لم يمنعه الحزن على أبيه من الترحيب القلبيّ بعودة السلام إلى أركان الأسرة. وقرّر أن يعلن خطبته عقب انقضاء عام الحداد، وكان يطوي العام الأخير من دراسته. وفي مطلع الربيع سافر مع بعثة من الطلبة إلى الإسكندريّة في رحلة دراسيّة، وخطر له أن يستحمّ في الشاطبي مع بعض الصحاب، فخانه الموج فغرق. حقًّا لقد أحدث موته هزّة عنيفة في الأسرة ولكنّه ترك في أعماق نادرة جرحًا لم يقدّر له أن يندمل أبدًا. وورثه عدنان، وصار بذلك أثرى آل عطا، ولكنّه كان أيضًا الوحيد الذي طبّق عليه قانون الإصلاح الزراعيّ بعد قيام ثورة يوليو...

ماهر محمود عطا المراكيبي

ولد ونشأ في سراي ميدان خيرت، وكإخوته تلقّى التربية الجادّة والرفيعة معًا. وكان طويلًا رشيقًا وسيمًا وذا كبرياء طبقيّ ملموس. ولم يكن يزور أهله إلّا في المناسبات، وتجنّب آل داود بصفة خاصّة. ولم تكن حياته الدراسيّة تبشّر بخير فاختار الكلّيّة الحربيّة هدفًا لحياته التعليميّة. وشغف بالحياة الأرستقراطيّة في جميع مظاهرها من إيثار العرش على الأحزاب، ومصادقة أبناء طبقته، واستثمار جماله في عشق الغواني. وأزعج أباه بمطالبه الماليّة، وكان محمود بك يحبّ أن ينشئ أبناءه على الانضباط من غير حرمان، فازعجه ذلك الابن الخارج عن الخطّ المرسوم. وفي الوقت نفسه كان يحبّه ويعجب به فتغافل عن تحيّز زوجته له وإسعافه بما يحتاج إليه، وكان الكبر قد ألان عريكته، وكذلك المرض. والتحق ماهر بالكلّيّة الحربيّة وتخرّج في مطلع الحرب العالميّة الثانية، وبحكم الصلات الشخصيّة وبتأثير شقيقه عبده انتظم في سلك الضبّاط الأحرار مرتكزًا إلى عواطف سطحيّة وغير مؤمن إيمانًا جدّيًّا بما يقال عن آلام الشعب وصراع الطبقات. ولـمّا قامت الثورة وجد نفسه من المقرّبين، ووثب دون عناء إلى منزلة لم يستطع أن يبلغها بخطواته الدراسيّة المتعثّرة. ولم يكن مقتنعًا بقانون الإصلاح الزراعيّ رغم أنّه لم يطبّق في أسرته إلّا على ابن عمّه عدنان ولكنّ مجال الطموح انفسح أمامه إلى آفاق غير محدودة. واستأجر شقّة في الزمالك لغراميّاته، وعلا نجمه فعيّن في الحرس الخاصّ للزعيم. وظلّ في مكانه بعد النكسة وحتّى وفاة عبد الناصر. وأحيل إلى المعاش بعد ذلك بقليل فتفرّغ لشقّة الزمالك، وطيلة ذلك العمر لم يكن

الزواج يخطر على باله قطّ. ولـمّا هلّت طلائع الانفتاح أقنعه بعض الأصحاب بالعمل في الاستيراد فباع أرضه وانهمك في عمله الجديد وأثرى من ورائه إثراء عظيمًا. وجمعت السراي عبده وماهر ونادرة على عقم من ناحية الذرّيّة، ومال يتدفّق وكأنّما يعدّونه للآخرين . . .

محمود عطا المراكيبي

أوّل ثمرة لزواج عطا المراكيبي من الأرملة الثريّة هدى الألوزي. ولد ونشأ وترعرع في أحضان العزّ والفخامة ما بين سراي ميدان خيرت وسراي العزبة في بني سويف، ودون أن يعلم شيئًا عن حياة أبيه الأولى. ولكنّه خالط أقاربه ـ أخته نعمة وذرّيّتها رشوانة وعمرو وسرور ـ منذ سنيّه الأولى، وتشرّب قلبه بحبّ الحيّ العتيق. ومنذ نشأته وضحت معالم شخصيّته الإيجابيّة القويّة وزادت معالمها بروزًا بالمقارنة بشخصيّة أخيه الأصغر أحمد الوديعة الدمثة. غير أنّهما في التعليم كانا على مستوى واحد لا يبشّر بالاستمرار، فاكتفيا كابني أختهما عمرو وسرور بالابتدائيّة، ثمّ ركن أحمد إلى حياة أبناء الذوات على حين لازم محمود أباه، تلميذًا فطنًا ومريدًا صادقًا ومساعدًا قويًّا. وتجلّى بنيانه مثالًا للقوّة والفظاظة بقوامه الربعة ووجهه الغليظ حسن القسمات ورأسه الكبير القائم على عنق قصير مليء، وشفّت هيئته ونظراته المقتحمة ومتانة هيكله عن التحدّي والصراع والبطش. ولم يجد أبوه ما يؤاخذه عليه في شبابه الأوّل سوى نزوات ممّا يجري في الحقول، فخطب له ولأخيه شقيقتين مهذّبتين من آل بكري جيرانه، فبدأ محمود حياته الزوجيّة الموفّقة مع نازلي هانم، ولم تنحرف عينه إلى امرأة أخرى طوال حياته، ونجحت الحياة الزوجيّة بفضل تعلّقه بالهانم، وبفضل تربية المرأة الرفيعة وتقديسها التقليديّ للزوج والحياة الزوجيّة، وأنجبت له مع الزمن حسن وشكيرة وعبده ونادرة وماهر. ومن بادئ الأمر وبدهاء فريد قرّر محمود الاستحواذ على قلب أبيه. عرف فيه البخل فمثّل بين يديه دور البخيل وإن كان في ذلك معتدلًا لا هو بالبخيل ولا بالكريم. أمّا في العمل فقد حاز إعجابه بمثابرته ودقّته وحسن تقديره مع مغالاة في العنف في معاملة الآخرين ورفض التساهل كأنّما هو جريمة أو خيانة. وأبوه نفسه كان يساوره الجبن أحيانًا فيقول له:

ـ من الحكمة أيضًا ألّا نخلق لنا عدوًّا كلّ يوم. .

فيقول الابن:

ـ الجميع يحبّون أخي أحمد، لا أهمّيّة للحبّ، وبالقوّة وحدها تُصان الحقوق.

حتّى قال عطا مرّة:

ـ لقد أنجبت رجلًا واحدًا وامرأتين!

لم يبالِ محمود بكثرة الأعداء وتصاعُد أعدادهم، وآثر دائمًا أن يكون مرهوبًا على أن يكون محبوبًا سواء لدى الموظّفين أم المتعاملين، ولا ضجر يومًا من رفع القضايا والتردّد على المحاكم بصحبة المحامين. ولـمّا مات الأب عطا خلا محمود إلى أخيه أحمد بحضور أمّهما وقال له:

ـ أصبح من حقّك أن تدير نصف الأملاك.

فارتبك أحمد وبانت الحيرة في عينيه فقال محمود:

ـ إنّه صراع في غابة من الوحوش، وحظّ الطيّب فيها الضياع . . .

فازداد أحمد حيرة وارتباكًا فقال الآخر:

ـ أتوافق على أن أقوم بالعمل وحدي؟

ـ بكلّ ارتياح، أنت أخي الأكبر وحبيبي وما عرفنا في حياتنا إلّا الحبّ. . .

ـ وأيضًا فإنّي لم أهمل فريضة في حياتي، وأعمل وكأنّ الله يراني . . .

فقال أحمد وهو يتنهّد في ارتياح:

ـ ما في ذٰلك شكّ عندي . . .

هٰكذا حلّ محمود محلّ عطا، وكان يومًا أسود في حياة الموظّفين والخفراء والمتعاملين. كان يمضي في الحقل أو الدائرة أو السوق مثل وابور الزلط، والأعين ترمقه بالحقد والدعوات تنهال عليه من الرجال والنساء. وذات ليلة وهو راجع إلى السراي انقضّ عليه مجهولان بهراواتهم حتّى تهاوى فاقد الوعي ثمّ قذفوه في مصرف وتلاشوا في الظلام. ومرّت دوريّة

على أثر ذٰلك فتهادى إلى مسامعها أنين من المصرف فهرعت إليه وأنقذته وهو على شفا الموت. ونقل إلى المستشفى، وكلّما سمع سامع بالخبر ضرب جبينه غيظًا ولعن سوء الحظّ الذي بادر إلى إنقاذه في اللحظة الحرجة. وغادر المستشفى صحيحًا معافًى، بإضافات جديدة من الكدمات وآثار الجراحة في الجبين والخدّ والعنق ضاعفت من جهامة منظره ووحشيّة طلعته، ولٰكنّها لم تغيّر من طبعه شيئًا وإن زادته تسلّحًا وحذرًا. وقال له ابن أخته عمرو أفندي وكان أحبّ الناس إلى قلبه:

ـ لا بدّ من سياسة جديدة يا حبيبي...

فقال محمود:

ـ الناس لم يخلقوا إلّا لسياسة واحدة والويل للمتراجع!

وكان يزور بيت القاضي في حنطوره الفخيم محمّلًا بالهدايا، ويطيب له الحديث مع عمرو وراضية، ثمّ يستغرقه الحديث عن قضاياه التي لا حصر لها. ومرّة قال له عمرو ضاحكًا:

ـ ستصبح من فقهاء القانون مثل عبد العظيم!

فيضحك ـ وكان يكثر من الضحك في بيت القاضي ـ ويقول:

ـ الموت أهون من التفريط في الحقوق...

فتقول راضية بحماسها المندفع:

ـ ولٰكنّ الدنيا لا تساوي هٰذا التعب...

فيقول مقهقهًا:

ـ ما خلقنا إلّا للتعب يا درويشة!

وكان يزور عبد العظيم داود في العبّاسيّة الشرقيّة، ويسعد بأخباره عن نجاحه وأمواله، ويناقشه في القضايا، وكان عبد العظيم يقول لفريدة عقب انصرافه:

ـ المرض أحبّ إليّ من لقاء هٰذا الجلف...

فتقول فريدة هانم:

ـ امرأته جوهرة ثمينة...

فيقول ساخرًا:

ـ ربّنا يصبّرها على ما بلاها!

ولم تقصّر نازلي التي تحبّه أكثر من أيّ شيء في دنياها في نصحه بالاعتدال ولٰكنّ شيئًا لم يكن يثنيه عن خطّه أبدًا. وسألته أيضًا:

ـ ألا يمكن أن ينفعك عبد العظيم داود في قضاياك؟

فقال ممتعضًا:

ـ إنّه يتظاهر بالنزاهة ليداري نذالته وانعدام مروءته، وما هو إلّا كافر ومقلّد للإنجليز فيشرب الويسكي مع الغداء والعشاء!

ولـمّا قامت ثورة ١٩١٩ تحرّك قلبه بعاطفة جديدة لأوّل مرّة، ومسّه سحر الزعيم، وتبرّع ببضعة آلاف من الجنيهات، ولأوّل مرّة أيضًا يلمس في الفلّاحين البسطاء قوّة مخيفة لم يعهدها من قبل. ولـمّا حصل الخلاف، وتبيّن أنّ للعرش موقفه، وللعدليّين موقفهم، وللزعيم موقفه، أخذ يعيد حساباته. واجتمع بأخيه في سراي ميدان خيرت، وسأله:

ـ ما رأيك فيما يجري اليوم؟

فقال أحمد ببراءة:

ـ لا شكّ أنّ سعد على حقّ...

فقال ببرود:

ـ إنّي أسأل عن مصلحتنا...

فقال أحمد بحيرة:

ـ لم أفكّر في ذٰلك، هل تفكّر في تأييد عدلي باشا؟

ـ المركز الثابت هو العرش...

فقال أحمد ببساطة:

ـ دائمًا الحقّ معك يا أخي...

ـ ماذا يقول أصحابك من السمّار؟

ـ كلّهم سعديّون.

ـ أعلن انتماءك كي يُعرف على أوسع نطاق...

ـ وأولاد أختنا عمرو وسرور مع سعد أيضًا...

ـ هٰؤلاء لا مصالح لهم، لقد انتهت اللعبة، فلا تتصوّر أنّ الإنجليز سيغادرون مصر ولا تتصوّر أنّ مصر تستطيع أن تعيش بغير الإنجليز...

وجزاء ولائه للعرش فاز هو وأخوه برتبة البيكويّة، وقال لأخيه:

ـ كي يسلّم آل داود أنّ الرتب ليست قاصرة عليهم...

غير أنّ ثورة من نوع آخر اندلعت في الأسرة وكان قائدها عدنان ابن أخيه. وانشقّت الأسرة نصفين متخاصمين، رجالًا ونساء، وشمتَ بها المتنافسون، كما حزن لها المحبّون مثل عمرو ورشوانة. حتّى سرور قال:

ـ حلّت اللعنة بالأسرة الملعونة...

ولم يجتمع لها شمل إلّا عند وفاة أحمد. وعقب وفاته بأشهر استفحل مرض السكّر بمحمود، وكان عمرو وسرور قد رحلا عن الدنيا، فحلّت بقلبه كآبة ضاعفت من تأثير المرض، ووهنت عزيمته، وزهد في العمل، وأقام أكثر وقته في سراي ميدان خيرت حتّى وافته أزمة قلبيّة ذات صباح فأسلم الروح. ولحقت به نازلي هانم بعد عامين، وفي نفس عام وفاتها توفّيت فوزيّة هانم. ولم يبقَ من ذلك الجيل إلّا المعمّرون مثل راضية وعبد العظيم باشا وبليغ معاوية وهم الذين امتدّ بهم العمر حتّى قيام ثورة يوليو...

مطريّة عمرو عزيز

ولدت ونشأت في بيت القاضي وهي الثالثة في ذرّيّة عمرو وراضية. وكانت أشبه الجميع بخالتها المنتحرة صديقة في جمال وجهها ورشاقة قدّها وعذوبتها. وكانت أجمل الأخوات بل لعلّها كانت أجمل بنات الأسرة جميعًا، ومع أنّها ترعرعت في عبير الدين والدروشة إلّا أنّ السرّ لم ينفذ إلى أعماقها، واعتقدت أنّ حبّ الله ورسوله يعفيها من أداء الفرائض. وكان تفوّقها في الجمال يحرّك الغيرة في قلوب أخواتها ثمّ حلّ الرثاء محلّ الغيرة مع تقلّبات الزمن. وعرفت في صباها ومطلع شبابها بالظرف والمرح وحبّ الناس والقدرة على كسب محبّتهم فلم ينجُ من سحرها امرأة أو فتاة من آل سرور وعطا وعبد العظيم. أجل لم يشفع لها ذلك كلّه عندما أغرى سحرها شابًّا مثل لطفي عبد العظيم بالتفكير في الزواج منها، ذلك أنّ السحر نفسه له حدود في الوجدان الطبقيّ. بذلك تحوّلت أوّل تجربة سعيدة في حياتها إلى محنة عاطفيّة ذبحت قلبها الطريّ وأدمت كبرياءها. وهوّن من آلامها وقدة الغضب التي اندلعت من حولها دفاعًا عنها وعن الأسرة. وهوّن منه أيضًا أنّ الحبّ لم يكن حظي بالاعتراف بعد، فدارت المعركة حول الكبرياء وحدها، وهمدت في هاوية التقاليد العريقة. وما لبثت أن خطبتها صديقة لأمّها، تمّ تعارفهما في ضريح سيدي يحيى بن عقب، وتفاءلت بالتعارف ومكانه، وحكمت بالطيبة على المرأة التي كانت تقيم غير بعيد في حارة الوطاويط. وكان العريس ـ محمّد إبراهيم ـ مدرّسًا بمدرسة أمّ الغلام، فهو من ناحيتي الشهادة والمهنة مثل عامر، ورأته مطريّة من وراء خصاص المشربيّة فأعجبها وجهه القمحيّ وجسمه الملىء والغليون الذي يدخّنه كالإنجليز! وزفّت إليه في البيت الذي تملكه أمّه بحارة الوطاويط، وكان من حسن الطالع أن كسبت مطريّة قلب حماتها، ونعمت بحبّ صادق جمع بينها وبين زوجها حتّى آخر يوم من حياته. وأشرقت أعوام متلاحقة بالهناءة والوفاق، وأنجبت فيها مطريّة أحمد وشاذلي وأمانة، وكان ثلاثتهم كالأقمار في الوضاءة والوسامة، وحقّ لكلّ إنسان أن يعدّ بيت حارة الوطاويط من البيوت السعيدة بكلّ معنى الكلمة. وكان محمّد إبراهيم ثاني رجل ينضمّ إلى آل عمرو بعد حمادة القناوي، ولكنّه كان مهذّبًا دمث الأخلاق ومربّيًا مثقّفًا ذا مكتبة متنوّعة المصادر، وشتّان بين حديثه المنضبط وثرثرة حمادة وخُيَلائه القائمة على غير أساس. ولم يستطع محمّد إبراهيم أن يتّخذ من حمادة صديقًا حقيقيًّا، وجامله كثيرًا إكرامًا لصدريّة التي حظيت بإعجابه ولم تخف عن فطنته مزاياها كستّ بيت. تلك الأعوام السعيدة خلدت في وجدان مطريّة بتفاصيل حياتها اليوميّة، بدفء عواطف الزوج وحنان أمّه وتسامحها وبريق الأبناء المبشّر بالنور والانبهار. وتلقّت بعد ذلك أوّل ضربة من ضربات القدر بوفاة أحمد وهو في الخامسة، جرّبت عذاب الأمّ الثكلى وحزنها العميق، وانبسط القبر أمام عينيها الدامعتين في هالة من العواطف الجديدة بعد أن سكنه جزء من قلبها النابض ونفحة من خيالها المحروم. وتضاعف حبّها لقاسم بعد أن

تجلّى حزينًا لا يتعزّى عن فَقْد الراحل الصغير. وتحوّلت أمومتها الجريحة إلى شاذلي وأمانة. ولكنّ قلبها لم يسعد السعادة المأمولة بزواجها. ورحلت حماتها في الثلاثينات فورثت أعباء لم تعتدْ حملها، ثمّ نكبت بوفاة أبيها قبيل الحرب العالميّة، ووفاة عمّها سرور بعده بأعوام، فكابد قلبها آلامًا حقيقيّة لشدّة وفائه للعواطف الأسريّة. واعتبرت زواج شاذلي خيبة ظالمة وضعتها في كفّة حظّها العاثر حتّى قال لها محمّد إبراهيم:

ـ ليس الأمر بالسوء الذي ترين. . .

فقالت متشكّية:

ـ كان يستحقّ عروسًا أفضل. . .

فقال الرجل:

ـ إنّه أدرى بما يسعده. . .

وتابعت نجاح أمانة في دراستها بارتياح وأمل. وإذا بزوجها المحبوب يصاب بتليّف في الكبد، فيلزم الفراش وتتدهور حاله، ثمّ يسلم الروح في العطلة الصيفيّة بعد نجاح أمانة في البكالوريا. تلقّت مطريّة أقسى ضربات حظّها، ووجدت نفسها أرملة دون الخمسين. واضطرّت إلى تزويج أمانة من عبد الرحمن أمين، ومكثت في بيت حارة الوطاويط مع خادمتها، وحيدة حزينة، وضاعف من همومها ما صادفته أمانة في حياتها الزوجيّة من متاعب. وكانت تتسلّى بزيارة الأهل، أمّها وأخواتها وإخوتها وبنات عمّها وآل عطا وآل عبد العظيم داود، وفي مقدّمة الجميع شاذلي وأمانة. ومضت تذبل وتجفّ، وتتغيّر معالمها، ولكنّها أبقت على ميزتها الفريدة وهي تبادل الحبّ مع الأهل والناس. ولعلّها الوحيدة من أسرتها التي لم تنقطع صلتها بشكيرة زوجة أخيها حامد بعد أن فصل الطلاق بين الزوجين. وشدّ ما أحزنها الموت المبكّر لأبناء شاذلي، ولـمّا نجا ابنه محمّد من قدرهم دعت الله أن يبقيه لأبيه ولها، وتوسّلت إلى أمّها راضية أن تحميه بكلّ ما لديها من وسائل. وكانت ضربة قاضية لها عندما وافتها أنباء استشهاده في الاعتداء الثلاثيّ. واشتدّ بها الذبول والجفاف. وتبيّن أنّها مصابة بسرطان. وما زالت تتدهور وتسير من سيّئ إلى أسوإ حتّى أسلمت الروح وهي في الستّين. كانت أوّل مَن يموت من الجيل الثاني في آل عمرو بل في الأسرة كلّها. واقتضت الظروف ألّا يحزن عليها كما ينبغي أحبّ الناس لها، شاذلي لم يترك له حزنه على ذرّيّته فائضًا، وراضية كانت في الثمانين وحزن الثمانين سريع الزوال، وقاسم كان قد استوى لديه الحزن والسرور. . . فلم تجد أمانة من يشاركها البكاء واللطم.

مُعَاوِيَة القليُوبي

ولد ونشأ في بيت سوق الزلط. وتربّى تربية دينيّة خالصة واقتبس من أبيه معلومات وسلوكًا حتّى قبل أن يجاور في الأزهر. وأبدى نجابة وتفوّقًا، وغرامًا خاصًّا بالنحو الذي راح يدرسه في الأزهر بعد حصوله على العالميّة. وقبيل وفاة والده بأشهر زوّجه الرجل من جليلة الطرابيشيّة، وهي كريمة سلمان الطرابيشي الذي كان يعمل في مصنع طرابيشي الباشا. وكان معاوية يزاول نشاطًا إضافيًّا في جوامع حيّه، ممّا أضفى على شخصه مهابة ومحبّة. وكانت جليلة تفوقه طولًا، وكانت ذات أطوار غريبة، وعصبيّة حادّة، وتراث حافل بالغرائب، فصمّم الرجل على أن يلقّنها مبادئ دينها الصحيحة، ونشب بينهما صراع ودّيّ طويل، فأعطاها وأخذ منها، وكلّما أصابته وعكة سلّم نفسه إلى طبّها الشعبيّ دون منازع، وذاعت شهرتها في الحيّ حتّى كادت تغطّي على شهرته. وقد ربط الحبّ بينهما، وبفضله استمرّت الحياة الزوجيّة، رغم حدّة طبعها وتعصّبها لأفكارها، وأنجبت له مع الأيّام راضية وشهيرة وصديقة وبليغ. ولـمّا قامت الثورة العرّابيّة تحمّس لها الشيخ، ومال إلى تيّارها، وأيّدها بالقلب واللسان. ولـمّا فشلت الثورة واحتلّ الإنجليز مصر قُبض عليه فيمن قبض عليهم، وقُدِّم للمحاكمة فقضت عليه بالسجن خمسة أعوام. وراحت جليلة تطوف بأضرحة الأولياء داعية على الخديو والإنجليز، ودبّرت شئون أسرتها بشيء من المال ورثته عن أبيها. وغادر الشيخ معاوية السجن ليجد نفسه في دنيا

غريبة، فلا أحد يذكر الثورة أو أحدًا من رجالها، أو تذكر بعض الأسماء مصحوبة باللعنات، ولم يجد عينًا تنظر إليه بعطف سوى عين يزيد المصري صديقه القديم وناظر سبيل بين القصرين. شعر الرجل بغربة وأسًى وانطوى على نفسه حتّى وجد وظيفة معلّم بمدرسة أهليّة. وقال له صديقه عزيز ذات يوم:

- ابني عمرو موظّف في نظارة المعارف في العشرين من عمره وأودّ له أن يكمل نصف دينه. فأدرك الشيخ ما يرمي إليه وقال:

- على بركة الله. . .

فقال عزيز:

- ستتمّ على يديك بإذن الله ومن بيتك. . .

فقال الشيخ:

- راضية بنتي وعمرو ابني!

وذهبت نعمة عطا وابنتها رشوانة لخطبة راضية. ورجعتا مبهورتين بجمال صديقة وراضيتين عن جمال راضية ووجهها الشامخ، غير أنّ نعمة تساءلت:

- أهي أطول من عمرو؟

فقالت رشوانة باطمئنان:

- كلّا يا أمّي، هو الأطول. . .

ولكنّ الأجل عاجلَ الشيخ قبل أن يشهد زفاف كريمته، وصادف وصول نيشان العروس يوم الوفاة، الأمر الذي أدّى بجليلة من خلال اجتهادها الشخصيّ مع تراثها إلى أن تطلق زغرودة من نافذة ثمّ تواصل صواتها على الراحل العزيز، وتصير بذلك نادرة الحيّ على مجرى العمر. ودُفن الشيخ في حوشه القريب من حوش عزيز في رحاب سيدي نجم الدين. . .

حرف النون

نادر عارف المنياوي

ولد ونشأ في الدرب الأحمر، الابن الوحيد لحبيبة عمرو والشيخ عارف المنياوي. لم يترك أبوه في وعيه أيّة ذكرى فترعرع في بحيرة ثريّة بحنان أمّه وجدّته لأبيه، ورحلت الجدّة وهو ابن ستّة فوجد في قلوب عمرو وراضية وبقيّة الأسرة ما أنساه يتمه ووحدته. وربّما كان من حسن حظّه أن يعشق التفوّق ويهيم في الطموح من صغره ولكنّه لم يقدّر التضحية الجنونيّة التي ضحّتها أمّه من أجله برفضها فرصة حسنة للزواج، وبقائها أرملة طيلة العمر عقب حياة زوجيّة لم تستمرّ سوى عامين. وشبّ نادر ذا رونق وفحولة، ولم تخلُ فترة من حياته من مغامرة عاطفيّة في نطاق ميزانيّته المحدودة. وحصل على بكالوريوس التجارة في أثناء الحرب العظمى وألحق بوظيفة في وزارة الماليّة. ودأب على كره فقره والتطلّع الدائم إلى أفق سامق، ومن أجل ذلك التحق بمعهد لتعليم اللغة الإنجليزيّة، وأتقن الكتابة على الآلة الكاتبة، ثمّ قدّم لامتحان أعلنت عنه شركة إنجليزيّة للمعادن فنجح، واستقال من الحكومة ليشغل وظيفة في قسم الحسابات بالشركة. وأرعبت مغامرته أخواله وأقاربه وأمّه ولكنّه قال بثقة لا عهد للأسرة بها:

- لا مستقبل للحكومة. . .

وتحسّنت أحواله ولكنّ طموحه لم يشبع. ولـمّا قامت ثورة يوليو لم يأنس إلى أسلوبها كشابّ طموح يحلم بالثراء. وتحقّقت مخاوفه عقب الاعتداء الثلاثيّ ومصادرة الشركات البريطانيّة، عندما وجد نفسه مرّة أخرى موظّفًا في الحكومة على غير إرادته. وعند ذلك درس حال أسرته وفروعها على ضوء الوضع الثوريّ الجديد، فرأى في آل عطا المراكيبي وال سميرة خالته بعض الممثّلين للثورة مثل عبده عطا وماهر عطا وابن خالته حكيم. وقرّر فيما بينه وبين نفسه أن يتزوّج من نادرة شقيقة عبده وماهر أو من هنّومة شقيقة حكيم. وشاور أمّه في الأمر فقالت:

- هنّومة أقرب لنا وهي الأجمل. . .

وبإيعاز منه خطبتها له. وهي مذيعة في الراديو وذات مبادئ وخلق كأخيها سليم، وكانت قد رفضت يد ابن خالتها عقل ولكنّها وافقت على الزواج من نادر، وتمّ الزفاف في شقّة بشارع حسن صبري بالزمالك، وألحّ نادر على أمّه أن تعيش معه ولكنّها

أبت أن تغادر الدرب الأحمر أو تبتعد عن بركات الحيّ العتيق حيث تقيم أيضًا أمّها المحبوبة وكثرة من أخواتها وبنات عمّها. ونعمت الأسرة الجديدة بالسعادة وأنجبت له هنّومة ثلاث بنات، سميرة وراضية وصفاء. وتوثّقت العلاقة بين نادر وحكيم، وبفضل حكيم رقّي نادر رئيسًا للحسابات، وكبر مرتّبه فوق ما يحلم أيّ من أقاربه الموظّفين ولكنّه كان ذا طموح لا يعرف الحدود. ولـمّا حصلت التأميمات تعيّن رئيسًا لمجلس إدارة الشركة دون شبع من ناحيته حتّى سألته هنّومة:

ـ ماذا تريد؟

فقال بغموض:

ـ إنّي أحتقر المرتّبات الثابتة...

فقالت هنّومة بوضوح:

ـ وأنا لا أكره الثراء شريطة أن يقترن بالنقاء!

فتوجّس خيفة من نظرة عينيها وقال بعجلة:

ـ طبعًا...

وشعر بأنّ شريكة حياته ليست شريكة في طموحه. وكان يؤمن في أعماقه بأنّ الفارق الوحيد بين أهل السجون وأهل الخارج هو الحظّ لا الخلق أو المبادئ، وأنّ العالم مجموعة من الأوغاد لا ينجو منها إلّا القويّ الشاطر. واعتبر زوجته امتدادًا للرأي العامّ الأحمق الذي عليه أن يداريه طالما أصرّ على تحقيق طموحه. ومضى يوثّق علاقاته ببعض الضبّاط وآخرين من رجال القطاع الخاصّ. حتّى كانت هزيمة ٥ يونيه، وانكشف أمره فيما انكشف المستور من أمورهم. واكتُفي بإحالته إلى المعاش بفضل حكيم أيضًا ولكنّ هنّومة ثارت عليه ثورة لم يفلح في مهادنتها إلّا بالطلاق. وقالت سميرة لهنّومة بهدوئها المعهود:

ـ أنت مسئولة عن نفسك فقط...

فقالت الفتاة بشدّة:

ـ لا أستطيع أن أغمض عيني وأهدم بنيان حياتي كلّه...

واحتفظت هنّومة بالشقّة والبنات وراح هو يتنقّل بين الفنادق والدرب الأحمر، وفسّر لأمّه الساذجة الطلاق على أنّه خلاف ممّا يفسد الحياة الزوجيّة. ولـمّا تغيّر الحال وهلّت طلائع الانفتاح تنفّس من جديد، واستمدّ من الجوّ الطارئ حياة لم يحلم بها من قبل. واشتغل بكلّ همّة في الاستيراد، وحقّق لنفسه أخيرًا الحلم الذي راوده من الصغر. وانفسح المجال أمامه ما بين الخارج والداخل. وفي إحدى رحلاته تعرّف بأرملة أستراليّة فتزوّج منها، وأقام معها في فيلّا في المعادي. وكثيرًا ما يقول ضاحكًا:

ـ إنّها قسمة عادلة، فالثراء للأقوياء والأخلاق للضعفاء...

نادرة محمود عطا المراكيبي

هي الرابعة في ذرّيّة محمود بك عطا، ولدت ونشأت في سراي ميدان خيرت، في الجوّ المعبق بالعزّ والرفاهية. وكانت على قدر من الوسامة وإن تكن دون إخوتها الذكور، وعلى مثال أختها الكبرى شكيرة في الخلق والمبادئ والتديّن مع شيء كثير من المرونة والدماثة. وكانت حادّة الذكاء محبّة للتعليم فلم يعارض أبوها في استمرارها فيه بعد أن غزاه الزمن بمفاهيمه الجديدة. وقد توّجت سعادة صباها بالحبّ الذي ربط بينها وبين مازن ابن عمّها. استوى فارسًا لأحلامها منذ مراهقتها وحتّى آخر يوم في حياته بل لعلّه ظلّ كذلك طيلة عمرها. أحبّته كما لم تحبّ شيئًا في الوجود، وناطت به أحلامها وسعادتها وأمانيها. وشدّ ما جزعت للخصام الذي مزّق أسرتها، وشدّ ما خافته على سعادتها وآمالها، وقالت لأمّها:

ـ بابا جاوز غضبه الحدّ...

ولم تنقطع الصلة بينها وبينه طوال أعوام الخصومة... وفي أثناء ذلك حصلت على البكالوريا والتحقت بكلّيّة الطبّ. ثمّ كانت الكارثة التي هلك فيها مازن وتلاشى من وجودها. كادت تجنّ من الحزن بل والغضب، وقضت عامًا في السراي أسيرة للكآبة، ثمّ واصلت دراستها وقد تحجّر قلبها وصمّم على الزهد في الدنيا. خرجت من حياتها في تلك الأيّام بتجربتين مُرّتين، وفاة حبيبها، وخيبة أمل شقيقتها في حياتها

الزوجيّة. ونزعت بكلّ قواها لتكريس حياتها للعمل والوحدة والقراءة الدينيّة. وعرضت لها فرص زواج طيّبة ولكنّها كانت قد تطبّعت بسوء الظنّ بالنوايا، وكرهت فكرة الحياة الزوجيّة. وتخصّصت في طبّ الولادة، وحصلت على الدكتوراه، وأحرزت نجاحًا مرموقًا تزايد يومًا بعد يوم. ولم تحفل بنصائح إخوتها لها بإعادة النظر في الزواج وثابرت على عملها ووحدتها وتديّنها حتّى فاتها القطار دون أسف مسجّلة في عالم الأحزان ظاهرة فريدة لا تتكرّر. وجمعت السراي بين شكيرة وعبده ونادرة وماهر في الكبر كما جمعت بينهم في مطلع الحياة، أمثلة حيّة للنجاح والفشل معًا. . .

نعمة عطا المراكيبي

ابنة عطا المراكيبي وسكينة جلعاد المغاوري. ولدت ونشأت ببيت الغوريّة، وورثت عن أمّها عينيها النجلاوين وشعرها الأسود الغزير بالإضافة إلى صحّة جيّدة لم تحظَ بها الأمّ. ولـمّا عزم يزيد المصري على تزويج ابنه عزيز وجد فيها الشروط المزكّية، فهي ابنة جاره وصديقه عطا المراكيبي، وهي مصونة وجميلة، وزفّت نعمة إلى عزيز منتقلة من دور إلى دور في نفس البيت بالغوريّة. وكانت مثالًا طيّبًا للزوجة العاقلة المدبّرة المطيعة، وأنجبت لعزيز رشوانة وعمرو وسرور. وتلقّت من زواج أبيها بالأرملة الغنيّة صدمة، ثمّ تابعت ارتفاع أبيها إلى طبقة جديدة بذهول، وزارت السراي الجديدة بميدان خيرت، وسراي العزبة ببني سويف فانبهرت بما رأت أيّ انبهار ولم تصدّق عينيها. وتوقّعت أن تنهال عليها دفقات من الخير ولكن خاب رجاؤها، وفيما عدا هدايا المناسبات فقد قبض الرجل يده عنها كأنّها ليست بكريّته، وليست الأخت الكبرى لمحمود وأحمد. وقال لها عزيز:

- إنّه شحيح وممّن يحبسون النعمة . . .

ولكنّها رغم حنقها دافعت عن أبيها قائلة:

- بل يخاف أن تتّهمه المرأة بتبديد ثروتها!

ورغم تقواها حلمت بأن تسبق الأرملة أباها إلى الآخرة فيرثها وبالتالي ترث هي حظًّا من الثروة يدعم رشوانة وعمرو وسرور في حياتهم، ولكنّ الرجل رحل قبل زوجته بقليل، مخيّبًا رجاءها بموته كما خيّبه بحياته. والحقّ أنّ مخالطة أخويها - محمود وأحمد - لها ولأولادها وبرّهما بهم أنساها أحزانها فبادلتهما حبًّا بحبّ حتّى آخر عهدها بالحياة. وامتدّ بها العمر حتّى قرّت عينًا بأحفادها، ورحلت عن الدنيا بعد عزيز بعامين. . .

نهاد حمادة القناوي

بكريّة صدريّة وحمادة القناوي. ولدت ونشأت في خان جعفر، ومرحت في طفولتها في بيت القاضي، وحظيت بمنزلة طيّبة لدى عمرو وراضية بوصفها طليعة الأحفاد. وكانت على جمال مقبول، وتعليم قليل سرعان ما تلاشى. ولـمّا قاربت الخامسة عشرة خطبها عمدة متوسّط العمر من أقارب أبيها فرحّب به حمادة أيّما ترحيب، وأدركت صدريّة بأسًى عميق أنّ ابنتها تنفصل عنها إلى الأبد وأنّها لن تراها إلّا في المناسبات، وأنّها ستنتمي من الان فصاعدًا إلى الصعيد. وتأقلمت نهاد مع البيئة الجديدة فتطبّعت بسجايا جديدة واكتسبت لهجة جديدة، وأنجبت للعمدة عشرًا، نصفهم ذكور ونصفهم إناث، وكلّما زارت القاهرة كوافدة غريبة تطلّعت إليها الأبصار بغرابة، وهي تشهد حرم العمدة بجسمها المترامي، وحليّها الذهبيّة التي تغطّي الساعدين والعنق، ولكنتها الغريبة المثيرة للضحك. . .

حرف الهاء

هنومة حسين قابيل

صغرى بنات سميرة وحسين قابيل، ولدت ونشأت في بيت ابن خلدون، على طراز أمّها في الجمال، طويلة القامة، رشيقة القدّ، حادّة الذكاء، شديدة في التمسّك بالأخلاق والمبادئ، وشديدة الشبه في ذلك

بأخيها الأصغر سليم، وتفوّقت في الدراسة والتحقت بالآداب قسم اللغة الفرنسيّة. وقد تحمّست لثورة يوليو باعتبارها ثورة إصلاح وأخلاق، ولكنّها انقلبت عليها مذ حكم على سليم بالسجن، ولم تتردّد في اتّهام حكيم بالخطإ في موالاته لها. وقد تخرّجت في الكلّيّة، والتحقت بالإذاعة لتفوّقها من ناحية وبفضل توصيات حكيم من ناحية أخرى، وأراد عقل ابن خالتها صدريّة أن يتزوّج منها ولكنّها رفضته لطولها وقصره وقالت لأمّها:

ـ سيكون منظرنا مضحكًا إذا سرنا معًا في الطريق...

ووافقت على الزواج من نادر، لمركزه، ووسامته، وحسن ظنّها بأخلاقه، وعاشت معه عمرًا في شقّة أنيقة بشارع حسن صبري بالزمالك وأنجبت له سميرة وراضية وصفاء. ولـمّا تكشّفَ لها انحرافه ثارت ثورة عنيفة لم يتوقّعها الرجل من شريكة حياة. وقالت له بصراحتها الحادّة:

ـ إنّي أرفض الاستمرار في معاشرة رجل تبيّن لي انحرافه...

وكانت سميرة تكره فكرة الطلاق وحاولت أن تقنعها بأنّها ليست مسئولة عنه، وأنّها يجب أن تزن عواقب تصميمها على بناتها ولكن قالت لأمّها:

ـ لقد سقط في نظري ولا حيلة لي في ذلك...

وانتهى الخلاف بالطلاق، واحتفظت ببناتها معها في شقّة الزمالك، وراحت تربّيهنّ على مثالها، ولم تأسف قطّ على القرار الصارم الذي اتّخذته. ومضت الأيّام وآنَ للبنات أن تتزوّج، وكان الزواج قد أصبح مشكلة غير قابلة للحلّ لارتفاع تكاليفه وصعوبة الفوز بشقّة، ولكنّ نادر ذلّل كافّة الصعوبات، فابتاع شقّة لكلّ بنت وجهّزهنّ على المستوى اللائق به. وقالت هنّومة تعزّي نفسها:

ـ إنّه أبوهنّ والمسئول عنهنّ...

ولكنّها لم تستطع أن تغفل عن الحقيقة المرّة وهي أنّه لولا ماله الحرام ما تيسّر لبنت منهنّ أن تستقرّ في بيت الزوجيّة. وتساءلت في أسًى عميق:

ـ هل أصبحت الحياة الشريفة مستحيلة حقًّا؟!

حرف الواو

وحيدة حامد عمرو

بكريّة حامد وشكيرة، ولدت ونشأت في سراي ميدان خيرت، ولعبت طفولتها في حديقتها المترامية الغنّاء. ووضح من الصغر ذكاؤها، إلى جمال مقبول، وروح مرحة غالتها رياح النكد. من قديم تشرّب قلبها بالكآبة في مناخ الحياة الزوجيّة المسموم، وتمثّلت أحزان أمّها الدائمة حتّى ترسّب النفور من أبيها في أعماقها. ولم تجد في أخيها صالح أيّ عزاء لعنف خلقه وملاحقته الناس بأخطائهم كأنّه الحسيب عليهم، ثمّ جاء الانشقاق بين جدّها محمود وأخيه أحمد ليقضي على البقيّة الباقية لها من أمل في حياة يمكن أن تَعِدَ بشيء من التفاؤل أو السعادة. وترامت إليها عداوة أهل أبيها لأمّها، وكلماتهم المدبّبة، بالإضافة إلى المآسي الكثيرة التي هصرت الفروع حتّى سلّمت بلا وعي منها بأنّ الحياة ما هي إلّا سلسلة من الأحزان والانحرافات والانفعالات القاسية. ووجدت سلواها الوحيدة في الدراسة فتفوّقت، والتحقت مثل خالتها نادرة بكلّيّة الطبّ، وما إن وجدت فرصة للعمل في السعوديّة حتّى ولّت هاربة. وبعد أعوام من الغربة كانت مفاجأة لأمّها أن تتلقّى منها رسالة تنبئها فيها بأنّها ستتزوّج من زميل باكستانيّ يعمل معها في نفس المستشفى...

وردة حمادة القناوي

هي الثالثة في ذرّيّة صدريّة وحمادة. ولدت ونشأت في خان جعفر، ولكنّها عشقت البيت القديم بميدان بيت القاضي وتعلّقت بجدّتها راضية فبادلتها الجدّة حبًّا بحبّ، وكانت تقول لصدريّة عنها:

ـ وردة أجمل البنات ولكنّ ميزتها الأولى في العقل...

وقد خُطبت لابن عمّ أبيها الشابّ وهي دون سنّ

الزواج، ولكنّها أصيبت بالملاريا، ولم تستطع المقاومة ففاضت روحها تاركة في قلب أمّها جرحًا لا يندمل.

حرف الياء

يزيد المصري

وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسيّة بأيّام. وكان في الإسكندريّة من أسرة عطّارين، ولـمّا انتشر الوباء أهلك أفرادها فلم يُبْقِ على رجل أو امرأة سواه. وكره البلد فقرّر هجرها ويمّم شطر القاهرة. وكان معه شيء من المال، وميزة نادرة في ذلك الزمان وهي أنّه كان يعرف القراءة والكتابة، لُقّنها في المعهد الدينيّ قبل أن ينقطع عنه ليعاون أباه في دكّان العطارة. وتحيّر في القاهرة فترة حتّى وجد مأواه في بيت بالغوريّة، كما وجد عملًا كخازن في وكالة الورّاق. كان شابًّا قويّ الجسم غامق السمرة واضح الملامح، يرتدي الجلباب والشملة والعمامة، ولتقواه ووحدته تاقت نفسه للزواج. ورأى فرجة السمّاك وهي تبيع السمك في الطريق فأعجبته، وبمعاونة جاره عطا المراكيبي تزوّج منها. وقد أنجبت له ذرّيّة وفيرة بقي منها على قيد الحياة عزيز وداود، وامتدّ به العمر حتّى شهد مولد أحفاده رشوانة وعمرو وسرور. وزاره سيدي نجم الدين في المنام وأمره أن يبني قبره في جوار ضريحه فصدع بما أمر، وشيّد الحوش الذي دُفن فيه، وما زال يستقبل الراحلين من ذرّيّته المنتشرة في أنحاء القاهرة.

